



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir



حِكْمَةُ الشَّامِ

تأليف
مسعود علي

١-٦

انتشر

مكتبة النوري

دمشق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد علي

نشرت في الطباعة:

مكتبة النوري

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٩	خطط الشام
٣٩	اشارة
٣٩	الجزء الأول
٣٩	الإهداء
٤٠	صدر الخطط
٤٢	تقويم الشام
٤٢	تعريف الشام للأقدمين:
٤٢	اشارة
٤٣	معنى الشام و جمعه:
٤٣	حدّ الشام قديما:
٤٣	حقيقة حد الشام:
٤٤	حدوده مع مصر:
٤٥	مساحة الشام و صورته:
٤٥	مدخل الفاتحين الى الشام:
٤٦	مدن الشام و قراه:
٤٦	طبيعة الشام:
٤٦	خيرات الشام:
٤٧	هواء الشام و مأؤه:
٤٧	خصائص الشام:
٤٨	سكان الشام
٤٨	الامو و اللودانو:
٤٩	الآراميون و العناصر الأخرى:

- ٤٩ العناصر القديمة و العرب:
- ٥٠ دول العرب الأقدمين:
- ٥٠ سليح و غسان و الضجاعم:
- ٥١ التنوخيون:
- ٥١ المهاجرات و الايطوريون:
- ٥٢ سليح و عاملة و قضاة:
- ٥٢ لخم، جذام، عاملة، ذبيان، كلب:
- ٥٢ جهينة، القين، بهراء، تنوخ:
- ٥٣ إياد و طيء و كنده و حمير و عذرة و زبيد و همدان و يحصب و قيس:
- ٥٣ الفرس و الزط:
- ٥٤ الأخلاط و السامرة و جذام و عذرة و نهدي و جرم و الأزدي:
- ٥٤ قيس و يمن و إحصاء السكان:
- ٥٥ المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارنة:
- ٥٥ التركمان و الأتراک و الأكراد و الشركس و غيرهم:
- ٥٦ المهاجرون و المحدثون اليهود و الأرمن:
- ٥٧ عوامل النمو:
- ٥٧ العرب في الشام و الاختلاط:
- ٥٨ لغات الشام
- ٥٨ اللغة الآرامية و السريانية و العبرانية و الفينيقية و العربية:
- ٥٨ البابلية و الكنعانية و الكلدانية:
- ٥٨ الحثية و الآرية و اليونانية و اللاتينية:
- ٥٩ تنازع السريانية مع العربية:
- ٦٠ رأي رنان:
- ٦٠ آراء أخرى:

- ٦١ انتشار العربية: انتشار العربية:
- ٦١ العربية لغة كاملة و فصاحة الشام: العربية لغة كاملة و فصاحة الشام:
- ٦٢ كيف انتشرت العربية: كيف انتشرت العربية:
- ٦٢ اللغة الصفوية: اللغة الصفوية:
- ٦٢ الصليبيون و لغاتهم و العربية و لبنان: الصليبيون و لغاتهم و العربية و لبنان:
- ٦٣ اللغة التركية: اللغة التركية:
- ٦٣ السواد الأعظم و العربية: السواد الأعظم و العربية:
- ٦٤ رسوخ اللغة: رسوخ اللغة:
- ٦٤ الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط: الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط:
- ٦٥ تاريخ الشام قبل الإسلام: تاريخ الشام قبل الإسلام:
- ٦٥ أول شعب غزا الشام و الحثيون و الكنعانيون: أول شعب غزا الشام و الحثيون و الكنعانيون:
- ٦٦ تعدد الحكام و الحكومات: تعدد الحكام و الحكومات:
- ٦٧ الفراعنة و الآشوريون: الفراعنة و الآشوريون:
- ٦٨ الفينيقيون و استقلالهم التجارى: الفينيقيون و استقلالهم التجارى:
- ٦٨ حروب الفرس و الإسكندر: حروب الفرس و الإسكندر:
- ٦٩ دولة السلاقسة و ملك الأرمن: دولة السلاقسة و ملك الأرمن:
- ٦٩ دولة الرومان: دولة الرومان:
- ٧٠ مملكة يهودا و انقراض اليهود: مملكة يهودا و انقراض اليهود:
- ٧١ الإيطوريون و النبطيون: الإيطوريون و النبطيون:
- ٧٢ دولة تدمر: دولة تدمر:
- ٧٢ زينب أو زنوبيا أو الزباء: زينب أو زنوبيا أو الزباء:
- ٧٣ آخر عهد الرومانيين و سياستهم: آخر عهد الرومانيين و سياستهم:
- ٧٥ بنو غسان و العرب فى الشام: بنو غسان و العرب فى الشام:
- ٧٦ الشام فى الإسلام «من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة»: الشام فى الإسلام «من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة»:

- ٧٦ حالة الشام قبيل الفتح:
- ٧٧ صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة:
- ٨٠ جيوش العرب و جيوش الروم نصيحة أبي بكر الصديق لقواده:
- ٨١ مبدأ الحرب بين العرب و الروم:
- ٨١ وقعة اليرموك:
- ٨٢ فتح فحل و أجنادين و بيسان:
- ٨٣ الأردن و فلسطين و جبل اللكام:
- ٨٤ فتح دمشق و الأحكام العسكرية:
- ٨٥ فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبك و صيدا و بيروت و جبيل و عرقه:
- ٨٥ قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال:
- ٨٦ وقعة مرج الروم و قيسارية:
- ٨٧ سر نجاح المسلمين و قتال نسانهم يوم اليرموك:
- ٨٩ وداع صاحب الروم و آخر سهم في كنانتهم:
- ٩٠ منزلة أبي عبيدة و بعد نظر عمر:
- ٩١ الدولة الأموية «من سنة ١٨ الى ١٣٢»
- ٩٢ إمارة معاوية بن أبي سفيان:
- ٩٣ مقتل عثمان بن عفان:
- ٩٤ آمال على بن أبي طالب في الخلافة:
- ٩٤ اتفاق معاوية و عمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان:
- ٩٥ حرب صفين:
- ٩٦ صلح الحسن مع معاوية:
- ٩٦ خلافة يزيد و رأى ابن خلدون:
- ٩٧ غزوات معاوية و أعماله و وصيته:
- ٩٨ خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرة:

- ٩٩ عهد معاوية الصغير:
- ٩٩ قيام ابن الزبير و خلافة مروان بن الحكم و وقعة مرج راهط:
- ١٠١ خلافة عبد الملك بن مروان:
- ١٠١ الجراجمة و المردة في جبل لبنان:
- ١٠٣ عهد الوليد:
- ١٠٤ سليمان بن عبد الملك:
- ١٠٤ عهد عمر بن عبد العزيز و سيرته:
- ١٠٥ يزيد بن عبد الملك و هشام و الوليد بن يزيد:
- ١٠٦ يزيد بن الوليد:
- ١٠٧ مروان بن محمد:
- ١٠٧ إدبار الأمويين:
- ١٠٨ دولة بني مروان و حسناتها:
- ١٠٩ قواد الأمويين و أسباب انقراضهم:
- ١١٣ دور الدولة العباسية الى ظهور الدولة الطولونية من سنة ١٣٢ - ٢٥٤ هـ
- ١١٣ مبدأ الدعوة العباسية:
- ١١٤ فتح العباسيين عاصمة الأمويين:
- ١١٦ فتح فلسطين و إهلاك رجال الأمويين:
- ١١٦ انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفياي:
- ١١٧ انتقاض العباسيين على أنفسهم:
- ١١٨ نزع اللبنانيين و الفلسطينيين طاعة العباسيين:
- ١١٩ قيس و يمن و الفتن الداخلية و الخارجية:
- ١٢٠ الحمصيون و فتنة السفياي:
- ١٢٢ فتنة نصر بن شبت:
- ١٢٣ المأمون و حكمه على قيس و يمن:

- ١٢٤ سبب تباغض النزارية و اليمانية و حكمة حكيم:
- ١٢٥ قيس و يمن و فتنه المبرقع:
- ١٢٦ فتن أهلية و عصابات حمصية و لبنانية و دمشقية و فلسطينية و معرية:
- ١٢٧ الحكم على الدور الأول للعباسيين:
- ١٢٨ ظهور الدولة الطولونية و انقراضها من سنة ٢٥٤ الى ٢٩٢
- ١٢٨ [بداية الطولونيين:]
- ١٢٩ احمد بن طولون و سيما الطويل و أحداث أخرى:
- ١٣١ عهد أبي الجيش خمارويه و جيشه:
- ١٣٢ عهد جيش بن خمارويه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونية:
- ١٣٣ دور الدولة العباسية الأوسط «الإخشيدية و الحمدانية و الفاطمية» ٢٩٢-٣٦٤
- ١٣٣ القرامطة و البوادي و الخوارج :
- ١٣٥ الدولة الإخشيدية:
- ١٣٦ الدولة الحمدانية:
- ١٣٨ مغازى سيف الدولة:
- ١٤٠ محاسن سيف الدولة و مقابحه:
- ١٤١ ابتداء الدولة الفاطمية:
- ١٤٣ دور الفاطميين «من سنة ٣٦٤-٣٩٤»
- ١٤٣ الدول الثلاث و غزوات الروم:
- ١٤٥ تجاذب السلطة بين العباسيين و الفاطميين:
- ١٤٦ سوء حالة دمشق و اضطراب الأحكام المصرية:
- ١٤٧ خوارج على دولة الجنوب و دولة الشمال:
- ١٤٨ حملة الفاطميين على الحمدانيين و استنجد هؤلاء بالروم:
- ١٤٩ الخوارج على الفاطميين و استنجد أمراء المسلمين بالروم:
- ١٥٢ تنمة دور الفاطميين «من سنة ٣٩٤-٤٦٣»

- ١٥٢ خوارج و مذاهب جديدة و فتن:
- ١٥٣ تقسيم الأقاليم بين القبائل و دولة بنى مرداس:
- ١٥٧ آخرة الفاطميين:
- ١٦٠ دور السلجوقيين «من سنة ٤٦٣ - ٤٩٠»:
- ١٦٠ أصل السلجوقيين و التركمان و الفتح السلجوقي:
- ١٦١ فتح دمشق:
- ١٦٢ أول جمهورية عربية و مقتل آخر أمير عربي:
- ١٦٤ تنازع السلجوقيين و الفاطميين و انقسام السلجوقيين:
- ١٦٥ الدولة الأتابكية و طغتكين و بنو أرتق:
- ١٦٦ الحروب الصليبية «من سنة ٤٩٠ - ٥٠٠»:
- ١٦٧ الحملة الصليبية الأولى:
- ١٦٩ الصليبيون فى شمالى الشام:
- ١٧٠ فتح الصليبيين القدس و الساحل:
- ١٧٢ تخاذل أمراء المسلمين و بلاء طغتكين و ابن عمار:
- ١٧٤ حرب طغتكين للصليبيين:
- ١٧٤ حروب الصليبيين و دولة طغتكين و بقايا السلجوقيين «من سنة ٥٠٠ الى ٥٢٢»:
- ١٧٤ هدنة طغتكين للصليبيين و شدته عليهم:
- ١٧٦ اجتماع كلمة أمراء المسلمين و إنجاز بغداد للشام:
- ١٧٨ غارات المسلمين و غارات الصليبيين:
- ١٧٩ بقية الغارات:
- ١٨٢ مزايا حكم طغتكين:
- ١٨٣ مؤاخذة الفاطميين و توقيف سير الفرنج:
- ١٨٥ فهرست الجزء الأول من خطط الشام:
- ١٩٠ الجزء الثانى

- ١٩٠ الدولة النورية «من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩»
- ١٩٠ فتنة الإسماعيلية و وقعة دمشق:
- ١٩١ دخول آل زنكى الشام:
- ١٩٢ استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين و استقرار حال دمشق:
- ١٩٣ خيانة صاحب دمشق و قتل أمه له:
- ١٩٤ توحيد الحكم على يد زنكى و قضاؤه على إمارة صليبية:
- ١٩٦ الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين:
- ١٩٧ صفات عماد الدين زنكى و تولى ابنه نور الدين:
- ١٩٨ الحملة الصليبية الثانية و غزوتها دمشق:
- ٢٠٠ تقدم نور الدين فى فتوحه:
- ٢٠١ انحلال دولة مجير الدين و توفيق نور الدين:
- ٢٠٣ مقاصد نور الدين و فتحه دمشق:
- ٢٠٤ الداعى لنور الدين على فتح دمشق
- ٢٠٦ مرض نور الدين و إبلاله و تتمه فتوحه و هزيمته فى البقية:
- ٢٠٧ حملة نور الدين على مصر:
- ٢٠٩ بعض غزوات نور الدين:
- ٢١٠ قيام بنى شهاب من حوران و حربهم الصليبيين:
- ٢١١ الفتور بين نور الدين و صلاح الدين:
- ٢١١ وفاة نور الدين و صفاته الطيبة:
- ٢١٣ الدولة الصلاحية «من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩»
- ٢١٣ أولية صلاح الدين و الملك الصالح:
- ٢١٤ اختلاف الآراء و استيلاء صلاح الدين على الشام:
- ٢١٦ تملك صلاح الدين و محاولة اغتياله و سر نجاحه:
- ٢١٧ فتوح صلاح الدين و وفاة الملك الصالح:

- ٢١٩ وقعة حطين و فتح فلسطين:
- ٢٢٠ فتح القدس و الرملة:
- ٢٢٣ بقية الفتوح الصلاحية:
- ٢٢٤ الحملة الصليبية الثالثة:
- ٢٢٥ مزايا صلاح الدين و وفاته:
- ٢٢٨ الدولة الايوبية «من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧» -
- ٢٢٨ أبناء صلاح الدين و اختلافهم و دهاء عمهم العادل:
- ٢٢٩ استنثار العادل بالملك الصلاحي:
- ٢٣١ الأحداث في عهد العادل و اهتمامه بحرب الصليبيين:
- ٢٣٣ الحملة الصليبية الخامسة:
- ٢٣٤ وفاة العادل:
- ٢٣٥ فتح الصليبيين دمياط و ذلتهم بعد العزة:
- ٢٣٦ اختلاف بين أبناء العادل و تقدم الكامل عليهم:
- ٢٣٨ الحملة الصليبية السادسة:
- ٢٣٩ اختلافات جديدة بين آل العادل:
- ٢٤١ وفاة الملك الكامل و حال الشام بعده:
- ٢٤٢ انقراض الايوبيين «و ظهور دولة المماليك البحرية و ظهور التتر» - من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ -
- ٢٤٢ اشارة
- ٢٤٣ اختلاف بنى أيوب و اعتضاد بعضهم الفرنج و عودة الخوارزمية:
- ٢٤٥ وفاة الملك الصالح و مبدأ دولة المماليك:
- ٢٤٧ هولاكو التترى
- ٢٥٠ مقتل المظفر قطز و سلطنة الظاهر بيبرس و أحداث:
- ٢٥١ حروب الظاهر و فتوحه:
- ٢٥٢ وفاة الملك الظاهر و سلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون:

- ٢٥٤ وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خليل و إتحانه في فرنج الساحل:
- ٢٥٧ الحملة الصليبية السابعة و انتهاء الحروب الصليبية:
- ٢٦١ دولة المماليك «من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠»
- ٢٦١ فتوح أرمينية و عسيان الموارد بعوامل صليبية:
- ٢٦٣ وقائع التتر:
- ٢٦٦ غزوة الأرمن و الكسروانيين و تززع السلطنة:
- ٢٦٨ الغزوات في الشمال و ظهور دعوة جديدة:
- ٢٦٩ سياسة المماليك مع أكبر عمالهم و وفاة الناصر و تولى المنصور:
- ٢٧٠ خلع الملك المنصور و مقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه:
- ٢٧١ أحداث و كوائن و عسيان و مخامرات:
- ٢٧٣ مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده:
- ٢٧٤ سلطنة برقوق و حالة المماليك البحرية و الشراكسة:
- ٢٧٤ وقائع تيمور لنك «من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣»
- ٢٧٤ [بداية تيمور لنك و مناوشة جيشه:]
- ٢٧٦ القتال على الملك
- ٢٧٦ عوامل الخراب قيس و يمن:
- ٢٧٨ الخوارج على ملوك مصر:
- ٢٧٩ وفاة برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج على الملك:
- ٢٨٠ الحرب الأولى مع تيمور لنك:
- ٢٨١ تيمور لنك على أبواب حلب:
- ٢٨٢ تيمور لنك على حماة و سلمية و حمص:
- ٢٨٢ تيمور لنك على دمشق:
- ٢٨٣ وصف أفعال تيمور لنك في دمشق:
- ٢٨٥ الخراب الأعظم و أخلاق تيمور و نجاه فلسطين منه:

- ٢٨٦ عهد المماليك الاخير «من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢»
- ٢٨٦ البلاد بعد الفتنة التيمورية و مخامرة العمال:
- ٢٨٨ وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان:
- ٢٩٠ الملك السكير و قتله:
- ٢٩١ الخليفة السلطان و سلطنة شيخ:
- ٢٩٢ هلاك المؤيد شيخ و سلطنة ابنه فى القماط:
- ٢٩٣ وفاة ططر و سلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباى:
- ٢٩٤ الملك العزيز يوسف و الملك الظاهر جقمق:
- ٢٩٤ المنصور و الأشرف و المؤيد و الظاهر خشقدم و الظاهر بلباى و الأشرف قايتباى:
- ٢٩٥ مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية:
- ٢٩٧ وقعة مشؤومة و أحداث:
- ٢٩٧ أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين:
- ٢٩٨ وفاة الأشرف قايتباى و تولى ابنه ناصر الدين محمد:
- ٢٩٩ الملوك المتأخرون و آخرهم الغورى:
- ٣٠٠ سلطنة طومان باى:
- ٣٠١ القضاء على مملكة ذى القدرية و طبيعة دولتى المماليك البحرية و البرجية:
- ٣٠٢ الدولة العثمانية «من سنة ٩٢٢ ه إلى ١٠٠٠ ه»
- ٣٠٢ حالة الشام قبيل الفتح العثماني:
- ٣٠٣ مقاتل الغورى و مقدمات الفتح:
- ٣٠٤ صلات العثمانيين مع المماليك و وقعة مرج دابق:
- ٣٠٥ قوة الغالب و المغلوب:
- ٣٠٥ دخول السلطان سليم حلب و دمشق:
- ٣٠٦ مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجديد و تغير الأحكام:
- ٣٠٧ السلطان فى دمشق و فى الطريق لفتح مصر:

- ٣٠٩ فتوق و غارات و تأذى السكان:
- ٣٠٩ محاسن السلطان سليم و مساويه و مهلكه:
- ٣١١ خارجى خان أولا و ثانيا:
- ٣١٢ طبيعة الدولة العثمانية:
- ٣١٤ كوائن داخلية و أمراء المقاطعات:
- ٣١٥ مهلك السلطان سليمان و تولى سليم السكير:
- ٣١٥ عهد السلطان مراد الثالث و حملات على أرباب الدعارة:
- ٣١٦ بنو عساف و بنو سيفا و ابن فريخ و خراب البلاد:
- ٣١٧ حالة البلاد فى الحكم العثمانى:
- ٣١٨ العهد العثمانى «من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠»
- ٣١٨ عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن:
- ٣٢٠ عهد أحمد الأول و فتنه ابن جانبولاذ و غيرها:
- ٣٢٣ الأمير فخر الدين المعنى و آل شهاب و فتن:
- ٣٢٤ عهد مصطفى الأول و عثمان الثانى:
- ٣٢٤ عداء على الفرنج و فتن داخلية:
- ٣٢٥ حملات على الأمير فخر الدين المعنى و غيره:
- ٣٢٦ القضاء على الأمير فخر الدين المعنى:
- ٣٢٨ فتن فى الساحل:
- ٣٢٩ إبراهيم الأول و سفاهته:
- ٣٣١ فتنه وال أخرج فى حلب:
- ٣٣٢ محمد الرابع و صدارة كوبرلى:
- ٣٣٥ عهد سليمان الثانى و الحكم على الخوارج:
- ٣٣٦ العهد العثمانى «من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠»
- ٣٣٦ حال الشام أول القرن الثانى عشر:

- ٣٣٨ دور أحمد الثاني و فتن:
- ٣٣٨ دور مصطفى الثاني و انقراض دولة بني معن:
- ٣٣٩ *** عهد أحمد الثالث و سياسة الدولة مع من ينكر الظلم و وقع عين دارة:
- ٣٤٠ فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم:
- ٣٤١ عهد محمود الأول:
- ٣٤٣ فتن و مشاغب:
- ٣٤٤ عهد عثمان الثالث و مصطفى الثالث و بعض الأحداث في أيامهما:
- ٣٤٧ سيرة ظاهر العمر الزيداني و سياسته:
- ٣٤٩ حملة أبي الذهب على الشام:
- ٣٥١ عهد عبد الحميد الأول و تنمة أخبار أبي الذهب:
- ٣٥٢ خاتمة ظاهر العمر و ولاة حلب:
- ٣٥٤ أولية الجزائر:
- ٣٥٥ الحكم على القرن الثاني عشر:
- ٣٥٦ فهرست الجزء الثاني من خطط الشام:
- ٣٦١ الجزء الثالث:
- ٣٦١ العهد العثماني «من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧»:
- ٣٦١ الجند أداة الظلم و التدمير:
- ٣٦٢ حوادث الجزائر و فتن الإنكشارية و غيرها:
- ٣٦٣ عهد سليم الثالث و فتن و كوائن:
- ٣٦٣ مظالم الجزائر و اختلال الإدارة:
- ٣٦٥ محاولة نابوليون فتح الشام و استيلاؤه على غزة و يافا:
- ٣٦٦ وقائع نابليون على عكا و في مرج ابن عامر:
- ٣٦٨ خطيئات نابليون في الشام:
- ٣٦٩ حال الشام بعد رحيل نابليون عنه:

- ٣٧٠ مساوىء أحكام الجزار:
- ٣٧١ فتنن الجزار فى إهراق الدماء و حكم المؤرخين عليه:
- ٣٧٣ المتغلبة على الأحكام بعد الجزار:
- ٣٧٤ مقتل سليم الثالث و مصطفى الرابع و تولى محمود الثانى:
- ٣٧٥ فتننة كنج يوسف باشا:
- ٣٧٦ سليمان باشا و أمراء راشيا و كوائن حلب:
- ٣٧٨ وقعة المزة و استسلام الدولة لوالى عكا:
- ٣٧٩ سياسة الأمير بشير فى لبنان و تقاتل الولاة و ارتباك الدولة:
- ٣٨٠ محاولة الدولة قتل النصارى و فتننة نابلس:
- ٣٨١ مقتل سليم باشا والى دمشق:
- ٣٨٣ الحكم على الموقف السياسى فى نصف قرن:
- ٣٨٣ دور الحكومة المصرية «من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٦»
- ٣٨٣ حالة الدولة العثمانية عند إذلال جيش محمد على الكبير لها:
- ٣٨٥ لماذا تراجعت الدولة العثمانية:
- ٣٨٦ حملة محمد على على الشام و هزيمة الأتراك:
- ٣٨٨ تقدير مؤرخين و شاعر لغلبة محمد على:
- ٣٩٠ سقوط الأناضول و تضاؤل السلطان العثمانى أمام الجيش المصرى:
- ٣٩٠ أعمال إبراهيم باشا فى إصلاح الشام:
- ٣٩١ فتوق و فتن و حصار الفلسطينيين لإبراهيم:
- ٣٩٢ خطأ إدارى لإبراهيم باشا و وقائعه فى اللجاة و وادى التيم:
- ٣٩٤ سياسة الأتراك و الدول مع محمد على:
- ٣٩٥ انفراط عقد الحكم المصرى:
- ٣٩٦ فضل حكم محمد على:
- ٣٩٦ رأى الغرباء فى حكومة محمد على:

- ٣٩٨ حكمنا على أنفسنا و على غيرنا:
- ٣٩٩ العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٧ رجوع الشام إلى سالف بؤسها على العهد العثماني و فتن الدروز و النصرى
- ٣٩٩ اشارة
- ٤٠٠ فتن أهلية في الجبال و المدن:
- ٤٠١ حرب القريم منشؤها في الشام و كوائن درزية و نصيرية:
- ٤٠٢ مبدأ المذابح المعروفة بحادثه سنة الستين و حادثه بيت مرى و دير القمر:
- ٤٠٣ مذابح حاصبيا و راشيا و رأى إنكليزيين في أصل المذابح:
- ٤٠٤ مذابح دمشق و رأى الغريب و الوطنى في تحليلها:
- ٤٠٥ ضحايا مذابح دمشق و تخريبها:
- ٤٠٧ عمل الدولة و الدول عقبى الحوادث:
- ٤٠٨ عمل العقلاء في دمشق و بيروت و رأى مؤرخ منصف في المسلمين:
- ٤٠٨ من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء:
- ٤٠٩ سوء أثر حوادث الشام في الدولة و منازعة الدول لها في سلطانها:
- ٤١٠ العهد العثماني «من سنة ١٢٧٧ إلى ١٣٠٠»
- ٤١٠ بعد فتنة سنة الستين:
- ٤١١ السلطان عبد المجيد و خلفه عبد العزيز:
- ٤١٣ خلع عبد العزيز و تولية مراد الخامس:
- ٤١٣ عهد عبد الحميد الثانى:
- ٤١٤ انسيال الدروز على جبل حوران و وقائعهم:
- ٤١٥ المصلح مدحت باشا و طبقتة من العمال:
- ٤١٦ العهد العثماني «من سنة ١٣٠٠ إلى سقوط عبد الحميد الثانى»
- ٤١٦ الحالة في مبدأ القرن الرابع عشر و إصلاح جبال النصيرية و السبب في خرابها:
- ٤١٧ فتن درزية و فتن أرمنية:
- ٤١٨ الحملات على جبل الدروز و على الكرك:

- ٤٢٠ رأى فى دلال الدرور و النصيرية على الدولة:
- ٤٢١ العهد العثمانى «من سنة ١٣٢٦ إلى ١٣٣٦»
- ٤٢١ الدستور العثمانى و ثورته:
- ٤٢٢ إعادة الدستور و حال الدولة بعده:
- ٤٢٣ عبد الحميد و سياسته و أخلاقه:
- ٤٢٥ رأى مؤرخ تركى فى عبد الحميد و ذكر حسناته:
- ٤٢٦ الأحداث فى أيام محمد رشاد و حرب طرابلس و البلقان و حزب الإصلاح:
- ٤٢٨ الصهيونية و منشؤها:
- ٤٣٠ الحرب العامة و السياسة الألمانية و الأخلاق التركية:
- ٤٣٠ قسط الشام من الحرب و عمل جمال باشا:
- ٤٣٢ إهلاك أحرار الشام و السياسة الاتحادية مع العرب:
- ٤٣٤ خلع شريف مكة طاعة العثمانيين و تأثيره فى الأتراك:
- ٤٣٦ أمانى الأتراك و خيبتهم و تخريبهم:
- ٤٣٧ الوقائع المهمة فى فلسطين و سقوط القدس و ما إليها:
- ٤٣٨ عمل الجيش العربى :
- ٤٤١ سقوط حوران و دمشق بيد الجيوش البريطانية:
- ٤٤٣ سقوط بيروت و الساحل و الهدنة:
- ٤٤٤ سبب سقوط الشام بأيدى الحلفاء:
- ٤٤٥ رأى مؤرخ تركى فى انقراض الدولة العثمانية:
- ٤٤٦ العهد الحديث «من سنة ١٣٣٦-١٣٤٣»
- ٤٤٦ تجزئة الشام بين فرنسا و انكلترا:
- ٤٤٧ فتنة الأرمن و اعتداؤهم على العرب:
- ٤٤٩ أعمال الحكومة العربية و حكومة الصهيونيين:
- ٤٥٠ المؤتمر السورى و مبايعته فيصل ملكا على الشام:

- ٤٥١ العصابات بين الساحل و الداخل:
- ٤٥٢ الاستفتاء فى الدولة المنتدبة:
- ٤٥٣ أفكار فيصل و العث بالسياسة:
- ٤٥٤ حملة فرنسا على المدن الأربع:
- ٤٥٦ تعريف الانتداب و سياسة الأتراك فيما يتعلق بالشام:
- ٤٥٨ تأثر الحورانيين بعوامل الفيصلين و مقتل وزيرين و قتل اليهود فى فلسطين:
- ٤٥٩ تقسيم الشام و خرابها و استقلال لبنان و العلويين و مجلس فلسطين و دولة شرقى الأردن و دولة جبل الدروز:
- ٤٦٠ متاعب لبريطانيا و فرنسا و اعتداءات:
- ٤٦١ توحيد حكومات سورية و عدم رضى الأهلىن:
- ٤٦٢ صك الانتداب و موافقة الدول الكبرى عليه و أشكال جديدة من الإدارة:
- ٤٦٣ غزوة النجديين عبر الأردن و استيلاؤهم على مكة و شؤون:
- ٤٦٥ صاحب الوعد للصهيونيين و مطالب الفلسطينيين و السوريين و كوائن:
- ٤٦٦ تاريخ الصهيونية و عملها الأخير:
- ٤٧٠ الأوضاع الصهيونية:
- ٤٧٢ الصهيونية فى الحرب:
- ٤٧٦ الصهيونية بعد الحرب:
- ٤٧٧ ثورتا القدس و ثورة يافا:
- ٤٧٨ المهجرة:
- ٤٧٩ المعارف و المصارف و الصحافة و المشاريع الاقتصادية:
- ٤٨٠ نظرة فى نجاح الصهيونية:
- ٤٨١ حوادث و غوائل:
- ٤٨١ التقاسيم الإدارية الحديثة:
- ٤٨١ تقاسيم القدماء قبل الإسلام:
- ٤٨٢ أجناد الشام و تقسيم العرب:

- ٤٨٢ التقسيم فى عصر الصليبيين و المماليك:
- ٤٨٣ على عهد العثمانيين:
- ٤٨٤ تقاسيم فلسطين:
- ٤٨٤ تقاسيم الشرق العربى أى شرقى الأردن:
- ٤٨٤ دولة سورية:
- ٤٨٥ دولة جبل الدروز:
- ٤٨٥ دولة لبنان الكبير:
- ٤٨٥ دولة العلويين:
- ٤٨٦ العقود و العهود الأخيرة
- ٤٨٦ اشارة
- ٤٨٦ الرسالة الأولى:
- ٤٨٧ الرسالة الثانية:
- ٤٨٧ الرسالة الثالثة:
- ٤٨٨ نسخة مختصرة عن دستور فلسطين الرسمى
- ٤٨٨ المحاكم الملكية و الشرعية
- ٤٨٩ بعض مواد عامة
- ٤٨٩ المعاهدة البريطانية الفرنسية
- ٤٩٢ صك الانتداب الفرنسى «على سورية و لبنان»
- ٤٩٥ صك الانتداب «على فلسطين»
- ٤٩٩ صك الانتداب «على شرقى الأردن»
- ٤٩٩ *** «مذكرة العضو البريطانى»
- ٥٠٠ عهد أنقرة الذى وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٢١
- ٥٠٢ فهرست الجزء الثالث من خطط الشام
- ٥٠٦ الجزء الرابع

- ٥٠٦ التاريخ المدني العلم و الأدب
- ٥٠٦ ما يراد بالعلم و الأدب:
- ٥٠٩ العلم و الأدب عند أقدم شعوب الشام:
- ٥١٠ مواطن العلم في القطر قديما:
- ٥١٢ ما حمل العرب من العلم إلى الشام:
- ٥١٢ جمع القرآن و نشره في الشام:
- ٥١٣ العلم و الأدب في القرن الأول:
- ٥١٥ عناية خالد بن يزيد بالنقل و أوائل التدوين:
- ٥١٦ علماء القرن الثاني و الأدب و النقلة و المنشئون فيه:
- ٥١٨ العلم و الأدب في القرن الثالث:
- ٥١٩ الأدب في القرن الرابع و نهضته على عهد سيف الدولة و أبي العلاء المعري:
- ٥٢١ الآداب في القرن الخامس:
- ٥٢٢ العلم و الأدب في القرن السادس:
- ٥٢٥ العلم و الأدب في القرن السابع:
- ٥٢٨ الإمام ابن تيمية و الإصلاح الديني و الأدب و العلم في القرن الثامن:
- ٥٣٠ العلوم في القرن التاسع:
- ٥٣٢ انحطاط العلم و الأدب في القرن العاشر:
- ٥٣٣ الآداب في القرن الحادي عشر:
- ٥٣٥ العلوم و الآداب في القرن الثاني عشر:
- ٥٣٧ العلم و الأدب في القرن الثالث عشر:
- ٥٣٨ العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر:
- ٥٣٩ العلوم و الآداب في أواخر القرن الثالث عشر و أوائل الرابع عشر:
- ٥٤١ المعاصرون من العلماء و الأدباء:
- ٥٤٣ تأثيرات الأجانب في التربية:

٥٤٤	الآداب فى القرن الرابع عشر:
٥٤٧	الجامعات و الكليات:
٥٤٨	الإخصاء:
٥٤٩	الصحافة العربية:
٥٥٢	الطباعة و الكتب:
٥٥٤	الفنون الجميلة
٥٥٤	تعريف الفنون الجميلة:
٥٥٥	الموسيقى و الغناء:
٥٦١	التصوير:
٥٦٨	النقش:
٥٧٠	البناء:
٥٧٣	الشعر و الفصاحة:
٥٧٤	الرقص:
٥٧٤	التمثيل:
٥٧٧	متى ترتقى الفنون الجميلة:
٥٧٧	الزراعة الشامية
٥٧٧	العامر و الغامر:
٥٧٨	قلة العناية بالأنهار:
٥٧٩	خراب الزراعة و المزارع:
٥٨٠	عوامل الخراب:
٥٨١	آفة الهجرة على الزراعة:
٥٨١	خصب الأراضى و معالجتها و ما يزرع فيها:
٥٨٢	تقسيم السهول و الجبال:
٥٨٣	من الذين أدخلوا الطرق الجديدة:

- ٥٨٣ درس الزراعة:
- ٥٨٤ نقص كبير:
- ٥٨٥ التحسين الأخير:
- ٥٨٦ عناية الأقدمين بالزراعة:
- ٥٨٧ أصناف الزروع و الأشجار:
- ٥٩٠ الأشجار غير المثمرة:
- ٥٩١ الأشجار المثمرة و غيرها:
- ٥٩٢ الصناعات الزراعية القديمة:
- ٥٩٤ معادن الشام و حماتها:
- ٥٩٧ الحقات الشامية:
- ٥٩٨ أقاليم الشام:
- ٦٠٠ أتربة الشام:
- ٦٠١ حراج الشام:
- ٦٠٢ الرى فى الشام:
- ٦٠٣ زروع الشام و أشجارها:
- ٦٠٥ الأشجار المثمرة:
- ٦٠٧ الحيوانات الدواجن فى الشام:
- ٦١٠ الصناعات الزراعية فى الشام:
- ٦١٢ زراعة الشام من الوجهتين المالية و الاقتصادية:
- ٦١٣ الضرائب الزراعية:
- ٦١٤ طرائق استثمار الأرض:
- ٦١٥ إقراض الزراع:
- ٦١٦ الخلاصة:
- ٦١٦ الصناعات الشامية:

- ٦١٤ مواد الصناعات:
- ٦١٤ الغزل و الحياكة و النساجة:
- ٦٢٠ الدباغة و صناعات الجلود:
- ٦٢٠ تربية دود الحرير:
- ٦٢١ النجارة:
- ٦٢٤ القيانة و الحدادة و النحاسة:
- ٦٢٤ الزجاجة:
- ٦٢٧ الدهان:
- ٦٢٨ الفخارة و القيشاني:
- ٦٢٩ الوراقة:
- ٦٣٠ المرايا:
- ٦٣٠ الصياغة:
- ٦٣١ صناعة الصدف و الرخام:
- ٦٣٢ السجاد و الحصير:
- ٦٣٣ الصناعات المحدثة:
- ٦٣٣ تأثير الصناعات فى الماديات و الأخلاق:
- ٦٣٥ التجارة الشامية:
- ٦٣٥ موقع الشام من التجارة و تجارة القدماء:
- ٦٣٨ تجارة العرب:
- ٦٤١ التجارة فى القرون الوسطى:
- ٦٤٢ التجارة فى القرون الحديثة:
- ٦٤٤ التجارة و الاقتصاديات فى العهد الحديث :
- ٦٤٧ الورق النقدى و العوامل فى تدنى الاقتصاديات:
- ٦٤٨ الجزء الخامس

- ٦٤٨ التاريخ المدني
- ٦٤٨ [الجيش]
- ٦٤٨ جيوش الأشوريين و الفراعنة و العبرانيين:
- ٦٤٩ جيش اليونان و الرومان:
- ٦٤٩ الجيش العربي مع الرومي:
- ٦٥٠ بعض قوانين الجيش العربي:
- ٦٥٢ تعبئة الجيش العربي:
- ٦٥٣ شدة الأمويين و مثال من أوامرهم:
- ٦٥٥ أدوات التدمير و السلاح و المواصلات:
- ٦٥٧ الجيش على عهد ملوك الطوائف:
- ٦٥٨ الجيوش الصليبية و التنرية:
- ٦٥٨ الجيوش في القرون الوسطى و جمعيات الفتوة:
- ٦٦٠ الجيوش العثمانية:
- ٦٦٢ الجيوش الحديثة:
- ٦٦٣ الاسطول
- ٦٦٣ [بحرية الفينيقيين و العبرانيين و الفراعنة]:
- ٦٦٤ بحرية الرومان و اليونان:
- ٦٦٤ العرب و البحار:
- ٦٦٥ أول خليفة غزا في البحر الشامي و البحرية الأموية:
- ٦٦٧ وصف أسطول شامي:
- ٦٦٨ سواحل الشام و نفقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء:
- ٦٦٩ الأساطيل في القرون الوسطى:
- ٦٧١ قصورنا في البر و البحر:
- ٦٧١ الجباية و الخراج

- ٦٧١ جبايات القدماء:
- ٦٧٢ الجباية فى الإسلام:
- ٦٧٣ ضروب الجباية:
- ٦٧٤ أول ما فرض من الجباية:
- ٦٧٥ عهد الأمويين:
- ٦٧٧ عهد العباسيين و مساحة الشام:
- ٦٨٠ تحرى العدل فى الدولتين النورية و الصلاحية:
- ٦٨٠ الضرائب زمن الأتراك و الشركاسة:
- ٦٨٢ [غنى الشام و المكوس]
- ٦٨٤ تفنن الشركاسة فى اقتضاء الأموال:
- ٦٨٤ الأموال أوائل العهد العثماني:
- ٦٨٤ الخراج و العثمانيين:
- ٦٨٥ تفنن الجزار فى أخذ المال و طريقة العثمانيين:
- ٦٨٦ الجباية على عهد المصريين و المقابلة بين طريقتهم و طريقة العثمانيين:
- ٦٨٧ رأى إنكليزى فى إعنات البلاد بالضرائب:
- ٦٨٧ رأى مدحت باشا فى مظالمهم:
- ٦٨٨ الاشتطاط فى الأعشار و القسط فى الجباية:
- ٦٨٩ خراج الأرض و العقارات :
- ٦٨٩ رسم المواشى:
- ٦٩٠ الأعشار:
- ٦٩٠ رسوم الجمرك:
- ٦٩١ الجمارك الشامية و وجوه نفقاتها و توزيعها:
- ٦٩٢ ضريبة التمتع:
- ٦٩٣ الضريبة النسبية:

- ٦٩٣ الضريبة المقطوعة:
- ٦٩٣ الضريبة المتحولة:
- ٦٩٤ الرأى فى الجباية و النفقات:
- ٦٩٤ الاوقاف
- ٦٩٤ منشأ الوقف:
- ٦٩٥ تعريف الأوقاف و طرقها:
- ٦٩٥ أول أوقاف الشام و سوء استعمالها:
- ٦٩٦ شرط الواقف و خراب أوقاف الشام:
- ٦٩٧ التفنن فى الأحباس و التلاعب بالموقوف:
- ٦٩٩ أوقاف نور الدين و صلاح الدين و من تقدمهما و خلفهما:
- ٧٠٠ تكاثر الأوقاف و مضار الجمود:
- ٧٠٠ تأثير الوقف فى العمران:
- ٧٠١ الأوقاف عند قدماء العثمانيين:
- ٧٠١ الوقف من مال غير محلل:
- ٧٠٢ مضار الأوقاف:
- ٧٠٣ منافع الأوقاف:
- ٧٠٣ تقسيم الأوقاف و إصلاحها :
- ٧٠٥ ضروب الحيل و انتهاك حرمة الأوقاف:
- ٧٠٦ مصائب الأوقاف:
- ٧٠٧ أوقاف الذرية:
- ٧٠٨ الأوقاف فى العهد العثمانى الأخير:
- ٧٠٩ الأوقاف بعد العهد التركى:
- ٧١٠ وسائل إصلاح الأوقاف:
- ٧١٢ الحسبة و البلديات

- ٧١٢ العرب دعاء مدنية:
- ٧١٣ تعريف الحسبة:
- ٧١٤ الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدية و عملها:
- ٧١٤ الحسبة قانون مدنى:
- ٧١٥ عمل المحتسب يحسب البلد:
- ٧١٦ ثلاثة آراء فى الحسبة:
- ٧١٧ الحاجة و الحسبة أمس و اليوم:
- ٧١٧ تأسيس البلديات :
- ٧١٩ النظام الجديد:
- ٧٢٠ تأثير البلديات فى العمران:
- ٧٢١ رأى فى إصلاح البلدة:
- ٧٢٢ الترع و المرافىء و الطرق
- ٧٢٢ ترعة السويس:
- ٧٢٤ الترعة العظيمة عن طريق فلسطين:
- ٧٢٤ الترعة بين البحر المتوسط و الخليج الفارسى:
- ٧٢٧ مرفأ غزة:
- ٧٢٧ مرفأ يافا:
- ٧٢٨ مرفأ حيفا:
- ٧٢٩ مرفأ عكا:
- ٧٢٩ مرفأ صور:
- ٧٢٩ مرفأ صيدا:
- ٧٣٠ مرفأ بيروت:
- ٧٣١ فرضتا جونىة و جبيل:
- ٧٣١ مرفأ طرابلس:

- ٧٣٢ مرفأ اللاذقية:
- ٧٣٢ مرفأ الإسكندرونة:
- ٧٣٣ الخطوط الحديدية:
- ٧٣٣ خط بيروت- دمشق:
- ٧٣٤ خط بيروت- المعاملتين:
- ٧٣٤ خط دمشق- حوران:
- ٧٣٤ خط دمشق- حلب:
- ٧٣٧ خط حمص- طرابلس:
- ٧٣٨ طريق الحج و إنشاء الخط الحجازي:
- ٧٣٩ إنشاء الخط الحجازي:
- ٧٤٤ الخط الحجازي في عهد العثمانيين و بعدهم:
- ٧٤٥ تقسيم الخط الحديدي الحجازي:
- ٧٤٦ الخط الحجازي في شرقي الأردن و الحكومة الهاشمية:
- ٧٤٦ الخط الحجازي في المؤتمرات:
- ٧٤٧ نفقات الخط الحجازي و إصلاحه:
- ٧٤٧ الخطوط الفلسطينية خط يافا- القدس:
- ٧٤٨ خط حيفا- دمشق:
- ٧٤٩ الخطوط العسكرية الفلسطينية:
- ٧٥١ خط بغداد:
- ٧٥٤ الخطوط الحديدية بين الشام و مصر:
- ٧٥٤ الكهرباء و خطوط الترام في دمشق:
- ٧٥٧ ترامواي حلب الكهربائي:
- ٧٥٨ خط الترام في طرابلس:
- ٧٥٨ الطرق العامة في الشام:

- ٧٥٩ طرق الشام:
- ٧٦٠ الطرق العامة:
- ٧٦٠ وصف الطرق:
- ٧٦٥ السيارات:
- ٧٦٥ البرق و البريد و الهاتف:
- ٧٦٥ منشأ البرق «التلغراف»:
- ٧٦٦ الآلات و الأدوات و المخابرة:
- ٧٦٦ إحدات الهاتف:
- ٧٦٦ منشأ البريد:
- ٧٦٧ مراكز البريد و البرق فى الشام:
- ٧٦٨ المصانع و القصور:
- ٧٦٨ تقاسيم المصانع و عظمتها:
- ٧٦٨ مصانع الأمم القديمة:
- ٧٦٩ هندسة الفينيقيين و آثارهم:
- ٧٧٠ عاديات الرومان:
- ٧٧١ عاديات البتراء و جرش و عمان:
- ٧٧٢ وصف المحدثين خرائب جرش:
- ٧٧٣ عاديات تدمر:
- ٧٧٤ وصف عاديات تدمر:
- ٧٧٦ عاديات بعلبك امس و اليوم:
- ٧٧٧ أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق:
- ٧٧٨ حوران و لبنان و غيرهما:
- ٧٨٠ الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل:
- ٧٨٠ آثار العرب قبل الإسلام:

- ٧٨١ قصور العرب فى الإسلام:
- ٧٨٢ عناية الأمويين و تفننهم:
- ٧٨٣ الجامع الأموى و المسجد الأقصى:
- ٧٨٤ تاريخ الحرم القدسى:
- ٧٨٥ المسجد الأقصى اليوم:
- ٧٨٦ صفه المسجد الأقصى:
- ٧٨٧ وصف المقدسى للمسجد الأقصى فى القرن الرابع:
- ٧٨٨ أصل الجامع الأموى:
- ٧٩١ قصور الأمويين و مصايفهم و مشاتهم:
- ٧٩٣ عمل العباسيين:
- ٧٩٤ آثار عربية محلية ميناء عكا:
- ٧٩٥ القصر الأبلق:
- ٧٩٥ المعاهد الدينية و المدنية فى العهدين النورى و الصلاحى:
- ٧٩٦ عمران دمشق فى القرون الوسطى:
- ٧٩٦ دور الخاصة:
- ٧٩٧ تجديد المدن الصغيرة:
- ٧٩٨ القلاع و الحصون و قلعة حلب و دمشق:
- ٧٩٩ مثال التخريب فى الحصون و البيع:
- ٨٠٠ قلاع الصليبيين و كنائسهم:
- ٨٠١ هندسة البيوت و بيوت دمشق و حلب:
- ٨٠١ نماذج من آثار الشراكسة و العثمانيين:
- ٨٠٢ هندسة الجسور:
- ٨٠٣ القاعات و القصور المعتبرة:
- ٨٠٤ قصور القرن الثانى عشر و الثالث عشر:

- ٨٠٦ أسباب الخراب و العلة في قلة قصور الأفراد: -
- ٨٠٧ الاحتفاظ بالعاديات و المصانع: -
- ٨٠٧ فهرست الجزء الخامس من خطط الشام -
- ٨١٢ الجزء السادس -
- ٨١٢ التاريخ المدني -
- ٨١٢ [البيع و الكنائس و الدير] -
- ٨١٣ بيوت العبادة عند الأقدمين: -
- ٨١٣ منشأ الأديار و البيع: -
- ٨١٤ أعظم الكنائس و أقدمها: -
- ٨١٦ مبدأ هدم الكنائس: -
- ٨١٩ كنائس دمشق: -
- ٨١٩ كنائس حلب: -
- ٨٢٠ الكنائس و البيع في القدس: -
- ٨٢١ كنائس فلسطين: -
- ٨٢٢ كنائس الأردن: -
- ٨٢٣ كنائس لبنان: -
- ٨٢٤ عمل الرهبان و الراهبات العظيم: -
- ٨٢٥ الأديار القديمة في الشام: -
- ٨٣٧ المساجد و الجوامع -
- ٨٣٧ [في أول الفتح:] -
- ٨٣٩ مساجد حلب: -
- ٨٤٠ جوامع عمالة حلب: -
- ٨٤١ مساجد الساحل و جوامعه: -
- ٨٤٣ جوامع المدن الداخلية: -

- ٨٤٧ جوامع العاصمة و ضواحيها:
- ٨٤٩ المدارس
- ٨٤٩ [نشأة المدارس]:
- ٨٥١ دور القرآن بدمشق:
- ٨٥٢ دور الحديث بدمشق:
- ٨٥٤ مدارس الشافعية بدمشق:
- ٨٦١ مدارس الحنفية بدمشق:
- ٨٦٥ مدارس المالكية بدمشق:
- ٨٦٦ مدارس الحنابلة بدمشق:
- ٨٦٧ المدارس الحديثية:
- ٨٦٨ مدارس الطب بدمشق:
- ٨٦٩ مدارس حلب :
- ٨٧٧ مدارس القدس :
- ٨٨١ بقية مدارس القطر:
- ٨٨٤ الخوانق و الربط و الزوايا
- ٨٨٤ خوانق دمشق:
- ٨٨٦ رباطات دمشق:
- ٨٨٨ زوايا دمشق:
- ٨٩٠ خوانق حلب و ربطها و زواياها:
- ٨٩٥ ربط القدس و زواياها:
- ٨٩٦ الربط و الزوايا في المدن الصغرى:
- ٨٩٧ مرآد العظام ربط و خوانق:
- ٨٩٩ المستشفيات و البيمارستانات
- ٨٩٩ [مستشفيات دمشق]:

- ٩٠١ مستشفيات حلب:
- ٩٠٢ بقية المستشفيات:
- ٩٠٣ لهفة على المدارس و غيرها:
- ٩٠٥ دور الآثار
- ٩٠٥ [المتاحف و العرب]:
- ٩٠٧ نشأة علم الآثار :
- ٩٠٨ البعثات الأثرية الغربية:
- ٩٠٨ آثارنا و آثار جيراننا:
- ٩٠٩ تأسيس دور الآثار:
- ٩١٠ متحف دمشق:
- ٩١٠ متاحف بيروت و السويداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان:
- ٩١٢ دور الكتب
- ٩١٢ [نشأة الكتب]:
- ٩١٣ نشأة الخزائن و العناية بحفظها:
- ٩١٨ مصائب الكتب و دورها:
- ٩٢٠ خزائن اليوم و أهم ما حوت:
- ٩٢٥ الأدبان و المذاهب
- ٩٢٥ [أديان القدماء]:
- ٩٢٨ اليهودية :
- ٩٣٠ السامرة :
- ٩٣٣ الأرثوذكسية:
- ٩٣٥ الكتلكة:
- ٩٣٩ المارونية:
- ٩٤٠ البرتستانتية:

- ٩٤٤ أصل السنة:
- ٩٤٧ الشيعة:
- ٩٥١ الباطنية:
- ٩٥٣ الإسماعيلية:
- ٩٥٤ النصيرية أو العلوية:
- ٩٥٨ الدروز:
- ٩٦٠ البابية:
- ٩٦٣ الاخلاق و العادات
- ٩٦٣ اشارة
- ٩٦٣ [اعداد الدمشقيين:]
- ٩٦٧ عادات الحلبيين :
- ٩٧٣ عادات لبنان و أخلاقه:
- ٩٧٧ العادات في الأرجاء الأخرى:
- ٩٨١ عادات القبائل و أخلاقها:
- ٩٨٤ رأى في الأخلاق الشامية:
- ٩٩٥ حياة محمد كرد على مؤلف خطط الشام «ترجمته بنفسه»
- ١٠٠٣ مصادر الخطط
- ١٠٠٣ اشارة
- ١٠٠٤ أ
- ١٠٠٤ ب
- ١٠٠٤ ت
- ١٠٠٤ ث
- ١٠٠٤ ج
- ١٠٠٤ ح

١٠٠٦ د

١٠٠٧ ذ

١٠٠٧ ز

١٠٠٧ س

١٠٠٧ ش

١٠٠٨ ص

١٠٠٨ ض

١٠٠٨ ط

١٠٠٨ ع

١٠٠٨ غ

١٠٠٩ ف

١٠٠٩ ق

١٠٠٩ ك

١٠٠٩ م

١٠١٠ ن

١٠١١ و

١٠١١ فهرست الجزء السادس من خطط الشام

١٠١٤ تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

خطط الشام

اشارة

نام كتاب: خطط الشام

نويسنده: كرد على، محمد

تاريخ وفات مؤلف: ١٣٧٢ هـ. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ٦

ناشر: مكتبه النورى

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤٠٣ هـ. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تأليف: محمد سردعلى تاريخ النشر: ١٢/٠١/٠١ الناشر: مؤسسه النورى للطباعة والنشر والتوزيع

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ١٧×٢٤، عدد الصفحات: ٦٣٤ صفحة الطبعة: ٣ مجلدات: ٢

مدة التامين: يتوفر عادة فى غضون أسبوعين

اللغة: عربى

الجزء الأول

الإهداء

صديقى الأبرّ العلامة العامل أحمد تيمور باشا حفظه الله:

رأيتك بعد عالمى مصر و الشام، و مفخر العرب و حجة الإسلام، أستاذينا المعظمين الشيخ محمد عبده و الشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله، فردا فى المعاصرين من بنى قومي، بأخلاقك الطهر، و علومك الغر، و حرصك على نشر آثار السلف، و تفانيك فى تنقيف عقول الخلف.

و لقد أوليت كتاب «خطط الشام» من معارفك و عوارفك قسطا عظيما و هو لم يبرح، علم الله، غرسا ضئيلا، فلما أن أورق عوده، و أطعمت شجرته، كانت خزائنه علم الأعلام فى عاصمه النيل، أحق أن تهدى إليها ثمرة طال التوفر على تعهدا فى جنات دمشق. لم تفتأ تبعث همتى على العمل، و تأخذ بيد عجزى لأقوى على إخراج هذا السفر للناس، فالآن و قد تحققت الأمانى تفضل و زد فى الإحسان، و اقتطع من وقتك الثمين ساعات ترشدنى بها الى مواطن الضعف منه، فتقلدنى من مننك اللاحقة، قلادة فوق قلائدك السابقة.

و إنى لمعترف بقصورى عن وفاء حق مروءتك و وفائك، فى زمن قلّ فيه أهل المروءات الأوفياء، ممن لا تبطهرهم المظاهر الغرارة، و لا تسكرهم النعم الدارّة، و لا تغيرهم البيئات و الأجواء.

أعزَّ الله بحياتك دولة العلم والأدب، و علم العاملين من إخلاصك ما يستعيدون به عزَّة العرب، و أقال هذه الأمة المحبوبة عثرات الليالي و نزوات الأيام، و قيض لها من ينعشها بالعلم من تشنت الكلمة و التواء الأعلام، ليعلو في المجتمع الإنساني سعداها، و يرتفع في أمم الحضارة الحديثة مجدداها، بحوله و طوله.

محمد كرد على

صدر الخطط

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم يا لطيف

نشرت عام ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) في مجلة المقتطف تسعة فصول في «عمران دمشق» صادفت استحسان بعض من قرأوها من خاصة الباحثين، و جمهور المطالعين، فوقع في النفس يومئذ أن أتوسع في هذا البحث، و أدرس عمران الشام كله، لأن صورة العاصمة وحدها لا تكفي للدلالة على حالة القطر، و من الإشراف على الأطراف، قد تعرف صحة الجسم عامة و القلب خاصة، و من اهتم بالجزء كان حريا أن يضاعف العناية بالكل.

فشرعت من ثم أتصفح كل ما ظفرت به من المخطوطات و المطبوعات باللغات العربية و التركية و الفرنسية، و قصدت دور الكتب الخاصة و العامة في الشام و مصر و المدينة المنورة و الأستانة و رومية و باريس و لندرا و إكسفورد و كمبريدج و ليدن و برلين و مونيخ و مجريط و الاسكوريال. و كنت كلما استكثرت من المطالعة. تتجلى أمامي صعوبة العمل، هذا مع ما قام في سبيل نشر هذا المجموع من العقبات، منذ وطدت العزم على وضعه، و ما نالني من الكوارث في العهد الماضي. و لكن الشقاء قد يأتي بسعادة، و رب ضرَّ أعقب خيرا. فإن التضييق على نشأ منه اضطراري الى الارتحال غير مرة، فأخذت أستقرى المعالم و المجاهل في هذا القطر، و نزلت على

خطط الشام، ج ١، ص: ٢

أمم كثيرة في بلاد الغرب، فاستفدت من تنقلي بعض ما عندهم من أسفارنا و آثارنا، و قابلت عن أمم بين عمراننا و عمرانهم، و جمودنا اليوم و حركتهم.

رحلت الى اوروبا ثلاث رحلات، أبحث في دور كتبها عن المخطوطات التي يرجى أن يكون أصحابها قد تعرضوا لحوادث هذا القطر، و زرت أصقاع الشام لأقابل بين حاضره و غابره، و لما نسجت بأخره ما جمعت، قدمت له مقدمة في بيان ما تشترك فيه بلاد الشام عامة من المظاهر و الأوضاع، و سميتها «خطط الشام» و أعنى بالشام الأصقاع التي تتناول ما اصطلح العرب على تسميته بهذا الاسم، و هو القطر الممتد من سقى النيل الى سقى الفرات، و من سفوح طوروس الى أقصى البادية، أي سورية و فلسطين في عرف المتأخرين. و يراد بالخطط كل ما يتناول العمران، و البحث في تخطيط بلد بحث في تاريخه و حضارته.

أول من صنف في الخطط و استقصى فيها على ما علمنا الحسن بن زولاق المصري (المتوفى سنة ٣٨٧) و قال المقرئزي (المتوفى في سنة ٨٤٣) إن أول من صنف فيها أبو عمر بن يوسف الكندي، ثم القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (٤٥٤) و الذي انتهى إلينا كتاب خطط مصر للمقرئزي المنوه به، و هو أجمل مثال في باب الإجابة في التأليف. و لم نعلم أن أحدا من المتقدمين كتب على الشام و خططه، و كتب بعض المتأخرين في موضوع خاص و بلد معين. و ما خطط الشام في الحقيقة إلا زبده الوقائع و الكوائن، و أخبار الصعود و التدلى، و المظاهر الغربية التي ظهرت بها هذه الديار، في غابر الأعصار، مقتبسا ذلك مما أبقته

خطط الشام، ج ١، ص: ٣

الأيام مكتوبا أو مطبوعا على ورق، أو مزبورا على حجر و آجر و بردى ورق.

لا جرم أن موضوع الخطط موضوع جليل، تتعين الإحاطة به على كل من يجب أن يعرف أرضه ليخدمها، و يستفيد منها، و أحق الناس بمعرفة بلد أهله و جيرانه. و من لم يرزق حظا من الاطلاع على ما حوى موطنه من الخيرات، و ما أتاه أجداده من الأعمال، لا ينهض بما يجب عليه ليؤثر الأثر النافع في الحال و المآل، و من أجدر من الأبناء و الأحفاد، بالرجوع الى سجلات الآباء و الأجداد، و كيف يحب المرء بلدا لا- يعرفه، و يحرص على سعادته ليسعد هو فيه، و هو لا- علم عنده بما تعاقب عليه حتى صار الى ما صار اليه، و هل يفهم الحاضر بغير الغابر، و هل تنشأ في الأمة روح وطنية إذا لم تدرس تاريخها حق الدراسة.

*** كتب الغربيون في آثار هذا القطر و عمرانه و تاريخه و اقتصادياته و عاداته أحمالا من الكتب بلغاتهم، و قلما نشرت كتب جامعة لأحد أبنائنا بلغتنا و على نهجنا. و استنفذ الغربيون كل بقعة من بقاعنا، و مدينة من مدننا، و بادية من بوادينا، و منهم من أجاد و أفاد، مما يسجل و يا للأسف علمهم بنا، و جهلنا حتى بأرضنا، و يكفي أن يقال إن علماء الغرب و سياحهم صنفوا بين سنتي ١٨٠٥-١٩٠٣ م خمسة و تسعين كتابا فقط في آثار سلع أو البتراء (وادي موسى) على حين قلّ جدا في الشاميين أنفسهم من زاروا هذه الخرائب المهمة، و منهم من لم يسمع باسمها.

أخذت مما ظفرت به من الكتب الأفرنجية، و عنيت أشد العناية بالرجوع إلى ما كتبه الأسلاف في هذا الشأن، على تفرقه، و اعتمدت على مؤلفي العرب خاصة لأن كل أمة أعرف على الغالب بحالتها من غيرها، فإن بحث علماء الأفرنج في تاريخ هذا القطر قبل الإسلام، و نبشوا عاداته و مصانعه، و حلوا لغاته و لهجاته، فتاريخه بعد هذا العهد أقرب الى أن يكون علماؤنا مرجعا فيه، فقد قيل «قتل أرضا عالمها».

جاء الكلام ناقصا في بعض الأدوار المتأخرة، و عمى على بعض

خطط الشام، ج ١، ص: ٤

مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام، و السبب فيه أن المتأخرين زهدوا في التاريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه و بين أقاصيص العجائز، و موضوعات المخرفين و الوضاعين، و عنيت بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات، و نخل لباب الوقائع المهمة الثابتة و حذف ما فيه شية شبهة، أو شائبة غلو، و إن كان منها ما يروق بعضهم و يتفكهون بسماعه، و يطربون لترداده. فخاطبت ما استطعت العقل أكثر من العاطفة، و عنيت في قسم التاريخ السياسي أن أبين علل الحوادث، و تسلسل الكوائن، و دواعي الأحوال القريبة أو البعيدة، و استخراج النتائج و استنباط القواعد. و التاريخ ريب الحرية لا يتصرف على هوى من يكتبه و يقرأه و لا على أذواق أهل العصر و أهوائهم. و ما دام موضوعه الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي و الآتي فهو جدير بأن يتحرى فيه الحق و لا يدون سواه. قال أحد العلماء: عند ما نريد أن نصل الى الحقائق التاريخية، يجب أن تصح همتنا على إزالة الأوهام، و نزع الزوان من الأساطير التي تعلق بالوقائع الثابتة القليلة التي وصلت إلينا.

*** كان المؤرخون بعد القرون الوسطى بين عاملين قويين، إما أن يكذبوا فيغضبوا الحق، أو يصدقوا فيغضبوا الخلق، و العمال و الأعيان منهم خاصة. فقد ألف مثلا ابن زوجه أبي عذبة المقدسي المتوفى سنة ٨٥٦ تاريخين مطولا- و مختصرا، و لما توفي اطلع بعضهم على الكبير منه، فوجد فيه أشياء توهمها في ثلب أعراض الناس فأتلفه، و صنف عبد الله البصروي من أهل القرن الثاني عشر تاريخا لهذه الديار، فبلغ أعيان دمشق خبره، و لما هلك دخلوا داره و آلوا أن لا يأذنوا بدفنه أو يأخذوا التاريخ الذي وضعه، فضبطوه و أحرقوه على أعين القوم، مخافة أن تنكشف سيئات بعضهم. و الذي ضاع من مدونات المتقدمين و المتأخرين يعد بالعشرات، لكثرة الجوائح الأرضية و السماوية التي أصابتها. و إذا كتب البقاء لشيء مما كتبه المتأخرون فيكون في الغالب الى الركاكه لا تسقط فيه على حقيقة. و كثيرا ما كان العقلاء يعلقون على حواشي

خطط الشام، ج ١، ص: ٥

بعض الكتب تعاليق لحوادث جرت، و أمور اهتم لها الناس و شغلت مجتمعهم، و من مثل تلك الأوراق و من اليهود و الصكوك ضم

هذا السفر جانباً.

بحث جد البحث عما دون في التاريخ العام أو الخاص بتاريخ بلد من أرض الشام، فرأيت يد الضياع قد غالبها إلا قليلاً، وقد أهتمنى منها الاطلاع على تاريخ صفد للعثماني و تاريخ البرزالي و تاريخ حلب الكبير لابن العديم و تاريخها لابن أبي طى و تاريخ حمص لابن عيسى و لعبد الصمد بن سعيد و أخبار قضاء دمشق للذهبي و تاريخ ابن أبي الدم الحموى و تاريخ قنسرين و تاريخ أنطاكية و تاريخ المعرة لابن المهذب و تواريخ كثيرة في سير مشاهير الفاتحين كتبها أمثال ياقوت الحموى و ابن شداد و ابن واصل و ابن حبيب و ابن الداية و ابن عبد الظاهر و ابن تيمية و الجبريني و العسقلاني، فلم أظفر بسوى ورقات من بعضها، أو مختصرات و منقولات لا تبيل غلة، حرّفت بالنقل فتشوهت محاسنها.

*** و لقد وددت لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورة لو ساغ لى أن أصبر عليه زمناً آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب عملاً بالحكمة التي تمثل بها الثعالبى في اليتيمة قال: «و كلما أعرته على الأيام بصرى، و أعدت فيه نظرى، تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب، أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم، أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة، إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة فكيف في سنين عديدة». و لكن رأيت بعد طول التأمل أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين، و التمحيص بحر لا ساحل له، و لطالما ذكرت و أنا أغوص في الكتب المختلفة التي طالعته قول المؤرخ فوستيل دى كولانج ليس التاريخ من العلوم السهلة فلأجل يوم واحد يصرف في التركيب ينبغي قضاء أعوام طويلة في التحليل. على أنى لما راجعت مسودات ما صنفت و رأيتنى قد تذوقتها فهضمتها، أيقنت أنه لا يثقل على القراء في الجملة، فأبرزته خائفاً حوادث الأيام، و نزول داعى الحمام، و أنا موقن بأن فوق خطط الشام، ج ١، ص: ٦

ما طالعت و بحثت غايات، لم يمكنى الزمان و المكان من بلوغها، و عسى أن يقوم غيرى بعدى فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنیان كتاب الخطط، و يصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط و الشطط، و اذا حصلت الفائدة من عمل استغرق جلب مادته خمسا و عشرين سنة، و كلّف تعباً و نشباً، فهو غاية ما أتطالّ اليه، و إلا فهو جهد المقلّ، و الكمال لله وحده. و كتب في دمشق في اليوم الرابع من شعبان من شهور سنة ثلاث و أربعين و ثلاثمائة و ألف بعد الهجرة بموافقة شباط من شهور سنة خمس و عشرين و تسعمائة و ألف للميلاد.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧

تقويم الشام

تعريف الشام للأقدمين:

إشارة

الشّام و الشّام و الشام و الشّام هو اسم هذا القطر العزيز على ما عرفته العرب، و هو يتناول عامّة الأقاليم الداخلة اليوم في فلسطين و سورية بحسب الاصطلاح الحديث. و سورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامى على عهد الإسكندر مقتضبا مع تخفيفه من اسم آشورى لغلبة الأشوريين عليه و السين و الشين تتعاوران في اللغات السامية. قال البكرى: سورية «بضم أوله و كسر الراء المهملة و تخفيف الياء أخت الواو و فتحها» اسم للشام.

و قيل: إن سبب تسميته بسورية نسبة لصور ثغر الشام القديم و مخرج الصاد و السين واحد. و قال آخرون: إن اليونان لما فتحوا الشام رأوا الأشوريين يتولون أمره فسموه أشورية. قال المسعودى: سورية هي الشام و الجزيرة و كان الروم يسمون الصقع الذى سكانه المسلمون في عهده (٣٤٥ هـ) من الشام و العراق سوريا، و الفرس كانوا يسمون العراق و الجزيرة و الشام سورستان إضافة إلى

السريانيين الذين هم الكلدانيون و تسميهم العرب النبط.

و يقال إن فلسطين سميت بفلسطين بن سام او بفلسطين بن كلثوم، او بفليستين بن كسلوخيم من بنى يافث بن نوح ثم عربت فليشين. و جوزوا فى اسم الشام التذكير و التأنيث و المشهور التذكير. و للغويين خطط الشام، ج ١، ص: ٨

و الجغرافيين فى سبب تسميته شاما آراء مختلفه فقيل: سمي لتشاؤم بنى كنعان اليه و قيل: بل سمي بسام بن نوح لأنه نزل به و اسمه بالسريانية شام بشين معجمه. و قال بعضهم: إن سام بن نوح لم يدخل الشام قط و قيل: لأن أرضه أى أرض الشام مختلفه الألوان بالحمرة و السواد و البياض فسمى شاما لذلك، كما يسمى الخال فى بدن الإنسان شامه، و قيل: سمي شاما لأنه عن شمال الكعبه. و الشام لغه فى الشمال، و قيل: سميت الشام شاما لكثرة قراها و تدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات و جوزوا فيه وجهين أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى و هى اليسرى و الثانى أن يكون فعلا من الشؤم.

معنى الشام و جمعه:

و اختصرت العرب من شامين الشام و غلب على الصقع كله (ياقوت) و هذا مثل فلسطين و قنسرين و نصيبين و حوارين و هو كثير فى نواحي الشام. و ذكروا أن معنى الشام الطيب، و يقال للشام اللماعه و اللماعه بالركبان تلمع بهم اى تدعوهم اليها و تطيبهم، و قد تجمع الشام على شامات و تسمى الشام بذلك، و من الناس من لا يجعله الا شاما واحدا، و منهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين و الأرض المقدسه الى حد الأردن شاما، و يقولون الشام الأعلى و يجعل دمشق و أرجاءها من الأردن الى الجبال المعروفه بالطوال شاما و يجعل سوريه و هى حمص و ما ضمت الى رحبه مالك شاما، و يجعلون حماه و شيزر من مضافاتها و يجعل قنسرين من إقليمها و حلب مما يدخل فى هذا الحد الى جبال الروم و العواصم و الثغور. فأما عكا و طرابلس و كل ما هو على ساحل البحر و كل ما قابل شىء منه شيئا من الشامات فيحسب منه.

و إطلاق الشام على دمشق من باب إطلاق العام على الخاص و العرب (نالينو) كثيرا ما يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق دمشق او الشام- الفسطاط او القاهره او مصر- شام او خطط الشام، ج ١، ص: ٩

حضر موت- صحار أو عمان- الأندلس بدلا من قرطبه- صقلية عبارة عن بلرم.

حد الشام قديما:

و حد الشام من الغرب البحر المتوسط أو بحر الروم أو بحر الملح أو بحر الشام، و من الشرق البادية من أيله الى الفرات. و أيله مدينة قديمه على البحر الأحمر أو القلزم و هى على مقربة من العقبة اليوم. ثم يذهب الحد من الفرات الى حد الروم أو آسيا الصغرى و شمالا الى الروم و جنوبا حد مصر و تيه بنى إسرائيل. و أوصلوا الحد من الغرب الى طرسوس قرب أذنه الى رفح فى أول الجفار بين مصر و الشام. و أوسع من هذا التعريف أنه يحيط بالشام من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى تيه بنى إسرائيل الى ما بين الشوبك و أيله الى البلقاء، و يحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشاريق صرخد آخذا على أطراف الغوطه الى سلمية الى مشاريق حلب الى بالس. و يحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات الى قلعه نجم الى البيرة الى قلعه الروم الى سميساط الى حصن منصور الى بهسنى الى مرعش الى سيس الى طرسوس. و هذا الحد للعرب قال به كاتب جلبي فى القرن الحادى عشر.

حقيقة حد الشام:

و بموجب الاتفاق الفرنسي التركي الأخير جعلت الحدود في قرية قطمة على طريق السكة بغدادية على أربعين كيلومترا من حلب. و دخلت كليس في حدود الروم و ليس هذا هو الحد الجغرافي الطبيعي للشام من الشمال. بل حد الشام ينتهي بسفوح جبال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب آخذنا الى ما وراء خليج الإسكندرونة لجهة أرض الروم و كان جبل السباح (بفتح السين و تشديد الياء) حدا بين الشام و الروم و لا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم. و يقول الإدريسي: و من السويديّة الى جبل رأس الخنزير عشرون ميلا و على هذا الجبل دير كبير و هو أول بلاد

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠

الأرمن و آخر بلاد الشام. فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام، و ما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق. فصفتين مثلا في الشام و قلعة جعبر في الجزيرة الفراتية و بينهما مقدار فرسخ او أقل و تدخل بالس أي مسكنة بالشام لانها من غرب الفرات و تدخل البيرة (بيره جك) في الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات. و ما كان من دير الزور على الفرات الى جهة الشام فهو من الشام، و ما كان على الشاطيء الآخر الى الشرق فهو من العراق. و كذلك يقال في الرقة. و تدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر. كما أن أيلة هي آخر الحجاز و أول الشام. فالعريش او رفح او الزعقة هي حد الشام الجنوبي الغربي. و معان نصفها للشام و نصفها للحجاز، فيقال معان الشامية و معان الحجازية.

حدوده مع مصر:

و قد اتفقت الحكومتان العثمانية و المصرية سنة (١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م) على تعيين الحد بين مصر و الشام من رأس طابا على الساحل الغربي لخليج العقبة ممتدا الى قمة جبل فورت مارا على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلّة على وادي طابا، ثم من قمة جبل فورت يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المفروق على قمة جبل فتحي حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة. و من هذه النقطة الى التل الذي الى الشرق من مكان ماء يعرف بشميلة الردادى و المطلّة على الشميلة، بحيث تبقى الشميلة غربى الخط.

و من هناك الى قمة رأس الردادى ثم الى رأس جبل الصفرة، و منه الى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم الى سويله شمالي الشميلة، و منها الى غرب الشمال الغربي من سماوة و منها الى قمة التل الواقع الى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة فى الفرع الشمالى من وددى ماين، و منها الى غربى جبل المقراء فالى رأس العين الى نقطة على جبل أم حوايط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين فى الجنوب الغربى من بئر رفح، و منها الى نقطة على التلال الرملية فى اتجاه ٢٨ درجة اى ٨٠ درجة الى الغرب و على

خطط الشام، ج ١، ص: ١١

مسافة ٤٢٠ مترا فى خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيما من هذه النقطة باتجاه ٤، ٣٣ درجة. الشمال المغنطيسى أعنى ٢٦ درجة الى الغرب الى شاطئ البحر المتوسط مارا بتل خرائب على ساحل البحر الأحمر. و تقرر فى ايلول ١٩٢٠ أن كون حدود حلب شمالا التخوم الشمالية للواء الإسكندرونة و التخوم الشمالية المنطقه الغربية القديمة آخر نقطة منها تلتقى بالخط الحديدى شرقى محطة هن؟؟؟، ثم خط الحديد و هو داخل التخوم حتى تل أبيض، ثم خط يجمع بين تل أبيض و الخابور شرقا و نهر الخابور حتى مصبه فى الفرات، ثم نهر الفرات حتى البوكمال جنوبا و هو الخط المعروف بخط البوكمال الى تدمر ثم الى الحدود الغربية الشمالية. و هذا الحد موضوع غير طبيعى. و لعل هذا القطر لن يعدم حده الطبيعى من الشمال فإن الصخور التى تفصل الشام من الشمال عن آسيا الصغرى ليس لها مثل فى التخوم الطبيعية كما قال نابوليون. و جعل الجغرافى اليزه ركلو حد الشام من جبال أمانوس (اللكام) الى طور سينا و قال: إن طور سينا و إن ضم سياسيا الى مصر فهو جزء من أجزاء الشام. و قال بوليه: إن حد سوريه شمالا آسيا الصغرى. و قال بورتز: إن سوريه أى سوريه الرومانيين يحدها شمالا آسيا الصغرى. و قال بيدكر: إن حد الشام من طوروس الى مصر. و بذلك رأينا أن الشام يحيط به من الجنوب رمال من الجفار و تيه بنى إسرائيل و جزء من البحر الأحمر فالبادية. و من الشمال جبال

شامخة صعبة المسالك و هي جبل أمانوس أحد سلاسل جبال طوروس.
و من الشرق الفرات و من الغرب البحر. اي رمال و جبال و نهر و بحر.

مساحة الشام و صورته:

قدر القدماء طول الشام من العريش الى الفرات بمسيرة نحو شهر و عرضه من جبلى طى أجا و سلمى من القبلة الى بحر الروم نحو عشرين يوما، و جبلا اجا و سلمى جنوب الشراة وراء البتراء المعروفة عند الرومان باسم (بروفنسيا أرابيا أو أرابيا بترا- Provincia Arabia Petraea).

و قال شيخ الربوة: حد الشام طولاً من ملطية الى العريش و مسافته سبعة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢

و عشرون يوماً، و عرضه الأعرض من منبج الى طرسوس. و عدّ ياقوت من الشام الثغور و هي المصيصة و طرسوس و أذنة و جميع العواصم من مرعش.
و الحدث و غير ذلك.

و قال علماء الأفرنج: إن معدل طول الشام نحو ألف كيلومتر و عرضه نحو مائة و خمسين كيلومتراً و مساحته ١٨٣ ألف كيلومتر مربع و قال بعضهم:

إن مساحته السطحية نحو ٢٨٠ الف كيلومتر، و أبلغه غيرهم الى ثلثمائة ألف و أنزله آخر الى مائة و تسعة و خمسين الف كيلومتر، و بالغ في تصغيره بعضهم فقال: إن مساحته مائة ألف كيلومتر مربع فقط، و منهم من قال مئة و خمسة عشر. و قال آخر: إن طوله ينيف على أربع مائة ميل و عرضه يختلف كثيراً و معدله نحو مئة و عشرين ميلاً. و مساحة الشام خمسون ألف ميل مربع. و ذكر آخر أن طول الشام المتوسط من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر و عرضه من الغرب الى الشرق نحو أربع مائة و خمسين كيلومتراً.
و أكد بعضهم أن طوله من طوروس الى طور سينا لا يقل عن الف و مئة كيلومتر، و قال غير واحد: إنه لا يقل عن ٨٠٠ الى ٩٠٠ هذا إذا تركت منه البادية و لم يحسب غير الأراضي القابلة للزراع. و قدرت الأرض القابلة للزراعة في الشام بمئة و خمسين ألف كيلومتر مربع. و الاختلاف في حد الشام و مساحته بين علماء الجغرافية المحدثين أكثر مما بين علماء تقويم البلدان من العرب الأقدمين. و قد شبه بعضهم الشام في هيئته الطبيعة بشكل مستطيل طوله ثمانية أضعاف عرضه. و شبهه آخر بأنه شكل مربع الأضلاع مستطيل كثيراً.

مدخل الفاتحين الى الشام:

جاء الفاتحون الشام بحراً و برا بل جاءوها من جهاتها الأربع فجاءها الفراعنة من البحر و البر، و البابليون و الفرس من الشرق و الشمال، و الاسكندر و الصليبيون و العثمانيون من الشمال، و غازان و هولاء-كو و تيمور لنك من الشرق، و العرب الفاتحون من الشرق و الجنوب، و نابوليون من الجنوب و من الغرب بحراً، و إبراهيم باشا المصرى برا و بحراً اي من الغرب و الجنوب

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣

الغربي، و جيوش الحلفاء من الانكليز و الفرنسيين و العرب من الجنوب و الغرب. و كانت على اعتزالها وراء حدودها الطبيعية مطمح الطامحين، و طعمة الطامعين، لم تدفع عنها حصونها التي فصلتها عن الحجاز بصحار مقفرة، و حرار معطشة، و عن العراق بنهر عظيم و بادية قاحلة، و عن آسيا الصغرى بجمال عالية، و عن مصر و عن برّ إفريقيا برمال محرقة.

و داست تربتها الجميلة سنايك خيل الفاتحين، و عبثت بجميل محياها سهام النوايب، و أوردتها موارد العذاب الهون، و لم تأمن عادية العادين، على ما فيها من الجبال الشم، و مضايق تضل فيها العصم.

مدن الشام وقراه:

في الشام مدن كثيرة منها ما دثر و انحط بعد أن كان له شأن مهم في الأزمان الغابرة، مثل قيسارية و المعرة و أنطاكية و قنسرين و أفامية و جرش و البتراء و بصرى و صيدا و صور و تدمر و بعلبك و جبيل و سبسطية و أم قيس و صرخد و السويداء و شهبه و عرقا و عيمان و بانياس في الحولة و عسقلان، و منها ما ثبت على صدمات الأيام و الليالي و كان له من موقعه و ملاءمة الطبيعة له ما أبقى عليه، كأن يكون وسط ريف خصيب، و ماء دافق، كدمشق و حمص و حماة و طرابلس. و دمشق أهم مدن الشام و عاصمته في الإسلام و على عهد السريان، و كانت أنطاكية عاصمته على عهد الروم و الرومان. و تجيء بالعظم بعد دمشق مدينة حلب ثم بيروت ثم القدس و سكان دمشق نحو أربعمائه الف، و مثلهم سكان حلب، و بيروت نحو ثلاثمائه الف، و القدس أقل من ذلك. و في الشام عدة مدن تزيد على خمسين الف نسمة، مثل يافا و حيفا و حماة و حمص و دير الزور، و فيها عدة مدن تختلف بين العشرين و الأربعين الف نسمة، مثل اللاذقية. غزة. صفا. زحلة. صيدا.

إدلب. أنطاكية. و عشرات من القرى هي أشبه بمدن او مدن أشبه بقرى تكون نفوسها بين العشرة آلاف و العشرين الفا مثل صيدا و الخليل و الرملة و اللد و الناصرة و طبرية و الدامور و بعلبك و حاصبيا و راشيا و الصلت و دومة و داريا و جوبر و يبرود و دير عطية و حارم و إدلب و سلمية و الشويفات
خطط الشام، ج ١، ص: ١٤

و بشرى و إهدن و البترون و غيرها. و لا تقل قرى الشام عن ثمانية آلاف قرية و مزرعة و بلدة و مدينة و سكانها نحو سبعة ملايين يدخل فيهم العرب الرحالة و يقدرون بخمسمائة إلى ستمائة ألف.

طبيعة الشام:

قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها، و تتم في قيعانه و جباله أسباب النعيم، معتدل الأهوية، متهاطل الأمطار و الثلوج، ممرع التربة، فيه الغابات و المعادن، و الحمامات المعدنية و الأنهار الجارية، و البحيرات النافعة، و الأجواء البهجة، و الرباع المنبسطة، و المناظر المدهشة، فيه من الجبال الشراة و الخليل و عامل و سنير و حرمون و لبنان و كسروان و حوران و جرش و عجلون و عكار و اللكام و الأقرع و الكلبية و الأكراد و القدموس و باير و المنيطرة و صنين و الكنيسة و الباروك و نيحا و الرياح و طابور و الجرمل و الكرمل و بلودان و النبك و الصلت و مؤاب و أنطاكية و القصير و ريحا. و من البحيرات العمق و الغاب و أفامية و المطخ و اليمونة و العتبية و الهيجانة و طبرية و الحولة و لوط. و من السهول سهل حوران و الجولان و الجيدور و الغوطة و المريج و البقاع و البقية و حمص و أنطاكية و اللاذقية و طرابلس و الشويفات و صيدا و صور و الطنطورة و بيسان و أريحا. و من المروج مرج ابن عامر و شارون (سارون) و البلقاء. و من الأنهار النهر الكبير و الأردن و اليرموك و العاصى و الفرات و قويق و الساجور و عفرين و الأسود و بردى و الباراد و ابراهيم و قاديشا و الليطاني و الحاصباني و الزرقا و العوجا و الأعوج و الأولى و الزهراني و الكلب و الموجب و الدامور و الذهب و قنديل و صنوبر و قرشيش و برغل و المضيق و السن أو الأبر و حريصون او مرقبة و الجوز و الكابري و نعمين و المقطع و الأزرق و الأخضر و أبى زابورة. و من المناظر البديعة صنين و ظهر القضيبي و إهدن و البياضة و إصطبل عنتر و الصبر و النبي يوشع و قاسيون و حرمون و الطور و الهرمل و الكرمل.

خيرات الشام:

و فيه تنبت الحبوب و البقول و الأشجار على اختلاف أنواعها. ففي

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥

جنوبيه و شرقيه النخيل. و فى سواحله الموز و البرتقال. و فى أواسطه السرو و الأرز. و وجود فيه القطن و القنب و الكتان و الحرير و النيل و الدخان و قصب السكر و العسل و شجر الأرز و الفوة و السماق و السوس. و تصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية. و فى أرضه و مياهه أنواع الطيور و الأسماك و تعيش فيه الجمال كما تعيش البغال و تسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم و المعزى فيه زهاء مئة و ثلاثين منجما لم يستثمر منها إلا-القيرو الفوسفات و الحمر، على أن فيه الذهب و الفضة و النكل و الحديد و الفحم الحجري و الرصاص و المغرة و النحاس و الكروم و الزئبق و الكبريت و السبازج و الجبس و النفط و الإثمد و الزجاج و المرمر. و من الحمامات المعدنية حمام طبرية و حمّة سمخ و حمّة أبى رباح و حمّة ضمير و حمّة معلولا و حمّة أنطاكية و المرقب و زرقاء معين و عجلون و لها كلها من الخواص الصحية ما اشتهر أمره.

هواء الشام و ماؤه:

صقع حوى غرائب الطبيعة تشهد فيه بردا قارسا بل شتاء مستوفى فى قنن جباله و سفوحه فى حين تشهد فى أغواره كغور بيسان و غور الصافى و طبرية و أريحا ربيعا تاما بل صيفا معتدلا، و بينا تذيب شمس الصفاء و اللجاء رأس قاصدهما، إذا به فى ربح بليل عليل اذا قصد الجبال و ما إليها. فهو مصطاف و مرتب و مشتى فى آن واحد. و فيه ما لا يكاد يوجد له مثل فى الأرض: بحيرة طبرية تحت سطح البحر على ١٣١٦ قدما و فيها أسماك كثيرة، و بحيرة لوط لا يعيش فيها حيوان فكأن نهر الأردن الذى يجرى من بحيرة طبرية و ينتهى ببحيرة لوط هو فى أوله حياة و فى آخره موت، و هذا لا نظير له فى العالم.

و من عجائب طبيعة الشام إن تنبجس فى بعض أصقاعه عيون طيبة ثرة فى بقعة ضيقة. ففى الجديدة على مقربة من الحولة عشرات من العيون على هضبة سميت بها البلدة «مرج عيون» و فى جبل ربحا من عمل حلب عيون لطيفة دارّة فى الأعلى تكاد تخلو منها السهول المنخفضة المجاورة. و مياه الشام على الجملة طيبة لذيدة.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦

خصائص الشام:

قصر هذه مواهبه قامت فيه فى الأزمان الغابرة النصرانية و اليهودية.

و انبعث من أرجائه مجد الإسلام، فكان مباءة أول دولة عربية إسلامية، ثم آوى اليه الشيع الغريبة من النحل و المذاهب التى لا مثل لها فى غيره، كالدريزية و الإسماعيلية و النصيرية و السامرة بل معظم المذاهب الإسلامية و النصرانية و الإسرائيلية و تبلغ سبعة عشر مذهبا و جملة من العناصر القوية ذات المدنية التى استحالت عربا.

رأى الشام طلعة موسى و عيسى من النبيين، و الإسكندر و ابن الخطاب و خالد بن الوليد و موسى بن نصير و نور الدين و صلاح الدين و سليم و ابراهيم من الفاتحين. و عمر بن عبد العزيز و المأمون و ابن تيمية من المجددين. و بختنصر و هولوكو و جنكيز و غازان و تيمور من المخربين، و قلّ فى الممالك كما قال كورتبوس ما اندمج فيه كثير من التواريخ فى بقعة ضيقة كهذه.

الشام مهوى أئدة الشعوب النصرانية و اليهودية، و مجاز حجاج المسلمين الى الأماكن الطاهرة القدسية و الحجازية، بل نقطة الاتصال القريبة بين آسيا و إفريقيا و آسيا و أوروبا، بل بين القارات الثلاث القديمة آسيا و أوروبا و إفريقيا، و أجمل مصيف و مشتى للأقطار الحارة المجاورة كالحجاز و العراق و مصر. و الشام فى أواسط الأقطار التى يتكلم أهلها بالعربية هو بلد الخيال و الشعر، و الهمم العليا و استقلال الفكر، و أرضه أبدا باسمه طربة كسمائه:

مصحة أبدان و نزهة أعين و لهو نفوس دائم و سرورها

مقدسة جاد الربيع بلادهافنى كل أرض روضة و غدیرها

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧

سكان الشام

الامو و اللودانو:

من الصعب الحكم على أصول السكان فى الشام قبل أن يعرف التاريخ، و تعيين أول من نزلها من القبائل قبل أن تبنى المدن و الحواضر و تعرف المزارع و الدساكر. و أقدم ما عرف منها قبائل كانت تعرف بالامو و ورد ذكرها فى الآثار المصرية و معناها الشعب باللغة السامية اختلطت على ما يظهر بذرية لاوذ، او بغيرها من القبائل التى كانت تسكن شمالى الشام، و سمي هذا القبيل بالروتانو او اللودانو، و يقسمون الى روتان المغرب و يراد بهم سكان دمشق و أرض كنعان، و الى روتان المشرق او الأعلى و هؤلاء كانوا ينزلون فى شمالى الشام و جزء من غربى ما بين النهرين و لعل ذلك كان قبل الطوفان، طوفان نوح او بعده بقليل. و قد حدث الطوفان قبل المسيح بنحو الفين و خمسمائة سنة، و لم يعم الكرة الأرضية و لا برا من برورها المعروفة، بل انحصر فى بقعة صغيرة من آسيا على الأرجح أى إنه كان فى الجزيرة على ما ذكره أهل الإدراك من المفسرين.

و ظهرت بعد الطوفان أمم كثيرة سكنت الشام، بعضها من أصل سامى و بعضها لم يعرف عنه شىء، و منها ما عرف أنه أتى من الأصقاع المجاورة و منها من لم يثبت أصله. فقد ظهر بعد الطوفان الآراميون فى دمشق و الجيدور و الجولان و البقاع و حمص و لبنان، و آرام هو الاسم الذى أطلقته

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨

التوراة على الشام و بين النهرين، و كان يسكنها أبناء آرام الابن الخامس لسام. و أقام الأموريون فى الأرض الواقعة بين البحر و الأردن، و العمونيون فى أرض جلعاد اى فى شرقى الأردن، و الموآبيون فى الجنوب الشرقى من بحيرة لوط، و الإسماعيليون من نسل إسماعيل جد العرب فى سلع و البتراء و ما جاورها. و انتشر الأدوميون من وادى العرب إلى حدود العقبة عقبه أيلة و الفينيقيون فى صور و صيدا و جبيل، و تفرعت من هذه القبائل فروع كثيرة فى قرون مختلفة. و لا تعرف أصول أكثر هذه القبائل. و قد قال رولنسون: إن أصل الفينيقيين من سكان البحرين فى الخليج الفارسى ظعنوا من هناك الى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة و أنهم عرب بأصولهم و أن هناك مدنا فينيقية أسماؤها أسماء فينيقية مثل صور و جبيل. و ذكر مكالستر أنه سكنت فلسطين شعوب من غير الساميين و ربما عنى بهم الحثيين و الأموريين.

و الحثيون جنوبيون و شماليون و كان الجنوبيون فى جهات فلسطين و نزل الشماليون أولاً- جبل اللكام (امانوس) ثم انتشروا بمرور الأيام من الفرات الى حماة و حمص و من دمشق و تدمر الى كبدوكيا، و لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك. و لم يعرف شىء عن الحثيين الشماليين قبل أن يمر الرحالة بروكهارت بحماة سنة ١٨١٢ و يرى على جدار أزقتها خطوطا قديمة بالخط المسند المصرى أى الهيروغليفى تختلف عن الآثار المصرية و عثر على كثير من مثل هذه الآثار فى حماة و حمص و حلب و مرعش و كركميش و غيرها، و قد علم من سحنات الحثيين الشماليين على ما رسموا فى الآثار المصرية أنهم أقرب الى الرومان منهم الى سكان فلسطين و لون وجوههم أبيض ضارب الى الحمرة.

و من أقدم شعوب الشام شعب كان ينزل منذ الزمن الأطول فى السقى الأسفل من نهري الفرات و قزل ايرمق و يعتصم فى مضائق جبال طوروس، عرف عند اليونان باسم خيطايوس و عند العبران بخطى خطيم و عند الآشوريين بخاطى و عند المصريين بخاطى و عرفه المتأخرون بالحثيين، و هو شعب غير سامى مجهول اللسان. و أصل العبرانيين او اليهود سبط من الساميين الذين نزلوا من

جبال إرمينية الى سهول الفرات على عهد مملكة الكلدان

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩

الأولى و ضربوا نحو الغرب فجازوا الفرات فالبادية فالشام حتى انتهوا الى عبر الأردن وراء فينيقية. و تعرف هذه الأسباط بالعبرانيين يعنى أهل ما وراء النهر. قال هشام الكلبي: ما أخذ على غربى الفرات الى برة العرب يسمى العبر و اليه ينسب العبريون من اليهود لأنهم لم يكونوا عبروا الفرات حينئذ. و العبرانيون كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرقوا الأرض، و لا سكنوا الدور و المنازل، و قد دعيت ديارهم أرض الميعاد او أرض كنعان او فلسطين. و دعاها اليهود أرض إسرائيل ثم دعيت بعد اليهودية و دعاها أهل النصرانية الأرض المقدسة، و كان عدد الإسرائيليين أيام عزمهم ٧٠٠، ٦٠١ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطا.

الآراميون و العناصر الأخرى:

و بعد انقراض دولة الحثيين فى القرن الثامن قبل الميلاد عمّ اسم آرام هذه الديار فأصبح القسم الأكبر من سورية يسمى آراما و سكانها الآراميين و قد ورد اسم آرام فى التوراة مضافا عدة مرات مثل آرام رحوب و آرام معكة و آرام صوبا. و قيل إن إرم الواردة فى القرآن مضافة أيضا «إرم ذات العماد» هى دمشق بعينها. و للمفسرين فى ذلك أقوال كثيرة ليس هذا محل إيرادها. و فى الشام عناصر منوعة من نسل حام بن نوح و سام بن نوح و يافث بن نوح. أى إن فيها الدم الآرى و القافى (القافقاسى) و العربى و التركى و بعبارة أصرح فيها بقايا من الشعب الأشورى و البابلى و الكلدانى و الكنعانى و الفينيقى و العبرانى و الحثى و الفارسى و الرومانى و اليونانى و التترى و العربى. و كانت منذ عهد بنى إسرائيل موطن العصبية و فيها على رأى ابن خلدون قبائل فلسطين و كنعان و بنى عيصو و بنى مدين و بنى لوط و الروم و اليونان و العمالقة و اكريكش و النبط من جانب الجزيرة و الموصل ما لا يحصى كثرة و تنوعا فى العصبية، و لذلك يتعذر ردّ كل جنس الى جنسه اليوم بعد هذا التمازج الذى دام أكثر من

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠

ستين قرنا فى هذه البوتقة الجميلة مضافة الى الأصول التى كانت فيها من قبل و نعنى بهذه البوتقة الديار الشامية.

العناصر القديمة و العرب:

كل أمة عظيمة عرفت فى الشام طال عمرها بضعة قرون ثم فنت فى غيرها و أدغم الضعيف فى القوى و تمثل المغلوب فى الغالب مع توالى الأيام و الليالى. و هكذا يقال فى السريان و العبران و اليونان و الرومان. و يمكن أن يقال فى الجملة إنه كان فى الشام منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد شعوب كثيرة أهمهم الكنعانيون النازلون فى الجنوب و الوسط و الشمال و الآراميون، و ما وراء ذلك من الشمال يسكنه الحثيون. و لم تطل حياة عنصر فى صحه بالشام كما طالت حياة العرب فإنهم فيها على أصح الأقوال منذ زهاء الفين و خمسمائة سنة و أوصله بعضهم الى نحو أربعة آلاف سنة، و هم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة و استعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا و منزعا. و لذلك كان من المعقول أن يدلّ الشامى بعربيته أكثر من إدلّاه بفينيقيته و روميته و سريانيته و عبرانيته. و فى تاريخ فلسطين أن العرب دخلوا فلسطين قبل الإسلام بقرون. و الدليل أن نرحم سين ابن سرجون غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق. م. و صادف فى سينا حكومة عربية ثم حارب قبيلة معان العربية و أسر أميرها، و قد ظهر من آثار بابل ما يثبت ذلك. و منها أن سرجون الثانى غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة و أخضع قبائلهم و منها ثمود و مدين و مساكنهم شرقى الأردن و حارب عباديد و أخذ منهم طائفة و أسكنها فى السامرة. و لما جاء الإسكندر الى غزة و حاصرها كانت حاميتها عربا فقاومته أشد مقاومة، و منها أن أحد تلامذة المسيح بشر بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل، و منها أن الحارث حاكم دمشق كان عربيا لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته الى أهل مدينة كورنثوس، و منها أن تيطس لما جاء لفتح القدس كان معه الحارث ملك

العرب يقود فرقة عربية، و منها أن هر كانوس المكابي التجأ الى الحارث ملك العرب فأنجده و ساعده على أخيه
خطط الشام، ج ١، ص: ٢١

ارستوبولس، و منها أن فيلبس الروماني الذي صار امبراطورا في رومية سنة ٢٤٤ ب. م كان عربيا من بصرى فى حوران.
و الغالب أن فى العرب خاصية التمثيل إذا جاوروا شعبا قربه من مناحيهم و أدخلوا عليه لغتهم، و هم المادة العظمى التى ما زالت
تفيض على الشام. و أهل الوب و المدر أو البادية و الحضر منهم، من أصبر الأمم على الحروب و الأسفار الطويلة و الاكتفاء بميسور
العيش، لكنهم لا يصبرون على الضيم و الأذى. و لطالما غزوا من جزيرتهم العراق و فارس و الجزيرة و الشام، و لم يسمع أن حكمتهم
أمة و قد تمكنوا كما قال جويدى من غزو الأعداء، و لهم المفازة التى بينهم و بين العراق و الشام اى بادية الشام و النفود، و من هجم
عليهم فى ديارهم لم تدم سلطنته عليهم كملوك الأثوريين او رجع بالخيبة و الافتضاح كغالوس.

دول العرب الأقدمين:

كانت العرب تختلف الى الشام قبل الإسلام بقرون طويلة، قامت لهم فيها و فى جوارها دول عظيمة خلفت من آثارها ما دلّ على
عظمتها، فمنها دولة النبط و يغلب فى أسماء ملوك النبطيين اسم الحارث و عبادة و مالك و هم عرب من بقايا العمالقة، و العمالقة
قوم من عاد و هم القوم الجبارون فى الشام. و لم تخلف البتراء غير تدمر و أصل ملوكها من سلالة عربية أيضا.
و قد أبقت هاتان الدولتان من أصولهما و حاميتهما جندا كثيرا أصبحوا بعد من جملة سكان الشام و المادة الأولى للعربية فيه. قال
ناليو: النبط أو النبط فى اصطلاح العرب فى القرون الأولى للهجرة اسم أهل الحضر المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين فى الشام و
خصوصا فى الصقع الواقع ما بين النهرين، و ليسوا النبط أو الأنباط الذين اتسعت مملكتهم فى أرض الحجاز الشمالية الى حدود
فلسطين و نواحي دمشق.

سليح و غسان و الضجاعم:

و قد ذكر المؤرخون أن نزول العرب فى ديار الشام أقدم من ذلك

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢

بقرون فإن تكلت فلاسر أحد ملوك أشور غزا الشام مرارا من سنة ٧٤٣ الى ٧٣٢ ق. م. و أخضع فى خلال ذلك السامرة و دمشق و
صور و حماة و عرب البادية بين فلسطين و مصر و كانت عليهم يومئذ ملكة اسمها حبيبة.
و قيل: إن أول من دخل الشام من العرب سليح و هو من غسان- و غسان ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع و زبيد فى اليمن فنسبوا
اليه- و يقال من قضاة فدانت بالنصرانية و ملك عليها ملك الروم رجلا منهم يقال له النعمان بن عمرو بن مالك فلما خرج عمرو بن
عامر مزيقيا من اليمن فى ولده و قرابته و من تبعه من الأزد أتوا أرض عك فى اليمن ثم أرض الحجاز و صار منهم قوم الى الشام،
منهم آل جفنة ملوك الشام فكتب سليح الى قيصر يستأذنه فى إنزالهم فأذن لهم على شروط شرطها عليهم.
و بنو غسان فى الحقيقة حتى من الأزد على رواية المسعودى من القحطانية قال أبو عبيد: و هم بنو جفنة و الحارث و هو ثعلبة و العنقاء
و حارثة و مالك و كعب و خارجه و عون بن عمرو بن مزيقيا. و ذكر الحمداني أن فى البلقاء طائفة منهم و باليرموك الجم الغفير و
بحمص منهم جماعة. و حكم ملوك غسان حوران و البلقاء و الغوطه و حمص و دمشق. قال المسعودى: و كانت ديار ملوك غسان
باليرموك و الجولان و غيرهما بين غوطه دمشق و أعمالها، و منهم من نزل الأردن و قد أخرجت غسان من الشام سليحا و صاروا
ملوكها، و أول من ملك جفنة بن عمرو فقتل ملوك قضاة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعم أو الضجاعم و دانت له قضاة و
من بالشام من الروم و جميع ملوك جفنة من آل غسان اثنان و ثلثون ملكا لبثوا فى ملكهم ستمائة و ست عشرة سنة و قيل أربعمائة

سنة.

التنوخيون:

هذا فى الجنوب أما فى الشمال فقد نزل التنوخيون قبل الإسلام بقرون، و سموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، و التتنخ و التنوخ المقام، كانوا قبائل تتاخم منازلها مملكة الروم، فلما غزا ملك الفرس الروم، و أذرع فيهم القتل و السبى و خرب العمائر، أنفذ ملك الروم الى تنوخ يستنجدهم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣

على ملك الفرس فأنجدوه، و قاتلوا معه قتالا شديدا، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم لتظهر له طاعتهم و غناؤهم فأجابهم الى ذلك فقاتلوا الفرس و ظفروا بهم، فأعجب بهم ملك الروم و فرق فيهم الدنانير و الثياب و قزيهم و أدناهم و أقطعهم سوريه و ما جاورها من الأصقاع الى الجزيرة. و سوريه مدينه بقرب الأحص على جانب البريه. قال ابن العديم: هذا منتهى أمرهم فى الجاهليه.

و لم يعرف الزمن الذى كان فيه التنوخيون، و بعضهم يقول: إنهم كانوا فى أواخر القرن الثالث للمسيح و يقول المسعودى: إن قضاءه بن مالك بن حمير أول من نزل الشام و انضافوا الى ملوك الروم فملكوهم، بعد أن دخلوا فى دين النصرانيه، على من حوى الشام من العرب، فكان أول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان ابن عمرو، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان و لم يملك من تنوخ غيرهم.

ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ و تنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام. قال: و غلبت غسان على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب و إن من ملكته الروم من اليمن بالشام تنوخ و الضجاعم من سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاءه و غسان استكفاء بهم من يليهم من بادية العرب.

المهاجرات و الايطوريون:

و الغالب أن معظم مهاجرات العرب الى الشام كانت تقع عقب حوادث طبيعيه فى أرضهم من جفاف و طوفان و جدب و موتان، فيستهوهم بخصبه، و ينتجعون هناه العيش فى أريائه. و فى الأغاني لما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال: من كان منكم يريد الخمر و الخمير، و الأمر و التأمير، و الديقاج و الحرير، فليلحق ببصرى و الحفير، و هى من أرض الشام فكان الذين سكنوه غسان.

و من الدول العرييه التى اشتهرت زمن دخول الرومان الى سوريه دولة الايطوريين و معنى الايطوريين بالعبريه الجبليون، و هم شعب عربى جاءوا

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤

من ايتوره اى الجيدور شمالي حوران و اشتهروا برمى الشباب فاستولوا بمضائهم الحربى على جبل الشيخ (حرمون) و البقاع الى فينيقيه، و بعض أسماء الجنود الجيدوريين التى جاءت فى الكتابات اللاتينيه باللغه الآراميه و بعضها باللغه العرييه. قال دوسو: لم تكن هجره العرب الى سوريه مما ينسب لإدارة الرومان كما يظن بعضهم بل إن الأحوال قد سهلت طرقها فى ذاك العصر و ضمنت لهم رسوخ قدمها فى ظل السلام. فقد كانت مدينه حمص فى يد حكومه عرييه قبل وصول القائد بونيبوس الى سوريه و أن الأقبال الذين تولوا أمر تلك الديار لتطلق عليهم ألقاب عرييه صرفه، كما يفهم من آثار الصفا. و لما جاء الإسكندر الى الشام كان العرب يحتلون لبنان.

سليح و عاملة و قضاة:

و ممن يجب عدهم في المهاجرة الأول من العرب الى الشام سليح الذين أشرنا اليهم آنفا فقد قال البكري: سارت سليح بن عمرو بن الحاف ابن قضاة يقودها الحدرجان بن سلمة حتى نزلوا ناحية فلسطين على بنى أذينة بن السيميدع من عاملة و انتشر سائر قبائل قضاة في القطر، يطلبون المتسع في المعاش و يؤمون الأرياف و العمران، فوجدوا بلادا واسعة خالية في أطراف الشام قد خرب أكثرها، و اندفنت آبارها، و غارت مياهها، لإخراب بخت نصير لها، فافتقت قضاة فرقا أربعا ينضم الى الفرقة طوائف من غيرها يتبع الرجل أصهاره و أخواله فسار ضجعم ابن حماطة و لييد بن الحدرجان السليحي في جماعة من سليح و قبائل من قضاة الى أطراف الشام و مشارفها و ملك العرب يومئذ ظرب بن حسان بن أذينة ابن السيميدع بن هزبر العمليقي فانضموا اليه و صاروا معه فأنزلهم مناظر الشام بين البلقاء الى حوارين الى الزيتون (جبال فلسطين) فلم يزل ملوك العماليق يغزون معهم المغازي و يصيبون المغنم حتى صاروا مع الزباء بنت عمرو بن الظرب اللخمي و استولوا على الملك بعدها و ظلوا ملوكا حتى غلبتهم غسان على الملك، قال بعض آل سعد بن ملكيكر ب يذكر منازل

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥

من خرج من اليمن و قد ذكر غسان و قضاة و كلبا:

و غسان حتى عزمهم في سيوفهم كرام المساعي قد حووا أرض قيصر

و قد نزلت منا قضاة منزلا بعيدا فأمتت في بلاد الصنوبر

و كلب لها ما بين رملة عالج الى الحرّة الرجلاء من أرض تدمر

و عالج رمال معروفة في البادية، و الحرّة الرجلاء في ديار بنى القين في أطراف الشام بين حوران و تيماء، و الشاعر يقول إنها من أرض تدمر.

و في تاريخ الأمم الاسلامية: «إن الضجاعة ملوك اصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث و ليكونوا عدة على الفرس و ولوا منهم ملكا و من أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة».

لخم، جذام، عاملة، ذيبان، كلب:

ذكر الهمداني مساكن من تشاءم من العرب أي دخل الشام فقال أما مساكن لخم فهي متفرقة و أكثرها بين الرملة و مصر في الجفار و منها في الجولان و منها في حوران و البثية، و مدينة نوى، و بها خلف بن جبلة القصيري و ابن عزيز اللخمي مسكنه طرف جبال الشراء، و أما جذام فهي بين مدين الى تبوك فالى أذرح و منها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن الى اللجون و اليامون الى ناحية عكا، و أما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر، و أما ذيبان فهي من حد البياض بياض قرقره- و القرقره الأرض الملساء- و هو غائط- و الغائط كالغوطه المظمتن من الأرض- بين تيماء و حوران لا يخالطهم إلا طي و حاضرهم السواد و مرو و الحيات- و الحياتية كورة بالسواد من أرض دمشق و هي كورة جبل جرش قرب الغور- و أما كلب فمساكنها السماوة- و السماوة الأرض المستوية لا حجر بها و هي البادية بين الكوفة و الشام- و لا يخالط بطونها في السماوة أحد. و من كلب بأرض الغوطه عامر بن الحصين بن عليم و ابن رباب المعقل و من بنى الحارث بن كعب بيت يسكنون بالفلجة من أرض دمشق- و الفلجات في شعر حسان بالشام كالمشارف و المزالف بالعراق و المشارف جمع مشرف قرى قرب حوران منها بصرى.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦

جهينة، القين، بهراء، تنوخ:

ثم للخم و من يخالطها من كنانة ما حول الرملة الى نابلس و لهم ايضا ما جاز تبوك الى زغر- قرية بمشارف الشام- ثم البحيرة الميتة. و للخم أيضا الجولان و ما يليها من الأرجاء نوى و البثية و شقص من أرض حوران، و يخالطهم في هذه المواضع جهينة و ذبيان و من القين و عن أيسر جبال الشراء مدائن قوم لوط قال: و في الحياتيات و ما يليها ديار القين حيث كانت بقية من جدیس إخوة طسم، فإذا جرت جبل عامله تريد قصد دمشق و حمص و ما يليها فهي ديار غسان من آل جفنة و غيرهم، فإن تياسرت من حمص عن البحر الكبير و هو بحر الروم وقعت في أرض بهراء، ثم من أيسرهم مما يصل البحر تنوخ و هي ديار الفضيض سادة تنوخ و معكودهم (المقيم الملازم)، و منها اللاذقية على شاطئ البحر ثم تقع في نصارى و غير ذلك الى حد الفرات، و ما وقع في ديار كلب من القرى تدمر و سلمية و العاصمية و حمص و هي حميرية، و خلفها مما يلي العراق حماة و شيزر و كفر طاب لكانة من كلب.

إياد و طيء و كندة و حمير و عذرة و زبيد و همدان و يحصب و قيس:

يؤخذ مما قاله اليعقوبي أن أهل حماة قوم من يمن و الأغلب عليهم بهراء و تنوخ و صوران- كورة بحمص- و بها قوم من إياد، و أهل حمص جميعا يمن من طيء و كندة و حمير و كلب و همدان و غيرهم من البطون، و أهل التمه من أقاليم حمص كلب، و أهل سلمية من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي و مواليهم و أهل تدمر كلب، و تلمنس مساكن إياد (و تل منس حصن قرب المعرة)، و معرة النعمان أهلها تنوخ و أهل البارة بهراء و فامية عذرة و بهراء، و أهل مدينة شيزر قوم من كندة و مدينة كفر طاب و الأطميم، و هي مدينة قديمة و أهلها قوم من يمن، من سائر البطون و أكثرهم كندة و أهل اللاذقية قوم من يمن من سليح و زبيد و همدان و يحصب و غيرهم، و أهل مدينة جبله همدان، و بها قوم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧

من قيس و من إياد، و مدينة بانياس و أهلها أخلاط، و أهل مدينة انطربوس قوم من كندة.

قال: و كانت دمشق منازل ملوك غسان و الأغلب على أهلها أهل اليمن و بها قوم من قيس، و أهل الغوطه غسان و بطون من قيس و بها جماعة من قريش، و جبال و مدينتها عرندل- قرية من أرض الشراء- و أهلها قوم من غسان و من بلقين و غيرهم و مآب و زغر و أهلها أخلاط من الناس، و الشراء و مدينتها أذرح و أهلها موالي بني هاشم، و بها الحميمة منازل علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب و ولده.

و الجولان و مدينتها بانياس و أهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مرة، و بها نفر من أهل اليمن، و جبل سنير- اي لبنان الشرقي و يدخل فيه جبل قلمون و وادي التيم- و أهلها بنو ضبّه و بها قوم من كلب.

و اختلف الباحثون في الغسانيين إذا كانوا حكموا دمشق أم لم يحكموها و كون منازلهم كانت بجلق صحيح نقله ثقات العرب و ورد في شعر حسان و قال نولدكه: إن بني غسان لم يتولوا الحكم إلا على قبائل حوران و شرقي الأردن. و قد قال الأحنس بن شهاب من شعراء الجاهلية:

و غسان حتى عزهم في سواهم يجالدهم مقنب و كئيب

و بهراء حتى قد علمنا مكانهم لهم شرك حول الرصافة لاحب

معناه هم ملوك و لم يكونوا كثيرا، و كانت الروم توليهم و تقاتل عنهم فعزهم في غيرهم، و كانوا نزولا- على قوم من العرب. (و المقنب الجماعة و الشرك اللاحب الطرق المدمثة).

الفرس و الزط:

و بعلبك و أهلها قوم من الفرس، و فى أطرافها قوم من اليمن، و جبل الجليل و أهلها قوم من عاملة و لبنان و صيدا و بها قوم من قريش و من اليمن، و كورة عرقه - شرقى طرابلس - و لها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة و بها قوم من ربيعة من بنى حنيفه، و مدينة طرابلس و أهلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبى سفيان، كما نقل منهم الى جيبيل
خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨

و صيدا و بيروت. و قد نقل معاوية قوما من فرس بعلبك و حمص و أنطاكية الى سواحل الأردن و صور و عكا سنة ٤٢ و نقل من أساوره البصرة و الكوفة و فرس بعلبك و حمص الى أنطاكية جماعة. و الغالب أن الفرس عند دخول العرب المسلمين الى الشام كانوا أصحاب مكانة حتى جرى ذكرهم بالتنصيب فى العهد الذى أعطاه أبو عبيدة الى أهل بعلبك «رومها و فرسها و عربها». و قال البلاذرى: نقل معاوية فى سنة ٤٩ أو سنة خمسين الى السواحل قوما من زط البصرة و السبايجه و أنزل بعضهم أنطاكية، و كان الوليد بن عبد الملك نقل الى أنطاكية قوما من الزط السند. و كثرت هجرة الناس على اختلاف عناصرهم الى هذا القطر لأن قصبته أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية الكبرى.

الأخلاق و السامرة و جذام و عذرة و نهد و جرم و الأزدي:

و أهل مدينة طبرية قوم من الأشعرين هم الغالبون عليها، و أهل صور و عكا و قدس و بيسان و فحل و جرش و السواد أخلاق من العرب و العجم. و أهل الرملة أخلاق من العرب و العجم، و ذمتها سامرة، و أهل مدينة نابلس أخلاق من العرب و العجم و السامرة، و أهل كورة جبرين قوم من جذام، و أهل جند فلسطين أخلاق من العرب من لخم و جذام و عاملة و كنده و قيس و كنانة. و ذكر القلقشندى أن بنى كلب كانوا ينزلون فى الجاهلية دومة الجندل (الجوف) كما نزلوا تبوك و شيزر و حلب و بلادها، و فى تدمر و المناظر أقوام منهم، و من بنى عذرة أقوام بالشام، و كذلك من بنى نهد و فى غزة. جرم طيبى و للأزد بقايا فى زرع و بصرى، و لغسان بقايا بالبلقاء و اليرموك و حمص و هذا فى القرن الثامن للهجرة، و كان غسان و جذام و كلب و لخم و غيرهم من القبائل يعدون من المستعربة، كما قال ابن البطريق، استجلبهم هرقل لما سمع أن المسلمين فتحوا فلسطين و الأردن و صاروا الى البثينة. و لما وصل أبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام الى حاضر حلب و هو قريب منها جمع أصنافا من العرب من تنوخ و غيرهم، و كانوا أرسلوا الى خالد بن الوليد أنهم عرب و أنهم إنما حشروا مع الروم و لم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم و تركهم.
خطط الشام، ج ١، ص: ٢٩

قيس و يمن و إحصاء السكان:

رأينا فى ما تقدم من النقول أن كل إقليم بل كل بلد ناله حظ من نزول العرب فى أرجائه و ذلك قبل الإسلام و بعده: بها غرر القبائل من معدو قحطان و من سروات فهر و مجموع أصولهم يرجع الى قيس و يمن، و هم الذين كان يطلق عليهم اسم العشران. و كثيرا ما كانت تقع بينهم حروب أهلية تسيل فيها الدماء و ينادى فيها يا للثارات. انتشروا من الجنوب الى الشمال و دام ذلك الى العهد الأخير، و كانت بقايا هذه النعمة فى لبنان الى القرن الماضى فذثرت. و آخر حرب نشبت بين قيس و يمن الحرب التى وقعت فى قرية خربثة بفلسطين و الحرب التى نشبت فى قرية عين داره فى جبل لبنان سنة ١٧١٠ م.

و يتعذر الآن الحكم على أجيال العرب التى نزلت الشام لما طرأ على القطر من ضروب البلاء كالوباء و الجذب و الزلزال و الظلم و الجلاء. و قد ذكر لامنس أن العرب المسلمين لما انتهوا من أمر الجابية و عمواس و دابق اى لما فتحوا الشام برمتها أنشأوا ينزلون المدن و القرى و قد دخل منهم قبائل برمتها قدرها من مئة الى مائتى ألف و نظن هذا التقدير أقل من الحقيقة لأن المسجلين بديوان العطاء

في دمشق فقط كانوا في الصدر الأول خمسة و أربعين ألفا فما بالك بسائر من كان يجري عليه العطاء في البلدان الأخرى و غيرهم من التجار و أصحاب الزرع و الضرع؟ قال: فلو فرضنا أن نصفهم قتلوا في الحروب فيبقى النصف الآخر أمام السكان الأصليين و كانوا من أربعة الى خمسة ملايين، و كان في الشام على عهد الرومان نحو سبعة ملايين. و قال بعض الباحثين من الافرنج: إن الشام على عهد الإسكندر أي قبل المسيح بثلاثة قرون كان يسكنها عشرون مليوناً من البشر، و لما جاءت العرب في القرن السابع كان سكانها قد نقصوا حتى بلغوا عشرة ملايين و في عهدنا بلغ عددهم نحو سبعة ملايين.

المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارنة:

لقب أهل لبنان بالمردة أي العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٠

التعرض للعرب. و المردة هم المعروفون في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي عند معدن الزاج فيما بين بئاس و بوقه قرب أنطاكية و قد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعوانا لهم و عيوناً و مسالحي في جبل اللكام، و دخل معهم من كان في مدينتهم من تاجر و أجير و تابع من الأنباط من أهل القرى و من معهم في هذا الصلح فسموا الرواديف لأنهم تلوهم و ليسوا منهم. و كانوا يستقيمون للولاء مرة و يعوجون أخرى فيكاتيون الروم يمالئونهم على المسلمين. أخذ يوستينانوس ملك الروم اثني عشر الف مقاتل من المردة أو الجراجمة على رواية الدويهي إرضاء للخليفة عبد الملك الأموي. و أسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر في الأرض الخالية المجاورة منازل المردة في لبنان.

و كان المردة يعتدون على أبناء السبيل بين دمشق و بيروت. و لما جاء المنصور الى دمشق قدم عليه الأمير أرسلان بن مالك من المعرة و معه جماعة فشكوا اليه توالي القحط عليهم فأقطعهم جبال بيروت الخالية و عهد اليهم بحفظ الطريق فنزلوا في عشائرهم بحصن أبي الحبيش ثم نزلوا جبل المغيشة (ظهر البيدر) و منها امتدوا الى سن الفيل، و صارت بينهم و بين المردة وقائع. و في أوائل حكم العباسيين أخرج صالح بن علي قوماً من الأرمن و اللان ممن كانت الروم تسيروهم من إرمينية مع جائلقيهم و أسكنهم الشام، و من هذا اليوم امتنع ملوك الروم أن يسكنوا في سلطنتهم أحداً من الأرمن و لا سيما في المواضع القريبة من الثغور أي ثغور الشام أو بلاد قيليقية.

و في سنة ١٨٩ أرسل هرون الرشيد منشورا الى ثابت بن نصر الخزاعي أمير الثغور الشامية و مناشير أخرى الى باقي عمال الشام أن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان لتشتد قوة أمرائه. و مثل ذلك وقع منذ خمسة قرون، فهاجرت مئات من الأسر المسيحية في القرن الرابع عشر و بعده من حوران و ما إليها الى لبنان، و اعتصمت في معاقله و لا سيما بعد الفتح العثماني، و ذلك تفادياً من قوة الشيعة في تلك الديار، كما أن الموارنة انتقلوا من أرجاء حمص و جبل سنير و ظلوا ينتشرون في شمالي لبنان حتى وصلوا الى كسروان و المتن و الشوف و أقصى لبنان في جزين، كما انتقل الدرروز في

خطط الشام، ج ١، ص: ٣١

الأعصر الثلاثة الأخيرة من الشوف و وادي التيم و غيرهما الى جبل حوران الذي كان يسمى جبل الريان و جبل بني هلال أو امالدانوس و أصبحوا فيه الأكثرية المطلقة. و كما هاجر النصارى الشرقيون الى القدس من أرض البلقاء و عمان و عرفوا بالمشركيين و محلثهم بالمشاركة. و بهذا رأينا أن الهجرة من صقع الى صقع من أصقاع هذا القطر و الهجرة من القاصية و الهجرة الى القاصية لم تنقطع في الإسلام كما أنها كانت كذلك منذ جلاء بني إسرائيل الى بابل بل قبلها مما لم تبلغنا بالتفصيل أخباره.

التركمان و الأتراك و الأكراد و الشركس و غيرهم:

نزل التركمان على عهد دولة بني مرداس العربية في شمالي حلب، و سير الأتابك زنكي طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق الى الشام و أسكنهم في ولاية حلب و أمرهم بجهد الافرنج و ملكهم كل ما استنقذوه منهم جعله ملكا لهم. و لم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة. و أسكن صلاح الدين كثيرا من التركمان و الأكراد في لبنان و ساحله. و التركمان و الأكراد كثروا جدا في الشام على عهد الدولتين النورية و الصلاحية، و كان قسم عظيم من جند المسلمين إذ ذاك منهم، فتديروا الأقاليم و استعربوا. و لم تجيء دولة المماليك حتى كثر الشركاسة في هذه الديار و استعربوا هم و حكومتهم مع الزمن. و في عهد العثمانيين نزل قبائل من التركمان في بغراس (بيلان) و ما اليها و عادت هذه فتعربت بمن كان نزلها من الإسماعيلية العرب الذين أخضعوا لسلطانهم تلك الجبال، جبال اللكام و ما اليها.

جاء القرن الحادي عشر و في الشام كما قال كاتب جليبي أنواع الألسنة كالعربية و التركية و الكردية و الفارسية و الهندية و الأفغانية و السلطانية و هذا كله في دمشق قال: و هناك مغاربة و سريان و عرب، و في الإسكندرونة و طرابلس و صيدا و القدس اليونان و اللاتين و الطليان و الفرنسيون و الاسبان و الإنكليز و النمساويون و البولونيون و الروس و الموسكوف و القبط و الحبش و الأرمن و جميع طوائف النصرى اه.

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٢

و من أعظم شعوب أوروبا عراقية في هذه الديار البنادقة و البيزان و الجنوبيون و الطوسقانيون من أهل ايطاليا و كانت أهم تجارة البحر المتوسط في أيديهم من القرن الخامس الى القرن التاسع للهجرة و منهم من توالد في ديارنا و ملك الدور و التجارات الواسعة.

المهاجرون و المحدثون اليهود و الأرمن:

و في أواخر القرن الماضي جاء الشام قبائل كثيرة و جاليات مهمة من الطاغستان و البشناق و الششن و الشركس و المغاربة فنزلوا بعض القرى في فلسطين مثل قيسارية، و بعض بلاد الجنوب مثل عمان و عين صويلح و ناعور و وادي السير، و بعض القرى في إقليم الجولان و منها القنيطرة و ما اليها من القرى، و بعض قرى حمص و حلب، فلم يأت عليهم بطن حتى استعربوا محتفظين بلغاتهم الأصلية، كما استعرب من قبل التراكمه و الأكراد. و هناك بقايا من موظفي الترك سكنوا بعض مدن الشام على عهد العثمانيين و امتزجوا بأهلها و تعربوا.

و من أهم المهاجرين المتأخرين مهاجرو الصهيونيين من الإسرائيليين الى فلسطين، و أكثرهم ممن اضطهدوا في روسيا و بولونيا و رومانيا، و منهم من كانوا من العنصر الجرمانى و هؤلاء يتعاصون على التعرب و قد جعلوا من لغاتهم الأصلية و اللغة العبرية ألسنتهم المدنية و الدينية، و يقدرون الإسرائيليين عامة في فلسطين بنحو مليون و نصف مليون كان الألمان كثرتهم الغامرة، و قل عدد العرب فيها بعد أن طردهم اليهود من أرضهم و قدر عدد النازحين من المسلمين و النصرى بتسعمائة ألف تشردوا في الأقطار المجاورة، و ما ندرى هل يعلم أبناء إسرائيل العرب لسانهم أم يخضع العبرانيون بحكم الطبيعة الى التعرب بعد جيلين أو ثلاثة كما جرى في كل مكان و طنتها أقدام العرب. و كذلك يقال في مهاجرة الأرمن و الروم في الشام، فقد قذفت الحوادث الأخيرة في قيليقية و أزمير نيفا و مائة و ثمانين الف نسمة أكثرهم من الأرمن، نزلوا حلب و دمشق و بيروت و غيرها من البلدان الصغرى.

و قد عاد قسم عظيم منهم فجلا عن الديار الشامية، قصد بعضهم الى أمريكا

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٣

و الآخر الى مملكتهم الجديدة. و ما يدرنا أيضا إذا كان من نزلوا الشام يستعربون كما تترك أجدادهم في آسيا الصغرى. و أصبح الأرمنى و الرومى لا يعرف غير التركية يتكلم بها في داره و يفهم بها صلواته، أم يؤلفون كتلة جديدة في وسط هذا المجموع العربى الكبير.

عوامل النمو:

و لو لا- أن مضى على الشام الى قبيل الحرب العامه الأولى خمسون سنه و هو يرسل من أبنائه كل سنه الى اليمن زهاء عشرة آلاف مجند يهلك أكثرهم كما أكد لى الثقة لقلنا ما زالت جزيرة العرب الى اليوم ترسل الى الشام من أبنائها أناسا يسكنونها و يمتزجون بأهلها كأن هذه الجزيرة العظيمة بعض ولايات الشام تعطىها أكثر مما تأخذ منها كما تعطى المدن الصغيرة للعواصم و قلما تعطى هذه لغيرها من أعمالها. و لو لا اعتدال المناخ و الرضا بالدون من العيش و تعدد الزوجات فى الطبقة النازلة من الشعب و الاعتقاد بالقدر و ترك الأبيون المجال للتوالد لظهر عجز كبير فى عدد السكان خصوصا بعد أن منيت الشام بالهجرة على مقياس واسع و غفل عن العناية بالأسباب الصحية. و الأمم يكثر سوادها على قول سكريتان بأربعة عوامل و هى الهجرة و الاستيطان و الولادات و الوفيات و بنقيضها تقفر الأرض و يقل ساكنوها. و قد كان أبناء الشام منذ عهد الدولة الرومانية فى كل مكان كما تراهم الآن و كان منهم فى جيش جرمانيكوس القائد الرومانى عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين. و البشر فى فطرتهم التنقل و للسلطان الأرسى و السلطان الطبيعى آثار فى ذلك مسطورة مشهورة.

العرب فى الشام و الاختلاط:

و ما زالت الى اليوم سحنات بعض سكان الأصقاع الشاميه كحوران و البلقاء تنم عن أصول عربية صرفه على ما نرى ذلك ماثلا فى الطوائف التى

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٤

احتفظت بأسبابها العربية و لم يدخلها دم جديد كسكان الشوف و وادى التيم و جبل حوران و جبال الكلبية. و ما طول القامات و اتساع الصدور و متانه العضلات و الجملة العصبية و الأدمغة فى الأفراد إلا أدله ناصعه على ما ورثه الشاميون من الدم العربى. و فى الشام جميع الأمزجة يكثر الدمويون مثلا فى داخل القطر كالقدس و نابلس و صفد و دمشق و حمص و حماه و حلب و أنطاكية، كما يكثر الصفراويون العصبيون فى يافا و حيفا و صيدا و بيروت و طرابلس و اللاذقية و الإسكندرونه من مدن الساحل. و إن ما فى تركيب أدمغة السورين من أشكال الرؤوس كالشكل البيضى المستطيل المعروف عند الافرنج ب (Dolichocephale) الشكل المدور المنبسط المعروف ب (Brachycephale) ليدل كل الدلالة على مبلغ الشاميين من الذكاء و المضاء فقد قال فوليه: إن اتساع الجبهة يشعر باستعداد الحواس العقلية، و امتداد القذال ينم عن استعداد للشهوات الجسميه.

و فى وجوه السورين تقرأ بعض أصولهم القديمه و ما امتزجت به من الدم الحديث فسود الشعور و العيون و البشرة إجمالا هم من أصل عربى، و شقر الشعور و زرق العيون و بيض البشرة فيهم الدم القافقاسى. و فى تراكيبيهم دم العبيد و الزوج كما فيهم دم العرق الأبيض. قال جلابرت:

إذا فحصت الصور المكتشفه فى صيدا تحققت أنه كان يدخل فى خدمه السلوقيين رجال من كل فج و صوب، منهم يونان كأهل لقديمونه و اقريطش، و منهم آسياويون كأهل قاربه و بيسيديه و ليقيه و ليديه، و إن العقل ليحار باختلاط كل هذه الجنسيات فى جيوش السلوقيين.

و سكان الحولة و أريحا و الغور و يقال لهم الموارنة لا يشبهون بالطبع سكان اللبانيين الغربى و الشرقى و جبال اللكام لمكان الهواء و اختلاف البعد و القرب عن سطح البحر. و ابن صفاف العاصى و بردى ليس فى طبيعته كالنازل على ضفاف الأردن و الفرات. و الاختلاف ما بين من نزل البطون و بين من نزل الحزون و بين من نزل النجود و بين من نزل الأغوار مشهود فى كل أمه، و مع هذا تساوى سكان هذا القطر من حيث الجملة كما قال الجاحظ فى العرب: «فى التربة و فى اللغه و الشمائل، و فى الأنفه و الحميه،

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٥

و فى الأخلاق و السجىة، فسبكوا سبكا واحدا، و أفرغوا إفرغا واحدا، و كان القلب واحدا، تشابهت الأجزاء و تناسبت الأخلاط حتى صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم و الأخص و فى باب الوفاق و المباينة من بعض الأرحام.» و بعد فإن من نراهم من أبناء الشام على اختلاف أرجائه و هوائه هم سلاله أولئك الجدود ظهوروا على الزمن بمظهر آخر فكانوا كأبدع الفسيفساء فى الرقعة الجميلة.

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٦

لغات الشام

اللغة الآرامية و السريانية و العبرانية و الفينيقية و العربية:

اللغات التى انتشرت فى الشام قبل الإسلام كثيرة أهمها اللغات السامية أخوات اللغة العربية و هى السريانية و العبرانية و الفينيقية. و قد قسم جويدى أهل اللغات السامية الى قسمين أكبرين شرقى و هم أهل أثور أى أهل بابل و آشور، و غربى و هو إما شمالى و إما جنوبى، فأما الشمالى منهما فينقسم قسمين كبيرين أحدهما الكنعانى و يشمل العبرانى و الفينيقى و غيرهما و الآخر آرامى. و أما الجنوبى فهو نوعان النوع الأول العربية المعهودة أى لغة القبائل التى سكنت النواحي الشمالية من جزيرة العرب، و النوع الثانى عربية القبائل الجنوبية كسبى و حمير و يشبه هذا النوع لغة الحبش القديمة. و قد يسمى النوع الأول لسان العرب المستعربة و يسمى النوع الثانى لسان العرب العاربة. فالعبرانية من لغات كنعان و من اللغات الكنعانية لغة موآب و من لغات الكنعانيين لغة الفينيقيين و قال: إن اللسان الآرامى هو النوع الثانى من القسم الشمالى فى اللغات السامية، و فى هذا اللسان قسمان أحدهما غربى و هو لسان اليهود المتخلفين فى فلسطين و فى مصر و هو لسان عدة أمم كالسامرة

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٧

و النبط و أهل تدمر، و القسم الثانى شرقى و هو لسان اليهود فى بابل و لسان السريان و غيرهم. قال: و من اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية و كان الأنباط أمة عربية الأصل و لغتهم المأنوسة العربية فى التكلم و المحاوره بين الناس.

و الأحرف الهجائية لم تكن معروفة عند العرب.

البابلية و الكنعانية و الكلدانية:

كان أهل الشام منذ الزمن الأطول قبائل سامية من البابليين و لم يزل يهاجر إليها أجيال من الناس سموا الكنعانيين فغلب الكنعانيون البابليين، و باللغة البابلية كتبت رسائل تل العمارنة التى وجدت فى مصر سنة ١٨٨٨ م و هى رسائل صدرت عن عمال الشام الى ملوك مصر قبل موسى و هارون فاستدل علماء الإفرنج أن اللغة البابلية كانت فى ذلك العهد لغة الحكومة بين الدول الراقية، و ارتأى بعضهم أن الشام كانت تتكلم إذ ذاك بالبابلية، و كان اللسان الكنعانى أخذ يمتزج بلغة بابل، فتغلب بفرعيه العبرانى و الفينيقى على لغة آشور و بابل. و كان الكلدانيون يتكلمون بالآرامية على رأى بوست وفقا لعادة ديوان الحكومة و لكنها لم تكن لغتهم الخاصة و لا العلمية، أما لغة الكلدانيين الأصلية فالكلدانية القديمة و هى لغة أكد، و قد استعملها سكان بابل الأصليين إلا أنها كانت على و شك الاضمحلال فى زمن بخت نصر و قد هجرتها الألسنة لذلك الحين، و كان ظهور اللغة المسماة الآن بالسريانية فى القرن الثانى بعد المسيح و هجر أهلها استعمالها نحو القرن الثانى عشر.

الحثية و الآرية و اليونانية و اللاتينية:

أما اللغة الحثية فكانت على قول كروفرد في القرن الرابع عشر و الثالث عشر قبل التاريخ المسيحي لغة مستعملة من اللغات الهندية الأوروبية أى اللغات الأوروبية المشابهة للاتينية و الآرية الايرانية و الارمنية، و أن الحثيين أنفسهم من سلالة آرية أوروبية، و لكن امتزج بهم مع الزمن دم من خطط الشام، ج ١، ص: ٣٨

غير الدم الآري الأوروبي أى إن الحثيين من أصل غير سامى و لم تنتشر لغتهم كما قال حتى بين العامة و لم يتوفق الباحثون الى حل رموزها حتى الآن. فاللغة البابلية كانت منتشرة فى الشام منذ زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح، ثم تغلبت الكنعانية التى تشمل العبرانية و الفينيقية، ثم تغلبت الآرامية على الكنعانية و هما متشابهتان. و لما صار الأمر الى الفرس بعد البابليين فى الشام بقيت اللغة الآرامية اللغة الرسمية.

و فى دولة الروم السلوقية بث خلفاء الإسكندر المدنية اليونانية فى سكان سواحل البحر المتوسط، و كانت مع هذا الى ضعف و لا سيما فى لبنان إذ دام أهله على استعمال الآرامية ممزوجة باللغة الفينيقية، و كانت اليونانية اللغة الرسمية و لغة العلماء على عهد الروم و الرومان أيضا منتشرة فى كثير من الأرجاء. و كانت مدرسة الفقه فى بيروت تدرس باللاتينية مدة أربعة قرون. و لكن اليونانية على تأصلها بالنسبة للاتينية لم تشع فى العامة.

و لما استولى الإيظوريون على لبنان لم يغيروا شيئا من لغته و لا شك فى أن لغتهم كانت العربية الآرامية. أما النبط و هم من أقارب الإيظوريين و جيرتهم فإن لغتهم لم تكن سوى لغة آرامية.

و ذكر أحد الباحثين أن الرومان لما جاءوا الشام و استعمروه انتشرت اللغة اليونانية فى المراكز الكبرى حتى نسي كثيرون اللغة الفينيقية و اللغة الآرامية و لا سيما فى طبقة الأشراف و أصحاب الثروة، و بقيت اللغة اللاتينية لغة الحكومة، و حافظ العامة على اللغة الفينيقية و السريانية، و كان الفقهاء يكتبون باللاتينية لغة الفقه و القضاء، و الأدباء و الفلاسفة باليونانية، و هى اللهجة العامة فى الشرق، و اللغة الآرامية هى اللغة الرسمية فى دولة تدمر. و ظل الشاميون يتكلمون اليونانية على عهد انتشار النصرانية و كذلك عمال الحكومة و رجال القضاء، و كان الآراميون او الأنباط، كما كان يسميهم العرب، فى كل محل ما عدا المدن التى كانت مزيجا من عناصر مختلفة.

تنازع السريانية مع العربية:

كانت السريانية لغة عامة فى الشام لم تدر إلا بتملك الرومان على

خطط الشام، ج ١، ص: ٣٩

الشرق و نشرهم لغتهم فيه، فدر مجد السريانية و لم يبق إلا القليل حتى جاء الإسلام و أدخل العربية. و كانت السريانية على عهد المسيح اللغة العامة فى سورية و فلسطين ممزوجة بقليل من العربية. و رأى دى فوكويه أن جميع الكتابات التى وفق العلماء الى اكتشافها لا تتجاوز القرن الأول قبل الميلاد و اللغة التى كان شعوب سورية يتكلمون بها إلا ما ندر هى اللغة الآرامية و جميع الكتابات التى عثروا عليها فى تدمر و حوران و أرض النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية. و اللغة التدمرية و اللغة اليونانية هما الغالبتان على الكتابات المكتشفة فى تدمر. و كانت اللغة اليونانية بمنزلة اللغة الرسمية فى جميع الأقاليم الشرقية الخاضعة لدولة الرومان. و أما لسان أهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية. و قال بعضهم: إن التدمرية من اللغات الآرية الغربية تشبه النبطية و فى بعض هذه الكتابات اسم ملكهم أذينة.

و من اللغات الكنعانية لغة موآب فى شرقى فلسطين. و فى متحف باريز كتابه قديمة فى هذه اللغة وضعها ملك اسمه ميشع يذكر فيها حروبه مع عمرى ملك الأسباط (أسباط بنى إسرائيل) و يقال لهم فى كتب العرب ملوك الأسباط.

رأى رنان:

و ذكر رنان أن الفينيقيين كانوا الواسطة الوحيدة بين العنصر السامى و سائر العالم، و كثيرا ما عرفوا بأنهم اخترعوا أمورا ما كانوا فيها إلا-نقله. و ما الفينيقيون سوى سماسرة مدينة كانت بابل مقرها، و ظاهر الحال يدعو الى الاعتقاد بأن بابل التي علّمت العالم أصول المقاييس و الموازين قد اخترعت حروف ألف باء مركبة من اثنين و عشرين حرفا. قال:

و كانت اللغة العبرية لغة الشعوب فى فلسطين عند ما دخل بنو إسرائيل الى الشام و قد ذكرت أسماء الشعوب المذكورة فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين بجلاء و وضوح الأعمم المجاورة لفلسطين، و جعلت اسم كنعان رابطة من روابط القربى بين جميع شعوب الساحل و لبنان، من مدينة حماة و أرواد فى الشمال الى جرار (فى فلسطين) و البحيرة المنتنة فى الجنوب،

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٠

و هم مجموعة الشعوب التى كان اليونان يطلقون عليهم اسم الفينيقيين.

آراء أخرى:

و ذكر يوسف داود أن لسان أهل فلسطين و لا سيما أورشليم فى عصر المسيح الآرامى أى السريانية، فكانت اليونانية لغة أجنبية يتكلم بها كثير من الغرباء النازلين فى الشام و هى لغة الحكام و الحكومة فى عهد تلك الدولة.

و كثيرا ما كانوا يكتبون بعض المقدسات على ذاك الدور بالعبرانى او السريانى و اللاتينى و اليونانى، و كان يحرم على اليهود فى فلسطين و لا سيما الرجال أن يتعلموا اللغة اليونانية و يباح للنساء تعلمها من باب التزين الجائر لهن. قلت: و هذا من التحكمات الباردة مثل الأمر الصادر عن أحد خلفاء بنى العباس من أخذ أهل الذمة بتعلم اللغة السريانية و العبرانية و ترك العربية و لكن أمره لم ينفذ لأنه غير معقول.

و قيل: إن الآرامية كانت لغة العامة فى عهد المملكة الأشورية و أن الأشورية اللغة الرسمية، و كان الموظفون فى العهد البيزنطى القادمون الى الشام يعتمدون على التراجمة مع الأهلين المتكلمين بالآرامية. و لما انقضى العصر البابلى الأشورى حلت اللغة الآرامية محل البابلية فى السياسة و التجارة، و أصبحت اللغة الرسمية لمملوك فارس و آرام و تدمر و البتراء. و كانت اللغة الفينيقية تختلف عن السريانية فى القرن الأول قبل الميلاد ثم تمازجتا حتى أصبحتا شيئا واحدا، و كانت اللهجة العامة عند يهود فلسطين و هى أقرب الى الآرامية منها الى العبرية، يطلق عليها بين اليهود أنفسهم اسم اللغة العبرية و هى تختلف عن لغتهم المقدسة. و ذكر رنان أن اللغة السريانية الكلدانية كانت أكثر اللغات انتشارا فى أرض الجليل و أن المسيح كان يتحدث بها الى الناس، و أن الأناجيل كتبت لأول أمرها باليونانية و أصبحت هذه فى الشام لغة عامة و لغة علم، و كان من نتائج ذلك دخول الألفاظ اليونانية فى اللغة السريانية بكثرة زائدة حتى إن اللغة اللاتينية لم يكن لها تأثير البتة بين الشعوب لسامية، فمن القواعد العامة أن الفتح الرومانى لم يستطع أن يقضى على استعمال اللغة اليونانية فى القطر و قد رآها متأصلة فيه،

خطط الشام، ج ١، ص: ٤١

على حين كانت اللغة اللاتينية تنتشر فى أرجاء الغرب انتشارا هائلا.

و بعد انقراض دولة الحثيين فى القرن الثامن قبل الميلاد عم اسم آرام بلاد الشام، فأصبح القسم الأكبر منها يسمى آرام، و سكانها يدعون بالآراميين و هم الذين اختطوا حلب أو حلبون و عادت اللغة الآرامية الى شيوعها فى جهات حلب تمازجها اللهجة البابلية بدليل ما يشاهد فى أرجائها من أعلام الأمكنة التى ما زالت تلفظ على أصلها بالفتح الى اليوم، و سادت اللغة اليونانية بظهور الدولة السلوقية و كانت لغة الخاصة و العلماء و رجال الدولة.

و لما تقلص ظلها عادت السريانية الى ازدهارها يخالطها فرعها التدمرى الذى انتشر إذ ذاك فى سورية الشمالية على عهد سيادة تدمر

في صدر النصرانية.

و من الأقلام التي بقيت في لبنان الكتابة الكرشونية و هي عربية بأحرف سريانية و قد كتب كثير من كتب الموارد بالكرشوني.

انتشار العربية:

هذا ما كان من أمر اللغات السامية و اللاتينية و اليونانية في الشام. أما اللغة العربية فكان يتكلم بها قبل الفتح الإسلامي بزمان طويل لما ثبت من انتشار الغسانيين و التنوخيين و النبطيين و السبأيين و غيرهم في الشمال و الجنوب و كانت حوران و البلقاء و الشراء من الأصقاع التي سبقت غيرها في هذه السبيل. بدليل ما يشاهد من أسماء بعض قراها العربية مثل جرش، جاسم، تبنه، أذرعات، أذرع، محجة، السويداء، البتراء، نجران، القسطل، القناطر، الحفير، الخ و ذلك لأن هذه الأقاليم الثلاثة كانت أقرب الى الاتصال بالعرب من الجنوب. و كان السابقين الى نشر العربية في ديارنا الوثنيون من العرب أولا ثم نصارى العرب و يرجع اليهم الفضل في نشرها باديء الأمر، فلم تلبث اللغة ستين أو سبعين سنة للفتح الإسلامي أن عم انتشارها في الشام و نقلت الدواوين زمن عبد الملك من اليونانية الى العربية و نازعت اللغة العربية السريانية فبذتها على صورة مدهشة، و إن كان الضعف قد دب في هذه قبل الإسلام. و تغلبت العربية لغناها و سلاستها و ضبط قواعدها و شدة احتياج الناس إليها في مصالحهم. قال ابن خلدون: و لما

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٢

هجر الدين اللغات الأعجمية و كان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان و على دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام و طاعة العرب. و هجر الأمم لغاتهم و ألسنتهم في جميع الأمصار و الممالك و صار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم و صارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها و غريبة اه.

العربية لغة كاملة و فصاحة الشام:

يقول رنان: من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، و صعب حل سره، انتشار اللغة العربية. فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء بدء فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسلة غنية و أي غنى، متقنة بحيث أنها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة و لا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة، و لا أدري إذا كان وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض دون أن تدخل في أطوار و أدوار مختلفة. قال:

و ما عهدت فتوح قط أعظم من انبساط ظلّ العربية و لا أشد سرعة منها، فإن العربية و لا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم، لم ينازعها الشرف في كونها لغة عامة أو لسان فكر ديني أو سياسى أسمى من اختلافات العناصر إلا لغتان اللاتينية و اليونانية، و لكن أين مجال هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عم انتشار اللغة العربية فيها.

قلنا: و ربما ذهب الشام بفضل هذا الشرف الأعظم، و لعله سبق العراق و مصر في الأخذ بمذاهب العرب. لقرب أهلها من خطط العرب و لا سيما أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم، حتى إن كتاب الدولة الأموية استعملوا من الألفاظ العربية الفحلة و المتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية، لأن كتاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب و لغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها.

و ليست استفاضة لغة العرب في العراق كاستفاضةها في أرض الحجاز و الشام. و قال اليزه ركولو: إن أهل دمشق أكثر السوريين عراقية في

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٣

العربية و ذلك لعلاقتهم المتصلة بالتجارة مع مكة و اللهجة العربية فيها أجمل من سائر لهجات الشام. و كان محمد عبده يقول: إن

الفصح في لغة الشام أوفر مما هي في لهجة مصر.

كيف انتشرت العربية:

و إذا أردنا استقراء الطرق في نشر العربية في الشام لم نرها حاربت لغة القطر الأصلية على رسوخها فيها، بل سارت في نشرها سير تعقل، و راعي دعائها سنن الطبيعة و النشوء، و عملت قاعدة الانتخاب الطبيعي عملها في اللغة كما عملت في العناصر، فبقى ما هو مفيد للناس في مصالحهم على اختلاف نحلهم و مللهم. و منذ عدل في القرن الأول عن اللغة الرومية في الدواوين لم تبرح جميع الحكومات التي تعاقبت على هذه الديار تستعمل اللغة العربية في مفاوضاتها و سجلاتها، على أن منها الكردي و التركي و الشركسي إلا الدولة العثمانية في آخر عهدها فإنها ألغت الديوان العربي من مراكز الحكومات السورية و الفلسطينية و اكتفت بالدواوين التركية، و على كثرة عنايتها بلغتها في الثمانين سنة الأخيرة لم توفق الى نشرها إلا بين الموظفين فقط، فكان شأنها هنا شأنها في رومانيا و صربيا و بلغاريا و يونان و البانيا، أمتد سلطانها عليها قرونا و مع هذا لم تستطع نشر لغتها بين سكانها اللهم إلا- بعض ألفاظ شاعت في المصطلحات اليومية. و العرب أجدر من غيرهم بأن يحرصوا على لسانهم و هو لسان مدنية و دين معاً، و أن لا يتخذوا عنه بديلاً و هو متأصل في هذه الديار قبل الإسلام.

اللغة الصفوية:

الى الجنوب الشرقي من دمشق في مدخل بادية الشام حول الصقع البركاني المسمى بالصفاء، يعثر الباحث على كتابات كثيرة زبرت على الصخر البركاني و الشعب الذي خط هذه الكتابات في القرون الأولى للميلاد هو من أصل عربي، و لغته من اللهجات العربية، و خطه من فصيلة خطوط ديار العرب الجنوبية. و بفضل هذه الكتابات تعرف إحدى اللغات التي كان

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٤

يتكلم بها في بادية الشام قبل الإسلام، و نقف على مقام رحالة من العرب كانوا على و شك أن ينتقلوا الى اتخاذ البيوت و عيش الحضارة في الشام.

أما الصفويون فلم يكونوا أول من قصد الى أرض الميعاد و لا آخرهم، بل هم وحدهم الذين عرفناهم قبل أن يتحولوا تحولا كليا أي عند ما كان لهم لسانهم و خطهم و أربابهم و عاداتهم. فمن الخطأ الاعتقاد بأن دخول العناصر العربية الى الشام يرجع فقط الى الفتح الإسلامي و اختراق المسلمين صفوف الروم في وقعة اليرموك و مهاجرتهم الشام، ثم انتشارهم في الشرق حتى أواسط آسيا، و في الغرب حتى أقاصى شمالي إفريقيا ثم الى اسبانيا. هذا الهجوم قد دل على بلوغ دولة العرب غاية مجدها، فإذا ظهر أن الفتح الإسلامي قد كان من الحوادث الشاذة فهو في الحقيقة نتيجة حركة عادية طبيعية نشأت من اختلاط العرب على الدوام بسكان الحضرة و دخولهم أصقاعهم، هذا رأى دوسو و قال: لا ينبغي أن يفهم من لفظة العرب سكان جزيرة العرب فقط بل إنه يتناول أهل الظعن الذين يطوفون أواسط جزيرة العرب و شمالها و جميع بادية الشام.

الصليبيون و لغاتهم و العربية و لبنان:

و ما برحت العربية تتأصل القرن بعد القرن في هذا القطر، حتى كانت الحروب الصليبية فحشى عليها أن تنازعها الأولية لغات الصليبيين، خصوصا بعد أن طال مقامهم في أنطاكية و الساحل نحو قرنين يتكلمون بلهجات مختلفة أهمها الطليانية و الافرنسية. بيد أن اللغة الفرنسية كانت لغة جميع الغربيين النازلين في الشرق، و كان معظم فرسان الصليبيين من الفرنسيين و منهم جميع الأسر الحاكمة في الشام، على أن بعض أمراء الإفرنج من الصليبيين كانوا تعلموا اللغة العربية و منهم صاحب قلعة الشقيف، و جاء منهم من ضرب

النقود بالعربية مثل أصحاب عكا و صور و بيروت و طرابلس و رسموا عليها حروفا كوفية على شبه النقود الإسلامية، مع رموز نصرانية كالصليب و آيات من الكتاب المقدس. و أصبح نساؤهم ينتقبن كالمسلمات و يلبسن ثياب المسلمات مثلما كان رجالهن يلبسون ثياب الوطنيين.

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٥

ثم إن بعض أنحاء لبنان قد تأخرت في التعرب بجملتها حتى القرن الرابع عشر للميلاد فيما قيل، و قلّ انتشار العربية في أعالي لبنان و ظلّ السكان في عدة قرى يتكلمون بالسريانية و ذلك لقلّة المخطوطات العربية و لا سيما بين الموارنة. و كان أهل بشرى و حصرون و القرى المجاورة لهما الى قبيل مئة سنة يتكلمون بالسريانية، كما بقيت الى اليوم ثلاث قرى في جبل قلمون أى سنير و هى جبعدين و معلولا و بخعة يتكلم المسلمون من أهلها و المسيحيون مع العربية باللغة السريانية، و سريانيتهم أفصح من السريانية العامة اليوم فى آثار و الجزيرة و العراق على ما قاله العارفون.

اللغة التركية:

و بينا كان جبل لبنان الشرقى و الغربى يحفظان فى مغاورهما بقايا اللغة السريانية التى انحصرت فى الأديار و البيع، بعد أن انهزمت أمام العربية، كانت بعض أرجاء جبال اللكام و ما اليها تؤوى من اللغات اللغة التركية او التركمانية. و عند ما رحل الأشرف قايتباى سنة ٨٨٢ ه من مصر الى أقصى الشام كان الأهلون من اللادقية الى البيرة (بيرهجك) يتكلمون بالتركية.

قال مؤلف رحلته: و أهل البيرة يتحدثون بالعربى اللطيف أكثر من التركى بخلاف ما تقدم من البلاد، فإنه من حين توجهنا من اللادقية و الى البيرة لم يكن كلامهم إلا التركى.

و لم نعرف العهد الذى انتشرت فيه التركية فى الحدود الشمالية من الشام معرفة أكيدة، و المتكلمون بالعربية فى بعض الجهات أكثر من المتكلمين بالتركية. و من شأن أقاليم التخوم على الأغلب أن تتكلم بلغتين و منهم من يتكلم بثلاث. و نزول الأتراك فى جزء صغير من شمالى الشام أقدم من زمن العثمانيين و ربما كانوا من زمن السلجوقيين و الأتابكيين. و مدينة حلب برزخ بين الديار العربية و الديار التركية. و على نحو أربعين كيلومترا من شمالى حلب يقلّ المتكلمون بالعربية و تصبح الأقاليم الى التركية أقرب و تتكلم بعض قرى كليس بالعربية و التركية و الكردية، و جميع السكان عرب من شرق حلب و غربها، ما عدا بعض قرى من عمل حارم فسكانها من

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٦

الشركس. و سكان العمق أكراد. و فى قضاء الباب قليل من التركمان و الأتراك و الأكراد و الشركس. و أهل قضاء منبج شركس و فيهم عرب، و تغلب التركية على أهل عمل الإسكندرونه. و من أهل أنطاكية من يتكلم بالتركية و منهم من يتكلم بالعربية. فيصح أن يقال فيهم: إن تركيهم تعرب و عربيهم تترك. و بعض أهالى قضاء بيلان (بغراس) يتكلمون بالتركية و كذلك ناحية أردو، و العربية غالبه عليهم، يتكلم نحو نصف سكان مدينة أنطاكية بالتركية و لكن أصولهم عربية على الأكثر و ثمانون فى المئة من أهل عملها هم عرب لسانا و جنسا، و هكذا يقال فى بيلان و كليس و أردو، و لا يمكن أن نثبت بإحصاء صحيح أن الأتراك يؤلفون فى الشام كتلة واحدة و وسطا واحدا كما أن التركمان و الشراكسة و الطاغستان و الششن و البشناق و الأكراد و المغاربة لم يؤلفوا شيئا من ذلك، و تراهم يتمازجون كلهم بالبوقة العربية و يندمجون فى العرب. شأن سكان فرنسا و المانيا و ايطاليا و غيرها من الممالك التى كانت جامعها لسانها، و لا يزالون فى الحدود و أواسط القطر يتكلمون بغير لغة الدولة التى يظلم علمها.

السواد الأعظم و العربية:

ليست العبرة ببقعة مخصوصة وإنما هي بمجموع القطر الذي يراد أن تعزى إليه جنسية أو قومية معروفة وإلا فقد لزم من ذلك أن تعد ولاية أذنة اليوم أو جزء عظيم منها عربية لأن نحو مئة ألف من سكانها عرب بأصولهم، ولسانهم عربي على تأصل الدول التركية و التركمانية في صقعهم، و هم في بعض الأنحاء المتاخمة للشام من جبال اللكام يؤلفون أكثرية السكان.

و إذا كان يغلب على بعض سكان الجهة الشمالية من الشام التكلم بلغات متعددة فإن ذلك نتيجة طوارئ تاريخية و دولية، بل نتيجة حكم الغالب على المغلوب و ميل هذا الى التشبه بغالبه. و من الثابت أن سكان الحدود آخذون أنفسهم بحكم الضرورة بتعلم لغات السكان المجاورين ليتمكنوا من التفاهم و إياهم في المصالح المشتركة المتبادلة و لا سيما الاقتصادى منها كما هو المشاهد في كل مملكة من الممالك. و ما الترك في أنطاكية و إسكندرونه إلا مهاجرون

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٧

مثل مهاجرة السوريين في نيويورك و سان باولو و من يحاول أن يلبس أنطاكية و الإسكندرونه ثوبا تركيا هو كالواقف أمام البداة، و الأولى أن ينظر إذ ذاك الى عرب مرسين و طرسوس و يردوهما الى الشام. و ما هما من حيث الجغرافية و اللسان إلا شاميتان. و بعد فإذا أردنا أن نحصى المتكلمين فقط بغير اللغة العربية في الشام بحدوده الطبيعية لا نراهم يزيدون على ستمائة ألف من عناصر مختلفة وسط سكان يربى عددهم على سبعة ملايين.

و العربية مع هذا تأخذهم فتعربهم و أكثرتهم يهود ثم أرمن و سريان و الباقون مسلمون يرون تعلم العربية فرض عين عليهم أو نصارى من أصول عربية يحرصون على لغتهم كما يحرص المسلمون عليها.

رسوخ اللغة:

إذا عرفت هذا فقد ساغ لك أن تقول: إن اللغة العربية دخلت واسعة النطاق الى الشام من الجنوب منذ خمسة و عشرين الى ثلاثين قرنا و زادت بالإسلام رسوخا و انتشارا. و لم يمض القرن الأول حتى استعربت و امتزج العرب الفاتحون و المهاجرون بالسكان من السريان فأصبحوا أكثرية مع الزمن و غلبت على الكافة الصبغة العربية غلبة الانكليزية على أهل كندا و الولايات المتحدة الأميركية في القرون الأخيرة. و ما أهل كندا و أميركا الشمالية إلا مهاجرة من انكلترا و فرنسا و المانيا و ايطاليا و هولاندة و اسبانيا و المجر و روسيا و غيرهم من الأمم غدوا أمير كانا بقوميتهم انكليزا بلغتهم و منحاهم.

و ليس في الأرض فيما نعلم صقع تكوّن أهله من عنصر واحد و خلا من عناصر دخيلة امتزجت فيه، بل إن الأمم الكبرى في الغرب و هي خمس أمم أو ست مؤلفة من بضعة أجناس من الناس جمعتها لغة واحدة، و ليس عمر أقدم لسان من ألسنة العالم المتمدن اليوم أكثر من عشرة الى اثني عشر قرنا، على حين أن عمر العربية في الشام أكثر من ذلك بضعفين على أقل تقدير. و كلما دخل هذا الجسم جسم جديد تلقح به و أدغم في مجموعته فزاده قوة و مضاء.

لم ترسخ اللغتان اليونانية و اللاتينية في هذه الديار رسوخ السريانية أولا

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٨

و العربية ثانيا، و ذلك لأن اليونان و الرومان كانوا فيها مستعمرين و لم يكونوا من أهلها كما كان السريان. و من أجل هذا لم يؤثر حكم الروم و الرومان هنا على طول عهدهما في قلب لغة السكان، بل تعلمها بعض أفراد كما يتعلم بعضنا التركية و الفرنسية و الانكليزية و غيرها من اللغات التي حكم أهلها الشام أو كانت لنا بأربابها علاقة تجارية أو سياسية أو علمية، بل كما كان بعضهم يتعلم في القرن الماضي اللغة الطليانية لقله مدارسنا و مدارس الأمم الأخرى يومئذ.

الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط:

قلنا من محاضرة في سكان الشام و لغاته: مهما قيل في كثرة عدد المتكلمين بالفرنسية في بيروت و بالعبرية في القدس و بالتركية في حلب، و مهما اختلفت درجة العواطف من حيث حب العربية، فالبلاد عربية صرفه و السكان عرب مهما ضعفوا و ضعفت مشخصاتهم. و لا- ينسبون الى غير أهمهم و لا يدعون إلا لأبائهم. يقولون: إن من تعلم لغة قوم أحبهم فما أخرى أن يحب المرء أولاً أرضاً أنبتته، و أهلاً- تجمعوه و إياهم جامعة الوطن و الجنس و اللسان. نحن في الشام أمه واحدة مهما حاول المحاولون أن يجعلوا بيننا فروقا. و المذاهب ما كانت و لن تكون معياراً في هذا الباب. الماروني و الكاثوليكي و الأرثوذكسي و الإنجيلي و العلوي و الإسماعيلي و العبري و غيرهم تربطنا بهم رابطة أجمع من كل الروابط، رابطة المصلحة الواحدة و الوطن المشترك، و قرابة الجنس و أواصر اللغة. إن كنت أحب بيتي فما أولاني أن أحب سكانه. إن كنت لا أرى عدتي في شدتي، غير أمتي، فما أحراني أن أرى ذمامها، و أحمى مشخصاتها، و أول المشخصات في شعب هو لغته. و معظم الأمم الحديثة تكونت تحت رايتها، و سادت و شادت بتأثيرها. من اللغات يا قوم ما لا ينطق به أكثر من بضعة ملايين كالدانيمركية و السويدية و الفنلندية، مع هذا تجد بين أبنائها- من الصلات على اختلاف في المذهب- و من التناغي بحب قوميتهم ما لا يقل عن تغالي الانكليزي و الالمانى و الفرنسى و الطليانى

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٩

و السلافى بحب لغته و قوميته و هو ابن أمه عظيمه.

ليست العربية من اللغات الميتة حتى يزهد بعض أبنائها فيها. بل هي لغة سبعين مليوناً من البشر نازلين في أجمل أقطار الأرض في إفريقية و آسيا، و لسان ديني لثلاثمائة و خمسين مليوناً من المسلمين. و لسنا معاشر أهلها دون أرقى أمم الحضارة الحديثة بعقولنا و ذكائنا فتاريخنا موضع الدهشة على توالى الأحقاب، و إنا إذا عرانا بعض الضعف فقصرنا عن اللحاق بالسابقين، لا نلبث بتماسكنا و تفانينا بحب قوميتنا و لغتنا أن نساوى غيرنا قريباً. و كم من أمم عراها أكثر مما عرانا من ضعف الملكات، و ضياع المقدسات و المشخصات، فنفضت عنها غبار الخمول يوم صحت إرادتها على أن لا تموت بصنعها، و قامت تجادل و تجاليد في معترك المدينة فأنت بالعجب العجاب.

نحن أهل الشام أمه واحدة، و لا خير لأبناء الوطن الواحد إلا من أنفسهم. فقد نزع عنا منذ سبعين سنة الى أميركا و غيرها نحو مليون من أبنائنا و ما زلنا معاشر السواد الأعظم هنا نهتم لهم أكثر من اهتمامنا لأمه لا تربطنا بها جامعة اللسان و الجنس. و هم على شاكلتنا يهتمون ببلادهم و لغتهم و ما يقومها. و ما ننس لا ننس يوم كانت اللغة العربية يحفظ تراثها في الأعصر الأخيرة في بيع لبنان و أدياره، أكثر من حفظه في جوامع دمشق و حلب و مدارسهما، و يوم كان في اللبنانيين الغيورون على مجدها العالمون بما يصلحها الساعون الى نشرها.

لا يفلح قوم لا يتساندون. و كل شعب وضع قوميته في الذروة العليا من الكرامة يوقر و يبجل. و من لى يوم الكريهة غير حمى أخى و جارى ألجأ اليه. المرء كثير بأخيه، و لن تضام أمه عرفت نفسها. نحن عرب قبل أن نكون مسيحيين و مسلمين، نحن شاميون قبل أن نكون أمويين و عباسيين و سلجوقيين و عثمانيين.

سعادتنا مناط الاحتفاظ بأصولنا، و لا تمثلنا إلا قوميتنا، و أعظم قوة لها لغتنا، و السلام.

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٠

تاريخ الشام قبل الإسلام

أول شعب غزا الشام و الحثيون و الكنعانيون:

ذكر أهل الأخبار و السير أن الشام كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالأشجار، و لا سيما في اللبنانيين الغربي و الشرقي، فجاءها من بلاد

أشور رعاة نزلوا القسم الشمالي منها و ما زالوا يتقدمون في فتوحهم حتى بلغوا معظم سواحل الشام و استولوا على عكا. و انقسم هؤلاء الرعاة و اسمهم عمو أي الشعب الى قسمين: قسم أقام على تربية الماشية في السهول، و احترف القسم الآخر بالاحتطاب في الجبال، أو بالصيد على شواطئ البحر و ضفاف الأنهار، و قيل: إن ذلك كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد و لعله يرد الى أكثر من خمسة آلاف سنة، و لم يعرف من كان سكان القطر يومئذ.

و الغالب أن من أقدم الشعوب التي استولت على الشام الحثيين في الشمال و الكنعانيين في الجنوب. و الحثيون لم يعرف عنهم إلا أنهم كانوا وراء جبال طوروس بادية بدء يسكنون الحوض الأعلى من نهري الفرات و قزل ايرمق خضعوا أولا للكلدانيين، ثم توسعوا في ملكهم، و استولوا بقيادة ملكهم سابا لولو على الشمال، و امتدوا الى وادي العاصي فاستصفوه برمته، و بنوا مدنا مثل كركميش (جرابلس) على الفرات و قادم على العاصي، و ربما كانت مدينة حلب أيضا من بنائهم. و في رسائل تل العمارنة التي وجدت في صعيد مصر بيان واف في الجملة لحالة هذه الدولة الحثية

خطط الشام، ج ١، ص: ٥١

التي حاربت فراعنة مصر أربع عشرة سنة فلم يظفر بهم الفراعنة حتى جاء ستي الثاني فحاربهم و قهرهم.

كان الكنعانيون ينزلون في جنوب الشام و في وسطه. و نسبتهم لكنعان جد القبائل التي سكنت غربي الأردن، قتل الإسرائيليون أكثرهم و استعبدوا معظم من لم يقتل منهم. و كانت حدود أرض كنعان الأصلية من مدخل حماة شمالي لبنان الى البادية، و لم تمتد الى ساحل البحر لأن الفلسطينيين ما زالوا الى أن انقرضوا يسكنون ذلك الساحل، و قد سكن أرض كنعان عدة أسباط ورد ذكرهم في التوراة كالحثيين و اليبوسيين و الأموريين و الجرجاشيين و الحويين و الفرزيين و العرقين و السنينين و الارواديين و الصماريين و الحمانيين. و كان في أرض كنعان ١١٨ أو ١١٩ مدينة ورد ذكرها في جدول عثر عليه في هيكل الكرنك من صعيد مصر يظن أنها المدن التي افتتحها تحوتمس الثالث من ملوك الفراعنة قبل أيام يشوع.

و في معجم لاروس أن أرض كنعان أو بلاد كنعان يحدها من الغرب البحر المتوسط، و من الشرق نهر الأردن، و من الشمال خط آخذ من الأردن الى البحر، و من الجنوب خط يسير من البحر الميت الى البحر المتوسط.

و في التوراة أن المولى تعالى وعد بني إسرائيل بهذه الأرض و من ذلك جاء اسمها أرض الموعد. و في أسفار موسى و سفر يشوع أن بني إسرائيل استولوا دفعه واحدة على هذه الأرض بقيادة يشوع، و لكن تبين من الوثائق التي عثر عليها أن الأمر لم يكن كذلك و أن فتح أرض كنعان لم يكن بهذه السرعة تماما كاملا. على ما جاء في التوراة، فقد تمكن بنو إسرائيل من الاستقرار بصورة دائمة بالحرب و الحيلة على هذه الأرض التي كان يسكنها قبائل مستضعفة من اليبوسيين و الجرجاشيين و الفرزيين و غيرهم من أصل كنعاني أو أموري حتى خراب مملكة يهوذا على أيدي الكنعانيين في سنة ٥٨٨ ق.م.

تعدد الحكام و الحكومات:

و على كثرة عناية علماء النصرانية بتاريخ الأرض المقدسة أو فلسطين أو

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٢

أرض إسرائيل أو أرض الموعد لم يبرح تاريخها غامضا بعض الشيء لقللة المصادر التي يركن إليها و أكثرها أشبه بتقاليد و أساطير منها بتاريخ.

و هكذا يقال فيما عرف من تاريخ وسط هذا القطر و شماله في العهد القديم.

و كان أكثر إماراته مستقلا متعاديا شأن الشطر الجنوبي منها. و إذا لم تكن البلاد كما قال بوست تحت حكم القضاة و الملوك حكومة واحدة كثرت فيها التغيرات و تعددت القضاة كشمشون و جدعون و يفتاح الى أن اجتمعت كلمة شعب إسرائيل على إقامة

ملك، و لما انقضى ملك سليمان و قام ابنه رحبعام انقسمت المملكة الى مملكتين مملكة إسرائيل و مملكة يهوذا، و بعد أن تقلبت الأحوال على هاتين المملكتين أخذتا بالانحطاط الى أن سبى الأشوريون الإسرائيليين و البابليون يهوذا. و جملة الزمن الذى مضى من ملك داود الى سبى بابل نحو خمسمائة سنة.

الفراعنة و الآشوريون:

كانت الشام بين عاملين بل بين سلطانيين قويين العامل، الأول دولة الآشوريين و البابليين إذا قويت إحداها يمتد سلطانها على الشام أو تكتفى من أهله بالجزية و تجنيد بعضهم. و إذا كانت القوة لفراعنة مصر حكموا الشام أو اقتنعوا من سكانها بالجزية و بعض الجند. و قد ظلت الشام تابعة لمصر و أحيانا كانت تبعيتها اسمية نحو أربعة قرون. فقد فتحها تحوتمس الأول و تحوتمس الثالث، و فى أيام تحوتمس الأول تجلت حدود الشام على الفرات.

و ظل الشام فى حكم الفراعنة الى عهد رمسيس الخامس. و لما خلى من المصريين داهمه الآشوريون فاستولوا عليه و اعترف الشام كله بسلطة آشور و تجلت سلطة الشام على عهد تغلت فلاسر، و كان المصريون يحتلون بعض القلاع مثل غزة و مجدو (تل المتسلم) فى الداخل و جيب و صيدا فى الساحل على ما ثبت ذلك بالآثار.

كان الفراعنة على الأرجح يدهمون الشام من طريق صحراء التيه و الجفار لقله سفنهم بسبب قلل الأشجار عندهم كما هى قليلة فى وادى دجلة و الفرات، و ربما كان وجود الأشجار فى الشام من جملة الأسباب التى حملت

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٣

أهل بابل و آشور و مصر على مد سلطانهم على الشام. قال أحد الباحثين:

كانت الشام فى الألف الثالثة قبل المسيح يقطنها خليط من سكان ساميين و هم العموريون و الحثيون و هم غير ساميين فهجموا على بابل. و فى أوائل الألف الثانية هجم الساميون من سكان الشام و ربما كان بإيعاز الحثيين على مصر و حكموها، و هذا العهد هو عهد الرعاة (الهيكسوس). و ما برح ملوك الآشوريين و الكلدانيين فى القرون الأخيرة يحسنون صلاتهم مع الفراعنة و يرضون بسلطانهم الضئيل على الشام، حتى ثارت الفتن فى مصر فاغتنم ولاة الشام من عمال الفراعنة هذه الفرصة و خرجوا عن الطاعة، و جمع أحد رؤساء الحثيين قبائله و أسس دولة قوية الشكيمة و قاتل المصريين، فلم يكتب لرعمسيس الأول و ستى الأول من الأسرة التاسعة عشرة تقويض دعائم تلك الدولة، بل إن رمسيس الثانى المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس اضطر بعد حرب عشرين سنة الى الرضا بما وقع و عامل ختسارو أمير الحثيين معاملة الأكفاء و الأقران. و من ذلك الحين زال حكم مصر عن فينيقية و الشام الجنوبي و قامت فى الشمال دولة مستقلة فاصلة بين مصر و آشور، و كان ذلك فى حدود سنة ١٣٥٠ ق. م ..

ضعفت دولة الحثيين و عادت آشور تقوى بملوكها على الأطراف أمثال سالامنار و تغلت فلاسر و سنحاريب يغيرون على الشام فيلقى منهم المصائب و كانوا يريدون إخضاعه ليكون لهم مجازا الى الاستيلاء على تجارة مصر و الحبشة و ليبيا (طرابلس و برقة) و البحر الأحمر و المتوسط. و لما سقطت نينوى سنة ٦٠٥ ق. م. و فى رواية سنة ٦١٢ باستيلاء ملوك المملكة الكنعانية الثانية خضع الشام زما قليلا للفراعنة ثم عاد بعد انهزام نيخو و خلفائه الى سلطة ملوك بابل، و كان العهد الكنعانى عهد الخراب و الدمار لأن بخت نصر ملك الكلدان فعل فى بيت المقدس (٥٨٦ ق. م.) أفعالا- مدهشة من الهمجية و أجلى بنى إسرائيل الى بابل. و لما غلب بخت نصر فرعون مصر على كركميش استولى على كل ما كان لهذا الملك بين النهرين و الشام و أخذ أورشليم و سبى بعض أهلها و ساق الأسرى الى بابل من اليهودية و فينيقية و سورية و مصر. و اليهودية اسم جزء من فلسطين سكنه الراجعون من

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٤

سبى بابل و سميت فى العهد القديم يهوذا، و فى العهد الجديد قد تطلق اليهودية على جميع فلسطين و على بعض أرجاء شرقى

الأردن، و يرى المحققون أن اليهودية كانت تشتمل غربي الأردن و جنوبي السامرة.

الفينيقيون و استقلالهم التجاري:

و لم تكن مملكة إسرائيل بعمرانها و قوتها مثل مملكة فينيقية الصغيرة التي قامت في أرض الشام و اشتهرت أكثر من غيرها من الدول الشامية، لأنها كانت دولة بحرية على جانب من الحضارة المقتبسة عن المصريين و الآشوريين و البابليين، و معرفة زائد، بطرق البحار و التجارة في القاصية، فكان الفينيقيون في عهد عظمتهم كالبنادقة في القرون الوسطى ببحريتهم و اتساع تجارتهم، أو البريطانيين في القرنين الأخيرين بأساطيلهم و تجارتهم، مع مراعاة النسبة بين الأقطار و العصور.

و الفينيقيون من القبائل السامية التي نزلت أرض آرام أي الشام، و إقليمهم ضيق النطاق طوله خمسون فرسخا و عرضه من ثمانية الى عشرة فراسخ بين بحر الشام و أعلى سلسلة في جبل لبنان، و تدخل فيه صور و صيدا و أرواد و جبيل و بيروت، و منهم من أدخل فيه البترو و طرابلس. و لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل ناحية مدينة صغيرة تستقل بها، و لها مجالس و ملك تحكم نفسها بنفسها، و تبعت بنوابها الى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة. و كانت صور محط رحال النواب منذ القرن الثالث عشر، و لما لم يكن الفينيقيون أمه حربية خضعوا لسطوة الفاتحين من المصريين و الآشوريين و البابليين و الفرس و أدوا اليهم الجزية عن يد و هم صاغرون.

هذا رأى سنوبوس و قال مسيرو: إن تحوتمس الثالث تعب في إخضاع بعض الفينيقيين و قد استكانت مدائن الوسط و الجنوب و هي جبيل و بيروت و صيدون و صور من غير قتال، و أخلص أهلها الطاعة لمواليهم الأجانب الى ما بعد رعمسيس الثاني و كان هذا عين الحكمة و الصواب. فقد ترتب على رضاهم بالعبودية أن توصلوا الى احتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا و البحر المتوسط ثم نالوا استقلالهم في أواسط القرن الثاني عشر قبل

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٥

الميلاد لما كفّ فراعنة مصر عنهم. و لكن حدث في حدود سنة ١٢١٠ ق.م أن ألقع من عسقلان أسطول فلسطيني و لقي أسطول صيدا فدمره فانتقلت العظمة الى صور. و لما ملكها حيرام الأول (من سنة ٩٨٠-٩٤٦ ق.م) عقد مع داود و سليمان علاقات عادت على مملكته بالثروة و الرخاء.

قال: ثم ظهر الآشوريون على الفينيقيين و رضيت صور بدفع الجزية لهم، ثم قام ملكها إيلولي (من سنة ٧٢٨ الى سنة ٦٩٢) فحارب شلمناصر الثاني و سرجون و سنحاريب حروبا انتهت بهلاكه و انقراض دولته، فتبعت فينيقية الآشوريين، و لما سقطت نينوى عاد اليها استقلالها ففازت من دفاع بخت نصر بمعاونة الفراعنة الصاويين، و احتملت الحصار ثلاث عشرة سنة و حدثت في فينيقية ثورات في أوقات مختلفة فقمعت و في سنة ٥٥٧ أعيدت للكلدانيين، و لما خربت بابل سنة ٥٣٨ دخلت صور في قبضة الفرس من غير حرب و لا قتال. و من أهم الأسباب التي حالت دون الفينيقيين و تأسيس مملكة ضخمة مؤلفة أولا- من جميع أصقاع الشام ثم من الأقطار المجاورة صعوبة التوغل في الديار الشامية لما فيها من العقاب و الشعاب، و هم في قلّة و غيرهم في كثرة، فصرفوا نظرهم الى البحار و كانوا أعظم تجار و سفّار.

حروب الفرس و الإسكندر:

تخلصت الشام من عوامل كثيرة كانت تتنازعها، منها ما هو داخلي كالفتن الأهلية و الحروب الداخلية. و منها ما هو خارجي كأن يحكمها المصريون تارة و الآشوريون او البابليون أخرى، و لما تراجع هذه الأمم قامت دولة الفرس فاستولت على الشام و كانت دمشق و حماة و ارفاد أهم مدنها. و لما فتحها تغلت فلاسر سنة ٧٣٣ ق.م عاد الفرس ففتحوها على عهد كسرى.

و على عهد دارا من ملوك الفرس جعلت صيدا عاصمة القطر و ما برح فى قبضة الفرس الى سنة ٣٣٣ و قد اجتاز به الإسكندر المكدونى بعد أن قرض مملكة فارس و أباد بين الإسكندرونه و جبال اللكام (امانوس) جيش دارا ملك الفرس و أخرب مدينة صور بعد أن حاصرها سبعة أشهر (٣٣٢).

و كان بخت نصر حاصرها ثلاث عشرة سنة (٥٨٦-٥٧٣) و لم يستطع

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٦

فتحتها. و استبسل الصيداويون و عرضوا أنفسهم للهلاك مرات فى حصار الإسكندر صور، و عمل الإسكندر سدا و بدونه كان يتعذر الدنو من البلد لبعدها عن اليابسة، و بعث السامريون له بثمانية آلاف رجل نجدة، و أبى اليهود الخضوع له بادية بدء. و فى سنة ٣٥١ ق. م خربت صيدا عقيب انتقاضها على ملك فارس و قتل و حرق فيها أربعون ألف نسمة.

و لما انخذل دارا فى وقعه ايسوس على خليج الإسكندرونه الى الشمال منها، وقع الرعب فى قلوب الفينيقيين و السوريين فدان أكثرهم للإسكندر طائعين، و لما وصل الى جبيل تلقاه أهلها بالبشر و الحفاوة. و كان الإسكندر قد أرسل برميون الى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التى أرسلها اليها لما سار الى قيليقية لحرب الإسكندر فاستولى عليها و كان فيها من الذهب و الفضة و الآنية و الحلى و الحلل الثمينه ما لا يعد و لا يوصف، فضلا عما كان لبعض أعيان الفرس فى دمشق من المتاع و الأموال. و خربت الديار التى استولى عليها الإسكندر بأيدى الفرس، و كان من عادتهم أن يحرقوا المدن و القرى قبل أن تسقط فى أيدي عدوهم.

دولة السلاسة و ملك الأرمن:

و لما هلك الإسكندر اقتسم المملكة قواده الأربعة المعروفون بالسلاسة فكانت الشام من حصه سلوقس. و كان من أشهر مدن مملكته أنطاكية التى جعلها عاصمته و سلوقية (السويدية) و أفامية (قلعه المضيق) و اللاذقية.

و استولى بطلميوس والى مصر من دولة البطالسة على أرض اليهودية و فينيقية و جزيرة قبرس و المدن الساحلية من الشام. و فتح انتيغونس من خلفاء الإسكندر صور و يافا و غزة، و لم يفتح صور إلا بعد حصارها خمسة عشر شهرا. تعاصت عليه مع أنه لم يكن مضى على فتحها سوى تسع عشرة سنة، فأعادها أهلها الى حصانتها الأولى و عادت قطب التجارة فى الشرق و الغرب. و جد بطلميوس فى صنع أسطول له فى جبيل و طرابلس. و جرت وقعة مهمة بين بطلميوس و سلوقس و بين ديمتريوس انجلت عن خمسة آلاف قتيل و ثمانية آلاف أسير من جيش ديمتريوس، و لما رأى بطلميوس أن ليس

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٧

فى قدرته محاربة انتيغونس عاد الى مصر و هدم قلاع عكا و يافا و السامرة.

كانت الدولة السلوقية اليونانية دولة حرب و نزاع، فعدت الشام فى حالة بؤس و نحس، رومية تطالبها ببسط سلطانها عليها، و مصر تحاربها لتضمها اليها، و أهل فارس يجتاحونها، حتى قررت لهم السيادة الإسمية عليها، فميت الشام بضعف الحال و قلة الرجال، و ضاق ذرع الشاميين بالحروب المتصلة بين ملوكهم من اليونان و عسفيهم و إعناتهم و انقساماتهم و قتلهم أولادهم و أبناءهم و إخوتهم، فعزموا أن يختاروا ملكا عليهم من الأجانب فكتبوا الى تگران ملك ارمينية و أرسلوا اليه وفدا يفضون اليه بما عزموا عليه و يكاشفونه فى قبوله، فأجابهم الى طلبتهم و أتى الشام سنة ٨٣ ق. م و لبس تاج ملكها و استمر ملكه فيها ثمانى عشرة سنة الى أن جاءها الرومان سنة ٦٥ ق. م و استخلصوها منه.

دولة الرومان:

كان بومبيوس أول قائد روماني استولى على الشام و جعله ولاية رومانية و جعل أنطاكية عاصمتها. و لم تنجح الشام لقبها من

البارثيين على نحو ما كان من سائر أقطار المملكة الرومانية. ثم انفصلت مدة عن رومية أعطاها أنطونيوس الى أحد أولاد الملكة كلوبطرا، و عادت فضمت الى مملكة الرومان على عهد الامبراطور أغسطس، و تنقلت بها الأحوال الإدارية على عهد الامبراطورين فيسباسين و أدريانوس. و لم تكد تظمن من ناحية البارثيين بفضل الوقائع التي كتب فيها النصر للقائدين تراجان و سبتيم سيفير و انتظمت حالها و انبسط ظل عمرانها و قام منها امبراطرة شاميون قبضوا على قياد المملكة الرومانية من عهد الامبراطور سبتيم سيفير الى إسكندر سيفير حتى كان من عهد تأسيس مملكة الفرس الثانية على انقاض مملكة البارثيين ما جلب المصائب و النوائب لو لم يقم امثال القواد أدريانوس و ديوكلسيانوس و يوستينيانوس و يردوا تلك الغارات.

ذكر مومسن أن البدو و اليهود و النبطيين كانوا على عهد بوميوس الروماني أصحاب السلطان في الشام، فإن الصحارى الرملية الجافة التي

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٨

لا تسكن من حدود شبه جزيرة العرب آخذة في الغرب الى جبال الشام و الشواطىء الواقعة من الجهة الشرقية الى البادية من الفرات الأسفل المخصبة.

هذه الصحراء لم تبرح موطن أبناء إسماعيل العرب، ينصبون فيها خيامهم و يرعون أنعامهم و يطاردون على خيولهم المطهمة القبائل المعادية لهم أو يغزون التجار الآتين مع القوافل. و لما كان الملك تيگران قد أخذ بأيدي أبناء البادية لحاجته اليهم في التجارة اهتموا الغرة في هذا الاضطراب الذي جعل أمور الشام فوضى ليتوسعوا في الشمال، و كان للقبائل القريبة من الشام ممن كانوا على شىء من الحضارة القدح المعلى في هذا الشأن.

و كان زعماء قبائل البادية أشبه بعصابات منفردة يساوون أبناء البادية و يفوقونهم في قطع الطرق و الإضرار بالسابلة. و هكذا شأن بطلميوس بن مينوس، و ربما كان أقوى هؤلاء اللصوص و أغنى أهل عصره. و كان يحكم إقليم الإيطوريين، أى الجليلين، و هى كور الدرروز اليوم في أودية جبل لبنان، و حكمه نافذ من الشطوط الى بعلبك، و هكذا حال ديونيزوس و كنيراس صاحبي مدينتي طرابلس و جبيل. و مثل ذلك كان شأن اليهودى سيلاس في قلعتة على مقربة من أفامية على العاصى.

مملكة يهودا و انقراض اليهود:

حاول اليهود في جنوبى الشام توطيد سلطانهم السياسى، فأنشأ المكابيون و هم يهود يحترمون عبادتهم و يقصدونها، حتى توصلوا بذلك الى إنشاء مملكة وراثية، جمعت الى الرئاسة الدينية الرئاسة الدنيوية، ثم فتحوا كورا في الشمال و الشرق و الجنوب. و لما مات الشجاع جاني الكسندر سنة ٦٧٥ كانت مملكة يهودا ممتدة نحو الجنوب الى جميع أرض فلسطينيين حتى التخوم المصرية، و نحو الجنوب الشرقى الى مملكة النبطيين فى البتراء، و الى الجنوب الى ما وراء السامرة و المدن العشر الى بحيرة طبرية. فكانت الشواطىء بأيدي اليهود من جبل الكرمل الى العريش و فى جملتها مملكة غزة. و كانت عسقلان مدينة حرة. و أصبحت مملكة اليهود مرافىء حرة للصوص البحار بعد أن كانت مفصولة عنها فيما غير من الأيام.

خطط الشام، ج ١، ص: ٥٩

و لذلك اضطهد الرومان اليهود كثيرا فنالهم فى أيام هيرودس من الاضطهاد و إهراق الدماء ما نالهم، و فى أيام فلورس الوالى الرومانى لحقهم فى كثير من مدن فلسطين ضروب الأذى و القتل. و نكل السوريون باليهود عملا بإشارة الوالى الرومانى. و أحرق الرومان أورشليم و دمروا المدن و سبوا اليهود و ثار هؤلاء على الرومان سنة ١٣٢ فقتل الرومان منهم ٥٨٠ ألفا و أحرقوا و دمروا تسعمائة قرية عدا الحصون، و أسروا كثيرا منهم بعثوا بهم الى رومية حتى انقطعت شأفتهم من فلسطين مدة خمسة عشر قرنا.

قالوا: لما دخل المسلمون أرض اليهودية لم يجدوا يهودا لأن حروب فسباسين و تيطس و تراجان و أدريانوس و اضطهادات ملوك

النصرانية لم تترك حجرا على حجر من اليهودية السياسية و الوثنية، أمعنوا في القضاء عليها و ذروا رمادها في الرياح الأربعة، فقدت في فلسطين جميع التقاليد اليهودية و جماع اليهود الذين تراهم هم من الطراء على فلسطين مؤخرا نزلوها بعد أن بادوا منها مدة خمسة عشر قرنا.

الإيطوريون و النبطيون:

ذكر مومسن في كلامه على الاضطرابات و المنافسات بين الرؤساء في الشام أن المدن الكبرى مثل أنطاكية و السويديه و دمشق هي التي كان ينالها الأذى من جراء ذلك، فيصاب الزراع بزراعتهم، و التجار بتجارتهم البريه و البحريه. و لا يستطيع سكان جبيل و بيروت حمايه حقولهم و سفنهم من هجمات الإيطوريين و كانوا استولوا على اللبانيين الشرقي و الغربي و نزلوا فينيقيه و جعلوا عين جر (عنجر) عاصمتهم الأولى، ثم اتخذوا طرابلس عاصمتهم الأخرى، و غدوا يطيلون أيدي التعدي على البر و البحر من حصونهم العاليه. و يحاول سكان دمشق أن يدفعوا عن أنفسهم عادية الإيطوريين و البطالسئ، و ذلك بخضوعهم لملوكة القاصيه مثل النبطيين و اليهود. و تدخل سامسيكراموس و ازبوس في أنطاكية في الخلافات المدنيه بين الوطنيين فأصبحت هذه المدينه اليونانيه عاصمه أمير عربي.

خضع سكان دمشق للنبطيين أصحاب البتراء أو سلع لأنهم أصبحوا

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٠

أصحاب الحول و الطول في الشام و مصر لما دب فيهما من الضعف نحو سنه ١١٠ الى ١٢٠ ق. م. بالحروب المتأصله. و قد كان النبط يغيرون على أرض مصر و الشام بعصباتهم فحاربوا الأدوميين و أسسوا ملكا بالبتراء. و لم تبرح دمشق ملكا للنبطيين و الأولى أن يقال: إن هذه المدينه أعطاه كاليجولا الروماني الى الحارث صاحب البتراء (٨٥ ق. م) و تراجع أمر النبطيين بسرعه على عهد مالتوس الثاني نحو سنه ٤٨ الى ٧٠ ق. م فأضاعوا دمشق.

ثم فقد النبطيون استقلالهم في سنه ١٠٥ م عقيب حمله كرنيليوس بالما حاكم الشام الذي استولى على البتراء، و أصبحت جرش الى سنه ١٦٢ خاضعه لولاية الشام ثم للبتراء، ثم ضمت فينيقيه الى الشام. و كانت لمملكه النبط القديمه بلدتان مهمتان بصرى و البتراء. و روى بعضهم أن بومبيوس لما فتح الشام و استولى على دمشق و ما جاورها أبقى لهذه العاصمه بعض استقلالها و كذلك لبصرى و جرش و عمان، و بعد فتح البتراء و جعلها ولاية رومانيه غدت بصرى عاصمه حوران مقر الفيلق فعمرت الأقاليم و كانت ميدان السلب و النهب من قبل، و ازدانت المدن بآثار تدهش خرائبها و أطلالها. و غزا أنطوخوس النبطيين سنه ١٣٢ ق. م فلم ينل منهم ثم حاصرهم ديمتريوس.

كانت مملكه النبط على عهد المكابيين ممتده بين فلسطين و خليج العقبه و وادي الحجر و البحر الرومي، و هي عبارة عن مملكه أدوم قديما و يسميها اليونان مملكه العرب الحجريه و عاصمتها مدينه سلع أو البتراء في وادي موسى، و سماها بعضهم مدينه الرقيم ظنا منه بأنها مدينه أصحاب الكهف. و اسم البتراء أقرب الى الاسم الذي عرفها به اليونان و إن كانت البتراء على ما ورد من وصفها في كتب العرب هي في أرض الحجاز. قامت هذه الدوله العربيه على حين غفله من دوله البطالسئ و السلاقسئ في مصر و الشام و قوى سلطانها في القرن الثاني قبل الميلاد. و لقب الحارث الثالث نحو سنه ٨٥ بمحب اليونان و هو الذي فتح البقاع سنه ٨٥ و استولى الحارث الرابع على دمشق و في أيامه حدث المصاف الأول بينه و بين الرومان فاضطر الحارث أن يؤدي اليهم الجزيه. و اضطر النبطيون على عهد الامبراطور بومبيوس

خطط الشام، ج ١، ص: ٦١

و أخلافه أن يقدموا جندا من أبنائهم الحين بعد الآخر لمعاونه الرومان و ظلت مملكتهم حرة قويه. و أصبحت مملكه النبط ولاية مستقلة برأسها نحو سنه ٣٥٨ تحت اسم مملكه فلسطين أو فلسطين المسالمه. و حمل الإمبراطور تراجان على النبطيين فبدد شملهم و

قضى على مدينتهم سنة ١٠٦ م فاندمجوا في غيرهم و عدد ملوكهم أربعة عشر ملكا منهم من اسمه الحارث و منهم عبادة و منهم مالک و بينهم بعض الملكات من النساء.

دولة تدمر:

و لما تراجع أمر مملكة النبط في نحو منتصف القرن الثالث للمسيح، لارتقاء مملكة تدمر و مملكة فارس اللتين نازعتاها التجارة، أخذت تدمر ترتقى بتجارها و أصبحت زمنة هي و مملكة النبط مركزى التجارة فى الشام و نقطة اتصال الشرق بالغرب. و انضمت مملكة تدمر الى ممالك الرومان نحو السنة السادسة و الثلاثين قبل الميلاد. و كان القائد مرقس أنطونيوس عائدا من حرب الملوك الأرشكيين، فحاول الاستيلاء على تدمر فقاومه أهلها على الفرات و تغلبوا عليه. و بعد ذلك توطلت العلائق الحسنه بين تدمر و مملكة الرومان و نالت حقوق مستعمرة رومانية بفضل بعض امبراطرة الرومان.

و يرى رنزال أن العهد الذى فيه ارتقت حاضرة رينب أى تدمر الى أوج التمدن هو نفس الزمن الذى به تواتر على عرش رومية بعض الملوك الشرقيين كسبتيميوس ساويرس و إسكندر ساويرس و فيلبوس العربى، فلا-عجب إن جراً أذينة الأول على خلع السلطنة الرومانية و إقامة دولة مستقلة تضم البادية و ديار العرب الشماليه. و كان هذا الرجل ابن خيران ابن و هبلات بن منصور من بنى السميدع انتهز الفرصة و ادعى الملك سنة ٢٥٠ م فقتله القيصر الرومانى. و حارب أذينة و أخلافه الفرس غير مرة كانوا فيها يستظهرون عليهم و يحرزون رضا الامبراطورية الرومانية.

و لقد خرج على أذينة قائد رومانى اسمه كياتوس فحاصره أذينة فى حمص، فلما ضاقت به الحال خانه قائده كاليستوس و قتله، ففتحت أبواب حمص ثم قتل كاليستوس، فأقر إمبراطور الرومان لأذينة بحق الرئاسة و دعاه خطط الشام، ج ١، ص: ٦٢

امبراطورا على جميع أنحاء المشرق أى على الشام و الجزيرة و آسيا الصغرى خلا بعض نواح فى الشام، و دعى ملك الروم. و أول ما سعى له القضاء على الاضطهاد الذى أصاب النصارى فى بعض مدن الشام كأنطاكية و حمص و دمشق و قيساريه، فأطلق الحرية الدينية لكل الطوائف، و أوعز الى الوثنيين ألا-يتعرضوا للنصارى فى قضاء فروض عبادتهم، و رخص لهم فى إقامة البيع و الكنائس، و أدب العصاة من بقايا جيوش كاليستوس و كانوا انتشروا فى الأرجاء و عكروا صفوها باعتداءاتهم. و قاتل ملك الفرس مرة ثالثة و ظفر به ثم قتل بيد ابن اخيه معنى مع ابنه هيروديس و بويح لمعنى. إلا أن أهالى حمص ثاروا به بعد أيام و قتلوه.

زينب أو زنوبيا أو الزباء:

و كانت زينب او الزباء او زنوبيا زوجة أذينة الثانى، فولدت له ثلاثة أولاد أكبرهم و هبلات ثم خيران ثم تيم الله، فلما قتل أذينة أخذت زوجته بأزمة الملك بالنيابة عن و هبلات بكرها، و كان لها مجلس شيوخ ترجع الى رأيه و لها من الحلم و حسن الإدارة و السياسة و الكرم ما عدت به من أعظم الملوك و الملكات. و كانت نفسها تحدثها على ما يقال بالاستيلاء على المملكة الرومانية. و عقدت مع سابور ملك الفرس معاهدة و كان يخشى بأسها.

و غصت عاصمتها بأجناس الشعوب و العناصر و كان سوادهم الأعظم من العرب و النبط.

و كان بنو السميدع يسكنون بادية الشام فى أوائل النصرانية و لهم دولة فى تدمر و نواحيها، كما كانت دولة النبطيين فى شرقى جنوب الشام. فظهر بنو غسان بعد خراب سد مأرب و سيل العرم، و استولوا على أرجاء فلسطين و دمشق، و كانت سبقتهم قبيلة بنى سليح من قضاة و سكنت البلقاء فانتشروا فى القطر أواخر القرن الثانى للمسيح. و فى خلال تلك المدة قدمت فرقة من بنى لخم الى جنوبى فلسطين و امتدوا فى غربى بحيرة لوط، و برز قوم من مضر يعرفون ببني كلب امتدوا من أنحاء الحجاز الى جنوبى الشام

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٣

و نزلوا في جوار دومة الجندل (الجوف) فأذعن بقايا هذه القبائل لزينب فاستأجرتهم و أدخلتهم في جملة جيشها. و خاف غالينس قيصر عادية زينب و قد أصبحت محبوبة من الشعوب فوجه جيشا لقتالها فغلبه جيشها و انهزم فلّ الجيش الروماني. ثم حدثتها نفسها أن تستولى على مملكة بيشنية فقهرتها و بلغت خليدونه فدعا سكانها القيصر اوريليانس الى نصرتهم ففاجأ التدمريين في بيشنية نحو ٢٧١-٢٧٢ فطردهم عنها، ثم واصل فتوحاته فتغلب على غلاطية و قبادوقية حتى بلغ مدينة أنقرة ففتحت له أبوابها.

و كانت زينب في سنة ٢٧١ أمدت عاملها فيرموس على مصر بالقائد زبدا لصد هجمات الرومان الذين قدموا مصر بقيادة بروبس، فنشب بين الفريقين قتال انهزم فيه التدمريون تاركين مصر الى الأبد، و عاد زبدا مع بقايا عسكره. و كانت زينب أعدت جيوشها لمقاتلة الرومان و قسمتها ثلاثة أقسام بقيادة زبدا و زباي. و جهت القسم الاول الى طريق حلب، و الثاني الى طريق حمص، و الثالث الى القريتين و هي تتقدمهم بنفسها. و جاءها جيش الرومان من الشمال ففتحوا مدينة طيانة و مدائن جبال طوروس حتى قربوا من أنطاكية، فأمرت زينب قوادها أن يناوشوا الرومان القتال فشتت عساكرها عسكر الرومان في الوقعة الأولى، ثم ارتد عسكر الرومان على التدمريين فكسروهم، فملك اوريليانوس أنطاكية و ذهب زينب الى حمص فتأثرها الجيش الروماني ففتح في طريقه عدة مدن على ضفة العاصي مثل أفاميا و شيزر (لاريسا) و الرستن و بلغ ربض حمص.

و استعدت زينب لقتال القائد الروماني في سبعين ألفا، و كان عدد جيشه أقل من جيشها إلا أنه أكثر مرانا على الحرب و أسرع في الكر و الفر.

فانكسر جيش زينب كسرة عظيمة و استولى على حمص. فلم يسع زينب إلا أن تسرع الى تدمر للدفاع عنها، و خف اوريليانس الى حصار تدمر.

و تخلى عن نصرتها حلفاؤها من الفرس و الأرمن و العرب ثم وقعت زينب في قبضة القيصر الروماني، و فتح التدمريون أبواب مدينتهم للرومان في في أول سنة ٢٧٣، فوضع اوريليانس حامية قليلة و أخذ معه زينب و أسرى التدمريين الى آسيا الصغرى، فبلغه في طريقه الى رومية أن التدمريين ثاروا

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٤

بالحامية التي خلفها عندهم فكّر راجعا عليهم و أعمل السيف فيهم أياما و قوض الأبنية و الهياكل و دك الأسوار و القلاع، فخربت تدمر خرابا لم تنتعش منه.

آخر عهد الرومانيين و سياستهم:

كثرت الفتن على عهد دولة السلاقس خلفاء الإسكندر و استقلت فلسطين في عهد المكابيين (١٤٣ ق. م) لاشتغال السلاقس بحروبهم. و امتد سلطانها من البحر المتوسط الى الفرات. و احتفظت بحريتها حتى تدخل بالأمر القائد بومبيوس الروماني و بسط سلطان دولته سنة ٦٣ ق. م و لما أراد الرومان إضافة فلسطين الى ولاية الشام الرومانية ثار اليهود فأدى ذلك الى حصار بيت المقدس و خراب معبد سليمان على يد تيتوس سنة ٦٦ م و ثار اليهود في فلسطين بقيادة باركوخبا (١٣٢ - ١٣٥ م) فحاربهم ادريانوس الروماني و أخضعهم بعد حرب هائلة قتل فيها قائدهم، و أصبحت سورية و ولاية رومانية سنة ٦٤ م و وقعت الفتن بين اليهود و الرومانيين في فلسطين سنة ٦٦ م لم يبق من مملكة اغريبا و هي الجولان أحد من أهلها.

لاين اغريبا مضى لزيارة غلوس والي سورية في قيسارية و أناب عنه رجلا اسمه فاروس، فأتى اليه و جهاء بعض المدن من اليهود يسألونه أن يرسل اليهم جنودا يسهرون على راحتهم، فبدلا من أن يحسن ملتقاهم بعث قوما قتلوهم ليلا عن آخرهم. ثم لم يدع جورا و لا اعتسافا إلا و أقدم عليه.

و لما بلغت اغريبا أخبار ظلمه عزله و لم يقتله لاتصال نسبه بأحد ملوك العرب.

و زحف غلوس الى زابلون ففر أهلها الى الجبال فانتهبها و أحرق بيوتها التي لم تكن أبنية صور و صيدا و بيروت أحسن منها، و نهب و أحرق القرى المجاورة لها و عاد الى عكا، فنشط اليهود لعودته و طاردوا السوريين فقتلوا منهم ألفى رجل أكثرهم من بيروت، ثم سار غلوس الى قيسارية و أرسل كتائب من جيشه الى يافا فباغتوا أهلها و قتلوهم عن آخرهم و نهبوا المدينة و أحرقوها و كان عدد القتلى ثمانية آلاف و أربعمائه.

و أرسل غلوس أيضا حملة الى السامرة قتلت كثيرين من أهلها ثم

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٥

أرسل فريقا آخر الى الجليل فتحت مدينة صفورية (صافوريس) أبوابها لجنود الرومانيين و اقتدى بها غيرها من المدن، و اعتزل المشاغبون في جبل عرقون المقابل لصفورية، فسار إليهم الجند فظهروا عليهم و قتلوا منهم أكثر من مائتى رجل، و أحرقوا بالجبل من كل جهة فقتلوا منهم نحو ألف إنسان ثم أحرق أفيق (فقوعه) و الفولة و القرى المجاورة لها.

و تسلسلت هذه الوقائع الرومانية في هذا القطر، فسار فسبسيان الرومانى الى الكرك (تاريكا) فقتل منهم و انهزم كثيرون في سفنهم و أبعدها في بحيرة لوط فكان عدد القتلى من اليهود في البحر و المدينة ستة آلاف و خمسمائة رجل. و بعد أن قهر الرومانيون كرك و جفت - و جفت غربى قانا الجليل على مقربة من جبل كوكب كاران - استسلمت باقى المدن و هلك من أهل كامالا شرقى البحيرة خمسة آلاف، ثم خضعت بعض مدن فلسطين و قتل في القدس ثمانية آلاف و خمسمائة سنة ٦٨ و جعلت القدس مستعمرة رومانية (١٣٦) باسم ايليا كابيتولينا، ثم انقضت قرون في سلام على الجملة، و لم يدخل الشام فى حرب خارجية.

كانت معاملة الرومان للشاميين بادية بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب و المتاعب. و لما شاخت دولتهم انقلبت الى أتعس مما كانت عليه من الرق و العبودية. و لم تضيف رومية بلاد الشام إليها مباشرة، و لم يصبح سكانها و طنيين رومانيين، و لا - أرضهم أرضا رومانية، و ظلوا غرباء و رعايا و كثيرا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال. و قد كثرت المظالم و السخرات و الرقيق و بهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد و المصانع فى الشام.

و فى سنة ٥٤٠ جاء ملك الفرس خسرو الأول و اسمه عند العرب أنوشروان فى جيوشه الضخمة و دخل الشام و ظل فيه ثلاث سنين، و طرد بليزير الرومانى الفرس سنة ٥٤٢ و عادوا إليها بعد وفاة يوستينانوس بزعامه خسرو الثانى، و التحم القتال مع ملوك الساسانيين و طردهم الامبراطور هرقل

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٦

الى ما وراء عبر الفرات. و فى هذه الحقبة خربت أنطاكية بفتح الفرس لها و قتلهم أهلها. و كانت مدة ثمانية قرون من قبل مهد المدينة الشرقية.

حكم الرومان الشام سبعمائة سنة كانت فيه ميدانا للنزاع و الشقاق و الاستبداد و الأناية و قتل الأنفس. و حكم اليونان الشام ٢٦٩ سنة سادت فى عهدهم الحروب الطاحنة و المظالم و ظهرت المطاعم اليونانية بأعظم مظاهرها و كان حكمهم من أشد الويلات و أشأم النكبات على الشاميين فى التاريخ العام: نرى العوامل الرومانية و البيزنطية قد أثرت فى عرب الشام أخلاف العمالقة القدماء، و كانوا يتقون كل مدة بمن يهاجر إليهم من اليمن و الحجاز، فكانت المملكة الرومانية محتاجة لمعاونتهم سواء كان ذلك لحرب أبناء جنسهم النازلين على ضفاف الفرات، أو لإملاء فراغ الشام و كان يتهدده البارثيون ثم الفرس. و معلوم كيف قاومت أرملة أذينة و اسمها زينب أو زنوبيا القوى الرومانية فى الشرق. و لما انحلت مملكة تدمر عهدت الامبراطورية الرومانية الى أسر أخرى بالحكم فى تلك الأرجاء و ثبتت الإمارة فى الغساسنة. و دامت فيهم ثلاثة قرون. و دان رؤساء الغسانيين بالنصرانية فاشتركوا فى حرب فارس من القرن الرابع الى القرن السادس، و كان أحدهم الحارث الخامس من قوام مقام القائد بليزير فى حملة آسيا.

بنو غسان و العرب في الشام:

اختلفت روايات مؤرخي العرب في بني غسان و كانوا أقبالا و عمالا لملوك البيزنطيين في هذه الديار. و قد عهد إليهم الدفاع عن تخوم الشام من اعتداء الفرس ورد غارات اللخمين أصحاب الحيرة. و كانت سلطة الغسانيين كما قال شلقير تتناول الولاية العربية (أو معظم اقليم حوران و البلقاء و فينيقية و لبنان و فلسطين). و قال حمزة الأصفهاني و أبو الفداء:

إن عدد ملوك الغسانيين في الشام أحد و ثلاثون ملكا على حين لم يبلغ عددهم في أكثر من عشرة في رواية ابن قتيبة و المسعودي. و يقول الأصفهاني إن الحارث بن جبلة هو من أشهر ملوكهم لم يطل حكمه أكثر من عشر سنين، و يقول مؤرخو الروم: إنه حكم نحو أربعين سنة و هو المحقق. و كان

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٧

للغسانيين تمدن فاقوا به اللخمين لاختلاطهم بالروم البيزنطيين. و لم تكن لهم عاصمة معينة بل كانوا ينزلون الجولان و السويداء و الجابية و جلق.

و كان الغسانيون يؤدون الجزية عند ما هاجروا من اليمن الى الشام الى رؤساء الأسباط من الرومان، ثم امتنعوا من أدائها عند ما نالوا من الضجاعم و استولوا على الأمر دونهم، فاضطر الروم أن يقرروا الغسانيين على أمرهم لحاجتهم اليهم في رد عادية اللخمين سكان الحيرة. و ربما كان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد.

و في سنة ٥٢٩ عهد الامبراطور يوستينيانوس الى الحارث بن جبلة- و كان الحرث يدين بالنصرانية على مذهب القائلين بطبيعة واحدة في المسيح متحمسا لهذا المعتقد ذابا عنه- بزعامه جميع القبائل العربية في الشام و نال لقب رئيس الأسباط و بطريق. و كان هذا اللقب في مملكة البيزنطيين إذ ذاك أرقى لقب بعد الإمبراطور. و في تلك السنة اشترك مع البيزنطيين في قمع ثورة السامريين و انقضى معظم عهده في حروب المنذر الثالث ملك الحيرة، و في سنة ٥٢٨ تغلب على المنذر، و بعد نحو عشر سنين أصبحت المنافسة بينه و بين المناذرة على أتمها بسبب أراضي التخوم الواقعة بين دمشق و تدمر الى الرصافة و كان كل واحد منهما يدعيها. قال هوار: إن الحارث الغساني كسر المنذر ملك الحيرة سنة ٥٢٨ و إنه لما كان والي فلسطين اشترك في إعادة السامريين الى الطاعة فوهبه يوستينيانوس لقب الملك ليقضى على العرب الذين كانوا إقطاعا لملوك الساسانيين من الفرس، و كان كثيرا ما يجتاز دجلة و يخرب المعمور و يحمي قبائل العرب النازلة في برية تدمر من اعتداء المناذرة. و كانوا يحاولون أن يأخذوا منهم الجزية و حاربهم على الطريق الحربي الذي كان ممتدا من دمشق الى تدمر.

حارب الحارث مع الرومان في العراق، ثم حارب المنذر الحارث و أسر ابنه و قدمه ضحية للعرى. و في سنة ٥٥٤ ظفر الحارث بالمنذر في جهات قنسرين فهلك المنذر في المعركة. و خلف الحارث ابنه المنذر و تغلب على العرب الفرس الذين هاجموا منازل الغسانيين و ظفر بملكهم قابوس في عين أباغ على الأغلب. و حاول ملك الروم قتل المنذر فرفع لواء العصيان ثلاث

خطط الشام، ج ١، ص: ٦٨

سنين، و لما عصى العرب و الفرس على بيزنطية اضطرت هذه أن تعقد الصلح مع المنذر، ثم حمل هذا الى القسطنطينية أسيرا و انقطعت الأموال التي كانت تعطىها له مملكة الروم فنار أولاده الأربعة بقيادة النعمان بكر أولاد الحارث و هاجموا أراضي الروم و خربوا فيها، فأخذ النعمان أسيرا أيضا. و لكن الفوضى انتشرت في بادية الشام و أخذت كل قبيلة تختار لها زعيما خاصا و هواهم مع الفرس. و لما سقطت دمشق و القدس في يد ملك الفرس كسرى ابرويز (٦١٣-٦١٤) انهارت مملكة الغسانيين. و قيل: إن جبلة بن الأيهم كان آخر ملوكهم. هذا ما يعرف عن الغسانيين في الجملة نقلًا عن حقيق أمرهم من مؤلفي الغرب.

و لما حاصر كسرى مدينة القسطنطينية خلت أرض الشام من جند الروم.

و كان فى مدينه صور اربعة آلاف يهودى فكتبوا الى اخوانهم بيت المقدس و قبرس و دمشق و جبل الجليل و طبرية أن يجتمعوا كلهم فى عيد فصح النصارى ليقتلوهم بصور، و يصعدوا الى بيت المقدس فيقتلوا كل نصرانى بها و يغلبوا على المدينة، فبلغ الخبر بطريق صور فأخذ اليهود و قيدهم و سجنهم و أغلق أبواب صور و صير عليها المنجنيقات و العرادات، فلما كانت ليلة الفصح اجتمع اليهود من كل بلد الى صور و كانوا زهاء عشرين ألف رجل، فحاربوهم حربا شديدة من فوق الحصون، فهدم اليهود كل كنيسة كانت خارج صور فكانوا كلما هدموا كنيسة أخرج أهل صور من اليهود المقيدىن عندهم مائة رجل و أوقفوهم على الحصن و ضربوا أعناقهم و رموا برؤوسهم الى خارج، فضربوا أعناق ألفى رجل ثم انهزم اليهود.

كنا نحب التوسع فى سرد وقائع تلك الدول لولا الخوف من نقل ما لا يقره المحققون. و التعرض للمجهولات يؤدى الى السقوط فى غلطات و متناقضات. و لعل بحث علماء العاديات يوصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولا من تاريخ هذه الديار التى طالما شرقت بدماء الغالبيين و المغلوبين و سارت على أديمها دول كان الناس فى ظلها ظالمين و مظلومين، و قتل أهلها بالألوف و المئين فى سبيل شهوات الفاتحين.

خطط الشام، ج ١، ص: ٤٩

الشام فى الإسلام «من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة»

حالة الشام قبيل الفتح:

دعا الداعى الى الإسلام فى جزيرة العرب و كثر من دانوا به، فكان الشام من أول الأقطار المجاورة للحجاز التى فكر الرسول العربى (عليه الصلاة و السلام) فى فتحها لنشر كلمة التوحيد، و كانت تحت حكم الرومان منذ سبعة قرون، و ملكها صاحب مملكة بيزنطية أو مملكة الروم الشرقية و يعرف عند العرب باسم هرقل. و كان سكان هذه الديار من سريان و عرب و روم و فرس أصحاب علاقات مع الحجاز بالتجارة، كما كانت علائق عرب الحجاز فى الجاهلية كثيرة جدا بأهل هذا القطر، و أهم ما كان يرجى منه تيسير الفتح أن كانت قبائل عربية كثيرة تنزل الشام و تشارك دولة الروم فى الأحكام، و أشهرها غسان فى الجنوب و تنوخ فى الشمال و تغلب فى الشرق. و كانت هذه القبائل العربية دانت بالنصرانية و تركت عبادة الأصنام و الأوثان. فقويت الروابط بينها و بين البيزنطيين فكانوا يؤدون لزعمائهم الرواتب ليقفوا فى وجه البادية فى الجنوب حتى لا يهاجموا الشام، و فى وجه الفرس فى الشرق حتى لا يهددوا آسيا الصغرى.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٠

و كان الفرس قبل الهجرة النبوية بشمانى سنين فتحوا الشام (سنة ٤١٣-٤١٤ م) فدافع هرقل عنها سنة ٤٢٤ و انتصر على كسرى و لكنه فقد بانونيا و دلماسيا من أجزاء مملكته، سقطتا فى أيدي الخروانيين و الصريين و حوى نجم المملكة و ساء طالعها و ظهرت عليها أعراض الانحطاط، فارتأى هرقل أن يلقى بقيادة الى البطيريك سرجيوس القائل بطبيعة واحدة و مشيئة واحدة فى المسيح (عليه الصلاة و السلام). و كانت النصرانية تشعبت الى مذاهب مختلفة كمنحلة النساطرة و اليعاقبة، و يكره جميع أرباب هذه المذاهب حكومة الروم و كانت تضطهدهم باسم المذهب الأرثوذكسى و عداوتهم لها تزيد على الأيام تأصلا.

كانت مصر و الشام من جملة الأقطار التى تحاول الانفصال عن بيزنطية و شغل الامبراطور و شعبه بالمسائل الدينية و الخلافات المذهبية، فأخذ ينظر الى غارات العرب نظر العاجز الضعيف، و زاده ضعفا شيخوخته و استسلامه لرجال الدين، مع أنه كان على ضعف إرادته شجاعا عاملا بعيد النظر.

و ما حال ملك ينخر جسمه سوس الفساد فى الداخل، و هل لمن ضعف جسمه و اختلت قواه أن يرسل نظره الى القاصية فيتقيها و هو

على اتقاء ما لديه من المنهكات أعجز؟ فلا عجب أن أصبحت أحوال الشام من أشد ما يكون ملاءمة لفتوح العرب في تلك الحقبة من الزمن، و أسباب الظفر موفورة لهم من كل وجه.

هذا و خزائن هرقل فارغة، و مرتبات الأمير الغساني التي كانت الدولة تجريها عليه منقطعة. و النفوس في الشام مستاءة من المظالم و المغارم، سئمت الحروب و الغارات و هي عرضة لمطامع الفرس أو سوء إدارة الروم، و الناس يتحدثون بقرب انفراج الأزمة على أيدي الفاتحين من العرب، و كان يبلغهم من أخبار عدلهم ما تثلج له الصدور، و تود لو ترى قبل ساعة طلعة الدولة الجديدة التي أنت من الأعمال ما صعب على الفاتحين أن يأتوا مثله في باب العدل و الرحمة و التسامح.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧١

صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة:

لما انتشر الإسلام في جزيرة العرب حجازها و يمنها و نجدها أخذ الرسول يغزو الروم في الشام غزوات قليلة و يرسل سرايا ضئيلة تزيد بحسب الحاجة حتى يتعرف المسلمون طرق الشام و أمصاره و يسبروا غور الروم و استعدادهم.

و كانت أول غزواته على رأس تسعة و أربعين شهرا من مهاجره. بلغه أن بدومة الجندل جمعا كثيرا و أنهم يظلمون من مرّ بهم من الضافطة و أنهم يريدون أن يدنوا من المدينة و هي طرف من أفواه الشام، بينها و بين دمشق خمس ليال، و بينها و بين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة.

فندب رسول الله الناس و استخلف على المدينة و خرج في ألف من المسلمين فكان يسير الليل و يكمن النهار، و معه دليل له من بنى عذرة فأخذ نعمهم و شاءهم و رجع لم يلق كيدا.

و في سنة ست ندب الرسول عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل و قال له: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم، فدعاهم الى الإسلام فأسلم الأصعب بن عمرو الكلبي، و كان نصرانيا و كان رأسهم، و أسلم معه ناس كثير من قومه، و أقام من أقام على إعطاء الجزية، و تزوج عبد الرحمن بتماضر بنت الأصعب. و كان صاحب دومة أكيدر بن عبد الملك في طاعة هرقل ملك الروم يعترض سفر المدينة و تجارهم، فصالحه الرسول على الجزية على كل حالم في أرضه ديناراً و كتب له و لأهل دومة كتاباً و هو:

«بسم الله الرحمن الرحيم»: من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين أجاب الى الإسلام و خلع الأنداد و الأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل و أكنافها أن لنا الضاحية من الضحل و البور و المعامى و أغفال الأرض و الحلقة و السلاح و الحافر و الحصن، و لكم الضامنة من النخل

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٢

و المعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، و لا تعدّ فاردتكم، و لا يحظر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، و تؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله و الميثاق، و لكم به الصدق و الوفاء، شهد الله و من حضر من المسلمين».

و أرسل الرسول كتبا الى هرقل و الحارث بن أبي شمر يدعوهما الى الإسلام و هذا نص الكتاب الذي بعث به مع دحية الكلبي على يد عظيم بصرى ليدفعه الى هرقل و هو بالشام على ما جاء في الصحاح: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، و أسلم يؤتك الله أجر ك مرتين، و إن توليت فإن عليك إثم الإريسيين. و يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد الا الله و لا نشرك به شيئا، و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» اه. و كتب الرسول الى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق و بعث إليه بشجاع بن وهب. و كان فروة بن عمرو الجذامي عاملا لقيصر على عمان من أرض البلقاء قد أسلم و أنفله الى الرسول رجلا يقال له مسعود بن سعد من قومه، و أهدي الرسول بغلة يقال لها فضة و حمارة يعفور و فرسا يقال له الطرب و أثوبا من كتان و

قبا من سندس مخرّصا بالذهب، فقبل رسول الله كتابه و هديته و كتب إليه جواب كتابه

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٣

و أجاز رسوله مسعودا بأثنتي عشرة أوقية و نش و بلغ قيصر إسلام فروة ابن عمرو فحبسه حتى مات فلما مات صلبوه- قاله ابن سعد. و في السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح من ناحية الشام و هي وراء وادي القرى بين تبوك و أذرعات و كان ينزلها قوم من قضاة، و رأسهم رجل يقال له سدوس، فخرج في خمسة عشر رجلا فوجد جمعا، كثيرا فدعاهم الى الإسلام فأبوا أن يجيبوا و قتلوا أصحاب كعب جميعا، و تحامل رجل منهم حتى بلغ المدينة. و في هذه السنة استنفر الرسول الناس الى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل، و السلاسل ماء بأرض جذام- فوجه عمرو بن العاص في ثلثمائة مقاتل ثم استمده فأمدّه بأبي عبيدة بن الجراح على المهاجرين و الأنصار فيهم أبو بكر و عمر في مائتين فكان جميعهم خمسمائة، و الغالب أنهم رجعوا من هذه الغزاة على غير جدوى.

و من السرايا التي أرسلت الى الشام سرية زيد بن حارثة الى جذام بحسمى وراء وادي القرى مما يلي فلسطين من أرض الشام. و سببها أن دحية بن خليفة الكلبي كان أقبل من عند قيصر و قد أجاره و كساه فسلبه أهل حسمى، فغزاهم زيد بن حارثة ثم رد الرسول عليهم أسلابهم. و في تلك السنة بعث الرسول جيشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل بلغوا تخوم البلقاء فلقيتهم جموع هرقل و معهم العرب المنتصرة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة و جعلوا على ميمنتهم رجلا من عذرة يقال له قطبة بن قتادة، و على ميسرتهم رجلا- من الأنصار يقال له عبادة بن مالك، فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقتل من الأمراء زيد ابن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، فلما فجع المسلمون بثلاثة قواد عظام منهم، و كان خالد بن الوليد من القواد في ذاك الجيش،

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٤

رأى المصلحة أن يعود الى المدينة بمن معه. و كان سبب هذه الغزوة أن النبي بعث الحارث بن عمير رسولا الى ملك بصرى عاصمه حوران بكتاب كما بعث الى سائر الملوك، فلما نزل بمؤتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله، و لم يقتل لرسول الله رسول غيره. و قيل: إن هرقل نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم و انضمت اليه المستعربة من لحم و جذام و بلقين و بهراء و بلي في مائة ألف منهم.

كانت أخبار الشام عند أهل المدينة كل يوم لكثرة من يرد عليهم من الأنباط فقدمت عليهم قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، و أن هرقل صاحب الروم قد رزق أصحابه لسنة، و استنفر العرب المنتصرة فأجلبت معه لحم و جذام و غسان و عامله و بهراء و كلب و سليح و تنوخ من عرب الشام و زحفوا و قدموا مقدماتهم الى البلقاء و عسكروا بها، و تخلف هرقل بحمص و ضرب الروم على العرب الضاحية البعوث. فرأى الرسول إن لم يبدأ الروم القتال بدأوه به، فأعلم في سنة تسع بالتجهيز لغزو الروم و الطلب بدم جعفر بن أبي طالب الذي استشهد في مؤتة في السنة الفاتئة. و كان الرسول إذا أراد غزوة ورى غيرها إلا في هذه، لقوة العدو و بعد الطريق و الجذب و الحر و الناس في عسرة. و كان معه ثلاثون ألفا، و الخيل عشرة آلاف، و الجمال اثنا عشر ألفا، و لقي الجيش حرا و عطشا.

و قد أنفق أبو بكر الصديق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله، و أنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة.

خرج المسلمون في غزوة تبوك الرجلان و الثلاثة على بعير، و خرجوا في حر شديد فأصابهم يوما عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها و يشربون ماءها، فكان ذلك عشرة من الماء و عسرة من الظهر و عسرة من النفقة و لذلك سمى جيش العسرة.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٥

و بلغ الجيش الحجر أرض ثمود فنهاهم الرسول عن مائة، و وصلوا تبوك فأقام بها عشرين ليلة، و سميت هذه الغزوة غزوة تبوك، و لم يلق المسلمون في هذه المعركة كيدا. و أتى يحنه بن رؤبة أسقف أيلة على البحر الأحمر فصالحه الرسول على الجزية. و كتب له كتابا صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا أمنة من الله و محمد النبي ليحنه بن رؤبة و أهل أيلة أساقفهم و سائرهم في البر و البحر، لهم ذمة الله و ذمة النبي و من كان معهم من أهل الشام و أهل اليمن و أهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه و إنه طيب لمن أخذه من الناس. و إنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه و لا طريقا يريدونه من بر او بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت و شرحيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان ذلك في سنة تسع من الهجرة».

و صالح الرسول أهل جرباء و أذرح من أرض الشراة، صالح أهل أذرح على مائة دينار، و صالح أهل مقنا على مقربة من أيلة على ثلاثمائة دينار على ربع عروكهم و غزولهم و ربع كراعهم و حلقتهم و على ربع ثمارهم و كانوا يهودا، و كتب إليهم هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله الى بنى حبيبة و أهل مقنا سلم أتم فإنه أنزل على أنكم راجعون الى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون و لكم ذمة الله و ذمة رسوله، و إن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم و كل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله، و إنه لا ظلم عليكم و لا عدوان، و إن رسول الله يجيركم مما يجير به نفسه فإن لرسول الله بزيتم و رقيقكم و الكراع و الحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله، و أن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم و ربع ما صادت عروككم و ربع ما اغتزلت نساؤكم و انكم قد ثريتم بعد ذلكم و رفعكم رسول الله عن كل جزية و سخرة، فإن سمعتم و أطعتم فعلى رسول الله أن يكرم

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٦

كريمكم و يعفو عن مسيئكم، و من ائتمر في بنى حبيبة و أهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له، و من أطلعهم بشر فهو شر له، و ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله و كتب على بن أبي طالب في سنة ٩. و في السنة الحادية عشرة ضرب الرسول على الناس بعثا الى الشام أيضا و أمر عليه أسامة بن زيد ندبه الى اللقاء و أذرعته و مؤتة ثائرا بأبيه و لأسامة يومئذ ثمانى عشرة سنة. و فى رواية أن الرسول أمره أن يوطىء الخيل تخوم اللقاء و الداروم، و أن يبلغ بينى و أشدود من أرض فلسطين، و قيل:

أمر أن يوطىء من آبل الزيت بالأردن من مشارف الشام، و دعا الرسول عليه السلام أسامة بن زيد فقال: «سر الى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فاغر صباحا على أهل بينى و حرق عليهم، و أسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم و خذ معك الأدلاء و قدم العيون و الطلائع أمامك». و بينا الناس يتأهبون للغزاة ابتدأ الرسول شكواه التى قبضه الله عز و جل فيها. و كان يقول فى علته: جهزوا جيش أسامة. ثم سار أسامة الى بينى فشن عليها الغارة و قتل قاتل أبيه و لم يصب أحد من المسلمين. و بلغ هرقل و هو بحمص ما صنع أسامة فبعث رابطة يكونون باللقاء، فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث الى الشام فى خلافة أبى بكر و عمر.

فأول غزوات الشام دومة الجندل و الثانية مؤتة و الثالثة ذات السلاسل و الرابعة تبوك و الخامسة آبل الزيت و جملة غزواتهم سبع غزوات. و كلها مقدمات لفتح هذا القطر و أمر قطعى من صاحب الرسالة الى أصحابه بأن يكملوا العمل الذى وضع أساسه بنفسه الشريفة. عن سلمة بن نفيل الحضرمى قال:

فتح الله على رسول الله فتحا فأتيته فدنوت منه حتى كادت ثيابى تحس ثيابه فقلت: يا رسول الله سيبت الخيل و عطلوا السلاح و قال: قد نفيل وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله: كذبوا الآن جاء القتال الآن جاء القتال، لا يزال الله يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم و يرزقكم الله عز و جل منهم حتى يأتى أمر الله و هم على ذلك و عقر دار الإسلام بالشام.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٧

جيوش العرب و جيوش الروم نصيحة أبي بكر الصديق لقواده:

توفى الرسول عليه السلام فارتدت بعض قبائل العرب فقاتلهم أبو بكر الصديق حتى جمع شملهم بالإسلام فلما أمن من ناحيتهم كتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد في الشام، ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال، وهم يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وعمرو ابن العاص. وكان أبو بكر أمر عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامدا لفلسطين. وأمر يزيد وشرحبيل أن يسلكا طريق تبوك، فقصده الجيش فلسطين في الجنوب وقسم منه قلب الشام.

وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم بالإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة ثم تمام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفا. وكان جيش الروم أربعين ومائتي ألف منهم المسلسل للموت والمربوط بالعمائم والفرسان والرجالة، جمعهم هرقل من أهل الشام والجزيرة وإرمينية، وولى عليهم رجلا من خاصته وبعث على مقدمته جبله بن الأيهم الغساني في مستعربة الشام.

وأنجد أبو بكر جيوش الشام بخالد بن الوليد من العراق في تسعة وقيل في عشرة آلاف فصار المسلمون ستة وثلاثون ألفا وفي روايه ستة وأربعين ألفا.

ويقول سيديليو: إن جيش العرب كان على أكثر تعديل مؤلفا من عشرين ألفا وجيش الروم من ستين ألفا. قال سعيد بن عبد العزيز: إن المسلمين يوم اليرموك كانوا أربعة وعشرين ألفا والروم عشرين ألفا ومائتي ألف عليهم ماهان وصقلان (سقلار).

ومهما كان من تقدير الجيشين فالعرب كانوا أقل من الروم: وتقدير مؤرخي العرب للجيش الإسلامي بستة وثلاثين ألفا ولجيش الروم بزهاء مائتي ألف أقرب الى الصحة، وهو تقدير معقول لا سيما إذا عرف أنه كان سكان الشام إذ ذاك نحو سبعة ملايين، وأن العرب على بعد الحجاز عن الشام لا يستطيعون أن يجهزوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا يحاربون في جهات أخرى.

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٨

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء الى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز، ولا تكثر عليهم الكلام، فإن بعضه ينسى بعضا، وأصلح نفسك يصلح الناس لك، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثوهم، فإنه أول خيرك اليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلى كلامهم، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرك أمرك، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك، وإذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها، واستر في عسرك الأخبار، وأذك حراسك، وأكثر مفاجأتهم في ليالك ونهارك، واصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك.

وقد شيع أبو بكر يزيد بن أبي سفيان راجلا الى ما بعد ريبض المدينة فقال له يزيد: إما أن تتركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل و ما أنا براكب. إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله ثم قال: إنك ستجد قوما حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له يعني الرهبان.

وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال: إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تمثل، ولا تقتل هرما ولا امرأة ولا وليدا، ولا تعقرن شاء ولا بعيرا الا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلا، ولا تخربن عامرا، ولا تغل ولا تجبن.

وصل الجيش العربي الى مشارف الشام فنزل في آبل وزيزاء والقسطل، وكان جيش الروم من دون زيزاء بثلاث. وطلع ماهان قائد الروم وقدم قدامه الشماسة والرهبان والقسيسين يحضون جيش الروم على القتال. وكان هرقل وهو من عظام القواد أدرك الخطر

و رأى لما أتاه الخبر بقرب جيش العرب أن لا- يقاتلهم و أن يصلحهم. و قال لقومه: فو الله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام و تأخذوا نصفاً و تقرّ بكم جبال الروم خير لكم من

خطط الشام، ج ١، ص: ٧٩

أن يغلبوكم على الشام و يشاركوكم فى جبال الروم، فلما رأهم يعصونه و يردون عليه بعث أخاه تيودورا و أمر الأمراء.

مبدأ الحرب بين العرب و الروم:

و أول وقعة كانت بين العرب و الروم بقرية من قرى غزة يقال لها دائن (١٢ هـ) كانت بينهم و بين بطريق غزة فاقتلوا فيها قتالا شديدا فهزم الروم، و توجه يزيد بن أبى سفيان فى طلب ذلك الطريق فبلغه أن بالعربة من أرض فلسطين جمعا للروم فأوقع بهم و قتل عظيمهم، و انتهى إليه أن ستة من قواد الروم نزلوا العربة فى ثلاثة آلاف فسار إليهم المسلمون فى كثف منهم فهزموهم، و قتل أحد القواد فصار الروم الى الدبة فهزمهم المسلمون و غنموا غنما حسنا. و أول صلح كان بالشام صلح مآب.

مرّ أبو عبيدة بهم فى طريقه فقاتلوه، ثم سألوه الصلح فصالحهم، و قالوا: إن أول حرب كانت بالشام بعد سرية أسامة بالعربة ثم أتوا دائن ثم كانت مرج الصفر، و أول مدينه فتحت بصرى قصبه حوران.

لما سار خالد بن الوليد من العراق مددا للمسلمين فى الشام و قد ضاق المسلمون فيه لكثرة جيوش الروم فتح فى طريقه ما اجتاز به من شرق الشام، مثل أرك و دومة الجندل و قصم و تدمر و القريتين و حوارين و مرج راهط، و وجه أحد رجاله الى غوطه دمشق فأغار على قرى من قراها، و صار خالد الى الثنية التى تعرف بثنية العقاب المشرفة على الغوطه، فوقف عليها ساعة ناشرا رايته و هى راية كانت لرسول الله تسمى العقاب علما لها.

و العرب تسمى الراية عقابا. و أغار على بنى غسان فى يوم فصحهم.

ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين بقناه بصرى، و يقال: إنه أتى الجابية من حوران و بها أبو عبيدة فى جماعة من المسلمين فالتقيا و مضيا جميعا الى بصرى. و لما فتحت بصرى توجه أبو عبيدة بن الجراح فى جماعة كثيفة فأتى مآب من أرض البلقاء، و بها جمع العدو فافتتحها صلحا على مثل صلح بصرى، ثم كانت وقعة أجنادين قرب القدس، شهدها من الروم زهاء مئة ألف سرب هرقل أكثرهم و تجمع باقوهم من النواحي

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٠

فقتل المسلمون منهم مقتله عظيمة. و قالوا: إن خالد بن الوليد لما جاء بصرى و المسلمون نزول عليها ضايق أهلها حتى صالحهم على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً و جريب حنطة. و افتتح المسلمون جميع أرض حوران و غلبوا عليها وقتلوا و ذلك فى سنة ١٣.

وقعة اليرموك:

أهم وقائع العرب فى الشام التى انهزم فيها الروم شر هزيمة و لحق فلهم بالشمال وقعة اليرموك- و اليرموك نهر- فهى الوقعة الفاصلة التى هان بها الاستيلاء بعد ذلك على القدس و دمشق و ما إليها، ثم على حمص و حماة و حلب و ما إليها من البلدان، و ظهر فيها النبوغ العربى فى الحرب بأجلى مظاهره.

و تبين أن تلك الأمة الفقيرة بمالها، ليست فقيرة بعقل رجالها. و قرأ العرب على الروم يومئذ درسا من مضائهم و حسن بلائهم، و أروهم راموزا من تضامنهم و استماتتهم، و أتوهم بمثال من طيب أخلاقهم وجوده فطرهم، خلافا لما كان عليه أعداؤهم من الانقسام و تشتت الأهواء و الخصام.

«لما قدم خالد بن الوليد مددا للمسلمين فى اليرموك وجد العرب يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش: أبو عبيدة على جيش،

و يزيد بن أبى سفيان على جيش، و شرحيل بن حسنة على جيش، و عمرو بن العاص على جيش.
فقال خالد: إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر و لا البغى، فأخلصوا لله جهادكم، و توجهوا الى الله بعملكم. فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قوما على نظام و تعبئة و أنتم على تساند و انتشار، فإن ذلك لا يحل و لا ينبغي، و إن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم و بين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه هو الرأى من واليكم.
قالوا: فما الرأى؟ قال: إن الذى أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم و أنفع للمشركين من أمدادهم. و لقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم و الله، فهلما فلنتعاور الإمارة، فليكن علينا بعضنا اليوم، و بعضنا غدا، و الآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، و دعونى اليوم عليكم.
قالوا: نعم. فأمره و هم يرون أنها كخرجاتهم، فكان الفتح على يد خالد. و جاءه البريد يومئذ بموت
خطط الشام، ج ١، ص: ٨١

أبى بكر و خلافة عمر و تأمير أبى عبيدة على الشام كله و عزل خالد، فأخذ الكتاب منه و تركه فى كنانته و وكل به من يمنعه أن يخبر الناس من الأمر لثلا- يضعفوا. و هزم الروم و قتل منهم على الواقوسة ما يزيد على مئة ألف ثم دخل على أبى عبيدة و سلم عليه بالإمارة، و كانت من أعظم فتوح المسلمين و باب ما جاء بعدها من الفتوح، لأن الروم كانوا قد بلغوا فى الاحتشاد فلما كسروا ضعفوا و دخلتهم هيبه.

و فى كتاب أبى حذيفة أن المسلمين أوقعوا بالروم يوما باليرموك فشد خالد فى سرعان الناس و شد المسلمون معه يقتلون كل قتله، فركب بعضهم بعضا حتى انتهى الى أعلى مكان مشرف على أهوية فأخذوا يتساقطون فيها و هم لا يبصرون. و هو يوم ذو ضباب- و فى رواية ثارت فيه الرياح الهوج- و قيل: كان ذلك بالليل و كان آخرهم لا يعلم بما صار إليه الذى قبله حتى سقط فيها ثمانون ألفا فما أحصوا إلا بالقضيب، و سميت هذه الأهوية بالواقوسة من يومئذ لأنهم واقصوا فيها أى اقتربوا، فلما أصبح المسلمون و لم يروا أعداءهم ظنوا أنهم قد كمنوا لهم حتى أخبروا بأمرهم.

و قال سعيد بن بطريق: بلغ ماهان قائد الروم أن العرب قد خرجوا من طبرية يريدون دمشق، فجمع عسكره و خرج منها و سار يومين حتى نزل على واد كبير يقال له وادى الرماد، و يقال للموضع الجولان و يعرف بالياقوسة، و صير الوادى بينه و بين العرب شبيه الخندق و أقاموا أياما و العرب بحدائهم. و بعد أيام خرج منصور العامل من دمشق يريد عسكر ماهان و معه مال قد جباه من دمشق بالمشاعل، فلما قربوا من العسكر ضربوا و بوقوا و صاحوا، و كان ذلك من منصور مكيدة، فلما نظر الروم الى المشاعل
خطط الشام، ج ١، ص: ٨٢

خلفهم و سمعوا صوت الطبول و البوقات، توهموا أن العرب قد جاءوهم من خلفهم و كبسوهم ف وقعت فيهم الهزيمة فسقطوا كلهم فى ذلك الوادى أعنى وادى الرماد، و هو واد عظيم كبير فماتوا و لم يتخلص منهم إلا- نفر قليل، و منهم من هرب الى مواضع شتى، و منهم من تراجع الى دمشق، و منهم من هرب الى بيت المقدس، و منهم من هرب الى قيسارية اه.
و شهد اليرموك ألف صحابى منهم نحو من مائة من أهل بدر، و تهافت فى الواقوسة من الروم عشرون و مائة ألف، ثمانون ألف مقرن و أربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة من الخيل و الرجل. و يقول الطبرى:
إن قتلى اليرموك من الروم سبعون ألفا، و زعم بعض المؤرخين أن جيش الروم تكامل يوم اليرموك أربعمائة ألف.

فتح فحل و أجنادين و بيسان:

ذكروا أن أول كتاب كتبه عمر حين ولى أبا عبيدة الشام: أوصيك بتقوى الله الذى يبقى و يفنى ما سواه، الذى هدانا من الضلالة، و أخرجنا من الظلمات الى النور، و قد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذى يحق عليك. لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمته، و لا- تنزلهم منزلا- قبل أن تستريده لهم و تعلم كيف مأتاه، و لا- تبعث سرية إلا- فى كثف من الناس، و إياك و إلقاء

المسلمين في الهلكة، وقد ابتلاك الله بي و ابتلاني بك، فغمض بصرك عن الدنيا، و أله قلبك عنها، إياك أن تهلك كما أهلك من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم اه.

توفى أبو بكر الصديق قبل فتح اليرموك بعشر ليال و بعد أن أصيبت الروم بالهزيمة القاطعة على اليرموك، كانت وقعة فحل من الأردن بعد خلافة عمر بن الخطاب بخمسة أشهر، و لما انتصر المسلمون على اليرموك كان هرقل في البيت المقدس، جاءها للاحتفال بتخليص الصليب الذي استرده قبل ذلك

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٣

فصار الى أنطاكية و استنفر الروم و أهل الجزيرة و بعث عليهم رجالا من خاصته و ثقاته فلقوا المسلمين بفحل فقاتلوهم أشد قتال و أبرحه حتى ظهروا عليهم، و قتل بطريقهم و زهاء عشرة آلاف معه و تفرق الباقون في مدن الشام و لحق بعضهم بهرقل.

و لما سار المسلمون بعد أن فرغوا من أجنادين الى فحل نزلت الروم بيسان فبثقوا أنهارها و في أرض سبخة فكانت وحلا، و نزلوا فحل و بيسان، فلما غشيها المسلمون و لم يعلموا بما صنعت الروم و حلت خيولهم، و لقوا فيها عناء ثم سلموا. و سميت بيسان ذات الردغة لما لقي المسلمون فيها، ثم نهضوا الى الروم و هم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم و دخل المسلمون فحل و لحقت رافضة الروم بدمشق، فكانت وقعة فحل في ذى القعدة سنة ثلاث عشرة. قال الطبري: «كان الروم في فحل بعد أن رحلت حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتهم و صيرتهم الى الوحل فركبوه و لحق أوائل المسلمين بهم و قد حلوا فركبوهم و ما يمنعون يد لأمس فوخزوهم بالرمح، فكانت الهزيمة في فحل، و كان مقتلهم في الرذاع فأصيب الثمانون ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد. و كان الله يصنع للمسلمين و هم كارهون: كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم، و أناة من الله ليزدادوا بصيرة و جدا».

الأردن و فلسطين و جبل اللكام:

افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم و كنائسهم، و فتحت جميع مدن الأردن و حصونها على مثل صلح طبرية فتحا يسيرا بغير قتال، ففتح بيسان و سوسية و أفيق و جرش و بيت رأس و قدس و الجولان، و غلب على سواد الأردن و جميع أرضها و على صفورية و عكا و صور، و بفتح هذين الثغرين من الساحل

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٤

انقطع ما بين الروم في إيلياء و بين خط رجعتهم من البر مع أنطاكية و ما وراءها من الدروب. و صالح أبو عبيدة السامرة بالأردن و كانوا عيوناً و أدلاء للمسلمين، كما صالح الجراجمه في جبل اللكام بين بياس و بوقا على أن يكونوا أعواناً للمسلمين و عيوناً و مسالح في جبل اللكام، و فتح عمرو ابن العاص غزة ثم سبسطية و نابلس و لد و بينى و عمواس و بيت جبرين و يافا و رفح، و ظلت القدس و قيسارية محاصرتين، و لم تفتح القدس إلا سنة خمس عشرة أى بعد فتح دمشق بسنة و نيف، و طلب أهله من أبى عبيدة أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام و أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة و خرج صفرونيوس بطريق بيت المقدس الى عمر بن الخطاب فأعطاه عمر أماناً و كتب لكل كورة كتاباً واحداً ما خلا أهل إيلياء. و هذا نص عهد أهل إيلياء:

«بسم الله الرحمن الرحيم»: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم و أموالهم و لكنائسهم و صلبانهم و سقيمها و بريئها و سائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم و لا تهدم و لا ينتقض منها و لا من حيزها و لا من صليبهم و لا من شىء من أموالهم و لا يكرهون على دينهم و لا يضار أحد منهم، و لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. و على أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، و عليهم أن يخرجوا منها الروم و اللصوت (الصوص)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه و ماله حتى يبلغوا مأمنهم، و من أقام منهم فهو آمن، و عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، و من شاء سار مع الروم، و من شاء رجع الى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم، و على ما في هذا الكتاب عهد الله و ذمة رسوله و ذمة الخلفاء و ذمة

المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد و عمرو بن العاص و عبد الرحمن بن عوف و معاوية ابن أبى سفيان و كتب و حضر سنة ١٥.

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٥

و كتب عمر الى أهل لُد و من دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين مثل شروط أهل إيلياء. و اختلف القوم فى صلح بيت المقدس فقالوا صالح اليهود و قالوا النصرارى، و المجمع عليه أنه صالح النصرارى. و فى كتاب عمر صراحةً فى ذلك. و اشترط فيه إخراج الروم الذين ليسوا من أبناء القطر الأصليين. و أتاه جبلة بن الأيهم رأس بنى غسان و كان هذا أسلم ثم ارتد و قاتل المسلمين مع الروم فقال له: تأخذ منى الصدقة كما تصنع العرب قال: بل الجزية و إلا فالحق بمن هو على دينك. فخرج فى ثلاثين ألفا من قومه حتى لحق بأرض الروم، و ندم عمر على ما كان منه فى أمره.

فتح دمشق و الأحكام العسكرية:

كتب عمر الى أبى عبيدة و كان كتب اليه فى أمر الشام: أما بعد فابدأوا بدمشق و انهدوا لها فإنها حصن الشام و بيت ملكهم. و بعد أن تم للمسلمين ما أرادوا من هزيمة الروم على اليرموك جمعت الروم جمعا عظيما و أمدهم هرقل بمدد فلقبهم المسلمون بمرج الصيقر بين دمشق و الجولان و هم متوجهون الى دمشق، و ذلك لهلال المحرم سنة ١٠ فافتتلوا قتالا شديدا و جرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف، و ولى الروم مفلولين لا يلوون على شىء حتى أتوا دمشق و بيت المقدس. و لما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينة دمشق فأخذوا الغوطة و كنائسها عنوة، و نازلوا دمشق و حاصروها من الباب الشرقى و باب توما و باب الفراديس و باب الجابية و الباب الصغير و فتح نصفها عنوة و النصف الآخر صلحا، فأجراها عمر كلها صلحا. و كتب أهل دمشق كتابا لأبى عبيدة هو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم»: هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق و أرضها و أرض الشام من الأعاجم، إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا و أهل ملتنا، و إنا اشترطنا لك أن لا نحدث فى مدينة دمشق و لا فيما حولها كنيسة و لا ديرا و لا قلاية و لا صومعة

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٦

راهب، و لا نجدد ما خرب من كنائسنا و لا شيئا منها مما كان فى خطط المسلمين، و لا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل و النهار، و أن نوسع أبوابها للمارة و أبناء السبيل، و لا نؤوى فيها و لا فى منازلنا جاسوسا، و لا نكتم على من غش المسلمين، و على أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضربا خفيفا فى جوف كنائسنا، و لا نظهر الصليب عليها، و لا نرفع أصواتنا فى صلاتنا و قراءتنا فى كنائسنا، و لا نخرج صليتنا و لا كتابنا و لا نخرج باعوثا و لا شعانين، و لا نرفع أصواتنا بموتانا، و لا نظهر النيران معهم فى أسواق المسلمين، و لا نجاورهم بالخنازير و لا نبيع الخمر، و لا نظهر شركا فى نادى المسلمين، و لا نرغب مسلما فى ديننا، و لا ندعو إليه أحدا و على أن لا نتخذ شيئا من الرقيق الذى جرت عليه سهام المسلمين، و لا نمنع أحدا من قرابتنا إن أرادوا الدخول فى الإسلام، و أن نلزم ديننا حيثما كنا و لا- نتشبه بالمسلمين فى لبس قلنسوة و لا- عمامة و لا- نعلين و لا فرق شعر و لا فى مراكزهم، و لا نتكلم بكلامهم و لا نتسمى بأسمائهم و أن نجزم مقادم رؤوسنا و نفرق نواصينا و نشد الزناير على أوساطنا، و أن لا ننقش فى خواتيمنا بالعربية و لا نركب السروج، و لا نتخذ شيئا من السلاح، و لا نجعله فى بيوتنا و لا نتقلد السيوف، و أن نوقر المسلمين فى مجالسهم و نرشداهم للطريق، و نقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، و لا نطلع عليهم فى منازلهم، و لا نعلم أولادنا القرآن و لا نشارك أحدا من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة، و أن نضيف كل مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، و نطعمه فيها ثلاثة أيام، و علينا أن لا نشتم مسلما، و من ضرب مسلما فقد خلع عهده.

ضمننا ذلك على أنفسنا و ذرارينا و أرواحنا و مساكننا، و إن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك و قبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، و قد حل لك منا ما حلّ من أهل المعاندة و الشقاق. على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا و أهل ملتنا فأقرونا في بلادكم التي ورثكم الله إياها. شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا و كفى به شهيدا.

و كتب عمر بن الخطاب على النصارى كتابا في هذا المعنى أيضا و هذان

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٧

الكتابان هما من قبيل ما يقرره الفاتحون من الأحكام العسكرية أو الإدارة العرفية كما يسمونها اليوم و هي كما لا يخفى تختلف باختلاف الأمم و الحالات و ليست أصلا من أصول الدين لا يجوز تبديله.

و هذا نص العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد قبل أن يعلم بما صار إليه حال المسلمين في الشق الآخر من المدينة مدينة دمشق:

«بسم الله الرحمن الرحيم»: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها، أعطاهم أمانا على أنفسهم و أموالهم و كنائسهم و سور مدينتهم لا يهدم و لا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله و ذمة رسوله صلى الله عليه و سلم و الخلفاء و المؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.

و ذكر الطبري أن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق في سنة ١٤ فشتى بها، فلما ضاقت الروم سار هرقل بهم حتى نزل أنطاكية و معه من المستعربة لخم و جذام و بلقين و بلى و عامله، و من تلك القبائل من قضاة و غسان بشر كثير، و معه من أهل إرمينية مثل ذلك، و بعث الصقلار خصيا له فسار بمائة ألف مقاتل معه، من أهل إرمينية اثنا عشر ألفا و معه من المستعربة من غسان و تلك القبائل من قضاة اثنا عشر ألفا عليهم جبله بن الأيهم الغساني و سائرهم من الروم. و سار اليهم المسلمون و هم أربعة و عشرون ألفا عليهم أبو عبيدة بن الجراح فالتقوا باليرموك في ١٢ رجب سنة ١٥ (٢٠ آب ٦٣٦) فاقتتل الناس قتالا شديدا. و تدل عبارة الطبري على أن فتح دمشق كان قبل فتح اليرموك و المعقول المعول عليه أن فتح اليرموك كان قبل فتح دمشق.

فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبك و صيدا و بيروت و جبيل و عرقه:

و بينا المسلمون على حصار دمشق، و قد حوصرت ستة أشهر، أقبلت خيل من عقبة السليمة مخمرة بالحرير فثار إليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لهيا قرب دومة و العقبة التي أقبلوا منها، فهزموهم و طردوهم الى أبواب حمص، فلما رأى أهل حمص ذلك ظنوا أنهم فتحو دمشق فقال

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٨

لهم أهل حمص: إنا نصالحك على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا، و لما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار الى حمص فاستقراها و أجرى صلحها على مثل صلح بعلبك، ثم مضى نحو حماة فتلقيه أهلها مدعين، فمضى نحو شيزر و بلغت خيله الزراعة و القسطل. و مر أبو عبيدة بمعرة النعمان فخرج أهلها يقلسون (يلعبون) بين يديه ثم اتى فامية (قلعة المضيق) ففعل أهلها مثل ذلك، و بعث خالد بن الوليد الى البقاع ففتحه بالسيف، و بعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون و على الروم رجل يقال له سنان تحدر على المسلمين من عقبة بيروت، فقتل منهم يومئذ جماعة من الشهداء، فكانوا يسمون عين ميسنون عين الشهداء.

و استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان شقيق معاوية كما وعده بها الصديق، فسار يزيد الى صيدا و بيروت و جبيل و عرقه ففتحها فتحا يسيرا، و بعث يزيد دحية بن خليفة الى تدمر في سرية ليمهدوا أمرها، و بعث أبا الزهر القشيري الى البثنية و حوران فصالح أهلها.

قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال:

و سار أبو عبيدة الى قنسرين فصالحه أهلها على مثل صلح حمص، و غلب المسلمون على أرضها و قراها، ثم سار الى حلب و حاصرها ففتحها، و بعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم و عليهم مينا، و هو رأس الروم و أعظمهم فيهم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر فقتل مينا و من معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها. فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، و أما أهل الحاضر فأرسلوا الى خالد أنهم عرب، و أنهم إنما حشروا و لم يكن من رأيهم حربته فقبل منهم و تركهم. و سار أبو عبيدة الى أنطاكية و قد لحق بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بمهروبة قريب فرسخين من أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضهم و ألجأهم الى المدينة فحاصرها، ثم صالحه أهلها على الجزية و الجلاء فجلا بعضهم و أقام بعضهم. و وجه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي الى

خطط الشام، ج ١، ص: ٨٩

درب بغراس (بيلان) فلقى جمعا للروم و معهم مستعربة من غسان و تنوخ يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم و قتل منهم مقتلة عظيمة. و بلغ أبا عبيدة أن جمعا للروم بين معرة مصرين و حلب فلقاهم و قتل عدة بطارقة و فض ذلك الجيش، و فتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، و جالت خيوله فبلغت بوقا و فتحت قرى الجومة و سرمين و مرتحوان و تيزين و عزاز و صالحوا أهل دير طبايا و دير الفسيلة؟ على أن يضيفوا من مربيهم من المسلمين، و أتاه نصارى خناصره في سيف البادية فصالحهم، و فتح أبو عبيدة جميع أرض قنسرين و أنطاكية و اللاذقية. و ورد عبادة بن الصامت السواحل ففتح مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبله و انطرسوس و مرقبة و بانياس، ثم صالح أبو عبيدة أهل قورس و بث خيله فغلب على جميع أرض قورس الى آخر حد نقابلس، و فتح منبج و دلوك و رعبان و عراجين و بالس و قاصرين، و بلغ أبو عبيدة الفرات و اشترط على أهل رعبان و دلوك أن يبحثوا عن أخبار الروم و يكتبوا بها المسلمين.

وقعة مرج الروم و قيسارية:

و في سنة خمس عشرة كانت الوقعة بمرج الروم، و كان من ذلك أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فحل الى حمص، و انصرف بمن أضيف إليهم من البيروك فنزلوا جميعا على ذى الكلاع، و قد بلغ الخبر هرقل فبعث تيودرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق و غربها، فنزل أبو عبيدة بمرج الروم فنازله يوم نزل عليه شنس الرومي في مثل خيل تيودرا إمدادا لتيودرا و رداء لأهل حمص فنزل في عسكر على حدة، فلما كان من الليل أصبحت الأرض من تيودرا بلاقع، و كان خالد بإزائه و أبو عبيدة بإزاء شنس، و أتى خالد الخبر أن تيودرا قد رحل الى دمشق فأجمع رأيهم و رأى أبي عبيدة أن يتبعه خالد و هم يقتلون، فأخذهم من خلفهم فقتلوا من بين أيديهم و من خلفهم، فأناموهم و لم يفلت منهم إلا الشريد، فأصاب المسلمون ما شأوا من ظهر و أداة و ثياب. و ناهد أبو عبيدة بعد خروج خطط الشام، ج ١، ص: ٩٠

خالد في إثر تيودرا و شنس و امتلأ المرج من قتلاهم فأنتنت منهم الأرض و هرب من هرب منهم فلم يفلتهم و ركب أكتافهم الى حمص.

هكذا تم فتح الشام على هذا الوجه المحكم في ثلاث سنين و لم تعص إلا قيسارية فإن معاوية فتحها سنة ١٩ بعد أن حوصرت نحو سبع سنين، و كان أهلها يزاحفون معاوية و جعلوا لا يزاحفونه مرة إلا هزمهم و ردهم الى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك و خرجوا من صياصيمهم فاقتتلوا في حفيظة و استماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفا و كملها في هزيمتهم مائة ألف (الطبرى). و كانت قيسارية من أعيان أمهات المدن قيل كان مقاتلة الروم الذين يرزقون فيها مائة ألف، و سامرتها ثمانون ألفا، و يهودها مائة ألف (ياقوت). و كان كتاب عمر الى معاوية: أما بعد فإنني قد وليتك قيسارية فسر إليها و استنصر عليهم و أكثر من قول لا حول و لا قوة إلا بالله، الله ربنا و ثقنتنا و رجاؤنا و مولانا، نعم المولى و نعم النصير.

و من المدن التي امتنعت و حوصرت زمنا طويلا مدينة عسقلان، كتب عمر بن الخطاب الى معاوية يأمره بتتبع ما بقى من فلسطين ففتح عسقلان سنة ٢٣ هـ صلحا بعد كيد. و يقال: إن عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقض أهلها و أمدهم الروم، ففتحها معاوية و أسكنها الروابط و وكل بها الحفظه.

سر نجاح المسلمين و قتال نسايم يوم اليرموك:

بمثل تلك الجيوش القليلة التي ظهرت على جيوش الروم و من الاله فتح العرب هذا القطر العزيز، و كانت قوتهم في معظم الوقائع على نسبة واحد الى ثلاثة أو أربعة من قوة أعدائهم بعد أن قطعوا بوادي الحجاز و العراق و الشام على جمالهم و خيولهم، قليل عتادهم، جليل جهادهم.

و ساروا في فلووات لا- ماء فيها يستقون منه، و لا مراعى يرعون فيها أنعامهم، و لا ميرة يمتارونها، و كل ما لديهم من الماديات قليل ضئيل، و لكن معنوياتهم كانت فوق معنويات من رحلوا إليهم و كان كل فرد من

خطط الشام، ج ١، ص: ٩١

أفراد جيوشهم يعتقد بأنه إن مات مات شهيدا، و إن عاش عاش سعيدا.

أما الروم فكانوا على كثرة جيوشهم، و وفرة أسبابهم من المؤن و الذخائر في أرض عامرة هي و ما وراءها الى أرض الروم، و النجدات تأتيهم أرسالا- على أيسر سبيل، و مع هذا فقد كثرت هزائمهم و وعد قتالهم بالألوف و قتلى العرب بالمئات، و تركوا أرضا عرفوا معالمها و مجاهلها فلم تغن عنهم كثرتهم و لا- وفرة أسبابهم، فقهرروا و غلبوا على أمرهم، و هاموا على رؤوسهم لا- يلويهم شيء، و ذلك لأنهم كانوا متفسخين مشته أهواؤهم، و الناس هنا قد يسوا من عدل الرومان في أواخر أيامهم حتى إنهم لما طلبوا مالا من منصور عامل هرقل بدمشق لاستئجار رجال يحاربون المسلمين نادى بأن ليس لديه مال، ليسمع الناس و يأسوا و يفتح السبيل للمسلمين.

و كان هرقل كتب الى منصور هذا أن يمسك عليه الرجال بالمال فأبى منصور و قال: إن الملك غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم، و إن العرب قوم غزاة، و هذا العسكر يحتاج الى مال كثير و ليس بدمشق مال عظيم.

قال ابن بطريق: أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم فيتفرقوا و يسلم دمشق الى المسلمين.

و لعل لتأليف جيش الروم، و كان مؤلفا من أجناس و أخلاط دخلا في الهزيمة، و ربما كان رجال الدين من الروم في دمشق يوم الفتح العربي مستائين من القواعد التي سننها هرقل ليضع حدا للمنازعات الدينية، و لعلهم عاونوا على تسليم دمشق للعرب أو تركوا المسائل تجرى في أعتها. و لكن من المحقق أن العرب المنتصرة في الشام عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين و أخذتهم التعة الجنسية فغلبوها على التعة الدينية و أصبحوا للمسلمين عيونا على الروم و أن اليهود و السامرة كانوا مع المسلمين الفاتحين. قال هوار: توصل الامبراطور أن يجمع في حمص ثمانين ألف مقاتل نصفهم من جنده و النصف الآخر من معاونين أرمن، و كانت النجدات تتوالى عليه إلا- أن الشقاق الداخلي كان يمزق أحشاء الجيش الروماني، و قد شغب الجنود من الأرمن و طلبوا أن يكون ماهان امبراطورا قبيل وقعة اليرموك.

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٢

لا- جرم أن سلاح الروم كان أمضى من سلاح العرب، و نظامهم الظاهري كان أجلى. قال سيديليو: كان جيش الروم يفوق جيش العرب بلباسه، و خبرة ضباطه، و نوع سلاحه، و غنى دور صناعاته و مناعة حصونه، و سهولة المواصلات و التموين عليه. و الروم يعرفون الخطط و يمسون البحر و لهم من ورائهم ولايات مأهولة مخصبة. أما العرب فكانوا جاهلين معدمين ليس لهم شيء من الأسباب المادية، و لا يحسنون من ضرور الحرب غير حروب العصابات على أصول البادية، و قد يعمدون الى الفرار أحيانا، و يرى

جيشهم لأول وهلة كأنه عصابات مجموعة كيفما اتفق:

الفرسان وسط المشاة، و من الجنود من يسترون بعض أجسامهم و منهم العراء. و سلاح كل واحد كما يحب من قوس الى حربى أو دبوس و سيف و رمح. قال: و وجه الغرابة أن يضيف العرب الى المفاداة احترام النظام يضاف إليهما عظمة العواطف، و هم طالما و صموا بأنهم متوحشون ظلما و تعنتا.

قلنا: و هكذا كان شأن العرب فى سائر فتوحاتهم فى آسيا و إفريقيا و أوروبا، كانت معنوياتهم فى كل مكان أرقى من معنويات من غلبوهم على أمرهم، و دون ماديات أمم كانت راسخه القدم فى أرضها، عزيزة السلطان فى ربوعها، و حاجياتها منها على طرف الثمام تأتيها بدون تعمل كثير. و كان العرب يتبلغون و دوابهم بميسور العيش. حتى إن خالد بن الوليد لما سار فى جيشه من العراق الى الشام من طريق البرية لتخرج من وراء جموع الروم لأنه كان يرى أنه إذا استقبلها حبسته عن غياث المسلمين، سقى الجمال مرتين لقله الماء فى الطريق، فكلما نزل منزلا نحر و جعل أكراشها على النار و شرب القوم.

و من أعظم العوامل فى غلبه المسلمين خوف الهزيمة من الزحف، و كانت الهزيمة أو التخلف عن الجهاد من أعظم العار، بل من الكبائر التى لا- يرحم فاعلها. فقد ذكروا أن فلّ جيش مؤته لما رجع الى المدينة جعل الناس يحثون عليهم التراب و يقولون: يا فزار فررتم فى سبيل الله. فقال النبى (عليه الصلاة و السلام): ليسوا بالفرار و لكنهم الكرار إن شاء

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٣

الله. هذا و كان فى جملة أولئك الفرار خالد بن الوليد سيف الله و عن رأيه رجع الجيش.

و كان للنساء يد طولى فى نصره العرب. فقد تطوع أبو سفيان بن حرب فى حرب الشام و كانت له تجارات و أملاك فى الجاهلية، و له قرية فى البلقاء اسمها نقتس. و كان شيخ مكة بل شيخ تجار قريش و رئيسهم، و من أعظم أهل الرأى و المكانة فيهم، و هو كابنه معاوية من المؤلفه قلوبهم ثم حسن إسلامهما، و قد حارب الرسول كثيرا و قال له الرسول يوم أسلم فى فتح مكة سنة ثمان للهجرة: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق عليه بابه فهو آمن». و جاء الشام فى الإسلام فى مشيخة من قريش يحارب تحت رايه ابنه يزيد و كان له و لابنيه يزيد و معاوية بل و لجماعة من أسرته بل للنساء منهن اليد الطولى و الكعب المعلى فى فتح الشام.

و مما قاله أبو سفيان للنساء اللاتى مع المسلمين، و كان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن و أبنائهن، و قد أجلسهن خلف صفوف المسلمين فأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن: لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميته بهذه الحجارة و قلتن له: من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام و أهله و عن النساء و هم أمام العدو. و لما حمى الوطيس و استقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين معهن بعمد البيوت أو عمد الفساطيط و أخذن يضربن وجوههم و يرمين بالحجارة و يقلن: أين أين عز الإسلام و الأمهات و الأزواج. و لقد قاتل بعض النساء بالفعل يوم اليرموك مثل جويرية ابنة أبى سفيان و كانت مع زوجها. قال البلاذرى: و قاتل يوم اليرموك نساء المسلمين قتالا شديدا و فيهن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان. و قال الطبرى: و قاتل نساء من نساء قريش يوم اليرموك بالسيوف حتى سابقن الرجال منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام.

وصف رومى العرب، و كان أسيرا فى أيديهم فأقلت، و سأله هرقل عنهم فقال: «أخبرنى عن هؤلاء القوم، فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم «فرسان بالنهار، رهبان بالليل، ما يأكلون فى ذمتهم إلا بثمان،

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٤

و لا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال: لئن كنت صدقتنى ليرثنّ ما تحت قدمى هاتين».

و لما انتصر المسلمون بفحل و قدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية دعا رجالا منهم فأدخلهم عليه فقال: حدثونى و يحكم عن

هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أو هم؟ قالوا: بل نحن. قال: فما بالكم؟ فسكتوا، فقام شيخ منهم وقال: ألا- أخبرك إنهم إذا حملوا صبروا و لم يكذبوا، و إذا حملنا لم نصبر و نكذب، و هم يأمرن بالمعروف و ينهون عن المنكر و يرون أن قتلاهم فى الجنة و أحياءهم فائزون بالغنيمه و الأجر. فقال: يا شيخ لقد صدقتنى و لأخرجن من هذه القرية و مالى فى صحبتكم من حاجه، و لا فى قتال القوم من أرب. فقال ذلك الشيخ: أشدك الله أن تدع سوريه جنه الدنيا للعرب و تخرج منها و لم تعذر. و ما زال به حتى ثناه الى المقام و أرسل الى روميه و قسطنطينيه و إرمينييه و جمع الجيوش و قاتل العرب.

و بعث أخو ملك الروم لما تراءى العسكران فى اليرموك رجلا عربيا من قضاعه و قال له: ادخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوما و ليلة ثم ائتنى بخبرهم فدخل فى الناس رجل عربى لا ينكر فأقام فيهم ثم أتاه فقال:

ما وراءك قال: هم رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، و لو زنى رجموه إقامة للحد. فقال صاحب جيش الروم:

لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها.

و مما أعانهم على تأييد سلطانهم تسامحهم مع أهل الذمه و حمايتهم لهم؛ فكانوا كأنهم بين أهلهم و عشيرتهم، لا يرهبون من وراءهم كما أنهم لم يرهبوا من أمامهم. روى البلاذرى أن هرقل لما جمع للمسلمين الجموع و بلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج و قالوا: قد شغلنا عن نصرتكم و الدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم و عدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم و الغشم، و لندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٥

و نهض اليهود فقالوا: و التوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب و نجهد.

قال غستاف لبون: لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ نحو سبعمائة سنة، فأبانوا عن تسامح مع كل مدن الشام و لذلك رضى السكان بسلطتهم مختارين، و انتهت بهم الحال أن اطرحوا النصرانية و قبلوا دين الفاتحين و تعلموا لسانهم. و قال دى تورى: إن الخطر الذى اندفع عن الشام من جهة الفرس على يد الإمبراطور هرقل عاد فداهمها من جهة جزيرة العرب، و لكنه خطر كانت فيه سلامتها من الانحلال و الاضمحلال، و ذلك أن العرب هاجمتها و قد أصبح العرب أمه برسولهم فزعزعوا أركان المملكة الرومانية. و فى سنة ٦٣٦ فتحت دمشق و بعد سنتين فتحت القدس و لم تدخل سنة ٦٣٩ حتى فتحت الشام كله، و ساد فيه السلام بدل الخصام، فمن آمن عصم دمه و ماله، و من لم يؤمن دفع الجزية و اعتصم فى الجبال فتركه الفاتحون و شأنه اه.

وداع صاحب الروم و آخر سهم فى كنانتهم:

لما دخل اليأس على هرقل من الشام سار عنه الى القسطنطينية من الرها فالتفت الى الشام عند مسيره و هو على نشز و قال: «السلام عليك يا سوريه سلام لا اجتماع بعده، و لا يعود إليك رومى بعدها إلا خائفا حتى يولد الولد المشؤوم و ليته لم يولد فما أجل نفعه و أمر فتنته على الروم».

و لم يفسر المؤرخون الذين نقلوا عبارة هرقل هذه معنى «الولد المشؤوم» و قيل: إنه قال باليونانية «سوزه سوريه» أى كونى بسلام. و قد أخذ هرقل أهل الحصون التى بين الإسكندرونه و طرسوس معه لثلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية و أرض الروم، و شعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا.

و فى سنة ١٧ قصدت الروم أبا عبيده بحمص فضم أبو عبيده إليه مسالحه و عسكروا بفناء حمص، و أقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح، و كتب أبو عبيده الى عمر بخروج الروم عليه

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٦

و شغلهم أجناد الشام عنه، وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان. فكان بالكوفة أربعة آلاف فرس، فلما وقع الخير لعمر كتب بأن يسرح الجند منها الى الشام مددا لأبي عبيدة. و لما أحيط بالمسلمين جمع أبو عبيدة الناس فحمد الله و أثنى عليه و قال: أيها الناس إن هذا يوم له ما بعده أما من حيي منكم فإنه يصفو له ملكه و قراره، و أما من مات منكم فإنها الشهادة.

فأحسنوا بالله الظن و لا يكرهن اليكم الموت أمر اقترفه أحدكم دون الشرك، توبوا الى الله و تعرضوا للشهادة فإنى أشهد، و ليس أو ان الكذب، أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. و كأنما كان فى الناس عقل تنشطت، فخرج بهم و خالد على الميمنة و عباس على الميسرة و أبو عبيدة فى القلب و على باب المدينة معاذ بن جبل فاحتلدوا بها، فإنهم كذلك إذ قدم القعقاع متعجلا فى مائة و انهزم أهل قنسرين بالروم، فاجتمع القلب و الميمنة على قلبهم، و قد انكسر أحد جناحيه و أوعبوا المدد، فما أفلت منهم مخبر، و ذهبت الميسرة على وجهها، و كان آخر من أصيب منهم بمرج الديباج انتهوا إليه فكسروا سلاحهم و ألقوا يلامقهم تخفيفا فأصيبوا و تعنموا. و لما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة فخطبهم و قال: لا- تتكلموا و لا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث.

منزلة أبى عبيدة و بعد نظر عمر:

توفى أبو عبيدة فى طاعون عمواس سنة ١٩ و كان من أعماله فى الشام و عدله ما حبه الى الروم حتى إنهم لما فتحوا له باب الجابية بدمشق سنة أربع عشرة للهجرة و دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقى عنوة، قال خالد لأبى عبيدة: اسبهم فإنى دخلت و شرحيل بن حسنة عنوة، فأبى أبو عبيدة. و لذلك كان الروم يميلون الى أبى عبيدة دون خالد
خطط الشام، ج ١، ص: ٩٧

ابن الوليد. و لما طعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين فقال: إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، و آتوا الزكاة، و صوموا شهر رمضان، و تصدقوا و حجوا و اعتمروا، و تواصلوا، و انصحو لأمرائكم، و لا تغشوهم، و لا تلهكم الدنيا، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير الى مصرعى هذا الذى ترون، إن الله تعالى كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون، و أكيسهم أطوعهم لربه، و أعملهم ليوم معاده و السلام عليكم و رحمة الله. يا معاذ ابن جبل صلّ بالناس و مات رضى الله عنه. و كان عهد بولاية دمشق لسعيد العدوى و سويد الفهرى و كلهم من الصحابة الكرام. و كان عياض ابن غنم مع ابن عمه أبى عبيدة بن الجراح فى الشام، فلما توفى أبو عبيدة استخلفه بالشام فأقره عمر بن الخطاب و قال: لا أغير أميرا أمره أبو عبيدة.

و لما ولى أبو عبيدة معاذا قام هذا فى الناس فقال: أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا، فإن عبدا لا يلقى الله تعالى إلا تائبا من ذنبه إلا- كان حقا على الله أن يغفر له، من كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتتهن بدينه، و من أصبح منكم مهاجرا أخاه فليلقه فليصالحه، و لا- ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، و الخطب العظيم أنكم أيها المسلمون قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا، و أبعد من الغائلة، و لا أشد حبا للعامّة، و لا أنصح للعامّة منه، فترحموا عليه رحمة الله تعالى، و احضروا الصلاة عليه.

و أقام معاذ على إمرته و لم تطل مدته حتى مات فى طاعون عمواس فى هذه السنة و استخلف معاذ عمرو بن العاص. و لما قدم عمر الى الشام بالجابية أمر عمرو بن العاص بالمسير الى مصر، و بقى الشام ليزيد بن أبى سفيان، و لم يطل أمد ولايته طويلا حتى هلك فى طاعون عمواس أيضا.

و عمواس من الرملة على أربعة أميال مما يلى بيت المقدس. و الطاعون الذى عرفت به مات به خمسة و عشرون ألفا و طمع العدو فى الشام بسببه.

و أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة كان عظيما بإخلاصه للإسلام،

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٨

عظيما بنفسه و عدله و شجاعته، و الشام مدين لفضله بفتحته و تمهيد أموره.

ذكر أهل الأخبار عن عائشة أنها قالت: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد و رمى رسول الله في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر فأقبلت أسعى إلى رسول الله و إنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانا فقلت: اللهم اجعله طاعة حتى توافينا إلى رسول الله، فإذا أبو عبيدة ابن الجراح قد بدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنزعه من وجنه رسول الله قال أبو بكر: فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المغفر فزعرها و سقط على ظهره و سقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت، فكان أبو عبيدة في الناس أثرم.

هذا مثال من قوة نفس أبي عبيدة و حبه لرسول الله. شهد أبو عبيدة و اسمه عامر بن عبد الله بدرا و أحدا و ثبت يوم أحد مع الرسول حين انهزم الناس و ولوا، و شهد الخندق و المشاهد كلها مع رسول الله و كان من عليه أصحابه. طلب أهل نجران من الرسول أن يبعث معهم رجلا أمينا.

قال: لأبعثن إليكم رجلا أمينا حق أمين حق أمين قالها ثلاثا:

فبعث أبا عبيدة. قال أبو عبيدة و هو أمير على الشام: يا أيها الناس إنى امرؤ من قريش و ما منكم من أحد أحمر و لا أسود يفضلني بتقوى إلا- وددت أنى فى مسلاخه. قال عمر بن الخطاب لجلسائه: تمنوا فتمنوا فقال عمر بن الخطاب: لكنى أتمنى بيتا ممتلئا رجلا مثل أبى عبيدة بن الجراح قال سفيان فقال له رجل: و ما ألوت الإسلام فقال: ذاك الذى أردت. و قال عمر بن الخطاب: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته و ما شاورت، فإن سئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله و أمين رسوله، و فى روايه لو سألتنى عنه ربي لقلت سمعت نبيك يقول: هو أمين هذه الأمة، و قال عمر: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى، أما عمالهم فلا يرفعونها و أما هم فلا يصلون إلى، فأسير إلى الشام فأقيم شهرين و بالجزيرة شهرين و بمصر

خطط الشام، ج ١، ص: ٩٩

شهرين و بالبحرين شهرين و بالكوفة شهرين و بالبصرة شهرين. و كان عماله على مثاله من العدل و الزهد و حب الحق. قالوا: إنه ولى سعيد بن عامر ابن حذيم حمص و كان لا يقبض رزقه و عطاءه، و لما قدم عمر حمص أمر أن يكتبوا له فقراءهم فرفع الكتاب إليه فإذا فيه سعيد بن عامر، فبكى عمر ثم عد ألف دينار فصرّها و بعث بها إليه فبكى سعيد و انتحب ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأعطاهم إياها، و لامته زوجته على عمله و قالت:

لو كنت حبست منها شيئا نستعين به فلم يلتفت إلى قولها.

بمثل هؤلاء النواذب المخلصين فتحت الأمصار و تمهدت، و دخل الناس فى الإسلام أفواجا. و بمثل هذه الأمانة و العدل و الإحسان استمال العرب القلوب فأصبح أعداؤهم أولياءهم، بعد أن شاهدوا عيانا ما انطوت عليه تلك النفوس الكبيرة. قالوا: إن الأقطار الحارة ضنينة بالنواذب العاملين فأكذب العرب فى هذا المثال من فتوحهم ذاك النظر بمن أخرجوا من رجالاتهم الذين أدهشوا، على قلتهم و فقرهم، العالم المعروف إذ ذاك بشجاعتهم و صبرهم، و قناعتهم و إخلاصهم، و توجيه قوى الصغير و الكبير منهم إلى مقصد واحد، أى إنهم كانوا موحدين فى عقائدهم، موحدين فى مقاصدهم، و هذا غريب من نصف أميين ليس لهم فى المدنية قدم راسخه. خطط

الشام؛ ج ١؛ ص ١٠٠

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٠

الدولة الأموية «من سنة ١٨ إلى ١٣٢»

إمارة معاوية بن أبي سفيان:

لما هلك يزيد بن أبي سفيان والى دمشق سنة ١٨ ولى عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان فلم يزل واليا لعمر حتى قتل عمر. ثم ولاه عثمان بن عفان وأقر عمال عمر على الشام، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني و كان على فلسطين ضم عمله الى معاوية. و كان عمير بن سعيد الأنصاري فى سنة ٢١ على دمشق و البثية و حوران و حمص و قنسرين و الجزيرة، و معاوية على البلقاء و الأردن و فلسطين و السواحل و أنطاكية و معرة مصرين و قليقية، ثم جعل عمير فى سنة ٢٣ على حمص و معاوية على دمشق، ثم تولى عمير بن سعيد حمص و قنسرين، و علقمة بن مجز فلسطين، و عمير بن سعيد هو الذى قال على منبر حمص: ألا إن الإسلام حائط منيع و باب وثيق، فحائط الإسلام العدل و بابه الحق، فإذا نقض الحائط و حطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان و ليس شدة السلطان قتلا بالسيف و لا ضربا بالسوط، و لكن قضاء بالحق و أخذًا بالعدل.

اجتمع الشام على معاوية لستين من إمارة عثمان، أى فى السنة الخامسة و العشرين للهجرة أضاف عثمان الى معاوية حمص و حماة و قنسرين و العواصم و فلسطين مع دمشق و رزقه ألف دينار كل شهر.

و بعث معاوية عمرو بن العاص الى مصر و معه أهل دمشق عليهم يزيد

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠١

ابن أسد البجلي، و على أهل فلسطين رجل من خثعم، و معاوية بن حديج على الخارجه، و أبو الأعمور السلمي على أهل الأردن، فساروا حتى قدموا مصر فاقتتلوا بالمسناة و على أهل مصر محمد بن أبي بكر فهزم أهل مصر بعد قتل فى الفريقين جميعا. قال عمرو: شهدت أربعة و عشرين زحفا فلم أر كيوم المسناة و لم أر الأبطال إلا يومئذ. فلما هزم أهل مصر تغيب محمد بن أبي بكر فأخبر معاوية بن حديج بمكانه فمشى إليه فقتله.

و من الأحداث مع الروم غزوة معاوية بن أبي سفيان (سنة ٢١) و صلح أبي هاشم ابن عتبة على قليقية و أنطاكية و معرة مصرين. و جاشت الروم (٢٤) حتى استمد من بالشام من جيوش المسلمين من عثمان مددا فأمدهم بثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فدخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم و شنوا الغارات فأصاب الناس ما شاءوا من سبى و ملأوا أيديهم من المغنم و افتتحوا بها حصونا كثيرة، و غزا قبرس (٢٨) فصالحه أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة. و خرج أهل الشام (٣١) و عليهم معاوية و على البحر عبد الله بن سعيد، و خرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام فخرجوا فى خمس مائة مركب، فربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض حتى كان يضرب بعضهم بعضا على سفن المسلمين و سفن الروم و قاتلوهم أشد قتال، و وثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن و يتواجأون بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج، و طرحت الأمواج جث الرجال ركاما. ثم انتصر المسلمون و انهزم قسطنطين مدبرا فما انكشف إلا لما أصابه من القتل و الجرح.

و افتتح معاوية جزيرة أرواد فى السنة الثالثة لعثمان و هدم سورها و أحرقها و جلا أهلها الى الشام. و وجه ملك الروم الى معاوية يسأله الصلح، فأجاب إليه على أن يكون عنده عدة من أهل بيته رهائن. و فى السنة الثامنة لعثمان وجه معاوية بجيوش الى جزيرة رودس فأخذوها و رتبوا بها المسالحو و جعلوها منظره للعرب. و فى السنة الثالثة لمعاوية كانت غزوة بسر بن أرطاة الروم دفعة ثانية و سبى بها و هزمت الروم حتى بلغت القسطنطينية، و فى سنة ٤٨

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٢

سير معاوية جيشا كثيفا الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف، و توفى فى مدة الحصار أبو أيوب الأنصاري و دفن بالقرب من سورها. و فى سنة ثلاث عشرة لمعاوية غزا بسر بن أرطاة الروم فقتل و أخرج معه سبيا كثيرا. و فى السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم فى البحر و صاروا الى لوقية فخرج إليهم ثلاثة بطارقة فقتل الروم من العرب ثلاثين ألفا و من بقى منهم ركب البحر، فلما توسطوه

لحقهم بعض الروم فى سفينة فألقى النار فى سفن فاحترقت كلها و فازت الروم و هم أول من أخرج النار و صارت لهم عادة. و فى السنة السابعة عشرة ركب الروم السفن و أقبلوا فيها فى البحر حتى أتوا ساحل صور و صيدا ثم خرجوا من السفن و استولوا على جبل لبنان، و كان الناس يسمونهم الجراجمه و انتشروا من جبل الجليل الى الجبل الأسود، و ذلك أن قسطنطين دسهم ليشغلوا العرب عن الغزو.

و لم يكد معاوية يتولى الأمر بالشام حتى أخذ بما أوتيه من عقل و حلم يضع أساس الملك و يسير فى رعيته سيرة حسنة حبته إليهم، و كان يتأنى الأمور و يدارى الناس على منازلهم، و يرفق بهم على طبقاتهم، فأوسع الناس من أخلاقه، و أفاض عليهم من بره و عطائه، و شملهم من إحسانه، فاجتذب القلوب و استدعى النفوس، حتى آثروه على الأهل و القرابات و عدّ «مربى دول و سائس أمم و داعى ممالك».

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

و لطالما أفضل على أشرف قريش مثل عبد الله بن العباس و عبد الله ابن الزبير و عبد الله بن جعفر الطيار و عبد الله بن عمر و عبد الرحمن بن أبى بكر و أبان بن عثمان و ناس من آل أبى طالب يقدون عليه بدمشق فيكرم مثنوهم، و منهم عقيل بن أبى طالب شقيق على بن أبى طالب قدم على معاوية بالشام فأمر له معاوية بثلاثمائة ألف دينار و قال له: هذه مائة ألف تقضى بها ديونك و مائة ألف تصل بها رحمك و مائة ألف توسع بها على نفسك. و كان عقيل قدم من قبل على أخيه فى الكوفة فشكا له الضائقة فوعده بأن يعطيه عطاء إذا خرج فقال عقيل: و إنما شخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك و ماذا يبلغ منى عطاؤك و ما يدفع من

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٣

حاجتى؟ و كان معاوية مدة حكمه فى الشام أميرا نحو عشرين سنة، و خليفه مثلها يعمد الى المال فينفقه إذا رأى هناك مصلحة، و ما ينحسم بالمال و حسن التدبير لا يحله بإهراق الدماء إلا بعد الاضطرار الشديد.

مقتل عثمان بن عفان:

و بينا كان معاوية فى الشام مستقلا بعض الاستقلال بعيدا عن كل شغب أخذ الناس ينقمون فى الحجاز و غيره على عثمان لست سنين من خلافته و تكلم فيه من تكلم. «فاجتمع ناس من أصحاب النبى عليه الصلاة و السلام كتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة رسول الله و سنة صاحبيه، و ما كان من هبته خمس إفريقية لمروان و فيه حق الله و رسوله و منهم ذوو القربى و اليتامى و المساكين، و ما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة دارا لثائلة و دارا لعائشة و غيرها من أهله و بناته، و بنيان مروان القصور بنى خشب و عمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله و رسوله، و ما كان من إفشائه العمل و الولايات فى أهله و بنى عمه من بنى أمية أحداث و غلمة لا صحبة لهم من الرسول و لا تجربة لهم بالأمر». هذه خلاصة دعواهم عليه و قد دفع عن نفسه كل ذلك فما اقتنعوا و لا كفوا عن النيل منه.

و ما زال عثمان على شيخوخته مغلوبا لمروان و بنى أمية و أهم ما عدوا عليه توسيده الأمور لهم، حتى قتل فى المدينة و تولى الخلافة على بن أبى طالب.

و كان معاوية على مثل اليقين من أن عليا لا يقره على الشام فكان كما ظن، و هنا ظهر نبوغ معاوية السياسى حتى بلغ ما أراد و قسم الأمة شطرين له و عليه و كانت كفته الراجحة. و لما بعث على عماله على الأمصار كان من جملة من بعث سهل بن حنيف الى الشام، فأما سهل فإنه لما انتهى الى تبوك و هى تخوم أرض الشام استقبلته خيول لمعاوية فردوه فانصرف الى على فعلم على عند ذلك أن معاوية قد خالف و أن أهل الشام بايعوه.

و اختلفت الآراء فى تبعه معاوية من مقتل عثمان فقال فريق: إن عثمان كتب الى معاوية: «إن أهل المدينة قد كفروا و خلعوا الطاعة و

تكتوا البيعة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٤

فابعت الی من قبلک من مقاتله أهل الشام على كل صعب و ذلول».

فتربص به معاوية و کره إظهار مخالفه أصحاب رسول الله و قد علم اجتماعهم فأبطأ أمره على عثمان حتى قتل فيما قيل.

آمال على بن أبى طالب فى الخلافة:

و لم يتخلف معاوية عن مبايعة على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فقط، بل قام يطالب بدم عثمان و يتهم عليا بقتله لأن عليا كان يحتج على الصحابة منذ يوم البيعة لأبى بكر و يقول: أنا أجدر بهذا الأمر منكم لا أبايعكم و أنتم أولى بالبيعة لى حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح:

«يا ابن عم إنك حديث السن و هؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم و معرفتهم بالأمور، و لا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، و أشد احتمالاً و اضطلاعاً فسلم لأبى بكر، فإنك إن تعش و يطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق و حقيق فى فضلك و دينك و علمك و فهمك و سابقتك و نسبك و صهرك». و قد وقعت لعلى تأوهات فى المطالبة بالخلافة و أنه بغى عليه فى ذلك و غمط حقه فى عهد الثلاثة الخلفاء، و لذلك كان فى تساهله بالدفاع عن عثمان وجه عند بعضهم على حين ثبت أن عليا قرع عثمان على التفريط و أنذره بأن عاقبته تكون القتل بقوله:

أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذى يقتل فيفتح عليها القتل و القتال الى يوم القيامة.

و ذكر ابن حزم أن امتناع معاوية من بيعه على كاستناع على من بيعه أبى بكر، فما حارب أبو بكر و لا أكرهه و أبو بكر أقدر على على من على على معاوية، و معاوية فى تأخره عن بيعه على أعذر و أفسح مغارا من على فى تأخره عن بيعه أبى بكر، لأن عليا لم يمتنع من بيعه أبى بكر أحد من المسلمين غيره بعد أن بايعة الأنصار و الزبير، و أما بيعه على فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها إما عليه و إما لا له و لا عليه، و ما تابعهم فيه الا الأقل سوى أزيد من مائة ألف مسلم بالشام و العراق و مصر و الحجاز كلهم امتنع من بيعته، فهل معاوية إلا كواحد من هؤلاء فى ذلك؟ الى أن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٥

قال بشأن البيعة: فصح أن عليا هو صاحب الحق الإمام المفترضة طاعته و معاوية مخطيء مأجور مجتهد قال: و لم يقاتل على معاوية لإمتناعه من بيعته لأنه كان يسعه فى ذلك ما وسع ابن عمر و غيره و لكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره فى جميع أرض الشام و هو الإمام الواجبة طاعته، فعلى المصيب فى هذا و لم ينكر معاوية قط فضل على و استحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه الى رأى تقديم أخذ القود من قتله عثمان رضى الله عنه على البيعة، و رأى نفسه أحق بطلب دم عثمان و الكلام فيه عن ولد عثمان و ولد الحكم بن أبى العاص لسنه و لقوته على الطلب بذلك.

اتفاق معاوية و عمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان:

اغتنم معاوية هذه الفرصة السانحة فى مقتل عثمان ليعيد الأمر الى بنى أمية و يصبحوا أمراء فى الإسلام كما كانوا أمراء فى الجاهلية. و كان النعمان ابن بشير أتاه الى دمشق من المدينة بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضبا بدمه و بأصابع نائلة زوجته فوضع القميص على منبر دمشق، و كتب بالخبر الى الأجداد، و ثاب اليه الناس و بكوا سنه و هو على المنبر و الأصابع معلقة فى أردانه، و تعاهد الرجال من أهل الشام على قتل قتله عثمان و من عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم، و كان ستون ألف شيخ سيكون تحت قميص عثمان. و كان عمرو بن العاص لما نشب الناس فى أمر عثمان فى ضيعة له بالسبع من حيز فلسطين قد اعتزل الفتنة، فاستدعاه معاوية يسترشد

برأيه و وعده بملك مصر إن هو ظفر بعلي. فارتأى عمرو أن يجلب معاوية شرحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام، فسار هذا يستقرى مدنها مدينة مدينة يحرض الناس على الأخذ بدم عثمان، فأجابه الناس كلهم إلا نفرًا من أهل حمص نساكا فإنهم قالوا: نلزم بيوتنا و مساجدنا و أنتم أعلم منا.

و ذكر المؤرخون أن معاوية قدم بيت المقدس و قدم عليه عمرو بن العاص فبايعه على دم عثمان و كتبنا كتابا بينهما كانت صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم». هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان و عمرو بن العاص

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٦

بييت المقدس بعد قتل عثمان و حمل كل واحد منهما صاحبه الأمانة أن بيننا عهد الله على التناصر و التخالص و التناصح في أمر الله و الإسلام، و لا يخذل أحدنا صاحبه بشيء و لا يتخذ من دونه و ليجئه و لا يحول بيننا ولد و لا والد أبدا ما حيننا فيما استطعنا». و هكذا أخذ معاوية يحرك النفوس و يطالب بئار عثمان و مما كتب به الى عليّ: «و لكنك أغريت بعثمان المهاجرين و خذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل و قوى بك الضعيف و قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتله عثمان». فأجابه عليّ: «زعمت أنه إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، و لعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا و أصدرت كما أصدروا، و ما كان الله ليجمعهم على ضلال و لا ليضربهم بالعمى، و ما أمرت فيلزميني خطيئة عثمان، و لا قتلت فيلزميني قصاص القاتل ... و أما قولك ندفع إليك قتله عثمان، فما أنت و عثمان؟ إنما أنت رجل من بنى أمية و بنو عثمان أولى بعثمان منك».

حرب صفين:

و ما برحت الحزازات تشتد بين عليّ و معاوية يريد الأول أن يبايع له الثاني، و يطالب الثاني بدم عثمان و هو مستقل بالشام، حتى التقيا سنة ٣٧ في صفين من أرض الشام بجيشيهما و كانت بينهما وقائع سالت فيها الدماء كالأنهار، فقتل من أهل الشام جيش معاوية خمسة و أربعون ألفا، و من أهل العراق و الحجاز جيش عليّ خمسة و عشرون ألفا، و كان معاوية في مائة و عشرين ألفا، و علي في تسعين ألفا، و جسر عليّ الجنود «حتى قتل من أبطال الإسلام في تلك المعارك ألوف و لم يكثر بقتلهم» و إن عليا لينغمس في القوم فيضرب بسيفه حتى ينشئ ثم يخرج متخضبا بالدم حتى يسوى له سيفه ثم يرجع فينغمس فيهم». و يقول الدينوري: كان أهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحد لصاحبه، و كانوا يطلبون قتلاهم فيخرجونهم من المعركة و يدفونهم. و روى ابن سعد قال: «اقتل الناس بصفين قتالا

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٧

شديدا لم يكن في هذه الأمة مثله قط حتى كره أهل الشام و أهل العراق القتال و ملوه من طول تبادلهم السيف. فقال عمرو بن العاص و هو يومئذ على القتال لمعاوية: أنت مطيعي فتأمر رجلا بنشر المصحف، ثم يقولون: يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن و الى ما في فاتحته الى خاتمته، فإنك إن تفعل ذلك يختلف أهل العراق و لا يزيد ذلك أمر أهل الشام إلا استجماعا، فأطاعه معاوية ففعل، و أمر عمرو رجلا من أهل الشام فقريء المصحف ثم نادى يا أهل العراق ندعوكم الى القرآن، فاختلف أهل العراق فقالت طائفة:

أولسنا على كتاب الله و بيعتنا؟ و قال آخرون كرهوا القتال: أجبنا الى كتاب الله، فلما رأى علي عليه السلام و منهم و كراحتهم للقتال قارب معاوية فيما يدعوه اليه و اختلف بينهم الرسل فقال علي عليه السلام: قد قبلنا كتاب الله فمن يحكم بكتاب الله بيننا و بينك، قال: تأخذ رجلا منا نختاره و تأخذ منكم رجلا تختاره، فاختار معاوية عمرو بن العاص، و اختار علي أبا موسى الأشعري». و جرت المهادنة بين علي و معاوية على وضع الحرب بينهما و يكون لعلي العراق. و لمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش و لا غارة و لا غزو، فأقام معاوية بالشام يجيئها و كان ذلك سنة ٤٠.

كانت حرب صفين من أشأم الحروب على الأمة، و هي في أول شبابها، التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح، و اقتتلا قتالا شديدا، و

هلكت من الفريقين نفوس زكية، فيهم الصحابة و القراء و العلماء، و لو لم يشغل بال معاوية بمقتل عثمان ثم بمدافعة على لكان تفرغ للقضاء على الدولة البيزنطية آخر الدهر. خصوصا و قد كان من أكبر همه أن يغادى الروم القتال و يراوحهم منذ استقل بإمارة الشام. يغزوهم برا و بحرا و يصيب منهم و قلما يصيبون منه، و ربما توفق معاوية و آله لو لا هذه الغائلة الأهلية الى استصفاء معظم أقطار الأرض و نشر الدين و اللغة فيها، و اضطرت حوادث على معاوية أن يهادن صاحب الروم و يرضيه بمال عظيم ريثما يتفرغ له. و قال عمرو بن العاص لمعاوية: كما بدأت الفتنة اكتب الى قيصر الروم تعلمه أنك ترد عليه جميع من فى يديك من أسارى الروم و تسأله الموائمة و المصالحة تجده سريعا الى ذلك راضيا بالعفو منك.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٨

صلح الحسن مع معاوية:

و من أهم الأحداث فى زمن معاوية قيام الحسن بن على فى العراق عقيب مقتل أبيه على بن أبى طالب، فسار معاوية الى الموصل و التقى العسكران، فوجه معاوية الى قيس بن سعد أمير جيش الحسن يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف فأبى، و يقال: إنه أرسل الى عبد الله بن عباس و بذل له مثل هذا المال فصار إليه فى ثمانية آلاف من أصحابه و هم من شيعه الحسن، و أقام قيس على محاربتة حتى اضطرت الحسن الى صلح معاوية بعد أن رأى أصحابه تفرقوا عنه و سعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه و قال: «أيها الناس إن الله هداكم بأولنا و حقن دماءكم بآخرنا و قد سالمت معاوية و إن أدري لعله فتنة لكم و متاع الى حين».

يقول الدينورى: لما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل الى عبد الله ابن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة، و كانت الشرائط ألا يأخذ أحدا من أهل العراق بإحنته و أن يؤمن الأسود و الأحمر و يحتمل ما يكون من هفواتهم، و يجعل له خراج الأهواز مسلما فى كل عام، و يحمل الى أخيه الحسين بن على فى كل عام ألفى ألف درهم، و يفضل بنى هاشم فى العطاء و الصلوات على بنى عبد شمس، فكتب عبد الله بن عامر بذلك الى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه و ختمه بخاتمه و بذل له. العهود المركبة و الأيمان المغلظة و أشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، و وجه الى عبد الله بن عامر فأوصله الى الحسن (رض) فرضى به و كتب الى قيس بن سعد بالصلح و يأمره بتسليم الأمر الى معاوية و الانصراف الى أعدائه، فلما وصل الكتاب بذلك الى قيس بن سعد قام فى الناس فقال:

أيها الناس اختاروا أحد أمرين: القتال بلا إمام أو الدخول فى طاعة معاوية فاختاروا الدخول فى طاعة معاوية. فسار حتى وافى المدائن و سار الحسن بالناس فى المدائن حتى وافى الكوفة و وافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليه الحسن (رض) تلك الشروط و الأيمان اه. قال الأحنف بن قيس و قد أتاه كتاب الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما يستنصره: قد بلونا الحسن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٠٩

و آل الحسن فلم نجد عندهم إيالة الملك و لا صيانة المال و لا مكيدة الحرب. و لم يجبه الى ما طلبه إليه.

و لما مات الحسن بعد شهرين و قيل أربعة أشهر من استيلائه على العراق صفا الجو لمعاوية و بايع له الناس فملك العراق و الحجاز و مصر، و أجمعت القلوب على مبايعته طوعا أو كرها. و كان ممن مالا معاوية على تحقيق رغائبه عمرو بن العاص عامله على مصر، و المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة.

خلافة يزيد و رأى ابن خلدون:

أوعز معاوية سرا الى ولاية الأمصار أن يوفدوا الوفود اليه يزينون له إعطاء العهد لابنه يزيد، حتى استوثق له أكثر الناس و بايعوه و

السيوف مسلولة فيما قيل على رقاب الصحابة في مسجد الرسول. و بذلك أخرج معاوية الخلافة عن أصولها، و كانت بالعهد لأفضل الصحابة أو بالشورى بينهم لمن يقع اختيارهم عليه، و جعلها كالملك يورثها الأب ابنه أو من يراه أهلا لها من خاصته، أو كسروية أو قيصرية على سنة كسرى و قيصر كما قالوا. و بذلك نقم على معاوية بعض الصحابة و التابعين من الأنصار و المهاجرين.

و الذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه- كما قال ابن خلدون- إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس و اتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل و العقد عليه حيثئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم و هم عصابة قريش و أهل الملة أجمع و أهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره مما يظن أنه أولى بها و عدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق و اجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، و إن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته و صحبته مانعة من سوى ذلك، و حضور الأكابر لذلك و سكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تأخذهم فى الحق هواده، و ليس معاوية ممن تأخذة العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك و عدالتهم مانعة منه، و فرار عبد الله ابن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول فى شىء من

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٠

الأمر مباحا كان أو محظورا. كما هو معروف عنه، و لم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير. و ندور المخالف معروف.

ثم قال: إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق و يعملون به مثل عبد الملك و سليمان من بنى أمية، و السفاح و المنصور و المهدي و الرشيد من بنى العباس، و أمثالهم ممن عرفت عدالتهم و حسن رأيهم للمسلمين و النظر لهم، و لا يعاب عليهم إيثارهم أبناءهم و إخوانهم و خروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة فى ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك. و كان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط و آثروه على غيره. و وكلوا كل من يسمو ذلك الى وازعه، و أما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك؛ و الوازع الدينى قد ضعف و احتيج الى الوازع السلطانى و العصبانى، فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد و انتقض أمره سريعا و صارت الجماعة الى الفرقة و الاختلاف.

و من جملة وصايا معاوية لابنه يزيد فى أهل الشام: «أنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك و رعيتك، فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. و لما قدم مشيخة أهل الكوفة على معاوية كان فيما سألهم عنه رأيهم فى أهل الأحداث من الأمصار فقال أحدهم: و أما أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم و أعصاهم لمغويهم.

غزوات معاوية و أعماله و وصيته:

و مما يجب أن يذكر لمعاوية أنه مع اشتغال ذهنه بالملك لم يغفل قط عن إنشاء أسطول عظيم غزا به الروم و غزا القسطنطينية غير مرة و أغزى الروم مرارا، و كان يغزو الصوائف و الشواتى أى غزوات الصيف و الشتاء، و خص قوما من رجاله بتولى هذه الغزوات و بلغه أن الروم سنة ٤١ قد زحفت

خطط الشام، ج ١، ص: ١١١

فى جموع كثيرة فخاف أن يشغله عما يحتاج الى تدبيره و أحكامه خصوصا بعد خروجه من وقعة صفين فوجه إليهم فصالحهم على مائة ألف دينار.

و كان معاوية أول من صالح الروم، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف فسبوا فى الروم سنة بعد سنة، و طلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه، و رضى مرة بصلح ملك الروم على أن يكون عنده من أهل بيت ملكهم رهائن.

و حدث سنة ٣٤ أن معاوية كان يستعد لقصده القسطنطينية و يعد السفن الكثيرة بمدينة طرابلس و يحمل من السلاح أمرا عظيما أن أخوين لرجل يقال له بقنطر، و كانا في خدمة العرب، فلما نظرا ما أعده معاوية أخذتهما الغيرة فأتيا السجن ففتحا و أخرجوا من فيه من الروم و قتلوا عامل البلد و أحرقوا السفن و العدة و ركبوا البحر. فلما بلغ معاوية ذلك جهز جيوشا كثيرة الى الروم فافتتح أرضا كثيرة و سبى من أهلها مئة ألف إنسان و بعث أخاه على البحر فانهمز الروم بحرا أيضا، ثم تعددت وقائعه مع الروم. و من وقائعه وقعة سنة ٣١. و لو لا النار التي اخترعها الروم لإحراق السفن، و بها حرقت سفن كثيرة للعرب و هلك ألوف من رجال بحريتهم، لامتدت الفتوحات و لسهل على معاوية فتح القسطنطينية كما سهل عليه غزو الروم لتحصينه سواحل الشام و إقامته الصناعة في صور و عكا و غيرها من مدن الشام.

توفي معاوية سنة ٦٠ بعد أن وطأ أكناف الملك و ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك و رفع الحراب بين أيديهم، و وضع المقصورة التي يصلى الملك أو الخليفة بها في الجامع منفردا عن الناس، و هو أول من وضع البريد، و اخترع ديوان الخاتم و استخدم النصارى في مصالح الدولة، فعهد بنظارة المالية الى منصور و سرجون من نصارى العرب الشاميين. أوصى معاوية بنى أمية فقال: إنه لما قرب منى ما كان بعيدا، و خفت إن يسبق الموت إليّ و يسبقكم بى سبقته اليكم بالموعظة لأبلغ عذرا، و إن لم أردّ قدرا، إن الذي أخلفه لكم من دنياى أمر تشاركون فيه أو تقبلون عليه، و إن الذي أخلف لكم من

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٢

رأى مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه، مخوف عليكم ضرره إن ضيعتموه، فاجعلوا مكافأتى، قبول نصيحتى، و إن قريشا شاركتكم فى أنسابكم، و تفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذا آخر غيركم ما تأخروا له، و لقد جهر لى فعلت، و فهم لى ففهمت، حتى كأنى أنظر الى أولادكم بعدكم كنظرى الى آبائهم قبلهم، إن دولتكم ستطول، و كل طويل مملول، و كل مملول مخذول، فإذا انقضت مدتكم كان أول ذلك اختلافكم بينكم، و اتفاق المختلفين عليكم، فيدبر الأمر بضد ما أقبل به، فلست أذكر عظيما ينال منكم، و لا حرمة تنتهك لكم، إلا و ما أكف عن ذكره أعظم منه، فلا معول عليه عند ذلك أفضل من الصبر، و احتساب الأجر، فيا لها دولة أنست أهلها الدول فى الدنيا و العقوبة فى الآخرة، فيما دكم القوم دولتكم تماذ العنانين فى عنق الجواد، فإذا بلغ الأمر مداه، و جاء الوقت الذى حده رسول الله صلى الله عليه و سلم، ضعفت الحيلة، و عزب الرأى، و صارت الأمور الى مصايرها، فأوصيكم عندها بتقوى الله عز و جل الذى يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين.

خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرة:

تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه ثلاث سنين و ستة أشهر، و سار على خطته فى جهاد الروم و كان جلدا صبورا، و لم تمنعه فتن ابن الزبير و شيعة العراق عن قتالهم، و أهم الأحداث فى زمانه قتل الحسين بن على (رضى الله عنهما) فى كربلاء من العراق، و حمل رأسه الشريف الى الشام، و إهانته أسرته الطاهرة، و قتل بعض رجالها. فارتكب ابن زياد عامل العراق ليزيد من ذلك أمرا نكرا أكبره أهل الإسلام و زادت بذلك شيعة على و آله حنقا و شدة. و لم يكن يزيد يريد قتل الحسين عملا بوصية والده له، فإن زحر بن قيس لما حمل من العراق الى الشام أهل بيت الحسين و دخل على يزيد و بشره بذلك دمعت عينه و قال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سميّة (يعنى ابن زياد)،

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٣

أما و الله لو أنى صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين. و من الأحداث فى أيام يزيد تسييره بالجيش الى نواحي حماة و تصدى أهل لبنان له و هزيمته.

و غزا الروم فى ولايته للعهد ثم غزاهم فى خلافته وعد ذلك من مزايه و مزايا أبيه.

و اتفق أهل المدينة سنة ٦٢ على خلع يزيد فأخرجوا عماله و آله فجهز جيشا مع مسلم بن عقبة و أمره بقتال أهل المدينة فإذا ظفر بها أباحها للجند ثلاثة أيام، و أن يبايعهم على أنهم خول و عبيد ليزيد. فقاتل جند الشام أهل المدينة فى الحرّة و استباح مسلم المدينة، و كان قتلى الحرّة سبعمائة من وجوه الناس من قريش و المهاجرين و الأنصار و عشرة آلاف من وجوه الموالى، ثم بايع من بقى من الناس.

حنقت نفوس الأمة من وقعة الحرّة لأن فتنتها التهمت بضع مئات من عليه قريش، و كانت غلطة زياد فى قتل الحسين و سبى آله الطاهرين ذرية أكبر للنيل من يزيد و آل يزيد، فتقولوا عليه و حطوا من كرامته، مع أنه سار بسيرة أبيه فى الملك من التوسع فى الفتوح و قتال أعداء المملكة من الروم. أما وقعة الحرّة فإن أهل المدينة استطاعوا على يزيد و حاسنهم فحاشنوه و أخرجوه حتى أخرجوه.

عهد معاوية الصغير:

توفى يزيد بن معاوية سنة ٦٤ و بويع ابنه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بنى أمية، و لما استخلف لبث شهرين و ليالى محجوبا لا يرى، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنى نظرت فيما صار اللى من أمركم، و قلدته من إمارتكم، فوجدت ذلك لا- يسعنى فيما بينى و بين ربي أن أتقدم على قوم و فيهم من هو خير منى، و أحقهم بذلك و أقوى على ما قلدته، فاختاروا منى إحدى خصلتين إما أن أخرج منها و أستخلف عليكم من أراه لكم رضى و مقنعا، و لكم الله على لا آلوكم نصحا فى الدين و الدنيا، و إما أن تختاروا لأنفسكم و تخرجونى

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٤

منها، فأنف الناس من قوله، و أبوا من ذلك و خافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم و ماج أمرهم و اختلفوا.

و قيل: إنه خطب الناس و قال: «ما كنت أتقلدكم حيا و ميتا فو الله لئن كانت الدنيا مغنما فقد نلنا منها حظا، و إن تكن شرا فحسب آل أبى سفيان ما أصابوا منها». فقال له مروان بن الحكم: سنّها فينا سيرة عمرية قال: ما كنت أتقلدكم حيا و ميتا. و لما حضرته الوفاة بعد خلافته بأربعة أشهر و قيل أقل من ذلك، و له عشرون سنة و قيل إحدى و عشرون سنة، لم يرض أن يعهد بالأمر من بعده. و قال: أتفوز بنو أمية بحلاوتها، و أبوء بوزرها و أمنعها أهلها، كلا- إنى لبرىء منها. قال المسعودى: إنه أراد أن يجعلها الى نفر من أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلا لها. و قيل: إن معاوية بن يزيد كان قدريا، لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك، فدان به و تحققه، فلما بايعه الناس قال للمقصوص:

ما ترى؟ قال: إما أن تعتدل أو تعتزل. فخطب الناس يستعفى من بيعتهم، فوثب بنو أمية على عمر المقصوص و قالوا: أنت أفسدته و علمته فظمروه و دفنوه حيا. و يقول الطبرى: و كان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغنى أمر بعد ولايته فنودى الصلاة جامعة فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمه الله عليه حين فرغ إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتهم. ثم دخل منزله و لم يخرج الى الناس و تغيب حتى مات. فقال بعض الناس: دس إليه فسقى سما و قال بعضهم: طعن.

قيام ابن الزبير و خلافة مروان بن الحكم و وقعة مرج راهط:

و كان عبد الله بن الزبير قد تغلب على مكة و تسمى بأمر المؤمنين و مال إليه أكثر النواحي. ابتداء أمره فى أيام يزيد بن معاوية فلما توفى يزيد مال الناس الى ابن الزبير. و كان بفلسطين ناتل بن قيس الجذامى، و بدمشق الضحاك بن قيس الفهرى، و بحمص النعمان بن بشير الأنصارى،

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٥

و بقنسرين و العواصم زفر بن الحارث الكلابي، وثب على سعيد بن بدل الكلبى و أخرجه منها، و لم تبقى ناحية إلا مالت الى ابن الزبير خلا الأردن و رئيسها يومئذ حسان بن بحدل الكلبى بمعنى أن الناس افترقوا «ثلاثا: فرقة بحدلية و هو اسم لبنى حرب، و فرقة زبيرية، و فرقة لا يبالون لمن كان الأمر».

و قدم مروان بن الحكم، و أمر الشام مضطرب و معظم أجنادها مبايعة لابن الزبير، فدعا مروان الى نفسه و هو من أعظم رجال أمية عقلا و دهاء و سياسة و حنكة. و اجتمع الناس بالجابية من أرض حوران فتناظروا فى ابن الزبير و فيما تقدم من بنى أمية عندهم، و تناظروا فى خالد بن يزيد بن معاوية، و فى عمرو بن سعيد بن العاص بعده، فكان روح ابن زنباع الجذامى يميل مع مروان فقام خطيبا فقال: يا أهل الشام هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، و المطالب بدم عثمان، و المقاتل لعلى بن أبى طالب يوم الجمل و يوم صفين، فبايعوا الكبير و استنابوا للصغير.

فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان فى ناحيتهم، ثم تناظروا فى أى بلد يقصدون فقال: نقصد دمشق فإنها دار الملك و منزل الخلفاء، و قد تغلب بها الضحاك بن قيس فلقوا الضحاك بمرج راهط، و كان مع الضحاك من أهل دمشق و فتيتهم جماعة، و قد أمده النعمان بن بشير عامل حمص بشرحيل بن ذى الكلاع فى أهل حمص، و أمده زفر بن الحارث الكلابى بقيس بن طريف بجيش من شمالى الشام، فكان فى ثلاثين ألفا، و مروان فى ثلاثة عشر ألفا أكثرهم رجاله، و التقوا بمرج راهط فاقتلوا قتالا شديدا و دام القتال عشرين يوما فقتل الضحاك بن قيس و خلق من أصحابه، و هرب من بقى من جيشه. و بلغ الخبر النعمان بن بشير و هو بحمص فخرج هاربا، فتبعه قوم من حمير و باهلة، و قيل من أهل حمص فقتلوه فى البرية، و كان من أخطب أهل الدنيا، و هرب زفر بن الحارث الكلابى و الخيل تتبعه حتى أتى قرقيسيا على الخابور.

و أقام مروان بن الحكم بالشام فى أيام ابن الزبير و اجتمعت إليه بنو أمية بعد وقعة مرج راهط التى انقسمت بها الشام فرقتين قيسية و يمانية،

خطط الشام، ج ١، ص: ١١٦

و غلب اليمانية و كان بنو أمية يبغضون اليمانية. قال المسعودى: و كانت هذه الواقعة سبب رد ملك بنى أمية، و قد كان زال عنهم الى بنى أسد ابن عبد العزى، و لذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف.

و هذه الواقعة من الوقائع المشهورة التى تفتخر بها اليمانية على النزارية، و قد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك. و لما بويع لمروان بن الحكم اشترط حسان بن مالك، و كان رئيس قحطان و سيدها بالشام، على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية و ابنه يزيد و ابنه معاوية بن يزيد، منها أن يفرض لهم لألفى رجل، ألفين ألفين، و إن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، و على أن يكون لهم الأمر و النهى و صدر المجلس، و كل ما كان من حل و عقد فعن رأى منهم و مشورة، فرضى مروان بذلك و انقاد إليه. و كان هذا أول قانون عربى وضع للتشريعات (بروتوكول) وضع أساسه القحطانية، و كانوا اصطالحوا على ذلك منذ عهد معاوية، أرضاهم بهذا التصدر فدخل مصطلحهم فى طور الدساتير المعمول بها.

و لم يلبث مروان أن وجه جيشا الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ثم خرج يريد مصر، فلما سار الى فلسطين وجد ناتل بن قيس متغلبا على البلد فحاربه، فهرب و لحق بابن الزبير، و سار مروان الى مصر فصالحه أهلها.

و أرسل عبيد الله بن زياد الى العراق لقتال الشيعة، و لما صار مروان الى الصّنبيرة من أرض الأردن منصرفا من مصر بلغه أن حسان بن بحدل قد بايع عمرو بن سعيد بن العاص، فأحضره فأنكر و بايع لعبد الملك، ثم بعده لعبد العزيز بن مروان، و كانت ولاية مروان تسعة أشهر و قيل ثمانية و قيل ستة. و بايع أهل الشام بعده لابنه عبد الملك «و كان مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف كرها، على ما قيل بغير رضى من عصبه من الناس، بل كل خوفه إلا عدد يسير حملوه على وثوبه عليها، و قد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد و أعوان».

لا- جرم أن مروان سيد بنى عبد مناف فى عصره كان من الرجال العظام و كان مولعا بالشورى فى إمارته المدينة و كان يجمع فى ولايته عليها أصحاب رسول الله يستشيرهم و يعمل بما يجمعون له عليه، و مثل هذا الرجل بطول تجربته و حنكته خطط الشام، ج ١، ص: ١١٧
 و أخذه بالأراء السديده ينجح و لا شك فى عمله، فهو مفخرة من مفاخر الأمويين و بنو أمية مدينة بالخلافة له.

خلافة عبد الملك بن مروان:

كان عبد الملك بن مروان بعد مهلك أبيه بعيدا عن دمشق فأقبل مسرعا خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، و كان عمرو بن سعيد من أحب الناس الى أهل الشام يسمعون له و يطيعون. و اجتمع الناس على عبد الملك فقال لهم: إني أخاف أن يكون فى أنفسكم منى شىء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا: و الله لتقومن الى المنبر أو لنضر بن عنقك، فصعد المنبر و بايعوه.
 و تفرغ عبد الملك لاستصفاء العراق من شيعة على فاستخلصها منهم بعد أن قتل من الطرفين جمهور كبير، و قتل أشرف أهل الشام و كان جيشهم ثلاثين ألفا. و ذكر اليعقوبى و أكد روايته غير واحد من المؤرخين أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج و ذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة. و وجه وجوه الناس الى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة و علق عليها ستور الديباج و أقام لها سدنه، و أخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة. قلنا: و كذلك فعل بنو أمية فى الأندلس فى الغرب، فإنهم منعوا الناس عن الحج مدة ملكهم أوائل عهد بنى العباس مخافة أن يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم.
 و من الأحداث فى أيام عبد الملك تجهيز يوحنا أمير جبل لبنان اثنى عشر ألف فارس و ذهابه الى البقاع و نزوله فى قب الياس، و غزوه الجبل الشرقى و شنه الغارات على الحجاج حتى ضاقت به الرعية و قطعت الطرق و خربت المسالك. و كان أمير لبنان مرتبطا مع صاحب الروم بعهود فسار قائد جيوشهم لاون سنة ٦٥ و ضم إليه عساكر الجبل، و غزا أرض العرب و استرد منهم ما كانوا أخذوه، فاضطر عبد الملك بن مروان الى تجديد الهدنة مع ملك الروم على أن يدفع له كل يوم ألف دينار و فرسا و مملوكا
 خطط الشام، ج ١، ص: ١١٨
 و يقاسمه على خراج قبرس و إرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيين من جبلهم، فأجابه ملك الروم الى ذلك.

الجرائم و المردة فى جبل لبنان:

و يؤخذ مما قاله ابن عساكر أن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعه مدائن الساحل، كاتب أنباط جبل لبنان و اللكام فخرج الجرائم و عسكروا بالجبل، و وجه ملك الروم قلقط البطريق فى جماعة من الروم فى البحر فسار بهم حتى أرسى بهم بوجه الحجر و خرج بمن معه حتى علا- بهم على جبل لبنان، و بث قواده فى أقصى الجبل حتى بلغ أنطاكية و غيرها من الجبل الأسود، فأعظم ذلك المسلمون بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج فى ناحية من رجال و لا غيرها إلا بالسلاح، فغلبت الجرائم على الجبال كلها من لبنان و سنير و جبل الثلج و جبال الجولان، فكانت بالسبل مسلحة لنا، و فى الرقاد و عقربا الجولان مسلحة، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل، و بعث إليهم عبد الملك بالأموال ليكفوا حتى يفرغ إليهم، و كان مشغولا بقتال أهل العراق و مصعب بن الزبير و غيره. قال: ثم كتب عبد الملك الى سحيم بن المهاجر فى مدينة طرابلس و كان أميرها يتواعده و يأمره بالخروج إليهم، فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم و يسأل عن أخبارهم و أمورهم حتى بلغه أن قلقط فى جماعة من أصحابه، و تهيأ بهيئة الروم فى لباسه و هيئته و شعره و سلاحه، متشباها بطريق من بطارقة الروم قد بعثه ملك الروم الى جبل اللكام فى جماعة من الروم فغلب على ما هنالك، فلما دنا من القرية خلف أصحابه فقال: انتظرونى الى مطلع كوكب الصبح فدخل على قلقط و أصحابه و هم فى كنيسة يأكلون و يشربون، فمضى الى مقدم الكنيسة فصنع ما يصنعه النصارى من الصلاة و القول عند دخولهم كنائسها، ثم

جلس الى قلقط فقال له: من أنت فانتى الى الرجل الذى يشبه به فصدقه، و قال له: إنما جئتكم لما بلغنى عن جهاد سحيم و ما اجتمع عنده من العساكر للخروج إليكم، فأتيت لأخبرك به و أكفيك أمره، إياك أن خطط الشام، ج ١، ص: ١١٩

تتناول من طعامهم. ثم قال لقلقط و أصحابه: إنكم لم تأتوا هنا للطعام و الشراب، ثم قال لقلقط: ابعث معى عشرة من هؤلاء من أهل النجدة و البأس حتى نحرسك الليلة، فإنى كئيب أن تأتيتك بليء، فبعث معه عشرة و أمرهم بطاعته، فخرج بهم إلى أقصى القرية و قام بهم على الطريق الذى يتخوفون أن يدخل عليهم منه، فأقام حارسا منهم و أمر أصحابه فناموا، فأمر الحارس إذا هو أراد النوم أن يوقظ حارسا منهم و ينام هو، فحرس الأول ثم أقام الثانى ثم قام سحيم ثم قال: أنا أحرس فم فلما ثقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلا بعد رجل، فاضطرب التاسع، فأصاب العاشر برجله، فوثب إلى سحيم فأخذه و صرعه الرومى و جلس على صدره و أخرج سحيم سكيناً و مقلها فى نحره فقتله، ثم أتى الكنيسة فقتل قلقط و أصحابه رجلا بعد رجل، ثم خرج الى أصحابه العشرين فجاء بهم و أراهم قتله و قتل الحرس و قلقط و من فى الكنيسة و وضعوا سيوفهم فىمن بقى فنذر بهم من بقى منهم، و خرجوا هرابا حتى أتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوا، و لحقوا بأرض الروم و رجع أنباط جبل لبنان الى قراهم.

و رواية البلاذرى فى هذه الواقعة هكذا: و أقبل طاغية الروم يريد الشام و خرج أيضا قائد قواد الضواحي فى جبل اللكام فاتبعه خلق من الجراجمة و الأنباط و أباق عبيد المسلمين و غيرهم، ثم صار الى لبنان فأقبل عبد الملك مغذا للسير حين أتاه كتاب ابن أم الحكم بذلك، فلما ورد دمشق وجه حميد بن خريث بن بحدل الكلبى بهدايا و أطاف الى طاغية الروم و كتب إليه معه يسأله الموادة على إتاوة و أعطاه إياها كما فعل معاوية حين أراد، إتيان العراق فقبل الطاغية الهدايا و ما بذل له عبد الملك من الإتاوة و أعطاه رهنا من أبناء الروم و صيرهم بعبك، و وادع عبد الملك الذين خرجوا بلبنان و جعل لهم فى كل جمعة ألف دينار فركنوا الى ذلك و لم يعيشوا بفساد، ثم دس إليهم سحيم بن المهاجر فتلطف حتى وصل الى رئيسهم متكرراً فأظهر ممالأته و تقرب إليه بدم عبد الملك و شتمه و وعده أن يدلّه على عوراته و ما هو خير له من الصلح الذى بذل له، ثم عطف عليه و هو و أصحابه غارون غافلون بجيش من موالى عبد الملك و بنى أمية و جند من

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٠

ثقات جنده و كراتهم كان أعدهم لمحاربتة و أكنهم فى مكان بالقرب منه خفى فقتل أولئك الروم و بشرا من الجراجمة و غيرهم ثم أذن بالأمان فىمن بقى من الجراجمة و من سواهم فتفرقوا فى قراهم و مواضعهم، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق و معه سعيد بن مالك بن بحدل. قال: و أمر عبد الملك فنادى من أتانا من العبيد يعنى الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حر و له أن أثبتة فى الديوان، فانفض إليه خلق منهم كانوا ممن قاتل مع سحيم و قد وفى لهم و جعل لهم ربحاً على حدة فهم يسمون الفتيان الى الآن.

و لما كانت سنة ٨٩ اجتمع الجراجمة الى مدينتهم و أتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونه و مرسين، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة ابن عبد الملك فأناخ عليهم فى خلق فافتتحها، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، و يجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير و على عيالاتهم القوت من القمح و الزيت و هو مدان من قمح، و قسطان من زيت، و على أن لا يكرهوا و لا أحد من أولادهم و نسائهم على ترك النصرانية، و على أن يلبسوا لباس المسلمين و لا يؤخذ منهم و لا من أولادهم و نسائهم جزية، و على أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، و على أن يؤخذ من تجاراتهم و أموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين، فأخرب مدينتهم و أنزلهم فأسكنهم جبل الحوار و سنح اللولون (؟) و عمق تيزين و صار بعضهم الى حمص و نزل بعضهم بطريق الجرجومة فى جماعة معه من أنطاكية ثم هرب الى الروم. قال ياقوت: و استعان المسلمون بالجراجمة فى مواطن كثيرة فى أيام بنى أمية و بنى العباس و أجروا عليهم الجرايات و عرفوا منهم المناصحة.

قتل ابن الزبير في مكة بعد أن كانت خلافته تسع سنين و الفتنة بينه وبين عبد الملك سبع سنين، فبويع لعبد الملك بالحجاز و اليمن و صفا له ملك مصر و الشام و الحجاز و العراق و اليمن و غيرها. و في سنة ٧٥ وصل موريق و موريقان من قواد الروم الى الشام و حملا بجيوشهما على دير القديس مارون في جهات حماة و قتلوا منه خمسمائة راهب و هدموا بنيانه، ثم تحولوا

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢١

من هناك الى قنسرين و العواصم فقتلوا الأهلين و نهبا و خربا المساكن و لم يعفيا أحدا من أتباع بطيريك الموارنة، ثم انتهى جيشهما الى طرابلس فخضع لهم أهل الكورة، ثم قوى الجليليون على عسكر الروم ثم قتلوا أكثرهم و انهزم الباقون. دعا الروم الى قتال الموارنة لقولهم بالطبيعتين و المشيئتين ثم وفد وفد منهم مع لاون القائد يبيح أن يحارب الجيش الموجه عليهم، فلما عرف الجليليون و أهل العواصم بهذا انهالوا على الأروام من أعالي الجبل فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم و انهزم الباقون. قال الدويهي: و بسبب هذه الحملة على يوحنا مارون و لا سيما بسبب الوقعة التي جرت بين أهل الكورة و جبة بشرى كان بدء التفرقة بين الموارنة و الملكية. لأن الذين اتبعوا جيش الروم و انقادوا لرأيهم سموا ملكية تبعا للملك، و الذين ثبتوا في الأمانة تحت طاعة البطيريك يوحنا مارون سموا موارنة.

و قال ابن القلاعي: إن الموارنة في دخول المسلمين الى الشام كانوا يسكنون جبل لبنان، و يتولون الجبال و السواحل التي تجاورهم، و بلادهم من حدود الشوف الى بلاد الدريب، و أميرهم يسكن قرية بسكتنا نزل الى البقاع في رجاله و نهبا و قتل كثيرين و لبث أياما في قب الياس، فلما انتهى خبره الى عبد الملك بن مروان أرسل اليه هدية و لم يزل يمكر به حتى قتله و قتل كثيرين من عسكره، و أحرق القرى و أبعده الموارنة من البقاع، و لم تزل الحروب منذ ذلك الحين تائرة بين المسلمين و الموارنة الى نحو ثلاثين سنة ثم ابنتى الموارنة حصنا فوق نهر الكلب جرت عنده موقعة هائلة.

عهد الوليد:

توفى عبد الملك في سنة ٨٦ بعد أن ولى الخلافة منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة و أربعة أشهر، و كان من الحزم و سعة الصدر و جمال العلم و الأدب على جانب عظيم، و يعد من فقهاء المدينة و هو أول من حولت الدواوين في أيامه الى العربية، و في عهده نقشت الدنانير و الدراهم بالعربية (٧٦) و كان قبل ذلك نقش الدنانير بالرومية و نقش الدراهم

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٢

بالفارسية، و هو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، و كان الناس قبل ذلك يراجعون و يعترضون عليهم.

و بويع للوليد بن عبد الملك. و كانت أيامه من أبرك أيام بنى أمية عمّر الجوامع العظام، و كتب الى الأمصار بهدم المساجد و الزيادة فيها، و بث في الأمة روح العمران، فكان الناس إذا التقوا في زمانه، يسأل بعضهم بعضا عن الأبنية و العمارات في كل مكان، و كان أول من عمل أعمالا جسيمة ابتدعها في الصدقات و القربات، هذا مع أن الخراج انكسر في أيامه فلم يحمل كثير شىء من العراق و غيره، فاضطر الى إحصاء أهل الديوان، و ألقى منهم بشرا كثيرا بلغت عدتهم عشرين ألفا، و أجرى الوليد على زمني أهل الشام كالمجذمين و العميان و كساهم و أمر لكل منهم بخادم، و أخرج لعائلات الناس الطيب و الكسوة، و زاد الناس جميعا في العطاء عشرة عشرة، ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة، و زاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف، و كان و هو ولي عهد، يطعم من وفد إليه من أهل الصائفة قافلا، و يطعم من صدر عن الحج بمنزل زيزاء في البلقاء ثلاثة أيام، و يعلف دوابهم، و لم يقل في شىء يسأله: لا. فقيل له: إن في قولك أنظر عدة ما، يقيم عليها الطالب فقال: لا أعود لسانى شيئا لم أعتده و قال:

ضمنت لكم إن لم تعفنى عوائق بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق معا و زيادته و أعطيه منى عليكم تبرع
محرمكم ديوانكم و عطاؤكم به يكتب الكتاب شهرا و تطبع

وقد بلغ بنو أمية في عهد الوليد أقصى درجات عزمهم، واعتز بحكمه الإسلام والمسلمون، وفتحت الفتوح العظام وتغلغت جيوشه في أرض الترك والروم والهند، وفتحت الأندلس وجاء فاتحها موسى بن نصير الى دمشق يضع بين يدي الخليفة الأموال والجواهر، ويعرض أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والإسبان والإفرنج يلبسون تيجانهم، ويقف أبناء ملوك أوروبا في باب الخليفة الأموي بحالة الأسر. وبعث الوليد أخاه مسلمة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٣

لغزو الروم فقتل منهم أربعين ألف رجل، وغزا قلقية وفتح فيها حصونا كثيرة بالأمان، وحمل أهلها الى الشام وفتح أمسية وحصونا كثيرة.

سليمان بن عبد الملك:

توفي الوليد سنة ٩٦ فبويح أخوه سليمان بن عبد الملك سابعهم، وكان حسن السيرة فصيحاً مفوّهًا، أته بيعة الأجناد وهو بالبقاء فأتى القدس وأته الوفود بالبيعة، فلم ير الناس وفادة أحسن منها، جلس في قبة صحن المسجد، وقد بسطت البسط لديه والتمارق عليها والكراسي، فجلس وأذن للناس أن يجلسوا على الكراسي والوسائد، والى جانبه الأموال والكساوي وآنية الذهب والفضة والدواوين، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعن قدموا من عنده ويقول: إن من جندنا كذا ومن حاجتهم كذا وكذا وما يصلحهم كذا، فيأمر سليمان بذلك كله.

ردّ المظالم وعزل عمال الحجاج، وأخرج من كان في سجن العراق، وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم، وكانت أيامه ذات فتوح متواليه، جاء الخبر الى سليمان بن عبد الملك أن الروم خرجت على ساحل حمص، فسبت امرأة وجماعة، فغضب سليمان وقال: والله لأغزونهم غزوة افتتح بها القسطنطينية أو أموت دون ذلك، فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة والموصل في البر في نحو مائة وعشرين ألفاً، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، وعلى جماعة الناس مسلمة بن عبد الملك، وأغزى داود بن سليمان في جماعة من أهل بيته، وقدم سليمان من القدس الى دمشق، ومضى حتى نزل مرج دابق فأمضى البعث وأقام بالمرج. واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وأوصى له سليمان بالخلافة، فسمى سليمان مفتاح الخير لاستخلافه عمر بن عبد العزيز.

عهد عمر بن عبد العزيز و سيرته:

لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أوائل سنة تسع وتسعين أبطل سب على رضى الله عنه على المنابر، وكان من العادة سبه عقيب كل خطبة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٤

منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي قدم الخطبة على صلاة الجمعة، لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن، فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد. أراد معاوية من ذلك كما قال ابن أبي الحديد: «تشديد الملك وتأكيده ما فعله الأسلاف، وأن يقرر في أنفس الناس أن بنى هاشم لاحظ لهم في هذا الأمر، وأن سيدهم الذي به يصولون، وبفخره يفخرون، وهذا حاله وهذا مقداره، فيكون من ينتمى إليه ويدلى به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح». على أن الطالبيين كانوا يقتنون عقيب كل صلاة ويلعنون أيضاً بنى أمية.

و كتب عمر بن عبد العزيز الى نوابه بإبطال السب وكانوا يقولون:

لعن الله أبا تراب. ولما خطب يوم الجمعة، أبدل السب في الخطبة بقوله تعالى: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ». وقيل: بل جعل مكان ذلك قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَ

إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَابْتِغَى، يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فاستمر الخطباء على قراءتها الى هذا اليوم، و شكر سعيه كل عاقل.

و ردّ عمر بن عبد العزيز المظالم، و سار سيرة عمر بن الخطاب جده لأمه، و استعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، و استدعى الجيش الإسلامي من حصار القسطنطينية ساعة ولي الخلافة حقنا لدماء المسلمين، و كان قد بلغ منهم الجهد، و لم يغفل مع ذلك عن غزو الروم عند الاقتضاء الشديد. و لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم، و ردّ جيوش المسلمين من الشرق و منعهم من التوغل فيه قائلا: يكفي ما فتح الله على المسلمين من الفتوح.

و يرجع الفضل في العهد لعمر بن عبد العزيز الى سليمان بن عبد الملك الذي عرف بحكمته أن ابن عبد العزيز أعدل رجل و أعقل رجل في بني أمية، فعهد إليه بالخلافة فأحسن للأمة و أى إحسان، و حنق عليه بعض المتلاعبين من أهل بيته فسقوه السم فيما قيل فهلك سنة ١٠١، و خلافته

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٥

ستان و خمسة اشهر. و كانت سيرة عمر بن عبد العزيز مضرب الأمثال في القاصية و الدانية، و قدوة السلف للخلف في كل عصر و مصر. قال عمرو ابن ميمون: كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة.

بعث عمر بن عبد العزيز وفدا الى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين و حق يدعو إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه، و هو جالس على سرير ملكه و التاج على رأسه، و البطارقة عن يمينه و شماله، و الناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل و أجابهم بأحسن جواب و انصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره و وضع التاج عن رأسه، و قد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة فقال: هل تدرون لما ذا دعوتكم؟ قالوا لا: قال: إن صاحب مسلحتي التي تلى العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال: لا تبكوا له و ابكوا لأنفسكم ما بدا لكم. فإنه قد خرج الى خير مما خلف. قد كان يخاف أن يدع طاعة لله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا و الآخرة. لقد بلغني من بره و فضله و صدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى، و لقد كانت تأتيني أخباره باطنا و ظاهرا فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه. و لم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا و عبد ربه على رأس صومعه، و لكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا.

يزيد بن عبد الملك و هشام و الوليد بن يزيد:

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك تاسع الأمويين، و قد لقب الوليد و سليمان و يزيد و هشام أبناء عبد الملك بالأكبش الأربعة، و لم يل الخلافة من بني أمية و لا- من غيرهم أربعة إخوة إلا- هؤلاء. فعزل يزيد عمال عمر بن عبد العزيز جميعا و أعاد سب على المنابر، و دام ذلك الى

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٦

انقضاء أمر بني مروان، يربو عليها الصغير و يهرم الكبير، و لم يكن يزيد بن عبد الملك بالخليفة الذي تحمد سيرته كثيرا، و توفي بعد أن تولى الخلافة أربع سنين و شهرا و عهد بها الى أخيه هشام و هو عاشرهم، و كان هشام يحب جمع المال و عمارة الأرض و اصطناع الرجال و تقوية الثغور و إقامة البرك و القنى في طريق مكة و غير ذلك. و كان لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد أربعون قسامه لقد أخذ من حقه و أعطى لكل ذي حق حقه.

و ظهر في أيامه بخراسان سليمان بن كثير الخزاعي و أصحابه يدعون الى بني هاشم سنة ١١١ فانتشرت دعوتهم و كثر من يجيبهم، و

أرادوا خلع بنى أمية وبيعه بنى هاشم، فقاتلهم وقاتل الخوارج على ملكه فى أقطار أخرى، و كان قد بلغ ملك بنى أمية فارس و السند و شمالى إفريقيا و الأندلس.

و غزا هشام و هو من أحزم بنى أمية الروم مرات و أسر قسطنطين ملكهم و حارب الترك كما حاربهم من قبله من الخلفاء و توفى سنة ١٢٥ فبوع بعده للوليد بن يزيد فاضطربت المملكة فى عهده، لأنه كان مهملا قليل العناية بأطرافه و قيل: إنه كان صاحب ملاء «و ضم ذلك الى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله و الإساءة إليهم و تنفيرهم فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته و هجموا عليه و قتلوه» بعد سنة و خمسة أشهر من ولايته «و كانت تتابعت منه فعال أنكرها الناس عليه فدب يزيد بن الوليد فى الدعاء الى خلعه فأجابته اليمن بأسرها و عاضدوه و وثبوا معه على عامل الوليد بدمشق فأجابوه و بايعوا يزيد ثم ساروا الى الوليد فقتلوه».

و كان اجتمع من بأقطار الشام من اليمانية فخرج اليهم الوليد بمضر و اقتتلوا، و أثخت اليمانية القتل فى مضر فانهزمت مضر و أخذوا نحو دمشق، و دخل الوليد قصره فتحصن فيه فبايعوا يزيد بن الوليد و بايعه أشرف المضريين طوعا و كرها و خلعوا الوليد بن يزيد فلبث مخلوعا أياما كثيرة و هو خليع بنى أمية ثم قتلوه.

و فى سنة ١٢٦ اضطرب أمر بنى أمية و هاجت الفتنة، فكان من ذلك و ثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعمان، و كان قد حبسه الوليد بها، فخرج من الحبس و أخذ ما كان بها من الأموال و أقبل

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٧

الى دمشق. و فى هذه السنة أمر الوليد بن يزيد على جيوش البحر، الأسود بن بلال المحاذى و سيره الى قبرس ليخبر أهلها بين المسير الى الشام أو الى الروم، فاختارت طائفة جوار المسلمين فسيرهم الى الشام، و اختار آخرون الروم فسيرهم إليهم و أسكنهم الماحوز على ساحل البحر بين صور و صيدا.

يزيد بن الوليد:

و كان من أمر يزيد بن الوليد و هو ثانى عشر خلفائهم أن نقص الناس من عطائهم فسمى يزيد الناقص، و كان الخليفة من بنى أمية إذا مات و قام آخر زاد فى أرزاقهم و عطاياهم عشرة دراهم فيقولون: غير بعير و زيادة عشرة.

اضطربت البلدان على يزيد و لما قتل خرج أهل حمص و أغلقوا أبواب المدينة و أقاموا النوائح و البواكى عليه و طالبوا بدمه، و قتلوا مروان بن عبد الله بن عبد الملك و كان عامل الوليد على حمص و هو من سادة بنى مروان نبلا و كرما و عقلا و جمالا، و لما أجمع الحمصيون على محاربة يزيد بدمشق جهز جيشا قاتلهم قريبا من تتيه العقاب فانهزم الحمصيون و استولى على المدينة و أخذ البيعة عليهم. قال الدينورى معللا سر قيام الحمصيين: إن المضريه تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها، و قتلهم الخليفة الوليد بن يزيد فدب بعضهم الى بعض، و اجتمعوا من أقطار الأرض، و ساروا حتى وافوا مدينة حمص و بها مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم و كان يومئذ شيخ بنى أمية و كبيرهم و كان ذا أدب كامل، و رأى فاضل، فاستخرجوه من داره و بايعوه و قالوا له: أنت شيخ

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٨

قومك و سيدهم فاطلب بئار ابن عمك الوليد بن يزيد. فاستعد مروان بجنوده فى تميم و قيس و كنانة و سائر قبائل مضر و سار نحو مدينة دمشق.

و لما بوع يزيد بن الوليد خطب و ذكر الوليد بن يزيد فقال على روايه ابن الطقطقى: إن سيرته كانت خبيثة و كان متتهكا لحرمت الله فقتلته ثم قال: أيها الناس إن لكم على أن لا أضع حجرا فوق حجر، و لا لبنه على لبنه، و لا أكرى نهرا، و لا أكثر مالا، و لا أنقل مالا من بلد الى بلد حتى أسد ثغره، و خصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل منه نقلته الى البلد الآخر الذى يليه، و لا أغلق بابى دونكم، و لكم أعطياتكم فى كل سنة، و أرزاقكم كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم، فإن وفيت لكم ما قلت فعليكم بالسمع و الطاعة و

حسن المؤازرة، وإن لم أف فلکم أن تخلعونى، إلا أن أتوب، وإن كنتم تعلمون أن أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم، و أردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه معكم، إنه لا طاعة لمخلوق، فى معصية الخالق.

و خرج على يزيد بن الوليد بشر بن الوليد بقنسرين و عمر بن الوليد و يزيد بن سليمان بفلسطين، و وجه الى الأردن أخاه إبراهيم ولى عهده، و قد أمروا عليهم محمد بن عبد الملك فاستمال الثائرين بالمال ففرقوا، و كانت ولايته خمسة أشهر و الفتنة فى جميع الملكة عامة، و قتل أهل حمص عاملهم عبد الله بن شجرة الكندى و كانوا انتخبوه واليا على جندهم، و لما توفى يزيد بن الوليد ملك إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك فامتنع أهل حمص من البيعة فجاءهم الجند من دمشق و حاصروهم.

مروان بن محمد:

و قدم مروان بن محمد بن مروان من إرمينية خالعا ليزيد بن الوليد، فلما صار بحران دعا الى نفسه فبايع له أهل الجزيرة سرا، و أقبل فى جموع من أهل الجزيرة، فلقى بشرا و مسرورا ابني الوليد بن عبد الملك معسكرين بحلب فهزم عسكريهما و أسرهما، ثم مضى حتى أتى حمص، و بلغ إبراهيم الخبر فوجه إليه سليمان بن هشام، و كان سليمان فى مائة و عشرين ألفا،

خطط الشام، ج ١، ص: ١٢٩

فلقى مروان و كان فى ثمانين ألفا و من معه من أهل الجزيرة و قنسرين و حمص فالتقوا بعين الجر فتناوشوا القتال (١٢٧) و انصرف بعضهم عن بعض، فلما كان من الغد انهزم سليمان بن هشام و أصحابه فلقوا بإبراهيم و أقبل مروان فبايع له أهل دمشق و دخلها فخلع إبراهيم نفسه و بايع لمروان.

و قد قتل فى وقائع عين جر و ما تقدمها و تأخر عنها ثمانية عشر ألف مقاتل.

و روى الطبرى أنه لما قيل قد دخلت خيل مروان دمشق هرب إبراهيم بن الوليد و تغيب، فأذهب سليمان ما كان فى بيت المال و قسمه فىمن معه من الجند، و خرج من المدينة، و ثار من فيها من موالى الوليد بن يزيد الى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، و نبشوا قبر يزيد بن الوليد و صلبوه على باب الجابية، و دخل مروان دمشق فنزل دير العالية من ضواحيها.

و لما ملك مروان بن محمد كتب الى عمال البلدان فأتته كتبهم بالسمع و الطاعة، و لم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى أتاه الخبر أن أهل حمص مقيمون على المعصية، فسار إليهم فحاصروهم حتى فتح المدينة، و قاتل الثائرين و قتل خمسمائة أو ستمائة صلبوا حول مدينة حمص، و هدم من حائطها نحو من غلوة. و ثار أهل الغوطة فولوا عليهم يزيد بن خالد القسرى و حصروا دمشق و أميرها زامل بن عمرو، فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر فى عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة خرج عليهم من فيها فانهزموا و استباح أهل مروان عسكريهم و أحرقوا المزة و قرى من اليمانية، و أخذ يزيد بن خالد فقتل، و خرج ثابت بن نعيم الجذامى بناحية الأردن فوجه إليه جيشا. و كان مروان عند دخوله دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعد على مروان، و ممن ثار سليمان بن هشام فى أهل حمص و قنسرين، و قصد حمص فحصنها فبايعه أصحابه بالخلافة، و خرجوا قاصدين مروان و كمنوا له فى طريقه فى قرية تعرف بتل مير من عمل معرة النعمان فالتقى العسكران و قتل منهما خلق كثير فانهزم سليمان الى حمص، فجاء مروان

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٠

إليها و حاصرها ثمانية عشرة أشهر ثم صالحها و تسلمها، و كان سليمان بن هشام فى سبعين ألفا و قتل زهاء ثلاثين ألفا.

إدبار الأمويين:

و ما زالت الحال على ذلك حتى استقامت لمروان الشام كلها، ثم قوى أمر أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية بخراسان، و

دعا علنا لبنى هاشم وقتل عسكر الأمويين، و لما بايعوا بالخلافة فى الكوفة لأبى العباس سرا وجه عمه عبد الله بن على لقتال مروان، و كان مع مروان مئة ألف مقاتل و لا يكون مع عبد الله بن على إلا الأقل من ذلك، فلقبه بالزاب قرب الموصل، فحاربه عبد الله بن على فهزمه، ثم لم يزل فى إثره و هو منهزم لا- يلوى على شىء حتى أخرجه الى الجزيرة، ثم أخرجه من الجزيرة الى الشام، فجعل مروان لا يمرّ بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه، فلما اجتاز بقنسرين و حاضر حلب أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته و وثب أهل حمص و قالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه على أميال فناشدهم فأبوا إلا مكاثرتة و قتاله، فنشب القتال و أثار كمينين من خلفهم و كان قد نصبهما فهزمهم و قتلتهم خيله.

و سار مروان الى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشى، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسى و المذحجيون أى اليمانيون جميعا، ثم مرّ بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع لما رأوا من إدار الأمر عنه. قال الدينورى: جعل مروان يستقرى مدن الشام فيستنهضهم فيروغون عنه و يهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل.

قالوا: و لما صار مروان الى دمشق و هو مضمر أن يتحصن بها لولا ما انتهبه أهلها و وثب عليه من بها من قيس فدخلها عبد الله بن على العباسى عنوة، و مضى مروان الى فلسطين هاربا حتى جاء مصر، فقاتل مروان فى قرية بوضير قرب القاهرة حتى قتل و ذلك فى ذى الحجة ١٣٢، و بموته انقرض ملك بنى أمية فى المشرق و هو الرابع عشر من خلفائهم. و كان من رأيه أن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣١

يقطع الدرب و ينزل بعض حصون الروم و يكاتب ملكها و يجمع عليه رجاله و شيعته الى أن يرتئى فى أمره، و لكن حمّ القضاء و لا رادّ لحكمه.

دولة بنى مروان و حسناها:

انقضت دولة بنى مروان، و كانت دولة عربية صرفة سارت مع المدنية أشواط مع انشغالها بالفتح و قيام الخارجين عليها، و لم يبطلوا فى كل دور غزو الروم، و كانوا على الأ-كثريون و يقتلون و يغمون و يخربون حصونهم، و الروم يغزون الشام و آسيا الصغرى و قد يصلون الى أنطاكية و دلوكة (مرعش). و كان أكثر ملوك الأمويين من الحزم و العلم و حسن السياسة و الإدارة على جانب عظيم، و السواس منهم معاوية و عبد الملك و هشام، و ليس كالأوليد فى باب الاضطلاع بإقامة المصانع، و لا مثل عمر ابن عبد العزيز فى تطهير المملكة من المظالم و إحياء سنن العدل و المراحم، و لا كسليمان ببعده النظر، و ما منهم إلا العالم و الشاعر و الخطيب و السياسى، و قد فتحت عليهم الأقطار فنشروا فيها اللغة و الدين على أيسر سبيل، و هذا مما لم يوفق إلى مثله غيرهم، و وضعوا أسس النظام فى الممالك التى دوخوها و عرفوها ما يصلحها، و كانت إرادتهم أشبه باللامر كزية فى عهدنا، يبعثون بالعامل فيحل المسائل باجتهاده على رأى أهل الشرف و المكانة فى القطر الذى يتولاه، و لا يفاوض مقر الخلافة إلا فى عويص الأمور، و قد نصب علم الأمويين الأبيض فى المشارق و المغرب، نصب فى الصين كما نصب فى بواتيه فى فرنسا، هذا و قد كثر المخلصون لدولتهم الى أواخر أيامهم و قل المنتقضون عليهم المتوثبون على خلافهم.

للدول كما للأفراد أعمار طبيعية. و ملك بنى أمية لم يطل أكثر من ألف شهر كاملة لأنهم ملكوا تسعين سنة و أحد عشر شهرا و ثلاثة عشر يوما، يوضع من ذلك أيام الحسن بن على و هى خمسة أشهر و عشرة أيام، و أيام عبد الله بن الزبير الى الوقت الذى قتل فيه و هى سبع سنين و عشرة أشهر و ثلاثة أيام، فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثا و ثمانين سنة و أربعة أشهر.

ذهب بنو أمية بالفضل فى جمع الشمل، و لو لا قيامهم هذا القيام

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٢

المحمود يحدوه الانتباه لكل ما يعلى شأن دولتهم. لما ثبتت الدولة الإسلامية هذا الثبات الذى استغرب منه الخبر و الخبر. قال

المقریزی: أظهر الرسول بنی أمیةً لجميع الناس بتولیتهم أعماله مما فتح الله علیه من البلاد، فقوى ظنهم وانبسط رجاؤهم وامتد فی الولاية أملهم، و ضعف أمل بنی هاشم و انقبض رجاؤهم و قصر أملهم. قال: و قد ظهر لی أن ولاية رسول الله بنی أمیة الأعمال كانت إشارة منه الی أن الأمر سیصیر إلیهم. قال: إنه علیه السلام توفی و ثلاثة أرباع عماله منهم.

وطد مؤسس ملك الأمویین السلطان بالشام و بجند من أهله قاتل هو و أخلافه، و اشتهر جند الشام بالطاعة حتى تمنى علی بن أبی طالب لو یقایض علی عشرة من جنده بواحد من جند معاوية، فقال فی إحدى خطبه: «لوددت و الله أن معاوية صارفنی بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منی عشرة منكم و أعطانی رجلاً منهم». فتحت هذه الفتوح بنفس قوية و عقول راجحة و سياسة حازمة، و قاتل زعماءهم و أبناءهم بل بناتهم و نساؤهم حتى فتحوا الشام. و كان من جملة توفیق معاوية أنه عرف طباع هذا القطر و خصائصه من أبيه و آله و كانت لهم به علائق كثيرة فی الجاهلية، ثم درس أحواله بنفسه فكان يعرف قوته معرفة حقيقية، و لذلك لم ينل منه علی بن أبی طالب منالاً لأنه كان أخذ لهذا الأمر عدته و تدبره و دبره كان يأخذ بآراء أشرف القوم و النزول علی حكم وفود الأرجاء، و كانت وفودهم تشبه ما یسمیه الإفرنج بمجالس الولايات، و كان لمعاوية و آل بيته مجالس یعقدونها فی المسجد الجامع تدور حول سياسة الأمة فی الأكثر، و خطاب الخليفة يوم الجمعة بمثابة ما نسمیه فی عرف سياسة اليوم خطاب العرش، و مجالسهم أشبه بمجالس النواب و الشيوخ و الولايات، فلم یكونوا الی الاستبداد بالرأی فی معظم حالاتهم.

و فی الحق أن معاوية بن أبی سفيان أورث الإسلام مجداً، و أولى العرب عزةً و منعةً، و كان العربی حیث نزل من الأرض محترماً، مرعى الجانب آمناً علی نفسه و حقه، و لم یوفق الی ذلك إلا بحسن السياسة و صائب التدبير. ذكر المسعودی، و هو من المنحرفین عن بنی أمیة، أن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٣

المسلمین غزوا فی أيام معاوية فأسر جماعة منهم، فأوقفوا بین یدی الملك فتكلم بعض أسارى المسلمین، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بین یدی الملك فلطم حرّ وجهه فآلمه، و كان رجلاً من قريش فصاح:

وا إسلاماه، أين أنت عنا یا معاوية إذ أهملتنا، و ضيعت ثغورنا، و حكمت العدو فی ديارنا و دماننا و أعراضنا. فسمى الخبر الی معاوية و غضب و أقام الفداء بین المسلمین و الروم و فادی بذلك الرجل، فلما صار الی دار الإسلام دعاه فيّره و أحسن الیه. و بعث الی رجل من ساحل دمشق من مدينة صور و كان به عارفاً كثير الغزوات فی البحر، صمّل من الرجال مرطان بالرومية، و أعطاه كل ما طلب، و هياً له مركبا و أوعز إلیه أن يتظاهر بأنه يتاجر مع روم القسطنطينية، و ما زال علی ذلك سنين حتى أسر الصوريّ البطريق الرومی الذي كان لطم القرشى و أتى به الی معاوية فی قصة طويلة. فقال معاوية: علیّ بالرجل القرشى فأتى به و قد حضر خواص المسلمین و قال له: قم و اقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك علی بساط معظم الروم فإننا لم نضيعك و لا أبحنأ دمك و عرضك، فقام القرشى و دنا من البطريق فقال له معاوية: انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه. و انقلب القرشى علی یدی معاوية و أطرافه یقبلها و قال: ما أضاعك من سوّدك، و لا- خاب فيك أمل من أمّلك، أنت ملك لا تستصام، تمنع حماك و تصون رعيتك. و أحسن معاوية الی البطريق و حمل معه هدايا الی الملك و قال له: ارجع الی ملكك و قل له: تركت ملك العرب یقیم الحدود علی بساطك، و یقتص لرعيته فی دار مملكتك و سلطانك، فقال ملك الروم: هذا أمكر الملوك و أدهى العرب. و لهذا قدمته العرب علیها فساس أمورها و الله لو هم بأخذی لتمت له الحيلة علیّ.

قواد الأمویین و أسباب انقراضهم:

نشأ للأمویین رجال عظام فی الحرب و السياسة و الحكم، مثل زیاد بن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٤

أبي سفيان وعتبة بن أبي سفيان و موسى بن نصير و طارق بن زياد و قتيبة بن مسلم و عقبه بن نافع الفهري و بسر بن أبي أرطاة و شرحبيل بن السمط و حبيب بن مسلمة و مسلمة بن عبد الملك و أسد بن عبد الله و عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي و مالك بن عبد الله الذي كان أميراً على الجيوش في غزوة الروم أربعين سنة أيام معاوية و قبلها و أيام يزيد و أيام عبد الملك بن مروان و لما مات كسر على قبره أربعون لواء لكل سنة غزاها لواء. و روح بن زنباع و زفر بن الحارث الكلابي و الجراح بن عبد الله الحكمي و حبيش بن دلجة القيني و حسان بن مالك بن بحدل الكلبى و ميمون بن مهران و خالد ابن عبد الله بن خالد بن أسيد و عمر بن عبيد الله بن معمر و خالد بن عبد الله القسري و عثمان بن الوليد و يزيد بن المهلب و المهلب بن أبي صفرة و عمرو بن هيرة الفزاري و عبد الله بن أبي بكره و القاسم بن محمد الثقفي و العباس بن الوليد و مروان بن الوليد و خالد بن كيسان و عبد الله ابن عقبه بن نافع و معاوية بن هشام و عبد الرحمن بن معاوية بن خديج و إسحاق بن مسلم العقيلي و نصر بن سيار و عبد الله بن سعد بن أبي سرح و معاوية بن حديج و عبد الرحمن بن حبيب و زهير بن قيس البهلوي و حسان بن النعمان و ميسرة بن مسروق العبسي و عبد الله بن قيس و مالك ابن هيرة السكوني و فضالة بن عبيد الأنصاري و سفيان بن عوف و عبد الله ابن مسعدة الفزاري و جنادة بن أمية الأزدي و محمد بن مالك و عمرو بن مرة الجهني و علقمة بن يزيد الأنصاري و الضحاك بن قيس و يزيد بن شجرة و عياض بن الحارث و المخارق بن الحارث الزبيدي و زامل بن عمر العذري و أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان و سبيع بن يزيد الأنصاري و يزيد بن الحر العبسي و علقمة بن حكيم الكناني و يوسف بن عمر و محمد بن القاسم الثقفي و مالك بن عبد الله الخثعمي و حمزة بن مالك الهمداني و غيرهم.

دوَّخ هؤلاء القواد الأقطار على بعد المواصلات مع مركز الخلافة و فتحوا الفتوح العظام بهمة لم تعرف الملل، و أدخلوا فيها نظامهم و عاداتهم و أداروها أي إدارة، فامتد ملك الأمويين كما قال أحد كتاب الإفرنج من أقاصي جبال هملايا في الشرق الى أداني جبال الألب في الغرب، ثم انحلت هذه

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٥

المملكة المساوية تقريباً لمملكة قياصرة رومية على وجه غريب من السرعة.

و كان مروان بن محمد الجعدي الذي لقب بالحمار لصبره على الحرب من أمثال خلفائهم و كان «سديد الرأي ميمون النقيبة حازماً، فلما ظهرت المسودة و لقيهم كان ما يدبّر أمراً إلا كان فيه خلل». فما السريا ترى في انحلال هذا الملك الضخم و القوة تدعّمه و فيه أفراد أفذاذ متلوا النبوغ العربي أجمل تمثيل لا تستطيع دولة من دول الحضارة الحديثة أن تقوم بأحسن منه، مع اعتبار الفرق بين عصر الدولة الأموية و هذا العصر؟. نطن السر في ذلك أن بني العباس كانوا قد أجمعوا أمرهم و هيأوا أسباب قيام دولتهم على صورة متينة جدا، و كان منشؤها من خراسان و العراق و هما القطران اللذان أفحش القتل فيهما الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قتل من أهل العراق مئة و عشرين ألفاً مدة حكمه، و اشماز الناس من بني أمية بسببه و سبب من يستسهلون من قوادهم إهراق الدماء فكثرت الأحقاد و الحفائظ و نغلت نيات الأمة، و اختلف الأمويون بينهم و أصبحوا في هرج يقتل بعضهم بعضاً.

و قد نسب الخضرى أسباب سقوط دولة بني أمية الى استيلائهم على الخلافة بالقهر و الغلبة لا عن رضا و مشورة، فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته، على من خالفه من أهل العراق و الحجاز حتى تم له الأمر و رضى الناس عنه، و القلوب منطوية على ما فيها من كراهية و لايته، و كان في الأمة فريقان لا يرضيان عنه:

الخوارج و شيعه بني هاشم، و استعمل ضروب السياسة مع رؤساء العشائر و كبار الشيعة فألان شكيمتهم و أسكن ثورتهم. و من رأيه أن معاوية زل زله كبرى قللت من قيمة عمله و هي اهتمامه بالغرض من على بن أبي طالب على منابر الأمصار هو و أمرؤه حتى تأججت النيران في صدور شيعته و أن عدة عيوب كانت سببا في القضاء عليهم. الأول: مسألة ولاية العهد، فإن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر، فانشق بيتهم على نفسه. الثاني: إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام مشدداً النعي عليها.

الثالث: تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى أمر قوادهم

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٦

و ذوى الأثر الصالح من شجعان دولتهم، ففسدت قلوب الناس، حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية. و علل رفيق العظم سقوط الدولة الأموية بارتكاب الأمويين أغلطا منها المبالغة باضطهاد العلويين، و تسميم أبى هاشم بأمر سليمان بن عبد الملك، و منها أنهم فقدوا أعظم الرجال الذين كانوا يخدمون بإخلاص، فأخرجوا خالد بن عبد الله و قتيبة بن مسلم و يزيد بن المهلب و موسى بن نصير ففقدت الدولة بفقدهم و فقد أمثالهم جانبا لا- يقدر من قيمتها و انحطت هيبتها، و منها تباعد أطراف مملكتهم حتى تعذر ضبطها مع صعوبة المواصلات، و أن الأمويين حافظوا على خشونتهم الى خلافة هشام، و أخذ الخلفاء بعد الوليد بن يزيد يميلون الى الترف و الراحة، يضاف الى ذلك انقسام العرب فى خراسان الى مضرية و يمانية و تنازع رؤسائهم. قال: إن ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الأموية و يعزى إليه دمارها فمبالغ فيه و ما كان منه صحيحا فهو فى نظر المؤرخ ثانوى. و الحقيقة أن الخلفاء الأمويين كانوا أشداء على خصومهم دون سائر الناس، و كانوا فى منزلة من العناية بالرعية و الاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة.

سئل بعض شيوخ بنى أمية عقيب زوال الملك عنهم، ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: جار عمالنا على رعبتنا فتمنوا الراحة منا، و تحول على أهل خراجنا فجلوا عنا، و خربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، و وثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا، و أمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا، و تأخر عطاء جندنا فزال طاعتهم لنا، و استدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا، و طلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقله أنصارنا، و كان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا.

قد يغتر بعض من لم يساعدهم الوقت أن يمحصوا الحقائق ليصلوا الى لباب التاريخ الصحيح، فأخذون روايات بعض المؤرخين الذين كتبوا بعوامل المذاهب السياسية أو نقلوا الأخبار على علاقتها كما رأوها فى مصادر ضعيفة و أخذوها قضية مسلمة، من ذلك الطعن فى أخلاق يزيد بن معاوية، فإن الروايات المنقولة فى هذا الشأن لو نقدت نقدا صحيحا لرأينا أنها مدخولة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٧

على الأ-كثر أملت أهواء الخصماء، و لطالما رأينا الناس إذا أرادوا النيل من أحد العظماء ينخدعون بأقوال يلفقها عليهم خصومهم، و ربما نسبوا لبعضهم الفسق و الفجور و أكل الأموال بالباطل، و هم من أكمل الناس أخلاقا و فضلا. إذا سلمنا أن معاوية أخطأ بحسب ما يقوله الفريق المعتدل بتوسيده الخلافة الى يزيد و فى العرب يومئذ من هم أفضل منه فإنه كان يعتقد أن ابنه يصلح للخلافة و أن قوة الأمة مجتمعة على آل أبى سفيان. و الدليل أنه كان إذا عرض لمعاوية مشكلة من المشكلات بعث الى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها و استسهال معضلاتها، فلم يكن يزيد إذا بالصورة التى صورها بها أعداؤه. خطب معاوية فقال: «اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت و أعنه، و إن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده و أنه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك».

قال الطبرى: إن يزيد كان صاحب رسله أى كسل و تهاون، و إنه كف عن كثير مما كان يصنع أى لما وسدت إليه الخلافة. و قال غيره:

إن يزيد كان يحب الصيد و يربى القروود و الكلاب مما عدوه عليه. و هذا لا يقدح فى العدالة، بل ربما كان مما يعين على الجهاد لترويضه الجسم و الذهن، أما الفسق و الفجور فلم يثبت من طريق مؤتمن، فإذا فرضنا أن معاوية أخطأ فى إعطائه ولاية العهد لابنه بطرق استعمل فيها بعض الشدة، و أن يزيد ارتكب عماله من قتل آل بيت الرسول أمرا نكرا فلا يجوز من ذلك الطعن بشخصيات كبيرة، و العقل يستبعد التصديق بما قاله خصوم بنى أمية عنهم، و لو كان يزيد شريبا خميرا كما يزعمون أو يرتكب أمورا لا تسمح بها الشريعة و لا تليق بشأن الملك، و الدين، و أصحاب أصحاب رسول الله أحياء، و أعداؤهم من العلويين بالمرصاد، لقتلته أسرته نفسها،

كما فعلت بالوليد بن يزيد بعد ستين سنة من مهلك يزيد بن معاوية. و الغالب أن يزيد أدخل في العادات كأي شيء أنكرها بعضهم، و وجدوا السبيل الى الطعن فيه، و كان تعلمها من عشرته بعض أبناء الروم في الشام.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٨

سئل عبد الله بن عباس عن معاوية فقال: سما بشيء أسره و استظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسر بما أعلن فناله، و كان حلمه قاهرا لغضبه، وجوده غالبا على منعه، يصل و لا يقطع، و يجمع و لا يفرق، فاستقام له أمره و جرى الى مدته. قيل: فأخبرنا عن ابنه قال: كان في خير سبيله، و كان أبوه قد أحكمه و أمره و نهاه فتعلق بذلك و سلك طريقا مذلا له. و سئل علي (رض) عن بني أمية فقال: أشدنا حجزا (صبرا) و أطلبنا للأمر لا ينال فينالونه.

الخلافة بين الأمويين و خصومهم من العلويين ما زال يقوى و يضعف، و ما هو إلا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك، و ليس من الدين في شيء. فليس إذا من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة و تتفرق شيئا، و تظهر بمظهر النصب أو التشيع، و يركى فريق من يجهم حتى يخرجهم عن طور البشر، و يطعن في آخرين حتى يسلب عنهم كل ما يمتازون به من الصفات الكاملة و يخرجهم عن الملة. أهل الإسلام يحبون الخليفة الرابع، و يعرفون له صفات غزا يفاخرون بها على غابر الدهر، و لكن من تحبه لا يجوز لك أن تغضى عن هفواته، أو أن تذكر لخصمه مزاياه.

أريد أن أقول: إن مسألة الخلافة بين علي و معاوية قد مضى عليها الزمن، و كان لكل منهما اجتهاده، و هي من المسائل المؤلمة في تاريخنا ينبغي لنا أن ندرسها بإنصاف لا أن نقول مع القائلين «و نسكت عما شجر بينهم»، و لا أن نبالغ فيما وقع و نتعصب لفريق على آخر، فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف و القوة من جسمها، و تكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية، و الواجب في البحث أن لا- يثير في النفوس أحقادا، و لا ينشئ في أجزاء الأمة فرقة متلفئة، و لا يرتكب معه سوء أدب مع عظماء أسسوا مجد الأمة على أمتن الدعائم، و وضعوا بناءها على القومية العربية، و كانوا مثال التساهل مع أبناء الأديان الأخرى.

أهل الإسلام في الشرق جديرون بأن يكونوا كأهل النصرانية في الغرب، تحاربوا حروبا دينية سالت فيها الدماء أنهارا بين البابوي و البرتستانتي، ثم

خطط الشام، ج ١، ص: ١٣٩

جاءت القرون الحديثة فقضت على التحيزات، و صاروا في المسائل الوطنية و القومية متلازمين تلازم اللام للألف، و إذا ذكروا ما ارتكبه أجدادهم في هذا الشأن خجلوا و جموا. الأمويون كالعوليين بشر يخطئون و يصيبون، فلا يليق بنا أن نغض من الأمويين لأنهم لم يتنازلوا عن ملكهم للعوليين، و لا ننكر أن إصابتهم كانت كثيرة جدا في جنب خطيئاتهم، و أهل الشام قبل كل شعب عربي يجب عليهم أن يفاخروا بتاريخ الأمويين و يمعنوا النظر فيه طويلا، و يعرفوا أن لكل دولة كما لكل فرد ما يعد لها و عليها.

بنو أمية أسسوا دولة عظيمة و فتحوا الفتوح و نشروا كلمة التوحيد و بثوا اللغة العربية في الممالك التي دّوخوها فماذا عمل خصومهم لو أنصف المتشيعون لهم؟ لم يوفقوا من قبل و لا من بعد إلا ان يدلوا على الأمة بشرفهم، و أنهم خير من أمية في الجاهلية و الإسلام، و أن الواجب على المسلمين أن يخضعوا لهم مهما كانت حالهم لشرف هذه النسبة فقط، و لقد قامت لهم عدة دول في أقطار مختلفة و كان مصيرها كلها الانحلال، و لذلك كان من المعقول أن لا- يغض من قدر العاملين خصوصا من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم، إن كان هناك ما يتجاوز في تسميته سيئات.

الملك لا يقوم بالزهد و التقوى و لزوم المساجد و الخطب و الحماسة و الإدلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبها. الملك يحتاج كما كان الأمويون الى بذل و تسامح و تماسك و عمل نافع بعيد عن الدعوى. في الصفات الأولى تتمثل حالة العلويين، و في الثانية تتمثل حالة الأمويين.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٠

دور الدولة العباسية الى ظهور الدولة الطولونية من سنة ١٣٢ - ٢٥٤ هـ

مبدأ الدعوة العباسية:

كانت دولة الأمويين الشرقية، كدولة الخلفاء الراشدين، عربية إسلامية صرفة، لم تنتشر كلمتها، و لم تتوزع سلطتها، أما الدولة العباسية فكانت دولة عناصر، و الحاكم فيها العنصر العربي أو من دخل في خدمته و طاعته من الفرس و الترك و الديلم و الموالي، و لقد قال المؤرخون:

في دولة بنى العباس افتقرت كلمة الإسلام، و سقط اسم العرب من الديوان، و استولت الديلم ثم الأتراك، و صارت لهم دولة عظيمة، و انقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، و صار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، و يملكهم بالقهر.

كان أهل البيت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام يعتقدون أنهم أحق بالأمر، و أن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش، فكانوا يرون في بنى أمية غاصبين حقهم في الخلافة، فبدأوا يدعون سرا لذلك منذ وقعت الحرب بين علي و معاوية في صفين و تنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان على الخلافة. فكان معاوية على ما رزق من صدر رجب «يروض من شماس أهل البيت، و يسامحهم في دعوى تقدمهم و استحقاقهم، و لا يهيج أحدا منهم بالثريب عليه في ذلك». و كان

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤١

خلفاؤه من صلبه أو من بنى مروان يعمدون الى القسوة على القائمين بالدعوة لآل البيت تارة و الى الإغضاء زمن العجز طورا، و كان شيعة على مقهورين، و أقاموا على شأنهم و انتظار أمرهم و الدعاء لهم في النواحي، يدعون للرضا من آل محمد و لا يصرحون بمن يدعون له حذرا عليه من أهل الدولة.

و كان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت يرون أن الأمر بعده لابنه أبي هشام عبد الله و كان كثيرا ما يغدو على سليمان بن عبد الملك في الشام. فمر في بعض أسفاره بمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس بمنزله بالحميمة فنزل عليه و أدركه المرض عنده فمات و أوصى له بالأمر.

و قد كان أعلم شيعته بالعراق و خراسان أن الأمر صائر الى ولد محمد ابن علي هذا، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن علي و بايعوه سرا و بعث الدعاء منهم الى الآفاق فأجابه عامة أهل خراسان، و بعث عليهم النقباء و تداول أمرهم هنالك، و توفي محمد سنة أربع و عشر و مئة و عند لابنه إبراهيم و أوصى الدعاء بذلك، و كانوا يسمونه الإمام و هو الذي دعا إليه أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة. عند تمام المئة سنة صحت نية بنى العباس على تأليف جمعية سرية تدعو لهم، و بثت في الآفاق بغض بنى مروان و بلفظ أعم بنى أمية. و كانت الدعوة مقبولة في العراق و خراسان عند كل من تعرض عليه.

و رأس الدعوة في أرض الشام مهد عصبية الأمويين و فروعها في خراسان.

فانبث دعوة العباسيين من قطر وسط بين الأقطار العربية و هو الشام لقرب اتصالها مع الأقطار الأخرى و لا سيما بالعراق ثم بخراسان، و لم تقم الدولة من الحجاز لأنه بعيد عن القاصية تحيط به من جهاته الثلاث صحار و بواد محرقه، و الاستناد على أهل الحجاز كالاستناد على أهل العراق لا يخلو من أخطار. فقد أراد أهل المدينة أن لا يباعدوا يزيد بن معاوية بالخلافة، فضربهم ضربة قاضية، و لم يستطع أن ينجدهم أحد من العراق أو اليمن لبعث الشقة. و خذل أهل العراق عليا و ابنه الحسين، فلم يتمكن أهل الحجاز و اليمن أن ينجدوا آل البيت فوق ما وقع.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٢

كان دعاة آل البيت يغدون من الحميمة و قيل: من كرار من جبال الشراة في الشام و بنو أمية غافلون عنهم و خليفة المستقبل الذي يدعى له على أيام من دار ملكهم كبعث الرعية، و الناس في خراسان يصدرون عن أمره و يقصدون خلافته، و كأن الأقدار خصت

الشام بقيام دولتين عظيمتين فيه الأموية والعباسية، وكانت عصبية الأمويين أهل الشام و عرب الحجاز و اليمن، و عصبية العباسيين أهل خراسان و العراق و قيس، و من أهم العوامل في نجاح بني هاشم في دعوتهم الجديدة، اتفاقهم مع الطالبين على هذا المقصد، و هو نزع الخلافة من بني مروان، فكان البيتان لأول الأمر كأنهما بيت واحد، و لذلك أثمرت الدعوة سريعاً.

بعد نيف و ثلاثين سنة من الدعوة لأبناء العباس و ربما قبل ذلك بقليل انتبه الأمويون في الشام الى مقاصد أعدائهم، و أنهم في صدد تأسيس دولة للقضاء على دولة الأمويين، و في ذلك دليل ظاهر على ضعف أصحاب الأخبار في أيامهم، و على تساهلهم و عنايتهم بتدويخ الأقباسي و الغفلة عن أحوال الدواني، أبلغ ذلك مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية عامله على خراسان نصر بن سيار و قد كتب إليه:

أرى تحت الرماد و ميض جمرو يوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكى و إن الشر مبدؤه الكلام

و قلت من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام

فإن يقطت فذاك بقاء ملكك و إن رقدت فإنى لا ألام

فإن يك أصبحوا و ثووا نيما فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب مروان الى عامله بدمشق الوليد بن معاوية يأمره بتوجيه أحد ثقاته الى الحميمة أو كرار ليأتيه بإبراهيم الإمام، فحملة الى مروان فحبسه في المحرم من سنة ١٣٢ و قتل في محبسه بعد شهرين، و عهد بالأمر بعده الى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد و هو ابن الحارثية أول خلفاء بني العباس نسبة الى جده الأعلى على أبو محمد السجاد بن عبد الله بن العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم. قتل إبراهيم الإمام فكان قتله داعياً الى التعجل بالمناداة علناً بالخلافة العباسية. و ذلك أن إبراهيم الإمام لما قبض

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٣

عليه مروان نعى نفسه الى أهل بيته، و أمرهم بالسير الى أهل الكوفة مع أخيه السفاح و بالسمع له و الطاعة، و أوصى بالخلافة الى أخيه السفاح و أوصاه بالقيام بالدولة و الجد و الحركة، و أن لا يكون له بعده بالحميمة لبث و لا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة، و أنه بذلك أتتهم الرواية و أظهره على أمر الدعاة بخراسان و النقباء، رسم له في ذلك رسماً أوصاه أن يعمل عليه و لا يتعداه. فسار السفاح بأهل بيته منهم أخوه أبو جعفر المنصور و غيره الى الكوفة فأقام فيها شهراً مستخفياً ثم ظهر و سلموا عليه بالخلافة و عزوه في أخيه إبراهيم الإمام و دخل دار الإمارة. و في خلال ذلك زاد نفور المتطلعين الى العباسيين من أهل خراسان و العراق، و ذكر الناس شدة بني مروان في الضرب على أيدي كل من خالفهم، و كان الناس منذ أمد طويل يتمنون لو يديلهم الله بغيرهم و إن كانوا دونهم، فكيف بينى العباس و منزلتهم من الشرف منزلتهم. و البشر ميال الى التجدد و لكل جديد طلاوة.

و من الغريب على ما قال الطقطقى أنه لما قدر انتقال الملك الى بني العباس، هيئت لهم جميع الأسباب، فكان إبراهيم الإمام بالحجاز أو بالشام جالسا على مصلاه مشغولاً بنفسه و عبادته و مصالح عياله، و ليس عنده من الدنيا طائل، و أهل خراسان يقاتلون عنه، و يبذلون نفوسهم و أموالهم دونه، و أكثرهم لا يعرفه، و لا يفرق بين اسمه و شخصه، لا ينفق عليهم مالا، و لا يعطى أحدهم دابةً و لا سلاحاً، بل يجبون إليه الأموال، و يحملون إليه الخراج كل سنة، و لما خذل مروان و أشرف ملك بني أمية على الانقراض، كان مروان خليفة مباحاً و معه الجنود و الأموال و السلاح، و الدنيا بأجمعها عنده، و الناس يتفرقون عنه، و أمره يضعف، و حبله يضطرب، فما زال يضمحل حتى هزم و قتل.

و الثوب إن أنهج فيه البلى أعبى على ذى الحيلة الصانع

اضطرب نظام المملكة الأموية على عهد مروان بن محمد، و كانت

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٤

كلما عراها الضعف والانهلال، يزيد خصوم الأمويين شدة وقوة. ولما بويغ بالخلافة لأبي العباس بالكوفة كانت جيوش خراسان تطارد جيوش الأمويين مطاردة، و ينتشر سلك الملك على صورة مستغربة. و لم يكد العراق يدخل في طاعة العباسيين، حتى ولي أبو العباس عمه عبد الله بن علي الشام فسار من حران الى منبج و قد سؤد أهلها، و بعث إليه أهل قنسرين ببيعتهم ثم سار حتى نزل حمص ثم سار الى بعلبك ثم جاء عين جبر، و كان مروان بن محمد آخر الأمويين لما انهزم على الزاب أتى من حران الى حمص بأهله، فجاء عبد الله بن علي الى حمص فرحل مروان عنها الى دمشق، فتبعه فهرب الى فلسطين في بقايا جيشه، و هناك جيش جيشا آخر، و كان اجتمع للأمويين في دمشق جيش قدر بخمسين ألف مقاتل. و كان جيش عبد الله بن علي لا يمر ببلد إلا و يخرج أهلها مسؤدين أى حاملين شعار العباسيين و هو السواد يبايعونهم عن رضى، هذا و جيشه أقل من ثلث جيش مروان المنهزم و ربما كان الربع. فلما جاء عبد الله بن علي دمشق من ناحية المزة نزل بها يومين، ثم جاءه أخوه صالح بن علي فى ثمانية آلاف مددا من السفاح على طريق السماوة، فنزل صالح بمرج عذراء ثم نزل على باب الجابية، و نزل عبد الله بن علي على الباب الشرقى، و نزل أبو عون على باب كيسان، و بسام على الباب الصغير، و حميد بن قحطبة على باب توماء، و عبد الصمد و يحيى ابن صفوان و العباس بن يزيد على باب الفرديس، فحاصروها أياما ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان (١٣٢)، أى بعد ستة أشهر من مبايعه أبي العباس السفاح بالخلافة فى مدينة الكوفة.

أباح الفاتح دمشق ثلاث ساعات، و قيل: أنهبها ثلاثة أيام، و وضع السيف فى أهلها، و لم يزل جماعته يحزون الرؤوس فى الطرق و المنازل، و يأخذون الأموال، حتى جاء الظهر فأمر برفع السيف، و قتل والى المدينة فيمن قتل من الأمراء و العلماء فى المسجد الجامع. و ممن صلب عبد الله بن عبد الجبار. و دخلت أباعر العباسيين الى صحن الجامع الأموى و ظل إصطبلا لدوابهم و جمالهم سبعين يوما، و قتل يومئذ على رواية

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٥

المنبجى من النصارى و اليهود خلق كثير، و نبشت قبور بنى أمية فى دمشق و غيرها و أحرقوهم بالنار، و لم يبقوا على غير قبر عمر بن عبد العزيز فى دير سمعان، اعترافا بفضله و تقواه، و نقضوا سور دمشق حجرا حجرا.

قيل: إن أهل دمشق لما حاصروهم عبد الله بن علي، اختلفوا فيما بينهم ما بين عباسى و أموى، و قيل: وقعت بينهم العصبية فى فضل اليمن على نزار، و نزار على اليمن، حتى اقتتلوا، فقتل بعضهم بعضا، و ذكروا أنه قتل فيها فى هذه المدة نحو من خمسين ألفا. و لما جاءها عبد الله ابن علي و حاصرها فضيق حصارها، بلغ بالناس الجهد فاستغاثوا، و وجهوا إليه يحيى بن بحر يطلب لهم الأمان، فخرج إليه فسأله الأمان، فأجابته إليه فدخل فنادى فى الناس بالأمان، ثم قال له يحيى بن بحر: اكتب لنا أيها الأمير كتاب الأمان، فدعا بدواة و قرطاس، ثم ضرب ببصره نحو المدينة، و إذا بالسور قد غشيه المسؤدة عسكر بنى العباس فقال له:

قد دخلتها قسرا. فقال يحيى: لا و الله و لكن غدرا. فقال عبد الله:

لو لا ما أعرف من مودتك لنا أهل البيت لضربت عنقك، إذ استقبلتني بهذا، ثم ندم فقال: يا غلام خذ هذا العلم فأركزه فى داره، و ناد من دخل دار يحيى بن بحر فهو آمن، فانحشر الناس إليها، فما قتل فيها، و لا فى الدور التى تليها أحد، و نادى المنادى بعد أن قتل خلق كثير:

الناس آمنون إلا خمسة: الوليد بن معاوية، و يزيد بن معاوية، و أبان ابن عبد العزيز، و صالح بن محمد، و محمد بن زكريا.

و صار عبد الله بن علي الى المسجد فخطبهم خطبته المشهورة، التى يذكر فيها بنى أمية، و جورهم و عداوتهم، و يصف ما استحلوا

من المحارم و المظالم و المآثم، قال ما يقوله العدو في عدوه. و أى عداوة أعظم من عداوة المتنازعين على الملك و السلطان، و بينهم الطوائل و الأحقاد القديمة و الجديدة؟ و هذه الخطبة أشبه بكلام العلويين فى الأمويين، و الأمويين فى العلويين، يقصد بها إثارة النفوس، لينزع منها حب الدولة السالفه، و يفسح مجال الأمانى للناس و يرغبوا فى الدولة الخالفه.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٦

فتح فلسطين و إهلاك رجال الأمويين:

أقام عبد الله بن على فى دمشق خمسة عشر يوماً، رويت خلالها سيوفه من أعداء دولته، ثم سار وراء مروان بن محمد فى خمسين ألف مقاتل، و أخذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك و عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك، فحملهما الى أبى العباس السفاح، فقتلها و صلبها بالحيرة، و أمر أبو العباس عمه عبد الله بن على أن يجد السير نحوها، و هناك بما أصاب من أموال بنى أمية، فسار يريد فلسطين فنزل نهر الكسوة و وجه منها يحيى بن جعفر الهاشمى الى المدينة، ثم ارتحل الى الأردن فأتوه و قد سودوا، ثم نزل بيسان، و منها سار الى مرج الروم فنهر أبى فطرس، و لما قدم فلسطين أظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بنى أمية، و أمره بصلتهم و إلحاقهم فى ديوانه و رد أموالهم عليهم، فقدم عليه من أكابر بنى أمية و خيارهم ثلاثة و ثمانون رجلاً، و فى رواية الطبرى أنهم كانوا اثنين و سبعين رجلاً و قد أعد لهم مجلساً على نهر العوجاء فيه أضعافهم من الرجال و معهم السيوف و الأجرزة، فأخرجهم عليهم فقتلهم و سحبا، و طرحت عليهم البسط و جلس عليها، و دعا بالطعام فأكل و جماعته، و ما زال بعض القتلى يئن، و قال: يوم كيوم الحسين بن على و لا سواء.

و كان فى جملة قتلاه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، و كان قد بدّ العابدين فى زمانه، و سبق المجتهدين فى عصره، و اتخذ أموالاً معجبة، تطرد فيها المياه و العيون، فقتله، ثم استقصى ماله و مال من قتل من سادات بنى أمية و صناديدهم، و منهم من قتلوا لأنهم أبوا أن يصيروا أموالهم الى السفاح. و قد قتل فى قلنسوة شمالى العوجاء بعض بنى أمية.

و قصارى القول أن فاتح الشام للعباسيين بطش فى الأمويين و من والا هم من أهل هذه الديار بطش الجبارين. و سار من الجور سيرة لم يسرها أحد قبله.

تتبع العباسيون بنى أمية فى الحجاز و العراق فقتلوا منهم أناساً كثيرين و لم يفلت إلا أفراد، منهم عبد الرحمن بن معاوية الذى فر الى الأندلس و هناك أقام الخلافة الأموية الغربية، فدامت مائتين و ثمانى و ستين سنة،

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٧

و لم تطل إليه و لا- إلى آله أيدي العباسيين حتى انقضت دولتهم. و منهم من فرّ الى الحبشة، و بقى فيها هو و ذريته الى خلافة المهدي العباسى.

و بعد مقتل بنى أمية و اشتداد خوفهم، و تشتت شملهم، و اختفاء من قدر على الاستتار منهم، أصدر السفاح الى سليمان بن على كتاباً عاماً الى البلدان يعطى فيه الأمان للأمويين. فكان هذا أول أمان بنى أمية.

و كان سليمان بن على كتب الى السفاح أنه وفد و افد من بنى أمية علينا، و أنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا و إياهم عبد مناف و الرحم تبلّ (توصل) و لا تقطع، و ترفع و لا توضع.

انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفاني:

لما أفنى بنو العباس بنى أمية فى فلسطين ندمت عرب الشام على ما فعلت لما ركبهم من العار، و تسليط العجم من أبناء خراسان عليهم، ينزلون منازلهم، و يأخذون أموالهم، فهاجت لذلك و اضطربت، و امتنعوا من البيعة. و فى السنة التى دخل فيها العباسيون أرض

الشام، يبيض حبيب ابن مرة المرى، وأهل حوران والبثية، ومدينتها أذرعان، أى لبس شعار الأمويين وهو البياض، ونصب رجلا من بنى أمية، فقاتلهم عبد الله ابن على بأرض البلقاء والبثية وحوران، وكان بينه وبينهم وقعات.

وحبيب بن مرة من قواد مروان وفسانه. وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه، فبايعه قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور، فلما بلغ عبد الله بن على تبيض أهل قنسرين فى الشمال، دعا حبيب بن مرة الى الصلح وأمنه ومن معه.

وكان الداعى الى خلع قنسرين طاعة بنى العباس، قائد من قواد مروان أيضا اسمه أبو الورد الكلابى وكان دخل فى طاعتهم، ثم نزع الطاعة لما قدم أحد قواد عبد الله بن على الى بالس والناعورة، وأنشأ يعث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم، فشكا بعضهم ذلك الى أبى الورد، وكان قد اجتمع معه جماعة من أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر، فقدم منهم ألوف عليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٨

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ودعوا إليه. وقالوا هذا السفينانى الذى كان يذكر.

والغالب أن أنصار الأمويين وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة زعموا فيها أنهم يعرفون ما يحدث فى المستقبل من الزمان والآتى من الأيام، من ظهور أمرهم ورجوع دولتهم، وظهور السفينانى فى الودى اليابس من أرض الشام، فى غسان وقضاة ولخم وجدام وغاراته وحروبه، ومسير الأمويين من بلاد الأندلس الى الشام، وأنهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفرة، وما يكون لهم من الوقائع والحروب والغارات والزحوف، على ما نقله المسعودى. والاعتقاد بظهور السفينانى كما قال صديقنا أحمد تيمور باشا يشبه الاعتقاد بظهور المهدي ويروون فيه أحاديث وأقاصيص الله أعلم بها. وفى البدء والتاريخ أن الروايات بشأن السفينانى فيها حشو كثير ومحالات مردودة. ومسألة السفينانى تدبير للأمويين حتى لا ينقطع الأمل من رجوع دولتهم ويخيفوا أعداءهم على الدوام. وربما كانت دعوى قرب ظهور السفينانى أيضا واسطة لفتك العباسيين بكل من توهما فيه شيئا من الرائحة السفينانية ولم تكذ تنقطع هذه النعمة فى الشام.

وفى سنة ٢٩٤ زعم رجل أنه السفينانى فحمل هو وجماعة معه من الشام الى باب السلطان فقبل إنه موسوس.

كان أتباع زياد فى نحو أربعين ألفا فعسكروا بمرج الأخرم بنواحي سلمية ودنا منهم عبد الله بن على ووجه إليهم أخاه عبد الصمد بن على فى عشرة آلاف. وكان أبو الورد هو المدبر لعسكر قنسرين وصاحب القتال، فناهضهم وكثر القتل فى الفريقين، وانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم ألوف، ولحق بأخيه عبد الله فأقبل عبد الله معه وجماعته القواد، فالتقوا ثانية بمرج الأخرم فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت عبد الله فانهمز أصحاب أبى الورد وثبت هو فى نحو من خمسمائة من قومه وأصحابه فقتلوا جميعا، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ودخلوا فى طاعته، ثم رجع الى دمشق وكان قد خرج من بها عن الطاعة أيضا، ونهبوا أهل عبد الله بن على، فلما

خطط الشام، ج ١، ص: ١٤٩

دنا عبد الله من دمشق هربوا ثم أمنهم، قال المؤرخون: إن العباسيين قتلوا من الشاميين ما لا يحصى، ثم أذكوا العيون على الأمويين يقتلون رجالهم ونساءهم، وينبشون عن قبورهم فيحرقونهم، فمن ثم سمي عبد الله ابن محمد بن على السفاح وفيه يقول الشاعر:

و كانت أمية فى ملكها تجول وتظهر طغيانها

فلما رأى الله أن قد طغت ولم تطق الأرض عدوانها

رماها بسفاح آل الرسول فجزّ بكفيه أذقانها

انتقاض العباسيين على أنفسهم:

هذا ما كان من أمر من خلعوا طاعة بنى العباس من عصبية بنى أمية في الجنوب و الشمال، و لم يكن أثر تلك العصبية قد زال على شدة العباسيين في قطع شأفة الأميين. و لما هلك أبو العباس السفاح، قام عمه عبد الله ابن علي عامل الشام، يدعو الى نفسه بالخلافة، و قد استمال من معه من جنود خراسان فمالوا معه، و كان صالح بن علي بمصر على طاعة أبي جعفر، فلما بلغه أن عبد الله بن علي، قد خلع أبا جعفر و أنه قد عزم على حربه أقبل بمن معه من أهل خراسان، منكرًا لفضل عبد الله بن علي، حتى لقي الحكم بن ضبعان الجذامي، و مع الحكم خلق كثير من أهل الشام في طاعة عبد الله بن علي، فهزمهم صالح باللجون و قتل منهم ناسا كثيرا و أفلت الحكم حتى أخذه بعد يزيد بن روح اللخمي بأرض بعلبك، و كان يزيد عاملا لصالح بن علي ببلبك، فضرب عنق الحكم و بعث برأسه الى صالح بن علي، و نقل يزيد بن روح عند قتله الحكم بن ضبعان الى ولاية دمشق. هذه رواية ابن عساكر، و قال غيره: إن صالح بن علي لما جاء فلسطين من مصر طلب أحياء العرب، و جعل يذبهم حتى أتى علي آخرهم و انتهب أموالهم و مواشيهم. و علل صاحب البدء و التاريخ خروج عبد الله بن علي، علي أبي جعفر بقوله: إنه لما مات أبو العباس، ادعى الخلافة عبد الله بن علي و بايعه أهل الشام و الجزيرة، و ذلك أن أبا العباس لما ظهر أمره، وضع سيفًا

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٠

و قال: من تقلد هذا السيف و سار الى مروان فقاتله فله الخلافة بعدى، فتحاماه الناس و قام عبد الله بن علي فتقلده، و سار فقاتل مروان فقتله، فلما مات أبو العباس قام بالخلافة و بايعه الناس على ذلك، و كان أجدهم و أشجعهم، فهال ذلك أبا جعفر و استشار أبا مسلم فقال:

الرأى أن تعاجله و لا تتأني به، و كان عبد الله بن علي في مائة ألف مقاتل و مائة ألف من الفعل، و حفر الخندق من جبل نصيبين الى نهرها، و جعل فيه ما يحتاج إليه من العدة و الآلة، و نصب المجانيق و العزادات و بث الحسك، و سد الطريق على من يقصده من العراق، و جعل الخصب و القرى وراءه.

و لما وجه أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني قال له: أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت. فإما أن تسير الى الشام، فتصلح أمرها أو أسير أنا. قال أبو مسلم: بل أسير أنا. فاستعد في اثني عشر ألفا من أبطال جنود خراسان، حتى إذا وافى الشام انحاز إليه من كان بها من الجنود جميعهم، و بقي عبد الله بن علي وحده، فعفا أبو مسلم عنه، و لم يؤاخذه بما كان منه و قيل: بل أسره و حمله الى أبي جعفر، فخلده الحبس الى أن مات، و هذا هو الأصح؛ و أبو مسلم من أقرب الناس الى سفك الدماء، و قد قتل في دولته ستمائة ألف إنسان، و لكنه تحامى أن يقتل عم الخليفة، و اكتفى من عقوبة النائر بالاستيلاء على خزائنه، و كانت عظيمة، لأنه استولى كما تقدم على ذخائر خلفاء بنى أمية و نعمتهم، و ذلك بعد حروب كثيرة في أرجاء نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور، و صبر الفريقان شهورا على حروبها. و مع هذا تعاقب على حلب كثير من ولد عبد الله بن علي بن العباس نحو مئة سنة. و كان هوى أهل الشام مع عبد الله بن علي يوم قام على المنصور، فلما هزم عبد الله عفا المنصور عن الشاميين، و كان العباسيون كالأمويين يولون في مبدأ أمرهم الولايات لآل بيتهم و أولياء عهد الخلافة.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥١

نزع اللبنانيين و الفلسطينيين طاعة العباسيين:

و من كوائن هذا الدور ما وقع في سنة ١٣٥ من نهب المقدم الياس في لبنان البقاع و نهب قراها و أهلها، فأرسل والى الشام من قبل أبي العباس إليه رسلا لعقد الصلح، ثم هاجمه في قرية المرج و قتله، و بعد رجوع عسكر الشام، رجع أصحابه و دفنوه بقرب الجامع الذى في القرية.

ثم أقيم مقدما على الجيش سمعان ابن أخت المقتول فسارت إليه عساكر الشام، و كانت الحرب بينهم في قرية الشوير، فانكسر العسكر

الشامى و ارتد راجعا، و دام القتال على ما فى تواريخ الموارنة بين عساكر المسلمين و نصارى تلك الكورة مدة طويلة. و يقول البلاذرى: إنه خرج قوم بجبل لبنان شكوا عامل خراج بعلبك، فوجه صالح بن على من قتل مقاتلتهم و أقر من بقى منهم على دينهم، و ردهم الى قراهم، و أجلى قوما من أهل لبنان. و قد كتب الإمام الأوزاعى الى صالح رساله طويلة فى تخطئه فى طريقته التى سار عليها فى مقاتلة اللبانيين، حفظ منها ما يأتى: و قد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان، ممن لم يكن لهم ممالئا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم، ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم و أموالهم؟ و حكم الله تعالى «أَلَّا تَرَوْا زِرَّةً وَ زِرَّةً أُخْرَى» و هو أحق ما وقف عنده، و اقتدى به و أحق الوصايا أن تحفظ و ترعى وصية رسول الله صلى الله عليه و سلم فإنه قال: من ظلم معاهدا و كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. ثم ذكر كلاما.

روى ابن عساكر أن الروم دخلوا طرابلس فى زمان واليها رباح بن عثمان لصالح بن على أمير الشام و مصر، ثم ظهر رجل من أهل المنيطرة، و ذلك فى سنة اثنتين أو سنة ثلاث و أربعين و مائه، و سمي نفسه الملك، و لبس التاج و أظهر الصليب و اجتمع عليه أنباط جبل لبنان و غيرهم، ثم استفحل أمرهم فسبوا بعض قرى البقاع، فقتلوا المسلمين و أخذوا ما وجدوا و كتب بندار خطط الشام، ج 1، ص: 152

الملك الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم و يأمرهم بقتالهم، فتأهبوا و قاتلوه فى أسفل جبل لبنان، ثم أظهروا الهزيمة فأمعنوا فى الطلب، فلما بعدوا عن الجبل كرت عليهم خيل بعلبك، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، و انهزم بقيتهم، ثم هاجمهم فى قلعتهم فظهروا عليهم و امتلكوها منهم، و هرب بندار الى ملك الروم، فكتب حينئذ صالح بن على يأمر بإخراج من بقى فى الجبل، و تفريقهم فى كور الشام. و صالح بن على من أعظم رجال العباسيين هو الذى كسر الروم فى نوبة مرج دابق و كانوا فى مئة ألف أو يزيدون. و بعد صالح بن على وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الى الشام، و كتب إليه أن يخرج عمال صالح بن على، فجهزه و عقد له و ضم إليه من قواده جماعة، و كتب أمير المؤمنين الى صالح بن على أن يسلم دمشق الى محمد بن الأشعث، فأتاها فأقام بها مدة، ثم أتاه كتاب أمير المؤمنين يأمره أن يسير الى الأردن و يخرج عمال صالح بن على من الأردن و البلقاء و فلسطين فأخرجهم.

قيس و يمن و الفتن الداخلية و الخارجية:

و فى سنة 168 نقض الروم الصلح، فوجه على بن سليمان و هو يومئذ على الجزيرة و قنشرين يزيد بن بدر فى سرية الى الروم، فغنموا و ظفروا.

و لم يغفل العباسيون عن غزو الروم الصوائف و غيرها على مثال بنى أمية.

و فى هذه السنة رد المهدي ديوان أهل بيته من دمشق الى المدينة. و من الفتن فتنة سنة 176 هاجت بدمشق بين المضربين و اليمانيين، و كان على دمشق عبد الصمد، فسعى الرؤساء فى الصلح فأجاب بنو القين، و استمهلت اليمانية ثم ساروا الى بنى القين و قتلوا نحو ستمائة، فاستنجدت بنو القين قضاة و سليحا فأبوا، فاستنجدوا قيسا فساروا معهم الى الصواليك، من أرض البلقاء، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة، و كثر القتل منهم، ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق، و ولاها إبراهيم بن صالح، و كان هواه مع اليمانيين، و استخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحاق فحبس جماعة من قيس و ضربهم، ثم و ثبت غسان برجل من ولد قيس العيسى فقتلوه، و استنجد

خطط الشام، ج 1، ص: 153

أخوه بالزواقل (الصوص) من حوران فأنجده، و قتلوا من اليمانية نفرا. قال ابن كثير فى حوادث سنة 176 إنه وقعت فتنة بين النزارية و اليمانية، و هذا كان بدء العشران بحوران و هم قيس و يمن، أعادوا ما كانوا عليه فى الجاهلية فى هذا الأوان، فقتل منهم بشر كثير، فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى و معه جماعة من القواد و رؤوس الكتاب، فأصلحوا بين الناس و هدأت الفتنة، و استقام أمر الشام، و حملوا جماعات من رؤساء الفتنة الى مدينة السلام، فرد أمرهم الرشيد الى عامله خالد فعفا عنهم و أطلقهم ففى

ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده

و صبّ موسى عليها بخيله و جنوده

فدانت الشام لما أتى نسيج وحيد

دامت هذه الفتنة نحو سنتين، و سببها فيما قيل أن رجلاً من بني القين قطع بطيخه من حائط بالبلقاء لرجل من لخم أو جذام. و في رواية أن الفتنة لما هاجت بالشام بين النزاريه و اليمانية، و ولي الرشيد سنة ١٧٦ موسى بن يحيى الشام جميعه، أقام به سنتين حتى أصلح بينهم. قال ابن الأثير: إن سبب هذه الفتنة بين المضريه و اليمانية، و رأس المضريه أبو الهيثام عامر بن عمارة أحد فرسان العرب المشهورين، أن عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيثام فخرج أبو الهيثام بالشام و جمع جمعاً عظيماً. و هذا السبب أرجح إذ لا يعقل أن تشب الفتنة بين قبيلين من أجل بطيخه قطعت من بستان. أما أبو الهيثام فاستولى على دمشق، و قاتل في قومه فهزم أكثر الجيوش التي قابلته، و كان معه فريق كبير من أعراب الشام.

و في سنة ١٨٠ تفاقم أمر هذه الفتن، فعقد الرشيد، أيام عصبية أبي الهيثام، لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام، فأتاهم و أصلح بينهم و قتل المتلصصة منهم، و لم يدع بها محارباً و لا فارساً، فعدوا الى الأمن و الطمأنينة و قال بعض الشعراء في ذلك:

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٤ لقد أوقدت بالشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل جعفر عليها جنت شهبانها و شرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلاقي صدعها و انجبارها

رماها بميمون النقيبة ماجد تراضي به قحطانها و نزارها

و في سنة ١٨٧ ثارت العصبية أيضاً بالشام بين المضريه و النزاريه و جمعوا جموعاً كثيرة، و كانت بينهم في ذلك فتن قتل فيها من المضريه نحو من خمسمائة، و والي على دمشق شعيب بن حازم، قال ابن عساکر: و ذكروا منه تعصبا فوجه أمير المؤمنين الرشيد محمد بن منصور بن زياد الى أهل دمشق، و أمره بدعاء الفريقين جميعاً الى الرجوع عما هم عليه، على أن يحمل من بيت ماله ما كان بينهم من الدماء و يعفو عنهم و يولى من أحب الفريقان، فأطفئت الفتنة. و في سنة ١٨٨ كان غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة، أدرب من درّب الصفصاف فيما ذكر أربعون ألفاً و سبعمائة.

الحمصيون و فتنة السفيناني:

و في سنة ١٩٠ و ثب أهل حمص بواليهم فخرج الرشيد نحوهم، فلما صار بمنبج لقيه وفداهم يعطون بأيديهم فعفا عنهم. و في سنة ١٩١ خرج أبو النداء بالشام، فوجه الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ، و عقد له على الشام.

و فيها نقض أهل قبرس العهد فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلها.

و في سنة ١٩٤ اختلف أهل حمص مع عاملهم إسحاق بن سليمان، فانتقل عنهم الى سلمية فعزله الأمين، و استعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي، فقاتل أهل حمص حتى سألوا الأمان فأمنهم، ثم هاجوا فضرب أعناق عدة منهم. و في سنة ١٩٥ أي في أيام الخليفة الأمين، ظهر بالشام السفيناني على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي العميتر (كسفرجل) لأنه زعم أنها كنية الحرزون فلقبوه به، و كان من بقايا بني أمية بالشام، و من أهل العلم و الرواية، فدعا الى نفسه و سمى خليفة، و كان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون في أسواق دمشق و يقولون للناس:

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٥

«قوموا بايعوا مهدي الله». و كان يفتخر بقوله: أنا ابن شخى صفيين يعني علياً و معاوية، لأنه كان ينتسب لبني أمية من جهة أبيه و لآل

أبي طالب من جهة أمه، و كان أكثر أصحابه من كلب، و تعصب له اليمانية، و قاومه القيسية فنهب دورهم و أحرقتها و قتلهم و فتك بأهل دمشق، و طرد منها سليمان بن أبي جعفر المنصور عاملها بعد حصره إياه، و كان عامل الأمين عليها، فلم يفلت منها إلا بعد اليأس، و أعانه الخطاب بن وجه الفليس مولى بني أمية، و كان قد تغلب على صيدا، و قاومه محمد بن صالح بن بيهس الكلابي فخرج الى قرية الحرجلة، فقتل من ظفر به من بني سليم و نهبها و أحرقتها، و جعل يطلب من بدمشق من القيسية.

و كان القرشيون و أصحابه من اليمن يمرون بالدار من دور دمشق فيقولون:

ريح قيسى نشم من هذه الدار، فيضربونها بالنار، فهرب القيسية من دمشق، و كان من لم يبايعه سمّر عليه بابه، و كان إذا خرج من الخضراء و هو راكب يمشى بين يديه خمسمائة رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات و فى أيديهم المقارع.

كتب أبو العمير الى ابن بيهس الكلابي: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعه أمير المؤمنين، (يعنى نفسه) و جحدانك نعم آباءه عليك، و لست و لا أحد من سلفك إلا فى نعمته، و أنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفيئا، و أن عشيرتك بالغوطة كرش منثورة، و أمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت و أطعت، ليلغن بك أقصى غاية الشرف، و ليولينك ما خلف بابه، و لئن تخلفت و تأخرت ليعثن إليك ما لا- قبل لك به من الزحوف، التى تتلوها الحتوف، بشاهد السلاح المعد لأهل الخلاف و المعصية. و قد بعث إليك أمير المؤمنين شعرا فتدبره» و كتب فى أسفل كتابه:

لئن كان هذا الجد منك لقد هوى بك الحين فى أهوية غير طائل

أبعد اجتماع الشام سمعا و طاعة الى و إذلالى جميع القبائل

و توجيهى العمال فى كل بلدة و زحفى إليها بالقنا و القنابل

رجوت خلافى أو تمنيت جاهلا إزالة ملك ثابت غير زائل

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٦ فإن تعط سمعا أو تعلق بطاعة تقل من ملومات شداد الزلازل

و إن تعص لا تسلم و فى السيف واعظلذى الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

فلم يجبه ابن بيهس على كتابه، و أقبل أبو العمير على طلب القيسية فكتبوا الى ابن بيهس، فأقبل إليهم فى ثلاثمائة فارس من الضباب و مواليه، و اتصل الخبر بأبي العمير فوجه إليه يزيد بن هشام فى اثنى عشر ألفا فاقتلوا، فلم يزل القتل فى أصحاب يزيد بن هشام حتى دخلوا أبواب دمشق، فبلغ القتلى ألفى رجل و أسر ثلاثة آلاف، فدعا بهم ابن بيهس فحلق رؤوسهم و لحاهم، و أحلفهم بأنهم يصيرون الى باب أبي العمير فيصيحون نحن عتقاء ابن بيهس، فاشتدت شوكته و توهن أمر أبي العمير السفينانى، فجعل ابن بيهس يغير كل يوم على ناحية فيقتل و يأسر. و لما فرغ ابن بيهس من حرب يزيد بن هشام، نزل قرية سكا، و اجتمع الى أبي العمير و زراؤه فقالوا له: لا يهولنك محاصرة ابن بيهس إياك فإن الحرب سجال، فكتب أبو العمير الى السواحل و البقاع و بعلبك و حمص فأناه خلق عظيم، و اشتبكت الحرب بين شبا و قرحتا و تقاتلوا قتالا- طويلا- و اجتمعت نمير على مسلمة بن يعقوب، و بذلوا له البيعة بالخلافة، فقبل منهم و جمع مواليه و دخل على السفينانى أبو العمير فى الخضراء فقبض عليه و قيده، و قبض على رؤساء بنى أمية فبايعوه و أدنى قيسا و جعلهم خاصته.

و جمع ابن بيهس رؤساء بنى نمير فقال لهم: قد كان من علتى ما ترون فارفقوا بنى مروان بن الحكم و أطفوا بهم، و عليكم بمسلمة بن يعقوب فبذل له بنو نمير البيعة. و بعث مسلمة الى رؤساء بنى أمية عن لسان أبي العمير يأمرهم بالحضور فجعل كل من دخل يقال له:

بايع، و السيف على رأسه فيبايع. و أدنى مسلمة القيسية، و لبس الثياب الحمر، و جعل أعلامه حمراء، و أقطع بنى نمير ضياع المرج، و جعل لكل رجل من وجوه قيس بمدينة دمشق منزلا و ولاهم، ثم أقبل ابن بيهس حتى نزل قرية شبا و أصبح منها غاديا الى دمشق، و صاح الديدبان بالسلاح، و خرج مسلمة و خرجت معه القيسية، فتقاتلوا ذلك اليوم مع

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٧

مسلمة قتالا- شديدا و كثرت الجراحات فى الفريقين، و انصرف ابن بيهس و خاف القيسية على أنفسهم، و ذهبوا الى ابن بيهس و أحكموا الأمر معه، و صبح دمشق بالخييل و الرجالة و السلالم، و نشب القتال و صعد أصحاب ابن بيهس السور بناحية باب كيسان فلم يشعر بهم أصحاب مسلمة، و استولى ابن بيهس على دمشق لعشر خلون من المحرم سنة ثمان و تسعين و مائة، و لم يزل يحارب أهل المزة و داريا و بيت لهيا إلى أن صالحه أهل بيت لهيا، و أقام على حرب أهل المزة و داريا و هو مقيم بدمشق أميرا متغلبا عليها، الى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق سنة ثمان و مائتين و خرج الى مصر و رجع الى دمشق سنة ست عشرة و مائتين، و حمل ابن بيهس معه الى العراق. و ولى الأمين (١٩٦) عبد الملك بن صالح بن على بن على الشام، و أمره بالخروج اليها. و فرض له من رجالها جنودا يقاتل بها طاهرا و هرثمة. و عبد الملك هذا هو الذى كان يقول فى أهل الشام: قوم قد ضرستهم الحروب و أدبتهم الشدائد، و إن أهل الشام أجراً من أهل العراق، و أعظم نكايه فى العدو. و وقعت فتنه فى عسكره بين الخراسانيين و أهل الشام و كثر القتل، و أظهر عبد الملك النصرة للشاميين، و انتصر الحسين بن على للخراسانيين و تنادى الناس بالرجوع، فمضى أهل حمص و قبائل كلب فانهمز أهل الشام و اتصلت الحروب (١٩٨) بين سكان الشام و جماعة العباسيين، و كان يعقوب بن صالح الهاشمي يحارب الحاضر حاضر حلب، فلم يبق منهم و افترقوا أيدي سبا، فصار أكثرهم الى مدينه قنسرين، و ضرب يعقوب الحاضر و كان فيه عشرون الف مقاتل.

و ذكر المسعودى أن عبد الملك بن صالح توفى بالرقه سنة ١٩٧، و كان العامل على الجزيرة و جند قنسرين و العواصم و الثغور، و اضطربت البلدان بعد وفاته، و تغلب كل رئيس قوم عليهم، و صار الناس حزيين، حزب يظاهر بمحمد، و حزب يظاهر بالمأمون، فلم يبق بلد إلا و فيه قوم يتحاربون، لا سلطان يمنعهم و لا شىء يدفعهم. و لما أفضت الخلافة الى المأمون كان بقورس و ما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي، و بالهيار و ما والاها من كور قنسرين عثمان بن عثامه العبسي،

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٨

و بالحاضر الذى الى جانب حلب منيع التنوخى. و قد كان يعقوب بن صالح الهاشمي يحارب الحاضر، فهرب أهل قنسرين، و كان بمعرة النعمان و تل منس و ما والاها من إقليم حمص الحوارى بن خيطان التنوخى.

و بحماة و ما والاها حراق البهرائي، و بشيزر و ما والاها بنو بسطام، و بمدينه حمص بنو السمط، و أقام بدمشق و الأردن و فلسطين جماعة من رؤساء القبائل حتى ولى المأمون عبد الله بن طاهر.

و لم تكد الشام تستريح من فتنه أبى العميصر حتى قام فى أول عهد المأمون بدمشق رجل من بنى أمية أيضا، أسمه سعيد بن خالد الأموى العثماني الفدينى، و ادعى الخلافة، قام بعد أبى العميصر و أغار على ضياع بنى شبيب (شربنت؟) السعديين، و تطلب القيسية و قتلهم، و تعصب ليمن، فجهز له محمد بن صالح ابن بيهس أخاه يحيى بن صالح، فلما صار بالقرب من حصنه المعروف بالفدين هرب، فوقف يحيى حتى هدمه و حرب زيزاء، و تحصن سعيد فى قرية ماسوح، ثم إنه جمع عليه جمعا عظيما زهاء عشرين ألفا، فلم يجد محاربه الى أن أجلاه عن مكانه و صار بعد ذلك الى حسابان و فيه حصن حصين، فأقام به و تفرق عنه أصحابه.

فتنة نصر بن شيبث:

و هكذا لم يخل عهد السفاح و المنصور و المهدي و الهادي و الرشيد و الأمين و المأمون من خلفاء بنى العباس من فتن فى هذه الديار، و بقيت نار العصبيات تتأجج. و اليمانيون مع الأمويين، و القيسيون مع العباسيين، و الدعوة للسفياى الذى وعد يارجاع ملك بنى أمية تهب و تنام، و قد ابتدأت أوائل خلافة المأمون بشىء من هذا القبيل. فقد عصى عليه نصر بن شيبث العقيلي، و كان يسكن كيسوم شمالى حلب، و كان فى عنقه بيعه للأميين و له فيه هوى، فلما قتل الأمين أظهر نصر الغضب و تغلب على ما جاوره من الكور، و ملك سميساط و اجتمع عليه خلق كثير من الأعراب و أهل الطمع و قويت نفسه، و عبر الفرات الى الجانب الشرقى،

خطط الشام، ج ١، ص: ١٥٩

وحدثته نفسه بالتغلب عليه. فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت عليه وقوى أمره (١٩٩) بالجزيرة و أتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا: قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم، و أعلقت عنهم العرب فلو بايعت لخليفه كان أقوى لأمرك فقال: من أى الناس؟ قالوا:

نبايع لبعض آل على بن أبى طالب فقال: أبايع أولاد السوداوات، فيقول إنه خلقنى و رزقنى. قالوا: فنبايع لبعض بنى أمية فقال: أولئك قد أدبر أمرهم و المدبر لا يقبل أبدا، و لو سلّم علىّ رجل مدبر لأعدانى بإدباره، و إنما هواى فى بنى العباس، و إنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدّمون عليهم العجم.

قوى أمر نصر فأرسل عليه المأمون أحد عظام قواده طاهر بن الحسين فلقبه نصر و كسره، فسير إليه المأمون عبد الله بن طاهر القائد العظيم ابن ذاك القائد العظيم، فحصره فى كيسوم من مدن العواصم و أخذه بعد وقائع كثيرة، و احتوى على الشام جميعه و هدم عدة أسوار من المدن المجاورة لحلب و منها كيسوم. و سار عبد الله بن طاهر يستقرى الشام بلدا بلدا، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل و العشائر و الصعاليك اللصوص، و هدم الحصون و حيطان المدن، و بسط الأمان للأسود و الأبيض و الأحمر و ضمهم جميعا، و نظر فى مصالح البلدان، و حط عن بعضها الخراج، فلم يبق مخالف و لا عاص إلا خرج من قلعة و حصنه، و عاد عبد الله بن طاهر الى مدينة السلام يحمل معه المتغلبين على الشام، أمثال ابن السرج و ابن أبى الجمل و ابن أبى الصقر، و دام عصيان نصر خمس سنين.

المأمون و حكمه على قيس و يمن:

لم يطفىء الفتنة التى أثارها نصر بن شيبث فى الشمال و التى أثارها غيره

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٠

فى الوسط و الجنوب غير أعظام قواد بنى العباس، أطفأوها بالعقل و التؤدة، و قد رأينا أن عصبية الأمويين لم تنقطع على شدة العباسيين فى استئصالها، و كان كل حين يثور ثائر باسم السفينانى، و يثور معه جماعته و لا سيما من أهل القرى و البوادي. و كانت الأحوال أخذت تهدأ على عهد الرشيد و المأمون، فتفرغا لإجراء الإصلاح. و كان الرشيد تولى شمال الشام أيام كونه وليا للعهد، و المأمون زار الشام ثلاث مرات يقيم فيها نصاب العدل، و يوطد دعائم المدينة، و عدّ عهده و عهد أبيه من أجمل عصور التاريخ الإسلامى. المأمون الخليفة العادل، و ممثل التسامح المحمدى العجيب، و محكم العقل فى أحكامه و معتقداته، و قلما اجتمعت صفات كصفاته و عقل كعقله و علم كعلمه لخليفة من خلفاء الإسلام.

و كأن ما وقع فى أوائل عهد العباسيين من الغوائل التى غالت أهل البوادي و الحواضر فى هذه الديار كان عقوبة لأهلها عما قدمت أيديهم من خيانه عهد بنى أمية و نفض أيديهم من مروان بن محمد لأول ظهور قوة خصمه و إدبار الأمر عنه، حتى قاتلوه و طاردوه، على مثل ما قاتله جيش خراسان العباسى و زيادة، فتعجلوا انقراض دولة الأمويين معلقين آمالهم على الدولة الفتية. و لذلك زعم بعضهم أن الملك فى الشام لا يثبت، لعدم الثبات المغروس فى فطرة أهله، و لتلون الطبائع فيه تلون أقاليمه و سمائه و هوائه. و كان من أثر العادة التى حملها العرب معهم من جزيرتهم، و هى عادة الغزو المتأصلة فى غير سكان المدن، أن نشبت الثورات و كثر قتل الأنفس و غرست هذه الاضطرابات فى أرض الشام فنمت، خصوصا و جبالها أكثر من سهولها على الأكثر، و تصلح للدفاع و الهزيمة و الاستمرار على المشاكسة لصاحب القوة.

بالغ العباسيون فى إهراق الدماء لأول أمرهم، و قضوا على آثار بنى أمية، و هى كثيرة جدا، و مع ذلك كان اسم الأموى و السفينانى يرنّ فى الآذان، و المستعدون للثورة يمتشقون الحسام عند أول داعية يسمعون صوتها، أو ثائر يستتبع الناس و يعدهم الوعود الخلافة.

نعم إن التنازع بين القيسيين و اليمانيين كان فى هذا القرن على أشد حالاته، و هذه العداوة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦١

بين الفريقين العظيمين من العرب أضرت ضررا بالغا. وكان القيسيون حزب العباسيين على الأغلّب و اليمانيون حزب الأمويين و المنافسة بينهما على الملك و السلطان.

«تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال: أكثرت عليّ يا أبا أهل الشام، و الله ما أنزلت قيسا من ظهور الخيل إلا و أرى أنه لم يبق من مالى درهم واحد، و أما اليمن فو الله ما أحببتها و لا أحببتني قط.

و أما قضاة فسادتها تنتظر السفينى و خروجه فتكون من أشياعه، و أما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر، و لم يخرج اثنا إلا خرج أحدهما نائرا، اعزب فعل الله بك».

سبب تباعض النزارية و اليمانية و حكمة حكيم:

تأصلت البغضاء بين النزارية و اليمانية منذ كان للعرب فى الشام سلطان.

و كثيرا ما تظهر بوادر هذه العداوة لسبب تافه. فقد ذكروا أن الكميت الشاعر المعروف، مدح النزارية فأفحش فى مدحه، ففخروا بذلك على اليمانية، و أغدق بنو هاشم المال على الكميت مكافأة له، و قام دعبل الخزاعى يمدح اليمانيين و يعيب غيرهم، فكان هذا أول الشنآن بين النزارية و اليمانية، و منها تحزب الناس بالمناقب و ثارت بينهم فى البدو و الحضرة، الى أن قام محمد الجعدى متعصبا لقومه، فانحرف الناس للدعوة العباسية و تقلقل الأمر الى انتقال الدولة من بنى أمية الى بنى هاشم، و لم يبق معهم إلا من فرّ بنفسه مستخفيا.

و كان رجال الإدارة و السياسة إذا أحبوا نشر العدل بين هذين الحيين العظيمين من أحياء العرب يتعذر عليهم ذلك إلا بغمط حقوق الفريق الثانى، و لذلك عدّ من حسن سياسة إبراهيم بن محمد المهدي المنبوز بابن شكلة الهاشمى أخى الخليفة الرشيد لما ولى دمشق، ما اتخذه أو ابتدعه من طريقه

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٢

جديدة أرضى بها قيسا و يمنا، فإنه لما جاء غوطه دمشق وافاه الحيان من مضر و يمن، فلقى كل من تلقاه بوجه واحد، فلما دخل المدينة أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين و أمره بتسمية أشرفهم، و أن يقدم من كل حى الأفضّل فالأفضّل منهم، و أن يأتيه بذلك، فلما أتاه به أمر بتصيير أعلى الناس من الجانب الأيمن مضربا، و عن شماله يمانيا، و من دون اليماني مضربى، و من دون المضربى يمانى، حتى لا يلتصق مضربى بمضربى، و لا يمانى بيمانى، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئا: إن الله عز و جل جعل قريشا موازين بين العرب فجعل مضر عمومتهما، و جعل يمن خؤولتها و افترض عليها حب العمومة و الخؤوله، فليس يتعصب قرشى إلا- للجهل بالمفترض عليه. ثم قال: يا معشر مضر كأنى بكم و قد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن: قد قدّم أميرنا مضر على يمن، و كأنى بكم يا يمن قد قلتم و كيف قدمكم علينا، و قد جعل بجانب اليماني مضربيا، و بجانب المضربى يمانيا، فقلت: يا معشر مضر إن الجانب الأيمن أعلى من الجانب الأيسر، و قد جعلت الأيمن لمضر و الأيسر ليمن، و هذا دليل على تقدمته إيانا عليكم. ألا إن مجلسك يا رئيس المضربية فى غد من الجانب الأيسر و مجلسك يا رئيس اليمانية فى غد من الجانب الأيمن. و هذان الجانبان يتناوبان بينكما يكون كل من كان فى جهته متحوّلا عنه فى غده الى الجانب الآخر. فانصرف القوم و كلهم حامد. و هذا من أطف أساليب السياسة و استماله القلوب بدون خسارة.

فاتخر إبراهيم بن المهدي بقوله: ما أعلم أحدا ولى جند دمشق فسلم من لقب يلقبه به أهل ذلك الجند غيرى، و ذلك أن كل ملقب ممن ولى إمرة الشام، لم يكن إلا- ممن ينحرف عنه من اليمانية أو المضربية، فكان إن مال الى المضربية لقبته اليمانية، و إن مال الى

اليمانية لقبته المضرية، فعاملهم إبراهيم معاملة واحدة في الاجتماع و قضاء المصالح. فكانت الحاجة تعرض لبعض الحيين فيسأل قبل أن يقضيها له، هل لأحد من الحى الآخر حاجة تشبه حاجة السائل، فإذا عرفها قضى الحاجتين في وقت واحد. قال: فكنت عند الحيين محمودا لا أستحق عند واحد منهم دما

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٣

ولا عيبا ولا نيزا أنز به. وقال إبراهيم: إنه ولى دمشق سنتين ثم أربع سنين بعدهما لم يقطع على أحد فى عمله طريق. وأخبر أن الآفة كانت فى قطع الطريق فى عمل دمشق من ثلاثة نفر: دعامة و النعمان موليان لبني أمية، و يحيى بن أرميا من يهود البلقاء، و أنهم لم يضعوا أيديهم فى يد عامل قط، فكاتبهم فارعوى الاثنان و أبى الثالث أداء الجزية فقتل فى معركة، و ساد الأمن فى القطر.

و لكن هذه السياسة لم يجر العمل بها دائما، فقد ذكروا أن إبراهيم ابن صالح والى دمشق فى خلافة الرشيد لما خرج منها فى الوفد الذى قدم به على الرشيد استخلف ابنه إسحاق على دمشق، و ضم إليه رجلا من كندة يقال له الهيثم بن عوف، فغضب الناس و حبس رؤساء من قيس، و أخذ أربعين رجلا من محارب فضر بهم و حلق رؤوسهم و لحاهم، و ضرب كل رجل ثلاثمائة، فنفر الناس بدمشق و تداعوا الى العصبية و نشبت الحرب و رجعوا الى ما كانوا عليه من القتل و النهب فلم يزالوا على ذلك أشهر.

قيس و يمن و فتنه المبرقع:

ولى دمشق بعد إبراهيم بن المهدي سليمان بن المنصور فانتبهه أهل دمشق و سبوا حريمه، و ولى بعده منصور بن المهدي، و كانت على رأسه الفتنة العظمى و لم يؤد القوم طاعة بعد ذلك، الى أن افتتح دمشق عبد الله ابن طاهر فى سنة عشر و مائتين. و وقعت بدمشق فتن على عهد الأمين، و سببها على ما ذكره أنه كان يعجبه البلور ففسد عامله فأخذ له قلعة دمشق من جامعها فلما شعر الدمشقيون قالوا: «لا صلاة بعد القلعة» فصارت مثلا و افتتن الناس و امتدت فتنهم، و لما ولى المأمون أرجع القلعة الى محلها. و لعل مسألة القلعة أوجدها أنصار المأمون على الأمين حتى لا تبقى ناحية فى المملكة إلا و تشعر بكرهه الأمين. و كتب المأمون فى سنة ٢١٨ الى عامله على دمشق فى التقدم الى عماله فى حسن السيرة و تخفيف المؤونة و كف الأذى عن أهل محله. قال: فتقدم الى عمالك فى ذلك أشد التقدم، و اكتب الى عمال خراجك بمثل ذلك. و كتب بهذا الى جميع

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٤

عماله فى أجناد الشام جند حمص و الأردن و فلسطين.

و فى أيام المعتصم (٢٢٤) خرجت رجال دمشق على أبى المغيث الرافعى واليهما فى طلبهم محمد بن أزهر، و كان قد عاث فى مرج دمشق و نقر أهلها و أجلاهم عنها، فخرج رجل من بنى حارثة اسمه يزيد فى جماعة و غيرهم من يمن، و اجتمعت قيس بمرج دمشق و أقبل محمد بن أزهر، فلما صار إليهم خرجوا عليه و جرح و قتل من الجند خلق، و وثب ابن لمحمد بن صالح على بعض أمراء السلطان و أخذه فى جماعة من قيس بحوران، و أقبل الى مرج دمشق و صار مع يزيد و حاصر دمشق حصارا شديدا، و غلقت أبواب دمشق و لم يخرج أحد إلا-اختطف. و لما مات المعتصم (٢٢٧) ثارت القيسية بدمشق و على رأسهم ابن بيهس الكلابى فعاثوا و أفسدوا و حصروا أميرهم فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب، و كانوا معسكرين بمرج راهط، فنزل بدير مران و دعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا، فواعدهم الحرب بدومة فوافاهم فقاتلهم فهزمهم و قتل منهم نحو من ألف و خمسمائة، و قتل من أصحابه نحو من ثلاثمائة و هرب مقدمهم ابن بيهس و صلح أمر دمشق. و قال ابن عساكر: إن الذين ثاروا هم أهل الغوطة و المرج، و من قرى الغوطة النائرة كفر بطنا و جسرين و سقبا و قرى جرش و من انضوى إليهم، و أصيب من ذلك جماعة كثيرة، و قاتلهم العامل فى مجمع عسكرهم بكفر بطنا و هى لقيس، و ثار الناس من النواحي، و قتلوا الأطفال و جرحوا النساء و هزمهم.

و سار رجاء الى فلسطين لقتال تميم اللخمي، و يعرف بأبى حرب و يلقب بالمبرقع الخارج بها فى لحم و جذام و عاملة و بلقين، فقاتله

فانهزم المبرقع و أخذ أسيرا سنة ٢٢٧، و كان المبرقع من أهل الغور خلع الطاعة و دعا الى نفسه فتبعه خلق كثير من الحرائين و غيرهم و قالوا: هذا هو السفيناني المذكور أنه يملك الشام، و استفحل أمره جدا و اتبعه نحو مئة ألف فأنفذ المعتصم إليه جيشا، فلما قدم الأمير رأى أمه كبيرة قد اجتمعت حوله، فخشى أن يناجزه و الحالة هذه فانتظر حتى جاء وقت حرث الأرض، فتصرّم عنه الناس الى أرضهم، و بقي في شردمة قليلة من

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٥

أصحابه فناهضه فأسره. و روى الطبرى: أن سبب خروج المبرقع على السلطان أن بعض الجند أراد النزول في داره و هو غائب عنها و فيها إما زوجته و إما أخته، فمانعته ذلك فضربها بسوط أصاب ذراعها فأثر فيها، فلما رجع أبو حرب الى منزله بكت و شكت إليه ما فعل بها و أرتة الأثر الذي بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه و مشى الى الجندي و هو غارّ فضربه حتى قتله، ثم هرب و ألبس وجهه برقعاً كى لا يعرف، فصار الى جبل من جبال الأردن، و لما كثرت غاشيته من الحرائين استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية و أرباب البيوت منهم. و روى أيضا أن خروجه كان في سنة ٢٢٦ بالرملة و صار في خمسين ألفا من أهل اليمن و غيرهم، و أن القائد العباسي قاتله بالرملة فقتل من أصحابه في وقعتين خمسة و عشرون ألفا حتى أسر.

فتن أهلية و عصابات حمصية و لبنانية و دمشقية و فلسطينية و معرية:

في سنة ٢٣١ جرى بين الأمير هانيء و المردة حروب في جبل لبنان، انتصر عليهم و لقب بالغضنفر أبي الأهوال، و بلغ خبره خاقان التركي خادم الرشيد، فكتب كتابا يشكره على ما فعل و يحثه على الحرب، و يخبره أنه بلغ حسن سلوكه الى مسامح الخليفة. و من أهم الأحداث في سنة ٢٤٠ و ثوب أهل حمص بعاملهم، فوجه المتوكل محمد بن عبدويه عاملا عليهم، فسكنهم و أقام بديارهم عدة شهور، ثم وثبوا فشقوا عليه، فسكنهم و مكر بهم و أخذ جماعة منهم، فحملوا الى باب المتوكل ثم ردوا إليه فضربهم بالسياط حتى ماتوا، و صلبهم على أبواب منازلهم، و تتبع رجال الفتنة فأفناهم.

و وثب أهل دمشق بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه و عسفه فيهم و قتله جماعة من أشرفهم و رؤسائهم، فقتلوه على باب الخضراء. قال ابن عساکر: إن سالما كان سىء السيرة أذلّ قوما من أهل دمشق، كان بينه و بينهم طائفة و دماء في أول دولة بنى العباس و آخر دولة بنى أمية. و كان لبني بيهس و لجماعة من قريش دمشق و سائر العرب من

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٦

السكون و السكاسك و غيرهم قوة و نجدة، فقتلوه على باب الخضراء و قتلوا من قدروا عليه من رجاله، و سلطوا الموالى على رجالهم و أموالهم فسلبوها.

و غضب المتوكل لمقتل عامله و قال: من لدمشق و ليكن في صولة الحجاج؟ فقيل له: أفريدون التركي. فأمره و جهزه إليها في سبعة آلاف، و أحلّ له القتل و النهب ثلاثة أيام، فنزل بيت لها فبات بها، فلما أصبح قال: يا دمشق إيش يحل بك اليوم منى. فقدمت له بغلة و همّ ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب ضربته بالزوج في صدره، فسقط ميتا. و بعد ثلاث سنين جاء المتوكل ليسكن دمشق هربا مما كان يحاذره من شدته على العراقيين فنقل دواوين الملك إليها ثم رجع بعد أشهر و هناك قتل.

و في سنة ٢٤٨ شغب أهل حمص على عاملهم أيضا، فوجه الخليفة إليهم عاملا آخر فأخذهم و قتل منهم خلقا كثيرا، و حمل مئة رجل من عيونهم الى سامرا. و في هذه السنة غزا الصائفة و سيف، و كان مقيما بالثغر الشامي ثم دخل أرض الروم و فتح بعض الحصون. و في السنة التالية كان غزو جعفر بن دينار الصائفة، فافتتح حصنا و مطامير، ثم غلب و قتل جماعة كثيرة من جيشه. و في سنة ٢٥٠ و وثب أهل حمص بعاملهم فقتلوه، فوجه إليهم المستعين من حاربهم فهزمهم بين حمص و الرستن، و افتتح حمص و قتل من أهلها و فيهم خلق من نصارى المدينة و يهودها، فقتل مقتلة عظيمة و أحرقها. و كان المتوكل أمر بإخراج النصارى من حمص، لأنهم كانوا يعينون

الثوار. و وثب أيضا أهل حمص بعاملهم مرة أخرى فقتلوه. و خافوا عامل دمشق فرحفوا إليه فوجه إليهم بعسكر من البابكية و غيرهم فهزمهم و انصرفوا الى حمص. و ثاروا مرة فأرسل عليهم الخليفة عاملا آخر فدخل بلدهم عنوة و أباحها ثلاثة أيام و طرح النار في منازلها. و كان الواثق بحمص العطيف بن نعمة الكلبى فى خلق عظيم من عشيرته و غيرهم. و كثر و ثوب أهل حمص، و بعبارة أعم، و ثوب أهل جند حمص بعاملهم، لأنهم يمانية نزاع الى الثورة، و نار الإحن بينهم و بين القيسية لا تزال موقدة، ثم إنه كان لهم من السكان

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٧

الأصليين من غير المسلمين من كانوا يحرضونهم على شق عصا الطاعة، فلذلك كثرت ثوراتهم و ما برحوا يثورون حتى أيام المهدي. فقد ثاروا بمحمد بن إسرائيل، فخرج هاربا و لحقه ابن عكار، فكانت بينهما وقعة قتل فيها ابن عكار، و رجع ابن إسرائيل على البلد. و فى أيام المستعين وثب بالأردن رجل من لخم، فطلبه صاحب الأردن فهرب، فقام مكانه رجل يعرف بالقطامى و كثف جمعه، فجبى الخراج و كسر جيشا بعد جيش أنفذهم إليه عامل فلسطين. فلم تزل هذه الحالة حتى قدم مزاحم بن خاقان التركي فى جمع من الأتراك و غيرهم، ففرق جمعهم و نفاهم. و وثب بالمرعة المعروف بالقصيصة و هو يوسف بن إبراهيم التنوخى فجمع جموعا من تنوخ، و صار الى مدينة قنسرين فتحصن بها، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى أمير المؤمنين فاستماله، و استعمل عطيف بن نعمة و صار إليه، ثم وثب بعطيف بن نعمة فقتله، و هرب القصيصة فصار الى الجبل الأسود و اجتمعت قبائل كلب بناحية حمص على الامتناع على المولد، فسار إليهم فواقعهم فكانت عليهم، ثم ثابوا عليه فهزموه و قتلوا خلقا عظيما من أصحابه، و انصرف الى حلب فى فله، و رجع القصيصة الى قنسرين و التحم مع كلب، و عزل المولد و ولى أبو الساج الأشروسى و كتب الى القصيصة يؤمنه و صير إليه الطريق و البدرقة ثم ولاه اللادقية و نحوها.

و فى سنة ٢٥٢ عقد لعيسى بن الشيخ بن السليل الشيبانى على الرملة فأنفذ خليفته أبا الغراء إليها و استولى على فلسطين جميعها، و تغلب على دمشق و أعمالها و امتنع من حمل المال الى العراق، فحمل ابن مدبر، صاحب خراج مصر الى العراق سبع مائة ألف و خمسين ألف دينار فنهبا عيسى بن الشيخ فى الطريق. و فى سنة ٢٥٦ عزل عيسى عن الشام، و ولى أماجور الشام فسار و استولى عليه بعد قتال بينه و بين أصحاب عيسى على باب دمشق و انتصر أماجور و استقر، و كان عيسى يومئذ فى زهاء عشرين ألفا، و أماجور فى مائتين الى أربعمائه و قيل ألف، فتغلب قليه على كثير خصمه. و كان أماجور أميرا مهابا، ضابطا لعمله، حشما شجاعا، خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٨

لا يتجاسر أحد على أن يقطع الطريق فى جميع أعماله، و له فى باب تأديب العصاة و سلبه الطرق حكايات أثرت عنه.

الحكم على الدور الأول للعباسيين:

مضت اثنتان و عشرون و مائة سنة على الشام بعد انقراض دولة بنى أمية، و هو لا يخلو من فتن و تسمع فيها اسم السفينانى و الأموى العثمانى أو غيرهم من أرباب العصبية من العرب، قيس و يمن. فتن أهلية يثور بركانها، ثم يهمد الى حين، و نزاع الى الملك و السلطان، و لم يسد السلام إلا- على عهد الرشيد و المأمون و كانت الفتن فى أيامهما لا شأن لها لأنهما كان يوليان على الشام أقدر رجالهما. و الشاميون يرضيهم من الخلفاء حسن سياستهم، و النظر بعطف على مصالحهم.

و لقد كانت الشام أوائل الفتح العباسى تتناوبها يدا عبد الله بن على و صالح بن على العباسيين و أولادهما، ثم أخذ عقلاء الخلفاء منهم يولون أولادهم و إخوتهم شؤونها. فقد رأينا المهدي ولى ابنه هرون الرشيد أيام كونه ولىا للعهد ولاية قنسرين أو شمالى الشام، و رأينا الرشيد ولى أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق، و رأينا الرشيد ندب أحد عظام رجاله يحيى البرمكى الى دمشق، كما رأينا ابنه عهد الى طاهر بن الحسين بولاية مصر و الشام، و سوغه خراج مصر سنة و هو ثلاثة آلاف ألف دينار ففرقه على الناس و هو على

المنبر، و لم ينزل منه إلا و قد اقترض عشرة آلاف دينار ليعطيها لرجل جاء متأخرا و المصلحة تقتضى برّه.

و قد رأينا حسن أثر السياسية التي اتبعها إبراهيم بن المهدي في وضع التوازن بين القيسيين و اليمانيين في الشام، فدل على عقل راجح، و إرادة هاشمية قوية، و كان سياسته حائلا دون المشاغبات الباطلة، و نشر الأمن مدة ست سنين، و كانت الشام من قبل تأجج فيها نيران العصبية الجاهلية. و لكن المتوكل الخليفة المحقق، أوسع مجال الخلف بينه و بين رعيته، و أكبر أمر فتنه حدثت في دمشق، فأباحها لعامله التركي، فأطل الشعب في بغداد دمه لخرقه، و هلك عامله قبل أن يباشر بجبروته فتكه

خطط الشام، ج ١، ص: ١٦٩

و سبيه و نهبه، على نحو ما ارتكب العمال قبله في المتوثبين على العمال من أهل حمص.

و أهم الأغلاط التي ارتكبها المعتصم إدخال الأتراك في جنده، فكان الاعتماد عليهم في الجيش العباسي كالاتماد على أهل خراسان الأعاجم لأول الفتح من أهم الدواعي في إغضاب العرب، فأدى هذا الإيثار الى نزع الحكم من العباسيين، حتى دخل الوهن بدخول الأتراك على الدولة، فأضت الخلافة العباسية بصنيعهم اسمية دينية فقط لا تتعدى قرى بغداد إلا قليلا، و غدا الحكم الفصل لمن قويت شكيمته من الدخلاء و استجاش الأنصار و الأعوان. و بعد أن كانت بغداد ترسل الى الشام أولاد خلفائها و أعاضم قوادها من الأصول أصبحت ترسل إليها من الفروع أفريدون التركي و خاقان التركي و محمد المولد من الموالي فظهر الفرق في صورة الحكم، لأن الحكم كان في الغالب فرديا لا علاقة للجماعة به إلا اذا أحب صاحب الأمر استشارة أهل الرأي استشارة خاصة و دية و له الحرية أن يعمل بما ارتأوه، و لا أحد يكرهه على قبول رأيه. فمن ثم اقتضى أن يكون العامل في الغاية أصالة و نبالة و علما و نزاهة. أفضى هذا التساهل مع الأعاجم و الاعتماد عليهم، الى جر البلاء على الخلفاء من بنى العباس، و بعد أن كانت وصية إبراهيم الإمام الذي مات في سجن مروان الجعدي الى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة:

«انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم، و اسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، و اتهم ربيعة في أمرهم، و أما مضر فإنهم العدو القريب الدار، و اقل من شككت فيه و إن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، و أيما غلام بلغ خمسة أشبار و اتهمته فاقتله» أصبحت تفتح للأتراك أبواب دار الخلافة و لكل دخيل على العرب و لم يعد حكم لقيس و لا-يمن بل للأعاجم من الفرس و الترك و الديلم.

و في أيام المأمون نشأت الدعوة الشعبية أي الحط من قدر العرب و تفضيل العجم عليهم، فتبدلت روح الدولة، و أخذ العربي يبغض العجمي و العجمي ينال من العربي، منذ كانت السلطة لأبناء خراسان، أما بدخول

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٠

الأتراك فالمسألة بلغت أقصى حدودها الخطرة، و كادت مقاليد الخلافة تخرج من أبناء هاشم بعد عصر المعتصم.

كانت مسألة دخول الأتراك في الدولة بادية بدء لا شأن لها في الظاهر و هي أن المعتصم جمع الأتراك و شراهم من أيدي مواليه فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الدجاج، و المناطق و الحلية المذهبة، و أبانهم بالزى عن سائر جنوده و اصطنع قوما من اليمن و قيس و سماهم المغاربة و أعدّ رجال خراسان من الفراعنة و غيرهم و الأشروسية- فلما تم هذا كثرت شكايه الناس أولا من إيذاء الأتراك لعوام بغداد، و كلما زادت الشكايه توغل الأتراك في جسم المجتمع العباسي. و حاول من جاء بعده مثل المعتز أن يتخلص منهم، و لكنهم كانوا تأصلوا في جسم الدولة و أفسدوا عليها أمرها، و لكل أجل كتاب.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧١

ظهور الدولة الطولونية و انقراضها من سنة ٢٥٤ الى ٢٩٢

[بداية الطولونيين:]

ظهرت بوادر الضعف في العباسيين، و كادت تصبح سلطتهم اسمية، و خلافتهم دينية لا دنيوية، ساعد على ذلك اشتغال الخلفاء بعد المعتر بأففسهم، و تغلب كثير من الأمراء على الأطراف، و أصبحت البلاد رهن أيدي المتغلبه من العمال، و كان معظم الخلفاء الأول الى ما بعد المعتصم على غاية من العلم و الأخلاق و حسن السياسة، و من النادر أن يتسلسل هذا الرقي في الأخلاق في آل بيت واحد على اطراد جميل، كما تسلسل في بني هاشم لأول أمرهم، و لكن منهم من ساعدهم الطالع و منهم من خانه، و السعادة أكثر من الشقاء في الجملة.

و بينما كانت دولة الأمويين في الأندلس في إبان عزها في القرن الثالث، كانت دولة العباسيين تضطرب و تضيق بقعتها في هذا الشرق القريب، خصوصا في النصف الثاني من المئة الثالثة، و عمال فارس و مصر و الشام و غيرها يقطعون الخراج عن دار الملك، و يستبدون بالأمر، و ليس للخليفة العباسي إلا الخطبة و السكة، و قد يقرن المتغلب على قطر اسمه الى اسم الخليفة في الدعاء، و يضرب السكة باسمه أو باسميهما معا. و كانت الدولة الى هذا العهد لا تقوم لها قائمة إلا إذا جمعت بين السلطين الدينية و الدنيوية، فإذا ضعفت إحداهما في القائم بأمر المسلمين، أصاب القوة الثانية ضعف عطلها عن العمل النافع.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٢

و كلما اعتمد خلفاء بني العباس على الأعاجم، في ولاية عمالاتهم و مقاطعاتهم و قيادة جيوشهم، كانت الدولة العباسية تقترب من الانقراض، فسدت عصبية العرب كما قال ابن خلدون في بني العباس لعهد دولة المعتصم و ابنه الواثق، لاستظهارهم بالموالي من العجم و الترك و الديلم و السلجوقية أي التركمان و غيرهم، ثم تغلب الأولياء على النواحي، و تقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم و ملكوها و صار الخلائف في حكمهم. و قال المقرئ: اختص المعتصم الأتراك و وضع من العرب و أخرجهم من الديوان و أسقط أسماءهم و منعهم العطاء، و جعل الأتراك أنصار دولته و أعلام دعوته، و كان من عظمت عنده منزلته قلده الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة، فيستخلف على ذلك العمل الذي تقلده من يقوم بأمره و يحمل إليه ماله و يدعى له على منابره كما يدعى للخليفة، و قصد المعتصم و من بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الأتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح و المأمون بطاهر بن الحسين، ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك فقلد اشتناس، و قلد الواثق إيتاخ، و المتوكل بغا و وصيف، و قلد المهتدي أماجور و غير من ذكرنا من أعمال الأقاليم، فضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، و تغلب على الخليفة فيها الأولياء و القرابة و المصطنعون، و صار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل فتغلب على النواحي كل متملك.

أحمد بن طولون و سيما الطويل و أحداث أخرى:

و كان من أهم من فتوا في عضد الخلف أحمد بن طولون في مصر و الشام، و كان في ظاهره يظاهر الخليفة، فهو أول متغلب ظفر حقيقة بالانفراد بالسلطة، فما وسع العباسيين إلا مصانعتهم بعد أن حاولوا محاربتهم فعجزوا، كانت ديار مصر قد أقطعها بايكباك من قواد الأتراك و كان مقيما بالحضرة أي في عاصمة الملك فاستخلف بها من ينوب عنها، و كان طولون والد أحمد بن طولون أيضا من الأتراك و من أنسابه، و قد نشأ بعد والده على طريقة مستقيمة، و سيرة حسنة، فالتمس بايكباك من يستخلفه بمصر فأشير خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٣

عليه بأحمد بن طولون فولاه المعتر بالله سنة ٢٥٤ مصر. و في سنة ٢٦٤ توفي أماجور بدمشق و استخلف ابنه على، فحرك ذلك أحمد بن طولون على فتح الشام فكتب الى علي يخبره بانه سائر اليه و أمره بإقامة الأنزال و الميرة لعساكره، فرد علي بن أماجور أحسن جواب، و خرج ابن طولون في المطوعة من مصر و فلسطين فبلغ الرملة فتلقيه محمد بن رافع خليفة أماجور عليها و أقام له الدعوة بها فأقره عليها، و مضى الى دمشق فتلقيه علي بن أماجور و أقام له بها الدعوة و احتوى على خزائن أماجور و أقام بها أحمد حتى استوثق له أمرها، ثم استخلف عليها أحمد بن دوغباش، و مضى الى حمص فلقه عيسى الكرخي خليفة أماجور عليها فسلمها إليه، ثم بعث الى

سيما الطويل التركي و هو بأنطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه سيما، فتحصن بأنطاكية في جيش من الأتراك و غيرهم، و امتنع، فحاصره أحمد و رمى حصنها بالمنجنيق، و طال حصاره لها فاشتد ذلك على أهلها فبعثوا الى أحمد بن طولون فخبروه بالموضع الذي يمكنه أن يدخل إليها منه فقصده، و عاونه أهلها على سيما فدخلها في المحرم سنة خمس و ستين و مائتين فقتل سيما و استباح أمواله و رجاله. و كان قبل نزول ابن طولون على أنطاكية (٢٦٤) وقع بين سيما و بين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين و العواصم، و كان سيما قد عم أذاه أهلها فعاث ابن طولون ساعة بأنطاكية ثم ارتحل يؤم الثغر الشامي، و بهذا استولى ابن طولون على الشام أجمع و الثغور و امتد حكمه من مصر الى الفرات، و من مصر الى المغرب، و كان ذلك مدة اشتغال لموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل بحرب الزنج.

كان ابن طولون أول من اقتطع جزءا من المملكة الإسلامية عن الخلافة، و جمع بين ملك مصر و الشام في الإسلام، فكان لمن بعده من المستبدين بالنواحي قدوة و مثالا. و أخذ يستكثر من مشترى المماليك و الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة و عشرين ألف مملوك و أربعين ألفا من الزنج، و استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف. و ذكر بعض المؤرخين أن ابن طولون كان أعد بأمر الخليفة جيشا مؤلفا من مئة ألف إنسان لقتال أحد الخوارج على الخلافة في الشام، و كانت هذه الكتلة من خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٤

الجند سببا في قوته و سلطانه فأخذ ملك الروم يهاديه و يطلب رضاه لاتساع مملكته و مكانتها بين مملكة الشرق و مملكة الغرب الإسلاميتين، و لم يلبث أحمد بن طولون أن أخذ على الجند و الشاكريه و الموالي و سائر الناس البيعة لنفسه، على أن يعادوا من عاداه و يوالوا من والاه و يحاربوا من حاربه من الناس جميعا. و انفرد بخراجها، و أدرك رجال السياسية في بغداد أن ابن طولون التركي لم يقض على دولة سيما الطويل التركي حبا بسواد عيون الخلفاء، بل ليستأثر بالأمر دونهم عند ما تسنح الفرص. و كان ابن طولون لعدله و حسن سياسته يفضله الناس على بعض الخلفاء، و في الحق أنه كان على جانب من العدل، و حسن السيرة، و علو الهممة و بعد النظر، و التفكير في عمران مملكته حتى زاد خراجها، و كان هديه في ذلك هدى المعتصم العباسي، و كان هذا يحب العمارة و يقول إن فيها أمورا محمودة أولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم، و عليها يزكو الخراج، و تكثر الأموال، و تعيش البهائم، و ترخص الأسعار، و يكثر الكسب، و يتسع المعاش، و كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرني فيه. فاستعان ابن طولون بما تدر عليه مصر من الخراج على تقوية سلطانه و كثرت صدقاته، و ما يجريه على القراء و الفقهاء، حتى كان يرسل كل سنة مائة ألف دينار لفقراء بغداد عدا كساوى الصيف و الشتاء و عدا ما يرسل به الى الثغور و الى الحرمين.

و جاء المعتضد الى الخلافة و هو من أعقل خلفاء العباسيين فعرض عليه أبو الجيش خمارويه بن طولون أن يصهر الى ولي عهد الخلافة و يزوجه ابنته قطر الندى، فقال الخليفة: بل أنا أتزوجها و قال: ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار بنى طولون لأنهم يضطرون أن يجهزوها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل، و كان الأمر كما قال، فإنها جهزت بما استفترغ خزائن صاحب مصر و الشام. قيل: إنه كان في جهازها ألف هاون ذهبا .. و كانت قطر الندى من أجمل بنات عصرها، و أكثرهن أدبا و فضيلة. و قد عقد لها على المعتضد سنة ٢٨١ و شرط المعتضد على أبيها أن يحمل كل سنة بعد

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٥

القيام بجميع وظائف مصر و أرزاق أجنادها مائتي ألف دينار. و في رواية أن المعتضد جعل لخمارويه الصلاة و الخراج و القضاء و جميع الأعمال على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى، و ثلاثمائة ألف للمستقبل، و أن وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان سعى مع أبي الجيش خمارويه، على أن يقتصر على حمص و دمشق و الأردن و فلسطين و مصر و بركة و ما والاها، و ينجلي عما كان في يده من ديار مضر و قنسرين و العواصم و سقى الفرات و الثغور، فأجاب الى ذلك و كتب سجلا أشهد فيه على المعتضد

و على خمارويه.

دام ملك أحمد بن طولون فى مصر و الشام اثنتى عشرة سنة، و مات لست عشرة سنة من ولايته مصر، و لولا سفكه الدماء لعدّ بعدله و عقله و سخائه من أفراد العالم. و من الأحداث فى عهده ما وقع من العصية بفلسطين (٢٥٧) بين لخم و جذام فتحاربوا حربا أخذت من الفريقين.

و ما وقع بين الأمير نعمان الذى حصن سور مدينة بيروت و قلعتها و بين المردة فى لبنان من قتال على نهر بيروت دام أياما حتى انهزموا، و قتل بعضهم و أسر بعضا، فأرسل الرؤوس و الأسرى الى بغداد، فعرض الأمر على الخليفة و أكرموا رسله، و كتب المتوكل إليه كتابا يمدح شجاعته و يحرضه على القتال، و أقره على ولايته هو و ذريته، و أرسل له سيفا و منطقة و شاشا أسود، و كتب إليه الموفق و غيره كتباً يمدحونه بها فاشتد أمره و عظم شأنه، و فى بعض الروايات أن القتال على نهر الكلب دام سبعة أيام، فانكسر عسكر المسلمين و قتل المقدم سمعان و أقيم مكانه خاله المقدم كسرى و هو الذى ذهب الى القسطنطينية ثم عاد الى بلاده، و كانت خربت من تواتر الغارات عليها فعمرها و سميت باسمه كسروان. و منها خروج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمى، يقال له بكار بين سلمية و حلب و حمص فدعا سنة ٢٦٨ لأبى أحمد الموفق، فحاربه ابن عباس الكلابى فانهمز الكلابى، و وجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائدا فى عسكر كثيف، فرجع و ليس معه كثير أحد.

و منها مخالفة لؤلؤ غلام ابن طولون على مولاه سنة ٢٦٩ و كان فى يد لؤلؤ

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٦

حمص و قسرين و حلب و ديار مضر من الجزيرة و سار الى بلس و نهبا، و كاتب ابن طولون الخليفة المعتمد فى المصير إليه، فمنعه الموفق و اشتد الخلاف بين الموفق ولى عهد الخلافة و بين ابن طولون، فخلع ابن طولون الموفق من ولاية العهد فى مدينة دمشق و أقبل يلعبه على منابر مصر و الشام و الموفق يلعبه على منابر العراق و ما إليها، و ابن طولون يوهم أنه ينصر الخليفة. و فى سنة ٢٦٩ غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية خلف الفرغانى عامل ابن طولون، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا و غنم الناس. و بلغ ابن طولون قدوم عرب من الحجاز الى حوران، فأرسل الى صحراء أذرعات نحو خمسين ألفا فتلقاهم الأمير عامر الملقب بالأذرعى بخمسة عشر ألفا فكسروهم. و الأمير عامر هو من نسل الحارث بن هشام المخزومى، الذى أرسله الخليفة الثانى الى الشام مع أبى عبيدة بن الجراح أميرا على بنى مخزوم فسكن ولده حوران و تولوا الأعمال للأمويين، ثم للعباسيين و سموا بنى شهاب نسبة للأمير شهاب المخزومى و الى حوران المتوفى سنة ١٧٣.

عهد أبى الجيش خمارويه و جيشه:

خلف أحمد بن طولون ابنه أبو الجيش خمارويه، و كان على قدم أبيه فى الاستكثار من العدد و العدد و ترتيب الرواتب الدارة و المشاهرات و الجرايات لجيشه و غيره. و قد بلغ جيشه فى الشام و مصر نحو أربعمائة ألف فارس على ما روى بعض أصحاب السير، و هو عدد مبالغ فيه كثيرا و الغالب أن جيشه لم يتجاوز المئة ألف، و لا شك أن مثل هذا الجيش، و ما يلحقه من الرجالة و المتطوعة تفتح به ممالك الخلافة العباسية كلها.

و ربما كان جيشه و جيش أبيه من قبله أول جيش جعل على الدوام تحت السلاح.

و لما بايع الجند أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه، أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته، و عقد لأبى عبد الله أحمد الواسطى على جيش الشام، و عقد لسعد الأعسر على جيش آخر، و بعث بمراكب

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٧

فى البحر لتقييم على السواحل الشامية، فنزل الواسطى فلسطين و هو خائف من خمارويه أن يوقع به لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه

العباس، فكتب الى أبي أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه ويحرضه على المسير إليه، فأقبل من بغداد وانضم إليه إسحاق بن كنداج و محمد بن أبي الساج، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم و سار الى شيزر، فقاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق، فخرج خمارويه في جيش عظيم، فالتقى و أحمد ابن الموفق بنهر أبي فطرس و اقتتلا، فانهمز أصحاب خمارويه و كان في سبعين ألفا و ابن الموفق في نحو أربعة آلاف، و احتوى على عسكر خمارويه بما فيه و مضى خمارويه الى الفسطاط، و أقبل كمين له، عليه سعد الأعسر، و لم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر و هزمه اثني عشر ميلا و مضى الى دمشق فلم يفتح له، و سار سعد الأعسر و الواسطي، فملكا دمشق، و خرج خمارويه من مصر فوصل الى فلسطين، ثم عاد إلى مصر، ثم خرج سنة ٢٧٢ فقتل سعدا الأعسر و دخل دمشق.

قال ابن عساكر: و سعد الأعسر و يقال الأعسر التركي ولي إمرة دمشق من قبل أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٢)، و لما قتل في قصر نخلة فيما بين الرملة و بيت المقدس اضطرب الناس بدمشق.

و كان سعد الأعسر قد فتح طريق الشام للحاج، لأن الأعراب كانوا قد تغلبوا على الطريق قبل ولايته، و كان قد بطل الحج من طريق الشام قبل ثلاث سنين، فخرج سعد الى الأعراب و واقعهم و قتل منهم خلقا عظيما و فتح الطريق للحاج، و كانت وقائعهم في المحل المعروف بالقسطل، فأحبه أهل دمشق، و اغتموا لقتله، فصاح الناس بدمشق و ضجوا في المسجد الأموي و دعوا على من قتله، و افتتن البلد حتى وافاهم أبو الجيش ابن خمارويه فمهد الأمور و بعث الى طريق الحاج من أصلحها، و فرق في دمشق مالا عظيما على الفقراء و المساكين و المستورين و أهل العلم، و مال إليه أهل دمشق و أحبوه. و لما تغلب الأعراب على بعض النواحي وجه

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٨

إليهم طباره جي، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ثم سار أبو الجيش خمارويه لقتال ابن كنداج، ثم اصطلحا و تظاهرا و كاتب خمارويه أبا أحمد الموفق في الصلح فأجابه الى ذلك، و كتب له كتابا بولاية خمارويه و ولده ثلاثين سنة على مصر و الشامات، أي أنه و لاه من الفرات الى برقه، فأمر خمارويه بالدعاء لأبي أحمد الموفق، و ترك الدعاء عليه بعد أن كان خلعه أبوه من ولاية عهد الخلافة. ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن أبي الساج الى أعماله الشمالية، فخرج إليه و لقيه في ثنية العقاب من دمشق فانهمز أصحاب ابن أبي الساج و ثبت هو، فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة، و استيحي عسكره قتلا و أسرا، و اتبعه جيش الى الفرات.

و في ذلك يقول البحترى:

و قد تولت جيوش النصر منزلة على جيوش أبي الجيش بن طولونا

يوم الثنية إذ ثنى بكرته خمسين ألفا رجالا أو يزيدونا

عهد جيش بن خمارويه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونية:

و في أيام خمارويه بن طولون استقامت شؤون الديار المصرية، و مع أن أيام المعتضد العباسي كانت أيام فتوق فقد حمدت سيرته. و لى و الدنيا خراب، و الثغور مهملة، فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته، و كثرت الأموال، و ضبطت الثغور، و كان قوى السياسة، شديدا على أهل الفساد، حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية، محسنا الى بنى عمه من آل أبي طالب. و في سنة ٢٨٢ ذبح أبو الجيش خمارويه في دمشق على فراشه، و لما بلغ المعتضد ذلك قتل من خدمه الذين باشروا قتله نيفا و عشرين خادما.

و كان مقتل خمارويه في قصره بسفح قاسيون، بعد أن فتح الشام كله، و لم يسع الخليفة إلا إقراره على عمله و الاكتفاء بمال يحمل إليه في بغداد، و خلفه ابنه جيش بن خمارويه فخلعه طفج بن جف أمير دمشق سنة ٢٨٣ و اختلف جيش جيش عليه لتقريبه الأراذل و تهديده قواد أبيه، فثاروا عليه و قتلوه، و نهبوا داره و نهبوا مصر و أحرقوها، و أقعدوا هارون بن خمارويه في الولاية، و عصى هارون

بن خمارويه على الخليفة، و بعد حروب

خطط الشام، ج ١، ص: ١٧٩

كثيرة عقد الصلح بين الخليفة العباسي وبين هارون سنة ٢٨٦، فبقيت حلب للخليفة و ما زالت الدولة بالفعل بالشام و مصر لبني طولون و بالاسم لبني العباس حتى سنة ٢٩٢، و قد بعث المكتفي العباسي، مع محمد بن سليمان جيشا فاستولى على دمشق، ثم سار الى مصر و ذبح بنى طولون و هم عشرون إنسانا، ذبحهم بين يديه هم و قوادهم كما تذبح الشياه، و أشخص من أبقى عليه من آلهم و قوادهم الى بغداد، فانقضت بذلك الدولة الطولونية.

لا- جرم أن روح الطولونيين هي روح العباسيين تطورت بتطور الأقطار التي استولوا عليها. و على كثرة ما بذل الطولونيون من أسباب التقرب من خلفاء بغداد لم يسكت العباسيون عنهم. تقربوا إليهم بالصهر و الأموال و الطاعة فلم يرضوا عنهم. و لما قوى جيش العباسيين قروضهم و قتلوا قوادهم. و في استيلاء الطولونيين على الشام شعرت الأمة أنها مستقلة عن العباسيين، و أن في استطاعتها إذا جهزت لها جيشا عظيما كجيش أحمد ابن طولون و ابنه خمارويه أن تستقل، لأن قوة بنى العباس لم تعد كما كانت، بمعنى أن ابن طولون هتك ستر الخلافة، فطمع فيها عمال الأطراف. و الدولة الطولونية دولة عمران، عمرت الأرجاء في أيامها، و رأت مصر و الشام أنهما إذا ألفتا حكومته واحدة تصبحان دولة قوية يرهب بأسها. و قد أكثر الشعراء من رثاء الدولة الطولونية و مما قاله بعضهم:

فمن يبيك شيئا ضاع من بعد أهله لفقدهم فليبيك حزنا على مصر

ليبيك بنى طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر و بورك من عصر

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٠

دور الدولة العباسية الأوسط «الإخشيديية و الحمدانية و الفاطمية» ٢٩٢-٣٦٤

القرامطة و البوادي و الخوارج :

اشتدت شوكة القرامطة (٢٨٩) في الشام جاءوها من المطرق، و هزموا جيش طغج بن جف امير دمشق للأمويين بوادي القردان و الأفاعي ثم حاصروا دمشق فاجتمعت عليهم العساكر و قتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ فقام في القرامطة أخوه الحسين و تسمى بأحمد و أظهر شامة بوجهه زعم أنها آيته فسمى بصاحب الشامة، و كثر جمعه فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه، و تفرط أكثر من حولها من أهل الغوطة و غيرها و عاضدوه، ثم انصرف عن دمشق الى حمص فغلب عليها و خطبوا له من منابرها و تسمى بالمهدى أمير المؤمنين، ثم سار الى حماة و المعرة و غيرها و قتل أهلها حتى الأطفال و النساء و أخذ سلمية بالأمان فبدأ بمن فيها من بنى هاشم و كانوا جماعة فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم و أباد أهل بعلبك، و عندها صحت

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨١

عزيمة الخليفة المكتفي فأرسل من العراق جيشا، و الى الطولونيين فأرسلوا من مصر جيشا آخر فواقعهم في كناكر و كوكب، فأصبح القرامطة بين جيشين الطولونيين من أمامهم و جيش الخليفة من ورائهم. و كان من أمر جيش العراق أن وصل من طريق الموصل الى وادي بطنان قرب حلب و في جملة قواده أبو الأغر فترع فيما ذكر جماعة من أصحابه ثيابهم، و دخلوا الوادي يتبردون بمائه، و كان يوما شديد الحر، فبينما هم كذلك إذ وافى جيش القرمطي فكبسهم على تلك الحالة فقتل منهم خلقا كثيرا، و انتهب العسكر و أفلت أبو الأغر في جماعة من أصحابه، فدخل حلب و أفلت معه مقدار ألف رجل، و كان في عشرة آلاف بين فارس و راجل، و كان قد ضم إليه جماعة ممن كان على باب السلطان من قواد الفراغنة و رجالهم، فلم يفلت منهم إلا اليسير، ثم صار أصحاب القرمطي الى باب حلب فحاربهم أبو الأغر و من بقى معه من أصحابه و أهل البلد، فانصرفوا عنه بما أخذوا من عسكره من الكراع و

السلاح و الأموال و الأمتعة، و مضى المكتفى بمن معه من الجيش حتى انتهى الى الرقة فنزلها و سرح الجيوش الى القرمطى جيشا بعد جيش.

و فى سنة ٢٩٠ أيضا تحارب القرمطى صاحب الشامه و بدر مولى ابن طولون، فانهزم القرمطى و قتل من أصحابه خلق كثير و مضى من سلم منهم نحو البادية فوجه المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان و غيره من القواد.

و كان المكتفى عهد بإمارة الشام الى أحمد بن كيغلى سنة ٢٩١ و صار هذا الى مصر لقتال الخليجي الثائر، فواقعه بالقرب من العريش فانهزم أقبح هزيمة فطمعت القرامطة فى دمشق لغيبه ابن كيغلى عنها، فنهبوا فيها و ساعدتهم أن بعض السكان دانوا بمذهبهم، ثم سار القرامطة الى طبرية (٢٩٣) و قتلوا أكثر أهلها رجالا- و نساء و أولادا. و قال المسعودى: إن القرمطى الذى خرج يكنى أبا غانم و قد خرج فى جمع من كلب و قوى أمره و كثر أتباعه، فوجه الخليفة أبى القرامطة الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم الى أن ظفر بهم و أحضر رأس صاحبهم الى بغداد، و كان القرمطى فى طريقه الى طبرية مرّ بمدينتى بصرى و أذرعات

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٢

فحارب أهلها ثم أمنهم، فلما استسلموا له قتل مقاتلتهم و سبى ذراريهم و استاق أموالهم، ثم نهض الى دمشق فخرج إليه من كان بقى بها مع صالح بن الفضل خليفة أحمد بن كيغلى، فقتل صالحا و فض عسكره، و لم يطمع فى دمشق إذ دافعهم أهلها عنها.

و بالحزم الذى أظهره المكتفى فى قتال القرامطة بالشام و بالجيوش التى سرحها من بغداد و سرحت له من مصر اضمحل أمر الباطنية، و لم يبق لهم أمل فى ملك، و انفض عنهم الأعراب و المتلصصة و من قال بقولهم و شايهم على قيام أمرهم: و لو لا الحزم لأوشكوا أن ينشئوا لهم ملكا بالشام، كما حاول الزنج فى العراق أن ينشئوا لهم دولة لو لا قيام الموفق ولى عهد الخلافة العباسية ذلك القيام المحمود فى قمع شأفتهم. و كان ادعى القائمون بالقرمطة الشرف و أنهم يمتون بالقرابة الى آل البيت. قال بعض المؤرخين: إن القرمطى فى الشام المكنى أبا القاسم كان ينتمى الى آل أبى طالب.

و فى سنة ٢٩١ سار نائب طرسوس المعروف بغلام زرافه نحو بلاد الروم ففتح مدينة أنطاكية و قتل خمسة آلاف و أسر مثلهم و استنفذ من الأسارى خمسة آلاف و أخذ لهم ستين مركبا فحمل فيها ما غنم من الأموال و المتاع و الرقيق و قدر نصيب كل رجل ألف دينار فاستبشر المسلمون بذلك.

عاش بنو تميم فى أعمال حلب و أفسدوا إفسادا عظيما و حاصروا و اليها زكا ابن الأعور. فكتب المقتدر بالله الى الحسين بن حمدان فى إنجاد زكا بحلب، فكانت وقعة بين الحسين بن حمدان و أعراب كلب و النمر و أسد و غيرهم (٢٩٤) فاجتمعوا عليه و هزموه حتى بلغوا به باب حلب ثم أسر منهم و قتل. و فى سنة ٢٩٨ كان دخول الروم الى ساحل الشام فافتتح صاحبهم حصن القبة بعد حروب طويلة و عدم مغيث يغيثهم من المسلمين و افتتح مدينة اللاذقية فسبى منها خلقا كثيرا.

و من أهم الأحداث ما وقع من الهيج بدمشق فى زمن وصيف البكتمرى الذى ولى إمارة دمشق فى أيام المقتدر بعد هلال بن بدر (٣١٦) و فى أيامه خلع المقتدر المرة الثانية ثم رجعت إليه الخلافة فطلب الأولياء من

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٣

البكتمرى البيعة له بدمشق فامتنع عليهم، فركبوا الى داره بالسلاح و النفاطات. و كانت دار الإمارة فى تلك الأيام خارج لؤلؤة الصغيرة على نهر بانياس فأحرقوها و بقيت عرصته. و فى هذا الدور سار (٣١٩) طريف بن عبد الله السبكرى الخادم و الى حلب الى بنى القصبى التنوخيين و حاصروهم فى حصونهم باللاذقية و غيرها فحاربوه حربا شديدة ثم نزلوا على الأمان.

و من أهم الكوائن فى خاتمة القرن الثالث ظهور ابن الرضا و هو محسن ابن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد فى أعمال دمشق، و كانت له مع أبى العباس أحمد بن كيغلى وقعة فقتل صبيرا، و قيل قتل فى المعركة و حمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربى ذكر ذلك المسعودى. و لو تم الأمر لابن الرضا لقامت دولته قبل دولة الفاطميين.

الدولة الإخشيدية:

ظن بنو العباس أنهم نجوا من نائر يناصب دولتهم العداء في الشام و مصر يوم قضاوا على أبناء طولون و قوادهم و قرضوا الدولة الطولونية آخر الدهر، و قتلوا ابن الرضا القائم بتأسيس دولة علوية جديدة، كما قتلوا القرمطي القائم بدعوة متدرعة بالعلوية، و قضاوا على صاحب الزنج في البصرة، و ما كانوا يظنون أن تظهر لهم في الحال دولة أخرى قامت على أنقاض الطولونية و إن لم تكن مثلها استعدادا و عدلا فليست دونها من أكثر الوجوه و الاعتبارات. ظهرت لهم الدولة الإخشيدية أو دولة بني طغج.

و الإخشيد كلمة فارسية معناها ملك الملوك و معنى طغج عبد الرحمن، و رأس هذه الدولة أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلكين بن فوري ابن خاقان. و كان جف جد الإخشيد قد سار من فرغانة الى المعتصم العباسي، فأكرمه و أقام معه الى أن توفي المعتصم، فصحب ابنه الواثق الى أن توفي، ثم صحب أخاه المتوكل الى أن توفي جف. و لما توفي ابن طولون صار طغج مع ابنه أبي الجيش فولاه دمشق و طبرية الى أن

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٤

قتل أبو الجيش. و لما بويج هارون بن أبي الجيش، ولي طغج دمشق و طبرية، و تولى طغج قتال صاحب الخال القرمطي سنة تسعين و مائتين الى أن ظفر به. و كان لطغج من الولد سبعة ذكور الإخشيد أحدهم.

و لم يزل طغج على دمشق و طبرية و ابنه محمد المعروف بالإخشيد يخلفه على طبرية. و كان بطبرية أبو الطيب محمد بن أبي حمزة العلوي، و كان وجه طبرية شرفا و ملكا و قوة و عفافا. فكتب الإخشيد الى أبيه طغج يذكر له أنه ليس له أمر و لا نهى مع أبي الطيب العلوي، فكتب إليه أبوه:

أعز نفسك. فأسرى محمد بن طغج على أبي الطيب في بستان له فقتله.

و لم يزل طغج أيام أبي الجيش على دمشق و طبرية و أيام جيش و أيام هرون ابن أبي الجيش الى أن قتل هرون و انقرضت الدولة الطولونية. فمات طغج في حبس العباس بن المحسن وزير العباسيين، و نجا من محبسه بعد مدة ابنه الإخشيد، و هرب الى الشام قاصدا أحمد بن بسطام عاملها، و بقي معه يخدمه ثم تقلد ابن بسطام مصر فسار معه الإخشيد، و كان معه الى أن توفي سنة سبع و تسعين و مائتين، فصار مع ابنه أبي القاسم على و حضر الإخشيد مع تكين الخاص وقعه حسن فيها أثره، فولاه تكين عمان و جبل الشراة. و اتفق له و هو على عمان و الشراة في سنة ٣٠٦ أن حاج الشام، و فيهم جماعة من أهل العراق قعد له جمع من لخم و جذام فجمع عسكره و لقيهم و معه أخوه على بن طغج فهزمهم فصار له شأن في العراق و ذاعت كفايته و أمانته.

و تقلد محمد بن طغج الملقب بالإخشيد مصر من جهة الراضى، و كان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة (٣١٦) من جهة المقتدر و أقام بها الى سنة ٣١٨ فوردت إليه كتب المقتدر بولايته دمشق فسار إليها و تولاها، و كان حينئذ المتولى على مصر أحمد بن كيغغ، فلما تولى الراضى عزل أحمد بن كيغغ و ولي ابن طغج مصر و ضم إليها البلاد الشامية، فاستقر ابن طغج بها سنة ٣٢٣ و ما نشب - و هو يتولى أعمال المعاون في الشام علاوة على أعمال المعاون في مصر، و قلد بدر الخرشني دمشق، و أحمد بن سعيد الكلابي شيخ قبيلة بني كلاب حلب، حتى كثر بذلك الكلابيون

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٥

و زاد نفوذهم - أن خلع طاعة الخليفة العباسي، فندب الخليفة محمد بن رائق الى الشام و أقطعه إياها على أن يستخلصها من الإخشيدية، فاستولى ابن رائق سنة ٣٢٨ عليها و طرد بدر نائب الإخشيد و ولي إمرة دمشق محمد بن يزداد الشهرزوري، فلم يزل عليها الى أن قتل محمد بن رائق بالموصل (٣٣٠) فقدم الإخشيد محمد بن طغج فاستأمن إليه محمد بن يزداد فأقره على إمرة دمشق خلافة له. و بلغ ابن رائق العريش يريد مصر، فخرج إليه الإخشيد و اقتتلا فانهزم ابن رائق الى دمشق.

ثم جهز الإخشيد الى ابن رائق جيشا مع أخيه و اقتتلوا، فانهزم عسكر الإخشيد و قتل أخوه، فأرسل ابن رائق يعزى الإخشيد فى أخيه و يقول له: إنه لم يقتل بأمرى، و أرسل ولده مزاحم و قال له: إن أحببت فاقتل ولدى به. فخلع الإخشيد على مزاحم و أعاده الى أبيه. فاستقرت مصر للإخشيد الى حد رملة فلسطين، و الشام لابن رائق من طبرية.

و فى السنة التالية بعث الإخشيد من مصر قائده كافورا الى الشام فى جيش عظيم، فهزم عامل ابن رائق و استولى على حلب، و أفسد أصحابه فى جميع النواحي و قطعت الأشجار التى كانت بظاهر حلب و كانت عظيمة جدا، و نزل عسكر الإخشيد على الناس بحلب و بالغوا فى أذاهم.

و بعد سنة عقد الصلح بين الإخشيد و ابن رائق، فاستأثر هذا بولاية حلب، و انفرد الإخشيد بدمشق يصادر أغنياءها و يستصفى أموالها، و كان ظالما مستبدا. و قد وجد بداره قبل مسيره عن مصر الى الشام رقعة مكتوب عليها: «قدرتم فأسأتم، و ملكتم فيخلمتم، و وسع عليكم فضيقتهم، و أدرت عليكم الأرزاق، فقطعتم أرزاق العباد، و اغتررتهم بصفو أيامكم، و لم تتفكروا فى عواقبكم، و اشتغلتم بالشهوات و اغتنام اللذات، و تهاونتم بسهام الأسحار و هن صائبات، و لا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها، و أكباد أجمعتموها، و أجساد أعريتموها، و لو تأملتكم فى هذا حق التأمل لانتبهتم، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل، و لو دامت لمن مضى ما نالها من بقى، فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم، و من المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٦

منهم أحد، و يبقى المنتظر به، افعلوا ما شئتم فإننا صابرون، و جوروا فإننا بالله مستحيرون، و تقوا بقدرتكم و سلطانكم فإننا بالله واثقون، و هو حسبنا و نعم الوكيل».

قالوا: و قد بقى الإخشيد بعد سماع هذه الرقعة فى فكر، و سافر الى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ و لم تطل دولته غير سنتين، فهو فى الحقيقة مؤسسها سنة ٣٢٣ و أيام حكمه من حيث المجموع كانت إحدى عشرة سنة سافر فيها خمس مرات من مصر الى أعداء يقاتلهم. لما زحف عليه سيف الدولة بن حمدان فخف إليه و اقتتلا بقنسرين ثم اصطلحا و تصاهرا و تقاربا.

و فى أواخر أيام الإخشيديين (٣٥٢) خرج فى برية الشراة خارجى من بنى سليم يسمى محمد بن أحمد السلمى، و اجتمع إليه خلق كثير من العرب و من غيرهم و من أهل الطمع، و قوى أمره و كثر جمعه، فبلغ كافور الإخشيد خبره و كان الشام يومئذ بيده، فأنفذ عسكرا خوفا من حادث يحدث، و تقدم الى أصحابه أن لا يتدثوه بحرب و لا قتال، و طال مقامه و إياهم على تلك الحال، فأسرى إليه فى بعض الليالى رجل من العرب يعرف بثمان الخفاجى من بنى عقيل و أخذه أسيرا و حمله الى مصر فشهر بها راكبا فيلا، و اعتقل مدة ثم عفى عنه و خلى سبيله.

و لما تفرد كافور بالأمر (٣٥٥) جعل الحسن بن عبيد الله بن طغج على الشام مستخلفا من قبله، و كان فى بيت المقدس و ال يعرف بمحمد ابن إسماعيل الصنهاجى اضطهد بطريق القدس، و كان أبى مقابلته فهجم عليه الوالى فى أشياعه و أحرق أبواب كنيسة القيامة، و سقطت قبتها، و نهبوا كنيسة صهيون و أحرقوها. قال ابن بطريق: و هدم اليهود و خربوا أكثر من المسلمين، ثم قتل البطريق و لما مات كافور (٣٥٦) و نصب مكانه أحمد بن على الإخشيد، و كان عمره إحدى عشرة سنة، على أن يخلفه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج و كان بالشام، فوقع الخلاف بين الإخشيدية، و صار كل واحد يتسمى بالأمير و كثر التحاسد، فكتب جماعة منهم الى المعز الفاطمى صاحب المغرب يستدعون منه إنفاذ

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٧

جيشه الى مصر ليتسلمها، و ضمنوا له المعونة، و على هذا انتهت أيام الإخشيديين.

بعث الخليفة العباسي محمد بن رائق لينقذ الشام و مصر من الإخشيد محمد بن طغج، فلم يضرب ابن رائق ابن طغج ضربة قاسية، و اكتفى بأن ترك له مصر الى الرملة، رملة فلسطين (٣٢٩) و قعد في القسم الأكبر من الشام- مقابل جزيه سنويه قدرها مئة و أربعون ألف دينار- أميرا يحاول أن يقيم له فيه دولة، عصى بالشام فقام يناجزه ناصر الدولة ابن حمدان القتال، و كان هذا استأثر بالموصل و الجزيرة، فقتل ابن رائق (٣٣٠) و كتب بالأمر الى الخليفة المتقي بالله، فحل ذلك من نفسه محلا عظيما، و لقبه ناصر الدولة و لقب شقيقه عليا سيف الدولة و هذا هو صاحب الدولة التي اشتهر أمرها في حلب و ما إليها. و بنو حمدان بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية.

سار سيف الدولة (٣٣٣) الى حلب فلقى فيها يانس المؤنسي، ففارقها يانس، و استأمن إليه في قطعة من الجيش، فاستولى عليها سيف الدولة، و سار الى دمشق و أقام الدعوة للمستكفي و لأخيه و لنفسه، فخلع المستكفي على سيف الدولة و على الإخشيد لأن هذا أقام الخطبة له بمصر و ما تحت حكمه من الأصقاع. و لما بويج للمطيع بالخلافه سار مع الإخشيد و ابن حمدان بسيرة المستكفي على قدم التوازن السياسي، فكتب الى الإخشيد بالتقليد، فتكافأ الإخشيد و سيف الدولة، و هدأت الفتن و استقامت الطرق.

و لما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة سار الى حمص جرد عسكريا كبيرا و جعل عليه أربعة قواد، فساروا الى دمشق و عبوا عساكرهم، ثم ساروا الى حمص، فالتقوا مع سيف الدولة بالزستين من أرض حمص فهزمهم سيف الدولة، فعادوا الى دمشق ثم خرجوا عنها يريدون الرملة، ثم قصدوا الى مصر و سار سيف الدولة في إثرهم يريد دمشق، و كتب الى

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٨

جماعة الأشراف و العلماء و الأعيان و المستورين كتابا قرىء على منبر جامعها و فيه:

و قد علمتم أسعدكم الله، تشاغلي بجهاد أعدائي و أعداء الله الكفرة، و سببهم و قتلى فيهم، و أخذى أموالهم، و تخريبى ديارهم، و قد بلغكم خبر القوانين (؟) فى هذه السنة، و ما أولانا الله و حولناه، و أظفرنا به، و استعملت فيهم السيئة فى قتال أهل الله فما أتبت مدبرا، و لا ذفت على جريح، حتى سلم من قد رأيتم، و قد تقدمنا الى و شاح بن تمام بصياتكم و حفظكم، و حوط أموالكم، و فتح الدكاكين، و إقامة الأسواق، و التصرف فى المعاش، الى حين موافاتنا إن شاء الله.

كتب الرجحان لجيش سيف الدولة على جيش الإخشيدية، و سار كافور بعساكر مولاه الى مصر، فأقام سيف الدولة بدمشق و جبي خراجها، و جعل يطالب أهلها بودائع الإخشيد و أسبابه، و كان أحداث دمشق قد نهبوا فى يوم موت الإخشيد، و ظن ابن حمدان أن الأمر تم له فجمع الى ملكه فى الجزيرة ملك الشام، و ربما تطال بعد ذلك الى مصر و لم يعرف ما خبأته له الأقدار حتى زحزحته عن ملك دمشق، و اقتصرت دولته على حلب و ما إليها. و ذلك أنه اتفق أن كان يسير هو و الشريف العقيقى بضواحي دمشق، فقال سيف الدولة: ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد. فقال له العقيقى: هى لأقوام كثيرة فقال سيف الدولة: لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأوا منها.

فأعلم العقيقى أهل دمشق بذلك، فكاتبوا كافورا يستدعونه من مصر، فجاءهم و معه أنوجور بن الإخشيد فخرج سيف الدولة الى اللجون، و أقام أياما قريبا من عسكر الإخشيدية بقرية أكسال و كان فى خمسين ألفا، و تفرق عسكر سيف الدولة فى الضياع لطلب العلوقة، فعلم به الإخشيدية فرجعوا، و ركب سيف الدولة فرآهم زاحفين فى تعبى، فعاد الى عسكره فأخرجهم فنشبت الحرب فقتل من أصحابه خلق و أسر كذلك، و انهزم سيف الدولة الى دمشق و سار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة (٣٣٥) و جاء الى حمص و جمع جمعا لم يجتمع له قط مثله من بنى عقيل و بنى نمير و بنى

خطط الشام، ج ١، ص: ١٨٩

كلب و بنى كلاب، و خرج من حمص، و شخص عساكر الإخشيدية من دمشق، فالتقوا بمرج عذراء على ساعتين من دمشق، و كانت الوقعة أولا لسيف الدولة ثم آخرها عليه، فانهزم و ملكوا سواده، و تقطع أصحابه فهلكوا و تبعوه الى حلب فعب الرقة.

لم يستطع سيف الدولة بعد وقعة أكسال و مرج عذراء أن ينال من الإخشيدية، و بقيت لهم دمشق و ما وراءها حتى مصر لأن أهل دمشق خافوا من مصادرات سيف الدولة، يوم طالبهم بودائع الإخشيد و أحب أن يملك غوطتهم، فقلبوا له ظهر المجن، و لم يغنه جيشه العظيم لانصراف القلوب عنه، فاقتضى له أن يقاتل جيشين: جيش الطامعين في تلك الديار و جيش البلاد نفسها، و ظلت حلب لسيف الدولة لأنه لم يأت فيها باديء بدء ما أتاه من أفعال الظلم. و حلب أقرب الى مهد عصيته و هي الثغور الشامية و الجزرية و ديار مضر و ديار بكر. و اصطلاح سيف الدولة و الإخشيد و صاهره و تقرر لسيف الدولة حلب و حمص و أنطاكية، و من الأحداث في هذه الحقبة أن شبيب بن جرير العقيلي تقلد عمان و البلقاء و ما بينهما من البر و الجبال- على عهد كافور فعلت منزلته و اجتمعت إليه العرب و كثرت حوله و سولت له نفسه أخذ دمشق و العصيان بها، فسار إليها في نحو عشرة آلاف و قاتله أهلها و سلطانها و استأمن إليه جمهور الجند الذين كانوا بها و غلقت أبوابها، فنزل بعض أصحابه على الثلاثة الأبواب التي تلى المصلى يشغلهم بهم، و دار هو حتى من الحميريين على القنوات حتى انتهى الى باب الجابية و حال بين الوالى و بين المدينة ليأخذها فهلك و انهزم أصحابه لما رأوا مصرعه فخالفوا الى الموضوع الذى دخلوا منه فأرادوا الخروج منه فقتل أربعمائة فارس و بضعة عشر. و كانت علائق الإخشيديين كصالات الحمدانيين اسمية مع خلفاء بغداد، و اشتهر الإخشيديون و هم عجم بشحهم، و الحمدانيون العرب بكرمهم، و كان الإخشيديون من أهل السنة، و الحمدانيون يرون رأى الشيعة.

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٠

مغازى سيف الدولة:

كان سيف الدولة يحمل بين جنبيه نفسا عظيمة، و لطالما حارب الروم و غزاهم، و من الأحداث في أيامه إحراق حصن فامية سنة ٣٣٨ نازله الدوقس في ثلاثين ألفا و حاصره سبعة أشهر و أشرف على أخذه فدفعه عنه صمصامة و الى دمشق فقتل الدوقس و قتل من عسكره أربعة عشر ألفا و أسر منهم خلق كثير و كسروا بعد أن ظهروا. و منها أخذ سيف الدولة حصن برزويه من الأكراد بعد أن قاتلهم مدة. و فى السنة التالية خرج بسيل ملك الروم الى الشام و فتح شيزر بالأمان لقله رجالها. و فى سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة الى الروم فغنم و سبى و فتح عدة حصون و رجع الى أذنة فأقام بها ثم ارتحل الى حلب. و من غزواته غزوة سنة ٣٤٩، أوغل فى الروم و فتح حصونا، فلما أراد الخروج من أرضهم أخذوا عليه الدرب الذى أراد الخروج منه، فقطعوا الأشجار و سدوا بها الطرق و دهدهوا الصخور فى المضايق على جيشه، و الروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون و يأسرون.

و كان مع سيف الدولة أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم، و عقر جماله و كثيرا من دوابه. و أحرق الثقل و قاتل قتال الموت و نجا فى نفر يسير قيل فى ثلاثمائة من غلمانها، و استباح الدمستق أكثر الجيش و أسر الأمراء و القضاة، و وصل سيف الدولة الى حلب و لم يكد، و كان جيشه ثلاثين ألفا. و أرسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه إليها مع ما حل به منه، ثم جهز سيف الدولة جيشا فدخلوا بلد الروم من ناحية حران فغنموا و أسروا، و غزا أهل طرسوس أيضا فى البر و البحر، ثم سار سيف الدولة من حلب الى آمد (ديار بكر) فحارب الروم و خرب الضياع. قال مسكويه فى وقعة ٣٤٩: و خرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا، و السبب فى سلامتهم و مصاب سيف الدولة، أن هذا الرجل كان معجبا، يحب أن يستبد برأيه، و ألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره، و كان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم، لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩١

و شحوه بالرجال، فلم يقبل منهم و لَّج فأصيب المسلمون بأرواحهم، و أصيب هو بماله و سواده و غلمانها. و أغار الروم مرة على أطراف الشام فسبوا و أسروا، فساق وراءهم سيف الدولة و لحقهم فقتل منهم مقتلة و استرد ما أخذوه. و استولى الروم سنة ٣٥١ على حلب دون قلعتها و على الحواضر، و حاصروا المدينة و ثلموا السور، و قاتل أهلها الروم أشد قتال فتأخر الروم الى

جبل جوشن، ثم وقع بين الحلبيين نهب فلم يبق على السور أحد، فهجم الروم على البلد وفتحوا أبوابه و أطلقوا السيف و سبوا بضعة عشر ألف صبي و صبية و غنموا كثيرا و أحرقوا ما بقى. و كان سيف الدولة غائبا و قاتل الدمستق عند عودته فقتل غالب أصحابه، و ظفر الدمستق بدار سيف الدولة فى الدارين من أرض حلب فأخذ منها ثلاثمائة و خمسين بدره من الدنانير ما عدا السلاح و الدواب. و كانت عدة عسكر الروم مائتى ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن، و ثلاثون ألفا للهدم و إصلاح الطرق من الثلج، و أربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. و فى رواية أن جيش الروم كان ثمانين ألف فارس ما عدا السواد و هو كثير جدا، و أن سيف الدولة نادى فى حلب من لحق بالأمير فله دينار، و أنه انهزم الى ناحية بالس بعد أن قتل من جيشه من أهل حلب مدة ستة أيام جملة كثيرة من الناس. قال الذهبى: و قتلوا الأسرى ثم عادوا الى القلعة فإذا طلائع قد أقبلت نحو قنسرين، و كانت نجدة للروم، فتوهم الدمستق أنها نجدة لسيف الدولة فترحل خائفا.

و فى سنة ٣٥٥ سار صاحب الروم الى الشام فعات و أفسد، و أقام به نحو خمسين يوما فنزل على منبج و أحرق الرض و خرج إليه أهلها، فأقرهم و لم يؤذهم، ثم سار الى وادى بطنان و سار سيف الدولة متأخرا الى قنسرين، و قد ضيق رجاله و الأعراب الخناق على الروم، و أخذت

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٢

الروم أربع ضياع بما حوت، فراسل سيف الدولة ملك الروم و بذل له مالا يعطيه إياه فى ثلاثة أقساط فقال: لا أجيبه إلا أن يعطينى نصف الشام، فإن طريقي الى ناحية الموصل على الشام. فقال سيف الدولة:

لا أعطيه حجرا واحدا. ثم جالت الروم بأعمال حلب، و تأخر سيف الدولة الى ناحية شيزر، و أنكب العرب فى الروم غير مرة و كسبوا كثيرا، و نزل عظيم الروم على أنطاكية يحاصرها ثمانية أيام ثم رحل عنها.

قل المنتفضون على سيف الدولة لبطشه، و ممن خالفه بنو كلاب (٣٤٣) فحاربهم و كان اصطنعهم حتى استطالوا على العرب، و أوقع بينى عقيل و قشير و بنى العجلان و بنى كلاب حين عاثوا فى عمله و خالفوا عليه. و هذه الغزوات تعد فى باب المناوشات لا الحروب مثل غزوة سيف الدولة للمبرقع الذى دعا الناس الى نفسه، و التفت عليه القبائل، و افتتح مدائن من أطرف الشام و أسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان، و هو خليفة سيف الدولة على حمص، و ألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل و جملة من المال، فأسرى سيف الدولة من حلب حتى لحقه فى اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به و وضع السيف فى أصحابه فلم ينج إلا من سبق فرسه، و عاد سيف الدولة الى حلب و معه أبو وائل و بين يديه رأس الخارجى على رمح. و ممن خالفه أهل أنطاكية سنة ٣٥٤ و عليهم رشيق النسيمي فسار الى جهة حلب و حاصر قلعتها ثلاثة أشهر و عشرة أيام، و قاتل قرعويه غلام سيف الدولة و عامله قتالا شديدا، و كان هذا بميفارقين، فأرسل عسكرا مع خادمه بشاره فقتل رشيق و هرب أصحابه الى أنطاكية، و لما عاد سيف الدولة اجتمع على حرب ابن الأهوازي و الديلمي اللذين قاما مقام رشيق، فقتل هذا الثائران، و قتل من ولاتهما و قضاتهما و شيوخهما خلق.

و ذهب قرعويه الى أنطاكية فجرت بينه و بين الديلمي وقعه انهزم فيها قرعويه و عاد الى حلب، و سار الديلمي فى أثره الى حلب، فلقه أصحاب قرعويه و دفعوه الى أنطاكية. قال ابن قاضى شهبه فى حوادث سنة ٣٥٥:

إن أهل أنطاكية خرجوا عن طاعة سيف الدولة لاشتغاله بنفسه، فتفرغ لهم و قاتلهم قتالا شديدا ثم انتصر و أسر خلائق من أهلها، فصادر أعيانهم

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٣

و أخذوا خطوطهم بأموال عظيمة و قتل خلقا منهم، حتى قيل: إنه قتل نحو خمسة آلاف رجل، و كتب الى ولده أبى المعالى كتابا يبشره بذلك و قال فيه: ما شاهدت عسكرا، على كثرة مشاهدى للحرب، استولى على جميع رؤسائه و أتباعه مثل هؤلاء، و لا غنم عسكر مثل ما غنم منهم.

و سار ملك الروم بجيوشه الى الشام (٣٥٥) فعاث و أفسد، و قيل: إن أهل أنطاكية راسلوه و بذلوا له الطاعة و أن يحملوا إليه مالا، و كان الذي حركه و أحنقه إحراق بيعه القدس، و كان البطريق كتب الى كافور صاحب مصر يشكو قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة، فجاءه من الناس ما لم يطق دفعه و قتل البطريق، و أحرقت البيعة و أخذوا زيتها، فراسل كافور ملك الروم بأن يرد البيعة الى أفضل ما كانت فقال: بل أنا أعيدها بالسيف. فلما خرج ملك الروم أصعد سيف الدولة أهل المدينة الى قلعة حلب، و أنجفل الناس و عظم الخطب، و أخليت نصيبين، و نزل صاحب الروم على منبج و أحرق الربض، و خرج إليه أهلها فأقرهم و لم يؤذهم، و أنكث العرب في الروم غير مرة و كسبوا ما لا يوصف، و حاصر الروم أنطاكية ثمانية أيام ليلا و نهارا، و بذل الأمان لأهلها فأبوا فقال: أنتم كاتبتموني و وعدتموني، فردوا عليه ردا قبيحا و حاربوه أشد حرب.

محاسن سيف الدولة و مقابحه:

توفي سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٥٦ بعد أن غزا الروم أربعين غزوة له و عليه، فحفظ بغزواته بيضة العرب و الإسلام، و لولاه لتقدم الروم في الشام، و ربما استصفوها كلها بعد ما ثبت من ضعف العباسيين. و كان جمع من نفص الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئا و عمله لبنه بقدر الكف، و أوصى أن يوضع خده عليه في لحده فنفذت وصيته في ذلك.

ترجمه الأزدي بقوله: «كان معجبا برأيه، محبا للفخر و البذخ، مفرطا في السخاء و الكرم، شديد الاحتمال لمناظره، و العجب بآرائه، خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٤

سعيدا مظفرا في حروبه، جاثرا على رعيته، اشتد بكاء الناس عليه و منه».

نعم كان سيف الدولة جاثرا على رعيته يخرب قرية ليجيز شاعرا، و لما تربع في دست الملك بحلب استكثر من القصور له و لآله و قواده، و جعلها كحضرة بنى العباس كعبة العلم و الأدب، فوفاه الشعراء و العلماء من الأقطار، و كان كريما مفضلا خصوصا على مداحه. ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد و مهادة و زرائها و أرباب النفوذ فيها، فكان حماته في دار الخلافة كثارا استمال بهم الرأي العام البغدادي، فرضى الخلفاء و لم يخالفوه لأنه أبقى لهم الخطبة و إن ضرب السكة باسمه.

و لقد استحل سيف الدولة للقيام بهذه الأبهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته، فكان قاضيه أبو الحصين يقول: «كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك» و لذلك كثرت مصادرة كل غنى من التجار و غيرهم، فخرت الأصقاع الشمالية في أيامه. و ذكر المؤرخون أن أبا الحصين الرقي قاضى حلب قتل في إحدى المعارك، فداسه سيف الدولة بحصانه و قال:

«لا رضى الله عنك فإنك كنت تفتح لى أبواب الظلم». على أن هذا لا ينجى سيف الدولة من المؤاخذه لأنه كان يتيسر له صرفه عن القضاء، و ليس أبو الحصين من أرباب العصبية حتى يخافه. و من كثرة مظالم سيف الدولة أن بنى حبيب و هم أبناء عم بنى حمدان، كانوا ينزلون نصيبين «فأكبّ عليهم بنو حمدان بصنوف الجور، حتى خرجوا بذارهم في اثني عشر ألف فارس الى الروم. و تنصروا بأجمعهم، ثم عادوا الى بلاد الإسلام على بصيرة بمضاره، و علم بأسباب فساد و قلوبهم تضطرم حقا» على ما قال ابن حوقل، و أخذوا يخربون القرى في الجزيرة و الشام و أطمعوا صاحب الروم بأنطاكية و حلب.

و كانت لسيف الدولة طرق غريبة في الرحمة، من ذلك أنه سار مرة بالبطارقة الذين في أسره الى الفداء، و كان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس و جماعة من أكابر الحلبيين و الحمصيين فأخذ بالفداء، و لما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى الباقيين كل نفس باثنين و سبعين دينارا حتى نفذ ما معه من المال، فاشترى الباقيين و رهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٥

المثل. ثم لما لم يبق أحد من أسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح. قال ابن الوردي: و هذه من محاسن سيف الدولة. و من حسناته أنه أنفق في سنة ٣٥٥ على فداء الأسرى خمسمائة ألف دينار، و كان ورث هذا المبلغ من أخته.

و ذكر المؤرخون أنه كان يقف على مائدة سيف الدولة أربعة و عشرون طيبيا، لينصحو له بتناول ما ينفع مزاجه، و أنه كان من أهل الأدب و غيرهم من يتناول رزقين و ثلاثة. و في باب كرمه و اسرافه غرائب، منها أنه أنفق تسعمائة ألف دينار في جهاز ابنته و عرسها، و ضرب دنانير في كل دينار ثلاثون دينارا و عشرون و عشرة. قال الأزدي: و يقال إنه جاد بما لم يجد به أحد. قالوا: إنه كان لا يملك نفسه، و وجود بكل ما لديه إذا قصده من يريد إكرامه، كل هذا على ما فيه من المفاجر يحمل في مطاويه الظلم و إعنات الرعية. فسيف الدولة ممن خلط عملا صالحا و آخر سيئا و حسناته أكثر.

ابتداء الدولة الفاطمية:

كان كافور آخر ملوك الإخشيديين مملوكا حبشيا ذا عقل و دراية و حسن إدارة، استولى بالفعل على زمام الحكم في مصر و الشام على عهد أبي القاسم أنوجور محمود و أبي الحسن علي، ولدى محمد بن طغج الإخشيدى رأس الدولة الإخشيدية، ثم تولاه مستقلا بنفسه، و قام بالأمر بعده أبو الفوارس أحمد، بمعنى أن الدولة الإخشيدية امتدت أربعاً و ثلاثين سنة من سنة ٣٢٣ الى ٣٥٧ و لما أذنت شمسها بالأفول انتشرت الفوضى في المملكة، فرأى عقلاء مصر أنه لا ينجيها مما صارت إليه إلا الإقاؤها في أحضان دولة قوية فتية تنقذ الأمة من بلائها، و كان للقائم بالدولة الفاطمية أو العبيدية التي نشأت في المغرب و امتد سلطانها هوى في هبوط مصر ففاوضه في أمرها، و كان حاول غير مرة أن يستولى عليها فرده عنها جيش بنى العباس.

و بلغ المعز الفاطمي اختلاف الأهواء و تفرق الآراء، فجهز العسكر

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٦

إليها بإشارة المصريين، فهربت العساكر الإخشيدية من القائد جوهر الذي جاء مصر في مئة ألف محارب و ألف و خمسمائة جمل تحمل الذهب و الفضة، و اتفق أن ورد القرامطة الى دمشق، و أتوا عليها و على سائر أعمالها، و ساروا الى الرملة و لقيهم الحسن بن عبيد الله بن طغج، و وقع بينهم حرب عظيمة بظاهر الرملة في ذى الحجة سنة ٣٥٧، فانهزم ابن عبيد الله من الشام و دخل الى مصر، فاستولت القرامطة على الرملة و استباحوها، فقاطعهم أهلها على مائة و خمسة و عشرين ألف دينار، شروا بها أنفسهم منهم و أخذوا من أعمالهم بشرا كثيرا. و إذ رأى الروم أن مصر قد عبثت بها الفوضى، و أن الشام في ضعف و وهن، أغاروا على الشام (٣٥٨) فقتلوا و سبوا في حمص و الثغور و قتلوا خلائق و سبوا نحو مائة ألف إنسان، و خاف المسلمون، و لم يشكوا في أن الروم يملكون الشام و مصر و الجزيرة و ديار بكر لخلو الجميع عن المانع. فأقام جوهر الخطبة للمعز الفاطمي. قال المسيحي: لما استقر المعز بمصر انفرد بها و لم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية و ادعى الخلافة لنفسه بمصر و قال: نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله. و لما استقرت قدم جوهر بمصر، سير جمعا كثيرا مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة و بها الحسن بن عبيد الله بن طغج، و جرت بينهما حرب أسر عقيها ابن طغج و استولى جعفر على فلسطين، و جبي أموالها ثم سار الى طبرية، فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله، فجهز منها من استمال من بنى مرة و فزاره لحرب بنى عقيل بحوران و البثية و أوقفهم بعسكر من أصحابه، فواقوا بنى عقيل و هزموهم الى أرض حمص، و سار هو من طبرية الى دمشق، فقاتله أهلها فظفر بهم و ملكها بعد فتن و حروب و نهب بعضها و أحرق الآخر. و أقام الخطبة للمعز سنة ٣٥٩ و قطعت الخطبة العباسية، و استقرت دمشق للمعز الفاطمي. و أصبح بنو عبيد الفاطميون خلفاء مصر و الشام و المغرب.

و كان رئيس الثورة بدمشق سيدها و صدرها في عصره أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي العباسي. فأخذه جعفر بن فلاح و شدّه على جمل،

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٧

و فوق رأسه قلنسوة، و في لحيته ريش، و بيده قصبه و بعث به الى مصر.

و ضرب الفاطميون على دمشق دية عم الناس البلاء في جبايتها، و تطلب حمال السلاح فظفر بقوم منهم، و ضرب أعناقهم و صلب جثثهم، و علق رؤوسهم على الأبواب.

و في سنة ٣٦٠ أنفذ جعفر غلامه فتوحا على عسكر الى أنطاكية، و كان لها في أيدي الروم نحو من ثلاث سنين، و سير الى أعمال دمشق و طبرية و فلسطين فجمع منها الرجال، و بعث عسكرا بعد عسكر الى أنطاكية، و كان الوقت شتاء فنزلوها حتى انصرم الشتاء و هم ملحون في القتال، فلم يظفر بطائل، و انهزم عسكره آخر الأمر و قتل منهم كثيرون. و بلغ جعفر بن فلاح مسير القرامطة الى الشام و قد أمدهم صاحب بغداد لقتال جيش الفاطميين فاستهان بهم و واقعهم. فانهزم منهم قرب دمشق و قتل في المعركة، و ملك القرامطة دمشق و أمنوا أهلها ثم ساروا الى الرملة فملكوها و اجتمع اليهم كثير من الإخشيدية. قتل القرامطة جعفر بن فلاح مخافة أن يفوتهم حمل المال الذي كان تقرر بينهم و بين ابن طعج، و هو ثلاثمائة ألف دينار في السنة، و ساروا يريدون الرملة، و عليها سعادة بن حيان فالتجأ الى يافا، و نزل عليه القرمطي، و قد اجتمعت إليه عرب الشام فناصرها القتال حتى أكل أهل المدينة الميتة و هلك أكثرهم جوعا، و سير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه المحصورين بيافا، و معهم ميرة في خمسة عشر مركبا، فأرسل القرامطة مراكبهم إليهما فأخذوا مراكب جوهر و لم ينج منها غير مركبين غنمتها مراكب الروم.

اصطاح قرعويه (٣٦٠) مولى سيف الدولة بن حمدان متولى حلب و أبا المعالي شريف بن سيف الدولة، فخطب له قرعويه بحلب، و خطبا في معاملتيهما للإمام المعز الفاطمي بحلب و حمص. بمعنى أن بني حمدان و هم شيعة أسرعوا في نزع أيديهم من أيدي العباسيين، و وضعوا أيديهم في أيدي الفاطميين الشيعة، بيد أن الفاطميين لم يجدوا نصيرا قويا في الشام، لأن السواد الأعظم من أهل السنة و الجماعة كانوا يخالفونهم في مذهبهم، و قد بلغهم ما صارت إليه مصر من تغيير مذهب أهلها و مصطلحهم في خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٨

أذانهم و صلواتهم، فشق عليهم ذلك و عزموا أن يقفوا للفاطميين بالمرصاد.

و من ذلك ما وقع سنة ٣٦١ من التقاء سعد أمير عرب الشام بحسان بن جراح الطائي في عربيه، و اتفقا على أن ينزعا حكم مصر من الشام، و كان جيش المعز حارب عرب الشام في حوران حربا دامية، فأرسل المعز الى حسان و وعده بمائة ألف دينار إن خذل أمير الشام. و لما دارت الحرب بينهما انهزم حسان بالعرب فضعف جانب سعد و قوى عليه المعز و كسره. و قطعت خطبة المعز من دمشق أيام القرامطة و بقيت الى أن استردها سنة ٣٦٣ و أرسل المعز قائده ظالم بن موهوب واليا على دمشق فعظم أمره و كثرت جموعه ثم وقع بينه و بين أهلها فتن دامت الى سنة ٣٦٤.

و تفصيل ذلك أن المعز سير القائد أبا محمود يتبع القرامطة فنزل بظاهر دمشق، و أمتدت أيدي أصحابه بالعيث و الفساد و قطع الطرق، فاضطرب الناس و خافوا، فوقعت فتنة عظيمة بين عسكره و بين العامة، و جرى بين الطائفتين قتال شديد و ظالم بن موهوب مع العامة، فأحرق جانب من المدينة و هلك جماعة من الناس، و عادت الفتنة بعد أن اصطاح المتقاتلون الى شدتها بينهما (٣٦٤) و اتفقوا على إخراج ظالم من البلد، و وليه جيش بن الصمصامة، و عاد المغاربة أي جيش الفاطميين و عاثوا و أفسدوا فثار العامة و قاتلوهم، ثم زحف جيشه في العسكر الى البلد و قاتله أهله فظفر بهم و هزمهم، و أحرق من المدينة ما كان سلم، و دام القتال بينهم أياما، فاضطرب الأهليون و خافوا و خربت المنازل و انقطعت المواد، و انقطع الماء و الميرة عن البلد، و هلك الفقراء على الطرقات جوعا و بردا، و وصل الخبر الى المعز فأنكر ذلك و استبشعه، فأرسل الى القائد ريان الخادم والي طرابلس يأمره بالسير الى دمشق لمشاهدة حالها و كشف أمور أهلها.

و اتفق أن أفتكين غلام عضد الدولة انهزم في خلال هذه الأيام من المدائن فنزل على حمص في طائفة من الترك و الأعراب، و كان الأحداث قد غلبوا على دمشق و ليس للأعيان معهم حكم، فخرج أشرفها و شيوخها يظهرون السرور بمقدم أفتكين و يباعدونه على الطاعة لينقذهم من المصريين، فنزل على دمشق و أخذها من ريان الخادم، و أقام العدل في الناس و كف

خطط الشام، ج ١، ص: ١٩٩

أيدي الأعراب الذين كانوا عاثوا في الأرض فسادا، وأخذوا عامه المرج و الغوطة، و دخل البلد و خطب للطائع العباسي، و أبان في جميع مواقفه عن شجاعه و قوة نفس و حسن تدبير، فأذعنت له العرب، و أقطع الأرضيين، و كثر جمعه، و توفرت أمواله و ثبتت قدمه، و كاتب المعز يداريه و يظهر له الانقياد.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٠

دور الفاطميين «من سنة ٣٦٤ - ٣٩٤»

الدول الثلاث و غزوات الروم:

تقلبت على الشام ثلاث دول في مدد متقاربة، و هي الإخشيدية و الحمدانية و العبيدية. انبثقت الدولتان الأوليان من أصل الدولة العباسية، بمعنى أن الإخشيديين و الحمدانيين كانوا كالتولونيين من عمال العباسيين، قوى أمرهم فاستبدوا بالشام. و أنشأوا لهم ملكا لم يتعاقب فيهم عدة بطون و أجيال. أما دولة العبيديين فعلى خلاف هذا، كانت دولة شيعية قامت سنة ٢٩٦ بالمغرب، و أول من ولى منهم أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم، دعا الدعاء أولا بالمغرب الى محمد والد المهدي عبيد الله و كان أولا بسلمية من الشام، و لما توفي أوصى الى ابنه عبيد الله المهدي و أطلعه على حال الدعاء. و شاع ذلك في أيام المكتفى فطلب فهرب عبيد الله و ابنه أبو القاسم محمد الذي ولى بعد المهدي و تلقب بالقائم، و توجهها نحو المغرب و نزل تاهرت، و عظم شأنه في القبائل و استجابت لدعوته، و ملك و من بعده معظم شمالي إفريقية و جزائر البحر المتوسط مثل صقلية و ساردنية و مالطة و غيرها. و الخليفة المعز الذي فتح مصر و الشام هو رابع خلفائهم.

نشأت الدولة العبيدية أو الفاطمية أو العلوية كالدولتين الأموية و العباسية

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠١

بالشام، و قامت بالمغرب، و نمت في مصر، و ماتت فيها. و لم تكن على نسبة تينك الدولتين بقوة سلطانها و تأثيراتها، و لذا ظلت دولة أخرى في أقصى الشام تقاسمها السلطة، و هي الدولة الحمدانية، اتفقت معها سياسة اتفاتها معها مذهباً.

و في سنة وفاة كافور (٣٥٧) جرت بين فنك بن عبد الله مولى كافور الإخشيدى، و كان جهزه مولاه لأخذ دمشق ثانية، و بين أهل هذه المدينة مناوشة و قتال و إحراق و نهب، و بلغه خبر الروم و أخذهم حمص فنأدى في دمشق بالنفير الى ثنية العقاب بسبب الروم فخرج الناس الى دومة و حرستا و انتهز الفرصة في خلو دمشق و رحل عنها و توجه بأثقاله نحو عقبه دمر متوجها الى الساحل، فنهب أهل دمشق بعض أثقاله و قتلوا من بقى من رجاله.

لما هلك كافور و هلك سيف الدولة و تولى الفاطميون أمر مصر و فتحوا الشام بقى سعد الدولة (٣٥٦) ابن سيف الدولة في مملكة حلب، و لم يكن كأبيه عقلا و تدبيراً فعصى عليه جند حلب سنة ٣٥٧، فنازلها و بقى القتال عليها مدة و استولى الرعيلي على أنطاكية، و جاءت الروم فنزلوا عليها و أخذوها و هرب الرعيلي من باب البحر هو و خمسة آلاف إنسان ناجين بأنفسهم من الروم، فأسر هؤلاء أهل أنطاكية و قتلوا أناسا من أكابرها.

و قال عظيم الروم لما ضيقوا عليه: أرحل و أخرج الشام كله و أعود اليكم من الساحل، و رحل في اليوم الثالث و نازل معرة مصرين، فأخذها و غدر بهم و أسر منهم أربعة آلاف و مائتي نسمة، ثم سار الى عرقة فافتتحها، ثم سار الى طرابلس فأخذ ريبضها، و أقام في الشام أكثر من شهر و رجع فأرضاه أهل أنطاكية بمال عظيم. و أحرق حمص و قد أخلاها أهلها و ملك ثمانية عشر منبراً، و عاد الى

بلاده بالأسرى و الأموال.

وقال الأنطاكي: إن نقفور لما توجه الى الشام، خافه سعد الدولة، فخرج عن حلب الى البلس، واستخلف فيها قرعويه الحاجب، و نزل الملك على أنطاكية و أقام يومين و رحل في اليوم الثالث، و نزل على معرة مصرين و أمن أهلها من القتل، و كانت عدتهم ألفا و مائتي نفس و سيرهم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٢

الى بلد الروم، و فتح معرة النعمان و حماة و حمص، و أخذ منها رأس القديس يوحنا المعمدانى، و نزل على طرابلس، و أحرق ربضها و حاصر مدينة عرقة تسعة أيام، و كان لها حصن منيع ففتحه بالسيف و أخذ منها خلقا كانوا التجأوا إليه من الأقاليم المجاورة و أخذ منه مالا كثيرا، و كان فى الحصن أمير طرابلس أحمد بن نحرير الأرعلى، و كان أهل طرابلس قد طردوه لجوره، و كان مأسورا و معه مال جزيل، فأسره و أخذ جميع ماله، و رجع الى بلدان الساحل فأتى عليها، و حصل فى يده من السبى ما لا يحصى عدده، و فتح حصن انطرطوس و مرقبة و حصن جبله، و صالح أصحاب اللاذقية عليها، و خرب كثيرا من القرى، و عبر بأنطاكية و ميز السبى الذى معه و أعتق عليها من الشيوخ و العجائز زهاء ألف نفس، و بنى حصن بغراس مقابل أنطاكية فى فم الدرب و رتب فيه رئيسا يقال له ميخائيل البرجى، و رسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته و رتب معه ألف رجل و رجع الى القسطنطينية.

و فى تاريخ العلويين أن اليهود كانوا يقطنون فى القرن الرابع فى أرجاء صهيون، و ينزل النصارى فى اللاذقية، و النصيرية فى الجبل، و لما استولت الروم على أرجاء اللاذقية فى سنة ٣٥٧ شعر العلويون- أى النصيرية- بالتنظيمات الإدارية و العسكرية و أعلنوا الثورة على الروم و كان يرأسهم حسين ابن إسحاق الضلعينى العلوى ففاز و استقل باللاذقية سنة ٣٦٨، ثم حكم محمد بن إسحاق التنوخى ثم أخوه إبراهيم.

و فى سنة ٣٥٩ ملك الروم أنطاكية بالسيف، و قتلوا أهلها و سبوا و قصدوا حلب فتحصن قرعويه بالقلعة، و ملكوا المدينة بعد حصارها ٢٧ يوما، ثم اصطلحوا على مال يحمله قرعويه كل سنة و قدره ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، و سبعة قناطير ذهب عن خراج حلب و قنسرين و حمص و حماة و جوسية و سلمية و المعرة و كفرطاب و أفامية و شيزر و جبل السماق و معرة مصرين و الأثارب و غيرها، و عن كل حالم دينار فى السنة سوى ذوى العاهات، و أن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها، فرحلت الروم و معهم الرهائن على ذلك،

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٣

و قد عقدوا هدنة مؤبدة و صارت الكور سائبة لا مانع للروم عنها، فطمع نقفور ملك الروم فى ملك الشام جميعه، و لم يعترف سعد الدولة بالمعاهدة التى جرت بين قرعويه و بين الروم، و ظل فى معرة النعمان، فأخرب الروم حمص حتى يضطروه الى الإذعان، و لكن جاءتة نجدات فعمرها.

و فى سنة ٣٦٣ سار أبو محمود بن جعفر بن فلاح الى الشام، فى عسكر يقال إنه عشرون ألفا و دخل دمشق و تمكن بها، و غادر الروم أرض الشام سنة ٣٦٤ بعد أن فتحوا بعلبك و أخربوها و أخذوا جماعة من أهلها و صالحتهم صيدا و افتتحو بيروت عنوة و سبوها و نهبوا، و جرى مثل ذلك على جبيل. و قاطعوا أهل دمشق على ستين ألف دينار يحملونها إليهم فى كل عام، و كتبوا عليهم بذلك كتابا و أخذوا فيه خطوط أشرافهم و أخذوا جماعة منهم رهينة و أنفذوا إليهم صليبا بالأمان فتلقوه بالإكرام. ثم انقطع حمل المال المفروض على الشام للروم، فأغضوا عن ذلك لاشتغالهم بالحرب فى آسيا الصغرى.

و فى سنة ٣٦٥ وصل بارقطاش مولى سيف الدولة الى شريف ابنه و هو بحماة من حصن برزويه و خدمه و عمر له حمص بعد خراب الروم، و تقوى بكجور مولى قرعويه و نائبه، و قبض على قرعويه بحلب و حبسه بالقلعة و استولى على حلب، فكتب أهلها أبا المعالى شريفا فجاءهم، و أنزل بكجور بالأمان و ولاه حمص و استقر أبو المعالى بحلب. و من الأحداث فى هذا الزمن أن وشاح السلمى ولى

إمارة دمشق من قبل الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم، و كان الوالي إذ ذاك بها صالح بن عمير العقيلي البدوي فخرج صالح عنها، فلما رجعت القرامطة الى الأحساء رجع صالح بن عمير الى دمشق و تعصب له أحداثها فأخرجوا و شاحا عنها قهرا و سلموها الى صالح (٣٦٨). و منها أن بسيل الملك ردّ ولاية اللاذقية الى كرموك لشنه الغارة على طرابلس و ما يليها و قتله و أسره من أهلها و من المغاربة خلقا كثيرا. و ورد عسكر المغاربة الى عمل أنطاكية مع أمير لهم يعرف بالصنهاجي، فاستظهر عليه كرموك و قتل جماعة من أهله، فسار نزال و ابن شاعر من طرابلس الى اللاذقية (٣٧٠) و حاصر حصنها

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٤

و سار الدمستق (الدومستيقس) الى حلب (٣٧١) و وقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله. و طالب سعد الدولة بمال الهدنة على أن يحمل للروم في كل سنة أربعمئة ألف درهم فضة نقيه صرف كل عشرين درهما بدينار. و خالف مفرج بن دغفل بن الجراح على العزيز بالله و جاهر بخلع الطاعة فسير الى الشام رشيقا العزيزي (٣٧١) فطرده عنها و هزمه. و سار ابن الجراح بعد هزيمته يريد الحجيج ليقطع عليهم الطريق عند رجوعهم، فأنفذ العزيز مفلح الوهباني في عسكر ليلقاهم و يدفع عنهم، فأوقع به ابن الجراح بأيلة و قتله و جميع من معه، و عاد الحجيج الى مصر فعاود ابن الجراح الشام فلقه رشيق الحمداني دفعة ثانية و هزمه و دخل الى البرية و التجأ الى بكجور في حمص فأجاره، و قصد أنطاكية ملتصقا من بسيل الملك النجدة فأطلق له صلة و دفعه الى الشام و التمس من العزيز الأمان فأجابه إليه.

و لما تفرغ الروم من مشاكلهم قصدوا الى الشام سنة ٣٧١ فاضطر سعد الدولة الى تمديد الهدنة معهم معترفا لهم بالسيادة، و متعهدا بأداء الجزية ليتخلص من حكم الفاطميين (٣٧٣). ثم عاد فأبى أداءها، فاستولوا على كليس و أوقعوا بجماعة من الحمدانية و حاصروا أفامية و قاتلوا أشد قتال، و جاءوا الى حلب، و سار قرعويه الى دير سمعان فحاصره ثلاثة أيام و فتحه بالسيف و قتل جماعة من رهبانه، و سبى خلقا التجأوا إليه من أنطاكية و دخلوا بهم الى حلب و أشهروا بها و أنفذ الدومستيقس سرية من عسكره الى كفرطاب فأوقعت بجماعة العرب و الحمدانية، و استولى المغاربة على حصن بانياس و لم يقبل الروم بالصلح مع صاحب حلب سنة ٣٧٦ إلا على شرط أن يدفع ما تأخر عليهم من الجزية لهم، و رحل بسيل ملك الروم الى الشام فحاصر حلب و فتح حمص و شيزر و أقام على طرابلس، و دامت معاهدة صاحب حلب مع الروم الى حين وفاته سنة ٣٩٢. و هكذا أصبحت الدولة الحمدانية بعد عزها على عهد سيف الدولة، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها في عهد خلفه.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٥

تجاذب السلطة بين العباسيين و الفاطميين:

هلك المعز الفاطمي و تولى ابنه العزيز (٣٦٥) فقصد أفتكين المستولى على دمشق سواحل الشام و عمد الى صيدا فحاصرها و بها ابن الشيخ و معه رؤوس المغاربة و معهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم، و كانوا في كثرة فطمعوا فيه و خرجوا إليه فاستجرهم حتى أبعدها ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف، و طمع في أخذ عكا، فتوجه إليها و قصد طبرية ففعل فيها من القتل و النهب مثل صيدا و عاد الى دمشق.

ثم أرسل العزيز القائد جوهر في العساكر الى الشام، فلما سمع أفتكين بمسيره جمع أهل دمشق و عاهدهم فبايعوه على الطاعة و بايعهم على الذب عنهم، فوصل جوهر الى دمشق (٣٦٥) و رأى من قتال أفتكين و من معه ما استعظمه، و دامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كثير من الطائفتين، فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي ملك القرامطة و استنجاهه، فجاءهم القرمطي و اجتمع إليه من رجال الشام و العرب نحو من خمسين ألفا، فرحل جوهر من دمشق خوفا من أن يبقى بين عدوين، و تبعه أفتكين و القرمطي و التقوا بيافا و حصروه في عسقلان فعابن الهلاك هو و أصحابه من الجوع نحو

سبعة عشر شهرا، فبذل لأفتكين مالا ليمنّ عليه و يطلقه، فرحل أفتكين عنه و سار جوهر الى مصر، و أعلم العزيز بالحال، فسار العزيز بنفسه الى الشام فى سبعين ألف مقاتل، و وصل الرملة، فقاتله أفتكين و القرامطة بظاها قاتالا شديدا، فنصر العزيز و قتل و أسر كثيرا (المحرم ٣٦٧) و قد قتل من المغاربة جيش الفاطمى نحو من عشرين ألفا.

و جعل العزيز لمن يحضر أفتكين مائة ألف دينار، و طلب أفتكين فى هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائى، فأسره مفرج فى بيته و أعلم العزيز به فأعطاه الجعل، و أحضر أفتكين (٣٦٨) فأطلقه العزيز و أصحابه، و بقى عنده معطما حتى مات بها. و بعث العزيز الى الأعصم زعيم القرامطة و هو منهزم فأدركه بطبرية و أعطاه عشرين ألف دينار فسار الى الأحساء.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٦

و دلّ العزيز بكفه عن قتل أفتكين على بعد نظره، و أنه أثر فيه ما أسداه من الجميل لقائده جوهر فى نوبه عسقلان بإطلاقه سراحه و سراح من معه، فقابل العزيز أفتكين على جميله بمثله. خصوصا و أن أفتكين لم يقصر منذ استولى على دمشق بمجاملة خليفة مصر العلوى، و إن كان من جهة ثانية نزع خطبته و أرجع الخطبة العباسية فى كثير من مدن الشام، و أكرم العزيز ملك القرامطة الذى ندبه الدمشقيون على لسان أفتكين أن يعاونهم على الخلاص من الدولة المصرية لظلم عمالها و مخالفتها لهم فى المذهب، و ذلك ليستميل قلبه حتى لا يعود ثانية الى نصره أحد من أهل بلاده عليه.

سوء حالة دمشق و اضطراب الأحكام المصرية:

لما فارق أفتكين دمشق الى فلسطين قدّم على أهلها رجلا- اسمه قسام الحارثى من الأبطال المعروفين، و قيل: من أرباب الدعارة العيارين، كان أصله من قرية تليفيتا فى سنير، يعتاش بتقل التراب على الحمير، و تنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة و أتباع، و غلب على دمشق و ما إليها من الأصقاع، بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر و لا نهى، و دام ذلك سنين. و كان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربى قد عاد الى البلد واليا عليه للعزيز فلم يتم له مع قسام أمر، و امتدت أيدي أصحاب أبي محمود بالعيث و الفساد و قطع الطرق فاضطرب الناس و خافوا، و انترح أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم و ظلمهم لهم، و وقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود و بين العامة، فألقى عسكره النار من باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية، و كانت فيها أجمل قصور دمشق، و حرق كثير من أحياء البلد، و هلك فيه جماعة و ما لا يعد من الأثاث و الأموال، ثم صالحوا القائد أبا محمود ثم انتقصوا و لم يزالوا كذلك الى سنة ٣٦٤.

و لما خاف الفاطميون عاقبة قسام الحارثى؛ إذا استلذ طعم الانتصار غير مرة، سيروا لحره الأمير الأفضل فحاصر دمشق و ضاق بأهلها الحال، فخرج قسام متنكرا فأخذته الحرس فقال: أنا رسول. فأحضره الى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٧

الأفضل فقال له: أنا رسول قسام اليك لتحلف له و تعوضه عن دمشق بلدا يعيش به و قد بعثنى اليك سرا، فحلف الأفضل، فلما توثق منه قام و قبل يديه و قال: أنا قسام. فأعجب الأفضل ما فعله و زاد فى إكرامه و رده الى البلد و سلمه إليه، و قام الأفضل بكل ما ضمنه و عوضه موضعا عاش به، فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته. ذكر هذا القفطى و أورد الذهبى رواية أخرى فى أمر قسام قال: إنه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح الى دمشق فنزل فى ظاها و لم يمكنه دخولها فبعث إليه قسام بخطه أنا مقيم على الطاعة، و بلغ العزيز ذلك فبعث البريد الى سليمان يرد فترحل سليمان من دمشق و ولى العزيز عليها أبا محمود المغربى و لم يكن له أيضا مع قسام أمر و لا حل و لا عقد. قال ابن تغرى بردى:

و لعل الذى ذكره الذهبى كان قبل توجه عسكر أفتكين و الأفضل، فإن الأفضل لما سار بالجيش أخذ دمشق من قسام و عوضه بلدا آخر و هو المتواتر.

و كان من سياسة قسام الحارثي أن كان يدعو للعزير بالله العلوي على المناير. و قبل أن يحاربه المصريون وصل إليه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل و حط رحاله في حوران، فمنعه قسام من دخول دمشق، فاستوحش أبو تغلب و جرى بين أصحابه و أصحاب أبي تغلب شيء من قتال، فرحل أبو تغلب الى طبرية، و ورد من عند العزير القائد الأفضل في جيش فقاتله و جماعته حتى قتل في الرملة (٣٦٩) و خلت الديار، و أتت بنو طيبى على الناس و شملهم البلاء منهم.

خوارج على دولة الجنوب و دولة الشمال:

كان مفرج بن الجراح أمير بنى طيبى و سائر العرب في فلسطين قد كثرت جموعه و قويت شوكته، و عاث في فلسطين و خربها، و هلك من فيها فكان الرجل يدخل الى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده، و مات الخلق بالجوع و خربت الأعمال، فخاف العزير عاقبة أمره بعد أن رأى ما أتعب دولته من أمر الخوارج أفتكين و الأعصم و قسام و ابن حمدان، فجهز العساكر لحربه مع قائده بلكين التركي فسار الى الرملة، و اجتمع

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٨

إليه العرب من قيس و غيرهم، و لقي ابن الجراح و قد كمن لهم بلكين من ورائهم، فانهزم و مضى الى أنطاكية فأجاره صاحبها. و صادف خروج ملك الروم من القسطنطينية الى الشام فخاف ابن الجراح و كاتب بكجور عامل حمص لأبى المعالى بن سيف الدولة و لجأ إليه فأجاره. و كان بكجور والى حمص يمد دمشق أيام هذه الفتن و الغلاء و يحمل الأقوات من حمص إليها. و كانت دمشق في هذا العهد قد خربها العرب و أهل العيث و الفساد، و انتقل أهلها الى حمص فعمرت. و ربما كان هذا القرن أشأم القرون السالفة في الشام و دمشق خاصة، و كان كل أذى ينزل بها و بأهلها. قال ابن بطريق: سار بكجور الى أبى المعالى بن سيف الدولة من حلب و هو يومئذ بحمص فخلع عليه أبو المعالى و ولاه حلب، و عاد بكجور الى حلب و أقيمت له الدعوة فيها و فى سائر أعمالها، و وافق بكجور سائر غلمان الدولة على القبض على قرعويه، و سار أبو المعالى إلى حلب و أخرجه من حمص و قبض على قرعويه، و سار أبو المعالى من حلب و فتح المعرة و ما يليها فى شوال سنة ٣٦٦، و نزل الى حلب و معه بنو كلاب، و وقع القتال بينه و بين بكجور، و استظهر أبو المعالى عليه و استقر الأمر بينه و بين بكجور على ولاية حمص. ثم عصى بكجور على سعد الدولة و استدعى جيوش العزير فسارت معه و نزل على حلب و تحاربوا يومين، سار الدمستق الى حلب، و ورد خبره على بكجور فرحل إليه، فوقع القتال و جرى بينه و بين سعد الدولة مراسلة و استقر الحال بينهم على أن يحمل إليه سعد الدولة مال سنتين أربعين ألف دينار، و سار الدمستق و قصد حمص و سبى أهلها، و أحرق بها جماعة اعتصموا فى المغاور و سار بكجور الى دمشق و تقلدها.

و كان بكجور يكاتب العزير الفاطمى بما يقوم به من الخدم فاستنجز وعد العزير إياه بولاية دمشق فولاه إياها سنة ٧٣ إلا أنه أساء السيرة فى أهلها و قتل أناسا و صادر آخرين و جمع الأموال لنفسه، فجهزت العساكر عليه من مصر مع منير الخادم و كتب الى نزال عامل طرابلس بمظاهرةته.

و جمع بكجور العرب و خرج للقائه فانهزم، ثم خاف من وصول نزال

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٠٩

فاستأمن إليه، و توجه الى الرقة فاستولى عليها، و دخل منير دمشق و استقر فى ولايتها و أحسن السيرة فى أهلها، و ارتفعت منزلته عند العزير و جهزه لحصار سعد الدولة بحلب.

و كان بكجور بعد انصرافه من دمشق سأل سعد الدولة العودة الى ولايته حمص فمنعه لأنه كان نزع يده من الدولة الحمدانية و وضعها فى يد الدولة الفاطمية، فلما أخفق عاد الى دولته الأولى فرفضته و أجلبت عليه، فاستنجد بكجور الملك العزير لحرب سعد الدولة فبعث الى نزال بمظاهرةته، فسار إليه بالعساكر، و خرج سعد الدولة من حلب للقائه و قد أضمر نزال الغدر بكجور، و استعد سعد

الدولة للقائهم، وقد استمد عامل أنطاكية للروم فأمدته بجيش كبير، و داخل العرب الذين مع بكجور في الانهزام عنه و كانوا و عدوه ذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان و شعر بكجور بخديعة العرب استمات و حمل على الصف بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤا الكبير مولاه، ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار الى بعض العرب ثم حمل الى سعد الدولة فقتله، و سار الى الرقة فملكها و قبض جميع أمواله و كان شيئا كثيرا.

و زاد مسكويه في تفاصيل هذه الحادثة ما يلي: كان لبكجور رفقاء بحلب يوادونه فكاتبوه و أطمعوه في الأمر، و أعلموه تشاغل سعد الدولة باللذات، فاغتر بأقوالهم و كتب الى صاحب مصر يبذل له فتح حلب، و يطلب منه الإنجاد و المعونة، فأجابته الى كل ملتمس، و كتب الى نزال الغورى و الى طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير معاودة. و كان نزال هذا من قواد المغاربة و صناديدهم، فتلكأ نزال، و كاتب سعد الدولة بسيل ملك الروم يعلمه عصيان بكجور عليه، و سأله إنجاده بالبرجى صاحبه بأنطاكية فسار إليه، و برز سعد الدولة في غلمانه و طوائف عسكره، و لم يكن معه من العرب إلا- خمسمائة فارس إلا- أنهم أولو بأس. و تقارب العسكران و وقع الطراد، و كان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٠

إليه و قد طعن أو جرح خلع عليه و أحسن إليه. و كان بكجور شحيحا فإذا عاد إليه رجل من رجاله على هذه الحال أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفا في أمره. ففضى شح بكجور عليه حتى أسلمه الى خصمه فقتله.

و قد أعطى سعد الدولة سلامة الرشيقى عهدا بالإبقاء على آل بكجور و أموالهم على أن يسلمه حصن الرافعة، و هو بلد متصل بالرقعة، فخرجوا منها و معهم من الأموال و الزينة ما كثر فى عين سعد الدولة، فإنه كان يشاهدهم من وراء سرادقه، و بين يديه ابن أبى الحصين القاضى. و قال له: ما ظننت أن حال بكجور انتهت الى ما أراه من هذه الأثقال و الأموال. فقال ابن أبى الحصين: إن بكجور و أولاده مماليكك و كل ما ملكه و ملكوه فهو لك، لا حرج عليك فيما تأخذه منهم، و لا حث فى الأيمان التى حلفت بها، و مهما كان من وزر و إثم فعلى، فلما سمع هذا القول أصغى إليه، و غدر بهم و قبض جميع ما كان معهم.

قال مسكويه: فما كان أسوأ محضر هذا القاضى الذى حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان، و أفتاه بنقض الأيمان، ثم لم يقنع بما زين له من غدرة، و لبس عليه من أمره، حتى تكفل له بحمل وزره، و هل أحد حامل وزر غيره، أما سمع قول الله تعالى فى أهل الضلالة: «و قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سيلنا و لنحمل خطاياكم و ما هم نحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون».

حملة الفاطميين على الحمدانيين و استنجد هؤلاء بالروم:

مات سعد الدولة فقام بعده ابنه أبو الفضائل و وصيه لؤلؤ فأخذ هذا العهد على الأجناد لأبى الفضائل، و تراجعت العساكر الى حلب، فرأى العزيز أن الوقت قد حان لاستصفاء الشام بأسرها و إنقاذها من هذا التذبذب بين الدولتين، جنوبها للعزيز و شمالها للحمدانيين، و لا- يفتأ كل فريق يدس للآخر، فسير جيشا كثيفا على حلب و عليه منجوتكين أنفق عليه ألف ألف دينار و نيفا، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها و قوادها و عساكر الشام كلها، فأقام بها مدة ثم رحل الى حلب. قال ابن ميسر:

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١١

بل كانت بينه و بين أهل دمشق حروب آلت الى ظفروه. و قد استعد و احتشد و نزلها فى ثلاثين ألف رجل، و تحصن بها أبو الفضائل و لؤلؤ.

و وقع القتال بين منجوتكين و الحمدانية على أفامية فانهزم الحمدانية (٣٨٢) و قتل و أسر جماعة منهم، و نزل منجوتكين على حلب و وقع الحرب فى جميع جوانب المدينة و دخل الى أعمال الروم بسبب اعتقال البرجى لرسوله، و نزل على حصن عم ضيعة البرجى فى بلد أرتاح فقاتله و فتحه و سبى و قتل و سار الى أنطاكية فرشقه الأنطاكيون بالنشاب و عاد منجوتكين الى منازل حلب و راجع القتال.

وعصى المسلمون في اللاذقية فسار البرجي إليهم و سباهم و حملهم الى الروم، و عاد منجوتكين من دمشق و نزل على أفامية فسلمها إليه و فاء خادم سيف الدولة (٣٨٣) و رحل الى شيزر و قاتلها و تسلمها من سوسن غلام سعد الدولة و عاد الى منازل حلب. و كان أبو الفضائل كتب الى بسيل ملك الروم يستنجده و هو يقاتل البلغار، فأرسل بسيل الى نائبه بأنطاكية ميخائيل البرجي يأمره بإنجاد أبي الفضائل؛ فسار في خمسين ألفا حتى نزل على الجسر الحديد بالعاصي، فلما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، و عبر إليهم العاصي و أوقع بالروم فهزمهم و ولوا الأدبار الى أنطاكية و كثر القتل فيهم، و جمع من رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس و حملت الى مصر. قال الأنطاكي: قتل من الروم في هذه الواقعة التي دعيت بوقعة المخاضة (٣٨٤) زهاء خمسة آلاف و يمم منجوتكين الى أنطاكية و نهب رساتيقها و أحرقها، و كان وقت إدراك الغلة فأنفذ لؤلؤا و أحرق ما يقارب حلب منها إضرارا بالعسكر المصري. و عاد منجوتكين الى حلب فحصرها و أقام عليها ثلاثة عشر شهرا. فقلت الأقوات فيها و عاد صاحب حلب الى مراسلة ملك الروم و الاعتضاد به، فلما قُلت الأقوات آلى العزيز على نفسه أن يمدّ عسكره بالميرة من غلات مصر، فحمل مئة ألف تليس في

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٢

البحر الى طرابلس و منها على الظهور الى أفامية. فكان يوقع للغلمان بجراياتهم و قضيم دوابهم الى أفامية على خمسة و عشرين فرسخا فيمضون و يقبضونها و يعودون بها. و بنى و أصحابه الحمامات و الخانات و الأسواق. و عاد منجوتكين الى منازل حلب و محاصرتها و فتح حصن إعزاز و ملك سائر أعمال حلب و ولي عليها و بنى حصنا مقابل حلب، و أنجد ملك الروم صاحب حلب و كان قد استنجده و أرسل إليه ملكوثا السرياني، فقطع المسافة من بلاد البلغار الى حلب و هي ثلاثمائة فرسخ في بضعة أيام. و لما أقبل الروم أحرق منجوتكين الخزائن و الأسواق و الأبنية التي كان استحدثها و رحل في الحال منهزما و وافى بسيل فنزل على باب حلب، و خرج إليه أبو الفضائل و لؤلؤ و لقياه، ثم عاد و رحل في اليوم الثالث الى دمشق و فتح حمص و نهب، و نزل على طرابلس فمنعت جانبها منه، فأقام نيفا و أربعين يوما فلما أيس منها عاد الى الروم، و عاد منجوتكين غازيا الى أنطاكية، ثم سار الى حلب و رحل عنها الى أنططوس، و قاتل الحصن أياما و سار عامل الروم الى أنططوس ليدفع عنها، و أرسلت مصر أسطولا مؤلفا من أربعة و عشرين مركبا مشحونا بالرجال فكسر الأسطول بريح عاتية، و خرج رجال المراكب الى البر، فانهمز منجوتكين و جميع عسكره و خرج المقيمون في أنططوس و أخذوا ما سلم من المراكب و أسروا من رجالهم خلقا.

الخوارج على الفاطميين و استنجد أمراء المسلمين بالروم:

ظن بعد انصراف ملك الروم عن الشام و رجوع الحمدانيين الى حلب أن الدولة الفاطمية يطمئن بالها، و ما كان يحول في الفكر أن ينقلب عليها أحد قوادها الذي كانت اصطفته ليدفع عن القطر ما يتهدده من الشر و أعنى به منجوتكين. فقد عصى على خليفته و أراد أن يستنجد الروم فلم يلتفتوا إليه، فندب الخليفة العساكر من مصر لقتاله و قدموا أبا تميم بن جعفر عليها، و أمده من الأموال ما أسرفوا فيه، و سار أبو تميم من مصر، و رحل منجوتكين من الرملة بعد أن ملكها. و التقى الجيشان بعسقلان و تواقعا فأجلت الواقعة عن هزيمة منجوتكين و أصحابه، فأسر و حمل الى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٣

مصر، و سار أبو تميم فنزل طبرية و أنفذ أخاه عليا الى دمشق، فامتنع أهلها عليه و منعوه الدخول، و كاتب أخاه بعضيانهم، و استأذنه في قتالهم، فكتب أبو تميم الى متقدميهم من الأشراف و الشيوخ، و حذرهم عواقب فعل سفهائهم، فخافوا و خرجوا الى عليّ مدعين بالطاعة و منكرين لما فعله أهل الجهالة، فلم يعبا بقولهم و زحف الى البلد فملكه، و أحرق و قتل و عاد الى معسكره.

و وافى أبو تميم في غد فأنكر على أخيه ما فعله، و تلقاه وجوه الناس فشكوا إليه ما أظلمهم، فأحسن لقاءهم و أمنهم، فسكنوا و عادوا

الى معاشهم. و ركب أبو تميم الى المسجد الجامع فى يوم الجمعة بزى أهل الوقار، و اجتاز فى البلد بسكينه، و بين يديه القراء و قوم يفرقون الدراهم على أهل المسكنه، و صلى الجمعة و عاد الى القصر الذى نزل به بظاهر دمشق، و قد استمال قلوب العامه بما فعله، ثم نظر فى الظلمات و أطلق من الجبوس جماعه من أهل الجنائيات فازدادوا له حبا، و استقرت قدمه و استقام أمره، و عدل من بعد الى النظر فى أحوال الساحل فهذبها، و ولى أخاه طرابلس و صرف عنها جيش بن الصمصامه.

ذكر كل هذا مسكويه، و زاد أن أبا تميم كان مع سياسته مستهترا باللذات، فلم يشعر إلا بهجوم المشاركة و العامه على قصره فخرج من دمشق هاربا، و نهبوا خزائنه و أوقعوا بمن كان معه من كتامه، و عادت الفتنة و استولى الأحداث على دمشق، و ثار أهلها مع ما كان فيها من الأولياء المشاركة على ابن فلاح فخرج عن البلد هاربا الى مصر، و تغلب الأحداث و رأسهم رجل منهم يعرف بالدهيقين، فسارت جيوش الحاكم الى دمشق مع محمد بن الصمصامه للقاء الدمشقيين و الدهيقين، فسار الدهيقين الى مصر و طلب الأمان. و قال ابن ميسر فى حوادث سنه ٣٨٧: إنه كانت وقعه بين منجوتكين و بين ابن فلاح فى الرمله قتل فيها نحو مئه ألف (كذا) من أصحاب منجوتكين و انهزم ابن الجراح.

و فى سنه (٣٨٨) وقعت النار فى أقاميه و احترق ما كان فيها من القوات فسار أبو الفضائل بن سعد الدوله صاحب حلب فى عسكر الحلبيين،

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٤

و قاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكيه، و حاصرها هذا أشد حصار، فاستنجد الملايطى المقيم بها بجيش بن الصمصامه بدمشق، فسار إليه فى عساكر ضخمة، و انتشبت الحرب بينهم، و استظهر عليه الدوقس، و قتل منهم مقتله عظيمه و أخذت البادية سواد عسكر المغاربه، و بلغت الهزيمة الى بعلبك، و قتل الدوقس فعادت الهزيمة على الروم فقتل منهم زهاء ستة آلاف و أسر أبناء الدوقس و جماعه من رؤساء عسكره، و حملوا الى مصر و أقاموا بها عشر سنين ثم فودى بهم.

و سار جيش بن الصمصامه الى شيزر فخف ملك الروم بنفسه ففتحها و شحنها بالأرمن، و سار عنها الى حصن أبى قبيس فأخذه بالأمان و سار الى حصن مصيات. فملكه أيضا و أخربه و سار الى رفيه فأحرقها و سبى أهلها و توجه يحرق و يسبى الى أن بلغ حمص فنزلها و تحصن منها نفر فى كنيسة مار قسطنطين تحرما بها، فلما علم الرؤوس من أهل عسكره أحرقوها، و كانت كنيسة معجزه و حمل نحاسها و رصاصها، و سار الملك الى قرب بعلبك و استصرخ جيش من دمشق الى مصر بكتبه و وصف كثرة الجموع التى للروم فجدت إليه العساكر و كوتب كل وال بالشام بالمسير معه، فساروا حتى اجتمع بدمشق من العساكر كما قال الأنطاكى ما لم يجتمع فيها للإسلام مثله، و رجع ملك الروم عن طريق الساحل و أحرق عرقه و هدم حصنها ثم نزل على طرابلس (٣٨٩) و حاربها برا و بحرا، ثم رحل الى أنطاكيه، و افتتح حصن أبى قبيس بالأمان.

و امتدت ولاية منجوتكين فى إمرة الجيوش الشاميه الى ما بعد سنه ٣٨٦ و كان ظالما جبارا ساءت سيرته فى ولايته دمشق و حمص و كثر ظلمه.

و ولى إمرة دمشق بشاره الإخشيدى من قبل برجوان الخادم الحاكمى (٣٨٨) و كان ولى طبريه قبل أن يلى دمشق مدة سنين. و كان أهل صور قد عصوا (٣٨٧) و أمروا عليهم رجلا ملاحا يعرف بعلاقه. ضرب السكه باسمه و كتب عليها «عز بعد فاقه الأمير علاق» فأرسل عليه الفاطميون أسطولا فاستجار علاق بملك الروم فأنفذ إليه عدده مراكب مشحونه بالرجال و المقاتله، و التقت هذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٥

و ملكوا مركبا من مراكبهم، و قتلوا من فيه و انهزمت بقيه المراكب.

و هكذا استنجد بالروم فى هذه الحقبه أميران على بنى جنسهما و دينهما ليستمتعا بالملك و هما أبو الفضائل فى حلب و علاق بصور.

و كان المفرج بن دغفل قد نزل على الرملة و عاث فسادا فى أرضها، و انضاف الى حادثته و حادثه علاقه نزول الدوقس صاحب الروم فى عسكر كثيف على حصن أفامية، فاصطنع برجوان جيش بن الصمصامة و قدمه، و جهز معه عسكرا و سيره الى دمشق، و بسط يده فى الأموال و نفذ أمره فى الأعمال، و سار جيش بن الصمصامة و نزل على الرملة و عليها وحيد الهلالى واليا فتلقاه طائعا و صادف أبا تميم بها فقبض عليه قبضا جميلا، و ندب الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان فى عسكر الى صور بعد أن كان أنفذ إليها مراكب فى البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساكر بها برا و بحرا و ضعف أهل صور عن القتال و أخذ علاقه فحمل الى مصر فسلخ و صلب بها و أقام ابن حمدان واليا عليها.

و سار جيش بن الصمصامة لقصده مفرج بن دغفل فهرب من بين يديه و عاذ بالصفح فكف جيش عنه، و عاد سائرا الى عساكر الروم النازل على حصن أفامية، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها فى أشرفها و وجوه أحداثها مدعين له بالانقياد، راغبين فى استصحابهم للجهاد، فجزاهم خيرا فأقبل جيش على رؤساء الأحداث و بذل لهم الجميل، و نادى فى البلد برفع المؤن، و إباحة دم كل مغربى يتعرض لفساد، فاجتمعت الرعية و شكروه، و سألوه دخول البلد و النزول بينهم فلم يفعل، ثم سار و نزل بحمص و اجتمعت العساكر و توجه الى حصن أفامية، فوجد أهلها و قد اشتد بهم الحصار، فنزل بإزاء عسكر الروم بينه و بينهم نهر العاصى.

ثم التقى الفريقان من بعد، و كان المسلمون يومئذ فى عشرة آلاف من الطوائف و ألف فارس من بنى كلاب، فحملت الروم على المسلمين فزححوهم عن مصافهم، و انهزمت اليمينه و الميسرة، و استولى الروم على كراعهم و عطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه، و ثبت بشاره الإخشيدى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٦

فى خمسمائة فارس، و رأى من فى حصن أفامية من المسلمين ما أصاب إخوانهم فأيسوا من نفوسهم.

قالوا: و كان الدوقس عظيم الروم فى هذه الوقعة بعد أن تراجع المسلمون على رأسه راية و بين يديه ولداه و عشرة خياله، فقصده أحمد بن الضحاك الكردى على فرس جواد، فظنه عظيم الروم مستأمنا، فلما قاربه طعنه الكردى فقتله فانهمزت الروم و تراجع المسلمون فركبوا أفقيتهم قتلا و أسرا و ألجأوهم الى مضيق فى الجبل و أسروا ولد الدوقس، و حمل الى مصر من رؤوسهم عشرون ألف رأس و ألف أسير.

و عاد جيش الى دمشق فاستقبله أهلها، فخلع على وجوه الأحداث و حملهم على الخيل و البغال، و وهب لهم الجوارى و الغلمان، و عسكر بظاهر البلد و أدخلوا له قرية بيت لها ليكون مقامه بها، و توفر على استعمال العدل و تخفيف الثقل، فاستخص رؤساء الأحداث و استحجج جماعة منهم، ثم أوقع بهم كلهم، و دخل البلد و ثلم السور من كل جانب، و نزلت المغاربة دور دمشق، و ركب جيش فدخل المدينة و طافها، و استغاث الناس به و لاذوا بعفوه، فكف عنهم و استدعى الأشراف استدعاء حسن ظنهم فيه، فلما حضروا أخرج رؤساء الأحداث و أمر بضرب رقابهم بين أيديهم، ثم صلب كل واحد فى محلته. و جرد الى المرج و الغوطة قائدا و أمره بوضع السيف فىمن بها من الأحداث فقال: إنه قتل ألف رجل منهم، حتى إذا فرغ من ذلك كله قبض على الأشراف و حملهم الى مصر و استأصل أموالهم و نعمهم، و وظيف على البلد خمسمائة ألف دينار. و كان عدد من قتلهم ثلاثة آلاف رجل، و احتال للقضاء على هؤلاء الأحداث بأن جعل يبسط الطعام كل يوم لهم و لمن يجيء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل إنسان منهم فى جمع من أصحابه و أشياعه، و أمرهم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا الى حجرة يغسلون أيديهم فيها، و أمر أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها عليهم و يضعوا السيف فى أصحابهم، فلما كان الغد حضروا الطعام، و قام الرؤساء الى الحجرة، فأغلقت الأبواب عليهم و قتل من أصحابهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٧

تولى جيش نيابة دمشق غير مرة، و كان ظالما سفاكا للدماء ظلم الناس كثيرا. قالوا: و عم الناس فى ولايته البلاء من القتل و أخذ المال

حتى لم يبق بيت في دمشق ولا - بظاهاها إلا - امتلاً - من جوره؛ خلا - من كان ظالما يعينه على ظلمه. و ممن ولي دمشق للمصريين و ساءت سيرته ختكين القائد ثم القائد طرملة بن بكار البربري، و كان عبدا أسود، فجار على أهلها كما جار ختكين و ظلمهم و أخذ أموالهم، و فر الى مصر و حمل بعض ما كان معه الى الحاكم، فتمكنت حاله عنده و ولاه دمشق فأقام واليا عليها الى سنة ٣٩٤، ثم صرف عنها بخادم من خدم الحضرة.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٨

تمتة دور الفاطميين «من سنة ٣٩٤ - ٤٦٣»

خوارج و مذاهب جديدة و فتن:

ظهر في أعمال حلب سنة ٣٩٥ رجل اسمه احمد بن الحسين و يعرف بالأصفر تزيا بزى الفقراء و تبعه خلق من العرب و سكان القرى، و صحبه رجل من وجوه العرب يعرف بالجملي، و نازل شيزر و أسرى في جماعة من العرب و غيرهم ممن اجتمع إليه و لقي عسكر الروم و كبس والى أرتاح و سار نحو جسر الحديد يريد أنطاكية، فلقيه في مهرويه على فرسخين من أنطاكية بطريق يقال له بيغاس في عسكر كان معه، فقتل الجملي و انهزم الأصفر الى سروج، و نزل قرية كفر عزون و كانت حصينة، ففتحها العامل الرومي و أسر منها اثني عشر ألف أسير و أخذ غنائم كثيرة، و كان قد اجتمع عرب بنى نمير و بنى كلاب مع وثاب بن جعفر صاحب سروج في زهاء ستة آلاف فارس على الرومي فلقبهم و هزمهم، و توسط لؤلؤ صاحب حلب أن يعتقل الأصفر بقلعة حلب فأخذ و اعتقل، و بقي فيها معتقلا الى أن دخلت حلب في حكم الفاطميين (٤٠٦).

و أمر الحاكم (٤٠٤) باروح التركي الملقب علم الدولة على جيوشه و لقبه أمير الأمراء و ولاه الشام و سيره إليها و حمل باروح معه زوجته و هى ابنة الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس و حملا - معهما أموالهما في قافلة مع التجار، فاعترضهم ظاهر غزاة المفرج بن دغفل بن الجراح و أولاده فأوقع بهم و حاز جميع ما كان معهم و أخذ باروح أسيرا و قتله. و سار ابن الجراح خطط الشام؛ ج ١؛ ص ٢١٩

خطط الشام، ج ١، ص: ٢١٩

الى الرملة و دخلها، و أباح للعرب نهبها و صادر الأموال و أقام الدعوة لأبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة يومئذ و أسماه أمير المؤمنين و لقبه الراشد لدين الله، و ضرب له السكة و استحوذت العرب على جنوب الشام و ملكوه من الفرما الى طبرية و حاصروا حصون السواحل مدة طويلة و لم يمكنهم أخذ شىء منها.

و استدعى ابن الجراح أبا الفتوح الحسنى من مكة فسار الى الشام و وصل الى الرملة و دخلها راكبا فرسا و نزل في دار الإمارة بها، و أنشأ كتابا قرىء على الناس بأن لا يقبل له أحد الأرض، و أن هذا شىء ينفرد به الله عز و جل، و جلب معه أموالا كثيرة من الحجاز فأكلها العرب و حجزوا عليه و أشرف على ضعف أمره. و قد كان الحاكم بذل فيه أموالا جسيمة لحسان بن المفرج فأشار على أبى الفتوح بالرجوع الى طاعة الخليفة العلوى و أوصلوه الى مأمته، فلما عاد الى مكة أقام الدعوة للحاكم على الرسم السالف بعد أن كان أقامها لنفسه، و كتب الى الحاكم يعتذر فقبل عذره و وصله و أحسن إليه.

و حصل الشام فى أيدي بنى الجراح و أقاموا متغلبين عليه الى المحرم سنة أربع و أربعمائه و عظمت مصادرتهم للناس مرة بعد أخرى و عسفهم إياهم، فهرب من النصارى خلق كثير توجهوا الى الروم و قصد أكثرهم اللاذقية و أنطاكية و قطنوهما. استقل ابن الجراح سنتين و خمسة أشهر فى الشام و لم يرسل الحاكم عليه عسكرا، ثم سير القائد على بن فلاح فى جيش كبير جمع فيه معظم رجال مملكته، و كوتبت الجيوش فى دمشق و السواحل بلقائه، و سارت العساكر من الجهتين نحوه فاتفق فى الحال أن مات المفرج بن

دغفل بن الجراح و اتصل بأولاده، قصد العساكر إليهم فذهبوا مع العرب الى البرية و تخلوا عن الرملة و غيرها من الأقاليم التي غلبوا عليها.

ولى الحاكم عهده لأبى القاسم عبد الرحمن بن الياص و جعله الخليفة بعده (٤٠٤) و دعى له على المنابر و نقش اسمه على السكة، و حصل بدمشق و فسح لأهلها فى شرب القهوة و سماع الأغاني فأحبوه و مقته الجند
خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٠

لشحه، و أذاع بعض الدرزية دعوته فى قوم من المسلمين فى وادى التيم، فتجاهر الذين استجابوا لدعوته بمذهبهم، فغزاهم أمير الأكراد ابن تالشيل فقتل منهم و سبى و أحرق و أهلك خلقا. و استشعر ولى العهد بعد ما جرى فى أمرهم إنكار الحاكم ما فعل بهم، و حذر أن يحق عليه بسببهم، فأنفذ صاحبا له يعرف بابن الخرقانى الى حسان بن المفرج بن الجراح ليقرر له معه أن يكون من جهته، فشغب عليه الجند و قتلوا الخرقانى بدمشق و نهبوا دار ولى العهد، فاستغاث بالدمشقيين و الغوطين، فأحاطوا بالقصر الذى ينزله بظاهر دمشق فانتشبت الحرب بينهم و بين الجند و اندفع الدمشقيون عنه و نهب الجند القصر، و كان عند تواصل الأخبار الى الحاكم بعصيان ولى العهد ندب صاعد بن عيسى بن نسطورس للخروج الى الشام، و أعطاه من العدد السلطانية و الآلات الجليلة ما لم يعط لغيره، و تقدمت مكاتبه الحاكم الى ولى العهد يأمره بالحضور الى مصر فبادر بالرحيل و سار العسكر معه الى الرملة و لما أيقن الحاكم امتثاله أمره زالت الشبهة عنه من نفسه، و كتب يرسم له بالرجوع الى دمشق و قلد تقليدا ثانيا.

و ثار بدمشق بعد مسير ولى العهد عنها رجل من أهلها يعرف بمحمد بن أبى طالب الجزار، و اجتمع إليه جمع كثير من أحداثها و من رعاها أهل حوران امتعاضا لولى العهد، و حاربوا الجند، و طرح العسكر النار فى المدينة فأحرقت منها قطعة كبيرة، و لما عرف محمد بن أبى طالب الجزار عودة ولى العهد سار للقائه و اجتمعوا فى لّد و سار محمد بن أبى طالب الى دمشق، و قد اجتمع إليه خلق كثير و دخل دمشق بغتة، و راجع الحرب و استظهر على الجند و أخرجهم من المدينة، و أرسل إليه ولى العهد فى تسكين الفتنة فلم يطعه و قتل قاضى دمشق و تسلط هو و الأحداث عليها، و قتل أيضا جماعة من الناس و نهبهم، و توقاه أهل السلامة و خافوا منه، و غلت الأسعار بقيام الفتنة فاجتمع على الناس الجوع و الحريق و النهب و القتل. و كان محمد بن أبى طالب قد سدّ الباب الشرقى، فوجد الدمشقيون فرصة و فتحوه، و قبضوا عليه و قتلوه و صلبوه على باب الجابية، و قتلوا جمعا ممن كان على رأيه، و استقام أمر دمشق و صلح حال ولى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢١

العهد و أطلق يده فى مصادرة جماعة من الدمشقيين و المتهمين بقيام الفتنة فتكروا عليه و أبغضوه و اجتمع أهل البلد و الجند على كراهيته.

تقسيم الأقاليم بين القبائل و دولة بنى مرداس:

كان لؤلؤ غلام ابن حمدان و ولده منصور بن لؤلؤ قد استوليا على حلب بعد موت أبى الفضائل بن سعد الدولة، و ضيق منصور بن لؤلؤ على ابنى أبى الفضائل فقصدوا الحاكم فى مصر، و هرب أبو الهيجاء بن سعد الدولة من حلب أيضا فى زى النساء و التجأ الى بسيل ملك الروم و مات لؤلؤ فى المحرم سنة ٣٩٩ و آلت الإمارة لولده الصغير منصور بن لؤلؤ، و كرهه كثير من الحلبيين و رغبوا فى أبى الهيجاء، و كذلك أمراء بنى كلاب المدبرون بلد حلب، و سار أبو الهيجاء الى ميفارقين فأنفذ معه حموه ابن مروان صاحبا له فى دون المائتى فارس و سار الى الجزيرة، و لقيه جماعة أمراء بنى كلاب و ضمنوا له أن يعاضدوه، و خافه منصور بن لؤلؤ فاستصلح بنى كلاب و شرط لهم أن يعطيهم الإقطاعات الكثيرة و يجعلهم مساهمين له فى الضياع و الأعمال ظاهر حلب، و استنجد بالمغاربة جيش الفاطميين، فأسرع إليه على بن عبد الواحد بن حيدر قاضى طرابلس فى عسكر منيع، فاتفتت موافاته حلب مع نزول أبى الهيجاء،

فانهزم هذا و ذهب الى القسطنطينية، و مات فيها عند صاحب الروم، و عاد ابن حيدر الى طرابلس، و أقام منصور بن لؤلؤ يخطب لصاحب مصر و لقبه الحاكم مرتضى الدولة، ثم فسد ما بينه و بين الحاكم و عاد الكلابيون يلتمسون من منصور بن لؤلؤ ما شرط. لهم، فحضر منهم زهاء سبعمائة رجل فيهم جميع أمراء بنى كلاب و ذوى الرئاسة و الشجاعة جميعا و أمر ببذل السيف فيهم، و حبس منهم جماعة، و كان فى جملة المحبوسين صالح بن مرداس فتوصل فى الحبس الى أن صعد من السور و ألقى نفسه من أعلى القلعة الى تلها، فسار الى أهله و جمع ألفى فارس و أسر ابن لؤلؤ و قيده بقيده الذى كان فى رجله و لبتة الحديد.

و كان لابن لؤلؤ أخ فنجاء و حفظ المدينة، و بذل ابن لؤلؤ لصالح

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٢

ابن مرداس مائتى ألف دينار فأطلقه على شرط أن يطلق كل أسير عند ابن لؤلؤ من بنى كلاب. و بنو كلاب بطن من عامر بن صعصعة ملكوا حلب و نواحيها، و أول من ملك منهم صالح بن مرداس هذا، و كان لهم فى أيام سيف الدولة بن حمدان شأن، و غزاهم غير مرة بعد أن اصطنعهم و اصطفاهم من بين قبائل العرب.

انقرضت دولة بنى حمدان سنة ٤٠٦ و آخرهم فى حلب المنصور، و قد دامت حكومتهم فى حلب و حماة و حمص و المعرة و أنطاكية زهاء سبعين سنة عزيزة مستقلة فى أولها، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها فى آخرها.

و فى شوال (٤١١) سلم محمد بن خليلد النهراى الى الروم حصن الخوابى فى جبل نهران و مدينة مرقبة على ساحل البحر و كانت خرابا فأحسن إليه بسيل الملك. و تسلم نواب الفاطميين الشام حتى موت الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ ١٠٢١ م) و عندها اجتمع حسان أمير بنى طيء، و صالح بن مرداس أمير بنى كلاب، و سنان بن عليان أمير بنى كلب، فتحالفوا و اتفقوا على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس، و من الرملة الى مصر لحسان، و دمشق لسنان، فقصد صالح حلب و بها رجل يقال له ابن ثعبان يتولى أمرها للمصريين، فسلم أهل البلد لصالح لإحسانه إليهم و لسوء سيرة المصريين معهم، و سلمت القلعة إليه سنة ٤١٤ و ملك من بعلبك الى عانة و أقام بحلب ست سنين.

افتتح حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين مدينة الرملة (٤١٥) و أتى عليها حريقا و نهبا و أسرا. و حاصر سنان بن عليان مدينة دمشق (٤١٦) و جرت بينه و بين أهلها حرب شديدة و خرب داريا و أعمالها.

و بقيت حال الشام على هذا الى سنة ٤١٩ و قد مات سنان بن عليان أمير الكلبيين، و دخل ابن أخيه رافع بن أبى الليل بن عليان الى الظاهر الفاطمى فاصطنعه و عقد له الإمارة على الكلبيين و سير معه عسكريا، و انضافت إليه العساكر المقيمة فى الشام، و اجتذب إليه جماعة من العرب، و قصدوا بأجمعهم حرب حسان بن المفرج بن الجراح و ورد إليه صالح بن مرداس و بنو كلاب لمعاونته، و اتفقا على لقائهم و تصافوا للحرب فى طبرية فى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٣

موضع يعرف بالأقحوانة (٤٢٠) و قتل صالح و مع علم حسان و العرب بقتله انهزموا بأسرهم الى الجبال و قتل منهم جماعة، و لما عرف أصحاب صالح المقيمون فى بعلبك و حمص و صيدا و رنية و حصن ابن عكار قتله تخلوا عن جميعها و استعادها أصحاب السلطان. و استولى نصر و شمال ابنا صالح على حلب و أعمالها و على الرحبة و بالس و منبج.

و كان بأنطاكية عامل للروم فجمع جيشا و سار قاصدا حلب بغير أمر ملكه، فتلطف معه ابنا صالح بعد أن كبست العرب معسكره و قتلت منه جماعة، ثم سار ملك الروم بنفسه (٤٢١) الى غزو حلب و اتصل بحسان ابن الجراح ما عزم عليه ملك الروم من غزو الشام، فأنفذ إليه جماعة من أهله برسالة يقوى بها عزمه على ما هم به و يبذل له الخدمة فى غزاته و المسير بين يدى جيوشه بعشيرته و أصحابه، و أنفذ أيضا نصر و شمال ابنا صالح بن مرداس مع آل جراح ابن عمهما مقلد بن كامل بن مرداس يبذلان مثل ذلك عن نفوسهما و عشيرتهما و أصحابهما، و أن يعطى جميعهم رهائنهم على مناصحتهم إياه، و صحة وفائهم بما بذلوه، و وفد جميعهم الى

الملك فنزل هذا بجيشه على تبيل من بلد أعزاز فطاردهم العرب و انهزم أكثر المقاتلة و ثبت بعضهم و قتل من الفريقين جماعة، و أسرت العرب من الروم المنهزمين عددا كبيرا و عاد الباقون الى معسكرهم، ثم اضطر الملك الى العودة الى دياره، و كان معه جماعة كثيرة من الأرمن فوضعوا أيديهم في النهب و زادت الفتنة، ثم كتب نصر بن صالح الى ملك الروم يستعطفه و يعتذر إليه و يلتمس منه أن بحريه على ما كان أبوه عليه و غيره، ممن ملك حلب مع من تقدمه من أسلافه الملكين الماضيين بسيل و قسطنطين.

قال ابن الأثير: لما خرج ملك الروم بنفسه من القسطنطينية الى الشام هذه المرة كان في ثلاثمائة ألف مقاتل، فلما بلغ قريب حلب نزل على يوم منها، و لحقه عطش شديد فهلك كثير من جيشه عطشا، فعاد و جماعته أدرأجهم. و قيل في عودته: إن جمعا من العرب ليس بالكثير عبر على عسكريه و ظن الروم أنها كبسة فانهمزوا لا يلوون على شيء. و ذكر ابن

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٤

المهذب المعري أن خروج أرمانوس ملك الروم الى حلب في سنة إحدى و عشرين و أربعمائه، و كانوا ستمائة ألف، و معه ملك البلغار و ملك الروس و الألمان و الخزر و الأرمن و البلجيك و الفرنج و غنم المسلمون منهم ما لا يحصى و أسرت جماعة من أولاد ملوكهم. و في قول ابن المهذب نظر. لأن هذا الجيش العظيم و هذه الأمم التي عدها يستحيل أن تسير مع ملك الروم إلا إذا كان دعاهم باسم حماية النصرانية في الأرض المقدسة، و يستحيل أن تقترب منها أو أن تفتحها و في الشام أمامها دول و إمارات. و ملك الروم (٤٢٢) قلعة أفامية، و سبب ملكها أن الظاهر الفاطمي سير الى الشام الدزبري وزيره فملكه، و قصد حسان بن المفرج الطائي، فألح في طلبه فهرب منه و دخل بلد الروم، و لبس خلعة ملكهم و خرج من عنده و على رأسه علم فيه صليب، و معه عسكري كثير، فسار الى أفامية فكبسها و غنم ما فيها و سبى أهلها و أسرهم.

و في سنة ٤٢٣ اجتمع في جبل السماق جماعة من الدرزية و جاهروا بمذهبهم و أخربوا المساجد، و تحصن دعواتهم و كثير من عوامهم في مغاور شاهقة منيعة، و قصدهم و انضوى إليهم خلق كثير من أهل نحلته، و توفر عددهم و استضاموا المسلمين المجاورين لهم من أهل بلدان حلب، و وعدوا أنفسهم و أطمعوا عوامهم بقوة أيديهم و كثرة استيلائهم على الأعمال القريبة و البعيدة. فرأى قطبان أنطاكية مبادرتهم قبل تفاقم أمرهم و تخطيطهم الى الفساد و العيث، و رسم لمن يجاورهم من طراخته قصدهم برجاله و أصحابهم، فتلفوا في أن قبضوا على دعواتهم و أمثالهم و قتلوهم، و حاصروا باقيهم في تلك المغاور، فنصبوا عليها القتال اثنين و عشرين يوما الى أن التمسوا الأمان و خرجوا منها هاربين، و تتبع الروم المسلمين في أعمالهم و أخذوهم و اضمحلوا و دثروا. و هذه ثاني وقعة للدروز في الشام و الوقعة الأولى في وادي التيم بعد قيام دعوتهم على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٥

و كان الحاكم هذا في جملة تحكوماته الباردة على سكان مملكته أن أمر بهدم الكنائس، فهدم كنيسة في دمشق و كنيسة القيامة بالقدس و غيرها من الكنائس العظمى، و نقض بعض الكنائس بيده، و أمر بأن تعمر مساجد للمسلمين، و أمر بالنداء: من أراد الإسلام فليسلم. و من أراد الانتقال الى الروم كان آمنا الى أن يخرج، و من أراد المقام على أن يلتزم ما شرط عليه فليقم. و بعد أن مضى الحاكم لسبيله اشترط ملك الروم على الظاهر (٤٢٤) في الهدنة التي عقدها معه أن يعمر الملك كنيسة القيامة بيت المقدس و يجددها من ماله و يصير بطيركا على بيت المقدس، و أن تعمر النصراني جميع الكنائس الخراب التي في مملكة الظاهر.

بقي شبل الدولة مالكا لحلب الى سنة ٤٢٩، فأرسل إليه أنوشتكين الدزبري العساكر المصرية، فلقبهم عند حماة فقتل في المعركة، و ملك الدزبري حلب، و صفت له الشام بأجمعها، و أباد المفسدين و مهد الأمور، حتى أمنت السبل، و عظم أمره و كثر ماله، و أرسل يستدعي الجند الأتراك، فبلغ المصريين أنه عازم على العصيان فتقدموا الى أهل الشام بالخروج عن طاعته ففعلوا، فقصد حماة فعصى عليه أهلها، فكتب محمد ابن منقذ الكفرطابي فحضر إليه في نحو ألفي رجل فاحتفى به و سار الى حلب (٤٣٣) و توفي بعد شهر واحد. و كان أنوشتكين نائب الشام للمستنصر، شجاعا مقداما، عظيم الهيبة، حسن السياسة، طرد الأعراب من الشام، و أباد المفسدين و

مهد أحوال القطر وفسد بموته الشام و زال النظام، و خرجت العرب في الأقاليم، فخرج أبو علوان شمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة و جاء حلب فملكها تسليما من أهلها، و سار (٤٤٠) ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق و شجاع الدولة جعفر بن كلشيد والى حمص بجماعة من الجند و قبائل العربان من الكلابيين و غيرهم الى حلب، لقتال متوليها شمال بن صالح بن مرداس، فخرج أهل حلب فهزمهم و اختنق بالنهر منهم جماعة فرجع بغير طائل، ثم قلد قطز الصقلبي دمشق و قبض على ابن حمدان و صادره و اعتقله بصور ثم بالرملة، و قبض على

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٦

راشد بن سنان أمير بني كلاب و حمله الى صور فاعتقله بها، و خرج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو ثلاثين ألفا بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام و محاربة بني مرداس، فحاربه الحلييون فانهمز المصريون و أسر رفق و مات في حلب. قال ابن ميسر: و تقدم المستنصر الى جميع ولاية الشام بالانقياد لرفق، فوافى بالرملة رسول ملك القسطنطينية واصلا بالصلح بين المستنصر و بني مرداس فقتل رفق، و جرت بالرملة و دمشق أمور آلت الى حرب بين العسكر مدة أيام بباب توما من دمشق. و جهز شمال الى معرة النعمان واليا أساء التدبير فانحرف عنه القوم و آل أمره الى الهرب، فبادر جعفر أمير حمص و تجهز الى المعرة بنفسه و لقيه مقلد بن كامل بن مرداس فأوقع به و قتله و شهر رأسه بحلب. و حصر شمال امرأة الدزبري و أصحابه بالقلعة أحد عشر شهرا و ملكها سنة ٤٣٤.

و كان شمال جمع للمصريين خمسة آلاف فارس و راجل فقاتلهم ثلاثة أيام، فلما رأى المصريون صبر شمال و كانوا ظنوا أن أحدا لا يقوم بين أيديهم، رحلوا عن المدينة. و السبب في قتال شمال أنه كان قرر على نفسه أن يحمل كل سنة عشرين ألف دينار عما في يده و يد عشيرته الى صاحب مصر، فتأخر الحمل سنتين. ثم أرسل الهدايا الى المصريين و أصلح أمره معهم، و نزل لهم عن حلب فانفذوا إليها الحسن بن علي ابن ملهم فتسلمها من شمال سنة ٤٤٩ بعد حروب طويلة.

و في سنة ٤٤٦ نقض الروم الهدنة مع الخليفة الفاطمي و كانوا تعهدوا بأن يطلقوا له أربعمائة ألف أردب من الغلال بسبب الغلاء في مصر، و لم يوفوا بالعهد، فجهز المستنصر عسكرا قدام عليه ابن ملهم لقصد اللاذقية، فخرج في عساكر جمه و حاصرها و أتبعهم بعسكر ثان و عسكر ثالث، و نودي في الشام بالغزو الى الروم، و حاصر ابن ملهم قسطنون بالقرب من أفامية، و ضيق على أهله، و جال في أعمال أنطاكية و نهبها و سبي منها.

و في سنة ٤٤٧ سير المستنصر فقبض على جميع ما في كنيسة القيامة بالقدس، لأن صاحب الروم أذن لرسول طغرل بك السلجوقي أن يصلى في

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٧

جامع القسطنطينية، فخطب للقائم العباسي، فغضب الخليفة الفاطمي.

قال ابن ميسر: و كان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين و الروم. و في هذه السنة تجمع كثير من التركمان بحلب و غيرها، فأفسدوا في أعمال الشام.

حدثت فتنة بين بعض السودان و أحداث حلب، فسمع ابن ملهم أن بعض الأحداث من سكانها قد كاتب محمود بن شبل الدولة ليسلموا إليه البلد، فقبض على جماعة منهم فاجتمع أهلها، و راسلوا محمودا و هو منهم على مسيرة يوم يستدعونه، و حصروا ابن ملهم، فسيرت مصر ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق لقتال من بها لأجل قطع خطبة المستنصر، فلما قارب البلدة خرج محمود عن حلب الى البرية، و اختفى الأحداث جميعهم، و لم يمكن ناصر الدولة أصحابه من دخول حلب و نهبها، و سار في طلب محمود فالتقى بالفيديق، فانهمز أصحاب ابن حمدان و ثبت هو فخرج و حمل الى محمود أسيرا، فأخذه و سار الى حلب فملكها و ملك القلعة في سنة ٤٥٢ فجهز المصريون شمال بن صالح الى ابن أخيه، فحصره في حلب، فاستنجد محمود خاله منيع بن شبيب النميري صاحب حران، فجاء

إليه، فلما بلغ شمالا مجيؤه سار عن حلب الى البرية (٤٥٣) و عاد منبع الى حران، فعاد شمال الى حلب و خرج إليه محمود ابن أخيه، فاقتتلوا و قاتل محمود قتالا شديدا، ثم انهزم محمود، فمضى الى أخواله بنى نمير بحران. و تسلم شمال حلب و خرج الى الروم فغزاهم. و ذكر ابن ميسر:

أن البازورى وزير مصر سير أموال الدولة جميعها لفتح بغداد، و كان ذلك سببا لخروج الغز الى الشام و ملكهم إياه. و قال فى حوادث سنة ٤٥١ إن حادثة قتل البساسيرى و قطع خطبة المستنصر من بغداد و إعادتها للقائم، كانت آخر سعادة الدولة المصرية، فإن الشام خرجت من أيديهم بعدها بقليل و لم يبق لهم سوى ملك مصر.

و لما توفى شمال (٤٥٤) أوصى بحلب لابن أخيه عطية بن صالح فملكها، و نزل به قوم من التركمان فقوى بهم، فأشار أصحابه بقتلهم فأمر أهل البلد بذلك، فقتلوا منهم جماعة و نجا الباقون، فقصدوا محمودا بحرّان،

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٨

و اجتمعوا معه على حصار حلب فحصرها و ملكها. و فى سنة ٤٥٥ ندب بدر الجمالى لولاية دمشق على حربها و ندب معه على الخراج أبو الحسين الزيدى، و لم يلبث بدر أن انصرف عن ولاية دمشق هربا من أهلها، فولى المستنصر عليها حصن الدولة حيدرة، ثم ولاه الشام بأسره (٤٥٨).

و فى سنة ٤٥٩ بعث المستنصر الى محمود بن الروقلىة المتغلب على حلب يطالبه بحمل المال و غزو الروم و صرف ابن خاقان و من معه من الغز فلم يجبه و قال: إنه لا مال له و أنه هادن الروم و أعطى ولده رهينة على مال اقترضه منهم فندب المستنصر بدرا الجمالى الى محاربتة فدخل ابن عمار صاحب طرابلس بينهما و أصلح الحال. و فى سنة ٤٦٠ كانت حرب بدمشق بين أمير الجيوش و بين عسكريته.

و فى سنة ٤٦١ وقع الخلف بدمشق بين العسكريه و بين أهلها و طرحت النار فى جانب منها فاحترقت، و اتصل الحريق بالمسجد الجامع من غريبه و لم يبق منه إلا حيطانه الأربعة. و استولى فى هذه السنة على دمشق معلى ابن حيدرة الكتامى من غير أن يؤمر له بذلك عند خلو دمشق من متول بعد ما هرب أمير الجيوش بدر الأرمنى، فأساء السيرة فى أهلها و صادرهم و بسط العقوبة عليهم، الى أن خربت أعمال البلد و جلا كثير من أهلها، و وقعت بينه و بين حامية البلد و حشّة خاف منهم على نفسه فهرب الى بانياس فصور فطرابلس فأخذ و اعتقل و مات من الضرب.

و فى سنة ٤٦٣ استولى القفى على دمشق و طرد نواب أمير الجيوش و استولى على صور ابن أبى عقيل، و على طرابلس قاضيها ابن عمار، و على الرملة و الساحل ابن حمدان، و لم يبق غير عكا و صور، و نزل هذه السنة أمير الجيوش فى العسكر المصرى على صور محاصرا لابن أبى عقيل القاضى الغالب عليه، فاستنجد هذا الأمير ترلو مقدم الأتراك بالشام، فأنجده بستة آلاف فارس، فرحل عنها أمير الجيوش ثم عاودها و حاصرها من البر و البحر سنة بدون طائل. و فتح الروم منبج و أحرقوها و بقيت معهم سبع سنين.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٢٩

آخرة الفاطميين:

كان على حلب عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فاتك الوحيدى، و قد استفحل أمره و عظم شأنه و حدث نفسه بالعصيان، فلاطفته ست الملك عمه الظاهر لإعزاز دين الله و كفيّته، و هى التى قامت بتدبير مملكة الفاطميين بعد مهلك الحاكم، و ساست الناس أحسن سياسة أربع سنين، أعادت الملك فيها الى غضارته و عمرت الخزائن بالأموال و اصطنعت الرجال - فلاطفته و بعثت إليه بالخلع و الخيل بمراكب الذهب و غيرها، و لم تزل تعمل عليه حتى أفسدت غلاما له يقال له بدر فقتله و حفظ الخزائن و وهبت له جميع ما خلفه و قلدته حلب. و لو لم يقبض الله لمملك الفاطميين مثل هذه السيدة بعد الأحوال التى تمت على عهد الحاكم لكان الانقراض

الى دولتهم قريبا جدا. ثم جاء ابنه الظاهر لإعزاز دين الله و كان حسن السيرة فرجع أيدي المتغلبين على الملك، المتوثبين على سلطان الفواطم، و استقام له الأمر مدة. أما أيام الخليفة المستنصر بالله خامس خلفائهم الذي بقى فى الخلافة ستين سنة و أربعة أشهر فقد كانت على هذا المنوال من التسرع فى نصب العمال و صرفهم و الشام تشكو و تن، و البؤس أكثر من السعادة، و المتغلبة منذ الثلث الأول من القرن الرابع كل يوم فى شأن، تارة يقوم فيها مثل سيف الدولة الذى كان يلبس على علاقته، و تارة يقوم ابنه و مملوكه يستنجدان بالروم على المسلمين. و يرضيان بإعطاء الجزية لهم، و يدلانهم على عورات الجيران، بعد أن كان مؤسس دولتهم سيف الدولة يقاتلهم، و يظهر لهم من الشمم حتى يوم هزيمته ما يبيض وجه العرب و المسلمين.

كان الفاطميون زمن المعز و العزيز على جانب من القوة، فتح المعز مصر فدخلها من الغرب فى مئة و قيل فى مئة و أربعين ألف مقاتل، و استكثر من العساكر من كتامة و روم و صقالبة و بربر و مغاربة، حتى قيل لم يظأ الأرض بعد جيوش الإسكندر بن فيليس الرومى الكبير أكثر من جيوش المعز الفاطمى، و ربما فاقت بعددها الجيوش التى جمعها أبو الجيش خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٠

خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر و الشام فى القرن الثالث.

فبمثل هذه الجيوش استقام أمر الفاطميين لأول عهدهم فى مصر و الشام، فحكموا الى الفرات و مكة و المدينة و القدس و الخليل و صارت مصر و المغرب مملكة واحدة، و الخلفاء من بنى العباس يحكمون من الفرات الى بغداد و أعمالها الى سائر المشرق، و يخطب لكل خليفة منهما فى الجهات التى تحت حكمه باسمه فقط، و لما ضعف أمرهم أصبح يحكم دمشق حمال التراب، و يحكم صورا الملاح، و ثلاثة من البدو يتقاسمون ملك الشام، و العباسيون فى الشرق و الفاطميون فى الجنوب لا يبذون و لا يعيدون، و عندهم القواد و الأجناد، و للأحداث أى فتیان العامة فى حلب و دمشق القول الفصل، يرفعون و يضعون، و يتحكمون و يعثون بالناس و أموالهم، و يا بؤس بلاد يكون القول الفصل فيها لفوضى العامة.

كان حكام الشام يأتونها من الحجاز و العراق، فأصبحوا يكتسحونها فى هذه الأعصار من مصر و الشمال، و كان العمال و القواد عربا من بنى أمية و بنى هاشم و من والاهم، فصاروا مزيجا من العجم و التركمان، و كلهم سواء فى ارتكاب المظالم و المغارم، متى قوى سلطان الجار يهاجم جاره، فتظل دماء الأبرياء على غير طائل. و لم تستقر المملكة على حالة معينة بضع سنين فكانت العوامل الجنسية و المذهبية تتنازعها و أهلها، و بعد أن كانت الشام فى القرن الأول و ثلث القرن الثانى مصدر الحياة العربية، و منبعث القوة الحربية، أمست فى القرون التالية أعبوة أهواء الدخلاء، و طعمه الطامعين من أهل البوادي و من جرت عليهم أحكام الرقيق من العبيد و البرابرة، و بعد أن كان للعصبيات فيها شأن فى القرنين الأولين أصبحت فى القرون الثلاثة التالية ضعيفة ضئيلة، لا يتعدى تأثيرها المصالح الخاصة، و لا يفكر القائمون بها فى غير السلب و الاعتداء.

إن تسامح العباسيين بإدخال أهل غير عصبيتهم فيهم أدى الى انتشار كلمتهم و تمزيق جامعهم، و ما كل القواد و العمال كإبراهيم بن المهدي و جعفر بن يحيى و طاهر بن الحسين و عبد الله بن طاهر. و لا كل المتوثبين على الملك فى عقلهم و سياستهم كأحمد بن طولون و سيف الدولة بن حمدان.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣١

دثرت تلك الطبقة الممتازة المختارة، و خلف من بعدها خلف من القواد و الرجال ليسوا فى الأكثر على شىء من حسن السياسة و الإدارة. إذا كان لهم جيش عظيم رهبهم الناس، و إلا- فالحكم للصعاليك و السلبة، و هم أول الطامعين فى السلطان، العاملين على نقض بنیان الأوطان، و الناس بين مظلوم و ظالم، و متخوف و مخيف. و المنافسة بين الأمراء على أشد حالاتها، و الشام مقسم الأجزاء بين كثيرين فى سياسته الداخلية و الخارجية، مصر من الجنوب تشده، و بغداد من الشرق تريد أن تسترده، و الطامعون فيه من الترك و التركمان و الروم و القرامطة و العبيد و الخدم و المماليك يسطون عليه فيدمرون عمرانه، و يهلكون أهله و سكانه، و الناس فى الواقع

لا يعرفون لهم سيدا معينا لتفرق قلوبهم، و تباين منازلهم.

و صاحب حمص غير صاحب حلب، و صاحب دمشق غير صاحب صور أو الرملة، مملكة هذا حالها تموت بحكم الطبيعة، و لا تستريح من الغوائل نحال. و الجسم يعيش بروح واحد و تعدد الأرواح يستلزم تعدد الأجسام.

بعد أن قتل القرامطة الباطنية أهل مدن برمتها من هذا القطر استنجد أهل أعظم مدينة فيه بهم، فوافوا يجوسون خلال ديارهم لينقذوها من دولة الفاطميين المسلمين، و بعد أن ثبت أن الروم هم أعداء الشام بلا مرأ، أصبح أمراؤه يستغيثون بهم على أبناء ملتهم ليصفو لهم ملكهم الذي يريدون أن يعيشوا فيه قيد الأسر لعدوهم الخارجي، و يستكثروا من القصور و الجوارى و المماليك و الحاشية و الغاشية ليكون كل صاحب مقاطعة في أهته كخليفة الوقت و زيادة. يسلبون نعمة الرعية لينعموا بما سلبوا، كمن يحاول نقض أساس بيته، يجمّل خارجه بإطار جميل، أو يذهب شرفته و جدرانه. و بينما كان العزيز الفاطمي يبثّ دعائه لنشر التشيع في الأقطار التي انضوت الى علمه، و يقتل هو و آله علماء المالكية لتشددهم في التسنن، كان جمهور المسلمين غاضبين في مصر و الشام لأنه و سد الأمر بمصر لرجل من الأقباط اسمه نسطورس، و قلد أموال الشام لإسرائيلى اسمه منشا يجمعان الأموال، يوليان أبناء نحلتهما الأعمال، و يعدلان عن الكتاب و المتصرفين من المسلمين، فعمد بعضهم في القاهرة الى مبخرة

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٢

من حديد و ألبسها ثياب النساء و زينها بإزار و شعريه، و جعل في يدها قصة على جريدة، و كتب فيها رقعة ليراها العزيز عند مروره و هي:

«بالذى أعز جميع النصارى بنسطورس و أعز جميع اليهود بمنشا و أذل جميع المسلمين بك إلا- ما رحمتهم و أزحت عنهم هذه المظالم» فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس بالعمو. فحمل الى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، و أعاده الى ما كان ناظرا فيه و شرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه و أعماله. أما منشا فقتل اذ لم يستشفع فيه أحد. تناقض في التسامح غريب في بابه، و أصول في الإدارة لم يلاحظ فيها نزع العلة التي يشتكى منها، بل كان ينظر فيها لمنفعة الخزانة، أما الرعايا فأمرهم لله، و حسابهم على سواه.

و لقد جاء في الفاطميين وزراء عقلاء مثل الوزير ابن كلس المتوفى سنة ٣٨٠ الذى نصح للعزيز في مرض موته بقوله: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك، و اقنع من الحمدانية بالدعوة و السكة، و لا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة» و كان ذلك غاية الغاية في سياسة الملك لأن الروم أمة قوية عزيزة لا تخنع لجيرانها خلفاء مصر و لا لخلفاء بغداد، و هي تراهم مختلفة كلمتهم جد الاختلاف متعيين في داخلتهم، مشتغلين بالمنتقضين على سلطانهم، فقد أجاب العزيز الروم سنة ٣٧٧ الى الصلح و اشترط شروطا شديدة التزموا فيها كلها. منها أنهم يحلفون أنه لا يبقى في مملكتهم أسير إلا أطلقوه، و أن يخطب للعزيز في جامع قسطنطينية كل جمعة، و هادتهم سبع سنين. أما الدولة الحمدانية فإنه على ما يظهر لم يعجل انقراضها إلا اعتصامها في آخر أمرها بالروم، و نفصها يديها من طاعة العباسيين و طاعة الفاطميين معا، فاستهان بها عدوها و صديقها، و دب الفساد و دخلت الدسائس و كان في ذلك زوالها، و أما المفرج بن دغفل أمير بنى طيء و سائر العرب بأرض فلسطين، فإنه كان عدوا لدودا للفاطميين، قريبا من دار ملكهم يهددهم كل يوم، و ربما استطاع أن يستنجد بملوك الشرق على نقض عرى الملك الفاطمي. فهو بدوى و الأعراب أى البادية ما دخلوا بلدا إلا أسرع إليه

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٣

الخراب، و قيام الملك يحتاج الى حسن تدبير و تقدير أكثر من البطش و الجبرية، و لذلك لم تتم لأمر بنى طيء في الجنوب، و لا لبنى مرداس الكلابيين في الشمال دولة تعاقبت عليها بطون كثيرة في الشام و كيف كان حال هذه الدول فإن قاعدة الحكيم ابن خلدون في أن للدول أعمارا طبيعية كالأشخاص لا تنتقض في الدول التي يحكمها الأفراد حكما استبداديا، و سعادة الدولة لا تدوم كالأفراد أكثر من أربعة بطون: الأول يفتح و يجمع، و الثانى ينظم و يرتب، و الثالث ينعم و يتمتع، و الرابع يفرق و يخرب، تعالى الله.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٤

دور السلجوقيين «من سنة ٤٦٣ - ٤٩٠»

أصل السلجوقيين و التركمان و الفتح السلجوقى:

كانت الشام فى معظم دور الفاطميين ككرة الصوالجئة تتقاذفها القوات المختلفة. و قد قام الفاطميون بعقب انقراض الدولة الإخشيدية فى مصر، و ورثوا تراثهم فى قسم من هذه الديار، ثم انقضت دولة الحمدانيين فى الشمال، و كانت فى آخر أمرها تفرغ الى دولة الروم البيزنطية لتحميها بأس خلفاء المصريين من بنى عبيد. و قامت دولة بنى مرداس و دولة بنى الجراح و دولة بنى سنان أى دول بنى كلاب و الطائيين و بنى كلب الى غيرهم من الدول الجديرات بأن يطلق على القائمين بها خوارج على الفاطميين، و كلهم أمراء عرب البادية أخضعوا المدن لسلطانهم مدة، و كان قيامهم دليلا على ضعف الدولة و سوء سياسة عمالها.

انقضى عهد الفاطميين أو كاد و كانت معظم أيامهم فتوحا و فتوقا، و لم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة، بل كان إذا خضع الساحل خاصم الداخل، و إذا أطاع الجنوب نشز الشمال. و هكذا كان الشقاء فى أيامهم أكثر من السعادة، و الأهواء مشتتة، و الآراء ممزقة، و لئن كان أول خلفائهم ممن ملك الشام المعز ثم العزيز يجبان العدل و الإنصاف، و لهما من الحزم قسط وافر، إلا أن الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما أيضا كانوا فى الأكثر ظلمة يسفكون الدماء و يستحلون أموال الرعية. فخرّب القطر

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٥

فى أيامهما و ضعف أهله و غلت الأسعار و لا- سيما على عهد العزيز، و كانا يبادران حالا الى إبدال العمال مخافة أن ينزعوا الى العصيان. أما عهد الحاكم فكان الخلل المطلق، لخلل فى عقله و خرق فى سياسته، و كانت الشام بعده تختلف باختلاف العامل الذى ترسله مصر.

و بينا القطر متقلقل فى سياسته أقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها. قوة الدولة السلجوقية التركمانية الجديدة جاءت لتقضى على الدولة الفاطمية العربية التى نزل بها الهرم أو كاد. و السلجوقيون نسبة لسلجوق من صغار أمراء الترك فى أرجاء بخارى، يقسمون الى ثلاثة فروع، فرع العجم و هذا الذى استولى على العراق و الجزيرة، ثم على الشام و الحجاز و اليمن، و فرع الروم أى آسيا الصغرى، و فرع كرمان. و التركمان قبائل كانت لأول أمرها تنزل بين بحيرة آرال و بحر الخزر، و هم من أول الأتراك الذين دانوا بالإسلام و خدموا بنى العباس، هاجروا الى فارس و العراق و آسيا الصغرى. و هم أصل الترك العثمانيين سكان الأناضول، و أعظم الشعوب التركية. و الفرق طيف بين لسانهم و لسان اويغور أى الجغتاي. و تنقسم الألسنة التركية الى خمسة أقسام و هى الجغتاي أو اويغور و النوغاي أى التترى و القرغيز و الياقوت و اللسان العثماني. فإذا أطلق اسم الترك فالمقصود منه الجنس الجامع لهذه الشعوب الخمسة، و إذا قيل التركمان أريد به أعظم شعب فى الترك، و كلا- الإطلاقيين جائز. و التركمان على جانب عظيم من الشجاعة و الفروسية، أظهروا من الجلادة منذ وطئوا هذا القطر ما خلدوا به أعظم المفاخر، و أسسوا فى الشام حكومات منها المحمود، و منها دون ذلك.

لما سار السلطان آلب أرسلان ثانى ملوك السلجوقيين بجيوشه الى الشام، كانت مملكته تمتد الى الصين شرقا، و من أقصى ديار الإسلام شمالا، الى أقصى اليمن جنوبا، و جاء الى حلب و أقام الحصار عليها و عظم القتال بين عساكره و حاميه حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ثم استسلم هذا و خلع عليه السلطان آلب أرسلان، و أعاده الى بلده فبعث إليه مالا جزيلًا. و فى تلك السنة (٤٦٣) قطع خطبة المستنصر العلوى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٦

و خطب للقائم العباسى، و بدأ ظل الدولة الفاطمية يتقلص، و كان الحامل لآلب أرسلان على فتح الشام أن ناصر الدولة بن حمدان

الحاكم المتحكم في الدولة المصرية أرسل يسأله أن يسير له عسكريا من قبله ليقوم الدعوة العباسية و تكون مصر له، فتجهز آلب أرسلان من خراسان في عساكر جمعة، و كان جيشه فيما قيل لا يقل عن أربعمئة ألف. و خلف آلب أرسلان في الشام طائفة من عسكريه فجمع أوتسز بن اوق من أمراء السلجوقيين الأتراك الغز، و سار الى فلسطين ففتح الرملة، و سار منها الى بيت المقدس و حصره، و فيه عسكري المصريين ففتحه، و ملك ما يجاوره ما عدا عسقلان، و قصد دمشق فحصرها و تابع نهب أعمالها حتى خربها و قطع الميرة عنها، فضاقت الأمر بسكانها فصبوا و لم يمكنه من ملك البلد فعاد عنه، و أدام قصد أعماله و تخريبها كل سنة حتى قُلت الأوقات عندهم، فكان يأخذ الغلات عند إدراكها فيقوى بها هو و عسكريه و يضعف أهل دمشق و جندها.

و لما ملك السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان (٤٦٥) سير أخاه تاج الدولة تتش الى الشام، و قرر معه فتح ديار مصر و المغرب و استخلاصهما من العلويين، و أمر مملوكيه بزان صاحب الزهنا و آق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض. و كان ملكشاه الملقب بالسلطان العادل و أبوه آلب أرسلان من قبل المثل السائر في آل سلجوق بعدلها، و لم يكن للخليفة العباسي معها سلطان في الحقيقة، على نحو ما كان العباسيون في الدهر السالف مع سلاطين بني بويه الأعاجم. عرفت الشام ذلك و كان مما يفتح القلوب لحكم السلجوقيين أنهم من أهل السنة يخطبون باسم بني العباس. و جميع هذه المزاي كانت مفقودة في الدولة العلوية المصرية.

فتح دمشق:

و في سنة ٤٦٧ حاصر السلاجقة ثغر عكا و قتلوا واليها و ساروا عنها الى طبرية، و سار أوتسز الى دمشق فحصرها و أميرها المعلى بن حيدرة من قبل الخليفة المستنصر و لم يقدر عليها فانصرف عنها، و كان المعلى أساء

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٧

السيرة مع الجند و الرعية و ظلمهم، فكثرت الدعاء عليه و ثار به العسكري، و أعانهم العامة فهرب منها، فخربت دمشق و أعمالها و جلا عنها أهلها، و هان عليهم مفارقة أملاكهم و سلوهم عن أوطانهم، بما عانوه من ظلمه، و خلت الأماكن من قاطنيها، و الغوطة من فلاحيها. و لما رحل المعلى عن دمشق اجتمعت المصامدة الفاطميون و ولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي و غلت بها الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضا، و وقع الخلاف بين المصامدة و أحداث البلد، و عرف أوتسز ذلك فعاد الى دمشق فحصرها، فعدمت القوات و بيعت غرارة القمح إذا وجدت بأكثر من عشرين دينارا، فسلموها إليه بالأمان و خطب بها للخليفة العباسي، و كان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين. و تغلب على أكثر الشام و منع الأذان بحى على خير العمل، ففرح أهلها فرحا عظيما، و ظلم أهلها و أساء السيرة فيهم.

قال ابن عساكر: إن أوتسز التركماني لما دخل دمشق و كان حاصرها دفعات، أنزل جنوده دور الدمشقيين، و اعتقل من وجوههم جماعة، و شمسهم بمرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له، و رحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس الى أن أريحوا منه بعد. و قال ابن الأكفاني:

نزل أوتسز محاصرا لدمشق ثم انصرف عنها، ثم عاد الى منازلها، ثم رحل عنها، ثم رجع إليها فحاصرها، ثم إنه فتح البلد صلحا، و دخلها هو و عسكريه سنة ٤٦٨ و سكن دار الإمارة و خطب بها للمقتدى العباسي، و كتب إليه يذكر له تسليمها إليه، و غلو الأسعار بها، و موت أهلها، و أن غرارة القمح بيعت بمائتي دينار مما لم يعهد مثله. و أن أوتسز نظر في أمور دمشق بما يعود بصلاح أعمالها، و أطلق لفلاحى المريج و الغوطة الغلات للزراعات فصلحت الأحوال و رخصت الأسعار.

و لما فتح أوتسز دمشق و أقام الخطبة العباسية طمعت نفسه في ملك مصر، فسار (٤٦٩) من دمشق فيمن استطاع من الأحداث و الجند و

رجع خائباً بعد أن قتل من جنده جملة كثيرة جداً، ثم أقام بدمشق و جاءه التركمان من الروم و لم يستخدم غيرهم، و عصى عليه الشام و أعيدت خطبة صاحب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٨

مصر في جميع الشام، قام بذلك المصامدة و السودان. و كان أتسز و أصحابه تركوا أموالهم بالقدس، فوثب القاضي و الشهود و من بالقدس على أموالهم و نسائهم فنهوها و استعبدوا الأحرار، فخرج من دمشق فيمن انضوى إليه، و دخل القدس فقتل ثلاثة آلاف إنسان، و احتفى قوم بالصخرة و الجامع فقرر عليهم الأموال لأنه لم يقتلهم و أخذ مالا كثيراً، و سار الى الرملة فلم ير فيها من أهلها أحداً، فجاء الى غزة و قتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف، و جاء الى العريش فأقام فيه و بعث سرية فنهبت الريف و عادت، ثم مضى الى يافا فحصرها و هدم سورها، ثم عاد الى دمشق و لم يبق من أهلها عشر العشر من الجوع و الفاقة، بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الوباء و الغلاء و الجلاء. و كان بها مائتان و أربعون خبازا فصار بها خبازان و الأسواق خالية، و الدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد، و الدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار، و أكلت الكلاب و السنابير و الفيران، و كان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم و يشوونهم.

و عاد الفاطميون يحاولون فتح دمشق و عليهم ناصر الدولة الجيوشي فحاصروها مدة (٤٧١) و ترحلوا، ثم حاصروها مرة ثانية و استولوا على أعمالها و أعمال فلسطين، فاضطر صاحبها أتسز الى الاستنصار بتاج الدولة، فلما عرف ناصر الدولة الخبر رحل عن دمشق و قصد الساحل. و كان ثغرا صور و طرابلس في أيدي قاضييهما قد تغلبا عليهما، و لا طاعة عندهما لأمر الجيوش الفاطمي، و يصانعان الأتراك بالهدايا و الألفاظ. و وصل تاج الدولة الى عذراء في عسكره لإنجاد دمشق فخرج أتسز إليه و خدمه ثم قبض عليه و قتله و ملك تاج الدولة دمشق، و استقام له الأمر و أحسن السيرة في أهلها بالصد من فعل أتسز و ملك أعمال فلسطين، ثم قصد حلب و ملك حصن بزاعة (٤٧٠) و قتل جميع من فيه، و ملك البيرة و أحرق ربح عزاز و غيرها من الحصون مع ما غلب عليه من القلاع المجاورة.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٣٩

أول جمهورية عربية و مقتل آخر أمير عربي:

و في سنة ٤٧٢ انقضت دولة بني مرداس بحلب، و كان قصدها تتش ابن آلب أرسلان فحاصرها أربعة أشهر و نصفها، ثم رحل عنها فنازلها مسلم ابن قريش صاحب الموصل، و تعهد لملكشاه السلجوقي أن يحمل إليه كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فكتب له تقليداً، و عادت رياستها شورى في مشيختها و طاعتهم لمسلم بن قريش. و معنى أن حلب أصبحت رياستها شورى في مشيختها أن الحلبيين لما نفصوا أيديهم من حام يحمي بلدهم ألفوا جمهورية من شيوخهم أدارت شؤونهم زمناً، و جعلوا ملكهم صاحب الموصل.

و ذكر المؤرخون أن الحلبيين أحسنوا في هذه الحكومة و لم يختلفوا و نفذت قواعد العدل و ستقر الأمر في نصابه. و سبب ميل الحلبيين الى مسلم بن قريش أن تتش بن آلب أرسلان حصر مدينتهم المرة بعد المرة و اشتد عليها الحصار، فكان ابن قريش يواصلهم بالغلات و غيرها، و لما دخلها حصر القلعة و استنزل منها سابقاً و وثابا ابني محمود بن مرداس، و أنفذ الى السلطان يخبره بملك البلد، و أنفذ مع الرسول شهادة فيها خطوط المعدلين بحلب بضماتها، و سأل أن يقرر عليه الضمان، فأجاب السلطان الى ما طلب. و في سنة ٤٧٣ ملك جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس و صاحبها حصن جبله. و كان ابن عمار غلب على تلك الأصقاع سنين و عجز والي الفاطميين بدر الجمالي عن مقاومته.

و في سنة ٤٧٥ جمع تاج الدولة تتش جمعا كثيراً و سار عن بغداد و قصد بلاد الروم أنطاكية و ما جاورها، فلما سمع شرف الدولة

صاحب حلب الخبير خافه فجمع أيضا العرب من عقيل والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق فوعده بذلك. فلما سمع تاج الدولة الخبير عاد الى دمشق وحصرها وقاتله أهلها، وفي بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق وقاتلوه، وحملوا على عسكره حملة صادقة فانكشفوا وتضععوا، وانهزمت العرب و ثبت شرف الدولة و أشرف على الأسر و تراجع إليه أصحابه. فلما رأى ذلك

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٠

و رأى أن مصر لم يصل إليه منها عسكر و أتاه من بلاده الخبير أن أهل حران عصوا عليه، رحل عن دمشق الى بلاده و أظهر أنه يريد بلاد فلسطين. رحل أولا الى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق و تاج الدولة و اضطربوا، ثم سار من مرج الصفر مشرقا في البرية، وجد في مسيره فهلك من المواشى الكثير مع عسكره و انقطع خلق.

و كان مسلم بن قريش الذى أحبه أهل حلب و أطاعوه من جملة عمال آل أرسلان، و كان سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب قونية و أقصرا و ملاطية و من عمال السلجوقيين و أنسابهم أشار إليه ملك السلجوقيين الأكبر السلطان ملكشاه أن يستولى على أنطاكية (٤٧٧) ففعل، و لما استقر فيها بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه المال الذى كان يحمله صاحب أنطاكية الرومى إليه فأبى و قال: أنا لا أدفع الجزية لأنى مسلم، فنهب مسلم بن قريش أنطاكية، و نهب سليمان بن قتلمش حلب، ثم جمع مسلم ابن قريش الجموع من العرب و التركمان و معه أمير التركمان جبق فى أصحابه و سار الى أنطاكية ليحصرها، فسار إليه سليمان بن قتلمش فالتقى على نهر سبعين فى موضع يقال له قرزاحل و اقتتلا، فمال تركمان جبق الى سليمان فانهزمت العرب و تبعهم مسلم بن قريش منهزما، فقتل بعد أن صبر و قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، و سار سليمان الى حلب فحصرها (٤٧٨) و لم يبلغ منها غرضا. و فى هذه الواقعة التى قتل فيها سليمان بن قتلمش التركى مسلم بن قريش العربى انتقل ملك الشام من أيدى العرب الى الترك و لم يحكم فى الشام بعده إلا أمراء و ملوك من التركمان و الأتراك و الشراكسة و الأكراد.

و كان الأتراك يأتون الشام منذ أوائل القرن الثالث عمالا للعباسيين، فلم تكن مقاتلهم بادية للعيان لأنهم كانوا يحكمون باسم الدولة التى يعملون لها، و كان أكثرهم على جانب من حسن الأدب و الإدارة نشأوا نشأة عربية، و ها قد جاء دور يعمل الأتراك فيه أحرارا لحساب أنفسهم، بعد أن ختم الحكم العربى بمقتل مسلم بن قريش العقيلى ..

و عاد سليمان بن قتلمش فى السنة التالية و قصد حلب فبلغه أن تاج الدولة

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤١

تنش قد تاهب لقصد فرحل عنها، و التقى عسكره و عسكر تاج الدولة فى موضع يعرف بعين سيلم على ثلاثة أميال من حلب، فكسر جيش تاج الدولة عسكر سليمان و قتل هذا فى الهزيمة و ملك تاج الدولة عسكره و سواده و نزل على حلب فتسلمها. ثم وصل ملكشاه و انهزم أخوه تاج الدولة من حلب و ملكها ملكشاه مع أنطاكية. أى إن سليمان بن قتلمش أحد عمال السلطان ملكشاه السلجوقى، قتل بأمر مولاة مسلم بن قريش ليأخذ بلاده، فقام تنش أخو ملكشاه فقتل سليمان، ثم قام تنش يريد الاستئثار بالملك دون أخيه، و قد فاته أن ملكشاه تهتز الدنيا من جيوشه، و أخوه فى الشام لا يخرج عن كونه واليا من ولاته، و الغالب أن تاج الدولة عرف هذا من نفسه فلم يسعه إلا أن يخدم أخاه.

و لما نزل ملكشاه بحلب دخل ابن منقذ صاحب شيزر فى طاعته، و سلم إليه اللاذقية و كفر طاب و أفامية، فأقره السلطان على شيزر و سلم حلب الى قسيم الدولة آق سنقر جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل و الشام، و والد عماد الدين زنكى، وجد نور الدين محمود بن زنكى. و لما استقر آق سنقر فى حلب و أعمالها بسط العدل فى أهلها، و حمى السابلة و تتبع المفسدين و أبادهم. و كان ملكشاه فى سنة ٤٧٩ ملك حران و قلعة جعبر على الفرات، ثم ملك منبج و حلب، أما دمشق فكانت بيد تاج الدولة تنش منذ سنة ٤٧١ أقطعه إياها أخوه السلطان ملكشاه مع ما يفتحه من بلاد الخليفة العلوى. و كانت جيوش الفاطميين تغزو بعض المدن الساحلية و تستردها من

الترکمان أحيانا، و سلطه الفاطميين تتقلص اللهم إلا من فلسطين، فإنهم بعد أتسز الخوارزمي أخذوا يستردونها و خرج (٤٧٨) أمير الجيوش بدر الجمالي بجيوش مصر فحصر دمشق و بها تاج الدوله تتش و ضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائدا الى مصر.

تنازع السلجوقيين و الفاطميين و انقسام السلجوقيين:

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد أن قطعت خطبتهم من أهم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٢

مدنها مرات ثم عادت إليها، و بعثوا سنة ٤٨٢ جيشا قصد الساحل و فتح ثغر صور، و كان تغلب عليها ابن عقييل و امتنع عليهم و مات فولياها أولاده و دخلوا تحت راية تاج الدوله تتش، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها إليهم، ثم فتح الجيش الفاطمي صيدا و عكا و جبيل.

و نزل تاج الدوله (٤٨٣) على حمص و معه آق سنقر و بزبان و فيها خلف بن ملاعب الكناني، فضايقوها الى أن ملكوها بالأمان. و خرج ابن ملاعب و سافر الى مصر، ثم عاد و أعمل الحيله حتى ملك حصن أفاميه، و استخلصه منه قسيم الدوله آق سنقر في السنه التاليه. و قيل: إن القتال كان على بعلبك و إن من حاربوا خلف ابن ملاعب قالوا له: أنت خطبت للمستنصر العلوي، فلما أخافوه طلب الأمان.

و في سنة ٤٨٤ فتح تاج الدوله عرقه و قلعه أفاميه، ثم سار الى طرابلس فحصرها و بها صاحبها ابن عمار ابن أخى القاضي أبى طالب بن عمار قاضى طرابلس و المتغلب عليها، و كان معه آق سنقر و بزبان و نصب عليها المجانيق. فاحتج عليهم ابن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس فلم يقبل منه تتش ذلك و توقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش: أنت تبع لى فكيف تخالفنى؟ فقال: أنا تبع لك إلا فى عصيان السلطان. فغضب تتش و رجع الى دمشق. و ذكر ابن الأثير: أن ابن عمار لما رأى جيشا لا يدفع إلا بحيله أرسل الى الأمراء الذين مع تاج الدوله و أطعمهم ليصلحوا حاله، فلم ير فيهم مطمعا، و كان مع آق سنقر وزير له اسمه زر بن كمر فراسله ابن عمار فرأى عنده لينا، فأتحفه و أعطاه فسعى مع صاحبه آق سنقر فى إصلاح حاله ليدفع عنه، و حمل له ثلاثين ألف دينار و تحفا بمثلها، و عرض عليه المناشير التى بيده من السلطان.

و فى سنة ٤٨٦ خرج من مصر عسكر كثير الى صور لما عصى واليها منير الدوله، و كان أهل صور أنكروا عصيانه فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر بالله العلوي، فهجم العسكر المصرى على البلد و أخذها، و فرض على أهلها ستين ألف دينار، و فى هذه السنه تحرك تتش من دمشق لطلب السلطنه بعد موت أخيه ملكشاه الذى توفى فى السنه الماضيه، و اتفق

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٣

معه آق سنقر صاحب حلب، و باغى سيان صاحب أنطاكيه، و بزبان صاحب الرها، و سار معه آق سنقر فافتتح نصيبين و الموصل و ديار بكر، و سار الى أذربيجان، و كان بركيارق بن ملكشاه قد استولى على جانب كثير منها، فلما رأى آق سنقر ذلك تخلف عن معاونه تتش و قال: نحن إنما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان ملكشاه، أما إذا كان بركيارق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره. و خلى آق سنقر تتش و لحق ببركيارق فضعف تتش لذلك، و عاد من أذربيجان الى الشام و أخذ فى جمع العساكر و كثرت جموعه (٤٨٧) و جمع آق سنقر العسكر بحلب، و أمده الأمير بركيارق بالأمير كربغا صاحب الموصل، فاجتمع كربغا مع آق سنقر، و التقوا مع تتش عند نهر سبعين على سته فراسخ من حلب و اقتتلوا، فخامر بعض عسكر آق سنقر مع تتش و انهزم الباقون، و ثبت آق سنقر فأخذ أسيرا و أحضر الى تتش فقال تتش لآق سنقر: لو ظفرت بى ما كنت صنعت، قال: كنت أقتلك، قال تتش: فأنا أحكم عليك بما تحكم على به.

فقتل آق سنقر و سائر أصحابه صبيرا، و سار تتش الى حلب فملكها.

ورحل تاج الدولة عن حلب بعد أن ملكها و حصونها الى الفرات، واستولى على حران و سروج و الزها و كاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه في من بقي من الأجناد في الشام، فسار الى حلب و منها الى العراق فالرى، و استصحب معه جماعة من أمراء العرب و أتراك حلب القسيمية، نسبةً لقسيم الدولة آق سنقر، فجرت وقعة بين السلطان بركيارق بن ملكشاه و بين عمه تاج الدولة تتش على عانه من عمل الجزيرة، فانفلَّ عسكر هذا و تفرق و نهب سواده، و أسر أكثر جنده و قتل منه خلق كثير. و اغتال بعض أصحاب آق سنقر تاج الدولة تتش ففضى عليه.

و لما بلغ الخبر فخر الملوك رضوان في دمشق ما تم على أبيه تاج الدولة أعذَّ السير الى حلب ففتحت له أبوابها، و وصل إليه أخوه شمس الملوك دقاق من ديار بكر، و راسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب في قلعة حلب و البلد، و قرر له ملك دمشق سرا، فخرج في الحال من حلب، و جلس على سرير أبيه في دمشق، و استقام له الأمر و استمرت على السداد

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٤

الأحوال. و في سنة ٤٩٠ قدم على الأفضل بمصر رسل فخر الملوك رضوان بن تتش صاحب أنطاكية، يبذل له الطاعة في إقامه خطبة المستعلى بالشام، فأجيب بالشكر و الثناء و خطب للمستعلى.

تطال تتش الى ملك أخيه ملكشاه فصدّه عنه ابنه بركيارق و قتله.

و قتل تتش آق سنقر لأنه لم يوافق على رغبته من نزع الملك السلجوقي من ابن ملكشاه، و حتى تتش على آق سنقر منذ قال له يوم طرابلس و هو يريد على قتال صاحبها: نحن نطيعك إلا في عصيان السلطان.

فقتل آق سنقر و جوزى تتش بأن قام من صنائع قتيله من يأخذ بثأره فقتله أيضا. و استراح آل ملكشاه من تصدى تتش للملك و هو الذى لم يقنع بملك الشام، و كان فيه الملك الأعظم بعد مقتل آق سنقر. و تصرف الأقدار بأن تتسلم زمام الأمر في هذا القطر ذرية تاج الدولة تتش، ريثما ينتقل منها الحكم الى مملوك آخر اسمه طغتكين، و هو يسلمه الى حفيد آق سنقر نور الدين محمود بن زنكى.

الدولة الأتابكية و طغتكين و بنو أرتق:

كان آق سنقر و بزاق صاحب حلب و أنطاكية من مماليك السلطان ملكشاه، و كان من أمرهما في الغناء و الوفاء ما كان في الشام حتى مضيا لسبيلهما. ثم قام مملوك آخر طالت مدته أكثر منهما و كان له في الدولة بالشام اليد الطولى و الكعب المعلى، و نعنى به أبا منصور ظهير الدين أتابك طغتكين، من مماليك تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان ملك الشام، و معنى أتابك مربي أولاد الملك أو قائد الجيوش. قال ابن القلانسي:

حظى هذا الأمير و هو في حدائه سنة عند السلطان تاج الدولة فقدمه على أبناء جنسه من خواصه و بطانته، و سكن الى شهامته و صرامته، و سداد طريقته، فجعله مقدم عسكره، و استنابه في تدبير أمر دمشق، و حفظها أيام غيبته، فأحسن السير فيها، و أنصف الرعية من أهلها، و بسط المعدلة في كافة من بها، فكثر الدعاء له و الثناء عليه، فعلت منزلته و امتثلت أوامره، و لم يلبث أن شاع ذكره بنجابته، و أشفقت

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٥

النفوس من هيئته، فولاه ميفارقين و ديار بكر و هى أول ولايته؛ و سلم إليه ولده شمس الملوك دقاق و اعتمد عليه في تربيته و كفالته، فساس أمرها بالهيبة و التدبير، و أصلح فاسدها و قوم منآدها.

قال: و تنقلت به الأحوال الى أن توجه مع تاج الدولة الى الرى و شهد الوقعة التى استشهد فيها تاج الدولة، و حصل في قبضة الاعتقال مع من أسر من المقدمين، و أقام مدة الى أن أفرج عنه (٤٨٨) فتلقاه شمس الدولة دقاق (بدمشق) و عسكره و أبواب دولته، و بولغ في

إكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في قيادة الجند، واعتمد عليه في تدبير المملكة، و سياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك و أمراء الدولة العمل على الأمير ساوتكين و الإيقاع به، و تمم عليه الأمر و قتل، و عقدت الوصلة بينه و بين ظهير الدين أتابك و بين الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق و دخل بها، و استقامت له الحال بدمشق و أحسن السيرة فيها، و أجمل في تدبير أهلها، و سكنت نفس شمس الملوك إليه اه.

فانظر الى غرائب التوفيق في الأرض كيف ينشأ مملوك، ربما كانت يد النخاس مرت على رأسه، يكفل ابن السلطان و يربيه و يتزوج بأمه و يتصرف في ملكه و يدبر أمره، ثم يصبح بتجاربه و عقله ملكا ترغب الملوك في التقرب منه، و يخاف العدى بأسه و سطوته، و يظهر في مظهر من طيب الأخلاق لا- يضاويه من تسلسل فيهم الحكم و الملك، و تنقلوا في السلطان كابر عن كابر، لكن هي التريه إذا حسنت أتى صاحبها بالعجائب، و النفوس إذا صفت جبل الخلق على حبها، و الإيرادات متى سلمت استمات الناس دونها، و بهذا كان الناس و لا يزالون يحكم كبارهم صغارهم، و يصبح المملوك ملكا مطاعا و المسود الخامل سيدا نابها، و كم من عصامي أفلح، و من عظامي أخفق.

قد يدرك الشرف الفتى و رداؤه خلق و جيب قميصه مرقوع

و من المماليك الذين حكموا في الشام فأصبحوا ملوكا في هذا الدور أيضا بنو أرتق، نسبة لجدهم أرتق بن أكسك و قيل أكسب التركماني و من مماليك ملكشاه بن آلب أرسلان. تغلب أرتق على حلوان و الجبل

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٦

و كان منصورا لم يشهد حربا إلا و كان الظفر له، ثم أمره مولاه ملكشاه سنة ٤٧٧ أن يذهب مع فخر الدولة بن جهير لضبط الموصل، و بينما كان مسلم بن قريش محصورا في آمد، راسله أرتق و أخذ منه مالا- و افرا و فتح له طريقا سار منه، فأنهى ابن جهير ذلك الى ملكشاه فخاف أرتق و ذهب الى دمشق و التحق بصاحبها تاج الدولة تتش، و عاونه على الاستيلاء على حلب، و ساعده في كثير من المواقف، فأقطعه فلسطين، أخذها من أصحاب أرتق الخوارزمي (٥٨٤). فلما توفي صارت القدس و عملها لولديه ايلغازي و سقمان ابني أرتق، حتى خرج عسكر خليفه مصر فاستولوا على القدس بالأمان في سنة ٤٨٩ بعد أن بقيت في حكم الأرتقية ثلاث عشرة سنة و أياما. و سار سقمان و أخوه ايلغازي من القدس فاجتاز سقمان بدمشق و كان صاحبها متغيبا عنها فقاتله أهلها و من فيها من الأجناد.

و في سنة ٤٩٠ برز الملك رضوان صاحب حلب و ياغى سيان صاحب أنطاكية الى ناحية شيزر و عزم على معاودة دمشق لفتحها، فوقع الخلف بين مقدمي العسكر فرجع ملك حلب، و ورد عليه كتاب المستعلى بالله الفاطمي يريده على الدخول في طاعته، و إقامة الدعوة لدولته، و كذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل ذلك، فأجابهما الى ما التمساه و أمر أن يدعى للمستعلى على المنبر و للأفضل بعده، ثم يدعى له بعدهما، و دامت الخطبة على ذلك أربع جمع. و كان الملك رضوان قد بنى الأمر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري و النزول على دمشق لأخذها من أخيه الملك دقاق. فأنكر سقمان بن أرتق و ياغى سيان على الملك الدخول في الأمر، و استبدعاه من فعله، و أشارا عليه بإبطاله و اطراح العمل به، فقبل ما أشير عليه و أعاد الخطب الى ما كانت عليه أي للعباسيين. و جرى الاتفاق على أن يخطب في دمشق لرضوان قبل أخيه دقاق، و ذلك بعد أن يخطب للخليفة ثم للسلطان، و في هذه السنة خرج العسكر من مصر و نزل على صور بعضيان و اليه المعروف بالكتيلة، و لم يزل منازلها الى أن فتحها بالسيف قهرا و قتل فيها خلق كثير، و نهب منها المال الجزيل، و أخذ الوالي فقتل.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٧

الحملة الصليبية الأولى:

لم يخل الجو لملوك التركمان السلاجقة و أتباعهم في الشام زمنا طويلا بعد مقتل مسلم بن قريش العربي، فكانت المدّة بين مقتله و ورود الأخبار بخروج عسكر الصليبيين الى الأرض المقدسة ثلاث عشرة سنة كما مضى مثل هذا العدد من السنين بين استيلاء أول تركي و استيلاء أول أفرنجي.

و كان القطر خلال ذلك في هرج و مرج، يتطاحن أمراؤه يمزق بعضهم بعضا. تتعاوره أيدي ملكشاه و أخيه تتش بن آلب أرسلان ثم أولاده رضوان و دقاق و المماليك آق سنقر و بزاق و طغتكين و أولاد أرتق ايلغازي و سقمان، و السلاجقة هنا يميلون الى الخلافة العباسية، و إذا رأى بعضهم القوة لأصحاب الخلافة المصرية يغمضون الطرف عنهم، و الفاطميون لا يملكون غير بعض الساحل، و أصبح القطر للتركمان، و يصعب على عرب الجزيرة إنجاده لبعده المسافات، و بغداد مهد العرب مشغلة بنفسها.

ربما كان في استيلاء التركمان على الشام خير لم تعرف حكمته إلا بعد حين، و هو قيام دولة فتية لها جيش جرار اشتهر بالشجاعة حتى قيل:

إن آلب أرسلان لما جاء المرة الأولى الى شمالي الشام كان في أربعمئة ألف مقاتل، و مثل هذا الجيش لا تستطيع العراق و الشام و الجزيرة أن تجنده لدفع جيوش الفرنج الجرارة، هذا على فرض أن قواها موحدة، و روحها
خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٨

في الدفاع واحد، فالشام إذا اعتر بالتركمان. ثم إن السلجوقيين كانت بأيديهم الدروب أو المنافذ الى آسيا الصغرى أو طريق الإفرنج من أوروبا الى الشام على طريق البر، فتولى دولة التركمان القيادة العامة جمع بالطبيعة حولهم العرب من سكان هذه الديار و ما إليها. إن حكم التركمان الشديد عجل على ما يظهر في خروج الصليبيين الى الشام. و إليك البيان:

أثن بنو سلجوق أصحاب آسيا الصغرى في جيش صاحب قسطنطينية بإيعاز السلطان ملكشاه، و ضايق الأمير برسق الروم، حتى قرر على القسطنطينية في كل سنة حمل ثلاثمئة ألف دينار للسلطان، و ثلاثين ألف دينار له، جزية يؤديها، فخاف ملك القسطنطينية كثيرا على مملكته من هجوم المسلمين، فكتب يستنهض ملوك أوروبا أن يأتوا لمساعدته، و رضى بطريك القسطنطينية بأن يقدم خضوعه لبابا رومية، إذا كانت ممالك أوروبا تجهز جيشا لتخليص المملكة اليونانية مما يتهددها من هجوم التركمان و المسلمين، فكتب ملوك أوروبا بذلك.

قال صالح بن يحيى في سبب استيلاء الصليبيين على ديار المسلمين:

إنه لما قويت دولة بنى سلجوق ضعفت حال الخلافة ببغداد، فلما مات ملكشاه السلجوقي سنة خمس و ثمانين و أربعمئة وقع الخلف بين ولديه محمد و بركيارق، و دام الحرب بينهما نحو اثنتي عشرة سنة فاضطربت ممالك الشرق لذلك، و وافق هذا خلافة الأمر بأحكام الله بمصر و كان صغيرا، و لما كبر كان مستهترا بالمملكة فخلا للصليبيين الجو.

و في التاريخ العام أن حجاج النصارى كانوا يرمون الى أخذ القبر المقدس من أيدي المسلمين، و إن كان هؤلاء يتركونهم و شأنهم يقومون بعبادتهم بسلام، و لكن كان يتراءى للنصارى أن سيدهم المسيح يرضى عن عملهم إذا أنقذوا قبره من غير المؤمنين بدينه. و روى بعض المؤرخين أن الفاطميين هم الذين فاوضوا الصليبيين و أرادوهم على غزو الشام لينجوا من السلجوقيين الذين كانت قويت دولتهم. و هذا مما يستبعد، و إن كان العقل لا يستبعد شيئا في السياسة، و لكن ظهر أن الفاطميين حاولوا غير مرة رد الصليبيين عن الساحل و عن فلسطين.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٩

و اتفق أن بعض زوار الأوروبيين في الأرض المقدسة شاهدوا شيئا من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به في أدوار الحكومات العربية القوية، و انقلبت سماحة العرب بجفاء من خلفهم من التركمان، فعاد الزوار الى ممالكهم يقصون ما لقوا من الشدة

فى الشام و يعظمون الأمر، و كان التعصب الدينى يومئذ على أشد حالاته فى الغرب، و معظم حكوماته تدىن بدىن البابا و تخضع لسلطانه القاهر، و لم يكن ظهر إذ ذاك المذهب الإنجىلى، و كان مذهب الروم الأرثوذكس آخذاً بالضعف لىس له روابط الكنيسة البابوية و لا سلطتها على الأرواح و الأشباح، فأوعز البابا الى أمم النصرانية فى الغرب ليهبوا كلهم الى إنقاذ القبر المقدس من أيدى المسلمين.

وقد ذكر أهل الأخبار من الأوروبيين فى تعليل الحروب الصليبية، أن المسيحيين و المسلمين كانوا حتى القرن الحادى عشر للميلاد على صلات سلمية إلا قليلاً، يحمل العرب الى مصر و القسطنطينية حاصلات مختلفه من بلاد الهند و الشرق الأقصى، فتستبضعها من المدن الإيطالية بارى و بيزه و جنوه و أمالفى و البندقية فيبعونها فى أوروبا. و كان العرب يسمحون للزوار أن يأتوا زرافات الى فلسطين، فيشخص إليها جماهير عظيمة من عامة نصارى الغرب يسجدون أمام القبر المقدس. و تضاعفت الحماسة الدينية فى ذاك الزمن و تداعى الحكم العربى القائم على التسامح فى قاره آسيا، و قام مقامه المحاربون من الترك المعروفين بتعصبهم و بسالتهم.

فاستولى السلجوقيون على أرمينية و الشام و نيقية و دانت لهم فى سنة (٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م) القدس فاختلفت العلاقات الاقتصادية بين آسيا و أوروبا، و خافت المدن التجارية فى البحر المتوسط أن يغلق الأتراك أمامها أسواق الشرق.

نعم نشأت الحملة الصليبية الأولى من الحماسة الدينية بصنع البابوية التى كانت إذ ذاك الحاكمة المتحكمة فى كل شىء. و لقد تأثر البابا أوربانوس الثانى بشكاوى الزوار القادمين من فلسطين. و قلق للارتقاء المخوف الذى بلغه المسلمون فى الأندلس، و لا سيما عقبى وقعة الزلاقة سنة (٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م) و قد أثبت العرب فيها كفاءتهم الحربية، كما أثبتوا من قبل و من بعد كفاءتهم المدنية، و اغتتم فرصة اجتماع المجمع الدينى العظيم الذى التأم فى مدينه

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٠

كلرمون و حضره ألوف من الفرسان، ليحرض المؤمنين من نصارى على حمل الصليب لفتح القبر المقدس. فوعد جمهور كبير من جميع طبقات الشعوب أن يرحلوا الى فلسطين. و اتخذوا شعار الحملة الصليبية صليبا من القماش الأحمر يجعل على الكتف الأيمن. و كثر المشتركون بهذه الحملة فى ايطاليا و انكلترا و لا سيما فى فرنسا. و منحهم البابا غفرانا عن جميع خطاياهم، و شجب كل من يمس أموالهم مدة سفرهم. و لم ينتظر العامة ريثما تجمع الجيوش المتحدة التى أبطأ تنظيمها، بل سافروا بدون سلاح، غير آخذين بالحزم فى التأهب للرحلة. و كان هذا شأن عصابات البائسين الذين جمعهم بطرس الراهب و غوتيه المعدم (سانزافور) و من لم يهلك من هذه العصابات فى الطريق أهلكه الترك.

و فى أواخر سنة (٤٩٠ هـ ١٠٩٦ م) اجتمع فى القسطنطينية أربعة جيوش متحالفة من اللورين و الألمان بقيادة بودوين دى هينو، و فرنسيين من الشمال بقيادة القومس فرماندوا و دوق نورمانديا، و برنسيون بقيادة قومس طولوز، و نورميون من إيطاليا بزعامه بوهيموند دى ترانت و تنكرى و لم يكن مع هذه الأمم ملك من ملوكهم، و لم يتفق رأى الغزاة على نصب ملك يرتضونه و يرجعون إليه. و كان الأمير الكسيس كومنين (ملك الروم) يرجو استخدام الجيوش الصليبية لفتح آسيا الصغرى، و استرجاعها من أيدى المسلمين، فصانعوه و لكن ما لبث البيزنطيون و اللاتين أن تباغضوا و احتقر بعضهم بعضا. و بعد سنتين و نصف مضت فى المصائب الهائلة و الجدال العنيف، استولى الصليبيون فى طريقهم على نيقية لحساب الإمبراطور، و كسروا جيش سليمان فى دوريليوم (أسكيشهر) و استولوا على الزها (١٠٩٧) و على أنطاكية (١٠٩٨) و بلغوا القدس و استولوا عليها (٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م). و ربما هلك فى هذه الحملة نصف مليون من

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥١

الرجال حتى تهيأ للصليبيين أن ينشئوا أربع إمارات: إمارة القدس و إمارة أنطاكية و إمارة الرها و إمارة طرابلس، قسمت أقطاعا على الفرسان الغربيين. أما المدن الكبرى فى الساحل الشامى فقسمت مستعمرات أوروبية أنشأت فيها مارسيليا و المدن الإيطالية أحياء

برمتها.

وبذا رأينا أنه دعا الى الحملات الصليبية تعصب أوروبا الديني، و حب الغارة و التجارة، و الأسباب التي دعت إليها واهية لا محالة. قال أحد كتاب روسيا: كان في الإمكان اجتناب وقوع الحروب الصليبية، و ساعد على حدوثها الجهل و الأوهام الدينية و السياسية و مصلحة البابوية. و كم من أحزان و آلام و جرائم جديدة كان يمكن أن تتوفر على الإنسانية لو لم يوقف شارل مارتل العرب سنة ١١٠ للهجرة فإن المدينة الزاهرة التي كان يحملها أولئك الذين دعاهم الصليبيون في حال سخطهم و بغضهم بأبناء إسماعيل (Sarrasins) عبدة الأصنام و الكفار و الوثنيين، كانت هذه المدينة تؤثر في أوروبا الغربية و تعمل عملها في المدينة الفرنجية و الرومانية.

الصليبيون في شمالي الشام:

هذا ما كان من جهة الغرب و سر الحملة الصليبية الأولى على هذا الجزء الصغير من الشرق، و لو كانت كلمة القابضين إذ ذاك على زمام الأمر في آسيا الصغرى و أرض الشام متحدة، و حكوماتهم قوية منظمة، لتعذر كل التعذر على الصليبيين أن يزحفوا على أنطاكية، ثم يسير جيشهم حتى يأخذ الساحل و يبلغ البيت المقدس على كثرة عدده، فقد قيل: إن الحملة الأولى كانت مليون محارب و محاربة، لأن بعض الصليبيين كانوا يصحبون معهم أزواجهم و أولادهم. و في رواية ميشو أن الحملة الأولى كانت ستمائة ألف محارب على حين كان جيش الإسكندر الذي فتح به آسيا ثلاثين ألفاً فقط. و مع هذا فإن الشام كان في ذاك العهد بحالة من تجزؤ الحكم بحيث لا تستطيع أن تجهز نصف جيش الفرنج، و هي تحتاج الى حاميات عظيمة في الثغور و الحصون و المدن الكثيرة. و كان المسلمون إذ ذاك كنعاري الأوربيين مشتتة أهواؤهم غير منظمة قواهم. و مع

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٢

هذا فقد روى مؤرخونا أن الأخبار لما وصلت سنة ٤٩٠ هـ الى الشام بظهور عسكر الفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة، شرع الملك داود بن سليمان بن قتلмыш، و كان أقرب إليهم دارا في الجمع و الاحتشاد، و استدعى التركمان فوافاه منهم مع عسكر أخيه العدد الكثير و عادوا إليه، و استظهروا عليه، و كسروا عسكره فقتلوا منهم و أسروا، و نهبوا و سبوا، و انهزم التركمان و اشترى ملك الروم من السبي خلقا كثيرا و حملهم الى القسطنطينية.

و لما اتصلت هذه الأنباء بأمرأ الشام، قرّ رأى أصحاب أنطاكية و حلب و دمشق و غيرهم من صغار الأمراء على الاستصراخ و الاستنجد، و تحصين أنطاكية و إخراج النصارى منها، و لم تلبث عساكر الفرنج ان نزلت على حصن بغراس و أعادوا الكرة على أعمال أنطاكية فعصى من كان في الحصون و المعازل المجاورة لها، و قتلوا من كان فيها و هرب من هرب منها، و فعل أهل حصن ارتاح مثل ذلك و استدعوا المدد من الفرنج.

و كان نهض من عسكر الفرنج فريق يناهز الثلاثين ألفا فعاثوا في الأطراف و وصلوا الى حصن البارة و فتكوا بأهله، و كان عسكر دمشق وصل الى ناحية شيزر لإنجاد ياغى سيان، فقتل الفرنج منهم جماعة، و عاد الفرنج الى الروج بين حلب و المعرة، و توجهوا الى أنطاكية و جعلوا بينهم و بينها خندقا لكثرة الغارات عليهم من عسكرها.

و كان الفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم و وعدوه بأن يسلموا اليه أول بلد يفتحونه، ففتحو نيقية فلم يسلموها اليه على الشروط المقررة، و افتتحو في طريقهم بعض الثغور و الدروب و فتحوا الرّها و ما إليها و جاءوا أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر حتى و اطأهم قوم من الزرادين و منهم أرمن على تسليم أنطاكية اليهم، و ذلك لإساءة صدرت من صاحبها ياغى سيان الى الأرمن فصادرهم و أرقهم، و وجدوا الفرصة في برج من أبراج البلد مما يلي الجبل فباعوه من الفرنج و أطلعوهم الى البلد منه. فانهمز ياغى سيان بعد أن ظهر من شجاعته وجوده رأيه و حزمه و احتياظه ما لم يشاهد من غيره، و خرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص، و لما حصل

بالقرب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٣

من أرمناز قرب معرة مصرين سقط عن فرسه فمات. وقد قتل في أنطاكية و أسر و سبي من الرجال و النسوان و الأطفال خلق كثير. و لما سقطت أنطاكية عادت عساكر الشام فتجمعت، و حاصر المسلمون أنطاكية حتى عدم القوت منها، و أكل الفرنج الميتة، فزحفوا و هم على غاية من الضعف الى عساكر الإسلام، و هم فى الغاية من القوة و الكثرة، فكسروا المسلمين و فرقوا جموعهم. و السبب فى هذه الهزيمة أن كربوغا صاحب الموصل كان فى عسكره على حصار أنطاكية مع أمراء دمشق و حلب و حمص و غيرهم، فأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك و الأمراء و تكبر عليهم، فخبث نياتهم على كربوغا فهزمهم عدوهم و هو فى ضعف و هم فى قوة. قال صاحب التاريخ العام: و كان الجيش الإسلامى الذى دافع عن أنطاكية و أنجد صاحبها مؤلفا من مائتى ألف محارب، و لو استطاع هذا الجيش أن يصل كله الى أنطاكية لقضى على الصليبيين جملة، و لم تلبث الحرب أن نشبت بين الصليبيين فاختلف البرفسيون و النورميون، حتى إن الفرسان هددوا المتحاربين من الفرنج أن يخربوا المدينة التى كانوا يتنازعون ملكها. و ظلت الحرب على أنطاكية أربعة أشهر ففتحت بعد مذبحه هائلة قتل فيها من الفريقين ألوف.

و لما انهزم المسلمون أمام الفرنج على أنطاكية، سار هؤلاء بجملتهم الى المعرة و ضموا إليهم الأرمن الذين كانوا فى طاعتهم و بعض النصارى الشاميين، فاستولوا عليها و وضعوا السيف فى أهلها، و قتلوا منها ما يزيد على مائة ألف إنسان فى أكثر الروايات، و سبوا مثلهم و أقاموا بالمعرة أربعين يوما، ثم زحفوا عنها بعد أن قتلوا أهلها و قطعوا أشجارها. قال ميشو:

إن الفرنج قتلوا جميع من كان فى المعرة من المسلمين الذين اعتصموا بالجوامع و اختبأوا فى السرايب، فأصبحت خاوية على عروشها، و فقد الفاتحون كل زاد و ساءت حالهم، ثم وقع الخلاف بينهم و صاروا فى روية يأكلون جثث الموتى، و هدموا أسوارها و أبراجها، و أحرقوا المساجد و كسروا المنابر و هدموا الدور، ثم ساروا الى عرقة و حصروها أربعة أشهر و نقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها، ثم ساروا الى حمص فصالحهم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٤

أهلها و راسلهم صاحب شيزر على الصلح و عصت طرابلس عليهم لما بدا من شمم صاحبها ابن عمار و استنجاده بالملوك، فصالحه صاحب أنطاكية و هاداه على أن يكون للفرنج ظاهر طرابلس و لا يقطع الميرة و المسافرين عنها، و بهذا تيسر للفرنج أن يحفظوا خط رجعتهم فى طريقهم برا الى القدس. و خرجوا على طريق النواير الى عكا فلم يقدروا عليها.

فتح الصليبيين القدس و الساحل:

و بعد فتح الفرنج العرة و غدرهم بأهلها و من احتفى فيها، و قطعهم على أهل البلد القطائع التى لم يفوا بشيء مما قرروه فيها، و مطالبتهم للناس بما لا طاقة لهم به، رحلوا الى بيت المقدس على طريق الساحل فأجفل الناس، و كانت حلب على قيد غلوة من خطر استيلاء الفرنج، و لكنهم أعلنوا يوم وصولهم أنهم لا يقصدون إلا الاستيلاء على ما كان للروم من المدن، ليصرفوا فكر حكام الشام عن نجدة أهل أنطاكية، و لكن أمراء الأقاليم لم يصغوا لهذه الدعوة، و نزل الفرنج بعد أن اجتازوا معظم الثغور على الرملة فملكوها، و انتقلوا الى بيت المقدس فضيقوا عليه، فجاءهم الأفضل فى العسكر الدثر من مصر للإيقاع بهم و إنجاد البلد، فشدوا فى قتاله و لازموا حربه، فانهمز الناس و ملك الفرنج البلد «و لبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعا، و قتل من المسلمين فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين و علمائهم و عبادهم و زهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف، و غنموا ما لا يقع عليه الإحصاء». و جمع الفرنج اليهود فى الكنيسة و أحرقوها عليهم، و هدموا المساجد و قبر الخليل، و أحرقوا المصاحف.

قال ميشو: «و قد ارتكب الصليبيون في فتح القدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير، حتى شكوا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاما للنار، ويخرجونهم من الأقيسة وأعماق الأرض ويجرونهم فى الساحات، و يقتلونهم فوق جثث الآدميين. و دام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى قتلوا منهم كما اتفق على ذلك مؤرخو الشرق والغرب سبعين

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٥

الف نسمة، و اليهود كالعرب لم ينجوا من الذبح أيضا، فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأ إليه أبناء إسرائيل و أهلكتهم كلهم بالنار».

ذكر ابن خلكان أن الأفضل كان تسلم القدس من سقمان بن أرتق و ولى فيه من قبله فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنجة فتسلموه منه، و لو كان فى يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين. و كان الأفضل راسل الأمير سقمان و إيلغازى ابنى أرتق ليسلماه بيت المقدس بدون حرب فلم يجيباه، فقاتل البلد و نصب عليها المجانيق و هدم منها جانبا فلم يجدا بدا من الإذعان له فسلماه إليه، و كان الأمير أتسز بن أوق الخوارزمى انتزع القدس من يد المصريين سنة نيف و ستين و أربعمائة قبل ملكه دمشق، ثم لما كسر بمصر سنة ٤٦٩ قام على أصحابه فئه فأخرجوهم ثم أعاد الدعوة العباسية، و لم يزل القدس بيده الى أن قتله تاج الدولة تتش بن أرسلان سنة ٤٧٢ ثم انتزعه تاج الدولة سنة ٤٧٤ ثم سلمه الى الأمير ظهير الدين أرتق أواخر سنة ٤٧٨ فعمره و أسكن به ولده، و لم يزالوا به الى سنة ٤٩١ حتى تسلمه المصريون. و جاء الأفضل و قد فات الأمر فانضاف إليه عساكر الساحل، و نزل بظاهر عسقلان منتظرا وصول الأسطول فى البحر، فنهض عسكر الفرنج إليه و هجموا عليه فى خلق عظيم، فانهزم العسكر المصرى الى ناحية عسقلان و دخل الفرنج إليها، و تمكنت سيوفهم من المسلمين، فأتى القتل على الرجال و المطوعة و أهل البلد، و كانوا زهاء عشرة آلاف نفس و نهب العسكر الإسلامى، و توجه الأفضل فى خواصه الى مصر، و ضايقوا عسقلان فقتل من أهلها و غيرهم سوى أجنادها ألفان و خمسمائة نفس.

و لما توغل الصليبيون فى الشام، و كانوا فى كل بلد يدخلونه يقتلون أهله، و يخربون عمرانته، و يحرقون كتبه و متاعه و آثاره، هام الناس على وجوههم فى البرارى و منهم من قصد الى داخلية الشام، و منهم من فر الى مصر على حالة رثة. و فى سنة ٤٨٥ ملك الفرنج ما حول بيت المقدس مثل صور و عكا و الرملة و يافا، أما بقية الساحل كطرابلس و بيروت و اللاذقية فبقيت تقاوم الى حدود سنة ٥٠٠ معتصمة وراء أسوارها محصورة فى بقعة ضيقة من أرباضها، معتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٦

و كان الفرنج أول ما ملكوا من هذه الأرجاء الرّها و ما حولها من الحصون الفراتية قبل ملكهم أنطاكية و المعرة. و ظلت بيروت فى أيدي المسلمين الى سنة ٥٠٣ حتى فتحها بغدوين بعد أن حاصرها حصارا شديدا و قتل من أهلها عالما كثيرا. و دام ملوك الفاطميين ينجدون الساحل و الداخل بجنودهم، و لولاهم لتيسر للفرنج اكتساح هذه الأرجاء بمجرد سير جيوشهم الجراة، و حالت أسوار المدن بينهم و بين ما كانوا يؤملون، و صحت نيات القائمين بالأمر فيها، و لا سيما فى المدن الداخلية، على الدفاع، فكانت هجمات العدو يبددها فى الغالب دفاع السكان على ضعف قواهم و تشتت أهوائهم، و موقف المدافع أسهل من موقف المهاجم.

و من أهم الأحداث بعد دخول الفرنج أنطاكية خروج صاحبها بيمند سنة ٤٩٣ الى حصن أفامية، فوصل الخبر الى الدانشمند التركمانى صاحب ملاطية و سيواس و عسكر قلج أرسلان بن سليمان بن قتلش صاحب قونية و أقصرا، فقتل من عسكر الفرنج عددا عظيما، و حصل بيمند فى قبضة الأسر مع نفر من أصحابه، و نفذت الرسل الى نوابه فى أنطاكية يلتمسون تسليمها. قال صاحب الكامل: لم يفلت أحد من الفرنج فى هذه الوقعة و كانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلا و أفلتوا مجروحين.

و وصل كدفري صاحب بيت المقدس الى عكا، و أغار عليها فأصابه سهم فقتله، و كان قد عمر يافا و سلمها الى طنكرى، فلما قتل كدفري سار أخوه بغدوين القمص صاحب الرّها الى بيت المقدس فى خمسمائة فارس و راجل، فجمع صاحبا دمشق و حمص الجموع

و لقيه بالقرب من بيروت، فسارع نحوه صاحب حمص في عسكره فظفر به و قتل بعض أصحابه. و فيها افتتح الفرنج حيفا على ساحل البحر و أرسوف بالأمان و أخرجوا أهلها منها، و فتحوا قيسارية و قتلوا أهلها و نهبوا ما فيها و أعانهم الجنويون عليها. و كان الجنويون و البيزيون يبعثون كل سنة بمراكب الى ثغور الشام.

و أرسل عبد الله بن صليحة المتغلب على ثغر جبله الى صاحب دمشق، يلتمس منه إنفاذ من يراه من ثقاته ليسلم إليه جبله، فانتدب ولده تاج الملوك فتسلمها، و أساء هو و أصحابه الى أهلها و ظلموهم، فشكوا حالهم

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٧

الى ابن عمار صاحب طرابلس فأنهض إليهم عدة و افره من عسكره، فدخلت الثغر و اجتمعت مع أهله على التركمان فقهرهم و أخرجوهم منه و ملكوه، و حملوا تاج الملوك الى طرابلس فدمشق معززا. و في رواية أن الفرنج استولوا على جبله هذه السنة. و فيها خرج من مصر عسكر كثيف مع سعد الدولة المعروف بالقوامسى و وصل الى عسقلان لجهاد الفرنج و رحل عنها، فنهض من الفرنج ألف فارس و عشرة آلاف راجل و التقى الفريقان فكسرت ميمنة المسلمين و استشهد سعد الدولة و عاد المسلمون على الفرنج و تذا مروا عليهم و تحاضوا على قتالهم، و بذلوا النفوس في الكره عليهم فهزموهم الى يافا و قتلوا منهم و أسروا. و فيها نزل صنجيل على طرابلس، و كان جاءه أربعون مركبا مشحونة بالرجال و المال، فعطب بالرياح أكثرها، فكتب صاحبها الى دمشق يستصرخ، فسار عسكرها مع صاحب حمص الى أنطربوس و التقوا بالفرنج، فانهمز صاحب حمص و عاد الفرنج الى قتال طرابلس و عاد ابن عمار الى الاستصراخ بصاحبي حمص و دمشق، فدفعوا الفرنج عنه بعد أن قتل من أهل طرابلس سبعة آلاف رجل، و نازل صنجيل طرابلس و حصرها و أتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها، و كذلك أهل السواد و أكثرهم نصارى، ثم هادنهم على مال حملة أهل طرابلس الى صنجيل، فسار الى أنطربوس ففتحها و قتل من بها من المسلمين، ثم رحل الى حصن الطوبان و هو يقارب رفينه، و مقدمه يقال له ابن العريض فقاتلهم فنصر عليه أهل الحصن و أسر ابن العريض منه فارسا من أكابر فرسانه، فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار و ألف أسير فلم يجبه ابن العريض الى ذلك. ثم سار صنجيل و حاصر حصن الأكراد فجمع تاج الدولة صاحب حمص العسكر ليسير إليه فوثب به باطنى و اغتاله، و لما بلغ صنجيل ذلك رحل عن حصن الأكراد الى حمص و نازلها و ملك أعمالها. و في هذه السنة أطلق الدانشمند صاحب سيواس بيمند الفرنجى صاحب أنطاكية من الأسر و أخذ منه مائة ألف دينار، و لما خلص من الأسر عاد الى أنطاكية فقويت نفوس أهلها به،

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٨

و لم يستقر حتى أرسل الى أهل العواصم و قنشرين و ما جاورها يطالبهم بالأتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التى بناها الدانشمند.

تخاذل أمراء المسلمين و بلاء طغتكين و ابن عمار:

جهز ملك مصر فى سنة ٤٩٦ عسكرا بقيادة ابنه شرف المعالى، و سير الأسطول فى البحر فاجتمع بالعسكر الذى خرج سنة ٤٩٥ و عليه سعد الدولة القوامسى بيازور على ساحل الرملة، و التقيا مع عسكر الفرنج فهزموهم، و حاصر شرف المعالى قسرا كان الأفشين قد بناه قريبا من الرملة و ملكه قهرا، و قتل من كان به من الفرنج فحضر فى البحر عدة مراكب نجدة لهم و حاصروا عسقلان، فرحل شرف المعالى من الرملة الى عسقلان، فارتحل الفرنج عنها، و كتب الأفضل الى شمس الملوك دقاق صاحب دمشق يستنجده على الفرنج فاعتذر عن ذلك.

و فى سنة ٤٩٧ وصلت مراكب الفرنج فى البحر الى ظاهر اللاذقية مشحونة بالتجار و الأجناد و الحجاج و غير ذلك، فاستنجد بهم صنجيل المنازل لطرابلس فى مضايقتها و المعونة على ملكها، فاجتمعوا معه على منازلها، فقاتلوا أياما و رحلوا عنها، و نزلوا على ثغر

جيبيل، فقاتلوه و ضايقوه و ملكوه بالأمان ثم غدروا بأهله و صادروهم، و استنفدوا أموالهم بالعقوبات و أنواع العذاب. و فيها التقى
عسكر الأميرين سقمان بن أرتق صاحب آمد و جكرمش صاحب الموصل بعسكر بيمنند و طنكرى فى عسكريهما من ناحية أنطاكية
فانتصر المسلمون.

و نزل بغدوين صاحب بيت المقدس على ثغر عكا- و واليهما من قبل المصريين زهر الدولة الجيوشى- و معه الجنويون و المراكب فى
البحر و البر، و هم الذين كانوا ملكوا ثغر جيبيل فى نيف و تسعين مركبا فحصره من جهاته، و لازلومه بالقتال الى أن عجز واليه و
رجالاه عن جربهم، و ضعف أهله عن المقاتله و ملكوه بالسيف قهرا. و نزل الفرنج على حصن بسرفوت و رموه بالمناجيق ففتحوه
بالأمان و أطلقوا من كان فيه، و كان من أمنع حصون جبل بنى عليم من حيز حلب. و ظهر ابن عمار صاحب طرابلس
خطط الشام، ج ١، ص: ٢٥٩

فى عسكره و أهل البلد و قصد الحصن الذى بناه صنجيل عليهم، و هجم على غرة ممن فيه، فقتل من به و نهب ما فيه و أحرق و
أخرب، و أخذ منه السلاح و المال و الدباج و الفضه، هذا و ملوك الإسلام إذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضا و قد تفرقت الآراء
و تمزقت الأموال. و قصد الفرنج حران فاتفق صاحب الموصل و صاحب حصن كيفا و ماردين و معهم العرب و التركمان و اجتمعوا
بالفرنج على الخابور على نهر البليخ فهزم الفرنج و أسر ملكهم القومص.

و فى سنة ٤٩٨ خرج صاحب حلب عازما على قصد طرابلس لمعاونة صاحبها ابن عمار على الفرنج النازلين عليه، و كان الأرمن فى
حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الفرنج و نزل عليها فوق المصاف بين المسلمين و الفرنج عند شيزر، فثبت
راجل المسلمين و انهزمت الخيل، و وقع القتل فى الرجالة و لم يسلم منهم إلا القليل و وصل الفل إلى حلب، و حين عرف ذلك من
كان فى أرتاح من المسلمين هربوا بأسرهم منها فملكها الفرنج، ثم قصدوا حلب فأجفل أهلها منهم و اضطربت أحوال من بالشام.
و فى هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس و راجل مع شرف المعالى ولد الأفضل، و كوتب صاحب
دمشق بالاستدعاء للمعونة فنزل هذا على بصرى ثم قصد ظاهر عسقلان، فتجمع الفرنج و قصدوا عسقلان فالتقى الفريقان بين يافا و
عسقلان، و استظهر الفرنج على المسلمين و قتلوا و الى عسقلان، و انهزم عسكر مصر الى عسقلان، و عسكر دمشق الى بصرى، و كان
صاحبها أيتكين الحلبي راسل بغدوين ملك الفرنج للاستنجاد به، و توجه أيتكين و أرتاش بن تاج الدولة نحو بغدوين، و أقاما عنده
مدة يحرضانه و قومه على المسير الى دمشق، و يبعثانه على الإفساد فى أعمالها فلم يجبهما، فلما يئسا توجهها الى ناحية الرحبة.

و توجه صاحب دمشق الى بعلبك، و قرر أمورها و كف الأذى عن واليهما كمشتكين الخادم التاجى، و توجه إلى حمص و قصد ريفية
و نزل عليها، و وفد عليه خلق كثير من جبل بهراء فى عمل حمص، فهاجموا ريفية على حين غفلة من أهلها، و غرة من مستحفظيها، و
قتلوا من بها

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٠

و بأعمالها و أحرق ما أمكن إحراقه من الحصن المحدث عليها من الفرنج و غيره، و ملكت أبراج ريفية و هدم الحصن و قدم من كان
فيه.

و فى سنة ٤٩٩ سار الفرنج الى أفامية و حاصروها و ملكوا البلد و القلعة و قتلوا القاضى المتغلب عليها، و كان هذا كتب الى صاحب
حلب لإنقاذ البلاد من المستبد بها خلف بن ملاعب الكلابى الذى كان دأبه إخافة السبل، فقتله و التجأ ابنه مصبح الى طنكرى صاحب
أنطاكية و حرضه على العود الى أفامية و أطمعه فى أخذها لقلعة القوت بها، فنهض إليها و نزل عليها و ضايقها الى أن تسلمها بالأمان. و
الغالب أن الإسماعيلية هم الذين ملكوا حصن أفامية باسم الملك رضوان صاحب حلب، و كان بنى لهم بحلب دار دعوة و هو أول
من عملها. و كان بأفامية رجل من دعاهم، يقال له أبو الفتح السرمينى فقرر ذلك لمنع أهلها، فنقبوا السور و هجموا على ابن ملاعب
و قتلوه و نادوا بشعار الملك رضوان. و بقى الحصن فى أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم فى سنة ٥٠٠.

و فى سنة ٤٩٩ ملك صنجيل مدينة جبله، ثم سار و أقام على طرابلس فحصرها و بنى بالقرب منها حصنا، و بنى تحته ربضا و هو المعروف بحصن صنجيل، فخرج صاحب طرابلس فأحرق الربض و هلك صنجيل على أثر حرق بجسمه «و دام الحرب بين أهل طرابلس و الفرنج خمس سنين و ظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم، و قَلت الأوقات بها و جلا الفقراء و افتقرت الأغنياء». قال ابن الأثير: و كانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام تجملا و ثروة، فباع أهلها من الحلبي و الأوانى الغريبة ما لا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقره بدينار.

حرب طغتكين للصليبيين:

خرج الفرنج الى سواد طبرية (٤٩٩) و شرعوا فى عمارة حصن علعال بين السواد و البثنية، أو بين الغور و جبل الشراء، و كان من الحصون الموصوفة بالمنعة، فلما عرف صاحب دمشق هذا العزم منهم نهض، فملك الحصن و قتلهم و أسرهم. قال ابن الأثير: و قد قال طغتكين للمقاتلة يومئذ:

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤١

من أحسن قتال الفرنج و طلب منى أمرا فعلته معه، و من أتانى بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجاله نفوسهم و صعدوا الى الحصن و خربوه و حملوا حجارته الى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم، و أمر بإلقاء الحجارة فى الوادى و أسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا كلهم و استبقى الفرسان، ثم سار الى حصن رفينه فحصره و ملكه، و قتل به خمسمائة رجل من الفرنج. و فى السنة التالية (٥٠٠) زاد عيث الفرنج فى أعمال السواد و حوران و جبل عوف (عجلون)، فنهض صاحب دمشق بالعسكر وخيم فى السواد.

و هجم عز الملك والى صور على ربض حصن تبين فى جبل عامل من عمل الفرنج و قتل من كان فيه، فنهض بغديون من طبرية، و سار صاحب دمشق الى حصن بالقرب من طبرية فيه جماعة من فرسان الفرنج فقاتله و ملكه و قتل من كان فيه. و أقطع صاحب دمشق الأمير الأصفهيد التركمانى وادى موسى و مآب و الشراء و الجبال و البلقاء، و كان الفرنج قد نهضوا الى هذه الأعمال و قتلوا من فيها و سبوا و نهبوا، فلما وصل إليها وجد أهلها على غاية الخوف من الفرنج، و نهض هؤلاء لما عرفوا خبره من ناحية البرية و كبسوه على غرة، فانهزم و استولى الفرنج على سواده.

و تتابعت المكاتبات من صاحبى دمشق و طرابلس الى محمد بن ملكشاه السلجوقى بعظيم ما ارتكبه الفرنج، و تملك الحصون و المعامل، و الفتك بالمسلمين و مضايقة ثغر طرابلس، و الحض على تدارك الناس بالمعونه، فوقع خلاف بين الأمراء الذين انتدبهم صاحب حلب و دمشق و غيرهما فى جهات الرجة، و التقوا مع عسكر قلعج أرسلان فى أراضى الموصل، و نسوا الغرض الذى ندبوا إليه. و قلعج أرسلان التركمانى هو الذى أعان ملك الروم فى القسطنطينية على بيمند ملك الفرنج، فاستظهر الروم و التركمان على الفرنج و كسروهم كسرة شنيعة أتت على أكثرهم بالقتل و الأسر و تفرق الباقي منهم عائدين الى ديارهم.

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٤٢

حروب الصليبيين و دولة طغتكين و بقايا السلجوقيين «من سنة ٥٠٠ الى ٥٢٢»

هدنة طغتكين للصليبيين و شدته عليهم:

انسلخ القرن الخامس، و أهم ما دهم القطر فأوقع الاضطراب فيه، انهيار جيوش الصليبيين عليه، و تبلج القرن السادس و الصليبيون فى الشام، منذ عشر سنين، استصفوا الساحل و بعض الداخل، و الحرب بين أمراء الشام و بين الفرنج على أشد حالاتها، و شعر أمراء

المسلمين بالخطر المدهم لكن القوى لم تؤخذ، و كيف يخضع صاحب آمد لصاحب دمشق أو صاحب حلب لصاحب الموصل؛ و كل منهم يدعى التفوق و يود لو ينال من جاره ليكون له الأمر كله، و كان طغتكين صاحب دمشق يحمل العبء الثقيل لأن مملكته تتاخم أرض فلسطين، و ملوك الأطراف أبعد ديارا، و كان همه قتال الأعداء من الجنوب و الغرب، و حفظ الموازنة مع صاحب حلب حتى لا يستخذى فتسقط دمشق بل الشام بأسره.

و أهم الأحداث في العقد الأول من هذا القرن إقامة صاحب القدس على تل المعشوقه في صور (٥٠١) بناء، و مصانعه و اليها على سبعة آلاف دينار، و اشتداد الأمر بابن عمار في طرابلس لحصار الفرنج و مضيه الى بغداد مستنجدا، و قد استتاب ابن عمه أبا المناقب، فنادى بشعار الأفضل صاحب مصر، فقبض عليه و حمل الى حصن الخوايبي. و طال مقام ابن عمار في مدينة السلام على غير طائل، و أنفذ الأفضل من مصر الى طرابلس

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٣

في البحر الغلة و الميرة و واليا من قبله فتسلم البلد. و أسرى صاحب دمشق الى طبرية و فرق عسكره فرقتين، نفذت إحداها الى فلسطين، و أغار بالثانية على طبرية، و أحاطت الخيل بصاحب طبرية و بأصحابه فقتل أكثرهم. و نهض صاحب القدس الى صيدا بزا و بحرا و نصب برج الخشب عليه، و وصل الأسطول المصري فظهر على مراكب الفرنج و عسكر البر و اتصل بهم نهوض العسكر الدمشقي لحماية صيدا فرحلوا عنها.

و تسلم الفرنج عرقه بالأمان (٥٠٢)، و كان أنجدها صاحب دمشق فعاثته الثلوج و الأمطار عن الوصول إليها، فرجع الى حصن الأكمة مقاتلا، ثم رحل عنه شبه المنهزم الى حمص. و نزل الفرنج على طرابلس و شرعوا في قتالها و مضايقة أهلها زهاء أربعة أشهر، فشمّل اليأس أهلها لتأخر وصول الأسطول المصري في البحر، فملكها الفرنج بالسيف «و نهبوا ما فيها و أسروا رجالها و سبوا نساءها و أطفالها و حصل في أيديهم من أمتعتها و ذخائرها و دفاتر دار علمها، و ما كان منها في خزائن أربابها، ما لا يحده عدده و لا يحصر، و نزل بأهلها أشد البلاء، و تقرر بين الفرنج و الجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد و ما نهب منه، و الثلثان لريمند بن صنجيل و أفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضى به». و ذكر النويري أن السبب الذي دعا أهل طرابلس الى التسليم، أنهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحرا من مصر، جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم لاسم الخليفة الفاطمي جارية جميلة كانت في طرابلس و خشب مشمش يصلح لعمل عود و غيره من آلات الطرب.

و بعد فتح طرابلس سار الفرنج الى جبله، و سار جاولي الى بالس، فهرب من بها من أصحاب الملك رضوان صاحب حلب، فحصرها خمسة أيام و ملكها بعد أن نقب برجا من أبراجها. و افتتح السرداني المتغلب على عرقه حصن بانياس، و نزل على ثغر جليل و فيه ابن عمار فخرج منه بالأمان، و وصل الأسطول المصري بعد أخذ طرابلس فأقام بالساحل مدة و فرقت الغلة في جهاتها، و تمسك به أهل صور و صيدا و بيروت، و شكوا ضعفهم عن مقاومة الفرنج. و فيها كان المصاف بين جاولي و بين

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٤

طنكري صاحب أنطاكية، و سبب ذلك على ما رواه ابن الأثير أن الملك رضوان كتب الى طنكري يعرفه ما عليه جاولي من الغدر و المكر و الخداع و يحذره منه و يعلمه أنه على قصد حلب، و أنه إن ملكها لا- يبقى للفرنج معه بالشام مقام، و طلب منه النصرة و الاتفاق على منعه، فأجابه طنكري الى منعه، و برز من أنطاكية، فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس. و لما وقعت الحرب لم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية، ثم انهزم جاولي و بقيه عسكره، و قتل من المسلمين خلق كثير، و نهب صاحب أنطاكية أموالهم و أثقالهم و عظم البلاء عليهم من الفرنج، و هرب القمص و جوسلين الى تل باشر، و التجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل و داويا الجرحى و كسوا العراة و سيراهم الى بلادهم.

و فيها كانت حرب شديدة بين طغتكين و الفرنج على طبرية، و اشتد القتال فانهزم المسلمون، ثم نادى طغتكين بالمحاربين و شجعهم،

فعاودوا الحرب و كسروا الفرنج و أسروا ابن أخت ملك القدس، و حمل الى طغتكين فعرض طغتكين عليه الإسلام فامتنع، و بذل في فداء نفسه ثلاثين الف دينار و إطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام و قتله بيده. ثم اتفق طغتكين و بغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين. و لما انهزم طغتكين على طرابلس و وصل الى حمص بعسكره على أقيح حال أرسل إليه ملك القدس يقول له: لا- تظن أنني أنقض الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة. فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم الى الانتظام و الاستقامة، و كان طغتكين خائفا أن يقصده بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما أراد.

و هادن صاحب دمشق ملك بيت المقدس على أن يكون السواد و جبل عوف أثلاثا، للتركمان الثلث و للفرنج و الفلاحين الثلثان. و جاء ابن عمار الى دمشق فأقطعه صاحبها الزبداني و أعمالها (٥٠٣) و كان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده، لم يترك بابا من أبواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس إلا طرقه، حتى دفعهم بعقله و حسن إدارته عن تملكها عشر سنين. و كان في طريق رجعتهم كالحسكة

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٥

في الحلق، و في معاملته ملوك الأ-طراف نموذج الدهاء السياسي، و هو على صغر جرم مملكته يطاول و يحاول و ينازل و يفاوض و يلين و يقسو.

و نهض الفرنج (٥٠٣) الى رغبة و ترددت بينهم و بين أمراء الشام مراسلات أفضت الى تقرير المودعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع، و يسلم إليهم حصن المنيطرة و حصن عكار، و أن لا- يتعرض لحصن مصياف و الخوابي و حصن الأ-كراد و حصن الطوبان، و أن يحمل إليهم مال عنها و عن حصن الطوبان، و أقاموا على ذلك مدة ثم عادوا الى الفساد، و خرج صاحب أنطاكية و استولى على طرطوس و قرر على شيزر عشرة آلاف دينار و تسلم حصن الأ-كراد و عاد الى أنطاكية، و نزل بغدوين صاحب القدس و ابن صنجيل صاحب طرابلس الى بيروت، و سار إليهم جوسلين صاحب تل باشر لمعاونتهم و استنجاههم على الأمير مودود ابن التونتكين صاحب الموصل. و جاء الأسطول المصري مؤلفا من ١٩ مركبا و فيه الرجال و الميرة فدخلوا ثغر بيروت فقويت نفوس أهلها، فبعث بغدوين الى الجنوبية في ثغر السويدية فجاءوا في أربعين مركبا، و زحفوا برا و بحرا و فعلوا ما فعلوه في طرابلس من القتل و الحرق و النهب و ملكوا بيروت، ثم نزل بغدوين على صيدا فسلمها أهلها و استمهلوه مدة عينوها فأجابهم و أخذ منهم إتاوة. و راسل و الى بعلبك كمشتكين الفرنج بالتماس المصافاة، و بعثهم على شن الغارات على الأطراف، فزحف صاحب دمشق عليه فجنح المقاتلة الى الدخول في الطاعة، و استولى على البلد و عوض و اليها عن بعلبك بحصن صرخد.

اجتماع كلمة أمراء المسلمين و إنجاد بغداد للشام:

اجتمع صاحب إرمينية و ميافارقين و صاحب الموصل و غيرهم على جهاد الفرنج، و قصدوا الرها و ضايقوها فأشرف من بها على الهلاك لقلعة القوت، فشرع أصحاب أنطاكية و طرابلس و القدس بالذود عنها، و نهض صاحب دمشق في عسكره و خيم على سلمية، و ظهر الفرنج في رغبة فقاتلهم و اليها شمس الخواص، و رحل الفرنج الى قصد الزها فخف صاحب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٦

دمشق الى الرقة و قلعة جعبر و قطع الفرات، و تلوم هناك الى أن عرف خبر الفرنج و أنهم قد أحجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الإسلامية و طلائعهم في عامة المسالك الى الفرات. و لما أدرك المسلمون قرب الفرنج منهم اتفقت الآراء على الإفراج لهم ليتمكنوا من لقاءهم في الفضاء من شرقي الفرات، و رحلوا عن الزها و نزلوا أرض حران مكررا و خديعة، ففطن الفرنج لهذا التدبير فأجفلوا ناكسين على الأعقاب الى شاطيء الفرات، فنهض المسلمون في أثرهم و غنموا سواد الفرنج و أثقالهم، و أتوا على العدد الدثر من أتباعهم قتلا و تغريقا في الفرات. و في هذه الأيام تأكدت أسباب الألفة بين صاحب دمشق و ملوك الشمال.

لما تفرقت العساكر الإسلامية أغار بغدوين على الرها، و كانوا رتبوا فيها جماعة من الأرمن لحفظها، و بلغ ذلك صاحب حلب و ما أصاب الفرنج من الهزيمة فاستعاد ما كان غلب الفرنج عليه و آغار على أنطاكية.

ثم جاء الفرنج عقيب ذلك فأفسدوا في أعمال حلب و قتلوا و اسروا خلقا كثيرا. و عاد طنكرى على الأثارب و ملكها بعد طول حصارها كما ملك زردنا، و استقرت المواقعة بعد ذلك بين صاحب حلب و طنكرى على أن يحمل إليه الأول من مال حلب كل سنة عشرين ألف دينار و أن يفك الأسرى.

و وصل بعض ملوك الفرنج في البحر في نيف و ستين مركبا مشحونة بالرجال لقصد الحج و الغزو في ديار الإسلام، فاجتمع مع صاحب بيت المقدس و نزلا على صيدا و ضايقاها برا و بحرا، فلما عاين من بصيدا ذلك ضعفت نفوسهم و أشفقوا أن يصيبهم ما أصاب بيروت، و قد قتل الفرنج يوم أخذوها و اليها و أعيانها، فخرج إليهم قاضيها و جماعة من شيوخها و طلبوا الأمان، فأمنهم فاستحلفوه على ذلك، و خرجت الحامية و خلق من أهلها الى دمشق، و قرر بغدوين على من أقام بها نيفا و عشرين ألف دينار فأفقرهم و استغرق أموالهم.

و أغار بغدوين على عسقلان (٥٠٤)، و كان صاحبها شمس الخلافة يرأسه، فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله إليه و يرحل عنه، و انتهى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٧

الخبر الى الأفضل بمصر فأنكر ذلك، و جهز عسكرا كثيرا الى عسقلان، فلما قرب منها أظهر شمس الخلافة الخلاف على الأفضل فغالطه الأفضل، و خاف شمس الخلافة من أهل البلد فاستدعى جماعة من الأرمن فأثبتهم في عسقلان، ثم وثب به قوم من كتامة و قتلوه. و سار الى بغداد رجل من أشرف الهاشميين في حلب و جماعة من الصوفية و التجار و الفقهاء، و انزلوا الخطيب في جامع السلطان عن المنبر و كسروه، و صاحوا و بكوا لما لحق الإسلام من الفرنج، و منعوا الناس من الصلاة، و عملوا في الجمعة التالية مثل ذلك في جامع الخليفة، فأوعز السلطان الى الأمراء المقدمين بالتأهب للمسير الى الجهاد.

و وصل رسول ملك الروم بمراسلات للبعث على قصد الفرنج و الاجتماع على طردهم قبل إعضال خطبهم، و يقول إنه منعهم من العبور الى أرض المسلمين و حاربهم، و إذا ضعفت عزائم قومه عن المقاومة، اضطر الى مداراتهم و إطلاق عبورهم الديار الإسلامية، و بالغ في الحث على حربهم، و نقض بغدوين الهدنة المستقرة بينه و بين صاحب دمشق، فخرج هذا الى اللجاء و نهض الفرنج في أثره الى الصنمين، ففرق صاحب دمشق العسكر من عدة جهات، و بث في المعابر و المسالك خيلا يمنعهم من حمل الميرة إليهم حتى ألجأهم الى المسالمة، على أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف و السواد و الحثانية مضافا الى ما في يده من هذه الأعمال التي تليها في أيدي العرب من آل جراح.

لما قرر ملك بغداد إنهاء العسكر عقيب استغاثة الشاميين بالخليفة و السلطان تقدم من الأمراء لإنجادهم على قتال الصليبيين صاحب الموصل، فافتتح تل مراد و عدة حصون هناك بالسيف و الأمان. و وصل إليه الأمير أحمد ديل الكردي في عسكر كثيف، و الأمير قطب الدين سقمان من بلاد إرمينية و ديار بكر و صاحب همذان فنزلوا على تل باشر و نقبوه فأنفذ جوسلين صاحب تل باشر الى الأمير أحمد ديل يلاطفه و يهاديه و يبذل له الكون معه و الميل إليه، و كان أكثر العسكر مع أحمد ديل و سأله الرحيل عن الحصن فأجابه الى ذلك على كراهية من باقى الأمراء، و عادوا عن

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٨

تل باشر الى حلب و عاشوا في أعمالها و فعلوا أقيح من فعل الفرنج، و وصل إليهم في حلب صاحب دمشق و معه رجال حمص و حماة و رفية و سائر المعاقل الشامية، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد و لا حماية بلاد، و استجروهم الى المعرة فظهر له من سوء نية المتقدمين فيه ما أوحشه منهم، و جعل يحرضهم على قصد طرابلس فلم يفعلوا و تفرقوا أيدي سببا، فلما علم الفرنج برحيل العساكر

نزلوا أفاعية و في رأسهم أصحاب القدس و طرابلس و أنطاكية، و قد صاروا بعد التباين و المنافرة و الخلف يدا واحدة على المسلمين، و كانت خيل هؤلاء مثل الفرنج إلا أن راجلهم أكثر، و ناوشوا الفرنج على غير طائل.

غارات المسلمين و غارات الصليبيين:

و ملك فرنج أنطاكية حصن الأتارب و قتلوا منه ألفى رجل و أسروا الباقين، ثم ملكوا زردنا ففعلوا كذلك و قصدوا منبج و بالس فوجدوهما خاليتين فعدوا أدرجهم. و وقع الخوف في قلوب أهل الشام من الفرنج، فبذل لهم المسلمون أموالا و صالحوهم، صالحهم صاحب حلب على اثنين و ثلاثين ألف دينار، و أهل صور على سبعة آلاف دينار، و صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، و صاحب حماة على ألفى دينار. و ذلك لأن الفرنج امتنعوا من مهاندنة ملوك الشام إلا على قطيعة يأخذونها الى مدة يسيرة. و لو كان ملوك الشام إذ ذاك على شىء من الوحدة في الرأي، لما أقطعوا الفرنج القطائع، و لما هادنوهم، خصوصا و قد خرق الفرنج مرات قانون المهادنات و الموادعات، و بعض المنكرين يعذرونهم على عملهم الفظيع في تلك العصور لأنهم كانوا دون المسلمين في كل أمر من أمورهم العلمية و الحربية و الاجتماعية.

و في هذا العقد (٥٠٥) جهز السلطان محمد عسكرا، فيه صاحب الموصل و غيره من أصحاب الأطراف الى قتال الفرنج بالشام، فساروا و نزلوا على الرها فلم يملكوها، و وصلوا الى حلب فخافهم صاحبها و لم يفتح لهم أبوابها، ثم ساروا الى المعرة و تفرقوا. و فيها أنجد صاحب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٦٩

دمشق أهل صور، و كان أغار عليهم بغدوين، و سار وخيم ببانياس و بث سراياه و رجاله في أعمال الفرنج، و نهض الى حصن الحبيس في السواد، فملكه بالسيف و أغار على صيدا و أحرق عشرين مركبا من مراكب الفرنج، و بعد أن عمل الفرنج كباشا كبيرة لتعلق على السور رماها أهل صور بالنفط و الزيت مرات، و أقاموا على محاصرة صور أربعة أشهر و نصف، ثم قصدوا عكا و تفرقوا في أعمالهم.

نزل أهل صور (٥٠٦) عن بلدهم لصاحب دمشق لما أعيتهم الحيل في الدفاع فتسلمها، و أقام الدعوة و السكة على ما كانت عليه لصاحب مصر و لم يغير لهم رسما، مع أن سائر الشام كانت طاعتها للعباسيين و دعوتها لهم، و ذلك حبا بدوام الصلات مع صاحب مصر حتى لا ينقطع مدده عن الساحل. و ضبط صاحب القدس القافلة الدمشقية بينا كانت سائرة الى مصر، بدلالة أناس من العرب البدو، و اشتمل الفرنج على ما فيها من الأمتعة و البضائع، و حصل لبغدوين منها خمسون ألف دينار و ثلاثمائة أسير، و لم يبق بلد في الشام إلا أصيب بعض تجاره و أهله بأموالهم.

و تواترت غارات بغدوين على عمل البثنية، و جمع صاحب الموصل عسكره من الأتراك و الأكراد و قطع الفرات الى الشام، و كذلك صاحب سنجار و صاحب ديار بكر، و كان الصليبيون يكتابون صاحب دمشق على أن يتركوا له حصن تبين و جبل عامل و يعوضوا عن ذلك بحصن الحبيس جلدك الذي في السواد و نصف السواد من البلقاء و يتركوا التعرض لشيء من أعمال دمشق، و لا يعرض هو لشيء من أعمال الفرنج، فلم يجب الى ذلك، و نهض في جيشه للقاء صاحب الموصل و الاجتماع به على الجهاد، فاجتمعا بمرج سلمية و اتفق رأيهما على قصد بغدوين، و سارا و قد استصحب صاحب دمشق جميع العسكر و من كان بحمص و حماة و رافية، و نزلا- بقدس فعين الجر بالبقاع فوادى التيم ثم نزلا- على بانياس، و نهضت فرقة من العسكر فقصدت ناحية تبين، فلم يظفروا منها بمراد، و وصل إليها بغدوين، و قد كان لما يشس من إجابته صاحب دمشق الى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٠

الموادعة واصل الغارات و الفساد، ثم نهض صاحب دمشق و نزل على الأقحوانة على بحيرة طبرية، فنشب الحرب بين المسلمين و

الفرنج غربى جسر الصنيرة مقابل عقبه أفق، فانتصر المسلمون بعد ثلاث كرات و غرق من الفرنج خلق كثير فى البحيرة، و قتل نحو ألفى رجل من أعيانهم و أبطالهم، و أقام المسلمون على الجبل و طلع الفرنج إليه و تحصنوا به و هو من غربى طبرية، و استنفر أمير دمشق العرب الطائيين و الكلابيين و الخفاجيين فوصلوا بخلق كثير بالمزادات و الروايا و الإبل لحمل الماء، و صعدت الطلائع الى الجبل من شماله، و علم المسلمون أن الظفر قد لاحت دلائله، و العدو قد ذلّ، و أغارت بعض سرايا المسلمين على أرجاء القدس و يافا و نهبت بيسان و لم يبق بين عكا و القدس ضيعة عامرة. ثم تفرق المسلمون و عادوا الى كورهم.

و أرسل ملك القدس الى والى صور (٥٠٧) يريده على المهادنة و المواعدة لتحسم أسباب الأذية عن الجانبين فأجابته الى ذلك، و أمنت السابلة و التجار و السفار، و استقرت الحال بينهما على المهادنة فأمنت المسالك و صلحت الأحوال، بعد أن ذاق الفرنج بأس ملوك الشام و الجزيرة على الأقحوانة.

و كان صاحب القدس من أعظم ملوك الفرنج بالشام جيشا و مكانة. و كان من جملة من حضر فى هذه الوقعة عند طبرية الأمير مودود بن التون تكش صاحب الموصل. و فى سنة ٥٠٨ قتل آلب أرسلان بن رضوان صاحب قلعة حلب، قتله غلمانة بقلعتها و أقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان، و كان لما ملك حلب جرى على قاعدة أبيه فى أمر الإسماعيلية، و كان بنى لهم بحلب دار دعوة، فطلبوا منه أن يعطيهم القلعة فأجابهم الى ذلك، فقيح عليه القاضى ابن الخشاب فعله، فأخرجهم بعد أن قتل منهم ثلاثمائة نفس و أسر مائتين و طيف برؤوسهم فى البلد.

و أمر السلطان محمد بن ملكشاه (٥٠٨) الأمراء و أصحاب الأطراف بالمسير صحبة آق سنقر البرسقى لقتال الفرنج بالشام، و جرى بين البرسقى و إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين قتال انتصر فيه إيلغازى و هرب البرسقى. ثم خاف إيلغازى من السلطان، فسار الى صاحب دمشق فاتفق

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧١

معه و كاتب الفرنج و اعتضدا بهم. قال ابن الأثير: و كان طغتكين قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود، فاتفقا على الامتناع و الالتجاء الى الفرنج و الاحتماء بهم فراسلا صاحب أنطاكية و حالفاه، فحضر عندهما على بحيرة قدس فى حمص و جددوا العهود، و عاد الى أنطاكية و عاد طغتكين الى دمشق.

و أرسل السلطان محمد ملكشاه (٥٠٩) عسكريا ضخما لقتال صاحب دمشق و صاحب ماردين فعبروا الفرات من الرقة و قصدوا حلب، فعصت عليهم، ثم فتحوا حماة عنوة و نهبوا ثلاثة أيام ثم سلموها الى قيرخان ابن قراجه صاحب حمص، و اجتمع بأفامية طغتكين و إيلغازى و ملوك الفرنج صاحب أنطاكية و صاحب طرابلس و غيرهم، و أقاموا بأفامية ينتظرون تفرق المسلمين، ثم تفرق الفرنج و سار طغتكين الى دمشق و إيلغازى الى ماردين.

و فتح المسلمون كفرطاب و قتلوا من بها من الفرنج و ساروا الى المعرة ثم الى حلب فكبسهم صاحب أنطاكية فى الطريق فانهزموا، و وضع الفرنج السيف فى المسلمين فهرب من سلم منهم. و استولى الفرنج على رافية فاسترجعها منهم صاحب دمشق و قتل من بها منهم، و هادن الأفضل مدبر مملكة الأمر الفاطمى بغديون صاحب القدس، و كان قد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة فرأى الأفضل مهادنته لعجزه عنه. و جمع صاحب طرابلس (٥١٠) جموعه و نهض الى البقاع لإخراجه، فخف إليه صاحب الموصل و صاحب دمشق فى بعض عسكريهما، و سارا الى البقاع، و الفرنج غارون فى مخيمهم، فأطلق السيف فيهم قتلا و أسرا ففقد منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف و عاد صاحب الموصل الى بلده بعد استحكام المودة بينه و بين صاحب دمشق، و الموافقة على الاعتضاد فى الجهاد، متى حدث أمر أو حزب خطب.

و في العقد الثاني من القرن السادس هادن (٥١١) المتولى أعمال حلب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٢

الفرنج و وادعهم و سلم إليهم حصن القبة، و هجم الفرنج على ربض حماة و قتلوا من أهلها، و خاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد الى نجم الدين إيلغازى، فلما تسلمه لم يجد فيه مالا و لا ذخيرة لأن الخادم لولوا الذى كان مستوليا على صاحبها سلطان شاه بن رضوان كان فرق كل ما فيها.

و سار طغتكين (٥١٢) عن دمشق لقتال الفرنج، فنزل بين دير أيوب و كفر بصل فخفيت عنه وفاة بغدوين ملك القدس، حتى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوما و بينهم نحو يومين، فأتته رسل ملك الفرنج بطلب المهادنة فأقترح عليه طغتكين ترك المناصفة التى بينهم من جبل عوف و الحيازية و الصلت و الغور فلم يجب الى ذلك و أظهر القوة، فسار طغتكين الى طبرية فنهبها و ما حولها، و سار منها نحو عسقلان و سلم بنو أخى القاضى شرف الملك بن الصليعة حصن بلاطس لروجار صاحب أنطاكية فأقطعهم فى أعمال اللاذقية عوضا منه و سكنوا تحت يده.

و برز (٥١٣) صاحب أنطاكية فيمن حشده من طوائف الفرنج و رجاله الأرمن فى ثلاثة آلاف فارس و تسعة آلاف راجل سوى الأتباع الى سرمد و قيل دانيث البقل بين أنطاكية و حلب و قيل تل عفرين، فطار إليهم المسلمون بقيادة صاحبى حلب و الموصل فى عساكر التركمان و الأكراد و العرب فى عشرين ألفا، فقتلوا الفرنج بحيث لم يفلت منهم غير من يخبر خبرهم، و قتل ملكهم روجر و بقيت أنطاكية شاغرة من حماتها، ثم فتح المسلمون الأثارب و زردنا.

و عاد إيلغازى الى حلب و قرر أمرها و أصلح حالها بعد أن أخبرها الفرنج و نازلوها، و كان فى جملة الأسرى نيف و سبعون فارسا من مقدميهم حملوا الى حلب فبدلوا فى نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم. قال ابن الأثير فى وقعة الفرنج فى تل عفرين و كانوا يظنون أن أحدا لا يسلك إليهم لضيق الطريق فأخذوا الى المطاوله، و كانت عادة لهم إذا رأوا قوة من المسلمين.

و سار جوسلين صاحب تل باشر ليكبس بنى ربيعه، فوقع بينهم قتال انتصر فيه أمير بنى ربيعه، و أسر من الفرنج عدة كثيرة. و جمع صاحب

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٣

ماردين التركمان و غيرهم و التقى مع الفرنج عند دانيث البقل و جرى بينهم قتال شديد انتصر فيه صاحب ماردين و انهزم الفرنج. و وصل كندهرى ملك الفرنج فى المراكب، و ملك أكثر المعاول، و وقعت الهدنة بين صاحب حلب و بين الفرنج و تقررت المسالمة، و قيل: إن جوسلين أغار على العرب و التركمان النازلين بصفين قرب قرية جعبر على الفرات و غنم منهم و فى عوده خرب حصن بزاعة.

و أغار كندهرى على أذرعات و أطراف دمشق و كان صاحبها بالبثنية فبعث بولده بورى مع الجيش و أقام هو موضعه رداء له فالتقوا فظهر الفرنج على بورى، فعاد الى أبيه و دخلا دمشق، و مضى طغتكين الى حلب مستصرخا بنجم الدين إيلغازى و كان أول ما ملكها فأقام عنده و شرع بجمع العساكر، و اغتنمت الفرنج غيبته فقصدوا دمشق، و وصلوا الى حوران فالتجأ أهله الى اللجاء، فأتهم الفرنج الى و عرة اللجاء فقتلوا و أسروا، و لما بلغ أهل أنطاكية هذا جمعوا و حشدوا و قصدوا حلب فى خمسة آلاف فارس و ثمانية آلاف راجل فخرج إيلغازى و عمل كميناً، فلما التقى الفريقان ظهر الكمين و ضربوا البوقات و الطبول فظنوه صاحب دمشق قادما من ورائهم، و كان نجم الدين إيلغازى أشاع أن طغتكين واصل من دمشق و ما كان إلا جريده عنده فانهزم الفرنج و عمل فيهم السيف قتلا و أسرا. و فى سنة ٥١٤ نهض الأمير معن من البقاع بعشيرته و رهطه و نزل فى جبل الشوف، و كان قفرا خاليا من السكان، و جعل له مودة مع آل تنوخ أمراء عرب جبل لبنان، و كان أميرهم إذ ذاك الأمير بحتر التنوخى فبنى له و لخاصته دورا ليستعريض بها الأمير معن عن المضارب، و أخذ يقصد دياره أهل كل ديار استولت عليها الفرنج و بقى أميرا فيه نحو ثلاثين سنة و هو أصل الأمراء آل معن و إليه

ينتسبون. و صار الجبل ينسب إليهم فيقال جبل بيت معن كما يقال جبل بنى عوف و جبل بنى هلال.

و كان بين نور الدين بلوك بن أرتق (٥١٥) و بين جوسلين على

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٤

الزها حرب انتصر فيها بلوك و قتل من الفرنج، و أسر جوسلين و أسر معه ابن خالته و أسر جماعة من فرسانه المشهورين عند سروج و بذل جوسلين في نفسه أموالا كثيرة فلم يقبلها بلوك و سجنه و أصحابه في قلعة خرتبرت، و في سنة ٥١٥ عصى سليمان بن إيلغازى بن أرتق على أبيه بحلب، حسن له ذلك إنسان من حماة من بنى قرناص، و كان قدمه إيلغازى على أهل حلب، و بلغ إيلغازى ذلك فسار مجدا من ماردين و هجم حلب و قطع يدى ابن قرناص و رجله و سمل عينيه، و هرب ابنه الى طغتكين بدمشق و استتاب ابن أخيه عبد الجبار، و خرج صاحب حلب (٥١٦) في عسكره و قطع الفرات و صادف الفرنج فأتلف ما ظفر به في أعمالهم. و توفى إيلغازى بن أرتق و كان بحلب ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار فبقى فيها الى أن أخذها ابن عمه، فسلم سليمان قلعة الأثارب الى الفرنج، فعظم ذلك على بلوك بن بهرام و علم عجزه عن حفظ بلاده فقوى طمعه في ملكها، فسار إليها و نازلها و ضايقها و منع الميرة عنها و أحرق زروعها، فسلم إليه ابن عمه البلد و القلعة بالأمان سنة ٥١٧.

و وصل الأسطول المصرى الى صور، و جمل والى صور سيف الدين مسعود الى مصر، و كانت عاقبة خروجه منها خروجها بالأمان من أيدي المسلمين الى الفرنج بعد سنتين. و نهض بغدوين (٥١٧) في عسكره الى ناحية حلب، و صاحبها منازل حصن كركر، فالتقيا بالقرب من منظره فكسره و أسره مع جماعة من وجوه عسكره و اعتقله في جب قلعة خرتبرت مع جوسلين و مقدمى الفرنج الذين كان أسرهم قبل عامين، و استنجد صاحبها دمشق و حلب بالخليفة الأمر في مصر فجهز أسطولا مؤلفا من أربعين شينيا فيها عشرون أميراً و هدايا فسار العسكر الى يافا و أقام عليها ستة أيام و رحل عنها، و قد تخاذل عنه ملوك الشرق و رجع الى مصر، فوافاه الفرنج على يبنى، فانكسر العسكر المصرى من غير مصاف.

و ملك الأمير بلوك حصن البارة و أسر أسقفها. و هرب بغدوين و جوسلين و غيرهما من مقدمى الفرنج من أسر الأمير بلوك في خرتبرت و ملكوا القلعة فاستعادها الأمير من الفرنج اللواتيين عليها. و هزم جيش الفرنج جيش

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٥

المسلمين، و فيهم جيش دمشق على قلعة عزاز، و تفرق المسلمون بعد قتل من قتل و أسر من أسر.

قلنا: إن الفرنج ملكوا مدينة صور (٥١٨) بالأمان بعد حصار طويل، و كانت للخلفاء العلويين أصحاب مصر، و قد ثبت أهل صور نحو خمس و عشرين سنة على قتال الفرنج مع قلعة المنجد لهم من مصر، يقول ابن تغرى بردى: إن سبب سقوط صور خروج سيف الدين مسعود منها، و كان قد حمل الى مصر و أقام الوالى الذى بها فى البلد، و هذه زيادة فى النكاية للمسلمين من صاحب مصر فإن سيف الدين المذكور كان قائما بمصالح المسلمين، و فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم و حفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذه منها غصبا و دخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج، فكان حال المصريين فى أول الأمر أنهم تقاعدوا عن نصره المسلمين و الآن بأخذهم سيف الدين من صور صاروا نجدة للفرنج.

و كانت صور آخر ما ملكه الفرنج من الساحل.

و فى سنة ٥١٨ ملك آق سنقر البرسقى حلب و قلعتها و سبب ذلك أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور، طمعوا و قويت نفوسهم، و تيقنوا الاستيلاء على الشام كله، ثم وصل إليهم ديبس بن صدقة صاحب الحلة فأطمعهم طمعا ثانيا لا سيما فى حلب و قال لهم: إن أهلها شيعة و هم يميلون إلى لأجل المذهب، فمتى رأونى سلموا البلد إلى، و بذل لهم على مساعدته بذولا كثيرة، و قال: إننى أكون ههنا نائبا عنكم و مطيعا لكم، فساروا معه إليها و حصروها و قاتلوا قتالا شديدا، و وطنوا نفوسهم على المقام الطويل.

و أخذ الفرنج فى بناء بيوت لهم ظاهر حلب فعظم الأمر على أهلها، و لم ينجدهم صاحبها تمرناش بن إيلغازى بن أرتق لإيثاره الدعء

و الرفاهة، فكتب أهل حلب آق سنقر البرسقى صاحب الموصل فسار إليها، فأجفل الفرنج منهزمين، ثم صلحت أحوال حلب و عمرت أعمالها بعد أن حاصرت مدة و لقي أهلها شدة حتى أكلوا الميتة، و لم يكن عندهم أمير، و إنما تولوا حفظ الأمن بأنفسهم و أبلوا بلاء حسنا حسنت به العاقبة. و أخذ البرسقى

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٤

(٥١٩) كفرطاب من الفرنج و سار الى عزاز، فاجتمعت الفرنج لقتاله فاقتتلوا، فانهزم البرسقى و قتل من المسلمين خلق كثير و انهزموا راجعين أدراجهم. و قصد صاحب بيت المقدس حوران للعيث فيها فخرج إليه صاحب دمشق فى التركمان و أحداث دمشق و الغوطة و المرج و أحداث الباطنية فانهزم المسلمون و تتبع الفرنج المنهزمين حتى وصلوا الى عقبه سحورا و قربوا من شرخوب مع بعد المدى. و قصدت الفرنج ريفية و استعادوها من المسلمين. و اجتمع المسلمون و الفرنج فى مرج الصفر عند قرية شقحب من عمل دمشق و اشتد القتال فانهزم صاحب دمشق و الخيالة و تبعهم الفرنج، و نهب بعض الجند مخيم الفرنج و أثقالهم، و رجع الفرنج فى أثر المنهزمين و رأوا رجالهم قتلى و أموالهم منهوبة و ظلوا منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه، و كان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها.

مزايا حكم طغتكين:

كان الفرنج منذ وطئوا تراب الشام أوائل العقد الأخير من القرن الخامس الى أواخر العقد الثانى من القرن السادس يتساندون و قل أن يقع شغب بينهم، و ربما تقاتلوا ثم اجتمعوا على سلام، و تواكلوا و تآنسوا لأن موقفهم يدعوهم الى جمع الكلمة، و لئن ألفوا أربع إمارات متحدة فهى إمارة واحدة فى الواقع، و النجديات تأتتهم بحرا على مراكب أهل بيزة و جنوة مرة و مرتين فى السنة، لتعذر قطع البحار إلا فى فصل الصيف.

فرجال الحملة الصليبية الأولى هى التى كانت افتتحت ما افتتحت من الأصقاع و مادتها القليلة من الزوار و التجار من البحر. و ملوك الشام يأتتهم المدد من مصر و العراق و الجزيرة و ديار بكر و ديار مصر. و لو كتب للشمال أن يكون فى عاصمته حلب رجل عاقل كما كتب لدمشق أن يكون فيها مثل طغتكين، لتيسر إنقاذ البلاد و الإجهاز على أعدائها، و لما استطاع الفرنج أن يجبوا إتاوة من حلب و حماة و حمص و لنجت كما نجت دمشق من إرضاء الفرنج بالمال على عهد طغتكين.

حكم طغتكين دمشق منذ سنة ٤٩٧، و حكمه كان فى الحقيقة قبل عشر

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٧

سنين من تاريخ حكومته، حكمها بصورة شرعية بعد وفاة الملك دقاق ابن تتش بن آلب أرسلان و كان خطب أولا لابن دقاق، و كان دقاق خلف طفلا له سنة واحدة، فقطع طغتكين خطبته و خطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل، ثم قطع خطبة بكتاش و أعاد خطبة الطفل، و هو آخر من خطب له بدمشق من بنى سلجوق، و استوحش بكتاش من طغتكين خوفته والدته منه و قالت: إنه زوج والده دقاق و هى لا تتركه حتى يقتلك و يستقيم الملك لولدها، فخاف و حسن له من كان يحسد طغتكين مفارقة دمشق و قصد بعلبك و جمع الرجال و الاستنجد بالفرنج، و كان بكتاش فى الثانية عشرة من عمره و معه ايتكين الحلبي صاحب بصرى.

استمر طغتكين فى ملك دمشق خمسا و عشرين سنة حتى مضى لسبيله سنة ٥٢٢ و كان على غاية العدل و البعد عن الظلم، أعاد الى الرعية كثيرا من أملا-كهم التى اغتصبها منهم و لاء الجور، و جرت عليها أحكام المقاسمة، و أرجعها الى خراجها القديم، و أحيا الأراضي المعطلة، و باع ما كان منها شاغرا للناس ليعمروه، و صرف ما حصل من ثمنها فى الأجناد المرتبين للجهاد، فعمرت عدة ضياع و أجريت عيون، و حسنت بيابله طغتكين دمشق و أعمالها، و عمرت الأقاليم بجميل سياسته و حسن تدبيره، و كثرة إحسانه، و انبسطت الرعية فى عمارة الأملاك فى باطن دمشق و ظاهرها، و لذلك اشتد حزن الدمشقيين عليه، و لم تبق محلة و لا سوق إلا و المآتم قائمة

فيه عليه. قال ابن عساكر: كان طغتكين شهما مهيبا مؤثرا لعمارة ولايته، شديدا على أهل العيث و الفساد. وقال آخر في وصفه: إنه لا يشبه غيره من ملوك الطوائف، و كان على شيء من التدين حتى إنه لما عاون أهل صور على دفع الصليبيين سنة ٥٠٥ و لم يفوا له بما كانوا بذلوه له من تسليم البلد قال: إنما فعلت ما فعلت لله تعالى و للمسلمين لا لرغبة في مال و لا مملكة.

و كأن طغتكين كان مبشرا بظهور آل زنكى و آل أيوب في هذه الديار يردون حملة الغرب عن الشرق، و يكفونها معزة التفرق، و يجمعون كلمتها على الحق و المطالبة به فتصبح مملكة برأسها، تأتمر الأقطار المجاورة

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٨

بأمرها، و تسير معها الى الغاية التي هي تنشدها من رد عادية الصليبيين.

و كان في حذقه بسياسته كما قيل يستخدم الفضائل و الرذائل في الناس كما تستخدم الطبيعة فضول الأغذية فتجعلها في أشياء تنتفع بها. و لقد أوقف طغتكين سير الصليبيين عن التوغل في أحشاء المملكة، و قصر حكمهم على الساحل و على أنطاكية و القدس و طبرية، و لو لا قيامه ذاك القيام المحمود لفتح الصليبيون دمشق و حلب، و كثيرا ما كانوا يغزون ربضهما و ضاحيتهما، و اكتفى المسلمون و الفرنج بإضعاف قوى بعضهم بعضا تارة، و عقد المهادنات طورا، و لم تسف دمشق الى دفع الغرامات للصليبيين على عهد طغتكين معتبرة نفسها الأم و العاصمة أكثر من غيرها من حواضر الشام، و لو أخذت دمشق لاستصفى الشام كله و لا تقطع ما بين مصر و هذا القطر من الاتصال، و صعب بعد ذلك إخراج الفرنج منه، فبقاء الرابطة مع مصر من البر و من البحر الى أن سقطت صور، حصر الفرنج في بقعة معينة لا تتعدى الطريق الى بيت المقدس عن طريق الساحل.

و لو كان جميع أمراء الشام على مثل سيرة طغتكين، لخفت وطأة الفرنج كثيرا في هذه الثلاثين سنة، و ماذا يرجى من خير الأمراء إذا كان صاحب بعلبك يطلعهم على عورات المسلمين، و صاحب أفامية يقطع السابلة و ابنه يحث الفرنج على قصد بلد أبيه، و صاحب حمص يشارك قطاع الطريق و كذلك ابنه خير خان، و بأمثال هذه الطبقة لا تخلص الرعية و يتعذر سوق القوم الى طريق الخير، و هم لا يزالون مختلفين لأنهم يرون من عملهم أن يستعبدوا من صاروا إليهم و ينعموا و لو يهاولهم، لا أن يحافظوا على ملك و يدافعوا عن دمار. و لذلك كان ظهير الدين بسياسته الحسنة مع ملوك الأطراف المرجع في الشام، أطلق الخليفة العباسي يده فيه منذ سنة ٥٠٩ حربا و خراجا، و جعل ارتفاعه على إيثاره و اختياره، لما بان من حسن بلائه و جميل سيرته في رعيته. على حين بدلت حلب عدة ملوك خلال دوره، و كان بعضهم يتنازعون و يتفاشلون و يتقاتلون.

كانت أخبار المسلمين تصل الى الفرنج بسرعة، و الغالب أن هؤلاء برعوا في التقاط الأخبار أكثر من الذين نزلوا عليهم، فكان الفرنج عند ما

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٧٩

يبلغهم حادث في المسلمين يغيرون خططهم الحربية، و بالطبع كانوا يستخدمون لذلك أناسا من أبناء نحلته من الأرمن و غيرهم، و ربما كان للمسلمين أيضا شأن في ذلك طمعا في مال أو انتقاما من سلطان، و لعل الصليبيين وفقوا الى إمساك بعض ما كان ملوك الطوائف، يطرونه من حمام الزاجل، و يحلون البطائق الصادرة عن بعض الأمراء و القواد، فتكشف لهم أسرار خصومهم. فقد ذكر المؤرخون أن صاحب أنطاكية الصليبي أرسل الى عز الدين مسعود صاحب حلب يخبره بقتل والده قسيم الدولة آق سنقر البرسقى صاحب الموصل بيد الباطنية قبل أن يصل إليه الخبر، و كان قد سمعه الفرنج قبل لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية.

مؤاخذة الفاطميين و توقيف سير الفرنج:

و لقد أخذ المؤرخون الدولة الفاطمية على تهاونها في الغزو و الجهاد حتى روى ابن تغرى بردى، أن الأمر كان يتناهى في العظمة و يتقاعد عن الجهاد، حتى استولت الفرنج على غالب السواحل و حصونها في أيامه، و لئن كان وقع لأبيه المستعلى أيضا فأخذ القدس

فى أيامه، فإنه اهتم لقتال الفرنج و أرسل بدرا الجمالى بالعساكر فوصلوا بعد فوات الوقت أما الأمر فإنه لم ينهض لقتال الفرنج البتة، و إن كان أرسل مع الأسطول عسكرا فهو كلا شىء. قال: و لم ينهض أحد من المصريين لقتال الفرنج لما دخلوا الشام، فعلمت الفرنج ضعف من بمصر، و ظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه. الأول من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة، و الثانى لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر، و لو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج عن البحر، و الثالث عدم خروج الوزير الأفضل بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالى فى أوائل الأمر، هذا مع قوتهم من العساكر و الأموال و الأسلحة.

و يغلب على الظن أن الفاطميين دهشوا لغزو الفرنج الشام و لم يريدوا أن يثيروا حفاظهم لئلا يحصروا و كدهم بفتح دار ملكهم، و فتح مصر أسهل من الشام، لأنها سهول ليس فيها حصون طبيعية، و أفضل للبيت

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٠

العلوى أن تبقى له الديار المصرية و لو ذهب الشام بما فيه، و لذلك كان الفاطميون ينجدون الشام فى الأحيان لأول عهد دخول الفرنج إليه إنجادا ضعيفا، و أكثر نجداتهم و حملاتهم لم تثمر الثمرة المطلوبة بل خفت جزءا صغيرا من الشر مدة، و قوى ذلك قلوب بعض أهل الأرجاء المحصورة، و نفس خناقهم، و أوهمهم أن وراءهم قوة الفاطميين عند مسيس الحاجة يستصرخون بها فتنجدهم. و الحقيقة أن الفاطميين على قوتهم من العدد و العدد لم يستطيعوا أن يذبوا حقيقة عن عسقلان، و لا عن صور و صيدا و بيروت و طرابلس دع الأصقاع الأخرى، و إذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت فى أواخر أيام ضعفها هان علينا أن لا نطلب منها أن تعمل عمل الشباب.

و قد أنجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى و قللة المواصلات. و أبلى جند التركمان و الأكراد مع عرب الشام و الموصل البلاء الحسن فى هذه السيل، و لكن كانت القوى الصليبية عظيمة جدا لا قبل لهم بدفعها، فكان موقف المسلمين على الأغلّب موقف المدافع لا- المهاجم، و كان لأمرأ التركمان فى هذا الدور غير شديدة فى الجهاد، و لم يكن داخلهم الفساد الذى يدخل على البيوت و الدول، و لو كانت الآراء متجهة الى مقصد واحد لاستطاع المسلمون أن يدفعوا الفرنج عن هذا القطر على كثرة جيوشهم الجرارة قبل أن يتأصلوا فيه، و يطلعوا على مبلغ قوات أمرائه، و يتعلموا بحكم المجاورة ما كان ينقصهم من أصول الحرب، و بعض الصناعات و أعمال المدنية التى وجدوها فى الشام يومئذ على حصه موفورة، فاقتبسوها و نقلوها بعد الى أممهم غنيمه نافع من الشرق.

و قد حرص الفرنج أن يستولوا على قرى حلب و البقاع و حوران و السواد و البلقاء فى الأ-كثر ليقفوا بغلاتها لأن معظم القرى فى فلسطين كانت ساحات حرب لا تقوم بإطعام جيوشهم. و كان الفرسان فى حصون الفرنج يملكون القرى و يجبون الأموال من أهلها الأصليين، و يسلبون قوافل المسلمين. و فى التاريخ العام: «كانت الحرب فى الشرق كما هى فى الغرب تجارة رابحة، يقوم فرسان الفرنج و يغزون أرض المسلمين، و ينهبون

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨١

القرى و يخطفون السكان و يأخذونهم أسرى و يضطرونهم الى أن يفتدوا أنفسهم».

و على الجملة فإن أمرأ المسلمين فى هذا الدور لم يتلأوا فى الحقيقة عن تخفيف بلاء المهاجمين عن الشام، و قاتلوا فانهزموا و هزموا، و طاولوا و راوغوا، و هادنوا و عاهدوا، و قاربوا و ساددوا. و لكن الشام و الجزيرة، و معها العراق و مصر على قلته، لا تستطيعان دفع جيش مؤلف من أكثر أمم أوروبا، و متى كانت قوة قطر صغير، توازى قوى بر كبير، و من أين لأمرأ صغار لا- تربطهم رابطة محكمة، أن يقفوا فى وجوه ملوك من ورائهم قوة الباباوية، و ناهيك بها من قوة فى ذاك العصر.

انتهى الجزء الاول من خطط الشام

و يليه الجزء الثانى و أوله الدولة النورية

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٢

فهرست الجزء الأول من خطط الشام

صفحة

صدر الخطط ١-٦

تقويم الشام ٧-١٦

تعريف الشام للأقدمين ٧

معنى الشام وجمعه ٨

حد الشام قديما حقيقة حد الشام ٩

حدوده مع مصر ١٠

مساحة الشام و صورته ١١

مدخل الفاتحين الى الشام ١٢

مدن الشام و قراه ١٣

طبيعة الشام ١٤

خيرات الشام ١٤

هواء الشام و ماؤه ١٥

خصائص الشام ١٦

سكان الشام ١٧-٣٥

الأمو و اللودانو ١٧

الآراميون و العناصر الأخرى ١٩

العناصر القديمة و العرب ٢٠

دول العرب الأقدمين ٢١

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٣

صفحة

سليح و غسان و الضجاعم ٢١

التنوخيون ٢٢

المهاجرات و الإيطوريون ٢٣

سليح و عاملة و قضاة ٢٤

لخم، جذام، عاملة، ذبيان، كلب ٢٥

جهينة، القين، بهراء، تنوخ ٢٦

إياد و طيء و كنده و حمير و عذرة و زبيد و همدان و يحصب و قيس ٢٦

الفرس و الزط ٢٧

الأخلاق و السامرة و جذام و عذرة و نهد و جرم و الأزد ٢٨

قيس و يمن و إحصاء السكان ٢٩

المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارد ٢٩

الترکمان و الأتراک و الأکراد و الشركس و غيرهم ٣١

المهاجرون المحدثون: اليهود و الأرمن ٣٢

عوامل النمو ٣٣

العرب في الشام و الاختلاط ٣٣

لغات الشام ٣٦-٤٩

اللغة الآرامية و السريانية و العبرانية و الفينيقية و العربية ٣٦

البابلية و الكنعانية و الكلدانية ٣٧

الحيثية و الآرية و اليونانية و اللاتينية ٣٧

تنازع السريانية مع العربية ٣٨

رأى رنان ٣٩

آراء أخرى ٤٠

انتشار العربية ٤١

العربية لغة كاملة و فصاحة الشام ٤٢

كيف انتشرت العربية ٤٣

اللغة الصفوية ٤٣

خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٤

الصليبيون و لغاتهم، و العربية و لبنان ٤٤

اللغة التركية ٤٥

السواد الأعظم و العربية ٤٦

رسوخ اللغة ٤٧

الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط ٤٨

تاريخ الشام قبل الإسلام ٥٠-٦٨

أول شعب غزا الشام و الحثيون و الكنعانيون ٥٠

تعدد الحكام و الحكومات ٥١

الفراعنة و الآشوريون ٥٢

الفينيقيون و استقلالهم التجاري ٥٤

حروب الفرس و الإسكندر ٥٥

دولة السلاسة و ملك الأرمن ٥٦

دولة الرومان ٥٧

مملكة يهودا و انقراض اليهود ٥٨

الإيطوريون و النبطيون ٥٩

- دولة تدمر ٦١
 زينب أو زنوبيا أو الزباء ٦٢
 آخر عهد الرومانيين و سياستهم ٦٤
 بنو غسان و العرب فى الشام ٦٦
 الشام فى الإسلام من سنة ٥ الى سنة ١٨ للهجرة ٦٩-٩٩
 حالة الشام قبيل الفتح ٦٩
 صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة ٧١
 جيوش العرب و جيوش الروم، نصيحة أبى بكر لقواده ٧٧
 مبدأ الحرب بين العرب و الروم ٧٩
 وقعة اليرموك ٨٠
 خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٥
 صفحة
 فتح فحل و أجنادين و بيسان ٨٢
 الأردن و فلسطين و جبل اللكام ٨٣
 فتح دمشق و الأحكام العسكرية ٨٥
 فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبك و صيدا و بيروت و جبيل و عرقه ٨٧
 قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال ٨٨
 وقعة مرج الروم و قيسارية ٨٩
 سر نجاح المسلمين و قتال نسانهم يوم اليرموك ٩٠
 وداع صاحب الروم و آخر سهم فى كنانتهم ٩٥
 منزلة أبى عبيدة و بعد نظر عمر ٩٦
 الدولة الأموية من سنة ١٨ إلى ١٣٢ ١٠٠-١٣٩
 إمارة معاوية بن أبى سفيان ١٠٠
 مقتل عثمان بن عفان ١٠٣
 آمال على بن أبى طالب فى الخلافة ١٠٤
 اتفاق معاوية و عمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان ١٠٥
 حرب صفين ١٠٦
 صلح الحسن مع معاوية ١٠٨
 خلافة يزيد و رأى ابن خلدون ١٠٩
 غزوات معاوية و أعماله و وصيته ١١٠
 خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرّة ١١٢
 عهد معاوية الصغير ١١٣
 قيام ابن الزبير و خلافة مروان بن الحكم و وقعة مرج راهط ١١٤

- خلافة عبد الملك بن مروان ١١٧
- الجراجمة و المردة في جبل لبنان ١١٨
- عهد الوليد ١٢١
- سليمان بن عبد الملك ١٢٣
- خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٦
- صفحة
- عهد عمر بن عبد العزيز و سيرته ١٢٣
- يزيد بن عبد الملك و هشام و الوليد بن يزيد ١٢٥
- يزيد بن الوليد ١٢٧
- مروان بن محمد ١٢٨
- إدبار الأمويين ١٣٠
- دولة بني مروان و حسناتها ١٣١
- قواد الأمويين و أسباب انقراضهم ١٣٣
- دور الدولة العباسية إلى ظهور الدولة الطولونية من سنة ١٣٢ ٢٥٤ هـ ١٤٠ - ١٧٠
- مبدأ الدعوة العباسية ١٤٠
- فتح العباسيين عاصمة الأمويين ١٤٣
- فتح فلسطين و إهلاك رجال الأمويين ١٤٦
- انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفياني ١٤٧
- انتقاض العباسيين على أنفسهم ١٤٩
- نزع اللبنانيين و الفلسطينيين طاعة العباسيين ١٥١
- قيس و يمن و الفتن الداخلية و الخارجية ١٥٢
- الحمصيون و فتنة السفياني ١٥٤
- فتنة نصر بن شيبث ١٥٨
- المأمون و حكمه على قيس و يمن ١٥٩
- سبب تباغض النزارية و اليمانية و حكمه حكيم ١٦١
- قيس و يمن و فتنة المبرقع ١٦٣
- فتن أهلية و عضيات حمصية و لبنانية و دمشقية و فلسطينية و معرية ١٦٥
- الحكم على الدور الأول للعباسيين ١٦٨
- ظهور الدولة الطولونية و انقراضها من سنة ٢٥٤ - ٢٩٢ ١٧١ - ١٧٩
- بداية الطولونيين ١٧١
- أحمد بن طولون و سيما الطويل و أحداث أخرى ١٧٢
- عهد أبي الجيش خمارويه و جيشه ١٧٦
- خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٧

صفحة

- عهد جيش بن خمارويه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونية ١٧٨
- دور الدولة العباسية الأوسط «الإخشيديّة و الحمدانية و الفاطمية» من سنة ٢٩٢ - ٣٦٤ - ١٨٠ - ١٩٩
- القرامطة و البوادي و الخوارج ١٨٠
- الدولة الإخشيديّة ١٨٣
- الدولة الحمدانية ١٨٧
- مغازي سيف الدولة ١٩٠
- محاسن سيف الدولة و مقابحه ١٩٣
- ابتداء الدولة الفاطمية ١٩٥
- دور الفاطميين من سنة ٣٦٤ - ٣٩٤ - ٢٠٠ - ٢١٧
- الدول الثلاث و غزوات الروم ٢٠٠
- تجاذب السلطة بين العباسيين و الفاطميين ٢٠٥
- سوء حالة دمشق و اضطراب الأحكام المصرية ٢٠٦
- خوارج على دولة الجنوب و دولة الشمال ٢٠٧
- حملة الفاطميين على الحمدانيين و استنجد هؤلاء بالروم ٢١٠
- الخوارج على الفاطميين و استنجد أمراء المسلمين بالروم ٢١٢
- تتمّة دور الفاطميين من سنة ٣٩٤ - ٤٦٣ - ٢١٨ - ٢٣٣
- خوارج و مذاهب جديدة و فتن ٢١٨
- تقسيم الأقاليم بين القبائل و دولة بني مرداس ٢٢١
- آخرة الفاطميين ٢٢٩
- دور السلجوقيين من سنة ٤٦٣ - ٤٩٠ - ٢٣٤ - ٢٤٦
- أصل السلجوقيين و التركمان و الفتح السلجوقي ٢٣٤
- فتح دمشق ٢٣٦
- أول جمهورية عربية و مقتل آخر أمير عربي ٢٣٩
- تنازع السلجوقيين و الفاطميين و انقسام السلجوقيين ٢٤١
- الدولة الأتابكية و طغتكين و بنو أرتق ٢٤٤
- خطط الشام، ج ١، ص: ٢٨٨
- صفحة
- الحروب الصليبية من سنة ٤٩٠ - ٥٠٠ - ٢٤٧ - ٢٤١
- الحملة الصليبية الأولى ٢٤٧
- الصليبيون في شمالي الشام ٢٥١
- فتح الصليبيين القدس و الساحل ٢٥٤
- تخاذل أمراء المسلمين و بلاء طغتكين و ابن عمار ٢٥٨

حرب طغتكين للصليبيين ٢٦٠

حروب الصليبيين و دولة طغتكين و بقايا السلجوقيين من سنة ٥٠٠-٥٢٢-٢٦٢-٢٨١

هدنة طغتكين للصليبيين و شدته عليهم ٢٦٢

اجتماع كلمة أمراء المسلمين و إنجاد بغداد للشام ٢٦٥

غارات المسلمين و غارات الصليبيين ٢٦٨

بقية الغارات ٢٧١

مزاييا حكم طغتكين ٢٧٦

مؤاخذه الفاطميين و توقيف سير الفرنج ٢٧٩

فهرست الجزء الاول من خطط الشام ٢٨٢-٢٨٨

الجزء الثاني

الدولة النورية «من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩»

فتنة الإسماعيلية و وقعة دمشق:

لم يكف الشام تفرق كلمة أمراءه و استصفاء الفرنج لسواحلها في الربع الأول من القرن السادس، حتى منى بعدو داخلها يقاتل أهله في عقر دارهم و يستنجد بالفرنج على إرهابه، و نعى بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديما و يدعون في هذا الدور بالباطنية أو الإسماعيلية. فقد انتشر مذهبهم في كل بلد و كثر الدعاة إليه، و كانت دار الدعوة في حلب و دمشق، موطن التنفيذ و العمل. فإن أبناء هذا المذهب و دوا لو يؤسسون دولة في العراق أو الشام، و لكنهم أخفقوا غير مرة، و لما شعروا بضعف أمراء الشام و تشتتهم، و اشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين، أيفنوا أن الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام، و دعا بدمشق إلى مذهبه، فتبعه خلق كثير من العوام و سفهاء الجبال و الفلاحين، و واثقه الوزير المزدقاني فأظهر دعوته علنا، بعد أن كان يختفي و يطوف المعالم و المجاهل و لا يعلم به أحد، فعظمت به و بشيعته المصيبة. و سكت عن هؤلاء الباطنية العلماء و حملة الشريعة خوفا من بطشهم، و لما استفحل أمرهم في حلب و دمشق اضطر صاحب دمشق طغتكين أن يسلمهم قلعة بانياس دفعا لشهرهم، ليسلطهم على الفرنج و يقطع تسلطهم على المسلمين، فعّد الناس ذلك من غلطاته.

عظم أمر بهرام بالشام و ملك عدة حصون بالجبال و قاتل أهل وادي التيم، و كان سكانه من النصيرية و الدرروز و المجوس و غيرهم، و اسم أميرهم الضحاك بن جندل، ثم قتل بهرام و قام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل، و أقام الوزير

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤

المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلا اسمه أبو الوفا، و عظم أبو الوفا حتى صار الحكم له بدمشق، فكاتب الفرنج ليسلم إليهم دمشق، و يعرضوه بصور، و جعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجمعه أصحابه على باب الجامع، و علم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقاني و أمر الناس فثاروا بالإسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف إسماعيلي (٥٢٣) و قال سبط ابن الجوزي: و كان عدة من قتل من الإسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل و لم يتعرضوا لحرهم و لا لأموالهم، و وصل الفرنج في في الميعاد و حصروا دمشق فلم يظفروا بشيء، و اشتد الشتاء فرحلوا كالمهزمين، و تبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم، و سلم إسماعيل الباطني قلعة بانياس إلى الفرنج و صار معهم.

قال ابن الأثير: و لما بلغ الفرنج قتل المزدقاني و الإسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك و تأسفوا على دمشق إذ لم يتم لهم ملكها،

فاجتمعوا كلهم صاحب القدس و صاحب أنطاكية و صاحب طرابلس و غيرهم من الفرنج و قمامصتهم، و من وصل إليهم من البحر للتجارة و الزيارة في خلق عظيم نحو ألفى فارس، و أما الراجل فلا يحصى. و روى ابن القلانسي أنهم كانوا يزيدون على ستين ألفا فارسا و راجلا و ساروا إلى دمشق ليحصروها، و لما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب و التركمان فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، و وصل الفرنج فنازلوا البلد و أرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة و الغارة على الكور، فلما سمع تاج الملوك أن جمعا كثيرا قد سار إلى حوران لنهبه و إحضار الميرة، كما نهب صاحب القدس (٥٢١) وادى موسى و سبى أهله و شردهم، سير إليهم أميرا من أمرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج فواقعوهم و اقتتلوا و صبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون و قتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم و معه أربعون رجلا، و أخذوا ما معهم و عادوا إلى دمشق لم يمسه قرح، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه منهزمين، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم.

و لما استولى الفرنج على قلعة باناس بنزول صاحبها الباطني عنها و انضمامه إليهم سقطت بأيديهم أيضا قلعة القدموس و كانت للباطنية. و يحرز هاتين القلعتين قوى أمر الفرنج و إن عظمت خسائره المادية، و عاد الناس فأمنوا و خرجوا بعد فشل خطط الشام، ج ٢، ص: ٥

الصليبيين في فتح دمشق و أيقنوا أن الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لفناء أبطالهم و اجتياح رجالهم و ذهاب أثقالهم.

دخول آل زنكي الشام:

كانت مملكة حلب للبرسقى و بها ولده مسعود فلما قتل البرسقى استخلف مسعود الأمير قيمان بحلب و سار إلى الموصل ثم استخلف على حلب قتلغ أبة السلطاني فأساء السيرة و مد يده إلى أموال الناس لا سيما التركات، و تقرب إليه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه. و كان سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق الذي كان صاحبها أولا مقيما بحلب، فاجتمع إليه أحداثها و ملكوه المدينة و قتلغ في القلعة، و سمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب أنطاكية فصافوه بمال، فرحل بعد أن خندق الحلبيون حول القلعة، فمغ الداخل و الخارج إليها من ظاهر البلد، و أشرف الناس على الخطر العظيم، و أرسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل عسكريا مع القائد قراقوش إلى حلب، و معه توقيع السلطان محمود بالشام فأجاب أهل حلب إليه، و تقدم عسكري زنكي إلى سليمان و قتلغ بالمشير إلى زنكي فأجابا، فلما وصلا الموصل أصلح زنكي بين سليمان و قتلغ و لم يرد واحدا منهما إلى حلب، و سار زنكي إلى حلب و ملك في طريقه منبج و بزاعة و تلقاه أهل حلب و دخل و رتب الأمور و ملكها و قلعته (٥٢٢). قال ابن الأثير: و لو لا أن الله تعالى قد منّ على المسلمين بملك أتابك لبلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية.

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد و أرسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة على حرب الفرنج، و بادر إلى تجريد وجوه عسكريه، و كتب إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة يأمره بالخروج في عسكريه و الاختلاط بالعسكر الدمشقي، فخرج من حماة إلى مخيم عماد الدين أتابك فأحسن لقاءه ثم غدر به و قبض عماد الدين على سونج و على جماعة المقدمين و اعتقلهم في حلب، و زحف من يومه على حماة و هي خالية من حماتها فملكها، و رحل إلى حمص، و كان صاحبها قيرخان بن قراجه معه، و طلب منه تسليم حمص فراسل نوابه و ولده فيها فلم يلتفتوا إلى مقاله،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦

فأقام عماد الدين عليها مدة طويلة يبالغ في محاربة أهلها فلم يتهيا له ما أراد فرحل عنها إلى الموصل.

و طلب صاحب دمشق إلى صاحب الموصل أن يطلق ولده و من اعتقلهم من الأمراء و المقدمين فطلب عنهم خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى تحصيلها، و لم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج و من معه من الأمراء إلّا في سنة (٥٢٥). و مات الخصى صاحب صرخد فاستولت سرّيته على قلعته، و أرسلت إلى ديبس بن صدقة صاحب الحلة تستدعيه من العراق للزوج به، و

تسليم صرخد بما فيها من مال و غيره إليه، فسار ديبس إلى الشام فضل به الأدلاء بنواحي دمشق فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة فحملوه إلى صاحب دمشق تاج الملوک، و لما سمع عماد الدين زنكى بأسر ديبس أرسل الى تاج الملوک يطلبه، و يبذل له إطلاق ولده سونج و من معه من الأمراء فأجابه تاج الملوک الى ذلك و أطلق عماد الدين سونج و من معه من الأمراء فأجابه تاج الملوک الى ذلك و أطلق عماد الدين سونج و رفاقه.

و في سنة (٥٢٤) جمع عماد الدين عساكره و سار من الموصل إلى الشام، و قصد حصن الأثارب، و كان أهله على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبيين على جميع أعمال حلب الغربية، فالتقوا و عسكر عماد الدين و اشتد القتال و انتصر المسلمون و انهزم الفرنج و وقع كثير من فرسانهم في الأسر و كثر القتل فيهم، و أخذ المسلمون الأثارب عنوة و قتلوا و أسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين.

استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين و استقرار حال دمشق:

بينما كانت دمشق مغتبطة بتاج الملوک بوري لشجاعته، و قد سد مسد أبيه في كفايته و كفاحه، ناداه الأجل سنة (٥٢٦) عقيب جرح كان به من الباطنية، و وصى بالملك بعده لولده شمس الملوک إسماعيل، و وصى ببلبک و أعمالها لولده شمس الدولة محمد. و لما استقر إسماعيل بن بوري في ملك دمشق، و استقر أخوه في بلبک استولى محمد على حصن الرأس و حصن اللبوة، فكتب إسماعيل أخاه في إعادتهما فلم يقبل، فسار صاحب دمشق و فتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس و قرر أمرهما، ثم حصر أخاه في بلبک فسأله الصلح فأجابه إليه، و أعاد عليه بلبک و أعمالها و استقرت أمورهما.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧

و دخلت سنة (٥٢٧) فسار إسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس و فتحه، و ذلك لما بلغه من عزمهم على نقض المواعدة المستقرة، و هال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس و أكثروا التعجب من تسهل الأمر في فتحها مع حصانتها و كثرة الرجال فيها في أقرب مدة. و فتح إسماعيل حماة و قلعتها و قتل من كان بها، و حصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حملة إليه. و في هذه السنة اجتمعت التراكمين و قصدوا طرابلس، فخرج من بها من الفرنج اليهم و اقتتلوا فانهم الفرنج، و سار القومص صاحب طرابلس و من في صحبته فحصرهم التركمان في قلعة بعين و هرب القومص منها. ثم جمع الفرنج جموعهم و قصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا و انحاز الفرنج الى نحو رفية و عاد التركمان عنهم.

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك، و نشبت الحرب بينهم و قتل منهم جماعة، و السبب في ذلك اختلاف طيف نشأ بين أمرائهم حدا بصاحب يافا على أن يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعده حتى خربت تلك الأرجاء إلى حدود مدينة أرسوف، و عقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس و حاصره، و لكن المسلمين اهتبلوا الغرة فجاسوا خلال ديار الفرنج و أخذوا يناوشونهم القتال، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة و أراد مشاغلة المسلمين فأغار على أطراف حلب، فنهض إليه الأمير سوار النائب في عسكر حلب و من انضاف إليه من التركمان و تحاربوا أياما و تطاردوا إلى أن وصلوا إلى أرض قنسرين، فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة، فعاود سوار النهوض إليهم في من بقى من عسكره و الأتراك، فلقوا فريقا من الفرنج فأوقعوا به و كسروه، فانكفأت الفرنج إلى أرضها مهزومة، و انتهى إلى سوار خبر خيل الزها فنهض هو و حسان البعلبكي فأوقعوا بهم و قتلوهم عن آخرهم، و أغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم ألف فارس و راجل و قاتلهم أيضا في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب و ما انضاف إليه من التركمان، و كانت الحرب بين الفريقين سجالا. و اشترى الإسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون صعدوا إليها و قاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين و الفرنج، و كانوا كلهم يكرهون مجاورتهم.

و في سنة (٥٢٨) سار صاحب دمشق إلى شقيف تيرون و انتزعه من ابن ضحاك ابن جندل التيمي المتغلب عليه. و انتهى اليه أن الفرنج اعتزموا على نقض المستقر

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨

من الهدنة وقصد أعمال دمشق، و شرعوا بإخراب أمهات الضياع في حوران، فوقع التطارد بين الفريقين عدة أيام، ثم أغفلهم صاحب دمشق وقصد بلادهم عكا والناصره وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبي ورجع سالما في نفسه وجملته فذل الفرنج وطلبوا تقرير الصلح بينهم.

خيانة صاحب دمشق و قتل أمه له:

و مما خدم عماد الدين زنكي أن شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق كان لأول جلوسه على عرش أبيه أقر الولاة على حالهم و سار بسيرته مدة، فنفس من خناق الأهلين و ساعده اختلاف الصليبيين ثم تغيرت نيته و كثرت قبائحه و مصادرة المتصرفين، و الأخيار المستورين، بفنون قبيحة في العقوبات، و أضمر السوء لأصحاب أبيه و قبض على خواصهم و أركان دولته فنفرت القلوب منه. و كان (٥٢٧) وثب عليه أحد مماليك جده طغكتين و هو في الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال فأخطأه، و قرره شمس الملوك فقال: ما أردت إلّا راحة المسلمين من شرك و ظلمك ثم أقرّ على جماعة من شدة الضرب فضرب شمس الملوك أعناقهم من غير تحقيق، و قتل أخاه الأكبر سونج صاحب حماة الذي كان في أسر عماد الدين، قتله بالجوع في بيت، فعظم ذلك على الناس، و نفر من ظلمه المساكين و الضعفاء و الصناع و المتعشون و الفلاحون و امتهن العسكرية و الرعية.

و أهم ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتأمروا عليه و رأوا السبيل إلى النيل منه، خصوصا لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزاه على قصد دمشق لمنازلتها يحثه على سرعة الوصول إليها و يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين و الأمراء و الأعيان بإهلاكهم و أخذ أموالهم و إخراجهم من منازلهم، و كتب إليه أنه إذا تأخر استدعى الفرنج و سلم إليهم دمشق بما فيها، و أسرّ ذلك في نفسه و لم يبده لأحد من وجوه دولته و أهل بطانته، و شرع في نقل المال و المتاع الى حصن صرخد. فاجتمع أعيان الدولة و أنهوا الحال إلى والدته الخاتون صفوة الملك، فدبرت عليه من قتله من غلمانها، غير راحمة له و لا متألمة لفقده، لما عرفت من قبيح فعله و فساد عقله و سوء سيرته. و نودي بشعار أخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك. و جاء عماد الدين زنكي وخيم بأرض عذراء، فلما طال الأمر

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩

راسل في طلب الصلح على أن يخرج شهاب الدين محمود إليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه و يخلع عليه و يعيده إلى بلده، فلم يجب إلى ذلك، و تقررت الحال على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه.

قتل شمس الملوك باتفاق رأى والدته مع أرباب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه و استصراخه الإفرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي، و كان جده طغكتين مثلا- سائرا في غزوة لهم المرة بعد المرة، و مداراتهم أحيانا بالحيلة، و جمع أمراء الشام على قصدهم أبدا، و مصانعة خلفاء بغداد و خلفاء مصر طلبا لنجدتهم، و لو بالقليل من قوتهم المادية و المعنوية، و لكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته أمه و رجال دولته. و كانت هذه الأعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون إلّا على مصلحتهم الخاصة، و إذا تأثرت أقل تأثر عمدوا إلى وضع أيديهم في أيدي أعدائهم من موجبات بقاء الإفرنج في ثغور الشام و أنطاكية و الزها و طبرية و الناصرة و القدس و استيلائهم على كثير من المعاقل. و لو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الإفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الأربع دمشق و حماة و حمص و حلب، بالنظر لخلل الدول المستولية عليها و اضطرارها إلى قتال أعدائها من المسلمين و أعدائها من الصليبيين، بل و أعدائها في الداخل أمثال شمس الملوك.

و للناقد البصير بعد هذا أن يقول إن دولة أتابك طغكتين كانت عزيزة الجانب في أولها فأصبحت ذليلة و عبثا ثقيلا على الشام بعد بطنين من مؤسسها.

توحيد الحكم على يد زنكى وقضاؤه على إمارة صليبية:

بعد تقلقل أمر آل طغتكين أخذت روح آل زنكى تسرى فى القطر، فنهض سوار نائب زنكى فى حلب سنة (٥٣٠) فىمن انضم إليه من التركمان، و جرد جيشه على الأعمال الفرنجية فاستولى على أكثرها، و غزا اللاذقية و أعمالها بغتة، و عاد من هذه الغزاة إلى شيزر و معه زيادة عن سبعة آلاف أسير بين رجل و امرأة و صبى و صبىة و مائة ألف دابة، و اجتاح أكثر من مائة قرية كبيرة و صغيرة فامتلاّت الشام من الأسارى و رجعوا بهم إلى حلب و ديار بكر و الجزيرة.

هذا ما وقع من الأحداث فى العقد الثالث من القرن السادس، و أهم ما حدث ظهور دولة عماد الدين زنكى صاحب الموصل فى حلب و إيقانه أنه لا سبيل إلى دفع خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠

الصليبيين عن الشام إلا إذا رجع أمر المسلمين إلى ملك واحد، و أنه إذا تقدم بجيشه قليلا بعد أخذه حلب يستولى على دمشق، و ينقذ الأمة من فوضى آل أتابك طغتكين و ضعفهم، و كثر هجوم عماد الدين على حمص (٥٣٠) فتسلمها صاحب دمشق من أولاد قيرخان بن قراجة و عوضهم عنها تدمر، فتابع عسكر زنكى بحلب و حماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها إلى صاحب دمشق، فأرسل هذا إلى عماد الدين فى الصلح فاستقر بينهما. و كف عسكر عماد الدين عن حمص و حدثت فتنة بدمشق بين صاحبها و الجند و عاد عماد الدين فانزل حمص (٥٣١) و بها صاحبها معين الدين أتمسز فلم يظفر بها، فرحل عنها إلى بعين و حصر قلعتها و هى للفرنج و ضيق عليها، فجمع الفرنج ملوكهم و رجالهم و ساروا إلى زنكى ليرحلوه عن بعين، فلما وصلوا إليه جرى بينهم قتال شديد فانهمزمت الفرنج، و عاود عماد الدين حصار الحصن فطلب الفرنج الأمان، فقرر عليهم تسليم الحصن و خمسين ألف دينار فأجابوا إلى ذلك، و كان زنكى مدة مقامه على حصار بعين قد فتح من الفرنج المعرة و كفرطاب، و منع زنكى فى هذه الوقعة عن الفرنج كل شىء حتى الأخبار، فكان من بحصن بعين منهم لا يعلم شيئا من الأخبار لشدة ضبط الطرق و هيئته على جنوده. و ملك زنكى حصن المجدل (٥٣٢) و كان لصاحب دمشق، و دخل مستحفظ بانياس إبراهيم بن طرغت تحت طاعته، و سار إلى حمص و حصرها ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب، ثم عاد إلى حمص فسلمت إليه المدينة و قلعتها، و كان شرع أهل حلب فى تحصينها و حفر خنادقها و التحصن من الروم بها، و أغارت خيل الصليبيين على أطراف حلب، و تملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت إليهم فرقة و افرة من أحداث حلب فقاتلتهم و ظفرت بهم، و نهض سوار فى عسكر حلب و أدرك الصليبيين فى الأثارب، فأوقع بهم و قهرهم و نزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة و حاصرها حتى ملكها بالأمان و أسر من فيها ثم غدر بهم، و نادى مناديه من تنصر فهو آمن و من أبى فهو مقتول أو مأسور، فتنصر منهم نحو أربعمائة إنسان منهم القاضى و الشهود ثم رحل عنها إلى شيزر و ترك فيها واليا يحفظها مع جماعة و أقام عشرة أيام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان و كان سكان بزاعة خمسة آلاف و ثمانمائة نسمة، و عاد زنكى و حاصرها حتى ملكها و خرب الحصن و البلد عامر. و فى

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١

سنة (٥٣٣) سار من مصر عسكر إلى وادى موسى فحاصر حصن الوعية ثمانية أيام، و عاد بعد ما توجه إلى الشوبك و أغار عليها و ترك هناك أميرين على الحصار. و تزوج عماد الدين أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولى و هى التى قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل و ذلك طمعا من عماد الدين فى الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة فى الدولة. و كثيرا ما كانت الكلمة النافذة للنساء من آل بيت الدولة و الغيرة الصادقة فى وقايتها من السقوط.

و كان متملك الروم خرج فى السنة الفاتية و اشتغل بقتال الأرمن و صاحب أنطاكية و غيره من الفرنج و عمر ميناء الإسكندرونه ثم سار إلى بزاعة و ملكها و غدر بأهلها ثم رحل عنها إلى حلب، فجرى بينه و بين أهلها قتال كثير فعاد عنها إلى الأثارب و ملكها و سار

نحو شيزر و حاصرها أربعة و عشرين يوما فأجدها عماد الدين حتى اضطر متملك الروم إلى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم.

و كان يرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه، و يرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم و يقول لهم: إن ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها. و نهض هذه السنة الأمير بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي و التركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها و التقيا فكسره بزواج و قتل منهم جماعة و افره و ملك حصن وادي ابن الأحمر و غيره. و نهض ابن صلاح والي حماة في رجاله إلى حصن الخربة فملكه.

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب و حماة و حمص و المعرة و كفرطاب و بعلبك و غيرها، و إفحاشه القتل في الفرنج و استيلائه على بعض معاقلمهم، فلم يسع شهاب الدين محمودا صاحب دمشق إلا مهادثته على قاعدة أحكمت بينهما، و أصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام. أما الفرنج في أنطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم و صالحوه على ما اشترط، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة مع عماد الدين و قبضوا في أنطاكية على خمسمائة رجل من تجار المسلمين و أهل حلب و السفار.

و بينا كان عماد الدين يدبر و يفكر و يهتم لأخذ دمشق نعي الناعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، قتله غلامانه في فراشه فتولى بعده أخوه جمال

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢

الدين محمد صاحب بعلبك فبعث والدته الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين إلى زوجها عماد الدين زنكي، و هو على الموصل، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر، فجاء و فتح الأثارب و بعلبك. و قال بعض المؤرخين: إن زنكي أمن قلعة بعلبك و تسلمها ثم غدر بأهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه.

و لما رأى صاحب دمشق أن دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل إليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين، فسار هذا طالبا للقاء الفرنج إن قربوا منه ثم عاد إلى الغوطة و نزل بعددء فأحرق عدة ضياع من المرج و الغوطة إلى حرستا التين و رحل متاقلا. و كان الشرط بين الفرنج و صاحب دمشق أن يكون في جملة المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طرغت، فاتفق أن نهض هذا إلى ناحية صور للإغارة عليها، فصادفه ريمند صاحب أنطاكية و اصلا في الفرنج على إنجاد أهل دمشق، فالتقيا فكسره و قتل في الوقعة و معه نفر يسير من أصحابه، و عاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها و جمعوا إليها رجال وادي التيم فنهض إليها معين الدين أتسز في عسكر دمشق و حارب بانياس بالمنجنيقات، و معه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها و سلمها إليهم.

و جاء عماد الدين بعسكره هذه السنة أيضا إلى دمشق و قرب من السور، و كان قد فرق عسكره في حوران و الغوطة و المرج و سائر الأطراف للغارة، و نشبت الحرب بينه و بين عسكر دمشق، ثم سار عائدا على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة. و سار عماد الدين إلى أرض الفرنج فأغار عليها و اجتمع ملوك الفرنج و ساروا إليه. و في الروضتين أنه لقيهم بالقرب من حصن بارين و هو للفرنج، فصبر الفريقان صبورا لم يسمع بمثله، فحاصره حصرا شديدا فراسلوه في طلب الأمان، و كان حصن بارين من أضر كور الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة و حلب من الأرضين و نهوها و تقطعت السبل، كان عماد الدين استولى على هذا الحصن سنة (٥٣١) و أعطى الأمان لمن فيه و قرر عليهم تسليمه، و من المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه. و ظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين. و ملك الباطنية حصن مصياف، و كان واليه مملوكا لبني منقذ أصحاب شيزر، فاحتال عليه الإسماعيلية و مكروا به حتى صعداوا اليه و قتلوه

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣

و أغار الأمير لجه التركي (٥٣٦) النازح عن دمشق إلى خدمة عماد الدين على بلد الفرنج و ظفر بخيلهم و فتك بهم فقتل منهم سبعمائة رجل. و ظهر (٥٣٧) صاحب أنطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب في حفظ حلب و حال بينه و بينها. و ظهر متملك الروم في الثغور دفعة ثانية و برز إليه صاحب أنطاكية و أصلح أمره معه. و في سنة (٥٣٧) خرجت فرقة و افرة من الفرنج إلى ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون أكثرهم و عادوا إلى بعلبك سالمين. و ظفر عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار و الأجناد خارجين من أنطاكية تريد أرض الفرنج فأوقعوا بها و قتلوا من كان معها من فرسانهم. و في سنة (٥٣٩) فتح عماد الدين زنكى الرها من الفرنج ثم تسلم مدينة سروج و سائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات. و كان لا يمر بعمل من أعمالها و لا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال، و هزم التركمان الفرنج الذين انتدبوا من أنطاكية لإنجاد أهل الرها شر هزيمة، و تمكن السيف في أكثر الرجال و تفرقوا في أعمالهم و معاقلهم مفلولين. أى أن عماد الدين أتى ببأسه على إمارة الشمال الصليبية برمتها و هى إحدى الإمارات الأربع التي أقامها الصليبيون في الشام، فلم يبق لهم إلا إمارة أنطاكية و هى تمتد إلى قليقية و إمارة طرابلس و إمارة القدس.

الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين:

نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام و هى إذا ما خلا فيها سيد قام سيد، يشتد في دفعهم أو يحافظ على الحالة الحاضرة، و كلما رأى من يعتد بعقلهم و غيرتهم من أمراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم و أمعنوا في تخريب حصونهم و أرضهم، و هذه الأراضي أى القرى و المزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين و المسيحيين، و الويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين و المدافعين فإن مزرعته و داره إلى بوار، و لا سيما في أعمال حلب و طرابلس لقربهما من إمارتين إفرنجيتين قويتين و أعمال حوران و السواد و البلقاء و جبل عوف و جبل الشراة فإن المتكفل بغزوها صاحب القدس و هو أقوى ملوك الفرنج في الشام. و إليه يرجع في المهمات و القضايا العظيمة، و هو ينجد أصحاب الرها و أنطاكية و طرابلس يوم الشدائد.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤

و كان آل تنوخ و آل معن حجازا في أعالي سواحل لبنان بين أملاك الصليبيين و أملاك صاحب دمشق و لهم الأثر المذكور في ذلك، و لذلك كان يتنازعهم المستولى على دمشق و المتولون للساحل و لكن خدمتهم للمسلمين أكثر بالطبع و هواهم مع أبناء دينهم و على نحو ذلك كان الدروز و قد قاتلوا في صفوف المسلمين فأظهروا من الشجاعة و النجدة ما تقر به العيون. و من الغريب أن شيعه جبل عامله كانت مع الصليبيين على إخوانهم المسلمين إلا قليلا، و كأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارا لأن أرضهم في قبضة الصليبيين، كما كان هوى الموارد لمكان الدين مع الصليبيين، و من الموارد أدلاء لهؤلاء و عمال و تراجعهم، و كان بطاركة أهل الصليب يتنقلون في قرى لبنان الساحلية و لهم السلطان الأكبر على أمراء الفرنج.

و كانت قوى فريق المسلمين و فريق الدخلاء متعادلة في الغالب، ينال كل منهما من جاره و يغزوه في عقر داره، و يعود و قد ملئت أيدي المتحاربين بالغنائم و الأسرى. و الفرنج يأتيهم المدد كل سنة على طريق البحر، و البحر لا يحمل الناس كالبر، و المسلمون تأتيهم النجدات من مصر في الجنوب و من العراق في الشرق و من ديار بكر و ديار مضر و آسيا الصغرى. و الفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان و فرنسيين و ألمان، و جيوش المسلمين مؤلفة من تركمان و أكراد و عرب.

و ما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة. و لم يكتب لأحد عظماء الأمراء من أهل الاسلام أن يطول عهده و ترسخ قدمه في الملك و السلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج، فإن دمشق و حلب و عليهما في الجنوب و الشمال المعول في الحرب لأنهما المعسكران العظيمان كثيرا ما شغلا بأنفسهما ورد دسائس الذين يتربصون الدوائر بملوكهما، و الفرقة الباطنية التي كان المقصد من الإغضاء عنها أن تقف سدا في وجه الأعداء لما عرف به أربابها من الشدة و المضاء، أصبحت آله شر على المسلمين لا لهم في

أكثر الأحيان، و لم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهبا و إن لم ينشقوا عنهم قومية.

فاقتضت الحال أن يتولى أمر الأمة بعد تشش و آق سنقر و بزان و ابن عمار و ابن منقذ و مسعود و طغتكين و بوري و زنكي أمراء من عيار أرقى و بسطة أعظم، تكون اجزاء حكومتهم أكثر تجانسا من ذي قبل، و ليس الزمن زمن ملك و إمارة، و لا عهد سكة مضروبة، و خطبة مخطوبة، بل العهد عهد عمل بالقرائح و العقول،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥

و عمل بالسلاح و الكراع، و عمل بالخطط العسكرية و الخدع الحربية، وقت كله جد في جد، و إلا فالعدو يتقدم، و الإسلام يهلك و يعدم، و عمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى، و يجذب قلوبهم بصالح أعماله لا ببهرج مقامه و لطف مقاله، و يبهرهم بلامع إخلاصه، لا ببريق الذهب على كرسيه و تاجه.

صفات عماد الدين زنكى و تولى ابنه نور الدين:

بدأ العقد الرابع من القرن السادس و فيه قتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر بيد جماعة من مماليكه. و كانت صفاته صفات حربية راقية اشتهر بشجاعته و نجده، اشتهاره ببطشه و شدته، و كان يحب التوسع فى الملك و الذب عن حوزة الإسلام، و يدرك بتأقب نظره أن الأعداء محيطة بمملكته لا- ينجيها منهم إلا- القضاء على إحدى إماراتهم فى الزها و ما إليها، و لا يتقى بأسهم بمناوشات و حروب تستصفي معها بعض القلاع و الحصون ثم يستعيدونها و بالعكس، و ما دامت دمشق لم تدخل فى سلطانه لا يقوى ملكه بالشام الإسلامية مع ملكه الموصل على رد عوادي الدهر و دفع غوائل العدو. توفرت فى شخصه شروط التوسع فى الملك، و عرف إدارة الممالك بالعمل ورثها من أبيه آق سنقر و بدّه فيها، فكان مرييا فاضلا شهما مشهودا له بذلك، دفع إليه السلطان محمود لما تولى الموصل ولديه ألب أرسلان و فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليرييهما فلذا قيل له أتاك.

و من صفات عماد الدين أنه كان ينهى أصحابه عن شراء الملك و يقول: إن الأقطاع تغنى عنها، و متى كانت البلاد لنا فلا حاجة إليها، و متى ذهبت البلاد منا ذهبت الأملاك معها، و متى كان لأصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية و ظلموهم، على حين كانت الاقطاعات فى عهده للأمراء و القواد و أرباب الدولة شائعة غير منكرة عند المسلمين و عند الصليبيين فى هذه الديار. قيل للشهيد أتاك زنكى: إن هذا كمال الدين بن الشهرزورى يحصل له فى كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية و غيره يقنع منك بخمسائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل و الرأى تدبرون دولتى؟! إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر و غيره يكثر له خمسمائة دينار. فإن شغلا واحدا يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار. و كان كما

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦

قال. و هذا أكبر دليل على حرصه على رجاله و إيقانه أن الدولة لا تقوم إلا بأمثال الوزير الشهرزورى.

و كانت لعماد الدين عناية بأخبار يتشدها و يغرم عليها الأموال الطائلة، فيقف على أخبار الملوك ساعة بساعة، و إذا جاء رسول لا يمكنه من الحديث مع أحد الرعية لثلا ينتشر الخبر فى البلد. و كان يفرق الأموال فى القلاع و البلدان فلا يجعلها فى مكان واحد و يقول: إذا كانت الأموال فى موضع واحد و حدث حادث و أنا فى موضع آخر و ذهبت لم انتفع بها، و إذا كانت متفرقة لم يحل شىء بينى و بينها رجعت الى بعضها. و كانت المملكة قبل أن يملكها خرابا من الظلم و تنقل الولاة و مجاورة الفرنج فعمرها و امتلأت أهلا و سكانا، و قبل أن يجيء زنكى إلى الشام اشتدت صولة الصليبيين و اتسعت مملكتهم من ناحية ماردين و شيحان إلى عريش مصر و انقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة و البر، و جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا و إتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم. و كان مهيبا شديد الوطأة على من يعبثون بحياء الامة. بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه و جب مذاكيره فخاف الولاة و انزجروا، و كان شديد الغيرة و لا سيما على نساء الأجناد. و كان يقول: إن لم تحفظ نساء الأجناد و إلا فسدت لكثرة غيبة أزواجهن فى

الأسفار.

ترجمه العماد الكاتب بقوله: كان زنكى ابن آق سنقر جبارا عسوفاً، بنكباء النكبات عسوفاً، نمرى الخلق، أسدى الحق، لا ينكر العنف، ولا يعرف العرف، قد استولى على الشام من سنة (٥٢٢) إلى ان قتل فى سنة (٥٤١) و هو مرهوب لسطوه اه. و بعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود و هذا الرجل الذى كان ينتظر لإنقاذ الشام مما حل به من الويلات، فإنه جمع الصفات الحسنة فى أبيه و تجرد عن الصفات الرديئة فيه.

كان نور الدين فى قلعة جعبر يوم مقتل أبيه عماد الدين بيد المماليك فسمى الشهيد، فأخذ فى الحال خاتمه و هو ميت من اصبعه و سار إلى حلب فملكها، و أرسل كبراء دولة زنكى إلى ولده سيف الدين غازى بن زنكى يعلمونه الحال و هو بشهرزور، فسار إلى الموصل و استقر فى ملكها. قال ابن عساكر: و سير نور الدين الملك آلب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد إلى الموصل مع جماعه من أكابر دولة أبيه و قال لهم: إن وصل أخى سيف الدين غازى إلى الموصل فهى له، و أنتم فى خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧

خدمته، و إن تأخر فأنا أقرر أمور الشام و أتوجه إليكم. و لما انتهى نعى عماد الدين إلى صاحب دمشق خف فى الحال إلى حصن بعلبك و حصره و كان متولىه نجم الدين أيوب بن شادى والد صلاح الدين يوسف، فخاف أن لا يتمكن أولاد زنكى من إنجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق و سلم القلعة إليه، و أخذ منه إقطاعاً و مالا و ملكه عدة قرى من عمالة دمشق.

و لم يكد نور الدين يتربع فى دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله، و صحة حكمه و عقله و حزمه، و باستيلائه على الأعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام فى حياة سياسة جديدة، بعد تقلقل أمر الدولة الأتابكية بدمشق، و دخول الوهن على فروعها بزوال أصلها الثابت ظهير الدين طغتكين. و سار نور الدين على قدم أبيه عماد الدين فى التقرب من ملوك الأطراف فخطب ابنه معين الدين أئسز الملك الحقيقى لدمشق، و الحاكم المتحكم فى سياستها لىتم له بالصهر و القرابة ما كان أبوه يرمى إليه بزواجه بأمر شهاب الدين محمود فلم يتم له، و تزوج نور الدين بعد ذلك بابنه صاحب قونية و اقصرأ فأمّن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام، و من تسرب عسكر الصليبيين عن طريق الروم إلى مملكته.

بعد أن أصيب جوسلين صاحب الرها بتمزيق شمل إمارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكى، جمع الفرنج من كل ناحية و قصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها و قتل من بها من المسلمين. فنهض نور الدين (٥٤١) فيمن انضاف إليه من التركمان فاستعاد البلد و قتل كثيرا من أرمناها، و محق السيف كل من ظفر به من نصارها. و استنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والى صرخد الذى كان خرج إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، فجاء نور الدين فى عسكر حسن فاجتمع الجيشان على حلب، و بلغ صاحبه حلب و دمشق أن الفرنج احتشدوا قاصدين بصرى فحال عسكر المسلمين بينهم و بين الوصول إليها، و استظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الأدبار فتسلم صاحب دمشق حصنى بصرى و صرخد.

الحملة الصليبية الثانية و غزوتها دمشق:

و فتح نور الدين فى السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاح بالسيف و حصر ثامولة (٩)

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨

و بسرفوث و كفرلاما من أعمال الفرنج. قال صاحب الكامل: كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا و ظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذوه، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد و خاب ظنهم و أملهم و بينا كان نور الدين يجمع شمله لضرب الفرنج فى مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التى ظهر له ضعفها يوم استرد أبوه منهم الرها، وردت الأخبار من قسطنطينية أن حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج و هى المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لويوز السابع، و ألما

بزعامة كونراد الثالث، و في الجيش إنكليز و فلامنديون و طليان، و من هؤلاء البنادقة و الجنوية و البياسنة (البيزيون) و ذلك لإنجاد الصليبيين في الشام، إذ ساءت حالهم بعد سقوط الزها و قلّ فارسهم و راجلهم لأن سيوف التركمان و الأكراد و العرب قد حصدتهم، و على كثرة تناسلهم مدة نصف قرن صبّحوا في قلة و أصبح أعداؤهم في كثرة.

تجمعت هذه الحملة بتحسيس القديس برناردوس في الغرب، و كان له كما لرؤساء الدين السلطان الأكبر على النفوس يصرفها كما يشاء. و ذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش كان ألف ألف عنان من الرجال و الفرسان و قيل أكثر من ذلك. و في التاريخ العام أن كلا من الجيش الألماني و الجيش الفرنسي كان مؤلفا من سبعمائة ألف فارس ما عدا الرجال الذين لا يحصى عددهم، و أن الروم قدروا مجموعهم سبعمائة ألف رجل. قال و هو تقدير ظاهر المبالغة. و اختار هذا الجيش طريق البر و عرض عليه روجر صاحب بوليه و صقلية أن يسافر بحرا لأنه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن دياره، و كانوا احتلوا سر كوزة، فلقى جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية و أمراء بني سلجوق في آسيا الصغرى ضروب القهر و الممرات. قال مؤرخونا: و استمر القتل فيهم أي في الصليبيين إلى أن هلك العدد الدثر منهم، و حل بهم من عدم القوت و العلوفات و المير و غلاء السعر ما أفنى الكثير منهم.

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) إلى ساحل البحر كصور و عكا، و أجمع من كان بها من الفرنج بعدما فنى منهم أي من القادمين من طريق البر بالقتل و المرض و الجوع نحو مائة ألف إنسان أن يقصدوا بيت المقدس. و لما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك إلى أوطانهم في البحر، و بقي ملك الألمان أكبر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩

ملوكهم و من هو دونه، و صلى الصليبيون في القدس صلاة الموت، و عادوا إلى عكا و فرقوا المال في العسكر و كان مقدار ما فرقوه سبعمائة ألف دينار و لم يعينوا لهم جهة و ما كانت وجهتهم إلا فتح دمشق فوزوا بغيرها و هربوا المسلمين بين أيديهم. و لم يشعر أهل دمشق إلا و ملك الألمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الأخضر. و كان الفرنج في نحو خمسين ألفا من الخيل و الرجل و قيل أكثر من ذلك.

و يقول ابن منقذ: إن ملك الألمان لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من في أرجاء الساحل من الفرنج، فقصدها أولا- المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعا عنه، فقصدها ناحية المزة و وصلت طلائعهم إلى الميدان الأخضر فنشبت الحرب بين الفريقين، و اجتمع عليهم من الأجناد و الأتراك و التركمان و أحداث البلد و المطوعة و الغزاة الجم الغفير، و كانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ، و أخذت خيل التركمان تتواصل، فلما ضاق الأمر بالفرنج بعد أربعة أيام و رأوا شدة عزيمة المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين.

و يرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج أن جيش الحملة الصليبية الثانية كان أكثر نظاما و قيادة من جيش الحملة الأولى، ليس فيه المتشردون و الأشقياء، و كان مؤلفا من فرسان و بارونات و غيرهم أخذوا بالحماسة الدينية و ساروا في قيادة ملكين عظيمين. و في التاريخ العام أن هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعا البتة حتى استغربت حالها أمم النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحققت بارتكابها هذه الكارثة، و نسبت أخرى هزيمة الحملة لخداع الروم أو لخيانة نصارى الشرق و ذكروا أن الصليبيين في القدس قد ارتشوا من أمير دمشق بمبلغ مائتين و خمسين ألف دينار و أن الأمير أرسل المال زيوفاً أو نحاساً طلى بالذهب.

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الألماني و لويز السابع الفرنسي و بودوين الثالث ملك القدس في بساتين المزة و لحق فلهم بالساحل، بعد أن قطعوا أشجار الحدائق للتحصن بها و أحرقوا الربوة و القبّة المهدوية. و قد وصف أبو الحكم الأندلسي جيش الفرنجة على دمشق في مخيمه و معسكره و مجتله و منهزمه و صفوا جميلا قال:

بشطى نهر داريا أمور ما تواتينا

و أقوام رأوا سفك الدما في جلق دينا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠ أتانا مائتا ألف عديدا أو يزيدونا

فبعضهم من اندلس و بعض من فلسطينا

و من عكا و من صورو من صيدا و تبينا

إذا أبصرتهم أبصرت أقواما مجانيينا

و لكن حرقوا في عاجل الحال البساتينا

و جازوا المرج و التعديل أيضا و الميادين

تخالهم و قد ركبوأقطارها حراذينا

و بين خيامهم ضموا الخنازر و القرابين

و رايات و صلبانا على مسجد خاتونا

و من توفيق صاحب دمشق يومئذ و هو مجير الدين أبق أن تدبير المملكة كان لمعين الدين أتمسز مملوك جده طغتكين، و كان عاقلا دينا محسنا لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي و صاحب حلب نور الدين محمود، فجاء الشقيقان في جيش لجب، و انضم جيشهما بل روحه و روح أبيهما إلى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية، مع تحمس الأمة و معرفتها حق المعرفة أن الفرنج إذا أخذوا دمشق سقطت الشام كلها، و ربما تعدوها إلى الحجاز و هناك الطامة العظمى على المسلمين، و كان اجتماع آل زنكي الأقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحة لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام، و أن ملكها سيؤول إليهم بحكم الطبيعة. و لم يرض سيف الدين و لا نور الدين أن يناقشا مجير الدين و معين الدين الحساب عما قدماه و قالاه، بل مرا بالأحقاد مّر الكرام، و جعلوا الأقاويل دبر آذانهما و عند الشدائد تذهب الأحقاد.

ذكروا أن معين الدين أتمسز كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الصليبيين على دمشق، يستصرخ به و يخبره بشدة بأسهم و يقول له أدر كنا، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس و نزل في إقليم حمص و بعث إلى معين الدين يقول: «قد حضرت بجند طم و لم أترك ببلادى من يحمل السلاح، فإن أنا جئت الفرنج و كانت علينا الهزيمة و ليست دمشق لى و لا لى بها نائب لم يسلم منا أحد و أخذت الفرنج دمشق و غيرها فإن أحببت أن أقاتلهم فسلم البلد إلى من أثق به، و أنا أحلف لك إن كانت النصر لنا عليهم أننى لا أدخل إلى

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١

دمشق و أرجع إلى بلادى» فمطله معين الدين و بعث إلى السواحل يقول: «هذا ملك الشرق نازل على حمص و ليس لكم به طاقة، فإن رحلتهم و إلا سلمت دمشق إليه و هو يبىدكم و أنا أعطيكم بانياس» أى إن معين الدين أتمسز آثر أن يتخلى عن بانياس مفتاح دمشق الأكبر من جهة الفرنج، و لا يجعل لسيف الدين غازي إصبعا في بلده، لعلمه أن دولة آل زنكي في عنفوان أمرها غضة الإهاب و دولتهم هرمة، و الفتى يغلب الهرم و يخلفه بحكم الطبيعة.

تقدم نور الدين في فتوحه:

و لما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب طرابلس إلى معين الدين و إلى نور الدين يستنجدهما على ولد ألفنس صاحب صقلية الذى أخذ منه حصن العريمة، و يريد هما على أخذه خوفا منه على بلده، و كتب إلى سيف الدين يطلبان منه المدد فأمدهما، فحصروا الحصن و نقبوا السور، فأذعن الفرنج و استسلموا و ألقوا بأيديهم، فملك المسلمون الحصن و أخربوه و أخذوا كل من فيه. و عاد عسكر سيف الدين إلى الموصل و عسكر نور الدين إلى حلب و أخذ هذا بجمع أطرافه و توجه إلى ما داني أرضه من أرض الفرنج و ظفر بعدة وافرة منهم، و جمع صاحب أنطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه، و نال من عسكره حتى اضطر نور

الدين أن يهرب بنفسه و عسكره إلى حلب. و في هذه السنة (٥٤٣) نادى منادى نور الدين في حلب بإبطال الأذان بحى على خير العمل فى أواخر أذان الغداة، و أعاد أذان أهل السنة ففرح الناس و أبطل بذلك أثرا عظيما من آثار الدولة العلوية الفاطمية. لم تثبط هزيمة نور الدين يوم أنطاكية من عزمته، و قصد الفرنج فكان بينه و بينهم مصاف بأرض يغرى من العمق فانهمز الفرنج إلى حصن حارم و كانوا هزموا المسلمين أولا بهذا الموضع، و قتل منهم و أسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع غنائم كثيرة إلى أخيه سيف الدين صاحب الموصل. و فى هذه السنة سار نور الدين إلى بصرى و قد اجتمع الفرنج قضهم و قضيضهم، فالتقى بهم هنالك و اقتتلوا أشد قتال فهزمهم نور الدين.

و كثر عيث الفرنج فى صور و عكا و الثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢

و فساد شروط الهدنة المستقرة بين صاحب دمشق و بينهم، و كانوا يعيثون فى عمل دمشق، و يفحشون فى التخريب و يمعنون فى الغارة، فأغار عليهم العسكر الشامى و التركمانى و الأعراب إلى أن اضطروا إلى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنتين. و أغار صاحب أنطاكية على الأعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها، و كان عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الأتباع و السواد، و الفرنج فى زهاء أربعمائه فارس طعانه و ألف راجل مقاتلة سوى الأتباع، فلم ينج منهم إلا نفر يسير ثم نزل نور الدين فى العسكر على باب أنطاكية و قد خلت من حماتها فاستمال أهلها فى التسليم فأهلوا، ثم نهض إلى أفامية فسلم الفرنج إليه البلد بعد حصارها و اجتمع من بالشام من الفرنج و ساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم، فلم يصلوا إلا و قد ملك حصن أفامية و ملاء ذخائر و سلاحا و رجالا، و اقتضت الحال بعد ذلك مهادة من فى أنطاكية و تقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية لنور الدين، و ما قرب من أنطاكية لهم. و قد عاون نور الدين فى هذه الواقعة الأمير بزان فى عسكر دمشق و عسكر أخيه سيف الدين غازى و الجزيرة، و قتل من الفرنج ألف و خمسمائة و أسر مثلهم، و قتل البرنس و حمل رأسه إلى نور الدين. قال العماد:

و كانت هذه الكسرة على إنب، و إنب حصن من أعمال عزاز.

و ظهرت الفرنج فى الأعمال الدمشقية للعيث فيها و اتصل بنور الدين إفسادهم فى الأعمال الحورانية بالنهب و السبى فعزم على التأهب لقصدهم فسار و كف أيدى أصحابه عن العيث و الفساد فى الضياع، و أمر بإحسان الرأى فى الفلاحين و التخفيف عنهم. و كتب إلى دمشق يستدعى منهم المعونة على ذلك بألف فارس، و قد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه و غولط، فلما عرف ذلك رحل و نزل بمرج بيوس و بعض العسكر بيعفور، ثم رحل من منزله بالأعوج و نزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر، و راسل مجير الدين و الرئيس بدمشق بأنه لم يقصد محاربتهم و إنما دعاه إلى ذلك كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران و العربان و عجز أمراء دمشق عن حفظ أعمالها و استصراخهم بالفرنج على محاربتهم، و بذلهم لهم أموال الضعفاء و المساكين من الرعية ظلما لهم، فكان الجواب عن هذه الرسالة «ليس بيننا و بينك إلا السيف و سيوفينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣

قصدتنا و نزلت علينا» فلما عاد الرسول بهذا الجواب أكثر التعجب منه و الإنكار له، و عزم على الزحف إلى دمشق. و ما ندرى إذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين أئسز والى دمشق و صاحب أمرها نيابة عن أولاد طغتكين، و كان أئسز صالحا عادلا محسنا كافا عن الظلم متجنبنا للمآثم، محبا للعلماء و الفقراء، بذل مجهوده فى حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين فى الانحلال.

انحلال دولة مجير الدين و توفيق نور الدين:

آذنت شمس دولة أبناء طغتكين بالمغيب، لهلاك الرجال الغيورين عليها، ولأن أربابها أخذوا يتقنون بالفرنج على أبناء نحلتهم حبا بأن يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم. ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الأسنى في الشام بعد أن حالف التوفيق أعلامها أكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تتطلع إليها، وتعلق الآمال الطيبة عليها. وقد كانت دمشق التي أجابت نور الدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنه بين الأجناد والمقدمين والرعا والفلاحين وذلك لاستيحاش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها، ولم تزل الفتنة نائرة إلى أن أبعدهم من التمس إبعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة.

ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دوامها، وليست المسألة مسألة تقريب رجل أو رجال من أركان الدولة أو اصطلام نائر و خارج على الجماعة، وقد سرت روح الغضب حتى إلى أقرب الناس من الآل الملوكي، وقوة نور الدين تشتد و شائجها، ودعوته تزداد انتشارا اليوم بعد اليوم، فلم يسع أولى الأمر في دمشق سنة (٥٤٠) إلا تقرير الصلح بينهم وبينه، فأقيمت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطرق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة وأعادهما إلى عملهما وطيب قلوبهما «ورحل إلى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره». عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين أمام قوة قاهرة، عملاء و هما يسران حسرا؟؟؟ في ارتغاء، على أمل أن ينتقما من نور الدين باعتصامهما بالصلبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) أن يسوق عسكره إلى دمشق فنزل أوائل جنده على أرض عذراء، وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤

والثرب في سفح قاسيون، و كمنوا عند الجبل لعسكر دمشق، ثم وصل نور الدين في جنده و نزل على عيون فاسريا بين عذراء و دومة، و امتد عسكره إلى ضمير و نزلوا في أرض حجيرا و راوية في خلق كثير، ثم نزل في أرض مشهد القدم و ما والاه من الشرق و الغرب، و كان منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد أي أن العسكر النوري أحاط بدمشق من أطرافها الأربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلا ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين، و أرسل نور الدين إلى مجير الدين يقول: «كنت اتفقت معكم و حلفت لكم، و الآن قد صح عندي أنكم ظاهرتم الفرنج فإن أعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله رجعت عنكم» فلم يرد جوابا. و جرى بين أوائل العسكر و بين من ظهر إليه من البلد مناوشات و لم يزل نور الدين مهملا للزحف على البلد إشفاقا من قتل النفوس و إتخان الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت أيدي المفسدين من الفريقين في العيث، و حصدت زراعات المرح و الغوطة و ضواحي البلد، و خربت مساكن القرى و نقلت أنقاضها إلى البلد، و زاد الإضرار بأربابها من التناء و الفلاحين و تزايد طمع الرعا و الأوباش في التناهي و الفساد، ثم رحل العسكر النوري و نزل في أراضي فذايا و حلفلتا المصاقبة للبلد، و نشبت المطاردة و كثرت الجراح في خيالة البلد و رجالته، ثم رحل نور الدين إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للإنجاد ليكون قريبا من معايرهم، و بعد ذلك رحل إلى ناحية الزبداني استجارا لهم، و جعل من عسكره أربعة آلاف فارس ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج و لقاءهم، و نزل الفرنج على نهر الأعوج، و خرج مجير الدين و مؤيده في خواصهما و اجتماعا بملكهم و ما صادفوا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة و لا قوة، و تقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه و استغلال أعماله. ثم رحل عسكر الفرنج إلى رأس الماء و لم يتهمياً خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم و اختلافهم، و قصد من كان بحوران من العسكر النوري و من انضاف إليهم من العرب ناحية الفرنج للإيقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج إلى اللجاء للاعتصام بها. ثم زحف نور الدين على دمشق و قد رأى خيانه صاحبها و مماشاته للفرنج حرصا على هذه العاصمة من السقوط في يد العسكر النوري البالغ ثلاثين ألفا يزداد كل يوم قوة و عسكر دمشق ضعفا. و تخرج نور الدين من

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥

قتال المسلمين و ما زال يميل إلى حقن الدماء لعلمه بأن خيانه حكومتها لا تكون و لن تكون سببا للعبث بالعرض المقدس الذي يرمى

إليه من إنقاذ الأمة و لطالما قال: «إني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم».

ولما تجلت لمجبر الدين غلظته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظا لملكه إلا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه، ودخل مجبر الدين على نور الدين في حلب فبالغ هذا في إكرامه و قرر معه قرارات اقترحها

مقاصد نور الدين و فتحه دمشق:

كانت هممة نور الدين منصرفة في كل أطواره إلى توحيد الإمارات الإسلامية و هذه، كما في التاريخ العام، كانت على عهد الحروب الصليبية تتألف و تتمزق على الدوام بحسب طوابع الحروب و الدسائس التي تقوم ثورتها بين الأمراء، و بحسب انتقال الملك و تقسيمه، و امتيازات الأسر. و كان في جبال الشام خاصة من الأمراء من لم تكن أرضهم تتجاوز ربض قلاعهم و ضاحتها كصاحب شيزر، و لذلك عامل نور الدين مجبر الدين صاحب دمشق على ما بدر منه من الأغلاط النابية عن حد الوطنية و القواعد الشرعية معاملة رفق و إغضاء، لأن المقصد جمع الشمل و السؤدد مع السواد. و مما أفاد في هذا العقد وصول الأسطول المصري إلى الساحل في سبعين مركبا حربيا مشحونا بالرجال و اقترابه من يافا فقتل و أسر و أحرق و استولى على عدة وافر من مراكب الفرنج و الروم، ثم قصد ثغر عكا و صيدا و بيروت و طرابلس و فعل فيها مثل ذلك. قال ابن ميسر: و ظفر الأسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوه عن آخرهم، و بلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهمم بقصد الفرنج في البر ليكون هو في البر و الأسطول المصري في البحر فعاقه عن ذلك الاشتغال بإصلاح دمشق، و لو اتفق مسيره مع الأسطول لحصل الغرض من الفرنج، و كان من جملة ما أنفقه العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار.

لم تقف هممة نور الدين عند هذه الغاية بل اهتبل الغرة و شغل المحتلين في الساحل بما نزل عليهم من بلاء الأسطول المصري، فغزا الشمال و أسر جوسلين

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦

صاحب تل باشر و ملك قلاعه و هي تل باشر- و كان الأمير حسان المنبجي قد فتحها باسم نور الدين و هو على أبواب دمشق (٥٤٦)- و عينتاب و دلوک- و كان القتال على هذه شديدا جدا- و عزاز و تل خالد و قورس و الراوندان و برج الرصاص و حصن البارء و كفر سود و حصن بسر فوت بجبل بنى عليم و كفرلاثا و مرعش و نهر الجوز و ذلك في أيام يسيرة. و هذا الفتح و الفتح الذي تم على يده في السنة الفاتئة (٥٤٥) من تسلم قلعة أرامية جعل نور الدين صاحب الشام. و كان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة و الرأي، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا و اقتتلوا و انهزم المسلمون و قتل منهم و أسر جمع كثير، و كان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلع أرسلان صاحب قونية و أقصرا و قال له: هذا سلاحدار زوج ابنتك و سيأتيك بعده ما هو أعظم منه.

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه و أعمل الحيلة على جوسلين و هجر الراحة ليأخذ ثأره. و أحضر جماعة من الأمراء التركمان و بذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين و سلموه إليه لأنه علم بعجزه عنه في القتال فيما قيل، فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيذا فظفر به طائفة منهم و حملوه إلى نور الدين أسيرا. و قال ابن الأثير: و عظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين، و خلت بلادهم من حاميتها و ثغورهم من حافظها، و سهل أمرهم على المسلمين بعده، و كان جوسلين كثير الغدر و المكر، لا يقف على يمين و لا- يفى بعهد، طالما صالحه نور الدين و هادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود و المواثيق نكث و غدر، فلقية غدره، و حاق به مكره، و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. فلما أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج و قلاعهم. و عنى نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة و السلاح، و كان كلما فتح حصنا نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفا من نكته تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو. و كان نور الدين و أبوه إذا فتحا قلعة جعلوا فيها من المؤنة و الذخائر ما يكفيها عشر سنين.

و أغار هذه السنة فريق وافر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا و لم يفلت منهم غير الوالى و نفر يسير. و قصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافر من الضياع من رجال و نسوان و شيوخ و أطفال فلحقهم صاحب بعلبك و استرجع منهم بعض ما أخذوا و عادوا على أقبح صفة من الخذلان.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧

و افتتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطربوس و قتل من كان فيه من الفرنج و طلب الباقون الأمان، و ملك عدة من الحصون بالسيف و السبى و الإحراق و الخراب و الأمان و منها دلوك و يحمور، بعد أن اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس و صبر الفريقان ثم انهزم الفرنج، و توجه مجير الدين فى العسكر إلى ناحية حصن بصرى و نزل عليه محاصرا و اليه لمخالفته و جوره، و ما زال به حتى نزل على حكمه. و أراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين و اليه فى ذلك، إذ لا سبيل إلى استقرار حالة دمشق إذا كان المستولون على بصرى و صرخد يمتون إلى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلمهم فى أيديهم كما فعل سيف الدين الطنطاش نائب صاحب بصرى و صرخد و استعان بالفرنج على المسلمين فاضطر معين الدين أتسز إلى قتاله و نازل القلعتين فملكهما. و قوى عزم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر و التركمان من البلدان للغزو و نصره أهل عسقلان على الفرنج، و كان هؤلاء شغلوا بأمر عسقلان منذ السنة الغابرة لإمداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم، و وصل الأسطول المصرى إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال و الرجال و الغلال و ظفروا بقوة وافر من مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان و داهموها من جوانب سورها فهدموه و قتل من الفريقين خلق كثير، و ألجأت الضرورة إلى طلب المال فأجبيوا إليه فخرج أهلها فى البر و البحر إلى ناحية مصر فملك الفرنج مدينه عسقلان، و كانت لخلفاء مصر و الوزراء يجهزون إليها المؤن و السلاح، و لو لم تختلف أهواء أهل الدولة المصرية و يقتل العادل ابن السلار لما جراً الفرنج على حصر عسقلان و الظفر بمن فيها و التحكم فى ضرب غرامة عليها.

و ملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس و قتل من كان فيه من الفرنج و الأرمن و نهض عسكره طالبا بانياس. و فى سنة (٥٤٩) وصل نور الدين فى عسكره لإمداد أسد الدين شير كوه و كان أرسله إلى دمشق فى كتيبة، و خيم بناحية القصب من المرج. و نزل نور الدين بعيون فاسريا و رحل فى الغد و نزل بأرض بيت الآبار من الغوطة و زحف إلى البلد من شرقه، و خرج إليهم من عسكره و أحداثه الخلق الكثير، و وقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، و لم يبرح نور الدين يزحف يوما بعد يوم حتى افتتح دمشق على أيسر وجه، و النفوس فيها متطلعة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨

إلى طلعتة لما كان يبلغ القاصى و الدانى من عدله و حسن سيرته، و لما أحسن صاحب دمشق مجير الدين أبق بالغبلة انهزم فى خواصه إلى القلعة فأنفذ إليه و أمنه على نفسه و ماله فخرج إلى نور الدين فطيب نفسه، و نادى نور الدين بالأمان و خرجت دمشق من أيدي أحفاد الأتابك طغتكين آخر الدهر بعد أن دانت لسلطانهم اثنتين و خمسين سنة.

الداعى نور الدين على فتح دمشق

و السبب فى فتح نور الدين دمشق تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك و جارية بدمشق من النصارى، و أطلقوا قهرا منهم كل من أراد الخلاص، فخشى نور الدين أن يملكوا دمشق، فاستمال أهلها فى الباطن ثم حاصرها و فتحها. و فى الكامل أن سبب حرصه على ملكها أن الفرنج لما ملكوا فى العام الماضى مدينه عسقلان و لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه و بين عسقلان، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق. و علل هذا الفتح سبط ابن الجوزى بما ظهر من مجير الدين من الظلم و مصادرة الدمشقيين و سفك دماهم و أخذ أموالهم، و قبضه على جماعة من الأعيان و استدعى

سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة و نهب داره و أحرق دور بني الصوفي و نهب أموالهم.

و تكاثرت مكاتبته إلى الفرنج يستنجدهم و يطعمهم في البلاد. و كان مراد نور الدين من أخذ دمشق إنقاذ القدس من الفرنج و الساحل و كانت دمشق في طريقه.

و طمع الفرنج في مجير الدين و كان قد أعطاهم بانياس، فكانوا يشنون الغارات إلى باب دمشق فيقتلون و يأسرون و يسبون، و كان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطعة يأخذونها منه، و ذل الإسلام و أهله في أيامه، و ساءت سيرته و كثر فساد، فكان الأمراء و الأعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون: الغياث الغياث و قالوا: إن شئت حصرناه في القلعة. فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف و قال: إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج و أعطاهم البلاد فيكون وهنا عظيما على الإسلام.

و كان من أشد الأمور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق لأنه كان أحرق

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩

قلوبهم و حرق أرضهم، و كان في كل وقعة يغني غناء حسنا، هذا و دمشق ليست له فكيف إذا أصبحت في حكمه، لا جرم أنه يتقوى بها و تقوى كلمته و لذا عدل إلى ملاطفة مجير الدين و مكاتبته و بعث إليه بهدايا فأنس به و صار يكاتبه و يستشير به فكان نور الدين يكتب إليه إن فلانا يكاتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم و تارة يقيهم، فخلت دمشق من الأمراء و لم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ، و كان صاحب بعلبك قد رد إليه مجير الدين أمر دولته و كان ظالما، فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول: قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه لعلم نور الدين أنه لا يتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين و أمر بقتله فقال له عطاء: لا تقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك و ذهب ملكك و سترى، فلم يلتفت إليه و قتله و حينئذ قوى طمع نور الدين في دمشق، و أرسل إلى أحداثها و أعيانها فأجابوه، فسار إليها و نزل عليها و كتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجد بهم و بذل لهم بعلبك و أموالا كثيرة، و بلغ نور الدين فأرسل إلى الأحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها و حصر مجير الدين في القلعة، و بلغ ذلك الفرنج فتوقفوا و لما دخل نور الدين صاح أصحابه «نور الدين يا منصور» و امتنع الأجناد و الرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين و ظلمه و عسفه للرعية و محبتهم لنور الدين لعدله و خيره.

سئمت النفوس في دمشق من سوء إدارة المتغلبين على أحكامها أمثال الوزير حيدر و مجاهد الدين بزان و عطاء و غيرهم، ممن لم يكونوا يهتمون بغير إملاء بطونهم و جيوبهم من دماء الرعية، و لو أصبحوا عبيدا أرقاء لأعدائهم. أما مجير الدين آخر ملوك الأتابكية في دمشق فإن نور الدين لما غلبه بذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين و سار إلى حمص فلم يعطه إياها و أعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين و سار عنها إلى العراق و أقام ببغداد حتى مات بها. و هذا من غريب ما يحكى في باب العدل فإن الملوك جرت عادتهم في تلك العصور إذا أخذوا ملكا أن يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تحرجا من إهراق الدم الحرام و استحكام الطوائل و الثارات و الأحقاد في أمة أشد ما تكون إلى التضافر. أعطى نور الدين حمص إقطاعا لمجير الدين حتى لا يقطع له أمله ثم عوضه عنها ببالس لأن حمص على مقربة من كور الصليبيين.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠

و من خان أمته و هو في عهد عزه أقرب إلى خيانتها في دور شقائه و ذله، اما بالبس (مسكنة) فبعيده عن حركة التطاحن بين الشرق و الغرب. و ماء الفرات أسوغ للعاصي مجير الدين من ماء بردى و العاصي. و المقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام، و هذا قد تم لنور الدين بفتح أبواب دمشق لعدله العمري، و خروج آخر الأتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام.

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق إلا-إبطال المظالم و المغارم، و رفع الحيف عن الضعاف، و جمع القوة إلى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد و الدسائس، كانت معظم وقائع نور الدين يحالفها التوفيق و في السنة التي صفت الديار له أخذ من الفرنج تل باشر. و

في سنة (٥٥٠) تقررت المودعة بين نور الدين و بين ملك الفرنج مدة سنة، و قبض نور الدين على ضحاك والى بعلبك و تسلّم القلعة و في السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب تقررت المودعة و المهادنة بينه و بينهم مدة سنة و ان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريه ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر و قوة شوكتهم بهم، و نهضوا الى الشعراء المجاورة لهم و وقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الأتراك تقصير، فانتهمز الفرنج الفرصة و استاقوا جميع ما وجدوه و أفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان و غيرهم. و أغار الفرنج (٥٥٢) على أرجاء حمص و حماة و أطلقوا أيديهم بالنهب، و أغاروا على بانياس، فانتصر المسلمون، و محقت السيوف عامة رجاله الفرنج و مسلمي جبل عامله المضامين إليهم، و ملك الفرنج جبلة و كانت في أيدي المسلمين منذ سنة (٤٧٣) و ثب عليها قاضيها ابن ضليعة التنوخي و استعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم، و كانت بيدهم منذ سنة (٣٥٧)، و ظفر أسد الدين في جماعة من شجعان لتركمان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت. و افتتح نور الدين بانياس قهرا و ظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج و أبطالهم فلم يفلت منهم إلّا اليسير، و عسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية و بانياس فنهض إليهم نور الدين في عسكره من الأتراك و العرب فكتب له النصر عليهم، و شاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام و لكنهم شغلوا أيضا خطط الشام، ج ٢، ص: ٣١

بما أصابهم من أضرارها في الساحل. و ملك نور الدين بعلبك و قلعتها، و كانت بيد الضحاك البقاعي فامتنع بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها. و فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج و ملك مصر فبعث بسرية الى غزة نهبت أطرافها و سارت إلى عسقلان فأسرت و غنمت و عادت بالغنائم الى مصر، ثم سير عسكر آخر فمضى الى الشريعة فأبلى بلاء حسنا، و ندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت و غيرها فأوقعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم و غنمت، و سير عسكر الى الشوبك و الطفيلة فعاثوا في أرجائهما و رجعوا بجر الحقائق يحملون الأسرى، و سير الأسطول المصري إلى عكا فأسر من أهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب، و ندب سرية أودفها بأخرى فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق فغنموا و عادوا. و ملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) و شنوا الغارة على الأعمال الشامية و أطلقوا أيديهم بالنهب و الإخراب في أعمال حوران و الإقليم، و قصدوا داريا و أحرقوا منازلها و جامعها و تناهوا في إخراجها، فخرج إليهم من العسكرية و الأحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع. و أغار عسكر نور الدين على أعمال صيدا و ما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة و خرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج و رجالتها و قد كمنوا لهم فغنمهم و قتل أكثرهم و أسر الباقون. و تجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره و سار عسكر مصرى إلى بيت المقدس فعاث و خرب، و جرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج و أقلعت خمس شوان من مصر فدوخت ساحل الشام و ظفرت بمراكب الفرنج و عادت بالغنائم و الأسرى. و في سنة (٥٥٤) حشد ملك الروم و وصل الى الشام و جمع نور الدين عليه العساكر فعادوا من حيث أتوا و غنمهم المسلمون.

مرض نور الدين و إبلاله و تنمة فتوحه و هزيمته في البقية:

من أعظم البلاء على ممالك الإسلام قديما مسألة وراثته الملك، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة لا تتصل فيها إلا القوة، و صاحبها قد يحرم غيره ممن هم أقرب نسبا من السلطان المتوفى، فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضا شديدا و أرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكى جمعا و حصر هذه القلعة و كان خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٢

شيركوه بحمص و هو من أكبر أمراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولى عليها. و بها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك و قال: أهلكتنا و المصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حيا خدمته في

هذا الوقت، و إن كان قد مات، فإننا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها، فعاد شيركوه إلى حلب مجدداً، و جلس نور الدين في شباك يراه الناس، فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير ميران.

ولما أبل نور الدين من مرضه و استقامت الأحوال أخذ حران من أخيه لطمع هذا في ملك نور الدين عند ما كاد الناس يأسون من سلامته. و قصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج نور الدين محمودا ملتجئاً إليه فأمنه و سير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة و كان زهر الدولة بن بحتر التنوخي واليا على ثغر بيروت و مقيما بحصن سرحمور فولاه نور الدين القنيطرة و ثعلبايا بالبقاع و ظهر الأحمر من وادي التيم و برج صيدا و الدامور و المعاصر الفوقانية و شارون و مجدل بعنا و كفرعميه و رتب له علائف لمحاربة الفرنج، و كان أبوه شرف الدولة قاطنا في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج.

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم و هي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج و راسلوه و لاطفوه و كانوا خلقا عظيما فرحل عنها، و من أعظم الوقائع التي أصيب بها نور الدين بالفشل أكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقيعة بينا كان نازلا تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين و عسكره إلا و قد أطلت عليهم صلبان الفرنج و قصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة و في يده السبيحة فنزل إنسان كردى قطعها فنجا نور الدين و قتل الكردي و سار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها و تلاحق به من سلم من جيشه. و قد نقل سبط ابن جوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن للمسلمين برك (أثقال) و لا طليعة ظنا من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه قال: و كان ذلك من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو و لم يستظفروا بالبرك و الطلائع قال: و كان من عزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا: ما فعل هذا إلا عن قوة، و توقفوا ثم تفرقوا و خاطبوه بالصلح فلم يجبههم و تركوا عند حصن الأكراد من بحميه و عادوا إلى أرضهم.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٣

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل و ماردين و الحصن و ذكر لهم ما تم عليه فأوجدوه بجيوش ضخمة و كانت سنة (٥٥٩) كلها فتوحا نافعة كان فيها مبدأ سعادة نور الدين، فتح فيها حارم و قتل بالقرب منها عشرة آلاف و أسر ألوفاً و من جملتهم صاحب أنطاكية و القومس صاحب طرابلس و الدوك مقدم الروم و كثر الأسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم فاداهم نور الدين. و كان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم: يقتل الجميع و قال آخرون: يفادى بهم.

فمال نور الدين إلى الفداء فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلا و خيلا و سلاحا و غير ذلك. فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس و الربط و المارستانات و غيرها من هذه المفاداة و جميع ما وقفه منها و ليس فيها من بيت المال درهم واحد.

قال المؤرخون: و كان الصليبيون جاءوا لنجدة حارم «في حدهم و حديدتهم و ملوكهم و فرسانهم و قسوسهم و رهبانهم» و كان الصليبيون استولوا على حارم سنة (٤٩١) و زادوا في تحصينها و جعلوها ملجأ لهم إذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة (٥٥١) و سنة (٥٥٧) ثم فتحها هذه السنة، و كانت قلعة حصينة في نحور المسلمين.

و في سنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم و كان الفرنج و الأرمن على حارم ثلاثين ألفا و وقع بيمند في أسره و باعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

حملة نور الدين على مصر:

فتح نور الدين تلك الفتوح و رايته منصوره و سطوته محذورة، استصفي من ضعاف أمراء المسلمين ما اتصل إليهم بالإرث من الأقاليم فنزلوا له عنها طوعا أو كرها، و اقتصد في إهراق دماء المسلمين و أسرف في إزهاق أرواح الصليبيين، و استرجع من الأعداء مدنا و حصونا مهمة جعلت إماراتهم الثلاث الباقية تهتز أعصابها، و تخاف بأس حملاته و غزواته، و لم يخامرهم شك و هم يستنشون

أخباره أنهم ابتلوا برجل و حدّ قوى الشام و جمع القلوب و وجهها إلى قتالهم و استرجاع القطر منهم.

و لما تمّ له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور و ضرغام من وزرائها (٥٥٩)

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٤

و كانت غدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين يتولاها من يستطيع أن يستجيش له أنصارا و أعوانا. و لما استلب ضرغام من شاور وزارته و عجز في مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلا له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن هو أعاده الى الوزارة. فرأى نور الدين أن معاونه الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أفلها أنها تفتح له سببا إلى التدخل في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها و ضمها إلى مملكته أو تقاضى ما وعد به شاور من الأموال ينفقها في وجوه المصالح و المرافق في الدولة. فأرسال حملة على مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للإسلام من عدة وجوه.

اقتضى رأى نور الدين بعد تدبّر أمر مصر أن يندب لها رجلا من أعظم رجاله دهاء و حنكة، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شاذى و أصحبه بابن أخيه صلاح الدين يوسف، و كانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة و استخصه نور الدين «و ألحقه (أى صاحب شرطتها) بخواصه فكان لا يفارقه في سفر و لا حضر» و كان في تلك السنة شحنة دمشق فأخاف اللصوص و قضى على نائره الفتن و في تلك الفتن قال عرقلة الشاعر:

ذر الأتراك و العربا و كن في حزب من غلبا

بجلق أصبحت فتن تجر الويل و الحربا

لئن تمت فوا أسفوا إن تخرب فواعجبا

ذهبت الحملة الى مصر و أعاد أسد الدين شيركوه الوزير شاورا الى وزارة العاضد العلوى، و لما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه، فشق ذلك على أسد الدين، و سار فاستولى على بلبس و الشرقية فأرسل شاور و استنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج و اجتمع معهم شاور بعسكر مصر و حصروا شيركوه بلبس ثلاثة أشهر. و بلغ الفرنج ما أصابه نور الدين في الشام من التوفيق و أنه أخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح و فتحوا له طريقا فخرج من بلبس يمن معه من العسكر و سار بهم و وصلوا إلى الشام سالمين.

هذا ما كان من مبدإ دخول الجند النورى إلى مصر و ما لقيه من الشدائد بيد أن قائدهم عرف أمراضها و خللها و اطلع على مداخلها و مخارجها، فكان إنجاد

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٥

نور الدين شاورا و استنجد هذا بالفرنج درسا نافعا لدولة نور الدين أدركت به أنه لا سبيل إلى إنقاذ الشام إلا بالاستيلاء على مصر خصوصا و الفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفا شديدا و لا يطيقون مقاتلتهم. كان هذا أيام كان لهم شيء من السلطان على النفوس و قوة على التناحر و التغاور فما بالك بهم و قد دب الضعف في كيان دولتهم و عبث العابثون بعزتها و منعها. و إلا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقيما، لأن الروح الخبيث سرت لصغار الأمراء من المسلمين في الاعتصام بأعدائهم إذا ضاقت بهم حالهم و أتاهم سلطان أعظم من سلطانهم، و لئن كانت الشام قد تطهرت من جرائم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية بمصر إذا استهانت بمقدساتها أيضا يصبح البقاء في الشام خطرا دائما.

و بينا كان نور الدين يحزق الأرم على شاور و في نفسه منه حزازات لأنه لم يف له بما وعده، و استعان على قتال جيشه بالصليبيين، عاد شاور على عادته يظلم و يقتل و يصادر و لم يبق للعاضد معه أمر و لا نهى فبعث يستنجد بنور الدين على شاور، فما عتم نور الدين أن جهز أسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) إلى مصر بعسكر جيد عدتهم ألفا فارس و أمر أيضا أن يخرج معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف إلى مصر فامتنع صلاح الدين و قال: يا مولانا يكفى ما لقينا من الشدائد.

فقال: لا بد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين. و كان في ذهاب صلاح الدين إلى مصر سعادته و سعادة أمته إذ فتح مصر و أصبح بعد ذلك ملك مصر و الشام على ما سنلم به في الصفحات المقبلة. قال المؤرخون: أحب نور الدين مسير صلاح الدين إلى مصر و فيه ذهاب الملك من بيته، و كره صلاح الدين المسير و فيه سعادته و ملكه. و رب زارع لنفسه حاصد سواه. فاستولى أسد الدين على الجيزة و أرسل شاور إلى الفرنج و استنجدهم فساروا في أثر شيركوه إلى جهة الصعيد فهزمهم و استولى شيركوه على إقليم الجيزة و استغلها ثم سار إلى الإسكندرية و ملكها.

و جعل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب في الإسكندرية و عاد إلى الصعيد فاجتمع عسكر مصر و الفرنج و حصروا صلاح الدين بالإسكندرية ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه و يسلم إليهم الإسكندرية و يعود إلى الشام، فتسلم المصريون الإسكندرية و عاد شيركوه إلى دمشق، و استقر الصلح بين الفرنج و المصريين على أن يكون للفرنج

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٦

بالقاهرة شحنه و تكون أبوابها بيد فرسانهم، و يكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

و لكن الحال في مصر لم يسر سيرا حسنا لأن الفرنج لم يخلصوا، و من الخطأ الفاحش استنجد شاور وزيرها بهم و استعانته بهم على إخراج أسد الدين شيركوه منها فأرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية و كان الفرنج ملكوا بلييس و حصروا القاهرة، فأحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج و أمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة و بقيت النار تحرقها أربعة و خمسين يوما، و صانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار.

و لما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج و خلع عليه العاضد و أجرى عليه الإقامة، و ماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال و أفراد ثلث خراج مصر، و عزم شاور أن يقبض على شيركوه فقبض العسكر النورى عليه و قتل، و دخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة و لقبه الملك المنصور أمير الجيوش و تولى شيركوه الأمر شهرين و خمسة أيام ثم هلك، فأحضر العاضد صلاح الدين و ولاه الوزارة و لقبه بالملك الناصر، و ثبتت قدم صلاح الدين بمصر أنه نائب لنور الدين، و تمكن منها و ضعف أمر العاضد فكان لا يجرى في القصر صغيرة و لا كبيرة إلّا بأمر صلاح الدين، و أصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين.

بعض غزوات نور الدين:

و لم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الإثخان في الفرنج و إرهاف الحد في قتالهم، و قويت عزيمته بعد أن أخذ حارم و بانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه و كان كلما طالت أيامه أيقن أن القوة القليلة المنظمة أفعال من القوة الكبيرة المبعثرة. و لم ينغصه في عمله سوى مقاومة أحد إخوته أمير ميران له حتى اضطره إلى حربه فمضى أخوه أمير ميران إلى صاحب الروم و عفا عنه نور الدين. كأن السعادة التي أقبلت على هذا الفاتح من كل وجه أبت الطبيعة إلّا أن تكدرها عليه بمشاكسة أحد إخوته له، و كان بالأمس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة أخيه فحاربه، و اليوم يحمل أخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر؟؟ من سيئاته.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٧

و في سنة (٥٦١) فتح نور الدين حصن المنيطرة و خرب قلعة أكاف في البرية و فتح العريمة و صافيتا و حاصر حلبه و خربها و حاصر عرقه و عصا عليه غازي بن حسان صاحب منبج فأعطاه الرقة. و اجتمع بأخويه (٥٦٢) قطب الدين و زين الدين بحماة للغزاة و ساروا إلى بلاد الفرنج فحربوا هونين. و في سنة (٥٦٥) سارت الفرنج إلى دمياط و حصروها خمسين يوما و شحنها صلاح الدين بالرجال و

السلاح و الذخائر و غرم على ذلك أموالا- عظيمة، و خرج نور الدين فأغار على كورهم بالشام فرحلوا عائدين على أعقابهم و لم يظفروا بشيء منها. و فيها سار نور الدين إلى الكرك و حاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر الى اللقاء و قال بعضهم: إن الفرنج أغاروا على حوران و هم في جمع غلبت كثرته الخبر و العيان، و نزلوا في قرية شمسكين فركب نور الدين و هو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة و نزل نور الدين في عشرا. و بينا هو في اللقاء حدثت زلزلة هائلة في الشام فخرت معظم أسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفا عليها من العدو و كانت قلاعهم المجاورة لبعرين و لحصن الأكراد و صافيتا و عريمة و عرقه في بحر من الزلازل غرقى و لا سيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور و أغارت سرية لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهمز الفرنج و عمهم القتل و الأسر لم يفلت منهم إلا من لا يعتد به و قتل فيمن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد و كان من الشجاعة بمحل كبير و شجى في حلوق المسلمين.

و غزا نور الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان و عاد إلى مصر ثم حصر أيلة في العقبة المصرية بحرا و برا و فتحها. و غزا عرقه (٥٦٧) و فتحها و غنم الناس غنيمه عظيمة. و استولى نور الدين على صافيتا و عريمة عنوة، و قارب طرابلس و هو ينهب و يخرب و يحرق و يقتل و فعل جيشه في أرجاء أنطاكية مثل ذلك، فراجع الفرنج و بذلوا له جميع ما أخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر إلى اللاذقية و أخذهما الفرنج و هما مملوءان من الأمتعة و التجارة، و كان بينهم و بين نور الدين هدنة فنكثوا و غدروا فلما خربت عمالتهم أذعنوا.

قيام بنى شهاب من حوران و حربهم الصليبيين:

و في سنة (٥٦٨) كان قيام آل شهاب من حوران الى وادى التيم قال الشهابي:

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٨

و كان الكبير منهم في ذلك الوقت الأمير منقذ، و لما عزموا على القيام جمع الأمير منقذ الأمراء من بيت شهاب و وجره القبيلة و قال لهم: أنتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشاميه و الحلبيه و السلطان صلاح الدين سلطان الديار المصريه و لا بد أن السلطان نور الدين يتمم ما ينويه و قد دس العساكر في حوران و تعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبه و المنزلة الرفيعة و أنا أرى أنه يلزم علينا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الأحوال، فلما سمع الحاضرون ما قاله الأمير منقذ قالوا له: هذا هو الصواب و ليس فينا أحد يخالف مقالك، ثم عزموا على القيام و شدوا ظعونهم و حملوا أحمالهم، و رحلوا من حوران بعشائهم و قصدوا غربى الديار الشاميه و نزلوا حذاء الجسر يعقوبى.

و لما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران أرسل يسألهم عن السبب الداعى لقيامهم، و أرسل لهم الخلع و العطايا النفيسه، و طلب منهم أن يرجعوا إلى أوطانهم آمنين، فأبوا الرجوع بسبب خراب ديارهم، و طلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى مكان آخر فسمح لهم بذلك، فنزلوا في وادى التيم و كان نزولهم في بيضاء الظهر الأحمر من الكنيسه إلى الجديده و كانوا في خمسه عشر ألفا و الأرض التى نزلوها تحت استيلاء الفرنج، فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين ألفا بين فارس و راجل. و كان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعه الشقيف فأمده بخمسه عشر ألفا فالتقوا مع عسكر الفرنج و دام القتال ثلاثة أيام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف و من آل شهاب ثلاثمائة، و نقب بنو شهاب حيطان قلعه حاصبيا مدة عشره أيام و أخذوا قنطورا و جماعته، و كانوا ثلاثمائة و قتلوهم و أرسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور و أعطى ذاك الإقليم لآل شهاب ملكا لهم. و لما سمع صاحب قلعه الشقيف ما حل بالفرنج فى حاصبيا أرسل للأمير منقذ يطلب منه الصلح.

و هكذا أدى بنو شهاب خدمه عظيمة للدولة، قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين و صلاح الدين، و الغالب أن صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسهلوا لنور الدين طريق الحمله على صلاح الدين فى مصر، فلما رأوا أنهم لا قبل لهم بنور

الدين عرجوا على وادى التيم فكان في ذلك خيرهم و خير دمشق خاصة لأنهم وقفوا في غربها وقفه محموده و ردوا عنها عاديه الصليبيين.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٩

الفتور بين نور الدين و صلاح الدين:

قلنا إنه حدث جفاء بين السلطانين و السبب فيه أنه لما قويت سلطه صلاح الدين في مصر و ولى ملكها بعد مهلك عمه أسد الدين شيركوه و أصبح الأمر الناهى أرسل نور الدين إليه يأمره بقطع الخطبه العلويه و إقامة الخطبه العباسيه، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم يلتفت نور الدين الى ذلك و أصر عليه فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضى العباسى فامتثلوا، و كان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته و لما هلك جلس صلاح الدين للجزاء و استولى على قصر الخلافة و على جميع ما فيه و كان شيئا كثيرا جدا فقويت بذلك شوكته و أصبح ملك مصر حقا و صدقا.

و ضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطال أحدهم لدعوى الخلافة بعد العاضد و استدعى من الشام أباه و إخوته، و كان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توا بل يخاطب أمراء بمصر و من جملتهم صلاح الدين، و لقد توطد ملك مصر لصلاح الدين و الخطبه له فيها بعد نور الدين يدعى لهذا بعد الخليفة العباسى، و كلما مضى شهر يزداد نور الدين استيحاشا من صلاح الدين مع أن صلاح الدين سد أبواب الشك على نور الدين، فقام بجميع رسوم التعظيم له، و كان معه كقائد مع سلطانه، و كان صلاح الدين نازل الشوبك و هى للفرنج ثم رحل عنه خوفا أن يأخذه نور الدين، و اعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة في تغييره عن مصر و دعا دعاة العبيدين إلى إرجاع دولتهم.

و لما جاء نور الدين الكرك من قابل و حصرها (٥٦٨) كان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك و سار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم بالقرب من الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين و اعتذر بمرض أبيه و أنه يخشى أن يموت فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر، و فى الواقع أن أيوبا والد صلاح الدين قضى نجه في تلك المدة. كان فى نفس كل من نور الدين و صلاح الدين شىء على صاحبه، فلم يخرج صلاح الدين بعساكره الى الشام لحصار الكرك و الشوبك و نهب أعمالها إلا لما أيقن أن نور الدين ابتعد عن سمت الشمال و قصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش و بهسنا حتى لا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٠

يجتمع به. و السبب الذى دعا صلاح الدين إلى حصار الكرك و الشوبك و قتل بعض العربان و نهب ديارهم هناك أن جماعة من الأعراب النازلين بأرض الكرك كانوا ينقلون الأخبار إلى الفرنج و إذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين.

و كان الكرك و الشوبك طريق الديار المصريه و يغير أهلها على القوافل منها فقصد تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض. و كان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه فى مصر يخاف و آله من نور الدين، و كان استقدمهم إليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكه غير مصر و إذا قصدهم نور الدين فى مصر قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا الى تلك المملكه، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبه فلم تعجبهم ثم سيره بعسكر إلى اليمن ففتحها و استقرت اليمن فى ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسى ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على أن صلاح الدين لم يستطع إرسال العسكر من مصر لأول مرة إلا بعد استئذان نور الدين. فهذا و غيره من الأسباب التى أقلقنت نور الدين على ملكه و حاذر أن تكون عاقبه هذا الأدب و الخضوع انتزاع ملكه منه أو إنشاء صلاح الدين مملكه جديده أعظم و أغنى من مملكه نور الدين القديمه.

وفاه نور الدين و صفاته الطيبه:

بيننا صلاح الدين يحاذر من نور الدين و هذا يتجهز للدخول الى مصر لأخذه أتى نور الدين اليقين، و مملكته الحقيقية لم تعد الشام و الجزيرة و خطب له بمصر و اليمن و الحرمين، ففرق الموت شمل من كان يتخوف أحدهما من صاحبه، و بكت الأمة الملك العادل نور الدين أبا القاسم محمود بن عماد الدين أتابك لما ظهر من عدله و حسن سيرته بحيث قل في الملوك الغابرين أمثاله. قال ابن الأثير: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام و فيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين و عمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، و لا أكثر تحريا للعدل و الإنصاف منه، قد قصر ليله و نهاره على عدل ينشره، و جهاد يتجهز له، و مظلمة يزيلها، و عبادة يقوم بها، و إحسان يوليه، و إنعام يسديه، فلو كان في أمة لا فتخرت به فكيف بيت واحد، أما زهده و عبادته و علمه فإنه كان مع سعة ملكه و كثرة ذخائر بلاده و أموالها، لا يأكل و لا يلبس و لا يتصرف فيما

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤١

يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمه و من الأموال المرصده لمصالح المسلمين. أحضر الفقهاء و استفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله و لم يتعده إلى غيره البتة. و أسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية و الخراج و ما يحصل من قسمة الغلات و كتب أكثر من ألف منشور بذلك. و أطلق المظالم بحلب و دمشق و حمص و غيرها و أسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب و المكوس و حرمها على كل متناول إليها، فكان مبلغ ما سماح به في حلب و ما إليها فقط في السنة ١٥٦ ألف دينار و ما وقفه و تصدق به مائتي ألف دينار، و تقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، و أقطع أمراء العرب لثلاثا يتعرضوا للحاج و جدد قنى السبل و وقف الكتب الكثيرة، و أجرى على العلماء و القراء. و لقد رأى أصحابه على ما روى ابن الأثير كثرة خرجة فقال له أحدهم: إن لك في بلادك إدرات و صدقات كثيرة على الفقهاء و الفقراء و الصوفية و القراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك و قال: و الله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما أنتم ترزقون و تنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى و أنا نائم على فراشى بسهام لا تخطىء و أصرفها الى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب و قد تخطىء. و هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم؟.

و كان يأخذ مال الفداء و يعمر به الجوامع و اليمارستانات و أخذ من أحد ملوك الفرنج ثلاثمائة ألف دينار و شرط عليه أن لا يغير على ديار الإسلام سبع سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام و أخذ منه رهائن على ذلك و بنى بالمال المستشفى النورى بدمشق، و لما بلغ الملك الفرنجى مأمنه هلك. و كان يبعث بما يصل إليه من هدايا و غيرها إلى القاضى يبيعه و يعمر به المساجد المهجورة و لا يتناول منه شيئا، و أمر بإحصاء مساجد دمشق فأحصيت مائة مسجد فوقف الأوقاف على جميعها، و كانت وقوفه فى الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطنا و ظاهرا صحيح الشراء. و كان آية الرحمة على الفقراء و العدل فى الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه. حضر جماعة من التجار عنده و شكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار و تنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٢

و لا يرى الدينار فى الوسط و إنما يعدون إلى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار و تارة سبعة و ستين بدينار، و أشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه و تكون المعاملة بالدنانير الملكية و تبطل القراطيس بالكليء، فسكت ساعه و قال: إذا ضربت الدينار و أبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنى ضربت بيوت الرعية. فإن كل واحد من السوقه عنده عشرة آلاف و عشرون ألف قرطاس، فى شىء يعمل به فيكون سببا لخراب بيته.

قالوا، و الحق ما قالوا، إن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل و الإنصاف، و ترك المحرمات و عاقب من يأتيها، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية هممة أحدهم بطنه و فرجه، لا يعرف معروفًا و لا ينكر منكرا، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق و منار العدل، وقف مع أوامر الشرع و نواهيه، و ألزم بذلك أتباعه و ذويه فاقتدى به غيره منهم، و كان يروى الحديث و يرويه، و قد ألف كتابا فى

الجهاد، و كان يباشر الإشراف على خيل الجند و سلاحهم بنفسه، و لا يتكل على خواده، و لا يقطع أمرا قبل أن يستأذن الخليفة ببغداد. و كان فى السياسة و الدهاء على جانب عظيم، تجلى ذلك يوم خيانه مجير الدين صاحب دمشق و لما أخذه أغضى عنه، و كان يكره إهراق الدماء و الحرب على غير طائل، مع شجاعة ليس بعدها مزيد و معرفه بالرمایة تضرب بها الأمثال، و من جيد الرأى ما سلكه مع مليح بن قيون ملك الأرمين صاحب الدروب فإنه ما زال يخدعه و يستميله حتى جعله فى لدمته سفرا و حضرا؛ و كان يقاتل به الفرنج و يقول: إنما حملنى على استمالتة أن بلاده حصينة و عرة المسالك، و قلاعه منيعة و ليس لنا إليها طريق، و هو يخرج منها إذا أراد فينال من الإسلام، فإذا طلب انحبز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الأقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا و خدمتنا و ساعدنا على الفرنج. و كان متملك الروم خرج من القسطنطينية و توجه إلى الشام طامعا فى تسلّم أنطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة إلى أن وصل أخوه قطب الدين فى جنده من المواصلة و جمع له الجيوش و العساكر، فأيس الرومى من بلوغ ما كان يرجو و تمنى منه الصلح فاستقر رجوعه إلى بلاده.

و قال مترجموه: إنه كان يكثر إعمال الحيل و المكر و الخداع مع الفرنج و أكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب، أما أعماله فى رد المظالم و تخفيف المغارم
خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٣

فسيرته فيها سيرة عمرية، و أما إنشاؤه المدارس و الجوامع و عمارة الطرق و الجسور و دور المرضى و البائسين و الخانات فمما لم يسبق إليه، أقام الأبراج على الطرق بين المسلمين و الفرنج جعل فيها من يحفظها و معهم الطيور الهوادى أى الزاجل فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم و احتاطوا لأنفسهم، و بنى مكاتب للأيتام و أجرى عليها و عليهم و على معلمهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم و أهله مقر العلم و مباءة الفقه.

هذه حال ملك القرون الوسطى و حسن بلائه فى خدمة أمته و هو يقاتل الأعداء فى الغرب و الجنوب، و قد فتح تيفا و خمسين حصنا و أقام المعالم و هو مشتغل بحفظ الأوطان، لم يدخل اليأس على نفسه و لم يخامر الشك بأن العاقبة المحموده تكون له و للمسلمين، و أنه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه. مع أن مدة ملكه فى الشام لم تتجاوز أربعاً و عشرين سنة. لا جرم أن ظهور بنى زنكى نعمة أنعمت بها الأقدار على هذه الديار، فخرجت بها من انقسام الكلمة و تشتت الأهواء و الآراء، و من خيانه الملوكة و الأمراء، و الاعتضاد بالمحاربين من الأعداء إلى تماسك و تعاضد، و من ظلمة الجهل و الغرور إلى ضياء العلم و النور، و من سلب أموال الأمة إلى إمتاعها بالعدل الشامل و الأمن الكامل. بسقت فروعها فى أيسر زمن و أخرج العصور، فخطب الناس و دها فى كل مكان و ودوا لو كان لها الحكم عليهم، و رجا أولياؤها أن تطول أيامها لأنها لا تسوق الناس إلا إلى طرق فلاحهم و سعادتهم.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٤

الدولة الصلاحية «من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٨٩»

أولية صلاح الدين و الملك الصالح:

توفى نور الدين محمود بن زنكى و كان له السلطان الأكبر على القلوب تحبه رعيته و يخافه أعداؤه و يحترمونه، و بعدله و سيرته و جميل سياسته و إداراته، و طد أساس ملكه، و وحد كلمة الشام و مصر و الجزيرة، و أنشأ عظماء فى دولته كانوا ساعده الأيمن و عضده الأقوى ففتحوا الفتوح باسمه و يمن نقيبته، و صدروا كلهم عن رأيه و مشورته، و من أعظمهم بل أعظمهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب. و أصل صلاح الدين من دوين بلدة فى آخر عمل أذربيجان من جهة إيران و بلاد الكرج و هم أكراد زوادية و هى قبيلة كبيرة تعد من أشرف الأكراد، و انتقل أهله من هناك إلى العراق ثم عين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين محافظا لقلعة

تكريت وفيها ولد ابنه هذا، و كان نجم الدين أيوب بن شاذى حسن الخلق عادلا شجاعا كريما دينا محسنا ربي في الموصل و نشأ شجاعا باسلا و خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، فرأى منه أمانة و عقلا و سدادا و شهامة، فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام، حتى عمرت أرضها و أمنت سبلها ثم أضيفت إليه ولايتها، و كان نجم الدين عظيما في أنفس الناس بالدين و الخير و حسن السياسة، و اتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده و نوابه. و هذا الرجل العظيم هو الذى أولد رجلا أعظم و هو صلاح الدين.

و كأن الزمن العصب الذى ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكا كفاء أثبتوا بالعمل مقدرتهم السياسية و الحرية، و أبرزوا خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٥

من آثار نجدتهم و جلادتهم ما تطأىء أمامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زورا و رياء و لا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل و لا يسمع إن لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقه قواد الأمم مثلها. و لم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الأمر مثل صلاح الدين لأنه أنبع رجاله و أكبرهم مقاما و شأنا و أقربهم إلى قلوب الأمة، و هو ملك مصر حقا، و من ملك مصر كان حريا بأن يملك الشام، خصوصا و الشام يحبه، لما بدا من غنائه و مضائه في نصره الملة و الدولة.

و لكن نور الدين قد خلف ولدا يقضى قانون الوراثة في الملوك في تلك الأعصر بأن يرث الابن ملك أبيه كما يرث قصره و مزرعته مهما كانت سنه، و يتولى رجال الدولة أمره و يكفله من يعطفون على دولته و من غنوا بنعمة أبيه و آله، بيد أن الحالة السياسية في الشام و مصر و ما إليهما من الممالك كانت بحيث يقتضى الشذوذ عن هذه القاعدة و لو إلى حين، فيوسد الملك إلى من جمعت أشخاصهم الكفاءة قبل كل شىء لتخرج المملكة من مأزقها الحرج، و هذا لا يتيسر أن ينهض به ولد يافع بلغ من العمر إحدى عشرة سنة، و نعى به ابن نور الدين الملك الصالح إسماعيل. فانظر كيف تصرف الأقدار بما فيه الخير، و لم تترك مصالح الدولة للأصول السخيفة في توسيد الملك للكبير و الصغير على السواء.

توفى في دمشق نور الدين في سنة (٥٦٩) و بالحال ملك ابنه الصالح إسماعيل و حلف له العسكر بدمشق و أطاعه صلاح الدين و خطب له بمصر و ضرب السكة باسمه، و دبر دولته شمس الدين بن المقدم من أعظم أمراء أبيه، و استولى سيف الدين غازى شقيق نور الدين محمود على الديار الجزرية و هى لنور الدين، و كان صلاح الدين في مصر، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لأبيه من قبل. بيد أنه من المتعذر إدارة المملكة في ذاك العصر إذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى شروط الحكم، فيصدر عن رأى واحد يحضه أولا- بمشورة رجال دولته و يكون هو المرجع فيه و المسؤول عنه، يهتم لمملكه اهتمامه بابنه و ابنته، و هل يتيسر ذلك إذا تشعبت الآراء. و كان صاحب الملك الرسمى قاصرا و أوصياؤه يدبرونه و ربما كان فيهم من تطمح نفسه إلى الاستئثار بالسلطة، و متى كان الوكيل كالأصيل، و المتنفل كالمكلف:

ممالك لم يدبرها مدبرها إلا برأى خصى أو بعقل صبي

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٦

اختلاف الآراء و استيلاء صلاح الدين على الشام:

و لما بدأت نواجذ الاختلاف تبدو بين الأمراء في الشام شعر صلاح الدين و هو بمصر أن هذا الفراغ الذى حدث بموت نور الدين يستلزم أن يملأه رجل تجمع القلوب على حبه، و أن يصل السلسلة المقطوعة بمهلكه و إلّا انفرط العقد كله، و تصبح الديار فوضى و تفتح أبوابها على مصاريعها لدخول الدخلاء يستصفونها و تصبح بالشقاق الداخلى أبشع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الأتاكية أخلاف الأتابك ظهير الدين.

و اتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر و قصدهم بانياس فخرج إليهم شمس الدين بن المقدم و راسل الفرنج و خوفهم بقصد صلاح الدين لأرضهم و قال لهم: أنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، و الآن فقد زال ذلك الخوف و إذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع، فعلموا صدقه و صالحوه، و تكلموا في الهدنة و حصلوا بقطيعة استعجلوها و استطلقوا عدة من أسرارهم و تمت المصالحة. و في تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة و أن الصليبيين عرفوا أنهم ابتلوا بدهية لا يقل عن نور الدين بحسن تديره و شجاعته.

بلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم و الفرنج فأنكره و لم يعجبه، و كتب إلى جماعة الأعيان كتابا يقوهم فيه و يلومهم، و يقول إنه تجهز و خرج و سار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الإسلام فعاد إلى مقره. و قد «استصغر أمر أهل الشام و علم ضعفهم» و قال: «إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، و ضاقت المناهج المتسعة، و انفردت مصر عن الشام». قال ابن شداد:

لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين و كون ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك، و لا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج الى الشام إذ هو أجل بلاد الإسلام. و قد كان صلاح الدين ينوي أن يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين و كتب: «إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاء، و المحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة». و لكن الأمراء في الشام أخذ كل منهم يعمل على شاكلته، و يريد أن يستأثر بالأمر دونه و هو أحق منهم و أولى.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٧

ثم إن شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب و رضيع نور الدين و أكبر أمرائه أرسل سعد الدين كمشتكين الى دمشق يستدعى الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها، و لما استقر بحلب و تمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية و إخوته و على الرئيس ابن الخشاب و إخوته، و استبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم و غيره من الأمراء الذين بدمشق، و كاتبوا صلاح الدين في مصر و استدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريده في سبعمائة فارس فوصل إلى بصرى و كان صاحبها يستحبه على القدوم، و لما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر و التقوه و خدموه، و عصت عليه القلعة و كان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين و استماله فسلم القلعة إليه، فصعد إليها صلاح الدين و أخذ ما فيها من الأموال. ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتابا يتواضع له فيه و يخاطبه بمولانا و ابن مولانا و يقول: إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدى ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك و تختل أمورك، و ما قصدى إلما جمع كلمة الإسلام على الفرنج. فعرض الملك الصالح ذلك على أمراء دولته فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة فكتب إليه منكرا عليه، و ينسبه إلى كفر النعمة و جحد إحسان والده و وعده و هدده فساء ذلك صلاح الدين و أغضى على القذى و كظم غيظه.

و لما قرر صلاح الدين أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب و سار إلى حمص و كانت حمص و حماة و بارين و سلمية و تل خالد و الرها في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين المقام بحمص و حماة لسوء سيرته مع الناس، و كانت هذه العمالة له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين و ليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الإبارين، فملك صلاح الدين مدينة حمص و عصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها و دكوها و رحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالإسماعيلية و أعطاهم ضياعا و مالا ليستعين بهم على صلاح الدين، فلم يلبث أن ملك مدينة حماة و كان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل و إنما هو نائبه، و قصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٨

و سار إلى حلب برسالة صلاح الدين و استخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين و سجنه،

فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، ثم سار هذا إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، فعاد إليهم فرجعوا أدراجهم، ووصل صلاح الدين إلى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار إلى بعلبك فملكها.

تملك صلاح الدين و محاولة اغتياله و سر نجاحه:

ولما استقر ملك صلاح الدين أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجان ليسيير في النجدة أيضا فامتنع مصانعة لصلاح الدين، ووصل عسكر الموصل وانضم إليه عسكر حلب و ساروا إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص و حماة و أن تقر بيده دمشق، و أن يكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك و ساروا إلى قتاله، و اقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل و حلب، و حينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين و أزال اسمه عن السكة و استبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، و للملك الصالح ما بقي بيده منه، فصالحهم على ذلك و رحل ثم ملك قلعة بارين كما صالح بنى رزيك على أن يكون له إلى حد المعرفة و لهم ما يلي ذلك فنقض الحليون الصلح الذي كان بينهم و بين صلاح الدين و جاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل و ديار بكر و حلب و عدتهم عشرون ألفا بين فارس و راجل، و عسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر. و قال رسول سيف الدين لصلاح الدين إنه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف و تحته سجادة و بين يديه مصحف و هو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته و سيفه و قوسه و تركاشه (جعبتة) معلق في عمود الخيمة،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٤٩

فلما رأته وقع في خاطري أنه المنصور لأننى فارقت سيف الدين و الأمراء و هم على طنفس الحرير و الخمور تراق و الطبول تعمل، و ليس فى خيامهم خيمة إلا و فيها أنواع المحرمات، فأدبت إليه الرسالة و جاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الأذان و فى كل خيمة إمام. قال سبط ابن الجوزى: إن صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشا بالرياحين، و المغنون جلوس فى انتظاره، و الخمور تراق و مطابخه بقدورها، و فيه أفقاص الطيور فيها أنواع من القمارى و البلابل و الهزرات، فأرسل صلاح الدين بما كان فى السرداق من المغنين و الخمور و الطيور إليه و قال للرسول: قل له اشتغالك بهذا أليق من مباشرتك الحروب و لا تعد إلى مثلها. و كان هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين و سيف الدين غازي فى سنة (٥٧١) فهرب سيف الدين و العساكر التى كانت معه و كان استنجد بعد هزيمته فى قرون حماة بصاحب حصن كيفا و صاحب ماردين و غيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها و تسلمها و قصد منبج فحصرها و افتتحها عنوة. و لما جلس يستعرض أموال صاحبها و ذخائره كان فى جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار و من الفضة و الآنية الذهبية و الأسلحة ما يناهز ألفى ألف دينار، فحانت من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس و الآنية مكتوبا «يوسف» فسأل عن هذا الاسم فقيل له: ولد يحبه و يؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له فقال السلطان: أنا يوسف و قد أخذت خبيء فتعجب من ذلك (رواه ابن أبى طى).

ثم سار السلطان الى عزاز و نازلها و تسلمها فوثب إسماعيل على صلاح الدين فى حصاره عزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين يدي إسماعيل و بقى يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل إسماعيل على تلك الحال و وثب آخر عليه فقتله أيضا و جاء السلطان الى خيمته مذعورا و عرض جنده و أبعد من أنكره منهم. و هكذا فإن صاحب حلب أو نائبه أو جماعة دولته، و صاحب حماة أو نائبه أو حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بأيدي الخوارج حرصا على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به

زمننا أولاً يستمتعون، و لو وقفوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة و مجد، و ما أكثر الأدياء في كل زمن في حب دينهم و قوميتهم، فإذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ أنفسهم فقط.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٠

و بعد تسليم عزاز لصالح الدين جاء حلب فحاصرها و بها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم اليه و سأله قلعة عزاز فسلمها إليهم، و رفع على حلب علمه الأصفر، و رحل عنها في المحرم (٥٧٢) و رجع من كورة الإسماعيلية و حصر قلعة مصياف، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصلح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم إلى مصر، و سنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية و مقدم الفرقة الباطنية بالشام و إليه تنسب الطائفة السنانية و هو الذي كتب إلى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان و افتتحه بقوله:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحمام إلى البازي يهدده و استيقظت لأسود البرّ أضعه

أضحى يسدّ فم الأفعى بإصبغه يكفيه ما قد تلاقى منه إصبغه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصالح الدين و قد كتب إليه مرة أخرى:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها و اشمخ عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا و فينا حديدها

و في ذلك بيان لقوة الإسماعيلية في عصر صلاح الدين و كانوا يتهددونه كما يتهددهم و لذلك كان يغضى في الغالب عنهم و إن حاولوا اغتياله غير مرة. و لما بلغ عسقلان (٥٧٣) و شن الغارات على الفرنج طلوعوا عليه و هو في بعض العسكر فقاتلهم أشد قتال، و قاربت حملات الفرنج السلطان فانهمز إلى مصر على البرية و معه من سلم، فلقوا مشقة و عطشا و أسر الفرنج العسكر المتفرق في الإغارة، و أسر الفقيه عيسى من أكبر أصحاب صلاح الدين فافتداه بعد سنين بستين ألف دينار هذا مع أن جيش صلاح الدين كان نحو عشرين ألفا وقعت الكسرة عليهم لأنهم كانوا متفرقين في الغارات و كسروا و معظمهم لم يعلم بالهزيمة. و في هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعا بهزيمة صلاح الدين و بعده و كادوا يملكونها فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها إلى حارم. و فيها قبض الملك الصالح على كمشتكين متغلبا على الأمر و كانت له حارم فعذب كمشتكين و أصحابه ليسلموا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥١

قلعة حارم فأصروا على الامتناع حتى مات من العذاب، و وصل الفرنج من حصار حماة، و حصر حارم أربعة أشهر فداراهم الصالح بمال فرحلوا عنها بعد بلوغ أهلها الجهد، ثم أرسل الملك الصالح عسكرا فحصرها و ملكوها.

فتوح صلاح الدين و وفاة الملك الصالح:

أرسل صلاح الدين (٥٧٤) إلى شمس الدين بن المقدم ليسلم بعلبك إلى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها و سلمها إلى توران شاه (٥٧٥) و بعث السرايا و الغارات إلى أرض الفرنج بعد موت ملكهم، و كان هذا يريد أن يغير على دمشق فأخذ رجال صلاح الدين و أسروه و غنموا ما مع جماعته، و فتح صلاح الدين حصنا كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس، و كان الفرنج انتهزوا فرصة مقام صلاح الدين على بعلبك و اشتغاله بأمرها فبنوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان و بينه و بين دمشق مسافة يوم و بينه و بين صفد و طبرية نصف يوم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا أنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرنا عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، و كان الداوية أصحاب الحصن لقطعون هناك الطرق على القوافل فخر به المسلمون، و كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين و مقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر و

بين عساكر قليج أرسلان بين مسعود صاحب الروم، و سببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان و أرسل إليه عسكرا كثيرا ليحصره و كانوا قريب عشرين ألفا فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم و كان تقي الدين يفتخر و يقول هزمت بألف عشرين ألفا. و في هذه السنة أحرقت الإسماعيلية أسواق حلب و افتقر أهلها بذلك و كانت إحدى الجوائح التي أصابت الشهباء و سكانها. و سار صلاح الدين (٥٧٦) إلى مملكة قليج أرسلان صاحب الروم و وصل إلى رعبان ثم اصطالحوا فقصد صلاح الدين ولاية ابن ليون الأرمني و شن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حملة و أسرى أطلقهم.

و في سنة (٥٧٧) عزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي، و سمع ذلك عز الدين فرخشاہ نائب عمه صلاح

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٢

الدين بدمشق فقصد الكرك و أقام عليها، ففرق صاحب الكرك جموعه و انقطع عزمه عن الحركة. و في هذه السنة توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين و عمره نحو ١٩ سنة و أوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح و معه مجاهد الدين قيمانز و استقر في ملكها فكاتبه أخوه زنكي بن مودود صاحب سنجان على أن يعطيه حلب و يأخذ سنجان و أشار قيمانز بذلك فأجاب و عاد إلى الموصل.

قال ابن الاثير: إن بعضهم قال للملك الصالح و هو يوصى بالملك بعده: إن عماد الدين ابن عمك أيضا و هو زوج أختك و كان والدك يحبه و يؤثره و هو تولى تربيته و ليس له غير سنجان فلو أعطيته البلد (حلب) لكان أصلح و لعز الدين من الفرات إلى همدان و لا حاجة به إلى بلدك فقال له: إن هذا لم يغب عني و لكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة الشام سوى ما بيدي، و متى سلمت حلب إلى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح الدين و لم يبق لأهلنا معه مقام، و إن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره و أرضه فاستحسنوا قوله و عجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه و صغر سنه.

و في سنة (٥٧٨) قصد صلاح الدين الشام من مصر و أغار في طريقه على الفرنج و غنم، و اجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه لما سار، فانتهاز فرخشاہ نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة و فتح بعسكر الشام الشقيف و أغار على ما يجاوره و فتح دبوربة و جاء إلى شقيف «حبس جلدك» بالسواد من أعمال طبرية و هو حصن يشرف على أرض المسلمين ففتحه. و نزل صلاح الدين قرب طبرية و شن الغارات على بيسان و جنين و اللجون و الغور من مملكة الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم و قتل و حصر بيروت و أغار على تلك الأرجاء و نهب بلدها و كان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها فساروا و نازلوها و أغاروا عليها و على بلدها، و كان عازما على ملازمتها إلى أن يفتحها فأتاه الخبر و هو عليها أن البحر قد ألقى إلى دمياط بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير، فكان عدة الأسرى ١٦٧٦ أسيرا. ثم عبر السلطان الفرات إلى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بوري صاحب حران و استمال ملوك الأطراف فصار معه نور الدين محمد بن خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٣

قرا أرسلان صاحب حصن كيفا و حاصر الزها و ملكها و سلمها إلى كوك بوري ثم أخذ الرقة و قرقيسيا و ماكسين و عربان و الخابور جميعا ثم ملك نصيبين و قلعتها ثم حصر الموصل و بها صاحبها عز الدين مسعود و مجاهد الدين قيمانز و قد شحنت رجالا و سلاحا و حاصر سنجان و ملكها و أتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق و نهبوا القرى و وصلوا إلى داريا و أرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصاري يقول لهم: إن أخرجتم الجامع جددنا عمارته و أخرجنا كل بيعة لكم في أرضنا و لا نمكن أحدا من عمارتها فتركوه.

قصد الفرنج المقيمون بالكرك و الشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف و ينقلوا جسده الكريم إلى بلادهم و يدفونه عندهم و لا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل فأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة (العقبة) و جعله فرقتين

فرقة حصرت حصن أيلة و فرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة، و لم يعهد بهذا البحر فرنج قط، فعمر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائب الناصر بمصر أسطولا في بحر عيذاب و أرسل به مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولى الأسطول بمصر، فأوقع لؤلؤ بمحاصري أيلة فقتل و أسر، ثم طلب الفرقة الثانية و قد عزموا على دخول المدينة و مكة فبلغ رابع، فأدر كههم بساحل الحوراء و قاتلهم أشد قتال فقتل أكثرهم و أسر الباقين و أرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها و عاد بالباقيين فقتلوا عن آخرهم بمصر.

و ملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) و كان وعد بها محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا و سقط فيها على خزائنه كتب فيها ألف ألف و أربعون ألف كتاب فوهبها لوزيره القاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين جملا، و كان فيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فوهبها لابن قرا أرسلان هذا، فلما قيل له في ذلك قال: لا أضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا و أصحابنا و نحن إنما نريد أن يسير الناس معنا على قتال الأعداء فقط، و ليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد، هذا و بعد مدة قل المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من أخيه العادل ١٥٠ ألف دينار لإطعامهم. و فتح صلاح الدين تل خالد من أعمال حلب ثم عيتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود و أعطاه سنجار، و شرط عليه الحضور إلى خدمته بنفسه و عسكره إذا خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٤

استدعاه، و لا يحتج بحجة عن ذلك. و من الإتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها:

و فتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة. ثم سار صلاح الدين من حلب بعد أن تسلم حارم و نظم أمر تلك الأرجاء و تجهز من دمشق فأحرق بيسان و شن الغارات على تلك النواحي و أرسل إلى أخيه العادل بمصر أن يلاقيه إلى الكرك فاجتمعا عليها و حصرها ثم رحلا عنها. و سار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنازل الكرك و كتب إلى مصر فسار إليه عساكرها فضيق على من به و ملك ربح الكرك، و لم يتيسر له الإستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه، فسار إلى نابلس و أحرقها و نهب ما بتلك النواحي و قتل و أسر و سبي فأكثر ثم سار إلى سبسطية فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين. و في سنة (٥٨١) حصر الموصل مرة ثانية فسير أتاكبك عز الدين صاحبها والدته و معها ابنة عمه نور الدين محمود و غيرها من النساء و جماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة و كل من عنده ظنوا أنهم إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما و معهن ابنة مخدومه و ولي نعمته نور الدين فلما وصلن إليه اعتذر بأعذار غير مقبولة و أعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء، و ندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن، و جاءته كتب القاضي الفاضل و غيره يقبحون فعله و ينكرونه. و سار صلاح الدين عن الموصل إلى خلاط و ملك ميفارقين. و غزا صاحب الكرك (٥٨٢) و أسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فأبى فنذر صلاح الدين قتله بيده. و كان أرنط من أغدر الفرنجة و أنقضهم للمواثيق المحكمة و الأيمان المبرمة. و كان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لأن زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلا من الفرنج اسمه كى و أخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس و كان طمع فيه، فراسل صلاح الدين و انتمى إليه و اعتضد به، و طلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين و المسلمون بذلك و وعده النصر و السعى له في كل ما يريد، و ضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة، و كان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم، فحل ذلك عنده أعظم محل، و أظهر طاعة صلاح الدين و وافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم.

قال صاحب الكامل:

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٥

و كان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم و استنقاذ البيت المقدس منهم.

وقعة حطين و فتح فلسطين:

كانت سنة (٥٨٣) سنة مباركة جدا على صلاح الدين و على المسلمين، كما كانت عليه سنة (٥٦٤) بفتح مصر و إنقاذها من أيدي الفاطميين. ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا أديم الشام سنة (٤٩١) فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفا على الحجاج من صاحبها فأخرب كما قال من رساله إلى أخيه سيف الإسلام عماراتها و أحرق غلاتها، و قطف ثمراتها، و أزج ساكنيها، و أخاف آمنيها، و أجلى عنها فلاحيها، و أقام النوائح عليها في نواحيها. و أغار بعض عسكره على عكا و غنموا ثم حصر مدينه طبرية و معه الجاندارية و الخراسانية و الحجارة و النقبون ففتحها بالسيف و كانت للقومص صاحب طرابلس، و كان مهادن السلطان فاجتمع إلى الفرنج للحرب- و كانت طبرية تقاسم على نصف مغل الصلت و البلقاء و جبل عوف و الحياينة و السواد و تناصف الجولان و ما يقربها إلى كورة حوران.

و اجتمعت ملوك الفرنج فارسا و راجلا و ساروا إلى صلاح الدين فركب إليهم من طبرية، و التقى الجمعان و اشتد القتال بينهم و أحرق المسلمون بالفرنج من كل ناحية و أبادوهم قتلا و أسرا على قرية حطين بالقرب من طبرية و أسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير و صاحب الكرك و صاحب جبيل و غيرهم من قمامصتهم و أمرائهم. و كان الفرنج في حطين خمسة و أربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى الفل و قتل الباقون و استأسروهم فقتل منهم أربعون ألفا و قيل أقل من ذلك، و لما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته و أحضر ملك الفرنج و أجلسه إلى جانبه و كان الحر و العطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا و سقى ملك الفرنج منه البرنس أرنلط صاحب الكرك فقال له السلطان: إن هذا الملعون لم يشرب الماء يا ذنى فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس و بخره على صدره غير مرة و على قصده الحرمين الشريفين، و قام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه.

قالوا: و قد عرض السلطان الإسلام على الداوية و الإسبتار، فمن أسلم منهم استبقاه، و من لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم، و بعث بباقي الملوك و الأسارى إلى

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٦

دمشق. ثم عاد السلطان إلى طبرية و فتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا و حاصره و فتحها بالأمان و كان فيها ثلاثون ألف إفرنجي و أربعة آلاف أسير مسلم، و أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل بابا و فتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة و قيسارية و حيفا و صفورية و دبورية و الفولة و جنين و زرعين و الطور و اللجون و القيمون و الزيب و معليا و البعنة و إسكندرونه و مناث و أرسوف و عقر بلا و أريحا سنجيل و البيرة و قلونية و صرند و مجدل الحباب و جبل الجليل و تل الصافية و التل الأحمر و قريتا و صوبا و هرمس و السلع عدا ما تخللها من القرى و الأبراج و القلاع.

فتح كل ذلك بالسيف و فتح عسكره بسبسية و نابلس و قلعتها بالأمان، و فتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبينين، و تسلم صيدا خالية ثم بيروت بالأمان بعد حصارها. و كان من جملة الأسرى صاحب جبيل فبذل جيلا فأطلق.

و حضر المركيس في سفينة إلى عكا و هى للمسلمين و ألق إلى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها و ملك صوراً. و ذكر المؤرخون إن إطلاق أمراء الفرنج من الأسر و حملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر و قوة الفرنج و رواح عكا.

فتح القدس و الرملة:

حصر السلطان عسقلان و تسلمها ثم فتح الرملة و الداروم و غزة و بيت لحم؟؟؟ و بيت جبريل و تبينين و النطرون و مشهد الخليل ولد و غيرها ثم نازل القدس و به من الفرنج عدد لا يحصى و ضايقه بالنقبين و اشتد القتال، و طلب الفرنج الأمان فقال: آخذها مثل ما أخذت من المسلمين بالسيف فعادوه فأجاب بشرط أن يؤدي كل رجل عشرة دنانير و كل امرأة خمسة و كل طفل دينارين و من عجز أسر و تسلم المدينة في رجب و كان فيها بالضبط ستون ألف رجل ما بين فارس و راجل سوى من تبعهم من النساء و الولدان

قال ميشو: إنه كان فيها مائة ألف صليبي و كان عددهم لما فتحوه (٦١٠٠) فارس و (٤٨) ألف راجل و لم يكن فيها لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود و كان يدفع إتاوة كبيرة فى السنة للملك حتى يبقى فيها.

قال ابن الأثير فى معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج فى القدس:

إن الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين و تحكّم المنجنقات بالرّمى المتدارك، و تمكن

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٧

النقابين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان فأبى السلطان و قال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى و تسعين و أربعمائه من القتل و السبى فقال له باليان: أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير، و إنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فو الله لنقتلن أولادنا و نساءنا و نحرق أموالنا و لا نترككم تغتمون منا ديناراً و لا درهما و لا تسبون و تأسرون رجلاً أو امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة و المسجد الأقصى. ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين و هم خمسة آلاف أسير، و لا نترك لنا دابة و لا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا و حينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله، و نموت أعزاء و نظفر كرماء، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان و أن لا يرحجوا و يحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج.

و كان رأى صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولاً من إهراق دماء الفرنج كما أهرق أجدادهم دماء المسلمين، و هذا التهديد من سفير الصليبيين فى الصلح لا شأن له مع صلاح الدين، و هو فى تلك القوة و المنعة، و لكن صلاح الدين يرمى إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعته و جماعة الصليبيين، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درسا فى سماحة الإسلام، و أن لا- يشر الحفائظ و هو على يقين من أن أوربا ما جيشت إلا- قليلاً لفتح القبر المقدس فإذا قتل من فيه و فيهم الأمراء و السادة و القادة و غيرهم يقيم فى كل دار فى الغرب مأتماً و تزيد الطوائل بين الفريقين، و يهب الفرنج فى الغرب إلى جمع شملهم، أكثر مما جمعوا فى القرن الماضى و منتصف هذا القرن و تعود الشام إلى خرابها.

و ما الفائدة من القتل إذا كان يجلب الولايات على فاعله و على ذويه. على أن صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مألوف عادة تلك العصور و ما عدّ عمله شيئاً فرياً، إذ يكون قد كمال لهم بالكيل الذى كالوا به لأمته.

بيد أن السماحة التى بدت منه أكسبته و قومه فى الغرب إسماً عطراً لا- يزال يردد بالخير على كروار الأيام، و دب الفشل فى نفوس القابضين على زمام الأمر فلم

خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٨

يعودوا كما كانوا فى الثمانين السنة الأخيرة يأترون فى الحال بأوامر الكنيسة البابوية، و يحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء إلى الأرض المقدسة. و بهذا العمل انحلت العقدة المهمة الأولى من حروب الصليبيين، و كان الخطب سهلاً بعد ذلك فى عهد صلاح الدين و أخلافه فصدق فى وصفه شاعره عبد المنعم الجليانى حيث قال من قصيدة:

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياهم و وفاء العهد قيد المخاصم

فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم

و خص صلاح الدين بالنصر إذ أتى بقلب سليم راحماً للمسالمة

فخطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

يدين لها قسّ و يرقى بوصفها و يكتبه يشفى به فى التمام

مر الرحالة ابن جبير الأندلسى بالشام و صلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين و إفرنج و ربما يلتقى الجمعان و يقع المصاف بينهم، و أرفاق المسلمين و النصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.

و اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، و اختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، و تجار الصليبيين أيضا لا يمنع أحد منهم و لا يعترض، و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، و هى من الأمانة على غاية، و تجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلهم و الارتفاق بينهم و الاعتدال فى جميع الأحوال، و أهل الحرب مشتغلون بحربهم، و الناس فى عافية و الدنيا لمن غلب. قال: و هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم، و فى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين و ملوكهم كذلك و لا- تعترض الرعايا و التجار، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما أو حربا. و قال بعد أن ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس و إطلاق أيدى جيشه فى جميع ما احتازته: و خرجنا نحن إلى بلاد الفرنج و سببهم يدخل بلاد المسلمين، و ناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة.

و بعد أن قرر السلطان أمور القدس، و أمر بعمل الرّبط و المدارس الشافعية، رحل عنها و لم يبق معه مما أخذ من مال الفداء شىء و كان ماتى ألف دينار و عشرين ألفا ففرقها على الأمراء و العلماء و الفقراء، و أطلق كثيرا من الفقراء بدون فداء، و أدى أخو السلطان الملك العادل فدية عن ألفى صليبي، و اقتدى به
خطط الشام، ج ٢، ص: ٥٩

السلطان نفسه، و عفوا عن كثيرين، فلم يبق سوى أربعة عشر ألفا يخرج منهم الصبيان و البنات الذين أدى الصليبيون فداءهم، و أغضى عن جواهر الصليبيين و ناضهم من الذهب و الفضة، فكان يخرج من القدس حرا بدون منازع، و عامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن أرقى رجل مهذب فى القرون الحديثة.

ذكروا أنه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعازت بالسلطان فأعازها، و منّ عليها و على من معها بالإفراج، و أبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهره و نفائسها و كرائم خزائنها، و كذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى و هى ابنة الملك أمورى و كانت مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخدم و الخول و الجوارى فاستأذنت بالإلمام بزوجهها و أقامت عنده، و كان مقيما فى برج بنابلس أسيرا يرسف فى قيده. و خرج البطرک الكبير الذى للفرنج، و معه من أموال البيع و المساجد منها الصخرة و الأقصى و القيامة و غيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى، و كان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين، فليل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال: لا أغدر به و لم يأخذ منه إلا عشرة دنانير إلى غير ذلك من مزاياه العالية التى علم بها أعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق.

رحل السلطان إلى عكا و منها إلى صور، و قد حصنت بالرجال و حفر خندقها من البر إلى البحر، و نزل على صور و حاصرها و ضايقها و طلب الأسطول فوصل إليه فى عشرة شوان فاتفق أن الفرنج كبسوهم فى الشوانى و أخذ خمسة شوان و لم يسلم من المسلمين إلا من سيج و نجا و أخذ الباقون، و طال الحصار عليها فرحل السلطان عنها فى الشتاء و أقام بعكا و أعطى العساكر الدستور فسار كل واحد إلى بلده و بقى السلطان بعكا و قد قع الفرنج بصور، و أرسل إلى هونين ففتحها بالأمان كما فتح قلعة أبى الحسن من عمل صيدا و شقيف أرنون و أقام رجالا على صغد و كوكب يحاصرونهما و هما حصنان عظيمان للداوية و الاسبتارية و كان شديدا على رجال هاتين الرهبتين لما عرفوا به من الشجاعة و المكر و يقتلهم فى الغالب إذا وقعوا فى يده فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم فى فلسطين من المدائن و الثغور سوى صور استصفت كلها. و لما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بمن معه بعد أن ولى أعمال الخليل و عسقلان و غزة و الداروم و ما والاها، و أمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين و إعانة المقطعين و كذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٠

أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة و العمران. و من كتاب فاضلى يصف فيه بعض مدن فلسطين فى الفتح الصلاحى: و هذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنيا. و عمارات ما كان أمل إليها مفضيا. بل طال ما كان عنها مغضيا.

مثل بيسان و كفر بلا و زرعين و جينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغلّة، و بساتين مظلّة، و أنهار مقلّة، و قلاع مظلّة، و أسوار قد ضربت على جهاتها، و أحاطت بجنبااتها، و اتخذتها المدن سياجا على قصباتها.

بقية الفتوح الصلاحية:

اتجهت همه صلاح الدين العالیه إلى فتح ما بقى فى أیدی الصليبيين من ثغور الساحل. و قصد إلى دمشق و لما اجتمعت العساكر من الأطراف سار منها فنزل على بحيرة قدس غربى حمص و أته العساكر بها فرحل و نزل على أنطربوس فوجد الفرنج قد أدخلوها فأحرقها و أحرق البسيه و هى بيعة عظيمه عندهم محجوج إليها من أقطارهم. و سار إلى مرقبه فوجدهم قد أدخلوها أيضا و سار إلى المرقب و هو للإستبار فوجده لا يرام و تسلّم جبله و «بلده» من غربى النهر على شاطئ البحر و سار إلى اللاذقيه و لها قلعتان فحصر القلعتين و زحف إليهما فطلب أهلها الأمان فأمنهم و تسلّم القلعتين و عمر البلد و حصن قلعتها.

و لما كان على اللاذقيه طلب مقدم أسطول صقلية من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه و حضر و قبل الأرض بين يديه و قال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم و قد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك و جندك تفتح بهم الممالكك و ترد عليهم بلادهم، و إلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر و يشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة و الاستهانه بكل من يجيء من البحر و أنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل و الأسر و رحل السلطان إلى صهيون فتسلمها بالأمان فلم يجيبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابه إلى ذلك و تسلّم قلعه صهيون، ثم فرق عسكره فى تلك الجبال فملك حصن بلاطنس و كان الفرنج قد أدخلوه، و ملك حصن العيزو و حصن الجماهيرية، و وصل إلى قلعه بكاس فأخلاها أهلها و تحصنوا بقلعه الشغر فحصرها و وجدها منيعه فضايقها فطلب أهلها الأمان، و حصر ابنه الملك الظاهر غازى قلعه سرمين و ضايقها و ملكها، و استنزل أهلها على قطيعه قررهما عليهم و هدم

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦١

القلعه و عفى أثرها. و كان فى هذه القلعه و فى الحصون المذكوره من أسرى المسلمين الجم الغفير، فأطلقوا و أعطوا الكسوة و النفقه، ثم سار من الشغر إلى برزيه و ملكها بالسيف و سبى و أسر و قتل أهلها و أسر السلطان صاحب برزيه هو و أصحابه و امرأته و أولاده و منهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين فى الوقت و بحث عنهم و اشتراهم و جمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم و سيرهم إليها. و كانت امرأة صاحب برزيه أخت امرأة بيمند صاحب أنطاكية، و كانت تراسل صلاح الدين و تهاديه و تعلمه كثيرا من الأحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها.

ثم سار فنزل على جسر الحديد و منه إلى دريساك فتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط. و سار إلى بغراس و حصرها و تسلّمها بالأمان على حكم أمان دريساك. و أرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنه و الصلح و بذل إطلاق كل أسير عنده فأجابه إلى ذلك و اصطلحوا ثمانية أشهر، ثم عاد إلى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا و يستريحوا فقال السلطان: ان العمر قصير و الأجل غير مأمون. و كان صلاح الدين لما سار إلى الشمال قد جعل على الكرك و غيرها من يحصرها، و خلّى أخاه العادل فى تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك و ما إليها، ثم سار السلطان إلى صفد فحصرها و ضايقها و تسلّمها بالأمان و شخص إلى كوكب فضايقها و تسلّمها بالأمان و سير أهلها إلى صور.

و لما سقطت القدس و استولى صلاح الدين على جميع الأقاليم التى كانت بيد الفرنج و لم يبق لهم إلا يافا و صور و طرابلس تجمع أهل الأقاليم التى أخذها صلاح الدين فى ثغر صور فكثرت جمعهم، و أرسلوا إلى الغرب يستصرخون و صوروا صورة المسيح و صورة عربى يضربه و قد أدماه و قالوا: هذا نبى العرب يضرب المسيح. فخرجت النساء من بيوتهن. و وصل من الفرنج فى البحر عالم لا

يحصون كثرة، و ساروا إلى عكا من صور و نازلوها و أحاطوا بسورها من البحر إلى البحر و وقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف و من المسلمين ألوف أيضا، و عاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) إلى قتال الفرنج على عكا.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٢

الحملة الصليبية الثالثة:

بينما كان صلاح الدين على عكا يغادى الفرنج القتال و يراوهم، جاءت الأخبار من الروم أن ملك الألمان قادم لنجدة الصليبيين في الشام في مائة ألف محارب، فدخل اليأس على الناس و هذه هي الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة، و لكن سلط على ملك الألمان الوباء و الغلاء و غرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم، و لم يصل مع ابنه سوى ألف مقاتل فقط. يئس الناس لأنهم ذهبوا إلى أن الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقوعه حطين بل بعد استصفاة أكثر المدن و المعامل التي كانت لهم و لا سيما القدس العلة الأولى في هذه الغزوات التي ألبسوها لباس الدين، و كانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك: فريدريك باربروس ملك ألمانيا، و فيليب اوغست ملك فرنسا، و ريشاردس قلب الأسد ملك إنكلترا. فخف الأول إلى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من أمره ما كان أما الآخران فجاء إلى عكا في البحر، و بعد أن فتح ريشاردس جزيرة قبرس تمكن الصليبيون من أخذ عكا و قتل من المسلمين جمهور كبير.

قال ميشو: إن الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى للعرب، كانت من أول الانتصارات و مقدمة الغنائم للبحرية الإنكليزية، و قال أمغطاي: إن الفرنج حاصروا عكا من البر و من البحر، و كانت عدتهم مائتي ألف و أربعين ألفا، و نصبوا عليها المجانيق من كل جهة، و فتحوا فيها مواضع كثيرة حتى خربت و دثرت و صارت مثل الطريق، فغلب المسلمون و طلبوا الأمان. و قال غيره: إن السلطان كان عمر في بيروت بطسة و شحنها بالعدد و الآلات، و فيها نحو سبعمائة رجل مقاتل، فلما توسطت في البحر صادفها ملك الإنكليز و أحاطت بها مراكبه و حصل القتال بين الفريقين، فلما رأى مقدمها اشتداد الأمر، نزل فخرقتها حتى غرقت، و كانت هذه الحادثة أول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين.

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية، و المسلمون يسايرونهم و يتحفظون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسرف، و وقع بينهم و بين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، و وصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٣

سار الفرنج إلى يافا و قد أخلاها المسلمون فملكوها، و رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة فخر بها و خرب الرمله و كنيسة لدد و كان هدم سور طبرية و هدم يافا و أرسوف و قيسارية و هدم سور صيدا و جبيل و نقل أهلها إلى بيروت، و كان معظم أهل صيدا و بيروت و جبيل مسلمين و كانوا في ذلة من مساكنة الفرنج.

و سار إلى القدس و قرر أموره و عاد إلى مخيمه بالنظرون. ثم تراسل الفرنج و السلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك انكلترا و يكون للملك العادل القدس و لامراته عكا، فأنكر القسيسون عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال.

و ذكر بعض المؤرخين أن ملك أنكلترا هو الذي عرض على العادل أخته، و كانت أرملة ملك كبير من ملوكهم و هو صاحب صقلية توفي عنها، و رغب أن يتزوجها العادل و يجعل له الحكم على الساحل، و هو يقطع الداوية و الاستبار من المدن و القرى دون الحصون، و تكون أخته مقيمة بالقدس و أن الإنكليز لما عنفوا المرأة و اتهموها في دينها، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها فعرف أنها خديعة كانت منه.

قال ابن شداد في وصف ريشاردس ملك الإنكليز: و هذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوى الهمة، له وقعات

عظيمة، و له جسارة على الحرب، و هو دون الفرنسيين عندهم في الملك و المنزلة، لكنه أكثر مالا- منه، و أشهر في الحرب و الشجاعة. قال: و كان ملوكهم يتواعدونا به فكان المستأمنون منهم يخبرونا عنه أنهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد أى عكا حين قدومه، فإنه ذو رأى في الحرب مجرب، و أثر قدومه في قلوب المسلمين خشية و رهبة. و قال بعد أن ذكر كيف كان ملك الإنكليز يكرر الرسائل إلى الملك لتعرف قوة النفس و ضعفها، و كيف كان يوهن المسلمين على تعرف ما عنده من ذلك أيضا: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة و الخشونة أخرى، و كان مضطرا إلى الرواح و هذا عمله مع اضطرابه، و الله الولي في أن يقى المسلمين شره، فلما بلينا بأعظم حيلة و أشد إقداما منه.

بقى صلاح الدين في كل يوم يقع بينه و بين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة و استولوا سنة (٥٨٨) على قلعة الداروم و خربوها و أسروا من فيها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٤

عرض لملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب أن يصالح صلاح الدين، فرضى السلطان بالصلح بعد الذى أصاب جيشه من الفشل على عكا، و فشل عكا هو الوحيد الذى أصابه، و ذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه، و قد ملّ الجند الحرب التى دامت أعواما، و خرج المسلمون من عكا و أخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم و أنفسهم على تسليم البلد و مائتى ألف دينار و ألف و خمسمائة أسير من المجهولين و مائة أسير من المعروفين و صليب الصلבות، و عشرة آلاف دينار للمركيس و أربعة آلاف دينار لحجابه، و عقدت بين الصليبيين و المسلمين هدنة عامة في البحر و البر و جعلت مدتها ثلاث سنين و ثلاثة أشهر على أن يستقر بيد الفرنج يافا و عملها و قيسارية و عملها و أرسوف و عملها و حيفا و عملها و عكا و عملها، و أن تكون عسقلان خرابا، و اشترط السلطان دخول عمالة الإسماعيلية في أرض الهدنة، و اشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية و طرابلس في عقد هدنتهم، و أن تكون لّد و الرملة مناصفة بينهم و بين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك.

و اتفقت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير، فلو اتفق ذلك في أثناء وفاته كان الإسلام على خطر.

و في التاريخ العام أن صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في أوروبا فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب. و أن إمارات الصليبيين لم تقا تل مدة نصف قرن سوى صغار أمراء سورية و الموصل. و كان مسلمو مصر يعيشون بسلام معهم، و هذا كان عهد نجاح تلك الإمارات، و لما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية و قامت مقامها دولة حربية من المماليك، لم يستطع المسيحيون، و مصر تهاجمهم، أن يقاوموا زمنا طويلا، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين، و إذا احتفظوا ببقايا الإمارات قرنا آخر فذلك لأن ملوك الإسلام لم يرضوا أن يقضوا عليها. لا جرم أن هذه الحرب كانت حربا مقدسة في نظر المسلمين و المسيحيين اه.

مزاي صلاح الدين و وفاته:

ولا- عجب إذا انتشر سلك الإمارات الصليبية في الجنوب و الغرب جملة فإن تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات، و النجادات كانت تأتيه سراعا دراكا،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٥

و الفكر متجه إلى مقصد واحد. استمات المسلمون في تأييد سلطانهم، و حاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر و الفر و صنوف الدهاء و الخديعة، و ما الحرب إلا- خدعة- قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين، مرة بالأبراج، و أخرى بالمنجنيقات، و رادفة بالدبابات، و تابعة بالكباش، و آونة باللوالب، و يوما بالنقب، و ليلا بالسرابات، و طورا بطم الخنادق، و آنا بنصب السلالم، و دفعة بالزحوف في الليل و النهار، و حالة في البحر بالمراكب، و لكن الحرب سجال و الدهر دول، و ما كل يوم يكتب النصر للغزاة، و يحالف التوفيق أعلامهم، و ما كل خطة يقررها صاحب الأمر بادئ الرأي تكون سديدة من كل وجه، فقد انتقدوا على صلاح الدين

بعد وقائعه مع الصليبيين و ظفره الباهر بهم في الأردن و الجليل و بيت المقدس كيف فتح لأعدائه السبل ليذهبوا إلى صور، و يجتمع هناك فلّ جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قويت بما جاءها من البحر من الإنكليز و الفرنجة، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا، و لو كان حيا لدافع عن نفسه دفاعا معقولا مقبولا فيما نحسب، و لعلّ ذلك يدخل في باب مراحمه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس، فلم يعامل أعداءه إلا بما اقتضته سياسته و سيرته.

كان صلاح الدين يعنى بجنده و يتعهدده و يسأل عن صحه أمرائه و من دونهم في راحتهم و منامهم و أكلهم و شربهم، يحارب المحارب ساعات مخصوصه من النهار أو الليل ثم يستريح أو يحارب مده معينه ثم يذهب إلى ذويه، على أرقى الأصول المتعارفه في الحروب الحديثه. و الغنائم تقسم بين الحاربين بحيث يغتنى أفرادهم و جماعاتهم دع مالهم من الأموال الداره من أموال الجبايه و الرسوم على التجار و ما خصوا به من الحرمة و رفعة الشأن، يأخذون إما رواتب أو إقطاعات، و لم تكن إقطاعاتهم كإقطاعات الغرب تورث على الأغلب بل تزول عن صاحبها بموته أو بعزله، و لذلك كان المحاربون متعلقين أبدا بسلاطنتهم و أميرهم، متفانين في إحسان الخدمه كأنهم يدافعون عن بيوتهم و أطفالهم.

جاء صلاح الدين إلى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين، و كان يحب دمشق و يؤثر الإقامة فيها. فلقى الأهل و الولد بعد تغيب أربع سنين و ذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسه عشر يوما فكان عمله كأنه وداع لأهله و أولاده و مرايع نزهه و أنسه. ثم مرض أياما و هلك حميد الأثر فضجت الأمه لفقده،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٦

و بكت العيون، و انتحبت النفوس، لأنه لم يحي مصر و الشام، بل أحيا بعمله المسلمين و الإسلام، و كان كما ذكره ابن شداد: رؤوفا رحيمًا، ناصرًا للضعيف على القوى، يجلس للعدل في كل يوم اثنين و خميس، في مجلس عام يحضره الفقهاء و القضاة و العلماء، و يفتح الباب للمتحاكين حتى يصل إليه كل أحد من كبير و صغير، و عجوز هرمه و شيخ كبير، و كان يفعل ذلك سفرا و حضرا، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم، و يفتح باب العدل و كان يجلس مع الكاتب ساعه إما في الليل أو في النهار، و يوقع على كل قصه بما يجريه الله على قلبه، و لم يرد قاصدا أبدا، و ما استغاث إليه أحد إلا وقف و سمع قضيته و كشف ظلامته و اعنتى بقصته.

مات صلاح الدين و قد ملك مصر أربعًا و عشرين سنه و الشام تسع عشره سنه، و ملك الجزيرة و اليمن، و لم يحفظ ما تجب عليه الزكاه، فإن صدقه النفل استنزفت جميع ما ملكه من الأموال، فملك ما ملك و لم يخلف في خزانته من الذهب و الفضة إلا سبعة و أربعين درهما ناصريا و جرما واحدا ذهبا، و لم يخلف ملكا و لا دارا و لا عقارا و لا بستانا و لا قرية و لا مزرعه و لا شيئا من أنواع الأملاك، و كان رحمه الله يهب الأقاليم، و يعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال السعه، و كان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذرا أن يفاجئهم مهمم، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه. و كان كثيرا ما يقول: إن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها و شوكتها لا زهرتها و مناظرتها للعدو لا نصرتها. و قد ذكر القاضي ابن شداد و عماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين و مواظبته على القواعد الدينيه و ملاحظته للأمور الشرعيه، و عدله و كرمه و شجاعته، و اهتمامه بأمر الجهاد و صبره و احتسابه، و حلمه و عفوه و محافظته على أسباب المروءه، ما هو العجب العجاب، و بعضه إذا جمع في شخص كان مفخرا من المفاخر على توالى الأحقاب.

ملأت خيرات صلاح الدين جميع الأقطار التي خفق علمه عليها، و ملأت اوقافه مصر و الشام و هي غير منسوبه إليه. قال ابن خلكان: و لقد أفكرت في نفسى في أمور هذا الرجل و قلت إنه سعيد في الدنيا و الآخرة، فإنه فعل في هذه الدنيا هذه الأفعال المشهوره من الفتوحات الكثيره و غيرها و رتب هذه الأوقاف العظيمة، و ليس فيها شيء منسوبًا إليه في الظاهر اه.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٧

بل قد تجد لمماليكه و خواصه أوقافا نسبت إليهم و لم ينسب إليه إلا قليل و كان مماليك صلاح الدين و خواصه و أمراؤه و أجناده

أعفّ من الزهاد والعباد، والناس على دين ملوكهم. و من كرم صلاح الدين أنه أخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر عشر ألف دابة من فرس و بغل سوى الجمال، و أما العين و الثياب و السلاح فإنه لا يدخل تحت حصر، و ما كان يركب فرسا إلا و قد وعد بأن يعطيه لطالب من جماعته، و قد فرق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر ما يفوق الإحصاء و لم يبق منه قليلا و لا كثيرا. و من رسالته له إلى الديوان العزيز ببغداد:

فقد علم أن الخادم بيوت أمواله، في بيوت رجاله، و أن مواطن نزوله، في مواقف نزاله، و مضارب خيامه، أكنه ظلالة، و أنه لا يذخر من الدنيا إلا- شكته، و لا- ينال من العيش إلا- مسكته. كان صلاح الدين يعيش عيش المتوسطين، و ينفق بحيث تكاد تعده إلى الإسراف، و يكتفى من اللباس بالكتان و القطن و الصوف، و مجلسه منزه عن الهزء و محافله حافلة بأهل الفضل، و كان لمداومته الكلام مع الفقهاء و مشاركته القضاء في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية، و كان من جالس له لا يعلم أنه مجالس السلطان، بل يعتقد أنه مجالس أخ من الإخوان. كان من عظماء الشجعان، قوى النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر. وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف و سبعون مركبا إلى عكا و هو لا يزداد إلا قوة نفس، و كان يعطى دستورا أن يسرح عسكره في أوائل الشتاء و يبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة، إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة إلى ستمائة ألف فيما قالوا، و مع هذا تراه صابرا هاجرا في محبة الجهاد في سبيل الله أهله و أولاده و وطنه و سكنه و سائر ملاذه، قانعا من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة و يسرة، و كان لا- بد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريبا منهم، و إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيين، و يخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، يرتب الأطلاب و يأمرهم بالتقدم و الوقوف في مواضع يراها و كان يشارف العدو و يجاوره.

انهزم المسلمون في يوم المصاف الأ-كبر بمرج عكا حتى القلب و رجاله، و وقعت الكوسات و العلم و هو ثابت القدم في نفر يسير، فانحاز إلى الجبل يجمع الناس و يردهم و يخجلهم حتى يرجعوا، و لم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو
خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٨

في ذلك اليوم و قتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل و فارس، و لم يزل مصابرا لهم و هم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح و هو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف و الهلاك كان فيهم أكثر، و لكنهم كانوا يتوقعون النجدة، و المسلمون لا يتوقعونها، و كانت المصلحة في الصلح.

سئل ابن بيزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا و هو جالس فقال للترجمان: قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف قتل منهم أكثر من مائة ألف و غرق معظمهم. و كان صلاح الدين يدور على الأطلاب أي الكتائب و يقول و هل أنا إلا واحد منكم.

و ذكروا من مراحل صلاح الدين أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل و يسرقونهم، فسرقوا ليلة صيبا رضيعا، فباتت أمه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب، فاذهبي إليه فجاهته و هو على تل الخروبة راكب فعفرت وجهها و بكت فسأل عنها، فأخبروه بقصتها فرق لها، و دمعت عيناه، و تقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل، و لم يزل واقفا حتى أحضروه، فلما رأته بكت و أخذته فأرضعته ساعة و ضمته إليها، و أشارت إلى ناحية الفرنج فأمر أن تحمل على فرس و تلحق بالفرنج ففعلوا.

قال سبط ابن الجوزي: و يقال إن صلاح الدين فتح ستين حصنا و زاد على نور الدين بمصر و الحجاز و المغرب و اليمن و القدس و الساحل و بلاد الفرنج و ديار بكر و لو عاش لفتح الدنيا شرقا و غربا. قلنا: إن نابعة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في أمته صلاحا لدينها و دنياها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٦٩

الدولة الايوبية «من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧»

أبناء صلاح الدين و اختلافهم و دهاء عمهم العادل:

اهتزت أعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر و الشام و اليمن و البلاد الشرقية لأنه الفاتح الثاني لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الأول. و قد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكرا و ابنة واحدة، و ناب بعض أولاده عنه في أكثر أقاليمه و خلف أخاه الملك العادل أبا بكر، و كان ينوب عنه في مصر و الشام في حياته فوقع الخلف بين بنيه و عمهم في الباطن أولا، ثم أعلن كل واحد لصاحبه خصومته. و كان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية و رأوا من عدلها ما لم يكذب يسبق له مثيل إلا في دولة نور الدين، يتخوفون أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق و النزاع، و من الذين أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأكبر فقد كتب إلى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب «إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، و إن كان غير ذلك فالمصائب المستقبله أهونها موته و هو الهول العظيم».

و كان الملك الأفضل نور الدين على أكبر أولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عند ما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق و ما إليها، و بالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، و بحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، و بالكرك و الشوبك و الأقاليم الشرقية الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و بحماة و سلمية و المعرة و منبج و قلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر و بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه، و بحمص و الرحبة و تدمر شيركوه بن

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٠

محمد، و ببصرى الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين، و كان في خدمة أخيه الملك الأفضل، و بيد جماعة من أمراء الدولة مدن و حصون، منهم سابق الدين عثمان بن الداية و بيده حصن شيزر و حصن أبي قبيس، و ناصر الدين بن كورس و بيده صهيون و حصن برزية، و دلدرم بن بهاء الدين ياروق و بيده تل باشر، و أسامة الحلبي و بيده كوكب و عجلون، و إبراهيم بن شمس الدين ابن المقدم و بيده بعين و كفر طاب و أفامية. و لما ألقى للملك الأفضل زمام السلطنة بعهد أبيه استوزر ضياء الدين بن الأثير الجزري فحسن له طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز بمصر و الظاهر بحلب، و لما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، و وقعوا في أخيه الأفضل فحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل و العزيز و استحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر و حصر أخاه الأفضل بدمشق عشرة أشهر و قطع الماء عنها. فأرسل الأفضل إلى عمه العادل و أخيه الظاهر و ابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم، فساروا إلى دمشق و أصلحوا بين الأخوين و عاد كل ملك إلى بلده. قال العماد الكاتب:

و لما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو و اللعب، و احتجب عن الرعية و انقطع إلى لذاته، فسمى الملك النؤام، و فوض الأمر إلى وزيره الجزري، و حاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال و كانا سعيًا لزوال دولته و استبدلا أراذل الناس بكبراء الأمراء و الأجناد ففسدت أمور العباد. و في هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل و أخذ الأفضل من الفرنج جبلة و اللاذقية.

و في السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام و منازل أخيه الملك الأفضل، فسار و نزل الفرار من أرض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه و هم طائفة من الأمراء الأسدية و فارقوه فعاد العزيز إلى مصر. و كان الأفضل استنجد بعمه العادل لما قصد أخوه، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل الملك الأفضل و عمه العادل و من انضم إليهما من الأسدية، و ساروا في أثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بليس، و قصد الملك الأفضل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل و قال: مصر لك متى شئت. و كاتب العادل العزيز و أمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين. و كان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملاسبة أولاد

صلاح الدين لما رأى من فساد أحوالهم على ما رواه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧١

المؤرخون- والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في ملا- من الناس: لا- تظنوا أني ملكت البلاد بسيفكم بل بقلم الفاضل و كان يستشيريه في أموره- فدخل الملك العزيز على القاضي و سأله أن يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل و اجتمع به و اتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما و أقام العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته و عاد الأفضل إلى دمشق و أموره بيد الجزرى يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه و قل شاكروه. و كان الاعتماد على مشورة الوزير الجزرى الذي زين للملك الأفضل إقصاء أمراء أبيه ليخلو له الجو أول خطوة نحو خراب بيت بنى أيوب، و بعبارة أصح أبناء صلاح الدين يوسف. و قوة الدولة على نسبة عقل القائمين بها، الدافعين عن حوزتها، الغيورين على بقائها، و قد خالف الملك الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء و كان أبوه يفادى بكل مرتخص و غال لاستمالة قلوبهم و كان لسان حال العادل و قد رأى اختلاف أبناء أخيه المثل المأثور «لم آمر بها و لم تسؤني». قال سبط ابن الجوزى لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره الجزرى من الأفعال القبيحة و آذى أكبر من الدولة، و الأفضل يسمع منه و لا يعدى أحدا و لا يخالفه، فكتب قيماز النجمى و أعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول: ارفع يد هذا الأحمق السىء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت، و اتفق مع العزيز على النزول إلى الشام فسار إلى الشام فاستشار الأفضل أصحابه فكل أشار عليه أن يلتقى عمه و أخاه و لا يخالفهما إلا الجزرى فإنه أشار عليه بالعصيان فاستعد للحصار و حلف الأمراء و المقدمين و فرقهم فى الأبراج و على الأسوار.

اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذ دمشق و أن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة و السكة للعزيز فى جميع المملكة كما كانت لأبيه، فخرجا و سارا من مصر فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين و هو أحد أمرائه و هو أخو الملك العادل لأمه و نزل العادل و العزيز على دمشق و قد حصنها الأفضل، فكتب بعض الأمراء من داخل البلد العادل و صاروا معه و أنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف العادل و العزيز فدخل الأول من باب توما و الثانى من باب الفرج، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة و انتقل منها بأهله و أصحابه، و أخذت بصرى من الملك الظافر خضر أخى الأفضل و كان معاضدا له، و أعطى الأفضل صرخد

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٢

فسار إليها بأهله، و استوطنها و أخرج وزيره الجزرى فى الليل فى جملة الصناديق خوفا عليه من القتل فأخذ أموالا عظيمة و هرب إلى بلده.

سلم الأفضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما، فتسلمها العادل على أن يكون ثلث البلاد للعادل و الثلثان للأفضل و هو السلطان، و رحل العزيز و أبقى له العادل السكة و الخطبة بدمشق.

استئثار العادل بالملك الصلاحي:

توفى الملك العزيز عثمان فى مصر (٥٩٥) و عمره سبع و عشرون سنة و أشهر و كان فى غاية السماحة و الكرم و العدل. و الرفق بالرعية و الإحسان إليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لأنه شبل من أسد، و كان الغالب على دولته فخر الدين جهار كس فأقام فى الملك و ولد العزيز الملك المنصور محمد و اتفقت الآراء على إحضار أحد بنى أيوب ليقوم بالملك، و عملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل و هو حينئذ بصرخد فأرسلوا اليه فسار محشا، و وصل إلى مصر على أنه أتاكك أى مربى الملك المنصور بن الملك العزيز، و كان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين و أشهر. و لما وصل الأفضل إلى بلبس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهار كس و فارقه و تبعه عدة من العسكر و ساروا إلى الشام، و كاتبوا العادل و هو محاصر مارددين، و أرسل الظاهر إلى أخيه الأفضل يشير عليه بقصد دمشق و أخذها من عمه العادل، و أن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بمارددين، فبرز الأفضل من مصر و سار إلى دمشق، فبلغ العادل مسيره، و نزل الأفضل على دمشق و جرى بين العم و ابن أخيه قتال، و هجم بعض عسكر الأفضل المدينة

حتى وصل إلى باب البريد و لم يمدهم العسكر، فتكاثر أصحاب العادل و أخرجوهم من البلد، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبه الكسوة، ثم وصل الى الأفضل أخوه الظاهر فعاد إلى مضايقه دمشق، و دام الحصار عليها و قلت الأقوات عند العادل و على أهل البلد، و أشرف الأفضل و الظاهر على ملك دمشق، و عزم العادل على تسليم البلد لو لا ما حصل بين الأخوين الأفضل و الظاهر من الخلف.

روى سبط ابن الجوزى أنه لما اشتد الحصار على دمشق و قطعت أشجارها

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٣

و مياهها الداخلة إليها و انقطعت عن أهلها الميرة و ضجوا، بعث العادل إلى الظاهر يقول له: أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان و تكون دمشق لك لا للأفضل، فطمع الظاهر و أرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فأثرتني بدمشق. فقال: دمشق لى من أبى و إنما أخذت منى غصبا فلا أعطيها أحدا، فوقع الخلف بينهما و وقع التقاعد. و كان إلقاء الخلف بين الأخوين من جملة دهاء عمهما،

و دخلت سنة (٥٩٤) و الأفضل و الظاهر يحاصران دمشق، و قد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق و الحوانيت، و أحرق النيرب و أبواب الطواحين، و قطعت الأنهار و أحرقت غلة حرستا فى بيادرها، و حفر على دمشق خندق من أرض اللوان إلى أرض يلد شرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهما، و لما تغير الظاهر على أخيه الأفضل ترك قتال العادل، فظهر الفشل فى العسكر، فتأخر الأفضل و الظاهر عن دمشق و أقاما بمرج الصيقر، ثم سار الأفضل إلى مصر و الظاهر إلى حلب، و لما تفرقا خرج العادل من دمشق و سار فى أثر الأفضل الى مصر، و ضرب مع الأفضل مصافا فانكسر الأفضل و انهزم إلى القاهرة، و نازلها العادل ثمانية أيام، فأجاب الأفضل إلى تسليمها، على أن يعوض عنها ميفارقين و خانى و سميساط، فأجابه العادل إلى ذلك و لم يف له به، ثم سار الأفضل إلى صرخد و أقام العادل بمصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال العادل الملك المنصور، و استقل العادل فى السلطنة، فقطع أولا خطبة ولد العزيز بعد أن جمع الفقهاء و قال هل يجوز ولاية الصغير على الكبير فقالوا: الصغير مولى عليه و قال: فهل يجوز لكبير أن يولى عليه و ينوب عنه قالوا: لا لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة. فقطع خطبة ابن العزيز و خطب لنفسه و لولده الكامل محمد من بعده، و كان ذلك على الحقيقة مبدءا سلطنة العادل الكبرى، فإن استنثاره بالخطبة و السكة فى مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام و ما إليها من ديار الشرق.

لما تم الأمر بمصر للعادل كاتب الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق أبيه و أبو امرأته) و صالحه و خطب له بحلب و أقاليمها و ضرب السكة باسمه، و اشترط العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٤

عسكر حلب فى خدمة العادل كلما خرج الى الحرب و التزم الظاهر بذلك إلا أنه أخذ بتحسين حلب خوفا من عمه العادل و أرسل المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعين من ابن المقدم، فقبل العادل عذره و أمره بردها إلى صاحبها الأول.

و سار (٥٩٧) الظاهر و ملك منبج و خرب قلعته و ملك قلعة نجم و أفامية و كفرطاب من ابن المقدم، و أرسل إلى المنصور صاحب حماة يبذل له منبج و قلعة نجم على أن يصير معه على العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين فى عنقه العادل، فلما أيس الظاهر منه سار إلى المعرة و أقطع إقليمها و استولى على كفرطاب، ثم سار إلى أفامية و بها قراقوش نائب ابن المقدم، فلم يسلم هذا القلعة إلا بعد الحرب الشديدة، فرحل الظاهر و توجه إلى حماة و قاتلها أشد قتال، فلما لم يحصل على غرض صالح المنصور على مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الظاهر إلى دمشق و بها المعظم ابن العادل فنازلها الظاهر هو و أخوه الأفضل، و انضم إليهما ميمون القصرى صاحب نابلس، و من وافقه من الأمراء الصلاحية، و استقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل و الظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الأفضل ثم يسيران و يأخذان مصر من العادل و يتسلمها الأفضل، و تسلم دمشق حينئذ إلى الظاهر، بحيث تبقى

مصر للأفضل، و يصير الشام جميعه للظاهر.

و فى سنة (٥٩٨) سار العادل من دمشق و وصل إلى حماة و نزل على تل صفرون و قام المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه و كلفه، و بلغ الظاهر صاحب حلب و وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده و محاصرته بحلب فاستعد للحصار، و راسل عمه و لطفه و أهدى إليه، و وقعت بينهما مراسلات و وقع الصلح و انتزعت منه مفردة المعرة، و استقرت للمنصور صاحب حماة، و أخذت من الظاهر أيضا قلعة نجم، و سلمت إلى الأفضل، و كان له سروج و سميساط، و سلم العادل حران و ما معها لولده الأشرف موسى و سيره إلى الشرق. و لما استقر الصلح بين العادل و ابن أخيه الظاهر، رجع العادل إلى دمشق و أقام بها و قد انتظمت الممالك الشامية و الشرقية و الديار المصرية كلها فى سلك ملكه و خطب له على منابرها و ضربت السكة فيها باسمه.

الأحداث فى عهد العادل و اهتمامه بحرب الصليبين:

مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لأخيه العادل أبى بكر بن أيوب و تخلص من أبناء أخيه الأفضل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٥

و الظاهر و غيرهما بل توفق إلى مقاصده باستفتاء العلماء بأن ملك مصر و أنقذها من حفيد أخيه صلاح الدين، و كان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك أخيه إقليا، و مقدمة لتسلسل الملك فى أولاده، إذ ليس فى أبناء أخيه من يدانيه فى الحقيقة بحسن السياسة و بعد النظر و كثرة التجارب و الدهاء، و كان صلاح الدين يحبه و يحترمه و يستشيريه فى معضلات الأمور فيبين عن رأى و حنكة و سار بعض الأمراء الصلاحية الذين غدوا بنعمة صلاح الدين سيرا لا يدل على غمط نعمة و نكران جميل، و لكن كان الأفضل و الظاهر و العزيز متخالفين متشاكسين، و كل منهم يطمع فى الملك و يسر لأخيه و عمه حسوا فى ارتغاء، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل و هو بتجاربه يشبه أخاه صلاح الدين من أكثر الوجوه. أما الأفضل فقد ركب هواه، و أخلد إلى اللذات و المنكرات لأول مرة و استسلم لوزيره ابن الأثير، و كان هذا صاحب دعوى عريضة، لا يراعى الحال و لا يعرف الزمان، فكتبت الغلبة للعادل، و لو ترك الأخوان الأفضل و الظاهر و شأنهما بدون أن يعدل عمهما من جماعهما لاشتد غزو أحدهما لأخيه، و هلك الناس بسببهما، و كثرت الغوائل و الحصارات، هذا إن لم نقل إنه كان للعادل يد فى توسيع شقة الخلاف بين أولاد أخيه، فقد اتخذ العادل سياسة غريبة معهم يريد أن يوفق بينهم فى الظاهر و لكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على مصر و الشام و بلاد الشرق، و ذلك بأن أخذ بعض المشاكسين لحزبه و كان بعد ذلك يغتنم فرصة حمل الأخ على أخيه فيملك الولايات على نحو ما ملك مصر، و يخطب له فيها و تضرب السكة باسمه و يزال اسم أبناء صلاح الدين.

مثل أبناء صلاح الدين صورة من خلاف الإخوة بعد موت أبيهم، و السبب فى ذلك أن أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهدا يبين لكل واحد حقه من هذا الملك الذى فتحه و وطد أساسه، بل ترك الأمر للأقدار. و إذا خلف العسكر فى دمشق لأكبر أولاده الأفضل فإن المملكة ليست عبارة عن دمشق، بل حلب و القاهرة تنازعانها فضل التقدم، و لو كانت أصول الوراثة فى الملك متبعة فى ذلك العصر لتوفر على الأمة و أبناء الدولة عناء كبير و شر مستطير، و لما تعب الفاتح بفتوحه و خلف لأبنائه ميراثا يورثه هما و غما، و يجنون بعملهم على الأمة الجناية بعد الأخرى.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٦

هذا و بقايا الصليبين لم تبرح نازلة فى عكا و صور و طرابلس، و من حسن الطالع أنهم لم يتحركوا للفتنة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣) و قد وصل جمع عظيم منهم إلى الساحل و استولوا على قلعة بيروت، فسار العادل و نزل بتل العجول، و آتته النجدة من مصر و وصل إليه سنقر الكبير من القدس و ميمون القصرى من نابلس، ثم سار العادل إلى يافا و هجمها و ملكها بالسيف و خربها و

قتل المقاتلة، و كان هذا الفتح ثالث فتح لها. و حرب صيدا أيضا و نازلت الفرنج تبين فأرسل العادل إلى العزيز صاحب مصر فسار العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر، و اجتمع بعمه العادل على تبين فرحل الفرنج إلى صور ثم عاد العزيز إلى مصر و ترك غالب العسكر مع عمه العادل و جعل إليه أمر الحرب و الصلح، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة و استقرت بينهم ثلاث سنين و رجع إلى دمشق.

و من الأحداث على عهد العادل بعد أن صفا له ملك الشام و مصر و خضع أبناء أخيه صلاح الدين له ظاهرا و إن لم يخضعوا باطنا، حصار ابنه الأشرف ماردين و سعى الظاهر (٥٩٩) في الصلح، فأجاب العادل إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة و خمسين ألف دينار و يخطب له ببلاده و يضرب السكة باسمه، و يكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك. و سار المنصور صاحب حماة إلى بعين مرابطا للفرنج، و كتب العادل إلى أميري بعلبك و حمص بإنجاده فأنجدها، و اجتمعت الفرنج من حصن الأكراد و طرابلس و غيرها و قصدوا المنصور ببعين و اتفعا معه، فانهمز الفرنج ثم خرج الاستبار من حصن الأكراد و المرقب، و انضم إليهم جموع من الساحل و التقوا مع المنصور و هو على بعين فانتصر عليهم ثانيا، و أسر منهم عدة كثيرة و هادنهم (٦٠٠) و أرسل العادل و انتزع ما كان بيد الأفضل و هي رأس عين و سروج و قلعة نجم و لم يترك بيده غير سميساط و توسلوا إليه في إبقاء ما كان بيده فلم يجب إلى ذلك.

و خرج الفرنج (٦٠٠) لقصد بيت المقدس فهرع العادل من دمشق و نزل على الطور و جرت الهدنة بينه و بينهم و سلم إلى الفرنج يافا و الناصرة و نزل عن مناصفات لُد و الرملة. جاءت الفرنج (٦٠١) إلى حماة بغتة و أخذوا النساء
خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٧

الغسالات من باب البلد على العاصي و امتلأت أيديهم من الغنائم و خرج إليهم المنصور بن تقي الدين و أبلى بلاء حسنا، و كسر عسكره، و حاصر الحلبيون المرقب و كادوا يفتحونها لو لا قتل مقدمهم مبارز الدين، ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين و قتل خلق من المسلمين و صالح العادل الفرنج، و وقعت الهدنة بين صاحب حماة و بينهم. و أغارت الأرمن (٦٠٢) على أعمال حلب فتسارع إليهم العسكر فيتوهم و هزموهم، و ذهب الأرمن بالغنائم، ثم تابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون الأرمني على الديار الحلبية و هابتها العسكر. قال سبط ابن الجوزي: و بلغ الظاهر صاحب حلب إغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب و نزل مرج دابق، و جاء إلى حارم فهزم ابن لاون إلى بلاده و كان قد بنى قلعة فوق دربساك فأخربها الظاهر و عاد إلى حلب. و نازل العادل (٦٠٣) عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى حمص و استدعى العساكر فأتته من كل جهة و نازل حصن الأكراد و فتح برج اعزاز و أخذ منه خمسمائة رجل، ثم نازل طرابلس و عاث العسكر في ربعها و قطع قناتها و أخذ بالأمان القليعات و خربه، حتى وقعت الهدنة بينه و بين الفرنج (٦٠٤) و استولى الملك الأوحده أيوب بن العادل على خلاط، و وصل للعادل التشریف من الخليفة الإمام الناصر و تقليد بالبلاد التي تحت حكمه، و خوطب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، و كثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس و حصن الأكراد و أكثروا الغارة على حمص و ولايتها فأنجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فمنعوا الفرنج عن ولايته.

و قطع العادل (٦٠٦) الفرات و جمع العساكر و الملوك من أولاده و نزل حران و نازل سنجان ثم خامرت العساكر التي صحبته، و نقض الظاهر الصلح معه، فرحل عن سنجان و استولى على نصيبين و الخابور و عادل العادل (٦٠٧) إلى دمشق و قصدت الكرج خلاط و حصروا الملك الأوحده بها و بعد أن نال ملكهم منه حمل ملك الكرج إلى الملك الأوحده فرد على الملك الأوحده قلاع و بذل إطلاق خمسة آلاف أسير و مائة ألف دينار و عقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة و شرط أن يزوج ابنته من الملك الأوحده فتسلم ذلك منه

و تحالفا، و توفي الملك الأوحده من قابل فسار أخوه الملك الأشرف و ملك خلاط عاصمة إرمينية الوسطى، و استقل بملكها مضافا إلى ما بيده من الأرجاء الشرقية.

و فى سنة (٦٠٧) أرسل نساء دمشق إلى سبط ابن الجوزى الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل فى الأدوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالا- للخليل و كرفسات و لما صعد المنبر فى الجامع الأموى أمر بإحضارها فحملت على الأعناق و كانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة و قطعوا مثلها ثم المجاهدون و لحقوا بالملك المعظم بنابلس فخربوا فى الأقاليم الواقعة تحت حكم الفرنج و قطعوا أشجارها و أسروا جماعة منهم و لم يجسر أحدهم أن يخرج من عكا و خاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل و صالحهم. و قبض المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتى كوكب و عجلون بأمر العادل متهما بمكاتبة الظاهر، فقال له المعظم بعد أن لاظفه: أنت شيخ كبير و بك تقوس و ما تصلح لك قلعة سلم إلى كوكب و عجلون و أنا أخلفك على مالك و ملكك و جميع أسبابك و تعيش معنا مثل الوالد، فامتنع و شتم المعظم و ذكر كلاما قبيحا فلما أيس المعظم منه اعتقله فى الكرك و استولى على قلاعه و أمواله و ذخائره و خيله، فكانت قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار. و حبس أسامة فى الكرك إلى أن مات، و أمر العادل بتخريب كوكب و تعفيه أثرها فخرت، و أبى عجلون و ملك المعظم عمالة جهار كس و هى بانياس و ما معها لأخيه العزيز عماد الدين، و أعطى صرخد مملوكة أيبك المعظمى، و أعطى العادل ولده المظفر غازى الرها و ميفارقين، و فيها استولى البال القبرسى على أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بدهية، و تابع الغارات على تركمانها فشردهم فجمعوا و أخذوا عليه المضايق و حصل فى واد فقتلوه و جميع رجاله و طافوا برأسه فى أعمالهم ثم حملوه فى البحر إلى العادل بمصر.

و استولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل على اليمن و استولى ابن لاون الأرمنى على أنطاكية من الفرنج و توفي (٦١٣) الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب و أوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لأنه من بنت عمه العادل و طلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل و أخواله و أولاده و بعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الصالح صلاح الدين خطط الشام، ج ٢، ص: ٧٩

أحمد، و بعدهما لابن عمهما المنصور محمد بن العزيز بن عثمان، و حلف الأمراء و الأكابر على ذلك، و جعل الحكم فى الأموال و القلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، و كانت مدة ملك الظاهر لحلب إحدى و ثلاثين سنة، و كان فيه بطش و إقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، و هو الذى جمع شمل البيت الناصرى الصلاحى و لكن اختلافه مع أخيه الأفضل كان من أهم الأسباب فى زوال الملك من ذرية صلاح الدين و كان الظاهر ذكيا فطنا. قال سبط ابن الجوزى: كان مهيبا له سياسة و فطنة و كانت دولته معمورة بالعلماء و الفضلاء، مزينة بالملوك و الأمراء، و كان محسنا إلى الرعية ملجأ الفقراء و الغرباء و كهفا للملهوفين.

الحملة الصليبية الخامسة:

بينما كانت المملكة مشتغلة بالنصب و العزل و تقاتل أبناء البيت الواحد على الملك و السلطان، اجتمعت الفرنج من داخل البحر و وصلوا إلى عكا فى جمع عظيم و هذه هى الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩-١٢٢١ م) و كانت مؤلفة من ألمان و مجر أما الحملة الرابعة فكانت توقفت فى طريقها إلى الشام و استولت (١٢٠٤-١٢٠٦ م) على القسطنطينية فانفسخت بذلك الهدنة بين المسلمين و الفرنج و خرج العادل بعساكر مصر و نزل على نابلس فسارت الفرنج إليه، و لم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم، فاندفع قدامهم الى عقبه فيق فأغاروا على أرض المسلمين و كانوا فى خمسة عشر ألفا و وصلت غارتهم إلى نوى و نهوا ما بين بيسان و نابلس و بثوا سراياهم فقتلوا و غنموا من المسلمين شيئا كثيرا و بلغوا خربة اللصوص و الجولان ثم صعّدوا إلى الطور ثم رجّعوا إلى عكا و وصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا إلى جزين فانها عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة أشخاص. قال المؤرخون: لما قتل كند من أكناد الفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه، و رجّعوا إلى عكا و اختلفوا هناك فقال

ملك الهنكر:

الرأى أنا نمضى إلى دمشق و نحاصرها فإذا أخذناها ملكنا الشام، فقال الملك النّوام، قالوا: إنما سمي بذلك لأنه كان إذ نازل حصنا نام عليه حتى يأخذه أى أنه كان صبورا على حصار القلاع و اسمه دستريج و معناه المعلم بالريش لأن أعلامه كانت الريش فقال: نمضى إلى مصر فإن العساكر مجتمعة عند العادل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٠

و مصر خالية، فأدى هذا الاختلاف إلى انصراف ملك الهنكر مغاضبا إلى بلده فتوجهت باقى عساكرهم إلى دمياط فوصلوها، و العادل نازل على خربة اللصوص بالشام و قد وجه بعض عساكره إلى مصر. و أقام العادل بمرج الصيقر و أرسل إلى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم. ثم سار الفرنج إلى الديار المصرية و نزلوا على دمياط و سار الكامل من مصر و نزل قبالتهم، و أرسل العادل العساكر التى عنده لدفعهم.

و خرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد أن غرم المسلمون على بنائها أموالا كثيرة و اشتغلت فيها جيوش، و ذلك مخافة أن تكون سببا للاستيلاء على دمشق.

و لما مات الظاهر صاحب حلب و اجلس ابنه العزيز و كان طفلا، طمع صاحب الروم كيكائوس فى الاستيلاء على حلب، و كان موت الملك و نصب طفل من أبنائه سببا كبيرا لطمع أعداء المملكة بأخذها. فاستدعى الأفضل صاحب سميساط و اتفق معه كيكائوس أن يفتح حلب و عمالتها و يسلمها إلى الأفضل، ثم يفتح الأصقاع الشرقية التى بيد الأشرف بن العادل و يتسلمها كيكائوس، و تحالفا على ذلك فاستولى كيكائوس على رعبان و سلمها إلى الأفضل، فمالت إليه القلوب لذلك، ثم سار إلى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الأفضل منه و تغيرت الخواطر عليه، و وصل الأشرف إلى و حلب لدفع كيكائوس عن المملكة، و وصل إليه بها مانع بن حديثه أمير العرب فى جمع عظيم و كان كيكائوس سار إلى منبج و تسلمها لنفسه، و اتفق بعض عسكر الأشرف مع عسكر كيكائوس فانهمزمت مقدمة هذا فولى كيكائوس منهزما، ثم حاصر الأشرف تل باشر و استرجعها مع رعبان و غيرها و توجه الأفضل إلى سميساط. و فى هذه السنة ورد الأمر إلى المعتمد والى دمشق بالاهتمام و الاستعداد و استخدام الرجال و تخريب دروب قصر حجاج و الشاغور و طرف البساتين و نقل غلة داريا إلى القلعة و تغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدتها. و التقى المعظم بالفرنج على القيمون فانهمزمت عليهم و قتل منهم مقتلة عظيمة و أسر من الداوية.

وفاة العادل:

توفى الملك العادل فى عالقين فى الجيدور (٦١٥) و كان نازلا بمرج الصفر و قد أرسل العساكر إلى مصر و ولده الكامل بالديار المصرية و مدة ملكه نحو ١٩ سنة. و كان حازما متيقظا غزير العقل شديد الآراء ذا مكر و خديعة، توصل بدائه إلى أن يرشى نساء قواد الصليبيين بالجواهر و المصنوعات الدمشقية

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨١

فيخدمه مقابل ذلك بخدمات مهمة و يتجسسن له على قومهن. و كان صبورا حلما يسمع ما يكره و يغضى عنه، و اتته السعادة و اتسع ملكه و كثرت ذريته و خلف ستة عشر ذكرا عدا البنات، و رأى فى أولاده ما يجب «و لم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم فى أولاده من الملك و الظفر ما رآه الملك العادل فى أولاده» و قد خلف آثارا مهمة فى الولايات التى تولاهها، لا يزال بعضها ماثلا و طهر جميع ولاياته من الكرخ إلى همدان و الجزيرة و الشام و مصر و الحجاز و اليمن من النساء و الخمور و الخواطى و القمار و المخانيث و المكوس و المظالم، و كان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة ألف دينار. و استمتع العادل بالملك و خدم الدولة خدمة طيبة، و ساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد إيقاع أخيه بهم و تشتت كلمه أبناء صلاح

الدين.

ولما هلك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا فحضر إليه ابنه المعظم عيسى و كان بنا بلس و كتم موته، و أخذه ميتا في محفة و عاد به إلى دمشق، و احتوى المعظم على جميع ما كان لأبيه من الجواهر و السلاح و الخيول و غير ذلك، و كان في خزائنه سبعمائة ألف دينار، و حلف له الناس و كتب إلى الملوك من إخوته و غيرهم يخبرهم بموته، و لما بلغ الكامل موت أبيه و هو في قتال الفرنج عظم عليه جدا و اختلفت العساكر عليه، فتأخر عن منزلته، و طمعت الفرنج و نهبت بعض أنقال المسلمين، و كان في العسكر عماد الدين المشطوب و كان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك من السلطنة، و حصل في العسكر اختلاف كثير، حتى عزم الكامل على اللحق باليمن.

و بلغ المعظم ذلك فرحل من الشام و وصل إلى أخيه الكامل و أخرج عماد الدين و نفاه من العسكر إلى الشام فانظم أمر الكامل، و قويت مضايقة الفرنج لدمياط و ضعف أهلها بسبب الفتنة التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب. و كان العادل قد قسم المملكة في حياته بين أولاده فجعل بمصر الكامل محمدا و بدمشق و القدس و طبرية و الأردن و الكرك و غيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى، و جعل بعض ديار الجزيرة و ميافارقين و خلاط و أعمالها خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٢

لابنه الأشرف موسى و أعطى الرها لولده شهاب الدين غازي، و أعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه. فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه و اتفقوا اتفاقا حسنا، و لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يتق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره و لا يخافه. قال ابن الأثير: «فلا جرم زاد ملكهم و رأوا من نفاذ الأمر و الحكم ما لم يره أبوهم، و لعمرى إنهم نعم الملوك فيهم الحلم و الجهاد و الذب عن الإسلام». و دخلت سنة (٦١٤) و الأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها و إقطاعاتها، و الكامل بمصر في مقابلة الفرنج و هم محاصرون لثغر دمياط، و كتب الكامل متواصلا إلى إخوته في طلب النجدة، ثم سقطت دمياط في أيدي الفرنج، فأرسل المعظم عيسى و خرب أسوار القدس مخافة أن يصيبها ما أصاب دمياط، و لما استولى الفرنج على دمياط، عظم الأمر على آل أيوب فكتب المعظم إلى الواعظ سبط ابن الجوزي: أريد أن تحرض الناس على الجهاد و تعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط، و إنى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية منها ألف و ستمائة أملاك لأهلها و أربعمائة سلطانية، و أريد أن تخرج الدماشقة ليزبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم و الأكابر. فأجابوا بالسمع و الطاعة ثم تخلفوا، فأخذ الثمن و الخمس من أموالهم لتقاعسهم، ثم فتح المعظم قيسارية و سار إلى النهر ففتح و هدمه و خرب في بلاد الفرنج. و في تاريخ العلويين أن النصيرية هدموا جبله في الحروب الصليبية و لم يبق سوى تل التويني قرب جبله و اتحد الإسماعليون مع الأكراد في الحروب الصليبية على العلويين فاستنجدوا بالأمير حسن المكزون السنجاري فجاءهم سنة (٦١٧) في خمسة و عشرين ألفا من العلويين و نزل على عين الكلاب بقرب قلعة أبي قبيس و على سطح جبل الكليبة فتجمع الإسماعيلية مع حلفائهم الأكراد و اجتمعوا في مصيف و أغاروا ليلا على جناح الأمير و عساكره و غلبوه فرجع إلى سنجار خائبا.

فتح الصليبيين دمياط و ذلتهم بعد العزة:

و في سنة (٦١٨) قوى طمع الفرنج المتملكين دمياط في مدينة المنصورة التي

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٣

بناها الكامل، و أشد القتال بين الفريقين برا و بحرا و كتب الكامل إلى إخوته و أهل بيته يستحثهم على إنجاده فسار المعظم عيسى صاحب دمشق و الأشرف صاحب الولايات الشرقية و أصحاب حلب و حماة و بعلبك و حمص فوصلوا القطر المصري و القتال مشد بين المسلمين و الفرنج، و رسل الكامل و أخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح و قد بذل المسلمون لهم تسليم القدس و عسقلان و

طبرية و اللاذقية و جبلة و جميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك و الشوبك، على أن يجيوا إلى الصلح و يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك و طلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، و قالوا لا بد من تسليم الكرك و الشوبك.

و بينا الأمر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل، و كان ذلك في قوة زيادته، فركب الماء تلك الأرض و صار حائلا بين الفرنج و بين دمياط، و انقطعت عنهم الميرة و المدد فبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم و يسلموا دمياط و يعقدوا الصلح.

فنجت الشام و مصر من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم و لم يكونوا من المعرفة بحيث يقدرّون منازلهم، و منازلهم، فخابت آمالهم و خذلتهم قوتهم و تحكّم فيهم من كانوا يستطيّلون عليهم و يشتطون في مطالبتهم و كانت مدة إقامتهم في ديار الإسلام ما بين الشام و الديار المصرية أربعين شهرا و أربعة عشر يوما.

و لما انكسر الفرنج على دمياط دخل الناس كما قال ابن أبي شامة كنيسه مريم بدمشق بفرحة و سرور و معهم المغاني و المطربون فرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسه قال: و بلغني أن النصارى ببلبك سودوا و سخموا و جوه الصور في كنيستهم حزنا على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالى و أمر اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم.

اختلاف بين أبناء العادل و تقدم الكامل عليهم:

و قصد معظم عيسى حماة، لأن الناصر صاحبها كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة فلم يف، و نزل بعين و غلقت أبواب حماة فجرى بينهما قتال قليل. ثم ارتحل معظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها
خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٤

و ولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها. و بلغ الأشرف ما فعله أخوه معظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك، و اتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على معظم و ترحيله فأرسل إليه الكامل ناصح الدين الفارسي فوصل إلى معظم و هو بسلمية و قال له: السلطان يأمرك بالرحيل فقال: السمع و الطاعة، و كانت أطماعه قد قويت في الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضبا، و تسلم المظفر سلمية من أخيه الناصر، و استقر بيد هذا حماة و المعرة و بعين، ثم سار الأشرف من مصر و استصحب معه خلعة و سناجق سلطانية من أخيه الكامل العزيز صاحب حلب و عمره عشر سنين، و وصل الأشرف بذلك إلى حلب و أركب العزيز في دست السلطنة، و لما وصل الأشرف بالخلعة إلى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكرا و هدموها إلى الأرض.

كان الأشرف أنعم على أخيه المظفر غازي بخلاط الأرمنية و هى مملكة عظيمة، و كان قد حصل بين معظم عيسى صاحب دمشق و بين أخويه الكامل و الأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، فأرسل معظم و حسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الأشرف، فأجاب المظفر إلى ذلك و خالف أخاه الأشرف، و كان قد اتفق مع معظم و المظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبورى فسار مظفر الدين و حصر الموصل عشرة أيام ليشغل الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها و سار الأشرف إلى خلاط و حصر أخاه شهاب الدين غازي فسلمت إليه مدينة خلاط، و انحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل فنزل من القلعة إلى أخيه الأشرف و اعتذر إليه فقبل عذره و عفا عنه و أقره على ميفارقين و ارتجع باقى الإمارات منه.

و ذكر أبو شامة في حوادث سنة (٦٢٠) أن الأشرف بن العادل عاد من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق، فالتقاه أخوه معظم ملك الشام و عرض عليه النزول بالقلعة فامتنع. و بعد أن ذكر كيف عصا أخوه عليه في خلاط قال:

إنه كتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء إليه فكتب إليه:

يا أخى لا تفعل أنت ولى عهدى و البلاد و الخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك و تسمع كلام الأعداء فوالله ما ينفعوك، فأظهر

العصيان فجمع الأشرف

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٥

عساكر الشرق و حلب و تجهز للمسير إلى خلاط، و كان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف فسار المعظم إلى حمص و وصل إلى حماة و نزل على بعيرين و عاد إلى حمص و خرج إليه العسكر فظهروا عليه و نهبوا أصحابه فعاد إلى دمشق و لم يظفر بطائل. و في سنة (٦٢٢) توفي الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف و ليس بيده غير سميساط، و كان حسن السيرة و تجمعت فيه الفضائل و الأخلاق الحسنه و كان مع ذلك قليل الحظ و له شعر جيد.

و في سنة (٦٢٢) كان بأيدي الإسماعيلية ثمان قلاع و هي قلعة الكهف و العليقة و القدموس و الخوايبي و المينقة و المصيف و الرصافة و القليعة فإن ابن صباح لم يمت حتى ملك جبل عامله و تلك الحصون. قال ابن ميسر: إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، و من كان بالموت يقال لهم الباطنية و الملاحدة، و من كان بخراسان يقال لهم التعليمية و كلهم إسماعيلية.

و في سنة (٦٢٣) سار المعظم عيسى بن العادل و نازل حمص و كان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاد الشرق، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق، و ورد عليه أخوه الأشرف طلبا للصالح و قطعاً للفتن، فبقى مكرماً ظاهراً و هو في الباطن كالأسير معه، و لما رأى الأشرف حاله مع أخيه المظفر و أنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد أجابه (٦٢٤) كالمكره إلى ما طلبه منه و حلف له أن يعاضده و يكون معه على أخيهما الكامل، و أن يكون معه على صاحبي حماة و حمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم. قال ابن الأثير: إن اتفاق الملوكة أولاد الملك العادل أبي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام و سر الناس أجمعون بذلك. و في سنة (٦٢٤) قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم بدمشق بعد اجتماعه بالكامل، يطلب منه الإمارات التي كان فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندى إلا السيف.

و لما استقرّ الأشرف بأرضه رجع عن جميع ما تقرر بينه و بين أخيه المعظم، و تأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، و لما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، و كاتب الأنبرور ملك الفرنج

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٦

في أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه، و وعد الأنبرور أن يعطيه القدس، فسار الأنبرور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك فكتب أخاه الأشرف و استعطفه.

قال ابن الأثير: إن الكامل لما سار من مصر إلى دمشق خاف المعظم أن يأخذ دمشق منه، فأرسل إلى أخيه الأشرف يستنجده فسار إليه جريده فدخل دمشق، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد منيع و قد صار به من يمنعه و يحميه، و أرسل إليه الأشرف يستعطفه و يعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعةً و موافقةً لأغراضه و الاتفاق معه على قتال الفرنج فأعاد الكامل الجواب يقول: إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعمهم عما يريدونه، و قد عمروا صيدا و بعض قيسارية و لم يمنعوا، و أنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار و ممر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر و قبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، و أى وجه يبقى لنا عند الناس و عند الله تعالى، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه و يتعدون إلى غيره، و حيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر و احفظ أنت البلاد، و لست بالذي يقال عنى أنى قاتلت أخى أو حصرته حاشا لله تعالى، و تأخر عن نابلس إلى الديار المصرية.

و انتزع هذه السنة الأتابك طغريل الشغر و بكاس من الصالح أحمد بن الملك الظاهر، و عوضه عنها بعينتاب و الراوندان و فيها توفي المعظم عيسى ابن العادل، و كان شجاعاً عالماً و عسكرياً في غاية التجمل، يجامل أخاه الكامل و يخطب له و لا يذكر اسمه معه و لا يحب التكلف و العظمة. ذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم كان في أيام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا و على عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون و بينهم و بين الجواسيس علامات، و كان له في عكا أصحاب

أخبار و أكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة، و إن كانوا مائتين شمعتين، و إن كانوا يريدون قصد خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٧

حوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية، و كذا إلى نابلس، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق و كان يعطى النساء و الجواسيس في كل فتح جملة كثيرة. و ترتب في مملكة المعظم و أعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود، و قام بتدبير مملكته مملوك والده و أستاذ داره عز الدين أيبك و كان لأيبك صرخد. و لم يطل الأمر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك و لا أجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام و نزل على تل العجول بظاهر غزة و ولى على نابلس و القدس و غيرهما من أملاك ابن أخيه الناصر داود، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف فجاءه من الشرق فوق الاتفاق أن يسير الناصر داود و المجاهد شيركوه مع الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس، و يتوجه الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة، شافعا في ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك، و لما وصل الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، و تعويضه عنها بحران و الرها و الرقة من أملاك الأشرف، و أن تستقر دمشق للأشرف و يكون له إلى عقبه فيق، و ما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل و أن ينتزع حماة من الناصر قليج أرسلان و أن ينتزع سلمية من المظفر محمود و كانت إقطاعه و يعطى لشيركوه حمص. و وقعت سنة (٦٢٥) وقعة بين المسلمين و الفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس و كانت وقعة عظيمة و ذلك لتحرك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة.

الحملة الصليبية السادسة:

كانت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) بزعامة الأنبرور فريدريك الثانى و كان سياسيا داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاوض الكامل و تسلم القدس و بيت لحم و الناصرة لمدة عشر سنين و إليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن:

استولى الأنبرور فريدريك صاحب صقلية و بوليه و انكبرديه على صيدا، و كانت مناصفة بين المسلمين و الفرنج و سورها خراب فعمر الفرنج سورها و استولوا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٨

عليها، و تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبين و هونين و غيرهما. و بينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل و بين الأنبرور رحل الناصر داود و هو بنابلس إلى دمشق و كان قد لحقه بالغور عمه الأشرف و عرفه ما أمر به عمه الكامل، و أنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر إلى ذلك فسار الأشرف في أثره و حصره بدمشق، و كانت الفتنة بين الملكين الكامل و الناصر قبالة باب الجديد و فى الميدان و ما بين ذلك و النصر فيه لأهل دمشق، و وقع الحريق و النهب فى باب توما، و أحرقت بعض الطواحين و نهبت الدور و وقع الجرح و القتل و خربوا بعد أيام قريات من قرى الغوطة و أخرجوا منها أهلها مثل جوبر و جدبا و زملكا و سقبا و غيرها. قال فى الذيل: و سمعت والدى و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصار المتقدمة فى دولة أولاد صلاح الدين يحكمون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار. و فى هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليهما من الخانات و الدور و البساتين و الحمامات و الخانقاهات

طال الأمر و لم يجد الملك الكامل بدا من المهادنة فأجاب الأنبرور إلى تسليم القدس إليه، على أن تستمر أسواره خرابا و لا يعمرها الفرنج، و لا يتعرضوا الى قبة الصخرة و لا الى الجامع الأقصى، و يكون الحكم فى الرساتيق إلى والى المسلمين و يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، و وقع الاتفاق على ذلك و تحالفا عليه و تسلم الأنبرور القدس فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام و اشتدت العظام، و أقيمت المآتم و قال الوعاظ و العلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. قال ابن أبى

شامة: جاءنا الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج فصالحهم على ذلك و على تسليم جملة من القرى فسلموه و دخلوه مع ملكهم الأنبرور، و كان هذا من الوصمات التي دخلت على المسلمين، و كانت سببا في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل و من معه و قد ذكر سبط ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين و المغلوبين إذ ذاك قال ما نصه: كان الكامل قد تقدم إلى شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين مادام الأنبرور في القدس أن لا يصعدوا المنائر و لا يؤذنوا في الحرم، فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين و صعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر و الأنبرور نازل في دار القاضي فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٨٩

قوله تعالى: «مِا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ذَلِكَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ» و نحو هذا. فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم و قال له: إيش عملت السلطان رسم كذا و كذا قال: فما عرفنتى النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي، و كان قد دخل القدس في خدمته و هو الذي سلم إليه القدس فقال له: يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة و ذكر ذاك الكلام، فعرفه أن السلطان أوصاه، فقال الأنبرور:

أخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعاركم و شرعكم و دينكم لأجلى، فلو كنتم عندي في بلادى هل أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا- تفعلوا، هذا أول ما تنقصون عندنا، ثم فرق في القوام و المؤذنين و المجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير و لم يبق بالقدس سوى ليلتين و عاد إلى يافا و خاف من الداوية فإنهم طلبوا قتله.

اختلافات جديدة بين آل العادل:

بعد أن أحيط بدمشق من كل جانب و حلّ بها من الخراب و الفساد العجائب. و اشتد عليها الحصار عوّض الناصر داود عنها بالكرك و البلقاء و الصلت و الأغوار و الشوبك، و أخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر و هي حران و الرّها و غيرها التي كانت بيد الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك و سأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، و تسلم دمشق الأشرف، و تسلم الكامل من الأشرف الديار الشرقية المذكورة، و لما سلم الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف سار من دمشق و نزل على مجمع المروج ثم نزل على سلمية و أرسل عسكريا نازلوا حماة و بها صاحبها الناصر قليج أرسلان. و كان في العسكر الذين نزلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم إليه و أخذه الى الكامل و هو نازل على سلمية فشتمه و أمر باعتقاله و أن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر و مرشد المنصوريان، و كان بقلعة حماة أخ للناصر يلقب المعز بن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، و قالوا للكامل: لا نملك حماة لغير واحد من أولاد تقى الدين.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٠

فأرسل الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة: اتفق مع غلمان أيبك و تسلم حماة و كان المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملى فراسل المظفر الحكام بحماة فحلفوا له و واعدوا المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له فدخل البلد و تسلم القلعة، و فوض تدبير حماة إلى الأمير سيف الدين على الهدباني، و لما استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه و سلمها إلى شيركوه صاحب حمص و رسم الكامل لأخيه المظفر أن يعطى أخاه الناصر قليج أرسلان بعرين بكماها، و لم يبق بيد المظفر غير حماة و المعرة، ثم رحل الكامل عن سلمية الى الديار الشرقية التي أخذها من أخيه الأشرف عوضا عن دمشق، و أرسل الأشرف أخاه صاحب بصرى الصالح إسماعيل بن العادل بعسكر فنازل بعلبك و بها الأجد بهرام شاه، و لما طال الحصار عليها سلمها الأجد، و عوضه الأشرف عنها الزبداني و قصير دمشق و مواضع أحر. و قصد الفرنج حصن بارين و نهبوا بلاده و

أعماله وأسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ.

و في سنة (٦٢٧) شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الكامل. وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم صاحبها المظفر محمود و التقاهم عند قرية بين حماة و بعين يقال لها أفيون و كسروهم كسرة عظيمة.

و في سنة (٦٢٨) سار الكامل من مصر إلى دمشق فسلمية و اجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم ثم سار بهم إلى آمد و حصرها و تسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود، و كان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته و تعرضه لحريم الناس، و حاصر المظفر صاحب حماة أخاه الناصر ببعين بأمر العادل خوفا من أن يسلمها للفرنج لضعفه عنهم، و انتزعها منه و أكرمه و سأله الإقامة عنده بحماة فسار إلى أخيه الكامل في مصر. و سار الكامل من مصر (٦٣١) إلى قتال كيقباز ملك الروم و قد استصحب معه ستة عشر ملكا من ملوك الشام و الجزيرة من أخوته و آل بيته في عسكرهم و قطعوا الفرات و انهزم العسكر الكامل على خربت، و ذلك لأن الملوك الذين في خدمته

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩١

خامروا عليه (خاتلوه) و تقاعدوا عن الحرب لأن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم و قال: إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام، و يأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام و مصر، فتقاعدوا عن القتال و فسدت نياتهم فرجع الكامل إلى مصر و عاد كل واحد من الملوك إلى بلده. و في سنة (٦٣٣) سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئا إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل. و سار الكامل من مصر و استرجع حران و الزها من كيقباز صاحب الروم، و كان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن أرضه.

و بدت في هذه السنة طلائع الشرق سبط ابن الجوزي: و كانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس.

و توفي العزيز صاحب حلب حفيد صلاح الدين يوسف بن أيوب، و كان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث و عشرين سنة و ستة أشهر، و تقرر في الملك بعده ولده الناصر يوسف و عمره نحو سبع سنين و قام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمني و عز الدين عمر بن مجلى و جمال الدين إقبال الخاتوني، و المرجع في الأمور إلى والده العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل. و قويت الوحشة بين الكامل و بين أخيه الأشرف و كان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الكامل و مع باقى الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الأشرف بقصد بلاده و انتزاعها منه فقدم خوفا من ذلك إلى دمشق، و حلف للملك الأشرف و وافقه على قتال الكامل و كاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم و اتفق معه على قتال أخيه الكامل إن خرج من مصر. و توجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس و كان قد عمرها الداوية بعد ما فتحها صلاح الدين يوسف و خربها و أشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض درساك و هى حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب و ولى الفرنج منهزمين و كثر فيهم القتل و الأسر و عاد عسكر حلب بالأسرى و رؤوس الفرنج و كانت هذه الوقعة من أجل الوقائع.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٢

توفي الأشرف (٦٣٥) و تملك دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه.

قال أبو الفداء: و كان الأشرف مفرط السخاء يطلق الأموال الجلييلة النفيسة، و كان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، و كان سعيدا و يتفق له أشياء خارقة للعقل.

و علل الأشرف سبب الوحشة بينه و بين أخيه الكامل ثم صاحب مصر أن الأشرف لم يبق بيده غير دمشق و عمالتها، و كانت لا تفي

بما يحتاجه و ما يبذله وقت قدوم أخيه الكامل إلى دمشق، و لما فتح الكامل آمد و ما إليها لم يزد منها شيئا و بلغه أن الكامل يريد أن ينفرد بمصر و الشام و ينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك، و لما بلغ الكامل في مصر وفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق و كان الصالح إسماعيل قد استعد للحصار و وصلت إليه نجدة الحلبيين و صاحب حمص، فنازل الكامل دمشق و أخرج الصالح النفاطين فأحرق العقبة جميعها و ما بها من خانات و أسواق، و في مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون على خمسين رجلا- نجدة للصالح إسماعيل، فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، و حال نزول الكامل على دمشق أرسل توقيعا للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى الكامل و تعوض عنها بعلبك و البقاع مضافا إلى بصرى. قال ابن أبي شامة في هذا الحصار: إنه كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة و أقل غلاء و لم تطل مدته فإن الصلح جرى، و وافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط اليوم الذي فتحت فيه آمد.

وفاة الملك الكامل و حال الشام بعده:

توفي الكامل بدمشق هذه السنة (٦٣٥) بعد أن حكم في مصر نائبا و ملكا نحو أربعين سنة، حكم نائبا نحو عشرين سنة و ملكا نحو عشرين. و كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه و كان يباشر تدبير المملكة بنفسه. قال ابن خلكان: كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر، محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد، معاشرا لأرباب الفضائل، حازما في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف و لا إقتار. و كان يخطب له بمكة: «مالك مكة و عبيدها، و اليمن و زبيدها، و مصر و صعيدها، و الشام و صناديدها الخ خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٣

و كان مع الكامل بدمشق الناصر داود صاحب الكرك فاتفت آراء الأمراء على تحليف العسكر العادل أبي بكر بن الكامل، و هو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العسكر و أقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل نائبا عن العادل أبي بكر بن الكامل، و تقدمت الأمراء إلى الناصر داود بالرحيل عن دمشق و هددوه إن أقام، فرحل إلى الكرك و تفرقت العساكر. و أرسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة، و قطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فبيست بساتينها، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة و الطواحين. لما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفتت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الكامل على قصدهم، و وصل عسكر حلب إلى المعرة و انتزعوها من يد المظفر و حاصروا قلعتها، و خرجت المعرة عن ملك المظفر، ثم سار العسكر الحلبي و نازلوا حماة و نهبوا أرجاءها، و لما لم يبق بيد المظفر غير حماة و بعين خاف أن تخرج بعين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض.

و جرى بين الناصر داود صاحب الكرك و بين الملك الجواد يونس المتولى على دمشق مصاف بين جينين و نابلس، انتصر فيه الجواد يونس و انهزم الناصر داود هزيمة قبيحة، و قوى الملك الجواد بسبب هذه الواقعة و كان في عسكر مصر و الشام، و تمكن من دمشق و نهب عسكر الناصر و ألقاه. و استولى الصالح أيوب بن الكامل على دمشق و أعمالها بتسليم الجواد يونس و أخذ العوض عنها سنجار و الرقة و عانة، و لما استقر ملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، فذهب و جعل نائبه في دمشق، ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، و كان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الأمراء و خلع عليهم، و فرغ الخزائن و كان فيها تسعمائة ألف دينار. و في رواية أنه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف ألف دينار و خلع خمسة آلاف خلعة.

و في سنة (٦٣٧) هاجم الصالح إسماعيل صاحب بعلبك و معه شيركوه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٤

صاحب حمص مدينة دمشق و حصروا القلعة فخرت بذلك دور و مدارس تحت القلعة ثم تسلم الصالح إسماعيل القلعة و حاصر الصالح نجم الدين أيوب حمص. و لما بلغ استيلاء عمه إسماعيل على دمشق رحل من نابلس إلى الغور، و كان هناك قاصدا إلى مصر للاستيلاء عليها، ففسدت نيات عساكره عليه، و شرعت الأمراء و من معه من الملوك يحركون نقاراتهم و يرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح إسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه فأصبح لا يدري ما يفعل و لا له موضع يقصده، فأمسكه الناصر داود صاحب الكرك و اعتقله عنده مبعجلا. و قصد الناصر داود القدس و كان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها و فتحها و خرب القلعة و ضرب برج داود. و توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص و كان عسوقا لرعيته و ملك حمص نحو ست و خمسين سنة ملكه أياها صلاح الدين يوسف.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٥

انقراض الايوبيين «و ظهور دولة الممالك البحرية و ظهور التتر» - من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠-

اشارة

ظهور الخوارزمية:

بينا كان أبناء أيوب يتقاتلون على الملك و الصليبيون قد أخذوا إلى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم و اكتفوا بما ملكوه من مدن الساحل و القدس، جاء الخوارزمية يعيشون في الديار الشامية و يروعون أهلها و يقتلون فيهم و يخربون العامر. الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي أحد ملوكهم الذي استولى على إيران و العراق و أذربيجان و كرجستان، و كانت عاصمته ملكه تبريز. جاءوا سنة (٦٣٤) إلى البلاد الشرقية فاستخدمهم الصالح أيوب بن الكامل و كان في آمد و حصن كيفا و حران و غيرها نائبا عن أبيه. جاءوا بعد أن قتلوا ملكهم و انضموا إلى كيقباز ملك الروم و خدموا عنده و كان فيهم عدة مقدمين، فلما مات كيقباز و تولى ابنه كيخسرو و قبض على بركت خان أكبر مقدميهم، ففارت الخوارزمية حينئذ خدمته و ساروا عن الروم و نهبوا ما كان على طريقهم، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل و استأذن أباه في استخدامهم فأذن له و استخدمهم، فما زال هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر.

كثر عيث الخوارزمية و فسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية و ساروا إلى قرب حلب (٦٣٨) فخرج إليهم عسكرها مع المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين و وقع بينهم القتال فانهزم الحلييون هزيمة قبيحة و قتل منهم خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٦

خلق كثير، منهم الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، و أسر مقدم جيش المعظم، و استولى الخوارزميون على أثقال الحليين و أسروا منهم عدة كثيرة.

و كانوا يقتلون بعض الأسرى ليشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئا كثيرا، ثم نزل الخوارزمية على حيلان و كثر عيثهم و فسادهم و نهبهم في أرجاء حلب، و أحرقوا الأوقات في القرى، و دخلوا مدينة حلب و استعد أهلها للحصار، و ارتكب الخوارزمية من الفواحش و القتل ما ارتكبه التتر، ثم سار الخوارزمية إلى منبج و فعلوا فيها من القتل و النهب مثل ما تقدم و رجعوا إلى حران و ما معها. ثم قصدوا إلى الجبول ثم إلى تل عزاز ثم إلى سرمين و دخلوا دار الدعوة الإسماعيلية و وافوا المعرة و هم ينهبون ما يجدونه، و قد جفل الناس من بين أيديهم.

و كان قد وصل المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص و معه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولى على دمشق نجدة للحليين، فاجتمع الحلييون مع صاحب حمص المذكور و قصدوا الخوارزمية و استمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى

نزلوا على شيزر و نزل عسكر حلب على تل السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة و لم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها المظفر إلى الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية فالرصافة طالبين الرقة، و سار عسكر حلب من تل السلطان إليهم و لحقتهم العرب فألقت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب و أطلقوا الأسرى.

و وصلت الخوارزمية إلى الفرات و لحقتهم عسكر حلب و صاحب حمص قاطع صفيين فعمل لهم الخوارزمية ستائر و وقع القتال بينهم إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات و ساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة و قطعوا الفرات منها، و قصدوا الخوارزمية و اتفخوا قريب الرها، فولى الخوارزميون و ركب صاحب حمص و عسكر حلب أقيمتهم يقتلون و يأسرون. ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، و هربت الخوارزمية إلى عانة و بادر صاحب الموصل إلى نصيبين و دارا و كانت للخوارزمية فاستولى عليهما، و خلص من كان بهما من الأسرى، و كان منهم المعظم توران شاه أسيرا في دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، و استولى عسكر حلب على الرقة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٧

و الرها و سروج و رأس عين و ما مع ذلك. و استولى المنصور إبراهيم على الخابور ثم سار عسكر حلب و وصل إليهم نجدة من الروم و حاصروا المعظم ابن الصالح أيوب بآمد و تسلموها منه و تركوا له حصن كيفا و قلعة الهيثم.

اختلاف بني أيوب و اعتضاد بعضهم الفرنج و عودة الخوارزمية:

كان الملك الجواد يونس بن مودود قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار و عانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه و سار لولو صاحب الموصل و حاصر سنجار و يونس غائب عنها فاستولى عليها و لم يبق بيد يونس من الملك شيء، فسار على البرية إلى غزة و أرسل إلى الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ و دخل عكا، و أقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسماعيل صاحب دمشق حينئذ و بذل مالا للفرنج و تسلم الملك الجواد من الفرنج و اعتقله ثم خنقه (٦٣٨).

و كان قد قوى خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر فسلم الصالح إسماعيل صنفد و الشقيف إلى الفرنج ليعضدوه و يكونوا معه على ابن أخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثال في تاريخ بني أيوب اللهم إلا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة (٦٢٤) في أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه و وعده له بإعطائه القدس، و كان ذلك خديعة من الكامل لأخيه المعظم حتى لا يستنجد بأحد من ملوك الأطراف عليه إذا لم يتم شيء من ذلك. و قد أنكر على الصالح إسماعيل كل من شيخ الشافعية و المالكية بدمشق فعزلا من وظائفهما و سجنوا بقلعة دمشق.

و كان في سنة (٦٤٠) مصاف بين الخوارزمية، و معهم المظفر غازي صاحب ميافارقين، و بين عسكر حلب و معهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، و ذلك بالقرب من الخابور، فانهزم الخوارزمية و صاحبهم أقبح هزيمة، و نهب منهم عسكر حلب شيئا كثيرا، و نهب و طاقات الخوارزمية و نساؤهم.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٨

و توفيت هذه السنة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز و ابنة الملك العادل، و كانت تصرفت في ملك حلب تصرف السلاطين و قامت بالملك أحسن قيام، و كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ و حكم و استقل بملكه حلب و ما هو مضاف إليها، و المرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصى الخاتوني.

و في السنة التالية قصدت التتر مملكة صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالحلبين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم و الحلبيون.

و سار الصالح و حاصر عجلون و لم يقدر على فتحها. و فيها كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر و الصالح إسماعيل

صاحب دمشق في الصلح، واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك و اعتضدا بالفرنجة و سلما أيضا إلى الفرنجة عسقلان و طبرية. فعمر الفرنجة قلعتيهما و سلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

و وصلت الخوارزمية (٦٤٢) إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل، و كان مسيرهم على حارم و الزوج إلى أطراف دمشق حتى وصلوا إلى غزة و دمروا بيت لحم، و وصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية، و أرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع صاحب حمص و دخل عكا، فاستدعى الفرنجة على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم و وعدهم بجزء من مصر و كان أعطاهم الشقيف فخرجت الفرنجة بالفارس و الراجل، و اجتمعوا أيضا بصاحب حمص و عسكر دمشق و الكرك و لم يحضر الناصر داود ذلك، و التقى الفريقان بظاهر غزة فانهمز الفرنجة و ولى عسكر دمشق و صاحب حمص و الكركيون، و تبعهم عسكر مصر و الخوارزمية فقتلوا منهم خلقا عظيما. قيل: إن القتلى زادوا على الثمانمائة و إنه أسر من الفرنجة ثمانمائة. قال ابن أبي شامة: كسرت الفرنجة و من انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة في عسقلان و غزة و غنم منهم أموال عظيمة و أسر من الفرنجة خلق من ملوكهم و كبرائهم و قتل منهم مقتلة عظيمة.

و استولى الصالح أيوب صاحب مصر على غزة و السواحل و القدس ثم أرسل باقى عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ، و اجتمع إليه من بالشام من عسكر

خطط الشام، ج ٢، ص: ٩٩

مصر و الخوارزمية، و ساروا إلى دمشق و حاصروها و بها صاحبها الصالح إسماعيل و إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص و لما ضاق صاحب دمشق ذرعا بحصار صاحب مصر له سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة الى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه و بين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك.

و تسلم عسكر الملك الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل بن الملك العادل على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك و بصرى و السواد و تستقر حمص و ما هو مضاف إليها بيد صاحبها. ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل و فتحوا دمشق يحصل لهم من الإقطاعات ما يرضى خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح أيوب و صاروا مع الصالح إسماعيل، و انضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك و ساروا إلى دمشق و حاصروها فقاسى أهلها شدة عظيمة. قال الذهبي: و اشتد البلاء بدمشق و احترقت العقيبية و الخوانيق، و دام الحصار و الويل خمسة أشهر، و هلك العوام موتا و جوعا، و قل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح ألفا و ستمائة درهم و أبيع الخبز كل أوقيتين بدرهم، و أكلوا الميتة و أبيع الأملاك و الأمتعة بالشيء اليسير، و أبيع رطل اللحم بتسعة دراهم، و أنتن البلد بالموتى على الطرق، و عظم الخطب و أولئك يقاتلون على الملك، و الخمور الفاحشة مضمنة بالبلد و المكوس شديدة.

و قال غيره: و قطعت الخوارزمية على الناس الطرق و زحفوا إلى البلد من كل ناحية و رموا النيران في قصر حجاج و ضربوا بالمناجيق و كان يوما عظيما، و بعث الصالح إسماعيل الزرايين فأحرقوا جوسق العادل و زقاق الرمان إلى العقيبية بأسرها، و نهبت أموال الناس و احترق بعضها. و زاد سبط ابن الجوزى:

أنه أحرق قصر حجاج و الشاغور و استولى الحريق على مساجد و خانات و دور عظيمة، ثم نصبت على دمشق المناجيق و رميت به من بابى الجابية و الصغير، و نصبت مناجيق أيضا من داخل البلد، و ترامى الفريقان و أمر بتخريب عمارة العقيبية خارج باب الفراديس و باب السلامة و باب الفرج و أحرق حكر السماق و خارج باب النصر. و أرسل الصالح إسماعيل فأحرق جوسق والده العادل.

قال المؤرخون: و جرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جدا لم يتم عليها مثلها قط.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٠

و فى هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية و انتزعوها من صاحب حمص و فى سنة (٦٤٢) اجتمعت الفرنجة من بلاد

الشقيف و بلاد عامل و قصدوا وادى التيم فجمع الأمير عامر الشهابى عساكره و فرسان عشيرته و نهض لملتقاهم، و استنجد بالأمير عبد الله المعنى فجمع أهالى الشوف و سار لنجدة الأمير عامر، و التقى الجمعان فى مرج الخيام و صدمتهم الفرنج و دام القتال ثلاثة أيام، و هلك من الفريقين خلق كثير و فى اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن و آل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم و ولوا مدبرين، عظمت بعد ذلك إمارة الأمير عامر و اشتهرت صولته و أخذ قطاع فى البقاع و أنشأ فيها مغارات عديدة.

و فى سنة (٦٤٤) اتفق الحلبيون و المنصور صاحب حمص و صاروا مع الصالح أيوب و قصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق و ساروا نحو الحلبين و صاحب حمص، و التقوا على بحيرة قدس فانهمزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، و مضت طائفة من الخوارزمية إلى التتر و صاروا معهم و انقطع منهم جماعة و تفرقوا فى الشام و خدموا به. و رحل حسام الدين الهذبانى بمن عنده من العسكر بدمشق، و نازل بعلبك و بها أولاد الصالح إسماعيل و حاصرها و تسلمها بالأمان، و حمل أولاد الصالح إسماعيل الى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، و كذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فاعتقل، فلم يبق فى دمشق و عملها من يدفع عنها، فأرسل صاحب مصر عسكرا مع يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى فخر الدين على بلاده و حاصر الكرك و خرب ضياعها و ضعف الناصر و لم يبق بيده غير الكرك، و صادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا.

و فتح (٦٤٥) ابن الشيخ قلعتى عسقلان و طبرية بعد محاصرتهما مدة و كان عمرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة (٦٤١). و سلم الأشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبين لثلا يحصل الطمع للصالح فى ملك باقى الشام. و فى سنة (٦٤٦) أرسل الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لولو الأرمنى فحاصروا الأشرف بحمص فسلمهم إياها، خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠١

و تعوض عنها بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر و الرحبة. و لما بلغ ذلك الصالح أيوب شق عليه و سار من مصر إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبين و نصب عسكره عليها منجنيقا مغربا يرمى بحجر زنته مائة و أربعون رطلا بالشامى مع عدة منجنيقات آخر، ثم رحل عنها لمرض عرض له، و لوصول الفرنج إلى دمياط و لمجىء رسول الخليفة و السعى فى الصلح بين الصالح أيوب و الحلبين و أن تستقر حمص بيد الحلبين. ثم استولى الصالح أيوب على الكرك أعطاه مفاتيحها الأمد فو به خمسين ألف دينار.

وفاة الملك الصالح و مبدأ دولة المماليك:

توفى الملك الصالح أيوب فى سنة (٦٤٧) و كان ملك مصر و القسم الأعظم من الشام. و صنفه أبو الفداء بأنه كان مهيبا على الهمة عفيفا شديد الوقار و الصمت جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، و رتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه دعوا بالبحرية لأنهم كانوا ينزلون فى ثكنات لهم فى جزيرة الروضة على البحر بحر النيل و كانوا أول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من الناس و ألفوا دولة المماليك البحرية. مات الملك الصالح و لم يوص بالملك إلى أحد فأحضرت شجرة الدر، و هى جارية الملك الصالح، فخر الدين بن الطواشى و جمال الدين محسنا و عرفتهما بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفا من الفرنج، و جمعت شجرة الدر الأمراء و قالت لهم: السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، فجاء و تسلم ملك مصر إلا أنه مدته لم تطل أكثر من شهرين و أياما، فقتله المماليك البحرية الذين أنشأهم والده، و كان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار سلطانا فيما بعد و لقب بالملك الظاهر، و السبب فى قتله أنه اطرح جانب أمراء أبيه و مماليكه و اعتمد على بطانته التى وصلت معه من حصن كيفا و كانوا أراذل. و أقام رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك فى المملكة و خطب لها على المنابر و ضربت السكة باسمها، و أرسل المصريون رسولا- إلى من بدمشق من الأمراء فى موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، و كاتب الأمراء القيمرية الناصر يوسف صاحب حلب فسار إليهم و ملك

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٢

دمشق و عصت عليه بعلبك و عجلون و شميميس مدة ثم سلمت جميعها إليه، و لما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية و على كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ثم اتفق كبراء الدولة على إقامة شخص من بنى أيوب في السلطنة فسلطنوا الملك الأشرف موسى بن يوسف. و كان بغزة جماعة من عسكر مصر فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا إلى الصالحية و اتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك و خطبوا له بالصالحية، و لما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر و نادوا أن المملكة للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة و لأبيك التركمانى بقيادة الجيش، و رحل فارس الدين أقطاي الصالحى مقدم البحرية متوجها من مصر إلى غزة و معه تقدير ألفى فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الناصر بين يديه.

و بعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر و الشام، و كاد الإجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الأمر عنهم بالمرء، و هذا ما حدا ببعض بقايا الأيوبيين في الشام إلى أن يجمعوا شملهم و يسيروا إلى مصر للمطالبة بسلطنتهم و سلطنة آبائهم. فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من عاصمته و صحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل و الأشرف موسى تورانشاه و أخوه نصره الدين و الأمجد حسن و الظاهر شاذى أبناء الناصر داود بن المعظم و تقى الدين عباس بن العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم، و التقى العسكران المصرى و الشامى بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر، و لما انكسر المصريون تبعتهم العساكر الشامية و لم يشكوا فى النصر، بقى الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركمانى بمن معه عليه، فولى الناصر منهزما طالبا الشام و أسر معظم أهل بيته من الملوك و استقر الصلح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام و بين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن و للناصر ما وراء ذلك، و كان نجم الدين الباذرائى رسول الخلافة هو الذى حضر من جهة الخليفة و أصلح بينهم على ذلك و رجع كل منهم إلى مقره.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٣

ثم اغتال المعز أيبك المستولى على مصر خوشداه أقطاي الجمدار، فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، و كان الفارس أقطاي يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، و كان الاسم للأشرف موسى فلما قتل أقطاي استقل المعز بالسلطنة و أبطل الأشرف موسى منها بالكليّة، و بعث به إلى عماته. و الأشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى مصر.

و لما وصلت البحرية إلى الناصر يوسف صاحب الشام أطمعوه فى ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر و نزل الغور و أرسل إلى غزة عسكرا ففتلوا بها و برز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، و مشى نجم الدين الباذرائى فى الصلح بين المصريين و الشاميين و اتفقت الحال أن يكون للناصر الشام جميعه الى العريش و يكون الحد بين الورداء و العريش، و قتلت شجرة الدر المعز أيبك التركمانى الصالحى، و كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ثم تزوج بها، و كان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته فى الحمام، و نصبوا نور الدين على بن المعز أيبك و لقبوه الملك المنصور سلطانا على مصر و الشام.

و نقل إلى الناصر يوسف صاحب دمشق أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش منهم و تقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا إلى غزة، فأرسل عسكرا فى أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر و نالوا منه. ثم إن عسكر الناصر بعد الكبس كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء و إلى زعر ملتجئين إلى المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالا جليلة و أطمعوه فى ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه. و سارت البحرية إلى جهة مصر و خرجت عساكر مصر لقتالهم، و التقى المصريون مع البحرية و عسكر المغيث، فانهزم عسكر المغيث و البحرية، و فيهم يببرس البندقدارى إلى جهة الكرك. و كان المغيث خيم بغزة و جمع الجموع و معه البحرية و خرجت عساكر مصر مع ممالك المعز أيبك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث و من معه فولى منهزما إلى الكرك فى

أسوأ حال.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٤

هولاكو التتري

و بينا كان آخر ملوك الشام و مصر من بنى أيوب يتنازعون مع المماليك البحرية و قد خرجت مصر عن حكم الأيوبيين، و كانت دخلت فى حكمهم أولا فأسسوا هناك بنيانها و لما انهيار البناء كانت البنية الأولى أول ما هدمت و بقيت بعدها الأطراف و هى الشام و ما إليها مدة قليلة جاء هولاكو التتري (٦٥٦) و استولى على بغداد و قتل الخليفة المستعصم بالله و قرض الخلافة العباسية، ثم أخذ التتري يتقدمون إلى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد و صحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظى بتحف و تقادم (هدايا) إلى هولاكو ملك التتري، و صانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتري، و كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين و بين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق و مقدمهم مجير الدين بن أبى زكري مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف و أسر مجير الدين، و قوى أمر البحرية بعد هذه الكسرة و أكثروا العيث و الفساد، و سار الناصر يوسف، و قد عرف ما تم على جنده، و معه صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، و أقام على بركة زيزاء محاصرا للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته البحرية، فقبض المغيث على من عنده من البحرية، و علم ذلك فى الحال ركن الدين بيبرس البندقدارى فهرب فى جماعة من البحرية، و وصل بهم إلى الناصر يوسف فأحسن إليهم، و قبض المغيث على من بقى عنده من البحرية و أرسلهم إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، و استقر الصلح بين الناصر و بين المغيث صاحب الكرك.

و قدم هولاكو (٦٥٧) إلى شرقى الفرات و نازل حران و ملكها و استولى على الديار الجزرية و أرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب و كان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائبا عن ابن أخيه الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم و خرج المعظم و لم يكن من رأيه الخروج إليهم، و أكن لهم التتري فى باب الله فتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتري قدامهم حتى خرجوا عن البلد. ثم عادوا عليهم و هرب المسلمون طالبيين المدينة و التتري يقتلون فيهم، اختنق فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتري إلى عزاز فتسلموها

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٥

بالأمان، و لما بلغ الناصر يوسف قصد التتري حلب برز من دمشق (٦٥٨) إلى برزة و جفل الناس بين أيدي التتري، و سار من حماة إلى دمشق المنصور صاحب حماة و نزل معه ببرزة و كان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقدارى فاجتمع عند الناصر ببرزة أمم عظيمة من العساكر و الجفال، و بلغ الناصر أن جماعة من ممالিকে قد عزموا على اغتياله و الفتك به فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق، و بلغ ممالিকে الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا إلى جهة غزة، و كذلك سار بيبرس البندقدارى إلى غزة و أشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الناصر إنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه و يسلطوا أخاه الظاهر غازى، و لما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفا من أخيه الناصر فوصل إلى غزة و اجتمع عليه من بها من العساكر و أقاموا سلطانا، و كاتب بيبرس البندقدارى المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان و وعده الوعود ففارق بيبرس الشاميين و سار إلى مصر فى جماعة من أصحابه.

و سبب استيلاء التتري على حلب أن هولاكو عبر الفرات بجموعه و نازل حلب و أرسل إلى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل و نحن قصدنا الناصر و العساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة و بالقلعة شحنة، و نتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على الإسلام كانت البلاد لنا، و تكونون قد حققتم دماء المسلمين، و إن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين، إن شئتم طردتموهما و إن شئتم قتلتموهما، فلم يجب المعظم إلى ذلك و قال: ليس لكم عندنا إلا السيف. فتعجب هولاكو من هذا الجواب و تألم، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك.

و أحاط التتر بحلب و قتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون و دار نجم الدين أخى مردكين و دار البازيار و دار علم الدين قيصر و خانقاه زين الدين الصوفى و كنيسة اليهود و ذلك لفرمانات كانت بأيديهم. و قيل أنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس. و نازل التتر القلعة و حاصروها و بها المعظم و من التجأ إليها من العسكر و استمر الحصار عليها و مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان، و أمر هولاءكو أن يمضى كل من سلم إلى داره و أن لا يعارض و جعل النائب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٦

بحلب عماد الدين القزوينى.

قال ابن العديم: و احترز نواب حلب و جمعوا أهل الأطراف و الحواضر و اجتمعوا كلهم داخل البلد، و كانت حلب فى غاية الحصانة و القوة لأسوارها المحكمة البناء و قلعتها العظيمة، و لم يكن فى ظن أحد أنها تؤخذ بسرعة قال:

و خرج العوام و السوق و اجتمعوا كلهم بجبل بانقوسا و وصل جمع التتر إلى أسفل الجبل، و كمنوا على القرية المعروفة ببابلا ثم كر التتر منهزمين ثم رجعوا و قتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند و العوام. و قتل هولاءكو فى حلب أكثر ممن قتل فى بغداد. و قال ابن تغرى بردى: إن هولاءكو حاصر حلب ستة أيام ثم أوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد، و وصل إلى هولاءكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم فأكرمه و أعاد عليه حمص، ثم رحل هولاءكو إلى حارم و طلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والى قلعة حلب فأحضره هولاءكو و سلموها إليه، فغضب هولاءكو من ذلك و أمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم و سبى النساء، ثم رحل هولاءكو إلى الشرق و جعل مكان عماد الدين القزوينى بحلب رجلا أعجميا و أمر هولاءكو بخراب أسوار قلعة حلب و أسوار المدينة فخربت عن آخرها و أمر الأشرف موسى صاحب حمص بإخراب سور قلعة حماة فخربت و أحرقت زردخانتها، و لم تخرب أسوار المدينة لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية بذل لخسرو شاه نائب هولاءكو فى حلب جملة كثيرة من المال و قال: الفرنج قريب منا فى حصن الأكراد و متى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها، فأخذ منه المال و لم يتعرض لخراب الأسوار و كان قد أمر هولاءكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنها بلده، و أما دمشق فإن نائب هولاءكو قدم إلى أهلها بالفرمان و الأمان فتلقاه كبراء المدينة و أنفذت مفاتيح دمشق إلى هولاءكو. قال سبط ابن الجوزى: و كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتر فهرب كثير من الدمشقيين و باعوا أصلهم و خرجوا على وجوههم متفرقين فى البرارى و الجبال و الحصون، و صادف ذلك أيام الشتاء و قوة البرد فمات كثير منهم و نهب آخرون. و قال القلقشندى فى كلامه على البيت الهولاءكوهى:

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٧

و لو تمكنوا من دمشق لمحو آثارها و أنسوا أخبارها، و أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به.

و لم يتعرض عسكر هولاءكو الى قتل و لا نهب و عصت قلعة دمشق عليه فحاصرها التتر، و جرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، ثم تسلموا القلعة بالأمان و نهبوا جميع ما فيها، و جدوا فى خراب أسوار القلعة و إعدام ما بها من الزردخانات و الآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك و نزلوا قلعتها و أخذوا نابلس بالسيف و تسلموا قلعة عجلون و استولوا على قلاع الصلت و عجلون و صرخد و بصرى و الصبيبة و هدموها و وقعوا على العرب عند زيزاء و حسابان فهزموهم، و غنموا أولادهم و نساءهم و أنعامهم و استاقوا الجميع، و هرب سلطان تلك الأرجاء الناصر يوسف بن محمد إلى البرارى فساقوا خلفه و أخذوه ثم قتلوه. و استولى التتر من أرض الفرنج على صيدا و نهبوا و أسروا منها ثلاثمائة أسير. و عاشوا فى حوران و نابلس و بلغت غاراتهم غزاة و بيت جبريل و الخليل و الصلت و ما إليها و جاءوا بالأسرى إلى دمشق فممنهم من افتدى نفسه و منهم من هرب.

و ظل التتر يتنقلون فى الشام حتى فتحوه إلى غزاة و استقرت شحائهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من

دمشق في عسكره إلى الديار المصرية و في صحبته المنصور صاحب حماة، فلما رأى كبراء حماة تخلى ملكهم عنهم توجهوا إلى حلب و معهم مفاتيح بلدهم و حملوها إلى هولاء و طلبوا منه الأمان لأهل حماة و شحنة تكون عندهم فأمنهم هولاء و أرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميا اسمه خسرو شاه فقدم حماة و أمن الرعية.

و استولى التتر (٦٥٨) على ميفارقين بعد أن حاصروها سنتين حتى فنت أزوادهم و فنى أهلها بالبواب و القتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر ابن العادل أبي بكر بن أيوب و حملوا رأسه على رمح و طافوا به في الأرجاء فمروا بحلب و حماة و دمشق بالمغانى و الطبول و علقوه في شبكة بسور باب الفراديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين.

قال الذهبي: إن نصارى دمشق شمخت أثناء مجيء هولاء إلى البلاد و رفعوا الصليب في البلد و ألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، و نقضوا العهد

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٨

و صاحوا: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. فلما انتصر المسلمون على هولاء على عين جالوت بين بيسان و نابلس و قتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر إلى دمشق في الليل فوقع النهب و القتل في النصارى و أحرقت كنيستهم العظمى. و قال أبو الفداء: إن النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس و إدخال الخمر إلى الجامع. قال في المذيل: إن النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتر و تردد ايل شبان و غيره من كبارهم إلى كنائسهم، و ذهب بعضهم إلى هولاء و جاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم و توجه في حقهم، و دخلوا به البلد من باب توما و صلبانهم مرتفعة و هم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الإسلام، و يرشون الخمر على الناس بأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك هم عظيم، فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها و يخربون ما استطاعوا فيها و خربوا كنيسة اليعاقبة و أخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوما و الحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، و قتل منهم جماعة و اختفى الباقون و جرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين، ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى اه.

اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر هربا من التتر، فلما انتظمت أحوالهم و استجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، و سار معه صاحب حماة المنصور و أخوه الأفضل على حتى التقى مع التتر في الغور، و كان كتبغا نائب هولاء على الشام و معه صاحب الصبيبة الملك السعيد فانهزم التتر هزيمة قبيحة على عين الجالوت و قتل مقدمهم كتبغا و استؤسر ابنه و تفرقوا في الأرجاء و منهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون، و جرد قطز ركن الدين بيبرس في أثرهم فتبعهم إلى أطراف الأصقاع الشرقية، و كان في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص ففارقهم و طلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، و أقره على ما بيده و هو حمص و مضافاتها، و أسرا صاحب الصبيبة و ضربت عنقه، و أقر المنصور على حماة و بارين و المعرة و أخذ منه سلمية و أعطاها أمير العرب، و دخل دمشق فتضاعف شكر المسلمين على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يئست من النصره على التتر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٠٩

لاستيلائهم على معظم ديار الإسلام، و لأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه، و ما تواقعوا مع عسكر إلا هزموه. قال ابن أبي شامة: و من العجائب أن التتر كسروا و أهلكوا بأبناء جنسهم من الترك و قيل في ذلك:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركى وجود بنفسه

بالشام أهلكهم و بدد شملهم و لكل شيء آفة من جنسه

و قد رتب المظفر قطز شمس الدين أقوش البرلى أميرا بالسواحل و غزة و جهز عسكرا إلى حلب لحفظها، و فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي و نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل و لما استقر

هذا في نيابة حلب سار سيره رديئه و كان دأبه التحيل على أخذ مال الرعيه.

مقتل المظفر قطز و سلطنة الظاهر بيبرس و أحداث:

سار الملك المظفر قطز إلى مصر بعد أن ظفر بالتر ورد فلهم إلى الشرق و كان اتفق بيبرس البندقدارى و بعض أعيان الدولة على قتله، فساروا معه و قتلوه في القصير و تسلطن بيبرس البندقدارى و تلقب بالملك الظاهر، و دخل مصر ففتحت له و استقرت قدمه في المملكة. و لما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتل قطز و سلطنة الظاهر جمع الناس و حلفهم لنفسه بالسلطنة، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه، و لم يتأخر عنه أحد و لقب نفسه الملك المجاهد و خطب له بالسلطنة و ضربت السكة باسمه و كاتب المنصور صاحب حماه في ذلك فلم يجبه و قال صاحب حماه: أنا مع من يملك الديار المصريه كائنا من كان. أما السعيد نائب السلطنة بحلب فحمله أمراؤها إلى الشغر و بكاس معتقلا لما اندفع العسكر الحلبي من بين أيدي التتر على البيرة، و قدموا عليهم حسام الدين الجوكندار العزيزي. ثم سار التتر إلى حلب و ملكوها و أخرجوا أهلها إلى قريبا شرقي حلب، فأفنا غالبهم بالسيف، و استولوا على اعزاز و خربوا قلعته، و استولوا على حارم و قتلوا أهلها عن آخرهم و سبوا النساء، و ملكوا حلب و أعمالها نحو أربعة أشهر. و قارب التتر حماه فخرج منها صاحبها و باقى العسكر و اجتمعوا بحمص مع سائر الأجناد فوقع بين التتر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٠

و عساكر المسلمين مصاف في حمص، و كان التتر أكثر من المسلمين فانهمز التتر و هاموا على وجوههم إلى أفاميه و منها إلى الشرق، و منهم من دخل في خدمه المسلمين. و جهز الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكرا إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولى على دمشق، فخرج هذا لقتالهم فانهمز إلى جهه بعلبك فتبعه العسكر و قبضوا عليه و حمل إلى الديار المصريه فاعتقل ثم أطلق و استقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، و أقيمت له الخطبه بها و بحلب و حمص و غيرها، ثم استقر أيدي البندقدارى الصالحى في دمشق لتدبير أمورها. و فى سنه (٦٦٠) وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطى و قبض على علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب السلطنة بدمشق و قبض حواصله، و كان طيبرس قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم و الترسيم عليهم و إخراج عيالهم و إهانتهم، و ضيق على الناس و خوفهم من التتر.

و لما بلغ هولاء-كو و هو فى بلاد العجم كسر عسكره بعين جالوت و قتل نائبه كتبغا ثم كسر عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك و أحضر الناصر ابن أيوب و أخاه الظاهر غازى و كانا فى أسره و قال للناصر: أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك فغدرت بى و قتلت المغول فقال الناصر: لو كنت فى الشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف و من يكون ببلاد توريث كيف يحكم على بلاد الشام؟ فضربه هولاءكو. فقال الناصر: يا خوند الصنيعه، فنهاه أخوه الظاهر و قال: قد حضرت ثم رماه فقتله. ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الناصر و الصالح ابن صاحب حمص و الجماعه الذين كانوا معهم و استبقوا العزيز بن الناصر لأنه كان صغيرا. و كان الملك الناصر يوسف هو آخر من ملك دمشق من بنى أيوب. قبض عليه لما دخل دمشق جيش هولاءكو فجهز و ولده و أخوه و معهم جماعه من أعيان أهل دمشق إلى مخيم هولاءكو فأمر بقتلهم.

و الملك الناصر هو صاحب حلب تملك حران و الزها و الرقه و رأس عين

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١١

و حمص و دمشق و بعلبك و الأغوار و السواحل إلى غزه، و عظم شأنه و كسر عساكر مصر و خطب له بمصر و كان قد غلب على الديار المصريه لو لا هزيمته و قتل مدبره شمس الدين لولو الأرمنى و مخامرة مماليك أبيه العزيزيه.

و كان الناصر حليما و تجاوز به الحلم إلى حد أضرب بالمملكه فكان إذا حضر إليه القاتل عفا عنه و قال: الحى أفضل من الميت. فانتشرت اللصوصيه و أصبح المسافر فى أيامه من دمشق إلى حماه و غيرها لا يقدر على السفر إلا برفقه من العسكر، و كثر طمع

العرب و التركمان في أيامه.

و بقتل الناصر و الظاهر قلّ الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب و ضعفت عصبيتهم و أنصارهم من الأكراد و غيرهم، و كان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين غدوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بيض أياديهم و بيد السفاك هولاكو و جماعة من التتر. و كان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني عباس مع الأتراك أدخلوهم في خدمتهم و أحسنوا إليهم و رفعوا منزلتهم و ولوهم الأعمال، فما كان منهم إلا أن نقضوا بنيان تلك الدولة و فتحوا السبيل لعدوها يستبيح حماها و يستصفي أرضها.

و لم يشيع المغول بما سفكوا من الدماء، و عادوا سنة (٦٥٩) إلى حلب فانهمز جميع أهل القرى و المدن فتقدم قائدهم أن يخرج أهل القرى و المدن إلى ظاهر البلد و يبقى أهل كل مدينة و قرية بمعزل بحيث يعدونهم و يسيرون كل قوم إلى مكانهم و موطنهم، و يسلمهم المغول كأنهم يسيرون إلى ضياعهم و عند ما يبعدون يقولون لهم: أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمت من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم و لم يفلت منهم غير أهل حلب لأنهم لم ينتقلوا عنها.

حروب الظاهر و فتوحه:

و كان الملك الظاهر صاحب مصر و الشام بين عاملين في خلال هذه المدة.

عامل دفع المغول و عامل دفع الصليبيين، و الغالب أنه ترجح عنده معاناة الثاني فأفلح فيه. و قد جهز سنة (٦٥٩) من مصر بدر الدين الأيدمرى فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة إلى حلب (٦٦٠) و كان مقدمهم

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٢

شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب و عادت إلى الصلاح بعد إفساد المغول فيها، ثم أوعز إلى صاحب حماة و صاحب حمص و سنقر الرومي أن يسيروا إلى أنطاكية للإغارة عليها، فساروا إليها و نهبوا و لم يتيسر لهم فتحها.

و قبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طبرس الوزيري و كان ردىء السيرة في أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، و قتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بتهمة أنه كتب إلى التتر يطعمهم في ملك مصر و الشام و قيل: لأنه أكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية و أرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، و هرب الظاهر و بقيت امرأته في الكرك، فانتقم الظاهر منه بأن أسلمه إلى زوجته في قلعة الجبل بمصر و أمرت جواريتها فقتلته بالقباقيب.

و في سنة (٦٦١) أرسل الظاهر و هو نازل على الطور عسكريا هدموا كنيسة الناصرة و أغاروا على عكا فغنموا و عادوا، ثم ركب الظاهر بنفسه و أغار ثانية على عكا و هدم برجاً كان خارج البلد. و أغار صاحب سبيس على العمق و المعرة و سرمين و الفوعة. و مات هذه السنة الملك الأشرف صاحب حمص و كان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم، و أولهم شيركوه بن شاذى. و كانت بقيت في أيدي الإسماعيلية إلى آخر سنة (٦٦٢) ثمان قلاع بالشام و هى الكهف و العليقة و القدموس و الخوابى و المينقة و مصياف و الرصافة و القليعة. و روى ابن ميسر أن التتر لما ملكوا الشام سلموا إليهم أربع قلاع، فلما كسرهم قطز عادت الأربع قلاع إليهم فتسلمها رئيسهم و قتل أصحابه الذين سلموها للتتر قال: و كان الضرر على المسلمين و ملوكهم منذ خرج ابن صباح و إلى سنة بضع و عشرين و ستمائة عظيماً. و قد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة و الأمير ادوارد من أمراء انكلترا.

و في سنة (٦٦٣) سار الملك الظاهر من مصر و نازل قيسارية و ضايقها و فتحها من الفرنج و أمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف و نازلها و فتحها و فتح القليعات (٦٦٤) و حلباً و عرقه و نزل على صفد و ضايقها و فتحها ثم قتل أهلها عن آخرهم. و جهز عسكرياً ضخماً من دمشق و قدم عليهم المنصور صاحب حماة و أمرهم بالمسير إلى عمالة الأرمن فانهمزوا و أسر ابنان لصاحبهم و امتلأت

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٣

أيدي العسكر الإسلامى من الغنائم. و عند ما توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة سبيس أصدر أمره لما

نزل على قارا بين دمشق و حمص بنهب أهلها و قتل كبارهم فنهوا و قتل منهم جماعة، و كانوا نصارى يسرقون المسلمين و يبيعونهم خفية من الفرنج. و أخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك فى الديار المصرية فصار منهم أجناد و أمراء. و شنّ الظاهر الغارة على الفرنج (٦٦٥) من أطرافهم و استدعى بالمجانيق من دمشق. و فى سنة (٦٦٦) توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر إلى الشام ففتح يافا من الفرنج و هدمها و قلعها و ملكك الباشورة بالسيف و عوض أهل القلعة أربعين ألف درهم، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنزل تحتها فى وادى العواميد و حاصرها فلم يقدر على أخذها، ثم صعد إلى أعلاها و كشف ماءها و بعد هزيع من الليل ذبح فى قناتها عدة من الغنم و البقر و قطع كروشها و رماها فيها، فلما أصبحوا وجدوا ماءهم منتنا و هو دم عبيط فسلموها بعد حصار عشرة أيام، و وجد بها أربعمائه و ثمانين رجلا فأرسلهم إلى الفرنج فى صور، و رتب عليها قوما من جماعته و بنى برجا على باب القلعة.

ثم أغار الظاهر على طرابلس فقطع أشجارها و غور أنهارها و ضرب أربعاً و عشرين من قراها، فانهاالت عليه المردة من الجبال فذهب إلى حصن الأكراد، و من هناك زحف على أنطاكية فنازلها بغته، و بعد حصار أربعة أيام ملكها بالسيف فقتل أهلها و أحرق كنائسها و غنم منها أموالا كثيرة، و أحصى من قتل بأنطاكية هذه المرة فكانوا نيفا و أربعين ألفاً، ثم أطلق من كان بها من الأسرى، و فى رواية أنه قتل من حماها بين ١٦ و ١٧ ألف صليبي و أخذ مئة ألف أسير و أحرقها و قلعها، و نال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر، و خرج جماعة من أهلها يطلبون الأمان و شرطوا شروطا لم يجب الظاهر إليها و زحف عليها فملكها. و كانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند و له معها طرابلس، و لما فتحت أنطاكية هرب أهل بغراس منها و تركوا الحصن خاليا فأرسل الظاهر و استولى عليه.

و وقع الصلح بين الظاهر و هيتوم صاحب سيس الأرمنى على أنه إذا أحضر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٤

صاحب سيس سنقر الأشقر من التتر، و كانوا أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو، و سلم مع ذلك بهسنى و دربساك و مرزبان و رعبان و شيخ الحديد يطلق له ابنه ليفون الذى كان فى أسر الملك الظاهر، فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى و دخل صاحب سيس على أبغا ملك التتر و طلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه، و تسلم الظاهر بلاطوس من عز الدين عثمان صاحب صهيون، و أغار (٦٦٨) على عكا و تسلم حصن مصياف من الإسماعيلية و فتح من حصونهم الكهف و القدموس و المنيقة و العليقة و أمر عليهم حسن بن المشغرانى، و فرض عليه أن يرفع إليه فى كل عام مئة ألف درهم. و نازل السلطان (٦٦٩) حصن الأكراد فملكه بالأمان و ملك حصن عكار بعد حصاره له بالأمان، فتذلل له صاحب طرابلس و بذل له ما أراد و هادنه عشر سنين و تسلم حصن القرين بالأمان و هدمه. و أغار التتر على عينتاب و على الزوج و قسطون إلى قرب أفامية ثم عادوا. فاستدعى الظاهر عسكرا من مصر و توجه بهم إلى حلب و نازل التتر على البيرة و أراد عبور الفرات إلى بر البيرة و نصبوا عليها المجانيق و ضايقوها فقاتله التتر على المخاضة فاقتم الفرات و هزم التتر فرحلوا عن البيرة. و شنّ الغارة (٦٦٩) بفرقة من العسكر و معه ولده الملك السعيد بفرقة أخرى على جبل و اللاذقية و المرقب و عرقه و القليعات و حلبا و صافيتا و المجدل و أنطربوس. و فى سنة (٦٧٣) توجه السلطان إلى ديار الأرمن و دخلها بعساكره المتوافرة و غنموا ثم عادوا إلى دمشق. و عاد التتر (٦٧٤) و نازلوا البيرة فتوجه الظاهر إليهم و بلغه رحيلهم و هو بالقטיפه فآتم السير إلى حلب و عاد التتر (٦٧٥) فزحفوا على الشام و خرج إليهم الظاهر و قاتلهم فكسرهم و قتل منهم خلائق و تبعهم إلى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل إنه قتل فيها من الفريقين نحو مئة ألف إنسان. ثم سار إلى قيسارية و استولى عليها و وصل إلى عمق حارم فدمشق.

وفاء الملك الظاهر و سلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون:

توفى الملك الظاهر (٦٧٦) بعد أن بطش البطشة الكبرى بالصليبيين فى الشام، و دفع عاديه المغول عنه ما أمكن، و غزا الأرمن الذين

أصبحوا يبدون

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٥

لدولته نواجد الشر، فخر بديارهم و أباد خضراءهم و غضراءهم. و كان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا وصل إلى الملك بقتل آخر ملوك بني أيوب، و ما زال يتدرج في مراتب القوة حتى ملك الديار المصرية و الشامية و فتح الفتوح الجليلة. أصله مملوك قبجاقى الجنس و قيل برجلى و كان ذا هممة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا- و هو بينهم، و لولا- أنه جد في قتال الصليبيين لما كُفر عما أتاه من قتل ابن أيوب، و بنو أيوب أحبهم الناس على علاقتهم لغناء أكثرهم في خدمة الملة و الدولة.

ترجم سويرنهايم في المعلمة الإسلامية للظاهر بيبرس بقوله: إنه كان السبب بتوسيد ملك الشام إلى قطن لما أبلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطن الأمراء من بني أيوب الإقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول، و لكن بيبرس الذى كان يرجو أن توسد إليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئا فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم، فقتل السلطان فى الصيد و نادى به زعماء الجند و غيرهم سلطانا، و كانت المملكة المصرية و الشامية محاطة من كل جانب بالأعداء: فى الشمال ملك أرمينية المسيحي، و فى الغرب الصليبيون ينزلون على جميع شاطئ الشام، و فى الداخل الحشيشية « (الإسماعيلية) الأشداء، و من الشرق المغول الطامعون فى الغنائم و الانتقام، و فى جنوبى مصر أهل النوبة المجاريون، و فى الغرب البربر الصعب قيادهم، و كان يخشى أن ينجم له ناجم فى الداخل من بني أيوب و يسمو إلى السلطنة، فيجد على دعوته أنصارا على أيسر وجه، فرأى أن يبايع لأحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد أن قرضها المغول من بغداد، فتوفق إلى ذلك و بايع له فى مصر، لأن من مصلحته أن يظهر أمام العالم الإسلامى بأنه حامى الخلافة، و بذلك أصبح له نفوذ على حكومات مكة و المدينة، و عرف كيف يدارى معظم أمراء الفرنج الشرقيين.

هادن الظاهر الاستبار بحصن الأكراد و المرقب سنة خمس و ستين و ستمائة لمدة عشر سنين متواليه و عشرة أشهر و عشرة أيام و عشر ساعات على أن يكون النصف من غلات قرى جميع المملكة الحمصية و الشيزرية و الحموية و بلاد الدعوة للملك الظاهر، و النصف لبيت الاستبار. و استقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس أيضا و بين ملكة بيروت فى سنة سبع و ستين و ستمائة

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٦

حين كانت بيدها لمدة عشر سنين متواليه على أن يكون جميع المترددين من بلاد المملكة إلى بلاد الظاهر و بالعكس آمنين مطمئنين على نفوسهم و أموالهم و بضائعهم برا و بحرا ليلا و نهارا، و على أن المملكة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من قصد مملكة السلطان من جهة بيروت و ما إليها، و تمنع من ذلك و تدفع كل متطرق بسوء و تكون الأقاليم من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين. و عقدت هدنة بين الظاهر و ولده الملك السعيد و بين الفرنج الاستبارية على قلعة لُد فى سنة تسع و ستين و ستمائة على أن تكون قلعة لُد و الجهات المذكورة إلى آخر الزائد للملك الظاهر و لا يكون لبيت الاستبار و لا لأحد من الفرنجة فيها تعلق و لا طلب بوجه و لا سبب.

و عقدت محالفات مع الملك ما نفر يدى هوهانستوفن، ثم عقدت محالفه مع شارل دانجو و جاك داراغون و الفونس دى كاستيل، و عقدت معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومى الذى طرد الصليبيين، و كانت له صلوات حسنة مع ملوك السلاجقة فى آسيا الصغرى و مع صاحب اليمن. ثم إن الظاهر رأى فى الصليبيين أشد الأعداء خطرا على المملكة و استفاد من تفرق كلمتهم و كان المدد الذى يأتيهم من أوروبا قد ضعف، و كان فى موت شارل التاسع إنقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج، و هكذا فإن الظاهر ظل ظافرا بجميع أعدائه، و لم يتوقف عن شىء لبلوغ غايته، و كثيرا ما كان يعد و عودا كاذبة و يكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له، و كان نجاحه مناط قريحته فى التنظيم و سرعته و شجاعته المتناهية، و كان البريد يدور و يروح فى المملكة بسرعة حتى ليصل الخبر من مصر للشام فى ثلاثة أيام و كان أسعد سلطانا من سلاطين المماليك و أقدرهم. و روى شمس الدين سامى أن السلطنة الإسلامية صارت ذات بهاء فى أيامه و أنه مات مسموما بدمشق.

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس و لقبه الملك السعيد و جعله ولي عهده إلا أنه خبط و خلط و أراد تقديم الأصاغر على الأمراء الأكابر ففسدت نيات الكبار عليه و قرروا خلعه من السلطنة، بعد أن دخل سيس (٦٧٧) و شن الغارة عليها و غنم، فحصره العسكر فى قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على أن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك فلقق بها و هلك بعد قليل.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٧

و اتفق الأمراء لما خلع الملك السعيد نفسه على إقامة بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس فى المملكة، و لقبوه العادل، و عمره إذ ذاك سبع سنين و شهور، ثم خلعه و أجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحى.

و لما اضطرب أمر المملكة استأثر بالشام سنقر الأشقر الذى كان الظاهر اشترط على صاحب سيس أن يتوسط لدى ملك التتر لإطلاقه من الأسر ففعل، و نسى سنقر هذه اليد للظاهر، و جلس على سرير السلطنة بدمشق و حلف له الأمراء و العسكر و تلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر، فجهز المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر، فبرز سنقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، و التقى الفريقان فولى الشاميون و سنقر منهزمين، فجعل الأمير لاجين المنصورى نائب السلطنة بالشام، و هرب سنقر الأشقر إلى الرجة و كاتب أبغا بن هولكو ملك التتر و أطعمه فى هذه الديار، و كان عيسى بن مهنا ملك العرب فى الشام مع سنقر الأشقر و قاتل معه و كتب بذلك إلى أبغا أيضا، موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرجة إلى صهيون و استولى عليها و على برزیه و بلاطنس و الشغر و بكاس و عكار و شيرز و أفامية و صارت هذه القلاع له.

و أحرق (٦٧٧) عسكر الشام عمالة الغرب و جبيل و بيروت و ذلك أن قطب الدين السعد بعد أن استقطع قرية كفر عمية من أمراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولا- فاتهم بقتله نجم الدين بن جحى و كان أبوه و ذو قرابته معتقلين فى مصر فتوجهت اليه العساكر و العشران من ولاية بعلبك و البقاع و صيدا و بيروت و أحرقت قراه، و تفرق التتوخيون أيدى سبا إلى أن أمنهم الملك فرجعوا إلى مساقط رؤوسهم.

و جاء التتر إلى حلب (٦٧٩) فعاثوا و قتلوا من كان بظاھرھا و ملكوا ضياعھا و نهوا و سبوا و أحرقوا الجامع و المدارس المعتبرة و دور السلطنة و الأمراء و أقاموا بها يومين و عادوا من حيث أتوا، فهب الملك المنصور قلاوون إلى غزة لدفعهم فرحلوا قبل أن يوافيهم، قال ابن أبى الحديد: و كانت للتتر نهضات و سرايا كثيرة إلى الشام، قتلوا و نهوا و سبوا فيها حتى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها و صانعهم عنها أهلها و سلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كى خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قضة و قضيبه و جيشه و لفيفه،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٨

و استكثر من الأكراد العتمرية من عساكر الشام و جند حلب فيقال إنه اجتمع مائة ألف فارس و راجل فلقية التتر فى عشرين ألفا، فجرت بينه و بينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته، و كانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب و هم أنجاد أبطال فقتلوا عن آخرهم و انكسر العسكر الرومى، و هرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكية فاعتصم بها، و تمزقت جموعه و قتل منهم عدد لا يحصى.

و استأذن نائب السلطنة بحصن الأكراد فى الإغارة على المرقب لما اعتمد أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب فأذن له السلطان فى ذلك، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين و نزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة. و ترددت الرسل بين السلطان و سنقر الأشقر، و احتاج السلطان لمصالحته لقوة التتر و تفاديا من الاشتغال بالعدو الداخلى و العدو الخارجى، و وقع بينهما الصلح على أن يسلم سنقر قلعة شيرز إلى السلطان و يتسلم سنقر الشغر و بكاس، و كانتا قد ارتجعتا منه و حلفا على ذلك و استقر الصلح بينهما، كما استقر الصلح بين المنصور قلاوون و بين خضر بن الظاهر بيبرس صاحب الكرك.

و بعد أن استقر الصلح بين الأميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف العظيم (٦٨٠) بين المسلمين و بين التتر بظاهر حمص، فجمع قلاوون العساكر من مصر و الشام و من جملةهم عسكر سنقر الأشقر، و جاء الأمراء كلهم فى جيوشهم، و كان التتر فى ثمانين ألف

فارس و في رواية مائة ألف منهم خمسون ألفا من المغول و الباقي حشود و جموع من أجناس مختلفة مثل الكرج و الأرمن و العجم و غيرهم، و المسلمون في خمسين ألفا فانهمز التتر و تبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون. و عقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتر كليام ديباجون مقدم بيت الداوية بعكا و الساحل و بين جميع الإخوة الداوية بأنطربوس لمدة عشر سنين، لا ينال بلاده و لا بلاد ولده و لا حصونهما و لا قلاعهما و لا ضياعهما و لا عساكرهما و لا عربهما و لا تركمانهما و لا أكرادهما و لا رعاياهما على اختلاف الأجناس ضرر و لا سوء و لا غارة و لا تعرض و لا أذية.

و سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبهة بشرى (٦٨١) و حاصروا إهدن

خطط الشام، ج ٢، ص: ١١٩

حصارا شديدا و بعد أربعين يوما ملكوها فنهبوا و قتلوا و سبوا و هدموا القلعة التي في وسط القرية و الحصن الذي على رأس الجبل، و فتحوا بقوفا و قضاوا على أكابرها و هدموها و ضربوا حصرون و كفر حارون و خربوا حدث البشرى و بنوا برجا قبالة المغارة و وضعوا فيه عسكرا يكمنون للعصاة و هدموا جميع الأماكن العاصية و ملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لأنها داخله الشير. و توجهت العساكر أيضا إلى أرض الأرمن فخرت فيها و سبت عقوبة لهم عما أتوه من معاونة المغول على المسلمين.

و قصد المغول دمشق في سنة (٦٨٣) ثم ذهبوا إلى وادي التيم فأحرقوها و سبوا أهلها و قتلوا منهم سبعمائة نفس و ملكوها و فتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد أن نقب جنده حصنها بسرعة، و كان هذا الحصن للاستبار فنزل أهله بالأمان. في هذه السنة عقد الملك المنصور و ولي عهده الملك الصالح و ولده الأشرف صلاح الدين هدنة مع دام مرغريت بنت سير هنرى ابن الابرنسى مالكة صور جاء في كتابها و ليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا، و عثليث و صيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سورا لا قلعة و لا برجا و لا حصنا قديما و لا مستجدا، و على أن شوانى مولانا السلطان و شوانى ولده إذا عمرت و خرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، و إذا قصدت الشوانى المذكورة جهة غير هذه الجهات و كان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها الهدنة و لا تتزود منها، و إن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشوانى معاهدا للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها و تتزود منها، و إن انكسر شيء من هذه الشوانى و العياد بالله في مينا من الموانى التي انعقدت الهدنة عليها و سواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا أو مع من له عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا و مقدمى البيوت بحفظها و تمكين رجالها من الزوادة و إصلاح ما انكسر منها و العود إلى بلاد إسلامية و يبطل حركة ما انكسر منها أو يرميه في البحر، فإن لم يكن للذى تقصده الشوانى معهم عهد و انكسرت فلها أن تتزود و تعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة و توجه إلى الجهة المرسوم بقصدها و يعتمد هذا الفصل من الجهتين. و فتح

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٠

حصن الكرك (٦٨٥) بالأمان و جهز عسكرا كثيفا من العساكر المصرية و الشامية إلى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الأشقر بالأمان. ثم سار جيش السلطان إلى اللاذقية، و كان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته، فركب طريقا إليها في البحر بالحجارة و حاصروا البرج و تسلموه بالأمان و هدموه و فتح طرابلس (٦٨٨)، و كان البحر يحيط بغالب أطراف هذه المدينة و لا تقايل إلا من جهة الشرق، و لما نازلها نصب عدة منجنيقات كبيرة و صغيرة و ألح عليها بالحصار ففتحها بالسيف، و دخلها العسكر عنوة بعد حصار ٣٣ يوما، فهرب أهلها إلى المينا و ركبوا في المراكب و قتل غالب رجالها و سبيت ذراريهم، و غنم منهم المسلمون غنيمه عظيمة، و أمر السلطان فهدمت طرابلس و دكت إلى الأرض. و كان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة و فيها كنيسة تسمى كنيسة سنطامس و بينها و بين طرابلس المينا، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة و إلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج و النساء، فاقتمح العسكر الإسلامي البحر و عبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال و غنموا من بها من النساء و الصغار- نقلت معظم هذا من تاريخ أبى الفداء، و يقول ميشو: إن المسلمين لما استعادوا طرابلس أهلوكوا ساكنيها من الصليبيين إلا قليلا و أمر

السلطان بإحراق المدينة وهدمها و كان فيها مصادر الثروة و الرخاء و كل ما يزهر به السلام و يستخدم في الدفاع زمن الحرب فخرّب كل ذلك تحت الفأس و المطرقة قال: لما أنزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة (١٣٦٦ م) و استولوا على طرابلس أوقدوا النار فيها و كان حظ طرطوس و اللاذقية و عدة مدن فينيقية مثل ذلك.

و لما فتحت طرابلس كتب محيي الدين بن عبد الظاهر كتابا يصف هذا الفتح قال فيه: إن الحصار استمر من مستهل ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفا يقتحم كل هضبة و وهدة، و كل صلبه و صلده، و طلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها. و كان أخذها من مائة سنة و ثمانين سنة في يوم الثلاثاء و استردت في يوم الثلاثاء (و في رسالة أخرى أنها قامت بيد الإفرنج مئة سنة و ستا و ثمانين سنة)

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢١

و قال مؤرخو لبنان: إن الكسروانيين و الجرديين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس و قتلوا من عسكر السلطان خلقا كثيرا فبرز الأمر من حسام الدين باستئصالهم. و من ذلك الوقت خربت كسروان و الذين سلموا من أهلها تشتتوا في كل صقع. قالوا: و من جملة أوامر حسام الدين إلى أمراء غرب بيروت التنوخيين إذا توجهوا إلى كسروان و جرده بجمعهما، أن كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية، أو صبيا كان له مملوكا، و من أحضر منهم رأس رجل فله دينار. و ذكروا أن الخراب استولى على الأقطار الشمالية بسبب تقلقل أحوال ملوك مصر و الشام، و الحروب الثائرة مع التتر من جهة و مع الفرنج من أخرى، فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك و قدم إلى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير و منهم أهل وادى التيم و خلا هذا الوادى من السكان خمسة أعوام و لم يكن فيه بلد عامرا سوى حاصبيا و كذلك البقاع. ثم عاد الناس و عمروا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط.

وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خليل و إتخانه في فرنج الساحل:

توفى المنصور قلاوون (٦٨٩هـ) و كان ملكا مهيبا حلما قليل سفك الدماء كثير العفو، شجاعا أقام منار العدل و أحسن سياسة الملك أحسن قيام و فتح الفتوح الجليله التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين و غيره على مثلها و هو الذي وطد حكم المماليك على الشام و أصلح كما في المعلمة الإسلامية بالتدريج ما أحدث المغول فيه من التخريب، و قام بأعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب و بعلبك و دمشق. و هو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك في أعقابهم و ألفوا دوله فإن أعقابه حكموا إلى سنة (٧٨٣ هـ ١٣٨٢ م) خمسة بطون. و قد عقد معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها و يمكن الانتفاع بحسن الصلات معها، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة و معاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتاله و جاك ملك صقلية. و عقدت هدنة بين الملك المنصور قلاوون الصالحى و ولده الملك الصالح على ولى عهده و بين حكام الفرنج بعكا و ما معها من بلاد سواحل الشام في شهر سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة و هى يومئذ بأيديهم لمدة عشر سنين و عشرة أشهر و عشرة أيام و عشر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٢

ساعات على أن لا- يكون للفرنج من البلاد و المناصفت إلا- ما شرح في هذه الهدنة و عين فيها من البلاد، و على أن الفرنج لا يجددون في غير عكا و عثليث و صيدا مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة و لا برج و لا حصنا و لا مستجدا. و مما جاء فيها أن شوانى السلطان و ولده إذا عمرت و خرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية و إن انكسر شىء من هذه الشوانى في مينا من موانى البلاد التي انعقدت عليها الهدنة و سواحلها فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا و مقدمى بيوتها عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا و مقدمى البيوت بحفظها و تمكين رجالها من الزوادة و إصلاح ما انكسر منها و العود إلى البلاد الإسلامية، و متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة و غيرهم من جوا البحر لقصده الحضور لمضرة السلطان و ولده في بلادهما المتفق عليها هذه الهدنة فيلزم نائب المملكة و المقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان و ولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه

الهدنة لمدة شهرين و إذا قصد البلاد الشامية عدو من التتر وغيرهم في البر و أغارت العساكر الإسلامية من قدام العدو و وصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة و قصدوها بمضرة فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا و المقدمين بها أن يدرأوا عن بيوتهم و رعيتهم و بلادهم بما تصل قدرتهم إليه. و إن حصل جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا و المقدمين بها حفظهم و الدفع عنهم و منع من يقصدهم بضرر و يكونون آمنين مطمئنين بما معهم.

و عقد الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية و دمشق و حلب مع الأشكري صاحب القسطنطينية سنة (٦٨٠) هدنة على أن لا يحارب أحدهما الآخر و يرعيا التجار في بلادهما. و كانت سفراؤه تغدو و تروح إلى أمبراطور بيزنطية و الأمبراطور رودولف دي هابسبورغ و ملك اليمن و أمير سيلان و غيرهم من أمراء الشرق. و لهذا السلطان آثار جليله في العمران في القدس و دمشق و غيرهما من ربوع الشام تدل على بعد نظره و حبه للمصالح.

و جلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الأشرف صلاح الدين خليل و سار على قدم أبيه في جهاد الصليبيين. و كان أول عمل اتجهت إليه همته بعد أن قدم تجار الفرنج إلى عكا و قتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) أن نهض خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٣

من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية و الشامية فهرب جماعة من أهلها من الفرنج في المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا في طرابلس على عهد والده و استنزل الأشرف جميع من عصى بالأبرجة التي كانت داخل البلد، و هي بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج و تحصنوا بها فاستنزلهم السلطان و أمر بضرب أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بالمدينة فهدمت إلى الأرض و دكها دكا. و كانت كما قال الذهبي من أحسن المدائن بالعمارة و البناء الفاخر فلما فتحها الأشرف و هدم سورها هرب أهل المدينة منها و صارت خرابا، و صار الناس من حيثئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة. و مما وجد مكتوبا على باب كنيسة من كنائس عكا أبيات لابن ضامر الضبع:

أم الكنائس إن تكن عبثت بكم أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطال ما سجدت على أبوابكم شم الأنوف ججاجح أبطال
صبرا على هذا المصاب فإنه يوم بيوم و الحروب سجال

و لما فتحت عكا رعب الفرنج في الساحل فأخذوا صيدا فأخربها السلطان و جزيرتها و قلعتها الجنوبية و الشمالية. و استولى على بيروت فهدم سورها و دك قلعتها و كانت حصينة جدا و استولى على صور و كان أهلها مثل سائر الساحل.

و كذلك عثيث و كانوا أوقدوا فيها النار. و سلمت أنطربوس بالأمان و طرد السلطان الفرنج من جبيل و هدمها و دك قلعتها. و هربوا من أنفة و البترون و صرند و إسكندرونه بالقرب من عكا و ذلك في مدة سبعة و أربعين يوما و كان فتحا مينا.

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الأخيرة و لكن استقلت الشام و نجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة و الأمة، و لا يؤخذ على الأشرف استنصاله شأفه أعدائه و إهلاكه لهم عن آخرهم، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين و فتح القدس أن يغادروا القطر جملة واحدة و ظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفا و أدرك كل من تولى زعامة الشام بعده أنه يستحيل الخلاص من الفرنج إلا بإفنائهم، و آخر الدواء الكى.

الحملة الصليبية السابعة و انتهاء الحروب الصليبية:

دخلت الجيوش الصليبية الشام سنة (٤٩١) و خرج منها آخر المنهزمين سنة

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٤

(٦٩٠) أي إنهم ظلوا مئتي سنة يحاربون الشام و مصر. تعاقبت فيهما عدة دول إسلامية على البلاد، و كلها حاربت هؤلاء الدخلاء بما

وسعها أن تحارب، وربما قتل من الفريقين خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن بضعة ملايين من الأنفس، و لو لم تنقطع الرغبات في الغرب و تبطل النجدات بل الحملات الكبرى التي أصبح البابوات و الملوك يوجهونها في جهات أخرى لقتال المسلمين لطال أمدها أكثر مما طال.

قلنا: إن الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الأمير فريديريك الثاني، و هي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر و الشام تنازل فيها هذا عن القدس و بيت لحم و الناصرة عشر سنين، فلما انتهت المدّة عادت القدس إلى المسلمين و عندها عمد سان لوى ملك فرنسا أن يسترجعه منهم، و كان السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة و الثامنة. جاء في الأولى إلى دمياط و انهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر و أسر هو و جميع من معه من الرجال و عدتهم ثلاثون ألفا، فاضطر أن يدفع فدية عظيمة عن نفسه و عن جماعته ثم عاد إلى فرنسا فزين له أخوه أن يغزو تونس و منها يذهب ليفتح مصر و الشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠ م) و بذلك انتهت الحروب الصليبية.

نشأت في فرنسا و انتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه.

و لقد عدّ الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية أنهم أوقفوا سير المسلمين عن التقدم، و تعلم ملايين منهم أمورا ما كانوا يحلمون بوجودها، و أخذوا عن الروم و العرب ما كان عندهم من أسباب المدينة التي لم يكن للفرنج عهد بها. فإن كثيرا من أصناف البقول نقلوها إلى أوروبا و شاعت هناك و لم تكن تعهد عندهم، و قد تعلم صناعة الورق رجلان إفرنسيان كانا أسيرين في دمشق، و أدخلوا صناعته إلى فرنسا، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل، و منها شاع صنعه في سائر ممالك الغرب، و تعلموا صنع الأقمشة الدمشقية و السيوف و غيرها من الصنائع الجميلة.

قال مكسيم پتي في تاريخ الشعوب العام أثناء كلامه على إخفاق الحملة الصليبية الأولى ما تعريبه: لئن كان الصليبيون متحمسين تحمسا دينيا فقد كان ينقص هذه الستمائة ألف رجل وحدة القيادة و التجانس و الامتراج،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٥

و ما كان لنواب البابا أدنى سلطة أديبة و لم تكن وحدة الغاية المراد بلوغها لتحول دون ظهور المطامع و المنافسات و الدسائس. و يضاف إلى هذا السبب في الضعف أسباب أخرى مادية و هي صعوبة الطريق و قلة أسباب التموين و تدنى القوى الحربية بسبب تفوق الجيوش في المدن المفتوحة أو رجوع بعض الصليبيين إلى الغرب إلى ما هنالك من قحط و أوبئة و خسائر في الحرب. و قال في الحملة الصليبية الثانية: إن قلة إيمان الكسيس و صعوبة التموين و قلة المؤنة جعلت الحملة شؤمى فقتل الثلاثمائة و الخمسون ألف رجل الذين كانت تتألف منهم قتلا ذريعا في مريوان و اركلي.

و مع كثرة ما بذله أخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين أمثال العادل و الكامل و بيبرس و قلاوون و ابنه صلاح الدين خليل، فإن الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر و تنصرف وجهه الصليبيين إلى قتال العرب في الأندلس. و في الحق أن تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون فقدت فيها أوروبا أكثر مما ربحت من الأنفس و الأموال. و ما يدرينا أن تتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال و تقضى على مملكة الروم البيزنطية ثم تتقدم في فتوحها إلى أوروبا لو لم يشغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين. و كانت الشام من جملة ممالك السلجوقيين و ربما تبعثها مصر ففتحها صلاح الدين أو غيره باسمهم بدلا من أن يفتحها باسم نور الدين، و ما نور الدين إلا صنيعه السلاجقة، و ما جده و أبوه إلا عاملان من عمالهم.

شغلت أوروبا بمسألة إنقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين قرنين، و تطوعت شعوبها في هذه السيل، و من الأمم من لم ينلها إلا قتل رجالها و ذهاب أموالها و كان الرابح على الأكثر أهل إيطاليا فإنهم حاربوا حربا تجارية ربحوا من سفنهم و تجارتهم و خصوصا البنادق و الجنويون و البيسيون. أما الألمان و البريطانيون و الفرنسيون و الهولنديون و السويسريون و النرويجيون فإنهم خسروا خسارة

كبيرة.

ساق الفرنج إلى الحروب الصليبية الدين و التجارة فلما فترت نعمة الدين بهلاك من كانوا يحسنون هناك الضرب على أوتارها، و لم ير التجار في هذا

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٦

الشرق ما يكفي لسد نهمتهم و أيقنوا أن الأمر يطول إذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الإسلامية في آسيا فترت همهم بالطبع، لكن الشام بعد ذلك و إن كانت الدول الأتابكية و النورية و الصلاحية و دولة بيبرس و قلاوون و ابنه يعمدون حالا إلى ترميم ما خربه الأعداء لإيقانهم أنها بلادهم و لا بدلهم من دفع أعدائهم عنها، و أنهم يسترجعونها لا محالة و سيدالون منهم، مهما طال مقام من استصفوا بعض السواحل و بيت المقدس فكان الأمر كما اعتقدوا.

و كلما طال احتلال الصليبيين كانت الأمة تستمرئ طعم الموت لطردهم، و كلما رأت من ملك أو أمير تغاضيا عنهم أو اتقاء عاديتهم بالمعاهدات و المهادنات كانت تستهين به و تدعو أن لا تدوم أيامه. و على ما بذل الصليبيون من استمالة جيرانهم ما عدّهم هؤلاء قط إلا غاصبين أرضهم، دخلاء على الملك الإسلامي.

و لو لم يؤسس الدولة في الشام و مصر ملك عاقل عادل مثل نور الدين و يتم عمله عاقل عادل من طرازه أى صلاح الدين لما تمّ الفتح الأخير على يد الأشرف خليل، و لما تمّ أخلافه بعده الخطّة المرسومة. و لو كان الملك لا يوسد إلا للكفأة من أبناء الملك أو لأكبرهم سنا، و لو لم يكن شجر الخلاف بين آل أيوب، لضرب الصليبيون الضربة القاضية الأخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر أو بعشرين سنة على الأكثر، إذ كان يتأتى للمسلمين أن يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء الصليبيين من النجيدات العظيمة في البحر. و لكن مات صلاح الدين قبل أن يطبق خطته، و شغل أخوه و أولاده بالتنازع على الملك، و عدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ عكا و استلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشجيع نفس كل طامع منهم بالملك و السلطان، و غفلوا عن أعدائهم الذين لم يكذب يغفل عنهم نور الدين و صلاح الدين سنة واحدة إلا ريثما يجمعان قواهما، و قد كانا لهذا الغرض يصانعان ملوك الأطراف ليسيروا معهما على قتال الأعداء، أما أخلافهم فكانت سياستهم في الأكثر موجهة إلى اختراع الطرق لقضاء بعضهم على بعض، أو لاستئثار قوتهم بملك مصر أو دمشق أو حلب أو الكرك و الشوبك أو ماردين أو خلاط، فشغلوا بداخيتهم أكثر من اشتغالهم بأمور الجهاد و هي أهمّ و أعظم، هذا و أكثر أولئك الملوك كانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالية و العلم و الأدب الغزير،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٧

و كانوا على معرفة تامّة بفتح المعادل و الحصون، و معرفة بعقل الحروب و قواعد السلم، و إعطاء العهد و عقد الهدنة و الصلح، و رثوا و اقتبسوها من أخلاق البانيين لمجدهم نور الدين و صنيعته صلاح الدين.

و مما أضر القضاء عشرات من السنين على بقايا الصليبيين في الساحل ظهور التتر في القطر بعد قضائهم في منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية، فأصبحت الشام بين عدوين أتى الأول من الغرب فأقام و طال مقامه، و جاءها الثاني من الشرق، و الشرقت يأتى من الشرق، فكان يخرب في أصقاعها و يغنم و يقتل ثم يذهب ثم يعاودها. و لكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم أخلاف هولاء في هذا القطر يعدّ مناوشات إذا قيس بالحروب و الخراب الذي حدث بعد ذلك فأهلك الأخضر و اليابس، و غدا القطر غرض النابل، و فريسة الصائل.

و في التاريخ العام أنه كان من نتائج الحروب الصليبية إذا صرف النظر عن هلك فيها من ملايين الخلق، إحداث إمارات كاثوليكية في الشرق انتزعت من المسلمين و البيزنطيين و احتلها فرسان فرنسيون و تجار طليان.

و قد طرد هؤلاء الأوروبيون لقتلهم بدون أن يتركوا سوى آثار معاقلمهم في الموانى و على صخور يونان و الشام، و لكن هيا الصليبيون

لنصارى أوروبا أن يكونوا على صلوات متصلة مع الشرق مدة قرنين اه قلنا: و هذه النتيجة من ربط الصلوات مع الشرق كان يتأتى لأوروبا الحصول عليها بدون إهراق هذه الدماء و إتلاف الأموال العظيمة و غرس البغضاء فى نفوس من نزلوا عليهم.

و فى تاريخ الشعوب العام أن من جملة فوائد الحروب الصليبية أنها أوقفت سير المسلمين نحو أوروبا، و قربت بين شعوب أوروبا و جمعتهم تحت لواء واحد و أشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية و ساعدت على إيجاد فكرة أوربية. و أخذ المسلمون و النصارى يعرف كل منهم الآخر و يعرفون كيف يحترم بعضهم بعضا، و عقدت بينهم المعاهدات و الصلوات خلال المهادنات و الانقطاع عن استعمال السلاح. و قد جهز ريشاردوس فئه من العرب جعلهم فرسانا، و عقد أنكحة بين الطائفتين و دخل التسامح المتبادل فى الأخلاق. و ما خلت الصناعات و الهندسة و الفنون و الأزياء و اللباس و الفنون الحزبية من تأثيرات الشرق و قد دخلت المدينة الشرقية فى مدينة الغرب دون أن تستغرقها أه.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٨

و فى تاريخ فلسطين أن من أضرار الحروب الصليبية فى الشام إيقاد جذوة التعصب الدينى بين المسلمين و المسيحيين، و رأى هؤلاء أن مسلمى العرب أحسنوا إليهم يوم الفتح أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم.

و منها تخريب البلدان و قطع الأشجار حتى زادت الأسعار سته أضعاف ما كانت عليه و منها تلطخ الدين المسيحى و الازدراء بتعاليمه، لأن مسيحيى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. و قد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية و راعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثى العهود و القاتلى الأسرى، و الذين أفحشوا فى سفك الدماء لما دخلوا القدس و حقروا الديانة المسيحية أه.

لا جرم أن الصليبيين افتضحوا فى هذا الشرق بأخلاقهم و قلة معرفتهم، و عرفوا بعد أن أخفقت الحملة الثامنة و اصطلموا من الساحل مبلغ قوة أعدائهم، و أنهم فى أرضهم، و هم يحتاجون إلى الرحيل أشهراً فى البر و فى البحر. و ذكر ميشو أن الفرنسيين و النور مانديين و سائر شعوب شمالى أوروبا المتوحشة فى القرن الثانى عشر للميلاد كانوا فى حالة البداوة و هذا ما ساعدهم على إعلان الحروب الصليبية فى الشرق، فلما نشأت المدينة الحديثة فى القرن السادس عشر و تسربت أولاً إلى الملوك أصبحوا لا يرون الاغتراب عن أوطانهم و لا الشعوب أن تفارق مساقط رؤوسها، و عمت الصناعات و حسنت الزراعة و انتشر العلم، و غدا ذكرى كل مدينة و كل أسرة و تقاليد كل شعب و قطر و الألقاب و الامتيازات و الحقوق المستحصلة و الأمل فى تنميتها، كل ذلك قد غير من أخلاق الفرنج و بدل من ميلهم لحياء التنقل و الارتحال و جعلها صلوات تربطهم بالوطن. و قد كتب التوفيق للملاحه فى القرن التالى و اكتشفت أميركا و اجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير فى التجارة، و أخذت الأفكار تتجه و جهة جديدة و أنشأت المضاربات الصناعية التى كانت قائمه بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا و الهند الشرقية، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى و أقطار غنية تسد مطامعهم و تشبع نهمه التائقين إلى المجد و الثروة و الوقائع. فأنست حوادث العالم الجديد ما فى الشرق من عجائب أه.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٢٩

هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم فى القرن الماضى، و إليك ما قاله أديب كبير من أدبائهم المحدثين كلود فارير: «فى سنة (٧٣٢) للميلاد حدثت فاجعه ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى القرون الوسطى، فغمرت العالم الغربى مدة سبعة أو ثمانية قرون إن لم نقل أكثر فى طبقه عميقه من التوحش، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة، و كاد عهد الإصلاح يعيدها إلى كثافتها الأولى، و هذه الفاجعه هى التى أريد أن أمقت حتى ذكرها، و أعنى بها الغلبة المكروهه التى ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابره المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجى شارل مارتل على كتائب العرب و البربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضى من الكثرة فانهمزوا راجعين أدراجهم».

«في ذلك اليوم المشؤم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء، و يكفى المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر و الخيال إشبيلية و غرناطة و قرطبة و طليطله ليشاهد و الألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام الصناعى الفلسفى السلمى المتسامح- و الإسلام مجموعة كل هذا- من الأهاويل التي لا- أسماء لها، و كان منها أن أتتج خراب غالبا القديمة التي استعبدتها أولا- لصوص أوسترازيا ثم اقتطع جزءا منها قرصان النورمانديين ثم تجزأت و تمزقت و غرقت فى دماء و دموع، و فرغت من الرجال بما انبعث فى أرجائها من الدعوة للحروب، ثم انتفخت بالجت بما دهمها من الحروب الخارجية و الأهلية الكثيرة، حدث ذلك على حين كان العالم الإسلامى من نهر الوادى الكبير إلى نهر السند يزهر كل الإزهار فى ظل السلام تحت أعلام أربع دولات سعيدة: الأموية و العباسية و السلجوقية و العثمانية»
خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٠

دولة المماليك «من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠»

فتوح أرمينية و عسيان المواردنة بعوامل صليبية:

أصبحت مصر و الشام بعد انقراض الصليبيين من السواحل، و وضع السيف فى بقاياهم، و اعتصام جزء قليل منهم بالمواردنة فى لبنان مملكة واحدة لا يتخللها أرض لغير مالكةا، و لا ينازعها سلطان من غير المسلمين، و أصبحت حوادثها و طنية محلية يدور محورها على الاستئثار بالملك، و الذهاب بفضل السبق، و التفكير فيما يدفع العوادى عن حدود القطر أو يوسعها إلى المدى المقدر لها، و بعد أن كانت الشام مصدر الأعمال و السياسة نازعتها مصر فى هذا الشأن، فابتلع القطر المصرى الشام و عده كما كان زمن الفاطميين جزءا متمما لمصر لا قطرا مستقلا بنفسه و سياسته. أى إن القوة أصبحت بعد عهد العادل تستمد فى الشام من مصر لأنها مقر السلطان، و مصر بين أقطار تحيط بها الصحارى من أطرافها، لا سبيل كل حين إلى غزوها كما تغزى الشام من أطرافها الأربعة، و ليس فى أمراء برقة و طرابلس و تونس و النوبة و السودان و الحبشان من يستطيع أن يغزو مصر و يحلم بفتحها، و لذلك كانت الشام بعد عهد الأمويين أشبه بإمارة سلطانها الأكبر فى مصر و يتولاها نائبه أو نوابه.

و لم يكتب للشام أن تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية و الصلاحية، و كان أهم عدو مجاور لها صاحب سيس، فإن الأرمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد أن قضت على سلطانهم الدولة الأيوبية، و انتزعت منهم خلاط أوائل
خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣١

القرن السابع، و كانت خلاط قاعدة أرمينية الوسطى أخذها بنو أيوب لمكانهم فيها من عصبية الأكراد، و هى قسم من أرمينية الكبرى و قاعدتها سيس، و قد ذهب الملك الأشرف سنة (٦٩١) فى عساكره المصرية و الشامية و قصد قلعة الروم و هى على جانب الفرات يقيم بها خليفة الأرمن كيتاغيكوس فأخذه و من معه أسرى، و رم ما تخرب من تلك القلعة الحصينة.

تقدم أن فرنج الساحل لما أصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان و نزلوا عليهم، و عاد آخرون إلى بلادهم فى المراكب، و قد أثار هذا القسم اللاجئ إلى لبنان فى نفوس بعض أهله فكرة العصيان فعصوا، فتوجست دولة الأشرف منهم خيفة فأرسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة بدر الدين بيدرا، فسار إلى جبل كسروان فى العسكر و عدة من الأمراء فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر فى تلك الجبال و نالوا منهم، و عاد العسكر شبه المكسور و حصل لأهل الجبل الطمع و القوة، فأطلق محاييس لهم بدمشق من أبواب الجرائم العظيمة، و حصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن فى حسابهم. قال مغلطاي: و كل ذلك من الطمع و سوء التدبير.

و فى كتاب الهدنة التى عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار

المصرية و البلاد الشامية بين حاكم الريدارغون صاحب برشلونه من بلاد الأندلس و أخويه دون و فلديريك و دون بيدرو و بين صهره دون شانجه ملك قشتالة و طليطلة و ليون و بلنسية و قرطبة و أشبيلية و مرسية و جيان و الغرب الكفيل بمملكته أرغون و برتقال دون ألفونس ملك برتغال في تاريخ (٦٩٢) أمر الملك دون حاكم و أخويه و صهره يفسح كل منهم لأهل بلاده و غيرهم من الفرنج أنهم يجلبون من الثغور الآسيوية الحديد و البياض و الخشب و غير ذلك. و أن سائر أصناف البضائع المتأخرة على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور. خطط الشام؛ ج ٢؛ ص ١٣١

جاء الأشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح و رضا السلطان عليهم، فرضى على أن يسلموا لنواب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٢

السلطان ثلاث قلاع و هي: بهسنى و مرعش و تل حمدون. و كانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند و باب حلب، فلما انتقلت من أيدي المسلمين إلى أيدي الأرمن وقت مجيء التتر كان منها على المسلمين أذى، فلما فتح السلطان قلعة الروم و أخذ خليفة الأرمن حصل للأرمن خوف عظيم فصانعوا عن أنفسهم بهذه القلاع. قال مغلطاى: و رسم السلطان في هذه السنة للأمير عز الدين الأفرم بأن يسافر إلى الشوبك و أن يخرب قلعتها فراجعها في إبقائها فنهره فسافر و أخربها و كان هذا غاية الخطأ و سوء التدبير فإن هذا الملك كان طالعه يقتضى الخراب فإنه أخرب في قلعة الجبل أكثر بنائها، و كذلك في قلعة دمشق أخرب قاعات كثيرة و بظاهر دمشق من حد الميدان إلى تحت القلعة، و كان على يده خراب جميع الساحل و تعطلت بلاده من جميع الأصناف التي تجلب من البحر و بقيت الشام معطلة. قلنا: و لكن هذا السلطان و أبوه دفعا الصليبيين عن القطر و اجتثا أصولهم و فروعهم و أدخلاه في عهدهما في دور عز و قوة و وحدة حقيقية.

و اتسعت مملكة قلاوون حتى خطب باسمه في إفريقية (تونس) قال ابن إياس:

و كان من أجل الملوك قدرا و أعظمهم نهيا و أمرا و أكثرهم معروفا و برا، و قد جبلت القلوب على محبته سرا و جهرا اه. و قد خلف آثارا مهمة و مصانع خالدة في مصر و بعض الشام تدل على ذوق و حسن هندسة، و تسلسل الملك في أولاده و أحفاده لأن الرعية كانت تحبه فأحبت آل بيته، و خفت وطأه المماليك في أيامه ثم عادت تدريجيا إلى القوة و العرامة.

اغتيال (٦٩٣) الأشرف صلاح الدين خليل بيد بعض أعيان الدولة بمصر و اتفق قاتلوه على سلطنة بيدرا و تلقب بالقاهر، ثم اتفق الحزب القوى منهم فبايعوا للناصر ولد المنصور ثم تغلب (٦٩٤) زين الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة، و استخلف الناس على ذلك و خطب له بمصر و الشام، و نقشت السكة باسمه و جعل الناصر في قلعة الجبل و حجب الناس عنه فترعزت أعصاب المملكة لهذه الحوادث المشثومة التي تورث النفوس كآبة و أعمال الناس فتورا.

و لما عاد العادل كتبغا من دمشق إلى مصر بالعساكر (٦٩٦) و وصل إلى نهر العوجا تفرقت ممالিকে و غيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٣

الملك العادل كتبغا و معه فريق من الأمراء فهرب كتبغا إلى دمشق و دخل قلعتها و اهتم في جمع العساكر و التأهب لقتال لاجين فلم يوافق عسكر دمشق و رأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة و أرسل إلى لاجين يطلب منه الأمان و موضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد. و أما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا نزل بدلهيزه على نهر العوجا و اجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك، و شرطوا عليه شروطا التزمها، منها أن لا ينفرد عنهم برأى و لا يسلط ممالিকে عليهم كما فعل بهم كتبغا. فأجابهم لاجين إلى ذلك و حلف لهم فعند ذلك حلفوا له و بايعوه بالسلطنة و لقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، و رحل بالعساكر إلى الديار المصرية، و أرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري و جعله نائب السلطنة بالشام.

و من أهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من أحفاد هولوكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد أن بذل له أهلها مالا عظيما.

ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر و الشام (٦٩٧) لشن الغارات على سبب فضافت على الأرمن الأرض بما رحبت و هلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم، و غنموا حتى اضطر ملكهم أن يبذل الطاعة لصاحب مصر و الشام، و الإجابة إلى ما يرسم به سلطان الإسلام، و إلى الاعتراف بأنه نائب السلطان في بلاده فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان حدا بين المسلمين و الأرمن، و أن يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون و المدن، فأجاب عظيمهم إلى ذلك و أخذ حموص و تل حمدون و سرفندكار و مرعش و حجر شغلان و غيرها من الحصون و القلاع. و في سنة ٦٩٧ أيضا وفد أحد مقدمي المغول إلى المنصور لاجين و طلب نجدة ليعود إلى الروم فجرد معهم من حلب عسكرا مقدمهم بكتمر الجلمى، و ساروا مع المقدم سلامش المغولي حتى تجاوزوا بلد سبب فخرجت عليهم التتر و اقتتلوا معهم، فقتل الجلمى و جماعة من العسكر الإسلامي و هرب الباقون.

و في سنة (٦٩٨) وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتر من إمساك الكبار و سقى بعضهم، و ذهب نائب دمشق قبجق بالعساكر فتزلوا بأرض حمص و هناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم، و أن

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٤

منكوتر لا يفتتر عنهم فاتفقوا على المسير إلى غازان ملك التتر لعلمهم بإسلامه فسارا إلى حمص و نزلا بخواصهما، فأخذا على ناحية سلمية و عديا الفرات فلم يكن بعد عشرة أيام من مسيرهم إلا و قد جاء البريد بقتل المنصور حسام الدين لاجين المنصوري و قتل منكوتر نائبه و علم الأمراء المخامرون بقتلهما، فاتفق رأى أرباب الدولة في مصر على إعادة الناصر محمد إلى مملكته فجاء به من الكرك و جلس على سرير سلطنته للمرة الثانية. و وصلت هذه السنة إلى بيروت مراكب كثيرة و هي ثلاثون بطسة و في كل واحدة سبعمائة مقاتل من الفرنج للطلوع إلى الساحل و الإغارة على ديار المسلمين فأصابتهم عاصفة أغرقت سفنهم و رجع الباقون خائبين.

وقائع التتر:

لم تكذ نازلة الصليبين تنحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين و التتر في سنة (٦٩٩) فسار غازان بن أرغون خان بن هولوكو بن تولى بن جنكير خان، بجموع عظيمة من التتر و الكرج و المزندة و غيرهم و عبر الفرات و وصل بجموعه إلى حلب ثم إلى حماة و نزل على وادي مجمع المروج، و سارت العساكر صحبة الناصر إلى جهة المجمع، و كان سلا و الجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الأمراء الطمع و لم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيرا مع سوء التدبير و نحو ذلك من الأمور الفاسدة التي أوجبت هزيمة العسكر. و التقوا بالقرب من مجمع المروج شرقي حمص فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة و ثبت القلب و أحاطت به التتر و جرى بينهم قتال عظيم و تأخر السلطان إلى جهة حمص، فولت العساكر الإسلامية بتدر الطريق و تمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر و انهزم السلطان إلى نحو بعلبك بعد أن تلاقى عسكر مصر و عسكر التتر على مرج راهط تحت جبل غباغب جنوبي دمشق و وقعت بينهما وقعة عظيمة. و كان مع العسكر المصري من العسكر الشامي و عربان من جبل نابلس نحو مائتي ألف إنسان في بعض الروايات و مع غازان مثل ذلك أو أكثر.

تتبع التتر المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق و استولوا عليها و نهبوا ضياعها و سبوا أهلها، و ساروا في أثر الجفّال إلى غزة

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٥

و القدس و الكرك. و لما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الأمان لأهلها و غيرهم منه. و كانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها و كان الأمير بها أرجواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام و صبر على الحصار و لم يسلمها- هذا ما قاله أبو

الفداء و ابن إياس. و وصف مغلطاي ما حلّ بدمشق و ضواحيها من التتر و ما جرى على العساكر المصرية و الشامية، و ما تمّ من تخريب الدور و المساكن بظاهر دمشق مثل الصالحيّة و الحواضر البرانية من العقبيّة و الشاغور و قصر حجاج و حكر السماق و قد خرب منها و استبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن قال: إنهم أسروا من الصالحيّة نحو أربعة آلاف نسمة و قتلوا نحو ثلاثمائة أو أربعمئة أكثرهم في التعذيب على المال. و دام التتر نحو أربعة أشهر. و كان عدد من دخلوا دمشق من التتر أربعة آلاف مقاتل. و قد احترقت أماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الأشرفية و ما قبلتها إلى العادلية الصغرى و العادلية الكبرى و أحرقت دار السعادة و كانت مقر نواب السلطنة و ما حولها، و احتاط التتر بهذه النواحي و الأماكن التي لم يصل إليها الحريق فنهب و نقضت أخشابها، و قلع ما فيها من الرخام و أخذ ما فيها من الأثاث، و كذلك فعل بجميع الصالحيّة.

و عقيب أن تمّ كل هذا الحيف جاء رسول التتر إلى دمشق بالأمان و مما شرطه في تقليده و كان مكتوبا بالعربية، أن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود و النصارى و الصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية. و قال صاحب التتر: إنه حارب حكام مصر و الشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء و لا ذمام، و شاع من شعارهم الحيف على الرعية، و مدّ الأيدي العادية إلى حريمهم و أموالهم، و التخطى عن جادة العدل و الإنصاف. قال مغلطاي: إنه حمل إلى خزانه غازان ثلاثة آلاف ألف دينار و ستمائة ألف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) و البراطيل و الاستخراج لغيره من الأمراء و الوزراء و غير ذلك.

و قال الصفدى: و إلى شيخ الشيوخ الذى نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة ألف درهم و إلى الأصيل بن نصير الدين الطوسى مائة ألف درهم.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٦

و لعلى الأوتارى الدمشقى فى هذه الموقعة من قصيدة:

أحسن الله يا دمشق عزاك فى مغانيك يا عماد البلاد

و برستاق نيرييك مع المزة مع رونق بذاك الوادى

و بأنس بقاسيون و ناس أصبحوا مغنما لأهل الفساد

طرقتهم حوادث الدهر بالقتل و نهب الأموال و الأولاد

و بنات محجبات عن الشمس تناءت بهن أيدي الأعداى

و قصور مشيدات تقضت فى ذراها الأيام كالأعياد

و بيوت فيها التلاوة و الذكر و عالى الحديث بالإسناد

حرقوها و خربوها و بادت بقضاء الإله رب العباد

و كذا شارع العقبيّة و القصر و شاغورها و ذاك النادى

أقام غازان بمرج الزنبيقية من ضواحي دمشق. ثم عاد إلى بلاده تبريز و قرر فى دمشق قبجق و لم يستفد إلا التخريب و قتل بعض جيشه و جيشى مصر و الشام، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر و خرج السلطان إلى الصالحيّة، ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية و مسير سلاور و بيرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام فسارا بالعساكر، و كان قبجق و بكتمر و الالبكى قد كاتبوا المسلمين فى الباطن و صاروا معهم، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق و من معه من دمشق و فارقوا التتر و ساروا إلى مصر، و بلغ التتر بدمشق ذلك فخافوا و ساروا من وقتهم إلى الشرق، و رتب جمال الدين أقوش الأفرم فى نيابة السلطنة بدمشق، و أقر سنقر فى نيابة السلطنة بحلب، و قطلوبك فى نيابة السلطنة بالساحل و الحصون، و الأمير كتبغا زين الدين المنصورى بحماة. و سار جمال الدين أقوش من دمشق و صحبته من الرجالة و الفلاحين جمع كثير إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت

أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين و أخذ عددهم، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة و قرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتمروا به و حملوه و أقطعت ديارهم و أراضيتهم.

و كان الأرمن لما وصل غازان بجموع المغول إلى الشام طمعوا في الأرجاء التي افتتحها المسلمون منهم و عجز المسلمون عن حفظها، فتركها الذين بها من

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٧

العسكر و الرجالة فاستولى الأرمن عليها، و لم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان، و استولى الأرمن على غيرها من الحصون و العمالات التي كانت جنوبي نهر جيحان، فجردت مصر و الشام عسكرا إلى سيبس و نهبت و خربت. و عاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكرا على الشام بدعوى أن عساكر صاحب مصر و الشام أغارت على ماردين و بلادها فطرت القطر على حين غفلة من أهلها و هتكوا المحارم فأثاء أهل ماردين و ما إليها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الإسلامية- و كان دان بالإسلام حديثا- فلاقى العسكر و فرق شملهم، و سبب رحيله المرة الأولى عن الشام أن الرعية تضررت بمقامه لكثرة جوشه و مشاركتهم الرعية في الشراب و الطعام، فرحل و ترك عندهم من يحرسهم من تعدى بعضهم على بعض و يحفظ الشام من أعدائه المتقدمين و أكراده المتمردين.

و لما عبر المغول الفرات في المرة الثانية جفل الناس منهم، و دخلوا حلب و عاثوا في أرجائها، و سار نائب السلطنة بحلب إلى حماة و وصلت العساكر من دمشق و اجتمعوا بظاهر حماة و أقام المغول بأرجاء سرمين و المعرة و تيزين و العمق و جبال أنطاكية و جبل السماق ينهبون و يقتلون، و سار السلطان من مصر بالعساكر المصرية و وصل إلى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الأمطار و الأوحال فرجع إلى مصر. و أقام المغول يتنقلون في الديار الحلبية نحو ثلاثة أشهر ثم عادوا إلى مواطنهم. و المغول هم و التتر شىء واحد و التتر صنف من أمم المغول. فقول المؤرخين المغول أو التتر من الألفاظ المترادفة تقريبا.

و في سنة (٧٠٢) فتحت جزيرة أرواد و هى ليعقوب الطرطوسى و كان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج و بنوا فيها سورا و تحصنوا و كانوا يطلعون منها و يقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل، فألقع أسطول من مصر فجرى بين الفرنج و المسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون و ملكوا الجزيرة و قتلوا و أسروا جميع أهلها و خربوا أسوارها، و كان القتلى نحو من ألفين و الأسرى نحو خمسمائة. و في هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا و بيروت، و رفعت الشكايات إلى نائب دمشق الأفرم في الجرديين

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٨

و الكسروانيين- و كانوا أعوانا للفرنج و الحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان- فحشدت جيوش الشام لمقاتلتهم، فحمل الكسروانيون على الجيش الشامى فقتلوا أكثره و غنموا أمتعتهم و سلاحهم، و أخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم و قدمت الأكراد لنجدتهم، فصددهم كمينان في الفدار و المدفور فلم يخلص منهم إلا القليل و خربوا بعض الغرب، و كان أمراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر و شليخ و عين زيتونة و بحطوش و غيرها. و يقول صالح بن يحيى: إن السبب في قتالهم أن الهاريين من وجه التتر من العسكر (٦٩٩) حصل لهم أذية من المفسدين و خصوصا من أهل كسروان و جزيين و أكثرهم أذية للهاريين أهل كسروان فإنهم بلغوا إلى أن أمسكوا بعضا منهم و باعوه للفرنج، و أما السلب و القتل فكان كثيرا إلى أن عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم.

و في هذه السنة عاودت التتر قصد الشام و ساروا إلى الفرات و أقاموا عليها مدة في أزوارها و سار منهم عشرة آلاف فارس، و كانوا كلهم نحو من خمسين ألفا عليهم خطلوشاه نائب غازان، و أغاروا على أحد أرجاء القريتين و كانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة أسندمر الكرجى نائب السلطنة بالساحل و معاونه عسكر حلب و حماة فاقتتلوا مع التتر في الكوم قريب من عرض بين تدمر و

الرصافة فانهزم التتر وقتلوا عن آخرهم، و كان المسلمون ألفا و خمسمائة فارس و التتر ثلاثة أضعافهم.

ثم سار التتر بجموعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم و وصلوا إلى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين أيديهم، و اجتمعت عساكر مصر و الشام بمرج الزنبيقية ثم ساروا إلى مرج الصفر لما قاربهم التتر و بقي العسكر منتظرين وصول الناصر، و سارت التتر إلى دمشق طالين العسكر و وصلوا إليهم عند شقحب بطرف مرج الصفر فالتقى الفريقان و اشتد القتال فانهزم التتر و لحق المسلمون أثر المنهزمين إلى القريتين يقتلون فيهم و يأسرون. و وصل التتر إلى الفرات و هو في قوة زيادته فلم يقدر على العبور و الذي عبر فيها هلك، فساروا على جانبها إلى بغداد فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات، و أخذ العرب منهم جماعة كثيرة و رجع غازان من حلب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٣٩

في ضيق صدر من كسرة أصحابه و تمزقهم لبعده المسافة و تخطف أهل الحصون لهم. قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتر مرة و كسرتهم تارة أخرى.

و جاءت ملوك المغل كالرمل كثرة و قد ملكت سهل البسيطة و الوعرا

فأنصفت الأيام في الحكم بينافكانت له الأولى و كانت لنا الأخرى

و قال شمس الدين السيطي:

يا مرج صفر بيضت الوجوه كما فعلت من قبل و الإسلام يؤتلف
أزهر روضك أزهى عند نفحته أم يانعات رؤوس فيك تقتطف
غدران أرضك قد أضحت لوارد هامزوجه بمياه المغل تغترف
دارت عليهم من الشجعان دائرة فما نجا سالم منهم و قد زحفوا
و نكسوا منهم الأعلام فانهزموا و نكصوهم على الأعلام فانقصفوا
ففي جماجمهم بيض الظبا زبرو في كلاكلمهم سمر القنا قصف
فروا من السيف ملعونين حيث سروا و قتلوا في البراري حيثما تقفوا
فما استقام لهم في (أعوج) نهج و لا أجارهم من (مانع) كنف

غزوة الأرمن و الكسروانيين و تززع السلطنة:

و لما ارتاح ذهن صاحب مصر و الشام من التتر عاد فجرد عسكرا من مصر و حماة و حلب (٧٠٣) و دخلوا سيبس و حاصروا تل حمدون و فتحوها بالأمان و ارتجعوها من الأرمن و هدموها إلى الأرض. و وقع الاتفاق مع صاحب سيبس على أن يكون للمسلمين من نهر جيحان إلى حلب و للأرمن حد النهر.

و كان من نتائج معارضة التتوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى إذا كانت سنة (٧٠٤) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجليلين و الكسروانيين الشريف زين الدين عدنان، يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التتوخية و يدخلوا في طاعتهم، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق، فأفتى العلماء حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان و إبانهم الدخول في الطاعة، و في الدر المنظوم أن أقوش فتح كسروان من جهتها الشمالية و لذلك دعيت فتوحا و قال آخر: إن الأفرم جمع رجال الدرروز (٧٠٦)

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٠

و كانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل و التقت الجموع عند عين صوفر و جرى بينهم قتال عظيم و كانت الدائرة على الأمراء فهربوا

بحرمهم و أولادهم و أموالهم و نحو ثلاثمائة نفس من رجالهم و اجتمعوا فى الغار غربى كسروان المعروف بغار تيبية فوق أنطلياس فدافعوا عن أنفسهم، و لم يقدر الجيش أن ينال منهم. ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سدا من الحجر و الكلس و هالوا عليه تلام من التراب و جعلوا قطلوبك حارسا عليهم مدة أربعين يوما حتى هلكوا داخل الغار، ثم أحاط العسكر بتلك الجبال و وطئوا أرضا لم يكن أهلها يظنون أن أحدا من خلق الله يصل إليها، فخرّبوا القرى و قطعوا الكروم و هدموا البيع و قتلوا و أسروا جميع من صادفوا من الدروز و الكسروانيين و غيرهم فذلت تلك الجبال المنيعه بعد عزتها.

و يقول مؤرخو لبنان: إن الأفرم فى هذه الحمله كان فى خمسين ألف فارس و راجل. و يقول أبو الفداء و ابن الوردي: إن هذه الحمله (٧٠٥) كانت على بلاد الظننين و غيرهم من المارقين عن الطاعة و كانوا يتخطفون المسلمين و يبيعونهم من أعدائهم و يقطعون الطرق. و فى تاريخ بيروت أن سيف الدين أسندمر نائب طرابلس كان نسب إلى مباطنة الكسروانيين فأفحش فيهم القتل لينفى عنه هذه التهمه اللاحقه به و أن الكسروانيين بادوا و تشتتوا و أقطع هذا النائب بعضهم أملاكا من حلقه طرابلس و جازى بعضهم بالرواتب. و فى سنه (٧٠٥) أرسل نائب السلطنه بحلب مع طشتمر مملوكه فى عسكر حلب للإغاره على سيسى أيضا، و كان ضعيف العقل قليل التدبير، ففرط فى حفظ العسكر و لم يكشف أخبار العدو و استهان بهم، فجمع صاحب سيسى جموعا كثيره من التتر و انضمت إليهم الأرمن و الفرنج و وصلوا على غره إلى طشتمر فالتقوا بالقرب من أياس فلم يكن للحليين قدرة بمن جاءهم فتولوا يتدرون الطريق. و تمكنت التتر و الأرمن منهم فقتلوا و أسروا غالبهم و اختفى من سلم فى تلك الجبال.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤١

و لم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمه شىء يستحق التدوين حتى سنه (٧٠٨) و قد خرج الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه إلى الحجاز، فلما وصل إلى الكرك أمر الأمراء الذين حضروا فى خدمته بالمسير إلى الديار المصريه و أعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيله إلى المقام بالكرك. و كان سبب ذلك استيلاء سلار و بيبرس الجاشنكير على المملكه و استبدادهما بالأمر، و تجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال و الأمر و النهى، و لم يتركا له غير الاسم فاشتور الأمراء فيما بينهم و اتفقوا على أن تكون السلطنه لبيبرس الجاشنكير، فجلس على سرير السلطنه على أن يكون سلار مستمرا على نيابتها.

و فى السنه التاليه سار جماعه من المماليك على حميه من الديار المصريه مفارقين طاعه بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر، و وصلوا إلى السلطان بالكرك و أعلموه بما الناس عليه من طاعته و محبته، فأعاد السلطان خطبته بالكرك و وصلت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه و أنهم باقون على طاعته، و كذلك وصلت إليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك إلى حمان، و عاد فرجع إلى الكرك و استمرت العساكر على طاعته و انحلت دوله بيبرس الجاشنكير و جاهره الناس بالخلاف بعد أن ساعفته الأيام، و لم يهتم أنه ستخونه الأقدار، و لا تظنى أن ما بناه على شفا جرف هار.

و لما تحقق الملك الناصر صدق طاعه العساكر الشاميه و بقاءهم على طاعته و ولائه عاود المسير الى دمشق فسار إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء، فأطاعه جند دمشق و جند حماه و الساحل، و طلب نائب السلطنه الأفرم الأمان فأمنه، و لما تكاملت العساكر الشاميه عند السلطان بدمشق سار إلى مصر و بلغ بيبرس الجاشنكير و نائبه ذلك فجردا عسكرا ضخما أقاموا فى الصالحية بطريق مصر.

و لما وصل السلطان إلى غزه قدم إلى طاعته عسكر مصر أولا فأولا ثم تتابعت الأطلاب و الكتائب، و بويح له بالسلطنه للمرة الثالثه، و لما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنه و طلب الأمان و أعطاه السلطان صهيون و مئه مملوك ثم قبض عليه و قتل، و كذلك فعل بسلا. و أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

و فى سنه (٧٠٩) وقعت فتنة فى حوران بين اليمنيه و القيسيه و حشدوا و بلغت

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٢

المقتله ألف نفس و كانت بقرب السويداء. و فى سنه (٧١٠) أقام السلطان ملكا على حماه إسماعيل بن على الملقب بأبى الفداء و هو

آخر من بقى من سلالة الملوك الأقدمين فى الشام. و لو لا حسن سياسة أبى الفداء ما وصل إلى هذا المنصب لأن الدور أصبح دور المماليك و الدخلاء و جميع مواطن النيابة أصبح فيها مماليك السلطان أو مماليك والده أو مماليك مماليك والده، و جميعهم مرتبون من الأبواب الشريفة. و لم يكن كل ملك أو قيل من هؤلاء الملوك و الأقبال حرا بمملكته كما زعم بعضهم، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك فى بلدان صغيرة من الشام أشبه بأصحاب إقطاعات لا يزالون فى حربهم و سلمت تحت أمر السلطان. و إذا شد فى الأحيان بعضهم و عدوا على سلطانهم فإنهم لم يخرجوا عن كونهم ولاء أو عمالا خرجوا على السلطان ليس إلا.

الغزوات فى الشمال و ظهور دعوة جديدة:

و فى سنة (٧١١) قصد قراسنقر كبير الأمراء فى حلب أمير العرب مهنا بن عيسى و كان على مسيرة يومين من حلب يستنصره، و كان فى ثمانمائة مملوك على الملك و كان يريد أن يبطش به. فركب مهنا فيمن أطاعه من أهله، و استنفر من العرب نحو خمسة و عشرين ألفا، و قصدوا حلب و أحرقوا باب قلعتها و تغلبوا عليها، و استخلصوا منها مال قراسنقر و من بقى من أهله و لم يتعدوا إلى سوى ذلك و دخلت سنة (٧١٥) فأرسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام و مصر إلى ملطية ففتحوها، و سبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدى على أبناء السيل و من جاورها من سكان القلاع، و أن المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى إنهم زوجوا النصرانى بالمسلمة، و ثبت أنهم كانوا يطلعون التتر و الأرمن على أخبار المسلمين، ثم رجع الجيش إلى مرج دابق قرب حلب، و ترددت الرسل إلى صاحب سيس الأرمنى فى إعادة ما فى جنوبى جيحان من البلدان و زيادة القطيعة أى الإتاوة، فجعلها نحو ألف ألف درهم. و صدر أمر السلطان بأن لا تكون بحماة لحماية لدعوة الإسماعيلية أهل مصيف، بل يتساوون مع رعية حماة فى أداء الحقوق و الضرائب الديوانية و غير ذلك.

و أغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتر و العرب على التراكمين

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٣

و العرب النازلين قريب تدمر و نهبهم و وصل فى إغارته إلى قرب البيضاء بين القريتين و تدمر و عاد بما غنمه إلى الشرق. و جهز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب و غيرهم من التركمان و العربان و الطماعه ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا إلى آمد و نهبوا أهلها المسلمين و النصارى و بالغوا فى النهب الحرام فخلت آمد من أهلها.

و ظهر فى جبال بلاطنس من عمل اللاذقية رجل من النصيرية و ادعى أنه محمد بن الحسن العسكرى ثانى عشر الأئمة عند الإمامية، و قيل: زعم تارة أنه المهدي المنتظر، و أخرى أنه على بن أبى طالب، و طورا أنه محمد المصطفى و أن الأمة كفره. فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف، و هجم مدينة جبله و الناس فى صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبله، و جرد إليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه و هرب و اختفى فى تلك الجبال فقتل و قتل و باد جمعه و لم يعد لهم ذكر، بعد أن قتل مائة و عشرون رجلا من رجاله.

و فى سنة (٧٢٠) تقدمت مراسيم السلطان بإغارة العساكر على سيس فسار الجند الشامى من الساحل و دمشق و حماة و حلب فنازلوا قلعتها حتى بلغوا السور، و غنموا منها و أتلفوا الزراعات و ساقوا المواشى و نهبوا و خربوا.

و سار جمع عظيم من العساكر الشامية و العرب فى أثر آل عيسى، و كانت منازلهم فى سلمية، حتى وصلوا إلى الرحبة فعانته فهرب آل عيسى إلى ما وراء الكيسيات، و أقام السلطان موضع مهنا محمد بن أبى بكر، ثم رضى السلطان (٧٢٢) على الأمير فضل بن عيسى و أقره على إمرة العرب موضع محمد بن أبى بكر أمير آل عيسى. و جردت بعض العساكر المصرية و الشامية و الساحلية إلى سيس و نازلوا اياس فهربت الأرمن منها و أخلوها و ألقوا النار فيها فملكها المسلمون، و خربوا ما قدروا على هدمه و عاد كل عسكر إلى بلده. و هدأت الأحوال فى هذه الحقبة و لم يحدث سوى أمور طفيفه مثل قدوم مراكب فرنج جنوبية (٧٣٤) إلى بيروت، قاتلوا أهلها يومين

و دخلوا البرج و أخذوا الأعلام السلطانية و المراكب. و كان السلطان يعتقل بعض الخوارج عليه أو من يرى في سيرهم ما يدعو إلى الشبهة ثم يطلقهم و ينعم عليهم، و ربما آخر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٤

إهلاك من يخافهم على السلطنة مثل تنكر نائب الشام عشر سنين ثم قتله، و كان قتل خلقا فارتاحت الناس، و ما كانت أفكار السلطنة موجهة إلا إلى قتال الأرمن، فكانوا يغزون كل مرة و آخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥)، و كان الأرمن ملكوا مدينة سيس و طردوا من كان بها من المسلمين فخربوا في أذنه و طرسوس و أحرقوا الزروع و استاقوا المواشى و غنموا و أسروا و ما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر، و كان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم، فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار و غيرهم و حبسهم في خان ثم أحرقوه و قلّ من نجا، فعلموا ذلك بنحو ألفي رجل من التجار و البغاددة و غيرهم. و بعد مدة سار العسكر من مصر و الشام بقيادة ملك الأمراء بحلب علاء الدين الطنبغا إلى بلاد الأرمن (٧٣٧) و نزلوا على مينا اياس و حاصروها ثلاثة أيام، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق و معه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا المدن و القلاع التي شرقي نهر جيحان، فتسلموا ذلك منهم و هو ملك كبير و مدن كثيرة كالمصيصة و كوبرا و الهارونية و سرفندكار و اياس و باناس و نجيمة و النقيير و غير ذلك، فخرّب المسلمون برج اياس الذي في البحر. قال ابن الوردي: و هذا فتح اشتمل على فتوح، و ترك ملك الأرمن جسدا بلا روح.

و في سنة (٧٤٠) وقع حريق بقيسارية القواسين و الكفتين و سوق الخيل من دمشق دام يومين لباليها فعدم فيها نحو خمسة و ثلاثين ألف قوس و عدم الناس أموالا عظيمة منها للتجارة ما مبلغه ألف ألف و ستمائة ألف دينار و خربت أماكن كثيرة فوعدت التهمة على بعض كتاب النصارى و أقروا أن اثنين قدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية و معابدها و قدما نفسيهما على ذلك و أنهما يعلمان صناعة النفط فقتل أحد عشر رجلا- و أنكر صاحب مصر على نائب دمشق تنكر قتل النصارى قائلا إن ذلك إغراء لأهل القسطنطينية.

سياسة المماليك مع أكبر عمالهم و وفاة الناصر و تولي المنصور:

كانت حكومة المماليك تكثر من نصب الولاة و عزلهم و لا سيما في دمشق فتولى في كل وقت نائبا جديدا و ربما في كل شهر، و لم تطل مدة واحد من

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٥

الولاة كما طالت نيابة تنكر فإن ولايته دامت من سنة (٧١٢) إلى (٧٤٠) قال الكتبي: و هابه الأمراء بدمشق و نواب الشام و أمن الرعايا، و لم يكن أحد من الأمراء و لا- أرباب الجاه يقدر أن يظلم أحدا آدميا أو غيره خوفا من بطشه و شدة إيقاعه. قال: و كان الناس في أيامه آمنين على أموالهم و وظائفهم.

و هو صاحب الأبنية العظيمة في دمشق و غيرها من الشام و كان ممن ينشط الزراعة و لما أخذه ملك مصر و قتله في الإسكندرية تأسف عليه أهل دمشق.

و توفي الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٤١) بعد أن خطب له ببغداد و العراق و ديار بكر و الموصل و الروم، و ضرب الدينار و الدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام و مصر، و تألم الناس لفقده لأنه أبطل المكوس و أنشأ جوامع و مدارس و كانت أيامه أيام أمن و سكينه، فتولى الملك بعده ابنه المنصور أبو بكر و كان تسلطن قبل موت والده. و ملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث و أربعون سنة و تسعة أشهر و سبعة عشر يوما، تملك المرة الأولى بعد وفاة أخيه الأشرف سنة كاملة، و المرة الثانية بعد قتل لاجين، و مدة ملكه ثمانية عشر سنين و ستة أشهر و اثنا عشر يوما، و الدولة الثالثة أقام بها ثنتين و ثلاثين سنة و ثلاثة شهور و خمسة

أيام، و كان فى الثالثة حاكما متصرفا ليس له منازع يخالف أمره بخلاف المدتين الأوليين. و شأن ابن قلاوون قليل فى الملوكة، لأنه ندر من يتخلى عن الملك أو يخلع من الملوكة أن يعود إلى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات. و من غريب ما وقع له أيضا أنه تسلطن ثمانية من أولاده لصلبه، و هذا مما يعد فى باب سعادة آل قلاوون.

و فى سنة (٧٤١) فتح علاء الدين أيدغدى الزراق و معه عسكر حلب قلعة خندروس من الروم، و كانت عاصية و بها أرمن و تتر يقطعون الطرقات، و فى السنة التالية (٧٤٢) بايع المنصور أبو بكر الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان و كان قد عهد إليه والده بالخلافة فلم يبايع فى حياة الناصر فلما ولى المنصور بايعه بمصر و جلس معه على كرسى الملك و بايعه القضاة و غيرهم، و كان الخليفة من أولاد العباس يقيم فى مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة و يبايع السلطان عند جلوسه

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٦

خلع الملك المنصور و مقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه:

خلع المنصور أبو بكر فاتح عليه قوصون الناصرى ولى نعمه أبه بحجج و نسب إليه أمورا، فأخرجه إلى قوص فقتله و اليها، و أقام الملك أخاه الأشرف كجكك و هو ابن ثمان سنين. أى إن الخوارج على السلطنة بعد أن سكنوا بحسن سياسة الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلعه نفسه و مكثه فى الكرك حتى رجع إلى السلطنة و قد أطاعه عسكر الشام و مصر، ثم عادوا يبدون نواجد الشر و يقتلون ملكهم، فقتل الملك الجديد و نصب أخوه الصبى ليكون الحكم لقوصون الناصرى كما وقع ذلك فى أدوار مختلفة، ثم أرسل قوصون مع قطلبغا الفخرى الناصرى عسكرا لحصار أحمد بن الملك الناصر بالكرك، و سار الطنبغا نائب دمشق و الحاج أرقطاي نائب طرابلس بإشارة قوصون إلى قتال طشتمر بحلب، لأن هذا أنكر على قوصون ما اعتمده فى حق أخيه المنصور أبى بكر، و نهب الطنبغا بحلب مال طشتمر و هرب هذا إلى الروم، و استمال الناصر فى الكرك قطلبغا الفخرى، و كان ذهب لقتاله و حاصره أياما فبايعه و بايع للناصر من بقى من عسكر دمشق المتأخرين عن المضى إلى حلب صحبة الطنبغا، ثم سار الفخرى إلى ثنية العقاب و أخذ من مخزن الأيتام بدمشق مالا و لما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل إليه الفخرى لما قرب من دمشق القضاة، و طلب الكف عن القتال، فقويت نفس الطنبغا و أبى ذلك، و طال الأمر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخرى ثم الميمنة، و بقى الطنبغا و جماعته فى قليل من العسكر، فهرب الطنبغا و من معه من القواد إلى جهة مصر، فجهز الفخرى و أعلم الناصر بالكرك و قد خطب له بدمشق و غزة و القدس، فلما وصل الطنبغا إلى مصر و هو قوى النفس بقوصون تغير أمر قوصون. و كان قد غلب على الأمر لصغر الملك الأشرف، ثم قبض جماعة الأمراء على قوصون و أرسلوه إلى الإسكندرية و أهلكت بها، و قبضوا على الطنبغا و حبسوه، و سافر الناصر أحمد من الكرك و عمل أعزى لوالده و أخيه، و أمر بتسمير والى قوص لقتله المنصور و خلع الأشرف الصغير، و جلس الناصر على الكرسى هو و الخليفة ثم أعدم الطنبغا و غيره، و تواتر عزل الولاة و النواب بحلب، جرى كل هذا فى مدة يسيرة. و جرى

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٧

فى هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوكة و النواب و اضطرابهم ما لم يجر فى مئات من السنين على رأى ابن الوردى. و لم يصف جو السلطنة للناصر أحمد فى مصر، و سافر إلى الكرك و حصنها و اتخذها مقاما له، و لما حصل بها و قتل بها طشتمر و الفخرى قتله شنيعه (٧٤٣) أنقلب عليه عسكر الشام و هو بالكرك و كاتبوا مصر فخلع الناصر، و أجلس أخوه الملك الصالح إسماعيل، و استتاب آل ملك و حصر الملك الناصر بالكرك، و اجتمع عليه أخوه الصالح بما أخذه من أموال بيت المال، و خرج ببيرس الأحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك و كذلك من دمشق، فحاصروا الناصر بالكرك و وردت المراسيم إلى الأعمال الشامية

بتجريد العشران وغيرهم إلى الكرك، فذهبوا إليها سنة (٧٤٣) ووجدوا في القلعة مع السلطان أحمد خلقا كثيرا، وقد نصبوا على القلعة في أعلاها خمسة مجانيق ومدافع كثيرة، وأغار التركمان مرات على سيس فقتلوا ونهبوا وأسروا وشفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان، وعاد العسكر (٧٤٤) المجهز إلى سيس وما ظفروا بطائل، وكانوا قد أشرفوا على أخذ أذنه وفيها خلق عظيم وأموال عظيمة وجفال من الأرمن، فارتشى أقسنقر مقدم عسكر حلب من الأرمن، وثبط الجيش عن فتحها واحتج بأن السلطان ما رسم بأخذها. وحاصر يلغا النائب بحلب قراجا بن دلغادر التركماني بجبل عسر إلى جانب جيحان فاعتصم منه بالجبل، وقتل في العسكر وأسروا وجرح، وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وكانت هذه حركة رديئة من يلغا ثم أوقع دلغادر بالأرمن وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بحلب أن يستنيب فيها من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك، فجهزوا عسكرا لهدمها ثم أخذتها الأرمن.

وفي سنة (٧٤٥) حوصرت الكرك ونقت، وأخذ الناصر أحمد وحمل إلى أخيه الصالح بمصر فكان آخر العهد به، وفي هذه السنة كانت الوقعة بين أهل البقاع ووادى التيم وقتل من الفريقين خلق كثير، وأحرق ابن صبح قرية من وادى التيم، وانقطعت السبل. وتوفي الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ابن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه أخوه الكامل شعبان. وفي سنة (٧٤٧) خرج نائب الشام يلغا إلى ظاهر دمشق وشق عصا الطاعة وعاضد أمراء مصر حتى

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٨

خلع الكامل شعبان وأجلسوا مكانه أخاه المظفر أمير حاج، وسلموا إليه أخاه الكامل فكان آخر العهد به، وكان هذا الكامل شعبان سيئ التصرف يولى المناصب غير أهلها بالبذل، ويعزلهم عن قريب ببذل غيرهم، وكان يقول عن نفسه أنا ثعبان لا شعبان. وفي سنة (٧٤٨) سافر ناصر الدين بن المحسنى بعسكر من حلب لتسكين فتنه ببلد شيزر بين العرب والأكراد قتل فيها من الأكراد نحو خمسمائة نفس.

وفيها عزمت الأرمن على نكبة إياس، فأوقع بهم أمير إياس محمد بن داود الشيباني، وقتل من الأرمن خلقا وأسروا خلقا، وأحضرت الرؤوس والأسرى إلى حلب واقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب وأتباعه مع أحمد فياض من الأمراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف الدين ونهبت أمواله، وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من العرب أصحاب سيف وأحمد فياض من النهب وقطع الطرق ما لا يوصف، وكانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطفق البدو ينهبون القرى، ويعيرون على حماة والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى. وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر أمير حاج بمصر وأقيم مكانه أخوه الناصر حسن، وكان الملك المظفر قد أهلك أخاه الأشرف كجك وفتك بالأمراء وقتل من أعيانهم نحو أربعين أميرا.

أحداث و كوائن و عصيان و مخامرات:

ومن الأحداث أن نائب الشام يلغا اليحياوى هرب فتيبه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم فقتل. وفي مصر سنة (٧٥٠) دخل جبغا نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة، وكان أرغون شاه نائب الشام مقيما بالقصر الأبلق فدخل عليه الأمير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه، فلما أصبح الصباح طلب جبغا القضاة والأمراء بدمشق وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب، وظنوا أن ذلك صحيح فسجنه واحتاط على موجوده، ثم وجدوا أرغون شاه مذبوحا في السجن فشاع بأن ذلك من فعل جبغا فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه فهرب فلم يتبعه أحد من العسكر وخافوا عقبى ذلك، وكاتب أمراء دمشق خطط الشام، ج ٢، ص: ١٤٩

السلطان بما وقع من جبغا فأنكر ما وقع لأرغون شاه، ورسم لأمراء دمشق أن يحاربوا جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة، وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر وقبضوا عليه وشنقوه. وفي سنة (٧٥٤) قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج إلى صيدا فقتلوا طائفة من

أهلها وأسروا جماعةً وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم، فوصل الصريخ إلى دمشق، فاجتمعت العساكر من صفد و دمشق وأسرعوا إلى فك الأسرى، وأخذوا من ديوان الأسرى ثلاثين ألفاً وأعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم.

وإن الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من أولاد قلاوون وسرعاً قتلهم واستخلاف غيرهم من المماليك، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن، ومسألة اليحايوى مع أرغون شاه مثال منها. ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج بييغا أروس نائب حلب عن الطاعة، وكذلك بكلمش نائب طرابلس، وأحمد نائب حماة، الطنبغا براق نائب صفد، ولم يبق على الطاعة إلا نائب دمشق أرغون الكاملى، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما جرى من النواب، ثم اضطر نائب الشام إلى الهرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه إلى غزة، ليعلم السلطان والأمراء بما جرى، والتف على بييغا أروس العريان والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين أميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل إلى نائب قلعة دمشق يطلب منه إطلاق أمير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك إلا بمرسوم السلطان، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً، وركب عليها المكاحل والمدافع، وأرسل يقول لأهل المدينة: لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبيعوا عسكر حلب شيئاً، فلما بلغ بييغا ذلك اشتد به الغضب، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ويقطعوا الأشجار، فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكناً من الأذى والفساد، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش، وجرى على أهل دمشق من بييغا ما لم يجز عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق.

ثم إن سلطان مصر جهز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من أمراء الطبلخانات

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٠

والعشراوات نحو ثمانين أميراً وكان صحبته القضاء الأربعة والخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله فأمر بقتال جماعة بييغا فانهمز هذا ولحق ببلاد التراكمه، وجرى بجماسته في القيود يرسفون.

وهذا السلطان هو الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك وأولادهم، والثامن من أولاد الناصر محمد بن قلاوون. ثم قتل نائب حلب بييغا ونائب طرابلس بكلمش ونائب حماة أحمد وكانوا هربوا إلى التركمان.

وخلع السلطان على أرغون الكاملى واستقر به نائب حلب وجرى أرغون إلى قراجا بن ذى القدر أمير التركمان في مرعش وحواليها، وذنبه أنه وافق بييغا أروس على العصيان، فلما وصل إليه أرغون هرب منه فبعه إلى أطراف الروم فقبض عليه وأرسله إلى السلطان بمصر فسمره على جمل.

وفي سنة (٧٦٠) توجه بيدمر الخوارزمى نائب حلب إلى سيسى وحاصر أهلها فطلبوا منه الأمان فتسلمها وكذلك المصيصة، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع إلى حلب. وفي سنة (٧٦٢) أظهر بيدمر الخوارزمى نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الأخبار وخرج قاصداً الشام، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيد.

وفي سنة (٧٦٥) جاء الفرنج إلى قلعة إياس وحاصروها فخرج إليهم نائب حلب فلما سمعوا به رحلوا عنها ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرس وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتى مركب حربى إلى طرابلس، وكان النائب غائبا عنها فطمعوا في أخذها ثم خرج إليهم بعض عسكرها فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها من المسلمين نحو ألفى إنسان فقاتل الأهلون الفرنج وكسروهم فرحلوا عن طرابلس.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥١

وفي سنة (٧٦٧) عصا على السلطان نائب دمشق بيدمر واجتمع إليه مقدمو البلدان فأرسل السلطان إليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله. وفي سنة (٧٧١) تشاجر الأمير جبار من آل الفضل ونائب حلب طشتمر المنصورى فخرج هذا بالعساكر الحلبية وقاتل الأمير جبار فقويت العريان على نائب حلب فقتل في المعركة.

مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده:

و فى سنة (٧٧٨) قتل فى القاهرة الأشرف شعبان، قال ابن إياس: و كان من محاسن الزمان فى العدل و الحلم و كان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة محسنا و كانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن و التجاريد إلى الديار الشامية فساد العرب و ساس الناس أحسن سياسة. و تولى الملك بعده ابنه الصالح أمير حاج و له من العمر نحو إحدى عشرة سنة و هذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بنى قلاوون و به زال الملك عنهم و قد أقامت السلطنة فى قلاوون و ذريته مائة سنة و ثلاث سنين و أشهرها.

و فى سنة (٧٧٦) خرج نائب حلب إلى سيسى و فتحها و كانت فى أيدي الأرمين.

و فى سنة (٧٧٩) خامر جميع نواب الشام و خرجوا عن الطاعة فسأقت مصر تجريدة عليهم. و فى سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام بيدمر الخوارزمى عن الطاعة و قصد الهرب إلى التركمان بيركه و رجاله فقبضه عسكر دمشق و سجنوه فأرسل سلطان مصر و أخذه منها و سجنه ثم أطلقه بعد ثلاث سنين و أعيد إلى منصبه. و فى سنة (٧٨٠) نازل الفرنج طرابلس فى عدة مراكب فالتقاهم يلبغا الناصرى فهزمهم، ثم أمر العسكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج و تبعوهم إلى أن أبعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزمهم و قتل منهم جمع كبير و قبض على أكثرهم و أفلح من بقى فى المراكب. و ثار أقبغا عبد الله (٧٨١) و جماعة معه على نائب دمشق و كان قد تجرد مع نائب حلب فى عسكر البلدين بسبب التركمان ف وقعت بينهم و بين أقبغا و من معه وقعة فكسرهم نائب الشام و هرب أقبغا إلى نغير أمير عرب الفضل و فى سنة (٧٨٣) نهبت طائفة من التركسان بعد ضياع حلب و عاثوا و أفسدوا و عين لهم الأتابك برقوق فى مصر تجريدة

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٢

و خرج إليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين و خمسمائة مملوك فالتقوا مع التركمان و كسروهم و قتلوا منهم جماعة كثيرة و نهبوا أموالهم و طردوهم إلى ملطية.

و فى سنة (٧٨٤) حضر إلى القاهرة رسول صاحب سيسى و معه كتاب يخبر فيه أن الأرمين مات كبيرهم فأمروا عليهم زوجته فحكمت فيهم مدة ثم عزلت نفسها، فاتفق رأيهم أن يفوضوا أمرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم، فالتقى لهم ملك مصر أحد الأسارى الأرمين ممن يسكنون ظاهر القاهرة و يبيعون الخمر فأخذه معهم فملكوه عليهم، و فى السنة التالية جاءت رسل أصحاب سنجار و قيسارية و تكريت يسألون صاحب مصر أن يكونوا تحت حكمه و يخطبوا باسمه فأجيب سؤلهم و كتب لهم بذلك تقاليد و خلع عليهم. و فى هاتين الواقعتين دليل على أن صاحب مصر و الشام فى تلك الفترة كان أقوى من جاوره من الملوكة خطب وده الأتراك و الأكراد و الأرمين من مجاوريه.

و فى سنة (٧٨٥) وقعت بين قبلاى نائب الكرك و خاطر أمير العرب بها مقتلة عظيمة فانكسر قبلاى. و فيها نازل الفرنج بيروت فى عشرين مركبا فراسلوا نائب الشام فتقاعد عنهم و اعتل باحتياجه إلى مرسوم السلطان فقام إينال اليوسفى فنادى الغزاة فى سبيل الله فنفر معه جماعة فحال بين الفرنج و بين البحر و قتل بعضهم و نزل إليه بقية الفرنج فكسرهم و قبض من مراكبهم ستة عشر مركبا. و كان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فخبأوا أموالهم و أولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض أمتعتهم فنهبوا و أخذوا ما وجدوا من زيت و صابون و أحرقوا السوق و قصدوا بيروت فتداركهم المسلمون و انكسر الفرنج ثم عادوا إلى مباحلة بيروت فتيقظ لهم أهلها فحاربوهم.

و فى سنة (٧٨٥) وقعت فتنة بين نغير بن مهنا أمير العرب و ابن عمه عثمان ابن قارا، فساعد يلبغا الناصرى عثمان فكسر نغير و نهبت أمواله. و فيها سار يلبغا الناصرى بالعساكر الحلبية و بعض الشامية إلى جهة التركمان، فنازلوا أحمد بن رمضان التركمانى عند الجسر على الفرات فكسر التركمان و أسر إبراهيم

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٣

ابن رمضان و ابنه و أبوه، فوسطهم يلبغا الناصري، ثم تجمع التركمان و واقعوا الناصري عند أذنه فانكسر العسكر و قلعت عين الناصري و جرح ثم تراجع العسكر و لم يفقد منه إلا العدد اليسير، فطردوا التركمان إلى أن كسروهم فغدر التركمان بنائب حماة و بيتوه فانهزم ثم ركب يلبغا الناصري فهزمهم.

و في سنة (٧٨٧) توجه نواب الشام إلى قتال التركمان فانكسر العسكر و فتك فيهم التركمان و قتلوا سودون العلاتي نائب حماة و غيره. و كان السلطان أمر نواب الشام بالتوجه إلى قتال سولي بن دلغادر و من معه من التركمان فوصلوا إلى طيون بين مرعش و ابلستين فالتقى بهم سولي فقتل سودون نائب حماة في المعركة و كذا سودون نائب بهسنى فشق ذلك على السلطان و لم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله و قتل أخاه.

سلطنة برقوق و حالة المماليك البحرية و الشراكسة:

دخل الهرم في دولة الأتراك المصرية و زاد فساد العربان في البلدان، و خامر غالب النواب في الشام و خرجوا عن الطاعة، فاجتمع الأتابك برقوق متولى الأمر و القضاء مع الخليفة و سائر الأمراء في مصر فرأوا الحاجة ماسة إلى سلطان كبير تجتمع عليه الكلمة و يسكن الاضطراب فتكلم القضاء الأربعة مع الخليفة في سلطنة الأتابكي برقوق فخلعوا الملك الصالح أمير السلطنة و سلطنوا الأتابك برقوق (٧٨٤) و هو أول ملوك الشراكسة بمصر و الشام.

و كانت هذه الدولة التركية الشركسية عجا في ضعف الإدارة و قيام الخوارج لأن الملك على الأكثر كان ضعيفا ينزله عن عرشه كل من عصا عليه، و استكثر من المماليك و قدر أن يتسلط على عقول السذج من العربان و أرباب الدعارة و الطمع من الناس «و المماليك السلطانية الذين جرت العادة على أنهم يفعلون الأمور المشهورة عنهم من أخذ أموال الناس و هتك حريمها». و القاهرة لا شأن لها بعد أن يتقاتل المتقاتلون على الملك أو يقاتل القواد العصاة و يظفر أحد المتنازعين على السلطنة، أو الأمير الذى و سد إليه اجتثاث دابر العاصي، إلا أن تزين أسواقها سبعة أيام أو ثلاثة أيام على الأقل. تفعل ذلك لأقل حادث يحدث حتى و لو قبض جماعة السلطان على أحد صعاليك المماليك ممن خامر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٤

عليه و استتبع أناسا من الغاغة. و كانت دمشق في أيام الأتراك ثم في أيام الشراكسة أخلافهم تزين سبعة أيام لأقل ظفر يقع، فيفرح السلطان و تدق البشائر. و كان من سلاطين المماليك أهل خير تغلب عليهم الرحمة و حسن السياسة، و كان ضعفهم آتيا من جماعتهم المماليك لأن لكل أمير منهم جوقه يتفانون في حبه إذا تغلب عليه خصمه سجنهم أو أقصاهم أو نكبهم، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحهم ثم يعودون إلى ما نهوا عنه و هكذا دواليك. و الأمة من أجل هذا تخرب ديارها، و تهلك أبنائها و تذهب أموالها و عروضها، حتى يسعد الطالع أحد المتخاصمين فيتغلب على من يريد التغلب عليه. و هناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد، و يبائعهم يوم تنصيبهم، و ربما سجنوه و أقصوه عن أنظار الأمة إذا شعروا بأن هواه مع غيرهم أو يمكن أن يكون كذلك: اتخذه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من سلاطين السلجوقيين و البويهيين و غيرهم في بغداد.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٥

وقائع تيمور لنك «من سنة ٧٩٠ إلى ٨٠٣»

[بداية تيمور لنك و مناوشة جيشه:]

بينما كانت أمور الدولة في الشام و مصر مختلة معتلة، لا تستقر على حال، و المتوثبون على السلطنة يكترون و يقلون بضعف الملك و قوته، جاء تيمور لنك من الشرق، بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الأمر بدفعها فأصبح الشام بين عدوين داخلي و خارجي، كما أصبحت في أواسط القرن السابع بين عدوين أحدهما من الشرق و هم التتر و الآخر من الغرب و هم الصليبيون. و تيمور هو ابن ترغاي بن أبغاي مؤسس مملكة المغول الثانية، و معنى تيمور الحديد و اللنك الأعرج أو الكسيح بلغتهم. سمي بذلك لأن راعيا ضربه فيما قيل بسهم في فخذه أدخله به في زمرة العرجان، و في رواية أنه أصيب بسهم في الحرب في صباه. ولد تيمور لنك في قرية خواجه أيلغار من أعمال كش من مدن ما وراء النهر سنة (٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م) و مات في اوترار سنة (٨٠٧-١٤٠٥) بينا كان ذاهبا لفتح بلاد الخطا في الصين و جىء به إلى سمرقند فدفن فيها.

و كان تيمور لنك يمت بقراية بعيدة إلى آل البيت الملوكي من المغول ذرية جنكيز خان، و ذلك من جهات الأمهات لا الآباء، و رأس أبوه قبيلة برلاس التركية و حكم ولاية كش و قد تيم صغيرا و سلبه جيرانه إمارته، فتوسل تيمور إلى أمير كشغر ملك الجغتاي فأنعم عليه بولاية ما وراء نهر جيحون، ثم نزع يده من يد أمير كشغر و انضم إلى عمه حسين، و لما ماتت زوجته، و قيل إنه هو الذي قتلها بيده، أصبح تيمور في حل من أمره و داهم حسينا و تغلب عليه و استولى على بلخ فاصبح ملكا على بلاد الجغتاي كلها،
خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٦

و لما استولى على ما وراء النهر وفاق الأقران تزوج بنات الملوك فزادوه في ألقابه كوركان «و هو بلغة المغول الختن» و كان عهد تيمور كله عهد حروب و فظائع يقتل الناس بالألوف و عشرات الألوف، إذا لم يخضعوا لسلطانه في الحال قال السخاوي: و كان يقرب العلماء و السمراء و الشجعان و الأشراف و ينزلهم منازلهم و لكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه، فكانت هيئته لا تدانى بهذا السبب، و ما أخرب البلاد إلا- بذلك، فإنه كان من أطاعه من أول وهلة أمن، و من خالفه أدنى مخالفة و هي، أنجد تيمور أحد الخانات على اوروس خان ملك قسم من روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان و هرات و طوريس و قارص و تفليس و شيراز و أصفهان و كشغر و مازندران و العراق بأسره، و خزب حفيده محمد بولونيا و روسيا و دخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها و فتح أفغانستان و جلب من الهند إلى مملكته المهندسين و النقاشين. ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) و غلبه. و باستيلائه على إزمير اضطر امبراطور القسطنطينية أن يؤدي إليه الجزية.

هذا الفاتح خرب عاصمتي الشام حلب و دمشق، و كم خرب من مدن عامرة في آسيا، و كان ملوك أوروبا يخافونه و كثيرا ما أرسلوا الوفود لتهنئته بانتصاراته.

هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشثومة إلا بأسباب أوجدها النواب و الأمراء و الملوك على الأرجح، فقد كان ذكر ابن حجر في حوادث سنة (٧٩٨): أن اطلمش قريب تيمور لنك قبض عليه قرا يوسف التركماني صاحب تبريز و أرسله إلى الظاهر فاعتقله، فكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تيمور لنك إلى الديار الشامية. و قال في حوادث سنة (٧٩٩) وصلت كتب من تيمور لنك فعوقت رسله بالشام و أرسلت الكتب التي معهم إلى القاهرة و مضمونها التحريض على إرسال قريبه اطلمش الذي أسره قرا يوسف، فأمر السلطان اطلمش المذكور أن يكتب إلى قريبه كتابا يعرفه فيه ما هو عليه من الخير و الإحسان بالديار المصرية، و أرسل ذلك السلطان مع أجوبته و مضمونها إذا أطلقت من عندك من جهتي أطلقت من عندي من جهتك و السلام.

فالقائمون بالأمر هم الذين فتحوا لتيمور لنك السبل للغزو فيما بعد،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٧

غزوة أذلت العزيز و أفقرت الغنى و خربت العامر. قال ابن حجر أيضا:

لما رجع تيمور لنك إلى الشرق و كان هذا دأبه إذا بلغه عن مملكة كبيرة و ملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها إلى أن يحصل مقصوده فيتركها بعد أن يخربها و يرجع، فعل ذلك بالمشرق كله و بالهند و بالشام و بالروم.

أرسلت مصر فى سنة (٧٩٠) عسكرا على تيمور لنك فى سيواس فانكسر عسكر تيمور لنك و هذه الواقعة من الوقائع الأولى بين تيمور لنك و عسكر الشام.

القتال على الملك

خامر يلبغا الناصرى نائب حلب (٧٩١) و خرج عن الطاعة و قتل سودون المظفرى نائب حلب قبله، و أمسك حاجب الحجاب بحلب و جماعة من أمرائها، و أظهر يلبغا العصيان و التف عليه جماعة كثيرة من مماليك الأشرف شعبان، و كان من جملة من التف على يلبغا ترمبغا الأفضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق، و عهد سلطان مصر إلى إينال أتابك العساكر بدمشق ليكون نائب حلب و حلف السلطان الأمراء من الأكابر و الأصغر بأن يكونوا معه على يلبغا الناصرى فحلفوا على ذلك جميعهم، و أرسل إلى يلبغا تجريدة. و انتشب القتال بين أمراء الغرب التنوخية و بين عشرين البر أهل كسروان و الأمراء أولاد الأعمى، و كان التنوخية ميايين إلى الملك الظاهر و الكساروة مع أرغون نائب منطاش فى بيروت، فاستظهر أهل كسروان على أمراء الغرب و قتلوا منهم نحو ٩٠ نفرا و أمسكوا جماعة فسمروا بعضهم و وسطوا آخرين و أحرقوا عدة قرى من الغرب و تلقبوا بعشرين البر. ثم إن العساكر الظاهرية زحفت على تركمان كسروان و جرت بين الفريقين وقعة فى الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة، و لما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة أحسن عمارة فى أسرع وقت و كانت من وقعة غازان خرابا، فلما انتصر كمشبغا على أعدائه قتل غالب أهل محلة بانقوسا و كانوا زيادة على أربعة آلاف نفس و قتل كبيرهم أحمد بن الحرامى و خربها إلى أن جعلها دكا.

عوامل الخراب قيس و يمن:

ذكر الأسدى أن السبب فى خراب الشام فى القرن الثامن انتشار الشرور

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٨

بين قيس و يمن و وقوع الحرب و القتال بينهم، و السبب فى ذلك تغيير العوائد و التدليس على الملوكة و الحكام و ولاية الأمور، بالإغراء و التسلط على الفلاحين بالظلم و طلب العاجل، و العسف فى الحكم و الميل مع القوى، و إنهاك الضعيف و عدم رد لهفة الملهوف، و مع تغيير العوائد وقع التحاسد بينهم فاضطر كثير من أهل الزرع و الضرع إلى التمرد و التشرذم و تسلطت العربان و العشران و تراكت الأهواء و وقع التحاسد و الإغراء، فنهبت الأموال و قتلت الرجال و تخلت العشائر و عظمت الفتن بين القبائل، و جلا أهل الزرع و الضرع من الفلاحين عن أراضيمهم فأوجب ذلك الخراب فى كثير من أرجاء الشام، و صارت دمنا يشهد لذلك الديوان من أسماء القرى التى صارت مزارع و تسمى بالخراب الدائر، و الموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة و نقض سنة العدل، إلى أن صار الحكم لمقدمى الفلاحين و رؤساء العشران، و صار الأعيان منهم يظهرن الطاعة للسلطان و يبطنون المخالفة و العصيان، و يستخرجون الأموال بالظلم و الطغيان، و يرضون ببعضها من له فى الدولة سلطة، و بما يحملونه للأعوان من الهدايا و الأموال، فيسعى لهم و يلبسون التشاريف الملوكية بين يدى الملك و الأمير و السلطان، فيصير كل واحد منهم فى بلده و إقليمه إذا عاد إليه ذا قوة و سلطان، و سطوة و أعوان، و إقطاعات و نعم و ديوان.

قلنا: و هذا الاختلاف الدائم بين قيس و يمن كان يقوى و يضعف بحسب الوازع، فإذا وفقت الديار إلى حاكم يسوى بينهم و يعدل فيهم تسكن نعمة القيسى و اليمانى، و إلا فيتقاتلون و يخربون العمران و يقتلون الإنسان. و كانت هذه النعمة شديدة فى أرض دون أخرى من أرض الشام، فقد كانت فى القديم فى حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا: «أذل من قيسى بحمص» و ذلك أن حمص كلها لليمن ليس بها من قيس إلا بيت واحد.

ثم كانت ترى آثارها فى حوران و لبنان و ربما انتقلت نغمتها من حوران منذ جلاء كثير من الأسر المسيحية إلى جبل لبنان و بقيت فى

هذا الجبل إلى القرن الماضي ثم اضمحلت.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٥٩

و في هذه الأثناء ركب عسكر طرابلس على النائب وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة، و ركب مماليك نائب حماة مع عسكر حماة و أرادوا قتله فهرب إلى دمشق، فوعدت الفتنة. و لما تحقق برقوق أن المملكة افتتت خاف و أمر نائب القلعة بمصر بأن يضيق على الخليفة و يمنعه من الاجتماع بالناس، و كان مسجوناً بالقيود في برج القلعة، و أصدر أمره بالتضييق على السادة أولاد السلاطين في دور الحرم، و وصلت التجريدة من مصر إلى دمشق و التقى عسكر مصر مع عسكر يلبغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعه عظيمه حتى جرى الدم بينهم و قتل من الفريقين كثيرون، فانكسر عسكر السلطان و انتصر عليهم يلبغا، ثم جيش يلبغا و ساق جيشه إلى مصر فالتف أكثر أمراء مصر عليه و قاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق إلى ترك سرير السلطنة و أعيد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان سلطاناً على مصر و الشام، و أخذ الظاهر برقوق إلى قلعة الكرك فسجن فيها ثم انتدبوا لقتله رجلاً فقتل الرجل، و استولى برقوق على القلعة بعد أن قاسى من المحن أمراً عظيماً، و أتاه مماليكه الذين كانوا بقوص و قتلوا و اليها و التحقوا به، و التف عليه العربان و قصد دمشق فجاهه نائب غزة في خمسة آلاف مقاتل فأوقعوا مع الظاهر برقوق وقعه عظيمه انكسر فيها نائب غزة، فذهب عسكر برقوق عسكر غزة فتقوا بتلك الغنيمه، و كان الظاهر كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها و يلاقونه و معهم العلف و الضيافة، و لما بلغ برقوق قرية شقحب خرج إليه عسكر دمشق فتقاتلوا فقتل من أمراء دمشق ستة عشر أميراً، و من المماليك نحو خمسين مملوكاً، و قتل من عسكر برقوق نحو ذلك.

و صادف أن خرج عن الطاعة كمشبغا الحموي نائب حلب و استولى أبناء اليوسفي على قلعة صغد و هو من جماعة الظاهر فقويت شوكته و دخل الظاهر برقوق دمشق، و نزل في الميدان فكبس عليه أهل دمشق و أخرجه من المدينة إلى ظاهر البلد، لأذن بعض مماليكه عبث ببعض السوقه و أخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقى فحضر إليه جماعة و تعصبوا له فاستطال ذلك المملوك و ضربهم فرجمه أهل دمشق، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب، و تكاثرت على المماليك العوام بالحجارة و المقاليع،

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٠

فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق و من معه من الأمراء و خرجوا من دمشق إلى قبة يلبغا فدخل العوام إلى الميدان و نهبوا برك برقوق و أغلقت أبواب دمشق، و كان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق و راج أمره فتعطل بسبب ذلك.

ثم جرد المنصور أمير حاج عسكراً من مصر و جاء الشام لينزع الملك من برقوق، فلما وصل العسكر إلى غزة تسحب أكثر عسكر المنصور إلى برقوق لأن هواهم كان معه، و وقعت بين عسكر المنصور و عسكر الظاهر وقعه شقحب (٧٩٢) فانكسر برقوق كسرة قوية و هرب برقوق في نفر قليل من العسكر و توارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور و الخليفة و القضاء، فأتى إليه بعض العرب و أخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل، و كان على يوم من دمشق فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر و كانوا نحو أربعين إنساناً فدعر عسكر المنصور و غلت أيديهم عن القتال، فنزل عليهم برقوق كالباز على الطائر و احتوى على كل ما معهم من البرك و الأثقال و القماش و السلاح و خزائن المال، و تسامع بذلك الناس فجاءوا إليه أفواجا من كل مكان، و بلغ ذلك منطاش و حضر و معه عساكر دمشق و غيرهم فوعدت بينهم واقعه أعظم من الواقعة الأولى و قتل بها كثير فانكسر الأتابكي منطاش و عسكر دمشق فولوا هارين و أقام برقوق بمنزله شقحب، ثم إن شخصاً من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفى مشى بين الظاهر برقوق و بين المنصور حاج في أن يخلع هذا نفسه و يسلم الأمر إلى برقوق، فأجاب المنصور إلى ذلك، و أحضر الخليفة المتوكل و القضاء الأربعة و خلع نفسه من الملك و أشهدوا عليه بذلك. فبايع الخليفة و القضاء الظاهر برقوق بالسلطنة و ذلك بمنزلة شقحب ثم رحل إلى مصر فدخلها بلا منازع، و كان مماليكه قد وطدوا له الأمن قبل وصوله و خطبوا له على المنابر فعاد و استولى على مصر و

الشام. و برقوق هو الذي قرض جيش المماليك البرجية.

الخوارج على ملوك مصر:

و ملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك و التف عليه جماعة من عسكر دمشق

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦١

و صفد و طرابلس و من عربان جبل نابلس و نهب عدة ضياع، و أرسل منطاش شخصا يسمى تمان تمر الأشرفي إلى مدينة حلب، و كان نائب حلب كمشيفا الحموي قد ثقل أمره على أهل حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة و تعصبوا لمنطاش فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع، فصار كمشيفا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج، و استمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر، فانتصر كمشيفا نائب حلب على تمان تمر الأشرفي الذي ولاه منطاش على حلب فانكسر تمان تمر و ولي هاربا ثم توجه منطاش إلى طرابلس فحاصرها حتى ملكها و هرب من كان بها من الأمراء و النائب و هرب أكثر أهلها إلى دمشق، ثم حاصر منطاش دمشق فاتفق عوامها على أن يسلموه المدينة ليلا و كانوا يحبونه أكثر من برقوق.

فلما بلغ ذلك أمراء برقوق خرجوا إلى ظاهر دمشق و أوقعوا مع منطاش و مع عوام دمشق واقعة قتل فيها من الفريقين نحو ألف إنسان. ثم رجع عسكر دمشق إلى المدينة و توجه منطاش إلى عيتاب فالتف عليه جماعة من التركمان، فحاصر المدينة حصرا شديدا فملكها و هرب نائبها، فلما دخل الليل جمع نائب عيتاب جماعة من التركمان و كبس منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي إنسان و هرب منطاش نحو الفرات، ثم إن منطاش جمع قوته و خامر على السلطان أكثر التركمان و العربان و التفوا على منطاش (٧٩٣) فتوجه إلى دمشق و حاصرها فخرج إليه نائبها فهرب منطاش إلى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل و جاء إلى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء و لا النائب، ففتح له عوام دمشق بابا فدخل منه إلى المدينة و نهب الأسواق و أخذ أموال التجار و الخيول، و التف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته.

بلغ السلطان في مصر ما وقع في الشام فقوى عزمه على الخروج إلى منطاش في دمشق، و نادى فيها الأمان لأن أهلها لما خرج الظاهر برقوق من الكرك و دخل مدينتهم رجموه و أخرجوه هائما على وجهه و نهبوا أثقاله و قماشه، فضج أهل دمشق له بالدعاء، و سكن ما كان عندهم من الاضطراب، و لما

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٢

توجه إلى حلب جاء نعيم بن جبار أمير آل فضل و نهب ضياع دمشق، و كان نعيم عاصيا على السلطان و هو من أنصار منطاش و أخرج غالب إقليم دمشق و نهب ضياعها، فلما بلغ نائب دمشق مجيء نعيم خرج إليه و أوقع معه واقعة قوية في قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق و قتل من عسكره جماعة. أما منطاش فلما بلغه مجيء السلطان من مصر هرب إلى التركمان.

و لما عاد سلطان مصر إلى عاصمته (٧٩٤) هجم نحو خمسة عشر مملوكا و قيل خمسة أنفس على نائب قلعة دمشق و توجهوا نحو السجن الذي بها و أخرجوا من كان به من المحاييس من عصبه منطاش و كانوا نحو مئة مملوك، فقويت شوكتهم بالسجناء و هجموا على نائب القلعة و قتلوه و ملكوا القلعة، فقاتلهم عسكر دمشق و حاصروا من بالقلعة فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم العسكر على باب القلعة و أحرقوه و دخلوا إليها و قبضوا على المماليك كلهم و وسطوهم (أى قطعوهم نصفين) تحت باب القلعة و أمسكوا الثائرين فلم يبق منهم إلا من هرب.

و عاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع التركمان فخرج إليه عسكرها و أوقعوا معه واقعة فكسروه و رجع هاربا إلى الفرات، ثم اتفق منطاش و نعيم بن جبار أمير العربان (٧٩٥) بمن معهما من العسكر و حاصروا حماة فخرج إليهم نائبها فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة و هرب، فدخل منطاش و نعيم إلى المدينة و نهبوا أسواقها و أخذوا أموال التجار، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو في

عساكر حلب و كبس على بلاد نعيير و نهب أمواله و أخذ أولاده و نساءه و أحرق بيوته و قتل من عربانه كثيرا، فأرسل نعيير يطلب من نائب حلب أولاده و نساءه الذين أسرهم فأرسل نائب حلب يقول له:

ما أطلق لك أولادك و نساءك حتى تسلمنا منطاش. و كان منطاش قد تزوج من بنات نعيير و استنسل منهم. فلما رأى نعيير أن السلطان و نائب حلب عليه و قد نهبوا أمواله و مواشيه و أسروا أولاده و نساءه، قصد أن يرضى السلطان بإمساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان، فندب نعيير إلى منطاش أربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجرا شق به بطنه فغشى عليه فحملة العبيد و أتوا به إلى نعيير فقيده و أرسله إلى نائب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٣

حلب ثم حمل إلى القاهرة، و جعل الموكل بحمله يعاقبه و يعصره و يقرره على الأموال التي غضبها فلم يقر بشيء، و دخل عليه النزاع فقطع رأسه و وضعه في علبة و حملة إلى السلطان في مصر ثم أرسل السلطان إلى نعيير خلعة و أفره على عادته أمير آل فضل. قال ابن إياس، و عنه أخذنا هذه الحوادث: فما صدق الناس بأن فتنه منطاش قد خدمت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنه أخرى، فوردت الأخبار بأن تيمور لنك أخذ تبريز و شيراز، و ركب برقوق إلى الشام و جاءه في حلب قاصد من عند ابن عثمان و معه مطالعات مضمونها أن يكون هو و الظاهر يدا واحدة على دفع تيمور لنك فأجابه الظاهر إلى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره، ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام و على يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان. فلما أقام الظاهر بحلب بلغه أن أعلام عسكر تيمور لنك قد وصلت إلى البيرة. ثم بلغه أن تيمور لنك رجع إلى مملكته، فلما تحقق ذلك عاد هو إلى مصر. و في سنة (٧٩٩) أخذ عسكر تيمور لنك مدينة أرزنجان و قتل أهلها و نهب ما فيها، فلما بلغ سلطان مصر و الشام ذلك أرسل إلى نوابه في الشام أن يتوجهوا إلى شاطئ الفرات فخرجوا كلهم و أقاموا هناك، و كانت أرزنجان من جملة الأصقاع التي خطب بها للملك الظاهر برقوق كما خطب له في تبريز و الموصل و ماردين و سنجار و دوركي، و ضربت السكة باسمه في هذه الأماكن.

و في سنة (٨٠١) تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان سكان مصر و الشام و وصلت طلائعه إلى الابليستين، و هو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربتة و الخروج عليه، و أن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو، ثم ظهر أن ابن عثمان وصل إلى ملطية و ملكها و لم يشوش على أحد من أهلها و أمر عسكره بأن لا ينهبوا لأحد من الرعية شيئا، فأقام بملطية أياما ثم رجع إلى مملكته فبطل أمر التجريدة عليه.

وفاء برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج على الملك:

و في سنة (٨٠١) توفى الظاهر برقوق و تولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٤

و له من العمر نحو اثنتي عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام، كثر طمع القريب و البعيد في اكتساحها. و كان من ذلك الحظ الأكبر لتيمور لنك حتى إنه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح و أعطى من بشره بذلك خمسة عشر ألف دينار، و تهيأ للمسير إلى الشام فجاء إلى بغداد و أخذها ثانية.

و في سنة (٨٠٢) خامر نائب الشام و أظهر العصيان و أطلق من كان مسجوناً من الأمراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب و كان اسمه تنم عسكرا عظيما من الشام و قصد نحو الديار المصرية و وصل أوائل عسكره غزة، فجيش الملك الناصر فرج و سار إلى الشام، فلما وصل كان أقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو و نائب حماة و نائب صفد إلى قتال الملك فدهش النواب، فكان أول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد. فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان- و كان مع تنم نائب الشام نواب طرابلس و

حلب و حماة و صنفد و كثير من العربان و ظن نفسه أنه أصبح سلطانا- خامر الجميع على تنم نائب الشام و توجهوا إليه في غزوة فملك السلطان غزوة و بلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو و بقيه الأمراء و أتوا إلى الرملة فصار السلطان في غزوة و هم في الرملة، فراسلهم السلطان في الصلح فأبوا فتلقى العسكران على مكان يسمى الحبطين فكان بينهم وقعة عظيمة كسر بها تنم و أمسك و احتاطوا على بركه و دوابه، و قبض الناصر فرج على جملة من الأمراء الذين خامروا عليه و فيدهم و حبسهم في قلعة دمشق. و دخلها في موكب عظيم و قدامه تنم نائب دمشق. و هو مقيد راكب على كديش أبلق و معه عشرة من أمراء دمشق و هم في قيود فحبسهم في القلعة، ثم قتل و خنق عدة أمراء منهم.

الحرب الأولى مع تيمور لنك:

و في هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمور لنك في وقعة صاحب بغداد القان أحمد بن أويس و قرا يوسف أمير التركمان، فلما انكسر التتر أتوا ملطية و كانوا نحو سبعة آلاف إنسان فأرسلوا إلى نائب حلب يقولون له عين لنا مكانا ننزله، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو و نائب حماة فتوجهوا إلى عسكر تيمور لنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة و قتل من عسكر خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٥

حلب جماعة فأمر السلطان نواب دمشق و صنفد و طرابلس بأن يجمعوا العساكر و يتوجهوا إلى حلب يقيمون بها، فأرسل تيمور لنك إلى دمرdash نائب حلب يعده بأن يقيه على نيابته بشرط أن يمسك سودون نائب الشام، فأطلع دمرdash على ذلك سودون فوثب على الرسول فضرب عنقه، فلما بلغ ذلك تيمور لنك نازل حلب، و لكن تيمور لنك إذا تظاهر الشراكسة بالقوة أمامه يعرف ما تندمج عليه نفوسهم و تصل إليه قرائحهم، و إذا انكسر له فيلق صغير لم يكن إلا على أتم المعرفة بما عند من يريد فتح ديارهم، و كان له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها و التي لم يملكها، فكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها و يكتابونه بجميع ما يروم، فلا يتوجه إلى جهة إلا و هو على بصيرة من أمرها، و بلغ من دهائه أنه كان إذا أراد قصد جهة جمع أكابر الدولة و تشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينه حذرها و يأمن غيرها، فإذا ضربوا النفير و أصبحوا سائرين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين، فيألى أن يصل الخبر الثاني يكون دهم هو الجهة التي يريد و أهلها غافلون.

و ذكر ابن حجر أنه كان ابتداء حركة تيمور لنك إلى البلاد الشامية في سنة اثنتين و ثمانمائة. و أصل ذلك أن أحمد بن أويس صاحب بغداد ساءت سيرته و قتل جماعة من الأمراء و عسف على الباقين، فوثبوا عليه فأخرجوه منها، و كاتبوا نائب تيمور لنك بشيراز أن يتسلمها فتسلمها، و هرب أحمد إلى قرا يوسف التركمانى بالموصل فسار معه إلى بغداد فالتقى به أهل بغداد فكسروه، و استمر هو و قرا يوسف منهزمين إلى قرب حلب، و قيل بل غلب على بغداد و جلس على تخت الملك، ثم صار صحبة قرا يوسف فوصلا جميعا إلى أطراف حلب و سألا أن يطالع السلطان بأمرهما فكاتب أحمد بن أويس يستأذن في زيارته مصر، فأجيب بتفويض الأمر إلى النائب فخشى دمرdash نائب حلب أن يقصد هو و قرا يوسف حلب فسار نائب حلب و معه طائفة قليلة منهم نائب حماة ليكبس أحمد بن أويس بزعمه، فكانت الغلبة لأحمد فانكسر دمرdash و قتل من عسكره جماعة، و رجع منهزما و أسر نائب حماة و فدى بستمائة ألف درهم، ثم جمع نعيم و النائب ببهنسى جماعة و التقوا مع أحمد بن أويس

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٦

فكسروه و استلبوا منه سيفا يقال له سيف الخلافة و صحفا و أثاثا كثيرة.

فوصلت الأخبار إلى القاهرة فسكن الحال بعد أن كان أمر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمرdash و أرسل بريديا إلى الشام بالتجهيز إلى حلب.

تيمور لنك على أبواب حلب:

وصل تيمور لنك بعد فتح عيتتاب إلى الباب و بزاعا بالقرب من حلب و أرسل إلى نائب حلب قاصدا و معه المكاتبات من تيمور لنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب. و ذكر ابن حجر أن كتاب تيمور لنك إلى نائب حلب جاء فيه: إنا وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحليية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعنى الظاهر، و بلغنا أمر الهند و ما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم فأظفرنا الله تعالى بهم، ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه فشدنا بسيواس و غيرها من بلاده ما بلغكم، و نحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريينا أطمش و إن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم و السلام.

حق نائب حلب و أمر بضرب أعناق قصاد تيمور لنك، فاضطربت عند ذلك أحوال مدينة حلب و حصنوا سورها بالمدافع و المكاحل و المقاتلين، و قد ارتكب نائب حلب خطأ فاحشا بقتل الرسول، طانا و جماعته من الحلبيين أن لهم قوة تقاوم قوة تيمور لنك. قال بعض المؤرخين: لما كان أهل حلب و صاحبها يتشاورون في دفع عادية تيمور عنهم قال نائب طرابلس: إننا نظير إلى الآفاق أجنحة البطائق إلى الأعراب و الأكراد و التراكمه فيتسلطون عليه من الجوانب. و في ذلك دليل آخر على جهل أمراء الشام بقوة تيمور لنك و عجزهم عن كشف أخبار جيوشه و تقدير مبلغ قوته. و ذكر بعض المؤرخين أن عسكر تيمور لنك كان لما أسر سلطان العثمانيين أربعمائه ألف فارس و ستمائه ألف راجل و قيل: إن ديوان تيمور اشتمل على ثمان مائة ألف مقاتل.

لما بلغ تيمور لنك ما فعله الحلبيون بقصاده زحف إلى قرية حيلان و أحاط بمدينة حلب و نهب ما حولها من الضياع فخرج عساكر حلب و سائر النواب

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٧

بعساكرهم، و خرج لقتال تيمور حتى النساء و الصبيان من أهل حلب، و أوقعوا مع تيمور فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي، و قد دهمتهم عساكر تيمور كأموال البحر المتلاطمة، فلم تثبت معهم عساكر حلب و ولوا على أعقابهم مدبرين إلى المدينة، و قد داست حوافر الخيل أجساد العامة، و كان احتمي بالمزارات و المساجد الجم الغفير من النساء و الأطفال، فدخل التتر إليهم و أسروهم و قنروهم بالحبال و أسرفوا في قتل النساء و الرجال، و صارت الأبقار تفتض في المساجد و آباؤهن يشاهدونهن، و لم يرعوا حرمة الجوامع و أصبحت كالمجزرة من القتلى و استمر ذلك أربعة أيام.

و في كنوز الذهب أن جيش تيمور لنك لما دخل إلى حلب نهب و أحرق و سبي و قتل و صاروا يأخذون المرأة و معها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها و يفعلون بها ما لا يليق ذكره، فلجأ النساء عند ذلك إلى جامعها ظنا منهن أن هذا يقينهن من أيدي الكفرة و صارت المرأة تظلي وجهها بطين أو بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسننها، فيأتي عدو الله إليها و يغسل وجهها و يجمعها في الجامع. قال: و حكى بعض من حضر الوقائع بأن تيمور عرض الأسرى من ديار الشام و نواحيها فكانوا ثلاثمائه ألف أسير و ستين ألف أسير.

رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب فتزل من القلعة هو و بقية النواب، و أخذوا في رقابهم مناديل و توجهوا إلى تيمور لنك يطلبون منه الأمان؛ فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر و ألبسهم تيجانا مذهبة، و قال لهم:

أنتم صرتم نوابي، ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة، و كان فيها من الأموال و الذخائر و الحلبي و السلاح ما تعجب الفاتح من كثرته، حتى أخبر بعض أخصائه أنه قال: ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر، فاستنزلوا ما كان بها و هم في قيود و غدر بهم بعد أن أمنهم، و أخذ جميع ما كان فيها من الأموال و المتاع ثم خرب القلعة و أحرق المدينة. و استمر مقيما على حلب نحو شهر، و عسكره ينهبون القرى التي حول المدينة و يقطعون الأشجار التي بها و يهدمون البيوت، و قد أسرفوا في القتل و

نهب الأموال، و صارت الأرجل لا- تطأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتلى، حتى قيل: إنه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن، دور كل مثذنة نحو عشرين ذراعاً، و صعودها

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٨

فى الهواء مثل ذلك، و جعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح، و تركوا أجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب و الوحوش. فكان عدة من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب من صغار و كبار و نساء و رجال نحو من عشرين ألف إنسان، عدا من هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة و هلك من الجوع و العطش أكثر من ذلك- هذا ما قاله ابن تغرى بردى و ابن حجر و ابن إياس. و قال ابن حجر: إن أعظم الأسباب فى خذلان العسكر الإسلامى ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من إلقاء الفتنة بين التركمان و العرب حتى أعانه بعض التركمان على أموال غير فنهبها فغضب نعيم من ذلك و سار قبل حضور تيمور لنك فلم يحضر الواقعة أحد من العرب.

و قال بعضهم: إن دمرداش كان باطن تيمور لكثرة ما كان تيمور لنك خدعه و مناه.

تيمور لنك على حماة و سلمية و حمص:

و وصل تيمور لنك إلى حماة و سلمية فأرسل جماعة من عسكره إلى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا فى واد بين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب و الحجارة فولوا مدبرين. و ذكروا أن ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكره و جاء حلب بعد رحيل تيمور لنك و طرد من بها من عساكره بحلب. و فعل تيمور لنك بأهل حماة كما فعل بأهل حلب من القتل و النهب و أحرق معظمها، و لم تطل يده إلى حمص فوهبها كما قال لخالد بن الوليد. قال ابن حجر: و ذكر بعض من يوثق به أنه قرأ فى الحائط القبلى بالجامع الأموى النورى بحماة منقوشا على رخامة بالفارسية ما نصه: إن الله يسر لنا فتح البلاد و الممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد، فحاورنا سلطان مصر و الشام فراسلناه لنتم المودة فقتلوا رسلنا، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من أصلنا فسجنوهم، فتوجهنا لاستخلاص قريتنا من أيدي مخالفينا و اتفق فى ذلك نزولنا بحماة فى العشرين من شهر ربيع الآخرة.

تيمور لنك على دمشق:

و جاء تيمور لنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ) فى قطنا و إقليم البلان

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٦٩

ميسنون و قوى عزمه على فتح دمشق لما بلغه أن الملك فر منها إلى مصر، فأرسل تيمور لنك إلى نائب دمشق رسولا من قبله فقتله قبل أن يسمع كلامه. جرى فى ذلك على ما جرى عليه نائب حلب فزاد تيمور لنك حنقا. و من الغريب أن نائبى حلب و دمشق لم يقدر قوة تيمور لنك حق قدرها و هى منهما على قيد غلوة و ظنا أنهما باعصامهما فى قلعتى المدينة، و بالقليل ممن عندهما من العسكر و أحداث البلد ينسطيعان أن يتغلبا على جيوش تيمور لنك المؤلفه كما قال عرشاه: من رجال توران، و أبطال إيران، و نمور تركستان، و فهود بلخشان، و صقور الدشت و الخطا، و نسور المغول و كواسر الجتا، و أفاعى خجند، و ثعابين أبدكان، و هوام خوارزم، و جوارح جرجان، و عقبان صغانيان، و ضواري حصار شادمان، و فوارس فارس، و أسود خراسان، و ضباع الجبل، و ليوث مازندران، و سباع الجبال و تماسيح رستمدرار و طالقان، و أهل قبائل خوز و كرمان، و طلس أرباب طيالس أصبهان، و ذئاب الرى و غزنة و همدان، و أفيال الهند و السند و ملتان، و كباش ولايات اللور و تيران، و شواهد الغور، و عقارب شهرزور، و حشرات عسكر مكرم و جندى سابور.

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات و وحدانا

مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم، و فواعل التراكمه و الأوباش و الحشم، و كلاب النهاب من رعا العرب و همج العجم، و حثالة عباد الإنسان، و أنجاس مجوس الأمم، ما لا يكتفه ديوان، و لا يحيط به دفتر حسابان اه.

غلطه ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه و من معه من المتعصبه و المتلصصه و أرباب الدعاره من الشطار و الأحداث الأغيار، قضت على أعظم مدينه في الأرض كانت في غابر الأيام. كان بين أهل دمشق و بين عسكر تيمور لنك في أول يوم واقعه فقتل من عسكر تيمور لنك نحو ألفي إنسان، فأرسل يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم، يمشى بينه و بين أهل دمشق في الصلح، فلما أتى قاصد تيمور لنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلونه فوقع الاختيار أن يرسلوا القاضي تقى الدين بن مفلح الحنبلي، فإنه كان إنسانا طلق اللسان يعرف بالتركي و باللسان العجمي، فأرخوه من أعلى السور بسرياق ضخمة، و معه خمسة أنفس من أعيان دمشق، فغاب عند

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٠

تيمور لنك ساعه ثم رجع من عنده فأخبر بأن تيمور لنك تطف معه في القول و قال له: هذه بلد فيها الأنبياء و قد أعتقها لهم. و شرح من محاسن تيمور لنك شيئا كثيرا و جعل يخذل أهل الشام عن قتاله و يرغبهم في طاعته، فصار أهل البلد فرقتين فرقه ترى ما رآه ابن مفلح و فرقه ترى محاربتة، و كان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ثم غلب رأيه و رأى أصحابه، فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب قلعه دمشق و قال لهم: إن فعلتم ذلك أحرقت البلده جميعها، و لكن نائب القلعه لما رأى عين الغلب سلم إليهم القلعه بعد ستة و عشرين يوما قال: ثم قبض تيمور لنك على ابن مفلح و أصحابه و أودعهم في الحديد.

وصف أفعال تيمور لنك في دمشق:

ذكر ابن تغرى بردى أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينه و الاستعداد لقتال العدو، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون من حماه فعظم خوف أهلها، و هموا بالجلء فمنعوا من ذلك، و نودى من سافر نهب فعاد إليها من كل خرج منها، و حصنت دمشق و نصبت المجانيق على قلعتها و نصبت المكاحل على أسوارها و استعدوا للقتال، ثم نزل تيمور لنك بعساكره على قطنا، فملأت الأرض كثرة، و ركب طائفه منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان و الأمراء قد تهيأوا للقتال، و صفت العساكر السلطانيه فبرز إليهم التمرية و صدموهم صدمه هائله، و ثبت كل من العسكرين ساعه فكانت بينهم وقعه انكسرت فيها ميسره السلطان، و انهزم العسكر الغزوى و غيرهم إلى ناحيه حوران و جرح جماعه، و حمل تيمور لنك بنفسه حملة عظيمه شديده ليأخذ دمشق، فدفعته ميمنه السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه، و نزل كل من العسكرين بمعسكره و بعث تيمور لنك إلى السلطان في طلب الصلح و إرسال أطمش أحد أصحابه إليه و أنه هو أيضا يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في واقعه حلب. ثم هرب الملك لأنه بلغه أنهم يسلطون غيره في مصر فارا بجماعته.

و كان اجتمع في دمشق خلائق كثيره من الحلبيين و الحمويين و الحمصيين و أهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور، ما عدا العساكر الدمشقيين الذين

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧١

تخلفوا في دمشق و لما أصبحوا و قد فقدوا السلطان و الأمراء و النائب غلقوا أبواب المدينه، و ركبوا الأسوار و نادوا بالجهاد، فتهيا أهل دمشق للقتال و زحف عليهم تيمور لنك بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال، و ردوهم عن السور و الخندق، و أسروا منهم جماعه ممن اقتحم باب دمشق، و أخذوا من خيولهم عدة كبيره و قتلوا منهم نحو الألف و أدخلوا رؤوسهم إلى المدينه، و لما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح.

و طلب تيمور الطفرات أى التسعه الأصناف من المأكول و المشروب و الملبوس و غيره و هذه كانت عادته في كل بلد يفتحه صلحا.

فأجابه الدمشقيون إلى ما طلب بإقناع ابن مفلح لهم، و تقرر أن يجبي تيمور من دمشق ألف ألف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم، فلم يرض تيمور و قال: إن المطلوب بحساب له عشرة آلاف ألف دينار أو ألف تومان و التومان عشرة آلاف دينار من الذهب. قال ابن حجر: و استقر الصلح على ألف ألف دينار فتوزعت على أهل البلد ثم رجع تيمور فتسخطها و قال: إنه طلب ألف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم، و لما أخذه ابن مفلح و حمله إلى تيمور قال هذا لابن مفلح و أصحابه: هذا المال لحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف دينار و قد بقي عليكم سبعة آلاف دينار (٩) و ظهر لى أنكم عجزتم، ثم سلمت أموال المصريين و كراعهم و سلاحهم و أموال الذين هربوا من دمشق، و لما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما فى البلد من السلاح فأخرجوه، فلما فرغ من ذلك، قبض على ابن مفلح و رفقته و ألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق و حاراتها و سككها، فكتبوا ذلك و دفعوه إليه، ففرقه على أمرائه و قسم البلد بينهم فساروا إليها بمماليكهم و حواشيهم، و نزل كل أمير فى قسمه و طلب من فيه و طالبهم بالأموال فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، و جرى عليهم من أنواع العذاب و هتك الأعراس شىء تقشعر منه الجلود، و استمر هذا البلاء تسعة عشر يوما فهلك فى هذه المدة بدمشق بالعقوبة و الجوع خلق لا يعلم عددهم، ثم أمر أمراءه فدخلوا دمشق و معهم سيوف مسلولة مشهورة و هم مشاء، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور و غيرها، و سبوا نساء دمشق بأجمعهن، و ساقوا الأولاد و الرجال

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٢

و تركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، و ساقوا الجميع مربوطين فى الجبال، ثم طرحوا النار فى المنازل و الدور و المساجد، و كان يوما عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى كاد لهيب النار أن يرتفع إلى السحاب، و عملت النار فى البلد ثلاثة أيام لباليها، ثم رحل تيمور عنها بعد أن أقام ثمانين يوما و قد احترقت كلها و سقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق و زالت أبوابه و تقطر رخامه و لم يبق غير جدره قائم، و ذهبت مساجد دمشق و دورها و قياصرها و حماماتها و صارت أطلالا بالية و رسوما خالية و لم يبق بها إلا أطفال. قال ابن تغرى بردى: و لقد ترك المصريون دمشق أكله لتيمور، و كانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا و أعمرها. قال بهاء الدين البهائى يرثى دمشق المظلومة و يصف ما حلّ بها من التتر فى سنة ثلاث و ثمانمائة و يذكر حلب و حماة:

لهفى على تلك البروج و حسنها حفت بهن طوارق الحدثان

لهفى على وادى دمشق و لطفه و تبدل الغزلان بالثيران

و شكا الحريق فؤادها لما رأت نور المنازل أبدلت بدخان

جنتها فى الماء منها أضرمت فعجبت للجنات فى النيران

كانت معاصم نهرها فضية و الآن صرن كذائب العقيان

ما ذاك إلا تركهم و لجت بها فتخضبت منها بأحمر قان

كرهت جداولها حوافر خيلهم فتسابت هربا كخيل رهان

خافت خدود الأرض من أفعالهم فتلثمت بعوارض الريحان

لو عاينت عيناك جامع تنكزو البركتين بحسنا الفتان

و تعطش المرجين من أورادها و تهدم المحراب و الإيوان

لأت جفونك بالدموع ملونادما حكى اللولو على المرجان

قطرات جفن ترجمت عن حرقى فكأنهن قلائد العقيان

أبنى أمية أين يمن وليدكم و المغل تفتل فى ذرى الأركان

شربوا الخمر بصره حتى انتشوا ألقوا عرابدهم على النسوان

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٣

و منها:

لهفى على كتب العلوم و درسها صارت معانيها بغير بيان
أعرو سنا لك أسوء بحماتنا فى ذا المصاب فأتما أختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها فاستبدلت من عزها بهوان
ناحت نواعير الرياض لفقدهم فكأنها الأفلاك فى الدوران
حزنى على الشهباء قبل حماتها هو أول و هى المحل الثانى
لا تدعى الأحزان يا شقراء نالسبق للشهباء فى الأحزان
رتعت كلاب المغل فى غزلانها و تحكمت فى الحور و الولدان
لهفى عليك منازل و منازلها مقام فردوس و باب جنان
ثم رجع ورثى دمشق فقال:
لم أدر من أبكى و أندب حسرة للقصر للشرفين للميدان
للجبهة الغراء أم خلخالها للمزة الفيحا أم اللوان

الخراب الأعظم و أخلاق تيمور و نجاه فلسطين منه:

و على ما منيت به دمشق من قتل سكانها و سبى نساءها و أولادها، و إحراق مصانعها و بيوتها، و استخراج أموالها و طرائفها، أصابتها من تيمور مصيبة لا- تقل عن تلك فى إرجاعها القهقرى و إضعافها إضعافا لا يجبر كسره فى قرون و إليك ما قاله ابن عربشاه فى تفصيل هذا الهول العظيم: و بينا كان رجال يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو يتطلب الأفاضل و أصحاب الحرف و الصنائع، و استمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام، و ارتحل و جماعته و قد أخذ من نفائس الأموال فوق طاقتهم، فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب و المنازل، و ذلك لكثرة الخمل و قلة الحوامل، و أصبحت القفار و البرارى، و الجبال و الصحارى، من الأمتعة و الأقمشة، كأنها سوق الدهشة، و كأن الأرض فتحت خزائنها، و أظهرت من المعادن و الفلزات كامنها، و أخذ تيمور كل ماهر فى فن من الفنون بارع من النساجين و الخياطين و الحجارين و النجارين و الاقباعية و البيطرة و الخيمية و النقاشين و القواسين و البازدارية و بالجملة أهل أى فن كان، و أخذ جملة من العلماء و الأعيان و النبلاء، و كذلك كل أمير من أمرائه

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٤

و زعيم من زعمائه، و أخذ من الفقهاء و العلماء، و حفاظ القرآن و الفضلاء، و أهل الحرف و الصنائع، و العبيد و النساء و الصبيان و البنات، ما لا يسعه الضبط.

و لما رحل تيمور عن دمشق، و قد أصبحت أطلالا لا مال و لا رجال و لا مساكن و لا حيوان، صار من بقى فيها من عسكر السلطان و من أهلها يجتمعون و يتراقون، و يخرجون من دمشق إلى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان و العشير، و ينهبون ما معهم و يعرفونهم و لم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم، فجرى عليهم من العربان و العشير ما لم يجز عليهم من عسكر تيمور، فذهبت حرمة المملكة و لم يبق للسلطان قيمة و لا للترك حرمة، فعزم السلطان الناصر على العود إلى دمشق، ثم بلغه أن تيمور رحل عن دمشق و هو مريض فعدل عن حملته، و أرسل تيمور إلى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى، و يطلب قريبه الذى كان أسر فى أيام الظاهر برقوق، و أنه إذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى، فأطلقه و كساه السلطان و أحسن إليه، فلما وصلوا إلى تيمور أكرمهم و قبل مراسيم السلطان و تفرش و بكى و اعتذر مما و قر منه و قال هذا كان مقدرا.

رحل تيمور عن دمشق و لم يتعدها إلى فلسطين، و كان علماء القدس انتدبوا رجلا و جهزوه بمفاتيح الصخرة إلى تيمور لما بلغهم أخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع.

و كانت أكثر المدن الصغرى فى أواسط الشام قد خضعت و صافت بحكم الطبيعة و منها طرابلس أحضر له منها مال و قد اجتاح بعلبك و نهبها، و لما وصل الجبول فى عودته لم يدخلها و أمر بتخريبها و إحراقها، و حرق حلب مرة ثانية و هدم أبراج القلعة و أسوار المدينة و المساجد و الجوامع و المدارس، و قتل و أسر كل من وجدهم فى طريقه، و أخذ من كان فى قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق موسى الأنصارى و عمر بن العديم و جماعة معهما، و أخذ بقيتهم فمنهم من هرب من الطريق، و منهم من وصل معه. قفل تيمور راجعا بعد أن أذاق الشام كأس الذل و الحمام، و ربما إذا جمعت جملة تخريباته لا يتأتى وقوع مثلها فى مئات من الأعوام عملها بجيشه الجرار فى عشرات من الأيام و قال: إن ما فعله كان مقدرًا فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين، بيد أنه كان مغرى

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٥

بغزو المسلمين و التخلي عن غيرهم، صنع ذلك فى الروم و الهند و غيرهما، و لكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تفانى فى الوصول إلى غرض، و يستحيل بعد أن فتحت عليه الأقاليم و فتح ثلث آسيا تقريبا بالقهر و السيف و جعل جيشه مؤلفا كالجيش العثماني من جميع العناصر التى كانت تحت حكمه أن لا يكون على شىء من العلم و بعد النظر. و كان يصحب معه فى رحلاته زمرة من العلماء المحققين.

و لو قدر للدولة أن يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة، و يحالف ابن عثمان صاحب الروم و غيره من أمراء الشرق الذين فاضوا ملك مصر و الشام فى أمر تيمور قبل انهيار جمهرة جيوشه على ديارهم و نظموها قواهم و استعملوا اللين تارة و الشدة أخرى، و لم يفتحوا للفتاح العظيم بابا من أبواب الحجج التى يحجهم بها فى عرف السياسة و الفتح، لأمنت هذه الديار عادية تيمور أو لكان اكتفى بمعااهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل بسلام، لأن تيمور يعرف بأن مملكته أوسع مجالا يتيسر بقاؤها لآله لقربها من مهد عصيته و دار ملكه.

بيد أنه لم يكن فى مصر و لا الشام على ذاك العهد رجل سياسى بعيد النظر و الغور فى السياسة كالظاهر برقوق و الظاهر بيبرس مثلا فكان ما كان لأن الديار أصبحت بلا راع يرعاها، و غدا الحكم لمماليك الطبقة الثانية من عماله، و لمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون أمتهم بجهلهم إلى الخراب، و الغالب أن السبب فى رجوع تيمور انتشار الجراد حتى أكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم، و بهذا رأى قال ابن حجر فذكر أن رحيل تيمور إنما كان لضيق العيش على من معه فخشى أن يهلكوا جوعا. و قيل: إن تيمور أراد أن يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق فلما عادوا قصوا عليه ما رأوه و هو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم: إن مصر لا تفتح من البر بل تحتاج إلى أسطول لتفتح من البحر و لذلك صرف النظر عن فتحها، و هكذا نجت مدن الجنوب فى الشام من تخريبه و كذلك مصر و ما إليها من بلاد إفريقيا و سلمت الدولة الشركسية.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٦

عهد المماليك الاخير «من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢»

البلاد بعد الفتنة التيمورية و مخامرة العمال:

خرجت حلب و حماة و دمشق خصوصا من بين مدن الشام بعد فتنة تيمور كالهيكل من العظم لا لحم و لا دم، و أصيبت بنقص فى الأنفس و خراب فى العمران، يبكى لها كل من عرف ما كانت عليه من السعادة قبل تلك الحقبة المشؤومة، و لم يقبض للقطر سلطان

عاقل قوى يداوى جراحاتها و ينهض بها نهضةً تنسيها آلامها. و لما رحل تيمور عن دمشق نصب صاحب مصر المقر السيفى تغرى بردى فى نيابة دمشق و رسم له أن يخرج إلى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تيمور فى دمشق، و نصب نوابا آخرين على نيابات الشام ممن كانوا فى أسر تيمور فأطلقهم، مثل نواب الكرك و طرابلس و حماة و بعلبك و صنفد و غيرهم، و أمرهم أن يعمرؤا البلاد المخربة. و هيهات أن يعمر فى قرن ما خربه تيمور فى ثلاثة أشهر.

و بعد حين رجم أهل دمشق (٨٠٤) نائب. الشام تغرى بردى و أرادوا قتله فهرب إلى نائب حلب، فلما بلغ سلطان مصر ذلك أرسل تقليدا إلى أقبغا الجمالى بناية الشام. و خامر أمير غزة و خرج عن الطاعة و اسمه صرق، فقتل فى المعركة، و خرج أيضا عن طاعة نائب طرابلس شيخ المحمودى. و خرج دمرداش نائب حلب إلى الأمير دقماق المحمدى الذى خلفه فى نيابته و أوقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش.

و فى سنة (٨٠٦) نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة أيام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض إليهم مسرعا فانهمزوا فأوقع بهم و كان ذلك مبدأ سعادته.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٧

ثم توجه الفرنج إلى بيروت و كانوا فى نحو من أربعين مركبا فواقعهم دمرداش و من معه من الجند و المطوعة و قتل بعض الناس من الفريقين و جرح الكثير، و كان نائب الشام بعلبك فجاءه الخبر فتوجه من وقته و أرسل إلى العسكر يستنجد به و مضى على طريق صعبة إلى أن وصل إلى طرابلس ثم توجه من فوره إلى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها و أحرقوها و كان أهلها قد هربوا إلى الجبال إلا-المقاتلة منهم، فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر النائب بإحراق قتلى الفرنج، ثم توجه إلى صيدا و معه العساكر فوجدهم فى القتال مع أهلها و لم يتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس، فحمل على الفرنج فكسروهم و فروا فى مراكبهم راجعين إلى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض أصحاب النائب فغلبوه على الماء و أخذوا حاجتهم و توجهوا إلى جهة طرابلس.

و دامت الفوضى فى القطر حتى خامر النواب إلا قليلا فى الشام (٨٠٦) و أصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر و فرقة عليه إلى أن خلع سنة (٨٠٨) و فى سنة (٨٠٦) أوقع نائب الشام بعرب آل فضل و كان كبيرهم على بن فضل قد قسم الشام سنة ثلاث و ثمانى مائة فطمع أن يفعل ذلك هذه السنة، فقبض عليه النائب و نهب بيوته، و وقع بين نعيم أمير عرب آل فضل و بين حجا بن سالم الدوكارى وقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم و انكسر عسكره و غلب نعيم و أرسل برأس ابن سالم إلى القاهرة. و كان عسكر ابن سالم طاف فى أعمال حلب كعزاز و غيرها و أفسد فيها الفساد الفاحش، و كان وقع بينه و بين نعيم قتال بين جعبر و ابلستين و استمر أياما إلى أن قتل ابن سالم. وقع بين دمرداش و التركمان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش. و فى أيام الناصر فرج نصب نوروز الحافظى على دمشق و جكم العوضى نائبا على حلب، فلما توجهها إلى عملهما أظهر كل منهما العصيان و المخامرة على السلطان فتسلطن جكم العوضى بحلب و قبل الأمراء الأرض بين يديه و تلقب بالملك العادل و وضع يده على البلاد الحليية و كتب إلى نواب الشامات فأطاعوه إلا القليل منهم، و أخرج أوقاف الناس و جعلها إقطاعات و فرقها مثالات على عسكر حلب و صار يحكم من الشام الى الفرات فانترعت يد الناصر من الديار الشامية و الحليية و صار حكمه لا يجاوز غزة.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٨

و فارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من أمرائها و رفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع إليهم العسكر و تحالفوا على طاعة السلطان، و قام بتدبير أمور حلب الأمير يونس الحافظى و امتدت أيدي عرب ابن نعيم و التركمان إلى معاملة حلب فقسموها و لم يدعوا لأحد من الأمراء و الأجناد شيئا. و مدحه المؤرخون بأنه كان يتحرى العدل و يحب الإنصاف، و لا يتمكن أحد معه من الفساد.

و فى سنة (٨٠٧) حاصر دمرداش نائب حلب أنطاكية و بها فارس ابن صاحب الباز التركمانى فأقام مدة و لم يظفر بها بطائل و كان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده إلى طرابلس فغلب عليها ثم توجه إلى حلب فنازلها و بها دمرداش فالتقى و جرى بينهما قتال فانكسر

دمرداش و خرج من حلب فركب البحر إلى القاهرة، و ملكها جكم ثانية ثم خرج إلى جهة البيرة و غزا التركمان و أسر منهم جما كبيرا. و التف نوروز الحافظى على شيخ محمودى نائب طرابلس و أظهر العصيان و التف عليهما جماعة من النواب و صاروا يأكلون الأقاليم الشامية و الحلبية من غزاة إلى الفرات و ليس بيد الملك الناصر سوى مصر. و خربت صفد و أعمالها خرابا شنيعا و ذلك لأن شيخا محمودى و من معه من النواب و التركمان حاصروها مدة لأن واليها بكتمر جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر. و خرج نعيم بن مهنا الحيارى البدوى (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا العساكر و توقعوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانزمت عساكر الشام و أمراء غرب بيروت و استولت العرب على دمشق و زادوا فى الجور و الضرب. و استولى التركمان على كثير من العمالات بقيادة رأسهم اياس و وصلوا إلى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها.

وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان:

و فى سنة (٨٠٨) كانت الوقعة العظمى بين جكم نائب حلب و التركمان و رئيسهم فارس و يدعى اياس بن صاحب الباز صاحب أنطاكية و غيرها، و كان قد غلب على أكثر الأصبغاق الشمالية و دخل حماة و ملكها، و عسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجاله فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة، و عظم قدر جكم بذلك و طار صيته، و وقع رعبه فى قلوب التركمان خطط الشام، ج ٢، ص: ١٧٩

و غيرهم، ثم إنه واقع نعيروا و من معه من العرب فكسره، ثم توجه جكم إلى أنطاكية و أوقع بالتركمان فسألوه الأمان و أن يمكنهم من الخروج إلى الجبال مواطنهم القديمة و يسلموا إليه جميع القلاع التى بأيديهم، فتقرر الحال على ذلك و أرسل إلى كل قلعة واحدا من جهته و دخل إلى حلب مؤيدا منصورا، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازى بن أوزر التركمانى و كان بينهما عداوة فقتله و قتل ولده و جملة من جماعته. و كان قد استولى على معظم معامل حلب و معامل طرابلس فصار فى حكمه أنطاكية و القصير و الشجر و بغراس و حارم و صهيون و اللاذقية و جبلة و غير ذلك، فلما أحيط به تسلم جكم الكور و رجعت معامل كل بلد على ما كانت أولا.

و برز جكم إلى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز و جمعهم من التركمان فكسره كسرة ثانية و ضرب أعناق كثير منهم صبرا و قتل نعيروا و أرسل برأسه إلى القاهرة، و استعد نائب الشام لقتاله، و وصل دمرداش توقيع بنيابة حلب عوضا عن جكم من القاهرة، فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل إليهم المعجل بن نعيم طالبا ثار أبيه و كذلك ابن صاحب الباز طالبا ثار أبيه و أخيه، و كان معهم من العرب و التركمان خلق كثير، و وصل توقيع المعجل بن نعيم بإمرة أبيه و وصل نائب الشام و من معه إلى حمص و كاتبوا جكم فى الصلح و وقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر دمشق، و وصل إليها شيخ و دمرداش منهزمين، و كانت الواقعة فى الرستن ثم رحل نائب دمشق إلى مصر، و دخل جكم إلى عاصمة الشام و بالغ فى الزجر عن الظلم، و عاقب على شرب الخمر فأفحش، حتى لم يتظاهر بها أحد، و كانت قد فشت بين الناس.

ذكر هذا ابن حجر، و قال فى وفيات سنة (٨٠٨): إن فارسا صاحب الباز التركمانى كان أبوه من أمراء التركمان فلما وقعت الفتنة اللنكية جمع ولده هذا فاستولى على أنطاكية ثم قوى أمره فاستولى على القصير ثم وقع بينه و بين دمرداش فى سنة ست و ثمانى مائة فانكسر دمرداش، و كان جكم مع فارس ثم رجع عنه، فاستولى فارس على البلاد كلها و عظم شأنه، و استولى على صهيون و غيرها من عمل طرابلس، و صارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على أعمالهم، فلما ولى جكم ولاية حلب تجرد له و واقعه فهزمه و نهب ما معه

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٠

و استمر جكم وراءه إلى أن حاصره بأنطاكية سنة ثمان و ثمانى مائة، و لم تزل الحروب بينهما إلى أن طلب فارس الأمان فأمنه و نزل إليه و سلمه لغازى بن أوزر، و كان عدوه فقتله و قتل معه ابنه و جماعة منهم، و استنقذ جكم الأقاليم كلها من أيدي صاحب الباز و

هي أنطاكية والقصير والشجر وحارم وغيرها وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان.

و في سنة (٨٠٩) بعث شيخ إلى نابلس جيشا قبضوا على عبد الرحمن ابن المهتار وأحضره له إلى صفد فقتل بحضرته، و كان قد عصى بأخرة على الناصر، و اتفق شيخ و نوروز فأرسله إلى نابلس فصادر أهلها و بالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته. و وقعت وقعة بين شيخ و الحمزاوي عند حلبيين فقتل في المعركة أناس من الأمراء و قبض على الحمزاوي. و استولى تمرغا المشطوب على حلب و ذلك أنه لما هرب من الوقعة التي كانت بين جكم و بين قرابلك جاء مع طائفة من المغل إلى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان و حاصرها فأوقع بهم و كسرهم و دخل البلد و عصت عليه القلعة. و لما بلغهم قتل جكم سلموها فاستولى على ما بها من الحواصل و على ما بحلب أيضا من الخيول و المماليك المخلفة عن جكم. ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب و دخل السلطان دمشق و بنى ما كان هدم. و في سنة (٨٠٩) ثارت طائفة من المماليك و معهم عامة حلب على شركس المصارع.

و هكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الأول من القرن التاسع و كلما قوى أمير قتل رجال الأمير الذي كان قبله، و شأن الظلم في الرعايا عجيب، و المصادرات قائمة على ساق و قدم، و بالجملة فقد كانت الدولة التي تولت أمر مصر و الشام على حالة سيئة و كثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشهر معدودة، و ناهيك بهذا التبدل قال ابن تغري بردي: و كثرت المصادرات بدمشق و غيرها في أيام هذه الفتن (٨١٠) و أخرجت الأوقاف عن أربابها و خربت بلاد كثيرة بمصر و الشام، لكثرة التجاريد و سرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع. و قال ابن حجر: و فيها كملت عمارة قلعة دمشق و كان ابتداءها في العام الماضي و صرف على عمارتها مال كثير جدا، و ظلم بسببه أكثر الخلق من الشاميين و غيرهم. و بسط نوروز يده في المصادرات بدمشق

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨١

فبالغ في ذلك حتى إن بعض التجار كانوا يترحمون على تيمور و فرض على جميع الجهات مثلها، و تناول حتى الخانات و الحمامات و أرباب المعاش حتى انقطعت الأسباب و تعطلت الأرزاق.

و نازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها على بك بن خليل بن قراجا بن دلغادر و معه عدة من أمراء التركمان و عدة من أمراء العرب و نزلوها أياما و قاتلهم العوام و من بها، و كان بها يومئذ تمرغا المشطوب فدخلوا و لم يظفروا بطائل، و كان لعلى بك ولد محبوس بقلعة حلب فصانع أهل حلب أباه بإرساله مكرما فما أفاد ذلك وجد في الحصار و نازل المعجل بن نغير حماة و حاصرها و نهب على بك و من معه القرى التي حول حلب و جدوا في الحصار، و بالغ أهلها بالذب عن أنفسهم و اشتدوا للقتال و هان عليهم الأمر خشية على أموالهم و حريمهم بحيث أنهم كانوا كل يوم لا يرجعون إلا و قد أنكوا في التركمان نكايه كبيرة، و أوقع نوروز بالمعجل و من معه من العرب على حماة و كسرهم.

و جرت في هذه السنة وقعة في وادي عقيبة من كروم بعلبك بين أنصار السلطان و بعض أمراء المماليك الفارين من القاهرة فكاثرهم نوروز و قتل منهم و حملت رؤوسهم إلى مصر. و تصافى شيخ و نوروز بعد الخلاف و توجهوا بعسكرهما إلى إقليم ابن بشاره و نهبوه و هرب ابن بشاره. و قصد تمرغا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فبيتوه و كسروه و رجع منهزما، و نهب نوروز للعرب إبلا كثيرة فكبسوا عليها و استنقذوها و حاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق.

و جاء الأمير شيخ و الأمير نوروز من غزة في عساكر كثيفة (٨١١) فلما سمع الناصر بذلك خرج هو و الأمراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية و كان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الناصر و رجع إلى القاهرة و هو مهزوم، فتبعه شيخ و نوروز و دخلا إلى القاهرة، ثم قوى حال الناصر على شيخ و نوروز فكسرهما فرجعا إلى الشام مهزومين، و قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء و المماليك. و فيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم تنحى عنها، و أرسل السلطان تقليدا إلى شيخ نيابة الشام و تقليدا إلى دمرداش نيابة حلب، ثم عين نوروز إلى القدس بطالا، ثم كتب إلى دمرداش نائب حلب بالحضور إلى مصر و رسم

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٢

لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب و خامر شيخ بعد ذلك على السلطان فجرد إليه و رجع على غير طائل.

ثم إن نوروز قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ إلى دمشق و كان قد جمع من التركمان و العرب جمعا و سار من حلب فرجع نوروز فسبقه إلى دمشق، فتراسل شيخ و نوروز في الكف عن القتال و لم ينتظم لهما أمر، و صمم شيخ على أخذ دمشق و باتا على أن يباكرا القتال فأمر شيخ بإيقاد النيران في معسكره و استكثر من ذلك، و رحل جريده إلى سعسع فتزلها، و أصبح نوروز فعرف برحيله و سار نوروز إلى سعسع فلقى بها شيخا و هو في نفر قليل نحو الألف فالتقيا فانكسر نوروز و يقال: إنه كان معه أربعة آلاف نفس و لم يكن مع شيخ سوى ثلاثمائة نفس، و ركب شيخ أقفيتهم و دخل دمشق ثم رحل إلى ملطية و أرسل شيخ عسكرا و رحل نوروز إلى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكر شيخ بالتركمان بأنطاكية و أوقفوا بهم و استنقذوها منهم.

و ألزم النائب أهل دمشق بعمارة مساكنهم و الأوقاف التي داخل البلد و ضرب فلوسا جددا ثم نودي عليها كل مائة و أربعين بدرهم. و كتب الناصر إلى الشام بإسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان و تسعين إلى سنة ثنتي عشرة و في السنة التالية ألزم الناس في دمشق بعمارة ما خرب من المدارس.

و فيها توجه الدويدار إلى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام، فوصلت كشافه برديك إلى عقبه سحورا ثم نزل هو شقحب، فتأهب من بالقلعة بدمشق و خرج العسكر مع سودون و حمل هو على عسكر برديك فكسروهم ثم انهزم برديك على خان ذى النون و رجع إلى صفد. و اشتد الحصار على نوروز و دمرداش بحماة فقتل بينهما أكثر من كان معهما من التركمان و انضم أكثر التركمان إلى شيخ و وصل إليه المعجل بن نعير نجده له بمن معه من العرب فخيم بظاهر حماة، فوقع القتال بين الطائفتين و اشتد الخطب على النوروزية فمالوا إلى الخداع و الحيلة و لم يكن لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فيبينما الشيخية مطمئنين هجم النوروزية عليهم وقت صلاة الجمعة فاقتتلوا إلى قبيل العصر فكانت الكسرة على النوروزية و تفرق أكثر العساكر عن نوروز و لحق كثير منهم بشيخ، و كتب إلى دمشق فدقت بشائره و زينوا البلد و كبس أصحاب نوروز

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٣

المعجل بن نعير ليلا فأنجده شيخ و كتب دمرداش إلى الناصر يستنجده و يحثه على المجيء إلى الشام و إلا خرجت عنه كلها فإنه لم يبق بيده منها إلا غرة و صفد و حماة و كل من بها من جهته في أسوأ حال.

قال ابن حجر في حوادث سنة (٨١٣): إنه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر في العام الماضي لما دخل القدس أن يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا إلى يافا و معهم عجل و صناع و أخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصنائع للعمل بالأجرة فأتاهم عدة و شرعوا في إزاحة ما بطرقهم من الأدغال و وسعوا الطريق بحيث تسع عشرة أفراس و لم تكن تسع غير فارس و أحضروا معهم دهنًا إذا وضعوه على الصخر سهل قطعها، فلما رجع الناصر إلى دمشق عرفه نصحاؤه بسوء القالة في ذلك فكتب إلى أرغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك و القبض عليهم و على من معهم من الصنائع و الآلات و السلاح و الجمال و الدهن فختم على مخازنهم و حملهم و معهم ما رسم به الناصر.

و في سنة (٨١٤) ارتفع الطاعون عن دمشق و ما حولها و أحصى من مات من أهل دمشق خاصة فكانوا نحوًا من خمسين ألفًا و خلت عدة من القرى و بقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها.

الملك السكير و قتلته:

و بقي أمر الشام متقلقلًا لأن ملك مصر على هذه الصورة من السخافة و الضعف و هو شارب الليل و النهار تصدر الأعمال عنه مختلة كلها، فقطع شيخ المحمودي و نوروز الحافظي اسم الناصر من الخطبة بدمشق و أعمالها، و نفرت قلوب المماليك من الناصر و صار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل و يتوجهون إلى نوروز الحافظي و شيخ المحمودي، يأتون الشام من العقبة إلى غرة فتسحب

من العسكر نحو الثلث، فقويت شوكة الحافظي و المحمودي و التف عليهما سائر النواب في الشام و غالب عسكر مصر و كثير من العشير و عربان نابلس، و اجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة و عشرين أميراً. و لما تحقق الناصر ذلك جرد عليهم جيشاً فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد إلى بلد و الناصر خلفهم ليلاً و نهاراً فأتعب العسكر و انقطع خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٤

منهم جماعة من شدة السوق و التعب. و وصل الناصر إلى اللجون (٨١٥) فتلاقى و النواب بعد العصر و كان الناصر قد اصطحب و هو لا يعي من شدة السكر فأراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمنعه الأمراء فأبى، فلما رأوا ذلك تسحبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه إلا القليل من العسكر فكبس على النواب فانكسر الناصر و هرب بمن بقي معه من العسكر إلى نحو دمشق، و استولى شيخ و نوروز على أثقاله و خزائن المال و انتصرا عليه.

فلما دخل شيخ و نوروز إلى دمشق طلعا إلى دار السعادة و اجتمع هناك الأمراء و أحضروا القضاء الأربعة و رسموا بأن يكتبوا محضراً بأفعال الناصر بأنه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا محضراً بذلك و شهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس، ثم خلعوا الناصر من السلطنة و اشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ: لا أنا و لا أنت تتسلطن. و لكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان، و يكون الأمير شيخ أتابك العساكر و مدبر المملكة في مصر، و يكون الأمير نوروز نائب الشام و يحكم في الديار الشامية من غزة إلى الفرات، يولى من يختار و يعزل من يختار، فتراضوا على هذا و حلف جميع الأمراء و تعاهد شيخ و نوروز ثم سلطنوا الخليفة و استمر نوروز الحافظي نائب الشام.

و أما ما كان من أمر الناصر فرج بعد الكسرة التي وقعت له على اللجون فإنه ولي منهزماً إلى نحو دمشق، و أرسل إلى شيخ يطلب منه الأمان، و كان نوروز صهر الناصر زوج أخته، فلو طلب منه الأمان أولاً- لما أصابه شيء و لكن قصد شيخاً فأرسل إليه من قيده و أحضره إلى السجن بقلعة دمشق، ثم إنهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل و دخل عليه بعد أيام جماعة من الفداوية و قتلوه بالخناجر و هو بالبرج بقلعة دمشق، و ألقوه على مزبلة خارج البلد و هو عريان مكشوف الرأس، ليس عليه غير اللباس في وسطه، و صار الناس يأتون إليه أفواجا ينظرون إليه، و لو أمكن مماليك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة أيام ثم دفنوه «و كانت الدنيا على أيامه حائلة و حقوق الناس ضائعة، و قد خرب غالب البلاد الشامية في أيامه من تيمور لنك و من عصيان النواب و خربت أوقاف الناس في الشام، و كم قتل من أبطال و يتم من أطفال، و جرت في أيامه أمور شتى يطول شرحها» قال المقرئ:

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٥

لم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن و الشرور و الغلاء و الوباء. طرق الشام تيمور فخر بها كلها و حرقها و عمل بالقتل و النهب و الأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات و تمزق أهلها في أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتد الغلاء على من تراجع إليها من أهلها و شنع موتهم و استمرت بها مع ذلك الفتن.

الخليفة السلطان و سلطنة شيخ:

عهد الأمراء الذين قضوا على سلطان الناصر بالسلطنة إلى الخليفة العباسي و كان المسكين أشبه بعامل مخترم من عمال الشراكسة لا عصبية له و لا- جيش، و الغالب أن العهد بالسلطنة إليه كان دسيسته سياسية من الأميرين نوروز و شيخ يوم قال الأول للثاني و هما يتفاوضان فيمن يوسدان إليه السلطنة: «لا أنا و لا أنت تتسلطن» فاستولى شيخ على ملك مصر بالفعل و إليه قيادة الجند، و استولى نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك، و بقي الأمر على ذلك إلى سنة (٨١٦) و قد بلغ نوروز الحافظي أمير الشام أن المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر و تسلطن عوضه، فعز عليه ذلك و لم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ و أظهر العصيان و استمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق و أعمالها و لم يخطب باسم المؤيد شيخ و لا ضرب باسمه سكة، و استمر مستأثراً

بملك الشام من غزوة إلى الفرات.

وفي سنة ست عشرة وثمانمائة ظهر الخارجي الذي ادعى أنه السفيناني قال ابن العماد: وهو رجل عجلوني يسمى عثمان بن ثقاله اشتغل بالفقه قليلا في دمشق، ثم رجع إلى الجيدور و دعا إلى نفسه فأجابه بعض الناس فأقطع الإقطاعات و نادى أن مغل هذه السنة مسامحة و لا يؤخذ من أهل الزراعة بعد هذه السنة التي سومح بها سوى العشر، فاجتمع عليه خلق كثير من عرب و عشير و ترك، و عمل له ألوية خضراء و سار إلى وادي الياص و بث كتبه في النواحي بحث الناس على الانضمام إليه فارسلهم و راجلهم مهاجرين إلى الله و رسوله ليقاتلوا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، فثار عليه غانم الغزوي و جهز إليه طائفة و طرقوه بجامع عجلون فقاتلهم فقبضوا عليه و على ثلاثة من أصحابه

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٦

فاعتقل الأربعة و كتب إلى المؤيد بخبره فأرسلهم إلى قلعة صرخد.

و في سنة (٨١٧) خرج المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصدا إلى دمشق للقضاء على نوروز. و كان قد حصن دمشق و ركب على سورها المدافع من كل جانب، فحاصره المؤيد شيخ حصارا طويلا و نصب حول دمشق عدة مجانيق حتى غلب نوروز و سلم نفسه إلى شيخ فقطع رأسه، و كان نوروز مهابا شديد البأس سفاكا للدماء، ما كان في عسكر إلا انهزم و لا ضبط أنه ظفر في وقعة قط، و هو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمور لنك. و مهد المؤيد شيخ الديار الشامية و عزل من عزل و ولي من ولي، و خلع على قانباي المحمدي و استقر به نائب الشام و خلع على إينال الصصلاي و استقر به نائب حلب، و خلع على سودون بن عبد الرحمن و استقر به نائب طرابلس، و خلع على جاني بك البجاسي و استقر به نائب حماة، و لم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) أن خامروا على الملك المؤيد شيخ و خرجوا عن الطاعة، فجرد إليهم المؤيد ثانيا، و خرج إليهم بنفسه و أوقع معهم فانتصر عليهم، و قبض على قانباي المحمدي نائب الشام و قطع رأسه، ثم قبض على إينال الصصلاي و قتله على صدر أبيه ثم قتل الأب بعد ذلك، ثم ولي جماعة من الأمراء نوابا غير هؤلاء و رجع إلى الديار المصرية، فلم يبق سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب أيضا فجرد إليهم ثالث مرة و خرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه و توجهوا إلى قرا يوسف أمير التركمان فنصب الملك المؤيد نوابا غيرهم ممن يثق بهم، و مهد الأقاليم الدمشقية و الحلبية و قطع شأفة النواب الذين عصوا سلطانه، و من الأحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق إلى حلب (٨٢١) في نحو ألف فارس فجل من كان خارج مدينة حلب بأجمعهم، و اضطرب من بداخل سور حلب و ألقوا بأنفسهم من السور و لم تسكن الحالة إلا بعد رحيله.

هلاک المؤید شیخ و سلطنته ابنه فی القماط:

هلك الملك المؤيد شيخ سنة (٨٢٤) و كان ملكا جليلا كفؤا للسلطنة وافر العقل مقداما في الحرب عارفا بمكايدها و حيلها وقت التقاء الجيوش

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٧

حتى ضرب به المثل فكان يقال: نعوذ بالله من ثبات شيخ و من حطمة نوروز الحافظي. هذه رواية ابن إياس بيد أن المقرزي يقول: إنه حدث في أيام هذا الملك أكبر خراب مصر و الشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور و الفتن أيام نيابته بطرابلس و دمشق، ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم و نهب البلاد و تسليط أتباعه على الناس، يسومونهم الذلة و يأخذون ما قدروا عليه من غير وازع و لا عقل و لا ناه من دين. و تولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه المظفر أبو السعادات أحمد و هو في القماط فخامر نائب دمشق جقمق الأرعوني و نائب حلب يشبك المؤيدي و كذلك بقية النواب في الشام، و كان الأتابكي أظنبا القرشي لما توجه في العسكر المصري أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا إلى نحو صرخد، ثم إن الأتابكي أظنبا جمع العربان و العشير و رجع إلى دمشق و

أوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق، فملك الأتابكي دمشق وقلعتها، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد و سلطنة ابنه أظهر العصيان و أقام بدمشق و حصنها و نصب على سورها المكاحل بالمدافع، و التف عليه العربان و العشير، و بلغ الأمراء بمصر ذلك فخلعوا على ططر و استقروا به أتابك العسكر عوضا عن أطنبغا القرشى. ثم اتفق الحال على أن الأتابكي ططر يأخذ السلطان معه فى محفة و يتوجه هو و العسكر إلى دمشق بسبب أطنبغا القرشى و النواب، فخرج ططر من القاهرة و صحبته المظفر أحمد فى محفة و المرضعة معه، و كانت أمه خوند سعادات صحبة ابنها فى المحفة لما خرج إلى الشام لتأمن عليه من القتل، فدخل المظفر إلى دمشق و ألقى الرعب فى قلب أطنبغا و جقمق فحضر أطنبغا و فى رقبته منديل فقبل الأرض قدام الملك المظفر و هو فى المحفة، فلما وقعت عليه عين الأتابكي ططر قبض عليه و سجنه بقلعة دمشق، ثم قبض على جقمق و أمر بخنق جقمق و أطنبغا، ثم قبض على جماعة من النواب و قتل منهم البجاسى نائب دمشق، و قبض على أربعين أميرا من الأمراء المؤيديه و على جماعة من المماليك المؤيديه. ثم خلع المظفر أحمد من السلطنة و تسلطن عوضه بدمشق و خطب باسمه على المنابر و كان معه الخليفة المعتضد بالله داود، فكان مثل ططر فى هذه الحيلة مثل أكثر عمال هذه السلطنة الشركسية متى اشتد ساعدهم استأثروا بالملك و السلطان.

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٨

وفاء ططر و سلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباى:

هلك ططر بعد أن ملك ثلاثة أشهر و أياما و خلفه فى السلطنة ابنه الصالح محمد و له من العمر نحو من إحدى عشرة سنة و جعل جاني بك الصوفى أتابكه و مدير مملكته، فعز ذلك على بقية الأمراء فوثب برسباى و قيده و سجنه فاجتمعت الكلمة على برسباى و صار صاحب الحل و العقد فتعصب له جماعة من الأمراء و خلعوا الصالح و سلطنوا برسباى (٨٢٥) فكانت مدة سلطنة الصالح ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما. و خلع برسباى على المقر السيفى جاني بك البجاسى و استقر به نائب الشام و استقامت أحواله فى السلطنة. و فى سنة (٨٣٦) سار الأشرف برسباى فى حمله من مصر قيل أنه غرّم عليها خمسمائة ألف دينار و قصد الشام و سار منها إلى آمد فحاصرها و كانت لابن قرابلك فلم ينل منها طائلا، فمشى بعض الأمراء بالصلح على أن لا يتعدى على بلاد السلطان فحلف صاحب آمد على ذلك. و لما عاد الجيش المصرى عاد صاحبها إلى العصيان قال ابن إياس: و الملك الأشرف هو آخر من جرد من الملوك و خرج بنفسه إلى البلاد الشامية.

توفى الأشرف برسباى سنة (٨٤١) و قد ساس الملك و نالته السعادة و دانت له البلاد و أهلها و خدمته السعود حتى مات، و فتحت فى أيامه أقاليم كثيرة استرجعت من أيدي الباغين من غير قتال، و فتحت قبرس و أسر ملكها. قال المقريزى: و كانت أيامه أيام هدوء و سكون إلا أنه كان له فى الشح و البخل و الطمع مع الجبن و الحذر و سوء الظن و مقت الرعية و كثرة التلون و سرعة التقلب فى الأمور و قلة الثبات أخبار لم نسمع بمثلا، و شمل مصر و الشام فى أيامه الخراب و قلت الأموال بها و افتقر الناس، و ساءت سيرة الحكام و الولاة مع بلوغ آماله و قهر أعاديه و قتلهم بيد غيره. و قد عقد برسباى معاهدة مع فرسان رودس و قهر صاحب مملكة ذى القدرية و كان الذى يثير عليه الفتن فى الشام شاه رخ بن تيمور لنك لأن سفراءه أهينوا فى مصر كما أهين تجاره فى جدة، و أبى عليه صاحب مصر أن يكسو الكعبة المشرفة. و قال ابن إياس: إن الملك الأشرف كان منقادا إلى الشريعة، و كانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب و الفضة و لا سيما

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٨٩

الأشرفية البرسيهيه فإنها من خالص الذهب، و كان عنده معرفة بأحوال السلطنة كفوًا للملك، كثير البر و الصدقات، و له معروف و آثار، لكنه كان عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال محبا لجمعها من المباشرين و غيرهم قال: و كان من خيار ملوك الشراكسة. و كان تولى رجل عظيم مثل برسباى زمام السلطنة بعد سخافة فرج و ابنه الطفل و سخافة ططر و ابنه من أجمل الموافقات. أعاد إلى

السلطنة عزها الذي أولاها إياه مؤسسها برقوق. و برسباى لا يقل عنه تدييرا و حنكة و ربما امتاز عنه بأمور.

الملك العزيز يوسف و الملك الظاهر جقمق:

تولى الملك بعد الأشرف برسباى ابنه يوسف و سمي الملك العزيز و له من العمر أربع عشرة سنة و جعل الأتابكى جقمق العلاني نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) و جعل جقمق سلطانا و لم يملك العزيز سوى ثلاثة أشهر و خمسة أيام. و فى سنة (٨٣٧) ندب السلطان العساكر إلى قتال الأرمين فملكوا مدينه أياس.

و فى سنة (٨٤٣) خرج إينال الجكمى نائب دمشق عن الطاعة و أظهر العصيان على السلطان و كذلك تغرى برمش نائب حلب فعين السلطان لهما تجريده من مصر، و خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى و استقر به نائب دمشق عوضا عن إينال الجكمى، و خلع على المقر السيفى يشبك السودانى و استقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى فأوقعا مع النائين العاصيين و أسراهما و قطعاً رأسيهما و أرسلاهما إلى القاهرة.

و فى سنة (٨٥٥) طرقت صور زهاء عشرين مركبا للفرنج و نهبوا من بها فأدر كههم ابن بشاره مقدم العشير و قاتلهم قتالا شديدا حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قتل من الفريقين جماعة و أمسك من الفرنج جماعة و قطع رؤوسهم. و فى سنة (٨٥٦) ركب طوغان نائب الكرك بمماليكه فكبس بعض عرب الطاعة و قاتلهم حتى ظفر بجماعة منهم فأسرف فى قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثر عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانيا فكسروه و قتلوه أسوأ قتله. و هدا القطر من الفتن و التجاريد على عهد الظاهر جقمق المتوفى سنة (٨٥٧) و كانت مدة سلطته

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٠

بالديار المصرية و البلاد الشاميه و ما مع ذلك أربع عشرة سنة و عشرة أشهر و كان ملكا جليلا دينا خيرا متواضعا كريما و فعل الخير و قد كانت علاقته حسنه مع سلطان العثمانيين و ملوك آسيا الصغرى.

المنصور و الأشرف و المؤيد و الظاهر خشقدم و الظاهر بلباى و الأشرف قايتباى:

و خلف الظاهر جقمق المنصور فخر الدين عثمان فخلع بعد ثلاثة و أربعين يوما و تسلطن بعده الأشرف إينال العلاني و كانت أيامه أيام لهو و انشراح و قيل:

إنه لم يسفكك دما بغير وجه شرعى فعد ذاك من النوادر و توفى سنة (٨٦٥) و خلفه المؤيد أحمد و كان حسن السياسة بصيرا بمصالح الرعيه قمع مماليك أبيه عما كانوا يفعلونه من الأفعال الشنيعه إلا أن مدته لم تطل سوى أربعة أشهر و ثلاثة أيام، و خلفه الظاهر خشقدم و كان أهل الدوله يريدون سلطنه جانم نائب الشام، فلما أبطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (٨٦٥) يقول ابن إياس: إن الملك الناصر أبى سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى هو الثامن و الثلاثون من ملوك الترك و أول ملوك الروم بمصر إن لم يكن أيبك التركمانى من الروم و لاجين من الروم فخشقدم أول ملوك الروم بمصر و أصله رومى الجنس.

و سار جانم إلى مصر فأرجعه الملك الجديد إلى الشام، و لما بلغها أرسل السلطان إلى نائب قلعه الشام مراسيم بأن يقبض على جانم نائب الشام فرمى عليه بالمدافع و هو جالس فى دار السعادة فهرب إلى الرها، و استمر فى هياج و عصيان و أرسل عليه سلطان مصر تجريده بقيادة جاني بك و عين المقر السيفى تتم المؤيدى نائب الشام.

و فى سنة (٨٧٢) تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذى القدرية على حلب فرسم خشقدم للأمير برديك الجمقدار نائب حلب أن يخرج إليه فخرج، ثم التف عليه و أظهر العصيان على السلطان و قصدا التوجه إلى الشام، فأرسل سلطان مصر عليهما تجريده و انهزم الجند الذين أرسلتهم مصر لقتال شاه سوار و دخلوا حلب و هم فى أسوأ حال، ثم أرسل السلطان تجريده أخرى فهزمها سوار أيضا،

فاحتال عليهم حتى أدخلهم فى مواضع ضيقة بين أشجار فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسى و النشاب و السيوف و الأتبار فقتلوا من العسكر عددا كبيرا

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩١

و قتل من مشايخ جبل نابلس و عربانه و العشير و التركمان و الغلمان عدد كبير و أشرف سوار أن يأخذ حلب ثم خمدت نائرتة. توفى الظاهر خشقدم، و ملكه نحو ست سنين و نصف، و خلفه الظاهر بلباى و خلع بعد سلطنته ستة و خمسين يوما و به زالت الدولة المؤيدية، و خلفه الأتابكى تمرغا و دامت سلطنته ثمانية و خمسين يوما و خلفه الملك الأشرف قايتباى.

مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية:

بعد أن نجت الشام من فتن التتر و تيمور خاصة، و وقائع الصليبيين و ويلاتها عاودتها الأوبئة و المجاعات و الزلازل فزلزلت حلب مرات سنه (٨٠٦) فخرّب كثير من معابدها و مساجدها و كانت كثيرة جدا، و فى سنه (٨٢٠) كان بحلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون ألفا و خلا البلد من السكان، و فى سنه (٨٦٣) وقع الطاعون بحلب فأربى من هلك فيها و فى ضواحيها على مائتى ألف إنسان، و فى سنه (٨٧٤) اشتد الغلاء و الفناء بحلب و كانت الحال فى القطر كله على ذلك فجارت عليه الطبيعة و كانت من قبل يجور عليها أمراؤها. و قال الدويهي فى حوادث سنه (٨٧٥): و من أخبار هذا العصر يستدل على أنه فى دولة المقدمين و أحكامهم العادلة توفرت الراحة لأهل لبنان و كثرت عندهم المدارس و الكنائس.

و بينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك أو تشترك معهم أحيانا و قد غضب عليها جبار الأرض و جبار السماء، ظهر لها بل لدولة المماليك الشركسية فى مصر و الشام عدوان لدودان أو حكومتان مسلمتان نجت من شر الأولى و وقعت فى شر الثانية و نعى بهما دولة حسن الطويل و دولة ابن عثمان.

و دولة حسن الطويل هى المعروفة بدولة الحمل الأبيض (آق قيونلى).

استولى حسن الطويل على ديار بكر سنه (٨٧١) و قتل جهانشاه و مرزا حاكم دولة الحمل الأسود (قره قيونلى) و أبا سعيد حفيد تيمور فأصبح ملك العراقين العربى و العجمى و فارس و كرمان، و أنشأ دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها. أما دولة ابن عثمان فى الروم أى الأناضول فقد قويت على ذاك العهد و لا سيما بعد أن غلب السلطان محمد الثانى حسنا الطويل (أوزون حسن) سنه (٨٧٧).

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٢

فى سنه (٨٧٢) أرسل سلطان مصر و الشام عسكرا على شاه سوار فانكسر كسره شنيعة و قتل و جرح كثير من أمراء المماليك و نهب أثقال الأمراء و العسكر قاطبة و عاد الذى سلم إلى حلب فى أسوأ حال، و قد قوى أمر سوار و توجه إلى عينتاب و حاصر قلعتها ثم قوى عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام و مصر و كان جيشا جرارا فقوى عزمه على مداهمه حلب، فجرد سلطان مصر تجريدة ثانية فكسرها عسكر سوار و فى هذه السنين كثر تبادل نواب حلب و فى شبه هذا قال ابن الوردى:

هذى أمور عظام من بعضها القلب ذائب

ما حال قطر يليه فى كل شهرين نائب

و فى سنه (٨٧٥) تحرك حسن الطويل لأخذ الديار الحلبية و أظهر العداوة لسلطان الشام و مصر و قد طمع فى عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم و هزيمة الشاميين مرتين أمام شاه سوار، و استظهر عليهم فثار السلطان لهذا الخبر و قصد أن يخرج إلى حلب بنفسه خصوصا لما بلغه أن سوارا استولى على سيس و قلعتها، و أرسل السلطان إلى شاه سوار الأمير يشبك الدوادار الكبير و فوض إليه أمور البلاد الشامية و الحلبية و غيرها و جعل له التصرف فى جميع النواب و الأمراء ما خلا نائب حلب و نائب دمشق، فقلّ يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيحان، و قتل منهم جمهور كبير، و أرسل سوار يطلب الصلح من الأمير يشبك و أن يكون نائبا عن السلطان فى

قلعة درنده و أنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان إلا- أن يحضر سوار بنفسه و يقابل السلطان، ثم قبض عليه في قلعة زمنوط و حمل إلى مصر فقتله سلطان مصر هو و إخوته و أقاربه.

و خمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت فيها أموال و أرواح و قتل جماعة كثيرة من الأمراء و كسر الأمراء ثلاث مرات و نهب بركهم، و انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق و غيرهم، حتى إن الفلاحين طمعوا في الترك و «تبهدلوا» عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار، و كادت تخرج المملكة عن الشراكسة، و قد أشرف سوار على أخذ حلب و خطب له و في سنة (٨٧٧) جمع حسن الطويل ملك العراقيين جندا جرارا و زحف خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٣

على الشام و استولى في طريقه على كحيا و كركر فانتدب ملك مصر لأمير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انتدب لقتال سوار في السنة الفاتنة. و قبض نائب حلب (٨٧٧) على بعض رجال حسن الطويل في حلب و جماعة آخرين نسبوا إلى المواطأة معه و كانوا يكاتبونه بأخبار المملكة، فأمر نائب حلب بصلبهم، و أرسل الأمير يشبك نائب حلب جيشا إلى البيرة لقتال الطويل فخذل عسكره بعدما عدوا الفرات و طرقوا الأصقاع الحليية من أطرافها، و تلاشى أمر حسن الطويل فأرسل يكاتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر، و أرسل ابن عثمان ملك الترك قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عوناً على قتال حسن الطويل و كان هذا استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر و الشام و صاحب الروم ابن عثمان بحرا و هو يقاتلهم برا و لكنه عاد في سنة (٨٧٩) يرسل إلى سلطان مصر معذرا عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه. و في سنة (٨٨٠) صدرت من برهان الدين النابلسي و كيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة بأهل دمشق فرجموه و رموا عليه السهام و أحرقوا داره و أرادوا قتله، فركب نائب قلعة دمشق و تطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا، و قد كادت أن تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي و كان قد طغى على الناس و تجبر.

و كان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه و بولده أحمد و قد قال ابن عربشاه في كتابه إيضاح الظلم و العدوان، في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان؛ و وصف مظالم ابنه بما تقشعر منه الأبدان: و كان طالع النابلسي أحمد الخراب، صادر أهل طرابلس و هتك ستر نائبا و صادر كثيرين في دمشق، و أراد أن يعرج على حلب فمنعه صاحبها من إتيان ما عمل في دمشق. أما ابنه فاحتكر الأقوات و طفف الكيل و غش الحبوب و أدار باسمه الطواحين و الأفران و تسبب في الجزية على المدارس و أنقص معالم الطلبة و جمع من الأموال ما لا يحصيه العد، و كثر تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصدا حاسبه على الأموال فظهر اختلاسه فنكل به، و أقام الناس عليه الشكاوى كما نكل بأبيه في مصر لما أتى من المساوى هناك، و قبض عليهما في وقت واحد.

و ذهب نائب حلب تمرباي في العسكر إلى التركمان و انكسر عسكر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٤

حلب كسرة عظيمة، و فيها بعث ابن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب على أبيه فجهز نائب حلب معه جندا فقاتلوا عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب و قتل منهم جماعة.

و في سنة (٨٨٣) خرج سيف بن نعيم الغاوي و قرابته عن الطاعة فقاتله نائب حماة فكسر النائب و قتل من عسكره كثير، ثم خرج إليه نائب حلب و أوقع معه ففر منه فتبعه، و قد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك.

مات حسن الطويل ملك العراقيين (٨٨٣) و كان انقراض دولته بنى أيوب على يده، و تحرش بابن عثمان ملك الروم يأخذ من ملكه شيئا فما قدر عليه، ثم تحرش بسلطان مصر و جرى له مع الأشرف قايتباي أمور و كان الأشرف يخشى من سطوته لأنه كان ملكا جليلا عاقلا سائسا كثير الحيل و الخداع.

و في سنة (٨٨٥) كبس عمرو بن غانم في جماعة من العرب محمد بن أيوب نائب القدس بأريحاء الغور و حصلت فتنة قتل فيها جماعة.

وقعة مشؤومة وأحداث:

كانت سنة (٨٨٥) من أشأم السنين على دولة الأشرف قايتباي فإن يشبك الدوادار كان قد ندب أيضا من مصر لقتال سيف أمير آل فضل، فسار و معه جيش من مصر في صحبته نواب دمشق و حلب و طرابلس و حماة مع العسكر الشامي و المصري و غيرهم من العساكر فتوجه إلى الرها و اجتمع معه نحو عشرة آلاف رجل، و كان المتولى أمر الرها شخص يقال له بابندر أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل، فحصر يشبك مدينة الرها و كان يريد بعد أخذها أن يسير لفتح العراق فعاد عليه بابندر و كسر جيشه و أسره مع النواب الذين في جملته و شئت شمل جيشه و أخذ يشبك و قتله و قتل من أمراء الشام عددا كبيرا و كذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تطأ إلا على جث القتلى. قال ابن إياس:

و كانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة و كانت مصيبة عظيمة هائلة. و كان يشبك باغيا على بابندر فإنه قصد محاربتة من غير سبب و لا موجب لذلك فكان كما قيل:

من لاعب الثعبان في وكره يوما فلا يأمن من لسعته

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٥

اضطربت الشام و مصر من غزوة عسكر يعقوب بن حسن الطويل حلب و دمشق، فإن النواب قاطبة كانوا في أسره و سحق جيش سلطان مصر و الشام، فأعد السلطان له جيشا آخر قال ابن إياس: و لو لا فعله ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب. و ثار عامة حلب بمحمد بن الصوا نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها فقتلوه و قتلوا حاجب الحجاب بحلب. و في سنة (٨٧٨) وقعت فتنة بين طائفة الدارية و طائفة الأكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ناس و استنفر كل من الطائفتين من ينتصر لها من العشير، فدخلوا المدينة و نهبوا ما فيها إلا القليل و خربت أماكن و كان الأمر عظيما.

أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين:

و في سنة (٨٨٩) قتل كثير من أمراء حلب و الشام في الوقعة التي جرت بين المصريين و التركمان، و فيها خرج نائب حلب و تقاتل مع على دولات أخى سوار و أمده ابن عثمان بجمع كثير من عساكره و وقعت بينهما وقعة انهزم فيها العسكر الحلبي و قتل نائب حلب و جماعة من العسكر الحلبي و المصري. و كانت هذه الوقعة أول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام و مصر. و لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ركب تراز هو و أزدمر و العسكر المصري و توجهوا إلى على دولات فقاتلوه فانكسر هو و عسكره و عسكر ابن عثمان و نهبوا جميع بركهم و أخذوا سناجق ابن عثمان و دخلوا بها إلى حلب و هي منكسة و استمرت الفتن يومئذ بين السلطان و ابن عثمان.

و في سنة (٨٩٠) استولى جند ابن عثمان على قلعة كولك من حلب و في السنين التالية استولى على سيس و طرسوس و غيرهما و طمع في الاستيلاء على عمالات من الشام فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فساءت حال الشام و خربت الأصقاع الشمالية منها. و لكن الجند المصري أو جيش المماليك الشركسي وقع له مصاف سنة (٨٩١) في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان و انتصر عليه و قتل منهم جماعة كثيرة قدرتهم بأربعين ألفا و أسر أحمد بك هرسك قائد جند ابن عثمان و من أجل أمرائه و صفدوا عدة من أمرائه في الحديد. قال ابن طولون: إنه شاع

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٦

أن بايزيد بن عثمان أرسل إلى أهل دمشق نحو ثلاثين اتفاقية من النصارى و وضع عنهم جزية ثلاث سنين لقتال أهلها، و كل إشاعة من هذا القبيل كانت تفتح السبيل لنائب دمشق فيجمع من أهلها مالا فإذا صحت استعان بها و الغالب أنها لا تصح. و في هذه الأثناء

(٨٩٢) فحش أمر خضر بك نائب القدس و تزايد ظلمه و سفكه الدماء و أخذ أموال الناس. و في سنة (٨٩٣) استقر الأمير دقماق في نظر الحرمين و نيابة القدس و الخليل ببدل عشرة آلاف دينار للخزائن الشريفة غير ما تكلفه لأركان الدولة قال ابن أبي عذينة: و كان ذلك من أقبح الأمور و أبشعها فإن ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي كان من أهل الخير و الصلاح فأبدل بظالم فاجر.

و في سنة (٨٩٣) استولى عسكر ابن عثمان على قلعة اياس من غير قتال و بعث ستين مركبا من البحر مشحونة بالسلاح و العسكر إلى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصري فما تم له ما أراد. و استخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان فجاءت العاصفة و غرقت غالب المراكب و من طلع إلى البر من العسكر العثماني قتله العسكر المصري. قال ابن اياس: و كانت لهم النصرة على الجنود العثمانية و كانت على غير القياس.

و وقعت (٨٩٣) معركة بين عسكر مصر و عسكر ابن عثمان في أطراف الولاية الحلبية قتل فيها من الفريقين ألف و انهزم العثمانيون، و شرع العسكر المصري في حصار الجند العثماني في أذنة، و دام حصارها ثلاثة أشهر قتل فيها من الفريقين خلق حتى استولى عليها عسكر المماليك، ثم رجع في السنة التالية فطمع عسكر ابن عثمان في أخذ الديار الحلبية فأرسل سلطان مصر تجريدة لحفظ مدينة حلب ثم جرد تجاريد أخرى على ابن عثمان. قال ابن اياس: و طال الأمر بين السلطان و بين ابن عثمان في أمر هذه الفتنة فزحف العسكر المصري و العسكر الشامي على أطراف مملكة ابن عثمان و وصلوا إلى قيسارية و أحرقوها و فتكوا بأهلها و كذلك فعلوا في كثير من عمالاته.

و في سنة (٨٩٤) كان الفناء العظيم و الغلاء الشديد في الديار المصرية و الشامية و مات خلق لا يحصى، و اشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالتقصير في المهم الشريف ببلاد الروم، و قبض على بني إسماعيل مشايخ جبل نابلس، و من الناس خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٧

من تسحب و قبض على من يكون منسوباً إليه من أقاربه و أصحابه و جيرانه و باع بعض بناتهم بيع الرقيق و تفاحش الأمر. و في سنة (٨٩٦) حدثت في حلب فتنة كبيرة بين نائبيها و جماعة من أهلها فقتل سبعة عشر من مماليك النائب و خمسون من أهل حلب ثم أحرق جماعة من حاشية النائب بالنار، و كادت حلب أن تخرب عن آخرها فأحمد هذه الفتنة قانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب، و ضاق الأمر بالناس لأن المماليك أو سلاطينهم كانوا كلما أرادوا إرسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الفاحشة على الناس و يسلبون أموال التجار و المساتير.

و في سنة (٨٩٧) اشتد الوباء بالقدس و دمشق و حلب و بلغ عدد الهالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف و بحلب في كل يوم ألفاً و خمسمائة و بغزة في كل يوم أربعمائة. و بالرملة مئة. و في سنة (٨٩٨) ثارت فتنة كبيرة بدمشق و رجم أهلها قانصوه اليحياوي. و في سنة (٨٩٩) تغلب العربان على الكرك و الشوبك و حدثت فتن هائلة. و كان في سنة (٩٠٠) وقعة بين أهل داريا و غوطه دمشق فخرج العسكر و قتل ما يربو على مئة قتيل، و توفي نائب دمشق و خلت من الحكام و كثر النهب و الفسق و وقع الاختلاف بين القيسية و اليمينية، و لما بلغ السلطان قانصوه خرج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين.

وفاة الأشرف قايتباي و تولى ابنه ناصر الدين محمد:

توفي الأشرف قايتباي المحمودي سنة (٩٠١) و خليفه الوقت بمصر الإمام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسي. و كانت مدة سلطنة الأشرف بالديار المصرية و البلاد الشامية تسعا و عشرين سنة و أربعة أشهر و أحد عشر يوماً و هو الحادي و الأربعون من ملوك الترك و أولادهم في العد، و الخامس عشر من ملوك الشراكسة و أولادهم بالديار المصرية، و كان كفواً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي، عارفاً بأحوال المملكة يضع الأشياء في محلها، و لم يكن عجولاً في الأمور، بطيء الغزل لأرباب الوظائف يتروى في الأمور قبل وقوعها، و كان لا يخرج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته، و لا من أبناء الناس المقطعين إلا

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٨

بحكم وفاته. قال ابن إياس بعد إيراد ما تقدم: ولكنه كان محبا لجمع الأموال ناظرا لما في أيدي الناس، و لو لا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الشراكسة على الإطلاق، ولكنه. كان معذورا في ذلك، تحرك عليه في أيام سلطنته شاه سوار و حسن الطويل و ابن عثمان و غيرهم من ملوك الشرق و جرد عليهم تجاريد و هو ثابت على سرير ملكه و لم يتزحزح، حتى قيل ضبط ما صرفه على نفقات التجاريد التي جردها في أيام سلطنته إلى أن مات فكانت نحو من سبعة آلاف دينار و خمسة و ستين ألف دينار خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد. و هذا من العجائب التي لم يسمع بمثلها. و كان قايتباي أعظم ملك في المماليك البرجية و كان في الخارج أعظم ملك في الإسلام، قال فيه سوبرنهايم في معلمة الإسلام بأنه كان محتاجا لعمارتها و حملاته إلى مواد كثيرة و تحلل في المالية لم يستطع جباية الخراج إلا بالقوة، و قد انتقده المؤرخون انتقادا شديدا و نرى أن ما عمله من الواجب عليه و أنه أمر مفهوم بذاته في مملكته ليهيئ الأسباب اللازمة للدفاع عنها، و قد أدى قلة النظام في الجباية إلى خراب مملكة المماليك من أجل هذا كان السلطان مضطرا إلى استعمال الشدة في جباية الأموال.

و كان مغرما بشراء المماليك حتى قيل لو لا الطواعين التي وقعت في أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك. و كان مولعا بالبنيان الفاخر خلف آثارا كثيرة في أرجاء مملكته، و صادر اليهود و النصراني مرتين في أيامه، و خلفه ابنه ناصر الدين محمد، و بدأت أمارات الضعف في أعصاب المملكة لصغر سنه و كان أبوه لا يريد سلطنته بعده، و لكن عاجله النزاع فعمل الأمراء من عند أنفسهم، و كان الفساد مستشرى في مصر منذ تولى، و كثيرا ما كان السلطان يتخوف على نفسه من الأمراء فيحضر لهم المصحف العثماني و يحلفهم و قد حلفهم أربع مرات و كانت أيمانهم كاذبة فاجرة.

و كان هذا الضعف ينال الشام منه قسط عظيم حتى خرب و لا سيما شماله لكثرة غارة الأعداء. قال ابن طولون في حوادث سنة (٩٠٦) و قفت حال الناس و قطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة و بنى رام خارج دمشق و أطرافها و كثر الظلم و الاختلاف و الناس مرتقبون الفتن. و في هذه السنة وقع قتال بين الأمير على الشهابي في جماعة من وادي التيم و رجال الشوف و بين الأمير بكر

خطط الشام، ج ٢، ص: ١٩٩

الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الأخ من عمه و قتله بيده مع ثلاثين من أصحابه و سار إلى حاصبيا فالتقاه بقية الأهلين و الأمراء و ساس الرعية أحسن سياسة.

الملوك المتأخرون و آخرهم الغوري:

توفي الناصر محمد و كانت مدة سلطنته نحو من سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة عشر يوما و كانت أيامه كلها فتنا و شرورا و كان في ذاته سىء التدبير.

و تسلطن بعده الملك الظاهر قانصوه و لم تطل مدته أكثر من سنة و ثمانية أشهر و ثلاثة عشر يوما، و كان ملكا مسلوبا الإرادة مع الأمراء و تسلطن بعده الأشرف جان بلاط بن يشبك و كانت مدة سلطنته ستة أشهر و سمي بالملك العادل طومان باي من قانصوه أبي النصر الأشرفي قايتباي و في سنة (٩٠٦) تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغوري.

و في سنة (٩٠٣) عصا أقبردى الدوادار و ذهب إلى الشام فاستولى على غزة، ثم جاء دمشق و حاصرها فلم يقدر عليها فنهب الضياع التي حولها و خرب غالبها و حاصر حماة و أخذ منها أموالا لها صورة و حاصر حلب شهرين و أحرق من قراها، و كان إينال السلحدار يومئذ نائب حلب و كان من عصابة أقبردى، فقصد أن يسلمه المدينة فرجمه الحليون و طردوه من بلدهم و حصنها بالمدافع على الأسوار، ثم هرب أقبردى إلى على دولات بعد أن جرد السلطان حملة عليه. و في هذه السنة زحف ابن عثمان على الشام و أرسل إلى نائب حلب يقول له: اعزل ابن طرغل فأجابه إلى ما طلب، و كثر تبادل النواب و ساءت الحال و بطلت التجارة بين مصر و الشام. و لما

بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصرى طمع فى أخذ الديار الحليية فأرسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب، ثم تفاوض صاحب الروم و صاحب مصر و الشام فى الصلح و حمل ابن عثمان إلى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استولى عليها، فسلمها إلى السلطان فى القاهرة. و فى سنة (٩٠٤) أغار كرتباى الشركسى نائب دمشق على عرب هتيم بأرض الزرقاء و كان كرتباى على رواية الغزى حسن السيرة بالنسبة إلى غيره من الأمراء. و جرى الصلح بين الأمراء المصريين خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٠

و بين أقبردى الدوادار، و كانوا انتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد أن ساءت الحال بفتنته. و فى سنة (٩٠٥) خرج قصره نائب الشام عن الطاعة و أظهر العصيان و استولى على قلعة دمشق و أموالها و طرابلس و قلعتها، و كان السلطان حاول أن يولى قصره الشام فاخفى السلطان فى الفتنة و خلفه فى الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط، فلما تسلطن السلطان أرسل إلى قصره فى الشام بالبشارة فلم يزد إلا عصيانا. و فى هذه السنة ولى نيابة الشام قانصوه المحمدى فأتى إلى البقاع فهرب منه مقدمها ابن حنش، و جرت بينهما أمور. ثم وقعت الفتنة بين أهل دمشق و نائبها فأحرق حى الشاغور و جرت بينهم غوائل ثم وقع الصلح عن يد ابن الكسيح شيخ الإسلام بدمشق. و فى سنة (٩٠٧) هجم العربان على أطراف دمشق و نهبوا مغلا كثيرا و خربت بلدان، ذكر هذا ابن طولون.

سلطنة طومان باى:

و انتدب السلطان أحد المقدمين إلى الكرك لقتال بنى لام و اجتمع السلطان بالأمراء و تشاوروا فى أمر قاصروه نائب الشام فأشاروا عليه بأن يرسل قاصدا، و كان قصره قد استولى على غزوة و أعمالها و القدس و غير ذلك من النواحي، فعزم السلطان على إرسال تجريدة لنائب الشام، و كان دولات باى نائب حلب معه فى شق عصا الطاعة، و لكن لم تنفع التجريدة و أعلن طومان باى سلطنته بالشام و تلقب بالملك العادل، و كان العسكر المصرى نزل بسعسع بالقرب من دمشق فركب قصره نائب الشام فى نفر قليل من عسكره و أظهر أنه طائع فاطمأن له العساكر، و كان غالب الأمراء من ندمائه، و لما حضر إليهم دخل معهم إلى دمشق و اجتمعوا فى القصر الأبلق، ثم ثارت فتنة بالقلعة، و أمر قصره و طومان باى بالقبض على جماعة من الأمراء و سجنهم. و حضر إلى دمشق دولات باى بن أركماس نائب حلب الشهير بأخى العادل و تعصب لظومان باى و تكلم فى سلطنته فأحضر قضاة الشام و كتب

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠١

صورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة و بايعوا طومان باى من غير خليفه و تلقب بالملك العادل أبى النصر و أحضر له شعار الملك فأفيض عليه.

فلما تم أمره عين لأتابكية مصر قصره نائب الشام و عين لنيابة الشام دولات باى نائب حلب و عين لنيابة حلب أركماس بن ولى الدين و هكذا عين سائر نواب الشام و خطب باسمه على منابر دمشق. ثم ذهب إلى مصر مع من أطمعهم بالمناصب من الأمراء و كان تقدم إلى من فى مصر من الأمراء فخلع عليهم و نصبهم قبل حضوره و تسلطن فيها.

و فى سنة (٩٠٨) حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة و قتل أناس و ضرب النائب على أهل دمشق مالا لأجل مشاة تخرج معه إلى حلب تجريدة لقتال الخارجى حيدر الصوفى و ذلك مع وقوف حال الناس من الظلم و كثرته - قاله ابن طولون و زاد أن ورد المرسوم الشريف من مصر بأن يرمى على كل سكرة دراهم ليستفاد بها على إزالة ضرر العرب بالحجاز قال: و هذه رمية أخرى غير الرمية التى أخذت بحجة حيدر الصوفى.

و فى سنة (٩٠٩) جهز ابن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر ابن بشاره فى قرية شيجين فقتل من جماعة ابن

حنش نحو مائتين.

و من الأحداث فى هذه الأيام تجهيز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجى الدوادار سنة (٩١٠) إلى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز و قتل معه نحو ثلاثمائة شخص و كانت الوقعة بينهم و بين فخر الدين بن معن أمير الشوف. قال ابن طولون: فى حوادث هذه السنة: اتفق رأى المباشرين أن تعرض المشاة من كل حارة بدمشق و كذلك الجند إرهابا للعدو فعرض عليهم غوغاء ميدان الحصا و القبيبات بالميدان الأخضر و ازداد طغيان زعرهم (أحداثهم) و علموا عجز أرباب الدولة ثم قام بالشاغور أزعرهم أبو طاقية و جمع زعر الغوغاء و ما حولها من القرى و زعربقيه حارات دمشق و أخذوا من أموال الناس شيئا كثيرا و أعاره الأمير أركماس شيئا كثيرا من آلة الحرب ثم خرجوا أطلابا بترتيب يعجز عنه أرباب الدولة حتى عرضوا بالميدان الأخضر فاستقل الترك بأنفسهم و لم يعد لهم حرمة ثم ركب متسلم دمشق و دار بهم حول

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٢

المدينة و بين يديه مناد و ينادى بالأمان و ترك حمل السلاح. و كثرت بعد سنة (٩١١) الرميات و الغرامات على حارات دمشق فهاج الناس و صعد أهل القبيبات إلى مأذنة الجامع الأموى و كبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين. و اشتد الجور سنة (٩١٦) فى لبنان فهجر أكثر الناس مواطنهم إلى البلدان البعيدة و من اللبنانيين من هاجر إلى قبرس، ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضيق العظيم الذى حصل فيها بسبب الجراد و كثرة الضرائب التى فرضها الحكام على الرعية.

القضاء على مملكة ذى القدرية و طبعه دولتى المماليك البحرية و البرجية:

و أهم ما وقع من الحوادث التى عجلت فى سقوط الشام بعد ذلك فى أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة (٩٢١) على مملكة ذى القدرية التركمانية و كانت عاصمتها مرعش تارة و (البستان) تارة أخرى، و استولت على بهسنى و ملاطية و خربوت، قامت هذه الدولة سنة (٧٨٠) و تولاها عشرة أمراء أولهم زين الدين قرهجه و آخرهم علاء الدولة بن سليمان الذى قتله سنان باشا و أخاه و بعض أولاده فى المعركة و استولى على ديارهم باسم سلطان العثمانيين، فبذلك سقطت الأنحاء الشمالية من الشام فى يد عدوة الدولة الشركسية، و كان أمراء ذى القدرية يغزون الشام حتى استولوا على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق. و منها ذهب سلطان مصر إلى دمشق سنة (٩٢٢) فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهبا و فضة، و فرش برسباى تحت حافر فرسه الشقق الحرير و خرج إلى المصطبة التى يقال لها مصطبة القبابون و رسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها و أقام بها تسعة أيام. و كان ذلك الذهب المنثور شوما على السلطان و مملكته انتشر بعدها سلك ملكه.

هذه أهم الأحداث التى حدثت قبيل دخول العثمانيين إلى الشام و خروجها من ملوك الشراكسة بعد أن ملكوها بسلطنته الأتابك برقوق (١٣٩) سنة و كان المماليك البحرية ملكوها منذ سنة (٦٥١) ه و الاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية و دولة الشراكسة فكلتاها أعجميتان، و لكن القائمين بهما لا يخرجون فى التخاطب و التكاثر و الأصول عن اللغة العربية

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٣

و الشريعة الإسلامية، و قد كان من تينك الدولتين المماليك و الأتراك و الشراكسة رجال عظام مثل بيبرس و قلاوون و ابنه و بيبرس الجاشنكير و قايتباى و برسباى و لكن جاء بعدهم ملوك ممخرقون و صبيان آل إليهم الأمر فأفسدوه أو من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة. و قد وفقت هذه الدولة أى المماليك البحرية و البرجية لإخراج بقايا الصليبيين من الساحل فنجحت فى التنكيل بهم حتى دثرت بقاياهم، و لكنها لم تقو على إنقاذ الشام من غارات التتر و المغول فقاست منهما ألوان العذاب و الخراب.

و كان سلطان مصر و الشام متى دهم الشام مداهم يعتصم بمصر و ينعم و يلد فى قصوره، و يكتفى بإرسال تجريدة قد تكون ضعيفة، أو يصدر أمره لنائب حلب أن ينجد دمشق و لنائب دمشق أن ينجد حلب مثلا، و لا يخرج الأعداء من هذه الديار إلا إذا أرادوا، و أتوا

على الناطق و الصامت و ألحقوا العامر منها بالعامر، و باتت أمور السلطنة ألعوبة في كثير من الأدوار بأيدي ضعاف الأحلام من أسرة ذاك المملوك فتهيأت السبل لقيام دولة أخرى و هي الدولة العثمانية.

أما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام، و من حكمه انتقلت إلى العثمانيين، فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته، بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح و طال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت أيامه فتنا و غوائل و مخاوف، حتى قضى الله في دولته بأمره، و استطال عليها سلطان أقوى.

و لقد رأينا في دولة المماليك البحرية و البرجية أو التركية أو الشركسية عجائب القوة و عجائب الضعف، رأينا منهم أغلب الذي طالت أيامه يعمل كل نافع للقطرين، و رأينا الملك المأمون منهم يتولى الملك أشهراً و لا يسجل له الفوضى و سوء الإدارة، و قليل ممن لم تطل أيامهم من هؤلاء الملوك الصعاليك من جمع في نفسه أدوات السياسية و الإدارة، و كان النواب في هذه الحقبة كما يفهم من ابن طولون إذا ظفر نائب دمشق أو أحد قواده ببعض الناشزين عن الطاعة من العربان تزين دمشق سبعة أيام على غلاء النفط و سوء حالة البلاد و كانت نفقة أحد النواب بدمشق أي واليها كل يوم ألف دينار. و قال في

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٤

حوادث سنة (٩٠٩) أمر النائب بإنهاء النائب و النداء بصيام ثلاثة أيام و التوبة و الخروج الى الصحراء و زيارة المزارات لينقطع الوباء قال الشافعي المولوي ابن الفرفور: قد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسنا. فلم يسهل على النائب ذلك و أسمع ما يكره.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٥

الدولة العثمانية «من سنة ٩٢٢ هـ إلى ١٠٠٠ هـ»

حالة الشام قبيل الفتح العثماني:

كانت الشام أخت مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأبلême، فيستبد المتغلب من المماليك بالأحكام بحسب ضعف صاحب مصر و قوته، و الصالح في نوابها و ملوكها قليل. و لم يسعد القطران بعد فتنة تيمور لنك بسلطان عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسد خللها، و يزيح بحسن الإدارة عللها. و شغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل و شاه سوار و ابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة و شرقها يجردونها فيجردون بها الرجال و الأموال، و قد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين و المغول و ما أعقبها من الأوبئة و الزلازل و المجاعات أعرى من مغزل، و أزممت الفوضى في أرجائها فساءت حالتها الاقتصادية و الاجتماعية.

أحس أكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون إلى الدولة العثمانية، و كانت إلى الشام و مصر أقرب الدول الإسلامية الكبرى، هذا و الدولة العثمانية إذ ذاك في إبان شبابها، و قد وقرت في النفوس منذ أسس بنيانها السلطان عثمان التركماني سنة (٦٩٩) على أنقاض دولة السلجوقيين، و لا سيما بما قام به محمد الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات و الفتوحات، و توفيق له من فتح عاصمة الروم البيزنطيين بعد أن حاول كثير من ملوك العرب و غيرهم ذلك فلم يفلحوا لبعدها عن مواطن قواتهم، و لقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور، و الأمور مرهونة بأوقاتها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٦

هذا و الناس لا فرق عندهم إذا استولى عليهم الترك الأعاجم، و قد حكمهم أجناس من المماليك زمنا طويلا ما داموا كلهم غرباء يستعبدونهم و ينالهم من ضعفهم ضعف، و من قوتهم بعض راحة و سعادة، و لا فرق في الإسلام بين عربي و أعجمي في الحقوق و الواجبات، و أقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة، و كانت الأمة تفنى بأسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى.

مقاتل الغورى ومقدمات الفتح:

كان السلطان قانصوه الغورى آخر من ملكوا الشام من الشراكسة على شىء من الدهاء، أعدّ للأيام عدتها و أدرك ما يحق بمملكته من خطر ابن عثمان، و لكن ما ينفع التدبير إذا كانت المعنويات فى حكومته مريضه ضئيله، و القوى فى جيشه غير موحده، و داء الهرم قد استحکم منه و من دولته. كان فى الثمانين من عمره يوم صحت نيه السلطان سليم العثمانى، رجل الإرادة القويه و الجيش الجرار، على أخذ الشام و مصر، و القضاء على دولة المماليك. و كان الغورى على روايه كامل باشا لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله و أمرائه غريب الأطوار فى ذاته، فكان ذلك من دواعى خروج الأمر عنه و وقوع الخلل فى جيشه، و كان يعتقد بعلم الجفر، و قد ذكر أحد أدعياء هذا العلم أن الشر يأتیه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين، فصار يتطير من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف، و منهم سيى كافل الشام.

ترجم للغورى أحد من عاصروه من الفرنج بقوله: «إنه من مماليك الغور فى أفغانستان، كان حاجب الحجاب فى حلب سنه (٨٩٣ هـ ١٤٩٠ م) و رأس محكمه عسكريه و وفق إلى قمع ثورة فأبان فيها عن كفاءه، و كان وزيرا لما حق المماليك على طومان باى و اختاره للملك، فتردد كثيرا فى قبوله لأنه كان تجاوز الستين من عمره و أخذ مكوسا و ضرائب من كل إنسان حتى من البوابين و ضرب نقودا زائفه أضرب بالتجاره الداخليه و الخارجيه، فاستلزم عمله حق الناس و انتقاد من عاصروه فعجل بخراب الماليه و ذلك لوضعه رسوما فاحشه على البضائع، و على البضائع التى تمر بأرضه و استعمل جزءا من هذه الضرائب

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٧

فى إقامة القلاع و لا سيما فى حلب و أنشأ طرقا و آبارا فى الحجاز. و كانت المكوس التى تجبى فى الموانى و رسوم البضائع الصادره من الهند إلى أوروبا من طريق مصر آتیه من عدن و جدّه و السويس و إسكندريه، أو من طريق الشام ذاهبه من البصره و حلب من أهم واردات المملكه. و تفاديا من أداء هذه الرسوم الفادحة حرص البرتقاليون على أن يكشفوا طريقا فى البحر إلى الهند على يد ملاحهم فاسكو دى غاما و كتب لهم النزول إلى شاطئ الهند و بعثوا إلى أوروبا توا بسفنهم النقاله الكبرى عن طريق رأس الرجاء الصالح، فتحاموا أداء المكوس الفاحشه التى كانت تؤخذ فى الموانى المصريه عن البضائع التى ينقلونها و عن نفقات النقل فى البر فاستفاد البرتقاليون من ذلك، و لم يسع الغورى أن يسكت عما يلحق المسلمين من مظالم البرتقاليين فحارب الأسطول البرتقالى غير مره فى بحرى الهند و الأحمر و نال منهم و نالوا منه قليلا. قال: و ساءت حاله الغورى حتى لم يستطع أن يدفع رواتب المماليك فى أوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونه قويه، و كانت سياسته الخارجيه تعسه لأنه اضطر أن يحالف عدوه اللدود إسماعيل شاه خوفا من السلطان سليم العثمانى و لم يخف ذلك عن السلطان سليم عرفه بواسطه جواسيسه اه.

و بينا كان قانصوه الغورى يغوص فى أحلامه و أوهامه، كان سليم الأول و هو التاسع من آل عثمان الملقب بياوز أى الشديد الجبار يجيش الجيوش و يعدّ الزخوف و يستجد السلاح، فبدأ بقتل الشيعة فى تخوم الأناضول و كانوا أربعين ألفا، ثم زحف سنه (٩٢٠) على الشاه إسماعيل الصفوى صاحب شروان و أذربايجان و تبريز و العراق العجمى و فارس و كرمان و ديار بكر و بغداد و باكو و دربند و خراسان و انتصر فى وقعه جالديران المشهوره، و انهزم عسكر الشاه إسماعيل شر هزيمة و جرح الشاه فى المعركه و فتح السلطان سليم ديار بكر و الأقاليم الكرديه، فهب قانصوه الغورى من مصر لإنجاده فيما قيل و الأرجح أنه هبّ للدفاع عن مملكته. و كان نائب سلطان مصر على البيرة رجلا اسمه علاء الدوله بن سليمان (و هو صاحب مرعش و البستان) فلما اجتاز السلطان سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوى أمر علاء الدوله أهل مرعش أن لا يبيعوا شيئا لعسكر سليم، فهلك كثير من رجالهم و دوابهم جوعا، فشق ذلك على

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٨

السلطان و شكا ما وقع له إلى الغورى فقال: إن علاء الدوله لم يصدر عن أمره و أنه عاص عليه و أنه إذا قتله يكون له شاكرا، و كتب الغورى إلى علاء الدوله يحمله على متابعه عمله، فأحس سليم بأن الغورى يكيد له و زاد علاء الدوله بأن سرق بعض أحمال من ذخائر

عسكر سليم، فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة و أولاده و أرسل رؤوسهم إلى الغوري. بمعنى أن سنان باشا استولى سنة (٩٢١) باسم السلطان سليم على مملكة ذى القدرية التي كانت في مرعش و البستان و ملطية و بهسنى و خربوت و ما إليها، و كانت الدولة العثمانية جعلت حكومته أبناء رمضان التركمانية التي نشأت سنة (٧٨٠) في جهات أذنه و طرسوس و سيس تحت ظلها، و كانت علائق أمرائها الثلاثة الأول مع دولة المماليك الشركسية أصحاب الشام و مصر مسترخية، ففتحت السبل و المنافذ إلى الشام و صارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها و على خط رجعتها.

و لما أضعف السلطان سليم مملكة كبرى و هي مملكة الصفوى، و قضى على مملكة صغرى و هي مملكة ذى القدرية، طمحت نفسه إلى فتح الشام و مصر و نزعهما من دولة المماليك ليضمهما إلى مملكته فتدخل في طور العظمة و تكون ممالك في مملكة، و كان أبوه و جده من قبله يقاتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك، و يدفعان أمراء الأطراف أمثال أمراء ذى القدرية و غيرهم إلى مجاذبة ملوك الشراكسة حبل السلطة على التخوم. و كان أولئك الأمراء كثيرا ما يسرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير، لعلمهم بأن إثارة العثمانيين لهم على المماليك لا خيرهم بل ليتقموا بهم ثم ينتقموا منهم و يضعفهم و يضعفوا بهم.

صلات العثمانيين مع المماليك و وقعة مرج دابق:

و ذكر مؤرخو الترك أن الصلات السياسية بين ملوك الشراكسة أصحاب مصر و الشام و بين سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح، و لما سمت هممة السلطان سليم إلى فتح الشام و مصر (٩٢٢) أرسل جيشا إلى ديار بكر يوزى بأنه يريد قصد إيران، و لأدنى سبب أخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٠٩

السلطان سليم رجال السفير و أراد أن يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه و شفع فيه، و قال له: إن ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون، فاكتفى السلطان بحلق شعر السفير و لحيته، و أركبه على حمار أعرج أجرب إلى صاحبه الغوري جزاء ما قدمت يداها فيما يقال من امتهان الغوري رسل السلطان العثماني.

و ترددت الرسل بين السلطانيين في مرج دابق أولا، و كان ابن عثمان فوض إلى رسله أن يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثنى بذلك عزم الغوري عن القتال، و قد أحضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء مملكته يجيزون له قتل الشاه إسماعيل الصفوى، و أرسل يقول للغوري: أنت والدى و أسألك الدعاء لكن لا تدخل بينى و بين الصفوى - بينا الأمر على ذلك و قد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنية، و أرسل إليه ابن عثمان يطلب منه سكر و حلوى و أرسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا و التحف، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة و كسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر، فقتل من عسكر ابن عثمان و من عسكر الغوري خلق كثير، فلما تحقق الغوري أنه غلب أصابه للحال فالج أبطل شقه و أرخى حنكه، و استعد للركوب فمشى خطوتين و انقلب عن الفرس إلى الأرض و فاضت روحه من شدة قهره، و أكثر المؤرخين على أنه لم تظهر جثته في المعركة. و يقول بعض مؤرخى الترك: إن جاویشا من الجيش العثماني أمر بأن يبحث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه و قدمه إلى السلطان سليم، فامتعض منه السلطان و أمر أن يضرب عنقه لتزلفه إلى مولاه بقطع رأس الملك المقتول، و لولا أن الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاویش مكنفيا بعزله.

و ذكروا أن الغوري قد خانته لأول الأمر ثلاثة عشر ألفا من جيشه، و امتنعوا عن الحرب عند الصدمة الأولى و أبوا قتال الأتراك، و من الأمراء الذين كانوا موالسين على الغوري و ضلعهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب و جان بردى الغزالي نائب حماة، فإن السلطان سليما كان فاوضهما

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٠

سرا ليولهما الشام و مصر على ما قيل إذا ساعده على فتح هذا القطر، فلما انهزمت ميمنة الغورى و قتل الأتابكى سودون العجمى و ملك الأمراء سيباى نائب الشام، انهزم جانب كبير من العسكر و انهزم خير بك و هرب فانكسرت الميسرة و كان ابن معن و أمراء الساحل صحبة خير بك و الغزالي فقال الأمير ابن معن لمن معه من رجاله و قومه: دعونا ننفر لننظر لمن تكون النصره فنقاتل معه. و لما اضطرت نار الحرب فرّ الغزالي و خير بك إلى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من أمراء الديار الشاميه و بقى الغورى بعسكر المصريين أى عسكر الشام و المغول عليهم من أمرائها من الشراكسه و الوطنيين قد استمالهم السلطان فقاتلوا فى صفوفه بدلا من أن يقاتلوه، و نائب الشام سيباى الذى كان يتطير منه الغورى لأن اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه فى المعركة يدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم.

قوة الغالب و المغلوب:

اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين و المماليك فأغلبهم على أن ابن عثمان كان فى أربعين ألف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة، و روى نامق كمال أن العثمانيين كانوا فى ثمانين ألفا و ثمانمائة مدفع، و أن الغورى كان فى خمسين ألفا لا مدافع لهم. و ذكر الغزى أن الغورى أتى من حلب إلى دابق فى ثلاثين ألفا و قال ابن طولون: إن السلطان سليما وصل إلى دمشق فى عساكر عظيمة لم تر العين مثيها يقال: إن عدتها مائة ألف و ثلاثون ألفا. و ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليما أمر أن تعد القتلى من الفريقين فى مرج دابق فكان قتلى الشراكسه ألف نفس و قتلى الروم أى الترك أربعة آلاف. و كان فقدان المدافع من جيش الغورى و خيانه ربيع جيشه و عدم ثقته بأحد من دواعى القضاء عليه و على سلطانه، و أهم ذلك خيانه بعض قواده و امتناع الأمراء عن الدفاع فى صفوفه أو يظهر لهم الغالب!

قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر، و ما قتل من رجال الغورى، ثم تحول من مرج دابق و دخل حلب من غير ممانع، و نزل فى الميدان الذى كان السلطان الغورى نزله، و انتشر خبر الهزيمة و قتل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١١

الغورى فى أنحاء الشام، فوثب الناس بعضهم على بعض و نهبوا الزروع و أخذوا الأموال، و اضطربت العمال أيما اضطراب، و نهبت حارة السمرة بدمشق و قتلوا جماعة و أخذوا أموالهم، و كذلك فعلوا بتجار الفرنج و نهبوا أموالهم، و كانت فتنه هائلة و نهبوا بيوت أعيان دمشق من القضاء و التجار، فخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك و بسبب فتنه ابن عثمان و فساد الأحوال بمصر و الشام و توجه أمراء الغورى و عسكره المهزوم إلى حلب، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة، و قتلوا جماعة من العسكر و نهبوا سلاحهم و خيولهم و أنقأهم، و وضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب، و جرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن إياس. و كان بين أهل حلب و المماليك السلطانية إحن منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة إلى حلب فنزلوا فى بيوت أهلها و اغتصبوا نساءهم و أولادهم، و آذوا الحلبيين كل الإيذاء، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم.

و على الجملة فإن ما نال السكان أواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المالكه و فتح القلوب للسلطان سليم الأول، و خدمه كثير من أهل الشأن قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالأخبار تترى عن مقاتل الغورى و مواطن الضعف من دولته، و قد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ أواخر القرن الماضى فكان ذلك من العوامل القوية فى الفتى فى عضد الجيش الشركسى و إمالة القوة إلى الجيش التركى ففتحت الشام فى وقعة واحدة و لم يبك على دولة المماليك إلا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات و ينالون مظاهرها و يسلبون نعمه الأمة.

دخول السلطان سليم حلب و دمشق:

وإلى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله أهلها بالمصاحف والأعلام يجهرون بالتسبيح والتكبير و يقرأون «و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى» و طلبوا منه الأمان فأمنهم و أنعم عليهم ثم أخذ يجمع مالا- من التجار سماه «مال الأمان» و رأى خلفاء أرباب الطرق الصوفية فسأل عنهم و هم يحملون أعلامهم و يرحلون إلى دمشق و أشار عليه خير بك بأن يقتلهم و كانوا نحو ألف نفس، و استسلم خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٢

نائب قلعة حلب فأرسل السلطان إليه شخصا من جماعته أعور أعرج و فى يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال إنه أخذ حلب بأضعف جنده. و طلع السلطان سليم إلى القلعة فرأى فيها ما أدهشه من مال و سلاح و تحف و كان بها على رواية ابن إياس نحو مائة ألف ألف دينار و ثمانمائة ألف دينار. و قال مؤرخو الترك: إنه كان فيها مليون دوكا. و رأى السلطان سليم من أنواع الأسلحة و الزينة ما جمعه الغورى من وجوه الظلم و الجور و التحف التى أخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر و الشام الأيوبيين و ذلك عدا ما كان فى بيوت الأمراء و غيرهم من رجال الدولة. و وجه ابن عثمان الجيش إلى مرعش ففتحها و ملك معها ثلاث عشرة قلعة من مملكة الغورى و أحرز ما فيها من مال و سلاح. و ذكروا أن العثمانيين عثروا فى خيمة الغورى فى مرج دابق على مئتي قطار من الفضة و مئة قطار من الذهب و فى رواية أن هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة و قيل: إنه وجد فى قلعة حلب ثلاثمائة ألف ثوب كامل.

و أقام السلطان العثماني فى حلب ثمانية عشر يوما و بايعه أهلها بحضور و إليها خير بك، و توجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله العباسي، و كان جاء مع الغورى من مصر و معه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة و جلس بين يديه و خلع عليه و أنعم عليه بمال و رده إلى حلب، و وكل به أن لا يهرب أى إنه أسره بأسلوب لطيف، و صلى الجمعة فى الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خادم الحرمين الشريفين فكان ذلك كما قال راسم فال خير بأن السلطان سليما سيكون صاحب دولة إسلامية كبرى. قال: و كان خيره باى (خير بك) أحد أمراء الغورى استأمن السلطان العثماني لما تقهقر جيش مصر فأنقذ نفسه. و ولى السلطان على حلب قراجا باشا. و سار فى جيشه إلى حماة و حمص ففتحت له أبوابهما، و بايعه أهلها على الطاعة كما بايعه أهل طرابلس و القدس. و جاء السلطان دمشق فاستقبله أهلها و رضوا به ملكا عليهم، فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة. قال ابن طولون: «و فى يوم الخميس الثامن و العشرين شعبان (٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الأتراك) إلى القابون الفوقاني و اسمه مصلح ميزان، ثم وجه من يكشفون له هل يسلم أهل دمشق أم يقاتلون،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٣

و قد كانت اتفقت أكابرها و مشايخ الحارات على تسليمها فسلموها. و فى يوم الجمعة التاسع و العشرين منه دخل نائب دمشق الجديد من قبل ملك الروم و اسمه يونس باشا، و خطب فى هذا اليوم فى الجامع الأموى المولوى ابن فرفور باسم ملك الروم و كذلك فى سائر الجوامع، ثم تتابع دخول العسكر، و فى يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم إلى المصطبة السلطانية بأرض برزة فى عساكر عظيمة يقال: إن عددها مائة ألف و ثلاثون ألفا و عزل عن نيابة دمشق يونس باشا و ولى مكانه أحمد بن يخشى. و فى يوم الإثنين العشرين من ذى القعدة و هو خامس شهر كانون الأول و رابع الأربعينيات الشتوية سافر ملك الروم من دمشق إلى مصر لأخذها من يد الشراكسة.

مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجديد و تغير الأحكام:

قابل الأمراء السلطان سليما و منهم الأمير فخر الدين المعنى الأول أمير الشوف فخطب أمامه بالنيابة عن أمراء البر خطبة جميلة استمالت بها قلب الفاتح، فأحسن إليه و خلع عليه و سماه سلطان البر و أفضل عليه و على رفاقه من الأمراء مثل الأمير جمال الدين الأرسلانى

اليمنى الذى جعله واليا على بلاد الغرب و الأمير عساف التركمانى أمير بلاد كسروان و بلاد جبيل، و أمرهم أن يحسنوا السياسة لقومهم و أن يسعوا بكل ما يؤول إلى عمران بلادهم، و قدمت إليه الناس من كل جانب إلا الأمراء التنوخيين القيسيين فإنهم لم يأتوا لأنهم كانوا من حزب الدولة الشركسية. و قال كامل باشا: إن أمير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) و كان عهد إليه الدفاع عن دمشق من قبل الشركسية قبل بالصلح الذى اقترحه عليه خيرباى و خضع للسلطان سليم، فنزل هذا فى القصر الأبلق فجاءه محافظو قلاع سوريه و أمراء العرب و الدرروز يعرضون الطاعة له. و يقول ابن إياس: إن الأمير ناصر الدين بن الحنش، أمير عربان حماة لما بلغه أن ابن عثمان أرسل طلائع عسكره و قد وصلت إلى القابون بالقرب من دمشق، لقيهم ابن الحنش و حصل بينه و بين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة و قتل منهم جماعة و أطلق عليهم الماء من أنهر دمشق حتى صار كل من دخل فى تلك المياه بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٤

و لما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس و على الأحكام الشرعية فتعطلت الحدود. قال الغزى: و لما بلغ الإمام على بن محمد المقدسى أن العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات تنزع الدم من كبده و تمنى الموت، للقهى الذى أصابه و للغيرة على دين الإسلام و تغير الأحكام و قال فى دخول السلطان سليم دمشق هذه الأبيات:

ليت شعرى من على الشام دعا بدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشة فهى تبكىنا و نبكىها معا

قد دعا من مسه الضر من الظلم و الجور اللذين اجتماعا

فعلا الحجب دعا فانبعثت غارة الله بما قد وقعا

فأصاب الشام ما حل بهاسنة الله التى قد أبدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر، و ربما و كان فيما بلغه مبالغه نشأت من تعصب للدولة الشركسية أو رجاء أخفق، و كان يظن أنه يتم على يد ابن عثمان من إقامة الحدود و رفع المظالم شىء كثير فى مدة قصيرة، و ما خلت دولة مهما بلغ من سخفها و سخف القائمين بها من أنصار لها على الحق و الباطل، و كثير من الأمور إذا نظرت إليها من وجهها راقتك، و إذا ملت إلى الوجه القبيح أحصيت عليها بعض العيوب.

السلطان فى دمشق و فى الطريق لفتح مصر:

جهز السلطان سليم جيشه فى دمشق و قضى فصل الشتاء فيها يعمر بعض المباني. و قال صولاق زاده: إن السلطان سليما كان مدة إقامته فى دمشق يختلف فى الأوقات الخمسة إلى الشيخ محمد بلخشى فى جوار جامع بنى أمية و إن السلطان سليما لما كان يعتقد بالاستمداد من أرواح الأنبياء العظام الطاهرة، و أرباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة إقامته فى دمشق، و لما رأى قبر العارف بالله محيى الدين بن عربى قد تداعى و خربت تربته أمر بتعميره على ما يجب، و أنشأ بجواره جامعاً على أجمل طرز، و عمر زاوية بقربه، و وقف على ذلك عدة قرى و مزارع. و قال أيضا: إن السلطان سليما صرف الأمراء

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٥

و الجند فأخذوا دستورا إلى مواطنهم ليقضوا فيها فصل الشتاء بعد أن استراح اثنى عشر يوما فى المصطبة.

و ذكر ابن طولون أن النائب بدمشق ابن يخشى نادى فى ٢ ذى الحجة (٩٢٢) بالأمان و الاطمئنان، و أن لا- ظلم و لا عدوان، و لا يحمل أحد سلاحا، و أن لا يتكلم أحد فيما لا يعنيه.

سار السلطان عن طريق البر إلى غزة فعصت عليه ففتحها حربا، و التقى جيش العثمانيين مع جيش المصريين فى خان يونس بين غزة و

العريش، فشتت الجيش العثماني الجيش المصري، ثم عصت غزة و الرمله فقمع نائر الغزاه فيها، و كانت الوقعه المهمه بين عسكر مصر و عسكر ابن عثمان على الشريعه بالقرب من بيسان اندحر فيها المصريون و قاد جندهم الغزالي. قال ابن طولون:

و في ١٦ ذى الحجه (٩٢٢) التقى سنان باشا الوزير الأعظم لملك الروم مع جان بردى الغزالي و كسر الغزالي فدقت البشائر بقلعه دمشق و سيب بها نفط كثير ثم نادى النائب بالزينه و استمرت مده أسبوع.

ذهب السلطان سليم في جيشه إلى مصر و قتل الملك الذي كان بايع له المصريون بعد هلاك السلطان الغوري و اسمه طومان باي، ففتح القطر المصري على أيسر سبب. قال ابن طولون: و لما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة أيام و دارت مبشرو الأروام على بيوت الأكابر و الحارات بالطبول و النايات ثم أتبعوها بزينة سبعة أيام لما ورد الخبر بأن السلطان سليما أفنى الشراكسه و عاد السلطان عن طريق البر إلى الشام بعد تغيبه ثمانية أشهر و دخل دمشق (١١ رجب ٩٢٣) و في يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء و تضرر الخلق بذلك ضررا زائدا و تحقق أن السلطان عزم على الإقامة بدمشق فغلت الأسعار و عند ذلك شرع بعمارة تربة ابن عربى و صرف عليها عشرة آلاف دينار. و من غريب التوفيق أن السلطان سليما كان أعد في ذهابه إلى مصر خمسين ألف جمل لحمل المياه في الصحراء التي تفصل الشام عن مصر فأمرت السماء مطرا غزيرا أغنى جيشه عن ماء الروايا، و سهل عليه قطع صحراء التيه.

و بينا كان السلطان سليم سائرا إلى مصر تأخر من جماعته في الرمله، أناسا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٦

فشاع الخبر أن أهل المدينة قتلوهم، و بلغ ذلك السلطان فأمر بقتل أهل البلد فقتلوا عن آخرهم و لم يبق فيها ديار و لا نافخ نار. و يقول القرمانى: إن السلطان أمر بقتل عامه أهل الرمله عند عودته من مصر و قد بلغه الثقات أن أهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر المجروحين. و قال ابن إياس: إن الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعه أشيع في غزة أن الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان و قتل سنان باشا و عسكر ابن عثمان، فبادر على باي دودار نائب غزة و أجناده فنهبوا و طاق العثمانيين و أحرقوا خيامهم و قتلوا ممن كان في الوطاق و المدينة من العثمانية نحو أربعمائنه إنسان ما بين شيوخ و صبيان و ممن كان بها مريضا، فلما ظهر أن الكسره على عسكر مصر و قتل من قتل من الأمراء رجع سنان باشا إلى غزة فوجد من كان بها قد قتل و نهب الوطاق، فجمع أهل غزة قاطبه و قال لهم: من فعل ذلك بنا؟ قالوا: على باي دودار نائب غزة، و أجناده فنهبوا و طاق العثمانيين و أحرقوا خيامهم و قتلوا ممن كان في الوطاق و المدينة من العثمانية نحو أربعمائنه إنسان ما بين شيوخ و صبيان و ممن كان بها مريضا، فلما ظهر أن الكسره على عسكر مصر و قتل من قتل من الأمراء رجع سنان باشا إلى غزة فوجد من كان بها قد قتل و نهب الوطاق، فجمع أهل غزة قاطبه و قال لهم: من فعل ذلك بنا؟ قالوا: على باي دودار نائب غزة، و أجناد غزة، و لم نفعل نحن شيئا من ذلك، فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا فيها قماش العثمانية و خيولهم و خيامهم فقال لهم سنان باشا: نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم قالوا: لا. فقال لهم: كيف فعلتم بعسكرنا ذلك، فلم يأتوا بجواب و لا عذر و لا حجه فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم كثيرين و راح الصالح بالطالح.

و نصب السلطان واليا على مصر خير باي نائب حلب، و واليا على دمشق جان بردى الغزالي نائب حماه، و أضاف إلى هذا القدس و غزة و صفد و الكرك، و أما حمص و طرابلس و المدن البحريه فجعلها بأيدي عماله من الأتراك، و بقى الحال على ذلك مده طويله. و كانت ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر على مال معين قدره مائتا ألف دينار و ثلاثون ألف دينار. قال شمس الدين سامى: إن جانبردى الغزالي كان قائدا عاما للجيش الذى أرسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الوقعه التي جرت في غزة و فرّ ثم رأى أن يستأمن السلطان سليما و يخدمه، فأعانه على قهر طومانباي و فتح مصر ثم كان سببا لقتل طومانباي. و مكافأة لخدمته نصبه السلطان واليا على دمشق، أما حلب فقد نصب عليها قره

جه أحمد باشا و دام فيها واليا ثلاث عشرة سنة لغنائه و كفايته فى خدمة دولته.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٧

فتوح و غارات و تأذى السكان:

و لما مهد السلطان سليم الديار الشامية و المصرية عصى عليه محمد بن الحنش المتغلب على صيدا و البقاعين و شيخ الأعراب (٩٢٤) ثم هرب و اتهم الأمير زين الدين و الأمير قرقماز و الأمير علم الدين سليمان أنهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي و بعث برأس ابن الحنش و رأس ابن الحرفوش إلى السلطان سليم فى حلب و أطلق سراح هؤلاء المعتقلين، و كان ابن الحنش كثير العصيان على نواب حلب و على سلاطين مصر. و لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من مقابله، ثم اضطرت أحوال جبل نابلس و صار العربان يهربون الضياع التى حول حاضرتها و يقتلون أهلها. و فى مدة إقامة السلطان سليم فى حلب لدن عودته من فتح دمشق و مصر قتل بعض أشرار حارة بانقوسا، و لما بلغه أن الشاه إسماعيل الصفوى يريد أن يهاجم حلب أخذ يطيب خاطر الحلبيين و رفع عنهم ما كان أثقل كواهلهم به من الضرائب و المكوس و أنشأ يعنى بتحسين حلب.

و من أعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامى فخرج إليهم و معه نائب غزة و نائب الكرك، فاقتتل مع العربان و قتل منهم جماعة و غنم أموالهم. و فى السنة التالية أتى الفرنج إلى ساحل بيروت و حاصروا من بها فكسروهم و ملكوا بيروت و ظلوا فيها ثلاثة أيام، فلما بلغ نائب الشام ذلك عين دواداره و معه الجم الكثير من العساكر فتوجهوا إلى بيروت و اقتتلوا مع الفرنج. و كان بين الفريقين واقعة قتل فيها كثير منهم و أسر ثلاثمائة إنسان منهم و غنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح و قماش، و قيل: أسروا جماعة من أولاد الملوك الفرنج و ملكوا ثلاثة من كبار مراكبهم. و يقول ابن طولون:

إنه قتل من المسلمين مئة و من الفرنج أربعمئة جاءوا فى زى الأروام و جىء برؤوس الإفرنج إلى دمشق (٩٢٦).

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٨

و فى ذهاب السلطان إلى مصر و عودته إلى الشام قاسى الشاميون من اعتداء جنده كثيرا، فقطع الأجناد الأشجار و رعو الزروع و أخرجوا أهلها من بيوتهم فى كل بلد و احتلوا و تعدوا على أعراض الناس، فتضرر الناس بذلك و عرفوا أنهم أخطأوا فى نفص أيديهم من أيدي الشراكسة لأول ما بدا لهم من قوة العثمانيين، و خاب رجاؤهم فى أن تغيير الدول قد يكون منه رحمة، خابت الظنون لما جاء دور العمليات و غلط فى الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير و أن الحظ يحفظهم متى خفقت أعلامها عليهم، و كانوا يرقبون طلعة العثمانيين منذ سنين رقبه هلال العيد، للاستمتاع بحكمهم الرشيد و عهدهم السعيد، و لطالما ساء فأل من يهتمون للأمر الجديد، و يفتحون له قلوبهم و صدورهم بادئ الرأى مع علمهم أحيانا بتهورهم، و أى فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة، حبا بأن يكون لهم شىء من الراحة و الهناء إذا تغيرت الدولة.

محاسن السلطان سليم و مساويه و مهلكه:

صرف السلطان سليم سنة و شهرا فى فتح الشام و مصر و هلك بعد مغادرته القطرين بنحو ثلاث سنين (٩٢٦) و قد بالغ مؤرخو الترك فى وصف فضائله خصوصا من كتبوا بلسان الرسميات. و كثيرا ما يكون فى الروايات الرسمية نظر كبير إذا وضعت على محك النقد التاريخى. و كان مؤرخو العرب أقرب إلى الثقة فى وصف هذا الفاتح الذى هو بلا مرأى نابغة العثمانيين أو من نوابغهم بعد محمد الفاتح. ترجمه النجم الغزى فى الكواكب السائرة بقوله: كان السلطان سليم سلطانا قهارا، و ملكا جبارا، قوى البطش، كثير السفك، شديد التوجه إلى أهل النجدة و البأس، عظيم التجسس عن أخبار الملوك و الناس، و ربما غير لباسه و تجسس ليلا و نهارا، و كان شديد اليقظة و التحفظ، يحب مطالعة التواريخ و أخبار الملوك، و له نظم بالفارسية و الرومية (التركية) و العربية.

و مما قال ابن إياس فيه: إنه لم يجلس بقلعة الجبل (بمصر) على سرير الملك جلوسا عاما، ولا رآه أحد، ولا أنصف مظلوما من ظالم، بل كان مشغوفا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢١٩

بلذته و سكره، و إقامته في المقياس بين الصبيان المرد، و يجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه، فكان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء الشراكسة، و ما كان له أمان، و كلامه ناقض و منقوض، لا يثبت على قول واحد كقول الملوك و عادتهم في أفعالهم. و قال أيضا: إن السلطان سليما قتل يونس باشا الصدر الأعظم و كان مقربا جدا عنده و لكن ابن عثمان ليس له صاحب و لا صديق و لا أمان منه لأحد من وزرائه و لا من عسكره و من طبعه الرهج (الشغب و الفتنة) و الخفة، و يحب سفك الدماء و لو كان لولده، و يقال: إنه قتل أباه و إخوته، لأجل مملكة الروم، و آخر الأمر إنه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة.

و في الواقع أن السلطان سليما قتل وزيره حسن باشا في رحيله إلى مصر لأن هذا لاحظ أن في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه، و لما غادر السلطان مصر و ألف جمل تحمل أمامه منها إلى الاستانة ما غنمه من الذهب و الفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطبة و السبب في ذلك أن السلطان اقترب من الصدر الأعظم و هو سائر معه و قال له: أرأيت كيف مصر الآن وراءنا و غدا نبلغ غزة. فلم يتمالك الصدر أن أجاب السلطان:

نعم و لكن أي ثمرة حصلت من هذا التعب و المشقة، إن لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب و وسط الرمال، و بقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة. فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضبا فضرب عنق الوزير في الحال و دفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر و الشام يونس بن عبد الله التركي الدوادار بالقرب من غزة، فدفن يونس باشا في خان سمي يونس الدوادار، و عهد السلطان بالصدارة إلى يبرى باشا.

و قال الشرقاوى: إن خير بك لما دفع إلى السلطان سليم مفاتيح مصر ردها عليه و ولاه عليها إلى أن يموت فشاورة على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الأجناد فأجازه بذلك، و شاورة في إبقاء أوقاف الشراكسة و هي نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجازه بإبقائها على ما كانت عليه، فتشوش وزيره و قال: فنى مالنا و عساكرنا، و تبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها، فقال السلطان سليم: أين الجلاذ و كانت إحدى رجليه في الركاب فضرب عنق

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٠

الوزير و وضع رجله الثانية في الركاب. و قال: عاهدناهم على أنهم إن مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها و جعلناهم أمراءها، فهل يجوز لنا أن نخون العهد و نغدر؟ و إذا أدخلنا أبناءهم في جنودنا فهم أولاد مسلمين و يغارون على ديارهم، و أما أراضيهم فأصلها ملك القائمين و منهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده، فهل يجوز أن ننازع الملاك في أملاكهم؟ و أنا أزلت الوزير كراهة أن يغير على اعتقادي بتكرار كلامه اه.

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر و أطفه، و كان شديدا جدا على وزرائه قتل منهم سبعة لأسباب تافهة. و قال القرمانى: إنه خنق إخوته و غيرهم من أهل بيته و عددهم سبعة عشر نفرا و ذلك حين توليه الملك و جرى عند الأتراك في حكم الأمثال قولهم: من أراد الموت فليكن وزيرا للسلطان سليم، لأن لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل. و قال صولاق زاده: في عصر سليم كان الوزراء أبدا عرضة للتنحية ثم للقتل بعد شهر من تنصيبهم، و لذلك اعتادوا أن يحملوا معهم صكوك و صاياهم، و كلما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون أنهم عادوا إلى الحياة بعد الموت. و قد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقى بأنه أقسى البشر قلبا لا يحلم بغير الفتوح و الحرب اه.

و لم يكن السلطان سليم يراعى من جميع رجاله إلا المفتى الأعظم زنبيللى على أفندى، و كان هذا قوالا بالحق و كثيرا ما كان يرده عن مظالمه، و يحول بينه و بين إزهاق النفوس بلا حق، و قد أنقذ بعمله من القتل مئات من البشر، و هذا المفتى العظيم تولى مشيخة

الإسلام ستا وعشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين وهم با يزيد الثاني و سليم الأول و سليمان الأول:

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار أكثر من ثمانى سنين و ثمانية أشهر، و لم يعمل فى الشام إلا أن أقرّ القديم على قدمه فى أسلوب الأحكام، و غنم ما تيسر من ثروة المماليك و الأغنياء، و زاد فى الضرائب و المكوس، و نصب حكاما ممن استأمنوا إليه أو خانوا الدولة الأولى و تقربوا إليه منذ دخل حلب و وضع قيد الأسر للخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس بمصر، و أخذه معه لما انصرف إلى الاستانة، ثم ألقى الاختلاف بينه و بين أولاد عمه أبى بكر و أحمد. و قال ابن إياس: إن السلطان سليما تغير خاطره على الخليفة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢١

المتوكل على الله و أرسله إلى مكان عسر يقال له الست أبراج و المظنون أنه كان هناك آخر العهد به فقتله و أشاع بين الملا أنه مات، و لا يستكثر ذلك من ملك قتل أباه لأجل الملك فضلا عن إخوته و آله. و يقول «نامق كمال»: إن الخليفة العباسى قد تخلى لال عثمان عن حقه فى الخلافة فى جامع أياصوفيا علنا. و فى رواية أن الخليفة بقى إلى زمن السلطان سليمان و أنه أطلق من سجنه و وسع عليه و قال بعضهم: إنه أذن له بالسفر إلى مصر فسافر إليها و مات بها.

و روى المؤرخون أن السلطان سليما كان يريد أن يعمل عملا نافعا للأمة بأسرها. كان ينوى أن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلا من التركية فعاجلته المنية قبل إتمام هذا العمل الجليل. و الغالب أنه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر و الشام و خطب له فى الحرمين الشريفين فسمى فاتح ممالك العرب، فرأى أن العرب فى مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها، و أن الترك هم عنصر الدولة الأصلى لا يشق عليهم أن يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق و الأرناؤوط و الكرد و اللاز و الشركس و الكرج. و لو وفق السلطان سليم إلى إنفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمانية فى القرون التالية من مشاكل عظيمة، و دخلت فى جملة العرب عناصر كثيرة مهمة، و لزد انتشار اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطنها كما كانت بغداد و دمشق و القاهرة و قرطبة و غرناطة.

خارجى خان أولا و ثانيا:

أصبحت الشام بالفتح العثمانى آمنة عزوات الشمال و الشرق و الجنوب، و صارت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من هذه الوجهة و لكن أصبح أعداؤها فى داخلها و من أهل دولتها. فتحت الشام و مصر فى وقتين مهمتين و ما عداهما فمناوشات لا يؤبه لها. فلما رحلت القوة و خلا الجولجان بردى الغزالى نائب دمشق حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة و صعب على طبعه إلا أن يخون سيده الثانى كما خان سيده الأول:

و من يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه و العوائد أملك

ففاوض بعض أمراء لبنان و العربان فوعده أن يمآلثوه على عمله، و دعا لنفسه بالسلطنة فى دمشق و بايعه الناس على ذلك طوعا أو كرها، و وافقه على

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٢

عصيانه الأعراب و المماليك و لقب نفسه بالملك الأشرف صاحب الفتوحات، و زينت له دمشق ثلاثة أيام و أوقدت له الشموع على الدكاكين، و قبل له الأمراء الأرض و قد جمع العسكر الكثير، و خطب باسمه على منابر دمشق و ضربت السكة باسمه على الذهب و الفضة. و أرسل إلى أمير الأمراء بمصر ليقوم معه لنزع حكم العثمانيين عن مصر و الشام فنمّ عليه للسلطان، فقام الغزالى وحده مدفوعا بتنشيط زعانف السكان و المماليك و العربان و الأكراد أتباع كل ناعق، و كثر الملتفون عليه حتى تسحب المماليك إليه من مصر و كثروا سواده. و ذكروا أن من اجتمع عليه من الجند كان خمسة عشر ألفا من المماليك و التركمان و ثمانية آلاف ممن يضربون

البنادق.

و لما بلغ قراجه باشا والى حلب موت السلطان سليم كان بعسكره فى حيلان فرجع إلى حلب و حصنها و استخدم خلقا كل إنسان بثلاثمائة درهم، و أنفق عليهم من مال السلطان شهرين، و أعطى الانكشارية كل واحد ألفين و الاصباهية كل واحد ألفا زيادة على الراتب، و خرج إلى قرية سرمين و قرية داريوخ و نهبهما، فخرج إليه أمير شيزر من جهة الغزالي فأخذ منه جميع المكسب و غنم منه جماعة و جهز رؤوسهم إلى دمشق، و دخل نائب حلب إليها مكسورا و وصل عسكر الغزالي إلى الأنصاري و خرج إليه عسكر حلب. فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا فى ثمانية آلاف انكشارى عدا من انضم إليه من قوى الأناضول و كان معهم ثمانية عشر مدفعا كبيرا.

سار الغزالي إلى حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة و لم يقدر عليها لصدق أهلها فى قتاله، و داهمه الجيش العثمانى بما أتاه من المدد فانكسر، و جاء إلى حماة فتبعه العسكر العثمانى و اقتتلوا معه فهرب منهم، و قصد التوجه إلى دمشق و خرب فى طريقه قناطر الرستن على العاصى فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة دارت خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف إنسان و قتل أكثر من ذلك، بينهم عربان و مماليك و جماعة من عوام دمشق و فيهم أطفال و صغار من أهل الضياع و غيرهم ممن حضر القتال. قال ابن إياس: و كانت هذه الواقعة تقرب من وقعة تيمور لنك لما ملك الشام و جرى منه ما جرى من قتل و نهب و سبى و حرق ضياع و ما أبقوا فى ذلك ممكنا. و ليس الخبر كالعيان.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٣

ثم نودى فى دمشق بالأمان سنة (٩٢٧) و قد خرب نحو ثلثها من ضياع و حارات و أسواق و بيوت، و أصاب حلب و حماة و حمص من خراب القرى و هلاك الأنفس و ذهاب الأموال شىء كثير.

كان الغزالي لما جاء دمشق مهزوما من الجيش العثمانى قتل خمسة آلاف انكشارى جعلهم السلطان سليم حامية عند ما فتحها، و ذلك مخافة أن يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم و ليمه و قتلهم على بكرة أبيهم شر قتله. ثم دارت الدائرة عليه و تشتت جيشه فقتله خازن أمواله و جاء برأسه إلى القائد التركى، فذهب و دولته الموهومة لم ينل الشام منه إلا الضغط و الشدة بعدها.

قال المقار: إن الغزالي استولى على دمشق و طرابلس و حمص و حماة و حلب و خطب له بالجامع الأموى بأنه سلطان الحرمين الشريفين و لقب بالأشرف، و أن الدولة أرسلت عليه جيشا من ثلاثين ألفا و أربعة آلاف انكشارى و معهم مائة و ثمانون عربى، فالتقى عسكره و عسكرها عند قرية الدوير، و تواصل العسكر الرومى و ركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر و قطع رأسه، ثم تلاحق العسكر الرومى ببقية العسكر الهاربين إلى الصالحيه و نواحي دمشق و ارتجف الناس رجفة عظيمة و قتل من شباب الصالحيه و الأحياء و القرى، فكسروا الأبواب و حواصلها و بيوتها و دكاكينها و غير ذلك و آذوا النساء فضلا عن الرجال فلم يحترموا صوفيا و لا فقيها و لا كبيرا، و كانت النساء قد اجتمعن بجامع الحنابلة و مدرسة أبى عمر و غيرهما فهجموا عليهن و عروهن و أخذوا بعض نساء و جوار و عبيد و صبيان، و جهز الباشا رأس الغزالي و معه نحو ألف أذن من المقتولين إلى السلطان سليمان. و بعد هذه الواقعة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل إياس باشا فى دمشق، و فرحات بك فى طرابلس، و قره موسى فى غزة. أما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية و منقذها من الغزالي فقد ضج الناس من شدته و بأسه و تمثيله بالبرىء و المجرم على السواء.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٤

طبيعة الدولة العثمانية:

بقى أرباب المقاطعات فى الدولة العثمانية كما كانوا فى دولة المماليك.

يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها، و يعرقون اللحم و العظم بعد ذلك لحسابهم، مثل أمير عرب الشام مدليج بن ظاهر بن آل جبار و كانت منازل قومه في سلمية و عانة و الحديثة، و الأمير فخر الدين المعنى الأول حاكم الشوف، و جمال الدين الأرسلاني حاكم الغرب، و بني شهاب في وادي التيم، و بني الحرفوش في بعلبك، و بني ساعد أمراء البر و حوران و عجلون و غيرهم في غيرها، و كلهم أشبه بأمراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن، و المقتدر منهم الذي كان على صلوات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله، و من يجعل له و كيلا يرجع إليه في أعماله في دار السلطنة، و إذا غضب الوالي على الأمير المتغلب يرسل عليه جيشا من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة (٩٣٠) مع أمير الشوف، فيخرب العسكر قراه و يستصفي أمواله و يأسر أهله و رجاله و يسبي نساءه، فعلوا ذلك مرات في لبنان و البقاع و بعلبك و وادي التيم و غيرها، و ينشأ هذا الغضب من تأخرهم عن تأدية الخراج، أما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت أن تحدث عنها.

كان من قواعد الدولة العثمانية إذا فتحت مصرا أن تولى أمورها الكبرى لولاتها و قضاتها و الصغرى لأبناء البلد المفتوح، و تلقى حبلها على غاربها لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح أراض جديدة، و إذ كان الولاة يتعاونون مناصبهم على الأغلب بالمزاد في دار الملك، كان المزايدون في الأكثر من الساقطين في أخلاقهم، لا يتأخرون عن ارتكاب كل محرم ليسلبوا الرعية ما أمكن فيملأوا خزائنها و خزائن من حملوهم على رقاب الأمة. و ساعد على إيغال العمال في الفساد قلة المواصلات، و بعد دار السلطنة عن أكثر الولايات، فبين دمشق و الاستانة مثلا ١١٠٠ كيلومترا و ٣٨٦ ساعة، و إن قدر لأرباب الظلمات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب لبث شكواهم إلى السلطان، كان بعض أصحاب الشأن يحولون دون ذلك، فكانت الشام كله يستأثر بها وال أو واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون مراقب إلا من ذمتها، فإذا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٥

كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس و النحس، و ضياع الحقوق و فساد النظام.

قال جودت في تاريخه: إن الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة إلى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الأسباب اللازمة لهذا الانتقال، و حصروا أوقاتهم في حظوظ أنفسهم و شهواتهم، يقيمون في العاصمة القصور الفخمة، و يفرشونها بأنواع الأثاث و الرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم فاضطروا إلى الارتشاء و بيع المناصب بالمال و تلزم الأقاليم و إقطاعها بالأثمان الفاحشة، فضاقت ذراع الأهلين، و اضطرت كثير من أهل الذمة أن يهجروا الأرض العثمانية إلى الخارج، و ترك غيرهم القرى و جاء الاستانة فرارا من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة، و تلاصقت الدور و تضايقت أنفاس الناس و كثر الحريق و الأوبئة، و صعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الضخمة من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية، و التجارة ليست من شأن الحكومة اه.

من أمثال الترك السمكة تفسد من رأسها، و حقيقة أن فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة أيام كان يقبض فيها على زمام الأحكام غالبا جهلاء ظلام و صموا بسلب الناس بكل حيلة، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم و مصايفهم على ضفاف الخليج و المضيق في فروع. و إذا صادفت العناية أن تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الإدارة و قوة الإرادة، فإن رئاسة النظار كثيرا ما تولاه في السلطنة العثمانية الندماء و السخفاء بل الطباقون و الطهالون و المزينون و البساتنة و غيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي، أو الزوج الخصيان الذين كانوا يولون و يعزلون كما يشاؤون و يشاء ضيق عقولهم.

ولا- عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها إذا كان الوزراء و العمال على هذا النحو، فلطالما ولي المشيخة الإسلامية في الترك أغبياء أدنياء في منشئهم و مسلكهم ممن ليس لهم من العلم الديني إلا قشوره و شارة أهله و على نسبة و سائط بعضهم و كثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء أحدهم إلى المناصب العليا، و هذه الطبقة لا تقرب إلا من كانوا على شاكلتها من الجهل و الفساد. و مثل هؤلاء الرجال إذا كان لهم قوة يستندون

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٦

إليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه. فإن هذا الجيش الذي قدم للدولة لأول أمره خدمات جلي وفتحت به الفتوحات عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت له.

ولئن خلف السلطان سليما ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة (٩٢٦) وكان على جانب من العقل وحب القانون، إلا أن الشام أصبحت في أيامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لأن السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتي عشرة مرة وخرج في أكثرها ظافرا، فلا يهيمه كأكثر أجداده وأحفاده من كل ما يفتح إلا أن تضرب السكة وتقام الخطبة باسمه وتجيى الجبايات ولا يتأخر الولاة عن إنفاذها إلى دار الملك، فكانت الشام جزءا صغيرا بالنسبة لضخامة ملكه، فلم ينلها منه شيء من العدل والإشراف ينسيها ما لاقتته في القرن السالف من التقليل والانحلال.

وكان السلطان سليمان بطاشا كأبيه ولكن لم يشتهر شهرته، هاج مرة أهل حلب في أوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاضي والمفتي فصدرت إرادته السنية بقتل جميع أهل حلب لو لا - أن كان في الصدارة إذ ذاك رجل عاقل اسمه إبراهيم باشا، فألغى هذا الأمر البربري واکتفى بقتل زعماء الثورة. وإبراهيم باشا كان على جانب من الأخلاق الحسنه والذكاء تولى الصدارة من سنة (٩٢٩-٩٤٢) اي سنة ١٧ سنة وقام بإصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله، ولا عجب إذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الأكبر مصطفى وحفيده وابنه با يزيد وأولاده الخمسة على أفضح صورة.

كوائن داخلية و أمراء المقاطعات:

ومن الأحداث في الشام بعد فتنة الغزالي ما وقع في سنة (٩٢٧) من ثورة جماعة من عربان دمشق على النائب اياس باشا، خرج إليهم فانكسر وجرح ورد إلى دمشق وهو مكسور وقتل من عساكر دمشق كثير ومن عربان نابلس أيضا، وكانت فتنة بدمشق. وفي سنة (٩٢٨) كان مقتل حسن وحسين أولاد الأمير عساف في بيروت، وذلك لما كان من الاختلاف بينهما وبين أخيها الأمير قائدبيه على الحكم فتوسط بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على أخيها قائدبيه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٧

فغدر بهما وقتلها فحكم قائدبيه جبل كسروان حتى مات سنة (٩٣٠) وخلفه الأمير منصور ابن أخي الأمير حسن وامتد حكمه إلى عكار. وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد أغا شعيب من أهل عرقه ويستأجر الأمير منصور جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية والضنية. وفي سنة (٩٣٠) جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف فانتصر عليهم وأحرق قرية الباروك وثلاثا وأربعين قرية، وأرسل إلى دمشق أربعة أحمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة ورجع معه مجلدات من كتب الدروز، ثم أرسل أربعة أحمال من رؤوسهم وأحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبي نحو ٣٦٠ من النساء والأطفال وغنم ما لا يحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك.

وفي سنة (٩٣٥) وقع قتال بين أولاد شعيب وأولاد سيفا أمير التركمان وقتل على الشعيب في عرقه وتولى أولاد سيفا عكار، ثم قتلوا محمد آغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضي فأعطاهم القاضي فتوى بأنهم أبرياء من دمه وأنه هو ألزمهم بذلك. وفي سنة (٩٤٠) وقعت فتنة أهلية في العاقورة وجبة المنيطرة في لبنان نشأت من خصام بين مالك اليمنى وهاشم العجمي من مشايخ العاقورة، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش أمراء بعلبك وآل سيفا حكام طرابلس، وأخذ أبناء العم يقتلون أولاد عمهم للاستئثار بالإمارة، وخربت بعض تلك الديار ومن القرى ما نزع سكانه عنه. قال الشهابي: وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت العاقورة خرابا سبع سنين لم يقطن فيها أحد. ثم إن القيسيئ سكنوا في طرابلس واستحصل اليمنية أمرا من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة (٩٥١) توفي الأمير فخر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا إلى طرابلس وبني بنايات وقلاعا عظيمة واستراح الناس في حكمه وأطاعته العرب وخلفه ولده الأمير قرقماز، وبعد وفاة فخر الدين امتد حكم الأمير

منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت إلى حدود حمص و حماة و قوى بماله و رجاله.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٨

مهلك السلطان سليمان و تولى سليم السكير:

توفى سليمان القانونى سنة (٩٧٤) و لا شأن للشام فى عهده إلا أن تظهر شعورها بأخبار انتصاراته و غاراته، و فتح قلاعه و معاقله التى كان يملأها بجند الانكشارية و لكى يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقتضى له من النفقات الباهظة ما تنوء به قوة الرعايا، و كان أهل الإسلام يودون بعد تكبير رقعة الملك فى آسيا أن تصح إرادة الدولة على فتح فارس و قد بدت أمارات الهرم فيها فتتصل بالهند، و ذلك خير من أن تفتح المجر و تحارب امبراطور ألمانيا و تؤلب عليها دول أوربا. ذكر ضيا باشا أن الأتراك بددوا شملهم فى الحروب و القلاخ و الأرجاء البعيدة و جعلوا أنفسهم فى أوربا وراء سور من المرابطين يقلى علمهم و تربيتهم يوما فيوما، و فيه أمم من الخروايتين و البلغار و الروم لم تختبر مله الإسلام، و فى آسيا العرب و الأكراد و الزيدية و الشيعة نشأوا و كبروا ببذر الفساد الذى بذره الشاه إسماعيل، فكان الأولون خصماء للإسلام و الآخرون خصوم الأتراك، كانت مناداتهم بنصر السلطان من الألسن لا من القلوب اه.

خلف السلطان سليمان ابنه سليم الثانى، و هذا لم يذكر اسمه فى الشام إلا على منابرها فقط لأنه كان شريبا خميرا حتى لقب بسليم السكير و له من أعمال الخلاعة ما يخجل منه، و لم يخرج من الاستانة للغزاة، و هو أول ملك من آل عثمان تخلى عن الحرب بنفسه، و مات على سريره فى قصره، على حين كان أجداده يموتون فى الحرب و فى طريق الغزو و الفتح. و فى أيام سليم الثانى فتحت قبرس و كانت للبنادقة و هلك و أسر من أهلها نحو ثلاثمائة ألف إنسان فى بعض الروايات.

هلك سليم الثانى سنة (٩٨٢) بعد أن حكم ثمانى سنين و ستة أشهر و خنقوا أولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة. و فى أيامه جاء أمثال محمد الباشا الصقللى من الصدور العظام، الذى تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الإصلاحات، و أهمها إثنان فى العصاة و أرباب الدعارة، و جاء غيره من الرجال الذين يعدهم الأتراك من العظام. و لكن الشام لم تر خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٢٩

طلعة هذا الملك كما أنها لم تشهد من والده من قبل شيئا من خطط الإصلاح و لا من القوانين النافعة، و لا شاهدتهم أو وكلاءهم يشرفون على الشام ليرفعوا الضيم عن أهله، و فى عهده (٩٨٠) وزع القشلق (أى العساكر المشتية) على الشام و نهب عسكر الدولة لبنان و ما إليه و سلبوا سائمته و أسرفوا فى الظلم، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها، و أفقرت فى لبنان قرى كثيرة و فى الدر المنظوم أنه قتل من الموارنة فى تلك المعمة نحو ثلاثين ألفا (كذا) عدا الذين قتلوا فى ليماسول فى جزيرة قبرس حين حاصرها الأتراك و فتحت سنة (٩٧٨).

عهد السلطان مراد الثالث و حملات على أرباب الدعارة:

و فى سنة (٩٨٢) تولى الملك مراد الثالث فقتل إخوته الأربعة و كانت همته مصروفة إلى توسيع حدود مملكته أيضا و فى أيامه (٩٩١) وجه عسكرا إلى لبنان لحرب الموارنة للشكاوى التى قدمت إليه من طائفة الروم فى سواحل طرابلس بأنهم أخربوا تلك الكور. و فى سنة (٩٩٣) ولى السلطان خسرو باشا إيالة الشام و جاء دمشق و تخاصم مع محمد على باشا الوند الوالى السابق مدة شهر، ثم استقرت الحال على تولية على باشا و انفصل خسرو باشا، و كانت مدة ولايته سبعة أشهر فعزل ثم خلفه جامورجى محمد باشا و بقى فى الولاية أربعة أشهر ثم خلفه على باشا مرة ثانية و بقى واليا أربعة أشهر. و فيها سرقت الخزينة السلطانية فى جون عكار فى طريقها من مصر إلى الاستانة فوجهت الدولة إبراهيم باشا و ضربت على أيدي المعتدين، و سار جعفر باشا حاكم طرابلس و أحرق إقليم

عكار، و تقدمت الشكايات من حاكم طرابلس على الأمير محمد بن عساف و على أمراء الدروز بأنهم هم الذين سلبوا الخزينه، فسار إليهم إبراهيم باشا و لما وصل إلى عين صوفر حضر إليه عقال الدروز فغدر بهم و قتل منهم نحو ستمائة رجل. و يقول كامل باشا: إن إبراهيم باشا لما جاء من مصر إلى الشام كان في عشرين ألف جندي و دعا أمراء الدروز إلى المعسكر فأبى ابن معن أن يجيب الدعوة لأن والي دمشق مصطفى باشا كان استدعى أباه و غدر به و قتله فأقسم هو ألا يجيب دعوة أحد من رجال العثمانيين، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن و قتل الدروز القائد أويس باشا مع خمسمائة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٠

من جنده، و طلب إبراهيم باشا ترحيله فأرسل إليه ابن معن مئة ألف دوكا و ٤٨٠ بنديقه و خيلا و أشياء ثمينه، و لما تسلمها الوزير العثماني أمر بإحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن و أعدم ثلاثمائة من رجاله، و في خلال ذلك كان الأسطول العثماني أخرج إلى صيدا أربعة آلاف جندي و ضرب الساحل و أخذ ثلاثة آلاف أسير. قال البوريني: إن إبراهيم باشا لما خرج من مصر خرج بأموال عظيمة و تحف كثيرة منها أنه جعل للسلطان مراد تختا من الذهب مرصعا بالجواهر العظيمة و رجع و معه عساكر مصر، و جمع عساكر الشام و حاكمها إذ ذاك أويس باشا و كبس جبل الشوف فقتل و نهب و حرق و أخذ منهم أموالا جمه و حاصرهم محاصرة عظيمة حتى إن أميرهم قرقماز بن معن مات قهرا.

و في سنة (٩٤٤) أراد جماعة من أقارب الأمير على الحرفوش صاحب بعلبك أن ينزعوا حكومتها من يد أبي على الشهير بالأقرع بن قنبر لأنه من غير أولاد الأمراء، و حكومة بعلبك متوارثة لبني الحرفوش، فعرف ابن الأقرع ما دبّر له فجاءه ألفا رجل جمعهم بنو حرفوش من كسروان و الشوف و عين دارة و أرادوه على أن يخرج بعياله و بمن يلوذ به حيث شاء فأبى لإقتالهم، و استنجد بالأمير قرقماز بن الفريخ أمير البقاع و غيره من التركمان و العرب فولى الدروز هارين فتبعهم أهل بعلبك يقتلونهم، و قتلوا منهم ألفا و ثمانين قتيلًا و لم يقتل من جماعته سوى شخص واحد. قال البوريني: و كان أصلح له و لجماعته طعاما قبل المعركة فقاتل أعداءه و رجع و الطعام لم يبرد و أرسلت الرؤوس لدمشق لتعرض فيها. ثم قتل على بن الحرفوش ابن الأقرع و ندم على قتله، و أخذت الدولة بعد ذلك الأمير ابن الحرفوش إلى دمشق بالأمان و قتلته و قتلت معه عسافا الكذاب الذي ادعى انه ابن طرباي أمير اللجون.

بنو عساف و بنو سيفا و ابن فريخ و خراب البلاد:

و في سنة (٩٩٩) جمع الأمير محمد بن عساف الرجال و سار لطرده يوسف باشا بن سيفا من عكار، فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله و كمن له في العقبة بين البترون و المسيلحة و قتله هناك، و لم يكن له ولد فانقطع نسله، و كان لبني

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣١

عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقرضت دولتهم تلك السنة. ذكر المؤرخون في حوادث سنة (٩٩٩) أن منصور بن فريخ أعيد إلى لواء صفد و أعطى قرقماز لواء نابلس و صاحبه الدالي على لواء عجلون، و ذلك بالتزام مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كرة مائة ألف دينار غير ما ينوبها من الكلف. و قد خرب ابن فريخ هذا كورا كثيرة و قتل خلقا، و كان في أول أمره بدويا من خدام ابن الحنش فترقى به الحال إلى أن التزم مالا عظيما على لوائى صفد و نابلس و إمارة الحج و عمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الياس، و شرع في عمارة دار عظيمة خارج دمشق و استعمل فيها العملة بالسخرة، و قد خنق في قلعة دمشق لظلمه و تخريبه العمالات التي استولى عليها خصوصا البقاع و صفد و نابلس.

و في سنة (١٠٠٠) أمر قاضي دمشق مصطفى بن سنان بقيام النواب من المحاكم و إغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد كلها، و سبب ذلك أن الدفتردار محمودا ارتشى من ابن الأقرع بخمسة عشر ألف دينار و ولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فأدى ذلك إلى خراب بعلبك ظاهرها و باطنها، و رحل أكثر أهلها حتى تعطلت الأحكام الشرعية بها و عتا بها ابن الأقرع و أتباعه و صادر الناس

مصادرة ليوفى بها المال الذى التزم به للسلطنة.

و كان المكس فى هذه الحقبة حتى على الخمور و الخمارات يتقاضاه كل من كان باشا دمشق يلتزمه صاحب الشحنة و هو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للبasha و يحرق الأخضرين فى جبايته، و كان من الولاة فى ذلك الدور فى الشام الصالح و الطالح مثل سليمان بن قباد باشا الذى تولى نيابة القدس و قطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) و كان ينوع العذاب للسراق و قطاع الطريق.

و منهم من خلفوا آثارا مثل خسرو باشا و عادلى محمد باشا و بهرام باشا من ولاة حلب فإنهم بنوا مدارس و جوامع فخمة فى الشهباء و منهم لالا مصطفى باشا الذى ولى دمشق سنة (٩٨١) خمس سنين و قد مدحه ابن بدير و المقار و وصفه هذا بأنه صاحب الخيرات و الحسنات و أنه عمر تحت القلعة بدمشق الخان و الحمام اللذين لا نظير لهما و أثنى أيضا على مراد باشا الذى

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٢

تولى دمشق سنة (٩٧٤) و عمر جامعا فى السويقة المحروقة و هو صاحب خيرات و حسنات أيضا.

و أثنى المؤرخون على أحمد بن الأمير قانصوه الغزوى الساعدى الذى تولى إمارة عجلون و ما والاها من كور الكرك و الشوبك بعد وفاة أبيه، و باشا الإمارة فى هاتيك النواحي فى زمن سلطنة مراد بن السلطان سليم و قالوا: إنه كان قليل الأذى للرعيا و هو من قوم لهم قدم فى الإمارة فى هاتيك الديار، كانوا فى زمن الشراكسة أمراءها و كان من أجداده محمد بن ساعد أميرا فى جبل عجلون. و منهم درويش باشا نائب دمشق و صاحب الجامع المنسوب اليه و خان الحرير (٩٨٧) و من ظلمتهم والى حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل سفاكا للدماء على صورة قبيحة من تكسير الأطراف و الإحراق بالنار و المحرق حى و غير ذلك، متناولا للرشى لا نفع له سوى مضرة اللصوص، و من سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمن و صاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق و قد ذكر ابن المقار جريدة مخلفاته التى أرسلت إلى الاستانة بعد موته فإذا هى تساوى بضعة ملايين من الدنانير. و قد قال مؤرخو الترك: إن الخيرات التى قام بها سنان باشا فى ممالك مختلفة من جوامع و مدارس و تكايا و خانات تقدر نفقاتها بمليونى ليرة ذهب بسكة زماننا، و إن ما عمره من المعاهد و المباني الفخمة فى الأقطار التى نزلها تناهز المئة. لا جرم أنه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب الولايات ليعمروا جيوبهم و خزائنهم، و أعمالهم الخيرية قد تأتى بالعرض أو لحب الشهرة. و أفبح بصدقه أو عمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من قتل الأنفس و المال الحرام.

حالة البلاد فى الحكم العثمانى:

حكم الشام فى هذه الحقبة من الزمن أى مدة ٧٨ سنة أربعة من ملوك آل عثمان و هم سليم الأول و سليمان القانونى و سليم الثانى و مراد الثالث، و ظلت روح الدولة فى هذه الديار لم تتغير. و لئن جاء فيهم واضح القوانين المدعو بالقانونى السلطان سليمان و طال عهده على ما لم يقع له مثال فى تاريخ هذه الدولة، فإن الشام كانت حالة بعد الفتح العثمانى تنتقل من سىء إلى أسوأ، و الوالى أو

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٣

الولاة فى هذه الديار يكونون على الأغلب ممن لا ذمم لهم و لا قدرة إلا على جلب المغنم لأنفسهم، و إزهاق الأرواح فى ذاك العصر من الأمور الهينة التى لا تستغرب.

بعد الفتح العثمانى و اندحار المماليك فى مرج دابق و الضرب على أيدي العصاة فى فلسطين، كان الرجاء معقودا أن تخلد الشام إلى الراحة و يرفرف عليها طير السعد، فزادت المكوس و الضرائب على وجه قاس، و كثر فساد جيش الدولة من الانكشارية و السباهية، فكان يأتى على الأخضر و اليبس فى المدن و القرى، خصوصا إذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتى فيها، و هناك يزيد الاعتداء على البيوت و الأعراض و الأموال. و ربما تخطفوا النساء و الأولاد فى الأزقة رابعة النهار، و فى أول حكم السلطان

سليمان أى بعد أربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الأبرياء فى دمشق و حلب، و ارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتنة و الضرب على يد الثائر من الشدة ما عج بالشكوى منه كل إنسان.

و يمكن حصر مصائب هذا الدور فى أمور ثلاثة: ظلم الوالى و يكون فى الغالب عاتيا مرتشيا، و ظلم الجند فى حلهم و ترحالهم، و شقاء الديار بصغار الأمراء من أهلها، فى الجبال و السهول، و كبار أرباب النفوذ فى المدن.

و هذه الطبقة تطورت تطورا جديدا فى عهد العثمانيين فكانت من أكبر الأسباب فى فساد البلاد، و لو صلحت و سلمت من ظلم بعضها بعضا لما استطاع الوالى التركى و القاضى التركى و القائد التركى أن يعملوا مباشرة فى هذا القطر عملا مضرا. و أهم من هذا و ذاك أن الدولة العثمانية على عهد عزاها لم تفكر إلا فى الفتوح، و فى حرب من يجاورها من صغار الأمراء و الملوك، حتى إذا كانت أيام إدبارها و هى تبدأ من أواخر سلطنة سليمان القانونى، كانت همتها مصروفة إلى قمع الفتن الأهلية، و رد عادية أعدائها عن مملكتها الواسعة.

إن ابن الشام لا يهتم كثيرا إذا بلغت جيوش الدولة العثمانية أواسط أوروبا فى فتوحها و فتحت بودابست و أشرفت على فينا، و إذا فتح سليمان زهاء ثلاثمائة حصن و قلعة، و أصبح اسمه فى الغرب مضرب الأمثال فى الرهبة، فكانت بعض الأمهات يخوفن أبناءهن باسمه إذا أردنهم على الرقود و الكف عن البكاء،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٤

و لا- يهتم ابن الشام أيضا إذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من أموال المغانم و المغارم، ما دامت طرق الجباية عنده منهكة لقواه، و ما دام الولاة يسفون لأخذ المكوس لأنفسهم من الحانات و من المسكرات، و ما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات و المومسات، و ما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل إليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان و الإيجار، و ما دام الأمن مختل النظام و أهل البادية و لصوص الأعراب على عاداتهم فى السلب و النهب، و من المتعذر أن ينتصف المظلوم من الظالم، و أن تعمل الدولة فى باب العمران جزءا مما تأتى فى تخريبه.

وضع السلطان سليمان قوانينه و ما ندرى إذا كانت وصلت إلى هذه الديار، و هب أنها انتهت إليها فهى فى السجلات محفوظة، لم يطبق منها إلا ما لا ينفع العلم به و لا يضر الجهل بمضامينه. و ما دام القانون السماوى الذى عملت الشام به منذ الفتح الإسلامى غير نافذ على ما يجب، فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم و هو يتعذر تطبيقه و إنفاذه؟ بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات و أخذت تلقى الشغب بين العلماء، و ذلك برتب اخترعتها لهم و جرايات أدرتها عليهم، فزادت لأجل هذه النفقات الضرائب و الخراج على الأمة و كثر التنافس بينهم، و قلّ القوالون بالحق من رجال العلم، و أنشأ معظمهم يدلسون و يوالسون و يمتدحون السلطان مهما ضل و غوى، و سهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب و الرواتب أن يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الأبرياء ممن تغضب عليهم الدولة، و كان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عددا من الناس لا يستهان به و فيهم العاقل و الدراكة، و كل من فى قتله راحة للدولة أو مصلحة يتوهمها السلطان و بعض الزبانية الطغاة من ولاته، و قد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر أى مدة ٧٨ سنة خمسة و أربعون واليا و على حلب سبعة عشر، و لم يحس الناس بتبدل نافع فى حكم العثمانيين من عهد المماليك حتى بعد ثمانية عقود من السنين.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٥

العهد العثمانى «من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠»

عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن:

دخل القرن الجديد و الشام تسير من بؤس إلى بؤس، و تعاقب تبدل الولاية عليها و السعيد منهم من كان يحول عليه الحول، و أكثرهم يقيمون فيها أشهراً ثم يصرفون و يستبدل غيرهم بهم، و منهم من كان يقيم أياماً و منهم سبعة أيام و منهم ثلاثة، و تعاقب على دمشق خلال هذا القرن واحد و ثمانون واليا و على حلب تسعة و أربعون واليا، فكان الوالى لا يتمكن من الإصلاح إن أراد و قلبه متعلق أبداً بثبات منصبه، و الغالب أنه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعة ليوفى ما عليه من المقرر لجماعة الاستانة من الأموال، و كان الولاية يتعاون الولاية ابتاعاً و المزايد الأكبر هو الذى توسد إليه قال راسم فى تاريخه: أمر السلطان مراد أن يكتب إلى أحمد باشا كوجك والى الشام بأن يدفع إلى السلحدار باشا عشرين ألف ليرة و يبقى فى منصبه فاضطر الوالى أن يؤدى المبلغ.

و من أهم أدوات التخريب فى هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد الاعتدال و كثرة اعتدائهم على الرعية، يستطيلون على أموالها و أعراضها و يثلمون شرفها و يذلون أعزتها، و هم القوة القاهرة و أذاهم لاحق بالكبير و الصغير. و كثيراً ما حاول الولاية أن يخففوا من غلوائهم ليستأثروا بالقوة دونهم أو يرفعوا عن عاتق الأمة التعسفة بعض شروهم، فيسفر قتالهم عن زيادة إيصال الشرور إلى الناس على ما يأتى تفصيله فى هذا الفصل المغموسة حوادثه بالدماء.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٦

كان المتغلبون على أكثر البر فى أوائل القرن، الأمير شديد بن الأمير أحمد حاكم العرب من آل جبار و كان كلقبه و اسمه ظالماً جباراً عنيماً.

قال كاتب جلى: و ما زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لأمرء العرب و أمراؤهم هم عرب آل جبار و هم قبيلتان آل حمد و آل محمد يمتد حكمهم الى أرجاء حلب و الرقة. و كان قرقماز المعنى فى لبنان، و أحمد بن رضوان فى غزة بعد قانصوه أمير عجلون و ما والاها من الكرك، و الأمراء بنو الحرفوش فى بعلبك، و الأمراء بنو شهاب فى وادى التيم، و أحمد بن طرباى أمير اللجون فى نابلس، و منصور بن فريخ البدوى على البقاع تغلب عليه بعد ابن الحنش و حكم نابلس و صفد و عجلون و انحاز إليه جماعة من جند دمشق، و أخاف الدروز ثم شن الغارة و قتل منهم مقتلة عظيمة، و قد خرب العمران و قتل الخلق حتى أخذه وزير دمشق و قتله فى سنة (١٠٠٢) و ذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس و الأموال، حاصرها والى دمشق و نازل قلعتى الشقيف و بانياس، و بلية القلاع كبلية المدن غرض لهجمات المهاجمين فقد أخذ المحارزة قلاع القدموس و العليقة و المينقة مرارا، و كان الإسماعيليون يستردونها بعد مدة، و فى سنة ألف تقريباً هجم الإسماعيليون على القدموس عند ما كان العلويون مشغولين بالعبادة فى يوم الغدير و قتلوا من المشايخ ثمانين شخصاً عدا العوام و تملكوا القدموس (قاله فى تاريخ العلويين).

و فى سنة (١٠٠٣) توفى مراد الثالث و خلفه ابنه محمد الثالث فقتل يوم جلوسه تسعة عشر أخاه و عشر جوار حاملات من أبيه ثم ابنين له، و كان مع ذلك على رواية المحبى صالحاً عابداً ساعياً فى إقامة الشعائر الدينية و أوصافه كلها حسنة و هو مظفر فى وقائعه عالى الهمة. و لم ينل الشام شىء من تدين محمد الثالث، و طالبت الحكومة الأهلين بأموال سنتين فلقوا شدة و عنتاً.

ذكر المقدسى فى حوادث سنة (١٠٠٤) أنه جاء ساع من الباب العالى يأمر بأن يجتمع العلماء و الصلحاء و المشايخ و الفقراء و أولاد المكاتب فى الجامع الأموى، و يقرأوا القرآن و يدعوا لعساكر الإسلام بالنصر، و ما أعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم المذكورين و طلب الدعاء منهم، فليت شعرى بأى لسان يدعون و قد اشتهر أنهم يطالبون الرعايا بعوارض سنتين جديدة و عتيقة و طالبوا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٧

اليهود بمال عظيم اه و قال أيضاً فى حوادث سنة (١٠٠٥). إنه استقر فى دمشق كيوان منشئ الظلم بالشام قائداً بباب صاحب الشحنة، فشرع يصادر و يسلب، و كثرت القتلى فى أزقة دمشق، و كان الإنسان يمشى فلا يسمع إلا من يقول غرمونى أربعين قرشا و من يقول سبعين قرشا و ثلاثين و عشرين و أكثر و أقل. و اصطلم الناس من كثرة الظلم و بقى من يخشى الفضيحة يحمل الجزية إلى كيوان المذكور قبل أن يرسل إليه. هذا ما كان يجرى فى عاصمة الشام على مرأى و مسمع من القريب و الغريب، فما بالك بما كان يجرى

فى الأقاليم التى تقل فيها المراقبة و تضعف المقاومة، فقد تهباً لأخبارها هنا من دونها أو بعضها حتى وصلت إلينا، و هناك ضاعت أخبارها لقلّة المدونين.

و ظهر فى أيام أحمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥-١٠٠٨) فساد كثير من العربان فى أنحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتتلوا فانهزم عسكر حلب و كانوا ألف فارس و أخذ عرار أمير العرب يتبعهم و يقتل منهم و يغير عليهم.

و فى سنة (١٠٠٧) كانت الواقعة فى نهر الكلب بين ابن معن و ابن سيفا فانكسر ابن سيفا و تشتت جيوشه، و تولى فخر الدين المعنى كسروان و بيروت.

و استولى يوسف باشا سيفا على جهات طرابلس لما أهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركمانى، و استقل بها و أخرج بواسطة عسكر السكبان جند الانكشارية من عمالته و نكل بهم و صار له بذلك نفوذ و سلطان.

و قال نعيما فى حوادث سنة (١٠٠٨): إن عسكر الانكشارية فى دمشق جاءوا حلب بحجة جباية أموال الدولة، و تسلطوا على فقرائها و عملتها و تجاوزوا الحدود فى الاعتداء، و أساءوا استعمال سلطانهم فى الرعية، فقطع والى حلب رأس سبعة عشر رجلا منهم، و دام الشقاق بين الأهالى و الانكشارية مدة طويلة أدى إلى سفك دماء كثيرة بغير حق اه. و من ذلك اعتداء خداويردى قائد حلب على الناس و فتكه و نهبه و تعديه حتى ضجر منه أهاليها و حكامها، حين قامت الحرب بينه و بين نصوح باشا، و بينه و بين ابن جانبولاذ، و كان هو و أحفاده قد عاثوا فى الأرض فسادا و منه نشأ طغيان العسكر الشامى.

و من فتن هذه الأيام خروج عبد الحليم اليازجى رأس جماعة درويش

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٨

الرومى حاكم صفد، و إرسال خسرو باشا نائب الشام عسكرا إلى درويش ليسلم الولاية إلى آخر، فقاتل اليازجى عن مخدومه بالسيف فأخذ درويش إلى دمشق و صلب بأمر السلطان. أما اليازجى و جماعة درويش فساروا على ساحل البحر إلى طرابلس ثم إلى جانب حلب و دخلوا مدينة كلز فتنبه لهم نائب حلب و أرسل جيشا لمحاربتهم، فقتلوا من أصحاب اليازجى مقتلة عظيمة، و خرج بمن بقى معه من أصحابه المفلولين، و ما زال يحارب جيوش السلطنة فى الأناضول حتى هلك سنة (١٠١٠).

و فى سنة (١٠١١) باغت الأمير يونس بن الحرفوش جبة بشرى، فلما بلغ ذلك يوسف باشا سيفا جمع السكبان الذين عنده و هاجم مدينة بعلبك فاجتمع بيت الحرفوش فى القلعة، و نهب بنو سيفا بعلبك و حاصروا قلعة حدث بعلبك خمسين يوما و ملكوها ثم نادوا بالأمان. و فى سنة (١٠١٤) كانت وقعة جونية بين يوسف باشا سيفا و الأمير فخر الدين المعنى فانكسر عسكر سيفا.

عهد أحمد الأول و فتنة ابن جانبولاذ و غيرها:

فى سنة (١٠١٢) توفى محمد الثالث و خلفه أحمد الأول و لم يتغير شىء فى الشام و غاية الأمر أن الخوارج فى أيام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الأمة منهم كل حيف، و دخل القطر فى هرج و مرج. و فى أيامه ظهرت الخوارج فى جهات حلب و ما زالت الأمور فى تخبط حتى خرج جانبولاذ و ادعى السلطنة و اضطربت الأحوال على ما سيجىء. قال القرماني: و فى أيام هذا السلطان قام الطغاة و البغاة، و انمحت من الوجود أمهات الأمصار و شملها البوار، أما القرى و القصبات و الرساتيق و المزدراعات فأكثر من أن تحصر.

و قال العرضى: كانوا يرسلون من قديم الزمان فى دولة بنى عثمان شردمة من عساكر دمشق و عليهم شوربجى بحالات أموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع و يخدمون عند الدفتردار و فى دار الوكالة و فى باب القنصل الفرنجى و فى كل مدة يرسلون غيرهم و عليهم شوربجى، حتى قطن بحلب أعداد كثيرة منهم و اتسعت أموالهم و كبر جاههم، و استولوا على أغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطان عن القرية و يأخذون من أهلها أضعافا مضاعفة،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٣٩

و تبقى أهل القرية جميعا خدمة لهم و جميع ما يجمعونه لغيرهم لا لأنفسهم.

و من الكوائن أن خارجيا من السكبانية اسمه رستم جاء إلى كلز و معه من البغاة أجناد كثيرة، و كان ضابط كلز عزيز كتخدا من جماعة حسين باشا بن جانبولاد أمير الأمراء بحلب، فبعث و استنجد بعسكر حلب و منهم العسكر الجديد فخرجوا لنصرته، فتقابلت الأجناد و قامت بينهم سوق الحرب و الضرب فانتصر رستم على عسكر كلز و حلب و قتل عزيز كتخدا و قتل من العسكرين كثير و لوأ منهزمين فنهب الخارجي كلز و صادر أعيان القرى.

و لما ولى نصوح باشا نيابة حلب- و كان متغلبا في حكمه عسوقا قوى النفس شديد البأس كما قال المحبى- كان لجند دمشق أى الانكشارية الغلبة و العتو يذهب منهم كل سنة طائفة إلى حلب و ينصب عليهم قائد من كبارهم و كان بعض عظماء الجند قد تقووا في حلب و فتكوا و جاروا خصوصا طواغيتهم خداويردى و كنعان الكبير و حمزة الكردي و أمثالهم، حتى رهبهم أهلها و صاهرتهم كبراؤها، و استولوا على أكثر قراها، فلما رأى نصوح باشا ما فعلوه حتى قُلت أموال السلطنة، و صارت أهالى القرى كالأرقاء أجلاهم عن الأقاليم و وقعت بينه و بينهم فتنة بل فتن، و عجز عن إخراجهم فاستعان بحسين بن جانبولاد فبعث هذا ابن أخيه الأمير على بعسكر عظيم، فاستولى نصوح باشا على قلعة حلب و وضع متاريس تحتها و استعد للقتال، فأخذ العسكر الدمشقى باب بانقوسا و جمعوا جموعهم، و هم لا يعلمون أن حسين باشا جانبولاد بعث عسكره، و دخل الأمير على فى اليوم التالى بالعساكر المتكاثفة فتبعهم نصوح باشا و الأمير على إلى قرية كفر طاب فوقع بينهم حرب فانهزم الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير. ثم خرج نصوح باشا فى عسكره إلى كلز فقابل حسين باشا بعسكره و التقت الفئتان فانكسر نصوح باشا و قتل أكثر عسكره و دخل حلب منهزما و أخذ فى جمع الأجناد و بذل الأموال لتكثير العدد و الأعتاد. و بينا هو على ذلك جاء الأمر بأن حسين باشا عين كافلا للممالك الحلبية و عزل نصوح باشا، فلبس نصوح باشا جلد النمر، و امتنع من تسليم حلب لحسين باشا، و أقبلت بعد أسبوع عساكر الوالى الجديد حسين باشا إلى قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب فانكسر أيضا،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٠

و نزل حسين باشا بعساكره فى أحياء حلب خارج السور و أغلق نصوح باشا أبواب المدينة و سدها بالأحجار، و فتح باب قنسرين و حرسه، و قطع حسين باشا الماء عن حلب و منع الميرة و الطعام عن المدينة، و نصب نصوح باشا المتاريس على الأسوار و صف عسكره عليها مع المكاحل، و قامت بين الوالين حرب شعواء، و أخذ حسين باشا فى حفر الخنادق و الاحتيال على أخذ البلدة، و أنشأ نصوح باشا يحفر السرايب، و عم الحلبين البلاء من المبيت على الأسوار و حفر السرايب، و مصادرة الفقراء و الأغنياء كل يوم و ليلة لطعام عسكر السكبان و علوفاتهم، و أغلقت الدكاكين و تعطلت الصناعات، و حرقت الأخشاب للطعام و القهوة، و اشتد غلاء الحاجيات و عدم قوت الحيوان و الإنسان و استمر الحصار نحو أربعة أشهر و أياما، ثم تصالح نصوح باشا و حسين باشا فخرج الأول و استولى حسين باشا على الديار الحلبية، و شحنها بالسكبان و صادر الأغنياء و الفقراء لأجل علوفة السكبان.

و لما قتل حسين باشا خرج ابن أخيه على عن طاعة السلطنة، و جمع جمعا عظيما من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف، و منع المال المرتب عليه، و قتل و نهب فى تلك الأطراف، إلى أن تعهد ابن سيفا صاحب عكار للسلطنة بإزالة الأمير على عن حلب فجمع له الجند من دمشق و طرابلس و التقى بابن جانبولاد (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيفا، فاستولى ابن جانبولاد على مخيمه و مخيم عسكر دمشق و استولى ابن جانبولاد على طرابلس، و استخرج الأموال من أهلها و أخذ دفائن كثيرة لهم، و لم يستطع فتح قلعتها، ثم سار مع حليفه ابن معن و كان هو و ابن شهاب و ابن الحرفوش خرب بعلبك و أحرق قراها، و خرب ابن جانبولاد البقاع و وصل إلى دمشق، و اقتتل ابن جانبولاد مع العسكر الدمشقى فانفل العسكر الدمشقى و أرضوا ابن جانبولاد بمال حتى فرج عن دمشق، و استمر النهب فى أطرافها ثلاثة أيام، ثم سار إلى حلب و جاءته الرسل من السلطنة تقبح عليه فعله فى دمشق،

فكان تارة ينكر فعلته، و طورا يحيل الأمر على عسكر دمشق، و يشرع بسد الطرق و يقتل من يعرف أنه سائر إلى أطراف السلطنة لإبلاغ ما صدر منه، حتى أخاف الخلق و نفذ حكمه من أدنه إلى نواحي غزة، و صاهر ابن سيفا
خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤١

فامتثل هذا أمره، و انقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنتين، و كان ابن سيفا بعد أن غلبه ابن جانبولاذ على دمشق و نهب ولايته التجأ إلى أحمد بن طرباي الحارثي أمير لواء اللجون. قال القرمانى: إن ابن جانبولاذ لما ولى حلب جمع كل شقى من القبائل و العشائر، ليأخذ ثأره من جماعة الإنكشارية فالتقوه فى مدينة حماة و معهم محمد باشا الطواشى نائب دمشق و عامة الجيوش من الكماء، فانهمز عسكر الدولة و استمر ابن جانبولاذ فى أثرهم إلى حدود دمشق فاستقبله الأمير فخر الدين بن معن بمن معه من الدروز و طائفة السكمانية، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم.

و لما حدث ما حدث من الفتن و الغوائل عهد السلطان إلى مراد باشا أن يعيد الشام إلى حكم الدولة لأنه ثبت أنه خرج عن حكمه، فجاء فى عشرين ألف فارس و عشرين ألف راجل و قيل فى أكثر من ذلك، فبرز إليه ابن جانبولاذ فى أربعين ألفا فغلب ابن جانبولاذ و هرب إلى الاستانة و أقنع السلطان بحسن حاله، و جاء مراد باشا بعد أن كسر ابن جانبولاذ فى سهل الراج قرب المعرة و قتل من جماعته أحد و عشرين ألفا و تسلم قلعتها بالأمان، و بالغ فى قطع شأفة الأشقياء و السكمانية. و كان على باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب و رفع إليها عياله و أسبابه و ولى عليها أطلى طوماش باشا و أمره بحفظها لمدة ثلاثة أشهر ريثما يرجع إليه بالنجدة من سلطان العجم، ثم تجهز للسفر و حال خروجه من أراضى حلب وصل مراد باشا الوزير و معه أحمد باشا حافظ الشام و يوسف باشا سيفا و شددوا الحصار على حلب و افتتحوها، و وعد أطلى طوماش بالنيابة على حلب فاطمأن و سلم القلعة ثم قبض عليه و قتله و ضبط القلعة، و باع عيال على باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشا، ثم وقعت المناداة على المحافظين فقتلواهم فى أماكن مختلفة و أتوا برؤوسهم إلى الوزير و لم ينج منهم إلا القليل، و كان الرجل يقتل العشرة منهم، و مهد الوزير أمور حلب و خدمته أمراء العرب.

و قالوا: إن الأمير فخر الدين فرّ إلى البادية فى جماعة الدروز و العربان بعد تلك الوقائع لأنه أعان الخوارج على السلطنة. و للقيم محفوظ الدمشقى مرتجلا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٢

و مؤرخا واقعه دخول السكمانية مع ابن جانبولاذ إلى دمشق فى أوائل سنة ست عشرة بعد الألف نقلها فى التذكرة الكمالية.

دخل الشام جيوش كجمال قد رغوا

كل كردى غبى بهم الناس لغوا

و دروز و لثام لمقال ما صغوا

نهبوا الشام و آذوا على الناس بغوا

نهبوها فى جمادى أفحشوا أرخ طغوا

(١٠١٤)

و لم تقتصر فتنه ابن جانبولاذ على دمشق و حلب بل تناولت بعلبك و البقاع و طرابلس و غيرها. قال النجم الغزى: إن كافلى الشام و طرابلس دخلا- على أهل حماة و حمص و أمرا أهلها يخالء المدينتين و كان ابن جانبولاذ فى أثرهما، فدخل هو و عساكره حماة و حمص و نهبوها و نهبوا قراها، و اتفق كيوان رئيس سرية دمشق مع ابن معن على العصيان و على مساعدة ابن جانبولاذ، فذهبا إليه و اجتمعا به فى الجون بالقرب من نهر البارد، فاستولوا على حماة و حمص و عكار و جبله و اللاذقية و الحصن و طرابلس و غزير و بيروت، ثم اجتمع ابن جانبولاذ و ابن معن و كيوان و حاصروا دمشق على ما تقدم قال: و كان الأمر مهولا و اجتمع أكثر الناس بدمشق.

وقال ابن المقار في حوادث (١٠١٦): إنه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم السيمانية أظهروا في الأرض أنواع الفساد، وحدث بين أمراء الشام حروب وفتن عظيمة عم فيها النهب وخرت أكثر البلاد.

ومن الأحداث في تلك الأيام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة (١٠١٦) من أن الجند المشتى «قيشلق» السلطاني تفرق على البلدان من حلب إلى الشوف، وكان عدده نحو أربع كرات والكره مئة ألف. كذا قالوا وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن الضرائب التي كانت على الضياع والأديار.

ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا دمشق وكان يتولاها سنة (١٠١٧) أن فرقة من عرب آل جبار المعروفين بأولاد أبي ريشة نفروا من العراق فوصلوا إلى تدمر، وانضم إليهم قوم من طائفة السكبانية المنهزمين من وقعة على بن خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٣

جانبولاذ. فعاثوا في تلك الديار وقطعوا الطريق، ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن قلندر والأسود سعيد، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان وهرب منهم جمع، ومن جملة الهاربين الجماعة المذكورون وكانوا نحو أربعمئة سكباني، فلما انضموا إلى العرب المذكورين كان السكبانيون يضربون بالبندق والعرب يضربون بالرمح والسيوف، وأخذوا قلعة القسطل وقلعة القטיפه ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها من الرجال والنساء. فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا ومعهم العسكر الدمشقي، وانضم إليهم عرب المفارجه وكبيرهم عمرو بن جبير فأدركوا العرب والسيكبان في نواحي قلعة القطرانة، فقتلوا من السكباني نحو ثلاثمئة رجل وقبضوا على آخرين ودخلوا بهم إلى دمشق على متون الجمال وعلى كتف كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني أتلفوهم وفرقوا أجسادهم على أحياء دمشق.

الأمير فخر الدين المعنى وآل شهاب وفتن:

تخوفت الدولة من الأمير فخر الدين المعنى الثاني لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في أصقاع الشام، فأرسلت عليه في سنة (١٠٢٠) الحافظ أحمد باشا كافل دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وأمراء الأكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً، وحاصر ابن معن تسعة أشهر فلم يقدر أن يأخذ قلعة من القلاع، فلما أعيته الحيلة أرسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول: أنا مالي عندكم غرض بل إن للوزير الأعظم شأناً مع الأمير فقولوا له أن ينزل إلى خيامنا وعليه أمان الله وتأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونقره في أماكنه فقالوا: الأمير ذهب في المركب إلى ديار الفرنج فلما تحقق ذلك رضى بنزول أم فخر الدين فقالت:

نحن ما ضبطنا بلداً بغير اسم السلطان، ولا انكسر عندنا مال، فعند ذلك أعطت السلطان مائة ألف قرش وأعطت الوزير خمسين ألفاً والحافظ أحمد باشا مثلها وانفصل الأمر على ذلك.

هرب الأمير فخر الدين إلى إيطاليا تاركا الحكم في لبنان وما إليه لابنه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٤

الأمير على وأقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها إلى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة، وأطلع على طرف من المدنية الأوروبية ثم عاد إلى وطنه بعد مهلك خصمه والى دمشق فاستلم زمام الأحكام ولا سيما المسائل الحربية، بقوة أعظم وتديب أحكم، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة، وأخذ يحصن كوره ويكثر الصلوات الحسنه مع الفرنج ولا سيما مع الطليان، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع أصحاب طسقانه كأنه ملك مستقل، فخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصيا قوى الشكيمة، وأخذت تحاذره وتنظر إليه نظرها لعاص عارف بمقاتلتها، وأنه لا بد له يوماً أن يستقل عنها ببلاد الشام، إذ بلغ أتباعه نحو مائة ألف من الدروز والسكباني ولم يستول

فقط على الشوف و جبل عامله بل تعدهما إلى عجلون و الجولان و حوران و تدمر و الحصن و المرقب و سلمية، و سرى حكمه من صفد إلى أنطاكية و ملك نحو ثلاثين حصنا مثل صفد و نيحا و شقيف تيرون و عجلون و قب الياس و بعلبك و المرقب و البترون. و فى سنة (١٠٢١) خرج أحمد باشا بالعساكر من دمشق إلى وادى التيم و نزل فى خان حاصبيا و هرب بيت شهاب أصحاب وادى التيم منها فهدم دورهم و أتلف أملاكهم و نهب حاصبيا (١٠٢٢) و فى سنة (١٠٢٣) خرج الحافظ أحمد باشا من دمشق إلى قب الياس و اجتمع إليه حكام صفد و صيدا و بيروت و غزة و حماه و عشائرهم و أمراء الغرب و بعلبك و وادى التيم، فوقع بين أهل الجرد و الغرب و المتن و أهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه أهل الغرب و الجرد و المتن و عسكر الدولة كسره عظيمة، فأحرق أحمد باشا قصر بيت معن فى دير القمر و كان رئيسهم إذ ذاك الأمير يونس كما أحرق قرية عبيه.

ثم جرت وقعة بين جماعته و جماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة أحمد باشا و قتل منهم نحو خمسمائة قتيل و أكثرهم من السكبان و كان عسكر الدولة نيفا و عشرين ألفا ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف أغا من أن يتسلم حصن الشقيف و حصن ارنون إلى أن يخرج منهما بنو معن أولاد العرب و يتصرف بهما الأتراك تمام التصرف، فشق ذلك على الأمير يونس و أخذ فى خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٥

هدمهما، و لما انتهى الخبر إلى الوزير فرح جدا و أمر بخرابهما، و لبث المسلمون فى تخريبهما أربعين يوما. و جرت (١٠٢٥) وقائع بين أولاد ابن معن و أصحاب المقاطعات فى لبنان و حرق الشوف و الجرد و الغرب و المتن و هلك كثيرون و كانت النصره للقيسية خربت بيت معن، و كان بنو تنوخ أمراء الغرب منذ سنة (٥٤٢) يميلون إلى بنى معن، فلما حاربتهم الدولة انتهب على بن علم الدين اليمنى والى الشوف الفرصة و قبض على أعيان المعنيين و قتلهم و استصفى أموالهم، ثم سار إلى قرية عبيه فدعاه الأمراء التنوخيون إلى مأدبة فى سرايتهم فاغتالهم و قتلهم كلهم صغارا و كبارا فانقرض التنوخيون بموتهم.

عهد مصطفى الأول و عثمان الثانى:

فى سنة (١٠٢٦) توفى أحمد الأول و خلفه مصطفى الأول المعروف بالأبله فخلع بعد ثلاثة أشهر و خلفه عثمان الثانى و لم يجر فى أيامه ما يستحق أن يدون فى الشام اللهم إلا ما كان من حرب بين ابن معن و ابن سيفا (١٠٢٨) فخرّب ابن معن قرية عكار و سرايا بيت سيفا فى طرابلس و خرب هذه كما خرب قلعة جبيل. ثم عاد مصطفى الأول سنة (١٠٣١) فتولى الملك أربعة عشر شهرا و خلع بعدها. إذ لم يعد فى الإمكان ستر نقصه الذى كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه فى صورة ولى من الأولياء و ما هو إلا أبله من البلهاء. فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضيا عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين و أرباب النفوذ فى المدن و القرى و السهول و الجبال، و أصبح القطر بلا راع خصوصا بعد الضعف الذى ظهر من الدولة فى العقد الثانى من هذا القرن فى فتنة ابن جانبولاذ و حصار حصون ابن معن، و تجلى لأذكياء المتغلبه موقف الدولة معهم، فأصبحوا يزدادون فى إرهاب الرعية. و الولاة ليسوا دونهم فى العنت و التخريب و القتل و النهب.

و كان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوما غشوما أخذ أموالا كثيرة من كل قرية من غير سبب، و قضى أن لا يتبع البضائع كلها إلا لمن عينه من جماعته ثم تباع من أحد السوقه بعد ذلك، فكان ظلمه مزدوجا على المدنى و القروى، و فى هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٦

و فى السنة التالية (١٠٣٢) خرب الأمير فخر الدين بن معن كركك نوح و سرعين نكاية بنى الحرفوش.

عداء على الفرنج و فتن داخلية:

و بينا كان ابن معن يهوى السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم مع أهل الساحل و يكثر سوادهم فى مدنهما و لا سيما فى موانيها، و يرخص لهم بتأسيس قنصليات و يدخل المبشرين إلى لبنان، ارتكب ابن سيفا حاكم طرابلس سنة (١٠٣٢) أمرا عظيما نفر الفرنج من غشيان الموانى لاستبضاع القطن و الحبوب، و ذلك أنه ضبط مركبين فرنساويين كان معهما ثمانون ألف قرش لابتياح بضائع، فأرسل ابن سيفا و أمسك ولدين صغيرين من المركبين و علمهما أن يقولوا: إن المركبين للقرصان، و إنهما أخذنا فى طريقهما مركب تجارة للمسلمين، و زعم أنه وجد فى المركبين أسبابا لمداخلة المسلمين، و لم يكن ذلك صحيحا و لكنه جعل ذلك طريقا لضبط جميع ما فى المركبين من البضائع و الأموال، و أمسك جميع من فيهما من التجار و النوتية و قتلهم جميعا. و بعد ذلك باع المركبين بثلاثة آلاف قرش. قال الشهابى: و من حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء طرابلس من تجار الفرنج أحد، و توجه أناس من الفرنج إلى الباب العالى للشكوى على ابن سيفا، و لكن لكثرة عزل الوزراء لم يلتفت أحد إليهم و راحت على من راح.

و من الفتن الأهلية ما حدث سنة (١٠٣٢) من دخول أحمد الشهابى و حسن الطويل بلاد عجلون و مقابلة أهل القرى لهما و تجمع أهالى نابلس و عربها، و حرقت من القرى فارا و الخزبة و حلاوى و كانت من أكبر قرى عجلون، و حرق الأمير على الشهابى قرية سرعين فى البقاع و جميع قرى بعلبك و تحصن أهل بعلبك فى القلعة. و جرت فتنة بين عساكر دمشق و الأمير يونس الحرفوش - و كان هذا طالما متجاهرا بالظلم - و كرد حمزة سنة (١٠٣٣) فاعتنم الانكشارية الفرصة و أغاروا على المستضعفين من الأهلىين و تعاقب تغيير الولاة و انحاز بعض الخوارج إليهم و نقل الناس أمتعتهم و أثقالهم من خارج مدينة دمشق إلى داخلها مرارا، و حارب العسكر الدمشقى أولاد الحرفوش لإخراجهم من بعلبك.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٧

و كان كيوان أحد كبراء الأجناد فى دمشق خلال هذه المدة ينزع إلى التعدى و لا شكيمة ترد جماعه، و لا وازع يكف من غربه، فأخذ الناس بالتهمة و تطاول إلى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة و المزة من ضواحي دمشق و ضم بعضها إلى بعض، و كان إذا أخذ حصته من مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعا أو كرها، و كان نواب محكمة الباب و أعيان شهودها يساعده على عدوانه حتى أهلك الحرث و النسل.

و ذكر الغزى أن كيوان الطاغية أعيأ أهل دمشق ظلما و فتنة، و كانت بداية كيوان نهاية أويى ثم تجاوز عنه بمراتب، فطمع هو و قائد الصالحيه أولا فى أملاك الفلاحين، و استخلاص ما ملكوه بالشراء أو بالمغارة، فكان يعمل الحيلة لأحدهم حتى يوقعه فى مخالف صاحب الشحنة و لو بالتهمة و الاستبعا.

و قد اقترف يوسف السقا من الأجناد الدمشقيين ضروب المظالم، و صادر الناس فى أموالهم و عقارهم، و قبض على غالب أعيان دمشق و شيوخها و هرب بعضهم، و اغتصب من تجارها المشاهير و بعض أهلها الضعفاء مالا جزيلا أناف على مائتى ألف دينار و من التحف و الأقمشة مالا يحصى. و مثل هذه الشؤون كانت تجرى على مشهد من الولاة و يتغاضون عنها لأنها قد تكون بإيعازهم و هم لا محالة شركاء أولئك الزعماء.

حملات على الأمير فخر الدين المعنى و غيره:

أدركت الدولة أن خطر فخر الدين المعنى على حياتها فى هذه الديار زاد عن سنة (١٠٢٠) و أنه تأصلت أحكامه بعد عودته من إيطاليا، و ما كانت فى حملتها الأولى و الثانية لتغضى عن تخريب الأقاليم إلا اضطرارا، فساق هذه المرة مصطفى باشا والى دمشق (١٠٣٣) جيشا على فخر الدين فاستظهر هذا بالأمير محمد الشهابى حاكم وادى التيم كما استظهر حاكم الشام بابت سيفا حاكم طرابلس و ابن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر دمشق قدر بمائتى قتيل و لم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة ابن معن، و كانت الواقعة فى عين الجر (عنجر). و قبض جماعة ابن معن على والى دمشق فجاء الأمير فخر الدين و قبل ذيله، و قيل شفع بالوالى

علماء دمشق

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٨

و كبرؤها لدى ابن معن، و رجع عسكر دمشق مفلولين و فى رواية أنهم خامروا على الوالى و أطلق الأمير فخر الدين والى دمشق مكرما، فعاد إلى الفيحاء ينتقم ممن كان السبب فى غزو ابن معن. و هذه الواقعة زادت فى مكانة أمير لبنان فى نظر الدولة و الأمة، و دلت على أنه كان مع قوته عاقلا- بعيد النظر، و أنها عاجزة عن أخذه إلا- بتجهيز جيش عظيم لأنها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخبيثة خصوصا و قد عملت محالفته لكوسموس الثانى كبير دوجات طسقانه، و أن فخر الدين لما استظهر بأسطول فرديناند الطسقانى استولى على ساحل الشام و غلب جيش الدولة غير مرة.

و فى سنة (١٠٣٣) أيضا جلس جماعة الوالى بدمشق على الطرق و معهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه و ينادون عليه «مستاهل لم يقدر أن يرفعها من شدة الخوف» قال المقار: فلما كملوا أرسلوهم إلى اليمن فقتلوا كلهم هناك. و معنى ذلك أن الدولة كانت تريد تجنيد أناس لترسلهم من الشام إلى اليمن فلم تر أطرف و لا أعدل من هذه الطريقة فى التجنيد. و فى سنة (١٠٣٨) عين والى دمشق شردمة من العسكر لمنازلة بنى شهاب فى وادى تيم الله بن ثعلبة فنهبوا قراهم و أحرقوها.

و قد وزعت الدولة عسكرها على كور الشام ليشتى فيها سنة (١٠٤١) و كان جيشا كبيرا فخص دمشق منهم اثنا عشر ألف جندى ما عدا أتباعهم، و كان مأكلمهم و مشربهم من أهل دمشق و أقاموا بها أربعة أشهر، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من أهل دمشق خمسين قرشا من كل دار فاضطرب أهل دمشق اضطرابا عظيما. و قال أبو بكر العمرى من قصيدة وصف بها سنة «القشلق»:

قوم من الأتراك عاثوا بهاعلى خيول ضمّر سبق

من جهة الشرق لقد أقبلاو الشر قد يأتى من المشرق

فى رقة الشام غدت خيلهم و ذلت الأرخاخ للبيدق

أجلوا أهالى الدور عن دورهم بالسيف و الدبوس و البنديق

و اتخذوها مسكنا دونهم بالفرش من خز و استبرق

و حملوهم كلفا أعجزت غنيهم جهدا فكيف الفقير

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٤٩

قال المحبى: أن القشلق من عسكر السلطان مراد بن أحمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول إلى خطه العجم فأمر أن يشتوا فى دمشق و أطرافها من القرى و ضيقوا على الناس أمر المعيشة و بالغوا فى التعدى و نهب أموال الناس.

و فى سنة (١٠٤٣) جاء السردار الأعظم محمد باشا إلى حلب يحمل مرسوما سلطانيا بقتل نوغاي باشا لأنه تهامل فى قتل من يجب قتلهم من الأشقياء و اكتفى منهم بمصادرة أموالهم، فقتل و أرسل رأسه بلحيته البيضاء إلى جانب السلطنة.

قال نعيما: و هذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلى للدين و الدولة و هو من أقدر الوزراء. و فى هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية و ثاروا بوالى حلب فقتل منهم خمسون و جرح كثيرون، ثم جاء رؤساؤهم معتردين للوالى بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين فى بوق الفتنة و قتل الجرحى و الهاربين منهم فسكنت الثائرة. و فى هذه السنة خرجت عساكر من دمشق و باغتوا أمير وادى التيم فنهبوا و أحرقوا قراها و باغت صاحبها العسكر الدمشقى فظفر بهم و رجعوا عن أقليمه.

القضاء على الأمير فخر الدين المعنى:

فى سنة (١٠٤٣) قويت كلمة فخر الدين بن معن الثانى و كانت الدولة منذ ثلاث و عشرين سنة تنظر إليه نظر الخارج عن طاعتها، و حاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لأنه كان بجيشه أقوى من الجيوش التى تساق عليه، و أرضه حصينة بطبيعتها و حصونه كثيرة ممتعة،

و لو لا أن الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لظمت قوى كثيرة من قوتها و أخذته أخذ عزيز مقتدر، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشا من الأناضول بقيادة أحمد باشا الأرنؤاوى كافل دمشق فانصر عليه الأمير فخر الدين فى وقعتين قرب صغد، ثم انتصر عليه القائد العثمانى فى وادى التيم و قتل ابنه عليا و توفى أخوه متأثرا من جراحاته، و كانت أرسلت الدولة عليه أسطولا من البحر فغلب على أكثر سواحله و عاون بنو سيفا و أصحاب الأحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية و مشوا مقابل المراكب على طريق البرفتشتت المعينون،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٠

و كانت الدولة تحاذر من معاونه أسطول البنادقة أو الطسقانيين له، و لجا الأمير إلى شقيف تيرون فضاقت نفسه و فى رواية أنه هام على وجهه فى الجبال سنة و دل جماعته عليه، ثم عمد إلى مغارة فى جزين فاضطر أن يسلم نفسه إلى الوزير العثمانى فدخل به إلى دمشق بموكب حافل و هو مقيد على الفرس خلفه، ثم حمل إلى الاستانة فقابله السلطان مقابلة لا بأس بها و لاهه على أفعاله فقدم أعذاره، و احتج بأنه جمع الرجال لأمر مختصة بالوزراء و النواب و ما قتل غير العصاة على السلطنة، و أن القلاع التى استولى عليها و فتحها كانت بيد العصاة و سلمها للسلطنة فاقتنع السلطان من كلامه و عفا عنه و لكنه أبقاه مخفورا.

و لما قام حفيده الأمير ملحم و كسر جيش والى دمشق و نهب صور و بيروت و عكا صدر أمر السلطان بقطع رأس الأمير فخر الدين و خنق ابنه الأكبر.

و ذكر الشهابى أن الأمير على بن علم الدين اليمنى الذى و سد إليه حكم لبنان بعد أسر الأمير فخر الدين قد ضبط جميع أرزاق بيت معن و قبض على تابعيهم و قتل بعضهم، ثم باغت الأمراء بيت تنوخ و كانوا فى الحمام فى السراى التى تحت القرية فقتلهم و ردم البرج على أولادهم الصغار، و لم يترك من بنى تنوخ ذكرا يخلفهم، و لما بلغ ذلك الأمير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية و ركب على اليمنية فقتل منهم كثيرا و قدر من قتل من الفريقين بنحو أربعمائة نفس، و انهزم الأمير على بن علم الدين إلى دمشق و خرج منها بعسكر نحو خمسمائة رجل و عند ما وصل تحت قب الياس نزل سعيد أحمد أبو عذرا إلى مقاتلتهم برجال العرقيب فى نحو أربعمائة رجل، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم أطبقوا عليه فما سلم منهم إلا القليل، فرجع الأمير ملحم و اختبأ فى الشوف و تجددت عند ذلك الشكايات على الأمير فخر الدين و عندها أمر السلطان بقتله. قال المرادى: إن أملاك الأمير فخر الدين وهبها السلطان مراد إلى أحمد باشا الكوجك، و كان عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته فى بعلبك و صيدا و ريشيا و حاصبيا و كانت أملاكا لفخر الدين.

و بهلاك الأمير فخر الدين وضعف سلطة الأمراء المعنيين استراح الأمراء المجاورون أمثال بنى سيفا فى طرابلس و الأمير أحمد بن طرباى الحارثى أمير

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥١

اللجون فى نابلس، و قد وقعت بين هذا و بين الأمير فخر الدين حروب كثيرة، و كان ابن معن توجه لقتاله ثلاث مرات و رحل ابن طرباى إلى الرملة و كان فى كل مرة يكسر عسكر ابن معن و يدحره، و أشهر وقعاته معه وقعة يافا و كان هو و حسن باشا حاكم غزة محمد بن فروخ أمير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة و غنم غنيمة وافرة. و حارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا و بدد جموعهم و لكن أهل كورة حارثة فى جينين حاصروه فى قلعة هذه المدينة و أخرجه منها.

هلك فخر الدين بن معن الثانى بعد أن كاد يستولى على أكثر الأقاليم بأخذه أملاك بنى سيفا و بنى الحرفوش فى طرابلس و بعلبك، و قد كان واسع الصدر بعيد الغور و النظر متسامحا يسير مع المدينة سير تعقل، و أخذ فى آخر أمره يعمر فى بيروت حديقة للوحوش تقليدا لملوك إيطاليا، و عمر قلعة صرخد و قلعة شميميس و قلعة فوق أنطاكية و جهزها بالعساكر. فشكته حكومة حلب للباب العالى. قال المحبى: إن ابن معن بلغ مبلغا لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة.

و علل البوريني سبب أخذ الدولة له أنه أخذ يحصن قلعة الشقيف عدة أعوام و أخذ لواء صفد، فعظم شأنه و ارتفع مكانه و بعد صيته، و كثرت أمواله لأنه تصرف في أرض ما خطر في بال أحد من الأمراء التصرف فيها، و كان ملك كفر كنه و عكا و الساحل و صفد و بلاد ابن بشاره و الشقيف و بيروت و صيدا و و جبل كسروان و جبة المنيطرة و جبيل و أنطلياس و البترون و الجرد و الغرب و المتن و الشوف و المقيطع و الشحار و البقاع و بعلبك و صور المعشوقه، و حصن قلعة الشقيف و جددتها و شحنها بالأرزاق الكثيرة و جعل بها من آلات الحصار شيئا كثيرا و استمر في ذلك التحصين نحو عشرة أعوام فتفطن له الأمراء و الوزراء.

و قال نعيما: إن قلاع الشقيف و بانياس و دير القمر كانت محصنة في عهد ابن معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة، و إن من قتلوا في برهة قليلة من عصاة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف و أحرقت بيوتهم و قراهم، و إن عهده و ما بعده في الجبل مضى مع الدولة تارة في حرب و طورا في سلم و صلح اه. و من الحصون التي رممها و أنشأها قلعة قب الياس و بانياس و برج الكشاف في بيروت و برج البحصاص في طرابلس و رأس بعلبك و اللبوة و حدث

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٢

بعلبك و الصلت و حيفا و نوله و سمر جبيل و طرابلس و صافيتا و المرقب و حصن الأكراد.

و كانت له في باب قوة الإرادة آيات منها أنه لما حدث اختلاف بينه و بين بيت سيفا أصحاب طرابلس، أتى بنو سيفا و أحرقوا و نهوا الشوف فأقسم كما قيل هكذا: «و حق زمزم و النبي المختار لعمر ك (لأعمر ك) يا دير بحجر عكار». و هكذا كان فإنه لما فاز على بنى سيفا و حاصر قلعة الحصن و أخذها و هدمها، جعل الجمال بالألوف تجلب الحجارة من عكار إلى دير القمر و بنى الدور القديمة في الدير و وزع في جدرانها من حجارة عكار الصفراء.

كان ابن معن يجمع إلى الحسنات سيئات فمن حسناته أنه كان يميل إلى عمران إماراته و يتسامح مع الأجانب حتى تكثر صلوات الشاميين بهم للتجارة، و كان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح و يستطيع أن يجند مثلها و قيل: إنه كان يستطيع أن يجند أربعين ألفا. و قد سئل لما كان في إيطاليا كم يقدر أن يجهز من العسكر فقال: كنت أجمع نيفا و عشرين ألفا ما عدا الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة، و كان يفضل على الأدباء و العلماء و كذلك كان يفعل خصومه بنو سيفا. أما سيئاته فكان مفرطا بأخذ الأموال من الناس و لا سيما بعد أن زار إيطاليا و تعلم منها البذخ حتى اشمازت منه رعيته، و قد بلغت جبايته تسعمائة ألف ليرة يعطى الدولة نحو ثلثها و يتمتع بالباقي. و كان نزوعا إلى العلى محافظا على صلواته مع الجماعة و على عاداته الإسلامية حتى في إيطاليا، و بنى جامعا و مآذنه في البلدة التي نزلها، و لما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية و يتولى مملكة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف. ذكر هذا مؤرخه الخالدي إلا أن «المعلمة الإسلامية» تقول: إن الأمير فخر الدين لما فر إلى ليفورنا (١٠٢٢) و استقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الأمل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة التركية في الشام. و عبثا حاول أن يظهر أن الدروز من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو و أنه هو أيضا من أبناء كودفري دي بوليون من أمراء الصليبيين. و لم يوفق أن يحمل المسيحيين على إعلان حرب صليبية جديدة. و ربما كانت قواه إذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٣

متكافئة لأن الدولة كانت تعضد ابن سيفا سرا حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن، و لكن شتان بين الرجلين في الغناء و بعد النظر.

فتن في الساحل:

و في سنة (١٠٤٤) حارب الأمير عساف بن يوسف سيفا الأمير على بن عساف و أحرق بلاد جبيل و المنيطرة و قتل من جماعة عساف كثيرين، و كثرت الحكام و الأحزاب في لبنان و ظلموا الرعايا و أخذوا المال الأميري مرتين، و قبضوا على رؤساء القرى و شددوا

عليهم ليخبروا عن أرزاق بيت معن و بيت الخازن، و في السنة التالية باغت الأمير على بن سيفا قرية أميون و أحرقتها، فجمع خاله الأمير عساف الرجال و دارت الحرب بينهما في أرض عرقة فانكسرت جماعة الأمير على، ثم أعاد هذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الأمير عساف و قتل من جماعته مقتلة كبيرة و اشتد الضيق بالناس.

و في سنة (١٠٤٦) قصد أحمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الأمير على بن علم الدين لتأخره في أداء المال السلطاني و معه متولى صفد و بيروت و طرابلس فانهمز قدامهم، و رحل معه يمنية الغرب و الجرد و المتن و الشحار و الشويقات بعيالهم و مواشيهم و كانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا كسروان، و انهزم من قدامهم القيسية و كسروهم في مرحاتا، ثم طردوهم من كسروان فساروا إلى عكار و سار عسكر الدولة على طريق الساحل و دخلوا طرابلس و خرجوا إلى نهر البارد فانهمزوا من أمامهم و لحقوهم بأرض الجون فكسروهم و سبوا حريمهم و أخذوا مواشيهم، ثم إن طروبه البدوي تداخل بالصلح بين الأمير عساف و ابن أخته على فرجع ابن علم الدين إلى بيروت. و لما حدث ذلك الاختلال في الساحل ظهر الأمير ملحم بن معن و حكم الشوف، و جمع بيت الحرفوش سكرانهم و عربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج إليهم نائب دمشق بعسكره و وقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش و قتل منهم مقتلة عظيمة. أي إن الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الأمير فخر الدين المعنى، و قد جرت شؤون كثيرة من خراب و قتل و نشتق في السنين التي أعقبت قتله حتى آخر عهد مراد الرابع.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٤

و كان الوالى بدمشق سنة (١٠٤٦) درويش محمد باشا الشركسى ففتك بأهلها و تجاوز في ظلمهم الحد و في آخر أيام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضى و اشتكوا من الظلم و بالغوا في التوسل، فلما بلغه ركب و كان مخيما في الوادى الأخضر بدمشق و أتى مغضبا و سفك دم بعضهم ثم عزل و صار أمير الأمراء بطرابلس. و هذه القاعدة مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاية فمن ترتضيه و يوافق مصلحتها تنقله إلى مكان آخر إذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت و ثبتت لديها، كأن الولاية الأخرى ليست من ملكها و لا يهملها أمر أهلها، و أن الوالى بمجرد نقله يغير أخلاقه.

إبراهيم الأول و سفاوته:

توفي مراد الرابع سنة (١٠٤٩) بعد أن حكم سبع عشرة سنة و كان من الشدة على جانب عظيم منهمكا في شهواته و لذاته، قيل إنه قتل مائة ألف إنسان منهم خمسة و عشرون ألفا بنفسه و أمام عينيه و لكنه أمن على حدود الولايات الشرقية باستيلائه على بغداد، و هو الذى قضى على فخر الدين المعنى الثانى، و لو لا ذلك لاستقل هذا بالشام و ربما امتد حكمه إلى أبعد من ذلك من الأقطار و الممالك، و لم ترتح هذه الديار بعد مراد الرابع، كما أنها لم ترتح على عهده فخلفه السلطان إبراهيم و كان خالعا ماجنا فسدت المملكة في أيامه بأخلاقها و مشخصاتها، و كان أبدا في شاغل عن الأمة إلا بما كان من تحقيق شهواته، و كان غريبا فيها. و قد عقد مراد بك في تاريخه «أبو الفاروق» فصلا في سلطنة النساء استغرق جزءا برمه نلخصه هنا ليتبين للقارئ كيف يكون حال مملكة سلطانها سخييف ضعيف.

و مما ذكر فيه استرسال السلطان أحمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة و العشرين شهيد الغوانى و الكؤوس، أما السلطان إبراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلى بحب النساء حتى كان كل أسبوع يبنى بىكر و يجرى له عرس و تقام الأفراح في قصره، و كان كلما سمع هو أو والدته «كوسم والدة» أو أحد حاشيته و حملة غاشيته و وزراؤه و عماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم، حتى عجز سلطان عن ملامسة النساء لكثرة إفراطه فجاء «جنجى خواجه» و كتب نسخ

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٥

الأدوية و العقاقير النافعة في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بأن سلطانها يستطيع أن يقترب من أربع و عشرين بكرا في الأربع و

العشرين ساعة! و أصبح القول الفصل فى القصر السلطانى للجوارى و السراى، و كان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله و هو لا- عمل له إلا- الأفراح و النساء و الغناء و الخلاعة و دخول الحمام و اقتناء الجوارى و الحلى و الزهور و الأموال و الطرائف، و إصدار و الأوامر بقتل الأنفس بمعنى و بلا معنى، و أخذ يستريح إلى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية فى أواخر أيامهم. خطط الشام؛ ج ٢؛ ص ٢٥٥

كان تقرر جعل النساء الرسميات أربعاً ثم أبلغت والده السلطان عددهن إلى ثمان نساء، لأن نسل بنى عثمان كاد ينقرض، و أحببت كوسم والده تكثير نسلهم على هذه الصورة، و لكل واحدة من تلك الجوارى من الخدم و الخادمت و الوصيفات و الندماء و النديمات و الخازنات و الملابسات عشرات و ربما مئات، تجبى و ارادت الولايات العظيمة لتعطى إلى المقربين و المقربات، و الوظائف تباع بيع السلع بالمزاد و لا سيما على عهد الأعوات بكتاش اغا و مراد اغا و مصلح الدين اغا و أمثالهم، و لم يبق أحد لا يرتشى من الصدر الأعظم فنازلاً، لأن السلطان يطلب من كل عامل عنده جعلاً يليق بشأنه سلطانه، حتى تعدت الحال فى طلب الأموال إلى كبار التجار فى الاستانة، و أخذ رجال القصر و نسائه يسلبون من الأمة ما يقدرون عليه، و اضطر كثير من التجار إلى الاختفاء و إغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان، و لا- تسل عن رواج سوق الحلى و الجواهر و العربات المرصعة و الطسوت المحلاة و النعال المزينة بالأحجاز الكريمة و الإسراف فى استعمال الذهب و اللؤلؤ و الزبرجد و سائر المعادن النفيسة فى الآنية و الزينة و النقش فإنه مما لا تتصوره العقول.

و كانت و ارادت لواء (سنجاق) تعطى من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أيلة الشام على طولها و عرضها يخصص ريعها و جبايتها للمرأة السابعة بحسب الأصول الحديثة على العهد الإبراهيمى. و لم يرض النساء أن تجبى لهن الأموال الولاية و بكوات الأولوية، بل كن يعين جباة من قبلهن يجبون باسمهن ريع الولاية أو اللواء. و قد كان الذى عهدت إليه جباية و ارادت الشام محمد اغا الذى اشتهر فيما بعد فى التاريخ العثمانى باسم محمد باشا الكوبرلى الكبير،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٦

و هو ممن حالوا بتدبيرهم دون سقوط الدولة العثمانية. قال أبو الفاروق:

و لا غرو فقد توجد الدرّة النفيسة بين الكناسات و القمامات.

و لم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة و ضواحيها، فإذا رأى من أعجبه و تردد وليها فى إرسالها يلقى جزاءه فى الحال، و بلغ السلطان مرة أن امرأة ابشر مصطفى باشا فى جهات سيواس على غاية من الجمال، فأرسل إلى و اردار على باشا ثلاثين ألف ليرة ليعث إليه بزوجه مصطفى باشا فنفر على باشا من اقتراح سلطانه و أجاب بالرفض، فقرر السلطان إهلاكه، و لكن على باشا رفع رايه العصيان و جعل على الأناضول سافلها، و قرر السلطان أن يأتى بزوجه ابشر مصطفى باشا و يعريها و يجعلها فى أحد الشوارع المهمة بين عمودين يربط إليهما رجلاها و يداها و يطلق للعامة و العسكر أن يلمسوها حتى تموت، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع عن هذا العمل البشع إلا بعد اللتيا و التى.

و قرر هذا السلطان الأخرق يوماً أن يقتل النصارى بأسرهم فى مملكته فاحتال عليه شيخ الإسلام قائلاً: إن فى قتلهم نقص و ارادت السلطنة، و إن متى ألف إنسان إذا قتلوا فى العاصمة تخف الجباية لا محالة، و بهذا استرجعوا من هذا المعتهو الفاجر إرادته المختلة و هكذا حتى خلع و قتل سنة (١٠٥٨) بعد سلطنته ثمان سنين و تسعة أشهر. و قد قتل عدة من رجاله و قتل الصدر الأعظم مرة لأنه بعث فى طلبه لتدارك حطب للقصر فقال له الوزير: إن هذا الطلب ليس من الأمور المهمة التى يفكر فيها من يفكر فى أمور السلطنة فمثل به فى الحال و لم يجراً بعدها على تولى الصدارة إلا من كان على جانب من الرياء و النفاق ليرضى السلطان.

و ذكر مؤرخو الترك أن سلطان زاده محمد باشا الذى تولى الصدارة على عهد السلطان إبراهيم ثلاث سنين خرب خلالها فى جسم الدولة ما لا يقع مثله فى ثلاثة قرون، و بلغ من ريائه مع سلطانه ما لم يوفق إليه أحد، و جاءه أمر من السلطان ذات يوم يقول فيه: إن

الخيرية نضبت أموالها ولا بد أن يسترجع ما أهده أجداده السلاطين إلى حرمى مكة و المدينة من المجوهرات ليسد العجز فقال الصدر الأعظم على دهائه و ريائه و هو يقرأ هذه الإرادة السلطانية:

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٧

لقد سقطت الدولة إلى هذه الحالة بفيلق من الجوارى الناقصات من بنات الروس و بولونيا و المجر و فرنسا.

و مما ذكره فى باب إسراف ذاك الدور أنه كان عند دفتر دار محمد باشا ٤٧ طاهيا و ٧ رؤساء طهارة و لكل طاه خدامه و خيامه و أشياءه و بغاله و جماله حاضرة على الدوام و فى بيت مؤنته من الأوانى المرصعة و المذهبة و المفضضة و غيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة كبرى. و هكذا أسرف السلطان و رجاله فى كل شىء و فسدت الأخلاق و لا من يجسر أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر حتى قال أبو الفاروق: إن معظم كبراء الأمة و من كان لهم علاقة بقصر السلطان إبراهيم كانوا يتقربون إليه بتقديم الأبقار الحسان فرأوا القيادة و الديانة أحسن شافع لهم عنده للترقى و الاعتناء.

فإذا كان على هذا النحو حال دار الملك و حال قدوة رجال الأمة فيها، فما الحال بالولايات و لا سيما البعيدة كهذا القطر، و كان ولايته كولاية غيره من جماعة القصر ينصب أكثرهم بشفاعة النساء و القوادين و القوادات.

على هذا المثال كان أغوات القصر الأغبياء ينصبون الولاية و لا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذى يقضى عليهم إدارته، بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة و جيزة و يبعثون بآخر من هذا الطراز. كل ذلك من مقتضيات الجهل و الطمع و الشفاعة، فاقضى أن يكون الوالى من صنائع بعض العظيمات أو العظماء، و كثيرا ما يكون ما جمعه من المال فى ولايته داعيا إلى توجيه النظر إليه فيقتل لتصادر أمواله، و لطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لأنه يقبض على أكثر موجودهم، و كم من مرة كانت امرأة أحدهم أو قصره البديع فى المضيق فى فروق سببا فى الغضب عليه و الحسد له، حتى يورده الوزير الأكبر أو غيره حنفة ليمتدع بعده بزوجه أو ليسكن قصره أو ينال غير ذلك.

و ذكر أبو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان و كيف تجرد فى قصره عن العالم و حصر و كده فى شهواته أن آل عثمان من القديم تفردوا بغلبة شهواتهم عليهم، و قد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ أهل القصر السلطاني يتعلمون أدوية الباه من الشرق و الغرب و هو يسىء استعمالها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٨

فتنة وال أخرق فى حلب:

و من الأحداث فى أيام السلطان إبراهيم فتنة ثار و قدما بين الانكشارية و رؤسائهم فى حلب، كان السبب فيها أن الانكشارية طلبوا من رؤسائهم أن يعطوهم غروشا بدلا من الأقجعات، و طلبوا عزل و كيل رؤسائهم و كاتبه، فقتل منهم جملة، ثم وقعت بينهم و بين رجال الصدر الأعظم فتنة قتل فيها نحو خمسين رجلا من الطرفين و انتهت القضية بقتل آغتهم و وكيله و كاتبه.

و منها ما رواه نعيما فى حوادث سنة (١٠٥٤) قال: إنه كان فى بر حلب رجل اسمه الأمير عساف يتولى إمارة البادية، و قد أخذ يسلب أرباب القرى أموالهم و سلط أشقياء العربان عليهم، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم و صعب استئصال شأفتهم، فدبر والى حلب إبراهيم باشا تدبيرا أخرق و ذلك بأن دعاه إلى مأدبة ليغتناله فى خلالها، و علم الوالى أن الرجل لا يوافقى حلب فارتأى أن يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة، فخرج الوالى فى جنده و خرج عامة أهل البلد لابسين أحسن بزء، راكبين الخيول المطهمة، حتى وافوا محل الضيافة التى أقامها الوالى لأمر البر، و كان الوالى أوعز إلى جنده أن يطلقوا النار على الأمير عند ما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتروا بأمره، و لكن الأمير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم و ركب فرسه من ساعته، و كان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرمح، فحملوا على جند الوالى حملة منكورة و قتلوا منهم جماعة، و أحاطوا بالأهالى فسلبوهم ثيابهم و

خيولهم، و لم يكونوا أقل من خمسة آلاف و قد جرح أكثرهم، و رجع الوالى إلى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة، و أخذ الأمير عساف يعادى الدولة العثمانية علنا و طمعت البادية فأخذوا يطيلون أيدى اعتدائهم أكثر من قبل فاضطرت الدولة إلى تنحية واليها الفاسد الرأى السىء التدبير، و بذل الوالى اللاحق و جماعته أنواع اللطف مع الأمير عساف حتى أعادوه إلى حظيرة الطاعة للسلطنة فى الجملة، و طفق يهادى عمال السلطنة بالخيول و يرسل إلى الحكومة جزءا من الجباية. و ما كان يألفه بعض العمال من إعطاء الأمان للخوارج أو غيرهم ثم اغتيالهم فى مائدة أو إدخال السم عليهم أو صلبهم علنا قد أدى إلى رفع ثقة الناس من عهدهم و موافقتهم. و غلطة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٥٩

واحدة ارتكبها والى حلب الأحقق أدت إلى ما أدت إليه من الفساد و البلبلة.

قال الشهابى فى حوادث (١٠٥٤) أنه عزل محمد باشا الأرنؤوط عن إيالة طرابلس و تولاها حسن باشا و كانت الناس لكثرة المظالم تبغ كل ثلاثة سنابل قمح بقرش، ثم أعيد إلى طرابلس محمد باشا الأرنؤوط و أجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة و رحل أهلها.

محمد الرابع و صدارة كوبرلى:

بويج محمد الرابع بالسلطنة سنة (١٠٥٨) بعد السلطان إبراهيم فطال عهده إلى سنة (١٠٩٩) أى إحدى و أربعين سنة، و إذ كان طفلا عهدت والدته، بعد تغيير كثير من الصدور، بالصدارة العظمى إلى رجل عاقل من رجال الدولة و هو محمد باشا كوبرلى و كان أميا إلا أنه أتى بأعمال و طدت دعائم الملك بعد تزعره فى عهد السلطان السابق بسلطة النساء، و اشترط فى تولي الصدارة أن يكون حرا فى عمله لا ينازعه منازع، و لا تقبل فيه وشاية و لا يعين للمناصب إلا من يريد، و قتل ستة و ثلاثين ألف إنسان حتى ألقى الرهبة فى النفوس، و أمن قيام الخوارج و النزاع إلى الثورة من الزعماء و أرباب الدعارة و الجند و العصاة، و خلفه ابنه أحمد باشا كوبرلى الذى كان حاكم دمشق و قاتل الدروز و انتصر عليهم. و كان على غاية من العلم و العمل. ثم خلفه فى الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها لأنه كان جماعا للمال له و عنده ألوف من الخيل و كلاب الصيد و البزاة و ١٥٠٠ حصان و ١٥٠٠ سرية و ٧٠٠ خصى.

و خلفه مصطفى زاده من أسرة كوبرلى أيضا و كان من المضاء و الشجاعة و حسن الإدارة و الاستقامة على جانب عظيم، و اشتد على المزورين و المرتشين و قضاة السوء و ملأ خزائن الدولة بأموال اللصوص. و كان يقتل من يتناول التبغ من قبل، فجعل تجارته حرة على أن توضع عليه رسوم فاحشة، و قضى أن لا يؤخذ من الرعايا مسلمين كانوا أم مسيحيين غير المقرر من الجزى و الخراج، و قسم المكلفين إلى ثلاثة أقسام يدفع الأول منهم دوكا واحدة، و الثانى دوكا اثنين، و الثالث أربع دوكات، و هذا هو النظام الجديد الذى بقى بعد هذا الوزير

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٠

زمننا، و خلفه صدر آخر كان ابن أخت الكوبرلى الأول اسمه حسين عموجه زاده و كان على قدم أجداده بعد نظر و حسن إدارة، فصح فى هذه الأسرة ما قاله أحد مؤرخى الفرنجة من أن الوزير الأول منهم لقب بالكبير أو القاسى و الثانى بالسياسى و الثالث بالصالح و الرابع بالحكيم. و لكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن إلا فى الشام لبعدها المسافة عن العاصمة، و لأن طريق الالتزام فى جباية الأموال كانت سقيمة تدعو إلى إضعاف المملكة، و لأن الوالى كانت له لا مركزية واسعة يعمل بقريحتة على الأغلب.

و فى تاريخ فلسطين أن حكومة سورية فى القرن الثامن عشر كانت حكومة لا مركزية أى إقطاعات أو حكومة أمراء و مشايخ يقوم

كل منهم بحكم منطقته.

فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثة يحكمون بنى مالك و بنى حسن و بنى زيد و بنى مرة و بنى سالم، فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ و يقبلان حكمه لا- محالة، و من خالف العادات أو أخلّ بتقليدهم يسجن في سجنهم، و كان الشيخ أو الأمير يجبي الضرائب و يقدم المقطوع عليه للوالى و يأخذ الزيادة، و إذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم و من ورائهم رجالهم و فرسانهم. و كثيرا ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاء الأمراء و الولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى و اختلال الأمن و سبب للحكومة خسرانا كبيرا فى الأموال و الرجال.

و لقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر و ترعرع أن يقتل شقيقه سليمان و أحمد فمنعته والدته من قتلها و حال بينه و بين القتل المفتى الأعظم، موردا له كلام الله مخوفا له من عذابه، و بذلك انقضى دور قتل أبناء ملوك آل عثمان و تسلطن شقيقا محمد الرابع بعده. و وقعت فى سلطنة أحمد الرابع فى الشام كوائن كثيرة منها الواقعة التى حدثت سنة (١٦٠٠) م فى وادى القرن من عمل لبنان الشرقى، و ذلك أن ابن علم الدين أغرى ابشير باشا والى إيالة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام و المعنية عند وادى القرن و كانت الدائرة على عسكر الشام. و يقول مؤرخو الترك: بل كانت على عسكر ابن معن و كان اسم ابن معن الأمير ملحم ولى كما قال

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦١

المحبى بلاد عمه أى الشوف و الغرب و الجرد و المتن و كسروان و كان حازم الرأى عاقلا حسن التصرف فلهذا أبقى مدة تزيد على عشرين سنة لم ينغص له فيها عيش إلا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا و كان ذلك بإغراء بعض المفسدين و انتصر فى تلك الواقعة. و فى خلال ذلك كان درويش الشركسى المعروف بالمجنون واليا على تدمر فكان يغير على العربان و ينهبهم و يأسر منهم و يدخل إلى دمشق بالموكب الحافلة، ثم ولى لواء عجلون فثار بينه و بين أهلها حروب كثيرة و كسروه.

و روى نعيما (١٠٦٥) عند كلامه على والى حلب ابازه حسن باشا أنه كان من أبناء الجدد بلغ المناصب بصور غريبة و هو شقى يميل إلى الفساد و المظالم، و إذا أريد تسطير ما أتاه من الجور على الرعايا لاستلاب أموالهم اقتضى ذكر مجمله كتابا ضخما. و أن الحكام كانوا يجوبون الجباية ضعفين فأخذون ممن يقضى عليه أداء عشرة آلاف عشرين ألفا، و من يغرم الخمسين مئة أو مئات، و لم يكن لتعديهم غاية و لا لظلمهم حد يقف عنده، فتهلك القرى و الدساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة و القضاء ممن كانوا يبتاعون بالرشاوى مناصبهم فيغضى عنهم الكبراء لأنهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم إلى الاستانة لا يجدون أذنا صاغية و ربما انعكس الأمر عليهم و صدق رجالها الوالى الظالم و سفه أحلام المتظلمين فيزيد الظالمون فى ظلمهم. قال: و كان الفقراء يرتحلون عن أراضيهم فأصبحت القرى المعمورة و القصبات المشهورة مروجاً ينقع فيها غراب الخراب، و إذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق الوالى عليهم الأربعمائة و الخمسمائة من جنده ينهبهم و يسيبهم اه. و من الغريب أن يكون حسن أبازه باشا واليا على حلب على عهد صدارة الكوبرلى الذى يقده العثمانيون بإدارته و لعلمهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الإدارة و الإصلاح بمجرد بطشه بالعصاة و إجهازه على من لا تروقه أعمالهم أو ينازعونه فى سلطانه، أما تقاضى الجباية مرتين من الرعايا و إلقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية فى قائمة أعمالهم! و حسن أبازه باشا، خرج عن طاعة الدولة فى حلب و مات فى تلك النواحي و انضم إليه السكبان و خمسمائة جندي كانوا مع نائب دمشق أحمد باشا الطيار فعينت الدولة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٢

لقتاله الوزير مرتضى باشا فتقابل الجيشان و انكسر مرتضى ثم أخذ بالحيلة و قتل هو و أعيان جماعته و تفرق عسكره و كان ذلك سنة (١٠٦٩).

و فى سنة (١٠٧١) قدم واليا على دمشق أحمد باشا كوبرلى ابن الصدر الأعظم محمد باشا و كان فى الخامسة و العشرين من عمره. قال

المحبي: و كانت الشام مختلة فأصلحها و ركب على أولاد معن و بنى شهاب فأزالهم عن بلادهم و قمع أهل الفتن. و ذكر المؤرخون أن هذا الوالى لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب و عرضوا عليه جانبا من المال فما قبل و سار إلى وادى التيم فهدم سرايات بيت شهاب فى حاصبيا و راشيا و بيوت مدبريهم و قطعوا نحو خمسين ألف شجرة من توتهم فى مرج عيون و البقاع، و أعطى ولاية وادى التيم لأولاد علم الدين مع المقدم زين الدين و ابن أخيه عبد الله. فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادى التيم. و ما أسخف هذه الطريقة فى التأديب التى هى عبارة عن تخريب العمران. هذا و ابن الكوبرلى من خير من ولى الشام و من رجال الإصلاح و العلم.

و أقام ابن الكوبرلى على صيدا باشا و جعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم أولاد العرب و أعطاهما على باشا الدفتردار. و لما بلغه ما صار من والى طرابلس و اليمينية من حرق دور بيت أبى اللمع و بيت الخازن و بيت حمادة و قطع أرزاقهم و ما وقع من الخراب فى وادى علمات و إتلاف حراج مشمش و لحفد و أرض جليل و البترون و جبة المنيطرة و العاقورة، و لما بلغه ذلك و أن الرعايا ضاقت به و خربت ديارها أمر بصرف العساكر و رجع إلى الشام، و على باشا هو الذى طلب مالا من ناظر كنيسة مار جرجس فى بيروت و إذ لم يقبل النصارى أمر أن تصير الكنيسة جامعا و بنى لها مأذنة و سميت مقام الخضر.

و فى سنة (١٠٧١) قدم على باشا إلى صيدا و هو أول من تولاهما من الباشاوات و كانت فتنه عظيمة بينه و بين مشايخ المتاولة فأوقع بالقيسية و نهب إقليمهم فارتحلوا عنه و بعد سنتين نصر الوالى القيسية.

و فى سنة (١٠٧٣) قتلت الدولة منصور بن شهاب أمير وادى التيم و الأمير على ابن عمه لموافقتهما رؤساء جند دمشق فى وقعه مرتضى باشا لما ولى نيابة دمشق و قارب أن يدخلها، فأرسلا جندا من وادى التيم تجمع فى دمشق و انضم إلى من قام فيها من رؤساء الأجناد و الأوباش و التقوا مرتضى باشا فى القطيفة فهرب

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٣

منهم. و لما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين و فى مقدمتهم الأمير منصور و أخوه و الشهابيون على ما قاله المحبى فى وصف إدارتهم و سيرتهم على عهده: «و جورهم بالنسبة إلى أمراء بلاد الشام كالدروز بنى معن و الرافضة بنى الحرفوش و بنى سرحان مقصور على أنفسهم من حيث المعتقد فحسب، و مالهم فى القديم و الحديث كثرة أذية للمسلمين».

و من مساوى حكومة الإقطاعات أن صغار أمرائها من الشاميين كانوا يضطرون كل الاضطرار إلى المصانعة فتراهم أبدا مع القوى الذى تدوم سعاده إذا ولت عنه و لووا وجوههم، و فى هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضا و تخرب بيوتهم و بيوت شملهم و حاشيتهم. و الولاة يشدون مع هذا و يرخون لذاك شأنهم مع كل صاحب سلطه و قوة. و هكذا كانوا فى معاملتهم لليمينية و القيسية يقوى تارة هؤلاء و طورا أولئك، فقد وقعت سنة (١٠٧٥) فى الغلغول عند برج بيروت وقعه بين القيسية و اليمينية قتل فيها عبد الله بن قائد بيه ابن الصواف و انكسرت اليمينية و انهزموا إلى دمشق. و اشتدت الحالة على الشام فى هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر فى أرجائها الذى أفلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى إن قاضى حلب ضبط الأموات فى حلب فبلغوا ١٤٠ ألفا و كان القحط عم القطر قبل أربع سنين فجىء بالقمح من مصر و بيعت غرارة الحنطة بثمانين قرشا. و لم تفتت الحكومة مع ذلك عن حرق الدور و القرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور أمراء البقاع بحكومة دمشق فأنجدتهم بعسكر فداسوا وادى التيم و حرقوا دور بنى شهاب و قراهم. و اشتد ظلم بنى حمادة فى عمل طرابلس و ظلموا الرعايا، فخربت القرى و كان فى خلال ذلك (١٠٨١) واليا فى حلب حسين باشا المعروف بصارى حسن يتلطف بالرعايا و ينتقم من ذوى الكبر و المناصب. كما أن ظلم والى دمشق و متسلمه اشتد سنة (١٠٨٣) فأغلقت المدينة مرتين احتجاجا على عمله.

و فى سنة (١٠٨٦-١٠٨٧) حرقت قرى البترون و فى السنة التالية حرقت قرى جليل و البترون أيضا و خلت جليل من سكانها. و فى سنة (١٠٨٧) أمر والى طرابلس بحريق وادى علمات و هى فرحة و علمات و عشاق و طورزيا و الحصون

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٤

و احمج و جاج و قرى جبنة المنيطرة و هى كفر جال و المغيرة و لاسا و المنيطرة و أفقا و لما رجع للعسكر جاء مشايخ بيت حمادة و أحرقوا قصوبا و تولا عبد الله و بسينا و صغار و شيطان. و فى سنة (١٠٩٠) تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيرا. و فيها كانت التجريدة على الأمراء آل شهاب من والى صيدا و والى دمشق و كان النصر للباشاوات. و فى السنة التالية باغت الأمير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الأمير فارس شهاب فى نىحا قرب الفرزل فقتله و قتل خمسين رجلا من شيوخ وادى التيم، فجمعت أسرة شهاب العساكر و ساروا إلى بعلبك فتداخل الأمير أحمد بن معن بالصلح و جعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف قرش و رأسين من أطايب الخيل. و فى سنة (١٠٩٦) تولى ابن معن صاحب الشوف جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ايليج و لاسا و أفقا و المغيرة و قطع أملاكهم. و فى سنة (١٠٩٨) لما فر الأمير شديد إلى جيبيل نزل إلى العاقورة فأحرق من ضياع بيت المشايخ بيت حمادة نحو أربعين ضيعه و قطع أشجارها.

و كانت مصيبة القطر فى هذا الدور واحدة فى الظلم، فكان الوالى فى حماة مثلا إذا غضب على رجل يضعه على «الخازوق»، و إذا غضب على امرأة وضعها فى خيش مع شىء من الكلس و ألقاها فى العاصى، و أصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم و يدفونها فى الأرض لتنجو من المصادرات و السرقات و يتظاهرون بالفقر، و ربما مات أحدهم فجأة و لا يعلم أولاده بدفينته فى جدار البيت أو الحائط فيقع المال بعد مدة فى يد من تنتقل إليهم الدار.

قال المحبى: و لكثرة جور الحكام فى حماة على الأهلين فى القرن الحادى عشر هاجر أغلب سكانها إلى دمشق. أما فى جهات لبنان الغربى و الشرقى فإن الوالى أو المتسلم أو المستبد إذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره، و لذلك كان من الدعاء على الرجل فى لبنان «اللله يقطع رزقه» أى أشجاره أو «يخرّب زوقه» أى بيته، و الزوق البيت، و فى سنة (١٠٩٨) ورد الأمر لعلى باشا النكدلى متولى إيالة طرابلس أن يقتص من الأمير شديد الحرفوش لتخريبه قرية رأس بعلبك و هدمه حصنها، فكتب إلى الأمير أحمد بن معن أن يوافيه بالرجال فلجأ

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٥

الأمير شديد إلى المشايخ الحمادية فأحرق على باشا قرية العاقورة و أربعين قرية من قرى بنى حمادة، ثم نزل عسكر للباشا على عين الباطية فباغته ليلا آل حمادة و الحرافشة و قتلوا منهم خمسة و أربعين رجلا و انهزم العسكر.

عهد سليمان الثانى و الحكم على الخوارج:

توفى محمد الرابع سنة (١٠٩٩) و تولى السلطان سليمان الثانى و الأمور فى عهده الطويل لم تبدل و المرض واحد، و هو سوء الإدارة و خراب العمران و هلاك المال و هتك الأعراض و قتل الرجال. و تم القرن و الشام غرض الرماء تصيبيها مطامع الولاة و الأمراء و أرباب الإقطاعات و الألوية و أهم ما كان فيه مظالم بنى سيفا و بنى معن و ثورة ابن جانبولاد، و الولاة نسق واحد لأنهم نسخة من عصرهم، و إذا كانت أحوال القصر السلطانى و من فيه مختلة كانت الولايات حقيقه بأن تباع فيها الأرواح بيع السماح، تساوى فى ذلك البوادي و الحواضر، و الناس فى أمر مريج لا- يستقرون فى بلد و ينتقلون فى الأرجاء و إذا اشتد الظلم فى مكان هجروه إلى موطن يتوهمونه أقل مظالم و مغارم، و أنى لهم مكان يسكنون إليه و يأمن فيه سربهم. و إذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكوبرلى الذين تولوا الصدارة فإن ما أصاب الشام من عنايتهم جزء صغير جدا لا يكاد يشعر به، و عهد أولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر و مصطفى الأبله ينسى عهد محمد الرابع و مراد الرابع.

و لم يؤثر عن هذا القرن أنه أنشئ فيه غير قليل من الجوامع و المعاهد مثل جامع ابشير باشا و خان الوزير بحلب و كان بعض الولاة فى القرن الذى قبله يرهقون الرعية و يقيمون شيئا باسم العمران أما هذا القرن فغاية ما يقال فيه أنه تخريب الموجود. و ممن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا البالجى أمير صفد ثم طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من أنصف الحكام على ما قال المؤرخون، و إذا كتب لأحدهم

أن كان على شىء من الأخلاق ينازعه المنازعون على ولايته فى الاستانة فلا يتقلد زمامها إلا بمقدار ما يتعرف إلى أهلها و يدرس طبائعهم و يستقرى ديارهم ثم يشخص إلى العاصمة و يستبدل غيره به و هكذا دواليك.
هذا و أهم ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركمانى
خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٦

التي زال بها حكم الدولة عن القطر سنتين و ذلك من أذنه إلى غزوة و لم يطل أمد هذا الاستيلاء كثيرا إذ كانت دعامة القوة الموقته، و هو ابن ساعته لم تعد له الأسباب بجملتها. أما الأمير فخر الدين بن معن الثانى فإنه كاد يستولى بالفعل على الديار لتنظيم جيشه و تعزيز قلاعه و بسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة أنفسهم، و عنى بإدخال روح التجدد فى إمارته و دعى سلطان البركجده الأمير فخر الدين الأول و لو كان لحلفائه دوجات طسقانه إذ ذاك شىء من القوة و أنجدوه بقليل من رجالهم و ذخائرهم، و لو لم يشتغل بال البابا و ملك اسبانيا و كبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا أعانوه على نيل أمانيه فى الاستقلال خصوصا و هم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على أنطاكية، فلو قدر لهم أن ينجدوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه إلى فراته بعد أن تمت له كل معداته، و العقل رائده و الحزم قائده، خصوصا و كان مؤله فى قوته على الدروز و هم فى هذه الديار على التحقيق منذ القديم من أشجع العناصر التي عرفت بمتانتها و مضائها فى الحروب.

و كان كثير من مدبريه و رجاله من المسيحيين و لمحبة قومه له ادعته أهل المذاهب الثلاثة فى إمارته، فالموارنة يقولون له كان مارونيا و الدروز درزيا و الحقيقة أنه مسلم سنى - خلافا للمحبي و المرادى - يحسن السياسة و الإدارة و ينظر إلى رعيته نظر المساواة و يأخذ لخدمته الكفاءة من كل طائفة. فهو بلا مرء مثال الأبطال فى عصره، و كان على أتم الاستعداد للحرب و على معرفة بالإدارة و طبائع الأمة، و لو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها فى قتاله لعمل فى الشام فى القرن الحادى عشر ما عمله محمد على الكبير فى مصر فى القرن الثالث عشر و لم يكن دونه ذكاء و مضاء و دهاء.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٧

العهد العثمانى «من سنة ١١٠٠ إلى ١٢٠٠»

حال الشام أول القرن الثانى عشر:

تبلج فجر القرن الثانى عشر للهجرة و الدولة لا تفكر فى غير مصائبها الخارجية، و المملكة التي كانت تمتد من أسوار فينا إلى جنوب جزيرة العرب، و من فارس إلى الغرب الاقصى لا وحدة فيها، و لا جامعة تجمعها، و ليست متجانسة و لا متماثلة، تكافحها الثورات الداخلى، و تساورها الحروب الخارجية فلا تهتم للأولى اهتمامها للثانية، و تفنى فى سلطانها و يستعبد لها أرباب الإقطاع و يستبد بها الجند و الولاة، و سكان هذا القطر كسائر الأقطار العثمانية أرقاء لا عمل لهم إلا إرضاء شهوات حكامهم من وطنيين و غرباء، و لم يكن اختلاف العناصر أقل ضررا عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية و اللوند و السكبان و القبوقول، و النزاع بين هؤلاء الجند و بين رجال الإدارة قائم على ساق و قدم فى أغلب السنين، بل بين كل صنف من من أصنافهم و رؤسائه، و الأرواح فى هذه السبيل تباع بالمجان، فلم يحدث شىء مما يقال له الإصلاح لأن رجال الدولة لم يفكروا فيه حتى يتوسلوا بأسبابه، و إذا توسلوا فلا يحسنون طريقه، و قد اعتادوا الأخذ و لم يعتادوا العطاء بتحسين الحالة، ليزيد الأخذ و العطاء معا.

و ندر أن يجىء من الاستانة رجل صالح فى أخلاقه، معروف باستقامته و كبر عقله وسعة معرفته، يحسن إدارة الناس و يكف الظالم عن ظلمه، و هل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٨

يفارق فروق إلا- من أكره، و هناك النعيم و الهناء و ضروب الشهوات البشرية، و إذا جاء هذه الديار وال كبير من العمال فلاملاء هميانه على الأكثر بأموال الأمة ليعود إلى العاصمه سريعا، يعيش عيشا طيبا و ينعم في قصورها بأمواله و طرائفه، و يجنى في سنه ثروة كبرى تكفيه و أولاده و أحفاده على غابر الدهر.

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة في الجباية، بل لأن الجباية كانت على غير قاعدة مطردة، قد تجبى جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد، و لا- تراعى في الجبايات أعوام القحوط و الجدوب و المصائب، و إذا ضاقت الحال بأحد العقلاء أو ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجيا و قاتلوه و حرّفوا دعوته على ولاة الأمر في الاستانة، و لبسوا على العامة في أمره، حتى يسكتوا نأتمته و يزيّفوا دعوته، و إلا فلا يعقل أن يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة في الإدارة، فالخير في الناس ما انقطع و لن ينقطع، و مهما بلغ من انحطاط شعب لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق، و لو كان في المجاهرة حتفهم أحيانا. و قد مهر رجال هذا الدور في تزيين الباطل و إلباسه ثوب الحق، و تقليل عدد الهالكين و الشاكين و الثائرين و الناقلين، و إذا نشبت ثورة أو حدثت فتنة أو تألف جماعة لمقصد شريف، و كثيرا ما يصورون العذاب الأليم في صورة نعيم مقيم، و لا يعرضون على السلطان إلا المسائل الكبرى، كأن تتقد ثورة في الشام لا يمكن تلافيا إلا بإرسال جيش كبير من آسيا الصغرى، و تحتاج إلى مال لا بد من استصدار إرادة سنيه بأدائه من خراج الولاية الفلانية.

و غدا قتل الإنسان و سبى النساء و الصبيان و خراب العمران، من الأمور المألوفة في تلك الأزمان. و في هذا القرن بدأ الحكام و أرباب المقاطعات ينوعون أسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية و البزيرية، لسد عوزهم و القيام بواجب الضمانات الدولية، و كثير من الفتن كان الداعى إليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في أوقاتها، فتعدهم عصاة عليها و تسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالا على صاحب الإقطاع أو المتسلم، و خرابا على البلاد و أهلها من كل وجه.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٦٩

و الدولة قلما سعت إلى استئصال شأفة الشر، و ما بحثت في أسبابه قط فتلافتها قبل وقوعها، و قلما اهتمت للفتن إلا إذا التهب شرارها و خشى منهما على سلطانها، و ندر أن أعدت المستعدين، و رفعت ظلامه المظلومين، و لماذا تهتم و كل قطر نشز عليها تضر به بعسكر من أهل القطر الأقرب إليه، إن لم تستطع ضربه بأبناء بلده أنفسهم، و إذا خافت من وال أو صاحب إقطاع قوة تسلط عليه خصمه أو جاره، فالناس أبدا متعادون متشاكسون، و الألفة ارتفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر، و ما ذلك إلا لتنفيذ رغائب السلطان الذى لا يرى لمملكته بقاء إلا إذا تباغض الناس و تربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر.

بدأ القرن و عبدون باشا والى صيدا يوغل في مظالمه، و جعفر باشا والى دمشق ليس دونه في إنشاء المظالم، أما الأمراء المتغلبه من أبناء الأقاليم فكان أكثرهم من أحفاد الذين سبقوهم في غزه و نابلس و عكار و لبنان و وادى التيم و بعلبك و حوران و الكرك و سلمية. قال راشد: إن بعض أعيان دمشق أغراهم المال و الإقبال فأرادوا الخروج عن الطاعة و مفارقة الجماعة، فكادوا لواليهم حمزة باشا و طردوا عسكره إلى خارج دمشق و قاموا بأفعال شنيعة رافعين علم الثورة، فنقل حمزة باشا إلى إيالة طرابلس و أخذ الأهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا أهدوه إليه من الكراع و البسط و غيرها و نهبوا أتباعه. ثم عين أحمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التنكيل بهم و خلفه مصطفى باشا مكانه فاضطر أيضا للإلقاء حبلهم على غاربهم. و لما عين كورجى محمد باشا أجريت عليه التنبيهات اللازمة ليظهر الأرض من هؤلاء الأعيان فدعا الوالى تسعة منهم كما دعا العاصين محمد آغا صدقه و محمد آغا قوشجى و بطش بهم و أربهم غيرهم من الخوارج. هذا ما قاله راشد في هذه الفتنة، و لم يقل إن والى دمشق ارتشى من الناس و ظلمهم حتى ثاروا عليه، بل قال: إنهم أهدوا إليه أيام ولايته و طالبوه بهداياهم لما رحل عنهم فأبانوا عن صغر نفوسهم، و هذا مما يظهر ذهنية الدولة في تلك الأيام، و أن الوالى يجب أن تهدى إليه الخيول و الطنافس و الأعلاق و ربما الدنانير و الدراهم من غير نكير. و ما ندرى كيف تكون الرشوة إن لم تكن هذه الهدايا هى الرشوة بعينها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٠

و في تقرير لأحد قناصل البندقية أن منصب الوالى كان فى الاستانة يكلف من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا و منصب الدفتردار يباع من ٤٠ إلى ٥٠ ألف دوكا و منصب القاضى يساوى أقل من هذه القيمة، و كلهم إذا جاءوا البلد الذى عينوا له يسلبون النعمة و يعرقون اللحم و يكسرون العظم.

دور أحمد الثانى و فتى:

توفى سليمان الثانى سنة (١١٠٢) فتولى السلطنة أخوه أحمد الثانى و هو الحادى و العشرون من ملوك آل عثمان و السادس عشر منهم فى القسطنطينية.

و فى أيامه (١١٠٣) عاقبت الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم فى معاملة حمزة باشا على ما تقدم، و أرسلت حملة على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين فى جبال طرابلس و كان لهم قبائل و عشائر، فاتفقوا مع أبناء معن حكام صيدا و بيروت، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة و لكن لا يؤدون إليها مطالبها فى آخر السنة، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت إلى محافظ الإيالة المذكورة الوزير على باشا فجمع ما تيسر له من الأجناد و ذهب إلى جبالهم التى امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين و أخذ زعماءهم و جعلهم طعاما لسيوف رجاله، و طلب أبناء معن الأمان فأجيبوا إليه و تخلصت المقاطعات من تعديهم و ظلمهم. و نزع الحكم من آل حمادة و كانوا فى بعلبك و الهرمل و عكار و جبيل و البترون و الضنية و الزاوية و الجبة و انهزموا على طريق العاقورة فلحققتهم العساكر و مات منهم و من عيالهم نحو مائة و خمسين نفسا من الثلج، و لما وصلوا إلى قرية الفرزل أتهمت العساكر و أبادتهم و لو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد منهم، و حرقت القرى و فتشوا عنهم و قرضوهم على بكره أبيهم. و توجه (١١٠٣) الأمير يونس شهاب من وادى التيم و دخل بلاد بشاره بعسكر عظيم فقتل و نهب ثم أرسل والى طرابلس إلى ابن معن يعرض عليه القطائع التى كانت لآل حمادة فلم يقبل و أجاب أنه لا يمكنه إجابة الطلب بسبب خراب الأقاليم، و أخذ والى طرابلس يتأثر من بقى من بنى حمادة فى السهل و الجبل حتى أفناهم و استعان بولاية دمشق و صيدا و حلب و غزة على

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧١

قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة عشر ألفا فهرب و وسد الأمر إلى الأمير موسى اليمنى بن علم الدين.

فى سنة (١١٠٥) على رواية راشد رأت الحكومة أن أبناء سرحان حمادة عادوا فنجم ناجم شرورهم، و أخذوا يتقنون بمعاضدة ابن معن لهم، فأقامت الدولة الوزير طوسون باشا قائدا عاما عليهم، فجمع من أطراف سورية ألف مقاتل من العرب و الأكراد ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو و حكام سورية فالتقى عشرون ألف مقاتل فى بعلبك و البقاع، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة و تأثرهم العسكر فقبضت عليهم و أوردتهم حتفهم و طهرت تلك الأرجاء منهم اه.

و فى سنة (١١٠٦) عينت الدولة متسلما على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدى و الظلم فقام الحمويون و أخرجوه من البلد قهرا، فذهب إلى المعرة و أرسل شكاية إلى الدولة ينسب فيها التعدى للحمويين، و أن حسنا الدفترى المشهور بابن قنبق هو مشير الفتنة، ف جاء الأمر بقتله فقتل فى داره سنة (١١٠٦).

و كأن لسان حال الدولة يقول: أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا لعمالى مهما كانت سيرتهم و إلا قاتلتكم، و من فتح فاه بالشكوى أنتقم منه بما يستحقه، فهذه خطتى، و بالرضى عنها تنالون حظوتى.

دور مصطفى الثانى و انقراض دولة بنى معن:

توفى أحمد الثانى سنة (١١٠٦) و كانت مدة حكمه أربع سنين و ثمانية أشهر، فتقلد السلطنة بعده مصطفى الثانى فكتب مصطفى باشا

والى صيدا إلى السلطان الجديد يقول: إنه لا يمكن أن يحكم قطر الدروز سوى بيت معن و أظهر استعداد الأمير أحمد بن معن لذلك و دفع مائتي كيس للمطبخ، فورد العفولابن معن مع أوامر الولاية على بلده، و زاد أرسلان باشا والى طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فتشتت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء و الظلم و ركب والى دمشق على حاصبيا و قطع توتها.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٢

توفى أحمد بن معن (١١٠٩) فانقرضت بموته الدولة المعنية لأنه لم يكن له ولد ذكر، فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات و هى الشوف و المناصف و العرقوب و الجرد و المتن و الشحار و الغرب و اختاروا الأمير بشير بن شهاب من أمراء وادى التيم على لبنان، فتولاها و أحبته الناس و أطاعوه لعدله و كرمه، و كانت البلاد يومئذ حزينين قيس و يمن و القيسية أكثر و أقوى و كانوا راضين بولاية الأمير بشير، و أما اليمينية فلم يرتضوا به و لكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم و قتلهم.

و فى سنة (١١١٠) تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا و إيالة صيدا أخوه قبلان باشا، و كان الشيخ مشرف بن على الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناسا من رجال للدولة و قصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الشهابي، فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل و كبسوا مشرفا فى مكان يقال له المزريعة، فقبض عليه الأمير بشير و على أخيه محمد و على حسين المرجى و سلمهم إلى الباشا فأمر بشنق حسين المرجى و أعطى الأمير بشيرا إيالة صيدا من صفد إلى جسر المعاملتين، و آجر قبلان باشا مقاطعة آل على الصغير للأمير بشير فأقام عليها متسلما الشيخ محمودا أبا هرموش. و فى هذه السنة أطالت عنزة و بنو صخر أيديها على الحجاج، و كان يعهد إلى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج و لهما رواتب مقرررة عليه، و قتل منهما خمسون رجلا فى القيود فانتقموا من الحجاج و أخذوا أموالهم و عروضهم، و دخل محمد باشا أبو قاوق إلى دمشق بصعوبة.

و حوادث البادية تتكرر فى العقد الواحد مرة أو مرارا فيهلك فيها من العربان و أبناء المدن خلائق و عيش البادية منذ القديم من الغزو، و الدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها و يكفوا أذاهم عن الحاج و التجارة. و تولى سنة (١١١٤) إيالة الشام محمد باشا بيرام قال الناس و ظلمه ماديكان و كان حبسه انحلال الحديد الأوطان من غير خيمة و كانت شمس النهار تؤذيهم و يرد الليل أعظم و كان يسمى حبسه المسطاح و لما عزل شكا أهل دمشق إلى الدولة و أنهم نهبوه و قتلوا من جماعته و أخذوا من خزنته أربعة جمال. و لقد أثنى الأجنب على وال من ولاية حلب اسمه يوسف باشا جاء فى أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد و قالوا إنه كان يحكم بدون أن يظلم و يسلب، و إن استقامته جلبت الخير و البركة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٣

و قد جاء حلب فى تلك الحقبة واليان اسم أحدهما قائم مقام يوسف باشا تولاهما سنة (١١١٢) ثلاث سنين و الآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاهما سنة (١١٢٥) و لا نعلم أيهما أثنى عليه الفرنج.

*** عهد أحمد الثالث و سياسة الدولة مع من ينكر الظلم و وقع عين دارة:

و فى سنة (١١١٥) خلع مصطفى الثانى بعد أن حكم ثمان سنين و تسعة أشهر و عشرة أيام، و تولى السلطان أحمد الثالث و هو الثالث و العشرون من آل عثمان.

و فى تاريخ راشد أن محمدا نقيب أشرف القدس تغلب سنة (١١١٨) على الحاكم و والى و أخذ يبث الفساد فى تلك الأرجاء فأرسلت الحكومة ألفى انكشارى و ثلاثمائة جبهجى و مئة مدفعى لتقوية مركزها فى القدس فوقع بينه و بين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن إلى الفرار و اختفى فى قلعة طرطوس، فبلغ و إليها أمره فأرسل فقبض عليه و أرسله إلى الاستانة فقتل. و ما ندرى معنى لقول المؤرخ إن نقيب القدس أخذ يبث الفساد فى تلك الأرجاء، بل نعتقد أن ثورته لرفع فساد العمال و سوء الإدارة، يعرف ذلك من عرف أن القوم اعتادوا فى كتاباتهم الرسمية أن يلقبوا بالمفسدين كل من كانوا من المصلحين، بيد أنهم مفسدون لأمرهم، عاملون

على نقض أساس مجدهم. كما وقع في هذه السنة أيضا وقد أراد سليمان باشا البلطجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها و إحداث بعض مظالم، فمنعه أعيان دمشق ومنهم أسعد البكري و عبد الرحمن القاري المحاسني فنفاهم إلى صيدا و عرض للدولة أمورا عنهم لم يأتوها ثم أعيدوا إلى بلدهم و اعتذر الوالي عما عزا إليهم.

و في سنة (١١١٩) توفي الأمير بشير الشهابي و خلفه الأمير حيدر الشهابي فركب في السنة التالية لغزو المتاوله لأن المشايخ بنى على الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الأمير بشير بلاد بشاره من بشير باشا و بقى في يد الأمير حيدر حكم بلاد الشوف و كسروان، فغزاهم الأمير حيدر و تجمعت المتاوله في قرية النبطية فأوقع بهم هناك و ظفر بهم و قتل منهم مقتله عظيمة، و رجع إلى موطنه فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوى الأمراء اليمينية في الغرب و الجرد
خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٤

من بنى علم الدين و غيرهم. و في سنة (١١٢١) تعاظم أمر اليمينية في الشوف و تظاهر الأمراء بنو علم الدين بذلك و ساعدهم الأمير يونس أرسلان حاكم الشويفات و مال إليهم من القيسية الشيخ محمود أبو هرموش، ثم وسد الحكم إلى الأمير يوسف علم الدين و أخيه منصور، و كان زمام ولايتهما بيد الشيخ محمود أبو هرموش فجاروا على القيسية و ظلموهم و لم يبقوا لهم منزلة و لا حرمة. و في هذه السنة أحرق الأمير يوسف مع عسكر الدولة بلدة غزير و نهبها، و سار والى دمشق إلى جبل عجلون و باغت نابلس و قتل من أهلها مقتله عظيمة و سبى عسكره نحو سبعمائة امرأة.

و في سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الأمير حيدر الشهابي أمرا إلى قيسية الشوف فتجمعوا في رأس المتن، فلما بلغ اليمينية ذلك أرسلوا إلى بشير باشا والى صيدا فحضر إلى حرج بيروت، و أرسلوا إلى نصح باشا والى دمشق فحضر إلى البقاع و اجتمع القيسية من الغرب و الجرد و الشوف إلى عين زحلنا في العرقوب، ثم انتقلوا إلى عين داره، و جرى الاتفاق أن تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت إلى بيت مرى في أول المتن، و أن يطلع نصح باشا إلى المغيثة في طرف المتن، و اليمينية إلى حمانا في وسط المتن، و تمشى الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية، فأجمع رأى القيسية مع الأمير حيدر الشهابي أن يباغتوا اليمينية في الليل في عين داره، فباغتوهم و أعملوا فيهم السيف، و قاتلت اليمينية أشد قتال و ما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين داره، و ما سلم من اليمينية غير قليل. و في تلك الليلة قتل خمسة أمراء من بنى علم الدين و أمسك الشيخ محمود أبو هرموش و قطع الأمير لسانه و أباهم يديه، فقويت شوكة القيسيين و عظم أمرهم، و نزع من كان يمينا و خربت ديارهم، و زال ذكر اليمينيين من الشوف و حكم الأمير حيدر و أعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به، و كثرت المشايخ في أيامه. و تعرف هذه الوقعة بوقعة عين داره التي قتل فيها جميع الأمراء من آل علم الدين بيد الأمير حيدر الشهابي فانقضت سلالتهم كما ضعفت شوكة اليمينيين.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٥

فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم:

و في سنة (١١٢٢) ركب نصح باشا على الكرك و عمل لغما و وضع فيه البارود و أعطاه النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها بالأمان و خرجوا عن القلعة فقتلهم و أسر الأولاد و سبى النساء. و في سنة (١١٢٣) باغت ناصيف باشا والى دمشق المتن و أسر منها أناسا و سبى النساء و الأولاد. و في سنة (١١٢٤) عهد والى صيدا بولاية بلاد بشاره إلى الأمير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة.

و في سنة (١١٢٩) تولى دمشق عبد الله باشا الكمر كجي و كان عادلا- حكيما لكنه لم تطل مدته أكثر من سنة. و في سنة (١١٣١) كانت وقعة القرية بين الأمير حيدر الشهابي و المشايخ المتاوله و كانت النصره للأمير حيدر. و في سنة (١١٣٣) كانت الفتنة بين مشايخ المتاوله و الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد و جرى بينهم قتال شديد فانهمز عسكر الصفديين و قتل منهم خلق كثير، ثم خرج عثمان باشا

والى دمشق بالعسكر على صفد و قتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل و قتل البشناق أولاد مشايخ صفد. و فى سنة (١١٣٦) كان الظلم شديدا و كثرت العوانية حتى صارت أرض الشام مشغولة بالظلم فى شروها و كثر الظلم و استلاب الأموال. و ثارت (١١٣٧) فتنه بين القبوقول و الانكشارية و ظلت دمشق ثلاثة أيام مقلعة و قتلت فيها جماعات من القول و الرعية و كذلك الحال فى حلب. و فى تاريخ العلويين أن الحرب دارت بين الكلبية و بنى على من عشائر النصيرية مدة سبع سنين بدأت سنة (١١٤٠) ثم اتحدت العشائر الكلبية «النراصرة و القراحلة و الياشوطية و الجهينية و بيت محمد» و هجمت على عشيرة بنى على بالاتفاق و حرقوا قراها و حاصروا قلعة عين الشقاق لما تجمع بنو على فيها بعد أن هدموا جميع قراها و لم يبق ملجأ لبنى على سوى الحصار، و داموا على الدفاع فى القلعة. ثم دكتها الدولة العثمانية. قال صاحب تاريخ العلويين الذى أورد هذا: لم يكن العلويون يحاربون الأتراك فقط، بل كانوا يحارب بعضهم بعضا أيضا لأن المنطقة ضيقة و النفوس كثيرة، و فى عهد الأتراك أصبح الأخ يقتل أخاه لياكل ما عنده. و عرف هذا الدور بظهور آل العظم حكاما فى الشام، و اختلف الباحثون فى أصلهم فمن قائل إنهم أتراك من قونية، و من زاعم أنهم عرب من المعرة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٤

معرة النعمان. تولى دمشق (١١٣٧) إسماعيل باشا العظم و كان من قبل واليا على طرابلس و هو أول من تولى إيالة دمشق من بنى العظم، و قال بعض المؤرخين: إن ناصيف باشا كان واليا على دمشق و قتل فى الرملة سنة (١١٣٠) و على هذا فيكون هو أول من تولى دمشق من هذه الأسرة. ذكر ابن ميرو أن والد إسماعيل بن إبراهيم العظم كان جنديا سكن معرة النعمان و كان لأهلها مع التركمان التى ترد إلى جبلها شتاء وقائع جرح فى بعضها والد المترجم فتوفى و أعقب المترجم إسماعيل و سليمان و موسى و محمدا و كلهم أعقب خلا- محمدا و كانت ولادة إسماعيل قبل السبعين و ألف بالمعرة و بها نشأ، و تقلبت به الأحوال إلى أن صار حاكما ببلده ثم بحماه، و أنعمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملى و مالكانة حماة و حمص و المعرة و على أخيه سليمان، و منصب طرابلس عليه و سر عسكر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة (١١٣٨) تولى الشام و إمرة الحاج بالوزارة و حج ست سنين و حارب فى السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين و امتحن سنة (١١٤٣) و حبس بقلعة دمشق و استأصلوا أمواله مع أموال ذويه ثم أفرج عنه و أعقب السيد إبراهيم و أسعد و سعد الدين و مصطفى و معظمهم تولوا الوزارة.

و فى سنة (١١٤٣) توفى الأمير حيدر الشهابى حاكم لبنان بعد أن حكم ستا و عشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابى بالعدل و الحلم و الكرم و حسن التدبير و خلفه ابنه الأمير ملحهم، و الأمير حيدر هو الذى أحيا ذكر القيسية و ألقى ابنه الفتنة بين المشايخ فاختلفوا، و كانت الدولة لا تقدر عليه على بغض أسعد باشا العظم والى صيدا له و سعيه به.

عهد محمود الأول:

تنازل أحمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣) بعد أن حكم ثمانى و عشرين سنة و تسلطن محمود الأول و هو الرابع و العشرون من آل عثمان و التاسع عشر منهم فى القسطنطينية، و كان السلطان أحمد الثالث غريبا فى أطواره يحب الطيور و الأزهار، و يقضى أوقاته فى تسلية سراريه بالأفراح

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٧

و الزين، و مع هذا يسجل له الفضل و رجاحة العقل فى حسن اختياره صدورا عظاما شرفوا بأعمالهم عهده فلم يكن كبعض أجداده لا يعمل و لا يترك أحدا يعمل.

و فى هذه السنة وقع بين القبوقول و الانكشارية الحرب و القتال و أغلقت دمشق أربعة أيام و قتل من الفريقين شردمة. وقعت بين رجال والى طرابلس عثمان باشا و الانكشارية فتنة و ضد الانكشارية قتل بها من الفريقين ناس، ثم تصالح الجندان على أن يلزم

الانكشارية حماية الوالى و يعزل قائم مقامه و بعض الضباط و يخرج عسكره من المدينة. و فى سنة (١١٤٤) استأجر الأمير ملحم الشهابى بلاد بشاره و قبض على الشيخ نصار بن على الصغير و باغت إخوته فهربوا و نهبت الدرروز ذاك الإقليم و عاد أولاد الشيخ نصار و استأجروا المقاطعات من الأمير ملحم.

قال الشهابى فى حوادث سنة (١١٤٧) انتقل أسعد باشا العظم من صيدا إلى إيالة دمشق و كان واليا عليهما منذ سنة (١١٤٣) و تولى إيالة صيدا أخوه سعد الدين باشا والى طرابلس و تولى طرابلس سليمان باشا العظم و قويت شوكة بنى العظم فى بلاد العرب و عظمت دولتهم اه. عظمت دولتهم لأنهم أخلصوا فى الغالب للدولة كل الإخلاص حتى أمنتهم و وسدت إليهم الأحكام فى الشام و تركتهم يعملون ما يشاءون، و جاء دور و هم حكامها من أقصاها إلى أقصاها، و قل جدا فى هذا القرن من تولى ولاية حلب أو دمشق أو طرابلس أو صيدا أو اللاذقية أو غزة بضع سنين. و من بنى العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين، فإن إسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧—١١٤٣)، و سليمان باشا العظم تولاها خمس سنين للمرة الأولى (١١٤٦—١١٥١) و ثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤—١١٥٦) و أسعد باشا العظم تولاها أربع عشرة سنة (١١٥٦—١١٧٠) و كان تولى صيدا أربع سنين و محمد باشا تولى دمشق مرتين اثنتى عشرة سنة، و كان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التى تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بنى معن و بنى شهاب و بنى الحرفوش و بنى سيفا و بنى طرايه و منهم الصالح و الطالح و هل هم إلا نموذج من عصرهم، و لا شك أنهم جمعوا أموالا كثيرة لأن حكوماتهم طالت أيامها و الولاية

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٨

بالالتزام، فكان الوالى منهم كسائر الولاة يرضى الاستانة بمبلغ و يبقى له بعد كل إسراف مبلغ كبير، و هو المتحكم فى الأفراد و الجماعات. و قد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفى سنة (١١٥٦) و عذب المفوض بذلك أسرته على أشبع وجهه، و كذلك ضبطت أموال ابن أخيه أسعد باشا و أخرجت الدفائن من قصره و كان بعضها مخبوءا فى الأرض و الجدران و الأحواض و بيوت الخلاء و فعلت مثل ذلك بأتباعه و رجاله. قال الشهابى: إن أسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة فى دمشق و جمع مالا لا يحصى و سار بالحج مرات فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى و أمرت أن لا يشهر عليه سلاح و لا يقتل، ثم أرسلت إليه فقتلته فى الحمام طمعا بكثره أمواله و ضبطت ماله و أملاكه و قال: إنه كان جليلا عاقلا حسن التدبير مولعا بالخيل الجياد حتى قيل: إنه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لأجل ركوبه.

و ذكر الدويهي أن السلطان محمودا أنعم على عبد الرحمن أفندى (١١٦٥) محصل حلب بالولاية فوجه فى الحال متسلمه حسن اغا إلى طرابلس فأمن الخواطر و نادى بالأمان و صار الفلاح ينزل إلى طرابلس آمنا على نفسه و أرخص الأسعار و مهد الأمور التى كانت متبلبة من ظلم بيت العظم، و كذلك فعلوا بإسماعيل باشا فى دمشق و بأخيه سليمان باشا والى صيدا و بياسين بك بن إبراهيم باشا والى اللاذقية من قبل أبيه و أسعد بك بن إسماعيل باشا والى حماه و حسن بك أخى إسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعا سجنوهم و أخذوا أموالهم للسلطنة و ولوا على صيدا أحمد باشا بن عثمان باشا أبو طوق اه.

و قال فولنيه الرحالة الفرنسى: إن بنى العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة.

و ترجم ابن ميرو أسعد باشا العظم فقال: إنه لما وسدت إليه الدولة مالكانه حماه سار فيها سيرة حسنة و عمر بها خانات و حمامات و بساتين و دورا ليس لذلك كله فى البلاد الشامية نظير، ثم ولى صيدا فاستعفى منها و طلب حماه منصبا بعد أن كانت مالكانه له و لعمه، فرفعت منه المالكانه و وجهت له منصبا و دخلها سنة أربع و خمسين و مائة و ألف، و بذل الأموال إلى أن جعلها مالكانه له بعناية الوزير الكبير بكر باشا. و فى سنة ست و خمسين تولى دمشق و إمرة الحاج

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٧٩

لموت عمه سليمان بات الوزير و حج بالحجيج أربع عشرة حجة و عزل عن دمشق و إمرة الحاج بالوزير حسين باشا مكى و ولوه حلب

ثم عزل عنها ونفى إلى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالحجيج وقتل بمدينة أنقره. وقال في ترجمته أسعد باشا أيضا: إنه كان محمودا في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وطمأنينة، وكان صبورا صبر على الأشقياء حتى أخذهم الله على يده، وأذاه عرب حرب فصر على أذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير عبد الله باشا جته جي. وقال جودت في وقائع سنة (١١٩٧): وفيها توفي والي الشام وأمير الحاج محمد باشا العظم بعد أن أقام في وظيفته اثنتي عشرة سنة ولما كان وزيرا مشهورا من أهل الثروة والغنى عين مباشرون مخصوصون من الاستانة لضبط أمتعته وأمواله. وقد أثنى المرادى على محمد باشا العظم هذا فقال: إن له من المآثر في كل ولاية وليها ولا سيما في دمشق ما يحسن ذكره وأنه رفع المظالم وأنشأ المعالم قال: وبالجملة فهو من أحسن من أدركناه من ولاية دمشق وأكملهم رأيا وتديرا.

والغالب أن الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بنى العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحدثهم أنفسهم بنزع أيديهم من يدها ويدفعون إليها الخراج في أوقاته ولذلك كانت ترعاهم على الجملة في حياتهم وتركهم يستمتعون بنعمها، فإذا هلكوا جاءت ووضع يدها على عروضهم وأموالهم كما هي عادتها، ولعلها استبطأت أسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخفته. وبالجملة فإن أحوال ذاك العصر يصعب الآن الحكم عليها لقله من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح.

فتن و مشاغب:

رجع إلى سلسلة الحوادث. فقد توفي سنة (١٠٤٨) الأمير محمد فروخ النابلسي وكان من شجعان الدنيا، تولى حكومة القدس و نابلس فأرهب العربان وكبر صيته وبقي في إمارة الحج ثماني عشرة سنة، وألقيت رهبته في قلوب العربان وكانوا إذا أرادوا أن يخوفوا أحدا منهم يقولون ها ابن فروخ أقبل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٠

فتلوى قوائمه. وفي سنة (١١٥٢) كبس وزير صيدا مقاطعة الشقيف وقتل الشيخ أحمد فارس وأولاده و رفعت القبوقول والأورط من الشام (١١٥٢) لخبث سيرتهم وهاجم (١١٥٦) الأمير ملحم الشهابي إقليم المتاوله و وصل إلى قرية نصار فالتقى بعساكرهم وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم ألفا و ستمائة قتيل وقبض منهم أربعة مشايخ ونهب أرضهم وأحرقها، و باغت والي صيدا والي طرابلس والي دمشق إمارة الأمير ملحم الشهابي في لبنان لتأخره عن أداء المال السلطاني وأحرقوا إقليم التفاح و مرج بشرة ثم وقع الصلح وأدى ما عليه. و جهز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي دمشق عسكريا على الظاهر عمر الزيداني بعد أن قبض على أخيه مصطفى و شنقه بدمشق، فلما وصل الوزير إلى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض أتباعه فأدخل على سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به إلى دمشق في أكثر الروايات، و سليمان باشا هو ابن إبراهيم ولي طرابلس و صار جرداويا لأخيه شقيقه الوزير إسماعيل ثم ولي صيدا، و بها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بإمارة الحج و حج خمسا بالحج الشامي ثم ولي مصر و عاد إلى دمشق فوليا سنتين.

و في سنة (١١٥٧) كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاوله و أهالي وادي التيم و معهم دروز جبل الشوف و كانت الكسرة على الدروز و عسكري وادي التيم و قتل منهم نحو ثلثمائة قتيل و حرقت المتاوله جميع قرى مرج عيون.

و في سنة (١١٥٨) ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية، و أمر أسعد باشا العظم حاكم دمشق أن يقصدوا سوق ساروجا و أطلقت المدافع فخرت الدور و نهبت دار رئيس الفتنة و خربت، و جرت القافية بقيه الدور و لم يبق من سوق ساروجا إلا القليل و أعمل أسعد باشا السيف بكل عاص و قتل عسكريه أناسا، و سلبوا الدور و أحرقوا بعضها، ثم صلب كثيرين و بقيت المشنقة أياما لا تخلو من مصلوب اتهم أنه كان يماليء أرباب الدعارة على رغائبهم، و تركت جثثهم أياما أمام السراي تأكلها الكلاب و سلخت رؤوسهم و جعلت أكواما، و صارت المدافع تطلق بكرة و عشية مدة شهرين، و كثر العزف بالأبواق و إطلاق السهام النارية في الفضاء.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨١

و في سنة (١١٦٠) غزا أسعد باشا العظم البقاع فركب الأمير ملحم الشهابي بعسكره إلى المغيثة و نزل إليه عند بر الياس فانكسر الباشا و وصل الأمير ملحم إلى سهل الجديدة ثم رجع و أحرق جميع قرى البقاع و رجع إلى إمارته منصورا وهابته الدولة. و السبب في هذه الفتنة تأخر الأمير ملحم في دفع الأموال الأميرية علة العلل و أصل معظم الفتن، و غضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها، فحضر رئيسهم أحمد آغا القلطي و معه عدة أعوات إلى جبل الشوف، و اجتمعوا عند المشايخ بنى يزيك و كانوا ينزلون و ينهبون من نواحي دمشق و يقطعون الطريق، و أحرق الأمير ملحم ديار بنى تلحوق في الغرب و ديار بنى عبد الملك في الجرد.

و حاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة أشهر فأدركه ركب الحج فارتفع عنها، و لما خرج الباشا إلى الحج أرسل الأمير ملحم عسكرا إلى بعلبك فطرده الأمير حيدرا الحرفوش و ولى مكانه الأمير حسينا، و خربت الدروز أرجاء بعلبك و قطعت أشجارها. و فيها حضر خط شريف بقتل أعوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالى على بعضهم و قتل ابن الفلاقسى. و ذكر ابن بدير أنه بلغ متسلم دمشق سنة (١١٦٢) أن بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاءوا دمشق ينهبون و يحرقون فأرسل إلى الموالى و المفتى و القاضى يأمرهم بأن يأخذوا معهم الأعلام و ينادوا: هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله و السلطان ليخرج إلى قتالهم. فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة و كان الدروز يحتجون بأن قدومهم كان لإخراج إخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا فى حارة الميدان و القبيبات كل من لا يخرج للقتال معنا نهب ماله و داره، فانضم جماعة من الحارات و نزلوا إلى السويقة و وقع القتال بينهم و بين القبوقول و الدالاتية، و أغلقت البلد حوانيتها و حصرت الحارات و نبه المتسلم على أهلها أن لا يخرجوا إلى الأزقة ليحرسوا دورهم، ثم جرت مقتلة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم و القبوقول. و فتح عسكر الباشا الدكاكين فى باب الجابية و نهبوا ما فيها من طعام و هدموا مصاطبها و صيروها متاريس و من الغد باكروا القتال

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٢

و زحفوا إلى السويقة و معهم العملة و البناؤون فحرقوا الدور و القصور و أطلقوا المدافع على الأشقياء فولوا الأدبار، فأمر المتسلم عسكره أن يقعدوا فى نهب الدور و الدكاكين. و روى أنه أخرج فتوى و حجة و أمراً قاضياً بأن ينهب الجند من حد السويقة و يقتلوا و يهدموا و لا يعفوا عن إنسان فسلبوا الأموال و سبوا الحرير. و لما هرب الدروز نودى فى البلد بالأمان و أن تفتح الأسواق و يكف عن النهب قال ابن بدير: و قد سرت مع من سار فرأيت فضائح الميدان، و القتلى مجدلة، و الأبواب محطمة، و الدكاكين مقفرة، ثم اضطرب أهل القبيبات و الميدان و السويقة و باب المصلى و أخذوا ينقلون أثاثهم إلى داخل المدينة مثل باب السريجة و القنوت و غيرهما من الحارات. و خاف الأكابر و الحكام و العامة فجعلوا يعزلون الدكاكين و يخبأون ما حوته فى البيوت و بلغ عدد الدور المنهوبة فى هذه الواقعة كما قيل ألفاً و تسعمائة دار و أما الحوانيت فكثيرة جدا.

هذا و قد أخذ القبوقول يمسكون الناس و يأتون بهم إلى الحكام و يقولون:

هذا كان يقاتل مع الأشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة و لا إثبات، و لا قصد للقبوقول إلا أخذ ثارات لهم مضت مع الإنشكارية، إلى آخر ما أصاب دمشق فى ذاك العام من حرق و نهب و غلاء و فضائح و فظائع. و كان من العادة أن تغلق أرتجة الفيحاء و حوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول و الإنكشارية و بينهم و بين الدالاتية و الأشراف و الأكراد و الدروز، حتى ينادى مناد من قبل الحاكم يأمر بفتح الدكاكين و يطمئن الناس.

و جاء دمشق (١١٦١) أحد موالى أسعد باشا العظم و كان نقل بعد ولايته دمشق إلى حلب، فذكر الإنكشارية و العامة ظلمه أيام كان سيده حاكماً فى دمشق فقاموا قومه رجل واحد فالتجأ إلى القلعة و حماه القبوقول، و لما أريد على الخروج من دمشق أبى فأغلقت البلدة دكاكينها و محالها و تجمع الإنكشارية و تبعهم الناس و تعصب العناتبة و الأكراد و الدالاتية مع القبوقول و أهل حارة العمارة و

حدثت غارة في سوق الدرويشية وأطلقت النيران على الإنكشارية ثم قاموا على أهل حى العمارة فانهمز أهلها منها و أحرقوها حتى صارت بلقعا و راح أهلها إلى الجامع الأموى، و دامت الفتنة أياما حتى قر رأى الأكاير و الأمراء على إخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج و لم تطفأ جذوة الفتنة، لأن

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٣

الشايرين ما زالوا يتلمظون بطعم الغنائم و يزدردون حلوى الغارة، و جاء الخبر بأن الجالين عن دمشق نهبوا الضياع فى طريقهم و قتلوا الأنفس و هتكوا الأعراض و صادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم و قتلوا منهم فريقا. و أخذ القبوقول يطلقون النار على الرعية و ظلت الفتنة قائمة فى البلد بين القبوقول و الإنكشارية و الأشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين و بضعة أولاد و شبت الحرب فى شوارع المدينة أياما ثم عتا الإنكشارية على حاكم دمشق فصاح فى جنده و ركب إلى الميدان فهربوا أمامه فأعمل هو و جنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا و من لم يمت بالسيف قاده بالسلاسل و الأغلال، و عم نهب العسكر الكبير و الصغير و الناس بين قتل و أسير، و نهبت الدور و الدكاكين و انتكبت نكبة عظيمة فعريت النساء و خطفت الجوارى و العذارى، و تمنى العقلاء الموت، ثم نهض جماعة الحاكم إلى النهب فمنعهم و أمر بجمع ما نهبوه فما وصل إلا القليل أودعه بعض الجوامع و أمر مناديا ينادى لتأخذ الأسباب أصحابها، فأخذ بعضها و ذهب الأكثر، و أما أتباع الوالى فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه و يقطعون رأسه أو يحبسونه، و تناول أذاهم من فى الدور و تعست الحال.

و وصف ابن النجار هذه الفتنة فقال: إن السلطان أرسل واليا آخر غير الذى كان و جرت هذه الواقعة فى عهده، فقتل الأشقياء من المسلمين و الدروز و النصارى و خربوا و حرقوا الدور و نهبوا الأماكن قال: و تعطلت الأسواق و المعاملات بسببهم فى دمشق قريبا من سنة لا تقام جمعة و لا يسمع آذان و لا يفتح جامع و لا يتمكن أحد من الخروج من منزله لحاجة و لا لغيرها، لفسادهم و إفسادهم و تعديهم على الخاص و العام. و إنما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود وال بدمشق فإن واليها كان خرج منها إلى الحج أميرا فجاء الوالى الثانى و قتل منهم من قدر عليه و فر منهم من فر و سلب دورهم و متاعهم و أثاثهم، و لحق دمشق و أهلها من ذلك الوالى و حاشيته و جنده كل يؤس، و ذلك بسبب قيامهم على أولئك الأشقياء، و انتهت غالب المنازل فى دمشق و قتل خلق كثير من الأبرياء، نزل هذا الجند الكثير من دور الناس، و أخرجوا أهلها منها بالعنف و ظهر من أتباع هذا الوالى ما أنسى أهل دمشق ما كانوا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٤

فيه من الضنك و الشدة قبل قدوم هذا الجند إليهم و قال: إن هذه الفتن وقعت سنة (١١٧٠) و أرسل عبد الله باشا الشجى واليا ليرفع الحيف عن الدمشقيين و يعيد الأمن إلى طريق الحج، و اشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول و الإنكشارية ثم فر الإنكشارية طالبين البرارى و القفار فتبعهم نفر من الجند و قتلوا منهم عددا، ثم إن الجند أخذ فى قتل من يراه كائنا من كان و شرعوا فى النهب و السلب فانتهبوا معظم المنازل و الحوانيت من الحلقة إلى باب الجابية، و الجند يأتون بالرؤوس إلى الوزير، فقتل من الرعايا على هذه الحال عدد كثير و انتهب المال و المتاع، و ظلم رئيسهم و حواشيه و اختطف النساء و الغلمان جهارا من غير مدافع، و الجند يقولون إن جميع الدمشقيين كفره و إنهم قوم يزيد. قال الشهابى فى دخول والى دمشق الجديد إلى المدينة: إنه كان مع الشجى ثلاثة عشر ألف رجل فاجتمعت أهالى دمشق إلى الميدان ليمنعوه من الدخول فدهمهم ليلا و قتل منهم مقتلة عظيمة.

و فى سنة (١١٦٣) حصل بين سعد الدين باشا العظم و بين أهل حلب و حشة فرحل عنها جرداويا (و كان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لأنه لم يتول هذه الإيالة فى الدولة العثمانية أحد استقلالاً لقله دخلها و وفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويا لأخيه أسعد باشا الوزير فأقام جرداويا فيها و فى صيدا و حلب اثنتى عشرة سنة) روى الشهابى فى حوادث سنة (١١٧١) أنه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق و القبوقول و كانت دروز الجبل تعين الإنكشارية فى القتال فانتصروا و حاصرت القبوقول فى القلعة و جرى بينهم أربع وقائع، و الإنكشارية تنتصر بإمداد الدروز، ثم وقعت الفتنة بين عسكر الباشا و عسكر الإنكشارية فانكسر عسكر الوزير و خرج

الإنكشارية من دمشق نحو ألف فارس و وقع القتال بين أهل البلد و عسكر الوزير فقتل من أهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالأمان.

و عدد ابن بدير كثيرا من مظالم الدفتردار فتحي أفندي و مما قال: إن الأهلين لما ضاقوا به ذرعا استعدوا الباب العالي فأعداهم فأحضر إلى العاصمة ليمثل بين يدي السلطان، فأخذ يمنح المنايح لأرباب المظاهر حتى أدخلوا على السلطان شخصا آخر بدلا منه و أوهموه أنه هو المشتكى منه فأمر

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٥

بقتله فقتل. أما فتحي فسفره أعوانه من النظار تحت جناح الدجى فأب إلى دمشق يفعل الأفاعيل المنكرة، حتى إذا ضاق الخناق ورد الأمر بقطع رأسه فقطع و جرّ في شوارع المدينة و ترك للكلاب تهشبه و مثل ببعض أعوانه و صودرت أمواله.

عهد عثمان الثالث و مصطفى الثالث و بعض الأحداث في أيامهما:

و بينا كانت دمشق تموج بالفتن و تستل فيها الأرواح بسوء إدارة الولاية و تلاعب رؤساء الجند كان لبنان و هو ربيب القوة و المقاومة لا يخلو على ذاك العهد من فتن تدك العمران، و تفنى الإنسان و الحيوان، فقد ذكر المؤرخون أن المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على إقليم جزين فعظم ذلك على الأمير ملحم الشهابي و ركب لحرب جباع الحلاوة فهربت المتأولة من وجهه و أحرقت أكثر ضياعهم، و كان قد أصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع و قتل من المتأولة نحو ثلاثمائة نفس و حرق حارة جباع و قطع الأشجار، و أحرقت قليمي الشقيف و بشاره، ثم حدث بين جماعة الأمير ملحم الشهابي و والي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع على المسافرين في طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقيين، ثم وقع الصلح بين أمير لبنان و والي دمشق على أن يؤدي الأول للثاني نفقة الحملة. و في سنة (١١٦٥) وقعت فتنة بين المشايخ بنى أبي نكد فغضب الأمير ملحم الشهابي عليهم و أرسل فنفاهم من البلاد فنزحوا إلى وادي التيم و هدم منازلهم في دير القمر ثم رضى عنهم. و كانت للسيد أحمد باشا الذي كان واليا في حلب سنة (١١٦٥) الحظوة عند رجال الاستانة قال أبو الفاروق:

فعينوه واليا على قونية فسبقه إليها زوربا كورد محمد، و أثار أفكار أهلها عليه لما عرف به من مظالم، فحاربوه و هلك أناس في هذا السبيل، ثم عينته الدولة واليا على حلب فسبقه إليها كورد محمد أيضا و مثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر. و دامت الحرب فيها مدة و أحرقت البيوت و خربت البساتين و قطعت المياه عن البلدة.

و في سنة (١١٦٨) توفي محمود الأول بعد سلطنته خمس و عشرين سنة و تولى السلطنة السلطان عثمان الثالث و هو الخامس و العشرون من آل عثمان و لم يعمل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٦

عملا يذكر اللهم إلا ما كان من تبديل وزرائه و الإفراط في هذا التبديل، و كان يميل إلى الطرب و الصفا و يعمر الأبنية في العاصمة و أسس بعض دور الكتب و في خلال ذلك تولى دمشق و إمارة الحاج حسين باشا مكى و لم يكن شرها في جمع المال و يميل إلى العدل و حسن الرياسة غير أنه كما قال المرادى: كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء، فبسبب ذلك حصل من الجند الوطني و القبوقول (الحرس) و غيرهما من طوائف الأكراد و العسكر فتن و حروب و حصل للأعيان و الرؤساء الضيق العظيم و قامت عليهم الناس.

و في سنة (١١٧٢) هلك السلطان عثمان بعد أن ملك ثلاث سنين و ثمانية أشهر و خلفه مصطفى الثالث فافتتح العهد بالإعلان بتبديل السياسة و لكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام و سيادة الاشمزاز على الناس، و وضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن و كان رجب ذكيا و مخلصا. و في سنة (١١٧٤) كان واليا على دمشق عثمان باشا الكرجي و كان يلقب

بالصادق، و سبب هذا اللقب أنه كان من بعض مماليك أسعد باشا العظم و هذا يحبه لنباهته، و لما قتل أسعد باشا و ضببت الدولة داره و أمواله طلبوا عثمان هذا فأخبرهم بخزائن مولاه، ثم وجدت قائمة بين تلك الأموال فكانت مطابقة لكلامه فأنعمت عليه الدولة و لقبته بالصادق، و تولى ولاية دمشق إحدى عشرة سنة (١١٧٤ - ١١٨٥) و مما وقع في أيامه ركوبه لحرب محمد الجرّار إلى قلعة صانور، أرسل إلى الأمير يوسف فبعث بعسكره و التقى به عثمان باشا فعظم أمره عنده و أكرمه، و أصلح الأمير إسماعيل الشهابي حاكم حاصبيا قلعة بانياس و بنى ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن و أقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة و جيزة ثم سلمه القلعة و نهب عثمان باشا كل ما كان فيها و أمر بهدمها.

سيرة ظاهر العمر الزيداني و سياسته:

استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود وال مخلص لها في دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق، فتركته و شأنه يعمل باسمها و يقاتل أعداءها، فطالت ولايته على حين تقلبت حلب في مدة حكمه على دمشق إحدى عشرة سنة في أيدي

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٧

عشرة ولاء. و كانت الشام تتمخض في خلال ذلك بظهور رجلين في العقدين الأخيرين من هذا القرن كما تمخضت أواخر النصف الأول منه بظهور آل العظم، و نعني بهذين الرجلين في العقدين الأخيرين من هذا القرن كما تمخضت أواخر النصف

الأول منه بظهور آل العظم، و نعني بهذين الرجلين الشيخ ظاهر العمر الزيداني و أحمد باشا الجزائر. و قد اهتمت لعظم شوكتها الأمة و الدولة، جاء الثاني على أثر الأول فبه ظمنا و عدوانا. و لم يكن قيام أمر الرجل في ذاك العهد يتوقف على نباهة فيه و علم و سياسة، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطباع من يقوم فيهم، و تطف باستماله قلوب أفراد يعول عليهم، و رأس مال قليل يؤديه ثمن إقطاع أو نفقة الظهور، و مهارة في البطشة الكبرى الأولى و دهاء و حيلة، و عندها يزيد كل يوم قوة، و لا تلبث الدولة أن ترعاه، و الأهلون أن يتفياوا ظله و حماه.

في أواسط القرن الحادي عشر جاء إلى جهات فلسطين الشماليه من الحجاز رجل يدعى زيدان و له ولد اسمه عمر و لعمر ولدان اسمهما ظاهر و سعد.

ظعنوا عن ديارهم لخصومة وقعت بينهم و بين عدو أقوى منهم مراسا، فجاءوا و ضربوا خيمتهم في الأطراف الشماليه من سهل البطوف في أرض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس. و لما كانت قرية عرابه أقرب القرى إليهم جاء و جهاء القرية و زاروهم و حيوهم و سألوهم أن يأتوا إلى قريتهم يضربون خيامهم في أرضها لأنهم كانوا على أربعة أميال منها. و كان في قرية سلامة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا الاسم شيخ درزي قوى الجانب برجاله الأشداء باسط أجنحة نفوذه على ما جاوره. مر بعرابه ذات يوم و وقع نظره على فتاة أعجبه حسننها و طمع فيها لنفسه. و نزل بيت أحد و جهاء القرية و دعا إليه الزعماء و طلب منهم الفتاة، فشق على سكان عرابه ذلك خصوصا و هو درزي و هم سنة. و ارتبك أهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم: الخطب سهل على أن تعاهدوني أن تعملوا ما أسألكم إياه و لا تبوحوا به فقال: أجيوا الدرزي إلى ما طلب و عينوا له وقتا يوافيكم فيه لأخذ العروس، و إذا جاء مع جماعته رحبوا به فإذا استقر بهم المقام خذوا أسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون و يرقصون إلى حين الرقاد، و كل واحد منكم يأخذ واحدا إلى داره ليؤويه و لما رقد الجميع هب زيدان و أفنى جماعة الدروز، ثم أغار هو و جماعته على سلامة مع سكان

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٨

عرابه فبطشوا بمن بقى فيها و خربوها فعظم قدر زيدان و انضم إليه أناس ممن يحبون الغزو و الشقاوة، و ألف منهم جيشا يغزو بهم، فينزل بأرباب العمل الويل و الخراب. ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة و كان منهم حاكما طبرية و الناصرة، فأضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل أهل عرابه نمرين و غيرها. و رزق ظاهر ستة أولاد ذكور و كفله سكان عرابه لدى والي صيدا فالتزم الجباية، و كان

بعض السنين يتلکأ عن أداء ما تعهد به و أحيانا يؤدي للدولة حقها، حتى نمت ثروته و أقام في عكا فجعل أخاه سعدا في دير حنا، و أولاده على في صفد، و عثمان في شفا عمرو، و سعيد في الناصرة و جهات مرج ابن عامر، و صليبي في طبرية، و أحمد في تبنه و جبل عجلون.

كانت جبال بيروت و أعمالها بيد حكامها الأمراء الشهابيين يدفعون الأموال لوالى صيدا المعين من قبل الدولة، و كانت صور و عملها بيد المتاوله يضمنون أموالها من والى صيدا، و أما جبال عكا و ما إليها فكانت بيد مشايخها و من جملتهم بيت أبى زيدان كانوا يضمنونها من والى صيدا أيضا، فما زال الأمر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتاوله و تزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه و أقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس، و عمروا قلعة طبرية و قلعة صفد و غيرهما و بدأوا يسطون على عكا و صور، و أظهروا الشقاوة و قطع الطرق فضجر منهم والى صيدا و اضطر أن يضمن مدينة عكا إلى الشيخ ظاهر العمر و يضمن صور للمشايخ المتاوله، و ابتدأ الشيخ ظاهر العمر يبنى في عكا سرايا عظيمة و سورا و أبراجا و يجمع إليه العسكر و انتشرت أعلامه في تلك البقعة و أطاعته مشايخ المتاوله و دخلت عرب البادية تحت حكمه «و كان عادلا في الرعية و سار معهم سيرة مرضية» و ساعدته المتاوله في أطراف لبنان فخافه السلطان و أوهمه أنه يجعله نائبه في القدس و يوليه عكا و الناصرة و طبرية و صفد و سائر البلدان التي في تلك الأطراف و أنه أمير العرب فصدق و كف عن المحاربة. و ذكر شوفيه و ايزامير: أن ظاهر العمر نشط الزراعة و قضى على غزو القبائل المجاورة له من العرب فوفق إلى توطيد الأمن في الأقاليم فكان المسيحيون و المسلمون يهرعون إلى نزول أرضه من جميع أطراف الشام لينعموا فيها بالراحة و التساهل الديني.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٨٩

و قال واصفوه: إنه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية و الدولة الروسية فضعفت الدولة في الأقطار الشامية، فزاد ظاهر العمر قوة و عدا على والى صيدا و طرده منها و تملكها و أرسل لها حاكما من عنده، و استمر يحارب الوزراء سبع سنين و لم يدفع مالا- للدولة، و له معهم وقائع انتصر فيها على عساكر الترك و عسكر الدروز و العربان. و في هذه الأثناء صادق دولة روسيا بمشورة و كيله الخاص إبراهيم الصباغ من أهل عكا، و كان هذا صاحب عقل و تمييز إلا أنه يحب المال كثيرا، كما حالف الأمير فخر الدين المعنى الثاني في القرن الماضي أمراء طسقانه.

و استمر الشيخ ظاهر حاكما على عكا نحو أربعين سنة إلى سنة (١١٨٩).

و السبب في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر و ولاة الأطراف أن عثمان باشا الصادق والى دمشق لما وليها سنة (١١٧٤) و كان شديد المكر كثير الدهاء، و لى أولاده الاثنين صيدا و طرابلس، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر و يطلب المال للسلطان، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا و خلت خزائنه فأخذ يلح على الأهالي في طلب المال، فضج الناس من ظلمه، و عصاه أهل الرملة و غزة و يافا و لم يطيعوه إلا بعد حروب كثيرة، فوقعت البغضاء في قلوب إقليم القدس و تمنوا حكم على بك صاحب مصر عليهم، و كان هذا قد قوى فأطاعته البلاد المصرية.

و حاول عثمان باشا سنة (١١٨٣) أن يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع أمراء جبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالى مصر على بك، و كان هذا عزم على رفع لواء العصيان على الدولة، و في قلبه فقد على عثمان باشا، فهش لاقتراح الشيخ ظاهر لأنه كان يريد امتلاك الأمصار من عريش مصر إلى بغداد، و كان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالبا منها أن تمده بالمراكب و الرجال و هو يملكهم المدن البحرية في الشام. و لما وصلت إليه رسالة الشيخ ظاهر جهز له ستة سناجق كبار و رأس عليهم إسماعيل بك و أصحابهم بعشرة آلاف من الغز و العربان و المغاربة و أمرهم أن يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر و ساروا إلى أراضي المزيريب في حوران، و كانوا نحو عشرين ألفا، لقتال عثمان باشا فعدل إسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد أولاد الظاهر و عشيرته، فشكا

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٠

الشيخ ظاهر إلى الأمير على بك ما لقي من إسماعيل بك فابتدأ الأمير على يجهز العساكر و الجنود على نية الخروج لتملك الشام. و في هذه السنة قبض الأمير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا إلى وزير طرابلس و أتوا بعسكر إلى قرية بزيرا و وقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس و حاصر بعضهم في برج في أسفل القرية ثم سلموا و ساروا إلى طرابلس، و فيها بلغ الباب العالي ما فعله على بك، فأمر والي دمشق أن يسير بخمسة و عشرين ألفا لمنع جنود عكا من معاضدة على بك فسار الوالي بالعساكر، فوافاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران و بحيرة طبرية و رده على أعقابها.

حملة أبي الذهب على الشام:

استكثر أمير مصر على بك (١١٨٤) من جمع طوائف العسكر و أمر بسفر تجريدة إلى الشام و أميرها إسماعيل بك و كان أرسل أحد رجاله فقتل سليطا شيخ عربان غزة هو و إخوته و أولاده، فذهبت تجريدة من البر و أخرى من البحر و وقعت بين جنده و حكام الشام و أولاد العظم حروب و مناوشات و في سنة (١١٨٥) أخرج على بك من مصر تجريدة عظيمة و أميرها محمد بك أبو الذهب في جند كثير من المغاربة و الترك و الهنود و اليمانية و المتاولة، و سافرت من طريق دمياط في البحر، فلما وصلوا إلى الديار الشامية حاصروا يافا و ضيقوا عليها حتى ملكوها، ثم توجهوا إلى باقي المدن و القرى و حاربهم النواب و الولاة فهزموا و قتلوا و فروا من وجه الجيش المصري، فاستولى على الممالك الشامية إلى حدود حلب. قال هذا الجبرتي، و قال غيره: إن محمد بك أبا الذهب لما وصل إلى الشام حضر إليه أولاد ظاهر العمر و مشايخ المتاولة و انضموا إلى عسكره فصار جيشا عظيما ينيف على الستين ألفا، فسار محمد بك أبو الذهب طالبا دمشق، و كان عثمان باشا قد رجع من الحج فجمع العساكر لقتاله، فما لبث عثمان باشا أن انكسر فخيم أبو الذهب حول المدينة قاصدا حصارها، و أرسل إلى أهلها كتابا يشير فيه إلى ما أتاه عثمان باشا من الظلم و إهانة الحجاج و الزوار و ظلم المسافرين و التجار، و أنه يريد أن يطهر هذه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩١

الأرض منه نصرة للدين و غيره على المسلمين، و يذكر ما فعله بعلماء غزة في العام السابق من دفنهم في الأرض أحياء، و أنه أخذ فتوى المذاهب الأربعة في قتاله، و صرف الأموال و العساكر ليردوا الظالم و يستردوا المظالم، فخرج العلماء و العوام من أهل دمشق كافة إلى محمد بك أبي الذهب و طلبوا منه الأمان فأمهم و أكرمهم، و دخل المدينة و جلس في دار الوزارة و نادى بالأمان، و كانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر بإطلاق المدافع عليها و طلب المحاصرون الأمان فتسلم القلعة. و تراجع عثمان باشا إلى حمص و جهز العساكر الكثيرة.

و ابتدأ إسماعيل بك يغير قلب محمد بك أبي الذهب على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور و خوفه عاقبه التمرد على السلطان فنهض بعساكره ليلا من دمشق و سار طالبا الديار المصرية، و شاع رحيله من الغد فتعجب الأهليون من ذلك و لم يعلموا السبب فيه، و رجع أولاد ظاهر العمر و المشايخ و المتاولة كل منهم إلى مكانه و قد تأسفوا على سعيهم.

و في رواية أن السبب في ترك العسكر المصري بزعامه محمد بك أبي الذهب حصار دمشق أن عثمان باشا و اليها لما أشرف على الهلاك بعث إلى قائد المماليك بصرة ثقيلة بالدنانير للرجوع عن محاربه فارتشى منه، و أمر عسكره بترك المحاصرة و تركوا حصار قلعة دمشق، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم، و أنهم قد فارقوه و تركوه وحده عجز عن فتح القلعة فرجع إلى دياره، فتخلص عثمان باشا و عاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج لمحاربة ظاهر العمر و دخل أراضي و حاصره في عكا و جد في الحصار حتى صعب الحال على الشيخ، و كاد عثمان باشا يفتح عكا، فما نجا الشيخ في هذه المرة إلا بمساعدة ولديه، فقد جمعا العرب و هجما على الترك ليلا فكسروهم و شردوهم فهرب منهم عثمان باشا، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره و حارب الدروز فغلبهم و تملك قراهم التابعة لعامل صيدا. و لما بلغ السلطان خبر فتوحه و هو مشتغل بحرب روسيا صعب الحال عليه، فأرسل السلطان إلى الشيخ يعرض عليه الصلح، و قد

عزل عثمان باشا و ولديه عن ولاية دمشق و صيدا و طرابلس، و أما الشيخ ظاهر فقد أضر في نفسه أن يدخل في طاعته الشام كله و هو يستند في ذلك على مساعدة على بك أمير مصر.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٢

و ذكر المرادى أنه كان مع محمد بك أبي الذهب تسعة ألوية و خمسة من أولاد الظاهر أمير بلدة عكا و مشايخ المتاوله و الصفديه و نحو ثمانين مدفعا و أربعون ألف مقاتل، و عينت الدولة لقتاله والى حلب و والى كليس و والى طرابلس فخرجوا مع وزير دمشق بالعساكر الشاميه و الأجناد، و صارت المعركة في سهل داريا و في أقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي و فرهاربا كل من والى كليس، والى حلب و عساكرهما، و قتل منهم شزيمة قليلة و ثبت كافل دمشق عثمان باشا و ولده محمد باشا و العساكر الدمشقيه و دام القتال ثلاثة أيام، و فر أعيان البلد إلى حماة و استولى الفزع على الناس، و غص الجامع الأموي بأهالي القرى فنزلوا بأهلهم و أمتعتهم و مواشيهم إليه. و لما عاد أبو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا و ولده محمد باشا و رئيس «اليرلية» يوسف أغا جبري من جبل الدروز و معه خمسة آلاف درزي و بعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبري، لأنه كان السبب في تقوية الدولة المصرية على العساكر الشاميه طمعا في قتل عثمان باشا و صيرورته مكانه كافلا بدمشق.

عاد أبو الذهب إلى مصر و رجع إلى دمشق عثمان باشا و حضر إليه الأمير يوسف الشهابي لأنه كان قد أرسل إليه نائبه يوسف أغا جبري يستنجده، و كان الأمير يوسف قد جمع عسكرا و تجهز للمسير فاتفق قيام أبي الذهب عند ذلك. و لما فرغ بال عثمان باشا و قتل نائبه يوسف أغا جبري رئيس الأنكشاريه و نهب أمواله أقام مكانه رجلا من أهل دمشق يقال له عثمان آغا شيب، ثم خرج بعسكر عظيم إلى أرض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر و المتاوله الذين كانوا السبب في تلك الفتنة فجمع ظاهر العمر رجاله و اجتمعت المتاوله و كبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت عساكره و قتل منهم خلق كثير.

و هزمهم الشيخ ظاهر و ما زال في إثرهم حتى وصلوا إلى بحيرة الحولة فألقى كثير منهم أنفسهم في البحيرة و ماتوا غرقا. و هرب عثمان باشا بنفر قليل فاستولى ظاهر العمر و المتاوله على أسبابه. و كتب الشيخ ظاهر إلى الأقاليم الشاميه و دخل الناس كافة في طاعته. فخرج على بك من مصر فالتقاء ظاهر العمر بالإكرام و دخل به إلى عكا فأرسل كتبا منه (١١٨٥) و من الشيخ ظاهر العمر إلى ملكة المسكوب يسألانها معاضدتها على الدولة العثمانية، و أن ترسل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٣

إليهما المراكب الحربية ليسلماها الديار المصرية. و أقام على بك ينتظر الجواب و قويت مشايخ المتاوله على الدولة، و تطاولت على أطراف جبل الشوف و مرج عيون و الحولة، فاتفق الأمير يوسف و خاله الأمير إسماعيل حاكم وادي التيم الأدنى و جمع الأمير يوسف نحو عشرين ألف جندي و سار قاصدا قرية جباع الحلاوي و أحرق إقليم التفاح و حرق جباعا و قطع أشجارها و هدم بنيانها.

و كان عسكر المتاوله المجتمع في النبطية نحو ثلاثة آلاف، و لما وصل الأمير يوسف الشهابي إلى كفر دمان أحرقها و توجه إلى النبطية فالتقى بشر ذمه من عسكر المتاوله نحو خمسمائة خيال و وقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة، و مات كثير من عسكره تعباً و عطشا و منهم من اختلت عقولهم، و فقد من عسكره في هذه الوقعة أكثر من ألف و خمسمائة قتيل، و ركب الشيخ كليب نكد من حاصبيا إلى دير القمر و غزا المتاوله في قرية علمان فهزمهم و منعهم من الحضور إلى إقليم الخرنوب و تلك الأطراف، و سارت عساكر الدولة مع عسكر الأمير يوسف لحصار مدينة صيدا و أنقادها من يد ظاهر العمر و كانوا في أكثر من عشرين ألفا معهم المدافع و الزنبركات فأقاموا على حصارها سبعة أيام. و جاءت المراكب الروسية إلى عكا التي استنجد بها ظاهر العمر فأرسلها إلى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة و جيش لبنان، و ساق ظاهر العمر عسكره و قدره بعشرة آلاف جندي و التقى بعسكر لبنان و جيش الدولة في سهل الغازية، و انتشب القتال فانكسر عسكر الدولة و قتل منه نحو خمسمائة نفس و انقلب راجعا إلى دمشق، و أما المراكب الروسية فسارت إلى بيروت و ملكت جانبها منها و أحرقت بعض الأبراج، فهربت الشهابية من المدينة و خرج

أهلها إلى البر، و دخلت الفرنج بيروت و نهبت كل ما وجدته فيها، ثم رحلت إلى عكا بعد أن أعطها حاكم لبنان (٧٥٠٠) قرش تعويضا، ثم عادوا و أطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ، حتى ظن الناس أن القيامة قامت و سمع صوت المدافع على ما قيل إلى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف، و أحاطوا بالمدينة بحرا مدة أربعة أشهر ليل نهار، فتضايق المتحاصرون فيها و نفذ ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٤

الخيال و الحمير و الكلاب، و هناك اضطر الجزار إلى التسليم و طلب الأمان عن يد ظاهر العمر و تسلم الأمير يوسف بيروت و غرم المسلمين ثلاثمائة ألف قرش و سلمها للسفن المسكوية. قال أحد المؤرخين: ضرب الروس بيروت و نهبوا في القرن الثامن عشر و كانت فيها بيوت أمراء الجبل و مشايخه، و كانوا بنوا فيها خانات و قيساريات و كان الفرنسيون يدعونها «باريز الموارنة الصغرى» و كثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا.

و وقعت في هذه السنة بين الشهابيين و الحماديين في العاقورة و القلمون واقعه. و في سنة ١١٨٦ أخذ سيد أحمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه إلى قب الياس و بنى ما كان هدم فيها من الزلازل و حصنها بالمدافع و الرجال.

و في هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بنى رعد حكام الضنية مع المشايخ بنى حمادة. و في سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا و والي دمشق في خمسة عشر ألف جندي على الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع. و جرت عدة وقائع بين العسكرين و انهزم و والي دمشق في الليل تاركا المدافع و الذخائر ثم انفصل الفريقان على غير نتيجة.

عهد عبد الحميد الأول و تنمة أخبار أبي الذهب:

هلك أحمد الثالث (١١٨٧) و خلفه ابنه عبد الحميد الأول و في أيامه استولى العجم على العراق و لم يبلغه الخبر إلا بعد خمس سنين، و هو السابع و العشرون من آل عثمان، مضت مدة على رحيل أبي الذهب من الشام و بقي ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا و كسرتة و والي دمشق غير مرة و اتهم أبي الذهب بالخيانة أمام و والي مصر ممتعا بولايته حتى سنة (١١٨٩)، و فيها سافر أبو الذهب إلى الديار الشامية- رواية الجبرتي- لمحاربة ظاهر العمر و استخلاص ما بيده من الأقاليم، و كانت الدولة أذنت له بالمسير إلى ظاهر العمر و خراب أرضه، فوصل إلى أرجاء غزة و ارتجت الديار لوروده، و لم يقف أحد في وجهه و تحصن أهل يافا بها و كذلك ظاهر العمر تحصن في عكا، فلما وصل إلى يافا (١١٨٨) حاصرها و ضيق على أهلها و امتنعوا هم أيضا عليه و حاربوه من داخل و حاربهم من خارج، و ألقى عليهم المدافع و المكاحل و القنابر عدة أيام و ليال،

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٥

فكانوا يصعدون إلى أعلى السور و يسبون المصريين و أميرهم سبا قبيحا، فلم يزالوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها و هجموا عليها من كل ناحية و ملكوها عنوة و نهبوا و قبضوا على أهلها و ربطوهم بالحبال و السلاسل و سبوا النساء و الصبيان و قتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم جمعوا الأسرى خارج البلد و أعملوا فيهم السيف و قتلوهم عن آخرهم و لم يميزوا بين المسلم و المسيحي و الإسرائيلي و العالم و الجاهل و العامى و السوقي و لا- بين الظالم و المظلوم. و بنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع و وجوها بارزة تنسف عليها الأتربة و الرياح و الزوابع، ثم ارتحل عنها طالبا عكا. و لما بلغ ظاهر العمر ما وقع بيافا اشتد خوفه و خرج من عكا هاربا فوصل إليها أبو الذهب و دخلها من غير مانع، و أذنت له باقى المدن و دخلت تحت طاعته و هدم قلعة دير مار يوحنا و دير مار الياس في صفد و قتل رهبانها.

و يقول جودت: إن أبا الذهب قام من مصر في ستين ألف جندي إلى يافا، و بعد حصارها خمسين يوما استولى عليها و أعمل السيف في أهلها كبيرهم و صغيرهم، و أن ظاهر العمر طلب مددا من الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى أن يمده فلم يسعه إلا الهرب من

عكا و التجأ إلى عرب غزة، و لما حصل أبو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى إن بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خوفا و هلعاً، أما الأمير يوسف حاكم لبنان فقدّم هدايا إلى أبي الذهب طيب بها قلبه، و جاء متسلم صيدا أحمد آغا الدكزلي ملتتمسا رضاه مظهرا طاعته، فأمنه على نفسه و مركزه، كما جاء مشايخ بنى متوال فأكرمهم أبو الذهب ثم استدعى أن يولى أمور مصر و الشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك و لكن كان قد قضى نجه و تفرقت جموعه و عادوا إلى مصر، فلم تنل الدولة مأربها من ظاهر العمر و لم تستفد الشام سوى أن قتل من أهلها جمهور كبير و لا سيما في حصار يافا. و جرى على أثر هذه الواقعة بين المتاوله و الغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتاوله كسرة هائلة و قتل منهم جماعة.

خاتمة ظاهر العمر و ولاية حلب:

قال جودت: لما سمع ظاهر العمر بوفاه أبي الذهب عاد إلى عكا و أخذ

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٦

يطيل أيدي الأذى أكثر من قبل، فأرسلت عليه الدولة سنة (١١٨٩) قائد البحر حسن باشا الجزائري، و كتب إلى والي دمشق إذ ذاك محمد باشا العظم و إلى والي صيدا و إلى الجزائر أحمد باشا الذي نصب محافظ السواحل الشامية و إلى متصرف القدس، فبعث قائد البحر أولا يطلب من الظاهر ما في ذمته للدولة من الأموال الأميرية (و هي خراج سبع سنين) فلم يوافق على ذلك مستشار ظاهر العمر إبراهيم الصباغ، و كان بيده جميع أموال ظاهر العمر، و قال له: إن الدولة لا يرضيها شيء و أراد سيده على المقاومة و لكن استعمال متسلم صيدا عسكر ظاهر العمر و قال لهم: لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا أن يقاتلوه. فلما علم ظاهر العمر بالأمر فز على وجهه لا يلوى على شيء هو و أولاده، فضبط قائد البحر أمواله و ذخائره و جىء بإبراهيم الصباغ فأخذت منه أموال ظاهر العمر ثم قتل. و يقول بعض المؤرخين: إن ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان و ثمانون ألف كيس من النقد قال جودت: سبحان الله! بمثل هذا المال و النوال و متسلم صيدا أحمد آغا الدكزلي يطلب عشر معشاره لإرضاء الدولة فتشع نفس إبراهيم الصباغ فيجلب البلاء على نفسه و يكون سببا لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان.

و ذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر أنه في أواخر سنة (١١٨٩) حضر قائد البحر حسن باشا الجزائري بالأسطول لأن السلطان عبد الحميد الأول لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة (١١٨٧) التفت لتنظيم الولايات فوجه قائد البحر إلى حيفا، و ذلك بعد موت أبي الذهب و رجوع العساكر المصرية بمدة قليلة، و أن مطالب القائد كانت أموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر أن ليس عنده مال و أنه مستعد لحرب قائد البحر لأن عنده بارودا و قذائف و ثلاثة مدافع، فأطلق قائد البحر أربعة أيام النار على عكا، و كان عدد قتاله ٧٧٥٠ قتله و لم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلا من المحلات، و قيل بل سقطت قتله على مخزن البارود فاحترق، فخرج الشيخ ظاهر بعياله فقتله أحد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقيق، و كان قاتله عبدا من عبيده منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به لخيانته سيده، و جزوا رأسه و حمل إلى الاستانة و نهب العسكر المدينة ساعتين. و كان قائد السفينة الفرنسية التي جاءت

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٧

لحماية تجار عكا الفرنسيين و حملتهم إلى وطنهم نهبه على التجار الفرنسيين بأن كل من عنده وديعة لإبراهيم الصباغ و لكل من يلوذ به ملزم بحسب أوامر السلطان أن يقدمها إلى قائد البحر العثماني فأعطوها و كانت ٣٦ ألف كيس ذهب عدا الجواهر و التحف، و ضبطت حواصله و كانت مشحونة بأصناف البضائع و ضبط مبلغ كبير ممن يلوذ بإبراهيم الصباغ الذي أخذ و قتل في الاستانة، و كذلك أحمد آغا الدكزلي الذي خان مولاه فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب، و سلم قائد البحر ولاية عكا إلى أحمد باشا الجزائر، سلمه عكا و صيدا و ما يليهما، فاحتال الجزائر على أولاد ظاهر العمر و أقام الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ و يقول مشاقه: إن حسن باشا طلب من ظاهر العمر خمسين ألف قرش تبلغ بأسعار ذاك الوقت خمسة و عشرين ألف ريال فرنسا فأشار أكثر معتمدى الشيخ بالدفع إلا

الطبيب التاجر إبراهيم الصباغ فإنه خالف رأى الجماعة، وقيل: إنه وصل من أموال ظاهر العمر و أولاده و إبراهيم عبود الصباغ إلى خزينة السلطان ثلاثمائة و ثمانون ألف كيس تساوى خمسة ملايين ليرة و خمسة و عشرين مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه.

و فى أوائل (١١٩٠) رجع حسن باشا الجزائرى بالأسطول إلى عكا و حضر محمد باشا العظم والى دمشق بعسكره و إبراهيم باشا والى القدس بعسكره و نصبوا معسكراتهم خارج مدينة عكا و طلع معهم أحمد باشا الجزائر بعساكره و ساروا جميعا مع أمير البحر قاصدين البطش بأولاد ظاهر العمر فأمّنوهم و حملهم قائد البحر إلى الاستانة و قتل فى الطريق أحدهم و اسمه أحمد لأنه طعن فيه جهارا و بقى أحد أولاد الظاهر و اسمه الشيخ على يتنقل فى البرارى، فبلغ الدولة خبره فأرسلت إلى محمد باشا العظم أن يرسل إليها رأس على الظاهر أو يقتل هو به، فأرسل والى دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته و أنكر جماعة أحمد باشا الجزائر الرأس المحمول، و قالوا: إنه ليس رأس الشيخ على الظاهر فأحضرت الحكومة ولديه الحسن و الحسين و كانا فى الاستانة و قالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقبل لهما:

ما يبكيكما؟ فأجابا هذا رأس والدنا على الظاهر و قد عرف من كبر عارضيه لأنه كان يدعى أبو سبعة شنبات، و بذلك انقضت دولة الظاهر و اندثر ذراريها

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٨

و قامت دولة الجزائر أحمد باشا الذى ضيق على أولاد الظاهر و ذراريه و بعث أحد جواسيسه إلى ابنه على و قتله فى مرج علما الخيط. و الغالب أن الشيخ ظاهر العمر الذى حكم صيدا و عكا و يافا و حيفا و الرملة و نابلس و إربد و صنفد و جميع المتأولة كانت تحت أمره، كان إلى السداجة و الفطرة، استسلم لوكيله إبراهيم الصباغ، و كان هذا مثلا سائرا فى الإمساك و حب المال، فحاول أن يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه أضعاف أضعافها من الذهب، دع سائر العروض و الجواهر، و اغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان فى ذلك ذهاب دولته و هلاكه و هلاكه و كيله، و لم يثمر جمع الأموال الثمرة المرجوة، و لو قدر له أن يعمل بما رسمه له السلطان سنة (١١٨٨) من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه و ذنوب غيره على شرط أن يؤدى الخراج لبقى فى عزه إن كانت الدولة تريد دوام العز لأحد.

كانت الشكوى قليلة من إدارة ظاهر العمر فإن ما جمعه فى أربعين سنة قد جمع غيره من حكام الأقاليم مثله فى مدة قليلة. ذكر فولنه أن على باشا المعروف بجتالجه لى الذى تولى حلب مرتين آخرها سنة (١١٩٣)، و كان معاصرا للجزار جمع فى خمسة عشر شهرا زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هى الفرنك الطليانى) و أنه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه إلى منطفى الغلايين. و قال غيره إن مدينة حلب التزمتها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين ألف جنيه و يعطى الوالى ٨٣٣٠ جنيها فى السنة لنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الأموال الطائلة من الأكراد و التركمان و سائر السكان، و قد جمع منهم عبدى باشا الذى كان واليا قبل عهد فولنه ١٦٠ ألف جنيه فى سنة واحدة و ضرب ضريبة على كل واحد و كل صناعة.

قال بعض من عاصره: و قد فر من حلب غالب تجارها و وجوه الناس و من له شهرة و سجن الأعيان، و أن الكوسح خادمه لما خرج إلى قتال التركمان صار يخرب القرى و يسلب أموالها حتى قام أهالى حلب و حاصروه و أخرجه من البلدة. و نقل فى أعلام النبلاء فى حوادث سنة (١١٩٤) أن عبدى باشا والى حلب جاء فى جيش عظيم إلى كلز لتأديب الأشقياء و أصدر أمره إلى أهل البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض و الرعايا إلى طرف الباشا و يبقى الأشقياء، فأجابوه

خطط الشام، ج ٢، ص: ٢٩٩

بلسان واحد: ليس فى بلدتنا أهل عرض أصلا بل كلنا أشقياء، فرحف الوالى على البلد فحاصرها و فتحها و وقع القتل و النهب فى كلز، و هتكت الأعراض و ذبحت الأطفال. و أن الوالى أخذ يسلب أموال الناس فى حلب و فى سجونه من الأكابر و المشايخ و

الاشراف خلا الرعايا و أهل الذمة مقدار عظيم، و عسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل، و بلغ من سوء فعل أتباعه أن كسروا غرارييف بساتين حلب و دواليبها و أخشاب بيوتها و طياراتها من حدود قرية بابلا (باب الله) إلى قرب بستان الدباغة، و حرقوها و حرقوا أخشاب قرى البلد بأجمعها، و سلبوا متاعها و نهبوا مواشيها و تركوها قاعا صفصفا إلا ما حماه الله من القرى البعيدة، و جاء الوالى الجديد فنبه أن لا يحمل أحد سلاحا و كل من وجد من أهالى المحلات خارجا عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه أن يخبروا عنه ليقتله، و من شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لأحد عليه، و صار يقتل كل من أخبر بسوء حاله، و أمر الناس أن يفتحوا دكاكينهم و أرباب القرى أن يتعاطوا زراعتهم و أن ما مضى لا يعاد، و من لم يفتح دكانه ينهاها و يشنق صاحبها.

و روى فى أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذى تولى حلب بعد عبدى باشا أنه صار يأخذ بالمجان مماليك و جوارى من أصحابها قهرا، و يحضر التجار و غيرهم و يكرمهم و يقول لهم: «أنا وزير إقشعوا خاطرى، لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها غيرى» و أرسل فطلب من كل بلدا حصانا. و جاء بعده عبدى باشا و سار على أقدام سميته الأول فى الظلم و الجور على صورة لم يسبق لها مثل، و أنشأ يأخذ بدل القرش أربعة، و صادر القوم و عذبهم و صارت حبوسه ملأى بالناس.

وصف فولنه ظاهر العمر بأنه لم تشهد له الشام مثيلا- فى الأزمان الغابرة، و كان داهية باقعة فى السياسة حكيما محنكا و لكنه كان طمحا طماعا، و من محاسن صفاته أنه لم يكن يحب الاحتيال و يجاهر بما يضمير و لو قاسى من ذلك العنت، و أنه أحب المسيحيين و رفع شأنهم و عدل فى الناس.

و قال من عاصره: حكم الظواهره البلاد نحو ثمانين سنة و امتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالا إلى أطراف جبال القدس جنوبا و من البحر

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٠

المتوسط غربا إلى جبل عجلون شرقا، و كانوا يرجعون فى أحكامهم إلى أصول العشائر حسبما توحى إليهم ضمائرهم، و قد شادوا فى الأقاليم أبنية ضخمة فرم ظاهر العمر بعض ما تمكن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية و رفع سور عكا الداخلى، و شاد فيها جامع محله الجزنية و بنى على فى صفا القلعة الباقى شىء من آثارها إلى اليوم، و بنى صليبي فى طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة إلى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبي و اكتسحهم، و عمر الجامع الواقع جنوب السراي، و رم عثمان قلعة قرية شفا عمرو و عمرها، و بنى أحمد قلعة تبنه، و شيد سعد قلعة دير حنا. و هذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة، و عمر فى دير حنا الجامع الموجود إلى اليوم و كان بناؤه سنة (١١٤٤) هـ.

أولية الجزائر:

أخذ الجزائر بعد استلام ولاية صيدا سنة (١١٩١) يقوى و تشتد شكيمته خصوصا و قد ولى دمشق مع بقاء عكا عليه، ثم استقل بولاية عكا و أخذ يغزو متغلبه تلك الأرجاء فوقت بينه و بين الأمير يوسف الشهابى وقعة سنة (١١٩١) فى نغار السعديات بين صيدا و بيروت فلم يسلم من جماعة الشهابى إلا- القليل، و أحرقت عسكر الجزائر المكاس و الجديدة و الدكوانه فى لبنان و قتل أناسا من أهلها، ثم وقعت بين عسكر الدولة و عسكر لبنان فى المغيثة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على أهل الجبل و قتل منهم قتلى كثيرة و أكثرهم من المتن و داهم عسكر الدولة بنى الحرفوش فى بعلبك و أحرقت الدولة زحلة. و قوى الجزائر بمجىء ستمائة فارس من اللوند و كانت الدولة أمرت بقتل جماعتهم و كانوا ستة عشر ألفا، فلم يسلم منهم إلا الذين جاءوا الجزائر، و لما عزم على الإقامة فى عكا ابتداء بإصلاح أسوارها و إتقان بنائها و جعل على كل قرية أن يحضر أهلها جميعا ثلاثة أيام فى الأسبوع بالسخرة لأجل العمارة.

و جرت حروب كثيرة بين الشيخ على بن الشيخ ظاهر العمر و عساكر الجزائر حتى قتل على ما سلف، و كذلك بين الجزائر و الأمير يوسف الشهابى و التقى مرة فى طريق صيدا عسكر الجزائر بالنكديه و كانوا يكمنون له فقتل

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠١

الجزار أكثرهم و قبض على بعض أعيانهم، فجعل الأمير يوسف يعتذر للجزار و يستشفع في إطلاقهم مقابل مئة ألف قرش، و لما طلب الأمير المال من الجبل أبي الأمراء الدفع فطلب الأمير من قائد عسكر الجزار أن يتلف أشجار بيروت ففعل و قتل جماعة من رجالهم، ثم سار إلى بعلبك و عظم أمره، و حينئذ خرجت بيروت من يد الأمير يوسف و دخلت في حكومة الجزار، و اقتتل الأمير يوسف مع الجزار فانهزم في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي و الجزار.

و أرسل أحمد باشا الجزار (١١٩١) أحد رجاله من الأكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياص فعلم أهلها فحصنوها، و ردوهم عنها بإطلاق المدافع فذهب الأكراد إلى بعلبك و صادروا كبار المتأولة، و لا سيما الأمير محمد الحرفوش و سجنوه، ثم شنوا الغارة على سعد نايل و قتلوا بعض سكانها و نهبوا، ثم حاربوا الدرروز في البقاع و قتلوا بعضهم و أحرقوا قرى كثيرة في البقاع و هاجموا سغبين ثم عادوا عنها، و قد قتل منهم نحو مائتين ثم أمرهم الجزار فعادوا إليه، و كان سبب إرسالهم أن الأمراء اللمعيين لم يدفعا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزار على اللبنانيين في السنة السابقة. و في سنة (١١٩٢) أو ٩٣ نقل الجزار مركزه إلى عكا لحصانتها. و زاد الجزار (١١٩٤) المكوس و المغارم على لبنان.

و في سنة (١١٩٥) وقعت فتن و مناوشات بين عسكر الجزار و عسكر الأمير سيد أحمد و عسكر دمشق في أرض قب الياص في البقاع قتل فيها كثيرون و انتصر الجزار و وقعت وقعة في الظهر الأحمر في وادي التيم، و في سنة (١١٩٧) استولى الجزار على بلاد بشارة بعد وقعة مع مشايخها من بني متوال، و تسلم هونين و تبين و شقيف أرنون، أخذ هذه القلعة الأخيرة بالأمان و قتل من بها و تسلم جباعا و باد اسم بني علي الصغير و بني منكر. و في هذه السنة توفي محمد باشا العظم و كان وزيرا عادلا مهابا على قول ميخائيل الدمشقي و قال المرادي:

إنه كان من رؤساء الوزراء عقلا و كمالا و عدلا و دينا و سخاء و مروءة و شجاعة و فراسة و تدبيرا و كان واسع الرأي مهابا و ضرب على أيدي البغاة و قطاع الطريق، و رقت دمشق و ما والاها في أيامه، و صفا لأهلها العيش و نامت الفتن، و عين محمد بن عثمان باشا و كان ظالما قاسيا ثم تولى أخوه درويش

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٢

باشا ثم تولى محمد بطال باشا و كان حدثا جاهلا ليست له خبرة بالمقاطعات.

و قتل (١١٩٧) الوزير حسين مكى باشا والى غزة و صادرت الدولة أمواله و كان حارب بني صخر و عرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم.

و في سنة (١١٩٨) تولى أحمد باشا الجزار ولاية دمشق و في سنة (١١٩٩) وقعت فتن أيضا بين عسكر الدولة و اللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين. و من جملة الفتن ما ذكره من عصيان يوسف الجرار و تحصنه في قلعة صانور، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع أهل نابلس و أخذوا ينهبون الناس، فذهب الباشا و نهب بعض قراها و قتل أناسا كثيرين ثم حاصر صانور ثانية، و أصبحت مقاطعة نابلس في فوضى و الجزار كل مرة يغزوها و يخرب في قراها و يقتل من أهلها و لم ينل أحمد الجزار من يوسف الجرار ما كان يتطال إليه حتى مات الجرار. قال بعضهم: إن نابلس لم تبرح بعصيانها تقلق الإدارة التركية و كان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور. هذا و قد تولى حلب في هذا القرن سبعون واليا قضى معظمهم أشهرها في الولاية و أكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين و كان ولاية دمشق في هذا القرن ستة و أربعين واليا كان منها نحو خمس و أربعين سنة في حكم آل العظم.

الحكم على القرن الثاني عشر:

قرن كله ذل و مسكنة، و تقاتل و تشاحن، عرف بتغلب القيسية على اليمينية بعد وقعة عين دارة، و رجوع ابن معن إلى الإمارة في لبنان،

و انقراض دولة المعنيين بموت الأخير منهم، و ظهور بنى شهاب حكام وادى التيم بمظهر جديد خلفوا المعنيين فى لبنان، و بظهور أبناء على الصغير فى بلاد بشاره و انقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالى لبنان، و ظهور بنى العظم حكاما فى الولايات الشاميه و تراجع أمرهم، ثم ظهور ظاهر العمر فى عكا و ما إليها و دوام حكومته أربعين سنه، ثم إرسال والى مصر تجريدة بقيادة إسماعيل بك و أخرى بقيادة محمد أبى الذهب و رجوع هذا عن الديار الشاميه بعد أن فتحها إقليلا، و اعتصام الظاهر عمر بملكه روسيا و حصار أسطول الروس بعض الساحل و لا سيما بيروت، ثم ظهور الجزار الذى قرض بيت ظاهر العمر.

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٣

و الدولة قلما جهزت جيشا خاصا للقضاء على سلطة أحد المتغلبين اللهم إلا جيوشا أشبه بنجدات يوم مجيء أبى الذهب لفتح الشام، و استغاثت بأبى الذهب لتتخذ الشام من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر، اى إن الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و بابن العم على ابن عمه و تضعفهم جميعا، و معظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلكأ فى تأديه الجبايه لها، و قلما سمع بأنها نحت عاملا كبيرا لسوء إدارته، و كثرة نهمته فى جمع ثروته، و العاقل المستقيم من ولايتها لا تطول ولايته كثيرا حتى يتمكن من إصلاح بعض الشؤون، و كان الولاة فى الحقيقه يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها إلى مراجعه الاستانه فى كل أمر، و لكن أين العامل النشط فيهم الذى يعرف يدبر أمور الناس، و إذا تهيا الرجل فلا تحدثه نفسه بذلك حتى يتهم حالا بإرادة الاستقلال و يشى فيه جيرانه و الطامعون فى ولايته.

أما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطا و الوسط لا يعمل عملا نافعا، و لم ينشأ للسلطنه صدور عظام عرفوا بالمضاء و حب العمل أمثال أبناء كوبرلى و صوقوللى فى القرن الماضى، بيد أن أعمالهم لم يصل إلى الشام منها إلا الصدى، و لم يخرج من الشام نابغه بعقله و إدارته من أرباب الإقطاعات و غيرهم كما كان فى القرن المنصرم، و جل همهم مصروف إلى دفع عادية خصمائهم من أقربائهم أو غيرهم، و كانوا دون من يأتى من الاستانه من الولاة عقلا و عدلا، و مما ظهر فى هذا القرن من النقص المحسوس قلة السكان فقلق العقلاء، و كان فى حلب قبل استيلاء العثمانيين (٣٢٠٠) قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددهما إلى أربعمائه قرية حتى إن ابن معن لم يقبل أن يتولى مقاطعة بنى حمادة لأنها خربت، و هام الفلاحون على وجوههم فى المدن و الجبال و هكذا الحال فى ولاية دمشق و فلسطين. و قال فولنه: إن سكان كسروان وحده ضعفا سكان فلسطين. و هكذا كان السكان يكثر فى المقاطعات التى تتخلص مباشرة من إدارة الباب العالى مثل لبنان و وادى التيم و نابلس و عجلون، و إن لم تكن حالتها مما يستحب.

أما أعمال العمران فلم يقيم فيها إلا قصور لأرباب الدولة أمثال قصر لأسعد باشا العظم فى دمشق و قصره فى حماه إلى غير ذلك، و قامت من المدارس مدرسة

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٤

إسماعيل باشا العظم و مدرسة سليمان باشا العظم فى دمشق، و بعض مدارس فى حلب، و لكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بمقياس واسع، و تداعت المساجد و الجوامع، و لم يقيم من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر كأن القطر لا- صاحب له يغار عليه، فالمتغلبه من أبنائه و القادمون من الولاة عليه، لا يهتمون لمثل هذا الشأن، و سلاطينها ضعاف إن أفلح أحدهم فعمر له جامعا و مقبرة خاصة فى دار الملك عدوه محبا للعمران، متقربا بعمله الصالح من البارى الديان.

انتهى الجزء الثانى من خطط الشام و يليه الجزء الثالث و أوله العهد العثمانى من سنه ١٢٠٠

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٥

فهرست الجزء الثانى من خطط الشام

- فتنة الإسماعيلية و وقعة دمشق ٣
- دخول آل زنكى الشام ٥
- استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين و استقرار حال دمشق ٦
- خيانه صاحب دمشق و قتل أمه له ٨
- توحيد الحكم على يد زنكى و قضاؤه على إمارة صليبية ٩
- الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين ١٣
- صفات عماد الدين زنكى و تولى ابنه نور الدين ١٥
- الحملة الصليبية الثانية و غزوتها دمشق ١٧
- تقدم نور الدين فى فتوحه ٢١
- انحلال دولة مجير الدين و توفيق نور الدين ٢٣
- مقاصد نور الدين و فتحه دمشق ٢٥
- الداعى لنور الدين على فتح دمشق ٢٨
- مرض نور الدين و إبلاله و تنمة فتوحه و هزيمته فى البقية ٣١
- حملة نور الدين على مصر ٣٣
- بعض غزوات نور الدين ٣٦
- قيام بنى شهاب من حوران و حربهم الصليبيين ٣٧
- الفتور بين نور الدين و صلاح الدين ٣٩
- وفاة نور الدين و صفاته الطيبة ٤٠
- خطط الشام، ج٢، ص: ٣٠٦
- الدولة الصلاحية من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٨٩ ٤٤-٤٤-٤٤
- أولية صلاح الدين و الملك الصالح ٤٤
- اختلاف الآراء و استيلاء صلاح الدين على الشام ٤٦
- تملك صلاح الدين و محاولة اغتياله و سر نجاحه ٤٨
- فتوح صلاح الدين و وفاة الملك الصالح ٥١
- وقعة حطين و فتح فلسطين ٥٥
- فتح القدس و الرملة ٥٦
- بقية الفتوح الصلاحية ٦٠
- الحملة الصليبية الثالثة ٦٢
- مزايا صلاح الدين و وفاته ٦٤
- الدولة الأيوبية من سنة ٥٨٩ إلى سنة ٦٣٧ ٦٩-٩٤
- أبناء صلاح الدين و اختلافهم و دهاء عمهم العادل ٦٩
- استنثار العادل بالملك الصالحى ٧٢
- الأحداث فى عهد العادل و اهتمامه بحرب الصليبيين ٧٤

الحملة الصليبية الخامسة ٧٩

وفاة العادل ٨٠

فتح الصليبيين دمياط و ذلتهم بعد العزة ٨٢

اختلاف بين أبناء العادل و تقدم الكامل عليهم ٨٣

الحملة الصليبية السادسة ٨٧

اختلافات جديدة بين آل العادل ٨٩

وفاة الملك الكامل و حال الشام بعده ٩٢

انقرض الأيوبيين و ظهور دولة المماليك البحرية و ظهور التتر من سنة ٦٣٧ إلى سنة ٦٩٠ ٩٥ - ١٢٩

ظهور الخوارزمية ٩٥

اختلاف بنى أيوب و اعتضاد بعضهم بالفرنجة و عودة الخوارزمية ٩٧

وفاة الملك الصالح و مبدأ دولة المماليك ١٠١

خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٧

هولاكو التتري ١٠٤

مقتل الملك المظفر قطز و سلطنة الظاهر بيبرس و أحداث ١٠٩

حروب الظاهر و فتوحه ١١١

وفاة الملك الظاهر و سلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون ١١٤

وفاة قلاوون و سلطنة ابنه الأشرف خليل و إثنخانه فى فرنج الساحل ١٢١

الحملة الصليبية السابعة و انتهاء الحروب الصليبية ١٢٣

دولة المماليك من سنة ٦٩٠ إلى ٧٩٠ ١٣٠ - ١٥٤

فتوح أرمنية و عصيان المواردنة بعوامل صليبية ١٣٠

وقائع التتر ١٣٤

غزوة الأرمن و الكسروانيين و تززع السلطنة ١٣٩

الغزوات فى الشمال و ظهور دعوة جديدة ١٤٢

سياسة المماليك مع أكبر عمالهم و وفاة الناصر و تولى المنصور ١٤٤

خلع الملك المنصور و مقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه ١٤٦

أحداث و كوائن و عصيان و مخامرات ١٤٨

مقتل الأشرف شعبان و الأحداث بعده ١٥١

سلطنة برقوق و حالة المماليك البحرية و الشراكسة ١٥٣

وقائع تيمور لنك من سنة ٧٩٠ إلى ٨٠٣ ١٥٥ - ١٧٥

بداءة تيمور لنك و مناوشة جيشه ١٥٥

القتال على الملك ١٥٧

عوامل الخراب قيس و يمن ١٥٧

الخوارج على ملوك مصر ١٦٠

- وفاء برقوق و سلطنة ابنه الناصر فرج و الخوارج على الملك ١٦٣
- الحرب الأولى مع تيمور لنك ١٦٤
- تيمور لنك على أبواب حلب ١٦٦
- تيمور لنك على حماة و سلمية و حمص ١٦٨
- خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٨
- تيمور لنك على دمشق ١٦٨
- وصف أفعال تيمور لنك في دمشق ١٧٠
- الخراب الأعظم و أخلاق تيمور و نجاة فلسطين منه ١٧٣
- عهد المماليك الأخير من سنة ٨٠٣ إلى ٩٢٢ ١٧٦-٢٠٤
- البلاد بعد الفتنة التيمورية و مخامرة العمال ١٧٦
- وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان ١٧٨
- الملك السكير و قتله ١٨٣
- الخليفة السلطان و سلطنة شيخ ١٨٥
- هلاك المؤيد شيخ و سلطنة ابنه في القماط ١٨٦
- وفاء ططر و سلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباي ١٨٨
- الملك العزيز يوسف و الملك الظاهر جقمق ١٨٩
- المنصور و الأشرف و المؤيد و الظاهر خشقدم و الظاهر بلباي و الأشرف قايتباي ١٩٠
- مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية ١٩١
- وقعة مشؤومة و أحداث ١٩٤
- أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين ١٩٥
- وفاء الأشرف قايتباي و تولى ابنه ناصر الدين محمد ١٩٧
- الملوك المتأخرون و آخرهم الغوري ١٩٩
- سلطنة طومان باي ٢٠٠
- القضاء على مملكة ذى القدرية و طبيعة دولتي المماليك البحرية و البرجية ٢٠٢
- الدولة العثمانية من سنة ٩٢٢ إلى ١٠٠٠ ٢٠٥-٢٣٤
- حالة الشام قبل الفتح العثماني ٢٠٥
- مقاتل الغوري و مقدمات الفتح ٢٠٦
- صلات العثمانيين مع المماليك و وقعة مرج دابق ٢٠٨
- خطط الشام، ج ٢، ص: ٣٠٩
- قوة الغالب و المغلوب ٢١٠
- دخول السلطان سليم حلب و دمشق ٢١١
- مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الجديد و تغير الأحكام ٢١٣
- السلطان في دمشق و في الطريق لفتح مصر ٢١٤

- فتوق و غارات و تأذى السكان ٢١٧
- محاسن السلطان سليم و مساويه و مهلكه ٢١٨
- خارجى خان أولا و ثانيا ٢٢١
- طبيعة الدولة العثمانية ٢٢٤
- كوائن داخلية و أمراء المقاطعات ٢٢٤
- مهلك السلطان سليمان و تولى سليم السكير ٢٢٨
- عهد السلطان مراد الثالث و حملات على أرباب الدعارة ٢٢٩
- بنو عساف و بنو سيف و ابن فريخ و خراب البلاد ٢٣٠
- حالة البلاد فى الحكم العثمانى ٢٣٢
- العهد العثمانى من سنة ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ ٢٣٥-٢٤٤
- عهد محمد الثالث و أمراء الإقطاعات و فتن ٢٣٥
- عهد أحمد الأول و فتنه ابن جانبولاذ و غيرها ٢٣٨
- الأمير فخر الدين المعنى و آل شهاب و فتن ٢٤٣
- عهد مصطفى الأول و عثمان الثانى ٢٤٥
- عداء على الفرنج و فتن داخلية ٢٤٤
- حملات على الأمير فخر الدين المعنى و غيره ٢٤٧
- القضاء على الأمير فخر الدين المعنى ٢٤٩
- فتن فى الساحل ٢٥٣
- إبراهيم الأول و سفاهته ٢٥٤
- فتنه وال أخرق فى حلب ٢٥٨
- محمد الرابع و صدارة كوبرلى ٢٥٩
- عهد سليمان الثانى و الحكم على الخوارج ٢٤٥
- خطط الشام، ج٢، ص: ٣١٠
- العهد العثمانى من سنة ١١٠٠ إلى ١٢٠٠ ٢٤٧-٣٠٣
- حال الشام أول القرن الثانى عشر ٢٤٧
- دور أحمد الثانى و فتن ٢٧٠
- دور مصطفى الثانى و انقراض دولة بنى معن ٢٧١
- عهد أحمد الثالث و سياسة الدولة مع من ينكر الظلم و وقعه عين دارة ٢٧٣
- فتن و مظالم مستجدة و ظهور آل العظم ٢٧٥
- عهد محمود الأول ٢٧٤
- فتن و مشاغب ٢٧٩
- عهد عثمان الثالث و مصطفى الثالث و بعض الأحداث فى أيامهما ٢٨٥
- سيرة ظاهر العمر الزيدانى و سياسته ٢٨٤

- حملة أبي الذهب على الشام ٢٩٠
عهد عبد الحميد الأول و تتمه أخبار أبي الذهب ٢٩٤
خاتمة ظاهر العمر و ولاية حلب ٢٩٥
أولية الجزائر ٢٩٩
الحكم على القرن الثاني عشر ٣٠٢
فهرس الجزء الثاني من خطط الشام ٣٠٥ - ٣١٠

الجزء الثالث

العهد العثماني «من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧»

الجند أداة الظلم و التدمير:

كان الشام في هذا القرن مهد القلاقل و الثورات، يقع الاعتداء في الأكثر على النصارى و اليهود و أهل السكينة من المسلمين. و أكثر الفوضى ناشئة من الجند الجاهل الذي تمادى في اللؤم و الدناءة حتى آص كالوحوش الضارية. و يقسم هذا الجند إلى ثلاثة أقسام: الإنكشارية و القبوقولى و هما القسمان القويان، و القسم الثالث حرس الولاية الخاص و هو يتألف من المغاربة و التكارنة و الترك و الأرناؤد و الدالاتية و غيرهم، و العداوات متأصلة بينهم.

و لطالما قامت بسبب ذلك فتن، و وقعت و يلاتها على الشعب فيهرق دمه و تنهب أمواله، و تغلق حوائيته، و تقف الأعمال، و لا سيما في الحواضر كدمشق و حلب. و لا تنفض هذه المشاكل إلا بتدخل الولاية أو أحد الأعيان، و يتكرر ذلك أبداً لأن العلة الأولى فيها لم تستأصل ما دام المجرمون لا يعاقبون و الأوباش لا يحملون على حرمة الشريعة. و لذلك كانت شوارع المدن و أحيائها كثيرة الأبواب و الأرتجة و تقفل أيام الثورات، و ساعة المخاصمات و المشاغبات، و الأزقة ضيقة معوجة لتصلح لحرب المتاريس.

و أكثر رجال الجندية نفوذاً الإنكشارية لكثرتهم و شدتهم و صداقتهم للوالى. و كان زعماء الجند يلقبون بالأغاوات. و يرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون إليها، و يرسم على أبواب المقاهى اسم الفريق الذي يختلف إليها، و ليس لهم نظام خاص. و المحلات تخضع للأغا المقيم فيها

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤

و هو يخضع لزعم الفرقة. و لم تكن تكفيهم إدرااتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم، فيضطرون للعمل يذهبون إليه و هم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام إلى فرقته متى دعت الحاجة، و لا- شأن للخاملين و أهل الفسق إلا- الاجتماع في المقاهى و الحانات، و إطالة أيدى الأذى على الناس يصادرون أموالهم و يفترسون نساءهم و صبيانهم، و كثيرا ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم أو سيوفهم في أول من تقع أعينهم عليه.

تمادى الرعاع في قحتهم و فجورهم إلى الغاية، لضعف الحكام و قصورهم عن ردع القوى عن الضعيف، فنشأت فئة من الناس مسلمين و مسيحيين، اتكلوا في حفظ أنفسهم و أهلهم على أنفسهم و شدة بأسهم في الدفاع. و كان القوم يحترمون هؤلاء الأشداء و يخافونهم، و كان منهم من عرف بالشهامة و الشمم بما يغبطون عليه و يخفف و يلات الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحيانا. و بلغ التعصب الدينى أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الإفراط، يحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله أو الاعتداء عليه، و ابتزاز ماله و انتهاك عرضه، و انتشر هذا الروح حتى عمّ السواد الأعظم من الناس. قال مشاقه بعد إيراد ما لخصناه: و كان فريق من العلماء و أهل التقوى يرون معاملة الذمى بالحسنى تبعا لقواعد الدين الشريفة و لكنهم لم يوفقوا لردع الرعاع

في زمن عمت فيه الفوضى و ساد الجهل و الهمجية على القوم.

من أجل هذا ساغ لنا أن نستنتج أن الشام كان أهلها و حكومتها بين ظالم و مظلوم، يشتد الوالى فى إعنات الرعية لسلب أموالهم و يرسل إلى العاصمة بالمقرر عليه، و كثيرا ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم، أو ينتفضون عليه بإيعاز بعض أهل النفوذ و قد يكون الحق معه، و الرعايا عرضة لاعتداء الجند و أغواتهم و الأعيان و أتباعهم، تساوى فى الظلم المدنى و القروى، و ربما كان المدنى أكثر تعرضا للمهالك لقربه من هذه العوامل التى أخذت على نفسها تمثيل التخريب فى مسارح الجهل على ضروبه و أشكاله. ظلمات بعضها فوق بعض، و سلاسل مفرغة من المصائب لا يدرى أين طرفاها. و لیت

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥

شعري ما يرجي من عناية دولة بأمته و هى تعطى الوزير ثلاثة أطواخ و الأطواخ أذنان خيل فالذنب معلق من أسفله فى رأس عصا و طولها نحو ثلاثة أذرع و شعره مسدول عليها، فإذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم إلى محل نزوله فيستعدون لاستقباله و تهيئه ما يلزمه من المآكل و العلف للدواب بلا- ثمن. و أما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير فى السفر. و معنى الأطواخ أن الدولة تحكم البلاد بأذنان خيلها- قاله مشاقه و نحن نقول:

إن الدولة التى يبلغ من غورها هذا المبلغ لا تنجح فى الحكم بحال.

قال جودت فى حوادث سنة ألف و مائتين: «إن وظيفة جابى المال فى حلب كانت منذ أربعين سنة مطمح أنظار الموظفين فى الدولة لأنها تأتيهم بثروات إذا جاءوا بها إلى الإستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة و رتبة مير ميران، و ممن كان منه ذلك أحمد باشا فإنه أخذ العلم و الطوخ و اشتهر شهرة عظيمة، و ما برحت هذه الوظيفة تباع و تشتري بالمزاد، و كثيرا ما كانت الدولة ترسل بمفتشين يشاركون المرتكبين من هولاء الجباء، و كثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالأموال ينفقونها فى شهواتهم حتى يهلكوا فقرا و قهرا، و لذلك كانت أموال الدولة تدد و يسرف فيها.»

حوادث الجزائر و فتن الإنكشارية و غيرها:

بدأ القرن و أعظم وزير مسموع الكلمة فى الإستانة قوى الشكيمة فى ظلم الرعايا بالشام، أحمد باشا الجزائر، تولى دمشق بعد ولاية عكا، و ذهب أميرا مع الحج فرفع الدمشقيون الشكاوى عليه إلى دار الملك فعزل و ذهب إلى الإستانة فعينته الدولة وزيرا على صيدا، و أقام فى عكا و حصنها و ضبط أملاك بيت شهاب فى بيروت و رفع أيديهم عن حكمها، و أنشأ للثغر أرتجته و سورا فسر المسلمون بذلك، و نصب على دمشق إبراهيم دالاتى باشا سنة إحدى و مائتين و ألف و كان جسورا مهيبا فحدث بينه و بين الأهالى اختلاف و تعصبوا عليه و حدثت فتنه، فأغلق أحمد آغا الزعفرنجى شيخ الإنكشارية القلعة و قتل من عسكر الوالى ثلاثمائة رجل و أراد أن يضرب الوزير، فخرج

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦

هذا إلى حمص و حماة و جمع عسكرا كثيرا، و أو عزت الدولة إلى الجزائر و إلى الأمير يوسف الشهابى أن يعاونه بعسكرهما ففعلا، و عاد الوالى إلى دمشق فارتاع أهلها و أرسلوا النساء إلى الجامع الأموى فكلمه أعيان المدينة فاشترط عليهم أنه يلتزم الرحمة إذا خرج الزعفرنجى من القلعة و تسلمها رجاله، و دخل البلد و قتل بعض الأردياء قيل: إنهم مئة و خمسون رجلا من جماعة القلعة، و كان جاء الوالى فى عسكره الى باب الله و اجتمع العسكران و وقع قتال فهلك فيه من الفريقين خلق. و ملك الوالى الميدان، و استمر ذلك مدة و العسكر محيطة بالقلعة حتى سلمت. و أقام هذا الوالى أربع سنين فى دمشق، و ذهب أمير القلعة إلى أمير عرب الموالى فازا منه فأوعز إلى متسلم حماة أن يقتص من عربيه لفسادهم فى تلك الأرجاء، فساق عليهم من حلب و حماة جيشا قتل منهم نحو ألف إنسان و انهزم الباقون. و كان عرب الموالى ثاروا هذه السنة فى ضواحي حمص و حماة فنهبوا القرى و فتكوا بأغوات الدنادشة حكام المدينتين

منهم و قتلوا كلا من شيخ الكلبيين و شيخ النصيرية و عاشوا في تلك الجهات و فتكوا بأعيانها. و في سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا الى أنطاكية و نزل عسكره على الحرير و فعل فيها أفعالا- قبيحة، و أتى إدلب و صادرها و خرب جميع القرى التي مرّ عليها، و خرب الراموسة، و اشتبك القتال بينه و بين أهل الشيخ سعيد عدة أيام فقتل من عسكره بالطاعون و السلاح عدد كبير، و نهب قرى في تلك الأجزاء، هذا و الطاعون في حلب و أرجائها يفتك فتكا ذريعا.

و خربت القرى و هلك الفقراء في فتنه الأمير جهجاه الحرفوش (١٢٠٢) و كان قوى على إبراهيم باشا والى دمشق، و سرت شرارة فتنه الزعفرنجي إلى أهل دمشق حتى طلب الوالى عسكرا من جبلى نابلس و الشوف و دقت طبول الوالى (١٢٠٣) من دومة و فرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمر آغا من الزفتية، و ابنه على صفّ الجوز، و الوزير على السلطاني، و أحرقوا القبيبات و حارة التركمان، و جرت الدماء من الصباح إلى العصر حتى أطاع أهل دمشق السلطان عبد الحميد الأول، و خرب الوالى القلعة و أهلك متوليها بمدافعه شردمة قليلة من عسكر الوزير، و بقيت الحرب بين الفريقين ستة أيام بلياليها.

و في أيام إبراهيم باشا الكردي (١٢٠٣) انتشبت الحرب في وادي أبي

خطط الشام، ج ٣، ص: ٧

عباد فوق كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزائر و عسكر الشهابيين أمراء لبنان و وادي التيم انكسر فيها عسكر الجزائر كسرة عظيمة. و وقع بين عسكر الجزائر و الهواره و الدرروز في جب جينين قتال انكسر فيه عسكر الأمير و قتل منه مقتلة عظيمة، ثم جمع الأمير يوسف عسكر لبنان و أرسلهم مع سليمان باشا و الهواره إلى عين دارة، فالتقوا بعسكر الجزائر في قب الياس فانكسر أيضا عسكر الأمير يوسف و حدثت عدة وقائع بين عسكر الأمير في جزين و عسكر الجزائر في جباع كسر فيها عسكر الأمير يوسف. و كان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة، فيهلك الفلاحين و لا إهلاك الأوبئة و يرعى رجاله الزروع و لا أكل الجراد.

عهد سليم الثالث و فتن و كوائن:

هلك السلطان عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣ و خلفه السلطان سليم الثالث و كانت أيامه كلها غوائل و فتننا: استقلت فيها القريم و أصبحت روسيا بما أخذته من أملاك الدولة على البحر الأسود دولة بحرية مهمة، و قبل بمعاهدة كوجك قينارجه (١١٨٨) مع روسيا و بها انحط مقام الدولة، و حارب روسيا مرتين. و قال مترجموه من الترك: إنه كان عادلا حلما تحبه رعيته.

و يقول من عاصره: إن عبد الحميد الأول كان أخرق للغاية و إنه كان جاهلا و ليس فيه من جودة الرأي و الحزم و المضاء شيء، و لم يستطع أن يستفيد من الثورة السياسية و الدينية التي نشبت في القافقاس، و لم يحسن الانتفاع من أسباب النجاح التي كانت متوقعة من بحريته و جيشه.

و في سنة ١٢٠٤ وقعت فتنه بين الأمير قاسم الحرفوش و ابن عمه جهجاه في سهل أبلح بالبقاع، فدحر قاسم عسكر الأمير بشير الشهابي فشق عليه فأرسل نجدة أخرى للأمير قاسم، فلما علم ذلك جهجاه هرب سكان بعلبك و أتلّف ما فيها و لم ينالوا من جهجاه، ثم استصرخ الجزائر فأمر بأن يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة و الدولة و مشايخ الدرروز فانتشبت الحرب بينهم و بين جهجاه فاندحروا و قلق الناس، و رحل كثير من السكان من تلك

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨

الأجزاء، ثم تغلب جهجاه على قاسم. و في السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه و حاكم بعلبك إسماعيل فانهم هذا و قتل من رجاله نحو مائتي رجل و لم يقتل من رجال جهجاه أحد. و في سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة و قيل عسكر الأمير بشير حاصبيا و أكثر القرى التي حولها.

مظالم الجزائر و اختلال الإدارة:

تولى أحمد باشا الجزار دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥ و ظل مقيما في عكا و أرسل متسلمين منهم أرفه أميني و كان كما قال مشاقه ظالما قاسيا يشبه أستاذه في إنشاء المظالم و الحوادث الصعبة على المسلمين و النصارى و اليهود.

و كان الجزار مغتاظا من أهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئه مما أدى إلى تحيته عن عمله سنة إحدى، فأراد الانتقام من الساعين به هذه المرة.

و بالحقيقة أن مدة حكم الجزار في دمشق و هي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهرا واحدا من طلب الأموال ظلما و طرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة و طرح بضائع متنوعة، ينهبها من جهات و يطرحها بأسعار زائدة على أخرى، و ليس هناك صغير و لا كبير إلا و يناله الظلم و القهر، و نزع كثير من السكان و تركوا أوطانهم و عيالهم. سلسلة من المظالم لا حد لها. و كان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق أناسا و قد قتل في إحدى السنين مئة و ستين رجلا خنقا و ذلك في ثانی سنة من ولايته. و في السنة الثالثة قتل نحو ستين و كان كلما جاء دمشق مرة في السنة و هو ذاهب ليحج بالناس أو آيب منه يعمل هذه الأعمال للإرهاب و لم يقف أمر المظالم عند حد أوامر الجزار المجنونة، بل كانت الفتن في جهات أخرى من الشام على عاداتها في القرون الماضية، من ذلك أنه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع كانت سجالاتا بين الجبل و عسكر الدولة الذين كانوا مع الأمير بشير، و أحرقت عسكر الدولة غريفة و سبت نساء و أولادا. و اشتد الخصام بين بشير قاسم و حيدر ملحم الشهابيين على الإمارة في لبنان، و كان بشير تعهد للجزار بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به يوسف، فأخذ يصادر كل من مالا الأمير يوسف،

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩

و مال الناس إلى الأمير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الأمير بشير دفعها، و سادت الفتن في اللبنانيين الغربي و الشرقي، و هاجم والي دمشق بعلبك للانتقام من الأمير جهجاه لأنه لم يخلد إلى السكينة، و قتل عشرات من الناس في بعلبك و سغبين و قتل من العسكر أكثر من ذلك.

و هجمت أهالي حلب على بطال آغا نوري و محمد آغا و على عسكره و حصل بينهما مناوشة أدت إلى انهزامه خارج حلب، و توجه إلى عيتاب و حاصرها خمسة أشهر إلى أن قتل و حمل رأسه و رأس أربعة و عشرين من العصاة إلى الإستانة. قال جودت: و كان هؤلاء الخونة يتقربون إلى رجال الإستانة بالأموال الدنيئة فينصبونهم حكاما في بعض المقاطعات فيفسدون في الأرض و يتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان و تقاوم الحكومة و لا تبعه في ذلك إلا على رجال الدولة.

و في سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) أخرج الجزار الفرنج من بيروت و بنى السور بحجارة أبنية الشهابية التي دكها و دك كنائسهم و جعلها إصطبلات.

و في هذه السنة قتل رجل من أهل بيروت خارج البلد فأغلقوا الأبواب و قبضوا على كل من وجدوه من أهل الجبل و كانوا نحو ستين رجلا فقتلوهم جميعا. و حدثني الثقة من أهل بيروت عن أبيه عن جده أن حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم و عتوهم على المسلمين فكان الأمير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون أمامه الغليون للتدخين فينتصب المسلمون على الأقدام يحيونه فلا يتنازل أن يجيبهم بل يقول الخادم من ورائه: سلم الأمير. فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا أمرهم إلى قائد الأسطول العثماني و كان يأتي كل سنة ليحمل الأموال المقررة فقال لهم: الخطب سهل و هو أن تغلقوا أبواب المدينة متى رأيتمونا ألقنا بسفننا و تذبحوا النصارى و بذلك ترتاحون منهم ففعل غوغاء المسلمين و قتل بهذا التدبير الجائر كثير من الأبرياء، و بذلك تبين أن الدولة لم تكن تهتم إلا لجبايتها، فإذا استوفتها فسواء لديها تقاتل رعاياها أم تصالحوا، و الغالب أنها تحبهم أن يكونوا على خصام أبدا حتى يخلو لها الجوى، و قاعدة «فرق تسد» من أهم قواعد حكمها.

و في سنة ١٢٠٧ هـ و هب الشهابيون الهرمل للأمير جهجاه الحرفوش فلم

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠

يذعن له سكانها فحاربهم و قتل منهم نحو أربعين رجلا و أحرق البلدة و في سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الأشراف و الإنكشارية في حلب دامت عشرين يوما قتل فيها بعض أهل اليسار و الشرف ثم انكسر الأشراف و حصرهم الإنكشارية في جامع الأطروش و جرى من القبائح ألوان و أشكال.

و في سنة ١٢٠٩ صدر أمر الجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الإسرائيليين و قتل بعضهم و أدخل الرعب على أبناء نحلتهم، و نال مثل ذلك بعض أغنياء الأهالي على اختلاف مذاهبهم، و بدأ القتل و الصلب و قطع الأنوف و حبس خلق و جرم الأبرياء و هام الناس على وجوههم، و في هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فهرب الأمير جهجاه إلى رأس بعلبك فأحرق بعض بيوتها و كان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد أن اعتصم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر شاني زاده أن والي صيدا عبد الله باشا كتب إلى الدولة بأن كنيستي عكا و الناصرة و قلعة حيفا كلها مستحكمة البناء لا تخلو من محذور فاستفتى السلطان فأفتى بأن تهدم الكنيسة القديمة و الجديدة معا لثبوت مضرتها و نفذ الحكم. و كثيرا ما كان الولاة في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات و البيع إذا كانت مستحكمة البناء فقد أخرج السلطان سليمان النصارى من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صنف و كان قديما يعرف بدير الخضر و أمر أحمد بن أسد البقاعي من الصوفية بالإقامة فيه مع أولاده.

و في سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم و القطر في حالة مزعجة و قد دام في ولايته هذه ثلاث سنين و بقي الجزار في عكا و في هذه السنة وقع القتال بين عسكر أولاد الأمير يوسف في جبيل و بين الذين كانوا في قلعتها من عسكر الأمير بشير و كسروهم. و في سنة ١٢١١ أرسل عبد الله باشا العظم عسكرا إلى البقاع فأرسل الأمير بشير و الجزار والي عكا عسكرا فالتقاهم الجزار، و وقع القتال في مندره من قرى البقاع، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة و قتل منه جماعة. و لم يزل عسكر لبنان و الهوارة مجدا في آثارهم إلى وادي المجدل و غنموا خيلهم و سلاحهم و ذهب بعض اللبنانيين و أحرقوا البترون قرب الزبداني. و في سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق إلى التفطيش كالعادة فلقى الطريق ممسوكة منافذها من عسكر الجزار فسأت حال رجاله ثم توجه إلى جينين

خطط الشام، ج ٣، ص: ١١

فطمع الأهليون فيه و لم يعطوه مال الدورة، فألحق به الجزار جنده قاصدا قهره و عسكره. فركب و ركب العسكر و توجه نحو عسكر الجزار فدارت بين الفريقين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزار، و قتل الأول من عسكر الثاني خلقا، و رجع لم يعترضه أحد و قد جمع الأموال الأميرية برمتها.

و فيها قامت الإنكشارية على أعيان حلب و قتلوا كثيرا منهم حتى كانوا يقتلون السيد و هو يصلى في المحراب، فعرض الحال على الدولة فجاء شريف باشا واليا على حلب فمنعته الإنكشارية من دخولها، فتعهد بأن يكون مسعفا لهم فدخل و أتته الأشراف فقوى بأسهم على الإنكشارية و بعد ذلك أرسل إلى الإنكشارية سرا أن يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلا و قتلوا منهم مائتين و خمسين نفسا و أخذ منهم شريف باشا خمسمائة ألف قرش و قدمها للدولة، و قويت شوكة الإنكشارية في حلب.

و في سنة ١٢١٣ ضرب الجند اللدالية جميع قرى دمشق و أكلوا مغلها و حرقوا دوابها و صار منهم قتل و سلب - قاله ابن آبيق: و قال أيضا في حوادث هذه السنة: إنه كثرت الفتن و انحل الحكم حتى بقي إطلاق البارود من القلعة سبعة أيام. و انتشرت الفوضى في الأحياء و البلاد لا حكم فيها لحاكم و لا متسلم، و أفندي البلد (دمشق) مسجونون عند الباشا في المخيم و بقي ذلك حتى رحل الباشا، و بقي عسكره يومين و ليلتين نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول و منظور و عزم غالب أهلها على الرحيل لما أوقع فيهم الجند من الضرر.

محاولة نابوليون فتح الشام و استيلاؤه على غزة و يافا:

بينما كانت الفتن الأهلية بين العمال على المال، و الشام قد ضعفت فيها كل قوة، و الدولة كلما رأت عاملا قويا تكتفى بأن تضع في جواره عاملا- آخر تملى له من قوتها حتى يظل في خصام مع جاره، و الضعف في الإدارة ظاهر كل الظهور، و الناس من الجزائر في قسم عظيم من ديار الشام في أمر مريح، و هي مفتحة الأبواب خالية من أسباب الدفاع إلا ما كان من أسوار خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢

أمهات مدنها أتى نابوليون بونابرت مصر (١٢١٣) و فتحها و لما شعر باجتماع الجيوش لمحاربتة و أنه إن لم يفاجيء الدولة العلية في الشام قبل أن تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الأمور و خيمه عليه و أن من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها إلا إذا احتل القطر الشامي فلهذه الدواعي قام من مصر و معه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصدا الشام من طريق العريش.

و لما بلغ أحمد باشا الجزائر قدوم الجيش الفرنسي من مصر إلى عكا أسرع- على رواية نقولا الترك- بتدبير ما يحتاج إليه في الحصار، و أرسل إلى يافا العسكر و حصنها بالمدافع و القنابر، و امتد إلى مدينة غزة بعساكره و عشائره و وصلت جيوشه إلى قلعة العريش. و أقاموا فيها و تنبتهت الغز للجهاد. و في شهر شعبان سنة ١٢١٣ خرجت العساكر الفرنسية إلى مدينة بليس و الصالحية و كتب إلى الجنرال كليبر أن يتوجه من دمياط في البر على طريق قطية. و لما سيّر بونابرت العساكر أحضر علماء الدين و قال لهم:

إن الغز المماليك الهاريين منى قد التجأوا إلى أحمد باشا الجزائر فجمع لهم العساكر و حضر إلى العريش و عزموا على الحضور إلى الديار المصرية فلذلك أخذتني الغيرة و عزمت أن أسير اليهم بالعساكر و أن أخرجهم من قلعة العريش، ثم جاء الفرنسيون إلى هذه القلعة و كان فيها ألف و خمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية أيام، و لما فرغت مؤنتهم و بارودهم أرسلوا يطلبون الأمان، و أن يخرجوا من القلعة بغير سلاح، و بعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر و مهمات فبلغ بونابرت وصوله و ربطوا عليه الطريق و كبسوه ليلا و ذبحوا عساكره و لم يسلم منهم إلا القليل. و عندئذ أمر الجنرال دو كوا قائد مصر و وكيل بونابرت التجار أن تسير بالقوافل إلى الشام لينتفع بالمكاسب أصحاب التجارة و ينتفع سكان الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة.

و سار أمير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش إلى خان يونس و استخلص غزة من الغز عساكر الجزائر فوجد في غزة حواصل ذخيرة من بقسماط و شعير و أربعمائة قنطار بارود و اثني عشر مدفعا و مستودعا كبيرا من الخيام و القنابر.

و لما بلغ يافا بنى المتاريس أمامها و أرسل يطلب إلى حاميتها التسليم و كانت نحو ثمانية آلاف فأبت و قتلت الرسول فأدار عليها المدافع و قوى الصدام فقتل

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٣

من العسكر ما ينيف على خمسة آلاف و من أهالي البلد ألفتان و هجم الفرنسيون على المراكب التي في الميناء و أخذوا منها بضاعة ثمينه. و من الغد أطلق أمير الجيوش الأسارى و سرح الشاميين و المصريين و أمر بقتل الهواره و الأرنأود جميعا لأن بعضهم كان في قلعة العريش و حين أطلقهم أمرهم أن يذهبوا إلى بيوتهم فأتوا يافا و حاصروا بها فقتلهم و استبقى بعض الأغوات الكبار. وجد الفرنسيون في قلعة يافا ثمانين مدفعا و غنموا غنائم كثيرة من المراكب و غيرها.

وقائع نابليون على عكا و في مرج ابن عامر:

و سار بونابرت بالعسكر قاصدا مدينة عكا على طريق الجبال، و لما وصلوا إلى أرض قاقون كانت عساكر الجزائر و النابلسيون في الوادي، و حينما بلغهم قدوم الفرنسيين أخرجوا منهم من فم الوادي خمسمائة مقاتل و بدروا يرمحون تجاه العسكر و كان قصدهم أن يجروهم إلى ذلك الوادي، فلما علم أمير الجيوش مقصدهم قسم عساكره أثلاثا و نشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين و ولى الباقون منهزمين، و من الغد سار عسكر الفرنسيين إلى وادي الملح و كان بلغ الجزائر اقترابهم من تلك الديار فأرسل إلى حيفا فأحضر الذخائر الحربية و العسكر، و عندما وصل الفرنسيون إلى حيفا خرج أهاليها لمقابلتهم و سلموا أمير الجيوش مفاتيح البلد و القلعة، و

دخل الفرنسيون إلى حيفا فوجدوا بها قاربا صغيرا فيه جماعة من مراكب الإنكليز فأخذوهم أسرى، و بعد ذلك انتقل أمير الجيوش بالعساكر إلى مدينة عكا و نصبوا المضارب و الخيام في محل يقال له أبو عتبة، و بنوا المتاريس الحصينة و وضعوا فوقها المدافع و سار الجنرال كليبر و الجنرال منو إلى الناصرة و نصب حاكم إفرنسى على شفا عمرو و ابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ و دامت أربعة و عشرين ساعة و الجيش الفرنسى يضرب المدافع و القنابر، و المراكب العثمانية و الإنكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للناظرين و السامعين أن مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر، و هم الجزار أن يخرج فطمه
خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤

الإنكليز و قالوا له: إننا أسرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف أمرهم، ثم أسر الفرنسيون مركبين كانا قادمين من الإستانة فيهما ذخائر و مدافع و ستة و ثلاثون ألف دينار مرسله للجزار فسرى عن الفرنسيين، و حضر إلى أمير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر فرحب به و أعطاه السلاح و الكسوة و عشرة أكياس و كتب له أن يكون متوليا على مقاطعة أبيه. و حضر أيضا مشايخ بنى متوال فوسد إليهم حكم إقليمهم و ساروا من عند أمير الجيوش إلى صور و قدموا له الذخائر و تسلموا القلعة التي كانت لأبائهم.

و كان قد اجتمع من دمشق جند من المغاربة و الهوارة و العربان و الغز بلغوا ثلاثين ألف مقاتل بين فارس و راجل و انتهوا إلى مرج ابن عامر فبلغ كليبر خبرهم فسار إليهم في ألف و خمسمائة مقاتل، و حينما وصلوا و شاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم، و لم يزل الفرنسيون في أثرهم حتى وصلوا إلى أطراف المرج و من هناك أحاطوا بالفرنسيين من كل جانب، و لما رآهم القائد كليبر قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسمه منهم مدفع. شاهد أهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق و أن الفرنسيين إلى قله فبادروا و أخبروا أمير الجيوش فأحضر حالا القائد لترك و أمره بتحضير ثلاثة آلاف عسكرى و أخذوا معهم أربعة مدافع، و أمر الجنرال بونابرت أن يسيروا على وادى عبلين و بعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب أمير الجيوش و سار وراءهم طالبا أثرهم، و وصل في منتصف الليل بعسكره إلى بئر البدوية و عند الصباح سار بالعسكر إلى أن نفذ إلى مرج ابن عامر و صعد إلى تل عال فكشف أرض المرج و نظر إلى الجنرال كليبر في وسط البيداء و عساكر المسلمين محيطة به و الهجوم من كل ناحية و ليس لهم عليه سلطان، ثم شاهد جبلا بعيدا و عليه المضارب و الخيام و كان هذا جيش الغز، فنزل أمير الجيوش و عزل خمسمائة مقاتل، و أمرهم أن يقصدوا الجبل و يكبسوا الجيش و توجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم و أحاطوا بهم، و لما وصل أمير الجيوش إليهم ضرب مدفعا واحدا ثم ضرب القسم الثانى ثم الثالث و حينما سمعت العساكر المحاربة المدافع و رأوا قدوم النجدة و علموا أنهم صاروا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥

في وسطهم ولوا منهزمين، و لما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي إلى جينين و أمرهم أن ينهبوها و يحرقوها و أخرب قرى جبل نابلس لأنهم لم يطلبوا منه الأمان.

و لما بلغ أمير الجيوش قدوم عسكر دمشق إلى صفد أمر الجنرال مرات أن يسير بخمسمائة راكب فرحل بعسكر دمشق إلى جسر بنات يعقوب، و علم الجنرال منو و هو في الناصرة أن في مدينة طبرية عسكر الجزار فنشب القتال بينهم، فانكسر عسكر الجزار و انهزم بعد أن قتل منه مائتا جندي، و ظهر الطاعون في عسكر فرنسا فمات منهم خلق. و كانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل و النهار و هم يهجمون على الأسوار و القنابل تنهال عليهم كالمطر، و قد أهلكوا من العساكر الإسلامية و الإنكليزية خلقا كثيرا و هدموا أبراج عكا و أسوارها. و لما هلك بعض قواد الفرنسيين على أسوار عكا مع جملة صالحه من جندهم بدأ بونابرت يرجع إلى وطنه لأمر طراً على مركزه هناك.

و كانت إنكلترا أهاجت ملوك الفرنج على فرنسا فاضطر الفرنسيون أن يرجعوا عن عكا بعد أن فقدوا على سورها ثلاثة آلاف و

خمسائة جندي، و مات في الطاعون و على الطريق ما ينيف على ألف. و في ١١ ذى الحجة أمر أمير الجيوش بالقيام بجميع المضارب و الخيام و انتقل إلى مدينة حيفا و كان فيها عدة حواصل قطن للجزار فأمر بإحراقها. و سار إلى يافا فأخذ ما كان لهم من الأمتعة و المدافع الكبار و دفنوها في الرمال، و قد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية أربعة آلاف بندقية فألقوها في البحر و أحرقوا المراكب التي كانوا غنموها من المسلمين و أخذوا من فيها أسرى و سخروهم في نقل الجرحى و المرضى من عسكر الفرنسيين يحملونهم على ألواح خشب إلى مصر.

خطبات نابليون في الشام:

هذا ما رواه المؤرخ نقولا- الترك في دخول نابليون جنوب الشام و خروجه منها و ما وقع له من الوقائع و كانت مدة مقامه في الشام شهرين لم تستفد منها

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦

فرنسا سوى قتل بعض أبنائها، و كذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوى. و نابليون و إن عدّوه نابغة القواد في عصره أخطأ كثيرا في توسعه في فتوحه. و فتحه الشام و مصر من جملة خطيئته، و لم تربح أمته من حملتها على هذين القطرين إلا نشر مدنيتهما على أيدي من استصحبهم نابليون معه من العلماء و المهندسين و الطبيعيين، و كانت مصر مباءة علمهم و عبقريتهم. و قد أخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونايرت بأنه ارتكب قبل مغادرته يافا أمرا شنيعا لم يسبق في التاريخ و هو قتله الجرحى و المرضى من عساكره حتى لا- يعوقه في سيره. و في تاريخ فلسطين أن جنود الجزار في يافا يوم نابليون كانت مؤلفة من عرب و أتراك و مغاربة و أرناؤد و أكراد و جركس، فانسحبوا لما فتحها نابليون إلى بعض الخانات و أبوا التسليم قبل أن يؤمنهم على حياتهم فأجابهم القائد الفرنسي إلى طلبهم فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر. و لما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التي سلمت إليه أمانا و قبلهم حقنا للدماء فبهت و حار في أمره و قال: ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا؛ و من يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال و النساء و الشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين، ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالقوه و لكنه أصر على رأيه و أمر بهم فقتلوا رميا بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩هـ.

و يقول مشاقه: إن بونايرت أمر قبل أن يغادر يافا إلى عكا بقتل الأسرى الذين وقعوا في قبضته ثلاثا: في العريش و في غزة و في يافا، و كان يطلق سراحهم كل مرة بعد أن يأخذ عليهم العهود أن لا- يعودوا إلى قتاله، و لما أسرهم هذه المرة و عددهم يربو على ثلاثة آلاف حتى عليهم و علم أنهم لا يراعون ذمة و لا يحترمون الشرف العسكري، فأمر جنوده بإطلاق النار عليهم و لم يواروهم التراب، و بقيت أجسامهم طعاما للطيور، و ظلت رفاتهم مكشوفة مدة ١٥.

و هذا السبب معقول و له من القوانين الحربية ما يشفع به بعض الشيء أكثر من الرواية الأولى. و انتقد مسترمان على نابليون ذبحه حامية يافا و كانت مؤلفة من أربعة آلاف أرناؤدي و وضعه السم لجنوده لدن عودته لأنهم أصيبوا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٧

بالطاعون. و في رواية أنه وجد فيها ألفين من الأسرى الذين أطلقهم و كانوا عاهدوه في العريش ألا يحاربوه فقتلهم و الحرب غشوم. و قال مشاقه: إن بونايرت بعد أن فرق جموع الأتراك على الحدود السورية أرسل كتابا إلى الجزار ينصح له أن يجنح معه إلى السلم فلم يتنازل الجزار إلى إجابته، فأرسل إليه رسولا ثانيا فقتله الجزار فحقق نابليون و تقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل إلى غزة، و هزم من رجال الجزار أربعة آلاف فارس، و أسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية، و دخلت رجال نابليون يافا، و تصرفت بما عثرت عليه من مال و متاع، و هذه هي المرة الأولى و الأخيرة التي سمح بها نابليون لرجالها بالتصرف و التمتع بمال

المغلوب و أملاكه. و قال الشهابي: إن العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة أيام و ملكوها بالسيف، و كان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر ألفا فما سلم منه إلا القليل، و قتل كثير من النساء و الأولاد حتى جرى الدم فى أسواق يافا، و أرسلت دمشق عشرين ألف جندي إلى عكا فالتقاها ألف جندي من الفرنج و كسروها و قتلوا منها مقتلة عظيمة.

و لما جاءت الأخبار إلى دمشق بأن عسكر الجزائر و عسكر الإنكليز قتلوا من جند نابوليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق و ضربت المدافع من قلعتها، و قد أصيبت الأقاليم التي وقعت فيها تلك الوقائع و ما إليها بالخراب، و من أهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيين (١٢١٣) مدينة صغد و عملوا المنكرات أثناء طريقهم.

فأصيبت فلسطين هذه المرة بغوائل كانت سواحل فينيقية و أعمالها تصاب بمثلها أو أكثر منها فى القرنين الماضيين. و أصبحت مثل هذه الوقائع فى هذا الجزء من الشام أى فى اللبانيين الغربى و الشرقى و ما جاورهما من الأمور العادية، و ما ذلك إلا لقيام أمثال بنى حمادة و بنى معن و بنى حرفوش و بنى شهاب ممن كانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر كبار الأمراء و هم صغار بمواقعهم و نقص تربيتهم الحربية و ضعف أخلاقهم و قلّة معارفهم، فكانوا بمقاومتهم (٣-٢)

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨

بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم، و يهلكون من أخذوا على أنفسهم حمايتهم من ضعاف السكان.

حال الشام بعد رحيل نابليون عنه:

كان يظن بعد رحيل نابليون و معاونة الإنكليز للدولة العثمانية على إخراجه من الشام، أن الدولة تبدل شيئا من أصول إدارتها و ترجع عن استسلامها لعمالها الذين يجبون الجبايات و يرضونها بجزء منها و يحتفظون بالباقي لأنفسهم. و لكن الأحوال بقيت بحالها، و ظن الجزائر نفسه أنه هو الذى دفع جيش نابليون عن الشام، فعاد يمثل مظالمه و يحمل على الناس مغارمه، و يتناول استبداده المسلمين و النصرارى و اليهود على السواء، و جنونه فنون.

و لم يكف فلسطين ما حلّ بها من ظلم الجزائر ثم وقائع نابليون حتى قام محمد باشا أبو المرق يسومها العسف و الخسف، يجور على أهل بيت المقدس و الخليل و غزة و الرملة ولدّ، حتى اضطرت السادات الأشراف الأبرياء لكثرة مظالمه أن يبيعوا أولادهم كما تباع العبيد و الجوارى على ما ذكر ذلك أحمد باشا الجزائر فى كتاب صدر عنه سنة ١٢١٧ إلى وكيله فى دمشق.

و من أحداث هذا الدور نهب العسكر الدمشقى (١٢١٤) جميع القرى فى طريقه إلى غزير فى لبنان، و تفرقت عساكر الدولة فى ضياع كسروان و نهبوا كل ما وجدوه و ذلك للضرب على أيدي الأمير بشير الذى كان على ما يظهر يحاول أن يأكل الخراج، و لذلك قاتله جيش الدولة (١٢١٥) مرة أخرى لما جاء إلى نواحي بعبدا فى لبنان و قتل من أدركه فى المتن، و رجع بشير إلى عاريا و كان عسكر الدولة أحرق عدة بيوت من بعبدا و الحدث و سبى النساء و قتل العجائز و الأولاد فاجتمع معه أربعة و خمسون رأسا من القتلى فأرسلوها إلى الجزائر و نهبوا أموالا و مواشى و أحرقوا عاريا. و ذهب والى دمشق سنة ١٢١٧ إلى حماة و فتحها و بالغ فى الظلم حتى فر غالب أهالى حماة عن بلدهم اتقاء شره، و تفرقوا فى دمشق و حلب و طرابلس و أصبحت حماة كالقريه لقلّة سكانها.

خطط الشام، ج٣، ص: ١٩

قال ابن آق بيق: و فى سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم و إكراميه الباشا من البلاد و اشتغل حسن آغا بالظلم فى دمشق و إرهاب القرى بالطروحة و الإكراميات و فرض الذخائر و معاونة الجردة و غير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها أثر فى السابق قال: و لما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصدا إلى طرابلس ليحارب أهلها، و ضرب عسكره بعض القرى و نهبها و ظلوا على هذا التخريب حتى بلغوا طرابلس فحاصرها و خرج أهلها هائمين على وجوههم و وقع القتال بين عسكره و عسكر المتسلم و قتل من الفريقين خلق. و كان أحمد باشا الجزائر يرسل النجدات إلى عبد الله باشا العظم.

وقال أيضا: إن الجزائر كان يطلب من الأغنياء أموالا يأخذها منهم بعد الحبس و الضرب و بقى الطرح على جميع الأصناف و أغلقت الدكاكين بدمشق و بات الناس فى كرب و العسكر يحيط بالبلد، و الأكراد و الشيخ طه الكردي و جنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقروا لهم بالأموال، و الطرح على الخلق أشكال و ضروب من بنّ و تنباك و ألأجه و حرير و شاشات و زنانير و استصفاء بيوت و خانات و بساتين و غير ذلك، و ظهر فى دار ابن عقيل و كيل الجزائر بدمشق طمائر ذهب قدرت بنحو خمسمائة كيس. و لم يكن يمر يوم دون أن يقبض على أربعة أو خمسة من أرباب الوجاهة و الثروة يسجنون فى سجن القلعة و يعذبهم أكراد الجزائر بالكماشات و الحديد و العصى إلى أن يشرف المعدّبون على الموت و يشتط العمال فى طلب المال من المصادرين و يطوفون بهم فى المدينة، فيضطرون إلى بيع جميع ما يملكون ليكفّ عنهم، و وصلت الحال بالأغنياء إلى التسوّل، و كان قتل النفوس على الأكثر فى سبيل أخذ المال مشروعا كان أو غير مشروع. فقد حدثت فتنة طفيفة بين ملتزم أموال بلاد بشارة، فأرسل الجزائر على العصاة عسكريا قتلوا منهم ما ينيف على ثلاثمائة رجل و أسروا عدة، و أرسلوهم إلى عكا جعلوا على الأوتاد ثم أخذ الجزائر أموالا جزيلة من السكان.

و من الحوادث فى أيام عبد الله باشا العظم بدمشق أن القبوقول قصدوا إثارة فتنة (١٢١٤) فأغلق آغا القلعة بابها، و حاصره الباشا فاضطر إلى التسليم بعد مدة، فقتل آغا القلعة و همدت الفتنة، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٠

مصطفى بربر متسلم طرابلس و حاصر قلعتها بشدة، و طال الأمر فالتجأ بربر إلى الجزائر فسكت و لم يجبه لأنه كان يفاوض الإستانة لأخذ ولاية دمشق، و بينا الحال مشتدة على بربر و عبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزائر إلى وكيله بدمشق محمد بن عقيل ألقى جندى و أمره أن يقبض على عبد الرحمن المرادى و حسن دفتردار المتسلم و ابن سبيح متسلم حمص و يقتلهم حالا- و نادوا باسم الجزائر واليا. فبلغ ذلك عبد الله باشا و علم أن الدولة متغيرة عليه، فخاف كثيرا و هام على وجهه فى البادية يختبئ عند العرب. أما بربر طرابلس فرضى عنه الجزائر و أقره متسلما على بلده، ثم لامت الدولة الجزائر على ما أتاه من قتل ابن المرادى كما يقتل العامة فتخلص الجزائر مما أتاه و ألقى تبعه قتله على وكيله ابن عقيل و قطعه إربا مع أن الجزائر هو الذى أمره خطا بقتله.

مساوىء أحكام الجزائر:

توفى الجزائر سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) بعد أن ضرب الأهالى ضربة لم تصب بمثلها منذ أزمان. أصله بشناقى من جماعة على بك أمير مصر هرب إلى الشام لما قتل مولاه، و أقام يختلف إلى لبنان فاطلع على أحواله و أحوال الديار التى كانت تحت حكم الظاهر عمر من أرض الجليل. ثم توجه إلى الإستانة فعين وزيرا على صيدا أولا و حصن عكا و رفع عن بيروت حكم بيت شهاب و ضبط أملاكهم. و كان أحمد البشناقى هذا جزارا سفاكا لأنه لما كان كاشف البحيرة فى مصر عهد إليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من المماليك فأسرف فى القتل فلعب بالجزار. و لا غرو فالدّم البشرى فى نظر أحمد باشا الجزائر، كدم الخرفان فى نظر القصاب و الجزار. هاج المماليك على الجزائر مرة يريدون قتله فيما يقال و لو لا حذره الشديد لقتل، و تحصنوا فى برج داخل عكا فطلبوا الأمان، و لما علم أن خيانتهم كانت بالاتفاق مع بعض سراريه غضب عليهم جميعا و خنقهم بالماء الحار. حج الجزائر مرة بالناس فلما عاد ترامى إلى سمعه اتهام مماليكه بحريمه فلم يلبث أن أرسل المماليك فى حملة على لبنان و أوقد نارا كبيرة فى داره، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢١

أخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة و يطرحها فى النار على وجهها، و يدوس على ظهرها و يضغط على رأسها، حتى يتم شيها فى النار و تهلك فيرفعها و يحضر غيرها، و على هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزائر سبعا و ثلاثين امرأة و لم تنج غير فتاة فى الثامنة من عمرها.

كان الجزار يقتل الكبير والصغير من وزراء وأندية و علماء و أغوات، و يرضى السلطان بالمال و يداريه فيتغاضى عنه، و كان إذا عامل أحد المغضوب عليهم بالرفق و عزف عن قتله يجذم أنفه، ثم يصلم أذنه اليمنى ثم يقلع عينه اليمنى و لو كان من خواص خدامه. و كم من بيت خربه بسلب ماله ظلما، و كم من رجل قتله بعد أن صادره، و كان لا ذمة له و لا ذمام، خدمه رجال من بيوت معروفة فلما بدا له قتلهم و صادرهم و اختلق لهم ذنوبا و ألقاهم فى البحر. و لقد أكرمه الأمير يوسف الشهابى حاكم لبنان لما كان الجزار صعلوكا متشردا لأول أمره و عاونه لما أصبح واليا، فكانت النتيجة أن شنقه و ألقاه ثلاثة أيام معلقا، و لطلما أخذ النوتية و الركاب فى مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجيء الفرنسيين إليها، و قتل جميع من فيها من أبناء مصر أو الشام و صادر جميع ما يحملون من البضائع.

تفنن الجزار فى إهراق الدماء و حكم المؤرخين عليه:

و كان من عادة الجزار بعد أن يصادر المصادرين أن يقتلهم كما فعل سنة ١٢٠٥ فقبض فى دمشق على أولاد عبيد و أخذ منهم ستين ألف قرش ففروا إلى حلب ثم قبض على ثلاثين من أتباعه و سجنهم فى القلعة ففدوا أنفسهم بمائتين و خمسين ألف قرش ثم قتلهم ليلا، و قبض على خازن أمواله و أسبابه و نفاه إلى مصر، و قبض على مفتى عكا و إمامها و على رئيس مينائها فقتلهم صبورا. و ظلم جميع أكابر دمشق و سلب أموالهم.

و خرج ذات يوم فى عكا قبل الشمس إلى باب السراى و أمر بإغلاق أبواب المدينة و قبض على كثيرين من العمال و الكتاب و الأهالى فسجنهم، و كانوا مائتين و ثلاثين إنسانا و قبض على النواب و سجنهم، و كان كلما تقدم إليه خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢

إنسان يكشف رأسه و ينظر فى وجهه فالذى يقول فيه نيشان يرجعونه إلى السجن، و الذى يقول ما فيه نيشان يطلق، ثم إنه أحضر الفعلية أيضا و صنع بهم كذلك و قبض منهم جملة و أحضر التجار و أرباب الصنائع و الحمالين و على هذا المنوال عامل الجميع فامتألت السجون، و من الغد أحضر المغاربة و أمر أن يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد و يقتلهم ففعلوا ما أمرهم به؛ قال مدون وقائعه: و كان يوما عصيبا لم تكن تسمع فيه إلّا صراخ المقتولين ظلما و عويلهم و أنينهم، و بقى القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد، ثم أمر أن ينادى المنادى فى شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم، و أشار إلى أن كل امرأة ترفع صوتها تقتل حالا، فخرج الناس و دفنوا القتلى. ثم ابتداء يرسل جنوده يقبضون على الفلاحين و مشايخ القرى و أصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله و منهم من يصلم أذنه و يجذع أنفه و يطلقهم.

و لم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزار فى قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب و لعله أصيب بمس من الجنون أو ان جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الأرواح، و إن امتاز فى أدوار حياته بالسفك و الفتك. و ذكر المؤرخون أن الجزار قبيل وفاته أمر أن يغرقوا من كان فى سجنه فى البحر فنفذ أمره.

و فى التاريخ العام أن الجزار أوقد جذوة التعصب بين المسلمين فى بيروت و أغراهم بقتل الموارنة حتى يضمن حكمه على بيروت. و لم يكن يعرف فيما إذا كان الجزار خادما مخلصا للسلطان أو عاصيا وقحا. و كان كثيرا ما تجيئه رسل جاويشية من الإستانة تحمل إليه بعض الأوامر فيجز رأس القادم و يبعث به إلى ديوان الإستانة، و هناك يغدق الذهب على الوزراء و الخصيان و نساء الحرم السلطاني. و كثيرا ما كان يقول و هو فى حال السكر للمسيو دى تولىس: السلطان كالبنات يعطى نفسه لمن يعطيه أكثر، فإذا حاول أن يقاومنى فأنا أردته إلى الصواب بأن أهيح عليه مصر و الشام و آسيا الصغرى، و أزحف على الإستانة فى جيش «القابسز» و أكون قادرا مثل لويس الكبير امبراطور فرنسا.

و قد وصف مشاقه الجزار و صفا معقولا قال فيه: إنه كان داهية ذا بأس و حنكة واسعة، سلمت إليه الدولة إدارة شؤون إيلاتها و عولت

عليه في

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣

إخضاع الشام وضمه تحت جناحها، على طريقة الغدر والخداع وإلقاء الفتن والحروب الأهلية بين الأمراء والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف و يسومونهم الذل أنواعا والظلم أشكالاً، و شريعة الرجل منهم إرادته السخيفة، والحاكم يشنق و يقتل و يشوه أخلاق الشعب، و كأن الحال قيضت لهم رجلا- كالجزار ينتقم منهم، و كان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية و الحروب الأهلية يكرهون العدل و يعشقون الظلم، لا يرحمون ضعيفا و لا قريبا، و لم تكن معاملة الجزار للأمرير يوسف أقسى من معاملة هذا الأمرير لأنسبائه و إن ما لحقه من الجزار هو مما يستحقه. و قس على الأمرير بقية المشايخ و الأمراء الذين كانوا يستيحيون أموال الرعية و أعراضهم في سبيل أهوائهم.

قال إن الجزار ظلم و لكنه خدم الدولة و الشعب، و عادت خدماته على الدولة بالنفع فأخضع القطر لشوكتها فأطاع، و رد عنها بثباته أمام نابوليون خطرا كان يهددها يوم حصار عكا، و أفاد الرعية بأن أزال عنهم ضغط المشايخ و الأمراء المستبدين فكان جوره بالنسبة لجور الأمراء و المشايخ قبله أقل وطأة.

و لما جاءهم وضع حدا لظلمهم و زعزع سلطتهم و أرغم أنوفهم و أطلق الفلاح من عقالهم. و على الجملة فإنه عمل بما يوافق عصره و ينطبق على أبنائه، فبموته سرى عمن كان غضبه يهددهم و يوشك أن يوقع بهم. و قال إن الجزار على قبح أعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها، فيحبس علماء المسلمين و قسوس النصارى و حاخامى اليهود و عقال الدروز سوية، و هكذا فى إجراء العذابات الجهنمية عليهم لا- يفرق بينهم، و أكبر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن أداء الأموال التى يطلبها منهم و ربما نشأ تلكؤهم من عجزهم.

و قال إن الجزار كان يتأخر عن دفع الأموال الواجب عليه أداؤها للسلطنة و يعتذر عن الدفع بأنه محتاج إلى العساكر لإدخال لبنان فى الطاعة، فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة و كتبوا له أن المدء طالت و يظهر أنك غير قادر على تمهيدته، فلذلك صممت الدولة على إرسال وزير مقتدر بعساكر كافية لإخضاع لبنان لسطوتها فكان جوابه أنى بعد أيام قليلة إن شاء الله أبشركم بفتحته لأنه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة، و قد منعنا وصول الذخائر إليهم من البقاع و السواحل و هم لا يقدررون على العيش بدونها، لان أراضي الجبل قليلة بالنسبة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤

لسكانه. و بعد مدء و جيزة بشر الدولة بشارء كاذبة مع الساعى فادعى أنه فتح الجبل و أنه وجد فيه من السكان النصارى مائة و عشرين ألف رجل و من الدروز ستين ألفا و من الشيعة ثلاثين ألفا و مثلهم من السنة، فأتحفته الدولة بسيف مجوهر و مدحته على همته، و أرسلت إليه بعد مدء أوراق جزية النصارى المعتادة و زادوا عليها مائة و عشرين ألف ورقة برسم نصارى لبنان، فسقط فى يد الجزار و استدعى المعلم حايمم فارحى مدير خزائنه و استطلعه طلع رأيه فى هذه القضية فأجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزانتك لما عرضته للدولة عن فتح الجبل و عن عدد النصارى فيه. ثم نظرت فى هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الأوراق. و بعد أشهر أرسل بشارء للدولة بأن نصارى الجبل دخلوا فى الإسلام. و لما دخلت السنة الثانية أرسلت الدولة للجزار أوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فأرجع الزيادة بقوله: إن نصارى لبنان تقدم العرض عن دخولهم فى الإسلام و ارتفعت عنهم الجزية شرعا. قال: و هكذا كانت أمور الدولة فى ذاك العهد تجرى بلا تحقيق فى صحة ما يعرضه عليها مأمورها.

و لما هلك الجزار أرسلت الدولة راغب أفندى الذى صار واليا على حلب بعد ذلك لضبط متروكاته، و كانت قوانين الدولة يومئذ تقضى بأن يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من أملاك و أموال و عروض، فحررت التركة مع سندات الأموال التى كان يحررها على الأمراء و المشايخ عدا الأموال الأميرية، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة، و لما رأوا أنها وافرة و أنه من المتعذر تحصيلها

جعلوها مقسطة على رعايا أولئك الأمراء و المشايخ على عدة سنين، فكان لبنان يدفع المال مضاعفا، فالمال الواحد يبلغ أربعمائة كيس و كان يجبي من لبنان مال الجوالى على النصارى و مال فريضة على الدروز، فكان القسط الواجب على اللبانيين أداؤه من مطلوبات الجزائر يبلغ مقدار ستة أموال أميرية و صار الأهالى يدفعون كل سنة مالىن.

و لم يعلم ما خلف الجزائر من الأموال بعد حكم تسع و عشرين سنة و لكن الذى قاله المؤرخون أن أحد رجاله الشيخ طه الكردي أخذ ألف كيس و أرسلت الدولة رجلين من الإستانة للبحث عن موجوده، فما رأوا شيئا مهما غير ما كان أرسله إسماعيل باشا للدولة مع القبطان باشى فى أول الأمر من مال

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥

و تحف، يقال إنها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد أن إسماعيل باشا صرف أموالا كثيرة على العساكر و الأغوات، و على كل فهى قليلة بالنسبة لطول عهده، و الغالب أنه كان معتدلا فى أخذ المال غير اعتداله فى سفك دماء الرجال، أو أنه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاعت عند و كلاته و خواصه.

قاعدة المبالغة فى الثروة و الفقر، و الظلم و العدل، و العلم و الجهل، و القبح و الجمال تناولت أعمال الجزائر أيضا، و لو كان فى قلبه بعض رحمة و عزوف عن سفك الدم الحرام إلا بما تقضى به الشريعة لعد مصلح عصره قياسا مع الصفات التى أوردتها مشاقفة. لا جرم أن التبعة فى بعض أعماله تعود على عماله و رجاله، و أكثرهم من أبناء هذه الديار.

المتغلب على الأحكام بعد الجزائر:

خرج الشام بعد هلاك الجزائر مقلّم الأظفار، معروق العظام، بل مقطع الأوصال، سىء الحال، و أحدث موته فراغا ففقدت به الدولة أعظم قوة تمثلها و نفس بهلاكه خناق أرباب المقاطعات المتغلبين من الأعيان، و كان فى سجن الجزائر فى عكا رجل يقال له إسماعيل باشا أرناؤطى الأصل، و أصله من جملة عساكر الوزير الأعظم حين حضر إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين. و لما قام الفرنج على المسلمين و أخرجوهم من مصر و تشتت العساكر فى تلك الأقطار قصد إسماعيل باشا أحمد باشا الجزائر، فدعاه إلى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا أبو المرق فقبض عليه الجزائر و سجنه و عذبه، كما كان يفعل بمن يقبض عليه و بقى فى سجن الجزائر إلى أن هلك هذا، فخرج إسماعيل باشا من محبسه و جعل مكان الجزائر فاستولى على متروكاته حتى اضطرت الدولة إلى قتاله لعصيانه فى قلعة عكا و أرسلت عليه حملة و دام الحصار أربعة أشهر حتى أخذ و قتل فاستراحت الأمة من أحمد الجزائر و من خلفه.

و عصا أهل وادى التيم فأرسل عليهم إسماعيل باشا جندا كبس القرى و قتلوا زهاء مائتى قتيل و أخذوا مائتى أسير، و كبس الأمير بشير جنبلاط

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦

بعساكر الدرور بعض قرى عكا و قتل من عساكر إبراهيم باشا جماعة، و إبراهيم باشا هو إبراهيم باشا الحلبي الذى نصبته الدولة مرة ثانية على دمشق و كان واليا على حلب. و كان حدث بموت الجزائر اضطراب و خلت دمشق من الأحكام، فمهد الأمور و عهدت إليه الدولة مع ولاية دمشق بصيدا و طرابلس و أوعزت إلى الأمير بشير الشهابى حاكم الجبل أن يكون فى طاعة إبراهيم باشا و عون له على إصلاح حال صيدا و الساحل، فصدع والى الجبل بالأمر لأنه كان داهية يراعى الدولة و لا يتأخر عن قضاء لباناتها، و لا سيما الخراج و الجزية يؤديهما فى أوقاتها.

حاولت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس و ظلّ فى منصبه يسوم الناس مظالمه، و ما لبث خصمه اللدود عبد الله باشا العظم أن تولى دمشق للمرة الثالثة بعد أن كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزائر و شردته فى البادية و لكنه دعاها إلى الرضى عنه و داوها بما تداوى به فى العادة بأكياس من الذهب. و خرج عبد الله باشا من دمشق بالمحمل (١٢٢٠) فحدثت بينه و بين

الوهابيين أمور عظيمة، و كانوا قد استولوا على الحجاز و تقدموا إلى الشام فهلك غالب عسكره و انتهب الحاج. عين سليمان باشا الكرجي من مماليك الجزائر واليا على عكا فأقام حاكما على يافا و على غزة محمد آغا أبو نبوت أحد مماليك الجزائر، و بقي حاكمها إلى أن طمع بالاستقلال فيها، و عندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فهرب إلى مصر ثم إلى الإستانة و شفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة.

و سليمان باشا هو الذي أراد أن يرفع بعض المظالم عن الرعايا و يحملها على الأجانب في عكا كأن يبيع الغلات و القطن و الزيت من الأجانب فقط، تبتاع الحكومة ما يفضل عن عوز الأهلين و تخزنه في مخازن لها تبعه من التجار الأجانب القادمين في مراكبهم بالأسعار التي تريدها.

و من الأحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنة بين العسكر الوطنيين و جند الحرس في دمشق، فحاصرت القلعة و أغلقت المدينة كلها، و وضعت المتاريس داخل المدينة، و جرت بين العسكرين حرب المتاريس في الأزقة و الشوارع و السطوح و الأسواق و المآذن فغلب الوطنيون الحرس و كسروهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٧

و هزموهم إلى مأذنة الشحم ثم ارتدوا عليهم و أخذوا طالع الفضة، و نهب الخلق تلك الجهة كلها، وراح الحرس مكسورين ثم عادوا و هزموا الوطنيين عند الشيخ عمود فنال الفريقان أحدهما من الآخر على غير طائل. و لم يقف شقاء دمشق عند حد التقاتل بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا (١٢٢٢) في ظلم الناس و أراد ستر ذنوبه فأرسل إلى الدولة ألف كيس من المال لإنعامها عليه بإمارة الحج و إيالة طرابلس مع ولاية دمشق و ذهب إلى نابلس و قهر أهلها و جبي منهم أموالا عظيمة ثم ذهب إلى جبل النصيريين و قاتلهم و انتصر عليهم و سبي نساءهم و أولادهم، و كان خيرهم بين الدخول في مذهب أهل السنة و الخروج من جبالهم فامتنعوا و حاربوا و خذلوا، و بيعت نساؤهم و أولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا التسنن فعفا عنهم و تركهم في أرضهم بعد أن حاربهم شهرين و نهب قراهم، ثم رحل إلى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلمها، فتحصن هذا في القلعة فوق القتال، و كان الحصار أحد عشر شهرا و طرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها و قد جمعوا في الخانات سلعهم و متاعهم و ماعونهم، ثم دخل يوسف باشا البلد و أطلق لعسكره الأكراد و الأرناؤد و غيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها و أنزل عسكره في الدور فخربوها بأخذ خشبها للدفع و الوقود. و توسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر و تسلم يوسف باشا القلعة. و كان مصطفى بربر من خدام الأمير حسن أخى الأمير بشير فتوصل بذكائه و شجاعته إلى المناصب العالية و حاز اعتبار الوزراء و خشية الرعية.

مقتل سليم الثالث و مصطفى الرابع و تولى محمود الثانى:

في غضون سنة ١٢٢١ خلع سليم الثالث بيد الإنكشارية و قتل لأنه أراد أن ينفذ خطة في إصلاح الإدارة على الرغم من حروبه مع روسيا و النمسا و غيرهما من دول الغرب، و ينشئ عسكرا جديدا يستعيز به عن الإنكشارية و كان هذا السلطان واسع النظر لكن الدهر خانه فلم يقدر أن يطبق إصلاحه،

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٨

و كان أراد أن يخفق علم التمدن الأوربي فوق مملكته فاستدعى إليه من فرنسا ضباطا و مهندسين و رجالا من أرباب الصناعات فجاءه العدد الكثير منهم.

و خلفه مصطفى الرابع فألغى جميع خطط الإصلاح، و لكنه قتل كما قتل سلفه سليم و لم يطل عهده أكثر من أربعة عشر شهرا، و خلفه محمود الثانى (١٢٢٣) متشعبا بروح إصلاح سليم الثالث، يريد إخراج الدولة من سباتها، معتقدا أنه لا سبيل إلى نجاتها إلا بإيجاد قوة لها من غير عسكر الإنكشارية الذين عراهم الانحلال منذ مئة سنة، و أصبحوا يقتلون الملوك و الوزراء و يخونون الدولة في ساحات

الوغي، و يعثون بشغهم و مؤامراتهم بكيان الدولة، ذاهبا إلى أن من جملة الأسباب في بقاء الدولة أن يقلمد الفرنج في منحهم و عاداتهم.

و هو الذي لبس الطربوش و الألبسة الغربية. و أخذ يقيم الحفلات و المراقص و حفلات السماع على الطريقة الأوربية. و في سنة ١٢٢٣ م بلاد النصيريين طبيب إنكليزي فقتله الرعاع هناك، فصدرت الأوامر بالقبض على القتل فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكريا بزعامه مصطفى بربر فاكتسح ديارهم و قتل سبعين رجلا من كبارهم، وحشا رؤوسهم تبنا و بعث بها إلى الباشا، ثم امتنع النصيرية عن أداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم و قتل خمسة و أربعين من رجالاتهم فأخلدوا إلى الطاعة. و كان من مقتل الطبيب وسيلة إلى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن أصبح فيه شغل الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين.

و في سنة ١٢٢٤ قوى الاختلاف بين والي دمشق و ابن الشهابي و ابن جنبلط و كانا استوليا على أملاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع أحد في تلك الأرجاء. و كان الوهابيون قد استولوا خلال هذه المدة على الحجاز و أخذوا يجاذبون عمال الدولة جبل السلطة في الأرجاء التي بين الحجاز و الشام.

و ذكر بعض المؤرخين أنهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ أفعالا- بربرية من سبي النساء و قتل الأطفال و نهب الأموال و إحراق المنازل و الغلال حتى قيل إنهم أتلفوا نحو ثلاثة آلاف ألف درهم و في تاريخ نجد (١٢٢٥) أن سعودا اجتاز بالقرى التي حول المزيريب و بصرى فهبت الجموع ما وجدوا فيها من

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٩

المتاع و شعلوا فيها النيران ثم رجع إلى وطنه و معه غنائم كثيرة من الخيل و المتاع و الأثاث و الطعام و قتل من أهل الشام عدة. و ساق والي دمشق يوسف باشما حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس و استنجد بالأمير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم ينجده معتذرا بفتن النصيرية و الإسماعيلية و أن الجند اللبناني مضطروا أن يربطوا في الجبل، فنال والي دمشق من متغلب طرابلس بالإجاعة و طول الحصار.

فتنة كنج يوسف باشا:

صدر الأمر السلطاني في سنة ١٢٢٥ إلى سليمان باشا والي صيدا أن يقتل والي دمشق كنج يوسف باشا و يصادر أمواله. لأن يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود و رأى كما قال جودت، اشتغال الدولة بمشاكلها الداخلية و الخارجية فرصة لادخار المال، و أكثر من الاعتداء على الأهلين و ظلمهم، و اختلس زيادة على هذا أموالا كثيرة من مرتبات الحج. و مما قاله السلطان لوالي صيدا في أمره الصادر بهذا الشأن: إنني آمل منك صداقة و حسن خدمة لأنك تربية الغازي الجزائر أحمد باشا حتى لا يقال إن هذا راح و لم يخلف إنسانا!. و معنى ذلك أن الدولة كانت راضية عن الجزائر إذا ذكرته تذكره بأنه مثال رجالها الأمان، و ما ذلك إلا لأنه كان يؤدي لها الخراج في الجملة و يقاتل أعداءها و يرشى جماعة الإستانة بالمال على الدوام. أما سوء سيرته في الرعية و ظلمهم و تفتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجل، بل يجب على العمال أن يتقبلوا مثاله.

و لما جاء سليمان باشا في جند من الدروز و غيرهم لأخذ دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لواليهم القديم، و وقع القتال في أرض الجديدة و داريا، فانهزم الدمشقيون و ظفر العسكر اللبناني و العكاوي و قتل كثير من الدمشقيين. و في هذه الواقعة يقول المعلم نقولا الترك في مدح الأمير بشير:

و خاض غمار الحرب تحمل خلفه ثلاثة آلاف وصول و تخطر

فلاقته فرسان المنيا مغيرة تنادي على الباغين: الله أكبر

خطط الشام، ج٣، ص: ٣٠ و ثار الوغى و السيف قد قارع القناو غطى الفريقين الغبار المكدر

فولى على أعقابه كل ظالم و فى سهل داريا الأعادى تقهقروا

و كم من سراياهم ترامت جماجم كأوراق أشجار على الأرض تنثر

و كان والى دمشق القديم قد جمع أمواله فبلغت كما قيل اثنى عشر صندوقا من الذهب و عشرة أحمال من الفضة، فتعرض بعض الجند لجماعته أثناء خروجهم ليلا من السراى، فأفلت هو و وقع المال فى أيدي الجند و العامه، فتقاسموه و اغتنى أناس من هذه الغارة على أموال الوالى التى سببت نكبته، و جمعها من أموال الدولة و دماء الأمة، و توجه يوسف باشا كنج إلى مصر فتوسط له محمد على الكبير بالعمو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالى السابق من الأموال فى دمشق بعد أن نهب ما نهب، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافى الصابون و بعض أشياء كان يتجر بها.

سليمان باشا و أمراء راشيا و كوائن حلب:

و عدّ مشاقه من حسنات سليمان باشا ضمه إقليم البلان إلى ولاية دمشق بعد أن كان مستقلا تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين قال و ذلك لأن حكام ذلك الإقليم مستبدون، و كانت الأهالى تقاسى عذابا و جورا لا يطاقان، و الأمراء يدفعون عن الإقليم مالا معلوما لحفظ استقلالهم به و براشيا معا، و الحكومة مشطورة مع الأهالى إلى شطرين حزب يناصر الأمير فندى و آخر الأمير منصورا، و كان كل واحد منهما يراقب الآخر و يترصد الفرص ليفتك به، فيحتاج كل منهما بالطبع إلى عصابة و مال و حاشية. و قد أثنى مشاقه على سليمان باشا و قال: إنه خدم الدولة و الرعية خمسة عشر عاما بالعدل و الأمانة، و كان الأسف عليه عاما حتى شعرت الدولة بفقده (١٨١٩ م) و قال: لما سلبت بلاد بشاره من أيدي مشايخها كثرت التعديات و اضطرت حكومة صيدا إلى وضع عساكر كثيرة، فلما جاء سليمان باشا الكرجى واليا على عكا اقتصر على مائتى جندى من المشاة و خمسمائة فارس و أربعمائه خيال من الهواره يتبعهم مشاة ضبطية فى باب السراى و جماعة المدفعيين على أسوار المدينة و أقام فى كل بلدة من المدفعيين و الضابطه كفايتها.

خطط الشام، ج٣، ص: ٣١

و سليمان باشا من مماليك الجزائر اشترك مع سليم باشا فى حرب الجزائر، و لما أفسد الجزائر هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا و سليمان باشا، إلا أن هذا عاد إلى مولاه تائبا فوجه عليه متسلمية صيدا. و كان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية و يحمى من يعينهم من جماعته و لا يسمع فيهم كلاما، و إذا عين أحدهم لا يرفعه مهما وقعت عليه من الشكاوى، و إذا توفى أحد خدامه مسلما كان أو مسيحيا يضع ولده مكانه إن كان له ولد و يجرى عليه رزقه و إن كان لا ولد له يدّر راتبا على عياله، و كان يعطى كل واحد من خدام بابه على حسب حاله من القرش إلى العشرة قروش كل يوم، و هذا الأكبر ما يكون من أرباب الوظائف. قال العورا مدون و قائعه: و كان عنده لما مات ٢٢ «دعبولة» فى كل دعبولة ألف كيس ريال فرنسا (كل ريال بأربعة قروش) عدا ما كان تحت يد صرافه حاييم و أخيه موسى و هو يربو على اثنى عشر ألف كيس و عدا الديون التى للخزينه على تجار عكا و بيروت و ما عند حريمه من الجواهر و التحف و خلا ما عنده من الغلات و الكراع.

هذا الرجل الذى خلف هذه الثروة و ما ذلك بالأمر المستنكر على ولاة عصره، كان يتبجح بكلام العادلين و المصلحين مع أفراد من حاشيته و من يغشون مجلسه، ليدل على حبه لإحقاق الحق و زهده فى حطام الدنيا. شنشنة معروفة فى بعض من يتولون الأمر يبرئون أنفسهم من حب الدنيا و هم سراق منظمون، و يستحلون فى السر كل كبيرة و فى جهرم أعفه أتقياء. هذا الرجل قال لو كيله و صرافه حاييم و كاتبه حنا العورا يوم استولى على دمشق و خلصها من يوسف كنج باشا: أنا قضيت حياة رأيت فيها الحلو و المر، فإذا أردتم أن تخدمونى بالصدقة فأنا أشرط عليكم أن لا تظلموا أحدا، فلا أريد الظلم و لا أذية أحد و لا خراب بيت أحد. و لا عيني بمال أحد، و أريد ما أمكن سد باب الظلم، و ليس لى حاجة فى غير لقمة خبز طيبة و حصان مليح و «جوبق» دخان و الكسوة الاعتيادية و

امرأة واحدة و لست آذن و لا أرخص لأحد منكم أن يجمع لى مال عباد الله بالظلم و لا بالخطف و لا بالحيلة و لا بوجه من الوجوه، و لا أريد إلا أخذ الأموال المرتبة بأمر السلطان فقط و لا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٢

أشكر من يسعى لى بجلب الأموال من غير حلها بل أغضب عليه، و ها أنذا أشهد الله و ملائكته و رسوله على و عليكم بهذا جميعه، و أنا برىء الذمة من كل ما تفعلونه فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فهل تقبلون بشرطى هذا كى أسلمكم زمام أمورى و أريح فكرى، فأجابوه: نعم قبلنا و سمعنا و أطعنا فحينئذ قال لهم: و أنا سلمتكم مصلحتى بتمامها تصرفوا بها بحسب صداقتكم، و قد توكلت على الله و هو نعم الوكيل. كلام أشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لأناس من حاشيته من زهاد التابعين و تابعى التابعين!

و فى سنة ١٢٢٦ حدثت فتنة بين الدروز القاطنين فى الجبل الأعلى من عمل حلب و بين أهالى تلك الأرجاء و جرت بينهم وقائع فاتفق جميع أهل تلك الأطراف فأرسلوا يستشفعون بالأمير بشير فكتب إلى حكام حلب، و أرسل مباشرين لإحضار الدروز من هناك و كانوا أربعمائه بيت و أعطاهم مئة ألف درهم لمعاشهم.

و كثيرا ما كان يجرى الخلاف فى دمشق بين آغا القلعة و الوالى فيعتصم الآغا و جماعته فى القلعة و يشرع بإطلاق الرصاص و البارود و المدافع على جماعة الوالى و يصيب الأهالى من ذلك خطوب جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فأخذ عسكر الوالى يحيط بالقلعة و يطلق من المآذن المجاورة النار عليها و الجنود يطلقون النيران، و دام ضرب المدافع و الحصار الشديد ليلا و نهارا بلا فتور، و قتل أناس خارج القلعة و احترقت بعض الأماكن، ثم وضع عسكر الوالى سلالم و دخلوا القلعة من سورها و جرت المذبحة بين المحاصرين و المحصورين و نهب عسكر الوالى القلعة، و كان من يذهب قتلا من الجند على نسبة من يقتل من الرعية. و القلاع آية البلاء على الرعية و لا ينتفع بها عند الاقتضاء إلا الوالى أو المتغلب انتفاعا مؤقتا.

و من الولاة الذين ملأوا حلب و أرجاءها ظلما ابن جبار جلال الدين باشا (١٢٢٧) كان مثالا فى المصادرات و قتل من يأبى إعطاء المال و لا يكاد يمضى يوم إلا و يقتل إنسانا و قد احتال على ثمانية عشر شخصا من رؤساء الإنكشارية فى حلب و أهلكتهم فسكنت الفتن قليلا و قطع من أوصال الإنكشارية و قبض على القياد بشدته و قلته ذمته فى إهراق الدماء. و روى فى أعلام النبلاء أن

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٣

ابن جبار هذا عين اثنين يتجسسان أخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل اثنين حاملين بلطه يأتیان بمن يجب مصادرتهم، فيزج فى الحبس و يوضع فى رقبته سلسله لها شوكة، ثم يطالب بما قرر عليه و هو جرم أو جرمان، و الجرم أربعون كيسا و الكيس خمسمائة قرش، فمن لم يدفع الجرم فى ثلاثة أيام يخنق و يرمى تجاه باب القلعة، و كلما خنقوا واحدا أطلقوا مدفعا فكان يعلم عدد المخنوقين فى الليلة من عدد المدافع، و كان الوالى إذا أراد النزول إلى السوق أمر فزينت له الأسواق نهارا فينزل و معه «البلطجية» و العساكر عن يمينه و شماله فيدور فى الأسواق، و متى أدار وجهه إلى رجل فإن البلطجية يأتون و يضربون رقبته صاحب ذلك الحانوت، يفعل ذلك بثلاثة أو أربعة أشخاص ثم يعود، و لما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء و ما ذنبهم فكان يقول: لا ذنب لهم غير أنى أقصد إرهاب الناس.

و تعذبه الناس و أخذهم بالتهمة الباطلة من المأثور عنه المشهور به.

و جاء بعده خورشيد باشا و كان يصلى و يصوم لكن أتباعه يفعلون كل كبيرة و هو عنهم ساكت، و حدث أن الأهالى هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك و قتلوه و حملوا سائر أتباعه بما عندهم من أدوات الفحش و الخمر إلى القاضى فعد الوالى ذلك نشوزا على السلطنة من أهل حلب فاستدعى عسكرا فجاءته جملة مستكثرة منهم، ف وقعت وقعة بين العسكر و العصاة فى محلة قسطل الحرامى (١٢٣٥) فانكسر العصاة و هاجم العسكر البلدة و أخذوا يطلقون المدافع على أسوارها فخرّبوا جانبها منها و دام الحصار ١١١ يوما و جرى القتال داخل البلد فى الشوارع و الأسواق، و كان القتال سجالا بينهم الى أن فر العصاة من الأهالى و دخل الولاة فيمن معهم من

العسكر و احتلوا البلدة و قتلوا سبعة من كبار العصاة و أرسلوا برؤوسهم إلى الإستانة. و قد قال الأهالي إنهم ثاروا لشدة ما كانوا يلقونه من العنف و ما كانوا ينوءون تحته من ضريبة الدور التي ضربت عليهم في سنة قحط و غلاء، و قد قتل بالطبع من الثائرين و الأهالي و الجند مئات.

تولى دمشق سنة ١٢٣٢ صالح الكوسج باشا «و كان عادلا- حليما فهما» وراقت الحال في أيامه و لم يحدث إلا نشوز عرب فليحان فأرسل عليهم جندا (٣-٣)

خطط الشام، ج٣، ص: ٣٤

فتحصنوا في اللجاء فقتلهم العرب و لم يسلم من الجند إلا القليل، و بعد سنتين تولى دمشق سليمان باشا و كان عادلا إلا أنه محب للمال. و ذكر جودت أن جماعة من الحشاشين و الأشقياء (١٢٣٥) أدخلوا بالأمن في حلب حتى كان الولاة يضطرون أن ينزلوا خارج البلد في مكان اسمه الشيخ بكير و أنه لم يمض على الثمانية عشرة شقيا الذين كان قتلهم بالخدعة جلال الدين باشا جبار و إليها، حتى عاد الأشقياء فكثروا و أرادوا القيام بثورة، فتدارك الوالي الأمر باستدعاء الجنود الكثيرة، و حسم هذه النازلة. قال بعد أن ذكر أربعة أبرياء قتلوا في حلب بدلا من أربعة مجرمين بواسطة أحد الأعيان: كان على ذلك العهد بين الأعيان كثير من الأردياء الأشرار، و هذه الحالة لم تكن خاصة بالإستانة و لا بالولايات، و كان قتل الإنسان في سهولته كتقطيع لحم الدجاج، حتى حدث مرة أن الأراجيف كثرت في الإستانة و بينا كان مجلس الوكلاء ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت أفندي: إن أحسن طريقة أن يقطع رأس الحلاق المقيم في «أوقجيلر باشى» و بذلك يحدث للناس خوف و دهشة و تنقطع مادة الأراجيف، فقال له أحد الحضور: عفوا إن هذا حلاقي فقال حالت أفندي: ليس هذا الذي أردت أن أضرب عنقه بل الحلاق الذي يسكن في الطرف الآخر و بذلك يحصل المقصود. قال و بالجملة فقد كثر في تلك الأيام في الإستانة و خارجها من اسودت قلوبهم و قست أفئدتهم من الناس، و كانت الإدارة من كل وجه مختلة بحيث لا يتيسر وصفها و لم يبق من وسيلة إلا تجديد الأصول و إصلاح أمور الدولة و تنظيمها، و قد نال هذا الشرف والى مصر محمد على باشا و الفضل للمتقدم اه. و هذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة، و الحقيقة أن الحالة كانت أسوأ مما وصفها به.

وقعة المزة و استسلام الدولة لوالى عكا:

تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درويش باشا، و في أيامه اعتدى جماعته على مزارع ابن شهاب و ابن جنبلات في البقاع فاضطر والى الجبل إلى إرسال جند لمحاربتة، و أرسل والى عكا جندا و وقع القتال فانتصر والى الجبل على والى

خطط الشام، ج٣، ص: ٣٥

دمشق، و بعثت الدولة والى حلب للنظر في هذه الفتنة بين الولاة، فرأى أن السبب في ذلك عبد الله باشا والى عكا، فحاصره والى حلب في عكا على غير طائل، ثم عزل درويش باشا عن إيالتى دمشق و صيدا و عفى عن عبد الله باشا، و هلك جمهور من الجند و الناس في هذه الفتن التي كان منشؤها فيما قيل دسيسه من بعض الإسرائيليين هلك أحد أنسبائهم و تقربوا من درويش باشا فأثروا فيه. و ذكر الشهابي في هذه الوقعة المعروفة بوقعة المزة لأن هذه القرية حرقت فيها، أن عبد الله باشا استمال بعض مشايخ جبل نابلس و وقعت الفتنة بين أهالي ذاك الإقليم فانقسموا فئتين و وقع القتال بينهم، و قالوا: إن سبب هذه الفتنة أن درويش باشا كان يريد تسلم عكا من عبد الله باشا بأمر الدولة فتشيع الأمير بشير الشهابي لوالى عكا، و سار في عسكره من المشاة و الفرسان من أهل الشوف و المناصف و المتن، و عسكر عبد الله باشا في الدالاتية و الهواره، و جعلوا مصافهم من كوكب إلى المعظمية من إقليم البلان و خرج درويش باشا إلى المزة فأقبل الأمير بشير، فلما علم عسكر درويش باشا بقدمه تحصنوا للحصار، و انتشب القتال بين الطرفين و أطلقت عساكر دمشق المدافع و الزنبركات أى المدافع الصغيرة، فهجم الأمير بعسكره هجمة واحدة و هدم أسوار البلدة، و كانت مبنية باللبن و امتلكها، ففرت عساكر دمشق و قد قتل منهم نحو مائتين و خمسين رجلا و أخذوا منهم خمسمائة أسير، و غنم عسكر الأمير خياما و

ذخائر و خيلا و سلاحا، و رجع إلى المعظمية و بلغت أسرى عسكر دمشق من أهلها ٣٧٤ رجلا عدا من قطعوا رؤوسهم. و مضت عدة أيام و في نهر بردى تطفو الغرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ألف رجل و مائتى رجل بين قتيل و جريح، و قتل من عسكر عكا نحو سبعين رجلا. و انتشب القتال بين الأمير خليل بن الأمير بشير و بين فيزو باشا أحد أتباع والى دمشق و هو قادم من نابلس فى قرية مرجانه فقبض عسكر عبد الله باشا على مائة و خمسين أسيرا و قطعوا خمسة و عشرين رأسا و انهزم فيزو باشا إلى دمشق.

و أرادت الدولة أن تضرب على يد عبد الله باشا (١٢٣٧) والى عكا فأمدت والى دمشق بوالى حلب و أذنة ليتعاونوا على ضربه و قد تحصن فيها

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٦

بألفى جندى، فحاصره الولاة المذكورون تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا مع أنهم كانوا فى ستة عشر ألف جندى. و لما عجزت الدولة عن أخذ هذا الثغر من عبد الله باشا و أصبح فى يده معظم القطر الشامى حقيقة رتبت عليه خمسة و عشرين ألف كيس و هى تساوى نحو نصف مليون ليرة، و ذلك بدل نفقات عسكرها فى حصار عكا، و كان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا «أمير الحاج السيد عبد الله والى الشام و صيدا و طرابلس و متصرف ألوية غزة و يافا و نابلس و سنجاك القدس الشريف حالا».

سياسة الأمير بشير فى لبنان و تقاتل الولاة و ارتباك الدولة:

تولى دمشق مصطفى باشا (١٢٣٧) و فى أيامه حدثت فتنه بين الأمير بشير و ابن جنبلات و على العماد كتبت النصرة فيها للأمير، و هرب المشايخ المذكورون إلى حوران فأمسكوا و قتلوا، و اضطر الأمير بشير الشهابى بعد ذلك إلى التغيب فى دمشق و حوران، ثم عاد بعد مدة إلى لبنان و تسلم زمام الأمر و طلب الأموال المتأخرة من اللبنانيين فثاروا عليه فى اثنى عشر ألف فارس و قيل فى ثلاثة عشر ألف مقاتل و ليس معه فيما قيل سوى ثلاثمائة، فقتل منهم على قله عديده و أخضعهم لسلطانه، و عاونه الشيخ بشير جنبلات على كبح جماحهم و كذلك والى عكا أرسل إليه عساكر الأرنؤد و الهواره و المغاربة و الأكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعه الأمير بشير ١٥ رجلا و أحضروا ٢٩ رأسا من رؤوس محاربيهم. ثم قلب الأمير الشهابى ظهر المجن للشيخ جنبلات و سعى بقتله، كما قتل أناسا من أهله و حاشيته و سمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه، و ذلك لأن ابن جنبلات قويت شوكته و أثرى و كثر مشايعوه، فما كان من أمير الجبل إلا أن سعى بإهلاكه و ألقى الفتنة بين الحزب اليزبكى و الجنبلاتى ليخلو له الجو و سلم معظم لبنان لأناس من مشايخ الموارنة يحكمونه و يأتونه بالجزية و الخراج ليدفع هو المقرر عليه لوالى صيدا أو عكا، و يأمن جانب الدولة فتصفو الولاية له. و كان من سياسته أن يظاهر صاحب الظهور و القوة شأن الأمراء اللبنانيين فى معظم أدوار تاريخهم.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٧

و كثر الخلاف بين والى طرابلس و والى دمشق و والى صيدا و والى عكا، و الناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم، و حاكم دمشق يحاصر حاكم عكا، و الدولة ترضى عن هذا و تغضب على ذاك، و تسلب ولاية زيد لتعطيتها لعمره، تلاحظ فى ذلك التوازن بين القوات، و تتحاشى رجوع الذين يعصون أمرها من الولاة. و أعقل الولاة و أدهامهم من كانت تدوم ولايته سنتين و كانت الوظائف الحسابية فى هذا الدور بيد الإسرائيليين و الكتابية بيد المسيحيين، و كان الولاة يصادرون بعض الإسرائيليين و يحبسونهم و ربما يقتلونهم لاستحصال المال فيحتال هؤلاء لتمشيه أمورهم، و حدث أن معظم الحامية و الموظفين فى دمشق كانوا مرة من أهل بغداد و الموصل و كركوك فغضب والى عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم فى الطرق.

كانت الشام تتخبط بأيدي الولاة و أرباب الإقطاعات، و الدولة غير مستريحة فى داخليتها و خارجيتها، فاستقلت اليونان (١٨٣٠ م) بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة أسطولها و ذهب قسم من الأسطول المصرى، و كان الأسطول اليونانى ضرب بيروت ١٢٤١ (١٨٢٥)، و

توسعت اختصاصات إمارتي الأفلاق و البغدان (رومانيا) حتى بلغنا الاستقلال أو كادت، و فتحت روسيا لها طريق البحر الأسود، و ما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الإنكشارية في الإستانة (١٢٤٢) و كانت الدولة أخذت تنظم جندا جديدا على الأصول الحديثة، فاستراحت بعض الشىء بعد إهلاك الإنكشارية، و كذلك حال الأمة المسكينه التي قاست الأهوال من اعتداءاتهم، و كان الفضل الأكبر في ذلك لمصلح الدولة السلطان محمود الثانى الذى أظهر من الثبات و قوة الإرادة في هذا الشأن ما لم يعرف به أجداده الذين قتلوا بأيدي الإنكشارية، و استناموا لما يأمرون به مخافة أن تزهق أرواحهم. و قضى أيضا على أهل الطريقة البكداشية في الإستانة و ما إليها مما ذكره له التاريخ بالإعجاب، و عاب بعضهم عليه شدته و أعجب بأعماله معاصروه من الأعظم. فقد قال سفير روسيا في الإستانة بعد سنتين من قرض جيش الإنكشارية: إن السلطان محمودا بقضائه على هذا الجند المختل الذى تصعب إدارته قد ظفر بنور من النبوغ

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٨

بمثله تنجو الممالك من المهالك. و قال دى لاجونكيير: إذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الأكبر في إرادة التجدد فإن منشأ ذلك بأن بطرس الأكبر قد وجد أمة لا تزال على الفطرة أى جديدة، و كان من الأسهل أن تنظم و تصاغ، و على العكس في محمود فإنه صادفته عقبات من الأوضاع القديمة، أوضاع نشأت و كبرت مع المملكة و كان منها فيما مضى قوتها و قدرتها، أوضاع وضعها السيف و أيدها الظفر و قدسها الدين.

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين و ثلاث مرات كل مرة سنة و أظهر شدة زائده ثم تولاه ولى الدين باشا (١٢٤٢) و كان أحق مغللا مهملا ثم عزل و نصب عبد الرؤوف باشا (١٢٤٣) و كان عادلا لطيفا و طمعت الشام به لعدله و فى ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الأمير أهل تلك القرى اللبانيين أن يرجعوا بمالهم إلى إقليمهم فرجعوا فخرّب البقاع فارتضى وزير دمشق حينئذ بأخذ عشرين ألف قرش من تلك القرى و كتب إلى الأمير أنه رتب العشرين ألف قرش عوضا عن المال الميرى و القسم أى الثلث.

محاولة الدولة قتل النصارى و فتنة نابلس:

و أرادت الدولة أن تنتقم من نصارى الشام بل من النصارى فى أنحاء المملكة لثورة اليونان عليها و مطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤) و جزائر البحر المتوسط فأمرت والى دمشق أن يقتل المفسدين من كبراء طائفة الروم فعقد مجلسا من أعيان دمشق و تلا أمر الإستانة على مسامعهم، فكان جوابهم أنه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون و جميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز أذيتهم. لهم ما لنا و عليهم ما علينا، و أن الرسول عليه السلام أوصى بالذميين و قال: من آذى ذميا كنت خصيمه يوم القيامة. و نحن لا نقدر أن نتحمل هذه التبعة، و كتبوا محضرا للدولة بحسن سلوك نصارى الإيالة و طاعتهم و دفعهم المرتبات الأميرية و أنهم يستحقون حسن الرعاية و المرحمة من السلطنة السنية. و لعمري أى علاقة للثائرين فى جزائر البحر و المورة مع الآمين من الرعايا فى الشام، فقد أبان عقلاء دمشق إذ ذاك عن رأى سديد، و لكن لا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٣٩

ندرى إذا كان رأيهم راق لدى ولاء الأمر فى الإستانة. و أى أمر جائر أكثر من هذا كأن النزاع إلى الاستقلال من اليونان كانوا يصدر عن آراء مسيحيى الشام أو آسيا الصغرى، أو أن هؤلاء يحثونهم على نزع أيديهم من أيدي الدولة، و لو استطاع المسلمون أنفسهم فى ذلك الوقت أن يستقلوا عن الدولة لينجوا من خلل إدارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة.

و فى سنة ١٢٤٦ (١٨٢٩) طلب والى عكا من الأمير بشير الشهابى أن يفتح قلعة صانور و كان أهل نابلس عصوا عليه و تحصنوا فى قلعة صنف و أعجزوه فلم يقدر عليهم لأن معظم الأهالى انضموا إلى الثائرين، و كانت صانور منذ القرن الماضى تشغل بال رجال الدولة فى

عكا و صيدا و القدس، فنشبت بينه و بينهم عدة وقائع و بعد حصار ثلاثة أشهر و تخريب عدة قرى، أمر الوزير بهدم القلعة و دكها إلى الأساس و دك مغائرها و هدم آبارها، و سبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والى دمشق على الثائرين، و لما عجز عن جمعها أحيلت إلى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع ألف كيس و أمر بجمعها من أهل نابلس، و كان من زعماء النابلسيين إذ ذاك أسعد بك طوقان و الشيخ القاسم الأحمد، و فشل النابلسيون و لم يبق في القلعة عند تسليمها سوى ٣٦٧ و كان فيها أكثر من ألف و مائتي نسمة قتل بعضهم و ضرب الآخرون و ذكر مشاقفة أن سبب عصيان نابلس سلخ عبد الله باشا لها بأمر الدولة عن إيالة دمشق، لأن والى دمشق ادعى أن المطلوب منها ستمائة كيس لا تتحصل إلا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم، فتعهد عبد الله باشا بأن تضم إليه و يدفع ألفي كيس عنها، و أن عسكر أمير الجبل الذي جاء نجدة لعبد الله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل، و أن النابلسيين نزلوا على حكم الأمير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعا و هدم القلعة و حصل الأموال الأميرية بعد مناوشات طفيفة.

مقتل سليم باشا والى دمشق:

انقضى النصف الأول من هذا القرن أو كاد و القطر نهب أيدي الطامعين من الولاة و المتسلمين، يسيئون في الرعية الاستعمال، و يعبثون بما خولتهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٠

دار الملك من السلطة فيمثلون أعظم مظهر من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل. و لم يكن يخطر في بال الدولة أن رعاياها يقوون على الانتقام من أعظم عمالها، و هم الموصوفون في معظم أدوارهم بالطاعة للملوك و الزعماء و الرضى بما تقضى به الأقدار، و لو صحت عزيمة المظلومين مرة أو مرات أن يهلكوا من يحاول إهلاكهم و خراب أرضهم و ديارهم، لما ساءت الحال، و بلغت الشام ما بلغته من الاختلال، نريد أن نقول إن الرعايا طالت أيديهم فقتلوا واليا عظيما من ولاة السلطنة. و نعى به سليم باشا الصدر السابق مييد جيش الإنكشارية.

نصبت الدولة هذا الشيخ واليا على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧، و كان ظاهره شجاعا مهيبا و باطنه جباناً و قد هم أن يغتال بعض أعيان المدينة فبدأ بمدينة حماة، و قتل بعضهم فأيقن القوم أن هذا القاتل لا يصعب عليه أن يهلك أناسا في دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه، فلما جاء عاصمة الشام أراد أن يضع على كل سكرة أى عقار في دمشق «مصريتين» كما هو الحال في الإستانة فنارت العامة بإشارة الأعيان و كانوا عند المصائب الشديدة تتحد على الأغلب كلمتهم، اتقاء شرّ عظيم يقعون فيه، و كثيرا ما كانوا يدخلون الأوهام على الولاة؛ لئلا يشتطوا في مطالبهم و تكون المغانم مناصفة بين الأعيان المتغلبة و الحاكم المنصوب، فضرب والى العامة من أبراج القلعة بالقنابل، حتى إذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله إلى دار قرب باب البريد فتأثره العامة و هدموا على رأسه سقف المخدع و أحرقوه.

و ذكر بعضهم أن هذا والى تحصن برجاله في جامع المعلق أولا و السكمان بالقلعة، فبدأ الحريق من باب الهواء و أخذ يمتد، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقله رجاله و كثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة، و أخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس و يفوز بنفسه، و كان الحريق هائلا خرب كثيرا، ثم اعتمدوا على حصار القلعة و أخذ والى يطلق المدافع على البلد، و أقام الناس متاريس حول القلعة ثم في الحارات و حاصروا العسكر المرابط في جامع المعلق، و قتل في هذه المناوشات كثير من الأهالي و جماعة والى، و طال المطال و تألب الناس على والى حتى إن والى عكا أخذ يقوى أهل دمشق عليه، و لما ضاق به الحصار

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤١

خرج إلى بيت القاضي بجانب دار المشورة، فجاء سبعة رجال و كسروا الباب و النافذة عليه و ألقوا النار بعد أن أخرجوا من عنده ابن أخيه و الكيخية، ثم قطعوا أعناقهما افتراء و عدوانا كما قال مدون هذه الواقعة إذ ليس لهما ذنب يوجب القتل حتى إن الباشا نفسه

افتروا عليه لأنه لم يظهر منه أدنى أذى إليهم غير تمسكه بإتمام الأوامر التي بيده من الإستانة، وربما كان يضرر للأعيان شرا لا نعلمه و أما في الظاهر فليس لهم عذر سوى أنهم افتروا عليه و على جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم أخذوه عربانا إلى القلعة، مع الاثنين خاصة بعد أن داروا برؤوسهم و دفنوه داخل القلعة و تولى الشربجي الداراني و رشيد نسيب الشوملي أمر البلد، و بات الناس يتوجسون خيفة من رجال الإستانة، و لو كان ما أتوه في حالة راحة الدولة لأرسلت عليهم جنودها يفعلون بالأبرياء و الجناة الأفاعيل المنكرة، و لكن الدولة كانت تتوجس خيفة من محمد على والي مصر و ما بلغه من القوة بجنده و بحريته و استعداده، و لها مشاكل في أوروبا تخاف أن تتجزأ قوتها إذا أرادت تأديب الدمشقيين. و لذلك لم تحب أن تناقش الأهالي الحساب و لم تسؤها فجيعتها بشيخ هم قاتل، و القاتل مبشر بالقتل، و من عادة الدول على الأغلب أن تفتك بعد حين فيمن استعملته آلة للفتك، و لذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة و لم يحركوا ساكنا كأنهم رأوا لعمل الدمشقيين مبررا من حسن نيتهم.

و قال مشاقفة: لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع أعيانهم و رتبوا حكومة مؤقتة و أخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم، فورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي الشام فسكن روعهم بعض الشيء، و لما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله أهالي دمشق و أرسلت واليا عليهم اسمه على باشا. و أخذت الدولة تؤول عمل أهل دمشق و أصبحت كالمحامية عنهم تختلق لهم الأعدار عما بدر منهم لأن السياسة اضطرتها إلى ذلك. فقد جاء في تاريخ لطفى نقلا عن جريدة تقويم الوقائع الرسمية أن سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق، و قد عين الحاج على باشا والي قره مان لاستئصال الفتنة التي كان شوبوها يترامي إلى المسامح، بيد أن سليم باشا قتل قبل وصول خلفه، و تبين أن للغرباء يدا في هذه الفتنة، و أن تأديب المشاغبيين بسوق قوة على دمشق يضر بأهلها!

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٢

و قال المؤرخ إن سبب عصيان الدمشقيين أن سليم باشا مر بحماة عند شخوصه إلى دمشق و قتل بضعة رجال من عرب عنزة و قيد البرازي في القيود و أتى به معه إلى دمشق فدهش أهلها، و كان اقتراحه وضع ضريبة فأوقد جذوة الفتنة. و ذكر أن الأهالي هجموا على السراي أولا و أغلقوا دكاكينهم و انتشرت الفوضى. و قد كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا قال فيه: قد يتبادر إلى الذهن أن لبعض الأطراف يدا في حادثة دمشق، و من الجائز أن يكون ذلك بصنع والي صيدا لأن هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا العلية و هم ينفرون منها على الدوام، و على هذا فإن أمور إيالة الشام إذا دخلت في النظام على ما يجب يحدث ذلك ضررا لهم، و قد عرفوا هذا حق المعرفة، فيجوز أن يكونوا سبب هذه الفتنة لإيصال الحالة إلى تلك الصورة.

و قد ظهر من الأوراق الرسمية الأخرى التي نشرها لطفى في تاريخه أن السلطان ذهب مذهبين في هذه الفتنة فكان يقول في بعض أوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سدا لنفقة الجند: إن أهالي دمشق و حوالها و إن كانت أرضهم مباركة، لا يستنكف أكثرهم عن عار و لا يعرفون الحياء، و ظاهر أنهم أشرار و سيرون بحول الله و قوته من أسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم. و قال في كتاب آخر: إن وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبعثة من جسارة الأهالي فقط، بل نشأت بلا ريب من إغواء الأطراف و تحريكها. و ذكر المؤرخ أن السبب في فتنة سليم باشا تحريك محمد على والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام، و في رواية أخرى أن والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك.

و قصارى القول أن سليم باشا مييد جيش الإنكشارية الذي عجت طينته بالدماء فقتله أعيان دمشق مخافة أن يبطش بهم كما بطش في حماة، خافوه و وجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب، فأثاروا الرأي العام عليه ففعلوا و ربما كانوا يريدون الاكتفاء بتهديده ليحملوه على الهرب، و لكن الأمر خرج من أيديهم إلى أيدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٣

حساباً، فكان قتله على غير رضى العقلاء من الأعيان، و كان هلاكه مخيفاً لمن يأتي بعده من الولاة.

الحكم على الموقف السياسى فى نصف قرن:

و يجوز لنا بعد نقل حوادث نصف قرن أن نلخصها و نستنتج منها على الصورة التالية (أ) كان الظلم يقع على المسلمين و المسيحيين و الإسرائيليين على السواء، و لما كان المسلمون هم السواد الأعظم من السكان كان تأثير الظلم فى مجموعهم أقل من تأثيره فى مجموع الإسرائيليين مثلاً. (٢) أوغل أرباب الإقطاعات فى الظلم فقلّم الجزار من أظافهم ليستأثر وحده بالظلم و القتل، فحالفه التوفيق بطول المدّة إلى الضرب على أيديهم بعض الشيء، فلما هلك عادت الحالة الأولى إلى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين و الفلاحين.

(٣) مرّت حملة نابليون بونايرت على جنوبى الشام كالسحابة، و كان من الجزار أن ضمّ قوى الأقاليم برأى انكلترا التى تولت حربها بحرا بأسطولها، و ساعد أن حكومة الديركتوار فى باريز استدعت نابوليون فعاد أدراجه مسرعاً لا يلقى على شيء كما رجع ريشاردس قلب الأسد ملك انكلترا فى الحروب الصليبية بعد أن عقد مع صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين و محاربيهم من القتل و القتال. (٤) الظلم الواقع على النصيرية و إرادتهم على تغيير معتقداتهم و اتخاذ مقتل رجل غريب يمتّ بنسبه إلى دوله أجنبية قوية ذريعة إلى تخريب جبالهم و قتل زعمائهم بدون تحقيق، على حين كان زعماء الأرجاء الأخرى من القطر يفعلون فعلهم و زيادته، و لا من يردعهم أو يقوى على نزع سلطانهم و تخفيف و طأتهم، مثل محمد باشا أبو مرق الذى عجت الأرض إلى السماء فى فلسطين من مظالمه حتى أخذ الناس يبيعون أولادهم كما تباع الجوارى و الإماء فرارا من ظلمه و قياماً بما يفرضه عليهم من المغارم. (٥) قيام مصطفى بربر متسلم طرابلس و استعانتته بكافل عكا على كافل دمشق و ظلمه الرعية و محاولة الدولة غير مرة أن تستريح من تسلطه فلم تستطع ذلك إلى أن هلك حتف أنفه. (٦) انقضاء دولة بنى العظم بهلاك عبد الله باشا آخر من ولى

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٤

منهم سنة ١٢٢٣ و لم يبق بعده أحد من ذريتهم لتولى الأحكام. (٧) اشتغال الدولة بالغوائل التى أصابتها و لا سيما استقلال اليونان و محاولتها لما نال اليونان ما أرادوا أن تنتقم ممن يدينون بدينهم فى الشام، فرد حزم الحازمين إرادة المختلين من ولاة الأمر الظالمين بحجة دينية أيضاً. (٨) عدم توفيق سليم الثالث فى تطبيق خطط الإصلاح و كذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثانى فبدأ فى إنفاذ إصلاحه بمقياس واسع، كان أوله مقتل جيش الإنكشارية فى العاصمة و الولايات، فعُدّ مصلح عصره الذى أدخل دولته فى المدينة الغربية طوعاً و كرهاً، و جعل لها مقاما بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع أقاليمها، و خروج أكثر القاصية من حكمها فتيين لها أن عظمت الممالك بحسن إدارتها و كثرة مدنياتها لا بعظم رقعته و خصب بقعتها، و أن دولة غناماها فى عنفوانها و بذخها كما هى فى ضعفها و شيخوختها، تولى رقاب الأمة و لو بالصورة الظاهرة، و جبوّة خراجها و لو بالتغاضى عن بعضه للجباه لا للرعية لا تصلح و يصلح أهلها.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٥

دور الحكومة المصرية «من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٦»

حالة الدولة العثمانية عند إذلال جيش محمد على الكبير لها:

كانت الدولة العثمانية إلى أواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تعروه نوبات عصبية من حين إلى آخر فيردها بقوته، أو يطول زمنها عليه حتى تنتهى بطبيعتها. و صاحب المرض إذا طالت عليه معاودة النوبات قد يألّفها و يظن أنه برىء من كل خطر، على حين تكثر آلامه، و تقرب منه حمامه، و الأدوار العصبية أشد ظهوراً فى ألم الجسم، و إذا تكررت على المصاب يصير إلى العجز فلا يستطيع

أن يدفع ضرا ولا- يجلب خيرا. فكانت الدولة العثمانية إذا نظر إلى ظواهرها يظن معها قوة، و في الحقيقة هي إلى ضعف لكثرة ما استحکم فيها من أمراض و ساورها من أوجاع، غفلت عن تعهد قوتها الحقيقية، فكانت تعلقو و تسفل و تطفو و ترسب، بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور و السلاطين، تقوم بالفرد و لا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين و أصول إدارة، و أهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء إلا أنها أصبحت في حروبها تستهلك أكثر مما تستحصل، لأن جيش الإنكشارية و هم مستندها في قوتها عراه الانحلال فغدت الواقعة التي كان يكتفى فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق إليها ثلاثين ألفا ثم يشغب و لا يعمل عملا. و لا عبرة بالعدد إذا كان المجموع أقرب إلى التفسخ، و معنويات المقاتلين إلى الضعف.

إن بعض الغوائل التي أصيبت بها المملكة و الشام من جملتها في هذا القرن و الذي قبله كانت بصنع جيش الإنكشارية و تمرده على رؤسائه، و بضعف

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٦

الزعماء و اختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج، و الوزراء و الملوك في دار الملك، فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني، و صدور الأمر بقتلهم في الولايات مما نفس خناق الأمة. و إن كانت العقوبة التي نزلت بهم في الشام أخف، لأن بعضهم و فيهم الرؤساء كانوا من الأهلين، فلما نزل ما نزل بجماعتهم غيروا ألقابهم و بدلوا طرازهم و ثيابهم، و بعد أن تخلصت الدولة و الأمة منهم صعب على العثمانية في بضع سنين أن تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات، و هل من سبيل إلى ارتجال جيش منظم إلا إذا ساد السلام أعواما طوالا، و انتشر العلم و تعلم القواد على الأقل، و كيف يتأتى ذلك و طالع الدولة الحرب على الدوام لا تفتأ متقلبة من أزمة إلى أزمة، و كانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز و دخلت في حرب اليونان.

و لم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد على في مصر أن يتدرج بعد قتل المماليك في مراتب القوة و السيادة، حتى يقبض على زمام الأمر (١٨٠٤ م) و ينظم قوته البرية و البحرية، و ينشط الزراعة و التجارة و تسمو به الهمة، أن لا يكتفى بما يملك بل ينزع إلى التوسع في فتوحه، لإيقانه أن الدولة و إن كانت في صدد إدخال الإصلاح على أوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل، لا تستطيع أن تلحق غبار مصر التي جرت على الأصول في تنظيم جيشها و إدارتها و سلطان العثمانيين على اتساع ولاياتها و كثرة خيراتها، يتعذر عليه أن يقوم في مملكته بما قام به محمد على في ولايته، لأن الإصلاح في الجسم الثقيل المختلف الأمراض، أصعب منه في جسم له مرض واحد، إذا عولج كان أقرب إلى الصحة و الاستمتاع بالسلامة.

كان الغرب في هذا القرن يسير إلى الارتقاء بخطى واسعة سريعة، و الدولة العثمانية تنظر إلى هذه المظاهر باهتة، و قلما يبدو لرجالها أن يتحدثوا في سر هذا الارتقاء و عواقبه عليهم و على جيرانهم، إن لم يجاروهم في هذا المضمار.

فأصبحت دولة بني عثمان لا- تكفي عادية دولة من دول الغرب إلا- إذا استعانت بأخرى عليها، و استفادت من تخالفهم و تباين أغراضهم، بعد أن كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات و منفردات. و لكن الجيش الذي يصل إلى أسوار فينا على عجالات البقر، و يقاتل المحاربين و المسالمين بالسيف و النشاب

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٧

غدا يحتاج إلى أسباب في النقل أسرع، و سلاح في الفتك أقطع، غدا يحتاج إلى علم و عدد، أكثر من احتياجه إلى أسماء ضخمة و عدد، و أصبحت السياسة و الإدارة و الحرب علوما عملية، و الدربة و التنظيم رأس كل أمر، و الجيوش بنظامها و قيادتها و عددها و ذخيرتها و بالفكرة المتشيع بها أفرادها، فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة، و كيف لا تتجلى الفروق بين دولة جمدت و لم تعمل، و دول تحركت و نمت و ربت، و بين أمة فتحت أقطارا واسعة منذ قرون و بقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها و يصارعونها، و هي عنهم غريبة و هم عنها غرباء لم تتمثلهم و لم تتمثل فيهم كما فعل محمد على فتمثل في مصر و المصريين.

لماذا تراجع الدولة العثمانية:

نسب ميشو انحطاط الدولة العثمانية و إخفاقها في حكم الولايات التي افتتحتها إلى عدة أسباب أهمها الجهل و الجمود و الغرور قال: «و من حسن طالع النصرانية أنه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية أوروبا، أخذ الأتراك يضعون شيئاً من قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية، فكان العثمانيون بادىء بدء الأمة الوحيدة التي كان لها جيش دائم منظم تحت السلاح، و به أحرزت الدولة التفوق على الأمم التي تريد إخضاعها لسلطوتها. و غدت أوروبا في القرن السادس عشر، و لمعظم ممالكها جيوش يقاومون بها أعداءهم، و سرعان ما انتشر النظام و التربية العسكرية بين شعوب النصرانية. و أخذت المدفعية و البحرية تزيد كل يوم نظاماً ورقياً في الغرب، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت إليها الجيوش البرية و البحرية، و لا يستفيدون بتاتا من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم و جيرانهم، و يزداد على ذلك ما عبث بكيان الأتراك من الخرافات و قلّة التسامح، فحال ذلك دون فتوحهم. كانوا إذا استولوا على ولاية يحاولون أن يحكموها بأنظمتهم، و يغرسوا فيها عاداتهم و عباداتهم، فاقضى لهم من ثم أن يبذلوا وجه كل شيء و يقضوا على حياة كل شيء في

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٨

الأمصار التي ينزلونها، و أن يقضوا على أهلها أو يضعوهم بحيث لا يستطيعون أن يناجزوهم الشر، و يرفعوا رؤوسهم فيهم، و لذلك يلاحظ أن الأتراك استولوا مرارا على المجر، فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها، و لم يستطيعوا أن يؤسسوا فيها مستعمرة أو موطناً ثابتاً، و هم في انتصار يتلوه انتصار. و الشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم و استعبادها لم يكف لسكنى أقطار أبعد و الاحتفاظ بها، و بهذا نجت ألمانيا و إيطاليا من غارات الأتراك، و ربما استطاع العثمانيون أن يفتحوا العالم لو قدر لهم أن يخلّقوا الأقاليم التي ينزلونها بأخلاقهم و ينزلوا فيها كثيراً من أبنائهم.

قال: «من الأسباب الرئيسة التي أضعفت القوة الجندية في الأتراك، الحروب التي كانوا أعلنوها على أوروبا و فارس. فقد صددهم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى، و جهادهم في النصارى أضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا. و كانت طريقة الأتراك في حربهم الفرس و الشعوب النصرانية متباينة، فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ما وراء النهر و القفقاس، أصبحوا عاجزين عن قتال أوروبا، فضعفوا عن قتال الفرس و عن قتال النصارى من أمم الغرب. و ظلوا بعدئذ بين عدوين تقريباً يهمهما زوالهم و يتحسمان بالحماسة الدينية. حمل الأتراك معهم مثل جميع البرابرة الذين أتوا من شمال آسيا نظام حكومة الإقطاع، و كان أول عمل يأتيه أولئك الشعوب الرحالة تقسيم الأراضي بوضع بعض القيود و الشروط لمقتطعيها، و من هذا التقسيم نشأ نظام الإقطاع.

و الفرق بين الأتراك و سائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو أن استبداد السلاطين المبني على الحسد و الغيرة لم يترك مجالاً قط للإقطاع أن تكون وراثية ليكون بجانبهم طبقة من الأشراف كما هو الحال في الحكومات الأوربية المطلقة، و هكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق إلى جانبها ديمقراطية عسكرية.

«شبهوا الأتراك بالرومان. و كانت بداءة هذين الشعبين واحدة، و ما أشبه أشياع روملوس بأتباع عثمان. و يتفاوت الشعبان في نظر التاريخ، ذلك لأن العثمانيين ظلوا كما كانوا في الأصل. أما الرومان أيام فتوحهم فلم يزهّدوا في معارف من فتحوا ديارهم. و لم يستكفوا من الأخذ بعاداتهم و معبوداتهم.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٤٩

و لم يقتبس الأتراك من الأمم المغلوبة شيئاً، و تشددوا في أن يظلوا على بربريتهم.

و لم تتأصل الأرستقراطية الوراثية في جانب الاستبداد المطلق، و ربما كان ذلك أحد الأسباب التي قضى بها على الأمة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية.

و كل من درسوا سير المجتمعات يدركون أن بالأرستقراطية تتهدب الأخلاق و تتثقف عادات الشعوب، و بالطبقة المتوسطة تنتشر المعارف و تبدأ المدنية.

«إن فقدان طبقة الأشراف أو العالیه فی الحكومات الشرقية لم یبین لنا سرعه انحلال هذه الحكومات فقط، بل إنه حلّ لنا معنی جمود الفكر الإنسانی فی هذا الضرب من الحكومات، و كيف لم يتقدم قيد غلوه. و ما كان فی المساواة المطلقة، و من حكومه تغار من كل ما لا تكون هی منشأه و مصدره شیه من المنافسه و القدوه و حب المجد، و بدون هذه الأسباب يقضى على كل مجتمع أن یبقى فی الجهل الأعمى الذى كان علیه لأول أمره، و أن یفقد معظم مزایاه و مصالحه. و بالنظر لزهة الأتراک فی العلوم و الآداب ظلت أعمال الصناعة و الزراعة و الملاحة فی أیدی موالیهم و كانوا فی الحقیقه أعداءهم، ذلك لأنهم كانوا یשמزون من كل جدید، و من كل ما لم یحملوه معهم من آسیا، فاضطروا أن یلجأوا إلى الأجنب فی كل ما اخترع و نظم فی أوربا، و هكذا لم یکن لهم نقض و لا إبرام فی مصادر سعادتهم و قوتهم، و فی متانه جیوشهم و أساطیلهم.

و لا یخفی ما أضاعه الأتراک بونائهم عن السیر فی معارج الرقى العسکرى الذى أصاب منه الأوربیون قسطا موفورا، و لما كان الشأن فی حروبهم لجیوش متحمسه بالتعصب كانت الغلبه لهم، فلما جاء دور العلوم البشریه و ما أبرزته عقول الناس من المخترعات و المكتشفات، كان العقل المساعد هو المحد من الشجاعه.

«شبه بعضهم جیش الإنكشاریه العثمانیه بطوائف البرتوریان من الرومان، فی حین كان هؤلاء منتخبین، و ما جرى على خاطر الأتراک قط أن یختاروا أمیرهم سواء فی ذلك شعوبهم و جیوشهم. و كانت مصلحه الإنكشاریه تقضى أن یلقوا الاضطراب فی المملکه لثلا یخلو لها الجو فتستفید شینا من جدید.

أما الأتراک الذین توطنوا فی یونان فكانوا یحترمون العادات القدیمة أكثر من

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٠

غیرهم، كما یحترمون الأوهام و حب العمالات التى ینزلونها. و لما استولوا على مدینه الإستانه كانوا یوجهون أنظارهم على الدوام إلى المواطن التى أنشأتهم و تناسلوا فیها، فكانوا أشبه بسیاح و فاتحین عابری سبیل فی أوربا: من ورائهم قبور أجدادهم، و مهاد عبادتهم و كل ما یقدسونه و یحترمونه، و أمامهم شعوب یكرونها، و أدیان یریدون القضاء علیها، و أقطار یتراءى لهم أن الباری تعالى یلعنها. و أهم ما أخر الأتراک و قادهم إلى انحطاطهم، ذكرى مجد سالف، و إعجاب وطنی لا-تناسب بینه و بین ثروتهم و قوتهم، فكانوا یستهینون، و لهم القوه، بالأخطار التى تهددهم، فإذا كتب لهم النصر سکروا و قربوا القرابین و إذا غلبوا حملوا على رؤسائهم».

هذا رأى المؤرخ الفرنسى فی العثمانيين و عله انحطاطهم و قال غیره و أغرق:

إن شأن الأتراک العثمانيين فی الولايات التى یفتحنها إذا رحلوا عنها شأن جماعه من البدو نزلوا منزلا موقتا ضربوا خيامهم فیها، إذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم فی الأرض التى نزلوها سوى آثار أطنابهم، و عمد خيامهم فقط.

حملة محمد على على الشام و هزيمة الأتراک:

أظهر والى مصر محمد على و هو بعض عمال الدوله العثمانیه مثالا مجسما من التجدد فی الممالک، و بدت أمارات قوته بعد أن قرض الممالیک من مصر، فلم یسع الباب العالی إلا الاعتراف بسلطته و محاستته، شأنه مع كل عامل أحرز قوه، على شرط أن یؤدی الجزیه، و یعرف كيف یصانع رجال الدوله و سلطانهم. و كان محمد على أسعد طالعا من سلطانه، لأنه لم یصطدم یوم قام بإصلاحه بما اصطدم به السلطان محمود فی تطبیق الإصلاحات، رأى من المصریین قبولاً لدعوته، و استعداداً للمدنیه، و هو لم یقاوم الطبیعه كما قاومها الترك العثمانيون فی السیاسه التى استخدموها للقضاء على العناصر، بل استعرب و تمصر و ألف بطانته من كل من یخدم مصر بدون عصبیه.

قام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام، وفتح صدره لكل جديد،

خطط الشام، ج٣، ص: ٥١

بل فتحت مصر بفضل صدرها لذلك. بيد أن محمد على لم يقف عند الحد الذي بلغه من الاستيثار بوادي النيل، وطمح إلى التوسع في الملك، شأن عظماء الفاتحين الطامعين في بسطة السلطان، و لكن أي البلاد يفتح؟ هل يتوسع في إفريقية؟ في صحراء ليبيا و صحراء النوبة و هي أصقاع لا توازي العناء. و ربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل في شمالي إفريقية أو في أواسطها، أم يقصد الشام و هي مفتاح كل فتح، و فيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها، و بينها و بين سكان مصر من وجه الشبه ما لا ينكر محله، ثم لا- يصعب عليه إذا خفت عليها أعلامه، أن يتقدم إلى الأمام، و يملك من أرض العرب و الترك ما طاب له، و لا يعلم ما تحده الأيام.

بحث محمد على عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد أن خلق له سببا معقولا لفتح الشام، و ذلك أن بعض فلاحي الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعنات عماله بالجندي و الضرائب، فهاجروا إلى جهات غرة ملتجئين إلى والي عكا، و كان عددهم ستة آلاف، فطلب منه محمد على إرجاعهم خوفا من كثرة عدد من يتبعهم إلى الشام، فامتنع الوالي من ذلك بدعوى أن القطرين تابعان لسلطان واحد، فاستشاط محمد على غضبا خصوصا و هو الذي استرضى خاطر الدولة على والي عكا و كانت غضبت عليه، و دفع عنه ستين ألف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه، فاتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فأمر سنة ١٢٤٧ هـ بإعداد جيش للسفر إليها عن طريق العريش و طريق البحر في آن واحد، و ذلك لمحاصرة عكا من جهتين، و عين ولده إبراهيم باشا قائدا عاما للجيش، و سليمان بك الفرنسي قائم مقام له، و جنيد ستة أليات من المشاة و أربعة من الفرسان، و معهم أربعون مدفعا و كثير من مدافع الحصار الضخمة، و ما يلزم ذلك من الأعتاد و المؤن. فوصل إبراهيم باشا مع الأسطول إلى يافا و فتحت له كما فتحت القدس و نابلس أبوابها، و كانت عكا أشهر مدن الشام بحصانتها و فيها خمسة آلاف مقاتل، فدام حصارها سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة، و من البر ثلاثون ألف جندي، و بريطانيا العظمى متغاضية عنه طوعا أو كرها، إذ كان لمحمد على من فرنسا نصير و ظهير، و ليست بريطانيا حرة مطلقه، في

خطط الشام، ج٣، ص: ٥٢

البحر المتوسط لتضرب أسطول محمد على منذ أقلع من الموانئ المصرية إلى السواحل الشامية. قال المؤرخون: و لما كانت الجيوش المصرية تحاصر عبد الله باشا في عكا جاءه من نابلس ستمائة رجل و اخترقوا صفوف العسكر المصري و دخلوا عكا لمساعدة وزيرها شاهرين سلاحهم ضاربين من عارضهم.

و بعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب، فترك إبراهيم باشا قسما من الجيش على عكا، و التقى في ضواحي حمص مع القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاط الزمر لا نظام له و لا دربة، و أبلى المصريون بلاء حسنا حتى أوصلوا العثمانيين إلى العاصي و غرق كثير منهم فيه، و اختفى عثمان باشا في حماة، ثم احتل إبراهيم باشا بعلبك و عاد إلى عكا و شدد الحصار عليها ففتحتها بمعاونة العرب و الدروز و المواردة الذين أتوه بأنفسهم طوعا بعد أن ظهر على الأتراك في أرض حمص، و أتاه الأمير بشير الشهابي إلى المعسكر يريد الدخول في طاعته. فتحت عكا بضرب المدافع ثلاث ثغرات من سورها و استمر القتال بالسلاح الأبيض فاستسلمت الحامية، و أخذ عبد الله باشا و إليها أسيرا و حمل إلى مصر مكرما، ثم فتح الأسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية و طرابلس و بيروت و صيدا و صور. و بعد أن فتح إبراهيم باشا عكا قصد دمشق و معه الأمير بشير و أمراء حاصبيا و راشيا فجمع على باشا والي المدينة عسكرا من الأكراد و أحداث البلد قدر بعشرة آلاف، و كشف إبراهيم باشا بمنظاره خيول الأكراد و مقاتله الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الأكراد، و نبه على العسكر النظامي أن يقاتلوا الدمشقيين و لا يؤذوهم، بل يطلقون البنادق في الفضاء، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا و قاتل الأكراد جهدهم حتى غلبوا، و في إثرهم خيل الهنادي

تقتل من تلحقه منهم.

تقدير مؤرخين و شاعر لغلبة محمد على:

يؤخذ مما قاله البيطار أن إبراهيم باشا قد ساعده الأمير بشير الشهابي و رؤساء جبل نابلس، لأن عبد الله باشا والي عكا كان حاصر قلعه صانور و هدمها

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٣

و حصل منه ضرر لأهل نابلس و كان ذلك من أسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية، و أن إبراهيم باشا بينا كان جيشه على عكا يقاسى الأهوال و يتجدد منه الرجال إثر الرجال جاء عباس باشا حفيد محمد على باشا إلى البقاع و حصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم، و افترق أهل جبل لبنان و تلك النواحي فرقتين، فتابع النصارى منهم الأمير بشيرا المتفق مع إبراهيم باشا، و خالفهم الدروز و أظهروا الطاعة للسلطان، ثم قصد إبراهيم باشا إلى طرابلس و حمص و دخلهما بلا قتال.

قال: و توجه إبراهيم باشا إلى بعلبك و جاءه المدد من العساكر و الذخائر و عاونه أهل الجبل من المسيحيين و الدروز، و كان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع إليهم إبراهيم باشا و كسر شوكتهم فأطاعوه، ثم دخل عسكر إبراهيم باشا عكا من الأبراج على السلاط. و ذكر بعضهم أن من جملة من قتل من عسكر إبراهيم باشا اثنا عشر ألفا و من عساكر عكا نحو خمسة آلاف. قال: و في ثالث المحرم ١٢٤٨ أرسل إبراهيم باشا إلى دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من الدخول إليها فلم يرسلوا إليه جوابا ثم طلب ثانيا فأرسلوا إليه إننا لا نمكنك من الدخول أصلا، و في رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه إلى قرب قرية داريا فخرج إلى لقائهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوهم قتالا يسيرا، و لم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر، و قتل من كل فريق رجل أو رجلان، ثم دخل إبراهيم باشا دمشق و قد فر منها و إليها على باشا و عسكره و القاضي و المفتى و النقيب و محمد شوربجي الداراني و جميع أبناء الترك الموظفين و غالب أعيان دمشق، ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه و بين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف و أسر نحو أربعة آلاف و فر باقى العسكر و الباشوات و كانوا نحو ثلاثين ألفا و غنم أموالهم و عتادهم و سار بعد ذلك إلى حماة فحلب فملكها بلا قتال، ثم جاء أنطاكية و عيتاب و اللاذقية و استولى على حصن الإسكندرونة و على حصن بيلان و كان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتلة عظيمة.

و فى البهجة التوفيقية أن الدولة جيشت جيشا آخر بلغ عدده ستين ألف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص و انهزم الجيش التركي

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٤

و بلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ و الأسرى ٣٠٠٠ و تقهقر الجيش التركي إلى حلب، و حاول حسين باشا دخولها فمنعه أهلها خوفا من انتقام إبراهيم باشا فتقهقر إلى بيلان فتقدم الجيش المصرى و دخل حلب و تأثر الجيش التركي فهزمه و غنم منه خمسة و عشرين مدفعا و كان غنم منه أولا اثني عشر مدفعا ثم غنم أربعة عشر مدفعا آخر و قتل من العثمانيين أربعة آلاف و من المصريين خمسمائة و خمسون، و وقع فى يد إبراهيم باشا ألفان من العساكر النظامية أسرى من الأرنؤد و الهواره فأعطاهم الأمان و أدخلهم فى جملة جنده، و اختفى حسين باشا و لم يعرف له أثر، و اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس و كان السلطان فى هذه المدة جيش ستين ألف مقاتل آخر- و فى رواية أخرى مئة و خمسين ألف عسكرى بالمدافع و المهمات- و لم يكن مع إبراهيم باشا سوى ثلاثين ألفا فالتقى الجيشان فى سهول قونية و وقع القائد رشيد باشا أسيرا فى أيدي المصريين و انهزم الأتراك و غنم المصريون منهم فى هذه الوقعة نيفا و مائة مدفعا و كثيرا من الذخائر و أسروا عشرة آلاف عسكرى بينهم كثير من الضباط و القواد و قتل منهم ثلاثون ألفا.

و يقول مشاقه: إن جيش حسين باشا لم يكن سوى أربعين ألفا من الترك، على حين لم يكن مع إبراهيم باشا سوى اثني عشر ألفا و

كان أبقي من عسكره جانباً للمحافظة في الأقاليم المفتوحة و هلك الآخر في الحرب أو الوباء فغلب، و هذا أقرب إلى المعقول. و قد استغرب كامل باشا لم لم تستطع الدولة أن تجيش في الحال نحو عشرين إلى ثلاثين ألف جندي من حلب و دمشق و ترسل أسطولا إلى عكا يصد عنها أسطول محمد علي أو يقيم العثرات في سبيله، كما أنه استغرب كيف أن العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم و لم يقفوا موقفا يردون به عادية أعدائهم، و انهزموا تحت نيرانهم إلى الإسكندرونه تاركين خمسة و عشرين مدفعا و ألفي أسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جنديا.

و قد وصف الشيخ أمين الجندی فعال الأتراك و هنا عزيز مصر و ولده إبراهيم و حفيده عباسا بفتح الشام فقال من قصيدة:

و الله غير ما بهم من نعمة لما تغير حالهم و تبديلا

و قد استباحوا المنكرات فلا تسل عما توقع منهم و تحصلا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٥ و قضاتهم للسحت قد أكلوا فهل أبصرت حيا من مضرتهم خلا

نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم و طغوا و زادوا في الضلال توغلا

و تمسكوا بالبدعة السوداء لا بالسنة الغراء فارتدوا على

و مشايخ الإسلام أصبح علمهم جهلا فلم ترقط منهم أجهلا

و قال في وصف وقائع المصريين مع الترك:

فترى الكماء مبددين على الثرى و الخيل من وقع القنابر جفلا

أضحت طعاما للطيور لحومهم و دماؤهم للمشرفية منها

و اختل عقد نظامهم رعبا و قد غطوا الرؤوس و لم يغطوا الأسفلا

و قال:

و أتى بهم للستن المشهور إذ بين المقابر قد تستر و اختلا

حيث الجهاديون حل وزيرهم في باب حمص و قد أبى أن يدخلوا

قامت بخدمته و طاعة أمره حمص إذ امتثلت و لم تبد القلا

لما رأى سيف الإله أحد من كل السيوف مدى الزمان و أطولا

ألقى السلاح تأدبا و تواضعا عند المزار و للضريح استقبلا

حتى إذا نفذت ذخائره و ما ألقى بحمص للعساكر ما كلا

أمضى إلى أرض القصير ركابه يبغى العساكر أن تقوم و ترحلا

و هناك حاربهم و فرق جمعهم في صولة و البر بالقتلى امتلا

و قال:

هل يغلب الأسد المجرب ثعلب مهما استعان بمكره و تحيلا

و إلى حماة الشام سار و بعدها المعرة النعمان يخترق الفلا

حتى إذا اقتحم المضيق ببأسه و على الجبال سما و أشرف و اعتلى

تركوا الذخائر و الخيام و كلها يخشون منه لدى الفرار تنقلا

من يخبر الأتراك أن جيوشهم كسرت و أن حسينهم ولي إلى

و العز بالعرب استنار مناره بيزوغ شمس مراحم لن تأفلا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٦

سقوط الأناضول و تضاؤل السلطان العثماني أمام الجيش المصري:

و ما زال الجيش المصري يتقدم فى الأناضول حتى وصل إلى كوتاهية و أراد أن ينزل بورصة بحجة أن ليس له فى أواسط الأناضول حطب و مؤنة فى الشتاء، و كانت الطريق إلى الإستانة أمامه مهيعا لا يقف فيها ما يوقف سيره، و أهل الأناضول و الإستانة راضون عنه، و أشاع إبراهيم باشا أن مقصده من غزوته هذه توطيد دعائم السلطنة. و كان رجاله من الأوربيين يحثونه على أن يواصل السير و يفتح الإستانة، و أن لا يقتصر على فتح الشام و على ما أخذه من آسيا الصغرى و لو استمع إليهم لقامت الدولة المصرية فى القسطنطينية بدلا من دولة الأتراك، فأعاد محمد على بذلك الدولة العربية. قال دى لاجونكيير:

و لم يكن لمحمد على هذا النظر البعيد و هذا الطموح، بل لم يكن يطلب غير الاستقلال و التوسع فى الملك. و بقيت هذه المشكلة التى كان يتأتى أن يكون منها عراقك بين قوميتين هما العربية و التركية، مقصورة على دائرة معينة من الحرب، لم تتعد حد القتال بين ملك و أحد عماله الناشزين عليه.

و لما رأى السلطان محمود ما آلت إليه حاله، عرته الدهشة و داخله الفزع، فطلب معاونة الدول العظمى علنا لتعيه على محمد على، و حرص خصوصا على معاونة روسيا التى أصبحت بعد معاهدة أدرنه ترى نفسها حامية الدولة العثمانية، و ليس من مصلحتها أن تكون هذه الدولة قوية، فأخرجت روسيا إلى الإستانة اثني عشر ألف جندي، و استدعى فيلق البغدان و هو مؤلف من أربعة و عشرين ألف مقاتل ليأتى إلى الإستانة، و عقدت معاهدة فى كوتاهية على أن تبقى الشام و أذنة و جزيرة كريت لمحمد على و يرحل عن الأناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل إنه ستون ألف كيس و ذلك لمدة خمس سنين و السلطان لا يسأل محمد على غير ذلك، و الخطبة تلقى فى المساجد باسم السلطان.

و عقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين، دعيت معاهدة «خنكارا إسكلهسى» و هى دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضايق فى قبضتها، فهلعت قلوب أوروبا لذلك، و أخذت انكلترا تحسب لهذه المعاهدة ألف حساب.

و لما انتهت شؤون الفتح جعل إبراهيم باشا مقره فى أنطاكية، فكان يحضر

خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٧

أحيانا إلى حلب و دمشق و عكا ثم يرجع حتى يرقب عن أمم حالة بلاد الأكراد، و كانت منتقضة على الدولة العثمانية إذ ذاك. و كان إبراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية (الحاج إبراهيم والى جدة و الحبشة و سر عسكر حالا) و بعد فتوح عكا صار توقعه هكذا (سر عسكر عربستان) أى قائد جيوش بلاد العرب و فوض محمد على ولاية دمشق إلى شريف باشا و ماليتها إلى حنابك البحرى، و كان هذا من المقربين جدا من محمد على، ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) و أقامت واليا عليها إسماعيل بك ابن عم إبراهيم باشا حاكما مستقلا، و رجح مشاقه أن السبب فى ذلك الثورات التى حدثت فى الأقاليم و القلاقل التى ذهبت براحة الأهالى و التعدى و الحروب التى أفنت معظم الرجال لأنها كانت كلها محصورة بإدارة واحدة و هى دمشق، و لذلك حصل للحاكم العام عثرات جمه فى تنفيذ أوامره للبعد بين البلدان.

و عهد تنظيم مالية حلب لجرمانوس البحرى، و قيل: إن حكومة محمد على كانت إلى الرفق بدمشق أكثر منها فى حلب، لأن الحلبيين قاوموا إبراهيم باشا بعض المقاومة، و لم ينزلوا عن القلعة حالا، و قال مشاقه: بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية و غرمهم مالا لاحتكار بعض الأصناف حتى يستفيد من ذلك أعوانه.

أعمال إبراهيم باشا فى إصلاح الشام:

و كان من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلية فى الديار الشامية ترتيب المجالس الملكية و العسكرية، و إقامة مجلس الشورى و غيرها من

النظم الحديثة، و ترتيب المالىة، جعل نظاما لجباية الخراج و معاملته الرعايا بالمساواة و العدل، لا تفاوت في طبقاتهم و مذاهبهم، و لذلك لم يلبث الأمراء و المشايخ و أرباب النفوذ أن استتقلوا ظل الدولة المصرية، و تمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء و ينالهم من ذلك مصء الوشل - و رأت الشام في أيام إبراهيم باشا إبطال المصادرات، و تقرير حق التملك، و توطد الأمن في ربوعها، و أحيت الزراعة و التجارة و الصناعة، و عمت تربية دود خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٨

الحرير و استخرجت بعض المعادن و لا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل. و فرض على لبنان ٦٧٨٢ كيسا يتقاضى الأمير ضعفيها و يدخر في خزائنه الخاصة المال الزائد على المفروض. و أكد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران و عجلون و حماة و حمص و غيرها عمرانها القديم. و أخرج بعض القلاع التي كان يعتصم فيها الثائرون أحيانا مثل قلاع جبل اللكام و قلعة القدموس، و قرب العلماء و الشعراء، و رخص للأجانب في إرسال معتمديهم إلى دمشق، و كانوا يمنعون من دخولها قبله، فينزل و كلاؤهم السواحل مثل صيدا و عكا و بيروت و طرابلس. و يقال على الجملة: إن الناس حمدوا حكومة محمد على في الشام و لم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه إبراهيم عملا بايعاز أبيه بتجنيد الشبان و لو لم يثقل كاهل الأهلين بالضرائب - و أقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشا و أعظمها خمسمائة قرش - فإن هذا مما نفرت منه القلوب و لا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب و أهل دمشق.

فتوق و فتن و حصار الفلسطينيين لإبراهيم:

لم تقع حوادث مهمة في السنين الأولى التي قضاها إبراهيم باشا في الشام اللهم إلا - ما وقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنه بين المسيحيين قتل فيها خلق و ما كان من عصيان النصيرية فانتدب الأمير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكريا خيم في البهلوية فهرب النصيرية بقضهم و قضيضهم و تركوا مواشيهم و غلالهم و أمتعتهم ففتحتها العسكر و أحرق لهم خمس عشرة قرية و قطع أشجارها ثم أحرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين أخرى و كانت مناوشات بين عسكر الأمير و النصيرية. و علل مشاقه هذه الوقائع بأن المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر، و طلب أموال أميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه، نفرت قلوب الأهالي منهم، و صاروا يتمنون رجوع حكم الأتراك، و ابتدأ الناس ينتفضون عليهم و اضطروا المصريون إلى الاستكثار من الجند لحفظ مركزهم الجديد، فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية و أرسل الحاكم عسكريا لقتالهم خطط الشام، ج ٣، ص: ٥٩

من لبنان و حاصبيا و راشيا، فتوغلوا في تلك الجبال و امتلكوا عدء محال، و لعدم العناية و استخفافهم بالخصم آلت الحال إلى تراجعهم و قتل كثير من رجالهم، و آبوا إلى اللاذقية يتعشرون بأذيال الخجل، إلى أن جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكريا كثيرا و قهرت أهلها.

و أوعز إبراهيم باشا إلى الأمير بشير أن يرسل ولده بألفى مقاتل إلى طرابلس سنة ١٨٣٣ م ١٢٤٩ هـ يجتمع هناك بسليم بك أحد قواد المصريين لتأديب العكاريين و الحصنيين و الصافيتين فذهب و قبض على بعض العصاة في طرابلس و عكار و كثير من الأعيان و جرت بينهم عدة وقائع. و الغالب أن وقائع جبال النصيرية امتدت منها إلى صافيتا و عكار و الحصن أو امتدت من هذه إلى تلك. و في سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت و أنطاكية، و اشتغل إبراهيم باشا بإدخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية، فهرب الناس و تشتتوا و توقفت الأعمال، و طلب من نابلس إنفاذ قانون الجندية فخرج أهلها عن الطاعة و حاصروا إبراهيم باشا في القدس نحو شهرين و كان لبيت أبي غوش بين القدس و يافا يد طولى في هذه الفتنة و رئيسها قاسم الأحمد حاكم نابلس، فلما ضاق الحصار بإبراهيم باشا اضطروا محمد على أن يجيء بالذات إلى يافا و أرسل إلى قاسم الأحمد كتابا يتلطف فيه مصحوبا بمال

جسيم و يقول إنه لا يأخذ منه عسكريا و لا مالا فرضى قاسم الأحمد و فك الحصار و خرج إبراهيم باشا حتى وصل إلى يافا، فوجد العساكر قد وصلت لنجدته، فرجع على عقبه في الحال و اشتغل بالقتال و النهب و السلب، فهرب قاسم الأحمد إلى الخليل فلحقه إبراهيم باشا بعسكره، و اشتغل بالنهب و القتل حتى لم يبق و لم يذر. ثم دار على الساحل فأدب العصاة من أهله و لم يزل يتتبع آثار قاسم الأحمد حتى قبض عليه و قتله في دمشق، و قتل أربعة من أولاده و أمر بجمع السلاح من جميع البلدان.

و في تاريخ فلسطين أن إبراهيم باشا لما قضى بأخذ أموال و رجال من فلسطين ندم أصحاب الإقطاعات على سكوتهم، و اجتمعوا في قرية بيت وزن غربي نابلس و اتفقوا على محاربتة، فنكث جماعة منهم مالوا معه و دلوه على الطريق و المياه، فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم، و فتح طريق

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٠

طول كرم ثم نابلس، و عطف على القدس فاحتلها، و قد تهافت الأهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم و كسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط، و لكن أهالي الخليل هزموه عند برك سليمان و حصروه في القدس فاستعاد نشاطه و قارعهم ثانية و ظفر بهم.

خطأ إداري لإبراهيم باشا و وقائعه في اللجاء و وادي التيم:

لا جرم أن إبراهيم باشا أخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو ما فعل أبوه في مصر، و كان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه إلى حين، لأن صاحب القطر الأصلي لم يقطع آماله من استرجاعه و هو يسعى بكل ممكن إلى استخلاصه من غاصبه، و كل ما تنفر منه قلوب الرعية يفرح به لأنه يخدم مصلحته. فمسألة التجنيد قللت من أنصار الحكومة المصرية في القطر لقلّة اعتياد الناس الجندية في ذاك العصر، و قد أصبح القوم يعدون التجنيد من باب إلقاء النفس في التهلكة، و زال من الأفكار معنى الدفاع عن الوطن و الذب عن مقصد شريف، و هذا الروح كان قد ضعف في الأمة بعد أن حكمها الغرباء قرونا بالعنف و القهر. قال في معلمة الإسلام: إن تجنيد الشعب في الشام أدى إلى هجرة عدد عظيم من أهلها إلى آسيا الصغرى و العراق. و وضع اليد على الحيوانات للأعمال العسكرية نتج منه انحطاط الزراعة و التجارة، و لئن كان الأمن قد استتب في الأرجاء فإن الغضب العام لم يكن أقل منه. و جاء في تاريخ حماة أن إبراهيم باشا كان يحشر الناس لبناء الثكنة العسكرية في حماة و يقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه إلى رؤوس الجبال و تارة يختبئون في الأنهار و ربما قلع الإنسان عين نفسه أو قطع إصبه ليعفى من الخدمة العسكرية.

و لقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران و عرب تلك الجهات و أبوا تجنيد أولادهم، فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جندا فالتقوا به في جنوبي اللجاء في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين، ثم أرسل عليهم قائدا اسمه محمد باشا فقاتلوه و قتلوه و قتلوا خلقا كثيرا، ثم أنفذ إبراهيم باشا أحد رجاله شريف باشا إلى قرية أم الزيتون في وادي اللوى في أربعمائه فارس فقتلهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦١

الشيخ حمدان الدرزي عن آخرهم و لم يبق إلا على مقدمهم. و ذكروا في سبب هذه الوقائع أن إبراهيم باشا طلب ١٨٠ نفرا للجندية من جبل الدرروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان و أرسلهم إلى عكا، فطلب المشايخ إبدال ذلك بالمال و أوهموه الطاعة فلما عادوا إلى إقليمهم ثاروا عليه، فتوجه إليهم الجند بقيادة على آغا البصيلي كبير طائفة الهوار و الصعايدة و معه عبد القادر آغا أبو جيب فعقدوا هناك مع كبراء الدرروز مجلسا للمشاورة في هذا الأمر، فامتنع الدرروز من تسليم الأنفار و أرادوا الاستعاضة عنهم بالبدلات العسكرية.

فقال البصيلي: إنني أرسل مراسلة أستشير بها أفندينا. و على ذلك قرّ القرار.

و في تلك الليلة كبست الدرروز العساكر و أذاقتهم كؤوس المنية، و قتل أبو جيب و كان المتسلم في حوران و جبل الدرروز، و لم يسلم من القتل سوى البصيلي و خمسة عشر نفرا، ثم جمع الدرروز أمتعتهم و دخلوا اللجاء فجاءهم عسكر إبراهيم باشا فقتلوه. و هذه

هي الواقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا. وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز و العرب عشرة آلاف. و في مدونات مشايخ الدروز أنفسهم أن المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل و معهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم. و كانوا يربطون الطرق و ينهبون القوافل بين بيروت و دمشق و يقتلون كل من وجدوه منفردا من العسكر النظامي.

و روى مشاققة أن العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلا من الهوارة قتلوا إقليلا، فأرسل إبراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع مع أن الدروز يومئذ لم يكونوا أكثر من ١٦٠٠ مقاتل. و لما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء إبراهيم باشا من شمالي الشام و كان هناك يرقب حركة الأتراك فساق قوة أخرى، فرأى الرعب قد دبّ في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد إلى ضربهم من جهة صرخد بفارسان الأكراد. و دارت رحى الحرب بينهم و تهارب الدروز من وجه إبراهيم باشا و رجاله إلى أن قادوهم إلى سهل دامة، و هناك رجعوا عليهم و أعملوا السيف فيهم و فتكوا بجمعهم، و لما عرف إبراهيم باشا أن عسكره ذعر من شجاعة الدروز عمد إلى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل إلى الدكتور كلوت بك يستحضر منه

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٢

محلولا قاتلا فرفض هذا إجابة طلبه و حاول أن يمنعه من استعمال تلك الوساطة لما فيها من القسوة التي تشمل الحریم و الأطفال معا، أما إبراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولا و الرعية ثانيا، و لما عجز عن إخضاع العصاة ألزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليمانى ألقاه في المياه و أعلم الدروز بذلك، فاضطر الدروز إلى ترك المكان بعد أن مات منهم عدد كبير عطشا و أتوا إلى إقليم البلان.

و كان دروز وادى التيم و إقليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلى العريان و لما ضاق بهم ذرع إبراهيم باشا استدعى من مصر عسكرا من الأرنؤد فأمده أبوه بأربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا، و هم الذين حارب الدروز بهم في الوعة أيضا فلم يظفروا بهم. و كانت دروز الأقاليم تنجد دروز حوران سرا أولا ثم أخذت تنجدهم علنا. أما نصارى لبنان فتجنّدوا أولا مع العساكر المصرية و حضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين و الدروز في حوران و وادى التيم. و تجمع العصاة في قرية حينة من إقليم البلان، فأطلق الأمير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهمزوا و قتل منهم ١٥٠ رجلا و بلغ شبلى العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعة و حاصر العسكر المصري في سراى حاصبيا فقتل من أمراء حاصبيا الأمير على ثم أرسل العريان إلى الأمير محمود خليل أن يخرج من السراى و لا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين، و اضطرت نار الحرب بين العسكر المصري و العريان، ففر الجند المصري منهزما نحو البقاع فتبعه العريان بمن معه و أعمل في أفقيتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل و تشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان و البقاعيون، ثم جمع إبراهيم باشا ما تشتت من عسكره في البقاع و عاد فخيم في قرية عيحا قرب راشيا، فأتته الدروز و تحصنوا قبالته في غابة هناك، و انتشب الحرب بينه و بينهم فلم يظفر بهم، ثم اشتبك الدروز مع عسكر إبراهيم باشا في وادى بكافهجم عليهم إبراهيم باشا بعسكره و أطلق عليهم النار و أطبقت العساكر من كل جانب، فقتلوا من الجند المصري و قتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقيها إلى الفرار. قيل إنه قتل من الدروز في الواقعة الأولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم إبراهيم باشا و قتلهم، ثم حدثت وقعة في قلعة صخور و تفرق الدروز، و طلب العريان الأمان من إبراهيم باشا فأجابته إليه و جعله قائدا على ألف فارس هوارة. و في سنة ١٢٥٢ توجه الأمير مسعود

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٣

الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفا فاستسلموا له و مات من عسكره خمسون جنديا دنقا.

نعم بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد على سنة ١٢٥٠ لما صدر أمره إلى ابنه إبراهيم باشا باحتكار أصناف الحرير للحكومة، و بضرب ضريبة جديدة على الأهالي، و بتجهيز عدة أليات، و زاد الحنق لنزع السلاح، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط و على شواطئ الأردن، و في هذه الواقعة التي انتهت بقتل قاسم الأحمد حاكم نابلس بدمشق، قتل إبراهيم باشا كثيرا من زعماء الأتراك ممن كانوا

ساعدوا العصاة عليه، و أخذ الدروز و النصيرية و الموارنة يستعدون للثورة يهيجهم عليها عمال الدولة العثمانية، و بريطانيا تحرض العثمانيين و تعلمهم كيف يسلكون. و قد روى كامل في تاريخه أن إبراهيم باشا فقد من جيشه في الستين التاليتين لأمر التجنيد نحو عشرين ألفا. و ممن انتقض على إبراهيم باشا أهالي الكرك فإنه لما فتح إقليمهم نظم إدارته و جعل له حامية من جنده، و بعد قليل تمرد السكان و ذبحوا الحامية و الموظفين على بكره أبيهم، و قتلوا كتية من جنده كانت آية إلى مصر، فأصلوها الطريق و أهلكوا أكثرها.

سياسة الأتراك و الدول مع محمد علي:

و كانت الدولة العثمانية بمعاونة الدولة البريطانية لا تفتأ منذ دخول المصريين إلى الشام تدس الدسائس في القطر، و تستميل رؤساء العشائر و أرباب الزعامات و الأعيان، بالمال تارة و الوعود الخلابه أخرى، و بعد أن عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني و هو خمس سنين أيضا و مضى أكثره و أدى المقرر عليه من المال، أرتأى العثمانيون بإيعاز بريطانيا العظمى أن يستخلصوا الشام و أذنه من محمد علي، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين ألف مقاتل و في رواية مئة ألف مجهزين بمدفعية مهمة و معها طائفه من كبار ضباط روسيا و بروسيا و زحف إبراهيم باشا في أربعين ألفا حتى انتهى الجيشان إلى سهل نزيب (نصيبين)، و اشتبك القتال بين الجيشين ثمانى ساعات و نصفا فتراجع الجيش العثماني بعد أن قتل منه ستة آلاف و قيل أربعة و أسر اثنا عشر خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٤

ألفا، و غنم المصريون من العثمانيين في هذه الوقعة ١٦٦ مدفعا و ٢٠ ألف بندقية، و قتل من المصريين أربعة آلاف و قتل المصريون من الأتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة أسداسهم.

و ذكر المصنف المجهول أن وقعة نزيب كانت يوم ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ (٢٤ حزيران ١٨٣٩) و أن إبراهيم باشا استولى من العثمانيين على مائة و عشرين مدفعا و عشرة آلاف بندقية و جميع مهماتهم و ذخائرهم و عتادهم و قتل منهم أربعة آلاف و خمسمائة و جرح ١٨ ألفا و أسر ثمانية آلاف و خمسمائة و قتل أمراء كثيرين. و قتل من جيش إبراهيم باشا أربعمائة و جرح ثمانمائة و فقد أربعمائة ثم قصد بيره جك (البيرة) فهرب العثمانيون و غنم منهم ٣٢ مدفعا بعثاها.

انتهى خبر الهزيمة إلى الإستانة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني و جلوس ابنه عبد المجيد و هو فتى في السادسة عشرة من عمره. جلس السلطان الجديد و سلطنته مهددة بجيوش محمد علي، و ليس للدولة جيش، و قد فقدت أسطولها في الإسكندرية، سلمه لمحمد علي أمير البحر أحمد فوزى باشا، فرأى السلطان أن يسأد و يقارب، فأرادته الدول على أن يترص ريثما يتوفق إلى حل مرضى بإجماع الآراء بينهم، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانية بالطرق السلمية الحريه، فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا أن لا تتجدد معاهدة «خنكار إسكلهسى» بين العثمانية و الروسية، و أن السلطان إذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول، على أن تبقى المضايق و الدردنيل تحت إشرافهم، و كان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي أن تكون مصر و الشام و أذنه ملكا وراثيا له و لأولاده فأرضته الدول بمصر فقط و لم تنفعه معاهدة فرنسا، و قضى على محمد علي أن يخرج من أذنه و الشام في عشرة أيام، و أن لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا أى فلسطين من أرض الشام. تقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا و روسيا و بروسيا و النمسا بيد أن محمد علي أبى أن يخرج من الشام، فبعث انكلترا بأسطولها إلى السواحل بقيادة روبرت ستوبفورد فضربت بيروت و استسلمت باقى الثغور كطرابلس و صيدا و صور و قاومت عكا، و بعد أن أطلقت عليها البوارج الإنكليزية قذائفها ثلاث ساعات أصابت مستودع البارود فانفجر و قتل كثيرا من الرجال، ثم

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٥

اضطرت العساكر المصرية إلى العودة من طريق البر الذى كانت جاءت منه.

و كانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول و قامت إلى جنب محمد على تبرر عمله، و تناصره برأيها و معاونتها الأديبة. و نشر السلطان عبد المجيد ١٢٥٥ (١٨٣٩) خلال هذه المدّة خط كلخانة أو البراءة السلطانية و هي أول قانون إصلاحى فى السلطنة العثمانية يقضى بإعطاء العناصر العثمانية حقها و حريتها، و يضع نظاما لاستيفاء الضرائب على نظام واحد، و تطبيق القانون العسكرى و غير ذلك من الأمور الإدارية، فصفقت أوروبا لقانونه و رجت الارتقاء لمملكته. و كان هذا القانون مما أوحى به بريطانيا و استملاه عقلاء الساسة من الأتراك فى العاصمة.

انقراط عقد الحكم المصرى:

و لما أحس أهل لبنان بواسطة دعاة البريطانيين أن الدول أزمعت إجلاء الجيش المصرى عن الشام بالقوة إن لم ينجل مختارا، أخذوا يناوشون الحامية المصرية و قتلوا بعض المتسلمين من المصريين، و كان الأمراء الشهابيون و اللعميون يقوون العامة سرا و يحثونهم على الثبات، و الإفرنج يخبرون الناس باتفاق الدول الأربع النمسا و بريطانيا و روسيا و بروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد على، و يحرضونهم على الدولة المصرية، و يؤكدون أن المراكب الحربية قادمة إليهم، و اشتدت الفتنة بين أهل الجبل و الأمير بشير و حرق إبراهيم باشا بعض قرى الجبل و قتل رهبانا و سبى حريما.

و كان أمير لبنان فى ظاهره مع إبراهيم باشا خوفا منه، و فى الباطن مع من يضمن له ولايته، و قبض المصريون على ٥٧ رجلا من أعيان لبنان بينهم أربعون من أمراء الشهابيين كانوا يدعون أهل بلادهم لخلع طاعة المصريين فنفاهم إبراهيم باشا إلى مصر و منها إلى السودان، و أخذ أعوان أمير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح و الخيل و طرح المغارم، و جاء على الأثر الأسطول العثمانى و الأوروبى فى أربعين قطعة صغيرة و كبيرة، تحمل خمسة (٣-٥)

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٦

آلاف و خمسمائة جندى عثمانى و ألفى جندى أوروبى، فأخذ إبراهيم باشا يجمع شمله فى الداخل، و يستدعى جنوده من الساحل، و بحسب تقارير ضباط الإنكليز أن المقتول و المجرور و الضائع من العسكر المصرى لم يكن أقل من عشرين ألف جندى. و خرج إبراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد أن فرق ذخائره و متاعه على المساجد و الجوامع و بيوت الأراذل و الأيتام، و أخذ معه جميع الحبوب و المواشى خارجا من باب الله و نزل فى سهل القدم، و منها قصد إلى مصر عن طريق البر.

و قبل رحيله عن دمشق أرسل خالد باشا التركى من الساحل أحمد آغا اليوسف فى شردمة من الجيش فخرج إليه إبراهيم باشا بجند قليل و هزمه شر هزيمة، فرجع إبراهيم باشا بالغنائم و الذخيرة الوفرة، أما أحمد آغا فنزل بعسكره بعيدا عن دمشق فى إحدى قرى الزبدانى ينتظر إخلاء إبراهيم باشا المدينة، ثم خرج إبراهيم باشا صادعا بالأمر الذى جاءه من والده بالجلء عن الشام فخرج أهل دمشق لوداعه و خطبهم و حرضهم على الإخلاء إلى الطاعة و السكينة، ريثما تعود الحكومة العثمانية، و عينت الدولة على باشا الذى كان واليا على الشام يوم دخول إبراهيم باشا، و كان أشد الأتراك تعصبا، و بقى قنصل بريطانيا المستر ودد الذى أثار الموارنة على إبراهيم باشا مفوضا من الدولة التركية بمراقبة أعمال عمالها، و كان كثيرا ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله و نصب ذاك فتنبه، و كان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار فى خدمة أمر مطلق.

أراد محمد على أن يقاوم دول أوروبا و يظل فى الشام، و لكنه علم ببعده نظره أن ذلك متعذر، و أن أسطولا ضرب بيروت و أحرق الأسطول المصرى و نزل تسعة آلاف جندى إلى سواحل الشام، و أن الموارنة بعد أن كانوا عضد ابنه إبراهيم أصبحوا يعاونون الأوربيين على طرده من الشام، و تقدم أمير البحر بأبيه أمام الإسكندرية و أخذ من محمد على معاهدة لم يترك له بها سوى مصر، و أنه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لبريطانيا بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة الموانىء و مساعدة كل من أراد خلع طاعة المصريين و الرجوع إلى الدولة العلية، و بعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لإشغال الجيش المصرى فى الداخل، كى لا

يقوى على مقاومة السفن النمساوية و البريطانية

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٧

و أن يكون لمراكب روسيا و النمسا و بريطانيا معا حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها.

فضل حكم محمد على:

كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام أكثر من سيئاتها. وضعت أصول الإدارة و الجباية و رفعت أيدي أرباب الإقطاعات و أعطتهم من الخزائن رواتب تكفيهم، و لم يخلص من ذلك إلا الأمير بشير الشهابى و الى لبنان، فإنه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر، و ظل يتصرف بلبنان، و بذلك رفعت سلطة المشايخ و الأمراء المستبدين. قال مشاقه: كانت الدولة التركية خيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس فى المشايخ، و تغريهم بالمواعيد الفاحشة، ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة، طمعا بإرجاع نفوذهم، و كان النصيرية أول من شق عصا الطاعة و تبعهم الدرروز فى حوران و وادى التيم، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام بالحروب و القلاقل.

و من مآثر الحكومة المصرية التى عددها مشاقه تجفيفها المستنقعات و تصريف الأقدار فى مجار خاصة، و تحديد أسعار اللحوم، و العدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم و طبقاتهم، لا- تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه، و إنفاق كل مال فى وجهه المخصص له، و مع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة و يناقشها الحساب، لأنه اعتاد أن يكون محكوما لا حاكم نفسه، عبدا لا حرا. و أكد أن البريطانيين استخدموا رجلا من رجالهم السياسيين اسمه المستر ودد فجاء كسروان بدعوى أنه يريد تعلم اللغة العربية، و أخذ يبث الدسائس حتى أعلن الكسروانيون العصيان، و قاتلوا جيشا من جيوش إبراهيم باشا و جيوش الأمير بشير، و دام القتال أياما، و تغلب العصاة على جند إبراهيم باشا مرارا، و هى المرة الأولى التى ذاق بها إبراهيم باشا طعم الانكسار.

و مدح مشاقه الأمير بشيرا الشهابى الذى كان عضدا قويا لإبراهيم باشا، و قد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ إلى سنة ١٨٤٠ و أرسلته الدولة لما استولت

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٨

على الساحل إلى مالطة و بقى منفيًا فيها زمنا و لم يستطع أن يعود إلى إمارته.

قال إنه كان شجاعا مقداما، و قائدا محنكا، و سياسيا داهية، خدم الجزائر بكل أمانة و نشاط، و خدم خلفه و حفيده مثله، و خدم الدولة التركية و الدولة المصرية، و كان يعطى لكل خدمة و دولة حقوقها، و كان صادقا إذا وعد أمينا على واجبه، و لكنه لم يخدم لبنان خدمته تذكر. و انتقد مشاقه حكومة محمد على تقاعسها عن إشهار استقلالها عن الدولة التركية، مع أنه كان من أسهل الأمور بعد أن اكتسحت القطر، فلو نادى محمد على بنفسه ملكا مستقلا و أرسل سفراء إلى عواصم الدول الأجنبية، و عقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بنى عثمان، و لو طلب منها الاعتراف بملكه و استقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثه قونية، لأجبرتها على الاعتراف بسيادته لأنه استحال عليها إخراج جنوده من الشام، أو صد هجمات إبراهيم باشا و تقدمه إلى قلب عاصمتها، و لو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم أو لكانت على الأقل أضيفت الشام إلى مصر و أصبح حظ القطرين واحدا. و لم يظهر سر امتناع محمد على من الإقدام على هذا الأمر الخطير و لو فعل لغير حالة هذا الشرق القريب لا محالة.

رأى الغرباء فى حكومة محمد على:

أثبتت حكومة محمد على فى فتوحها أن المصرى بل العربى إذا تهيا له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين فى سيرته و جلالته، و أنه لم يضره فى القرون الماضية إلا فئاؤه فى الحكومة التركية، بدعوى أن الإسلام لا يفرق بين الأجناس، و العربى و التركى أخوان، و أن

الظلم إذا جاء من مسلم كان مقبولاً! و كانت حكومة محمد على من أفضل ما رأته الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون، بل إن الشام في القرون الوسطى و الحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يماثلها.

كتب المستر برانت قنصل بريطانيا في دمشق إلى سفير دولته في الإستانة سنة ١٨٥٨ م ما تعريبه: لما كانت الإيالة تحت حكم محمد على باشا عاد كثير

خطط الشام، ج ٣، ص: ٦٩

إلى سكنى المدن و القرى المهجورة، و إلى حراثة الأرضين المهملة، و هذا ما حدث خاصة في حوران و في الأرجاء الواقعة حوالى حمص، و في كل الجهات الواقعة على حدود البادية، و في هذه الأماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة، و جعل السكان بمأمن من اعتداءاتهم. و كان الشام بأسره تحت إدارة شريف باشا و قيادة الجيش الذى يبلغ عدده زهاء ٤٠ ألف جندى نظامى و غير نظامى بإمرة إبراهيم باشا، فبحسن إدارة الأول تضاعف نجاح الأهلىين و حسنت المالىة فى هذه النواحي، كما أن نشاط إبراهيم و حزمه و طدا الأمن و مد رواق الثقة، و قد عدت الحكومة ظالمة لكنها فى الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك، إذ كان عليها أن تصلح عدة أمور مختلفة، و أن تبدل الفوضى و التعصب و القلاقل التى كانت سائدة بالعدل.

«و امتعض أصحاب المقامات العالىة و الأفندية و الأغوات من ذلك كثيرا لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة و الحرف و سائر الطبقات العاملة».

و قد سر هؤلاء كل سرور لخلاصهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا، و اغتبط النصارى خاصة و فرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق. و لم يكن الفلاحون أقل سرورا منهم لأنه و إن كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة، لم يكن يستوفى منهم بارة زيادة، و لا تضبط حاصلاتهم و غلالهم، و لا يؤخذ منهم شىء دون دفع ثمنه، و لم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل، و قد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين، و هذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم. أما النصارى الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية، و الفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لإصلاح بيوتهم و تموينها، و أعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين.

«و قصارى القول أن جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات، و كم من مرة ذهبت الجنود بإمرة إبراهيم باشا لإتلاف بيوض الجراد و ما نقف منها و بفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى فى مدارج النجاح و النماء، فلو طال الحكم المصرى على الشام لاستعادت قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء، و أصابت شطرا كبيرا من الثروة التى كانت فى الماضى، و آثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى و المدن العديدة فى جهات

خطط الشام، ج ٣، ص: ٧٠

حوران، و فيما وجد فى البادية حيث ترى فيها الطرق التى اختطها الرومانيون.

قال: «و لم يكد المصريون يطردون من القطر و يتقلص ظل سطوتهم- و قد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد- حتى عاد القوم إلى نبد الطاعة و خلفت الرشوة و التبذير فى إدارة المالىة النزاهة و الاقتصاد و منيت المداخيل بالنقص، و استأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فخلت القرى و المزارع المأهولة جديدا بالتدريج حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة و الأملاك و كل شىء يدل على عودة حالة الفوضى إلى هذه الديار التى تركها المصريون».

هذه أجمل صفحة فى وصف حكم محمد على فى الشام كتبها إنجليزى.

و قال برييه الفرنسى فى كتابه الشام على عهد حكومة محمد على ما تعريبه:

«ما من بلدة نالت ما نالته الشام من العمران و المجد فى كل مظهر من مظاهر الحياة، و ما من بلد عانى شقاء كشقائها من تقلبات الزمان، و سقى أديمها بالدماء، فإن خصبها المدهش و جمال إقليمها و تنوعه، و مركزها المهم الذى يقرب إليه جميع الأجزاء القديمة

التجارية من الأرض، كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم و التجارة في العالم، و لكن هذا المركز و هذه المنافع قد نهبت أطماع الفاتحين، و جلبت غير مرة على الشام و يلات الحروب.

«و كانت الشام على عهد الأتراك العثمانيين مقسمة إلى أربعة إيالات: حلب و طرابلس و عكا و دمشق، و قبل مجيء إبراهيم باشا إلى الشام كانت حكومة هذا القطر من الممالك العثمانية التي تتبع السلطنة، و لا يمكن حصر السلطة في يد واحدة، لأن معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد تمكنه من العصيان و كثيرا ما كان السلطان سلطانا بالاسم مع أن الشام كانت مقسمة إلى أربع إيالات كما حدث في زمن عبد الله باشا و غيره ممن شقوا عصا الطاعة و كثيرا ما كان الباشوات يشنقون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابرا و لطالما شنقت عليه باشاوات بيد الأهالي كما أحرقوا باشا دمشق.

«و كان الدم يجري لأقل شبهة و العذاب الأليم يحل فيشنق الباشاوات و تستل أرواحهم من أسفلهم و يجعلون العصاة على الحديد و يحزون الرؤوس و بذلك كان يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا و إلا أصبحوا عرضة للحرق و الشنق. قال: و من المحقق أنه ليس إلا طريقة الإرهاب و القوة التي

خطط الشام، ج ٣، ص: ٧١

تؤثر الأثر المطلوب في شعوب الشام و تردهم إلى الطاعة، و قد عرف إبراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين و ذلك بأن استمال إليه قلوب أشرفهم و أعيانهم و ألقى بينهم الشقاق ضمنا عند الاقتضاء، و بذلك تيسر له حكم هذه الإيالات و وضع ضرائب شديدة عليها ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر و أديان مختلفة، و كان شريف باشا حاكما على الشام كله و تحت يده الحكام، و كان طماعا في المال ا هـ».

حكما على أنفسنا و على غيرنا:

هذا هو الإنصاف في الحكم على حكومة إبراهيم باشا و ما هي في الحقيقة إلا روح محمد على الكبير التي كان يستمد منه ابنه، و لا يصدر إلا- عنه في الخطوب و لا- يقطع أمرا دون الرجوع إلى رأيه، حتى جاءت أحكام المصريين نموذجا في الإدارة، و لو عزمت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط إبراهيم باشا في الإصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر، و لكن العثمانيين ابتلوا بالإهمال و الغرور، لا يعمدون إلى حسن الإدارة و يتظاهرون بالإحسان إلا يوم الشدائد، فإذا زالت عادوا إلى طبائعهم في إعنات الرعية و إلقاء الجبل على الغارب، و نسوا ما أعطوا من عهود، و ما وضعوا من القوانين. و هذا ما دعا إلى ظهور الفروق الكثيرة بين الإدارتين المصرية و العثمانية بعد رحيل جيش إبراهيم باشا عن هذه الديار، و هو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر و الشام، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا و تساهمها سياستها أحيانا. و ما مصر و الشام إلا طريق الهند الأقرب، بل مفتاحها من البحر المتوسط، و إذا أردنا أن ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على أمانى محمد على بل أمانى العرب من إنشاء دولة عربية، كما أوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة أن تدعو الدولة العثمانية إلى حرب الوهابيين في نجد و الحجاز حربا عوانا لأنه كان

خطط الشام، ج ٣، ص: ٧٢

يخشى أن يؤسسوا أيضا دولة عربية جديدة ربما كانت عشرة في سبيل أمانى تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب.

و لو نظرنا إلى ما وقع لإبراهيم باشا في الشام لأول الفتح، لم نره إلا قتالا مع العثمانيين أي قتال الجيش المصري مع الجيش العثماني، و إذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا أو عن دمشق أو يوم حمص مثلا- أناس من الأ-كراد و الهوارة فهؤلاء ليسوا شاميين و هم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم و يرزقهم، على نحو ما وقع لإبراهيم باشا من هذه الفئة، أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم

إلى صفوفه فأخذوا يقاثلون معه، و لم يلتو القصد على إبراهيم باشا إلا لما دخلت أصابع الأجانب، و أخذوا يثيرون عربان نابلس و سكان كسروان و جبال النصيرية و دروز لبنان و وادي التيم و جبل حوران و كل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال، و أما المدن و السواد الأعظم من الناس فقد استقبلوه و أخلصوا له و شعروا بحسن إدارته و لا سيما المسيحيون و الاسرائيليون و كلهم أدركوا الفرق بين حكومته و حكومة الترك.

و لقد تجلى في وقائع محمد على في الشام تجليا لا مجال للريب فيه، أن اختلاف المذاهب و تباين التربية، كان من العوامل القوية في إلقاء الفتنة بين أبناء هذا الوطن، و أن دول أوربا عند أغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتكلمين، و تستخدم وسائل غريبة في تكدير صفاء الآمنين، و تعبت بعقول السذج المساكين، و أنها قلما اهتمت لمصلحة أمة من أمم الشرق، بل تهمها مصلحتها فقط، و لو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد و يرقى بحكم محمد على الذي كان بإقرار رجالها من أرقى ما عهده القطر منذ قرون، و لعل أبناء الشام أيقنوا بخطأهم في الانتفاض على الحكومة المصرية و هي مثلهم عنصر و لغة و عادات أنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين، و ما كان من حقهم أن ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الإثم و العدوان. و كان على الشاميين منذ عهد المصريين أن يدركوا أن الدولة دب فيها ديب الفساد، و أن من العناء رياضة الهرم، و أن الهرم إذا نزل في الدول لا يرتفع. خطط الشام، ج ٣، ص: ٧٣

العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٧ رجوع الشام إلى سالف بؤسها على العهد العثماني و فتن الدروز و النصاري

إشارة

أشبه الشام بعد الحكومة المصرية حال من كان في محنة مستديمة و شظف عيش، ثم حسنت حالته بان علم النظام و السكون، و متع ببعض الراحة، و غدى بالأطياب، فتغيرت طبيعته، و تبدلت نفيسته، و بمحاولة إرجاعه إلى سابق مألوفه، عد من يحاول ذلك جانيا عليه. و ما كان يحلم أولا بأن يستمتع بغير ما كان له، و برجوعه سيرته الأولى تجلى له الفرق و تنخص عيشه. تبين الفرق بين الإدارتين المصرية و العثمانية و لو طال عهد المصريين أكثر- و كانوا في صدد الفتح يتخوفون بادرة العثمانيين كل حين- لسعد القطر حقيقة و أيقن حتى من كانوا ينعمون من دماء الأمة على العهد العثماني أن طريقة المصريين في المساواة بين الطبقات و المذاهب المختلفة، و الشدة في إنفاذ القوانين، و تقليد الغرب في كل أمر جوهرى أفضل طريقة لراحة السكان، و كان يرجى أن يألفوا في مدة قصيرة ما تأصل في فطرم على توالى القرون، و تعودوه من حكم أرباب الإقطاعات الذين صدهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التي ألقوها زمن العثمانيين، و هي الاتجار بالجباية يجونها أضعافا، و يسلبون الباقي من الأمة بمرأى من الحكومة و مسمع.

و راعى الشاء يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

لم تكد تخلى الجنود المصرية أرض الشام حتى رجعت إلى حالتها القديمة و ثارت العداوات في الصدور، و زادت الدسائس الأجنبية، و أخذت فرنسا خطط الشام، ج ٣، ص: ٧٤

تساعد الموارد، و بريطانيا تعاون الدروز، فتعدى هؤلاء على الموارد في سنة ١٢٥٧ و دخلوا دير القمر و ارتكبوا فيه الفظائع المنكرة، و زحفوا على زحلة بثمانية آلاف، و انتشب القتال بينهم و بين أهلها، و معهم أهل بعلبك، فانهزم الدروز شر هزيمة، و لو لا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة. و انجلت حادثة دير القمر عن مائة و تسعة قتلى من النصاري و عدد كبير من الدروز قدره مشاقه بأكثر من خمسمائة لأنهم كانوا مهاجمين قال: و لما ظهر للنصاري غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفورا تاما، و طلبوا

من الوزير حاكما عليهم و رفع سلطة المشايخ عنهم فأجابهم إلى ذلك، لأن هذا ما كان يرغب فيه، و لولاه لما كان الأتراك يختمون عروض المحاضر طعنا على أمراء الجبل و يحضون أهله على الفتن.

عاملت الدولة العثمانية بعد عودتها إلى القطر كل من ساعدها على مقاصدها و خدمها أو تظاهر بخدمتها و تجسس لها زمن الحكومة المصرية المعاملة التي ترضيه، فرجع أرباب النفوذ و الإقطاعات إلى سالف مجدهم، المبني على تقطيع أوصال الشعب و التغذى بلحمه. و أقامت بدلا من الأمير بشير الشهابي الأمير بشير قاسم الشهابي حاكما على لبنان. و كان دون سلفه إدارة و معرفه، و أقصت الأمراء الشهابيين عن وادي التيم، و أقامت شبلي العريان متسلما لها لأنه خدم الأتراك في حرب المصريين، نزع من النصارى سلاحهم و قدم للدروز بارودا و ذخائر، و كان يرى سلب القرى المسيحية و إحراقها من عوامل الخدمة لطائفته و دولته.

و لم يكن من مصلحة الدولة أن تسود الألفه بين الطوائف، و أن يتعامل أهل الوطن الواحد بالحسنى، فكان أكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني و يساعدون الدروز على النصارى في لبنان، حتى يتيسر للدولة أن تنزع الحكم من أرباب الإقطاعات و تقيم له واليا كما لطرابلس و صيدا و القدس و حلب و دمشق، و لذلك كثرت الفتن و المناوشات بين النصارى و الدروز، فأثار الأمير قاسم الشهابي الدروز على الموارد (١٨٤١ م) فقتلوه و نهبوه فتدخلت الدولة و عزلت الأمير قاسم الشهابي لتقييم مكانه واليا عثمانيا، نصبت عمر باشا النمساوي ثم عزلته، و جعل الجبل قائم مقاميتين الأولى نصرانية و الثانية

خطط الشام، ج٣، ص: ٧٥

درزية، فلم ترتض الطوائفان ذلك، و أصبحت الأولى بيد فرنسا و الثانية بيد انكلترا، و اختل الأمن في أرجاء الشام لمحاولة الدولة نزع السلاح من فئة أو أهل ناحية و إبقاءه في أيدي آخرين.

كتب ففضل انكلترا في دمشق سنة ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ) إلى نجيب باشا كتابا قال له فيه: «إذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استتباب الأمن ففي وسعها أن تبدأ بإظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى و تدمير أماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق. إن نزع السلاح من يد الشاميين عامه أمر مرغوب فيه لو تسنى إتمامه دون التخوف من حدوث ثورة عامه، بيد أنا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على نصارى لبنان الغربي و لبنان الشرقي، على حين سمح لسائر أتباع السلطنة بحفظ أسلحتهم، و مع ذلك لا ينبغي أن يغرب عن البال أن الباب العالي اعترف بصدق رعاياه النصارى و أمانتهم في هذه الأرجاء إذ لجأ إليهم قبل الجميع فوزع عليهم أسلحة لطرد عدو الطرفين (يريد إبراهيم باشا المصري) كما أن احتلال جنود حضرة السلطان الآن للشام هو نتيجة مساعدة اللبنانيين».

فتن أهلية في الجبال و المدن:

و في سنة ١٨٤٢ قبض عمر باشا النمساوي على زعماء الدروز فاجتمع أتباعهم و هجموا على سراي بيت الدين و كان هناك فتهددهم، و حضر شبلي العريان بجنده المنظم و اجتمع في الطريق بفرقة من الأرنؤاد قادمة إلى عمر باشا ليرسلها لتأديب الدروز فوقعت بين الفريقين موقعة فهزمهم جند عمر باشا في أقل من ساعة.

و ظلت مراحل الأحقاد في لبنان تغلى و الحكومة تجهل أو تتجاهل السبيل لقطع شأفة الفتن من الجبل و غيره من الأصقاع الشامية. و قد عينت سنة ١٢٦٠ هـ رجلا لجباية الأموال الأميرية من جبل النصيرية و مطاردة بعض الأشقياء، فلما بلغ ناحية البهلوية طلب مقدمي الكلبية و رؤساءهم فأرسلوا إليه رجلين و هما إسماعيل عثمان و حبيب مخلوف فأرسلهما في الحال إلى اللاذقية مقيدتين و أخذ في تعذيبهما، و انتهى الخبر إلى الجبل فتجمع نحو خمسمائة رجل من أهله

خطط الشام، ج٣، ص: ٧٦

و مضوا إلى اللاذقية و هاجموا دار الحكومة و كسروا السجن و أخذوا السجنين و من معهما من المأمورين، فصدر الأمر بأن يجهز الجند الذي كان معه مع جميع الأهالي النازلين بين أنطاكية و صافيتا، فتألف منهم جيش عسكر في القرداحة، فأرسل النصيرية بعض

نسائهم إلى القائد يحملن أعلام الأمان و يطلبن العفو، و أن يضمن لهن سلامة الأنفس و الأموال و العيال، فأبى إلا إنزال العقوبة بالثائرين، و كان عددهم نحو ستمائة، و عدد العسكر النظامي و المقاتلة من الأهلين نحو عشرين ألفا و قيل ثلاثين ألفا، و كان في قرية المران شيخ من أهل الدين و الصلاح يعتمد العاويون عليه و كان يعرف علم الفلك فأخذ الطالع كما جاء في مصدر علوى و قال لهم: إنه لن يفقد منهم إلا- رجل يصاب برجله و لا يموت و سألوه عن موعد الهجوم فقال: غدا الظهر فنزلت الطمأنينة على قلوب الثائرين خصوصا و قد وعدهم أنهم لا يصابون بأذى، و لما حان وقت الظهر تجمهر الثائرون و انقسموا ثلاث فرق و هاجموا العسكر، و دارت الدائرة على الجيش و قتل القائد و هلك من عسكره على ما قيل نحو ألفى رجل و غنم النصيرية جميع الذخائر، فأرسلت الحكومة على الثائرين و فدا يدعوهم إلى الطاعة بصورة لطيفة و يضمن لهم سلامتهم فأطاعوا و سلموا الذخائر بأسرها إلى الحكومة.

و في سنة ١٢٦١ قام الدروز ثانية في لبنان و قتلوا النصارى و استمرت الفتن إلى سنة ١٢٧٧. و في سنة ١٨٤٥ أرسل والى دمشق إلى دروز حاصبيا يحضهم، على رواية مشاقفة، على قتل النصارى و يمدهم بالسلاح و الذخيرة، و أوعز إلى دروز حوران أن يقدموا لمساعدتهم، و سأل مثل ذلك مسلمى البقاع فهرب نصارى حاصبيا قبل الإيقاع بهم. فانقض عليهم الدروز في جهات راشيا و فتكوا بمعظمهم و تشتتوا في تلك الأرجاء و منهم من سلم فجاء زحلة، و منهم من عاد إلى حاصبيا، و منهم من قتل، و عينت الحكومة أحد أمراء الشهابيين حاكما على حاصبيا لكنها لم تسمح له بمعاينة المعتدين و زعماء هذه الفتنة.

و في غرة المحرم سنة ١٢٦٧ وقعت فتنة بحلب سرت إلى حى باب النيرب و هى قرلق و بانقوسا فنهبت أحياء النصارى و أحرقت ثلاث كنائس و دام النهب ثلاثة أيام، ثم قام الأهالى على الوالى و طلبوا منه رفع «الفردة و النظام»
خطط الشام، ج ٣، ص: ٧٧

فامتنع من ذلك فضربه الأوباش، ثم انكسر سكان الحارات و انتشر الحريق في الأحياء المذكورة و النهب و القتل فقتل من الحلبيين نحو خمسمائة رجل كلهم من الرعاع و من العسكر نحو ذلك و قبض على مثل هذا المقدر من الناس، ثم بحثوا عن أمتعة النصارى المسلوبة فأرجع إليهم غالب ما نهب منهم.

و في هذه السنة عصى محمد الحرفوش أمير بعلبك و جمع عسكرا من بعلبك و إقليم البلان، فأرسلت عليه الدولة قوة بقيادة مصطفى باشا فانهمز أمامه إلى قرية معلولا و تحصن بها مع إخوته و أولاد عمه فحصرهم الجنود إلى أن دخلوا عليهم بدلالة أهل القرية، فأسر الأمير محمد و طوّق القائد العثماني بعلبك بثلاثة آلاف جندى فاستسلم أمراؤها فقبض عليهم و أرسلهم إلى دمشق فنفوا إلى كريت، و قضى بذلك على عامل من عوامل حكومة الإقطاعات.

و في نكبات الشام أن الحروب الأهلية التى حدثت في دير القمر و زحلة و غيرها من الأنحاء سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان و البقاع و بعضهم في المدن و نحو أربعمائة رجل من الدروز و لولا محاربة الدروز النصارى بالخيانة و مساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح لكثير عدد القتلى و زاد على هذا القدر، و أما الخسائر المالية فلم تقدر في ذلك الحين.

و في سنة ١٢٦٨ امتنع دروز حوران من دفع الخراج فنذبت الحكومة لإخضاعهم والى دمشق محمد باشا القبرصى بفرقة من الجند فوقعت بينه و بينهم معركة دامت بضع ساعات فانهمز والى دمشق و وضع الدروز أيديهم على مهمات الجند و المدافع، ثم توسط قنصل بريطانيا فأرجع الدروز مسلوبات العسكر، و تعرف هذه الوقعة بوقعة صارى عسكر (سر عسكر) انتهت سنة ١٢٦٩.

حرب القريم منشؤها في الشام و كوائن درزية و نصيرية:

و في سنة ١٢٦٨ حدثت في القدس و بيت لحم أمور تألفت منها الأسباب لنشوب الحرب العظمى بين الدولة العثمانية و روسيا و هى الحرب المعروفة بحرب القريم (١٢٧٠) و ذلك لاختلافات قديمة بين الروم و اللاتين بسبب كنيسة

خطط الشام، ج٣، ص: ٧٨

القيامه وكنيسة المهدي في بيت لحم. ادعت كل من الطائفتين حق الرياسة والتقدم على الأخرى باستلام مفاتيحها، وكانت روسيا طمعت في الشرق وقامت تطالب بحماية الروم الأرثوذكس أبناء مذهبها كما ادعت فرنسا حق المطالبة بحماية موارنه لبنان والطوائف البابوية منذ منتصف القرن الثامن عشر، وحاولت الدولة أن تغفل عن مطالبه قيصر روسيا، فاتخذ من ذلك حجة وقام يريد إنفاذ وصية بطرس الأكبر القاضي بفتح الأرض العثمانية والاستيلاء على الإستانة.

هجم الأسطول الروسي في البحر الأسود على الأسطول العثماني وحطمه، فنشبت الحرب بين الروس والعثمانيين وانتصر الروس وكادوا يبلغون الإستانة، فأرسلت انكلترا وفرنسا جيشا وأساطيل إلى أرجاء البحر الأسود، وقاتلت الروس وانتصروا عليهم في سواستبول، وكذلك بعثت ساردينيا فرقا من الجند الإيطالي، دفع الدول إلى ذلك أمر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية، وهو الخوف من خروج روسيا إلى البحر المتوسط وبخروجها خطر على أوروبا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هندها، وبعد حرب ثلاث سنين (١٨٥٦) ظفرت الدولة مع الدول الأخرى بالروس ودفعت بريطانيا نفقات الحرب، وحصلت الدولة الروسية على مطالبها وامتيازاتها، ومن شروط المعاهدة ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها، والحظر على أية دولة أن تدخل في شؤون تركيا الداخلية ومساواة النصارى مع المسلمين في الحقوق. ولما رأى رجال الدولة أن الطريقة البالية القديمة في إدارة الملك العثماني تودي بها لا محالة أقنعوا السلطان بنشر الخط الهامبوني وبه قبلت الدولة (١٨٥٦) في عداد الدول الأوربية فكان هذا العامل النافع من نتائج حرب القريم، وبان للدولة وجه خطاها في اعتزالها السياسة الدولية.

وفي سنة ١٢٧٣ وقعت فتنة بين الدروز والحوارنة في اللجاء فاز فيها الدروز وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) قهرت الدولة النصيرية بقهر زعيمهم إسماعيل هوش وجردهم من كل رعاية وخصوصية، والسبب في هذه الفتنة أن طائفة الكليية عصت وأمر الحكومة فأرسلت هذه خمسمائة فارس ضربت قرى الساحل، واتصلت الأخبار بالنصيرية فهاجموا الجند وقتلوا منهم فجهزت الحكومة بعد أيام عسكريا عظيما وهاجمت الطائفة وجعلت قوة لها في الساحل وزحف النصيرية ولم يلبثوا

خطط الشام، ج٣، ص: ٧٩

أن أحاطت بهم العساكر من كل جهة فدافع النصيرية حتى فقدوا خمسة وعشرين رجلا- وفي اليوم التالي التحم القتال ودامت المناوشات والمقاومات أربع سنين حتى أرسلت الدولة عسكريا جرارا، وندبت كامل باشا لإجراء الصلح بين الدولة والنصيرية فتم ذلك على يده.

مبدأ المذابح المعروفة بحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري ودير القمر:

استطال النصارى بعد حرب القريم، ولا سيما في لبنان، وأخذت الدولة تثير الدروز على النصارى على ما يؤكده الغربيون والنصارى، وبقيت الحوادث تتوالى والأصابع العثمانية والأجنبية تعبت بعقول المغفلين، وكانت الثورات على ما في تاريخ زحلة تتوالى والخصام يزداد اتساعا، وعوامل الحقد تسكن القلوب فتحركها على جر الويل وإهراق الدماء، وكان ذلك من أهم ذرائع التنافس والتناوب بين المسيحيين والدروز، وكان البلاد ألفت التعصب فتوالى عليها من العصبية القيسية واليمانية واليزبكية والجنبلانية والمعلوفية والمكارمية والزحلية والقنطارية، ثم بدأت العصبية المسيحية والدرزية، فكانت الأخيرة أشد من الأولى، وتحفز الدروز للتكبير بالمسيحيين ولا سيما سكان زحلة ودير القمر الذين أوغروا صدورهم ببسالتهم ونفوذ كلمتهم لدى إبراهيم باشا والأمير بشير لمعاضدتهم لهما.

بدأت الفتنة العظمى بهجوم شراذم من الدروز على قرية بيت مري في لبنان يوم ٣٠ آب ١٨٥٩ فانهمز الدروز وأحرقوا ثلاث قرى مسيحية وقتل بعض رجالها، وفي الربيع التالي بدأت الدروز تفد على المختارة مركز آل جنبلاط كبار مشايخ الدروز. قال مشاقه: و

فى شهر نيسان من تلك السنة ورد أمر إلى خورشيد باشا من السلطان يهلاك النصارى عن آخرهم و اطلاق أيدي الأوباش، فألح خورشيد باشا على سعيد بك جنبلات أن يصدع بالأمر فأوعز إلى رجاله بالهجوم على النصارى، فقتل الدروز بضعة عشر منهم فى الطرق، ثم وقعت مناوشة فى دير القمر و أرغم طاهر باشا قائد الحامية فى دير القمر نصارى الدير على تسليم سلاحهم له، و بعد أن جمع سلاح النصارى سمح للدروز

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨٠

بالهجوم على المدينة فسالت الدماء أنهارا ثلاثة أيام، و لم ينج من النصارى إلا عدد قليل، ثم أحرقوا المساكن و ارتكبت الجنود التركية مع النساء على عاداتها ما ارتكبت، و بلغ عدد قتلى الدير على رواية مشافة ما يقارب ألفى نفس من الرجال البالغين و النساء و الأطفال ثم أعمل الدروز سيوفهم فى أهل جزين.

فحوادث الشام سنة ١٨٦٠ بدأت إذا بيت مرى فى السنة الماضية و ثنت بدير القمر و من هناك انتشرت فى الأطراف.

مذابح حاصبيا و راشيا و رأى إنكليزيين فى أصل المذابح:

طلب والى دمشق الخراج المتأخر من دروز حاصبيا و عين أحد الشهابيين فى فرقة من العساكر لشد أزره، فتألب دروز وادى التيم و إقليم البلان على الشهابى فى حاصبيا و هاجموها و لم يلاقوا مقاومة شديدة من النصارى لقله عددهم و كان عدد القتلى متساويا بين الفريقين ثم نزع من النصارى سلاحهم، و أخذ الدروز يفتكون بهم و يحرقون مساكنهم، ثم تنحى العسكر التركى و تزك الدروز و شأنهم مع النصارى فقتلوا منهم ٧٢٤ رجلا و قتل من الدروز و الأتراك أربعون. و فى اليوم الذى جرت فيه مذبحه حاصبيا باغت دروز حوران نصارى راشيا الوادى فى بيوتهم و فى السراى على مرأى من الجنود التركية و بمساعدتهم أجهزوا على جموعهم و قتلوهم مع أمراء الشهابيين و لم ينج منهم سوى أميرين ثم نهبوا بيوتهم، و بلغ عدد قتلى راشيا الوادى خمسمائة رجل و طفل و امرأة.

و هاجم دروز حوران بقيادة إسماعيل الأطرش مدينة زحلة فردهم أهلها مرارا، و طال القتال يومين فاضطر الدروز إلى الرجوع عنها، ثم عاد الدروز و معهم الجند العثمانى و أحرقوا جانبا من المدينة و أخذ الجند يرتكب الفاحشه و اغتصبوا الراهبات و نهبوا الكنائس و الأديار، فلم يبق لدى قناصل الدول شك فى أن الدولة العثمانية تريد هذه المذابح و تدبرها حتى لا تطالبها الدول بحماية النصارى و تجد سبيلا إلى مراقبة أعمالها الجزئية و الكلية مما يسقط من منزلتها، و قد هلك من الزحليين نحو مئة إنسان لأنهم لم يمكنوا الدولة من إدخال جندها إلى بلدهم. و إسماعيل الأطرش هذا قتل يوم جاء لمعاونة أبناء مذهبه فى وقعتى

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨١

راشيا و زحلة ١٣٥ نصرانيا التجأوا من إقليم البلان إلى شيخ قرية كناكر.

قال اللورد دوفرين: «لم يبق أدنى ريب يحول دون نسبة المذابح الأخيرة و جميع الحروب و الاضطرابات و المنازعات التى انتابت لبنان فى مدى الخمس عشرة سنة الأخيرة إلى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعى الممنوح للجبل، فجعلت مرمى سياستها، أن تبرهن على أنه يتعذر العمل بطريقة الحكم التى منحتها الدول لبنان فى سنة ١٨٤٥، و لهذا كان الأتراك يفتنون الفرصة لإثارة دفاين الأحقاد القديمة بين الدروز و الموارد، و لما ازداد تعجرف المسيحيين و تعصبهم بقوة المساعدات الأجنبية التى فازوا بها، ثقل على الأتراك احتمال وطأة استقلالهم، فعدوا العزم على اتخاذ الدروز آله ليوقعوا بهم و يضر بهم ضربة أشد إيلا ما مما تقدمها، بيد أن ما حدث فى حاصبيا و راشيا و دير القمر قد جاء مجاوزا الحد المنوى لعدم توفر شروط اللباقة فى خورشيد باشا و أعوانه لإنفاذ سياسته دهاء كهذه، فأفرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم و كان له دوى هائل فى الأندية الأوربية».

و قال أيضا: «لما زرت هذه الأصقاع (لبنان) قبل استيكاظ الفتنة بيضعة أشهر شاهدت أماراتها بادية فى عواطف الفريقين، فالدروز كانوا مستعدين للقتال، و الموارد كانوا يعتقدون أن قد آذنت ساعة فوزهم، كما أن دخل الجمارك يثبت أن قد أدخل إلى لبنان من

كانون الثاني ١٨٥٧ إلى ربيع ١٨٦٠ أكثر من ١٢٠ ألف بندقية و ٢٠ ألف مسدس و كان من المشتهر انصراف المطران طوبيا و شركائه إلى إيقاظ الفتنة.» إلى أن يقول: «فمن العبث وصف النصارى بأنهم شهداء قديسون فهم يظاهون جيرانهم الدروز في حروبهم همجية و ظمأ إلى الدماء، و كثيرا ما كانوا يقتتلون بعضهم مع بعض و لا يعفون عن النساء. يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنيين منذ سنتين، و مثل هذه المعايير كثيرة في تاريخهم، بيد أن الدروز هم من هذا القبيل أكثر شفقة من غيرهم فلا يقتتلون بعضهم مع بعض و يحترمون النساء، و عليه فمن الخطأ وصف القتال الذي جرى بين الدروز و الموارنة بمثابة اعتداء و ثنين براءة على أتباع دين المسيح الودعاء، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في (٣-٦)

خطط الشام، ج٣، ص: ٨٢

الهمجية، أنزل الفاترون في أعدائهم البلية التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء، و إذا كان الدروز ارتكبوا في هذه الحروب فظائع أكثر بربرية من المعتاد فالسبب فيه تدخل الأتراك و شدة حنقهم على النصارى و قد أثاروه بتهديدهم و عجزتهم.»
و قال قنصل انكلترا في دمشق على ذاك العهد: «لقد بقي من كل ما رتبته المصريون شيء واحد سالما و هو عتق النصارى من رقهم على أن هذا ربما يصير عاملا جديدا لاستئناف الاضطرابات لضعف الإدارة العثمانية و ظلمها، و الظلم يدفع إلى المقاومة و الضعف يزيد في التمرد، و السكان يؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة و من طوائف نصرانية متعصبة يعادى بعضها بعضا، و الحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع و لهذا أمست مضطرة إلى إثارة طائفة على أخرى بإيقاد جذوة التحاسد و البغضاء بينها، و بمثل هذه المسائل تتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها، بيد أنها تخسر ثقة الرعايا بها و تعكر كأس الوئام بين العناصر المختلفة، فتحول دون كل تقدم و نجاح».

مذابح دمشق و رأى الغريب و الوطنى فى تعليها:

و بعد هذه النصوص المعتبرة لم يبق شك في أن الدولة هي التي وضعت الخطأ العوجاء لذبح النصارى ليتيسر لها أن تمتلكهم و تضعف من غلواء المسلمين أيضا شأنها في معظم أحوالها في كل بلد نزلته. و الموارنة كالدروز لا يخلون من المؤاخذه الشديدة، اغتر كل فريق بمن كان يزين له الشر و يحسن له العاقبة بعد ارتكابه فأتى بما أمر به، فكان ذلك و بالا عليه و على جاره، و لم يخسر الدافع لهما شيئا. و ما كان يخطر بالبال أن هذه الشرارة تسرى إلى دمشق مدينة التسامح و اللطف و يقوم رعايا المسلمين بمعاونة الدروز يؤذون من أمروا بالإحسان إليهم بعد أن عاشوا و إياهم ثلاثة عشر قرنا في صفاء و هناء.

و يؤخذ مما قاله مشافه أن مذبحه دمشق لا علاقة لها بحوادث لبنان على ما قيل و لا تعزى لها الأسباب التي عزيت لتلك، و أن من أسبابها الأولية عبث النصارى بالشريعة التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القريم مكرهه من دولة

خطط الشام، ج٣، ص: ٨٣

الروس، و هي مساواة الرعايا بالحقوق المدنية، و إعفاء النصارى من الخدمة العسكرية، و قيل: إن الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنها المساواة و هي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبها على النصارى و تجعل لهم سبيلا إلى بغضهم و مقتهم، و لو كان النصارى و قنند على شيء من الحكمة لرفضوا إعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية، و أبكمت لسانهم عن المطالبة بحقوقهم. قال: و كان مسلمو دمشق عامه و سورية خاصة يسفهنون عمل الدولة التركية الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم، و كثر تذر المسلمين من الدولة مع التفرغ، فأجابتهم أنها لم تفعل ذلك إلا مضطرة، و بلغ من حقد المتعصبين أنهم تأمروا و ألفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية و إبدالها بدولة تعيد مجد الإسلام و لا تخضع لأهل النصرانية و بلغ الأتراك أمرهم فأوغروا صدورهم على النصارى ليلهوهم و يتخلصوا من شرهم.

و بعد أن فصل هجوم النصارى على مطران الروم بدمشق يريدونه على أن يرفع عنهم حيف الحكومة، و طلبها بدل الخدمة العسكرية

منهم، و ذكر كيف عرض المطران على الوالى بأن النصارى تجمهوا جمهرة العصاة و أرادوا الإيقاع به، قال: إن الوالى لم يشأ أن يردع النصارى رأساً و أناط بتأديبهم رعاع المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم، و لا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب، و كانت الحكومة غير راضية عنهم لفتكهم ببعض وزرائها و امتناعهم عن إجابة مطالبها، و رغبة أحمد باشا (والى دمشق) بإثارتهم على النصارى كى يتخلص منهم أو من بعضهم فيقل عددهم و تضعف شوكتهم و يصبح إخضاعهم لأوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته الخطر الذى كان يتهدها به مسلمو دمشق و قد جاهروا بخلع دولة الأتراك عنهم و راسلوا دولة مصر لتأتى لنجدتهم و لم يفلحوا.

«فرأى والى دمشق للوصول إلى هذا الغرض أن ينصب المدافع على أبواب الجامع الأموى و قايه للمسلمين الداخلين إليه فى أوقات الصلاة من غدر النصارى! و أمر فى عصر اليوم التاسع من تموز ١٨٦٠ بإخراج الرعاع المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم فى الشوارع و هم مكبلون بالقيود إرهاباً للثوار من المسلمين و الدرروز معاً، فلما وصلوا إلى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر و بطشوا به و خلصوا رفاقهم و نادوا بالجهاد، فهجم الأوباش على

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨٤

المسيحيين فى بيوتهم و محلاتهم و وضعوا السيف فيهم، قتلوا الرجال، و سبوا العيال، و هتكوا الأعراض، و راحوا بالعروض و الأموال، و قتلوا بعض الرهبان الفرنسيسكانيين».

و ذكر برانت قنصل بريطانيا أن السبب الرئيسى فى إيقاد جذوة الفتنة أن أولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب فى الطرقات و يدوسونها و يهينون المسيحيين المارين، فقبض عليهم «التفكجى باشى» و قيدهم بالسلاسل و أكرههم على تكليس الطرق، فهجمت الغوغاء و أنقذتهم فاشتعلت الفتنة. قال: و عندى أن أحمد باشا مخطيء فى ضعفه مع مجلسه، و عدم اتخاذه الاحتياطات التى أشير عليه بها غير مرة، و إصراره على إبقاء رئيس التفكجية فى مركزه، مع اشتهاه بعدم الكفاية رغماً عن تحذير عدة أشخاص من جميع الطبقات منه قبل إيقاظ الفتنة بعدة أسابيع، و إهماله إنقاذ مسيحي حاصبيا و راشيا نكتاً بوعوده لما أخبر بالخطر المحقق بهم، و تقاعده عن استدراك مهاجمة زحله و قله أكثرائه بذبح الدرروز النصارى إن لم نقل بتواطئه، و هو القائل، على ما روى، إنه يوجد فى سورية آفتان كبيرتان هما المسيحيون و الدرروز فكلما ذبح أحدهما الآخر استفادت الحكومة العثمانية. و إن حظر حمل السلاح على النصارى و السماح به للمسلمين و الدرروز لا يمكن تأويله إلا بأن حكومة تلك الأيام كانت لا تهتم لفتنة تحدث أو أنها تود إحداثها أو لا تجسر أن تعامل الجميع بالسوية. و قال الماجور فرازر إن فؤاد باشا قال له: إن الدمشقيين يكرهون الأتراك، و أن من الضرورى إلقاء الرعب فى قلوبهم توطيداً لأركان الحكم العثمانى فيتجنبون ركوب متن الفتنة.

و قد علل مشاقفة سبب فتنة دمشق تعليلاً مقبولاً فقال: «إنه لم يكن لها تعلق بحادثة لبنان بل لها أسباب خصوصية نشأت عن تصرفات جهلة النصارى عندما عجز عقلاؤهم عن ردعهم، فلما وضعت الدولة قوانين المساواة بين رعاياها من أى مذهب كانوا توسع جهلة النصارى فى تأويل هذه المساواة بأن معناها أنه لا يجب على الصغير الخضوع للكبير و لا للوضع أن يحترم الرفيع، و توهموا أن أدنياء النصارى هم بمنزلة عظماء المسلمين، و لم يريدوا أن يفهموا أن المساواة هى فى الحقوق الشرعية و النظامية، و أن من الواجب حفظ اعتبار

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨٥

أهل الاعتبار بالدرجة اللاتفة بهم من أية طائفة كانوا خصوصاً النصارى نحو المسلمين، و عليهم أن يعرفوا بأن كبراء البلاد و معتبريها هم منهم، و السلطنة مع وزرائها و عسكريها و جميع عظمائها من المسلمين، و أن النصارى فى سورية هم الجزء الأصغر و الأضعف فى كل شىء، بكل الوجوه يجب على المسيحيين تقديم الاحترام الوافر نحو المسلمين، و الطاعة التامة لأولياء الأمور فيما يرسمونه لهم ا

«٥»

قدّر قنصل الإنكليز عدد من ذبحوا من نصارى دمشق بزهاء ٣٥٠٠ نسمة، والغرباء الذي لجأوا إلى المدينة طلبا للنجاة نحو ٢٠٠٠ نسمة. وقال لورتيه: إن عدد من هلك من النصارى فى فتن لبنان و حوادث دمشق بلغ اثنى عشر ألفا، وأن فى دير القمر وحدها تربة بناها أبناء وطنه فيها ستة آلاف من الهالكين و هو عدد فيه نظر. و قد قتل بعض النصارى فى محال منفردة مثل نصارى جباع من عمل صيدا، فإن الدروز انقضوا عليها و حرقوا بيوتهم و نهبوا القرى، و أن مائتين و خمسين نسمة من جزين كانوا فى الغابات فطاردهم الدروز من محل إلى آخر و قتلوا بعضهم، و لم يصل منهم إلى قرب صيدا إلا خمسة عشر رجلا فقط. و حرقت ميمس و الكفير من عمل حاصبيا و هلك فيهما مائة و عشرون نصرانيا، و خربت ثمان قرى للنصارى فى البقاع و حرقت، و قتل من بقى فيها من الشيوخ و الأحداث بينهم النساء و الأطفال و اعتدى على العذارى، و شوهدت من بيروت ثنتان و ثلاثون قرية تحترق و ذلك يوم ٢٨ و ٢٩ أيار و أمست بعض البلدان الزاهرة فى لبنان مهجورة.

و قال كراهام: إن ستين قرية و بلدة فى لبنان قد دمرت و أصبح هذا الجبل بلقعا و يتعذر معرفة عدد النصارى الذين قتلوا فى مذابح جبل لبنان، فالتخمينات متباينة و يقدر بعضهم القتلى بأربعة آلاف و آخرون بعشرة، و هذا العدد الأخير مبالغ فيه كثيرا. قال و أرجح أنه لا يتجاوز الأربعة آلاف، فقد جمعت عدة أبناء موثوق بها و عارضتها بعضها على بعض فتبين لى أن عدد القتلى فى دير القمر خطط الشام، ج ٣، ص: ٨٦

يختلف بين ١١٠٠ إلى ١٢٠٠ و فى حاصبيا و راشيا ٧٠٠ و فى صيدا ٥٥٠ و إذا أضفنا إليها ٢٠٠ لاجىء قتلوا فى ٣٠ و ٣١ أيار فى جوار بيروت و ألف نصارى ذبحوا فى بيوتهم على ما أرجح فلا أعتقد أن عدد القتلى يتجاوز ٣٥٠٠ ذكر، و فقدهم يحرم القطر أيدى عاملة كان يتوقف عليها نجاحها.

و زعم لنورمان أنه يريد أن يكتب تاريخا لا رواية خيالية، و لكنه كان إلى المبالغة و استعمال أساليب الخطابة و الخيال، و مع هذا نقل بعض ما ذكره مما عساه قد فاتنا تفصيله. أما المبالغات فى الأرقام فمما نكله إلى فطنة القارىء يرددها ببصيرته لأن قناصل الوقت فى هذه الديار أصدق قبلا، و روايتهم أقرب إلى الصحة و السداد خصوصا من لم يكن لدولهم رأى خاص إلا الحقيقة. فقد ذكر لنورمان أن ستين قرية فى الغرب و المتن أصبحت فى ثلاثة أيام خرابا يبابا، و أنه قتل فى مقبرة صيدا مائة و اثنان و عشرون رجلا و قتل الضبطية ١٧ شخصا على أبواب صيدا، و أن ألفا و مائتى نصارى اختبأوا فى غابة على أربعة فراسخ من صيدا فأحرقها الدروز و المسلمون فلم ينج منهم إنسان و هلكوا ذبحا و حرقا، و أنه قتل فى دير المخلص على مقربة من صيدا مائة و خمسون راهبا و أخا، عدا ما سلب منه من العروض و الأموال التى جاء بها سكان الجوار و أودعوها الدير لأنه كان محترما من الناس كافة قبل هذه الحوادث، و أنه قتل فى حاصبيا تسعمئة و خمسة و سبعون مسيحيًا لم ينج منهم إنسان، و قتل من أمراء الشهابيين فى وادى التيم أحد و ثلاثون رجلا و لم ينج منهم سوى ثلاثة لأن ضلعهم كان مع فرنسا، و أنه أحرقت فى أرجاء حاصبيا قريتا الكفير و شويا و فى عمل راشيا قرى بيت لهما و كفر مشكة و عيحا و حرق حاصبيا كراشيا كلها، و لما جاء جيش الاحتلال الفرنسى فى شهر أيلول سنة ١٨٦٠ إلى زحلة رأى نحو ستمائة جثة من جث الدروز ملقاة على الأرض إلى جانب جث قتلى النصارى، و أن المدينة خربت و لم يحدث فيها قتل إلا- فى دير اليسوعية و الباقي من أهلها هلكوا فى الدفاع عن بلدتهم و أنه قتل فى دير القمر ٢٢٠٠ إنسان و أن ثلثمائة إنسان كانوا مختبئين فى دار فلما جاء خورشيد باشا قائد بيروت قتلهم عن آخرهم، و أن مسلمى بيروت و فى مقدمتهم عمر بيهم أعظم تجار تلك المدينة فتحوا بيوتهم للاجئين إليهم من المسيحيين، و أخذوا يوزعون عليهم الأطعمة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٨٧

و حالوا بحكمتهم دون تدخل الرعاع من أبناء طائفتهم فى الأمر فخففوا من غلوائهم.

و ذكر أن عدد الهالكين من ٣٠ أيار إلى ٢٠ حزيران فى لبنان و سورية المجوفة كان أربعمائة إنسان فى المتن و الغرب و جوار

بيروت، و ألفا و ثمانمائة في صيدا و جزين و الكور المجاورة، و ألفين و خمسمائة في قضاءى حاصبيا و راشيا، و مائتين و خمسين في زحلة، و ألفين و مائتين في دير القمر و مئة و واحدا و عشرين في بيت الدين، و خمسمائة في بعلبك أى ٧٧٧١ شخصا من الرجال و النساء و الأطفال، و أنه خربت ٣٦٠ قرية و هدمت ٥٦٠ كنيسة، و حرق ٤٢ ديرا، و هدمت ٢٨ مدرسة كان فيها ١٨٣٠ تلميذا، و خسرت الأقاليم التى وقعت فيها الفتن جميع محاصيلها السنوية، و قدر مجموع ما فقد من أموال النصارى و عروضهم بخمسة و تسعين مليون فرنك يدخل فيها أربعة ملايين قيمة تعطيل التجار عن أعمالهم مدة شهرين.

أما بشأن دمشق فقد أغرق في التقدير أيضا فقال: إن الحريق و النهب و القتل دام خمسة أيام من اليوم التاسع من تموز إلى اليوم الثالث عشر قتل في خلالها ٨٥٠٠ مسيحي و دمرت ٣٨٠٠ دار، و قدرت الخسائر بمائة مليون فرنك، ثم قدر عدد من هلكوا من النصارى بالأمراض و القلة بعد المذابح بثلاثين ألف نسمة! و قال: إذا أضفنا هذا العدد إلى من نكبوا في هذه المذابح بلغ من هلك في دمشق و لبنان ٤٦٣٠٠ إنسان خلال سنة واحدة بتعصب المسلمين و الدروز. قلنا و جميع التقديرات تثبت أن القتلى و من هلكوا بسبب مصائب تلك الفتنة و الأمراض لا يتجاوزون ربع ما قدره صاحب كتاب مذابح الشام على أن هذا العدد لا يستهان به أيضا.

عمل الدولة و الدول عقبى الحوادث:

و لما ترامت هذه الأخبار المشؤومة إلى الغرب أرسلت الدولة أحد كبار وزراء ذاك الوقت فؤاد باشا لإنزال العقوبة بالفاعلين من المسلمين و الدروز، و أرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للمحافظة و منع التعدى و كذلك باقى الدول

خطط الشام، ج٣، ص: ٨٨

الأوربية، منها من أرسل مراكب حربية، و منها من أرسل نوابا لإصلاح الحال. و خيم جند فرنسا في البقاع تسعة أشهر و ظلت السفن الأجنبية راسية في موانئ الشام و عددها عشرون بارجة، و عقد في بيروت مؤتمر دولي مؤلف من و كلاء الدول الخمس انكلترا و فرنسا و روسيا و النمسا و بروسيا، وضع أساس نظام جديد للبنان أقره السلطان عبد المجيد و وافقت الدول عليه ١٨٦١ (١٢٧٧) ثم عدل هذا النظام سنة ١٢٨١ و اشتركت به دولة إيطاليا مع الدول السابق ذكرها.

أعاد فؤاد باشا الأمن إلى نصابه و نفى بعض الأعيان من دمشق لأنهم لم يحولوا دون الأشقياء و السفلة و ما أتوا من المنكرات، و قتل ١١١ مسلما رشقا بالرصاص و شق ٥٦ و نفى ١٤٥ و حكم بالأشغال الشاقة على ١٨٦ استخدموا في إنشاء الطرق و قضى غيايا بالقتل على ١٨٣ و في عداد الذين قتلوا ١٨ شخصا من كبار الأسر و أناس ذوو وجاهة، و سمح للنصارى الذين دانوا بالإسلام كرها أن يعودوا إلى دينهم و عددهم خمسمائة، و أخليت ثلاث حارات في دمشق لسكنى النصارى، و جئد ثلاثة آلاف جندي من هذه المدينة و جعل البدل العسكرى مائتي ليرة، و أرسل زهاء ألف رجل للنفي و السجن إلى الإستانة و غيرها، و قتل والى دمشق المشير أحمد باشا رميا بالرصاص لتساهله في إطفاء الفتنة و قال هذا يوم قتل: إنى مظلوم و سماه الأتراك بالشهيد، و كان من عظماء الدولة تربي تربية عالية في مدارس الغرب. و قيل: إن فؤاد باشا عجل بقتله مخافة أن تشيع الأوامر التى وردت إليه من الإستانة و نفذها، و أنه لذلك بادر بأخذ حقيية أوراقه منه ساعة اجتماعه به، و قتل قائد حى النصارى و قائدى حامية حاصبيا و راشيا، و عزل خورشيد باشا قائد الجند فى الساحل، و عوض على المنكوبين من مال الدولة و الأهلين. و قال قنصل بريطانيا: إن الخسائر المالية بدمشق من حريق و نهب و أعلاق و عروض و غيرها لا- تقل عن مليون و ربع ليرة، و كان يرى أن خمسة ملايين ليرة لا تكاد تكفى للتعويض عن تخريب الأملاك، و عن خسارة الأموال و الحلوى و الجواهر و الأمتعة الثمينه و السلع و الملابس قال ذلك لفؤاد باشا لما قال له أن يفرض غرامة قدرها ٢٥ مليون قرش أى زهاء مائتي ألف جنيه. هذا عدا ما أصاب النساء من هتك

خطط الشام، ج٣، ص: ٨٩

الأعراض و فض الأبقار و ركوب العار و بيعهن من الأكراد و أهل البادية كما يباع الإماء كل واحدة بمئة إلى مئة و خمسين قرشا.

أما الدروز في لبنان و وادي التيم و دمشق و حوران فقد نفى منهم نحو مئة إلى طرابلس الغرب، و لم يقتل أحد منهم لأن النصارى طلبوا محاكمتهم بالشرع، و لا بد في الشرع من شهود عدول، و النصارى في هذا الحادث لا تصح شهادتهم، و الدروز لا يشهد بعضهم على بعض، و إلا- فإن فؤاد باشا أراد فيما قيل أن يقتل منهم خمسمائة رجل. و لاحظ الماجور فرازر بقوله إنه إذا لم يحكم على غير سبعة و خمسين قاتلا فيستنتج من ذلك أن معظم من اشتركوا في المذابح لم يزالوا مطلقا سراحهم، لأنه من المستحيل أن يعتقد بأن أكثر من ثمانية آلاف شخص ذبحهم سبعة و خمسون رجلا دع النساء السبايا و اللاتي عبث بطهارتهن. و ذكر آخر أن الدروز لم يرتكبوا الفاحشة مع النساء و تركوا ذلك لرعا المسلمين.

عمل العقلاء في دمشق و بيروت و رأى مؤرخ منصف في المسلمين:

و هنا لا- بد من التنويه بعمل أكثر عقلاء المسلمين في دمشق و بيروت خاصة، و ما بذلوه لحقن دماء أبناء ذمتهم من النصارى، فقد أنقذوا ألوفا منهم على ما يقضى بذلك الدين و الشرف، و لو لا ذلك لم يبق منهم ديار، و في مقدمتهم الأمير عبد القادر الحسنى، فشكرته الدول النصرانية جمعاء و مما قالتها الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا و امبراطورة الهند في شكر صنيعة: إنها عرفت من سلوكك سموه الفرق بين المسلم ذى العقل الراجح، و الجبناء المتظاهرين بالتدين الذين عملوا بإثارتهم التعصب على إبادة كثيرين من النصارى العزل. و قد كان للشيخ عبد الغنى الميدانى الغنيمى و محمود أفندى حمزة و أسعد أفندى حمزة و الشيخ سليم العطار و سعيد آغا النورى و عمر آغا العابد و صالح آغا المهائنى و السيد عمر بيهم إلى عشرات غيرهم من أهل العلم و السراوة في دمشق و بيروت ممن فتحوا بيوتهم لإيواء مواطنيهم المنكوبين يد طولى في هذا الشأن تذكرا فشكر و لقد قال السيد محمود حمزة قصيدة في تقييح ما صدر من رعا دمشقيين من أفعال القتل و النهب منها:

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٠ يا و حوشا صادقت في غابها آمنة فاستقبلته بالسهام
إلى أن قال:

بئس مصر قد خلت من حاكم جور سلطان و لا عدل العوام

قال مشافقة خلال كلامه على فلاح مسلم رأى نصرانيا بين القتلى الذين أهلكهم الجزار على باب عكا فأخذه إلى قريته و ضمد جراحه و لما عوفى حمله إلى دمشق لثلا ينتقل خبره إلى ذاك الطاغية: فهذه القصة ذكرتني ما ورد في الإنجيل الشريف عن السامرى الذى ضمد جراحات الواقع بين اللصوص، و لكن ما عمله هذا المسلم مع النصرانى هو أعظم لأنه خاطر بنفسه لكى ينقذ الغريب عنه الذى لم يكن يعرفه قبلا، و هكذا يوجد من الصلاح و المروءة بين المسلمين من يسدون المعروف للغرباء عنهم، و كفى دليلا على ذلك ما شوهد بالعيان من أعمال حضرة الأمير عبد القادر الجزائرى و المرحوم صالح آغا المهائنى و الكثير غيرهم من أتقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠ فقد صانوا ستة عشر ألف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الأشقياء و الثائرين الذين لم تصنهم حكومة دمشق لغاية لم تعد مكتومة و هى لم تعترف بها و لكن القرائن أثبتتها و التفوه بها ممنوع اه.

من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء:

كانت هذه الفتنة سبب خراب قسم عظيم من مدينة دمشق، كما خربت مئات من القرى في لبنان، و خربت زحلة و حاصبيا و راشيا و دير القمر إلا قليلا، و أهم ما خرب الكنائس و الأديار القديمة و البيوتات التاريخية الجميلة، و هام كثير من نصارى دمشق و غيرها على وجوههم في الأرض، و منهم من هاجر إلى مصر و قبرص و اليونان و الإستانة و أصيب المسلمون بأضرار كثيرة، و لربما نجا المجرمون و قتل من كان جرمهم خفيفا. و الذنب كل الذنب على الحكومة و عمالها أولا لما أبدوه من الضعف ثم على الأقرب فالأقرب من الأعيان و المشايخ و الخاصة ثم على العامة.

خطط الشام، ج٣، ص: ٩١

و لو قام كل واحد من الأعيان و المشايخ بواجبه لخفّ الشر كثيرا في دمشق، و ربما امتنع عامة الأشقياء عن أعمالهم على الرغم من تحريض الحكومة لهم سرا أو من إبدائها تساهلا ظنوا معه أنها تدعوهم إلى عمل ما عملوا.

فقد ثبت أن والي دمشق قال للأمير عبد القادر الجزائري و هو يستأذنه للمحافظة على النصارى و إطفاء الفتنة: ليس لي من الأمر شيء، و إذا كنت تستطيع أنت أن تحافظ بجماعتك المغاربة فلك ذلك فأجابته أن السلاح ينقصني، فأعطاه سلاحا لأربعمائة مقاتل. و في تحفه الزائر أن الأمير عبد القادر استأذن والي يوم فتنة لبنان و دمشق في طلب مشايخ الدروز إلى بعض القرى خارج البلد و الاجتماع بهم ليعظهم و يحذرهم سوء عاقبة ما اعتزموا عليه فأذن له و خرج إليهم و تكلم معهم بما أثر فيهم فأذعنوا لنصائحه و وعدوه بأنهم لا يحركون في دمشق ساكنا و لا يثيرون فتنة، و لما كان أمر الله لا يرد قويت بواعث الفتنة و لم ينجح فيهم نهى الحكومة و لا أثرت فيهم شدة انتقامها. قال و استمرت الفتنة قائمة و نارها موقدة أربعة عشر يوما في دمشق، و ما أوقع أحمد باشا الشهيد و جماعة من رؤساء الجند إلا اغتراره بأقوال من كان يستبعد أن يقع في دمشق ما وقع في الجبل، لدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين اللبنانيين و عدمها في دمشق.

و من القرائن القوية على أن لحكومة الإستانة يدا في إثارة هذه الفتنة، أنها أرسلت بعض رجالها قبل وقوع المذابح بأشهر إلى الشام و بعد ذلك تبدل وجه كل شيء و تغيرت معاملة الحكومة للنصارى. و من يحسن الظن بالحكومة التركية ينسب ما جرى إلى إهمال العمال، و إلى ما كان لديهم من الوسائط القليلة و الرجال و أن الحكومة أرادت أن تنتقم ممن كانوا يتطلعون إلى دولة أخرى تحكّمهم كالدولة المصرية، و لسان حالها في الحقيقة بشأن هذه الفتنة المثل المشهور «لم آمر بها و لا ساءتني» و ماذا يهمها قتل نحو أحد عشر ألف نسمة و خراب قدر ببضعة ملايين من الدنانير و غير ذلك من المقايح و المساوىء، إذا كان في ذلك تأييد سلطانها على قطر ما زالت سلطتها عليه اسمية منذ فتحته.

و قد ذكر العارفون من العرب و الفرنج أنه لو لا انتداب الدولة لمثل الداهية فؤاد باشا لعقوبة الرعا و غيرهم، لكانت أوروبا اشتطت في معاملة الدولة

خطط الشام، ج٣، ص: ٩٢

و سلبتها بعض ولاياتها. و من حسن الحظ أن هذه الفتنة لم تتعد دمشق و أواسط لبنان و نجا منها شماله بفضل رجل اسمه يوسف كرم حال دون انبعاث الدروز إلى جهاته، و لو اتصلت نيران الفتنة بأقاليم الجنوب و الشمال و لم تبق محصورة في الوسط لكان الهول أعظم و الخطب أدهى و أمرّ. و نجت جنوب الشام و شمالها لضعف الحكومة فيهما، و لأن القول الفصل في كل بلد كان لجماعة من عقلائها و وجوها فإن الرعا حدثتهم أنفسهم أن يبطشوا في حمص و حماة و حلب و طرابلس و اللاذقية و يافا و غيرها فحال عقلاء تلك المدن دون الإيقاع بأحد من أهل وطنهم، و لم تبتل أقاليمهم بما ابتليت به سورية المجوفة.

سوء أثر حوادث الشام في الدولة و منازعة الدول لها في سلطانها:

سبع عشرة سنة مضت على الدولة و هي تحرك التّعرة الدينية لتضرب الدرزي بالنصراني و هذا بالمسلم، حتى وصلت إلى هذه النتيجة المرمضة من إهلاك من أهلك و إضعاف من أضعفت، فانتقمت من الذين قتلوا بعض ولايتها قبل دخول المصريين، ثم عاونوا محمد على الكبير معاونه فعليه و أدبيه، و بالغت في عقوبتهم حتى أنستهم ما استمتعوا به على عهد حكومته الرشيدة، و خلصت من حماية فرنسا و انكلترا للموارنة و الدروز، و لكن السياسة التي اتبعتها كادت تفشل و يخرج القطر كله من الحكم العثماني، لو لا الشدة في عقاب من قضت السياسة بعقوبته و الإسراع بتنفيذ الأحكام و التعويض على المنكوبين. و لم لم يقو فؤاد باشا إلا على المسلمين لأنهم لا- سيج لهم إلا- الدولة العثمانية، يؤثرونها على غيرها مع اعتقادهم ظلمها و سوء إدارتها، أما الدروز فإن لهم كالموارنة سندا قويا

يحميهم. و لذلك لم يؤاخذ أشقياؤهم بما أجمعوا، و هذا من غرائب السياسة في هذا العصر أن يجعل القاتل في حلّ مما أتاه. و لكن المسلمين من جهة ثانية انتفعوا بهذه العبرة التي وقعت لهم و إن كلفتهم كثيرا، فأصبحوا لا يثقون برجال الدولة على الجملة، و يعتقدون أن الظاهر من أقوالهم غير الباطن، و أن الدولة متى اقتضت مصلحتها تهلك أمه حتى تستفيد فائدة صغيرة، و تخرب بلدا إذا كان من ذلك مغنم ترجوه. و بهذا العمل الأخرق الذي قصدت

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٣

به الدولة التفريق بين أجزاء قلوب أبناء الوطن الواحد المشتركة منافعهم المتحدة مرافقهم، قد سلبت شطرا من سلطتها ففتحت أبواب ديارها لدول أوربا بأن أعطتها الحق لحماية طوائف من رعاياها، و كانوا لا يرون غيرها مرجعا لهم في الشام، و أوجدت مسألة «حماية الأقلية» على مقياس واسع، فتتج من ذلك إنشاء حكومات داخل حكومة، و أصبح رؤساء الدين من النصارى يراجعون العمال في شؤون طوائفهم في التافهات و المهمات، و يريدونهم على تأييد مطالبهم و إن كانت جائرة أحيانا، و صار العامل إذا لم يخفض جناح الذل للرئيس الروحي على ما يجب يقيه من وظيفته بما لديه من الوسائط الفعالة.

و أمست دور القناصل بعد الحادثة محاكم دائمة للنظر في قضايا من علقوا آمالهم على الدولة التي تمثلها تلك الدار. و غدا قنصل روسيا مسيطرا على مسائل الروم الأرثوذكس، و قنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الباباويين، و قنصل بريطانيا العظمى مهيمنا فيما يعرض للبرتغاليين و الدروز، و غدا أهل كل نحلة يجعلون من الدولة التي يمتون إليها معقد آمالهم، و يدعون في سرهم و جهرهم أن يقرب أيام حكمها مباشرة عليهم، و نزل كثير من الطوائف عن مشخصاتهم فأصبحوا عربا بالدم متفرنجين بالتربية و العادات، يحتقرون ما كان عليه أجدادهم و يغالون في اقتباس ما عند غيرهم، خصوصا إذا كانوا ينتحلون نحلتهم و يرون في الآخرة رأيهم. على ان الحادثة فتحت لجميع السوريين أبواب الأخذ عن الغرب و ما كان ذلك مما أضر على إطلاقه، بل جاءت منه فوائد مهمة في باب الحضارة. و العبرة المهمة التي أخذها الناس من هذه الفتنة المشؤومة إيقان جمهور تلك الطوائف التي عبث بها العابثون، أن التبعة على قدر الفهم و أن القتل و أرباب الدعارة نال شرهم الأبرياء من طوائفهم، و أنه لا يؤاخذ إذا جدّ الجد غير أهل المدارك و عيون الناس.

و كم ذنب مولده دلال و كم بعد مولده اقتراب

و جرم جره سفهاء قوم فحلّ بغير جارمه العقاب

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٤

العهد العثماني «من سنة ١٢٧٧ إلى ١٣٠٠»

بعد فتنة سنة الستين:

خرج الأهلون في دمشق و لبنان بعد المذابح الفظيعة في تلك السنة المشؤومة، و قد خسروا مادياتهم و معنوياتهم. هلكت النفوس التي حرم الله قتلها، و هلك ألوف من النصارى و مئات من المسلمين و الدروز، و خسروا أهل المدن و القرى أموالهم، و خربت الدور و القصور، و حرقت البيع و الأديار. و كانت الخسائر في المعنويات أشد لأن الغرب أساء الظن بأهل هذه الديار، و أجمل حكمه عليهم كافتة و عدّهم متوحشين ظالمين، و لم يستطع أحب الناس من الأوربيين للمسلمين أن يدافعوا حق الدفاع عنهم، مع علمهم بأن الفتنة أمر دبر بليل، و الدولة هي المسؤولة أولا و قد رجحت كفة الدروز في مدينة دمشق بما جاءهم من نجدات الحورانيين أبناء مذهبهم، فكان من الدروز أن اشتركوا أكثر من المسلمين في هذه المذابح. و كان للجند النظامي و غير النظامي من الأجناس المختلفة يد في قتل النصارى في ضواحي صيدا و بيروت و دير القمر و حاصبيا و راشيا و زحلة و دمشق و غيرها، و هم الذين هتكوا الأعراس على

الأكثر فباءوا بالخزى والعار، وأخذت أوربا بعد أن قويت علاقاتها التجارية بالشام تسعى إلى تقليدها، لأن كابوس الفتنة استولى بعد تلك الوقائع على العقول فى الغرب والشرق سنين كثيرة، وربما دام حتى انقرض من شهودها وسمعوا بفظائعها. جمعت الدولة للمنكوبين غرامات حربية من الأهلين بما زاد عن طاقتهم، ولم يصل إلى المصابين كما قال مشاقه أكثر من ربع الذى تكلفت له الدولة،

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٥

فضاع الربع الثانى فى النفقات اللازمة، والثالث اختلسه مأمور والحكومة، والربع الرابع ربحه صيارفه اليهود، وبالجملة فإن الخسارة وقعت على الدولة والمسلمين والنصارى، ولكن الدولة استعاضت عما فقدت تذييل الرعايا وإخضاعهم لكل ما ترسمه عليهم، حتى لقد جبي فؤاد باشا بقايا الأموال فى دمشق التى أعيا الولاة تحصيلها على أيسر وجه، ولم يبق للعشائر رؤساء تتعب الحكومة بمعارضه أوامرها.

وخرج لبنان من فتنه ممنوحا استقلالاً إدارياً، وأخذ يستمتع منذ سنة ١٢٨١ بنظام خاص فينتخب له الباب العالى متصرفاً نصرانياً بموافقة الدول الست العظمى ويعطى الدولة بالاسم ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس خراجاً سنوياً، وبقيت تسد العجز فى موازنة الجبل مدة طويلة، وأهم ما ربحه لبنان القضاء نهائياً على سلطة أرباب الإقطاع. وأصبح كما قال بعضهم فى عهده الجديد ملجأ للأحرار من كل نحلة كما كان بفضل الأمراء المتولين عليه من آل عساف وآل معن وآل شهاب ملجأ للطوائف الكاثوليكية. أما مسلمو دمشق فبدأت أيام ذلهم بالقضاء على كبرائهم، وكان فى قتلهم وتشريدهم عبرة لمن خلفهم أو نجا من المعمة، وأصبحوا عبيد الدولة حقيقة فى كل ما تأمر به، حتى إن منهم من كانوا لا يرجعون الوالى وإن كان غلظه ظاهراً كل الظهور حتى لا يغضبوه بزعمهم، ولطالما حاول بعض الولاة العقلاء أن يعلمهم حسن الدفاع المعقول عن حقوق الأهالى، فكان جوابهم أن افعلوا يا مولانا ما تشاءون فإننا لا نحب المناقشة مع العظماء. إفراط فى العهد الأول وتفريط فى العهد الثانى.

السلطان عبد المجيد وخلفه عبد العزيز:

توفى السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧ (١٨٦١) أى بعد مضى أشهر من انتهاء فتنة الشام، وكان عهده سيئاً يحكم فى شؤون المملكة السرارى والجوارى والمقربون فى القصر السلطانى ويسرف السلطان فى الأموال ويبدد ثروة السلطنة، وكان إسرافه مبدأ ارتباك الدولة فى ماليتها، فإن عبد المجيد لما زوج ابنته فاطمة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٦

من على غالب بن رشيد باشا أنفق على الجهاز والعرس مليونى ليرة فرنسية.

وكان كما قال دى لاجونكبير أكثر ملوك بنى عثمان إنسانياً، اكتشف عدة مؤامرات رتبت للإيقاع به فكان كل مرة يعفو عن المتآمرين، فحمل إلى قبره أسف أمته وحرمة أوربا له التى أثنت عليه على الرغم من فجائع الشام وجده، وذلك لكونه لم يقض على عمل السلطان محمود فى الإصلاحات ولأنه ساعد ما وسعته قوته على تأييدها والاحتفاظ بها.

خلف عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز، وأخذ لأول مرة يهتم لتنفيذ خطط الإصلاح التى وضعها أبوه وأخوه أولاً، وبدأ بنفسه فى إصلاح المالية، فألى أن لا يتزوج بغير امرأة واحدة، وأبطل الإسراف فى نفقات قصره، فتخلى عن جزء مهم من مرتباته، ولم يلبث أن عاد إلى طبيعته فى الترف، وعاد الإسراف فى أموال السلطنة إلى أبشع صورة بحيث لم تأت سنة ١٨٧٥ م حتى أعلنت الدولة إفلاسها، وتمنت لو تقترض من مصارف أوربا بفائدة اثنى عشر بالمئة. وفى التاريخ العام: ولسوء الحظ أن السلطان عبد العزيز نسى حالاً نيته الحسنه الأولى، وأصبح فى الحرم تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم وخادمة، وكانت تمد كل يوم خمسمائة مائدة، ويجلس إلى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً.

نشر أول قانون للولايات على أصول فرنسا سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) و كان السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) نشر خطا سلطانيا يقضى بإدخال إصلاحات إدارية كثيرة في السلطنة العثمانية، عاقت حوادث الشام عن تطبيقها في ربوعه، فأخذ القطر بعد الحوادث المشؤومة يتدرج نحو المدنية، وقد تخلص من أرباب الإقطاع، و لم يتخلص من أرباب النفوذ في المدن و القرى ممن كانوا يسرقون الأمة و الحكومة معا، و يقاسمون الولاة و العمال على الأرباح.

أما الولاة في أول القرن و القرن الماضي فكانوا لا يهتمون إلا بالاحتفاظ بولايتهم و يبدلون بسرعة كما قال أحد العارفين من الأوربيين بمن يجهلون كثيرا أخلاق الشعب و إدارة الأحزاب السياسية، فينبذون وراء ظهورهم الاهتمام بإنجاح الولايات لأنهم موقنون بقصر مدة ولايتهم عليها، فيكون مدة حكمهم على جمع الأموال الوفرة بقدر ما تمكنهم الحال. و في أواخر هذا القرن تبدلت خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٧

الأحوال فأصبحت الدولة تبعث إلى الشام بأعظم رجالها يتولونها، و فيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس العارف بأصول السياسة و الإدارة.

و في سنة ١٢٨٠ شب قتال شديد بين بنى على و الكليية و هاجم الكليية و النواصرة بنى على حتى بلغوا قرية ست يبلو ثم حرقوا بتغراما و ديروتان و مغسله و خربوها و كان الرجال يحاربون و النساء يشتغلن بالتخريب و الإحراق و هجم بنو على على القرية و ديرونه و رويسة البساتنة و حرقوها - قاله في تاريخ العلويين.

و في سنة ١٢٨٦ كانت الواقعة المعروفة في جبال النصيرية بوقعة الوالى، و سببها أن طائفة الكليية النصيرية ظهر منها شقاوة، و خالفت أوامر الدولة فأرسلت هذه واليا لتمهيد الأمور و إرجاع العصاة إلى الطاعة، و معه جيش قدر بعشرة آلاف فسار إلى قرية الجديدة و رابط فيها، فأرسل الوالى يطلب مقدمى الكليية و وجوه النصيرية و مقدميهم و مشايخهم المعتمد عليهم من قضاء صافيتا إلى ناحية البجاق و لما وافوه قبض عليهم جميعا و سار الجيش إلى قرية المرج و أمر بحرق القرداحة أكبر دساكر تلك الجهة، كما أحرق بعض قرى الكليية و النواصرة ثم مضى إلى بنى على و أحرق و أفسد و عذب جميع الطوائف النصيرية من عمل صافيتا إلى البجاق، و لما شفيت صدور الجيش من العذاب و التخريب، التأم مجلس إدارى في جبله فحكم بصلب ثلاثة من أعظم الطائفة الكليية و صلب آخر من بنى على، و أخذت الحكومة الباقين إلى بيروت فسجنتهم خمس سنين ثم برأتهم و أطلقت سراحهم.

و يحدثنا الشيوخ أن أيام السلطان عبد المجيد و عبد العزيز كانت سعيدة على الشام في الجملة، و إن كان ذانك الدوران مبدأ تصفية حسابات الدولة، فقد أعلنت رومانيا في أيام عبد العزيز استقلالها، و تخلت الدولة عن الصرب، و طلب سكان كريت أن تدخل الإصلاحات على جزيرتهم، فلما رأوا إهمالا من الدولة طلبوا ضمهم إلى اليونان و لكن الباب العالى قوى عليهم و نجحت سياسته. و في سنة ١٨٦٨ نزعت مصر عن الدولة، و أصبحت خديوية تدفع خراجا معيناً للسلطنة، ثم هاج سكان البوسنة و الهرسك و ساءت حالة السلطنة و أصبحت (٣-٧)

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٨

الديون العمومية أربعة مليارات فرنك بعد أن كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليوناً أنفقها السلطان في خصوصياته. و بينا كان عسكر الدولة يحتاج إلى المال في بلغاريا، و الموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ أشهر، كان عبد العزيز يفكر في نقل قسم من ثروته الخاصة على باخرة أجنبية إلى أودسا. هذا و الثورة فاشية في بلغاريا، و الصرب و الجبل الأسود تحاربان الدولة، و أوربا تخاطب الحكومة في أمر النصارى الذين كانت تخشى على حياتهم مخاطبة الأمر للمأمور فتمس كل يوم عاطفتها، و شهرت الدولة إفلاسها و لم يصرف السلطان من الأموال التى اقترضها سوى واحد من خمسة عشر على الجيش و الأسطول.

برهان واضح على قبح الحكم المطلق كيف كان نوعه و حالة القائم به، و أنه إذا اتفق أن جاءت فيه بعض أيام راحة فهى نسبية لا تكون معياراً، و لم تربح الدولة من عهد عبد العزيز سوى تأسيس نظارتين مهمتين: العدلية و المعارف.

خلع عبد العزيز و تولية مراد الخامس:

شقيت السلطنة بإدارة عبد العزيز و كادت تتداعى أركان الدولة و هو لاه في أفراحه لا يبالي بما تخبؤه الأيام، ما دام كل من تحت سماء السلطنة عبيده الخاضعين، و أصبح لا ينفذ أمرا للوزارة، و كأنه عرف حالته فأخذ يفوضى امبراطور روسيا سرا ليحميه فاطلع الوزراء على الأمر، فلما رأوا سوء المغبة عيانا تأمروا على خلعه، فاجتمع الصدر الأعظم مدحت باشا و ناظر الحربية حسين عوني باشا و رشدى باشا المترجم من أعظم رجال السلطنة بالاتفاق مع الشريف عبد المطلب، و كان ذلك برأى مدحت باشا أولا، و أسرعوا فى خلع عبد العزيز على حين فجأة، قبل أن ينقل ثروته إلى الديار الأجنبية، و يطلع على ما دبوا له فيطش بالمتأمرين، و ذلك بفتوى شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى أثبت فيها عليه العته و الجهل بالأمر السياسي، و الإسراف فى أموال الأمة بما لا تستطيع تحمله و إنفاقه فى شهواته، و إخلاله بعمله فى أمور الدنيا و الدين مما ساق الملك و الملة إلى الخراب. و نصبوا بدله مراد الخامس.

و لما كان عبد العزيز على جانب من عزة النفس و شمم السلطنة صعب عليه

خطط الشام، ج ٣، ص: ٩٩

الخلع فطلب مقرضا يقص به شعره فانتحر بقطع بعض عروق يديه و قيل بل قتل بيد أئيمه و هو غير صحيح. و قد ساعد سفير انكلترا رجال الدولة القائمين بهذا العمل، بأن استدعى قسما من الأسطول الإنكليزى إلى ميناء الإستانة ليلجأوا إليه إذا انكشفت مؤامرتهم قبل إتمامها. و لما تربع مراد فى دست السلطنة تنازل عن ستين ألف كيس من مخصصات القصر و ترك للمالية ريع المناجم و المعامل على حين كان يرسف فى قيود ديونه التى تراكمت عليه منذ ولايته العهد، و قد أنافت على مليون ليرة و ليس فى الخزينه من المال ما يكفى إلا لسدها و بعض زيادة طفيفة، و الجند و الموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ أحد عشر شهرا. و كان مراد ليلة خلع عبد العزيز ارتاع فأصابه مس من الجنون لما بشروه بالبيعه له بالسلطنة، على صورة لم يكن يتوقعها و اشتد خلله بعد أيام من توليته عندما بلغه مقتل حسين عوني باشا فلم يتلطف مبلغه بالأمر و قال له إن الوزراء قتلوا فقال الآن جاءت نوبتى فى القتل و بدأ معه الجنون المطبق، فلم يسع أهل الحل و العقد إلا- خلعه بعد أن سكتوا على ذلك شهرين، فخلعوه بإثبات جنونه المطبق و نصب مكانه السلطان عبد الحميد الثانى يوم ١٦ شعبان سنة ١٢٩٣، بعد أن تعهد لمدحت باشا بأن ينشر القانون الأساسى، و يؤسس فى السلطنة حكومه دستورية.

عهد عبد الحميد الثانى:

تولى عبد الحميد زمام السلطنة و روسيا تهيج ممالك البلقان، و الدولة مائله إلى السقوط لإسراف عبد العزيز، فألغى جانبا كبيرا من نفقات المطبخ السلطانى و كانت نفقاته على عهد عبد العزيز أربعين ألف ليرة فى الشهر فأنزل مبلغا لا يستهان به، و قضى أن لا تخرج من المابين موائد الطعام بل أن يأكل فيه من له حق الأكل، و ألغى الامتيازات التى كانت لوالده السلطان، لأن والدته ماتت و هو صغير فتوفر بذلك ١٥٠ ألف ليرة نفقات سنوية، و أخذ يتولى بنفسه إدارة الشؤون و يتفنن فى الجاسوسية ليطلع على الصغيرة و الكبيرة. لكن روسيا أعلنت الحرب على الدولة فتزعت البوسنة و الهرسك من أملاكها و استقلت الصرب و الجبل الأسود، و انهزم العثمانيون أمام الروس و خرجوا من حربهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٠

و قد أضاعوا جزءا مهما من مملكتهم و ما يربو على مائتى ألف كيلومتر مربع من الأراضى، و سبعة ملايين من الرعايا، و انسلخت جزيرة قبرص عن السلطنة و قضت معاهدة برلين (١٢٩٤) أن لا تسلب من الدولة الإمارات التى كانت تابعة لها فقط، بل نصف أرضها فى أوربا، و أن يتعهد السلطان بإصلاح مكدونيه و كريت و إرمينية و تحملت السلطنة غرامة باهظة. و أعلن السلطان القانون الأساسى فى المملكة و سارع بتأليف مجلس نيابى و مجلس شيوخ و اجتمع مجلس الأمة قبل أن يحضر نواب اليمن و بغداد و البصرة و

طرابلس الغرب لبعده ولاياتهم واكتفوا بوجود ثلثي النواب، و انتهت معاملته أعضاء مجلس النواب بعد ثلاثة أشهر من نشر القانون الأساسي، و لم يكن انتخاب النواب بالرأى العام بل بتعليمات موقتة بمعرفة مجالس الإدارة.

ولما تناقش النواب في مسألة الصلح مع روسيا لم يرتضوا بالشروط الصعبة التي اقترحتها الدولة الظاهرة و حدث في المجلس أخذ ورد، شق ذلك على عبد الحميد و ربما بدرت بوادر من بعض النواب بحق السلطان فأمر بإقفال المجلس، و كان على حالة يرضى معها ان يتنازل عن ثلثي المملكة على أن يضمن له عرشه، فصدر أمره بتوقيف أعمال مجلس النواب إلى مدة غير معينة و أمر بإخراج عشرة من نواب الولايات في ثمان و أربعين ساعة من الإستانة، و كان منهم خمسة من ولايات الشام فأظهر بذلك أول صورة من صور استبداده خالف بها الأصول النيابية، و لم تتمتع الأمة بحرية الدستور سوى أربعة أشهر لأنه صعب على مانحه أن يسير على غير خطة الاستبداد، و ندر أن يجيء من المستبد إلا مستبد، فزاد حنق الأحرار و الغيورين على بقاء السلطنة العثمانية، و أخذ هو يشتد خوفه على نفسه، و يقضى على من كان خلع عمه عبد العزيز على أيديهم من الوزراء، و لا سيما مدحت باشا الذي نقله إلى ولايات بغداد و الشام و إزمير، و منها إلى حبس الطائف فقتله هناك، و أخذ يستكثر من الجواسيس و أصبح و لا هم له بعد سنين إلا اتخاذ الاحتياطات لذلك، و كثرت أوهامه و ظنونه، و أنشأ يراقب المطبوعات مراقبة دقيقة مضحكة، و لا يسمح بنشر جريدة و لا كتاب على الأكثر إلا إذا طرز باسمه و اختلقت له فيه الأماديج.

و في أول عهده (١٨٨١ م) أخذ الصهيونيون ينزلون فلسطين مئات كل سنة،

خطط الشام، ج٣، ص: ١٠١

و هم مقدمه الصهيونية الذين كانوا يحاولون أن يقيموا بناء القومية اليهودية في فلسطين و يعيدوا لصهيون أى القدس مجدها بإنشاء المعبد الذى خرب و عرش داود.

انسيال الدرور على جبل حوران و وقائعهم:

مضت قرون على لبنان قبل منحه استقلاله النوعى عقيب حوادث الشام و هو بؤرة الفتن، و منبعث الثورات و القلاقل، لأنه كان فيه كتلتان عظيمتان بل دينان مختلفان المواردنة و الدرور. كل منهما يريد التوسع فى السلطة، و كل منهما تعلم الطاعة لرؤسائه و عقاله، يسير بقيادتهم يوم الكريهة، أو يجتمع تحت لواء صاحب إقطاعه راضيا مختارا، و كل منهما يستمد من قوة غريبة. و المواردنة أقدم استمدادا و صلات بالأمم اللاتينية من جيرانهم، و جيرانهم أشد بأسا و أكثر مضاء أثبتوا ذلك فى مقاتلتهم الصليبيين، فكان قتالهم لهم أشد من مناجزة بعض الطوائف الإسلامية من سكان أرجاء الساحل لهم. فلما وقع ما وقع فى حوادث لبنان عام (١٨٦٠ م) قضت الطبيعة على بعض رجال طائفة الدرور أن يهاجروا إلى جبل حوران فرحلوا إليه فى فريق من إخوانهم أهل وادى التيم و الجبل الأعلى و صغد و عكا و غوطة دمشق و إقليم البلان و كان منهم طائفة فروا من وجه القضاء فى الأصقاع الأخرى، و آخرون أتوا حوران بدافع الحاجة، فكثر سواد من كانوا حلوا فى هذه الربوع أيضا من أبناء مذهبهم، و أول نزول الدرور فى حوران بعد وقعة عين داره المشهورة فى لبنان سنة (١٧١٠ م ١١٢٢ هـ) فتألفت كتلة منهم هناك و قويت عقيب حوادث الشام، و أخذ الدرور يرجعون إلى أخلاق البادية بعد أن أوشكوا أن يدخلوا فى الحضارة فى اللبانيين الغربى و الشرقى.

اعتز قدماء الدرور بإخوانهم الذين جاءوهم و أخذوا يجمعون شملهم على عاداتهم بإمرة قوادهم، و كان أهمهم بنو حمدان ثم أسرة بنى الأطرش التى أصبح معظم الجبل بتدبير كبيرهم إسماعيل الأطرش خاضعا لهم، و سلطة هذا البيت تتناول أكثر أنحاء الجبل و الأكثرية معهم على الأغلب. و منذ نزول الدرور فى حوران ما برحوا يناوشون النصارى و السنيين من أهل القرى و البادية

خطط الشام، ج٣، ص: ١٠٢

القتال، حتى استقلوا به استقلالاً تاماً، و كانت أول وقائعهم المشهورة بعد وقائع إبراهيم باشا ما حدث سنة ١٢٩٦ بينهم و بين أهل بسر

الحريري من أجل فتاة، فهجم الدروز على بسر و قتلوا من أهلها ثمانية أو عشرة أشخاص و قتل من أهل بسر خمسة أثناء الدفاع عن أنفسهم، و عند ذلك تجمع الحورانين ألوفا، و أراد مدحت باشا أن يجيب الحورانين إلى مطالبهم و هي إنزال العقوبة بثلاثة و عشرين رجلا من الدروز، فأبى الدروز إلا أن يعطوا دية عن القتلى، و قصد أن يسوق قوة على حوران للتهديد لا للضرب، ثم حلت المسألة صلحا.

قال عثمان نوري في تاريخه: و عقيب ذلك طلب مدحت باشا إعفاءه من ولاية سوريه، فاعتبط عبد الحميد بذلك لأنه كان يرى أن بقاءه طويلا في هذه الديار لا يجوز، لأنه تذر بعمرانها و هو منه موجس خيفة على الدوام.

و قال كان النزاع و الجدل قائمين على ساق و قدم بين أهالي سوريه المتباينين في الدين و الجنس، فلما وليها مدحت باشا دخلت في طور السكينة و الأمن، و لا- سبيل إلى تقرير الحكم العثماني في أرض تتأثر فيها الأفكار بالنفوذ الأجنبي إلا بانتظام الإدارة و إجراء العدل و تنظيم المالية، و هذا ما عمله مدحت باشا.

و كان عبد الحميد يرائيه في كل ما يرتئيه، و يحول دون أمانيه، بحيث أن السلطان لم يكن يتوقف ساعة عن بث بذور الاضطراب في الولاية لينتقم من مدحت باشا، و ذلك بتحريض مثل المشير أحمد أيوب باشا و جميل باشا عليه ه.

انتهت مسألة الدروز بعد أن ساق الدولة عليهم قوة إلى القراصه من عمل نجران و قتلت منهم ستمائة و استأمن الرؤساء، و لم يكن سواد الدروز في الجبل إذ ذاك أكثر من عشرة آلاف، و تسمى هذه الوقعة بوقعة القراصه و هو ماء قرب نجران، و لما لم تحسن الدولة الإدارة في الجبل زادت جراه الدروز إلى أن كانت سنة ١٢٩٨ فهجموا على قريتي الكرك و أم ولد و ذبحوا سكانهما على بكره أبيهم و لم يبقوا حتى على الأطفال الرضع، فسيقت عليهم حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا أسفرت عن ربط دية شرعية مقسطة عليهم، و تأسيس قائم مقامية جبل الدروز مؤلفة من ثمان نواح و تعيين القائم مقام و المديرين منهم.

كانت الدولة تقاسى الأمرين في تأديب عصاة الدروز كل مرة. قال مدحت باشا في مفكراته سنة ١٢٩٧ و الذي زاد في الطين بله أن فرنسا تحمي الموارد

خطط الشام، ج٣، ص: ١٠٣

الكاثوليك و انكلترا تشيع للدروز، و كل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع نفوذهما في سوريه أو ضرب إحداهما بالأخرى، فلما أخذت الدولة أهبتها لتأديب الدروز قام سفير إنكلترا في الإستانه يشكو من ذلك، و يكرر التردد على المابين و الباب العالي فأصبحت الأوامر ترد تترى بحل هذه العقده حلا سلميا.

و من جملة تدخل فرنسا أنها تجاشرت بحماية يوسف كرم قائم مقام النصارى في شمالي لبنان لما ثار على متصرفه داود باشا لما أراد زيادة خراج لبنان من ٣٥٠٠ كيس إلى ٧٠٠٠ كيس ليزيل العجز من موازنه الجبل فال من عسكر المتصرف فاستنجد هذا بوالبي دمشق و بيروت فأرسلوا إلى متصرف الجبل زهاء عشرة آلاف مقاتل فسارت إلى كرم. و عندها تدخل قنصل فرنسا في الأمر و منح الحماية الفرنسية ليوسف كرم فركب من بيروت على دارعه قاصدا إلى فرنسا و كان ذلك سنة ١٨٦٦.

المصلح مدحت باشا و طبقته من العمال:

اضطر مدحت باشا أن يتخلى و يا للأسف عن ولاية سوريه و قد طبق مفاصل الإصلاح في أرجائها الواسعة على أسرع ما يمكن، أنشأ الطرق و المكاتب و المدارس و نشط الصناعات و الزراعة، و ضرب على أيدي المرتشين، و نشر الحرية الشخصية، و لقن الحكام و المحكوم عليهم دروسا في الوطنية و الشعور بالواجب و كان يرجى للشام أن تسبق الإستانه في الحضارة بفضل إصلاحاته لو طالت أيامه و أيام غيره من الولاة المقتدرين أمثال ضيا باشا في دمشق، و رستم باشا و داود باشا في لبنان، و كامل باشا في حلب ممن كانوا بسيرتهم معلمين للحكام، و وضعوا لهم أصول الإدارة، و حرصوا حقيقة على إمتاع الناس بالعدل و أعمال العمران، فكانوا حجة على

الدولة بأنها تستطيع الإصلاح إذا أرادته على قلة الرجال لديها على شرط أن تتركهم يعملون بوجداناتهم و عقولهم، و ما عهد إليهم تنفيذ من القوانين الكافية بمعرفة أرباب النزاهة من رجال الشام.

و قد تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ واليا و على حلب ٥٢ واليا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٤

و هكذا سائر المتصرفيات الثانوية، لا يسلم الوالى إلا ريثما يودّع، و الطيب منهم هو الذى لا تطول أيامه خاصة، لأن حساده كثيرون فى الإستانة و فى الولاية التى يتولاها و تقارير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد، و الدولة يصعب عليها أن تتفقت من قيودها القديمة قيود حكومة القرواسيات أى المفاوضات الطويلة بالورق، فإذا رأت رجل جد من أبنائها يحاول أن يعلمها الصواب فى المعاملات، لا تلبث أن ترميه بكل شنعاء، و كان حظ النوايح فى كل دور من أدوار العثمانيين و لا سيما فى العهد الحميدى أن يغض منهم و يسعى إلى التخلص من إصلاحهم و مرامهم، و لسان الحال يناديهم لا نحب أن نخرج عن مألوفنا العاطل المجمع على عطله و تؤثر أن نموت فيه على سلوك سبل التجدد:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٥

العهد العثمانى «من سنة ١٣٠٠ إلى سقوط عبد الحميد الثانى»

الحالة فى مبدأ القرن الرابع عشر و إصلاح جبال النصيرية و السبب فى خرابها:

غدت الدولة العثمانية أوائل هذا القرن قوية الشكيمة لسرعة الاتصال مع دار السلطنة، و تشعب الأسلاك البرقية و طرق البريد، و شدة مراقبة دول أوروبا لأعمال السلطنة، و تسابق الدول فى تأييد نفوذهم فى الولايات. و امتاز لبنان الذى كان يكثر ترداد اسمه بثوراته و إقطاعاته الحين بعد الآخر، بأن انقطع ذكره بعض الشىء من باب المسائل المزعجة، و أصبح يعمل لنفسه بما متع به من امتياز خاص، و لم يعد الدرزى و المارونى فيه يقتتلان كما كانا فى القرن الماضى لتأييد سلطان ملك أو أمير، أو للأخذ بيد صاحب الإقطاع أو حبا بالغارة و النهب و القتل.

و نشبت فتن فى جبال النصيرية لأن هؤلاء لم يتأت لهم نصير من الغرب كما قام للبنانيين يأخذ بأيديهم إلى السعادة التى يتخيلها لهم، و يسوقهم إلى طريق الحكم الذاتى و لو على صورة ابتدائية، و كان أهل السنة المجاورين للنصيرية ينظرون إليهم نظر الازدراء، و هم فى جبالهم يعدون قوة يحسب حسابها، و إذ كانوا طوع إرادة مشايخهم و رؤساء قبائلهم كانت سلطة الدولة عليهم قليلة. و إذا كتب للدولة ان أحرزت بعض سلطان عليهم فى الشواطىء البحرية أو فى الأماكن القريبة من ضفاف العاصى من جهة الداخل، فإن أعالى الجبال كانت معتصمهم، و ربما كان فيها أماكن لم تدسها حوافر الخيول التركية لوعورة مضيقهم، و قد أرسل السلطان عبد الحميد رجلا من خاصته اسمه

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٦

ضيا باشا جعله متصرفا على لواء اللاذقية فى مبدأ هذا القرن فرفع عن النصيرية الظلم، و وسد الحكم لبعض مشايخهم و وجوههم، بأن جعلهم أعضاء فى المحاكم و المجالس ليشعر نفوس قومهم العزة بعد الامتهان و الذلة، و أنشأ لهم جوامع و مدارس فأخذوا يتعلمون و يصلون و يصومون، و أقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمرا، و نفس من خناقهم فبدأوا يشعرون بأنهم بشر كسائر مواطنهم و أنهم شركاء فى هذا القطر لهم فيه حقوق سائر أرباب المذاهب و بعد أن ترك هذا المتصرف العاقل منصبه الذى دام بضع سنين على أحسن ما يكون، مع أنه كان بعلمه فى درجة الأميين، خربت المدارس و حرقت الجوامع أو دنست، و كانت الدولة فى أكثر أوارها لا

تأخذ من معظم إقليم النصيرية شيئاً يذكر من الضرائب، والقائم مقام الذي يجبي منهم ضريبة السنة أو بقايا ضرائب السنين السالفة تصفق له الدولة و ينال تقدير ولاية الأمر فيشرفونه برتب الدولة و مراتبها، و كانت جباية خمسين ألف قرش من النصيرية تستلزم إعداد حملة عليهم ينفق عليها ما يقرب من المبلغ المجبي أحياناً.

قلنا: إن النصيرية كانوا ينظر إليهم نظر ازدراء. و قد سألتنا عالم جبلهم في أيامنا الشيخ سليمان الأحمد عن رأيه في الحوادث الأخيرة، فكتب إلينا يقول ما نثبته بالحرف لأن قوله حجة في هذا الباب قال: «كان أهل الحاضرة (اللاذقية) في هذا القرن يعدون ما يفعله جهلة العلويين (النصيرية) بفتيا علماء الدين، فيعصبونه بهم لدى الحكام و يغرونهم بهم و بالرؤساء، و يحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة، و كان الدين أعظم الوسائط التي توصل بها إلى هذه الوحشية و البربرية (و من جرى ذلك المصائب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلوية من أشرف و أجل البيوت العلوية في حادثة سنة ١٢٩٥) و ما كان العلويون ليحملوا و زر مصائبهم على الدولة التركية، بل على وجهاء البلد و رؤسائه السنيين و علمائهم، ثم على أهل الفساد من مقدميهم و رؤسائهم الذين كانوا يسارعون لما بين عشائرتهم من الضغائن و الأحقاد و الغارات إلى الدخول بخاطر الأغوات ثم بخاطر الحكام عن أيديهم، و من تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة، و سلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم و بعشيرته على عدوه. و لا تسل عما تفعل الهمجية. و متى دوخت تلك العشيرة و قتل أشرافها

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٧

و ذلكت، عاملت الحكومة العشيرة الظاهرة نفس تلك المعاملة دواليك، حسبما تقتضى سياسة التفرقة و الأحوال. و لا أدري إلى أى عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله أن يحسم أسبابها بأيدي المصلحين. و التبسط في شرحها لا يجدى أو لا ينتج إلا- أن الشرقيين هم السبب الأعظم في بلاء أنفسهم و حجة الله فيه على المتسمين بسلمات الدين، و تلك حزازة في نفوس المصلحين.

و الذى أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ و خاصة في مقاطعة الكليية، و كانت الحكومة إذا أخرجت جردت العساكر فهبت و سلبت و حرقت و فتكت، فإذا رجعت العساكر، عادت العشائر إلى ما كانت عليه، يضبط الحاكم الحازم جماحهم، و متى بدل بحاكم ضعيف الإدارة أو مرتش، عم البلاء من الرؤساء الفسدة و الأشقياء الجهلة. لما حكم إبراهيم باشا المصرى قطع دابر أهل الفساد، و ضرب الأمن أطنابه بحيث لم يكن يسمع فى عرض البلاد و طولها نهب، و لا قطع سبيل، فرتح الأنام فى بجوحة الأمن مدة حكمه الذى كان مع صرامته نموذج العدل و الإنصاف، فلما دالت دولته حصل من اختلال الأحوال ما لا يحصره المقال ١٥».

فتن درزية و فتن أرمنية:

كان يظن بعد أن خمدت ثائرة الفتن فى لبنان و ما إليه من جبل اللكام أن الناس يرتاحون من الحملات و الغارات إلا ما كان من غزو البادية بعضهم مع بعض فإن ذلك من المتعذر لأنه مرض قديم مستعص نشأ قبل الإسلام بقرون، و لم تقو جميع الحكومات التي تعاقبت على الشام أن تقضى عليه و تستأصله من أصوله، بيد أن القوة التي أحرزها جبل حوران بالدروز الذين هاجروا إليه جعل من الجبل موطن غارات و غزو، و أصبح هذا الجبل إبرة سفينته الأمن فى الشام، و كان يتلبس بهذه الصفة جبل لبنان فى القرون الماضية فيتعب سائر الأرجاء الشامية، و يضطر الحكومة أن تتقى شره بإثارة أهل الجوار عليه، و إلقاء الخلاف بين أمرائه و مشايخه.

نشبت فتن فى جبل حوران فى أعوام مختلفة، و كثيرا ما كان بعض أشقياء

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٨

الدروز فيه يطيلون أيدي الاعتداء على سكان حوران و الغوطة و المرج و جبل قلمون، فيتحد أشقياء المقرن القبلى منه مع عرب

السردية و يغزون في البلقاء و ما إليها قبائل بني صخر و الحويطات و السرحان و قرى حوران الجنوبية، و ينضم أشقياء المقرن الشرقي إلى عرب الصفا يغزون تجار بغداد و دير الزور، و يتحد أشقياء المقرن الشمالي مع عرب الحسن و يهاجمون قرى جبل قلمون و النبك و حمص، و يتحد بعضهم مع عرب اللجاء فيسلبون قرى سفوح جبل حوران و يقتلون الموظفين و يمثلون بالعسكر إذا خلوا بهم، و لا يدفعون الأموال الأميرية، و بذلك تأيدت شوكة الدروز و خافهم جيرانهم من أهل القرى و البادية، و تخوفت الدولة عاقبة أمرهم للرابطة القوية بين أفرادهم، و هم إذا جاءهم الغريب، و الدماء تسيل بينهم كالسيول، لا يلبثون أن يكونوا عليه يدا واحدة و يصدقوا قتال عدوهم المشترك، بما فيهم من شمم و إباء عربي و عند الشدائد تذهب الأحقاد.

رأى الدروز في سنة ١٣٠٤ و قد ارتاشوا و تأثلوا و نما عددهم أن يستولوا على قرى اللجاء للتحصن بها عند الإيجاب و استثمار ما يمكن استثماره منها فاحتشد نحو خمسمائة فارس منهم بقيادة شبلي و فندی الأطرش، و وصلوا إلى المسمية و هاجموا قلعتها فردوا عنها. و في سنة ١٣٠٨ انقسم دروز حوران إلى فرقتين المشايخ و العامة و زادت بينهم العداوة و البغضاء فأدى ذلك إلى حدوث وقائع متعددة و دخل بعض المشايخ إلى قلعة المزرعة فأرسلت عليهم ست كتائب مشاء و ألابى فرسان مع مدافع، و في أثناء مغادرتهم ثكنة المزرعة تعرض لهم العامة فقابلهم العسكر بالضرب، فانهزم الدروز بعد أن تحملوا خسائر كلية و دخل الجند السويدياء و أسرعوا ببناء ثكنة عسكرية. و تعرف هذه الوقعة بوقعة العامة و نال الدروز من الجند في سنة ١٣١١ في طريق المزرعة و حاصروا قلعتها ثلاثة أيام. و في سنة ١٣١٣ هجم الدروز على قرية الحراك و قتلوا أكثر أهلها و هدموا جامعها الحصين و نهبوا مع قرى المليحة الغربية و المليحة الشرقية و حريك و دير السلط و كحيل فأرسلت الدولة عليهم (١٣١٤) حملة بقيادة أدهم باشا و لما بلغ أول حدود الجبل تعرض له الدروز فقابلهم العسكر بالمثل، و بعد وقعة القراصنة و نجران و السجن و أم العلق دخل العسكر السويدياء.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٠٩

و لو وضعت الإصلاحات الإدارية موضع العمل بجد و نشاط لاستقام الأمر كثيرا، و لقلت الفتن التي تقع بين الرعايا و العمال. و كانت الحكومة سنة ١٣١٥ تتذرع بتطبيق أصول الأعشار بصورة الأمانة على حسابها، فقتل الدروز ضابطا كبيرا مع ثلاثين جنديا في عرمان، و مدير ناحية صرخند و رفقاءه من الدرك، و أكثر حراس الأعشار في جميع قرى الجبل فأرسلت عليهم الحكومة مفرزة مؤلفة من أربعمائة جندي و في رواية درزية أربع كتائب قتلوها بالفؤوس و السيوف إلا قليلا في محل يدعى العيون قرب عرمان و غنموا مدفعين و جميع الأسلحة و الذخيرة و حاصروا ثكنة السويدياء ٢٨ يوما ريثما وصلت القوة العسكرية بقيادة المشير طاهر باشا مؤلفة من ٥٤ كتيبة، و حدثت بينهم و بين كتيبتي كانتا في آخر القوة حرب دامت ست ساعات و انهزم الدروز في وقعة الشهبه. و خوفا من وقوع قتل عام رجع العسكر عنهم. و في هذه المرة قبضت الحكومة على ستمائة رجل منهم مائتان من رؤساء العصابات، و نفتهم من الشام ثم أرجعتهم مكرمين من الإستانة فابتاعوا بالدرهم التي نالوها من إحسان الدولة سلاحا في طريقهم ليقاتلوا به عمالها.

و في سنة ١٣١٩ ساقطت الدولة على الدروز قوة من الفرسان و المشاة إلى الصفا و اللجاء للتنيكل بهم، و استرداد ما سلبوه من المواشى و غيرها. و في سنة ١٣٢١ وقع خصام بين طائفتي الحلبية و المغوشين من الدروز أسفرت عن قتل أكثر من أربعين شخصا، فأرسلت الحكومة ثلاث كتائب لإجراء التحقيق. و هكذا توالى وقائع الدروز و أكثرها في مقاومتهم للدولة كلما أرادت أن تدخلهم في الطاعة، و تجرى عليهم الأحكام التي تجرى على جيرانهم من أخذ رسوم الأغنام، و تسجيل الأملاك أو النفوس أو أخذ الأعشار. و لكم جرت وقائع لذلك في قنوات و مفعلة و الشوفي و الحجلة و الكفر و نجران، و كم من وقائع بين المساعيد و العزام و بين بني الأطرش الدروز و بني المقداد السنين. و بعد جهاد أربعين سنة أصبح الدروز في جبل حوران الأكثرية المطلقة بعد أن كانوا أقلية في أواخر القرن الماضي و زادت نفوسهم ستة أضعاف عما كانوا قبل خمسين سنة.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١١٠

و في سنة ١٣٢٤ اعتدى دروز حوران على عرب المعجل فغزا الدروز المعجل في النقرة من حوران فقتل المعجل منهم نحو سبعين رجلا ثم اعتدى المعجل على قافلة درزية و قتلوا رجلا من أكابر بيوتهم بالقرب من براق، فهاجمهم الدروز في ضمير من مرج الغوطة و قتلوا نحو أربعمائه من العرب، و أبقوا على النساء، و في سنة ١٣٢٨ غزا دروز حوران جيرانهم أهل قريتي معربة و غصم و سكانهما مسلمون و نصارى على أثر خصام وقع بين نواطير القرية و نواطير بصرى على الكرم فقتلوا ٥٩ رجلا و امرأة عدا الجرحى و نهبوا القسم الأعظم من قرى السهوه و جيزة و سماقية و طيسه، فأرسلت عليهم الدولة حملة مؤلفة من ثلاثين ألف جندي بقيادة سامى باشا الفاروقى فضربهم ضربة خفيفة قتل فيها زهاء ألف رجل منهم و نحو مئة و خمسين من الجند و أحرقت بعض القرى و لا سيما الكفر أهم موقع حربى فى الجبل و حواليتها دار معظم القتال، و غنم الجند و الضباط ما فيها من متاع و حلى و أرزاق مما حشره الدروز فيها من أنحاء الجبل، و لم تستفد الدولة من هذه الحملة إلا احصاء نفوس الجبل، و استأمن الدروز فحكم على بعض زعمائهم و أشقيائهم بالصلب فصلبوا فى دمشق و جند بعض شبانهم و عفى عن بعض المجرمين و جرم بعض الأبرياء. و هكذا غرمت الدولة و الأمة حتى امتلأ صندوق القائد فيما يقال و لم تنفذ خطط الإصلاح التى وضعت على العادة فى كل مرة، و منها ما يرضى به الدروز لكن تطبيقه يحتاج إلى إخلاص و حكمة. و قد أبان الدروز فى هذه الحرب شأنهم فى أكثر حروبهم و غاراتهم عن مهاره فى الفنون الحربيه و شجاعه متناهيه.

و أرادت الدولة فى تلك السنة أن تحصى نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت سكان لواء حوران، فانتقض أهل الكرك على الدولة لأنهم بادية على الأكثر و البادية تخاف الجندية أكثر مما يخاف منها أهل المدن و المزارع لأن عهدهم بالحكومة حديث و صعب التأليف بين طبائعهم و معامله الموظفين الفاسدين و كان لواء الكرك أسس فى سنة ١٣١١ على سيف البادية بين الحجاز و الشام، و قد ثبت للدولة أن المرسلين يعملون بنشاط لتنصير تلك الأضقاع، و كان ذاك الإقليم من قبل بعيدا عن كل سلطان و يحكمه رؤساء عشائره، و لم يكن أكثر قراهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ١١١

معمورا مأهولا و كانت ديارهم كأنها قطعة من الحجاز القاحله لا الشام الخصيبه، و صادف أن قطعت مرتبات عرب بنى صخر و الخرشان و غيرهم من أهل الوبير، فقام البدو الذين حرموا رواتبهم و هى أربعة آلاف ليرة فى السنة، و سطوا على بضع محطات السكة الحديدية الحجازية على طول أكثر من مائتى كيلومتر فى أرض اللواء، و نهبوا قطارا بحمولته و قتلوا و جرحوا بعض موظفى الخط، و قام الكركيون باديبهم و حاضرهم و أطالوا يد الاعتداء على التجار و الموظفين و الحامية فقتلوا منهم نحو ١٥٠ إنسانا، و لو لم يلجأ أكثرهم إلى قلعة الكرك لهلك فى هذه الفتنة بضع مئات و حرقت الأماكن الأميرية كلها و نهب خزائن الحكومة و دور الموظفين و أحرق قسم منها، و خرب قسم عظيم من المدينة (٥٤٩ دارا) بإطلاق القلعة المدافع عليها و قطع العصاة الأسلاك البرقية و هاموا على وجوههم فى البرارى، و بعد أن جاء المدد للمحصورين فى القلعة قبضت الدولة على عشرات من الثائرين عدا من قتلتهم هناك صبوا و حكمت عليهم بأحكام مختلفة و أكثرهم بالقتل. و لم يشترك أهالى معان و الطفيلة فى هذه الفتنة، و كانت النية أن يقوموا مع الكركيين فى يوم واحد. و جرت وقائع بين عسكر الدولة و عرب المجالى و بنى حميدة و ابن طريف و كورة و سليط و غورين و كثر ربا و عراق و خنزيرة و المعايطه و عبيد و جلامدة و أغوات بالقرب من قرية كفر ربه استسلم فيها بعضهم، و بلغ عدد القتلى من الكركيين نحو ألفى نسمة. و لم يحدث بعد هذه الوقعة شىء يذكر فى أرض الشام اللهم إلا هياج العربان للغارة و النهب فى الشمال و الجنوب، و كانت الدولة تسوق عليهم قوى خفيفة تارة، و تتركهم و شأنهم تارة أخرى، خصوصا إذا لم يقع منهم على أهل المدن و القرى اعتداء مباشرة، و لم يتدخل قناصل بعض الدول لمأرب لهم، كأن يكون فى القتلى بعض النصارى أو أن تقضى السياسة بأن يوجدوا مسألة جديدة تحب دولة ذاك القنصل استثمارها فى دار الملك.

و من الحوادث التي وقعت في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية و الحكومة العثمانية على حدود الشام و عقدت بينهما المعاهدة المعروفة بمعاهدة رفح و تعين الخط الفاصل الإداري بين ولاية الحجاز و متصرفية خطط الشام، ج٣، ص: ١١٢

القدس و بين شبه جزيرة طورسيا، و كان للصحف الوطنية المصرية حملات على بريطانيا بهذا الشأن.

رأى فى دلال الدرور و النصيرية على الدولة:

و فى الحق أن مسألتين فى هذا القطر شغلنا الأفكار خلال هذه الفترة: مسألة النصيرية فى الساحل، و مسألة الدرور فى الداخل. أما المسألة الأولى فمما يحدث له أمثال فى كثير من الأقطار، و تنتهى كل ثورة بصلب بعض أرباب النفوذ و السيطرة و تخريب بيوت الثائرين و الساكنين. و رابطة النصيرية و تعلقهم بمشايخهم أقل من رابطة الدرور و هى أقرب إلى الحل إذا انعقدت. ثم إنهم ليسوا من المعرفة بحيث يتطلون إلى تأييد سلطانهم، أو تحدثهم أنفسهم بالاستقلال عن الدولة، إذ لا ملجأ لهم من الأمم الغربية يرجعون إليه و يصدرون عنه، و لكن هل كان دروز حوران مثلهم يا ترى؟ بعد أن حاول إخوانهم غير مرة أن يقيموا لهم حكومة مستقلة فى لبنان ثم انسألوا على جبل حوران يحاولون الاستقلال بربوعه، و الابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين فى هذا الجبل الذى ينتهى العمران به و تبدأ البادية المترامية الأطراف؟. إن ظواهر الحال تدل على أن الدرور فى جبل حوران حاولوا منذ عهد إبراهيم باشا المصرى أن ينزعوا أيديهم من أيدي حكام القطر و يستمتعوا بامتياز لهم خاص، لأنهم يثقل عليهم حكم غيرهم فى الجملة، و بين عامتهم و عامه غيرهم فروق فى الآداب العمومية و الأخلاق و العادات، و إذا ثاروا يعرفون السبب فى ثورتهم، لأن مشايخ العقل منهم يلقون أجابدهم، و أجابدهم يلقون عقالهم، و عقالهم يلقون عامتهم كل ما ينفع فى شؤونهم العامة فكانوا يرضون عقيب كل فتنة أن يتفقوا مع الدولة على مال معين يؤدونه للسلطنة، ثم لا يلبثون أن يمتنعوا عن أدائه مع أن الجبل الذى تملكوه بالسيف أو بالشراء بأثمان زهيدة من جيرانهم المسلمين و النصارى هو من الخصب بحيث لا يصعب عليهم أن يؤدوا الأعشار و الأموال المطلوبة أو جزءا من الضرائب التى يدفعها سائر الحورانيين، و لعلمهم أو بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بما لهم من عطف بريطانيا عليهم فيتوهمون خطط الشام، ج٣، ص: ١١٣

أن ينشئوا لهم فى صميم الشام دولة صغرى ناسين جميع الاعتبارات التى كانت تحول دون أمانهم، و تهب بالدولة إلى مناجزتهم القتال كلما حاولوا أن يرفعوا رؤوسهم.

و كانت الدولة هى التى ساعدت على تعاقب ثوراتهم و تسلسل شقاواتهم و استلذاذهم بالحروب، لأنها اتخذتهم آله فى لبنان و وادى التيم و حوران للانتقام من عدوها إبراهيم باشا و استخدمتهم آلات لها فى مذابح سنة الستين. و دفعتهم فى طريق الشقاوة و المقاومة بمالها و سلاحها فظنوا أنفسهم قوة مهمة لا تقف أمامها قوى دولة، و عرفوا أنهم إذا ظفروا كان لهم ما يريدون، و إذا غلبوا يحسنون مداراة رجال الدولة، و لهم من بريطانيا العظمى على كل حال دولة تسأل عنهم و تعنى بمصالحهم، فلهم أن يدلوا على جيرانهم و على الحكومة.

و كان الشعب فى معظم الأرجاء يستخف بعامة الدرور إذا اختلفوا إلى الحواضر، و إذا ذكروا يذكرونهم كما يذكرون النصيرية بالسخرية و المهانة، فيشق ذلك على جماعتهم خصوصا و الدرور لم يفقدوا أصولهم العربية و من شأنها الشمم و الإباء، فكانوا يصعب عليهم سماع ما يصمونهم به، و ربما كذب الناس عليهم و نسبوا اليهم أمورا ليست من مذهبهم و لا من عاداتهم، كذبهم على النصيرية أيضا. و كان لبعض المشايخ المتعصبين فى الحواضر يد فى إلقاء هذه الكراهة و هذه النفرة بين هاتين الشيعتين و بين الأكثرية من أهل السنة، الذين انشقوا منهم، و لعل الحكومة كانت تتعمد ذلك و لا يسوؤها فتغضى عما كان النصيرية و الدرور يسامونه من الذل، و تفسح المجال للعامة و المشايخ البله أن يعاملوا مواطنيهم تلك المعاملة المؤلمة على النفوس الأبية، فيقابلها الدرور بمثلها يوم يكون

لهم السلطان المطلق في جبلهم و أرضهم.

و لو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية بهذين الشعبيين الجبليين في الساحل و الداخل، كأن تنشر بينهم التعليم الابتدائي، و تعطف على كورهم فتصلح طرقها، و تدخل عليها ما يمكن من أسباب النجاح لاستغنت هي و الأمة عن مقابلتها، و هم بعض أبنائها، بالسيف و المدفع لتعيدهم كلما نشزوا إلى حظيرة (٣-٨)

خطط الشام، ج٣، ص: ١١٤

الطاعة، و لو دخلت المدينة على دروز جبل حوران و نصيرية جبل اللكام، كما دخلت مثلاً على دروز جبل لبنان، لكان من هذين الشعبيين العربيين خلقاً و خلقاً قوة في الشام، و لما استحکم هذا النفور الذي كان من أثره ما ظهر في العهد الأخير يوم رضوا بأن ينزعوا أيديهم من أيدي جيرانهم، مع علمهم بأنهم شركاء متضامنون في هذا القطر المحبوب.

خطط الشام، ج٣، ص: ١١٥

العهد العثماني «من سنة ١٣٢٦ إلى ١٣٣٦»

الدستور العثماني و ثورته:

منذ أقفل السلطان عبد الحميد سنة ١٢٩٤ المجلس النيابي و عطل الأحكام الدستورية ما برح بعض أحرار العثمانيين تركهم و أرمنهم و عربهم و أرناؤدهم، يتأفقون من حالة الدولة و يدعون سرا، إذا لم يمكن الجهر، إلى المطالبة بإعادة هذا المجلس، و قد أسسوا للوصول إلى هذه الغاية جمعيات سرية في بعض ممالك أوروبا و مصر، جعلت لها فروعاً في بعض الولايات العثمانية و عملت في الخفاء زمناً، و السلطان يصم آذانه تارة، و يتصام عن هذه المطالب المشروعة تارة أخرى، و يعاقب من يقتدر عليه من هؤلاء الدعاة إن كانوا في قبضته و تحت علمه بالنفي و التغريب، أو بالمدارة و إغداق الأموال و الرتب على بعضهم إذا كانوا بعيدين عنه. و أهم جمعية ألفت لهذا الغرض جمعية الاتحاد و الترقى، تشعبت فروعها في أنحاء السلطنة و قويت في بث دعوتها في الشام حوالي سنة ١٣١٤ و ما برحت على ضم شملها و تكثير سواد القائلين بقولها و إبلاغ دعوتها في جرائد لها أنشأتها خارج السلطنة، و كلمة الجمعية تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد في إرهاب الداخلين فيها، و لا سيما في المدارس العليا في الإستانة، و المدارس العليا مجمع شمل أذكى الطلاب من الترك و العرب و الشركس و الأرناؤد و اللاز و الأرمن و الروم، فإذا عادوا إلى الولايات يضيفون إلى تدمير الأهليين من فساد الأحكام تدمراً، و يكتثرون سواد الحانقين على ذاك النظام الرث القديم.

خطط الشام، ج٣، ص: ١١٦

التاثر الأحوال، و تنكرت الأخلاق، و بات القول الفصل للرشى و المحاباة و الشفاعات، و غلوا في التجسس و الوقعة، و كثر الفقر و عم القهر، و زاد الضغط على الأمة، و نال الجند حظ وافر من الشقاء، و غدا المرابطون منهم و الغزاة لا يطعمون إلا ما يحفظ عليهم رمتهم فقط، و كثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات، أو بسوء التدبير كما وقع لكاتب الأرنؤد في دمشق في إحدى الحملات على الدروز، فهلك مئآت منهم لأنهم تركوا في العراء في تشرين الثاني فهلكوا بالزحير، و قد يخدمون السنين و لا يلبسون ثياباً تقيهم حمارة الحر و صبارة القر، و يطول أمد خدمتهم فيقضون العشر و الخمس عشرة سنة لا يسرحون، خصوصاً إذا كانوا في ديار قصبه كاليمن و الحجاز.

أخذ أحرار الضباط يبثون في الأجناد روح الثورة، و كانوا مستعدين لقبول ما يلقي عليهم، فتمرد أولاً بعض الجند في آسيا الصغرى، ثم سرت روح التمرد إلى جند مقدونية. و الجنود موقنون أن الدولة لا تهتم بأرواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها. و اتفق أن ضاقت صدور المسلمين من الأرنؤد في مقدونية من طمع الدول الأوربية فيهم، و أدركوا أن العثمانية تسلمهم متى عجزت كما فعلت

مع غيرهم، فيقعون في قبضة الحكومات الأجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة و الهرسك و بلغاريا و رومانيا و اليونان و الصرب. فقام الأرناؤد يدا واحدة في مناصرة الجيش المطالب بالدستور، و اتحد الفيلقان الأول و الثاني في الروم ايلي، و تبعهما الفيلق الرابع في كردستان، و ذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار.

و نادى الضابطان نيازي بك و أنور بك بالدستور، أو يزحفاً على دار الملك، فلم يسع السلطان إلا أن يعيد العمل بالقانون الأساسي الذي كان أوقفه منذ إحدى و ثلاثين سنة، فصدرت الإرادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) و بوشر بانتخاب النواب و أطلقت حرية الاجتماع و حرية القول و حرية الكتابة و النشر بعد ذاك الضغط المنهك، و ألغيت الجاسوسية التي جعلت و كدها في كشف عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة. و أخرج ألوف من الموظفين و الخدمة و المغنين و الطبّاحين و غيرهم من المايين أو قصر يلديز حيث كان السلطان أكثر أيام ملكه، و إليه انتقل الحكم من الباب العالي الذي كان في عهده اسما

خطط الشام، ج٣، ص: ١١٧

بلا مسمى، ما يريد لا يكون إذا لم يرده المايين، و ما يريد المايين ينفذ في الحال بدون مناقشة و لا حوار.

إعادة الدستور و حال الدولة بعده:

أعيد الدستور إلى العمل بدون إهراق دماء، لأن جواسيس السلطان عبد الحميد هؤلوا له في قوة النزاع إلى الثورة من فيالق جيشه، و كانوا قتلوا بعض رجاله في سلانيك ممن أرسلهم للبحث عن قضية الثورة، كما بالغوا في تقدير قوة الأحرار و سريان أفكارهم في الولايات، فلم يسعه و هو محكوم لأوهامه و ظنونه إلا أن يرد ما اغتصبه من حقوق الأمة العثمانية، و نجحت سياسة الأحرار و فشلت سياسة أعوانه الذين كانوا يتملقونه و يقولون له: إن أوربا إذا انفتحت على الدولة لا- تستطيع أن تفلت من يديها، و ما زال دولها متخالفات فلا يخشى على السلطنة العثمانية، أما الرعية فهي من ضعف الجانب بحيث تستطيع الدولة أبداً أن تقضى على كل ثورة تحدث في أرجاء ولاياتها، ثم إن الرعايا همج يسبحون بحمد آل عثمان في كل أوان، و لا تدرك عقولهم معنى للحرية، و الحرية لا يتطلبها إلا بعض الشبان و من لفّ لفهم من المحرومين و الناقمين الذين فسدت نياتهم بما لقنوه من تعاليم أوربا المضرة!.

و أخذ الناس في الشام يقدسون جمعية الاتحاد و الترقى التي كانت سبب هذا الانقلاب الذي أنعش الأمة بعض الشيء و كثرت الآمال و الأمانى في إصلاح الحال، و طردت الشام ولايتها و عمالها الذين عرفوا بالجاسوسية لعبد الحميد و النيل من رعيته، و كفّ أهل النفوذ في القاصية عن الضغط على الفلاحين، إذ عرف هؤلء من يدلهم على رفع شكوايهم للمراجع، و أهين بعض من اشتهر عنهم أنهم من أنصار عبد الحميد الغارقين في روايته و مراتبه حتى اضطروا أن يندمجوا في الأحرار و يقدسوا شبانهم، و لطالما امتنهم و سعوا بهم إلى الحكام في عهد الحكومة المطلقة، و بدى بانتخاب أعضاء مجلس النواب، فحاولت جمعية الاتحاد و الترقى أن يكون نواب الشام ممن تركز إليهم، أو ممن عرفوا بميلهم إلى الحرية و بعدهم عن السياسة الحميدية، و لكنها سعت لتقليل عددهم

خطط الشام، ج٣، ص: ١١٨

في الشام سعيها لذلك في سائر الولايات العربية، لثلاث تألف منهم أكثرية في المجلس، إذا انضموا إلى بعض العناصر الأخرى فيصبح الأتراك أقلية، لأن الاتحاديين لا يريدون إلا دستوراً ينتعش به الأتراك، و ينال الخير بالعرض سائر العناصر على صورة لا تضر بكيان الترك، و يسعون إلى تترك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد أمة واحدة متجانسة بلغتها إذ لم يمكن تجانسها بدينها، و يقوم أحرار العثمانيين من الأتراك في القرن العشرين بما عجز عن عمله محمد الفاتح و سليم ياوز من الفاتحين.

و بينا أحرار الأتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون في وضع خطط الإصلاح، و يحيون كل ما هو تركي، و يحاذرون كل ما هو عربي، و الناس في فرح و جذل لأنهم أخذوا على الأقل يقولون ما يريدون و يستمتعون بحرياتهم، أعلنت اليونان ضمها لجزيرة

كرت كما أعلنت النمسا لإحاق ولايتي البوسنة والهرسك، ورفض أمير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله، وعاد مجلس النواب إلى عمله (١٣٢٦ هـ) ولم يمض إلا أشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعا أو كرها من تنفيس خناق العثمانيين، وأحب أن يقوم بعمل ارتجاعي يعيد به الناس إلى الضغط والفتنة فيه وفي أعوانه، فيعملوا أحرارا من دون ممانع أو مناقش، فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن طردوا من الضباط من الجيش لقلّة اقتدارهم وغيرهم من العوام الذين تخدعهم ألفاظ الشرع ويتبعون كل ناعق، وألّفوا حزبا باسم الدين سموه «الحزب المحمدي» وأنصار هذا الحزب كثيرون لأنه اسم تحبه أكثرية الأمة، فدخل الناس فيه أفواجا عن سلامة نية، حتى قيل إن من وقعوا على محضر الرضى بالدخول في سلّكه بلغوا سبعين ألفا في دمشق وحدها، واختار السلطان لبث دعوته الولايات التي لم تتأثر أعصابها كثيرا بدعوة الأحرار و ثورة الجند كالشام مثلا، وأخذوا يهيجون العامة باسم الدين ويرتبون بالسلطان بأيدي أناس كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء. فعصا السواد الأعظم من جنود الإستانة بما بذله السلطان لهم من الذهب الوهاج، ولم ير أعوانه الذين هيجوا الأجناد واسطة لإضاعة رويتهم أحسن من إسكارهم، فأسكرهم ليلة الفتنة، وفرقوا عليهم الذهب الكثير ليقوموا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١١٩

بالمطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية بحذافيرها، وإبعاد بعض النواب وإسقاط الوزارة وتعيين الضباط الأمين الخارجين من صفوف الجيش، لا من دكات المدارس، أي اختيار الجهلة على المتعلمين، وبعبارة أفصح إبطال القانون الأساسي لأنه مخالف بزعمهم للإسلام، ومن قواعد الحرية، والحرية ليست من شأن الدين!. وقتل في هذه السبيل أناس من النواب وغيرهم من الدستوريين و عامة الناس في شوارع العاصمة، لأن الجند الثائر كان يطلق النار في الفضاء إرهابا و ترويعا فيصيب الأبرياء وغيرهم، و اغتال الضباط الجهلة كثيرا من الضباط الدارسين.

فلما تجلّى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم ايلي، فقامت بعض ولايتها على ساق و قدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور، وهب جند الفيلقين الثاني والثالث في أدرنة و سلانيك و زحفا على الإستانة بقيادة محمود شوكت باشا البغدادي فاستولوا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع، و قبض على المنتقذين و العصاة من الجند المشاغب، و ضربت أعناق بعض المشايخ و المتمشيين للسياسة لا للدين، و نفوا ألفا و خمسمائة رجل من رجال السلطان و حاشيته إلى الحجاز و اليمن، و خلعوا عبد الحميد بفتوى من شيخ الإسلام أثبت عليه فيها قتل الأنفس البريئة و سجنها و تعذيبها و مخالفة الشرع و حرق كتب الإسلام و الإسراف في مال الأمة، و بايعوا باتفاق مجلسي النواب و الأعيان لولي عهده رشاد أفندي باسم السلطان محمد الخامس و حملوا السلطان عبد الحميد المخلوع منفا إلى سلانيك.

عبد الحميد و سياسته و أخلاقه:

و بذلك تخلصت الأمة من عبد الحميد بعد أن حكم فيها ثلث قرن زاد أخلاقها فسادا. تولى لأول أمره زمام السلطنة و كيلا عن أخيه مراد الرابع، و كتب على نفسه عهدا دفعه لمدحت باشا ثم أرسل على ما قيل من أحرق دار مدحت ليحرق العهد في جملة ما أحرق، و أخذ يستميل قلوب أكثر أهالي الإستانة حتى اجتمع الصدران الأعظمان رشدي باشا و مدحت باشا و دعوا ألف

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٠

شخص من الكبراء و أرباب المقامات، و قرروا أن جنون السلطان مراد مطبق لا يرجى أن يفيق منه، و أفتى شيخ الإسلام بحل بيعته- و ما أسرع مشايخ الإسلام في إصدار فتاواهم لصاحب الوقت أيا كان و ما أبطأهم في فتاويهم في المسائل الجوهرية- و بويع لعبد الحميد فما عثم أن أقصى عن دار ملكه من كانوا السبب الأول في خلع عبد العزيز من العظام.

و أخذ عبد الحميد يكثر من التضييق على أخيه مراد و على سائر أفراد الأسرة السلطانية و لا سيما ولي عهد السلطنة، و يشرّد كل من

عرف بالإنكار عليه من الوزراء و العظماء، فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة و ساستها، و أصبحت الطبقة التي اختارها تسيير على رغبته، و كل من خالفه، و لو في سره، أقصاه و سجنه و عذبه، و كلما مضت سنة على ملكه يزداد مرانا على هذه الفعال، و يبلغ في الاحتياط لنفسه، و غدا يتولى كل أمر بذاته، و يبعد أرباب الوجدان من رجال الدولة و يستعيز عنهم بأناس ممن يصطنعهم، و ما يصطنع إلا من فسدت أخلاقهم من كل جنس على الأغلب، حتى آلت أزمة الدولة في العهد الأخير إلى أيدي طبقة من أعوانه طغوا و بغوا.

أخذ عبد الحميد يملك الأملاك باسمه على خلاف عادة الملوك و السلاطين، فكان كلما سمع بأن في إقليم كذا أراضى من أملاك الدولة يأخذها بلائمن إن كانت من الأملاك الأميرية، أو بثمان طفيف إن كانت للأفراد و عجزوا عن استغلالها، فيضمها إلى أملاكه السنية، و ألف عدة شركات و فتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع و بعض المعامل، و ضارب بالأوراق المالية و اتجر بالامتيازات.

و هكذا أصبح عبد الحميد تاجرا مزارعا مضاربا قلما يهتم بشيء من أمر الملك إلا إذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة و الولايات كثرة ضاقت بالإنفاق عليهم خزانه الأمة، و كلهم أمناءو إن اخطأوا فلهم الأجر، و إن أصابوا فحدث ما شئت أن تحدث عما ينهال عليهم من إنعامه و إحسانه.

و لقد قلّ جدا في عماله من لم يتجسس له، لا سيما بعد أن شاهد الناس أن الترقى في الوظائف لا يتأتى في الأغلب إلا من طريق الجاسوسية المحببة إلى قلب السلطان، و غدا التجسس عند بعض الطبقات من الأمور التي لا تنكر.

اشدد ضغط عبد الحميد على المدارس حتى حظر أن يعلم فيها التاريخ

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢١

الصحيح و علوم السياسة و الاجتماع، لأنها ترقى العقول و تلقح الأذهان، و أصدر إرادته السرية إلى مديري المعارف في بعض الولايات و منها الشام أن يوقفوا سير المعارف عند الحد الذي وصلت إليه، لأن في انتشار المعارف انتشار المفسد و تمزيق شمل الأمة!! و رأت المطبوعات منه و من أعوانه الجهلاء من الدنيا ما يكفي في نعتهم أنهم أعداء كل فكر و ارتقاء و تجديد، و أصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلاثين الأخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات و زهد و تلفيق أو أماديح كاذبة له و لأرباب المظاهر، و أمور عادية لا ترقى عقلا و لا تزيل جهلا، و حاول أن يرفع من دعاء القنوت لفظ «و نخلع و نترك من يفجر ك» لأن فيها لفظ خلع و قلبه ينخلع من هذه اللفظة، و لأنه رأى مخلوعين قبله، و أن يسقط من صحيح البخارى أحاديث الخلافة و أن تصادر حاشية ابن عابدين لأن فيها باب الخلع. و رفعت من المعاجم كثير من الألفاظ كالعدل و المساواة و الاغتيا و القانون الأساسى و الجمهورية و مجلس النواب و الخلع و الديناميت و القنابل، و غير بعض الأسماء فلا يقال «مراد» بل «مرأة» و لا «عبد الحميد» بل «حامد أو حميد أو حمدى» لأن مراد اسم أخيه و عبد الحميد اسمه، و أصبحت الصحف في أيامه أبواقا تقده و تؤله على صورة بلغ فيها السخف إلى غاياته.

و كثرت في أيامه مظاهر التكريم الخلابه من أوسمة و رتب، و أخذت تباع في آخر عهده بالمزاد بيع العقار و الدار، و لها سمسرة و لها تجار، يغوى بها السلطان من يريد تشريفه، و يرفع بها من يهمله رفعه، و أصبح بعض العقلاء في دار الملك و الولايات يتظاهرون بالبلاهة، أو ينقطعون عن الخدمة و يقنعون بالدون من العيش، لأن سلطانهم لا يرضيه منهم إلا أن يكونوا على قدمه في كل ما يذهب إليه. و لقد نصح له بعض سفراء الدول في أواخر عهده بالكف من شرور بعض العمال، لأن استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة و يضر بمستقبلها، فقال لهم: و ماذا أعمل مع من ذكرتم و هم يحبوننى و يتفانون في خدمتى! أى أنهم في حلّ من عمل ما أرادوا من عسف الأمة ما داموا يظهرون له الحب، و يخدمون أغراضه على ما يجب.

كان عبد الحميد من الحسد بحيث يحسد خصيانه، و أشق ما يبلغه أن يعلم

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٢

أن في أحد أطراف مملكته عالما ينفع الناس بعلمه، فيحتال عليه ليأتي به إلى الإستانة ليدفنه حيا و يجعله إلى الخمول بعد الشهرة، و يخرج قسرا من عالم النباهة و الظهور، فإن لم يستطع ذلك فلا أيسر من التقول عليه للحط من كرامته، و يلذه جدا أن يشهد الشقاق مستحكما بين حاشيته، و يلقي بينهم العداوة و البغضاء و لذلك كان بعضهم عيوننا على بعض، ينال الواحد من رفيقه في غيبته و حضرته، حتى يتقربوا من قلب سلطانهم الذي يحب الملق، و يهش للدهان و الترف.

عادة له منذ كان فتى، فقد ذكر مربيه المستشرق فمبرى المجرى أنه كان و هو فتى لم يبلغ الحلم يلقي الشقاق بين أفراد الأسرة المالكة في القصر، و ينقل الكلام من أناس إلى آخرين من أهل بيته، و يتجسس عليهم و يكشف سترهم.

أما إسراف السلطان عبد الحميد فإنه كان أقل من إسراف عبد العزيز بقليل، و لكن طغمة الجواسيس كانت مع نفقات قصره في الربع الأخير من دوره تستنزف جزءا مهما من واردات السلطنة التي عرف كيف يستغلها، و كيف يصرفها في شهواته على طريقة مستورة، لم يطلع عليها إلا الخواص من رجاله. فقد ذكر الثقات أن آل عثمان لما أجلتهم جمهورية تركيا من بلادهم في صيف ١٣٤٢ بأجمعهم كان مع بعض سرارى السلطان عبد الحميد عقود من الماس و الجواهر عرضوها في مصر للبيع فعجز الأغنياء عن أداء قيمها ثم جعلتها بعض المصارف عندها رهنا على مال أسلفته، فكم كان يا ترى من أمثال هذه الحلى المدهشة عند نساء آل عثمان، و الأمة تهلك و عمالها لا- يقبضون رواتبهم. و كلما عقدت قرضا فكرت في آخر بحيث كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر أيامها. و أصبح عبد الحميد في عهده الأخير يملك ألوف من المزارع و القرى، و يحمل جانبا من أمواله يضعها في المصارف الأجنبية، يعدها لطارىء يطرأ عليه، فلما سقط لم تنفعه، و استولى عليها الاتحاديون كما استولوا على خزائن قصره يلديز و مجوهراته و أعلاقه و جواريه، و نقضوا كل ما أبرمه، و فصموا عرى ما أحكمه.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٣

رأى مؤرخ تركى فى عبد الحميد و ذكر حسناته:

جاء فى كتاب عبد الحميد الثانى و دور سلطنته أنه كان يعتقد بالسحر و الطلسمات و الأرواح و الفأل، و لم يتعلم شيئا حتى إنه كان يغلط بالإملاء التركى، و له من المزايا الاحتياط المتناهى و البصيرة و حب السعى و بعد النظر، و أن يعلم ماذا يقال فيه، ينفر من الحرب، و يلتزم السداجة فى لباسه و حاجاته، يحرص على الأمر و القيادة، و يتحرى من الأصول و المعاملات أكثرها استقامة، يميل إلى الأخذ بعلم الباطن الذى يأخذ بمجامع قلوب العامة، و إذ كانت أفكاره كثيرة الجولان أصبحت لا تثبت فى مركز واحد، و إذ كان مبتلى بالسويداء تراه على الدوام حزينا مغموما مغيظا محتقا، مفرطا فى الاحتياط و التدبير لا يعتمد على أحد، ممسكا لا يعرف الكرم، عرضه للاضطرابات الذهنية و البدنية لعدم تطابق جملة العصبية. تبدلت حاله لما جلس على سرير الملك فنفته المحن التى رآها لأول أمره أكثر مما أضرت به، و لئن كان أذنا يحب أن يسمع ما يقال فيه، و ينظر فى الدقيق و الجليل من الأمور، و هو محاط بجماعة من الأشرار و مزاجه عصبى، فإن كل هذا زاد فى ذكائه. و كان إلى السابعة و العشرين يتعاطى المسكرات و يغوص فى السفاهات، فنصح له طبيبه أن يقلع عنها أو يهلك كما هلك بالسل من قبل أبوه و أمه، فرجع عن عادته الضارة و نظم حياته، و كان أول عمل قام به يوم استولى على زمام السلطنة أن سلب جميع ثروة أخيه مراد، عقارها و منقولها، و كان ماهرا فى عمليات الجمع و الطرح و الضرب، إلا أنه يمتنع أبدا من إجراء عملية الطرح إذا كان فيها ضرر عليه، و لم يكتف بمصادرة ثروة أخيه بل تصرف بثروة رعيته على ما يشاء، و أضاف معظم واردات الدولة إلى خزنته الخاصة، و ما كانت الحكومة تتمكن من دفع الرواتب لغير النظار و كبار المقربين بصورة منظمة، أما سائر الموظفين و الجند فإن عبد الحميد ترك لهم واردات يتناولونها راتب شهر أو شهرين فى السنة فقط، و بذلك فتح بابا عظيما من أبواب الرشوة اه.

و مما ينبغي أن يدون في أيامه أن بعض الأمة انصرف إلى الزراعة و التجارة أكثر من الأدوار الماضية قبله في الشام، لأن الأمن استتب أكثر من القرن الماضي، و طرق المواصلات البحرية و البرية زادت انتظاما، و الناس في الجملة خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٤

قويت رغبتهم في تعليم أبنائهم، و لكن المسلمين مالوا إلى التترك لأخذ الوظائف الجندية و الملكية، و المسيحيين و الإسرائيليين مالوا إلى التفرنج لتعلمهم في مدارس الأجانب التي ظهرت تأثيراتها في أيامه، و منها الهجرة إلى مصر و السودان و الاميركتين، و الزهد في سكنى المملكة العثمانية. و في عهده زادت الخطوط الحديدية في المملكة و معظمها خطوط حربية ثبت له غناؤها بعد حرب روسيا الأخيرة، و في أيامه اتصلت حلب برباق و دمشق ببيروت، و دمشق بدرعا، و يافا بالقدس، و حيفا بدرعا، و دمشق بالمدينة، و طرابلس بحمص، إلى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام و لا سيما الخط الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة.

و في أيامه خفت و طأة الأتقياء إذ كان يقضى عليهم بالسجن الطويل و القاتل منهم يؤبد في السجن، فاستراحت الشام قليلا و أخذت تدخل في نظام الأمم الأوربية. و كان من سياسته أن لا يستدين من أوربا مالا و لا يعقد قروضا مهما احتاجت الدولة للمال و ساءت حالها، و كان لا- يحب إهراق الدماء، و أبطل الحكم بالقتل فكان القاتل يخلد في سجنه. ففي أيامه اعتدى اليونان على الأرض العثمانية، فأعلنت الدولة حربا على اليونان و كان الدخول في هذه الحرب مخالفا لإرادته، و قد جعله الباب العالي أمام أمر واقع فأعلنها كارها، فانتصرت الدولة لكن أوربا حاولت أن لا تنحى على اليونان، و ما زالت تطاول في عقد الصلح إلى سنة ١٨٩٧ م و كانت نتيجة ذلك أن دفعت اليونان للعثمانية غرامة قدرها أربعة ملايين ليرة و لعلها أول غرامة أخذتها من تغلبها في إحدى الوقائع بعد ذلك العز الباذخ، و قضى عدل السياسيين بأن تخرج الدولة من تساليا!

و يقال بالإجمال: إن عبد الحميد نسخه صحيحه من تربية القصور، و صورة من صور دسائسها و شرورها، استفاد من تجارب غيره و محنهم فاحتاط و حذر، و طالت أيامه و عرف كيف يدخل في روح الأمة و يسخر مشايخها و أرباب الطرق و المظاهر، يسبحون بحمده و يعددون حسناته بما يقبضون من صلاته، و خلقوا له مناقب اخترعوها ما كان هو يحلم بها، و كان كل شيء في أيامه ظواهر و مظاهر، و من دهائه النافع معرفته الدخول في عقلية السفراء فكان

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٥

يرشيه و يرشى زوجاتهم بطرق مختلفة يتفنن فيها، و لم يكذب يسلم من هداياه و رشايه إلا سفير بريطانيا العظمى على ما يقال. فكان إذا أهداه السلطان هدية يقدم له من الغد مثلها أو أحسن منها، حتى لقد قالت امرأة هذا السفير يوما:

لقد أعجزنا أمر عبد الحميد يريد أن يرمينا في شبكته بالجواهر و الحلوى كما رمى نساء السفراء قبلى. و كان كثيرا ما يلقي الشغب بين السفراء أنفسهم. و كانت له طرق و له ديوان خاص لإعطاء الصحف الأجنبية مالا حتى تسكت عن خلل الدولة. و بهاتين القوتين قوة السفراء و قوة الصحفيين استطاع يوم ثورة الأرمين في العاصمة و أرمينية و قتل الأتراك و الأكراد نحو مئة ألف من الثائرين، أن يسكت ساسة أوربا عن عمله و عمل عماله، و مع هذا لم يمنع الحذر من القدر فتوى بساطه و بساط أسرته بما عليه جملة و الله وارث الأرض و من عليها.

الأحداث في أيام محمد رشاد و حرب طرابلس و البلقان و حزب الإصلاح:

تولى محمد رشاد الخامس بعد السلطان عبد الحميد الذي قضى في شهر ذى القعدة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥ م) و هو ضعيف المدارك لأن أخاه ضيق عليه مدة حكمه الطويل حتى تلبد عقله و كان كأخيه عبد الحميد قليل المعلومات لم يدرس من اللغات الأجنبية شيئا، بل درس الآداب الفارسية و برع فيها. و زاد تسلط الاتحاديين عقيب أن ظفروا بمن أوقدوا فتنة ٣١ آذار و قضوا على الارتجاع و غيروا بعض خططهم التي كانت ترمي إلى تفوق التترك على سائر العناصر و خاصة العرب، فدعت الحال إلى تأسيس حزب الأحرار

المعتدلين (١٣٢٩) الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب «الحرية والائتلاف» في العاصمة والولايات، ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفيهم أحسن من الاعتماد على القوة فاغتالوا بضعة رجال في الإستانة وحاولوا ان يغتالوا في الشام بعض أعدائهم الأشداء من أرباب القلم فلم يفلحوا، وأقصوا من الخدمة كل من لم يسر على رغائبهم، وتقاتل الحزبان فكانت الغلبة تكتب أكثر السنين للاتحاديين لأنهم دعاة الحرية الأول و ترتيباتهم تامه من أكثر وجوهها، تشبه ترتيبات جمعية الماسون، ولا سيما فيما كان من قبضهم على قياد الأعمال وأخذهم بمختر جميع العمال.

خطط الشام، ج٣، ص: ١٢٦

و ثارت اليمن سنة ١٣٢٩ فأرسلت الدولة جيشا عظيما على صنعاء والعسير قتل في حربها من أبناء الشام ألوف. كما كانت كل مرة تدفن ألوفاً من أبنائها في تلك الولاية القاصية. حدثني عظيم من الأتراك وكان أكبر رجال الشورى العسكرية في الفيلق الخامس بدمشق أن الدولة بحسب إحصاء الجيش كانت تدفن كل سنة من أبناء الشام في اليمن نحو عشرة آلاف جندي يهلكون بالأمراض والفتن والقله و تغير الهواء، دامت على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين إمام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين وبين قائد الحملة اليمنية عزت باشا، وبهذا العقد لم يبق للدولة هناك غير سلطان قليل في صنعاء وتعز وما إليهما من السهول والجبال، وانتقلت جل الأحكام إلى الإمام و ذلك في سنة ١٣٢٩ هـ.

وظهرت أيضا فتن أخرى في كردستان وألبانيا وأذنة، فلم تترج المملكة سوى أشهر معدودة بعد إعلان القانون الأساسي. ومنشأ كل فتنة داخلية العمال على الغالب، ثم تمتد وتنتشر فيصيب الأمة شرها، ويتولى الأمر الجهلاء ثم يتعذر على العقلاء حل العقد التي يعقدونها، وكم من مجنون رمى في بئر حجرا فصعب على مئة عاقل إخراجها. ثم نشبت حرب طرابلس بين العثمانية وإيطاليا، وجاءت إيطاليا بأسطولها إلى سواحل طرابلس و برقة بدون مسوغ، و ضربت سفينتين عثمانيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت فهلك من أهل المدينة والجند زهاء مائتي نسمة، وأرسلت الشام جندا ومعونات نقدية إلى طرابلس، آخر ما بقى للعثمانيين من الولايات في بر إفريقيا. ولم يعقد الصلح في أوشى من سويسرا بين العثمانية والإيطالية حتى أعلنت دول البلقان المتحدة (بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان) الحرب على الدولة العثمانية فغلبتها، وجاء جيش البلقانيين إلى چتالجه من ضواحي الإستانة، وعقدت الهدنة يوم الثالث من كانون الأول ١٩١٢ بين العثمانيين والبلغانيين، وعقد مؤتمر في لندرا لإصلاح ذات البين بين الفريقين فلم يفلح، وعاد المتحاربون إلى النزاع بعد الأزمه الوزارية التي انتهت بسقوط الصدر كامل باشا و قتل ناظم باشا ناظر الحرية بيد أنور بك من ضباط الاتحاديين و دعاة الدستور في الروم ايلي، وأخذ الاتحاديون بعد هذه الفاجعة يستولون على أزمه الأمر و ظهر أنور بك بمظهر جديد فقبض على عنان الحكومة، واستؤنفت الحرب بين المتحدين من البلقانيين

خطط الشام، ج٣، ص: ١٢٧

الذين انفرط عقد اجتماعهم فزحف العثمانيون على أدرنة فاستعادوها إلى الملك العثماني، ولم يبق للدولة في أرض أوربا غير ولاية أدرنة وما إليها من ضواحي الإستانة، وانسلخت عنها هذه المرة ولايات قوصوة وإشقودرة و يانيا و مناستر و سلانيك و عادت الحرب فنشبت بين العثمانيين والبلغانيين في ١٧ تشرين الأول ١٩١٢ و عقد الصلح في ٢٩ أيلول ١٩١٣ و قد فقدت العثمانية في هذه الحرب مئة ألف جندي بين قتيل و جريح و ثمانين مليون ليرة ثمن ذخائر و سلاح، و خرجت من الروم ايلي و كانت صرفت في فتحه خمسين سنة و حكمته خمسمائة سنة و لم توفق إلى نشر لغتها و دينها فيه على ما يجب.

و في سنة ١٩١٣ اتحد جماعة من السوريين بينهم اللبنانيون النصاري و المسلمون على مطالبه الدولة بإصلاح الشام. و كتب والي بيروت أدهم بك إلى الصدر كامل باشا كتابا قال فيه: (كانون الأول ١٩١٢) تتجاذب القطر عوامل مختلفة، ولقد ولي قسم عظيم من الأهالي وجهه شطر انكلترا أو فرنسا لإصلاح الحالة التعسة التي هم فيها فإذا نحن لم نأخذ بالإصلاح الحقيقي يخرج من يدنا لا محالة ا

فأرسل الصدر إلى الوالي يريد الأهلين على عرض مطالبهم، فاجتمع المجلس العام في بيروت و انتخب ٩٠ عضوا عقدوا جلستهم الأولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ و اختارت من أعضائها خمسة و عشرين مفوضا سمتهم اللجنة الدائمة، و قدمت هذه بيانا بالإصلاحات المنشودة، و اتفق على ذلك أعيان المسلمين و المسيحيين فوضعت اللجنة في بيروت لائحة أهم ما فيها توسيع سلطة المجالس العمومية و تعيين مستشارين أجنب. و في أوائل الصيف ذهب وفد من البيروتيين و غيرهم إلى باريز و عقدوا هناك مؤتمرا قرر يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ أن تضمن للعرب حقوقهم السياسية، و ذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للملكة اشتراكا فعليا، و أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية تنظر في حاجاتها و عاداتها، و ان تنفذ لائحة الإصلاحات التي نظمت في بيروت القائلة بتوسيع سلطة المجالس العمومية و تعيين مستشارين أجنب، و أن تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني، و تكون لغة رسمية في الولايات العربية، و أن تجعل الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية.

فخاف الاتحاديون العاقبة و بعثوا أناسا من قبلهم و قبض و اليهم في بيروت

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٨

حازم بك على عدة أعضاء من الإصلاحيين فأغلقت المدينة حوائنها أياما فأخرجهم من السجن، و بعث الاتحاديون أناسا من قبلهم إلى باريز و غيرها، و استرضوا أعضاء الوفد و أطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى، و وعدوهم أن تجرى لهم الحكومة الاتحادية من مطالب الإصلاح ما يمكنها القيام به، مثل تسليم الأعمال الإدارية إلى السلطات الوطنية طبقا للقانون الخاص بإدارة الولايات، و أن يكون التعليم الثانوي و الابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية، و تستعمل اللغة العربية في بعض أعمال قانونية معينة، و أن تضاف الصيغة العربية على إعلانات الجلب إلى المحاكم كما تضاف إلى الأحكام المدنية و الجنائية، و تكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية، و أن يعين بعض العرب في مجلس الأعيان و مجلس شوري الدولة و محكمة التمييز و مشيخة الإسلام و دار الفتوى.

و طبق الإتحاديون بعض هذه المواد فرأينا في بعض مراكز الألوية و الولايات في الشام مدارس تجهيزية تدرس العلوم بالعربية، و إلى جانبها المدارس القديمة التركية في كل مظاهرها، و وضعت الصيغ العربية إلى جانب الصيغ التركية في أوراق الجلب إلى المحاكم، و أخذت الحكومة تقبل الشكاوى بالعربية من الأهلين، و عين بعض رجال الشام في وظائف كبرى في العاصمة، و كان نائب دمشق في مجلس النواب شكري العسلي أول من رفع صوته بهذا الطلب، طلب إعطاء العرب حقهم من الوظائف و قال: إن أربعة فقط من أبناء العرب موظفون في الإدارة المركزية في جملة بضع مئات من الأتراك، فنبه أفكار من لم يكن متنبها من أبناء العرب إلى غمط حقوقهم، و حتى بعض أقحاح الترك عليه و على من عاونه على بث هذه الفكرة و عدوها خروجا على الجماعة.

الصهيونية و منشؤها:

و كان شكري العسلي أيضا أول من نبه أفكار مجلس النواب إلى الخطر الصهيوني في فلسطين و كان الإتحاديون و فيهم الإسرائيليون أو الصابثون من اليهودية (الدونمة) أمثال جاويد بك ناظر المالية- ينون أن يبيعوا نحو ثلاثة ملايين دونم من الأراضي في فلسطين و سورية من جمعيات الاستعمار الصهيوني

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٢٩

فبطل المشروع لما ظهرت مضرته إلى عالم الوجود و قامت حول المشروع ضجة في الصحف فلم يسع الإتحاديين إلا أن يطووا دفتره. و لكن كان الصهيونيون يؤلفون عدة جمعيات للوصول إلى أغراضهم السياسية منها جمعية أحياء فلسطين انتشرت في أطراف فلسطين و تفرعت منها عدة جمعيات منها جمعية معاونة فلاحى اليهود و صناعتهم في فلسطين و سورية و أنشأوا لهاتين الجمعيتين فروعا كثيرة في أمهات مدن فلسطين و بلاد بشاره و حوران و عبر الأردن، و ابتاع للإسرائيليين أبناء مذهبهم من كبار أغنياء أوروبا أراضي، و

أمدوهم بالمال ليحققوا آمالهم القديمة في استرداد فلسطين و يعيدوا مجدهم إليها، و هذه الآمال قديمة ترد إلى عهد الرومان، و غاضت بعد أن شتتهم في الأرض أديانوس في القرن الثاني بعد المسيح و فرق جامعتهم و أبعدهم عن صهيون أو أورشليم أو القدس عاصمة مملكتهم القديمة و مدينة هيكلهم العظيم، و لكنها ما لبثت أن ظهرت في صورة التمني و في عهد قسطنطين الذي أذن لهم بالدنو مرة في السنة من أسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل، و ما زالوا إلى يومنا هذا يدنون من حائط الحرم الشريف الخارجى المسمى بالبراق و يتذكرون مجد ملوكهم و عظمة هيكلهم و مدينتهم و يطلبون من الله أن يعيد ما خسروه. و لكن رجال النهضة منهم لم يقفوا عند حد التمني فألف الدكتور هارتشل الجمعية الصهيونية التي جعلت همها الوحيد جمع المال و توحيد كلمة اليهود على اختلاف لغاتهم و بلدانهم و جمعهم في بلد واحد أمين. و عهدت الجمعية الصهيونية إلى الإيكا بالاستعمار التدريجي كما عهد إلى جمعية الاتحاد الإسرائيلي بالتهذيب و التعليم.

و قد كتب شكرى العسلى في هذا الصدد يوم قام الإسرائيليون لابتياح سهل يزرعيل ما نصه: إن الجمعية الصهيونية اليهودية و رفيقاتها جمعيات إيكا و فاعوليم و الأليانس و غيرها ساعيات في استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الإصحاح الثاني و الثلاثين من أرميا من الكتاب المقدس الباحث في أسر بابل لليهود و الذاكر وعد الرب برجعهم إلى فلسطين بقوله في آخره:

«يشترون الحقول بفضة و يكتبون ذلك في صكوك و يختمون و يشهدون شهودا في أرض بنيامين و حوالى أورشليم و فى مدن يهودا و مدن الجبل و مدن السهل (٣-٩)

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣٠

و مدن الجنوب لأنى أرد سيبهم بقول الرب ا٥١». و ذلك بعدما سببتهم حكومة الكلدان على أنهم لم يستطيعوا البقاء بعد ذلك لأنهم أصبحوا محل التنازع بين حكومة الرومان فى مصر و حكومة الرومان فى أنطاكية ثم انقضوا و لم يبق لهم ملك و لا دولة. و الآن عملا بهذه الآية يشترون الأراضى فى فلسطين على حساب الفضة و يشترطون البيع على أن يكون الثمن فضة، و يكتبون الصكوك و يشهدون، و هكذا تراهم لا يفترقون طرفه عين يتجسسون أخبار من تأخرت حالتهم المالية من أهل هذه الديار و هى عبارة عن لواء عكا بأجمعه و لواء القدس و لواء نابلس و قسم من لواء الكرك و بعض قضاء عجلون، و يطعمون البائع بالثمن الفاحش و يكتبون الصكوك و يشهدون عليها و يسجلونها عند محرر المقاولات و عند بعض القنصليات، و كانت الحكومة قبلا منعت استعمارهم و لكن بما بذلوه من الدنانير التي تسحر أبواب الخائنين من الحكام و المستخدمين استطاعوا أن يستولوا على ثلاثة أرباع قضاء طبرية و بعض قضاء صفد و يافا و القدس و القسم المهم من نفس حيفا و بعض قراها، و اليوم يسعون للدخول إلى قضاء الناصرة ليستولوا على سهل شارون و يزرعيل المذكور بالتوراة و المعروف اليوم بمرج بنى عامر الذي يشقه الخط الحجازى من الغرب إلى الشرق.

«و هكذا اشتروا الكثير من القرى و استولوا عليها، و هم لا- يخالطون العثمانيين و لا- يشتررون منهم شيئا، و لهم بنك أنكلو فلسطين يقرضهم بفائدة لا تتجاوز الواحد فى المائة فى السنة، و قد جعلوا كل قرية إدارة فيها مدرسة، و كل قضاء مديرية و لكل جهة مدير عام، و لهم راية لونها أزرق و أبيض و فى وسطها ترس أو مجنّ داود و تحته كلمة عبرانية معناها «صهيون» لأنه جاء فى التوراة أن أورشليم ابنه صهيون، و يرفعون هذا العلم مكان العلم العثمانى فى أعيادهم و اجتماعاتهم، و يترنمون بالنشيد الصهيونى و قد احتالوا على الحكومة فقيدوا أنفسهم عثمانيين فى سحل النفوس كذبا و بهتاناً، و هم لا يزالون حاملين الجوازات الأجنبية التي تحميهم و عندما يصيرون إلى المحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم و يدعون الحماية الأجنبية، و يحلون دعاويهم و اختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير و لا يراجعون الحكومة و يعلمون أبناءهم الرياضة البدنية و استعمال السلاح و ترى بيوتهم طافحة بالأسلحة و فيها كثير من المارتين و لهم طوابع

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣١

بريد فى قراهم و غير ذلك مما يبرهن على أنهم بدأوا بإنفاذ دعوتهم السياسية».

الحرب العامة و السياسة الألمانية و الأخلاق التركية:

خرجت الدولة من حرب طرابلس و البلقان و اليمن و كردستان و غيرها من البلدان مجردة من قوتها من المال و الرجال، و لم تكذب فكر في جمع شتاتها حتى قتل ولى عهد النمسا في مدينة سراييفو من بلاد الصرب و أعلنت الحرب العالمية، فكان نصيب الدولة العثمانية أن تسير مع ألمانيا و النمسا و المجر محالفة لهن على بريطانيا العظمى و روسيا و فرنسا و غيرهن من الدول، و كان ذلك بتزيين الاتحاديين و في مقدمتهم طلعت باشا و أنور باشا و جمال باشا، و كانت الدولة تميل منذ نحو ثلاثين سنة لألمانيا و قد زار امبراطورها غليوم الثاني المملكة العثمانية مرتين و قال في المرة الثانية (١٣١٦) لما زار القدس و دمشق في خطاب له ألقاه في بلدية دمشق: «أبتهج من صميم الفؤاد بأبنى وطئت بلدا عاش فيه من كان أعظم أبطال الأعصر السالفة بأسرها الذي كان بأفعاله يعلم أعداءه أنفسهم كيف يكون الأبطال، العالى المقدار المشهور السلطان صلاح الدين الأيوبي. قال: و ليتأكد حضرة السلطان عبد الحميد خان الثانى صاحب الخلافة العظمى و الثلاثمائة مليون من أهل الإسلام المرتبطين بمقام خلافته المنتشرين في جميع أطراف الكرة الأرضية أن امبراطور ألمانيا يبقى صديقا لهم إلى الأبد».

انتهجت ألمانيا السياسة الإسلامية و اتخذت لها دعاء من. دهاء رجالها في الإستانة، فتم لها ما أرادت بعد سنين من الاستعانة بالدولة العثمانية على حرب أعدائها، و استسلم رجال الدولة لما تم، مخدوعين بالأقوال المبهجة مأخوذين بالوعود اللطيفة، و كان السلطان محمد رشاد و هو لا يعقد و لا يربط في شؤون السلطنة، بقاوم الذين يريدون إصلاء الحرب في الدولة لعلمه بمضارها، و لم يوافق عليها بعض الوزراء فخرجوا من الوزارة إلا- أنور و طلعت و جمالا- و هم الحركة العاملة في الدولة، أرادوا خوض غمارها متشبعين بالروح الألمانية و لا سيما أنور، و علقوا على ألمانيا أمانهم في إرجاع الدولة إلى عزها أيام سليم و سليمان، و ما كادت تعلن الحرب حتى نفذ الوزراء الأربعة الذين لم يقولوا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٣٢

بدخول الدولة في الحرب و منهم سليمان أفندى البستاني من أهل الشام خطتهم و قدموا إقالتهم تاركين الحكومة في أيدي الأتراك. أما سعيد حليم باشا الصدر الأعظم الذى كان عزم أن يستقيل فدفعه حبه للفخر و الأبهة و العظمة أن يبقى في رأس أعظم منصب في الحكومة التركية، فلم تك إذا نتيجة دخول الدولة في الحرب إلا توحيد السلطنة في المملكة بأيدي رجال الاتحاد و الترقى، و انتهت الثورة التي كانت ترمى إلى جعل تركيا دولة دستورية بجعل تركيا حكومة مطلقة، رائدها الظلم و الاستبداد، و غاية أفرادها الأول النفوذ و السلطنة و الكسب على ما قال سفير أميركا في الإستانة لأول الحرب. خطط الشام؛ ج ٣؛ ص ١٣٢

على ذلك شرعت الدولة لأول وهلة تعبى جيشها، و أخذت من الشام سبعا و عشرين قرعة كادت تقف معها حركة العمل و قوفا مريعا، و لم تلبث الدارعتان الألمانيتان غوبن و برسلو أن دخلتا في ميناء الإستانة ملتجئتين من مطاردة الأسطول الإنكليزي لهما في عرض البحر المتوسط، و سلمت قيادتهما بالصورة الظاهرية إلى العثمانيين، فعدت روسيا هذا العمل من الدولة العثمانية إعلانا لها بالحرب، و ما فتت أيدي الألمان أن تغلغت في جميع فروع الإدارة في السلطنة، و أخذت ألمانيا تغدق الذهب الوهاج على الدولة، و كان لأنور باشا القائد العام و ناظر الحربية قسط عظيم منه لا يسأل فيما أنفقه، و بدأ الألمان يغرون الأتراك باستعمال الوسائل الوحشية في معاملة الأجانب و العثمانيين معا، و يضيقون خاصة على غير المسلمين من الأرمن و الأروام و نصارى الشام.

و زعم سفير أميركا في الإستانة أنه درس أخلاق الأتراك فعلم علم يقين أن أقوى عواطفهم عاطفة الخوف فهم لا- يحبون و لا يبغضون بل يخافون و يريدون غيرهم أن يخافهم.

قسط الشام من الحرب و عمل جمال باشا:

دخلت الدولة في الحرب و قاتل أبناء الشام في الجبهات الحربية المختلفة.

قاتلوا في چناق قلعة و رومانيا و دبرويجه و قفقاسيا و العراق و السويس و شبه جزيرة سينا فهلك منهم عشرات الألوف، و قاست الشام أنواع الحرمان

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣٣

و الأمراض فهلك منها، و لا سيما في لبنان، من الجوع فقط نحو ١٢٠ ألفا، و مثل هذا العدد هلك بالحميات و لا يقل الهالكون من أبناء الشام عن ثلاثمائة ألف إنسان مدة أربع سنين.

و في الحق أنه لم يقع حرب جديده في الشام، بل كان أبناؤه يساقون كسائر العثمانيين إلى الجبهات الأخرى، و الجبهة الوحيدة التي كانت بجوار الشام جبهة الإسماعيلية فلم تنشب الحرب حتى ندب الاتحاديون أحد كبار رجالهم أحمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية إذ ذاك قائدا على الجيش الرابع، و كانت منطقتة تمتد من أقاصى حدود أذنة إلى المدينة المنورة، و أخص أعماله أن يشاغل البريطانيين في حدود مصر ليضطروا إلى وضع قوة مهمة من جيشهم في ترعه السويس، تخفف عن الدولة في چناق قلعة من جيش الحلفاء، و عن عاتق الألمان في الجبهة الغربية بين الحدود الألمانية و الفرنسية، و هذا تدبير ألماني صرف و قد نجح بمشاغلة البريطانيين و إشغال أذهان قوادهم، فوضعوا على الترعه و في حدود سينا جيشا عرمرما اتقاء جيوش الترك و الألمان.

و كان بعضهم يعتقدون أن افتتاح مصر و التغلب على البريطانيين في الترعه من الأمور السهلة، لأن المصريين يقومون في الحال بثورة على البريطانيين عندما تتراءى لهم أعلام العثمانيين المحبوبة في وادي النيل. قال سفير أميركا في مذكراته: و كان جمال باشا ناظر البحرية و أحد الثلاثة الذين يدرون دفه الملك في تركيا ذاهبا إلى الشام ليتسلم قيادة الجيش الرابع، و كان الجيش يحييه و يهتف له بأنه مخلص مصر، فأعلن جمال باشا على رؤوس الأشهاد قبل سفر القطار من الإستانة، أنه عقد النية أنه لا يرجع إلى الإستانة قبل افتتاح مصر.

قال: لم أكد أرى ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي مخيلتي تطوى الأعوام و القرون إلى أن استقرت في تاريخ رومية على مشهد يشبه ما رأيته في القرن.

العشرين ألا و هي حفلة و داع مرقس أنطونيوس حين غادر رومية ليخضع الشرق، فكانت تركيا مثل رومية في ذلك الوقت في دور الانحطاط و الانحلال، فرأى جمال باشا أن يبذل جهده لعله يتمكن من أن يصير حاكما على ولاية غنية، و كان يؤمل أنه إن أفلح بافتتاح مصر ينال شهرة عالمية واسعة ه.

جاء جمال باشا إلى الشام و قبض على زمام القوة و أكثر الأحكام فيها،

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣٤

و بدأ يهييء بواسطة الألمان حملته على الترعه فسارت الحملة (٤ شباط ١٩١٥) فرقتين، فرقه منها اجتازت المسافة من السبع إلى القناة في ستة أيام و الأخرى في عشرة، و قطع الجيش الصحراء التي تبلغ مسافتها ثلاثمائة كيلومتر، دون أن يقع في معضلة من حيث الماء و التموين، و كشف القسم الواقع بين بحيرة التمساح و البحيرة المالحة من القناة، و هجم قسم من المفززات بواسطة الجسور العائمة إلى الساحل المقابل بالحراب على البريطانيين، فأغرقت المدافع المنبعتة من ست طرادات انكليزية الجسور العائمة، و قبضوا على من جازوا الساحل الآخر من الجند العثماني و أكثرهم من أبناء الشام، و قتل في معركة الإسماعيلية بتقدير جمال باشا في مذكراته ١٩٢ قتيل و ٣٨١ جريح و أخذ ٧٢٧ أسيرا و متغيبا، و قدر البريطانيون ما فقد من الترك بألف قتيل و ألفي جريح و ستمائة و خمسين أسيرا. و عاد العثمانيون أدراجهم مغتربين بزعمهم أنهم يستطيعون إن أرادوا بجسورهم العائمة أن يقطعوا الترعه إلى الشق الآخر و يستولوا على مصر. و كان الجيش البريطاني الذي هاجمه الترك على الترعه مؤلفا من جيش هندي قوى و فرقه من الجنود البريطانية و جيش قوى من أستراليا و نيوزيلندا، و أربعين ألف رجل من الاحتياطى وراء الخنادق المتقنة التي حفرت حذاء الترعه، و نحو مليون جندي و

عامل مصري استخدموا في خدم ثانوية أفادوا بها الجيش البريطاني فائدة عظيمة.

و أنفق العثمانيون نفقات طائلة على السكك الحديدية حتى وصلت إلى بئر السبع و صرفوا عليها مئات الألوف من الليرات لتحسينها و تحصينها، أما البريطانيون فأخذوا بعد تلك الحملة العثمانية التي فشلت يتقدمون في الصحراء نحو الشام، يمدون الخطوط الحديدية في الرمال تحت حماية مدافعهم، و ما زالوا يسرعون في تمديد الخطوط في صحراء الجفار بحيث كان معدل ما ينشئون كيلومترين كل يوم، و هكذا حتى اقتربوا من العريش فلم يتقدموا خطوة إلى الأمام إلا- بحسب طريقتهم المعروفة في فتوحهم أى بقدر مرمى المدافع، ريثما تتم الخطوط الحديدية و تؤمن السبل.

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣٥

إهلاك أحرار الشام و السياسة الاتحادية مع العرب:

خطب جمال باشا لأول شخصه إلى الشام في النادي الشرقي بدمشق (١٣٣٣) قائلا: يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب و مجددهم، منذ شروق أنوار الديانة الأحمديّة، أحيوا شهامة العرب و آدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام، عضوا على عربيتكم بالنواجذ، و دافعوا عنها بكل قواكم، اعملوا على ترقية العرب و العريّة جددوا مدنيتكم، قوّموا قناتكم، كونوا رجالا كاملين- جهر بهذا على رؤوس الأشهاد و قال مثله لأرباب الأقاليم في مجالسه الخاصة، بيد أنه كان يفكر هو و جماعته من الاتحاديين في الطرق إلى الانتقام من العرب المخالفين، و إنزال العقوبة بمن رفعوا أصواتهم بالمطالبة بحقوق لأمتهم فعدوهم خائنين للدولة، و ما هم إلا مخالفون على الأغلب، و المخالفة طبيعية في كل حكومة دستورية بل في كل حكومة، تظهر و تستتر بحسب الأحوال و الدواعي، و عدّ الائتلافيون أى الداخولون في حزب الحرية و الائتلاف خائنين في نظر الاتحاد و الترقى، و كان بعض أعضاء الحزب ينزعون منزعا انكليزيا أى يحبون أن يعملوا بمشورة بريطانيا، و بعض حزب الاتحاد ينزعون منزعا ألمانيا، و حسب الاتحاديون من الخائنين أيضا جماعة الإصلاحيين في بيروت أى المطالبون بالإصلاح في ظل العثمانية، و اللامزكزيين أى المطالبون بتوسيع سلطة الحكومات المحلية. و كان هذا الحزب تألف في مصر من الشاميين و أنشئت له فروع في بعض مدن الشام و قصباته، و تألف حزب فتیان قحطان في الإستانة. و هكذا قل في جمعية العهد العسكرية و الجمعيات اللبنانية المختلفة المقاصد في لبنان و المهاجر.

فلما دخلت الدولة في الحرب رأى الاتحاديون أن الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة تخالف ما هم عليه و أصحابهم في سياسة الملك، و تلقى الرهبة و الهول في كل القلوب، و اعتزوا بمخالفة الألمان و بالأموال التي كانت تقرضهم إياها بالملايين، و ليس أحسن ملائمة من هذا الدور لتولى أحد كبار أساطينهم أحمد جمال باشا زمام القوة في الشام، و هو الذي كان تولى قتل المخالفين في الإستانة من الأتراك أنفسهم، و قتل حتى صهر السلطان، فأصبح متمرنا على الانتقام من كل من يخالف مذهبه السياسي، أو كما قال عن نفسه في آخر

خطط الشام، ج٣، ص: ١٣٦

خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق إن طالعه كان القتل، ندب لقتال الناشزين من الأتراك كما عهد إليه قتل الناشزين عن الطاعة من العرب.

و لما ندب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع حمل معه أضاير التهم و التحقيقات و تقارير الجواسيس الموجهة لمئات من أبناء الشام، و بينهم أناس من أهل الطبقة العليا و كثير من الشبان المتعلمين. فألقى عصا التسيار في دمشق و شرع بالتحقيق عن زمرة هؤلاء المتهمين، و أُلّف ديوانا عرفيا في عاليه من لبنان فحكم أوائل آب ٣٣١ ش على ١١ رجلا نفذ فيهم حكم القتل صلبا في ساحة البرج في بيروت، و كانوا متهمين بالدخول في حزب اللامركزية، ثم شرع بالقبض على طبقه أخرى أكثر علما و تأثيرا و مكانة، و مدار التهمة الفريق الثاني أو القافلة الثانية أنهم حاولوا سلخ سورية و فلسطين و العراق عن السلطنة العثمانية و جعلها إمارة مستقلة بمؤازرة الدولة

البريطانية، و لكن الحكومة التركية اتهمتهم أنهم كانوا يعملون لإدخال الأجانب (الفرنساويين أو الإنكليز) إلى الشام في حال الحرب. و إذا تفوه به بعضهم لأحد القناصل طمعا في إمارة أو مظهر من المظاهر فلا يسرى اعترافه على الجميع. و يقول جمال باشا في مذكراته ردا على من يقول إن الاشخاص الذين أجزموا و ظهرت إدانتهم و شنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فمحاكمتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني - إنه قد بين في الكتاب الأحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) أن أولئك الأشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة، و أن إدانتهم ترجع إلى جرائمهم بعد ذلك العفو، و إذ كانت الوثائق الخاصة بإدانتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية، بدا للمحكمة أن تفحصها و تنشرها لتبين للملا مبلغ شناعة خيانتهم هـ. و بعد أن أورد بعض الوثائق السياسية قال: فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الإنسان بسهولة أن الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق للاستيلاء على سورية بحجة حماية العرب. و في الحق أن أعمال بعض من صلبوا قد ظهرت في أوراق قناصل فرنسا في دمشق و بيروت و حلب و غيرها من مدن الشام، فإنهم أبقوا أوراقهم في أماكنها بعد دخول الدولة في الحرب فانكشفت بذلك أسرار مهمة ساعدت الاتحاديين على الإبلاغ في عقوبة مخالفتهم. أما قناصل بريطانيا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٣٧

فقد أحرقوا أوراقهم و منهم من استظهر الخطط الحربية المتعلقة بالشام، فجا بذلك كل من كان له صلة من الأهلين بقناصل بريطانيا العظمى.

و قد حكم الديوان العرفي في عاليه على ٢١ رجلا بالقتل و هم القافلة الثانية فصلبوا في بيروت و دمشق في يوم واحد (٤ رجب ١٣٣٤) صلب سبعة في دمشق و الباقون في بيروت، و كان فيهم الأبرياء الذين ما أرادوا قط خروج الشام عن حكم الترك، و صلب بعض وجوه المواردنة و رهبانهم لأنه ثبتت عليهم دعوة فرنسا للاستيلاء على الشام. و لما قبض على الرعيل الأول في السنة الأولى للحرب سألت خلوصى بك والى دمشق، و كان يفرض معنى بمسائل الدولة بحرية تامه، و كان من الأحرار العقلاء في السلطنة، و هو أعلم تركي و أعقل عامل رآته الشام في الأربعين السنة الأخيرة قائلا: كنتم أمس في بيروت فماذا رأيتم يا سيدى في قضية أولئك المتهمين و ما هو وجه تهمتهم يا ترى؟ فأجبنى بما تعريبه بالحرف: «سلسلة من التزويرات و التلفيقات عليهم، قاتلهم الله و أخزاهم»، أى قاتل الله المزورين و الملفقين و يعنى بهم الاتحاديين.

و من الغريب أنه سيق إلى القتل بعض من كان نالهم العفو يوم أغلقت الحسابات القديمة مع الدولة، كجماعة الإصلاحيين الذين نالوا بعض المطالب بعد مؤتمهم في باريز، فاتهموا بمسائل أخرى ارتكبوها، و أغرب منه أن يتطوع بعض السوريين بالجاسوسية للترك و يشهدوا على رجالهم في الديوان العرفي بما أوصلهم إلى أعواد الصلب، و أن يتوسع بعض المصلوبين في شهاداتهم و استنطاقاتهم و يدخلوا في زمرة عشرات من الشبان و غيرهم حتى تسقط بزعمهم مكانة تلك القضية فيطوى سجلها بما فيه، و لكن رجال الديوان العرفي كانوا أعقل من أن تغرهم هذه الظواهر، و اكتفوا بإصدار أحكامهم على من ثبتت إدانتهم بحسب الخطه المرسومة أو اقتضت مصلحة الاتحاديين القضاء عليهم من النبهاء، و هدد جمال باشا بالقتل أعضاء الديوان فيما قيل إن لم يحكموا على المتهمين السياسيين فوافق بعضهم على القتل اضطرارا لا اختيارا.

و قد ذكر الأمير شكيب أرسلان أن خطأ جمال باشا في رأيه و جنايته الكبرى على العرب و الترك في فعله هما من الوجوه الآتية:

أولا- إن فريقا آخر من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة و لم يكن لهم

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٣٨

ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد و الترقى، و القانون العثماني لا يعرف الاتحاد و الترقى بل السلطنة العثمانية. ثانيا- إن فريقا آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية و لا قرائن قطعية تذهب في جرائمهم إلى درجة القتل، و قد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب «القتل السياسى» مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا إلى حكم القانون فيحكم

عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم.

ثالثاً- على فرض غير الواقع، و هو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة، فلم يكن من باب السياسة و لا حسن الرأي، فتح هذه المسألة أثناء الحرب و مجازاة أناس قد عفى عنهم ونكء القروح التي كانت قد سكنت نوعاً، و إثارة عواطف العرب و حفاظتهم و إظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش و تعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة.

رابعاً- إن الألوفا الذين نفاهم إلى الأناضول مع عيالهم و خرب بيوتهم، و أمات كثيرين منهم في الغرباء لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة، فضلاً أن يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب و قهر، بدون أدنى فائدة، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ألف ليرة شهرياً فكان خطأً جمال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية، و أنصار الشقاق بين العرب و الترك، و رواد السياسة الأجنبية الكثيرين في الشرق، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جمال ... اهـ.

و بعد فقد عمل جمال باشا ما عمل بقرار من جمعيته، و كان من ورائه أنور باشا يحثه على إهلاك هؤلاء الذين صلبوهم. و قد جاء هذا مرة إلى عاليه من لبنان فقال على صورة الاستنكار: «أما قتلتم بعد هؤلاء الخونة»؟. و كان أنور باشا نمراً مفترساً في صورة حمل وديع، و الدم في نظره و نظر رفاقه طلعت و مدحت و ناظم و شركائهم أحلى في المذاق من طيب الشراب خصوصاً إذا كان صاحبه غير تركي، و مساويه و مساوي أصحابه أكثر من أن تحصى، تجردوا من كل عاطفة و من كل دين، و عاطفتهم دهان و تظاهروهم بالدين رياء.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٣٩

و قبل تنفيذ الأحكام بالجوقه الثانية كان قائد الجيش الرابع ينفي من الشام إلى صميم الأناضول أسرا برمتها، و فيهم بيوت من صلب رجالهم بالتهم السياسية و ممن جلاهم أناس من الغوغاء و القتل القداماء، و اشترك في هذه النكبة المسلمون و المسيحيون و غيرهم على السواء، خصوصاً من كان لهم صلة بدولة من دول التحالف فرنسا و بريطانيا و روسيا، ثم طمع الاتحاديون أن يتوسعوا في تأديبهم، و أعدوا في الأناضول ألوفا من الدور ليجلوا النابيين من سكان الشام إلى تلك الأرجاء، و كان الاتحاديون قرروا في مؤتمروهم أن يجلو العرب إلى أرض الترك، و يستعصوا عنهم في الشام بأناس من شذاذ الآفاق، و أن يعاملوا مهاجرة الشام كما عاملوا الأرمين يوم جلوهم عن أقاليمهم أي أن يقتلوهم على بكره أبيهم في الطرق، و يغتالوهم بالطرق التي اغتالوا بها أعداءهم الأرمين. و شرع الترك يقبضون على جوقه ثالثة من وجوه الأهلين و منورهم و يعذبونهم بتهم سياسية و جهوها إليهم منها أن لهم ضلعا في إنشاء حكومة عربية و مفاوضة شريف مكة بذلك.

خلع شريف مكة طاعة العثمانيين و تأثيره في الأتراك:

كانت البقية الباقية من منوري الشام تخاف سوء المغبة من عمل الاتحاديين خصوصاً بعد أن مروا على إزهاق النفوس، و رفعوا حجاب الوهم الذي كان مسدولاً فرفعوه و عرفوا ما تحته يوم جسروا على قتل كبراء الأمة و لم ينتطح عنزان. و كادت النوبة تصيب أهل الطبقات الثالثة و الرابعة يوم أعلن الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤ هـ حزيران ١٩١٦ م) و ثار العرب على الترك في مكة، و قتلوا الحامية التركية و أسروا أكثرها، و حوصرت المدينة بعربه، و ذلك بتدبير الحلفاء و أموالهم، فشغل الترك بهذه المصيبة التي لم يكونوا يتوقعونها، و أخذوا يستميلون إليهم رجالات الشام و يستبدلون اللين بالشدة، و إذ كانوا على عزم إنفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة بعث ملك الحجاز الجديد بواسطة جمهورية أميركا المتحدة، و كانت على الحياد، بأن كل منفي عربي أو مسجون إذا أصيب

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٠

بأذى إهانة فهو مستعد أن يعمل أضعافه مع الأتراك الذين في أسره، فكفّ الاتحاديون عن القتل، و أطلقوا سراح السجناء مرغمين، بعد أن عذبوهم أنواع العذاب، فعّد ذلك من حسنات الملك حسين، و لقد آلم الاتحاديون قلوب السوريين بقتل طبقه مهمه من الشبان و الكهول و الشيوخ، و نفى النساء و الأطفال إلى الولايات التركيّه، و مع هذا لم تقصر الشام في تقديم أبنائها للحرب جندا، و لا أموالها و عروضها لمعاونه الجيش، و لا أرزاقها و حيواناتها و ذخائرها لخدمته، فحقق على الدولة من كان يريد انتصارها، و تأصلت العداوة بين الترك و العرب، و ما كانت العداوة في الحقيقة إلا بين دعاة الاتحاديين و المستنيرين من العرب، حتى لا يبقى بعد الحرب رجال يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بمطالبه الدولة بشيء من الإصلاح.

و منذ نادى الملك حسين باستقلال الحجاز أخذ الضباط العرب و غيرهم من العراقيين و الشاميين و اليمانيين ممن وقعوا في أسر دول الحلفاء، أو كانوا في خدمة الجيش التركي على مقربة من الحجاز أو في الجهات البعيدة كالقفقاس ينضمون إلى جيش الحجاز العربي فألفوا جيشا لا بأس به يرجع إلى نظام في الجملة، و هذا الجيش هو الذي قاتل الترك في الشام، و أوقع الشغب في الفيالق التركيّه، و فت في عضد الدولة العثمانية في بوادي الحجاز، و ساعده ما كان ينهال من الأموال الإنكليزية التي استمال بها ملك الحجاز و القواد أولاده الأربعة العربان في الشام و الحجاز، و تسرب قسم منها إلى كبار الضباط من أبناء العرب، و كان لجمعية العهد يد طولى في التحاق ضباط العرب بصاحب الحجاز و هذه الجمعية كانت مؤلفة من ضباط العرب في الدولة كما كان مثل ذلك لجمعية الفتاة العربية التي ألفت في باريز قبل الحرب بنحو خمس سنين من المفكرين من أبناء العرب و خصوصا الشاميين، و ضمت إليها بعض الأعيان و المفكرين و في مقدمتهم أنجال شريف مكة و أبلغوا و الدهم قرارهم و امتدت دعوتهم إلى جبل الدروز.

و قدر بعض الواقفين عدد من انضم من البدو إلى الجيش العربي في جميع الجهات بما يناهز المئة ألف و العسكر النظامى لا يتجاوز الخمسة آلاف. و قال بعضهم: إن البدو لم يتجاوزوا السبعين ألفا يكثرن و يقلون بحسب الحاجة،

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤١

و النظامى و هم من أبناء العرب الذين أسروا من الجيش التركي أو فروا منه خمسة آلاف و النظامى لم يتجاوز هذا القدر.

و كان شاعر الثورة الشيخ فؤاد الخطيب يحفز أرواح هذه الأمة بشعره و مما قاله في الثورة:

يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لهم نعماً
فالظلم أيقظ منهم كل ذى سنه ما كان ينهض لو لا أنه ظلماً
أرهقتم الشعب ضرباً في مفاصله حتى استفاق و سلّ السيف منتقماً
فالشق عن حنق منكم و موجدة قد أرهف العزمات الشم و الهمما
هيهاث يصفح عنكم أو يصفحكم حرّ و لو عبد الطاغوت و الصنما

يا ابن النبي و أنت اليوم وارثه قد عاد متصلاً ما كان منفصلاً
و النف حولك أبطال غطارفه شم الأنوف يرون الموت مغتتما
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاسدا من الترك إن تعرض له انهدمما

يا من ألح علينا في ملامته بعض الملام و جرّب مثلنا الألما
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها مضى لما ضج بالزعم الذى زعما

ايه بنى العرب الأحرار إن لكم فجراً أطلّ على الأكوان مبتسما

يستقبل الناس من أنفاسه أرج ما هبّ في الشرق حتى أنشر الرما
 تلك الحياة التي كانت محجبة في الغيب لا سأما تخشى ولا سقما
 سارت مع الدهر من بدو و من حضر حتى استتبت فكانت نهضة عمما
 من ذلك البيت- من تلك البطاح- على تلك الطريق- مشت أجدادنا قدما

لستم بنهم و لستم من سالتهم إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
 إلى الشام- إلى أرض العراق- إلى أقصى الجزيرة- سيروا و احملا العلما
 خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٢

أمانى الأتراک و خيبتهم و تخريبهم:

كانت حالة الشام تسوء كلما طال أمد الحرب العامة، و قد أتى الجند و بعض ضباطهم و عمال الحكومة من ظلم الناس باسم الجيش و
 التكاليف الحربية ما ضاقت به الصدور، و غلت مراحل الأحقاد، و كلما دامت الحرب شهرا زاد القوم من الدولة اشمئزا و قهرا، و من
 يجسر و الأحكام العرفية سائده، و سلطان الفرع الأكبر فاغر فاه، أن يقول كلمه خير، أو يرفع مظلمة أو ينقد معوجا، فإن التعذيب كان
 مصير من يجرؤ على ذلك، و السجن و القتل كان يتهدده كما وقع لمئات في دار الملك و منهم أصدقاء أنور ياشا و شركاؤه في
 أعماله، قتل بعضهم لأنهم قالوا بطلب الصلح من الحلفاء، و أن الدولة تحاول بحربها الانتحار. قال سفير أميركا: «رأيت أنور في أحد
 الأيام و قد اشتدت و طأة الضباط على الفلاحين و التجار فقلت له: إن تلك الأعمال (نهب التجار و الفلاحين باسم الجيش) تفضي
 بالمملكة إلى الخراب العاجل و الدمار الأكيد، و لكنه لم يعبأ بأقوالى و لم يخفق فؤاده ألما لتلك الأعمال، بل كان يفتخر بأنه أنشأ
 جيشا كبيرا مجهزا من لا شىء. بلغ عدد الجنود التي جمعها أنور نحو مليون و نصف مليون، و بقى نحو مليون أسرة في أنحاء المملكة
 و ليس لهم من يساعدهم على القيام بأعباء الحياة، و قد فتك بهم الجوع فتكا ذريعا.
 أما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربيع ريال في الشهر ١٥».

قلنا: إن الدولة جمعت في الشام سبعا و عشرين قرعة أى من ابن الثامنة عشرة إلى ابن الخامسة و الأربعين و كان معدل ما يجمع من
 كل صنف ثمانية آلاف جندي فيكون مجموع المجندين من السوريين مائتين و أربعين ألف مقاتل فرّ منهم بحسب الإحصاءات
 الرسمية إلى آخر الحرب نحو مئة و خمسين ألف جندي و ظلّ في الخدمة بين أسير و مريض و مستخدم في خدمة خفيفة ببلده نحو
 خمسين ألفا و قتل نحو أربعين ألفا. و لو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش و لأجل الجيش، و أهمه استباحة الأعراض المصونة، و العبث
 بالمقدسات و المشخصات، لاقتضى لذلك مجلد برأسه، فقد فسدت الأخلاق بحيث لا يتأتى أن تصلح إلا بفناء معظم من تلوثوا
 بتلك اللوثات، و كانت تنضب المواد الحيوية يوما بعد يوم، و قل الفحم الحجري جدا فأخذ الأتراک يسيرون القطارات بالحطب،
 يقطعون

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٣

الزيتون و الكينا من فلسطين، و الجوز و المشمش و الحور من الغوطة، و السنديان و الزان و الصنوبر من لبنان، و الزيتون و الفستق من
 حلب، و الغضا من الحجاز، و اشتد الجوع و عزّ الخبز، و أصبح الغنى يغتبط بأنه ينال قوت يومه على أيسر وجه، و ذل أعظم عظيم في
 هذه الديار أمام جمال باشا و أشياعه من الاتحاديين، و صانعه أكبر البقية الباقية من الأحرار مخافة أن ينالهم من ظلمه ما نال غيرهم، و
 كان الموت معلقا بين شفثيه و من لا يصانعه يذله، و ربما قتله أو نفاه من هذه الأرض. و كان يعمل ما يريد ثم يكتب إلى الإستانة بما
 حصل. و من أغرب الأحكام أن يجعل القتل في أيدي العرفاء و النقباء من صغار الضباط، فكان لأحداهم إذا قبض على عشرة فارين

أن يهلك واحدا منهم بالقرعة! و هكذا تجددت الأحكام القره قوشية، و رخصت الأرواح و بيعت السباح. قال جمال باشا في مذكراته: و يقيننا أن الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين و النصف العام اللذين أعقبا إعلان الشريف حسين استقلال بلاده، إنما يرجع إلى أحكام القتل التي وقعت في نيسان ١٩١٦ و بقطع النظر عن ذلك فإن أنور باشا و هو وزير الحربية، و طلعت باشا و هو وزير الداخلية، قد وافقا على تنفيذ أحكام القتل بدون استئذان من المراجع العليا، ثم أرسلت إلى الإستانة تقريرا بما أجرته و هناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم أرسلته بناء على قرار مجلس الوزراء إلى القصر للتصديق السلطاني، و هكذا أيدت الإرادة السنية الأحكام التي قضى بها الجيش و نفذها و بذات ختمت هذه الرواية هـ. و كلما كانت الأمة ترجو انفراج الأزمة كان أحمد جمال باشا و هو قوى الثقة بنفسه و جيشه يرجو أن تنجلي الحرب عن نصره دولته، و يؤسس في الشام معاهد لتتريك العرب و تقوية الدعوة التركية الاتحادية في نفوس الأمة و يفتح شوارع في يافا و القدس و بيروت و دمشق و يضع المصورات و الخطط و التصميمات لهندسة أمهات مدن الشام على الطريقة الحديثة، و قد نفذت أحكامه على البادية و الحاضرة، حتى إن بعض أمراء العرب كانوا عيوننا له يقبضون إحساناته الكثيرة، و لا يتكأون عن قبول المعاونات التي يقدمها لهم الإنكليز. و لم يسلم من يد جمال باشا إلا دروز جبل حوران فإنهم خدعوه بوعودهم، و لم يتجندوا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٤

بحجة العمل في أراضيهم لإخراج الحبوب للجيش. و لكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئا للدولة على الرغم من إلحاح القائد العام عليهم، فحفظوا حبوبهم في أمهاتهم حتى شحت في الشام، ثم أخذوا يبيعونها بأثمان فاحشة و لو لا ذلك لجاع أهل مدينة دمشق نفسها على قربها من حوران أنبار الشام العظيم. و لذلك كان جمال باشا يحرق الأرم عليهم، و لو خرجت دولته ظافرة لأرسلوا حملة على هذا الجبل تهلكه و تخربه. و أخرى و هي تعد في مآثر الدروز هذه النبوة، و هي أنهم آووا في جبلهم نحو عشرين ألف لا جىء من العرب و الترك على اختلاف مذاهبهم، فرارا من الجندية أو غيرها، و أطعموهم مدة الحرب بلا عوض، و منهم من كانوا يشغلونهم في أراضيهم مقابل إطعامهم فقط، فكانت مضافات الرؤساء منهم أشبه بفنادق و مطاعم عامة مجانية، خدامها أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل، فمثلوا بعملهم القرى العربى و المروءة و الشهامة، و كفروا عن سيئات المسيئين منهم في الماضي، و كان جبل الدروز أقوى صلة بين جزيرة العرب و الشام و العراق مدة الحرب و لا سيما بعد استقلال الحجاز، و عزم الحلفاء على فتح الشام باسم الأمير فيصل و اسم أبيه، فكان مركز جبل حوران من الوسائط النافعة لأبناء الشام و الحجاز معا، و فيه تألفت عصابات من الدروز للإلقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي، و ظل أكثر زعماء الجبل على ولائهم للدولة العثمانية حتى أظلمت الرايات العربية.

الوقائع المهمة في فلسطين و سقوط القدس و ما إليها:

أخذ الجيش التركي في الجبهة ينضغط على نفسه و تتضاعف فيه مضاعفات النفوس من جوع و عرى، ففي ٢٦ و ٢٧ آذار ١٩١٧ حدثت معركة غزة الأولى بين الترك و الإنكليز و في ١٩ نيسان كانت معركة الرمادة، و في ٤ آب انهزم الأتراك للمرة الثانية في محاولتهم غزوة مصر في قطيا، و في ٢٣ تشرين الأول و ٧ تشرين الثاني اخترق البريطانيون خط العثمانيين بين بئر سبع و غزة، فتخلى الأتراك عن الابن و بئر السبع و كانت وقعة في أزقة غزة على أسلوب حرب المتاريس اشتركت فيها البحرية البريطانية بمدافعها من البحر، و كانت الغلبة

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٥

فيها للأتراك و فقد من الإنكليز على رواية قائد الجيش الرابع في وقائع غزة ٤٠٠٠ و فقد الترك ٢٨٦ قتيل و ٧٥٦ جريح و ٥٨٥ متغيبا و أسيرا، و ادعى القائد التركي أن كل جندي من الحامية في غزة قتل جنديا إنكليزيا و أن الجيش البريطاني في أرجاء غزة كان مؤلفا

من أربع فرق فرسان وأربع مشاة، وأن المعركة دامت ثلاثة أيام واضطر البريطانيون إلى النكوص على أعقابهم يحتمون في خطوطهم تاركين وراءهم القتلى والجرحى وعددهم ٧٠٠٠ أي ما يعادل جميع القوة التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجبهة. وفي الأخبار الرسمية التركية أن خسائر الإنكليز (رجب ١٣٣٥) في ساحة غزة الثانية قدرت بثلاثة آلاف فيهم كثير من الضباط، وأفاد أحد الأسرى أن فرقته بات عددها أربعة آلاف رجل بعد عشرة والأسرى بلغوا نحو الأربعمائة وخسائر الإنكليز بالنسبة للوقعة الأولى كثيرة وخرب الجانب الأعظم من غزة وكان تشتت أهلها تحت كل كوكب. ومن الأسباب التي قضت بخربها أن الأتراك وضعوا بعض مدافعهم الرشاشة الخفيفة في المآذن وأخذوا يطلقونها على البريطانيين، فما كان من هؤلاء إلا أن قابلوهم بإطلاق القنابل من مدفيعتهم من البر والبحر. ولم يتناول الخراب غزة فقط بل تناول يافا أيضا، وذلك لأن العثمانيين أجلوا أهالي تينك المدينة إلى الداخل فترك سكانها عروضهم ومتاعهم وأموالهم أو باعواها بأثمان طفيفة وارتكبت الفرقة الثالثة من الفرسان وهي من الترك أنواع الفطائع في النساء بما يخجل منه.

كانت قيادة الجيش الفعلية في الشام بيد الألمان وبالاسم بيد العثمانيين فإن القواد فونكريس وفالكنهايم وليمان سندرس أبلوا بلاء حسنا في وقائع شبه جزيرة سينا وغيرها ولذلك كان قائد الجيش الرابع يكرههم لأنهم جعلوه وأوامره وراء ظهورهم. ووظيفته الحقيقية في هذه الحرب أن يقدم لهم جندا وأزاقا وينفذ ما يأمر به القائد الألماني لنظام الجيش وانتظامه. ولم يقصر الأتراك والحق يقال في مد الخطوط الحديدية إلى جبهة مصر على تعذر جلب الأدوات اللازمة لها من الغرب فأنجزوا خط العفولة نابلس متصلا بحيفا ودرعا ودمشق قبل الحرب ثم أنجزوا مسعودية- طور كرم- لد- الصرار- الحفير- وهو (٣-١٠) خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٦

٢٥٤ كيلومترا، ومدوا خطا من التينة حتى دير سنيد قرب غزة وهو ٤٠ كيلو مترا في أيام قليلة وخربوا خط حوران دمشق وطرابلس حمص لأخذ خطوطهما الحديدية، وأصبحت بئر السبع مركزا مهما فيها الكهرباء وأدوات الرفاهية في المدن، وسدوا طريق العريش- الابن- نخل، وحفروا آبارا وعملوا أحواضا وجروا الماء في البادية إلى القصيمة إلى ثلاثين كيلومترا. سار الجيش الإنكليزي على عادته في قتال الترك في سينا سيرا بطيئا ولكنه كان آمينا، ومدوا خطهم الحديدي بالقرب من الساحل ليكون له من الأسطول عند الاقتضاء معتصم، وفي ٣١ تشرين الأول أخذوا بئر السبع وفي ٢١ كانون الأول ١٩١٦ أخذوا العريش وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ أخذوا رفح. وأخلوا شبه جزيرة سينا من كل ما هو تركي سنة ١٩١٧، وأخذت يافا في ١٦ تشرين الثاني وكانت أخليت من السكان زهاء سنة ونصف وتشرد أهلها، وسقطت القدس في ١٠ كانون الأول ١٩١٧ ودخلها القائد المشير اللنبي الإنكليزي دخول الظافر فسقطت بيت المقدس كما قال بعضهم في أيدي الفرنج بعد أن خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة. وقرعت أجراس الكنائس فرحا بسقوط القدس ومن جملتها الكنائس الألمانية كأن ما خسرت ألمانيا سياسيا بهذا السقوط يعزيها بعودة الأرض المقدسة دينا إلى أيدي المسيحيين.

واستولى الإنكليز على أريحا يوم ٢١ شباط ثم جعلت الجبهة على خط يافا أريحا وظل المتحاربون يقتتلون إلى سنة ١٩١٨ وقد كلت همم المقاتلين من الترك فاخترق القائد اللنبي الجبهة التركية في أيلول ١٩١٨ واستسلم جيشان تركيان وكان انهزم أحدهما نحو الشمال أي نحو طريق القدس نابلس، ونشبت بين الفريقين البريطانيين والأتراك معركة هائلة في البيرة انتهت بهزيمة الأتراك وانسحابهم إلى اللبن وبلغ الجناح الأيسر من الجيش البريطاني حيفا وتجاوز الجناح الأيمن نابلس وسقطت حيفا في ٢٣ أيلول ١٩١٨ وكذلك عكا والناصره وفتح حيفا وطور كرم ونابلس والناصره وطبرية فتحت أبواب الشام أمام الجيش البريطاني.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٧

فى شهر حزيران سنة ١٩١٦ أى فى السنة الثالثة للحرب العامة لما قام الشريف حسين بن على أمير مكة المكرمة بثورته على الترك و قتل و أسر حامية مكة من الأتراك و نودى به ملكا على الحجاز، ثار ابنه الأمير على فى عرب المدينة المنورة الموالين لأبيه على الحامية التركية غداة ثورة مكة فلم يستطيعوا أخذها لأن فخرى باشا قائد حاميتها التركي كان حصنها تحصينا عظيما فما استطاع العرب أن ينحوا على تلك الحصون مخافة أن يصاب قبر الرسول و مسجده بأذى و قبت الحامية التركية بما ادخرته من الطعام فى داخل حصونها و أجلت الحكومة أكثر أهل المدينة إلى الشام و آسيا الصغرى و عددهم لا يقل عن أربعين ألفا و لم تترك سوى بضعة آلاف ممن آثروا أن يموتوا فى جوار قبر النبى على الجلاء غير مطالبين الجيش المحاصر بخبز و لا- إدام. و أخذ عرب الأمير على يناوشون الحاميات التركية على السكة الحجازية مدة و يخربون بعض خطوطه و يعود العسكر العثماني فيصلح ما خربوه و يستخدمه فى الضروريات لتموين الجيش المرابط فى المدينة، و أخذ منذ ذاك الحين الأمير فيصل ثالث أنجال الملك حسين فى سرايا من عرب الحجاز يشاطيء ساحل البحر الأحمر متقدما إلى سمت الشمال نحو الشام و ينضم إليه أسرى الجيش التركي من العرب ممن أسروا فى ترعة السويس و شبه جزيرة سينا و ساحة العراق. ففتح ينبع البحر و الوجه و هنا تألف الجيش الشمالى الذى قاده الأمير فيصل، أما شقيقه الأمير عبد الله النجل الثانى فكان فى الطائف يحاصرها حتى سقطت، أى أن الأمير عليا كان يشاغل الحامية التركية فى المدينة و يفتح رابغ و يجعلها ميناء، و شقيقه الأمير فيصل يحاول الابتعاد عنها للانضمام إلى الجيش البريطانى فى شبه جزيرة سينا. و فى تموز ١٩١٧ أى بعد أحد عشر شهرا من ثورة صاحب الحجاز على الترك فتحت العقبة بمعاونة الشيخ عودة أبى تايه من مشايخ الحويطات و من شجعان العرب، و قد أبلى بلاء ليس بعده بلاء فى هذه الواقعة و فى أكثر الوقائع

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٨

التي اشتبك فيها الجيش العربى مع الجيش التركى، و كان له الفضل بإسقاط الطفيلة و أبى الأسل و الكويرة و غيرها من المواقع التي احتلها العرب فى أوائل الشام من الجنوب. و قد أسر فى فتح العقبة تابورا تركيا برمته تام الأهبة لم يفلت منه و لا أركان حربه و رجال شوراه الحربى استسلموا كلهم لأبى تايه فعاملهم أرقى معاملته مديئة. و كان لمدافع الأسطول البريطانى من البحر أولا يد طولى فى إخلاء الترك للعقبة و بسقوطها حمى العرب مؤخرة البريطانيين فى سينا، و كان الأتراك يأتون من معان إلى بادية سينا يضربون البريطانيين، و باستيلاء العرب على العقبة استطاع الإنكليز أن يستولوا على غزة ثم رفح و بئر السبع، أما الأتراك و الألمان فقد دافعوا عن العقبة دفاعا عظيما و لكن البريطانيين كانت لهم السلطة على الساحل و العرب يحاربون بأجسادهم و أرواحهم مع صاحب الحجاز و أولاده.

استولى العرب على الطفيلة و وادى موسى و حاولوا الاستيلاء على معان الواقعة على الخط الحديدى فردوا عنها مرتين بخسائر، خصوصا يوم ٢٢ تموز عندما هاجموا محطة أم الجردان (الجردونة) فكانت خسائرهم عشرين ضابطا و مائتى جندي و استولوا على أم الجردان ثم تخلوا عنها. و أرسل الأتراك من الكرك أربع كتائب و سرية من البغالة بغية احتلال الطفيلة و بينا كانت سائرة فى وادى موسى بلغ العرب خبرها، فتحصن محافظ الطفيلة الأمير زيد رابع أنجال ملك الحجاز فى مائتى جندي نظامى و قوة قليلة من البدو فى رؤوس الجبال و أخرج أهل الطفيلة و سلّحهم و فرقهم على الجبال التي فى أطراف الوادى، و جعل العسكر التركى فى شبه حصار و أطلق عليهم النار، فارتبك الجيش الزاحف و جفلت البغال و قتل حامد فخرى بك القائد التركى المعروف عند الأتراك بفاتح بكرش فسقط فى يد الجيش و انهزم أكثره و سلم الباقي، و أخذ العرب ما يربى على ستمائة أسير تركى و غنموا أربعة مدافع سريعة الطلق و لم يكن معهم سوى مدفعين قديمين. أما الكرك على حصانتها فإن الأتراك أخلوها من أنفسهم.

و انضمت إلى الجيش العربى فى الوقائع الأخيرة سرية مدفعية إفرنسية كما كانت الطيارات الإنكليزية لا تغفل يوما عن كشف مواقع العدو و تهيئته سبل التقدم لهم، و كانت وقائع البدو مع الترك على الأكثر أشبه بمناوشات عصابات

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٤٩

لا بحروب منظمة. و الأمير فيصل ينظر إليه نظر قائد عربي يتلقى الأوامر من المستر اللنبي و لقبه قائد الجيوش الشمالية. جاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب ١٩١٧ أن خطة العرب في بدءاً نهضتهم خطة حسنة تحوى فى مطاويها حذقا و حزما و دهاء، فقد خربوا قسما من السكة الحديدية و استولوا على مراكز الأتراك على جانبي الطريق و كانوا على جانب من البسالة يتغلبون غالبا على جيش أكثر منهم عددا و عددا.

و قال ليمن سندر س الألمانية: إن العرب من أول شهر أيار إلى التاسع عشر منه خربوا خمسة و عشرين جسرا. خرب العرب محطة القطرانة و أسروا عددا من الترك و بعد أسبوع هجموا على الحسا فأخذوا قطارا كان هناك و دمروا قسما من العدة و الذخيرة و لكن الأتراك أخرجوهم بعدئذ من الحسا فتقهقروا جنوبا و هم يخربون فى الجسور و الخط. و فى تشرين الثانى ١٩١٧ واقعت القوى البريطانية حامية الترك فى عمّان فسقطت الصلت فى أيدي البريطانيين و العرب و عاد الأتراك فهاجموا فى آذار ١٩١٨ وردوا البريطانيين إلى غربى الأردن. و كانت حال الصلت و معان و عمان و غيرها تعسة جدا لأن الاستيلاء عليها كان متبادلا- بين الفريقين المتحاربين و أهلها بين نارين خصوصا نار العثمانيين الذين كانوا يعاقبون الأهلىن لدى عودتهم إلى بلد انهمزوا منه بحكم الطبيعة أو القواعد الحربية بما يخرج عن حد المألوف تشفيا و انتقاما.

لما صدر الأمر بالهجوم العام لضرب الجيش التركى الألمانى الضربة القاضية فاوض البريطانيون الأمير فيصلا أن يجهز حملة تسير من أبى الأسلى إلى جسر تل شهاب فى حوران لتقطع خط الرجعة على الجيوش التركية فتألفت الحملة من الجيش النظامى يرافقها شردمة من البدو. و يظهر أن القيادة التركية شعرت بذلك لأن من البدو من كانوا يتجسسون للعرب و عليهم و للترك و عليهم، و من عادة البدوى أن ينحاز إلى صفوف الغالب و ينتفض على المغلوب و لو كان فى صفوفه لأن هدفه الوحيد السلب و النهب- فأوعز القائد التركى إلى الحامية أن تدافع عن معان بالهجوم على الجيش العربى فى الوهيدة لإشغال الحملة عن المسير إلى تل شهاب و سار الألمان مع الأتراك من الشمال على الشوبك و الطفيلة

خطط الشام، ج٣، ص: ١٥٠

ليلتقوا مع الجيش التركى الذى خرج من الشرق على معان فباغتت الحامية ليلا- على تل سمنة المطلة على معان و استولوا على حصونها، و بضبطها أصبح الجيش العربى فى خطر، فبلغ الأمير فيصلا ذلك بالهاتف من الوهيدة بين معان و أبى الأسلى و تبعد عن كل منهما زهاء ساعتين أو أكثر، و كانت مقر الجيش العربى و مقر الأمير و راءها فى أبى الأسلى، فاهتم للأمر لتناقص عدد الجيش العربى الذى انضمت أكثريته إلى الحملة المنوه بها، و كانت بارحت قبل هذا الهجوم بيوم المقر من جهة الطريق الشرقى البعيد عن الخط الحجازى مسافة يوم تقريبا و هو من جهة الجفر و باير (ماءان لأهل البادية) فندب الأمير أخاه الأمير زيدا و استعداد حصون تل سمنة، و كان الأتراك ينوون أن يتقدموا منها للاستيلاء على الوهيدة مقر المعسكر العربى، و لو لم يتقدم أحد أبناء العرب ممن كان مع الجيش التركى و يفاوض بالهاتف مركز الجيش العربى و يندره سوء العقبى و يسارع الأمير فيصل بإرسال عبيده و عددتهم مائة و خمسون و يسيروا كالبرق الخاطف يقفون أمام الجيش التركى و يشاغلونه ريثما تقدمت فرسان الجيش العربى و تبعها المشاة- لو لا هذا لما رد الأتراك عن معان و لهلك الجيش العربى بأسره.

و من ذلك الحين انقلبت حامية معان من طور الدفاع إلى طور الهجوم، و عهد الأمير فيصل بالقيادة العامة فى مقر أبى الأسلى إلى أخيه الأمير زيد و التحق بالحملة يرافقه قليل من الجند النظامى و حرسه من العبيد و بعض المتطوعة من بدو و من حضر قاصدا الأزرق ليتخذ مقر القيادة للحملة، و ضرب موعدا للنورى بن شعلان أن يلاقه بالأزرق مع شردمة من قبيلته كما أوعز إلى عوده أبى تايه أن ينزع مع شردمة من قبيلته من الجفر إلى الأزرق، و لكن جنده كان قليل العدد و البدو الذين أرادهم على أن يوافوه تخلفوا عنه فأصبح موقفه فى خطر، و كان فى وسع مئة جندى عثمانى لو هموا به أن يأسروه و من معه، و لكن قذف الرعب فى قلوب المحاربين من الترك فظنوا أو هناك جيوشا جراءة لا قبل لهم بها، و زاد حراسة الموقف تشويشا أن بعض مشايخ قرى جبل الدروز بعثوا إلى الأمير

يحتجون على احتلاله الأزرق بدعوى أن احتلاله يوغر عليهم صدر الحكومة التركية لأن الأزرق وإن كان مقدمة بادية الشام وغير مملوك لأحد لكنه

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥١

يعتبر في نظر الدروز و نظر القبائل الرحل ملحقا بالدروز، و لم يؤثر هذا الاحتجاج في نفس الأمير فيصل لعلمه أن لا قيمة له بالنسبة إلى زعماء الجبل المواليين له و في طليعتهم سلطان باشا الأطرش الذي أخلص كل الإخلاص للثورة العربية وعاونها بماله وجاهه، و لعلمه أنهم متجرون بهذا الاحتجاج غير أنه أورت اضطراب الأفكار خشية تجسسهم للأتراك، و بعد خمسة أيام أرسل أحد شيوخ قبيلة بنى صخر و هو الوحيد في موالاة الجيش العربي دون بقية شيوخ القبيلة الذين كانوا مواليين للحكومة التركية و يقطعون السابلة على كل قافلة تلتحق بالأمير فيصل في أبي الأسل، و جهزه بفئة من المتطوعة لتخريب جسر عمان لقطع المواصله بين القيادة التركية و معان. و جاء على الأثر الكولونل لورانس الإنكليزي، ملقن الثورة العربية و المشرف عليها الذي دعى «ملك العرب غير المتوج» و أخبره بسقوط نابلس و ما وراءها إلى الشمال، و أنه وقع في أسر الجيش البريطاني من الجيش التركي زهاء ستين ألفا و كان الفضل الأكبر في ذلك لتخريب جسر تل شهاب. و صباح اليوم السادس ورد على الأمير فيصل نجاب يخبره بسقوط معان و أسر حاميتها و سوق رجالها إلى العقبة، و بعد ساعتين جاءه نجاب آخر من عمان يحمل إليه أوراق الحكومة التركية فيها مبرهنا على سقوطها و انجلاء الترك عنها قبل تخريب الجسر. فرأى الأمير فيصل عندئذ نقل المقر إلى بصرى عاصمة حوران، مخافة أن يضم الأتراك شملهم في درعا دفاعا عن دمشق و لم يكذب يستقر بها حتى بلغه سقوط درعا بيد الجيش العربي الإنكليزي و متطوعة الحورانيين، فسار إليها و نظم حكومتها و أخذ منه القلق لأنه كان جرى اتفاق بينه و بين الحلفاء أي بينه و بين البريطانيين أن كل فريق من العرب أو البريطانيين يسبق جيشه إلى فتح مقاطعة أو بلد يكون حق احتلالها و إدارة شؤونها لذلك الفريق إلى أن يبت في المصير، و حافظ الجيش الإنكليزي على هذا الوفاق فكان إذا سبق ففتح بلدا أو أسقط حصنا في العمالة التي يريد إعطاءها للعرب يتوقف ريثما يدخل العرب فينسب الفتح إليهم و لا- سيما في الشام الداخلية. و لذلك خف السيد نسيب البكري من الأزرق بأمر الأمير فيصل إلى جبل الدروز و لقي صديقه سلطان باشا الأطرش و جيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس و ذهبوا إلى بصرى و هناك التحق بهم بعض الحورانيين

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٢

و لا- سيما آل مقداد و ساروا إلى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الأتراك قليلا- في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانتظام، و دخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ما عدا المشاة إلى دمشق و اتفق دخول هذه الحملة مع أوائل الحملة البريطانية الزاحفة على الفيحاء من طريق جسر بنات يعقوب- القنيطرة.

سقوط حوران و دمشق بيد الجيوش البريطانية:

و في ١٧ أيلول ١٩١٨ قطع الجيش العربي الخط الحديدي على عشرة كيلومترات من شمالي درعا (بين خربة الغزالة و درعا) بمعاونة الطائرات الإنكليزية، و كذلك خط درعا- حيفا أي من المزيريب و خط عمان- درعا فانقطع الخط في نصيب، و أصبحت حامية درعا مقطوعة عن كل مدد، و في اليوم الثاني كان الهجوم البريطاني العام فوجه الترك إلى العرب بقسم كبير من قوتهم فلم يبق فيها الجناح الأيسر من الجيش البريطاني إلا بقية ما لبثت أن تفرقت شذر مذر، و أسر العرب في هزيمة الأتراك تسعة آلاف أسير، و غنموا تسعة آلاف بندقية و ثمانية مدافع و أربعة و خمسين رشاشا. و في ٢٦ منه هجم الجيش العربي و قد انضم إليه عرب الرولة و عرب عنزة و عدد من الدروز على سكة الحجاز على ١٥ ميلا جنوبي درعا، فخرّبوا جسرا و قسما من الخط.

و في ٢٨ منه احتلت القوات النظامية درعا و في ٣٠ منه تغلبت فرقة استرالية على نجدات الأتراك في قطنا، و تقربت عند المساء إلى

أبواب دمشق وفشل الأتراك، وظل الجيش البريطاني يطارد المنهزمين حتى بلغ ضواحي دمشق يوم ٣٠ أيلول و كان ناوش المهاجمون بعض الحاميات في المدن التي ذكرت ولا سيما في الناصرة (٢٠ أيلول) وقد نشب قتال فيها بين البريطانيين والألمان من الساعة الخامسة صباحا إلى الظهر، وعندها أخلى ليمان سندرس الناصرة وركب سيارته إلى دمشق.

و على هذا كان أول من دخل دمشق فرقة من الخيالة الاسترالية والفرقة البريطانية جاءت من درعا على طول الخط الحجازي و من الغد (أول تشرين

خطط الشام، ج٣، ص: ١٥٣

(الأول) دخل البريطانيون والجيش العربي في يوم واحد، وقد تأثر الجيش البريطاني بقايا المنهزمين من الجيش التركي بين ربوة دمشق وقريه دمر فهلكك من الجند المنهزم نحو مئة وعشرين، وسرقت خزينة الجيش التركي وكانت في القطار في مركبتين بين الشاذروان و دمر فنهبا الفلاحون وغيرهم من المصطافين، و طارد الفرسان البريطانيون والاستراليون المنهزمين من الأتراك ممن حاولوا المقاومة أولا في سفح جبل قلمون قرب دومة فظن الترك أن الأهلين قاموا بمناصرة الجيش البريطاني فاستسلموا فخف أهل قريه حفير من أعالي الجبل لرد الأتراك دفاعا عن قريتهم. و كان بعض سكان حوران اعتدوا في الأيام التي سبقت سقوط دمشق على بعض المنهزمين من الجيش لأخذ سلاحهم على الأكثر، ولكن الأمير طاهرا الحسني و أبناء عمه الأمير سعيد و الأمير عبد القادر كانوا ألقوا من المغاربة سرايا من المطوعة و أخذوا ألف بندقية من الحكومة التركية خرجوا الى أذرع و خففوا ويلات الجيش التركي و ساعدوه على الهزيمة، و لما خلت دمشق من حكومة كانت مسائل الأمن فيها لأناس من أهل البلد و الوجاهة في مقدمتهم أحفاد الأمير عبد القادر الحسني فلم يقع ما يكدر في النفس و الأموال.

و قبيل سقوط مدينة دمشق عقد الأتراك مجلسا حربيا حضره قواد الجيش من الترك و الألمان و النمساويين و المجرين و رجال الشورى الحربى، فرأى القسم الأعظم من المؤتمرين نفس جميع الأماكن الأميرية في دمشق، و كان الألمان أعدوا لذلك العدة، و قال بعض الراوين بل نفس مدينة دمشق، إلا أن القائد النمساوى أقنع رفاقه بأن هذا عمل غير معقول، لأن الدمشقيين حاربوا مع الدولة العثمانية و قاموا بكل ما فرض عليهم بإخلاص، فليس من العدل و قد خسر الترك الحرب أن يعاملوا دمشق هذه المعاملة القاسية و كانت حجته داخضة.

و كان جمال باشا المرسينى المعروف بجمال باشا الصغير من رأى القائد النمساوى سرا فعاضده و أشار إلى من استلموا زمام البلد من الوطنيين أن يعلنوا استقلال الشام، فرفعوا العلم العربى على دار الحكومة ضحوة يوم ٣٠ أيلول و بعد أن هنا جمال باشا الصغير الحاضرين من الدمشقيين باستقلالهم، غادر دمشق على

خطط الشام، ج٣، ص: ١٥٤

سيارته إلى رياق، و كان آخر قائد تركى خرج من عاصمة القطر، بعد أن ملكها الأتراك أربع عشرة سنة.

و بعد يومين استدعى من فوض إليهم الأمن في البلد من وجوها الأمير فيصل بن الملك حسين قائد الجيش العربى، و كان مرابطا في الجيدور فدخلها و نزل في دار آل البارودى في القنوات و هناك شرع بتأسيس الحكومة العربية.

و كان البريطانيون عهدوا إلى اللواء على رضا باشا الركابى من قواد الجيش التركى و من أبناء دمشق بأن يكون حاكما عسكريا لمدينة الداخلية دمشق و حلب و ما إليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائته في خدمتهم، و يقال: إنه كان أرسل إليهم مصور الحصون حوالى دمشق و كان و كل إليه الترك عملها، و أرسله القائد التركى قبيل سقوط دمشق ببضعة أيام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركى في القنيطرة و أعطاه مبلغا كبيرا من المال، فادعى أن العربان سلبوه ماله و ثيابه، و انضم إلى الجيش الإنكليزى، و هكذا ذهب من دمشق قائدا تركيا و عاد إليها بعد أيام حاكما عربيا بريطانيا.

و أطال بعض أهالى بعلبك أيديهم على المنهزمين من جند الترك، و أخذوا سلاحهم و سلبوهم ثيابهم و عتادهم و قتلوا نحو ثلاثين

جنديا، و ذل الأتراك في الشام بعد عزتهم، و كان الاتحاديون العلة الأولى في هذه الذلة، و ذهب هذا الملك العظيم، و خدم الاتحاديون الدولة بادية بدء إذ حموا الدستور كما قال كامل باشا لكنهم بتدخلهم في السياسة و بسط سيطرتهم على السلطة الإجرائية أصبحوا حكومة في حكومة، و أضحوا خطرا على الدستور. بل صاروا بعد خطرا على المملكة كلها، ضاربوا بها في سوق السياسة الألمانية ففسروها.

سقوط بيروت و الساحل و الهدنة:

كانت الطائرات البريطانية يوم ٢٩ أيلول أمطرت قنابلها على مستودعات محطة رياق نقطة اتصال الجنوب بالشمال و نهب ملحم قاسم أنابير رياق و حوش حالا- في جماعة من رجاله، فنسف الألمان ما بقى من المؤن و العتاد في المستودعات و الأنابير، و انهزموا في السكة الحديدية إلى الشمال، و لم يتركوا أحدا من الترك معهم نجوا باستعمال الشدة، و في ذاك الحين قذف الألمان في بيروت المؤن

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٥

و المواد الحربية في البحر، و أصلاهم الحلفاء نارا حامية خلال هزيمتهم، و لم تنفعهم و تنفع الأتراك خطوط الدفاع التي كانوا جعلوها في الجبل المطل على بيروت، كما لم تنفعهم و الترك أيضا الخطوط التي انشأوها في جبل المانع و المزة و قاسيون المحيطة بدمشق من غربها و جنوبها و شمالها، و هكذا لم تصب دمشق و ثغرها بيروت بأذى يوم الهزيمة على نحو ما كان العقلاء يحاذرون. لم يجر استيلاء الحلفاء على بيروت إلا- يوم ٧ تشرين الأول أى بعد سقوط عاصمة الشام بثمانية أيام، فأرسلت الحكومة العربية في دمشق برقية إلى رئيس بلدية بيروت بأمر الأمير فيصل غداة وصوله إلى دمشق تأمره فيه برفع العلم العربي، و وصل إلى بيروت من دمشق اللواء شكري باشا الأيوبي تحف به شردمة من الفرسان، و احتل دار الحكومة، و بعد أربعة أيام وصل القائد الإنكليزي و أمر اللواء العربي بالعودة إلى دمشق، و أنزلت الراية العربية و عين الكولونل بياباب الفرنسي حاكما على بيروت، و أخرج الفرنسيون جندا إلى البر بين تصفيق الأهالي و لا سيما أبناء الطوائف الغربية، ثم صدر أمر القائد اللبني إلى الأمير فيصل أن يحتل جيشه حمص و حماة و حلب، و كانت الجنود الإنكليزية و الاسترالية تتقدمه أولا، ففتحت حمص يوم ١٤ تشرين الأول، و حماة يوم ١٦ و دخل الجيش العربي حلب يوم ٢٥ منه مساء بعد مقاومة خفيفة و مناوشة الفرسان البريطانيين و الاستراليين لبقايا الجيش التركي الذي دافع لإشغال الجيش المهاجم حتى يتسنى له الانسحاب من حلب بانتظام و سلام خشية الأسر، و يتم له نقل الموظفين و عيالهم و النقود و الأوراق و السجلات، و طلب الشريف ناصر بن علي قائد الحملة العربية إلى قائد الفرقة البريطانية الجنرال مكاندرو أن يمدده بسريه من جيشه ليضمها إلى فصيلة عربية يمد بها السرية التي كان أنفذها لاحتلال حلب فرفض الجنرال طلبه، و بعد الإلحاح عليه صرح بأن القائد العام أمره أن لا تطأ قدم جندي واحد من الجيش الإنكليزي مدينه حلب إلا بعد دخول الجيش العربي و رسوخ قدمه بها، و هكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب إلا بعد دخول الجيش العربي بأربع و عشرين ساعة و تأليف الحكومة العربية الموقتة، و كان آخر ما سقط من الديار الشامية ميناء الإسكندرونه احتلته البحارة الفرنسية يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٦

و صرح القائد مكاندرو في خطاب له في إحدى المآدب بحضور المستر مارك سايكس و المسيو جورج بيكو بعد أن أثنى على شمم العرب و ذكائهم و نبوغهم و شجاعتهم بقوله: «و مما يلفت النظر أنهم بفرط بسالتهم و إقدامهم سبقونا إلى حلب بيوم كامل أربعا و عشرين ساعة».

احتل العرب قلعة حلب و دار حكومتها، و قد فقدوا أربعة و خمسين جنديا، و أحصوا أربعمئة قتيل تركي في الشوارع. و دعر الترك لأنهم أصبحوا بين عدوين الجيش المهاجم و الأهالي و انقض زعماء بادية حلب على الجيش التركي، عندما كان يدافع على سلامته

على أبواب حلب، للسلب والنهب. و في ٢٦ تشرين الأول بدأ الجيش العربي بمهاجمة الأتراك في القسم الشمالي الذي كانوا فيه من المدينة فأجلوهم و تبعهم فرسان البريطانيين في اليوم التالي فواصلوا الزحف شمالا إلى أن بلغوا المكان الذي تتقاطع فيه سكة حديد بغداد و سكة حديد سورية، و قد وقعت في قطمة معركة شديدة بين الأتراك و البريطانيين قتل فيها كثير من الفريقين و انتهت بانهزام الأتراك إلى الشمال و الجيوش البريطانية تتأثرهم، و الأتراك يرتكبون الفظائع في القرى المستضعف أهلها، و وقف البريطانيون على كيلومترات قليلة من شمالي حلب، فأبلغت انكلترا قائد جيوشها بعقد الحلفاء الهدنة مع الأتراك يوم ٣١ تشرين الأول، و كان الأتراك يتذرعون بالهدنة منذ بدء الهزيمة الكبيرة في فلسطين، و لكن بريطانيا العظمى سوفت في الأمر ريثما أخرجت الترك من الشام كله بالقوة على ما يظهر، و بعد الهدنة ظلت شرادم من الجيش التركي في حارم و أنطاكية و بيلان و إسكندرونه لم تستطع اللحاق بالجيش المنهزم، فتفسخت و تخللتها الفوضى، و انقلبت إلى شبه عصابات تسلب و تنهب و تؤذى الأهلين، إلا أنها لم تلبث أن انضمت إلى المنهزمين وراء جبال طوروس أو دخلت في الطاعة و استسلمت.

و من شروط الهدنة مع الأتراك تسليم حامية الحجاز و عسير و اليمن و الشام و ما بين النهرين و انسحاب الجيوش من قلقية عدا من يحافظون على الأمن، و كان الفريق فخري باشا محاصرا في المدينة المنورة في خمسة عشر ألف جندي، و لم يسلم إلا عندما جاءه الأمر من حكومته في الإستانة أي في كانون الأول.

و بينا كان الأمير فيصل لأول الاحتلال العربي في حلب وردت عليه بريقة من

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٧

وزارة خارجية بريطانيا العظمى بواسطة المستر النبي تطلب حضوره إلى باريز ليشهد مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيته، و عينه والده و كيلا عنه في مؤتمر فرسال، إذ لم تكن له صفة رسمية ثابتة تخوله حضور جلسات المؤتمر بصفه قانونية، فقدم للمؤتمر مذكرة قال فيها إننا نعتقد أن سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطنها عدد وافر من السكان من طبقات مقيمة هي بلاد متقدمة تقدا كافيا من الوجهة السياسية يمكنها معه أن تقوم بأعباء أمورها الداخلية، و نرى أيضا أن الاستشارة و المعاونة الأجنبية ستكون عاملا ثمينا جدا لنموننا القومي، و نحن مستعدون لصرف ما يلزم من النقود مقابل هذه المعاونة، و لا يسعنا أن نفاذي مقابلها بجزء من الحرية التي أخذناها قبلا بأنفسنا و بقوة سلاحنا.

سبب سقوط الشام بأيدي الحلفاء:

عجب العارفون لسرعة سقوط الشام في أيدي الجيش البريطاني، و كيف كان تقدم الجيش المهاجم على مقدار سير خيول الفرسان، و لا عجب فالجيش مهما بلغ عدده إذا كسرت معنوياته و رأى الأفراد قادتهم يفرون و يختبئون و يرتعدون يدب فيه الفشل، و لم يكن الجيش التركي في الشام و الحجاز أكثر من مائة و عشرين ألفا، بقي في المدة الأخيرة منه مع ليمان ساندرس الألماني خمسون ألف جندي على حين كان يلزمه مئتا ألف، و جميع مدافع الترك على اختلاف العيارات لم تتجاوز الثلاثمائة، و معظم ما يستندون عليه المدافع النمساوية ثم البطاريات الألمانية، أما الأعتاد الحربية و القنابل منها بوجه خاص فكانت قليلة جدا عند العثمانيين، لا يبسون استعمالها إلا عند الضرورة الماسة، على حين كان البريطانيون يسرفون لا يبألون في إطلاق القنابر. و قد ألقى ليمان ساندرس التبعة على جمال باشا الكبير فقال في تقرير له إلى وكيل القائد العام:

إن كل ما في سورية من إنسان و جماد و حيوان قد تسمم من سوء إدارة جمال باشا و إن الثبات فيها لا يمكن أبدا.

و في الحق أن سوء الإدارة قضى بأن يجوع الجند المحارب ولدى الدولة أنابيب الأطعمة الكثيرة لم ينتفع بها. و ما كان يظن أن الجند التركي، و به يضرب

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٨

المثل بالطاعة و الشجاعة، أن يبدأ بالهرب، منذ بدت أمارات الفشل و البؤس، كانوا يهربون زرافات في الجبال إلى آسيا الصغرى و هم لا- يعرفون الطريق و أهل القرى يطعمونهم و يلبسونهم و يهدونهم السبل. على أن الثبات أمام الجيش البريطاني لم يعد فيه أدنى فائدة ما دام حلفاؤهم البلغار قد طلبوا الصلح، و أمارات الانهزام بدت بجميع أعراضها في الساحة الغربية في أوروبا. و قصارى القول أن هذه الحرب كانت على الشام من أشأم الحروب لأنها حاربت و هي تحب السلم، فكان حربها تبعا للدولة، و فقدت أبنائها و أموالها و خرب عمرانها. فقد منها نحو عشر سكانها في المعارك و الجوع و الأمراض أى نحو ثلاثمائة ألف رجل على أقل تعديل و خسرت من حيوانها و شجرها و ذخائرها و بيوتها و جسورها ما يساوى الملايين من الدنانير، و يصعب تعويضه إلا في السنين الطويلة، هذا ما عدا من قتل من السوريين في الحرب مع الحلفاء فقد تطوع من الشاميين من غير المسلمين مع الحلفاء أكثر من عشرين ألفا منهم خمسة عشر ألفا كانوا في الجيش الاميركانى.

قبض الاتحاديون على زمام السلطنة العثمانية من سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) إلى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨) و لم تتخللها إلا أشهر معدودة خرج الحكم فيها عن يدهم إلى الأحزاب الأخرى، و كان من عملهم الأول إعطاء الحرية لأمة لم تشترك في طلبها بل تولدت من فكرة بعض الأحرار و الضباط، ثم قضاوا على تلك السلطنة العظيمة، و جنوا جنونا عظيما بسياسة تترك العنصر، حتى خرجوا عن طور العقل، و لم يحبوا أن يسمعو بالعرب و العربية و حقوق العرب، فضلا عن مراعاتهم و هم نصف سكان المملكة، و فى أرضهم أشرف معاهدها التى كان سلاطين العثمانيين يسطون بواسطتها نفوذهم المعنوى على العالم الإسلامى. قامر أنور و طلعت و جمال بالمملكة العثمانية كأنها سلعة فى السوق فخسرو رأس المال، و كانوا يعللون آمالهم أن يضيفوا إليه أضعافا مضاعفة، و بسقوطهم دب الفشل فى الدولة العثمانية نفسها، و كيف لا يدب و قد خرجت رازحة بديونها فاقدة أكثر من نصف مملكتها.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٥٩

رأى مؤرخ تركى فى انقراض الدولة العثمانية:

نسب أحد مؤرخى الترك المعاصرين أسباب انقراض العثمانيين إلى عوامل كثيرة أهمها فى نظره.

(١) انقطاع البطولة من المسلمين و قيام الأتراك سدا أمام النصرانية و بذلك جلبوا عليهم خصومة أوروبا النصرانية جمعاء، فكانت مطارق النصرارى تتساقط على رؤوس الأتراك قرونا.

(٢) التغافل عن الوطنية التركية و لم تجعل التركية أساسا لسياسة الدولة، فصانوا أديان من وجدوهم من القوميات و أبقوا على ألسنتهم، بل أيدوها و ناصروها، فمنح محمد الفاتح مثلا الروم امتيازات مذهبية، فأحدث بذلك دولة فى دولة، و ارتكب خطأ فاحشا، و عوضا عن أن يجعلوا المملكة متجانسة صيروها كبرج بابل، و ما قاسته التركية بل هذه الدولة فى هذه السبيل مما لا يستطاع تسطيره، فإن السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه فى الأناضول من الأديان و القوميات الغربية، و جرى العثمانيون على مثالهم فرعوا ما وجد بأعيانه، و ما عرفوا ما هو التمثل، و كانت هذه العناصر كلما وجدت فرصة تستل من بناء الدولة حجرا و تذهب به، و بصنعهم صارت الحال إلى ما صارت إليه، و قد اشتهرت ممانعة شيخ الإسلام زنبلى على أفندى لياوز خان (السلطان سليم) لما أراد أن يسلم الروم، قاومه باسم الدين، فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة إلى القومية التركية و مكان الشريعة. و هذه العناصر فتحت للأجانب سبيل التدخل فى شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب فى انقراضها، و لم يهدأ لهم بال فى هذا الشأن، و اجتهدوا فى الوصول إليه، و من أسباب هذه الذهنية المشؤومة رأى الأخرق القائل بلزوم الإبقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة. و هذا من أساليب العرب و أصولهم

(٣) تدخل الدين فى مصالح الحكومة، و عدم قيام بناء الدولة على ما يجب

(٤) جهل الملوك و استبدادهم و سفاهتهم

(٥) ربيتهم أبناء الصرب و الروس و الاوواح و الأرمن و العرب و الأرنأؤد و الكرج و الجركس و غيرهم من العناصر، ثم تسليمهم أمور الدولة إليهم بدلا من أن يأخذوا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٠

بأيدي أبناء الترك، و هؤلاء و إن لم يكونوا أتراكا كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركيّة و إسدال الحجاب عليها، و كان الملوك يعتصمون بالإسلام فأورثوا بذلك التعصب قوّة

(٦) كانت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية عاملة على الانتقام لمملكة بيزنطية فبشعور روسيا بهذا الانتقام، و حرصها على جعل الأتراك روسا في لغتهم و مناحيهم، كانت تحارب تركيا أبدا و هذا من جملة أسباب الانقراض.

إلى أن قال: إن الحكومة العثمانية تذرعت بالمعنويات و لم تلتفت إلى الماديات، و هذا من أعظم خطيئات الترك العثمانيين، و كان عليهم أن يجمعوا الأتراك بأسرهم تحت علم واحد، و بدلا من أن يجعل العثمانيون حريتهم نسقا واحدا هبوا كالأسود الظمأى إلى أواسط إفريقية يلتمسون السراب عبثا، و من طرف آخر انصرفوا إلى أوربا كالطيور التي جعلت قلوبها كالسباع، فنطحوا برؤوسهم بلا موجب قلاع فينا ثم وقفوا و رؤوسهم دامية. و من أعظم دواعي الأسف أنهم فتحوا سبيل الرواج للسانين العربى و الفارسى، فداس هذان العنصران لسانهم الخاص أى التركيّة، و عبث بالأمة الفقر و الجهل الخ. و نحن نقول إن السبب الأعظم تغافل الدولة عن تقليد الغرب فى الماديات و المعنويات فظهر على توالى القرون الفرق بين الخامل و العامل، و كان تركيب الدولة من عناصر مختلفة، و معظمه كان فى بدء أمرها من غير المسلمين، من جملة الدواعى فى عدم تركيبها تركيا مزجيا، خصوصا و معظم تلك العناصر أرقى من الترك الأصليين عنصرا و أعظم تاريخا، و لا عيش للمتوسط مع الذكى، و إذا أخضعه لسلطانه بالقوة فإلى حين.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦١

العهد الحديث «من سنة ١٣٣٦ - ١٣٤٣»

تجزئة الشام بين فرنسا و انكلترا:

كانت نتيجة الحرب تجزئة الشام بين فرنسا و بريطانيا، فاستقلت هذه بفلسطين و ما إليها، و استأثرت فرنسا بالساحل من صور إلى ما وراء الإسكندرونة، و بقيت الداخلية اى الكرك و الصلت و معان و عمان و حوران و دمشق و بعلبك و حمص و حماة و حلب مستقلة بإدارة الأمير فيصل، و الموحدون اليه البريطانيون.

أما القيادة العامة فكانت بأيدي البريطانيين و دعيت الشام بلاد العدو المحتلة عملا باتفاق سايكس بيكو الذى عقد يوم ٩ أيار ١٩١٦ قاضيا بتقسيم الأقاليم العثمانية غير التركية إلى مناطق نفوذ و مناطق سيادة، و إنشاء دولة أو دول عربية متحدة فى الأصقاع العربية، و بموجبه تتناول الدول العربية داخلية سورية و قسما من العراق. أما دولة سورية العربية فجعل فيها لفرنسا و جدها حق تقديم المستشارين و الموظفين الأجانب، و ذلك إجابة لرغبة الدولة السورية نفسها، أو دول الاتحاد العربى، و قد خوّلت بريطانيا العظمى هذا الحق نفسه فى دولة العراق، و يقضى هذا الاتفاق بان تنشئ فرنسا فى ساحل سورية و فى قلقية، و بريطانيا فى جنوب العراق و فى جملتها بغداد، و فى موانى حيفا و عكا، نظام الحكم الذى تريده، و نوع الإدارة الذى تستحسنه، و أن تنشأ فى فلسطين حكومة دولية.

و سار الحال على ذلك مدة إلى أن تم الاتفاق (١٥ أيلول ١٩١٩) بين (٣-١١)

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٢

الحكومتين الفرنسية و الإنكليزية على أن تخرج بريطانيا عساكرها من الشام، بشرط أن لا تدخل العساكر الفرنسية إلى المدن الأربع منها أى دمشق و حلب و حمص و حماة، لأن بريطانيا قطعت للعرب عهدا أن تؤلف لهم حكومة عربية، و هكذا كان فإن الجيش

البريطاني تراجع إلى شرقي الأردن و فلسطين. و عينت بريطانيا على فلسطين السير هربرت صموئيل و هو إسرائيلي إنكليزي مفوضا ساميا، و عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضا ساميا على سورية و لبنان، و يعمل هذا القائد مستقلا باسم دولته، و كان من قبله من الفرنسيين يعملون حتى في لبنان بقيادة اللورد اللنبي القائد البريطاني العام.

و جاء في هذا الاتفاق أن بريطانيا و فرنسا تضمنان لسكان ما بين جبال طوروس و الخليج العجمي، استقلالاً واسعاً يأمنون معه على حريتهم، و يتمكنون من تجديد حضارتهم، و كانت كل من بريطانيا و فرنسا نشرت بلاغا قالتا فيه: إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا و انكلترا في الشرق تلك الحرب التي هاجتها مطامع الألمان، إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت قرونا طوالاً تحت مظالم الترك - تحريراً تاماً نهائياً و إقامة حكومات و إدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً. و لقد أجمعت فرنسا و بريطانيا على أن تؤكد ذلك بأن تعاوناً على إقامة هذه الحكومات و الإدارات الوطنية في الشام و العراق - و هما المنطقتان اللتان أتم الحلفاء تحريرهما - و في الأراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها، و أن تساعدوا هذه الهيئات و تعترف بها عندما تؤسس فعلاً و ليس من غرض فرنسا و بريطانيا أن تتزلا - أهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدها، و لكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما و مساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات و الإدارات التي يختارها الأهليون من أنفسهم، و أن تضمنا لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع، و تسهلاً عليهم ترقية الأمور الاقتصادية، و ذلك بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين و تشجيعهم على نشر العلم، و وضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية، تلك هي الأغراض التي ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة أ.ه.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٣

فتنة الأرمن و اعتداؤهم على العرب:

كانت الدولة العثمانية في السنة الأولى للحرب أجلت من الأناضول إلى الشام عشرات الألوف من الأرمن، و أعملت فيهم السيف و قتلت منهم مئات الألوف صبراً بطرق مختلفة، لأن بعض أبناء جنسهم قطعوا خط الرجعة على الجيش العثماني أثناء حربه في جبهة روسيا، فصدر أمر الحكومة العثمانية أن يقتل الأرمن قتلاً عاماً، و يقال: إنه هلك فيه نحو مليون نسمة منهم و من لم تستطع الدولة قتلهم بعثت بهم إلى ديار العرب، رجاء أن تجد سيلاً - آخر لقتلهم، و يقال إن الألوف التي جلتها إلى الشام كانت توغز من طرف خفي بقتلها، و لكن العرب أظهروا من الكرم و النصر الضعيف ما فطرت عليه أخلاقهم فلم يمس الأرمن بأذى حتى في أقصى الشرق و الجنوب من الشام حيث تكثر الجهالة و الهمجية.

و لما دخلت جيوش الحلفاء الشام كان في جملة كتائب فرنسا متطوعة من الأرمن، فوقع في نفوس بعضهم أن ينتقموا من العرب عما جتته أيدي الأتراك على أبناء مذهبهم فقابلوا إحسان العرب إليهم بالإساءة، و بدأوا ببيروت فأطلقوا بنادقهم على بعض البيروتيين علناً و قتلوا بعض الوطنيين، ثم أخذوا حيث ينزلون، يبدون من أمارات الغضب ما يتناول الأبرياء مباشرة، و قد تمردت هذه الكتائب حتى على الحكومة التي قبلتها متطوعة في صفوفها مثل الكتبية التي تمردت في الإسكندرونه (١٩١٩) حتى اضطرت القيادة الفرنسية أن تنقلها إلى أذنة، و لم تقف معاملة الأرمن للعرب بالسوء عند هذا الحد بل تكونت منها أسباب لفتنة أهلية في حلب انتهت بقتل و جرح و أحكام بالقتل و إهانة الأعيان.

و قد سألتنا صديقنا السيد أمين غريب و كان في الشهباء قريباً من هذه الوقعة فتفضل و كتب إلينا ما نبثه بنصه، و قوله ثقة في هذا الباب قال:

كان الجيش الإنكليزي محتلاً - مدينة حلب و قد وقفت طلائعه في مسلمية و ما حولها بسبب الهدنة بين الحلفاء من جهة و الدول الوسطى من جهة ثانية.

و كانت تركيا بحسب الشروط قد أخذت تسرح جيشها، فيعود الجنود العرب إلى الشام بطريق أذنه و يمرون بالجنود الأرمن الذين عسكروا في أذنه و نواحيها، و كان هؤلاء الجنود قادمين مع الحلفاء (و أرجح أن قيادة أمورهم كانت في خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٤

أيدي الفرنسيين (فكان كل عربي يمر بالأرمن لابسا ثياب الجيش التركي المنحل يهيج منظره العسكري عاطفة النقمة في قلوب الأرمن إذ يتذكرون فضائع الأتراك بهم و بأهلهم. و لا يعذرونه بأنه عربي، جاهلين الفرق بين هذا و بين التركي فيعاملونه بخشونة. و كنا في حلب نستقبل كل يوم عشرات و مئات من أولئك العرب مسرّحين و هم مهشمو الوجوه مجروحون مضروبون بأيدي الأرمن فكان هؤلاء الجنود ينتشرون في حلب و ينشرون بين أهلها أخبار تعدى الأرمن عليهم انتقاما منهم لما فعل الأتراك بهم، و كان كثير من هؤلاء الجند من الحلبيين المسلمين، هذه أول مقدمة لحادثة حلب.

السبب الثاني- كان الإنكليز عند دخولهم حلب قد أخذوا الأرمن اللاجئيين إليها و وضعوهم في أماكن مخصوصة عنوا فيها بإعاشتهم و ترتيب أمورهم و تحسين حالتهم، فرأى الأرمن من الإنكليز حماة يدفعون عنهم ذلك الشر المستطير و الضيم العظيم، فصاروا كمن انتقل فجأة من الظلمة الحالكة إلى نور كهرباء ساطعة، و تحولوا حالا إلى جواسيس متطوعين للإنكليز ينقلون إليهم الأخبار المتنوعة، و جرأهم هذا الانقلاب في حالتهم من تعاسة و شقاء إلى حرية و إكرام فنشأت فيهم غطرسة غير معهودة لدى الحلبيين فقابلها هؤلاء بالاشمئزاز الطبيعي فازدادت نارها اضطراما، و صارت الخشونة في الحديث على رأس كل لسان أرمني تقريبا، فتكاثرت الحوادث البسيطة في جميع أنحاء الشهباء.

السبب الثالث- الجنيه المصري، فإن الإنكليز طرحوه في حلب عند قدومهم و قد تناقصت في ذلك الحين قيمته الحقيقية عن قيمته الرسمية، و كان الأرمن يتناولون الجنيه من دوائر الاعاشة الإنكليزية و يذهبون لصفه عند الفوّالين و باعه الحمص مثلا، فكان الأرمني يأكل صحن فول بغرشين ثم يبرز للفوال ورقة بليرة و يطلب منه حسم الغرشين و إعطاه الباقي من المال الحجر، و كانت قيمة الورقة ستين غرشا، فكان المسكين يضطر إما إلى خسارة كل موجودات محله و هي لا تزيد عن أربعين غرشا و إما إلى مواجهة شرطى كان غالبا يعطف على خصمه الأرمني تنفيذًا للقانون، و تعددت هذه الحوادث و تنوعت حتى امتلأت منها القلوب و غلت من حرارتها الخواطر.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٥

جاء يوم الجمعة في ٢٨ شباط ١٩١٩ و هو يوم السوق التجارية هناك، فكان مسلم يبيع حمارا و قد ساومه عليه أرمني فاختلفا و تصايحا و تشاتما ثم تلاكما فكانت هذه الشرارة التي شعلت النار في الهشيم. و في سوق الجمعة و ما حولها من الأماكن التي يكثر الأرمن فيها حصل التعدي عليهم و في أقل من ساعة بلغ عدد القتلى ٥٢ و الجرحى مئة، قتلوا كلهم و جرحوا بالمدى و الخناجر و سواطير اللحم لا بالرصاص. و قد اجتهد الأرمن يومئذ اجتهدا عظيما كي يشركوا الحكومة العربية في الجناية عليهم بسبب وجود بعض الجنود و الشرطة الأهلية في أماكن التعدي لأنهم لم يصادفوا منهم عونًا. أما عدد قتلى المسلمين الحلبيين فلم يرد ذكره أمامي لكنه بحسب ما سمعت لا يتجاوز العشرة.

و قد أقيمت ٩٢ دعوى على المتهمين بهذه الحوادث، و آخر ما بلغني أن قد حكم على نحو ثلاثين بالقتل فقتلوا في أوقات مختلفة و صدر الحكم على كثيرين بالسجن. أما الثلاثون عينا من أعيان حلب فقد قبض عليهم الإنكليز يومئذ بتهمة تحريض الأهالي على ذبح الأرمن، لكن هذه التهمة لم تثبت أمام التمحيص الذي أجرته لجنة من المحققين كنت عضوا فيها. و لهذا لم تقع عليهم محاكمة بتاتا، لكنهم جعلوا قيد التوقيف مدة ريثما سكنت الحال، و أذكر أن القائد الإنكليزي لما أراد أن يسرحهم ألقى عليهم كلاما ملخصه: إنكم زعماء و الزعيم لا يعذر على جهله ما يدور بين جماعته. إننا لم نجد عليكم ما يوجب عقابا قانونيا. لكننا لا نبرئكم من التبعة في وجود أسلحة مع بعض أناس منتمين إلى زعامتكم، فعليكم كلما علمتم بعد الآن أن تعلمونا بمن يحمل من الأهالي سلاحا على شخصه أو

فى بيته، و إلا فنحن نتوخى لكم التحقير حتى لا يبقى فى أذهان الناس أثر لاعتقاد الزعامه فيكم» و هلم جراً.

أعمال الحكومه العربيه و حكومه الصهيونيين:

لما جلت الجيوش البريطانيه عن المدن الأربع دمشق و حلب و حماه و حمص أخذت الحكومه العربيه بإمارة الأمير فيصل بن الحسين تعد لها جيشا من الأهلين، و كانت بريطانيا تودى كل شهر لحكومه المدن الأربع مائه و خمسين ألف جنيه خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٦

مصرى، لتستعين بها على تنظيم شؤونها، و كان يصرف من هذا المبلغ جزء مهم على بث الدعوة و تنظيم العصابات، فأخذت بريطانيا تفكر فى قطعها، و لكن الحكومه الوطنيه زادت فى معدل الجبايه و الرسوم حتى تسد العجز يوم انقطاع الإعانه الكبرى، و دخل فى السياسه الوطنيه شبان متحمسون، و أكثرهم من غير أبناء هذه المنطقه الشرقيه منطقه المدن الأربع، و أصبحت لهم منزله عند الأمير يرمون و ينقضون، فأبعدوا عنه كثيرا من رجال الحل و العقد، و أصبح الأمير يعمل هو و الشبان، و المستند فى ذلك على طائفه من أرباب الفتوه و العوام، و كثرت الأحزاب السياسيه فى دمشق حتى زادت على ثمانيه، و كلها بالطبع تريد استقلال الشام، و منها ما يدعو إلى استقلال جميع العرب، و كثرت المنازاع و اشتد التنازع بين أبناء الوطن، و كلهم يريد له الخير و لا يهتدى إلى طريق الصواب. لأن عمال بريطانيا و فرنسا أخذوا يعملون فى الشام، و كل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته و إثبات الأرجحيه لها و توطيد أقدامها. و قد تأفف الناس من السياسه التى جرى عليها الأمير فيصل فى الاعتماد على الغرباء عن منطقه المدن الأربع و نزع ثقته من الأعيان و المفكرين من دون سبب، فأخذوا ينصحون له سرا بالعدول عن هذه الخطه، و أوفد أعيان الدمشقيين و مفكروهم وفدا يبين له ما يجب السير عليه حرصا على المصلحه فلم يلتفت إلى كلامهم. و قال فى بعض مجالسه: إن أولئك الغرباء الذين يعتمد عليهم قد خدموه أكثر من الدمشقيين و أن هؤلاء لا- مأرب لهم إلا- المال. على أن الأيام أثبتت عكس ما قال و لكن السياسه تسود الأبيض و تبيض الأسود.

و كانت المنطقه الساحليه أى التى دعيت باسم المنطقه الغربيه، قد أقامت لها حاكما إفرنسيا على لبنان لأول عقد الهدنه، و أخذت فرنسا تحتل السواحل و ما إليها إلى قلقيه، و لم تمض على ذلك مده حتى بدأت العصابات التركيه تسيء إلى الجيش الفرنسى فى قلقيه و شمالي الشام فقتل من الفريقين مئآت. و كانت فلسطين منذ رحل الترك عنها فى قبضه الجيش البريطانى فلما مضت السنه الأولى للهدنه أصبحت بريطانيا تنفى للإسرائيليين الصهيونيين بما وعدهم به وزيرها بلفور مده الحرب، إذا عاونوا بريطانيا بأموالهم بأن تجعل لهم من فلسطين وطنا قوميا. فجعلت اللغه العبريه لغه رسميه فى فلسطين بمثابه العربيه و الإنكليزيه

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٧

و أخذت الوظائف تنتقل من أيدي المسلمين و المسيحيين إلى أيدي الإسرائيليين، و خص الإسرائيليون بالرعايه على ما لم يكن لهم به عهد، فشق ذلك على أهل الوطن، و اجتمع المسلمون و النصارى و ألفوا جمعيه تطالب بريطانيا بالعدول عن هذا الوعد البلפורى، و كثرت الوفود منهم إلى أوروبا و إلى مصر مركز القيادة العامه للجيوش البريطانيه، فشعرت بريطانيا بصعوبات حقيقه فى إدارة فلسطين (آب ١٩٢١) و حدثت فتنه فى يافا و القدس و غيرها من المدن الفلسطينيه و توقفت الأعمال، و القوم لا عمل لهم إلا إرادة بريطانيا على الرجوع عن وعدها لليهود، و قد ملأ أبناء فلسطين من غير اليهود و هم ثمانيه أضعافهم العالم صياحا و عويلا و لم ينفس لهم كرب، و لم يدركوا لهم غايه. و هكذا كان من شبح الصهيونيين ما أخاف المسلمين و النصارى فاتحدوا اتحادا صادقا و جامعهم فى اتحادهم، و حده المصلحه على طراز كان فيه شىء من الغرابه.

و لما تركت الحكومه العربيه فى دمشق و شأنها على أثر انسحاب الجيوش البريطانيه الى الخط الذى عينته معاهده سايكس بيكو فى فلسطين، رأى الأمير فيصل أن يذهب (١ أيلول) إلى لندرا و باريز ليقهم ساستهما حقيقه أمانى الأمه السوريه و يعرف موقفه من

معاهدة بريطانيا وفرنسا المنعقدة في ١ أيلول ١٩١٩ و خلاصتها تسليم قلقية و المنطقة الغربية من أرض العدو المحتلة أى ساحل سورية إلى الإدارة الفرنسية، فسحبت بموجبها الجيوش البريطانية إلى ما وراء الخط المفروض الذى عين الحدود بين المنطقتين المنوه عنه بمعاهدة سايكس بيكو، أما المنطقة الشرقية و أرض العدو المحتلة أى المنطقة العربية فتبقى الحكومة بدمشق قابضة على زمامها، و تقدم لها الدولة الفرنسية المساعدة الضرورية التى نصت عليها معاهدة سايكس بيكو.

ما استطاع رجال بريطانيا أن ينيلوا الأمير فيصلًا رغائبه، و أحالوه على فرنسا لأن الانتداب فى الشام أصبح لها دون سواها، و فى فلسطين تم الانتداب لإنكلترا و كذلك العراق. فبذل الأمير جهده حتى يفهم رجال السياسة فى بريطانيا و فرنسا ما هى المسألة السورية، و بعد الجهد العظيم لم ير إلا الاتفاق مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كليمانسو و تعهد له أن يكون مع فرنسا و يرضى بانتدابها على الشام، و اعترفت فرنسا لأهل الشام على اختلاف مذاهبهم بالاستقلال

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٨

و حكم أنفسهم بأنفسهم، و ذلك فى اللائحة التى تم توقيعها بين فرنسا و الأمير فيصل يوم ١٦ كانون الأول ١٩١٩ و اعترف الأمير بأن السوريين لا يستطيعون فى الوقت الحاضر، لاختلال النظام الاجتماعى الناشئ عن الاضطهاد التركى و الخسائر المحدثة أثناء الحرب، أن يحققوا وحدتهم، و ينظموا إدارة الأمة دون مشورة و معاونته أمه مشاركة، و طلب باسم الشعب السورى هذه المهمة من فرنسا و قد جاء فى المادة الخامسة من هذه اللائحة أن الأمير فيصلًا يتعهد بأن يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إدارى داخل الدولة تكون مجهزة بأوسع استقلال يلتزم مع وحدة الدولة، و جاء فى المادة السابعة أنه يعترف بالعربية لغته رسمية فى الإدارة و التدريس و تعلم اللغة الفرنسية كما تعلم لغة مساعدة و بصورة إجبارية و مختارة.

و تعهد الأمير بأن يقضى على العصابات التى كانت تعتدى على المنطقة الغربية التى يخفق عليها العلم الفرنسى، و علق اعترافه بالانتداب الفرنسى جهارا على إدماج لبنان فى الشام، ثم عاد إلى الشام (٣ شعبان ١٣٣٧ - ١ أيار ١٩١٩) فاستقبلته السلطان الفرنسية و البريطانية استقبالاً رائعاً، و كان استقباله فى دمشق فخماً للغاية فخطب فى بيروت خطبة رضى عنها الفرنسيون، و لما جاء دمشق خطب خطبة تخالفها إجمالاً و ترضى المنادين بالاستقلال التام الناجز، و بدأ التقلقل فى سياسته و التناقض فى أقواله، لأنه كان بين عاملين العامل الفرنسى و العامل الإنكليزى و هذا أشد و أقوى و ان لم يكن ظاهراً للعيان، و من أشد العوامل فى هذا حالة والده ملك الحجاز، و لأن إنكلترا إذا غضبت تنقطع عنه المعاونة المالية الشهرية، و بدونها يستحيل القيام بشىء من أعمال المقاومة و الدعاية.

المؤتمر السورى و مبايعته فيصلًا ملكاً على الشام:

كانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً تألف من أكثر أبناء الشام و منها فلسطين، لوضع القانون الأساسى و تعيين شكل الحكومة، فقرر إعلان ملكية الأمير فيصل (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ - ٧ آذار ١٩١٩) فبويج له بالملك على الأصول باسم فيصل الأول، و أعلن شقيقه الأمير عبد الله ملكاً

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٦٩

على العراق، بايع أهل الحل و العقد الملك الجديد فرحين مغتربين، و لم يحضر قنصل بريطانيا حفلة التنصيب و حضرها معتمد فرنسا فرحا مسروراً، و كان محباً للعرب مجاهراً باستقلالهم، و تألفت وزارة قالت أولاً إنها لا تقبل بالانتداب الفرنسى الذى كان قرره على الشام مؤتمر سان ريمو فى ١٦ نيسان (١٩٢٠) فدهش المفكرون لهذا التبدل فى السياسة، و ذهبت فى ذلك الظنون كل مذهب، فمن قائل إن الأمير نودى به ملكاً بإيعاز إنكلترا لأنها ذكرت خدماته و خدمات والده و إخوته لها فى الحرب، فأرادت أن تكافئهم و تقوم بما وعدتهم به. و من ذاهب إلى أن فرنسا رأت ذلك من مصلحتها، لأنها كانت عرضت على الأمير أن يقبل بالانتداب الفرنسى على الشام ما عدا فلسطين و هى تدخل له لبنان فى سلك ملكه فلم يقبل. ثم تبين بعد أيام أن المسألة ليست منبعثة إلا عن آراء الأحزاب

لأن من أساطينها من كان يذهب منذ حين إلى أن أوربا إذا رأَت الشاميين ينادون بالأمير فيصل ملكا عليهم، لا تنازعهم في ذلك لأنهم أحرار في بلادهم. و يكون ساسة أوربا أمام أمر واقع لا يجروون أن ينقضوا ما أبرم!! وفي ١٨ آذار أي بعد البيعة بعشرة أيام أبلغت فرنسا و انكلترا الأمير فيصلا بأنهما لا- تعترفان بصحة قرار المؤتمر السوري الذي بايعه ملكا، و دعى إلى الحضور إلى أوربا لعرض قضيته أمام مجلس عال، فاعتذر بأن أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة الشام، و أرسل من قبله رسولا إلى لندرا و طلب إلى فرنسا و انكلترا معاونتهما ليعترفا له بالاستقلال. و كان الأمير يرى من معتمد فرنسا لدى حكومته عطا و معاونه، و كذلك من معتمد إيطاليا التي أرسلت إلى دمشق قنصلا برتبة سفير صغير ليحسن تمثيل دولته أمام الدولة السورية الفتية. أما ملكية الملك فيصل فإن انكلترا كانت على ما قيل تميل إلى الاعتراف بها و لكن فرنسا عارضتها في ذلك.

العصابات بين الساحل و الداخل:

نشطت العصابات في المنطقة الشرقية فأرسلت الدولة المحتلة في المنطقة الغربية (كانون الثاني سنة ١٩٢٠) كتيبتين من الجند بدلالة بعض نصارى جديدة مرجعيون و دير ميماس و القليعة فضربوا قصر محمود الفاعور أمير عرب

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٧٠

الفضل في الخصاص من أرض الحولة فلما رأى عرب الفضل أنهم المقصودون بالذات حملوا على الجند حملة منكرة كانت فيها لهم الغلبة، و قتل كثير من الجند الفرنسي و قليل من العرب و عندئذ هجم نحو مئة و خمسين رجلا من العرب و أرباب القرى المجاورة على جديدة مرجعيون فأحرقوا نحو أربعين دارا و نهبوا بعضها و قتلوا نحو عشرين رجلا- من أهلها. و ادعى العرب أنه قتل من الجند نحو أربعمئة و لم يقتل منهم سوى سبعة أشخاص، و ادعى الفرنسيون أن المهاجمين من العرب كانوا نحو أربعة آلاف معهم ٢٥ مدفعا رشاشا و مدفعان من مدافع الصحراء، و ادعى العرب أنهم ما كانوا أكثر من ثلاثمئة و لا مدافع لهم و لا رشاشات و لم يكونوا ستة إلى واحد كما ادعى الفرنسيين.

و بعد خمسة أشهر (١٥ حزيران) تكررت هذه الحوادث في عين ابل و القليعة و الجديدة نفسها، و ضربت الحكومة المنتدبة على أهل جبل عامل مائتي ألف ليرة ذهابا جزاء عن العصابات في جبلهم. و ذكر الريحاني أن الجبابة الماهرين جمعوا من هذا الجبل أربعمئة و خمسة و ثمانين ألف ليرة دفعوا منها تعويضا لأهل الجديدة خمسين ألف ليرة.

و وقعت وقائع كثيرة في بلاد بشاره و أنطاكية و تل كلخ، كانت العصابات العامل الأقوى فيها، و حاولت المنطقة الغربية إنشاء عصابات مثل عصابات المنطقة الشرقية لتدفع الشر بالشر، و أرصدت في بعض الروايات ثلاثمئة ألف ليرة ذهابا لهذه الغاية و لكن عصابات المنطقة الشرقية كان عملها أعظم و أفضح و اكتفت بها الحكومة المحتلة و لبثت ترتقب نتائج عملها و ربما جسمت أمرها و هولت فيه أكثر من الحقيقة. و مما حدث وقائع النصيرية و الإسماعيلية (نيسان ١٩١٩- ١٣٣٧) فأغار النصيرية على الإسماعيلية في جبل الكلبية في قرى عقر زيتي و خربة الفرس و جمعه شبه و غيرها من قرى الإسماعيلية، و في ناحيتي الخوابي و القدموس، و سكانهما إسماعيلية، فنهبت القدموس و خربت بعض بيوتها، و كانت المعركة دامية بين الطائفتين قدر بعضهم قتلاها بمائتين و زاد آخرون إلى أكثر من ذلك، فزحفت كتيبة من الجيش الفرنسي على قرية الدويلية فأحرقتها، و أحرقت قريتي كاف الجوع و السلورية ثم سارت إلى

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٧١

المريقب مقر صالح العلي زعيم الثورة و من المعتقدين عند النصيرية، و كان جمع القلوب حوله بدهائه، و عشائره تبلغ خمسة آلاف، و معهم عشائر المتاوره، فتألفت كتلة من اثني عشر ألف مقاتل من أهالي جبال النصيرية و تعاهدت على قتال الجيش الفرنسي، فأحرق الجيش بيوت زعيم الثورة فهاجم هذا الحملة و دامت المعركة بينهما سبع ساعات، ثم تراجع الحملة إلى القدموس و منها إلى بانياس و طرطوس.

و من الأحداث خلال هذه السنة ما وقع من اختلاف (شباط ١٩١٩) بين مشايخ الإسماعيلية و جماعتهم من الفلاحين انقلب إلى فتنة، اضطر معها الأمراء أن يستنجدوا بمشايخ النصيرية ليعينوهم على أبناء مذهبهم فعاونوهم حتى انتصروا على جماعتهم، و أراد الفلاحون من الإسماعيلية بعد كسرتهم أن ينتقموا لأنفسهم فهاجموا قرى النصيرية القريبة من أرضهم، و ارتكبوا أنواع القسوة و حرقوا الدور و نبشوا قبور الأولياء من شيعتهم فاضطرت السلطة كما قال الكولونيل نيجر إلى التدخل و اشتعلت نيران الفتنة و لم تخدم إلا في تموز ١٩٢١.

قال: و كادت هذه الفتنة تعم الجبل كله، لو لم يعلن استقلال جبال النصيرية، و ذكر في تقرير له أن المفاوضات كثرت بين جبال النصيرية و أنقرة أى الحكومة التركية، و انقطعت بعد عقد الصلح بين فرنسا و تركيا، و أن البنادق التي جمعتها السلطة من الجبل بلغت خمسة عشر ألفا منها ما وزر حديث جدا و منها إنكليزي، و كان الشيخ صالح زعيم العلويين يرسل انقرة على الدوام. و في تاريخ العلويين أن الثوار الأتراك اعتدوا على القرى الساحلية المتحايدة و أحرقوا ستين قرية و قتلوا بعض العلويين و دامت الفتنة ستة أشهر قتل فيها من أهل الجسر و صهيون أكثر مما قتل منهم في الحرب العمومية الكبرى.

ذكر الجنرال غورو في إحدى خطبه أنه اشترك مع عصابات مرجعيون زعيم و خمسة ملازمين و ٣١٧ جنديا عربيا، و أعانتهم الحكومة العربية بأربع رشاشات ثقيلة و ثلاث خفيفة، و خمسين صندوق ذخيرة، و أن مذابح عين ابل و فتنة العامليين كانت بتحريض من المنطقة الشرقية أى حكومة فيصل في دمشق، و الغالب أن عمال الفرنسيين كانوا يبالغون في أخبار العصابات و يؤكد خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٢

الخبيرون أن العسكر العربي ما اشترك مع العصابات أصلا و لا في وقعة من الوقائع.

على أن بريطانيا و هي الصديقة المحببة إلى حكومة فيصل لم تخل من اعتداء العصابات عليها، اعتدت على أطراف سمخ في المنطقة البريطانية، كما اعتدت على قطار في الشمال يحمل عسكريا بريطانيا. و مما جرى خلال تلك الفترة اتفاق بريطانيا و فرنسا اتفاقا عسكريا على أن تحتل الثانية بعلبك و رياق و حاصبيا و راشيا فزحفت الجنود الفرنسية لاحتلال هذه الأفضية و كانت من عمل الحكومة العربية الفيصلية، و بعد مناوشة في وادي جريان دامت أربع ساعات بين الجيش العربي و الجيش الفرنسي دخل هذا بعلبك، ثم سعى فيصل فأخرجهم من تلك المقاطعة ثانية.

ترامت أخبار العصابات إلى الغرب و تجسمت بالطبع على العادة في نقل الأخبار، و شكوا العقلاء من أهل هذه الديار و خافوا عاقبة هذه السياسة، و أسفوا لتقاتل أبناء الوطن و لتجدد نكرة الدين، و لم يكن قناصل الدول غافلين عما يتم، و كانوا ينقلون أخبار الوقائع في الجملة على وجه الصحة، و أخذت العلاقات تتوتر بين الأمير فيصل و حكومة الانتداب في الساحل، و كانت فاتحة أعمال الجنرال غورو في الشام أن طلب إلى فيصل أن يعطيه البقاع لينقل على الخط الحديدي ما يحتاج إليه الجيش الفرنسي في جهات عينتاب فأبى الأمير إجابة الطلب.

الاستفتاء في الدولة المنتدبة:

زينت بريطانيا للحلفاء إرسال وفد يستفتي أهل سورية و لبنان، في الحكومة التي يختارونها للانتداب عليهما فجاء الشام (حزيران ١٩١٩) وفد أميركي منتدب من الدول ليدرس حالة الشام و يعرف ما يرضيها من الحكومات، فبدأ عمله من الجنوب إلى الشمال، و جاء دمشق فاجتمع إلى العلماء و الرؤساء و القادة، فكانت الكلمة في المدن الأربع مجمعة على طلب الاستقلال التام و رفض المعاونة خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٣

الفرنسية و طلب المساعدة الاميركية أو البريطانية فقط، و كذلك مدن الداخلية، أما في الساحل فالموارنة و الطوائف الباباوية طلبوا فرنسا. و يقول الريحاني: إن الأقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الفرنسي و لم تشمل هذه الأقلية الطوائف المسيحية كلها. قال: و مما

يدعو إلى الأسف أن قد كانت اللجنة الأميركية عاملا آخر من عوامل الشقاق لأنها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدرى مبدأ العصبية الدينية و الطائفية.

وقد قالت هذه اللجنة الأميركية إنها زارت ٣٤ مقاطعة من مناطق العرب و الإنكليز و الفرنسيين، (فلسطين و ساحل سورية و داخلها) فيها ٣٦٥،٠٠٠، ٢ من المسلمين و ٥٠٠، ٥٨٥ من النصارى و ١٤٠، ٠٠٠ من الدروز و ١١٠، ٠٠٠ من اليهود و ٤٥٠، ٠٠٠ من الطوائف الأخرى. و هو إحصاء تقريبي و أنه بلغ مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة ٩١٠٧٩ عريضة و في كل واحدة خمسون توقيعاً على الأقل، و أن مطالب الأهالي تنحصر بطلب إنشاء مملكة ملكية ديمقراطية دستورية لا مركزية.

و لما جاءت اللجنة الأميركية إلى دمشق، أصدر المؤتمر السوري قراراً فحواه طلب الاستقلال التام لسورية، و الاحتجاج على المادة الثانية و العشرين من قانون جمعية الأمم، و رفض المساعدة الفرنسية و طلب مساعدة الولايات المتحدة لمدة عشرين سنة، و إن لم تقبل هذه فبريطانيا العظمى بنفس هذه الشروط، و أن العزم معقود على تأسيس حكومة ملكية ديمقراطية يرأسها الأمير فيصل، و تقوم على أسس القومية و تحفظ حقوق الأقلية. و كانت الأكثرية المطلقة في الحكومة العربية بجانب أميركا في مسألة الانتداب، و في الساحل كانت لفرنسا.

و لما كانت أميركا لا تقبل بأن تنتدب على بلد لا شأن لها فيه فالانتداب يكون لبريطانيا، و هذا ما كان يريده فيصل لتكون الأصقاع العربية كلها ذات انتداب واحد، و تكون روحها واحداً و هي الروح البريطانية و خالفه فريق صغير فقال بأن في تعدد الانتدابات فرجا للشام يقرب أيام استمتاعها بحريتها، ناجية من إشراف الدول المنتدبة، و قد كانت ثقة الأمير بالإنكليز السكسونيين في القضية السورية عظيمة جداً. كتب إلى صاحب هذه الخطط من باريز يوم ٤ آذار ١٩١٩ كتاباً خاصاً جاء فيه: «و إذا استثنينا بعض من يريد الاستعمار خطط الشام، ج ٣، ص: ١٧٤

فجميع أصوات العالم معنا فلا يشق عليكم ما يبلغكم من بعض الجهات فهي قواقع و ضرب دفوف لا خوف منه هذا بشرط أن نكون موحدى الفكر و العمل.
الأمه الاميركية و البريطانية معنا و سنصل إلى ما نحن نتمناه».

أفكار فيصل و العبث بالسياسة:

تجلت أفكار الأمير فيصل بمحجىء اللجنة الأميركية كل التجلى، و كانت الدعوة أولاً منذ يوم رفع العلم العربي على الأصقاع الداخلية أن الاستقلال تام للولايات العربية تتناول الوحدة الشام و الحجاز و العراق و سائر الأقطار العربية في الجزيرة، و ما فتئت الدائرة تضيق حتى أخذوا يدعون إلى الشام بحدوده الطبيعية، ثم سكتوا عن فلسطين، لأن العلم البريطاني كان يخفق عليها منذ خروج الأتراك منها، ثم اكتفوا بالدعوة لاستقلال سورية، ثم تخلوا عن لبنان و اكتفوا بالدعوة إلى استقلال المدن الأربع و هذه أيضاً لم تسلم لهم على ما يراد لها. و ذكر الريحاني أنه كان ليفصل رأى في تقسيم العمالات إلى مقاطعات وفقاً لحالتها الطبيعية و العقلية و التهذيبية صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذى جاء دمشق يهنئه بعودته من باريز، و ليؤكد له أن فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام إلى سورية. و قد أخذت الحكومة العربية بعد أن نودى بالملك فيصل ملكاً على الشام تزيد في الضرائب و شرعت بالتجنيد (كانون الأول ١٩١٩) و جعل البدل النقدي عن الخدمة العسكرية ثلاثين ليرة عثمانية لسته أشهر حتى زادت وارداتها من ٨٠٠، ٠٠٠ إلى ١، ٣٠٠، ٠٠٠ و ذلك لتستعين بهذا المال على مقاومة فرنسا، و قد دفع الناس الأموال تخلصاً من الخدمة العسكرية، و كان بقى معهم نقد كثير من الحرب العامة، و منه ما صرفته الحكومتان البريطانية و العربية عقيب الاحتلال، و كيف يقاوم جيش جديد جيش حكومة كبرى و هو قليل العدد و العدد، فيه ظواهر و مظاهر لا حقائق يعول يوم البأس عليها، باتت المسألة أشبه بالهزل منها بالجد.

لما سألت الوزارة أمراء الجيش بحضور الملك فيصل عما عند الجيش العربي من الذخائر و العتاد و في كم يوم تنفذ إذا اشتبكت

الحرب، أجابوا إنها تنفذ

خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٥

في ساعتين و قد لا تنفذ في يومين. فسألتهم الوزارة و على ماذا تستندون في الحرب بعد نفاذ الذخائر؟ فأجاب بعضهم أنهم يأملون في أول ملحمة أن يدحروا الجيش الفرنسي الزاحف و يستولوا على ذخائره و عتاده، و علق بعضهم آماله على الجيش العربي في حلب. و قال آخر: إننا ننسحب إلى رؤوس الجبال، و نعتمد على حصوننا الطبيعية و نحارب حربا دفاعية بالمناوشة. و لما سألتهم الوزارة على ماذا تعتمدون في هذه الحرب، و على أى شىء تتكلمون في المقاومة؟ أجابوا على حماسة الأمة و معاونتها فأجابهم أحد الوزراء: دعونا من البحث في المعنويات فإننا نقدرها مثلكم، و أخبرونا عن قوتكم الفعلية المادية و قولوا كم تمكنكم المقاومة؟ فقالوا: ست ساعات إذا اشتد لظى الحرب دفعة، و لم نوفق لدحر العدو و هزيمته.

و هكذا كان الأمان على مصلحة الأمة يفكرون و يتناقشون قبيل أن ساقط فرنسا جيشها من الساحل إلى الداخل، أما العامة و من كان يحمسهم فقد عن مبلغهم من الخيالات و لا حرج. و لقد قال يوما أحد دعاة العامة ممن أضروا كثيرا بحماسةهم قضية الاستقلال في مجلس عقد بدمشق من خاصة القوم ليقروا الحرب مع فرنسا أو الصلح و تأليف عصابات تغزو المنطقة الغربية: «إن فرنسا عجزت بعد الحرب العامة أن ترسل إلى الشام بضعة أنفار من جيشها، و ليس لديها مال، و ما تهددنا به من قوتها لا تستطيع إنفاذه، فالأولى أن نتكل على الله و نبدها بالحرب.» فأجاب صاحب هذه الخطط و كان في الجلسة من جملة المدعوين: «لست من أمراء الجيش حتى أعرف ما عنده من القوى المادية، و لكننى أعرف فرنسا و قوتها و لا أكون إلى المبالغة كثيرا إذا قلت إن فرنسا تستطيع أن تكتسح الشام من جنوبه إلى شماله إذا أرسلت علينا عوران حربها الأخيرة فقط، فيجب علينا يا سادتي أن لا نعش أنفسنا و نندرع بالمحال».

حملة فرنسا على المدن الأربع:

كانت الحكومة العربية في أيدي العامة و الهزائين من أمراء جيشها، و خطط الأحزاب متضاربة، و أعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم، و كان الجنرال غورو المفوض السامي في سورية و لبنان يعزز جيشه في الساحل و يستدعى خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٦

من فرنسا فرقا من الجند فأرسل يوم ١١ تموز ١٩٢٠ إلى الملك فيصل كتابا مطلعاه: بينما كانت السكينة سائدة في سورية أثناء الاحتلال الإنكليزي ابتداء الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية و لا يزال آخذا بازدياد منذ داك الوقت. و أرسل إليه أيضا يوم ١٤ تموز ١٩١٩ بلاغا يدور على خمس مواد و هى أن يعطى لفرنسا الخط الحديدي من ريباق إلى حلب، و أن تلغى حكومة فيصل القرعة العسكرية التى أخذت تجمعها و يقبل الانتداب الفرنسي و النقود السورية و يضرب على أيدي الأشقياء. فطلب الملك مهلة أربع و عشرين ساعة فانتهت مدة الأنداز الأول في ١٨ تموز الساعة الحادية عشرة و النصف تقريبا ثم مددت أربع و عشرين ساعة أخرى ثم مددت ثانية و انتهت يوم ٢٢ تموز. و وقع تأخير في إرسال الجواب بالإيجاب أى بقبول مطالب فرنسا و كان الداعى إليه انقطاع الأسلاك البرقية، فأمر الجنرال غورو جيشه بالمسير إلى دمشق بقيادة الجنرال غوايه يوم ٢١ تموز فسار إلى البقاع و احتل ريباق و أخذ يصعد أكمات مجدل عنجر، و كان الجيش العربي اتخذ له حصونا في تلك الأكمات، و تجمع بعض عامة دمشق و بضع مئات من البدو عسكر البيشة الحجازى و أخذوا يخفون إلى مقابلة الجيش الفرنسي الزاحف فوصلوا إلى جبال ميسون، و في يوم ٢٢ تموز خرجت كتبية عربية من حمص مغيرة على الجند الفرنسي في تل كلخ فانهمزمت الكتبية و أخذ منها ١٥١ أسيرا بينهم ضابطان و ثلاثة مدافع رشاشة.

و في ٢٢ تموز أعلم الجنرال غورو الملك فيصلا أنه مستعد أن يتوقف عن الزحف إذا قبل بمواد الإنذار و بالشروط التالية (١) تنشر حكومة دمشق منشورا كتب مسودته الفرنسيون و بينوا فيه السبب الذى حملهم على إعطاء الأوامر للجند بالزحف على دمشق و السبب

الذي توقف من أجله ذلك الزحف.

(٢) الموافقة على بقاء الجنود الفرنسية حتى نهاية الخط الذي وصلوه وقتئذ ليوم تنفيذ جميع شروط الإنذار. (٣) تسليم خط السكة الحديدية من رياق إلى التكية للفرنسيين وبقاؤه بأيديهم في هذه المدة. (٤) سحب جميع الفصائل الشريفة إلى شرقي هذا الخط و جعل الدرك تحت رعاية الفرنسيين بالمنطقة التي تم احتلالها. (٥) تتوقف حكومة دمشق عن إرسال المعاونات للعصابات المنظمة خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٧

التي تعمل في المنطقة الفرنسية. (٦) نزع السلاح من أهالي دمشق و من الجنود الذين سرحوا. (٧) قبول بعثة إفرنسية بدمشق تقف على صورة تنفيذ شروط الإنذار، و ترسم خطة للمباشرة بتطبيق الانتداب الفرنسي على الشام. كان الجيش الفرنسي الزاحف على دمشق مؤلفا من عشر كتائب مشاة و ست كتائب فرسان و سبع بطاريات من الجنود الإفرنسية و السنغالية و المراكشية و الجزائرية، و الجيش العربي مؤلفا من بضعة ألوف سطر عددها على الورق فقط و هو مشتت في حلب و حمص و دمشق، و ليس له وحدة في القيادة.

و صدر الأمر إلى الجند المرابط في حصون المجدل من الجيش العربي بالتسليم و فض الجيش، ثم عاد فصدر الأمر ثانية إلى جماعة الحصون أن يبقوا على المقاومة، و لم يكن عددهم يزيد على مئة و عشرين جنديا. و أصبح الحكم في دمشق للغوغاء الذين كان يحمسهم زعمائهم، و هجموا على القلعة لأخذ السلاح منها فذهبوا الذخائر فاضطرت الحكومة لحفظ الأمن أن تستعمل فيهم القوة فقتل منهم نحو مئتي إنسان، و بات الناس في كرب عظيم. و حدث تبلبل، فلم تصل برقية الملك فيصل إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية بقبول شروط فرنسا كلها إلا بعد أن تقدم الجيش الفرنسي و وصل إلى ميسنون من طريق دير العشائر إلى الميماس و قطع خط الرجعة على العرب، فدارت الحرب في عقبه الطين بين الجيش الزاحف و بين سرايا الجند العربي و جند البدو و المتطوعة، و كان الجيش العربي أربعمائه جندي و مئتين من الهجانة يصحبهم و يتبعهم من الأهالي و العربان عدد يختلف بين الأربعة و الخمسة آلاف على رواية الريحاني، فقتل في أربع ساعات بقنابل الطيارات و قذائف البنادق و الرشاشات كثير من الفريقين، و في مقدمه الوطنيين يوسف بك العظمة ناظر حريية الملك فيصل و كان من أكبر القائلين بالمقاومة و عرف أنه غلط في تقدير القوة و سبق السيف العذل بعد صدور أمر الملك بفض الجيش و تراجع القوة المنظمة في الجملة، فأثر الانتحار في خط النار و استشهاد في ساحة الحرب محافظا على شرفه العسكري، و قد قتل الجيش الزاحف طائفة من الأهالي الذين حاربوه بعد أن سقطوا أسرى في يده لأن قانون الجندية يبيح قتل غير الجند إذا اشتركوا في المعركة، و في رواية (٣-١٢)

خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٨

أنهم أجهزوا على الجرحى الوطنيين أيضا و حفروا قبورهم بأيديهم قبل أن يرموا بالرصاص. و ترك الجيش العربي في ساحة الحرب ١٥ مدفعا قتل إن بعضها كان معطلا قبل أن ينصب في أماكنه و ٤٠ رشاشا و ذخائر كثيرة. حدثني ثقة زار ساحة ميسنون غداة الواقعة رواية عن ضابط سنغالي برتبة وكيل أن قتلى الوطنيين في ميسنون من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ و أنه قال له الضابط: أقسم بالله أنه لم يلوث أحد السنغاليين يده بدم أحد من الوطنيين. قال محدثي: إن كل من رأيهم مجدلين من قتلى الجيش الداخل هم من السنغاليين ليس فيهم أحد من الجنس الأبيض.

و عاد المنهزمون من ساحة الحرب فدخل الجيش الفرنسي من الغد إلى دمشق (٢٥ تموز) و أبلغ رئيس البعثة الفرنسية الكولونيل تولا الملك فيصل أن يغادر دمشق عملا بقرار حكومة الجمهورية بأسرع ما استطاع في السكة الحديدية الحجازية مع عائلته و بطانته على قطار خاص أعارته إياه فأذعن، و عين قبيل رحيله علاء الدين الدروبي رئيس وزارة على أن يختار بنفسه من يشاء من الوزراء، أعطاه تقليد الوزارة قبل سفره ليملاه بالوزراء الذين يختارهم دليل الثقة به. فلم يلبث أن ألقى خطابا في دار الحكومة حط فيه من كرامته ولى نعمته الملك فيصل فاشمأز أرباب الوفاء من مصانعته، و لم يلبث أن أرسل إليه برقية يقول فيها: إن السلطة

العسكرية تبلغ جلالتمكم أنها تطلب خروجكم من حوران و أنها وضعت تحت أمركم قطارا فإن لم تفعلوا ضربت قنابل طائراتها قرى حوران.

سقطت دمشق يوم ٢٤ تموز بعقب وقعة ميسنون، و سقطت حلب يوم ٢٣ بيد الجنرال دى لا موت عقب مناوشة طفيفة، و حمص و حماة يوم ٢٨ منه بدون صعوبة فقبضت فرنسا على قياد المدن الأربع و حكم الديوان الحربى الفرنسى على ٥٨ رجلا- من الوطنيين أكثرهم من حاشية الملك و بعضهم من أهالى جبل عامل و تركت الحكومة المنتدبة لهم المجال حتى انهزموا، و منهم من لحق بالملك و منهم من سار إلى شرقى الأردن أو فلسطين أو مصر.

لم يسمع للعقلاء رأى قبيل هذه الحوادث، و كثير منهم كان يكتف فكره لئلا يرمى بضعف الوطنية، و منهم من لم يسمعهم السكوت فصرحوا و أودوا

خطط الشام، ج٣، ص: ١٧٩

و هجوا، و نال العامة منهم بإيعاز الزعماء. و لكن كان أهل المصالح الحقيقية يحاذرون التهور، و يودون لو تتفاهم الحكومة الوطنية مع حكومة الانتداب، و لطالما نصحوا سرا للقائمين بالدعوة إلى الاستقلال أن يتروا فى الأمر و لا يعمدوا إلى المقاومة الفعلية لاعتقادهم مضرة ذلك، و أن يجعلوا سلاحهم المناقشة بالحسنى لئلا- تنزل فرنسا المدن الأربع حربا، و أن يقبل مستشاروهم و بعض مطالبهم الخفيفة، و أن يرسل إلى باريز و لندرا وفد من أرباب المكانة و المعرفة يطلب شروطا موافقة للانتداب فى الشام و هو واقع لا محالة، إذ ليس فى يد الملك فيصل و لا فى يد أبيه الملك حسين عهد و ثيق من دول الحلفاء يثبت له أو لأبيه ملكية الشام، و غاية ما ربحه الملك حسين من اتحاده مع الحلفاء فى الحرب استثنائه بملك الحجاز. و كان الحلفاء و عدوا أن يمنحوا العرب استقلالهم و يساعدهم على نيته، و بهذه الوعود انضم نحو ثمانين ألفا من العرب إلى صفوفهم و قاتلوا معهم الأتراك بقيادة الأمير فيصل الذى كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى قائد من قوادهم، و لكن الحلفاء لما تم لهم الظفر لم يفوا بوعودهم على ما يرضى العرب.

بعد وقعة ميسنون المحزنة فصلت إدارة البقاع و بعلبك و حاصبيا و راشيا عن أحكام المدن الأربع و استقل الجنرال دى لا موت بأحكام حلب و دير الزور و الإسكندرونة، و ظلت دمشق و حمص و حماة و حوران دولة ذات، وزارة و كانت عجلون و الصلت و عمان و معان جعلت حكومة برأسها سموها حكومة شرقى الأردن ثم دعيت حكومة الشرق العربى، و ذلك بإمارة الأمير عبد الله شقيق الملك فيصل، و هكذا دخلت المدن الأربع فى الانتداب الفرنسى كما دخل الساحل لأول عهد دخول الحلفاء. و خطب الجنرال غورو فى دار الحكومة بدمشق قائلا إن فرنسا ما جاءت إلى هذه الديار مستعمرة و سترونها أمينة على تقاليدها، رغبة فى أن تضمن استقلالكم فى عهد الوصاية الحر، قال إن العصاة التى كانت تهاجم الجيش الفرنسى لم يكونوا من الأشقياء فقط، و كان يقودهم ضباط الجيش النظامى، و تمتد بالأسلحة و الأعتاد و المال، و مع أن فتكها لم يكن شديدا فى جنود فرنسا فإن أضرارها كانت عظيمة على الطوائف العزلاء إذ دمرت بيوتا و أحرقت قرى و نهبت الأموال و المواشى، و كانت

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨٠

أعمال الحكومة الشريفة الرسمية لا تقل بإزاء فرنسا عداء عن أعمال عصاباتهما ه.

و كان غورو نشر منشورا فى الطيارات على أهالى سورية قبيل وقعة ميسنون قال فيه: «قيل لكم إن فرنسا ترغب فى استعماركم و أنها تريد استعبادكم و ما ذلك إلا إفك مبین. إن فرنسا قبلت الانتداب التى عهد به إليها مؤتمر السلم على سورية، و هى عازمة على أن تدع الموظفين الوطنيين يزاولون أشغالهم بشرط أن لا يعملوا بسلطتهم ضدها فيخونون العهود و المواثيق المقطوعة»

تعريف الانتداب و سياسة الأتراك فيما يتعلق بالشام:

أما الانتداب فلفظ حديث يراد به الإشراف أو الكفالة و هو لا يخرج عن الحماية إلا باعتبارات قليلة. و قد جاء فى صك عصبة الأمم

في تعريفه أن الشعوب التي جعلت تحت حكم الانتداب المحدد و الموقت و الذى طلبوه من أنفسهم هم مستقلون و أن المنتدب عليهم هو المرشد الموقت ريثما يصبحون قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم. و قال بوانكاره من ساسة فرنسا: لسنا فى الشرق لنضم أقطارا إلينا و لا لنضع حمايتنا و إنما نحن هناك بموجب انتداب تلقيناه من عصبة الأمم تنفيذاً لمعاهدة فرسال. و قال ديوى من علماء القضاء فى فرنسا: الانتداب أنفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى هو عبارة عن حماية مستتره. و فى المجلة النيابية أن مدة الانتداب تقسم إلى ثلاثة أدوار ابتداءً الدور الثانى فى ٢٩ أيلول ١٩٢٣ و ينتهى فى ٢٩ أيلول ١٩٢٤ و هذا الدور يسمونه دور تنظيم الانتداب، و فى انتهاء الدور الثانى يجب أن يكون هناك حكومات وطنية و عندها يدخل الانتداب فى دور التصفية، و بعد انتهاء الدور الثالث للانتداب تعقد معاهدة تحالف موقتة تقوم مقام النظام الحالى، و تحدد باتفاق مشترك حقوق المنتدبين و المنتدب عليهم و سلطتهم، و هذا يعد انتهاء للانتداب. و لم يحدد مدة معينة للانتداب فى سوريا و لبنان و فلسطين.

جعلت معاهدة صلح فرسال (١٩١٨) الانتداب ثلاث طبقات فما رمز له بحرف (أ) هو الانتداب الخفيف مثل انتداب فرنسا فى سوريا و لبنان و الانتداب البريطانى فى فلسطين و العراق، و يقضى على الدولة المنتدبة على هذه الأقطار أن تقصر مهمتها على تقديم مساعدتها لها. و من الانتداب ما رمز له بحرف (ب) و هو الانتداب ببعض الشروط. و منه ما رمز له بحرف (ج) و هو انتداب أمه

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨١

على أقاليم تعد جزءاً من أملاك الدولة المنتدبة. فجعلت الشام من الصنف الأول من الانتداب أى إنه اعترف باستعدادها للاستقلال إذا دربت عليه زمناً.

قال الرئيس ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى شروطه الأربعة عشر: أما الأمم الأخرى التى هى تحت النير التركى فيكفل لها كيان آمن و يمكن لها حتى ترتقى فى استقلالها من غير ممانعة، و لم يسمع أن أحداً من أهل السلطات الأجنبية فى الشام قال إنها غير مستقلة منذ سقطت فى أيدي الحلفاء، و قال أحد كبار رجالهم: إن ما عملته فرنسا فى الجزائر فى القرن الماضى يتعذر جداً عمله فى هذا القرن و الناس هنا غيرهم هناك، و الأحوال فى الشام غير الأحوال فى الجزائر.

و فى المادة الأولى من نص الميثاق الوطنى التركى الذى تباع الأتراك على العمل به بعد سقوط الدولة العثمانية ما نصه: «إن الأقطار التى تسكنها أكثرية عربية من أرض المملكة العثمانية و هى التى كانت تحتلها الجيوش المحاربة حين عقد الهدنة فى ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ ينبغى أن تعين مصيرها بنفسها و ذلك باستفتاء الرأى العام فيها استفتاء حراً. و هكذا كان كرم الأتراك مع إخوانهم العرب أجازوا لهم أن يعلنوا استقلال الشام عند آخر ساعة من سقوط عاصمة الشام بيد الحلفاء، و رخصوا لهم أن يعينوا مصيرهم بأنفسهم فى ميثاقهم الوطنى و هم يومئذ لم يكونوا يملكون لأنفسهم حولاً و لا طولاً، و لما عرضت المسائل العثمانية على بساط البحث فى مؤتمر لوزان لم يجر ذكر الشام إلا من حيث الحدود التى تم الاتفاق عليها بين فرنسا و تركيا بصورة لا تزال سرية عرف منها أنه اقتطع جزء عظيم من التخوم الشمالية فى الشام أضيفت إلى آسيا الصغرى بدون حق. هذا و الأتراك كانوا ظافرين بأعدائهم اليونان الذين كانوا استولوا على معظم ولايات أدرنة و إزمير و بروصة بعد الحرب العامة فقويت جمهورية تركيا التى جعلت مقرها فى أنقرة بدلاً من الإستانة و هزمت جيش اليونان شر هزيمة (آب ١٩٢٢) و كان ظفراً داوى به الأتراك جراحهم بعد هزائمهم فى الحرب العالمية.

و قد نصت المادة ٩٤ و ٩٥ من معاهدة الصلح التى عقدت فى مدينة سيفر يوم ١٠ آب ١٩٢٠ بين الحلفاء و المشتركات معهن من الدول و بين الدولة

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨٢

العثمانية أن المتعاقدين على اتفاق بأن الشام و العراق و فلسطين، عملاً بالفقرة الرابعة من المادة الثانية و العشرين من الجزء الأول (عهد جمعية الأمم)، معترف بها موقتاً دول مستقلة على شرط أن تبذل لها النصائح و المعونة من دول منتدبة عليها تقودها فى إدارتها إلى الزمن الذى يستطعن أن يسرن فيه بأنفسهن و أن المنتدب على فلسطين يكون مسؤولاً عن تنفيذ التصريح الذى صرحت به حكومة

بريطانيا يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ و وافقت عليه الدول المحالفة بشأن تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، على أن لا تمس فيها الحقوق المدنية و الدينية للطوائف غير اليهودية، و لا تمس الحقوق و الأنظمة السياسية التي يستفيد منها اليهود في كل بلد. و كان الحلفاء تفاوضوا مرات بشأن الشام فأروا أن تكون فلسطين دولية، و لكن الأتراك لما هاجموا ترعة السويس زاد الإنكليز معرفة بمكانة هذا القطر الحربية فأروا أن يجعلوها منحدرًا لمصر بالفصل بين عرب هذه و عرب الشام فأخذوا يطالبون بحيفا و عكا ثم بفلسطين كلها و تعهدوا لليهود أن يجعلوها لهم و طنا قوميًا، و تعهد الحلفاء تعهدات مبهمه بشأن الشام حتى يعاونهم برجاله و نفوذه.

تأثر الحورانيين بعوامل الفيصلين و مقتل وزيرين و قتل اليهود في فلسطين:

غادر الملك فيصل دمشق في زمره من عماله و أكثرهم من السوريين، و خرج من الجنوب غداة جاء الجيش الفرنسي من الغرب، فطفقت الحكومة المحتلة تجمع السلاح من البادية و الحاضرة، و وضعت على المدن الأربع غرامة حربية قدرها مئتا ألف ليرة عثمانية ذهبًا، و لكن أهل حوران لم يخضعوا للأمر و مردوا على الحكومة و بث فيهم بعض أعوان الملك فيصل فكر الثورة، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي أن يذهب بنفسه لإلقاء النصائح عليهم مستصحبًا معه وزيرين من وزارته أحدهما عبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى أكبر أعيان دمشق، فهاجمهم بعض الحوارنة في محطة خربة الغزاله و أنزلوهم من القطار و قتل الدروبي و اليوسف، و قتل بعض ركاب القطار، مع أن رئيس الوزارة كان عارفاً بأفكار الحوارنة من جهة حكومة دمشق، و وصمهم لها بالخيانة لأنها سلمت سورية للأجانب. و انجلت وقعة

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٨٣

حوران عن جمع غرامة قدرها مئة و عشرون ألف ليرة عثمانية ذهبًا منها دية الوزيرين لكل من أسرتها عشرة آلاف ليرة و حكم على بعض المتهمين بمقتل الوزيرين فزادت حوران خرابًا فوق خرابها.

و في آب ١٩٢٠ زار المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل الشرق العربي و مما قاله في خطاب له في الصلح: إن الحكومة الفرنسية كررت تأكيدات بأنها لا تريد أن تتدخل بأى شكل كان في شؤون هذه المقاطعة، و بما أن الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد أصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن إدارة دمشق. تسألونني عن نوع المساعدة التي تريد إنكلترا ان تقدمها لكم فأجيبكم إنها لا تريد أن تضمكم إلى الإدارة الموجودة الآن في فلسطين، بل تنشئ لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم، و سترسل إليكم عددًا قليلًا من الضباط و رجال القضاء محنكين عارفين باللغة العربية و أحوال الشعب العربي فيسكنون البلدان الكبرى في هذه المقاطعة، و أنتم تعرفون أكثرهم شخصيًا و سيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه أى هجوم خارجي و في تنظيم الشرطة لصيانة الأمن في الداخل و ترقية التجارة و تأييد العدالة و إنفاق ما تدفعونه من الضرائب بأمانة تامة على مصالحكم و احتياجاتكم و يستشيرونكم في الغاية التي تدفع لأجلها الأموال و إصلاح الطرق و ترميمها و إنشاء المدارس و تقديم المعاونات الصحية. إلى أن قال: و ستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية إلى موظفيها هنا مبنية على قاعدة مساعدة الأهالي ليحكموا أنفسهم بأنفسهم، فمراعاة هذه المبادئ المؤسسة على العدل و الشرف اللذين تمتاز بهما الإدارة البريطانية في جميع أنحاء العالم هي الأسس الصالحة لكل حكومة صالحة .. ١٠٥. و في كتاب «عامان في عمان»: و قد قوبل هذا البيان من أهالي المنطقة بفتور دل عليه أن زعماءهم جمدوا بعد أن سمعوه جمود الحيرة لا يدرون أشر أريد بهم أم أراد بهم ربهم رشدًا ...

و لما سئلوا عما يجول في نفوسهم وقف أحدهم و قال: يظهر أن أوربا عدلت عن فكرة اعتبار الكفريات في الأمم و رجعت إلى القرعة فهي بينما تمنع سورية و لبنان و فلسطين الاستقلال تعترف به لشرقي الأردن ...!

و اشتد الهياج بين الصهيونيين و أعدائهم من السكان في حيفا في نيسان

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٨٤

١٩٢٠ و نشبت الفتنة في القدس سفكت فيها الدماء و نهبت مخازن اليهود و لو لا مهارة الإدارة البريطانية لامتد لهيب العداء إلى سائر مدن فلسطين لما ملئت به النفوس من الغيظ من الصهيونية و الصهيونيين.

تقسيم الشام و خرابها و استقلال لبنان و العلويين و مجلس فلسطين و دولة شرقى الأردن و دولة جبل الدروز:

و فى أول أيلول ١٩٢٠ أعلن استقلال لبنان فى حرج بيروت بحضور الجنرال غورو، و أضيف إلى لبنان الأصلي الذى عرف بحدوده بعد سنة الستين جبل عامل و وادى التيم و البقاع و بعلبك و طرابلس و عكار و الحصن و صافيتا فاحتج فريق من أهالى بيروت و طرابلس مع بقية البلدان المنضمه من الداخل إلى متصرفية جبل لبنان قائلين إن هذا الضم جرى بدون رضى الأهالى و بغير استفتاء، و إن ذلك مخالف لتصريحات وزارة الخارجية فى فرنسا و بريطانيا القائلة بأن الأقاليم التى انسلخت عن الدولة العثمانية مستقلة و للأهالى الحرية التامة فى تقرير مصيرهم و تأسيس حكوماتهم الوطنية، و أن الحلفاء لا يرغمون السكان على قبول نظام معين. و جعل للبنان حاكم إفرنسى، لأن فرنسا رأت أن الاختلاف بين طوائفه لا يمكن معه إرضاءهم كلهم، إذا عين أحد أبناء الطوائف الأخرى حاكما، فعادت نعمة الطائفية إلى الجبل بصورة أشد مما كانت على عهد الترك، و قسمت مقاعد الحكم على الطوائف، و أقيم للبنان الذى دعى لبنان الكبير مجلس نيابى تنفذ المفوضية العليا للجمهورية الفرنسية فى سوريا و لبنان ما تراه صالحا من مقرراته، و قسم لبنان إلى ألوية و أقضية يدير شؤونها موظفون و طنيون، و يدير الحكومة المركزية فى بيروت عدة مديرين أو وكلاء أو وزراء يتقلد زمامها الوطنيون، و لكل مدير منهم مستشار إفرنسى. و تمت للموارنة فى لبنان أميتهم التى طالما نشدوها من حكم فرنسا لهم، و نجت الشام من تهديد بطيركهم و كانت انتدبته طائفته إلى مؤتمر الصلح لينظر فى استقلال لبنان، فقال و قد هدد بأن لبنان يبقى محصورا فى حدوده القديمة إذا أصر على الرفض:

«إننا نفضل الموت جوعا فى ظل صخورنا على أن نكون تابعين لدمشق!»

و اقتطعت جبال النصيرية و أصبح يقال لها أرض العلويين جعلت حاضرتها

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨٥

اللاذقية و حاكمها إفرنسى و إدارتها أشبه بانتداب الدرجة الثانية مما رمز له بحرف (ب)، و كان تقسيم القطر على هذا المنوال مبدأ خرابها الاقتصادية فاضطر إلى تأليف عدة وزارات و مجالس و إدارات و منها ما لا عمل له فى الواقع و نفس الأمر إلا قبض الرواتب من مال المكلفين، و شوه الإسرار فى أموال الحكومة و قد حاولت الحكومات غير مرة أن تقتصد و ما برحت الأموال تصرف فى الأمور المستهلكة أكثر من الأمور المستحصلة، و لا نسبة بين رواتب كبار الموظفين و صغارهم.

و فى تشرين الأول ١٩٢٠ انتخب فى فلسطين مجلس شورى مؤلف من عشرين عضوا نصفهم من الموظفين و النصف الآخر نصبتهم الحكومة، و هم أربعة من المسلمين و ثلاثة من المسيحيين و ثلاثة من الإسرائيليين، و وظيفه هذا المجلس استشارية فقط. فقامت فلسطين مسلموها و نصارها محتجين على هذا المجلس. و فى تشرين الثانى ١٩٢٠ قدم إلى عمان الأمير عبد الله بن الحسين لاسترجاع دمشق من فرنسا و إرجاعها إلى السلطة الشريفة فأرضته بريطانيا بأن جعلته أميرا على عبر الأردن على أن لا يمس أراضي الانتداب الفرنسى، و قد حدثت بعض حوادث على التخوم بين حوران و البلقاء، و تألفت هناك عصابات لغزو الأراضي التى جعلت تحت الانتداب الفرنسى و بعد أن قصدت إحدى العصابات اغتيال الجنرال غورو المفوض السامى فى ٢٣ حزيران ١٩٢١ على ٤٠ كيلومترا من دمشق فى طريق القنيطرة، و لم ينالوه بأذى و قتل أحد ضباطه، طوى بساط العصابات و المؤامرات، و كان أمر هذه العصابات مما دبر فى الشرق العربى.

و فى الخامس و العشرين من حزيران (١٩٢١) أعلن استقلال جبل الدروز و كان من قبل بين عاملين العامل البريطانى و العامل الفرنسى، فلما جاء الجيش الفرنسى إلى دمشق كان من أهل الجبل من يرحبون بالفرنسيين فنالوا استقلالهم (٥ نيسان ١٩٢١) و أصبح

جلهم و هو نحو مائة و خمس عشرة قرية دولة برأسها جعلت السويداء عاصمتها، و نصب على الجبل أمير من أهله و مستشار إفرنسي، فانترع أيضا من حكومة دمشق التي جعلت دولة لها حاكم، و ذلك بعد أربعة أشهر من استلام الفرنسيين زمام الأمر، و جعل لهذه الدولة مديرون

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٨٦

بدلا من وزراء و جعل علم خاص لكل من دولة لبنان الكبير و دولة العلويين و دولة حلب و دولة دمشق و دولة جبل الدروز الواقعة تحت الانتداب الفرنسي و يحمل كل علم في مطاويه العلم الفرنسي المثلث الألوان، و لم يجعل لفلستين علم خاص و بقي العلم فيها انكليزيا و اقتصر شرقي الأردن على العلم العربي، و بذلك أصبحت الشام سبع دول و كانت على آخر عهد الأتراك ثلاث ولايات (دمشق و بيروت و حلب) و ثلاثة ألوية مستقلة (القدس - لبنان - دير الزور).

متاعب لبريطانيا و فرنسا و اعتداءات:

و في شباط ١٩٢١ عقد مؤتمر في حيفا مؤلف من رجال فلسطين مسلميهم و نصاراهم نظم احتجاجات على وعد بلفور و طلب تأليف حكومة وطنية و انتخاب جمعية تأسيسية ينتخبها السكان العرب. و في ١٥ آذار خرج الزعيم فؤاد سليم من إربد في مائة و عشرين فارسا للقبض على بعض الأشقياء من عرب الشقيرات و على بعض زعماء الكورة في جبال عجلون فأحاطت بالقوة العسكرية أهالي ست قرى بقيادة كليب الشريدي و ابنه و ساعدتهم الغابات و وعورة الأراضي و سقط ربع الجنود بين قتيل و جريح و فقد ثلث الخيل ثم استسلم الباقون للعرب الثائرين الذين سلبوا الضباط و العسكر عتادهم و أسلحتهم و ألبستهم.

و ألقى المندوب السامي في فلسطين في ١٨ نيسان ١٩٢١ خطابا في عمان قال فيه: إن الحكومة البريطانية تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في الحرب و ترغب في أن تتوطد في زمن السلم دعائم التحالف الذي بنى في خلال الحرب و قال: يساعد الضباط البريطانيون منذ شهر آب الماضي في إدارة شؤون الأقاليم الواقعة وراء نهر الأردن و سيواصلون العمل بصفتهم مستشارين بالنيابة عنى للأمير عبد الله و موظفيه في الأنحاء المختلفة. و قال: إن الضباط البريطانيين الذين يقومون بهذه المهمة في جميع أنحاء المنطقة يعطفون على السكان و على آداب اللغة العربية و إن الحكومة البريطانية عولت على ألا تكون البلدان الواقعة فيما وراء نهر الأردن مركزا للعداء على فلسطين أو سورية.

و في أول أيار ١٩٢١ نشبت فتنة بين الصهيونيين و الوطنيين في يافا انجلت عن قتل ٤٨ رجلا- من العرب و جرح ٧٣ منهم و قتل من اليهود ٤٧ شخصا

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٨٧

و جرح ١٤٦. و في سنة ١٩٢١ دخل الأتراك عينتاب و أخرجوا الكتائب الفرنسية منها و باغت عربان الزور الفرقة الفرنسية السورية و قتلوا بعض ضباطها فحلّ بهم العقاب، فتخلت فرنسا عن قلقية بأجمعها و انحصرت قوتها بالشام من حدود كليس في الشمال، و تألفت عصابات من أبناء حارم و كفر تخارين و إدلب و جبل الزاوية و المعرة و صهيون و جرت بينها و بين الجيش الفرنسي معارك قتل فيها كثير من الفريقين، و كان بعض رؤساء تلك العصابات من الأتراك. و قد فقدت فرنسا من جندها في سورية و على حدودها بضعة ألوف. و قال الجنرال و يغاند المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في حفلة إزاحة الستار عن النصب التذكارى الذى أقيم لقتلى جيش الشرق في بيروت سلخ ذى القعدة ١٣٤٢ (حزيران ١٩٢٤): بعد الهدنة سكت المدفع في أوروبا إلا من الشام، و كانت الأمهات الفرنسيات يعتقدن بأنهن سيشاهدن أولادهن إلى جنبهن فاضطرت فرنسا إلى إرسال أولادها إلى ساحات القتال في مرعش و أورفة و ميسنون حيث تم تحرير سورية بقيادة سلفى الجنرال غورو و قد بلغ عدد القتلى نحو تسعة آلاف و ٢٥٠ ضابطا فيمكن أن تذكروا أولادكم و أولاد أولادكم بذلك اه. و لم يقتل هذا العدد في أرض الشام بل معظم من قتل في قلقية.

توحيد حكومات سورية و عدم رضى الأهلين:

لم يرتض أهل الداخل و فريق عظيم من سكان الساحل هذا التمزيق الذى حل بالشام، فكثير الناقدون و الناقدون، و زعم بعض ولاء الأمر من المنتدبين أن هذا التقسيم كان برضى الأهلين، و نزلت فرنسا على رغائبهم، و بعد التجربة الأولى رأت المفوضية العليا أن تعيد المدن الأربع إلى جمعها بعد الشتات فأعلن الجنرال غورو فى اليوم العشرين من حزيران ١٩٢١ فى دمشق أساس الوحدة السورية بإنشاء مجلس اتحادى لها مؤلف من دول العلويين و حلب و دمشق فقط، على أن يكون أساسا للوحدة و ألقى خطابا مثل خطاب دمشق فى مدينة حلب يوم ٢٨ منه بحضور مندوبى الدول الثلاث و مما قال فيه: و كان العمل الأول الذى قامت به فرنسا لتوطيد اتحادكم و حريتكم الوطنية تأسيس الحكومات المستقلة، و كانت الغاية من ذلك مراعاة النزعات الخاصة و وضعها فى قالب يتألف منه مجموع متناسب الأجزاء. قال: و لم يفتنى قط و جوب إحكام

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨٨

الصلات بين هذه الدول التى ينبغى أن يؤلف مجموعها سورية المستقلة أى سورية التى طالما رغبت فرنسا فى إنشائها قال: و الواجب أولا- تنظيم هذه الدول و منحها قسطا أوفر من الحرية، و تأسيس صلة اتحاد بينها، و لا- أذكر لبنان بين دول الاتحاد لأن تقاليده الخصوصية تقضى عليه بالسعى على انفراد وراء التقدم و بمشاركة قليلة فى الاتحاد السورى لا تتناول إلا الوجهة الاقتصادية دون سواها، إلى أن يقرر من تلقاء نفسه الدخول فى هذا الاتحاد.

و بدىء من قابل بجعل بعض فروع الإدارة اتحادية كالبريد و البرق و العدلية و المعارف العالية و التمليك، و جعل للاتحاد مجلس مؤلف من خمسة عشر عضوا خمسة عن كل دولة، و اجتمع المجلس فى حلب فى السنة الأولى و فى السنة التالية نقل مقره إلى دمشق بصورة دائمة، و يختار هؤلاء عضو رئيسا من بينهم فعين لهذا الغرض السيد صبحى بركات الخالدى و اختار لدوائر الاتحاد مع العرب جماعة من الأتراك و الأرمين و الروم فتأثر الوطنيون لذلك، لأن اللغة العربية لم ترع لها حقوقها و حرم الوظائف بعض الوطنيين و تولوا بعض من ليس لهم بهذه الأرض صلة، و لا بالعرب و العربية قرابة.

و فى ١٧ أيار عازمت بريطانيا العظمى أن تعترف باستقلال شرقى الأردن و أن يجعل أميرها عبد الله بن الحسين و تنشأ فيها حكومة دستورية و تعقد معه اتفاقا على أن تتعهد حكومته بالاعتراف بالحقوق الدولية. و أنشأت هذه الحكومة تمنح لقب باشا لمن تريد تشریفهم أو تأليف قلوبهم من المشايخ و غيرهم، فمنحت هذا اللقب للصعاليك و أسرفت فى منحها و التف حول أمير تلك الكورة بعض جماعات من الوطنيين الذين كانوا اشتغلوا مع أخيه الملك فيصل فى دمشق و لم يلبثوا أن انفضوا من حوله بطرق اتخذتها حكومته، و كان يتقاضى لها معاونة سنوية من بريطانيا ١٥٠ ألف جنيه و لنفقاته الخاصة ٣٥ ألفا من الجنيهات ثم أنزلت المعاونة إلى ٨٠ ألفا و مخصصاته إلى عشرين ألفا.

و فى صيف سنة ١٩٢٣ اعتدى بعض دروز الشوف على النصارى من جيرانهم و اغتيل بعضهم، فقابلهم المعتدى عليهم بالمثل، و اختل الأمن فى أواسط لبنان و كاد يتعدى إلى بعلبك، فعنيت حكومة الانتداب بجمع السلاح من الأيدي و عاقبت الفاعلين، و وضعت غرامات على بعض القرى التى خالفت أوامر

خطط الشام، ج٣، ص: ١٨٩

الحكومة. و فى سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ كثر إغلاق الحوانيت فى دمشق و حمص و حماة احتجاجا على كثرة الضرائب، و تقرب بعض أشخاص من الحكومة المنتدبة يوسعون مجال الخلف بين المنتدبين و المنتدب عليهم، و يسودون الناس بوشاياتهم للاحتفاظ بكراسيهم و أغلقت دمشق خمسة عشر يوما متتابعة احتجاجا صامتا على انتخاب أعضاء المجلس التمثيلى بالإكراه و استعمال الحكومة و سائط الإرهاب فى المدن و القرى.

صك الانتداب و موافقة الدول الكبرى عليه و أشكال جديدة من الإدارة:

جاء في معاهدة لوزان (٣٠ شباط و ٢٤ تموز ١٩٢٣) التي عقدت بين الدول و بين تركيا أن الحدود التركية السورية قد ذكرت في المادة الثامنة من الوفاق الفرنسي التركي المؤرخ بيوم عشرين تشرين الأول ١٩٢١- و الغالب أن هذا الاتفاق المعروف باتفاق فرانكلين بويون، لم ينشر خلافا لما ادعته السياسة في العهد الحديث بعد الحرب، من أنه لا تعقد بين الدول محالفات سرية بعد الآن- أن مجلس جمعية الأمم أثبت في جلسته المنعقدة يوم ٢٩ أيلول ١٩٢٣ أن الانتداب على الشام (سورية و لبنان) و الانتداب على فلسطين قد دخلا كلاهما في دور التنفيذ، و قد جاء في المادة الأولى من هذا الصك أن الدولة المنتدبة تضع نظاما أساسيا لسورية و لبنان في خلال ثلاث سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع بتطبيق الانتداب، و يعد هذا النظام الأساسى بالاتفاق مع السلطات الوطنية، و ينظر فيه بعين الاعتبار إلى حقوق جميع الأهلىن فى الأراضى المذكورة و إلى مصالحهم و أمنهم، و ينص فيه على اتخاذ التدابير التى من شأنها أن تسهل لسورية و لبنان سبيل النمو و التقدم المتوالى لدولتين مستقلتين، و تسير إدارة سورية و لبنان طبقا لروح هذا الانتداب ريشما يشرع فى تنفيذ النظام الأساسى، و تؤيد الدولة المنتدبة الاستقلال الإدارى المحلى فيهما، بكل ما تسمح به الأحوال.

و جاء فى المادة الثانية أنه يمكن للدولة المنتدبة أن تبقى جنودها فى الأراضى المار ذكرها لأجل الدفاع عنها، و يمكنها أيضا، إلى أن ينفذ النظام الأساسى و يعاد الأمن إلى نصابه، أن تنظم القوات المحلىة اللازمة «المعروفة بالميليس» للدفاع

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٠

عن تلك الأراضى، و أن تستخدمها فى هذه السبيل و فى حفظ النظام، و لا يجند أفراد القوات المذكورة إلا من أهل تلك الأصقاع و بعد ذلك تصبح تلك القوات تابعة للسلطة المحلىة مع الاحتفاظ بما يجب أن يبقى للدولة المنتدبة من حق السلطة و المراقبة عليها، و لا يجوز استخدامها لغايات غير التى تقدم ذكرها إلا بإذن الدول المنتدبة. و ما من شىء يمنع سورية و لبنان من الاشتراك فى الإنفاق على القوة العسكرية النازلة فى أراضيهما من قوات الدولة المنتدبة، و يحق للدولة المنتدبة كل حين أن تستخدم الموانى و الخطوط الحديدية و وسائل المواصلات فى سورية و لبنان لنقل جنودها و جميع المعدات و المؤن و مواد الوقود. و فى المادة الثامنة أن الدولة المنتدبة تضمن للجميع حرية الضمير التامة كما تضمن حرية القيام بجميع الشعائر الدينية التى تتفق مع النظام العام و الآداب، و لا يجوز أن يتبع شىء من التمييز و انتفاء المساواة بين سكان سورية و لبنان بسبب اختلاف الجنس أو الدين أو اللغة و تقوم الدولة بإنماء التعليم العام باللغات الوطنية الشائعة فى أراضى سورية و لبنان.

و صادقت الولايات المتحدة (١٩٢٤-١٣٤٣) على صك الانتداب الفرنسى فى سورية و لبنان الذى وضع موضع التنفيذ منذ ٢٠ أيلول ١٩٢٣ و قد جاء فى المادة الخامسة منه للأمر كان الحرية التامة فى إنشاء المعاهد و الصروح و الملاجىء العلمية و الدينية و الفنية فى جميع أراضى الانتداب الفرنسى مع التعليم باللغة الإنكليزية، و لم تعترف الولايات المتحدة بالانتداب البريطانى إلا فى أواخر شباط ١٩٢٥ مشترطه أن يكون للرعايا الأمريكيين مثل الحقوق التى للرعايا الإنكليز.

طبقت مواد الاتحاد فى حلب و دمشق بعض الشىء مع وجود الدولتين دولة حلب و دولة دمشق، أما دولة العلويين فلم تتحد بغير الأمور العدىة.

و فى يوم ٢٦ حزيران ١٩٢٤ (٤ ذى القعدة ١٣٤٢) أعلن المفوض السامى فى حديقه الأمة بدمشق الوحدة السورية و تأليف الدولة العربية السورية من حكومتى حلب و دمشق فقط، فخرجت دولة العلويين و دولة جبل الدروز كما خرجت دولة لبنان الكبير بالطبع من باب الوحدة، فأصبح بذلك عدد دول الشام ستا بدلا من سبع أى أن المدن الأربع عادت فألفت حكومه واحدة على نحو ما

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩١

كانت زمن الحكومه الفيصلية، و لكن بتشذيب بعض أطرافها إذ نزع من جسمها دولتا الشرق العربى و جبل الدروز و خطب القائد قائلا: إن هذه الدولة الجديدة الفخورة بماض يحوى أعظم ما نظره الشرق و التى ستضم إليها أهم مدن الإسلام التى كانت منبع الترقى

الفكرى فى جميع الأزمان ... إن مثل هذه الدولة تقدر و يجب أن تكون فى الشرق الأوسط مركزا مشعا و جذابا. و السلطة التشريعية تكون بيد مجلس نيابى و السلطة الإجرائية تسلم إلى شخص يدعى رئيس الحكومة السورية بالانتخاب، و يكون له مجلس وزراء يجتمعون تحت رئاسته يكون كل واحد من هؤلاء الوزراء مسؤولا شخصيا عن دائرته أمام مجلس الأمة.

و فى حزيران ١٩٢٤ (ذى القعدة ١٣٤٢) ألقى أحد رجال بريطانيا بيانا قال فيه: إن مهمة بريطانيا فى فلسطين هى إنشاء وطن قومى لليهود من ناحية و صيانة مصالح السكان غير اليهود من ناحية أخرى، و قد سعت بريطانيا لمعاملة الأهلين على قدم المساواة، و لكنها صادفت متاعب كثيرة بالنظر لعدم تجانسهم، و أنشأت إدارتين مختلفتين إحداهما فى غربى الأردن حيث يوجد الوطن القومى لليهود و الآخر فى شرقى الأردن حيث للعرب الأغلبية، و لكنها تسعى دائما إلى التوفيق بين مصالح اليهود و المسلمين.

غزوة النجديين عبر الأردن و استيلاؤهم على مكة و شؤون:

حكومة عبر الأردن أو شرقى الأردن أو الشرق العربى هى بمثابة حاجز يقى فلسطين اعتداء البادية، و قد كثر اعتداء عرب البلقاء و ما إليها مثل عشائر الحويطات و بنى عطية على تجار نجد يسلبونهم بضائعهم و جمالهم، و شكت حكومة الملك عبد العزيز بن سعود صاحب نجد إلى حكومتى الحجاز و الشرق العربى فلم يسمع لها شكوى، فأرسل صاحب نجد نحو ألف و خمسمائة مقاتل من رجاله فى ١٠ آب ١٩٢٢ و هاجموا أم العمدة فى البلقاء، و قتلوا أهل الطيب و أعمالوا السيف و النار فى عرب بنى صخر و اشترك الأديان من عرب البلقاء فى قتال النجديين، و تلاحت أفاخذ بنى صخر و رجالهم من العيسى و الزين و الخريشة، و جاء بعض بنى حميدة النازلين إلى الجنوب الشرقى من مادبا حتى

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٢

و ادى الموجب، و اشتركوا فى رد هجمات أهل نجد فأزاحوهم إلى بئر عمري و هناك تشردوا فى الأودية و التلال، و قيل إنه قتل منهم نحو ثلثمائة و قتل من أهل الشرق العربى كثيرون، و قد تأثرت الدبابات الإنكليزية النجديين إلى عمري فعادت و جنودها يزعمون أنهم لم يهتدوا إلى الطريق.

و جاء النجديون ثانية بقيادة درزى بن دغمى السمير زعيم الرولة المتدينه، و أغاروا على عرب الحويطات فى وادى موسى، و على أطراف معان، و نشبت معركة أبلى فيها الحويطات بلاء حسنا و عاونهم بعض بنى عطية النازلين حوالى معان إلى تبوك، و جاء النجديون فى ١٤ المحرم ١٣٤٣ إلى الكاف (قريات الملح) الواقعة على الحدود بين نجد و الشام فى ٢٢٠٠ - ٢٦٠٠ مقاتل كما قدرتهم حكومة الشرق العربى و استولوا فى طريقهم على الكاف و أخذوا حاميتها و هى أربعون جنديا و ضابطان و قتلوا المفرزة البريطانية النازلة فى محطة الطيران فى زيزاء و عددها اثنا عشر جنديا و ضابط، و وصل الجيش إلى مضيق رأس العين محلة عمان، فخرج أهالى الصلت و عمان و منهم شراكس و ششن من النازلين فى قرى الناعور و عين صويلح و وادى السير، اشتركوا مع الجند العربى فى القتال من الصباح إلى العصر، حتى تراجع النجديون إلى محل يبعد ثلاث ساعات عن قصر المشتى إلى الشرق و كان تأثير الطائرات البريطانية فى النجديين كثيرا هاجت لأصوات قنابلها إبلهم، و قد قتل النجديون من قابلهم بالسلاح من أهالى الزيزاء و اللين و أم العمدة و الطيب و القسطل و مادبا و يادودة و الرجيب و سحاب و الموقر و عمان، و ادعت حكومة الشرق العربى أن النجديين خسروا ألف قتيل و جريح على أقل تعديل و أن عدد قتلى عرب المنطقة مادبا و عمان لا يتجاوز المئة و العشرين و أن خسائر الجنود و البدو المرافقين لهم بلغت عشرين رجلا و امرأة، و قد عزز الجيش البريطانى فى فلسطين قوة الشرق العربى بأربع دبابات و ستمائة جندي. و قال العارفون من الأهلين: إنه قتل من أهالى المنطقة نحو ستمائة و لم يتجاوز قتلى النجديين المئة و أربعين قتيلًا و أن قتلى بنى صخر فقط ثلثمائة قتيل. و المقصود من هذه الغزوة عمان و أميرها عبد الله بن الحسين لأن اعتداءاتهم على تجار نجد كثيرة، و عاونهم العيسى و الزين و الخريشة و الحديد و العجارمة و الدعجة، و ذكروا أنه كان فى جملة النجديين كثير من عرب

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٣

حرب النازلين بين الحرمين لأنهم مغاضبون لملك الحجاز فالتحقوا بالإخوان نكايه به. و ذكر بعض الواقفين على مجرى السياسة أن الجنيهات الإنكليزية وجدت بكثرة في جيوب الإخوان الذين غزوا بلاد الأردن للمرة الأولى و أن حملتهم لم تتقدم نحوها إلا بعد زيارة المستر فيلبي المندوب الإنكليزي في الشرق العربي لبلاد نجد.

و في اليوم الأول من كانون الثاني ١٩٢٥ (١٣٤٣) أعلنت الوحدة بين دولتي دمشق و حلب فقط و عينت الوزارة برئاسة السيد صبحي بركات الخالدي على أن لا- تسأل وزارته أمام مجلس النواب شأن سائر الوزارات في العالم، و لا تسأل الوزارة عما تفعل، و تستمد قوتها من المفوضية العليا، و للمستشارين القول الفصل في كل الأمور، و هكذا الحال في نظار لبنان الكبير فهم غير مسؤولين إلا عند المفوضية العليا.

و أعلن الجنرال سراي المفوض السامي يوم وصوله إلى بيروت إخراج الحاكم الفرنسي الذي كان يتولى لبنان الكبير و أن يباشر المجلس النيابي اللبناني بانتخاب حاكم وطني، و لما اختلفت آراء النواب حل المجلس و بوشر بانتخاب جديد، و أخذ التعصب الديني بعض نواب اللبنانيين فأثروا حكم غريب على واحد من قومهم مهما كانت نحلته، أما حاكم العلويين فقد ظل إفرنسيا، و من المظاهر الغريبة أن تستحكم اللغة الفرنسية في مجلس لبنان الكبير استحكام اللغة التركية من مجلس وزراء سورية، و أن يعد بعض أولئك النواب و الوزراء الفرنسي و التترك من أمارات الظرف و الفضل، في ديار أرضها و سماؤها عربيتان و هي مستقلة بالإجماع، و اللغة أول أداة في أدوات الاستقلال، و حجر الزاوية في بنيانه.

و في كانون الثاني ١٩٢٥ (رجب ١٣٤٣) رأى بعض المفكرين في حلب و حماة و حمص و دمشق أن الوقت ملائم لعرض مطالب الشاميين على المفوض السامي الجنرال سراي، فتألفت وفود من الأعيان و المفكرين من المدن الأربع و قصدت إلى بيروت و عرضت مطالب الأمة على المفوض السامي، و خلاصتها أن الحلفاء اعترفوا باستقلال الشام في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ و أنه يحق لها تقرير

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٤

مصيرها و أنه فككت أجزاءها و أنشئت فيها دويلات صغيرة قضى بها على وحدة البلاد السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و أن القائمين بالأمر أثاروا العرتين الطائفية و الدينية، و منحوا المدارس الأجنبية ذات البعثات الدينية المساعدات المالية و المعنوية، ليفصموا عرى الرابطتين الوطنية و القومية و ليتمكنوا بهذا التفريق من القضاء على استقلال القطر و وحدته، و أن سورية بحدودها الطبيعية وطن واحد بلغتها و قوميتها و عاداتها و أخلاقها و تاريخها فلا مسوغ لتجزئتها و جعلها دويلات عديدة، و أن أسلاف المفوض السامي اتخذوا اختلاف المذاهب و المساومات السياسية معاول لتقويض بناء الوحدة السورية، فسلخوا القسم الشمالي منها و أعادوه إلى الحكومة التي أنقذ منها في بادىء الأمر، و لم تزل طامعة بالاستيلاء على القسم الآخر فحرموا هذا الوطن حدوده الطبيعية و خطوط دفاعه، و الحدود إذا لم تكن عسكرية طبيعية لا- سبيل إلى ضمان استقلالها. و أن المنتدبين السابقين لم يكتفوا بأن يحفظوا للبنان الصغير امتيازاته، بل عمدوا إلى ضم أرجاء أخرى من الداخل و الساحل مما يزيد عن مساحته الأصلية مرتين، و يزيد على عدد سكانه مرة و جعلوه في صورة دولة لبنانية مستقلة، كما سلخوا جبل الدروز و جبال العلويين و جعلوها دولتين. و طلبوا تأليف لجنة تأسيسية و إعطاء حق التشريع للأمة و الحرية الشخصية و حرية الاجتماع و الجمعيات و الصحافة و إلغاء القرارات الاستثنائية و المحاكم الأجنبية و أن تدار الأوقاف الإسلامية و الخط الحجازي الذي هو وقف إسلامي بمعرفة الحكومات الوطنية، و أن تمنع الهجرة الأرمنية إلى الشام لأن عدد المهاجرين إلى هذا القطر بلغ مائة و ثمانين ألفا زاحموا الوطنيين في الأعمال الصناعية و التجارية مزاحمة لا تحتمل إلى غير ذلك من المطالب كالنقد السوري و رفع الحواجز الجمركية و ذلك بعقد اتفاقات مع الحكومات المجاورة كما عقد بين سورية و فلسطين للتبادل التجاري، و طلبوا إلغاء الديون العمومية و إبطال الضمانات الكيلومترية التي تعطى لبعض الخطوط الحديدية لاستغنائها بما تربح عن هذه المعاونة، و أن توحد النظم الإدارية، و يلغى قانون العشائر و يجعل حد لتدخل المستشارين في صغار الأمور و

كبارها، و تسند الوظائف إلى أهل الكفاية من بنى الوطن الأصليين و يقتصر على استخدام الوطنيين في جميع الوظائف المحلية.

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٥

و قد وعد المفوض السامي وفود المدن الأربع بدرس مطالبهم و إنفاذ ما في وسعه و وسع حكومته إنفاذه، و أشار إلى أن الواجب عليهم أن ينظموا صفوفهم و يؤلفوا أحزابا تسيّر بعقل و روية لا يتخذها بعض أرباب الأغراض سلما لبلوغ غاياتهم. و قد عاد الجنرال سراى في خطاب له ألقاه في حمص (أيار ١٩٢٥) خاطب به الأعيان بقوله: اعملوا على توحيد كلمتكم قبل اهتمامكم بالاستقلال فإن الاستقلال إنما يحصل عليه من اتحدت آراؤهم، إلى هذا أوجه نظرهم، اتحدوا أولا فإن البانى إنما يباشر وضع الأساس قبل أن يهتم بالتوريق و الدهان ا هـ.

و بالفعل تأسس في سورية حزبان حزب من جميع طبقات الشعب و اسمه حزب الشعب و آخر يناصر الحكومة الحاضرة و اسمه حزب الوحدة كما تألفت في لبنان أحزاب.

صاحب الوعد للصهيونيين و مطالب الفلسطينيين و السوريين و كوائن:

و في يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥ (١ رمضان ١٣٤٣) جاء القدس لورد بلفور الوزير البريطاني صاحب الوعد للصهيونيين بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود الذى صرح به في تشرين الثانى ١٩١٧ باسم بريطانيا العظمى، فاحتج المسلمون و النصارى فيها على مجيئه و أضربوا عن الأعمال إضرابا تاما، و كان مجيئه للاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية في بيت المقدس، و قد أرسلت برقيات الاحتجاج من أنحاء القطر على من فصل بعمله فلسطين عن أمها الشام، و جاء مساء يوم ٨ نيسان الى دمشق فأظهر الدمشقيون نفرتهم منه و من وعده، و أغلقت المدينة صباح الغد محتجة على وعده و بعد الظهر تجمع جمهور لا يقل عن خمسة آلاف في ساحة الشهداء أراد الدرك منعهم من التجمع بالتهديد و الضرب فرشقه بعض الفتيان بالحجارة، فاضطر الدرك إلى استعمال السلاح في الهواء فجرح عشرون شخصا هلك منهم اثنان و اضطرت الحكومة للورد أن يخرج إلى بيروت فأركب البحر و البيروتيون يحتجون عليه كاحتجاج الدمشقيين، و لم يستطع أن يرى اللورد من دمشق غير جدران الفندق، و من بيروت إلا الطريق إلى السفينة فقط.

و في ٢٨ أيار (١٩٢٥) أنذرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن على أن يغادر العقبة خلال سبعة أسابيع- و كان جاءها بعد أن سقط الحجاز في أيدي جيش الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد- لتستلمها حكومة شرق الأردن

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٦

و تضمها مع معان إلى الأصفق التي تديرها لأنها ضمن الانتداب البريطانى، و لتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة و الطائف و انتزعوها من يد الملك حسين، فأجاب جلالته إنه لا يسعه بالنظر للعهد المقطوعه له من الحلفاء و لا سيما بريطانيا أن يتنازل عن هاتين البلديتين الحجازيتين (العقبة و معان) و أنه لا يعترف بالانتدابات المخالفة لتلك العهود، و أبان ما سينجم عن عملها هذا الذى سيدعو إلى هياج عظيم فى العالم العربى. و بعد أيام أو عزت إليه انكلترا أن يغادر القطر فحملته إلى قبرص ليقم فيها. و فى حزيران قتل الأشقياء قائدين افرنسيين فى طريق دير الزور كانا يسيران فى سيارة فبعثت السلطة طائرات أمطرت عشائر البواسرية التى فقد الضابطان فى أرضها وابلاد من القذائف، فهلك منهم أكثر من ثلاثين نفسا و تلف كثير من الخيل و الإبل و الغنم، ثم حكمت على خمسة منهم بالقتل. و فيه جاء وفد من أعيان دروز جبل حوران و راجعوا السلطات الفرنسية يطلبون انضمامهم كما كانوا سابقا إلى حكومة دمشق على أن يكون لهم بعض الامتيازات المحلية إذ ثبت لهم مضره الانفصال. كما أن وفدا من اللاذقية قابل بعض رجال تلك السلطة و أبانوا له الأضرار التى نشأت من فصل جبال النصيرية عن أمها سورية و طلبوا إرجاعهم إلى حكمها.

و فى شهر نيسان ١٩٢٥ جاء فلسطين وزير المستعمرات البريطانية فقابلته وفود الأمة يتقدمها وفد اللجنة التنفيذية و وفد الحزب الوطنى، و تكلم غير واحد من رجال الوفد معربا عن ظلامه الفلسطينيين و ضرر الوطن القومى، فرد الوزير على أقوالهم و مما قاله: إنه رأى

فلسطين أسعد من الأربعين مستعمرة التي يهتم بشؤونها، وقدمت له الوفود تقريراً هذا ملخصه:

١- قدم عرب فلسطين تقارير كثيرة و أرسلوا وفداهم إلى لندن مرتين و في كل ما قدموه بينوا التناقض الغريب الذي يظهر في خطة الحكومة الانكليزية في ديارهم على الرغم من أ- نص عهد جمعية الأمم. ب- العهد المقطوعه للملك حسين. ج- البلاغ المنشور من القائد اللبني قائد الحملة الفلسطينية.

د- بعض مواد صك الانتداب. ه- البيانات الرسمية و الشبه الرسمية الصادرة من الوزارات.

٢- جزت السياسة التي تسير عليها الحكومة في فلسطين إلى حالات

خطط الشام، ج٣، ص: ١٩٧

اقتصادية صعبة لا يمكن الاستمرار على تحملها، و دوام الحال على هذا الشكل دون أن يجد العرب آذانا صاغية عادلة يؤدي حتما إلى سقوط القطر في هوة أشد عمقا من الحالة الحاضرة إذ أنهم. أ- يقضى عليهم أداء ضرائب باهظة للإنفاق على ترتيبات واسعة لا يتحملها البلد لتنفيذ السياسة الصهيونية التي لا يمكن أن تتفق مع مصالحهم السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية. ب- إنهم حرموا إدارة بلدهم و تمتعهم باستقلال ذاتي على حين ليسوا أقل مستوى من سكان البلدان العربية الأخرى مثل العراق و شرق الأردن التي تتمتع بحكم ذاتي نيابي.

ج- حرموا حتى مما كانوا يتمتعون به من بلديات و مجالس إدارة و مجالس عمومية منتخبة و من إرسال أعضاء إلى البرلمان في العهد التركي. د- فتحت أرضهم لهجرة يهودية كبيرة تحتوي على كثير من العناصر غير الصالحة لحياة البلاد و تحملها اقتصاديا و اجتماعيا. ه- قد جعل للعناصر اليهودية أرجحية ظاهرة في الإدارة الرئيسة و في تسيير المصالح اليهودية القومية و الاجتماعية، هذا و هم أقلية ضئيلة عددا و مصلحة.

٣- ما أراد العرب في فلسطين قط، و هم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي، أن يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم، و لكنهم يريدون أن تمتعوا بحقهم باعتبار أنهم أكثرية ساحقة في العدد و المصلحة، و باعتبار أنهم عدوا بعود صريحه، و باعتبار أن عهد جمعية الأمم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الإدارة و التشريع بحسب نسبتهم.

٤- يعتقد العرب أنهم لن يطمئنون في ديارهم و لن يروا في الحكومة البريطانية النية الحسنة التي طالما أعلنت أنها تنطوي عليها إذا استمرت في طرز الإدارة و السياسة التي سارت عليها في فلسطين إلى الآن مع أنهم يريدون دائما أن يكونوا على وفاق تام معها في مصالحها التزيفية، و يعتقدون أنه قد آن للحكومة البريطانية أن تقلع عن تجربتها العقيمة و أن تعيد نظرها بصورة جديده في هذه السياسة التي جعلت القطر و أهله في حالة اضطراب روي و انحطاط اقتصادي و قلق.

٥- و ها نحن أولاء نقدم لها مطالب الأمة بصورة صريحه واضحة رجاء أن تبدل علاقة الانتداب السيئه.

خطط الشام، ج٣، ص: ١٩٨

١- تأسيس حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب من الأهالي الفلسطينيين بحسب التمثيل النسبي.

٢- تسن جمعية وطنية منتخبة القانون الأساسي الذي يضمن بقاء الأماكن المقدسة بيد أهلها القدماء على أن لا يغير شيء فيها و تحفظ حقوق الأجانب و مصالح الدولة المساعدة المتفق مع مصالح البلد و تضمن مشاركة اليهود الوطنيين بالحكم و التشريع بنسبة عددهم و يراعى في وضعهما الحالة الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية ضمانه التعهدات الدولية التي تحملتها الدولة المساعدة و هي التعهدات الصحيحة و حفظ الآثار و حرية الأديان و نحوها على النمط الوارد في المعاهدة المعقودة بين الحكومة الانكليزية و العراق

٥.

ولما كانت الصهيونية من أهم المسائل التي تشغل بال الشاميين عامة وإخوانهم أهل فلسطين خاصة وكان لها مساس بسياسة هذا القطر وتاريخه عهدنا إلى أحد الواقفين على أسرارها فكتب إلينا ما ملخصه: اليهود قبيلة سامية نزلت من العراق إلى فلسطين و سكنت فيها زمنا، ثم هاجرت إلى مصر فمكثت هناك مدة طويلة و انقلبت إليها، و فتحتها فتحا عسكريا و تسلطت على بعض شعوبها. و قد أسسوا شبه حكومة ثم ما لبثوا أن دب فيهم الفساد، فانشطروا إلى قسمين شمالي و جنوبي، و أمسوا عرضة لغارات حكومات مصر و آشور و بابل لوقوع أرضهم في الطريق الوحيد بين الدول المتراخمة، ثم تغلبت تلك الدول عليهم فسبوهم و أخرجوهم من فلسطين، فبدأت نفوسهم تحن لإعادة مملكتهم القديمة و إحياء قوميتهم، و قد كبر هذا الرجاء في نفوسهم، فحاولوا مرات استردادها من أيدي الرومانيين ففشلوا، و حرب تيطس هيكلهم و شتتهم في أطراف الأرض، و سرعان ما ثاروا بقيادة باركوخبا و مساعدة الحاخام عقيبا فأخفقوا، و عجزوا عن الخلاص من حكم الرومانيين الثقيل.

و رغم هذه الصدمات أصبحت فكرة الرجوع إلى فلسطين عقيدة دينية عندهم، برزت في آدابهم الشعرية و الثرية، و أظهروا من الحنين إلى فلسطين

خطط الشام، ج ٣، ص: ١٩٩

و التلهف على زوال مجدهم، ما خلد ذكرهم في تاريخ الأدب. و قد زعم كثيرون أن المسيح أتاهم مبشرا بالرجوع إلى أرض الميعاد فلم ينجحوا لأن البيئة التي عاش فيها اليهود قرونا حالت دون بلوغهم أمنيتهم و حرمتهم الشعور بالروح القومي، لو لم تتوال عليهم عواصف الاضطهادات في أوربا التي أيقظتهم و دفعتهم إلى إظهار الصهيونية الحديثة التي أوجدها عاملان «الأول» الشعور بالقومية، «الثاني» مضادة اليهود العامة. و القصد من الصهيونية عزل الشعب اليهودي عن الشعوب الأخرى، و جعل فلسطين وطنا خاصا بهم، يقوم على القومية و يعترف لهم به اعترافا دوليا مضمونا ضمانا شرعيا.

ظهرت الصهيونية بمظهرها الحقيقي سنة ١٨٥٢ م حين حضّ هو لنكسورث الإنكليزي على إقامة حكومة يهودية في فلسطين لحماية طريق الهند البرية. و سافر السر موسى منتفيوري إلى فلسطين و طلب من محمد علي باشا المصري إسكان اليهود في القطر فرفض طلبه. و قام كثيرون من الأدباء و السياسيين و اقترحوا اقتراحات مختلفة منها جعل فلسطين حكومة يهودية، أو عمل خط حديدي في العراق و إسكان اليهود على جانبه أو إيجاد مأوى لهم في شرق الأردن.

و قد حام كاليشر في كتابه مطلب صهيون حول استعمار فلسطين و استملاك الأرض و إنشاء مدرسة زراعية و تأليف حامية إسرائيلية عسكرية و مزج الفكرة القومية بالروح الديني و صرح أن الخلاص الذي نوه به الأنبياء يأتي متتابعا بمساعدة اليهود أنفسهم. و سافر مرارا لترويج هذه الفكرة، و ألف الجمعية الأولى الاستعمارية في فرنكفورت سنة ١٨٦١ و حمل بعض الحاخامين على الاشتراك معه و أعلن بعضهم أن الاستعمار في فلسطين من الأمور المقدسة فألهبت تقوى اليهود هذه الجملة البراقة، و ألفوا بضع جمعيات استعمارية في الممالك الأوربية و أسست المستعمرة الصهيونية الأولى (عيون قارة) في فلسطين سنة ١٨٧٤.

إلا أن العمل الجدي شرع فيه سنة ١٨٩٧ عند عقد المؤتمر الأول الذي اشترك فيه ممثلو خمسين جمعية صهيونية و برزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقاومتها الحكومة العثمانية بوضع العرائل أمام هجرتهم و قيدتهم بقيود

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٠٠

جعلت هجرة اليهود إلى فلسطين في حكم المستحيل تقريبا. و كلما كان ينتعش الروح اليهودي القومي يشتد كره الأمم لهم، و هم لا يعاؤون بذلك زاعمين أنها موجهة ستضمحل أمام الرقي العلمي المنتشر هناك، فانتهدت عاقبة هذا الرجاء بالفشل و تعرضوا للاضطهاد في الأقطار.

ألف الزعيم الصهيوني الكبير تيودور هرتسل كتابه الوطن اليهودي سنة ١٨٩٥. و قد جاء فيه أن مقاومة اليهود في نمو مستمر و مقاومتهم خطر على العالم بأسره، لأن اليهود شعب لا يمتزج بغيره و الاختلاط الحقيقي يكون بالزواج المتبادل، و اقترح فيه أن يعطى

لهم جزء من الأرض في فلسطين أو الأرجنتين ليجمعوا بها و يقيموا لهم وطنا خاصا بهم، و إذا سمح لهم بفلسطين فإنهم يرون من الواجب أن تكون محلات العبادة المختصة بالطوائف الأخرى ملكا ممتازا لهم.

و أشار بتأليف جمعية تشرف على الأعمال العلمية و السياسية و تأسيس شركة يهودية كالشركات الإنكليزية و الفرنسية الصناعية «الاستعمارية» العظمى يكون رأس مالها ٥٠ مليون ليرة إنكليزية و تتخذ لها مركزا رئيسا في لندن، و يعهد لهذه الشركة بالأعمال التي تهيتها اللجنة التنفيذية اليهودية و تسعى الطائفة الجديدة لترويج المهاجرة بطريقة منتظمة، و لم يعبا هرتسل بقوانين الكنيسة فطلب فصلها عن السياسة.

و لما زار هرتسل بريطانيا العظمى لم يقبل اليهود على دعوته كما أقبل أهالي أوربا الذين ناصروه بالمال و الرجال. و أول من اعتقد بصحة مشروع الوطن اليهودي جمعية زيون في النمسا التي طلبت تأليف جمعية يهودية عامة، و اقترحت تأسيسها في لندن، ثم عرفوا هرتسل أن جمعيتهم قبلت دعوته. و ظهر أن الذين استهوت قلوبهم فكرة تأليف الجنسية اليهودية هم الذين اعتبروا هرتسل زعيما و مخلصا لهم. و لكن المتدينين قاوموه عندما عرفوا أن بعض زعماء دعوته لا دينيون.

و تصدى له رؤساء الحاخامين في روسيا و ألمانيا و النمسا و انكلترا و قالوا: إن الصهيونية حركة بعيدة عن اليهودية و إنها مخالفة لأوامر الله تعالى. و قال الكاتب الشهير لوسيان و ولف: إن الصهيونية حماقة، و قال غايكر: إن الصهيونية تؤدي إلى حرماننا حقوقنا المدنية في الممالك الخارجية. أما بعض نصارى أوربا فقد أظهروا عطفًا على الصهيونية و طفقت بعض جرائدهم تحض اليهود على خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٠١

استعمار فلسطين إتماما لنبوء التوراة، فصادفت دعوتهم رواجًا و تكاثر دافعوا الشاغل الذين انضموا إلى الصهيونية على مقاومة أنصار الدين لها و قد عقدت بين سنة ١٨٩٧-١٩١١ عشرة مؤتمرات، و بعقد المؤتمرات قصد هرتسل إحياء الشعور القومي في اليهود و نشر الدعاية الصهيونية، و قد نجح في فكرته هذه و وفق لعقد المؤتمر الأول في مدينة بازل (سويسرا) سنة ١٨٩٧ فاشترك فيه أعضاء كثيرون بعضهم يمثل جماعات و بعضهم جاءوا عن أنفسهم و قد قرروا ما يلي:

(١) تعليم اللغة العبرية و نشر آدابها و إنشاء مدرسة كبرى في يافا أو القدس.
(٢) إنشاء مدارس يهودية في الأحياء الإسرائيلية لتعليم اللغة العبرية و تأليف لجنة تعتنى بالآداب العبرية.
(٣) إنشاء صندوق توفير يهودي و قد وضعت قاعدة غرض الصهيونية و هي إيجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين مضمونا ضمانا شرعيا دوليا و تتخذ الوسائل للوصول إلى هذا الغرض.

(١) ترقية حال الزراعة اليهود و التجار في فلسطين.
(٢) تحالف اليهود تحالفا محليا أو عموميا حسب قوانين مواطنهم المختلفة.
(٣) تقوية الشعور اليهودي.

(٤) بذل المساعي الأديبة للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض الصهيوني و قد أسست فروع عديدة للقيام بهذه المشاريع و جمعت ٤٠٠،٠٠٠ ليرة إنكليزية.

و افتتح المؤتمر الثاني في مدينة بازل أيضا سنة ١٨٩٨ و تألف من أعضاء الجمعية الصهيونية العاملة و بعض الزعماء من الأقطار الأخرى و اشترك فيه عدد من حاخامى روسيا المعترف بهم رسميا نوابا عن اليهود المتدينين، و ورد عليه أربعون برقية من الحاخامين المتعصبين يعلنون بها اعتقادهم بالصهيونية، فانضم الى الجمعية الصهيونية نفر كبير من اليهود، و قد أسس هذا المؤتمر جمعية إستعمارية غرضها توسيع نطاق الاستعمار بشرط اكتساب رضى

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٠٢

الحكومة التركية و انعقد المؤتمر الثالث في بازل أيضا سنة ١٨٩٩ و صرح فيه هرتسل بأن مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز

من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يوفق. ثم تليت تقارير اللجنة العاملة فظهر منها أن معدل زيادة الجمعيات الصهيونية في روسيا ٣٠ بالمائة و في الممالك الأخرى ٢٥ بالمائة و بلغ عدد دافعي الشاقل أكثر من ١٠٠ ألف نفس أى أن ٢٥٠ ألفا من اليهود تصهينوا في ذلك الوقت. و انعقد المؤتمر الرابع في كوينس هال في لندن سنة ١٩٠٠ و قصدوا بانتخاب هذا المكان التأثير في الرأي العام الإنكليزي لأن بعض الإنكليز ارتاحوا الى الدعوة الصهيونية و ناصروها لما لها من الارتباط بالكتاب المقدس.

و بلغ عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا ١٠٤٣ جمعية و في انكلترا ٣٨ و في الولايات المتحدة ١٣٥ و في بلغاريا ٤٢ جمعية. أما آمال الصهيونيين في فلسطين فقد كاد يقضى عليها لأن الباب العالي أصدر أوامره في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ بمنع مهاجري اليهود من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر، و ذلك بما ثبت له من انتعاش الحركة الصهيونية و كونها آخذة في التهام فلسطين و استملاك بقاعها و الاستيلاء على وادها و صادرها فاحتجت إيطاليا على هذه الأوامر بأنها مجحفة و أنها لا تفرق بين رعاياها النصاري و اليهود. و كذلك عرضت هذه المسألة على وزير الولايات المتحدة فأصدر أمره في ٢٨ شباط سنة ١٩٠١ إلى سفيرها في الإستانة ليحتج باسم حكومتها فرفض الأتراك كل تدخل بهذا الشأن. ثم توجه هرتسل إلى الإستانة و قابل السلطان عبد الحميد في أيار سنة ١٩٠١ مرتين و أنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي الأول و عاد إلى لندن و قابل جمعية الميكانيين في ١١ حزيران سنة ١٩٠١ و أعرب لهم عن ثقته في نجاح مهمته لدى السلطان.

و انعقد المؤتمر الخامس في كانون الأول سنة ١٩٠١ و قبلت فيه القواعد الرئيسة و صودق عليها و هي: (١) عقد مؤتمر عام مرة كل سنتين. (٢) يعقد أثناء هذه الفترات اجتماعات يحضرها أعضاء الجمعية العاملة الكبرى و زعماء البلدان المختلفة. (٣) تأسيس هيئة إدارية في الأمكنة التي يبلغ عدد دافعي الشاقل فيها خمسة آلاف نفس إذا هم طلبوا ذلك. و تحت أسباب فتح المصرف و إعطاء إعانة لدار الكتب اليهودية في القدس و تأليف دائرة معارف عبرية

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٣

و تأليف إدارة عامة تشتغل بشؤون الأمة اليهودية. و انعقدت جلسة طويلة بشأن التهذيب انتهت بالقرار الآتي: المؤتمر يحبذ التمسك بالروحيات و تعليم الطائفة اليهودية على قواعد عنصرية دينية و على كل صهيوني أن يعمل لهذه الغاية. ثم انفض المؤتمر و انصرف الزعماء لمتابعة غايتهم فذهب هرتسل إلى القدس على رأس بعثة صهيونية فقابلوا امبراطور المانيا غليوم الثاني أثناء زيارته القدس و فاضوه بمهمتهم فأجابهم: «إن كل المساعي لترقية زراعة فلسطين و التي تعود بالمنفعة على الدولة التركية و تحترم سيادة السلطان توافق هواه و رضاه».

فامتعض هرتسل و ذهب إلى الإستانة و قابل السلطان عبد الحميد و كانت خطته ترمى إلى التفاهم على أساس تنظيم المالية العثمانية و أن يقنع جلالته بإخلائه الصهيونيين لأنهم يعملون علانية لا في الخفاء، و أن اليهود عنصر خاضع للقوانين لا يخالفون رغائب القوة الحاكمة. و طلب إليه أن يمنح اليهود سلطة واسعة للحكم البلدي الذاتي و يدفعون مقابل هذا الامتياز مبلغا وافرا و يؤدون ٣٠٠،٠٠٠ غرش مرتبا سنويا مثل جزيرة ساموس ذات الاستقلال الإداري بجندها الخاص و رايته الخاصة و مجلس نوابها الخاص أي حكومة ذات استقلال داخلي. ففشل في سياسته و مفاوضته و ظل اليهود يباشرون بعض الأعمال الاقتصادية و الزراعية في فلسطين في شيء من التقية و التكتيم.

و لما أخفق سعى هرتسل مع الأتراك و وجه نظره إلى الحكومة الإنكليزية آملا أن يحصل على مقاطعة بجوار الأرض المقدسة يأوى إليها المهاجرون أو المضطهدون موقتا فاستحسن طلبه و باشر مفاوضة لورد كرومر فعرض عليه استعمار شبه جزيرة سينا و أرسل الفريقان بعثة سنة ١٩٠٣ لترتاد الأرض.

و قد كاد هذا المشروع يتم لو لاقه المياه و رفض حكومة مصر إعطاء شيء من ماء النيل. و لما حبط هذا المشروع عرض عليهم وزير خارجية انكلترا شرقي إفريقيا على أثر حرب البوير و اقترح هرتسل الدخول في المفاوضة بشرط إحداث وطن يهودي في شرقي

إفريقية.

و عقد المؤتمر السادس في بازل في آب سنة ١٩٠٣ و بحثوا في اتخاذ إفريقية وطنا قوميا، فقبل هذا الاقتراح بالرفض و قد قال هرتسل: إن شرقي إفريقية ليست صهيون و لا يمكن أن تكون كذلك و قال مكس نوردو: لو اتخذنا خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٤

شرقي إفريقية وطنا لتعذر علينا إلا- أن نكون في دار عزلة. و في خلال ذلك انعقد مؤتمر صهيوني في زمارين فلسطين برياسة اوسيشكن شهده خمسون عضوا و ستون معلما و كان هذا المؤتمر مصغر مؤتمر بازل فأسسوا جمعيات إدارية لتهيمن على المستعمرات و تراقب شؤونها. و في ٣ تموز توفي هرتسل بعد أن أعلى شأن الغاية الصهيونية و ثبتها و وحد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم، و حوّل المسألة اليهودية من خيرية زراعية إلى اقتصادية سياسية.

و في ٢٧ تموز ١٩٠٥ انعقد المؤتمر السابع و انتخب مكس نوردو رئيسا له و كان تقرير اللجنة الفلسطينية خير التقارير التي قدمت لهذا المؤتمر، لأنه تضمن خبر انتشار جريدتهم و نشاط حركتهم، و قد أعيد البحث في استعمار شرقي إفريقية، و لكنه قرر أخيرا، بأن المؤتمر الصهيوني السابع لا يتحول عن قاعدة مؤتمر بازل الرئيسة و هي إعداد وطن لليهود في فلسطين مؤمنا تأمينا شرعيا و معترفا به اعترافا علنيا و أنه يرفض رفضا باتا كل استعمار خارج فلسطين.

و قد بحث أيضا في عمل الجمعية الصهيونية في مستقبل فلسطين و تقرر بشأنها ما يلي: تطبيقا للحركة الإدارية السياسية و لأجل تقويتها يجب أن تقوم على الأسس العلمية مقاصد الروح الصهيوني بالقواعد الآتية: (١) التنقيب عن الآثار. (٢) ترويج الزراعة و الصناعة على الأصول الديمقراطية الممكنة.

(٣) تحسين الحالة الاقتصادية و التهذيبية و تنظيم يهود فلسطين بإحداث نهضة فكرية جديدة (٤) الحصول على الامتيازات كمشتري الأرض المملوكة و المتروكة و المزارع و غير ذلك.

و في سنة ١٩٠٥ أنشئت جمعية بصليل لترقية الحرف و الصناعة في القدس.

و في سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثامن في لاهاي و أسست مدرسة الجمناز اليهودية في يافا. و أسس مصرف داود و لفسون لبناء دور للعمال في فلسطين. و في سنة ١٩٠٨ أسست اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين و اتخذت يافا مركزا لها. و في سنة ١٩٠٩ عقد المؤتمر التاسع في مدينة همبورغ و تقرر إنشاء مستعمرة يهودية على قواعد الاشتراك و التضامن.

و في سنة ١٩١١ أنشئت الجمعية الاستعمارية لأرض إسرائيل (فلسطين)

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٥

و عقد المؤتمر العاشر في بازل. و كانت بين سنة ١٩٠٥ - ١٩١١ الفكرة اليهودية الوطنية جامدة و شعر قوادهم أن استرداد الأرض المقدسة شيء بعيد المنال حتى إن الحصول على قطعة من الأرض أمر عسير. و في سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادي عشر و كانت أبحاثه جامدة و قد توالى على الحركة الصهيونية في هذه الفترة الخذلان، و لو لا الحرب لعدلوا عن غايتهم القومية و أرجأوا البحث في فلسطين إلى حين. و الحقيقة أن دور القهقري في تاريخ الحركة الصهيونية بدأ بوفاء هرتسل.

الأوضاع الصهيونية:

(١) المصرف اليهودي الاستعماري- ليست مقاصد هذا المصرف مالية فقط بل سياسية أيضا و بما أنه اكتسب حقوق الشركات ذات الامتياز فقد اتخذ أداة لهيئة الصهيونية العملية، و غايته العمل في فلسطين أو سورية أو في بقعة أخرى أيا كانت إذا اقتضت مصلحة اليهود ذلك. و لكن تعدل هذا النص و قيد بهذه الجملة «العمل في فلسطين و سورية و سائر أنحاء تركيا آسيا فقط» و فتح فرع لهذا المصرف. و أسست سنة ١٩٠٥ فروع مالية لشركة انجلو فلسطين في القدس و يافا و حيفا و الناصرة لنفس هذه الغاية ..

(٢) البنك الملى اليهودى- و غايته توفير رأس مال دائم يجعل ملكا للطائفة اليهودية لىستخدم فى أغراضها الخصوصية مثل مشترى الأرض فى فلسطين و يشترط أن لا يمس رأس ماله حتى يبلغ مليون شلن و يجب بقاء نصف هذه القيمة فى المصرف. و تجمع أمواله من استعمال طوابع البريد الإضافية التى تلصق على رسائل الصهيونيين و من الدعوات و الهبات و ما شابه ذلك.

العمل التهذيبي- كان توحيد التعليم اليهودى من أهم أغراض الصهيونية الرئيسة لذلك شرعوا فى إقامة غرف قراءة و منتديات للخطب و للدروس الليلية فى أماكن مختلفة و فى سنة ١٩٠٣ أنشأوا مدرسة البنات القومية فى يافا، و قد نظم سنة ١٩٠١ حاييم و يزمان منهاجا تاما لجامعة عبرية و فتح لها فرع للآداب فى القدس و عملوا لها بضعه احتفالات و لم تزل فى مهدها.

جمعيات الطلبة- لما انتشرت الفكرة الصهيونية تغلغت فى نفوس الطلبة

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٦

اليهود فى فينا و روسيا و غليسيا و رومانيا و تواصلوا بالمحافظة على الشعور اليهودى و تعزيز الآداب العبرية و كان شعارهم إلى الأمام. و وجهوا اهتمامهم لاستعمار فلسطين و تألفت بعد ذلك جمعيات عديدة من طلبة المكاتب و انتقوا أسماء و طنية تشير إلى نهضاتهم السابقة و فتح لها فروع فى فلسطين.

الجمعيات الرياضية- دعيت رياضية و لكن غايتها فى الحقيقة عسكرية لا سيما و أن أسماءها ترمى إلى هذا الغرض، و قد امتدت بسرعة إلى الإستانة و برلين و صوفيا و بخارى و همبورغ. و انتشرت فروعها فى فلسطين بأسماء مختلفة و ظهرت بالتمرين على حمل السلاح و الحركات العسكرية و تنظيم الجند.

الصحافة- للصحافة اليهودية أثر كبير فى نشر الدعوة الصهيونية، فلهم صحف عديدة فى روسيا و النمسا و المانيا و انكلترا و إيطاليا و غيرها من الممالك، و هى تكتب المقالات الطويلة انتصارا لقضيتهم و دفاعا عن صهيونيتهم و قد كان لهم بضع صحف فى فلسطين لا قيمة لها.

انتشار الصهيونية- راجت الفكرة الصهيونية عند كثير من اليهود فانضم إليها أشخاص ما عرفوا شيئا عن الغاية الصهيونية، و تبرع فريق منهم دون أن يكلفوا إلى ذلك حتى إنك لا تجد فئة من اليهود إلا و بينهم صهيونيون، و غالوا باظهار دعوتهم و جاهدوا برفع رايتهم الزرقاء البيضاء فى احتفالاتهم فاحتج العرب على ذلك على غير طائل، و لا تزال نرى اللونين الأزرق و الأبيض و فى نصفهما المثلث المتقاطع ترس داود يرفرفان فى أيام أعيادهم على صدورهم أو على مرتفعات معاهدهم أو على طرفهم و سلعهم.

الأحزاب الصهيونية- بذل اليهود جهودا كبيرة لاستعمار فلسطين و حصل تباين فى آرائهم فانفصل بضع فرق عن جامعتهم و برزت فى المؤتمرات و كثيرا ما كانت المنافسة عنيفة بين هذه الفرق التى سنذكرها هنا: (١) فرقة الحكومة و هى أتباع هرتسل و منهاجهم ما صرح به رئيس المؤتمر فى جلساته العديدة من وجوب إنشاء وطن لليهود فى فلسطين و الأقاليم المجاورة لها يضمن ضمانا شرعيا مع تمسكهم بقرار مؤتمر بازل. (٢) فرقة الوسط المزراحية- و هم عصبه اليهود المتدينين الذين ألقوا فرقتهم أثناء انعقاد المؤتمر الخامس و هى فرع من حزب المتطرفين و قد تزايد أعضاء هذا الحزب و عقدوا مؤتمرا خاصا سنة ١٩٠٤

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٧

و انتشروا فى انكلترا و أميركا و روسيا و المانيا. و كانوا يظهرون هرتسل فى جميع المناقشات يرمون إلى أن يكونوا هيئة صهيونية أرثوذ كسية أمينة للتوراة و التقاليد فى كل ما يتعلق بالحياة اليهودية. (٣) فعال زيون الحزب الديموقراطى- هو حزب اليسار الذى يوجد بين صفوفه بعض مشاهير الاشتراكيين و عددهم قليل، و لكنهم برهنوا على اقتدار و حذق و تغلبوا على حزب مندلستون فى المؤتمر، و كان مركزهم فى النمسا و سويسرا، و يوجد منهم فرقة متطرفة اسمها (فرقة العملة الاشتراكية الصهيونية) و يظن أن هذه الفرقة تخدم غرضها الاشتراكية أكثر من عملها الصهيونية. (٤) الزيون زيونست- توجد فرقة بهذا الاسم فى الجمعية العمومية نشأت على أثر المناقشات التى دارت فى المؤتمر السادس، و زعيم هذه الفرقة اوسيشكن واضع أصول الفرقة الجديدة الذى صرح أن سياسة

هرتسل فشلت، و الحركة الصهيونية تحتاج إلى العمل السريع في فلسطين بدون انتظار منحة أو امتياز، و يجب شراء الأرض حالا بقسم من مال المصرف القومي. (٥) التريتياليين - قوام هذه الفرقة هم الذين رغبوا في قبول استعمار شرقى إفريقية ثم عدلوا خططهم و قرروا أن يستحصلوا على كل أرض في أى بلد بشرط أن ينالوا فيها استقلالهم الإدارى. و ظهرت فرق أخرى لم تتل شهرة مثل الفرق التى تقدم ذكرها. و منها فرق الصهيونيين السياسيين الذين عقدوا اجتماعا خاصا سنة ١٩٠٥. (٦) الصهيونية السياسية الحقيقية - و هم يعتقدون أن طلب الحكم الإدارى لليهود مبالغ فيه و يريدون أن يهتم الصهيونيون فى الإسراع بمشروع استعمار فلسطين و جوارها، و هنالك فرق صغيرة.

الصهيونية فى الحرب:

كانت القيادة الصهيونية العامة فى برلين مؤلفة من ستة أعضاء رئيسهم و اربورغ، و كان أربعة منهم فى برلين و واحد فى لينينغراد و الآخر فى اميركا الشمالية، فلما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ توقفت أعمال الصهيونية السياسية و لم يلبثوا أن نقلوا إدارتهم العامة إلى كوبنهاغن و نقلوا الإدارة المالية إلى هولاندة و تظاهروا بالحياد التام أمام جميع الدول و تربصوا ليروا أين تكون الغنيمه لينصرفوا إليها، أما عضوهم فى الولايات المتحدة فقد أخذ يجمع حوله

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٨

الصهيونيين و ألف لجنة عاملة. و رغم هذه الاستعدادات السياسية فإن مركز الحركة الصهيونية لم يكن فى كوبنهاغن و لا فى امستردام و لا فى نيويورك بل كان فى لندرا لأنها محور العالم، و فازوا بحمل بعض الدول على الاعتراف بحقوقهم التاريخية فى فلسطين على ضعف الروح الصهيونى فى انكلترا. و لم تعلن تركيا الحرب فى تشرين الثانى سنة ١٩١٤ حتى انتبه الرأى العام اليهودى و أيقن اليهود أن المسألة الشرقية سيعاد البحث فيها فانتعشت آمالهم يوم صرح رئيس الوزارة الإنكليزية أن جرس جنازة تركيا قد دق لا فى أوروبا فقط بل فى آسيا أيضا و استبشروا بأن تأسيس دولة يهودية فى فلسطين أصبح ممكنا و معقولا و برزحاييم و يزمن أستاذ جامعه منشستر فقبض على قياد الحركة الصهيونية العامة، و كان هذا صهيونيا لم يشغل وظيفة مهمة فى ترتيباتهم السابقة على أنه كان دائما يميز نفسه فى المؤتمرات، و كان يحض بشدة على العمل داخل فلسطين و يذكر ما يترتب على ذلك من الفوائد، و يقاوم بعنف جميع الذين كانوا يطلبون أن تقتصر الجهود الصهيونية على السياسة فقط. و هو الداعى إلى تأسيس جامعه عبرية فى فلسطين و هو الذى اعتبر دخول تركيا فى الحرب عهدا جديدا لفلسطين، و فرصة نادرة يجب أن يستفاد منها. و قابل رجال السياسة الإنكليزية يومئذ و فتح بابا للمفاوضات التى أدت إلى تصريح بلفور المعلوم و إلى اتفاق سان ريمو و إلى اعتراف انكلترا بتسهيل تأسيس الوطن القومى اليهودى. و قد كان و يزمن يعمل بنفسه دون مشورة أو مساعدة أحد غير بضعة نفر من صغار الصهيونيين، فرأى أن يدعو إلى لندن العضوين الروسين فى المؤتمر الصهيونى ليساعده فى العمل و انضم إليهم فيلسوف الصهيونية اشير كنز برغ المعروف «باحاد هعام: أحد القوم» و المشهور بتعصبه لنشر العلم و التهذيب بين الصهيونيين فألفوا لجنة غير منتخبة لكنها ربما كان يعتمد عليها من أكثر الصهيونيين و حاولوا مراجعة الحكومة البريطانية و إكمال المفاوضات التى باشرها و يزمن.

و فى الاتفاق السرى المعقود بين فرنسا و انكلترا سنة ١٩١٦ القاضى بأن تأخذ فرنسا شمالى فلسطين و انكلترا ميناءى حيفا و يافا و تجعل فلسطين و ما فيها من الأماكن المقدسة تحت حكم خاص للاحتفاظ بمصالح دول الحلفاء الدينيه و لم تذكر المسألة الصهيونية و لم يرد ذكر ما وراء الأردن و البحر الميت و خليج

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٠٩

العقبه و كان من المنتظر أن تدخل هذه المناطق فى الدولة العربية أو الحلف العربى الذى كان فى النية إيجادا بموجب معاهدة سرية عقدت مع شريف مكة الملك حسين و مفوض بريطانيا.

و فوضت الحكومة الإنكليزية مارك سايكس النائب الإنكليزي بمفاوضة زعماء العرب و الأرمن و الصهيونيين ف عقد اجتماعا رسميا مع الصهيونيين في شباط سنة ١٩١٧ و لم يشترك فيه أحد من العرب و قد شهدته و يزمن و سكولوف و هربرت بنتويش و كاون و ساقر و هربرت صموئيل المندوب السامي السابق لفلسطين و جمس روتشلد. و بعد البحث الطويل توطدت العلاقات بين الصهيونيين و الحكومة الإنكليزية و وضعت القضية الصهيونية على أساس قانوني و فوض و يزمن و سكولوف أن ينوبا عن الصهيونيين فيما بعد، و أبلغت الحكومة الإنكليزية هذه المفاوضات إلى الحكومة الفرنسية، و ذهب سكولوف إلى باريس ليبين لفرنسا أغراض الصهيونية و علاقتها بالحالة السياسية الدولية الراهنة، و قابل ناظر الخارجية المسيو كامبون و أخذ منه هذا التصريح «إن الحكومة الفرنسية لا يمكنها إلا أن تشعر بالعطف على غرضكم الذي يتوقف نجاحه على فوز الحلفاء و إنه مسرور بإعلان هذا التأكيد». ثم توجه سكولوف إلى رومة و استحصل تأكيدا بالعطف على الحركة الصهيونية من رئيس الوزارة الإيطالية و البابا.

و نشطت الحركات العسكرية في فلسطين و تقدمت بسرعة فائقة حتى وقع احتلال القدس سنة ١٩١٧ فرنّ صدى ذلك في لندن و أجاب تصريح بلفور الشهير الذي ضمن في كتاب أرسل إلى اللورد روتشلد و هذا نصه: «تنظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين، و تبذل الجهد في سبيل ذلك على أن لا يجرى ما يضر بحقوق غير اليهود في فلسطين سواء من الوجهة الدينية و المدنية و لا ما يضر باليهود من الحقوق و المقام السياسي في سواها من الممالك».

فقابل اليهود هذا التصريح بالترحيب و اصطبغوا جميعهم بالصبغة الصهيونية و قاموا بمظاهرات في كل مكان و اكتسب هذا التصريح موافقة دول الحلفاء الكبيرة فوافقت عليه فرنسا و إيطاليا و اليابان سنة ١٩١٨ أما الولايات المتحدة فإنها لما لم (٣-١٤)

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١٠

تكن أعلنت الحرب على تركيا لم توافق عليه، و لكن الرئيس ويلسون أرسل في آب سنة ١٩١٨ كتابا إلى رئيس لجنة الصهيونيين الأميركيين هذا نصه:

«راقبت برغبة شديدة العمل الأساسي الذي قامت به لجنة و يزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية و هاءنذا أتخذ هذه الفرصة لأظهر امتناني بتقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة و في ممالك الحلفاء منذ تصريح بلفور الذي يحمل موافقة انكلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين و وعد الحكومة الإنكليزية بأنها تساعد ما استطاعت و تضمن الوصول الى هذه الغاية على ألا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود (العرب) المدنية و الدينية من سكان فلسطين او يعث بحقوق اليهود خارج فلسطين.

و لجنة و يزمن التي أشار إليها الرئيس ويلسن لجنة صهيونية أرسلتها الحكومة الإنكليزية الى فلسطين سنة ١٩١٨ و منحتها سلطة واسعة، أي أن تكون بمثابة الهيئة الاستشارية للسلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالمسائل التي تمس اليهود أو الوطن اليهودي القومي بموجب تصريح حكومة جلالة الملك. و تنحصر أغراضها في ما يأتي: (١) أن تكون حلقة اتصال بين السلطات البريطانية و اليهود في فلسطين. (٢) أن تشترك في توزيع الإحسان على أهالي فلسطين و ان تساعد على إرجاع المنفيين منها و اللاجئين إليها. (٣) أن تعاون على تقدم المستعمرات اليهودية و على تنظيم السكان اليهود في فلسطين. (٤) أن تساعد المعاهد اليهودية في فلسطين لإعادة عملها و نشاطها. (٥) تسعى لإحكام العلاقة الودية بين اليهود و غيرهم من سكان فلسطين العرب. (٦) تجمع ما تراه مناسبا من المعلومات و تقدم تقريرا فيما يمكن عمله لترقي الاستعمار اليهودي و تقدم القطر عموما. (٧) تبحث إذا كان في الإمكان تأسيس جامعة عبرية في فلسطين و تختار محلها، فاخترت جبل الطور و افتتحتها بوضع الحجر الأساسي بحضور رؤساء الحكومة.

و لما غلبت تركيا و حلفاؤها و عقد مؤتمر باريز، دخلت النهضة الصهيونية في طور جديد فذهب و يزمن و سكولوف الى باريز ليمثلا الصهيونيين و بينا مطالبهم و جاء غيرهم من صهيونيين الأصقاع المختلفة. و قد سمع مجلس

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١١

الحلفاء الأعلى اقتراحاتهم في جلسته المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٩١٩ و هذه هي أولا- و جوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي

في فلسطين و شد أزرهم لإعادة بناء وطنهم القومي. ثانيا- أن تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين الى جمعية الأمم و أن يعهد إلى إنكلترا بالوصاية عليها و تكون مسؤولة أمام جمعية الأمم. ثالثا- أن يضاف الى صك الانتداب لحكومة فلسطين الشروط الآتية:

(١) تجعل فلسطين في أحوال سياسية و إدارية و اقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي، و أن يؤول ذلك في النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة على أن لا- يعمل شيء يعث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين أو بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين.

(٢) و للوصول إلى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية: (أ) بتشجيع الهجرة اليهودية و إسكان اليهود في الأرض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين الثابتة من غير اليهود (العرب).

(ب) تعضيد وكالة يهودية في فلسطين و في العالم للإشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين و أن يعهد إلى هذا المجلس بمراقبة التعليم اليهودي.

(ج) بعد الاقتناع بأن قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب أن يفضل على غيره بإعطاء المشاريع الاقتصادية و تمنح له الأولوية في كل امتياز في الأعمال العامة أو في استثمار الثروة الطبيعية التي تجد الحكومة من الضرورة إعطاءها لها.

(٣) تساعد الدولة الوصية جهد استطاعتها على توسيع الحكم الذاتي للمقاطعات أو المراكز الممكنة إقامتها بالنظر إلى حالة القطر.

(٤) تعطى الحرية التامة في ممارسة العبادات الدينية لجميع الأديان في فلسطين دون تمييز بين السكان مهما اختلفت جنسياتهم أو حقوقهم المدنية.

و لم يقدم اقتراح بإدارة الأماكن المقدسة و رأوا تركها لرأى الدول الكبرى.

و قد طلب أن يدخل ضمن حدود فلسطين المجرى الأسفل لنهر الليطاني و هضاب جبل الشيخ الجنوبية (مناخ الأردن) و من الشرق الجولان و نهر اليرموك و ما يليهما من المناطق الجنوبية التي كانت من نصيب فرنسا في اتفاقية سايكس بيكو و اعتبرت هذه المناطق من الأسس لتقدم الاستعمار الفلسطيني و أدلوا بحجج

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١٢

تاريخية. فسمع مجلس الحلفاء أقوال الصهيونيين و لم يصدر قرارا حاسما لاشتغاله بمسائل أهم من معضلة فلسطين.

وضع اليهود ثقته بالحكومة الإنكليزية و ما خامرهم شك في صداقتها و لم تحدثهم أنفسهم أنها تتأخر عن مناصرتهم أو إنجاز ما وعدتهم به وقلقوا فقط لأنها ليست هي وحدها صاحبة الحل و العقد في أمرهم، و لذلك كانت هذه الفترة حرجة جدا في تاريخ اليهود فإما أن يقضى لهم أو يحكم عليهم. و لقد كان من المنتظر إحداث تغييرات ثلاث المطالب الصهيونية لأن الحكومة الفرنسية صدقت على وعد بلفور لها و معاهدة سايكس بيكو بطلت لانحلال روسيا، إلا أن اتفاق الحكومة الإنكليزية مع الملك حسين كان له شأن يذكر، و نشاط الحركة الوطنية العربية في فلسطين و مقاومتهم الصهيونية، أسمعت المراجع الرسمية صوتها و عاكت الخطط البريطانية المتحيزة للصهيونيين، كما أن بعض المقامات الدينية النصرانية أظهرت استياءها مخافة أن يتمكن اليهود من السيادة في هذا القطر، أضف إلى هذا أن اليهود اللصهيونيين في اميركا و أوربا كانوا يقاومون الصهيونية بشدة، فمجموع هذه العوامل أخر سير القضية الصهيونية لكن العاملين الأولين (معاهدة الملك حسين و مقاومة العرب) كان لهما الأثر الأكبر في ذلك.

كان العرب يستندون في سياستهم على الأمير فيصل حليف دول الحلفاء و كان هذا يتنازعه عاملان متناقضان، أحدهما العرب الذين يطلبون إليه بشدة مقاومة الصهيونية، و الثاني بعد نظره الذي جعله يسعى بإخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين، فتخرج مركزه بين هذه المطالب المتناقضة، و غلب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين، ثم عدل عن هذا الرأي و أرسل كتابا إلى أحد زعماء اليهود الأميركيين، هذه خلاصته: «إننا نشعر أن العرب و اليهود هم أبناء عم في الجنس و أنهم تحملوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية، و قد ساعدتهم حسن الطالع بأن يتمكنوا من الصعود معا إلى الدرجة الأولى من سلم آمالهم الوطنية، و نحن

العرب و خاصة المتعلمين نظراً برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية، و قد اطلع وفدنا في باريس الآن على الاقتراحات التي قدمتها أمس إلى مؤتمر السلام و نحن نعتبر أن هذه الاقتراحات معتدلة

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢١٣

و لائقه، و سنعمل جهداً و ما في وسعنا لمساعدة اليهود أبداً و نتمنى لهم و طناً ينزلون فيه على الرحب و السعة. و إنى أتطلع و شعبي أيضاً إلى مستقبل نستطيع فيه أن نتبادل التعاون لتصبح الأصقاع التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الأمم المتمدنة في العالم». و لقد حدثني أحد أخصاء الملك فيصل أن الكولونيل لورنس قدم إليه كتاباً بالإنكليزية و طلب منه أن يوقع عليه ففعل دون أن يعرف ما فيه لأنه كان موضع ثقته!. و على كل فالملك فيصل مسؤول سواء عرف ما تضمنه الكتاب أو لم يعرف و لكن إذا نظرنا أيام حكمه نجد أنه لم يفد الصهيونيين إلا باتخاذ حجة على رضى العرب عن الصهيونية.

و قد مرت الأيام و اليهود يبذلون جهودهم لحل معضلة فلسطين المعقدة فلم يتوصلوا إلى حل مرضى لأن بعض الدول رفض قبول قواعد الرئيس و يلسون و بعضها تردد مساومة. و أخيراً اختلف اليهود و الإدارة العسكرية في فلسطين و أظهروا أن فلسطين أرضهم و ما على العرب إلا أن يرحلوا عنها، فثارت ثائرة العرب و تمرد روحهم الوطنى و وقفوا بالمرصاد للصهيونيين فاتفق أن كانت جماهير جبل الخليل قادمة إلى القدس للاشتراك في موسم النبي موسى سنة ١٩٢٠ فتحرش بهم اليهود تحرشاً اعتبره أهل الخليل اعتداءً فهاجموهم و قتلوا منهم مقتلة عظيمة.

و ما كاد البرق يتناقل هذه الحادثة إلى سان ريمو حيث كان وزراء بريطانيا و فرنسا و إيطاليا مجتمعين لتقرير صورة المعاهدة التي ستقدم إلى تركيا و التي لم يكن فيها نص على فلسطين سوى أن تسلم بها تركيا إلى الحلفاء و هم يفعلون بها ما يرونه مناسباً. و قد كانوا يبنون تأجيل النظر في مسألتها و تعيين شكل حكومتها النهائي و لكن حوادث القدس التي ربما كانت مدبرة من اليهود أو الحكومة غيرت هذا المنهج و أسرع الحلفاء في تصفية الخلاف بينهم، و بحثوا في فلسطين و اعترفوا بمطالب الصهيونيين، و أضافوا هذه الفقرة إلى المعاهدة المصدقة في سان ريمو:

توافق الدول الموقعة على هذه المعاهدة بموجب المادة ٢٢ من صك الانتداب و تعهد بإدارة فلسطين بالحدود التي ستقررها دول الحلفاء إلى دولة وصية تختار

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢١٤

من الدول المذكورة تكون مسؤولة بتنفيذ التصريح الذي فاه به بلفور في ٢ شباط سنة ١٩١٧ بالنيابة عن الحكومة البريطانية و الذي وافقت عليه دول الحلفاء و فيه تأسيس وطن قومي للشعب اليهودى في فلسطين على أن لا يمس حقوق العرب المدنية و الدينية و لا المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود خارج فلسطين.

و قد تقرر أيضاً في سان ريمو أن تكون الحكومة الإنكليزية الحكومة الوصية على فلسطين. فأبدلت الحكومة الإنكليزية الإدارة العسكرية في فلسطين بإدارة مدنية و عينت على رأس هذه الإدارة هربرت صموئيل الصهيونى الصميم فتولى منصب المندوب السامى في فلسطين في ١ حزيران سنة ١٩٢٠ فقطاعه الوطنى و لكنه باشر بتأسيس إدارة مدنية و جابهه مشكلتان صعبتان و هما: (١) الحدود (٢) مواد الانتداب، و حلت هاتان المشكلتان بالتدرىج و في المفاوضات بين بريطانيا و فرنسا، أما الحدود التي اقترحتها الصهيونىون أمام المجلس الأعلى فلم توافق عليها فرنسا لأنها أصرت على الحدود المقررة في معاهدة سايكس بيكو و بعد مباحثات طويلة تنازل الفرنسيون عن مقاطعة المطلة و بانياس أما صور و صيدا و المجرى الأسفل لنهر الليطانى و منابع نهر الأردن و الشاطىء الشرقى لبحيرة طبرية و الجولان و اليرموك فقد أخرجت منها، خلا عدة أميال أضيفت إلى فلسطين من شاطىء اليرموك الغربى قبل أن يصب في الأردن.

و قد قابل اليهود هذا الحل باستياء شديد لأنهم رأوه يؤثر في استعمارهم و يضر بفلسطين و سورية. و أظهر الفرنسيين أنهم لن يتنازلوا

عن مطالبهم إلا إذا توفقت انكلترا وفرنسا إلى تعديل الاتفاق فيعطى إلى فلسطين ما يزيد من مياه الأردن الشمالي و اليرموك لتنتفع منها بتوليد قواها الكهربائية أو استعمالها في رى الأرض و غير ذلك. و هكذا أضيف إلى صك الانتداب بعض ما يتطلب اليهود و ما يعود عليهم بالنفع و اقتصرت الولايات المتحدة من مطالبها من فلسطين على أن تكون حقوقها التجارية مضمونة. فكاد هذا التأخير يجعل مستقبل فلسطين السياسى غامضا لأن المفاوضات سارت ببطء و لم تنته حتى تموز سنة ١٩٢٢ حين بحث فى الوصاية و صدقت عليها عصبه جمعيه الأمم. و فى صيف سنة ١٩٢١ كان عدل صك الانتداب بشأن شرقى الأردن بفقرة هذا نصها: للدولة الوصية الحق بتأجيل أو عدم تنفيذ بعض المواد الواردة فى صك الانتداب الذى يتعلق

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١٥

فى شرقى الأردن، و هكذا خرجت الصهيونية رابحة بعض الربح من الحرب و لكن أعمالها لم تصطدم بقوة عملية بعد، و إنها و إن كانت الآن فى دور المد فسيأتى عليها دور الجزر فلا يجد رجالها مأوى يعودون إليه و يندمون على ما فقدوه من تمازجهم بالأهالى الذين عاشوا و إياهم دهرا طويلا ه.

الصهيونية بعد الحرب:

وضعت الحرب العالمية أوزارها، و كل أمة تنتظر أن يصيبها قسط وافر من حقوقها المسلوبة. فتلمس اليهود المشتتون فى أقطار العالم بصيص تصريح بلفور، ينظرون إليه نظرهم إلى صك هبة أو بيع قطعى يخولهم امتلاك فلسطين، فشمخت أنوفهم و أعلن قوادهم أن فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية، و ما على العرب إلا- أن يرجعوا إلى جزيرتهم، و نشروا راياتهم بكثرة و فى كل مكان و أنشدوا نشيدهم القومى، و أخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية، فتولى رئاستها صهيونى صميم و رئاسة النيابة صهيونى متطرف، و تغلغل الصهيونيون فى جميع الدوائر و سيطروا على الإدارة العامة، و صارت اللغة العبرية لغة رسمية، و ظنوا أنهم سيأتى إلى فلسطين ألوف من اليهود بسرعة يؤلفون الأكرثية الساحقة ثم ينشئون دولة يهودية تتم بها النبوات القديمة، و لم يعلموا ما يقابلهم من الصعاب فى تحقيق أمنيتهم، و تجاهلوا أن القطر يسكنه ثلاثة أرباع مليون عربى يملكون أرضه و يستغلون موارده، و عبثوا بالرأى العام الإنكليزى و تهاونوا فى إيجاد عمل للمهاجرين و عجزوا عن إعداد سبيل المعيشة لهم ف وقعت فى أزمة اقتصادية و بقى قسم كبير من المهاجرين مدة طويلة بلا عمل.

أما الشعب العربى الجرىء فإنه كان ينتظر من الحلفاء إنصافا لا سيما بعد أن انشقوا عن حكومتهم التركيه و شاركهم فى الحرب. فكانت نفوسهم تصبو إلى الاستقلال التام أو إلى الاستقلال الداخلى تحت إشراف بعض الدول المخلصه.

و لما انقشع ظل الأتراك ظهر الحلفاء بمظهر الجشع و قسموا سورية إلى حكومات و أجزاء فأدرك عرب فلسطين أن اليهود يسعون لتأسيس حكومة يهودية فى مجرى تنفس جسم الديار العربية، فغضبوا و أنشأوا الجمعيات الإسلامية المسيحية و ألهبوا صدور الأهالى و أثاروا نفوسهم، فاشتعل الروح الوطنى بين جوانحهم

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١٦

و عقدوا المؤتمرات و اشترك مندوبوهم فى المؤتمر السورى فى دمشق و أعلنوا أن فلسطين جزء من سورية و أرسلوا وفودا. إلى أوروبا و الحجاز لاستصراخ العالمين الإسلامى و النصرانى فقابلتهم الحكومة الإنكليزية بجفاء و عبثت بمطالبهم و غالطت فى التعابير الفنية و التفاسير السياسية، و أصرت على اتباع سياستها القديمة التى ترمى إلى فصل العالم الإسلامى و العربى بعضه عن بعض بوضع الصهيونيين حاجزا بين الشام و مصر و الحجاز و الشام. و ارتاب العرب فى الشق الثانى من وعد بلفور الذى يضمن حقوق السكان لأنهم رأوا تناقضا بينا بين شقى التصريح المذكور، فلو آمنوا بالشق الثانى و سلموا بمبدأ مهاجرة اليهود إلى القطر وفقا لنص الشق الأول يصبح اليهود أصحاب الأكرثية المطلقة فى مدة و جيزة، فإذا انسحب البريطانيون عندئذ فكيف يمكن تطبيق الشق الثانى.

لا شك أن العرب يقعون هنالك أمام مشكل خطير و تصبح الأماكن المقدسة التي بأيديهم مهددة بانتقالها إلى أيدي أعدائهم لا سيما و هم يعتبرون أنفسهم و العالم الإسلامي ينظر إليهم بأنهم أوصياء يجب أن يحافظوا عليها، فهاج هائج العرب و أبوا أن يذعنوا لحكم السياسة و تزعزت ثقة اليهود في تصريح بلفور و أحجموا عن الهجرة إلى فلسطين فذهب المندوب السامي إلى لندن و طلب بياناً من الوزارة بحجة إزالة مخاوف العرب و قصد تأمين اليهود ليقبلوا على المهاجرة فأجيب طلبه و صدر بيان في حزيران سنة ١٩٢٢ و هذا ملخصه:

«لم تكن الغاية من تصريح بلفور جعل فلسطين يهودية و القضاء على الشعب العربي و لغته و آدابه أو الحط من شأنها، و لكن الغاية تأسيس وطن لليهود في فلسطين، و ليس للجمعية القائمة في فلسطين نصيب في إدارة الديار العمومية كما أن الجنسية التي سيتمتع بها جميع سكان فلسطين تكون جنسية فلسطينية ليس لها علاقة باليهود أو غيرهم. إن اليهود أعادوا في المدة الأخيرة بناء طائفة في فلسطين يبلغ عددها ٠،٠٠٠، ٨٠ نفس يشتغل سدسهم في الزراعة، و لهذه الطائفة هيئات سياسية خاصة فلها جمعية تنتخب لإدارة شؤونها الداخلية، و مجالس منتخبة في المدن، و هيئة تشرف على مدارسها و لها رئيس حاخامين منتخب و مجلس رباني (محكمة شرعية) لإدارة أمورها الدينية، و غدت لغتها العبرية لغة رسمية في دوائر الحكومة، و لها صحافة عبرية كافية. و يقصد من

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢١٧

هذا العمل أن تتقدم الطائفة اليهودية الحالية بمساعدة اليهود المنتشرين في العالم ليجعلوا فلسطين مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي أجمع مميزات قومية.

و ليعلم العرب أن مجيء اليهود إلى فلسطين هو حق ثابت لا منة يمن بها عليهم، و قد سمح لهم بزيادة أفرادهم بالمهاجرة بقدر تحمل البلاد الاقتصادي».

و قد عرض هذا البيان قبل نشره على الجمعية الصهيونية فوافقت عليه، ثم عرض على وفد العرب الفلسطيني في لندن فحاول تعديل بعض فقره فلم ينجح، فزاد كره العرب لليهود و اشتدت المعارضة للصهيونيين.

و كانت فلسطين تسير إلى الانحطاط بمساعي المندوب السامي تطبيقاً للفقرة الواردة في صك الانتداب و هي وضع القطر في حالة اقتصادية و سياسية لا فقاره و انتزاع الأملاك من أهله، فمنع تصدير الشعير حتى هبط سعره و خسر الأهالي خسارات باهظة، و عمل أعمالاً أخرى أدت إلى إستياء العرب الشديد الذي طورته السياسة الصهيونية و أحالته إلى كوارث قصدت استغلالها فحدثت الثورات الآتية.

ثورتا القدس و ثورة يافا:

لكل بلد أعياد، و فلسطين منيع هذه المواسم، اشتركت فيها جميع الأديان و موسم النبي موسى أعظم المواسم يقع في عيد الفصح عند الطائفتين المسيحية و اليهودية، فالأقاليم العربية الإسلامية البعيدة لها مواسم مستقلة من عهد صلاح الدين بن يوسف، و القرية تأتي متتابعة إلى القدس، و جبل الخليل أعلق الناس بهذه العادة، يأتون بكثرة ينشدون الأهازيج البدوية الثورية، قدموا إلى القدس في يومهم المعروف فتحرش بهم اليهود و أثاروا حفيظتهم فنشبت معركة قتل فيها عشرة أشخاص من الفريقيين و كسرت أبواب دكاكين اليهود و نهبت بضائع ليست بقليلة و اضطرت القدس و أعلنت فيها الأحكام العرفية. و الداعي إلى الثورة الثانية أن اليهود اتخذوا يوم تصريح بلفور الواقع في ٢ تشرين الثاني عيداً لهم يعلنون فيه سرورهم، فقرر العرب جعله ذكرى حزن و بؤس يقفلون فيه حوانيتهم و يحتجون إلى الحلفاء على هذا الظلم، يطوف فتیانهم في الشوارع و ينشدون أناشيد الرثاء الوطنية فمانعتهم الشرطة و ضرب بعضهم فأهاج كامن حقدهم و اصطدموا باليهود و قتل أشخاص و وقع النهب.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢١٨

و يمكن ان نعد ثورة يافا ثورة سياسية تجلى فيها الروح العربي بكل مظاهره و أسبابها أن فرع حزب بوعالى صهيون فى يافا انضم إلى حزب الاشتراكيين المتطرفين المعروفين (بالموبس) و الذين من أصولهم «القاء النزاع بين الطبقات لا التمسك بالوطنية و الجنسية». فحاول هذا الحزب الثورى استمالة هيئات العمال اليهود فى فلسطين فرفض حزب (احادوت هاعابودا) طلبهم و أبى الانضمام اليهم، فغضبوا و قرروا إعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية.

و فى خلال تشرين الأول و الثانى سنة ١٩٢٠ حدثت قلاقل بين العمال و اليهود فى يافا حسمت للحال. و نشرت جمعية الموبس إعلانات فى أنحاء يافا و تل أبيب طلبوا من جميع العمال الاشتراك فى الثورة الاجتماعية، و أن يحتفلوا باليوم السابع من تشرين الثانى و هو العيد السنوى لحكومة السوفيات فى روسيا و هذا بعض ما ورد فى الإعلانات «ليحى اليوم السابع من تشرين الثانى يوم العمال الاشتراكيين، لتسقط فرنسا و انجلترا، لتحى الجمهورية الروسية السوفيات، ليحى المؤتمر الاشتراكي الثالث لتحى فلسطين الاشتراكية و حملوا راياتهم الحمر و ساروا و فى مقدمتهم السيدة شارلوت روزنتال فحاولوا إكراه عمال اليهود على الاشتراك معهم فوافق بعضهم و رفض الآخرون فاعتدوا على المتعنتين و حصلت معركة بسيطة.

و فى أيار سنة ١٩٢١ خرج حزب الموبس من ناديهم و على صدورهم شارات حمراء و فى أيديهم رايات كتب عليها بخط أحمر جمل تحض الناس على الثورة و هذا نموذج منها: ليحى المؤتمر الإشتراكي، لتحى النساء الحرّة فى الجمعية الاشتراكية، ليحى اليوم الأول من أيار. لتسقط القوة الإنكليزية القهرية. فتعقبت الشرطة جموعهم المندفعة حتى وافت شوارع تل أبيب و صادمت اليهود و أطلقت عيارات نارية فظنها العرب مظاهرة مقصودة و جهت إليهم و تحسبوا من شرّ مداهم فتجمهروا للدفاع عن أنفسهم، و سرعان ما اشتبكوا مع اليهود و أهرقت الدماء و امتدت الثورة إلى الضواحي حيث هو جمت بعض المستعمرات الصهيونية و دام القتال ثلاثة أيام فقتل من اليهود ٤٧ شخصا و جرح ١٤٦ و قتل من العرب ٤٨ نفسا يدخل فيهم البدو و القرويون و جرح

خطط الشام، ج٣، ص: ٢١٩

٧٣، فأعلنت الأحكام العرفية و وضعت غرامات باهظة على الذين اشتركوا فى هذه المعركة من العرب و حرق بيت شاعر أبو كشك قائد الثورة خارج يافا، و قد استفاد اليهود من ضباطهم فى الجيش إذ ساعدوهم كثيرا و ألبسوا شبابهم ثيابا عسكرية و سلحوهم ببنادق الجند و أوهموا العرب أنهم جنود انكليزية.

المهاجرة:

كان عدد اليهود قبل احتلال الانكليز ٥٥ ألف نفس فلما أبيضت المهاجرة و تدفقت جموع الصهيونيين و أكثرهم من شرق أوروبا أنشأت الحكومة دائرة المهاجرة و السفر لتسهيل الهجرة الصهيونية، ثم تحول هذا الى فرع خصوصى فى ديوان أمين السر العام و أرسلت الحكومة مأمورين من اليهود على نفقة الوطنيين لتشجيع الهجرة، و قد بلغ عدد اليهود فى الإحصاء الرسمى سنة ١٩٢٢ (٠٠٠، ٨٤) نفس و قد قدر عددهم فى آذار سنة ١٩٢٥ (٠٠٠، ١٠٨) شخص (و أصبحوا اليوم أكثر من أربعمئة ألف).

و بعض هؤلاء المهاجرين متدين و بعضهم بولشفيكى و هم فئة قليلة، و بعضهم جهلاء متشردون و بعضهم متعلمون، و كلهم وضع نصب عينيه إخراج العرب من فلسطين و امتلاكها و أكثر من ثلاثة أرباع اليهود يسكنون فى المدن و الباقي فى القرى. و قد بذلوا جهودا كبيرة لمشتري الأرض و الاستعمار الزراعى فى فلسطين بيد أن المهاجرين رغم ماليتهم الشخصية و ما يتوارد عليهم من المساعدات الخارجية و ما يتبع ذلك من التنظيم، يألفون المدن و يتركون القرى، و دلت الإحصاءات على أن قسما قليلا منهم يحترف الزراعة فالأربعون ألف مهاجر الذين دخلوا فلسطين لم يشغل منهم فى الزراعة سوى ثمانية آلاف و تسلس الباقون الى المدن الكبيرة مثل القدس و يافا و حيفا و فتحوا الحوانيت المختلفة كالحلاقة و بيع السلع البسيطة و أهملوا الزراعة. و الذى يعلم أن فلسطين قطر زراعى و أن الزراعة هى المهنة المنتجة الرئيسة فيها لا يرتاب فى أن الصهيونيين لم ينجحوا من هذه الجهة كثيرا.

تقدر مساحة فلسطين بعشرة آلاف ميل مربع تقريبا نصفها جبال قاحلة و أرض رملية و صحراء بلقع و النصف الآخر قابل للزراعة. و اليهود كانوا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢٠

يملكون قبل الحرب نحو ١٧٧ ميلا مربعا و كان لهم ٤٣ مستعمرة. أما اليوم فيملكون نحو ٣١٩ ميلا مربعا أى ستة فى المائة من مجموع الأرض الزراعية و بلغت مستعمراتهم نحو ١٠٠ قرية أكثرها فى الساحل و بعضها اشتراكية. فالبيع و الشراء و الزراعة و الأكل و المعيشة كلها مشتركة و العزّاب نساء و رجالا ينامون معا أما المتروجون فلهم غرف خصوصية، و يؤخذ الأولاد من والديهم يجعلون تحت المراقبة و يعنى بأمرهم لأنهم ملك مشترك للمستعمرة. و أكثر مستعمرات اليهود تعتمد على المساعدات الخارجية و على قروض المصارف و يملك البارون روتشلد ٤٠٪ مما يملكه اليهود فى فلسطين.

المعارف و المصارف و الصحافة و المشاريع الاقتصادية:

ليهود فى فلسطين إدارة معارف تشرف على المدارس اليهودية من صهيونية و أرثوذكسية و هى مستقلة عن إدارة الحكومة. و قد كان لليهود سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ مائة و عشر مدارس فيها ٢٢٠، ١١ تلميذا و ٥٨٤ معلما و فى سنة ١٩٢١ بلغت مدارسهم نحو ١٣٥ مدرسة فيها ٥٢٣ معلما و ٨٣٠، ١٢ طالبا و هى موزعة كما يأتى: فى القدس ٣٣ مدرسة و فى يافا ١٧ و فى حيفا ٦ و فى طبريا ٤ و فى المدن الأخرى ٧، ٥٨ فى مستعمراتهم و ٦ فى سورية.

و يقدر أن ٨٣٪ من أبناء اليهود فى فلسطين يتعلمون فى المدارس اليهودية و يندر أن يدخلوا المدارس الأجنبية. أما المدارس اليهودية فى فلسطين فمتنوعة فبينما تجد المدرسة الدينية التى تشبه الكتابية المعروفة عند العرب و لا تعلم سوى التلمود و التوراة على الأصول القديمة، تجد من جهة أخرى بساتين الأطفال الحديثة تسير على نظم منتسورى و فروبل. و هى أنواع فمنها مدرستان ثانويتان اختلط فيهما الشبان و الشابات إحداهما فى القدس و الأخرى فى يافا، و لهم مدرسة صناعية فى حيفا، و دار معلمات فى يافا و دار معلمين فى القدس، و لهم مدرسة نيتير الزراعية التى أسست منذ ٥٠ سنة تقريبا و فيها ١٠٠ طالب و قد كانت تابعة لجمعية الاتحاد الإسرائيلى (الليانس) فألحقت مؤخرا بالجمعية الصهيونية. و لهم مدرسة تجارية فى يافا و ثلاث مدارس للموسيقى و مدرسة للفنون الجميلة فى القدس. و لغة التعليم فى جميع هذه المدارس العبرية و برامجهما

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢١

تشبه برامج مدارس أواسط أوروبا مع تعديل طفيف. و هم يشددون إلى حد الإفراط فى الاهتمام بتعليم جغرافية فلسطين و تاريخها اليهودى.

و مجموع ما أنفقت إدارة المعارف الصهيونية سنة ١٩٢٠ (١٢٠) ألف جنيه أى ينفق على كل تلميذ تسعة جنيهات و هو معدل باهظ جدا. و لكن موازنتهم أخذت تتناقص إلى أن بلغت ٠، ٨٠ جنيه رغم ازدياد الطلاب. و قد ساءت الحالة المالية و امتنعت إدارة المعارف الصهيونية عن دفع رواتب المعلمين فتمزقوا و أندروها بالإفلاخ عن العمل إن لم تجبهم إلى مطالبهم فلم تصخ إليهم و عجزت عن أداء مشاهرتهم فاضربوا شهرا كاملا ثم حل المشكل حلا سياسيا. و الرسوم فى المدارس اليهودية هى عالية جدا يؤدى الطالب الخارجى فى المدرسة الثانوية ما يقارب العشرين جنيها سنويا لقاء التعليم فقط. و قد أسس اليهود «أوبرا» إسرائيلية إلا أن الإقبال عليها قليل لكون لغتها عبرانية و يقدر ما أنفقته اليهود من المال بعد الحرب بستة ملايين جنيه. مليون واحد اشتروا به أرضا و مليون للصنائع و نصف مليون للمساعدات و ثلاثة ملايين و نصف للاستعمار و التهذيب و للأموال المختلفة سياسية و إدارية.

أعظم مصرف لليهود فى فلسطين بنك انكلو فلسطين الذى كان رأس ماله سنة ١٩٢٠ (١٠٠) ألف جنيه و فيه من الودائع ٧٠٠ ألف جنيه أما الآن فقد زيد رأس ماله إلى ٣٠٠ ألف جنيه و احتفظ هذا المصرف بأرباحه و لم يوزعها منذ سنة ١٩١٤ و ذلك لأنه اضطر

إلى تسليم المستعمرين قروضا لمدد طويلة.

و إدارة هذا المصرف العليا في لندن و له فروع في أمهات المدن الفلسطينية و السورية و لهم غير هذا المصرف مصارف عقارية. و أخرى تسلفهم للبناء و كلها تفضل معاملته اليهود على غيرهم و تعطيهم بفائدة أقل مما تأخذه من العرب. و لليهود بضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الإنكليزية مثل «فلسطين الأسبوعية» «النشرة الفلسطينية» و بعضها يصدر باللغة العبرانية و منها دوار لسان حال العمال و ها آرتس، و دوار هايوم. و كولى إسرائيل لسان حال الأوثوكس و مجلة هايشوف و غيرها من الصحف الضئيلة.

في ٢١ أيلول سنة ١٩٢١ عقد اتفاق بين وكلاء التاج بالنيابة عن السر

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٢٢

هربرت صموئيل المندوب السامى لفلسطين و بين بنحاس روتنبرغ المهندس الروسى على أن يجمع روتنبرغ خلال سنتين مليون جنيه لشركة تؤسس في فلسطين و أن يجمع ما لا يقل عن مائتى ألف جنيه نقدا، فإذا قام بهذه الشروط فالمندوب السامى يمنحه امتيازا مدة سبعين سنة للاستفادة من مياه الأنهار الآتية:

(أ) مياه نهر الأردن و حوضه و نهر اليرموك و جميع فروعه و روافد نهر الأردن التي تقع في الأرض التي يسيطر عليها المندوب السامى لفلسطين.

(ب) مياه نهر الأردن و حوضه و نهر اليرموك و جميع فروعه و روافد نهر الأردن الخارجة عن الأرض الخاضعة للمندوب السامى الواقعة في منطقة الانتداب الفرنسى.

و ذلك لتوليد القوى الكهربائية و غيرها. ثم رخص له أن يبنى على جسر المجمع محطة كهربائية بعد سنة و أن يستعمل بحيرة طبرية خزانا للمياه التي يريد الانتفاع بها و أن يبنى سدا عليها لرفع المياه إلى درجة معلومة، و تنقل هذه المياه في قنن تشاد لهذه الغاية و سمح له أيضا بأن يبنى غير تلك المحطات متى رآها ضرورية لتوليد القوى الكهربائية. و أن يغير مجرى نهر اليرموك و روافده و بثوقه إلى بحيرة طبرية و أن يستملك من الأرض و الأبنية ما يراه ضروريا لهذا المشروع.

و منح أيضا استثمار نهر العوجا بالقرب من يافا. و تعهدت الشركة بأن تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهرا و أن تنجز المشروع في خمس سنوات. و لكن عدل هذا الشرط الأخير و رخص للشركة بتمديد هذه المدة و تعهدت إذا هي تأخرت عن إنجاز هذا العمل في الخمس سنوات أو في المدة التي يعينها المندوب السامى و لم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر ألفى جنيه لحكومة فلسطين و يحق للمندوب السامى إلغاء هذا الاتفاق.

نظرة في نجاح الصهيونية:

إصلاح شىء أصابه البلى أسهل من خلق شىء من العدم، و الصهيونية مهما تقدمت فهي فكرة خيالية لا حقيقة لها أوجدها هوى بعض اليهود لاستيطان بلاد اجتازوا بها و سكنوها ردحا من الزمن ثم جلوا عنها كما وقع للعرب في الأندلس و الفرق بين الحادثتين كبير لأن العرب غرسوا مدينة فأزهرت و أئبع ثمرها،

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٢٣

أما اليهود فقد زالت آثارهم و اندرست مدنيتهم الساذجة. فمطالبتهم بالرجوع إلى هذه الديار متعذرة كل التعذر. (١) لدثور قوميتهم. (٢) لشثيت نزعاتهم و عاداتهم. (٣) اليهود يجمعهم الدين و تفرقهم الأمم، دينهم واحد و هم أمم شتى. (٤) لا تجمعهم وحدة و لا يسرون في منهج. (٥) الأرض يمتلكها أصحابها و هم جزء من محيط عربى عظيم.

فاليهود و إن تقدموا قليلا لا إخال نجاحهم إلا موقتا و لو ساعدتهم بريطانيا و دول الغرب و الفشل عاقبه كل حركة ليست طبيعية و دافعها غير عقيدة صادقة، أما أعمال اليهود خارج فلسطين بعد الحرب فإنهم انصرفوا لإقناع أوروبا بأن العرب راضون عنهم و عقدوا

بعض مؤتمرات و عدلوا بعض خططهم و جمعوا أموالا- جمه و توددوا إلى جيرانهم و طاف دعواتهم الأقطار التي يسكنها اليهود و اكتفوا بحصر قواهم العملية داخل فلسطين و مراقبة الحركات السياسية الدولية العالمية ا ه .

حوادث و غوائل:

في نيسان (١٩٢٥) خطب اللورد النبي المعتمد البريطاني في مصر في حفلة مقابر الحرب البريطانية في غزة خطبة ذكر فيها السامعين بأن هذه البقعة جرت عليها معارك حربية قديمة و حديثه و أثنى على الأبطال البريطانيين الذين قادوا بأرواحهم فطردوا الأتراك في محاولاتهم الثلاث. و قد ذكر بعضهم أن قتلى البريطانيين في البقعة التي حارب بها شمشون في غزة خمسة آلاف جندي. و في هذا الشهر وقعت فتنة بين أهالي قرية العاليات من عمل حمص بعضهم مع بعض و بينهم و بين الحكومة انتهت بقتل أربعين نفسا و ثمانية و أربعين جريحا و يقال: إن خمس أسرفيت على بكره أبيها و السبب في ذلك أن رجلا من العلويين اسمه شعبان من أهل وادي البرغل من عمل اللاذقية قام منذ السنة الماضية

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٢٤

يدعو النصيرية إلى إدخال الإصلاح على مذهبهم، و تعاليمه تدور على روحانية الإمام علي بن أبي طالب في الألوهية، و تخطئه من يزعم وجوده في الشمس كالشماليين أو القمر كالكلالزيين و قد أوجب على أتباعه صيام رمضان و الصلوات الخمس و تعليم النساء خلافا لما جرى عليه الأسلاف في المذهب العلوي من حظر التدين على النساء. فانقاد إلى رأيه كثيرون و لا سيما عشيرة المتاوره و لما كان قد بقيت بعض البيوت في قرية العاليات لم تتمذهب بمذهبه وقع بينها و بين من دانوا به خصام أدى إلى القتل و تدخل الحكومة. و في سلخ ذي الحجة حدث اختلاف بين السلطة المنتدبة و زعماء جبل الدروز أدى إلى نفى بعضهم. و نشبت فتنة بين الدروز و الحامية أدت إلى قتل بضع مئات من الفريقين، و خربت السلطة بضع قرى بالقنابل التي قذفت بها من الطائرات و المدافع.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٢٥

التقسيم الإدارية الحديثة

تقسيم القدماء قبل الإسلام:

كان الشام ينقسم بحسب مصلحة المتغلبين عليه، و لما كان يطلق عليه اسم آرام كان يقسم إلى عدة أقسام مثل آرام صوبه و آرم معكه و آرام بيت رحوب و آرام دمشق و فدان دمشق و هي أقسام مملكة آرام، و كانت دمشق قصبته، أي إنها كانت منقسمة بين ملوك كثيرين كملوك دمشق و رحوب و صوبه و جشور على ما يفهم من رواية التوراة. و أراد الرومان إضافة فلسطين إلى ولاية سورية الرومانية سنة ٦٦ ب.م و لما نظم أغسطس قيصر مملكته و صارت سورية ولاية امبراطورية عاصمتها أنطاكية احتفظت بعض مقاطعاتها باستقلالها، فكانت خلكيس (عين جر أو عنجر) مملكة صغيرة، و ابيلية (وادي بردى) رياسه ربع، و دمشق مستقلة بعض الاستقلال إلى أيام نيرون. و وسد أمر اليهودية لوال كان له بعض الاستقلال في حدود ولايته تحت إدارة والي سورية، و كانت تدمر مستقلة في سلطانها إلى سنة ١١٤ م و أضاف الامبراطور تراجان الأصقاع الواقعة ما وراء الأردن، و قضى على مملكة النبطيين و جعلها حكومة ممتازة سماها الولاية العربية و جعل بصرى عاصمتها.

و قسم ساويرس الروماني سورية إلى قسمين و جعل القسم الأول إلى الشمال، و فيه سورية الكومجانية و سورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى أنطاكية و البحر و ما بين اللكام و لبنان، و القسم الثاني في الجنوب و الشرق و فيه سورية الفينيقية و الشطوط البحرية و شرقي لبنان إلى وسط البرية و فيه (٣-١٥)

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢٦

بعلبك و حمص و دمشق و تدمر. و انقسمت مملكة الشام بعد مقتل ديمتريوس إلى قسمين ملكت كلوبطرا في عكا و جنوب المملكة و ملك زنوبيا في أنطاكية و شمالها. و كانت الشام مقسومة إلى قسمين سورية و فلسطين و أطلق اسم سورية على الاثنين منذ إضافتهما إلى المملكة الرومانية قبل المسيح بمدة.

أجناد الشام و تقسيم العرب:

و قسم الأوائل الشام خمسة أقسام الأول فلسطين و من مدنها ايليا و هي بيت المقدس و عسقلان ولد و نابلس و حبرون أي الخليل، و الثاني، الأردن و مدينتها العظمى طبرية، و الثالث الغوطة و مدينتها العظمى دمشق، و الرابع حمص، و الخامس قنسرين و مدينتها العظمى حلب و هو أشبه بتقسيم العرب، قسموها خمسة أجناد أي خمسة فيالق، و هي جند فلسطين، و جند الأردن، و جند دمشق، و جند حمص، و جند قنسرين.

سمى المسلمون فلسطين جندا لأنه جمع كورا و كذلك دمشق و كذلك الأردن و كذلك حمص مع قنسرين. و سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جندا، و ذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان أي أفردها، فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خرابها، و أن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعل، و لم تزل قنسرين و كورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين و أنطاكية و منبج و ذواتها جندا، و أفرد الرشيد قنسرين أي كورة حلب بكورها فصيرها جندا واحدا.

و معلوم أن العرب أطلقوا اسم الشام على سورية و فلسطين معا و هذه القسمة أي قسمة الشام إلى قطرين لا توافق عليهما الطبيعة كما قال العارفون من علماء الجغرافيا المحدثين، لأنهما شيء واحد و ما هي إلا اعتبارات سياسية صرفة، و هو تقسيم موضوع على التعارف كما قال المقدسي، و قد قسم الشام إلى ست كور و قال: فإن قال قائل لم جعلت قصبه الكورة حلب (أي لم تجعلها قنسرين) كما كان مصطلح العرب إلى القرن الثالث و ههنا مدينة على اسمها قيل له: قد قلنا إن مثل القصبات كالقواد و المدن كالجنود و لا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها و حلول السلطان بها و جمع الدواوين إليها و أنطاكية

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢٧

و نفاستها و بالس و عمارتها أجنادا لمدينة صغيرة أي قنسرين التي وصفها بأنها مدينة خف أهلها.

التقسيم في عصر الصليبيين و المماليك:

و ما زال تقسيم الشام إلى أجناد مدة الأمويين و طرف صالح من عهد العباسيين و يفرق العمال الذين ينصبونهم بحسب ما يرون فيه المصلحة، دام ذلك إلى القرن الخامس فكانوا يقطعون بعض الأعمال و يدعونها ممالك فكانت صرخد مملكة و الزبداني مملكة و حمص مملكة و حماة مملكة و حلب مملكة. و هذا التقسيم مختل بالطبع لاختلال أحوال القطر بالحروب الصليبية قال القلقشندي: قواعد الشام ست كل قاعدة منها تعد مملكة، بل كانت كل قاعدة منها مملكة مستقلة بسطان في زمن بنى أيوب، و هذه القواعد الست العظام هي دمشق و حلب و حماة و طرابلس و صغد و الكرك. بل كانت الغوطة و المرج من عمل دمشق ولاية برأسها، كما كان الجبل و وادي بردى و ييوس ولاية، و كما كانت بيت لها في الغوطة ولاية على عهد الأمويين.

و قسم المماليك الشام قسمين جنوبي و شمالي و كان يعين لكل منهما كافل أي وال يقيم كافل القسم الأول في دمشق و يقال له كافل الممالك الشامية، و ينزل عامل القسم الثاني في حلب و يقال له كافل الممالك الحلبية. و في سنة ٧٦٨ جعل الملك الأشرف

من ملوك الترك حلب أكبر من دمشق كما كانت على القاعدة القديمة، وعد الظاهري سبع ممالك في الشام في القرن التاسع و هي المملكة الشامية و المملكة الكركية و المملكة الحلبية و المملكة الطرابلسية و المملكة حماوية و المملكة الصفدية و المملكة الغزاوية.

و كان لدمشق أربع صفتات غربية و هي الساحلية و القبلية و الشمالية و الشرقية ففي الصفقة الأولى و هي الغربية عشر نيابات و خمس ولايات. فأما النيابات فمنها غزة و القدس، و الولايات فمنها ولاية الرملة و لد و قاقون و بلد الخليل و نابلس و أما الصفقة القبلية و هي الثانية ففيها نيابات و ثمان ولايات، فأما النيابات فالأولى منها نيابة قلعة صرخد و نيابة عجلون. و أما الولايات فالأولى ولاية بيسان و ولاية بانياس و ولاية قلعة الصبيبة و ولاية الشعراء و أذرعات و حسان و الصلت و بصرى.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢٨

و الصفقة الشمالية و فيها نيابة واحدة و ثلاث ولايات. فأما نيابة فبعلبك و أما الولايات فالأولى ولاية البقاع البعلبكي و الثانية ولاية بيروت و الثالثة ولاية صيدا، و الصفقة الرابعة الشرقية و بها ثلاث نيابات و أربع ولايات. و هناك نيابات حلب و نيابة طرابلس و نيابة صفد و ولاية تبنين و هونين و ولاية الشقيف إلى غير ذلك من مصطلح القرن الثامن للهجرة.

على عهد العثمانيين:

و قسم العثمانيون الشام ثلاث نيابات أو إيالات و هي دمشق و حلب و طرابلس و ظلّ هذا التقسيم إلى ما بعد عهد السلطان أحمد فكانت دمشق و هي أعظمها عبارة عن عشرة ألوية و أهمها القدس و غزة و نابلس و تدمر و بيروت و صيدا، و ولاية طرابلس خمسة ألوية و هي طرابلس و حماة و حمص و سلمية و جبلة.

و قسمت حلب تسعة ألوية تتناول سورية الشمالية برمتها ما عدا عينتاب التابعة لولاية مرعش، و في سنة ١٦٦٠ م أحدثت الدولة ولاية جديدة و هي صيدا لمراقبة الجبل. و قد امتدح الجنرال دي تورسى من طرز الإدارة التي منحها سليم الأول للشام و هي التي كان عليها العمل في الأ-كثر إلى خروج الأ-تراك من هذا القطر، و ذكر بعضهم أن الشام كانت على عهد أوائل الحكم العثماني أربع إيالات كبرى و أن تقسيمها إلى ثلاث إيالات كما مر حدث بعد زمن.

و في سنة ١٢٧٢ ه كانت الشام تقسم إيالتين إيالة دمشق و إيالة صيدا، و لما نظمت الولايات على أسلوبها المتعارف أخذ لواء الرها (أورفة) من الجزيرة و لواء مرعش من الأناضول و ألحقا بحلب فجعلت ولاية و جعلت بقية الشام ولاية جسيمه حاضرتها دمشق. و أنشئت القدس لواء مستقلا سنة ١٨٧٠ تفاوض الإستانة مباشرة، و بعد خروج المصريين (١٨٤٠) كانت القدس تجعل تابعة لإيالة صيدا تارة، و تابعة للباب العالي تارة أخرى، و أصبح لبنان مؤلفا من أقضية الكورة و البترون و كسروان و المتن و الشوف و زحلة و جزين، و ظلت بيروت و طرابلس و نابلس و اللاذقية و عكا و أعمالها تابعة لولاية دمشق، و بقي مركز الجيش دمشق على ما كان عليه قبيل دخول إبراهيم باشا. و في سنة ١٨٨٧ جعلت القدس متصرفية مستقلة، و جعلت الكرك أي ما وراء عبر الأردن متصرفية برأسها، و جعلت بيروت سنة ١٨٨٨ ولاية مستقلة عن دمشق لموقعها الاقتصادي و أضيفت

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٢٩

إليها عكا و نابلس و اللاذقية و طرابلس و صور و صيدا و مرجعيون. و كان لبنان منذ سنة ١٨٦٠ مستقلا استقلالاً إدارياً يتولاه متصرف من الباب العالي برتبة وزير و تصادق على تعيينه الدول الست العظمى.

و يوم جلا-الأ-تراك عن الشام كان يقسم إلى ثلاث ولايات و هي دمشق و حلب و بيروت و ثلاثة ألوية مستقلة أي ولايات صغيرة تفاوض الباب العالي مباشرة، و هي القدس و لبنان و دير الزور. و اصطلح في فلسطين أولاً على جعلها أربعة ألوية و هي لواء القدس و يافا و لواء الجليل و لواء السامرة و اللواء الشمالي. و جعلت المدن الأربع دمشق و حلب و حماة و حمص و ما يتبعها دولة قسمت إلى

عدة ألوية و هي الكرك و حوران و دمشق و حمص و حماة و دير الزور و حلب و الإسكندرونة و استقل لواء اللاذقية.

تقاسيم فلسطين:

و بحسب التقاسيم الإدارية الأخيرة تقسم حكومة فلسطين إلى ثلاثة ألوية و هي (١) لواء القدس و يافا و مركزه القدس. (٢) اللواء الجنوبي و مركزه غزة. (٣) اللواء الشمالي و مركزه حيفا. و يقسم لواء القدس و يافا إلى سبعة أفضية و هي قضاء القدس و رام الله و أريحا و بيت لحم و يافا و الرملة. و ليافا امتياز شبيه باستقلال إداري. و يقسم اللواء الجنوبي إلى أربعة أفضية و هي قضاء غزة و المجدل و بئر السبع و الخليل. و يقسم اللواء الشمالي إلى عشرة أفضية و هي حيفا و عكا و زمارين و الناصرة و طبرية و صنف و نابلس و طولكرم و جنين و بيسان.

تقاسيم الشرق العربي أي شرقي الأردن:

و تقسم حكومة الشرق العربي إلى أربعة ألوية و هي (١) لواء عمان و يتبعه قضاء مادبا و ناحية زيزاء (الجيزة) و مركزه عمان. (٢) لواء الصلت و مركزه الصلت. (٣) لواء أربد و من عمله أفضية جبل عجلون و جرش و أم قيس و مركزه أربد، و يتبع المركز رأسا ثلاث نواح و هي الرمتا و الكورة و الغور، و من عمله قضاء جرش ناحية الزرقاء. (٤) لواء الكرك و يتألف خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣٠ من قضاء الكرك و الطفيلة و يتبع الكرك مباشرة ثلاث نواح: المزار، السماكية، الغور، و أضيفت العقبة و معان إلى الشرق العربي.

دولة سورية:

و تقسم دولة سورية إلى سبعة ألوية و هي لواء (١) دمشق و (٢) حوران (٣) حمص و (٤) حماة و (٥) حلب و (٦) دير الزور و (٧) الإسكندرونة. و يقسم لواء دمشق إلى ستة أفضية و هي (١) قضاء دومة و فيه ناحيتان «تل منين» و «دير سلمان» (٢) قضاء جيرود و فيه ناحية القطيفة و (٣) قضاء النبك و فيه ناحية يبرود و (٤) قضاء الزبداني و (٥) وادي العجم الذي جعل قضاء حرمون بعد و فيه ثلاث نواح و هي الطيبة و مركزها زاكية و «بيت جن» و «الدير على» (٦) القنيطرة و فيه ناحية مجدل شمس. و لواء حوران و يلحق بمركزه ناحيتا بصرى و طفس و يتبعه قضاءان ازرع و الزوية و في قضاء أزرع خمس نواح و هي نوى، المسمية، الصنمين، اللجاء الجنوبية، اللجاء الشمالية. و لواء حمص و من عمله خمس نواح و هي حسيه، الرستن، عين ظاظ، القصير، جب الجراح. و يتبع حمص قضاء واحد و هو «القريتين» و فيه ناحية تدمر و يتبع لواء حماة ثلاث نواح و قضاء واحد فيه ثلاث نواح أيضا فنواحي اللواء طار العلاء، الحميرة، بارين، و القضاء سلمية و فيه ثلاث نواح: عين كاسون، عقيربات، معر شحور. و لواء حلب و يلحق به عشرة أفضية (١) جرابلس و لها ناحيتان ناحية قلقوم و ناحية جسرين و (٢) جبل سمعان و فيه ثلاث نواح عذان، الزربة، أبو الظهور و (٣) الباب و فيه ناحيتا دير صافر، صوسنباط و (٤) المعرة و لها ناحيتان الأندرين، خوين الكبير و (٥) اعزاز و فيه ناحية نين و (٦) منبج و فيه ناحيتان أبو قلقل، مسكنة و (٧) كرد طاغ و له أربع نواح ناحية فاطمة، الجوم، راجو، بلبل و (٨) حارم و فيها أربع نواح كفر تخاريم، باريشا، سلقين، ترماني و (٩) جسر الشغور و فيها ناحيتان دركوش، المضيق و (١٠) إدلب

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٣١

و فيها ثلاث نواح أريحا، سرمين، معرة مصرين، و أطلق على لواء حلب اسم ولاية حلب.

و يقسم لواء دير الزور إلى ستة أفضية جعلت مراكزها الآن (١) دير الزور.

(٢) الرقة. (٣) الميادين. (٤) البوكمال. (٥) حسجة، (٦) كرو. و يقسم قضاء دير الزور إلى أربع نواح مراكزها في دير الزور و كسره و مراط و سوار.

و قضاء الرقة إلى خمس نواح مراكزها الرقة و خربة الرز و مرابط و أبو هريرة و سبخه. و قضاء الميادين إلى ناحيتين مركز أحدهما ميادين و الثانية عشاره.

و قضاء البوكمال إلى ناحيتين مركز أحدهما البوكمال و الثانية الصلاحية. و قضاء حسجة إلى أربع نواح مراكزها في شدادى و حسجة و رأس العين و عاموده.

و قضاء كرو إلى ثلاث نواح مراكزها كرو و عزنور و ديرون اغا.

دولة جبل الدروز:

و تقسم دولة جبل الدروز إلى ثلاث عشرة ناحية و هي عرى، القرية، صرخد، ملح، سالة، المجدل، نجران، عاهرة، وادى اللوى، الهيت، شهبه، سليم، نمره، و مركز الدولة قرية السويداء.

دولة لبنان الكبير:

يقسم لبنان الكبير إلى إحدى عشرة محافظة و تقسم كل محافظة إلى مديريات و هي (١) محافظة صيدا و مركزها مدينة صيدا و من عملها مديرية النبطية و مديرية عدلون و مديرية جزين (٢) و محافظة صور مركزها مدينة صور و يتبعها مديرية تبنين و مديرية علما و مركز المحافظة مدينة صور (٣) محافظة مرجعيون مركزها الجديدة و من عملها مديرية حاصبيا (٤) محافظة بيروت مركزها مدينة بيروت (٥) محافظة الشوف مركزها بعقلين و يتبعها مديريات المختارة و شحيم و عين زحلته و رشميا و الشويفات و عاليه و مديرية دير القمر المستقلة (٦) محافظة طرابلس و مركزها مدينة طرابلس و يتبعها مديريات حلبا و قبيات و سير (٧) محافظة المتن و مركزها بحنس و من توابعها مديرية بكفيا و برمانا و بسكنتا و حمانا (٨) محافظة بعلبك و مركزها مدينة بعلبك و يتبعها مديريات طليا و دير الأحمر و الهرمل

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٣٢

و رأس بعلبك (٩) محافظة زحلة و مركزها مدينة زحلة و يتبعها مديريات قب الياس و سغبين و راشيا (١٠) محافظة كسروان و مركزها غادير و بيت خشبو و من عملها مديريات جبيل و ريفون و الكفور و قرطبا (١١) محافظة البترون و مركزها مدينة البترون و من عملها مديريات تنورين و بشرى و أميون.

دولة العلويين:

تقسم حكومة العلويين إلى لوائين (١) لواء اللاذقية و مركزها مدينة اللاذقية و تنقسم إلى خمسة أفضية و هي اللاذقية و جبله و صهيون و قضاء المرقب مركز حكومته بانياس و قضاء العمرانية و مركز حكومته مصيف (٢) لواء طرطوس و يقسم إلى ثلاثة أفضية و هي طرطوس و صافيتا و قصبته دريكيش و الحصن و قصبته تل كلخ. أما جزيرة أرواد فمستقلة و تعد من دولة العلويين.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣٣

العقود و العهود الأخيرة

إشارة

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية و الحكومة البريطانية لاجل تثبيت اتفاقية سايكس بيكو بواسطة السر ادوار غراى و م. كامبون فى أيار سنة ١٩١٦

الرسالة الأولى:

من مسيو ا. كامبون إلى السر ا. غراى ٩ أيار ١٩١٦. ١- تميل فرنسا و بريطانيا العظمى إلى الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو حلف من الدول العربية المستقلة فى منطقتى الألف و الباء كما هو مبين فى المصوّر بإمارة زعيم عربى و تقدمان لها الحماية. و يكون لفرنسا فى منطقة الألف و لبريطانيا العظمى فى منطقة الباء الحق الأول فى عقد القروض و فى التزام المشاريع المحلية. و تقدم فرنسا فى منطقة الألف و بريطانيا العظمى فى منطقة الباء المستشارين الفنيين و الإداريين حينما ترى الدولة العربية أو الحلف العربى ضرورة لذلك.

٢- تفوض فرنسا فى المنطقة الزرقاء و بريطانيا العظمى فى المنطقة الحمراء أن تعمل فىهما على ما ترغبان فيه أى أن تديرهما مباشرة أو غير مباشرة بالاشتراك مع العرب و تأسيس دولة عربية أو حلف من الدول العربية.

٣- تدار المنطقة السمرات بإدارة دولية و يترك أمر البت فى تعيين شكلها إلى أن تتم المفاوضات مع روسيا و سائر الحلفاء و مندوبى شريف مكة.

٤- تعطى بريطانيا العظمى: (أولا) مرفأى حيفا و عكا. (ثانيا) كمية

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣٤

معينه من ماء نهري دجلة و الفرات تؤخذ من منطقة الألف و تعطى لمنطقة الباء.

و على حكومة جلالة الملك مقابل ذلك أن لا تفاوض فى وقت من الأوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل أن توافق فرنسا على ذلك.

٥- تكون الإسكندرونه مرفأ حرا للتجارة البريطانية و لا يكون فيها تفاوت فى المعاملات أو اختلاف فى الرسوم الجمركية، و لا ترفض التسهيلات الخاصة التى من شأنها الإسراع بنقل البضائع البريطانية و شحنها بالبحر أو بالخطوط الحديدية التى تمر بالمنطقة الزرقاء. لا فرق فى أن تكون هذه البضائع واردة من المنطقة الحمراء أو صادرة إليها أو خاصة بمنطقة الألف أو الباء.

تكون حيفا مرفأ حرا للتجارة الفرنسية و تجارة مستعمراتها و تجارة البلاد المشمولة بحمايتها، و لا يكون فيها تفاوت فى المعاملات أو اختلاف فى الرسوم الجمركية، و يكون شحن البضائع منها و إليها مباحا بالسكة الحديدية التى تمر بالمنطقة السمرات. لا فرق فى أن تكون هذه البضائع واردة أو صادرة من المنطقة الزرقاء أو من منطقة الألف أو الباء.

٦- لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الألف جنوبا إلى ما وراء الموصل و لا بمنطقة الباء شمالا إلى ما وراء سامراء قبل أن يتم إنشاء السكة الحديدية بين حلب و بغداد عن طريق وادى الفرات و قبل أن يوافق الفريقان على ذلك التمديد.

٧- يحق لبريطانيا العظمى وحدها أن تنشئ و تدير و تمتلك خطا حديديا يبتدىء من حيفا و ينتهى بمنطقة الباء، و لها الحق أيضا أن

تنقل الجنود و المواد الحربية على هذا الخط الحديدى متى شاءت، و من المعلوم عند الحكومتين أن هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فإذا تعذر مده فنيا فى المنطقة السمراء و اقتضى الأمر لمروره بغيرها تسمح فرنسا بذلك.

٨- تبقى تعرفه المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقا لمدة عشرين سنة فى المنطقة الحمراء و الزرقاء و الألف و الباء و لا يصير فيها تغيير أو تبديل إلا بمعرفة الفريقين و موافقتهم.

٩- توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة أعلاه، و تحصل الرسوم بحسب الأصول فى المرفأ الذى ترد إليه البضائع و تسلم بعد ذلك إلى الإدارة الداخلية التى تخصها تلك البضائع.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٣٥

٩- من البديهي أن فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة فى وقت من الأوقات بشأن التنازل عن مالها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء، و لا تتخلى عن هذه الحقوق إلا- إلى الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة قبل أن توافق حكومة جلاله الملك على ذلك. و على حكومة جلالته أن تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء.

١٠- يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية و الحكومة البريطانية الحاميتان للدولة العربية على عدم السماح لدولة ثالثة أن تمتلك شيئاً فى أراضي شبه جزيرة العرب و أن تتخذ قاعدة بحرية فى الجزر الواقعة إلى شرق ساحل البحر الأحمر، و هذا لا يمنع أن تعدل الحكومة البريطانية جبهه عدن بمقتضى الأصول الفنية و الأحوال الخاصة بعد أن ثبتت ضرورة ذلك على أثر العداء التركى.

١١- تجرى المفاوضات مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية أو الدول العربية المتحدة كما فى السابق باسم الدولتين.

١٢- معلوم أن مراقبة توريد الأسلحة إلى البلاد العربية منوط بالدولتين.

الرسالة الثانية:

من مسيو ا. كامبون إلى السرا. غراى فى ١٥ أيار سنة ١٩١٦ قبل أن تجاوب فخامتكم على رسالتنا فى تاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية أبدىتم رغبتكم فى إضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة و الامتيازات الدينية و امتيازات المدارس و البعثات الطبية فى المناطق التى ستصبح إفرنسية و فى المناطق التى ستسود فيها الإدارة الفرنسية، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلاله الملك أن توافق أيضا على نفس الشروط فى المناطق الداخلة فى دائرتها.

ولى الشرف أن أعلم فخامتكم أن الحكومة الفرنسية مستعدة أن تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التى كانت تتمتع بها قبل الحرب فى المناطق التى ستعطى لها (أى لفرنسا) أو المناطق التى ستشمل بعنايتها، أما الامتيازات الدينية و المدرسية و الطبية و الفنية فستبقى كما فى الماضى، و من المعلوم أن هذه الامتيازات لا تعنى بقاء الامتيازات الأجنبية و الامتيازات القضائية.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٣٦

الرسالة الثالثة:

من السرا. غراى إلى مسيو ا. كامبون فى ١٦ أيار سنة ١٩١٦ يوافق على نص المعاهدة كما جاءت فى كتاب المسيو ا. كامبون فى تاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٣٧

نسخة مختصرة عن دستور فلسطين الرسمي

ينص هذا النظام على تعيين رجل صالح لإدارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامي والقائد العام، ويخوله السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المقترنة بوظيفته، وتطبيق شروط الانتداب الذي منحه دول الحلفاء السامية إلى بريطانيا العظمى، وتأسيس وطن قومي لليهود.

ومنح المندوب السامي السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير إلى مقاطعات أو أجزاء إدارية على أسلوب ملائم لأعمال الإدارة، و خول جميع الحقوق للتصرف بالأراضي العامة أو بما له علاقة فيها، و بجميع الحقوق لاستثمار المناجم و المعادن على اختلاف أنواعها و إعطاء امتيازات شرعية لاي كان لاستخراجها، و له الحق أن يهب الأراضي العامة و المعادن و المناجم، و يؤجرها أو يسمح باستثمارها مؤقتا بالشروط التي يرتئها، و له الحق في تعيين موظفي الحكومة بعد مراعاة أوامر الوزير بالأحوال التي يراها مناسبة، و أن يعين واجباتهم و يبقى هؤلاء الموظفون في مراكزهم ما دام المندوب السامي راضيا عن أعمالهم. و يؤلف مجلس تنفيذي لمساعدة المندوب السامي على الطريقة التي تشير بها حكومة جلالة الملك. و يؤلف اعتبارا من التاريخ الذي يعينه المندوب السامي مجلسا تشريعا لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشاري و تكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للمحافظة على الأمن و السلام و انتظام الحكومة، بشرط أن لا يخالف التعليمات المعطاة من حكومة جلالة الملك، و أن لا يسن قانونا يمس الحرية الشخصية أو يقيد الحرية الدينية أو يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية أو الديانة أو اللغة أو يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣٨

لا تنفذ القوانين التي يسنها هذا المجلس قبل أن يصادق عليها المندوب السامي و تقرها حكومة جلالة الملك. يحتفظ المندوب السامي بالقوانين التي أجازها المجلس التشريعي لموافقة جلالة عليها و يحتفظ أيضا بالأمور التي لها مساس بنظام الانتداب. و يحتفظ جلالة الملك لنفسه بحق رفض أي قانون قد يكون المندوب السامي وافق عليه في خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه و يعلن رفضه إياه بواسطة كاتم السر العام.

يؤلف المجلس التشريعي من ٢٢ عضوا عدا المندوب السامي، منهم عشرة أعضاء من الموظفين و اثنا عشر من غير الموظفين، و ينتخب الغير موظفين بموجب الأوامر التي تصدر من مجلس الملك الخاص، أو بموجب ما يوضع من القوانين و الأنظمة من حين إلى آخر بشأن هذه الانتخابات، و يكون الأعضاء الموظفون الأشخاص الذين يشغلون وظائف كاتم السر العام و النائب العام و مدير المالية و مفتش الشرطة و السجون و مدير الصحة و مدير الأشغال العامة و مدير المعارف و مدير الزراعة و مدير الكمارك مدير التجارة و الصناعة.

المحاكم الملكية و الشرعية

تؤلف محاكم صلح في كل قضاء و ناحية و يكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام الصلح العثماني كما هو معدّل بموجب القوانين و الأنظمة النافذة الآن.

و تؤلف محاكم مركزية في الأفضية التي يعينها المندوب السامي و لها الحق في رؤية جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح في ذلك القضاء و الحق في رؤية جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفته محكمة الجنايات.

و تؤلف محكمة جنايات لها السلطة التامة في رؤية الجرائم المعاقب عليها بالقتل و الجرائم الأخرى التي ينص عليها القانون الخاص. و للمندوب السامي أن يؤلف بأمر منه محاكم أراض كلما دعت الحاجة إلى ذلك للنظر في المسائل المتعلقة بملكية الأموال الغير

المنقولة.

و تؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا و تعين صورة تأليفها بقانون خاص و يكون لها صفة المحاكم الاستثنائية.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٣٩

و للمحاكم الشرعية الإسلامية وحدها الحق في رؤية الدعاوى المتعلقة في الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج و الطلاق و النفقة و تصديق الوصايا الخ. و لمحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها أن تنظر في استماع الدعاوى المتعلقة بالأحوال الشخصية. و لمحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها أن ترى مسائل الزواج و الطلاق و النفقة و تصديق الوصايا و تنظر في الأوقاف الخ. إذا شملت قضية تتعلق بالأحوال الشخصية أشخاصا من طوائف دينية مختلفة يجوز لأي خصم أن يقدم طلبا إلى قاضي القضاة و هذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التي لها السلطة في استماع تلك القضية. و إذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة في اختصاص محكمة دينية تحال القضية إلى محكمة خاصة يعين شكلها بقانون خاص.

بعض مواد عامة

يجب أن تنشر باللغتين الإنكليزية و بالعربية و بالعبرية جميع القوانين و الاعلانات الرسمية و النماذج التي تصدرها الحكومة و جميع الإعلانات الرسمية التي تعلنها السلطات المحلية و البلديات في المناطق التي يعينها المندوب السامي بأمر منه. و يجوز استعمال اللغات الثلاث في المباحثات و المناقشات التي تدور في المجلس التشريعي و في دوائر الحكومة و محاكمها مع مراعاة الأنظمة التي تسن من وقت إلى آخر. يحق لجميع سكان فلسطين أن يتمتعوا بالحري الشخصية التامة و الحري الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام و الآداب العامة و يحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة أن تتمتع بالاستقلال الذاتي لإدارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل قانون و أمر يصدره المندوب السامي.

إذا رأت طائفة دينية أو فريق كبير من أهالي فلسطين أن شروط الانتداب لا تنفذها حكومة فلسطين كما يجب، فلها الحق في رفع مذكرة بواسطة عضو في المجلس التشريعي إلى المندوب السامي فينظر في هذه المذكرة على الطريقة التي يعينها جلاله الملك وفقا للاصول التي وضعها مجلس عصبة الأمم.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٠

المعاهدة البريطانية الفرنسية

المنعقدة في ٢٣ كانون الاول سنة (١٩٢٠) التي تبحث في بعض الشؤون المهمة مما له علاقة بالانتداب على سوريا و لبنان و فلسطين و العراق.

أنابت الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما أدناه ليحلا جميع الأمور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين و العراق و لفرنسا على سوريا و لبنان في المجلس الأعلى الذي اجتمع في سان ريمو و قد اتفقتا على الشروط الآتية:

١- تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسي على سوريا و لبنان و حدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني على فلسطين

و العراق كما يلي:

من الشرق نهر الفرات و جزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر و الموصل القديمة، و من الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوى و من هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الأراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي و يمر باستقامه نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال و يمتد باستقامه الى أمتار فجنوب جبل الدروز و من هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائرا الى جنوب خط السكة الحديدية و موازيا له. و تبقى درعا و ما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي و يبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسية و يسير بصورة ملاصقة و موازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الإمكان أن تمتد في وادي اليرموك سكة حديدية في الأراضي المشمولة بالانتداب البريطاني و ستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين أن يبنيا مرفأ و محطة للسكة الحديدية ليتمكننا من استعمال بحيرة طبرية بحرية و من الغرب يسير الخط من سمخ مارا داخل بحيرة طبرية فأول وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا، الى نبعه و من هنا يتصل بطريق القنيطرة و بانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسية لغاية بانياس و من هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطل و تبقى المطل في المنطقة البريطانية، و سيوضع لهذا

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤١

الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع أطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي كصور و صيدا و المناطق الواقعة الى الغرب والى الشرق من بانياس.

و تفصل التخوم بالمطل بمفرق المياه في وادي الأردن و حوض نهر الليطاني و تسير جنوبا مع وادي الأردن فوادي فرعم و وادي كركرة اللذين يقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلاونة و وادي العيون و الزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسية و يصل الحد الى شاطيء البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة التي تظل في المنطقة الفرنسية.

٢- تولى بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة أشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الفرنسي و المناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بينها في المادة الأولى، و تتألف هذه البعثة من أربعة أعضاء تعين الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية اثنين منهم و تعين الاخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي و الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين.

إذا وقع خلاف بين اعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعى الأمم و يكون قرارها فيه قطعيا

تقدم بتقارير البعثة النهائية الحدود الثابتة التي عينت أخيرا و تربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل اعضاء البعثة، و يعمل ثلاث نسخ من هذه التقارير و المصورات بحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعى الأمم و تحفظ النسختين الأخرين الحكومتان المنتدبتان.

٣- توافق الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية على ترشيح لحنه خاصة مهمتها درس الخطط التمهيديّة التي تعينها الحكومة الفرنسية المنتدبة لأجل مصلحة الرى في البلاد المشمولة بانتدابها لثلا يقلل إبرازها لحيز الفعل مياه دجلة و الفرات في الموضوع الذى يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطانى.

٤- توافق الحكومة البريطانية بالنظر إلى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية و العسكرية بالنسبة إلى خليج الإسكندرونه على أن لا تفاوض أحدا بخصوص التنازل عنها أو تسليمه إياها قبلما توافق فرنسا على ذلك.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٢

٥- أ: توافق الحكومة الفرنسية على وضع ترتيب حرّ بين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية و نصيب استعمالا

مشركا.

تضمن سير هذا الترتيب و انتظامه إدارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني و الفرنسي بأسرع ما يمكن أى بعد تنفيذ الانتداب على سورية و فلسطين و تسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لإدارة السكة الحديدية البريطانية أن تسيّر قطاراتها ذهابا و إيابا بين هاتين المنطقتين وفقا لمصالحهما، و تنقل البضائع التجارية إلى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسي بواسطتها، و تعين هذه الاتفاقية الشروط المالية و الإدارية و الفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية، أما إذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة أشهر من تنفيذ الانتداب بين الإدارتين المذكورتين أعلاه فستعين جمعية الأمم حكما يفصل الخلاف و عندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضى الطرفين.

يعمل بموجب هذه الاتفاقية إلى أجل غير مسمى و تصحح أحيانا بحسب الحال

ب: يمكن للحكومة البريطانية أن تمتد خطا من الأنابيب الحديدية بجانب السكة الحديدية و لها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائما.

ت: توافق الحكومة الفرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الأراضي، و بعد درسها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقه فنية يمكن معها بناء الخط الحديدى البريطانى و خط الأنابيب التى توصل بين فلسطين و بين سكة الحجاز و وادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطانى، و تبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسى، و يجب على بريطانيا العظمى إحقاق حقها هذا ببرهه لا تتجاوز عشر سنوات.

تتألف البعثة التى ذكرناها أعلاه من عضو بريطانى و عضو فرنسى يضاف إليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا إن رأت الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية لزوما لذلك.

ج: إذا اقتضى الأمر لأسباب فنية أن يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الأماكن المشمولة بالانتداب الفرنسى توافق الحكومة الفرنسية على مرور

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٣

هذا الخط بتلك المناطق و تقدم للحكومة البريطانية أو لعملائها المساعدات اللازمة. خطط الشام؛ ج ٣؛ ص ٢٤٣

إذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة أن تمتد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسية الشروط التى اشترطتها على نفسها بالفقرة الأولى و الثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة أشهر من إنشاء السكة.

ه: توافق الحكومة الفرنسية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسى أن تصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية.

٦- تم الاتفاق على هذه الشروط التى تسهل أعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو.

٧- لا- تضع الحكومة البريطانية و لا- الحكومة الفرنسية موانع في منطقتي انتدابهما لجميع الموظفين اللازمين لإدارة خط السكة الحجازية أو لاستخدامهم.

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدى الحجازى بمنطقة الانتداب البريطانى و الفرنسى لثلا متأخر أعمال هذا الخط.

توافق الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية عند اللزوم على أن تعقد اتفاقية مع الحكومات المحلية استثناء جميع مهمات هذا الخط و معداته من الرسوم الجمركية عندما تمر بإحدى مناطق الانتداب.

٨- يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية و فلسطين غب مرور ستة أشهر من إمضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص أحوال مياه نهر الأردن الأعلى و نهر اليرموك و توابعهما لاستخدامهما فى الرى و لأجل توليد الكهرباء و تعيين المقدار اللازم للأراضى الواقعة تحت الانتداب الفرنسى.

تزود الحكومة الفرنسية الاخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين المياه الزائدة خدمة لمنافعها العامة إذا لم يحصل الاتفاق المطلوب عند نهاية هذا الدرس و تعرض المسألة على الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية لتدرياسها و تقررا فيها قرارا نهائيا.

تشارك إدارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الأعمال فى دفع نفقات بناء الترع و الخلجان و السدود و الخزانات و الأحواض و الأفنية و خطوط الأنابيب

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٤

الحديدية الخ. و تشارك فى جميع الأعمال التى من شأنها إنبات الحراج و تنشيط تربيتها.

٩- توافق الحكومة البريطانية و الحكومة الفرنسية عملا بنص المادة ١٥ و المادة ١٦ من نظام الانتداب الفلسطينى و عملا بنص المادة الثامنة و المادة العاشرة من نظام الانتداب العراقى و عملا بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناى السورى و عملا أيضا بموجب الحق العام المعطى من الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية و التعليم على السماح للمدارس التى تخص أناسا من التبعة الفرنسية أو من التبعة البريطانية على المثابرة فى إدارة هذه المدارس فى منطقتى انتدابهما، و يسمح بتعليم اللغة الفرنسية و اللغة الإنكليزية فى هذه المدارس.

لا تعنى هذه المادة بحال من الأحوال منح رعايا إحدى الدولتين المشار إليهما حق فتح مدارس جديدة فى الوقت الحاضر فى منطقة انتداب الدولة الأخرى.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٥

صك الانتداب الفرنسى «على سورية و لبنان»

إن مجلس جمعيه الأمم:

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على أن أراضى سورية و لبنان التى كانت فيما مضى جزءا من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعيينها الدول المشار إليها إلى دولة منتدبة موكول إليها نصح الأهالى و معاونتهم و إرشادهم فى إدارتهم وفقا لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية و العشرين من عهد عصبة الأمم.

و لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت أن الانتداب على البلاد الآنفه الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية و قد قبلته. و لما كان نص هذا الانتداب المبين فى المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية و عرض للتصديق على مجلس جمعيه الأمم.

و لما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد بإجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقا للمواد المذكورة.

و لما كانت نصوص المادة الثانية و العشرين الآنفه الذكر (الفقرة الثامنة) تقضى بأنه إذا كانت درجة السلطة و المراقبة و الإدارة التى تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقا بين أعضاء جمعيه الأمم فالمجلس هو الذى ينظم ذلك.

يوضع نصوص الانتداب كما يلى موافقا عليه:

١- تضع الحكومة المنتدبة فى برهة ثلاث سنوات اعتبارا من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستورا نظاميا لسورية و لبنان.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٦

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية و تراعى فيه حقوق جميع السكان القاطنين فى هذه البلاد و مصالحهم. و تشرع الحكومة المنتدبة فى إيجاد الوسائل التى من شأنها أن تسهل تقدم سورية و لبنان و رقيهما حكومتين مستقلتين و تسيرهما بموجب روح هذا الصك إلى أن يتم الشروع فى تنفيذ ذاك الدستور.

و يجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلى قدر ما تسمح به الحال

٢- يمكن للحكومة المنتدبة أن تبقى جنودها فى البلاد للدفاع عنها.

و قد خولت حق تنظيم جند من المليس المحلى للمحافظة على الأمن و الدفاع عن الحوزة كما تقتضيه الأحوال و ذلك ريثما تنفذ الدستور و يعاد الأمن إلى نصابه، و تنظم جنود المليس المحلى من سكان البلاد فقط.

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالإدارات المحلية تحت إشراف الدولة المنتدبة و لا يجوز استخدامها لأغراض أخرى سوى الأغراض المعينة فيما تقدم إلا بعد موافقة الدولة المنتدبة.

لا مانع يمنع سورية و لبنان من الاشتراك فى نفقات القوات التى تضعها الدولة المنتدبة فى البلاد.

يحق للدولة المنتدبة فى كل حين أن تستعمل الموانى و الخطوط الحديدية و وسائل النقل الموجودة فى سورية و لبنان لسوق جنودها و نقل جميع المواد و المهمات و الوقود اللازمة لها.

٣- يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية و لبنان الخارجية و لها حق إصدار البراءات إلى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الأجنبية، و تشمل الدول المنتدبة بحمايتها السياسية و القنصلية الرعايا السوريين و اللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه الديار.

٤- الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن أى جزء من أجزاء سورية و لبنان و عن عدم تأجيرها أو وضعه تحت سيطرة دولة أجنبية.

٥- إن إعفاء الأجانب من الأمور الواجبة و تمتعهم بالامتيازات الأجنبية و بقضاء القنصلات و الحماية التى كانوا يتمتعون بها أيام الدولة العثمانية لا تطبق فى سورية و لبنان غير أن المحاكم الأجنبية تستمر على القيام بوظيفتها إلى أن يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٤٧

إن الدول التى كان أتباعها يتمتعون بالامتيازات الأجنبية المبينة أعلاه أول آب سنة ١٩١٤ و التى لم تتنازل عن هذه الامتيازات أو توافق على عدم تطبيقها لأجل محدود، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات أو بعضها بعد انقضاء أمد الانتداب بالصورة التى يتم عليها الاتفاق بين الدول ذوات الشأن.

٦- تضع الحكومة المنتدبة فى سورية و لبنان نظاما قضائيا يصون حقوق الوطنيين و الأجانب على السواء.

يحافظ على أحوال الناس الشخصية و على مصالحهم الدينية و خصوصا إدارة الأوقاف التى تدار وفقا للشريعة و لإرادة الواقف.

٧- تكون معاهدات تسليم الرعايا الأجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة و بين سائر الدول الأجنبية مرعية فى سورية و لبنان إلى أن يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن.

٨- تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير و حرية القيام بجميع شعائر العبادة التى لا تخل بالأمن و لا بالآداب العامة و لا يكون تمييز من أى نوع بين سكان سورية و لبنان بسبب الجنس أو الدين أو اللغة.

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام و يكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية.

و لا- تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها و تعليم أبنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقا لقانون التعليم العام الذى تعينه

الحكومة.

٩- تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في أعمال المجالس الإدارية و في إدارة الطوائف الدينية و في إدارة المعابد المقدسة التي تخص احدى الطوائف و قد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد.

١٠- تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سوريا و لبنان لأجل محافظتهم على الأمن و على الحكم بطريقة مرضية. و لا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور و لا تقيد أعضائها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج أعمالهم عن أصول الدين.

يمكن لهذه البعثات الدينية أن تشتغل بأمور الإسعاف و التعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة أو الحكومة المحلية.

١١- يجب على الحكومة المنتدبة أن لا تميز في سوريا و لبنان بين أتباعها

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٤٨

و أتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الأمم، و تشمل هذه المعاملة الجمعيات و الشركات الأجنبية على أنواعها و أن لا تميز أيضا بين أتباع أي دولة أجنبية و بين أتباعها في الأمور التي لها مساس بالضرائب و التجارة و الملاحة و تعاطي الحرف و المهن أو في معاملة السفن البحرية أو الوسائط الهوائية و كذلك يجب أن لا يكون تمييز في سوريا و لبنان بين البضائع التي يكون مصدرها أو مقصدها ممالك تلك الدول المذكورة و يجب إطلاق حرية المرور التجارية في عبر المنطقة المشار إليها بشروط عادلة.

للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر أعلاه أن تفرض الضرائب و الرسوم الجمركية التي تراها ضرورية أو أن توغر للحكومات المحلية أن تفرضها، و للدولة المنتدبة أو للدول المحلية التابعة لمشورتها أن تعقد بسبب الجوار اتفاقا جمركيا خاصا مع البلاد المتاخمة لها. و للحكومة المنتدبة عملا بشروط البند الأول من هذه المادة أن تتخذ الوسائل الفعالة التي تعتقد صلاحها لترقية الموارد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان.

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون النظر الى تابعية الأشخاص الداخلة دولهم في عداد أعضاء جمعية الأمم بشرط أن لا تمس هذه الامتيازات سلطة الحكومة المحلية، و لا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام. لا تمس هذه الفقرة تحديد سلطة الدولة المنتدبة في إيجاد الاحتكارات المالية التي ترقى مصالح سورية و لبنان و تحفظ موارد هما المالية و المحلية، و على الحكومة أن تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة أو بواسطة شركة خاصة تعمل تحت إشرافها على شرط أن لا يوجد هذا العمل لا عمدا و لا بالواسطة احتكارا خاصا بالدولة المنتدبة أو برعاياها، او يمنحهما ميزة في الأمور الاقتصادية و التجارية و الصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع.

١٢- تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية و لبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن أو عساه يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الأمم بخصوص الاتجار بالرقيق، و بالعقاقير، و بالسلاح، و بالمعدات الحربية، و بالمساواة التجارية، و حرية العبور، و الملاحة، و الطيران، و المواصلات البريدية و البرقية و اللاسلكية، و باتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع و الآداب و الفنون.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٤٩

١٣- تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الأحوال الاجتماعية و الدينية اتحاد سورية و لبنان في الأمور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الأمم لمنع الأمراض و مقاومتها و في جملتها أمراض الحيوان و النبات.

١٤- تضع الدولة المنتدبة و تنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانونا خاصا بالآثار و العاديات ينطبق على الأحكام الآتية و يضمن هذا القانون لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات و التنقيبات الأثرية. (١) يجب أن يفهم من لفظة «العاديات» كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠. (٢) إن التشريع لحماية العاديات يجب أن يكون أجدر بالتشجيع منه بالتهديد و يجب على كل شخص يكتشف أثرا بدون حصول على الإذن المذكور في الفقرة الخامسة أن

يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه و ينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه، (٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن أخذه. ولا يتأتى إخراج شيء من العاديات من البلاد إلا باذن تلك السلطة.

(٤) كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو إهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً. (٥) ممنوع كل حفر أو تنقيب لإيجاد العاديات إلا باذن من السلطة ذات الشأن و يغرم المخالف لذلك غرامة مالية .. (٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً أو أدياً في الأراضي التي تحتوى فائدة تاريخية أو أثرية. (٧) لا تعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلا لأشخاص يقدمون أدلة كافية على خبرتهم الأثرية و على الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لا تستثنى علماء أمه من الأمم. (٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه و السلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي. فإذا تعذر الاقتسام لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل.

١٥- عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الأولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة و الحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي أنفقتها الحكومة المنتدبة لأجل تنظيم الإدارة و ترقية الموارد المحلية و القيام بالمشاريع العامة التي أفادت إفادة خاصة و ترسل نسخة عن هذه الترتيب إلى مجلس جمعية الأمم.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٥٠

١٦- تكون اللغة الفرنسية و اللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية و لبنان.

١٧- تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها خلال السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب و يرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين و الأنظمة التي تسن سنوياً.

١٨- على مجلس جمعية الأمم أن يوافق على كل تعديل يطرأ على شروط هذا الصك.

١٩- يستعمل مجلس جمعية الأمم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب لتحافظ حكومة سورية و لبنان في المستقبل على علاقتهما المالية و منها الرواتب القانونية التي منحها إدارة سورية و لبنان أيام الانتداب.

٢٠- توافق الدولة المنتدبة إذا حصل نزاع بينها و بين دولة ثانية داخله في عضوية جمعية الأمم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب أو تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الأمم هذا إذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بالمفاوضات.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٥١

صك الانتداب «على فلسطين»

لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد اتفقت- تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم- على أن تعهد إلى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة في إدارة شؤون فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة.

و لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ و صادقت عليه الدول المذكورة بأن ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع البيان الجلي بأن لا يعمل ما يعثب بالحقوق المدنية و الدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن و لا الحقوق و المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.

و لما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين و البواعث التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك الديار.

و لما كانت دول الحلفاء اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين.

و لما كان الانتداب على فلسطين قد صيغ في النصوص التالية و عرض على مجلس جمعية الأمم لموافقته عليه.

و لما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب على فلسطين و تعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الأمم طبقاً للنصوص و الشروط التالية.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٢

و لما كانت المادة ٢٢ المتقدمة الذكر (في الفقرة ٨) تنص على أن درجة السلطة و السيطرة أو الإدارة التي تكون للدولة المنتدبة إذا لم يتم الاتفاق عليها بين أعضاء جمعية الأمم فإن مجلس جمعية الأمم ينص على ذلك نصاً صريحاً. فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه و نصوصه بما يأتي:

١- للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع و الإدارة عدا ما وضعت لهما حدود في نصوص صك الانتداب هذا.

٢- تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في حالة سياسية و إدارية و اقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في ديباجة هذا الصك و ترقية أنظمة الحكم الذاتي و ضمان الحقوق المدنية و الدينية لجميع سكان فلسطين دون النظر إلى الأجناس و الأديان.

٣- على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الأحوال.

٤- يعترف «بهيئة» يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير و تعاون في إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية و غير ذلك مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي و مصالح السكان اليهود في فلسطين و تساعد و تشارك في ترقية القطر تحت سيطرة حكومته دائماً.

و يعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في ما تقدم ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها و تأليفها يجعلانها صالحة لهذا الغرض و على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي.

٥- تسأل الدولة المنتدبة عن عدم التنازل عن شيء من أرض فلسطين أو تأجيرها أو وضعه تحت تصرف حكومة دولة أجنبية.

٦- على حكومة فلسطين مع كفالة عدم إلحاق الضرر بحقوق جميع طوائف الأهالي أن تسهل هجرة اليهود (إلى فلسطين) في أحوال مناسبة و تنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار إليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الأرض

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٣

الزراعية و في جملتها الأراضي المدورة و الأراضي البور (الموات) التي تستغنى عنها الأعمال العامة.

٧- يتعين على حكومة فلسطين أن تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية.

٨- إن امتيازات الأجانب، و في جملتها المحاكم القنصلية و حماية القنصليات و رعاياها، و هي التي كان الغرباء يتمتعون بها بحكم الامتيازات أو العرف في السلطنة العثمانية لا تنفذ في فلسطين و لكن متى انتهى أجل الانتداب فإن هذه الامتيازات تعاد برمتها أو مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن إلا إذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في أول آب ١٩١٤ قد سبقت فتنازلت عن حق رد تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى.

٩- الدولة المنتدبة مسؤولة عما ينشأ في فلسطين من نظام قضائي يكفل حقوق الأجانب و الوطنيين و يضمن كل الضمان احترام الأحوال الشخصية و المصالح الدينية لجميع الشعوب و الطوائف و لا سيما إدارة الأوقاف التي تسير على الشريعة الدينية و شروط الواقفين.

١٠- تراعى المعاهدة المبرمة بين الدولة المنتدبة و سائر الدول الأجنبية شأن تسليم الرعايا الأجانب المطلوبين من فلسطين إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين.

١١- تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ما له علاقة بترقية البلاد و لها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة أو سيطرتها على أحد موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال و المصالح و المنافع العمومية الموجودة أو التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي أخذتها الدولة المنتدبة على نفسها. و عليها أيضا أن توجد نظاما للأراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة أمور أخرى و منها المنافع التي تنجم عن تشجيع إكثار المهاجرة و استغلال أعظم قدر مستطاع من الأرض.

و يجوز للإدارة أن تتفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٥٤

أن تجرى أو تستثمر بالإنصاف و العدل الأعمال و المصالح و المنافع العمومية و ترقى المرافق الطبيعية حيث لا تتولى الحكومة هذه الأمور مباشرة بنفسها.

و يشترط في هذه الاتفاقات أن لا تتجاوز الأرباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل مباشرة أو غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال. و كل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم فيما ينفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها.

١٢- يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على علاقات فلسطين الخارجية و حق إصدار البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية و للدولة المنتدبة الحق أيضا في أن تشمل رعايا فلسطين، و هم في خارج ديارهم بحماية سفرائها و قناصلها.

١٣- تتقلد الدولة المنتدبة كل التبعية المختصة بالأماكن المقدسة و المباني و المواقع الدينية في فلسطين، و هذا يتناول المحافظة على الحقوق الموجودة و ضمان الوصول إلى المواضع المقدسة و المواقع الدينية و حرية العبادة مع المحافظة على الأمن العام و الآداب و تسأل الدولة المنتدبة أمام جمعية الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك على أن لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد حسبما تراه الدولة المنتدبة لتنفيذ نصوص هذه المادة و بشرط أن لا يفسر شيء في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للأماكن الإسلامية أو التدخل في إدارة المشاهد الإسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات.

١٤- تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس الحقوق و الدعاوى المتعلقة بالأماكن المقدسة و الحقوق و الدعاوى الخاصة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين و تعيين وظائفها و يعرض الأسلوب المتبع في تعيين هذه اللجنة و تأليفها و عملها على مجلس جمعية الأمم ليوافق عليها و لا تعين اللجنة و لا تشرع بعملها من غير موافقة المجلس.

١٥- على الدولة المنتدبة أن تتحقق أن الحرية الدينية التامة و حرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام و الآداب فقط و يجب أن لا يكون هناك تمييز من أى نوع كان بين سكان فلسطين بسبب

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٥٥

الجنس أو الدين أو اللغة و أن لا يحرم أحد من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الدينى فقط.

لا- تحرم طائفة من الطوائف من حق المحافظة على مدارسها لتعليم أبنائها بلغتهم إذا كان ذلك مطابقا لشروط التعليم العمومية التي تفرضها الإدارة (الحكومة).

١٦- تسأل الدولة المنتدبة عما تقتضيه المحافظة على النظام العام و الحكم المنتظم من الإشراف على الهيئات الدينية و الخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين و بمراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ تدابير في فلسطين تعوق أعمال هذه الهيئات أو تتعرض لها أو تجحف بممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه و جنسيته.

١٧- يجوز لإدارة (حكومة) فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيار القوات اللازمة للمحافظة على السلم و النظام و للدفاع عن البلاد أيضا على أن تكون تحت إشراف الدولة المنتدبة، و لا يجوز لإدارة فلسطين استخدام هذه القوات لأغراض أخرى غير الأغراض المعينة في

ما تقدم إلا بموافقة الدولة المنتدبة و في ما عدا هذه الأغراض لا يجوز لإدارة فلسطين أن تجمع قوات عسكرية أو بحرية أو جوية و لا أن تبقيا عندها.

و ليس في هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من الاشتراك في نفقات قوات الدولة المنتدبة في فلسطين. و يحق للدولة المنتدبة في كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين و سككها الحديدية و موانئها لحركات القوى المسلحة و نقل الوقود و المهمات.

١٨- على الدولة المنتدبة أن تتكفل بعدم التحيز في فلسطين لرعايا أية دولة تكون عضوا في جمعية الأمم (و من ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) إذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة أو أية دولة أجنبية كانت في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة أو تعاطى الصنائع أو المهن أو في معاملة السفن التجارية أو الطائرات الأهلية. و كذلك يجب أن لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشؤها في بلاد من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسله إليها. و تطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٦

و مع مراعاة ما تقدم و سائر شروط صك الانتداب هذا يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض بإشارة الدولة المنتدبة من الضرائب و الرسوم الجمركية ما تراه ضروريا و تتخذ من التدابير ما تظنه صالحا لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد و صيانة مصالح السكان و يجوز لها أن تعقد بإشارة الدولة المنتدبة اتفاقا جمركيا خاصا مع أى دولة كانت أملاكها كلها داخله في تركيا الآسيوية أو شبه جزيرة العرب في سنة ١٩١٤.

١٩- تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن الإدارة (إدارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن أو التي قد تعقد بموافقة جمعية الأمم في المستقبل من أجل الاتجار بالرقيق و الاتجار بالسلاح و الذخيرة أو الاتجار بالمخدرات أو تتعلق بالمساواة التجارية و حرية المرور (الترانسيت) و الملاحة و الطيران و بالموصلات البريدية و البرقية و اللاسلكية و بحقوق أصحاب الآثار الأديبية و الفنية و الصناعية.

٢٠- تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين في تنفيذ كل سياسة مشتركة تقرها جمعية الأمم لمنع انتشار الأمراض و في جملتها أمراض النباتات و الحيوانات و مكافحتها بقدر ما تسمح به الأحوال الدينية و الاجتماعية و غيرها.

٢١- تضع الدولة المنتدبة و تنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانونا خاصا بالآثار و العاديات ينطبق على الأحكام الآتية و يتمتع هذا القانون رعايا الدول الداخلة في جمعية الأمم بالمساواة في المعاملة فيما له مساس بالحفريات و التنقيبات الأثرية.

(١) يجب أن يفهم من لفظه «العاديات» كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠.

(٢) يجب أن يكون قانون حماية العاديات أقرب إلى التشجيع منه إلى التهديد، و على كل شخص يكتشف أثرا بدون حصول على الإذن المذكور في الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه و ينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه.

(٣) لا يمكن نقل ملكية شئ من العاديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٧

ما لم تعدل هذه السلطة عن أخذه و لا يمكن إخراج شئ من العاديات من القطر إلا بإذن تلك السلطة.

(٤) يجازى كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمدًا أو إهمالا جزاء معينًا.

(٥) ممنوع إجراء حفر أو تنقيب للظفر بالعاديات إلا بإذن من السلطة ذات الشأن و يغرم المخالف غرامة مالية.

(٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتًا أو دائما في الأراضي التي تحتوى فائدة تاريخية أو أثرية.

(٧) لا تعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلا لأشخاص يقدمون أدلة كافية على اختبارهم الأثرية. و على الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لا تستثنى علماء أمة من الأمم.

(٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه و السلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي. فإذا تعذرت القسمة لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل.

٢٢- تكون الإنكليزية و العربية و العبرانية اللغات الرسمية في فلسطين فكل عبارة أو كتابة بالعربية على طابع أو عملة في فلسطين تكرر بالعبرانية و كل عبارة أو كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية.

٢٣- تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين أيام راحة مشروعاً لأفراد تلك الطائفة.

٢٤- تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريراً سنوياً يرتاح إليه المجلس تذكر فيه التدابير المتخذة خلال السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب و ترسل نسخ من جميع الأنظمة و القوانين التي تسن أو تصدر أثناء السنة مع التقرير.

٢٥- يحق للدولة المنتدبة بإذن مجلس جمعية الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما تراه من هذه الشروط غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن و الحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الأمر، و أن (٣-١٧)

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٨

تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال بشرط أن لا يعمل عمل يخالف شروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨.

٢٦- توافق الدولة المنتدبة إذا وقع نزاع بينها (الدولة المنتدبة) و بين عضو آخر في جمعية الأمم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب أو تطبيقها على عرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الأمم إذا لم يمكن حله بالمفاوضات.

٢٧- يلزم موافقة مجلس جمعية الأمم على كل تعديل في شروط صك الانتداب هذا.

٢٨- من التدابير في حالة انتهاء الانتداب المخول بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة يتخذ مجلس جمعية الأمم ما يراه ضرورياً لصيانته استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين ١٣ و ١٤ على الدوام بضمان الجمعية و يعمل على أن يكفل احترام حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التي أخذتها إدارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب و في جملة ذلك حقوق الموظفين في الراتب و المكافأة

تودع الصورة الأصلية من هذا الصك في محفوظات جمعية الأمم و ترسل صور مصدق عليها بواسطة السكر تير العام لجمعية الأمم إلى جميع أعضاء الجمعية.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٥٩

صك الانتداب «على شرق الأردن»

لأمين سر جمعية الأمم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الأردن في ٢٣ أيلول سنة ١٩٢٢.

يتشرف أمين سر جمعية الأمم العام بعرض مذكرة لأعضاء الجمعية قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ أيلول سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني.

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره أثناء انعقاده في لندن في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ بشأن تطبيق الانتداب على فلسطين و سورية.

*** «مذكرة العضو البريطاني»

١- تنص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي:

يحق للدولة المنتدبة بإذن جمعية لأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما تراه غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة من الشروط، و ذلك في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن و الحد الشرقي لفلسطين كما سيعين بعد و أن تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال على أن لا يعمل عمل يخالف شروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨.

٢- تطلب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة أن يقرر القرار الآتي:

لا تطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦٠

بشرق الأردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربى و بحر الميت و نهر الأردن حتى النقطة التى يلتقى بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية.

و تلك الشروط الملغاة هي:

الشرح الثانى و الثالث من الديباجة.

المادة الثانية- فى جعل البلاد فى أحوال سياسية و إدارية و اقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومى اليهودى كما جاء فى الديباجة.

المادتان- الرابعة و السادسة.

المادة السابعة- يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعاية الفلسطينية.

المادة الحادية عشرة- الجملة الثانية من الفقرة الأولى و الفقرة الثانية. و المواد ١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣.

و فى تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن تقوم حكومته بالأعمال التى تقوم بها حكومة فلسطين فى فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة.

٣- تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التى تقع على عاتقها فى تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن و تكفل بأن الشروط التى توضع لإدارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من نظام الانتداب لا توافق بقية شروط نظام الانتداب التى لم تشر إلى عدم تطبيقها فى هذا القرار

بحال.

خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦١

عهد أنقرة الذى وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٢١

المادة الأولى- يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان أنه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهى حالة الحرب بينهما و يبلغ ذلك فى الحال إلى الجيوش و السلطات الملكية و السكان.

المادة الثانية- بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراح أسرى الحرب من الطرفين و يعاد جميع الفرنسيين و الأتراك المأسورين و المسجونين على نفقة الفريق الذى أسرهم إلى أقرب مدينة تعين لذلك. و يستفيد من هذه المادة جميع الأسرى و السجناء من الفريقين مهما كان مدة أو محل سجنهم و توقيفهم أو أسرهم.

المادة الثالثة- بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الأكثر تراجع الجيوش التركية إلى الشمال و الجيوش الفرنسية إلى جنوب الخط المعين فى المادة الثامنة.

المادة الرابعة- يجرى الإخلاء و الاستيلاء اللذان يتمان خلال المدة المذكورة فى المادة الثانية على الكيفية التى تعين بالاتفاق المشترك و ذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين.

المادة الخامسة- يمنح الفريقان المتعاقدان العفو العام في الأصقاع التي تم الجلاء عنها و ذلك بمجرد وضع اليد عليها.
المادة السادسة- تصرح حكومة المجلس الوطنى الكبير فى تركيا أن حقوق الأقليات التى جرى الاعتراف بها جهازا فى الميثاق الوطنى
سيوافق هو عليها

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٦٢

على نفس الأساس الذى عقد فى الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف خصومهم و بعض أحلافهم.
المادة السابعة- تدار شؤون صقع الإسكندرونة إدارة خصوصية و يتمتع السكان الأتراك فى تلك الأرجاء بجميع التسهيلات لترقية
ثقافتهم و تكون اللغة التركية صفة لغة رسمية.

المادة الثامنة- يعين الخط المذكور فى المادة الثالثة و يحدد كما يلى:

يمتد خط التخوم من نقطة يجرى اختيارها فى خليج الإسكندرونة فى جنوب ناحية بياس مباشرة و يتجه إلى ميدان اكبس (تبقى محطة
السكة الحديدية و الناحية تابعين لسورية).

و من هنا ينحنى نحو الجنوب الشرقى بحيث يترك لسورية مديرية مرسوى و لتركيا بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة
الحديدية حتى محطة جوبان بك و يسير مع خط بغداد و يبقى سطحه للأملاك التركية حتى نصيبين.

و من هناك يتبع الطريق القديم بين نصيبين و جزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة و تبقى لتركيا نصيبين و جزيرة ابن عمر و الطريق
بينهما و يكون للبلادين نفس الحقوق فى الانتفاع من هذا الطريق.

و تكون المحطات فى شعبة جوبان بك و نصيبين ملكا لتركيا كأنها جزء من سطح السكة الحديدية.

و تتألف لجنة من مندوبى الفريقين فى برهه شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق لتحديد الخط المذكور و تبدأ هذه اللجنة بعملها فى
تلك المده.

المادة التاسعة- يبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية (و هو القبر المعروف باسم ترك مزارى) الواقع فى
قلعه جعبر مع كل ما يتعلق به ملكا لتركيا تستطيع أن تضع فيه حراسا و ترفع العلم التركى.

المادة العاشرة- تقبل حكومة المجلس الوطنى الكبير فى تركيا بنقل امتياز فرع السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانتى و نصيبين
مع سائر الشعب الممتدة فى ولاية أذنه الى شركة افرنسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق و الفوائد و المنافع المتعلقة بالامتيازات و لا
سيما فيما له علاقة بالاستثمار و الاتجار.

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٦٣

يحق لتركيا أن تنقل منقولاتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس إلى جوبان بك فى أرض سورية و يحق لسورية أن تنقل
مهماتا الحربية بالسكة الحديدية من جوبان بك إلى نصيبين فى الأرض التركية. و لا تضاف زيادة عن أجور السكة فى هذه الشعبة
أو الفرع، و تحتفظ الحكومتان بحقوقهما فى درس ما تقضى به الضرورة من الحياد إذا اقتضت الحال و ذلك باتفاق الفريقين.

و إذا لم يتسن الاتفاق فكل فريق حر فى عمل ما يراه.

المادة الحادية عشرة- تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد اتفاقا جمركيا بين تركيا و سورية و تحدد اللجنة شروط
هذا الاتفاق و مدته و يكون للبلادين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق.

المادة الثانية عشرة- تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب و الصقع الواقع إلى الشمال الباقى لتركيا قسمة عادلة يرتضى بها الفريقان.

و يتأتى لمدينة حلب أن تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطرا من المياه من الأرض التركية لتستعملها فى أرجائها.

المادة الثالثة عشرة- يظل سكان القرى أو نصف الرحالة من أهلها ممتعين كما فى السابق بحقوقهم فى المراعى إذا كان لهم أملاك
فى إحدى الجهتين من الخط المعين فى المادة الأولى و يتيسر لهم لضرورة استثمار أراضيهم أن يعملوا أحرارا لا يؤدون رسما جمركيا

ولا ثمن المراعى ولا أى رسم كان و يتنقلون من جهة إلى أخرى من هذا الخط مع مواشيهم و ما تنتج و أدواتهم و آلاتهم و بذارهم و حاصلاتهم الزراعية و هم مكلفون بأن يؤدوا الحقوق و الرسوم عليها فى الأراضى التى ينزلونها.
انتهى الجزء الثالث و به انتهى التاريخ السياسى فى القطر الشامى و يليه الجزء الرابع و به يبتدىء تاريخه المدنى
خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦٥

فهرست الجزء الثالث من خطط الشام

- العهد العثمانى من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧ ٣-٤٤
الجند أداة الظلم و التدمير ٣
حوادث الجزائر و فتن الإنكشارية و غيرها ٥
عهد سليم الثالث و فتن و كوائن ٧
مظالم الجزائر و اختلال الإدارة ٨
محاولة نابوليون فتح الشام و استيلاؤه على غزة و يافا ١١
وقائع نابوليون على عكا و فى مرج ابن عامر ١٣
خطيئات نابوليون فى الشام ١٥
حال الشام بعد رحيل نابوليون عنه ١٨
مساوىء أحكام الجزائر ٢٠
تفنن الجزائر فى إهراق الدماء و حكم المؤرخين عليه ٢١
المتغلبة على الأحكام بعد الجزائر ٢٥
مقتل سليم الثالث و مصطفى الرابع و تولى محمود الثانى ٢٧
فتنة كنج يوسف باشا ٢٩
سليمان باشا و أمراء راشيا و كوائن حلب ٣٠
وقعة المزة و استسلام الدولة لوالى عكا ٣٤
سياسة الأمير بشير فى لبنان و تقاتل الولاة و ارتباك الدولة ٣٦
محاولة الدولة قتل النصارى و فتنة نابلس ٣٨
مقتل سليم باشا والى دمشق ٣٩
خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦٦
الحكم على الموقف السياسى فى نصف قرن ٤٣
دور الحكومة المصرية من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٦ ٤٥-٧٢
حالة الدولة العثمانية عند إذلال جيش محمد على الكبير لها ٤٥
لماذا تراجعت الدولة العثمانية ٤٧
حملة محمد على على الشام و هزيمة الأتراك ٥٠
تقدير مؤرخين و شاعر لغلبة محمد على ٥٢

- سقوط الأناضول و تضاؤل السلطان العثماني أمام الجيش المصري ٥٦
- أعمال إبراهيم باشا في إصلاح الشام ٥٧
- فتوق و فتن و حصار الفلسطينيين لإبراهيم ٥٨
- خطأ إداري لإبراهيم باشا و وقائعه في اللجأة و وادي التيم ٦٠
- سياسة الأتراك و الدول مع محمد علي ٦٣
- انفراط عقد الحكم المصري ٦٥
- فضل حكم محمد علي ٦٧
- رأى الغرباء في حكومة محمد علي ٦٨
- حكمتنا على أنفسنا و على غيرنا ٧١
- العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٧ ٧٣-٩٣
- رجوع الشام إلى سالف بؤسها على العهد العثماني و فتن الدروز و النصاري ٧٣
- فتن أهلية في الجبال و المدن ٧٥
- حرب القريم منشؤها في الشام و كوائن درزية و نصيرية ٧٧
- مبدأ المذابح المعروفة بحادثه سنة الستين و حادثه بيت مري و دير القمر ٧٩
- مذابح حاصبيا و راشيا و رأى إنكليزيين في أصل المذابح ٨٠
- خطط الشام، ج ٣، ص: ٢٦٧
- مذابح دمشق و رأى الغريب و الوطني في تحليلها ٨٢
- ضحايا مذابح دمشق و تخريبها ٨٥
- عمل الدولة و الدول عقبى الحوادث ٨٧
- عمل العقلاء في دمشق و بيروت و رأى مؤرخ منصف في المسلمين ٨٩
- من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء ٩٠
- سوء أثر حوادث الشام في الدولة و منازعة الدول لها في سلطانها ٩٢
- العهد العثماني من سنة ١٢٧٧ إلى ١٣٠٠ ٩٤-١٠٤
- بعد فتنة سنة الستين ٩٤
- السلطان عبد المجيد و خلفه عبد العزيز ٩٥
- خلع عبد العزيز و تولية مراد الخامس ٩٨
- عهد عبد الحميد الثاني ٩٩
- انسيال الدروز على جبل حوران و وقائعهم ١٠١
- المصلح مدحت باشا و طبقته من العمال ١٠٣
- العهد العثماني من سنة ١٣٠٠ إلى سقوط عبد الحميد الثاني ١٠٥-١١٤
- الحالة في مبداء القرن الرابع عشر و إصلاح بلاد النصيرية و السبب في خرابها ١٠٥
- فتن درزية و فتن أرمنية ١٠٧
- الحمالات على جبل الدروز و على الكرك .. و النصيرية على الدولة ١١٠

- رأى فى دلال الدرور ١١٢
- العهد العثماني من سنة ١٣٢٦ إلى ١٣٣٦ ١١٥ - ١٦٠
- الدستور العثماني و ثورته ١١٥
- إعادة الدستور و حال الدولة بعده ١١٧
- خطط الشام، ج٣، ص: ٢٦٨
- عبد الحميد و سياسته و أخلاقه ١١٩
- رأى مؤرخ تركى فى عبد الحميد و ذكر حسناته ١٢٣
- الأحداث فى أيام محمد رشاد و حرب طرابلس و البلقان و حزب الإصلاح ١٢٥
- الصهيونية و منشؤها ١٢٨
- الحرب العامة و السياسة الألمانية و الأخلاق التركية ١٣١
- قسط الشام من الحرب و عمل جمال باشا ١٣٢
- إهلاك أحرار الشام و السياسة الاتحادية مع العرب ١٣٥
- خلع شريف مكة طاعة العثمانيين و تأثيره فى الأتراك ١٣٩
- أمانى الأتراك و خيبتهم و تخريبهم ١٤٢
- الوقائع المهمة فى فلسطين و سقوط القدس و ما إليها ١٤٤
- عمل الجيش العربى ١٤٧
- سقوط حوران و دمشق بيد الجيوش البريطانية ١٥٢
- سقوط بيروت و الساحل و الهدنة ١٥٤
- سبب سقوط الشام بأيدى الحلفاء ١٥٧
- رأى مؤرخ تركى فى انقراض الدولة العثمانية ١٥٩
- العهد الحديث من سنة ١٣٢٦ - ١٣٤٣ - ١٦١ - ٢٢٤
- تجزئة الشام بين فرنسا و إنكلترا ١٦١
- فتنة الأرمن و اعتداؤهم على العرب ١٦٣
- أعمال الحكومة العربية و حكومة الصهيونيين ١٦٥
- المؤتمر السورى و مبايعته فيصل ملكا على الشام ١٦٨
- العصابات بين الساحل و الداخل ١٦٩
- الاستفتاء فى الدولة المنتدبة ١٧٢
- أفكار فيصل و العبت بالسياسة ١٧٤
- حملة فرنسا على المدن الأربع ١٧٥
- خطط الشام، ج٣، ص: ٢٦٩
- تعريف الانتداب و سياسة الأتراك فيما يتعلق بالشام ١٨٠
- تأثر الحورانيين بعوامل الفيصليين و مقتل وزيرين و قتل اليهود فى فلسطين ١٨٢
- تقسيم الشام و خرابها و استقلال لبنان و العلويين و مجلس فلسطين و دولة شرقى الأردن و دولة جبل الدرور ١٨٤

متاعب لبريطانيا وفرنسا و اعتداءات ١٨٦

توحيد حكومات سورية و عدم رضى الأهلين ١٨٧

صك الانتداب و موافقة الدول الكبرى عليه و أشكال جديدة من الإدارة ١٨٩

غزوة النجديين عبر الأردن و استيلاؤهم على مكة و شؤون ١٩١

صاحب الوعد للصهيونيين و مطالب الفلسطينيين و السوريين و كوائن ١٩٥

تاريخ الصهيونية و عملها الأخير ١٩٨

الأوضاع الصهيونية ٢٠٥

الصهيونية فى الحرب ٢٠٧

الصهيونية بعد الحرب ٢١٥

ثورتا القدس و ثورة يافا ٢١٧

المهاجرة ٢١٩

المعارف و المصارف و الصحافة و المشاريع الاقتصادية ٢٢٠

نظرة فى نجاح الصهيونية ٢٢٢

حوادث و غوائل ٢٢٣

التقسيم الإدارية الحديثة ٢٢٥-٢٣٢

تقسيم القداماء قبل الإسلام ٢٢٥

أجناد الشام و تقسيم العرب ٢٢٦

التقسيم فى عصر الصليبين و المماليك ٢٢٧

خطط الشام، ج٣، ص: ٢٧٠

على عهد العثمانيين ٢٢٨

تقسيم فلسطين ٢٢٩

تقسيم الشرق العربى أى شرقى الأردن ٢٢٩

دولة سورية ٢٣٠

دولة جبل الدروز ٢٣١

دولة لبنان الكبير ٢٣١

دولة العلويين ٢٣٢

العقود و العهود الأخيرة ٢٣٣-٢٦٣

الرسالة الأولى فى اتفاقية سايكس بيكو ٢٣٣

الرسالة الثانية ٢٣٥

الرسالة الثالثة ٢٣٦

نسخة مختصرة عن دستور فلسطين الرسمى ٢٣٧

المعاهدة البريطانية الفرنسية ٢٤٠

صك الانتداب الفرنسى على سورية و لبنان ٢٤٥

صك الانتداب على فلسطين ٢٥١

صك الانتداب على شرقى الأردن ٢٥٩

عهد أنقرة ٢٦١

فهرست الجزء الثالث من خطط الشام ٢٦٤ - ٢٧٠

الجزء الرابع

التاريخ المدنى العلم و الأدب

ما يراد بالعلم و الأدب:

نريد بالعلم علم الدين و الدنيا، فالعلم بالحديث عالم، و العالم بالطب عالم، و العالم بالكلام عالم، و العالم بالهندسة عالم. و الكيمياء علم، و البيطرة علم، و التاريخ علم و الجدل علم، و شرف هذه العلوم بشرف مقاصدها، و أشرفها فى نظر الإلهيين ما هذب النفس و أعدها للحياة الخالدة. و علوم الدنيا هى الوسيلة إلى تلك السعادة كما قال حجة الإسلام الغزالي: إن الفقيه معلم السلطان و مرشده إلى طريق سياسة الخلق و ضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا، و لعمري إنه متعلق أيضا بالدين و لكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا. فإن الدنيا مزرعة الآخرة و لا يتم الدين إلا بالدنيا.

كان البشر قبل ظهور الأديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا، و كانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع، و يعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم و أربابهم و معابدهم يجودون صنعها، و يمجدونها و يتغنون بمدحها، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل بصورة أخرى، و بقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع و الدول. أما الأدب فالذى كانت العرب تعرفه هو ما يحسن الأخلاق و يدعو إلى المكارم. و اصطلاح الناس بعد الإسلام بمدى طويلة على تسمية العالم بالشعر أدبيا و علوم العربية أدبا. و المراد بالإسلام كما قال

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤

النوى من حين انتشر و شاع فى الناس و ذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين.

للأهوية و الأهواء تأثير فى العلم، و العلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة و الوبيئة، لأن أهل هذه قصيرة آمالهم فى الحياة، محدودة مطالبهم، فآثرة همهم، مثلوم حدهم، متداعية صحتهم. و من صرف و كده أيضا إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه، لتوزع قواه، و انصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية، و اشتغال ذهنه بأمور لا يتسع لغيرها فى الأغلب.

و كلما توغلت أمة فى مضمار المدنية نظرت إلى علوم الدين و علوم الدنيا نظرة واحدة، و شرفت ما تشدد حاجتها إليه منها، و أقبلت بكليتها على المشتغلين بها. فقد رأينا جامعات اوربا فى القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر، فلما عظمت مطالب البشر، و أخذت المدنية تسير سيرها، أصبحت العلوم الدينية فى جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ و الأدب و الطبيعة، لا فضل لدينى لاهوتى على طبيعى رياضى، إلا- بالأثر الناتج عن درسه و بحثه، هذا إن لم يرجحوا فى عرفهم العالم الثانى. و بينا نجد تماثيل العلماء بالمئات فى شوارع الغريبين و ساحاتهم و متاحفهم و دور العلم و الصناعات عندهم، لا نشهد من علماء الدين إلا نفرا قليلا أقيمت لهم التماثيل داخل البيع و الكنائس فقط.

كان الاقتصار على العلم الدينى فى الصدر الأول للإسلام، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة، و رأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين و الدنيا، و بذلك أقنعوا العامة و من فوق درجتهم، فأقبل الناس عليها، و كانت العناية أولا بعلوم القرآن و السنة، ثم أقبل الناس على الفقه لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس و اتساع المملكة الإسلامية و ما حدث فيها من المشاكل و

العضل، ثم أقبولوا على علم الكلام، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصا وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصارا و عشاقا، ثم مالوا إلى المناظرة في الفقه و بيان الأولى من مذاهب الشافعي و أبي حنيفة، ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن و ضعفت و ضعف سندها في القرن العاشر للهجرة، إلى أن أخذت تتطور تطورا جديدا أواخر القرن الثالث عشر و أوائل هذا القرن على ما سيجيء.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥

و أهم العوامل في اضمحلال العلم في ديار الإسلام زهد الملوك و الأمراء فيها و اشتغال الناس بالفتن و الغوائل. و مذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه و المال، ضعفت علوم الدين و الدنيا معا. و أصبح السلطان للممخرقين و المعطلين و المتهوسين بمسائل الكشف و الولاية من علماء الرسم، و ليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق، و تهذيب الأخلاق، على أن من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما و إنما يجيء شبيها بالعلماء. و لقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر، و نطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد، فأقاموا للعلم مأتما، و قالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية و الأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه و الكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم و بعلمهم، و إذا صار عليه أجره تدانى إليه الأخصاء و أرباب الكسل، فيكون ذلك سببا لارتفاعه، و من هنا هجرت علوم الحكمة و إن كانت شريفة لذاتها.

إن الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جدا، و لكنهم يكونون على الأكثر ممن نسميهم أو أكثرهم بأهل النبوغ و العبقرية، يتفانون في مقصدهم و يأتون بالجديد يبدعون و يبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر و عنوانا للتصدر، و هم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الأرض، و تبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقابا و دهورا، و من هذا الفريق أنجبت الشام قديما و حديثا جماعة افتخرت بهم، و عدوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر و إلى مجموع علماء الأمة كتلة صالحة أثرت تأثيرا محمودا في العلم و المدنية، و قد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا، و لا طراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة، فوقفنا بها على منازعهم و أعمالهم. و غابت عنا تراجم كثير من المهندسين و النقاشين و المصورين و الموسيقيين لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا- من أهل العلم. كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات. و قد اصطلح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أطلق يقصد منه العلم الديني. و من الغريب أن بعض المتأخرين ممن دونوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب و الممخرقين و لم يذكروا مثلا تراجم أهل تلك

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦

الأيام من المقدرين و البنائين و غيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم.

لم يتسلسل العلم قرونا طويلة في الشام تبعا لتغير الدول و انصراف الهمم «و العلم مذ كان محتاج إلى العلم» ذلك لأن الشام كان في جميع أدواره ممرا للفتاحين يطمع فيه جيرانه، بل البعيدون عنه لتوسطه بين بر آسيا و إفريقيا و أوربا. و القدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كاف و لا شك في إنشاء مدنية صالحة خصوصا إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل العراق و الجزيرة و مصر و الأندلس و فارس و غيرها. و كأن الشرق منى بالتساهل و الإهمال، و عدم التسلسل في الفكر و الاطراد في العمل، فكان مظهر الحياة الفردية في الأعم الأغلب من حالاته، و على العكس في الغرب فإنه كان و لا يزال مثال الحياة الاجتماعية و التعصب للفكر و الاستماتة فيه، و التسلسل في الأفكار.

و لقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد في إرهاب الأفكار الحرة، و ديوان التفتيش الديني يحرق الأنفس البشرية بالعشرات للقضاء على الفلسفة و التجدد، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق الإلحاد و الخروج عن مألوف القوم، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه، ناسيا أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره. و رأينا في هذا الشرق القريب أناسا ينزعون إلى التجديد و الإبداع كان نصيبهم من الحياة ضرب أعناقهم، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول و تقيء، و كان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جدا ظهور من يخلفهم في دعوتهم، و قد يأتي العصر و العصران و لا يظهر فيهما نابغة يذكر و عالم

مبدع، و جاء زمن و هو ليس ببعيد، و قد أصبح الناس ينكرون البديهيات فى العلم، و يحرمون ما حلل الله من ضروره النافعة، فغارت ينابيعه من أرضنا و فاضت فى الغرب و زادت مع الأيام فىضانا، و قويت تقيّة العلماء و دخل فى غمارهم الجاهلون فسقطت هيبة العلم. و كان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة و من تفاشلنا و تجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس و إضاعة مدينة الأجداد.

العلم ابن الحرية، و الأدب ريب التسامح، و قد شاهدنا أجدادنا فى هذه الديار المثال الصالح فى هذا الباب على اختلاف العصور و المذاهب، و كان

خطط الشام، ج ٤، ص: ٧

العرب فى أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القليل. فإن كانت أنطاكية و بيروت قبل الإسلام عاصمتى الحكمة و الأدب و الشرائع، فقد امتازت بعدهما حلب و المعرة و طرابلس و دمشق و حمص بهذه الخصائص. و العلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا فى ظل السلام و صلاح السلطان.

هذا شأن العلم، أما الأدب و هو منظوم الكلام و منثور و الخطب و الرسائل فيتصرف أيضا على هذا المثال، و به أدركنا بعض الحالة الاجتماعية و الروحية التى كانت عليها تلك الأعصر، و رأينا فيه تبديلا محسوسا فى القرون التالية، فكانت الآداب فى الشام فى القرن الأول غيرها فى القرن الثانى و الثالث، و قد استحكمت أسباب الحضارة و عم الترف، و نقلت علوم الأوائل و راجت سوق الشعر فى الرابع و الخامس فى الشمال، و ما لبثت فى أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلا، ثم هبت إلى الحياة بعض الشيء فى السادس و السابع تبعا للحالة السياسية التى كان عليها القطر زمن الحروب الصليبية، و لم ينشأ فى الشام خلال القرنين الثامن و التاسع شاعر يجوز عدّه فى مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث و الرابع، أما فى القرون الأربعة التالية فضعفت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر، و أصبح نظما لا شعرا فقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح و بقى جسما له من الشعر قوافيه و أوزانه، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم و تتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه و جده.

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نوردّه فى المنثور، كان الإنشاء فى القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالبا و نبغ فى الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذى وضع أساس الكتابة المرسلّة، و رأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب فى الإدارة أو السياسة أو القضاء أو فى أمر مهم من أمور الدولة فى سطرين أو ثلاثة ليس فيه شيء من الكلفة بتة بل هو آية الفصاحة و البلاغة، و هكذا معظم آل بيته من بنى أمية و بنى مروان، و من نشأ فى دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى و زياد بن أبيه و عتبة بن أبى سفيان و شهدنا التكلف باديا فى كتابة القرون التالية التى انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة و ضعف أمرها فى الشام. و كان الشام يتبع العراق تارة و مصر تارة أخرى، حتى إذا كان القرن السادس، و نبغ فى الدولة الصلاحية القاضى الفاضل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨

بطريقته المستملحة فى الكتابة المسجعة على الأغلب، و حذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر و غيرها من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة و هى احتذاء مثال المجودين من القدماء لحصرها فى قيود الجناس و البديع و الأسجاع فجمدت القرائح و قل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها، فما بالك بالإنشاء الذى هو ابتكار المعانى و الإبداع فى القوالب. و إذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب فى القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشئ واحد فيه. و حكمنا هذا مبنى على ما قرأناه فيما خلفه السلف فى هذه الديار من الكتب و الآثار المبعثرة فى بطون الدفاتر، و ربما كان فى المفقود الذى لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به، أن نصدر حكما أصح من هذا على فنون الإنشاء و الكتابة و الشعر و النظم، و الإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم.

و لو لم ينبغ فى الكتابة من المؤلفين أمثال القفطى و ياقوت و ابن أبى أصيبعة و ابن العديم ثم الصفدى و ابن فضل الله و المقرئى و الشهاب الحلبي و أمثالهم فى القرنين السابع و الثامن لقلنا إن الانحطاط فى الكتابة بدأ فى الشام منذ القرن السادس، بيد أنها أصبحت

في الحقيقة سجعا كسجع الكهان بظهور ابن عريشاه الدمشقي و ابن حجة الحموي و أمثالهما في القرن التاسع، أما في القرن العاشر و ما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف و السجع غالباً، و من أفلت من المؤلفين من قيود التكلف، و نجا من الترصيع و التسجيع، جاء كلامه مقبولاً في الجملة و قليل ما هم.

بقيت الكتابة و الشعر ترسفاً في قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة في مصر بضعة شعراء و منشئين أدخلوا الآداب في طور جديد و نزعوا عنها ثيابها البالية، و ألبسوها حلة قشبية، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده و إبراهيم المويلحي ثم المنفلوطي و طه حسين و العقاد و أضرابهم.

و من الشعراء محمود سامي و إسماعيل صبري ثم حافظ إبراهيم و أحمد شوقي و تلك الحلبة، و انتشرت كتاباتهم و قصائدهم في العالم العربي و منها اقتبس شعراء الشام و كتابه و بطريقتهم اقتدوا و غيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون. و ما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء و رقة المحدثين،

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩

و أصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربي أي منذ زهاء خمسة عشر قرناً. و كان للصحف و المجلات و لانتشار الآداب الانكليزية و الفرنسية و التركية و غيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا، و المبرزون فيه ما زالوا قلائل جداً، و يرجي أن لا يمضي عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية، و النظر إلى وفرة السكان و الغنى، و توفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري.

العلم و الأدب عند أقدم شعوب الشام:

صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين و من كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام، و خلفت فيها آثاراً في العمران لا تقوم بغير العلم، و لم ينقل إلا أسماء قليلة اشتغل أربابها بالعلم الديني و الدنيوي على عهد بعض الدول الخالفة، و لا- سيما الكلدان و العبران و الرومان و اليونان، و لو لا بعض عادات أثرت عن الأمم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء القطر، و أخبار نقلتها التواريخ الصحيحة لقلنا إن أكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة. و أهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة، بل تحسين أصولها و جعلها مطابقة للأصوات، و نقلهم لها إلى الأمم التي أبحروا و اتجروا معها، و عنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط و ما إليها. و هذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم. قال بورتر: لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف هجائية، و ليس هم أول من استعملوا الكتابة لأننا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين و الكلدانيين قبل عهدهم، غير أن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون و اعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة و نشروها بين أكثر الأمم المتمدنة لاتساع تجارتهم، فإن الحروف الهجائية في لغات أوروبا و غربي آسيا و شمالي إفريقيا مشتقة من حروفهم.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠

و أخبار العلم قبل الإسلام في الشام ضئيلة و منها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه و سلامة أذواق بنييه. و كان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا- مطردة، و يخرج العلماء و الفلاسفة فرادى، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودي في سنة ١٠٠ م و له عدة تواريخ و قد صار والياً على الجليل، و كتب بالسريرية ثم ترجمت كتاباته باليونانية، و منهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ و فيلون اليهودي الجبلي و فيلودومر الابيكوري من جدر و تيودور الخطيب من عسقلان و أقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في

صور، كما نبغ فيها فرفور يوس الفيلسوف، و كان بعد زمن جالينوس، و نبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية و بنى جسرا على نهر الطونة (الدانوب) و جاء في رفية ارستيفس الرفنى و فلسفته هي الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة، و تاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الأول قبل المسيح في مدينة طرابلس، و ممن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة و توفلس صاحب الحجج في قدم العالم.

و اشتهر في هذه القرون الأولى هرميوس البيروتي تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب، و طوروس البيروتي في الحكمة، و لوپركوس البيروتي في اللغويات و الفلسفيات، و مناسياس البيروتي في الخطابة، و اشتهر في الآداب مرقس كالريوس پروبس البيروتي، و في الجغرافيا مارينوس الصوري، و كان معاصرا لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح. و كانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر اوسلوقس نيقاتور و من جاء بعده مباءة أدب و حكمة، و نبغ فيها من الشعراء و رجال الدين و الأدب و الخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني، و القديس لوقا، و الشاعر ارستياس. و كما كانت أنطاكية دار حكمة و علم، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان، و كانت فيها مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين- و قد نشأ من حمص و بصرى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية و حكموها- و كانت اللغة اللاتينية لسان

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١

العلم في تلك المدرسة، و يدرس فيها الفقه و الآداب و اللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية و من أبناء العرب، و قد تخرج بأساتذتها أناس تأفقت شهرتهم في الأدب و الشريعة، و كان قضاء الرومان من خريجها مدة أربعة قرون، و كان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستينانوس لتدوين الفقه و قيل ثلاثة و هم اودكسيوس و اناطوليوس و دوروتاوس، و من أساتذتها اميل بابنيان من بيروت و كان من أشهر فقهاء الرومان، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة، و إذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله، و منهم اولبيان و هو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده في بيروت و غيرهم إلى أنه في صور، و منهم يوليوس بولس الحمصي و هو مشهور في الفقهاء الرومان، و منهم مكسيموس الصوري و هو فيلسوف أفلاطوني، و منهم لوسيان السمساطي كان نقاشا فقيها فيلسوفا بليغا، و منهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ، و لنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات أسقف أنطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها.

و ممن كان في تدمر و في أرجاء الشام على ذاك العهد كيكلا تيس الصوري و عالم المؤرخين پوسانياس الدمشقي و نيكوماخوس المؤرخ. و ممن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر و كانت تعرف التدمرية و المصرية و اليونانية و اللاتينية و العربية على الأرجح و أسماء أولادها عربية- كاسيوس و يونيسيوس و أوريجانس فيلسوف قيسارية. و من علماء بيروت الأقدمين هرمبوس له تأليف عديدة و سيلير الفيلسوف و مناسيا ألف كتابا في البيان و الفيلسوف الأفلاطوني طورس و الطبيب اسطرابون و ساويرس بطيريك اليعاقبة و هذا كان في القرن الخامس للميلاد. و كثر في القرن الثالث للميلاد الكتاب و أبواب القرائح و أهل العلم و الحصافة و الحكمة، و ممن نشأ من الأدباء و الفلاسفة لوسين و جامبلتوس و بلوتين.

قال سنيوبوس: حفظت في مدارس الروم في دمشق و الإسكندرية علوم الروم من فلك و جغرافيا و رياضيات و طب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم و عربهم و فرسهم هذه العلوم و أكملوها و نشروها.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢

مواطن العلم في القطر قديما:

كان العلم يدرس في تلك الأحقاب في أربع مدارس و هي القسطنطينية و الإسكندرية و رومية و بيروت، و قد أنشأ الرومان مدرسة

في قيسارية، وأخرى في آثينة، و كان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمه ذات شأن، و لكن دون مكانه مدرسة جارتها بيروت. و قد ألغى يوستينانوس مدارس قيسارية و آثينة و الإسكندرية، و أبقى مدارس رومية و القسطنطينية و بيروت و لقب بيروت بأم العلوم و ظئر الشرائع. و أعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطا لهم. و قد خربت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التي تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠ م الذي التهم بيروت و مساكنها و معاهدها. و كان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها و كان فصحاؤها على العهد اليوناني المرجع الأول في الفصاحة و البلاغة، و كان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة و تخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسي و قيل: إنه كان في أريحا مدرسة أسسها ايليا.

قال استرابون الجغرافي اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد: لم يبق في صور و صيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة و العلوم الرياضية و الخطباء و الفلاسفة، و مدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية، و قد أنشأت صيدا في أيامنا كثيرا من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا و ديودوت أبوه، و نشأ في صور انتيباتر و قبله أبولون، و كان في أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه.

و كانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم في هذه الأحقاب، و لم يكن السريان السكان الأصليين دون الرومانيين و اليونانيين في تخريج الرجال، و لا سيما في عهد النصرانية. فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب و جوارها من رقدتها، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير، نشأ في حلب أو في صقعها و درس الآداب السريانية في مدرسة الزها،
خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣

و هي إحدى المدارس العالية في العالم السرياني، و نشأ منهم سمعان العمودي و بالاي و القديس إسحاق الأنطاكي، و من فحول شعراء السريان، اخسنايا المنبجي أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) و يوحنا بن افتون القنسريني شيد ديرا على ساحل الفرات عرف بدير قنسرين، و كان جامعه للآداب و المعارف الآرامية عصرا طويلا مات سنة ٥٣٨ و توما الحرقلني نشأ في دير ترعيل قرب حلب و تلقى العلم في قنسرين و قد ترجم الأناجيل و غيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية.

و من المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام، و لكنها خرّجت للشاميين رجالا أيضا، و سرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات، مدرسة حران، و قد أخذت الشام و لا سيما شمالها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس و الأديار حيث تدرس الآداب السريانية، و يتنافسون مع المدارس العالية الأخرى في ديار السريان، و كانت حران بمثابة آثينة العالم الآرامي، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعله الآداب الكلدانية الآرامية. و في تاريخ كلدو و أثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة في الشرق، أزهرت في القرن الخامس و السادس و السابع و بلغت عزها و مجدها، و اشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاى اشتهار مدرسة المدائن و غيرها، و كان صيتها في فارس و الروم و إيطاليا و افريقية، و هي أول كلية لاهوتية بل أول جامعه درس فيها علم الإلهيات، و ظهر منها علماء كفاء كتبوا في الفنون و لا سيما في الإلهيات. و اشتهر يعاقبة كالتساطر في العلم و التأليف. و النسطوريون أكثر عددا، و يعاقبة أكثر مادة. و كان يرشح من علوم هؤلاء الأشوريين على الشام شىء كثير للاشتراك في اللغة و الدين إذ ذاك.

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم و نوابغه في الشام من الفينيقين و السريانيين و الرومانيين و البيزنطيين و ما زالت بعض آثارهم و أخبارهم شاهدة بفضلهم، و أنهم ليسوا دون من خلفهم في أمور كثيرة، مما اهتدى إليه العقل البشرى، فإن حرمانا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار، دونوا فيها أعمالهم

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤

الحربية و مآثرهم العلمية، لا جرم أن من ينشئ هذه المصانع و ينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى، و هذا لا يزكو إلا

بالعلم المختلف الضروب و في ظل حضارة بديعة.

ما حمل العرب من العلم إلى الشام:

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سمع في تاريخ البشر، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون و يقل من يكتب فيهم حتى في أهل الطبقة الأولى، و يعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، و من ضيق البداوة إلى متسع المدينة. و لما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر و الخطب، لا يعرفون غير الفصاحة و البلاغة، و هما في نظرهم جماع كل العلوم، ينقلون أنسابهم و أخبارهم في الصدور، و علومهم في الطب و النجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية، و لم يكن التدوين يعهد عندهم، و كانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية، و كان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. أخذت الكتابة من واضعها مرامر بن مرة. و أول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه و سلم أن يعلم الكتاب بالمدينة، و كان ممن أسر بيدرو لا مال له، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة و يخلي سبيله، فيؤمئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت.

و لما فتحت الشام و كانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب و الوسط و التنوخيين في الشمال من عمال الروم و من كان ينزلها من القبائل و البطون العربية في أرجاء تدمر و الفرات و غزة و سينا، كان الشعر مما يفاخرون به، و إذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه و اعتمدوا على قريحته في الشدائد. و كان جبله بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعرا مجيدا يعجب بالشعر و يجيز عليه و هو ممدوح حسان بن ثابت و من أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم.

جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب و كأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم و قبيلهم، و منهم امرؤ القيس و قد ذكر في شعره بعض أرجاء

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥

الشام. و كذلك حسان بن ثابت ذكر أرض الغساسنة و منازلهم. و أقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠ م في حوران عند الغساسنة إلى وفاته.

جمع القرآن و نشره في الشام:

جمع القرآن على عهد رسول الله (عليه الصلاة و السلام) على ما روى ابن سعد أبي بن كعب و معاذ بن جبل و أبو الدرداء و زيد بن ثابت و سعد بن عبيد و أبو زيد ثابت. و كان مجمع بن جارية قد جمع القرآن إلّا سورتين أو ثلاثا. و كان ابن مسعود قد أخذ بضعا و تسعين سورة و تعلم بقية القرآن من مجمع. قال و كان بقي على مجمع بن جارية سورة أو سورتان حين قبض النبي و في روايه أن من جماع القرآن عدا من ذكروا، على بن أبي طالب و عبيد بن معاوية.

و قال محمد بن كعب القرظي: جمع القرآن في زمن النبي صلى الله و سلم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل و عبادة بن الصامت و أبي بن كعب و ابو أيوب و أبو الدرداء فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا و ربلوا و ملأوا المدائن، و احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن و يفقههم، فأعنى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم. فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن و يفقههم في الدين، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم، إن أجبتم فاستهموا، و إن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لتساهم. هذا شيخ كبير لأبي أيوب، و أما هذا فسقيم لأبي بن كعب. فخرج معاذ و عبادة و أبو الدرداء.

فقال عمر: ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجه مختلفه منهم من يلغن، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا

رضيتهم منهم فليقم بها واحد، و ليخرج واحد إلى دمشق و الآخر إلى فلسطين. و قدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، و خرج أبو الدرداء إلى دمشق، و معاذ إلى فلسطين. و أما معاذ فمات عام طاعون عمواس، و أما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، و أما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات.

و هذه أول بعثة علمية حجازية أتت الشام لتعلم أهلها و تثقفهم. و يرجع الفضل الأول في اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبي سفيان النجباء كما كان أبو سفيان

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦

و أبو حرب نقلنا الخط العربي إلى الحجاز، و الشام مدينة لأمية في أمور كثيرة لا شراكها في خدمة الحضارة اشتراكا عمليا. قال زيد بن ثابت: أرسلت إلى أبي بكر فأتيته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال لي إن القتل قد استحرّ بالقراء يوم اليمامة و إنني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن، فأرى أن يجمع القرآن بحال فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر: هو و الله خير فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدرى و رأيت ذلك الذي رآه عمر. قال زيد بن ثابت: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك. قد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن و اجمعه، قال زيد: فو الله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن، أجمع من الرقاع و اللخاف و العسب و صدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره. فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة ابنة عمر - رواه صاحب الفهرست.

و أمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذى كتب فى زمن سلفه أبى بكر و تفريقه فى الأمصار، و كان بلغ عثمان ما وقع فى أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا: قرأنا أصح من قرآن أهل الشام، لأننا قرأنا على أبى موسى الأشعري، و أهل الشام يقولون: قرأنا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود، و كذلك غيرهم من الأمصار، فأجمع رأيه و رأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، و كان مودعا عند حفصة زوج النبى، و يحرق ما سواه من المصاحف التى بأيدي الناس، ففعل ذلك و نسخ من ذلك المصحف مصاحف و حمل كلا منها إلى مصر من الأمصار. و كان الذى تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت و عبد الله بن الزبير و سعيد بن العاص و عبد

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧

الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. و قال عثمان: إن اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم. فتح العرب الشام و لم يحملوا إليه غير دين يبعد عن الشرك و عبادة الأصنام، و غير بلاغة الشعر و الخطب المغروسة فى طباعهم، و فطر سليمة جبلت عليها نفوسهم، فاقتبسوا فى الحال مدينة من نزلوا عليهم و تمثلوها و هضموها فى أقصر مدة، و أتوا بعدها بأمور جديدة، على ما قاموا بمثل ذلك فى بغداد و مصر و فارس و الأندلس و غيرها. و لقد أظهروا و هم فى أوج عزهم من التسامح مع السكان ما دهش له المخالفون و استغربه الموافقون، و لا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول عليه السلام أمر زيد ابن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود أى يتعلم لغة غير لغة العرب.

العلم و الأدب فى القرن الأول:

من شعراء الأمويين جرير و الفرزدق و كانت للأخطل الشاعر صحبة يزيد ابن معاوية مدحه و هجا الأنصار، و ما فيهم بيت إلا و يقول الشعر و لم يمسه أحد بسوء، و كان خلفاء الشام يقربونه على حين كان أهل نحلته يتبرمون بسلاطة لسانه، حتى إن الأسقف حبسه مرة فى الكنيسة بدمشق لشتمه أعراض الناس، و استرساله فى هجوهم، هذا و الملوك تهابه، و الخلفاء تكرمه، و ذكره فى الناس عظيم. و منهم مسكين الدارمي و الراعى و الراجز العجلي و الأحوص و عدى بن الرقاع القضاعى و علقمة بن عبدة و جناح بن روح و الربيع بن

مطر التميمي و حكيم بن عباس بن الأعور الكلبى و الحسين بن عبيد الكلابى و أنيف العذرى و أسباط بن واصل الشيبانى صديق الخليفة يزيد بن الوليد و جواس ابن القعطل الكلبى و عثمان بن الوليد القرشى. و كان معاوية و من خلفه من خلفاء بنى أمية و بنى مروان يفضلون عليهم، و من شعرائهم نابغة بنى شيبان كان يفد على المروانيين فيجزلون عطاءه، و كان الأمويون يرسلون لأبى العباس الأعمى أحد شعرائهم بعطاءه إلى مكة، و غالوا فى الحرص على إكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فإنه كان يقصى الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن و التشيب فى أشعارهم، و لكنه كان رضى الله عنه يفضل (٢-٤)

خطط الشام، ج٤، ص: ١٨

على العلماء فقد كتب إلى والى حمص: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه و حبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابى هذا و إن خير الخير أعجله و السلام». و ظلت القبائل فى الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغتبط و تفاخر، و إذا عدمته ذلت، لأنها تعده لسانها الناطق و مدون مفاخرها. و قد أعطى النعمان بن بشير عامل حمص أعشى همدان شاعر اليمن عشرين ألف دينار من مال اليمانية، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً ديناراً، و كان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الأول و الوليد الثانى من يقول الشعر الجيد و كان عبد الملك من أكثر الناس علماً و أبرعهم أدباً.

و قد نشأ فى القرن الأول من الفقهاء و المحدثين جملةً صالحةً فى الشام منهم عبد الرحمن بن غنم بن سعد الأشعري الصحابى، بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامه التابعين بالشام (٧٨) و منهم فضالة بن عبيد الصحابى ولى قضاء دمشق لمعاوية و أقره غزو الروم فى البحر (٥٣)، و أبو الدرداء الخزرجى الزاهد الحكيم المقرئ ولى قضاء دمشق فى خلافة عثمان مات (سنة ٣٢) و أول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل و بفسطين الوليد بن عبد الرحمن. و من علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى و أوس بن أوس الصحابى الشاعر سكن بيت المقدس و الرمل (سنة ٣٢)، و من أخباريهم عبيد بن شريه الجرهى وفد على معاوية بن أبى سفيان و أملى أشياء فى أخبار الملوك أخذ عنه علاقته بن كرسم الكلابى أيام يزيد بن معاوية، و كان عارفاً بأيام العرب و أحاديثها و هو أحد من أخذت عنه المآثر و ربما جاز أن يعدّ أول من دوّن التاريخ فى الشام.

و من علماء الشاميين أبو إدريس الخولانى فقيه الشام و قاضيه، و عمرو البكالى المحدث الفقيه، و بشير بن الوليد الأموى كان يقال له عالم بنى مروان، و إبراهيم بن كثير بن المرتجل الرملى، و كان عبادة بن الصامت والى بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه أبو سلام الحبشى و اسمه محظور و يقال الباهلى الدمشقى و شهر بن حوشب الأشعري المحدث (١٠٠)، و بلال بن أبى الدرداء الأنصارى خطط الشام، ج٤، ص: ١٩

قاضى دمشق (٩٣)، و أبو مسلم الخولانى شيخ الفيحاء و زاهدها من سادات التابعين، و روح بن زنباع يكنى بأبى زرع، و يقال بأبى رنباع الجذامى الفلسطينى كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان، و رجاء بن أبى سلمة الفلسطينى المحدث. و مالك بن دينار أحد الأعلام أقام فى القدس (٢٣) و جبير بن نفيير الحضرمى عالم أهل الشام (٧٩) و غيلان بن مروان الدمشقى من كبار المعتزلة و كان الحسن يقول إذا رأى غيلان فى الموسم «أترون هذا هو حجة الله على أهل الشام و لكن الفتى مقتول» و كان أوحد دهره فى العلم و الزهد قتله هشام بن عبد الملك و قتل معه صاحبه صالحاً لأنه كان ينال من بنى أمية. و إسماعيل بن عبد الله بن أبى مهاجر مولى بنى مخزوم من أهل دمشق كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان.

و نشأ من الكتاب فى هذا القرن عبد الله بن أوس الغسانى سيد أهل الشام و أسود بن قيس الحميرى من كتاب بنى أمية بدمشق، و فى الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنسرين يعقوبى كان على عهد السفينيين فى الشام ممثل الحركة الأدبية و قد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة (٦٥٩ م) و ألف رسائل و مقالات عديدة فى الحساب و الفلك و الاضطراب و الفلسفة و اللاهوت، و يعقوب الزهاوى و غيرهم، و نشأ فى القرن السابع للميلاد أى فى القرن الأول للهجرة كالينيكيوس البعلبكى و هو مهندس كيماوى قيل إنه

مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرها، و كان أبو قره أول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية. و من مشاهير النصارى فى القرون الأولى القديس يوحنا الدمشقى (٧٨٠ م) كان علما فى عصره و ألف كتبا كثيرة فى اللاهوت و منهم قزما المنشى و قزما البار و ندراس الاقريطشى و البطريرك صفرونيوس.

عناية خالد بن يزيد بالنقل و أوائل التدوين:

كانت الكتب التى ترجمت لأبى هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى حكيم آل مروان و عالم قريش، أول نقل أو تعريب كان فى الإسلام فى عاصمة الشام. و خالد بن يزيد هذا زهد فى الخلافة و عشق العلم، و إذا أنشأ جده معاوية ملكا فى الشام دام ألف شهر، فإنه أنشأ بعلمه مملكة

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٠

باقية بقاء الدهر، فقد «أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر و قد تفصح بالعربية، و أمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى و القبطى إلى العربى» و الصنعة صنعة الكيمياء. فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب فى الطب و النجوم. و ممن نقل له اصطفن القديم، نقل كتب الكيمياء، و كان خالد بصيرا بالطب أخذه عن يحيى النحوى و أخذ الكيمياء عن مريانس الرومى و أتقن هذين العلمين و ألف فيهما و له رسائل و كتب فى غير هذه الأغراض، دالة على معرفته و براعته، و له شعر كثير و مقاطيع دالة على حسن تصرفه و سبقه. و كان من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام و قيل عنه قد علم علم العرب و العجم، و كان خطيبا شاعرا، فهو أول من أعطى التراجم و الفلاسفة، و قرب أهل الحكمة و رؤساء أهل كل صنعة، و ترجم كتب النجوم و الطب و الكيمياء و الحروب و الآلات و الصناعات.

و فى الفهرست: و يقال و الله أعلم إنه صح له عمل الصناعة و له فى ذلك عدة كتب و رسائل و له شعر كثير رأيت منه نحو خمسمائة ورقة و رأيت من كتبه كتاب الحرات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير. كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة.

جاء فى التاريخ العام: لما جاءت العرب و جدت المدنية اليونانية راسخة فى جميع الأقطار التى داهمتها أولا مثل الشام و مصر و العراق فاقتربت من المملكة البيزنطية و بدا لها من وراء مدنتها النبوغ اليونانى كما تجلى لها من الفرس المدنيات القديمة من الهند و الصين على نحو ما و جدت فى بلاد كنعان و مصر تذكارات من الأمم القديمة التى لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة فى القدم و مصانعها و أعمالها.

و لما بلغت الدولة العربية غاية عزاها، ثم تمزقت و تقسمت أصبح دينها واحدا و لسانها واحدا و قوانينها المعمول بها واحدة، و ذلك من نهر السند إلى أعمدة هر كول و تمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم، و أخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة و سياحة الأفراد و تنقل الجيوش و الأمم و انتشار المعتقدات و الأخلاق و الأفكار يتصادمون و يتمازجون و يتحدون و يتداخلون و كل شعب ينقل إلى الآخر عاداته و تاريخه و ملكاته الطبيعية.

خطط الشام، ج٤، ص: ٢١

فالمدينة التى عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست إذا عربية صرفه، بل هى بحسب النموذجات التى تشبعت بروحها و المحيط الذى كبرت فيه: يونانية و فارسية و شامية و مصرية و إسبانية و هندية، و لكن إذا و جب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا- يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدنية ينقلون إلى الشعوب الجاهلة فى إفريقيا و إسبانيا و أوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى و الأقصى و علومه و اختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبّت فتمازجت تمازجا متجانسا أبدعوا مدينة حية مطبوعة بطابع قرائحهم و عقولهم. و بفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى التى عاونت فيها أيد أخرى أن

تكون ذات وحدة موصوفة، فالتقليد فيها محسوس و لكنه تقليد غير أعمى، و سلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية و الاختراعات الحديثة كما أن متشهد البدائع القديمة و درسها لا يحول دون انتشار التفنن و لطافة الإبداع في الاختراع. و في الشرق نشأت هذه المدينة و كانت دمشق إحدى مراكزها و منبعت أنوارها هـ.

و بعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب و جعلها في خزانه في الإسلام، و في دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي، و دمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعمله هذه الأمة و هذه العاصمة شرفا لا يبلى على الأيام. و إن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة، و تمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية، و من أولها التدوين و الترجمة، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم و الأدب فباعتها من غيرها و هذا يعدّ من مفاخرها الثالثة. و خالد بن يزيد أول من عنى بعلوم الفلسفة و لم يتفرد بذلك المنصور العباسي خلافا لما قاله كاتب چلبى من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية. قال الأصفهاني كان خالد ابن يزيد ينزل حلب و توفي سنة ٨٥ هـ.

و بذا رأينا أن التدوين حدث في القرن الأول في العلوم الدينوية و يرى نالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢

النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم، و كان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن و الحديث و معانيهما ثم دونوا فيما هو كالوسيلة إليهما.

و حدث التدوين في عصر الصحابة الكرام على ما في «توجيه النظر» فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتابا في علم الفرائض و ذكر البخاري أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث، و ذكر مسلم في صحيحه كتابا ألف في عهد ابن عباس في قضاء على. و ذكر صاحب الفهرست أنه رأى في مدينة الحديث على الفرات خزانه للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن و الحسين، و أمانات و عهود بخط أمير المؤمنين على و بخط غيره من كتاب النبي، و من خطوط العلماء في النحو و اللغة مثل أبي عمرو بن العلاء و أبي عمرو الشيباني و الأصمعي و ابن الأعرابي و سيبويه و الفراء و الكسائي و من خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة و سفيان الثوري و الأوزاعي و غيرهم.

و ذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين في الطب و جده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس و بثه في أيديهم. و عمر بن عبد العزيز هو الذي قال: كنت أصحب من الناس سراتهم، و اطلب من العلم شريفه، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفاسف العلم، فتعلموا من العلم جيده و رديئه و سفاسفه.

علماء القرن الثاني و الأدب و النقلة و المنشئون فيه:

مضى القرن الأول و جاء الثاني فكثر القراء و المحدثون و الشعراء و النقلة و المترسلون و الكتاب بكثرة الفتوحات و فرط العناية بالعلم و الأدب، و قد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١٠١) و مكحول مولى بنى هذيل فقيه الدمشقيين و أحد أوعية العلم و الآثار (١١٣) و عبد الله ابن عامر اليحصبي القاري المحدث أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (١١٨) و سليمان بن موسى الأشدق الفقيه و كان أعلم أهل الشام بعد مكحول (١١٩) و ربيعة بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣) و سليمان ابن حبيب المحاربي قاضي دمشق أربعين سنة (١٢٤) و يحيى بن يحيى بن قيس

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣

الغساني كان ثقة إماما عالما بالفتوى و القضاء و سيد أهل دمشق (١٣٥) و يزيد ابن يزيد بن جابر الأزدي إمام فقيه (١٣٤) و العلاء بن

الحارث الحضرمي الفقيه (١٣٦) و يحيى بن الحارث الدماري المقرئ الدمشقي و عليه دارت قراءة الشاميين (١٤٥) و عبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤) و عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي البيروتي (١٥٧) كان إمام أهل الشام و عالمهم قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، و صار يعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة و آخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي الشام و عمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة ثم تناقص بمذهب الإمام مالك. و كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام و أمره فيهم أعز من أمر السلطان. و كان مع علمه بارعا في الكتابة و الترسل.

و من علماء الشام يونس بن ميسرة بن حلبس و ثور بن يزيد الكلاعي الحمصي، و كان ثقة في الحديث (١٥٣) و الوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الأوزاعي و كانوا يقولون علم الشام عند إسماعيل بن عياش و الوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سننه ميمونا عند أهل العلم متقنا صحيح العلم (١٩٥ أو ١٩٤) و من المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدم الصنعاني و أبو مرثد الغنوي و ابراهيم بن جدار العذري و مبشر بن إسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأمونا (٢٠٠) و يحيى بن عمرو السيباني من أهل الرملة (و سيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (١٤٨) و صعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس. و صدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي دمشق (١٦٦) و الهقل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم له تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥) و عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه و يجلسه معه على السرير (١١٧) و نمير بن أوس الأشعري المحدث (١٢١) و ربيعة بن يزيد القصيري من أئمة التابعين (١٢٢) و ابراهيم ابن أبي عبله من علماء التابعين (١٥٢) و عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥) و سعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧) و محمد بن الوليد الزبيدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى و الحديث (١٤٨) و يحيى بن حمزة كان كثير الحديث و كان قاضيا بدمشق (١٨٣) و بقيه بن الوليد الحمصي خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤

المحدث (١٩٧) و أسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧).

و حرص المسلمون في الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب، و كان من الأطباء في القرنين الأول و الثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم ابن أبي الحكم الدمشقي الطيب و كان أبوه أبو الحكم طبيبا في صدر الإسلام، و كان أبو الحكم يستطبه معاوية و يعتمد عليه اعتمادا على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق. و منهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير. و تياذوق كان في أول دولة بني مروان و مشهورا عندهم بالطب و منهم عبد الملك بن أبجر الكناني كان طبيبا عالما ماهرا يقيم في أول أمره في الإسكندرية لأنه كان المتولى للتدريس بها بعد الإسكندرانيين، و لما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه و اعتمد عليه في صناعة الطب.

و كان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربي و واضع أساسه و كان عالما في كل فن من فنون الأدب (١٣٢) و هو الذي فك قيود الإنشاء و ضبط أصوله و كان ختنه سالم و يكنى أبا العلاء أحد الفصحاء و البلغاء. و قد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر و نقل له و أصلح هو، و له رسائل و مجموع نحو مائة ورقة. و من الكتاب قنان بن متي و ابنه قيس و حفيده الحصين و منهم أسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخي و يقال الكلبى. و من المشهورين بالبلاغة و الخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب إلى منبج، و خالد بن عبد الله القسري الخطيب المفوه (١٢٦) و أبو السامى و عبد الله بن خدش و أبو مسلم الشامى.

و من الناقلين أى المترجمين جبله بن سالم، و كان ناقلا من العربى إلى الفارسى، و نقل بعضهم شيئا من تواريخ الأمم عن الفارسية. و لم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف، و كان يحسن العربية و السريانية و اليونانية، جيد النقل فصيح اللسان، و مثل أبي عثمان الدمشقي و عبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمى المعروف بابن الناعمة، و زروبا بن ماجوه الناعمى الحمصي و كلاهما من النقلة، و هلال

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥

ابن أبي هلال الحمصي صحيح النقل و لفظه مبتدل و حنين بن إسحاق البغدادي المولد نشأ في الشام و تعلم فيه. و للشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الأول و الثاني و كذلك في القرون التالية إلى يومنا هذا و هم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغريبة و التفصح فيها. و كان أكثر النقل عن السريانية، و هذه نقلت عن العبرانية، و هذه نقلت عن اليونانية، و لذلك تعب فلاسفة المسلمين في حل رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقلت عن نقل، و ذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية و منها إلى العربية و منها إلى العبرية و من هذه إلى اللاتينية و كان التراجمه بادية بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب و ينقلونها إلى اللاتينية حرفا بحرف. و قال ناليونو: إن أكثر نقله القرن الثاني كانوا ضعافا في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع و كثيرا ما ترددوا في تعريف المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر، و من المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا في القرن الثالث.

العلم و الأدب في القرن الثالث:

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة، و تجلى آثار النبوغ و التجدد، بل كان كالتئمة لبعض ما سمت له الهمم في القرنين الماضيين، و على صورة ربما كانت أضعف، زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل، و أخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية و بقيت الشام بمعزل، راحت العلوم الفلسفية في بغداد أواخر القرن الثاني و الثالث و سرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما خنقها. و ممن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصدا فلجيا عمله له يحيى بن أبي منصور و هو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في أيامه و كان ذلك في سنة خمس عشرة و ست عشرة و سبع عشرة بعد المائتين. و قام في الشام محمد بن عائذ صاحب المغازي و الفتوح و غير ذلك من المصنفات (٢٣٣) و عبد الله بن ذكوان القاريء الحافظ (٢٤٢) و هشام بن عمار خطيب دمشق و قارئها و فقيها و محدثها (٢٤٥) و أحمد

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٦

ابن أبي الحواري من كبار المحدثين و الصوفية (٢٤٦) و محمود بن سميع صاحب الطبقات و أحد الأثبات الثقات (٢٥٩) و أبو زرعة الدمشقي النصري عبد الرحمن ابن عمرو المحدث صنف كتبا (٢٨١) و أبو مسهر عبد الأعلى الغساني شيخ دمشق و عالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي و غيره من الشاميين (٢١٨) و صفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩) و القاسم بن عثمان الجوعى شيخ دمشق و زاهدا (٢٤٨) و الحافظ زكريا بن يحيى السيجزي المعروف بخياط السنة (٢٨٧) و عبد الغفار بن عثمان و الوليد بن يزيد العذري البيروتي كان من أهل العلم و الرواية و كان الأوزاعي يقول، فيما عرفت ما حمل عنى أصح من كتب الوليد بن يزيد (٢٠٣) و ولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من أهل العلم و الرواية (٢٧٠) و الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمس و مئة و توفي بمصر سنة ٢٠٤ و هو أول من صنف في أصول الفقه. و من أعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذكر عند عبد الله بن أحمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال:

ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف. و عبد الله بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي و محمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب البيروتي و آدم بن أبي إياس العسقلاني من مشايخ البخارى (٢٢١) و هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشى الصيداوى (٢٥٦) و أبو بكر محمد بن بركة القنسريني الحافظ ببرداعس سكن حلب ثم قدم دمشق و حدث بها عن أبي جعفر أحمد ابن محمد بن رجاء المصيصي و يوسف بن سعد بن مسلم و هلال بن أبي العلاء الرقي.

و لقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألوفا من الأحاديث بأسانيدها و كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحديث بإسناده

سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا- مجرد رواية، و يطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه و العالم على من يعلم المتن و الإسناد جميعا، و الفقيه على من يعرف المتن و لا- يعرف الإسناد. و كان السلف يطلقون المحدث و الحافظ بمعنى و المحدث من عرف الأسانيد و العلل و أسماء الرجال و العالى و النازل و حفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون و سمع الكتب الستة و مسند أحمد بن حنبل و سنن البيهقي

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٧

و معجم الطبراني و ضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر و كتب الطباقي و دار على الشيوخ و تكلم في العلل و الوفيات و المسانيد كان في أول درجات المحدثين.

و ممن كان في الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق. و عثمان بن خزاذ الأنطاكي المحدث. و أبو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث و أبو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ. و احمد بن الخليل الحلبي المحدث و أحمد ابن المسيب الحلبي المحدث و عبد الله بن إسحاق الصيفري المحدث و مؤمل الرملي و أبو توبة الربيع بن نافع و يزيد بن خالد الرملي روى عن الليث بن سعد و المفضل ابن فضالة و روى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني و أبو زرعة الرازي و موسى بن سهل الرملي (٢٤٢) و عبد الله بن محمد بن نصر بن طويط و يقال طويث أبو الفضل البرازي الرملي الحافظ. سمع في دمشق هشام بن عمار ودحيما و هشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان، و وارث بن الفضل العسقلاني، و نوح بن أبي حبيب القومسي.

و من شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي و عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس و أصله من سلمية و إدريس بن يزيد النابلسي الأديب الشاعر و أدهم بن محرز و العتابي و أبو تمام. و اشتهر في هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا.

الأدب في القرن الرابع و نهضته على عهد سيف الدولة و أبي العلاء المعري:

قل في القرن الثالث في الشام الشعراء و الأدباء، و لم ينبغ فيه إلا رجال في الحديث، و المغازي و الفقه، فطلع القرن الرابع و قد ظهر فيه الأدب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله، و لا جاء في القرون التالية شبه له و نظير، اللهم إلا إذا كان على عهد الأمويين، و لم تبلغنا جميع أخبار شعراء سيف الدولة بن حمدان في حلب، و قد قصده نوابغ الشعراء و الأدباء، قال الصفدي و كانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب لأن الفضلاء الذين كانوا عنده و الشعراء الذين من حوله لم يأت بعدهم مثلهم.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٨

ذكر الثعالبي من شعراء الشام المحدثين العتابي و منصور النمري و الأشجع السلمى و محمد بن زرعة الدمشقي و ربيعة الرقي قال على أن في الطائين (أبي تمام و البحترى) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية و هما هما.

و من مولدى أهل الشام المعوج الرقي و المريمى و العباس المصيصى و أبو الفتح كشاجم و الصنوبرى و أبو المعتصم الأنطاكي، و هؤلاء رياض الشعر و حدائق الظرف. و يقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر و نجوم الدهر، و إنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، و كان أديبا شاعرا أورد صاحب اليتيمة من شعرائه و من كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام.

و كان في هذا القرن أكثر الجهابذة و الصياغين و الصيارفة و الدباغين بالشام من اليهود، و أكثر الأطباء و الكتبة نصارى و انحطت مدن الشام في العلم انحطاطا كثيرا و منها حمص. ذكر السيوطى أنه نزلها خلق من الصحابة و انتشر بها الحديث زمن التابعين و إلى أيام حريز بن عثمان و شعيب بن أبي حمزة ثم إسماعيل بن عياش و بقيه و أبي المغيرة و أبي اليمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلك في

المائة الرابعة و تلاشى ثم عدم بالكليّة.

كان أبو فراس الحمداني الذي قال فيه الصاحب بديء الشعر بملك و ختم بملك، يعنى امرأ القيس و أبا فراس- ابن عم سيف الدولة و أعطاه على بيت واحد ضيعة بمنبج تغل ألف دينار. و لطالما أعطاه و أعطى الشعراء فى بابيه و لا سيما أبو الطيب المتنبى عشرات الألوف من الدنانير دع الإقطاعات و الضياع، و كان أبو بكر و أبو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة و كانا على خزانه كتبه كما كان عليها أيضا السلامى و البيغاء و الوأواء. و ربما قلّ فى الملوك من مدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى إن كلا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب و أبى الحسن على بن محمد السمساطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت. و كان أبو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة و نديمه معروفاً ببعده المدى فى مضمار الأدب و حلبة خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٩

الكتابة، أخذ بطرفى النظم و النثر، و كان سيف الدولة لا يؤثر عليه فى السفارة إلى الحضرة أحداً، لحسن عبارته، و قوة بيانه، و نفاذه فى استغراق الأغراض، و تحصيل المراد.

و من خواص شعراء سيف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامى و كان عنده تلو المتنبى فى المنزلة و الرتبة، و منهم أبو الفرج عبد الواحد البيغاء من أهل نصيبين و من شعرائه أو ما قربوا من عصره الخليل الشامى و الوأواء الدمشقى و أبو طالب الرقى و أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بأبى الرقعق، و أبو القاسم الحسن الواسانى الدمشقى و أحمد بن محمد الطائى الدمشقى و ابن أبى الجوع و ابن رشدين و كشاجم (و أقام كشاجم فى الرملة كثيراً فسمى الرملى ٣٦٠) و الصنوبرى و أبو الفتح البكنمرى و أبو الفرج العجلى و أبو حصين الرقى و أبو الفرج سلامة بن بحر. و من علماء الأدب و اللغة ابن خالويه و ابن جنى. و من الشعراء أبو محمد جعفر و أبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيبانى من رؤساء عرب الشام و قوادها. و كان جعفر بن ورقاء الشيبانى (٣٥٢) من بيت إمرة و تقدم و آداب، و كان المقتدر يجريه مجرى بنى حمدان و تقلد عدة ولايات، و كان شاعراً كاتباً جيد البديهة و الروية، و من الشعراء منصور و أحمد ابنا كيغلف و أبو على أحمد بن نصر بن الحسين البازيار و أبو زهير المهلهل نصر بن حمدان و المغنم المصرى و اسمه ابو الحسن محمد الشعبانى و أبو عبد الله محمد بن الحسين و أبو نصر بن نباتة التميمى و الشيطمى و أبو العباس الصّفرى و أبو العباس الناشىء و أبو نصر البنص، و أبو القاسم الرقى المنجم الفلكى و عبد العزيز بن نباتة السعدى كان شاعراً مجيداً و له فى سيف الدولة غرر القصائد (٤٠٥) و من شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى (٣٢٧) و ممن اجتمع بسيف الدولة و جالسهم مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفى فيها المعلم الثانى حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفارابى صاحب التآليف الممتعة فى الحكمة (٣٣٩).

و أهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى التنوخى حكيم العرب و أديبهم، و قد كانت المعرة فى أيامه كعبة القصاد، من طلاب الآداب، جذبهم إليها أبو العلاء، فجعل بلده دار حكمة و أدب، خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٠

كما جعل سيف الدولة فى القرن الذى قبله مدينة حلب مجمع الأدباء و الشعراء بإحسانه و مشاركته. أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعرى إلى الآداب العربية أى إحسان، و هو من بيت أدب و فضيلة، كان أبوه عبد الله بن سليمان لغويًا شاعراً، و أخوه الأكبر محمد بن عبد الله و أخوه الثانى عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين، و كان الشعر و الأدب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل فى بيتهم القضاء مدة مائتى سنة. و من شيوخ أبى العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوى و محمد بن عبد الله بن سعد النحوى الحلبي، و من تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور، و أبو يعلى عبد الباقي ابن أبى الحصين، و أبو محمد عبد الله الخفاجى، و رشأ بن نظيف بن ما شاء الله المقرئ، و هذا كان أول من أنشأ فى دمشق داراً للقرآن فى حدود سنة ٤٤٤ و الخطيب التبريزى و الحسن بن على بن همام و الأمير أبو الفتح بن أبى حصينة و عشرات غيرهم من أهل المعرة و كفرطاب و حلب و دمشق و

حمص و حماة و طرابلس و الرقة و هكار و المصيصة و بغداد و تبريز و الأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته، و كان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم. و ممن صحب أبا العلاء المعري و أخذ عنه كثيرا على بن القاضي التنوخي كان من أهل بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء. و مما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر و تغالى الناس في الشعر و الأدب ما قيل من أن سبعين شاعرا رثوا المعري على قبره يوم مات، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذاك العهد.

و قام في هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي مقرئ أهل الشام (٣٣٨) و من المحدثين عمر بن علي العتكي الأنطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول و عبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦) و محمد ابن عبيد الله يعرف بابن أبي الفضل أبو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩) و أبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيل التميمي محدث دمشق كان يسكن في ربض باب الفراديس في طرف العقبية (٣٢٨) قال القاسمي و إليه تنسب مقبرة الدحداح، و عمر بن حسن الخرقى الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة و أحمد بن شرام الغساني أحد النحاة المشهورين بالشام
خطط الشام، ج ٤، ص: ٣١

(٣٨٧) و محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع و أبو مسهر البيروتي المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١) و أبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب (٣٥٩) و المنجم الصابي البعلبكي و أبو القاسم علي بن أحمد الأنطاكي كان رياضيا مهندسا و له تصانيف جلية و كان مشاركا في علوم الأوائل (٣٧٦) و إبراهيم الأزدي العجلي الأنطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨) و محمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب و غيره توفي في يافا (٣٢٧) و محمد التميمي المقدسي و الحافظ أحمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل و صنف و ذاكر و حدث (٣٢٠) و أبو الحسين بن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحواي و عيسى الرقي المنجم الطبيب و كلاهما من أطباء سيف الدولة. و كان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية و يأخذ أربعة أرزاق رزقا بسبب الطب و رزقا بسبب النقل و رزقين بسبب علمين آخرين. و عبد الله بن عطية المقرئ الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن و اللغة (٣٨٣) و عبد الرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب و بها اجتمع بأبي الطيب المتنبى في خدمة سيف الدولة (٣٧٤) و قام في حلب أربعة من الشعراء المعدودين و هم أبو الحسن المستهام الحلبي و أبو محمد الماهر الحلبي و ابن الفتح الموازني الحلبي و أبو الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي. و من الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعي و اسمه محمد بن أحمد و أبو مسكين البردعي شاعر محدث ينتقل في البلدان و كان مجودا. و الخليل الرقي و اسمه محمد بن أبي الغمر القرشي. و من المهندسين الرياضيين المجتبي الأنطاكي (٣٧٦) و ديونيسيوس بطريكك اليعاقبة له تاريخ. و قيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ.

الأدب في القرن الخامس:

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عنوا بالفلك و العلم الطبيعي و الرياضي و الطب، كما امتاز بأن نبغ فيه في الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد و ابن سينا و البيروني و الغزالي و الرازي
خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٢

ممن هم فخر العرب على تعاقب الحقب. و قد انتقلت من كتبهم و أفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام. و يصح أن يقال إن العلم اقترب من العلوم المادية في هذا الدور، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة و الشعر و نقل الأحاديث و العناية بالدين و تم تدوين أقوال أرباب المذاهب و الشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا. و ممن نشأ في هذه الديار أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب و التقسيمات و الهندسة و علم الهيئة و نقش الرخام و ضرب الخيط و الطب و له عدة تأليف (٥٠٠) و محمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب و النجوم و الهندسة و الهيئة و علم المساحة و الميقات و الفلك (٥٠٠) و رضوان الخراساني

الرياضي و محمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتابا في ركايه الزوال بدمشق و معرفه طلوع الفجر بالمنازل منازل القمر (٤٠٩) و جورجس بن يوحنا البيرودى العالم بالطب و له عدة رسائل و مقالات. و من المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخا للحوادث بعد سنه أربعين و أربعمائنه إلى حين وفاته و قد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق. و مبارك ابن شراره أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهوره بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء من هذا النوع رجعوا إليها و له تاريخ حلب توفي في حدود سنه (٤٩٠) في صور. و من الحفاظ محمد بن علي الصوري الحفاظ قالوا: كان يذاكر بمائتي ألف حديث. قال غيث: سمعت جماعة يقولون ما رأينا أحفظ منه (٤٤١) و الحفاظ محمد بن جميع الغساني الصيداني و يقال له الصيداوى (٤٠٢) و عبد الواحد الشيرازي المقدسي الأنصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق و له تصانيف (٤٨٦) و سلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفاظ ألف تأليف (٤٨٠) و الحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعه مشهور بنثره (٤٨٢).

و من الكتاب و الخطباء صاعد بن شمامه المسيحي الحلبي الكاتب و أبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان بحلب، و تادرس بن الحسن النصراني كان وزير صالح بن مرداس و عبد الله بن خطط الشام، ج٤، ص: ٣٣

أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان. و عبد العزيز بن أحمد الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦) نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (٤٩٠) علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) و هو الذي طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم و طلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح و قالوا: لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم: أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام. و من مشاهيره الحسين بن علي بن شواش الكناني المقرئ (٤٩٧) و الحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦) و الخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠) و أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم (٤٥٦) و من الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨) و أبو الفتيان بن حيوس الحلبي الشاعر. و محمد بن سنان الحلبي الشاعر و أبو مشكور الحلبي الشاعر أحمد بن فضالة الدمشقي شاعر. و علي بن منصور الحلبي الملقب دوخله يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب لأبي العلاء المعري رسالته المشهوره فأجابه عنها برسالة الغفران و كلا الرسالتين مطبوع.

و مما يذكر في هذا القرن أن القاضي جلال الملك بن عمار جدد في طرابلس دار العلم و دار الحكمة و ذلك في سنه اثنتين و سبعين و أربعمائنه لتكون مركزا من مراكز التشيع، فنشرت العلوم و الآداب و أصبحت طرابلس مباءة علم و درس و مباراة في التعلم و جهز هذه الجامعة الدينية بمئة ألف مجلد و ربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم.

العلم و الأدب في القرن السادس:

دخل القرن السادس و على كثرة ما كان فيه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم في فنون مختلفة، و كانت بالشعر أقل من عصر سيف الدولة و عصر أبي العلاء المعري، و إن كان نور الدين و صلاح الدين و أسرتهما ممن يجيزون (٤-٣) خطط الشام، ج٤، ص: ٣٤

عليه و يعجبون و يترنمون بسماعه، و كان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون، و مما عنى به نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يجلب العلماء من القاصية و يسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري و شرف الدين بن أبي عصرون، يبني لهم المدارس و يغدق عليهم و على مريديهم أنواع الإحسان و يدرّ عليهم الرواتب. و قد أحصى فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا

ستمائة فقيه، كان يعطيهم من صدقاته. و من كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين: و مما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعا و راتبا يتجاوز مائتي ألف دينار و ربما كانت ثلاثمائة ألف دينار.

و أزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس و منها نشأ أبو الفرج ابن العبري صاحب التاريخ المطبوع. و تعلم كثير من المحاربين و القواد و الأمراء من الصليبيين اللغة العربية في الشام. في تاريخ اللغة الفرنسية و آدابها: أما بشأن اللغة (أى في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة، و هو أن لغة الأكثر تمدنا أثر أهلها في غيرهم. و كان أكثر الأمم تمدنا بلا مرء الشرقيون و لا سيما العرب و اليونان. و قد تعلم قليل جدا من العرب و الترك و الفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض التراجم الرسميين.

و على العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم إلى فلسطين.

إلى أن قال: و لا ريب أن مجاورة التمدن الإسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي و الفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل.

و معلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة و الرياضيات و الفلك و الملاحة و تركيب النيران الصناعية و الطب و الكيمياء حتى فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام و شروح أرسطو حتى حمام الزاجل و الشعار **Armoiries** و أدوات الموسيقى و الأزياء و الثياب و الزهور و البقول.

و بعد فإذ حدث أحيانا أن الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى إلا بأسماء المدينة الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان و ثياب دمشق فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف و هي كثيرة و يتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة اه.

و نبغ في هذا القرن أبو المجد محمد بن أبي الحكم، و كان طبيبا مهندسا

خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٥

فلكيا (٥٧٠) و أبو زكريا يحيى البياسى من أطباء صلاح الدين و عمل لابن النقاش و هو على بن عيسى بن هبة الله أستاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة و كان يعرف النجارة و ابن النقاش هذا كان أوجد زمانه في صناعة الطب و له مجلس عام للمشتغلين عليه و كان يعالج أيضا كتابة الإنشاء (٥٧٤) و أبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربي و هو عالم بالحكمة و الطب و الأدب و الهندسة (٥٤٩). و عمر بن على بن البذوخ الدمشقى عالم بالطب شاعر له تأليف (٥٧٦) و ابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠) و موفق الدين بن المطران عالم بالطب و الفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧) و قد نعى على أهل زمانه فتورهم و زهدهم في العلوم و قلة مضائهم و رغبتهم في الكتب و الآثار و تطير بتفاهم الخطب في هذا الشأن.

و أبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقى و هو مهندس طبيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النورى الكبير اشتغل بالأدب و علم النجوم و الحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) و هو الذى أصلح الساعات التى لجامع دمشق. و على ابن عبد الباقي بن أبى جرادة العقيلي الأنطاكي الحلبي عالم بالأدب و اللغة و الحساب و النجوم و الفلسفة مات سنة نيف و أربعين و خمسمائة. زين الدين على بن غانم الأنصارى الدمشقى المعروف بابن منجه الحنبلى كان من أعيان أهل العلم و له رأى صائب و كان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص. و محمد بن طاهر المقدسى ذو الرحلة الواسعة و التصانيف و التعاليق (٥٠٧) و الحافظ أبو القاسم على بن عساكر محدث الشام و مؤرخها و من أعيان فقهاءها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١) و كتابه من أعظم المفاخر فى التاريخ معدن أدب و ركاز علم.

و حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي الدمشقى العميد بن القلانسي الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع. تولى رئاسة دمشق و جمع بين كتابة الإنشاء و كتابة الحساب توفى فى عشر التسعين و أربعمائه، و توفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقى و له تصانيف (٥١٤) و أبو البيان محمد بن محفوظ

خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٦

القرشي له عدة تصانيف (٥٠١). و مخلص الدين أبو البركات عبد القاهر ابن أبي جرادة الحلبي كان أمينا على خزائن نور الدين و كان كاتباً بليغاً و شاعراً مجيداً مستحسن الفنون من التذهيب البديع و حسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة. و عبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل و التصانيف الجيدة و محيي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨) و عماد الدين الأصفهاني العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف و منها الفتح القدسي المطبوع (٥٩٧) و محمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (٥٧٢) و عبد الله بن أبي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥).

و علي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨) و سليم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير و الحديث و الفقه و العربية نشر العلم في صور (٥٤٧) و الحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء و الحفظ و حسن التصنيف و له تصانيف كثيرة (٥٦٧) و بهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيره صلاح الدين نشأ في حلب و عظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره و ارتفاع منزلته و مجد الدين طاهر ابن نصر الله بن جهيل الحلبي والد بني جهيل الفقهاء الدمشقيين كان إماماً في الفقه و الحساب و الفرائض، و محمد بن خضر المعري شاعر. و تقي الدين عبد الغني الجماعلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠) و الحسين الأسدي مسند دمشق (٥٥١) و قطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨) و الحسن بن هبة الله بن صصري التغلبي المحدث (٥٨٦) و تاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤) و تقي بنت غيث الأرمنازي الصوري الشاعرة الأديبة و لها شعر سائر (٥٧٩) و علي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤) و أبو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨). و موسى البلاغاشاني الفقيه (٥٠٦) و علي ابن إبراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨) و هبة الله بن أحمد الأکفاني الأمين المحدث (٥٢٤) و علي بن مسلم السلمى الدمشقي الفقيه (٥٣٢) و نصر الله بن محمد المصيبي الدمشقي العالم (٥٤٢).

و من الشعراء و الأدباء أحمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب

خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٧

(٥١٧) و أحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨) و طراد بن علي المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤) و أبو الوحش الشاعر و عبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه. و عرقلة الدمشقي النديم الخليل الشاعر و محمد بن حرب النحوي الأديب (٥٨٠) و الحسين ابن رواحة الأنصاري الحموي الفقيه الأديب الشاعر (٥٨٥) و مسلم بن خضر ابن قسيم الحموي الشاعر، و الحسن بن أبي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاء له مصنفات في الفقه و الأصولين و النحو و له ديوان شعر (٥٦٨) و حسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧) و علوي بن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (٥٩٦) و أسامة بن منقذ صاحب كتابي الاعتبار و لباب الآداب و كلاهما مطبوع شاعر كاتب. و زرعة ابن موسى أبو العلاء الطبراني النصراني كاتب الأمراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر.

و قد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي و هو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة، و هي صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الأمدى الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجزؤ أن يقرئ أحدا شيئاً من العلوم الحكيمية، و بعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار و لا تقرأ إلا أشياء قليلة منها و قل النابغون و المشتغلون بها، و لم نقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام، و لم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابوري و الشهاب السهروردي و سيف الدين الأمدى، و لقد أبان رنان كيف أن الفكر الديني لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فخلق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدينة العربية بتأثيرات الفارسية و اليونانية و النسطورية و اليهودية ردحا من الدهر، وارثة المدينة اليونانية. قال: و أوروباً مدينة لمدينة العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى.

العلم والأدب في القرن السابع:

لما خرب التتر بغداد سنة (٦٥٦) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى

خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٨

الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق والقاهرة. وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الإخصائون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبع الشام طبقة عالية عدت تأليفهم من الأمهات في خزائن كتب الأمة العربية، ومرجعاً ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف. فمن المؤرخين عمر بن أبي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (٦٦٠) وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاء نجم الدين أبي الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضي قضاء جمال الدين أبي غانم هبة الله بن قاضي القضاء مجد الدين أبي عبد الله محمد ابن قاضي القضاء جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاء نجم الدين أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة. بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة و علم. ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر وله تأليف أكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ومن كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء. وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء والمشارك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦) وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير المظفرى في الملة الإسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحيم البارزى قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها. وفي حماة أيضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين بن واصل (٦٩٧) كان إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الانبرورية في المنطق صنعها للانبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية ونبولية وأنكبردة لما توجه إليه رسولا في أيام الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩). ونبغ من المهندسين إبراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل، وهو الذي هندس القصر الأبلق

خطط الشام، ج ٤، ص: ٣٩

الذي قامت التكية السلمانية في القرن العاشر على أنقاضه. ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر بن أيوب خلف عدة مصنفات منها المضممار في التاريخ وطبقات الشعراء وكان في خدمته قريب من مئتي متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك. وجاء الناصر داود ابن الملك المعظم وكان شاعراً أديباً وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم. وجاء الأجد بهرام شاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان شاعراً رقيقاً وله ديوان (٦٢٨) ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المؤرخ المدقق وصاحب وفيات الأعيان المنقح المطبوع (٦٨١) وأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (٦٦٨) وعبد الرحمن أبو شامة له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والأول مطبوع. ويوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزى صاحب مرآة الزمان في التاريخ، المطبوع منه الجزء الثامن وهو الأخير، أقام زمناً في دمشق (٦٥٤) وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقه في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها إلا المدبجات. ومن النوابع في دمشق عز الدين الإربلي الفيلسوف الضرير كان بارعاً في الفنون الأدبية رأساً في علوم الأوائل يقرئ المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠) وعاش في دمشق أيضاً حكيمان عظيمان من حكماء الإسلام وماتا فيها هما سيف الدين علي الثعلبي الآمدى سيد

العلماء و أركى أهل زمانه و أكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية و المذاهب الشرعية و المبادئ المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستترا ممن كانوا تحاملوا عليه و نسبوه إلى الانحلال. و قد صنف في أصول الفقه و أصول الدين و المعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام و مات في دمشق سنة (٦٣١) و الثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف و له عدة مصنفات في الأخلاق و كلام القوم منها الفتوحات المكية و فصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨) و نبغ في دمشق شمس الدين الخويبي العالم في الحكمة و الشرع و الطب و غيره و له تأليف (٦٣٧) و رفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم الحكمية و أصول الدين و الفقه و العلم الطبيعي و الطب و له تأليف

خطط الشام، ج٤، ص: ٤٠

(٦٤١) و إسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن المعلم كان شيخ الحنفية في وقته و شرف الدين بن الرحبي الطيب الشاعر الأديب له تأليف (٦٤٧) و أخوه جمال الدين بن الرحبي الطيب العالم و رشيد الدين الصوري طيب متفنن في علوم كثيرة و له عدة تصانيف في الطب. و مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري طيب متميز في العلوم الحكمية و أديب له من الكتب شرح التوراة (٦٢٤) و صاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣) و مهذب الدين عبد الرحيم بن علي و يعرف بالدخوار عالم بالطب و هو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، و نجم الدين يحيى بن البردي عالم في الحكمة و الهندسة و العدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق و صاحب دار الهندسة أيضا ألف و له ثلاث عشرة سنة في الرد علي عبد اللطيف البغدادي و له عدة مصنفات (٦٢١) و علاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي صاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يملئها من حفظه و كان مشارا إليه في الفقه و الأصول و الحديث و العربية و المنطق.

و شمس الدين بن المؤيد العرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق و دعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد و كان العرضي و ابنه محمد من علماء الفلك و تولى مؤيد الدين الأرصاد في مرصد مراغة و قد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في ألمانيا. و عثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣) و علي بن محمود الشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك و حل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠) و بدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب و علوم الأدب له تصانيف طيبة (٦٥٠) و نجم الدين ابن المنفاخ و يعرف بابن العالمة و كانت أمه عالمة بدمشق و تعرف بينت دهن اللوز طيب عالم بالحكمة و المنطق و الأدب له مؤلفات (٦٥٢) عز الدين ابن السويدي الدمشقي عالم بالطب و الأدب شاعر مجيد. يعقوب السامري عالم بالطب و علوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١) و علي بن خليفه بن أبي أصيبعة عالم بالطب و العربية و له كتب في الطب و غيره (٦١٦) و عبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزا في الحكمة و الطبيعي و الطب و أصول الدين و الفقه و الخسرو شاهی من أصحاب التصانيف الجليلة في المنطق و الحكمة و من تلاميذ فخر الدين الرازي و عفيف الدين التلمساني الدمشقي

خطط الشام، ج٤، ص: ٤١

أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠) و عبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه وقته (٦٢٠) و أحمد ابن هبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩) و كريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسنده الشام أم الفضل القرشية الزبيرية و تعرف ببنت الحبقبق (٦٤١) و فاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدثه (٦٧٨) و فاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣) و ست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية المحدثه. و ست الكتبة بنت الطراح المحدثه و زينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية محدثة. و عائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدثه (٦٩٧).

و علي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق و خصوصا في العربية. و عبد الوهاب ابن سحنون طيب و له شعر و أدب و فقه (٦٩٤) و زيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفنن عرف بعلو السماع (٦١٣) و علم الدين السخاوي المقرئ النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧) و إبراهيم بن أحمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦) و القاسم بن أحمد المرسي اللورقي شيخ القراء و

المتكلمين (٦٦١) و عبد الكريم بن الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢) و عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الإسلام له تصانيف (٦٦٠) و الحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢) و رشيد الدين الربعي مفسر لغوى كاتب (٦٨٧) و محمد بن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف و الأدب و الفرائض (٦٩٣) و جاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجبلي مسند دمشق (٦١٨) و الحافظ تقى الدين إسماعيل بن عبد الله الأنطاطى المحدث (٦١٩) و مكرم بن محمد بن أبي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥) و إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦) و عبد العظيم و هو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥) و القاسم بن أبي بكر الإربلى المقرئ المحدث (٦٨٠) و محمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠).

و جاء من العلماء فى الشام عبد الله الجماعىلى الإمام فى الخلاف و الفرائض و الأصول و الفقه و النحو و الحساب و النجوم و المنازل (٦٢٠) و يعقوب بن صقلان المقدسى قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكى و عرف بها (٦٢٦) و نجم الدين النخجوانى كانت له عارضة قوية فى علوم الأوائل و نفيس الدولة بن طليب

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٢

الدمشقي و ولده صفى الدين النصرانى الملكى و محمد بن القيسرانى الدمشقي عالم بالأدب و الهيئة (٦٣٠) و أبو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات و علم حل الزيج و تسيير الموالي (٦٠٤) و أحمد بن هبة الله المعروف بابن الجبرانى الحلبي النحوي اللغوي و عبد الله اليونينى المحدث. و نجم الدين القمراوى عالم بالحكمة و الشريعة. و شرف الدين المتانى عالم بالحكمة و الشريعة و هما اللذان ذهبا إلى الموصل مختفين ليلقيا الفيلسوف الأكبر كمال الدين بن يونس و حلا لغزه فى الحكمة، و كان عجز العلماء عن حله، فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال:

من أى موضع منه قالوا من حوران فقال: لا أشك أن أحد كما النجم القمراوى و الآخر الشرف المتانى. و فى هذا دليل على شهرتهما فى العلوم الحكيمية و الدينية.

و قمرا مزرعة يقال لها قميرة اليوم و متان قرية صغيرة و هما من قرى صرخد فى جبل حوران.

و كانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التى خربت فى القرن الرابع و كفرطاب التى خربت فى أواخر الخامس. قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم و كان بها من يقرأ الأدب و يشتغل به. و هاتان المدينتان أصبحتا الآن قريتين حقيرتين، و كان فى قرى غوطه دمشق علماء و فقهاء و يختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تأليف الحافظ ابن عساكر كتب فى روايات أهل داريا و كفرسوسة و صنعاء دمشق و الربوة و النيرب و من حدث بهما و أهل الحميريين و قبييه و فذايا و بيت أرانس و بيت قوفا و البلاط و بيت سوا و دومة و مسرابا و حرستا و كفرطنا و دقانية و حجيرة و عين ثرماء و جديا و طرميس و بيت لهيا و برزة. و من هذه القرى ما دثر الآن، و ذكر المحدثين من أهل منين و أهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث فى القرن السادس.

و محمد بن مياس العزمانى الشاعر الأديب و موسى القمراوى الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥) و مسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر و التاج الصرخدى محمود بن عدى التميمى الشاعر المحسن (٦٧٤) و الرشيد البصروى سعيد بن

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٣

على أحد أئمة المذهب الحنفى النحوي الشاعر (٦٨٤) و على بن بلبان الكركى (٦٨٤) و الفخر البعلبكي عبد الرحمن الحنبلى الفقيه المحدث (٦٨٧) و عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة قال الصفدى: لا أعرف فى شعراء الشام بعد الخمسمائة و قبلها من نظم أحسن منه و لا أجزل و لا أفصح و برع فى الفقه و حدث كثيرا (٦٦٢) و نبع فى حماة ابن بركات له تأليف فى التاريخ. و أبو بكر بن الخيثمى الحموى كان إماما فى الأدب و محمد بن المظفر بن أبي بكران الحموى عالم الأئمة الفقيه المحدث. و عبد العزيز بن حجة الحموى الشاعر الأديب و أبو المحاسن محمد بن نصر بن عين الدمشقي الشاعر (٦٣٢) و محمد بن أبي الفضل الدولعى الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥) و محمد شمس الدين الأنصارى الكاتب بدمشق (٦٥٠) و محمد بن العفيف التلمسانى الشاعر (٦٨٨) و

محمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (٦٧٧) و محمد بن عبد المنعم التتوخي شاعر (٦٦٩) و ابن الساعاتي الشاعر الدمشقي صاحب الديوان المطبوع (٦٠٤) و فتیان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥) و تقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥) و علي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦) و أبو المحاسن الشواء الشاعر الحلبي (٦٣٥) و محمد بن أبي اليسر التتوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩) و عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري البدری الدمشقي إمام فقيه ناظم نائر له تصانيف جيدة (٦٩٠) و محمد ابن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف و الأدب و الفرائض (٦٩٣) و عبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠) و عبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤) و محمد بن عبد الواحد السعدی المحدث الأصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣) و الحافظ خالد بن يوسف النابلسي (٦٦٣) و أبو السخاء فتیان الحلبي النحوي. و يحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ و طبقات العلماء (٦٣٠) و يحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث.

و أحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث و يعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري المطبوع و شرح تصريف الملوكي لابن جنى المطبوع منه المتن (٦٤٣). و كانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة (٦٢٦) للاشتغال بالعلم أم البلاد مشحونة بالعلماء و المشتغلين. و مما انفرد خطط الشام، ج٤، ص: ٤٤

به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب و مدرسة للهندسة في دمشق فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية و الدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذي بنى في القرن الرابع و لا بغداد بمدرستها النظامية.

الإمام ابن تيمية و الإصلاح الديني و الأدب و العلم في القرن الثامن:

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه و في قرون كثيرة من قبله و من بعده، أراد إرجاع الدين إلى نضرتة الأولى، و تعريته من القشور التي ألصقتها به الجهلة المتتمسون، فأذوه و عذبوه، و سجنوه و نفوه، و نعى به شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية نابغة النوايغ في الشرع و صاحب التأليف العديدة الممتعة المطبوعة، و إمام المعقول و المنقول، و سيد العلماء، و رأس الفقهاء (٧٢٨) و إن دمشق لتفاخر و حق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية، و دفنت أعظمه في تربتها، و لكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد، و لا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فأكثروا من أذاه، طمعا في نيل الحظوة من العامة و الملوك و استعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر و الشام فاعتقلوه زمانا في القاهرة و الإسكندرية و دمشق، و الأمة و عقلاء علمائها تقدسه حتى لقي ربه. و قد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام «لوثيروس» صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته، و مصلح الإسلام أخفق و يالأسف.

قال السيوطي: إن دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك و أولاده و ما زال بها فقهاء و محدثون و مقرئون في زمن التابعين و تابعيهم ثم إلى أيام أبي مسهر و مروان بن محمد الطاطري و هشام و دحيم و سليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم و عصرهم. و هي دار قرآن و حديث و فقه، و تناقص بها العلم في المائة الرابعة و الخامسة و كثر بعد ذلك و لا سيما في دولة نور الدين خطط الشام، ج٤، ص: ٤٥

و أيام محدثها ابن عساكر و المقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية و المزى و أصحابهما.

و نبغ أفراد في هذا العصر و لا سيما في الفلك و التاريخ و الجغرافيا و الحديث، و منهم بدمشق البرزالي محدث الشام و صاحب التاريخ و المعجم الكبير (٧٤٠) و الحافظ جمال الدين المزى صاحب التصانيف (٧٤٢) و الحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة و الأدب و التاريخ و له عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ و الرجال منها تاريخ الإسلام و المشتبه و ميزان الاعتدال و طبقات الحفاظ و هذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة (٧٤٨) و الحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التأليف و منها

تاريخه المطول المطبوع (٧٧٤) و محمد بن أبى بكر الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقى الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٥١) طبعت بعض كتبه فى السنة و من أهمها إعلام الموقعين. و أحمد بن فضل الله العمرى الدمشقى إمام أهل الأدب و التاريخ و الجغرافية و الأسطرلاب و حل التقاويم و صور الكواكب و له عدة مصنفات منها مسالك الأبصار و التعريف بالمصطلح الشريف و هما مطبوعان. و مسالك الأبصار معلمة أديبة تاريخية كبرى (٧٤٩) و صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافى بالوفيات (أجزاء) و نكت العميان و شرح قصيدة ابن زيدون و الأرب من غيث الأدب و تشنيف السمع و الغيث المنسجم و نسب الجراكسة و لوعه الشاكي و جنان الجناس إلى غير ذلك (٧٦٤) و الملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء و كان عالما فقيها مؤرخا جغرافيا فلكيا منها تاريخه و كتابه تقويم البلدان و هما مطبوعان (٧٣٢) و كان يفضل على العلماء كثيرا أوى إليه أثير الدين الأبهري فرتب له ما يكفيه و رتب لجمال الدين ابن نباتة فى دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به. و بعمل الملك المؤيد أبى الفداء و عمل أسرته من قبل و من بعد أصبحت حماة مدينة علم و أدب و خرجت رجالا يفتخر بهم فى تاريخ العلم و كانت أشبه بالقرى فى القرون الأولى للفتح الإسلامى. و مثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم و الأدب فى تلك العصور، و كثيرا ما كان ملوكنا هؤلاء يحتالون

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٦

لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار و خلعة فحفظه لهذا السبب جماعة. و من قرأ المفصل تعلم النحو و الأدب معا. و فى أواخر دولة المعظم عيسى هذا و فى دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل و كثر ذلك فأحمد فى الدولة الأشرفية. و لعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذى أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام فى القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجامدون من الأسباب للنيل من المجددين.

و جاء فى هذا العصر أبو بكر محمد الأنصارى المعروف بشيخ الربوة الدمشقى كان يعرف الرمل و الأوفاق و نحو ذلك من العلوم و هو صاحب نخبة الدهر فى القوزموجرافيا و الجغرافيا المطبوع و السياسة فى علم الفراسة (٧٢٧) و أبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد له تأليف كثيرة. و محمد الأكمل بن مفلح الدمشقى الفقيه المؤرخ (٧٦٤) و محمد بن شاکر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع و عيون التواريخ (٧٦٤). و عمر بن الوردى المعروف بابن أبى الفوارس صاحب التاريخ و ديوان الشعر و المقامات المطبوعة كان فقيها أديبا (٧٤٩). و على بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكى الدمشقى (٧٧٧) و يعرف أيضا بالمطعم الفلكى، كان أوحد زمانه يعرف تطعيم العاج و عالما بالهيئة و الحساب و الهندسة و كانت له ثروة و مباشرات و دار من أحسن الدور وضعها و أغربها، و له الزيغ المشهور و الأوضاع الغريبة التى منها البسيط الموضوع فى منارة العروس بجامع دمشق يقال: إن دمشق زينت عند وضعه، و فى تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب و البسيط و كان له نظر على التوقيت بالجامع و ألف الزيغ و الكرة و له الرسالة عليها. و يعرف علم الخيط فى المزولة و تركيبها.

و من المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس و المعلم عمر بن نجيم و المعلم محمد الصفدى و المعلم على بن محمد التقى المهندس كان معاصرا لابن فضل الله و حدثه بأحاديث عن الجامع الأموى و شهاب الدين أحمد الحموى النقاش كتب الختمة

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٧

الشريفة من أولها إلى آخرها على حوصه مفصلة الأجزاء و السور. و من المحدثين الحافظ على بن محمد اليونينى البعلبى (٧٠١) قال الزبيدى و له و لأبيه ترجمة حسنة و إخوته البدر الحسن و القطب موسى و أمه الرحيم حدثوا و من ولده الصدر عبد القادر و عم أبيه الزين عبد الغنى و هم بيت علم و حديث. و عمر بن إبراهيم العجمى الحلبي فقيه فرضى حاسب له مصنفات (٧٧٧) و حسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تأليف منها درة الأسلاك فى دولة الأتراك و أكثر كتبه مسجعة (٧٧٩) و على بن مظفر الوداعى المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية فى خمسين مجلدا وضعها فى المدرسة السميساطية و هى بخطه فى فنون مختلفة (٧١٦) و

قاضي القضاة بدمشق عبد الله المقدسي (٧٣١) و الجلال القزويني إمام البيان صاحب المصنفات و المثل السائر في الخطابة (٧٣٩) و على ابن سليم بن ربيعة الأذرعى فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر ألف بيت و شعره كثير (٧٣٢) و عبد الله بن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣) و أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥) و محمد ابن أبي بكر الأرموي القرافي صاحب التأليف (٧١٤) و صلاح الدين خليل ابن كيكلدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١) و شيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبي الحزم سبط السلعوس (٧٣١) و أحمد بن البرهان له مصنفات (٧٣٨). و محمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤) و شيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢) و تصانيفه كثيرة. و محمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون و له عدة مصنفات (٧٣٣) و محمد بن علي المؤذن المعروف بابن أبي العشائر (٧٨٩) له عدة مصنفات منها تاريخ قنسرين. و عبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الأبهري و كان له يد طولى في الرياضى و الوفق و العمليات و مشاركة في فنون (٧٣٣) و هبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨) و عثمان بن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠) و إسماعيل بن محمد بن جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقرآت العربية درس في عدة مدارس بحماة و شهاب الدين السبكي الفقيه له تأليف (٧٧١) و الكمال ابن الزملكاني الفقيه الأصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧) و الأمير

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٨

العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (٧٣٠) و سليمان ابن أبي العز الأذرعى الفقيه (٧٠٧) و القاسم بن محمد الإشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩) و محمد بن سليمان الصرخدي المصنف الجامع بين أشات العلوم (٧٩٢) و قاضي القضاة يوسف المحجى (٧٣٨) و ابن أخيه محمود بن محمد ابن جبله الخطيب و محمد بن إسماعيل الكفربطناوى من فقهاء المدارس، و قاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني و محمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب و محمد بن عيسى البعلى كان صاحب فنون (٧٣٠) و أسمى بنت محمد بن سالم بن صصرى التغلبية المسندة المحدثه (٧٣٣) و زينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء. و ست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدثه كانت حية سنة ٧٦٦ و من الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (٧٣٢) و أحمد بن الصلاح البعلبكي الطبيب في بعلبك صاحب التأليف.

و من الشعراء و الكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧) و الحسن بن علي المحدث الكاتب الموجود (٧٣٢) و محمد بن الحسن الصائغ العروضى الأديب الشاعر له تأليف (٧٢٢) و أحمد أبو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١). و من كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل (٧٥٥) و أحمد الأنصارى. إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم و نشره و أظهروه.

و يلاحظ أن أعلاما من العلماء اشتهروا في هذا القرن و الذى قبله و بعده، و كثير منهم نشأ من قرى الجنوب و الشمال، و القرى ما زالت مادة المدن في العلم و الأدب كما هي في الزرع و الضرع، و من مواطنهم اليوم من لا يعرف شيئا مما يطلق عليه اسم العلم، و بعضها في جاهلية جهلاء، مثل زملكا و حرستا و كفربطنا و المزة و يلدا و داريا و إزرع و محجة و نوى و الجيدور و يبرود و البقاع و عجلون و صرخد و متان و قمرا و حسابان و الكرك و جبرين و يونين و أنطاكية و صغد و بعلبك و المعرة و كفربطاب و شيزر. و توشك بعض تلك القرى أن تدرثر، و أعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٤٩

العلوم في القرن التاسع:

بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملا علميا عظيما، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم، و كثر فيه الجماعون و المختصرون و الشارحون من المؤلفين، و السبب أن حكومة المماليك البرجية و البحرية كانت تشتد في إرهاب

المتفلسفة و المتفقهة على غير الأصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى أربعة أئمة: الحنفى و الشافعى و المالكى و الحنبلى. فكان المخالف قليلا يعزر على مذهب المالكية، و القتل أيسر مراتب التعزير عندهم، ثم زادت الحال اشتدادا فى أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر، و قتله لبعض العلماء، و حملة إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة.

و مع هذا نشأ فى هذا القرن أفراد قلائل فى العلم ذكر التاريخ تراجمهم، و منهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضى شهبه صاحب الطبقات و غيره (٨٥١) و أحمد بن علاء الدين حجى الحسبانى الدمشقى الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس فى أخبار المدارس و لعله الأصل لكتاب النعيمى فى المدارس و له ذيل على تاريخ ابن كثير و غيره (٨١٥) و أحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات فى الأدب و التاريخ شاعر كاتب مجيد فى اللغات العربية و الفارسية و التركية و من تأليفه عجائب المقدور فى أخبار تيمور و هو مطبوع (٨٥٤) و صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت و أمراء الغرب المطبوع كان فى أواسط القرن التاسع و نقل عن أحمد بن شباط الغربى الأديب المؤرخ أيضا.

و من الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلونى الفقيه كان فى الشاميين نظير البيجورى فى المصرين (٨٢٥) و إبراهيم بن إبراهيم النووى متميز فى الفرائض و الحساب و متعلقتهما له تأليف (٨٥٠) و إبراهيم بن على الحسنى البقاعى له مصنفات فى الفقه و النحو و المنطق و الحكمه و أدب البحث و غيرها.

و إبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣) و عبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة (٨٣٤) و تقى الدين الحصنى عالم له مصنفات فى الفقه و غيره (٨٢٩) و أبو بكر محمد بن مزهر الدمشقى الفقيه انتهت إليه رياسته عصره (٨٣٢) و علاء الدين البهائى الغزولى عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور فى منازل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٠

السرور مطبوع، و إبراهيم البقاعى ترك مائة مؤلف كان إماما بالعربية و الأدب و الدين و التاريخ له نظم الدرر فى تناسب الآى و السور فى التفسير و عدة تواريخ للرجال، و عبد الله التنوخى الأمير اللبناى المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك فى الطب و الفلك طبع بعض رسائله فى الوعظ (٨٨٤)، و محمد بن أحمد الباعونى (٨٧١) له مؤلفات منها منظومات فى التاريخ.

و نشأ فى هذا القرن أحمد الطولونى كبير المهندسين و كان أبوه وجده مهندسين. و خليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقى صنف تاريخا للحوادث و غيره (٨١٥) و محمود العينى (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات فى التاريخ و غيره. و عبد الرحمن ابن العينى عالم دمشق فى هذا القرن.

و أحمد المقدسى المشهور بابن زوجة أبى عذيبه (٨٥٤) صاحب تاريخ دول الأعيان.

و أحمد بن حجر العسقلانى الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة (المطبوع) و إنباء الغمر. و أحمد بن خليل المعروف بابن اللبودى له أدب و شعر و بعض تأليف (٨٩٤) و أحمد بن المحوجب عالم بالدينيات و اللسانيات. و أحمد بن عبد الله العامرى فقيه أصولى له تأليف.

و أحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧) و زين الدين بن رجب الحنبلى له عدة مصنفات و منها طبقات الحنابلة المطبوع. و أبو العباس المالكى الفقيه العالم المفسن له عدة مصنفات. و عبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموى فقيه أديب له مصنفات. و محمد بن خليل القبايى الحلبى (٨٤٩) إمام فى القراءات صنف فيها. و عبد الله ابن قاضى عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٤٥) و قاضى القضاة العونى الناصرى خطيب الخطباء (٨١٥). و صدقة الجيدورى المقرئ (٨٢٥) و نور الدين أبو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تأليف كثيرة.

و محمد الجزرى الدمشقى المقرئ صاحب المصنفات الجليلة منها كتاب الطبقات، و النشر فى القراءات العشر طبع (٨٣٣) و عائشة بنت عبد الهادى محدثة دمشق (٨١٥) و أبو البقاء البدرى له تأليف (٨٨٧) و علاء الدين ابن خطيب الناصرية الحلبى المؤرخ (٨٤٣) و

أبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة و ثمرات الأوراق وغيرهما و هما مطبوعان و كان رئيس أدباء عصره (٨٣٧). و زين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥١

في عدة فنون و له أراجيز في اللغة و الدين و التصوف و الأحكام و الفرائض.

و محمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تأليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره. و أحمد السرميني الحلبي الفلكي (٨٢٤) كان إماما في الهيئة و حل الزيج و عمل التقاويم. و عبد الملك البابي الحلبي (٨٣٩) علم بالقرآت له نزهة الناظرين في الأخلاق. و عز الدين ابن عبد السلام السعدى المقدسى العالم الرحلة صاحب التأليف (٨٥٠). و البدر البشتكي محمد بن إبراهيم الدمشقي (٨٣٠). و علي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام. و ابن حبيب الحلبي (٨٠٨) له عدة مصنفات.

و عبد الله بن جماعة المقدسى صاحب التأليف (٨٦٥). و البرهان الحلبي المحدث (٨٤١) و عبد الله توقشندى المقدسى عالم زمانه في الأرض المقدسة (٨٦٧).

و من علماء السريان نوح البقوفاوى بطريك اليعاقبة في حلب. و قد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥هـ: و قد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فإذا هم ينيفون على مئة و عشرة و في ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالى المربع و تمسكوا بالسريانى المدور.

انحطاط العلم و الأدب في القرن العاشر:

زاد انحطاط العلم في القرن العاشر، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين. و كانت الآداب تسير إذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القديمة، و إذ اختلف لسان الحاكم و المحكوم عليه، و خصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك، مالت النفوس عن العلم، اللهم إلا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته و قليل ما هم. ذكر المقدسى أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يؤلون المدارس في الشام أحدا من أبناء العرب، زاعمين أن العلماء في العرب كثير و أنهم إن ولوا عربيا من غير طريقهم، كثر الطالبون من أبناء العرب و عجزوا عن إرضائهم، و ضاق الأمر على ملازمى الروم. و حصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصروها من قبل ببورصة، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم، بل جامعة ذاك

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٢

العصر، كما قال جودت. و كان العلماء بعد الفتح العثمانى يأتون إلى القسطنطينية زرافات، و لذلك لم يكن حظ للولايات دع البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها و ترقيتها في العلم و الآداب.

و تسلسل العلم الدينى في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن و الذى بعده على صورة غريبة مثل بنى الغزى و حمزة و فرفور و العمادى و النابلسى و مفلح و ممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزى العالم بعلوم اللسان و غيرها و له عدة مصنفات (٩٣٥). و محمد بن بدر الدين الغزى الفقيه المفسر النحوى المحدث المقرئ الأصولى النظار المؤرخ و له مئة و بضعة مصنفات (٩٨٤). و عبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ و الأدب (٩٩٢). و امتاز في الدينيات محمد بن حمزة (٩٣٣) و علي بن إسماعيل بن عماد الدين (٩٧١) و إسماعيل النابلسى (٩٩٣). و إبراهيم بن عمر بن مفلح (٩١٧). و كان فيه محمد بن علي بن طولون النحوى الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه و منها المطبوع (٩٥٣). و عبد القادر النعمى المؤرخ المحدث ألف كتبا كثيرة منها الدارس (٩٢٧). و عبد الباسط العلموى اختصر بعض كتب النعمى و زاد عليها و منها مختصر الدارس (٩٨١). و ابن سكيكر الدمشقى المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الإقامة و الأسفار (٩٨٧). و بهاء الدين محمد بن يوسف الباعونى و مؤلفاته مثل

مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠).

ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التأليف (٩٥٠). و محمد بن مكى عالم بالطب و الهيئة و الهندسة و الفلك (٩٣٨) و عرف بالمهارة في الفقه و غيره. و أبو بكر البلاطنسى (٩٣٦). و أبو بكر محمد القارى (٩٣٥) و أبو الفتح البستري (٩٦٢). و أحمد بن محمد الشويكى له تأليف (٩٦٦) و إسماعيل الكردى البانى عالم بالمعقولات (٩٥٦). و عثمان الآمدى و هو خطيب متفنن (٩٨٥). و محمد بن محمد بن عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦). و أحمد بن أحمد الطيبى الفقيه النحوى له عدة مصنفات (٩٧٩) و أسد الشيرازى عالم في البلاغة و العربية و المنطق و الأصولين و الفقه (٩٩٨). و محمد بن هشام نحوى (٩٠٧)، و محمد بن منيعه (٩٠٤). و محمد الكنجى له يد في النحو و الحساب و الميقات و القرآن (٩٣٢). و محمد الكفرسوسى

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٣

(٩٣٢). و محمد الميدانى عالم بالقرآآت و العربية له عدة مصنفات (٩٢٣).

و إبراهيم بن الهلالى فقيه محدث (٩١٦). و أبو بكر ابن قاضى عجلون إمام مفنن (٩٢٨).

و جاء في القدس عبد الرحمن بن محمد معجبر الدين العليمى صاحب تاريخ القدس و الخليل المطبوع. و برهان الدين المقدسى الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢). و في غزة أبو عبد الله محمد بن قاسم الغزى (٩١٨) له كتب في الفقه و الأصول و غيرها. و إبراهيم بن يوسف الحنبلى المعروف بابن الحنبلى له عدة كتب (٩٥٩). و في دمشق يوسف بن عبد الهادى (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل و الكتب الكثيرة في الفنون المختلفة و هو أشبه بالسيوطى في مصر بكثرة تأليفه و تنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق. و في حلب محمد ابن الحنبلى المؤرخ العالم له عدة تأليف منها تأليف في تاريخ حلب (٩٧١). و عبد البر ابن الشحنة الحلبي الأصولى الفقيه (٩٢١). و عمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات (٩٣٦). و في الرملة شمس الدين الرملى العالم الفقيه (٩٢٣). و نشأ في حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب و الميقات و الهيئة و الوفق و الموسيقى و الطب و هو صاحب شجرة الإفادة بشرقية جامع حلب الأعظم. و في حماة محمود بن أبى بكر المعرى الحموى الحلبي الفقيه. و في دمشق هاشم بن السيد الطيب ناصر الدين السروجى (٩٦٤).

و في حماة محب الدين بن داود الحموى له تأليف. و في دمشق موسى بن يوسف بن أيوب القاضى شرف الدين الدمشقى الشافعى ألف تاريخا في مجلد و تذكرة في مجلدين (١٠٠٠).

و مع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمان شيخه المدرستين العادلية و الزجاجية معا انتهت إليها رياسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (٩٦٦).

و بوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨). و عائشة الباعونية الدمشقية المحدثه المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تأليف و منها البديعية و شعرها لطيف (٩٢٢).

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٤

الأداب في القرن الحادى عشر:

أما القرن الحادى عشر فشيبه بتاليه و سالفه من حيث قلة الإبداع و التجدد و الاكتفاء بالموجود، لكن عدد العالمين و المتأدين كان أكثر على ما يظهر أو أنه دون كله و لم يفقد، فقد نشأ في دمشق أحمد بن محمد الغزى فقيه له بعض التأليف (١٠١٧) و محمد أكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخا ترجم فيه معاصريه و له تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١). و النجم محمد الغزى محدث الشام صاحب التأليف منها في التاريخ و تراجم الرجال (١٠٦١). و أحمد بن سنان القرمانى الأديب المؤرخ صاحب التصانيف

و له تاريخ آثار الدول المطبوع (١٠١٩). و عبد الوهاب الفرورى الفقيه (١٠٧٣).

و أحمد بن أبى الوفاء بن مفلح الحنبلى الفقيه المحدث عارف بالفرائض و الحساب و التاريخ (١٠٣٨). و من الفقهاء محمد الداودى (١٠٠٦). و من علماء العربية محمد الخوخى (١٠٢٢). و فى الفقه محمد الحصكفى صاحب التصانيف فى الفقه و غيره (١٠٨٨). و محمود الباقانى له عدة تصانيف (١٠٠٣). و أبو بكر ابن عبد عرف أبوه بمنلا جامى (١٠٧٧). و أحمد بن محمد الزريابى فقيه المالكية (١٠٥٠). و كمال الدين بن مرعى العيتاوى الفقيه (١٠٨٦). و رمضان العطيفى الفقيه النحوى الراوية (١٠٩٥). و عبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثرى (١٠٩١). و يحيى الشاوى له تأليف. و شمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣). و الشاكر الحموى كان متصوفا ناظما و ناثرا و له ديوان فى ثلاث مجلدات.

و من أدباء هذا القرن و شعرائه أبو بكر بن منصور العمرى (١٠٤٨) و إبراهيم الصالحى الشاعر المعروف بالأكرمى (١٠١٢). و عمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه أبى بكر بن منصور العمرى شاعر مجيد عارف بالطب (١٠٦٥). و إبراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨). و أبو بكر ابن أحمد المعروف بابن الجوهري. و محمد الكريمى (١٠٦٨). و عبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١). و عبد اللطيف البهائى شاعر متفنن (١٠٨٢). و عبد اللطيف بن المنقار شاعر (١٠٥٧). و الحسن البورىنى الشاعر اللغوى له تأليف منها تراجم رجال عصره و شرح ديوان ابن الفارض المطبوع

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٥

(١٠٢٤). و أحمد العناياتى الشاعر (١٠١٤). و أحمد بن الشاهينى الأديب اللغوى (١٠٥٣). و أحمد الصفورى الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣). و أحمد ابن محمد بن المنقار أديب شاعر (١٠٣٢) و إسماعيل النابلسى الفقيه له بعض التأليف (١٠٦٢). و درويش محمد بن أحمد الطالوى الدمشقى الأديب (١٠١٤) و منجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠). و شهاب الدين العمادى شاعر منشئ (١٠٩٨). و عبد الحى العكرى المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن أخبارى أثرى له شذرات الذهب فى التاريخ مطبوع (١٠٨٧). و عبد الرحمن بن النقيب منشئ شاعر (١٠٨١). و إبراهيم العمادى أحد بلغاء الشام المذكورين (١٠٩٨). و أحمد بن المنلا النخجوانى الملقب بالمنطقى شاعر ناثر فقيه ينظم و ينثر فى الألسن الثلاثة العربية و الفارسية و التركية. و ظهر فى دمشق فى العلوم و الفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين على الطرابلسى اشتهر بالرياضيات و القراآت و الفرائض و الفقه و له تأليف (١٠٣٢). و عمر بن محمد القارى عالم مفنن له باع فى الهيئة (١٠٤٦).

و عمر بن يحيى المعروف بالدويك كان عارفا بفنون عديدة منها الرياضيات و الفلك و الميقات و له شعر (١٠٨٣) و محمد بن يونس الطيب الخطيب (١٠٠٨) و المنلا- محمود الكردى عالم فى كثير من الفنون (١٠٤٧). و ابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق و خطيب أمويها عالم فى العلوم الغربية مثل علم الوق و علم الحرف و له يد طولى فى العقليات (١٠٠٧). و عبد القادر ابن عبد الهادى رياضى فقيه أصولى (١١٠٠). و عبد الحى بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩). و إبراهيم بن الأحذب الزيدانى محدث فرضى رحاله أخذ الفرائض و الحساب عن العلامة محمد النجدى و يلحق بابن الهائم فى هذين العلمين (١٠١٠). و نشأ فى هذه المدينة أيوب الخلوتى من المتصوفة له فى التصوف رسائل (١٠٧١). و من الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسى الخطيب ابن الخطيب و أحمد بن محمد البصراوى و يعرف بابن الإمام (١٠٠٣).

و جاء فى المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبي البترونى كان محققا فى المذهب و التفسير و البحث نظارا (١٠٣٩). و أبو الوفاء محمد بن عمر العرضى الحلبي متفرد بالإتقان و الحفظ و الضبط له تاريخ معادن الذهب و له رسائل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٦

و تأليف (١٠٧١). و محمود البيلونى الحلبي كان إذا تكلم فى فن من العلم يقول سامعه لا- يحسن غيره (١٠٠٧). و فتح الله البيلونى الحلبي له عدة مصنفات و حواش و مجاميع و شعر (١٠٤٢). و نور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبيية المطبوعه و غيرها من

الحواشي و الشروح و الرسائل (١٠٤٤)، و على البصير له كثير من التأليف فى الفقه و غيره (١٠٩٠). و محمد بن حسن الكواكبى رئيس حلب فى الفنون و العلوم ألف مؤلفات كثيرة فى الفقه و التفسير و هو شاعر مجيد (١٠٩٦). و عبد الوهاب بن رجب إمام فى العربية (١٠١٥).

و على البصير الحموى له تأليف فى الفقه و غيره. و محمد بن أبى بكر الحموى له تأليف عديدة فى الفقه و التفسير و العربية و رسائل و رحلات و كان عالما بالفرائض و الحساب و المنطق و الحكمة و الزايرجا و الرمل و هو جد الشيخ محمد المحبى مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦).

و من علماء السريان أندراوس اخيجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك.

و أبو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦). و أحمد بن خليل الأطاسى الحمصى الفقيه مفتى حمص و عالمها (١٠٠٤). و أحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦). و باكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن فى حلب من أدباء عصره أكثر رواية منه للنظم و الشعر (١٠٩٤).

و بشير بن محمد الخليلي القدسى الأديب الشاعر لم يكن فى زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلا شرف الدين العسيلي (١٠٦٠). و تقى الدين التميمي الغزى صاحب الطبقات السنية فى تراجم الحنفية (١٠١٠). و حسن بن محمد أبو الفوارس الحموى المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره. و حسين الجزرى الحلبي الشاعر (١٠٣٣). و حسين بن عبد الله المعروف بالمملوك متصوف (١٠٣٤). و خير الدين الرملى المفسر المحدث الفقيه اللغوى صاحب التأليف و الفتاوى و منها المطبوع (١٠٨١) و رجب بن علوان الحموى أمهر ما كان فى العلوم الرياضية كاليهية و الحساب و الفلك و الموسيقى و غيرها (١٠٨٧). و سرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠) و صالح بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١). و صلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩). و عبد الحق الحمصى الملقب زين الدين الحجازى

خطط الشام، ج٤، ص: ٥٧

عالم بالمعقولات. و عبد الله بن حجازى الحلبي الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره و إنشائه فى الألسن الثلاثة و له تأليف (١٠٩٦). و فتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢). و محمد القاسمى الحلبي شاعر نادر (١٠٥٤). و محمد الكواكبى الحلبي عالم فى المنقول و المعقول (١٠٩٦). و محمد بن عبد القادر الشهير بالحادى الصيداوى أديب فقيه (١٠٤٢). و محمد التمرتاشى الغزى رأس الفقهاء الحنفية له التأليف الكثيرة (١٠٠٤). و محمد بن على المعروف بالحريرى و بالحرفوشى العاملى الدمشقى اللغوى النحوى الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩). و محمد البيلونى الحلبي راوية الشعر و الوقائع خير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥)، و محمد بن محمد الحلفاوى الحلبي أديب (١٠٥٤) و محمد العسيلي القدسى له تصانيف دينية. و موسى الرام حمدانى الحلبي البصير متفنن فى الرياضيات و العلوم الحكمية و علم الحرف و الأخبار و الأدب (١٠٨٩).

و بهاء الدين العاملى الفقيه الأديب صاحب المخلاة و الكشكول و غيرها من كتب الأدب المطبوعة. و محمد الفصى البعلبكى الفقيه و آباؤه كلهم رؤساء العلم فى تلك الناحية و له تأليف (١٠٢٤). و أبو الوفاء بن معروف الحموى له تأليف (١٠١٦). و حسين الأشقر كان جامعا لأنواع الفنون (١٠٤٢).

و عبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفا (١٠٤٠).

و عبد النافع بن عمر الحموى كان متضلعا من العلوم شاعرا (١٠١٦). و داود الأنطاكى و يعرف بالشيخ الصورى (١٠٠٥) ألف كتابا فى السب سماه تذكرة أولى الألباب مطبوع. و تقى الدين الغزى التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية.

دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديما لا إبداع فيها ولا اختراع، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفا عن سلف، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و «صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة و شعبذة و سخرية و المدارس مأوى الحمير». كما قال أحد العارفين بذاك القرن. و جاء في العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوى (١١٢٠). و أبو

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٨

الإسعاد بن أيوب عارف بعلوم جمه مبرز في علوم الأبدان (١١٠٦). و أبو الصفا المفتي فقيه مفسر نحوى. و أحمد بن حسين باشا الكيوانى أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣). قال المرادى: و هو في هذا القرن أى الثاني عشر كالأمير منجك المنجكى في القرن الماضى بل أرجح، و إن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له. و أحمد بن عبد الكريم الغزى فقيه نحوى له تأليف (١١٤٣). و أحمد بن على المنينى المحدث اللغوى النحوى الأديب له تأليف منها شرح تاريخ اليمينى المطبوع (١١٧٢). و أحمد شاعر رحله (١١٩٣). و أحمد الفلاقسى أديب منشئ (١١٧٣). و أحمد المهمندارى فقيه مفسر له شعر و أدب (١١٠٥) و أحمد البهنسى فقيه أديب (١١٤٨).

و أحمد البقاعى أديب مفسر شاعر (١١٧١). و أسعد الطويل أديب (١١٥٠).

و إسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣). و إسماعيل العجلونى رحله له يد في العلوم لا سيما الحديث و العربية و له تصانيف (١١٦٢). و حامد العمادى فقيه فرضى شاعر أديب له تأليف. و خليل الحمصانى له يد في التفسير خاصة (١١٢٣). و زين الدين البصروى عالم أديب (١١٠٢). و سعيد الجعفرى عالم أديب له شعر (١١٨٣). و سعيد السمان لغوى شاعر ناثر له تأليف (١١٧٢).

و سعدى العمرى شاعر ناثر (١١٤٧). و سعدى بن حمزة محدث فرضى حيسوب مهندس مساح (١١٣٢). و سليمان الحموى المعروف بالسوارى كاتب شاعر (١١١٧). و صالح الجينينى محدث فقيه (١١٧٠). و عبد الجليل المواهبى عالم في المعقولات (١١١٩). و عبد الرحمن الصناديقى فقيه أصولى نحوى (١١٦٤).

و عبد الرحمن الغزى فقيه فرضى نحوى شاعر (١١١٨). و عبد الرحمن الكيلانى عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢). و عبد الرحمن البهلولى شاعر لغوى أديب (١١٦٣). و على الطاغستانى عالم محقق مفسر (١١٢٩). و محمد الدكدكجى صوفى مقرئ متفنن (١١٣١). و محمد الكفيرى فقيه أديب (١١٥٠). و محمد الغزى فقيه أديب مؤرخ نسابه (١١٦٧). و محمد أمين المحبى عالم أديب مؤرخ له تأليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١). و محمود الجزيرى عالم في الزايرجا و الحرف و الأوقاف و الرياضيات (١١٤١). و محمود العبدلانى عالم محقق (١١٧٣). و مراد المرادى عالم في المعقول و المنقول له تأليف (١١٣٢).

خطط الشام، ج ٤، ص: ٥٩

و مكى الجوخى عالم أديب متضلع له شعر و كتابه (١١٩٢). و مصطفى اللقىمى عالم فرضى حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧). و مصطفى البكرى عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفا بين مجلد و كراسين و أقل و أكثر و له نظم كثير و قصائد خارجة عن الدواوين تقارب اثنى عشر ألف بيت (١١٦٢). و مصطفى العلوانى الحموى أديب ناظم ناظم (١١٩٣). و مصطفى السفرجلانى متفنن في العلوم الحكيمه له رسائل في المنطق و الفلسفه و الحكمة و الكلام و شعر و نثر (١١٩١). و موسى المحاسنى عالم محقق (١١٧٣). و عبد الرحيم المخلاطى عالم في الفرائض و الحساب و الفلك (١١٤٠). و عبد الرحمن الكابلى عالم محقق (١١٣٥). و عبد الرحيم الطواقى فقيه نحوى فرضى له بعض تأليف و رسائل (١١٢٣). و عبد الرزاق الرومى فقيه له تأليف. و عبد السلام بن محمد المعروف بالكاملى أو الكامدى فقيه أصولى نحوى أديب (١١٤٧). و عبد الغنى النابلسى إمام في التصوف و الفقه و التفسير و علوم الأدب و له تأليف كثيرة و نظم و نثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية و البدعية و كتاب في الزراعة و ديوان و الرحلة القدسية و الرحلة الحجازية و غيرها (١١٢٦). و عبد الفتاح بن مغيزل أديب طيب (١١٩٥) عبد القادر التغلبى فقيه فرضى (١١٣٥) عبد القادر الكردى عالم محقق له

ثلاثون تأليفاً (١١٧٨). و عبد الله البصروي عالم محقق في العلوم و الفنون مؤرخ (١١٧٠) عبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تأليف و رسائل (١١٥٤) عبد الله المكتبي محقق في الحساب و الفلك و الهيئة و التقويمات (١١٦٢). عثمان الشمعة عالم بالدينيات و علوم الأدب (١١٢٦). عثمان القطان عالم بالعقليات و النقليات (١١١٥). عمر البغدادي عالم متصوف له رسائل (١١٩٤). عمر الرجيجي كاتب أديب (١١٣٠). علي العمادي عالم أديب (١١١٧). علي التدمري فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف و الزايرجة و الوفق (١١٣١). علي كزبر عالم رحلة مقري (١١٦٥). محمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣). يوسف ابن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء. هذا غاية ما يقال في رجال دمشق أما في المدن الأخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث العالم بالمعقولات (١١٧٨). أحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤). أبو السعود الكواكبي العالم المحقق خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٠

الشاعر (١١٣٧). و بنو الكواكبي و بنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون. المطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات و له تأليف بالسريانية و العربية (طبع منها كتابه في النحو) و هو تلميذ عالم عصره سليمان الحلبي. عبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الإنجيل و طابعه. عبد اللطيف الأطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء و الأوفاق و غيرها و له شعر كان حيا سنة ١١٤٠. البطيريك ميخائيل جروة الحلبي. الايكونيموس بطرس التولي. القس يوحنا زندو الحلبي. و عطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر. و الشاعران ميخائيل جبارة و أنطون ذكرى. و يوسف الشراباتي. و يواكيم البعلبكي الواعظ له تأليف (١٧٨٢ م).

و أحمد العكي العالم الفقيه له تأليف كثيرة و شعر و أدب (١١٤٧) عبد الله الاطرابلسي المعروف بالأفيوني الفقيه له عدة تأليف و شروح (١١٥٤). عبد المعطي الخليلي له فتاوى و رسائل كلها منتخبة (١١٥٤). إبراهيم الحاقلي له عدة تأليف ترجم عدة كتب من العربية إلى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة و مختصر في الفلسفة الشرقية و عدد تأليفه ٦٤ (١٦٦٤ م). البطيريك اسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤ م)، علي البرادعي البعلبي الواعظ كان جده الأعلى جلال الدين من العلماء الأجلاء. و محمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤). السمعاني اللبناني كتب بالعربية و اللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨ م) و له شهرة في ايطاليا و إسبانيا و تأليفه كثيرة قال الدبس بعد أن عدد تأليفه: و أعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل و إن كان مغرماً بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه. و القس يوسف الباني الحلبي ترجم عدة كتب إلى العربية في الدين المسيحي. و البطيريك مكارياوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد و هو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية و بلغاريا و روسيا.

العلم و الأدب في القرن الثالث عشر:

كان القرن الثالث عشر تنمة القرن الثاني عشر، و لكن فيه بطف و ضعف، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات و الفنون خطط الشام، ج ٤، ص: ٦١

(١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية و الفلك و الحساب طبع بعضها. و أحمد الكزبري العالم بالكتاب و السنة (١٢٤٨).

أحمد الميني الفقيه المحدث (١٢٥٦). أحمد بن إسماعيل يببرس فقيه (١٢٤٧) أسعد المنير فقيه (١٢٤٢). حامد العطار المحدث المفسر (١٢٤٣). كمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تأليف في التاريخ (١٢٠٩). حسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦). خليل الخشة فقيه (١٢٤٢).

رضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦). شاعر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢). صالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦). عبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢). مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفاً و معرباً (١٨٥٥ م). يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠ م). حسين الغزى الحلبي أديب (١٢٧١). جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلكستان للشيخ سعدى مطبوع (١٨٥١ م). عبد القادر العمادى فقيه (١٢٢٨). عبد الغنى السقطى عالم مفنن (١٢٣٦). عمر الغزى فقيه (١٢٧٧). قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤). كمال الدين الغزى عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤). محمد المخلاطى فرضى موقت فلكى (١٢٠٧).

نجيب القلعي فقيه (١٢٤١). محمد عابدين صاحب التأليف والرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة و رسائله و فتاويه و كلها مطبوع. عبد الغنى الميدانى عالم بالأصول و الفقه و فنون العربية (١٢٩٩) عبد السلام الشطى شاعر فقيه (١٢٩٥). مصطفى المغربي التهامى عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠).

عبد القادر الحسنى الجزائرى عالم بالتصوف و الأخلاق و له شعر و نثر و تأليف و منها المواقف و رسائل منها مطبوع (١٣٠٠). و نشأ فى حلب محمد نور الترماني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات و الأدب و له شعر و أخوه أحمد الترماني (١٢٩٣) خلف عدة تأليف و حواش و شروح و منها كتاب الجامع فى الكيمياء. رزق الله حسون (١٨٨٠ م) كاتب شاعر ضليع بالعربية و فنونها و له رسائل جيدة و هو أول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة. و فرنسيس مراث الأديب له عدة تأليف

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٢

و ديوان شعر (١٨٧٣ م). عمر الأنسى البيروتى الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣). أمين الجندى الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧).

بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١ م). ناصيف اليازجى الشاعر اللغوى الأديب صاحب المقامات و الديوان و غيرهما من كتب النحو و البيان و كلها مطبوعة اشتهر فى هذا العصر كثيرا (١٨٧١ م). نقولا-الترك شاعر أديب له ديوان شعر و تاريخ حملة الفرنسيس على مصر و الشام مطبوع و غيره. حسين بيهم البيروتى أديب له ديوان شعر (١٢٩٢). محمد النصرى كان فى حدود المائتين و ألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب. نصر الله الطرابلسى شاعر (١٨٤٠ م). أحمد البرير البيروتى شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦). حيدر أحمد الشهابى اللبناى (١٨٣٤ م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع. محمد أرسلان اللبناى له مؤلفات فى الفلك و التاريخ (١٨٦٤ م). ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع أكثرها.

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسى له كتب فى التاريخ و الأدب. عمر اليافى متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤). محمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨).

العلوم المادية فى منتصف القرن الثالث عشر:

و فى النصف الثانى من هذا القرن بدأت تباشير العلوم الرياضية و الطبيعية، و كانت انحطت انحطاطاً أشبه بالاندراس، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية، بواسطة النهضة التى انبعت بعناية محمد على عزيز مصر فإنه أنشأ مدارس للهندسة و الطب و الترجمة و الفنون الجميلة و الحربية و البحرية و غيرها، فتخرج فيها كثير من المصريين و بعض أفراد من الشاميين. و أخذت تسرى من أنوارها أشعة نافعاً إلى الشام.

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية فى الاستانة و لا سيما المدرسة الحربية و الطب، و بعد حين أحدثت مدارس الملكية و الحقوق و الزراعة و الهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها و لكن بالتركية، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين فى ديارنا من العوائق الكبيرة فى سبيل نشر العلم، لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها، و أبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك

الجيش و الطب و الإدارة و الهندسة و الزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٣

لغتهم، ف جاء أكثرهم ضعافا حتى في العلم الذي أخصوا فيه، و كانوا أضعف من ذلك في لغتهم، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا و أفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصارى مثل مدرسة عين ورقة الأكايركية التي أنشئت سنة (١٧٨٩ م) و نبغ فيها كثير من البطاركة و المطارنة و الكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر. قال الدبس: و من هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية و السريانية بين نصارى الشام و غيرها من العلوم و الفنون، و مثل مدرسة كفتين للروم الأرثوذكس، و المدرسة الوطنية في بيروت، و الجامعة الأميركية في بيروت التي علّمت زمنا طويلا العلوم بالعربية و منها الطب، ف جاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية. و نشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف و محيط المحيط و قطر المحيط و كان يعرف العربية و السريانية و الإيطالية و اللاتينية و العبرانية و اليونانية، و وجد من خديوى مصر إسماعيل و غيره من ملوك المسلمين و أمرائهم تنشيطا على إتمام عمله، كما نشأ في تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوى المحقق صاحب جريدة الجوائب و كتاب الساق على الساق و كشف المخبا و الجاسوس على القاموس و سر الليال و غيرها و كلها مطبوع، و وجد هذا من عزيز مصر و باى تونس و ملك باهوبال تنشيطا كثيرا. و هنا يقضى الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد على الكبير فإن رجالها في كل دور قد تقيّلوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف و بر المؤلفين و الصحفيين و الشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة و العاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها.

العلوم و الآداب في أواخر القرن الثالث عشر و أوائل الرابع عشر:

و من علماء القرن الأخير و الذى بعده في دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوى فقيه أديب له مصنفات. بكرى العطار إمام العربية و لا سيما النحو و التصريف ثم الفقه و الحديث. حسن البيطار فقيه متفنن. محمد الطنطاوى عالم بالعربية و الأصول و الفقه و الفلك و الميقات. حسن الشطى فقيه. محمد الجوخدار فقيه. عبد الله الحلبي فقيه أصولي. أحمد الحلوانى شيخ القراء. محمد الخانى متصوف فقيه. عمر العطار فقيه عالم بالعربية. عبد الرحمن الطيبي فقيه. محمد المرعشلى أديب و فقيه. عبد الرحمن البوسنوى عالم بالعربية.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٤

أحمد فوزى الساعاتى عالم بالعلوم المادية و الدينية. عبد المجيد الخانى أديب شاعر. عبد الحكيم الأفغانى عالم بالفقه و الأصول. ملا عيسى الكردي فقيه أصولي. محمد محمود الأتاسى فقيه أصولي. علاء الدين عابدين فقيه أديب. صالح قنباز عالم بالتربية و الطب له عدة رسائل و كتب. عبد الله السكرى فقيه.

محمد المنينى فقيه محدث. و فى بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية و الفقه و له شعر و أدب و عدة تأليف نشر العلوم الإسلامية و العربية بين نصارى لبنان (١٣٠٧). إبراهيم الأحذب عالم بالتفسير و الحديث و الأصول و الفقه و اللغة و الأدب و له عدة تأليف ثلاثة منها دواوين باسمه و نحو ثمانين مقامة و نظم مجمع الأمثال للميدانى و شرح رسائل بديع الزمان و هما مطبوعان و غير ذلك من المقالات فى الصحف (١٣٠٨). أمين الشميل حقوقى مؤرخ له عدة تأليف (١٨٩٧). إسكندر ابكارىوس له تأليف فى التاريخ (١٨٨٥) يوحنا ابكارىوس (١٨٨٩) له قطف الزهور فى تاريخ الدهور و معجم إنكليزى مطول. محمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب فى الحديث. عبد الغنى الرافعى الطرابلسى (١٣٠٩) شاعر متصوف. محمد الميقاتى الطرابلسى (١٣٠٢) شاعر. إبراهيم الحورانى الحمصى (١٩١٦ م) أديب رياضى فلكى له عدة تأليف و مقالات و تحقيقات. سليم كساب لغوى أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩ م). ميخائيل مشافه الدمشقى رياضى فلكى موسيقى مؤرخ من رجال الإصلاح الدينى فى النصرية (١٨٨٩ م) له تأليف. سليمان الصولة شاعر هجاء

له ديوان (١٨٩١ م).

يوسف الدبس (١٩٠٩ م) أديب له تاريخ سورية المطبوع. جرجس همام رياضى أديب له المعجم العربى الانكليزى و الكتب المدرسية و الهندسية (١٩٢٠ م).

سعيد الخورى الشرتونى لغوى أديب صاحب معجم أقرب الموارد و غيره من الكتب اللغوية و الأدبية كان متقنا للغة الإسلامى. رشيد الشرتونى أديب نحوى كاتب له عدة كتب مدرسية و غيرها. رشيد الدحداح اللبناى له عدة تأليف فى التاريخ و نشر تأليف فيه (١٨٨٩ م). أديب إسحاق كاتب مترسل شاعر سياسى (١٣٠٣). إبراهيم سر كيس أديب له بعض الرسائل و المصنفات.

سليم شحادة مؤرخ و هو أحد مؤلفى كتاب آثار الأدهار المطبوع. أنطون الصقال شاعر كاتب. قاسم أبو الحسن الكسى الشاعر الأديب له ديوان مطبوع

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٥

(١٣٢٢). حسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية فى الرد على الدهريين و غيرها من المقالات فى الصحف و منها فى الأخلاق و الأدب (١٣٢٧). يوسف ضيا الخالدى المقدسى له عكاظ الأدب و التحفة الحميدية فى اللغة الكردية. روحى الخالدى له عدة تأليف منها علم الأدب عند الأفرنج و العرب. طاهر الجزائرى العالم بالتفسير و الحديث و الفقه و الأصول و الفلسفة و التاريخ و الأدب و اللغة له بضعة و عشرون مصنفا مطبوعه فى فنون مختلفة و له التفسير و معجم اللغة و غيره مما لم يطبع و كنايش فيها آراؤه و مطالعاته يحسن الفارسية و التركية و يلم بالحشية و السريانية و العبرانية و الفرنسية (١٣٣٩).

محمد المبارك متصوف أديب لغوى شاعر نثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠). محمد مرتضى متصوف فقيه أديب كاتب شاعر. عبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ رجال عصره مخطوط. جمال الدين القاسمى فقيه محدث أصولى أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن و عدة كتب فى الإصلاح الإسلامى و تاريخ دمشق و بعضها مطبوع (١٣٣٢). عبد الله الحموى شيخ القراء. شاعر الحمزاوى فقيه. شبلى شميل فيلسوف كاتب أديب طيب له تأليف و آثار فى النشوء و الارتقاء و الفلسفة. جرجى زيدان مؤرخ كاتب قصصى له عدة مصنفات منها روايات تاريخية و تاريخ التمدن الإسلامى و آداب اللغة العربية (١٩١٤). رفيق العظم مؤرخ اجتماعى كاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهير الإسلام (١٣٤٣). سليم التنير كاتب باحث له تأليف و رسائل.

و مات من الفقهاء خالد الأتاسى. أبو الخير عابدين. أمين السفرجلانى أديب له بعض تأليف. أحمد الزويتينى الحلبي (١٣١٦) الفقيه. أحمد صلاح.

محمد الزرقا. صالح الرافعى. أحمد الصديقى. طاهر الحسينى. يوسف الإمام.

خليل التميمى. محبى الدين الحسينى. ابراهيم أبو رباح. بشير الغزى. مصطفى كرامه. صلاح الدين الدين تفاعه. محبى الدين اليافى. حسين العمري إلى أمثالهم.

و هلك فى هذا القرن من الشعراء و الكتاب و الكاتبات و الأديبات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان مطبوع. نجيب حداد شاعر كاتب قصصى (١٨٩١ م) (٤-٥)

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٦

داود عمون شاعر أديب. يوسف خطار غانم، محمد الهلالى شاعر. إسكندر غازار. نعوم شقير له مؤلفان فى تاريخ سينا و السودان مطبوعان. أمين حداد.

نعوم لبكى. أنطون رباط. أبو الخير الطباع. محمد على حشيشو. جرجى ديمترى سرسق. فرح أنطون له عدة تأليف و ترجمات مطبوعه. إسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة. شاعر شقير كاتب شاعر. محمد أرسلان.

عمر حمد شاعر. عمر اليافى. محمود الشهبال شاعر. نقولا رزق الله. جميل مدور. نوفل نوفل. أمين الشميل. صلاح الدين القاسمى.

شاعر الخورى له كتاب هزلى. أحمد الصابونى له تاريخ حماة مطبوع. محبى الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية. حسن رزق. حسن بيهم كاتب متفنن. سليم سر كيس كاتب هزلى. عبد الوهاب الإنكليزى. سليم الجزائرى. شكرى العسلى له عدة رسائل اجتماعية و أدبية. رشدى الشمعة شاعر كاتب. أحمد طبارة. عارف الشهابى. عبد الغنى العريسى. جرجى حداد. سعيد عقل. باترو باولى. رفيق رزق سلوم. فيليب الخازن. فريد الخازن. محمد المحمصانى عبد الحميد الزهراوى. عبد القادر المؤيد. حسين وصفى رضا. بشارة زلزل له عدة كتب فى الطب وغيره. محمد عبد القادر الحسنى. محبى الدين الحسنى له مؤلفات. شاعر عون. سليم بسترى. سليم تقلا. سليم عباس. سليم البستانى. أسعد الشدودى. عبد الغنى الرافعى. شاعر أبو ناصر. خليل باخوس. سليم باز. سليم جدى. فيليب جلاد. نجيب حبيقة. يوسف حرفوش. أمين الخورى. يوسف دريان.

و هلك من النساء فى العهد الأخير عفيفه كرم. وردة اليازجى. عفيفه اوزون. زينب فواز. وردة الترك. هيلانه البارودى. سلمى قساطلى. هنا كسبانى. مريانا المراه. ساره نوفل. فريده عطيه.

المعاصرون من العلماء و الأدباء:

و من شيوخنا و كهولنا و شبابنا و نساءنا من اشتغلوا بالعلوم و الآداب على اختلاف أنواعها و ممن اشتهر منهم: (١) علماء الدين و الفقه و القضاء: سليم البخارى. رشيد رضا. بدر الدين الحسنى. عبد الله العلمى. عبد الله الجزار.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٦٧

مسعود الكواكبى. سعيد العرفى. سعيد مراد الغزى. مصباح محرم. عبد المحسن الأسطوانى. أحمد عباس. محسن الأمين. جرجس صفا. عطا الكسم. سعيد النعسان. سعيد البانى. بهجة البيطار. طاهر الأتاسى. يوسف النبهانى. محمود منقارة. عبد الكريم عويضة. عبد اللطيف نشابة. عبد الحميد الجابرى. عبد القادر بدران. عبد القادر القصاب. طاهر المنلا الكيالى. أحمد النويلاتى.

خالد النقشبندى. نجيب قبانى. عبد الكريم حمزة. محمد الأسطوانى. محمد الكستى. إبراهيم هاشم. سليمان أحمد. طاهر أبو السعود. يوسف الإمام الحسنى. محبى الدين الخانى. عيسى العكرماوى. منيب هاشم. نمر الدارى فهمى الحسينى. عادل زعيترا. أحمد الزرقا. نجيب أبو صوان. مصطفى برمدا. حسن الشطى. عونى عبد الهادى. معين الماضى. يوسف الخيرى.

أمين عز الدين. إسماعيل حافظ. ميخائيل عيد البستانى. مصطفى الخانى. مصطفى نجا. فوزى الغزى، فتح الله أديب. على الكيالى. عبد المجيد المغربى. محمد الحسينى. محاسن الأزهرى. توفيق الدجانى. خليل الخالدى.

و من المتفردين بالقراآت فى دمشق: محمد الحلوانى. عبد الله المنجد.

أحمد دهمان. محمد القطب. عبد الرحيم دبس و زيت و غيرهم.

(٢) العلوم الفلسفية و المادية: يعقوب صروف. منصور جرداق. جودت الهاشمى. مصباح حولا. فارس الخورى. سعيد البحرة. رشدى سلهب.

درويش أبو العافية. شكرى خليفة. أمين معلوف. عبد الوهاب المالكى.

أميل خاشو. يوسف افتموس. إبراهيم الدادا. وجيه الجابرى. فيكتور كورنلى. إسماعيل باقى. أحمد رستم. مصطفى الشهابى. وصفى زكريا.

جمال الفرا. يوسف قدورة. محمد الترمانينى. صلاح الدين الكواكبى. مصطفى تمر. هاشم الفصيح. عبد الوهاب القنوانى. أسعد الحكيم. سعيد شقير. أحمد حمدى الخياط. مرشد خاطر. جميل الخانى. حسنى سبح. محمد محرم. شوكة الشطى. جميل صليبا. جعفر

الحسنى و غيرهم.

(٣) العلوم الاجتماعيه و التاريخيه و الحقوقيه: شكيب أرسلان. فارس نمر. داود بركات. خليل ثابت. عيسى إسكندر المعلوف. نقولا حداد.

محمد رستم حيدر. نسيم صبيعه. سعيد حيدر. جرجى يى. عمر الصالح البرغوثى

خطط الشام، ج٤، ص: ٦٨

خليل طوطح. ميخائيل ألوف. قسطنطين الباشا. سليم شحاده. نجيب صليبا.

رفيق التميمى. أسد رستم. راشد طباره. أسعد منصور. سعيد المحاسنى.

زكى الخطيب. عارف الخطيب. قسطنطين زريق. حبيب الخورى.

روحى عبد الهادى. حسن فهيمى الدجاني. أحمد سامح الخالدى. ساطع الحصرى. حسن يحيى الصبان و غيرهم.

(٤) الأدباء: عبد الله البستاني. لويس شيخو. أسعد خليل داغر. سليم الجندى. إسعاف النشاشيبي. عارف النكدى. كامل الغزى. قسطنطين الحمصى.

الخورى بطرس البستاني. مصطفى الغلايينى. رشيد عطيه. أمين ظاهر خير الله.

حنا صلاح. رشيد بقدونس. أنيس المقدسى. جبر ضومط. جرجس منش.

أحمد رضا. سليمان ظاهر. عزة دروزه. بندلى الجوزى. عبد الرحمن سلام.

عبد القادر المغربى. عبد القادر المبارك. إبراهيم منذر. أنيس الخورى المقدسى.

ميخائيل صفال. نجيب ميخائيل ساعاتى. جرجس شلحت. سامى جريدينى.

حسنى عبد الهادى. راغب الطباخ. سامى الكيالى. عز الدين علم الدين. عبد الله النجار. عمر الأتاسى. أيفانيوس زائد. على ناصر الدين.

عبد اللطيف صلاح. عبد الله مخلص. عمر الزعنى. حبيب كحاله. عارف الزين. فيليب طرازى. راجى الراعى. جميل معلوف. عمر الفاخورى.

جرجى باز، أحمد صلاح الدين. أحمد عبد المهدي. يوسف زخم. جميل الشطى. صبحى القوتلى. توفيق ناطور. أنطون جميل. نزيه المؤيد. لويس معلوف. شكرى الجندى. وصفى الأتاسى. أمين الحشىمى. أنيس النصولى.

أديب التقى. جودت الكيال. محمد الداودى. أحمد عبيد. حمود الزبروتى.

منح هارون. فائز الغصين. سامى العظم. خالد الحكيم. وجيه بيضون.

نجيب الرئيس. شريف عسيان. أديب الصفدى. أديب فرحات. سعيد الصباغ جمال الملاح. أديب وهبه. عبد الغنى باجقنى. عارف التوام. فوزى العظم.

حسن الحكيم. الياس القدسى. عبد الله رعد. صبحى أبو غنيمه. ميشل بيطار.

إبراهيم حرفوش. توفيق حماده. عبد الله خير. سليم خطار الدحداح. حكمه المرادى. يوسف اليان سر كيسى. يوسف صادر. أنطون صالحانى. جودت الماردىنى. نعيم صوايا. إسكندر طحينى. بولس عبود. إميل عرب. يوسف

خطط الشام، ج٤، ص: ٦٩

علوان. يوسف غصوب. جبرائيل قرداحى. يوسف قيقانو. نجيب مخلوف.

فيليب مسك. أمين مشحور. حلمى مصرى. عيسى بندك. شكرى كنيذر.

عبد الله صفير. حبيب زيات. أحمد عمر المحمصانى. محمد على الطاهر.

يوسف حيدر. أنطون شعراوى. توفيق الحلبى. توفيق جانا. أسعد ملكى.

رزق حداد. عباس أبو شقرا. طه مدور و غيرهم.

(٥) الكتاب: عبد الباسط فتح الله. خليل زينية. خليل سعادة. خليل سعد. سامى قصيرى. نعم مكرزل. يوسف الخازن. عبد الله الأسطوانى.

نجيب شاهين. أميل زيدان. إبراهيم سليم النجار. يوسف العيسى. بدر الدين النعسانى. عادل أرسلان. محمد الجسر. توفيق اليازجى. ادوارد مرقص.

أمين الريحانى. مصطفى الخيرى. محمد على السراج. محب الدين الخطيب. سليم قبعين. ميخائيل نعيمه. بولس الخولى. جبران توينى. جبران خليل جبران.

شهادة شحاده. أمين غريب. فؤاد صروف. سعيد أبو جمرة. يوسف البستاني خليل السكاكينى. عادل جبر. نجيب نصار. رشدى الحكيم. عيسى العيسى.

سليم ابكارىوس. أمين الكيلانى. سعيد الزهور. خليل بدوى. خليل بيدس.

بطرس غالب. ناجى أديب. وجيه الكيلانى. سعيد الأفغانى. صلاح الدين المنجد نجيب الرئيس. سامى كباره. جبران تونسى. خليل كسيب. على الطنطاوى.

كاظم الطاغستاني. عمر الطيبى. أمين الحلبى. راشد البيلى. عبد الهادى اليازجى. فارس فياض. أحمد شاکر الكرمى. أحمد كرد على. معروف الأرنأوط. عبد الحسيب الشيخ سعيد. نجيب اليان. ايليا زكا. نجيب شقرا.

زكى مغامز و أمثالهم.

(٦) الشعراء: فؤاد الخطيب. أمين ناصر الدين. خليل مطران. خير الدين الزركلى. خليل مردم بك. شفيق جبرى. سليمان التاجى. عبد الحميد الرفاعى. مصباح رمضان. طانيوس عبده. الياس فياض. سليم عنحورى.

محمد الشريقى. نوفل الياس. محمد البزم. جرجى عطية. بشاره الخورى.

شبلى ملاط. أمين تقى الدين. رشيد نخلة. محمد سليمان. أسعد رستم. فخرى البارودى. نسيب أرسلان. ايليا أبو ماضى. حليم دموس. أبو السعود مراد.

عبد الرحمن القصار. كامل شعيب. عارف الرفاعى. نديم الملاح. محمد

خطط الشام، ج ٤، ص: ٧٠

الفراتى. عبد الرحيم قليلات. جميل العظم. إبراهيم الشدودى. حسين الحبال.

أمجد الطرابلسى. جميل سلطان. زكى المحاسنى. عمر أبو ريشة و غيرهم.

(٧) الخطباء: عبد الرحمن شهنندر. أسعد الشقيرى. أسعد عفيش.

نقولا- فياض. غريغورىوس حداد. حبيب أسطفان. أنيس سلوم. فيلكس فارس. حنا خباز. عبد الرزاق الدندشى. مصطفى الشماع. محمود النحاس.

بدر الدين الصفدى. أفرام أبيض. عبد الرحمن الكيالى. سامى السراج و غيرهم.

(٩) الكاتبات و الشواعر و الخطيبات: مارى زياده. مارى عجمى. ساره خطيب. لبيبة هاشم. نجلا أبو اللع. سلمى صانع. جوليا طعمه.

عفيفه صعب. عنبره سلام. مسره الأدلبى. مارى ينى. هيلانه البارودى. فاطمه سليمان. ابتهاج قدوره. بهيجه المؤيد. خيريه ترماني و غيرهن.

من المعاهد التي خرجت أناسا بالعربية و الفرنسية كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت، و كان أول نزول الآباء اليسوعيين في الشام سنة (١٦٥٣ م)، فأسسوا مدرسة عينطورا بلبنان التي أخذها الآباء اللعازريون بعد مدة (١٨٣٤ م) و خرجت كثيرا من الأدباء باللغة الفرنسية فقط. و قد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين. و هم يتلون القرآن و لكن بدون أن يتدبروا معانيه و يفهموا إعجازها، حتى أصبح الفقيه و المحدث و النحوى و المنطقى لا يحسن كتابة سطرين إلا بصعوبة. و يتعاصى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة إلى المعاجم، و ضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع و يدون، بل كانوا إذا أرادوا الخطب في الجوامع و المساجد يحفظون شيئا منها لأهل العصور التي سلفت و يوردونها بدون مناسبة، بل إن الإجازات التي يكتبها الشيوخ و غيرها من التحميدات و التقارير و أدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين و يحرفونها على صورة مستكرهة، و قد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الأب للابن، و كان المفتى أبو السعود من مشايخ الإسلام في الإستانة أول من ابتدعها و أخرجها للناس، فأصبح التدريس و التولية و الخطابة و الإمامة و غيرها من المسالك الدينية خطط الشام، ج٤، ص: ٧١

توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، و هم يجب أن يرثوا وظائفهم و مناصبهم و إن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم و عقارهم و فرشهم و كتبهم. بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولى القضاء للأعميين، و كم من أمى غدا في دمشق و حلب و القدس و بيروت قاضى القضاء، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم، لأن أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفا على بذل شىء من الرشى، فيصل إليه أجهل الناس و بذلك فترت الهمم، و انصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين، لأن الجاهل و العالم سواء، و من يحسن المصانعة و الرشوة و يمت إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة. و أصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليرتلف بها إلى الكبراء و أرباب الدولة، و الشاعر كطبال أو زامر أو قراد يغنى و يلعب أمام من يعطيه دريهمات قليلة. و هناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال و هى أن من حفظ قواعد النحو و الصرف في كتب لهم معينة و انقطع إلى مدرسة من المدارس، و جاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعفى من الخدمة العسكرية، فتعلم بذلك كثيرون، و من فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء و أدباء، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر.

و بينا كانت مدارس العلم في حلب و حماة و دمشق و طرابلس و القدس و غيرها آخذة بالأفول و الاندراس، و المسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشىء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية و الإدارية و العسكرية، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة، جعلت تدريس العربية و آدابها و اللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها، فجاء من أبنائهم و من أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب، و منهم أفراد نزحوا إلى مصر و اميركا و تولوا الأعمال الكبرى و أظهروا آثار قرائحهم و نبوغهم و لا سيما في القرن التالي، و بطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقييح نحو النصرارى و غناء اليهود، فأصبح بالتعلم من النصرارى نحاة ثقافت، و من اليهود مغنون و مغنيات، أى أن الزمن أبطل ذاك الزعم.

خطط الشام، ج٤، ص: ٧٢

الآداب في القرن الرابع عشر:

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأى مدرسة كانت

ليأخذوا العلم منها، و دبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية و غيرها في بيروت و صيدا و دمشق و حماة و حمص و حلب و طرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية و مدرسة الحكمة المارونية في بيروت.

و كان الفضل في هذه النهضة الشامية أولا لمدارس لبنان و بيروت و عناية بطاركة الموارنة و مطارنتهم و أساقفتهم و قسيسهم بالعلم و اللغة. أما العلوم الطبيعية و الرياضية و الطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية أكثر من غيرها، و لو لم تبطل تدريس العلوم بالعربية و تجعله إنكليزيا لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية، و كان من أستاذين من أساتذتها الدكتور فاندريك الاميركاني و الدكتور و ربات الأرمي فضل على العربية بما كتبه في العلوم المختلفة باللغة العربية و كذلك كان شأن بوست الاميركاني فإنه ألف كتبا علمية نافعة بلغتنا فعّد منا، و كذلك فعل بورتر و غيره.

إن المدارس الطائفية و مدارس المرسلين من الأميركيين و اليسوعيين و غيرهم من الأمم ذات المطامع في الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلوثة فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته، و انقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقساما، و تباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور، و لأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين و السياسة، فالإنجيليون أو البرتستانت تنتشر دعوتهم كل يوم، و اليسوعيون ينزعون منزعا آخر في التربية الدينية و السياسية، و هكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية. و منها ما ينزع من المتعلم حب قوميته

خطط الشام، ج ٤، ص: ٧٣

و بلاده، و كم رأينا رجالا و نساء درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا عرب و لا إفرنج، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم، و لا يشعرون شعور الشامي، بل يبغضون تقاليدهم و تاريخهم، و لذلك صح أن يقال إن تلك المدارس لم تنفع النفع المطلوب، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار أنصارا.

و بينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها و شعورهم تركي صرف و لم ينفعوا الشام بشيء كثير من علمهم، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان و القسيسين و الحاخامين و المدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات و كل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم و الأديب، بل إن معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه، و هجرها إلى أرض أخرى. إن الشامي المتأدب في الجملة بآداب قومه يحب لغته و يغار عليها، و لذلك أسس عدة صحف و مجلات راقية في مصر و المهجر من أميركا الشمالية و الجنوبية و حب المطالعة بالعربية إلى من نزل عليهم، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا و مجلاتنا العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة و مجلة حية، و ما ندرى إن كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل، فإن الجيل الجديد من الشاميين في أميركا الشمالية و الجنوبية قلما يعرف العربية بل هو يتكلم بالإنكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية. و أعظم نقص في المدارس الأميركية و الطائفية و الأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين و الثانية و الثالثة تهيء المتخرجين على معلمها إلى الهجرة، و تباعد بين أبناء الوطن الواحد و تبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق على حالتنا.

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية و ضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية في ديارهم. فإن كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور، فقد أضرتنا بانحلال عقدة الوطنية، فمدارس الأميركيين و الروس و اليونان و الفرنسيين و الإنكليز قد أصلحت و أفسدت. أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئا من معارف الغرب، و أضعفت في نفوسهم حب الوطن بتحبيبها إليهم أوطانا غير أوطانهم،

و تعريفهم إلى رجال غير رجالهم. و العاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع، و انتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره. و من زهد في لغة آباءه و جدوده كان حريا بالزهد في وطنه و وطنيته. و اللغة و الوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد. جنت مدارس الأجانب و الحكومة أعظم جناية، لأن المتخرجين فيها و معظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة و لم ينفعوا الأرض التي ولدوا فيها. إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأطلاق و نفائس المتاع، أستغفر الله بل إن من يسرق فلذات الأكباد، ليخرجها على ما أراد، أشق على النفس و طأة، و أعظم في المغبة أثرا. و هل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال و الرجال؟ أوليست الأرواح أئمن من كل بضاعة، و هل أعز من الولد على قلب أبويه. إن المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها، و ناهب الروح ماذا يدعى في الشرع و العقل. و لم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات و العناصر كلها، و تتجرد أمة فتفنى لإحياء غيرها، و تقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى، و لا تهمها دارها و تريد هدمها لتعمر بأناقضها دار جارها.

في نحو سنة (١٢٧٨) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية و هي أول مدرسة أميرية أنشئت في حلب. و أنشأ مدحت باشا في دمشق سنة (١٢٩٥ هـ) ثماني مدارس ابتدائية للذكور و الإناث و دار صنائع، و أسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة، و ما برحت المعارف مذ ذاك العهد تعلو و تسفل و الحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية و الثانوية إلا أن تخرج لها طبقه من الموظفين ملكيين و عسكريين يكونون أتراكا بألستهم لا بقلوبهم، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم، و قد أخذ دعاة تريك العناصر يقاومون العربية سرا، فما هي إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة، و هم لا يحسنون لغتهم و لا لغة الدولة الرسمية،

خطط الشام، ج ٤، ص: ٧٥

فضلا عن اللغة الفرنسية التي كان تعلمها إذ ذاك رسميا في الظاهر سوريا في الحقيقة، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة، و كان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة، و معظم من أتموا تعلمهم في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط.

و ما فتت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالعرض من بعض الوجوه. و جعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذا القطر، و روحها لم تبرح تلك الروح التركية، لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية و تخلق بالأخلاق التركية، و قد حاولت إدارات المعارف في الديار الشامية نزع الروح القديم و تنشئة المعلمين نشأة عربية، و ليس في الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شب عليه، و فاقد الشيء لا يعطيه، و لم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتزم مع ماضي الأمة العربية و ينفعها في حاضرها و مستقبلها، و تغذية العقول غذاء كافيا ينفعها في استخراج ثمرات الأرض و كنوزها و التفنن في صنعها و وضعها، و تجديد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة و الصبي. أما التعليم الديني عند المسلمين فهو أخط تعليم، أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر و أكل أوقافها، و قد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها، و لم يتبها لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها، و إذا درس المشايخ الدروس النظامية، و تأهلوا للقضاء و الفتيا و التعليم أهلية حقيقة، تنحل بتعليمهم التاريخ و الرياضيات و الطبيعيات و الاجتماعيات مشاكل كثيرة. و من العجيب أن مدينه كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة و معهد مختلفه الشكل - عدا الكتابات الملحقة بالجوامع - تقرأ فيها دروس العلم و الأدب و الطب و الهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، و لذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك و تبكي، و بلغت أكثر وظائف الوعظ و التدريس و الخطابة و الإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة.

و قد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية و الدينية مدة اثنتي

عشرة

خطط الشام، ج٤، ص: ٧٦

سنة، و نزل الطلبة في المدارس: المدرسة الخسروية و المدرسة العثمانية و الشعبانية و القرناصية و الإسماعيلية، و ربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس و يقرأ الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة و يرجي أن يكون منهم علماء دينيون و متأدون.

أما علماء الدين عند المسيحيين و الإسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا أو إيطاليا أو أميركا و غيرها فلا يرقى في الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم و النباهة، و يكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، و لذلك جاء البون شاسعا بين عقلية علماء الدين من المسلمين و عقلية غيرهم من أرباب الأديان، و غدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الإسلام على النحو الذي هي في النصرانية، لأنه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة و جمع كلمة الخاصة، و لأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة، و الأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. و من أغرب الحالات أن مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين. و بهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد، لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفه في معتقده، و خصوصا في مدارس بعض الرهبانات التي تهزأ بالإسلام و العرب، و تحزف التاريخ الصحيح و لا تعلم منه إلا- ما ينطبق مع رغائبها، و لا يفيد شيئا في تكوين الوطنية و القومية، و لو اتحدت التربية و اشترك جميع أبناء الشام في التناغى بها و الاعتماد عليها، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها، ارتفاعه عند أمم الحضارة في الغرب، و يؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات الحديثة. و عندنا أن لا نهضة في الأخلاق و العلم و الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليما صحيحا، لأنهم ستة أسباع السكان، و الثروة الثابتة ملكهم، و هذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليما وطنيا واحدا.

خطط الشام، ج٤، ص: ٧٧

الجامعات و الكليات:

احتفل الصهيونيون (سنة ١٣٤٣ هـ) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية و لا تمضى خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية و المدنية اليهودية من مراقدها، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية و المذهب الإنجيلي من الجامعة الأميركية، و انتشرت المدنية الفرنسية و الكتلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية.

و في (١٥ حزيران ١٩٢٣ م) أسست في دمشق الجامعة السورية و هي ذات فرعين الطب و الحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ثم أضيفت إليها شعبة الآداب و ألغيت بعد سنين، و ما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب و الحقوق، لأن معظم المدرسين من الطبقة التي لا تقيم للعربية وزنا، فقد تخرجت في مدارس الترك لتكون من الموظفين في الحكومة العثمانية، و لم تعن بالمطالعة و البحث و لا بالتأليف و الترجمة، و بعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها، و من الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجلييلة إلى أناس هم أتراك في تربيتهم و أفكارهم و منازلهم في صميم بلاد العرب، و في جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية. و يرجي إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا و سدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاءة، يحسنون العربية إحسانهم العلم الذي يدرسونه و أن تصقل أواليهم بأيديهم صقلا متقنا بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه و تمثلوه و هضموه و صار لهم ملكة خاصة، لا مترجمة في الأكثر عن التركيبة ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم، و متى كانت اللغة التركية لغة علم و عنها يؤخذ في مثل هذا العصر، و المعلوم أن لغات العلم ثلاث الإنكليزية و

الفرنسية و الألمانية ليس إلا، و متى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التي يجب أن تتكون بحسب تاريخها و منافعها الحاضرة و المقبلة.

و بعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين ارتقى مستوى التعليم فى الجامعة السورية و ارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية و وسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها و جاء أساتذة ألقنوا العربية و آدابها و هم اليوم يلقون دروسهم خطط الشام، ج ٤، ص: ٧٨

بلغة أقرب إلى الفصحى و قد وضعوا التأليف فى الطب و الحقوق بلغة عربية مقبولة.

و لا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعا حقيقيا يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم - إلا إذا تمت فروعها فأنشئت فيها مدرسة للآداب و أخرى للعلوم و ثالثة للإلهيات، و بذلك تتم فروعها و تنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية و المغربية، و لا غضاضة علينا إذا جئنا من مصر و ديار الغرب بعلماء إخصائين فى الفروع التي لا نحسنها من ضروب العلم، نتعلم منهم طريقتهم فى البحث و الدرس و التحليل و التركيب، فالقطر المصرى و هو أسبق منا فى العلوم ما زال إلى اليوم يأتى من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة و التعليم فى جامعته. و على ذكر القطر المصرى لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفرعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضى يخدمون الآداب و يرزقون منها، فكان لمصر الفضل على الشام و بنيه لأنها كانت منبعث قرائحهم. و كان فى هذه المقايضة العلمية بين الشام و مصر من الفوائد ما لا يمكن أحدا جهله.

و بعد ذلك يرجى أن لا يضيق كثيرا نطاق اللغة العربية، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر فى الغرب و الجنوب، و هى إلى ضؤولة فى الشرق و الشمال و الوسط على ما يبذله المجمع العلمى العربى منذ سنة (١٣٣٧ هـ) من العناية بنشرها و تهذيب ألفاظ الكتاب و تراكيبهم، و الأخذ بأيدى المؤلفين و المترجمين، و تحبيب المطالعة إلى الجمهور، و تعليمه فى محاضرات و دروس عامة، و عرض آثار مدينة الأسلاف على أنظاره لبعث عقلته من رقدتها.

و إذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهيمن و علماء مدنيين و أدباء و مهندسين و طبيعيين و كيمائين و زراعيين و أطباء و حقوقيين و أثريين يعرفون كيف يبحثون و يعلمون، نخدم المدينة خدمة حقيقية.

الإحصاء:

و بعد فإن أهم ما ينبغى صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الانسيكلويدية، أى المشاركة فى العلوم المتعارفة، ثم الانقطاع إلى فرع واحد، أى إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم الطبيعية و الرياضية و الاجتماعية و التاريخية

خطط الشام، ج ٤، ص: ٧٩

و الأدبية ثم معالجة موضوع واحد: «إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم فى التعليم، فإن هذا العصر عصر التخصص. فقد اتسعت معارف البشر النظرية و العملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم و حاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد. فالأصول من المعارف هى المعلومات العامة و تفرعاتها هى الإحصائيات. كان بادئ بدء كل شىء مفهوما فى الفلسفة، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم، و تنقسم إلى قسمين: المحسوسات و المعقولات. و دعيتا علوم الطبيعة و علوم ما وراء الطبيعة. أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيما معقولا- و لا- جارية على طريقة معقولة، و كان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون فى تعلمها آباءهم، بدون و قوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام.

ثم حسنت الحال بالتدريج و دخلت الأعمال فى طور نظام، و انتظمت العلوم الرئيسة. لا سيما الآداب و الفنون و علوم النظر و العلوم العملية أى التجارة و الصناعة و الحرف، و نشأ الإحصاء فى كل فرع من فروع هذه الطبقات. فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة، و لا يخصى فى تعاطى فرع واحد إلا فى المدن، أما فى القرى فيمارس كل فرع من فروع الأمراض الباطنية و الخارجية. و هكذا الحال فى

الأعمال التجارية و الصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام.

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإحصاء حتى ما يلزم الطاهي و البائع من المعارف، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر، أن يزيد أبدا الإحصاء في كل علم و شأن. و إذا نظرت إلى الإحصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة و بدونه لا يكون عالم، فان المبادئ الأولية من جميع العلوم هي و لا شك نافعة لكل الناس، و متى حاز المرء قسطا من هذه العلوم و رأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه و بدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدما بطيئا، و يخلط و يبقى متوسطا و إلى ضعف. و الإحصاء ضروري أيضا في العلم العملي أي في المعامل و الأعمال اليدوية و ذلك للسرعة في الإنتاج و بهذا يرى أرباب معامل الابر و الخياطة في لندرا أن في تقسيم الأعمال اقتصادا كبيرا.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٠

إذا قسمت الأعمال و أخصى المشتغلون بالعلوم و توسعوا فيها، فالإحصاء يؤدي و لا جرم إلى الضعف الأدبي، و ذلك أن العائلات مثلا- إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئا من حواسهن، و لكنه ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت. أما القوى العقلية و القوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضا. و من ينصرفون في العلم المحض إلى الإحصاء كثير من الرياضيين و المهندسين و الفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه، و يدهشون من عاصروهم بغرابة أخلاقهم، و تشتت أفكارهم، و بالجملة فيقضى على كل مخص في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظا من المعارف لأول أمره، و أن يخصى في علمين أو ثلاثة، فإذا مارس أحدها أراح غيره هـ.

الصحافة العربية:

نشأت الصحافة، أي نشر صحف الأخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام (١٥٦٦ م) في مدينة البندقية، و لم تلبث أن انتشرت في أوربا، و لكنها لم تعرف في ديار العرب إلا في سنة (١٧٩٩ م) أنشأها في مصر نابوليون بونابرت، و لم تصل إلى الشام إلا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر، ففي سنة (١٨٥١ م) أنشأ المرسلون الأميركيون في بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد». و للشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد، جمع جريدة، و هو الاسم الذي وضعه أديب لبناني للتعبير عن Journal أو Gazette ثم وضع لغوى لبناني آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في شتى الموضوعات. و ما زال للشاميين الفضل الأكبر في إنشاء الجرائد و المجلات. و قد أنشأوا في الاستانة و مصر و تونس و أوربا و أميركا صحفا عربية كثيرة، و آزرروا في صحف كثيرة، كما أنشأوا في الشام صحفا كانت تعلق و تسفل بحسب مقدرة القائمين بها، ذلك لأن الأمية كانت غالبية، و لم يكن الإقبال على مدارس المرسلين و المدارس الطائفية و هي التي سهلت درس العربية قبل غيرها، هذا الإقبال الذي شوهه من بعد،

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨١

و خرّج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم و مبادئ اللغات الأجنبية.

و لما احتل البريطانيون مصر و زاد الضغط على الصحافة العربية في الشام، هبط مصر كثير من نهاء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف و من المترجمين و غيرهم، و أنشأوا جرائد و مجلات و منها إلى اليوم جريدتا الأهرام و المقطم و مجلات المقطف و الهلال و غيرها من الجرائد و المجلات التي نشرها الشاميون و عاشت مدة ثم احتجبت. و كلها أبلت بلاء حسنا في خدمة الأفكار و نشر الآراء العلمية و التهذيبية و الأدبية و الدينية. و قد نشرت في الشام و في مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف و مجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء، و إن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم و الأدب، و قضى عليها لقلّة القراء، أو لوفاء أصحابها كمجلة الضياء و المنار و لم يأت من يخلفهم في موضوعهم. و أخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات و الجمعيات معاضدة فعلية.

ظلت الصحف السياسية و المجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط، و لو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برؤوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف و مجلات تخدم الخدمة اللازمة، و لا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم و تنشر محامدهم و صورهم فالجرائد و المجلات بذلت الجهد إذا في نشر الأفكار و التهذيب في الشام على قلة الوسائط، و كان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدا أكثر مما بذلت، نعم كانت خير معلم و أجمل مدرسة للناس، ترشدهم في جميع ما تشتد إليه حاجتهم من المعارف، و تغرس في نفوسهم روحا وطنيا لا تقوم الأمم بغيره، و تلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة في الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية.

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النبهاء في الصحافة، و لكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عددا، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أفعالهم رفع مستوى المعارف. و مع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه، (٤-٦)

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٢

علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية. لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها، علمتهم بسائط من التاريخ و حال الأمم و سياسات السياسيين و قوانين المشرعين و استعمار المستعمرين و تدليس المدلسين، و أن أمتهم كانت شيئا مذكورا فيما مضى، و لا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، و الاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم و مقدساتهم، و أصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف و تفهمها. أرقى عقلا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة أو مئتين من السنين. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، و أن نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأموال الدنيا يذهب بالدين و الدنيا معا. علمتهم أن الغرب لا يريد خيرا للشرق، و الشرق شرق و الغرب غرب، و أن الأقليات التي كانت تصرفها أوروبا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج في الأكرثيات، و توحيد المقاصد الوطنية. و كل أمة تحكم برأى السواد الأعظم من أبنائها.

علم معظم الناس، إلا أناسا مأخوذين بتعصبات مذهبية و نعرات طائفية، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادى بكل من يمتون إليه بصله من صلات القربى المذهبية، و أن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت و كان السبيل إلى الحصول عليها، و قاعدتهم كلهم الغاية تبرر الوسطة. و لقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة، فكانت تحتال في أول دور أن تشرف صاحب الجريدة برتبة لها و وسام، و من خالف الصدع بأمرها تكسر قلمه و تشرده و تسجنه و تنزل عليه غضبها، و قد تجلى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي، فلما أعلن القانون الأساسي أخذ الأتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدأ مبدأ السير بقوة الصحافة إلى الغرض الذي يرمون إليه، فصانعوا بعض أربابها و ضحكوا من بعضهم بإكرامهم و إعطائهم مالا. و لما جاءت الحكومات المنتدبة و هي من أعرف الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت أيضا بين الرغبة و الرهبة و العطاء و المنع. و لم تخل الشام في كل دور من أناس باعوا في خدمة صاحب القوة ضمائرهم. شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية، و لكن ظهر ذلك جليا في صحافتنا لأن الدعاة للقوة ضعاف،

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٣

حتى في فهم ما انتدبو إليه، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أول يوم يسبحون بحمد من استهووهم. و بعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج إلى أربع أو خمس صحف و بضع مجلات على النمط العالي من نوعها في أمم الحضارة، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس و بيروت و دمشق و حلب) و ترجع في شؤونها إلى شركات منظمة تدير ماليتها، أو أحزاب سياسية ثابتة تدير حركتها، و يوكل أمرها إلى كفاة ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة أوروبا و أميركا، و نحن لا نتطال إلى أن يكون للشام اليوم صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها، و صدق لهجتها لأمتها، و سرعة تناولها الأخبار، و تنوع أساليب

التعليم و التفهيم، بل نرجو أن تكون لنا صحافة متناسبة مع ماضينا و حاضرنا، بحيث لا تكون الشام أخط من مصر في هذا الشأن على الأقل. الصحافة عنوان ارتقاء الأمة، و ليس ما يمنع من إبرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق، و هذا لا يتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفين.

قلنا في سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس):

و قد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف و المجلات حتى كان لنا منها نحو مئة صحيفة في هذا القطر الصغير، نأسف لأكثرها على الورق الذي تطبع فيه و الوقت الذي يصرف عليها، و هي خلو من الفوائد اللازمة، و لو لا بضع جرائد و مجلات لا بأس بها في الجملة، لقلنا إننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية، قلنا: إن للنجاح في الأعمال أسبابا كثيرة، منها ما هو مادي و منها ما هو معنوي، إذا اختل أحدها تعذر النهوض بالشق الآخر. و إنشاء الجرائد و المجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر. و هل في الأرض عمل لا يحتاج إلى علم و تجارب و مال و استعداد؟ و لطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة، و الشام في عهدنا الدستوري و غيرها من الأقطار و الأمصار التي يتكلم أهلها بالعربية، تتجرأ على إصدار الصحف بدون حساب و لا روية، و أدركنا العامة أجراً من الخاصة على اقتحام هذا المركب الصعب، و ليس لديهم في الأغلب من وسائل النجاح كبير أمر، فلا يلبث ما ينشئون أن يظهر إلى الوجود حتى يختفى اضطرارا لا اختيارا. و هذا هو السبب في تعدد الجرائد و قصر أعمارها و اشمئزاز

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٤

الناس منها، إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آله للتكسب و التدجيل لا أداة للوعظ و الإرشاد و التعليم. «ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة، فلم يعهد معلم في التجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة و يتصدر للاعتياش منها و هو لا يعرف من أسرارها سرا، و لكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها العلم و التجربة و المال، قد رأينا أناسا من الأعمار يدعون به بدون خشية و أكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد و المجلات دع تأليفها و إصدارها.

«كان جمهور الناس إلى عهد قريب يشارك الأطباء في طبهم، فترى الكبير و الصغير إذا عرض لهما مريض من خاصتهما و معارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه، مدعين أن ذلك من مجرباتهما أو مجربات أصحابهما، و لما كثر الأطباء و استنارت الأمة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الأطباء في طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة. أما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها و ليست منهم، و يصنفون للأمة أدوية تقيها الأسواء و الأرزاء، و يعترضون على العالمين و الحاكمين و السلاطين بلا خشية و لا حياء، كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح، أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية، يتعلمها المرء بالذوق و توحى إليه إيحاء.

«من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها في أخلاقهم و معارفهم و قد شانوا اسمها و عبثوا بجمالها، تذرعا إلى مطعم ينالونه، وصيت بالباطل يحصلونه، و مقام عال ينزلونه. نعم لم نشهد العطار بيطارا، و لا الإسكاف نجارا، و لا الحطاب رساما، و لا الفحام نظاما، و لا الجوهري حجاما. و لكن شهدنا الفلاح صحافيا، و المتشدد مؤلفا، و الثرثار محاميا، و المكثار خطيبا. كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجارة الأذكاء، و الفقراء يقلدون الأغنياء.

«بيد أن سنن الفطرة التي لا تغالب، و نظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل. يعاقبان المعتدى على ما لا يعلم بما جنته يده، كما قيل في الأمثال الإفرنجية كل خطأ يحمل عقوبته فيه. و ندر جدا في الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة، و نسج حلل مجدهم بأيديهم.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٥

رأينا كثيرا و لا سيما في مصر و الشام التصقوا بالصحافة و أنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا، و رجعوا بعد العناء الطويل و خسارة

المال صفر الأيدي خائبين، لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلي، ولأن التمويه إن صعب في عمل فهو في الأعمال العلمية أصعب ... «و لقد شاهدنا عيانا أن معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقتين خاصة هي التي قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة و تدرّبوا في السياسة و تذوقوا لماظة من العلوم التي لا يسع صاحب جريدة و مجلة جهلها. و معظم من لم يخادهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم و قلّة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر. و لو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للأعمال، لوضع في قانوننا بند يلزم كل من تصدر لمعانة صناعة القلم، أن يمتحن في الفن الذي يخوض عبا به، كما يمتحن المتطّبون و الصيادلة، فإنشاء الصحف إن لم يكن أحقّ بالعناية من معرفة الأمراض و العلل و العقاقير، فلا أقل من أن يكون على مستواها، فكم من جاهل قتل نفسا زكية، و من صحافي جرع قراءه السم الزعاف، على حين ينتظر منه الترياق النافع».

هذا ما قلناه و نزيد عليه أن الإحصاء أو الاختصاص العلة الأولى في نجاح الغرب في صحافته يجب أن يكون له في صحفنا المقام المحمود، و في اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين و الكتاب و السياسيين دخلت مصر في حياة جديدة، و هذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض أبنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب و الصحافة. و من أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام «المشرق» «مجلة المجمع العلمي العربي» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبي» و من المجلات المحتجبة «الرئيس» «الطيب» «المقتبس» «الآثار» «الكلية» «الحارس» «الخدر» «المرأة الجديدة» و من صحفنا اليومية «لسان الحال» «الأحرار» «القبس» «ألف باء» «فتى العرب» «الرأي العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الأحوال» «النهار» «النضال» «الكفاح» «الأيام» إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية و منها الجدى و الهزلي المصوّر و غير ذلك.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٦

و بعد فالواجب على الصحافي قبل كل شيء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشيها، و أن يكون قادرا على النقل و الاحتذاء من أفكار الغربيين، أي عارفا بلغة أو لغتين من لغات السياسة و العلم، و أن يكون ممن عانى البحث ملما بالقوانين الدينية و الزمنية و تاريخ الأمة و لا سيما تاريخ هذا القطر عارفا بالاقتصاد و الاجتماع و حياة الأمم و تاريخها و ثوراتها و نهضاتها و نقاباتها و ألوان أحزابها و أوضاعها كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه. أما المباحث المالية و الزراعة و التجارة و الفنون و الأدب و الشعر و الآثار و التاريخ و غيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار و بث الصحيح منها، فيجب أن يوكل شأنها لأهل الإحصاء من العارفين بها. و بذلك يصح أن يقال إن لنا صحافة راقية، و ما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة في مادتها و أخبارها و أفكارها و إذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه، فهناك البلاء الذي يحول دون الرقي.

الطبعة و الكتب:

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد، إلا في القرن السابع عشر، و من أوائل الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف و قانون ابن سينا، و قام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة (١١٤٥) و طبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفا خلال ستين سنة و أكثرها ديني و هي مطبعة يدوية على الحجر، و قد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (١٦١٠ م)، و دخلت الطباعة الاستانة سنة (١١٣٥ هـ) و أول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن عشر، بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات و الرهينات الدينية من الغربيين، و إلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أسست سنة ١٨٣٤ م و اليسوعية ١٨٤٨ م) التي كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة و الدعاية إلى

إنجيل المسيح في هذا الشرق

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٧

القريب بين أبناء العرب، ثم خدمة التهذيب و الثقافة الإنكليزية و الفرنسية و بعد ذلك تعليم شىء من العربية. و الكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدأ الذي يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته. ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت، و قلّ جدا فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة و لاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة. طبعت قصصا معربة و أشعارا و دواوين قديمة و حديثه و كتب دينية و رسائل علمية في المعارف العامة و قليلا- من كتب العرب التي لا- يزال ألوف منها محفوظا في خزائنا و خزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه و وجود العناية به من حيث التصحيح و التعليق. و نحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم و تتعلم منهم. و لو لا ألوف من كتبنا طبعت في مصر و الإستانة و الهند و أوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم و الآداب القديمة، ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعه بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث، لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولا، و أرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم، و الجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد إقباله على الهزل، و لا يقدر أن المنفعة له في الصعب قبل السهل، و أكبر الظن أن كثيرا من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم في الفكر و التعلم.

و لقد شاهدنا أناسا من الغير على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها، و المؤلف غير التاجر، ثم هم لم يجدوا في الأغنياء و الحكومات من يناصرهم و لو باتباع نسخ معدودة من كتبهم. و رأينا أناسا طبعوا كتبنا سخيفة من تأليفهم فوجوها هم أو أحبابهم بالتجبية و القحة فدرت عليهم أرباحا لا يستهان بها. فلا عجب إذا أصبح الطابعون و المصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة و لو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم و الأدب التي لها قراء مخصوصون لزداد عدد الراغبين في المسائل الجدية أكثر من الآن و لارتفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع.

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم في عهد ارتقاء العلم في العرب، و قل أن طبع كتاب بذاك الإتقان الذي تطبع

خطط الشام، ج ٤، ص: ٨٨

به الكتب في أرض المدينة اللهم إلا- في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسرت لأنها لجماعات لا لأفراد. و ما عدا عشرات من الكتب التي طبعتها في بيروت خاصة علماء المشرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع و النشر. لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجا في إتقانه و وضعه و تأليفه. و غاية ما نشره كتب قصص و كتب مدارس ابتدائية أو أشعار أناس تهجموا على التأليف تهجما، و لما يستعدوا له الاستعداد الكافي، و لم يجودوا مصنفاتهم بإنضاجها بالبحث و التنقيب، و إيراد الطريف من المباحث.

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة، و لو لا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا، و ما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب، و لو لا ما طبعته جمعيات المستشرقين في ممالك أوروبا و أميركا لفاتنا الوقوف على أمور كثيرة في مدينة العرب و تاريخهم، و إلى اليوم لم تبلغ مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب، و بعضها باتقان زائد في الطبع، كمطبوعات المطبعة الأميرية و دار الكتب المصرية و مطبعة جمعية التأليف و الترجمة و النشر مبلغ مطبعة ليدن و لبيسيك في الإجابة، و لا سيما في الفهارس و الشروح و الهوامش و الأمانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا و عنهم يجب أخذه

تأملنا مليا فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية موقته إلا قليلا، تخدم فكرا خاصا و لا يتوقع منها إلا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة، و معظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون، و منهم من لا يجيد الترجمة، و كم من تأليف

نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف ورداءة الطبع. و مع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الأولى أى فى أواخر القرن الماضى أكثر من اليوم، و لقد تسربت روح التفرنج إلى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية، و غدوا لا يهتمون إلا بالأخذ من كتب اللغة التى يحسنونها من لغات الغرب، و فى الغالب تكون الفرنسية أو الإنكليزية و قلما رأينا رجلا كفوءا من هؤلاء الذين لا- يعتمدون على غير كتب الإفرنج أن نقل، لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بنى قومه، موضوعا نافعا لهم فى اجتماعهم و صناعتهم و تمدنهم، لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية.

خطط الشام، ج٤، ص: ٨٩

و قد زاد فى رداءة التأليف المطبوعة كون المؤلفين، و منهم الوسط فى علمه و تأليفه، يخافون نقد الناقدین عليها، و كون بعض الصحف و المجلات تصانع فى الأ- كثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين، و تدهن دهانا عجيبا لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة و المجلة أو على مشربه السياسى!.

أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية.

و لذلك استشرى الفساد و ظن كل من طبع شيئا أنه خدم الأمة خدمة صالحة.

و النقد الذى هو من أهم الذرائع فى السير نحو الكمال إلى بحايح المدنية مما لا يؤبه له، و ربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين و المؤلفين. قسم السيد أسعد داغر من يعرضون فى سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة و تأليف و تصنيف إلى فريقين فريق المحترفين و فريق الهواة، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شر المترب، و يعيشوا من شق تلك القصة، و الهواة هم الذين يشتغلون بالعلم و الأدب لأن لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب، و رغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح و المكاسب، و معظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم و مؤلفاتهم و ينظرون إلى الانتقاد و المنتقد بعين الشانئ الكاشح.

ليس فى كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، و هو عصر النهضة عندنا، سوى كتب قليلة تستحق العناية و تستوقف القارئ للأخذ منها مثل كتب محمد عابدين، أحمد فارس، فاندريك، ورتيات، پوست، پورتر، لامنس، شيخو، مشاقفة، إبراهيم اليازجى، إبراهيم الحورانى، طاهر الجزائرى، عبد الرحمن الكواكبي، سعيد الشرتونى جمال الدين القاسمى، رفيق العظم، شبلى شمىل، شكيب أرسلان، نجيب الحداد، يعقوب صروف، عيسى المعلوف، إسعاف النشاشيبي، إبراهيم الأحذب، يوسف الأسير، بطرس و سليمان و عبد الله البستاني، أحمد حمدى الخياط، مرشد خاطر، جميل الخانى، شفيق جبرى، سليم الجندى، خليل مردم بك، أمين الريحانى، خليل سعادة و أضرابهم ممن أبرزوا تأليف منقحة، و فى بعضها إبداع و إيجاد، و ذلك لأنهم هضموا العلوم التى عرفوا بها، و جاءوا بالجديد، و فيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة.

خطط الشام، ج٤، ص: ٩٠

الفنون الجميلة

تعريف الفنون الجميلة:

الفنون الجميلة أو الصنائع النفيسة، و أسماها بعضهم نواضر الفنون و قيل إن العرب أطلقوا عليها اسم «الآداب الرفيعة» هى الصنائع التى من شأنها إدخال السرور بجمالها و جلالها على النفوس البشرية، و تربي ملكة الذوق و الشعور، و هى سبعة أقسام: الموسيقى، الغناء، التصوير، النقش، البناء، الشعر و الفصاحة، الرقص. و أرجعها بعضهم إلى ثلاثة فروع فقط: التصوير و الشعر و الموسيقى.

و لقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقعتها و طاقتها، و ربما تم فيها أشياء لم تصلنا أخبارها، أما الدول التى تعاقبت على الشام بعد الإسلام، فإن ما وصلنا من أبناء هذه الفنون فيها قد تعرض له كاتبه بالعرض كأن يكون المشتغل

بالموسيقى أو التصوير مثلا إذا مشاركة في فنون أخرى من أدب و شعر، و طب و فلک، و حديث و فقه، أو أن القوم دونوا عامة سير الموسيقيين و المغنين و المصورين و النقاشين مثلا فضع ما دونوه في جملة ما ضاع من أخبار حضارتنا.

الموسيقى و الغناء:

نشأت الموسيقى مع البشر و لازمتهم في جميع ما عرف من أدوارهم في حياتهم الخاصة و العامة، و في مظاهر سلمهم و حربهم، و سعادتهم و شقائهم، و أفراحهم و أتراحهم، و سفرهم و حضرهم، و تعبهم و راحتهم، و دينهم و دنياهم و المرء من طبعه أن لا يستغنى عن رفع صوته، ليطرب نفسه و جليسه، و قلبه

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩١

يصبو بالفطرة إلى سماع أوتار تهزه و تطربه. فالموسيقى تجمع الحواس و تنشط لها النفوس، و بها يجسر الجبان، و يعطف اللثيم، و يرقّ الكثيف، و يلين القاسى و يقوى الضعيف، و يكف الظالم، و يعتدل المائل، فهي مدعاة السرور، مجلبة الطرب، مسلاة الحزين، مفرجة الكرب، مهوئة الخطوب، عنوان الحياة الداخلية، مظهر الأخلاق القومية، مصورة الانفعالات النفسية، أصدق عامل على التحمس، أقوى دافع إلى النهوض و التحسس، معلمة أنفع الدروس الشريفة مذكرة بالمطالب العالية، فيها يتجلى العقل البشرى بإشارات و حركات، تعمل عملها في الأفتدة و الوجدانات.

و لقد ثبت أن العنصر السامى من أكثر العناصر و لوعا بالطرب و الخيال، و قيل: إن الحثيين من أقدم شعوب الشام كانوا أقل عناية بالموسيقى و الغناء من جيرانهم البابليين و الأشوريين و الآراميين، و مع هذا كان لهم من الغناء ما ابتدعه بفطرتهم، و منه ما أخذوه من مجاورهم. و كان الآراميون مولعين بالغناء و الضرب بالإيقاع على آلات لهم يوقون بها و يزمرون، و يطربون بها فيطربون، و هى بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التى سبقتهم إلى سكنى هذا القطر.

و مثل هذا يقال فى الفينيقيين الذين اقتبسوا مدينة الفراعنة، و هم من أصل سامى، فإنهم كانوا يعرفون الموسيقى، و منها ما نقلوه عن المصريين لتمازج مدينة السلائل المصرية بمدينة فينيقية الصغيرة، و إذ كان للمصريين عناية فائقة فى معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التى مثلت بها الضاربين و المغنين، تعلم جيرانهم أهل فينيقية بعض هذه العناية، و لكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها، و يقال ذلك فى الكنعانيين و الإسرائيليين فقد أولعوا بها و ظهرت آثارها فى معابدهم و بيعهم، و أمام أربابهم و معبوداتهم، و فى حروبهم و غاراتهم و أعيادهم و مآتمهم و اجتماعاتهم، على ما فهم من نصوص التوراة. و مزامير داود مشهورة مذكورة، و الآلات التى اشتهرت عند الشعوب القديمة و عانت استعمالها، ترجع فى الأكثر إلى شبابه و بوق و صنج و طبل و دف.

و لقد دلت بعض النقوش التى عثر عليها فى وادى موسى و جرش و تدمر أن العمالقة و النبط و العرب لم يكونوا أقل من الشعوب التى سبقتهم إلى نزول هذه الديار و لوعا بالتلحين و الإيقاع و الضرب على القيثارة و النفخ بالمزمار، و قد

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٢

نقل اليونان و الرومان إلى هذا القطر موسيقاهم و أصول غنائهم على الأرجح كما نقلوا أربابهم، و اقتبسوا أربابا مع أربابهم، و إذ طال عهد دولتهم كثيرا تأصلت موسيقاهم، و ثبتت مصطلحاتهم، و ربما نقلوا بعض مصطلح الأمة التى حكموا عليها فى غنائها و موسيقاها. و لما انتشرت النصرانية فى الشام فى القرن الثالث للميلاد عنى منتحلوها بالموسيقى فى كنائسهم عناية اليهود بها من قبل فى بيعهم، و إذ اقتبست النصرانية كثيرا من عادات الروم و مصطلحاتهم لم تقصر فى اقتباس الموسيقى و التلحين و الغناء لثبوت فوائدها الروحية.

و لما جلت بعض القبائل العربية إلى الشام يوم سيل العرم و قبله و بعده، حملت معها ما ألقت أن تفرغ إليه من اللحن، و تضرب عليه من الآلات، حتى إذا كان الإسلام، و كانت مدينة الفاتحين إلى السداجة و الفطرة، و كان غناؤهم لا يتعدى الحداء و الإنشاد يوم الغارة و الحفل، و فى ظل الخيام و الآطام، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية.

وقال بعض العارفين: كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط. وزعم بعضهم أن أخذها كان من الرومية أكثر. ولا يعقل أن يتأخر العرب في نقل الموسيقى إلى القرن الأول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون، ولهم من فطرتهم ومناخ أرضهم أعظم دافع للولوع بها، وهم المعروفون بحب الارتحال وكانت لهم صلات مع جيرانهم من الأمم الأخرى منذ الزمن الأطول «و لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب».

ومع هذا فنحن مضطرون أن نشاي القائلين بأن أول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ابن مسجح، نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتعلمون في مكة والمدينة، ومنها ينتقلون إلى الشام والعراق ومصر وغيرها من الأصقاع التي استطلت براية الإسلام. وفي الأغاني أن سعيد ابن مسجح أبو عثمان مولى بنى جمح وقيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، مكي أسود مغن متقدم، من فحول المغنين وأكابرهم، هو أول من وضع الغناء منهم، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام، وأخذ ألحان الروم.

وقيل: إن أول من أخرج الغناء العربي جرادة، جارية ابن جدعان وفيه نظر

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٣

فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتى كان من جملة مغنياهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال غنته الجرادتان. وكان النصر بن الحارث بن كلدة أول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان يتغنى أيضا.

وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعى إليها حسان بن ثابت في آل نبيط وقد أتوا بجاريتين إحداهما راقية والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضربا عجيبا وغنتا بقول حسان:

انظر خليلي بباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

ورواية حسان نفسه أنه كان في الجاهلية مع جيلة بن الأيهم، وقد رأى عنده عشر قيان: خمس يغنين بالرومية بالرباط (الأعواد) وخمس يغنين غناء أهل الحيرة، أهدهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها. في ذلك كله إشارة إلى أن الغناء العربي في الشام أقدم من الإسلام.

موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها، وهي مظهر من مظاهر حياتها، فلا يعقل أن تخلو أمة من روح حتى تجيء أمة أخرى فتقبسها روحها. ولكن الأمة إذا اختلطت بأخرى، وكان عند الثانية فضل على الأولى في شيء، وفي الثانية طبيعة الاقتباس و مرونة على الاحتذاء والتشبه، قد تحمل الأولى إلى الثانية ما ينمي فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها.

ولقد زعم بعضهم أن الإسلام لم يحل الموسيقى محلها اللائق بها، وادعى بعضهم أنه حرمها، فكان الحظر أسهل من الإطلاق في نظرهم، بيد أن الإسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل، إلا أنه لا يقول بالإفراط في شيء حتى ولا بالعبادة، لأنه يكون قد دعا إذ ذاك إلى البطالة واللغو، وهما مخالفان للشرع، وبذلك تكون الموسيقى وبالاعلى من يأخذ نفسه بها، ومصيبة على من ينصرف إلى سماعها، ولو صح ما قالوا فلماذا رأينا جلّة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا، وسمعوا الألحان وطربوا لها، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت، هل كان يجرأ أحد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد، قال عبد الله بن قيس: كنت فيمن يلقي عمر مع أبي عبيدة مقدمه الشام، فبينما عمر يسير إذ لقيه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والزّيحان فقال عمر:

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٤

امنعوهم فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، أو كلمة نحوها، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم. والتقليس الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم المصير بأصناف اللهو. وقيل المقلس هو الذي يلبس القالس أو القلنسة وهي أشبه بقبعات الروم.

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كان في جملة ما دخل إليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبدل، ولقد روى المبرّد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه، فلما أصبح قال ليزيد: من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد: ذاك سائب خاثر، قال: إذا فأختر له من العطاء. وقالوا: إن معاوية قال لما دخل على ابن جعفر يعوده فوجده مفيقا وعنده جارية وفي حجرها عود: ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال: هذه جارية أروّيها رقيق الشعر فتريده حسنا بحسن نغمتها قال: فلتقل، فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب.

أليس عندك شكر للذي جعلت ما ابيض من قادمات الريش كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه ريب الزمان و صرف الدهر و القدم

فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر: لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين قال: كل كريم طروب.

ورأينا بعض خلفاء بني أمية في دمشق و أمراءهم و ساداتهم، يضعون ألحانا و يسمعون الغناء و يولعون بالموسيقى، و يجيزون أربابها و يواسونهم من غير نكير:

و منهم عمر بن عبد العزيز، و ناهيك به من كامل، في جميع الفضائل. فقد دوّنت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها، و كان أحسن خلق الله صوتا. قال أبو الفرج: و أما الألحان التي صنعها فهي محكمة لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة و حذق في الغناء. و ممن صنع في شعره غناء يزيد بن عبد الملك الأموي و ممن غنى و له أصوات صنعها مشهور و كان يضرب بالعود و يوقع بالظبل و يمشى بالدفع على مذهب أهل الحجاز، الوليد بن يزيد. و قد ذكروا أنه كان للخلفاء من بني العباس غناء، و منهم من كان يضرب بالعود، و من خلفاء العباسيين السفاح و المنصور و الواثق و ابن المعتز و المعتضد و كثير غيرهم من أبناء الخلفاء، دع سائر الطبقات من أهل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٥

الرفاهية و السعة، ممن كانوا في كل زمان ينشطون إلى سماع الأغاني، و يبرون الرجال و النساء من أرباب الموسيقى و الغناء، و يغالون بابتغاء الجوارى اللاتي حذقن الغناء، و برعن في الموسيقى و شدون شيئا من الأدب.

و كانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجوارى. و السواذج منهن أي غير المثقفات دون من عنى أولياؤهن بثقافتهم في الرتبة و القيمة مهما بلغ من جمالهن، و الموسيقى و الشعر في مقدمة ما كان يطلب منهن. و ذكر المسعودي أن كثيرا من الجوارى اشتهرن بالغناء بالمدينة، و كان يقصدن بعض الناس من بغداد، و ربما وافى الواحدة و جوه أهل المدينة من قريش و الأنصار و غيرهما، و منهن القارئة القوّالة، و لم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة و لا فاحشة. و كان لبعض الموسيقيين و الموسيقيات و المغنين و المغنيات من أرباب النباهة و الفضل، يد في إصلاح بعض الأحوال و تخفيف النوازل عند العظماء، و لطالما ارتجلوا ألحانا و أبياتا ظاهرها طرب و غرام و سلوى، و باطنها عظ و عبرة و تعريض، ذلك لأن الموسيقى عندهم كانت على الأغلب مرافقة للشعر و الأدب، و كم من شاعر تدفقت الحكمة على قلبه، و جاش بها صدره، فهذب نفسا بل نفوسا بأبيات يقولها.

جاء أبو النصر الفارابي الفيلسوف إلى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان فأدهشه و من عنده من الموسيقيين على إتقانهم لها، و أقام في دمشق و مات فيها، قال ابن أبي أصيبعة: إن الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى و عملها إلى غاياتها، و أتقنها إتقانا لا مزيد عليه، و إنه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحانا بديعة، يحرك بها الانفعالات، و يحكى أن القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من وضعه، و أنه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم. و قد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة بن حمدان مع الوزير المهلبى للاستئثار بمغنية أديبة مشهورة اسمها الجيداء ما يدل على و لوع القوم بالموسيقى، و كان لجيداء في مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان و الأدب البارع ما اشتهر أمره، و في عصره اشتهرت في انطاكية المغنية المشهورة «بنت يحنا».

و لم تبرح الشام تخرج من رجال الموسيقى و الغناء رجالا كانوا بهجة

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٦

عصورهم، ومنهم أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين من أهل القرن السادس، كان يعرف الموسيقى و يلعب بالعود، و يجيد الإيقاع و الغناء و الزمر و سائر الآلات، عمل أرغنا و بالغ في إتقانه و حاول أيضا عمل الأرغن و اللعب به أبو زكريا يحيى البياسي من أطباء الناصر صلاح الدين.

و كان من البارعين في هذا الفن من العلماء قسطا بن لوقا البعلبكي و عبد المؤمن بن فاخر و نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالم و فخر الدين الساعاتي. و كان رشيد الدين بن خليفة أعرف أهل زمانه بالموسيقى و اللعب بالعود، و أطيبهم صوتا و نغمة حتى إنه شوهده من تأثير الأنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي، فكثير إعجاب المعظم به جدا و حظى عنده. و منهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين بن يونس في الموصل.

و كان أحمد بن صدقة طنبوريا مقدما حاذقا حسن الغناء و محكم الصنعة، و كان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل إلى بغداد و أجزل صلته. و كان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بناغمة في هذا الفن حملوه من القاصية و أغدقوا عليه الهبات ذكرا كان أم أنثى، و لهم في ذلك نوادر إن لم تصح كلها ففي بعضها إشارة إلى ما كانوا فيه من حب هذا الفن.

و منهم الجمال البستي كان يلعب بالجفانة (الأصل الصغانة و هي القيثارة) ولى خطابه جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ و كان يتهم باستعمال الشراب، و صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل. فكتب إليه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينية الرحبي أبياتا، يعرض بها بالرجلين و يرجو أن يعاد جامع التوبة إلى ما كان عليه محله من قبل، و هو خان للفسق و الفجور، لأن حظه حتى بعد أن صار جامعا أن يتولاه موسيقار، و شرب عقار، فقال:

خطط الشام، ج ٤، ص: ٩٧ يا مليكا أوضح الحقّ لدينا و أبانه

جامع التوبة قدقلدني منه أمانه

قال قل للملك الصالح أعلى الله شاناه

يا عماد الدين يا من حمد الناس زمانه

كم إلى كم أنا في ضرو بؤس و إهاناه

لى خطيب واسطى بعشق الشرب دياناه

و الذى قد كان من قبل يغنى بجفاناه

فكما نحن فما زلنا و لا أبرح حاناه

ردّنى للنمط الأول و استبق ضماناه

و كان محمد بن على الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعرا موسيقيا ملحننا قانونيا دهانا، و كان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه، وصفه عبد الرحمن بن المسجف (٦٣٥) الدمشقي فقال:

لو كنت عاينت الكمال و جسّه أوتار قانون له فى المجلس

لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى و فى اليمنى حياة الأنفس

و ذكر ابن حجر فى أخبار سنة (٧٧٩) أن دنيا بنت الاقباعى المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم فى صناعتها، فاستدعاها الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها، ثم وفدت على الأشرف فحظيت عنده، و هى كانت من أعظم الأسباب فى إسقاط مكس المغانى، سألت السلطان فى ذلك فأجابها إليه، و استمر إبطاله فى الدولة. و اشتهرت فى القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخايلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرمية و هى التى كانت مع عرب آل مرا يوم وافوا دمشق لحرب التتر فى زهاء أربعة آلاف فارس، فكانت تغنيهم من اليهودج سافرة و كانوا يرقصون بتراقص المهارى و تقول:

و كنا حسنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جذاما و حميرا

و لما لقينا عصبه تغلبية يقودون جردا للمنية ضمرا

(٧-٤)

خطط الشام، ج٤، ص: ٩٨ فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

سقيناهم كأسا سقونا بمثله و لكنهم كانوا على الموت أصبرا

و منذ الزمن الأطول إلى أيامنا ما خلت الشام من عوادة و طنبورية و كراعه و ربابيه و صناجة و رقاصه و زفانه. و لم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين و العباسيين و من بعدهم من المماليك و غيرهم من مبرزين في الغناء و الموسيقى. و اشتهر في دمشق بضرب القانون و كان أستاذا فيه أحمد التلعفري (٨١٣) كان كاتب المنسوب. و من النابهين ابن القاطر الدمشقي من أهل القرن الحادى عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فإذا حضروا معه مجلسا عظموه و تراخوا في العمل حتى يشير إليهم، ذكر ذلك المحبى و ترجم له و لرجب بن علوان الحموى و قال: إن هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها و هو أعرف من أدركه و سمع به، و له أغان صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن. و منهم برسولم الحلبي رئيس أطباء الدولة العثمانية و نديم السلطان محمد بن إبراهيم كان حسن الصوت عارفا بالموسيقى. و اشتهرت أسرة بنى فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر و الآداب و قد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى و هما جمال الدين و عبد الرحمن.

و فى تراجم أهل الغناء الذى كتبه الكنجى المتوفى سنة ١١٥٠ هـ ترجمه ستة و عشرين مغنيا من معاصريه فى دمشق و فيهم المؤذن و المنشد فى الأذكار و المغنى على الآلات الموسيقية، مما يدل على الإقبال على الموسيقى حتى فى عصر الظلمات فإذا كانوا فى عصره على هذا القدر فى دمشق فقط فكم كان فى حلب و غيرها من المدن، و حلب مشهورة من القديم بغرام أبنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان، دع الموسيقىات و المغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحرى فى حلب التى ذكرها كثيرا فى شعره الخالد.

و من الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب و هم المحترفون، و منهم من كان يخدم هذا الفن المهم حبا به و هم الهواة، و من هؤلاء طبقة من الرجال و النساء لا يستهان بها و لكنها كانت و لا زالت متكتمة، و منهم من تستعمل من الموسيقى أو تسمع منها ما لا يعبث بوقارها إن كانت من أرباب

خطط الشام، ج٤، ص: ٩٩

المظاهر الدينية أو الدنيوية مخافة أن ترمى بما يثلم الشرف، لأن بعض الفقهاء شددوا على الغناء و الموسيقى، و كان بعضهم يعد ساقطا من العدالة كل من يغنى بأجرة من الموسيقيين و المغنين، و يتسامحون مع من يغنى فى جماعه من أصحابه، و يعدون الغناء فنا يفقر صاحبه، و جاء فى الأمة مثل شيخ الإسلام عبد العزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) و كان على نسكه و ورعه يحضر السماع و يرقص و يتواجد و الناس تقول فى المثل «ما أنت إلا من العوام و لو كنت ابن عبد السلام».

و صناعة الغناء كما قال ابن خلدون: آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية، و أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله و تراجع.

و لقد أدركنا و أدرك أجدادنا أن الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين، و كل مجلس من مجالسهم أو سهره من سهراتهم، أو نزهه من نزهاتهم، كانت تضم أناسا أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة، فكان السرور يملأ القصور و الدور، و الموسيقى و الإنشاد من الأمور المألوفة لا يستغنى عنها بحال، أما فى القرى و البوادي فكان لهم الغناء و الحداء، و ضرب الرباب و القيثارة و المزمار و الدف و الكوبة، أى أن لهم ما يطرب آذانهم و ترتاح إليه أرواحهم و تسهل معاناته و ممارسته، و من مشاهير الموسيقيين فى النصف الأول من القرن الماضى محمد السؤالاتى الدمشقى أخذ عنه أرباب الموسيقى فى عصره من المصريين و

الشاميين ذكره في سفينة الملك.

و من أهل المظاهر الذين عرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن الشيخ أبو الهدى الصيادي من حلب و عبد الرزاق البيطار من دمشق و كانا من أساتذة هذا الفن الجليل، و منهم من عنوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال. أحمد السفرجلاني. على حبيب. عمر الجراح. عبد القادر الحفني. محيي الدين كرد علي. سامي الشوا. رحمون الحلبي. توفيق الصباغ. على الدرويش. باسيل الحجار. محمد الشاويش. نجيب زين الدين. مصطفى سليمان بك. شفيق شبيب. محمد علي الأسطه. رضا الجوخدار. مصطفى الصواف حمدي ملص. رجب خلقي. يوسف الزركلي. محمد الأنصاري، محمد محمود الأتاسي. ميشل الله و يردى. مدحت الشرجي. اليكسي بطرس. اليان نعمه.

إسكندر معلوف. بولس صلبان. نصح الكيلاخي. تحسين يوقلمه جي. عباد الحلو. طلعت شيخ الأرض. حسن التغلبي. جميل البربير، أحمد التنير. أمين

خطط الشام، ج٤، ص: ١٠٠

النقيب. محيي الدين بعيون. و ديع صبرا. عزت الصلاح. قسطندي الخوري.

أحمد الشيخ. محمد الجراح. إبراهيم شاميه. فريد الأطرش. و غيرهم ممن جعلوا الموسيقى حرفة أو للتسليه في خلواتهم و منهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة و الموسيقى الجديدة. و من المنشدات المطربات فريدة مخيش. رمزيه. جمعه. خيريه السقا. نادرة. سارينا. فيروز. أسمهان الأطرش. ماري جبران. ماري عكاوي. لور دكاش.

و لقد أنبغت بيروت و حلب كثيرين من المغنين و الغالب أن في هاتين المدينتين خاصيه حسن الصوت. سألت صديقنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن المغنين و الموسيقيين في بلده فكتب لي رساله قال فيها:

إن حلب لا تخلو في أكثر أوقاتها من الشدها و المترنمين الذين يعدون بالمثات و يعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائهم أجره باسم ابن الفن، و من رجال أواسط القرن الماضي مصطفى يشبك، فتح ناديا لممارسه الفنون الموسيقيه دعاه بقاعه بيت مشمشان، كان يختلف إليه في أوقات معينه كثير من المولعين بالموسيقى ليتلقوها عن أستاذها. و ما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه دواعي الطرب فيقولون: (و لا- قاعه بيت مشمشان). و من رجال أواسط القرن الماضي عبد الله البويضاتي و من رجال القرن الماضي و أوائل القرن الحالي محمد بن عبده. إسماعيل الشيخ. جبرا الأكشر. آجق باش. طاهر النقش.

محمد الوراق. الدرويش صالح قصير الذيل. محمد غزال. باسيل حجار. أحمد سالم. أحمد بن عقيل. و ممن أخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد أحمد أبو خليل القباني الممثل الموسيقار الدمشقي و السيد عبده الحمولي المطرب المصري هما من المشاهير. و من تلامذته امرأه قنصل إيطاليا في حلب كانت تقول إن السيد أحمد بن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوربا قال: و من الأحياء في حلب عبده بن محمد عبده و شرف الدين المعري و من قينات القرن الماضي و أوائل القرن الحالي الحاجه عائشه المسلمينيّه.

و قال: إن العود المعروف بالبربط لم يكن معروفا في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة (١٢٩٣ هـ) رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ

خطط الشام، ج٤، ص: ١٠١

الناس عنه. و من العازفين على الكمنجه أوائل هذا القرن شعيا الكمنجاتي و إسحاق عدس و نيقولاكي الحجار. و من الأحياء سامي الشوا و والده أنطون موسيقار أيضا. و العازفون بالناي المعروف عند العرب بالبراعة كان نابغه فيه أوائل القرن عبده زرزور و كل من في حلب اليوم خريجوه و تلاميذه ه. و من الموسيقيين الحلبيين أيضا عبد الكريم بله و حبيب العبديني و أحمد مكانس و عمر

البطش و مصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن.

و لقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي لأنها خدمت أكثر من موسيقانا، ثم جاءت الموسيقى الإفريقية، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجا لا يقام له وزن، لم يحتفظ بالقديم و هو من روحه و عاداته و لم يحسن اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه. و لا يفوتنا القول إن الموسيقى في العصور المتأخرة كان لها في أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع. و منهم من أتبعها بالصنوج و الأوتار، و منهم من شفعها برقص، و قد قام منهم مبرزون في صنعتهم، و ماتت شهرتهم، يوم سكنت نأمتهم، و الموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية و تباين العصور، ما زالت شائعة معتبرة و كم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقى بفضلها إلى أرقى درجات الكهنوت.

التصوير:

أخذ الحثيون التصوير على الأغلب كما أخذوا النقش و البناء عن جيرانهم من البابليين و الأشوريين، و ربما أخذوا عن المصريين أيضا، لكنهم لم يجودوه كل الإجادة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة، و خالفنا رأى بعض المشتغلين بآثارهم المعجبين بمدنيتهم، فإن الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس تدل على مبلغ تلك الأمة من الإتقان في النقش و التصوير. و قد قال لنا الاستاذ هروزني التشكى و هو إحصائي آثار الحثيين: إن عادياتهم مما يعجب منه، و لا تقل بجمالها عن بقية آثار الأمم الأخرى، و كذلك فعل الكنعانيون و الفينيقيون و الإسرائيليون، أخذوا عن آشور و بابل و مصر هذا الفن، و لم يعرف أنه كان لهم طرز خاص في التصوير، و كانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم. أما

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٢

التدمريون فأجادوا في تصويرهم و كانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال و النساء، مثل أهل جنوة في إيطاليا في العصور الأخيرة، و منها صورة جارتين رأهما أوس بن ثعلبة التيمي في القرن الأول و قال فيهما أبياته المشهورة:

فتاتي أهل تدمر خبراني ألما تسأما طول المقام

قيامكما على غير الحشاياعلى جبل أصم من الرخام

و في دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق، و منها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف الشعور في ذاك العصر، و كيف كانت أزياء نساء تدمر و بهرجة رؤوسهن و أفراطهن و عصبتهن، و فيما ظهر مؤخرا في مدينة تدمر من تماثيل صاحبها زينب و وصيفاتها و في غير ذلك من الشخوص دليل على تبرز التدمريين في هذا الشأن.

أما التصوير عند الروم و اليونان في الشام فإن منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي: لم يبدع التصوير إبداع الروم و الرومان أحد من الأمم، فقد كان لهم إغراب في خرط التماثيل و إبداع في عمل النقوش و التصوير، حتى إن مصورهم يصور الإنسان و لا يغادر شيئا إلا الروح، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكا، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت، و ضحك الخجل، و بين المتبسم و المستغرب، و بين ضحك المسرور و ضحك الهازئ، فيركب صورة في صورة، و صورة في صورة.

و المصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الأعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتية الكبيرة المنقولة عن نباتات القطر و لا سيما في فلسطين على عهد الملوك و القضاة و منها ما يستعمل فيه صور الطيور.

قال دوسو: إن في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الأيام، و أحيانا تمثلهم و هم يطاردون غزالا- أو و علا- أو يصطادون أسدا، و منهم الفرسان يحملون الرماح و المشاة مسلحون بالقوس و النشاب. و لقد غصت فلسطين على عهد الامبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر بالحوادث الخطيرة التي وردت في الإنجيل و قد زينت هذه المصانع بالفصوص التي تمثل هذه المشاهد.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٣

جاء الإسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام، فحاذر المسلمون إذا أجازوا الرسم المجسم أن يكون في عملهم مدرجة للعرب إلى الرجوع إلى عبادة الأصنام، فجعلوا في التجويز بعض القيود الخفيفة، ولما ذهبت تلك الخشية أخذت مسألة التصوير تنحل شيئا فشيئا ويعمد إلى ما فيه مصلحة منه. ذكر المقریزی أن الرسول عليه السلام أقر نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد إليهم من الممالك الأخرى و الدنانير قيصريه من قبل الروم مصورة و أن عمر ضرب الدراهم على نقش الكسرويه و شكلها و بأعيانها و ضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلدا سيفا.

و رأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل الستر الذي فيه صور و لم ينكر الناس عمله. قال صديقنا السيد محمد رشيد رضا في المنار: و من الآثار في حكم التصوير و صنع الصور و التماثيل اتخاذ أحد أعظم أئمة التابعين القاسم بن محمد ابن أبي بكر (رض) الحجلة التي فيها تصاوير القندس و العنقاء، و هو ربيب عمته عائشة الصديقه و أعلم الناس بحديثها و فقهها، و منها استعمال يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) و خازنه الصور في داره، و منها صنع الصور في دار مروان بن الحكم و سعيد بن العاص و كل منهما ولى إمارة المدينة و كانا من التابعين قال: و عمل مروان يدل على أن التصوير كان مستعملا في عصر الصحابة، فمن عرض مسألة التصوير و اتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها أن دين الفطرة الذي قرن كتابه و وصف بالحكمة، و رفع منه الحرج و العسر عن الأمة، لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم و الأعمال و يحتاج إليها في حفظ الأمن و فنون القتال، و إنما يحرم ما فيه مفسدة أو ما كان ذريعة إلى مفسدة هـ.

و يعجبني ما كتبه أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته إلى صقلية عام ١٣٢٢ هـ (١٨٩٤ م) في مجلة المنار و قد ذكر تنافس الغربيين في حفظ الصور المرسومة على الورق و النسيج فقال: «إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر و ضبطه في دواوين و المبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية، و ما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه و ترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المطبوعات من الرسوم و التماثيل، فإن الرسم

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٤

ضرب من الشعر يرى و لا يسمع، و الشعر ضرب من الرسم الذي يسمع و لا يرى. إن هذه الرسوم و التماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة، و من أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات و الأحوال البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح و الرضى، و الطمأنينة و التسليم، و هذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ، متقاربة لا- يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، و لكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا، يصورونه مثلا في حالة الجزع و الفزع و الخوف و الخشية.

و الجزع و الفزع مختلفان في المعنى، و لم أجمعهما هنا طمعا في جمع عينين في سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة، و لكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما و بين الخوف و الخشية، و لا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع و متى يكون الجزع، و ما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك. أما إذا نظرت إلى الرسم و هو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك.

قال: «ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، و هي ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية و أوضاعهم الجسمانية، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم، و الفائدة محققة لا نزاع فيها، و معنى العبادة و تعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، و إما أن ترفع سؤالا إلى المفتي فهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون أو ما في معناه مما ورد في الصحيح، فالذى يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية، و

كانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين: الأول اللهو و الثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، و الأول مما يبغضه الدين و الثاني مما جاء الإسلام لمحوه، و المصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان و قصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات و الشجر في المصنوعات، و قد صنع ذلك في حواشي المصاحف و أوائل السور، و لم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة

خطط الشام، ج٤، ص: ١٠٥

في نقش المصحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر و بالجملة فانه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة و لا من جهة العمل ا هـ.

لما جاء الفاتحون إلى الشام كانت في تصويرها عالية على الروم و الفرس و بقيت على ذلك مدة قليلة لأن التصوير لم يكن يعرف أنه كان في متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم إلا في اليمن، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار و المصانع، و كانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل إلى الحجاز و سائر أرجاء الجزيرة و ما إليها منذ عهد الجاهلية، و أول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمين كان في زمن الوليد بنى الجامع الأموي بدمشق و المسجد الأقصى في القدس و غيرهما، و ما نطن أن جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان و النبات و الشجر و المدن و الأصقاع كانوا من أصول عربية بل كان فيهم الفرس و الروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية، و منهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع، و قد وجد الأثرى موسيل التشكى في قصير عمره على سبعين كيلومترا من قصر المشتى في البلقاء كتابات و نقوشا تشير إلى فتح الأندلس في أيام الوليد و فيه من النقوش الزاهية و التصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار.

قال صاحبنا شيخو: و في هذه القصور من الآثار الهندسية و من التصاوير و من تمثيل أحوال البادية كالصيد و الغزوات و المآدب و المصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري. و يقول ريسون: إن العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين، و لم يخالفوهم إلا بعدم تجسيم الحيوان، و لكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك أوراق و أقواس باهرة و فصفصة زاهرة و آكام و معاهد ساحرة.

و في التاريخ العام أن الإسلام حظر تمثيل الصور الآدمية و لكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون في قصورهم صور و تماثيل. و مع هذا لم يخلف العرب في النقش و لا- في الرسم آثارا خارقة للعادة، و ما بقى من آثارهم و عادياتهم الحجرية و أنواطهم المنقوشة، و عاجهم و مجوهراتهم، يشهد باستعدادهم الفني، فإنهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن أولا ثم أخذوا يمرنون أنفسهم على حسن

خطط الشام، ج٤، ص: ١٠٦

الهندسة بالنقل عما عثروا عليه بادئ بدء و لا- سيما عن الآثار البيزنطية، فكانوا يخشون أول أمرهم ثم أخذوا يجرون فيعدلون ما يريدون احتذاهم بل يخترعون و يبدعون، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال، قال: و لا نعلم هل كان للعرب قبل الإسلام طرز من البناء الخاص بهم، لأنه لم يبق من الزمن السابق للإسلام سوى خرائب مبعثرة، و من الهجرة إلى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي، و على مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس، و الجامع الأموي في دمشق، و الجامع الأعظم في قرطبة، و التأثيرات اليونانية ظاهرة فيها ا هـ.

و بعد أن ترجم العرب كتب الفنون و الصناعات عن الروم و الفرس و القبط و السريان و الهند، منذ أول النصف الثاني من القرن الأول، أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للأبصار، و لا سيما كتب النبات و البيطرة و الحيوان و الجراحة و الهندسة و الفلك و الجغرافيا و بعض كتب الأدب و المحاضرات و المقامات، فاستعملوها بحسب الحاجة و أجادوا بالنسبة

لعصورهم، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب، وأكثر من أثر عنهم التصوير والإجادة فيه و صنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الأندلس، و من جاء بعدهم من الملوك، و الصور- كما قال ابن أبي أصيبعة- إنما جعلت لارتياح القلوب إليها و اشتياق النظر إلى رؤيتها، و الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها، و كذلك نقشت اليهود هياكلها، و صورت النصارى كنائسها و بيعها، و زوق المسلمون مساجدهم.

نعم زوق المسلمون مساجدهم، و كانوا أوائل الإسلام يكتفون بالصلاة في مساجد أشبه بالأرض القفراء، و يفضلون السجود على الحصى و يعدون فرشها بالبوارى بدعة، و ذلك لثلا- تشتغل العين بشيء يبعد النفس من الخشوع لبارئها، ثم أخذوا يتأقنون في مساجدهم، و يفرشونها بالطنافس و الزرابي، و يصورون حيطانها، و ينقشون فيها آيات ثم مشجرات و أماكن جميلة، و معظم ما انتهى إلينا أو بلغنا خبره في العصور العشرة الأخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية، و الأمصار و الأشجار، و السفن تمخر في البحار، ثم تصوير الحيوان و الإنسان و لكن على قلة.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٧

لا جرم أن التصوير في هذه الديار كان ضعيفا بعض الشيء لأن مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على ما فهموه من الشريعة، و التصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها، و لكن المسلمين تطوروا بطور الأمصار التي نزلوها. و لم يتوقف ملوكهم و أمراؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم و اقتباس الحضارة، فقد ذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قسرين طلب إلى أبي عبيدة ابن الجراح الموادة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك، و من أقام فيها فهو في ذمة و صلح، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم و المسلمين، و صور الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالسا في ملكه فرضى أبو عبيدة، و مر بالصورة أحد العرب، و وضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقا عين التمثال عن غير قصد، فأقبل البطريق و قال لأبي عبيدة:

غدرتمونا يا معشر المسلمين، و نقضتم الصلح، و قطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة:

فمن نقضه؟ فقال البطريق: الذي فقا عين ملكنا. فقال أبو عبيدة: فما تريدون؟

فقال: لا نرضى حتى نفقا عين ملككم. فقال أبو عبيدة: صوروا بدل صورتكم هذه صورتى ثم اصنعوا بي ما أحببتكم و ما بدا لكم، فقال: لا نرضى إلا بصورة ملككم الأكبر فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود، و أقبل رجل منهم ففقا عين الصورة برمحه فقال البطريق: قد أنصفتمونا.

و ذكر المقرئ أن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر و الشام المتوفى سنة (٢٨٢ هـ) عمل في داره في القاهرة مجلسا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد، المعمول في أحسن نقش و أظرف تفصيل، و جعل فيه على مقدار قامه و نصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته و صورة حظاياه، و المغنيات اللاتي يغنيه بأحسن تصوير و أبهج تزويق، و جعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين و الكراذن المرصعة بأصناف الجواهر، و في آذانها الأخراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، و هي مسمرة في الحيطان و لونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة. فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٨

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث. و ظهر في عصر الأيوبيين و المماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران و على الكتب، و منها ما كان إلى القرن السابع في دير باعنتل قرب حمص، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها أزج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها، و صورة مريم في حائط منتصبه، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك. و منها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني. و ذكر ابن جبير أنه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير أمر عجب، و كان مثل ذلك في كنيسة القيامة و غيرها من كنائس فلسطين.

كان اليازورى من وزراء الفاطميين يفضل كثيرا على المصورين الشرقيين و كانوا من المسلمين. و قد جعل الظاهر بيبرس رنكه أى شعاره الأسد، و جعل دراهمه على صورته، و جعل أقوش الأفرم رنكه فى غاية الظرف و هو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسن عليه سيف أحمر يمر من البياض فوقانى إلى البياض التحتانى و قال فيه نجم الدين هاشم البعلبكى:

سيوف سقاها من دماء عداته و أقسم عن ورد الردى لا يرداها

و أبرزها فى أبيض مثل كفه على أخضر مثل المسنّ يحدها

قالوا: و قد كان الخواطى ينقش رنكه على معاصمهن و فى أماكن مستورة من أجسامهن.

و من أجمل ما أبقت الأيام و إن لم يتم لها إلى الآن قرنان، الصورة الباقية فى دار أسعد باشا العظم فى حماة من أبداع ما حوت من النقوش العجيبة و غيرها، و هى صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا فى حائط القاعة الكبرى و نقشت عليهما صورة حماة فى ذلك العهد بجوامعها و مدارسها، و نواعيرها و قصورها، ظهر منها أن حماة كانت أعمر مما هى عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير. أخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم و بالغت فيها و لا يزال إلى اليوم قطع فى الدور و غيرها، و أهمها ما لا يزال فى كنيسة مادبا فى البلقاء من مصور فلسطين و نهر الأردن يشقها من وسطها و الأسماك تعوم فيه، و المدن التى كانت

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٠٩

عامرة لعهد واضعها، و لا يزال القسم الأعظم منها بحاله لم يصب بأذى الأيام.

و آثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة فى دور مادبا لم تزال على بريقها، و فى دار سليم الصناع فى مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة أيضا تخال ما فيها ماء حقيقيا و على جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات و الطيور البرية و الداجنة، تسرح فى جنية زاهرة و الطيور المائية واقفة فى وسط الماء على آنية تشبه الزهرية، و فى كل زاوية من زواياها صورة إنسان تخالف الأخرى. و فى هذه البليدة عدة قاعات فرشت أرضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يغسل بلاط القاعات و أفنية الدور.

قال فى مسالك الأمصار: و الفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق و من هذا النوع المسحور (المسجور) و أما الملون فمعجون و قد عمل منه فى هذا الزمان (٧٤٠-٧٥٠) شىء كثير برسم الجامع الأموى و حصل منه عدة صنابير و فسدت فى الحريق الواقع سنة أربعين و سبعمائه و عمل منه قبل للجامع التنكرى ما على جهة المحراب، غير أنه لا- يجىء تماما مثل المعمول القديم فى صفاء اللون و بهجة المنظر، و الفرق بين الجديد و القديم أن القديم قطعه متناسقة على مقدار واحد و الجديد قطعه مختلفة و بهذا يعرف الجديد و القديم هـ.

و وصف ابن فضل الله هذا يمكن أن يستنتج منه أن الفسيفساء كانت تعمل فى الشام، و أن هذه الصناعة اللطيفة و إن اختصت بها القسطنطينية قد نقلت إلى الشام و جود عملها. و كان الوليد بن عبد الملك يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية إلى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع و مكة و المدينة.

و كانت الفسيفساء فى الجامع الأموى قبل حريقه الأول فى القرن الرابع ملونة مذهبة تحوى صور أشجار و أمصار و كتابات، على غاية الحسن و الدقة و لطافة الصنع، و قل شجرة أو بلد مذكور إلا و قد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسى و قال غيره: إنه مثل فى صور الجامع صفات البلاد و القرى و ما فيهما من العجائب و أن الكعبة المشرفة صوّرت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين:

إذا تفكرت فى الفصوص و ما فيها تيقنت حذق واضعها

أشجارها لا تزال ثمرة لا ترهب الريح فى مدافعها

كأنها من زمرد غرست فى أرض تبر يغشى بفاعها

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٠ فيها ثمار تخالها ينع و ليس يخشى فساد يانعها

تقطف باللحظ لا بجارحة الأيدى و لا تجتنى لبائعها

و تحتها من رخامه قطع لا قطع الله كف قاطعها

أحكم ترخيمها المرخم قدبان عليها إحكام صانعها

قال صديقنا أحمد تيمور في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي و ما فيه من التصاوير: «و لا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه، أو من عمل صنّاع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد» و قد علل المقدسي زخرف الجامع الأموي فقال: قلت يوما لعمى: يا عم لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، و لو صرف ذلك في عمارة الطرق و المصانع و رمّ الحصون، لكان أصوب و أفضل، قال: لا تغفل بنى، إن الوليد وفق و كشف له عن أمر جليل، و ذلك أنه رأى الشام بلاد نصارى، و رأى لهم فيها بيعة حسنة قد افتن زخارفها و انتشر ذكرها كالقمامة و بيعة لّد و الزها فاتخذ للمسلمين مسجدا شغلهم به عنهن، و جعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة و هياتها خشى أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى ا هـ. و لذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع و تحاسينه و تزيينه و تراويقه، و مما أبقته الأيام من نقوش الفسيفساء أو الفصوص حيطان قبة الظاهر بيبرس في دمشق، فإنها الأثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع، بعد أن دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة و لم يبق منها إلا- ما كشف مؤخرا في الحائط الغربي من صور الأشجار و غيرها. و من القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب و فيها يقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ و يذكر ما على جدران الدار من الصور:

دار حكت دارين في طيب و لاعطر بساحتها و لا عطار

رفعت سماء عمادها فكأنها قطب على فلك السعود يدار

و زهت رياض نقوشها فبنفسج غض و ورد يانع و بهار

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١١ نور من الأصباغ مبتهج و لانور و أزهار و لا أزهار

و منها:

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها و لا يخشى سواه صوار

و فوارسا شبت لظى حرب و مادعيت نزال و لم يشن مغار

و موسدين على أسرة ملكهم سكر و لا خمر و لا خمار

هذا يعانق عوده طربا و ذا أبدا يقبل ثغره المزمار

ثم لما تزوج بضيفه خاتون ابنه عمه العادل و أسكنها في هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترقت و احترق جميع ما فيها، فجددها و سماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها.

و من القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس في مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع، و على أنقاضه بنيت التكية السلمانية، و كان على واجهته مائة أسد منزلة صورها بأسود في أبيض، و على الشمالية اثنا عشر أسدا منزلة صورها بأبيض في أسود، و هذه الصور أجمل من صور الأسود و النمورة و غيرها من الحيوانات التي كانت في قلعة حلب، و من الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق عثر أحمد تيمور على قصيدة في ديوان عمر ابن مسعود الحلبي الشهير بالمحار في وصف هذا الحمام جاء فيها:

و خطّ فيها كل شخص إذا لحظته تحسبه ينطق

و مثل الأشجار في لونها و لينها لو أنها تورق

أطيّارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو تزرق

و هيئة الملك و سلطانه و جيشه من حوله يحقق

هذا بسيف و له عبسة و ذا بقوس و به يعلق

و من التصوير على النسيج على ما ذكره البدرى من تصوير «الأبيض القطنى المصور لأحياء القصور و أموات القبور» و كان يصنع فى دمشق. و من التصوير فى الكتب ما ذكره أبو الفداء فى حوادث سنة (٦٤٢) فى ترجمة المظفر صاحب حماة قال: استخدم الشيخ علم

الدين قيصر المعروف بتعاسيف و كان مهندسا

خطط الشام، ج٤، ص: ١١٢

فاضلا فى العلوم الرياضيه فعمل له كره من الخشب مدهونه، رسم فيها جميع الكواكب المرصوده. و ذكر ابن قاضى شهبه أن على بن محمد بن صالح الرسام عالم صنف المتوفى سنة (٧٤٩هـ) كان فى أول أمره يرسم القماش و قال: إن عنده كتابا فى علم الفلك صورت فيه جميع الأبراج و النجوم بليقتى الكتاب أى بالأحمر و الأسود تحت كل صورة أرجوزه بتعريفها. قال القاضى جمال الدين ابن واصل: و ساعدت الشيخ علم الدين على عملها و كان المظفر يحضر و نحن نرسمها و يسألنا عن مواضع دقيقه منها. و قد اطلع مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصف شجرة الإفاده التى كانت فى الجامع الأموى بحلب و تعد من الذخائر النفيسه العلميه قال: إنها كانت عظيمه الرواء مصنوعه من حجر و نحاس و حديد ذات خطوط و جداول فى أصول العلوم الرياضيه شبيهه بشجرة ذات جذع و أغصان و أوراق عظيمه فى كل ورقه منها أصل من أصول تلك العلوم. و كان الطلبة يقدمون حلب من القاصيه للاشتغال بالعلوم الرياضيه المرسومه فى هذه الشجرة. و اسم غارس شجرة الإفاده خليل بن أحمد غرس الدين على ما فى در الحبيب. خطط الشام؛ ج٤؛ ص ١١٢

يدخل فى باب النقش و الصنائع الغريبه ما رواه المقدسى فى حوادث سنة (٩٩٠) يوم عمل ختان ابن درويش باشا والى دمشق، فانهم صنعوا شيئا يسمى النقل بجامع المصلى و بجامع ايلخان خارج محله القراونه و بجامع التوبه، و هو يشتمل على أربع عشره قلعه من الورق المحشو بالبارود و أربع عشره فرسا و أربعه عشر عفريتا كذلك، و على صور طيور و وحوش و كلاب و غير ذلك، و على قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه و البقول و الأزهار و الأطيوار و غيرها كل ذلك من الشموع المصبغه و التذهيب و التفضيض، و كان ارتفاعه على علو الجملون الذى بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه و إخراجة إلا بعد فك الجملون المذكور، و هدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور و هدم مواضع متعدده فى طريقه إلى دار السعاده، و هدم الحائط الشرقى من باب دار السعاده أيضا حتى أدخل، و كان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجه عليه جميع أهل دمشق رجالا و نساء لم يتخلف أحد. ثم فى اليوم الثانى منه نقل النقل الذى صنع بجامع محله القراونه و بجامع التوبه و هو يشتمل على قصرين عظيمين من

خطط الشام، ج٤، ص: ١١٣

الشمع أيضا أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع و الآخر دونه مشتملين على ما تقدم و على صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل و الجمال و الفيله و السباع و الطيور و غيرها، كل ذلك من السكر المعقود و على النقول و الملابس بالسكر أيضا. و كان رشيد الدين بن الصورى يستصحب مصورا و معه الأصباغ و الليق على اختلافها و تنوعها، فكان يتوجه إلى المواضع التى بها النبات مثل جبل لبنان و غيره من المواضع التى قد اختص كل منها بشيء من النبات، فيشاهد النبات و يحققه و يريه للمصور فيعتبر لونه و مقدار ورقه و أغصانه و أصوله، و يصور بحسبها و يجتهد فى محاكاتها. ثم إنه سلك فى تصوير النبات مسلكا مفيدا، و ذلك أنه كان يرى النبات للمصور فى إبان نباته و طراوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضا وقت كماله و ظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضا فى وقت ذواه و يبسه فيصوره، و من ذلك نستدل أنه كان فى القطر أكثر من مصور فى ذاك العصر، و أن ذلك التصوير بالأصباغ كان مألوفاً، و قد بلغ من خذق المصورين أن يصوروا النبات على أنحاء شتى، أما عنايتهم بالنبات نفسه فمسأله ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون، و هذا كان فى الثلث الأول من القرن السابع للهجره أى فى القرن الثالث عشر للميلاد.

ولا شك أن كل هذه البدائع كانت من صنع صنع الأيدي من الشاميين، فمن المصوريين على الخزف و من المصوريين على الخشب و من المصوريين على النسيج و من المصوريين على النحاس و الحديد، فمن المصوريين على الخزف «الغيبى» قال تيمور: إن له قطعاً بدار الآثار العربية بمصر، عثروا عليها بأطلال الفسطاط و قد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها «الغيبى» فقط و على بعضها «الغيبى الشامى» و إن فى دار الآثار العربية أيضاً لوحاً من القاشانى «لمحمد الدمشقى» عليه صورة مكة المكرمة و الكعبة المعظمة صورها سنة (١١٣٩ هـ) و كتب عليها اسمه.

و بعد فهذا القليل الذى قرأناه و استأنسنا به يدل على ذوق و إبداع، و إن مشاركة الأمة فى هذا الفن كانت على حصة موفورة، و فى هذا العصر نبغ فى الشام مصورون لا بأس بهم أخذوا عن إيطاليا و فرنسا و غيرهما و كادوا يجارون خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٤

مصورى الغرب بإبداعهم، و منهم من يصور بالأصباغ، و منها بدونها أى بالسواد، و منهم من يصور التماثيل من المرمر و الرخام و الصفر، و منهم من ينقش فيبدع على الخشب و النحاس، و من المصوريين باليد توفيق طارق، على رضا معين، نديم بخاش، مصطفى الحمصانى، مصطفى فروخ، عبد الحميد عبد ربه، عبد الوهاب أبو السعود، بشارة السمرة، داود القريم، حبيب سرور خليل صليبي، سليم عورا، جبران خليل جبران، خليل الغريب، نقولا الصائغ.

النقش:

و يصح أن يعد فى باب التصوير نقش البيوت و التماثيل فإن المعروف أنه كان للشام حظ منه، و لم نر للنقش على الحجر براعة و إبداعاً عند الأمم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان و الرومان، فإن النقوش التى عثر عليها فى شمالى الشام من أصل حثى مثل الأسود التى كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم و جدرانها و أبى الهول المجنح برأس إنسان أو ثور و هو من نقوش الأشوريين، و النقوش التى عثر عليها فى الجنوب من أصل سامى كالكنعانيين و الإسرائيليين و ما عثر عليه فى الساحل من نقوش الفينيقيين و أربابهم و معظمها منقولة عن المصريين الفرعنة - كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع و حسن الذوق بحيث يرتاح إليها النظر مثل نقوش الرومان و اليونان، و مثال منها الناووس الذى عثر عليه فى صيدا من القرن الرابع للميلاد و جعل فى دار الآثار فى الإستانة و هو يمثل نساء باقيات تمثيلاً كأنك تراهن.

أين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل، أين نقش الناووس البديع المنسوب للإسكندر المقدونى أو لأحد قواده، و هو مما كان عثر عليه فى صيدا أيضاً و حفظ فى دار الآثار بالإستانة، من نقوش قبر أحيرام الذى عثر عليه فى جبيل و جعل فى دار الآثار فى بيروت، أو قبر حيرام الذى عثر عليه قرب صور و نقل إلى متحف اللوفر فى باريز سنة ١٨٦٠ م.

آثار تدمر و تماثيلها تنم عن ذوق و فضل صناعه أكثر من أرباب الفينيقيين و الحثيين، و الغالب أن تماثيل الشبه كانت تعمل فى قبرس و الروم و تحمل إلى تدمر لترزين بها رحباتها و ساحاتها، و صناعات جرش و مادبا أجمل من نقوش خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٥

السهول فى حوران و الصفا. كأن للإقليم و للعصر الذى ينزله دخلاً كبيراً فى إجادة النقش و التصوير. و معظم العناصر التى نزلت الشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية، و الساميون كما قال بعض علماء الإفرنج ما زالوا ينفرون من الرسم و النقش و التصوير. و لا غصاصة إذا قلنا إن الآريين أفرطوا فى الاشتغال بالرسم و النقش إفرطاً شوهدت آثاره فى أمم أوروبا التى خلفتهم، فكل شىء إذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم و لا يدرك، فأضعفوا بذلك قوة التخيل و قوا الباصرة.

و مما يستدل به على أن التماثيل قبل الإسلام كانت تعمل و تنقش فى الشام و أن العرب نقلوا عنها فى جزيرتهم ما رواه ابن الكلبي من أنه كان لقضاعه و لحم و جذام و عاملة و غطفان صنم فى مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه و يحلقون رؤوسهم عنده.

و قال ربيعة بن صبح الفزاري:

و إتنى و الذى نغم الأنام له حول الأقيصر تسييح و تهليل

قال: و وجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا نستسقى بها المطر، و نستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة و نصبها حول الكعبة. و لا شك أن هذه الأصنام تعد من الصناعات الشامية.

و لم يخل عصر فى الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر و النقش بالأصباغ على الجدران و على الخشب يتناقلون ذلك خلفا عن سلف، و النقش بالجبس على الجدران، و منها مقرنصات جميلة ذات تعاريف و كتابات حفظت فى مدفن أحد الوزراء من القرون الوسطى فى صالحيه دمشق أمام دار الحديث الأشرفية البرانية و بينهما الطريق و تسمى هذه المدرسة التكريتية. و فى بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر و بعده فى حلب و دمشق كثير من القاعات تدل على ذوق. و فى در الحب أن أبا بكر بن أحمد النقاش الجلومى الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم و استفاد منهم و مهر فى نقوش البيوت و كتابات الطرازات على طريقة القاطع و المقطوع، و فى نقوشه ما كان لكفأل حلب و غيرهم من الرماح و السروج بالمذهب و اللازورد مع معرفة طريقة حله و صنعته التراكش و ضعا و نقشا و صنعته اللوح الذى يكتب فيه و صنائع أخرى تتم عشرين صنعة. و لا يعقل أن يعمل

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٦

ذلك مثل هذا المفنن و لا يكون حوالبه عشرات من المتعلمين و العاملين.

و من النقوش الكثيرة التى بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية و باب النصر و على هذا قطعة من إفريز تمثل كرمه معرشة يركض إلى جانبها أرنب. و من أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نور الدين زنكى و الجزء الثانى الذى أنشأه الظاهر غازى يدل على صورة الهندسة المألوفة فى عصر الأمويين: مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة.

و من المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكى فى حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي و سليمان بن معالى من خشب مرصع بالعاج و الآبنوس و عليه تاريخ سنة (٥٦٤هـ) و قد وضعه صلاح الدين فى محله عند فتح القدس و قد عمل فى حلب أيضا محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذاك الفنان الحلبي. و من أجمل المنابر منبر الحرم فى الخليل من صناعة الفاطميين و منبر جامع الحنابلة بدمشق من الخشب. و من المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب و محراب الأقصى من الرخام. و من المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذى أنشأته ضيفه خاتون و هو من عمل حسان بن عنان. و جامع الظاهر غازى فى قلعة حلب الذى بناه سنة (٦١٠) فيه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة فى المصانع الجميلة. و من أهم الآثار العربية تابوت من الخشب وضع على قبر السيدة سكينه بنت الحسين فى مقبرة باب الصغير بدمشق عمله أحمد بن محمد بن عبد الله سنة (٥٦٠هـ) و قد نقش بخطوط كوفية و جعل داخل الحروف نقوش و حروف صغيرة أخرى بالكوفية أيضا. و تابوت و محراب و منبر جامع خالد بن الوليد بحمص من أجمل الآثار العربية. و كذلك تابوت مدفن أبى الفداء صاحب حماة. و من الآثار العربية ما نقش بالحروف الكوفية على تابوت من الحجر دفنت تحته السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من القرن الرابع. و من التوابيت المهمة تابوت سيدى صهيب فى حى الميدان بدمشق (من القرن السادس) و منها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة فى طريق عين الكرش المؤدى إلى حى الأكراد بدمشق.

و ذكر القروينى سوق المزوقين فى حلب و قال: إن فيه آلات عجيبة مزوقة، و ذكر ابن جبير أن أكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٧

اتصل السماط خزانه واحدة و تخللتها شرف خشبية بديعة النقش. و قد عرف الحلبيون من القديم بحسن الذوق فى هذه الصناعة كما عرفوا بحسن الذوق فى الخطوط العربية المنوعة الأشكال، و كلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار، و تعد فى باب النقش، و قد

كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور أكثر من غيرها من مدن الشام.

ذكر الغزى أن النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحلبيين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصنع النقش، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي أحد أبواب قلعة حلب لا- يفرق الناظر إليهما في أول وهله بين ملامحهما، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براعة النقاش.

وقال: إن من النقاشين من يعانى النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالمدهنيين ينقشون صور أشخاص وأزهار وطيور وأشجار، وإن هذه الصنعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتى سافر جماعة من أهلها إلى أميركا و تلقوا هذه الحرفة من أربابها وعادوا فنشروها بين الناس. ومن أشهر النقاشين يوسف سعد الله الحويك، ومن الحفارين والنقاشين يوسف الزغبى وبشارة عيسى الزغبى وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس التحف.

واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الأخير ومنهم أمين زهدى. مصطفى السباعى. مراد الشطى. مصطفى القبانى. محمد على الحكيم نجيب هواينى. حسين البغجاتى. ممدوح الشريف. سليم الحنفى. محمد على الخطيب. زكى المولوى. حنا علام. يوسف علام. نسيب مكارم. مشكين قلم. محمد يحيى. صادق الطرزى. موسى الشلبى.

وكان فن الخط إلى عهد بعيد صناعة يتنافس بها، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطابعة بطل التنافس بالخط العربى الجميل و قلّ الراغبون فيه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٨

البناء:

قالوا: إن علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها، إذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد أن كليهما مطرب للإنسان، فالأول مكوّن من نغمات غير متناغمة منتظمة الأوقات، والثانى مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متناغمة الأجزاء، يظهر الأول مذبيبات العدد والأوتار يحملها الهواء إلى الآذان فيطرب بها الإنسان، ويظهر الثانى الظلّ والضوء والألوان فتراها العين فى أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق إليها النفس، فكلّما الفنين جميل غير أن الأول تذهب محاسنه فى الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها، وتبقى محاسن الثانى ما دام لها ظل.

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها فى قطر ولا يوجد إلا بعضها فى آخر، فمصانع بابل تداعت لأن معولّ البانين كان على الآجر لا الحجر، ومصانع الشام بقيت لأن الحجر فيه كثير مبذول، وإن كان أقدم ما عرف من آثارنا يرد إلى زهاء ألفى سنة، وأقدم ما عرف فى بابل وأشور و نينوى من الآجر المكتوب يرجع إلى أربعة آلاف سنة. وما عمل عندنا من الخشب والتراب دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه.

ولقد ظهر أن الشام فى القديم لم يكن له طراز خاص فى البناء. وكان بناؤه بحسب روح الدولة التى تحكم فيه والأمة التى تغلب عليه: مصرى أيام الفراعنة، آشورى على عهد الآشوريين، بابلياً فى أيام بابل، فارسى فى دور الفرس، رومى فى دولة الروم، رومانى فى عهد الرومان. ولم يكن للحثيين والإسرائيليين هندسة خاصة، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الآشوريين أصول بنائهم، وليس مما اكتشف منه حتى الآن ما هو خارق للعادة فى أشكاله و وضعه بل هو محرف عن الطراز الآشورى تحريفاً كثيراً، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الأكثر. ومصانع الحثيين فى الجملة مقتبسة من مصانع الآشوريين والبابليين اقتباساً رديئاً لا يخلو من جفاء وسذاجة على ما قال الباحثون. و سار الإسرائيليون فى صنع مصانعهم على تقليد الآشوريين والمصريين و قلدوا المصريين فى الأكثر لقرب فلسطين من مصر، ولاستيلاء المصريين زمناً على فلسطين. وكذلك فعل الفينيقيون و

الكنعانيون.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١١٩

و على عهد الإسكندر دخل الشام طرز جديد فى البناء أى أصول الهندسة اليونانية.

غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية، ومنها ما كان لسكنى أهلها قبل أن عرف التاريخ، ومنها ما جعلوه قبورا لموتاهم فى الأهم التى عرف بعضها التاريخ، وقد ثبت بهذه المغاور أن الشاميين استعملوا منذ الزمن الأطول آلات من المعادن لقطع الحجر و نحتة. و لا يمكن تحديد العصر الحجري فى الشام، و يمكن أن يردّ العصر المعدنى إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. و فى غربى الأردن آثار كثيرة من ذلك، و كلها ذات صلة بعبادات الأقدمين. و احترام الأحجار المقدسة كان قديما منتشرا فى جميع أرجاء الشام. و من المغاور مغاور عدلون بين صيدا و صور و مغاور نهر إبراهيم فى لبنان، و مغاور بيروت و جبيل و أنطلياس، و من مصانع فلسطين الصهاريج و معاصر الزيت و الخمر. و بناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل من بناء العبرانيين.

و قد اقتبس العبرانيون فى أصول مبانيهم مبانى الفينيقيين، و هؤلاء أخذوا على ما يظهر من المصريين، و قد قيل: إن بنائين فينيقيين هندسوا معبدى داود و سليمان. و يقول سنيوبوس: إن القدس كانت بالنسبة لبابل و ثيبه عاصمة أقاليم فقيرة، و ما كان العبرانيون يتعاطون البناء و يميلون إلى العمران، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم إقامة المعابد، و لم يكن فى القدس إلا قصر سليمان و هو أول معبد عبرانى.

و أخذت الشام أصول الهندسة اليونانية و تناغت بها قبل أن يفتحها الإسكندر.

و لم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها فى الشام بقدر ما بقى من الآثار الرومانية.

فإن الرومان أنشأوا مدنا برمتها خططها على أصولهم. و كان من هذه المدن ما بنى على نفقة أباطرة رومية. و معلوم أن الرومان تفتنوا فى البناء و خلفوا فى كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق و قنوات و أسوار و مسارج و ملاعب و حمامات، مما شهد لهم باتساع الفكر و معرفة الهندسة و المتانة فى العمل و جمال الأسلوب. لا جرم أن علاقة الشام بإيطاليا أقدم من الإسلام، علاقتها بأرضنا مذ كنا ولاية رومانية تحكمتنا رومية عاصمة تلك الأمة العظيمة.

و أخذ النصرارى فى بناء كنائسهم عن فارس و الشرق، ثم اقتبس منهم الرومان أصولهم فى البيع، و ما لبثت الصناعات الفارسية و البيزنطية أن اختلطت

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٠

و نشأ منها صناعة جديدة هى الصناعة العربية. و أجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع و القصور، و التقليد محسوس و لكنه تقليد غير أعمى، لأن تأثيرات الأساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمى و الاختراع الحديث، كما أن مشهد البدائع القديمة و درسها لا يحولان دون التفنن و لطافة الإبداع و الاختراع. قال: و فى الشرق نشأت هذه المدنية و كانت دمشق إحدى مراكزها.

و قال جلابرت: و من المصانع المنوعة فى الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة و هما البيع و الأبنية ذات السطوح. و كان المهندسون الشاميون فيها عالة على الشرق يسترشدون بأراء مهندسى فارس. و قد أثرت الهندسة الشامية إذ ذاك فى هندسة كثير من الأمم و لا سيما فى بيزنطية، و أخذت بيزنطية عن الشام أو من طريق مصر عن الشام، أصول كثير من الأبنية، و قال لامنس: إن الهندسة و التصوير و النقش و فنون الزينة أخذت تسير فى طريق مستقلة عن النموذجات اليونانية و الرومانية التى كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة فى جميع الصناعات النفيسة، و أنشأ المهندس الشامى يرفض استعمال الملاط بين الأحجار و يكتفى بحسن وضعها على صورة متوازية تقوى بها بدون لحمه بين أجزائها، و استعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان و اليونان بالحجر النحيت، و بنى الكنائس ذات القباب فكثرت البيع البديعة التى يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم و عنها أخذ بناء الكنائس الرومانية اه.

كان أساتذة العرب فى البناء لأول أمرهم أناسا من الروم، فكان بين أبنيتهم الأولى و أبنية النصرارى وجه شبه، فقد بنى المسجد الأقصى

على مثال كنيسة القبر المقدس، ونقل استعمال القباب من الشرق إلى الغرب، ولم تكن معروفة إلا في هذا الشرق، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفسيفساء في الجدران والقباب، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم، وكان محببا إلى نفوسهم، جميلا. في عيونهم. ويقول بعض العارفين: إن الشام لا يحوى كثيرا من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب، لأنهم اكتفوا بما وجدوه في القطر من المباني القديمة، فاستعملوها على ما يشاءون، ولطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة.

أما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع، ولا يعرف إذا كانت في

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢١

الأصل من بناء العرب أو الإفرنج، المرجح أن هؤلاء طبعوها بطابعهم، وقالوا لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم، بل تجلى في هندستهم جهم للزخرف والطف واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين، وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثوب من ثياب الشرق تفنن حائكه في نقشه ونقشه.

نعم إن العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا بادئ بدء، فإن ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا إليها بنائين من الفرس والروم، والوليد لما بنى أموى دمشق وأقصى القدس دعا إليهما بنائين من الفرس والروم والهند. ولا جرم فقد برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الأبنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتقنية القنى وسد البثوق وتنفيذ المساكن.

ولو لم يبرعوا في كيفية إيجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهنا اليوم أثره.

ومالت الهندسة الشامية إلى السذاجة لأول انتشار النصرانية، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانته البناء المعمول بالحجارة الضخمة، وجمال الحجم وترتيب الأجسام. ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى، منها بعض أمثلة في الشام العليا و حوران.

ويقول جلابرت: إنه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام، وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرق الرومانية والشرقية المحضه في البناء، وعلاقته ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في أنطاكية، وقد نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الأخيرة، وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشمالية فتألف طرز وطني مابين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون.

ومن أهم أبنية القرون الوسطى وتدل على ذوق جميل في البناء، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان، والقليل الباقي منها إلى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق، ومنها

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٢

في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية والمستشفى القيمري، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس إلى غيرها من الأبنية الكثيرة في القرون المتأخرة.

ومن أهم أبنية القرون الإسلامية بدمشق المأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش والأصول المعمارية قامت على قسبتين من الأرض (٤٨ مترا مربعا) بارتفاع ٦٦ مترا هندستها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة (٨٨٥ هـ) و بناها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الأربع. وقد أجرى ترميمها وإرجاعها إلى أصلها وإكمال نواقصها المهندس الرسام توفيق طارق سنة (١٣٤٢ هـ) وكان على رفرف شرفتها الأولى آية إنا فتحننا لك فتحن الآيه و كتبها موسى شلبي و بقي قسم من الحروف القديمة.

وقد دخلت إلى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية أصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور، وما برحت ترسخ مع الزمن، ولا

سيما في طرابلس وبيروت بحيث أن جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أنشئ في القرن الأخير و في هذا القرن هو طلياني الصبغة، و هندسته عارضة على هذه الديار. هذا في الساحل أما هندسة البيوت في الداخل فإنها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة إلى شمالي إفريقيا، ثم نقلها العرب بعد قرون إلى الأندلس، و لا تزال هناك إلى اليوم يفاخر بطرازها و يطرس على آثارها، كأن تكون الدار ذات مدخل أو دهليز يؤدي إلى فناء واسع فيه حوض ماء و إيوان، و على جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار و الزهور، و الدار ذات طبقتين فقط: السفلى للصيف و العليا للشتاء. و قد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس أن البيوت في طرابلس كانت ذات أربع و خمس و أحيانا ست طبقات. و كثرة الطبقات في الدور لم تعهد إلا في الغرب، و ما نظن الشام زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أدوار التاريخ.

الشعر و الفصاحة:

ظهر كثير من الشعراء و البلاغ في هذه الديار و لا سيما من السريان و اللاتين

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٣

و الروم، اشتهروا في العالم و خلدوا آثار نبوغهم، و لطالما أخرجت مدرسة نصيبين و الزها و مدرسة الفقه في بيروت و مدرسة أنطاكية خطباء هزوا النفوس و علموها بخطبهم و أشعارهم و مجادلاتهم، و قد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدول العربية الإسلامية أيضا. و الشعر و الخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية و الإسلام و غالت في الولوع بهما، و لقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته و فصاحته، تأثيره بحكمه و هدايته. و لطالما كان شعراء العرب يصفون الشام و يتغزلون بها منذ أول يوم عرفوها، حتى إذا كان الإسلام و تبسطوا في أرجائها، أوحى إلى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعته أعظم ديوان بل خزائنه عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح، و نبوغ في فنون القول، و توسع في مجال الخيال، و ما هم إلا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات أفكارهم على غير مثال.

لا جرم أن الشام كانت أول الأقطار التي أخذت الفصاحة عن العرب في جزيرتهم، و بقيت فيها على اختلاف العصور و تعاقب الدول محفوظة في الجملة، فما انقطع منها من ينظمون و يجدون حواليتهم من يطرب لنغماتهم و يصفق لنبراتهم و إن لم يعرفوا صحاحها من زيوفها. كان الشعر مبدأ دخول العرب في الحضارة، و الأدب مقدمة النهوض في العلوم، و لذلك رأيناهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته و درايته. و أكثر ما يجيد الشعراء في أرض صح إقليمها، و اعتدل نسيمها، و طابت تربتها و أديمها، و صفت أمواها، و ساغ نميرها، و كثرت ظلالها بأشجارها، و غردت أطيورها في أسحارها، و فغم أريج نوارها و أزهارها، و هذا على حصه موفوره في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها. و قد أنعم عليه الخالق بضروب البدائع و الروائع، فكان شعراء عرب الشام و ما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق و ما يجاورها في الجاهلية و الإسلام كما قال الثعالبي. و ما زالت بعض قصائد شعراء ذاك الدور مضرب الأمثال في البلاغة، و ما برح عرب المدن يتغنون بشعرهم و يعجبون به و يترنمون، و يتوفرون على حل ما استعجم عليهم من ألفاظه و معانيه. قال: و السبب في تبرز القوم قديما و حديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب و لا سيما أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم، و سلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٤

بمجاورة الفرس و النبط و مداختهم إياهم ... انبعثت قرائحهم في الإجابة، فقادوا محاسن الكلام، بألين زمام، و أحسنوا و أبدعوا ما شاءوا، و كان أبو بكر الخوارزمي قد دوخ الشام في صباه و لطالما قال و هو أحد أمراء النظم و النشر: ما فتق قلبي، و شحد فهمي، و صقل ذهني، و أرفه حدّ لساني، و بلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، و اللطائف الحليية، التي عقلت بحفظي، و امتزجت بأجزاء نفسي.

حكى المازنى المتوفى سنة ٢٤٩ قال: دخلت دير بصرى فرأيت فى رهبانه فصاحة و هم متنصرة من بنى الصارد و هم أفصح من رأيت فقلت: ما لى لا أرى فيكم شاعرا مع فصاحتكم؟ فقالوا: و الله ما فينا أحد ينطق بالشعر إلا أمه لنا كبيرة السن فقلت: جيئونى بها فجاءت فاستشدتها فأشدتني لنفسها:

أيا رفقة من دير بصرى تحملت تؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغت سالمي فبلغواتحيه من قد ظن أن لا يرى نجدا
و قولوا تركنا الصاردى مكبلابكل هوى من حبكم مضمرنا وجدا
فيا ليت شعرى هل أرى جانب الحمى و قد أنبت أجراءه بقلا جعدا
و هل أردن الدهر يوما وقية كأن الصبا يسدى على متنه بردا
و ما برحت الديارات فى الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى أسواق.

و ظهر الضعف فى الشعر خلال القرون الأخيرة، و نسلت عليه القرون إلى أن خلع فى أوائل هذا القرن الثوب البالى القديم و لبس ثوبا جديدا فيه من جلال الحديث و عز القديم ما جمع فيه الجسم و الروح. بدأ هذا من لبنان و بيروت ثم تناول عامة مدن الشام. أما القرى و البوادي فقد اكتفت بالأزجال، و الزجل نوع من الشعر محدث يصفون فيه أيامهم و مفاخرهم و هو أشبه بالرجز الذى كانت العرب تترنم به فى عملها و سوقها و تحذو به فى بواديهها. و كان للزجالين فى القرن الماضى و فى هذا القرن منزلة عند أهل الزرع و الضرع، يدعون الزجال إلى الأفراح ليحمل البهجة إليها، و إلى الأتراح ليسرى عن النفوس ما نزل بها، و لهم ضروب من المواليا يسمونها العتابى و الإبراهيمى يطربون بها و لا- تخلو من معان شعرية قال صديقنا الشيخ إبراهيم الحورانى و كان شاعرا مجيدا بالفصحى و العامية:

و النصرارى و اليهود يعتقدون أن بعض الشعر إلهام إلهى و وحى حق كشر أيوب
خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٥

و داود و سليمان و أشعيا و عدة من كتبه الأسفار الإلهية و الشعر بقسميه الفصيح و العامى المعروف عند العامة بالمعنى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز و الوافر و السريع، أما أغانيهم التى يسمونها بالقراديات و هو اسم خشن سميت مؤخرا بالعديات و بالقويلات كما يقولون لمن يعانيتها (القوال) فبعضها لا- ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف، و وزن بعضها المتدارك مع تغييرات أيضا. و جاءت أغانيهم المعروفة بالموالات البغدادية و المصرية و الزلاغيط على بحر البسيط ا ه.

و لا يزال إلى اليوم لكل قبيلة فى الشام شاعرها ينشدهم من حفظه أو نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها، و لشعر البادية عندهم أوزان خاصة، و إذا قيس على علات لفظه على أبحر الشعريرى بعضه موزونا و فى بعضه عيوب بسيطة، و من أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان فى عبر الأردن كانت له امرأة اسمها و ضحاء تقيم بها كما تقيم قيس بليلاه فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد و منها ما فيه معان جميلة- قاله أديب و هبة.

و إذا انتشرت المدارس فى المدن و القرى على حد سوى، و جعل التعليم فى كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام فى الناس أكثر مما نراه بالفصاحة و الشعر فلا تلبث الشام أن تحسدها جاراتها كما كانت فى القديم على اختصاصها بذلك، و كما تحسد هى مصر اليوم على تفنن شعرائها و خطبائها و سريان الفصاحة إلى ألسن من ليسوا من الأدب العربى فى العير و لا فى النفير.

الرقص:

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ و نحن لم نتعرض له هنا إلا مجاراة للفرنح فى إدماجهم له فى الفنون الجميلة. عدّ «طاشكبرى» الرقص من أنواع العلوم فقال: إنه علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب و السرور لمن

يشاهده، و هذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه و الأغنياء و الأمراء و من يجرى مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ا ه . و ذكروا أن الرقص قديم كقدم العالم و أن أقدم شعوب الأرض كان لها رقص على أوزان معلومة. فالرقص مرتبط بالموسيقى و الإيقاع، و كثيرا ما كانوا يتبعون الرقص بالتصديئة و الضرب بالأيدي، ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر
خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٦

و المعازف، و كان الرقص على نوعين: رقص مقدس من توابح الحفلات الدينيئة، و رقص عالمي لتسليئة العامة، أى أن الرقص رقصان رقص ديني أو رقص المآتم و رقص الحبور و الابتهاج. و فى التوراة أن الرقص كان شائعا عند العبرانيين، و قد رقص داود أمام تابوت العهد، و لما خرج بنو إسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص، الرقص المقدس المنظم و رقص سرى له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون فى التيه حول عجل الذهب. و كان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى فى الحفلات العامة احتفاء بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن. و هكذا كان الرقص شائعا عند المصريين، ثم شاع عند اليونان و هم المشهورون بتفننهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه و انتقل إلى الرومان، و إذ كانوا شعبا قاسيا غليظا فقد عندهم بهاءه و رواءه و ما يقصد منه. و لكل شعب رقصه الخاص به، عليه صبغة أخلاقه القوميئة الثابتة. و لجميع شعوب الغرب و الشرق رقصهم الخاص أو رقصات عرفت بهم و أثرت عنهم. و الإنكليز أكثر الأمم انحطاطا فى الرقص لم يبرزوا فيه تميزهم فى معظم مظاهر الحياة القوميئة.

و كان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعيئة استعملوه فى كل دور عرف من أدوارهم. و الرقص أو الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذى هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى و العرب الرحالة و منه ما يعرف بالدبكة، فإن وفد الحبشة لما قدم إلى الحجاز جعلوا يرفنون أى يرقصون. و فى حديث فاطمة أنها كانت تزفن للحسن أى ترقص له و فى رواية ترقصه. و من غريب تفنن العرب فى مسائل الظرف و الذوق أنهم عرفوا علما سموه «علم الغنج» عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى و قال: هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التي تصدر عن العذارى و النسوان الفائقات الجمال و المتصفات بالظرف و الكمال إلى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون.

و الغالب أن رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة، و الأعم تقبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها. و كذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته فى هذا الشأن. من ذلك أن الرقص الاسبانى إلى اليوم لم يبر بعد خمسة قرون من مغادرة العرب أرض الأندلس على الطراز العربى و كذلك موسيقاهم إلا قليلا. و قد

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٧

أصبح الرقص فى الغرب علما بذاته و لكن العرب لم يقصروا فيه، و لا سيما فى عصور البذخ و الرفاهية. و بعض المحققين من علماء المشرقيات من الأسبابان و البرتغال (مجلة الزهراء) يبرهنون الآن على أن موسيقى الأوربيين و شعرهم انتقلا من فارس إلى أوروبا بواسطة العرب، و منهم من ينشر منذ سنين قطعاً قديمة و يبين ما فيها من آثار الروح الشرقي، و كان لنا فى الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (و لعله السماع) يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار و ترديد جميل من الموشحات فقط، و هو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت Ope ?rette, ope ?ra عند الإفرنج أى القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط، و يزيد رقص السماح على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة.

و فى كتاب مفرح النفس: و اعلم أن من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصا كثيرا إلى الغاية الرقص، و هو عبارة عن حركة متناسبة من اليدين و الرجلين بضرب من الضروب المعروفة فى الموسيقى بإرادة النفس و شوقا إلى محل طلبها الأصلي، قال: إن الرقص مندوب إليه فى ترويح الأرواح و نفى كدورة النفس و حصول الإشراق لها، و يجب أن يكون مع سكون و تجمع من الذهن و العقل فتحصل اللذة و البهجة، فالرقص له فى إحداث راحة النفس و سرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها و الذهن و العقل عن

تصورها ا هـ.

التمثيل:

و يدخل في باب الرقص أو في باب الموسيقى (فن التمثيل) و هو و إن كان مشهورا في الشام على عهد الرومان و اليونان، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به و بعرض الحيوانات و الصراع في البتراء و عمان و بعلبك و أفامية ولد و قيسارية و غيرها من المدن القديمة. إلا أنه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثا، اللهم إلا على الندره عند عرب الأندلس، و هذا في بعض الروايات. و لقد قالوا: إن أنطاكية أيام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور و بيروت و المغنين من بعلبك. و قال بعضهم: إن السبب في عدم العناية بالتمثيل في الإسلام حجاب النساء. و التمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف. و لما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامى لم تخرج العرب عن هدى جنسها. و التمثيل

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٨

ما عرف إلا عند الجنس الآرى فقط. و من ذلك الفرس و هم آريون خلفوا للعرب كتاب ألف ليلة و ليلة و هو اختراع آرى فيه شىء من التمثيل.

و كان العرب في الجاهلية و الإسلام يرون من سقوط المروءة أن يمثل مجلس الأمير أو الوزير، و إن كان لا يخلو تمثيله من حكمه، فكيف بمجلس صباه، و معظم التمثيل يدور عليها، لا جرم أنهم قصروا في التمثيل، و تقاعسوا عن اقتباسه عن الأمم الآرية، و إن عرف من حالهم أنهم لم يأخذوا عن الأمم الأخرى إلا- ما اشتدت حاجتهم إليه من أنواع العلوم، أدمجوه في حضارتهم و مزجوه بأجزاء نفوسهم. و إذ كان التمثيل لا- ينطبق مع عادات العرب و لا- عرف به مجتمعهم أعرضوا عنه، و جاء الإسلام موافقا لمصطلحهم و عاداتهم و أخلاقهم في بعض الأحوال.

بيد أن العصر الأخير لم يضمن على الشام بتجلى الآداب الرفيعة فيه، فقام فيها سنة (١٢٨٢ هـ) في دمشق أيضا رجل من أبنائها هو السيد أحمد «أبو خليل» القبانى من المبرزين في الموسيقى المشهود لهم بالإجادة فأنشأ دارا للتمثيل، و بدأ يضع روايات تمثيلية وطنية، من تأليفه و نظمه و تلحينه، و يمثلها فتجىء دهشة الأسماع و الأبصار، لا- تقل في الإجادة من حيث موضوعها و أزيائها و نغماتها و مناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب. و اعتاض لأول مرة عن النساء بالمرد، و لما انتقل إلى مصر لنشر فن التمثيل العربى هناك، عاد إلى الطبيعة و استخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين، و وجه الفخر في أبى خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية، و لم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه، بل قيل له: إن في الغرب فنا هذه صورته فقلده، و قيل: إنه شهد رواية واحدة مثلت أمامه في إحدى المدارس الأجنبية، و لما كانت عنده أهم أدوات التمثيل و هو الشعر و الموسيقى و الغناء و رأى أنه لا ينقصه إلا المظاهر و القوالب، أوجدها و أجاد في إيجادها، و لذلك كان أبو خليل مؤسس التمثيل العربى، و نابغة العرب في الموسيقى و التمثيل، و رواياته التي ألفها ما زالت منذ زهاء ستين سنة و إلى يوم الناس هذا، موضع إعجاب الأمة، تمثل في دور التمثيل و تلذ الجمهور مثل رواية أنيس الجليس و غيرها.

هذا و إن سبق لمارون النقاش في بيروت فعرب في سنة (١٨٤٨ م) من إحدى

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٢٩

اللغات الأوربية بعض الروايات التمثيلية و مثلها بالفعل. و الإبداع في التأليف و الوضع، لا في النقل و الاحتذاء، و إن عد الناقل صاحب فضل أيضا.

و لما كان التمثيل كما قلنا عارضا على مدينتنا رجع القهقرى بعد أبى خليل.

و ظل إلى يومنا هذا يمشى مشيا ضعيفا، فلم تقم إلى الآن جوقه تمثيل وطنية تبث في الأمة روح الفضائل و الآداب، و تأخذ من الناس

بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلهون بما يجلب السرور إلى قلوبهم، و النور إلى عقولهم، و تنهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار، كما تنهذب في الكنايب عقول الصغار.

فقد قال فولتير: إن المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه إياه كتاب ضخمة.

و لعل أبناء الشام إذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة، ترتقى فيهم سائر الفنون التي انحطت و لا تزال منحلّة، فتكون من العوامل في نهوضها إلى المستوى اللائق بها في سلم الحضارة و الهناء. و التمثيل الراقى أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذي ما زال في أكثر مدن الشام مألوفاً للعامة، و نعى به خيال الظل أو الخيال الراقص المعروف أهله بالمخيلية و عرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك، و إن لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز). و التمثيل أجدى على أبنائنا و بناتنا من القصصين أي الحكويّة (الحكواتية) الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي و يبثون فيهم سخائف و خرافات.

و من غريب شأن هذه الأمة أننا رأينا كثيراً من نجباء أبنائنا برعوا في التمثيل، و منهم من يعرف الأدب و ما ينبغي له، قد زهدوا في فنهم، و كتموا نبوغهم فيه، شأن كثير من أرباب الصوت الرخيم و الغرام بالموسيقى، و الضرب على آلات الطرب المتعارفة، يخافون أن يعرفوا بها و يعمدون إلى التقيّة كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة.

و ممن عرفنا منهم نور الدين حقي. حكمة المرادي. صالح الحيلاني. أحمد عبيد. سليم عطاء الله. أمين عطاء الله المعروف بكش كش بك. و اشتهر أيضاً حمزة الأصيل. صالح شهندر. حسن الساعاتي. إبراهيم المنجد. إبراهيم نفس.

راغب السمسمة. جرجي نفس. درويش البغجاتي. أبو الخير الغلاييني. يوسف مردم بك. خالد السمسمة.

(٤-٩)

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٠

متى ترتقى الفنون الجميلة:

لا- جرم أن ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها، موقوف على ظهور نوابغ من أبنائنا يرحلون إلى الغرب لنقلها و التشبع بآدابها، ثم يعودون فيلبون على إحياء ما اندثر أو كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر، و ينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة، و إذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يأتي جيل ثان بعد جيلنا هذا حتى يكون عند أهل القطر العدد الذي يحتاجون إليه من الأعيان الذين لا- غنيّة للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه. و يشترط في من يريدون الإخصاء في هذه الفنون أن يكونوا ممن يحبون أن يعرفوا بما اختصوا به، أو يسعوا طاقتهم لنشره، و من لا يحب صنعته و لا يفاخر بها لا يبرز فيها، و عندئذ نعدّ شيئاً مذكوراً بين أمم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان أجدادنا.

يقول الجاحظ: إن الضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، و التبسم في موضعه كالقطوب في موضعه، و إنما تشاغل الناس ليفرغوا، و جدّوا ليهزلوا، كما تذللوا ليعزوا، و كدوا ليستريحوا، و قد قسم الله الخير على المعدلة، و أجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة، و قسط أجزاء المثوبة على العزيمة و الرخصة، و على الإعلان و التقيّة، فأمر بالمداراة كما أمر بالمبادأة، و جوّز المعارض، كما أمر بالإفصاح، و سوغ المباح، كما شدد في المفروض، و جعل المباح جماماً للقلوب، و راحة للأبدان، و عوناً على معاودة الأعمال اه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣١

الزراعة الشامية

العامر و الغامر:

حياة الشام يزراعتها ثم بصناعتها و تجارتها، و القرى و البوادي أوسع بقعة و أوفر سكانا من المدن و الحواضر، و لا نعلم مقدار سكان الشام فى القرون التى سبقت الإسلام و لا فى القرون التالية، و قال بعضهم: إن سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين، و لكن الظاهر من مصانع أهلها و طرقهم القديمة التى كانت تربط أجزاء القطر كالشبكة و آثار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى، و خرائب القصور الفخمة، و الدّ من التى تشاهد الآن فى أواسط الفلوات الخالية، و العاديات و الآثار الجمّة، يدل على ارتقاء زراعتهم و كثرة ثروتهم و نفوسهم. فقد كانت حوران أنبار الشام على عهد الرومان لوفرة جوبها و لا تزال هى و البلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة فى الأكثر، معروفة بهذه الصفة و جودة حنطتهما التى لا مثيل لها، و ما يقال عنهما يقال عن جميع الأصقاع الشامية. و لا سيما ما كان بقرب المياه و الأودية فإنه عامر بطبيعته لا يحتاج إلا لأمن و نظام حتى يفيض لبنا و عسلا.

و مغل حوران كسيل دافق يأت من أرجاء جلق موجلا

و مما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء و حوران و ما كان على سيف البادية من مرج الغوطة و أدانى جبل قلمون و تدمر فحلب فما وراءها، مخافر مجهزة أحسن جهاز لمنع البادية من التسلل إلى المعمور، لأن داء الغارات على الزروع و العيث فى العامر من الأدواء القديمة. و اعتداء الرحالة من أهل الظعن، على المقيمين من أهل الدساكر و المزارع، النازلين فى الدور و المساكن، داء قديم

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٢

عقام على ما يظهر. و ما اتخذ الروم من الغسانيين فى الجنوب، و التنوخيين فى الشمال عمالا- لهم إلا ليقوموا بإنفاذ هذا الغرض، و يأمنوا بسطانهم عيث البادية على أرض الشام الجميلة.

و ليست البادية التى تحد أكثر هذا القطر من الشرق كما قال الدكتور پوست بادية حقيقية لأنه يقع فيها بعض المطر فى فصل الشتاء، و نبت فيها عشب ترعاه المواشى، و تسكنها قبائل شتى من العرب، و تتدرج هذه البادية إلى جهة شمالى الشام، فى السهل المتسع الممتد من نواحي حلب إلى ما بين النهرين، و كان هذا السهل مسكونا فى قديم الزمان، و لم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه و وفرة ثروتهم، إلا أنه أمسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب و الأكراد.

و قد أكد موسيل أن البلاد الواقعة فى شرقى الأردن كانت قبل مئة و عشرين سنة عامرة بالسكان و هى اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية.

و أهل الوبر الذين يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات تشتد حاجتهم فى الربيع إلى أن يدخلوا المعمور، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعى أنعامهم و أغنامهم فى أرض الحصيد، و مراعى دير الزور و الجولان طلبا للماء، و التماسا لبيع حاصلاتهم و استبضاع ما يلزمهم. و إذ كانت أرض السقى أقل من أرض العذى بالشام، و معظم الأنهار لا يستفاد من سقياها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الخصبة.

قلة العناية بالأنهار:

نقول هذا و أهم أنهارنا الفرات و هو نهر يتاخنا من الشرق، و لا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لأنه منحط عن مستوى أرضنا، و لم يكن كذلك فى الدهر السالف بما كان يعهد به من السدود و السكور التى كانت سبب غنى العراق، و بالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من أرض الشام. و لا- يستفاد من الأنهار التى تشق قلب القطر الفائدة المطلوبة فى الرى. فالأردن مثلا- يشق بعض أرجاء فلسطين و العاصى الذى يجرى من سفوح لبنان مارا بحمص فحماء فأنطاكية حتى السويدية لا ينتفع بهما على ما كان الحال قديما. فقد انتهى إلينا من عمل القدماء سد قدس بالقرب من قرية قطينة بجوار أرض حمص، و كان أعلى مما هو الآن بحيث يتأتى

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٣

أن يسقى العاصى بواسطته و ما اخترع له من النواعير، جميع الأرض العالیه فی وادی نهر المقلوب كما كانت العرب تسمى العاصى. و لا تزال إلى الآن آثار السدود و القنى فی غور الفارعة بادية للعيان، تدل على أن القدماء كانوا ينتفعون من مياه نهر الأردن أكثر منا اليوم. و يقول صديقنا الأمير شكيب أرسلان:

إن الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) إنما تسقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء، و السائل من جهة عجلون إلى الغرب، و مثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بنى عامر إلى الشرق، و مثل ماء الفارعة النازل من الغرب إلى الشرق، و مثل عين السلطان التي تسقى جنان أريحا، و مثل غور نمرين المنحدر من وادی شعيب أسفل الصلت إلى الغرب و ماء حسابان و غيرها من المياه، و هذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذى أصبح عاطلا من كل عمل اه.

و حالة الإرواء في أكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة، فالقريب من الماء يروى أرضه أو بستانه بالقرب أو المدار كأهل الزور و جزيرة ابن عمر في أقصى الشام، فإن هذه الأنحاء في وسط المياه كالفرات و الخابور و غيرها من كبار الأنهار و قلما تستفيد منه، و قد خربت السدود القديمة و لم يعمل غيرها، ذلك لأن الأنهار الكبيرة و لا سيما الفرات قد تتحول عن مجراها في معظم السنين لأنها خالية من الجوانب المتينة المحددة، و هى في أرض رخوة خبار، فإذا فاقت طغت على الأرض اللينة.

و كان نهر بردى و نهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار التي تعطش الأرض التي حفافها، و هى من مجراه على قيد أشبار، أو يترك للبحر يصب فيه على هينته و هواه، كنهرفرين و الأسود و قاديشا و الأولى و الأزرق و العوجا و إبراهيم و المقطع و القاسمية و غيرها. و كم في هذه الديار من آثار قنوات عجيبة مثل قناة بسيمه في سنير، و ربما كان ماء عين الفيحة يسيل منها إلى بلد بعيد كما هو المأثور، و مثل قناة منين التي جرها المأمون إلى معسكره في أعلى قاسيون بدمشق. و كم من قناة طمت بتهاون الفلاح فهلك مع أرضه عطشا، لأن الحكومات قلما التفتت في الأدوار الأخيرة إلى العناية بأمرها، و الأعمال

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٤

المشتركة قلما تجد لها نصيرا في هذه الأرض، و لو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الرى رى الأرض.

خراب الزراعة و المزارع:

و يمكن أن يقال إن القطر خرب بنزول الفاتحين المخربين و العاهات الطبيعية ثم من فساد النظام في الدولتين الجركسية و التركية في القرون الوسطى إلى هذا العهد، و قد كان مسرح ظلم، و ميدان حروب و غارات، يهلك الفلاح فيه كما يهلك النمل تحت الأقدام، و قبل أن يهلك ابن المدن الذى له من اجتماعه بأخيه، و اعتصامه وراء حصنه و سوره بعض الوقاية، و كانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها، و على نسبة قرب القرية من المدينة أو من الطرق الموصلة أو طرق الغزاة و الفاتحين، كان الخراب إليها أسرع من الماء إلى الحدور. و كان من دلائل القوة في تلك الأعصر أن تخرب القرى و تلقى النار فيها إذا غضب الملك أو الأمير أو المقدم أو صاحب الإقطاع على ذاك الإقليم أو تلك القرية. و كان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكاية في الخصم و لذلك أمثلة كثيرة في القديم و الحديث إلى زمن كتابه هذا الفصل. و ما أصيبت به الأشجار في غوطه دمشق خلال الثورة الشامية الأخيرة مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارة. فكان طبائع الحكومات واحد يوم تغضب من شعب أو تريد أن تكره التناء على النزول على إرادتها.

و أهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات، لأن أصول الإدارة لم تؤسس في هذه المملكة على ما يجب، و كانت المظالم الأرضية و المفسد البشرية أشد تأثيرا في أهل الفلح و الكرت و القائمين على تربيته الماشية و الضرع، من الآفات السماوية، كالزلازل و الأوبئة و القحط من قلة أمطار أو فيضان أو انتشار جراد أو ديدان و جرد و فيران.

هذه العوامل هي جماع الخراب الذى أصاب العامر فدمر القرى و الأقاليم، و منها ما لا تزال دمنه و مياهه شاهدة على ماضيه الزاهر،

فقد ذكر الظاهري من أهل المئة التاسعة للهجرة أنه كان على عهده نيف و ألف قرية و مدن صغار في حوران، و أنه كان في إقليم غوطه دمشق نيف و ثلاثمائة قرية و به مدن صغار و بلدان تشابه المدن، و أنه كان في وادي التيم و ما إليه ثلاثمائة و ستون قرية، و إذا خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٥

أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجدها في حوران تزيد على أربعمئة قرية و منها الخرب، و في الغوطه على ثنتين و أربعين، و في وادي التيم على ثلاثين إلى أربعين. و هكذا سائر الشام. فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادى عشر، و منها ما ظل خرابا إلى النصف الأخير من القرن الماضى لأن معظم عهد العثمانيين انقضى فى مظالم و مغارم، و كان من جندها و لا سيما الإنكشارية فى آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أفزع منها، لذلك خربت حتى الضواحي و الأرباض من المدن الحافلة أمثال حلب و دمشق و حماه و حمص و ما شاكلها. و كانت رجل الإنكشارى بل الجندى التركى على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار و البوار. و لذلك لا- نكاد نرى عمراننا إلا على طول الطرق العامة الكبرى و ما إليها من اليمين و الشمال، و نشاهد المدينتين العظيمتين حلب و دمشق مثلا ينقطع فى الحال أو على ساعات قليلة عمرانهما الذى كان وارف الظلال إلى القاصية. و كان هذا بفعل البادية و فعل الجيوش المدمرة.

عوامل الخراب:

و لو لا- ذلك الظلم المتسلسل قرونا فى أعقاب الفلاحين المساكين، و أسواط النقمه التى انهالت على رقابهم الجيل بعد الجيل، لما تيسر اليوم لأحد أن يملك المزرعة و المزرعتين بل ربما العشر و العشرين قرية، و بعض الأسر الحديثه تملك الخمسين و الثمانين، و الإنسان قد تكفيه المئه دونم أو جريب إذا أحسن تعهدها، فكيف له أن يعمر ألوفاً من الأقدنة، و يتسع وقته و ماله لحمايتها و ترفيتها؟ نقول حمايتها لأن كثيرا من القرى تنازل عنها ملاكها لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام و المرابين، و أخذوا ثمنها بضع عباة و غلايين، أو قفه من البن أو رطلا من الدخان أو أقة من الحلوى المعروفة بالبقلاوة، و من الأراضى ما توسل أهلها إلى أرباب المكانه أن يسجلوها فى دائرة التملك بأسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢ م بتسجيل الأملاك على أصحابها، و ذلك فرارا من ظلم عمال تلك الحكومه و من وضع الرسم المعتاد، و منهم من تخلوا للأعيان عن أراض عانوا مع آباءهم زراعتها زمنا طويلا، تخلصا من تسجيل نفوسهم

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٦

لما حررت النفوس، و من أهل القرى من خرجوا عن ملك أراضيهم لأنه وجد فيها قتيل، و كانت العاده و لا تزال إلى اليوم أن يلزم أهل الأرض بديه من يقتل فيها أو تفرض غرامه ثقيله عليهم، فمنهم من تركوا أراضهم مخافه أن يلزموا بمال لا قبل لهم بأدائه. و من القرى ما خرج عن ملك أهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر فى القرن الماضى لما عجزوا عن دفع الأموال الأميريه فباعته الحكومه التركيه بالثمن البخس صفقه واحده لرجل واحد مقابل رشوه قبضها الوالى.

و من المرابين من اقتنوا قرى كثيره فى الديار الشاميه لأنهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه بأخذ الربا الفاحش. و ما زلنا فى كل دور نرى الفلاح فى أكثر الأقاليم يقترض المئه بمئه و خمسين من الخريف إلى اليبدر و أحيانا ترتفع الفائدة إلى أكثر من هذا القدر، فإذا أضيف إلى ذلك ظلم الأعشار و تعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها، لا نستعظم إذا رأينا خرابا، بل نقول: لماذا نرى هذه الرشاشه من العمران قرب المدن و الثغور، و على شواطئ الأنهار و البحيرات.

و لقد كانت الأوقاف من جمله ما أخر الزراعه، ذلك لأن الأراضى الموقوفه تجمد على حاله واحده فى أشجارها و غلاتها و مجاريها و سكورها و زرائبها، و كل جسم لا- ينمو يصيبه الفناء. و على كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر و غيرها لا يمضى القرن و القرنان حتى يعود الوقف ملكا صرفا، و لو لا ذلك لكثير الخراب أكثر مما هو الآن فى القرى و الحدائق. و لو دام حكم إبراهيم باشا

المصرى إلى اليوم لأصبحت أرضنا عامرة كمصر لأنه نشط الزراعة و أمر بنشر دود الحرير و دود القز و علم الأهالي كيفية قطف الزيتون بالأيدى حتى صار شجره يعطى ثمرا فى كل سنة فاستعادت بعمله أكثر القرى عمرانها القديم.

كتب قنصل بريطانيا فى دمشق سنة ١٨٥٩ م بمناسبة زيادة الضرائب على الأهلىن و توكيل الجنود بجبايتها بالعنف: إن الحكومة تأخذ مال الشعب ظلما و عنفا، و لا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة و اعتداء، و عملها قائم

خطط الشام، ج٤، ص: ١٣٧

بابتزاز أموال الفلاحين التعساء لما فيه مصلحتها، على حين لا تأتى بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم أن يدفعوا الأموال اللازمة لتحسين حال الولاية، و سد حاجات الحكومة المركزية، و إنما تهمل الاحتياط للأمر.

و قال أيضا: «إن جو الشام صاف و هواءها جيد و أرضها خصبة حسنة الرى، ففى مكنتها أن تصبر على هذه الحالة أكثر من غيرها من الولايات الأقل خصبا، و لكن لا بد فى آخر الأمر من أن تفرغ هذه الموارد».

آفة الهجرة على الزراعة:

و مما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها، بدأت تدب فى جسمها أواخر القرن الماضى بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن فى التماس الرزق و طرق الغنى. و ذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين إلى أميركا. أرباح لم يكن لابن هذه الأرض عهد بها و كان ثلاثة و عشرون قيراطا من أربعة و عشرين قيراطا منهم يعيش، و لا سيما فى الأرض القاحلة، عيش القلة الشديدة. فلم يلبث الناس فى الجبال أن حذوا حذو أولئك المهاجرين، فأخذ الناس ينزحون إلى أميركا الجنوبية و الشمالية و إلى أستراليا و جنوبى إفريقيا و غيرها من البلاد المفتوحة حديثا، حيث يسهل جنى المال، و تزيد أجره العامل على نفقته كثيرا.

و هاجر ألوف أيضا إلى مصر و السودان عقبى الاحتلال الإنكليزى سنة (١٨٨٢ م) فحرمت الشام فى أربعين سنة نحو سبعمائة ألف يد عاملة، كان ثلثهم يستوطن فى الأصقاع التى نزلها، تمسك بتلابيبه لكثرة علاقته و طيب العيش فيها، و الثلث الثانى يهلك، و الثلث الثالث يرجع. و لم تلبث الهجرة أن عمت جميع السكان، اقتصرت على أبناء الجبال أولا، ثم تناولت ابن السهول، و انتقل الغرام بها من ابن القرية إلى ابن المدينة. و من جملة ما زاد فى عدد المهاجرين سهولة السفر و تأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر أجره طريقه و نفقاته الأولى ريثما يجد عملا حيث ينزل.

و هذه الهجرة من أعظم ما أخر حال الزراعة فى هذا القطر، فأصيبت بضربة مهمة أهمها ارتفاع أجور العملة فيها لأن من عاد منهم يحمل مالا و لو

خطط الشام، ج٤، ص: ١٣٨

قليلا استتكف عن العمل فى الزراعة كما كان هو و أبوه، و منهم من بنوا القصور الغناء و الدور القوراء فى مزارعهم، و أخذوا ينعمون بطيب العيش، و يبحثون أوقات فراغهم فى أمور ما كانت لهم و لا- كانوا لها، و يلهون و يلعبون على الطرق التى اقتبسوها فى مهاجرهم. و قد كانت جبال لبنان و عامل و العلويين و قلمون و الخليل و السامرة من أشد الأصقاع التى تأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها. و لقللة اليد العاملة رأينا بعضهم فى البقاع يقرون امرأته إلى ثوره تعمل مع فدائه، و رأينا الحوارنة يستكثرون من الأزواج يتخذونهن أجيرات فى أعمال الحقل و علف الدواب و استخراج الدرّ و عمل السمن و اللبن. و لئن دخلت القطر أموال طائلة بسبب الهجرة فثروة أمة لا- تعد بكثرة نقدها بل بكثرة ما يعمل أبناؤها فى أساليب الرزق المختلفة، و قلّ أن أنفق مال يذكر على تحسين الزراعة و إقامة الشركات النافعة، و نحن لم نبرح ننشد مع حافظ إبراهيم:

أيشكى الفقر غادينا و رائحناو نحن نمشى على أرض من الذهب

خصب الأراضى و معالجتها و ما يزرع فيها:

يضرب المثل بزكاء منابت الشام و اعتدال أهويتها، وجودة مناخها، و كثرة مياهها، على كثرة حزونها و جبالها، و إن أرضا تعطى حبتها في بعض الجهات مئة حبة، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفاء، لتعد من أخصب بقاع الأرض، و ذلك لأن أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة. فإذا كان بنو إسرائيل قد جعلوا عادة لهم أن يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين، فإننا قد أرحنا منذ قرون، و لذلك لا تضمن علينا بخيرات سطحها كلما حرثناها و زرعناها.

و ما زالت زراعتنا كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الإنسان منذ آلاف من السنين، ليس فيها شيء من العلم إلا التجارب، و لا من التغيير إلا- ما تضطر إليه الأحوال و تهدي إليه الفطرة، و لذلك يعوزها كثير مما يوجد في غيرها من النباتات و الأشجار. قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام: إن الأرز يوجد زرعه على شواطئ بحيرة الحولة، و النيله تنبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في بيسان و هي لا تحتاج إلا إلى قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة. و بعد أن أفاض القول على مدن الشام قال: إن دمشق تفاخر و حق

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٣٩

لها الفخر بأن فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا. ثم ذكر أن البن الذي يزرع في تهامة اليمن تلائم زراعته أرض الشام، و مناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر و السرو.

و قال «هوار»: لئن كان القطن زرع في أوروبا فإن ضواحي هاتين المدينتين (دمشق و حلب) كانت خاصة بزراعة شجيرة القطن، و هذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح، و القطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق، و كانت عكا و اللاذقية و قبرس تعطى صنفا ثالثا من القطن، و كانت أرجاء نابلس إلى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الألوف من الدنانير.

و قال «يوست»: تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة إلى أربعة أقسام: السواحل كساحل غزة و يافا و شارون و هي صالحة لنمو مزروعات المنطقه تحت الحارة، و وادي الأردن (العربة) و هي تناسب مزروعات المنطقه الحارة و الجبال و فيها أودية كثيرة مخصبة كمرج ابن عامر «يزرعيل»، و الأودية المجاورة كالناصره و نابلس و الخليل «حبرون» و هي تناسب مزروعات المنطقه المعتدله، و السهول الداخليه و هي تناسب في الأكثر الحنطة و الشعير و السمسم. قال: و لا شك بأن هذه البلاد كانت ذات أشجار بريه و بستانيه أكثر مما هي الآن. و كان التراب على جوانب الجبال أكثر مما هو اليوم، و كذلك العيون فإنها كانت أكثر عددا و ماء فضلا عن أن مياه الشتاء كانت تجمع في مساقى و صهاريج. و قال «ورن»:

إن فلسطين «شرقي الأردن و غربيه» كافيه لسكنى خمس عشر مليوناً من الجنس البشرى إذا اعتنى بها الاعتناء الواجب. قلنا: إذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب و السعة فكيف لا تسع العشرين مليوناً من الناس و كل إقليم من أقاليمها كالبلقاء أو الجولان مثلا يعد الصالح من تربته أكثر من مملكه من الممالك الصغرى في أوروبا، و لكن السر بالسكان لا بالمكان.

تقسيم السهول و الجبال:

قسم صاحب كتاب الزراعة العمليه الحديثه أقاليم الشام الزراعيه إلى خمس أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحده في درجه الارتفاع عن سطح البحر و هي:

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٠

(١) إقليم الغور أي شواطئ الأردن و هو يمتد من بحيرة الحولة شمالا إلى بحيرة لوط جنوبا، أي أراضي جنوب بحيرة الحولة و أراضي البطيحه و الغوير و سمخ و القسم الشرقي من بحيرة طبرية و أرض جسر المجمع و بيسان و جنوب بيسان و غور الصلت و منطقه أريحا و شواطئ بحيرة لوط. و من جمله نباتات هذا الإقليم البردى و الأسل و القصب الفارسي و الأكاسيا الشوكي و السوسن و

زنيق الماء على شواطئ بحيرة الحولة و السدر الكثير في الأراضي المجاورة لبحيرة طبرية كأرض الغوير و المجدل و البطيحة و غيرها و الغار و الطرفاء و القصب و أنواع النخيل و سبط السيل و الرتم و البان و الصلة و الغرقد و العوسج و العشر و غيرها على شواطئ الأردن في منطقة بيسان و شرق الشريعة و الصلت و أريحا.

(٢) إقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة إلى خليج الإسكندرونه و يشتمل على السهول الساحلية من غزة و يافا و حيفا و عكا و صور و بيروت و طرابلس و اللاذقية و الإسكندرونه و يدخل فيه مرج ابن عامر و أراضي جنين و شمال بحيرة الحولة و يوجد فيه الليمون و البرتقال و الموز و الرمان. و من جملة نباتات هذا الإقليم الطبيعية البلان و الصنوبر البحري و القندول و الوزال و الطرفاء و أنواع البرسيم و الشقائق و الدفلى و الأفيون و القصب الفارسي و أنواع مختلفة من البلوط

(٣) إقليم السهول و تدخل فيه سهول الكرك و البلقاء و حوران و سفوح حرمون و البقاع و الجولان و الغوطة و المرح و السهول المرتفعة في فلسطين و حمص و حماة و حلب و ما شاكلها من السهول المتقاربة في إقليمها، و توجد في هذا الإقليم الأشجار المثمرة و الخضر و التوت و اللوز في الأرض البعلية و الحور و الصفصاف و الدلب في شواطئ الأنهار.

(٤) إقليم الجبال و يدخل فيه جبال الكرك و الصلت و عجلون و قلمون و جبل الشيخ و لبنان و لبنان الشرقي و النصيرية و الأقرع، و يوجد فيه الزيتون و الكرم و التين و اللوز و الصنوبر و السرو و الفستق البري و الميس و الحبوب و كثير من الأشجار المثمرة، و فيه من النباتات الطبيعية البطم و القيقب و الجنستا و الخرنوب و الزعرور و العليق و الشذاب و الدر دار و الزيتون و السنديان و الدلب و الصنوبر و الديشار و الآس و السرخس، و في أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الأرز و الدفران.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤١

(٥) إقليم الصحراء و تناول ما نسميه بادية الشام أي الأصقاع الواقعة شرق المعمور من دمشق تبنت فيه بعض النباتات و الأعشاب منها ما يزول في الربيع و منها ما يبقى في الصيف. و ليس في هذا الإقليم سكان إلا البدو الضاربون في أرجائه.

من الذين أدخلوا الطرق الجديدة:

أدخل ثلاثة أصناف من الناس في الشام روحا جديدا في زراعتها، و منهم مهاجر و قافقاسيا و غيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب و دمشق و عَمَّان، فإن هؤلاء أدخلوا أصول الزراعة على طريقتهم و هي أرقى من طريقة من نزلوا عليهم في حمص و البلقاء و الجولان مثلا ثم إن الألمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا و يافا منذ (١٨٦٨ م) قد كانوا مثال الفلاح النشط، و كان على فلاحنا المجاور لهم أن يتعلم منهم و يعتبر بما يأخذه الفلاح الجرمانى من وافر الغلات، و يتعلم منه تنظيم داره و إصطبله و حديقته و مزرعته و تعليم أولاده و غير ذلك مما يعود عليه بالنفع و الراحة. و أهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام الصهيونيون من مهاجرة ألمانيا و رومانيا و روسيا و بولونيا و غيرهم، فإنهم و الحق يقال قد أنشأوا بأموال روتشلد و برکم و فيرو و فيتيفورى و غيرهم من أغنياء الإسرائيليين الذين ابتاعوا الأراضي في فلسطين لأبناء نحلتهم، و أمدهم بالمال ليتوفروا على استثمارها، مزارع حريه بأن تكون نموذجات الحقول، و قد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونية اليهودية و جمعيات ايكا و فاعوليم و الأليانس و غيرها بأعمال مهمة لنشل أبناء دينهم من سقطتهم، و أنشأوا لهم قرى كسارونا و زمارين و الخضيره و ملبس و الجاعونة و الشجرة و غيرها هي كالفقرى الأوربية بإتقان أعمالها الزراعية. و ممن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجرى اللبنانيين الشرقي و الغربى فإن منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله في الزراعة و أدخل طريقة الأميركان في أرضه.

درس الزراعة:

و كان من أثر مدرسة الزراعة العملية في نيتز قرب يافا التي أسست منذ نحو خمسين سنة، و كان يتخرج فيها في السنة على الأقل

عشرون تلميذا يستطيع

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٢

تطبيق علمه الزراعى على العمل - أن نشرت أصول الزراعة الحديثه بين أبناء إسرائيل، و غدا فيهم الكفاءه للقيام على الحرث و التسميد و البذر و الغرس و التعهد و التقليم و التطعيم، و أصبحت مستعمراتهم تخرج أصنافا جيدة من الخمر و اللوز و غيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها.

و من مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سوريه و فلسطين مدرسه اللاطرون بين يافا و القدس أنشأها الآباء البيض. و مدرسه تعنايل بين بيروت و دمشق أنشأها الآباء اليسوعيون. و قد أنشأت الحكومه السابقه مدرسه زراعيه فى سلميه لكنها ضعيفه فى تلقين العمليات و النظريات، و قد ألغتها مؤخرا بحجه أن تلاميذها لم يعملوا فى الصناعه التي اختصوا بها، و آثروا التوظيف فى أعمال الحكومه، و ذلك على شرط أن تؤسس مدارس عمليه أخرى و مشاتل فى كل قصبه فلم يتم شىء من ذلك.

و من الغريب أن الزراعة و هى تكاد تكون فى هذا القطر المحبوب مورد عيشه الأول، لم يدرسها إلى اليوم سوى أفراد قلائل، و لا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آباؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الأصول فى مدارس فرنسا و إنكلترا و تونس و مصر و الإستانه، و جاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه، و كان الواجب أن يكون لكل بضع قرى مهندس زراعى، يعلمها من علمه و يمددها بتجاربه و يدير شؤونها كما يدير أهل البصر فى الغرب مزارعهم.

نقص كبير:

إلى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعيه الحديثه التي تقلل عمل الأيدي و تزيد النماء كآلة الحرث و البذر و المدرس و التذريه دع غيرها، و ما أبقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعيه التي طبع بعضها بلغتنا فى أوربا دليل كبير على ترقى هذا الفن أيام لم يكن فى الأرض من يحسنه. سبق العرب الغرب فى كل شىء، و سبقهم هو اليوم و يا للأسف فى كل شىء، و الدهر دول يوم لك و يوم عليك.

سبق الأجداد فى كل شىء، و تأخر الأحفاد فى كل شىء، و الفلاحه التي هى أشرف الأعمال و ضيعه فى نظر كثيرين حتى إن بعضهم قال و قد رأى

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٣

السكه فى دار: ما دخلت هذه السكه دار قوم إلا ذلوا، و لو قال: ما خلت هذه السكه من دار قوم إلا ذلوا لكان أقرب إلى الصواب. شعار الغرب اليوم «الأرض هى الوطن و من توفر على تحسينها يخدم وطنه» و إذا كانت الفلاحه عندنا ينظر إليها نظر احتقار فمن باب أولى أن ينظر إلى الفلاح كذلك و هو خادم الوطن الحقيقى. و إذا كان الفلاح كالسلطان فى مزرعته عند الأمم الممدنه، فهو هنا عبد رق لصاحب الأرض و للحكومه و للمرابى.

و بينا نرى أرباب المزارع فى الممالك الراقية، و مصر منها، يعنون براحه فلاحيههم و تعليم أبنائهم و بناتهم، و توفير قسطهم من الصحه و الهناء، و يجعل لهم حتى فى قراهم مدارس و معابد و دور تمثيل و صور متحركه للتسلية، نجد أكثر المزارعين هنا يجدون فى أن يبقوا فلاحيههم جهلاء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعا أعمى، و قل أن سمعت بأن مزارعا أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسه بسيطه أو مسجدا و أتاهم بخطيب يعلمهم أو بطبيب يطبهم، و لذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفرا من هذه الوجهه، لأن صاحب القرية لا يهتم إلا لتكثير الدخل السنوى و إرهاب فلاحه، و ابن البادية و القائمون على الزرع و الضرع أقل الأمم و يا للأسف حظا من التفكير بسعادتهم، كأنهم ليسوا مادة الثروه، إذا اختل نظامهم تطرق الخلل إلى سائر مذاهب المعاش، و مقومات الحضاره و مظاهر الرخاء و الهناء.

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين أنهم «غير الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا» ولكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يخطر ببال، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواء عاجلا!

التحسين الأخير:

على أن من الواجب أن يقال أيضا: إنه استفادت كثير من قرى الغوطة والمرجين و وادي العجم و البقاع و بعلبك و الحولة و جبال عامل و عكار و الحصن و نابلس و عكا و الخليل و غزة و سهول حمص و حماة و حلب و أنطاكية و إسكندرونه و السوبديه عمراننا منذ ثمانين سنة بفضل بعض طبقة الأعيان، لأنهم استطاعوا أن يحموها من عيث البادية و عبث الظلمة من العمال، و أن يمدوها بالمال وقت

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٤

العسرة. فغزموا على تحسينها أموالا، و صرفوا قواهم إلى الانتفاع بها ما أمكن. و كان العربان يداهمون حتى القرى القريبة من الحواضر، و يطلبون منها «الخوة أو الخاوة» و هي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين، و إذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم، محتجين بضيق ذات اليد أو رداءء الموسم، نهبوا دورهم و حرقوا عروضهم و غلاتهم و اعتدوا على أرواحهم. و قد كانت معظم الأرياف مأوى الأشقياء و عصابات قطاع الطرق، فما كان الفلاح يجسر أن ينتقل من قرية إلى أخرى، أو يحمل محاصيله إلى المدن، و لا أن يعمل في حقله البعيد قليلا عن القرية أو المزرعة.

فلما طبق قانون الولايات سنة (١٢٨١ هـ) ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من أثرها القضاء على عصابات من أرباب الدعارة، و قلت الشقاوة، فانصرف الفلاحون كلهم إلى العمل، لأن الأسعار بدت بالارتفاع، فبعد أن كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال إلى بيروت أو عكا فلا- يتحصل منها غير أجره النقل، أصبح الفلاح يحمل غلاته إلى الموانئ البحرية و لا سيما غزة و يافا و حيفا و بيروت و طرابلس و اللاذقية و الإسكندرونه فتأتيه بأرباح طائلة، لأن الحبوب كالشمار، أصبحت تسافر في البحار، و يدفع في ثمنها النضار.

و انتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه، فلم يكن على ما كان منذ سبعين سنة مملوكا لجهله الطبيعي. و لظالميه من المرابين و غيرهم من أدوات التخريب. و كان من تأسيس المصارف الزراعية، و إن كانت قليلة رؤوس الأموال، و يجب أن يكون فيها التسهيل كثيرا، أن أنزلت معدل الربا إلى سبعة في المئة، فخفت من غلواء المرابين و الصيارفة. و لو زيد في ترقية المصارف الزراعية و أنشئت مصارف عقارية تقرض أرباب العقارات أيضا بفائدة معتدلة لزادت المنافع المطلوبة للزراعة.

و صادف أن قلت آفات الزراعة في العهد الأخير، فأصبحت الأوبئة في البشر و البقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأدوار السالفة، و ردمت بعض المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى، و عنى ديوان الصحة بفتح مستوصفات في القصبات و مستشفيات في المدن، فتحسنت الصحة بعض الشيء، و أصبح الفلاح يدرك فائدة التطب، و إن أعوزه الطبيب أحيانا، و فتحت وزارة خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٥

المعارف مدارس ابتدائية في بعض القرى الكبيرة فدخلت المدنية قليلا و زادت النفوس زيادة محسوسة، و ربما زادت عما كانت عليه منذ سبعين سنة سبعة أضعاف. و هذه الزيادة أفادت الزراعة أيضا. و لم تصب بعض الأصقاع الزراعية بالضعف إلا مدة الحرب الأخيرة، و قد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه و بقره و غنمه و خيله و حميره و بذاره و حطبه و قطنه و صوفه و قشره، و لو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من أكثر أنحاء الشام، لأن ما بقي سالما منها كانت الحكومة تأخذه للنقل أو للذبح، فتعطل بعضهم عن الحرث، و لكن من نجوا من هذه الغوائل و لو قليلا استفادوا من ارتفاع الأسعار أرباحا طائلة، فوفوا ديونهم و خرجوا و قد أغنتهم الحرب و لم تفقرهم.

و ما زلت أعتقد أن أصحاب الحوائت مقصرون جدا في تعليم الفلاح، و تحسين حالته المعاشية و المنزلية و الصحية، حتى كاد يصبح

بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق عنها إلا أنه ناطق، و هذا النقص يحمل عليهم و على الحكومه. فقد تجتاز إلى اليوم القرية و القريتين في الأرجاء البعيدة و لا تجد رجلين أو ثلاثة من أهلها يقرأون و يكتبون على ما يجب، فكيف لهم أن يعرفوا ما لهم و ما عليهم من الحقوق و الواجبات. و لا يستقيم للزراعة حال فيما أرى إلا إذا علمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة أحد أبنائها هذا الفن الجليل، و لا تمضى بضع سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية، و عندها تتضاعف الثروة مرتين أو ثلاثا، و ينقطع دابر الهجرة و يعمر الغامر كما يزيد عمران العامر. و يعتقد الناس أن العز و الغنى معقود بالأرض، و أن الشرف يستمد المرء من عمله الحر الحلال.

عناية الأقدمين بالزراعة:

إن ما انتهى إلينا من الكلام القليل على الزراعة الشامية لا يشفى غلة الباحثين اليوم، لأنه مجمل يحتاج إلى تفصيل كثير. و إذا عرضنا له هنا فلالاستثناس به في تاريخ الزراعة في الجملة، فقد علمنا أن الإسرائيليين كانوا يريحون الأرض سبع سنين ثم يزرعونها فتأتي غلاتهم مخضبة نامية. و علمنا أن النبطيين و هم (٤-١٠)

خطط الشام، ج٤، ص: ١٤٦

العرب الرحل في أرجاء البتراء في الجنوب كان من المحذور عليهم أن يزرعوا الحنطة و يغرسوا الأشجار المثمرة و بينوا البيوت إذ كانوا يعتبرون أن الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج إلى أن يفادى المرء بحريته. و عرفنا أن الفينيقيين كانوا لا يعنون بالزراعة عنايتهم بالتجارة، فكانوا يجلبون من الداخل و من السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم. حتى إذا جاء العرب و أبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم من أحيا أرضا مواتا فهي له و اطرده ذلك منذ الفتح.

و اغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بعد قحولة الحجاز و بواديه المحرقة فقال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة إيليا من قصيدة:

و ألقى إليه الشام أفلاذ بطنهاو عيشا خصيبا ما تعد ما آكله

حتى إذا تربعت أمية في دست الخلافة و أخذ آلهم و رجالهم يقتنون المزارع، و يبالبغون في اتخاذ الغروس و الزروع المثمرة المغلقة، جعلوا القرى مستغلات لهم و نزلوها و عنوا بعمرانها، و تنافسوا في ذلك. فقد ذكر المنبجي أن هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في أكثر المدن التي في سلطانه، و الخانات و الحوائت و الحجر و الضياع و المزارع، و هو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب، و اشتق أنهارا كثيرة غزيرة، و هو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة، و غرس غرسا كثيرا بالجزيرة و الشامات، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته.

و لطالما عنى الخلفاء بأن لا تبقى أرض شاغرة لا تستغل، فقد أنزل معاوية قوما من الفرس في طرابلس، و كان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده و كان ربما أتى على جميع أهل البيت فتخرب أرضوهم و تعطل، قد و كل بهذه الأرضين من عمرها فكان يتألف الأكره و المزارعين إليها فصارت ضياعا للخلافة.

و ما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى اغتى العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم و بعد نظرهم. و العرب كما- قال أحد علماء الإفرنج- عمال زراعه و رجال براعه، برعوا في سقى الجنائن و اخترعوا النواعير العجيبة بل و وطنوا النباتات و الأشجار الإفريقية و الآسيوية في أوربا كالنخل و البرتقال و التوت و القطن و قصب السكر و الذرة و الأرز و الحنطة السوداء و الزعفران و الهندباء

خطط الشام، ج٤، ص: ١٤٧

و الخرشوف و السبانخ و الباذنجان و الطرخون و البصل و الياسمين الخ و ينسب إليهم اختراع طواحين الهواء و نواعير الماء. و قال ميشو: ما من دار في أوربا إلا و تعرف اليوم البصل Echalote الذي جاء اسمه و أصله من عسقلان. و معلوم أن الأندلس ابنة الشام

فتحها الشاميون و نقلوا إليها مدنيهم. و هذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوربا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون.

لا جرم أن الحضارة التي أوجدها العرب كان من أول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدولة و الأمة إلى الاستكثار من الغروس و استجادة الزروع من وراء الغاية. قيل لإسحاق بن يحيى الختلى من ولاية دمشق (٢٣٥) لم سكنت دمشق و فلتحت أرضها، و أكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة، و أجريت المياه إلى الضياع و غيرها؟ فقال: لا يطيق نزولها إلا الملوك قيل له: و كيف ذلك؟ قال: ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار! و لطالما دهش العرب بغوطه دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للأشجار و الزروع المنوعة التي لا يعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب و يدهشون للخصب و المياه الدافقة من كل جهة.

أصناف الزروع و الأشجار:

ذكر المهلبى أنه تجلب من كور حلب و ضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فإن بلدة معرة مصرين و جبل السماق بلد التين و الزيتون و الزبيب و الفستق و السماق و الحبة الخضراء. و قال ابن شداد: و في بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفا من الغلات. و قال ياقوت: و يزرع في أراضيها القطن و السمسم و البطيخ و الخيار و الدخن و الكروم و الذرة و المشمش و التين و التفاح عذبا لا يسقى إلا بماء المطر، و يجيء مع ذلك رخصا غضا روبا، يفوق ما يسقى بالمياه و السبخ و قال: إن أكثر مستغل ضياع الغور السكر و منها يحمل إلى الآفاق، و في عسقلان نخل كثير و صنوف من التمور و الرمان يحمل إلى كل بلد بحسبه، و إنها معدن الجميز كثيرة المحارس و الفواكه. و اشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح. و تل أعرن في حلب بعنبتها الأحمر المدور. و قال ابن جبير: في بلاد المعرة و هي سواد كلها بشجر الزيتون و التين و الفستق و أنواع الفواكه و يتصل

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٨

التفاف بساتينها و انتظام قراها مسيرة يومين. و قال ابن حوقل: و ما حول معرة نسرين من القرى أعزاء ليس بجميع نواحيها ماء جار و لا عين، و كذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعزاء و مياههم من السماء. و قالوا: اشتهرت الفرزل في البقاع بزيبها الجوزاني، و كان يعمل به الملبين المسمى بجلد الفرس و هو من خصائصها، و أن بعلبك معدن الأعناب و الحولة معدن الأقطان و الأزهار، و اشتهرت بيسان بالنخيل الكثير كما اشتهرت بيروت و آبل بقصب السكر، يطبخ بها السكر الفائق، و عراق الأمير بسفرجلها، و الناعمة بخرنوبها الفائق.

و قال المقدسى: إن عسقلان معدن الجميز و أريحا معدن النيل و النخيل كثيرة الموز و الأرتاب و الريحان. و معان معدن الحبوب و الأنعام، و بينى معدن التين الفائق الدمشقى. و أن أشجار جبال فلسطين زيتون و تين و جميز و سائر الفواكه أقل من ذلك. و قال: خير العسل ما رعى السعتر بإيليا و جبل عامله و أجود المرى ما عمل بأريحا، و أن عنب القدس خطير و ليس لمعنتها نظير.

و ذكر ابن حوقل أن أهل زغر يلحقون كرومهم و كروم فلسطين كما يلحق النخل بالطلع الذكر و كما يلحق أهل المغرب تينهم بأذكارهم. و قالوا: إن لبنان كثير الأشجار و الثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتا من القش يأكلون من تلك المباحات، و يرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسى و المرسين و غير ذلك.

و قال شيخ الربوة: و لجبل لبنان و لا سيما بقضييه و أذياله نحو من تسعين عقارا و نباتا نافعا مباحا بلا ثمن و له قيمة جيدة و ثمن يكتفى به الجابى الجامع طول سنته له و لأهله، و من ذلك الكثيراء و الربياس و البرباريس و القاوينا و هو عود الصليب و القيسه و البقس و القيقب الذى يعملون منه المرامل و الملاعق و الآلات المموهة بالذهب و الفضة و يحمل إلى سائر البلاد و الأقاليم، و ليس عملا لطف منه و لا أحسن، و من النباتات أيضا شجر المحموده و الاشتوان و الزراوند و الحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق و

هو معلق فى شقيف عال ما يقدرن على جنيه إلا أن يدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عال، كما يدللى الدلو فى البئر، و هى لأجل الترياق الفاروق و الراوندان و اللوز المر و الحلو و الأبهل و القراصيا و الزيزفون، و أما الفواكه فكثيره جدا بلبنان هـ.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٤٩

و ذكر الثعالبي أن التفاح اللبنانى موصوف بحسن اللون و طيب الرائحة و لذادة الطعم يحمل منه فى القرابات إلى الآفاق، و كان يحمل إلى الخلفاء فى بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاعه. و قال المقدسى فى الرملة: إنه ليس أطيب من حوارى الرملة و لا الذ من فواكهها، أطعمه نظيفة و أدمات كثيرة و أنها جمعت التين و النخل و أنبتت الزروع على البعل و حوت الخيرات و الفضل. و قال: إن ماء فلسطين من الأمطار و الطل و أشجارها أعذاء و زروعها كذلك لا تسقى إلا نابلس فإن فيها مياهها جارية. و قال ياقوت: إن ياسوف من قرى نابلس توصف بكثرة الرمان.

و قال أبو الفدا: إن جبال فلسطين و سهلها زيتون و تين و خرنوب و سائر الفواكه أقل من ذلك. و ذكر المقدسى أن على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون قرى و كروم و أعناب و تفاح يسمى جيل نصره لا يرى مثله و لا أحسن من فواكهه عامتها تحمل إلى مصر و تنشر. و قال ابن حوقل فى زغر:

إن بها بسرا يقال له الانقلاء لم ير بالعراق و لا بمكان أغرب و لا أحسن منظرا منه لونه كالزعفران و لم يغادر منه شيئا و يكون فى أربع منه رطل، و بها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل كابل، و فيه لهم تجارة كبيرة واسعة و مقصد كبير.

و قال الظاهرى: إن غزه كثيرة الفواكه. و قال ابن بطلان فى أنطاكية: إن أرضها تزرع الحنطة و الشعير تحت شجر الزيتون. و قال ياقوت: و بدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حران و ما يقارب ذلك فتعم الكل. و لقد ذكروا فى باب خصب أريحا أن الجفنة التى عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الأرض مترين و ثلاثين سنتيمترا و تحمل فى السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب و أنه يضرب المثل بورودها و أزاهيرها و يخرج منها الزقوم و السدر و هو أشبه بالزيتون الكبير يستخرجون منه زيتا للجروح.

و كذلك النبق و هو بمقام الصبار و الزيزفون فى بلاد أخرى يستعمل حيطانا للحوائط أى للساتين.

و ذكر الثعالبي أن زيت الشام يضرب به المثل فى الجودة و النظافة و إنما قيل له الزيت الركابى لأنه كان يحمل على الإبل من الشام و هى أكثر بلاد الله زيتونا

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٠

و فيه ما فيه من البركة و المنفعة. و قال شيخ الربوة فى نابلس: و قد خصها الله تبارك و تعالى بالشجرة المباركة و هى الزيتون و يحمل زيتها إلى الديار المصرية و الشامية و إلى الحجاز و البرارى مع العربان و يحمل إلى جامع بنى أمية منه فى كل سنة ألف قنطار بالدمشقى، و يعمل منه الصابون الرقى يحمل إلى سائر البلاد التى ذكرناها و إلى جزائر البحر الرومى، و بها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض. و الظاهر أن هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياسا مع حالها فى القديم، فقد قلّ عدده فى فلسطين بعد الحرب العامة و استعاض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون و الكرمة، أما فى أرباض دمشق فهو آخذ بالقله منذ اشتهرت الفواكه و هى هينة العمل سريعة الغلة، و كان فى حمص على ما تبين من الحفريات التى أجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التى لم يبق لها زيتون تعصر منه و لا تجد الزيتون اليوم فى أرجاء حمص إلا فى بقعة أو بقعتين. و اشتهر فى القديم زيتون الطفيلة و الشوبك اشتهارهما بمشمشمهما و كمثراهما و رمانهما. سألنا أحد شيوخ الصلت عن السبب فى إحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع أنه وجود كل الجودة فقال: لا تذكرنا بغباوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين أحد متصرفى البلقاء على أن غرس فى هذه الأودية التى تراها مئة ألف زيتونة فوقع فى أنفسنا أن فى الأمر دسيسه من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا و تسجيل أراضيها على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالأمر بالظاهر، و غرسنا

ألوفاً من شجر الزيتون، و لكن أتدرى كيف تخلصنا منه بعد؟ كان أحدنا يجيء الى الغرسه فيحركها حتى لا يطلع جذعها و هكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون إلا ما تشاهده اليوم فى جوار القصبه و قليل ما هو. قلنا: و عجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومه بالأمس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار. و يزينون لهم اقتناء الأراضى للزراعه، و اليوم يطلب الأهلون فى هذا العمل و فى غيره الأراضى الموات ليحيوها و لا يعطون طلبتهم! هكذا رأينا أهل الشراء و الطفيله و معان، على حين يقضى قانون الأراضى بأن كل من يحيى أرضاً مواتاً تبعد عن القرى و الدساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من أقصى العاقر فهى له. و لقد رأينا كثيراً من

خطط الشام، ج٤، ص: ١٥١

أهل القرى استأصلت أشجار التين و الكرمه و غيرها لأن العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرها فاحشا أثمرت أم لم تثمر، فعدمت بعض القرى شجرها المثمر بهذا الظلم!

و ما قيل فى كثرة الزيتون يقال فى كثرة الأعناب و اشتهرت بلدان كثيره بذلك، و قد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس و لبنان و غزه و جدر و صرخد و أذرعان و الأندرين و بنات مشيع و بيسان ولد و مآب و الخمر المقدية و خمر الأحص و قاصرين (فى أرجاء حمص و حلب) و كان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه. و اشتهرت حلبون فى جبل سنير بخمرها و كثرة كرومها. و يظهر أن الزعفران كان كثيراً ما يوجد فى الشام لأنه كان يدخل فى الأطمه و الأشربه كثيراً، و مزارع الزعفران التى كان يطل عليها من دير مزان فى السفح الغربى من قاسيون جبل دمشق مشهوره، و الغالب أنها كانت فى أرض النيرب، و كان الزعفران يوجد فى جاديه فى قرى البلقاء و الجادى هو الزعفران. و لم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون و الكرم مثلاً و لا سيما فى جنوب الشام و شرقه.

و لا- أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا و الكستانه و البنديق و البيسيم (المشمولة) و كانت كثيره مبدوله هى و الكراز حتى القرن الحادى عشر و كان القطن يوجد فى ضواحي دمشق و حماه و حلب. ذكر القلقشندى زروع الشام و فواكهه و رياحينه فقال: إن غالب زروعه على المطر قال فى مسالك الأبصار: و منها ما هو على سقى الأنهار و هو قليل و فيه من الحبوب من كل ما يوجد فى مصر من البرّ. الشعير. الذرة. الأرز. الباقلاء. البسله.

الجلبان. اللوبياء. الحلبه. السمس. القرطم. و لا يوجد فيه الكتان و البرسيم.

و به من أنواع البطيخ و القثاء ما يستطاب و يستحسن. و كذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس. الملوخيا. الباذنجان. اللفت. الجزر. الهليون.

القنبيط. الرجلة. البقله اليمانيه، و غير ذلك من أنواع الخضروات المأكوله، و قصب السكر فى أغواره إلا أنه لم يبلغ فى الكثرة حد مصر.

و أما فواكهه ففيه من كل ما يوجد فى مصر كالتين. العنب. الرمان.

القراصيا. البرقوق. المشمش. الخوخ- و هو المسمى بالدراقن- و التوت

خطط الشام، ج٤، ص: ١٥٢

و الفرصاد، و يكثر بها التفاح و الكمثرى و السفرجل مع كونها أكثر أنواعاً و أبهج منظراً، و يزيد عليه فواكه آخر لا توجد بمصر، و ربما وجد بعضها فى مصر على الندور الذى لا يعتد به كالجوز. البنديق. الإجاص. العناب.

الزعرور، و الزيتون فيه الغايه فى الكثرة، و منه يعتصر الزيت و ينقل إلى أكثر البلدان و غير ذلك. و بأغوارها أنواع المحمضات كالأتراج. الليمون.

الكباد. النارج. و لكنه لا يبلغ فى ذلك حد مصر. و كذلك الموز و لا يوجد البلح و الرطب فيه أصلاً. قال فى مسالك الأبصار: و فيه فواكه تأتى فى الخريف و تبقى فى الربيع كالسفرجل و التفاح و العنب.

و أما رياحينه ففيه كل ما فى مصر من الآس و الورد و النرجس و البنفسج و الياسمين و النسرین، و یزید علی مصر فى ذلك خصوصاً الورد حتى إنه يستقطر منه ماء الورد و ينقل منه إلى سائر البلدان. قال فى مسالك الأبصار: و قد نسی به ما كان یذكر من ماء ورد جور و نصیین.

و بعد فقد دخلت الشام فى العهد الحديث عدۀ ضروب من الزروع و الغراس لم تكن له فىه من قبل مثل الشوح. الأو كالبس. الأكاسیا. المشمش الهندی.

البندورة (الطماطم أو القوطۀ) و البطاطا فكان منهما فائدة جلی و أصبحت البندورة و البطاطا من أهم أنواع التغذیة، و سرعان ما انتشر الغرام بهما و عمت القاصیة و الدانیة زراعتهما.

الأشجار غیر المثمرة:

كانت الشام مشهورة بسروها و صنوبرها و أرزها، و یقول الشجارون: إنه كان فى غوطۀ دمشق ألوف من أشجار السرو انقرضت، و أدرك الغزى فى حلب من شجر السرو الهرمى و الصیوانى أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره، و كان یوجد منها بكثرة، و أحسن الجبال فى الشام التی احتفظت بغاباتها بعض الشیء جبل لبنان، فإن الصنوبر و الأرز فىه كثیر. و قد أكثر القدماء و المحدثون من الكلام على تاریخ الأرز لورود ذكره فى الكتاب المقدس مرات، و لأن من خشبه بنى قصر داود و هیكل سلیمان و الهیکل الثانى الذى جدد فى أيام زربابل و سقف الهیکل المجدد فى عهد هيرودوس و قبة القبر المقدس و سقف الكنيسة

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٣

فى بیت لحم، و قالوا: إن الأشوريين و البابليين و الفرس و المصريين استعملوه فى قصورهم و بناء هياكلهم و استعمله الإسكندر المقدونى فى السد الذى أقامه بين الجزيرة و الشاطئ من مدينۀ صور و كذلك السلاقسۀ أدخلوه فى بناء دورهم.

و كانت أحشابه تحمل إلى طرابلس و صيدا و صور و بيروت و تعمل منها السفن و فيها عمل معاویة أساطيله لغزو الروم. و ما برح كثیر من المتدينين بالنصرانية یتبركون بشجر الأرز و یحملون من غصونه قطعاً ینقلونها من مملكة إلى أخرى.

و هو عطر الرائحة إذا وضع فى النار و یحسن فى المشم إذا مسسته یدك، و لونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرضة و لا یفعل فىه السوس.

و الغالب أن الحكومات السالفة فى لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها و هى السرو و العرعر و الأرز و الصنوبر و تسمح باحتكار غيره و بدأ النقص فى هذه الأشجار منذ خمسة قرون و قد احتاج اللبنانيون إلى الاحتطاب للدفع و العمارة، و كانوا یسمون رزق الرجل أشجاره، و إذا غضب الحاكم على أحدهم یقطع شجره فيقولون فى أمثالهم الدارجة (اللہ یقطع رزقه) أى شجره كما یقولون (اللہ یخرب زوقه) أى بیته، و ربما أسرع اللبنانيون فى احتطاب شجر الأرز و غيره لثلا تصدعهم الدولة العثمانية كما أن كثیراً من القرى فى القاصیة كانت أيام الأعشار تقطع التین و الكرم و غيره من مثمر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين یتقاضون العشر من الشجر أثمر أم لم یثمر على ما تقدم.

و لم یرح شجر الأرز مشاهداً فى عدۀ أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بیت الدین غابه منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة یسمونها الأبهل، و أخرى فوق قرية الباروك غیر ملتفة و ضعيفة النمو، لكثرة الأمطار و الثلوج و العواصف فى تلك الأرجاء، و منها ما غرس حدیثاً، و ثالثة فوق قرية عين زحلتا، و كان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه، و رابعة بين أفقا و العاقورة فى جرد جلیل من جبل كسروان، و خامسة بين قرية تنورين و بشرى صغيرة الشجر و عدد شجراتها نحو عشرة آلاف، و سادسة بالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر و هى مقصد السياح و فيها أضخم أشجار الأرز و یبلغ عددها

٣٩٧ و قیل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٤

و أكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر مترا و ارتفاع طولهما خمسة و عشرون مترا و قدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة. و في تسريح الأبصار أنه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز إلا في أعالي سير بالضيئة في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر. و بين سير و نبع السكر و في الغابة الواقعة خلف وادي جهنم و يسمى عند أهله تنوب Sapin على أن في جبال قره مورط إحدى شعاب جبل اللكام من عمل أنطاكية غابات من الأرز و غيره من فصيلته. و لو توفرت العناية بأمثال هذه الأشجار و قضت الحكومة على كل فلاح أن يغرس و يتعهد عشر شجرات منها، إذا لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا بأشجارها الغضة الملتفة، تحسن المناظر و المناخ و يكون منها عموم النفع، كلما وقع القطع منها في ثلاثين سنة كما تجرى فرنسا في غابة فونتنبلو و غيرها من غاباتها البديعة المشهورة. و لا تكون في جمالها أقل من شجر الأرز الذي يكسو نجد جبال طوروس (الدروب) و وهادها فتري فيها تلعة مستطيلة إلى جانبها تلعة هرمية و أخرى ذات شكل بيضوي و غيرها المحدودب و المربع أو قائم الزوايا و منفرجها و كلها مزينه بالأشجار.

يقول كاتب جلبي من أهل القرن الحادي عشر: إن غابات الشام كثيرة أشهرها غابة عسقلان و هو حرج كبير يمتد إلى نواحي الرملة. و من الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا تمتد إلى عكا و كان يقال له غاب قلنسة و هذا الحرج يمتد من قاقون إلى عيون التجار، و من الحراج حرج القنيطرة، و في أطراف حلب عدة غابات و خصوصا الغاب الكبير و يقال له الزور و أكثر شجره التوت ا ه. و لقد ثبت أن الغابات كانت في القرون السالفة أكثر من اليوم و أن معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء و أن التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل أن جبل قلمون و جبل المانع و جبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من أشجارها قال: إنك إذا كنت في دمشق ترى بعينك على فرسخ و أقل جبالا قرعاء من النبات و الشجر و أمكنه خالية من العماره.

و تجريد الشام من غاباته دعا إلى زيادة مساحة عدد البطائح و المستنقعات و تأليف صحار من الرمال فقد قالوا: إن الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة أو

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٥

ثمانية كيلومترات فأصبحت اليوم عبارة عن كتبان من الرمل. و هكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيها الرمال و ألقت منها بطائح و مغايض و أفسدت الأراضي العامرة. و لهذا النظر قل و لا شك مساحة المزروع من أرض الشام سنة عن سنة و المستنقعات معروف ضررها بحياء الفلاح و إن كانت أقل من الكتبان و الحرار. و ضرر المستنقعات يتناول الأنفس لما ينبعث عنها من الحميات التي كثيرا ما رأيناها تقفر قري برمتها من سكانها.

و قد قال الزراعي أرنزون: إن أهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث:

الرعى المتبادل و حق المرعى في الأراضي الخالية و الحيوانات الصغيرة و لا سيما الماعز و فأس الحطابين. و نسب خراب الغابات في فلسطين - و سائر الشام تتصرف عليها - إلى إصدار الخشب و التبن و السماد إلى الخارج، و قال: إن الربح من إصدارها لا يوازي خراب الغابات و قلة غذاء الحيوانات و بوار الأراضي بقله السماد و السباخ.

الأشجار المثمرة و غيرها:

و كانوا يتفننون بتسمية الفواكه و البقول و الورود. قال البدرى: و العنب في دمشق فقط أصناف: البلدي. خناصرى. عاصمى. زينى. بيتمونى. قناديلى.

إفرنجى. مكاحلى. بيض الحمام. حلوانى. بوارشى. جلبي. قصيف. ابزاز الكلبة. قشلميش. كوتانى. عبيدى. شحمانى. جوزانى. دراقنى.

مخ العصفور. عرايشى. رومى. شبيهى. ينطانى. عصيرى. رناطى. ورق الطير.

سماقى. حرصى. مجزع. شعراوى. دربلى. قارى. علوى. عينونى. مورق.

مشعر. مسمط. مرصص. مجضر. مقوس. حمادى. تفاحى. رهبانى. زردى مبرد. مخصل. مغاربى. شحمه القرط. و قسم المشمش إلى

أحد و عشرين صنفا و هى: حموى. سندیانى. أویسى. عربیلی. خراسانى. كافورى. بعلبکی.

لقیس. لوزى. دغمشى. وزیرى. كلابى. سلطانى. حازمى. أیدمرى.

سینى. بردى. ملوح. قرط البخاتى. جلاجل القلوع. الخ. و وصف العماد الكاتب المشمش الدمشقى فقال: طلعت فى أبراج الأطباق

كأنها كرات من التبر مصوغه، و بالورس مصبوغه، صفر كأنها ثمر الرايات الناصیه، حلا

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٦

منظرا و ذوقا، و لو نظم جوهره لكان طوقا، كأنما خرط من الصندل، و خلط بالمندل، و جمد من الثلج و العسل، و تصاحب هو و

السلطان فى الركوب و الجلوس، و التناجى بما فى النفوس.

و قال البدري: و من خصوصيات دمشق «الطرخون» من بقول المائدة و كان يخرج فيها السذاب و الرشاد و بقله الحمقاء و الماش و

الهندباء و الكراويا و التوت الأسود و الشامى. و كان يكثر فيها الكراز و الوشنه و هو فيها سبعة أنواع. و ذكر أن الورد جنس تحته ستة

أنواع بدمشق و منه الجورى و النسرينى، و النرجس جنس تحته أنواع منها اليعفورى و البرى، و المضعف و ذكر منشورها و زنبقها و

آذريونها و آسها و حبه و ريحانها و نيلوفرها و بانها و حيلانها و ززلختها و تمر حنائها و قراصياها و كمثراها (ثلاثة و عشرون صنفا) و

تفاحها و دراقها (سته عشر صنفا) و خوخها (ثلاثة عشر صنفا) إلى غير ذلك مما كان فى القرن التاسع.

الصناعات الزراعية القديمة:

و كانت الزهور و الورود من أهم فروع الزراعة، و للطيوب و العطور و مستقطرات الزهور، شأن و أى شأن منذ الأزمان المتطاولة. و

كان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملايب العطر المائع و الكباد اليابس، و يستعملون المسك و العنبر و الزعفران كثيرا، و

يولعون بالعرف و الأريجه، و كان لهم طيب يقال له الغاليه و هى مسك و عنبر يعجنان بالبان قال ابن سيده: و يقال إن الذى سماها

غاليه معاوية بن أبى سفيان و ذلك أنه شمها من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال: هذه غاليه. و

قد حفظ لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن شيئا من الإشارة إلى كثرة الورد و الزهر فى دمشق فقال: إن العطر و غيره كان يستخرج

فى المزة من ضواحي دمشق من زهورها و ورودها حتى إن حراسته تلقى على الطرقات و فى دروبها و أزقتها كالمزابل فلا يكون

لرائحته نظير و يكون ألد من المسك إلى مدة انقضاء الورد. و ذكر صفة إخراجها فى الكرات و الأنبيق و رسم صورها- و القرع و

الأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هى القرع و العليا على هيئة المحجمه هى الأنبيق- قال: و غير هذه الكركه كركه أخرى يستخرج

منها الماورد و غيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب و ذلك

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٧

بعد حشو القرع بالورد و بلسان الثور و بزهر النوفر أو البان أو زهر النارج و الشقيق و الهندباء أو بورق القرنفل المزروع بدمشق.

قال: و يحمل الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبيه كالحجاز و ما وراء ذلك و كذلك يحمل زهر الورد المزى إلى الهند و

إلى السند و إلى الصين و إلى ما وراء ذلك و يسمى هناك الزهر. و مما أرخوه إنه كان لقاضى القضاء الحنيفه و لأخيه الحريرى قطعته

بأرض تسمى شور الزهر طولها مائه و عشر خطوات و عرضها خمس و سبعون خطوة باع منها عشرين قنطارا باثنين و عشرين ألف

درهم و ذلك سنة خمس و ستين و ستمائة و هذا لم يسمع بمثله اه.

و كانت حلب فى القديم مختصه بماء الورد النصيبى الذى يستخرج بالباب من أعمالها قال ابن الشحنة: إنه لا يقاربه شىء مما يجلب

إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامى. و ينبت فى أرض حلب زهر القرنفل و كان يستقتر ماؤه. و اشتهرت فى القديم زهور لبنان و ما إليه من الجبال كجبل الشيخ فإنها كثيرة مبدولة فى الربيع شأنها فى مراعى الجولان و العمق و البقاع و البقيعة كما اشتهرت طيوب البلقاء و صموغه و كانت تحمل إلى مصر.

و قلّ اليوم من يلتفت إلى هذه الصناعات الزراعية.

و من صناعاتهم الزراعية فى القديم السكر و كان يعمل فى القديم على ضفاف الأردن و لا تزال معاملته فى جنوبى الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر، و كان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق و الغرب. و كان يصنع السكر فى أنطاكية و طرابلس و عكا و يافا و يحمل منها إلى الآفاق. قال القلقشندى من أهل القرن التاسع: فى الشام يعمل السكر الوسط و المكرر. و كانت زيوت الشام كخمورها تصدر إلى القاصية. و يعصر السليط أى دهن السمسم فى دياف من حوران و به اشتهرت. و كان الصابون الحلبى و النابلسى و غيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه فى الأقطار الأخرى. و كان الجبن الكركى مشهورا يصدر إلى مصر.

و قد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات و المرببات فى دمشق فتعمل الحساء ذرورا ثم يذاب فى ماء حار وقت الاستعمال فيأتى كأنه طبخ الساعة و استخراجا من العظام مرقا معقما. و أخذوا يعملون

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٨

من الثمار و البقول مجففات و محضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها و تكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثه عهد بالقطف من الشجرة أو المسكبة. و بلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندى فى كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق و المباقل و المقاتى. و استخراجا فى معامل الفيلىق بدمشق أشربه كثيرة من ماء الزهر و ماء الورد و شراب قشر الليمون و قشر البرتقال تجعل أرواحها فى زجاجات و تكفى القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل فى أشربة الجيش و لا سيما فى مستشفيات البادية. و بالجملة فقد كان لتعقيم السوائل و استخراج الأشربة و تجفيف الثمار و البقول و خبز الأخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد فى الشام ثم تنوسى بعدهم.

و من صناعاتهم العسل و كانوا يغالون بأكله كثيرا و اشتهر عسل سنير و جبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك و جنبها و زيتها و لبنها، قال ياقوت: ليس فى الدنيا مثلها يضرب بها المثل. و كانت بيسان توصف بكثرة النخل، و النخيل مما وجود فى الأغوار و كان كثيرا فى القديم و الشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية.

و يظهر أن العسل و الزعفران و الدبس و القنود و التمور كانت مما يعول عليه فى الأطعمة و الحلواء أكثر من اليوم. و لدينا وثيقة فى بعض المأكولات ذكرها أبو القاسم الواسانى من شعراء اليتيمه الدمشقيين نظمها منذ نحو ألف سنة فى وصف جماعة زاروه فى قرية جمرايا على مقربة من الهامة فى غربى دمشق، و مما جاء فيها ما أكلوه من الأطعمة و فيه إشارة إلى كثرة أنواع التمر:

أكلوا لى من الجرادق ألفين بين تشتاقيه العارضان

أكلوا لى أضعافها غير مشطور و مالوا إلى سميد الفران

أكلوا لى من الجداء ثلاثين قريصا بالخل و الزعفران

أكلوا ضعفها شواء و ضعفها طبيخا من سائر الألوان

أكلوا لى تبالة تبلت عقلى بعشر من الدجاج السمان

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٥٩ أكلوا لى مضيرة ضاعفت ضرى بروس الجداء و العقبان

أكلوا لى كشكية قرحت قلبى و هاجت لفقدتها أشجاني

أكلوا لى سبعين حوتا من النهر طريا من أعظم الحيتان

أكلوا لى عدلا من المالح المشوى ملقى فى الخل و الأنجدان

أكلوا لى من القريشاء و البرنى و المعقلى و الصرفان

ألف عدل سوى المصقر و البردى و اللؤلؤى و الصيحانى

أكلوا لى من الكوامخ و الجوز معا و الخلاط و الأجبان

و من البيض و المخلل ما تعجز عن جمعه قرى حوران

و من صناعاتهم الزراعية صناعة الصابون و كانت من أنجح الصناعات القديمة و مصابنه فى حلب و كلز و إدلب و أنطاكية و دمشق و نابلس و طرابلس و اللاذقية و حيفا و رام الله و بعض قرى لبنان. و خير الصابون و أشهره اليوم الصابون النابلسى فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره أو أن السر فى جودته إتقانه بدون غش.

و منذ أفلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال أهلها انحطت فى دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه و كانوا لا يبيعونه إلا بعد ثلاث سنين من صنعه و يصدر إلى أقطار العالم و ثمنه يزيد خمسين فى المئة على سائر أنواع الصابون و كنت إذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما ينعش قلبك

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦٠

من الروائح الذكية، و الآن يبيعون الصابون الدمشقى أخضر بدون تجفيف و يزاحمه فى عقر داره الصابون الغربى لرخصه و هو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص، و عسى أن يرسل صناع الصابون فى نابلس و طرابلس و دمشق و حلب و عكا و حيفا إلى أوروبا من يدرسون المادة التى تدخل الصابون الغربى فتزيد رغوته أخضر كان أو يابسا، يعيدون إلى الصابون البلدى رونقه السالف و يخلصون من النكهة الخبيثة فى الصابون الغربى.

معادن الشام و حماتها:

و خليق بنا و قد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الأرض من الخيرات الطبيعية إلى هذا الحد، أن لا نغفل الكلام على ما حوى بطنها من المعادن و الأمواه النافعة. فقد أجمع المتقدمون أنه كان فيها معادن حديد فى لبنان كان قدماء المصريين يحملونها إلى قطرهم، و أجمع المحدثون الذين بحثوا عن طبقات الأرض و تركيبها على أن الشام خالية من الفحم الحجري و ما وجد منه لا يوازي ثمنه ما يصرف فى تعدينه، و فى لبنان طبقات القصة Gres فيها فحم خشبي متحجر (لنيت) يمكن استثمارها و فى قرطبا و ميروبا و المنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبي و أشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر فى قرنايل، و قد صار الاعتناء باستخراجه من سنة (١٨٣٥ إلى ١٨٣٨ م)، و من مناجم هذا الحجر منجم مارشينا و فالوغا و بزبدین و جزين و زحلتا و عين التغرا و حيطورة و يجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة و الحاجات البيئية للوقود.

و الفحم الحجري و نظنه من نوع الفحم الخشبي فى جبل البشر و أبى فياض شرقى حلب و ذكر ياقوت أن فى جبل البشر و يمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية أربعة معادن: القار، و المغرة، و الطين الذى يعمل منه بواتق لسبك الحديد، و الرمل الذى يعمل منه فى حلب الزجاج و هو رمل أبيض كالاسفيداج.

و للحمر مناجم فى عينبل و حريقه فى جبل عامل و فى أرجاء مرجعيون، و أشهرها منجم حاصبيا، كان يستخرج منه فى اليوم ٨٠ صندوقا وزن كل واحد منها ١٠٠ كيلو و كان السلطان عبد الحميد الثانى يستثمره لنفسه، و بعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقله اليد العاملة و اضطرت أن تهمل معدن سحمر

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦١

فى البقاع و غيره من المعادن فى الشام. فأضر إهمال الحمر بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه و هو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فالحقته

الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله. و في التاس بين حمص و تدمر معدن للحمر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه. و في المقارن بين درعا و سمخ مناجم كلس ممزوج بحمر، و كذلك في أرباض تدمر و في الصلت و وادي اليرموك. قال المقدسي: إن في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة و هو تراب رخو و جبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف و يطين به السطوح. و معدن الحديد كثير في قضض لبنان و أترته، و على سطح الجبال و بطون الأودية، لا سيما في أرجاء البترون و كسروان و المتن و في قرية دومة و بيت شباب و في عكار و مشغرة و الفرزل و مجارى الأنهار مثل نهر الكلب و نهر إبراهيم. و من هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الأجزاء، و المانع من استثمارها اليوم قلّة الوقود أى الفحم الحجري، و الحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال إلى عهد قريب.

و أهم مناجم الحديد في برمانا و بحدون و وادي النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) و في جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة و فيها رصاص ممزوج بالفضة و خشب فحمي و نيكل و كان في القديم في ناحيتي باير و بوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن و لم يبق له أثر، و يوجد حجر الصفار على شواطئ بحيرية طبرية و من نوع البيريت و اللنيت في برتي و كفر سلوان و مرجبا و في راشيا و سفح جبل الشيخ الغربي و جنوبي حاصبيا و في عين اللبوة و عين عطا و شوايا و عين قنى و الروج و الكفير. و النحاس في قرية اهمج في كسروان و في الجنوب الغربي من حلب و كان منه في عين جرفا كدى لكثرة ما استخرج منه، و كان النحاس الأحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من حلب. و ذكر كاتب چلبى أن في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل إلى الأطراف فيباع و يحمل إلى السودان و الحبشة من أسورته و يقايس عليها بالتبر.

و استثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان أثناء الحرب الكبرى (٤-١١)

خطط الشام، ج٤، ص: ١٦٢

لوقود السكك الحديدية و استخرج منه (١٩١٦) ما يقارب ١٣٠٠ طن. و ذكروا أن الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نبحا، المراح، كركبا، زحلنا، عيبه، عرمون، جمهور، عين تراز، بحدون، القرية، رأس الحرف، مرجيليا، بتيات، مارحنا، الكنيسة، عين موفق، قرنايل، جورة أرسون، بزبدين، رأس المتن، ترشيش، جوار الجوز، حيطورا، عين تدجورا، عين زحلنا، صيدنايا، قيتولة، بكاسين، جزين، حمصية، مشغرة، قرطبا، حدث الجبة، مزرعة بيت ابن صعب، الديمان، القنيات. و منه الرديء الذي لا بال له.

و في جهات أبو فياض على ٨٠ كيلومترا من حلب فحم حجري رديء من اللنيت كما أن منه في جهات حوران و في قرية عرنه من إقليم البلاين معدن الفحم الحجري قيل: إنه لم ينضج و في حضر من إقليم البلاين معادن أخرى براقه. و في جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدتها مؤخرا كثير من معدني الإنكليز لتحليلها و معرفة أنواعها. و البترول (زيت الكاز) حول البحر الميت. و في أرسوس على عشرين كيلومترا من الإسكندرونه و في وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن و في المزيريب من عمل حوران و في أرجاء الإسكندرونه معدن غاز سائل جرى تعدينه فلم يأت بفائدة. و في أرجاء طرابلس معدن المغرة و نوع من الصبغ الأصفر Ocre jaune .

و يوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك و في قرية عنجرة من جبل عجلون و في أرجاء البحر الميت و بالقرب من حمه عفرة في الطفيلة معادن الكبريت و القصدير و البترول و النحاس و في رأس العين من عمل الزور و في أماكن جبلية عديدة و لا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد غريبة فحمية و حديدية. و يوجد الزاج في حارم، و النيكل و منه الفاخر في جبل الأقرع، و الفوسفات في جبال السرو بين الصلت و عمان حسب نفقات استثماره فأروا أنها لا تفي بها وارداته فترك و شأنه. و الفوسفات موجود في شمالي يبرود و بعض جهات فلسطين. و البوتاس حول البحر الميت و الاسفلت في جبل الأكراد على ثلاثين كيلومترا من اللاذقية (في قرى كفريه و قصاب و خربة السولاس) و يقال: إنه أغنى منجم عرف من نوعه. و كان في مقاطعة جرش في أرض تسمى تلون الذهب معدن ذهب جاء في الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها. و في

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦٣

الجنوب الشرقي من تدمر و في أرجاء أنطاكية معادن ذهب و لكنها شحيحة.

و تكثر الفضة في جبال اللاذقية و شمالي بعلبك و مصياف و على ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية معادن ذهب و معدن رصاص فضي و معدن إثمند و حجر الكحل و معدن فحم و معدن الطفال المعروف باليلون في أرجاء كلز و أنطاكية، و في جبال قره موط إحدى نواحي أنطاكية عدة معادن تستعمل للصيغ و في جبل بارسال من أعمال كلز معدن مرمر أصفر.

و كان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة، و بأرض حدث من جبل لبنان جوسية فوق كركك نوح يلتقط حجارة زلطية تكسر مرقشيشا و كل معدن مائل باللونية إلى لون ما هو قسمه، وعد الخوارزمي المارقشيشا من عقاقيرهم فقال: و منها مربع و مدور و قطع كبيرة غير محدودة الشكل و هي ضروب فمنها أصفر يسمى الذهبي و أبيض يسمى الفضي و آخر يسمى النحاسي.

و يوجد الملح في مواضع كثيرة و لا سيما في جهات تدمر و جيروود و حماة و الخليل و حوالى البحر الميت. و ملح جيروود فيه مرارة و أجوده ملح الجبول.

و في حلب عدة ملاحات و أعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي عظيم لا تطاف أطرافها في أقل من ثمانى عشرة ساعة يجمد ماؤها في شهر أيار إلى تشرين الثانى فيكون في هذه الفترة ملحا، و يسمى هذا النهر الذهب يجرى من ناحية باب بزاعا إلى أن ينتهى إلى سبخة الجبول في مساكب يعملها أهل الجبول و القرى المجاورة لها، و كانوا يقولون إن هذا النهر سمي نهر الذهب لأن أوله بالقبان و آخره بالكيل، أى أنه تزرع في أوله الحبوب كالحبة السوداء و الأيسون و الكراويا و أنواع الفواكه مما يباع بالرطل، و آخره الملح الذى يباع بالكيل.

و يوجد الزئبق في أرض أنطاكية و غيرها، قال شيخ الربوة: إن معدن الملح الأندرانى كان يستخرج من أرض سدوم عند بحيرة لوط و كيف ما تكسرت حجارتها ما تكسرت إلا فصوصا مربعات الزوايا. و يوجد النحاس في ناحية الصور على نهر الخابور و معدن السويوم في البصيرة و الصور و الشدادى و القصبى و يعرف باسم بارود القصبى. و الرصاص في أنطاكية و المغرة في جهات حلب و عمان و الجبص (الجبسين) في جهات جيروود و صافيتا و عكار و طرابلس.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦٤

و الرخام الأصفر في جبل الجرمق من عمل صنفد و على ساعتين من مادبا جبلان أصفر و أحمر و الحجارة الكلسية على كثرة في جميع الأرجاء، و أهم أنواع الحجارة الكلسية الرملية الحواري و الرخام السماقى و الجنس المدعو «شحم بلحم» و أجمل المقالع ما كان في جوار حلب و في جبل باريشا من عمل حارم و هو رخام أصفر و من أجملها الحجر المزى و هو يضرب إلى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق و الحجر المعربانى و هو أحمر يستخرج من مقلع معربا في قلمون كما يستخرج من مقلع تلفتا حجر هش و هو شديد البياض يعتمدون عليه اليوم في البناء بدمشق لسهولة نحته و تكثر مقلع الحجر الرملى في منحدرات لبنان السفلى و على الشواطئ البحرية و لونه أصفر. و جميع البنيان من صور إلى طرابلس مبنية بحجره و هو سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع و يتصلب في الهواء و يصلح للملاط أكثر من الحجارة الكلسية الجميلة.

و الحجارة الكلسية ذات تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثا و لونها أبيض كامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس إلى شىء من الصفرة الذهبية و لذلك كانت أبنية حلب و بيروت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام، و اشتهرت الداروم في القديم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو: «و الرخام كثير جدا في الرملة و جدران معظم الأبنية و الدور مغطاة بصفائح من الرخام مرصعة بإتقان و مغطاة بنقوش و رسوم و يقطع الرخام بمنشار لا أسنان له و برمل تلك الديار، و بالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السوارى و العمدة كما تقطع الدفوف من شجره. و لقد رأيت في الرملة رخاما من كل جنس و منه المجزع (المبجع) و الأخضر و

الأحمر والأسود والأبيض وبالجملة من مختلف الألوان ا٥».

هذا أهم ما فى بطن الشام من المعادن ومهما كانت حالها فهى وافية نجاهة أهلها ولكنها لا تمون أمما غيرنا كالمعادن المشهورة فى العالم بذهبها وفحمها وغير ذلك، ومعادنا تجزئنا إذا استثمرناها بعض الشىء.

الحمات الشامية:

الحمه (بفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى،

خطط الشام، ج٤، ص: ١٦٥

وفى الحديث: العالم كالحمه يأتيها البعداء ويتركها القرباء، فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها، وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفككون أى يتندمون. فالحمه هى ما يعرف اليوم بالحمامات المعدنية تكثر فى أرض الشام البعيدة عن الساحل، وأهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة، تنفع النساء فى الأمراض التناسلية وتشفى الأوجاع الحادة المزمنة وأمراض الرثية والنقرس والبول السكرى وأمراض أعضاء التناسل والمرء السوداء والتهاب قصبه الرئة المزمن وبعض الأمراض الجلدية وغيرها.

قال أبو القاسم فى وصف حمه طبرية: وفيها عيون ملحه حارة وقد بنيت عليها حمامات فهى لا تحتاج إلى الوقود تجرى ليلا ونهارا حارة وبقرها حمه يغمس فيها الجرب ا٥. و يجرى الماء إلى الحمامات من أربع عيون حارة وأهمها ما بناه إبراهيم باشا المصرى وهو فى الشمال ويعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظيمة، وهى مثقوبة بثقوب أسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المئوى وهو صاف براق فى الجملة ملح الطعام مرمهوع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت أو رائحة بيض فاسد، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها وموسم الاستحمام فيها من أول كانون الثانى إلى آخر حزيران.

ومنها «الحمه» حمه جدر فى وادى اليرموك على الخط الحديدى عند الكيلومتر ٩٣ و ٩٥ تنفع فى أمراض الجلد وغيرها وهى مياه معدنية حارة تنبجس غزيرة وتجرى إلى نهر الشريعة وهى ثلاث حمامات يبعد بعضها عن بعض بضعة دقائق يدعى أحدها «المقلي» أو «حمام سليم» درجة حرارته ١١٩ والآخران «حمام الجرب» و حرارته ١٠٨، أو «حمام الريح» و حرارته ٨٢ بميزان فارنهيته و عندها آثار الحمامات الرومانية وبقرها ملعب عظيم وهو ملعب جدر المشهورة فى الجاهلية والإسلام قال أحد واصفيها: «ولا أبلغ إذا قلت إن معدل قاصديها فى شهر نيسان لا يقل عن عشرين ألفا يقيمون أياما تحت حر الشمس وهبوب الريح لا بيت يؤويهم ولا نزل يكنهم، فإن كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهى فقراء خربة فى شهر واحد فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق وما به تستب لهم الراحة فيه أأبلغ إذا قلت إنهم يزيدون على المائتى ألف؟».

خطط الشام، ج٤، ص: ١٦٦

و حمه زرقا معين فى شرقى الأردن تبلغ درجة حرارتها ١٤٢ بميزان فارنهيته والمالح فى قرية تياسير فى غور الأردن من أرجاء نابلس درجة حرارته ٩٨ ف و حمه أبى ذابله بجانب فحل و حمه أبى سليم فى المهده من أرض صنمه، بقرية سحم الكفارات و حميمه بزور النيص من أرض صنمه أيضا و درجة حرارتها فوق ١٠٠ ف أما حمامات طبرية فدرجة حرارتها ١٤٤ ف و ماء حمه جدر عذب جيد الطعم يشرب سخنا و باردا بخلاف طبرية.

و حمه أبى رباح من عمل ناحية القريتين فى حمص تنفع فى الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة. و حمه ضمير فى جبل قلمون كبريتية، و حمه أرك فى جهات تدمر، و حمه أنطاكية وهى كبريتية وفيها مغنيزيا أيضا. و حمه إسكندرونه بين حلب و إسكندرونه على الطريق. و حمه جسر الشغرى و حمه زرقا معين فى الكرك وهى ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها و يقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمه عفرة من بحيرة لوط. و حمام النبى داود فى وادى الحسا. و ذكر ابن الشحنة أن فى

السخنة من أعمال قنسرین خمسة حمامات ينتفعون بها من البلغم والريح والجرب. و بناحية العمق حمه أخرى. و بكورة الجومه من أعمال قنسرین عيون كبريتية تجرى إلى الحمه و الحمه قريه يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم. قال الغزى: إن في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حاره لو جمعت إلى حوض لكانت حماما عظيما. و في سنة (١٣٠٠) بنت بلديه حلب على بعض هذه العيون خلوه و صارت تؤجرها.

و ذكر شيخ الربوه أن بين حمص و سلمية كهفا في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف خيل إليه أنه في الحمام لشدة الوهج و كثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذي في وسط الكهف و يسمع غليان الماء بقعر البئر و لا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر و من نظر فيه يشيط من الحراره. و لعله يقصد بذلك حمام أبى رباح. و ظهر مؤخرا على كيلومترين من قرقخان من عمل إسكندرونه نبع ماء معدنى درجه حرارته ٤٣ فتهافت الناس على الاستحمام به. خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦٧

هذه أهم حمّات أو حمامات الشام المعدنيّة و أكثرها كما رأيت لا ينتفع بها الانتفاع المطلوب، و حالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها و لا أبنية للمستحمين حوالها. و قد عرف من تاريخ الرومان أنهم كانوا يعنون من وراء الغايه بالحمامات المعدنيّة، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم، و لكن لم نر أن العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم إلا إذا كان ضاع عنا خبره لقله التدوين. و لو أنها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذي تنتفع به بعض الأصقاع التي تنبجس فيها مياه معدنيّة من إقامة المستحمات و المنازل لنزول طلاب الاستحمام و تديرها تدييرا جديدا مرفها صحيا لكان منها منافع كثيرة لأبناء الشام و مورد أرباح لها تأتي من ألوف من الغرباء و القرباء يقصدونها للانتفاع بها و يصرفون في جوارها أياما و شهورا يجعلون عليها مقاصير للتغميز و التمسيد، و أخرى للتبريد، و غيرها للتبريد، و فنادق فيها شروط المدنيّة الحديثه، و حدائق و غابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ و تجمل المناظر الطبيعيّة نظره في الفلاحه الشاميه الحديثه .

أقاليم الشام:

أولا- لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض الممالك العربيّة الحاره كالعراق و مصر. ففي إحدى السنين كان معدل الحراره السنوى في طبريه ٧٠ / ٢١ درجه و هو لا ينقص عن ٥ / ٢١ درجه و قد يبلغ أكثر من ٢٢ درجه لا سيما في مناطق الغور الجنوبيّه. و لما كانوا يحسبون معدل الحراره السنوى في القاهره ٥ / ٢١ درجه و في بغداد ٨ / ٢٢ درجه كانت حراره الغور كافيّه لنمو كثير من الزروع و الأشجار التي أغنت مصر و ستغنى العراق و أعظمها شأننا القطن. و يفضل إقليم الغور أقاليم مصر و العراق في أن أمطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنه عن ٣٠٠ ميليمتر و لهذا يمكن زرع الحبوب الشتويّه فيه عذبا، على حين لا- يستطاع ذلك في مصر و في معظم العراق لقله الأمطار فيهما.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٦٨

ثانيا- ليست سواحل الشام أنقص شأننا من الغور من الوجهه المذكوره فمعدل الحراره في حيفا و يافا و بيروت قلما يقل عن ٥٠، ٢٠ درجه و لهذا وجود في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حراره عظيمه كالقطن مثلا لكنه لا بد من إسقائه في كلا الإقليمين. أما السهول ففي بعضها من الحراره ما يكفي لنجاح القطن و هي التي لا تعلو كثيرا عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر و سهل الغاب شمالي حماه و سهل العمق و إدلب، و يجب الرى إلا في إدلب و العمق. أما في السهول المرتفعه كالغوطة و حوران و البقاع فالقطن ينتج محصولا متوسطا إلا أنه لا يجد من الحراره ما يكفي لتفتح كل ثماره. و لهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائده من الوجهه الاقتصاديّه و الواجب أن لا يحل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقا. هذا و من العبث البحث في زرع الأقطان في إقليم الجبال كسهل الزبداني و سفوح سنير و غيرها لأن نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقله الحراره. هذا و من العبث أيضا البحث في تعميم زرعه في سهول البلقاء و

حوران و وادى العجم و حمص و حماة و حلب الشرقية فى البعل من الأرض، لقله الأمطار السنوية و اختلاف مجموعها بين سنة و أخرى و إن نجحت زراعته بلا رى فى بعض قرى حوران كقرية الحراك فى وادى الزيدى ضربت مثلا بها لأنها مجتمع مياه أرضية و حالة كهذه لا تصلح للقياس.

ثالثا- ليست مقادير الأمطار واحدة فى مختلف مناطق الشام. فأغزرها فى السواحل دائما. فقد دلنا قوائم رصد الجو فى مرصد الجامعة الأميركية فى بيروت على أن ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر فى أكثر السنين و أنه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر أحيانا و هو رقم كبير. و ثبت أن ارتفاع الأمطار فى حيفا و يافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتر فى أكثر السنين. و هكذا فى باقى سواحل الشام، و فى المناطق القريبة من الساحل. أما السهول الداخلية و هى أعظم المناطق شأنا و أغناها تربة و أوسعها مساحة، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ميليمتر فى السنين العادية. و لما كان ارتفاع المطر الضرورى لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمتر اتضح أن متوجات الحبوب فى تلك السهول تختلف اختلافا كبيرا من سنة إلى أخرى، تبعا لمقادير المطر المنهمر و لتواريخ هطله فى خلال السنة. و أمطار غوطة دمشق قليلة، فقد قستها

خطط الشام، ج٤، ص: ١٦٩

بنفسى خلال عشر سنين متتابة فرأيت أنها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمترا فى أكثر هذه السنين، و كان ارتفاعها دون مائتى ميليمتر فى ثلاث سنين. فالغوطة إذن كالواحة كادت تكون صحراء لا تصلح للزراع، لو لا بردى و الأعوج و مشتقاتهما التى قلبتها جنه ناضرة. رابعا- لا يسقط الثلج فى إقليم الغور و لا تهبط الحرارة إلى الصفر. و يندر هبوطها إلى الصفر فى السواحل. أما فى السهول الداخلية فلا تهبط لأوطأ من عشر درجات تحت الصفر فى السنين الاعتيادية و يندر هبوطها إلى هذا الحد.

لكن لكل قاعدة شواذ ففي شتاء سنة (١٩٢٤-١٩٢٥) و كانت سنة قتر شديد هبطت الحرارة إلى ١٥ درجة تحت الصفر فى دمشق و ٢٠ درجة تحت الصفر فى سلمية. و دام الصقيع عدة أيام فأتلف الأسباناخ و الملفوف و السلق و المقدونس و البيقية و الحلبه و الفول و غيرها من البقول كما أتلف براعم التين و الرمان و أغصان الليمون و البرتقال و بعض ورق الزيتون. و باد كثير من الأزهار و الرياحين و أشجار التزيين كالمنثور و الكافور و السنط و الفلفل الكاذب و الخروع و الكزورينا و غيرها. أما الحنطة و الشعير و المشمش و التفاح و الكمثرى و الدراق و الخوخ و الصنوبر و السرو و الازدارخت و الصفصاف و الزيزفون و الورد فقد قاومت فلم يمسه الصقيع بأذاه. و أضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بضعة أيام فى أوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف أكثر من نصف محصول المشمش فى الغوطة، و اسودت أفنان الجوز، و بادت نباتات الخيار و الكوسى و البنادورى الكبيرة، فعاد الزراع إلى بذر بذورها ثانية. و لقد ذكرت هذه الأحداث لأن الطاعنين فى السن من أرباب الفلاحة لم يرو شيئا لها منذ ثلاثين سنة و نيف.

خامسا- ليس لبناء التربة فى الشام كبير تأثير فى إمكان غرس الشجر أو عدمه فى إحدى المناطق، بل العامل الأقوى هو الإقليم و ذلك أن الأمطار تهطل فى الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر ييوسه تدوم بضعة شهور. و تكون الرياح شديدة، و الحرارة زائدة، فى شهور اليبوسة، و مهما كان ارتفاع المطر السنوى كبيرا حتى فى سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهناء عذيا، بل لا بد من إسقائه كالبرتقال و الليمون و التفاح و الكمثرى و المشمش

خطط الشام، ج٤، ص: ١٧٠

و الخوخ. و ليس السبب فى ذلك قلة مجموع الأمطار السنوية بل انحباسها منذ أواخر الربيع و طول فصل الصيف و أوائل الخريف. فأمطار باريز مثلا لا تزيد فى السنة على أمطار بيروت أو أمطار طرابلس لكن المطر فى باريز يهطل فى كل شهور السنة تقريبا فتنمو الأشجار المذكورة دون رى على العكس من حالتها فى الشام.

و من الشجر ما يعيش بلا إسقاء فى جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون و الكرمة و اللوز و التين و الرمان و الفستق و الآس و الزعرور و العناب. أما مناطقها الشرقية فمنها ما يصلح دون رى للكرمة و اللوز و الزيتون كشرقى العاصى إلى جبال الشومرية و كالجولان و

حوران و جبل حوران و عجلون و البلقاء. و منها ما أمطاره من القلّة بحيث أن الأشجار عموما لا تنجب فيه بلا رى، كالغوطه و المرج و شرقى سنير (منطقة القريتين) و بادية الشام. و ينمو الكرم و اللوز بلا رى بعد أن يكبر فى القرى الشرقية من منطقة سلمية و الحمراء. أى أن المطر فى تلك المنطقه و حالة المياه الأرضية هما بحيث لوسقى الكرم سنتين أو ثلاثا حتى تضرب جذوره فى التراب، لأمكن بعدها أن يعيش بلا رى.

و اختلاف الأقاليم فى الشام يجعل هذا القطر صالحا لزراع زروع متنوعه، و غرس أشجار شتى، فالغور و الساحل للقطن و النخل و الموز و القشطه و البرتقال و الليمون و الزيتون. و السهول للحبوب و الزيتون و اللوز و المشمش و الخوخ و الكرمه. و الجبال للتفاح و الكمثرى و الكرز. و تقل الأصقاع التى تحوى كالشام أقاليم عديدة فى مساحات ضيقه. و ليس فى العالم بلد غيرها يستطيع فيه الإنسان أن يصعد إلى ارتفاع ٢٨٠٠ متر فوق سطح البحر بعد أن يكون فى أعماق من مائتى متر من هذه السويه و ذلك بقطع مسافه لا تزيد على ٦٥ كيلومتر، هذا شأن الذى يكون فى البطحه أو التابغه على شواطئ بحيره طبريه مثلا و يريد الصعود إلى قمه جبل الشيخ فهو يعتلى ثلاثه آلاف متر بقطع تلك المسافه الصغيره.

أتربه الشام:

كثيرا ما نسمع أن الشام قطر زراعى محض و أن تربتها من أخصب الأتربه

خطط الشام، ج٤، ص: ١٧١

فما معنى ذلك و ما هو مبلغه من الصحه؟ أما كون الشام محض أرض زراعيه فلأنها لا كبير منتوج فيها سوى منتوجات الأرض فهى إذا لم تقس بغيرها تعد قطرا زراعييا ذا شأن كبير. أما إذا قسناها ببعض الممالك الأوربيه حيث الأرض خضراء دائما، و المحاصيل كبيره بسبب كثرة الأمطار فى كل فصول السنه، أو لو قايستنا بينها و بين بعض الأقطار التى فيها أنهار عظيمه تسقى بمياهها ملايين من الهكتارات كمصر اليوم و عراق الغد، إذن لو وجدنا أن الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهه الزراعة لأنها ما برحت و لن تبرح أرض حبوب شتويه كالحنطه و الشعير تنتج بالليل من المطر الذى يهطل فيها. أما الأشجار المثمره و الأقطان و الخضر فمقامها فى الدرجه الثانيه لما تتطلبه من الرى على حين لا تروى أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيجىء ذكره. و نقول لمن جعلوا ديدنهم التنويه بأن الشام من أعظم الأقطار التى تنتج أقطانا أنهم مدفوعون إلى دعايتهم هذه بعوامل سياسيه، لأن القطن فى الشام لا يمكن أن يكون له المقام الأول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا- تروى إلا بما توجد به السماء من المطر القليل الذى يكاد لا يكفى لحياة الحنطه و الشعير. و يجب أن لا يتخذ القطن الإدلبي مثلا لأن صنفه من أردا الأصناف، و لأن منطقه إدلب و أشباهها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعه الأرجاء. و قولى هذا لا ينفى كون زرع القطن مفيدا اقتصاديا فى كل مكان يستطيع أن ينجب فيه. فمما تعيننا معرفته أن الأمكنه التى يستطيع أن ينجب فيها صغيره إذا قيست بمجموع أراضي الشام الزراعيه.

و لئن لم تجعل الطبيعه للشام حظا كبيرا من المطر و الأنهار التى تستطيع أن تروى مساحات واسعة، فلقد جادت عليه بتربه من أجود الأتربه. و هاك خلاصه ما تجب معرفته:

أولاً- تراب أهم سهول الشام طينى كلسى (أكثر قرى حوران و الغوطه و سهول سلميه و حمص و حماه و بساتين حارم الخ...) و تراب بعضها طينى رملى (بعض قرى الغور و البقاع الخ). و تراب بعض آخر رملى طينى (بعض قرى الساحل و السهول الشرقيه القريبه من البادية). و من المعلوم أن بناء هذه الأنواع الثلاثه يعد جيدا لا سيما الأول منها.

خطط الشام، ج٤، ص: ١٧٢

أما من حيث غنى أتربه الشام بالعناصر الغذائيه. فقد كشف التحليل عن أن معظمها غنى بالحامض الفسفوريك و البوتاس. أما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير فى بعض المناطق كالغور مثلا، و كاف فى أكثرها، و قليل فى بعض المناطق التى أنهكها الزرع

المتتابع دون مد الأرض بالسماذ.

و يفيد أن أذكر كلمتين في الطبقات و الأدوار الجيولوجية التي تنتسب إليها أهم المناطق الزراعية فأقول:

الأرض البركانية: إن أتربة حوران و جبل حوران و اللجاء و الجولان و البطيحة و جبل المانع و الصفا و غربى العاصى بين حمص و حماه الخ هي أرض بركانية (بزالتيه) متكوّنه من اندفاعات البراكين.

الأرض الطباشيرية: هي أوسع الأرضين في الشام و إليها تنتسب معظم جبال لبنان و سنير و حرمون و عجلون و الكرك و الصلت و سهول البلقاء و جبل نابلس و تدمر الخ.

الأراضى المنسوبة للدور الثلاثي: منها معظم جبل العلا الواقع بين حماه و سلمية، و منها جنوب البقاع بدءا من مجدل عنجر و سهل متسع حوالى حلب و سواحل فلسطين و قمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القטיפه، و قسم كبير من قلمون و قسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر، و مساحة واسعة حول شواطئ الفرات بعد الراسبات الرباعية الخ.

الأراضى المنسوبة للدور الرباعى: في الشام كثير من الطبقات الأساسية سترت براسبات من الدور الرباعى و أكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع و الغوطه و المرج و مرج ابن عامر و سهل الرملة ولد و سهل عكار و على طول الفرات الخ.

حراج الشام:

إذا رجع المرء إلى كتب الأقدمين يرى أنه كان للحراج في الشام شأن و أى شأن. و أهم أشجار هذه الحراج و مواقعها و مساحتها لعهدنا هذا، على وجه التقريب:

أشجار الحراج: أعظمها شأنا أشجار البلوط و هي على قسمين قسم يظل

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧٣

مكتسيا أوراقه في الشتاء و آخر تسقط أوراقه فيه. فمن الأول السنديان و البلوط الأخضر و هي أشجار صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل و تعلق مع مختلف المناطق إلى ألف متر عن سطح البحر. و من الثاني الملول و البلوط المسمى عفصا.

و لأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط. و أهمها الصنوبر المثمر و هو يشاهد في الساحل و في المناطق التي لا يزيد علوها على ألف متر عن سطح البحر. و يغرس في لبنان (حمانا، برمانا، بيت مرى، بكفيا الخ) لأن خشبه و ثماره مرغوب فيها. و يليه الصنوبر الحلبي و هو الأكثر شيوعا يعيش في كافة الأقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر. و منه حراج ملتفه في عكار و الضنيه و قزل طاغ و يستخرج منه القطران و يستعمل في الدباغة.

و من أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو و التنوب أو الشوح و هو يكثر في الجبال الشامخة حيث يختلط بالأرز ثم العرعر و الدفران و الأرز و جميعها تعيش في الجبال العالية.

و كثيرا ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة بريه مثل الكمثرى و الزعرور و الخوخ و السدر و الزيتون و الخروب و غيرها. كما يشاهد أشجارا مختلفه كالبطم في البلعاس و الدلب على شواطئ الأنهار و اللبنة أو الأبهري في لبنان و وادي التيم و العجرم و هو مبدول و الغار في غور الأردن الخ.

مواقع الحراج: إذا سرنا اليوم من شمال الشام إلى جنوبها نرى الغابات الآتية:

(أ) حراج السفح الممتد بين سلسلتى جبال اللكام مساحتها نحو ١٠،٠٠٠ هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) و أهم أشجارها البلوط و الصنوبر الحلبي و يليهما الأبهري و الأشجار المثمرة البرية. و في منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقريبا مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئه.

(ب) حراج كرد طاغ و تمتد من راجو إلى الحمام، و مساحة الشجر الملتف فيها ألف هكتار تقريبا و أشجارها السنديان و الصنوبر

الحلبى. و يلحظ أن فأس المحتطيين لا تكف عن العمل بها، و أن أضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجا جميلة.

(ج) حراج رأس الخنزير (قرل طاغ). أهم شجرها الصنوبر الحلبي و أنواع البلوط. تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥،٠٠٠ هكتار إلا أن

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧٤

ضعفى هذه المساحة كانت غابات ملتفة فإذا هى اليوم جرداء أو فيها أشجار حقيرة متفرقة. و يصنع القطران من صنوبر هذه الحراج فى أرسوس و أنطاكية.

(د) حراج الأردو و البايرو البسيط: مساحة القسم المكتسى بالشجر اليوم ١٠،٠٠٠ هكتار تقريبا. و أهم شجرها الصنوبر الحلبي و أنواع البلوط و يليها الدلب فيما انخفض من الأرض. و يجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيث الماشية لأن بعض أشجارها بدأت تتلف.

(ه) حراج العمرانية: شجرها السنديان و الملول و قليل من الصنوبر الحلبي و مساحتها ٢٠،٠٠٠ هكتار تقريبا، و يلاحظ أن أكثر أشجارها الباسقة قطعت إلا فى المواقع الكبيرة الانحدار التى يشق الوصول إليها، فإن أشجارها لا تزال باسقة. و من المؤسف أن القطع لا يزال متواصلا فى هذه الحراج لنقل الحطب أو لصنع الفحم و نقله إلى حماة و حمص.

(و) حراج عكار و الضنية: هى من أجمل الغابات و أهم شجرها السنديان و الملول و يليهما الصنوبر الحلبي و السرو و العرعر و الأرز. و مساحتها ١٠،٠٠٠ هكتار على وجه التقريب.

(ز) حراج الهرمل و إهدن و تنورين. تبلغ مساحتها نحو ٥،٠٠٠ هكتار.

(ح) حراج الصنوبر فى لبنان: زرع اللبنانيون كثيرا من بزور الصنوبر المثمر و غرسوا كثيرا من غراسه فتكون منها حراج جميلة تشهد فى كثير من قرى لبنان. أما حراج الأرز القديمة فقد أتت عليها أيدي الجهل و بعض بقاياها فى الباروك.

(ط) حراج البلعاس: يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلومترا شرقى سلمية و فيه أشجار قديمة من البطم. لعبت بها أيدي البدو و المحتطيين الذين يأتون بمركباتهم كل يوم من سلمية إلى البلعاس فيقطعون الشجر و يبيعون الحطب فى سلمية و حمص و حماة على بعد المسافة. و قد أكد بعضهم من بدو و حضر و بعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مرارا أن مساحته تبلغ ٣٠،٠٠٠ هكتار تقريبا، و أن الشجر متفرق فى أكثر أقسامه لكنه يلتف فى بعض المواقع.

(ى) حراج عجلون: هى من أوسع حراج الشام و أجملها. أشجارها السنديان و الملول و الصنوبر و الحلبي و غيرها. و فيها مواضع أشجارها ملتفة و أخرى أنهكها القطع.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧٥

هذه هى أهم غابات الشام و ثمة غابات و محتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقها من الأذى بسبب انكباب الإنسان على قطعها أو عيث الماشية بها، مثل غابات بعلبك و سنير و جبل الشيخ و القنيطرة و صنفد و الناصرة و الكرمل و الصلت و غزة و غيرها. و كانت الحكومة التركية خلال الحرب الكبرى (١٩١٤-١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلا من الفحم الحجري الذى كان يعوزها.

الرى فى الشام:

يروى اليوم فى الشام (عدا فلسطين و شرقى الأردن) مساحة تقدر بنحو ٧٧،٠٠٠ هكتار على وجه التقريب و أهم المناطق التى تروى هى الغوطة و المرج اللذان يسقيان من بردى و الفيحة و الأعوج و مشتقاتهما و من قنى موضعية.

و تقدر المساحة التى تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥،٠٠٠ هكتار و يسقى فى وادى العجم من نهر الأعوج نحو ٥،٠٠٠ هكتار. و يسقى فى حمص بمياه القناة التى تشتق من بحيرة حمص بساتين واسعة. و فى الزبدانى سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروى من أنهار

صغيرة و ينابيع. و يسقى فى القنيطرة و الزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيما فى البطحه و شمالى بحيرة الحولة إلى الشرق. و فى حماة نواعير لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص و حماة و تمتد شمالا إلى العشارنة و تسقى نحو ١٥٠٠ هكتار. و فى سلمية و القرى التى فى تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة دائرة أخذ الأكارون منذ بضع سنوات يكرونها و يعيدونها إلى سالف عهدها و فى جبرود و النبك و يبرود و دير عطية و القرى المجاورة لها قنوات و ينابيع تسقى ٢٥٠٠ هكتار تقريبا. و فى لبنان نحو عشرة آلاف هكتار من الأرض التى تروى، أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريبا فيها من شجر الليمون و البرتقال فى طرابلس. و يتلوها بساتين واسعة حول بيروت و صيدا و صور و رأس العين و الهرمل و بعلبك و بعض قرى البقاع الخ. و مما يسقى سهل عكار و البقعة و حول اللاذقية و بعض أرض العمق و أرباض

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧٦

أنطاكية و مدينة حلب و الإسكندرونه. أما فى جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأنًا ما يسقى شمالى بحيرة الحولة حيث تهر الحاصبانى و البانياسى و اللدان أى أصل الأردن. ثم الغوير و مجدل طبرية ثم بيسان و ما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال و الليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات. و مما يستطاع إسقاؤه من الأرض فى المستقبل إذا وجد رأس المال الكافى للقيام بأعمال عظيمة للرى. حتى لتبلغ مساحته ضعفى المساحة التى تسقى اليوم و ربما إلى ثلاثة أضعافها، الأراضى الواقعة حول النهر الأسود عند مصبه و حول نهر عفرين و سهل العمق (نحو ٢٠٠،٠٠٠ هكتار) و سهل الغاب الممتد شمالى قلعة شيزر (سيجر) (نحو ٦٠،٠٠٠ هكتار) و السهل الواقع شرقى جسر الشغور و السهل الممتد بين صيدا و صور و حول بحيرة الحولة و أرض واسعة فى الغور بين بحيرة طبرية و بحيرة لوط الخ.

زروع الشام و أشجارها:

نذكر هنا بإيجاز أهم ما يزرع فى الشام من الحبوب و البقول و النباتات الصناعية و ما يغرس من الشجر المثمر، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيدة.

الحبوب: أهمها الحنطة فالشعير فالذرة الصفراء و البيضاء فالأرز فذرة المكانس.

الحنطة: أعظم الزروع شأنًا و أغزرها محصولًا و أعمها انتشارًا. يقدر ما نتج منها فى (سنة ٩٢٢) ب ٨٠٠، ٣٤٥ طن (الطن أربعة قناطير) فى الشام عدا فلسطين و شرقى الأردن و أشهر أصنافها الحورانية و البياضية و اليرودية و البقاعية و الحمارية و النورسية و حنطة عين غرة و الدوشانية و السلمونية و الهيئية. فالحورانية تعرف بساق متوسطة الطول و سنبله غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها إلى سمره و حب سمين قاس إلى حمرة. و هى أجود الأصناف و أعمها. تزرع فى حوران و وادى العجم و فلسطين و البلقاء و حلب، و بالاختصار فى كل أنحاء الشام على درجات متفاوتة. أما موطنها الأصلي فحوران. و للحنطة البياضية سنبله بيضاء

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٧٧

طويلة و بره نصف فرقة ذات سفا، و حب أبيض سمين مكسره نصف دقيقى و هذا الصنف يزرع فى الغوطة و المريج و وادى العجم خاصة.

و للقمح اليرودى ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة، و سنبله مستطيل كثيفة ذات سفا، و حبات ضاربة إلى بياض مكسرها قرنى. و هذا الصنف يزرع فى دومة و قلمون. و للحنطة البقاعية سنبله دكنا إلى سواد، و حب إلى سمره و هى تزرع فى البقاع. أما القمح الحمارى فهو يزرع فى حمص و حماة و ما جاورهما. و أما النورسى فيزرع فى فلسطين و هو يعرف بسنبله مستطيل ذات سفا، و حبات مستطيلة حنطية إلى حمرة.

و قمح عين غرة أشهر الأنواع فى الغوطة، و له ساق طويلة فارغة. و سنبله سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا إلى سواد، و حب سمين

طحينى اللون. أما الدوشانى فله سنبله فرقه طويله لا سفا لها، و حب أبيض ثخين، و هو يزرع فى البقاع و بعلبك و فى الغوطه على الندور. و يزرع السلمونى فى الأمكنه الجبلية و يعرف بسنبله مستطيله فرقه ذات سفا، و حب مستطيل ذى مكسر دقيقى. و القمح الهيتى من الأصناف التى تزرع فى الكرك و البلقاء، و سنبلته ذات سفا، و حبه حنطى إلى حمرة. و قد جرب على القمح الطليانى فى الغوطه فأتى بأحسن محصول.

الشعير: هو فى الشام أشهر الزروع بعد الحنطه و أكثرها منتوجا، و قد قدرت غلاته فى سنه (١٩٢٢) بنحو ٥٠٠، ١٨٢ طن فى الشام عدا فلسطين و عبر الأردن. و هو على صنفين العربى و الرومى. فالعربى ساقه قصيره فارغه و سنبلته على صنفين و هى مستطيله ذات سفا طويل. و حباته أقل غلظه من حبات الشعير الرومى. ينضج قبل الرومى و هو أشهر منه و لا يتطلب مثله أرضا غنيه. أما الشعير الرومى فسوقه غليظه فارغه يتخللها عقد ملائنه و سنبلته على سته صفوف، و هى متوسطه الطول كثيفه ذات سفا. يكثر هذا الصنف فى الغوطه و المريج و هو يتطلب أرضا غنيه مسمده.

و تزرع الذره الصفراء فى أنحاء الشام فى الأرض التى تسقى، أما الذره البيضاء فتزرع عذيا فى أنحاء فلسطين و فى عجلون لا سيما فى مرج ابن عامر. و أما الأرز (٤-١٢) خطط الشام، ج٤، ص: ١٧٨

فيزرع فى الحوله و هو قليل الشأن. و من حبوب الفصيله القرنيه الشائعه ما تعلقه الماشيه كالبقيه و الجلبان و الكرسنه و الحلبه. و من الكلا الفصفصه و هى ذائعه فى الأماكن التى تسقى. البقول: لا تعيش أكثر الخضر و الأبازير بلا رى فى أقاليم الشام كافه.

و لهذا يستدل من وجودها فى أرض على كونها مما يمكن إسقاؤه. و أنواع الخضر التى تزرع كثيره جدا و كلها تستهلك فى القطر. الزروع الصناعيه: أشهرها القنب و القطن و السمسم. أما الكتان و النيله و الحناء و الخشخاش و الخروع فليست ذات بال فى الشام. فالقنب يزرع فى الغوطه و فى حلب، لكنه فى الغوطه أعظم شأنًا، إذ تقدر فيها مساحه الأرض التى تزرع قنبا بنحو ألف هكتار فى كل سنه، أما فى حلب فقلما تزيد على مائتى هكتار.

و زراعته القنب رابعه لأسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلعها، و كونه فى مأمن من الأمراض و الحشرات حتى إن الماشيه لا تأكل ورقه. و قد ألف إقليم الغوطه الوسطى و صار من زروعها الأساسيه التى لا يرجح عليها سوى أشجار الفواكه. و من الغلط الفاحش أن يقوم بعضهم فيبحث فى استبدال القطن به، لأن للقطن أقاليم غير إقليم الغوطه، و لأنه تصيبه عاهات لا تصيب القنب. هذا عدا العنايات التى تستلزمها زراعته القطن مما لا لزوم له فى زرع القنب.

القطن: يمكن زرع القطن بلا رى فى الشمال كمنطقه إدلب و دانه و ريحا حيث قدر ما ينتج منه سنه (١٩٢٣) بنحو ٠،٠٠٠ ١٣ باله. و قد علمت أنه نتج هنالك و فى باقى المناطق التى يزرع القطن فيها نحو ٠،٠٠٠ ١٥ باله فى سنه (١٩٢٥). و لكن للقطن الذى ينتج فى البعل من أرض منطقه إدلب شعر غليظ مجعد و هو لا يصلح إلا للمنسوجات الغليظه، و لهذا لا يباع إلا بنحو نصف ثمن القطن المصرى عادة. أما الأقطان المصرى فلا تنجب إلا فى الأرض التى تسقى.

السمسم: زرع السمسم شائع فى فلسطين و عجلون و لا سيما فى مرج ابن عامر حيث ينجب فى الأرض البعل كالذره البيضاء. و يزرع منه قليل فى الغوطه و وادى العجم و هناك يكون زرعاً مسقياً. و الغايه من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره و تتكون أثناء عصر هذه البزور ماده الطحينه المعلومه.

خطط الشام، ج٤، ص: ١٧٩

المنتوجات الطبيعیه: تنبت الطبيعیه فى بعض الأرجاء نباتات طبيعیه لها شأن فى اقتصاديات البلاد مثل السوس و الكمأه. فالسوس ينبت فى سهل العمق و جسر الشغرى حيث أجود عروقه، ثم فى أنطاكيه و الباب و منبج و دير الزور و السويدية و كلها فى الشمال. و ينبت

أيضا في الغوطة و المرج. و يقدر ما يقتلع من عروق السوس في الشمال بنحو عشرة آلاف طن كل سنة، و كلها تنقل إلى إسكندرونة حيث تسحق و تشحن إلى أميركا خاصة. أما في الغوطة و المرج فيقتلع نحو ألف طن سنويا. و فوائد عرق السوس عظيمة و هو يضاف إلى عدد كبير من الأدوية و يصنعون منه في دمشق شرابا سكريا لذيذا يزيد الإدرار. و ليس للكمامة مكانة السوس و هي لا تكثر إلا في السنين الغزيرة الأمطار. و تبت في قلمون و جبرود و كثير من القرى الشرقية القريبة من البادية. و يختلف مقدار ما يرد منها إلى المدن باختلاف السنين.

الأشجار المثمرة:

أسمائها مكانة الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون فالشمش فالتين فالفستق فالجوز. أما باقي الأشجار فتأتي في الدرجة الثانية و أنواعها كثيرة مثل التفاح و الكمثرى و الخوخ و اللوز و الرمان و الدراق و السفرجل و الموز و النخل و الآس و الصبار و التوت و العناب و الخروب الخ.

الزيتون: أفضل الشجر و أعمه في مختلف المناطق. و هو يكثر في جزيين و المختارة و الشويفات و زغرته و الكورة، و في الغوطة و المرج، و ضواحي طرابلس و في طرطوس و صافيتا و جبله و اللاذقية و البايرو و في أرباض أنطاكية، و في السويدية و القصير و كردطاغ، و يقل حول حلب و الباب و سلقين و إدلب.

و قد اشتهر في الجنوب زيت الرامة كما اشتهر زيتون جبال نابلس و القدس و سهول لد و الرملة. و ينجب الزيتون في البعل من الأرض و لا يسقى إلا في الغوطة و المرج و في القرى القريبة من البادية. و أصنافه كثار أشهرها في دمشق الدان و الأخضر (أو المصعبي) و الجلط و التفاحي. و أشهرها في لبنان الصوري و الشامي و المصري و الشتوي و العيروني و بيض الحمام و البلدي. و أعمها في اللاذقية الخضيرى و الطمراني و قلب الطير. و في الإسكندرونة القرمانى و الخلخالى و الرمانى و التفاحى الخ.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٠

فالدان أنفع الأصناف بدمشق و أغناها زيتا (١٨-٢٠ في المئة) يستخرج الزيت منه و قلما يؤكل أخضر أو مكبوسا. يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمترا و عرضها ١٣ ميليمترا و هي تسود بعد أن تنضج. و شجرة الزيتون الأخضر أو المصعبي كبيرة أحد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمترا و عرضها ٢٤ ميليمترا، و هي تقطف خضراء و تكبس و لا تعصر لاستخراج زيتها. و ثمرة الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة البلح شكلا طولها ٣٥ ميليمترا و عرضها ٢٥ ميليمترا و هذا الصنف أعلى الأصناف و أجودها مكبوسا و يندر عصره لاستخراج زيت منه.

الكرم: الكرم شائع كثير في الشام، و تقدر مساحة الكروم بنحو ستين ألف هكتار (عدا فلسطين و شرقى الأردن). و أوسع الكروم اليوم في الصلت و دومة و داريا بالقرب من دمشق و في زحلة و بحدون و حمص و تليسة بالقرب من حمص و في حلب الخ. و لا تخلو قرية من قرى لبنان و وادى التيم و جبال النصيرية و قلمون من قليل من الكروم. و الكرمة تعيش في البعل من الأرض لا يسقى من الكروم إلا ما كان منها في الغوطة و المرج و في أرجاء سلمية. و تؤكل الأعناب أو تصنع زيبا أو دبسا أو خلا أو عرقا أو نبيذا. و الكرم أصناف عديدة، أشهرها الزينى و البلدى و الأحمر و الأحمر الداراني و الدرلبى و الحلوانى و الأسود في دمشق و الغوطة، و الفضى و القاصوفى و الشقيفى و القمحانى و المريمى و الخانقى و بيض الحمام و الزحلاوى في وادى التيم و البقاع، و الجحافى و البياضى في سلمية. و عنب الشيخ و اصبع الست في الإسكندرونة الخ.

و قضبان الزينى طوال سلامياتها متوسطة و عناقيد ضخمه نصف كثيفه و ورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافات مسننة و ثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة و لبها مائع. تؤكل ثمار هذا الصنف و لا يصنع منها زيب أو خمر و هي من أجود الأعناب.

و عناقيد البلدى رهلة و ثمرته أسطوانية طويلة بيضاء إلى خضرة، ذات قشرة ملتصقة بالللب و اللب لحمى قاس لذيذ. و ثمار هذا

الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء. وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة و يصنع منه زبيب و دبس و خمر و عرق. أما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لبها نصف لحمي لذيذ و هي تؤكل و يصنع منها زبيب مسكرات

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨١

و يعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني.

و الفضى من أجود أعناب وادي التيم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء و لبها يكاد يكون مائيا و بزورها متوسطة. أما القاصوفي فثمرته أسطوانية منتفخة قليلا في وسطها نصف لحمية بيضاء إلى خضراء و هي أصغر قليلا من ثمرة العنب الزيني.

البرتقال و الليمون الحامض: ذكر علماء النبات أن موطن هاتين الشجرتين الأصلية في شرق آسيا، و أن الفضل يعود إلى العرب في نقلهما إلى سواحل بحر الروم. و هما ينجان في الغور و سواحل الشام و لا بد من إسقائهما. أما في مناطق السهول المرتفعة و الجبال كالغوطة و حوران و حلب و الزبداني مثلا- فإن هبوط الحرارة في الشتاء إلى بضع درجات تحت الصفر يودي بحياتهما، و لهذا لا يزرعان في تلك الأرجاء إلا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما.

و أوسع بساتين البرتقال و الليمون اليوم في يافا (نحو ٢٠٠٠ هكتار) ثم في طرابلس (نحو ١٢٠٠ هكتار) و يليهما منطقة الإسكندرونه (درت يول و بياس) و بيروت و صيدا و صور و عكا الخ.

و أجود أصناف البرتقال اليافاوى أو اليافونى (شموطى) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة و لب قاس لذيذ، لكنه قليل العصارة لا سيما بعد تمام نضجه. و هو ينقل بسهولة إلى القاصية مثل إنكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف. و مما يستملح فيه سهولة تقشيريه دون تلويث اليدين.

و من أكثر الأصناف انتشارا البرتقال البلدى و هو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوى قشرتها رقيقة و لبها كثير العصارة. و هذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوى. و من أصناف البرتقال الماوردى و هو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب و لب أحمر كثير العصارة. و هذا الصنف لا يألف الأسفار الطويلة و تقشيريه صعب.

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة (١٩١٤) أى في بدء الحرب الكبرى بنحو ٠،٠٠٠، ٨٥٠، ١ صندوق، أما بعد الحرب فقد هبط المحصول إلى ٠،٠٠٠، ٤٠٠، ١ صندوق تقريبا. و قد زاد في العهد محصول البرتقال اليافاوى و بعبارة أصح

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٢

الفلسطينى أربعة أو خمسة أضعاف ما كان عليه قبل ربع قرن. و كان محصول طرابلس قبل الحرب ٠،٠٠٠، ٨٠٠ صندوق من البرتقال و ٠،٠٠٠، ٢٤٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوى الصندوق على ١٥٠ برتقالة أو ٣٠٠ ليمونة). أما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير إلى نصفها.

و يشحن معظم محصول يافا إلى إنكلترا و مصر، أما محصول طرابلس فإلى أوديسا و بلغاريا و القسطنطينية و مصر. و كذا محاصيل صيدا و الإسكندرونه.

المشمش: يمكن غرس المشمش في جميع أقاليم الشام الزراعية و ليس فيها ما لا يصلح له سوى الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره و فراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع. و هو لا ينجب في غير الأرض التي يمكن إسقاؤها.

و أعظم مغروساته في الغوطة و المرج و وادي العجم و وادي بردى و حول صيدا و بيروت و بعلبك و أنطاكية و أرسوس. و منه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها إسقاؤه. و أشهر أصنافه اليوم الحموى و البلدى و السنديانى و الوزرى و العجمى و الكلابى في دمشق ثم اللوزى في الساحل.

و للحموى ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تذوب في الفم و تهضم بسهولة و داخلها بزررة حلوة. و هي أجمل ثمار المشمش

منظرا و ألذها طعما و أعطرها رائحة و أغلاها ثمنا تؤكل رخصة و لا يصنع منها قمر الدين. أما ثمار المشمش البلدى فكبيرة ضاربة إلى حمرة ضمنها بزور حلوة و تجيء فى اللذة بعد الحموى، تؤكل رخصة و يصنع منها ألد المفلقات (النقوع). و تبلغ أشجار هذا الصنف عشرين فى المئة من مجموع شجر المشمش فى الغوطة و المرج. أما الحموى فلا يزيد على خمسة فى المئة. و يشبه المشمش السنديانى الحموى بشكل ثماره و شتان بين الثمرتين فى اللذة لأن السنديانى هو تقليد الحموى كما يقول الدمشقيون. و نسبة البلدى إلى الوزرى من هذه الوجهة كنسبة السنديانى إلى الحموى أما المشمش العجمى فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء إلى خضرة لبتها قاس و طعمها سكرى لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصى بل هو يشبه طعم الدراق، و لهذا لا نستملح هذا الصنف و هو غير شائع. و ثمار المشمش الكلابى أصغر الثمار حجما و أردؤها طعما و هى صفراء إلى حمرة بزورها مرة، و هذا الصنف أشهر الأصناف فى الغوطين إذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ فى المئة من مجموع

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٣

شجر المشمش، و منه يصنع قمر الدين المشهور. و هو يولد من بزوره و لا يطعم فهو إذن أقرب الأصناف إلى المشمش البرى. و ثمرة المشمش اللوزى فى الساحل شبيهة بثمره الحموى بدمشق و لعلها صنف واحد. دمشق مركز تجارة المشمش و ما يصنع منه، و منها يصدر قمر الدين و النقوع و بزر المشمش إلى مصر و الأناضول و إلى أميركا الشمالية و يقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش فى الغوطة و المرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنويا منها نحو ٨٠ فى المئة من المشمش الكلابى الذى يصنع منه قمر الدين، و يظهر أن مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم. الفستق: إن غابات البطم فى البلعاس و بقيه أشجار الفستق الهرمة فى قرية عين التينة تحمل على دعوى أن الشام من البلاد التى تعد بلاد الفستق الأصلية.

و تكاد زراعة الفستق لا تتجاوز اليوم حلب حيث تأتى أجود ثماره و ألذها و أغلاها و من أصنافه فى تلك المدينة الأبيض المرواحى و العاشورى و العليمى و الباتورى و ناب الجمل و العيتابى، و يقدر ما ينتج من ثماره حوالى حلب بنيف و مائة ألف كيلو فى السنة.

الحيوانات الدواجن فى الشام:

الخيال - الخيل فى الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصيلة، و البراذين أو ما تعرف اليوم بالكدش، و المولدة و هى التى تولد من أم عربية و أب أعجمى أو على العكس. ففى الحالة الأولى يسمى المولّد هجيناً، و فى الثانية مقرفاً. تجلب الكدش من الأناضول خاصة و هى بشعة المنظر إذا قيست بالخيال العراب، لا تركب بل تصلح لحمل الأثقال أو جرها أو درس الحصائد و عددها عظيم يبلغ نحو سبعين فى المئة من مجموع خيل الشام. أما الخيل المولدة فأجمل من البراذين و أقوى و هى تركب أكثر ما تستعمل فى جر المركبات فى المدن و نسبتها للمجموع نحو ٢٠ فى المئة.

و أجمل الخيل فى العالم هى العراب و تحليلتها علمياً كما يلى: مستقيمة الرأس متوسطة الجثة طول أعضائها متوسط لها رأس مربع و جبهة مسطحة و مقدم مستقيم و وجه متوسط الطول، و فكان متباعدتان و منخران جامدان و مرنان معا، و أذنان

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٤

حساستان و عينان كبيرتان تمنان عن ذكاء، و عنق رشيق شديد العضل، و ظهر مستقيم و ردف أفقى مكنتز، و عجزان مستديران و صدر واسع و بطن صغير، و قوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها، و أوتار جلية و مفاصل عريضة و جلد رقيق مرن و شعر لا مع قصير و عرف و سيب طويلان ناعمان متموجان.

و مجموع الجواد العربى آية فى انتظام تكوينه فهو جميل قوى شهيم، و لا ريب أنه أكمل جواد على وجه الأرض.

و يختلف لون الخيل العراب و قد استفاضت شهرة الشهب و الشقر و الكمت. و أجملها الشهب المدنرة أى التى يخالط الشهبه فيها

نكت سود (أبيض مبقج أو أزرق مبقج).

وزن الجياد العرب بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غراما ارتفاعها ٤٢، ١ إلى ٥٥، ١ متر، و دورة صدرها ٧٢، ١ إلى ٧٨، ١ متر، و تصلح الخيل العربية للركوب و السباق خاصة و إن من إسفاد ذكورها على إناث إنكليزية غير كريمه منذ بضعة قرون تولدت الجياد الإنكليزية الصافية السباقه الشهيرة التي يقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق.

و أجمل الخيل العرب ما كان في دمشق و حمص و حماه و لدى بعض الأسر و العشائر القديمة كالدنادشه في تل كلح و الموالي في شمال الشام. و لا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخيل لدى أهل الحضر من الشاميين.

الحمير- في الشام ثلاثة عروق من الحمير: الآسيوي و المصري و القبرصي أو الأوربي. فالصنف الآسيوي هو الأشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المئة من مجموع حمر الشام) لونه إلى سواد و ارتفاعه متر إلى متر و ربع، و هو حيوان الفقراء، يصلح للركوب و الحمل و لا يوازيه حيوان بصره و قناعته و فوائده الجمه إذا قيست بالعلف القليل الذي يعلفه. أما الحمر المصرية فيضاء اللون ارتفاعها أكبر من ارتفاع الحمر الآسيوية و لا تستخدم إلا للركوب و هي جميلة المنظر سباقه في نوعها و ثمن الجيد منها غال لا سيما في المدن. أما الحمر القبرصية فتعرف من كبر قدها إذ يبلغ ارتفاعها ٣٠، ١ إلى ٤٠، ١ متر و هي تستعمل في سفاد إناث الخيل للحصول على بغال عظيمة القد قوية البنية.

البغال- تحصل من إسفاد الحمر القبرصية على البرازين (كدش) و هي

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٥

ذات قد يقرب من قد البرازين فهي إذن صغيرة القد و فائدها بقناعتها و قوتها و تحملها الأتعاب و قيامها بأعمال تشق على كل حيوان غيرها. فهي تستخدم مثلا- في الحرث بمحاريث حديثه لأن بقر الشام صغير الجثه لا يقوى على إثارة الأرض بها. و تحمّل أثقالا في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادى التيم و القرى الجبلية من إقليم البلان و تجر المركبات الضخمة المحملة بضاعات و مؤنا على الطرقات المعبده في لبنان و بين دمشق و بيروت. و من منال لم ير في لبنان و بيروت المركبات الشهيرة التي تسمى (كارات) يجرها أربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد. و لقد ترك الجيش الإنكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عددا عظيما من البغال الكبيرة القد لا تبرح بقاياها في دمشق إلى يومنا هذا. و هي تتطلب عنايات كثيرة و علفا زائدا و لا تتحمل المشاق بقدر البغال الشامية.

البقر- بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذى الجبهة المستقيمة العريضة و هو على ثلاثة أصناف: البلدى و العكش و الجولاني (أو الخميسي) فالبقر البلدى شائع في الغوطة و في أرجاء العاصى و يسميه الحمصيون البقر الحلبي و الحمويون البقر الشامى و هو كبير طويل القامة (متر و ربع إلى متر و نصف) صلب العود قصير الرأس و القرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه و قد يكون كميتا أو إلى سواد أحيانا. و وزنه ٣٠٠-٥٠٠ كيلو غرام و هو بالنظر إلى كبر قده أقرب الأصناف إلى البقر الأوربية و لذا يصلح للحرث حرثا عميقا إذا علفت أثناءه علفا غزيرا تحلب في الغوطة طول السنة تقريبا. و يحسب أنها تدر عندئذ ١٢-١٥ كيلو في اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ٨-١٠ كيلو في اليوم في الثلاثة أشهر التي تليها ثم ٤-٥ كيلو في اليوم خلال شهرين آخرين. فيكون الوزن المتوسط لما تدره من اللبن في السنة ٢٥٠٠-٢٧٠٠ كيلو.

و لا يألف البقر البلدى أقاليم الشام بأسرها بل يتطلب إقليما معتدلا و رطبا، و لهذا يندر أن تراه في غير البساتين و هو لا يقاوم الحر في السهول التي لا- ماء للرى فيها كحوران و البلقاء و سهول حمص و حماه و غيرها. و عدده ليس عظيما و لا يزيد على ١٠ أو ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام. و يسمى البقر الجولاني بأسماء مختلفة فيقال له الخميسي في النبك و الزبداني و البزرى في حماه. و يغلب

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٨٦

على الظن أنه حصل من إسفاد الثور البلدى على البقرة العكش و لذا جاء قده و وزنه و تكوينه و طباعه بين بين. فإن له رأسا قصيرا و جبهة عريضة و قرنين متجهين إلى الأمام و ثوبا أسود فى الغالب و قد يكون أشقر أحيانا. و طوله نحو ١٥، ١ إلى ٣٠، ١ متر و وزنه نحو ٢٥٠ كيلو. و هو يعد فى العوامل و تعطى أثنائه قليلا من اللبن. و ليس له رقة البقر البلدى و هو أكثر منه تحملا للحر و القر و الجوع و التعب. و نسبته للمجموع ١٥ فى المئة تقريبا.

و أشهر البقر اليوم هو الذى يدعى البقر العكش فى أكثر أنحاء الشام. و يسميه الحمويون القليطى و الحمصيون الأناضولى. و لا تختلف تحليلته من حيث تكوينه عما ذكر. و له جرم صغير و لا يزيد ارتفاعه على متر و عشرة سنتيمترات إلى متر و ربع و وزنه نحو ٢٠٠ كيلو و قد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحارث حديثة تغور فى التراب كثيرا. و يغلب عليه اللون الأسود و قليلا ما يكون أبرش أو أشقر. و يحتمل هذا الصنف من البقر الجوع و التعب و الحر و اليوسه و لهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ فى المئة من مجموع بقر الشام. و درّ أثنائه قليل و يسهل علفه و تسمينه بالغذاء.

الضأن- ينتسب للضأن فى الشام إلى العرق الشامى أو الآسيوى و هاك تحليلته فنيا: رأسه طويل قليلا و جبهته تكاد تكون مستقيمة، و قرناه معقوفان متجهان إلى الوراء، و قد يتفرعان، و وجهه مستطيل، و عظام منخره طويلة، و منظر رأسه و وجهه ينم عن احديداب قليل، و ذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن.

و وزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلو غراما و طوله ٦٥-٧٥ سنتيمترا. و هو يسمن بسهولة أما مقدار الدرّ فى النعاج فمتوسط. و فى الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عواس) أو ضأن الموصل و هو شائع فى حمص و حماة و البقاع و دمشق و لبنان و غيرها. صوفه أبيض يبلغ كيلو غراما و نصفًا إلى كيلو غرامين و قد يزيد على ذلك. و ينقص نحو نصفه إذا غسل و يبلغ وزن إلبته ٥ إلى ٦ كيلو غرامات و طول الشعرة من صوفه ١٥-١٨ سنتيمترا.

و ما ذكر من الأرقام هو الحد الأوسط، و ربّ كبش سمن فى لبنان بورق التوت و الكرمه فبلغ وزنه ضعفى ما ذكر، و بلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠

خطط الشام، ج٤، ص: ١٨٧

سنتيمترا و زاد وزن إلبته على ثمانية كيلو غرامات، ورق صوفه و مرن.

و يرد إلى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمرء و البرازية و الشقراء و النجدية ثم ضأن أرزنجان أو المور فى حلب و هو ذو صوف أحمر أو إلى سواد. و تدر النعجة لبنا ٤-٥ أشهر فتعطى فى اليوم نحو ٥٠٠ غرام. و إذا علفت كما تعلق فى حمص و البقاع تعطى ٧٥٠ غراما إلى كيلو غرام من الحليب فى كل يوم.

و يبدأ جز الصوف فى آذار و ينتهى فى أيار فى المناطق الباردة، و أكثر ما يكون فى نيسان.

و يزيد عدد الضأن فى الشام على مليونى رأس و تربيته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة فى الشرق و منها الجزيرة. و قد اشتهرت عشيرة الحديديين بحسن تربية الكباش و النعاج الصالحة للسفاد. و اشتهر السمن الحديدى نسبة إلى تلك العشيرة التى تقطن منطقة الحمرء و معرة النعمان فى الصيف. و ينقل فى كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم و العراق إلى الشام حيث يستهلك بعضها و يرسل الآخر إلى مصر و جزر يونان و غيرها.

المعز- معز الشام من العرق الإفريقى و تحت العرق النوبى (نسبة إلى النوبة) و هى تعرف برأس طويل و وجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة، و جبهته محدبة كثيرا. و هى على صنفين البلدية و الجبلية، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠-٧٥ سنتيمترا و وزنها ٣٠-٣٥ كيلو غراما، و لها ثوب أحمر أو أحمر ملمع بياض.

و قد تكون شهباء أو سوداء أحيانا و قد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة: بياض و حمرة و سواد. و إذا كان لونها أحمر و جبهتها بياض سميت صبحاء بدمشق، أما إذا جمعت البياض و الحمرة فتسمى عجمية، و هى جماء فى الغالب. و إذا نجمت لها قرون تظل صغيرة و كثيرا ما

تقطع، و ينمو لكل منها زمتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء و هي شية حسنة تزيد ثمنها و اذناها طويلتان متدللتان و كثيرا ما ينيف طول واحدتهما على شبر و يقطعهما الأكارون إذا أفرطتا في الطول. و البلدية من أجود المعزى الحلوبة فهي إذا صادفت عناية تدر في اليوم ليتين إلى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر و تدر نصف هذا المقدار تقريبا خلال شهرين آخرين.

و هي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القنى و مجارى الماء و ترعى أيضا الفصفصة و البيقية الخضراء، و كثيرا ما تعلق نحو كيلو غرام من حب الجلبان

خطط الشام، ج٤، ص: ١٨٨

صباح كل يوم قبل تسريحها و هذا خاص بالحلوبة منها.

و الماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتهما الفنية لكنها أقصر منها، و لها ثوب أكثر ما يكون أسود، و هي ليست درورا بقدر البلدية. و المعزى الجبلية منتشرة في أنحاء الشام لا تخلو منها قرية و على العكس في البلدية التي تكاد لا تخرج عن المدن و المناطق التي يكثر فيها الكلال في فصول السنة.

الإبل - إبل الشام من ذوات السنم الواحد. أما ذوات السنمين فتوجد في جبال فارس و الأناضول و بلاد الكرد و تنقل إليها من آسيا الوسطى. و لما كانت تحتل البرد و السير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسفاد فحولها على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنم واحد كأمهاتها و ذات جلد على السير في الجبال و الأوعار كأبائها. و هذه الهجن شائعة في الجزيرة و لبنان و عجلون و غيرها و هي تعرف بقصر القامة و صغر الرأس.

و الركائب من إبل الشام أصناف و أشهرها اليوم إبل الحره لدى عشيرتي بنى صخر و الشرارات و غيرهما في البلقاء. و ينتقى الجيش ركائبه من هذه الإبل غالبا. و منها الإبل العمانيات أصلها من عمان و هي ذات رأس نحيف و قد أهيف و مزاج عصبى. و جيش الهند يتتاع منها ما يلزمه من الإبل، و منها الإبل التيهيئة أصلها من السودان و ترد إلى فلسطين و البلقاء مع القوافل الآتية من مصر. و قد كانت إبل الجيش الإنكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى.

و يطلق الأوربيون كلمة مهري على الإبل السباقة عموما أو على عرق معلوم منها. و يظن أن هذا الاسم مشتق من الإبل المهريئة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان و هي مشهورة بالسبق.

و البعير صديق البدوى الحميم و لولاه لزال البدوة، فهو يحمل الخيام و الماء في المراحل الخالية من الماء و مؤنا تكفى لسته أشهر يقضيها البدوى مع عشيرته في صحراء الشام، و يحمل البدوى نفسه و عياله و سلاحه و تحلب الناقة بعد الوضع في كل يوم خمسة لترات إلى عشرة في مدة سنة أو أكثر، و حليب النوق لذيذ ملين، و ليس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الأوربيون و وبر الجمل ألين من صوف الضأن و منه تصنع عباءات الوبر العراقية الشهيرة، و تصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ لتر من الماء تعمل أيضا نعال

خطط الشام، ج٤، ص: ١٨٩

قوية لا تفنى من جلد ركبتيه و غيرهما من أعضائه التي تحتك بالأرض بينما يكون الجمل جالسا.

الصناعات الزراعية في الشام:

ليس في الشام اليوم معامل عظيمة للمصنوعات الزراعية كما في أوربا، لكن لبعض هذه المصنوعات (و إن كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأن كبير في الحياة الاقتصادية. و أهم هذه المصنوعات قمر الدين و النقوع و الزبيب و الدبس و الصابون و الزيت و السمن و العرق و الخمر و الجبن و الطحين و النشاء.

قمر الدين - يصنع أشهر قمر الدين في الغوطة و المرج و قليلا في وادي العجم و الزبداني و بعلبك و في كل مكان فيه مقدار من شجر

المشمش و يلزم أربعة أرتال إلى أربعة و نصف من المشمش للحصول على رطل من قمر الدين، و هو يصنع من المشمش الكلابى و يندر صنعه من المشمش البلدى، و اشتهر منه بدمشق ما يرد من قربتي زملكا و عربيل من قرى الغوطه، و ليس صنعه أمرا عسرا فالمشمش يسحق بالأيدى فى غربال موضوع فوق بناء يسمى تيغارا مفروشه أرضه بالاسمنت ثم يغترف العصير بكيله من خشب و يفرش بمهارة على لوح من خشب بعد أن يطلى اللوح بقليل من الزيت، و بعدها يوضع اللوح فى الشمس يوما و نصف يوم فيجف العصير و يصير شرائح وزن كل منها رطل تقريبا و هى «لفات» قمر الدين المعلومة.

و معظم القمر الدين الذى يصنع حوالى دمشق يشحن اليوم إلى مصر و شمال الشام، و يقدر ما يصنع منه سنويا بنحو ٤٠،٠٠٠ قنطار دمشقى و هو المقدار المتوسط، (يساوى القنطار الدمشقى ٢٥٦ كيلو غراما).

النقوع- هى ثمار المشمش المجففة و تسمى بالعريبة المفلق، تصنع من المشمش البلدى و ذلك بأن يوضع المشمش فى الشمس على مسطح من القش مدة أربعة أيام، ثم تكبس الثمار بين الكفين و تترك يومين آخرين، ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترك يومين أو أكثر فتجف، و يلزم خمسة أرتال من المشمش للحصول على رطل من النقوع، و يدل إحصاء المكس فى بيروت على أنه صدر منها وحدها سنة، (١٩١١) ٦٨٠،٠٠٠ كيلو غرام من النقوع و مليون و نصف كيلو

خطط الشام، ج٤، ص: ١٩٠

غرام من بزور المشمش و هى تصلح لاستخراج زيت منها.

الزبيب و الدبس- أجود زبيب فى الشام ما يحصل من تزبيب العنب الدرلبلى فى جيروود و الرحيبة و الريحان و دومة، و يليه زبيب الصلت. و يصنع الزبيب فى كل القرى التى فيها أعناب، و ليس فى صنعه صعوبة، فالعنب يغطس بماء فيه شىء من القلى و الزيت ثم يفرش على مسطح مدة ثمانية أيام فيجف. و يحسب أن كل أربعة أرتال من العنب ينتج منها رطل من الزبيب. و للثمار المجففة شأن كبير إذا صحت العزيمة على الاعتناء بصنفها و بقطفها و شحنها إلى الديار الأجنبية كما يفعل الزراع حول مدينة أزمير بزبيهم و تينهم المجفف.

و يصنع الدبس من الزبيب أو العنب، ففى الحالة الأولى يدرس الزبيب فى المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة، ثم يوضع فى قدور كبيرة و يغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة، ثم يؤخذ ماء الزبيب (جلاىب أو صليبة) و يوضع فى مرجل و تضرم النار تحته حتى يتحصل الدبس. و يلزم مائة رطل من الزبيب للحصول على ٦٠ إلى ٨٠ رطلا من الدبس. و اشتهر دباسو قرى معربا و دومة و عربيل بصنع دبس لذيد يعطرونه بعطر الورد أحيانا.

الصابون- أشهر مصابن الشام فى طرابلس و نابلس و دمشق و حلب و كلز، و يبلغ المقدار المتوسط للصابون الذى يصنع سنويا فى الشام نحو ١٣،٠٠٠ طن.

و صناعته على الأصول القديمة.

الزيت- أشهر الزيوت ما يصنع فى معاصر لبنان و فلسطين و أشهرها جميعا زيت الرامة، و اعتاد أرباب الزيتون فى دمشق أن يتركوه مدة طويلة فى المعصرة، فيختم و يتعفن و يحصل له طعم كريه، حتى إنه ليشق تصريفه خارج الشام.

و الداعى إلى ذلك قلة المعاصر بدمشق و خصوصا اعتقاد الزراع بأنه بقدر ما تطول المدّة بين قطف الزيتون و عصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر. و اعتقادهم هذا صحيح إلا أن زيادة نسبة الزيت لا توازى هبوط سعره المنبعث عن رداءه طعمه.

و يتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية: (أولا) سحق الزيتون بأسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر. (ثانيا) كبس الزيتون المسحوق لتفريق الزيت عن الثفل و ذلك بمكبس عادى أو مكبس مائى.

خطط الشام، ج٤، ص: ١٩١

(ثالثا) تفريق الزيت عن الماء و العناصر الأجنبية المختلطة به و ذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافى لأنه يطفو على وجه

العصير. أما الثفل فهو يسحق و يكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون زيت الجفت يستعمل في صنع الصابون. و في الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي، و يستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر، و إذا استثنينا فلسطين و شرقي الأردن فإن متوسط ما يستخرج من الزيت في باقي أنحاء الشام يقدر بنحو ٥٠٠، ١٠ طن نصفها اليوم في لبنان. السمن - هو المادة التي يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبد و لا يعرفون السمن، و يصنع السمن بمخض اللبن في مباحض من جلد الغنم، تعلق بحلين يشدان إلى دعائم و يدوم المخض نحو ساعتين و نصف فيلتصق السمن بداخل الممخضة و يقشط بعد تفرغ اللبن. و يقدر أنه يحصل أربعة أرتال من السمن من مائة رطل من اللبن. و السمن من صناعات البدو، و أجود السمن ما يصنعه عشيرة الحديديين بلبن الضأن.

العرق و الخمر - العرق ألد المسكرات و أرجحها لدى الشاميين، و يصنع منه ما لا يقل عن ١٥،٠٠٠ هيكوليتري في كل سنة في دمشق و النبك و حمص و زحلة و كثير من قرى فلسطين و لبنان و وادي التيم. يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأيسون، و بعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريبا، و إذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد إلى العرق الأول فيضاف إليه مقدار من الأيسون و يقطر منه عرق ثقيل.

و ليس شرب الخمر شائعا في الشام شيوعه في أوروبا حيث يقوم مقام الماء أثناء الطعام. و أكبر المعامل لصنع الخمر هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين و هو معدود من أكبر معامل العالم و يشحن نيذره إلى مصر و العراق و إلى أوروبا و لا يستهلك من نيذره في الشام إلا مقدار قليل، و يليه معمل كساره و معمل شتوره في البقاع.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٢

النشاء - يصنع في الشام لا سيما في دمشق و حلب مقدار من النشاء لاستهلاكه و قاعات النشاء في دمشق معروفة، و هو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها. تنقع الحنطة في الماء نحو عشرة أيام ثم تسحق بحجر الرحي و تمرس بضع مرات بالماء حتى يخالط النشاء الماء و بعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء، و يحسب أن القنطار من الحنطة يعطى ٦٥-٧٠ رطلا من النشاء بهذه الطريقة، أما الثفل فتعلقه الجمال.

المطاحن - كانت مطاحن الشام إلى عهد قريب عبارة عن أحجار رحي يديرها الماء بقوة انحداره، أما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الأماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن أي إن أرحيتها أسطوانات تدار بالكهرباء و هي في دمشق و حيفا و يافا.

الجبن و القشطة - تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها و تضاف إلى بعض الحلواء، و تصنع جبنه لا لذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته، و أشهر أنواع الجبن المصنوع في الشام الأبيض و الحالوم الحلبى، و قد أخذ الشاميون يصنعون جبن البلقان المسمى قشقوان لم يتوصلوا إلى تخميره كما في مواطنه الأصلية و جميع أنواع الجبن المذكورة بعيدة عن أن تساوى أنواع الجبن الأوربية بلذتها و تعدد أنواعها.

زراعة الشام من الوجهتين المالية و الاقتصادية:

نذكر في هذا البحث أقسام الأرض و الضرائب الزراعية و طرائق استثمار الأرض و إقراض الزراعة. أقسام الأرض - تقسم الأرض في الشام من الوجهة القانونية إلى خمسة أقسام و هي الأرض المملوكة و الأميرية و الموقوفة و المتروكة و الموات، و لكل قسم من هذه الأقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية. فالأرض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكا صحيحا تاما بحيث يستطيع وقفها و عدم زرعها مدة طويلة، و مثالها الحدائق المتصلة بالبيوت و ما يسمى الأرض العشرية و الخراجية

(بعض بساتين محيطة بمدينة دمشق الخ). و الأرض الأميرية هي التي يعود تملكها (رقيتها) لبيت المال، و هو يخول الأهلين استثمارها أى حق التصرف بها بصك يسمى خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٣

«سند التصرف». و معظم الأرض فى الشام من هذا القسم. و ليس من فرق كبير فى الأمور الجوهرية بين المتصرف بالأرض الأميرية و بين مالك الأرض المملوكة، لأن الأول و إن لم يملك الأرض قانونيا فإن له سلطة كافية فى استثمارها و النزول عنها حسب إرادته، و هى تنتقل لورثته بعد وفاته، إلا أنه لا يستطيع وقفها إلا بإذن و هو إن لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر إلى دفع قيمتها على شكل معلوم، حتى إذا استنكف من الدفع عدت الأرض محلولة و وجب بيعها بالمزاد العلنى. و ثمة فرق بين الأرض المملوكة و الأرض الأميرية، و هو أن للورثاء من الدرجة الواحدة حصصا يتساوى فيها الذكر و الأنثى فى الأرض الأميرية، أما فى الأرض المملوكة فللذكر مثل حظ الأنثيين. و لا يسمح للمتصرف بالأرض الأميرية أن يوصى بها بعد مماته و على العكس فى رب الأرض المملوكة. و الأرض الموقوفة هى التى حبست فى سبيل البر و ليس من شأننا البحث فيها، و الأرض المتروكة هى التى تركت للنفع العام كالطرق و الساحات و البيادر و المحتطبات و مراعى القرى. و هى لا يملكها أحد و رقيتها لبيت المال و التصرف بها للجماعة. و الأرض الموات هى الأرض البعيدة عن العمران التى لا يتصرف بها أحد. و الحكومة تعطى رخصا بإحياء الأرض الموات فبالصرف بها على شروط موضحة فى قانون الأرض.

الضرائب الزراعية:

على الأرض الأميرية فى يومنا هذا نوعان من الضرائب، ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان سنة (١٢٧٤ هـ) و قدرها ٤ فى الألف من ثمن الأرض، و ضريبة أعظم شأنًا و أكبر تأثيرًا فى الزراعة و هى العشر أى استيفاء عشرة فى المائة من محاصيل الأرض غير الصافية يضاف إليها اثنان و نصف باسم المعارف و المصرف الزراعى أما الأرض المملوكة (و هى كما قلنا قليلة فى الشام إلا فى لبنان الصغير حيث كل الأرض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة فى الألف من ثمنها فى كل سنة.

و العشر من المصائب المزمنة فى هذا القطر لأن ٥٠، ١٢ فى المئة من المنتجات

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٤

غير الصافية هى نسبة كبيرة فى ذاتها، و لأنه يصعب جدا تخمين الغلات على وجه الضبط لأخذ هذا المقدار منها. فقد حارت حكومات الشام فى طريقة استيفاء العشر أو ثمنه و لا تزال حائرة، لأنها إذا خمنت الغلات تخمينًا فقد يضل المخمنون أو يتعمدون الخطأ أحيانا فيظلم الفلاح إذا جاء التخمين زائدا عن الحقيقة، و إلا فيخسر بيت المال. و إذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يقدمون على سوى قرى الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتى دون أن يجسروا على المزاودة فى عشر قرى الوجهاء، فيكون الضرر مزدوجا على الفلاح و على بيت المال معا. و قد رأت الحكومة أخيرا أن تعتمد إلى معدل عشر أربع سنين ماضية فتقره و تستوفى ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الأرض أو لم يزرعوها. و هذه الطريقة فى استيفاء العشر و إن كانت أصلح من الطريقتين السالفتين إلا أنها ليست عادلة إذا قلّ المطر فى إحدى المناطق بعض السنين هذا عدا أن أساسها فاسد، لأن متوسط عشر سنين أربع فى قرى الفلاحين يكون قريبا من العشر الحقيقى غالبا. أما فى قرى الوجهاء فيكون أنقص لأن الأعيان لا يدعون الحكومة تصل إلى حقها.

و الخلاصة أن مسألة العشر فى الشام من أعقد المسائل و كثيرا ما اقترح أرباب الفلاحه على الحكومة أن تسمح الأرض كما فى بلاد الفرنج و تضع على الأرض و ما تنتجه ضريبة واحدة لا تتبدل تخلصا من العشر كما يجرى العمل به فى أرض مصر. و إن هذا الاقتراح فى غير محله أو هو مما يتعذر اتباعه فى كل أنحاء الشام على السواء، لأن الأمطار فى الشام متفاوتة التهطل. فقد يهطل فى سنة ثلاثة

أضعاف ما يهطل في السنة التالية، لا سيما في سهول الشام الشرقية، و لهذا يختلف محصول الأرض اختلافا عظيما كل سنة. و قد تحمل منطقة واسعة في إحدى السنين و لذلك لا يجوز أن يستوفى منها في تلك السنة ضريبة كالتى تستوفى في سنى الخصب. أما إذا كانت الأرض تسقى بماء نهر أو قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلا.

طرائق استثمار الأرض:

إذا قلنا إن أكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأسا

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٥

أو بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا لأن سكان المدن الكبيرة و المتوسطة و إن كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة. و يتصرف الشاميون اليوم بالأرض على نسبة غير عادلة، و معنى هذا أن أرباب الوجاهة و الثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جدا في كثير من المناطق، بينما الفلاح يعمل في الأرض دون أن يكون له في تملكها نصيب ففي أطراف حماة مثلا ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا تتجاوز عدد الأصابع، و الباقي و هو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون و رجال الطبقة المتوسطة من الشعب. و فى أرجاء حمص ١٧٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم و عشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجاهة و الفلاحين إلا بضع قرى لم تمتد إليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين و حدهم. و هكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان و غيرها في حلب. و ليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الأرض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة، و كلهم أرباب فلاحة و كذا في جبل حوران و عجلون و البلقاء و الكرك و وادى التيم و إقليم البلقاء، و ما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة إلا- و يملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الأرض فيها بيد متوسطى الزراع و الربع بيد صغارهم و الربع الأخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق.

و بعد، فقد كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين و جمع الثروة، فقد تملك لشخصه شرقى حمص و سلمية نحو مليون هكتار من الأرض تشتمل على جبل البلعاس و الشومرية و تمتد إلى مقربة من تدمر، و عمّر فيها نحو مائة و عشرين قرية و مزرعة تستثمر نحو مائة ألف هكتار. و تملك في أنحاء حلب نحو ٥٠٠،٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية و مزرعة عامرة حوالى منبج و الباب و على الشاطيء الغربى من الفرات من مصب الساجور إلى مسكنه و يشمل معظم جبل الحاص و مساحات واسعة جنوبى حلب عند مصب نهر قويق و اقتنى أيضا سبع قرى في حوران منها قرية المسمية كما اقتنى بيسان و بضع قرى بالقرب منها. و كان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة و يعفى الزراع المستأجرين من الجندية و يحميهم من تعدى أرباب الوجاهة و يسلفهم المال بلا ربا

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٦

حتى عمّرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيشون فيها فسادا. و لما حصل الانقلاب العثماني سنة (١٩٠٨) اضطر السلطان المشار إليه إلى التنازل عن هذه المعماروات إلى بيت المال، فأصبحت ملكا له و أصبح فلاحوها مستأجرين لدى المالك الجديد، و هو بيت المال أو الحكومة. و يدفع الفلاحون إلى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الأماكن و ٥٠، ٢٢ في المائة في أماكن أخرى (عشر و أجره أرض معا). و هم و إن كانوا مستأجرين لا- يملكون الأرض رسميا فهم يتوارثونها كأنهم مالكون لها و الحكومة لا- تخرج فلاحا من قريته إلا- إذا أتى عملا- منكر من إحداث فتنه أو التمادى على الإضرار بالناس. و لما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين أموالا- بلا ربا و كانت تستوفى من غلات الأرض نسبة أقل منها في قرى الوجاهة، رجحت حالة الفلاح في أملاك الدولة من كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذى يستعبده المتغلبون في قراهم.

و مع هذا اقترح على الحكومة منذ نحو سنتين أن تبيع هذه الأملاك من الفلاحين أنفسهم دون سواهم على أن يدفعوا الثمن أقساطا

خلال خمس عشرة سنة، و على أن يضمن عدم مد المتغلبة أيديهم لهذه الأرضين، فأقرت الحكومة البيع مبدئيا. وقد أثبتت لنا الأيام أنه لا يستطيع أن يزيد في غلات الأرض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة أو صغيرة.

و لرجع إلى طريق استثمار الأرض المتبعة اليوم في الشام فنقول: إذا استثنينا الغوطة و المرج و بعض ما يسقى و ما حوالى المدن من المزارع، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة أرضهم مباشرة و يدفعون إلى الفلاحين المشتغلين بها أجورا مقطوعة سنوية أو شهرية، فإن الأرض في سائر الأنحاء تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم). ففي حمص و حماة يأخذ صاحب الأرض ربع المحصول فيدفع منه العشر و تبقى الثلاثة الأرباع للفلاح. و في هذه الحال يلزم الفلاح بجميع النفقات و الأعمال، و لكن صاحب الأرض قد يقرضه البذار بربا في الغالب على أن يستوفيه من البيدر. و يأخذ أصحاب الأرض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران و يدفعون منه العشر و ضريبة الأرض و يكون الباقي للفلاح مقابل النفقات و الأتعاب. لكن الطريقة الشائعة في حوران هي إيجار الأرض بمقدار معلوم من الحب كأن توجر (الربعة) بنحو ٥٠-٦٠ مدا

خطط الشام، ج٤، ص: ١٩٧

من الحنطة، و لما كان يزرع في الربعة أرض تستوعب ٥٠-٦٠ مدا من البذار، فإذا أغل المد أربعة أمثاله أو خمسة أمثاله تكون الأجرة التي استوفها صاحب الأرض معادلة لربع المحصول أو خمسه.

و كلما كانت القرية في منطقة سكانها كثار و أرضها ضيقة، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الأرض من المحصول و العكس بالعكس. ففي البقاع مثلا يأخذ صاحب الأرض نصف المحصول و يؤدي العشر منه إلى الحكومة.

و في الحولة حيث الأرض تروى تكون حصة صاحب الأرض ثلث المحصول و يكون عشر المحصول عليه. أما في الغوطة و المرج فحصة صاحب الأرض الثلث لكنه لا يدفع إلى الحكومة سوى عشر هذا الثلث، و على الفلاح أن يدفع العشر عن ثلثيه.

هذه بعض طرائق استثمار الأرض و تعود فيها جميع النفقات و الأتعاب على الفلاح. أما إذا أحب صاحب الأرض أن يكون رأس مال الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في أرضه يسمى (مربعا) و هو مطالب بأعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوبا و تجهيز مثلها للسنة القادمة). و يأخذ ربع المحصول أو خمسه بعد رفع العشر من المجموع في الغالب

إقراض الزراعة:

يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن. و هم كثيرا ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد أن تبلغ ١٠٠ في المئة أحيانا. و لهذا ترى غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للإنفاق على حاجياتهم الضرورية و قلما ترى فلاحا في سعة، يكدحون كلهم طول السنة لتحصيل بلغة من القوت، و سبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح، فهو لا يستطيع أن يحرق الأرض حرثا عميقا بأبقاره الصغيرة المهزولة التي لا تعلق غير التبن، و لا يستطيع أن يبتاع آلات زراعية حديثة أو أسمدة معدنية، و يستحيل عليه أن يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يعلو ثمنه، لأنه في حاجة دائمة إلى المال. و السعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله و من كان مفلتا من برائن المتغلبين و المرابين.

اتضح للحكومة العثمانية أن الأكارين و أصحاب الأرض في حاجة كبيرة

خطط الشام، ج٤، ص: ١٩٨

إلى مصرف زراعى يقرضهم المال بفائدة محدودة إلى مدة طويلة فأسست المصرف الزراعى و جمعت له رأس مال صغير بأن أضافت إلى العشر الذى تستوفيه من حاصلات الأرض ٥٠، ٠ في المئة من الربح باسم هذا المصرف، و أنشأت له فروعاً في الأطراف و سنت له قانونا محكما بعد درس و اختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال. و لما كان رأس ماله قليلا فقد لبثت فائدته محدودة، فعسى أن تهتم الحكومة الحاضرة بتزويد رأس ماله و هو من أنفع أعمالها و لعلها لا تسمح لبرائن الأجنبي أن يناله أذاها.

الخلاصة:

الشام فقير جدا بمعادنه المفيدة من الوجهة الاقتصادية. و معناه أن عدد هذه المعادن و إن كان عظيما و كذا أنواعها فهي لا كبير فائدة منها اللهم إلا- معدن الحمر في حاصبيا. و الأرجاء التي ليس فيها معادن ذات شأن (لا سيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت) لا يمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة. و لهذا لا نرى في الشام إلا صناعات يدوية كنسيج الملابس الأهلية في دمشق و حمص و حماة و كالمصنوعات الخشبية و النحاسية و غيرها. فالشام إذن لا يمكن أن يكون له عظيم شأن في المعادن و الصناعة، و ليس له اليوم شأن يذكر في التجارة لكن له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق و بلاد العجم عن طريق بادية الشام. و نستنتج من بحثنا عن الفلاحة أن لها في الشام شأننا غير شأن الصناعة و التجارة. فإذا أحصينا بالمكس مثلا أنواع الأشياء الأهلية التي تصدر من الشام إلى البلدان الأجنبية نجد أن أكثر من ٩٠ في المئة من هذه الصادرات هي غلات أو مصنوعات زراعية نباتية أو حيوانية. ثم إذا أمعنا النظر في أنواع واردات الحكومة في الشام نرى أن نحو ٥٠ في المئة منها هي واردات زراعية مثل عشر المستغلات و الضريبة على الأرض و الماشية و واردات أملاك الدولة و واردات الحراج و غيرها. فزراعة القطر الشامي إذن و إن كانت لا تساوي زراعة الأقطار الغزيرة الأمطار أو التي منحنتها الطبيعة أنهارا كبيرة هي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية اه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ١٩٩

الصناعات الشامية

مواد الصناعات:

تتوقف الصناعات في بلد على وجود الموارد الأولية فيه، و كان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام الصناعات، و المواد الأولية في الشام على حصص موفورة لا ينقصها اليوم إلا الفحم الحجري و بعض الأصباغ. و كانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها و بطنها.

و تسلسلت الثقافة بها تسلسلا عجيبا في البيوت الصناعية، و كانت الأمة الخالفة تأخذ عن الأمة السالفة هذه الثقافة و الدربة على نحو ما يعلم الصناع أبناءهم.

و الصنائع كما قال ابن خلدون لا بدّ فيها من العلم، و إنك لتجدها في الأمصار الصغيرة ناقصة و لا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها و دعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل، و على نسبة رسوخ الحضارة و طول أمدتها تكون جودة الصنائع في الأمصار.

إن قطرا هو معدن الحرير و الصوف و الوبر و المرعزي و القطن و الكتان و القنب يفيض عن حاجياتها و كمالياتها. و فيها الحديد و النحاس و القصدير و غيرها من المعادن، و تجود في سهولها و جبالها الأخشاب على أنواعها، و تكثر في أرجائها الحيوانات الداجنة و المفترسة، و فيها المياه الدافقة و الشلالات البديعة. إن قطرا يحوى هذه الخيرات لا يحتاج إلا إلى أيد صناعات لصنعها، و عيون عودت النظر إلى الجميل و اقتباس النافع منه، و نفوس طبعت على حب التقليد و الاحتذاء، حتى تخرج ما به تفاخر، و تعيش من عملها عيشا غضا نضرا.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٠

الغزل و الحياكة و النساجة:

كانت النساجة و الحياكة و الغزل راقية في معظم ما عرف من أدوار الارتقاء و قلما أخرجت الشام رذالة المتاع و رديته، بل كانت

تخرج جيدة و نفيسه، و كان أهلها و لا يزالون يحسون غسلها و نفشها و مشطها و حلجها و فتلها و مشقتها و حياكتها و نسجها. و اشتهر القطر منذ القديم ببزه و قماشه و ديباجه و خزه و بروده و كان للدباجين صناع الديباج و الأكسيه و المسوح صناعه رابحه، و إلى اليوم لم يبرح حلاجو القطن، و منهم من يستعمل لها الآلات الإفرنجية الحديثه، و منهم من اقتصر على القوس و النداف على الطريقة القديمه في الحلج و الغزل في مغازل أوليه تدار بالأيدى يخرجون بها كل ما يقوم بالحاجه.

أخذت معظم المدن و البلدان حظها من هذه الصناعات، فاشتهرت في غابر الدهر مدينة أعناك في حوران بأكسيته الجيده اشتهارها ببسطها، و عرفت بعلبك بثيابها المنسوبة إليها من الأحزام و المشدات و ثوبها المعروف بالعلبكي. و تأفقت شهرة الثياب البلعسيه نسبة إلى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح.

و عرفت منبج بالأكسيه التي كانت تعمل فيها و تنسب إليها فيقال «الأنبجاني» و الأنبجاني كساء صوف له خمل و لا علم له و هي من أدون الثياب. و من ثيابهم الخميصة الشاميه و هي برنكان أسود معلم من المرعزي و الصوف و نحوه أو كساء أسود مربع له علمان، و قد تكرر في الحديث الشريف ذكر الأنبجاني و الخميصة. و الخميصة قد تكون من الحرير و البرنكان و البركان و البركاني و البرنكاني الكساء الأسود و جمعه برانك.

و كان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفديه. و تعمل الثياب الحفيه نسبة لكورة الحفه غربي حلب. و كان لأهل رصافه هشام بن عبد الملك في غربي الرقه حذق في عمل الأكسيه و كل رجل فيها غنيهم و فقيرهم يغزل الصوف و النساء ينسجن. و كانت تعمل في الشام الأكسيه المرنبانيه قال ابن سيده: يقال كساء مرنباني و مؤرنب فالمرنباني لأنه لون الأرنب و المؤرنب ما قد خلط في غزله و بر الأرناب، و يقال بل هو كالمرنباني. و كانت تصنع فيها القטיפه المخمله أي ذات الخمل و هي المخمل.

و اشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب و فوط و غيرها و قيل: إن حمص تتلو

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠١

إسكندريه مصر فيما يعمل فيها من الثياب الفائقه على اختلاف الأنواع، و حسن الأوضاع، لو لا قله مائه، و قحوله جسمه، مع أنه يبلغ الغايه في الثمن، و إن لم تلحق بالإسكندريه فإنها تفوق صنعاء اليمن. و قال الأدرسي في صور: إنه يعمل فيها من الثياب البيض المحموله إلى الآفاق، كل شيء حسن عالي الصفه و الصنع، ثمين القيمه، و قليلا ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطه بها. و كذلك حماه و طرابلس و حلب. و لكل بلد و مدينه خاصيه تحتفظ بها في نوع من الصناعات تبرع فيها، و أهم ما كان منها في مدينه دمشق.

فقد ذكر الإدرسي أنها كانت في عصره جامعه لصنوف من المحاسن «و ضروب من الصناعات و أنواع من الثياب الحرير كالخز و الديباج النفيس الثمن العجيب الصنع، و العديم المثال، الذي يحمل منها إلى كل بلد، و يتجهز به منها إلى كل الآفاق و الأمصار المصاقبه لها، و المتباعده عنها. و مصانعها في كل ذلك عجيبه، تضاهي ديباجتها بديع ديباجه الروم، و تقارب ثياب دستوا، و تنافس أعمال أصبهان، و تشف على أعمال طرز نيسابور، من جليل ثياب الحرير المصمته، و بدائع ثياب تيس، و قد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسه، و محاسن جمه، فلا يعادلها جنس و لا يقاومها مثال».

و قيل: إن اسم «الدمقس» مشتق من اسم مدينه دمشق. و نقل الشاميون إلى الأندلس صنع الثياب المزركشه بالرسوم من الحرير و الكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم و قالوا في فعلها Damasser أي عمل ثيابا على النمط الدمسقي.

قال البدرى: و من محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش، و هو النسج على تعداد نقوشه و ضروبه و رسومه، و منها عمل القماش الأطلس بكل جنسه و أنواعه و منها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه و حسن لمعانه، و منها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله، و تباين أوصاله، و منها عمل القماش الأبيض القطني.

و كان من أنواع الثياب في القديم ما أنسيناه و أنسينا أسماءه و منها المثير و المعين و المسير و المفوف و المسهم و المعمد و المعرج و المهلهل و المكعب و المطير و المخيل.

ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشيتها وحسن طرازها، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها «الداماسكو» والداماسكو ثوب غليظ برسوم جعلت في جسم الثوب و يتفننون في ذلك تفننا غريبا و يعملون كل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٢

ما يجمع إلى المتانة الإبداع في الصناعة. قال ابن عربشاه: إن الحريريين في دمشق نسجوا لثيمورلنك قباء بالحرير والذهب ليس له درز فإذا هو شيء عجيب.

ولما نجحت الصناعات الإفرنجية- وكانت صناعة الحرائر والطرائف تروج زمنا ثم تنحرق وتكسد- و اخترع أحد صناع الإنكليز نسيج الشيت (اليمنى) كاد يقضى على صناعاتنا هذه، لو لا رجل دمشقى اسمه عبد المجيد الأصفر من أهل هذه الصناعة، فاخترع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة والبوار دفعة واحدة. ثم إن رجلا- اسمه الرومانى من أهل دمشق أيضا، تفنن في المنسوجات الحريرية تفننا عجيبا، فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه، وتغلبت المنسوجات الأوربية على منسوجات حلب وطرابلس وحماة و حمص و دمشق لخص ثمنها، وكثرة تفننهم في تلوينها، وتغيير أشكالها وطرازها، وإن كان البلى يسرع إليها، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها، على ما أصاب القطر من الأزمات الاقتصادية. و يزعمون أن ما يتعلق بها من الصناعات حتى تصلح وتصير أثوابا، يقرب من سبعين صنعة. تصرف مصنوعاتنا في الشام ومصر والجزيرة، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم ايلى فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز الجمركية في وجهها في تركيا عادت إلى الكساد.

ومع هذا لا يزال بعض أهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحبر والشال البديع والأعبئة الحريرية للنساء، ما يتفاخر سياح الإفرنج باقتنائه في بيوتهم، وإلباس أسرهم منه في السهريات وأوقات السمر، على حين كان الناس هنا ولا سيما في المدن يزهدون فيها على متانتها وجمالها، لأنهم بلوا بداء التقليد يقبلون على كل ما تأتيهم به أوروبا ولو كان فيه بوارهم. وأهل معامل الحرير والقطن اليوم في المجدل من عمل غزة وبيروت وكفيا وزوق مكاييل ودير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة و حلب و أنطاكية و دمشق، تعمل فيها الأعبئة والكوفيات والزنانير والملاءات والشراشف والديما والألاجة والنمارق والأرائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطيالسة والميازور والبراقع والأزر والجلابيب والقطائف (المخمل).

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٣

ومن الصناعات التي كانت الشام وما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع. ولصناعاته تفنن في نقشه وصبغه، يدل على رسوخ قدم في الصناعة، وذوق جميل فيها، واشتهرت مدن الشام بإتقان تلك الصناعة، ومنها دمشق وحلب وحمص وطرابلس، وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية. وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربى وهى قطنية وحريرية على غاية من المتانة والجمال. وكانت قديما لباسا عاما للأهلين فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتياد الناس اللباس الإفرنجى، ولا تزال مع هذا لباس أكثرية الأهالى يعملون منها القفاطين (القنايز) وتدر تلك الصناعة عليهم أرباحا وفيرة، وتصدر إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق، ويعد تجار تلك الصناعة من الأغنياء غالبا. ومن الصناعات الدقيقة الصنع أيضا الشال القطنى والحريرى والزنانير والشملات، وأتقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريرية على اختلاف ألوانها وشيها بالقصب الفضى بنقوش ورسوم غاية في الإبداع وسلامة الذوق والمتانة، وما فتئت هذه الصناعات إلى الآن زاهرة رغم مزاحمة الأوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وتفنن وإبداع.

ومن الصناعات التي كانت من متممات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهى تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور، ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا أى لم يتشبهوا بالأوربيين فضعفت صناعاتها. وقد

أحدث السادة كسم و قباني معملا لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه في فرنسا، و كذلك أحدث السادة توفيق و كامل و سعيد الكحالة معملا لصنع ثياب الكتان و الشراشف ينافس مصنوعات أوروبا، و أحدث السيد أنطون مزنر في دمشق معملا لصنع الشال الحرير غاية الغايات إتقانا و جمالا. و في دمشق ثلاثون آله لغسل الحرير على الطرز الحديث. و مما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعملنه في الحمام و تسمى المناشف، و ما تغطي به الفرش و يسمى الشراشف

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٤

و ينسج بالكتان و يوشى بالحرير من كل الألوان و هو غاية الغايات في دقة الصنعة و المتانة يصدر إلى كثير من جهات العالم. و تصنع حلب من هذه المآزر أنواعا كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم إلى أن بذتها و قامت مقامها.

و من المنسوجات الرائجة أيضا صناعة الأعبئة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها و منها الخشنه التي يلبسها الفلاحون، و حياكتها غاية في المتانة و لها ألوف من الأنوال في دمشق و حمص و حلب و قرى القلمون، و ذلك لتوفر مادتها الأولية و لأنها لباس عامه الفلاحين، و يوجد أيضا ألوف الأنوال في دمشق و قرية جرمانا و حمص و هي تصنع أعبئة من الصوف النحيف و الوبر برسم الأمراء و الكبراء و يصدر منها إلى الخارج و لا سيما إلى فارس و يتتاع الحجاج أيام الموسم من دمشق خاصة من تلك الأعبئة ألوفها و هي مشهورة بحسن صناعتها و على غاية المتانة، مع أنها من النسج النحيف الناعم، و مما يدل على ذوق صناعتها تفننهم في ألوانها على اختلاف ضروبها، و في دمشق و بيروت و لبنان و حمص و حلب من الأنوال لعمل الأعبئة من الحرير و هي على غاية الرواء و الجمال و المتانة و في النهاية من سلامة الذوق بوشيتها و ألوانها. و تصدر إلى أوروبا و أميركا و مصر و إيران. و مما يؤسف له الآن دخول الحرير النباتي إلى الديار الشاميه و صنع العباءة منه مؤثرين له لرخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في الشام إن لم تتدارك بما يحفظ رواءها.

و اشتهرت حلب بالمناديل الحريرية و المقصبه المعروفة بالبوشية و فيها ٥٣ معملا كما فيها ١٢٤ للخام و ٢٤٧ لمنسوجات الغزل و ١٥٩ للحرير و ١١٧ للأغباني أو تقليد الزنار الهندي، و صناعة الأغباني في دمشق رائجة كل الرواج و هي عبارة عن قطعة ثوب مربعه طولها ذراعان في مثلهما، تعمل من الحرير الدقيق، لونها أبيض و أدكن، و تطرز بألوان الحرير الجميله، و بأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفنين من المصورين، و كانت تلك الصنعة مختصة أولا بالهند تصدر منها إلى أطراف العالم، و كان قليل منها يطرز في حلب و يستعمل للعمائم فقط على قماش قطني و بعض الحرير. و أما الآن فقد تناولتها أيدي جميع الشاميين الأذكيا و أكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثوابا

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٥

طول الثوب تسعة أذرع و عرضه ذراع واحد، و تعمل منها القفاطين، و هي الألبسة الوطنية في الشام، و فيه اليوم ألوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش، و تسمى القطعة منه أي ما طوله ذراعان و عرضه كذلك «سلك أغباني» و هو يستعمل في الشام غطاء للرأس أي كوفية، و زنارا، و ملفا للأولاد الرضع، و عمامة، و يصدر منه إلى الخارج كميات وافرة، و له تجار كثار إخصائيون في دمشق و حلب و بيروت و حماة و حمص و طرابلس و فلسطين و جميع المدن الصغيرة و يصدر إلى الهند و فارس و تركيا و الحجاز و العراق و مصر و السودان و الصين.

و اشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب و أقمشة الجوخ المعمولة بالسيم و الثياب المفصصة بالجواهر و الزبرج أي الزينه من و شى و ذهب و يقال لهذه الصناعة صنع القصبجية و الألتونية فهي ممتازة بعمل الفضى و مشهورة بالزر كشة و التطريز، و عرفت زوق مكاييل بصناعة الوشى و زر كشة القصب و النسيج أيضا، و اهتدى صناعتها منذ تسعين سنة إلى رسم الأشكال التي يريدونها على المنوال بالمحواك، و اصطنعوا من الأثاث و الأكسية و الطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب إتقانا، و عملوا نسايج هذا القز فأبدعوا فيه و أظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد، صنعوا بها صور العظماء و الملوك و الأمراء مجسمه،

فكانت من أنفس أعلاق القصور. و صناعة زركشة القصب هذه كانت راقية جدا في دمشق، وصفها أحد سياح القرن الحادى عشر بقوله: و بباب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبين، و هى أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظا أولا، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقا بعد خرق، و كل ثان أضيقت من قبله، حتى تنتهى إلى الرقة، إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة و صناعة محكمة، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيترك منه القصب المعلوم و نحو ذلك عملهم للفضة اه.

و سمي هذه الصناعة البدرى «صناعة الذهب المسبوك و المضروب و المجرور و المرفوع و الممدود و المرصوع» و كان القوم يغالون فى لبس الأردية و الأكسية و المعاطف و السراويلات التى تعمل من هذا القصب على الجوخ و يلبسه المترفون

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٠٦

و العرس و أرباب النعيم، و بقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول و الرؤساء الروحانيين.

الدباغة و صناعات الجلود:

كان للدباغة شأن مهم فى هذا القطر تعمل من الجلود الأحذية و السروج و المطارح و المقاعد و القرب و الروايا و المحافظ و المطاهر و الركوات و الإداوات و ما أشبهها، و كانت أهم معاملته فى حلب و فيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة و فى حماة و دمشق و زحلة و مشغرة و الخليل. و تدبغ جلود الثعلب و بنات آوى التى تصلح للفراء فى جوار طرابلس و بيروت. و يقدر عدد ما يدبغ من الجلود فى الشام بمليون و مائتى ألف جلد منها مليون من المعزى و الغنم.

و قد أنشأ فى دمشق السادة رومية و عمرى معملا لدبغ الجلود و عمل الشراك و الشسوع للأحذية، فجاءت مصنوعات كمصنوعات أوروبا من كل وجه و زادت عليها رخص أثمانها، فأصبحت تباع حتى فى الغرب، و معظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع دمشق و لم يجلب له غير أدوات قليلة، و الصناع كلهم من أرباب هذه الصناعة القدماء، و فى دمشق نحو ٣٠ دباغة على الطراز القديم و دباغات الخليل مشهورة و أشهر منها صناعة القرب فى تلك المدينة، تعمل من جلد الماعز و هى صناعة خاصة بها. و فى عكا معمل جيد للدباغة.

و صناعة الأحذية و السروج و الكنايش و البرادع و الرباطات و الرشومات من أهم صناعات دمشق و حلب. و صناعة السروج من الصنائع المشتركة فى الشام، و مما يعد فى جملتها لوازم الحيوانات كالعذر و الهمايين «الخراج» و البرادع «المراشح» و يعمل كل ذلك على غاية من الإتقان. و من السروج ما يصنع وجهه من الجوخ، و يطرز أحسن تطريز بالحرير و القصب. و الجلد الذى تعمل منه السروج هو غالبا من دباغة الشام.

و من صناعة السروجيين أيضا أحزمة الجلد و يسمونه «قشاطا» و جعاب رصاص البنادق و يسمونها «جنادا» و أرسان للخيل، و صناديق للسفر من الجلد و غير ذلك من الحاجيات المحلية، و يصدر ذلك إلى الداخلى فقط و هو يضاهى أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع.

و تعمل الأحذية فى جميع المدن و منها ما تستخدم فيه الجلود الإفريقية

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٠٧

المعروفة بلعانها و متانتها و حذاء و الشام مشهورون منذ القدم، و أهل الرفاهية و البذخ اليوم يأتون بأحذيتهم من الغرب جاهزة و خصوصا النساء يرينها ألطف شكلا و أدق صنعة و يقبلن عليها و إن كانت أعلى قيمة و أقل متانة مما يعمل هنا.

و يلحق بصناعة الدباغة أو القرظية صناعة عمل الأوتار من المصير و المرى و هى نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل إلى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد و القيثارات و غيرها.

تربية دود الحرير:

خطط الشام؛ ج ٤؛ ص ٢٠٧

من أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيالج أو الشرائق) وهو عمل خاص باللبنانيين و بسكان أرجاء أنطاكية. و كانت مساحة الأراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة أكثر من الآن في أرجائها. فقد ثبت أن عمالتي وادي التيم و البقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت. و اقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقة باستور في تربية دود القز فزادوه إتقاناً. و تصدر منه كميات وافرة إلى معامل ليون في فرنسا و هناك يصلح الإصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب و الطرائف. و من تربية دود الحرير يعيش عشرات الألوف من الناس في هذه الديار. و الغالب أن مناخ لبنان و أنطاكية و ما إليها و بعض الأرجاء المعتدلة القريبة من الساحل تصلح فقط لتربيته و منذ القديم لم يحظّ الحظ سائر الأرجاء أن تشترك في صنعه. و قد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث و تصدر مصنوعاته إلى إيطاليا و فرنسا.

النجارة:

لم يكتف الصناع في منجوراتهم بأخشاب الشام على كثرتها، بل أخذوا يجلبونها من قلقية و رومانيا و غيرها، و منهم من يجلبونه من أميركا و هو الجوز الأميركاني. يعتمدون عليه و على خشب الحور و الجوز و الزيتون و الشربين و التنوب و الميس و العرعر و الدرديار، و كان اعتمادهم يكثر في القديم على الصندل و الصنوبر و السرو. و خشب السرو و الصنوبر كما قال قسطا بن لوقا

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٨

من أشرف الأشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب و الدعائم و السفن و يستعان بها في كثير من الأمور. ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية تدار بالبخار أو بالكهرباء أو بالطرق القديمة فيعمدون إلى أيدي العملة في إحضارها، يصنعون منها مناخذ و أصونة للثياب و إطارات و مقاعد و كراسي و مغاسل و صناديق و توابيت و رحالا و ألواح لدرس الغلة و أعواد الطرب. و هذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جدا في دمشق و دخلت حلب منذ نحو سبعين سنة. و قد اشتهرت دمشق بصناعاتها التي كانت تعمل من خشب الجوز و تبقى القرون لا تشقق و لا يسرع إليها البلى و لا تتأكل، و عليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل، كما اشتهرت إلى اليوم بمصنوعاتها الخشبية. و في حلب معملان للنجارة بأنواعها، و كذلك مدينة بيروت فإن معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور و القصور و الفنادق و منها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص و الجودة و المتانة.

و إن ما يسمى بالحلقات في القصور و القاعات القديمة دليل كاف على رقي فن النجارة. فإن القصر أو القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة أمتار في مثلها عرضا و ارتفاعه أيضا يتسامى إلى الستة أمتار، فجهاتها الأربع و سقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق و إتقان الصنع، و يباع منجور بعض هذه القصور إذا كانت سليمة من الأوربيين بأثمان باهظة، و هو عبارة عن أخشاب فقط. و صناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أروع الصناعات يشهد بذلك من له أقل إلمام أو ذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد و غيرها من المحال العامة و كله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين بالبراعة و الحذق. و النجارون في الشام اليوم من أشهر نجاري العالم باعنائهم بصنعتهم، و النجار بطبيعته ينبغي له أن يكون ذكيا، لما يقتضى لصنعه من الإلمام بالهندسة و المساحة و ضبط المقاييس و الحساب و أن يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع و الصنع. فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له أن يصير نجارا. إن هذا النجار الشامي الموصوف آنفا يعمل بيده و تدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق و حلب و غيرها

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٠٩

و ما يسمونه الصلب و غيره من أبواب و نوافذ غاية في الإتقان. و من صنع النجارين أيضا قديما الصناديق الخشبية و منها ما هو مغشى بالصدف و منه ما يسمونه بالحفر. و منذ نحو أربعين سنة دخلت بيروت و دمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فاستطاع مديرو المعامل أن يقولوا على بنايات كبيرة لصنع أبوابها و نوافذها بغاية السرعة.

و ظهرت صناعة جديدة على الطراز الغربي تسمى صناعة (الموبيليا) أي فرش الدور و تنصيدها و يتناول اسم الموبيليا جميع أنواع الخزائن و المغاسل و المقاعد الخشبية المغلفة بالنسيج الحريري و لوازم غرف النوم و غرف الطعام و غرف الاستقبال، و كل ذلك يصنع في دمشق و حلب و طرابلس و بيروت، و هي تضاهي المصنوعات الأوربية جمالا و إتقانا و متانة، و تعد هذه المعامل بالمئات، و مما يدل على الذكاء في الصناعة أن تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها و أوضاعها ما تقر به العيون و يبشر بمستقبل مجيد. و قلما تجد واحدة من النساء إلا و تجيد أكثر من صنعة يدوية.

و من الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصرية، و هي بواقى خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب، و تصقل صقلا تاما، و يرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع، و يحفر على حسب رسم القلم، و ينزل به الغراء و فوقه الصدف. و تقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري، و ما كان رسم عرقه ظاهرا كل الظهور يسمى في عرف الصناع بالعرق. و يصنعون منه أنواعا، فمنها ما يسمى «بالجاردينيه» و هي أثاثه يوضع فيها حفر زهور صناعية، بعرض مترين أو ثلاثة أذرع، و يجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران و عرضه متر. و في داخل ذلك الإطار مرآة و بجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المنوعة، و فوقها تاج على علو متر أيضا. و كل ذلك محلي بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ أسود قليل يزيد في لمعان الصدف.

و يصنع من تلك الصناعة أشكال و أنواع متعددة منها الأصونه خزائن (٤-١٤)

خطط الشام، ج٤، ص: ٢١٠

الثياب و منها ما يسمى بالعرف بالبيرو (مكتب) و هو عبارة عن أربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران و يصنع منه إطار للمرأة، و إطارات للصور و مناظير، و جميع ما يصنع من الخشب البسيط. و منذ خمسين أو ستين سنة كثر طلب هذا الصنف إلى أوروبا. و لكن الحكومة و البلدية لم تأخذوا تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثرت الغش فيها، و صارت إلى البوار و انقطع عنها الطلب إلى الخارج بتاتا، و هي لا- تروج الآن إلا- في دمشق و ضواحيها تقريبا، و لو عنت البلدية بمراقبة صناعاتها، و جعلت لهم رئيسا مسؤولا لدرت تلك الصناعة على دمشق أرباحا هائلة و لأصبحت أجرة الصانع يوميا نصف دينار و راجت في أقطار العالم أجمع لجمالها و دقة صنعها.

و من أهم معامل النجارة و الفرش معامل الياس جرجى السيوفى في بيروت زرتها في سنة (١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م) و مما قلته فيها: رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في الشرق، و تمثل لى فضل الذكاء العربي، و أنه و إن لم يفق الغربي فليس دونه، و أن يد أبنائنا صناع في الأعمال لا يفوقها ابن فرنسا و إيطاليا و إنكلترا و ألمانيا و سويسرا و بلجيكا إلا بأن الإفرنج يرجعون إلى أساليب في العمل تنقصنا، أو تكاد في أكثر الأصقاع لا تجد لها أثرا بيننا، و هي ترجع إلى أسباب رئيسة مهمة، أولها الصبر على العمل، و ثانيها تجويد العمل، و ثالثها القدر اللازم للعمل من المال و المعرفة، و رابعها الاقتصاد في الوقت و الأيدي العاملة، و خامسها تنشيط الأهلين و الحكومات للمصنوعات الوطنية و حماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر و الوارد، و سادسها وجود المواد الأولية التي يمكن بها الاستغناء عن المواد الخارجية في الجملة.

دلت معامل السيوفى على أن الشرقى بمفرده أمه، و أن الأمة بمجموعها ضعيفة، بمعنى أن الشرقى يعمل مفردا أحسن من عمله مجتمعا، و ذلك لفقد التربية المشتركة بين المشاركة يرجعون إليها و تضم عراهم. فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ إنشائه له خيره و عليه شره، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذى نراه عليه، و لو كانت معامل السيوفى في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام و النجاح، و بذلك صح لنا إثبات ما قدمناه من أن الشرقى أمه بمفرده و الأمة ضعيفة بمجموعها، و أن لا سبيل إلى قيام

الأعمال الكبرى

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١١

و أن نقدر لها النجاح المطلوب إلا إذا اتحدت مناخينا و تعلمنا تعليما وطنيا اقتصاديا واحدا.

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حى الأشرافية، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر، يطل على سفوح لبنان و بيروت و على البحر الرومى من أخرى، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الأرض تدخلها فتخال نفسك في إحدى معامل الغرب الكبرى، و أول ما يبدؤك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين و الشمال بجانبها صندوقان معلقان مقسومان إلى بيوت صغيرة، و في كل بيت مقوأة كتب عليها اسم أحد العملة و طبعت عليها ساعات الغدو و الغداء و الرواح، فمتى وصل العامل بعد الفجر و قبل الإشراق في الشتاء مثلا يضع مقواته في بيتها، فلا تلبث أن تكتب عليها ساعة مجيئه و الدقيقة التي جاء فيها بجروف عريية، و في آخر اليوم أو الأسبوع يرجع إليها مدير المعمل، و يحسب المتأخر من المتقدم، و يعدون ذلك بموجب نظام خاص لهم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا و البلجيك و النمسا و ألمانيا.

و من قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل أحسن ما يلائم هذه الديار و ينفع في نجاح عمله و يعود عليه و عليهم بالريح و اقتصاد الوقت.

و هذه الساعة من أنفع ما يجب استخدامه في معاملنا و مطابعا و دواوين أعمالنا و بيوتنا التجارية و المالية و دوايرنا العسكرية و الملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت و التدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل و أيام الحياة، و يتعلموا أن التدقيق في المواعيد أحد دعائم التنظيم في فروع الأعمال، و من أهم أساليب النجاح الذى غفل عنه معظم سكان هذه الديار و عدوا من ينظم أوقاته و يدقق في عوده و استقبال خاصته و من لهم علاقة به في ساعات محدودة متكبرا أو مهوسا.

يباكر العملة في معامل السيوفى في الصيف و الشتاء و الحريف و الربيع على السواء و ينقطعون ساعة وقت الظهر ثم يعاودون العمل إلى قبيل الغروب أو إلى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعا بخلاف عملة أوروبا فإنهم يعملون في بعض الممالك كبلجيكا مثلا زهاء اثنتى عشرة ساعة، و لكثرة الأيدي العاملة و للعادة و الإقليم دخل كبير في هذا الاصطلاح.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٢

و في معامل السيوفى اليوم ٢٨٠ عاملا مع أن الأدوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفى هذا العدد فيستفيدون و يفيدون. أكثر ما يعمل في هذه المعامل منجورات الدور الخشبية و أنواع الفرش و أثاث البيوت تعمل كما تعمل في الغرب و تتأق الأيدي و العيون في تجويدها و تساعد الأداة التي تدار بالفحم الحجرى و تبلغ نحو الستين آله و منها لقطع الخشب و صقله و حفره و تقويره و نقشه و تشيفه، فترى خشب الجوز و الزان من واردات الروم (الأناضول) و الاكاجو من كوبا و شوح النمسا و سندان أميركا و الخشب اللياسى من قلقية تعمل في تلك الأدوات و تحركها تلك المحركات و الآلات كأنها العجين في يد خبازه أو الملاط بيد البناء الحاذق.

قال لنا صاحب المعمل: إن الآله الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مئة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكا من الفحم و كانت الآلات التي هي أصغر منها تصرف من قبل أكثر من ذلك، و بهذا يستدل أيضا أن نفقات المعامل الكبيرة أدنى إلى الاقتصاد و أعمالها أقرب إلى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا- سيما و المعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم الأعمال فتجد العملة في معامل السيوفى مقسومين إلى عدة أقسام قسم الأدوات و قسم النجارة و قسم الحفر و قسم البردخ، و للمحل رسام خاص و كلهم من أبناء العرب ليس بينهم إفرنجى. و تختلف أجره العامل في اليوم من ستين بارة إلى ستين قرشا و يحاسب عن أجرته كل يوم سبت من كل أسبوعين في الشتاء و يحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج إن أحب إلى الجبل يصرف ليل الأحد و ليل الإثنين فيه للزهاء، و يقضى على كل عامل أن يعمل ستة أشهر تحت التجربة أولا ثم تحسم من مياومته أجره أسبوعين تجعل في صندوق

المحل حتى لا تحدته نفسه بالخروج من العمل كل يوم أو كل أسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل و يتركون أصحابها معطلين. و من جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى و موائد يتناول عليها العملة طعام الظهر، و آلة تضغط النشارة عندما توضع فيها، و هى من اختراع أحد العمال هنا، و تلقى بها إلى مكان بعيد خارج بناء المعمل و من هناك يبتاعها أرباب القمامين. و مما رأته خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة إليه على نفقة صاحب المعمل و غرس

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٣

بعض الأشجار على جانبيها و يبلغ طولها نحو كيلومترين.

هذا ما رأته في معامل السيوفى من النظام الذى لا أبلغ بأنى قلما رأته في معمل يرأسه شرقى، و لذلك يصفق لصاحبه لأنه بدأ به صغيرا سنة ١٨٨٨ فى مدينة بيروت و كبره فى سنة ١٩٠٨ فى حى الأشرافية على الصورة التى رأيناها اليوم و نفقة عمارته و أرضه و أدواته تساوى خمسة و عشرين ألف ليرة، و لكن لا يتيسر لمن معه مئة ألف ليرة أن يقيم مثله بأدواته و نظامه إذا لم تسبق له معرفة كعمرفة السيوفى و لم يقض سنين مثله فى النجارة و يحيط بما جل و قلّ من أساليب العمل و تجويده. فليت كل أعمالنا تجرى على هذا المثال من النظام البليغ و النجاح الأكيد اه.

و مما يصح أن يلحق بالنجارة صناعة تنزير الخشب و تنزير الصدف أو خشب الليمون فيه، و هذه الصناعة كانت رائجة جدا ثم عدت و جدد شبابها صناع دمشق منذ نحو سبعين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتنافس فى اقتنائه. و نسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالإفرنجية (داماسكينة).

القيانة و الحدادة و النحاسة:

كانت العرب تطرق المعادن فى دمشق بإتقان أكثر من إتقان الغرب على ما قال ميشو، و اشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة أو القردحة أى صناعة عمل السلاح. و ذلك لأن الحديد كان يكثر فى الجبال و لا سيما فى لبنان و حلب. و قد اشتهرت فى الجاهلية سيوف مشارف الشام فى أقصى تخوم الجنوب، و كانت تطبع بها السيوف و تنسب إليها فيقال السيوف المشرفية، و كانت حاضرة المشارف مدينة مؤتة قال كثير:

إذا الناس ساموكم من الأمر خطؤها خطؤها فيها السهام الممثل

أبى الله للشم الأنوف كأنهم صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

و الصيقل هو الذى يجلو السيوف. و نسبت السيوف إلى دياف و إلى بصرى و كلتاها فى أرض حوران فيقولون السيوف البصرية قال الحصين بن الحمام المرى:

صفائح بصرى أخلصتها قيونها و مطردا من نسج داود محكما

و القيون جمع قين صانع السلاح. و سيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٤

الصياقلة فى صنعها، و قد عرفت بصفاء مائها، و اخضرار لونها، و إرهاف حدها، و لطف فرندها، و كانت تكتب عليها آيات و أشعار بماء الذهب، و كذلك على الخناجر و الرماح، عرفها الصليبيون فى القرون الوسطى و نسبوها إلى دمشق و غدوا يفاخرون بتقلدها و لا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية و الرماح السمهرية. و صناعة تنزير الذهب على السيوف و الخناجر و المدى و البنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية و يحسب أربابها من أهل اليسار و يعدون اليوم على الأصابع و لا يسع المنصف إلا أن ينحنى إعجابا أمام جمال هذه الصناعة.

و قد نقل الفاتحون من العرب إلى الأندلس صناعة صقل السيوف و هى الصناعة التى نسبت إلى دمشق حتى اليوم فليل لها

بالإفرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أى تنزير الذهب و الفضة فى الفولاذ و قد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner .

و كانت تعمل السيوف فى زحلة و الشوير و دومة من عمل لبنان و تعمل النبال الفائقة فى عماتا من بلاد الغور. و كانت الدروع تسرد بيد الدارعين و الخوذ و السابرية تصنع فى دمشق خاصة. و يعمل من الحديد كل ما يلزم من الطبر و الخناجر و المرادن و المغازل و الصنارات و الأسياخ و العقافات و القيود و الزرد و المباحض و المباحض و المشارط و الآنية، يطرق كل ذلك فى كيرة الحدادين و سنداناتهم و يضرب بمطارقهم، و كانت وافية بالغرض.

و من أهم أعمال صناعة النحاس فى دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية فى حى الخضيرية و كذلك الحلقتان اللتان على بابى المستشفى النورى. و الأولى من القرن الثامن و الحلقتان الأخريان من القرن السادس و هى آية الإبداع و المتانة و فى هذا اليمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب إذ ذاك. و فى مستودع الجامع الأموى بقايا النحاس الذى كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجا من إتقان النحاسين و الحدادين لصناعتهم فى القديم. و فى بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعتها من الحدق و فيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت و المدارس القديمة آية الجمال الصناعى. و من صناعة الحديد أمثلة كثيرة مثل أبواب بعض خانات دمشق كخان الحرير و خان أسعد باشا

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٥

و خان الزيت و أبواب التكية السلمانية و شبابيكها. و شبابيك المدارس و الديارات و الجوامع و الكنائس القديمة و أبوابها و درفاتها فى دمشق و حلب و القدس و الناصرة و بيت لحم و لبنان و غيرها و كلها تدل على ترقى الحدادة و النحاسه دلالة عظيمة مثل أبواب القلاع كقلعة عكا و حصن الأكراد و غيرهما. و لكثرة الحديد فى أرباض حلب عمل كثير من أبواب حلب القديمة من الحديد. و كذلك قل عن سائر صناعات الحديد و النحاس و كانت تعمل منها السرج و المصاييح و المواقد و الشمعدانات و الشباييك و الكؤوس و الصحاف و الزهريات و المباخر و القماقم و أوعية القهوة (الدلات) و الألبان و الطسوت و الموائد و الصوانى و الصحون و المصافى و المغارف و الملاعق و القدور، و القدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش، و السطول و المساخن و الهواوين و المدقات و المناشير و الجرار و الحقاق و الأجراس و النعال و المسامير و المعاول و المساحى و المناجل و المطارق و الأقفال و المفاتيح و المغالق و المناصب و الملاقط و السكاكين و المدى و المقال و المواسى و المبارد و القيود و الجواشن و الدروع و الصنجات و الجزر (العمد) و الحسك و الدرابزون و المناجيق و الدبابات.

و من الصناعات النفيسة صنعة الأجراس الكنائس فإنها تصنع فى بيت شباب، و استأثر بهذه الصنعة لبنان من دون أقطار الشرق الأقرب، و قد دخلت صنعتها أرضنا مع الصليبيين على الأكثر، و كانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراسا من الخشب، و ما زالت هذه الصنعة محصورة ككثير من الصناعات فى أسرة واحدة. و لما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد و تفنن صناعه فى صنعه و منهم من عمد إلى اتخاذ الأدوات الحديثة كمعامل بيروت، و منهم من اعتمد على الطرق القديمة فى تطريقه، و كثير من الأدوات الزراعية كالقؤوس و القدم (جمع قدوم) و السكك الزراعية و المقاريض و أدوات السيارات تعمل فى حلب و دمشق و بيروت و القدس و سائر المدن الشامية. و لا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساواوا معمولات الغرب. و الحاجة أم الاختراع.

و قد قامت دمشق فى الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم و المنشار و الكلاب و اللولب و الفأس و الرفش و القدر و المكن و المرجل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٦

و الدلو و البرميل و عجلة النقل و الركوب و محفة الجرحى و المرضى، كنت إذا رأيتها تظنها لجمالها و متانتها من صنع الغرب. و قد

جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب و لبنان و بيروت، و يستعمل فيها الحديد و النحاس و الصفيح (التنك) و توفر الجيش التركي في تلك الأيام على ملء الخراطيش و صنع القذائف و المدمرات و استجادة أحسنها طرازا و أفعالها في وقت الحاجة و إصلاح البنادق و المدافع ما دل على ذكاء ابن هذه الديار إذا علم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية. و لقد صنع أحد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان أهل هذا الشأن في الدولة.

و يصح أن تلحق صناعة النحاسين و الصفارين بالحدادة، و كانت في القديم ذات شأن، و لم يرح في المتاحف و البيوت القديمة في المدن و القرى نموذجات منه صبرت على ممر الأيام بحالها، و ما عمل منذ ستة أو سبعة قرون كثير جدا، و القديم أقل منه، و كان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا و لا ندرى أى ظاهر هو، لأنه كان من المنشطين لصناعته فنسب إليه تحببا، و ما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات و المصاييح و الفوانيس و التعاليق و الجفان و الكؤوس و المباخر و القماقم و الصحاف و الصوانى و الطسوت و الأباريق و الصنجات، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفا لا تقرأ إذ تعاور صناعتها أناس أميون على الأ-كثر، و كان يطرز و يرقش في القديم بكل معنى جميل. و في حلب و دمشق و زحلة و بسكتنا و بتغرين و دومة لبنان مسابك حديد، يقينون فيها الحديد قينا جيدا، و النحاس يعمل في كل بلد للآنية و امتهانات البيوت، و أجله ما صنعه صنعو الأيدي في دمشق و حلب. و من أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النحاسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات و الكؤوس و الثريات و غيرها و السياح يتنافسون في اقتناء مصنوعات و كثير من أرباب الثراء في مصر و أميركا و أوروبا يزينون ردهاتهم بقطع منه و لا يقل العاملون و العاملات فيه عن مائتى نفس.

و صناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام، و كل ما كانت تستعمله قديما في بيوتها و حوانيتها هو من صنعها، من صحاف كبيرة و صغيرة

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢١٧

و بواط على غاية من دقة الصنعة و القديم منها يباع الآن بأثمان باهظة، و بيع من مدة من أحد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهبا و يشتري الأوروبيون ذلك تقديرا للفن و خدمة للتاريخ، و في الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش و له رواج عظيم و هو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك و العظماء تزين برسوم جميلة، و منها ما ينار بالكهرباء و منها ما ينار بالشموع و صحاف كبيرة و صغيرة و ما يلزم للاستعمال و الزينة في البيوت و هو أنواع. و المعقول أن يدوم تصدير هذه الأنواع و تزداد، لما في نقوشها من الإتقان و دقة الصنعة و الاعتدال في الأثمان.

الزجاج:

من أهم الصناعات التي اختصت بها الشام من القديم الزجاج؛ صناعة الزجاج. و عدها الثعالبي من خصائص الشام و قال: إنه يضرب به المثل في الرقة و الصفاء فيقال «أرق من زجاج الشام» و قال بعض الحكماء: و ارق بالعدو كما يرق بزجاج الشام، إلى أن تجد الفرصة فإذا أن يضربه الحجر فيفضه، و إما أن تضربه بالحجر فترضه» و ربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون قال أحمد بن محمد الدينسرى القاهري المتوفى سنة (٧٩٤).

أتى بعد الصبا شيبى و ظهرى رمى بعد اعتدال باعوجاج

كفى أن كان لى بصر حديدو قد صارت عيونى من زجاج

و قد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها، و كان الرمل الذى يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلدان. و كانت معامل الزجاج في حلب و أرمناز مشهورة تصدر منه إلى العراق و يتباهى به في قصور الخلفاء. و اشتهرت معامل الزجاج في عكا إلى القرن الرابع عشر، و عرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاج من صناعاتها و هى مشهورة بعمل المصاييح

التي تعمل فيها اشتهاها بأساور النساء. و كان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة و الزينة و منه الأكواب و الآنية على اختلاف ضروبها و يفهم مما وصفه به الشعراء مبلغ تفنن الزجاجين بزجاجهم. و اشتهرت الرقة بصنع الزجاج. و في دار المتحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش

خطط الشام، ج٤، ص: ٢١٨

المرقوش، و هي أثمن المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها. و من أجمل النماذج في هذه الطوائف البديعة، و منها الأكواب و الأباريق و الجامات و السكرجات و المضخات و الأقداح و القوارير و الكيزان و البواطي و كانت معاملها في دمشق و حلب و الرصافة و الخليل و صور و عكا على ما يظهر.

و قد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت في دمشق و أرمناز و الخليل بأناس فقراء يعملون من الزجاج القناني و البواطي العادية فقط. لأن صنع الزجاج النفيس الذي تعلمه البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية و تلقنوه عن معامل صور و انتشر صنعه في أرجاء أوروبا بعد أن كانوا يستبضعونه من ديارنا قد نافس هذه الصناعة ففضى عليها أو كاد. و كانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيوجي سنة (١٣٤٤ م) و بعد أن كانت معامل عكا و صور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة. و قبيل الحرب العامة (١٩٠٨) أنشأ في دمشق السيد مسلم العمري معملاً لصنع الزجاج، أنفق عليه عشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً، و جرّب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذي يجلب من الغرب، و وافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلاً، و كانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة. و في الحرب العامة الأخيرة قل الزجاج المجلوب من معامل الغرب فهب أرباب معامل الزجاج في دمشق و بيروت و أخذوا يصنعون الأكواب و الصحون و الأقداح من كسرات الزجاجات القديمة فسدت بعض حاجة الناس.

الدهان:

و من الصنائع الدهان، و كانت مما تمتاز به بعلبك. قال في مسالك الأبصار:

و يعمل في بعلبك الدهان الفائق من الماعون و غيره، و لكن دمشق و حلب و غيرها من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة، فكان يدهن الخشب و الحجر و يبقى بحاله القرون الطويلة. و من يدخل قاعة من قاعات دمشق و حلب مثلاً ير الألوان زاهية باهرة كأنها نقشت الآن، و في دمشق اليوم قاعات و أبهاء و أووين مضى عليها زهاء مئتي سنة و لا تزال

خطط الشام، ج٤، ص: ٢١٩

برونقها تدهشك كما يدهش الداخل إلى متاحف الآثار المصرية من نقوش ببيان الملوك و بني حسن و سقارة و كتاباتها و رسومها، و قد مضى عليها قرابة أربعة آلاف سنة، على حين تنصل الألوان المستعملة لعهدنا و تكمد في سنين قليلة.

و السبب في نصول الدهان الجديد، و مواده تأتي من الغرب، أن الدهانات القديمة كانت من صنع القطر ترجع إلى أصل ثابت و يحافظ عليها من المطر و الشمس لأن الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان و النوافذ و توسيع الأبواب مثل المحداثين، و لذلك صبرت الأصباغ على الأيام، زد إلى ذلك عنايتهم في تخير الأخشاب و أكثرها من الدف الرومي أو الجوز أو السرو و هذه مما يصعب تطرق التشقق و البلى إليه كالكريش و الشوح و فيه مواد قطرائية أو غيرها، و كانت لهم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر و التنزيل و يقال لها الأبلق و هي أن يرسم الدهان الحجر مما يريد من الأشكال و النقوش و يحفرها النقاش و الحفار ثم يدفعها إلى الدهان فيدهنها بصب الأصباغ في الشقوق التي يريدها ثم تجلى و تصقل فيجىء صبغها كأنه من أصل الحجر ثابتاً براقاً، و لا يعمل منه شيء اليوم.

و في دمشق أسرة عرفت بأسرة الدهان اختصت بصناعة الدهان الذي يقال له العجمي كما اختصت بصنع هذا الأبلق. و تصنع هذه

الأسرة مناضد و خزائن و اسكملت بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع و حسن الذوق و يتنافس في اقتنائها العظماء لتزيين قصورهم و تبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة. و قد دهنّت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع. و ذكر الغزى أن أحد شبان حلب تعلم في أميركا صناعة الدهان على الأصول الحديثة فجاء عمله غاية في الروتق و الإتقان. و المنتظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها.

هذا في دهان الغرف و الأبهاء و القاعات، و أما صبغ الثياب و الحرير و القطن و الغزل، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها، ربما كان أكثرها من تركيبهم أو من معادن القطر. و كان للصبغ الدمشقي صيت بعيد في الأقطار، لثبوت ألوانه و لطافة لمعانه، و كانت أصباغه معدنية و نباتية لا غشّ فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نسي

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢٠

أمره و اعتيض عنه بالجديد. و جودة الأصباغ القديمة كانت السر في اشتهاار الديباج الدمشقي قديما حتى أوشكت لطافته أن تجرى مجرى المثل. و في حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و ٥٦ مصبغة للغزل و الحرير و في دمشق مثلها و نحوها و كذلك في كل بلد بحسب حجمه و أرباضه.

و كان من أصباغهم الأصفران أي الزعفران و الورس، و البرفير أو الفرير و هو الأرجوان (أحمر و أرق) و كان و لم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة أو يؤتى به من الهند، شأن في صبغ ثياب العملة و الفلاحين. و انحطت هذه الصناعة تبعا لانحطاط أكثر الصناعات، لما جاءت الأصباغ الألمانية الحديثة حتى إن بعض معامل ثياب الحرير ترسل حريرها إلى الغرب ليصبغ و يعاد إليها، فتعمل منه الشقق و الثياب و توشى على ما يشاؤون، و الوشى في الثوب كالرقش في القراطس و النقش في الحائط، و يحاولون أن تكون ألوانها ثابتة لا تنصل.

الفخارة و القيشاني:

و صناعة الفخارين اشتهرت بها الشام أيضا و كان في صور الخزافون المبدعون في العصر القديم، و كذلك في كفرطاب، و كانت تعمل فيها قدور الخزف و تجلب إلى غيرها و منها نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق و بيروت، و كان و لا يزال يعمل من الخزف القل و الخوابي و الأجانات و الدوارق و أصاصى الزهور و غيرها، يصنع ذلك في حلب و دمشق و طرابلس و بيت شباب و صيدا و بيروت و غزة و عيتا و راشيا (و يقال لهاتين البلديتين عيتا الفخار و راشيا الفخار) و صناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف الغربي لها لا تزال متماسكة، لأنه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج. و أجمل الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل.

و من الصناعات التي كانت توجد في دمشق و حلب من دون سائر البلدان على ما علمنا، صناعة القيشاني التي دثرت و كانت مورد ربح، و عنوان فخر و مباهاة. ترصف بها الجدران و المحاريب و الفساقى و السلسيلات و الباذهنجات و القماقم و الزهريات و القلل و غير ذلك. و كان يصنع على ما يظهر من الرمل

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢١

الأبيض و الجبس يجبلان معا و يفرغان في قوالب على الشكل المطلوب، و تكتب على سطوحها آيات و أحاديث أو أشعار، أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة، و يذر عليها مسحوق الزجاج، أو تطلى به ممدودا بسائل غروي، و تشوى في تنور معدّ لذلك، فيسيل الزجاج و يكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل و المؤثرات زنا طويلا، و تظهر النقوش و الكتابات زاهية بألوانها الطبيعية. و في سلسيل جامع الدرويشية بدمشق نموذج منه أرخ بسنة (٩٨٢)، و قطعه أخرى كانت على قبر لطفى باشا أرخت بسنة (٩٩٨) و هي محفوظة بدار الآثار بدمشق و قد كتبت عليها الآية الكريمة كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بخط تعليق مشرق و في أعلاها رحمة المولى عليه كل حين. و لا تزال في بعض الجوامع و المدارس من هذا القيشاني العجيب نموذجات تأخذ بالأبصار.

و كان فى المسجد الأقصى مصنع للقاشانى له كامل الأدوات و ذلك فى عهد سليمان القانونى العثمانى و هو أول من استعمل القاشانى فى زخرفة خارج قبة الصخرة، و لا تزال بعض قطعه محفوظة فى المسجد. و يوجد الآن مصنعان فىها لرجلين أرمنيين أتيا القدس من كوتاهيه، و كانت هذه من أشهر معامل القاشانى فى الدولة العثمانية، و يشتغل المصنعان بالصنف من القاشانى الذى يرغب الفرنج فى اقتنائه و هى جيدة بعض الشيء لكنها لا تحاكي الأنواع القديمة. و يؤخذ تراب هذا النوع من مطحون حجر الصوان يسحق بآلة بخارية قوية.

و من أجمل النماذج من القيشانى بدمشق عمودان منه على طول متر فى محراب جامع التبان فى المناخية جوار باب الفرج، و منه نموذج كثير و يظن أنه حديث فى تربة جامع المرادية، و فى مدخل السويقة فى مدرسة أقوش النجيبى كتبت عليه آية الكرسي بالقيشانى البديع. و فى تكيته السلطان سليمان و سليم و فى قبر فى زقاق القرشى بالميدان كتب عليه هذا قبر الجنين الطفلين يونس و فرج، محفوظ فى إدارة الأوقاف، و القيشانى فى جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد و فى مدفن بلال الحبشى الصحابى ١٤٦ قطعة من القيشانى المعمول فى كوتاهيه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢٢

و لا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة، و المشهور أنها كانت خاصة بأهل بيت يتوارثون صنعها خلفا عن سلف، فدفروا و دثرت معهم منذ أكثر من قرنين. أخبرنى أحد أساطين العلم أنه رأى القيشانى فى جامع الدرويشية بدمشق مصبوبا على الأحجار طبقة لطيفة و هو فى غاية الحسن. و يظهر أن المادة القيشانية كانت تمد على الحجر كما تصنع صفائح و ألواح. و قد قام فى العهد الأخير فى كثير من المدن أناس لعمل الخزف الملون لتبليط البيوت دعوه بالقيشانى و هو لا يشبه القيشانى إلا بالاسم فقط. و انتشر و عم استعماله فى الشام كلها و نقل إلى الأصقاع المجاورة.

الوراقة:

فقدت الشام عدة صناعات كادت تكون خاصة بها، و تعد فى جملة موارد عيشها، و منها الوراقة صناعة عمل الورق. فقد كانت من الصناعات التى تعدها من حاجياتها. و كانت العرب تكتب أولا فى أكتاف الإبل و الحجارة الرقيقة البيض و عسيب النخل، بعد ما كانت الكتابة فى الأديم و الرقوق على ما قاله المقريزى. و فى أيام بنى أمية عمل الورق من الكتان و سمي بالخراسانى. و الغالب أن الشام أخذت فى صنع الورق فى دمشق و طبرية و طرابلس و حماة و منبج قبل هذا التاريخ. و عامة المؤرخين من الفرنج على أن الورق من اختراع أهل (الصين سنة ١٢٣ ق.م) و نقل صنعه أسرى من الصين إلى سمرقند فى سنة (٧٥١) و فى سنة (٧٩٤ م) أسس معمل للورق فى بغداد ثم فى دمشق و يظهر من بيت طرفه فى معلقته أن القرطاس ينسب للشام و البيت:

و خد كقرطاس الشامى و مشفر كسبت اليمانى قده لم يجرى

و أن القرطاس كان يعمل فى الشام على عهده أو قبله خلافا لما قاله مؤرخو الفرنج، و أن الورق من صناعات الجاهلية. و كان يرتفع منه كميات من دمشق و من طبرية على ما ذكر ذلك المقدسى. و قد تعلم صنع الورق فى دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته فى

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢٣

فرنسا، و منها انتقل إلى جميع أوروبا، فلدمشق على فرنسا بل على المدينة بأسرها، الفضل الأول فى تعليم هذه الصناعة للغربيين، و ناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم و الأفكار فى العالم. و قد حمل الشاميون الوراقة إلى الأندلس و صقلية فى جملة ما حملوه من صناعاتهم، على نحو ما حملوها إلى شمالى إفريقيا. و كانت شلطة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة (١٠٠٩ م) الورق بكثرة و يحمل منها إلى سائر أرض الأندلس.

و كان الورق يصنع أشكالا في مكابس صغيرة، و يعمل من الخروق البالية أو الحرير و استبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة (٧٠٦ م) رجل اسمه يوسف بن عمرو، و لا يزال في خزانه دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة (٢٦٦ هـ) على ورق يظن أنه من الورق الشامي و هو أقدم مخطوط عرف بالشام و لا يزال على متانته. و قال الرحالة ناصر خسرو: إن الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنعا. و ذكر القلقشندى أن الورق المعروف بورق الطير، أي الورق الذي تكتب به البطائق و تعلق في أجنحة حمام الزاجل، هو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية و فيه تكتب ملطفات الكتب و بطائق الحمام. و هذا هو الورق الرقيق، و الورق القديم أشبه بالبردي أو الرقوق بمتانته. و لا نعلم في أي زمن انقرضت هذه الصناعة. و حدثني أحد علماء حلب أن الورق كان يصنع في الشهباء و أن حيا من أحيائها لا يزال اسمه الوراقه حيث كانت معامل الورق. و الورق الحلبي الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا.

و قد قام في أوائل هذا القرن رجل بيروتي من بيت الباحوط، فأسس معملا مهما في أنطلياس على ساحل البحر، و أصدر ورقا جيدا كورق النمسا و فرنسا، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام فاضطر هو أن ينزل أيضا ثم خفضت السعر و لم تنزل تخفضه، حتى قضت على هذا المعمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الألوف من الدنانير إلى الشام و أصبح الورق حاجه من حاجات المدنيه.

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٢٤

المرايا:

المرآة (بكسر الميم) ما تراءيت فيه أو رأيت فيه صور الأشياء و جمعه المرآئي و الكثير المرايا و صنعها من صناعات هذا القطر كانت تصنع في صيدا على ما قال بليوس و تصدر إلى الخارج، و قد وجدت في خرائب بومبي ألواح كبيرة من الزجاج و كانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن و هي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدها و ذيله، اتخذوها بادئ بدء من مزيج القصدير و النحاس ثم من الفضة خالصه أو ممزوجة بمعدن أدنى، و منها مرايا من الذهب، و قد اطلعنا على مرايا من الشبه و الفضة استخرجت من أرض حمص. و هذه الصناعة مما تعلمه البنادقه على ما يظهر من الشاميين و انتقل إلى الغرب ثم تنوسى عمله عندنا. و كان يرتفع من فلسطين خلال القرون الوسطى المرايا و قدور القناديل في جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات.

الصباغة:

و من أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصباغة صباغة الذهب و الفضة و التفتن في تصويرها و وضع الأحجار الكريمة عليها، و كانت تعمل هنا أكلة الجوهر و أقرطه الذهب المزينة بالدر و الياقوت و الشنوف و الخواتيم و الدمالج و القلائد و الأطواق و الخلاخيل على أشكال و رسوم جميلة. و الغالب أن المصنوعات المزيفة من الصباغات الأجنبية نازعت هذه الصناعة و زاد كسادها اختلاف شروط الحياة في هذا العصر عما كانت عليه في الأعصر السالفه، و صارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل إلا قليلا.

فصباغة الحلبي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جدا، و هي تحتاج إلى ذكاء و مهارة لتغير أوضاعها و أشكالها بحسب ذوق كل عصر و رغبة أهله، و هي تقسم كما أكد العارفون إلى سبعة أقسام رئيسة. الأول ما يحلى به الرأس و أعظمها شأنًا و رواء ما يسمى بالتاج، و هو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة بأحجار الماس المختلفة حجوما، و هي إجمالا من أحسن ما صنع لتزيين رؤوس السيدات، و يوجد اليوم أسماء كثيرة و أنواع عديدة لما يزين به الرأس، منها ما يسمى بالمشط،

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٢٥

و البرش، و القمر، و كثير من أشكال الطيور و الحشرات كل ذلك من أبداع الأشكال و الصور مرصع بالجواهر الكريمة. و مما تزدان به الصدور من الحلى أنواع متعددة أيضا منها ما يدعى بحسب صورته و أشكاله مثل «قلب، حبة، فراشة، زنبقة، غزال، دبوس، كردان ضفدع» كل ذلك جميل فى صنع ذهبه و ترصيعه، و تناسب تركيب أحجاره بدل على رسوخ قدم فى تلك الصناعة، و غالب ما تزين به النحور عقود اللاكئى و مما تحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع و يرصع غالبا بفصّ واحد كبير الحجم و رسمه على الأكثر حية أو أفعى، و مما تحلى به المعاصم و يسمى أساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب، و ترصع بأحجار ماس، و لها بحسب أشكالها أسماء متعددة منها «حبة، برغى، ماس، سحب، عصفير» و غير ذلك. و كلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها.

و حلّى الأنامل و هو ما يسمى بالخواتم، و عامتها من الذهب و يركب عليها غالبا فص كبير الحجم من الماس أو الياقوت أو الزمرد أو الفيروزج أو فصوص صغيرة متناسبة الوضع، و لها أسماء متعددة منها «مركيز، زيتونة، فريشة، ذو الثلاثة أحجار» و من أكثر أنواع الحلّى الأقراط حلّى الآذان و هو أشكال متعددة أيضا منه ما يسمى قرط كف ماس قفل، طارة، خروسه، عصفير، تركى، بغدادى، حريه، و قرط الطويل، و هو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبير الحجم، معلقة بسلسلة من الذهب، بطول ثلاثة سنتيمات تقريبا لها خفقان على الجيد جميل.

و بجيد فوqe القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر و فى الشام ألوف من صناع الحلّى و تجار الأحجار الكريمة، و ليس من بلد فى القطر إلا و فيه عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة. و من غريب الأمر فيها أنك لا تجد شكلا راج فى بلد إلا تجده قد راج فى الشام من أقصاها إلى أقصاها خلافا للباسهم و بقية أزيائهم. و لا بد من الإشارة إلى سبب ترفى هذه الصناعة، ذلك أن الشام مدينة للفتح العربى بها، فإن هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس و لا ذهب (٤-١٥)

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٢٦

و لكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم أغلب آسيا و إفريقيا و عاصمتهم دمشق هادتهم الملوك، و أغلب هداياهم هى الجواهر الكريمة و الذهب حتى امتلأت منها خزائهم، و كان الخلفاء منهم يهدون منها القواد و الأمراء و الأطباء و الشعراء و العلماء و الفقهاء فكثر فى أيديهم و زادت بطبيعة الحال فى أيدي الصاعه، و تنافسوا فى إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم فى أعلى درجات الارتقاء.

و يمكن أن يعد فى جملة الصياغة طبع الدراهم و ضرب الدينار من النقرة المذابة من الذهب و الفضة، فإن الشام كانت من أول الأقطار التى طبعت فيها السكة الإسلامية، و كانت الدينار تضرب فى الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر، و فى متاحف دمشق و أوروبا نقود ضربت فى دمشق و حمص و إيليا و أنطاكية و بعلبك و طبرية أيام عمر سنة (١٧) و عليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية و اليونانية.

و كان لهم مهارة فى معرفة البهرج و الزيوف من النقود الصحيحة و يذهب بعضهم إلى أن الإكسیر إذا أضيف مثقال منه على ألف قنطار من الحديد يستحيل ذهبا خالصا، و لم يثبت ذلك من طريق الكيمياء و ما برح الأحرمان الذهب و الفضة معدنين خاصين، و يمكن أن يعد فى جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن و منها نموذج فى دار الآثار بدمشق. و فى التاريخ العام أن معامل الشام كانت تصنع الخز و الآنية الذهبية ذات الميناء، أما صناعة الجواهر و الصياغة فإن ما بقى منها يدل دلالة كافية على رقى العرب فى صنعها. و كانت العرب تحسن قطع الأحجار الدقيقة و نقشها بالرسوم و زبرها بالصور.

صناعة الصدف و الرخام:

واشتهرت بيت لحم و القدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة، و المسابح و الصلبان و الدبابيس و الدوى و المقاطع و رسوما و طيور و حيوانات الفيل و الأرنب، و ما يصنع من خشب الزيتون أشكالا دليل على رسوخ الصناعة، و تباع في الغرب كميات كثيرة منها، لما فيها من دقة الصنعة و جمال الأسلوب و التفنن في الوضع و الشكل، و يتنافس الغربيون في خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢٧

اقتناء هذه المصنوعات و يحببها إليهم كونها من الأرض المقدسة.

و تفرد أهل بيت لحم منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح و الصلبان و بعض مشاهد التوراة، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان و حجر الخنزير أو الحجر المنتن، و هو مؤلف من الطباشير و الحمر المستخرج من بحيرة لوط. و كانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفا من حاجيات الكنائس. و لبعض صناعات الرخام صنائع دقيقة في دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة، فيها أنواع الرخام الملون، و قد عمل أحدهم خزانة للكتب من أنواع الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة الستمتر الواحد فكانت طرفه من الطرائف التي آثروا بها القصر السلطاني في فروع. و هذه الصناعات من الكماليات قلما يرغب فيها حتى الأغنياء أرباب القصور، و لذلك رغب عن صنعها أربابها فكادت تدر. و لبعض الصناعات مهارة في تقليد العاديات القديمة و غيرها من الأغلاق، لا- تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون، يقتنيها بعض السياح على أنها من القديم. و تقليد العاديات مما عمت به البلوى في الغرب اليوم و هي مورد من موارد ربح الفقراء من الأغنياء و هي تحتاج إلى معرفة زائدة و مهارة غريبة.

السجاد و الحصير:

و من أهم الصناعات صناعة نسج البسط، يقلدون فيه السجاد العجمي و التركي. و هو أحط من العجمي لأن هذا السجاد الشيرازي و الأصفهانى يصعب أن يدانيه سجاد في العالم لا يكاد يفنى حتى بعد استعماله قرونا، كالأعبئة الشامية تلبس عشرين سنة و هي برونقها و متانتها. و بحق ما يقولون إن السجادات و الأعبئة أجراء دائمون بلا أجره. و اشتهرت البسط الشوبكية و بسط أعناك في البلقاء و حوران و سجاد دمشق، و منها المصور بأشخاص و رسوم.

و في دمشق و حوران و جبل قلمون و لا سيما في جيروود و في حمص و حلب ألوف من الأنوال، تحيك البسط من الصوف الخالص و كانت تصبغ بالأصباغ النباتية الثابتة من استحضار القطر، فتحفظ بألوانها بعد عشرات من السنين خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٢٨

و تصبغ الآن بأصباغ أوروبية قليلة الثبات و هي على غاية من دقة الصنعة و تناسب النقوش و متانة الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الأقطار الأخرى. و يأتي بعدها صناعة السجاد و الطنافس، و تعمل في قرى حمص و حماة و هي المسماة بالحزوري و العدموني، نسبة لقرية حزور و عدمون، و هي على غاية الجودة و المتانة تعمل من الصوف الخالص، و مما يعاب عليها أنها لم تزل تعمل من لون واحد و هو الأحمر القاني، و نقوشه متشابهة لا تفنن فيها.

و دخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من الطريقة القديمة في حلب و بيروت و دمشق و ذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى في السنين العشر الأخيرة، يحسنون صنعه جد الإحسان، لكن النفوس لا تزال ترغب في سجاد فارس، فإنه لا يعادله شيء بمتانته و ثبات ألوانه و تصويره و رقصه. و في بعض قرى قلمون يصنعون من الوبر بسطا غليظة متينة تستعمل في الضياع و البوادي، و توضع على الأدراج في المدن. و يعملون الجوالق (الشوالات) و العدول على شيء من الجودة و المتانة و كذلك البلاس و المسوح.

و كان نسج الحصير و البارى من أفضل الصناعات تقوم بالحاجة. و اشتهر أنه كان «إلى جانب طبرية غابة حلفاء و رفقهم منها، أكثرهم ينسجون الحصر و يفتلون الحبال» و قد رأى ناصر خسرو في القرن الخامس حصرا من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة و تساوى

الواحدة منها خمسة دنانير مغربية.

وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيار البسط الإفريقية والحصر اليابانية الرخيصة، ولكن القرى وكثيرا من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في أرض الوطن والحصر البيروتي مشهورة بحسن نسجها ولطافة ألوانها ومتانتها التي تفوق البسط الإفريقية كثيرا.

الصناعات المحدثه:

ومن أهم الصناعات المحدثه صناعة القرميد وهو صنو الآجر القديم تفرمد به السطوح، وفي لبنان واللاذقية و يافا معامل منه وفي سنة (١٩١٨) أسس رجل فرنسي في اللاذقية معملا لعمل القرميد، والقرميد الآجر العظيم. ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني و بلاط الملاط لجودة التراب الخزفي في تلك الأرجاء

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٢٩

وفي القدس معمل للقيشاني أو البلاط الملون. ومن الصناعات الجديدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا و بكفيا و زحلة و بعض قرى بيروت الساحلية و تعمل منها كميات عظيمة في فلسطين و دمشق و حلب. وقد استفادت فلسطين في الأيام الأخيرة من الإكثار من زرع الدخان استفادة عظيمة و أخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها و تباع منه إلى الخارج.

ومنها صناعة الطباعة و صنع الصور و الحفر على النحاس و الزنك و في بيروت أحسن مصانعها و دمشق تقلدها. و من الصناعات المحدثه صنع الجليد و أهم معامله في بيروت و حلب و طرابلس و صيدا و اللاذقية و دمشق و حيفا و يافا و القدس و هو يقوم مقام الثلج الطبيعي في التبريد. و كان الثلج السماوي يدخر إلى آخر أشهر الصيف بحاله و كان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا و طرابلس إلى قلعة الجبل بالقاهرة في ثلاثة أيام لتبريد المياه في قصر الملك و عظماء الدولة هناك. و في حيفا معمل للاسمنت المسلح يستخرج من حجر الجبل المتاخم لها و معمل للبتزين و السيرتو. و قد أنشئ معملان للاسمنت أحدهما في شقة قرب طرابلس و الآخر في دمر قرب دمشق و نجحا نجاحا باهرا. و في كل من عكا و يافا معمل للثقاب (الكبريت) و مثله في دمشق. و أهم ما دخل مجددا من الصناعات صناعة الجوخ في دمشق أنشئ لصنعه معملان أحدهما شرقي المدينة و الآخر غربيها، و أنشئ فيها معمل لحفظ الفواكه و الثمار و البقول نجح نجاحا كبيرا، و أسس في حلب معمل عظيم للنسيج أتى بأعظم الأرباح و سد حاجة البلاد في الحرب الأخيرة.

هذه أهم الصناعات الشامية و غالب الصناعات «تتبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناعات حتى يتم» و قد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصناعات و الحرف في دمشق خاصة على اختلاف اسمائها و ضرورها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة و صناعة. و لابن الصانع الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع قال ابن جماعة: و اعلم أن هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتهم ثم تعلم الناس منهم بعضها و صارت وراثه من الحكماء للعلماء، و من العلماء للمتعلمين، و من الأستاذين للتلامذة، و من التلامذة للصانع. و كان و لا يزال لكل حرفة زعيم أو نقيب أو شيخ أو

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٣٠

عريف، و يسمى شيخ الحرف كلها بسطان الحرافيش ثم كنى عنه احتشاما بشيخ مشايخ الحرف و الصنائع. و كان لأرباب الصنائع ترتيبات أشبه بالنقابات الصناعية في الغرب و لذلك دام رواجها طويلا. في العهد الأخير نقبت الصناعات النقابات على مثال النقابات الصناعية في الغرب و أصبحت أصوات العمال تسمع و يزيد صداها رنة كلما كثر الصناع.

تأثير الصناعات في الماديات و الأخلاق:

قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (٥ كانون الأول ١٩٢٤ م - ١٣٤٣ هـ) لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف و آخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة، فقد كانت صادراته من حلب و حماة و حمص و طرابلس و دمشق تسد جانبا عظيما من الموازنة بما تأتي به من الأموال كل سنة، فأصبحت الآن إلى انحطاط و نازعتها الأقمشة الإفرنجية البراقة الدقيقة. قيل: إنه كان في دمشق وحدها ثلاثون ألف نول للنسيج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف، و لا تلبث إذا دامت الحال على هذا المنوال أن تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات، و يفتقر أربابها و يهاجرون أو يهلكون. و في كل ذلك خسارة و فجيعة، و أي فجيعة أعظم من الفجيعة بالمال أو الرجال أو بهما معا.

و مما يجنيه القطر من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية تربية الروح القومي فيهم و إصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية. و إليكم مثلا جرى في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة. ذكر لي مدير مدبغتنا هذه منذ مدة أن مستشار الأمور الاقتصادية في المفوضية العليا زار المعمل و سر بنجاحه كل السرور و نشطه بالقول و الفعل، إلا أنه بدت منه حركة استغربها، و ذلك أنه سأل كثيرا من العملة عن مذهبهم، و بالطبع فيهم من أهل الأديان السماوية الثلاثة و من غير الشاميين أيضا. فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه و لم أهتم لتعليقه. و لم يلبث المستشار أن زارني من الغد و ذكر لي في جملة حديثه سروره بالمدبغة الجديدة، و قال: إنكم معاشر الدمشقيين قد حللتم مسألة من أعضل المسائل في بلدكم لم تتمكن نحن في بيروت من حلها. و ذلك أننا أردنا

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣١

مرة أن نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا أهل كل مذهب يريدون أن يستأثروا بأكثر المنافع لأبناء طائفتهم. و نحن كنا بالطبع نريد أن ينتفع به من يعمل و يعرف. و هكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل و لم نتقدم شيئا واحدا في الموضوع الأصلي، و سقط المشروع و هو جنين لأن الناس هناك يريدون أن يقوم بذاك الروح. و لقد سررت أن رأيت في معملكم المسلم و المسيحي و الإسرائيلي على اختلاف مذاهبهم. و كل فرد يعيش مع أخيه متساندا متعاطفا قلت له: و لذلك استغرب بعض عملة المدبغة سؤالكم أول أمس عن دين من رأيتموه فيه. فقال: ليس في العالم عمل اقتصادي قام على أساس الدين، و لبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له: هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الإسلامي فكل من يحسن عملا يوسد إليه مهما كانت نحلته. فسّر لقولي و سررت لتوفيقنا.

بقيت هناك مسألة لا بد من الإشارة إليها و أعنى بها تأثير الصناعات في الأخلاق. فقد ثبت أن الأقطار التي تكثر فيها الأعمال الصناعية و الزراعية أحسن أخلاقا من غيرها، و يقل فيها المتشردون و الثرثارون، لأن من طبع العاملين الأخذ بالنافع و ترك الفضول على الجملة. و لذلك يضعف الشغب في أبواب الصنائع، و تقل الموبقات المهلكات، لأنها لا تبقى للعامل إلا الوقت الكافي لراحته و نومه، و هو على ثقة من أنه إذا لم يحصر ذهنه في عمله يخرج صاحب المعمل أو الحقل من خدمته. فالحكومة التي تحب أن يقل الشغب بين من وسد إليها أمرهم يجب عليها أن تفكر ليلها و نهارها في إيجاد أعمال رابحة لهم، و بذلك يقل المتشائمون و المشاغبون و المرجفون و الناقمون. و ليس أحسن و لا أنجح من هذه السياسة.

لا جرم أن اشتراك أهل البلد الواحد بل القطر الواحد و المملكة الواحدة في عمل اقتصادي مما يرفع مستوى القومية أيضا و يلقي الناس معاني التكافل الوطني.

فقد رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب و سكان الشمال من فرنسا يقتتلون و يتحاربون و لم تنقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الأعمال الاقتصادية، فأصبحت مصلحتهما واحدة و ارتفع النزاع من بينهما و أحسا أنهما أبناء أمة واحدة. لذلك نرى إلى اليوم من بقايا تلك الأخلاق

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٢

أن ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم و منازلهم، بل إن أهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم و

تجاراتهم على الأكثر و يقلّ فيهم السياسيون و الشعراء الأدباء و هم كثار جدا في أهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة. فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا و دانينا، فقيرنا و غنينا، في إقامة الشركات على أنواعها، إحياء لصناعاتنا و استبقاء للبقية التي صبرت على الأيام من ثروتنا. فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة، و الباقي من أسباب السعادة و النماء ثمره الأعمال الصناعية. و ما السكك الحديدية و البواخر و السيارات و القصور و المصانع الفخمة و كل ما في المدنية من ضروب الراحة و الرفاهية مما يلذ و ينفع، إلا نتيجة عمل العملة في المعامل، و كل ما نشاهده و ندهش به من أنواع الصناعات في أميركا و أوروبا و في اليابان و الصين و الهند هو ثمره التعاون و العلم العملي. و لذلك ساغ لنا أن نقول: إن كل ما يدفعنا و لو خطوة واحدة إلى الأمام لنقترب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الأمة جمعاء و لا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع إلى الكماليات، إلا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم برؤوس أموال وطنية، و تستعمل من الأدوات الجديدة ما لا غنية عنه، تنمو بنمونا في مظاهر الحياة و الانبعاث. فنحن لا- نقل عن الغربي ذكاء و نشاطا و إنما ينقصنا التنظيم و التدريب. و في أرجائنا أكثر المواد الأولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج إلا إلى معرفة قليلة للانتفاع بها و الله الموفق و الملمهم.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٣

التجارة الشامية

موقع الشام من التجارة و تجارة القداماء:

كان من وقوع الشام في طرف آسيا و إفريقية، و قربها من الساحل المقابل لبحرها من أوروبا، أعظم مركز تجارى في القديم، و من أهم ما حمل أبنائها على الرحيل بتجاراتهم، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم. و كثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة، ثم إن مرونة أخلاقهم تدعوهم إلى الاختلاط بغيرهم، و تقليده و تعلم لغته و مماثلته في عاداته و بهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالي إفريقية و جنوبي أوروبا، و بلغوا جزائر بريطانيا، و أقاموا لهم مكاتب تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط و بحر الظلمات، و ما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف، ينقلون إلى الغرب حاصلات الشرق و إلى الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب، إلى أن قامت دولتا الرومان و اليونان. عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الأرض.

و لم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين و كلدانيين و آشوريين، و لا- قبائل الغرب البربرية (الإسبان و الغاليون و الطليان)، عهد بركوب البحار و شق العباب. و الفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الأيام على تجشم البحر و معاركه العباب. فصح أن يدعوا من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم و قادة البيع و الشراء، يتعاونون من كل شعب سلعه و يقايضونه على غلات البلاد الأخرى. تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برا و الغرب بحرا.

و اعتاد الفينيقيون أن يرسلوا في البر قوافل تتجه و جهات ثلاثا. إحداها

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٤

إلى أرض العرب لتأتى منها بالذهب و العقيق اليماني و البخور و الصبر و العطور العربية و اللؤلؤ و الأباير و العاج و الآبنوس و ريش النعام و قروود الهند. و الثانية ترحل إلى بلاد آشور لتعود منها بأنسجة القطن و الكتان و الحمر و الأحجار الكريمة و الماء العطر و حرير الصين. و تقصد القافلة الثالثة إلى أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل و الرقيق و الأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال القوقاز.

و كانوا يتعاونون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة، و يبحثون في الأصقاع المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل.

يصطادون الصدف من شاطئ اليونان، ومنه يستخرجون صباغا أحمر وهو الأرجوان. وكانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس للملوك والأمراء، ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل إسبانيا و سردانية من مناجمهم. وكان القصد من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الأصفر، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في أرض الشرق، يرحل الفينيقيون في طلبه، وينشدونه حتى في شواطئ إنكلترا في جزائر القصدير و حيثما حلوا يتخذون الرقيق يتاعونه تارة كما كان يتاع النحاس العبيد في ساحل إفريقيا. و ينزلون طورا في إحدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والأطفال و ينقلون بهم إلى أهلهم و يبيعونهم في القاصية. و إذا و اتتهم الحال ينقلون قرصانا، و لا يتحامون إطالة أيدي التعدي على غيرهم.

و قد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في الأرجاء التي اتجروا فيها، و هي مراكز للبرد حصينة، واقعة على مرفأ طبيعي يخرجون إليها بضائعهم من البحر و هي في العادة أنسجة و فخار و حلى و أصنام، فيأتي أهل تلك الأقطار بغلاتهم يقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زونج إفريقيا. و تقام أمثال هذه الأسواق في قبرس و مصر و جميع بلدان البحر الرومي مثل إقريطش و يونان و صقلية و إفريقيا و مالطة و سردانية و مالقة و قانس و ربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول- قاله المؤرخ سنيوبوس. و كانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر، و هي مدينة بوفرة سكانها و استبحار عمرانها، لمركزها الطبيعي و تجارتها العجيبة و رباعها الخصيب. و كان في وسع مصر أن تنازع الشام مكانتها التجارية، بيد

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٥

أن الحسد المتأصل في الطبقات الدينية و السياسية كان يمزقها و يحول بين المصريين القدماء و بين كل صلة بالشام. فكانت الشام إذا المستودع الوحيد للعالم المعروف تأتي حاصلات آسيا و إفريقيا مع القوافل إلى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية، و أتت أزمان على الشام كانت تخرب بأيدي الفاتحين، و تخرب أيضا بالحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر. فأضاع بها مكانته، خصوصا منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها، و غدت منافسة لها بأن جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعا سهل التجارة بين أنحاء العالم.

و كان السبب في كثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين و الأشوريين و البابليين و المصريين ثم مع ممالك الروم في الغرب، مسائل التجارة على الأغلب و إرادة الشاميين أن يفتحوا صدر أرضهم لتنفيذ إليها تجارات جيرانهم أو غيرهم من الشعوب. و من أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب و دمشق. و كانت مدن فينيقية لولعها بالتجارة تترك الزراعة حتى بلغت الحال بأهل صور أن أغفلوا تعهد الأرض و كانوا يشتررون مؤونتهم من الجليل و السامرة و اليهودية، و لما حاصر الإسكندر صور اضطر أن يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال.

و ذكر ديودوروس أن ثروة الأنباط أصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب و المر و غيرهما من العطريات، يحملونها من اليمن و غيرها إلى مصر و شواطئ البحر المتوسط، و لم تكن تجارة تمر في أيامهم بين الشرق و الغرب إلا على أيديهم، و كانوا يحملون إلى مصر خاصة القار لأجل التحنيط. و لما استولى الرومان على القطر انتقلت التجارة إلى تدمر و فارس. و وفق الفرس إلى تحويل التجارة عن مصارفها القديمة إلى أصقاع الفرات و الخليج الفارسي.

و أخذ الرومان يعنون بإنشاء الطرق المعبدة في الشام، و الوصل بين الشام و الأقطار الأخرى كالجزيرة و العراق و الحجاز و مصر و آسيا الصغرى، و لا تزال إلى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان في صرخد و الشراء و الكرك و أيلة و جرش، و هذه كانت طرق البتراء إلى داخل الشام، و كانت أنطاكية ترسل إلى رومية الأصواف و الأنسجة و الحنطة، و الشرق يبعث إليها بأدوات الزينة و الرفاهية

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٦

كالعطور و الأبايزر (الفلفل و جوز الطيب و الزنجبيل) و النيلة و العاج و الأحجار الكريمة و ثياب الصوف و الحرير و العبيد السود و الحيوانات النادرة و لا سيما القروء فكانت تجلب إلى الإسكندرية من طريق البحر الأحمر أو في النيل و تأتي إلى أنطاكية من طريق

الخليج الفارسي و بادية الشام مع القوافل.

يقول بيرين المؤرخ البلجيكي في كتابه محمد و شارلمان: لقد عظم نفوذ الشاميين من وراء الغاية في رومية جاءوها بكثرة و كان عدة من الباباوات من الشاميين كما كان بعض أباطرة رومية من أصل شامي و إلى الشام تصل قوافل الهند و الصين و بلاد العرب و كان الشاميون يومئذ رجال البحر على نحو ما صار الهولانديون في القرن السابع عشر و بواسطتهم تصدر الأباير و أعمال الصناعة من المدن الكبرى في الشرق كأطناكية و دمشق و الإسكندرية الخ و كنت تراهم في كل الفرض البحرية كما كنت تجد منهم جاليات في داخل البلاد. و كان لهم على عهد ملوك الرومان منازل في الإسكندرية و رومية و اسبانيا و غاليا و بريطانيا العظمى حتى مدينة كارنوتوم على نهر الدانوب. ثبت ذلك بنصوص العاديات التي عشر عليها. و في القرن السادس كثر المشاركة في جنوبي غاليا و كان منهم من يستوطنها و لا سيما في الجنوب من أرجائها و كان سكان أربونة في سنة (٥٨٩) من القرط و الرومان و اليهود و اليونان و الشاميين. و كثر سواد الشاميين في نابل و في جوار باريز. قال: و كانت الميناء التي نعرفها أكثر من غيرها مرسيلية و يظهر أنها كانت فرضة كبرى منوعة السكان و يبين عن مكانتها تنافس الملوك في الاستيلاء عليها عند تقسيم الامبراطورية الرومانية و قد كثر فيها اليهود و الشاميون و الروم و القوط.

فالتدمريون و من قبلهم النبطيون عنوا بالتجارة جد العناية، لأنها مورد معاشهم و علة حياتهم، لضعف الزراعة في كورهم، فكانت القوافل على عهد ارتقاء تدمر تحمل إليها من جزائر العرب الذهب و الجرز و الشب و اللبان و الصمغ و الصبر و عود الند، و من العراق اللؤلؤ، و من الهند أنواع المنسوجات و القرنفل و البهار و الحرير الصيني و النيل و الضجاج و الفولاذ و العاج و الآبنوس. كل هذا يأتيهم من طريق القوافل في البوادي و القفار فيحملونه إلى رومية عاصمة الرومان. أما الأرفاق التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك - قاله رنزال.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٧

و قد اكتشف أمير روسي في سنة (١٨٨٢) كتابه رسمية كتبت بالتدمرية و اليونانية يرتقى عهدا إلى سنة (١٣٧) للمسيح فهمت منها أحوال التجارة القديمة و مضمونها تعريف جمركي مطول أصدره مجلس شيوخ تدمر حسما لفتن وقعت بين التجار و عمال الخزنة، و فيها بيان ما يضرب من المكوس على البضائع و المعاملات التجارية إجمالا و أفرادا و هي باهظة فكان كل حمل جمل أو حمار يرد أو يصدر تضرب عليه أولا ثلاثة دنائير رومانية (و كان الدينار الروماني يساوي نحو من ٧٢ سنتيما) ثم فريضة أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع. و البضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق و الجزر و الأرجوانية و الزيوت العطرية المجعولة في قماقم من الرخام الأبيض أو في ظروف من جلد المعز، ثم ريت الزيتون و الشحم و الملوحات المتنوعة و الجلود و الثياب و الأنسجة و الغلال المختلفة و الأفويه و الأثمار اليابسة كحب الصنوبر و الجوز و اللوز و العقاقير و الملح إلى غير ذلك. و ينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار و حمل الجمل و حمل العجلة، و كان ثقل الأول نحو مئة كيلو و الثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف و الثالث يبلغ نحو ألف كيلو. قال دي فوكيه: و كانت القوافل التي تحمل إلى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل و الحمير و إذا وصل التجار إلى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق و الأثقال المختلفة و حملوها على العجلات ليصلوها إلى جميع أنحاء المملكة على السكك و الشوارع الرومانية، فإذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر و بلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين: الأول مرور البضائع بها و إقامتها فيها مدة و دفع المكوس إلى خزنة المدينة، و الثاني شهرة أهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز و الصحارى، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرفأ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الأمم فتغنى خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطنة بحر الروم. و قد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلا ميلا عليها اسم زينب و اسم ابنها و هبلات. و أول هذين العمودين قريب الجبيل و الجسر الواقع على وادي العذار و الثاني برج الريحان شمالي الجبيل.

و كانت الشام أهم محال الحرير و لا سيما صور و بيروت، و الشام من

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٨

أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية. و ذكر پروكوب عند كلامه على أنطاكية أنها أول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها و اتساعها و وفرة نفوسها و جمالها و عاداتها. و تعجب أنطونين الشهيد من الترف الذي كان على أتمه في أنطاكية و من عظمه أفامية و بيروت و غزة. و قد اضمحل ذلك على عهد يوستينيانوس لأنه أرد أن يضع سعرا وسطا للحرير فهلك تجاره و صناعه و خربت معامله. و يرد تاريخ زراعة الحرير إلى القرن الأول للحكم اليوناني على الشام و لا سيما في ضواحي بيروت. قال هيد بعد أن ذكر ذلك: و قد حدا حب الربح تجارا مسيحيين على أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لغرب اسبانيا و إفريقية و الشام، فاتخذ شارلمان و البابا زكريا و أدريانوس الأول الأسباب لمنع ذلك.

و قد وجدت في غالبا و غيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها أسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول، و منها ما وجد في جنای على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامى اسمه تيم من قرية عتيل من أهل مدينة قنوات في جبل حوران كان يتجر مع غالبا بما يحمله إليه مواطنوه إلى أرل على سفنهم و منها إلى ليون فما فوقها من مدن فرنسا. و لم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر إلى الساحل الشامى لأخذ البضائع اللازمة لهم، بل يحمل الشاميون أنفسهم بنشاطهم المعهود تلك البضائع، مع أن حاصلات آسيا كانت مما يلفت نظر الغربيين. و اشتهر خمر غزة في فرنسا على عهد الملك كونتران في القرن السادس للميلاد، و حرير الشرق و أحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء و السادات. قال هيد: إن الشاميين كانوا يرحلون إلى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين و نزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون و بوردو بل في أواسطها مثل أورليان و تور و كانت تحمل إلى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين. و الظاهر أن الشام كان يفوق غيره بأعماله الصناعية و التجارية، و صلات الشاميين محكمة مع الشرق و الغرب، و كانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي و الخليج الفارسي و أواسط آسيا و هي أهم ولاية تجارية للروم. و في الحق أن صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدم النصرانية في أوروبا، و أصبح زوار بيت المقدس يأتون إلى فلسطين أفواجا أفواجا و يحملون معهم شيئا من تجارتهم و يأخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٣٩

تجارة العرب:

العرب أهل تجارة لضعف زراعتهم، و كانوا يوغلون في الشرق و الغرب لغرض الربح، و قد كان لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة و ينتقلون من بعضها إلى بعض و يحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم أو بعد، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع و الشراء و الأخذ و العطاء، و كان يعشرهم فيها أكيدر دومة- و هو ملكها- و ربما غلب على السوق كلها فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر ثم ينقلون إلى سوق هجر- قاله القلقشندى. و ما زال يقام في الشام إلى اليوم في أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات و الحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام في الغرب. و كانت تقام في دمشق في كانون الأول سوق تعرف بسوق قضيب البان، رواه البيروني. و روى القالى أن قريشا كانت تجارا، و كانت تجارتهم لا- تعدو مكة، أى تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم، ثم يتبايعونها بينهم و يبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر و تمكن عنده و قال له: إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز و ثيابه، فتبايع عندكم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب. فجعل كلما مرّ بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إبلافا. و الإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم من غير حلف، إنما هو أمان الطريق، و على أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها و يؤدون إليهم

رؤوس أموالهم و ربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم و بين أهل الشام، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شىء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، و خرج هاشم معهم يجوزهم، يوفيههم إيلافهم الذى أخذه لهم من العرب حتى أوردهم الشام و أحلهم قراها، فأتست قريش فى التجارة فى الجاهلية. و هاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت إليه فقيل لها غزة هاشم لأن الروم كانوا يقيمون لهم سوقا فى غزة فى موسم معلوم و كانت قريش فى الجاهلية تحضره و تمتاز منه.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٠

و كانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة فى الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن و نحو اليكسوم من ملوك الحبشة، و رحلة فى الصيف نحو الشام و بلاد الروم. قال الثعالبي: و كان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل و سادات العشائر لخصلتين، إحداهما أن ذؤبان العرب، و صعاليك الأعراب، و أصحاب الغارات، و طلاب الطوائل، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم و لا غيرهم، و الخصلة الأخرى أن أناسا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، و لا للشهر الحرام قدرا، كبنى طيء و خثعم و قضاة. و سائر العرب يحجون البيت و يدينون بالحرمة له. و معنى الإيلاف إنما هو شىء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، و يحمل لهم متاعا مع متاعه، و يسوق إليهم إبلا مع إبله، ليكفيهم مؤونة الأسفار، و يكفى قريشا مؤونة الأعداء، فكان ذلك صلاحا للفريقين، إذ كان المقيم رابحا و المسافر محفوظا. و فى غزة استغنى عمر بن الخطاب فى الجاهلية لأنها كانت متجرا لأهل الحجاز.

و خصبت قريش و أتاها خير الشام و اليمن و الحبشة، و حسنت حالها و طاب عيشها، و لما مات هاشم قام بذلك عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام به نوفل و كان أصغرهم. و ذكر اللغويون من جملة التخريجات فى اسم قريش التى كانت سادة العرب جاهلية و إسلاما، أنها سميت بذلك لتجرها و تكسبها و ضربها فى البلاد تبغى الرزق، و قيل: لأنهم كانوا أهل تجارة و لم يكونوا أصحاب زرع و ضرع من قولهم فلان يتقرش المال أى يجمعه. و كان ساداتهم على حبههم للتجارة إذا تولوا أمرا من أمور الأمة تخلوا عنها. ففى التذكرة الحمدونية أنه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر إلى المدينة فيبيعه و هو و إليها، فحدثه محمد بن كعب القرظى عن النبى صلى الله عليه و سلم «أىما عامل اتجر فى رعيته هلكت رعيته» فأمر بما فى السفينة فتصدق به، و فكها و تصدق بخشبها على المساكين.

و كان الأنباط يحملون من الشام إلى الحجاز الزيت و الدرمك «دقيق الحواري» و يعودون إلى هذا القطر بحاصلات الحجاز. و فى السنة الثانية للهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب و والد يزيد و معاوية من الشام فى قريب من

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤١

سبعين راكبا من قبائل قريش كلهم كانوا تجارا بالشام. و كانت تجارة أبى سفيان بيع الزبيب و الأدم كما كان الصديق و عثمان و طلحة بزازين.

و خافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر إلى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالإسلام فقال عليه الصلاة و السلام: «إذا هلك قيصر فلا قيصر، و إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» معناه لا قيصر و لا كسرى بعدهما فى الشام و العراق، و لا ضرر عليكم، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين و كانوا من قبل يملكون المزارع فى الشام و يقيمون و ينعمون.

و اتجر الرسول فى الجاهلية و كذلك بعض أصحابه كأبى بكر و عمر و عثمان، و لما رفر علم الإسلام على الشام اتست الدنيا على الصحابة حتى إن عبد الرحمن بن عوف الزهرى أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام كان تاجرا كثير الأموال بعد أن كان فقيرا، باع مرة أرضا له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها و تصدق مرة بسبعمائه جمل بأحمالها قدمت من الشام، و أعان فى سبيل الله بخمسائه فرس عربية، و كان الزبير بن العوام ابن عمه النبى صلى الله عليه و سلم و أحد العشرة كثير المتاجر و الأموال قيل: كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فرما تصدق بذلك فى مجلسه، و قد خلف أملاكا بيعت بنحو أربعين ألف درهم و هذا لم يسمع بمثله قط - قاله الذهبى.

و كانت مراكز صور و طرابلس تقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة إلى سواحل خليج القسطنطينية (بحر إيجة) و خليج البنادقة (الأدرياتيك) و بحر بنطس (الأسود) و جزائر قبرس و رودس و اقریطش، و كل ما قام به خلفاء المسلمين و وزراءهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق و إنباط المياه على طول الطريق إلى أم القرى، و إقامة معالم الأمن و الراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة.

و كانوا قسموا أرض الشام إلى مراحل و برد و فراسخ و عنوا بالأمن من وراء الغاية حتى يتجر الناس. و كانت طريق القوافل إلى مصر على الكرك أو على غزة و رفح. قال ريسون: و كانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة (٤-١٦) خطط الشام، ج٤، ص: ٢٤٢

مركز تجارة شبه جزيرة العرب و مصر و الشام، و إن العرب رقوا الصناعة البحرية و وضعوا قوانين لحقوق الملاحة و استعاروا بيت الإبرة من الصينيين، و ضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أي ضبط و شرحوا الكفالة و أنشأوا المصارف للفقراء و وضعوا السفائح المؤلفه و ردود التمسك و بعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثه و كنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل و أمنوها، و عمرو المرافئ و الفرض، و أصلحوا و أنشأوا الفنادق و الرباطات و رتبوا سير القوافل الاقتصادية و لم تكن المدن الكبرى غير أوساط تجارية كبرى.

و كان الفرات بن حيان أهدى الناس بالطرق و أعرفهم بها و كان يخرج مع عيرات قريش إلى الشام و له يقول حسان:

إذا هبطت حوران من رمل عالج فقولا لها ليس الطريق هنالك
فإن نلق في تطوافنا و انبعثنا فرات بن حيان يكن و هن هالك

و يقول بيكولوتى: إن أربع موان: عكا و بيروت و طرابلس و اللاذقية، و خمس مدن داخلية الرمله و دمشق و حماه و أنطاكية و حلب استفادت من التجارة مع اللاتين و لا سيما مع البيزيين و الجنويين و الطسقانيين و البنادقة و كلهم إيطاليون و هذه الجمهوريات الأربع، بيزه و جنوه و طسقانه و البندقية التي كانت تقسم إيطاليا هي أول من اتجر مع الشام من أمم الغرب و جاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا و إنكلترا ثم عدلوا لبعدهم. و كان لهؤلاء الطليان و لتجار أمالفي و مارسيليا مكاتب تجارة في الإسكندرية و في المدن الساحلية و الداخلية في الشام، يقايضون بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب، و لما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلومترا من ساحل الشام في طرف جون الإسكندرونه و تعد من الشام. و جعل ملوك فرنسا لهم تاجرا إسرائيليا يذهب كل سنة إلى الشرق يتتاع منه حاصلات آسيا. و كثيرا ما كان اليهود سفراء في المفاوضات مع أمراء آسيا.

و ذكر ابن خرداذبه أن التجار اليهود الرادائية، و كانوا يتكلمون بالعربية و الفارسية و الرومية و الإفرنجية (الفرنسية) و الأندلسية (الإسبانية أو البرتغالية) و الصقلية (السلافية) يسافرون من المشرق إلى المغرب و من المغرب إلى خطط الشام، ج٤، ص: ٢٤٣

المشرق برا و بحرا، و يجلبون من الغرب الخدم و الجوارى و الغلمان و الديداج و جلود الخز و الفراء و السمور و السيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما «على ساحل مصر» إلى القلزم «البحر الأحمر» و إن شأوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية و يسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية «في حوران»، و أما تجار الروس و هم من جنس الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز و جلود الثعالب السود، و السيوف من أقصى صقلية «بلاد الروس» إلى البحر الرومي و الخارج منهم في البر يخرج من الأندلس أو من فرنجة، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقية «تونس» ثم إلى مصر ثم إلى الرمله ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد.

و كان يرتفع من فلسطين الزيت و القطين و الزبيب و الخروب و الملاحم و الصابون و الفوط و الجبن و القطن و التفاح و القريش و

المرايا و قدور القناديل و الإبر و النيل و التمور و الحبوب و الخرفان و العسل و شقاق المطارح و السّيح و الكاغد و البز و الأرز، و من قدس «حمص و حماة» الثياب المنيرة و البلعسية و الحبال، و من صور السكر و الخرز و الزجاج المخروط و المعمولات، و من مآب قلوب اللوز، و من دمشق المعصور و البلعيس و الديقاج و دهن البنفسج و الصفريّات و الكاغد و الجوز و القطين و الزبيب، و من حلب القطن و الثياب و الأشنان و المغرة، و من بعلبك الملاين. و اختصت حلب أيضا- كما قال ابن الشحنة- بالصابون الذى يجلب منها إلى ممالك الروم و العراق و ديار بكر و هو أفخر صابون، و يباع منه بحلب فى اليوم الواحد ما لا يباع فى غيرها فى الأشهر، و من خصائصها نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير و الصوف و اليزرى و القماش العجمى و أنواع الفراء من السمور و الوشق و الفنك و السنجاب و الثعلب و سائر الوبر و البضائع الهندية، فإذا حضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع فى يوم واحد و يقبض ثمنه ١٥٠. و ذكر ابن بطلان من أهل القرن الرابع من عجائب حلب أن فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة و إلى الآن ١٥٠. و كانت تجارة الشام فى هذا القرن و الذى يليه

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٤

زاهرة جدا، و قد قسم جعفر بن على الدمشقى التجار إلى ثلاثة أصناف و هم الخزان و الركاض و المجهز.

التجارة فى القرون الوسطى:

كانت مراكب بارى تسافر إلى موانى الشام قبل الحرب الصليبية و قد عقد أمراء سالرن و نابل و جايت و أمالفى فى سنة (٨٧٥ م) معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف و جمهورية بيزا معاهدة مؤرخة فى ١٥ صفر سنة (٥٦٩هـ - ١١٧٢ م) منح بها البيزانين عدة امتيازات خاصة بالتقاضى و المملكة.

و حصل الفلورنتيون (أهل فلورنسه) من قايتباى سلطان مصر و الشام على عدة امتيازات و كانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الأجنبية للأوربيين فى الشرق و كان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة و الواردة.

قال أحد كتاب الإنكليز: إن عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعى الوحيد على طول ذلك الساحل، و كانت مرسى السفن فى العصور الوسطى، و لما كثر اعتماد سكان الشام فى طعامهم على الأرز عظم شأن عكا، لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده. و كان الناس يقولون إذا أراد «باشا» عكا تضرب المجاعة أطنابها فى الشام. و لذلك صار امتلاك عكا ضروريا لكل فاتح يريد امتلاك القطر، فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام و كان اتصال أوربا بها أكثر من اتصالها بسواها.

كانت التجارة من أعظم العوامل فى الحروب الصليبية، و أكثر أمم أوربا انتفاعا منها الإيطاليون أهل جنوة و طشقانة و البندقية و بيزا، و هؤلاء كانت لهم قصور فى الشام تدل على غنى، و سفن الطليان هى أهم الأساطيل التجارية فى القرون الوسطى.

و اعتاد الأوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها، و ملك أزمة التجارة فى البحر مع الطليان الكاتالانيون و البروفانسيون و القبرسيون و الرودسيون، و أصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة و جبل طارق اليوم، و كانت قبرس تهدد شواطئ الشام و منافذ النيل.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٥

قال صالح بن يحيى: إن مراكب الإفرنج أخذت تتردد إلى بيروت بعد الحروب الصليبية بالمتاجر قليلا قليلا، و كانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم فى شونتين كانتا له إلى بيروت نقله بعد أخرى، و كان للقبارسه جماعة من التجار يسكنون فيها أى فى بيروت، و لهم خانات و حمامات و كنائس ثم بطل ذلك.

و تكاثر حضور مراكب طوائف الإفرنج و كانت ضرائب الواردات و الصادرات تؤخذ فى بيروت، و هى تبلغ جملة مستكثرة، و كان على باب الميناء دواوين و عامل و ناظر و مشارف و شادّ يوليهم نائب دمشق و المتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق. و ذكر لامنس

أنه في نحو سنة (١١٣٦ م) جاءت مراكب فرنسية عليها تجار إفرنجيون من مرسلية ثم أخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسا كمونيلية وارل تبعث سفنها، وبذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام، وكانت عكا المرفأ الأعظم بين الموانئ وقاعدة التجارة و مركز القناصل العاملين، ثم مرافئ صور و طرابلس و السويدية التي كانت تسمى ميناء مارسمعان ثم بيروت. و منذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر موانئ الشام، و كان تجار الإفرنج يستبضعون من ديارنا الحرير و القطن بكميات وافرة و الكتان و الخام و الأنسجة الكتانية و الحريرية، و كانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان و اشتهرت بآتيها الصينية و زجاجها الفاخر، و يقبل الأوربيون على حرير أنطاكية و زجاجها، و يتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور و طرابلس و غيرها من مدن الساحل، إلى غير ذلك من ضروب الثمار و العقاقير و الحشائش الطيبة و الأفويه العطرية، و كان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن و الشب و البهار، و خيرات الهند و العجم تندفق إليها. و مبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية. و قد أخذ تجار الإفرنج أنفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده يغدون و يروحون في هذا القطر، و الحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذى، و لا يعتدى على حقوقه، حتى اضطر الصليبيون أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في الأرض التي بقيت في أيديهم إلى آخر مدة الحرب مثل صور و عكا و أنطاكية لا ينال التجار منهم كبير

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٦

أذى، و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في أرضهم، و تجار النصارى أيضا يؤدون في أرض المسلمين على سلعهم. و قد تعقد المعاهدات مع ملوك الإفرنج و تذكر فيها أنواع المتاجر التي يحملونها إلى موانئ هذا القطر و منها الخشب و الحديد. و لم تكن جمهوريات إيطاليا في حرب الصليبيين دولا بحرية من الطراز الأول بل كانت منظمة بأحسن النظم الجمهورية، و مع هذا فكثيرا ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر إحداها بالتجارة في الشام، فكان الجنوبيون أعداء البنادقة، و كذلك كان الكتالانيون، و اضطر البروفانسيون أن يدخلوا تجارتهم إلى هذه الديار بواسطتهم، و هم يريدون أن يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس و أن تمر تجار ما وراء جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في موانئ إيطاليا، و تنقل على سفنهم و تستوفى عنها رسوما خاصة. و لما احتل الجنوبيون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق و بقیة الشام، و كانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون، فكان التجار الأوربيون إذا انتهوا إليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من ممالك مختلفة مثل البندقية و جنوة و فلورنسة و برشلونه و غيرها، فيبيعون و يتاعون، و كان اجتماعهم في خان برقوق و قد أقام بعض البنادقة في حماة و منها كانوا يتاعون القطن. و كان للأوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول و أول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة (١٣٨٤ م) و اسمه فرنسكو داندللو و كانت دمشق مستقر القناصل، إلا أن لا منس يقول:

إن أول ما ورد اسم القنصل في جملة النزلاء الجنوبية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر و دعوه أولا- بنائب القمص Vicomte, Vice - Comg ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن و عرف أصحابها بالقناصل و أطلق أولا على الإيطاليين، و بعد زمن طويل صار للفرنسيين قنصل.

التجارة في القرون الحديثة:

كانت حلب في هذا الدور من أول المدن التي اتجرت مع الطليان،

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٧

و قد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى و كان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة، و قد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي و البحر المتوسط. ثم انتشر فيها الفرنسيون و لكنهم اضطروا أن يغادروها للاضطرابات السياسية إلى أنطاكية، كما اضطرت تجار الإفرنج في دمشق إلى مبارحتها إلى

صيدا و بيروت و عكا. و فى سنة (١٥٠٧ م) عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي إلى موانئ الشام و لا سيما طرابلس و صيدا و تأخذ منها حاصلات و تجلب إليها بضائع.

و كثر عديد الإفرنج فى حلب أكثر من دمشق، لأنها أقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع أهلها و يقايضون محصولاتهم بمحصولاتها و محصولات الشرق، و لا-سيما الهند و فارس و العراق، و كانت فرنسا و البندقية أول الممالك الأوربية التى اتجرت مع حلب و عقدت معها الصلات التجارية و أقامت المكاتب، ثم جاء الإنكليز فى القرن السادس عشر و تلاهم الهولنديون، و قد تناسل بعض الإفرنج فى حلب و ارتاشوا و تأثلوا و عدوا كأنهم من أهلها، و كان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب و القطن.

و كان فى حلب و كلاء لتجار الهند و بلاد الكرج و الفرس و الأرمن و غيرهم، و للبنادقة بين أمم البحر المتوسط موقع ممتاز، و لئن أفقد حلب فتح الطريق البحرى إلى الهند الشرقية بعض مكانتها التجارية، فقد كانت فى القرنين السابع عشر و الثامن عشر زاهرة بتجارتها. و كان فى حلب سنة (١٧٧٥) ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوربية، و أكثر اعتماد الأوربيين على سماسرة من اليهود يتجرون بالصادر و الوارد، و كثر تجار الإنكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الأول (١٦١٣-١٦٢٥).

و نما عدد تجار الأوربيين فى عكا و صيدا و بيروت و لا سيما فى هذا الثغر، فأصبح على ما روى لامنس فى القرن الخامس عشر و لا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط. و كنت تشاهد فى بيروت مزيجا يصعب وصفه

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٨

من العمائم و الطرايش و الكوفيات الحرير و أكسية و برانس و قفاطين. و فى القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج أن تعمر ميناء اللاذقية ميينين للحكومة حسن مستقبلها، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح و قال: ربما أكون غدا فى جدة فلماذا أتخلى عن الموجود و أتطلب مستقبلا مجهولا.

و ممن كان لهم اليد الطولى فى تنشيط التجارة فى هذه الديار فخر الدين المعنى الثانى فى أوائل القرن الحادى عشر للهجرة. و كثيرا ما كانت مراكب الإفرنج تأتي لمشتري الحنطة إلى موانئ عكا و صور و الرملة و طنطورة و ربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية فى عكا نحو ١٥٠. و لقد توسع فخر الدين فى الامتيازات الأجنبية فسمح للفرنسيين أن يبنوا خانا عظيما فى صيدا، و لأهل فلورنسة أن يفتحوا قنصلية، فأصبحت صيدا و ميناؤها أوائل القرن السابع عشر أهم موانئ الشام.

و فى عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق إلى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام: و هى قصب الذهب. قبع. قرضية.

قرطاس. قوس. قبقاب. قرصيا. قمر الدين. قريشة. قنبريس. و نقل الغزى عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٧٢٣ (١١٣٦) أن حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا، فإن خاناتها التى لا تقل عن أربعين خانة لا تزال غاصة بالهنود و الفرس و الترك و الفرنج و غيرهم بحيث لا-تقوم بكفائتهم. قال: و من خصائصها التجارية وجود الحمام الذى يأتى تجارها بالأخبار من إسكندرونه بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب و حملة إلى إسكندرونه بأقفاص، فإذا طرأ خبر علقت البطاقة فى رقبة الطير و سرح، فيصير إلى حلب طالبا لفراخه.

و فى كتاب «الشام على عهد محمد على»: ما زالت حلب و دمشق المركزين العظيمين للتجارة فى الشام، و ما برحت حيفا و بيروت و طرابلس و أنطاكية و إسكندرونه هى الموانئ التى يكثُر اختلاف السفن الأوربية إليها، و هى المحطات الرئيسة لتجارة الشرق، فتأتى قوافل بغداد إلى دمشق و حلب حامله من العجم التباك و السجاد، و من غيرها اللؤلؤ و الأحجار الكريمة، و من الهند الطيب و العقاقير و الأفوايه، و فى عودتها تحمل جوخا و ثيابا من

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٤٩

عمل أوربة، و ألبسة حريرية من صنع دمشق و حلب، و بضائع منوعة و مصنوعات خشبية و صدفية و نحاسية، و بسوء السياسة المخالفة لما هو جار في أوربا، إذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجرى تحت اسم أوربي. و قبل أن يفتح إبراهيم باشا الشام كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة و نصفاً أو أربعة في المئة ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم، لأن الإفرنج لا يدفعون على الأكثر زيادة على أربعة في المئة من كل ما يطلب من المكوس و الضرائب، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ١٨ أو ٢٠ و ربما ٢١ في المئة. و قال:

إن عمال إبراهيم باشا كانوا يتجرون و يحتكرون أصنافاً من التجارة.

و لما قلّ الأمن في البحر على عهد نابليون و بسوء الإدارة العثمانية و بثورات الإنكشارية سنة (١٨١٤ و ١٨٢٦) و بزوال سنة (١٨٢٢) و ٢٧ و (٣٢) و وباء سنة (١٨٣٢) و طاعون سنة (١٨٣٧) خربت تجارة حلب و دمشق، و كثرت البضائع الإنكليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة تجيء من طريق ليفورنا في إيطاليا. و كانت الحاصلات الخام التي تعود إلى الشام معمولة، سبب خراب هذا القطر، مثل حرائر ليون التي أخذت تسحق حرائر دمشق و حلب، و بمنافسة حرائر ليون التي تقلد حرائر دمشق أحسن تقليد و تباع بأثمان بخسة، قضى على صنائع دمشق بعد أن كانت تعمل أكثر من ٤٠٠ ألف قطعة من الحرير و الثياب الحريرية المزوجة بالقطن. و كانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف و السلم، خراب الفلاح الشامى البائس، و كان كثير من تجار الأوربيين يستحسنون هذا النوع من التجارة، و منهم من كان يمقتها و قد يربح المتجر بها خمسة و عشرين في المئة، و يعدها صاحب الذمة غنبا، و كان يصل إلى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طناً و يخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن و الحرير و التبغ و الإسفنج و الفوة و الزيت و الصابون بمقدار وافر و السمسم و الكمون و العفص. و تجارة الواردات تبلغ ٦٧٠، ٣٦٦، ٤٤ قرشا منها نحو ١٥ مليوناً من مصر و تجارة الصادرات ٢٧٠، ٨٧٤، ٢٦ منها نحو ١٣ مليوناً لمصر، فكانت الشام تخسر مسانهاً نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائكك ذهب أو نقوداً، و هذا على عهد الحكومة

خطط الشام، ج٤، ص: ٢٥٠

المصرية. و بعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من الشام.

و لقد تضررت حلب و دمشق بفتح البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقيا سنة (١٤٩٧ م)، و كان أول من اكتشفه من البيض الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح، و تأذت تجارة حلب و دمشق بفتح الفرنسيين ترعة السويس سنة (١٨٦٨)، و كان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة أن انتقل كثير من تجار دمشق و حلب إلى بيروت و الإسكندرية و القاهرة و طنطا و إزمير و سلانيك و الإستانة و مانشستر و مارسيليا و ميلانو و غيرها من المدن الأوربية و الإفريقية و الآسيوية، و قد تحولت تجارة الصين و الهند إلى البحر، و بطل عمل القوافل التي كانت تغدو و تروح بين الشرق الأدنى و الأقصى، و قل عدد الذين يمرون بدمشق من الروم و غربي آسيا للذهاب إلى الحجاز، و أصبح معظمهم يركب البحر إلى البقاع الطاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في القفار و انحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة، و أصبحت لا تتعدى حدّ المستهلكات، و صار لها مواسم قلما تروج في غيرها، و لما انتظم سير السفن البخارية، و كثر اختلافها إلى موانئ الشام، و كانت رحلاتها من قبل متقطعة مختلفاً المواعيد، تجرأ الناس على الاتجار و تضاعفت الصلات التجارية بين الشام و الأصقاع الإفريقية.

يقول بعض الكتاب: إن التجارة البحرية لم تنقطع في البحر الرومي في القرن الأول للإسلام إلا بما كان يبدو من حركة الأسطول اليوناني، و لكن تجارة الشام أصيبت بالتأخر مع أوربا لما أصبح للشام منافس كالبحر التي كانت لقربها من الهند أكثر منافسة للشام. و ظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ثمانين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً و ذلك أن جماعة من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية و الصدفية إلى معرض فلادلفيا سنة (١٨٧٦ م) فربحوا كثيراً و لما عادوا كثر المقتفون لآثارهم من التجار و غيرهم من أهل الشام و بدأ الناس بالهجرة طلباً للربح، و كانت الهجرة مقصورة أولاً على سكان الجبال من لبنان و عامل و اللكام ثم تعدت

إلى سكان السهول، و كان المستأثر بها سكان القرى فتعدت إلى سكان المدن، و كان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعد من خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥١

جميع أهل الأديان من الشاميين، و لم يلبث نطاق الهجرة أن توسع، و ما نراه في اللبانيين الشرقي و الغربي، و ما إليهما من الجبال من الدور و القصور عمر أكثره بدراهم أميركا، و يقدر اليوم المهاجرون إلى أميركا الشمالية و الجنوبية و أستراليا و غيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء سبعمائة ألف مهاجر شامي.

و قد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجارى الاقتصادية في السلطنة العثمانية، ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنتدبه في إهمال الحركة الاقتصادية و إلقاء الجبل على الغارب. و قد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام، لينجوا من دعوى أوربا في حماية الأقلية و لكن بهجرتهم ضعفت التجارة، و كيف تنجح التجارة في أمه و الحكام هم التجار، و قد رأينا من ذلك أمثلة خلال الحرب العامة، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير و الصغير منهم يحتكرون معظم الحاجيات دع الكماليات، فكانت تراهم كلهم تجارا يؤخرون الأرزاق عن الجند في ساحة الحرب و يقطعون مواد الحياة عن الرعية، حتى يشحنوا بضائعهم و يغنموا فرصة ارتفاع أسعارها، فاعتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افتقروا بعد حين.

على أن بعض البلدان استفادت كثيرا من الحرب العامة و معظم المدن التي استفادت حلب و دمشق و بيروت و القدس. قال الغزى: إن التجارة في حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة و لذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة، و كان معظم هذه الزيادة في أيام الحرب العالمية فإن أرباح التجارة التي كانت في غضون جرت العدد الكبير من ذوى الصنائع اليدوية من صنائعهم إلى الاستزاق بالتجارة فنجحوا و ربحوا أرباحا طائلة، و نشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر. إلى أن قال: و في سنة (١٣٤١) بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لإغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعدودة من الكماليات و غلاء أجور النقل في السكة الحديدية و تلاعب الصيارفة و المحتكرين بالأوراق النقدية و النقود الذهبية إلى غير ذلك من الأسباب.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥٢

و من أعظم الفوائد التي نتجت للشاميين من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية و الإنكليزية، أن كان من هؤلاء المتعلمين و أكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب. و استأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الإسكندرية و طنطا و القاهرة و السودان و الإستانة و إزمير، و كل بلد في الأرض مهما بعدت الشقة إليه ترى فيه تجارا شاميين، و أنجح تجارهم في مصر و الأميركتين و أستراليا. و لنا تجار في العراق و الحجاز و فارس و الهند و يابان و جنوبي إفريقيا و أواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ إبراهيم:

و رجال الشام في كرة الأرض يبارون في المسير الغماما

ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما

يمتطون الخطوب في طلب العيش و يبرون للنضال سهاما

و من أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الأماكن المقدسة و المصانع التاريخية في فلسطين و بعلبك و تدمر و دمشق و غيرها و يقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الأكثر إلى المدن الوسطى و الشمالية و بأكثر من ذلك إلى فلسطين فقط، و الموسم الآخر موسم حجاج إفريقيا و آسيا و أوربا و كانوا يقدرون بخمسين ألف حاج، و الفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات البرية في السكة الحجازية، و لخص أجور البواخر في البحر. و موسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام و يتجرون و يبتاعون. أما موسم فلسطين فإن كثيرا من تجارها أصبح رزقهم موقوفا على ما يربحونه في موسم الزوار في القدس و بيت لحم و الخليل و الناصرة و غيرها، و بدأ الشرق العربي

يربح كثيرا من السياح الذين يختلفون إلى ذاك الصقع لزيارة جرش و عمان و البتراء و قصر المشتى و غيرها، كما تريح سورية و لبنان من القاصدين إلى زيارة بعلبك و تدمر و غيرها، و صار لموسم الاصطياف في لبنان الغربى و الشرقى مكانة اقتصادية ذات شأن كبير في تنشيط الصناعة و التجارة. و متى انتشر الأمن في القطر، و كثرت الخطوط الحديدية في البر، و السفن التجارية في البحر، و حمت الحكومة التجارة بقوانينها

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥٣

و أحكامها العادلة، و معاهداتها مع الأمم المجاورة، انتبه التجار إلى التجدد في متاجرهم. و لا نعد تاجرا من يحرق مخزنه أو ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة، أو يتلكأ في أداء الذمم التي عليه، أو يضارب في الأسواق فيؤذى الفقير. أو يعامل صاحب المعمل في الغرب بقليل من الذمة فيتلاعب في الأسعار و الصوافى، فإن هذا مما يؤخر المصادر عنا و الوارد علينا، و في كل ذلك ما يزيد الغبن و يورث الخسارة في العاجلة و الآجلة لا محالة.

و لقد ثبت في العهد الأخير، و خصوصا لما أخذ المسلمون يجارون مواطنيهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية، و يتقنون أصول التجارة على أساليب أمم الحضارة، و يتعرفون إلى أوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم، أن الغربيين يتعذر عليهم أن يتوسعوا بعد في الاتجار في القطر، و فتح بيوت تجارية على المثال الذى كان لهم و حدهم في القرن الماضى، و قطع أرزاق الشاميين في عقر دارهم. ذلك لأن التاجر الوطنى أقل من التاجر الغربى في مطالبه، يكتفى بالربح القليل، و يصبر في الأزمات، و هو في بلده يعرف ما يصلح له و يروج فيه، و نفقاته إجمالا أقل من نفقات الغربى.

و إذا تساوى الوطنى و الدخيل من كل وجه، فالوطنى يؤثر معاملة مواطنه لا محالة.

و إذا جرى التاجر العربى التاجر الغربى أو كاد، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة، و النفوذ في قاعدة العرض و الطلب، و بدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذى كان كامنا في نفسه، و ورثه مع الدم المتسلسل فيه من آباءه الأقدمين، عربا كانوا أو روما أو فينيقيين، و بذلك أصبح الرجاء معقودا بأن يستأثر الشاميون بتجارة ديارهم. فإن تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط و نظام، و ساعدتهم على ذلك قلة من يأتى من الغرب من أرباب الطبقات الأولى في التجارة، و كان التاجر المتوسط الحال بماله و معرفته منهم أقل حظا ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات، و إذ كان من البعيد على النوابع من كل صنف في الغرب أن يغشوا بلادنا- كان في ذلك كله النفع العظيم لنا في تجارتنا، و متى حللنا روح الشامى و ما انطوى عليه من مراعاة الشرف و الاحتفاظ بالثقة، و البعد عن التدليس

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥٤

و المؤالسة، و إرادة النصح في الجملة، كان التاجر كل التاجر، الذهاب في الأرض بجماع المفاخر، و باستقامة تاجرنا في معاملته، يدفع عن وطنه كثيرا من الغوائل الاجتماعية، و لا يهنا العيش و يطيب، إلا إذا قلّ توافد الغربى من الجنس الذى قال فيه حافظ:

يقتلنا بلا قودو لا دية و لا رهب

و يمشى نحو رايته فتحميه من العطب

التجارة و الاقتصاديات في العهد الحديث :

نشبت الحرب العامة سنة (١٩١٤) و لم تكن الشام على استعداد للدخول في غمارها، و لم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها، و ما لبثت الدولة العثمانية و البلاد الشامية التابعة لها أن دخلت في صفوف المحاربين إلى جانب الدولة الألمانية و حلفائها، فحصرت موانى الشام، و بدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجيا، و ذلك في أصناف الملابس كأنواع منسوجات القطن و الصوف على اختلاف أنواعها، أو فى المأكولات كأنواع السكر و القهوة و الأرز، أو فى سائر الحاجيات و الكماليات كالبتروول (الكاز) و الكحول (السيروتو)

و أنواع المواد القرطاسية و الزجاجية و الأصباغ و المواد الكيماوية على اختلاف أنواعها، و شعر الناس بالحاجة إلى الاقتصاد و التفكير في استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان.

و قد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة أيضا من المدن و القرى، بسبب النفير العام و التجنيد في جميع أصقاع الشام، و كان من تخلصوا من التجنيد الإجبارى هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكرى فدفَعوا بدلات نقدية مرات خلال أعوام الحرب. و كانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة في السنين الأخيرة، و أعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها.

و لم يلبث الضيق أن عمّ و النقد أن قلّ و خصوصا بعد أن وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائل النقل في البلاد مثل السكك الحديدية و دواب

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥٥

النقل و المركبات و السيارات، فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافا بينا في بلاد الشام القريب بعضها من الآخر، و ذلك بالنسبة للتشدد أو التساهل الذى كانت تبديه الإدارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع.

انقضت السنة الأولى للحرب فأصبحت دمشق مركزا للجيش الرابع الزاحف على ترعه السويس. و أنشأ يعقد البيوع العظيمة و الالتزامات الكبيرة سد لحاجات الجيش المذكور، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج، و أخذت إدارة الجيش تتساهل باستخدام المجندين في إدارات المتعهدين و الملتزمين، و نشطت الحركة التجارية و الصناعية في الشام. و لا ينكر أن الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التى لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه أو بواسطة الضرائب الحربية التى رأى أنها عقيمة لا تفي بالحاجة، و بعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التى غلت أسعارها و عزّ وجودها من بلاد نجد التى كانت تستورد بضائعها من الهند و فارس على أيسر وجه و طمأنينة، لأن أمير نجد عبد العزيز ابن سعود كان ماليا لإنكلترا لا يجد ضيقا و لا رهقا في استجلاب البضائع و مواد الغذاء على اختلاف أنواعها.

و لقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائل لسد حاجات البلاد و الجيش، و لإيجاد حركة تجارية جيدة كانت تدرّ ذهابا و هاجا على المتاجرين و المستوردين، كما أن كثيرا من التجار اتخذوا وسائل عديدة لاستجلاب بعض البضائع الألمانية و النمساوية بواسطة رجال الجيش و استخدام وسائلهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم، و بتبادل المنفعة بينهم، و بذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التى بدأت في السنين الأوليين من الحرب، و اغتنى كثير من التجار و العاملين و الوسطاء من رجال الإدارة و الجنديّة باستخدام هذه الوسائل في النقل و نقل أصناف التجارة، و البلاد محصورة لم يرد إليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة. و كثرت النقود الذهبية فى التعامل بما أنفق من إدارات الجيش، و ما ورد البلاد من طرق البر من البضائع، و ما كانت بريطانيا العظمى تنفقه فى أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية، حتى أصبحت البلاد فى أواخر سنى الحرب على أحسن حالات اليسر و الرخاء.

خطط الشام، ج ٤، ص: ٢٥٦

فارتفعت أسعار العقارات و المزارع، و شعر الناس بكثرة النقد الذهب فى أيديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقارا أو أرضا إلا بثمان فاحش، إلى أن دخلت الجيوش الإنكليزية و العربية هذا القطر تحمل معها الذهب و تنفقه بلا حساب، و يقدر ما أنفقه الجيش الإنكليزي فى سنة (١٩١٩) و الأشهر الأولى من سنة (١٩٢٠) فى أرض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية.

الورق النقدى و العوامل فى تدنى الاقتصاديات:

و حدث خلال الحرب أن اتجر كثير من المالىين بأوراق النقد الدولى على اختلاف أنواعه، و أصبح بعضهم يستورده من طريق ألمانيا و النمسا و سويسرا إلى الإستانة، و منها توزع فى أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوى و المارك الألماني و الشلن الإنكليزي و

الفرنك الفرنسي و الروبل الروسي و أوراق النقد التركية و الأسهم اليابانية و العقارية المصرية و الأرجنتينية على اختلاف أنواعها، و أصبحت تباع بقيم تنحط أحيانا عن قيمتها الحقيقية ٢٥ إلى ٥٠ في المئة. و تدنى سعر الروبل الروسي إلى ١٠ و ١٥ في المئة و كذلك المارك و الكرون، فأقبل عدد كبير من التجار و أرباب الأملاك حتى و النساء على مقتناها و ذلك على أمل أن تعود إلى أسعارها الأولى بعد أن تضع الحرب العامة أوزارها. و يقدر الخيرون أن الشام أدت قيمة ما ادخرته من أوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الأولى، و بذلك يربحون ربها عظيماً من أيسر طريق.

ثم أعلنت الهدنة عام (١٩١٨) و بدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التي اشتدت حاجتها إليها من البلاد المصرية أولاً ثم عقدوا المبيعات المختلفة من أوروبا بأسعار عالية، و قد اضطر أرباب المصانع و المعامل إلى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة، و منها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة، و غلاء المواد الأولية للصناعات المنوعة، و ارتفاع أسعار الفحم و أجور المواصلات، و راح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة إلى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة و المغزولة على كثرة أنواعها، و من الأصناف

الجزء الخامس

التاريخ المدني

[الجيش]

جيوش الأشوريين و الفراعنة و العبرانيين:

لم تغلب القبائل الأولى التي كانت تسكن الشام على أمرها، إلا يوم جاءها من آشور جيش منظم في الجملة أغار عليها و استصفي أرضها، و إذا عرفنا أن الأشوريين عرفوا بسفك الدماء، و أنهم طالما أسروا شعوباً برمتها، و أنهم يعتقدون في ملوكهم الخلافة عن الله في الأرض كما كان الروس و العثمانيون يقولون بذلك إلى عهد قريب - ندرك مبلغهم من الطاعة، و أن الأرواح كانت نهب صاحب الشأن، ينهبها كما يشاء، و يصرفها في السيل التي يراها. و الدولة التي تستطيع أن تأسر أمم بأسرها، تجيش جيشاً يستमित في قيام أمرها، و يطيع قواده طاعة عمياء.

كان الأشوريون أو الكلدان يغزون في فصل الربيع من كل عام، و سلاحهم الرمح و السيف، و الترس، و الدرع، و القوس و النشاب، و لهم من أدوات النقل المركبات و العربات، و اخترعوا آلات لافتح المدن و القلاع.

يقسمون جيوشهم ثلاث فرق، فرقة المشاة و هم القواسم، و فرقة الفرسان و هم الرماح، و فرقة راكبي العربات الحربية و هم حاملو السيوف و الأتراس.

و كانت الأوامر تصدر إلى القواد من الملك مباشرة، و تبلغ إلى من يلزم على نظام غريب، و لم يؤثر أن غلب الجيش الأشوري في وقعة واحدة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤

و من هذا الجيش ذقت الشام أيام استيلاء الأشوريين عليها القهر و الذل.

و كان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض أرجاء القطر زمناً يجندون أحيانا من الشاميين، و لكننا لا نعرف كيف كانوا يجندون، و قد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم في المتحف المصري.

و كانوا إلى العز أيام تماسك جيوشهم، و إلى الذل إذا ضعف نظامهم في جنديتهم، مثل أيام ملوك الرعاة المعروفين بالهيكسوس و هم العرب أو العمالقة.

و اشتهر العبرانيون أولاً أنهم أمه حربية، و كان لكل سبط من أسباطهم حامية أو جيش صغير يدفع به عدوه، و قد لا يكون من الأسباط الأخرى.

و لذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب، فكان العبراني أسدا على نفسه و على أبناء جنسه، و نعامه يوم يوافيه الغريب، يؤثر أن يرأم للذلة، على أن يرخص روحه في الذود عن حماه. و كان بقاء الشعب الإسرائيلي في التيه على عهد موسى الكليم سنين طويلة من الحكم التي قصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين، و تربية الشبان على الأخلاق الحربية، فتجدد شباب هذه الأمة بهذه الرحلة الطويلة. و لما جاءت جيوش بخت نصر الفارسي و أدريانوس الروماني إلى فلسطين أذقت أبناء إسرائيل الويلات و لم يغن عنهم ما جيشوه من الجيوش، و لا ما كتبوه من كتائب.

جيش اليونان و الرومان:

كانت جيوش الأمم القديمة كما هو الحال عند بعض الأمم الحديثة و لا سيما المستعمرة أخلاطا من الشعوب و أجيالا من الناس. و الأمة التي يكون جيشها من عنصر واحد أو سواده الأعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر، و يكون نظامها أتم و تحمّسها في النيل من العدو أكثر، و ما نظن أن الجيش الذي جاء به الإسكندر المقدوني إلى هذه الديار و هو لا يتجاوز الثلاثين ألف راجل و أربعة آلاف و خمسمائة فارس، إلا مؤلفا من عنصر واحد، و هو الجيش الذي غلب الفرس على كثرة جيوشهم و قضى على دولتهم و سلطانهم و فتح الشرق القريب و الأوسط.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥

و كان جيش الإسكندر أحسن جيش عهد في اليونان، و يتألف الجحفل اليوناني من ١٦ ألفا من الرجال مصفوفين ألوا ألوا ست عشرة صفا يحمل كل واحد منها رمحا طوله ست عشرة أمتار، و كان المقدونيون لا يسيرون في ساحة الوغى إلى جهة العدو، بل يقفون و لا حراك بهم، و يضربون عدوهم برماحهم من كل جانب، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الأولى، بحيث كان الجيش يشبه حيوانا عظيما قد انتصب و عليه الحديد، و العدو يداهم فيتحطم، و الجيش مؤلف على الأغلب من خيار فتیان الأشراف. و اشتهرت الجيوش الرومانية بشدتها و حسن نظامها، و ما نظن رومية إلا أنها كانت تجند من أبناء هذه الديار كثيرا، لأن الشام أنبغت عدة رجال غدوا أباطرة و قوادا في رومية، فيستحيل ألا يشترك أبناؤها في جنديتها، و ألا تكون منهم الكتائب المنظمة و المتطوعة أو المستأجرة على شروط معينة، خصوصا و الشام كانت ولاية رومانية. و كان يقضى على كل من يدخل الجيش الروماني أن يكون وطنيا رومانيا و أن يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح و يأكل و يلبس، و يعفى الفقراء من هذه الخدمة.

و كان من له حق التجند تبعا لقائده من سن السابعة عشرة إلى السادسة و الأربعين، و كان كل فرد في رومية كما كان في المدن الرومانية و طنيا و جنديا معا، و متى احتاجت الدولة إلى الجند يصدر القنصل أمره إلى جميع الوطنيين فيأتون و يحلفون يمين الإخلاص و الطاعة للقائد، و يتعهدون أن يقاتلوا دون أعلامهم، و يحق للقائد أن يقتل جنديه أو يبقى عليه، فلا يستطيع جندي أن يفر من الزحف أو يترشح عن محله إلا بأمر قائده، و سلاحهم الرماح و السيوف و يستعملون الدروع و الخوذ و الأتراس و يمرنون أبدا جنودهم في إنشاء الطرق و الجسور و المجاري، إذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه أو متاريس يقيمونها.

الجيش العربي مع الرومي:

فتح الجيش الروماني أعظم مملكة في العصور السالفة، أيام كانت قوته

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦

تامة، و رابطته متينة، و قيادته موحدة، فلما ضعفت مميزاته، انحلت المملكة و انقسمت إلى مملكتين: مملكة الروم الشرقية و عاصمتها

القسطنطينية، و مملكة الروم الغربية و عاصمتها رومية. و كان نصيب هذا القطر أن يقع في حصّة المملكة الشرقية في القسمة. و هذه المملكة هي التي حاربتها جيوش العرب لما جاءت لفتح الشام.

و كان الجيش الرومي الذي قاتل العرب على اليرموك و في دمشق و فحل و أجنادين و قيسارية و بيسان و قنسرين و إيلياء مؤلفا من الروم و من العرب المنتصرة و من الأرمن، و جمهرته الروم، و إذ كان جيشا مرتجلا لم يدرب زمتا و كان جيش العرب روحا واحدا، كتبت له الغلبة على قتلته و كثرة عدد أعدائه و عددهم، فنال الجيش العربي من الروم، و إن كانوا لأول أمرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم، و لما جاءتهم العرب كان أمرهم قد انحلّ، و ميزاتهم قد ضعفت، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المتفسخة، و وقعتهم على الواقوصة في اليرموك مع العرب من أدهش أمارات الضعف و الغفلة.

كان الجيش العربي مشهورا بنظامه و طاعته لقواده، و مهارة هؤلاء و حنكتهم، و كانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم، و لكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصي يبلغ طوله ألفي كيلومتر، و منه من أقل و منه من أكثر، و إذا فرضنا أن مدينة الرسول كانت أس الحركات الحربية، و أن العرب كانوا قد فتحوا الحجاز كله يوم جاءوا لفتح الشام، فجعلوا معسكرهم في أقصى حدودها الشمالية، فخط الرجعة على كل حال لا يقل عن بضع مئات من الكيلومترات، يمر في سباسب و بواد لا ماء في أكثرها و لا كلاً، و كيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندي حصنا قائما بالإيمان، معمورا بالطاعة للسلطان؟

كان الجيش الذي فتح الشام مخفا مقلّا من كل شيء، مقلّا من الزاد، مقلّا من السلاح، مقلّا من الظهر، و الخيول قليلة فيه و الإبل أكثر، و الإبل تصبر على العطش أياما، أما الجندي العربي فكان يصبر على الجوع و العطش معا. قال جويدي: تعلمت العرب صناعة الحرب من الفرس و الروم و كان ذلك سببا لدخول ألفاظ رومية و فارسية كثيرة في لغتهم.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧

و لما فتحت الشام قسمت خمسة أجناد أي خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الأيام. فسميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيها، و كان الجنود أولا من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالإسلام من جميع الشعوب المغلوبة، و كان اليمانيون أكثرية الجيش الشامي، و عليهم جلّ اعتماد رأس بني أمية في الشام. ذكروا أن سفيان بن عوف كان اتخذ من كل جند من أجناد الشام رجلا أهل فروسية و نجدة و عفاف و سياسة و حروب و كانوا عدة له قد عرفهم و عرفوا به.

بعض قوانين الجيش العربي:

و من الجيش ما كان تحت الطلب في كل ساعة، و منه ما يجند أي يجمع في أيام قلائل حين الحاجة، و الأعطيات للجنود دارة في كل شهر، و لهم معظم المغانم في الحروب، يتقاسمونها مع قوادهم بحسب بلانهم و رتبهم و درجاتهم، و للجنود مصطلحات معلومة و لهم أمراء و قواد، يعرّفون عليهم العرفاء و ينقبون عليهم النقباء، لتعرف من عرفائهم و نقبائهم أحوالهم كما قال الماوردي، و لكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين و بالاجتماع متظافرين، و للأمير «أن يتصفح الجيش (أي يستعرضه و يفتشه) و من فيه ليخرج من كان فيه تخذيل للمجاهدين و إرجاف للمسلمين أو عين لهم للمشركين. و إن احتاج أمير المؤمنين إلى جند و كتب إلى من و لاه ناحية من بلاده بإشخاصهم إليه أو إلى أي ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أن ينفذ أمره و لا يخالفه و لا يقصر في شيء كتب به إليه».

و أوجبوا على أمير الجيش في سياسته عشرة أشياء: أحدها حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم، و ذلك بأن يتبع المكامن و يحوّل سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم و رجالهم، ليسكنوا في وقت الدعة و يأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة. و الثاني أن يتخيّر لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، و ذلك أن يكون أوطأ الأرض مكانا، و أكثرها مرعى و ماء، و أحرسها أكنافا و أطرافا ليكون أعون لهم على المنازلة، و أقوى لهم على

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨

المرابطة. و الثالث إعداد ما يحتاج الجيش إليه من زاد و علوفة، تفرق عليهم في وقت الحاجة حتى تسكن نفوسهم إلى مادة يستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب أوفر، و على منازلة العدو أقدر. و الرابع أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها و يتصفح أحوالها حتى يخبرها فيسلم من مكره، و يلتمس الغرة في الهجوم عليه. و الخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب و التعويل في كل جهة على من يراه كفؤا لها. و يتفقد الصفوف من الخلل فيها، و يراعى كل جهة يميل العدو إليها بمدد يكون عوناً لها. و السادس أن يقوى نفوسهم بما يشعرهم من الظفر، و يخيل لهم من أسباب النصر، ليقبل العدو في أعينهم فيكون عليه أجراً و بالجرأة يتسهل الظفر. و السابع أن يعد أهل الصبر و البلاء منهم بثواب الله لو كانوا من أهل الآخرة، و بالجزاء و النفل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا. و الثامن أن يشاور ذوى الرأي فيما أعضل، و يرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل، ليأمن الخطأ و يسلم من الزلل.

و التاسع أن يأخذ جيشه بما أوجه الله تعالى من حقوقه، و أمر به من حدوده، حتى لا يكون بينهم تجوز في دين، و لا تحيف في حق. و العاشر أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو و صدق الجهاد. و لهم في هذا الباب قوانين مهمة لا- تقل في حفظ رابطة الجيش عن كثير من قوانين الجندية في الحرب و السلم في هذا العهد الحديث، منها أنه لا يجوز إذا نقض العدو عهداً أن يقتل ما في أيدي المسلمين من رهائنهم. فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية و في يده رهائن فامتنع المسلمون جميعاً من قتلهم و خلوا سبيلهم، و قالوا: وفاء بغدر، خير من غدر بغدر. و منها أنه يجوز لأمير الجيش في حصار العدو أن ينصب عليهم العرادات و المنجنيقات و أن يهدم عليهم منازلهم، و أن يضع عليهم البيات و التحريق. و إذا رأى في قطع نخلهم و شجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوة أو يدخلوا في السلم صلحاً فعل، و لا يفعل إن لم يرفيه صلاحاً. و ذكر ابن خلدون أن الحرب أول الإسلام كانت زحفاً كلها، و الزحف أن تمشى الفئتان المتقاتلتان كل فئة مشياً رويداً إلى الفئة الأخرى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩

قبل التدانى للضراب، و هى مزاحف أهل الحرب، و ربما استجنت الرجاله بجثتها، و تراخفت من قعود، إلى أن يعرض لها الضراب أو الطعان. و كان العرب إنما يعرفون الكر و الفر حملهم على إبداله أمران أول الإسلام، أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم مثل قتالهم، الثانى أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر، و لما رسخ فيهم من الإيمان، و الزحف إلى الاستماتة أقرب. و أول من أبطل الصف في الحروب و صار إلى التعبية كراديس مروان بن الحكم، أبطل الصف فتنوسى قتال الزحف. و زعموا أن امرأة قالت لولدها: إذا رأيت العين العين فدغرا و لا صفا، أى ادغروا عليهم أى احملا و لا تصفوا صفا. و كان قواد الجيوش يرسمون الخطط الحربية بحسب قواعد لهم قديمة، أو يستنبطونها من الحال و الموقع، كما فعل على بن أبى طالب يوم صفين فدعا زياد بن النضر و شريح بن هانئ فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، و قال: ليس كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه، فإن جمعتكما حرب فانت يا زياد الأمير، و اعلم أن مقدمة القوم عيونهم، و عيون المقدمة طلائعهم، فإياكما أن تسأما عن توجيه الطلائع و لا- تسيرا بالكتائب و القبائل من لدن مسيركما إلى نزولكما إلا بتعبية و حذر، و إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم فى أشرف المواضع، ليكن ذلك لكم حصناً حصيناً، و إذا غشاكم الليل فحفوا معسكركم بالرماح و الترس، و ليلىهم الرماء، و ما أقمتم فكذلك فكونوا، لئلا يصاب منكم غرة، و احرسا معسكركما بأنفسكما و لا تدوقا نوماً إلا غرارا و مضمضه، و ليكن عندى خير كما فإنى - و لا شىء إلا ما شاء الله - حيث السير فى أثركما، و لا تقاتلا حتى تبدءا أو يأتكما أمرى إن شاء الله.

و لقد كان للجيش ثكنات لإيواء الجند، قال ابن حوقل: ليس من مدينة عظيمة إلا و بها دار ينزلها غزاة تلك البلدة، و يرابطون بها إذا وردوها، و تكثر لديهم الصلات، و ترد عليهم الأموال و الصدقات العظيمة، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه، و أرباب النعم يعاونونه و ينفذونه، متطوعين متبرعين، و لم يكن فى ناحية رئيس و لا نفيس، إلا و له عليها وقف من

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠

ضبعة ذات مزارع و غلات، أو مسقف من فنادق اه. و لقد جعل بعض الأغنياء دأبهم إذا اجتازت بهم الجيوش أن يقروها و يبروها، و من رجال بنى أمية من جعل ذلك ديدنه، و أهل الخير على اختلاف طبقاتهم يتصدقون على الجيش.

و اشترط العرب على أهل الذمّة أن يؤووا جندهم ثلاثة أيام على الأغلب و يطعموهم من طعامهم، عناية من الفاتح بجنوده، و حتى لا تتبرم الرعية بنزولهم عليهم إن لم يكن لهم حق النزول. و كانوا لأول أمرهم يختارون النزول فى الخيام و المضارب، فإذا كلب الشتاء ينزلون فى المدن و القرى، و يأوون إلى دور الروم الذين رحلوا بقدوم الفاتحين، و أول من أنزل الجند فى بيوت غيرهم الحجاج، أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة.

و كان الأمويون فى بعض أدوارهم يجندون الشبان و يجردونهم ليعرفوا عاهاتهم و حالتهم من الصحة. و فى الأغاني أن الحجاج ضرب البعث على المحتملين و من أنبت من الصبيان، فكانت المرأة تجيء إلى ابنها و قد جرد فتضمه إليها و تقول له: بأبى، جزعا عليه، فسمى ذلك الجيش جيش بأبى.

و قد أحضر ابن عبدل فوجد أعرج فأعفى عنه فقال بذلك:

لعمري لقد جزدتنى فوجدتنى كثير العيوب سىء المتجرد

فأعفيتنى لما رأيت زمانتى و وفقت منى للقضاء المسدد

و كان غرامهم بالخييل المطهمة يدربونها على الطراد و يربونها و يتعهدونها، و من ملوكهم من يستكثر منها جدا لتكون معدة ليوم الشدة. روى ابن السائب الكلبي أن هشام بن عبد الملك قال يوما لقوامه على خيله: كم أكثر ما ضمت حلبة من الخيل فى الجاهلية و الإسلام، قالوا: ألف فرس و قيل ألفان. فأمر أن يؤذن بالناس بحلبة تضم أربعة آلاف فرس فقيل له: يا أمير المؤمنين يحطم بعضها بعضا فلا يتسع لها طريق. قال: نطلقها و نتوكل على الله و الله الصانع، فجعل الغاية خمسين و مائتى غلوة و القصب مائة و القوس ستة أسهم، و قاد إليه الناس من كل أوب، ثم برز هشام إلى دهناء الرصافة قبيل الحلبة بأيام فأصلح طريقا واسعا لا يضيق بها، فأرسلت يوم الحلبة بين يديه و هو ينظر إليها تدور حتى ترجع و جعل الناس يتراءونها- نقله ياقوت.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١

تعبية الجيش العربى:

و ذكر بعض العارفين من علماء العرب أن أكثر من وضع شيئا فى تعبئة الحروب جعل أعداد أصحاب السلاح ٣٨٤، ١٦ و جعل جيش العزل نصف هذا العدد، و جيش الفرسان نصف جيش العزل. و ذلك أن هذا العدد ينقسم بقسمين إلى أن ينتهى إلى الواحد، و إذا جعلنا الصف المتقاطر ستة عشر رجلا يجب أن يكون فى هذا العدد من الصفوف المتقاطرة ألف صف و أربعة و عشرون صفا. و هذه الصفوف تنقسم إلى أنواع، فكل ستة عشر تسمى صفا، و كل صفين من هذه الصفوف المتقاطرة تسمى عصبه، و عدد من فيها من الرجال اثنان و ثلاثون رجلا، و المقدم عليهم يسمى صاحب العصبه، و كل أربعة صفوف متقاطرة تسمى مقنبا، و الذى يرأسه يدعى صاحب المقنبا، و عدد من فيها من الرجال أربعة و ستون رجلا، و كل مقنبين يسميان كردوسا، و عدد من فيه من الرجال مائة و ثمانية و عشرون رجلا من الصفوف المتقاطرة ثمانية، و المقدم عليها يسمى صاحب المائة و يدعى رئيس الكردوس، و كل كردوسين يسميان جحفلا، و يسميان أيضا فئه، و عدد من فيها من الصفوف المتقاطرة ستة عشر صفا، و من الرجال مائتان و ستة و خمسون رجلا، و المقدم عليهم رئيس الفئه أو الجحفل، و كل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال مختارين و منهم صاحب الراية و صاحب الساقه و صاحب البوق و الخادم.

قال: و الذى أختاره أن يكون غلمانة خلفه، يرتبون كترتيب الصفوف المتقاطرة حتى لا يخرجوا عن الصفوف، و شكل الجحفل مربعا

كرقعة الشطرنج ثمانية في ثمانية، وهذا ستة عشر طولاً وستة عشر عرضاً. وكل جحفلين يدعيان كوكبة، وعدد من فيها من الرجال خمسمائة واثنا عشر رجلاً، ومن الصفوف المتقاطرة اثنان وثلان صفاء، ويسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة، وكل كوكبتين زمرة، وعدد من فيها من الرجال ألف وأربعة وعشرون رجلاً، ومن الصفوف المتقاطرة أربعة وستون صفاء ويسمى صاحبها صاحب الزمرة، وكل زميرتين طائفة، وعدد من فيها

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢

من الرجال ألفان وثمانية وأربعون رجلاً، والمقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة، فيها من الصفوف المتقاطرة مائة صف وثمانية وعشرون صفاء، ومن الناس من يسمى الطائفة الجماعة التامة، ويسمى المتولى عليها رئيس الجماعة التامة، وكل طائفتين يسميان جيشاً وعدد من فيه من الرجال أربعة آلاف وستة وتسعون رجلاً، وفيه من الصفوف المتقاطرة مائتا صف وستة وخمسون صفاء، والمتولى لأمره يدعى رئيس الجيش. وبعض الناس يسميه عسكرياً ويسمى المتولى عليها قائد الجيش. وكل جيشين يدعيان خميساً، وعدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل ومائة واثان وتسعون رجلاً، ومن الصفوف المتقاطرة خمسمائة صف واثنا عشر صفاء، ومن الجيش طائفة ومنهم من يسميه قافلة، والمتولى عليه يدعى رئيس القافلة، وكل خميسين يدعيان العسكر الأعظم، وفيه من الصفوف المتقاطرة ألف صف وأربعة وعشرون صفاء، ومن الرجال ستة عشر ألفاً وثلثمائة وأربعة وثمانون رجلاً وهو العدد الأول، فيصير مجموع العسكر قافلتين وهما أربعة جيوش والأربعة جيوش اثنان وثلثون كوكبة وهي أربعة وستون جحفاً، وذلك مائة وثمانية وعشرون كردوساً وهي مائتان وستة وخمسون مقبناً وذلك الجمع خمسمائة واثنا عشرة عصبه وعدد ذلك من الصفوف ما تقدم.

شدة الأمويين ومثال من أوامره:

و كان الأمويون من أشد الدول في الشام على جنودهم، وهم في أحسن جند، لأن الشاميين عرفوا بطاعة السلطان من عامة أهل البلدان، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة، وإن لم يخل كل زمن من قوالين بالحق، ناقمين على القائم بالأمر، داعين إلى مناقشته. قالوا: وإنما وريت زناد معاوية بأهل الشام، لأنه كان في أطوع جند منهم. وكان على بن أبي طالب في أعصى جند من أهل العراق على الضد. والطاعة أول خطئة يسلكها الجندى، وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت أعلام الأمويين في الصين من الشرق،

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣

وفي الأندلس من الغرب وما بينهما من الأقطار والأمصار، وكان الأمويون إذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرّمونها برجل قوى الشكيمة فيرد جماحها، ويجمع على الطاعة قلوبها، كما فعل زياد والحجاج بالعراق، ولو لا شدتهما لخرج ذاك القطر عن طاعة بني أمية.

شكا عبد الملك بن مروان إلى روح بن زنباع انحلال عسكره، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقال له: إن في شرطتي رجلاً لو قلّمه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله، يقال له الحجاج بن يوسف. قال: فإننا قد قلّدناه ذلك. فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف عليهم يوماً وقد أرحل الناس وهم على الطعام يأكلون، فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم في العسكر، وأمر بفساطيط روح فأحرق بالنار.

فدخل روح على عبد الملك باكياً، وشكا مما أتاه الحجاج مع رجاله فقال له

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤

الخليفة: عليّ به. فلما دخل عليه قال له: ما حملك على ما فعلت. قال:

أنا ما فعلت، قال: ومن فعل؟ قال: أنت فعلت، إنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض

الفسطاط فسطاطين، و عوض الغلام غلامين، فلا يكسرنى فيما قدمنى له، فأخلف لروح ما ذهب منه. و لما استقرت البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير فجعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه فقال له الحجاج ابن يوسف: سلطنى عليهم فوالله لأخرجنهم معك. قال له: قد سلطتك عليهم. فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا.

و من رساله لعبد الحميد الكاتب على لسان مروان إلى ولى عهده عبد الله ابن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجى و فيها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمويين قال: «إذا كنت من عدوك على مسافة دانية و سنن لقاء مختصر، و كان من عسكريك مقتربا، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة، و حماة فتنته، فتأهب أهبة المناجزة، و أعدّ إعداد الحذر، و كتب خيولك، و عبّ جنودك، و إياك و المسير إلا مقدمه و ميمنه، و ميسره و ساقه، قد شهروا بالأسلحة، و نشروا البنود و الأعلام، و عرف جنديك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم، قد أخذوا أهبة القتال، و استعدوا للقاء، ملحين إلى مواقفهم، عارفين بمواضعهم من مسيرهم و معسكرهم، و ليكن ترجلهم و تنزلهم على راياتهم و أعلامهم و مراكزهم، و عرّف كل قائد و أصحابه موقعهم من الميمنه و الميسره و القلب و الساقه و الطليعه، لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له، و لا متهاونين بما أهبت بهم إليه، حتى تكون عساكرهم فى كل منهل تصل إليه، و مسافة تختارها، كأنه عسكر واحد فى اجتماعها على العدة، و أخذها بالحزم، و مسيرها على راياتها، و نزولها على مراكزها، و معرفتها بمواضعها، إن أضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى و من صاحبها، و فى أى المحل حلوله منها، فردت إليه هداية و معرفة و نسبة قيادة صاحبها، فإن تقدّمك بذلك، و إحكامك له، اطراح على جنديك مؤونة الطلب، و عناء المعرفة، و ابتغاء الضالة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥

«ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكريك فى نفسك صرامة و نفاذا، و رضا فى العامة و إنصافا من نفسه للرعية، و أخذنا بالحق فى المعدلة، مستشعرا تقوى الله و طاعته، أخذنا بهديك و أدبك، واقفا عند أمرك و نهيك، معترما على مناصحتك و تزيينك، نظيرا لك فى الحال، و شبيها بك فى الشرف، و عديلا فى الموضع، و مقاربا فى الصيت، ثم أكثف معه الجمع، و أيدته بالقوة، و قوّه بالظهر، و أعنه بالأموال، و اغمره بالسلاح، و مره بالعطف على ذوى الضعف من جنديك، و من رخفت به دابته، و أصابته نكبة من مرض. أو رجله أو آفه. من غير أن تأذن لأحد منهم فى التنحى عن عسكريه، أو التخلف بعد ترحيله، إلا المجهود أو المطروق بأفه. ثم تقدم إليه محذرا، و مره زاجرا، و انه مغلظا بالشدة على من مرّ به منصرفا عن معسكرك من جنديك بغير جوازك، شادا لهم أسرا، و موقرهم حديدا.

و معاقبهم موجعا أو موجههم إليك فتنهكهم عقوبة، و تجعلهم لغيرهم من جنديك عظة ...

«إجعل خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك، جليدا ماضيا، عفيفا صارما، شهم الرأى، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مداهن فى عقوبة، و لا مهين فى قوة. فى خمسين فارسا من خيلك، تحشر إليك جنديك، و يلحق بك من يتخلف عنك، بعد الإبلاغ فى عقوبتهم و التهك لهم و التنكيل بهم ...

ليكن رحيلك إبان واحد، و وقتا معلوما. لتخف المؤنة بذلك على جنديك.

و يعلموا أوان رحيلهم. فيقوموا فيما يريدون من معالجة أطمعتهم، و إعلاف دوابهم، و تسكن أفئدتهم إلى الوقت الذى وقفوا عليه، و يطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل. و متى يكون رحيلك مختلفا تعظم المؤنة عليك و على جنديك، و يخلوا بمراكزهم، و لا يزال ذوو السفه و التزق يترحلون بالإرجاف، و يتزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأى بنوم و لا طمأنينة.

«إياك أن تنادى برحيل من منزل تكون فيه. حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك. أخذنا بفوهة جنبتيه بأسلحتهم، عدة لأمر إن حضر. و مفاجأة من طليعة العدو إن أراد نهزة، أو لمحت عندكم غرة، ثم مر الناس بالرحيل و خيلك واقفة، و أهبتك معدة، و

جنتك واقية،

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦

حتى إذا استقلتم من معسكركم، و توجهتم من منزلكم، سرتم على تعيبتكم بسكون ريح، و هدو جملة و حسن دعة ... «إياك أن يكون منزلك إلا في خندق أو حصن تأمن به بيات عدوك، و تستنيم فيه إلى الحزم من مكيدته، إذا وضعت الأثقال، و خططت أبنية أهل العسكر لم يمد خباء، و لم ينتصب بناء، حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الأرض بقدر أصحابه فيحتفروه عليهم، و يبنون بعد ذلك خنادق الحسك، طارحين لها دون أشجار الرماح، و نصب الترسه. لها بابان قد و كلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك في مائة رجل من أصحابه.

فإذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان أهلا لذلك المركز ... و إياك أن يشهروا سيفا يتجالدون به، و تقدم إليهم فلا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع من طرقهم إلا- بالرمح مسندين لها إلى صدورهم، و الشباب راشقين به و جوههم، قد ألبدوا بالترسه، و استجنوا بالبيض، و ألقوا عليهم سوابغ الدروع، و جباب الحشو، فإن صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى، كبر أهل تلك الناحية الأولى و بقية العسكر سكوت، و الناحية التي صدر عنها العدو لازمة لمراكزها، فعلت في تقويتهم و إمدادهم بمثل صنيعك ياخوانهم. و إياك أن تخمد نار رواقك، و إذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعرا لها، و أوقدها حطبا جزلا، يعرف بها أهل العسكر مكانك و موضع رواقك، و يسكن نافر قلوبهم، و يقوى واهن قوتهم، و يشد منخزل ظهورهم، و لا يرجفون فيك بالظنون، و يجيلون لك آراء السوء.

و ذلك من فعلك رد عدوك بغيظه، و لم يستقل منك بظفر، و لم يبلغ من نكايتك سرورا إن شاء الله اه».

هذا و قد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت في العهد الأموي تخرج جندا لغزو الصوائف و الشواتي أي حروب الصيف و الشتاء الموجهة إلى الروم. و إن كانوا في جهادهم على الأكثر لا فرق عندهم في الفصول يصيفون و يشتون و يرتعون و يخرفون. ذكر المؤرخون أن المأمون أقطع أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام و مصر و فرض على دمشق و حمص و الأردن ٤٠٠٠ جندي لغزو الصائفة. و ذكر

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧

قدامة أن راتب مغازي الصوائف و الشواتي في البر و البحر في السنة على التقريب مائتا ألف دينار. و على المبالغة ثلاثمائة ألف دينار. و كان ارتفاع الثغور الشامية- أي طرطوس و أذنة و المصيصة و عين زربة و الكنيسة و الهارونية و بياس و نقابلس- نحو المائة ألف دينار تنفق في مصالحها و سائر وجوه شأنها و هي المراقب و الحرس و الفواثير (الكشافه) و الركاضه (البريديون) و الموكلون بالدروب و المخايض و الحصون و غير ذلك من الأمور و الأحوال، و يحتاج إلى شحنتها من الجند و الصعاليك أي الجند غير المنظم.

و كان إذا عصا بعض عمالهم أو نجم ناجم من الثوار يبعثون بالجيوش من العراق كما أرسلوا جيشا لحرب نصر بن شبث، و جيشا لقتال القرامطة.

و كان الجيش الذي ألفه أحمد بن طولون و أولاده من الأسباب القوية في نزع مصر و الشام من حكم العباسيين بالفعل. و قد قيل: إن الجيش الذي نظمه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون لم يتفق مثله لأعظم الفاتحين، و كان مؤلفا من صقالبة أي من أهل صقلية من الطليان و الروم و غيرهم من العناصر.

أدوات التدمير و السلاح و المواصلات:

كان جلّ الاعتماد في القتل و التخريب على المنجنيق و النشاب، الأول لتخريب الحصون و دك الأسوار و الثاني لإزهاق النفوس. و

المنجنيق (بفتح الميم و كسرهما) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار مرتفعة جدا من الخشب، يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد جدا. و في التاج: آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود و المدافع، و أول من رمى به الرسول (ص) في حصار الطائف، و أول من رمى به في الجاهلية جذيمة الأبرش و هو من ملوك قضاة. و يستعملون الدبابات و هي أشبه بدبابات هذه الأيام (التانك) و هي جمع دبابة آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن فينقبونه و هم في جوفها. و يتخذون أيضا الحسك (السلك الحديد) يتحصنون وراءه و يمنعون العدو بعض الشيء من مباغتتهم. و اخترع بعض الدمشقيين في حصار المسلمين عكا على عهد

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨

صلاح الدين سائلا إذا قذف به على الصقالات التي توضع لرمى المنجنيقات تشعلها لحينها، فكان الصليبيون منها في مصيبة. و أهم سلاح عندهم للمهاجمة السيف و الرمح و للدفاع الدرع.

و مما كانوا يتقون به مدهمة العدو أن يضعوا مما يلي البلدان من حد الشرق رجالا لتحرق زرعها و نباتها، و هي أراض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى، فكانت تحرق إضعافا لهم، و إقعا لحركاتهم، إذ كانوا من عادتهم أنهم لا يتكلفون علوفة لخيولهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت أرضا مخصبة سلكوها، و إذا كانت مجدبة تجنبوها، و كانوا لا يفتنون لتقصده حريقها ثم فطنوا، فصاروا يربطون عليها الطرق و يمسكون منها بالأطراف، و كان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من الخزائن بدمشق جمل من الأموال، و يجهز فيها أجلا للرجال. و كان شأنهم في الإحراق استصحاب الثعالب الوحشية و الكلاب المنفرة، ثم يكمن المجهزون لذلك عند أمنا النصاح في كهوف الجبال و بطون الأودية، و تمضي الأيام حتى يكون يوم ريحه عاصف، و هواؤه زعزع، و تعلق النار موثوقة في أذناب الثعالب و الكلاب، ثم تطلق الثعالب و الكلاب في أثرها، و قد جوعت فتجد الثعالب في الهرب، و الكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به و تعلق الرياح النار منه فيما جاوره. هذا إلى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة، و عشيا الأيام المعتمة. روى ذلك جميعه ابن فضل الله.

و استعمل الملوك و الأمراء النشاب للتسلية و إظهار الشجاعة و معرفه أساليب الرماية، فإذا رموا أصموا، و إذا أفضلوا بالغوا، و قد استعمل الأمين لقتال عساكر أخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب و نقش عليها هذين البيتين:

و من جودنا نرمى العداة بأسهم من الذهب الإبريز صيغت نصولها

يداوى بها المجروح منها جراحه و يشرى بها الأكفان منها قتلها

و استعمل ذلك كثير من الملوك و منهم السلطان أحمد بن الملك الناصر ابن محمد بن قلاوون، و كان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك و هو محصور و يرمى سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب و قد نقش عليها هذان البيتان.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩

كان اعتماد الملوك في نقل الأخبار على ثلاثة أمور: البريد و أول من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان حين استقرت له الخلافة، فوضع البريد لتسرع إليه الأخبار من جميع أطراف مملكته، أمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس و أهل أعمال الروم و عرفهم ما يريد فوضعوا له البريد و اتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد. و قيل: إن أول من وضع البريد عمر بن الخطاب و إن معاوية أصلحه في سلطانه. و لم يزل البريد قائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينقض، و لما أن أغزى المهدي ابنه هارون الرشيد الروم، و أحب ألا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه و بين معسكر ابنه بردا، كانت تأتيه بأخباره، و تربه متجددات أيامه،

فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البريد، ثم رتب على عهد الرشيد على ما كان عليه أيام بني أمية، و جعل البغال في المراكز، و كان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم جاءت أدوار فلم يكن بين الملوك و ما يريدون معرفته من الأخبار إلا الرسل على الخيل و الإبل. فلما أتت الدولة الزنكية أقامت لهذا التجابة، و أعدت لها النجب المنتخبة، و دام هذا إلى سقوط دولة بني أيوب. و لما تولى

الملك الظاهر بيبرس كان أحرص ما يحرص عليه مواصلته بالأخبار، و ما يتجدد من أخبار التتر و الفرنج. و قال مرة لكاتب الإنشاء شرف الدين عبد الوهاب: إن قدرت ألاً تبيتني كل ليلة إلا على خبر، و لا تصبحنى إلا على خبر فافعل، و اتخذ لذلك هو و من بعده مراكز البريد، تشتري الخيل بمال السلطان و يقام لها السواس و العلوفات. ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى إقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر إلى كل مركز أصحاب النوبة فيه بالخيل، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم، و هم لهذا يسمون خيل الشهارة، و على الشهارة وال من قبل السلطان، يستعرض فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه، و يدوغها بالداغ السلطاني. و قد جعلوا لها مراكز و محطات و بنوا عليها خانات و فنادق و مساجد فى كل طرف من أطراف المملكة.

هذا ما كان من أمر البريد و أنشأوا فى الموصل حمام الزاجل، فاقبسه

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٠

خلفاء الفاطميين بمصر و الشام، و بالغوا حتى أفردوا له ديوانا و جرائد بأنساب الحمام. نقله من الموصل نور الدين محمود سنة (٥٦٥) و كانوا فى النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه فى نقل الأخبار و لا سيما زمن الحروب الصليبية، و له مراكز فى هذا القطر من الجنوب إلى الشمال. و حمام الزاجل قديم فى الإسلام و لعلَّ عهده يردُّ إلى ما قبل الدولة العباسية. و مما ذكره المؤرخون أن أماجور أمير دمشق (٢٥٦) أرسل إلى اليرموك رجلا و أعطاه طيوراً، قال له: أرسل الطيور بخبرك طيرا بعد طير. و من جملة ما يعتمدون عليه فى الليل المناور و هى مواضع رفع النار فى الليل، و الدخان فى النهار، للإعلام بحركات العدو، إذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لإغارة، و لما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو و المخبر به، باختلاف حالاتها تارة فى العدو و تارة فى غير ذلك. و قد أرصد فى كل منور الديادب و النظارة لرؤية ما وراءهم و إيراها ما أمامهم. و المناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال و تارة تكون فى أبنية عالية. و مواضعها تعرف بها أكثر السفارة، و هى من أقصى ثغور الإسلام إلى حضرة السلطان، حتى إن المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاء فى مصر و المتجدد بها عشاء كان يعلم به بكرة. قال صالح بن يحيى: و فى سنة (٦٩٣) جعلت لأمرء الغرب فى لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر و جعلوا فيها رهجية و حمام بطاقة مدرج إلى دمشق و خيل بريد، فكانت النار للحوادث فى الليل و حمام البطاقة للحوادث فى النهار و البريد لما يتجدد من الأخبار و كل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الإفرنج. إلى أن قال: و ذلك لأجل ما يتجدد من الأخبار و منع الإفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان. و الزاجل و المناور تغنى عن الهليوستا و الابدجكتيف أو البروجكتور عند أهل زماننا.

الجيش على عهد ملوك الطوائف:

كانت جمهرة الجيوش الإسلامية على عهد صلاح الدين مؤلفة من عرب و أكراد و أتراك و كان صلاح الدين كملعه نور الدين من عظام القواد

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١

يعرف علم التعبية و المصافات و لا يغفل يوماً عن تقوية جسمه بالرياضة البدنية و لا سيما لعب الكرة و الجريد و الصيد و القنص ليستعين بذلك على القتال.

و كان أول اتصال صلاح الدين بنور الدين تفوق صلاح الدين بلعب الكرة.

و قد ألف صلاح الدين بين القلوب و جمعها على المقصد الذى أراد حتى لا يشعر المرء فى جيشه باختلاف فى العادات و المنازع. و ارتقى فن الحرب فى الدولتين النورية و الصلاحية بين الشاميين. و الحرب تعلم فى الحرب. و الجيش الذى يقوده قائد كنور الدين بنفسه مستعينا بمشاهير قواده ثم يقوده صلاح الدين بنفسه و مشاهير قواده مكتوب له الظفر لا محالة. و كان الجند موسعا عليه كل

التوسعة، و هو على قلّة عدده بالنسبة لجيوش الصليبيين منصور في أكثر الوقائع. و كانت نسبته نسبة واحد من المسلمين إلى أربعة من الصليبيين كما كان يوم حطين. و الفرنجي يلبس زرد الحديد من فرقه إلى قدمه، و قد لا- يقتل إلا- إذا جدّ حصانه، و الشاميون مخفون من السلاح. و كان اعتماد الفريقين على الشباب و النبال يقف جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه و السلطان بنفسه يصف الأطلاب و يجهز أبدا جيشه و يعلمه للبيكار و الجمازة من آلات المحامل و الأطلاب الكتائب و البيكار الحملة أو الحرب. و الجندي الغازي موفور الكرامة و القواد عند السلطان كإخوته و أشقائه و أولاده و الأموال داره على الجميع كما قال عبد المنعم الجلياني شاعر صلاح الدين:

إن الملوك الذين امتدّ أمرهم لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا

كذا السياسة فالأجناد لو علموا بخل الملوك و جاءت شدة خذلوا

ذكر ياقوت أن الملك العزيز صاحب حلب كان طول مملكته من الشرق إلى الغرب مسيرة خمسة أيام و مثلها من الجنوب إلى الشمال. و فيها ثمانمائة و نيف و عشرون قرية كانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحى العلة موسع عليهم، و فيها من الطواشيّة المفاريد ما يزيد على ألف فارس، يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم إلى خمسة عشر ألف درهم و في أعمالها إحدى و عشرون قلعة يقام بذخائرها و أرزاق مستحفظيها.

و كان جيش المماليك (البحرية و البرجية) قوتهم الوحيدة إذا أحسنوا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢

يوما فإساءتهم أيام. و طاعتهم و غناؤهم و بلاؤهم تبع للسلطان، إذا كان على أخلاق و متانة خضعوا و استكانوا و كانوا آله خير لقتال الأعداء و الخوارج على الملك، و إلا أصبحوا من أعظم أدوات الشر، و كانوا يتمحضون للخدمة و يعيشون بالإقطاعات العظيمة التي كانت لهم، و إذا نشبت الحرب راجت سوقهم و كثر الخير عليهم لأنهم يجهزون من الدولة بالأموال و الألبسة و السلاح و الكراع. و كلما جازوا بلدا أو فتحوا مصرا اعتدوا على السكان و المكان و أخذوا ما استطاعوا أخذه من مال و عروض و ناطق و صامت.

الجيش الصليبي و التتريّة:

رأت الشام من ضروب الجيوش على عهد الحروب الصليبية ثم في عهد الحروب المغولية التتريّة ما يستغرب منه. فإن جيوش الصليبيين كانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجية التي كانت تدين بدين البابوية في أوروبا، بل كانوا يجندون من أحبّ من الوطنيين و لا سيما الموارنة. و كانت جيوش هولانكو و غازان و تيمور لنك- مؤلفة من معظم عناصر آسيا. و جميع هذه الجيوش الغربية و الشرقية أضرت بهذه الديار أضرارا فاحشة، لأن النظم الحربية الحديثة لم تكن معروفة إذ ذاك، فكان القائد بحكم الضرورة يتسامح مع أجناده إذا عرقوا لحم من ينزلون عليهم و كسروه سواء كانوا مسالمن أو محاربين. و طول دور الحروب الصليبية في الشام أورث أهله شجاعه و استهانة بالموت حتى كاد يعد جميع أهله جندا. الشدائد معلمة الشعوب، و أي شدة على الشام أعظم من أن تجيش أوروبا على هذا القطر الصغير قرنين كاملين. و قد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة و الإقدام، و اعترف هؤلاء للمسلمين بمثل ذلك. و من أجمل ضروب الإنصاف أن ينصف المرء خصمه و يذكر محاسنه كما يذكر مقابحه.

الجيوش في القرون الوسطى و جمعيات الفتوة:

كانت طوائف الأجناد عدة كثيرة تنسب كما قال القلقشندي كل طائفة منهم إلى من بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافظيّة و الآمرية

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣

من بقايا الحافظ والامر أو إلى من بقى من بقايا الوزراء الماضين كالجوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالي وولده الأفضل أو إلى من هي منتسبة إليه كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة أو من المستضعفين كالروم والفرنج والصقالبة أو من السودان من عبيد الشراء أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم.

وكان الجنود في دولة المماليك يقسمون إلى طبقتين: المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم إلى السلطان قربا وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة. وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلّة. وقد كان لهم في زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم في أيام الظاهر برقوق العدد الجم والمدد الوافر، لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها. والطبقة الثانية أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير، وربما دخل عليهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات. وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع إليه هذا ما رواه القلقشندي وروى ابن فضل الله أنه كان لكل أربعين نفسا منهم مقدم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه ورتبتهم في موقفهم إليه.

وكان أقوش الأفرم إذا مات لأحد من أجناده فرس يحضر الكفل إلى مطبخه و يأخذ من الديوان ستمائة درهم. وإذا خرج إلى بيكار أي حملة فجميع جنوده إلى أن يعودوا لا يطبخ أحد منهم ولا يشتري تبنا ولا شعيرا. وذكر الأسيدي أن عبرة العساكر في الشام في القرن التاسع كانت أربعة وعشرين ألف فارس وأنه كان في كل مدينة الأمراء والأجناد. وذكر الظاهري أن الجيوش كانت تنقسم في القرن التاسع أقساما وهي أجناد حلقة وبحرية و تركمان و عرب و أكراد و غير ذلك. وأجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر ألفا، و مماليك كافلها والأمراء بها ثلاثة آلاف. وأجناد الحلقة في حلب ستة آلاف و مماليك كافلها والأمراء بها ألفان. وأجناد الحلقة بطرابلس أربعة آلاف و مماليك كافلها والأمراء بها ألف. وأجناد الحلقة بصفد ألف و مماليك

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤

كافلها والأمراء بها ألف. وأجناد الحلقة بغزة و مماليك كافلها والأمراء بها ألف.

وجيش الحلقة هذا هو الجيش القائم دوما على السلاح وهو ما يقابل باصطلاح هذه الأيام جيش الحامية وكان لكاتب الجيش جريدة بأسماء الأجناد وإقطاعاتهم. ويحتاج صاحب ديوان الإقطاع أن يكون ماضيا فيما يسأل عنه من أمور الأجناد وأحوالهم، متفقدا لمن يغيب منهم بغير دستور. وكان إلى صاحب ديوان الجيش عرض الأجناد و خيولهم و ذكر صلاحهم و شيات خيولهم، أي علائمها وأشكالها، وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لا يثبت لأحد من الأجناد إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناتها دون البغال والبراذين، وبين يديه نقباء الأمراء يعرفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيب والحضور وغير ذلك - قاله القلقشندي. أما أجناس الجيوش في مصر والشام فكانت منوعة أي من الترك والشركس والروم والصقالبة وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك في الزي. وكانت للعرب على ما يظهر كتائب خاصة بقيادة أمرائهم يستدعون حين الحاجة للقتال على أصولهم. و جيوش بني حمدان و بني مرداس و بني كلاب و بني كلب و آل الفضل و غيرهم من الملوك و الأمراء عرب صرف لأن صاحب العصية عربي لا يأمن غيرهم. وأكثرية الجيش شراكسة أو أتراك على الغالب و الباقون من الشاميين.

ولقد كان بعض الخلفاء والملوك والأمراء إذا شاهدوا أعراض الضعف في قوتهم يعمدون إلى طرق ظاهرها بسيط و باطنها قوة لهم ليتقوا بهم عند الحاجة. أي يكونون جيشا يرتجل في الحال و يغني غناه. كما فعل الناصر لدين الله العباسي سنة أربع و ستمائة فتقدم إلى الوزير بجمع رؤوس الأحزاب و أن يكتب في ذلك منشور فدخل الناس من الخاص و العام في الفتوة و سأل ملوك الأطراف الفتوة فنفذ إليهم الرسل و قد ألبسهم سراويلات الفتوة بطريقة الوكالة. فمما كتبه الوزير أن أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه هو أصل الفتوة و منبعها، و منجم أوصافها الشريفة و مطلعها، و عنه تروى محاسنها و آدابها، و منه تشعبت قبائلها و أحزابها، و

إليه دون غيره ينسب الفتیان. فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح و مسمع، و مشهد

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥

من أختيار الصحابة فلم يسمع أن أحدا من الأمة لأمه، و لا طعن عليه طاعن في حد أقامه، إلى أن قال: إن من قتل له رفيق نفسا نهى الله تعالى عن قتلها و حرّمه، و سفك دما حقنه الشرع المطهر و عصمه، و صار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه و مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا أَنْ يَنْزَلَ عَنْهُ فِي الْحَالِ فِي جَمْعِ الْفِتْيَانِ عِنْدَ تَحْقِيقِهِ لَذَلِكَ و معرفته، و يبادر إلى تغيير رفقته، مخرجا له بذلك عن دائرة الفتوة، و إن كل فتى يحوى قاتلا- و يخفيه، و يساعده على أمره و يؤويه، ينزل كبيره عنه، و يغير رفاقته و يتبرأ منه، و إن من حوى ذا عيب فقد عاب و غوى، و من آوى طريد الشرع ضل و هوى، فإن الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته.

و وجب أن يؤخذ منه القصاص، و إن قتل غير فتى عوننا من الأعوان أو متعلقا بديوان في بلد سيدنا الإمام الناصر لدين الله فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل، فكأنما عيب على كبيرة فسقطت فتوته بهذا السبب. و سلم إلى كل واحد من رؤوس الأحزاب منشور بهذا المثل فيه شهادة اثنين من العدول، فألزم الناس إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم قائلين في تعهدهم و متى جرى ما ينافي الأمور به المحدود فيه، كان الدرك لازما لهم على ما يراه صاحب الحرب أى الخليفة. و هؤلاء الفتیان كانوا يغتالون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة و أنكروا نسبتها إلى على بن أبى طالب و هى أشبه بجمعية فوضوية يعمد إلى تقويتها أيام الضعف.

الجوش العثمانية:

لما جاء العثمانيون لفتح الشام كانت جيوشهم من العسكر المعروف ب (يكي «ينى» چرى) أى العسكر الجديد، و قد حرف الشاميون و المصريون هذه التسمية بلفظ الإنكشارية، و هو الجيش الذى ألفه السلطان أورخان بن عثمان باقتراح الوزير قره خليل جاندارلى على أن يؤلف من أولاد المسيحيين من العثمانيين كالبوشناق و الروم و الصرب و البلغار و الألبان، يجندون بحسب اللزوم و بموجب قانون التجنيد المعروف عندهم بقانون اللقطاء (دو شرمه) و ذلك

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦

من أهل الروم ايلي و من سكان الأناضول على قلبه، و يعفى من ذلك الأرمن و سكان جزيرتى ساقز و رودس، يأخذونهم من أهلهم من سن العاشرة إلى الخامسة عشرة و يستثنى من ذلك المتزوجون الفتیان، و يربونهم تربية إسلامية ثم يجعلونهم فى الثكنات فى الإستانة، و منهم من يخدم فى قصور السلاطين فى أعمال البستنة و غيرها، و منهم من يتعلم سبع سنين اللغة التركية خاصة حتى يصبحوا مسلمين أتراكا ثم ينقلون إلى العاصمة، و كثير منهم ارتقوا فى مناصب الدولة حتى أصبحوا وزراء و قوادا عظاما و خدموا العثمانيين خدمة عظيمة، لأن خلص الأتراك على الأغلب كانوا يفرون من تعليم أولادهم، و إن كان الآباء عظاما فى السلطنة. فانتقلت الأحكام بالطبيعة إلى أيدي فئه من هؤلاء المتعلمين من الإنكشارية.

و لما أسس أورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية و كان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجى بكتاش، و التمس منه أن يسمى هذا الجيش فسماه الولي العسكر الجديد (يكي چرى) و دعا له بما معناه: بيض الله وجوههم، و قوى سواعدهم، و أرهف سيوفهم، و أهلك الأعداء بسهامهم، و كتب لهم الغلبة و التوفيق. قال هوار: ذهب قره خليل جاندارلى فى تأليفه هذه الكتائب من المشاة بهذا الفخر، و كان تأليفها فى عصر كانت فيه أوربا فى القرون الوسطى، و ليس لها من الجيوش إلا- عصابات مسلحة، بل و قبل تنظيم كتائب الرماة فى إنكلترا، و قبل أن أسس شارل السابع ملك فرنسا جيشا دائما تحت الطلب بقرن واحد. و قال ميشو: «كان العثمانيون بادئ بدء الأمة الوحيدة التى كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كان للدولة به التفوق على الأمم التى تريد إخضاعها لسلطانها. و أصبح لمعظم ممالك أوربا فى القرن السادس عشر جيوش يقاومون بها أعداءهم، فانتشر النظام و التربية العسكرية بسرعة

بين شعوب النصرانية، وأخذت المدفعية والبحرية كل يوم تزيدان نظاما و رقيا في الغرب، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت إليها الجيوش البحرية والبرية، ولا يستفيدون بتاتا من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم اه.

أسس العثمانيون جيش الإنكشارية على غير مثال في التاريخ، خالفوا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧

فيه الشريعة الإسلامية التي لا تجيز للملك أن يكره الذميين على استرقاق أولادهم، و اتبعوا فيه العرف والمصلحة، ثم دخل فيه سوء الاستعمال في القرن السادس عشر على رأى موردتمان، و ذلك بأن أخذوا يتساهلون بإدخال أناس من المسلمين واليهود والنور، فأخذ جيش الإنكشارية يشبه جيشا من الأسرى على الأصول الإفريقية الجديدة، و كان ذلك من أسباب تسرب الفساد إليه.

كان عدد جيش الإنكشارية لأول تأسيسهم ستة آلاف جندي و قيل ألف جندي، ثم جاوزوا المائة ألف وقائدهم العام «آغا» الإنكشارية، و هم يقسمون إلى كتائب و تتألف كل كتيبة من مائة إلى خمسمائة مقاتل، يعلمون في الولايات على الكرّ و الفرّ و يستخدم بعضهم في خدمة الولاة أو في مزارع أرباب الإقطاعات أو في حوانيت أرباب الصنائع، و يعيش أفراد هذا الجيش من مياوميات طفيفة و هي «اقجه» واحدة لكل فرد في اليوم، و تزيد إذا أثبت المقاتل في الحرب كفاءة، و يقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة و طنطنة، و توزع الإقطاعات على المبرزين منهم من الضباط و غيرهم يعيشون بها زمن السلم، و يقضى عليهم في الحرب أن يجهزوا أنفسهم على نفقتهم.

و كان أغلب الإنكشارية في الولايات من الفرسان و في العاصمة من المشاة.

و سلاح المشاة الدروع و المغافر و الأتراس و الخناجر مما يخف حمله، و سلاح الغارات السيوف و الرماح و الحراب و المعاول يستعملونها في القرب، و يستعملون في البعد الرماح و البنادق و الغدارات. و أسلحة الفرسان سيوف مستطيلة و بنادق بفتيل و بنادق بصوان و غدارات و قفافيز من حديد. و قد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع في وقعة قوصوة المشهورة. و كانت المدافع و المكاحل في عسكر السلطان سليم على مرج دابق من أسباب ظفره بجيش المماليك لأن هؤلاء كانوا خلوا منها.

قال أحمد رفيق: و لقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى إن نعال خيولهم كانت على غاية الدقة و ذلك لتسير سيرا سريعا.

و كانوا يبدون مهارة فائقة في التقدم و كشف قوة العدو و الإحاطة به و تعجيزه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨

و يكمنون له و يعنون من وراء الغاية بتعليم الجند و تدريبهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الأولاد مرتبة الكمال. يعلمونهم الألعاب الرياضية و استعمال القوس و النشاب ثم الرماية بالبنادق، و يدرّبونهم على لعب الجريد و المسابقة ليل نهار. و تتبدل الأسلحة بتبدل الزمن.

و كان لكل كتيبة شعار يرسمه المجندون فيها على خيامهم و على أبواب ثكناتهم و يشمونهم أى يستعملون لهم الوشم بأيديهم و أرجلهم. و قد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لأنه رخص سنة (٩٩٠) بقبول الرقاصين و المصارعين في الدخول فيه. و بعد ذلك أخذ يدخل في سلوكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشفاعات و الرشى ليستفيدوا من امتيازات الإنكشارية.

و في ذلك الوقت أخذ بعض سكان الشام يدخلون في هذا الجيش على ما يظهر. و في سنة (١١٥٣) صدر الأمر بأن تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية في الإنكشارية و أصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات ما يكفيهم فيعيشون بالتهب و السرقة. و كلما أتى الزمن على الإنكشارية زاد تدخلهم في سياسة الملك في الإستانة و أخذوا يخيفون السلاطين و يخلعونهم و يقتلونهم و يعزلون الصدور العظام و ينصبونهم أو يقتلونهم و يشردونهم. و آخر من قتله من سلاطين العثمانيين سليم الثالث.

و لما تربع محمود الثاني في دست الملك و رأى ما تم لعزير مصر محمد على من إنشاء جيش له على النمط الغربي صحت عزيمته

على أن يعجل في القضاء على الإنكشارية فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الأهالي ورجال البحرية و ألغى نظام الإنكشارية سنة (١٢٤١) و سموا هذه الوقعة في الإستانة بالوقعة الخيرية. و قد قتل فيها في العاصمة و الولايات ستة آلاف رجل على رواية المؤرخ أسعد افندی. و من ذاك الوقت ألفت الدولة جندا على مثال الجيوش الأوربية. و كان من الإنكشارية في الشام أن خربوا القرى و الضواحي، و كانوا يعتدون على الأعراض و الأموال. و لما صدر الأمر بقتلهم قتل بعضهم هنا و منهم قسم من الأهالي غير اسمه و رسمه فتغاضت الدولة عنه. هذا هو الجيش الذي بقيت الشام تحت رحمته أكثر من ثلاثمائة سنة و رأت سيناته و تخريباته.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٩

و كان من جملة الجيش عسكر اسمه (اللوند) و هو العسكر الخفيف الذي كانت مملكة البندقية تستخدمه قديما، و منهم عسكر اسمه (السكبان) - السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب - قال البوريني:

و هم عبارة عن طائفة كان وصفهم أن الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره و يقود الكلب في ساجوره (قيده) و يمشى أمام الأمير و الكبير حتى يسير إلى الصيد. قال: و لم يكونوا أولا شيئا حتى جاء الشام أمير يقال له أبو سيفين تولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا نابلس لأنهم لا يخلون من نوع شراسته، فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم فكثروا. و قد أضيف هذا العسكر إلى جوقه الإنكشارية. و من الجند صنف يقال له (السابهية) و هو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الأراضى على صورة إقطاع و يقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمعاونة الدولة في القتال، يأتون على خيولهم و الدولة تعطيم الذخائر و المؤمن. و منهم صنف يقال له (جبه جى) و هو من العسكر المدرع (زرهلى) من جيوش العثمانيين، و منهم (القبوقولى) أى الحراس و أصلهم حراس باب السلطان كثروا في آخر القرن الماضى. و منهم (الدلاية) أى الأدلاء و أصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل. و كانوا يلبسون في رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على ما في محيط المحيط. و (الهوراة) و هم صنف من العساكر غير المنظمة.

و (التفكجية) مأخوذة من تفكجى أى صاحب البندقية و هم جند من رماة البنادق و كانوا للمحافظة، و (الشوربجية) و هم ضباط الإنكشارية يعمل لهم الحساء أى الشورية في قدر خاص، و رتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد بعرفنا إلى غير ذلك من صنوف الجنود.

الجيش الحديثة:

كان بعض الأمراء في هذه الديار لا يخلون من مقاتلة على الدوام يستخدمونهم في قيام أمرهم. و من أهمهم في هذا الباب أولاد معن أمراء الشوف و ما إليها فقد كانوا يستطيعون أن يجندوا أربعين ألفا. و ذكر فولنى في القرن الثامن عشر أنه رأى الأمير في دير القمر جند خمسة عشر ألف

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٠

جندى في ثلاثة أيام. و من الجيوش التي رأتها الشام و كانت بالنسبة للجيوش التركيه تراعى النظام جيوش مصر مدة حكم إبراهيم باشا ابن محمد على الكبير فكانت مؤلفة من المصريين و الأرناؤود و الهوار و الهنادى من عرب مصر و كلهم يدرهم ضباط ماهرون و كان في رأس القواد بعض ضباط أجانب من الفرنسيين.

و لما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندية لأنها لم تكن آخذة بأسباب الراحة و لأن الأخلاق الحربية أوشكت أن تزول لطول العهد بها و لا سيما من سكان المدن. على أن سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة. و السبب في ذلك أن أمراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة و الشدة و التقدير عليهم من أخرى من الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية و إثارةهم التفتل من الجندية إن أمكن.

و لقد أخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة. و كان

منهم نبغاء لم يقصروا عن أرقى العناصر العثمانية علما و ذكاء و مضاء. و يقال على الجملة:

إن هذه الديار فى الدور العثمانى كانت بعسكرها و الحامىة الإنكشارىة أولا ثم الحامىة النظامىة آخرا أشبه بمعسكرات عظمىة، يعمل فرىق عظمى من الناس لخدمىة الجىش. و كانت رواتب الضباط و جرايات الجنود تخف جدا و كذلك علف الدواب فىسدون العجز بطرق مخزىة. و مع عدم العناىة بمأكل الجند و ملبسه كانوا يوم الغارة أسودا خصوصا إذا حسنت قىادتهم، لأن الشباب كانوا يتدربون على الصراع و المسافىة و الرماىة و الألعاب الرىاضىة بجملتها، فإذا كانت الحرب أو اقتضت الحال الغارة على فرىق أو دفع صولة صائل استطاعوا أن يستعملوا السلاح و يحسنوا الطعن و الضرب أول تجنىدهم.

و كانت أنظمة العثمانيين الأخرىة محتداه من أنظمة الجىش الألمانى و الفرنسى و لنا أن نقول بعد هذا: إنه لىس من أوضاعنا ما شابها فىه الأوربيين مدة حكم العثمانيين سوى الجىش. جندت الدولة العثمانىة فى الحرب العامة نحو ربع مليون من الشام أو سبعا و عشرين قرعة و يمكن أن يقال على الجملة: إنه حارب ربعهم و هلك ربعهم و استخدم ربع فى خدم خفىة و هرب الربع خطط الشام، ج ٥، ص: ٣١

الآخرا. و لما غلبت الدولة العثمانىة فى الشام و انهزم جىشها و استسلم أكثره و لم يتمكن من الثبات أمام قوى الحلفاء الجدىة فانحل الجىش بالطىعة.

و قد رأى هذا القطر مدة الحرب العالمىة الأخرىة جىوشا من الترك و الأكراد و الألمان و المجر و النمسوین و البوهیمیین و غیرهم كما رأى بعد انحلال العثمانىة جىوشا من البريطانيين و الكنادیین و الأوسترالیین و الهنود و الفرنسىین و الجزائریین و المراكشىین و الهنود الصینیین و السنغالیین و السوادنیین. و بالجملة رأى جنودا من معظم المستعمرات الخاضعة لبریطانيا و فرنسا فأشبهه تبلبل الألسنة فى الشام تبلبلها فىه على عهد الحروب الصلیبیة و المغولیة.

و لما أسست الحكومة العربىة فى المدن الأربع و أعمالها أخذوا یجندون جنودا عربیة مأجورة من أهل هذه الدیار ثم شرعوا بالتجنىد الإجارى أشهرا قلیلة ریثما دخلت فرقة الجزائرین غواىبه و دى لاموط إلى دمشق و حلب و سقطت المملكة فى ید الحكومة الفرنسیة المنتدبة و فضّ الجىش العربى و صفى.

و كان بضعة ألوف مسجلة على الورق. ثم أخذت فرنسا بتألیف جىش مختلط من السوریین و الفرنسىین أشبه بالدرك و ذلك فى الأصقاع الواقعة تحت انتدابها و أبقت فرنسا فرقا من جندها فى الولايات التى انتدبت للإشراف علیها، كما جعلت بریطانيا العظمى فى فلسطين اعتمادها على جىشها. و فى الشرق العربى على جىش صغیر من الأهلیین یعاونه الجىش البریطانى المرابط فى فلسطين عند الاقتضاء. و فى ثورة سنة (١٣٤٤) جندت الدولة المنتدبة كتائب من المتطوعة سمتهم الأنصار و كانت جمهرتهم من الشركس و الأرمین و الإسماعیلیة فلقى الأهلون من سوء تربیتهم و قلّة نظامهم و اعتدائهم على الأبریاء ما أنسى ذكر الإنكشاریة. و كانت حجة الحكومة أنها اصطنعت أشقیاء لقتال أشقیاء.

و جعل لبنان كتیبة له من الجند سماها القناصة و هم أشبه بالدرك و الشحنة.

و ربت فرنسا الدرك فأحسنت تربیته و هو من خیر أدوات الحكومة فى سوریه و لبنان و دونه الشرطه المستعملة للهیمنة على الأمن فى المدن فإن هذا لم تفلح بتربیته على ما یجب.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٢

الاسطول

[بحریة الفینیقیین و العبرانیین و الفراعنة:]

ليس فى الأيدى نص ىركن إله لمعرفه اصطلاح شعوب الشام القدماء فى بحريتهم. و سواحل هذه الدير المستطيله الممتده من العريش إله خليج الإسكندرونه تحتاج فى اتصالها إله مراكب للتجاره و غيرها. و لم يعرف أن عظام الأنهار فى الشام كالأردن و العاصى كانت تجرى فيها سفن إله الفرات فإنه كان يحمل مغادى و حراقات و جلبات تذهب و تجىء بين الشام و العراق. و أهم من عرف بمعاناه البحار أهل فينيقيه سكان الساحل الأوسط و ما كانوا أعظم شعب بحرى درج على هذه الأرض فقط، بل كانوا أعظم الشعوب القديمه فى العالم جرأه على الأسفار فى البحار، و كانت أصولهم على الأرجح من شعوب بحاره جاءوا من البحرين فى خليج فارس و نزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم فى اختراق العباب فى سالف الأحقاب. و الصناعات فى الناس تكون بالإرث أو ابنه البيئه، و الفينيقيون استوفوا هذين الشرطين فكانوا بحاره بالفطره و البيئه، بحاره بالتريبه و الحاجه.

و مما ساعد الفينيقيين على إجاده صنع السفن كثره الأخشاب فى لبنان و لا سيما شجر الأرز الذى منه كانوا يصنعون مراكبهم الصغيره و الكبيره.

و كانت لهم شئون ما عرفها غيرهم فى السير و الإسراء، و الإقلاع و الإرساء، يهتدون بنجمه القطب يستدلون بها على سمت الشمال. و لذلك كانوا يوغلون فى البحار، لا يخشون الأخطار، حتى لقد اجتازوا البحر المتوسط إله

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٣

بحر الظلمات و بحر الشمال و غيره، و لم ينازعهم منازع من الشعوب فى هذا الباب، لأنهم كانوا يكتمون سرّ الطرق التى يسلكونها و يتشددون فى كتمانها. و ربما أغرقوا سفنهم إذا اطلع بعض البحاره من الغرباء عنهم على خطه رحلاتهم، فضلا عن إغراق مراكب من يحاول سرقه أسرارهم فى طرقهم البحريه. و لم يعرف غير الفينيقيين جزائر الكاسيتريد أو جزائر سورلنج فى الشاطىء الغربى من الجزائر البريطانيه.

و لم يؤثر عن العبرانيين أن كان لهم أسطول بل قوارب لا تبعد كثيرا عن الساحل على النمط القديم. أما الفراعنه الذين حكموا جزءا مهما من جنوب الشام و ساحله مده فكانت بحريتهم و صناعتهم فى مصر أولا، ثم جعلت فى طرابلس و صور و جبيل لقربها من مستودع الأخشاب الصالحه لصنع السفن. و لم تكن ملاحه للفراعنه من السلائل الأولى حتى الدوله السادسه و العشرين لأنهم ليسوا أمة حريه.

بحريه الرومان و اليونان:

كانت البحريه فى العهد اليونانى فى الشام على مثال بحريه تلك الدوله قويه منظمه. و كانت اليونان أمة بحريه من الطراز الأول فى القديم. ألفوا اليمّ منذ عرف تاريخهم، و معظمهم جزائريون طالما عاركوا البحر و عركهم.

و انطبع سكان الساحل الشامى بطابعهم و ساروا على أقدامهم فى سلوك سبل البحار. و مثل ذلك يقال فى الرومان الذين طال عهدهم فى الشام، فإن أساطيلهم كانت تحمل من شواطىء إيطاليا و إليها تجارات الأمم التى خضعت لسلطانهم. و صعب أن يحكم على بحريه الشام فى الدور الرومانى و لعلها لم تخرج فى كل حال عن طور اليونان، و لا شك أن بعض الموانى الشاميه كان لها صناعات كما كان لها فى كل دور. و يمكن أن يقال على الجمله: إن الشام لم يعرف له منذ عرف تاريخه إله الفتح الإسلامى بحريه خاصه وافية بالغرض

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٤

بالنسبه لتلك الأعصر إله فى عهد الفينيقيين و كان فى سائر أدواره مندمجا فى الأمم القويه التى امتد سلطانها عليه.

العرب و البحار:

كان العرب لا يحبون البحار لبعدهم عنها و لما كان يبلغهم من أخطارها.

و قد اتفق في أوائل الفتوح أن العلاء ابن الحضرمي عمل أسطولا و اجتاز من البحرين إلى فارس و وصل إلى إصطخر، و دمر الأعداء بأسطوله فقتل كثير من رجاله، فغضب عمر بن الخطاب لأن هذا العمل لم يكن عن مشورته. و لما كان معاوية على جند دمشق و الأردن ألح على عمر في غزو البحر، فكتب الخليفة إلى عامله في مصر عمرو بن العاص يريد على أن يصف له البحر فكتب إليه «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء و الماء، إن ركذ خرق القلوب، و إن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، و الشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، و إن نجا برق». فكتب عمر إلى معاوية «لا و الذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا ... و تالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم. فإياك أن تعرض لى، و قد علمت ما لقي العلاء منى و لم أتقدم إليه فى مثل ذلك».

و قد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بأن العرب لبدأوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته و ركوبه. و الروم و الفرنج لممارستهم أحواله، و مرباهم فى التقلب على أعواده، منروا عليه و أحكموا الدربة بثقافته. فلما استقر الملك للعرب و شمش سلطانهم، و صارت أمم العجم خولا لهم و تحت أيديهم، و تقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، و استخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما، و تكررت ممارستهم البحر و ثقافته، تاقت أنفسهم إلى الجهاد فيه و إنشاء السفن و الشوانى، و شحنوا الأساطيل بالرجال و السلاح، و أمطوها العساكر و المقاتلة لمن وراء البحر.

و اقتصوا بذلك من ممالكهم و ثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر و على ضفته مثل الشام و غيرها.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٥

نعم كان العرب بادئ بدء يتخوفون ركوب البحر فقد استعمل الوليد ابن يزيد الأسود بن بلال المحاربى على بحر الشام فقدم عليه أعرابى من قومه ففرض له و أغزاه البحر فلما أصابت البدوى تلك الأهوال قال شعرا منه:

فله رأى قادنى لسفينته و أخضر مؤار السرار يemor

ترى متنه سهلا إذا الريح أفلعت و إن عصفت فالسهل منه و عور

فيا ابن بلال للضلال دعوتنى و ما كان مثلى فى الضلال يسير

لئن وقعت رجلاى فى الأرض مرة و حان لأصحاب السفين و كور

و سلمت من موج كأن متونه حرار بدت أركانه و ثبير

لتعترضن اسمى لدى العرض حلقة و ذلك إن كان الإياب يسير

و قد كان فى حول الشرية مقعد لذيد و عيش بالحديث غرير

أول خليفة غزا فى البحر الشامى و البحرية الأموية:

منع عمر عماله من غزو البحر بعد إخفاق العلاء فى غزوته البحرية.

و لما قلد عمر عبد الله بن قيس النظر فى ثغور الشام جميعها كتب إليه عمر إنى لا أحمل المسلمين على أعواد نجرها نجار و جلفطها الجلفاط (و الجلفاط الذى يشد ألواح السفينة) و ما زال به معاوية حتى أقنعه. و فى بيروت عمر معاوية المراكب و جهاز الجيش إلى قبرس و معهم أم حرام و اسمها الرميضاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطة فى بيروت و ماتت فيها. و يقول المقريزى: إن الناس كانوا يغزون بنسائهم فى المراكب. و شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين و أربعين و هو أول مشتى شتوه بها فاستعمل معاوية على أهل المدينة عبد الملك بن مروان و هو يومئذ ابن ست عشرة سنة فركب عبد الملك بالناس البحر. فلما ولى

عثمان بن عفان طلب إليه معاوية أن يغزو البحر فوافق على ذلك، على أن ينتخب من يحملهم في المراكب و لا- يقترح بينهم، فمن اختار الغزو طائعا يحمله و يعينه ففعل. و غزا معاوية الغزوة الأولى فكان أول مسلم غزا في البحر، و استعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسي خليفة بنى فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية و صائفة في البر و البحر و لم يغرق فيه أحد. و أغزى معاوية عقبه بن عامر خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٦

الجهني في البحر و أمره أن يتوجه إلى أرواد. و فتح هذه الجزيرة جنادة بن أبي أمية فنزلها المسلمون و اتخذوا بها أموالا و مواشى يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن. و لهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، و كانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم. و كان معاوية يدّر لهم الأرزاق و العطاء، و العدو يخافهم. فلما مات معاوية أفلحهم يزيد بن معاوية. و جنادة بن أبي أمية الأزدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان إلى أيام يزيد إلا ما كان من أيام الفتنة فتنة على و معاوية و شتى في البحر سنة (٥٩).

و بذلك عرفنا أن معاوية أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام بل الشام لا ينجها من غزوات الروم إلا إيجاد أسطول عربى يغزو سواحلهم الحين بعد الحين. و إلا- تعذرت المحافظة على السواحل و بطلت التجارات. و كان المسلمون قبل ذلك على خطر أبدا يتخطفهم أعداؤهم من عقر دارهم، و يطردونهم حتى فى أرضهم و يحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الإماء و الرقيق. أى أن الروم يغزون الشام إذا لم يغزهم أهله فحاول معاوية أن يقنع الخليفة الثانى فتحامى هذا الإذن بركوب البحر خوفا على المسلمين، متأثرا مما أصابهم يوم غزوة البحرين، و لأنه لم ير ما رآه عامله فى الشام من الخطر الذى يدهم القطر إن لم تتواز قوته البحرية بقوته البرية.

قال محبوب المنبجى: و فى السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر و صار إلى قبرس فافتتحها و كان معه ألف و سبعمائة سفينة مملوءة سلاحا و أموالا- فسبى منها و من الجزائر المطيفة بها خلقا من الناس، و نزل على جزيرة أرواد (رودس) و لم يصل إليها، و فى الربيع رجع فى جيوش أعظم و أكثر من الأولى فنزل عليها و ضيق عليهم جدا، فلما رأى أهل أرواد الشدة التى هم فيها و العساكر التى أظلتهم طلبوا الأمان على أن يخرجوا إلى سوريه و يسكنوا حيث شاءوا و وفى لهم معاوية بن أبى سفيان و خرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم و أحرق.

و ذكر المنبجى أيضا أنه فى السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم فى لوقية، فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم فى سفينة فألقى النار فى السفن

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٧

فاحترقت كلها و هم أى الروم أول من أخرج النار و صارت لهم عادة.

و قد كان المسلمون فى خطب جمل من هذه النار فى البحار و هى الصواريخ و كانت إذا أصابت المراكب لا تطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندى أو الرمل و مخترعها كالينكوس من أهل بعلبك لجأ إلى الروم سنة (٦٧٣ م) فعلمهم هذا التركيب الذى كان له فى الحروب البحرية أهوايل.

و ممن غزا فى أيام معاوية فى البحر بسر بن أبى أرطاة و فضاله بن عبيد الأنصارى. و فى سنة (٤٩) كانت غزوة يزيد بن شجرة الزهاوى فى البحر فشتى بأهل الشام. و غزا فى البحر أيضا عمرو بن يزيد الجهني (٥٨).

و روى المنبجى أن معاوية بن أبى سفيان استعد لقصده القسطنطينية فى السنة التاسعة لعثمان و الرابعة و الثلاثين للعرب، و أعد سفنا كثيرة فى مدينه طرابلس على ساحل البحر، و حمل من السلاح أمرا عظيما، و أن الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسما من ديارهم و سبى من أهلها مئة ألف نفس. ثم جاء ملك الروم فى سفن كثيرة من البحر فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم، و كاد ملكهم أن يغرق، و تخلص بعد أن قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دما، و رجع العرب بغلبة كبيرة.

و في هذا برهان جلي على العظمة التي بلغها الأسطول العربي بسرعة، و ما أحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه لأن الصناعة كانت أيضا في عكا و صور و ربما في غيرهما من ساحل الشام، و من عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس، و بعد أن أحرق الروميان اللذان كانا في خدمة الأسطول في طرابلس أسطول هذه الفرضة البحرية بأجمعه، أصبح من المتعذر على معاوية أن يأمن على أساطيله من كان اتتمنهم، و هل أنباط النصارى في رأى بعضهم، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم و نواتيهم في مراكزهم الحربية، و الغالب أن العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا على أنفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدنيهم.

و مع هذا كان أكثر البحرية و الذين يتكفلون بغزو الروم من أهل الإسلام و كان الروم معهم و لا سيما في القرون الثلاثة الأولى للهجرة في أمر مريج.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٨

قال المسعودي: أخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم و حسن إسلامه أن الروم صوّرت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس و النجدة و المكاييد في النصرانية و الحيلة من المسلمين، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية، فأقاد منه بالضرب و رده إلى القسطنطينية، و عبد الله البطال و عمرو بن عبيد الله و علي بن يحيى الأرمني و العريل بن بكار و أحمد بن أبي قطفة و قرنياس البيلقاني صاحب مدينة ابريق (ازنيق؟) و حرس خادس أخت قرنياس و يازمان الخادم في موكبه، و الرجال حوله و أبو القاسم بن عبد الباقي. و من رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي و معيوف بن يحيى الحجوري من أهل دمشق و المغيرة بن عبيد الأزدي الخراساني ولي غازية البحر في أيام يزيد بن عبد الملك.

وصف أسطول شامي:

و للبحترى قصيدة في مدح أحمد بن دينار يصف فيها مركبا كان اتخذه و هو والى البحر و غزا فيه بلاد الروم. قال العسكري في ديوان المعاني:

لم يصف أحد من المتقدمين و المتأخرين القتال في المراكب إلا البحترى، و عدوا قصيدته هذه من عيون قصائده و فضلوا على كثير من الشعر و هي التي يقول من جملتها:

و لما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبق إلا لفته المتذكر
و خاطر شوق ما يزال يهيجنا للبادين من أهل الشام و حَضَّر
إلى أن قال:

و لما تولى البحر و الجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف إلى التدبير فضل شجاعه و لا عزم إلا للشجاع المدبّر
إذا شجروه بالرماح تكسرت عواملها في صدر ليث غضنفر

غدوت على «الميمون» صباحا و إنما غدا المركب الميمون تحت المظفر
خطط الشام، ج ٥، ص: ٣٩ أطلّ بعطفه و مرّ كأنما تشرف من هادي حسان مشهر

إذا زمجر النوتى فوق علاته رأيت خطيبا في ذؤابة منبر

يغضون دون الإشتيام عيونهم و فوق السماط للعظيم المؤمّر

إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لها جناحا عقاب في السماء مهجّر

إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته تلفع في أثناء برد محبّر

و حولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين و حشر

تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حد الحديد المذكور
 إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شواء مقتر
 صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللظى المتسعر
 يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صيف من جهام و مطر
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
 تقارب من زحفهم فكأنما تؤولف من أعناق وحش منفر
 فمارمت حتى أجلت الحرب عن طلي مقطعة فيهم و هام مطير
 على حين لا نقع، تطوَّحه الصباو لا أرض تلفى للصريع المقطر
 خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٠ و كنت ابن كسرى قبل ذاك و بعده مليتا بأن توهى صفاء ابن قيصر
 جدحت له الموت الزعاف فعافه و طار على ألواح شطب مسمر
 مضى و هو مولى الريح يشكر فضلها عليه و من يول الصنيعة يشكر
 إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
 تعلق بالأرض الكبيرة بعدما تقنَّصه جرى الردى المتمطر

سواحل الشام و نقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء:

كانت سواحل أجناد الشام كثيرة، و لكن الصناعة صناعة المراكب كانت فى صور و عكا و طرابلس على الأ-كثر. و سواحل جند حمص فى الإسلام انظرطوس و بانياس و اللاذقية و جبلة، و سواحل جند دمشق عرقة و طرابلس و جبيل و بيروت و صيدا و حصن الصرند و عدلون، و سواحل جند الأردن صور و عكا، و سواحل جند فلسطين قيسارية و أرسوف و يافا و عسقلان و غزة، و سواحل جند قنسرين الإسكندرونه و السويدية. و على امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ أنه أغير عليها إلا- من البر، و ما جاءها من الحملات البحرية فى عدة أدوار و لا سيما على عهد الإسكندر و الرومان و الصليبيين و الأتراك أو الأسطول الإنكليزى سنة (١٧٩٩ م) و الأسطول الدولى سنة (١٨٤١) و أسطول الحلفاء سنة (١٩١٨) لم يكن فى الحقيقة إلا ثانويا أريد به ذك بعض المواقع الحربية بنيران السفن أو ضمان جلب الذخيرة أو عدم قطع خط الرجعة من البر.

و ذكر قدامه أنه كان يجتمع إلى مراكب الشام التى كانت تغزو من الثغور الشاميه مراكب الشام و مصر من الثمانين إلى المائة، و إذا عزموا على الغزاة فى البحر كوتب أصحاب مصر و الشام فى العمل على ذلك و التأهب له ليجمع بجزيرة قبرس، و يسمى ما يجتمع منها «الأسطول» كما يسمى ما يجتمع من الجيش فى البر «المعسكر»، و المدبر لجميع أمور المراكب الشاميه خطط الشام، ج ٥، ص: ٤١

و المصرية صاحب الثغور الشاميه، و مقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر و الشام نحو مائة ألف دينار. و ذكر المقريزى أن أول ما أنشئ الأسطول بمصر فى أيام المعتصم سنة (٢٣٨) فأنشئت الشوانى برسم الأسطول و جعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، و اجتهد الناس فى تعليم أولادهم الرماية و جميع أنواع المحاربة و انتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، و كان لا ينزل فى رجال الأسطول جاهل بأمر الحرب، و قد قويت العناية بالأسطول على عهد المعز الفاطمى، فكانت المراكب تنشأ بمدينه مصر و إسكندرية و دمياط من الشوانى الحربية و الشلنديات و المسطحات و تسير إلى الساحل مثل صور و عكا و عسقلان. و كانت جريدة قواد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد و لهم رواتب دارة، و كانت عدة المراكب السائرة فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة و آخر ما صارت إليه فى آخر الدولة نحو مائة قطعة.

و لقد اتخذ المسلمون المناور البحرية لهداية السفن على الشواطئ الشامية، و كانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الأعداء إن قدموا بحرا، فأهل دمشق يرابطون في بيروت، و أهل القدس في الرملة أو يافا، و أهل حمص في طرابلس، و كان لقرية كفر سلّام من قرى قيسارية في فلسطين رباطات على البحر يقع فيها النفير، و تقلع إليها شلنديات الروم و شوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، و في كل رباط قوم يذهبون في الرسالات، و يحمل إليهم أصناف الأطمعة و يضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم، فإن كان الوقت ليلا أوقدت منارة ذلك الرباط، و إن كان نهارا دخوا، و من كل رباط إلى القصبه عدة منائر شاهقه، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم إلى التي تليها ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا و قد أنفر بالقصبه، و ضرب الطبل على المنارة، و نودى إلى ذلك الرباط و خرج الناس بالسلاح و القوة و اجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلا و آخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشتري ما معهم. و رباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة، ميماس، عسقلان،

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٢

ماحوز، أسدود، ماحوز بينا، يافا، أرسوف- قاله المقدسى. و الماحوز هو المكان الذي بينهم و بين العدو، و فيه أساميهم بلغه الشام، و منه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا. و كانت حيفا تشارك هذه الموانى في صنع المراكب و تسمى الأبنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجوذى إشارة إلى سفينة نوح التي استوت على الجوى فى الجزيرة.

و كانت الحروب سجلا بين المسلمين و الروم، ينال المسلمون من العدو و ينال العدو منهم، و يأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على موانى العدو، و كان أول فداء وقع فى الإسلام أيام بنى العباس، و لم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور، و إنما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشام و مصر و غيرها، إلى أن كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الأول باللامس من سواحل البحر الرومى قريبا من طرسوس فى سنة تسع و ثمانين و مائة على يد القاسم بن الرشيد و هو معسكر بمرج دابق من قنسرين، ففودى بكل أسير كان بالروم من ذكر و أنثى، و حضر هذا الفداء من أهل الثغور و غيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان بأحسن ما يكون من العدد و الخيل و السلاح و القوة و قد أخذوا السهل و الجبل و ضاق بهم الفضاء، و حضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى معهم أسارى المسلمين، فكان عدة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوما ثلاثة آلاف و سبعمائة أسير، و جرى الفداء فى أدوار مختلفة. ذكر هذا المقريزى ثم عدد ما وقع من الفداء فى أوقات مختلفة إلى القرن الرابع و كان أكثر عدد من فودى به فى خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر و أنثى.

الأساطيل فى القرون الوسطى:

و معلوم ما كان من أسطول الفاطميين من المنافع فى زمن الحروب الصليبية فكان ينجد المسلمين فى عسقلان و يافا و صور و بيروت و طرابلس و جبله و اللاذقية. و كانت أساطيل الفاطميين فى الساحل مرتبة فى عسقلان و عكا و صور و غيرها و ذلك قبل أن يغلبهم الصليبيون على الساحل. و كان الأسطول من جملة العوامل فى بقاء الأمل باسترجاع ما جرى احتلاله من الأرض

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٣

و كان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات، و فى العادة أن الأسطول إذا غنم ما عساه أن يغنم لا يتعرض السلطان منه إلى شىء البتة، إلا ما كان من الأسرى و السلاح فإنه للسلطان، و ما عداهما من المال و الثياب و نحوهما فإنه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد.

و لم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك البحرية و دولة المماليك البرجية فى إنشاء السفن الحربية و التجارية، و إن كانت عنايتهم بجيوشهم البرية أكثر، و ما كان الصليبيون ينالون من المسلمين فى الساحل إلا يوم تصل سفنهم من موانى الغرب و يكثر عددها، حتى إذا أقلت و خلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلعة من الثغور، أو يمد من يجب إمداده من المسلمين فى الساحل

الشامى، و على الرغم من المعاهدات التى عقدت بين أصحاب مصر و الشام و بين أمراء ايطاليا و اسبانيا و البرتقال، بعد القضاء على الصليبيين فى الساحل، فإن بعض الفرنج و الروم عادوا إلى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا و بيروت و طرابلس، و لما غزوا إسكندرية سنة (٧٤٧ هـ) ارتأى رجال الدولة فى مصر أن يعمرؤا من غابة بيروت مراكب كثيرة، حمالات و شوانى، للدخول إلى قبرص، فأحضروا الصناع من جميع المماليك، و عمروا مسطبة بظاهر بيروت، و كانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر و أحضر الجند من دمشق فأنزل بين البحر و المراكب حذرا من مراكب صاحب قبرص لئلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب، و عملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) و الثانية باسم (قراجا) و هما أميران من أمراء ذلك الوقت، ثم أهمل الأسطول إلى أن جاء الجنوبية (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) إلى صيدا و أخذوها ثم جلوا منها، ثم عادوا فغزوا بيروت و رمى الفرنج المسلمين بالجروح و المدافع. - روى ذلك صالح بن يحيى.

و كانت جزيرة قبرص مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لأنها مفتاح الشام، و هى تعد من بحره و قطره، و لذلك كان إذا استولى عليها صاحبها من الروم و قوى سلطانه صانعه صاحب مصر و الشام، و إذا استضعفه أسروه
خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٤

و حملوه إلى العاصمة فأهانوه و أذلوه. و كان ملك إنكلترا، أو ملك الإنكتار كما يقول مؤرخنا فى الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة، و قد جعلها ريشاردس قلب الأسد لما جاء بأسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين قاعدة أعماله الحربية البحرية. فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه، و كيف يتسلسل الفكر فى الغرب و ينقطع فى الشرق بانقطاع من يتدعه و يؤسسه.

و كان الجنوبية و البياسنة و البنادقة من سكان سواحل إيطاليا قد استولوا على البحار فى تلك العصور كما استولت عليها بريطانيا العظمى فى العصرين الأخيرين، و كانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط يأتون بعض السواحل الشاميه يغزونها، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية و الاعتماد فى نقل الجيوش من مصر و الشام على طريق البر لأنه أسلم، اللهم إلا- فى أوقات مخصوصة من السنة و عندما يضافى ملوك الفرنجة و الروم و صاحب قبرص. و ظلت العناية بالأساطيل على عهد حكومات المماليك تختلف باختلاف عقل السلطان المتغلب، و تفرغ ذهنه لصيانته مملكته من الطوارئ الخارجية.

أما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصا و أهل الشام ما برحوا منذ الزمن الأطول أمة تمارس الأسفار البحرية، و تعرف من أين تؤكل الكتف فى المتاجر، و قد شوهدت آثار تجارتها حتى فى جزائر بريطانيا و بلاد النروج و فنلندة و معظم سواحل البحر المتوسط.

و كانت الحروب الصليبية معلمة لأهل أوربا على طريق البحار إلى الشرق، و معلمة لأهل الشام على اختراق العباب إلى أوربا، و كل ذلك على سفن و مراكب حفظت أمثلة منها فى متاحف البحرية فى الغرب و لا سيما فى إيطاليا و فرنسا و إسبانيا. و كانت السفن الحربية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغرئة و البسطات و الأعواديات و البركوشات و الشلنديات و المسطحات و الحراريق (الحراقات) و اليخوت و الشوانى و القراقير. و لكثرة اختلاط النواتية و الملاحين من أهل الشام و غيرهم من السواحل الإسلامية بأبناء حرفتهم النازلين على الشاطئ المقابل للشاطئ الإفريقي و الشامى، أخذ الفرنج كثيرا من المصطلحات البحرية عن العرب، و نقلوها إلى لغاتهم محرفة مرخمة، و لا تزال إلى اليوم تقرؤها فى معاجم اللغات اللاتينية خاصة، و منها «أمير الماء» فحرف

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٥

منها الفرنج و صاغوا لفظ «اميرال» و الأصل فيها أمير الماء أى الربان الأعظم و قائد الأسطول، و قد أخذ الفرنج من العرب استعمال إبرة السفينة (الحك أو الحقنة) و كان العرب أخذوها عن الصينيين فيما قيل و أخذها الفرنج عنهم فى الحروب الصليبية.

و لما فتح العثمانيون الشام و مصر كان الأسطول العثمانى فى إبان قوته، و كانت بعض سفنهم تقلع من موانى الروم و تأتى ساحل الشام، و بعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر، و إذا حدث فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام و تشاطى الأرض التى نجم فيها الشر، حتى إذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة- و لا سيما بعد أن أحرق أسطولها و الأسطول المصرى فى

نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة (١٨٢٧) أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمرآها للأمم الحديثة، ولا سيما الروسيون والجنوبيون والبنادقة والفرنسيون والإنكليز، وقلت سفن البرتغاليين والإسبانيين لأن طرق مستعمرات هاتين الدولتين و تجارتها لم تكن على بحرنا، وسفنهم تمخر العباب إلى وجهات أخرى في أميركا وآسيا. والغالب أن الصناعة أي صنع المراكب كان خاصا بالإستانة ولم يعهد في دور العثمانيين أن أنشأوا سفنا في صناعات الشام. وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام إلى العراق، ولا سيما في زمن الثورات والأزمات، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي.

وانحلت بحرية الترك في أواخر أيامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام إلا على الندر مراكب عثمانية، وهي إذا قيست إلى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الأمم المتحركة المتجددة و بحرية الأمة الجامدة الخاملة.

و كانت الدولة إن صحت عزيمتها في أواخر أيامها أن تنشئ لها طرادا أو رعدا أو غواصة أو دارعة أو يختا، توصى عليه في صناعات إيطاليا أو فرنسا أو إنكلترا، لأن العلم بذلك فقد من بينها، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري، كما سارت مع العصر في الجيش البري، بمعنى أن الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة بريه فقط، وكانت تجمع المزييتين

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٦

البرية والبحرية أيام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب، ويتمنى عظماء ملوكها أن يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها و جيوشها. وقد ظهر في حرب چناق قلعة الأخيرة مثال من ترقى بحرية الحلفاء، و نموذج من ترقى جيش العثمانيين، و استبسال قوادهم و ضباطهم و أفرادهم.

و في مغادرة الحلفاء ذاك الشاطى بعد أن أضاعوا زهاء مئة ألف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة و زيادة اعتراف ضمنى للعثمانيين بتفوقهم بجيوشهم البرية، و أن العسكرى التركى من خير جنود الأرض صبورا و إقداما على الموت.

قصورنا في البر و البحر:

و من الغريب أن أهل الساحل، و منهم قسم يفتخر بأنه من نسل الفينيقيين سادة البحار، لم تتعلق همهم على كثرة ما بلغه الشامى من درجات الغنى و التمدن في مهاجره، أن ينشئوا لهم أسطولا تجاريا صغيرا على النحو الذى تفعل أضعف الشعوب لتغدو و تروح على الأقل بين سواحل البحر المتوسط و البحر الأحمر و البحر الأسود، يحملون عليها متاجرهم و ينقلون قاصديهم و أبناءهم، و يعتمدون عليها في نقل صادرات القطر و وارداته، على الصورة التي كانت لليونان قبل أن ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة، فكان لهم أسطول تجارى قلبوه أسطولا حريا يوم استقلوا. و أغرب من هذا أن يقال للقطر الشامى إنه مستقل، و ما شوهدت قط في قديم و لا حديث، أمة مستقلة لا أسطول لها و لا معسكر. و هذا من أغرب ما يدونه المدونون، من أخبار هذه القرون. و لا سبب لذلك إلا أن بعض أهل الساحل يفضلون أن يعيشوا عبيدا على أن يعيشوا سادة مستقلين، و كانوا يرون أن فرنسا حاميتهم و المحمى أبدا مقطور في ذنب حاميه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٧

الجباية و الخراج

جبايات القدماء:

عزّ علينا الظفر بنص صريح في أصول الجباية عند الأمم القديمة التي انبسط سلطانها على هذا القطر، و غاية ما عرفنا عن الرومان و هي الأمة الأعرق في المدنية من غيرها و التي طال عهدها سبعمائة سنة، أنه كان يقضى على الشعب الشامى أن يؤدى الجزية و عشر غلاته،

و إتاوة من المال، و رسما على كل رأس. و للشعب الرومانى مواد مهمة من الجمارك و المناجم و الضرائب و الحقول الصالحة لزراع الحنطة و المراعى يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين، يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج. و فى كل ولاية عدة شركات من العشارين و لكل شركة مستخدمون من الكتاب و الجباة يظهرون فى مظهر السادة، و يتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه، و يسلبون نعمه الأهلين، و كثيرا ما يبيعونهم كما يباع الرقيق. و لما كان الرومان قد جمعوا ثروة الأمم المغلوبة أصبحت الدراهم كثيرة جدا فى روميه، و نادرة جدا فى الولايات، فكان يتيسر فى رومية الاقتراض بفائدة أربعة أو خمسة فى المائة، أما فى الولايات فلا يقل عن اثنى عشر فى المائة.

و إذا لم يستطع المدين أن يوفى رأس المال و رباہ يعمد الصيارف فى تقاضى أموالهم إلى الطرق التى يستعملها العشارون. أوجز أحدهم السياسة الامبراطورية فى الرومان بقوله: «الراعى الصالح يجزّ صوف غنمه و لا ينتفه» فمضى قرنان و أباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم، يسلبون منهم كثيرا من الأموال و لكنهم يحمونهم من العدو الخارجى.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٨

و يقول لامنس: إن الرومان ضربوا الجزية على أهالى الشام، على الذكور من سن الرابعة عشرة و على الإناث من الثانية عشرة إلى سن ٦٥ من عمرهم جميعا و فرضوا عليهم خراجا جبوه من الأملاك يبلغ فى المئه واحدا و رسموا أيضا ضرائب و مكوسا على الواردات و الصادرات من السلع إلا- أن هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عاتق الشاميين من المغارم و السخر التى حملهم إياها ملوكهم سابقا، و كانوا يتقاضونها دون نظام معلوم و فى أى آن شاءوا. اه.

و فى قاموس الكتاب المقدس أن العشار ملتزم الأعشار و الضرائب عند الرومانيين و كانوا مشهورين بالظلم و الصرامة، و أن التعشير جرى قبل أيام موسى بكثير بين الأمم القديمة و لا سيما الآسيوية و أدخلها موسى بإلهام إلهى فى شريعته و أعطيت العشور للاويين الذين لم يكن لهم نصيب من الأرض فالتزموا أن يأخذوا معاشهم من إخوتهم، و كانوا يعشرون البقر و بقية المواشى و لم يكن عشر الأعشاب مطلوبا إلا أن الفريسيين كانوا يعشرون النعنع و الشبث و الكمون. أما الجزية على ما يؤخذ من روايات التوراة فقد علم أن الشريعة الموسوية كانت تفرض على كل معدود نصف شاقل ينفق فى سبيل خيمة الاجتماع، و فى الأيام الأولى من تاريخ العبرانيين إلى أيام الملوك لم تكن للخدمة المدنية و العسكرية و إنما قدم الشعب من عمله و مقنياته تبرعا حتى جعل الملوك جزية أو خراجا على الأرض و أكمل ذلك سليمان إلى درجة ثقيلة جدا على الشعب.

الجباية فى الإسلام:

اعتمدت العرب أول الفتح فى تنظيم دواوين أموالها على الروم فى الشام، ينظرون لهم فى مسائل الدخل و الخرج، و وضع التوازن بحسب عرف تلك الأيام، و ذلك لأن العرب كانوا لأول أمرهم نصف أمين أو نصف متحضرين و أهل الشام أعرق منهم فى الحضارة و ما ينبغى لها، حتى كان زياد يقول:

ينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بامور الخراج.

و لقد كان الإسراف يبدو فى الأموال أيام الترف و النعيم، و يتجلى الاقتصاد فيها على عهد الجدّ و الإصلاح، و ذلك يرجع على الأغلب إلى من يتولى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٤٩

أمر الأمة من خليفه أو سلطان أو ملك أو أمير، فإذا صلح الرأس صلح الجسد كله. و إذ كانت دواعى الإنفاق محصورة فى الداخل، و كان النقد أقل من هذه الأيام بالطبع، و التفتن فى ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه فى القرون الأخيرة، و حركة المعاملات و المقايضات محدودة، و أضعف من العصور الحديثة- كانت المسائل المالية لعهد العرب إلى السداجة لأول الأمر شأنهم فى عامة

أمورهم.

و الجباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، و آخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة، فإن كانت الدولة على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات و الخراج و الجزية، و هي قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل، و كذا زكاة الحبوب و الماشية، و كذا الجزية و الخراج و جميع المغارم الشرعية و هي حدود لا تتعدى، و إن كانت على سنن التغلب و العصبية فلا بد من البداوة في أولها، و البداوة تقتضى المسامحة و المكارمة و خفض الجناح، و التجافى عن أموال الناس و الغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر. قال: و الدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف و عوائده، فيكون خرجها و إنفاقها قليلا، و يكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجتهم، ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، و يكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغه، فيزيد في مقدار الوظائف و الوزائع، و يستحدث أنواعا من الجباية يضربها على البياعات، و يفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق، و على أعيان السلع في المدينة.

ضروب الجباية:

كانت الجباية في الصدر الأول تجمع من الخراج و العشور و الصدقات و الجوالى أى إن لها أربعة موارد رئيسة، ثم صارت أصول جهات

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٠

الأموال السلطانية عشرة: الجزية و الخراج و العشور و الأجور و الزكوات و أثمان المبيعات و المقاسمات و الغنيمه و الفىء و المعادن. و زادت أنواع الجباية على عهد الانحطاط و نسي المتغلبون أو الفاتحون «أن تكثير المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه».

قال الظاهري: إن كثرة الأموال و قتلها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة، و متاجر معشرة، و أخرجة محضرة، و عشور محررة، و قسم مقدره، و غنائم موفرة، و فىء من جهات غير منحصرة، هذا إلى زكوات واجبة، و أجور لازمة، و ديات دماء ذاهبة، و محرر مباحات راتبه، و مستخرج معادن غير ناهية، و عداد نعم سائمة لا سائبة، و وظائف على أكره عاملة ناصبة، إلى غير ذلك من تربع مزارع، و توزيع قطائع، و توسيع مراتع، و تفريع مواضع، و ترجيع طوابع. فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها، و مكن من استيفائها بسلوك طريقها و منهاجها، و فوض فيها حقوقا تجب رعايتها، عند صرفها و إخراجها اه و قال الغزالي: و كل ما يحمل للسلطان سوى الأحياء و ما يشترك فيه

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥١

الرعية قسمان: قسم مأخوذ من الأعداء و هو الغنيمه المأخوذة بالقهر.

و الفىء و هو الذى حصل من مالهم فى يده من غير قتال. و الجزية و أموال المصالحة و هى التى تؤخذ بالشروط و المعاقدة. و القسم الثانى المأخوذ من المسلمين فلا- يحل منه إلا قسمان. الموارث و سائر الأموال الضائعة التى لا يتعين لها مالك. و الأوقاف التى لا متولى لها. أما الصدقات فليست توجد فى هذا الزمان- أى فى القرن الخامس- و ما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين و المصادرات و أنواع الرشوة كلها حرام. و قال أيضا: إن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها و كيف لا- و الحلال هو الصدقات و الفىء و الغنيمه لا وجود لها، و ليس يدخل منها شىء فى يد السلطان و لم يبق إلا الجزية و إنما تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به.

فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ و المأخوذ منه، و الوفاء له بالشرط.

ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، و من المصادرات و الرشى و صنوف الظلم لم يبلغ عشر

معشار عشيرة.

أول ما فرض من الجباية:

عرف أول شيء من المال فرض على أهل دومة الجندل من الكتاب الذي أرسله النبي مع حارثة بن قطن الكلبى من أهل دومة الجندل يقول فيه: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى أهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامته من النخل، على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر، لا تمنع سارحتكم، ولا تعد فاردتكم، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، لا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر النبات، لكم بذلك عهد الله والميثاق، ولنا عليكم النصح والوفاء و ذمة الله و رسوله. شهد الله و من حضر من المسلمين اه.

و اختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور. و كان لأول الفتح ضرب الخراج على الأرض و الجزية على الرقاب، و راعى الخليفة الثانى حال الشام فعمل فى نواحيها غير ما عمل فى غيرها من الأرضين التى فتحت فى عهده،

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٢

راعى كل أرض ما تحتمله و كانت الجزية فى بدء الأمر ديناراً فى كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب أربعةً دانير، و على الورق أربعين درهماً، و جعلهم طبقات لغنى الغنى، و إقلال المقل، و توسط المتوسط، و قيل: جعل على كل رأس موسر ثمانيةً و أربعين درهماً و من الوسط أربعةً و عشرين درهماً و من الفقير اثني عشر درهماً. و الجزية تؤخذ من غير المسلمين. و الخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً.

و صالح أبو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على أن تترك لهم كنائسهم و بيعهم، و عليهم إرشاد الضال، و بناء القناطر على الأنهار من أموالهم، و أن يضيفوا من مّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام. و صالحهم عمر على ضيافة من مّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون و لا يكلفهم ذبح شاة أو دجاجة، و تبيت دوابهم على غير شعير و جعل ذلك على أهل السواد دون المدن.

و لما مسح عمر السواد وضع على كل جريب عامر أو غامر يناله الماء بدلو أو بغيره زرع أو عطل درهماً و قفيزاً واحداً. و ألغى عمر النخل عوناً لأهل السواد. و أخذ من جريب الكرم عشرة دراهم، و من جريب السمسم خمسة دراهم، و من الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم، و من جريب القطن خمسة دراهم، ثم حمل الأموال على قدر قربها و بعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً، و على كل مائتى جريب مما بعد ديناراً، و على كل ألف أصل كرم مما قرب ديناراً، و على كل ألفى أصل كرم مما بعد ديناراً، و على الزيتون على كل مائة

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٣

شجرة مما قرب ديناراً، و على كل مائتى شجرة مما بعد ديناراً، و كان غاية البعد عنده مسيرة اليوم أو اليومين و أكثر من ذلك، و ما دون اليوم فهو فى القرب، و حتمت الشام على مثل ذلك. و قد ذكر عن بعض أهل المدينة و أهل الشام أنه تخرج زكاة الخضر من أثمانها على حساب مائتى درهم خمسة دراهم. أما المكوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الأعصار و كانت قليلة فى العهد الأول. كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعري أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم، و ما زاد على المائتين فمن كل أربعين درهماً درهم، و من تجار أهل الخراج نصف العشر و من تجار المشركين ممن لا يؤدى الخراج العشر أى من أهل الحرب.

أول من وضع العشر عمر لقوله عليه الصلاة و السلام: ليس على المسلمين عشر و إنما العشر على اليهود و النصارى و قال: يا معشر العرب احمداوا الله الذى وضع عنكم العشر. و لا- تؤخذ الصدقات إلا- مرة فى السنة إلا- أن يجد الإمام فضلاً. و كانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الأقباض و يقسمونها بين الفاتحين. و أمر عمر عثمان بن حنيف لما أرسله لمسح السواد أن لا يمسح تلا و لا أجمه

ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء. و لما فرض على الرقاب و جعل على من لا يجد أى الفقير اثنى عشر درهما فى السنة قال: درهم فى الشهر لا يعوز رجلا. و كان يأخذ الجزية من أهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم و كذلك فعل على. ذكروا فى الفىء و الخراج أن من صولحوها إذا عجزوا يخفف عنهم، و إن احتملوا أكثر من ذلك فلا- يزداد عليهم، و إن تظالموا فيما بينهم حملهم إمام المسلمين على العدل، و وضع ذلك الصلح عليهم جميعا بقدر ما يطيقون فى أموالهم و أراضيهم، و لا يطرح عنهم شىء لموت من مات و لا لإسلام من أسلم منهم، و يؤخذ بذلك كل من بقى منهم ما كانوا يطيقونه و يحتملونه. كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق: أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن الناس سألوكم أن تقسم بينهم مغانمهم و ما أفاء الله عليهم، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أوجب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، و اترك الأرضين و الأنهار لعمالها ليكون ذلك فى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٤

أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقى بعدهم شىء، و قد كنت أمرتك أن تدعو الناس إلى الإسلام فمن أسلم و استجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم و له سهم فى الإسلام، و من استجاب لك بعد القتال و بعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين و ماله لأهل الإسلام لأنهم قد أحرزوه قبل الإسلام اه.

و لما طعن عمر قال: أوصى الخليفة من بعدى بأهل الأمصار خيرا، فإنهم جباة المال، و غيظ العدو، و رداء المسلمين، و أن يقسم بينهم فيئهم بالعدل، و أن لا يحتمل من عندهم فضل إلا بطيب أنفسهم، و أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة و أن يوفى لهم بعهدهم و أن يقاتل من ورائهم و أن لا يكلفوا فوق طاقتهم. و كان كثيرا ما يصادر عماله و يجعل أموالهم فى بيت المال. و لما ولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص و ما يليها أمره بوضع الخراج و الرفق بالرعية

و قد ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب خمسمائة ألف دينار.

فلما أفضى الأمر إلى معاوية قطع الوظائف على أهل المدن فوظف على أهل قنسرين أربعمائة و خمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلاثان. و على أهل دمشق أربعمائة و خمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلاثان.

و على الأردن مائة و ثمانين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلاثان، و على فلسطين مثل ذلك. ثم جعل بعد ذلك يصطفى الأرض الجيدة و يدفعها إلى الرجل بخراجها و علوجها و الخراج على أصله لا ينقص منه شىء.

عهد الأمويين:

و الإقطاع إقطاعان: إقطاع تملك و هو موات و عامر و معادن، و إقطاع استغلال و هو عشر و خراج. و اللقاح البلد الذى لا يؤدى إلى الملوكة الأربان و الأربان هو الخراج و هو الإتاوة. قال مكحول: كل عشرى بالشام فهو مما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه و كان مواتا لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة. و أول من أقطع الأرضين و باعها عثمان و لم يقطعها أبو بكر و لا عمر و لا على.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٥

و كانت الجباية تقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شىء كثير منه لخط أو زلزال أو وباء. و كان عمال معاوية يحملون إليه هدايا النيروز و المهرجان فيحمل إليه فى النيروز و غيره و فى المهرجان عشرة آلاف ألف. و هدايا النيروز و المهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة و العطاء و ورث العيالات على ما جرت به السنة. غير أنه أقر القطائع التى أقطعها أهل بيته، و العطاء فى الشرف لم ينقصه و لم يزد فيه، و زاد أهل الشام فى أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى أن ينكثها و سماها مظالم. و كتب إلى عماله عامه: «أما بعد فإن الناس قد أصابهم بلاء و شدة و جور فى أحكام الله و سنن سيئته سنتها عليهم عمال سوء قلما قصدوا قصد الحق و الرفق و الإحسان».

و بقى العطاء (الرواتب) على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمى يزيد الناقص.

و بينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد التنوخي و كان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها: و يحك يا أسامة إنك تأتي قوما قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم. كان سليمان يقول لعامله أسامة: احلب حتى ينفيك الدم. فإذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح، لا تبقيها لأحد بعدى. فعمل أسامة في مصر أعمالا جائرة حتى استخرج من أهلها اثني عشر ألف ألف دينار.

و لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة جعل لا يدع شيئا مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة. خطب على المنبر ذات يوم فقال: أما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم و ما كان ينبغي لهم أن يعطونا إياها، و إنى قد رأيت الآن أنه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب، و قد بدأت بنفسى و الأقربين من أهل بيتى. اقرأ يا مزاحم، فجعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا فيه الإقطاعات بالضياع و النواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم أى المقراض. و لقد اجتمع إليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على أخذ ما في

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٦

أيديهم من حقوق الناس ورده على أهله و كلموه فقال: إنكم أعطيتم في هذه الدنيا حظا فلا تنسوا حظكم من الله، و إنى لأحسب شطر أموال بنى الدنيا و أمه محمد فى أيديكم ظلما، و الله لا تركت فى يد أحد منكم حقا لمسلم و لا معاهد إلا رددته. و قال لبنى مروان: أدوا ما فى أيديكم من - حقوق الناس و لا تلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبنى فقال رجل منهم: و الله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آباءنا فنفقر أبناءنا، و نكفر آباءنا، حتى نزايل رؤوسنا فقال عمر: أما و الله لو لا- أن تستعينوا عليّ بمن اطلب الحق لهم لأضرت حدودكم عاجلا، و لكننى أخاف الفتنة، و لئن أبقانى الله لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله. و كان عمر إذا نظر إلى بعض بنى أمية فيما روى قال: إنى أرى رقابا سترد إلى أربابها.

وضع عمر بن عبد العزيز المكس عن كل أرض، و وضع الجزية عن كل مسلم، و أباح الأحماء كلها إلا النقيع. و فرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين و سوى بين الناس فى طعام الجار. و كان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أراذب و نصف لكل إنسان.

و كتب إلى أحد عماله أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم أو معاهد فردها عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم. و ما زال يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف و قد أخرج من أيدي ورثة معاوية و يزيد بن معاوية حقوقا.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة و من قبله من المسلمين و المؤمنين: أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم و إذا كبر الرجل منهم و ليس له مال فأنفق عليه فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه، و قاصه من خراجه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بدّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق. و كتب إليه: ضع عن الناس المائدة و النوبة و المكس، و لعمرى ما هو المكس و لكنه البخس الذى قال فيه الله و لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ و لا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ*. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه و من لم يؤد فالله حسيبه. و حرم عمر بن عبد العزيز الكلا فى كل أرض.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٧

و لم يزل رأيه و الذى يشير به على من ولي هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على أهله فكانوا لا- يفعلون ذلك، فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة، و آثر به أهل الحاجة من الأحماس حيث كانوا، فإن كانت الحاجة سواء وسع فى ذلك بقدر ما يبلغ الخمس، و إنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام و إنه أعطى بطريقا ألف دينار استألفه على الإسلام. و أمر أن لا يؤخذ من المعادن الخمس، و تؤخذ منها الصدقة، و أنكر التسخير فى سلطانه، و ضرب أحدهم أربعين سوطا لأنه سخر دواب النبط. و

مما كتبه إلى أحد عماله: أما بعد فخل بين أهل الأرض و بين مبيع ما فى أيديهم من أرض الخراج، فإنهم إنما يبيعون فىء المسلمين و الجزية الراتبه. و كتب بإباحة الجزائر و قال: إنما هو شىء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد.

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال: كم جمعت من الصدقة فقال: كذا و كذا قال: فكم جمع الذى كان قبلك قال كذا و كذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك فقال عمر: من أين ذاك قال: يا أمير المؤمنين إنه كان يؤخذ من الفرس دينار و من الخادم دينار و من الفدان خمسة دراهم و إنك طرحت ذلك كله قال: لا و الله ما ألقيته و لكن الله ألقاه. و كتب:

إنى ظننت أن جعل العمال على الجسور و المعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به. و قد رأيت ان أجعل فى كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس فى الجسور و المعابر. و كتب إلى عامله أن لا تقاتلن حصنا من حصون الروم و لا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكف عنهم، و إن أبوا فالجزية فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء. و فى عهد عمر بن عبد العزيز و قد أصبحت عادة للخلفاء «إذا جاءتهم جبايات الأمصار و الآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس و أجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار و لا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار و لا درهم إلا أخذ بحقه، و أنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة و الذرية، بعد أن أخذ كل ذى حق حقه»

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٨

أى فضل أعطيات الأجناد و فرائض الناس. أما من جاءوا من قبل و من بعد من بنى أمية فكانوا أشكالا و مشارب منهم الجماعة و منهم المبدد. فقد كان فى بيت مال الوليد يوم قتل سنة (١٢٦ هـ) سبعة و سبعون ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها. و ذكر المؤرخون أن الوليد بن عبد الملك بن مروان أقطع جند أنطاكية أرض سلوقية عند الساحل و صير إليهم الفلثر بدينار و مدى قمح فعمروها و أجرى ذلك لهم و بنى حصن سلوقية. و الفلثر مقدار من الأرض معلوم كما يقول غيرهم الفدان و الجريب.

عهد العباسيين و مساحة الشام:

و عدل أبو جعفر المنصور أرض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمى و كان أداء الناس على ذلك. و كان الخلفاء من بنى العباس يعمدون إلى إبطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها و لا- يقطعون أمراً بدون أخذ آراء جلة الفقهاء فى عصرهم. فقد أمر المعتضد سنة (٢٨٣) بالكتابة إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام الموارث إلى ذوى الأرحام و أبطل ديوان الموارث. و خلف المعتضد هذا فى بيوت الأموال تسعة آلاف دينار و من الورق ألف ألف درهم. و قد كنت ترى فى أيام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً و تجد ظلماً شائناً فى دور آخر، فعهد الرشيد و المأمون و المهدي و الظاهر كان عجباً فى العدل و انتظام الجباية. فقد كتب المأمون سنة (٢١٨) إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق فى التقدم إلى عماله فى حسن السيرة و تخفيف المؤونة و كف الأذى عن أهل عمله قائلاً: فتقدم إلى عمالك فى ذلك أشد التقدم، و اكتب إلى عمال الخراج مثل ذلك. و كتب إلى جميع عماله فى أجناد الشام جند حمص و الأردن و فلسطين بمثل هذا.

و المهدي افتتح أمره بالنظر فى المظالم و بسط يده فى العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور و هو ستمائة ألف ألف درهم و أربعة عشر ألف دينار سوى ما جباه فى أيامه. و المأمون أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة أرض الشام و اجتلب لتعديله مساح العراق و الأهواز و الرى و كان جده أبو جعفر

خطط الشام، ج ٥، ص: ٥٩

المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقيه بن الوليد ليمسح أراض دمشق كما كان بعث إسماعيل بن عياش إلى دمشق فعدل أرضها الخراجية و عدل أحمد بن محمد أرض دمشق و الأردن و كان على ديوان الخراج سنة (٢٤٠) و حمل كل أرض ما تستحقه. و قال المسعودى: احتال كتاب الدواوين على المتوكل لخوفهم منه و قالوا: إن البلد يحتاج أن يعدل و لا يقوم بالتعديل إلا من ولى ديوان

الخراج فتوجه سنة (٢٤٠) يعدل دمشق و الأردن.

قال الرشيد للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد: ولتتك دمشق و هي جنه تحيط بها غدر، تتكفا أواجهها على رياض كالزراي، واردة منها كفايات المؤمن إلى بيوت أموالى، فما برح بك التعدى لإرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر و أوحش من القفر. قال: و الله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته، و لكن و ليت أقواما ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا فى ميدان التعدى، و رأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار الملك و أنوه بالشنعة على الولاة، فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتى اه. و فى أيام الرشيد رفضت ضياع فى فلسطين و تركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوما من مزارعيها و أكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم و تلين معاملتهم فرجعوا فأولئك أصحاب التخافىف، و جاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه، فهم أصحاب الردود.

و المهدي أول من نقل الخراج إلى المقاسمة و كان السلطان يأخذ عن الغلات خراجا مقررًا و لا يقاسم و جعل الخراج على النخل و الشجر. و أعاد الظاهر من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه شيئا كثيرا و أطلق المكوس فى البلاد جميعها و أمر باعادة الخراج القديم و أن يسقط جميع ما جده أبوه، و كان كثيرا لا يحصى، و فى أيام أبيه خربت العراق و تفرق أهله.

خربت العراق و ما إليها من الأمصار و الأقطار للشدة فى تقاضى الجباية و التفنن فى الضرائب و عدم إطرادها على وتيرة واحدة. و كثيرا ما كان الناس يعذبون فى الخراج، و قد وقع ذلك فى أوائل

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٠

دولة الأمويين بالشام، فأخذ جباه الجزية يعذبون بعض أهل الذمة، و يجعلونهم فى الشمس ساعات عقوبة لهم، فنهى عن ذلك الفقهاء و بطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم. و نص الفقهاء أنه لا- يؤخذ شىء من نصرانى اتجر فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها و لم يخرج منها، و إذا خرج من بلاده إلى غيرها من بلاد المسلمين تاجرا لم يؤخذ منه مما حمل قليل و لا كثير حتى يبيع. و قال مالك فى النصرانى يكرى إبله من الشام إلى المدينة: يؤخذ منه فى كرائهم العشر بالمدينة قال: لا. فإن أكرى من المدينة إلى الشام راجعا يؤخذ منه.

و يؤخذ من أهل الحرب ما صالحوا عليه فى سلعهم و يؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم. ذكروا أن عمر بن الخطاب قال لأهل الذمة الذين كانوا يتحرون إلى المدينة: إن اتجرت فى بلادكم فليس عليكم فى أموالكم زكاة و ليس عليكم إلا جزيتكم التى فرضنا عليكم، و إن خرجتم و ضربتم فى البلاد و أدررت أموالكم أخذنا منكم و فرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم، فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة و لا يكتب لهم براءة مما أخذ منهم كما تكتب للمسلمين إلى الحول فىأخذ منهم كلما جاءوا، و إن جاءوا فى السنة مائة مرة و لا يكتب لهم براءة بما أخذ منهم.

و فعل معاوية بالشام و الجزيرة و اليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع و تصييرها لنفسه خالصه و أقطعها أهل بيته و خاصته و هو أول من كانت له الصوافى فى جميع البلاد. قال البلاذرى: و كانت وظيفة الأردن التى أقطعها معاوية مائة ألف و ثمانين ألف دينار، و وظيفة فلسطين ثلاثمائة ألف و خمسين ألف دينار، و وظيفة دمشق أربعمائة ألف دينار، و وظيفة حمص مع قنسرين و الكور التى كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة ألف دينار و يقال سبعمائة ألف دينار. و كان ارتفاع الشام سنة (٢٠٤ هـ) و هى أول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة ألف و ستين ألف دينار، و ارتفاع قنسرين و العواصم و ارتفاع جند حمص مائتى ألف و ثمانية عشر ألف دينار و ارتفاع جند دمشق مائة ألف و عشرة آلاف دينار، و ارتفاع جند الأردن مائة ألف و تسعة آلاف دينار، و ارتفاع جند فلسطين مائتى ألف و تسعة و خمسين ألف دينار.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦١

قال اليعقوبى: إن خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة ألف دينار، و خراج جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار، و يبلغ

خراج جند فلسطين مع ما صار في الضياع ثلاثمائة ألف دينار، و خراج خمس سوى الضياع أيضا مائتي ألف و عشرين ألف دينار. و كان خراج الأردن زمن عبد الملك بن مروان مائة و ثمانين ألف دينار، و كان خراج قنسرين على عهد المأمون أربعمائة ألف دينار، و من الزيت ألف حمل، و خراج دمشق أربعمائة ألف دينار و عشرين ألف دينار، و خراج الأردن سبعة و تسعين ألف دينار، و خراج فلسطين ثلاثمائة ألف دينار و عشرة آلاف دينار، و من الزيت ثلاثمائة ألف رطل.

قال المقدسي: كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين و العواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الإقليم ثلاثمائة ألف و ستين ألف دينار، و على الأردن مائة ألف و سبعون ألف دينار، و على فلسطين مائة ألف و تسعة و خمسون ألف دينار، و على دمشق أربعمائة ألف و نيف. و أنت ترى أن الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور و الأدوار و التقلبات الجوية. و من الأراضي الخراجية و العشرية التي تدفع العشر لأنها مما فتحه المسلمون عنوة قال أبو يوسف: كل أرض اقتطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الخراج، إلا أن يصيرها الإمام عشرية، و الشام في ذلك كمصر و العراق، و لأنها كلها فتحت عنوة.

قال الغزالي: إن الأموال المنصبة إلى الخزائن المعمورة أربعة أصناف:

الصنف الأول ارتفاع المستغلات و هي مأخوذة من أموال موروثة له. و الصنف الثاني أموال الجزية. و الصنف الثالث أموال التركات. و الصنف الرابع أموال الخراج. فهذه هي الأموال المأخوذة و أخذها جائز و يبقى النظر في مصارفها و هي مع اختلاف جهاتها تحويها أربع جهات و فيها تنحصر مصالح الإسلام و المسلمين. الجهة الأولى المرتزقة من جند الإسلام. الجهة الثانية علماء الدين و فقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فإنهم حراس الدين بالدليل و البرهان، كما أن الجنود حراسه بالسيف و السنان. و الجهة الثالثة محاييج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال و طوارق الزمان عن اكتساب قدر

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٢

الكفاية. الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات و القناطر و المساجد و المدارس. و هذا وجه الدخل و الخراج.

و كانت عادة الخلفاء من بني أمية و بنى العباس و الفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تجبي أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الأمراء و العمال و الأجناد على قدر رتبهم و بحسب مقاديرهم، و كان يقال لذلك في صدر الإسلام العطاء، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، و فرقت الأرضون إقطاعات على الجند، و أول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين، و ذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه، فعمرت البلاد و كثرت الغلات، و اقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع و ثمانين و أربعمائة إلى أوائل القرن التاسع - قاله المقرئزي.

و ما عدا الأرض التي كان الملوك يوغرونها أي التي يدفع عنها أربابها قدرا من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج، و ما خلا الإقطاعات التي يستأثر بها أصحابها من أرباب الدولة و لا يؤدون عنها خراجا و عدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب و عدا الصوافي، و أحدها صافية، و هو ما يستخلصه السلطان لخاصته أو هي الأملاك و الأرضون التي جلا عنها أهلها أو ماتوا و لا وارث لها - ما عدا هذا كان هناك نوع من الأرضين يسمى إلجاء أي يلجأ صاحب الأرض إلى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه، تعززا به من عمال الخراج حتى لا يجوروا عليه، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكا لذاك الكبير.

و كان العادلون من الملوك يعاقبون الملجئين و الملجأ إليهم، و لكن الناس يلجئون أملاكهم عند أرباب الصولة. و كم من مرة خربت الشام أو صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها. ذكروا أن الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الخراج سنة (٤٠٧) لأنها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة، و أن ألب أرسلان لما ولي إمرة حلب رفع عن أهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم و أن ابن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن أهل حلب و المؤمن و الكلف و أبطل ما جدده الظلمة من الجور و الرسوم المكروهة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٣

تحري العدل في الدولتين النورية و الصلاحية:

و الغالب أن المكوس و الضرائب كثرت أواخر حكم العباسيين و العبيديين في الشام. و بقيت رسوم كثيرة أبطلها نور الدين، و أبطل أبق الصوفي الأقساط في دمشق و ما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة. قال ابن أبي طى:

إن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين و الذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع و ستين و خمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار و ألفى ألف اردب، سامح بذلك و أبطله من الدواوين و أسقطه من المعاملين، و كذلك فعل أخوه أبو بكر بن أيوب فإنه أبطل كثيرا من المظالم و المكوس و طهر بلاده من الفواحش و الخمور و القمار، و كان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصا مائة ألف دينار، و لما دخل صلاح الدين دمشق سنة (٥٧٠) أزال المكوس و اقتصر في جميع الأقاليم على الرسوم التى يبيحها الشرع و هى الخراج و الأجر و الزرع، و كذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكى فإنه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ و سوق الغنم و الكيالة و غيرها.

و مع كثرة احتياج الدولة للمال زمن نور الدين و صلاح الدين كانت الجباية إلى الرفق في الجملة، فأطلق نور الدين المكوس و الضرائب و اكتفى بالخراج و الجزية. و أسقط صلاح الدين فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق و ضياع الغوطة و المرج و جبل سنير و قصر حجاج و الشاغور و العقيبة و مزارعها، و لما فتح حلب أطلق المكوس و الضرائب و سامح بأموال عظيمة و منها ما هو على الأثواب المجلوبة، و منها ما هو على الدواب المركوبة، و منها ما هو فى المعاش المطلوبة» و مما كتب عنه من منشور «إن أشقى الأمراء من سمن كيسه و أهزل الخلق، و أبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس و سماه الحق».

قال ابن أبي طى: حدثنى كريم الدولة بن شرارة النصرانى و كان مستوفى دار حلب يومئذ أنه عمل ارتفاع سنة تسع و ستمائة فى الأيام الظاهرية، دون البلاد الخارجية عنها و الضياع و الأعمال، فبلغ ستة آلاف و تسعمائة ألف و أربعة و ثمانين ألفا و خمسمائة درهم قال:

و مما أحطت به علما فى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٤

أيام الملك الناصر أن ارتفاعها على القاعدة فى الارتفاع فى آخر دولته ستة و أربعين صنفا و سطر المجموع ب ٣٠٥، ٠٠٠، ٧ درهم، و كان مسافة ما بيد مالك حلب فى أيامه و هو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى من المشرق إلى المغرب مسيرة خسة أيام و من الجنوب إلى الشمال مثل ذلك و فيها ثمانمائة و نيف و عشرون قرية ملك لأهلها ليس للسلطان فيها إلا مقاطعات يسيرة و نحو مائتى قرية و نيف مشتركة بين الرعية و السلطان. و هو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الإقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات إلى قلعها عبا و جبوبا ما يقارب فى كل يوم عشرة آلاف درهم، و قد ارتفع فى سنة (٦٢٥) من جهة واحدة و هى دار الزكاة التى تجبى فيها العشور من الفرنج و الزكاة من المسلمين و حق البيع سبعمائة ألف درهم.

الضرائب زمن الأتراك و الشراكسة:

لما قبض الأتراك و الشراكسة على زمام الأحكام فى الشام فى القرن السابع و الثامن و التاسع كانت المكوس كثيرة جدا و زادوا هم و تفتنوا فى ضرورها حتى صعب إحصاؤها و حفظها، و منهم من أبطلها و أحسنوا لأنفسهم و لرعاياهم و أبطل الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥) ضمان الحشيشة و أمر بإحراقها. و قد أبطل الظاهر برقوق فى جملة ما أبطل من المظالم و المكوس فى الشام ضمان المغانى أى المغنين و المغنيات فى الكرك و الشوبك. و ضمان المغانى كان معروفا فى مصر فأبطل سنة (٧٧٨) زمن الأشرف قلاوون أبطله من جميع أعمال مملكته و كان عبارة عن مال كثير مقرر على المغانى من رجال و نساء يؤدونه كل سنة إلى الخزانة. و أبطل الناصر قلاوون ضمان المغانى أيضا و هو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، و كان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال.

و كانت مراسيم المماليك تصدر الحين بعد الآخر بإبطال بعض الرسوم و الضرائب، و لكن مع هذا تجد من الأمراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير، دع سائر أسباب الثروة من ناطق و صامت. و قد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية، و هو الذى قطع دابر النواب العصاة الذين أخربوا غالب الديار الشامية، و أحدث فى أيامه أشياء كثيرة من أبواب خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٥

المظالم لما كان يخرج إلى التجاريد. و الخروج إلى التجاريد أو الحملات كان من جملة الأسباب التى تتهيا لمالوك الشراكسة ليسلبوا الناس أموالهم و لا تكلف التجريدة أقل من نصف مليون دينار. فإذا جرد السلطان فى حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك فى هذه السبيل عشرة ملايين تصل إلى خزنة السلطان حتى يجبى مثلها من الرعايا المساكين.

و فى سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالا عظيما من جليح الأملاك و الأوقاف بدمشق و ظاهرها و أخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر أموالها ثلث ضمانها و أخذوا من القرى التى لزراعة القمح و الشعير و القطن و الحبوب على نسبة مغل سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فعظم ذلك على الناس و هرب خلق كثير و استخفى جماعة، و الذين وقعوا بأيديهم قطعوا أشجار الباقين و أباعوها حطبا بحيث أباعوا القنطار الدمشقى بثلاثة دراهم. فكان خراب الغوطة بهذا السبب، و من شدة الطلب و كثرة الظلم و الجور.

فى سنة ٧٠٢ سامح الناصر قلاوون بالبواقي فى ذم الجند و الرعايا بالشام و صدر بذلك منشور بخط العلامة كمال الدين محمد الزملكاني من انشائه و قرىء على المنبر بالجامع الأموى و جملة ذلك من الدراهم ألف ألف و سبعمائة ألف و سبعة و أربعون ألفا و مائة و خمسون درهما و من الغلال المنوعة تسعة آلاف و أربعمائة و اثنتان و أربعون غرارة و من الحبوب مائتان و ثمان و عشرون غرارة و من الغنم خمسمائة رأس و من الفولاذ ستمائة و ثمانية أرطال و من الزيت ألفان و ثلاثمائة رطل و من حب الرمان ألف و ستمائة رطل. و فى سنة ٧١٧ سومح بمكوس على جهات مستحقه من المحاكم الطرابلسية و ابطال المنكرات و منها بيع الخمر جهارا. و فى سنة ٧١٤ أمر الملك المؤيد صاحب حماة جميع نوابه أن لا يقبل أحد حماية لأحد، بل الكل متساوون فى الحقوق و دفع ما عليهم، و ذلك لأن الاسماعيليين كانوا فى مصياف لا يدفعون لسلفه أموالا بدعوى الحماية فأخذت الأموال من الجميع. و فى سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة إلى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية أى يمسحها و يعين عليها مالا كما فعل

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٦

فى الأقاليم الشامية فراكوا جميع الديار الحلبية و الشامية و أبطل فى هذه السنة مكوس الغلة، و كان مبلغا عظيما يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم و نصف.

و من جملة ما أبطلوه فى أدوار مختلفه من الرسوم، و هو ما نوره مثلا- من حالة تلك الأيام، ما أبطله برقوق مما كان متقرا على البردارية فى كل شهر من المال، و ما كان يأخذه السماسرة على الغلال و الكيالة، و ما كان مقرا لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر و الولاية بغلة أو ثمنها خمسمائة درهم. و أبطل المنصور قلاوون من جملة ما أبطل من المظالم وظيفه ناظر الزكاة، و هو أن يؤخذ ممن عنده مال زكاته، فإن مات الرجل صاحب المال أو عدم ماله يبقى ذلك القدر المقرر عليه فى الدفاتر، يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه و لو بقى منهم واحد.

و فى سنة ٧٦٥ صدر مرسوم عن نائب المملكة الطرابلسية إلى نائب حصن الأكراد بإبطال ما أحدث فى الحصن من الخماره و الفواحش و إلزام أهل الذمة بما أجرى عليه أحكامه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. و فى سنة (٧٩٦) أبطل نائب السلطنة بالقدس المكوس و المظالم و الرسوم التى أحدثها قبله النواب، و نقش بذلك رخامة ألصقت على باب الصخرة، و أبطل الأشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس، و أبطل المكوس و الضرائب عن سائر أصناف الغلة بجميع الشام.

و تجد إلى اليوم على السوارى الأربع القائمة فى مدخل جامع بنى أمية بدمشق من الغرب أربع وثائق فى إبطال المكوس كتبت كل

وثيقة على سارية. تاريخ الأولى سنة (٨٤٣) على عهد قايتباي الحمزاوى كافل الممالك الشامية أبطل بها الرسم المقرر على الأسواق و الطواحين و غيرها من المكوس بدمشق. و الثانية كتبت سنة (٨١٥) و هى مما أمر به الظاهر جقمق بإبطال المكوس على الأقمشة الحمصية و فرع الأردية و فرع القطن و غيرها. و الثالثة بتاريخ سنة (٨٥٢) تقول بأنه ورد مرسوم الظاهر جقمق بإبطال بعض المكوس و منها التمر و العفص و السمك البورى و الحنا و القماش المصرى و الرابعة فيها ذكر القلى و الخروج و القلقاس و جلود الجاموس و الماعز.

خطط الشام، ج٥، ص: ٤٧

و كانت العادة أن تنقش على الرخام صورة الأمر الصادر من الملك فى رفع مثل هذه المظالم، فقد نقش الظاهر ططر رخامة و ألصقها على باب الجامع الأموى بدمشق بإبطال ما كان لنائب الشام على المحتسب فى كل سنة، و كذلك أبطل فى القدس ما كان يجبى لنائب القدس فى كل سنة من المال، و نقش ذلك على رخامة و ألصقها بباب الجامع الأقصى. و فى سنة (٧٤٦) كتب على باب قلعة حلب و غيرها من القلاع ما مضمونه: مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندى و ذلك أحد عشر يوما و بعض يوم فى كل سنة، و هذه مسامحة بمال عظيم، و كتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس، و هذا التفاوت أيام الدوران ما بين السنين الشمسية و القمرية.

و كثيرا ما كان يصدر الأمر فى زمن الشراكسة بجمع الذهب إذا قل أو الفضة و تسليمها إلى الملك ليضرب بها سكة و نقودا، و كثر فى أيامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيرا، و يصاب الناس فى الشام و مصر بخسائر فادحة، و كثيرا ما كانوا يخسرون ثلث أموالهم لأن بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة و ينزلون عيار الذهب، فكانت المصيبة بالفضة و الذهب لعهدهم كالمصيبة بالأوراق النقدية لعهدنا، كل يوم فى ارتفاع و انخفاض.

[غنى الشام و المكوس]

كانت أيام الشراكسة فريدة بثروة عمالها، و الغالب أن الواحد منهم كان يأخذ رزق ألوف و لكن الثروة كانت شيئا كثيرا فى تلك الأيام محصورة فى الأفراد.

و كانت المكوس على البضائع الصادرة و الواردة تؤخذ فى الحدود بين الشام و الروم، و كثيرا ما كان الروم إذا قويت شوكتهم فى الشام يقيمون فى حلب رجلا- منهم لأخذ مكس البضائع كما جرى فى القرن الرابع. و كان للصليبيين فى الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم، و تجار النصارى يؤدون فى أرض المسلمين على سلعمهم، و كانت تؤخذ ضرائب الصادرات و الواردات ببيروت، و هى جملة مستكثرة، و كان على باب الميناء دواوين و عامل و ناظر و مشارف و شاد، يوليهم نائب دمشق المتوفر

خطط الشام، ج٥، ص: ٤٨

عن المرتبات يحمل إليها، و لم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب.

فى سنة (٨٢٤) أمر الناصر بإبطال مكس القمح ببلاد الشام كلها و كان يؤخذ على كل إردب ثلاثة دراهم و كان المتحصل عن ذلك فى كل سنة ألف ألف و مائتى ألف درهم نقرة و أزيد. و نودى فى المحرم سنة (٨٣٧) بمرسوم السلطان بأن يبطل طرح السكر و أن ينقش ذلك فى الجامع الأموى و القلعة و دار السعادة قال الأسدى: فنقش ذلك و على الظن الغالب أنهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان. و ترى إلى اليوم فى جامع حلب الكبير عدة سوار فى إلغاء الرسوم فالسارية الأولى كتب عليها إن الملك دمر داش أبطل سنة (٨١١) مكس البيض من المملكة الحلبية. الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة (٨٥٢) ما كان يؤخذ ظلما من الدلالين فى سوق الحراج. الثالثة فى سنة (٨٤٦) بإبطال الظاهر جقمق مكس الكتان. الرابعة سنة (٨٤٦) بإبطال ما كان يؤخذ من أهل سرمين. الخامسة

بتاريخ سنة (٨٥٧) يبطل مكس الزيتون من قرى عزاز. السادسة سنة (٨٦٤) يبطل ما تجدد على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم، و أن لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية. وغيرها يبطل مكس السلاح في سوق السلاح، ومنها ما كتب سنة (٨٨٢) يبطل مكس الملح الداخل مدينة حلب، ومنها يبطل ما على الدباغين بدير كوش من المكس، ومنها ما صدر سنة (٨٩٣) يبطل ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الحناوية، ومنها ما صدر سنة (٩٠٢) يبطل ما كان يؤخذ من مكس القطن، ومنها ما صدر سنة (٩٠٢) يبطل مكس المسك و الزعفران و منها يبطل مكس السماق، و منها يبطل ما هو معين عن ختم القماش العراقي و الدمشقي و القدسى. و معظم هذه الأوامر مسطوره على الأعمدة مشفوعة بجملة ملعون بن ملعون من جددها أو أعادها إلى غير ذلك، و منها كان الله و رسوله خصمه يوم القيامة.

و الظاهر أن الرسوم في طرابلس لا يجبي مثلها في حمص، و ما كان في القدس لا عهد لحلب به، و ما في دمشق لا مثل له في المدن الأخرى.

ففى مدخل جامع طرابلس أمر يبطل المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح و اللحم و الخبز و الفراخ و غير ذلك،

خطط الشام، ج ٥، ص: ٦٩

و ذلك فى أيام أبى النصر شيخ سنة (٨١٧) و فى مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس يبطل منع استيفاء رسم الدخان، و ما يستأديه من يكون متكلماً فى ديوان الحجوية الكبرى و أستاذدارية الديوان الشريف من سكر و خل و غير ذلك، و من طرح الصابون و الزيت و البلس (البوتاس) و من جميع ما يحدث من ديوان النيابة و الديوان الشريف و غيرها و من جميع الكلف و المخادم الجارية بها العادة قديماً و الحادثة مستقبلاً، و على حائط مدرسة الشمسية أمر كتب سنة (٨٢٦) يبطل الأشرف برسباى ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد و رسم الأشرف يبطل التحكير بالخانات و المكوس على الحطب و التبن و غيره و جهه بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموى و نقش به رخامة. و أبطل المقر السيفى نائب السلطنة بحمص سنة (٨٤٤) جميع ما أحدث فى حمص من ظلمات الحرير و الصوف و البر و الخبز و الزيت و كتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك و فيها اسم السلطان جقمق.

و فى سنة (٨٤٦) سومح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة و خراج الكروم مسامحة مستمرة على الدوام و نقش رخامة على حائط الجامع الكبير.

و فى سنة (٨٥١) أبطل ما تجدد على عوام القدموس و الكهف و المينفة و العليقة و الخوايى من الثياب الخام و دورة الأستاذدار. و فى سنة (٨٥١) أبطل الظاهر المظالم من القدس و نقش بذلك بلاطة و ألصقت بحائط المسجد الغربى عند باب السلسلة و أبطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس و نقش بذلك رخامتين و جهزهما إلى القدس و ألصقتا بحائط المسجد الأقصى (توفى سنة ٨٧٢).

و فى مدرسة طرابلس رسم يبطل ما على النخيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة و قدره فى كل يوم ثمانون درهما، و يبطل معلوم كتابة السر أحد و عشرون درهما، و معلوم الحجوية ثلاثة عشر درهما و فى حائط تلك المدرسة أيضا كتابة بتاريخ (٨٨٨) يبطل المظالم و هى الطروحات التى كانت تطرح على التجار و المتسبين بمدينة طرابلس و ذلك عن الصابون و الكرم و الزيت و غير ذلك. و فى سنة (٨٨٨) أبطل مكس الدواليب و الحرير و القصابة بالكهف و القدموس و أبطل مكس نخيرة البقر و الجاموس و قطع الضأن و قرم الأساكنة بالقدموس و الخوايى و على ذلك الحائط كتب سنة

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٠

(٩٠٩) يبطل المظالم و الحوادث عن فلاحى الوقف و أن لا يكزبوا فلاحى الوقف إلا الجزية الشرعية و المال المقرر و فى سنة (٨٢١) أبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس و كتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة (٨٧٠) أن لا يؤخذ من تجار حماة و غيرها من

السمسرة و الترجمة إلا ما جرت به العادة القديمة و هي على الألف عشرة دراهم لا غير و أن لا يتناول الأجرة إلا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل، و منع النصارى من الترجمة و السمسرة، و أن لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال. و ألغى الغورى المكس عن حاكة حمص.

تفنن الشراكسة فى اقتضاء الأموال:

و بذلك رأينا أن إلغاء المظالم و المغارم كان على أشده فى آخر أيام الشراكسة و كان من أسوأ ملوكهم شعبان، قال المؤرخون فيه: إنه كان متطلعا إلى جمع المال و فتح باب قبول البدل فى الإقطاعات و الوظائف و جعل لذلك ديوانا قائما بالذات و كان يعين البدل فى المناشير و هو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها.

و الخلاصة فإن الشراكسة تفننوا فى طرح المكوس. و من غريبها فى أيامهم مكس القرعان و ذلك أن شخصا من المماليك الشراكسة كشف رأسه فى سنة (٨٣٠) بين يدى السلطان فإذا هو أقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلنى والى القرعان يا مولانا السلطان، فأجابه السلطان إلى ذلك و أخرج له مرسوم سلطانى له و أن يكون شيخ القرعان و خلع عليه خلعة فصار يدور فى الأسواق و الحارات و يكشف رؤوس الناس، فمن وجده أقرع يأخذ منه دينارا حتى أعيان الناس فضج الناس منه و شكوه للسلطان فضحك و نادى بالأمان للقرعان و أن كل شيء على حاله، و كسب ذلك الرجل فى هذه الحركة مالا عظيما.

قال الأسدى: و يكشف فى كل سنة مقدار الارتفاع و مقدار المصروف و مهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولاً- للخزائن الشريفة بالديار المصرية، و يرفع منه ما يدخر فى القلاع الحصينة لما يحتاج إليه عند حوادث الزمان. و كان يتحصل من كل مملكة من المال

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧١

(أى من ممالك الشام) ما يوفى بمصروف ذلك العمل، و يبقى من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج إليها.

الأموال أوائل العهد العثمانى:

و أمّلت الأمة بدخولها فى حوزة الترك العثمانيين، أن ترى أيام رغد و سعادة، لأنها دولة جديدة تتحامى ما أمكن الأغلاط التى وقعت فيها الحكومة قبلها، و لكن جاء الأمر على العكس من ذلك على ما تراه. لما فتح سليم العثمانى الشام و مصر قال و قد ملأ خزائنه من أموال الشراكسة بعد أن كان فى ضائقة شديدة اضطر معها إلى الاستدانة من بعض التجار: إنى ملأت الأنابير بالذهب، و كل من يستطيع من أخلافى أن يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه، و لإفتقى الخزينه السلطانية مختومة بطابعى.

و جعل السلطان سليم على دمشق مالا معينا قال ابن طولون: قيل قدره مائتا ألف دينار و ثلاثون ألف دينار. و ذكر النجم الغزى أن هذا السلطان تفنن فى ضرب المكوس و من جملة المكس على المومسات فتأسف العقلاء و أكبر الأمر أهل الدين و الورع. و كان خراج إيالة الشام كله يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان إبراهيم و كان الجابى يأتى دمشق فيجيبها بنفسه، لأن نساء القصر لم يكنن يأمن أحدًا من الولاء و المتصرفين على جبايتها من الأمة. فتأمل إيالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها و أزيائها.

الخراج و العثمانيين:

و ذكر مؤلفو الترك أن إقطاع الشام كله كان مسانهاة مليون اقجة

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٢

ولأمير لوائها من مئتين إلى ثلاثمائة ألف اقجه وفيها ١٢٨ زعامه و ٨٦٦ إقطاعا و عدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان. و كانت إيالة طرابلس و ارتفاعها السنوي خمسمة يوكات و لديوان الخاص من ٢١٠ إلى ٣٩٠ ألف اقجه و حاميتها من الفرسان ١٤٠٠ و إيالة حلب و خراجها ثمانمائة و سبعة عشر ألف اقجه و ديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ ألف اقجه و في هذه الإيالة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ إقطاعا و حاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها أولاد رمضان حكام أذنه. و كانت الدولة تستوفى نصف إيراد الشام على عهد سليمان الأول أعنى في سنة (٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م) ٢٠٠،٠٠٠ دوكا و الدوكا عشر اقجات و البارة ثلاث اقجات و تصرف الباقي على محافظة البلاد.

و ما برحت الحال المالية في هذه الديار في إداره، و هي تبع للوالى الذى يتولى زمام الحكم. فقد ذكروا أن والى الشام رفع في سنة (٩٩٤) المظالم و أبطل المكوس الزائدة، فأبطل مكس الخمارات، و كان هذا المكس لكل من كان حاكما على الشام، ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة. و اليسق كبير الإنكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للأغا و للباشا و يكون في باب صاحب الشحنة، يقطع الجرائم، و يدفع المال عن أربابه، يريح دينارا عثمانيا كل يوم، فإذا كانت الجريمة خمسين دينارا مثلا دفعها عنم أزم بها، و له ربحها في كل يوم خمسون عثمانيا، فإذا بقيت عليه أياما حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه، حتى لا يقدر على الوفاء و التخلص منها، فإن كان له أسباب أو عقار أو وقف أو غير ذلك باعها أو ملكها لذلك اليسق كيفما أراد، فأدى ذلك إلى تمويل الإنكشارية و تملكهم كثيرا من الأملاك، و أبطل اليسق من باب القاضى، و رتب الإنكشارية مالا على البضائع المجلوبة، و أبطلت المكوس التى كانت تؤخذ على اللبن الداخلى إلى دمشق و على الموازين.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٣

و فى سنة (١٠٠٤) طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة و عتيقة، و طالبوا الإسرائيليين بمال عظيم. و كثيرا ما كانت الحكومة تطلب المال قبل استحقاقه، و تسلب أموال الصيارف و المرابين، بحجة الاستدانة منهم، و حدث أن بعض الأمراء و الملوك صادروا النصارى و اليهود خاصة كما فعل الملك الأشرف قايتباى فصادروهم مرتين فى أيامه. و غزم أحمد حافظ باشا سنة (١٠١٨) كافل الشام أموالا- طائلة، و صادر جماعات فى دمشق و أخذ أموالا منهم بغير حق، و كانت المصادرة عامة تتناول من كان فى صندوقه مال أيا كان مذهبه.

و فى سنة (١٠٠٨) تولى محمد باشا ولاية دمشق و أمر بتغيير المعاملة فيها، و جعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة، زنه كل قطعة قيراطان و نصف قيراط، و هبطت الأسعار و حصل الرخاء و كان الأمير بشير الشهابى فى لبنان كالأمير فخر الدين المعنى يحب البذخ، و قد ضاعف خراج لبنان أربعة أضعاف.

و فى كتاب صادر عن أحمد بن محمد المولى بنابلس سنة (١٠٣٠) أن يتصرف المستحفظ بمدينة نابلس و لوائها فى جميع متحصلات القرى و الخرب الكائنة بالجبل القبلى و الشامى و بنى صعب و القرى و الخرب المقاطع عليه سابقا، من شتوى و صيفى و زيتون و خرنوب و عداد و رجالية و خراج و أعشار و أغفار و سائر المتحصلات الشرعية و العرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامة بدمشق الشام على الأمانة و أن يتحضر للخزينة العامة سبعة آلاف سلطانيا ذهبا.

و فى سنة (١٠٣٥) طلب المال من الأمير يونس الحرفوشى أمين بعلبك عن سنة (١٠٣٣ و ١٠٣٤) فقال: إن المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكه حسنة، و أنه لا يستطيع ضمانها إلا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لأداء نفقات الحج الشريف و مال العلوقة أعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ٣٤ و لكن لم يتحصل منها سوى سبعة آلاف قرش. أما سنة ٣٣ فلا يمكن تحصيل شىء منها لأن ابن معن خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية فى تلك الأيام.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٤

وهكذا انقضى القرن الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر فى سلسله مغارم و مظالم، فقد تولى أحمد باشا الجزائر دمشق سنه (١٢٠٠) و لم يرتح شهرا واحدا من طلب المال ظلما، و من طرح النقود و طرح البضائع المتنوعه، ينهبها من جهات و يطرحها على أخرى بأسعار زائده. و من مظالمه أنه إذا وجد قتيل فى أحد الأنهار يلحقون جميع القرى التى تشرب من ذاك النهر، و يأخذون منهم مالا غزيرا، و كان لا عمل له إلا القبض على الأغنياء و مصادرتهم على أشبع صورة فصدق فيه قول الشاعر:

قد بلينا بأمر ظلم الناس و سبج

فهو كالجزار فيهم يذكر الله و يذبح

قال ابن آق بيق فى حوادث سنه: (١٢١٧) شغل الشام بالظلم و إكراميه الباشا، و اشتغل حسن آغا بالظلم فى دمشق و إرهاب القرى بالطروحه و الإكراميات و إقراض الذخائر و معاونه الجرده و غير ذلك من المظالم التى لم يسمع لها أثر فى السابق.

و قال ابن عابدين: إن غالب الغرامات الواردة على القرى فى هذا الزمان (أى فى أوائل القرن الثالث عشر) ليس لحفظ أملاك، و لا لحفظ أبدان، و إنما هى مجرد ظلم و عدوان، فإن غالب مصارف الوالى و أتباعه، و عمارات منزله و منزل عساكره، و ما يدفعه إلى رسل السلطان الواردين بأوامر و نواه و أمثال ذلك كله يأخذه من القرى و يسمون ذلك بالذخيره، تؤخذ فى بلادنا فى السنه مرتين، و يزيد فيها دراهم كثيره رشوة لأعوانه و حواشيه من أعيان البلده، و قد جرت العاده بقسمه ذلك كله على عدد فدان القرية، و تارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية، فمن كان له فدان مثلا يؤخذ منه ما يخصه أو من له ساعه يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلا أو امرأه أو صيبا، و كذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين فى القرية الذين لا ملك لهم فيها.

و مما اخترعه العثمانيون «الزعامة» و هى عبارة عن قرى يقطعها من

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٥

يعطاها و تخمن على الأقل بعشرين ألف درهم عثمانى كل سنه، و اخترعوا «العوارض» و هى مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت فى الشام فى كل سنه.

و يقال: إنها من محدثات الظاهر بيبرس أشار إليها الأكرمى بقوله:

لحا الله أيام العوارض إنها هموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لها صدرى و إنى لشاعر ضليع و بيتى ما عليه عوارض

قلنا: و هذا من جملة الدواعى التى انتقلت بها فى القرن الماضى قرى و مزارع كثيره فى سهول الشام و جباله إلى أرباب النفوذ، فخرج أهلها عن ملكها، و رضوا بالاستعباد على أن يكونوا أحرارا مالكين. و ذلك فرارا من ظلم الحكومه و تخلصا من الضرائب الثقيله التى لا تتحملها نفس بشرية. و لطالما قصّ الشيوخ علينا قصة الطلبة يوم تدق فى قريتهم، و يجيء أعوان الظلمه لأخذ المظالم من أهلها، و كان الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لهم قديمه.

الجباية على عهد المصريين و المقابلة بين طريقتهم و طريقة العثمانيين:

كان الأجنبى فى حكم إبراهيم باشا المصرى يعطى رسوم جمارك و ضرائب أقل مما يدفع الوطنى. و لذلك اضطر بعض التجار إلى ابتياع حماية الأجانب حتى يستطيعوا أن يتجروا، كتب اللورد دوفرين إلى حكومته سنه (١٨٦٠) يقول: فى مقدمه أسباب ضعف الإدارة العثمانية فى الشام، أن الباب العالى كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كإيالة أجنبية يقتضى الانتفاع منها ما أمكن، و لذلك طرح منصبها فى المزاد و لم يول عليها إلا الزائد الأخير.

و من الطبيعى أن كل وال جديد لم يكن يفكر إلا فى تعويض ما دفعه من المال، و بجمع الثروة فيسلب أهالى ولايته لدن وصوله،

مبتزا منهم الأموال و مثقلا كاهلهم بالضرائب الجديدة. و بعد أن ذكر كيف كان الوالى يرشى جماعة الإستانة لتستقيم له الولاية مدة، يواصل فيها استنزاف الأموال و إملاء جيوبهم بها قال: فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق، و ابتزاز أموال لا تحصى، و تعاقب على الإيالة ولاة غير أكفاء للمنصب، جاثرون مرتشون طماعون فى جمع المال، لا تشبع بطونهم، خالون من أدنى اهتمام بالمصلحة العامة اه. خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٤

تبدلت الأوضاع الإدارية فى هذا القطر مرات على عهد العثمانيين و فى سنة (١٢٧٢ هـ) كانت تقسم إلى إيالتين إيالة دمشق و إيالة صيدا، و دخل الأولى التى هى عبارة عن دمشق و مرج الغوطه و وادى العجم و وادى بردى و جبل قلمون و حماة و حمص و بعلبك و معرة النعمان و عجلون و البقاع و حاصبيا و راشيا و حوران و جبل الدروز و حصن الأكراد و القنيطرة و ايكى قبولى، من الخراج و الأعشار و البديل العسكرى و الرسوم المختلفة ٨٠٥، ٤١ أكياس يضاف إليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة إلى الأوقاف و ذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة و حوران و حمص و جبل الدروز و حصن الأكراد و معرة النعمان و عجلون عينا من الأعشار و الرسوم، و هو ٧٥٩، ١٨ إردبا من القمح و ٨٨٤، ٢٥ إردبا من الشعير و ٩٥١ من الذرة ٣٩٣، ١٣ اوقه سمن و ٣٢٠ اوقه حرير و ١٣٠٠ رأس غنم. و كان دخل إيالة صيدا و قائم مقاميتى لبنان الدرزية و المسيحية و يدخل فيها بيروت و طرابلس و اللاذقية و نابلس و عكا و حيفا و ساحل عتليت و الأفضية الشمسية ١٥٤، ٣١ كيسا ما عدا المستوفى عينا من القمح و الشعير و الذرة و الكرسنة و السمسم و العدس و السمن و الزيت و الفيلج و القطن. و كان مجموع دخل إيالة دمشق ١٨٥ ألف ليرة على ذاك العهد و إيالة صيدا ٥٠ ألفا و كان لبنان يؤدى للدولة سنويا ٣٥٠٠ كيس جزية و خراجا.

رأى إنكليزى فى إعانات البلاد بالضرائب:

كتب المستر برانت قنصل إنكلترا فى دمشق إلى سفير دولته فى الإستانة عن حالة إيالة دمشق فى ١٤ حزيران (١٨٥٨) من كتاب ما يأتى: «إن الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية، على أن استتباب الأمن و عدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيا لإقناعه أن فى وسعه تحمل وقرها دون أن يرزح تحتها، و كان الدخل يدار بنزاهة و اقتصاد و لدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد و تقوم بكل نفقات إدارة الإيالة المتوقع ازديادها تدريجا، أما حالة اليوم (أى على عهد الحكم التركى) فهى على عكس ما تقدم من خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٧

جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا- يطاق مع أنها أقل من قبل و الأمن مفقود، و الدخل يقل كل يوم لإهمال القرويين حراثة الأرضين، و كل ما يتم جمعه ينفقه بإسراف أو يسرقه الموظفون، و الأموال اللازمة لإدارة الحكومة تطلب من الإستانة، و صار من الجلى أن المالية تزداد اختلالا و فساد الإدارة مستمر.

«كانت حكومة محمد على فرضت على كل ذكر ساكن فى المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشا إلى ٥٠٠ قرش، حسب حالة كل إنسان، و كان مجموعها يبلغ عشرين ألف ليرة إنكليزية.

و لما عاد الأتراك إلى البلاد لقوا مقاومة شديدة فى جبايتها، فأبدلوها بضرية على البيوت تستوفى دون حدوث اضطراب كبير أو قتال، على أن مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة إنكليزية، و قد جرت بعض احتكارات، و فرضت ضرائب جديدة على البناءات المحدثه، للاستعاضة عن الدخل الذى أسرفوا به، و كانت الحكومة المصرية تستوفى نحو ٥٥ ألف كيس و لا- يتأخر لها باره، و هذا المبلغ يساوى ٢٧٥ ألف جنيه فهبط الدخل اليوم إلى ٣٥ ألف كيس قيمتها ١٤٣ ألفا و خمسمائة جنيه، يجبى منها عشرة آلاف كيس و يبقى زهاء ٤١ ألف جنيه فى ذمة الأهالى، و هذه يتعذر جباية قسم منها.

رأى مدحت باشا فى مظالمهم:

وأصرح من هذا ما كتبه مدحت باشا أيام كان واليا على الشام بتاريخ ١٧ آذار (١٢٩٥) شرقية من لائحة في سياسة الشام و أموالها و مما قاله: إن الأوامر التي تصدر من الإستانة إلى الشام محصورة في طلب المال و الجند فقط، و بذلك بطل العمل بالقانون و الأصول المرعية، و فتحت أبواب سوء الاستعمال و ما عدا بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال و صغارهم لا يلتفتون

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٨

إلى غير مصالحهم، فطراً على المعاملات خلل، و بسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس، و كثر القتل و النهب و الغارة على الأموال و العروض في كل مكان، و اختل الأمن كل الاختلال. قال: و إذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج و الأموال قد نزل ارتفاعها إلى النصف، و خرب القطر بالأعشار، و قلّ البديل العسكري، و حدث ما شئت عن بلية «القائمة» فمن أجل سقوط أسعارها نزلت الواردات في العام الماضي إلى النصف، و بقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد.

و كلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية و بيروت لأن الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية و فلسطين، و بالطبع كانت فلسطين أقصى الجنوب و حلب في أقصى الشمال على هذه الصورة أو أشد، لأن روح المملكة كان واحداً، و هي «المركزية» الشديدة، و كانت في الدور الذي سلف «لا مركزية» و لكنها أشبه بالفوضى. و لم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسه إلى رحيل الأتراك عن الشام، و إن كانت الارتفاعات زادت في العقود الأربعة الأخيرة، لانتشار الأمن في الجملة، بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الأتقياء بعض الشيء، و كفت البادية عن العيث. بعد أن كانت تأتي لأخذ الخوة من القرى القريبة من الحواضر، و لزيادة النفوس بقله الأوبئة و سد العجز المالي، و لا سيما في الساحل بما أدخله المهاجرون إلى أميركا و غيرها من الشاميين، فكانوا و ما زالوا يحملون إلى هذه الديار أموالا تدخل في تحسين الزراعة و الصناعة و تزداد بها الحركة التجارية. و كانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية و المظالم، فالدخل ينقص على الدوام بسلب الممالك من جسمها، و الخرج يزيد لأن أهل الإستانة عالة على أهل الولايات، يشقى هؤلاء لينعم أولئك، و يبنوا القصور و يتمتعوا بالحدود و الولدان.

الاشتراط في الأعشار و القسط في الجباية:

و لم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور حتى بلغت ثلاثة عشر إلا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٧٩

ربعا في المئة، تؤخذ من الحاصل و المحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين و العشارين، و هو قد يبلغ عشرين في المئة أو أكثر من ذلك في بعض الأنحاء، و لم يكفها زيادة الأموال و الضرائب الأخرى إلى ضعفين بل إلى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة، بل زادت في العشر و الخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة، دع ما أحدثته من التكاليف الحربية و استلبته من أموال الفلاحين و عروضهم و مواشيهم، و لو لا ارتفاع الأسعار و دخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من ألمانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته و جلبته من القاصية، لو لا ذلك لبقى عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامرا، و لآضت الحال أتعس مما كانت قبل ستين أو سبعين سنة، أيام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة أراضيهم لقله الأيدي العاملة، فيجلبون أناسا من العبيد يستخدمونهم في الحرث و الكرت.

و بعد الحرب كثرت الجباية و المغارم خصوصا لقله الذهب في الأيدي و الاستعاضة عنه بالورق النقدي، فزادت الجباية في بعض المحال أربعة أضعاف، فعلت الشكوى، و أخذت أسعار البياعات تعلق و تسفل في المدة القليلة، و المقرر على الرعايا ينزل و يرتفع على تلك النسبة، فتضرر الناس من هذا، و كان البلاء في ذلك عامًا في كل بلد لم يستقر سعر ورقه المالي على و تيرة واحدة، أو لم تواز قيمته قيمة الذهب، و اضطرت حكومات الشام إلى الإنفاق أكثر من قبل على صغار عمالها و كبارهم، لثلا تترك لهم مجالاً إلى

الرّشى و التلاعب بحقوق المساكين و الضعفاء، و أن تقوم ببعض الأعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة، فانفرت مسافة الخلف بين الدخل و الخرج ثم تعادلا و أخذت الحكومة تفكر في إلغاء طريقة الأعمار و الاستعاضة عنها بمال مقطوع و زادت الضرائب على العقارات بنسبة أجورها.

خراج الأرض و العقارات :

هذه الضريبة من التكاليف غير الشرعية التي أحدثت أواخر أيام سلطنة بايزيد الثاني، و كانت المرتبات التي تقطع على كل بلدة من البلدان توزع بمعرفة

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٠

لجنة مؤلفة من الوالى أو المتصرف أو المتسلم و رجال الشرع و وجوه البلدة و أعيانها يراعى فيها عدد النفوس الذكور، أو الدور الموجودة في كل بلدة. و كان هذا التوزيع يسجل في المحاكم الشرعية، و كان كل فرد يخضع لذلك التوزيع، و يدفع ما يصيبه مرتاحا بحيث لا يبقى منه شيء في ذمم المكلفين. و قد دام الحال على هذا المنوال مدة أربعة أو خمسة عصور.

و لما تسرب الخلل إلى القوانين الموضوعه و أعلنت التنظيمات الخيرية، كان من جملة الإصلاحات التي تدرع بها السلطان محمود و أقرها السلطان عبد المجيد تسجيل الأراضين و العقارات كافة في البلدان و القرى، و ذلك بتقدير قيم لها، و استيفاء الضريبة على نسبة قيمتها. و كانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة المختار في المدن و القرى (شيوخ الصلح أو شيوخ القرية).

و هذا بموجب تذكرة إجمالية «طوب سركى» تدفع إلى المختار فيجبى ما يصيب كل شخص من المكلفين، و يدفع المجبى في كل أسبوع أو خمسة عشر يوما أو شهر بحسب مقدار ما يجبى أو بحسب تعقيب الحكومة أو إهمالها.

و لما رأَت الحكومة بأخرة أن بعض المختارين يتلاعبون بهذه الأموال، و كثيرا ما كانوا يفرضون على الأهلين فرائض تربو على ما يصيبهم من التكاليف بدعوى النقص في الأموال حتى آضت الحال إلى تعذر الجبايات - منعت المختارين من معاملته الجباية و ألفت لجانا خاصة، و أنشأت ترسل لكل مكلف تذكرة باسمه يذكر فيها مقدار ما أصابه من الضريبة في كل سنة. و بها يجبى جابى الفرع المقيم به المكلف و الذى يتأخر عن دفع دينه نجوما (تقاسيط) معينة تنذره رسميا حتى إذا لم يبادر في عشرة أيام من تاريخ تبليغه الإنذار إلى دفع ذمته، تحجز أمواله المنقولة أو غير المنقولة فيما إذا لم يكن له أموال منقولة و إذا كان ممن لا- يملك شيئا غيرها يجبس أحدا و تسعين يوما، إذا ثبت اقتداره على الوفاء.

و في سنة (١٩٢٥) أصدرت الدولة قانونا للجباية لم يخرج بجوهره عن النظام السابق إلا ما كان من الاكتفاء بحبس المدنين شهرا واحدا بدلا من أحد و تسعين يوما على ما كان في النظام السابق إلى غير ذلك من العقود الشرعية التي لا علاقة لها بجوهر هذا النظام القديم و لا يزال التعامل جاريا على هذا النمط.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨١

رسم المواشى:

هذا الرسم من الأوضاع الشرعية و كان يتقاضى أوائل عهد الحكومة العثمانية عينا و هو غنمة واحدة من كل عشرة أغنام و لا يتقاضى شيء من بقية الحيوانات، ثم طبق هذا القانون على أصول التلزييم. و في سنة (١٠٤٠) ألغى التلزييم و أخذوا يستوفون الرسم بتقدير قيمة للمواشى و استيفاء بارة عن كل قرش من قيمتها. و في سنة (١٢٤١) أعيد استيفاؤها عينا. و في سنة (١٢٥٥) عندما أعلنت التنظيمات الخيرية كان يقدر نتاج كل دابة، و أخذت الرسوم تستوفى على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صار يستوفى عن كل رأس من الغنم و الماعز أربعة قروش، و عن الجاموس و الإبل عشرة قروش.

و بدأت تترقى هذه الرسوم بنسبة أسعار المنتوجات إلى أن أصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن و الماعز، و عشرين قرشا عن كل رأس من الإبل. و هذه الرسوم على قسامين كان قسم منها يستوفى عند العد و قسم بعد ذلك. أما القسم الذى يستوفى عند العد فهو ما كان للتجار و عابرى السبيل ممن لا تعرف أماكن سكناهم. و أما القسم الثانى فهو ما كان يستوفى من التناء سكان القرى و العربان.

الأعشار:

العشر من التكاليف الشرعية القديمة و كان ينفق على عهد الإقطاع فى تمويل الجنود و زعمائهم. و قد أصبح فى سنة (١١٠٠) يحال لسنة واحدة أو سنين متعددة على بعض الصيارف الممولين. و فى سنة (١٢٥٦) أخذوا على عهد إعلان التنظيمات الخيرية يستوفون الأعشار عن طريق الأمانة أى على ذمة الحكومة بمعرفة جباة يرصدون لذلك، و فى سنة (١٢٥٨) أعيدت أصول التلزم و شرع ببيع عشر كل قضاء عن سنتين من الملتزمين. و فى سنة (١٢٦٣) تقرر إجراء معاملة الإحالة لرجال السلطنة و خدامها و بعض ذوى اليسار و السعة من التبعة العثمانية منفردين و مجتمعين لخمس سنين، و ذلك بأخذ متوسط بدلات الثلاث السنين التى تقدمت السنة المذكورة، على أن يضاف على البدل

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٢

المتوسط المنوه به فى السنة الثانية التى تتلو سنة التلزم واحد بالمئة و ثلاثة بالمئة، على بدل كل من السنة الثالثة و الرابعة و الخامسة، بحيث تصبح الإضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة.

و لما نشبت حرب القريم فى سنة (١٢٦٩) أعيدت أصول الأمانة لضمان تمويل الجيش، و ظل الحال على هذا المنوال إلى سنة (١٢٧١). و فى سنة (١٢٧٢) رجعوا إلى التلزم أيضا فأخذت تباع أعشار القرى فى مجالس الأفضية قرية قرية، و فى مجالس الألوية و الولايات قضاء قضاء على أن لا تحال أعشار لوائين لأحد الملتزمين مجتمعين. و لما أعلن القانون الأساسى فى سنة (١٢٩٣) أعيدت أصول الأمانة. و فى سنة (١٢٩٧) وضع نظام التخميس و ذلك بحساب بدلات كل من سنة ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ و أخذ متوسطها على أن يوزع ما يصيب كل قرية على حساب الدونمات. و فى سنة (١٣٠١) أعيدت أصول الأمانة أيضا. و فى سنة (١٣٠٢) عادوا إلى طريقة التلزم أيضا على أساس القرى لا- القضاء أو اللواء كما كان آنفا. و ظل الحال على ذلك إلى سنة (١٣٣٠) أى سنة إعلان النفي العام و فى خلال ذلك وضعت أصول التخمين موضع الإجراء و ظلت إلى سنة (١٣٣٣) حتى إذا كانت سنة (١٣٣٤) طبقت أصول الأمانة. و بعد مغادرة الحكومة العثمانية هذه الديار أعيدت أصول التلزم أيضا. و فى سنة (١٩٢٥ م) وضعت أصول التريب و ذلك بأخذ متوسط بدلات كل من سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ و اتخذها أساسا لوضع بدل معين على كل قرية من القرى، و لم تبرح هذه الأصول معمولا بها. أما أصول جبايتها فهى تابعة لقانون الجباية أى أصبحت تجبى على نحو ما تجبى الضرائب.

رسوم الجمرک:

يرجع أصل هذا الرسم إلى الزكاة التى هى من جملة التكاليف الشرعية، و كان يجبى من التجار الوطنيين على نسبة واحد من أربعين و من التجار الأجانب على نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم. و ظل الحال على ذلك من أول تأسيس الدولة العثمانية إلى الزمن الذى عقدت فيه المعاهدة التجارية مع الدول

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٣

الغربية فأنشأوا يستوفونه على الصورة التالية:

أولاً- رسم الواردات عن البضائع التي ترد برا وبحرا إلى المملكة العثمانية.

ثانياً- رسم الصادرات عن البضائع التي تخرج من الأرض العثمانية إلى الديار الأجنبية.

ثالثاً- رسم التصدير عن البضائع التي تستهلك في الداخل كالدهان والأسماك.

رابعاً- رسم المرور (ترانزيت) عن البضائع التي تمر بالأقطار الأجنبية عن طريق المملكة العثمانية ولا تستهلك فيها.

وقسمت هذه الرسوم إلى قسمين داخلي وخارجي. أما الرسم الخارجي فيتقاضى وفقاً لأحكام المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة بحسب العلاقات التجارية. وأما الرسم الداخلي فيستوفى وفقاً لأحكام المقررات الخاصة التي كانت تقرها بحسب الأحوال وعلى نسبة التعرف المخصصة. ولما كانت علاقة الأجانب بالتجارة الخارجية تتوقف على رخصة خاصة كسائر المسائل كان يمنح الأجانب حق تعاطي التجارة في الممالك العثمانية وكان ذلك بامتياز خاص بالمتجر. ولما كانت المواد التي تقضى المعاهدات بإيرادها وإصدارها تذكر في تلك المعاهدات بأنواعها أصبح ذكر تلك المواد يدل على منع سواها، ولما زادت الصلات التجارية مع الأجانب قبلت بادئ بدء حرية التجارة إلى حد محدود، وبعد ذلك بدأت بالتوسع. فأعطى على عهد محمد الفاتح الامتياز المعلوم للبنادقة. وصادق ياوز سليم على المعاهدة التي وقع عليها ملك مصر. وفي عام (٩٧٠) عقدت المعاهدة المعروفة مع النمسا. وفي سنة (٩٨٣) مع حكومة البندقية، وفي سنة (٩٨٤) مع حكومة النمسا أيضاً، وفي سنة (١٠٨٤) أي في سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملك فرنسا جاءت مؤيدة للمعاهدات السالفة التي كانت ترمي لاستيفاء رسم الجمرك على نسبة ٣ بالمئة بدلاً من الخمسة ما خلا رسم التصدير.

ولما عقدت المعاهدة الجمركية بين فرنسا وإنكلترا في سنة (١٢١٦) اشتركت الحكومة العثمانية معهما بتلك المعاهدة التي كانت عبارة عن تجديد نصوص العهود القديمة. وفي سنة (١٢٥٤) عقدت معاهدة تجارية مع فرنسا كان من

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٤

جملة أحكامها التوسع في معاونه التجار الفرنسيين وشركاتهم وما إلى ذلك، على أن يتناول ذلك عامة البضائع والمتاجر وقد تضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنته استيفاء رسم الواردات على نسبة ٥ بالمئة ورسم الصادرات ١٢ بالمئة ورسم المرور ٥ بالمئة من مجموع قيمة البضائع والسلع، وبقيت المعاملات السابقة بحالها على أن تعدل مرة في كل سبع سنين.

وأنشأوا على عهد نظام التنظيمات الخيرية يستوفون هذه الرسوم بطريق الأمانة أي على ذمة الحكومة ثم أخذوا يحيلونها إلى بعض الصيارف والمليين ودام ذلك إلى سنة (١٢٧٤). وفي سنة (١٢٧٥) وضع نظام خاص لجميع المقررات التي قررت من بداية التنظيمات الخيرية إلى ذاك العهد وجرى تطبيق ذلك على جميع ما يتقاضى منه رسم الجمرك ما خلا رسم مواد البناء والدهان والسعوط والمسكرات. وجرى في عام (١٢٧٧) و(١٢٧٨) تعديل ذلك بعد عقد المعاهدات مع بلجيكا والدانيمرك وفرنسا وإنكلترا وإيطاليا وهولانده والنمسا وروسيا والسويد وإسبانيا وأميركا، وكان من جملة أحكام تلك المعاهدات إبلاغ رسم الواردات إلى ٨ بالمئة وتنزيل رسم الصادرات إلى ٨ بالمئة أيضاً على أن ينزل من أصله واحد بالمئة في كل سنة إلى أن يصبح واحداً في المئة فقط. وقد اعتبر رسم المرور اثنين في المئة على أن ينزل في ثمان سنوات تبدأ من تاريخ العقد إلى واحد بالمئة فقط.

وبعد ذلك وقع التذرع كثيراً لتعديل هذه الرسوم وصوره جبايتها، فلم يأت تذرعههم بشرة تذكر. بيد أنه أضيف في سنة (١٣٢٣) على رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جميع الدول العظمى بحيث أصبح أحد عشر بالمئة على أن يؤخذ خمسة وعشرون بالمئة من الزيادة التي عينت لتسديد الديون العامة وخمسة وسبعون بالمئة لتسديد ديون الولايات الثلاث الخ.

الجمارك الشامية ووجه نقاتها وتوزيعها:

كان محصول الرسم الأصلي الذي هو ٨ في المئة حتى يوم ١ كانون الثاني سنة (١٩٢٦) يوزع بين الدول الشامية الموضوعه تحت

الانتداب الفرنسى، و كان الرسم الإضافى ثلاثة بالمئة يدفع لحساب الدين العام العثمانى. و قد صدر

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٥

قرار فى ٣ نيسان سنة (١٩٢٤) يقضى برفع الرسوم الجمركية من ١١ إلى ١٥ بالمئة ابتداء من شهر أيار سنة ١٩٢٤ و قضى القرار المؤرخ فى ٢٣ شباط سنة (١٩٢٤) بأن الأموال الناتجة عن تحصيل ضرائب الرسوم الجمركية من ١ أيار سنة (١٩٢٤) حتى ٣١ كانون الأول سنة (١٩٢٥) ٦٢ مليون تؤلف مبلغا مشاعا يؤخذ منه ما تستلزمه الضرورة و المبالغ الخاصة لسد جميع النفقات الناشئة عن الثورات التى نشبت فى الدول الموضوعه تحت الانتداب. على أن يجرى توزيع ذلك فيما بعد بصورة قطعية و تقرر فى ٢٥ أيار سنة (١٩٢٤) رفع رسوم الواردات اعتبارا من ١ حزيران سنة ١٩٢٤ إلى ٢٥ فى المئة.

و ما زال محصول الرسم الأصلى ١٥ فى المئة المخصص للدين العام باقيا إلى أن يجرى اتفاق مع حاملى الأسهم بشأن عملة الدفع.

و يتضح من تعليمات المستشار المالى فى المفوضية العليا أنه يمكن أن يلاحظ لعام ١٩٢٧ ما يلى:

١٢٥،٠٠٠،٠٠٠ فرنك محصول الجمرك من الرسم الأصلى ١٥ فى المئة.

٦٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك ضرائب ١٠ فى المئة.

١٨٥،٠٠٠،٠٠٠ المجموع.

و توزع كما يلى:

٨٥،٠٠٠،٠٠٠ فرنك لدائرة الدين على أن تجرى التزييلات التى يقبل بها حاملو الأسهم.

٥٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك نفقات جيش الشرق.

٥٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك يقتضى توزيعها بين الدول.

و من الممكن أن ينزل الرسم ٢٥ فى المئة لأنه إذا كان قد طبق هذا الرسم لأحوال استثنائية فلا يكون اليوم إلا عثرة فى سبيل تنمية الاقتصاديات.

ضريبة التمتع:

يرجع تاريخ إحداث هذه الضريبة إلى قسمين: القسم الأول ما أحدث قبل التنظيمات الخيرية و كان أصلها رسم الاحتساب الذى

أحدثه السلطان محمود سنة (١٢٤١) و هو عبارة عن ضريبة تؤخذ بأسماء متنوعة تسمى يومية الدكاكين

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٦

و شهرية الدكاكين و رسم المأكولات و المستهلكات و الذهب و الفضة و المجوهرات و المنسوجات و ما شابه ذلك.

و بالأمر السلطانى الصادر فى ١٦ جمادى الأولى سنة (١٢٥٤) ألغى رسم الاحتساب و نشر نظام مؤرخ فى ١٩ ذى القعدة سنة (١٢٥٤)

يقضى بتوزيع التكاليف على الأهالى عن طريق تعيين مقدار الأملاك و الأرضين و الحيوانات و ربح التجار و الأصناف السنوى، غير

أنه لم توضع ضريبة مخصوصة على الأرباح السنوية بل وضعت موحدة على الثروة الذاتية المقدره لكل فرد على نسبة أملاكه و

أراضيه و أمواله و حيواناته و أرباحه.

و القسم الثانى ما وضع بعد التنظيمات الخيرية و ظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة (١٢٥٥-١٢٧٥) و قد أصبحت

إذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالألف من مجموع الربح السنوى. و بناء على القرار المؤرخ فى ٥ ربيع الأول سنة (١٢٩٧) بشأن

الأملاك و الأغنام و الأعشار بلغت اعتبارا من ذلك التاريخ أربعين فى الألف. و فى عام (١٣٠٣) أبلغت إلى خمسين و شملت

أصحاب الرواتب و المشاهرات أيضا، و لما كان الأجانب غير مرخص لهم بتعاطى التجارة داخل المملكة العثمانية كان هذا الرسم

محصورا بالعثمانيين لا يتناول الأجانب. و لما جرى الاتفاق على قبول إقامة الأجانب فى الدولة و تعاطيهم التجارة ألفت لجنة مختلطة

في نظارة الخارجية في سنة (١٨٨٠ م) و نظمت لائحة حمل الأجانب على أداء هذه الضريبة أسوة بالعثمانيين. فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومة حالت دون تطبيقها إلا على رعايا صربيا و بلغاريا و رومانيا و الجبل الأسود و اليونان و إيران. و في عام (١٣٢٣) أحدث نظام خاص يقضى باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين: مقطوع و نسبي و خصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة، و من يجب أن تتقاضى منه الضريبة النسبية من أرباب التجارة و الصناعة. و في عام (١٣٣١) ألغت القانون السابق و أحدثت قانونا جديدا ألغت به الامتيازات الأجنبية فقضى على جميع رعايا الدول أداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين بدون تفریق بينهم على أن تطرح هذه الضريبة على ثلاثة أوجه: نسبي و مقطوع و متحول. خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٧

الضريبة النسبية:

يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر إلى الإيراد غير الصافي المقدر للمحل الذي يشغله المكلف، و جعل هذا القسم على ستة أنواع يحتوى كل منها على قسم من أنواع التجارة و الصناعة و مقدار نسبة الضريبة التابعة لها. فالنوع الأول يدخل فيه أصحاب المصارف و نسبة ضريبتهم عشرون بالمئة من الإيراد غير الصافي المقدر للعمل المتخذ مصرفا. و النوع الثاني يتناول شركات النقل و المشتغلين بالأوراق المالية و السماسرة و المتعهدين و الأطباء و المهندسين و وكلاء الدعاوى و أمثالهم من أصحاب الصناعات و الأعمال العلمية و نسبة ضريبتهم خمسة عشر في المئة من الإيراد المذكور. و يشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة و الصيارفة و الخياطين و باعة الأقمشة و خاطتها و باعة الأحجار الثمينة و أمثالها و نسبة ضريبتهم ١٢ في المئة. و النوع الرابع يتناول بائعي الألبسة و الثياب و الأدوية و العطور و أشباه ذلك من عامة المعمولات و المصنوعات و نسبة ضريبتهم عشرة في المئة. و النوع الخامس يدخل فيه أرباب الصناعة كالنجار و الحداد و الخياط و من يبيع حبوبا و مأكولات و أخشابا و أشياء حديدية و أصحاب الفنادق و القهاوى و الألعاب و أمثالها و نسبة ضريبتهم ثمانية في المئة.

الضريبة المقطوعة:

يحتوى هذا القسم على من لم يتخذ محلا مخصوصا لممارسة الصنعة من متعهدين و أطباء و مهندسين و أمثالهم اعتبرت ضريبتهم مقطوعة و جعلت خمسة أقسام باعتبار نفوس البلدة فقط. فالنازلون في العاصمة من القسم الأول و ضريبتهم ٣٠٠ قرش و النازلون خارجها من الصنف الثاني مكلفون ب ٢٥٠ و الثالث ب ١٥٠ و الرابع ب ٧٥ و الخامس ب ٥٠ قرشا. و كذلك الحال في ذوى الصناعة من معمارين و رؤساء أشغال و عملة قد كلف كل منهم حسب بلده و مكانه صناعته بمقدار معلوم مسطر في جدول مخصوص من القانون المذكور تبتدى ضريبتهم من خمسة عشر قرشا إلى ثلاثمائة قرش. خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٨

الضريبة المتحولة:

هذه الضريبة قسمان: القسم الأول يطرح على أصحاب المحال التجارية و الصناعية لاستفادتهم من خدمة العاملين عندهم و المعاونين فتبتدى الضريبة من ستة قروش إلى مائة قرش بحسب صنوف البلدة و نوع التجارة و عمل العامل، أما أصحاب الرواتب فقد كلفوا بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش في المئة من مجموع إيرادهم السنوى إن كان زائدا على ألفى قرش دينارى و من لم يزد إيراده على ذلك فهو مستثنى من الضريبة. و القسم الثاني يطرح على حسب الوسائط الناشئة من ممارسة الصنعة كعجلات الركوب و النقل و

الحيوانات والآلات التجارية و جعلت درجات باعتبار صنعة البلد و نوع تلك الوسائط. و كذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة في المادتين الرابعة و الخامسة، و قد ألفت لجان للنظر في الاعتراضات بداية و استئنافا و تمييزا، و بقي معمولا به من السنة المذكورة إلى يومنا هذا. أما التعديلات التي طرأت عليها حتى الآن فلم تغير هذه الأسس، و بقيت محصورة في بعض المعاملات الفرعية التي لا علاقة لها بهذا البحث اه.

الرأى فى الجباية و النفقات:

لا جرم أن الأموال إذا جيت كما تجبى فى الممالك المتمدنة بالرفق، و بحسب طاقة المكلفين، يتوازن مع الزمن الدخل و الخرج، بل قد يزيد الأول على الثانى إذا وقع الاقتصاد فى وجوه النفقات، كأن تكتفى الشام بما تخرجه لها أرضها و يفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية و رصف الطرق و تعبيدها فى المدن و بين القرى، و على الأسلاك البرقية و الكهربائية و الهاتفية، و تجفيف البطائح و إصلاح طرق الرى، و إقامة معالم العلم و دور التهذيب.

و كل مملكة تسد عجزها بالاقتراض، و لا تستثمر بأيدى رجالها ما فى سطحها و بطنها من الخيرات، يكون مصيرها إلى الاستعباد الاقتصادى، و هو أشع ضروب الاستعباد. و ما لا تستطيع أن تعمله لنفسك ليس فى مكنة غيرك أن يحمله إليك. و كل أمه لا تفرض الجباية بالعقل، و لا توجيهها بطرق العدل، و لا تبذل على المرافق العامة منها الفضل، تنحل بل تضمحل.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٨٩

الوقوف

منشأ الوقف:

من أهم القوانين الاجتماعية التى أثرت فى عمران هذه الديار و أخلاق أهلها قانون الوقف، و هو حبس العقار أو الأرض عن البيع و حصر المغل فى يد شخص أو أشخاص على مقصد معين. كان الوقف معروفا عند الرومان و منه الخاص و العام، و كذلك هو معروف عند الأمم النصرانية لعهدنا، و كان أهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه. قال الشافعى: لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمت و إنما حبس أهل الإسلام. فاستنبط الرسول صلوات الله عليه الوقف لمصالح لا توجد فى سائر الصدقات، فإن الإنسان ربما يصرف فى سبيل الله مالا- كثيرا ثم ينفى فيحتاج أولئك الفقراء تارة أخرى، و يجيء أقوام آخرون من الفقراء فيحرمون، فلا أحسن و لا أنفع للعامة من أن يكون شىء حبسا للفقراء و أبناء السبيل، تصرف عليهم منافع و يبقى أصله على ملك الوقف. و قد وقف رسول الله بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها و قد قسم بعض ما ظهر عليه، و وقف ثمانية عشر سهما من خبير لمن نزل برسول الله صلى الله عليه و سلم من الناس و الوفود و ما نابه من نواب الناس. و فى صحيح مسلم أن عمر أصاب أرضا بخير فأتى النبى صلى الله عليه و سلم يستأمره فيها فقال: يا رسول الله إنى أصبت أرضا بخير لم أصب مالا قط هو أنفس عندى منه فما تأمرنى به؟ قال: إن شئت حبست أصلها و تصدقت بها. قال: فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها و لا يبتاع و لا يورث و لا يوهب قال: فتصدق عمر فى الفقراء و فى القربى و فى الرقاب و فى سبيل الله و ابن السبيل و الضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٠

بالمعروف و يطعم فقيرا غير متمول فيه، و فى رواية غير متأثل مالا- قال بعض الفقهاء: إنما وقف عمر بن الخطاب سواد الكوفة لأنه ليس مما حازه المسلمون حين ظهوروا عليه، و لو كانوا حازوه و جمعوا ما فيه من السبى و الأموال كان غنيمته ليس للإمام أن يقفه حتى يخرج منه الخمس لله ثم يقسم أربعة أخماسها بين الذين حضروا فتحه. و قد وقف بعض الصحابة أوقافا.

و ذكروا أن أحد شهداء أحد و اسمه مخيريق عهد إلى الرسول قبل قتله أن يضع أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط و هي كروم النخل في المدينة، فأصبحت الأموال المحبوسة من ذاك العهد لا تشرى و لا تورث و لا توهب، و أخذ بعضهم يحبسون أموالهم على أعقابهم و أعقاب أعقابهم.

و وقف مخيريق أول وقف في الإسلام. قال زيد بن ثابت: لم نر خيرا للميت و لا للحى من هذه الحبس الموقوفه، أما الميت فيجرى أجرها عليه، و أما الحى فتحبس عليه و لا توهب و لا تورث و لا يقدر على استهلاكها.

تعريف الأوقاف و طرقها:

قالوا: إن ولاية الأوقاف من باب التعاون على البر و التقوى، و لا ينهض بحملها إلا الأمين القوى، فإن أبوابها متسعة، و أربابها متنوعة، و شعابها متفرعة، فإنهم أصناف و طوائف، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول و منهم الهاشميون و العباسيون و العلويون و الحسينيون و الحسينيون و غيرهم، و منهم الفقهاء الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة و غيرهم، و منهم الصوفية و الفقراء و القراء و الأضرار و الأسرى و أبناء السبيل و المرضى و المجانين، و منها تكفين الموتى و إصلاح أسوار الثغور و قناطر الطرقات و عمارة المساجد و مصابيحها و أنمتها و مؤذنها و قومتها و مصالح المدارس و إقامة وظائفها، و كذلك الربط و الخوانق و المشاهد و مواطن العبادة إلى ما سوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى الخط، و وقف على من انكسرت له آنية لا يقدر على عوضها و غير هذا من أبواب الطاعات و جهات الخيرات، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها و تباين جهاتها مشتركة في أن المقصد بها التقرب إلى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩١

الله تعالى فإنها معدودة من الصدقات، داخله في باب القربات، فيجب اتباع شروط واقفيها و العمل بها. و ما برحت الأوقاف تنمو بنمو الثروة و امتداد السلطة بامتداد الفتوح، حتى تكاملت أجزاءها، و تكاثرت موادها، في صدر الخلافة العباسية و خصوصا على عهد الخليفة المأمون فإنه وقف الأوقاف الكثيرة في العراق و غيرها على العلماء و دور العلم و الجوامع و المباني العامة، لتبقى دائمة الانتفاع على الدهر، و تكفي العلماء و المحاويج، و أصحاب الزمانات و العاهات من التكفف و الاستجداء، فمن ثم كثرت الأوقاف النافعة كثرتها في الولايات المتحدة الأميركية لهذا العهد و معظمها على دور العلم و البائسين.

أول أوقاف الشام و سوء استعمالها:

و أول وقف حبس في الشام فيما بلغنا أراضي بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الإسلام أو قتلوا في الحرب و كانوا قواد جند الروم، فأصبحت أملا-كهم شاغرة فأوقفها الفاتحون على بيت المال، و كان العمال يقبلونها أي يضمونها و يضيفون دخلها إلى بيت المال، و كان من العمال من يحبس القرى على مصالح المدينة و مرافقها، قاصدا بذلك عمارتها، و كان من الأرض المفتحة عنوة ما ليس يملكه السلطان فيباع «لأنه فيء للمسلمين يقوم مقام الوقف على جميعهم» قال القاضي أبو يعلى: إن أرض السواد صيرها عمر وقفا بنفس الفتح، و الأرض لا تصير وقفا حتى يقفها الإمام، فعلى هذا يجوز له بيعها إذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين، و يكون ثمنها مصروفا في عموم المصالح و في ذوى الحاجات من أهل الفئ و أهل الصدقات.

و قد قال أحمد في رواية عبد الله: الأرض إذا كانت عامرة هي لمن قاتل عليها إلا أن يكون وقفها من فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر إيقافه.

و من أحسن القوانين الصريحة عند المسلمين أحكام الموارث فإنها تقضى على المورث أن لا يوصى بغير الثلث من ماله في وجوه المبرات و أن يبقى الثلثين لوأثره يستمتعون به استمتاعه من قبل، و لذا لم يكن إلا في الوقف

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٢

مندوحة في خرق هذه القاعدة، فتوسع القوم فيها لا سيما ما كان منه أهليا حتى كاد ينقلب الخير إلى شر، فإن الواقف يقف أملاكه أو شطرا منها لتكون من بعده وسيلة إلى التعاطف بين الذراري والأعقاب، فما هو إلا جيل أو جيلان حتى تغدو أوقافه ذريعة للتقاطع والتدابير، فتقوم نائرات الخصومات بين الأسرات، للاستثمار بإدارة الوقوف واقتسام مغلها، خصوصا عند كثرة المستحقين وقله الأنصبة، وربما تكاثرت ذرية الواقف بعد حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة قروش. ولا تسل كيف تكون حال تلك العقارات والأرضين الموقوفة من العمران، ففي تعدد الموقوف عليهم تعدد للمناحي وتباين في الآراء. وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد المستحقين مراسا، فيغصب حقوق الآخرين. من أجل هذا ترى الغاصبين وفي مقدمتهم المتولى أو الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوى الحقوق بالحق والباطل، حتى جرى في حكم الأمثال قولهم «نصف الأوقاف موقوفة على الحكام».

شرط الواقف و خراب أوقاف الشام:

بالغ المتأخرون في احترام الأوقاف أهلية كانت أو خيرية حتى قالوا:

إن شرط الواقف كنص الشارع، ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين. و عدت الأوقاف على طول الزمن من أعظم القربات حتى قالوا: إن من لم يمت عن وقف مات ميتة جاهلية. وقد رد ابن قيم الجوزية قول من قال: إن شرط الواقف كنص الشارع فقال: إن شرط الله أحق وأوثق، بل يقولون ههنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدا، بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع إلغاؤها، ولا حرمة لها حينئذ البتة. ويجوز بل يترجح مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها، وأنفع للواقف والموقوف عليه. وقال علماء الحنفية: إن قولهم شرط الواقف كنص الشارع لا- في وجوب العلم به والإثم بتركه، بل بالأخذ بمفهومه وأنه لا يستحق المعلوم إذا خالفه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٣

وقال ابن القيم أيضا عند كلامه على الحيل الجديدة في مسائل الوقف:

ومن الحيل الباطلة تحيلهم على إيجار الوقف مائة سنة مثلا، وقد شرط الواقف أن لا يؤجر أكثر من سنتين أو ثلاثا، فيؤجر المدة الطويلة في عقود متفرقة في مجلس واحد، وهذه الحيلة باطلة قطعاً، فإنه إنما قصد بذلك دفع المفساد المترتبة على طول الإجارة فإنها مفساد كثيرة جدا، وكم قد ملك من الوقوف بهذه الطرق، وخرج عن الوقفية بطول المدة، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو و ذريته وورثته سنين بعد سنين، وكم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالإيجار الطويل، وكم أوجر الوقف بدون إجارة مثله لطول المدة وقبض الأجرة، وكم زادت أجرة الأرض أو العقار أضعاف ما كانت، ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها. إلى أن قال: اللهم إلا أن يكون فيه مصلحة الوقف بأن يخرب ويتعطل نفعه فتدعو الحاجة إلى إيجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الأجرة، فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحا لوقفه، واستمرارا لصدقته، وقد يكون هذا خيرا من بيعه والاستبدال به، وقد يكون البيع والاستبدال خيرا من الإجارة اه.

وبهذا النقل رأيت أن الوقف يصح بيعه واستبداله إذا كان هناك مصلحة، وأن تلاعب المتلاعبين أدى إلى تبدل الأوقاف وجعلها حرة تباع وتشترى منذ المئة الثامنة أو من قرن قبله، ولو لا ذلك لأصبحت الشام إلا- جزءا قليلا منها أوقافا بمرور الأيام، ووقفت بالوقف حركة العمران وقوفها هو الجمود بعينه، وفي الجمود الموت والفناء. ولكن المولى تعالى أرفق من أن يسلب منافع الأرض مخلوقاته، ويجعلها خاصة بفتة معينة لا تنقطع عنهم مادتها، ولو لا ذلك لكان ابن الغنى غنيا على الدهر، وابن الفقير كذلك، ولبطل هذا النظام الطبيعي الذي لا تقوى القوانين على تغييره.

قالوا: إن الأمير جكم العرضى (٨١٠) الذى تسلطن بحلب و الشام أخرج غالب الديار الشامية، و أخرج أوقاف الناس فى الشام و فرقتها إقطاعات بمثلالات على جماعته. و أخرج الملك شيخ الأوقاف بدمشق و جعلها إقطاعات و فرقتها بمثلالات على عسكره. و فى أيام الناصر فرج خرجت غالب أوقاف الناس فى البلاد الشامية و الحلبية. فاستدلنا بذلك أن الأوقاف لم تلزم حالة خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٤

واحدة، و الرأى فى تعطيلها لصاحب القوة أيا كان.

كان أكثر العمال و أصحاب الأموال فى عصور المصادرات يقفون الأوقاف على الجوامع و المدارس و الزبط و المستشفيات و غيرها فرارا بأموالهم من مصادرات الملوك إذا غضبوا عليهم و نحوهم عن وظائفهم، أو قضاوا نحبهم فطمعوا فى وفرهم، و هذا كان الشأن مع الأقوياء و الأمراء و أرباب الإقطاعات.

و من الأوقاف ما منحه الملوك بعض عمالهم و حاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا أحياء على سبيل الإقطاع، فما عثم المنعم عليهم أن جعلوا ذاك العقار أو تلك القرية بواسطة القضاء و أهل الحكم أوقافا شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فتتوزع عليهم بعد أن يكونوا ألفوا الاتكال، و انقطعت أيديهم عن الأعمال، إلا من بسطها لتناول ريع أوقافهم الحقيمة. و إذا كان بعض الواقفين توقعوا من أوقافهم أن تقى أبناءهم و أحفادهم عوادي الفاقة، فإن اعتماد أنسالهم على ما خلفه لهم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر، و ذلك لتوزع الوقف بتعدد الأنصبه، و لأن المستحقين لمغل الوقف يعتمدون على ريع أوقافهم التى تأتيهم بلا عمل غالبا، و ينسون أن الثروة هى العمل، و أن من لا يعمل لا يثرى و لا يتنعم، سنة الله فى خلقه.

التفنن فى الأحباس و التلاعب بالموقوف:

و لقد تفنن القوم فى أنواع الأوقاف حتى لا يكاد يخطر بالبالك خاطر فى الوقف إلا و تجد من سبقك إليه مما أوشكت أن تكون معه معظم ديار الإسلام موقوفه، و كاد يصبح نصف أرض المملكة تقريبا من نوع الوقف، و كانت ثلاثة أرباع الأملاك فى المملكة العثمانية وقفا على الجوامع و المساجد.

و الأحباس و الأوقاف عامة و خاصة، فالعامة هى ما جعل عينها و ريعها بدون قيد و لا شرط وقفا على أعمال الخير و البر أو على المصالح العامة. أما الخاصة فهى التى جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعتها إلى وارثيهم مباشرة، و لا تؤول إلى الأوقاف العامة إلا بانقراض نسل الواقف. قلنا: و من العادة أن يشرط الواقفون فى أواخر صكوكهم شروطا منها أن الوقف إذا انحل بفقد الذرية و انقراض المستحقين يعود بجملته إلى الحرمين الشريفين، و من الناس

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٥

من يقفون عليهما مباشرة. و أنشأوا فى بعض العهود ديوان البر جعل حاصله لإصلاح الثغور و للحرمين الشريفين. و فى صك وقف الملك سيف الدين بلبان لزور بلحسين فى شيرز سنة أربع عشرة و سبعمائه: «أنه وقفه وقفا صحيحا شرعيا على نفسه الزكية الظاهرة الرضية، مدة حياته، أحياء الله الحياة الطيبة، ثم من بعده على أولاده ذكورا و إناثا على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين، ثم على نسله و عقبه قرنا بعد قرن و جيلا بعد جيل، على الشرط المزبور على أن من مات منهم عن ولد أو ولد ولد أو نسل و عقب، كان نصيبه لولده ثم لولد ولده ثم لنسله و عقبه، يقدم الأقرب فالأقرب، و من مات و لا ولد له و لا نسل و لا عقب كان نصيبه للأقرب فالأقرب لمن هو فى درجته و ذوى طبقتة، فإذا انقرضوا بأجمعهم و خلت الأرض منهم ذكرهم و أنشاهم، رجع هذا الوقف بأجمعه على الفقراء و المساكين و الأيتام و الأرامل و المنقطعين و المجاورين بالحرمين الشريفين بمكة و المدينة الطيبة...» و شرط أن لا يؤجر جميعه و لا شىء منه فى عقد واحد أكثر من ثلاث سنوات، و لا يستأنف عقد حتى تنقضى مدة عقد الأول. و على هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط و سطوروا وقفياتهم عليه. و من الوقفيات التى اطلعنا عليها حجة نقلت حوالى المئة العاشرة عن حجة

كتبت سنة ثمان و سبعمائة للهجرة جاء فيها أن «الست الجليلة صالحه خاتون ابنة الأمير الكبير صلاح الدين بن بهلوان ابن الأمير الكبير شمس الدين الأكرى الأمدى وقفت و حبست و أبدت، فى صحة منها و سلامه و جواز أمرها، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادى الذخائر عمل دمشق المحروسه و تعرف أحدهن بالبويضا و الثانية بالبريضا و الثالثة بالحميرا و الرابعة بدير عطية و الخامسة بالحمرا» و قد تغيرت معالم هذا الوقف و لا يعرف بهذه الأسماء غير دير عطية و الحميرا فى تلك الجهة، و انتقلت هاتان القريتان إلى أيد أخرى.

و تفنن الواقفون فى صدقاتهم و مبراتهم فى الشروط التى شرطوها، و فى كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا و وقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى، و كتب الأول سنة
خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٦

أربع و ثمانين و تسعمائة و الثانى سنة أربع و سبعين و تسعمائة، مثال من هذا التفنن. و وقف الأول على منزل فى قرية القنيطرة للمتريدين بين مصر و الشام و زائرى القدس و مشهد الخليل و جامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة و مكتب على الصبيان و عمارة على الضيفان إلى غير ذلك من ضرور البر، و فى هذا الكتاب كلام على المتولى و وظيفه الواقف و أولاده و البنات منهم أو انقراضهم، و جباة الوقف و وظيفتهم و خطيب الجامع و الإمامين و رئيس الحفاظ و القراء و المؤذنين و وظيفه ثلاثين قارئاً و مفرق الأجزاء و من يقرأ سورة يس و عم و النصر و تبارك و معلم الكتاب و خليفته و المبخر، و المشروط لثمن القناديل و الزيت و وظيفه الشعال و البواب و القيم و الكناس و الفراش و معاونه و البواب بالحوش، و شيخ العمارة و نقيب اللحم و الخبز و وكيل خرج العمارة و صاحب المستودع و معاونه و حافظ الغلال و الخباز و تلميذه و الطباخ و تلميذه، و من يغسل الصحون و ينقى الأرز و دفاق الحنطة و البناء و البستاني و مصلح الصحون و كناس منازل المسافرين و الذاكرين فى مسجد القنيطرة و المؤذنين بجامع الأموى بدمشق، و المشروط لحصير المكتب بالقنيطرة، و وظيفه من يرمم الموقوفات و رئيس الشؤء، و شرط الواقف فى الإطعام و مدة إقامة المسافرين إلى غير ذلك من الشروط و القيود مما لا يصدر إلا عن أناس ذاقوا طعم الحضارة و أشربت نفوسهم محبة الخير. و لهذا من الأمثال مئات و ألوف، و قد بلغ ريع الأوقاف التى استصفتها الحكومة فى الشام و أدخلتها فى موازنتها بضع مئات الألوف من الليرات و قد أكل أكثر منها، و لو صرفت على ما وضعت له لما بقى فى القطر جاهل و لا معوز. و فى حجة وقف تكيه السلطان سليمان بدمشق المؤرخه سنة (٩٦٤) غرائب من شروط البر لا تخطر فى الفكر. منها إطعام ثمانمائة فقير فى كل غد و عشية و أن يكون الخازن على غلاله حفيظاً فظاً غليظاً حتى لا ينى فى توزيع الغلال و أخذها منه. و كان الواقفون يعينون على الأكثر المبالغ التى تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء و غيرهم، كما عينوا نوع الصدقات و مقدارها، ففى كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق أن صاحبها رتب بها إماماً و له من المعلوم مائة درهم، و قيما و له مثل الإمام، و ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٧

لقراءة القرآن و لكل منهم ثلاثون درهما فى كل شهر، و من شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين، و له على ذلك زيادة على معلوم الإمامه عشرون درهما، و ستة أيتام بالمكتب الذى على بابها، و لكل منهم عشرة دراهم فى كل شهر أيضاً. و قرر لهم شيخاً و له من المعلوم فى الشهر ستون درهما، و عاملاً و له من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، و رتب المرتب فى كل عام مثلها، و للسبع و لقراءة البخارى و التواريخ مائة درهم، و لأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلوى و رأساً غنم أضحية و لكل من الأيتام جبة قطنية و قميص ... و تاريخ هذا الوقف (٨٤٧هـ).

و من غريب الأوقاف و أجملها قصر الفقراء الذى عمره فى ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكى. فإنه لما رأى فى ذلك المنتزه قصور الأغنياء عزّ عليه أن لا يستمتع الفقراء مثلهم فى الحياة، فعمر القصر و وقف عليه قرية داريا و هى أعظم قرى الغوطة و أغناها. و فى ذلك يقول تاج الذين الكندى:

إن نور الدين لما أن رأى في البساتين قصور الأغنياء

عمر الربوة قصرًا شاهقًا نزهة مطلقًا للفقراء

و ذكر القرمانى أن داريا كان وقفها لعامة فقراء دمشق تفرق عليهم غلاتها، و ما برحت كذلك وقفًا إلى القرن الحادى عشر كما قال كاتب چلبى.

و لقد أخرج الاستكثار من الأوقاف سير الشرق فى محجة الترقى و لا يزال مؤخرًا لها، و كم فى هذا القطر من آثار و دور و قصور و محال عامة هجرت و تعطلت بضياح أوقافها و كثرة المتنازعين عليها، و كان من الأوقاف أن أضرت بالجباية التى تصرف فى مصالح الدولة قال بلوك: إن العقار الموقوف على الأعمال الخيرية عند المسلمين لا يعفى من الضرائب فقط بل إنه لا يباع، و هو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت و استخدموه فى تدبير ثرواتهم، و لذلك كثرت الأوقاف كثرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة، ذلك لأن إعفاء الأعباس من الخراج يسلب الحكومة جزءًا مهمًا من ريعها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٨

و ارتفاعها. و حظر بيع الوقف يبعث بريعه على وجه الإجمال، لأن أموال الأوقاف و عقاره لا تستثمر استثمارًا جيدًا. و لقد شدد الواقفون فى شروط أوقافهم خصوصًا إذا كان عليها مسحة الأوقاف المسبلة على المصالح العامة، و مع هذا انتهبت أيدى الضياح، و سطت على ريعها و أعيانها مخالب السارقين و المزورين. و هذه مدينة دمشق كان فى وادىها فى القرن التاسع زهاء ألف و خمسمائة مسجد و جامع، و ليس فيها اليوم مائتان و خمسون، و كان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة و عشرون مدرسة و رباط و خانقاه و تكية و مستشفى و ليس فيها اليوم من كل ذاك الإرث القديم خمس مدارس و ربط يصح أن يطلق عليه اسم مدرسة أو رباط اللهم إلا من باب التجوز، و قد بدلت أعيانها كلها و اختلست أعباسه، و منها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار أبوابها حتى الساعة تقرأ بلسان عربى مبین، على كثرة ما بدل المتولون و تلاعب المتولون و المستحقون، و هكذا قل عن مدارس القدس فإن أكثرها مما عبث به النظار و المتولون، و مثل ذلك قل فى مدارس حلب و هى تعد بالعشرات كمدارس العاصمة و رباطاتها و زواياها و جوامعها فإنها أصبحت و أوقافها أثرًا بعد عين و لم يكتب البقاء إلا لبضع منها.

أوقاف نور الدين و صلاح الدين و من تقدمهما و خلفهما:

راجت أسواق الأوقاف على عهد صلاح الدين يوسف و آل بيته، فإن حاشيته و أولاده أكثروا من أعمال الخير اقتداء به حتى وقف عبيد دولته و جواريه و أبناءه و أحفاده و بناته أوقافًا جمعة على الخيرات. و كان ريع أوقاف نور الدين فى الشام سنة (٦٠٨) تسعة آلاف دينار صورية كل شهر، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى ظاهرا و باطنا.

تقدم نور الدين بإحصاء ما فى محال دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله و عين له وقوفًا. و قد وقف و تصدق فى سبيل الخيرات و وجوه البر و الصدقات، ما تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، و تقدير الحاصل من ارتفاعه فى كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس

خطط الشام، ج ٥، ص: ٩٩

الحنفية و الشافعية و المالكية و الحنبلية و أئمتها و مدرسيها و فقهاءها، و ما وقفه على دور الصوفية و الزبط و الجسور و البيمارستانات و الجوامع و المساجد و الأسوار و ما وقفه على أبناء السبيل فى طريق الحجاز، و ما وقفه على فكاك الأسرى و تعليم الأيتام، و قصر الغرباء و فقراء المسلمين، و ما وقفه على الأشراف العلويين و العباسيين، و ما ملكه لجماعه من الأولياء و الغزاة و المجاهدين.

هذا عدا ما أنعم به على أهل الثغور من أملا-كهم فإنه يضاهاى هذا المبلغ و زيادة. و لهم أوقاف على فكاك الأسرى و منها وقفان سجلا على الحجر بالحرف الكوفى فى مدينة بصرى فى حوران تاريخ أحدهما سنة (٥٦١) و وقف جاوولى أربعة حوانيت و وقف

آخران فرنا و دارا على من لا يكون له أهل و لا يقدر على فكاك نفسه.

قال ابن جبير من أهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق:

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة على بساتين و أراض بيضاء و رباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها، و كل مسجد يستحدث بناؤه أو خانقته يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها الملتزمين لها، و هذه أيضا من المفخر المخلدة، و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسه و تنفق فيها الأموال الواسعة و تعين لها من مالها الأوقاف، و من الأمراء من يفعل مثل ذلك. و ذكر ابن بطوطة في القرن الثامن في رحلته كلاما يقرب من كلام ابن جبير قال: و الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها و مصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج لمن يحج عن الرجل كفايته، و منها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، و هن اللواتي لا قدرة لأهلهن. على تجهيزهن، و منها أوقاف لفكاك الأسرى، و منها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون و يلبسون و يتزودون لبلادهم، و منها أوقاف على تعديل الطرق و رصفها و منها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير. قال: مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت بها مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، و هم يسمونها الصحن، فتكسرت و اجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها و احملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها و ذهب الرجل معه إليه فأراه

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٠

إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. قال: و هذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، و هو أيضا ينكسر قلبه و يتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرا للقلوب.

تكاثر الأوقاف و مضار الجمود:

استولى الخراب على الشام بعد تخريب تيمور دمشق أوائل المئة التاسعة و لكن عاد إليها رونقها فتجددت على عهد الدولة الشركسية، فلما جاء العثمانيون أخذت تتراجع حتى بلغت هذه الدركة من الانحطاط الذي نراه، و ليس في القطر جزء صغير من ذاك العمران المستبحر، و قد نال الأوقاف ما نال غيرها من التشتت، و كأن يد القدرة قضت أن لا تدوم سعادة السعيد و لا شقاء الشقي، و لو دامت مثلا- تلك الحركة المباركة التي كان الناس أو أهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضا من إنشاء معاهد الخيرات و الصدقات على اطراد و اتصال، لأصبحت الشام بأسرها مجموعة أوقاف يتناول ريعها الأشراف و الأجلاف، و أصبحت سائر الأمة خدمة و أجراء.

و لذلك كان العقلاء على مثل اليقين أن الأوقاف التي وقفها بعض أبناء الطائفة المارونية في جبل لبنان و بلغت لعهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم يتصرف فيها بطيريركهم و ينفق من مستغلها على بعض الأديار و البيع، لا تلبث أن يقوى عليها أصحاب القوة و المكانة و يتخذون من القانون حجة لبيعها أو يعرض لها عارض آخر- كما وقع في فرنسا على عهد ثورتها الأولى و استصفت الحكومة أموال البيع و الأديار و الجمعيات الدينية.- فتتمزق لأن مثل هذه الأوقاف التي حبسها أهل الخير على أعمال البر في الغالب لم تنفع أبناء تلك الطائفة في زمن المحنة أي في الأربع سنين الأخيرة على عهد الحرب العامة، و لو صح الاجتهاد و أظنه يصح في مثل هذه المواقف لأنه هو المعقول و الشرائع تسير على المعقولات، لكان على شمامسة المواردنة و قساوستهم و أسافقتهم و بطيريركهم أن يعمدوا إلى بيع تلك الأوقاف أو رهنها على الأقل ليصرفوا ثمنها على إطعام أبناء طائفتهم و لو فعلوا لما مات جوعا في لبنان من المواردنة ألوف.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠١

تأثير الوقف في العمران:

رأينا في أيامنا مزارع ومنها البعيد عن المدن، المتعذر استثماره بحسب العرف، قد أصبحت حدائق غلبا بفضل توفر مالكيها على تعهداها، و طول آمالهم في تحسينها، إرادة أن يستمتعوا بها هم و أولادهم من بعدهم، و لو كانت من نوع الوقف لخربت و بارت، و لأعرضوا عن تعهداها كما هو المشاهد في القرية الموقوفة و الأرض الموقوفة. و لكم رأينا الدائر الغامر إلى جانب الزاهر العامر. و حالة المسقفات أو العقارات كحالة المستغلات بل أدهى و أمر. و كذلك الحال في الأناسي الذين يعيشون من أوقافهم و من يعيشون من زراعتهم أو صناعتهم أو تجارتهم، فتجد في الأولين اتكالا مجسما و همما متراخية، و في الآخرين مضاء و عزما و شمما و حسن ثقة بأنفسهم. و عندي أن من وقفوا الأوقاف و حبسوا الأحباس لأبنائهم و من يجيء بعدهم قد أضروا بهم أكثر مما نفعوهم، و الرزق كالحياة لا طاقة لصغير أو كبير أن يضمه لنفسه فكيف به لغيره.

كانت الأوقاف نافعة في الصدر الأول لقلتها، و لأنها محبوسة على وجوه البر و على البائسين خاصة. فقد سأل شيخ عاجز من أهل الذمة عمر بن الخطاب شيئا فقال له: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية زمن شبابك، و لم نكفك مؤونة التكفف أيام عجزك، و أمر له من مال الصدقة بما يكفيه. خطط الشام؛ ج ٥؛ ص ١٠١

أجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عقلا إنكار نفعه. و لكن الملوک و من بعدهم من رجال الدول أنشأوا يجعلون من أموال المغارم أوقافا، و قلما تشاهد المخلص فيما حبس و وقف.

الأوقاف عند قدماء العثمانيين:

كانت تغلب على ملوك بني عثمان في مبدإ أمرهم البداوة و السذاجة و التدين، و لذلك ملأوا بروسه و أدرنة و الاستانة و كوتاهية و ازنيق بأوقافهم و مدارسهم، و كذلك فعل وزراؤهم و كانوا يتناولون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم إياها سلطان الوقت. فلما غلبت عليهم الحضارة و فتحوا مصر و الشام في عهد سليم و تكاملت فتوحهم في عهد سليمان، أصبحوا يتفننون في ضرب خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٢

الضرائب على الرعية، و قد غدا دخلهم لا يوازي خرجهم كما كان سابقا، و أمسى رجال الأمر فيهم يسيرون على سيرة ملوكهم يعرقون لحم الأمة ليجمعوا أموالا ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية، فكانوا كالتى تزنى و تتصدق، و ما كانت صدقاتهم في الحقيقة إلا فرارا بأموالهم من المصادرات لأن مصادرة الوزراء و الأمراء بعد المئة العاشرة أصبحت في الدولة العثمانية موردا من الموارد التى تعيش بها الدولة، بعد أن كانت لأول أمرها تقتصر فى دخلها على الجزية الشرعية و الخراج الذى كانت تتقاضاه من ملوك النصرانية و أعشار الأملاك السلطانية و ريع الجمارك و الملاحات و الخمس الشرعى من أموال الغنائم.

و إذا كان عمال الدولة لا يأخذون الأموال إلا من حلها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن أن يصرف على خيراته ما يربو على مليونى ليرة بسكة زماننا، و لو قدر هذا المال بقيمته العرفية اليوم لبلغ عشرة ملايين.

لا جرم أنه لم يحتج هذا المبلغ الذى تعجز أمة من الأمم الراقية اليوم عن المفاداة به إلا بارتكاب ضروب المظالم و المغارم. و لو فتح هذا الفاتح ما بين المشرقين و ارتكب مثل هذه المنكرات فى أموال العباد ما نفع شيئا فى قرباته و صدقاته.

و إذا كان مثل جنجى خوجه من مشايخ السلطان إبراهيم، و هو من أرباب الدجل، قد جمع من الرشاوى و الهدايا و الأوقاف ما يربو على مائة ألف كيس و الكيس خمسمائة قرش يوم صودر و أخذ خطه بها، فكيف حال من يقبض على زمام الأمر من الوزراء و الولاة و يظل مدة فى منصبه، ثم هو يظن أن إنشاء مدرسة أو جامع مما يبرر أعماله و يكفر عن سيئاته، و أن ذراريه بمأمن من الفقر لأن الملوک فى الغالب كانوا يتركون لهم العقارات و الأرضين و يكتفون بمصادرة الأموال فقط.

الوقف من مال غير محلل:

قال في «نتائج الوقوعات»: و مؤلفه من وزراء السلطنة في عهد السلطان عبد العزيز ردا على من قال إن الأسلاف لم يجسوا ما حسوه إلا خوف المصادرة

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٣

و إرادة أن يتركوا لأولادهم و أحفادهم موردا يعيشون به: إذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة فإن أكثرهم على خلاف ذلك لا- محالة، و قد رأينا في صكوك أحباسهم أنهم وقفوها على الجوامع و المدارس و الكتاتيب و الخانات و الحمامات و على إنشاء القلاع و إعاشة القائمين عليها من المرابطين و على أبناء السبيل. إذا عرفت هذا و شاهدت ما أبقوه من هذه الآثار الجسيمة النافعة التي ساعدوا بها على نشر المعارف و العلم و عمروا بها المملكة، فليس من الإنصاف أن تقدم الأصل على الفرع و تذهب إلى سوء الظن فيهم. قال:

و إذا جئنا نبحت عن المبالغ التي أنفقت على هذه الأوقاف و عما إذا اكتسبت من وجوه محللة، فأنا معك بأن كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب، أما و قد جمعت تلك الأموال بصور مختلفة فإن إنفاقها بما ينفع العامة من الأعمال الصالحة أزين في العاقبة و أدعى إلى المحمودة، من صرفها في الإسراف و السفاهة، و حابسها يذكر بالرحمة، و يستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين. هذا ما ارتآه الوزير التركي و في كلامه نظر عند العقلاء إذ أى طاعة تثبت في جنب تلك المعاصي. و لعمرى متى ساغ للمرء أن يأكل أموال الناس بالباطل، ثم يتصدق بها أو يبعثها و يحمد الخالق و الخلق أثره. و قد أحسن هذا الوزير بقوله: إن صرفها في هذه السبيل أولى من غيره على كل حال.

قال حجة الإسلام الغزالي: أرباب الأموال و المقترنون منهم فرق، ففرقة يحرسون على بناء المساجد و المدارس و الرباطات و القناطر و ما يظهر للناس كافة و يكتبون أساميهم بالأجر عليها ليتخذ ذكركم، و يبقى بعد الموت أثرهم، و هم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، و قد افتروا فيه من وجهين: أحدهما أنهم بينونها من أموال اكتسبوها من الظلم و النهب و الجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها، و تعرضوا لسخطه في إنفاقها، و كان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة و الرجوع إلى الله تعالى، و ردها إلى ملاكها إما بأعيانها أو برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٤

نعم نحن على رأى صاحب «نتائج الوقوعات» من أن جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة في تحصيل الثروة، و قوله إن أكثرهم صالح يحتاج إلى نظر بليغ، بل الأولى أن يقال: إن منهم الصالح الذى جمع أمواله من طرق مشروعة و جعلها قربة لمولاه لما اقترب من لقاءه، كأن يدخر المال و يقتصد فيه و يكون إقطاعه أو راتبه عظيما، أو يرث من آباءه أو غيرهم أو يتجر و يزارع إلى غير ذلك من وسائل الاغتناء المشروع، و فى سير بعض الأمراء و العلماء و بعض صدور الناس حوادث كثيرة تؤيد هذه القضية.

مضار الأوقاف:

و كيفما دارت الحال فإن الأوقاف على الصورة التي وصلت إليها فى هذه الديار عامة كانت أو خاصة قد حملت فى مطاويها من المضار، أضعاف ما توقع واقفوها منها من المنافع، و خصوصا الأوقاف الأهلية فإنها ضارة من كل وجه، أما الأوقاف على وجوه البر و التقوى فليس فى استطاعة أحد منعها ما دام المرء حرا بماله يصرفه كما يشاء.

و قد أدرك العثمانيون فى العهد الأخير مضار الأوقاف الأهلية فقصوا بقسمتها إذا كانت صالحة للقسمه، أو يبيعها و تقسيم ثمنها بين الشركاء، إن لم تكن كذلك بمجرد طلب أحد الشركاء، و بذلك تخف مضرتها. على أن أوقاف الجوامع و المدارس و سائر القربات أيضا قد تخلص من ربة الوقف بحيل يسمونها شرعية و اخترعوا لها أسماء كالتحكير و الاحترام و الإجاريتين و المرصد و أخرجوها

بهذا العمل عن ملك الوقف إلى ملك خاص. و بهذا كانت تقل الأوقاف حيناً و تكثر تارة أخرى، و فى حلب اليوم ألف و أربعمئة وقف ينظر فيها ديوان الأوقاف و يبلغ ريعها مليونى قرش ما عدا الأوقاف الأهلية، و كذلك الحال فى دمشق و القدس و أوقاف كل بلد بحسب غناه و نفوسه.

منافع الأوقاف:

إن إخراج الزكاة عند المسلمين فى القرون الأولى للإسلام، ثم إنشاء المعاهد الدينية و غيرها فى القرون الوسطى و ما بعدها، و حبس الأموال لإطعام

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٥

الفقير و الزمن و العاجز عن الكسب، قد خفف و لا شك من شروء الفاقة بعض الشيء، و إن كان فيه من جهة أخرى تحبيب التوكل و التواكل إلى الناس. و لم نر فى ديارنا، و تحصيل الرزق فيها أهون منه فى أوربا مثلاً، ما نسمع به من ضروب الشقاء الذى يسوق هناك إلى الانتحار و إلى ارتكاب الفظائع. و بعض الأمم المتمدنة اليوم تفكر فى قتل العجائز لقله فائدتهن، و الإبقاء على الكلاب و هذا من أغرب ما سمع. و لم يعهد العرب شيئاً من هذا بفضل ما حبسه المتصدقون على ضروب البر، و إن كان هذا الإفراط فى الإفضال على العاجزين عن الكسب، قد يورث الخمول و يقعد بالهمم عن الكدح.

إلى اليوم لم ينشأ للبشر مجتمع كامل فى عامه صفاته، على كثرة ما جاء من الشرائع و سنّ لأجله من القوانين، و السعادة لم يمسها الناس بأيديهم، و كأنها محالة الآن. و ما ندرى إن كانت أسبابها تتم فى مستقبل الدهور و العصور، فلا الوقف و قى الناس من الفقر، و لا- عدمه أفقرهم. هذه القوانين قد تلتطف من شرّة الشر، و لكنها لا- تستأصله من جذوره، لأن لذلك أسباباً أخرى، و لعله لا يتم المطلوب قبل انقضاء أيام و ليال، و قضاء آجال و أجيال، و الله يحكم لا معقب لحكمه.

تقسيم الأوقاف و إصلاحها :

يقسم الوقف إلى خيرى و أهلى، و ينقسم الخيرى إلى دينى محض كحبس المساجد و المعابد، و إلى دينى دنيوى و هو يشمل جميع أنواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم و دور الصناعات و رباطات المجاهدين، و فنادق أبناء السبيل، و مستشفيات المرضى، و مقابر الموتى، و نحو ذلك من وسائل الارتفاق العام، و مثله ما تحبس عينه لينتفع بريعه مصارف الصدقات الشرعية، سواء أكان الحبس على جميع المساكين أم على فئة مخصوصة منهم.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٦

و أما القسم الثانى و هو الأهلى فينقسم إلى طائفى و ذرى، و الأول ما حبسه الواقف على طائفة مخصوصة من الناس. و الثانى ما حبسه على ذريته من بعده.

و هذه الأقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق، لأنه ينقسم باعتبار متعلقه و عوارضه إلى أقسام كثيرة، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التى وقفت لأجلها المعابد، و الثانى الموقوف عليه و هو المخلوقات التى تتمتع بنعمة ما حبس عليها، و الثالث الأعيان الموقوفة. و أما العوارض فهى كالصحة أو عدمها من الوجهة الشرعية، و كالضبط أو الإلحاق من الوجهة الإدارية، و قد يتداخل بعض هذه الأقسام مع فروعها فيقال مثلاً وقف خيرى صحيح مضبوط.

و لانقسام الأعيان إلى ثابتة و منقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق إلى وقف الأموال الثابتة و وقف الأموال المنقولة. فالثابتة كأرض الزراعة المملوكة الرقبة و الحوائط و البساتين و العرصات و العقارات المسقوفة. و هذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه. و أما الأموال المنقولة صامتة كانت أو ناطقة، فقد اختلف الفقهاء بصحة وقفها، و المعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه

تعامل المسلمين في القديم و الحديث من وقف المصاحف و الكتب و الجنازة و نحو ذلك، و بالأولى معدات الجهاد كالسلاح و الكراع.

و الأرض الأميرية سواء أكانت عشرية أم خراجية لا يصح وقفها إلا إذا كانت مملوكة الرقبة، فإذا ملكها السلطان ملكا شرعيا فله أن يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية أمواله المملوكة. و الواجب إذا تقييد وقف السلاطين الأرض الأميرية بالأوقاف الأهلية، إذ لا يسوغ للسلطان أن يفرز مزرعة من أرض بيت مال الأمة العام و يخصها بفتة من الناس على سبيل الحبس و التأيد، كما فعل السلطان سليم الأول العثماني حينما استولى على الشام بإفرازه كثيرا من المزارع بدون تملك رقبته، و وقفها على أرباب الزعامة الدينية و ذرارهم. و العشر الذي تتقاضاه اليوم البقية الباقية من الذرية أو أدعياء النسب المندسون بها، هو ضرب من السحت يجب أن يتحول مجراه عن هذه الحليمات الطفيلية إلى مصالح الأمة و مرافقها الخيرية العامة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٧

و خلاصة القول أن هذا النوع من الأوقاف السلطانية غير صحيح، و بالأخلق وقف الوزراء و عمال الولايات. و لو اقترن بموافقة سلطانهم الأعظم، لأن عمال القرون المظلمة في عهد الحكم الإقطاعي كانوا يقترفون في إيالاتهم ما شاءوا و شاءت أهواؤهم فيقتلون البررة و الأبرياء، و يعفون عن الجناة و قطاع السابلة الأشقياء، و يصادرون أموال من يشاءون، و يصلون بها من يشاءون. فإذا كان الموت و الحياة بين شفيتهم، و حقوق العباد الخاصة ألعوبة بين أيديهم، و أموال الرعية مباحة لديهم، فأخلق بهم أن يعثوا بالحقوق العامة كأرض بيت المال الشائعة الانتفاع بين أفراد الأمة، فراغا بالبيع أو انتقالا بالإرث، أو إحياء بالعمل مقابل البدل. فقد كان هؤلاء الظلمة يضعون أيديهم على ما يختارونه من أرض إيالاتهم الأميرية المملوكة الانتفاع فضلا عن الشاغرة (و هي ما تدعى بمصطلح قانون الأرضين بالمحلولات الأميرية) و يملكون هذا الحق بالتفويض من أنفسهم لأنفسهم، لأنهم الكل بالكل لا يسألون عما يفعلون، ما داموا يشترتون الولاية على الإيالة بثمن مقطوع، يؤدونه مسانهة إلى سلطانهم أو أعوانه، و بعبارة ثانية يفهمها عوام الموظفين الحكوميين، ما دام الولاية يلتزمون الولاية على الإيالة من أعوان السلطان بالمزايدة، حتى تصل إلى بدلها اللائق أو الفاحش، و يقع عليهم المزداد الأخير و تحال إلى عهدتهم إحالة قطعية.

و كل وقف من أوقاف السلاطين يتحول من منفعة خاصة إلى مصلحة عامة فهو صحيح و العكس بالعكس. و حكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء و عمال الإيالات الظالمين الذين كانوا يطوقون بنفوذهم الأرض الشاغرة، و يغتصبون المملوكة و ينتفعون بحق قرارها، ثم يحتالون بوقفه خشية المصادرة.

و قد مهد لهم سبل الاحتيال المتفقه المصانعون، فأفتوهم بصلحة الوقف على النفس الذي يروى القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصلحة عامة، و هي ترغيب الناس بالوقف لأن مصيره بعد موت الواقف و انقراض ذريته إلى جهة لا تنقطع، و هي الفقراء و المساكين الذين لا تخلو منهم الأرض في كل عصر و قطر. لكن متفقه السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه الفتوى و أضرابها على إفراز المزارع من أرض بيت المال، و حبس

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٨

حق قرارها على أنفسهم في حياتهم و على ذرياتهم من بعد مماتهم.

هذا رأى نبديه من الوجهة الفقهية النظرية، و لا نفتى و لا نقضى به من الوجهة الشرعية العملية، و إن كان مناطه المصلحة العامة التي ترمى إليها الشريعة السمحة الواسعة ما لم تتفق عليه كلمة أهل الحل و العقد من علماء الشريعة الإسلامية، لأن الفرد يخطئ و يصيب. لكن الذي نقطع بإجحافه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الأرض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث و الزرع بدون معذرة شرعية، لأن المتصرف بالمنفعة لم يملكها إلا بأسباب شرعية، و كل ما يملك بسبب شرعي لا يجوز نزعها من مالكه إلا بأسباب شرعية.

ضروب الحيل و انتهاك حرمة الأوقاف:

الناس محتاجون بسائق الاضطراب إلى البيع و الابتاع و المقايضة و المقاسمة، ما دام الإنسان مدنيا بالطبع، مضطرا إلى التعامل بالتبادل الذى هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية، و هى دعامة العمران. و قد أورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادى الضرورى الاستمرار لأن التصرف بالعقارات الموقوفة بيعا أو شراء ممنوع شرعا، و بواعث العمران و الاقتصاد تقتضى هذا التصرف طبعاً، درءا لخطر الآفات الاجتماعية، و الأزمات الاقتصادية.

و لذا اخترعوا- و الحاجة أم الاختراع- انتزاعا على ما يقولون من قواعد الإمام أحمد بن حنبل، ما يدعى فى الديار الشامية بالمرصد. و هو الدين الذى على ذمة العقار الموقوف أو الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولى عليه مقدارا ماليا معجلا من المستأجر يسمى «خدمة»، و فرض مقدار مؤجل عليه يستوفى منه مسانئه يسمى دينا مؤجلا، بشرط أن يكون المستأجر على الموقوف لعمارة أو ترميمه دينا بذمة شخصه، فاذا أيسر للمتولى أن يؤدي إلى صاحب المرصد ما كان له على رقبه الوقف ليعيدها إلى جهته طوعا أو كرها. و مرمى هذا المخرج و مغزاه تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعا و شراء مراعاة للمصلحة الاقتصادية، مع تقدير مرتب مقابل

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٠٩

هذا المنح، و مع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد أداء الدين حرمة للأحكام الشرعية، و بنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلا تكاثر المرصد.

هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة، و أما الأراضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا لمنح التصرف بها، فراغا أو انتقلا، مخرجا آخر و هو سراية «شد المسكة» من الأرض الأميرية إلى الموقوفة. و معناه استحقاق الحرائث فى الأرض التى ليست مملوكة الرقبه للحث مقابل أداء العشر أو الخراج إن كانت أميرية، و أداء مرتب الوقف إن كانت موقوفة الرقبه بعد أداء حق قرارها. و قد أضحت قضية أرض الزراعة الموقوفة فى الشام ذات غموض عظيم فى زماننا، لاختلاط الموقوفة بغيرها، و اختلاط الموقوفة وقفا صحيحا لتملك رقبته بالموقوفة وقفا غير صحيح لعدم تملك الرقبه، و كذلك لاختلاط ذات الوقف الأهلى بذات الوقف الخيرى فضلا عن ضياع وقف أغلبها و اندثاره بتقادم العهد، ما عدا الأراضين التى صانت الحكومة وقفها و ضبطته، مقابل إفراز العشر و الاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواء أكانت خيرية أم أهلية، و سواء أكان الوقف صحيحا أم غير صحيح.

و إذا كانت قضية الأرض الأميرية باعتبار ذاتها من أشكال المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطه التى رسمها سيدنا عمر رضى الله عنه بعد فتح الشام، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التى استترت على أبناء هذا الزمان، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين، و مناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين أو المتولين، و يندر أن يطلعوا عليها أحدا لعبثهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية، و اختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الأهلية.

على أن أغلب أرض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها فى عهدنا و ربوعنا عن بقية الأراضين من وجهة الفراغ و الانتقال. و نحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج، لعلمنا بيسر الشريعة و اتساعها و ملاءمتها لمقتضيات الزمان و العمران، لا يسعنا إنكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الأوقاف الإسلامية و انهيار معالمها، لأنه فسخ مجالا لابتداع الحيل التى مهدت السبل لاختلاس الأوقاف و طمس معالمها، و درس معاهدها.

و لما أدرك أرباب الطمع أن المرصد لا يملكهم العقار الموقوف ملكا باتا، لأن

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٠

لمتولى الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى إليه دينه على الوقف، كادوا للأوقاف الإسلامية بحيل ابتدعها بعض متفقهة

القرون الوسطى، ما عرفها الشرع ولا عرفته و وضعوا لها أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان و هي: القيمة. الجدك (الكدك). الخلو. القميص. الحكر. الاحترام ..

و يشمل هذه الأنواع ما يسمى حق القرار في البلاد الشامية و الكردار في بلاد خوارزم، و هو غير حق القرار في الأرض، بل يريدون به تجوزا الأعيان القائمة سواء أكانت متصله كالجدران و السقف، أم منفصلة كالألات و العدد.

و تختلف أسماؤها باختلاف ما حلت به من الأمكنة، فإن حلت في البساتين و الحدائق فاسمها في ديارنا «قيمة» و المراد بها جدران البستان (الدكوك) و ما يشتمل عليه من جذور نجمه. و بمصطلح العامة (شروش الفصة) و معجن مشمشه و بمصطلح العامة (تيغار معك مشمش القمر الدين) و قمامته (المزبله) و إن وجدت في الحمامات فالمراد بها الفرش و الأثاث كالسجاد و الوزرات و الطاسات. و إن كانت في الحوانيت فتسمى جدكا و هو ما يضعه المستأجر متصلا كالأبواب و الرفوف. أما إذا كان منفصلا كعدد المقاهي و آلات الحلاقة فيسمى خلوا أو حق السكنى. و يغلب على الظن أن هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه متفقه القطر المصري بل الأرجح أنهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقه الشام بالمرصد، و يقرب منه ما يدعوه متفقه بلاد الروم بنى الإجارين، و هو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد و القدم.

ثم إن هذه الأعيان إذا كانت في المطاحن فإنها تسمى قميصا، و المراد به آلات الطحن كالقطب و حجرى الرحي و نحو ذلك من آلات الطحن المنقولة.

و إذا كانت مادة بناء قائم في عرصه موقوفه فتسمى حكرا. و صورة احتكارها أن يأذن متولى الوقف للمستأجر بالإنشاء في العرصه الموقوفه على أن يكون ما بينه ملكا له، بعد أن يؤدي إلى المتكلم على الوقف مقدارا معجلا يسمى خدمه، و يتعهد بأداء مقدار مؤجل يؤدي مسانئه يسمى دينا مؤجلا. و إن كانت غراسا فيسمى غرسها «احتراما». و صورته أن يأذن المتولى على أرض موقوفه- ما عدا أرض الزراعه- بغرسها لإنسان على أن ما يغرسه يكون

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١١

ملكه أو أن يكون بعضه ملكه، و الآخر ملك جهه الوقف على سبيل التابعيه للأرض بعد أن يؤدي إلى المتكلم على الوقف مقدارا معجلا يسمى أيضا خدمه، و يتعهد بمقدار مؤجل يؤدي مسانئه يسمى أيضا أجره أو دينا مؤجلا- هذا ملخص ما نص عليه المتفقه المتأخرون.

مصائب الأوقاف:

إن غلو الواقفين بالتهافت على الوقف، و اتخاذ الظلمه المتجرين بالدين الوقف دريئه لصيانه أموالهم المغصوبه من المصادره، و تحريج أئمة الحرج الذين سماهم بذلك الرسول صلى الله عليه و سلم، و هم المتفقه المتنعون، و تشديدهم على الناس أو تضييقهم ما وسع الله تعالى على عباده، و تساهل متفقه السوء بابتداع حيل الأوقاف لإفهام جيوبهم، و إشباع بطونهم النهمة التي لا تشبع بالقليل لأنهم يأكلون بسبعة أمعاء- كل ذلك كان من أعظم البواعث على إضاعة الأوقاف الإسلامية في الشام، لأن إغراق الأسلاف المتقدمين بالتهافت على الوقف، ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الأرض الحره بالحبس عن التصرف بيها أو ابتياعا أو مقايضة أو مقاسمه إلى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدني. على حين مبنى الشرائع الإلهيه كما قال ابن القيم على الحكم و المصالح، و كلها رحمه و حكمه، و مصلحه و عدل، و كل قضيه خرجت عن الرحمه إلى النقمه، و عن الحكمة إلى العبث، و عن المصلحه إلى المفسده، و عن العدل إلى الظلم، فليست من الشريعة و إن أدخلت فيها بالتأويل. و أرى أن كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدل.

أضاع هؤلاء الجامدون حكمه الوقف و مصلحته، و حالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفه كحرصهم على شرط الواقف و صفته، و لو

اقتضت منفعة الوقف التغيير والتبديل. وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين أو اتجار به، و عن تشديد المتفقهة على الناس ابتداء الحيل التي أودت بالأوقاف، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكا محضا، وإن ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر أو القيمة أو القميص ونحوها من الحيل الكردارية التي جرات الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٢

مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل، في زمن آثر كثير من أبنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم. فانفجر بركان الجراءة على الشريعة لتضييق أئمة الحرج، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف. ولم يجد اختراع مخرج المرصد نفعا لصيانة العقارات الموقوفة. إذ لم نسمع ولم نشهد أن المتكلم على وقف أدى إلى صاحب المرصد ما كان له ديننا على رقبه الوقف واسترجعها إلى جهته، بل نرى إينا عكس ذلك وهو أن أصحاب المرصد كانوا يرشون المتكلمين على الأوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد إلى الملك الحر، ويرشون أيضا مفوضي تمليك العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكا صرفا، بل إن بعض المتولين أنفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة، إذ يتذرعون به بدون اضطرار إليه لتحويل العقار من الوقف المحض إلى المرصد، ويرشون قضاء السوء ليثبتوا اضطرار الوقف إلى الدين والاستدانة ..

أوقاف الذرية:

قوام الوقف ركنان وهما الحبس والتأييد، فمتى حبس الواقف العين عن التمليك وأبد الحبس بالتمليك إلى جهة لا تنقطع، أصبح الوقف مبرما وأضحت العين محبوسة شرعا. ولا يمكن تحريرها من قيد الوقف، و رجوعها ملكا صرفا كما كانت البتة، لأن الشرع صانها للجهة الموقوف عليها من تصرف الانتقال والتمليك. ولخوف الواقف من سفه ذريته، وتبديدها الثروة من بعده، أو لخوفه من المصادرة أو لغير ذلك من الأسباب المختلفة باختلاف النيات، لجأ إلى الوقف وقيد بقيود وشروط تلائم رغائبه، وأبده بالتمليك إلى جهة لا تنقطع بعد انقراض الذرية لثلاث. يفقد الوقف أحد ركنيه. وما التجاء الواقف إلى الوقف إلا التجاء إلى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصانته بأحكامها. وغير خفي أن حامى حمى الشريعة أمام المسلمين المكلف برعاية أحكامها، والنائب عنه من هذه الوجهة وزارة الأوقاف فى العاصمة ودوائرها الفرعية فى الإيالات وملحقاتها. والشريعة لا ترد اللاجئ إلى حماها بالطرق الشرعية. وهذا لهذا لم تفرق قواعدها وأحكامها بين الأوقاف الخيرية

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٣

والأهلية بالمناعة والصيانة، فكل من النوعين منيع مصون بنظر الشريعة.

واللاجئ إلى الشريعة لاجئ طبعاً إلى المكلف بحمايتها ورعاية أحكامها، فكان حقا على إمام المسلمين والنائب عنه من الوجهة الوقفية، صيانة الأوقاف الأهلية كحرصهم على صيانة الأوقاف الخيرية. فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الأوقاف الحكومية على الأوقاف الأهلية المحضة، ولا سيما أن الوقف الأهلى الصرف يحتمل أن ينقلب خيرا محضا فى أقرب وقت، بانقراض الموقوف عليهم، لأن مال الأهلى إلى الخيرى بالعاجل أو الآجل، لتقييد الوقف بالتأييد إلى جهة لا تنقطع. وكل ما يعود إلى هذه الجهة فهو من الأوقاف الخيرية، فحق على دوائر الأوقاف أن تكون فى كل آن واقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الأوقاف الأهلية. على أن أغلب من تذرعوا بالوقف الأهلى لصيانة الثروة، ولا سيما الوزراء وعمال المقاطعات، كانوا يتبرعون بالأوقاف الخيرية ليوطدوا الأولى بالثانية، ويعهدوا بالولاية على الجميع إلى الأرشد من ذريتهم. فرعاية لشروط الواقفين لا تنتزع دواوين الأوقاف الولاية من المتولين على الأوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الأهلية، ما دام المتولى يؤدي دفتر المحاسبة نقيا من الشوائب. وإذا كان الأمر لا يسوغ لديوان الأوقاف أن يضبط الوقف بل يذره ملحقا، لكن يحق له أن يجبر المتولى أن يؤدي حسابا عن الواقفين الخيرى والأهلى لتداخلهما، و

إن لم ترفع إليه شكوى من أرباب الاستحقاق.

الأوقاف في العهد العثماني الأخير:

لهذا العهد ثلاثة أدوار: الأول دور السلطان عبد الحميد الثاني. الدور الثاني دور أخيه محمد رشاد الخامس. الثالث دور أخيهما وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بني عثمان. و لم تكن دوائر الأوقاف في الشام على العهد الحميدى أقل من بقية الدوائر الحكومية خلا و فوضى و اختلاسا و قلة نظام، بل كانت أكثر اختلالا من غيرها لأن لها وجهه دينيه ذات اتصال بمشايخ الدين الحشويين أو الدجالين، و هم أبعد الناس عن النظام و الانتظام، فكانت

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٤

الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين، و اكتفائه على الجملة بالتمويه بشعائره الصورية و رسومه الرسمية، و كان أعوانه يبيعون على مسمع و مرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعى و الفتيا و التدريس العام و الوعظ و الإرشاد. و من جملة ما يبيعون وظيفه مدير الأوقاف التي كانت تكدر و تجدد و تبذل الجهد في جباية أموال الأوقاف، لتبعث بها بعد السلب و النهب و المقاسمة إلى العاصمة، فيفيض السلطان من هذه الأموال على الدجالين من مشايخ الطرق و علماء الرسوم و الرتب و الأوسمة باسم (إحسانات أو صدقات سلطانية، أو فدية عن عافية ذاته الملوكية) و يكرّ يديه بالصرف على علماء الدين العاملين فسادت لذلك حال أئمة المساجد و خطباء المنابر و السدنة و المؤذنين و الواعظين لفرط التقدير عليهم، حتى انحصرت هذه الأعمال في البائسين و الكسالى و الزمنى.

تنقسم الأوقاف إلى خيرية و أهلية. و تنقسم الخيرية إلى مضبوطة و ملحقة، تناط الأولى بدائرة الأوقاف مباشرة. و تركت الثانية لنظارها مع احتفاظ ديوان الأوقاف بالنظارة العامة عليها، و للديوان حق السيطرة على الأوقاف الأهلية و لا سيما إذا كانت مختلطة بالخيرية. و هى تنقسم إلى جلية و خفية.

فالأولى من متعلقات الأوقاف الخيرية المضبوطة، و هى نفقات أرباب الشعائر الدينية و الاختلاس منها تافه جدا بالنسبة إلى نفقات تنوير المساجد و المعاهد و ابتياع ما يلزم من الأثاث، و هو أيضا حقير بالنسبة إلى ترميمها و ترميم الأعيان الموقوفة عليها. و أما الإنشاء المحدث أو المجدد فلم يكن معهودا في ذاك العهد لأن ديوان الأوقاف يجبى الأموال من الشام ليعبث بها إلى العاصمة. و بالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجلية شيئا مذكورا قياسا مع الوسائل الخفية و هى عديدة: أولها أن كثيرا من المساجد و المدارس و الزاويات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية أو المتصوفة) و المعاهد الخيرية كالمستشفيات أو مطاعم الفقراء (التكايا) و نحوها من الأمكنة المضبوطة أوقفها، سواء كانت مهجورة أو مقلعة الأبواب لكونها فى القرى أو فى أحياء منزوية عن المدينة، فكان ديوان الأوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج إليه من النفقات أضعافا مضاعفة، كما لو كانت عامرة أهله مفتحة الأبواب، فى حين أنها لا تنفق عليها شيئا

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٥

سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الأصول المرعية الإجراء، بالحصول على وثائق وصول النفقات إلى البائسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقيع الوقائع و الأسناد الكاذبة. و الوسيلة الثانية أشد خفاء من الأولى، و هى مواطأة دائرة الأوقاف مع نظار الأوقاف الملحقة الغزيرة الريع على أكل أوقاف المسلمين الكثيرة العدد، و هى مما حبسه السراء و الأمراء و الوزراء الأسبقون على ذراريتهم، و على المعاهد الخيرية و المعابد، و جعلوا الولاية عليها فى الأرشد على ذريتهم. و ذلك أن هؤلاء النظار نظار الأوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون أعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانه العامة باسم الأوقاف الأهلية و الخيرية، على حين درس جل بل كل المدارس و المساجد و أصبحت أسماء لا- مسميات لها، درست و انقلبت حوانيت و فنادق و دورا و قصورا، و سجلت فى

سجلات التملك ملكا حرا لهؤلاء النظار المختلسين، ثم انتقلت لورثتهم و لمن ابتاعها منهم. و كانوا يتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد، و يدرجون بكل قحء و جرأة مبلغا وافرًا باسم النفقة على تنويرها و ترميمها و فرشها و إقامة شعائرها، ثم يتغاضى ديوان الأوقاف عن محاولة النظار تحويل الأعيان الجارية بملك الوقف إلى مرصد أو كردار بدون سبب قوى، ثم إغضاء هذا الديوان عن تحويل الأعيان الموقوفة من الوقف المحض أو لمرصد الكردار إلى الملك الصرف، ثم تسجيل العقارات الموقوفة على المعابد و المدارس ملكا صرفا للنظار المختلسين إلى غير ذلك من أنواع المواطات بين ديوان الأوقاف و النظار عليها. و كلها ترجع إلى اختلاس الربيع و تغيير الأعيان الموقوفة. و كان ديوان الأوقاف يكتب من حين إلى آخر إلى وزارة الأوقاف في العاصمة بأنه ضبط مدرسه كان بعض الأشرار اتخذها سكنا فأرجعها معبدا تقام فيه الشعائر و الصلوات و الأوراد و الأذكار و الأدعية للخليفة الخ.

أما القلب و أعنى به مجلس إدارة الأوقاف الأعلى فقد كان على جانب عظيم من الضعف، وفقا لمقتضيات العهد الحميدى التى يرومها عباد المنافع الخاصة و أعداء المصالح العامة. و إذا كان القلب الذى هو مصدر الحياة ضعيفا بتعفن حجراته المنبعث عن تغلب الجرائم الذريعه الفتك، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان و أعضائه و دوره دمه. لا ريب أنها تكون كحال هيكل خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٦

ديوان الأوقاف و إدارتها، ما دام أعضاؤها عاطلين من الأهلية علما و خلقا، و لأكثرهم علائق بوقف خيري أو أهلى، مما هو مخالف للقانون. فهم لا- علم و لا نزاهة و لا غيره. أما نظار الأوقاف الأقوياء بالمجد الكاذب، فقد كانوا يتصرفون تصرف الملاك بالأعيان الموقوفة الربيع على المعاهد الدينية و الخيرية و على ذرية الواقفين، فضلا عما يختلسونه من المدارس و أفنية المساجد، يتخذون جميع ذلك دورا و حوانيت و حدائق، و ينقلونها فى سجلات التملك من الوقف المحض إلى الملك الصرف. و إذا طالب بعض أرباب الغيرة بإعادة الأوقاف إلى حالها و إجراء أمورها على حقيقتها تقام عليهم الدعاوى المزورة، و تنصب لهم المكاييد و أشراك الانتقام. و كأن لسان حال ديوان الأوقاف و مجلس إدارتها و رئيسه يقول لنظار الأوقاف المختلسين: (سكتنا عنكم لتسكتوا عنا) لأن جميعهم باستنزاف الأموال و سحق الضعفاء سواء.

و لقد انتظم ديوان أوقاف الشام فى الجملة بعد إعلان القانون الأساسى (١٩٠٨ م) و تسرب إليها شىء من الإصلاح بفضل الخطط التى رسمها وزير الأوقاف العثمانية العربى خليل حمادة باشا، و تناقص النهب و الاختلاس بالنسبة إلى العهد المنصرم، غير أن المعاهد و المعابد لم ينلها حظ من زيادة الواردات، لأنها كانت تنفذ إلى العاصمة فتتفق كغيرها من واردات أوقاف الإيالات العثمانية كإنشاء فنادق كبرى للوقف فى الاستانة. و ظلت قوانين الأوقاف كما كانت فى عهد السلطان عبد الحميد حبرا على ورق. و مما يسجل من أعمال الدولة فى الحرب العالمية أنها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس، و ذلك باتخاذ المعابد و فى مقدمتها الحرم النبوى الشريف، و المدارس و المعاهد الخيرية و ملاجئ الإسعاف العام ثكنات لمأوى الجنود و إصطبلات لربط الخيول، و حبس الأنعام، و مستودعات لادخار أنواع الذخيرة و ضروب الميرة. و لما انجلى الترك عن ربوع الشام، أغاروا على سجلات الأوقاف و وثائقها و أوراقها الخطيرة و نقودها، كما أغاروا على وثائق أغلب الدواوين و سجلاتها و نهبوا نقودها، و فى عدادها أموال اليتامى و أمانات المصارف الزراعية، فأصبحت دواوين الأوقاف من أجل هذا بمصيبة عظيمة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٧

الأوقاف بعد العهد التركى:

و فى عهد الحكومة العربية الفيصلية ألف ديوان الأوقاف تأليفا جديدا، و لم تلبث أن فاضت واردات الأوقاف عن نفقاتها لأن المبالغ الباهظة التى كانت ترسل إلى العاصمة التركية ظلت فى خزانه الدائرة التى شرعت توسع على أرباب الشعائر و تحدث كثيرا من الوظائف. و أخذت ترمم المساجد و المدارس و الأعيان الموقوفة و تنشئ المعاهد كالمدرسة السيمساطية بدمشق التى نقضت من

أساسها و أنشئت خلقا جديدا- و مثل ذلك الإصلاح الذى تم فى ترميم الأعيان الموقوفة أو إنشاء الجديد منها فى حلب و غيرها- حتى إذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل و احتلت الجيوش الفرنسية داخلية الشام أصيب ديوان الأوقاف بتبليبل مالى، و ذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية، و اتخاذ القرش السورى محور التعامل و حظر التبادل بالتقدين الذهب و الفضة قبضا و صرفا، فى حين أن الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة فى اليوم الواحد، فارتبكت معاملات دواوين الأوقاف بهذا التبليبل و زاد فى نضوب خزائنها، على الرغم مما زاده القائمون بإدارة شؤونها من زيادة الضمانم الفاحشة على الديون المؤجلة.

و قضت إرادة المفوض السامى الأول أن يتدخل المتدبلون فى الشؤون الإسلامية المحضة، و ذلك بالإشراف على أوقاف المسلمين دون أوقاف اليهود و النصارى، فى حين أن الدولة العثمانية الإسلامية لم تتدخل بشؤون أوقاف اليهود و النصارى المنضوين تحت لوائها، سواء أكان ذلك إبان قوتها، أم أيام ضعفها، و تركت إدارتها إلى المجالس الطائفية، كما أن الدولة البريطانية لم تتدخل فى مصر بشؤون الأوقاف الإسلامية فاستتنت وزارة الأوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة و سلطة المستشارين، و تركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة. و قد نهجت أيضا هذا النهج فى فلسطين فتركت إدارة أوقاف المسلمين و جميع شؤونهم الدينية كتقليد القضاء الشرعى و الفتيا و الوعظ و الإرشاد و الخطابة و الإمامة إلى مجلس ينتخب أعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الإسلامى الأعلى.

أما فى الأصقاع المشمولة بالانتداب الفرنسى فقد أنشئت المراقبة العامة على

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٨

شكل مبتدع بين الأشكال الحكومية، و وضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية. و كذلك يقال فى مجلس الأوقاف الإسلامية الذى قضت المفوضية بتأليفه، ففصلت بذلك دواوين الأوقاف الإسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية، و وصلتها مباشرة بالمفوضية العليا، و جعلت لها مستشارا غير مسلم يتصرف فى شؤونها الإدارية و المالية بسلطة واسعة. و كان من إحداث مراقبة الأوقاف إرهاب خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة، و لم تأت بعمل يذكر مجاراة لمقتضيات الترقى الحديث استنادا إلى قواعد الشريعة العامة التى يحظرون الاستنباط منها، ذلك لأن معظم أعضاء مجلس الأوقاف من أعداء التجدد، و عشاق الاحتفاظ بالقديم و إبقائه على قدمه، فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء المنطوى على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التى لم تعد صالحة لإقامة الصلوات مع استناده إلى مذهب الإمام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها.

وسائل إصلاح الأوقاف:

ضيق بعض متفقهة القرون الوسطى دائرة الشريعة الواسعة، و قلبوا يسرها عسرا، و مرونتها صلابة، و صوروها عقبه كؤودا فى سبيل الارتقاء، بما ابتدعوه من القيود المنبعثة عن الجمود، و بما أقاموه من السدود المنيعه دون دخول منافذ ينابيع العلم، و ما سدلوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل. احتال فريق منهم على الشريعة فاختلفوا باسمها حىلا- تقلبها رأسا على عقب، انقيادا لا هواء العلماء و الأغنياء، بسائق الجشع و حب الجاه، و افتاتوا على دين الفطرة بحشو أودس ما تنبو عنه حكمته و أصوله و فروعته التى ترمى جميعها إلى السعادة البشرية فى الدارين. فقد قيد المتنطعون بالتحريف و التشديد الوقف بقيود و شروط و حدود، حالت دون ارتقاء الأوقاف و عمرانها و نمو ثروتها، و قضت على حكمة الوقف و إرادة الواقفين، كما ابتدع المحتالون حىلا نجم عنها ضياع الأوقاف كالمرصد و ضروب الكردار، حتى آل حال الأوقاف إلى ما آل من المصير الفاجع.

و بعد فالواجب الآن على أهل الحل و العقد تأليف لجنة مختلطة من علماء

خطط الشام، ج ٥، ص: ١١٩

الشريعة المجددين، و علماء الحقوق و الإدارة و الاقتصاد، ليدون أعضاؤها مجموعة لأحكام الأوقاف الشرعية على نسق جديد، مغترفين من بحر الشريعة المحيط، و من كل مذهب من مذاهب الأئمة المجتهدين، ما هو أصلح و أضمن لسعادة الأوقاف و ارتقائها و

إثرائها، و صيانتها من عبث العابثين، و اعتداء المعتدين، و جمود الجامدين، و ما هو أكثر ملائمة لروح الزمان، و مقتضيات العمران، وفقا لما يرمى إليه الشرع و قواعده العامة من انتقاء الأصلح و ترجيح الأحسن.

ثم إن الملحق بالشعائر الدينية نوعان، و هما التدريس الخاص بالمدارس الدينية، و الإرشاد الدقيق فى الزوايا الصوفية. أما الأول فهو تعليم العلماء فلما ذتهم العلوم الدينية و سائلها، و جل هؤلاء إن لم نقل كلهم متبرعون تعلق و الحال هذه لدواوين الأوقاف بهم. و إنما التذرع بإصلاح أساليب تعليمهم، و استئصال الفوضى الضاربة أطنابها فى هذه المدارس، و هذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء أو شيخ الإسلام مثلا. أما إذا وجدت وظيفة تدريس خاص بأحد العلوم فى إحدى المدارس بأجر رتبته الواقف، و كان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانه الأوقاف، فإن للدائرة حق النظر فإذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم أهليته فإنه يعزل، و إن كان غير قائم بها كسلا فإنه ينذر. أما النوع الثانى و هو الإرشاد الدقيق فقد أجذبت الزوايا الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح، و أفقرت من المرشدين الكاملين، و المريدين الصادقين، و أضحى مقر المشايخ الدجالين تلعللين، و المريدين الكسالى العطلين. فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التى لم ينشئها الواقفون لياوى إليها الضالون المضلون، باسم التصوف و الطرق الصوفية، و إذا كان لهم أوقاف يجب تحويلها إلى مصارف البر و الإحسان و الإسعاف العام.

أشرنا إلى ما أتاب الأعيان الموقوفة من الدرس و الطمس و الاختلاس سواء أكانت معابد أم مدارس أم مقابر أم ملاجئ إسعاف أم عقارات موقوفة الريع. و هذا النوع الأخير أضحى من المتعسر إن لم نقل من المتعذر إنفاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن و عدم دلالة الظاهر عليه، كدار كانت جارية

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٠

بملك الوقف، ثم لعبت بها الأيدي، فانتقلت من ملك الوقف الصرف إلى ملك مختلسها المعتدى الأثيم. أما إذا لم يمض عليها مرور الزمن، و كانت معلومة الحدود و البقعة، فيجب حتما على دواوين الأوقاف إقامة الدعوى على المختلس أو ورثته، كما يجب عليها التنقيب على ما كان من هذا القبيل.

و المرجع فى الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية و كتب الواقفين. و الواجب على دواوين الأوقاف الإيعاز إلى نظار الأوقاف الأهلية و الخيرية الملحقة بإبراز كتب الواقفين فيما إذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية، و إنذارهم بوضع اليد على الوقف إذا أبطأوا بالإبراز. أما النوع الأول فهو أسهل إنفاذا من العقارات الموقوفة الريع، لأن ما اختلس من نحو المساجد أو المدارس أو المقابر و انقلب حوانيت أو دورا أو حدائق أو غير ذلك، و أضحى ملكا صرفا للمختلسين أو ورثتهم أو المبتاعين منهم مطموسه، لتبدل شكل المدرسة مثلا بعد اختلاسها و طمس معالمها، فإن كانت آثارها لا تزال قائمة كالقباب و القبور و المحاريب فعلى دائرة الأوقاف التذرع بالوسائل القانونية لإنقاذها من المختلسين، و إن تبدل شكلها و محى رسمها، و جهلت حدودها، و مضى عليها مرور الزمن، و انقطع الأمل من إرجاعها فهى برقبة مختلسيها. و مصباح الهداية المنير إلى المعابد و المعاهد المختلسة و المدارس الدارسة و المقابر المندرسة، هو كتب تواريخ المدن الشامية و الرسائل و الأسفار الموضوعه فى الخطط و الآثار.

و ما دعا إلى هذا العبث بأعيان الأوقاف و ريعها إلا- فقدان و ازع يزع القائمين بهم، أو مؤثر أدبى يردعهم، أو رأى عام يكبح جماحهم، أو مؤاخذه حكومة تضرب على أيديهم. و لم نسمع و لم نشهد فى ربوعنا أن ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن أو تعزير و تشهير، أو بتضمين و مصادرة، بل جل ما شهدناه فى عصرنا الحاضر أن الناظر الضعيف إذا ظهر أثناء محاسبته أدنى شبهة أو خيانة ينحى عن العمل و يساق إلى المحكمة الشرعية، و هى إما أن تحكم بعزله، و إما أن تبرئ ساحته و هو الأغلب، لأن مؤثرات الشفاعة و الحنان و نحوهما تعمل عملها. و أما الناظر القوى فلا يسأل عما يفعل. و ربما أعين على ظلمه و خيانتة و اختلاسه مع التجليل و التوقير!

و إذا كتب لدواوين الأوقاف حظ من التجدد و الإصلاح، فالواجب

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢١

أن تشرع بمحاسبة النظار، تناقشهم الحساب، فتبدأ بالأقوياء منهم، و تغلظ عليهم، و تكرههم على إبراز كتاب الواقف الأصلي المسجل بحكم الحاكم الخالي من شائبات التحريف و التبديل، الحالى بتوقيع أو خاتم القاضى الحاكم بصحته، فيما إذا فقدت سجلاته، و أن لا تعتبر الصورة المنقولة عن أصله لأنها عرضة للتحريف و التبديل، كما يقع ذلك من النظار الخائنين. و إذا أبرز الناظر على وقف كتاب الوقف الأصلي، يعثر ديوان الأوقاف فى الأغلب على موارد أموال غزيرة مختلصة، و على مساجد و معاهد دارسة و مدارس مندرسة، كما يعثر عرضا و اتفاقا من يحفر بئر ماء على كثر ثمين أو ركاز دفين، و إذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الأوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته، و اشتبهت مصارفه، و جهلت شرائطه، لعدم وجوده فى سجلات القضاة، و ما كان كذلك يتحول إلى الإسعاف العام، ما لم يبرهن المرزقة على استحقاقهم بإثبات الوقف و شروط الواقف و نسبتهم إليه أو إلى الطائفة الموقوف عليها.

و أرى أن تتخلى المفوضية العليا فى بلاد الانتداب الفرنسى عن التدخل بأوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسى المستمد منها نفوذه مباشرة، فإنه لا فرق بين هذا التدخل و بين التدخل بشؤون الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج، لأن الولاية على الأوقاف الخيرية و لا سيما الدينية المحضة هى من القضايا الشرعية الصرفة، فلا فرق و الحال هذه فى الحظر بين إمامة النصرانى المسلمين بالصلاة، و بين ولايته على أوقاف مساجدهم و معابدهم. و هذا الحظر غير محصور بالإسلام بل هو من ضرورات جميع الديانات. فإن النصرانية مثلا تحظر أن يتعاطى أحرار المسلمين و مشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى و قسيسوهم من التعميد و التكليل و التكريس و الحرمان و الغفران، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على أوقاف كنائس النصارى المثلثين و أديارهم، و هذا سر إجحام الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل بأوقاف اليهود و النصارى من رعاياها، و تركها إدارة أوقافهم و الولاية عليها لمجالسهم الطائفية. فالواجب على حكومة الانتداب أن تترك المسلمين فى هذه الديار طلقاء التصرف فى أوقافهم و تقصر عنايتها على الإرشاد فى الشؤون المدنية.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٢

و لا أجنح بته إلى رأى من يقول بإلغاء دواوين الأوقاف الحكومية، و إناطة الولاية على الأوقاف الإسلامية بمجلس إسلامى أهلى ينتخبه الأهليون على منوال مجلس أوقاف فلسطين، لأن المجالس الأهلية مهما بلغت من النظام و الانتظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة و المؤاخذه قانونا على الكبيرة و الصغيرة. و ليس الشام ما يسع مصر و العراق. و من رأى أن تربط إدارة الأوقاف بالحكومات المحلية، و يجعل لها ديوان خاص يعد فى جملة دواوينها.

أما أوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إناطة إدارتها بالمجلس الإسلامى الأهلى.

لأن البلاد محكومة حكما مباشرا، بيد أنه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق و التخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس فى الحكم عليه إلى مادح و قادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة. أما شرقى الأردن أو حكومة الشرق العربى فإنها مليئة بأوقافها التى انتابها ما انتاب أوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس فى القرون المظلمة، و لعل الحكومة تؤسس فيها ديوان أوقاف يشرف على ما فى صقعها من معاهد وقف و وقوف محبوسة الربيع اه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٣

الحسبة و البلديات

العرب دعاه مدينة:

لم تقصر العرب فى شأن من شؤون المدينة بالنسبة لأعصارهم، فاستنبطوا بقولهم، و طبقوا على شريعتهم، كل ما يعلى أمرهم، و تحلو

به حياتهم.

و كلما ارتقت حضارة الغرب، و توفر العاملون من أبنائه على استخراج دفائن هذه المدينة العربية الإسلامية، تتجلى لنا أمور ما كنا نحن أصحاب تلك المدينة نعلمها و نعمل بها من قبل. انتقلت المدينة إلى العرب من الفرس و اليونان و الهند. و لكن جاء الإسلام بما فيه من العوامل القوية، و النظام المدني البديع الذي استخرجه أهل الصدر الأول من روح الكتاب و السنة، بأجل مدنية عرفها البشر إذ ذاك، و ما نظنه مهما ارتقى في الأزمان التالية يخرج عن حدّها كثيرا. و نظام العقل نظامه في كل دور و طور.

لم يترك العرب بابا من أبواب المدينة إلا طرقوه، و لا علما من علوم الصناعات إلا برزوا فيه و عانوه. و تجلت مدنيتهم بأجلى مظاهرها في فارس و العراق و مصر و الشام و الأندلس أكثر من غيرها من الأقطار التي هذبها الإسلام، و كانت العرب أساتذة أبنائها. و الغالب أن قيام دول عظمى إسلامية في تلك الأقطار على أسس مدنيات قديمة كان من أول الدواعي إلى تجويد مدنيتهم، و رفع شأنها بين الأمصار على اختلاف القرون و الأعصار، و للأقليم و طبيعته دخل كبير في تثقيف العقول، و نبذ الجمود و الخمول،

ضاعت أو كادت و أسفاه أوضاع مدنيتنا القديمة و مشخصاتها، لأن العرب تمزقوا و تفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على ديارهم، كانوا

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٤

دونهم في سلامة الذوق و جودة الفطرة، فأفسدوا أخلاقهم بما حملوه إليهم من عاداتهم و تقاليدهم المختلفة، و أوصلوهم إلى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد على باشا في مصر و خير الدين باشا في تونس و مدحت باشا في الشام و العراق لاضمحل عمرانهم و باد سلطانهم إلا قليلا.

تعريف الحسبة:

و بعد فإن الناظر في أصول الحسبة في الحكومات الإسلامية السالفة، يعلم أن أجدادنا هيأوا لمدينهم و سكانها جميع ضروب الراحة و الهناء، و حاولوا أن يبعثوا عنها ما أمكن الجور و الشقاء. و الحسبة بالكسر الأجر و هو اسم من الاحتساب أي احتساب الأجر على الله، تقول فعلته حسبةً و احتسب فيه احتسابا، و الاحتساب طلب الأجر. و كانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا- له، فيتعين فرضه عليه، و يتخذ الأعوان على ذلك، و يبحث عن المنكرات، و يعزر و يؤدب على قدرها، و يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، و منع الحماليين و أهل السفن من الإكثار في الحمل، و الحكم على أهل المباني المتداعية بهدمها، و إزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، و الضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب و غيرها، من الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين- قاله ابن خلدون. و قال ابن تيمية: و بنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، و إذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائثار بأمر. و تناه عن أمر، و أولو الأمر أصحاب الأمر، و ذوو القدرة و أهل العلم و الكلام. فلماذا كان أولو الأمر صنفين العلماء و الأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، و إذا فسدوا فسد الناس.

و قال ابن الأخوة: الحسبة من قواعد الأمور الدينية، و قد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها، و جزيل ثوابها، و هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، و نهى عن المنكر إذا ظهر فعله، و إصلاح بين الناس، و المحتسب من نصبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية،

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٥

و الكشف عن أمورهم و مصالحهم، و بياعتهم و مأكلهم و مشروبهم و ملبوسهم و مساكنهم و طرقاتهم، و أمرهم بالمعروف و نهيمهم عن المنكر.

و كانت الحسبة (المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية و حكومات الطوائف ضربا من ضروب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

و لا يكون من تسند إليه إلا من وجوه المسلمين، و أعيان المعدلين، و لا يحال بين المحتسب و بين مصلحته إذا رآها، و الولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك. و قد قسمت الحسبة إلى ثلاثة أقسام: أحدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى، و الثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين، و الثالث ما يكون مشتركا بينهما.

و يمكن أن تقسم الحسبة إلى دينية و مدنية، فالدينية منها بطل من ديار الإسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات. و المدنية استعوض عنها في القرن الماضي في الولايات العثمانية بالمجالس البلدية، و بقيت الحسبة معروفة في مصر إلى أواسط القرن الغابر. و مصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب و أول من نهض.

الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدية و عملها:

فالحسبة و الحالة هذه أشبه بديوان الشرطة و الصحة و البلديات لعهدنا، و كان المحتسب أو صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين، و يجازى عليها في الحال، فينكر ما يجده مثلا من المنكرات في الأسواق، و يشدد على السوق و الباعة في صحة القناطير و الأبطال و المثاقيل و الدراهم و الموازين و المكايل و الأذرع، و يجرى قواعد الحسبة على الطحانيين و العلافين و الفرانين و الخبازين و الشوائين و النقانقين و الكبوديين و البواريين و الجزاريين و الرواسين و الطباخين و الشرايين و الهراسين و قلائي السمك و الزلايين و الحلاويين و الشرايين و العطارين و الشماعين و اللبانين و البزازين و الدلالين و الحاكة و الخياطين و الرفائين و القصارين و الحريريين و الصباغين و القطانين و الكتانين و الصيارف و الصاغة و النحاسين و الحدادين و الأساكفة و البيطرة و سمسرة العبيد و الجوارى و الدواب و الدور و الحمامات، و السدارين و الفصادين

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٦

و الحجامين و الأطباء و الكحالين و المجبرين و مؤدبي الصبيان و القوم و المؤذنين و الوعاظ و المنجمين و على أصحاب السفن و المراكب و باعة قدور الخزف و الكيزان و الفاخرانيين و الغضاريين و الأبارين و المسلاتيين و المرادنيين و الحناويين و الأمشاطيين و على معاصر السيرج و الزيت الحار و الغرابيين و الدباغين و البططين و اللبوديين و الحصريين و التبانين و الخشابين و القشاشين و النجارين و النشارين و البنائين إلى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات، و تدليس أرباب الصناعات و البياعات.

الحسبة قانون مدني:

اختصوا المحتسب بالنظر في أمور: إحداها إراقه الخمر كلها و كسر المعازف و إصلاح الشوارع، و ذلك باب كبير فيه مسائل إحداها أمر الميزاب و الأوحال و الأرداغ، و منع جلوس الباعة عليها، و منع سوق الحمر و البقر للخشابين و الآجريين و نحوهم، و منع ربط الناس دوابهم فيها، و منع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع، و منع شغل هواء الشارع، و منع المبرز في الجوار إلى غير ذلك من المصالح، مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة، كالنظر و سد الضوء إلا فيما يرجع إلى الملك، كغصب قطعة من الأرض، و منع إسبال الإزار و نحوه على الكعبيين، و زجر الرجال عن التشبه بالنساء، و منع النساء عن التشبه بالرجال.

و منع الناس عن تطيير الحمام، و منع البغايا و تعزيرهن، و منع أوليائهن و مواليهن و أزواجهن، و أمر غير المسلمين بتطهير الأواني التي يبيعون فيها المائعات كالدهن و اللبن، و أمر الغسالين بإقامة السنة و اجتناب البدعة في غسل الموتى، و حفر القبور و الحمل، و زجرهم عن الغلاء في أخذ الأجرة، و نصب الصلحاء و ذوى الخبرة بهذه الأمور، و تفحص الجامع يوم الجمعة،

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٧

المصلى يوم العيدين، و إخلاؤهما عن البيع و الشراء، و منع الفقراء عن التخطى، و منع القصاص عن القصص المفترأة، و منع النساء السائلات عن الدخول فى المصلى، و منع الصبيان و المجانين منه، و دفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور، و النهى عن النجس و الأمر بالتنظيف، و منع الناس عن الوقوف فى مواضع التهم، كتحدث الرجال مع النساء فى الشوارع، و منع النقاشين و الصباغين و الصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح و كبر الصور، و منع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام و المعازف و الصنج و بيع النيذ و البختج.

و منع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة، و خروج الناس إلى زيارة بعض المتبركين أو بعض المساجد، على مشابهة الخروج إلى الحج، و منع النساء عن التبرج و التفرج بالخروج إلى النظارات و زيارة القبور، و منع الناس عن التصرفات فى المقابر بلا ملك، و منع المطلسمه و السحار و الكهان عن بدعهم، و نهى أصحاب الحمامات عن منكراتهم، بتطهير المياه و إخلاء الحمام عن المرد و دخول العراة فيه، و أمرهم باتخاذ الحجب بين الرجال و النساء، و منع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج إليه فى الدين، و تصديق الناس الكهان و المنجمين، و منع الناس عن بدعه ليله البراءة، و منع الناس للعاين بالنرد و الشطرنج، و تفريق جمعهم و أخذ بساطهم و تماثيلهم، و منع القوابل عن إسقاط جنين الحوامل، و منع الجراحين عن الجب و الخصاء، و منع الإقامة فى المساجد و وضع الأمتعة فيها، و منع الذى أصابه اللم عن التكلم بالغيب، و اجتماع الناس عنده زاعمين أنه صادق فى إخباره بالغيب، و منع الخطاط و معلم القرآن و معلم النحو بأجر عن الجلوس فى المساجد، و منع المعلم عن أخذ شىء باسم النيروز و المهرجان، و ينذر المحتسب معلمى الكتاتيب أن لا يضرىوا الصبيان ضربا مبرحا و لا فى مقتل، و كذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس، و يقفون من كان سىء المعاملة فيهنه بالردع و الأدب.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٨

عمل المحتسب يحسب البلد:

و كانت وظائف المحتسب تزيد و تنقص بحسب البلد، و لا يعدو عمل المحتسب الأمور المشتركة بين الناس. فالمحتسب فى بيروت يقضى عليه أن ينظر فى أمور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلا. ففى بيروت يعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين و الملح و الصير و البورى و قلائي السمك و الطيور و صياديتها، و نجارى المراكب و تقديراتها. و جميع المدن مشتركة مثلا فى الحسبة على الصيادلة و العقاقير و الأشربة و المعاجين و القلانسيين و الخرازين و صناعات الشراك و الأساكفة و صناعات الخفاف و صنعة السرابات و الزفاتين و النحاتين و الدهانين و غشهم و المكارين و غشهم و كساحى السماد و حمالته و الغرايل و مناخل الشعر و الوراقين و المبهرجين، و فىمن يكتب الرسائل على الطرق و الرقاق و الدروج و كتاب الشروط، و الولاة و القضاة و تدليسهم، و الميازيب و مضرتها و المراصد و المراقب و طباخى الولايم و المحامل و صناعاتها و الروايا و القرب إلى غير ذلك مما كان يستدعيه دينهم و عاداتهم و مدنيتههم. و ذكر السبكى أن على المحتسب النظر فى القوت، و كف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم إليه من ذلك، و الاحتراز فى المشروب، فطالما أوهم الخمار أنه فقاعى أو اقسماوى، و طالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن. فليتق الله ربه و لا يكن شىء فى إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث، و يحرم عليه التسعير فى كل وقت على الصحيح، و قيل يجوز فى زمن الغلاء، و قيل يجوز إذا لم يكن مجلوبا، بل كان يزرع فى البلد و كان عند الشتاء. و إذا سعر الإمام انقاد الرعية لحكمه، و من خالفه استحق التعزير. و من مهمات المحتسب و لا سيما فى الشام أمران ارتبطا به أحدهما النقود من الذهب و الفضة المضرابين. و لا يخفى أن فى زغلها هلاك أموال البشر، فعليه اعتبار العيار فى محك النظر و التثبت فى سكة المسلمين، و ثانيهما المياه فعليه الاحتراز فى سياقها، و قد جرت عادة أناس فى الشام أن يشتري بعضهم قدرا معلوما من نهر ثورا و باناس مثلا و يتحليل لصحته بأن يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء و هو كذا أصبعا، ثم يسوقه و يحمله

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٢٩

على مياه الناس يرضى طائفة يسيرة منهم. و كان الشيخ الإمام رحمه الله يشدد النكير في هذا و له كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق).

و الحاصل أن الخلق في أنهار دمشق سواء يقدم الأعلام منهم فالأعلا و لا يجوز بيع شيء من الماء و لا مقره و لا يفيد رضى القوم و لا كلهم لأنهم لا يملكون إلا الانتفاع، بل و لا رضى أهل الشام بجملتهم لأن رضاهم لا يكون رضا من بعدهم ممن يحدث من الخلق اه.

ثلاثة آراء فى الحسبة:

و ليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه أن يسيطر على العقول أيضا. ذكر ابن الأثير فى تقليد أنشأه لمنصب الحسبة: ... و اعلم أن الناس قد أماتوا سننا و أحيوا بدعا، و تفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعا، و أظلم منهم من أقرهم على أمرهم، و لم يأخذهم بقوارع زجرهم، فإن السكوت عن البدعة رضا بمكانها، و ترك النهى عنها كالأمر بإتيانها، و لم يأت بنا الله إلا ليعيد الدين قائما على أصوله، صادعا بحكم الله فيه و حكم رسوله، و نحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس فى أمر دينهم، الذى هو عصمة مالهم، و أمر معاشهم الذى يتميز به حرامهم من حلالهم، فابدأ أولا بالنظر فى العقائد، و اهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد، و تلك الفرقة هى السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، و قالوا ربنا الله ثم استقاموا، و من عداهم شعب دانوا أديانا، و عبدوا من الأهواء أوثانا، و اتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا، و لو نشاء لآرئناكهم فلعرقتهم بسيماهم و لتعرفنهم فى لحن القول و الله يعلم أعمالكم، فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقته و لا تسمع له قولا، و لا تقبل منه صرفا و لا عدلا، و ليكن قتله على رؤوس الأشهاد، ما بين حاضر و باد، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته، و لا تدنست علومها بمثل أثر جهالته، و المنتمى إليها يعرف بنكره، و يستدل عليه بظلمة كفره، و تلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار، و تظهر زيادتها و نقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار، و ما تجده من كتبها التى

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٠

هى سموم ناعقة، لا علوم ناعقة، و أفاعى ملقفة، لا أقوال مؤلفة، فاستأصل شأفتها بالتمزيق، و اعمل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق. و من تقليد رشيد الوطواط لمحتسب: و أمرناه أن يجعل الزهد شعاره، و التقوى دثاره و العلم معلمه و الدين مناره، ثم يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، و يقيم حدود الشرع على موجب النصوص و الأخبار، و مقتضى السنن و الآثار، من غير أن يتسور الحيطان، و يتسلق الجدران، و يرفع الحجب المسدولة، و يكسر الأبواب المسدودة، و يسلط الأوباش على دور المسلمين و حرم المؤمنين، حتى يغيروا على أموالهم، و يمدوا الأيدي إلى عوراتهم و أطفالهم، و يظهروا ما أمر الله بستره و إخفائه، و نهى عن إشاعته و إفشائه، فإن عبادة الأوثان خير من ذلك الاحتساب، و العقوبة الأبدية أولى بمباشرة من الأجر و الثواب.

و أشار ابن فضل الله فى وصية محتسب أن ينظر فى الدقيق و الجليل، و الكثير و القليل، و ما يحصر بالمقادير و ما لا يحصر، و ما لا يؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر، و ما يشتري و يباع و ليتعرف الأسعار و يستعلم الأخبار، فى كل سوق من غير إعلام لأهله، ليقوم عليهم من الأمانة من ينوب عنه فى النظر، و يأمره بإعلامه بما أعضل. و قال له: إن النقود قد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر إلا بعد طول اللبث، فليعرض منها على المحك من رأيه ما لا- يجوز عليه بهرج، و ما يعلق من الذهب المكسور و يروص من الفضة، و ما أكلت النار كل لحامه و لا بعضه و يقيم عليه من جهته الرقباء، و ليقم الضمان على العطارين و الطرقيية فى بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب فيه، و بخط مطب ماهر لمريض معين فى دواء موصوف، و أهل النجامة و سائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان، و من يأخذ أموال الرجال بالحيلة و يأكلهم باللسان، و من وجدته قد غش مسلما، أو أكل بباطل درهما، أو أخبر مشتريا بزائد، أو خرج عن معهود العوائد، أشهره فى البلد، و غير هؤلاء من فقهاء المكاتب و عالمات النساء و غيرهما، و من يقدم على ذلك و ارشقهم

بسهامك، و زلزل أقدامهم بإقدامك، و لا تدع منهم إلا من جربت أمانته، و اختبرت صيانتته.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣١

الحاجة و الحسبة أمس و اليوم:

و لقد حدثنا التاريخ أن الناس كانوا يتولون الحسبة بأنفسهم عندما تضعف الحكومات لأن مصلحة أهل كل بلد لا تتم إلا بدفع الأذى بعضهم عن بعض و التواصي بالحق، و الجاهل في ذمة العالم، و الضعيف من حصه القوى. و أهل البلد الواحد متكافلون معنى و ضمنا إذا لم يتكافلوا هلكوا، و لا تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع. و كان قانون الاحتساب يسد حاجات المجتمعات في هذه الديار. نعم إن تلك الأوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغا عاليا من الرقى بفضل قاعدة توزيع الأعمال، و كثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع، و لكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم بأكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة، فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع، داقه أعناق المضار. و من الغريب أن عصرنا على رقيه لم يصل في هذا القطر إلى بعض ما كان يتمتع به أهلها في القرون الغابرة، و أغرب من هذا كيف اهتموا إلى أشياء فأصلحوها لتوفير راحتهم و رفاهيتهم، و ما بلغوا ما بلغوه من تراتيبهم بدون التوسع في القوانين الفضفاضة شاهدة على تمدنهم، و أنهم أهل عمليات أكثر مما هم أرباب نظريات، فسبحان الملهم العظيم.

تأسيس البلديات :

يبدأ عهد الإصلاح في الدولة العثمانية من تاريخ إعلان المنشور السلطاني الصادر في غرة جمادى الآخرة سنة (١٢٧٢) و فيه القواعد الأساسية التي بنى عليها ذلك الإصلاح في الشؤون المختلفة، و في جملة المعاهد التي أنشئت، المجالس البلدية التي أحدثت عقب صدور المرسوم المذكور و وضع لها نظام خاص جرى فيه تعديل بحسب الأحوال. فإن النظام المؤرخ بيوم ٢٣ ربيع الأول سنة (١٢٨٤) الذي يحوى في مطاويه أصول تأليف المجالس البلدية في مراكز الولايات و الأولوية و الأفضية، قد جرى تعديله فيما بعد كما هو مصرح بذلك في الفصل السابع من قانون إدارة الولايات العمومية (٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ و ٩ كانون الثاني سنة ١٢٨٦)

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٢

و يقضى هذا القانون بإحداث مجلس بلدى في كل مركز من مراكز الولاية و المتصرفين و قوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء و من رئيس و معاون و من طبيب البلدة و المهندس بصفتها عضوين مشاورين و كاتب و محاسب موظفين. و ينص بأن هيآت المختارين (العمد) و الشيوخ في المراكز المبحوث عنها هي التي يحق لها انتخاب الأعضاء للمجالس البلدية من ذوى الكفاءة باتفاق الكلمة أو بأكثرية الآراء، و أن الحكومة المحلية تصادق على انتخابهم و نصبهم. أما نصب الرئيس فيجب أن يقره المتصرف و الوالى أيضا، و أما الرئيس و الأعضاء فيخدمون مجانا بلا راتب، و الكاتب و المحاسب يخصص لهما راتب من ريع البلدية و يربط المحاسب بكفالة معتبرة. و يجتمع هذا المجلس مرتين في الأسبوع و ينظر في وظائفه المعينة في القانون. و أهمها ما له مساس بإنشاء الأبنية و فتح الطرق و توسيع الجادات و الأزقة و الشوارع، و تنظيف البلدة و تنويرها، و مراقبة الأوزان و المكاييل، و تعديل الأجور و الأسعار، و تنظيم مجارى مياه الشرب و قنوات المياه المالحة و غير ذلك من الشؤون التي تنفع في عامة شؤون البلدة.

ثم صدر قانون البلديات (٢٧ رمضان سنة ١٢٩٤) فعدّل كثيرا من مواد الأنظمة السابقة و زاد في اختصاص المجلس و الرئيس و غير طريقه الانتخاب، فبعد أن كانت منحصرة في الهيآت المؤلفة من المختارين و أعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الأمة الذين

توفرت فيهم الشروط القانونية، و أصبح لكل واحد منهم حق الاشتراك في الانتخاب بحيث يمكنه أن يكون ناخبا أو منتخبا حسب الشروط المتوفرة فيه، و زاد في تحسين حالة الدخل و توفير منابعه و انتظام جبايته.

و منح هذا القانون مجالس الإدارة في المدن الكبيرة حق تقسيم هذه المدن إلى مناطق، بحسب سعتها و وفرة سكانها، و تأليف مجلس بلدى في كل منطقة منها على أن يراعى عدد السكان و لا يقل عن أربعين ألفا في كل منطقة.

و أناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف. فعهد إليها إصلاح المدينة و ترقية شؤونها من كل الوجوه العمرانية و الصحية و الأخلاقية. و أوجب الزيادة في عدد الأعضاء فجعلوا اثني عشر عضوا بعد أن كانوا ستة أعضاء

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٣

فقط، على أن تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان و اتساع المحل. و حوّل الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب يتقاضاه من واردات البلدية، و أما الأعضاء فيبقون بلا راتب كما في السابق على أن يبدل نصفهم في كل سنتين. ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فتقرر أن تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوى المقدره و اللياقة، سواء كان من الأعضاء المنتخبين أو من غيرهم، و لكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة و أرجعت المادة إلى أصلها.

و في قانون البلديات أن كل فرد من أفراد الدولة إذا كان يؤدى مائة قرش خراجا و هو فى سن العشرين و غير محكوم عليه بجناية، يحق له أن يشترك في انتخاب أعضاء البلدية. و إذا كان يدفع مائة و خمسين قرشا خراجا و كان عمره خمسا و عشرين سنة و كان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة أو بجزاء آخر يعادله و غير تابع لحكومة أجنبية أو مستخدم عند أحد أو فى مجلس بلدى آخر أو متعهد أو كفيل للمتعهدين فى دوائر البلدية و كان غير جندى أو حاكم فى المدينة أو القصبه فيحق له أن ينتخب عضوا فى البلدية.

و فى هذا القانون أن واردات البلدية عبارة عن الرسوم و الضرائب المخصصة لها بإذن سلطانى، و عن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق و فتح الشوارع و غيرها، و عن الرسوم التى يجب استيفاؤها من أصحاب الأملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات و الشوارع لانتفاع عقاراتهم و أملاكهم من شرف الموقع و إحداث بنايات، إذا قام بناؤها على الطراز الجديد، و من الجزاء النقدي و رسوم القنطار و الكيل و الوزن و رسوم الذبعية و رسم المقاولات المعقودة فى الإيجار و الاستئجار و رسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية.

و قد خصص للتطوير و التنظيف عشرون فى المئة من خراج العقارات و المسقفات و عشرة فى المئة من التمتع. و هناك رسوم أخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المنشأة حديثا أو المراد تعميها و ترميمها، و عن الألعاب المرتبة فى المقاصف و محلات اللهو و الطرب، و مثل رسم العجلات و الدواب المعدة للركوب و النقل و غير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية، و من الهبات و التبرعات أيضا. و أهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخول (الاوكتروا)

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٤

فإنه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية فى إصلاحات البلدية.

و نص قانون البلديات على وجوب مراقبة الدخل و الصرف، و تنظيم موازنه عامه فى كل سنة سالمة من الشوائب و النواقص، و قضى بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإدارى و أعضاء المجلس البلدى مرتين فى السنة باسم الجمعية البلدية. و حتم عليها أن تلتزم فى نيسان من كل سنة فتتظر فى نفقات البلدية عن السنة السابقة، و فى حساباتها و أعمالها العامة، ثم تصادق عليها، و أن تجتمع مرة أخرى فى تشرين الثانى من تلك السنة فتتظم الموازنه العامه للسنة القادمة، و تنظر فى الشؤون التى يجب إجراؤها فى تلك السنة. و منح هذه الجمعية حق التعديل فى أنظمة البلدية، و النظر فى أحوالها العامة على أن ترفع مقرراتها فيما يتعلق بالتعديل و الإصلاح إلى المجالس العمومية فى مراكز الولايات.

و لما كان توسيع الطرق و تعبيدها، و فتح الجادات و الشوارع و إحداث الأرصفة و إصلاح مجارى المياه و الجداول و تنظيمها، و

إنشاء المدارس و المستشفيات العمومية و الشكنات و المعامل، و القيام بجميع الأعمال المفيدة التي يشمل نفعها السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على إطلاق يد البلدية في استملاك الأراضي و البنائات اللازمة للإصلاحات المنوه بها فإن قانون الاستملاك المؤرخ في ٢١ جمادى الأولى سنة (١٢٩٦) و المعدل بقوانين و أنظمة أخرى قد منح البلديات حق الاستملاك في جميع الأرضين و العقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخمنين محلفين من ذوى الخبرة و النزاهة تبعاً لأصول نص عليها هذا القانون. و هذا ما زاد أعمال البلديات تحسیناً و إتقاناً، فأصبحت موافقة لأساليب العمران الحديث و منطبقه على قواعد الهندسة و الفن، و حفظت لأصحاب الأملاك و الأرض حقوقهم من الضياع أيضاً.

النظام الجديد:

وضع رئيس الدولة السورية قراراً مؤرخاً في ١٠ حزيران سنة (١٩٢٥) بتأسيس البلديات في المدن التي لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغير هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة. و قد نصّ فيه على أن المدن خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٥

التي يتجاوز عدد أهاليها مئة ألف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الأهالي و عضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالى أو المتصرف، و أن المدن التي يبلغ عدد أهاليها بين خمسين ألفاً و مئة ألف، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الأهالي و عضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالى أو المتصرف. و المدن التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفاً تتألف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين و اثنين ينصبهم وزير الداخلية.

و نصّ أيضاً على أن المجلس البلدى يجتمع حتماً يوم الخميس من كل أسبوع يلتئم فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المنتدبة أو رئيس الحكومة السورية أو وزير الداخلية أو مستشار البلدية، و فى الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية أو بطلب من نصف أعضاء المجلس على الأقل.

و نصّ على صورة عقد الجلسات و المذاكرة فى القضايا المحالة إلى المجلس البلدى و تدوين المقررات الصادرة منه، و منح مستشار البلدية أو المفتش حق حضور الجلسات و إبداء رأيهما أثناء المذاكرة، و جعل اللغتين العربية و الإفرنسية رسميتين، و أوجب تسطير المحضر باللغة العربية و باللغتين معا كلما سمحت الأحوال.

و أجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدى بقرار منه و باقتراح وزير الداخلية، و اشترط موافقة المفوض السامى على ذلك الحل، ثم ذكر الأسباب الموجبة للحل كما يأتى: (١) إهمال المجلس واجباته المنصوص عليها فى القرار المذكور بعد أن يمر على تبليغه (٤٨) ساعة. (٢) مخالفته أحكام المادة ٢٣ من هذا القرار التي تحظر عليه المذاكرة فى موضوع خارج عن سلطته، أو فى موضوع لم يذكر فى برنامج أعمال الجلسة. و المذاكرة أيضاً فى قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا فى الجلسة، و المذاكرة بإذاعة نشرات أو خطب و إبداء أمان لها صبغة سياسية أو دينية تتعلق بالإدارة العامة. (٣) إهماله المناقشة فى إحدى القضايا المسجلة بصورة نظامية فى بيان أعمال الجلسة الأولى خلال أربع جلسات متوالية.

(٤) نقص عدد الأعضاء إلى درجة لم يتمكن معها فى أربع جلسات متوالية من إدراك النصاب القانونى.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٦

و نص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذى يكون حله قد تم وفقاً للأحكام السابقة، و صرح بأنه يجوز تعيين اثنين أجنيين من دافعى الضرائب فى اللجنة المذكورة، و أن هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس، و أنه يشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك، و يعين تاريخ إجرائها بقرار من رئيس الدولة.

و نص القرار على وظائف المجلس البلدى فجعل إنفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفاً على تصديق وزارة الداخلية و

إنفاذ غيرها من المقررات مناطا بوضع إشارة عليها من المستشار. و الوظائف المهمة هي: تنظيم الموازنة و التعديل في تقدير الرسوم، و مشترى عقارات يزيد مجموع قيمتها على عشر واردات البلدية، و وضع ضرائب استثنائية و عقد قروض (لا بد في هذه من الحصول على إذن المفوض السامي) و بيع أملاك البلدية أو مبادلتها، و ترتيب درجات الشوارع و الساحات و تزيينها، و تحديد الأماكن العامة و توسيعها أو إبطالها، و إحداث ساحات للأسواق و للصيد و السباق في المواسم و غير ذلك.

و صرح بأن هذه المقررات ترفع إلى وزارة الداخلية، فإذا لم يبد الوزير رأيه خلال ثلاثين يوما من تاريخ الوصل المعطى منه، يحق للمجلس البلدى إنفاذ أحكامها، و إذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فإن للمجلس البلدى حق تمييزها إلى مجلس الشورى. و يكون قراره بشأنها مبرما. و قد نص ذلك القرار على أنه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدى رئيسا للبلدية بقرار من رئيس الدولة و بالاستناد إلى اقتراح وزير الداخلية.

و يصرح القرار بأن الرئيس يعين لمدة سنة و أنه يمكن تجديد تعيينه لسنة أخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة. و أنه إذا تغيب الرئيس أو وجد سبب آخر يمنعه من الحضور، فإن أكبر الأعضاء سنا يقوم مقامه في وظائفه، و إذا تجاوزت مدة غيابه أو مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوما فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناء على اقتراح وزير الداخلية.

و أما عزل الرئيس أو تنحيته عن العمل فلا يكون إلا بقرار من رئيس الدولة مبنى على اقتراح وزير الداخلية و مصادق عليه من المفوض السامي بشرط أن يلم بالأسباب الموجبة للتنحية أو منعه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٧

و يتقاضى رئيس البلدية تعويضا شهريا يعين بقرار من وزير الداخلية و يتناول الأعضاء في نهاية كل شهر تعويضا عن الجلسات التى حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على أن لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية. و قد صرح القرار بوظائف رئيس البلدية فإذا هي أوسع نطاقا من الوظائف التى خصته بها القوانين السابقة. و تبين أن قرارات رئيس البلدية فى دائرة سلطته الخاصة أو بالاستناد إلى مذاكرات المجلس البلدى، تعرض فورا على وزير الداخلية و لا- توضع موضع الإنفاذ إلا بعد مرور خمسة عشر يوما على تسليمها للوزارة المشار إليها، و يجوز لوزير الداخلية أن يأمر بتنفيذها فورا فى الأحوال المستعجلة فقط، أما المقررات التى تتضمن تسوية و قتيه فإنها تنفذ حالا بعد نشرها أو تبليغها. و فى كل حال لا تسرى أحكام القرارات على ذوى العلاقة بها إن لم تنشر و تدع، هذا إذا كانت أحكامها عامة، و على وجه الانفراد فيما إذا كانت خاصة.

تأثير البلديات فى العمران:

للبلديات تأثير عظيم فى عمران المدن و القصبات على اختلاف درجاتها لا سيما إذا عهد بإدارة البلدية إلى رجال كفاء يحسنون العمل، و ينظرون على نزهة و نشاط، و مع أن بلدية دمشق مثلا و بها نمثل، و كلامنا فيها يصدق على أكثر مدن الشام لم تحصل على هذا الشرط الأساسى فى ترقية شؤونها إلا- فى الأحيان، فإن تأثيرها فى عمار المدينة ظاهر محسوس لا ينكره أحد، و منه اتساع الشوارع و الجادات و انتظامها، و يستثنى من ذلك الأزقة التى ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يكاد يتخللها الهواء و لا ينفذ إليها النور.

و لو أتيح للمدينة حكام و للبلدية رؤساء فى الزمان الغابر يقدرون الضرر العظيم الذى يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء و النور. لأزالوا تلك الموانع، فوسعوا جميع الطرق و الأزقة الضيقة، و خدموا بذلك المدينة أجل خدمة، كما فعل مدحت باشا فى سوقه الشهير، و كما فعل جمال باشا فى زمن الحرب، فإنهما فتحا الشوارع الكبيرة و مهدا سبل الإصلاح فى المدينة و كما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فإنهم قد باشروا العمل نفسه بجد و نشاط.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٨

و من ذلك إحداث المجارى للمياه القذرة و تنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب. و هذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التي أدخلتها البلدية فى برامج إصلاح المدينة، و صيانة الصحة العامة من الأمراض السارية، و يليه جر المياه من عين الفيجه بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض.

و إحداث البنايات و الأسواق على النمط الجديد مما زاد فى رونق المدينة و بهائها، و وضع الخرائط و المصورات التي قيدت أرباب المساكن و البيوت بإنشائها وفقا للفن و الهندسة، و توسيع الأزقة تدريجيا و منع البناء بغير الحجر و الآجر.

و منها: إنارة الأزقة و الشوارع و الساحات العامة و تسهيل المرور ليلا، و رفع المحاذير التي يكثر حدوثها تحت ستار الظلام كالسرقا و غيرها. و لا يزال التنوير مفقودا فى بعض الأزقة و لا سيما الضيقة منها. و منها إيجاد سائط للنقل فى المدينة مثل قاطرات الترام، فإنها سهلت انتقال السكان من أقصى المدينة إلى أقصاها بالسرعة المعتدلة و بأجور خفيفة، و وفرت عليهم الوقت أيضا.

و من ذلك إنشاء المستشفى العام و مدرسة الصناعة و دار الأيتام و العجزة و غير ذلك من المعاهد النافعة التي زادت فى تحسين حالة البلدة من الوجهة الصحية و الأخلاقية و العمرانية. ذكرنا أمهات المنافع و الفوائد العامة التي حصلت فى المدينة بتأثير البلدية، و هناك فوائد أخرى أيضا لا تخفى على ذوى الأبواب.

رأى فى إصلاح البلدة:

إن قوانين البلدية و أنظمتها التي وضعت فى زمن الأتراك، و استمر العمل بها مع تعديل و تغيير فى بعض موادها بحسب الأحوال، وافية بالحاجة لإدارة الشؤون. و لذلك أرى أن إصلاح البلديات يجب أن يقوم على أساسين متينين يكفيان لتشييد بنيانه: توفير دخلها و حسن جبايته، و إنفاقه فى سبيل ترقيتها و تزيينها.

و دخل البلدية الآن فى دمشق مثلا وافر لا يستهان به، و كل بلدة فى الشام و لا سيما أمهات مدنها قد زادت مع الزمن و وارداتها. و بعض البلديات لا تقوم مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات و تعمير الطرق و توسيعها و يكفى ريع الفضلات الحادثة من فتح الشوارع و توسيع الطرق لتأدية بدلات

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٣٩

الاستملاك إلى أصحاب الأبنية التي يجب هدمها من جزاء ذلك الإصلاح.

و مع هذا فإنه يمكن زيادة الإيراد بطرق عديدة. أما الرسوم فإنها تباع بطرق الالتزام و تجبى بدلاتها وفقا لنظام الأعشار بنفقات معتدلة و فى زمن قصير.

و هذا هو المطلوب فى جباية الضرائب، و لذلك لا تكلفها الجباية نفقات باهظة.

و تكفى السلطة المخولة للمجلس البلدى فى جباية الرسوم و تحصيل الديون لحفظ حق البلدية من الضياع و الضرر.

بقى علينا صرف الواردات و إنفاقها فى سبيل عمارة المدينة. فل هذه القضية علاقة كبرى بانتخاب الرئيس و أعضاء المجلس البلدى لأن الإيراد مهما كان وافرا فإنه لا يفيد شيئا إذا لم تكن الأيدى المسيطرة على شؤون البلدية أمينة على العمل منقطعة إليه متقنة إياه. و يجب أن يكون الرئيس موظفا تنصبه الحكومة و يشترط أن يكون من ذوى الدربة و الحنكة و من حاملى الشهادات العالية أو المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخبا أو غير منتخب، و أن يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته إلى إيفاء عمله و ليحفظ مكانته و وقاره لدى الطبقات التي يمثلها.

و أما الأعضاء فيشترط فى انتخابهم أن يكونوا متعلمين تعليما ثانويا، و يرجح انتقاؤهم من أصحاب اليسار و من ذوى المكانة ليكونوا فى غنى عن تناول الأجر التي يخصصها لهم المجلس البلدى لقاء الكشف و التحقيق عن القضايا المودعة إليهم، و ينجم عنها ما يسىء سمعتهم و يخل بمكانتهم بعض الأحيان.

وعندى أن حجر الزواية في أساس الإصلاح انتقاء الرئيس و الأعضاء من خيرة الرجال، و إطلاق أيديهم في العمل، و وجود الكفاءة في الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئاً. و يصح تطبيق هذه القاعدة في مراكز الأولوية و الأفضية مع التعديل فإنه يختار فيها المتعلمون و المهذبون من ذوى الشأن و أصحاب اليسار و النزاهة و إلا فإن تزييد الواردات لا يكفي للإصلاح، و المعول على الأيدي العاملة النزبهة الشيطنة و الله الموفق للصواب اه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤٠

الترع و المرافىء و الطرق

ترعة السويس:

يتناول موضوعنا المرافىء و الخطوط الحديدية و الكهربية و الطرق المعبدة، و لما كان افتتاح ترعة السويس بين البحر الأحمر و البحر المتوسط من أعظم العوامل التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير المواصلات البحرية، و تقرب المسافات الشاسعة بين الشام و البلاد الشرقية الأخرى كفارس و الهند و الصين، و خصوصاً بين الشام و أمها جزيرة العرب و سهولة نقل الحجاج إلى الأرض الحجازية المقدسة- رأيت أن أفتح الكلام بهذه الترع و بما يتعلق بها من الشؤون الفنية و التاريخية و الاقتصادية فأقول:

المواصلات بين البحر المتوسط و بين البحر الأحمر قديمة العهد، تبدأ من المصريين القدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى أى منذ ألفى سنة قبل الميلاد تقريباً. فالمسألة إذا عريقة في القدم، و قد عرفت لأول مرة قبل أربعة آلاف سنة على التقريب. و ما كانت هذه المواصلات القديمة بين البحرين إلا- من قبيل المصادفات و لم تكن غاية ما كان يرمى إليه القدماء. و هؤلاء ما كانوا يتطلبون سوى الحرص على المواصلات بين البحر الأحمر و نهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طرقهم و هو النيل بأعظم طريق بحرى يؤدي إلى آسيا و بلاد الحبشة و هو البحر الأحمر. و لذلك قام الفراعنة بتخطيط طريق لا شك أنها من أهم طرق ذلك العهد، بين المكان الذي قامت فيه الآن مدينة القاهرة و بين السويس، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار و المعادن من سيناء

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤١

كالفيروز و النحاس و المغنيزيا فحفروا أول قناة بين النيل و بين البحر الأحمر.

و لما كان النيل يصب في البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب بين هذين البحرين. و لا تعرف اليوم تلك القناة الصناعية و لا- ذلك الفرع الذي حفرته يد الإنسان، و لا- شك أنه كان ثمرة فرع طبيعي لنهر النيل العظيم جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية أى قبل ظهور الإنسان.

و يؤكد بعض المؤرخين أن هذا الفرع كان في زمن رمسيس الثاني و الناظر إلى خريطة مصر يتمثل لعينيه هذا الوادى القديم وادى تومات، و فيه قسم من الأراضي الخصيبة المنتبئة يقطعه الخط الحديدي بين الزقازيق و الإسماعيلية و هذا الوادى هو الفرع القديم الجاف لنهر النيل و هو موضع القناة القديمة.

فمجرى هذه القناة يتقارب جدا من القناة الحالية التي تجرى فيها المياه العذبة لإرواء الأراضين الواقعة بالقرب من ترعة السويس. و يظهر أن سلسلة البحيرات المتقطعة الواقعة على طريق هذه الترع كانت متصلة قديماً بخليج السويس الطويل و يجرى إليه فرع النيل الشرقى القديم المبحوث عنه.

و يظهر من درس الأراضي و الارتفاعات و المستحاثات أن أحجار البسوط قد ارتفعت قليلاً- و لا ريب أن المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى و في عهد الامبراطورية الجديدة. فكانت القناة الأولى تصل نهر النيل ببحيرة التمساح، و ذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة إلى التاسعة عشرة أى منذ ألفين إلى ألف و مائتي سنة قبل الميلاد. و أن قناة ثانية من عهد الفراعنة أيضاً و في

زمنهم الأخير المعاصر للفتوحات الفارسية أى منذ خمسمائة و خمس و عشرين سنة قبل الميلاد، كانت تصل نهر النيل ببخيرة المرة الكبيرة بواسطة وادى تومات و هذه هى القناة التى قام بحفرها و إصلاحها بساتميك و نيخاووس من السلالة السادسة و العشرين و ذلك بين سنة (٦١٠ و ٥٩٤) قبل الميلاد. و كان مشروعه يقضى بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه فى منطقة بوباشيس و المار فى وادى تومات. إن هذا العمل الذى ذهب بحياة مائة و عشرين ألف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته إلى مصر (أى بعد سنة أربعمائة و تسع و أربعين ق م) لم ينجح و ترك قبل إتمامه، لأنه أوحى إلى الملك نيكو على ما يقال بأن عمله خدمة للبرابرة

خطط الشام، ج٥، ص: ١٤٢

أى الفرس، و لذلك لم تتم هذه القناة إلا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الأول الفارسى. على أن القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية.

و قد ظهرت آثار القناة القديمة المندرسة فى سنة (١٧٩٨) و تظهر الآثار الآن فى أماكن عديدة. و قد استعمل قسم منها لمجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب، و قد عرفنا من الجدران المائلة و المرتفعة و من الأحجار المنحوتة أن عرض القناة القديمة كان خمسة و أربعين مترا فى عمق خمسة أمتار.

و ذكر المؤرخ هيرودوتس أن طولها أربعة أيام و قد كانت معدة إذ ذاك لسير السفن. و تكريما لإنجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة و مفخرة.

و جاء بعد ذلك البطالسة و جهدوا لتجديد عمل هذه القناة و أخذوا يقاومون الطبيعة فى العصر الرابع و الثالث و الثانى و الأول ق م. و كانوا يرمون إلى المحافظة على طريق نهر النيل إلى البحر الأحمر من البحيرة المرة و جعله أبدا صالحا لمرور الزوارق. كلفهم ذلك جهودا عظيمة و قاموا بأعمال صناعية دقيقة، كالسدود و الأحواض و أعمال أخرى كان القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل و عن الأراضي المصرية، ثم أهمل شأنها فى القرن الأول ق م.

و بعد فإن تاريخ هذا العمل العظيم أى قناة السويس القديمة ينتهى فى عهد الرومانيين. و قد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التى امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الرومانى بين سنة (٩٨ و ١١٧) بعد الميلاد و قد فتح على عهده نهر تراجان الذى كان يبتدىء بالقرب من القاهرة و يمتد إلى خليج السويس فى البحر الأحمر، و هذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفا. طمتهما الرمال و ارتفع مستوى الأرض فضاغ أعظم أثر من آثار القدماء يعد من بدائع القرون الغابرة.

و لما افتتحت العرب مصر كانت قناة النيل و البحر الأحمر عبارة عن ذكرى قديمة العهد جدا. و مع هذا يرجع الفضل و الشرف فى إحياء هذه الذكرى القديمة منذ اثنى عشر قرنا للعرب الفاتحين و هم آخر من أحيا هذه الذكرى قبل أهل المدينة الحاضرة. و أعظم من هذا أنهم هم أول من فكر بالطريقة الحديثة لإيجاد قناة بين البحرين المتوسط و الأحمر. ذلك لأن مملكة العرب كانت متسعة الأجزاء و تحتاج للمواصلات فى كل وجه خلافا لمملكة

خطط الشام، ج٥، ص: ١٤٣

الفراعنة فإنهم لم يفكروا إلا بما يفيد مصر و حدها. فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط الصلات بين جزيرتهم و ما افتتحوها من الممالك الأخرى. و قد قام بهذه المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام و تبعه فى ذلك الخليفة العباسى هرون الرشيد. و لعدم وسائلهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية و إن فكروا بها مليا، و لما أشكل عليهم الأمر لم يحجموا عن جعل النيل واسطة الاتصال بين ممالكهم. و كان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر المتوسط و البحر الأحمر. و على هذا قاموا بإصلاح قناة الأقدمين التى تبتدىء من الزقازيق على النيل. و كانوا يأتون فى سفنهم من الشمال و يدخلون فى بحيرة المنزلة ثم فى النيل و من هناك يتبعون القناة التى أصلحوها إلى أن يدخلوا البحر الأحمر و منه يتجهون نحو جزيرة العرب.

و كانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه من الحنطة إلى جزيرتهم.

و يحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص نقل في هذه الترع الحنطة من الفسطاط إلى القلزم (السويس) و من هناك إلى جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر.

و قد بقيت القناة سالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة المنصور العباسي و قام بطم هذا الطريق المفيد مخافة أن تنقل الذخائر إلى القائم بالحجاز إذ ذاك من أرض مصر. و على هذه الصورة انقطع جبل الوصل للمرة الأخيرة بين البحرين مدة ألف سنة و نيف. على أن فكرة اتصال البحرين ما زالت باقية منذ ذلك العهد و هي الفكرة التي لم يسبق أحد إليها. و كانت من الأعمال التي لا مندوحة للمدينة من تطبيقها. و جاء البنادقة قبل العرب بفتح ترعة لتضرر تجارتهم من افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح و لكنهم لم يفلحوا.

و في سنة (١٦٤١) عرض لايبينيس العالم الرياضى الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر بأن يؤلف جيشا لافتح مصر، و كان من جملة ما طلبه فتح هذه الترع للوصول منها إلى الهند، و لكن لم يتم شيء من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثماني الذي فكر أيضا بفتحها، و كان الأمر كذلك مع على بك زعيم المماليك الذي لم يكتب له النجاح أيضا. و قد ارتأى فتحها أيضا كولبر الشهير و كثير من وزراء لويس الخامس عشر و لويس السادس عشر.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤٤

و يظهر أن كل من حاولوا ربط البحرين هم إفرنسيون أو أصدقاء لفرنسا، اتفقوا على هذا الأمر للفت في عضد إنكلترا التي كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح. و لما جاء نابليون مصر نظر في الأعمال الأولى لفتح الترع سنة (١٧٩٨). و قام مهندس لوپير بدرس المشروع و عمل المصورات اللازمة عملا بإشارة سيده غير أنه أخطأ في حسابه خطأ عظيما إذ وجد أن مستوى الماء في البحر الأحمر أعلى من مستواه في البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار و تسعين سانتيمًا، في حين ليس من فرق بين مستوى البحرين و بذلك كان لوپير السبب في تأخير هذا العمل مدة طويلة.

بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس و البحر المتوسط مدة ألف و مائة سنة أي منذ سنة (٧٥٥) إلى سنة (١٨٥٤) ميلادية أو من عهد المنصور إلى الزمن الذي قام به بحفر الترع الحالية فرديناند دليسبس الذي برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون. و قد قام المهندسون لينان بك و استيفانسون و نيكريللي و بوردالو بمساحات دقيقة بين سنة (١٨٤٨ و ١٨٥٧) و أثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لوپير.

أقع دليسبس الخديوى سعيد باشا بفائدة الترع و أحرز في سبعة أيام موافقته على ذلك. و صدر المنشور الخديوى بفتح الترع يوم ٣٠ تشرين الثاني سنة (١٨٥٤). فعارضت بريطانيا في فتح الترع مدعية أنها تريد المحافظة على كيان الدولة العثمانية من الأخطار التي ستحدثها هذه الترع المشؤومة. و لم يرجع دليسبس عن مشروعه فأسس شركة و عرض في ٥ تشرين الثاني سنة (١٨٥٨) أسهمها للبيع. و كان عدد هذه الأسهم (٤٠٠،٠٠٠) سهم بيع منها (٢٠٧،٠٠٠) سهم في فرنسا و اشترك في شراء هذه الأسهم جميع الطبقات.

أما ما بيع في البلدان الأخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة. و اكتتب الخديوى سعيد باشا لنفسه بما بقي من الأسهم أى بنحو خمسة و أربعين بالمائة من مجموعها و وضع تحت إدارة القائمين بالأعمال خمسة و عشرين ألف عامل بأجرة زهيدة جدا. و أسست هيئة إدارية للقيام بهذا المشروع و جرى الاحتفال بالموضع الذي أنشئت فيه بور سعيد في ٢٥ نيسان سنة (١٨٥٩) و ذلك قبل أن تتم موافقة الباب العالي و قبل أن تضع المعارضة البريطانية سلاحها. و مع هذا كانت

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤٥

أعمال الحفر تتقدم بوسائط ابتدائية، فتنتقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير.

و لنا أن نقدر الصعوبات التي اقتحمها القائمون بالعمل إذا فكرنا بأن ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور

الإبل و كان يكلف هذا النقل ستة و خمسين ألف فرنك في الأسبوع حتى انتهى عمل القناة المعدة لإسالة الماء العذب. و في ١٨ تشرين الثاني سنة (١٨٦٢) جرى فتح أول قطعة من الترعة و قد ترأس هذا الاحتفال الفخم دليسيبس صاحب هذا المشروع. و حطم السد أثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فكان هذا الاحتفال فخما مهيبا. و مات الخديوى سعيد باشا فأضاع دليسيبس أكبر نصير له.

على أن هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثماني و ذلك في سنة (١٨٦٦) و جرى يومئذ بآلات الحفر الضخمة ذات قوة (٢٢) ألف حصان و استغنوا عن الأدوات الابتدائية. و جرى افتتاح هذه الترعة في ١٧ تشرين الثاني سنة (١٨٦٩) فاجتمع في ذلك الاحتفال خمس و خمسون سفينة أتت من أوروبا، و ممن حضر امبراطور النمسا و أولياء عهد بروسيا و هولاندا و غيرهم. و قد أنفق على هذه الترعة تسعة عشر مليون ليرة إنكليزية.

و لما رأت إنكلترا فائدة هذه الترعة ندمت على تباعدها عن مديد المساعدة لأول الأمر و قررت أن تستعوض عما فاتها من الوقت. ففي تشرين الثاني سنة (١٨٧٥) تمكن ديزرائيللى وزير إنكلترا من ابتياع مائة و ستة و سبعين ألف سهم كانت ملك الخديوى سعيد باشا و ذلك بمبلغ أربعة ملايين ليرة إنكليزية و في تسعة أيام دخل ثلاثة أعضاء إنكليز في هيئة إدارة الترعة و سقطت تلك المعارضة التي اشتدت بين إنكلترا و بين شركة الترعة. و في سنة (١٨٨٢) أهملت فرنسا مصالحها في مصر فعسكرت الجيوش البريطانية في القاهرة فاحتج فرديناند دليسيبس على خرق حياد الترعة فلم يجد احتجاجه نفعا.

و في سنة (١٨٨٥) وضعت قواعد الاتفاق الفرنسي الإنكليزي لإدارة شؤون الترعة. و كان أثر هذا الاتفاق عظيما جدا و خصوصا أيام الحرب العامة.

فكانت هذه الترعة خندقا حصينا بيد الحلفاء للمحافظة على مصر. و لما هاجم (٥-١٠)

خطط الشام، ج٥، ص: ١٤٦

الترك الترعة سنة (١٩١٥) قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل و نجح على أيسر وجه. و لم تمض مدة قليلة بعد الحرب حتى عادت الترعة إلى ما كانت عليه قبلها و هي اليوم إحدى الطرق البحرية العظيمة في العالم أجمع. و قد مر منها في سنة (١٩٢٥) ٥٣٣٧ سفينة. و كان مجموع ما تحمله هذه السفن (٩٣٥، ٧٦١، ٢٦) طنا.

لا جرم أن إصلاح الترعة و جعلها صالحة لسير السفن كل حين عمل شاق يتطلب جهودا عظيمة. و كان عرض الترعة في بادئ أمرها اثنين و عشرين مترا في القعر و ثمانية أمتار عمقا. في حين أنها اليوم خمسة و أربعون مترا عرضا في القعر بعمق عشرة أمتار و نصف، مما يدل على أن العمل فيها متواصل و أن عرضها قد تضاعف. ثم إن عرض الترعة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة و العشرين و المائة و الأربعين مترا و قد يبلغ المائة و الستين، و طولها ١٦٨ كيلو مترا.

و تقرر مؤخرا أن يجعل عمق الماء ثلاثة عشر مترا و عرض الترعة في القعر ستين مترا. هذا و النفقات تزداد يوما فيوما. و قد بلغ ما صرف على هذه الترعة منذ البدء فيها في سنة (١٨٥٩) إلى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية. و يبدو في ميزانيات هذا العمل عجز ظاهر من أول الأمر. و كان ما استحصل من هذا العمل لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة الموضوعه على التجارة و البواخر و تحسنت الحالة في العهد الأخير.

و في سنة (١٩٢٣) بلغت الواردات غير الصافية ٤١٩ مليون فرنك و كان الصافي من الواردات سنة (١٩٢٤) ٢٦٤ مليون فرنك. اسم هذه الشركة «الشركة العمومية لترعة السويس البحرية» و هي شركة مصرية بقانونها و شركة دولية عمومية بالاسم. غير أن حقيقتها شركة إفرنسية و أكثرية هيئة ادارتها إفرنسية أيضا. و رئيسها الذي خلف دليسيبس إفرنسي أبدا. و مركز إدارتها في باريز و قد دفعت هذه الشركة عن سنة (١٩٢١) ١٤ مليون فرنك إلى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها. و مركز الإدارة العامة أيضا في باريز تقوم بإدارة الثلاث شعب الموجودة في مصر و التي يديرها موظفون إفرنسيون.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤٧

و هذه الشعب هي: إدارة الأشغال، إدارة المركز، إدارة سير السفن.

و يقوم بأعباء هذه الشعب الثلاث ٥٠٠ موظف و ربان و ٢٥٠٠ عامل. و إذا أضفنا إلى هذه الأرقام عيال هؤلاء الموظفين و العمال و أولادهم بلغ عدد من لهم علاقة مباشرة بشركة الترعة ١٤ ألف نفس.

الترعة العظيمة عن طريق فلسطين:

قبل اتفاق ترعة السويس الذى صيرها ترعة محايدة دولية، فكر الإنكليز فى فتح طريق بحرى يمر بفلسطين. و ذلك لإضعاف نفوذ الفرنسيين فى الشام و نفوذ الروس فى فلسطين، فارتأوا وصل البحر المتوسط ببحيرة لوط ثم البحر الأحمر. و ذلك بواسطة قناة تبتدى من مدينه حيفا، فتملأ وادى الغور الذى ينخفض ٣٩٣ مترا عن سطح البحر، ثم تتصل هذه القناة بالعقبة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر بعد أن تقطع وادى العربى. و بهذا يكون للإنكليز طريق حربى تبلغ به بريطانيا الهند إذا أغلقت فى وجهها ترعة السويس و ينافسون ترعة السويس.

إن سهل يزريع لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر. فى حين يرتفع وادى العربى بين البحر الميت و البحر الأحمر مائتين و أربعين مترا.

فلو فرضنا أنه أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التى تتطلب أعمالا صناعية دقيقة يتساءل المرء عما سيكون مصير الماء الجارى من البحرين إلى هذه الهوة الطبيعية أى وادى الغور فإنه يتبخر فى الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذى يصب فى بحيرة لوط. فقد حسب السير اوليفان أن هوة الغور التى ينخفض قعرها ٤٠٠ متر تقريبا عن سطح البحر تملأ فى خمس سنوات. و قد قدر علماء آخرون بأن المدة اللازمة لامتلاء هذا الوادى لا تقل عن عشرة أمثال المدة التى حسبها اوليفان. و مهما تكن هذه المدة أى مدة امتلاء هذه الحفرة طويلة أو قصيرة، فإن عملا كهذا سيغير إقليم فلسطين حتما، و يحصل من جراء هذا العمل الكبير ملجأ للسفن الكبيرة، و هذا ما يتجلى به سبب تحمس الإنكليز لهذا المشروع منذ أربعين سنة.

طول هذه الترعة العظيمة ٤٠٠ كيلو متر منها ١٩٢ كيلو مترا فقط يقتضى

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٤٨

حفرها بعرض ٦٠ مترا و بعمق ١٢ مترا. و مهما تكن فكرة فتح هذه الترعة عظيمة، و مهما تكن الاستفادة من قوة الماء الذى سينصب فى وادى الغور جيدة، لا يتأتى إخراج هاتين الفكرتين إلى حيز العمل دع أن ثروة البلاد المعدنية المشهورة بجوار بحيرة لوط يصعب أن تذهب هدرا تحت غمر المياه لها، ثم إن نفقات العمل ستكون باهظة و قد قدرها اوليفان من مليار إلى مليارين من الفرنكات، و قدرها غيره بخمسة مليارات، مما يجلب خسائر عظيمة و لا يفيد رؤوس الأموال التى ترصد له.

الترعة بين البحر المتوسط و الخليج الفارسى:

و هناك مشروع آخر أشد غرابية من هذا ألا و هو وصل البحر المتوسط بالخليج الفارسى، و ذلك بترعة تبتدى من السويدية و تمر بأنطاكية و حلب و باليس على الفرات. و بإصلاح نهر الفرات بحيث يغدو صالحا لسير السفن حتى شط العرب. و قد قدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانية ذهبيا.

فلو فرض بان الملايين الليرات لا شأن لها فإننا نتساءل عن فائدة هذا الطريق النهري الطويل الذى لا ينقص طوله عن طول طريق البحر الأحمر، فضلا عن أن ارتفاع الأرض فى جوار حلب هو ٤٠٠ متر، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق أيضا.

مرفأ غزة:

تبعد مدينة غزة عن ساحل البحر خمسة كيلو مترات، و ترتفع عن سطح البحر ٥٥ مترا، و تفصل بين المدينة و البحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ١٥ مترا. و الساحل مملوء بطبقات رمل لا تتمكن البواخر من الاقتراب منه. و قد تكونت هذه الرمال بما تقذفه مياه النيل من الرمال إلى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربية إلى هذا الساحل. و الظاهر أن مرفأ غزة كان في معظم أدوار التاريخ دون سائر موانئ الشام و لم يكتب له أن ينتفع به حق الانتفاع إلا في أوقات قليلة.

خطط الشام، ج٥، ص: ١٤٩

مرفأ يافا:

خربت مدينة يافا في الحروب الصليبية فأضحت عبارة عن قرية تتألف من بضعة بيوت. و قد بدأت في التجدد أواخر القرن السابع عشر. و كان المرفأ إذ ذاك غير صالح لإرساء السفن كما هي حالته لهذا العهد. و لذلك كانت ترسى السفن الفرنسية في مرفأ عكا و صيدا. و حصنت يافا في القرن الثامن عشر و أخذت تزداد عمراناً إلى أن جاء نابليون في سنة (١٧٩٩). و قد ازدادت مكانتها و كثر عدد سكانها لعهدنا، و ذلك لقربها من القدس و مرور الخطوط الحديدية منها و مهاجرة اليهود و الألمان إليها، و كان جماع هذه الأسباب العامل الكبير في تقدم هذه المدينة. و مضت أدوار كانت كلمة الذهاب إلى يافا تدل عند الغربيين على عمل خطر. حتى إن بعض التجار كان يراهن الراحلين إلى الأراضي المقدسة على ثروتهم بمعنى أن المسافر يقبض ما يعادل ثروته من التاجر الذي راهنه إذا عاد إلى أرضه سالماً. كما أن المسافر يترك ثروته لهذا التاجر إذا لم يعد إليها. و هذا مما يدل على أن الخطر في دخول السفن هذا المرفأ كان قاب قوسين أو أدنى. و كانوا يعتقدون أن احتمال حدوث الخطر أكثر من السلامة. و تحسنت الحال قليلاً منذ ذلك العهد، و مع هذا لم يزل تفرغ السفن في ساحل يافا من الأمور الصعبة الخطرة.

إن مرفأ يافا صغير و قليل العمق و هو مسدود بخط من الصخور البارزة عن سطح الماء و ليس له سوى مدخل صغير بين الشمال و الشمال الغربي من المدينة. و قد وقع توسيع هذا المدخل بالنحت و نسف الصخور بالمفرقات و هناك ممر آخر في جهة الشمال في عرض ٢٠٠ متر ليس بصالح للانتفاع لما يطمه من طبقات الرمل. و هذه الصخور الممتدة من الساحل إلى عرض البحر هي بمثابة سد طبيعي تكون في طول ٣٠٠ متر. و يكون من هذا السد ملجأ أمين للسفن الصغيرة الحجم، و لكن قعر البحر يرتفع يوماً فيوماً لتكوّن جنس من الحجر المركب من الرمل و الأصداف بواسطة نوع من الملاط المترسب من الماء، فليس ثمت عمق يزيد على الخمسة أمتار إلا بعد ٥٠٠ متر من الساحل بحيث لا تتمكن البواخر الضخمة من الإرساء إلا بعيدة عن

خطط الشام، ج٥، ص: ١٥٠

الشط نحو ٧٠٠ متر مما يتعذر معه تفرغ السفن. و يكون التفرغ بواسطة زوارق كبيرة تسيرها نواتية من أهل هذه المدينة بمهارة فائقة. و كثيراً ما يصطدم هؤلاء الربابنة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التي تهب بريح الشمال في فصل الصيف و رياح الغرب في الشتاء. و أصحاب هذه الزوارق يتقاضون أجوراً باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التي تحيط بهم. من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحياناً تفرغ بضائعها و إنزال ركابها بل تسير بهم إلى مرفأ حيفا و بيروت و بور سعيد.

ثم إن قعر البحر مركب من رمال و مزيج من الحصى و مواد لزجة أخرى لا تمكن المراسى من مقاومتها عند وقوف السفن. و لذلك تبقى هذه السفن موقدة بخارها خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة. فالخطر و الحالة هذه عظيم جداً في إنزال الركاب. فبناء مرفأ على الطراز الحديث هو عمل إنساني مفيد. و أول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره و ذلك قبل سنة (١٨٧٥) في الوقت الذي جرى فيه قلع الصخور و نسفها بالمواد النارية. و في سنة (١٨٨٠) طلب وزير الأشغال في الدولة العثمانية بناء سد في عرض البحر طوله كيلو متر واحد. و قد قدر نفقات هذا المشروع بأربعة ملايين فرنك. و في سنة (١٨٩٠) كثر طلب هذا

الامتياز، و من الطالبين شركة رى بساتين البرتقال فى يافا ثم شركة من القسطنطينية و شركة سكة حديد يافا القدس. و الظاهر أن فتح مرفأ جديد كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفى تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات.

مرفأ حيفا:

تقوم مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوبا ثلاثين كيلو مترا، و كان نزلها منذ أواخر القرن الماضى نفر من الألمان، و أسسوا مستعمرات صغيرة، و أبنية جميلة، فزادت مكانتها التجارية، و زادت نفوسها، و وفرت مرافقها، و المرفأ الحالى القريب من سهل قيشون و هو بطائح و مستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقى فى مأمن من الرياح الجنوبية و الغربية بجبل الكرمل الذى يمتد داخل البحر من الجنوب إلى الجنوب الغربى و ينتهى فيه عموديا.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥١

و لذلك تبتعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف فى البحر المتوسط إذا تعذر إرساؤها فى مرفأ يافا. أما الرياح الشمالية و الشمالية الغربية فشديدة جدا فى هذا المرفأ، و عمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار إلا بعد مسافة كيلو متر واحد فى عرض البحر من الساحل كما هى الحالة فى جميع السواحل الشامية. و لذلك ترسو السفن الكبيرة فى عرض البحر و تفرغ بضاعتها و ركابها فى الزوارق الصغيرة التى لا- تحتاج لعمق عظيم من الماء. و خير طريقة لإنشاء مرفأ مدينة حيفا هو عمل سد فى عرض البحر يبتدى من شمالي المدينة و يتجه من الغرب إلى الشرق بطول كيلو متر و نصف فيبلغ عمق الماء مقدارا كافيا لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن تفرغها على أيسر وجه و يتأتى ردم البقعة المثلثة التى تحصل بين السد و بين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة و زيادة الأرصفة على عمق كاف. و قد أصبح دخول السفن إلى المرفأ من المدخل الشرقى سهلا فى كل وقت إذ أضحى المرفأ آمنا من العواصف و الرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد كل الفائدة خصوصا و مدينة حيفا متصلة بالداخلية بواسطة الخط الحديدى الحجازى، و نفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها فى بادئ الأمر. و قد فكر الترك فى إنشاء مرفأ حيفا بل أعطوا به امتيازاً تحضيريا فحالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع.

و لما دخل البريطانيون فلسطين رأوا أن إيجاد مرفأ يجب أن يتم فى أول فرصة تسنح، و كان التنافس بين يافا و حيفا لأن بقية المرفأى كغزة و عكا ليست إلا مراسى بسيطة. و يافا و حيفا هما أهم الموانى فى فلسطين. و القسم الأعظم من البضائع التى ترد إلى فلسطين تأتى عن طريقهما. ففى سنة (١٩٢٥) دخلت الموانى الفلسطينية (٢٤٧٢) سفينة حمولتها (٥٤٢، ٨٩٥، ١) طنا.

و قد كان نصيب يافا و حيفا منها ما يأتى: يافا (٧٣٤) سفينة حمولتها (٤١٤، ١٦) طنا و (٥٠٤) بواخر حمولتها (٤٠٥، ١٤٣، ١) أطنان. حيفا (٥٤٢) سفينة حمولتها (٧٥١٢) طنا و (٢٥٠) باخرة حمولتها (١٣٤، ٦٨٨) طنا. و الناظر إلى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفأ الحديث. و صقع يافا من أكثر بقاع فلسطين سكانا و ثروة. و لا ريب فى أن مستقبلها زاهر

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٢

و فيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين و هو البورتقال و هى منفذ القدس إلى البحر. هذه هى كل مزاي يافا. أما عيوبها فضيق مساحتها و رداءة مينائها و تعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ٨٠ إلى ١٠٠ يوم فى العام. أما حيفا فتعد بالنسبة إلى يافا مدينة جديدة فلم يكن سكانها سنة (١٩٠٤) يزيدون على عشرة آلاف فبلغوا فى سنة (٩٢٢) ٢٥ ألفا و هم اليوم يزيدون على ٣٥ ألفا. و تعزى هذه الزيادة إلى ازدهار الصناعة فى جوارها لاتصالها بدمشق و بجنوب الشام بسكة الحجاز. و ميناء حيفا جيد يحميه جبل الكرمل فى الجنوب من الرياح و لا- ينقطع العمل فيه إلا- أياما معدودة فى العام. و أخيرا قررت حكومة فلسطين إنشاء مرفأ فى حيفا على الطراز الحديث و أخذت تضع المصورات و التصميمات و وقع اختلاف بين فريقين من المهندسين ففريق يقول بإنشاء المرفأ فى شمال حيفا و الفريق الآخر يذهب إلى إنشائه فى الجنوب.

و لا تلبث هذه الاختلافات أن تزول و يخرج هذا المشروع إلى عالم الوجود بما اقترضته الحكومة لهذه الغاية من الأموال الطائلة.

مرفأ عكا:

مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية اعترف بها نابليون و ازدادت شأنًا منذ فتحت قناة السويس و يرسم خليج عكا قوسًا بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا و من عكا. قامت المدينة في شبه جزيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب. و لئن كان البحر محفوظًا من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب و الغرب. و الإرساء إذا بمرفأ حيفا أسهل منه في عكا. أما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد الممتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. و قد امتلأ هذا الحوض بالرمال و لم يبق فيه من العمق سوى مترين فقط. ترسى السفن الكبيرة في عرض البحر و مع ذلك لا تأمن الأخطار في بعض أيام الشتاء و الربيع. أما من جهة إنشاء مرفأ جديد في عكا فمما يصعب عمله، لأن ذلك يقتضى نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه المدينة.

مرفأ صور:

كان مرفأ صور المشهور في العصور الغابرة في جزيرة منفصلة عن الساحل

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٣

اتصلت بالأرض بعد أن أنشأ الإسكندر طريقًا بينها و بين الساحل. ثم اتسع هذا الطريق اتساعًا كبيرًا بما كان يحمله البحر من الرواسب حتى أضحت الجزيرة جزءًا من الساحل. و لم يبق في العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى إن الرحالة المشهور هاسيل كيست السويدى لم ير في المدينة غير عشرة أشخاص في القرن الثامن عشر أى بين سنة (١٧٤٩ و ١٧٥٢) و قد خربت كثيرًا بزلزال سنة (١٨٣٧) و بعدئذ ابتدأت تزداد عمرانًا و نفوسًا. و بالقرب من المدينة و على بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد الفينيقيين تسمى خزانات رأس العين تسقى المدينة و تروى سهولها حتى ساحل البحر. و لصور مرفأ أن أول الصيدواى يقع إلى الشمال و هو المرفأ الحالى، و الثانى المصرى و هو إلى الجنوب و هو أكبر من الأول لا يصلح لإرساء السفن لامتلائه بالرمال. و يصلح المرفأ الصيدواى للسفن الصغيرة الحجم و يمكن تعميقه بنفقات قليلة. و لا يتأتى للبواخر الإرساء بالقرب من ساحل البحر. و خط العمق ذو الخمسة أمتار لا يبعد كثيرًا عن مدخل المرفأ الصيدواى فى حين أن هذا الخط يتعد كثيرا عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة.

مرفأ صيدا:

طم الأمير فخر الدين المعنى مرفأ صيدا خشية مهاجمة الأسطول العثمانى.

و لما تولى الحكم أحمد باشا الجزار فى عكا وقع بينه و بين القنصل الفرنسى اختلافات عديدة اضطرت الفرنسيين من سكان صيدا أن يتركوا المدينة سنة (١٧٩٠) بدون أن يتمكنوا من أخذ أموالهم و لم يمض ثمانية أعوام آخر حتى أخرجوا منها مرة ثانية، و من ذلك العهد ابتدأ شأنها يتضاءل. و لقد كان لصيدا قديما مرفأ قديما مرفأ قديما صور، الأول فى الشمال الغربى، و الثانى فى الجنوب الغربى. و مرفأ الشمال الغربى هو المرفأ الحالى و هو ذو شكل مستطيل تحده شرقا قلعة البحر و الجسر الموصل بين هذه القلعة و بين الشاطئ. و تحيط بهذا المرفأ من الشمال و الغرب سلسلة من الصخور. و مدخله الغربى المنحوت قديما فى الصخر لم يعد صالحا للاستعمال. أما مدخله الشمالى فهو الذى يصلح وحده لاجتياز السفن و لا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار. فلو نظف هذا المرفأ من الردم

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٤

و الأنقاض لعاد صالحا لإرساء البواخر. و السفن الكبيرة ترسى بعيدة عن الشاطئ على مسافة ١٣٠٠ متر. و المرفأ الجنوبى الغربى معرض

للرياح الجنوبية الغربية و الرواسب المتجمعة من مياه النيل كالمرفأ المصرى فى مدينة صور.

مرفأ بيروت:

يطلق الإنكليز على خليج بيروت اسم سان جورج و هو يتجه نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية و الشرقية. أما الرياح الشمالية و الغربية التى لا تصادف موانع طبيعية فهى تعصف عصفاً عظيماً فى الشتاء و تحدث أمواجاً هائلة. و كان الأمير فخر الدين المعنى ردم مرفأ بيروت اتقاء مدهامة الأسطول التركى. و لما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأت البواخر صعوبة جمه فى هذا المرفأ و كثيراً ما كانت تضطر للإرساء فى عرض البحر كما هى الحالة فى بقية سواحل الشام، و لقد كانت تقضى اليومين و الثلاثة لتتمكن من تفريغ شحنها. و كانت العواصف الفجائية الشديدة التى تكثر فى السواحل الشاميه تضطر السفن إلى الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من أن تتحطم بصخوره.

و قد استمر الحال على هذه الصورة مدة طويلة. و لم يكن الأمر ذا بال يومئذ لأنه لم يكن لبيروت مكانة فى التجارة و لعلها كانت واحدة فى جميع السواحل.

و لما استفاضت تجارة بيروت و زادت مكائتها بسرعة غريبة و ذلك بعد سنة (١٨٤٠) اضطر ولاة الأمر أن يعيروا التفاتهم لمرفئها. ففى سنة (١٨٦٣) تقدمت شركة المساجيرى ماريتم بخارطات لهذا المرفأ لأحمد قيصرلى باشا حاكم مقاطعة صيدا، و قدرت نفقات هذا العمل ب ٣٠٠، ٣٧١، ٦ فرنك. و لم يسفر هذا التدرع عن نتيجة. و فى سنة (١٨٧٩) لم تتوفق بلدية بيروت التى قررت أخذ امتياز هذا المشروع لنفسها، لأن الحكومة لم تصدق على قرارها.

و فى سنة (١٨٨٠) وضع وزير الأشغال فى الدولة العثمانية خارطة سنة (١٨٦٣) موضع النظر فى تقريره عن الأشغال العامة، و بالنظر لضرورة هذا المرفأ و المنافع التى ستنتج عنه و الاقتصاد الذى يتأتى من تفريغ البضائع فيه تقدم بعضهم للحصول على امتياز. ففى سنة (١٨٨٣) ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل، و فى يد كل منهم الشروط الكافية و الضمانات اللازمة، و كان يظن أن شركة

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٥

طريق بيروت- دمشق ستممكن من إجابة طلبها، و لم تنل هذا الامتياز بل ناله يوسف أفندى مطران بإرادة سلطانية مؤرخه ب ١٩ حزيران سنة (١٨٨٧) لمدة ستين سنة تنتهى فى ١٩ تموز سنة (١٩٤٧). و قد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين و إنجازه فى خمس سنوات على أن يكون طول الرصيف ١٢٠٠ متر و أن ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرفأ و يبقى بين هذين السدين مدخل فى عرض ٢٠٠ متر و عمق ثمانية أمتار و أن تكون مساحة هذا المرفأ السطحية على وجه التقريب ٢٣ هكتاراً، و قد يتأتى توسيعه فى المستقبل.

و احتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة، و اشترط المنشور السلطانى على السفن الداخلة إلى المرفأ أداء رسوم الدخول و الرصيف أو دفع نصف الرسوم إذا كانت السفن تدخل المرفأ و لا تقترب من هذا الرصيف. و بعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق- بيروت و صاحب الامتياز. و فى سنة (١٨٨٨) تألفت الشركة العثمانية للمرفأ و الأرصفة و المخازن فى بيروت برأس مال خمسة ملايين فرنك تقسم إلى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم ب ٥٠٠ فرنك. و كانت هذه الشركة إفرنسية بحتة، فأشاع الإنكليز أن هذا المشروع عقيم جدا لعدم وجود خط حديدى بين بيروت و دمشق، و أن هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل فى جبل لبنان و الجبل الشرقى و لعدم وجود خط حديدى لنقل المحصولات بين المرفأ الشاميه و بيروت. و قد بوشر بالأعمال سنة (١٨٨٩) و قامت بإنجازها شركة موزى و طونن و لوزى. و استخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدى طوله ثلاثة كيلو مترات و ٦٠٠ متر على ساحل البحر و سارت الأعمال إذ ذاك ببطء لمرض العمال بالمرض الوافد. و أضرت الأمطار و السيول فأحدثت خسائر عظيمة. و قد عقد اتفاق جديد بين شركة المرفأ و شركة الخط الحديدى بين بيروت و دمشق و حوران سنة

(١٨٩٢) على أن تقرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة لشركة المرفأ. و رهنه هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها و أملاكها و آلات المرفأ و أدواته جميعا. و هنالك شروط أخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضمانه، و كانت شركة الخطوط تنشئ يومئذ خطوطها مما وسع خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٦

مجال الآمال في نجاح المشروعين معا. و بعد انتهاء عمل المرفأ سنة (١٨٩٤) و مد الخطوط الحديدية لم تمض مداه و جيزة حتى خابت الآمال و ظهر نقص عظيم في تجارة بيروت. و أسباب هذا النقص عديده، منها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ و وزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البوارج الحربية العثمانية إلى المرفأ، و منها الاختلاف بين شركة المرفأ و إدارة الجمارك بشأن رسم الحماليين و المخازن و تعيين حدود منطقة لشركة المرفأ، و منها زيادة رسوم الدخول للمرفأ مما دعا إلى تحويل قسم عظيم من الصادرات و الواردات إلى بقية المرافئ الشامية القريبة، و منها بعد المسافة بين منتهى الخط الحديدي دمشق - بيروت و بين المرفأ. درست مصورات هذا المرفأ سنة (١٨٨٩) على طول كيلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية و رأس المدور فاستطاعوا اقتطاع أرضين واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ١٠٠ و ١٥٠ مترا.

و يبدأ أحد السدين من رأس الشامية و يمتد في عرض البحر مسافة ٨٠٠ متر. و ينتهي آخره بسد صغير عمودي على هذا السد متجه نحو رأس المدور. و أما السد الثاني فيبدأ برأس المدور و يتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ٢٠٠ متر. و يرتفع السد الأول و هو الأعظم طولاً و ارتفاعاً خمسة أمتار عن سطح البحر. و أما السد الصغير و السد الثاني فيرتفعان مترين عن سطح البحر. و تقدر الزاوية التي تحدث بين السد الأول و استقامة الشاطئ ب ٤٥ درجة تقريباً، و أما الزاوية الكائنة بين السد الثاني و ذات الاستقامة فتقدر ب ٦٠ درجة و العمق في منتصف المدخل ١٤ متراً و يتناقص بصورة غير محسوسة من منتهى السد الأول إلى مبدئه أي يتناقص من ١٦ متراً إلى أربعة أمتار و يختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثه و خمسة أمتار. و في قرب السد الثاني بين ثمانية و اثني عشر متراً. حتى لقد تتمكن المراكب الكبيرة من الدخول إلى هذا المرفأ دون أن تستطيع تفريغ شحنها على الرصيف رأساً. و مساحة المرفأ الذي تم عمله ٢٠ هكتاراً لا ٥٣ كما جاء في شروط الامتياز و لا يستوعب سوى ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد. خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٧

فرضتا جونية و جبيل:

أخذت ترتقى مدينة جونية الواقعة على عشرين كيلو متراً تقريباً من شمال بيروت و قد قامت داخل خليج كبير يصلح ملجأ للمراكب الشراعية بل للسفن الكبيرة أيام اشتداد الأنواء، و لهذه المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة. أما مدينة جبيل فهي في تأخر مستمر و لكنها ذات مكانة أثرية أكثر منها تجارية و ما استخرجه علماء الآثار من الغربيين من مطاوى أرضها من العاديات النفيسة دليل على ما كان لها في الأعصر الخالية من المكانة البحرية. و قد حاول اللبنانيون أواخر الحكم العثماني أن يجعلوا من جونية أو البترون أو غيرها من المنافذ البحرية في لبنان مرفأ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا، لأن ما وراء هذه الموانئ الصغيرة من القرى لا شأن له في استهلاك المتاجر، و لا اتصال له بمدن كبرى في الداخل.

مرفأ طرابلس:

إن مرفأ طرابلس غير صالح لإرساء البواخر الضخمة لذلك تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ١٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ متر. و قد بنت شركة

الخطوط الحديدية مرفأ صغيرا قرب المحطة محفوظا من جهة البحر و مدت عليه خطوطها، و إنشاء مرفأ كبير فى طرابلس من المسائل القديمة العهد، لأن شكل المدينة ملائم كثيرا لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال لبنان و العلويين. و تمر من هذه الطريق سكة الحديد التى تصل طرابلس بحمص بصورة سريعة و سهلة مما لا مثيل له فى بقية السواحل كبيروت مثلا لأنها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شاهقة لا يمر لها إلا من شواهد عظيمة.

تتألف مدينة طرابلس من قسمين الأول المدينة و هى تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلو مترات و الميناء و هذا هو مرفأ المدينة. و السهل بين هذين القسمين غير صحى و يتجه مرفأ الميناء نحو الشمال. و هناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية، و الغربية الجنوبية. و السد القديم الممتد من الشرق إلى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية أيضا. فموقع المرفأ إذا يوافق إرساء السفن فى كل وقت و إذا اشتدت الأنواء تجد هذه السفن ملجأ منيعا

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٨

تأوى إليه. أما البواخر و البوارج التى تحتاج لعمق كبير فإنها تضطر للإرساء فى عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل.

مرفأ اللاذقية:

يقع مرفأ اللاذقية فى سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر، و هذا السهل غير صحى، و يتجه خليج اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوسا فى شكل نصف دائرة و هذه القوس تنتهى من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقية. فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية و الغربية، و يتأتى لهذا المرفأ أن يكون ملجأ صالحا للسفن لو لم يكن مطمورا بالرمال، و قد ضاق مدخله كثيرا بسبب أنقاض قصر قديم كان مشيدا هناك، فالسفن العظيمة ترسو فى عرض البحر و الصغيرة التى لا تتجاوز حمولتها ال ٣٠٠ أو ال ٣٥٠ طنا تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام و المحبب من أطلال الآثار الغابرة. و لا يتأتى إنشاء فرضة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لأن عملا كهذا يتطلب نفقات باهظة، فالرسوم التى يقتضى وضعها و استيفائها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سببا لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة إلى المدن المجاورة لها. و على هذا فبناء المرفأ يأتى بنقص كبير فى تجارة المدينة و يؤدى إلى عكس الفائدة المطلوبة. و كانت الحكومة العثمانية وضعت مصورا بهذا المشروع و عاضدها نفر كبير من الأهالى. و نرى أن إنشاء طريق بين اللاذقية و حماة أجزل فائدة من إنشاء مرفأ اللاذقية.

مرفأ الإسكندرونة:

تضرب الأمثال بقذاره مدينة الإسكندرونة و مع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر قاعدة و مرفأ لتجارة حلب و ما جاورها من البلدان و ذلك لاستبداد بعض حكام طرابلس فى ذلك العصر، و ليست مدينة إسكندرونة بالبلد الزراعى و لا الصناعى و يعيش الأهلون من نقل البضائع.

يدخل خليج الإسكندرونة فى اليابسة ثلاثين ميلا فى عرض عشرين ميلا و موقعه الجغرافى يدعو إلى تأسيس مرفأ بحرى يكون من أعظم مرفأى البحر

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٥٩

المتوسط. فللإسكندرونة بموقعها محسنات عظيمة و مهما اشتدت الرياح الهوج فى عرض البحر فالأمواج فيها خفيفة ثم إن الرياح الغربية قليلة الهبوب لمكان الجبال المرتفعة التى تعارض هبوبها. و شكل الأرض فى قاع البحر ملائم لأن الخطوط المنحنية التى تمر من عمق ثلاثة و أربعة و خمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع أرض المرفأ. و تكفى المسافة بين المنحنى المرسوم من عمق ٥ إلى ١٥ لإنشاء عامة لوازم المرفأ بأحسن الشروط. و مواد البناء قريبة و كثيرة فى

أطراف المدينة. و في مقال الإسكندرونه كميئه عظيمه من الأحجار الصالحه لبناء الأحواض في البحر، و المدينة قابله بأيسر الأسباب أن تصبح من كبريات المدن، و يصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميله، و هناك عيون كثيره تفيض ثره و يقل مثلها في غيرها من المصايف الجميله.

و الإسكندرونه هي المرفأ الوحيد لمدينه حلب، انطاكيه، كليس، عيتاب، مرعش، أورفه، البيره، ديار بكر. و لجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينه الموصل. و هذا المرفأ أكبر مرفأ في الشام لأنه يمكنه إرساء البواخر و الأساطيل الضخمه. و كان وزير الأشغال العثمانيه قديم تقريراً لإصلاح هذا المرفأ و إنشائه، و قدر النفقات بمليون فرنك ذهبي. على أن عمل مرفأ في الإسكندرونه يقتضي إنجازها و تجفيف المستنقعات المحيطه بالمدينه معا و كان قدر هذا الوزير نفقات هذا العمل أي تجفيف المستنقعات المذكوره بنصف مليون فرنك ذهبي.

لا يفيد إنشاء مرفأ عظيم مجهز بأحدث الآلات في مدينه الإسكندرونه الفائده المطلوبه إلا بربطه بخط حديدي كثير الحركه يمكن بواسطته الاتصال مع الداخل الواسع إلى ديار بكر فالموصل فبغداد فأيران. و لذلك اقتضى أن يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعي للتجاره مع أوروبا و البحر المتوسط.

و يقوم الخط الحديدي الذي أنشأته شركه سكه حديد بغداد بين الإسكندرونه و طوبراق قلعه المتصل بالخط الأساسى بتسهيل المواصلات مع قليقيه. و ستتحول تجاره هذه الديار عن مرسين للإسكندرونه إذا جهزت هذه المدينه بفرضتها البحريه الحديثه. و ستظل المواصلات مع حلب و ما وراءها صعبه لأن عمل خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٠

سكه حديد بين الإسكندرونه و حلب عن أقرب طريق يقتضى له المرور من أعالي جبل أمانوس و جعل الميل شديداً على مسافه طويله. و إذا أريد تخفيف الميل يقتضى إطاله مدى الطريق فلا تختلف إذ ذاك المسافه بين الإسكندرونه و حلب في هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس حمص حلب من حيث المسافه عداً أن هذا أسهل من الأول. بقيت هناك طريقه أخرى للقيام بهذا المشروع و هي خرق الجبال التي تفصل بين الإسكندرونه و حلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلو مترات تحت مضيق مدينه بيلان، و هذا يستلزم نفقات كثيره ربما زادت على الفائده المطلوبه ألا و هي ربط حلب و ضواحيها بالساحل البحري عن أقرب طريق. أما إذا نظرنا إلى الإسكندرونه بصفته مرفأ خاصاً لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق و إيران فتكون النفقه حينئذ متناسبه مع عظمه المشروع.

الخطوط الحديديه:

لقيت شبكه الخطوط الحديديه الشاميه بأسرها صعوبات جمه فلم يتيسر إكثار عددها و اتساع نطاقها. فسلسله جبال لبنان تقضى باستعمال الخطوط المسننه. و هبوط أراضي الغور التي تنحدر بصورة شديده تقرب من الشاقولييه و تجعل منها حفرة عميقه تمنع سهوله المواصلات بين الساحل و شرقي نهر الأردن. فهذه الموانع الطبيعيه في صورة الجبال اضطرت القائمين بأعمال هذه الخطوط أن يعمدوا إلى الخطوط الضيقه ذات الميل الشديد، مما أدى إلى كثرة النفقات في الإنشاء و زياده المنفق على الاستثمار. فالخطوط الحديديه في الشام التي تمكنا من الحصول على بعض الوثائق عنها و عن نبذه من تاريخها و الشؤون المتعلقة بها هي على الصورة الآتيه:

أولاً: طريق بيروت - دمشق، و بيروت - المعاملتين، و دمشق - المزيروب، و رياق - حلب، و حمص - طرابلس.

خط بيروت - دمشق:

لما كثرت حركه التجاره و النقل على طريق بيروت لم تعد تكفى المركبات

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦١

(الكارات) و لا- الحوافل (الدبليجانس) مع ما هي عليه من الانتظام و السرعة فدعت الضرورة إلى إنشاء سكة حديد بين هاتين المدينتين، و لكن مشروعا كهذا يصعب تنفيذه لأنه تفصل دمشق عن بيروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربي و لبنان الشرقي و ذلك بصورة متعامدة على الخط الواصل بين المدينتين. و ترتفع هذه الجبال عن سطح البحر إلى ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ متر على الأقل و بينهما سهل البقاع الذي يرتفع هو أيضا من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ متر عن سطح البحر فيظهر مما تقدم شدة الصعوبات الكثيرة التي تعترض سير الخط قبل وصوله إلى دمشق المرتفعة ٦٩٠ مترا عن سطح البحر إذ يقتضى على هذا الخط قطع هذه العوارض و السهول.

و في حزيران سنة (١٨٩١) استحصل السيد حسن بيهم أمرا سلطانيا بامتيار خط حديدى بين دمشق و بيروت. و فى هذا الامتياز رخصة باستعمال بعض الأرضين مجانا، و إعفاء جميع مواد البناء اللازمة من رسوم المكوس و الضرائب بأنواعها. و اشترط على صاحب الامتياز استعمال اللغة التركية و حدها، و استخدام الرعية العثمانية، و تنظر المحاكم العثمانية فى كل اختلاف يحدث خلال العمل. و الحكومة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق شراء هذا المشروع بعد ثلاثين سنة، و دفع ثمنه أقساطا على أن لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمائة من وسطى الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة، كما أوجبت على صاحب الامتياز أن يؤسس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر، و أن يتفق مع شركة طريق بيروت- دمشق للتخلي عن حقوقها و أن يدفع عربونا للحكومة مقابل هذا الامتياز. و فى العشر سنوات الأولى من مدة الامتياز يرجح صاحبه على سواه لإنشاء ترامواى على مسافة ثلاثة كيلو مترات من طرفى الخط الحديدى أو تأسيس إدارة لتسيير عجلات أو سيارات بين محطات الخط الحديدى و البلدان القريبة من هذا الخط.

و فى ١٨ نيسان سنة (١٧٩٠) حصل يوسف أفندى مطران على امتياز خط حديدى بين دمشق و حوران. و لما لم يتم بتقديم مصورات المشروع خلال المدة المعينة سقط حقه من ذلك الامتياز. غير أنه استعاده بعدئذ و أسس شركة (٥- ١١)

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٢

بلجيكية باسم شركة ترامواى دمشق و خط دمشق- حوران برأس مال قدره أربعة ملايين فرنك ذهبى تقسم على ثمانية آلاف سهم، سعر كل سهم منها ٥٠٠ فرنك. و من جهة أخرى فإن الشركة التى أسست للحصول على الامتياز الممنوح للسيد حسن بيهم سميت باسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت- دمشق الاقتصادى. و قد رأت هاتان الشركتان من الضرورة الماسة أن تندمجا معا و لا سيما لما أحرزت شركة إنكليزية امتياز خط حيفا- دمشق و ذلك دفعا للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتياز الأخير. و قد طلبتا الموافقة على ذلك الاندماج من الحكومة العثمانية فقبلت بذلك بالمرسوم السلطانى المؤرخ فى ٢٢ تشرين الثانى سنة (١٨٩١) الذى مدد مدة امتياز هاتين الشركتين إلى ٩٩ سنة اعتبارا من ٣ حزيران سنة (١٨٩١). و على هذه الصورة جعلت مدة الشركتين واحدة. و سميت الشركة الجديدة باسم شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت- دمشق- حوران فى سورية. و اعتبر تأسيسها نهائيا فى صورة عثمانية اعتبارا من ٤ حزيران سنة (١٨٩٢). و قد باعت شركة طريق بيروت- دمشق جميع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطانى المؤرخ ب ٢٠ تموز سنة (١٨٥٧) من هذه الشركة الجديدة. و ذلك بتاريخ ٢ كانون الثانى سنة (١٨٩٢) و قد خصص لكل ذى سهم واحد فى شركة الطريق سهامان فى شركة الخطوط. و استحصلت شركة المرفأ على مقعدين فى مجلس إدارة شركة الخطوط للمنافع المتبادلة بين الشركتين. و صدرت إرادة سلطانية فى ٢٥ تموز سنة (١٨٩٢) بتمديد ٤٩ سنة مدة امتياز شركة المرفأ و ذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية. و لم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة (١٨٩٣) و السبب فى ذلك أن يوسف أفندى مطران صاحب امتياز خط دمشق- حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق- حمص- حماة- حلب- البيرة (بيره جك). و عرض على الشركة هذا الامتياز الذى كانت تحلم به فصدرت إرادة سلطانية فى ٣٠ أيار (١٨٩٣) تمنح يوسف أفندى مطران إنشاء الخط المذكور و استثماره لمدة ٩٩ سنة. و على ذلك أصبح اسم الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت- دمشق- حوران- البيرة و جعلت مدتها ٩٩ سنة تنتهى فى حزيران (١٩٩٢) و جرى افتتاح خط بيروت- دمشق

خطط الشام، ج٥، ص: ١٦٣

في ٣ آب (١٨٩٥).

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر و خمسة سانتيمترات.

و هو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ٣٤ كيلو مترا، و طوله ١٤٧ كيلو مترا أما ميله فيصل إلى سبعة بالمائة أحيانا، و يحتوى على أربعة أنفاق لا يتجاوز أطولها ٣٥٠ مترا فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات إبطاء غريبا، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز ال ١٦ كيلومترا في الساعة، و يقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت- دمشق في تسع ساعات، و تجتاز قطارات الشحن المسافة عينها في ١١ ساعة في حين أن الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة أيضا ب ١٣ ساعة. و خط بيروت- دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال.

و إليك جدولاً يحتوى أسماء المحطات و مقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر.

أسماء المحطات / المسافات كيلومتر / الارتفاعات متر

بيروت / ٠ / ٠

الحدث / ٧ / ١٥٠

بعيدا / ٩ / ٢٤٢

جمهور / ١٢ / ٣٨٠

عاريا / ١٧ / ٣٨٠

عاليه / ٢١ / ٧٥٠

بحمدون / ٢٧ / ٧٥٠

عين صوفر / ٣١ / ١٢٩٥

«رأس جبل لبنان» // ١٤٨٧

المريجات / ٤٤ / ١١٥٠

الجديدة / ٤٧ / ٩٥٠

المعلقة / ٥٦ / ٩٥٠

خطط الشام، ج٥، ص: ١٦٤

«سهل البقاع» // ٩٠٠

رياق / ٦٦ / ٩٠٠

يحفوفا / ٧٨ / ١٣٢٨

«رأس جبل لبنان الغربى» // ١٤٠٥

سرغايا / ٨٧ / ١٣٧٠

الزبدانى / ٩٨ / ١٢١٣

سوق وادى بردى / ١١٥ / ١٢١٣

دير قانون / ١١٩ / ١٢١٣

عين الفيجه / ١٢٣ / ١٢١٣

الجديدة / ١٣٠ / ١٢١٣

الهامة / ١٣٤ / ٧٤٠

دمر / ١٣٧ / ٧٢٥

دمشق - برامكة / ١٤٤ / ٦٩٠

دمشق الميدان / ١٤٧ / ٦٩٠

خط بيروت - المعاملتين:

يسير هذا الخط الحديدي على شاطئ البحر و يمر بطريقه على بعض قرى الساحل و أهمها بلدة حونية، و كان القصد من إنشائه وصل مدينة طرابلس بيروت و لكنه لم يتم منه سوى ١٩ كيلو مترا عند قرية المعاملتين و هو ملك لشركة الترامواي اللبناني.

خط دمشق - حوران:

جرى إنشاء خط دمشق - حوران باهتمام و سرعة زائدة و قد تم سنة (١٨٩٣) و بوشر باستثماره في أواسط سنة (١٨٩٤)، و لم يصادف صعوبة عظيمة في إنشائه فال ١٠٣ كيلو مترات المتألف منها هذا الخط تمر في سهل خفيف التموج بين دمشق - المزيريب و الميل الأعظم فيه لا يتجاوز الاثني بالمتة،

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٥

و هو من الخطوط الضيقة كخط بيروت - دمشق أي في عرض متر و خمسة سنتيمترات.

و كان لا يحصل إلا على نفقات الاستثمار فقط أي إنه كان لا يؤدي فوائد رؤوس الأموال. و من العوامل التي دعت إلى عدم نجاحه بعد مرفأ بيروت عن منتهى الخط الحديدي مسافة ٢٤٠٠ متر و لكن شركة الخطوط الحديدية اتفقت مع شركة المرفأ و شركة الترامواي اللبناني على وصل الخطوط بأرصفة المرفأ (٤ شباط ١٨٩٧) و جرى بالفعل ذلك الوصل و بوشر باستثماره في سنة (١٩٠٣) و يبلغ طول هذا القسم ٢٢٠٠ متر و هو أيضا من الخطوط الضيقة و قد كلف عمله جهودا عظيمة و نفقات باهظة - أما سكة دمشق - المزيريب فقد اقتلعت خطوطها أثناء الحرب العامة لاستعمال قضبانها في إنشاء الخطوط الفلسطينية العسكرية، و لذلك أصبح هذا الخط من الخطوط التاريخية لأنه لم يجر إرجاعه إلى ما كان عليه حتى إن الشركة الفرنسية صاحبه لا تفكر بإرجاعه على ما نظن، بعد أن وضعت يدها على إدارة الخط الحجازي.

و لا يعقل بقاء خطين متوازيين في منطقة واحدة.

خط دمشق - حلب:

كتب وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية في تقريره سنة (١٨٨٠) لوصل مدينة حلب بديار بكر بخط حديدي مارا بالبيرة و أورفة. و كتب المهندس برسيل أيضا في تخطيط الطريق الحديدي ما يقرب مما ارتآه الوزير العثماني على أن يكون الخط في طول ٤٢٠ و في عرض ٤٤، ١ أي من الخطوط الاعتيادية. و في تقرير الوزير العثماني أيضا خط حديدي يبتدى من حلب إلى حماة فحمص فدمشق فحوران. و كان قدر نفقات كل كيلو متر واحد إذ ذاك ب ١٣٠ ألف فرنك، و طلبت امتياز هذا الخط شركة الباتينيول و أرسلت مهندسيها لوضع التصميمات اللازمة له. و في سنة (١٨٩٢) طلبت شركة عثمانية مؤلفة من أعضاء مسلمين امتياز هذا الخط من وزارة الحربية و ذلك لإنشاء خط عسكري بدون ضمانة كيلومترية. و لكن صدرت الإرادة السلطانية بتاريخ ٣١ أيار (١٨٩٣) بإعطاء الامتياز ليوست أفندي مطران وكيل الشركة

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٦

الفرنسية لخط بيروت- دمشق- حوران. وقد ذكر بصراحة في أول مادة لهذه المقالة أن القصد من عمل هذا الخط عسكري بحت. و على صاحب الامتياز أن يسير حسب ما قرره وزارة الحربية من التخطيط و أن ضابطا من أركان الحرب سيقوم بدرس هذا المشروع مع اللجنة المختصة لدرسه.

وجعلت مدة الامتياز ٩٩ سنة على أن يكون عرض الخط اعتياديا (٤٤، ١) و أن يكون مفردا و يضاف إليه خط ثان في المستقبل. و في الامتياز شروط أخرى تذكر عادة في المقاولات من هذا النوع، كإعفاء المحروقات و أدوات الخط جميعها من المكوس و وضع عربون في خزينة الدولة مقداره ٢٢٥ ألف فرنك، و أنه بحق للدولة اشتراء هذا الخط و دفع ثمنه أقساطا على ألا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمئة من متوسط الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة و ألا يكون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف فرنك عن كل كيلومتر واحد. و قد ذكر أيضا أربعة شروط أخرى ذات مكانة عظيمة نذكرها فيما يلي:

(١) أن الشركة قد حصلت على حق استثمار المعادن الواقعة في طرفي الخط على مسافة ٢٠ كيلو مترا من الجانبين.
(٢) حصلت الشركة على ضمانه كيلو مترية مضمونة بأعشار البلدان التي يمر منها هذا الخط. و هذا عكس جميع الخطوط الشامية. و ألا تكون هذه الضمانة أقل من سبعة بالمئة من رأس المال الموضوع للتأسيس و ألا تكون أكثر من ٥٠٠، ١٢ فرنك عن كل كيلو متر واحد.

و بما أن هذا الخط الذي أخذ امتيازه و لم يجر إنشاؤه يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ كيلو متر فأعظم ضمانه يقتضى على الحكومة العثمانية دفعها تتجاوز السبعة ملايين و ٢٥٠ ألف فرنك و لما كانت النقليات قليلة على بعض نقاط هذا الخط فستضطر الحكومة لدفع هذا المبلغ برمته تقريبا.

(٣) يحق للشركة أن تمدد خطوطها إلى الشمال لنقطة واقعة بين البيرة حتى تتمكن من وصلها بخط بغداد (المادة ٣).
(٤) ترجح الشركة على سواها للحصول على امتيازات جميع الخطوط التي تقرر الحكومة تمديدها بين الخط الأساسى و السواحل الشامية

خطط الشام، ج٥، ص: ١٦٧

بشروط متساوية (المادة ٣٥). و أخيرا وضع وزير المالية مبلغ مليون و ٨٠٠ ألف فرنك بين يدي اللجنة الدولية للديون العامة لتأمين الضمانة الكيلومترية.

و كان ذلك في سنة (١٨٩٦). و في ١٢ تشرين الأول (١٨٩٦) اتفقت الشركة و الحكومة العثمانية على تأجيل إنشاء هذا الخط خمس سنوات. و تعهدت الحكومة بدفع تقسيط سنوي مقداره ٣٣ ألف ليرة عثمانية ذهبا أى ٧٥٠ ألف فرنك إلى الشركة مقابل العطل الذي يصيبها من هذا التأجيل.

و مع هذا لم يتم إنشاء هذا الخط إلا لمدينة حلب فقط و جرى عمله على قسمين: الأول رياق- حماة. و الثانى حماة- حلب. و طول القسم الأول و هو خط رياق- حماة ١٨٩ كيلو مترا بوشر باستثماره سنة (١٩٠٢) و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتيمترا و نصف، و ميله الأعظم اثنا عشر بالألف، و فى رياق مخزن كبير للفحم، و معمل لإصلاح أدوات الخطوط و القاطرات و يعلو هذا الخط فى بعلبك ١١٢٠ مترا عن سطح البحر. ثم يهبط إلى حماة المرتفعة ٣٠٧ أمتار. أما القسم الثانى و هو خط حماة- حلب فيبلغ طوله ١٤٣ كيلو مترا جرى استثماره سنة (١٩٠٦) و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتيمترا و نصف، و ميله الأعظم اثنان فى المئة. و قد كان القصد تمديده إلى البيرة كما تقدم و لكن إعطاء امتياز خط بغداد إلى الشركة الأناضولية حال دون تمديده إلى الشمال.

خط حمص - طرابلس:

طول هذا الخط ١٠٢ كيلو مترين، و قد شرع باستثماره سنة (١٩١١)، و عرضه متر و أربعة و أربعون سانتيمترا و نصف، و ميله الأعظم

اثنان بالمشة، و اقتلعت قضبانه أثناء الحرب الكونية العامة و استعملت في تمديد خط بغداد- نصيبين، و خربت كثير من المحطات و بعض الجسور خلال هذه الحرب، و أعيد الخط إلى ما كان عليه قبلا سنة (١٩٢١) و بلغت إعادته واحدا و عشرين مليون فرنك. و قد بلغت نفقات استثمار خطوط شركة دمشق - حماة و تمديداتها عن سنة (١٩٢٦)، ١٤٢، ٧٥٩، ٣٤ فرنكا و الواردات ٣٢٥، ٧٥٩، ٥٧. خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٨

طريق الحج و إنشاء الخط الحجازي:

كان المسلمون يلاقون صعوبات و مشقات في ذهابهم و إيابهم إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج كل سنة، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي أربعين يوما من دمشق إلى المدينة المنورة و عشرة أيام من المدينة إلى مكة المكرمة. خمسون يوما يقضيها الحاج بين دمشق و المدينة فمكة و عشرون يوما على الأقل يمضيها في القيام بالمناسك و زيارة قبر النبي المعظم صلى الله عليه و سلم و يقضى خمسين يوما في عودته. فهذه أربعة أشهر كاملة للحج الشامي. أما التركي و الإيراني و غيرهما من أهالي الممالك الإسلامية النائية فقد كان يحول الحول على أحدهم دون الوصول إلى بغيته. و ناهيك بما يعترض الحاج من مشاق الأسفار و أهوالها و ما يضطر لصفه من النفقات الباهظة في هذه السبل. و كان كثير من الأغنياء يتقاعسون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة لراحتهم. فمد خط حديدي إلى الديار المقدسة كان من الضرورة بمكان.

كان الحجاج المسلمون يأتون ألوا من الأقطار الإسلامية إلى دمشق و يجتمعون فيها انتظارا لسفر موكب الحج، و كان يتألف هذا الموكب في دمشق و يسير منها متجها نحو الحجاز تحت إدارة حاكم يلقب بأمر الحج. إن قافلة كهذه يصعب جدا سيرها بدون انتظام شديد و كانت تتألف من مشاة و فرسان و هجانة و حمارة يقدر عددها بعشرة آلاف نسمة و عشرين ألف دابة على الأقل. و لذلك كانت طاعة أمير الحج واجبة على الحجاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار و المصاعب دون أن يتركوا أحدا على الطريق أو أسيرا بين أيدي البدو. و كان هؤلاء يثورون على الحكومة من وقت إلى آخر، و بواسطة الهدايا التي كان يرسلها السلطان لقبائل البدو و العطايا التي يمن بها على شيوخهم كانت أطراف دمشق آمنة سالمة، و كان لا يخشى وقوع حوادث بالقرب منها، و لذلك كانت القافلة غير آمنة إلا بجوار بلدة المزيريب في حوران.

و في العادة أن يرحل أمير الحج من دمشق في الخامس من شهر شوال في

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٦٩

ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة و المدافع الصغيرة و يتبعه الحجاج زرافات و وحدانا. و الدمشقيون يقومون بتشيعهم إلى قبر أحمد باشا في الميدان أي إلى جامع العسالي، و تجرى المراسم العسكرية و الاحتفالات تكريما لهذا الموكب العظيم، و كانت الحكومة في دمشق تهتم بتشيعه، و يسير الموظفون و أصحاب الرتب العالية بألبستهم الرسمية أمام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند و هجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان، و كانت الموسيقى تصدح أثناء الموكب و المدافع تطلق حين خروجه و عند وصوله إلى القدم و الكل فرحون مسرورون من هذا اليوم العظيم.

و بعد ذلك يسير الركب من القدم إلى الكسوة و هناك يجد ماء صالحا للشرب ثم يسير إلى المزيريب فيبقى فيها أربعة أو خمسة أيام و عندئذ يتألف الركب عسكريا و على رأسه أمير الحج فيسير قسم من الجيش في المقدمة و القسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب. و في كل صباح و مساء تطلق ثلاث طلقات نارية إعلاما بوقت المسير و الوقوف و كثيرا ما كان يبلغ طول هذا الركب ثلاثة أو أربعة كيلو مترات. و أما الدرب الذي كان يسير عليه فهو عبارة عن عدة طرق صغيرة حفرتها أيدي الإبل و الدواب طول السنين و لا يوجد طريق مرسوم على الطريقة الفنية الحديثة المعروفة اليوم. و كانت المسافة بين دمشق و مكة المكرمة تقدر بأربعمئة و تسعين ساعة و بأربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب إلى معان.

و يجتاز الركب من المزيريب إلى المفرق و عين الزرقاء و البلقاء و القطرانة و هنا تشتد صعوبة الدرب و يدب الرعب و الخوف في قلوب الحجاج ذلك لأنه كانت المضايق غاصة بعصابات من اللصوص، و الماء الشروب قليل.

و كثيرا ما كانت السيول تجرف الركب بأجمعه فلا ينجو منه إلا الحجاج فقط، فإذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلا و يتابع سيره فيقطع العقبات المؤدية إلى النفود، و يبعد هذا المضيق الصعب ثلاث عشرة ساعة عن معان، و عندئذ يترجل الحجاج عن دوابهم و يسرون مشاء أمام أمير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير و يجلس مشاهدا الجموع تمر أمامه، و بعد ذلك يسير لا يشاهد في طريقه سوى رمال سهل النفود القاحل حتى مدائن صالح.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٠

و كثيرا ما يشاهد الحجاج سراب هذه الرمال الجميلة عن بعد. ففي هذه الطريق الصعبة و بين هذه الرمال المحرقة يسرع الركب تخلصا من النصب و التعب، فيوزع أمير الحج على الحجاج المياه للشرب مجانا و يستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري، و كل ذلك لم يكن يجدى نفعا. و لطالما حدثت اختلافات بين الأمير و البدو فتقع المصيبة على رأس الحجاج و الركب معا على ما جرى ذلك كثيرا فيمأ الرعب قلوب الحجاج طول الطريق يتحدثون بما وقع في السنين الماضية من الحوادث و يعلم بعضهم بعضا بمحالتها و مواقعها و يذكرون ما كان يتبعها من أعمال السلب و النهب.

إن مدائن صالح أخف صعوبة من الأرجاء التي قبلها و أقل خطرا منها.

و فيها كثير من الآثار القديمة النبطية. و منها يسير الركب إلى المدينة المنورة و بعدها إلى مكة المكرمة و أكثر الأراضي الحجازية مؤلفة من جبال و أودية و قليل من الواحات فطريق الركب طريق صعبة، و فيها آبار متقطعة و ليست بجيدة. و هناك أيضا درب آخر يقال له الدرب السلطاني و هو الدرب الأقصر طولاً و الأشد خطرا. فالحجاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة. هكذا كانت حالة الطريق المؤدية إلى الأرض المقدسة و هذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم.

إنشاء الخط الحجازي:

و هذا ما دعا الحكومة العثمانية إلى اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات و الحيلولة دون الأسباب التي كانت تقلق راحتها في الداخل و تظهرها بمظهر العاجز في الخارج أمام دول الغرب. و كان السلطان عبد الحميد الثاني حريصا على توسيع نفوذه المعنوي في جميع الممالك الإسلامية خدمة للإسلام و توصلا لغاياته السياسية لذلك فقد قرر (سنة ١٩٠٠) مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز و يسهل السفر على الحجاج و يأتي الدولة و الولايات بالفوائد المادية و المعنوية. على أن هذه الفكرة لم تكن بنت وقتها و ليست وليدة رأس عبد الحميد فقد سبقه إليها الدكتور زامبل الأمير كى الألماني الأصل فاقترح سنة (١٨٦٤) على الحكومة العثمانية مد خط حديدي بين دمشق و ساحل البحر الأحمر.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧١

و في سنة (١٨٨٠) صحت عزيمة وزير الأشغال العامة في الأستانة على تمديد هذا الخط إلى الأراضي المقدسة. و لكن أكثر المهندسين و الجغرافيين كانوا يقولون بتعذر تنفيذ هذا المشروع. لأن الأصقاع التي يجتازها الخط ينزلها قبائل من البدو الرحالة الذين اعتادوا السلب و النهب. و سهولة المواصلات بالوسائط البحرية و رخصها أكثر من البر. و قالوا إن الربح الذي يحصل من نقل الحجاج أثناء الموسم لا يكفي للقيام بجميع النفقات السنوية لهذا الخط العظيم.

و لكن كانت هذه الصعوبة في نظر السلطان عبد الحميد أخف مما يتصور.

فإدارة الحج و نفقات السفر كانت تستنزف من موازنة الحكومة مبلغ ١٥٠ ألف ليرة عثمانية على الأقل. و الهدايا التي ترسل إلى البدو تقوّم ب ٦٠ ألف ليرة عثمانية. و كان السلطان عبد الحميد يأمل من جهة أخرى وصول مبالغ عظيمة من الأمم الإسلامية إعانة لهذا

المشروع الإسلامي و لم تبدأ الحكومة بالعمل إلا بعد أن أعلنت عزمها على ذلك في جميع الأقطار الإسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها أو خارج عنها. و أبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد الحج و استمطرت أكف المسلمين تعصيها لهذا المشروع الديني المحض.

فتحقق أمل السلطان و بدأت الاكتتابات ترد من البلدان الإسلامية و قد افتتح هو نفسه هذه الاكتتابات ب ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية، و تابعه في ذلك الملوك و الأمراء المسلمون. فشاها العجم أرسل ٥٠ ألف ليرة عثمانية و خديوى مصر تعهد بإرسال كمية عظيمة من مواد البناء و الإنشاء. و ألفت الجمعيات في الممالك الإسلامية الخارجة عن حدود الدولة العثمانية لجمع الأموال، فألف الهنود ١٦٦ جمعية و أهالى لكنو و حدهم أرسلوا ٣٢ ألف ليرة عثمانية و كذلك أهالى رانكون و مدراس أرسلوا ٧٣ ألف ليرة، و أرسل الميرزا على أحد أغنياء كلكتوتا خمسة آلاف ليرة و أرسل مدير جريدة الوطن في لاهور ٥٠٠٠ ليرة و ذلك من الاكتتاب الذى فتحه في جريدته و اشترك فيه الهنود و الترانسفالينون و الصينيون. و لم تنقطع الإعانات مدة إنشاء الخط مما دل على سريان روح التضامن في الشعوب الإسلامية.

و الأغرب من هذا أن أحد النمسيين دفع ٢١٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب (باشا). و قد جعلت شارات و أوسمة لمن يدفع الإعانات. فالدرجة

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٢

الثالثة لمن يدفع من ال ٥ ليرات إلى ٥٠ ليرة. و الدرجة الثانية لمن يدفع من ال ٥٠ إلى ١٠٠ ليرة. و الدرجة الأولى لمن يدفع أكثر من ١٠٠ ليرة ذهبية.

و هذه الطريقة كانت نافعة لو لا أن هذه الرتب و الأوسمة كانت تباع في الأستانة بأقل مما تقاضاه دوائر الخط الحجازى. ثم وضعت بعض الضرائب لإعانة الخط و نزل الموظفون عن راتب شهر كامل في بادئ الأمر ثم أكره الموظفون على دفع عشر و أتبهم الشهرى في السنة مرة واحدة. و أحدثت طوابع الخط الحجازى و بعض الضرائب الجمركية كما جمعت إدارة الخط جلود الأضاحى من الناس تبعها و ترتفق بشمنها. مما دعا فنصل إنكلترا إلى أن يصرح سنة (١٩٠٤) قائلاً: يظهر لى أن احتمال إكمال الخط الحجازى هو أعظم مما كنت أتصور قبل سنة أو سنتين. و الحقيقة أن أكثر الناس كانوا إذ ذاك و خصوصاً المطلعين على هذا الأمر يظنون أن عملاً كهذا هو أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة. و إذا لم يتم هذا المشروع إلى مكة المكرمة و وقف عند المدينة المنورة فذلك لم يكن منبعثاً من قلة المال لأن المال أصبح وافر بعد ما كان يخشى من قلته و يظهر ذلك من الاطلاع على موارد هذا المشروع.

فالإحصائيون لا يظنون الآن أن النفقات العامة تتجاوز ١٢٥ مليون فرنك أى خمسة ملايين و نصف ليرة عثمانية. فى حين أنه كان يظهر فى بادئ الأمر أن هذا المبلغ هو الحد الأصغر لهذا العمل. فقد جمع من الإعانات فى الممالك الإسلامية ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية أى ١٧ مليون فرنك. و الضرائب التى وضعت تضمن موردا قدره ٢٥٠ ألف ليرة سنوياً. فهذا المبلغ يسد نفقات الإنشاء. و الإعانات تساعد على شراء المواد اللازمة اه.

و فى الواقع أنه لم يكن أحد يتصور أن النتيجة ستكون قريبة التناول بهذه الصورة و أن العمل سيتم على هذه السرعة و هذا النظام لطول المسافة، و فقدان المياه، و وعورة المسالك، و فقر الدولة و ضعفها الإدارى، و لكن المشيئة الإلهية قد دلت كل هذه الصعاب و وفقت فى إنجازها ليكون نقطة اتصال بين الأقطار و خير واسطة لتوفير راحة الحجاج و تسهيل مسالك الحج و الزيارة.

كان استعمال الإعانات منظماً تنظيمياً حسناً، و قد وزعت الأجور على العمال و الرواتب على الموظفين بصورة منظمة، و دفع ثمن الأدوات و مواد

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٣

الإنشاء فى الحال، مما دعا الناس أن يؤمنوا بإنجاز هذا المشروع. و كان سير العمل سريعاً يمدون مائة كيلو متر فى العام. و كان أحد

المقربين من السلطان عبد الحميد أحمد عزت العابد يدير مع لجنة الحجاز الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الأموال إلى جيوب الخونة، و أدى سوء الاستعمال في مواد الإنشاء لإضاعة كثير منها. و كان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون في صورة ملتزمين و يتقدونهم الأموال الزائدة و يعينون بعضهم في وظائف الإدارة.

شرح بإنشاء الخط الحجازي في شهر أيلول سنة (١٩٠٠) مبتدئا به من المزيريب، و بين دمشق و هذه القرية سكة حديد إفرنسية يمكن نقل الحجاج من الشام إلى المزيريب عليها لا سيما و أن امتياز هذه السكة لا يجوز إنشاء سكة أخرى تحاذيها، و ما كادت الحكومة تمضى في عملها حتى بدأت المنافسة تشتد بين الإدارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازي بمدينة دمشق. و قررت إنشاء خط درعا- دمشق و بوشر بالعمل من دمشق و المزيريب دفعة واحدة. و في سنة (١٨٩٣) نالت الشركة الفرنسية امتيازها و لم يكن السلطان عبد الحميد يفكر في خطه المقدس، و لذلك كان سمح لها بإنشاء سكة حديد بين دمشق و المزيريب و بوشر باستثمارها منذ سنة (١٨٩٤) بإنشاء سكة حديدية موازية لخطها من دمشق إلى درعا يجعل المنافسة على أشدها و لذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلو متريه و ذلك في شباط سنة (١٩٠٥). و قد افتتح القسم الأول من الخط الحجازي أي دمشق- درعا في أيلول ١٩٠٣ و بعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا- عمان و تيسر لإدارة السكة الحجازية في أقل من ثلاث سنين مد ٢٢٣ كيلو مترا.

يتجه الخط الحديدي الحجازي بعد خروجه من واحدة دمشق نحو الجنوب الشرقي في استقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أهم قرى اللجاة، ثم يقطع هذا الخط سهل حوران الخصيب برتمته و هو يمتد إلى سفح جبل الدروز و يصل إلى محطة درعا الواقعة في وسط السهل و هي على ١٢٣ كيلو مترا عن دمشق، و من درعا يتفرع فرع حيفا متجها صوب الغرب فيصل البحر، و أما الخط خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٤

الأساسي فيبقى مستمرا في طريقه نحو الجنوب.

من أهم الفوائد التي جنيت من امتداد هذا الخط أن كثيرا من البدو سكنوا تلك الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانية و امتلك عدد عظيم من مهاجري الشركس الذين كانوا تائهين في شمالي الشام بعض الأراضي هناك و أسسوا القرى و المزارع فيها. و كل هذا العمل لم يكلف أموالا باهظة بالنسبة لغيره من المشاريع. و كانت القاطرات في نهاية سنة (١٩٠٣) تسير إلى مسافة ٣٠٠ كيلو متر من دمشق و بلغت أكلاف الكيلو متر الوسطي حينئذ ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية. و لما بدأت المنافسة بين السكة الحجازية و السكة الفرنسية شعر السلطان عبد الحميد و مهندسوه بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازي بمرفأ بحري يستمد منه لوازمه و أدواته و يكون منفذا للأقطار الواسعة التي سيمتد فيها فقرر إنشاء خط حديدي جديد بين حيفا و درعا.

و الناظر إلى مصور القطر يرى لأول نظرة مكانة خليج عكا فلسلسلة الجبال الممتدة من مصب نهر العاصي إلى ترعة السويس و هي بمثابة سد عظيم بين الساحل و الداخل و ليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس و بيروت و مصب الليطاني أي القاسمية و خليج عكا. و أعظم هذه المنحدرات و أهمها الانخفاض الواقع قرب عكا. إن سلسلتى لبنان الغربية و الشرقية المتوازيتين تحولان لارتفاعهما دون المواصلات مع الداخل. و بالطريق الفنية اتصلت دمشق ببيروت و هكذا الشأن في الانخفاض في جوار بحيرة لوط فإنه يعوق المواصلات مع الداخل أيضا. فلم يبق إذا سوى سهل عكا الذي يسهل المرور منه إلى الداخل. و لذلك كانت عكا و حيفا في العصور القديمة و القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر مرفأين طبيعيين لحوران و دمشق. و قد رأى كثير ممن يعينهم الأمر وصل دمشق و حيفا بخط حديدي لسهولة هذا الطريق كما بيناه آنفا. و كان الإنكليز أشد الناس رغبة بنيل امتياز هذا الخط و خصوصا بعد احتلالهم جزيرة قبرس. و قد تمكن أبناء سرسق من استصدار منشور سلطاني يمنحهم حق إنشاء خط حديدي بين عكا- دمشق. و لكنهم لم ينجحوا في عملهم لتعذر معاونه أرباب الأموال في إنكلترا. فخسروا العربون الذي دفعوه إلى خزينة الدولة و قدره خمسون ألف فرنك.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٥

و في سنة (١٨٨٩) طلب رأس المهندسين في لبنان هذا الامتياز مجددا مع تمديد الخطوط إلى حوران فلم يفلح أيضا. وقد انقضت المدة و لم يعمل عمل بهذا الشأن إلى أن نال الامتياز المهندس اللبناني و المستر بيلنغ الإنكليزي و أسسا شركة الخطوط الحديدية العثمانية في الشام برأس مال قدره ٦٠٠ ألف ليرة إنكليزية. و بوشر بالعمل سنة (١٨٩٢) ثم وقفت الأعمال بعد الكيلو متر التاسع لأن أفكار أرباب الأموال من الإنكليز كانت متجهة نحو معادن الذهب.

فجاءت حرب الترנסفال و انصرفت أفكار الإنكليز إليها و أدى ذلك إلى ترك العمل.

و لما قرر السلطان عبد الحميد وصل الخط الحجازي بمرافا حيفا رأى من الضرورة استرجاع هذا الامتياز و ذلك في تشرين الثاني سنة (١٩٠٢). و تمكن مهندسو عبد الحميد من عمل خط حيفا و الخط الحجازي بعد استلامهم الأعمال التي تركها الإنكليز. بيد أنهم لم يتخذوا الخط الإنكليزي أساسا لهم بل تركوه و شأنه و جعلوا خطهم الجديد خطا ضيقا كالخط الحجازي و تمكنوا من الوصول إلى درعا نقطة اتصال هذين الخطين بأقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظيمة أثناء عملهم. و قد كلف هذا الخط من سبعة إلى ثمانية أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازي. و حقا إن هذا القسم كان أهم قسم من الخط الحجازي و أحسنه من الوجهة الفنية إذ كانت تتخلله صعوبات فنية لا توجد في سواه.

و يبتدئ هذا الخط من حيفا على ساحل البحر فيرتفع ٨٠ مترا في مرج ابن عامر بعد سير ٤٠ كيلو مترا، ثم يهبط من أعلى هذا السهل إلى أسفل وادي الشريعة ليمر فوق جسر ينخفض ٢٤٦ مترا عن سطح البحر. و ذلك بعد قطع مسافة ٤٥ كيلو مترا ثم يعود فيصعد من جديد إلى ارتفاع ٣٧٦ مترا و ذلك بعد مسافة ٤٠ كيلو مترا، ثم يصل إلى سهل درعا المرتفع ٥٣٠ مترا عن سطح البحر. فكل هذه التموجات من الصعود و الهبوط قد اقتضى قطعها مسافة ١٦٨ كيلو مترا. فالقضية صعبة بنفسها و خصوصا ان وادي اليرموك الواقع في الجهة الشرقية من نهر الشريعة كان شديد الخطر و ليس من ممر سواه في تلك البقاع. و بذلك تمكن السلطان عبد الحميد و مهندسوه

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٦

من الخلاص من شركة بيروت- دمشق- حوران و أصبح لهم مرفأ خاص و هو حيفا التي أصبحت تبعد عن درعا ٣٢٣ كيلو مترا بالقطار. و بين درعا و حيفا ستة جسور حديدية اثنان منها بطول ٥٠ مترا و الأربعة الأخرى بطول ١١٠ أمتار. و يوجد سبعة أنفاق يختلف طولها بين ال ٤٠ و ال ١٧٠ مترا.

و الخط يقطع نهر الشريعة على جسر من الحجر جميل المنظر و الصنع طوله ٦٠ مترا و هو ذو خمس قناطر.

و في الوقت الذي نجز فيه خط حيفا- درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازي الواقع بين عمان- معان. ففي أول أيلول سنة (١٩٠٤) المصادف للعيد الثامن و العشرين من الجلوس السلطاني ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازي بين دمشق و معان و طول هذا القسم ٤٥٩ كيلو مترا. و كان هذا الوفد مؤلفا من عظماء رجال الدولة العثمانية.

يسير الخط الأساسي بعد محطة درعا نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب مباشرة فيمر من سهل قاحل تنزل فيه عشيرة بني صخر المؤلفة من ٢٠٠٠ بيت و ٢٠ ألف نسمة و بعد أن يقطع «الحماد» أي السهل المنبسط يمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانية القديمة التي يسميها العرب اليوم قلعة المفروق و قلعة السمرة.

و تظل بقايا مدينة جرش القديمة و آثارها و سورها في غربي الخط الحجازي.

و هذه الآثار أعظم ما في تلك البقاع. و في القرب من قلعة الزرقاء الرومانية يقطع الخط وادي نهر الزرقاء على جسر مرتفع جميل الصنع. ثم يصعد الخط في وادي نهر الزرقاء و يصل إلى عمان بالقرب من نبع هذا النهر و ذلك بارتفاع ٧٣٧ مترا عن سطح البحر و على ٢٢٣ كيلو مترا عن دمشق.

و بعد الخروج من عمان يتجه الخط نحو الجنوب صاعدا سهل الصحراء المائل فيمر من نفق طوله ١٤٠ مترا و يترك بجانبه كثيرا من

الآثار القديمة منها المعبد اليوناني في قصر السهل. و المدينة القديمة في لَبْن و كذلك الخزان الروماني و القصر العربي في الجيزة أو قلعة الزيزاء. و قبل أن يصل الخط إلى قلعة ضبعة يميل نحو الشرق و يلتف بأطراف وادي الموجب و بعد ذلك يتجه
خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٧

أيضا نحو الجنوب فيمر من خان الزيب و قلعة القطرانة و قلعة الحسا و جروف الدراويش و فيها قصر روماني بديع. و يجتاز بقلعة عنزه و تقطن فيها أحيانا قبيلة عنزة المؤلفة من ٧٠٠٠ نسمة. و بعد قلعة الحسا تبدأ الأرضون التي تنزل فيها قبيلة الحويطات. ثم يصل الخط إلى معان المرتفعة ١٠٧٤ مترا عن سطح البحر.

و هذه المدينة هي النقطة الوسطى للخط الحجازي، لأنها تبعد عن طرفيه على أبعاد متساوية و المحطة تبعد كيلو مترين عن مدينة معان، و في هذه المحطة أبنية عديدة للسكة الحجازية. و بفضل وصول الخط الحديدي إلى تلك البقاع استتب الأمن فيها و بدأت الحياة الزراعية تظهر شيئا فشيئا. و قد تحضر قسم من البدو و أصبحت تلك الديار في قبضة الحكومة العثمانية بعد أن كانت تابعة لها بالاسم فقط بحيث أن أحد شيوخ البدو المدعو محمد جهل كتب إلى بيير لوتي الكاتب الفرنسي المشهور سنة ١٨٩٤ «بسم الله الذي هو الكل و لا باسم سلطان القسطنطينية الذي ليس بشيء».

و كان قصد القائمين بهذا المشروع الجليل إنشاء فرع للخط بين مدينة معان و العقبة لتقريب المواصلات بين البحر الأحمر و الديار المصرية من جهة و بين الخط الحجازي من جهة أخرى، و لكنهم لم يرغبوا يومئذ في صرف جهودهم في غير الخط الأساسي لأن غايتهم كانت الوصول إلى الأرض المقدسة في أقرب وقت.

يتجه الخط بعد معان نحو الجنوب الشرقي فتلتف حوله الصحراء من جديد و يبتعد عن البحر الأحمر ثم يصعد العقبة الحجازية أو الشامية المرتفعة ١١٥٠ مترا عن سطح البحر. و هذه النقطة هي المفرق الطبيعي للمياه التي تسيل إلى البحر المتوسط و البحر الأحمر. ثم يهبط الخط نحو ملعب بطن الغول المحفور في الصخور الرملية ذات الألوان العديدة المختلفة. و هذه البقعة من أجمل البقاع الطبيعية. و قد يضع السكان هذه الرمال الملونة في القوارير و يبيعونها من الحجاج تذكارا لهذه البقاع. و بعد ذلك يصل الخط إلى محطة المدورة فتنتهي حدود قبيلة الحويطات، و تبتدئ منازل قبيلة بني عطية. و كان وصول هذا الخط إلى هذه البلدة سنة ١٩٠٦ و هي تبعد ١١٤ كيلو مترا عن معان. و كان (٥-١٢)

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٨

قسم من الخط أيضا على وشك الإنجاز بين المدورة و تبوك و هو على مسافة ١١٧ كيلو. مترا و في ١ أيلول سنة ١٩٠٧ تم القسم الرابع من الخط الحجازي و هو القسم الواقع بين معان و تبوك الذي يبلغ طوله ٣٣١ كيلو مترا فبشر باستثماره. و قد جرى في التاريخ نفسه الاحتفال بافتتاح قسم جديد بين تبوك و مدائن صالح التي تبعد ٩٥٥ كيلو مترا عن دمشق. و في هذا القسم جسر حجري ذو عشرين قنطرة يبلغ طوله ١٤٣ مترا. و كانت الأرضون فيه قاحلة و لكنها سهلة و أقل عوارض طبيعية من غيرها و كان يكفي أن توضع القضب الحديدية على الأرض حتى يصلح السير عليها و ذلك على مسافة كيلو مترات كثيرة. و بعد مدائن صالح يصل الخط إلى العلا التي تبعد ٩٨٠ كيلو مترا عن دمشق.

و العلا مدينة صغيرة يقطنها قوم من الزراع يقدر عدده من ثلاثة آلاف إلى أربعة و تقع في واحة جميلة. و يسير الخط بينها و بين المدينة المنورة على طريق القوافل لأن المياه كثيرة في هذه الطريق و بمرور الخط في سهل وادي العلا و هو يرتفع ٧٩٠ مترا عن سطح البحر و ذلك بين الزمرد و البئر الجديدة ثم يهبط إلى بلدة الهدية المرتفعة ٣٤٥ مترا عن سطح البحر و هي التي كان يؤمها سابقا حجاج إفريقية من مرفأ الوجه على شاطئ البحر الأحمر. و بعد الهدية يصعد الخط إلى إصطبل عنتر و بئر عثمان و منهما إلى المدينة المنورة التي ترتفع ٧٠٠ متر عن سطح البحر و تبعد ١٣٢٠ كيلو مترا عن دمشق. و قد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في ٢٢ آب سنة ١٩٠٨ و جرى الاحتفال في أول أيلول المصادف ليوم عيد الجلوس السلطاني. و جرى فيه أيضا افتتاح المحطة التي شيدت خارج

أبواب المدينة وقد أنيرت المحطة بمصابيح الكهرباء. و كان سرور أهاليها عظيما جدا حتى حملوا على أكتافهم المشير كاظم باشا رئيس هذه الحفلة مع رئيس المهندسين مختار بك. و قد طلب أهالي المدينة إعادة هذه الأفراح و الأعياد بمناسبة وضع أول حجر لبناء جامع الحميدية قرب هذه المحطة. و على ذلك فقد أعيد الاحتفال بحضور ثلاثين ألف شخص.

و دعى لهذه الحفلة ممثلو الصحف الأجنبية و كثير من الأجانب مما لم يسبق له نظير في الاحتفالات الماضية و قد جرى هذا بمناسبة الانقلاب السياسي في الاستانة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٧٩

و لما كان القصد من إنشاء الخط الحجازي خدمة الحجاج و تسهيل المواصلات بين الحجاز و بقية العمالات العثمانية اقتضى الوصول به إلى عاصمة الإسلام مكة المكرمة و مد فروع منه إلى جدة و بعض الولايات العثمانية الأخرى تتيما للفائدة، و كانت الحكومة مصممة على ذلك. و بإعلان الحكم الدستوري و خلع السلطان عبد الحميد الثاني موجد هذه الفكرة و مؤسس هذا العمل الكبير، توقف ورود الإعانات من الأقطار الإسلامية فحالت هذه الأسباب دون الوصول إلى هذه الأمنية و أخرت إتمام هذا المشروع العظيم.

و حاولت بعد ذلك حكومة الاتحاديين أن تواصل العمل فلم توفق فأعدت الكرة قبل إعلان الحرب العامة بيسير و أرسلت من القضب الحديدية و الآلات و الأدوات اللازمة الشيء الكثير، و كادت إدارة الخط تبدأ بالعمل فأعلنت الحرب العامة و صرفت الوجوه عن جميع أعمال الإصلاح و منها هذا العمل الجليل. و كل هذا لا يحول دون البحث عن الطريق المناسب لمد الخط الحديدي بين المدينة المنورة و مكة المكرمة، عسى أن تنهض البلاد العربية من كبوتها فيقوم أبنائها بإتمام هذا المشروع الحيوي.

الطرق الممتدة بين المدينة المنورة و مكة المكرمة التي يصلح السير عليها ثلاث أو اثنتان إذا اعتبرنا الثالثة فرعا للثانية. فالطريق الأول هو الطريق الشرقي الذي يصل المدينة المنورة بمكة المكرمة رأسا و هو يبعد ١٥٠ كيلو مترا عن شاطئ البحر الأحمر و يمر من أعالي الجبال بين موانع عديدة يصعب سير الدواب المحملة عليها، و لذلك فإن قوافل الحجاج لا ترغب في المسير عليها و إن كانت أقصر الطرق. و أما الطريق الثانية فهي السلطانية التي ينخفض من المدينة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر إلى مرفأ رابع و منه يعود فيصعد إلى مكة المكرمة. و هناك طريق آخر بين المدينة و رابع ينقص طوله ٦٠ كيلو مترا عن الطريق السلطانية و يسمى الطريق الفرعي لأنه لم يخرج عن كونه قسما من الطريق الثانية.

تفضل قوافل الحجاج السير على الطريق السلطانية لمكانته الرسمية و التاريخية و لسهولة المواصلات عليه، و على هذا فالخط الحديدي المنوي إنشاؤه بين المدينتين المقدستين لا يصلح عمله إلا بالقرب من الطريق السلطانية و على طوله مرفأ

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٠

رابع الذي يقع على شاطئ البحر الأحمر يسكنه ٣٠٠٠ نسمة و هو على مسافة ١١٢ كيلو مترا من شمالي جدة. و ليس ثمة من صعوبة في إنشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبيعية كما أن المياه غزيرة على طول الطريق على العكس في الطريق الشرقية.

بقي مبدأ الخط الحجازي حتى سنة ١٩٠٨ في منتهى محلة الميدان بدمشق بالقرب من قرية القدم. و قد بنيت بعد هذا التاريخ محطة القنوت الواقعة في غرب مدينة دمشق على طراز عربي حديث و بشكل جميل يناسب عظمة هذا الخط المقدس. و بالقرب من محطة القدم معمل كبير خصص لإصلاح القاطرات و الشاحنات و صب الآلات الحديدية و أعمال النجارة و التدهين و الأبنية الخاصة بالمعمل و المخازن تشغل سطحها من الأرض تبلغ مساحته ٦٠٠، ١٠ متر مربع. و قد بلغت نفقات إنشاء هذه الأبنية مليون فرنك. و بنيت في محيط تبلغ مساحته ٥٣ ألف متر مربع. أنيرت جميع هذه الأبنية مع الساحة بالأنوار الكهربائية.

الخط الحجازي في عهد العثمانيين و بعدهم:

كان الخط في عهد الدولة العثمانية يدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف إسلامي. و كان في

البدء مرتبطا ببلجنة عليا في الاستانة يرجع إليها في شؤونه العامة، ثم طرأت على إدارته طوارئ عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقا، ثم استقر مرتبطا بإدارة الأوقاف. أما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام و دخول جيوش الحلفاء فإنه كان تام الأجزاء من حيث وضعه الأساسي و لم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران. و يمكن اعتبار مبدأ التخریب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوبا على أن هذا التخریب يكاد ينحصر في الجسور و المحطات و المصانع و المستودعات و غير ذلك من المباني و المحال التي كان يسهل نسفها. أما القصب الحديدية فظلت سليمة بالجملة ما خلا نقاطا قليلة يسهل إصلاحها و تشييدها.

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام، و أما حالته من حيث

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨١

الآلات و الأدوات و معامله و قاطراته و مركباته و شاحناته و غير ذلك من لوازم التعمير و وسائل سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في الأقطار التي خاضت الحرب العامة طول هذه المدة. و إليك مقادير الآلات و الأدوات الخاصة بقسم السير و الجر و هي ١٢٠ قاطرة بخارية و ١٢٠٠ شاحنة و ١٠٠ مركبة ركاب من صنوف مختلفه و ٢٠ شاحنة بريد. عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء (الصهاريج) و أشياء فنية كثيرة، و أما المعامل فمنها ما كان في القدم جنوبي دمشق و هو معمل مجهز بأحدث الآلات الفنية و كذلك مستودع صغير للمرمت. و في درعا مصنع صغير و مستودع و في سمخ مستودع و في عمان مستودع و في معان مستودع و مصنع مختصر و في تبوك مستودع و في مدائن صالح مستودع و مصنع صغير و في المدينة المنورة مستودع و في حيفا مستودع و مصنع صغير.

تقسيم الخط الحديدی الحجازی:

قسم الخط في بدء الاحتلال ثلاثة أقسام: استولت بريطانيا العظمى على قسم فلسطين و سلمته إلى إدارة الخطوط بفلسطين. و استلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سوريه، و أما القسم الثالث فقسم الحجاز أطول مسافات الخط و هو قسم غير مثمر لوقوعه في البادية و لخراب جسوره و أكثر محطاته. و قد قسمت أيضا المعامل الصناعية و الآلات و الأدوات الفنية إلى ثلاثة أقسام و كان أهل كل قسم من هذه الأقسام إذا وقعوا في منطقتهم على شيء أو ظفروا بشيء وضعوا أيديهم عليه. فالمصانع التي كانت داخل المنطقة الشرقية الفيصلية بقيت لحكومتها و مثلها المعامل الصناعية في فلسطين و الحجاز. و رجع ما في فلسطين لحكومة فلسطين و سلمته هذه إلى شركة الخطوط بفلسطين. و ما في الحجاز إلى حكومة الحجاز. و كذلك القاطرات و الشاحنات و المركبات و شاحنات البريد و سائر اللوازم فقد قسمت على الطريقة عينها و لكن كان حظ الحجاز منها قليلا جدا، فإن جميع ما بقي على الخطوط و وضع اليد عليه لا يتجاوز عدد الأصابع و أكثره مخرب لأنه كان طوال هذه المدة عرضة لهجمات التائرين. و كذلك الشاحنات و العربات و شاحنات البريد فإن عددها لا يكاد

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٢

يذكر بالنسبة إلى ما استولت عليه فلسطين و سوريه. في حين أن أكثر الخط ممتد في أرض الحجاز.

و قد جرى إصلاح الخط على عهد الحكومة العربية بصورة سطحية و على أثر هذا الترميم وصل القطار من المدينة المنورة إلى دمشق في أواخر سنة ١٩١٩ و هي أول مرة دخلها بعد الحرب العامة و لم يتيسر تسيير القطارات بانتظام كما كانت تسيير قبلا لعدم إتمام العمائر بصورة فنية تبعث على الطمأنينة و لعدم وجود رأس مال كاف لهذه الغاية. و بقي الحال على هذا المنوال حتى سقوط الحكومة الفيصلية في سوريه و دخول الجيش الفرنسي إليها. و لما دخل الفرنسيون دمشق في تموز ١٩٢٠ تركوا إدارة الخط تسيير على ما كانت عليه في عهد الحكومة العربية حتى آذار سنة ١٩٢٤ و أحييت إدارته إلى شركة دمشق - حماة و تمديداتها الفرنسية.

الخط الحجازى فى شرقى الأردن و الحكومة الهاشمية:

يبتدى هذا الخط فى هذه المنطقة من محطة نصيب و ينتهى بمعان و كانت من عمل الحجاز و هى على ٣٢٣ كيلو مترا، و كان فى هذه المنطقة مستودعات عديدة و فيها الشىء الكثير من آلات الخط و أدواته و قد سلمتها جميعها حكومة شرقى الأردن إلى إدارة خطوط فلسطين مقابل مقاوله معقوده بينهما.

و لقد أراد الملك حسين تعمير الخط الحجازى ليتسنى له استثماره و يصل مملكته بمملكة ولده الأمير عبد الله فأصدر أمره خلال سنة ١٩٢٢ بتأليف لجنة يعهد إليها النظر فى شؤون الخط و ترميمه فألفت لجنة للقيام بهذه المهمة فى شرقى الأردن و أرسل إليها الملك حسين أربعة آلاف جنيه مصرى للترميمات الضرورية فقط. فقررت المباشرة بإصلاح الجسور و المنافذ و فرضت إعانات تقطع من رواتب الموظفين و كذلك من واردات الطوابع الحجازية التى تستوفى داخل المنطقة فبلغ مجموع ما دخل عليها من هذه الموارد خلال مدة التعمير أربعة آلاف جنيه و المجموع ثمانية آلاف جنيه مصرى فى حين أن الترميمات و الإصلاحات الضرورية لا تتم بأقل من ١٠٠ ألف جنيه ليتمكن إعادة الخط سيرته الأولى.

خطط الشام، ج٥، ص: ١٨٣

و قد أتمت اللجنة إنشاء الخط حتى المدينة المنورة على صورة مؤقتة لقله الأموال التى تمكنت من جمعها و بدأ سير الخط رسمياً. و نقل خلال استثماره فى تلك الحقبة القليلة أكثر من أربعة آلاف زائر إلى المدينة المنورة ذهاباً و إياباً و بلغت واردات الخط من الزوار و النقليات التجارية أربعين ألف جنيه.

الخط الحجازى فى المؤتمرات:

عقدت معاهدة لوزان بين تركيا و الحلفاء فى سنة ١٩٢٣ و لم يقرر المؤتمر شيئاً فى مصير الخط الحجازى لأن الفرنسيين و الإنكليز كانوا متفقين على تأليف لجنة إدارية عليا من المسلمين يكون مقرها المدينة المنورة تنظر فى شؤون الخط و تسعى لإصلاحه. و لقد نصت المعاهدة التى عقدت بين تركيا و الحلفاء فى لوزان سنة ١٩٢٣ على عقد مؤتمر فى الاستانة مؤلف من ممثلى الدول التى انفصلت عن تركيا و من ممثلى مجلس الديون العامة لمعرفة واردات تلك الدول.

و فى عام ١٩٢٤ عقد هذا المؤتمر فكان فيه مندوبون عن المناطق المنفصلة عن تركيا. و عند تعيين مقادير الواردات و التقاسيط السنوية تقرر تقسيم الخط الحجازى و تجزئته و اعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التى يجتازها هذا الخط.

و قد ثبت الحكم المعين وفقاً لقرار جمعية الأمم فى جلساته الحكيمية فى جنيف مبدأ اعتبار واردات الخط الحديدى الحجازى على النسبة الكيلو مترية لا على نسبة ما تستفيده كل مقاطعة من الخط الذى يمر منها.

و تقضى المادة ١١٨ من معاهدة لوزان بعقد مؤتمر فى باريس بعد مرور شهر من صدور حكم الحكم الذى عهدت إليه جمعية الأمم النظر و الحكم فى اعتراضات الدول ذات العلاقة بالديون العثمانية العامة. و قد ضربت الحكومة الفرنسية موعداً لعقد هذا المؤتمر فى أول تموز سنة ١٩٢٥ بباريس دعت إليه جميع الدول ذات العلاقة بالديون و دعيت الحكومة الحجازية لإرسال مندوب عنها فى شهود هذا المؤتمر فأجابت الدعوى و لكن لتحتج على ما لحق بالمملكة الحجازية من الحيف.

و بعد إلحاق معان و العقبة بشرقى الأردن (١٩٢٥) تسلمت إدارة خطوط فلسطين الخط الحجازى الجنوبى حتى المدورة فى الكيلو متر ٥٧٧ و بما أن

خطط الشام، ج٥، ص: ١٨٤

طول الخط الأصلى من دمشق إلى المدينة المنورة عبارة عن ١٣٠٧ كيلو مترات فىكون ما تناط إدارته من هذا الخط بالحكومة

الحجازية الحاضرة ٧٣٠ كيلو مترا.

نققات الخط الحجازى و إصلاحه:

بلغت نققات الخط الأصلي و فروعه حتى سنة ١٩١٨ و هى السنة التى خرجت الدولة العثمانية فيها من الشام ٣٩٨، ١٢، ٥ ليرة عثمانية ذهابا. فهذه القيمة قليلة جدا بالنسبة لطول الخط و للبوادى الشاسعة القاحلة التى قطعها.

و لو لا أن الحكومة العثمانية كانت تستخدم الجنود بأجور زهيدة للغاية لما تيسر لها إنشاء هذا الخط و لكانت اضطرت لإنفاق ضعفى هذا المبلغ على أقل تقدير. و الحق يقال إن هذا الخط مدين بإنشائه للجنود العثمانية التى بذلت فى سبيله الجهود العظيمة، بل النفوس الكريمة، و عدا ذلك فإن المبيعات المحلية و النقلات على اختلاف أنواعها جرت بصورة معتدلة للغاية. و كان معظم الناس يعتقدون، و هم على صواب فى اعتقادهم، أن تقديم الإعانات إلى الخط و بذل المعاونات فى سبيله من أعظم القربات. و بدافع هذه الثقة قدم كثيرون أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب و الأحجار و الأرضين. فلا بدع إذا قلنا إن هذا الخط ثمره جهود الأمة الإسلامية، و مآثره غراء من مآثرها الخالدة فى هذا العصر، عصر النور و العرفان.

و خلاصة القول أن إصلاح هذا الخط أمر ضرورى حيوى بالنسبة للأقطار العربية لما له من العلاقة بها كلها. فمن الواجب على الحكومات العربية أن تسعى كل السعى لإرجاع الخط إلى حالته الأولى، و تعمل فى سبيل تحسين شؤونه أكثر من قبل. و هذا الإصلاح لا يتم إلا بإيصال هذا الخط إلى مكة المكرمة عاصمة الإسلام، و يربطه بخطوط فرعية مع السواحل كمكة المكرمة بجدة و المدينة المنورة ينبع و معان بالعقبة فيصبح بهذه الفروع الممتدة إلى سواحل البحر الأحمر و البحر المتوسط من أكبر العوامل لإنعاش التجارة فى الأرض التى يمر بها، و يتسع نطاق العمران و التحضير فى الصحارى و السهول العربية.

و من جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة أيضا نقل الفحم الضرورى لاستثمار

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٥

الخط على أيسر وجه و بأقل كلفه. و قضية الفحم قضية ذات شأن فى حياة الخط، و كان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجري نحو ٣٠، ٠٠٠ طن فى السنة و لا يبعد أن يأتى يوم تمكن فيه الاستفادة من شلالات زيزون و تل شهاب لتوليد الكهرباء فتسير القطارات حينئذ بهذه القوة فتقل نققات الخط السنوية و تصبح الأجور أقل مما هى عليه الآن فتكثر المواد. و ما ذلك اليوم ببعيد إن شاء الله. تفتقر الأقطار العربية إلى رجال فن و أرباب صنائع إخصائين يعول عليهم فى تسيير شؤونها الفنية. و هى لا تنقص فيها المقدره و الاستعداد للقيام بأصعب الأمور إذا قيص الله لها من أبنائها من يرشدها و يحسن إدارتها. و لقد برهنت على ذلك فى كثير من أدوار تاريخها المجيد، و خصوصا بما قامت به أخيرا من الأعمال أثناء إنشاء الخط الحجازى، و ما بذلته من الجهود فى سبيله حتى لقد صرح مدير هذا الخط المسيوديكمان الألمانى بشهادته الطيبة لأبنائها فى تقريره الذى رفعه للحكومة الفيصلية العربية: إننى عاجز عن وصف سرورى من الموظفين و العملة العرب الذين كانوا فى إدارتى، لما هم عليه من حب العمل و النظام، و ما اتصفوا به من شدة الذكاء و المقدره، كما شاهدت ذلك فى صفوف موظفى المحطات و القطارات و السواق و السير، و كنت أجد سرورا خاصا عند النظر فى أمورهم لما هم عليه من النشاط فى كل أمر.

الخطوط الفلسطينية خط يافا - القدس:

كانت مدينة يافا فى كل أدوارها مرفأ لإنزال الزوار القاصدين لمدينة القدس. و لذلك كانت فكرة إنشاء خط حديدى بين المدينتين من الأمور المتفق على صحتها و جلاله شأنها. لكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها، و يرجح إنشاء خط ترامواى لقله المواصلات التجارية فى فلسطين. ذلك لأن كثرة الزوار لا تكون إلا فى مواسم معينة من السنة.

و كان أول مصور قدم للحكومة لعمل سكة حديدية في سنة ١٨٦٤ قدمه الدكتور زامبل الأميركي الألماني. و منح امتياز هذا الخط إلى يوسف نافون

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٦

أفندی في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٨٨ لمدة ٧١ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط إلى غزة و نابلس، ثم إلى دمشق إذا دعت الضرورة إلى ذلك في المستقبل.

و قد باع صاحب هذا الامتياز امتيازه من شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا-القدس و تمديداتها الفرنسية المؤسسه في باريز في شهر كانون الأول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك. و شرع بإنشاء هذا الخط في نيسان سنة ١٨٨٩ فصادف المهندسون صعوبات جمه في طريقهم، خصوصا في القسم الواقع بين عرتوف و القدس و الأرض صخرية جبلية و قد استغرق هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات و انتهى في أيلول سنة ١٨٩٢ و افتتح الخط في ٢٦ أيلول سنة ١٨٩٢. و طول هذا الخط ٨٧ كيلو مترا، و هو خط ضيق منفرد و عرضه متر واحد يجتاز مائة و ستة و سبعين جسرا سبعة منها حديدية.

و أطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين مترا و أقصرها ستة أمتار. و قد تجنب القائمون بالأعمال فتح الأنفاق مما زاد في اعوجاج الخط و كثرة الحفريات الناشئة عن ذلك. فالخط يحاذي وادي صرار و يقطعه في محلات متعددة.

و اقتلعت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية في الحرب العامة قسما من هذه السكة بين يافا و ولد أي على مسافة ١٩ كيلو مترا و استعملت قضبه في إنشاء الخطوط العسكرية التي كانت تنشأ إذ ذاك في فلسطين و لم تقتلع بقيته لأنها استفادت منه و وصلته بخط العفولة-القدس من لد إلى وادي صرار أي مسافة ١٨ كيلو مترا.

خط حيفا- دمشق:

ألمعت قبلا- إلى أن جبال لبنان الشاهقة و ما وراءها من الهضاب الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين دمشق و بيروت و تؤلف سدا منيعا بين هاتين المدينتين، و لذلك رأى من يعينهم الأمر منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون غير مدينة بيروت. فكانت الأنظار تتجه أبدا إلى مدينتي عكا و حيفا. لأن الخط الذي يصل دمشق بهاتين المدينتين يسهل إنشاؤه لوجود سهل يزرع على ما ذكرنا آنفا. و كانت بريطانيا تحلم كثيرا بالحصول على خط حديدي يسير بين احدي الموانئ الشاميه و الخليج الفارسي. و خصوصا

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٧

بعد احتلالها جزيرة قبرس في البحر المتوسط. ففي سنة (١٨٨٢) نال السادة أبناء سرسق منشورا سلطانيا يخولهم حق إنشاء خط حديدي بين عكا و دمشق آملين إدخال التحسين على أملاكهم الواسعة في مرج ابن عامر راجين معاونه البريطانيين. و كانت فكرة إنشاء خط حديدي سائده بينهم في ذلك الحين.

بيد أنهم لم ينجحوا بعملهم و خسروا عربونهم البالغ ٥٠ ألف فرنك المودع في خزينة الدولة العثمانية.

و في سنة (١٨٨٩) طلب يوسف الياس أفندی رأس مهندسي لبنان إلى الحكومة العثمانية منحه امتياز هذا الخط مع فرع إلى حوران. و انقضت المدد المضروبة للمباشرة بالعمل و لم يتمكن هو أيضا من القيام بهذا المشروع. و في ٣٠ أيلول سنة (١٨٩١) أعاد الكرة يوسف الياس أفندی و نال هذا الامتياز مجددا بالاشتراك مع المستر نيللغ الإنكليزي. و اشترطت الحكومة عليهما في هذا الامتياز إنشاء فرعين لهذا الخط الأول من قرية نوى إلى بصرى في حوران. و الثاني من نهر الشريعة إلى حاصبيا. و شرع بالعمل في ١٢ كانون الأول سنة ١٨٩٢ في الوقت الذي باشرت فيه أعمالها شركة بيروت دمشق (٨ كانون الأول سنة ١٨٩٢). و لم تمض مدد حتى توقفت الأعمال على خط حيفا- دمشق و لم يتم منه سوى ثمانية كيلو مترات. لأن الشركة التي أسست للقيام بهذا المشروع لم تحصل على

المعاونة المالية اللازمة لها في أسواق لندن. و كانت المدة المضروبة لإنهاء العمل تنتهي في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٥ و على هذا أنذرت الحكومة العثمانية الشركة في أوائل سنة ١٨٩٥ بوجوب الإسراع بالعمل و بعد إلحاح المساهمين وافقت الحكومة على تمديد المدة ثلاث سنوات أخرى. و بالرغم من هذه التسهيلات لم تقم الشركة بإتمام عملها. و في سنة (١٨٩٦) أصبح القسم الممدد من الخط في حالة يرثى لها بعد تركه طوال هذه السنين الأخيرة. ثم ظهرت فكرة إنشاء الخط الحديدي لحجازي و ربطه بأحد فرض البحر المتوسط فقام السلطان باسترجاع امتياز خط حيفا مستفيدا من ذلك التأخير الذي وقع في أعمال الشركة كما ذكرنا ذلك في عرض الكلام عن الخط الحجازي.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٨

الخطوط العسكرية الفلسطينية:

لم تحل الحرب العامة دون الإدارة العسكرية العثمانية التي تولت السيطرة على الخط الحجازي إذ ذاك و تمديد مئات الكيلو مترات من الخطوط الحديدية بين فلسطين و الحدود المصرية داخل فلسطين أيضا. و هذه الخطوط و إن لم يكن لها شأن يذكر بجانب الخط الأصلي فقد أحببنا أن نذكر شيئا عنها تتيما للفائدة.

أنشأت إدارة الخط الأصلي فروعها لها في سورية و فلسطين. منها فرع حيفا- عكا و هو ١٧ كيلو مترا و فرع درعا- بصرى و هو ٢٧ كيلو مترا و فرع العفولة- القدس الذي شرع فيه سنة (١٩١٢) و وصل إلى قرية السيله عند إعلان الحرب العامة و هو ٤٠ كيلو مترا. و من المسائل التي تستحق الذكر ما أجرته إدارة الخط من الأعمال في أثناء الحرب العامة ذلك أن حملة السويس لما أخفقت أدركت قيادة الجيش العثماني ضرورة تمديد الخط الحديدي حتى السويس بأسرع ما يمكن. و كان القائل بهذه الفكرة جمال باشا الذي تمكن على الدوم من إعطاء المال و الرجال لإجراء الأعمال المطلوبة و قد جرى في ذلك الحين بميسر باشا المهندس الألماني من بغداد لاستلام أعمال الإنشاء و كان هو مهندس الخط الحجازي عند تأسيسه من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٠٨.

كان قسم العفولة- القدس الذي شرعت فيه إدارة الاستثمار وصل نابلس في شتاء ١٩١٤ و ١٩١٥. و كانت الفروع المصرية التي بدأت الإدارة بإنشائها من المسعودية في خط العفولة- نابلس تمتد في بطاح سارون حتى القدس و ليس فيها كثير من الموانع و الحوائل الطبيعية. و دعت الضرورة إلى جعل الخط بعيدا عن الساحل ليكون بمأمن من قذائف السفن الحربية.

و في شهر تشرين سنة ١٩١٥ تمكنت الإدارة من إنشاء ١٦٥ كيلو مترا و سلمتها للاستثمار حتى بئر السبع. و هذا العمل بالنظر لما صودف في تنفيذه من المصاعب يعد من الأعمال العظيمة.

و قد استفادت إدارة الأعمال من خط يافا- القدس الفرنسي المشاد سابقا بين محطة لُد و وادي الصرار أي مسافة ١٨ كيلو مترا كما ذكرنا ذلك

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٨٩

آنفا و أدخلت هذا القسم بخط العفولة- القدس الذي نحن في صدد الكلام عليه، و لكنها اضطرت لتعريضه لأن عرضه كان مترا واحدا فجعلته مترا و خمسة سائيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية. و كانت الإدارة لا تملك عند إعلان الحرب سوى ٣٠٠ كيلو متر من قضبه الحديدية و ٥٠ كيلو مترا من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا- القدس قسم يافا- لُد ١٩ كيلو مترا و خط حيفا- عكا ١٧ كيلو مترا و خط دمشق- المزيريب ١٠٣ كيلو مترات و قد أحضر قسم كبير من العوارض من أخشاب الاوكالبوس في بطاح سارون و من شجر الصنوبر في جبل لبنان.

و بدئى بإتمام الخط إلى السويس في قلب صحراء سينا قبل أن تم إنشاء قسم بئر السبع. و لكن عمليات الإنشاء لم تتقدم بسرعة كما جرى في قسم مسعودية- بئر السبع لأن نقل الامداد للجيش كان من الأسباب الداعية لعدم سرعة العمل. و مع ذلك فقد أنشئ ٦٢

كيلو مترا نحو السويس وراء بئر السبع في صيف ١٩١٦ و كانت المحطة النهائية في القسيمة و عند ما جلا الجيش إلى جهة غزة في ربيع سنة ١٩١٧ اضطرت الإدارة إلى رفع الأقسام الجنوبية من بئر السبع. ثم بدئ بإنشاء فرع من التينة إلى ديرسند- بيت حاتون و من ديرسند إلى الهوج و مسافتها ٥، ٥٣ كيلو مترا و بنيت أيضا فروع عسكرية ليضمن معها نقل محروقات الخط و هي طور كرم- كفر قرع ٢٤ كيلو مترا. و فرع جلينا- خضرا ستة كيلو مترات. و غزة- الهيشة ٢٨ كيلو مترا. القصر- الهرمل ١٩ كيلو مترا. و من هذا كله يتضح أنه قد أنشئ في أثناء الحرب من الخطوط ٤٣٧ كيلو مترا و كانت كلها فروعاً للخط الحجازي، و ذلك رغم الصعوبات الكثيرة في تدارك اللوازم الضرورية.

و لما سقطت جهة غزة و اضطرت الجيش للجلاء حتى أواسط فلسطين تركت أقسام الخط في جنوب طور كرم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في حين أن الإنكليز كانت تسرع أثناء الحرب بإنشاء خط ساحلي من بور سعيد الذي خصص لمدد الجيش الإنكليزي. و لما استولت على فلسطين شرعت بتمديد هذا الخط من فلسطين أيضا في أيلول سنة ١٩١٨ و أوصلته إلى حيفا عند جلاء الجيش العثماني عنها. و بهذه الوساطة تم أول اتصال بين الخطوط المصرية

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٠

و الحجازية. و لا شك أن هذا الاتصال يفيد البلدين فائدة اقتصادية عظيمة لأنهما ما زالوا منذ الأزمان القديمة مرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطا ماديا و أدبيا.

بدأ الإنكليز عقبى استيلائهم على فلسطين يتحرون الوسائط و الطرق اللازمة لإنشاء خط كبير يخترق الديار العربية من الغرب إلى الشرق و يربط حيفا بالخليج العربي و طول هذا الخط تقريبا ١٥٠٠ كيلو متر و لكن بعد أن تمكنت السيارات من اختراق الصحراء و الوصول إلى القطر العراقي بسهولة تأخرت فكرة إنشاء هذا الخط في الوقت الحاضر.

إن مجموع الخطوط الحديدية في فلسطين و شرقي الأردن ٧٠٨، ٤٠٥، ١ كيلو مترات منها ٨٣٤، ٧١٥ كيلو مترا من الخط العريض و ٨٧٤، ٦٨٩ كيلو مترا من الذي عرضه ١٠٥ سانتيمترات و هذه التفاصيل:

كيلو مترات

٢٢٣ ٣٧٤ خطوط فلسطين الأصلية.

٩٨ ٤٩١ خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) و الجوانب مقصات و تفرغ.

٧١٤ ٤٧٢ المجموع.

٢٠١ ٨٨٥ خطوط سينا العسكرية الأصلية.

٤١ ٢٣٥ خطوط سينا العسكرية الجانبية ...

١٢٠ ٢٤٣ المجموع.

٢١٢ ٠٤٠ خط الحجاز في فلسطين الأصلي

٣٠ ٥٤٦ خط الحجاز الجانبي ...

٢٤٢ ٥٨٦ المجموع

٤٣٦ ٣٤٣ خط الحجاز الشرقي الأصلي

١٠ ٩٤٥ خط الحجاز الشرقي الجانبي ...

٤٤٧ ٢٨٨ المجموع.

ثم أنشئ فرع جديد من حيفا خاصا بمعمل نيشر طوله سبعة كيلو مترات.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩١

عدد

١٣٠ القاطرات

١٠٧ مركبات الركاب

٢٢٥٩ قاطرات و شاحنات

«الواردات عن سنة ١٩٢٥ و النفقات»

جنيه مصرى

٦٠٤٥٧٩ الواردات

٤٣٨٥٠٤ النفقات

١٦٦٠٦٥ الباقي و هو الربح السنوى

و قد اشترت حكومة فلسطين جميع الخطوط العسكرية و الفرنسية و أصبحت ملكا لها.

خط بغداد:

جرى البحث كثيرا فى الأندية الانكليزية منذ سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٤٥ بشأن الملاحة فى نهر الفرات، فتألفت شركة فى سنة ١٨٥١ لإنشاء خط حديدى من السويدية فى خليج الإسكندرونه إلى الكويت فى الخليج الفارسى.

و كان يرأس هذه الشركة الجنرال سير فرنسيس شيزنى. نالت امتياز هذا الخط مع وعد الحكومة العثمانية بأن تعطى الشركة ضمانه تضمن لها فائده ستة بالمئه لرأس المال، و لكن هذه الضمانه لم يتأكد إعطاؤها. و لما رأى الشعب الإنكليزى عدم اهتمام حكومته بهذا المشروع بصورة رسميه خاف من إخفاقه فلم يكتب بأسهم الشركة. فلم تتمكن هذه من نيل المعاونه الماليه اللازمه فسقط امتيازها. و بعد سنة ١٨٦٩ تجددت فكره إنشاء خط السويدية- الكويت. و فى سنة ١٨٧٢ حذ هذا المشروع كثير من النواب البريطانيين.

و كانت تقدر نفقات هذا الخط بعشره ملايين جنيه إنكليزى. و مضى زمن و فكره هذا المشروع تتخطب إلى أن حدثت أمور مهمه حولت رأى العام الإنكليزى عنها بتاتا. و بعد افتتاح ترعه السويس اقترح بعضهم وصل الإسماعيلية بالكويت بخط حديدى. و لكن هذا المشروع الجديد لم يجد أنصارا و لم يرج

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٢

الرواج المطلوب فى رأى العام الإنكليزى. و بعد ذلك تألفت جماعه من الروسيين و اقترحت طريقه جديده و هى وصل طرابلس الشام بالخليج الفارسى بخط حديدى، يتفرع منه فرع إلى كربلاء، و لكن هذه الفكره كانت عقيمه لا- تستحق الاهتمام لأن خطا جديدا كهذا لا يجوز تمديده فى تلك الصحارى القاحله.

و بالتراحم الذى حدث بين الدول الغربيه لنيل امتيازات فى الولايات العثمانية كان الألمانىون آخر من تقدم و ذلك فى سنة ١٨٨٨ فجاءوا بأفكار جديده و كان الإنكليز و الفرنسيون ممن يهتمون بالخطوط الحديدية العثمانية. و لا- يفكرون بغير وصل السواحل بالأصقاع الداخليه و ذلك لترويج صناعتهم و تجارتهم. و لهذا لم ينشئوا سوى خطوط صغيره كيافا- القدس - حيفا و دمشق- بيروت و طرابلس- حمص السويدية أو الإسكندرونه- حلب و مرسين- أذنه و أضاليا الخ. فكل هذه الخطوط كانت تبتدى من السواحل و تنتهى بمدن الساحل. خلافا لهذه الخطه الغربيه تقدم الألمان بطريقه جديده تتفق مع المصالح العثمانية أكثر من الأولى. ففى سنة ١٨٧١ ارتأى فون برسيل المهندس الألمانى أن يجعل الاستانه مركز الخطوط الحديدية الأوربيه و الآسيويه، فبدلا من أن يكون للمملكه العثمانية عشرون خطا صغيرا لا رابطه بينها اقترح أن تنشأ خطوط أساسيه تقطعها عرضا و طولا تكون خير واسطه بيد الحكومة

من الوجهة الإدارية والعسكرية. و تصل جميع الأقطار العثمانية بعضها ببعض. و أول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة- بغداد.

و بناء على اقتراحه هذا و وفقا للمخططات التي رسمها، شرعت الحكومة العثمانية بإنشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير. و كان القصد من هذا الخط أن يبتدىء من مرفأ حيدر باشا على ساحل البوسفور و ينتهى بالكويت على ساحل الخليج الفارسي مارا بازميد مجتازا مضائق نهر سقاريا المعوج فيصل أسكيشهر و منها يتجه شرقا نحو أنقرة- يوزغاد- سيواس- عربكير خربوط- ديار بكر- ماردين- الموصل- بغداد و من هذه يسير موازيا لدجلة و شط العرب حتى خليج فارس. و دعوا هذا التخطيط بالمخطط الشمالي و كان هذا التخطيط أقصر الطرق و أقلها نفقة و يبلغ طوله ٣٥٠٠ كيلو متر.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٣

قامت الحكومة العثمانية فى سنة ١٨٧١ بمد ٩٢ كيلو مترا من حيدر باشا إلى ازميد بمعرفة المهندس برسيل، و لكن الثورات و الحروب المتتابة فى أوربا العثمانية و كذلك التدخلات الأجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة. و فى سنة ١٨٨٨ تمكن المصرف الألماني «دويتش بنك» من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة أنقرة مع الوعد بتمديد بقية أقسامه إلى مدينة بغداد بضمانه كيلو مترية ١٥ ألف فرنك. و قد وقعت الإرادة السلطانية التي منحت امتياز الخط باسم المصرف الألماني فى تشرين الأول سنة ١٨٨٨. و باشر الألمان عملهم فى شباط سنة ١٨٨٩. و فى سنة ١٨٩١ تمكنوا من إتمام ٣٠٠ كيلو متر. و فى سنة ١٨٩٣ وصل خطهم إلى أنقرة أى انه مد منه ٥٧٨ كيلو مترا.

كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية و هى واقعة بأعلى الجبال ترتفع ٩٢٠ مترا عن سطح البحر. و على أثر وصولهم إليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الأقسام الأخرى، على أن يجرى تعديل فى استقامة الخط، فبدلا من أن يسير من أنقرة إلى يوزغاد و سيواس، طلبوا تحويله من أنقرة إلى قيصريه. و حصلوا فى أول سنة ١٨٩٣ على امتياز قسم قيصريه أى مسافة ٣٢٠ كيلو مترا مع ضمانه كيلو مترية قدرها ١٧٦٥٠ فرنكا و قد سمي هذا التخطيط الجديد بالمخطط الوسطى. و لم يرق فى عيني روسيا و كانت تخشى تقدم الألمان فى الولايات الشرقية. فلعبت السياسة ألا عيها بين ليننغراد و برلين، و قبل الألمان بتغيير و جهتهم فتركوا أنقرة و شأنها، و طلبوا من الحكومة إعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر و قونية. و قد حصلوا على ذلك فى سنة ١٨٩٣ و سمي هذا التخطيط بالمخطط الجنوبي مع ضمانه كيلو مترية قدرها ١٥ ألف فرنك. غير أن هذا التخطيط الأخير لم يرق أيضا فى أعين الإنكليز و الفرنسيين و كانوا يرجون نيل امتيازات فى تلك البقاع التي لهم فيها مصالح و خطوط. فاحتجوا لدى الباب العالى و قدموا شروطا أحسن من شروط الألمان، و قد دعمت الحكومة الفرنسية طلب المالىين الفرنسيين، و تمكنت من أخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق و حلب.

(٥-١٣)

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٤

وصل الخط الحديدى إلى قونية فى أواخر سنة ١٨٩٥ و بعد ذلك شعر الألمان بضرورة الاتفاق مع بعض المالىين من الأمم الأخرى، فأشركوا معهم الفرنسيين و نالوا امتياز خط قونية- بغداد فى كانون الثانى سنة ١٩٠٢ مع ضمانه كيلو مترية قدرها ٥٠٠، ١٦ فرنك و ممن اشترك مع الألمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركة خط ازمير- قصبه و شركة المصرف العثماني. و قد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم فى هذه الشركة أن يكون لهم أربعون بالمئة من الأسهم و أربعون بالمئة للألمان و عشرون بالمئة لروسيا، و أن تكون جميع الحقوق متساوية بين الألمان و الفرنسيين كإدارة المشروع و تقديم الأدوات و لم يتم هذا الاتفاق لأسباب سياسية، و لذلك لم تقبل فرنسا إدخال أسهم هذا المشروع فى بورصة باريز. و فى شباط سنة ١٩٠٣ كلف الألمان حكومة لندن تأليف شركة جديدة تكون الأسهم فيها متساوية بين الألمان و الإنكليز و الفرنسيين أى ثلاثون بالمئة لكل منهم و عشرة بالمئة تبقى للروس أو للحكومات الصغيرة

كالبليجيك و هولانده و سويسرا، فلم تنجح هذه الطريقة لحل المشكله القائمة بينهم. و بقى الألمان مدة يساومون الدول الغريبه بذلك يهددون الروس تاره بتكميل مخططهم الشمالى المنتهى بأنقره، و طورا يهددون الإنكليز و الفرنسيين بإتمام مخططهم الجنوبى المنتهى فى قونيه. و فى ٥ آذار سنة ١٩٠٣ قررت الحكومه العثمانية إعطاء امتياز خط قونيه- بغداد و البصره لشركة خطوط الأناضول. و فى ٣٠ تموز من هذه السنه صدر المنشور السلطانى بذلك. و اشترط فيه إتمام هذا الخط فى ثمانيه أعوام أى فى سنة ١٩١١.

فباشر الألمان عملهم و أتوا قسم قونيه- بلغورلو و قد أمنتهم الحكومه على الضمانه الكيلو مترية لهذا القسم. و بعد هذا القسم أتى جبال طوروس الشاهقه.

و فى هذه الجبال واد عظيم كان الطريق الوحيد لجيوش الفاتحين من الأقدمين و هو خط الاتصال بين قليقيه و صحراء الأناضول. و هذا الوادى لا يزيد عرضه على العشره أمتار فى كثير من النقاط، و الجبال ترتفع حفايه أكثر من مئتى متر. و كان الإسكندر الكبير و الرومان و الصليبيون و العرب و السلجوقيون و المصريون يقطعون هذه الجبال و يجتازون هذا الوادى. و قد فكر الألمان خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٥

أن يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد تعريضها بحيث تصلح للسير و بعد أن بينوا عليها الجسور اللازمه و الأنفاق الصغيره. و لكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لشده الصعوبات فى تنفيذها و لكثرة النفقات و خصوصا نفقات الترميم الدائمه التى تكون باهظه. و فوق هذا لا يكون الخط فى مأمن من الأنواء الجويه فضلا عن أن بلده بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ مترا و الوادى المذكور يرتفع ١٤٥٠ مترا و تقوم مدينه أذنه على سفح الجبل من الجهه الثانيه و لا ترتفع شيئا يذكر عن سطح البحر. فهذه التمرجات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكوره صعبه جدا و يتعذر مد الخطوط فيها. و لذلك عول الألمان على درس طريق ثانيه. فبعد أن بحثوا فى الجبال عن أقل الطرق كلفه و أسهلها عملا- لم يروا سوى طريقه واحده و هى عمل نفق حلزونى لا يقل طوله عن اثنى عشر كيلو مترا، و إنشاء نفق كهذا هو أيضا من أصعب الأعمال حتى فى ديار الغرب القريبه من معامل الحديد و مناجم الفحم و وجود أحدث الآلات فكيف إذا يمكن القيام به فى هذه الأرض القاحله المتأخره فى ميدان المدينه.

و بذلك تكون نفقات هذا القسم باهظه، و لا تكفى الضمانه الكيلو مترية المقرره له و هى ٥٠٠، ١٥ فرنك عن كل كيلو متر لسد فوائد رأس المال، و مع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزمه الشركه فتأبرت على عملها و افتتحت كثيرا من الأنفاق فى جبال طوروس و جبال أمانوس و قد كلفها ذلك مبالغ عظيمه. و لما كان عمل الأنفاق أمرا شاقا يحتاج لزمان طويل، لم تر هذه الشركه بدا من أن تباشر بعملها أيضا من حلب و من نقاط أخرى. فكان الراكب الآتى من الاستانه مثلا مضطرا للنزول من القطار فى محطه بوزنتى و الركوب على الدواب أو بالسيارات حتى بلده إصلاحيه و كانت اتصلت بمدينه حلب بخط بغداد الحديدى. و فى سنة ١٩٠٦ اشترت شركه بغداد خط مرسين- طرسوس- أذنه.

جاءت الحرب العامه فزادت الشركه همه و نشاطا فى إتمام ما بقى من الخط بين بوزنتى و إصلاحيه، و ذلك بضغط الحكومه على الشركه، لأنها كانت مضطره لنقل جنودها و ذخائرها و عتادها فى القطارات طلبا للسرعه و اتصال المواصلات. و قد سبب تأخير حفر الأنفاق تعذر نقل الفحم إلى

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٦

الخطوط الشاميه التى كانت تستعيز عن الفحم بحطب الأشجار المشره فنتج عن ذلك أضرار عظيمه للشام. و تمكنت الشركه بما أبدته من النشاط و الهمة فى فتح الأنفاق من تسيير القطارات رأسا بين الاستانه و حلب و ذلك فى سنة ٩١٧-٩١٨. أما هذا الخط فهو من الخطوط العريضه و عرضه متر و ٤٤ سانتيمترا، و نصف القطر الأصغر لمنعطفات الخط خمسمائيه متر فى حين لا يتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائيه متر فى بقية الخطوط العثمانيه. و وزن القضب الحديدية أكثر من وزن قضب الخطوط الأخرى. لأن القصد من ذلك تزييد السرعه على هذا الخط و جعلها ٧٥ كيلو مترا فى الساعه. و تبين من الإحصاءات التى أجراها المسيورى مدير خط

سلانيك- الاستانة أن المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر في الخطوط الحديدية العثمانية ١١٠، ١٨٩ فرنكات يدخل في هذا المبلغ ثمن القاطرات و العجلات و الشاحنات و الإنشاء و نفقات التأسيس و فوائد رأس المال و كل ما يتعلق بالخطوط من النفقات. و هذا قليل إذا قيس بخط بغداد لأن نفقاته كانت أكثر من غيره فيقتضى و الحالة هذه أن يقدر المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر بمائتي ألف فرنك أى تسعة آلاف ليرة عثمانية ذهباً.

الخطوط الحديدية بين الشام و مصر:

كان وصل الديار الشاميه بمصر موضوع اهتمام المفكرين في كل الأدوار، لما بين القطرين من العلاقات المادية و المعنوية. و قد فكر في هذه القضية وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية و أشار إليها في تقريره لسنة ١٨٨٠ و إلى ضرورة تمديد خط حديدى من القدس إلى العريش طوله ١٥٠ كيلو متراً، و قدر نفقات هذا المشروع بعشرين مليون فرنك. و فى سنة ١٨٩١ طلب انطون يوسف لطفى بك إلى الحكومة العثمانية منحه امتياز خط حديدى يبتدى من العريش على حدود مصر و يمر بغزة- يافا- حيفا- عكا- صور- صيدا- بيروت، و ينتهى بطرابلس حيث يتصل بخطوط الشركة الفرنسية. و كان الإنكليز يحبذون هذا المشروع و يوافقون عليه. غير أنه لم يتم تنفيذه و لم تتصل بنا الأسباب التى حالت دون إخراجها إلى حيز العمل.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٧

و فى غضون الحرب العامة و بعدها، و عقب انسحاب الأتراك من الشام و احتلال السلطات الإنكليزية و الفرنسية لها، ظهرت فائدة هذا المشروع و بوشر بتنفيذه إذ ذاك حتى تم الاتصال بين حيفا و الديار المصرية كما أنه سيتم عما قريب تمديد هذا الخط حتى مدينة طرابلس فيتصل بالخطوط الفرنسية.

الكهرباء و خطوط الترام فى دمشق:

تم الاتفاق فى ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧ (٧ شباط سنة ١٣٠٥ ش) بين وزير الأشغال العامة فى الدولة العثمانية و بين يوسف أفندى مطران على إنشاء خطوط ترامواى فى مدينة دمشق يتفرع من مركز المدينة و يتجه نحو باب مصر (بوابة الله) فى منتهى محلة الميدان، و إلى جامع محبى الدين بن عربى فى محلة الصالحية، و إلى الباب الشرقى و مسجد الأقباب، و من الباب الشرقى إلى دومة و من باب مصر إلى المزيريب، على أن تكون الخطوط الخمسة الأولى تجر مركباتها بالخيول، و الخط الأخير أى خط المزيريب تجر مركباته بالبخار. و قد منح يوسف أفندى مطران بموجب هذا الاتفاق امتيازاً مدته ستون سنة و تعهد بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتباراً من تصديق مقاوله امتيازته و أن يتم العمل خلال سنتين و نصف. و قد قبلت الحكومة بإعفاء جميع الآلات و الأدوات و الدواب و لوازم الإنشاء من رسوم الجمر ك أثناء العمل. و أعفت الأرضين و الأعمال مدة الاستثمار من الضرائب. و قد أذن لصاحب الامتياز بتأسيس شركة مساهمة عثمانية خلال سنة اعتباراً من تاريخ صدور الأمر العالى على أن تبقى جميع الخطوط و المعامل و الأدوات الثابتة ملكاً للدولة عند انقضاء مدة الامتياز. أما الآلات و الأدوات المتحركة كالعجلات و ما سواها فالحكومة تتباعها بتخمين قيمها. و قد اشترطت الحكومة على صاحب الامتياز تعمير الطرق التى تمر منها خطوط الترامواى بعرض تسعة أمتار، و كذلك أرصفتها و مجارى المياه فيها.

و حددت أجور الركوب بثلاثة أرباع القرش الفضى للدرجة الأولى و نصف القرش للثانية و على ما نعلم إن يوسف أفندى مطران لم يقم بتنفيذ مقاولته هذه مدة طويلة من الزمن.

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٨

و بعد ذلك تقدم الأمير محمد أرسلان إلى الحكومة العثمانية طالباً إعطائه امتيازاً بتوليد القوة الكهربائية و استثمارها و تم الاتفاق بينه

و بين وزير الأشغال العامة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ٣٢١ على تنوير مدينة دمشق و ضواحيها بالكهرباء أى مسافة عشرة كيلو مترات عن المدينة لمدة تسع و تسعين سنة، و تعهد صاحب الامتياز بتنظيم الخرائط للمشروع و تقديمها فى ثمانية عشر شهرا اعتبارا من تاريخ صدور المنشور العالى، و بالمباشرة بالأعمال فى ستة و ثلاثين شهرا بعد المصادقة على المقاوله، و بإنهاء الأعمال فى أربع سنوات اعتبارا من تاريخ تصديق الخرائط، على أن تعفى مواد الإنشاء و اللوازم و الآلات و الأدوات من رسوم المكس إلى انتهاء أعمال الإنشاء و ابتداء الاستثمار، و أن تعفى أيضا جميع البنات و الأدوات مدة الامتياز من الرسوم. و يتقاضى صاحب الامتياز أثمان التنوير بحسب التعرفه المقرره مدة الامتياز. و أما ما يتعلق بالتنوير العمومى للمدينة فيجب عليه أن يجرى تنزيلا يتناقص كلما زادت كمية الكهرباء المصروفة، و يحسم أيضا عشرة بالمائة لتنوير دوائر الحكومه و الجوامع و الكنائس و الثكنات العسكريه و المستشفيات، و يسمح لصاحب الامتياز بتأسيس شركه عثمانيه خلال سنتين اعتبارا من تصديق المقاوله، و ذلك للقيام بتعهداته و تحتفظ الحكومه بحق شراء الامتياز فى كل حين بعد انقضاء ثلاثين سنة، و تقوم بتخمين قيمه جميع الآلات و الأدوات و الأبنيه و الأرضين و المؤسسات التى دخلت فى ملك صاحب الامتياز و تشتريها منه. و عند انقضاء مدة الامتياز يجب على صاحبه تسليم عامه البنات و المؤسسات والآلات و الأدوات بلا عوض إلى الحكومه، و إذا لم يباشر أعمال الإنشاء خلال المده المعينه بدون أن تكون هناك أسباب قاهره تمنعه عن مباشرة العمل، أو إذا لم ينجز العمل بتمامه أو يعطل أعمال التنوير، أو لم يقم بتعهداته فى المقاوله يسقط حقه من الامتياز، و تضع الدوله يدها، و تقوم بما يلزم من التدابير الموقته لتأمين الاستثمار. و كذلك تعين البلديه بالاتفاق مع صاحب الامتياز عدد المصاييح و مواقعها، و ينحصر بيع التنوير و بيع القوه الكهربائيه بصاحب الامتياز مدة امتيازه، سواء كان ذلك للأفراد أو لوسائط النقل العامه، و يكون حق الترجيح لصاحب الامتياز بتأسيس التلفون إذا قبل بالشروط التى يقدمها طالبو

خطط الشام، ج ٥، ص: ١٩٩

هذا المشروع، و تحدد التعرفه العظمى بثمانية قروش عن كل (كيلواتور) أى ما يعادل باره واحده عن كل شمعه بالساعه، و لا يمكن زياده التعرفه المقرره بدون موافقه الحكومه.

و بعد ذلك توفى الأمير محمد أرسلان بأخذ امتياز آخر يقضى عليه بتقديم القوه الكهربائيه اللازمه لتسيير حوافل (الترام) على الخطوط الممنوح امتيازها قديما إلى يوسف أفندى مطران، و على الخطوط التى يمكن الدوله أن تمنح امتيازها لشخص آخر و ذلك داخل منطقه تبعد حدودها عشرين كيلو مترا فى كل جهه من وسط مدينة دمشق. و يقضى أيضا من جهه ثانيه على صاحب امتياز الترامواي الخيلى، و على جميع الشركات التى تؤسس لتسيير الحوافل الكهربائيه داخل المنطقه المبيئه آنفا، بمراجعه الأمير محمد أرسلان لاستحصال القوه الكهربائيه اللازمه لهم، إذا أرادوا تسيير حوافلهم بالقوه الكهربائيه. خطط الشام؛ ج ٥؛ ص ١٩٩

قد حددت مده هذا الاتفاق بتسع و تسعين سنة، بتدئ من تاريخ صدور المنشور العالى، و أعطيت مده سنتين لصاحب الامتياز لتأسيس شركه مساهمه عثمانيه تقوم بتنفيذ الشروط. كما احتفظت الحكومه لنفسها بحق شراء الامتياز فى كل آن، و ذلك بعد مضى ثلاثين سنة من مدته. و قضا أنه إذا وقع اختلاف بين الحكومه و صاحب الامتياز يفصل فيه مجلس شورى الدوله.

و قد صدر المنشور العالى بهذا الامتياز فى ٢٥ المحرم سنة ١٣٢١ و على ذلك فقد تأسست بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ و فى ١٧ كانون الأول سنة ١٣٢٠ (ش) و ٥ كانون الأول سنة ١٩٠٤ شركه بلجيكيه مساهمه باسم الشركه العثمانيه السلطانيه للتنوير و الجر الكهربائى بدمشق، و حصلت على جميع الامتيازات المتعلقة بهذا الشأن. و من الشروط التى تعهدت بها هذه الشركه إنشاء خطوط إجباريه من دار الحكومه إلى باب مصر (بوابة الله) بمنتهى محله الميدان و من دار الحكومه إلى جامع محبى الدين بن عربى فى محله الصالحيه، و تنوير المدينة وفقا لشروط المقاولات المنعده و المصدقه فى المناشير العاليه بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٠٧ و ٢٧ المحرم سنة ١٣٢١، و كان رأس مال هذه الشركه ستة ملايين فرنك قسمت على اثني عشر ألف سهم و جعلت قيمه كل سهم ٥٠٠ فرنك. و كانت تدبير أعمال الشركه لجنه منتخبه من الهياه

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٠

العامه. و من جمله أعضاء اللجنة فى السنوات الأولى عزت باشا العابد.

و باشرت الشركة العمل بإقامة الأبنية و المعامل و مد خطوط الترام و أسلاك الكهرواء خلال سنة ١٩٠٤. و الخطوط التى مدتتها الشركة ثلاثة ببتدى الأول من ساحة الشهداء و ينتهى فى باب مصر فى منتهى محله الميدان و طوله ثلاثة كيلو مترات و نصف كيلو متر و هو خط مزدوج. أما الخط الثانى فببتدى أيضا من ساحة الشهداء و ينتهى فى حى المهاجرين بالصالحية و طوله ثلاثة كيلو مترات و مائتا متر و هو مزدوج حتى الجسر الأبيض و الباقى منه حتى المهاجرين خط منفرد. و أما الثالث فببتدى من الجسر الأبيض فالصالحية و ينتهى عند جامع محبى الدين بن عربى و طوله كيلو متر واحد و هو مزدوج. و عرض هذه الخطوط متر واحد و خمسة سانتيمترات، كعرض الخطوط الحديدية الفرنسية الضيقة و الخط الحجازى. و قد انتهت الشركة من مد الخطوط فى ١٢ شباط سنة ١٩٠٧ و بدأت تسير حوافل الترام على الخطوط الممدودة و بدئ أيضا بتنوير المدينة منذ شهر نيسان سنة ١٩٠٧.

جاءت الحرب العامه و قطعت المواصلات بين الغرب و الشرق، و بقيت الشركة تحت سلطه الحكومه العثمانية، فانقطع ورود البترول من الخارج، و أصبح أكثر المدن فى الدولة العثمانية مظلما إلا مدينة دمشق فقد ظلت تنار بمصابيح الكهرواء، و ذلك بفضل نهر بردى الذى لا يزال يفيض الخيرات على دمشق. و من هذا تظهر فائدة استعمال القوى الطبيعية. و قد كانت السلطه العسكرية تستفيد من الكهرواء فى محطة اللاسلكى و فى كثير من معاملها التى كانت تشتغل فى إحضار العتاد و الذخائر الحربية.

و فى ٢٩ أيار سنة ١٩٢٣ عقد اتفاق بين الشركة و المفوضية العليا حددت فيه أثمان القوة الكهربائية و أجور الركوب فى حافلات الترام و أدخلت شروط جديدة لإصلاح الأسلاك الكهربائية و لتمديد خطوط جديدة، و استمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتين. و فى ١٣ آب سنة ١٩٢٥ جرى تعديل مقاوله الامتياز القديمة تعديلا مهما و ذلك بموجب البروتوكول الثانى عشر الملحق بمعاهدة لوزان و إليك خلاصه ما جاء فى هذه المقاوله الجديدة.

يحق للبلدية أن تطلب من الشركة إنشاء خطوط جديدة و إذا لم يتم الاتفاق

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠١

بينهما خلال سنة يحق للأولى أن تمنح الخط الجديد لشخص آخر على أن تبقى الأرجحية للشركة إذا تساوت الشروط و قد حددت الأجور العظمى بموجب هذا التعديل على الوجه الآتى:

«الدرجة الأولى» «الدرجة الثانية» الكيلو متر الأول ٢٠، ٣ قرش سورى ذهب الكيلو متر الأول ١٣، ٢ قرش سورى ذهب الكيلو متر الثانى ٩٧، ٢ قرش سورى ذهب الكيلو متر الثانى ٩٢، ١ قرش سورى ذهب الكيلو متر الثالث ٧٤، ٢ قرش سورى ذهب الكيلو متر الثالث ٧١، ١ قرش سورى ذهب الكيلو متر الرابع فما فوق ٥٠، ٢ قرش سورى ذهب الكيلو متر الرابع ٥٠، ١ قرش سورى ذهب على أن تضاعف أجور الحافلات التى تسير ليلا. و تعفى الأرضون و الأبنية و المصانع و الآلات و الأدوات الثابتة و المتحركة مدة الامتياز من الضرائب و الرسوم. و تعفى أيضا من الرسوم الجمركية و الدخولية جميع المواد اللازمة للمعامل و المصانع، و ترفع الاختلافات التى تحدث بين صاحب الامتياز و الحكومه على تفسير مواد المقاوله و إنفاذها إلى مجلس الشورى السورى.

و تنتهى مدة هذا الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٦٠.

فللشركة الحق بإنشاء المعامل المولدة للقوة الكهربائية و استثمار ما أنشئ منها و ما سينشأ على نهر بردى بين التكية و عين الفيجه و بتوزيع القوة المستحصلة توزيعا عاما على مسافة خمسة عشر كيلو مترا لكل جهه من قلب مدينة دمشق (ساحة الشهداء) و بتقديم القوة الكهربائية قوة محرکه لوسائل النقل العامه على مسافة عشرين كيلو مترا فى كل وجه من وسط مدينة دمشق، كما لها الحق أيضا باستعمال الطرق العامه من ملك الدولة أو البلديات لتتمكن من القيام بالتنوير الخاص، و بتقديم القوة الكهربائية لجميع الأعمال. و قد حددت الأجور العظمى:

البيع بالعداد للتوزيع بسعر الكيلواتور ٥٠، ٤ قروش سوري ذهبية لباقي الاستعمالات بسعر الكيلواتور ٣ قروش سوري ذهبية البيع المقطوع ١٥ سانتيمًا من القرش السوري الذهبى عن كل شمعة فى الساعة للنقلات العامة سعر الكيلواتور ٣ قروش سوريه ذهبية و تقرر أن يحسب التنوير العام بالعداد مع تخفيض ٢٥ بالمئه و أن يحسب خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٢

كذلك تنوير الدوائر العامة و البلدية و المعابد و المستشفيات مع تخفيض عشرة بالمئه من التعرفة، و كذلك قبلت الشركة بأن تنير قصر الحكومة مع دائرة البلدية مجانًا أربع مرات فى السنة فى أيام الأعياد التى تعينها الحكومة. و أن تنير الجامع الأموى و بعض الجوامع الأخرى مجانًا أيضًا. و تنتهى مدة الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ٢٠٠٢ و عند انتهاء مدته تستلم الحكومة جميع ما أنشأته الشركة بدون بدل، و يحق للدولة فى كل حين شراء الامتياز و ذلك اعتبارًا من تاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٦٥. و بعد المصادقة على هذا الاتفاق قامت الشركة بتحسين النور فبدلت المجرى الكهربائى بمجرى دائم إلى مجرى متناوب و غيرت درجة التوتر فى بعض الأحياء فجعلتها ١١٠ بعد أن كانت ٢٢٠ و أسست مراكز لتحويل درجة التوتر فى كثير من الأحياء لتوزع منها النور على المشتركين بصورة منظمة بعد أن يكون وصل الكهرباء إلى هذه المراكز بخطوط ذات توتر عال تمدد تحت الأرض و هى لا تزال تعمل بهذه الإصلاحات بجد و نشاط.

ترامواى حلب الكهربائى:

منحت الحكومة العثمانية امتيازًا قبل الحرب العامة لرجل يدعى عثمان بك من أتراك الاستانة لتنوير مدينة حلب بالكهرباء مع إنشاء خطوط ترامواى فيها. و كانت مدة هذا الامتياز أربعين سنة. و لم يتمكن عثمان بك من القيام بتنفيذ امتياز به بسبب الحرب. و بعد الهدنة طرحت الحكومة العربية هذا المشروع فى المناقصة فتقدمت فى سنة ١٩١٩ شركة بلجيكية و أرسلت مندوبها إلى حلب مع تقديم شروطها. فجاء هذا المندوب وفاوض مجلس بلدية حلب، و نظم مشروع مقاوله و شروط امتياز على أساس الشروط و المقاوله التى منحتها الحكومة العثمانية عثمان بك، و لم يبق لتحقيق المشروع إلا تصديق هيئة إدارة الشركة عليه فى بلجيكا. فرأت هذه الهيئة أن الشروط التى نظمت بمدينة حلب مجحفه بحقوقها، فأرسلت تعلم بلدية حلب بعدم قبولها إلا إذا زيدت التعرفة المحددة فى المشروع مع زيادة مدة الامتياز. فحبط هذا المشروع و لم يتحقق. و فى سنتى ١٩٢٢ و ١٩٢٣ أى بعد دخول فرنسا الشام تقدمت لطلب خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٣

هذا الامتياز ثلاث شركات الأولى شركة وطنية و على رأسها كريم أفندى بالى و الثانية شركة بلجيكية و الثالثة شركة المشاريع الفرنسية. و قدمت كل من هذه الشركات شروطًا تختلف عن الأخرى. و بما أن شركة كريم أفندى بالى الوطنية لم تقدم الضمان اللازم لم تنجح بطلبها. و بعد ذلك تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمه و وضع تقرير فيها. و عقبى مذاكرة طويلة رأت هذه اللجنة أن الشروط المقدمه من الشركتين المذكورتين لا توافق مصلحة البلدية، و على ذلك نظمت شروطًا خاصة مقتبسه من شروط الامتيازات القديمة الممنوحة من الدولة العثمانية لشركات كهربائية أخرى، و من الشروط التى قدمتها الشركتان المار ذكرهما، و قد طلبت اللجنة فى تقريرها إعلان ذلك و دعوة الشركات للمناقصة فلم يتقدم أحد.

و فى سنة ١٩٢٤ عرض على بلدية حلب مشروع امتياز جديد من شركة المشاريع الفرنسية لا يختلف كثيرا عن مشروعها الذى قدمته للمرة الأولى و طلبت المصادقة عليه و أخيرا تمكنت البلدية من تحديد الضمانه غير المحدوده و المطلوبه من الشركة عن الخسارة مسانئه بمبلغ ٢٠ ألف ليرة سوريه ورقا.

أى تكون الخسارة التى تقع بأكثر من هذا المبلغ المحدد على الشركة. و أهم الشروط فى هذا الامتياز أن مدته سبعون سنة. و أن التعرفة تعين سنويا بعد إجراء حساب الدخل و الخرج و الفائدة و الاستهلاك. و أن جميع الأرض و المقالع اللازمه للإنشاء و التأسيس

تشتريها البلدية على حسابها الخاص و تسلمها للشركة، و أن الخسارة إذا تجاوزت العشرين ألف ليرة سورية ورقا تكون على البلدية. و كذلك تقسم الأرباح ٣٥ في المئة للبلدية و ما بقى للشركة.

و للمفوضية العليا حق التفتيش و الفسخ، و يكون جميع مأموري الشركة من السوريين ما عدا الإخصائيين الفنيين. و تحل الاختلافات التي تحدث بواسطة التحكيم. كما أن الشركة مضطرة أن تدرس على حساب البلدية مشروع جلب الماء إلى حلب خلال خمس سنين على الأكثر ثم تقدمه للبلدية، حتى إذا وافقها تمنح الشركة المذكورة امتيازها و تكره الشركة على أخذ هذا الامتياز.

و قد بدأت الشركة بالعمل أوائل سنة ١٩٢٦ و أنجزت حتى الآن من الأشغال بناء الإدارة و المستودع و تركيب الآلات. و قد قلعت بلاط الطريق القديم

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٤

و بدأت تمد القضب الحديدية و تفرش الزفت و بدلت البلدية البلاط الأسود به.

و مدت الشركة خطين للترام، الأول يقطع مدينة حلب من الغرب إلى الشرق و يبتدىء من محطة دمشق و ينتهي بمحلة القصيلة و طوله خمسة كيلو مترات تقريبا. و أما الخط الثاني فيقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب و يبتدىء من محلة الحميدية و ينتهي عند شارع خان الحرير و طوله ثلاثة كيلو مترات و نصف تقريبا و عرض هذين الخطين متر واحد و خمسة سانتيمترات كعرض خطوط ترام دمشق.

خط الترام في طرابلس:

تجر بالخيال حافلات خط الترام الممتد بين مدينة طرابلس و مينائها. و الميناء هي مرفأ المدينة تبعد عنها ثلاثة كيلو مترات. و قد منح امتياز هذا الخط في سنة ١٨٧٨ لشركة وطنية برأس مال قدره مائتا ألف فرنك أي تسعة آلاف ليرة عثمانية و هو ينقسم إلى ألفي سهم بقيمة مائة فرنك لكل سهم منها، و قد أحسنت هذه الشركة إدارته و استثماره مما جعل الربح يختلف بين الأربعة عشر و الستة عشر فرنكا لكل سهم.

أما ما يتعلق بخطوط الترام في سائر المدن الأخرى فمن دواعي الأسف أننا لم نقف على الوثائق المتعلقة بها و لذا لم نتمكن من ذكر شيء عنها.

الطرق العامة في الشام:

تتألف الشام من ثلاثة دروب موازية لساحل البحر تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تمتد الواحدة منها من صور إلى الإسكندرونة بلا انقطاع فيها إلا في نقطتين. و الثانية تبتدىء من الجنوب و تنتهي بالقرب من حمص فيتلاقى الدربان درب البقاع مع درب دمشق و تحصل منهما سهول حماة و حلب العظيمة الممتدة حتى الفرات. فالسلسلة الأولى تتألف من جبل لبنان و تلعاته العديدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ينيف على الألفي متر و الحد الأعظم ٣٠٦٣. و يمتد هذا الجبل ثلاثين كيلو مترا في الشمال الغربي إلى طرابلس. و هناك ينخفض عند فوهة حمص ثم يرتفع باسم جبل

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٥

النصيرية الذي يعلو ١٥٠٠ متر عن سطح البحر و جبل الأقرع و جبل كاسيوس المرتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر. و بعد ذلك تمتد السلسلة حتى نهر العاصي الذي يقطعها بانخفاض عظيم و بعرض قليل. ثم تمتد هذه السلسلة حتى جبل اللكام و تدخل في أرض الترك حتى ترتبط بجبال طوروس. فهذه السلسلة تحد غربا الدرب الأول الذي هو عبارة عن الساحل. و كثيرا ما يقرب الجبل من البحر و يسقط فيه كما هو الحال بين صور و حيفا. و لا يوجد في هذا الدرب أرضون سهلية إلا بالقرب من حيفا و بيروت و طرابلس و

اللاذقية و لكنها قليلة المساحة. و قد أنشئت المدن المذكورة في هذه السهول. أما السلسلة الثانية الموازية للأولى فتبتدئ بجبل الشيخ (حرمون) بارتفاع ٢٨٠٧ أمتار و تتصل بالجبل الشرقى بارتفاع ٢٠٠٠ متر. و بين هاتين السلسلتين سهل البقاع الذى يبلغ عرضه ١٥ كيلو مترا و يمتد طوله بين الجبلين على مسافة عظيمة. و ينحدر هذا السهل على طرفيه من نقطته العليا بالقرب من شمال بعلبك و يقطع هذا السهل النهران العظيمان نهر الليطاني الذى ينبجس من بعلبك فينحدر جنوبا ثم غربا حتى البحر. و نهر العاصى القريب من نهر الليطاني ينساب شمالا مارا بحمص و حماة و أنطاكية بين جبلى امانوس و الأقرع ثم يصب فى البحر المتوسط فى السويدية، و بشرق السلسلة الثانية يقع الدرب الثالث و هو سهل دمشق الذى تجرى إليه مياه الجبل الشرقى التى تروى الصحراء.

و هناك جبل حوران (جبل الدروز) الممتد شرقا إلى الصحراء و كأنه بتخطيطه جزيرة منفصلة عن بقية الأرجاء. فهذه الدروب هى التى تقع فيها جميع البلدان الشامية و ليس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتين المذكورتين و لذلك فمسألة الطرق تنحصر فى ثلاث نقاط: (أولاً- طرق الاتصال بين المدن الواقعة فى درب واحد. (ثانيا) الطرق الواصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازيين بواسطة طرق عرضية أى (شرقية- غربية). (ثالثا) الطرق المتشعبة كالشرايين فى سهول دمشق و حلب. هذا هو الوضع الجغرافى للشام ذكرناه توطئة للبحث و منها يتمكن القارئ من معرفة أكثر الطرق.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٠٦

طرق الشام:

كانت الطرق و وسائل النقل و المواصلات مفقودة فى الزمن الغابر حتى القرون الأخيرة فى جميع أرض الترك عامة و فى الشام خاصة، مما دعا إلى تأخر دخول المدنية الغربية إلى هذه الديار مدة طويلة من الزمن. و كانت الدولة العثمانية فى أخريات أيام حكمها الشام أى فى سنة ١٨٦٢ أقرت برنامجا للطرق، و وضعت قانونا لإنشائها و إعمارها و حفظها، فأخذت الأحوال تتبدل، و بدأت المشاريع تظهر فى الشام بصورة حسنة. و كان القانون العثمانى يقضى على كل شخص أن يقوم أربعة أيام فى السنة بعمارة الطرق خلال عشرين سنة من حياته أو أن يقدم ضريبة قدرها ريال مجيدى واحد. و كانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفين الإداريين و موظفى المصارف الزراعية. و لم يراع هذا القانون فى كثير من الأحوال، و كانت الأموال التى خصصت لعمل الطرق تصرف فى نفقات الدولة العامة. و قد وقف العمل بهذا القانون مدة قليلة لأن الأحوال السياسية حالت دون إتمام البرنامج المذكور، فحرمت سورية الطرق. و كثيرا ما كان يرجح المار على الطريق أن يتبع الأرض المجاورة له لصعوبة السير عليه.

أما الحالة فى لبنان فقد كانت على غير ذلك. فإنه منذ نال استقلاله الإدارى سنة ١٨٦٠ ازدادت نفوسه و نتج عن ذلك أن ظهرت حركة المهاجرة التى ما فتئت تزداد من ذلك الحين. فالبنايون المهاجرون كانوا لا ينسون الذين تركوهم فى الوطن، بل كانوا يرسلون لهم الأموال من مهاجرهم أميركا.

كما أن الكثير من هؤلاء كان يرجع إلى موطنه بعد حصوله على ثروة لإتمام بقية حياته فيه. و إن قسما عظيما من هذه الثروة التى كان يجمعها اللبناني المهاجر كان ينفقه بإعمار بيوته، أو بإنشاء بيوت جديدة على الطراز الحديث.

و بهذه الصورة تمكن الجبل فى مدة قليلة أن يعمر بقيام قرى جميلة وافرة السكان تحتاج للاتصال بالسواحل، و لا سيما بيروت و طرابلس و صيدا. و قد اتفق الأهلون أن ينشئوا كثيرا من الطرق بأموالهم الخاصة، فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل و لا مع ثروة القرية التى تنتهى فيها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٠٧

هذه الطرق. فكثيرا ما نرى طريقين أو أكثر تمتدان إلى قرى قريبة بعضها من بعض على هضبة واحدة صرف سكانهما الأغنياء على إنشائها المبالغ اللازمة. و من جهة أخرى نرى بعض القرى الفقيرة محرومة لا يصل إليها طريق.

الطرق العامة:

أولاً: الطرق الطولية- من الجنوب إلى الشمال.

- (١) طريق الساحل- يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهي بالإسكندرونة شمالاً و يمر من بئر السبع- غزّة- يبنى- يافا- طور كرم- حيفا- عكا- صور- صيدا- بيروت- طرابلس- طرطوس- اللاذقية- جسر الشغور- جسر الحديد- ينى شهر- ينى كوى- الإسكندرونة.
- (٢) الطريق الثانى- يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهى فى كليس شمالاً و يمر من بئر السبع- الخليل- القدس- البيرة- رام الله- نابلس- جنين- الناصرة- طبرية- الجاعونة- مرجعيون- قرعون- سغين- عميق- قب الياس- شتورة- المعلقة- بعلبك- القصير- حمص- الرستن- حماة- معرة النعمان- سراقب- تفتناز- اوروم الصغرى- حلب- كليس ..
- (٣) الطريق الثالث- يبدأ من بئر السبع جنوباً و ينتهى بحمص شمالاً فيلتقى بطريق حماة و حلب. و يمر من المدن المذكورة أعلاه فى الطريق الثانى حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب- القنيطرة- وادى العجم- دمشق- دوما- القطيفه- النبك- قارة- حسيه- حمص.

و يمتد بعد ذلك إلى حلب كما هو مذكور فى الطريق الثانى.

- (٤) الطريق الرابع- يبدأ من القدس جنوباً و ينتهى فى دمشق شمالاً فيمر فى القدس- أريحا- الصلت- عمان- الرمتا- درعا- شيخ مسكين- غباغب- خان دنون- الكسوة- دمشق.
- (٥) الطريق الخامس طريق البادية- يبتدى من دمشق جنوباً و ينتهى بدير الزور بعد أن يتصل بطريق الموصل شمالاً و يمر فى دمشق- القطيفه- جيروود- القريتين- تدمر- السخنة- دير الزور- الصوار- البيضاء

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٠٨

على الحدود التركية. و فرع يبدأ من دير الزور أيضا إلى الصوار و منها إلى نصيبين حيث الأراضى الداخلة فى حدود تركيا. ثانيا: الطرق العرضية من الغرب إلى الشرق.

- (١) غزّة- بئر السبع.
- (٢) يافا- الرملة- القدس- عمان.
- (٣) يافا- قلقيلية- نابلس- الناصرة- طبرية- سمخ.
- (٤) حيفا- الناصرة- طبرية- الجاعونة- جسر بنات يعقوب.
- (٥) حيفا- الناصرة- جنين- نابلس- أريحا.
- (٦) صيدا- مرجعيون- بانياس- القنيطرة- ازرع- السويداء- صرخد.
- (٧) درعا- بصرى- صرخد.
- (٨) بيروت- دمشق- بغداد.
- (٩) طرابلس- حمص- تدمر- بغداد.
- (١٠) اللاذقية- جسر الشغور- إدلب- حلب- دير الزور.
- (١١) السويدية- أنطاكية- جسر الحديد- حارم- حلب.
- (١٢) الإسكندرونة- قرق خان- ينى شهر- اوروم الصغرى- حلب.

وصف الطرق:

أولاً- طريق الساحل: يبلغ طول هذا الطريق ٢٧٠ كيلو مترا اعتبارا من بئر السبع إلى عكا و رأس الناقورة. و من رأس الناقورة حتى اللاذقية ٤٠٠ كيلو متر و هو طريق معبد من أحسن الطرق الشامية. و طريق اللاذقية حتى يني كوى و طوله ١٧٠ كيلو مترا قيد الإنشاء و لا يزال في حالة تمهيدية.

و من يني كوى إلى الإسكندرونه طريق معبد و طوله ٥٠ كيلو مترا و يبلغ مجموع طول هذا الطريق ٨٩٠ كيلو مترا و إن المبالغ المنفقة عليه من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٢٧ لا تقل عن ثلاثمائة ألف ليرة ذهبية تقريبا.

ثانيا- الطريق الطولى الثانية: إن هذا الطريق يبدأ من بئر السبع حتى طبرية و الجاعونة و طوله ٢٩٠ كيلو مترا و هو معبد. و من الجاعونة إلى سغبين و طوله ٨٠ كيلو مترا كان بوشر به فى زمن الحرب و لما يتم تعبيده. و من خطط الشام، ج٥، ص: ٢٠٩

سغبين إلى شتورة و المعلقة و بعلبك و طوله ٦٠ كيلو مترا و هو معبد. و من بعلبك إلى حمص فإن الطريق لم يجر إنشاؤه حتى الآن. و قد كانت الحكومة العثمانية شرعت بإنشاء بعض الجسور فيه و لم يتم.

أما القسم الواقع بين حمص و حماة و طوله ٤٧ كيلو مترا فإنه كان معبدا و كانت شركة الحافلات (الدليلجانس) الوطنية قد أنشأته و بعد إنشاء الخطوط الحديدية أهملته الحكومة فتخرب خلال الحرب العامة بسبب النقلات العسكرية بالسيارات الضخمة و حتى الآن لم يجر تعبيده. و لم يكن طريق حماة- حلب و طوله ١٥٠ كيلو مترا معبدا من قبل و ليس ثمة سوى طريق القوافل القديمة، على أن إدارة النافعة فى حلب باشرت بإنشائه و اتخذت طريقا جديدا يبدأ من حلب إلى تفتناز باستقامة طريق إدلب- جسر الشغور- اللاذقية و من تفتناز يتجه نحو بلدة خان شيخون الواقعة على حدود أراضي حلب و دمشق مارا بسراقب و معرة النعمان. و قد تمت تسوية الطريق الداخلى فى منطقة حلب و بوشر بتعيده و سينتهى فى عام ١٩٢٨ و كذلك باشرت إدارة النافعة بدمشق بتسوية القسم الداخلى فى منطقتها و ستنتهى تسويته فى أوائل عام ١٩٢٨. و قد بلغ ما صرف على هذا القسم من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٢٧ ما يربو على أربعين ألف ليرة ذهبية. و الطريق من حلب إلى تفتناز على طول خمسين كيلو مترا معبدا. و جرت تسوية الطريق من تفتناز إلى خان شيخون على طول سبعين كيلو مترا. و تم بناء الأعمال الصناعية من جسور و قناطر و هو يجرى تعبيده الآن. و بوشر بتسوية طريق خان شيخون حماة على طول ثلاثين كيلو مترا و الطريق معبد منذ القديم من حلب حتى كليس و طوله ستون كيلو مترا و قد جرى إصلاحه مجددا. ثالثا- الطريق الطولى الثالث: يبتدىء هذا الطريق من بئر السبع إلى الجاعونة و جسر بنات يعقوب و طوله ٣٠٠ كيلو متر و هو معبد. و الطريق معبد من جسر بنات يعقوب فالقنيطرة فوادى العجم فدمشق و طوله تسعون كيلو مترا. و كانت الحكومة العثمانية باشرت بإنشائه منذ عشرين سنة و لما (٥-١٤)

خطط الشام، ج٥، ص: ٢١٠

يتم. قد أنفق على إنشائه من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٢٧ ما يربو على ثلاثين ألف ليرة ذهبية.

أما طريق دمشق- النبك- حمص و طوله ١٦٠ كيلو مترا فقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بإنشائه قبل ثلاثين سنة و تم قسم كبير من تسويته و لم يتم. و هناك قسم منه و طوله ثلاثون كيلو مترا يقع بين النبك و قارة و البريج لم ينشأ فيه شىء أيضا و لا يزال بحالته الطبيعية و تعمل حكومة قضاء النبك على إصلاحه أحيانا و تزيل الحجارة منه و تردم الحفر التى تنشأ بمرور العجلات و السيارات. و تفكر الحكومة الآن بتحويل هذا الطريق إلى قرية دير عطية بدلا من قرية قارة التى كانت دائما المركز الطبيعى للمواصلات بين دمشق و حمص. و لقد هجرت الحكومة العثمانية هذا الطريق أثناء الحرب العامة لفقد الأمن فيه و كثرة اعتداءات العشائر و الجنود الفارين من الزحف و كانوا يلجأون إلى هذه المنطقة ليعتاشوا. و صرفت حكومة دمشق مبالغ كبيرة لإنشاء هذا الطريق و لم ينته إلى الآن. و قد بلغ ما أنفق عليه من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٧ ما يربو على الخمسين ألف ليرة ذهبية.

رابعا- الطريق الطولى الرابع: تبدأ هذه الطريق من القدس و تتجه صوب أريحا و الصلت و عمان و الرمتا و إربد و درعا. و كان شرع

بتعييدها منذ ثلاثين سنة و لم تزل على ما كانت عليه. و جرت فيها بعض الإصلاحات في جهة القدس و الصلت و عمان. و ما برح من درعا حتى دمشق على حالته القديمة و لم يدخل عليه سوى بعض الإصلاحات بين دمشق و خان دنون و تعمل حكومة سورية على إصلاحه و قد حال فقدان المال دون إنجازه.

خامسا- الطريق الطولي الخامس: تبدأ هذه الطريق التي تجتاز البادية من دمشق إلى القطيفه و هي معبده و طولها ٤٠ كيلو مترا. و من القطيفه إلى جبرود افتتح طريق جديد و جرت تسويته بتسخير الأهالي بالعمل فيه. و لم يجر شيء من الإصلاحات من جبرود إلى القريتين و تدمر و دير الزور حتى البيضاء. و يبلغ طول هذه الطريق من دمشق إلى تدمر ٢٥٠ كيلو مترا، و من تدمر إلى دير الزور ٢٢٠ كيلو مترا، و من دير الزور إلى البيضاء في حدود الموصل ١٥٠ كيلو مترا، فيكون مجموع طول هذه الطريق ٦٢٠ كيلو مترا
خطط الشام، ج٥، ص: ٢١١

و لم يعمل فيها سوى جسر الصوار المعلق و فوهته خمسون مترا. و قد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخرا و أنفق عليه ١٥ ألف ليرة ذهبية. و بنى الآن في دير الزور جسر كبير معلق يبلغ طوله ٢٥٠ مترا و سيتم بناؤه قريبا و تقدر نفقاته بستين ألف ليرة ذهبية. و أما الفرع الثاني الذي ينفصل من الصوار إلى الحسجة و نصيبين و طوله ١٩٠ كيلو مترا فإنه طريق طبيعي لم يعمل فيه شيء من القديم. و يبدأ طريق بغداد من دير الزور مارا بالبصرة و الميادين و البوكمال و يبلغ طوله حتى حدود العراق ١٤٠ كيلو مترا. و تفكر إدارة النافعة في حلب بإجراء بعض إصلاحات فيه و هي تقوم بإنشاء جسر على نهر الخابور في البصرة. و كذلك تعمل على تعبيد القسم المار في أرض صخرية و طوله ١٥ كيلو مترا. و هذا القسم جزء من الطريق الذي يبدأ من حلب إلى دير الزور و ينتهي ببغداد.
ثانيا- الطرق العرضية من الغرب إلى الشرق:

(١) أنشئ طريق غزة- بئر السبع و طوله ٤٢ كيلو مترا في زمن الحكومة العثمانية و هو معبد.
(٢) أنجزت الحكومة العثمانية بعض أقسام طريق يافا- الرملة- القدس- الصلت- عمان و طوله ١٦٠ كيلو مترا و القسم الآخر منه لم يتم. و قسم يافا- القدس و طوله ٦٠ كيلو مترا معبد و الباقي قيد الإنجاز.
(٣) تم في العهد الأخير تعبيد طريق يافا- قلقلية- نابلس- الناصرة- طبرية- سمخ و طوله ١٥٠ كيلو مترا.
(٤) تم إنشاء طريق حيفا- الناصرة- طبرية- الجاعونة- جسر بنات يعقوب و طوله ١١٠ كيلو مترات. و كانت الحكومة العثمانية أنشأت بعض أقسامه.

(٥) و نصف طريق حيفا- الناصرة- جنين- نابلس- أريحا و طوله ١٥٠ كيلو مترا معبد و النصف الآخر لم يتم تعبيده.
(٦) طريق صيدا- مرجعيون- بانياس- القنيطرة- الشيخ مسكين- إزرع- السويداء- صرخد و طوله ١٨٠ كيلو مترا. و كانت الحكومة العثمانية باشرت إنشاء قسم الشيخ مسكين إلى إزرع و السويداء حتى صرخد
خطط الشام، ج٥، ص: ٢١٢

و ذلك بعد حروب جبل الدروز لتموين الجيش و قد تم مؤخرا تعبيد القسم الواقع بين إزرع و السويداء و طوله ٣٧ كيلو مترا. و باشرت حكومة لبنان تعبيد طريق صيدا- مرجعيون- بانياس و طوله ٤٠ كيلو مترا و لم ينته حتى الآن. و تقوم إدارة النافعة بدمشق بتعبيد القسم الواقع بين بانياس و القنيطرة و يبلغ طوله ٣٤ كيلو مترا. و سينتهي في أول صيف عام ١٩٢٨. و تدرس هذه الإدارة أيضا مشروع إنشاء طريق من القنيطرة إلى الشيخ مسكين فإزرع و سينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات. و تقدر نفقات إنشائه بنحو مائة ألف ليرة ذهبا.

(٧) لم يتم تعبيد طريق درعا- بصرى- صرخد و طوله ٦٠ كيلو مترا و كانت الحكومة العثمانية باشرت إنشائه.
(٨) طريق بيروت- دمشق- بغداد و طوله من بيروت إلى دمشق ١١٢ كيلو مترا نالت امتيازها شركة إفرنسية في سنة (١٨٥٧) و بدأت بإنشائه في سنة (١٨٥٩) و قد ترأس أعماله الكونت دي توبري و كان رأس مال هذه الشركة إفرنسيا بحتا. و كان السير عليه صباحا و

مساء من الجهتين على الحوافل (الدليلجانس) و تقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت و دمشق في ثلاث عشرة ساعة و وضعت الحكومة العثمانية إذا ذاك لهذه الشركة نظاما و أسعارا لنقل الركاب و البضائع و الحيوانات. و امتنع بعض الأهالي من السير عليه بسبب غلاء الأسعار فكانوا يسيرون بالقرب منه على طريقين متوازيين له. و قد كان هذا العمل من أرباح الأعمال التي قامت برؤوس أموال إفرنسية و جرى الإجماع على أن هذا المشروع أفاد الأهالي و أصحاب الأسهم فأنده عظمى و قد ربحت الشركة أرباحا طائلة منه. إذ كان الربح الصافي سنويا يقدر بخمسمائة ألف فرنك.

و استمرت هذه الشركة على أعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ١٨٩٢ أيام اشتركت مع شركة خط بيروت - دمشق - حوران الحديدى. و إذ ذاك استلمت الحكومة العثمانية الطريق و أهملت محافظته حتى قبل الحرب العامة، فأصبح السير عليه صعبا لعدم إصلاحه و تعميره، و اهتم الأتراك بإصلاحه فى الحرب العامة. و بعد الحرب قامت الحكومات السورية و اللبنانية بإصلاحه فصلاح للسير و تيسر أن تستعمل السرعة عليه بأجناس السيارات و الدراجات.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٣

و بعد دمشق يتجه الطريق شمالا على طريق النبك و بعد عشرين كيلو مترا يتجه شرقا على طريق البادية مارا بجوار قريتي عذراء و ضمير إلى الرحيبة نقطة الحدود السورية العراقية. و طول الطريق من دمشق إلى بغداد ٧٧٠ كيلو مترا منه عشرون كيلو مترا على طريق النبك يسير فى طريق معبده و الباقي ٧٥٠ كيلو مترا طريق طبيعى مهدته السيارات فى الصحراء. و لهذا الطريق مكانة كبرى فى التجارة و السفر بين دمشق و العراق و فارس.

و من دمشق إلى بغداد طريق ثان و هو الطريق الذى يمر بالقطيفة و جيروود و القريتين و تدمر و طوله ٨٥٠ كيلو مترا، فإنه يزيد طوله على الطريق الأول ٨٠ كيلو مترا و يبلغ طوله من دمشق إلى القطيفة ٤٠ كيلو مترا و هو جزء من طريق النبك المعبد و هو بحالة حسنة. و قد جرى فتح طريق القطيفة - جيروود مجددا على طول ١٥ كيلو مترا و لم يعبد بعد غير أنه سهل المرور.

و الطريق من جيروود حتى القريتين و تدمر و بغداد طبيعى لم تعمل يد الإنسان فيه شيئا. و يرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة و القرى الآهلة على طول ٢٥٠ كيلو مترا بين دمشق و جيروود و تدمر و على الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية.

(٩) طريق طرابلس - حمص - تدمر - بغداد. كانت تستثمر طريق طرابلس - حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت - دمشق شركة إفرنسية و كان ذلك قبل أن تؤسس شركة الخطوط الحديدية الفرنسية.

و المسافة بين طرابلس و حمص ٩٤ كيلو مترا و بين حمص و حماة ٤٧ كيلو مترا فيكون المجموع ١٤١ كيلو مترا كانت كلها موضوعه تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة و رأس مالها ٢٨ ألف ليرة عثمانية ذهبية. و يقسم رأس المال إلى سبعة آلاف سهم و قيمة كل سهم أربع ليرات عثمانية ذهبية.

و كان ربح كل سهم من هذه الأسهم ليرة واحدة فى السنة. و مدة الامتياز خمسون سنة. و أجرة الراكب فى الحوافل (الدليلجانس) نصف ليرة من طرابلس إلى حمص. و بعد انحلال هذه الشركة هجرت الحكومة العثمانية هذه الطريق حتى خربت و تداعت جميع جسورها أثناء الحرب العامة و زادت السيول فى تخريبها حتى أصبحت فى عام ١٩٢٥ بحالة لم تبق معها صالحه

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٤

للسير. و قد بوشر بتعبيدها فى آخر عام ١٩٢٦ و انتهى فى النصف الأول من عام ١٩٢٧ و أما طريق حمص - حماة فلم يزل على ما هو عليه أيام الحرب العامة، و شرعت الحكومة السورية بإصلاح بعض الأقسام فيه و سيتم إنشاؤه فى نهاية عام ١٩٢٨. و يجتاز الطريق من حمص إلى تدمر فبغداد من الصحراء على طريق طبيعى مهدته السيارات و يبلغ طوله ٧٥٠ كيلو مترا. و كانت السيارات تجتاز هذا الطريق أثناء انقطاع السبل بين بيروت و دمشق و بغداد.

(١٠) طريق اللاذقية - جسر الشغور - ادلب - حلب - دير الزور.

وقد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية و حلب في آخر عام ١٩٢٦ و لم يزل العمل فيه مستمرا و سينتهي تعبيده في عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٩٠ كيلو مترا و طول المعبد منه الآن مائة كيلو متر. و في اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية و طرابلس و بيروت و رأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب أن يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية و بيروت. و أما من حلب إلى دير الزور فالطريق صعبه جدا و تقوم إدارة النافعة بحلب بإصلاح الأقسام الأكثر صعوبة منها و يبلغ طولها ٣٢٠ كيلو مترا و هي مارة بجوار مسكنه و الرقة و تنتهي في بلدة دير الزور حيث يتفرع منها ثلاث طرق طريق الموصل و طريق بغداد و طريق تدمر - دمشق.

(١١) طريق السويدية - أنطاكية - جسر الحديد - حارم - حلب.

افتتح هذا الطريق حديثا في آخر عام ١٩٢٦ و لم يزل العمل فيه مستمرا.

و سيتم إنشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٤٠ كيلو مترا. و افتتح القسم الواقع بين السويدية و أنطاكية في الجبال و الأودية و يبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم و ستكلف نفقات باهظة و طول هذا القسم ٣٥ كيلو مترا. و من أنطاكية إلى جسر الحديد حتى حارم يجتاز الطريق في أرض طينية لا يمكن المرور فيها في فصل الشتاء. و أما بين حارم و حلب فالطريق معبده و طولها ٧٠ كيلو مترا و تسير عليها السيارات بسرعة.

(١٢) طريق الإسكندرونة - قرق خان - نين شهر - أروم الصغرى - حلب. تقضى كثرة المعاملات بين حلب و الإسكندرونة بأن تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة و لكن لم يعمل في زمن الحكومة العثمانية ما يضمن خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٥

النجاح في هذا الشأن، و كان التجار الإنكليز في القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات الجمة التي كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب إلى الإسكندرونة أنشأت الحكومة العثمانية طريقا في سنة ١٨٧٠ في الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المواصلات في البحر إلى أنحاء كليس و عيتاب و البيرة و الأرض التركية الأخرى. و كان القصد من إنشائه وصل الإسكندرونة بالولايات التركية و قد وصلت الحكومة العثمانية هذه الطريق بفرع بين قطمه و حلب تفاديا من إنشاء طريق ثان خاص بحلب فأصبح هذا الطريق يعد طريقا لها.

ثم تخرب في سنة ١٨٨٠ و كان كلف الحكومة مبلغا لو أنفق على إنشاء خط ترامواي لما كلف أكثر من ذلك. و كانت القوافل تتبع طريقا أقصر طولاً منه بأربعين كيلو مترا و هو الطريق الذي أنشأته الحكومة السورية حديثا. و تتجنب القوافل المرور في مستنقعات نهر عفرين التي يمر منها الطريق القديم.

و على هذا فقد بقي هذا الطريق مخربا إلى سنة ١٨٩٠ حتى اتفق أن اجتازه أحد الولاة في حلب فتحطمت عجلته و على أثر ذلك قررت الحكومة تعميده و خصصت لهذا العمل سنويا ثلاثة آلاف و ثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه و إصلاحه. و بعد جلاء الأتراك بقيت الطريق مهجورة من غير إصلاح أو ترميم إلى أن تخربت. و رأت حكومة سورية أخيرا تركها لطولها و كثرة نفقات إصلاحها و لبعدها عن مراكز الأراضي الواقعة بين الإسكندرونة و حلب. ففكرت بعد إنشاء طريق حلب - حارم أن تنشئ فرعا بين نين شهر و نين كوى للاتصال بين الإسكندرونة و حلب. و قد تم فتح هذا الفرع بتمهيده و لم يعبد بعد. و قد أصبح طول هذا الطريق الجديد بين حلب و الإسكندرونة ١٢٣ كيلو مترا بعد أن كان طول الطريق القديم ١٦٣ كيلو مترا و صارت المسافة بالطريق الجديد أقصر منها في الطريق القديم أربعين كيلو مترا.

هذا مجموع الطرق الأساسية العامة بالشام و هناك طرق فرعية كثيرة ممتدة كالشرايين تصل القرى بعضها ببعض ثم تربطها بمراكز الأفضية كما أنها تتصل بالطرق العامة. و كان أنشئ قسم من هذه الطرق الفرعية قديما و افتتح القسم الآخر حديثا بطريق السخرة غير أن أكثر هذه الطرق إن لم نقل كلها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٦

تحتاج إلى الإصلاح و التعبيد لتسهيل المواصلات بين القرى و البلدان و لتتمكن السيارات من السير عليها على أيسر صورة و تصبح حركة النقل سريعة لا كما هي عليه الآن في أكثر هذه الطرق من البطء الظاهر و حيثئذ تزداد الموارد و يسهل نقل البضائع إلى المدن و السواحل و لا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة لإنعاش الحياة الاقتصادية. و من جهة أخرى فإن وجود طرق صالحة في قطر يزيد عدد السياح و المصطافين الذين يرتادونه، و هذا أيضا له شأنه في تقدمها و عمرانها.

السيارات:

و راجت في الشام عقب انتهاء الحرب العامة سوق السيارات على اختلاف أنواعها حتى أصبح منها عدد غير قليل يستخدم لنقل الركاب و البضائع في عامة الأرجاء. و قد تبين من الإحصاء الرسمي حتى آخر أيلول سنة ١٩٢٧ أن مجموع عدد السيارات التي سجلت رسميا في الديار الشامية ٦٦٢٢. منها ٦٥٣ في دمشق و ٦٢٩ في حلب و ١٠١ في حمص و ٩٣ في حماة و ٤١ في دير الزور و ٢١٥ في بلاد العلويين و ٤٨٩٠ في لبنان. و إذا فرضنا أن عدد السيارات في فلسطين نحو ثلاثة آلاف فيكون مجموعها في الشام ما يقرب من عشرة آلاف سيارة مختلفة الشكل و الصورة. و قد أضرت هذه السيارات بمصلحة بعض السكك الحديدية ففترت أعمالها بعض الشيء لرغبة الناس في السرعة الزائدة- انتهى.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٧

البرق و البريد و الهاتف

منشأ البرق «التلغراف»:

لم يكن إلى الربع الأخير من الحكم التركي بالشام برق و لا بريد و لا هاتف منظم. وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٧٦ هـ و نظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦ هـ و كان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة و النجابين أو بواسطة حمام الزاجل. و تستعمل إشارات الضياء (الفوانيس) إبان الحروب عوضا عن الإشارات البرقية السلكية و اللاسلكية و الهوليسته المستعملة الآن، و اصطلاح على استعمال كلمة برق عوضا عن كلمة تلغراف اليونانية المركبة من كلمتين تل- غراف و الأولى بمعنى بعيد و الثانية الكتابة أي الكتابة عن بعد، منذ نحو ستين سنة و استعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربية عوضا عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل و فون أي الصدى البعيد.

و للبرق ثلاثة فصول: الشبكة و الآلات و الأدوات المستعملة و شكل الإدارة و المخابرة و اقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي، حتى سنة ١٨٩٩ على الأسلاك الممتدة منها شمالا إلى حلب و جنوبا إلى القنيطرة، الصلت، حوران، و شرقا دومة، و غربا بيروت، حاصبيا، ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتمديد الخط البرقي الحجازي من الصلت حتى المدينة المنورة و امتد فرع منه بين معان و العقبة. و للسلك البرقي الحجازي عمود تذكاري ركز في ساحة الشهداء بدمشق.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٨

و تفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص، طرابلس و حمص، بعلبك و حماة، سلمية و حماة، العمرانية و من السلك الجنوبي إلى جبل الدروز و بصرى، و على أثر جلاء الجيش التركي و دخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه الشبكة ثم أعيد إنشاؤها على عهد الحكومة العربية إلى ما كانت عليه قبلا حتى انسلاخ فلسطين و شرقي الأردن و جبل الدروز عن جسم الشام. و ظلت هذه الشبكة البرقية بطول ١٥٧١ كيلو مترا.

وقد أنشأت الحكومة التركية أثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق و حلب و استعملت الإشارات الضيائية و البصرية بالأعلام و السواعد ضمن قطعات الجيش فقط.

الآلات و الأدوات و المخابرة:

كانت الآلات و الأدوات البرقية المستعملة على العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٩ م منحصرة في نوع سيمس و مورس الأوربي ثم عدلت هذه الأدوات في مصنع البرق الذي أحدث في نظارة البريد و البرق في الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل إبره الكاتبة باله الأخذ للمفاوضات البرقية أن تنقش الإشارات الرمزية .. (— — — — —) على شريط الورق بصورة ناشفة بدلا من نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة استعمال الأبره و السلك على أثر ترقى الموظفين بتلقى نقرات المخابرة سماعا و أصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة، و قد اقتصدت الإدارة بوجود أقسام الكاتبة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلا. و استمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكينات المضاعفة (دوبلكس) الألمانية و الانكليزية التي سهلت المخابرة أخذا و ردًا في آن واحد على خط واحد كإحداثها ماكنات الهوك المفردة و المضاعفة التي تنقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفا هجائية أخذا و ردًا.

و كانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في أكثر المراكز تنحصر باللغتين الشرقيتين التركية و العربية و لا تعدى الأرض العثمانية

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢١٩

عدا بضعة مراكز كدمشق و بيروت و ما يماثلها من مراكز الولايات و بعد ذلك أحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية و أوروبا.

إحداث الهاتف:

أحدث الهاتف في الشام بعد إعلان القانون الأساسي في تركيا خلال ١٩٠٨ / ٣٢٤ و كان منحصرًا بالدوائر الرسمية الرئيسية الملكية و العسكرية و رخص بتمديد الأسلاك الخصوصية في مسكن كل مشترك و حانوته أو مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية. و استمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكلها حتى نشوب الحرب العامة فألغيت منها الأسلاك الخاصة و انحصرت بالأسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق و توسعت إلى مناطق الجيوش و مواقع الحرب حتى إذا انجلت الحكومة العثمانية عن القطر و دخل الجيش المحتل استلمها و أسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية و مدها إلى مناطق الانتداب الرئيسية كدمشق و حمص و حماة و حلب و الإسكندرونه الخ. و سمح للسكان و التجار بالاشتراك و الارتباط و التخاطب بها مقابل أجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر أثناء المخابرة. و ارتبطت الحكومات الوطنية في كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هاتفيا و استقلت الدرك بشبكة خاصة مع مخافرها.

أما الهاتف اللاسلكي الرسمي فانحصر بإدارة الراديو العسكري أخذا و ردًا و الهاتف اللاسلكي التجاري سمح به في قسم الأخذ منه تحت إشراف إدارة البريد و البرق دون استعمال آلة الرد أي الإصدار.

منشأ البريد:

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد ذنب أي مقطوع الذنب.

و السبب بهذا الاصطلاح غير المأنوس هو أن الفرس كانوا يقطعون أذنان الحيوانات التي تنقل بريد الحكومة تمييزا لها عن بقية

الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك و الجبأة. فحذفت العرب كلمة الذنب و اقتصرت على كلمة البريد و الجمع منها برد. و لم يكن قبل القرن السابع عشر أثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق و البريد التركية.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٠

كان شكل البريد و سيره و إدارته و نقله حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩١ م بين بيروت و دمشق- المزيريب تنحصر حتى بيروت بمركبات شركة الحوافل الملغأة. أما باقي الجهات فكانت شمالا حتى حلب فالاستانة تسافر برا مع التاتار أى مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل، و شرقا بين دمشق و العراق- بغداد على ظهر الهجن (الذلول)، و جنوبا بواسطة السعاة المأجورين، و بحرا بواسطة بيروت و هو عبارة عن تبادل الكتب و الصحف و الملفات و النماذج و الصرر ذات القيمة مع الأرض العثمانية و على الكتب و الصحف و الملفات مع الممالك الأجنبية.

و قد بدأ شكل سير البريد يتطور نقلا و إدارة و معاملة من سنة ١٣١٦-١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق و حماة و سنة ١٩٠٥ بين حماة و حلب و سنة ١٣٣١-١٩١٥ من حلب و أذنة فقونية. و أصبح نقل البريد حتى الاستانة برا بالسكة الحديدية التي أنشئت شمالا كما أنها أحدثت نقلات البريد حتى الحجاز أى المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدئ يانشائها سنة ١٩٠١-١٣١٧ و انتهت بسنة ١٩٠٨-١٣٢٤. و تبدلت نقلات البريد تدريجيا فى الأصقاع الشامية من الحيوانات إلى متن السيارات. و أما فيما له شأن بالمعاملات فقد أحدثت على التدرج و اعتبارا من سنة ١٩٠٠ أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية و الطرود العادية فالمشروطة التأدية و الرسائل ذات القيمة المقدره بين الممالك العثمانية و الشام. و فى سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الأجنبية فى أوروبا و آسيا و إفريقيا. و دامت على هذا التوسع التدريجى حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا و اقتصرت على الممالك المتفقه معها إلى أن جلت الدولة عن الشام و انقطعت المواصلات البريدية أثناء احتلال دول الانتداب أرض الشام ثم عادت المواصلات إلى سيرها السابق. هذا عدا انقطاع السكة الحجازية الذى لم تصل بين الشام و الحجاز أى المدينة المنورة بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين و شرقى الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢١

مراكز البريد و البرق فى الشام:

دمشق مركز البريد، دمشق باب توما، دمشق الميدان، عفرين، حلب، اعزاز، الباب، بصرى، دير الزور، درعا، جرابلس، جسر الشغور، دومة، أريحا، أزرع، حماة، حارم، حمص، خربة الغزاله، أدلب، قطنا، القنيطرة، القطيفه، معرة النعمان، منبج، النبك، عمر آغا، الرقة، سلمية، السويداء، يبرود، الزبدانى، الإسكندرونه، أنطاكية، آرسوز، بيلان، قريق خان، الريحانية، السويدية، كسب، بلودان.

هذا فى دولة سورية، و هذه مراكز البريد فى لبنان:

بيروت، جديدة المتن، جونية، جبيل، البترون، أنفة، طرابلس، زغرتا، عكار، غزير، أميون، بشرى، الدامور، صيدا، صور، تبنين، بنت جبيل، جزين، النبطية، مرجعيون، حاصبيا، بعبدا، عاليه، دير القمر، بعقلين، بيت مرى، برمانا، بكفيا، بيت شباب، الشوير، بسكنتا، بحمدون، صوفر، حمانا، زحلة، رياق، بعلبك، الهرمل، جب جنين، مشغرة، حصرون، أهدن، دومة لبنان، حدث الجبنة، عين زحلنا، سوق الغرب، سير، قرطبا، الشويفات.

و هذه أسماء مراكز البريد فى بلاد العلويين:

بانياس، جبلة، القدموس، القرداحة، اللاذقية، المشتى، العمرانية (مصياف)، أرواد، صافيتا، صهيون، طرطوس، تل كلخ.

و إليك أسماء مراكز البريد و البرق فى فلسطين:

عكا، العفولة، بشر السبع، بيسان، غزة، حيفا، يافا، جنين القدس، لدا، المجدل، نابلس، ملبس، الرملة، ديران، سمخ، صرند تل أبيب،

طور كرم، زمارين.

وقد أصبحت فلسطين في عهد الانتداب الإنكليزي مربوطه كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من أرض الشام و أصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٢

وهذه جريدة أسماء مراكز البرق و البريد في شرقي الأردن:

اربد، أم قيس، دير أبو سعيد، الحصن، الرمتا، الزرقا، الصلت، الطفيلة، عجلون، عمان، القطرانة، الكرك، مادبا، معان، جرش.

أما مراكز البرق خاصة في ولايات الانتداب الإفرنسي في الشام فهي كما يلي:

(سورية): حلب، الإسكندرونة، أنطاكية، آرسور، اعزاز، الباب، بيلان، بلودان، بصرى، دمشق، دير الزور، درعا، جرابلس، جبرود، جسر الشغور، دومة، ربحا، ازرع، حماة، حارم، حسيه، خربة الغزاله، حمص، إدلب، قطنا، قرق خان، القنيطرة، القطيفة، معرة النعمان، معبطل، منبج، النبك، عمر آغا، الرقة، الريحانية، سلمية، السويداء، السويدية، الزبداني، يبرود.

(لبنان): عكار، عاليه، أميون، بعبدا، بعقلين، بعلبك، البترون، بشرى، بيت شباب، بيت مري، بيروت، بحدون، بحدون، بنت جبيل، بسكتنا، بكفيا، برمانا، الدامور، دير القمر، ظهور الشوير، جزين، جب جنين، جبيل، جونية، اهدن، أنفه، غزير، حمانا، حاصبيا، حصرون،

الهرمل، قب الياس، مشغرة، مرجعيون، النبطية، راشيا، رباق، صيدا، صوفر، تبنين، طرابلس، ميناء طرابلس، صور، زحلة، زغرتا.

(العلويون): بانياس، جبلة، حفه، القدموس، القرداحة، اللاذقية، مصيف، المشتى، أرواد، صافيتا، طرطوس، تل كلخ.

فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان و ٤٠ في سورية و ١٢ في العلويين.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٣

المصانع و التصور

تقسيم المصانع و عظمتها:

إن قطرا كهذا القطر البديع، تعاقب الحكم عليه الحثيون و المصريون و البابليون و الأشوريون و الفرس و الفينيقيون و الإسرائيليون و الرومان و اليونان و العرب و الترك و التتر و الشركس، و أعجب الفاتحون بخيراته، و اغتبطوا بالاستيلاء عليه، لموقعه الممتاز بين الأقطار و القارات، فجعلوه محط رحالهم، و مجازا إلى فتوحهم، لا يستغرب منه إذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق، و جودة الإبداع، و عظمته الباني.

إن الشعوب التي أنشأت مصانع وادى موسى و جرش و عمان و مادبا و بعلبك و تدمر و أفامية و دمشق و حلب و القدس كانت و لا شك ذات معرفة بالهندسة، لا تقل عن أهل هذا العصر بها، لأن ما شادوه صارح الأيام و صرعها، و بقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم و التحريق، بأيدي المخربين، من الظالمين و المظلومين، و سطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية.

تنقسم مصانع الشام إلى قسمين: مدني و ديني، فالمدني كالقلاع و الحصون و الأبراج و المناور و المراصد و القصور و الجسور و السكور و القنوتات و الموانى و الطرق و الدور و القبور و المستشفيات. و الدينى كالمعابد و البيع و الأديار و الكنائس و الجوامع و المساجد و المدارس و الربط و الخانقاهات و الملاجى و ما شاكلها.

مصانع الأمم القديمة:

و من أقدم مصانع الشام ما وجد في قرية الحصن في عجلون من أنصاب

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٤ (Dolmens)

يبلغ عددها المئتين على ما قال مالون، و هي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة أحدها طويل منبسط، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين، يركز أفقياً فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين، ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ سم ومنها ضعف ذلك. وقد زعموا أنها كانت مذابح دينية و أنها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الأسفار المقدسة. و الرأي المرجح أنها كانت قبورا، و لا يعرف لها تاريخ أكيد. و العلماء يجعلون عهدا في الطور المعروف بطور الظران. و ربما كانت أقدم عادات الشام.

و من أقدم مصانع الحثيين قلعتهم التي أنشأوها على الفرات في كركميش (جرابلس) فبقيت حسكة في حلق نينوى إلى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الآشوريون عليها. و بنو إسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم و مطلعهم سوى آثار ضئيلة. و أهم ما بقي من آثارهم، معبدهم في القدس أو معبد سليمان الذي جمع إليه الصناع و المهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد، و قد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد، و لما عاد اليهود بعد ثنتين و خمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الأول في الجملة، و كانت دثرت محاسنه الأولى، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة و لم يصب هذا المعبد بأذى على عهد السلوقيين خلفاء الإسكندر المقدوني في الشام، و لا في زمن بومبيوس الروماني، لأنه كان من عادة اليونان و الرومان و لا سيما الرومان، أن لا يقاتلوا الأمم التي يدوخونها على أربابها. و ربما اقتبسوا ممن غلبوهم على أمرهم عبادتهم من غير تكبير.

وسع هيرودوس ملك اليهود معبد سليمان، و انتهى على عهد نيرون، و كان عمل فيه ألف كاهن و ألوف من العملة دهرا طويلا. و قد قيل: إن سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة ألف وزنة من الذهب و مليون وزنة من الفضة، قدرت بسكة زماننا بثمانمائة و تسعة و ثمانين مليوناً و نصف مليون جنيه، و ذلك ما عدا الحديد و النحاس و الخشب. فأكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد و كان فخر أورشليم، و أجمل بناء في العالم. و قد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري أي العمدة، فأدار الملوك المتأخرون

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٥

هذا الرواق حول جميع البناء، و بقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة إلى أن خربه ملك بابل. و تحيط بالهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور، منها دار الأمم، و هي الدار الخارجية، ثم دار النساء، ثم دار إسرائيل، ثم دار الكهنة، ثم الهيكل، و قد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م.

و لا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد، و كان خاصا بالخشب الثمين الذي جىء به من أرز لبنان و غيره، مموها بالذهب و الفضة و محلى بالعاج و الأحجار الكريمة، و فيه من الأواني الثمينة و المدى و الأحواض و أدوات البيوت، ما صح أن يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة. و الفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل.

هندسة الفينيقيين و آثارهم:

لم يشتهر الفينيقيون بالعناية بالبناء و الهندسة عنايتهم بالربح و الكسب و ارتياد القاصية، و مع هذا أعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئ يونان و إيطاليا و صقلية و غاليا و ايريا و إفريقيا. بيد أن هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته أدنى ما خلفته الشعوب القديمة.

و ربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم، أقل مما خلفته تدمر و البتراء. و لم يثبت أن بقي للفينيقيين معبد من معابدهم إلى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ.

أما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون و القبور و غيرها، فإن الباقي من أساس حصن صور الذي أعجز اقتحامه القدماء الفاتحين كسراغون بخت نصر و الإسكندر، لا يدل على كبير أمر، و قد بنى الإسكندر بين البر و الجزيرة فيها سدّه الغريب، و كان بناء صور إلى

عصر ابن بطوطة «ليس في الدنيا أعجب و أغرب شأنا منه» و قال ابن جبير: إنه يضرب المثل بحصانتها و ذلك أنها راجعة إلى باين، أحدهما في البر و الآخر في البحر، و هو يحيط بها من جهة واحدة، فالذى في البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب، أما الذى في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في المدن البحرية أعجب وضعها، يحيط

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٤

بها سور المدينة من ثلاثة جوانب، و يحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. و كانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست و سبع و ثمان على عهد الفينيقيين.

و لا يزال سور بانياس بين طرطوس و اللاذقية قائما، و لا يعرف إذا كان من صنع الفينيقيين أو البلاسجيين، لأنه أشبه بعمل البلاسجيين سكان إيطاليا و يونان القدماء. و هكذا يقال فى أسوار بيروت و صيدا و جزيرة أرواد و عمريت و معبد هذه على رأى (رنان) أقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذى بقى من آثار العنصر السامى. أما قبور الفينيقيين فهى أهم ما اكتشفت فى أرضهم، و كلها تقريبا نفرت فى الصخر كمثيلاتهما فى أرجاء يهوذا و العرب، أى عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها. و القبور التى ظهرت فى عمريت هى أهم ما عرف من نوعها و كذلك ما ظهر فى جبيل و صيدا و لا سيما النواويس الأربعة التى وجدت فى هذه المدينة، و لا تزال محفوظة فى متحف فروق.

بحث الأثريون فى فلسطين عن المعاهد الدينية فى الأكثر، و امتدوا فى حفرياتهم إلى أرض العرب للعثور على مدينة يعتد بها سبقت الرومان و اليونان.

و كل ما عثروا عليه تافه فى الحقيقة. و قد تبين لهم أن البيوت كانت كقصور الملوك تحتوى على دائرتين: دائرة الرجال أو الثوى و هو المكان المعد للضيف «السلامك»، و دائرة الحريم، شأن قصور الشرق الإسلامى لهذا العهد.

و ما قصر هر كان فى عراق الأمير، و حصون القدس، و برج أنطونينا، إلا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية. و تقل فى فلسطين و شمالي غربى ديار العرب القبور التى يرد عهدها إلى الزمن الذى يسبق العصر اليونانى.

و قبور مدائن صالح التى نحتت فى الصخر يستدل منها أنها مثال من أمثلة البناء الأثورى. و قد اختلفت الظنون فى هذا الشأن، و الأثريون يوالون النبش ليكشفوا شيئا يستدلون منه على مدينة أقدم أمه نزلت الأرض المقدسة.

عادات الرومان:

أقيمت عدة أنصاب فى الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الأثريون.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٧

ذكر وادنكتون كتابة و جدها فى السويداء كأنها كتبت تحت نصب أقيم لأحد ملوك الرومان فيه «للملك اليوس قيصر أدريانوس انطونينوس بيوس العاهل»، و وجدت كتابة فى قرية أم الجمال فى حوران كتب فيها «للعاهل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الأرمن و البرتيين».

و لهذا القيصر كتابة أخرى فى سهوة الخضر من جبل حوران، و أخرى فى الشبهة المسماة فيليبولى نسبة الى الملك فيلبس العربى، و وجدت فى السويداء أيضا كتابة يونانية مؤذنة بإقامة أثر تكرمه للملك كومود، أقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية، ذكرى جلب الماء إلى المدينة و ضواحيها سنة ١٨٧، و عثر فى جنوبى اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير على كتابة تدل على محطة عسكرية. و فى دير القلعة فى لبنان على الصخر الذى فى جانب البئر كتابة فيها «بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيوس ساويروس برتينكس اغسطس، أقام هذا النصب بوبميايوس اينجيوس نذرا للمشتري».

يصعب الحكم على كل أثر بعينه، و نسبة كل بناء إلى الأمة التي أقامته، و كل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثرا مخلدا متلدا تفاخر به. فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس إلى أرض النبط جنوبي بحيرة لوط و من شمالها، و طريق مادبا إلى البتراء و العقبة حتى البحر الأحمر و طريق جرش وادى موسى، و الطريق المبلط شرقي صرخد الممتد إلى العراق، و كان يسمى بالرصيف، هي من الآثار المهمة كالمعسكر الروماني في أذرح و آثار قنوات و شهبه و سالة و دامه العليا و لبن.

عاديات البتراء و جرش و عمان:

عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها، و منها الهياكل الجليدة، و الدور الفخمة، و الأندية و المجالس و القصور، و الحمامات و المسارح و المدافن و المسلات، و قد رأى فيها «دومازفسكى» آثار الهندسة المصرية و اليونانية و الرومانية و الشامية. و معلوم أن أهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالي القرن السادس قبل الميلاد، و ارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين إلى أن زاحمتها تدمر في القرن الثالث. و من أجمل ما في

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٨

وادي موسى اليوم خزنة فرعون و هي دار الحكم نقرت في الصخر و جعلت ثلاث قاعات و بهوا. و هذا القصر الفخم الذي يدعى خزنة فرعون كان في الغالب معبدا لايزيس، أنشئ على عهد الامبراطور ادرينوس سنة ١٣١ و في واجهه هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى و فوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها و نقوش و تيجان، و ربما كان يصعد إلى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من أثر الأدرج. و إذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع أحجارها و تتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها. و في الجهة اليسرى قاعة مثلها، و في الصدر القاعة الكبرى أو الردهة المدهشة. و كل هذه السورى و التيجان و القاعات و الرواق محفور في الصخر أو في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل و غيره من الهياكل و النواويس و القصور كالطين يجعلون منه ما يشاءون. و الذي يزيد في الدهشة أن الحجر أحمر في هذه الجبال أو من نوع الحجر الرملى و لكنه بمتانته كالصخر الأصم. ثم ترى فيه ذاك اللمعان، فمن موجة حمراء إلى أخرى زرقاء، إلى مثلها بيضاء إلى جانبها دكناء، فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير، و رزق بانيه يدا صناعا تتفنن في تقطيعه و نقره، بما فاق به البناء في سائر عاديات الشام. فإن كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم و علم واسع بالنقش و جر الأثقال، فإن هذه العاديات الأزلية تنادى بلسان حالها: هذه عظمة الديان إلى جانب تفنن الإنسان.

و في هذا الجوار أقدم النواويس و أهمها و بعد ذلك يجيء قصر البنات و هو بناء من الحجر رصفت حجارتها كما ترصف الأبنية الضخمة من قلاع و أبراج و أسوار و نحوها. و الغالب أنه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة و هو مما عمر قبل الإسلام. و هناك و لا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها و رسمها أنها من عمل النصارى عند ما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان و اليونان. و على مقربة من تلك الجبال الشوامخ و المنفرجات و الأودية بعض نواويس و آثار و لكنها دون آثار البتراء في المكانة. و في جبل الصبر ملعب أو صورة تمثل قتالا بين سفن حربية.

و يقول بعض علماء الآثار: إن معظم القبور التي حفرت كانت على مثال

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٢٩

قبور الحجر، يرد عهدها إلى الحارث الرابع أحد ملوك البتراء أى ٩ و ٣٠ قبل المسيح و بعده. و ليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها. و إن ما يشاهد من صور أبى الهول و ايزيس و رؤوس الحملان يدل على أن هذا الأقليم تأثر بالمدينة المصرية. و المسلتان القائمتان في النجر تمثل ربي النبطيين اللات و العزى، و كانت النجر مركز عبادة النبط قبل العهد اليونانى بستة قرون على الأقل، و قد دخلت المدينة اليونانية البتراء على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري و الشامى، و ظل القول الفصل فيها للمدينة

اليونانية إلى عهد الحارث الرابع. و في البتراء ٨٥١ مصنعا من القبور و المعابد و المذابح.

و عدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر، قطره ١١٧ قدما و فيه ٣٣ صفا من المجالس يسع من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ من المتفرجين و الملعب الروماني في عمان (ربة عمون) أكبر الملاعب في الشام. و هو مركب من ثلاث مراتب جعلت المرتبة الأولى خمسة صفوف من المقاعد، و المرتبة الوسطى أربعة عشر صفا، و للمرتبة الثالثة ستة و عشرون صفا من المجالس. و هو يسع أربعة آلاف ناظر أيضا. و في أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود و النمر و التماسيح.

و يرد تاريخ ارتقاء جرش إلى القرون الأولى للمسيح، و تاريخ أبنيتها إلى أباطرة القرنين الأول و الثاني، و هي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الأصقاع البعيدة، و كانت جرش من جملة المدن المهمة من بين مدن العرب، و عمدتها المائلة للعيان و منها ما بلغ طوله ١٤ مترا و قطره خمسة أقدام، و ملاعبها و هياكلها و ساحاتها و حماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض الأرجاء المهمة التي تولوا الحكم عليها.

وصف شيخ الربوة خرائب جرش و عمان في القرن الثامن بقوله:

«ذكروا أن بدمنة مدينتي عمان و جرش بالشام ملعين، فأما جرش فمنها تلال و جبال و حجارة منقولة، و بعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعا، و بهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط و ذلك الحائط به مجلس للملك، و أما النصف المستدير فإنه مدرّج، درج بعضها فوق بعض، و هي دوائر و كل دائرة فوقانية أوسع من السفلى، و بين هذه الأدراج

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٠

الدائرة أبواب و مسالك، و كل درجة و عليها مرتبة من الناس، و كلهم ينظرون إلى الملك و هو ينظر إليهم كلهم لا يحجبون عنه و لا يحجب عنهم في ذلك المجلس و كأنما هو ليوم الحكم العام فقط، و بالقرب من هذا الملعب أيضا ملعب و فيه عمد طوال قائمات و في كل منهن بكرة، و هن مستديرات المراكز كصورة دائرة، و كأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود إلى عمود و فوق ذلك أبنية لأهلها و آثار شاهدة، و لا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين إلا مدينة بعلبك و باب البريد بدمشق اه».

وصف المحدثين خرائب جرش:

تبدأ خرائب جرش من الجنوب بباب النصر المسمى باب عمان و هو بناء عرضه ٣٠، ٢٥ م و الشق الأوسط منه ٤٧، ٦ على ١٢ مترا من العلو، و له من كل جهة باب و هذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية. و لذلك يظن أن البناء يرد عهده إلى القرن الثاني للميلاد. و في غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان، و في الأسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية، و له بحيرة طولها ٥٠، ١٥٥ م و عرضها ٥٥ مترا، و له أربعة سدود من جنوبها و عمقها ٧٠، ٤ م و مقاعد للمتفرجين على طول المحل. و هذا الحوض متصل بقناة مع العين. و يفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٥٥، ٩٠ م لا تزال ترى فيه أربعة صفوف من الدرجات و على مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير. و على بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ٣٠ مترا و عرضه ٢٠، ٣٠، و كان للبناء المحيط به عمد منفردة أحد عشر عمودا من الشمال و مثلها من الجنوب، و ثمانية أعمدة من الشرق و من الغرب.

و كان للدهليز صفان من الأعمدة و له تيجان قورنتية و عرض الرجاج ٧٠، ٤ م و كاد طول غرف المتفرجين التي ما زالت جدرانها الجنوبية سليمة إلى عشرة أمتار ٢٥ مترا و عرضها ١٥. و قد فقدت تيجان القواعد المركبة (الركائز) المبنية من الصخر المحكم الوضع و قام في العالي طنّف بسيط قليل البروز.

و مجموع البناء حسن للغاية. و قام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من هذا المعبد على سور المدينة. و لا يزال ٣٢ صفا من المقاعد سليما. و معظم

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣١

قطر المسرح ٧٦، ٨٧ م. وهناك ممشى على شكل نصف دائرة يتصل مع الأسفل بخمسة سلالم و مع الأعلى بتسعة، و تقسم هذه الدرجات إلى قسمين و له أربعة دهاليز من جهة الجنوب.

و يمتد في الشمال الشرقي من المعبد و المسرح ميدان ممهد تحيط به عمد لطيفة، تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي. و لا تزال معظم السور و عددها ٥٦ محفوظة بحالها، و هي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الأعمدة. و في الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الأضلاع تجتاز المدينة كلها و طولها ٣، ٨٠ مترات و عرضها ٦٠، ١٢ مترا و المسافة بين الأعمدة الموضوعه ثلاثة أمتار. و لم يبق من ال ٥٢٠ عمودا سوى ٧١ عمودا قائمة إلى اليوم. أما الأخرى فقد تداعت بالزلازل أو هدمتها يد الإنسان في العهد الحديث، و قد أصبح أكثر هذه الخرائب مقالم لأهل القرية يأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم. و علو هذه الأعمدة من ٥٠، ٦ م إلى ٩ م يدخل في ذلك الأساس و التاج. أما العمدة القائمة وسط الشارع فهي من الطرز القورنتي، و تيجانها من أرقى ما صنع الصانعون. و ما كان منها بالقرب من الميدان و على نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني.

و يرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الأعمدة ربما كانت مجازات بين الأعمدة على طول الدور. و هناك جسر يجتاز القناة على خمس حنايا و عرض الأوسط منها ٤٠، ١١ س. و ثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جعل على شكل نصف دائرة، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار و لها فواره. و على مقربة من هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة. و قد تهدم جزء من سطح أعلى الباب الأعظم و هو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش. و النقوش السالمة التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع. و هذه الأروقة تؤدي إلى معبد عظيم يدعى عادة معبد الشمس و هو في مستو طوله ٦٥، ١٦٠ م و عرضه ٨٥، ١٠٤ م يحيط به ٢٦٠ عمودا. و طول المعبد ٧٠، ٢٦ م و عرضه ٢٠. و يتألف رواق المعبد من صفين من الأعمدة أحدهما من ست و الآخر من أربع. و زيادة على ذلك عمود من كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد. و فيه تسع سوار علوها

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٣٢

٨٠، ١٣ و عرض الرتاج خمسة أمتار و عرض المجالس ٢٠، ١١ م و طولها ٨، ١٧. و في جنوبي المعبد كنيسة، كاتدرائية ذات ثلاثة صحنون. و في الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها. و يظهر أن كنيسة ثالثة في شرقي الأروقة كانت من جملة الأجزاء المتممة لمعبد الشمس. و من هناك تنشعب شوارع أخرى و تتقاطع الطرق، و كانت مزينة بتمائيل و نصب و عمد و سوار لا يزال بعضها أثرا شاهدا على العظمة الماضية.

أما ملعب الشمال الذي كان خاصا على ما يظهر بقتال الحيوانات و الصراع فكان له ١٧ صفا من الأدراج و مجموع علوه ١٢ م و في محيط الدائرة منها بين الصف الثامن و التاسع خمسة معابر أو مماش ترى بين كل واحد منها كوة عظمي و ثنتين أصغر حجما على شكل الصدف. و الحمامات العامة عبارة من مجموع غرف و عقود يطلق عليها اسم الخان. و مدخلها بناء سلم برمته من عوادى الأيام تعلوه قبة و مساحتها ٧٠، ١٦ مترا مربعا. و هناك سلم يوصل إلى محل الحمامات الحقيقي مؤلف من أرض مساحتها ٧٠، ٦٧ م طولها و عرضها ٣٠ و لها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢ م و عرضه ٧٠، ١١ م.

و بالقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حماما أيضا و على الشاطئ الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ مترا و عرضها ٣٦، ٦٠ م و حنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سوارها سوى تسع قواعد يونانية و بعض أسطوانات. و كان هذا المعبد في الأصل مدفنا للربة نيميزيس و يرد عهدا إلى الامبراطور تراجان.

عاديات تدمر:

ذكر بعض الأثريين أن مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة، و قد أصبحت في أوائل النصرانية إحدى المدينتين اللتين جمعتهما بين تجارة أوربا و آسيا و أعنى البتراء و تدمر. قال ياقوت: و أهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما

السلام بأكثر مما بيننا و بين سليمان.

و لكن الناس إذا رأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان و إلى الجن.

قلنا: و كان القدماء يعتقدون أن بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري:

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٣ و قد كان أرباب الفصاحة كلمارأوا حسنا عدوه من صنع الجن

و قال النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدها عن الغند

و خيس الجن إنى قد أمرتهم بينون تدمر بالصفاح و العمد

خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣ م على يد اورليانوس الرومانى لما قهر زينب ملكتها. و لما انتقض أهلها عليه عاد فافتتحها عنوة. و أعمل فى

أهلها السيف أياما متواليه. ثم أمر فبعثت الأبنية، و قوضت الهياكل، و دكت الأسوار، و هدمت القلاع. فأصبحت تلك المدينة الزاهرة

قاعا صفصفا و ظلت على هذه الحال قرية حقيرة إلى عهد ديوكليتيانوس أيام استخدمها الرومان لرد غزوات البادية و غيرها.

وصف عاديات تدمر :

و بعد فإن كل ما دونه مؤرخو العرب فى تدمر و ما وصفها به رحالهم مختصر جدا لا يستفاد منه الفائدة العلمية اللازمة و يتعذر علينا

من النصوص التى اتصلت بنا أن ندرک حقيقة حالة تدمر و عمرانها حين فتحها المسلمون.

و المعروف أن تدمر لم تستعد مكانتها و لا بعضها منذ استيلاء اورليانوس عليها فى سنة ٢٧٣ م. يوم دك معاقلها و هدم دورها و درس

قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط إلى أن وصلت إلى ما هى عليه اليوم.

إن اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فإننا نجهل ما انتاب البقية الباقية من عمرانها بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر.

أيام نزلها فى سنة ١٧٥١ المهندس الانكليزيان و انكس و وود فرسما مخططا لتلك الخرائب و نقلا إلى بلادهم جملة رقم تدمرية و

يونانية تمكن بفضلهما سوينشن و برتليمى من قراءة حروفها و تفسير معانيها.

و منذ ذاك العهد اشتهرت تدمر فى الغرب و لا- سيما عند علماء الآثار و غواتها فكثر شد الرحال إليها و زاد زوارها فى السنوات

الأخيرة خاصة و ذلك بالنظر لسهولة المواصلات و توفر أسباب الراحة فيها. و بالرغم مما انتاب

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٤

تدمر من عوامل الهدم و التخريب فإن القسم القليل الذى سلم من كوارث الأيام و أحداث الدهر ينبئ بجمال عظمتها و جلال قدرها.

فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الأطلال و يتأمل هذا الإتيقان لا تأخذه حيرة فى دهشة أو رعشة فى وحشة لهذا الإبداع المعجب و دقة

الصنعة و تناسب الجمال و العظمة.

فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها و مهارة عمالها و صناعتها. فقد جمعت بين الإبداع و الإعجاز حتى ليتساءل المرء و هو

فى القرن العشرين إن كان هذا ثمرة جهود الإنسان أو عمل من صنع الجان.

تعد خرائب تدمر اليوم من أكبر خرائب الشام و أهمها و تنقسم بناياتها إلى ثلاثة أقسام: الهياكل و البلدة و المدافن. و لم يبق من

الهياكل سوى الهيكل الكبير و هو هيكل بعل و الهيكل الصغير و هو هيكل بعلشاميم. و الأول هو أكبر بنايات تدمر و أهمها يقع إلى

الجهة الشرقية من البلدة، و هو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ مترا يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه

نحو من ١٥ مترا، و مدخله من الغرب. و هذا المدخل يؤدي إلى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ مترا و منه تجتاز الواجهة

الداخلية و تعتبر هذه من أبداع مصانع تدمر و أتقنها صنعا. و يحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائما على ٣٩٠ عمودا

تهدم اليوم معظمه، و قد شيد فى وسط هذا الفناء الهيكل الأصلى و طوله ٦٠ مترا و عرضه ٣١ مترا و نصف المتر. و أقدم كتابة وجدت

داخل هذا الهيكل مؤرخه بسنة ١٧ م. و يرجح أن هذا الهيكل بنى فى أوائل العهد المسيحى. و الهيكل الثانى إلى شمالى البلده و مدخله من الشرق و هو أصغر حجما من الأول و أقل كلفه. و يكاد يكون مجموعته الخارجى سالما و مع بساطته تجد إتقانا فى بنائه و دقه فى نقوشه و قد تم بناؤه فى النصف الأول من القرن الثانى للميلاد. إن ما بقى من آثار البلده هو أروع شىء فى خرائب تدمر و أعظم منظرا. و منها تلك الأروقه التى كانت تمتد من جانبى أهم شوارع البلده فهى أبهج منظرا لعظمه تلك المدينه و أطول هذه الشوارع هو الذى يخترق البلده من الشرق إلى الشمال و يقسمها إلى منطقتين و طوله ١٢٠٠ متر و عدد أعمده كل خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٥

صف يبلغ ٣٧٥ عمودا ارتفاع كل منها ١٧ مترا و قد تهدم معظمها فلم يسلم منها سوى ١٥٠ عمودا. و يخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته و عند ملتقاهما يؤلفان مصلبا و كان على مقربة منه تمثالا أذينه و زنوبيا. و فى منتصف كل عمود ركيزه قامت عليها تماثيل مشاهير حكامها و الصالحين من رعيته. و لم يزل مدخلها المدينه الشرقى قائما و له منظر رائع و مرأى جميل. و ما خلا ذلك من الأنقاض المتراكمه الباقية و الأعمده و الأحجار المنحوتة مبعثر مشته عرف بفضلها أصحاب الهندسه تخطيط أبنية المدينه و هندسه شوارعها و أزقتها.

إن قبور تدمر مبعثره حول البلده و معظمها فى الجهه الغربيه فى واد يعرف بوادى القبور لكثرتها فيه. و هى على نوعين: منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعه فى ثلاث أو أربع طبقات منقسمه حجرا و فى جدرانها القبور. و النوع الثانى كهوف نقرت فى الصخر على سفح الجبل و هى ذات إيوانين أو ثلاثه، و من القبور ما هو فى الجدر و منها ما هو على شكل النواويس و يختلف عدد القبور فى كل مدفن بين العشرين و السبعين و هو ملك أسرته واحده أو أكثر. و كان لأبناء الأسر فى تدمر عناية خاصه بمدافنهم يتنافسون بإتقانها و زخرفتها و منها ما هو أشبه بقصور منها بقبور. و كل هذه العنايه لحرصهم على راحتهم فى دار البقاء كما تنص على ذلك رقمهم القبريه اه.

أقام الرومان بين دمشق و تدمر إلى الفرات اثنين و خمسين حصنا أو قلعه. يبعد كل منها عن الآخر ثلاث ساعات. و لا شك فى أن الحرس الرومانى كان فى بعضها. و بنى الرومان عدده حصون على الطريق الممتد بين بصرى و دمشق ليأمنوا عيث البادية و طريقا من صرخد إلى البصره و طرقا من حوران إلى البلقاء إلى عقبه أيله و ما إليها، و كان ذلك فى أيام عظمتهم. قال أحد علماء الهندسه من الفرنج: إن الرومان لما أصبحوا سادة الأرض و أمسى معهم جميع الشعوب بمثابه العبيد عدلوا و هم فى أوج عزهم عن أعمال فى العمران كان فيها عزهم و نجاحهم و استسلموا إلى الكسل و إضاعه الأوقات. و بعد أن فتحت زينب أو زنوبيا سلطانه تدمر المشهوره القطر المصرى عمرت الأبنية التى جلبت إليها الأمم من أقطار الأرض و لا سيما اليونان.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٦

و لما جاء يوستينانوس سنة (٥٢٧) جدد بناء الأخربه فى تدمر و شيد أبنية أخرى فيها و جعل لها سورا. ثم سطت عليها الزلازل كثيرا. و ما يرى اليوم من الأثر الضئيل الباقى من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق.

و ما استخرج و لا يزال يستخرج من أرضها من التماثيل و الأنصاب و الشواهد يدل على فضل ذوق و حسن هندسه.

و من كل أنواع الأنام مصورشباب و شمط يمرحون و شيب

و مجلس أنس يفسح الطرف ملؤه قيان تغنى وسطه و شروب

و صرعى و قتلى فى قتال عساكر تحول حصون دونهم و دروب

فمن جانب أضحت تصب مدامه و من جانب أضحت تشب حروب

خليطان هذا للقراع معبس يصول و هذا للسماع طروب
 و قد حققوا التصوير حتى وجوههم يبين لنا بشر بها و قطوب
 و كل يعانى شغله غير أنه على فمه دون الكلام رقيب
 ملاعب فيها الملك رام بطرفه و كل ابن دنيا إن نظرت لعوب
 و عاشوا طويلا ثم فرق شملهم زمان أكلول للأنام شروب
 فلو لا مكان الدين قلّ لفقدهم بكاء لنا فى إثرهم و نحيب
 ملوك أقاموا ما أقاموا أعزّه و قد شعبتهم بعد ذاك شعوب
 و خيل للرائى ليذكر عهدهم خيال لعمرى إن رأيت عجيب
 خيال لهم يهدى إلى كل أمة لقصد اعتبار إن رآه ليب

عاديات بعلبك امس و اليوم

إن بقايا هيكل الشمس أو المشتري و هيكل الزهرة و هيكل باخوس و دار المذبح أو البهو الكبير الماثلة إلى اليوم فى قلعة بعلبك
 لأ- كبر دليل على ارتفاع فن الهندسة حتى فى العصور التى سبقت الرومان و اليونان. و قد عدت أحجار بعلبك و منارة الإسكندرية
 (الإسكندرونة) من جلة عجائب الشام. فقد قال الهمداني فى أحجار بعلبك: إن فيها حجرا على خمسة عشر ذراعا أقل أو أكثر ارتفاعه
 فى السماء عشرة أذرع فى عرض خمسة عشر ذراعا فى طول خمسة و أربعين ذراعا. هذا حجر واحد فى حائط. و أما منارة الإسكندرية
 خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٣٧

فإنه يصعد إليها رجل على برزون حتى يبلغ أعلاها و هى مبنية على سركان من زجاج.

و فى بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدما و عرضه ١٢٠ قدما و كان محاطا بأعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥
 قدما و طول هيكل الشمس ٣٢٤ قدما و كان محاطا بأربعة و خمسين عمودا يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام و علوه من قاعدته إلى قمته
 ٨٩ قدما و قد بلغ طول بعض الحجارة المبنى منها الهيكل ٦٤ قدما و سمكه ١٢. قالوا: و كانت هياكل بعلبك تضاهى هياكل اليونان
 بعظمة بنائها و لكنها دونها بالترتيب و الزخرفة. ذكر ابن حوقل أن قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجل مباني الأرض، و إنما بنيت
 قلعة دمشق على مثالها، و هيات لا تعد من أمثالها، أين قلعة دمشق من قلعة بعلبك و حجارتها تلك الجبال الثابت، و عمدتها تلك
 الصخور الثابت.

قد يبعد الشىء من شىء يشابهه إن السماء نظير الماء فى الزرق

قال شيخ الربوة: و بقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعا و هو من كل جهة ثلاثون ذراعا و سقفه حجر و فى وسط
 السقف نسر حجر فارش أجنحته. و فى أربع قرن السقف أربعة أصنام و أسماؤها و د و سواع و يغوث و يعوق. و بمقطع الحجارة حجر
 رابع للثلاثة التى بالقلعة متروك إلى وقتنا هذا و إلى ما يشاء الله مثلا للناس. يعنى أن من ههنا حملنا الأحجار الثلاثة المبنية بالقلعة- و
 هو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبل- و بالحصن أيضا عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعا و فى الأرض منها نحو أربعة أذرع و
 دوره نحو ذراعين و أكثر عددها نحو ستين عمودا و كان على رؤوسها عتبات و فوق العتبات البناء المحكم اه.

و إن آثار بعلبك بما فيها من العمدة الضخمة و منها من النوع المعروف بالمحجب (غرانيت) الذى جلب من السودان على ما يظهر تدل
 دلالة صريحة على أن كل هذا من صنع الرومان و بأيدى مئات الألوف من العملة المسخرين المستعبدين. و هكذا قامت جميع آثار
 الرومان بإرهاق الإنسان للإنسان.

بيد أنهم خلفوا عاديات عظيمة أعلت بين الأمم القديمة ذكرهم، و جعلتهم موضع الإعجاب على توالى الأحقاب.

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٣٨

و يصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في أهرام مصر: إنها صبرت على ممر الأزمان بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، و العقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، و الأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، و الملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هي غاية إحكامها حتى إنها تكاد تحدث عن قومها و تخبر بجمالهم و تنطق عن علومهم و أذهانهم و تترجم عن سيرهم و أخبارهم. أو ما قاله في يرابي مصر: فالحكاية عن عظمها و إتقان صنعها و إحكام صورها و عجائب ما فيها من الأشكال و النقوش و التصاوير و الخطوط مع إحكام البناء و جفاء الآلات و الأحجار مما يفوت الحصر. و من أجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة:

خرب حارت البرية فيها فتنة السامعين و النظار
معجزات من البناء كباراً لأناس ملء الزمان كبار
ألبستها الشمس تفويف درو عقيق على رداء نضار
و تحلت من الليالي بشامات كتقطيع عنبر في بهار
و سقاها الندى رشاش دموع شربتها ظوامي الأنوار
زادها الشيب حرمة و جلالاً توجتها به يد الأعصار
رب شيب أتم حسنا و أولى واهن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام و لكن صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب فيه تمثيل حكمه و اقتدار
صنعوا من جماده ثمرا يجنى و لكن بالعقل و الأبصار
و ضروبا من كل زهر أنيق لم تفتتها نضارة الأزهار
و شموسا مضيئة و شعاعا باهرات لكنها من حجار
و طيوراً ذواها آيات خاللات الغدو و الإيثار
في جنان معلقات زواه بصنوف النجوم و الأنوار
و أسودا يخشى التحفز منها و يروع السكوت كالترآر
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الأنياب غير ضواري

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٣٩ في عرائنها دخان مثارو بألحاظها سيول شرار

تلك آياتهم و ما برحت في كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام دق حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعد العقل فيه و العقل بعد البارى
منتهى ما يجاد رسماً و أبهى ما تحج القلوب في الأنظار

أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق:

هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار و هندستها، و من أهم آثارها أنطاكية التي بناها انطيوخوس و أكمل زخرفها سلوقس سنة (٣٠٠) قبل الميلاد. و كان فيها من عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان أن تعمل مثله في أرضها، و لو لا أن الزلازل تحيبتها في أدوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة. و كانت أنطاكية عاصمة الشرق أيام اغسطس قيصر كما كانت رومية

عاصمة الغرب. و من يدخل أنطاكية و يذكر ما كان فيها من القصور و الدور و المعابد و الهياكل و الحمامات و القنوات و دور التمثيل يبكي لبلد اتفقت الآفات السماوية و الأرضية على تخريبه، و لم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة. و من جملة آثار الهندسة الرومانية أو اليونانية بحيرة قدس أو خزان حمص و قناة سلمية و جسر قنوات و آثار سبسطية و منها مصانع حلب، و هي صورة تامة من نشوء الهندسة، و قد غنيت هذه المدينة الأخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية و الدينية و المدنية و ما برح معظمها بحاله. و من أهم ما فى شمالى الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق) و ملعب دفنة و كان فيها معبد أبولون رب الشمس و النور و الصنائع و الآداب و الطب عند قدماء اليونان، و نصب فيها بريكسيس المهندس الآثني تمثالا للرب اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة، و هو قابض بيده على قيثاره، و قد صورت صورته على نقود أنطاكية و فيها معبد ديان و الزهرة و غيرها من الأرباب. و كانت مدينة أفامية على عهد السلاسة خلفاء الإسكندر من المدن الكبرى بدليل ما ذكره الهمداني من أنه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور فى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٠

العالم. و كانت مستقرا للجيش الرومى. و فيها زرائب و إصطبلات تؤوى ٣٠٠ فيل و ٣٠٠ جاموس و ٣٠٠٠٠٠ حصان ترعى فى سهلها الخصب و ترد ماءها العذب النмир. و قد دك حصنها بومييس و كان من أمنع الحصون.

و فيها إلى اليوم آثار شارع يمتد من الباب الشمالى و على جانبه سوار و عمد مختلفة الأشكال و الحجم تبلغ نحو ١٨٠٠ سارية يرد عهدا إلى أواخر حكم الرومان. و لا يزال كثير من الأرتجة و الأبواب قائما و هناك خرائب أخرى لم تعلم ماهيتها.

و منها خرائب البارة فى الشمال غربى العاصى. و خرائبها واسعة و مهمة و شوارعها العديدة و بيوتها «على رواية فان برشم» لا تزال محفوظة. منها بقايا خمس أو ست كنائس و بيع. و فى ضواحيها بيوت مهملة عملت من الحجر الصلد يكفى أن تسقف بالخشب حتى تسكن و هي خالية. و إن ما هنالك من مصانع و معابد و بيع و قصور و كلها تقريبا من العهد المسيحى قد لا يخلو من نقوش، و يرد عهدا على الأغلب إلى القرن الخامس و السادس، و فى قلعتها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين و الثلاثة و عرضه ٧٥ س زبرت عليها حروف يونانية. و أغرب ما فى عاديات هذه القرية أن خرائبها الواقعة على أربع مائة متر تقريبا ما زالت بحالها تذكر المرء بآثار بومييه و مساحتها السطحية أربعة كيلو مترات مما دل على عظم المدينة فى القديم. و قد قام بين المحلتيين قصر ذو طبقتين محفوظ فى الجملة اسمه دير سوبات و فيه آثار و نواويس و أبواب أزيلىة. و قد وجد على أحد أبوابها كتابه يونانية معناها «ليحفظ المولى من ملكك و مخرجك الآن و فى العصور المقبلة أمين» و كانت هذه المدينة فى سعة حلب كما يفهم من خططها.

و من أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذى كان يخرقها من الشرق إلى الغرب أى من الباب الشرقى إلى باب الجابية و طوله ١٦٠٠ متر و على جانبه رواقان من العمد و هو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور و الحوانيت. و كان مقسوما إلى ثلاثة أقسام الوسط للدواب و العجلات و الرصيفان بجانبه للذاهبين و الجائين. و الباب الشرقى اليوم على ما يرى هو أحد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك أن الشارع لم يكن عرضه أقل من خمسة و ثلاثين

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤١

مترا. و من العاديات القديمة فى دمشق مدخل الكنيسة و لا سيما من الغرب و هي التى أصبحت فى الإسلام الجامع الأموى.

حوران و لبنان و غيرهما:

و لا تزال خرائب بصرى قصبه حوران، و أحصن مدن باشان و معقل الرومان، شاهدة بما كان فى تلك المدينة من الفخامة و العظمة. و كان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلا و ربع ميل و عرضها ميلا، و يحيط بالسور ربض كثير البانى، و محيطها خمسة أميال لها سور عالى الجدران، وثيق البنيان، و قلعة لا أحصن منها فى عامة أرض الشام. و يقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر فى وسطها له

بابان جميلان على طرفه و شوارع رحبة و فيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة، و بدائع البناء، و أساليب النقش فى الهياكل و الكنائس و القبور و المذابح، و ركام الأنقاض و بيوت الأقدمين.

و قوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذى صار امبراطورا و هو من أهالى بصرى.

و المشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدما و هو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية. و فيها مشهدان و ستة هياكل و عشر كنائس أو عشرة مساجد، عدا القصور و الحمامات و السبل و القنوات و أقواس النصر و غير ذلك من المباني الكثيرة و بعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوربا الآن.

و لقد شوهده فى معظم المدن التى بناها الرومان فى هذه الديار و فى غيرها أنها متشابهة فى مرافقها إلا قليلا. ففى كل مدينة ساحة عامة (فوروم) و ما يتبعها من المرافق و معبد الكابتول أو معبد المشتري و جونون و مينرفا (ربة الحكمة و الفنون و الحرب). و كانت فى المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية فى مدن أوربا الحديثة. و فيها أسواق ذات نضائد من الحجر و فوارات و مقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى إلى اليوم آثارها. و مراحيض عامة و خاصة.

و أماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة و حارة و بيوت للتعريق. و قاعات للرياضة و المحادثة و مماش للتنزه. و أفران و أقواس نصر و أبواب تغلق ليلا و دور تمثيل لا يزال فى أكثرها مصاطبها المدرجة و مساكن خاصة.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٢

و من أهم مصانع الشام عاديات قنوات فى جبل حوران و صفها بورثر بقوله: بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأينا على اليسار واديا عميقا، و على جانبه الغربى خرائب المدينة القديمة و سورها يتبع الشواهد مسافة ميل ثم ينعطف متعرجا. فيكتنف أرضا عرضها نصف ميل فيها القصور و الهياكل و الكنائس و المشاهد و ما مائلها من المباني الفخمة قائمة بعضها بإزاء بعض على نسق بديع يدهش الأبصار. و وراء السور فى أسفل الوادى و على الجبال المحيطة به فى القنن الشاهقة و بين حراج البلوط أعمدة رفيعة، و أبراج مشيدة، و مدافن عالية. و اسمها عند اليونان قناتا و سماها العرب قنوات بلغت أوج مجدها على عهد الرومان، و كانت من أعظم المدن شرقى الأردن. و فى عهد النصرانية تنصر أهلها و حولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الإسلامى و قتل سكانها أو هجروها فلم يعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا فى غيرها من مدن الشام.

ثم ذكر أنه لم ير فى مدينة أخرى من مدن فلسطين ما رآه فى هذه المدينة و بينها تماثيل أسود و فهود و كلاب، و فيها رأس عظيم للربة عشتاروت أمام هيكل صغير، و أمام القصر ساحة فسيحة تحتها صهريج كبير سقفه معقود، كانت المياه تجرى إليه بقناة منحوتة فى جانب الوادى، فيجتمع فيه ما يكفى المدينة فصل الصيف. و غربى المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمدة الكورنثية، و هو قائم على أكمة صناعية و قد سقط أكثره و تصدعت الجدران، و فيها برج مستدير و آثار سور. و فى بطن الوادى مماش مدرجة و فساقى منسقة و كراسى التماثيل و هيكل صغير و ملعب نحتت مقاعده فى الصخر. و فوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها إن مرقص لوسياس بناه على نفقته و وهبه لأبناء وطنه. و يصعد من هذا الملعب بسلم منحوت فى الصخر إلى البرج المستدير و هو ضخمة الحجارة قديم البناء لم يبق منه إلا ما ارتفاعه عشرون قدما و على مقربة منه بقايا قصر مبنى بحجارة كبيرة منحوتة و أغلاق أبوابه و كواه من الحجر كلها و هى كثيرة النقش عليها أكاليل بارزة من الأزهار و الأثمار.

و من أهم الآثار فى الشام جسر المعاملتين و جسر جليل بين البلدة و مدافنها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٣

القديمة و منها قناتان تمتدان بين نهر الكلب و جونية. و الثانية القناة الكبرى التى كانت تنقل مياه الجبل إلى بيروت و هى من عجائب الآثار القديمة. و منها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري فى لبنان و هيكل أنقا عند منبع نهر إبراهيم و هيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذيبان فى سفح جبل صنين. و فى لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل زيزا و ناوس فى جهات أميون قرب طرابلس و تماثيل كثيرة

مبعثرة. و في البتروان حصن منيع و ملعب و في بيروت مسرح، و من قلاعهم قلعة صربا و يحمور. و من أجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال رى بحمامات كارا كالا في رومية. و كنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية. قال و لا شك أنها أجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع إقليم حوران.

الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل:

قال أحد علماء الآثار: إن في الشام الوسطى مجالا واسعا للأبحاث العلمية و درس العاديات، فإن فيها ما لا يحصى من الأبنية العادية كالهياكل الوثنية و الكنائس المسيحية و دور الخاصة و الأندية العمومية من أواخر القرن الأول قبل المسيح و القرن السابع للميلاد، و لأكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها. و هذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية من أثر أو آثار.

و قد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية و تدمر و بعلبك ولدّ و باب جيرون قال و الروم تقول: ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها (أورفة)، و لا من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج، لأنها بطاقات من خشب العناب، و لا بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية، و لا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص. و بيعه القسيان في أنطاكية هيكل طوله مائة خطوة و عرضه ثمانون و عليه كنيسة على أساطين و كان بدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة و الطلبة للدرس، و على أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلا و نهارا اثنتي عشرة ساعة، و في أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات و بساتين و مناظر حسنة تحزّ منها خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٤

المياه، و هناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب و الفضة و الزجاج الملون و البلاط المجزّع. و كنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة و هي إحدى عجائب العالم. و كان في مادبا من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ مترا له عمد على الجانبين. و من العجائب آثار عسقلان و اشتهرت الشام بطرايلها أي صوامعها. و في كتاب لبنان أن من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة، و معبد نانس فوق شبطين، و معبد كفر سليمان، و كنيسة حدثون و كانت مبلطة بالفسيفساء تمثل رسوما و تصاوير جميلة، و من الفسيفساء أمثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان كفسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس في سرح، و كنيسة كور القديمة، و ما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حولها طيور كالطاووس و الحجل و بعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ٥٥٤ م. و كان في بيروت عدة كنائس بيزنطية. و من الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس: إن لها عند الروم في دمشق شأنا عظيما و ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. و سنعرض للكلام على بقية الكنائس و الأديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر.

آثار العرب قبل الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام يختلفون إلى الشام و كان النبط و هم عرب هم الذين أنشأوا آثار جرش و البتراء. و الغسانيون و اليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى و منها قصر النعمان بن المنذر في السويداء و في حارب. و بنى جفنة أول ملوكها جلق و القرية و عدة مصانع. و بنى ابنه عمرو دير حالي و دير أيوب و دير الدهناء. و بنى ثعلبة بن عمرو عقة و صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء. و بنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر و أذرح و القسطل. و بنى الحارث بن جبلة و كان مسكنه البلقاء الحفير في البلقاء، و مصنعه بين دعجان و قصر أبيير. و بنى المنذر بن الحارث صربا و رزقا قريبا من الغدير. و بنى جبلة بن الحارث قصر حارب. و بنى الأيهم ابن الحارث من الأديار دير ضخم و دير النبوة و سعف. و بنى عمرو بن

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٥

الحارث قصر الغضا و صفاة العجلات و قصر منار. و كان منزل جبله بن النعمان بصفين و هو صاحب عين أبغ. و أصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة و كان بعض ملوك لخم خربها.

و حكم التنوخيون شمالي الشام قبل أن يجيئها جيوش العرب بقرون و لم نعرف للضجاعم و التنوخيين آثارا تذكر. و آثار الصفا و لغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ و آثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك. و أقدم أثر عثر عليه العلماء و كتب بالعربية كتابه عثر عليها في زبد للجنوب الشرقي من حلب، و أخرى في حران جنوبي دمشق من أعمال اللجاء في حوران. الأولى مثلثة اللغات عربية و سريانية و يونانية يرتقى عهدا إلى سنة ٥١٢ ب. م و الثانية بالعربية و اليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ ب. م بيد أن دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرّة وادي السوط على مسافة كيلو متر من النمره في حوران إلى جنوبها الشرقي و تاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبعصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية. و في الكتابة المذكورة تاريخ وفاة أحد ملوك عرب الشام و اسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بنى أسد. وزار أحد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة و أولها: «تى نفس (هذا قبر) امرؤ القيس بر (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذى) أسر التاج و ملك الأسدين و نزار و ملوكهم الخ». و نسب دوسو عدة أبنية في سيف البادية إلى الغسانيين.

و لقد أخطأ كلرمون غانو في قوله: ليست المدينة العربية إلا كلمة خداعة لا وجود لها أكثر من فطائع الفتح العربي، و إن المدينة العربية آخر أنوار المدينة اليونانية و الرومانية طفئت بأيد خرقاء و لكنها محترمة و هي الإسلام.

ليست الحضارة ثمره جيل بذاته و لا- هي مما يرتجل ارتجالا- كالإيرث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع إرثي من القوى الحية. هو كثر من التوفير أتت عليه مئات من السنين قد يستطيع أحد اللصوص أن يضع يده عليه و يبذر فيه يوما، و لكن حياته بأسرها لا تكفى للإيجاد، فقد احترمت هاته الأمة الحديثه النعمة ما وجدته من الإدارات و المعارف و الفنون، على حين لم يكن وراءها ماض تعتر به، و اقتصرت أن تحول كل شيء إلى منفعتها، و بلغ

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٦

بها الحال أيضا أن جعلت لدى ميسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية، و هي امتيازات جادت بها، و نار التعصب يحرقها، فتساهلت معها تساهلا- دينيا عجيبا اه. نعم أخطأ في حكمه على العرب و هم ما خربوا العاديات و لكنهم لم يتوفروا على ترميمها بعد أن كان للعرب من البنيان قصر غمدان و كعبة نجران و قصر مأرب و قصر مارد و قصر شعوب و الأبلق الفرد و قصر المشتى و الفدين و غيرها من المصانع و القصور التي سنعرض لها في هذا البحث كيف يسلبهم كلرمون غانو إبداعهم المجمع عليه.

قصور العرب في الإسلام:

تخلى جمهور من الروم في دمشق عن دورهم في الفتح و لحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون، ثم أخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ما عور من بنائه، و ربما بنوا بالمدرى باللين و الطين أولا، ثم عادوا إلى استعمال الحجر. فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما بلغه أن سعدا و أصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنيان بالمدر فأما إذا فعلتم فعرضوا الحيطان، و أطيلوا السمك، و قاربوا بين الخشب. و قد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور و قصور منتشرة في أنحاء المدينة مثل دار أبي عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد و فضالة بن عبيد و العباس بن مرداس و أبي العزيز الأزدي و وابصة بن معبد و طلحة بن عمرو و خالد بن أسيد و النعمان بن بشير الأنصاري و وائلة بن أسقع و هبار بن الأسود و عمرو بن العاص و أوس بن أوس و يزيد ابن نبيشة و عبد الله بن عامر إلى أمثالهم. و لا نعرف إلا مكان دار أبي عبيدة و كان في محله حجر الذهب أى المحله التي تعرف اليوم بالبيمارستان و كانت أجمل حتى في دمشق.

و كان معاوية يقيم أحيانا في غوطه دمشق و ينصب الأبنية و الأروقه و الفساطيط و زعم اليعقوبى أن معاوية كان أول من بنى وشيد

البناء و سخر الناس في بنائه و لم يسخر أحد قبله. و لما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء، لقبه خضراء بناها عليها عرفت الدار بها، و ذلك قبلي الجامع الأموي، دخلها وفد الروم فقالوا: ما أحسن ما بناها للعصافير. و في رواية أما أعلاها خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٧

فالعصافير و أما أسفلها فللنار، فهدمها و بناها بالحجر. و الغالب أنها ظلت عامرة إلى القرن الخامس و فيها دار الإمارة. و احترقت سنة (٤٦١) و بادت على ما نقل البرزالي. و قرأ المقدسي في بعض الكتب أن ما أنفق على الخضراء ثمانية عشر حمل بغل ذهب. و لما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء و هي دار الإمارة بدمشق فاشتراها بأربعين ألف دينار، و اشترى منه أربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن فاختر من فلسطين عمواس، و من الأردن قصر خالد، و من دمشق الأندر، و من حمص دير زكا.

و بنى الأمويون بعده بيوتا لهم كانت بجوار الجامع و منها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميانية الآن، و دار هشام مكان تربة نور الدين، و قصر سليمان بن عبد الملك، مكان سقاية جيرون، و دار مسلمة ابن هشام بباب البريد. قال الذهبي: بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة و عمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز. و كان لعاتكة ابنة يزيد ابن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق. و قال ابن عساكر: كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي. و قصر حجاج منسوب إلى الحجاج ابن عبد الملك بن مروان. و قال ابن شاذان: و كان قبله أيضا معروفا بالحجاجية ملكا للحجاج بن يوسف الثقفي فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور و كانت أمه بنت محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف الثقفي سمته باسم عمها الحجاج فنحله الأرض المذكورة و بنى له القصر فعرف به و نسب إليه. و قال آخر: إن الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك دارا بدمشق تعرف بدار الحجاج. و اسم قصر الحجاج ما زال يدور على الألسن إلى اليوم دون القصر الذي دثر.

و قد بنى الأمويون قصورا لهم في الغوطة و كانوا يملكون جانبا عظيما منها و لكن لم يظهر لها أثر و لا خبر. قال ابن حزم: و كانت دولة بنى مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم إنما كان سكناهم كل أمير منهم في داره و ضيعته التي كانت له قبل الخلافة. و من قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جدده في زمن العباسيين عامل تلك

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٨

المدينة الفضل بن قارن الطبري و تحصن به لما وثب به أهلها.

عناية الأمويين و تقنهم:

و في أيام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات و العمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان، و ذلك لأن الخليفة كان يرغب في البنايات و إتقان المصانع، و في عهده دخلت دمشق في طور العواصم و الناس على دين ملوكهم. قال أحد المؤرخين: و كان الوليد عند أهل الشام محبوبا لأنه صاحب عمارة و بناء، عمر الضياع و وضع المنار في الطرقات، و أعطى المجذمين و أفردهم، و قال: لا تسألوا و أخدم كل مقعد خادما، و أعطى كل ضرير قائدا، و كتب إلى جميع البلاد بهدم المساجد و الزيادة فيها، و تسهيل الطرق و حفر الأنهار، و أن تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى، و هو أول من فعل ذلك و هو أول من أجرى على القراء و قوام المساجد الأرزاق.

قال ابن أبي عيلى رحمه الله الوليد، و أين مثل الوليد، افتتح الهند و الأندلس و بنى مسجد دمشق، و كان يعطينى قصاب الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس. وعدّ المقدسي من أمصار المسلمين في الشام أو من المدن التي عمرها المسلمون و بعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة:

أنطاكية، بالس، المعرتين، منبج، قنسرين، سلمية، تدمر، اللاذقية، جبلة، جبيل، انطرسوس، بانياس، اللجون، جوسية، حماة، شيزر، وادى

بطنان، داريا، بانياس، صيدا، بيروت، عرقه، طرابلس، الزبداني، كامد، عرجموش، بيسان، أذرعات، قدس، كابل، عكا، صور، الفراضية، بيت جبريل، غزة، عسقلان، يافا، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان، ديلة، عينون، مدين، أذرح، مآب، معان.

الجامع الأموي و المسجد الأقصى:

و من أهم الآثار التي تتم عن ذوق عربي في هذه الديار الجامع الأموي، وقد جرى ترميمه في أوقات مختلفة و القليل الذي بقي من آثار نقش العرب

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٤٩

و تصويرهم يدل على ما كان هناك من ذوق سليم، و يد صناع. و هندسة الجامع الأموي و المسجد الأقصى مقبسة من الهندسة اليونانية و ممزوجة بأشياء إسلامية.

بعث ملك الروم إلى الوليد كثيرا من البنائين و المقدرين أي المهندسين مع ما بعث إليه من المفصص أي الفسيفساء و الذهب قال المقدسي: إن الوليد جمع لبناء الجامع الأموي حدّاق فارس و الهند و المغرب و الروم. و روى ابن شداد: أن الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمدا عجيبة من المرمر و الرخام لمسجد دمشق حملت في البحر إلى ساحلها. و لما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ أن نقول: إنه جمع أجمل ما في الهند و فارس و آثنية و رومية.

أما طرز البناء فالغالب أن بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعت أو معبدا للصائبة. و مساجد الشام و مصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ أو سايبوس: إنها ذات أفنية و أووين و فساقى و مساكن للقسس.

و لقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الأموي و نقشه و تصويره ما يعجب منه و لا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير: إن أرض الجامع الأموي كانت مفصصة كلها و إن الرخام كان في جدرانها إلى قامات و فوق ذلك كرمه عظيمة من ذهب و فوقها الفصوص المذهبة و الخضر و الحمر و الزرق و البيض و سقفه مقرنص بالذهب و السلاسل المعلقة فيه من ذهب و فضة. و قد أنفق فيه خراج الشام سنتين و في رواية أربعمئة صندوق كل صندوق ثمانية و عشرون ألف دينار. و كان خراج الشام على عهد بني أمية ألف دينار و مائتي ألف دينار. و ذكر بعضهم أن الوليد أخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين و كانوا خمسة و أربعين ألفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق. قال المقدسي: و الجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم و لا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه و من أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها، و لو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة.

دخل المأمون مرة جامع دمشق و معه أخوه المعتصم و يحيى بن أكتم فازدادوا عجا قال المأمون لهما: أي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم:

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٠

ذهبه فإننا نضعه في قصورنا فلا- تمضى عليه عشرون سنة حتى يحول، و هذا بحاله مع طول الزمن، كأن الصانع فرغ منه الآن. فقال المأمون: ما أعجبنى هذا. فقال يحيى بن أكتم: الذي أعجب أمير المؤمنين تأليف زخارفه فإن فيه عقودا ما يرى مثلها. فقال المأمون: كلا بل أعجبنى أنه بنى على غير مثال شوهد.

كاد المؤرخون و الجغرافيون من العرب يجمعون على أن المسجد الأقصى أحسن من جامع دمشق. عمّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم و القبة الكبرى التي فوق الصخرة على أسلوب جميل لم يسبق إليه. قال بعضهم:

إن شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستينانس و بنى موضعها المسجد الأقصى، و تنوق في تنميته و أكمل البناء سنة ٧٢ و قالوا: إن أساس المسجد الأقصى من عمل داود و هو على غاية الحسن و الإحكام كما قال

ياقوت مبنى على الأعمدة الرخام الملونة و الفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق و لا غيره. و روى ابن العديم أن جامع حلب كان يضاهاى جامع دمشق فى الزخرفة و الرخام و الفسيفساء و أن سليمان بن عبد الملك هو الذى بناه و تأتق فى بناءه ليضاهاى به ما عمله أخوه الوليد فى جامع دمشق. و كان سليمان بن عبد الملك يسكن الرملة قبل الخلافة عمّرها و بنى مسجدها الجامع و خزّب له جارتها.

تاريخ الحرم القدسي:

شيد المسجد الأقصى و قبة الصخرة فى مكان تل موريا، و هى منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون و اليهود و المسيحيون و المسلمون، و ربما كانت بيدرا لأحد اليوسيين سكان فلسطين القدماء، و قد بنى فوقها داود بعد فتحه المدينة مذبحا تقدم فيه القرابين. و أمر سليمان سنة (١٠١٣ ق. م) بإنشاء قصر له مكان المسجد الأقصى و هيكل فخم حيث قبة الصخرة. و قد دمره الكلدانيون سنة (٥٨٨ ق. م) و فى السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير بإقامة هيكل و برج عال فى المكان نفسه و لم يتمه، و دمره جنود الرومان سنة ٧٠ لما استولى طيطوس على بيت المقدس. و بنى الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٠ م

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥١

مدينة ايلياء و أمر بتشيد زون كبير للمشترى إله الحرب اثنا عشرى الشكل (Dodecastyle) فنصب فيه صنما للمشترى و آخر لديوسقورس أو صنم التوأمين (كاستور و بلوكس) و أقام تماثالا- لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة. و قضى الفرس على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة (٦١٤).

و لما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب توا إلى مكان الحرم الشريف و أزال ما كان فيه من الأقدار، و لما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان و حيل بينه و بين الحرمين الشريفين لقيام عبد الله بن الزبير خليفة فى الحجاز أمر بإنشاء المسجد الأقصى و قبة الصخرة فى بيت المقدس و رصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ فى سنة (٧٢٥ هـ) و كتب اسمه منقوشا بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي «بنى هذه القبة عبد الملك ... أمير المؤمنين فى سنة اثنتين و سبعين تقبل الله منه و رضى الله عنه آمين» أما الكتابة الأثرية فهى على المثلثات ١: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله صلى الله عليه. بنى هذه القبة المباركة. ٢: عبد الله عبد [الله الإمام المأمون] ن أمير المؤمنين فى سنة اثنتين و سبعين تقبل الله منه و رضى الله عنه آمين. و الكلمات الثلاث الموضوعه ضمن قوسين هى بخط أصفر و نقش أغبر و هى كانت و لا شك [الملك بن مروان] و قد أبدلتها يد صناع. أما الذى تولى عمارة القبة سنة ٢١٦ هـ من قبل المأمون فهو صالح ابن يحيى و لكنهم نسوا أن يرفعوا التاريخ الأصيلى لبناء القبة و هو سنة ٧٢.

و سقط شرقى المسجد و غربيه سنة ١٣٠ بالزلازل و كذلك فى سنة ١٥٨ فجدد فى سنة ١٦٩ فى خلافة المهدي، و قد أنقص من طوله و زيد فى عرضه، و جدد عمارة قبة الصخرة فى أيام المأمون (٢١٦) و زلزلت الأرض ثالثه (٤٠٧) فتهدمت قبة الصخرة و بعض الجدران، فجددها الظاهر الفاطمى (٤١٣ هـ) و زيد فيه فى زمن الفاطميين البناء المسمى بجامع النساء، و كان فى مسجد بيت المقدس ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعا.

و لما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة، و المسجد الأقصى إلى منزل لسكنى ملكهم. و لما استعاده صلاح الدين أعاد الحرم إلى ما كان عليه و أمر بترميم محراب الأقصى و كتب عليه بالفصوص المذهبة ما

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٢

نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، و عمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس، عبد الله و وليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا و الدين عندما فتحه الله على يديه فى شهور سنة ثلاث و ثمانين و

خمسائة، و هو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة».

و فى سنة (٦٣٤) عمر فى المسجد الملك المعظم عيسى. و فى سنة (٦٦٨) رمّ المسجد و الصخرة الظاهر بيبرس. و فى سنة (٦٨٦) عمر فيه المنصور قلاوون و رم فيه كتبغا المنصور لاجين و الناصر قلاوون فى سلطنته الثالثة و فى أيامه عمر فيه أيضا الأمير تنكر الناصرى. ثم جدد الأشرف شعبان (٧٦٩) و الظاهر برقوق (٧٨٩) و الظاهر جقمق العلانى و فى سنة (٨٧٧) جدد فيه الأشرف أبو النصر. و فى أيام العثمانيين تمت فى الحرم عدة عمارات منها ما جددده سليمان القانونى سنة (٩٦٩) و منها ما جدد فى سنى ١٢٣٢ و ١٢٥٦ و ١٢٩١ و بعدها.

المسجد الأقصى اليوم:

هو أولى القبليتين و ثالث الحرمين الشريفين، و وقع الحرم على مساحةً مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠ مترا و الشرقية ٤٧٤ مترا و الشمالية ٣٢١ مترا و الجنوبية ٢٨٣ مترا يحيط بها سور يختلف ارتفاعه بين ٣٠ مترا و ٤٠. و يبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة أمتار طولاً فى أربعة أمتار عرضاً. و حول السور من جهة الغرب و الشمال أروقةً فسيحةً معقودةً يتخللها بعض أبواب الحرم و هى ١٤ باباً. و قد قام جامع الصخرة الشريفة فى فناء مربع مفروش بالبلاط النحيت طوله من القبلة إلى الشمال أكثر من عرضه من المشرق إلى المغرب و ارتفاعه ثلاثة أمتار يصعد إليه بأدراج من الجهات الأربع، و عقد على كل درج من أعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام. و القبلة على بناء فخم مثنى الشكل، ذرع كل تميمية منه ٢٩ ذراعاً و ثلث ذراع (٤٠ م / ٢٠). و قد كسى القسم السفلى من ظاهر بالرخام الأبيض المشجر، و القاشانى البديع الذى يتفرق فيه ماء الألوان المتزاوجة، من لازوردى صاف و أخضر قاتم و أبيض ناصع، يعلو ذلك شبه أفريز رسمت عليه آى

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٣

القرآن. وضع هذا القاشانى فى أيام سليمان القانونى سنة (٩٦٩) ه و تحوى كل تميمية من البناء على سبع طاقات للتي لا باب فيها و على ست للتي لها باب.

و الطاقات المحاذية لأطراف التميميات مسدودة كلها، و الأخرى مركب عليها الزجاج و الشباييك الحديد. و لجامع الصخرة أربعة أبواب مزدوجة داخلاً و خارجاً مربعة الشكل بعقود مقوسة، و أمام الباب الأخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشانى فى وسطه قنطرة معقودة و السقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات فى النوع و اللون، و للباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الأصفر المنقوش، عليها أفعال نفيسة متقنة الوضع.

و يبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ مترا و هو مقسم إلى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الأعمدة و الأركان يتألف الأول منها من ثمانى سوار مسدسة الأضلاع و ١٦ عموداً منها «أبيض و أزرق» عشرة و «أخضر مرسينى» ثلاثة و «شحم لحم» ثلاثة، و الصف الثانى مؤلف من أربع سوار مربعة الأضلاع و اثنى عشر عموداً منها سبعة «أخضر مرسينى» و خمسة «شحم لحم». و السوارى ملبسة بالرخام المشجر و الملون البديع، و الأعمدة قديمة جدا و أكثر تيجانها تدل على أنها من الطراز الرومانى أو البيزنطى القديم و يربط أعمدة الصف الأول بعضها ببعض و بالسوارى بساتل ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب. و تحمل هذه الأعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهونا بأنواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصل طرفه الأعلى بكرسى القبلة. و يزين باطن القبلة مجموعة لا- نظير لها من الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانون البيزنطيين، و هى مركبة على سطح موشى بالذهب و فى كرسى القبلة ست عشرة طاقة زجاج مذهب يعلو كلا منها طبقة من الجبس، مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان و الأشكال، تنفذ منها أشعة الشمس صافية، ملطفة بفضل ألواح الزجاج الخارجية و

المشبكات المصنوعة من القاشاني، و على هذه الطاقات نقوش تدل على أنها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة (٩٤٥) هـ كما أن المرمر الذي يكسوها ركب في زمن السلطان صلاح الدين و جدد في أيام سليمان القانوني.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٤

و الصخرة الشريفة قائمة على درابزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الأصباغ طولها ٧٠، ١٧ مترا و عرضها ٥٠، ١٣ مترا و يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو ٢٥، ١ متر إلى مترين، و ينزل إلى المغارة التي تحتها بإحدى عشرة درجة من جهة القبلة، و عند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين و بباطنها محرابان كل محراب على عمودى رخام لطيفين، و أمام المحراب الأيمن صفة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف و آخر راقد، و فى الركن الشمالى منها صفة تسمى باب الخليل، و جميع باطن أرض الصخرة و المغارة مفروش بالرخام، و فى وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها إذا نقر عليها رنين تتجاوب أصداؤه مما يدل على خلو ما تحتها. و حول الدرابزين الخشب مصلى للنساء و هو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته، و له أبواب أربعة لا يفتح منها عادة إلا الباب الغربى الموازى لباب النساء و هو من عمل الصليبيين إبان احتلالهم بيت المقدس.

صفة المسجد الأقصى:

يقع المسجد الأقصى جنوبى جامع الصخرة و طولها ٨٠ مترا و عرضه ٥٥ مترا عدا ما أضيف إليه من الأبنية، و أول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة (٦٣٤) هـ و جدد من بعده و هو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهى إلى سبعة أبواب، كل باب يؤدى إلى كور من أكوار المسجد السبعة. و للمسجد عشرة أبواب و البناء قائم على خمسة و أربعين عمودا.

و الغالب أن هذه الأعمدة قديمة نقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهدا من الحرم. و فوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، و فوق القناطر صفان من الطاقات و يتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب. و عدة ما فى المسجد من السوارى أربعون، و هى ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة. و بأقصى الباب من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة. و هى مما رممه صلاح الدين (٥٨٤ هـ) كما رم أكبر جناحى المسجد، و القبة و الجناح على الغالب إنما صنعا فى خلافة المهدي

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٥

بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل، و هى كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها و بالفص المذهب من باطنها، و مجدده هذه التزيينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨) هـ و هناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفى على جانبى المحراب. و المحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر و بجانبه المنبر و هو من الخشب المرصع بالعاج و الآبنوس عمل فى عصر نور الدين زنكى و يقابل المنبر دكة المؤذنين و هى على عمد من رخام.

و من داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض، و هو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار فى غاية الإحكام بناه الفاطميون، و من جهة الشرق جامع عمر و هو معقود بالحجر و الجير، سمي بذلك لأنه بقيه من الجامع الذى بناه عمر رضى الله عنه حين الفتح. و إلى جانب هذا البناء إيوان كبير معقود يسمى مقام عزيز و به باب يتوصل منه إلى جامع عمر، و بجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا و هو بجوار الباب الشرقى. و فى صحن المسجد الأقصى شمالا بركة مستديرة من رخام سورت بالقصب الحديدية يقال لها الكأس، يأتياها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجع المسماة ببرك سليمان أهمها عين عطاب و وادى الآبار.

و من الآثار المهمة فى الحرم البناء السفلى المعقود بالحجر معروف عند الإفرنج بإصطبل سليمان و هو عبارة عن مهد عيسى و محراب

مريم و العقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الأقصى. وكذا البراق الشريف و هو في السور الغربي و جامع المغاربة و المدرسة النحوية المعظمية و فيها اليوم دار كتب المسجد الأقصى و هي من أبنية الملك المعظم (٦٠٤هـ) و منير القاضي برهان الدين بن جماعة و محرابه. و قبة السلسلة و هي شرقي قبة الصخرة و على شكلها صنعت في أيام عبد الملك بن مروان. و قبة المعراج سنة (٥٩٧هـ). و سبيل قايتباي (٨٨٧هـ) و ما يحيط بالحرم من المدارس القديمة ..

هذا حاضر المسجد الأقصى و ما إليه و قد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر و الشمس و الثلج و الأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص، و نخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد، فبادر المجلس الإسلامي خطط الشام، ج٥، ص: ٢٥٦

الأعلى إلى الكشف عن البناء فتبين أنه يحتاج إلى مئة و خمسين ألف جنيه على أقل تعديل. و ألفت لجنة لعمارة برئاسة المعماري كمال الدين و استصرخ الأمم الإسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين ألف جنيه، و شرع حالا بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش أو مرمر مسنون أو خزف مصقول أو خشب منجور أو صفر مطلي بالفضة أو مكسو بالتبر، أو فص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشى منمق، و يوشك بفضل الله أن يعود إلى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة.

وصف المقدسى للمسجد الأقصى في القرن الرابع:

وصف المقدسى المسجد الأقصى فقال: هو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود، طول الحجر عشرة أذرع و أقل، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة، و قد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان و كان أحسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة في زمن بنى العباس فطرحت المغطى إلا- ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفى برده إلى ما كان بيت مال المسلمين، فكتب إلى أمراء الأطراف و سائر القواد أن يبنى كل واحد منهم رواقا فبنوه أوثق و أغلظ صناعه مما كان، و بقيت تلك القطعة شامة فيه و هي إلى حد أعمدة الرخام، و ما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث، و للمغطى ستة و عشرون بابا، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفير المذهب، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوى الذراع، عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب و على اليسار مثلهن، و من نحو الشرق أحد عشر بابا سواذج، و على الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد الله بن طاهر و على الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام و أساطين و على المؤخر أروقة أزاج من الحجارة و على وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة و السقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص و المؤخر مرصوف بالفيسفساء الكبار و الصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربعة جوانب في مراق واسعة، و في الدكة أربع قباب: قبة السلسلة، قبة المعراج، قبة النبي صلى الله عليه

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٥٧

و سلم. و هذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان و في الوسط قبة الصخرة على بيت مثنى بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة باب القبلى، باب إسرافيل، باب الصور، باب النساء، يفتح إلى الغرب جميعها مذهب في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل حسن، أمرت بهن أمّ المقتدر بالله. و على كل باب صفة مرخمة بالتنوية تطبق على الصفريه من خارج. و على أبواب الصفاف أبواب أيضا سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائره على أعمدة معجونه أجلّ من الرخام و أحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة، لا مثنى على أعمدة معجونه بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار، و القبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامه و بسطة.

و القبة على عظمها ملبسة بالصفير المذهب، و أرض البيت و حيطانه مع المنطقة من داخل و خارج على ما ذكرنا من جامع دمشق. و

القبه ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقه، و الثانية على أعمده الحديد قد شكت لثلا تميلها الرياح، ثم الثالثه من خشب عليها الصفائح و في وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقددها و رمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرفت القبه و تلالأت المنطقه و رأيت شيئا عجيبا. و على الجملة لم أر في الإسلام و لا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبه، و يدخل إلى المسجد من ثلاثه عشر موضعا بعشرين بابا اه.

أصل الجامع الأموي:

كان الجامع الأموي على ما ذكر المؤرخون معبدا قبل الإسلام، قال البيروني: إن من آثار الصابئه القبه التي فوق المحراب عند المقصوره، و كان مصلاهم أيام كان اليونانيون و الروم على دينهم، ثم صار في أيدي اليهود فعملوه كنيستهم ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعه إلى أن جاء الإسلام و أهله فاتخذوها مسجدا. و قال البرزالي: و بنى اليونان و الكلدان هذا المعبد، خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٨

و كانوا يصلون إلى جهه القطب الشمالي و كانت محاريبه تجاه الشمال و بابه يفتح إلى جهه القبلة خلف المحراب، و هو باب حسن عن يمينه و يساره بابان صغيران بالنسبه إليه، و كان غربى المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمده التي بباب البريد و غريبه قصر جيرون، داران يكونان لمن يملك دمشق قديما فهو أقدم معبد.

و قال شيخ الربوه: إن له نحو أربعة آلاف سنه و هو معبد. و لما فتح المسلمون دمشق أخذوا من النصارى النصف الشرقى من هذه الكنيسه التي كانوا يسمونها كنيسه ماريوحنا، و كان المسلمون و النصارى يدخلون من باب واحد و هو باب المعبد الأصلى في القبلة فينصرف النصارى إلى جهه الغرب و المسلمون إلى الشرق. و كان لا يستطيع أهل الإنجيل أن يجهروا في قراءته بكنائسهم و لا يضربوا بناقوسهم إجلالا للصحابه. فلما أخذت أصواتهم ترفع في صلواتهم أحب الوليد أن يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه أربع كنائس أخرى. و قيل: إنه بذل للنصارى فيه أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوها فأخذها كما قال ابن العميد. و احتاج الوليد إلى صناع كثيره فوجه إليه ملك الروم بمائتى صانع.

و حكى الجاحظ في كتاب البلدان أنه كان مبنا على الأعمده الرخام طبقتين: الطبقة التحتانيه أعمده كبار، و التي فوقها صغار، في خلال ذلك صوره كل مدينه و شجره في الدنيا بالفسيفساء الذهب و الأخضر و الأصفر، و في قبله القبه المعروفه بقبه النسر ليس في دمشق شيء أعلى و لا- أبهى منظرا منها، و لها ثلاث منائر إحداها و هى الكبرى كانت ديدبانا للروم و أقرت على ما كانت عليه و صيرت مناره. و روى البرزالي أنه كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنه ست و ثمانين و تكامل في عشر سنين. و كان الفراغ منه سنه ست و تسعين و فيها توفى بانيه الوليد بن عبد الملك و قد بقيت فيه بقايا من الزخرفه فكملها أخوه سليمان بن عبد الملك و جددت فيه أشياء آخر، فمن ذلك القبه الغربيه التي في صحنه و يسميها الناس قبه عائشه، و غالب ظنى أنها بنيت في سنه ستين و مائه في أيام المهدي، و أما القبه الشرقيه التي في صحنه تجاه مشهد على بن الحسين فعمرت في أيام المستنصر العبيدى في سنه خمس

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٥٩

و أربعمائنه و كتب عليها اسمه و اسم الأئمه الاثنى عشر.

و ذكر ابن جبير أن طول الجامع من الغرب إلى الشرق مائتا خطوه و هى ثلاثمائنه ذراع و ذرعه في السعه من القبلة إلى الجوف مائه خطوه و خمس و ثلاثون خطوه و هى مائتا ذراع و بلاطاته المتصله بالقبلة ثلاث مستطيله من المشرق إلى المغرب سعه كل بلاطه منها ثمان عشرة خطوه، و قامت البلاطات على ثمانيه و ستين عمودا منها أربع و خمسون ساريه ثمانيه أرجل جصيه تتخللها و اثنتان مرخمه ملصقه معها بجدار الذى يلي الصخره، و أربعة أرجل مرخمه أبدع ترخيم مرصعه بفصوص من الرخام ملونه، و قد نظمت خواتيم، و صورت محاريب، و أشكالا غريبه، قائمه في البلاط و يستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطا، و عدد قوائمه سبع و

أربعون منها أربعة عشر رجلا- و الباقي سوار. و سقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص و أعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب و هي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة، و قد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب إلى الصحن و القبة، و قد أغصت الهواء فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلا.

و ذكر الباحثون من الفرنج أن طول الحرم الأصلي من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم و عرضه من الشمال إلى الجنوب ١٠٠٠ فهو ربع مساحة دمشق كلها. و كان أمام جدرانه الأربعة من الداخل صف من الأعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها، و الجامع في وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التي كانت قبله، و هي قائمة على أسس الهيكل الذي كان قبلها أو على بعضها، و الجدار الغربي من الجامع قديم كله، ما عدا باب البريد في وسطه فإنه من زمن العرب، و في الجدار الجنوبي أنواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني، و جانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس و اركاديوس من القرن الرابع و الخامس للميلاد، و جانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن، و تجديدات أخرى بعد ما احترق في قرون متعددة.

و قال ابن حوقل: إن الوليد جعل أرض الجامع رخاما مفروشا و جعل وجه جدرانه رخاما مجزعا و أساطينه رخاما موسى و معاهد رؤوس أساطينه ذهبا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٠

و محرابه مذهب. الجملة مرصعا بالجواهر و دور السقف كله ذهبا مكتوبا عليه كما يطوف بترايع جدار المسجد، و إذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه حتى إذا فجر منه انبسط عنه و عن جميع الأركان بالسوية. و أبوابه الأربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها و فيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية أحدثها سنة ٤٤ لما وثب عليه بعضهم ليقتله. كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بأبيض و أحمر بذل الفرنج أموالا فلم يجابوا إليه. و قد كان عزم عمر بن عبد العزيز أن يعمد إلى ما في الجامع من الفسيفساء و هو النقش المفصص و الرخام فيقلعه و ينتزع السلاسل الذهبية، و كانت ستمائة سلسله و يجعل مكانها جبالا و ينزع غيرها من ضروب الزينة و يبيعها و يجعلها في بيت المال فأرجعه أهل دمشق عن فكره. و ذكروا له ما قام به أهل الشام من بنائه على هذه الصورة.

و وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الأموي فقال: إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية و هي كلها الهائلة البنيان قال: إنها مستديرة كالكرة و ظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد يعطف كل ضلع عليها كالدائرة، و تجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها، و داخل هذه القبة و هو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيبا، و هي كلها مذهبة بأبداع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، و في الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو، و كيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة اه.

و لنا بعة بنى شيان من قصيدة يصف فيها بدائع هذا الجامع في القرن الأول و هي في مدح الوليد بانيه:

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا فصرخها عن جديد الأرض منسوف

كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا باتت تجاوبنا فيها الأساقيف

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦١ أصوات عجم إذا قاموا بقربتهم كما تصوت في الصبح الخطاطيف

فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة و صادق من كتاب الله معروف

فيه الزبرجد و الياقوت مؤتلق و الكلس و الذهب العقيان مرصوف

ترى تهاويلهم من نحو قبلتنا يلوح فيه من الألوان تفويف

يكاد يعشى بصير القوم زبرجه حتى كأن سواد العين مطروف

و فضة تعجب الرئين بهجتها كريمها فوق أعلاهن معطوف
 و قبة لا تكاد الطير تبلغها أعلى محاريبها بالساج مسقوف
 لها مصابيح فيها الزيت من ذهب يضيء من نورها (لبنان) و (السيف)
 فكل إقباله- و الله زينه- مبطن برخام (الشام) محفوف
 فى سره الأرض مشدود جوانبه و قد أحاط بها الأنهار و الريف
 فيه المثاني و آيات مفصلة فيهن من ربنا وعد و تخويف
 و من أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكنانى من قصيدة:
 و كأن جامعها البديع بناؤه ملك يمير من المساجد جحفلا
 ذو قبة رفعت فضاهت قلعه و منابر بنيت فحاكت معقلا
 تبدو الأهلة فى أعاليها كما يبدو الهلال تعاليا و تهللا
 و يريك سقفا بالرصاص مدثرا يعلو جدارا بالرخام مزملا
 قد ألف الأقسام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلا
 لم يرض تجليلا بجص فانبرى بالفص يعلو و النضار مجللا
 يغشى سوام اللحظ فى أرجائه من عسجد أرضا و من فص خلا
 فإذا تذر الشمس منه تخاله يلقا تألق أو حريقا مشعلا
 فكأنما محرابه من سندس أو لؤلؤ و زمرد قد فصلا
 و تخال طاقات الزجاج إذا بدت منه للحظك عبقرىا مسدلا
 تبدو القباب بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
 و علت به فؤارة من فضة سالت فظنوها معينا سلسلا
 و ببابه حركات ساعات إذا فتحت لها باب تراجع مقفلا
 و يريك باريها و كل قد رمى من فيه يقذفه يصيب سجنجلا
 و ظل الجامع بحاله بهجة النظار و السفار، و مفخر دمشق على غابر الأعصار،
 خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٢

و الملوك حتى من العباسيين يرمون فيه إلى أن التهمة الحريق الأول سنة (٤٦١ هـ) فذهبت محاسنه، و ذلك فى حرب المصريين
 المغاربة أى الفاطميين مع العراقيين فأحرقوا دارا مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدمرت محاسنه، و تشوه مظهره و احترقت سقوفه
 المبطنه بالذهب و فصوصه، و سقطت القبة كما قال الذهبى فأعيدت إلى ما كانت، و احترق ثانية سنة ٧٤٠ و كان الأصل فيه كما قال
 ابن مفلح من النصارى بدمشق، و اشتهر ذلك عنهم، و كتب عليهم محضر به، و نقضت مأذنه عيسى و جددت من أموالهم لكونهم
 اتهموا بحريقها بإقرار بعضهم. و هذا الحريق عم جميع الجامع و ما حوله من الأسواق. و فى سنة (٧٥٣) كان ثالث حريق و ذلك أنه
 وقع حريق عند باب جيرون فاتصل بالباب بالنحاس الأصفر فنزعه و كسروا خشبه و كان من نحاس دمشق و معاملها.
 و كان فى سنة (٧٩٥) حريق سوق الدهستان و سوق الوراقين و الساعات و نصف المعزية من شرقى الجامع، ثم أعيد إلى ما كان عليه.
 و رابع حريق كان فى سنة (٨٠٣) عند حضور تيمور و حرقت خزائنه المصاحف و الكتب فأعيد سنة (٨٠٥) إلى قريب ما كان عليه و
 خامس حريق كان سنة (٨٨٤).

و أصيب بالزلازل مرات و تعطلت جوانبه و تداعت بعض سقوفه و منها زلزلة سنة (٥٩٧) فرمى بعض المنارة الشرقية و سقط ١٦ شرفة

و تشققت قبة النسر و آخرها زلزال سنة (١١٧٣) فخربت قبة النسر و الرواق الشمالي و أعيد بناؤهما من قابل. حتى إذا كانت سنة (١٣١٠) سرت النار إلى جزوع سقوفه فالتهمت بها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره و ريشه، و حرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جىء به من مسجد عتيق في بصرى، و كان الناس يقولون إنه المصحف العثماني، و جمعت أموال من إعانات و غيرها فنجز القسم الشرقي في سنة (١٣١٧) و في سنة (١٣٢٠) نجز القسم الغربي و ظل العملة في بنائه الذي أرجع إلى ما كان عليه بالجملة عشر سنين و صرف عليه ستون ألف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر. و لم يبق من محاسن الجامع القديمة إلا جدرانه و بعض كتابات من عهد السلجوقيين و الأيوبيين و المماليك على بعض سواريه. و في دار الآثار بدمشق أيضا حجران كتابا لخط الكوفي بعمارة قسم من الجامع، في القرن الخامس و صورتها:

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٣

الأول- (بسم الله الرحمن الرحيم): شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام.

أمر بعمارة هذه القبة و المقصورة و السقف و الطاقات و الأركان في خلافة الدولة العباسية أيام الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين، و في دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم أبي الفتح ملك شاه بن محمد و أيام أخيه الملك الأجل المؤيد المنصور تاج الدولة و سراج الملة شرف الأمة أبي سعيد تتش ابن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين و في أيام وزارة الشيخ الأجل نظام الملك أتابك أبي علي الحسن بن علي الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو نصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز و جل في شهر خمس و سبعين و أربعمائه.

الثاني- (بسم الله الرحمن الرحيم): لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا.

أمر بعمل هذه المقصورة و ترخيم الأركان في خلافة الدولة العباسية أيام المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبد الله أمير المؤمنين و في دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم مولى العرب و العجم أبي الفتح ملكشاه بن محمد بن داود أمين أمير المؤمنين و أيام أخيه الملك الأجل تاج الدولة و سراج الملة و شرف الأمة أبي سعيد تتش بن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو النصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز و جل في شهر خمس و سبعين و أربعمائه» اه.

قصور الأمويين و مصابيحهم و مشابيحهم:

وصف يزيد بن المهلب دار ولى عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال:

دخلتها فإذا هي دار مجصصة حيطانها و سقوفها، و فيها و صفاء و و صائف عليهم ثياب صفر و حلى الذهب، ثم أدخلت دارا أخرى فإذا حيطانها و سقوفها خضر، و إذا و صفاؤها و وصيفاتها عليهم ثياب خضر و حلى الزمرد، و إن ولى العهد قاعد على سرير معه امرأته. و وصف حماد الراوية دار هشام بن

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٤

عبد الملك في دمشق فقال: إنها دار قوراء مفروشة بالرخام، و هو في مجلس مفروش بالرخام، و بين كل رخامتين قضيب من ذهب، و حيطانه كذلك، و هشام جالس على طنفسة حمراء، و عليه ثياب حمر من الخز، و قد تضحخ بالمسك و العنبر، و بين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب، يقبله بين يديه فتفوح رائحته، و في المجلس جاريتان لم ير مثلهما قط اه. و الله أعلم أكان ذلك حقيقة أم خيالاً.

وقد ادعت ميس بل أنه لو لا حوادث القرن السابع أى لو لا دخول العرب الفاتحين لبغ الشاميون طريقة فى هندسة الأبنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم، و إن امتزج بها شىء من هندسة الأمم الأخرى، فردّ عليها لامنس بأن هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس عاصمة كبرى إلا فى عهد بنى أمية و بهمتهم.

قلنا: و لو لم يعفّ بنو العباس آثار بنى أمية فى الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم. و كان منه ما هو فى المدن و منه ما هو فى البادية أو ما يقرب منها. لأن الأمويين كانوا على الأغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها و حمايتها، فمنهم من نزل قصر الموقر أو المقور و قصر المشتى و الزيزاء و الفدين و الأزرق و الأعدف و البخراء و الأبيض و القسطل و الرصافه و الزيتونة و الجابية و حوّارين و الصنبرة و دابق و بطنان حبيب و أياير فى البلقاء و شمالى الشام و شرقها. و حصن الموقر باللقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك و كان رممه فجعله من القصور الجميلة. و استقر الوليد بن يزيد و العباس بن الوليد فى القسطل فى البلقاء. و الوليد فى الزيزاء و قصر الأزرق. و ابنتى عبد الملك الأبنية حول قصر الموقر و كان له فى البرية عدة قصور. و قصر عمرا على قصر المشتى على سبعين كيلو مترا من جهة الشرق و هو فى وسط البادية. اكتشف قصر عمرا الأثرى موسيل سنة ١٨٩٨ و هو قصر أموى يجمع بين مزايا الصروح الملكية و الحصون، و هو على الشاطئ الشمالى من البحر الميت و كان على ما يظهر حماما حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها فى صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات و ألعابا رياضية كالجريد و صيودا لأنواع الطيور و قنصا فى البحر و لوحات تمثل الصناعات و صورا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٥

رمزية تمثل أدوار الحياة فى البادية و التاريخ و الفلسفة و الشعر، و خليفه جالسا على العرش و أعداء الإسلام و رسوم منطقة البروج و رجالا- و نساء و أشجارا و حيوانات فى كؤوس و فرش، و شجيرات و عساليج الكرمه و الدفلى و النخيل و ثمارا و طورا من أطيار البادية و امرأة عريانة محلاة باللؤلؤ. و كلها تدل على أنها من هندسة الروم و الشاميين و الفرس. و وجد فيه اسم: «قيصر، رذريق، كسرى، النجاشى» مكتوبا بالعربية و الرومية. و إجماع الأثريين على القول إن هذا القصر من عمل الوليد الأول بين سنتى ٧١٢ و ٧١٥ ميلادية. و كذلك قصر المشتى و هو على اثني عشر ميلا شرقى عمان و على ساعة من شرقى القسطل فى خربة الموقر و هو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعه يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ مترا و فى زواياه أربعة بروج مستديرة و لكل من جوانبه الثلاثة الشرقى و الغربى و الشمالى بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء و هما كثير الأضلاع. و يقسم البناء إلى ثلاث مربعات مستطيلة أو سعتها الأوسط فيه أبنية القصر القديمة و طول القصر خمسون مترا فى عرض سبعين و يشتمل على حجرة واسعة يليها أربعة منازل. و الأبنية كلها مشيدة بالآجر ما عدا طبقته السفلى القائم عليها البناء فهى مبنية بالأحجار البيضاء.

و فى ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الأخضر لم تنحت بعد. و كان وجه البناء الخارجى مزينا بأبدع النقوش، و هى تمثل جفنه محكمة الصنع ذات أغصان و فروع تمتد على طول البناء تتخللها طيور و حيوانات ليست معروفة كالأسود المجنحة و العنقاء تمرح و تنقر العنب أو تشرب من الكؤوس. اقتطع هذه الصور علماء من الألمان بأمر عبد الحميد الثانى و هى اليوم فى متحف برلين. و رأى الشائع أنها من صنع الغسانيين. و فى تلك الأجزاء نحو أربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن.

و بنى هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الأنطاكى و حوله خندقا و حصن بوقا من أعمال أنطاكية. و كان هشام ينزل فى الزيتونة فى بادية الشام فلما عمر الرصافه انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات. و كان يزيد يقيم فى حوّارين و تدمر، و ابنه خالد يسكن فى قصر الفدين فى البلقاء. و من الدور الكبيرة بدمشق دار خالد بن عبد الله بن يزيد أبو الهيثم البجلي القسرى من

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٦

أهل دمشق كان أميرا على مكة و ولى إمرة العراقين و كانت داره بقنطرة سنان باب توماء.

و بعض هذه القصور لا تزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر و المشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن و نقضوا سور

دمشق يوم فتحها حجرا حجرا، و أخربوا أيضا قصور الأمويين في حلب مثل قصر سليمان ابن عبد الملك بالحاضر، و قصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب، و منازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير، و قصرى هشام في الرصافة، و أبقوا في الغالب على قصر خناصره من أرض الأخص لعمر بن عبد العزيز احتراموه و لم يبقوا على غير قبره من قبور بنى أمية. و في الأغاني أن المأمون طاف على قصور بنى أمية و تتبع آثارهم فدخل صحنا من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله. و الظاهر من كلام المقدسى ان آثار بنى أمية كانت موجودة في القرن الرابع خلافا لما هو المعروف من أن العباسيين أتوا عليها كلها. و الغالب أن بعض الأبنية لم تعور كثيرا و رمت فاطلق عليها أسمها الأصلي و نسبت إلى بانيها الأول.

قصور خلت من ساكنيها فما بهاسوى الأدم تمشى حول واقفة الدمى

تجيب بها الهام الصدى و لطالما أجاب القيان الطائر المترنما

كأن لم يكن فيها أنيس و لا التقى بها الوفد جمعا و الخميس عرمرما

عمل العباسيين:

قال الجاحظ: من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم و أن يمتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن و أكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم و أيام الجاهلية، و على ذلك هم في الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان و كما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة، و كما هدم زياد كل قصر و مصنع كان لابن عامر، و كما هدم أصحابنا (يعنى العباسيين) بناء مدن الشامات (الشام) اه.

أما بنو العباس فلم تبق الأيام من آثارهم مصنعا يعتد به في الشام لنحكهم على عظمتهم، و كان من أهمها قناة قرية منين التي جرّها المأمون إلى معسكره

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٧

بدير مران في جبل قاسيون. و هذا عمل مهمّ مما بلغنا خبره لأن الطريق من منين إلى قاسيون يحتوى على أودية و شعاب و نجد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر.

و قد بنى للمتوكل العباسى قصر بين داريا و دمشق فلم يعثر له على أثر. قال ابن كثير: إن المتوكل لما جاء دمشق عازما على الإقامة بها سنة أربع و أربعين و مائتين أمر ببناء القصور بها و هى التى بطريق داريا. و من ذلك يفهم أنها كانت موجودة إلى زمن ابن كثير. و فى سنة (٢٦٢ هـ) بنى الأمير النعمان دارا عظيمة فى بيروت و حصن سور المدينة و قلعتها. أما المتغلبه على الملك فى زمن العباسيين مثل الفاطميين و الطولونيين و الحمدانيين و السلجوقيين فإننا لا نعرف عن آثارهم كبير أمر أيضا و لا سيما بنو طولون و بنو عبيد فإنهم آثروا أن يجعلوا مصانعهم فى مصر مقر ملكهم. كما آثر العباسيون أن يجعلوها فى العراق و خراسان. و مما بناه ختكين والى دمشق للحاكم بأمر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى، و سخر الناس لأجل عمله و أخذ أموالهم.

ذكر ابن عساكر أن حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضى دمشق من قبل الفاطميين جدد فى دمشق مساجد و منابر و قنوات و أجرى الفؤارة التى فى جيرون. و ذكر أنه وجد فى تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة فى كل سنة و هو الذى أنشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفى سنة ٤٣٤. و كان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية و الصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق إلى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقران المنصورى ثم للسلطان الملك الناصر و له تربة و مسجد و خان. و كان الملك الأمجد صاحب بعلبك يقيم بداره التى داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة و هى التى ينزلها النواب و لعلها دار المشيرية التى حرقت فى العهد الأخير و دار السعادة هذه أكملت عمارتها سنة (٤٠٨ هـ) بعد إزرام النائب أهل البلد بعمارتها، و مرمة ما يحتاج السكنى فيها و تحول إليها فسكنها.

آثار عربية محلية ميناء عكا:

وقد نشأت في القرن الرابع و ما بعده في الشام حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهى إلينا قليل من أعمالهم مثل
أبي بكر البناء

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٨

المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون. قال المقدسي: و لم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون، و قد كان رأى
صور و منعته و استدارة الحائط على ميناها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا، فجمع صناع الكورة و عرض عليهم ذلك، فقيل لا
يهتدى أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء، و قيل: إن كان عند أحد علم هذا فعنده، فكتب إلى
صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه، فلما صار إليه و ذكر له ذلك قال: هذا أمر هين عليّ بقلق الجميز الغليظة، فصفها على
وجه الماء بقدر الحصن البري، و خيط بعضها ببعض، و جعل لها بابا على الغرب عظيمًا، ثم بنى عليها بالحجارة و الشيد، و جعل كلما
بنى خمسة دوايس ربطها بأعمدة غلاظ ليشند البناء، و جعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها
حولًا كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك، و كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه و خيطه به، ثم جعل على
الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء و تجر السلسلة مثل صور. قال المقدسي: و ميناء صور و عكا من العجائب.

و قال ابن إياس من أهل القرن العاشر: إن في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها و هي على قوس واحدة مثل قنطرة طليطلة
بالأندلس إلا أنها دون قنطرة صور. و بنى أحمد بن طولون قلعة يافا و لم يكن لها قلعة من قبل.

و ذكر المؤرخون أن جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة (٣٥٨) نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد و أقام أصحابه هناك
الأسواق و المساكن و صارت شبه المدينة، و اتخذ لنفسه قصرًا عجيبيًا من الحجارة، و جعله عظيمًا شاهقًا في الهواء غريب البناء. و هذه
صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوبا على حجر بالخط الكوفي على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائري: أمر بعمارة الجسر المبارك
مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الأمراء ... جيوش ... شرف الملك عمدة الإمام سيف الإسلام معز
الدولة و عضدها و أطل الله بقاءه في ربيع الأول سنة (٤٥٦).

و هب صاحب حلب محمود بن نصر لابن أبي حصينة المعري الأديب (٤٥٧) مكانا بحلب تجاه حمام الواساني فجعله دارا و زخرفها
فلما تم بناؤها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٦٩

نقش على دائرة الدرايزين فيها:

دار بنيها و عشنا بهافي دعة من آل مرداس

قوم محوا بؤسى و لم يتركوا على في الأيام من باس

قل لبني الدنيا ألا هكذا فليحسن الناس إلى الناس

و لما تكامل البناء عمل دعوة حضرها الأمير محمود بن نصر فلما رأى حسن الدار و قرأ الأبيات المتقدمة قال: يا أبا الفتح كم صرفت
على بناء الدار قال: يا مولانا هذا الرجل تولى عمارتها و لا أدري كم صرف عليها.

فسأل المعمار فقال: غرم عليها ألفا دينار مصرية فأمر بإحضار ألفى دينار و ثوب أطلس و عمامة مذهبة و حصان بطوق ذهب و
سرفسار ذهب فسلمها إلى ابن أبي حصينة و قال له:

قل لبني الدنيا ألا هكذا فليحسن الناس إلى الناس

و في الروضتين أن صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في جوسق (قصر) ابن الفراه

بالشرف الأعلى في بستانه، حتى إن الصفي بن القابض لما تولى خزانه دمشق لصالح الدين بنى له دارا مطلة على الشرف بالقلعة و أنفق عليها أموالا كثيرة و بالغ في تحبيرها و تحسينها و ظن أنها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفا و لا استحسناها، و كانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان و قال:

ما يصنع بالدار من يتوقع الموت، و ما خلقنا إلا للعبادة و السعى للسعادة، و ما جئنا لنقيم، و ما نروم أن لا نريم.

القصر الأبلق:

و من المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في الميدان القبلي، و هو قصر عظيم مبنى من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود و الأصفر، بتأليف غريب و إحكام عجيب، بناه الظاهر بيبرس البندقدارى و على مثاله بنى الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر. قال ابن فضل الله: و أمام هذا القصر أى أبلق دمشق دركاه يدخل منها إلى دهليز القصر و هو دهليز خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٠

فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن، المؤزر بالرخام، المفصل بالصدف و الفص المذهب إلى سجع السقف، و بالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تطل شبائيك شريقيهما على الميدان الأخضر و غربيهما على شاطئ واد أخضر يجرى فيه نهر، و له رفارف عالية تناغى السحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة و الغوطة. قال شيخ الربوة:

سمى بالقصر الأبلق لكونه مبني بالحجارة البيض و الحجارة السود. و قد بقى هذا القصر عامرا إلى عهد العثمانيين رآه ابن طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ و قرأ تاريخه ٦٦٨ و قال: إن على أسكفته ضربا من رخام أبيض وسطه مكتوب عمل إبراهيم بن غنائم المهندس. و قد قال العارفون: إن التكية السلمانية قامت على أنقاض ذاك القصر. و ذكر ابن تغرى بردى أن الأبلق ما زال عامرا تنزله الملوك إلى أن هدمه تيمور لذك في سنة ثلاث و ثمانمائة عند حريق دمشق و خرابها.

و بنى علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف للملك المظفر فى حماة أبراجا و طاحونا على العاصى و عمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة و عاونه فى عملها المهندس القاضى جمال الدين بن واصل.

المعاهد الدينية و المدنية فى العهدين النورى و الصلاحي:

و لما قويت حركة العمران فى عهد الدولتين النورية و الصلاحية بدمشق و حلب و القدس و حماة و طرابلس و بعلبك و غيرها و أخذوا ينشئون فيها المدارس و الجوامع و الزبظ و المستشفيات و القلاع و الجسور، كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التى شرع ببنائها نور الدين و لم يتمها، و لما ولى العادل أزال ما بناه نور الدين و بناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذى لا نظير له فى بنية المدارس. و من البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمى فى صالحية دمشق، و هندسة مدرسة الصهبية فى حلب، و كذلك المدرسة التى كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال: و من أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتوح كله بيوتا و غرفا و له طيقان يتصل بعضها ببعض، و قد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا، خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧١

فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها، فيمد الساكن فيها يده و يجتنيه متكئا دون كلفه و لا مشقة. و قد قيل: إن منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية.

و لقد بنى الملك الأشرف بن العادل بدمشق قصورا و متزهات حسنة.

و كانت عمارة اللاذقية فى الحروب الصليبية من أحسن الأبنية و أكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه كما قال ابن الأثير، فخرت المسلمون كثيرا منها و نقلوا رخامها إلى دمشق و غيرها، و خربوا البيع التى قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة

المقدار، و لما تسلمها تقى الدين عمر حصن قلعتها، و كان عظيم الهممة فى تحصين القلاع و الغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعه حماة. و بنى الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصرا فى قرية القابون بدمشق «لم ير الراؤون مثله» و عمر الشرف الأعلى فى دمشق بقصور العظماء.

عمران دمشق فى القرون الوسطى:

و بعد أن كانت دمشق فى القرن السادس أكثر مدن الأرض سكانا كما قال ابن جبير و كانت فى القرن الثامن كما قال ابن تغرى بردى أجمل مدينة فى العالم بل أغنى مدينة، أحرقت تيمورلنك بعض أحيائها و مدارسها و غزمتها ملايين من الدنانير، و حمل معه المهندسين و البنائين و النقاشين، فى جملة من حمل من أرباب الصنائع إلى سمرقند، كما فعل السلطان سليم فى مصر لما فتحها فى الربع الأول من القرن العاشر، فحمل إلى القسطنطينية كل صاحب صنعة و عمل نافع و جردها من بدائعها و صناعاتها النفيسة. و كان فى دمشق فى القرن التاسع مائة حمام أفردتها ابن عبد الهادى فى رسالته كما كان فى عصره ألف جامع و مسجد فى دمشق و ضاحيتها و ناهيك ببلده فيها هذا القدر من آثار العمران. و لا غرو بعد هذا إن قال فىنا أبو الفضل ابن منقذ الكنانى يوم كان لنا القدح المعلى فى العمائر:

و إذا مررت على المنازل معرضاعنها قضى لك حسنها أن تقبلا

إن كنت لا تستطيع أن تتمثل الفردوس فانظرها تكن متمثلا

و إذا عنان اللحظ أطلقه الفتى لم يلق الا جنه أو جدولا

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٢ أو روضة أو غيضة أو قبة أو بركة أو ربوة أو هيكل

أو واديا أو ناديا أو ملعباً أو مذنباً أو مجدلاً أو موئلا

أو شارعا يزهو بربع قد غدافيه الرخام مجزعا و مفصلا

دور الخاصة:

و من قصور حلب فى القرن الثالث دار واليها زكا الأعور و دار حاجبه فيروز و دار سيما الطويل و دار كورة الخراسانى و منها قصر السلطنة بدمشق.

و ذكر ابن عساكر أن محمد بن عمرو بن حوى السكسكى كان فى إقليم من أقاليم غوطه دمشق يعرف بيت لهما بينها و بين دمشق نحو ميل و كان له فى هذا الأقليم عدة قصور مبنية بالحجارة و خشب الصنوبر و العرعر فى كل قصر منها بستان و نهر يسقيه، و كان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) أو من مصر يريدتها ينزل عنده و فى قصوره، و كان ذلك فى القرن الثالث. و من قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح فى مدينة منبج و كان بناه لنفسه و أنشأ بستانا إلى جانبه. قال ابن الجوزى: هدم أهل دمشق قصر السلطنة فى القرن الخامس و درسوه و كان عظيما يسع ألوفاً من الناس. و قصر بطياس فى حلب المذكور فى شعر البحترى كان عامراً إلى عهد ابن العديم فى القرن السادس و كان عامراً إلى عهده برج من الحصن الذى كان بناه مسلمة بالناعورة و كان بنى فيها قصراً بالحجر الأسود الصلد.

و قد خربت محله الفراديس المعروفة اليوم بمحله العمارة فى فتنه القرامطة سنة (٣٦٣) و كان فيها على رواية ابن القلانسى من البنيان الرفيع فى الحسن و البهاء ما لم ير مثله و هو أحسن مكان كان بظاهر دمشق. و قال ابن شاکر:

إن اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلى باب الحديد غربا و كانتا من أعجب البناء. أحرقهما المصريون لما حاصروا دمشق. و اللؤلؤتان الصغيرة و الكبيرة هما اليوم حدائق فى أرض باب السريجة بينها و بين قرية كفرسوسة.

وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل: ليس في الإسلام قنطرة أحسن منها ويقال: إنها من العجائب و سنجة بالقرب من منبج. وقال ابن القلانسي:

من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته، و مضاء

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٣

همته، و مستحسن ابتدائه، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الأوسط منها، و باب جسر الخندق الشرقي منها و هو الثالث لها، أنشئ ذلك في سنة (٥٢٧) مع دار المسرة بالقلعة و الحمام المحدثه على صيغته اخترعها، و بنى اقتراحها، و صفة آثرها، فجاءت في نهاية الحسن و الطيبة، و التقويم و الاعتدال.

و اشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة بن منقذ فرآها و قد تهدمت و تغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا و لاتغتر بالعمر القصير

و انظر إلى آثار من صرعه منا بالغرور

عمروا و شادوا ما تراه من المنازل و القصور

و تحولوا من بعد سكنها إلى سكنى القبور

و ذكر سبط ابن الجوزي أن أسامة الحلبي بنى دارا بدمشق بأنقاض بيوت الناس فخربت على يد أيوب بن الكامل محمد في سنة (٦٤٧)، و كان أسامة قد غرّم عليها أموالا عظيمة و أخذ أراضي الناس و الآلات بدون الطيف، و صح فيه القول القائل: الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب.

و كانت هذه الدار سبب هلاك أسامة.

تجديد المدن الصغيرة:

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الأتابكية و الأيوبية مثل حماة فلم يكن لها في القديم نباهه ذكر، و كان الصيت لحمص دونها، فلما آلت إلى ملك بنى أيوب مصروها بالأبنية العظيمة و القصور الفائقة، و المساكن الفاخرة، و في جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى و ما قبلها.

و منها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة، و منها ما حرق و خرب و استعوض عنه مكان آخر، مثل طرابلس ففي سنة (٦٨٨) فتحت طرابلس و أخرج سورها و كان من الأسوار العظيمة. و أمر السلطان بتجديد مدينه على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس. و مثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري:

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٤

إن فيها من الجوامع و المدارس و العمارات الحسنه ما يورث العجب و تسمى دهليز الملك. و كان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع أذرع. و في مواضع عشر أذرع. و قال ابن فضل الله في بعلبك: إنها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها، و حسن بنائها و ترتيبها، بها المساجد و المدارس و الربط و الخوانق و الزوايا و البيمارستان و الأسواق الحسنه. و قال آخر: و بقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليئة. و كان على منبج سور بالحجارة المهندسه حصينة جدا. و من هذه المدن ما أصبح الآن كالقري مثل المعرة معرة النعمان التي ترى إلى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر، و مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي:

ليس على بحر الروم بلد أجل و لا أكثر خيرات منها. مر أحدهم سنة أربعين و ستمائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوبا هذه

الآيات:

هذه بلدة قضى الله يا صاح عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفه و ابك من كان بها من شيوخها و الشباب
و اعتبر إن دخلت يوما إليها فهي كانت منازل الأحباب

و أزهرت طرابلس على عهد اسندمر الذى بنى القلعة و حماما و سوقا و أنشأ فيها مجارى المياه الغربية فى تقسيمها إلى جميع طبقات
الدور ليأمن ساكنوها من الحمى فى الطبقات الأرضية، و قد عمر فيها سنة (٧٠٩) حماما عظيما أجمع من رأوه أنه ما عمر مثله فى
البلدان، و عمر قيسارية و طاحونا و أنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء تجرى المياه إليها بالقنوات، و منها ما يطلع إلى أعلاها و
تجرى فى طباقها، و عمر بعض القلعة و أقام أبراجا و هذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس - قاله النويرى
قال الأسدى فى سنة أربع و عشرين و ثمانمائة عمر ابن بشاره مدينة صور و جعل لها أسواقا و نقل إليها خلقا و حصنها، قال بعضهم:
إنها مدينة السواحل بالشام و قال ابن السمعاني: و كان بها جماعة من العلماء.

القلاع و الحصون و قلعة حلب و دمشق:

فى الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس و السادس و الذى بعده

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٥

مثل قلعة صرخد قال ابن تغرى بردى فى حوادث سنة (٤٦٦) و فيها بنى حسان ابن مسمار الكلبي قلعة صرخد. و كتب على بابها أمر
بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب عز الدين فخر الدولة عدة أمير المؤمنين يعنى المستنصر صاحب مصر. و ذكر
عليها اسمه و نسبه. و مثل قلعة حلب و إن كان تاريخها يردّ إلى أبعد من هذا القرن و المهم من أبنيتها بدأ فى عهد الإسلام.
و قلعة حلب أفخم ما فى الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على أكمه ربما كانت صناعية، و يحيط بها خندق عظيم كان
القدماء يملأونه ماء ليتعذر الوصول إليها إلا من مدخلها، و هذا من أحسن ما يتصور العقل، و يقال: إن حلب القديمة كانت كلها مبنية
فى هذه القلعة، تعاورتها الأيدي بالبناء فى قرون مختلفة و ظلت مسكونة إلى سنة (١٨٢٢ م) أيام خربت بالزلازل.

يسير الداخل إلى القلعة على جسر بديع أقيم فوق الخندق، فيبلغ برجاً خارجاً جعل فى واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع، قيل: إنه
من عهد الظاهر غازى، لما وجد فى مدخله من كتابه تاريخها سنة (٦٠٥) مع بعض الآيات الكريمة. و فى دهليز القلعة المتعرج عدة
كتابات و نقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب و يساره من أجمل ما زبرت أيدي النقاشين على الصخور. فإذا
دخل المرء من الباب وجد ساحة و آثار عدة شوارع و ركاما من الأنقاض، بعضها أنقاض جامع و مأذنة، و أخرى أنقاض أروقة، و
أخرى محال لرصد العدو، و فى الوسط صهريج كبير ينزل إليه بمئة و خمس و عشرين درجة، و كان بها دير للنصارى و يقال: إن فى
أساسها ثمانية آلاف عمود. تعاورها الملوكة فى الإسلام بالبناء و الترميم. و منهم الظاهر غازى الذى بنى على بابها برجين لم بين
مثلهما قط و جعل لها ثلاثة أبواب حديد.

و كان كثير من ملوك حلب يسكنونها. و ذكر الغزى أن فى قلعة حلب آثار عدة مساجد و أنه كان فيها عشرة مساجد. قال الخالدى
شاعر سيف الدولة فى وصف هذه القلعة:

و خرقاء قد قامت على من يرومها بمرقبها العالى و جانبها الصعب

يجر عليها الجو صيب غمامه و يلبسها عقدا بأنجمه الشهب

إذا ما سرى برق بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلل الحجب

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٦ فكم من جنود قد أمتت بغصه و ذى سطوات قد أبانت على عقب

و مثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت (الأسد الرابض) و هي من بناء تاج الدولة تتش سنة (٤٧١ هـ) جعل بهادار إمارة و سكنها، ثم زاد الملوك بعده فيها و سكنها كثير منهم. و كانت دار الإمارة قبله تسمى «القصر» بناها العباسيون بعد أن دكوا الخضراء و قصور الأمويين، فخرّب القصر في بعض فتن الفاطميين. و في سنة (٦٩١) كمل بناء الطارمة و ما عندها من الدور و القبّة الزرقاء في قلعة دمشق، فجاءت في غاية الحسن و الكمال و الارتفاع، و أنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب و فرغ من جميع ذلك في سبعة أشهر.

طولها من الشرق إلى الغرب ٣٣٠ و عرضها من الشمال إلى الجنوب ١٧٠ خطوة. و قد خربت في أدوار كثيرة ثم أعيد بناؤها. و من القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق. و هي أقدم من الإسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة، دق القلاع و الحصون الكثيرة في الشمال و الجنوب مثل شقيف ارنون و شقيف تيرون و هونين و تبينين و كوكب و عجلون و قاقون و الصبيبة و الصلت و الهارونية و بيت لاهة و حصن أبي قبيس و صافيتا و عريمة و لوقا و تل باشر و عكار و حارم و صهيون و بغراس و دربساك و دركوش و اسفونا و بسرفوت و بلاطنس و حصن الأكراد و شيزر و المنيطرة و الشجر و بكاس و ارسوف و بيت جبرين و حبرون و أرتاح و الأثارب و بارين و بارة و إعزاز و صرند و عدلون و برج الرصاص و حصن الإسكندرونة و التينات و حلبا و عرقا و برزية و خناصره و قسطون و تل اعدى و حصن الحبيس و القدموس و مصيات و الكهف و العليقة و الخوابي و غيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة أي الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية. هذا إلى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس و قلعة حماة و حمص و عكا و الكرك و الشوبك و صرخد و أذرح و صغد و شميس. و معظمها تناطح السحاب بلوها، و تشبه الجبال بمتانتها.

بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع و الحصون لأن المدينة أو الموقع الحربي إذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين أن يجتاحهما. و من كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الأحران: «و قد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع و قطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٧

إلى ما فوقها و ما دونها، و عدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر في مكانه، و لا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، و فيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم، المرغم بها أنوف الجبال الشم، و قد جعلت سقيته بالكلس، و أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، و صاحبه بأوثق و أصلب من جرمه، و أوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه».

مثال التخريب في الحصون و البيع:

و كثيرا ما كان ساسة هذه الديار يخربون الأسوار و الحصون لغرض من الأغراض، كما خرب عبد الله بن طاهر سنة (٢٠٩) سور معرة النعمان و معظم الحصون الصغار. مثل حصن الكفر و حصن حناك و حصن كيسوم و غير ذلك.

و كما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الأتابك زنكي إلى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها أو التي كانوا بنوها لئلا يعود أعداؤهم فيستولوا عليها. و قد ألف جمهور الناس أن ينقضوا البنيان القديم و يعمرؤا به بناءهم الحديث. و لهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه الديار.

فقد ذكر العماد الكاتب أن اللاذقية لما استخلصت من أيدي الصليبيين وقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، و نقلوا منه أحمالا إلى منازلهم بالشام «فشوهوا وجوه الأماكن و محوا سنا المحاسن» و بظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة بأجزاء الأجزاء مرصعة، و بألوان الرخام مجزعة، و أجناس تصاويرها متنوعة، و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، و شوهوا أعلامها.

و لما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر دمشق من صدر الباز إلى داخل مدينة دمشق حملوا إليه من ضخام الأحجار التي كانت في قلعتها. و ربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في أكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز. و قصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق. و دار العدل التي بناها نور الدين في دمشق و هي أول واحدة من نوعها بناها

لكشف الظلامات. وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع، كما جدد كثيرا من الجسور والخانات وقنوات السبل

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٨

في أعمال دمشق وغيرها. ولأهل الخير في كل عصر أباد بيضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلدان ومنها خان بناء على بن ذى النون الإسعردى الدمشقى بقرب الكسوة أول مرحلة للحج الشامى. وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للإعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد من أبراج حمام الزاجل لنقل الأخبار في النهار. ومن ذلك دمنه القبتين المائلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكى بناه المأمون فدر في جملة ما دثر. واسم القبتين قبة السيار وقبة النصر. وقبة النصر بناها برقوق على سوار قيل: إنه وجد موضعها ذهبا كثيرا مدفونا. ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه للصوائف ويقال: بل كان له رسم قديم.

قلاع الصليبيين وكنائسهم:

دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية، وهى هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس، ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا. واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في الأقاليم التي احتلوها ولا سيما في طرابلس وصور وأنطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين:

إذا استثنينا الدور الرومانى فإنه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين. فإن كل مستعمرة تجارية في الموانى البحرية كانت تحاول أن يكون لها على الأقل كنيسة وخانات وحمامات. ثم القلاع التي غص بها القطر وهى أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى. قال فان برشم: إن على طرابلس صبغة المدن الإيطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية، كما أثرت هندسة المدن الإيطالية الكبرى في جميع الموانى البحرية في الشام. وكان للطراز الإيطالى التقدم على غيره لأن الطليان أهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا أسبق أمم الغرب إلى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربى قبل الحروب الصليبية.

وكان عدد الصليبيين من جمهوريات إيطاليا أكثر من غيرهم من الأمم. قال فان برشم: لما كانت سواحل الشام محط رحال الصليبيين، ونقطة حركاتهم

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٧٩

الحربية، تشبعت أبنيتها بالروح الإيطالى، خصوصا لأن الطليان كانوا إذ ذاك أكثر عددا في هذه الحملات من العنصر الفرنسى. ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان، ومنها ما هو باق مثل أنطاكية وبيروت واللاذقية وعكا. وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتحلى الروح الإيطالى الباقى من القرون الوسطى في أبنيتها وهندستها.

ولا تزال قلعة الحصن أو حصن الأكراد والكررك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هى عليه، وهى آية في باب الهندسة العسكرية ناطقة بلسان حالها بأن الصليبيين نزلوا الأرض المقدسة. ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة أنفة هذا إلى غير ذلك من البيع في شمالى لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصنا في الكور التي احتلوها.

قال رنان: الظاهر أن البناءات المربعة الشكل الضخمة الحجم هى من عمل الطليان وفرسان الهيكلين، وأن البناءات ذات البرج المدور هى من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتاليين، وكثيرا ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم. وكان القطر غاصبا بها- يعدل ذوق الإفرنج الخاص في هذا المعنى. قال:

و في طرطوس قامت أهم هذه الآثار و استدل بما فيها أن منزل الصليبيين في الشام لم يكن منزل قلعة، بل و طدوا أنفسهم على احتلالها احتلالا دائما، و إن في طرطوس بيعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار.

هندسة البيوت و بيوت دمشق و حلب:

لم يبلغنا أن في القطر دورا يرد تاريخها إلى ألف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن كما بقيت مثلا بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها و أبوابها الحجرية. و كما ادعى القرمانى أن في اللجاء من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان، و كل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٠

سوداء منحوتة تنوف على مائتي ألف دار (كذا) كل دار منفردة عن الأخرى لا يلاصقها جدر أخرى، و كل دار فيها حوش و بئر و له باب من حجر إذا أغلق و وضع خلفه حصاة لا- يمكن فتحه أبدا من الخارج. و لكننا على مثل اليقين من أن طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين و قبلهم بعصور، و أن هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الأخيرة و منه مثال حي من المدارس و الزبب و غيرها في دمشق.

قال أحد المهندسين المعاصرين: إن التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة و دار عربية، فقد كانت الدور تشاد و لا تجعل لها نافذة على الشارع، و يكتفى بطيخان للتهوية، و لها فناء داخلي تحف به غرف و مخادع و في وسط الفناء أو الصحن فوارة أو حوض ماء. لا جرم أن المسلمين قد أخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط، و لا تزال نجد فيه مثلا في الأندلس حيث يسمى الفناء الداخلي باسم «باتنو» أو الفناء المبلط.

و كانت دمشق تعتمد في أبنيتها على الحجر غالبا. و زاد الاعتماد على الخشب و الطين في الأدوار الأخيرة. قال المقدسى: إن منازل دمشق ضيقة و أزقتها غاممة، و أكثر أسواقها مغطاة، و لهم سوق على طول البلد مكشوف، لا ترى أحسن من حماماتها، و لا أعجب من فواراتها. هذا في القرن الرابع للهجرة. و قال ابن جبير في القرن السادس: إن أكثر أبنيتها بالقصب و الطين.

و قال ابن فضل الله في الثامن: إن غالب بناء دمشق بالحجر و دورها أصغر مقادير من دور مصر، لكنها أكثر زخرفة منها، و إن كان الرخام بها أقل، و إنما هو أحسن أنواعا. قال: و عناية أهل دمشق بالمباني كثيرة و لهم في بساتينهم منها ما تفوق به و تحسن بأوضاعه، و إن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزين و أكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها، و تسليطه على جميع نواحيها، و يستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل، إلا أنه لا يغشى بالبياض و يكتفى بحسن ظاهره، و أشرف دورها ما قرب، و أجل حاضرتها ما هو في جانبها اه.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨١

قلنا: و هذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطالحوا على أن الأطراف منازل الأشراف قال البحرى: عجب الناس لاعتزالي و في الأطراف تلفي منازل الأشراف

نماذج من آثار الشراكسة و العثمانيين:

و لذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية و الربوة و الشرف الأعلى الشمالي و الشرف الأدنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصورا أنيقة ينزلها القضاء و الحكام و كبار أبواب الأملاك و الأشراف، و لكنها دثرت بالفتن المتواترة و لم تقو على عوادي الأيام حتى نحكم على ما عمله الدمشقيون و أسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الإسلامي الأوسط. و قد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين و

يقول كاتب جلبي: إنه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى إيفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم فإنها لم تزل باقية إلى هذا العهد (القرن الحادي عشر) و روى الظاهري أن دمشق تشتمل على سور محكم و قلعة محكمة و بها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه و قال أيضا:

إن ما في الميدان الأخضر في دمشق من القصور الحسنه عجيبه من العجائب و هذا في القرن العاشر.

و قد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام إلى الروم و في طريق الشام إلى الحجاز و بعض قلاع أو أبراج و منها برج قلعة طرابلس فقد كتب على أحد جدرانها بعد البسملة «رسم الشريف العالي السلطاني الملكي المظفرى سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت أوامره الشريفه مطاعة في الأمراء بأن يجدد هذا البرج المبارك ليكون حصنا منيعا على الدوام و كان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة (٩٢٧)» و في سنة (٩٦٧) أمر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي و تعيين صنق لكل قلعة واحدة بالقطرانة و ثانياً بمعان إلى ما وراء ذلك من أرض الشام، فعمرت و دام الانتفاع بها زمنا طويلا.

و من آثار العثمانيين في دمشق التكتيتان السلطانية و السليمية و الجامعان

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٢

السنانية و الدرويشية. بنوها على الأسلوب التركي البيزنطى و لهم مثل ذلك في حلب و منها المدرستان البديعتان مدرسه الخسرويه و المدرسه العثمانية.

قال سورنهم الأثرى: إن عددا عظيما من مصانع حلب يرد إلى زمن المماليك و العثمانيين و ما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الأطروش و الطون بعا و الطواشى و مناراتها المختلفة الهندسة- و بفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى- فإن حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذى بناه ارغون سنة (٧٥٥) و بكثير من المخازن و الخانات و الحمامات و الدور و السلسبيلات. و في هذا المستشفى أفاريز و نقوش من أجمل ما نقش النقاشون، تزينه فتجعله بهجة للناظرين. و مدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة و منها العسكرية و الدينى و المدنى و كلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد أن يتصور أصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالى الشام اه. و من أجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التى بنتها ضيفة خاتون التى ملكت حلب ست سنين. و لو كتب البقاء للقصر الذى بناه بقرية بطياس من عمالة حلب صالح بن على العباسى و قصر الدارين الذى بناه عبد الملك بن صالح خارج باب أنطاكية و قصر مرتضى الدولة أحد موالى بنى حمدان و قصر سيف الدولة ابن حمدان الذى بناه بالحلمة من ضواحي حلب و تنهى فى حسنه و عمل له أسوارا، و قد أحرقه الروم فى إحدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك، أو قصر آخر من قصور الحمدانيين- لو كتبت الأقدار ذلك لساغ لنا أن نحكم حكما صحيحا على هندسة دور الشهباء فى القديم. و الغالب أن هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال فى دمشق عن الطراز القديم.

هندسة الجسور:

و فى سنة (٦٩٢) كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذى شرع ببنائه سيف الدين أرقطاي، و كان بناؤه بعد خراب الجسر الذى أقامه أنطونيوس الحلیم الذى تملك على رومية بعد المسيح بمائة و أربعين سنة. و هو الذى قطع الصخور و بنى البرج و مشى فى الطريق الذى على شاطئ البحر الموصل إلى مدينة بيروت، كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبله

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٣

على هذه الصورة: الأمير ادوار قيصر مارقوس اورليوس أنطونيوس الحلیم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الأعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا و نهج الطريق مهلا و لقبه بالطريق الأنطونيانى. و لقب هذا النهر بالكلب لكونه بعد ما أصلحه أنطونيوس الملك نصب به قائمة (نصبا) من حجر كبير على صورة الكلب و قيده بسلسلة حديد فى الصخر و جعلوا قدامه نقيرا لأجل الطعام.

لما أراد نائب الشام فى أواخر النصف الأول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجارى بين صيدا و بيروت، ندبوا لذلك مهندسا خيرا بالأعمال الساحلية يقال له أبو بكر بن البصيص البعلبكي و هو الذى عمر جسر نهر الكلب و له غير ذلك من الأعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة. و عمر الأمير بشير الشهابى بإيعاز من والى صيدا جسرا على نهر الدامور أيضا فجمع أهل الصناعة إليه فكانوا أكثر من مائة و خمسين رجلا فأتمه فى شهرين و غرّم عليه نحو مائة ألف درهم. و كذلك جسر الظاهر برقوق الذى بناه على نهر الأردن (الشرية) و طوله مئة و عشرون ذراعا و عرضه عشرون. و قالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية:

بنى سلطاننا برقوق جسرا بأمر و الأنام له مطيعه

مجاز فى الحقيقة للبرايوا أمر بالمرور على الشريعة

و عمر قاضى دمشق سنة (٩٣٢) سوقا تجاه باب جيرون بدمشق فبنى أقواسا بجملون فيها قباب مبنية بالآجر، إذ رآه أحكم فى البناء لأنه لا يحتاج إلى طين و يؤمن من حرقه. و جدد سور قلعة حلب السلطان سليمان فى شهر المحرم سنة ثمان و عشرين و تسعمائة و كتب ذلك بالعربية.

القاعات و القصور المعتبرة:

من القاعات فى دمشق و حلب ما يرجع تاريخه إلى القرن التاسع و العاشر و الحادى عشر و الثانى عشر و منها نعرف كيف كانت هندسة القوم فى تلك العصور. فمنها القاعة المشهورة باب جيرون و باب السلسلة أنشأها الأمير محمد بن منجك الذى عمر العمارات الفائقة بدمشق فإنه تأتق فى عمارتها

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٤

بالقاشانى و الرخام و عمر القصر المعروف به فى الوادى الأخضر (١٠١١) و ذكر الخيارى أنه كان فى القرن الحادى عشر فى المرجة بدمشق قصر مقابل القصر المنجكى قصر الباشا محمد بن الناشف و غير ذلك من العمارات و القصور الفائقة. و كان فى الصالحيه محل يقال له القصر عمّره أبو البقاء الصفورى المتوفى سنة (١٠٣٥) و كان يقال له صاحب القصر و كان من أحسن المتزهات و فيه يقول الأمير المنجكى من قصيدة:

أقسمت بالبيت العتيق و ما حوت بطحاؤه من حجره و حجوبه

ما ضمت الدنيا كقصر ك منزل اكلا و لا سمحت بمثل قطينه

و منها عمارات ابن الفريخ أمير البقاع (١٠٠٢) و كانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلى دار السعادة قال المحبى: لم يرسم مثلها، جعل بابها بالرخام الأبيض و الحجر الأحمر المعدنى، و نقل لها الرخام من الساحل و الحجارة من البقاع و استعمل فيها العملة بالسخرة. و فى سنة ١٠٣٤ بنى الأمير منذر التنوخى سرايا عظيمة فى قرية عبيه فى لبنان و بقى أربعين سنة لم يكملها لزيادة اتساعها و كان البنائون من اسلامبول و لعلها هى المعروفة بدار الأمير سيف الدين و لا تزال موجودة و قد كتب على باب دارها:

قسما بمن ضمت أباطح مكة و منى و زمزم و الكتاب المنزل

ما شدتها طمع الخلود و إنماهى جنة الدنيا لأهل المنزل

و أمر الوزير أحمد باشا الكوبرلى الذى ولى دمشق سنة (١٠٧١) بعمارة قاعة معظمه داخل دار الإمارة بدمشق فبنيت كما قال المحبى على أسلوب عجيب و وضع غريب. و قال المؤرخون: إن الأمير بشير الشهابى كان كالأمير فخر الدين المعنى يحب البذخ و الرفاهية و تنظيم إصطبلاته و بيطرته حتى أصبح مضرب الأمثال فى ذلك، و عمر فى بيت الدين قصرا ملوكيا و جلب إليه الماء فى ساقية طولها ثلاثة فراسخ. قال بعض المؤرخين: جر الأمير بشير بواسطة رجل دمشقى قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا إلى منزله فى بيت الدين من بعد ثلاث ساعات و غرّم على ذلك زهاء مائتى ألف درهم و كانت جميع أهل الأقاليم تحضر فى كل سنة يومين تعمل فى

هذه القنائة بغير أجره اكراما له. و مدة العمل اثنان و عشرون شهرا.

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٥

و المهندسون فى سراى بيت الدين إيطاليون و البناؤون دمشقيون و حلييون و أتراك من الاستانة، و هى على الطرز التركى الممتزج بالطراز الإيطالى، أنشأها الأمير بشير عمر الكبير (١٨١٠) و انتهت سنة (١٨١٥) و على جوانب هذا القصر أربعة جواسق بديعة و له مدخل فخم يبلغ علوه نحو ١٥ مترا كله بنى بضروب الرخام الوطنى الغالى الثمن و الأجنبى الفاخر، مزين بنقوش ملونة، و تمثل أشكالاً هندسية و نباتات و تصاوير شتى، و لهذا المدخل أفاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الأقواس، و فوقه شرف بتقاطع جميلة، و للمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين، و فى داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود، لعمود من الرخام المجزج فى وسطه، كان مفروشا بالفسيفساء و الرخام و هو ملك الحكومه منذ سنة (١٨٦٠) م و لم يبرح عامرا تتعهد به بالإصلاح. و من الأبنية التى اشتهرت قاعة حسين بن قرنق فى صالحية دمشق عمرت سنة (١٠٧٧) و كان يضرب بها المثل و هى على الأرجح فى رأس العقبة مكان دار بنى الشريف دثرت فى القرن الماضى. و كان ابن قرنق صدر دمشق و عمر الأماكن البهية من جملتها قصره و قاعته.

و من الدور القديمة فى حلب و هو مما بنى فى القرن العاشر دار جان بلاط ابن عربو و هى ملك آل إبراهيم باشا ذكر فى أعلام النبلاء أن صدر إيوانها مبلط بالقاشانى على اختلاف أنواعه و ألوانه على أشكال هندسية و أوضاع بديعة أحكمت فيه الصنعة أيما إحكام قال: إن رؤيتها تذكرك إيوان كسرى و عظمتها. و ذكر المحبى أن الوزير حسين باشا صارى أحد ولاء دمشق المتوفى (١٠٩٤) عمر القصر المعروف به فى طرف الشرف بالميدان الأخضر من دمشق و كان مكانه يعرف بالخاتونية و تأتق فى وضعه و غرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف و عزّ عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلبه من أماكن بعيدة.

و من محاسن دمشق الداران اللتان عمرهما فى القنوات الأمير منصور الشهابى أمير وادى التيم و ابن عمه الأمير على و ذلك على أسلوب متقن محكم و زخرفاهما بأنواع الزخارف و النقوش و جلبا إليهما الرخام من إقليمهما. قال المحبى: و لعمري إنهما أبدا و نوعا و أجادا فى صنعهما.

و ذكر المؤرخون أن الأمير فخر الدين المعنى جلب مهندسين من الغرب

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٦

و لعلهم من إيطاليا ليضعوا له خطط قصوره فى بيروت و صيدا و ذكروا أيضا أنه بنى عدة بنايات و قلاعا و حصونا كثيرة، و لما حدث اختلاف بينه و بين بيت سيفا و أتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فأحرقوا و نهبوا الشوف قيل إنه أقسم هكذا: و حق زمزم و النبى المختار لأعمرك يا دير بحجر عكار. و هكذا لما فاز على بنى سيفا و حاصر قلعة الحصن و أخذها و هدمها، جعل الجمال بالألوف تحمل الحجارة من قلعة عكار إلى دير القمر، و بنى جميع الدور القديمة فى دير القمر، و وزع فى جدرانها من حجارة عكار، و هى الحجارة الصفراء الموجودة فى الخراج، و فى جميع بنايات بيت معن القديمة و هى باقية إلى الآن.

قصور القرن الثانى عشر و الثالث عشر:

و من أمثلة البناء الجميل دار أسعد باشا العظم فى جوار جامع بنى أمية بدمشق شرع بإنشائها (١١٦٣) و انتهت (١١٧٤) قيل: إن ما أنفق عليها أربعمائه كيس، كل كيس بخمسائة قرش. و هذا أجور العمل، و أما الخشب و البلاط و التراب و غيره فكله من أملاكه و بساينه عدا من سخرهم للبناء من الناس. و كان عدد العملة ثمانمائة. قال ابن بدير: إن بانيها جد فى العمارة ليلا و نهارا و أحضر لها ١٢ ألف عمود خشب، عدا ما أهدها إياه أعيان البلد. و أو عز إلى الأطراف أن لا يباع القصر مل إلا إليه، و شغل غالب بنائى البلدة و نجاريها و نقاشيها، و جلب البلاط من أكثر دور المدينة، و حيثما وجد بلاط و رخاما و أعمدة و فساقى يبعث بمن يقتلعها و يعطى القليل فى ثمنها.

و كان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ أنقاضه، و أخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان و نقل من بصرى أحجارا و عمدًا من الرخام، و أخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمدًا غلاظًا و هدم سوق الزنوبية فوق حارة العمارة، و كان كله عقدا بالأحجار ففكه و أخذ أحجاره، كما نقل أحجارا من جامع يلبغا. و أينما سمع ببلاط لطيف أو عمد حسنة يأتي بها شراء و بلا شراء و يشغل العملة بكراء و بلا كراء. قيل: إن داخل هذه

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٧

الدار أماكن عديدة لا تشبه الواحدة الأخرى، و جميعها عمل بماء الفضة و الذهب و اللازورد و البلاط و الرخام العظيم. و نقل بعض السائحين أن ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى و لا سراي الملك المعظم. و هذه الدار بما حوت من الفناء و القاعات و الردهات و الأبهاء و الفساقى و الفوارات و الحمام من ألطف ما هندس المهندسون في ذاك القرن و كذلك يقال في قصره في حماة و هو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة. و النقوش و أنواع الزينة فيها فارسية.

فاستدل من ذلك أن النقاشين كانوا فرسا أو تأثروا بالأسلوب الفارسي. و من أجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها أنها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر. و دار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا و رمتها و جعلتها معهدا للدراسات الإسلامية (حزيران ١٩٢٢) و قد حرقت قاعتها في ثورة سنة (١٣٤٤ هـ). و دار أسعد باشا في حماة اشترتها جمعية و جعلتها مدرسة و هي عامرة أيضا. و من أجمل الآثار في دمشق أيضا خان أسعد باشا العظم و واجهته و رتاجه «بوابته» و قد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس إلى الرأس و عرّضه. و من أعظم بيوت حلب القديمة سراي الجلبى كانت كل غرفة منها تضاهى دارا عظيمة استخرج منها مؤخرًا خان وعدة دور. و من أعظم خانات حلب خان الكمر ك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها. و من أجمل آثار ذاك القرن جامع الجزائر في عكا و داره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن. و من البيوت الجميلة قصور بني جنبلط في المختارة في لبنان و في الهلالية قرب صيدا و قصر بني شهاب في حاصبيا و سرايهم في راشيا. فإن هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان في تنجيد بيوتهم و حسن هندستها. و كانوا يبنون كما قيل بناء الجبارة و ينقشون نقش الصياغ.

و إنا إذا تأملنا الأبنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزا طليانيا في الأكثر قد لا ينطبق مع روح القطر و مصطلحه في إشادة البيوت منذ القرون الأولى. و قد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت و لبنان أولا ثم امتد إلى طرابلس و يافا و حيفا و القدس و دمشق

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٨

و حلب و حمص و غيرها من المدن. و ما دور بني سرق في بيروت و صوفر و دور بني بستر و التويني و غيرها في بيروت و الدور المعلقة في مدينة طرابلس و دور الجميلية و العزيزية في حلب و مصايف لبنان في عالية و صوفر و بحدون و بكفيا و شوير و غيرها و بعض الدور المحدثة في دمشق إلا مثال منها. و من أهم أبنية الشام المحدثة دير الكازانوف في الناصرة، و دير الألمان و دير الروس في القدس، و مدرسة اليسوعيين و الجامعة الأميركية و قصر الصنوبر في بيروت.

و محطة السكة الحجازية في دمشق، و محطة سكة بغداد في حلب، و غير ذلك من القصور الخاصة و الفنادق و المدارس و الملاجئ و المياتم و المستشفيات في القدس و طبرية و بيروت و لبنان و غيرها. و من أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي و شامية و عنبر و شمعايا و استانبولي و الحلبوني. و من الدور الحديثة قصر الإمارة الجديد في عمان سموه قصر رغدان. و يسرع البلى إلى ما كان بناؤه منها من الخشب و الطين أو بعضها منهما على الأغلب.

و أكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين و الزخرف في داخلها قال البحترى:

و تأملت أن تظل ركابي بين لبنان طلعا و السنير
 مشرفات على دمشق و قد أعرض منها بياض تلك القصور
 و مع أن المقالع قريبة من دمشق و فيها ضروب الحجر الجميل من أبيض و مائل إلى الصفرة أو الحمرة، فإن القوم يستسهلون أو
 يسترخسون البناء بالخشب و اللبن أو الحجر الأسود البركاني فيبنون به كما يبنى أهل حمص بل أهل كل بلد كانت الحرار السوداء
 قريبة منهم. و أجمل الحجر الرملى فى بيروت و حجر حلب. و لم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضى الفاضل - من الرخام
 الذى يطرد ماؤه، و لا ينطرد لألأؤه، قد لطف الحديد فى تجزيهه، و تفنن فى توسيعه، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد،
 كالذهب الذى فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقرق، كالأشجار لها من النبت أوراق. و إن بعض
 القاعات إذا كتب لها البقاء فلأنها بنيت بالحجر الصلب و تعاورتها أيدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت إلى الترميم بطارئ طراً عليها.
 خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٨٩

أسباب الخراب و العلة فى قلة قصور الأفراد:

قلت فى الشام قصور الأفراد من التجار و الصناع و الزراع كما تشاهد فى الغرب مثلا، لأن السكان كانوا يفتنون فى كبرائهم فلم يكن
 شأن من مظاهر النعمة و الغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد من جملتهم و كان سائر الناس يحاذرون أن تنشأ لهم
 شهرة فى الثروة، و الثروة تتجلى فى الدار و الفرش و الدابة و اللباس، فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالط العمال و فسدت الأذواق فى
 البناء و حسن الذوق تبع للحضارة فى الأمة، فإذا تأخرت حضارتها كان الذوق من أول ما يفسد فيها. و لذا كان الناس يخربون العامر و
 يبنون بأنقاضه. و كم أدركنا و أدرك آباؤنا و أجدادنا من أثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته. و كم من كتابة تاريخية عفى
 أثرها جهلا و غباوة.

اجتاز القاضى أبو يعلى المعرى بلدة شياث ظاهر معرة النعمان و الناس ينقضون بانيها ليعمروا به موضعا آخر فقال:

مررت برسم فى شياث فراغنى به زجل الأحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

أتلّفها شلت يمينك خلّها المعتر أو زائر أو مسائل

منازل قوم حدثنا حديثهم و لم أر أحلى من حديث المنازل

و العلة العظمى فى نزول الدمار بيوت الأفراد أنها أسرع عرضة للتبدل أكثر من المصانع العامة بالخراب و الانتقال من يد إلى يد
 بالارث و التقسيم و يتحيفها ما يتحيف المصانع من زلزال و تخريب بأيدي الفاتحين و الغزاة.

قال بنيامين فى رحلته: و قد أصاب حماة هزة أرضية منذ عهد قريب (٥٥٥٢هـ) اهلكت خمسة عشر ألفا من سكانها فى يوم واحد فلم
 يبق منها إلا سبعون نفسا. و قال أبو الفداء فى هول هذا الزلزال: و يكفى أن معلم كتاب كان بمدينة حماة فارق المكتب و جاءت
 الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له هناك.

و زلزلت الأرض سنة (٥٩٧) فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم و مات تحت الردم ثلاثون ألفا و هدمت عكا و صور و
 جميع قلاع الساحل

خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٩٠

و امتدت إلى دمشق فهدمت أكثر الكلاسة و البيمارستان النورى و تهدمت بانياس و هونين و تبين. و خرج قوم من بعلبك يجنون
 الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم و تهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها و وثيق عمارتها و امتدت إلى
 حمص و حماة و حلب و النواحي و أحصى من هلك فى هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف إنسان و مئة ألف إنسان قاله

فى ذيل الروضتين، و لم يكن زلزال سنه (٥٦٥) أقل من هذا فقد أخربت دمشق و بعلبك و حمص و حماه و شيزر و بعيرين و حلب و تهدمت أسوارها و قلاعها و سقطت الدور على أهلها و هلك منهم ما يخرج عن الحد و أتى الخراب على حلب فأتى على سورها و جوامعها.

الإحتفاظ بالعاديات و المصانع:

و بعد فقد علمنا بما مّر بنا أن الشام وافر المصانع أبقت فيه كل أمه و كل جيل أثرا من غناها و عظمتها، و أن الخراب يتحيف أكثر هذه العاديات لأن حب الإحتفاظ بالقديم قد ضعف فينا. و نرى الشام لا يحتفظ بآثاره و ينميها إلا يوم تنشأ فيه إدارة للعاديات يكون سلطانها نافذا على الكبير و الصغير كما فعلت مصر منذ أمد، فاحتفظت بالبقية الباقية من أعمال الغابرين، و خدمت أحباب الآثار و غلاة الهندسة من المحدثين. و لا يبحث عن العاديات إلا إذا توفر للباحثين العلم بالآثار على أحدث الطرق العلمية، حتى إذا استخرج شىء منها يضنّ به فلا يصدره إلى القاصية بل يحفظ فى دور الآثار تراث الأجداد. و أهم من هذا و ذاك أن يتربى فى الأمه الذوق فى الجمال، و ينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الأطفال، و يعرف كل وطنى معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الأجداد، المنبعثه من أرجائها ریح فضائلهم، المشبعة بأنوار نبوغهم، الصادرة من فيض قرائحهم و عبقريتهم، و عندئذ يصبح الشام كله متحفا نفيسا دونه أجمل المتاحف، و أفخم بيت يجمع المفاخر و المآثر.

انتهى الجزء الخامس من خطط الشام و يليه الجزء السادس و أوله التاريخ المدنى - البيع و الكنائس و الديره

خطط الشام، ج٥، ص: ٢٩١

فهرست الجزء الخامس من خطط الشام

التاريخ المدنى ٣ - ٣١

الجيش ٣

جيوش الأشوريين و الفراعنة و العبرانيين ٣

جيوش اليونان و الرومان ٤

الجيش العربى مع الرومى ٥

بعض قوانين الجيش العربى ٧

تعييه الجيش العربى ١١

شده الأمويين و مثال من أوامرهم ١٢

أدوات التدمير و السلاح و المواصلات ١٧

الجيش على عهد ملوك الطوائف ٢٠

الجيوش الصليبية و التتريه ٢٢ خطط الشام ؛ ج٥؛ ص ٢٩١

جيوش فى القرون الوسطى و جمعيات الفتوة ٢٢

الجيوش العثمانية ٢٥

الجيوش الحديثه ٢٩

الأسطول ٣٢ - ٤٦

بحرية الفينيقيين و العبرانيين و الفراعنة ٣٢

- بحرية الرومان و اليونان ٣٣
- العرب و البحار ٣٤
- أول خليفة غزا البحر الشامي و البحرية الأموية ٣٥
- وصف أسطول شامي ٣٨
- سواحل الشام و نفقات الأسطول و المناور و الرباطات و الفداء ٤٠
- الأساطيل في القرون الوسطى ٤٢
- قصورنا في البر و البحر ٤٤
- الجباية و الخراج ٤٧-٨٨
- جبايات القدماء ٤٧
- الجباية في الإسلام ٤٨
- خطط الشام، ج٥، ص: ٢٩٢
- ضروب الجباية ٤٩
- أول ما فرض من الجباية ٥١
- عهد الأمويين ٥٤
- عهد العباسيين و مساحة الشام ٥٨
- تحري العدل في الدولتين النورية و الصلاحية ٦٣
- الضرائب زمن الأتراك و الشراكسة ٦٤
- غنى الشام و المكوس (سقط هذا العنوان سهوا و موضعه بعد السطر ١٧) ٦٧
- تفنن الشراكسة في اقتضاء الأموال ٧٠
- الأموال أوائل العهد العثماني ٧١
- الخراج و العثمانيون (طبعت خطأ و العثمانيين) ٧١
- تفنن الجزائر في أخذ المال و طريقة العثمانيين ٧٤
- الجباية على عهد المصريين و المقابلة بين طريقتهم و طريقة العثمانيين ٧٥
- رأى إنكليزي في إعنات البلاد بالضرائب ٧٦
- رأى مدحت باشا في مظالمهم ٧٧
- الاشتطاط في الأعشار و القسط في الجباية ٧٨
- خراج الأرض و العقارات ٧٩
- رسم المواشى ٨١
- الأعشار ٨١
- رسوم الجمرك ٨٢
- الجمارك الشامية و وجوه نفقاتها و توزيعها ٨٤
- ضريبة التمتع ٨٥
- الضريبة النسبية ٨٧

- الضريبة المقطوعة ٨٧
- الضريبة المتحوّلة ٨٨
- الرأى فى الجباية و النفقات ٨٨
- الأوقاف ٨٩-١٢٢
- منشأ الوقف ٨٩
- تعريف الأوقاف و طرقها ٩٠
- أول أوقاف الشام و سوء استعمالها ٩١
- شرط الواقف و خراب أوقاف الشام ٩٢
- خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٩٣
- التفنن فى الأحباس و التلاعب بالموقوف ٩٤
- أوقاف نور الدين و صلاح الدين و من تقدمهما و خلفهما ٩٨
- تكاثر الأوقاف و مضار الجمود ١٠٠
- تأثير الوقف فى العمران ١٠١
- الأوقاف عند قدماء العثمانيين ١٠١
- الوقف من مال غير محلل ١٠٢
- مضار الأوقاف ١٠٤
- منافع الأوقاف ١٠٤
- تقسيم الأوقاف و إصلاحها ١٠٥
- ضروب الحيل و انتهاك حرمة الأوقاف ١٠٨
- مصائب الأوقاف ١١١
- أوقاف الذرية ١١٢
- الأوقاف فى العهد العثمانى الأخير ١١٣
- الأوقاف بعد العهد التركى ١١٧
- وسائل إصلاح الأوقاف ١١٨
- الحسبة و البلديات ١٢٣-١٣٩
- العرب دعاة مدينة ١٢٣
- تعريف الحسبة ١٢٤
- الحسبة تجمع الشرطة و الصحة و البلدية و عملها ١٢٥
- الحسبة قانون مدنى ١٢٦
- عمل المحتسب بحسب البلد ١٢٨
- ثلاثة آراء فى الحسبة ١٢٩
- الحاجة و الحسبة أمس و اليوم ١٣١
- تأسيس البلديات ١٣١

- النظام الجديد ١٣٤
- تأثير البلديات فى العمران ١٣٧
- رأى فى إصلاح البلدة ١٣٨
- الترع و المرافئ و الطرق ١٤٠-٢١٦
- ترعة السويس ١٤٠
- الترعة العظيمة عن طريق فلسطين ١٤٧
- خطط الشام، ج٥، ص: ٢٩٤
- الترعة بين البحر الأبيض و الخليج الفارسى ١٤٨
- مرفأ غزة ١٤٨
- مرفأ يافا ١٤٩
- مرفأ حيفا ١٥٠
- مرفأ عكا ١٥٢
- مرفأ صور ١٥٢
- مرفأ صيدا ١٥٣
- مرفأ بيروت ١٥٤
- فرضتا جونيه و جليل ١٥٧
- مرفأ طرابلس ١٥٧
- مرفأ اللاذقية ١٥٨
- مرفأ الإسكندرونة ١٥٨
- الخطوط الحديدية ١٦٠
- خط بيروت- دمشق ١٦٠
- خط بيروت- المعاملتين ١٦٤
- خط دمشق- حوران ١٦٤
- خط دمشق- حلب ١٦٥
- خط حمص- طرابلس ١٦٧
- طريق الحج و إنشاء الخط الحجازى ١٦٨
- إنشاء الخط الحجازى ١٧٠
- الخط الحجازى فى عهد العثمانين و بعدهم ١٨٠
- تقسيم الخط الحديدى الحجازى ١٨١
- الخط الحجازى فى شرقى الأردن و الحكومة الهاشمية ١٨٢
- الخط الحجازى فى المؤتمرات ١٨٣
- نفقات الخط الحجازى و إصلاحه ١٨٤
- الخطوط الفلسطينية: خط يافا- القدس ١٨٥

- خط حيفا- دمشق ١٨٦
- الخطوط العسكرية الفلسطينية ١٨٨
- خط بغداد ١٩١
- خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٩٥
- الخطوط الحديدية بين الشام و مصر ١٩٦
- الكهرباء و خطوط الترام في دمشق ١٩٧
- ترامواى حلب الكهربائى ٢٠٢
- خط الترام في طرابلس ٢٠٤
- الطرق العامة في الشام ٢٠٤
- طرق الشام ٢٠٦
- الطرق العامة ٢٠٧
- وصف الطرق ٢٠٨
- السيارات ٢١٦
- البريد و البرق و الهاتف ٢١٧-٢٢٢
- منشأ البرق «التلغراف» ٢١٧
- الآلات و الأدوات و المخابرة ٢١٨
- إحداث الهاتف ٢١٩
- منشأ البريد ٢١٩
- مراكز البريد و البرق في الشام ٢٢١
- المصانع و القصور ٢٢٣-٢٩٠
- تقسيم المصانع و عظمتها ٢٢٣
- مصانع الأمم القديمة ٢٢٣
- هندسة الفينيقيين و آثارهم ٢٢٥
- عاديات الرومان ٢٢٦
- عاديات البتراء و جرش و عمان ٢٢٧
- وصف المحدثين خرائب جرش ٢٣٠
- عاديات تدمر ٢٣٢
- وصف عاديات تدمر ٢٣٣
- عاديات بعلبك أمس و اليوم ٢٣٦
- أنطاكية و حمص و أفامية و البارة و دمشق ٢٣٩
- حوران و لبنان و غيرهما ٢٤١
- الهندسة الشامية و الكنائس و الهياكل ٢٤٣
- آثار العرب قبل الإسلام ٢٤٤

- خطط الشام، ج ٥، ص: ٢٩٦
- قصور العرب فى الإسلام ٢٤٦
- عناية الأمويين و تفننهم ٢٤٨
- الجامع الأموى و المسجد الأقصى ٢٤٨
- تاريخ الحرم القدسى ٢٥٠
- المسجد الأقصى اليوم ٢٥٢
- صفه المسجد الأقصى ٢٥٤
- وصف المقدسى للمسجد الأقصى فى القرن الرابع ٢٥٦
- أصل الجامع الأموى ٢٥٧
- قصور الأمويين و مصايفهم و مشاتهم ٢٦٣
- عمل العباسيين ٢٦٦
- آثار عربيه محليه ميناء عكا ٢٦٧
- القصر الأبلق ٢٦٩
- المعاهد الدينيه و المدنيه فى العهدين النورى و الصلاحى ٢٧٠
- عمران دمشق فى القرون الوسطى ٢٧١
- دور الخاصه ٢٧٢
- تجديد المدن الصغيره ٢٧٣
- القلاع و الحصون و قلعه حلب و دمشق ٢٧٤
- مثال التخريب فى الحصون و البيع ٢٧٧
- قلاع الصليبيين و كنائسهم ٢٧٨
- هندسه البيوت و بيوت دمشق و حلب ٢٧٩
- نماذج من آثار الشراكسه و العثمانيين ٢٨١
- هندسه الجسور ٢٨٢
- القاعات و القصور المعتمره ٢٨٣
- قصور القرن الثانى عشر و الثالث عشر ٢٨٦
- أسباب الخراب و العله فى قله قصور الأفراد ٢٨٩
- الاحتفاظ بالعاديات و المصانع ٢٩٠
- فهرست الجزء الخامس من خطط الشام ٢٩١-٢٩٦
- تم طبع هذا الجزء على مطابع دار القلم بيروت ص. ب ٦٦٦٤

الجزء السادس

التاريخ المدنى

[البيع و الكنائس و الديره]

بيوت العبادة عند الأقدمين:

لم يخلف التاريخ الصحيح مستندا يركن إليه في وصف بيوت العبادة عند قدماء سكان الشام أيام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ثم بعد أن أصبحوا يعبدون النيران. فلا نعرف إذا شيئا يعتد به عن هياكل الفينيقيين في صور وصيدا وبيروت وجبل و لا عن هياكل مشارف الشام الجنوبية و لا عن بيوت النيران في حلب و لا عن بيوت العبادة عند الحثيين و البابليين و الاشوريين و لا عن هيكل الرب مرناس الذي كان يعبد في غزة، و يحجون إلى هيكله من الأقطار و لا عن معبد المشتري (جوبيتر) الذي أنشأه أدريانوس الروماني في جبل جرزيم فوق نابلس، و لا عن هياكل المشتري معبود الرومان الذي وجد في السخنة بين تدمر و دير الزور، و لا عن هيكل اليونان في أنطاكية، و لا عن هيكل بزيعة بالغرب من كوسبة في لبنان، و لا عن بعل مرقد في أطلال دير القلعة قرب بيت مرى بلبنان، و لا عن هيكل الزهرة في افقة في جبل كسروان. و الهيكل الباقي من هياكل القدماء هو هيكل بعلبك و قليل أمثاله جدا مما صبر على ضربات الدهر.

أما كنائس اليهود فقد تبين أنهم شرعوا بإنشاء كنيس لهم في سبي بابل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤

يجتمعون فيه و يتعبدون. و أهم ما كان من كنائسهم كنيسهم في القدس بنوه بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد و قسموه قسمين قسم للرجال و قسم للنساء، ثم كثرت الكنائس في المدن الصغرى و الكبرى في كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون و أنصار. و لكل كنيس خزانه مقدسة تقام في داخل البناء على خشب و تجعل متجهة نحو القدس و هي مغشاة بالكثان و فيها الطوامير المقدسة و أمام الخزانه ستار يذكر بستار المعبد و في وسطه أمام الخزانه شيء أشبه بمنبر.

هذا غاية ما يقال في هياكل القدماء و بيوت عباداتهم، و كيف السبيل إلى وصف المعابد القديمة و التاريخ لا يعرف شيئا يعتد به عن العالم الاسرائيلي بل و لا عن نصارى القرون الأولى، و كل ما يعرف عن موسى و عن قضاة إسرائيل و داود أو المسيح و الحواريين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة و النصرانية نفسها لم تنتشر في الشام إلا في القرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين أو أم قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية و هو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق و غيرها حتى يقال إنه بنى في زمانه اثني عشر ألف كنيسة.

و لا بد لنا قبل وصف الكنائس و البيع و الأديار أن نعرفها تعريفا يقربها من جميع الأذهان و لا يوقع فيها لبسا. فالدير كما قالوا في تعريفه بيت يتعبد فيه الرهبان و لا يكاد يكون في المصر الأعظم إنما يكون في الصحارى و رؤوس الجبال فان كان في المصر كانت كنيسة أو بيعه. و ربما فرّق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود و البيعة للنصارى. و قال بعضهم: البيعة متعبد النصارى و قيل: كنيسة اليهود. و الأولى أن تطلق الكنيسة على متعبد النصارى و الكنيس على متعبد اليهود. و جاءت لفظه الدير من الدار و الجمع أديار و الديراني صاحب الدير و الذي يسكنه و يعمره. و يقال له ديار. و يقال دير و ديرة و أديار و ديران و داره و دارات و ديرة و دير و دور و دوران و أدوار و دوار و أدورة.

منشأ الأديار و البيع:

أنشئت الأديار الأولى في الشام، فهي موطنها الأول، ذلك أن من

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥

المسيحيين من أخذوا يألفون العزلة لأول ظهورهم في صعيد مصر و جبال أنطاكية ينقطعون للنسك. و لما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة إلى إنشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس. و أنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد و تسيّرهم إدارة رئيس واحد. ثم اتحدت تلك الأكواخ و البيوت. و أنشئت أديار في المدن تولاهها

الأساقفة و انتقل ذلك إلى الغرب. و كما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت أول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب، فقد جرت في هندستها لأول مرة على مثال المعابد القديمة، فالشام إذا أول من أنشأ الأديار و الكنائس كما قامت فيها النصرانية و اليهودية. قلنا: إنه يرد إنشاء الكنائس إلى عهد قسطنطين و قد بدأت البيع بالتكاثر في سنة (٣٣٠) للميلاد و ذكر بعض المؤرخين أن ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين في بعلبك الى كنائس فبنى كنيستين في القلعة إحداهما في وسط البهو الكبير القائم أمام هيكل الشمس. و قال المسعودي: إن هيلاني بنت بإيليا الكنيسة المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صبحه الفصح و كنيسة قسطنطين و ديارات كثيرة للنساء و الرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بالطور و هو بإزاء قبة اليهود و عمرت مدينة إيليا عمارة لم يكن قبلها مثلها و لم يزل ذلك عامرا إلى أن أخربته الفرس حين غلبت على مصر و الشام.

تكاثر الكنائس و الأديار في الشام فلم يمض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الأديار و البيع على صورة مستغربة حتى إن الغسانيين ولعوا أيضا بعمارة الأديار في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه في الجنوب على عهد ملوك الروم فشادوا دير حالي و دير أيوب و دير الدهناء و دير ضخم و دير النبوة. و اشتهر الغساسنة بإقامة الدير و البيع و كانوا كما قيل يعتمدون بنائهم المواضع الكثيرة الشجر و الرياض و المياه و يجعلون في حيطانها و سقوفها الفسافس و الذهب و مثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة و بنى الحارث بن كعب بنجران من بيوتات العرب.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦

أعظم الكنائس و أقدمها:

و يظهر أن كنيسة القبر المقدس في القدس هي أقدم كنيسة في الشام قامت في مكان نظر إليه في كل وقت بأنه مقدس. و ذكر الأسقف أوسابيوس القيصري (٣١٤ - ٣٤٠) و هو والد تاريخ الكنيسة أن في الحفريات التي جرت على عهد الملك قسطنطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة. و زاد المؤرخون المحدثون أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين المتوفاة نحو سنة (٣٢٦ م) زارت القدس و اكتشفت القبر المقدس و صليب يسوع، فالنبات التي أقيمت في ذاك المكان سنة (٣٣٦ م) هي من البناء المدور قد دعي كنيسة القيامة و مؤرخوا المسلمين يسمونها كنيسة القمامة كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب و قد أحرق الفرس هذين المكانين سنة (٦١٤ م). و أعاد هرقل بناء ما كان خرب كسرى من الكنائس في مصر و الشام، و ذكر المؤرخون أن الفرس خربوا كنائس القدس بمعاونة اليهود و مما خربوا كنيسة الجسمانية و كنيسة المنيه و ظلتا خرابا الى القرن الرابع من الهجرة، و لما انصرفوا عمر النصارى كنيسة القيامة و المقبرة و الـكرانيون و مار قسطنطين و أحدث الراهب مودست رئيس دير تيودوس في سنة (٦١٦) و (٦٢٦) كنيسة القيامة و كنيسة الصليب و كنيسة الجلجلة و أضيفت سنة (٦٧٠) الى الجنوب كنيسة للعدراء.

و لما فتحت القدس و جاء الخليفة عمر بن الخطاب أدركته الصلاة فلم يرض أن يصلى في كنيسة القيامة لثلا يكون بعده للمسلمين حجة في أخذها و بنى مقابلها جامعا و مصلى. و لما تنصر الروم على رواية ابن بطريق و بنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس في بيت المقدس كان موضع الصخرة و حولها خراب فترك، و رموا على الصخرة التراب و هذه التي بنى عليها المسجد الأقصى، ثم ذهب الخليفة الى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية، و كانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء، و كتب عمر للبترك سجلا أن لا يصلى في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد و لا يجمع فيه صلاة و لا يؤذن فيه و لا يغير فيه شيء. و كنيسة بيت

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧

لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة (٣٣٠) فكانت كاتدرائية كبرى و أنشأ يوستينانوس حيطانها و أقيمت فيها

أديار و كنائس كثيرة حتى اطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر.

و من أشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الأموي اليوم، صالح المسلمون على نصفها الشرقي لأنهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحا و عنوة، فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى، التي كانت أكبر معابدهم على رواية ابن كثير، في النصف الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف. و كان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب أمان و أقر ما بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة، فجعل أبو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجدا. فكان المسلمون و النصارى يدخلون من باب واحد و هو باب المعبد الأصلي في القبلة؟ قال جرجس بن العميد: و قيل: إن الوليد بذل للنصارى في كنيسة مار يوحنا أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوا المال فأخذها فأخربها و لم يعطهم شيئا. و في تواريخ دمشق أن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد أبي عبيدة بن الجراح من أن كنائسهم لا تهدم و لا تسكن و أن الوليد أخذ كنائسهم بغير حق قهرا، فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالا يرضيهم به حتى بلغ مائة ألف فأبوا، فكتب الى محمد بن سويد الفهري أن يدفع إليهم كنائسهم أو يرضيهم في ذلك. فلما وصل كتاب عمر إلى دمشق أعظم الناس ذلك و فيهم يومئذ بقيه من أهل الفقه، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا: هذا أمر عظيم ندفع إليهم مسجدا و قد أذنا فيه بالصلاة و جمعنا فيه يهدم و يعاد كنيسة. فقال رجل منهم: هنا مسألة فإن لهم كنائس عظاما حول مدينتنا و هي دير مران و الكنيسة بباب توما و غيرها من الكنائس ان أحبوا أن نعطيهم كنائسهم فلا يبقوا حول مدينته دمشق و لا بالغوطة كنيسة إلا هدمت أو نبقى لهم جميع كنائسهم و يتركوا هذه و نسجل لهم بذلك سجلا، فرضى النصارى على أن يسجل لهم الخليفة سجلا منشورا بأمان على ما بدمشق و الغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن. و هكذا استحالت كنيسة مار يوحنا إلى مسجد جامع للمسلمين أخذوه بحكم الفتح

خطط الشام، ج ٦، ص: ٨

و أرضوا أبناء ذمتهم على كل حال. و ما ندرى كيف آل إلى هؤلاء من اليهود أو إلى النصارى من الصابئة و غيرهم. و لعل التقليد القائل بأن في الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أتى من كون الكنيسة كانت على اسم مار يوحنا. و يوحنا هو يحيى و الله أعلم.

و خاصم النصارى حسانا بن مالك الكلبى الى عمر بن عبد العزيز في كنيسة بدمشق فقال له عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها. و قال غيره: خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نصر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى فلما ولي يزيد ردها الى بنى نصر.

و في كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخروا بهم و برئيسهم و بدينهم و جماعتهم من أهل القرى و أن أولئك العتقاء أحلاف و فرق و أنهم غلبوهم على كنائسهم و سألوا الوفاء لهم بما في عهدهم و بما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أمانا لأنفسهم و لأموالهم و كنائسهم لا تهدم و لا تسكن لهم على ذلك ذمة الله و ذمة الرسول عليه الصلاة و السلام و ذمة الخلفاء و ذمة المؤمنين لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص و عياض بن غنم و يزيد بن أبي سفيان و أبو عبيدة بن الجراح و معمر بن غياث (عتاب) و شرحبيل بن حسنة و عمير بن سعد و يزيد بن نبيشة و عبد الله بن الحارث و قضاعي بن عمر و كتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة».

قال يحيى بن حمزة فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم، و فحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار، و وجدت ما وراء حائطها آثارا وضعت لدفع الخيل و مراكز الرماح، و نظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم، و وجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلا روميا قتلته الحرب أو نفته، و مساكنهم و كنائسهم قسمة بين المسلمين

خطط الشام، ج٦، ص: ٩

معروفة لا تخفى، ورجلا من أهلها حقن دمه هذا العهد، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن، و لم تقسم معروفة ليس تخفى، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد و أبناء البلد، و وجدت من نازعهم لفيها طراً و ذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد و مساكن. فلهم في آخر الدهر ما لهم في أوله و أثبت في الأصول قبل و أشهد الله عليه و صالح المؤمنين، و فاء بهذا العهد الذى عهده لهم السابقون الأختيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم .. و قضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو كسوة أو عرضة أضافوا ذلك إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه و سهل قبضه، أو قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك اه.

هذا ما كان من المسلمين مع أبناء ذمتهم و مراعاة العهود التى قطعوها على أنفسهم. و لم تزل سيرة خلفاء بني أمية و بعض بني العباس مع النصارى و كنائسهم سيرة الخليفة الثانى و الفاتحين من الصحابة الكرام. فقد بنى أبو جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبنى قبطيانى الغوريق، ذكر ذلك ابن عساكر. و لما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون أمر أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار فضل عنهم أربعة عشر ألف دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم أمر بفرق على أهل دمشق و غوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار.

مبدأ هدم الكنائس:

أول حادث وقع في تخريب الكنائس قبل الإسلام كان لما ثار بفسطين أهل السامرة و هدموا في سنة إحدى و عشرين و خمسمائة الكنائس كلها و أحرقوها من بيسان الى بيت لحم و قتلوا النصارى و عذبوهم عذابا شديدا فأعاد يوستينيانوس الكنائس و كتب الى عامله في فلسطين أن يعفى أهلها من الخراج و يعمر بها الكنائس و الديارات و بنى بيمارستانا للغرباء في القدس. و بقدر ما رأى النصارى من عدل المسلمين معهم أيام عزمهم أخذ بعض ملوكهم بعد القرن الثالث يحكمون العواطف بدل العقل في الكنائس

خطط الشام، ج٦، ص: ١٠

و البيع، و كان من أثر ذلك أن نالت السياسة من بيوت العبادة فكان إذا أحس القائم بأمر المسلمين أن قومه في شدة في ديار الحرب انتقم من أهل ذمته في ديار الإسلام، و سلط العامة من طرف خفى ليخربوا كنائس النصارى و بيعهم.

قال القلقشندي: و في السنة الأخيرة من رياسة البطريك قسيما و هى سنة ثلاث عشرة و ثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق و نهبوا ما فيها و تتبعوا كنائس اليعاقبة و النساطرة. و قال ابن بطريق: إن هذه الحادثة وقعت في رجب سنة اثنتى عشرة و ثلاثمائة و ذلك أن المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مرتميم الكاتوليكية، و كانت عظيمة كبيرة حسنة أنفق فيها مائتا ألف دينار، و نهبوا ما كان فيها من آنية و غير ذلك من حلى و ستور، و نهبت ديارات و خاصة دير النساء الذى كان في جانب الكنيسة و شعثوا كنائس كثيرة للملكية، و هدموا كنيسة النسطورية.

و ثار المسلمون بالرملة و هدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مار قزماس و كنيسة مار كورقس و هدموا كنيسة عسقلان و قيسارية و ذلك سنة (٣١١).

و ثار المسلمون بكنيسة بيت المقدس و أحرقوا أبواب كنيسة قسطنطين القبلية سنة (٣٢٥).

و كان الداعى الى ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمين في الروم على الغالب فلم يجد ملوك الإسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم من أهل الإسلام إلا- بالضغط على النصارى في ديارهم و التأثير في ملوك النصارى بضربهم في أكبادهم في كنائس هى مهوى قلوب أبنائهم في بيت المقدس و ما إليها بدليل أن ابن بطريق نفسه قال بعد إيراد تلك الحوادث:

وقع بين الروم و المسلمين هدنة مرضية في سنة ست و عشرين و ثلاثمائة و قال في حوادث السنة التالية: إن المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة تعرف بكنيسة مريم الخضراء و نهبوا جميع ما فيها و أحرقت و عاضد المسلمين اليهود في هدمها. و كان اليهود يشعلون النار في الحطب و يجرونه بالبكر الى أعلا السقوف حتى يحرقوها و ينحل رصاصها و تقع عمدتها و خربت الكنيسة و بقيت خربة. و روى أيضا أن الصناحي و الى القدس

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١

اضطهد بطيريك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يستمع الوالى لذلك و اختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالى و أحرقوا أبوابها و سقطت القبة، و توجه الرعية الى كنيسة صهيون و أحرقوها و نهبوا. و هدم اليهود و أخرجوا أكثر من المسلمين.

و أهم ما نال الكنائس في الشام من الأذى، كان على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي فإنه لم يبق في مملكته ديرا و لا كنيسة إلا هدمها. ففي سنة (٣٩٨) كتب الحاكم الى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاتوليكي فهدمت، و كتب الى والى الرملة بهدم كنيسة القيامة في القدس و إزالة معالمها و القضاء على آثارها، و هدم الاقرايون كنيسة ماري قسطنطين و سائر ما اشتملت عليه حدودها و استقصوا في إزالة الآثار المقدسة، و كان في جوار المقبرة دير للنساء يعرف بدير السرى فهدم أيضا. و كان ابتداء نقضها سنة أربعمائه و وضعت اليد على الأملاك و الأوقاف و جميع ما في تلك الكنائس من آلائها و حلالها.

و عاد الحاكم بعد أن ضرب النصرارى في كنائسهم في جميع أرجاء مملكته فأعطاهم عهدا كما كان يعطى الخلفاء العادلون و منها هذا المنشور الذى أورده ابن بطريق:

«بسم الله الرحمن الرحيم أمر أمير المؤمنين بكتب هذا المنشور لنيقيفور بطيريك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته، و إطلاق بغيته، من صيانتة و حياطته، و الذب عنه و عن أهل الذمة من نحلته، و تمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم و اجتماعهم، و ترك الاعتراض لمن يصلى منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة و خربتها، على اختلاف رأيه و مذهبه، و مفارقتة في دينه و عقيدته، و إقامة ما يلزمه في حدود ديانتة، و حفظ المواضع الباقية في قبضته، داخل البلد و خارجه و الديارات و بيت لحم ولد، و ما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها، و المنع من نقض المصلبات بها، و الاعتراض لأحباسها المطلقة لها، و من هدم جداراتها و سائر أبنيتها، إحسانا من أمير المؤمنين إليهم، و دفع الأذى عنهم و عن كافتهم، و حفظا لذمة الإسلام فيهم، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢

و الولاية، و متولى هذه النواحي و كافة الحماة، و سائر المتصرفين في الأعمال، و المستخدمين على سائر منازلهم، و تفاوت درجاتهم، و استمرار خدمتهم، أو تعاقب نظرهم، في هذا الوقت و ما يليه، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين و رسمه، و يعمل عليه و بحسبه، و ليحذر من تعدى حده و مخالفة حكمه، و يتجنب مباينة نصه و مجانية شرحه، و ليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه، يستعين بها على نيل طلبته، و إدراك بغيته، إن شاء الله تعالى.

و كتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة و أربعمائه. و فى أعلاه بخط الحاكم توقيع: الحمد لله رب العالمين.

قال ابن بطريق، و انفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها عليها، و أطلق عمارة جميع الكنائس و الديارات التى يستدعى منه الإذن فيها و فى عمارتها بمصر و فى سائر بلاد مملكته، و كتب لكل منهم سجلا لإعادة أوقافها إليها، إلا ما كان من الأوقاف و الكنائس قد بيع فى وقت القبض عليها فى دمشق و فى جميع بلاد الساحل، و صرف ثمنه فى النفقات السلطانية، لضيق الأموال و قلتها، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين. و لما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس و تجديدها ورد أوقافها عاد الذين أسلموا من النصرارى وقت الاضطهاد إلى دينهم بأمره و تسامحه. و لما هلك الحاكم و بويع لابنه الظاهر و استولت عمته على الملك

بالفعل تقدمت بمسير نيقفور بطيريك بيت المقدس إلى حضرة الملك ليطالبه بعودة الكنائس و تجديد كنيسة القيامة بيت المقدس و سائر البيع في جميع بلاد مصر و الشام و رجوع أوقافها إليها.

و كان البطاركة أشبه بسفراء سلام بين ملوك الإسلام و ملوك الروم.

إذا وقع حيف على المسلمين في ديار أعدائهم يندبهم ولاء الإسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام و غيرها من الاضطهاد إن هم أساءوا إلى المسلمين الواقعين في أسرهم، أو الراحلين إليهم في التجارة. و مما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدي في عقد الهدنة ثلاثة شروط منها أن يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة بيت المقدس و يجدها من ماله، و يصير بطيريكاً على بيت المقدس، و أن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣

التي في بلاد الظاهر. فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة و من إقامة بطيريك و من تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجداً.

و قد علل معجير الدين الحنبلي عمل الحاكم في هدم البيع تعليلاً غير مقبول كثيراً قال: إنه بسبب ما أنهى الى الحاكم من الفعل الذي يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يوقدونها في سبت النور يوهمون أنها تنزل من السماء و قال: إن المستنصر بالله أبا تميم معدا، هادن ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليتمكن من عمارة القيامة التي كان خربها جده الحاكم فأطلق الأسرى. قال: و الذي يظهر أن تخريبها لم يكن تخريباً كلياً بل كان في غالبها.

و قد وقع في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعه كان السبب فيه داخلية كأن يميل أهلها إلى عدو خارجي يداهم القطر، فقد استطالوا سنة (٦٥٨ هـ) على المسلمين كما يقول المؤرخون فنهبهم المسلمون و خربوا كنيسة مريم بدمشق و كما وقع لهبة الله النصراني متولى خزانه السلطان فإنه «كان تمكن من المسلمين و آذاهم، و رفع منار النصارى و تسلطوا بجاهه على المسلمين، و جدد لهم بناء كنيسة مريم و شيد بانيانها، و رفع بابها، و حسن عمارتها، ثم هدم ما زاده، و أعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه، و تولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم».

و كل تخريب وقع كان عن دواع كليه في الغالب يرجع في جملته إلى اعتداء النصارى في غير ديار الإسلام على المسلمين. فإن نيقفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقریطش (كريت) في أسطول و نازلها في النصف من المحرم سنة خمسين و ثلاثمائة و حاصرها ثمانية أشهر و فتحها و خرب ما فيها من المساجد و سبى من أهلها خلقاً كثيراً قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاماً من الروم على فعلتهم و هكذا دواليك في تلك العصور المظلمة.

و في سنة (٨٥٦) صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار و بهدم ما استجد بدير صهيون في القدس و انتزاع قبر داود من أيدي النصارى فهدم البناء

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٤

المستجد، و فيها أخرج المسجد من دير السريان و صار زاوية و هدم البناء المستجد ببيت لحم و في كنيسة القيامة و كشفت جميع الأديار و هدم جميع ما استجد بها. و في سنة (٨٩٥) هدمت القبة التي أحدثها النصارى في دير صهيون. و السبب في ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة في تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار و الكنائس أماكن يعتمص فيها تساعد في الأيام العصيبة على أن تكون ثكناً و قلاعاً لمن يداهم الشام من غير أهل الإسلام.

و مع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل في تلك الأعصار مع أبناء ذمتهم فقد ذكروا أن المفرج بن الجراح لما تغلب على أرجاء فلسطين ألزم النصارى ببناء كنيسة القيامة بيت المقدس، قال ابن بطريق: إنه عاون على بناء كنيسة القيامة و أعاد فيها مواضع بحسب إمكانه و قدرته.

كنائس دمشق:

و لم يحدثنا التاريخ بما كان من أنواع الكنائس بعد القرن الثامن و معظم الكنائس و الأديار فى الشام اليوم بعد كنائس القدس و بيت لحم و دمشق هى مما أنشئ فى القرون الأخيرة. فالكنائس فى دمشق جددت بعد سنة (١٨٦٠) أى بعد أن خربت فى حوادث تلك السنة. فلطائفه الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس أكبرها المريمية و هى أعظمها، و من أقدم كنائس هذه الديار و فيها مقام البطيريك الأنطاكى خربت فى أدوار كثيرة و آخر خرابها فى وقعة تيمور يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعا و عرضها نحو أربعين. و الثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقى أنشئت بعد سنة (١٨٦٠) و فى جوارها مدرسة الروم.

و الثالثة كنيسة الميدان فى محله القرشى تم بناؤها سنة (١٨٦٢). و لطائفه الروم الكاثوليك ثلاث كنائس أيضا كانت الكبرى كنيسة لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك و أسست أيام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة (١٨٤٠) على اسم السيدة و هى فى حارة زيتون قرب سور البلد القديم و حرق فى حادثه سنة (١٨٦٠) أيضا و هى متينة راسخة البنيان و فيها مقام البطيريك الأنطاكى لتلك الطائفة. و الكنيسة الثانية فى باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥

و الثالثة فى القرشى على اسم سيده النياح. و للسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشى فى حى المسيحيين على الطريق العامة و فيها دار البطيريك و لها مدرسة متصلة بها حرق فى سنة (١٨٦٠) أيضا ثم جددت.

و للأرمن القدماء كنيسة قرب السور و هى قديمة احترقت فى حوادث سنة (١٨٦٠) و اسمها مار سركيس و لها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث.

و للسريان يعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقى فى محله حنانيا جددت سنة (١٨٦٠) باسم القديس جاورجيوس. و للأرمن الكاثوليك كنيسة أمام دير اللعازارين أنشئت بعد سنة (١٨٦٠) على اسم القديس غريغوريوس.

و للبرتستانت كنيسة بنت إحداهما مسز موط الانكليزية سنة (١٨٦٨) و الثانية (١٨٦٤) بناها القس يوحنا كرقورد الأمير كاني.

و قد أنشئت عدة كنائس و أديار فى دمشق أهمها دير اللعازارين كان شرع بنائه قبل حوادث (١٨٦٠) ثم أحرق و جدد بعد ذلك و فيه مدرستان إحداهما للذكور و الثانية للإناث. و ليسوعيين مدرسة للبنات و فيها كنيسة صغيرة. و هناك دير الفرنسيسكان بالقرب من دير اللعازارية قيل: إنه أنشئ من نحو ٣٥٠ سنة و جدد عقيب حوادث (١٨٦٠) و فيه مدرسة للصبيان. و لطائفه الموارنة دير على اسم مار أنطونيوس البادوانى حرق (١٨٦٠) و فيه دار البطيريك. و فى سفح الصالحية كنيسة صغرى للسريان الكاثوليك. و أنشئت فى العهد الأخير كنيسة فى المدرسة الإيطالية بطريق الصالحية و أخرى وراء المستشفى العسكرى لراهبات الفرنسيسكان و غيرها من الكنائس الصغرى.

كنائس حلب:

و ليس فى الشهباء كنائس قديمة و أقدمها لا يرد عهده إلى قبل منتصف القرن الماضى فمنها كنيسة الأربعين للأرمن الغريغورين فى الصليبية و هى من الكنائس القديمة جددت (١٨٦٩) و كنيسة السيدة للأرمن الغريغورين (١٨٥٠) و كنيسة مار أنطونيوس البادوى للآباء الفرنسيسيين أنشئت (١٦٦٠) ثم جددت، و كنيسة انتقال السيدة للسريان الكاثوليك فى حارة الصليبية جددت

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦

(١٨٥٠) بعد حريق وقع لها. و كنيسة أم المعونات للأرمن الكاثوليك تم بناؤها (١٨٤٠) و منها كنيسة بشاره الإنجيل للبرتستانت فى محله جقور القسطل جعلت كنيسة (١٨٦٧). و كنيسة مار فرنسيس للآباء الفرنسيسيين فى حى جلوم تم بناؤها (١٨٧٨). و كنيسة السيدة

للروم الأرثوذكس في الصليبية جدد بناؤها (١٨٥١). و سيده الانتقال للروم الكاثوليك جددت بعد حريقها (١٨٥١). و مار جرجس للروم الكاثوليك في ثرعوسوس تم بناؤها (١٨٥٠) و كنيسة قلب يسوع للأباء اليسوعيين في حي تراب الغربا تمت سنة (١٨٨١). و كنيسة مار بطرس للكلدان في العزيزية (١٨٨٢).

و كنيسة مار جرجس للسريان الأرثوذكس في جقور قسطل و هي من الكنائس القديمة اخص بها السريان بعد أن كانت مشتركة بينهم و بين الأرمن في سنة (١٨٩٣) و كنيسة القديس بوناونتورا للأباء الفرنسيين تم بناؤها في حي الرام سنة (١٩٠٧) و كنيسة للموارنة باسم مار الياس الحى في الصليبية تمت سنة (١٨٩١)، و كنيسة الأنفس المطهبة في الحميدية تم بناؤها سنة (١٩١٠).

الكنائس و البيع في القدس:

و في القدس أديار و كنائس كثيرة بحيث يصح أن تدعى بلد الكنائس و لطائفة كاثوليك الرومانيين كنيسة اسمها كنيسة البطريركية و دير المخلص للفرنسيين و له كنيسة و ميثم و صيدلية و مطبعة، و كنيسة القديسة حنة و كنيسة الاكسى هومو (أى صورة المسيح المكلمة بالشوك) و كنيسة الدورميسيون و كاتدرائية سان ايتيان، و كنيسة الاغونى و أديار كنيسة القيامة ودى لافلاجلاسيون و الدومنيكيين و إخوان البعثة الإفريقية و اللعازارين و الآباء الپاسيونيست و البندكتيين. و دير البندكتيين و أديار الكرملين و سيدات صهيون و أخوات القديس يوسف و أخوات الوردية و الكلاريس و أخوات ريباراتريس و البندكتيات. و لهم كنائس في المدارس. منها في المدرسة الاكليريكية البطريركية و ميثم الأطفال في دير المخلص و المدرسة الصناعية في الدير نفسه و مدرسة الذكور للفرنسيين و المدرسة الصناعية

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧

للكور لرهبان سيده صهيون و مدرسة الذكور لإخوان المدارس المسيحية و مدرسة و ميثم بنات أخوات القديس يوسف و ميثم البنات لأخوات الفرنسيين و مدرسة للبنات لراهبات الوردية و مدرسة و ميثم لبنات سيدات راتسبون، و مدرسة البنين و البنات لجمعية الأرض المقدسة الألمانية.

و من المستشفيات مستشفى سان لويس، تعاون فيه راهبات القديس يوسف و ملجأ اللقطاء و العجزة و المرضى لأخوات الإحسان، و ملاجئ الحجاج مثل كازانوف للفرنسيين. و الملجأ الكبير الفرنسي لسيدة فرنسا و ملجأ الاغسطيين و الملجأ الكاثوليكى الالمانى و الملجأ النمساوى و الروم المجتمعين أو الروم الكاثوليك كنيسة في البطريركية و بيعة في سانت فيرونيك و مدرسة اكليريكية كبرى لرهبان القديسة حنة لإخوان البعثة الإفريقية (الآباء البيض) و ميثم للبنات و واحد للسوريين المتحدين و له مدرسة اكليريكية يديرها الآباء البندكتيون و قليل من الأرمن المتحدين مع كنيسة سيده السباسم و بيعة و ملجأ و مدرسة متصلة بالكنيسة اللاتينية.

و للطوائف البرتستانتيه الالمانية كنيسة المخلص الالمانية و ملاجئ فرسان القديس يوحنا و مستشفى الدياتونيس قيصر ورت و دار للبرص لإخوان المورافيين و ميثم للفتيات و ميثم سورى للأولاد أسسه شنيلر و له ملجأ للعميان و مدرسة لأولاد العرب في القدس. و للطائفة البرتستانتيه الانكليزية مدرسة و كنيسة أسقفية و جمعية التبشير الكنائسى لدعوة أبناء العرب من المسلمين و اليهود للمذهب و لها كنيسة القديس بولس و ميثم للذكور أسسه أسقف كوبا و مدرسة للذكور و البنات و مدرسة عالية و كنيسة يسوع لجمعية يهود لندرا، و هذه الارسالية تقوم بنفقة مستشفى كبير و صيدلتين و مدارس للذكور و الإناث و مدرسة صناعية و مطبعة. و لرهبنة فرسان القديس يوحنا الانكليزية مستوصف للرمد و بعض الأديار و المدارس تنفق عليها جمعية تبرعات فلسطين و جمعية مبرات ارسالية الشرق الانكليزية. و لطائفة الروم الارثوذكس عدة أديار و كنائس منها دير هيلانه و قسطنطين و دير إبراهيم و دير جيتسمانى و القديس باسيليوس و القديس تيودوروس و القديس

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨

جورج و القديس ميشل و القديسة كاترينا و اوتيم و سيدة النجا و اسيريديون و كارالومبوس و ديمتريوس و نيقولاوس و روح القدس و مدرسة للبنات و أخرى للذكور و مستشفى و غير ذلك. و للبعثة الروسية مدرسة كبرى فى حى يافا و البنات على جبل الزيتون. و كان للجمعية الروسية الفلسطينية ملجأ كبير للحجاج بالقرب من المعهد الروسى، و ملجأ للراهبات بالقرب من اليمارستان.

و للأرمن دير بالقرب من باب صهيون و لهم مدرسة اكيريكية و مدرستان للذكور و للإناث و كنيسة القديس يعقوب و دير للنساء اسمه دير الزيتونى و دير و بيعه جبل صهيون و لهم ملجأ. و للأقباط دير يقيم فيه أسقفهم و دير آخر يقال له دير القديس جورج. و للسريان اليعقوبيين كنيسة صغرى يقيم فيها أسقف لهم. و للحبش دير و كنيسة فى الشمال الغربى من المدينة و للإسرائيليين زهاء ٧٠ كنيسة. و كثير من معاهد الخير و الإحسان و ملاجئ للزوار و معاهد للفقراء أسس معظمها مونتفيور و روتشيلد و جمعية الاتحاد الإسرائيلى و غيرهم و لهم أربعة مستشفيات و دار للمعتوهين و مدرسة للعميان و ملجأ للشيوخ و مدرسة ابتدائية و صناعية تقيم عليها جمعية الاتحاد الإسرائيلى و مدرسة انكليزية للبنات و مدرسة المانية للبنين و ملاجئ منها الالمانى و الاسبانى و فى القدس مدرسة البنات لاسوج. و لما زار الامبراطور غليوم الثانى ملك ألمانيا مدينة القدس أمر بإنشاء أربع كنائس و كلها واقعة فى أهم بقعة فى المدينة ثلاث منها مشرفة عليها من الخارج و الرابعة داخل المدينة أى السور.

و قبل الحرب العامة كان فى القدس ٨ أديار للذكور و ٩ أديار للإناث من اللاتين و كنيسة الروم الكاثوليك و واحدة للأرمن الكاثوليك و ١٤ ديورا للروم الذكور و ٤ أديرة للإناث من الروم و ٤ أديار للروس و ٥ للأرمن و ٣ للأقباط و ٣ للحبش و ٢ للسريان و ٢ للبرتستانت الاسقفيين و ١ للإنجيليين و ١ للهيكليين من الطوائف البرتستانتية و ٤٠ كنيسة للإسرائيليين و ربما زادت بعض الطوائف أماكن أخرى للعبادة.

و كنائس القدس و أديارها و بيعها على غاية من الفخامة لأنها من إنشاء

خطط الشام، ج٦، ص: ١٩

دول كبرى و مكانة القدس فى هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى، و أهم تلك الكنائس فى القدس كنيسة القيامة و هى ليست بالكبرى كثيرا بالنسبة لكنائس الغرب المهمة بل هى متوسطة الحجم استأثر أهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يكنسونها و يوقدون سرجها و يتعهدونها بما يصلحها. و السدانة للمسلمين حتى لا يقع بين أهل تلك المذاهب شىء من التحاسد الذى أدى فى الأزمان السالفة الى فتن و حوادث، و لكل قطعة من قطع كنيسة القيامة و جدار من جدرانها و عمود من عمدتها حادثة تاريخية يذكرونها فى تاريخهم الدينى.

و إن؟؟؟ كان عنى بعمران كل بلد على مثل ما عنى بإنشاء الأديار و الكامل؟؟؟ القدس و ما إليها من الأرض المقدسة لكانت الشام أعمار أقطار العالم؟؟؟ بكنائسها؟؟؟ و أديارها فقد قدم؟؟؟ بعضهم ما أنفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون حسبه؟؟؟ قبل أن يحاول اليهود أن يجعلوا لهم من فلسطين وطنا قوميا، و قبل أن ينشؤا فيها كنائسهم و معابدهم و يشترك يهود العالم فى إتمام مشاريعهم فى فلسطين. و لا يدخل فى هذا التقدير فى معابد القدس من العاديات و الآثار و التحف و الطرف فإن ذلك لا يقوم؟؟؟

بشمن. كل هذا بسائق المنافسة السياسية و الدينية بين الطوائف المسيحية بعضها مع بعض و بين المسيحيين من جهة و الموسويين من أخرى.

كنائس فلسطين:

و لو جئنا نستقصى كنائس فلسطين لطال بنا المجال من؟؟؟ كنائسها كنيسة روسية فى يافا مطلة على سهل سارون و كنائس صغيرة ثابتة للفرنسيين و الروم الأرثوذكس و الكاثوليك و الموارنة، و كنيس لليهود. و لهم مدرسة مهمة فى تل أبيب و أهم الأديار فيها دير

اللاتين و فيها كنيسة للبرتستانت الالمان من طائفة الهيكليين و اسمها أحباب القدس و قد كثرت الكنائس في المدن و القرى و الغالب أن كنائس القرى سبقت بإنشائها كنائس المدن لأن النصرانية انتشرت أولاً في القرى و عصى أهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم. و من رأى بعض الواقفين أن النصرانية انتشرت أولاً في المدن

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٠

كالقدس و أنطاكية و الإسكندرية و أفسس حتى وصلت الى داخل بلاط القياصرة.

و في نابلس دير للاتين و كنيسة للروم و كنيس و كتاب للسامرة و مدرسة للانكليز و مدرسة للراهبات و لها بيع صغيرة و في أريحا كنيسة للروم و أخرى للاتين. و كنيسة بيت لحم من أقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب في جملة ما خربه الحاكم، و قد رمت في أوقات مختلفة و زينت و لا سيما في عهد الصليبيين، و في بيت لحم عدة أديار و كنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة و مدرسة للذكور و صيدلية و كنيسة جميلة و لأخوات القديس يوسف دير و ميثم و مدرسة للبنات و دير للكرمليات عمر على مثال قصر سانت آنج في رومية و له كنيسة و مدرسة اكليركية لجمعية آباء القلب المقدس و جمعية الأب بيلوني و فيه مدرستان إحداها صناعية و كنيسة. و لراهبات المحبة مستشفى و لإخوان المدارس المسيحية مدرسة عظيمة و للروم دير الولادة و كنيسة إحداها باسم القديسة هيلانة و الثانية باسم القديس جورج و مدرسة للذكور و أخرى للإناث. و للأرمن دير عظيم و هو دير الفرنسيسكان و دير الروم أشبه بقلاع. و للبرتستانت الالمان مدرستان و ميثم، و للانكليز مدرسة للفتيات يضاف إليها دار للمعلمات و كلها تحوى كنائس و بيعة. و في الناصرة أربع عشرة بيعة و كنيسة و معظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك، و دير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه و هو أثر من آثار القرون الوسطى. و في صفا كنيسة و مدرسة للروم الكاثوليك و خمس كنائس للإسرائيليين و خمس مدارس ابتدائية دينية و مدرسة عالية للاتحاد الإسرائيلي و كنيسة و مستشفى للبرتستانت. و في طبريا كنيسة للروم و أخرى للكاثوليك و خمس كنائس لليهود. و للكاثوليك كنائس في حيفا و البصة و شفاعمرو و ترشيحة و المقار. و في الطور دير و كنيسة لكل من الفرنسيين و الروم الأرثوذكس، و كنيسة الفرنسيين من أبداع كنائس العالم.

و في الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أسس سنة (١٤٠٠) على يد الأمير فيليب الاسباني ثم خرب سنة (١٧٠٠) ثم أعيد بناؤه. و خرب صلاح الدين

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١

كنيسة لِد التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، كما خرب كثيرا من الكنائس في عهده و خرب بعضها في الحروب و خرب الآخر قصدا لأسباب سياسية و حربية حافزة. و في جنين دير و مدرسة للذكور و للروم كنيسة و للبرتستانت و للكاثوليك و لكل كنيسة مدرسة تابعة لها.

و بالجملة فكل بلد في فلسطين لا يخلو من دير أو كنيسة أو كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين و الإسرائيليين. و الفضل في إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان و المبشرين فهم الذين استوكفوا أكف المحسنين في الغرب و صرفوا عقولهم و أوقاتهم في إقامة تلك المعاهد المهمة، و قد جاء منهم نوابغ في كل قرن خلدوا اسمهم بقدر ما يذكر؟؟؟ من العناية بنشر دينهم و إقامة شعائره و معابده فاستفاد العمران من عمر؟؟؟ فوائد لا ينكرها منصف. كتب إيليا بطريرك بيت المقدس؟؟؟ أنسطاس ملك الروم: قد بعثت إليك بجماعة عبيد الله و رؤساء رهبان بريتنا و فيهم؟؟؟ الفاصل؟؟؟ الذي قد صير بريتنا مدائن و أعمرها و هو نجم فلسطين.

كنائس الأردن:

و في عبر الأردن كنائس أهمها كنيسة مادبا أو ميدبا و قد تقدم الكلام عليها في المصانع و نزيد الآن أن ميدبا (عن مجلة المسرة)

فاقت أخوا؟؟؟

بكنائسها الفخمه العشر و أن سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين. و من الكنائس التي بقي ذكرها إلى اليوم كنيسة البتول التي يرجع عهدا إلى؟؟؟ أيام القيصر يوستينيانوس. و لما فاضت جيوش الأعاجم على هذه الديار حرقت الكنائس و الديره و ذبحت الألوف من الرهبان و النصارى ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدمرت؟؟؟ تلك الأسقفية و عادت أحربه ينقع فيها البوم عصورا طويله.

و كان في أكثر أمهات قرى حوران كنائس مهمه في الإسلام خربت بطول الزمن حتى قيل إنه كان في إقليم حوران فقط أربع و ثلاثون أسقفية و ناهيك بما يقتضى لها من الكنائس. و اشتهرت اليوم كنائس تبنه و بصير و خيب. و في جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث في الحصن أكبرها كنيسة اللاتين. و في عجلون عدة كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢

و في الكرك ثلاث كنائس للروم و الكاثوليك و البرتستانت. و قد بلغ الغرام برجال المذاهب المسيحية أن أهل كل مذهب إذا وجدوا خمس عيال في قرية من رعاياهم أنشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جدا في كل بلد و كل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البرتستانت أيضا و العكس بالعكس.

كنائس لبنان:

أما كنائس لبنان فكثيرة جدا لا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو كنيسةتين و ربما أكثر، و ليست كلها على جانب عظيم من العظمة و لا يرد عهدا إلى زمن قديم، فإن معظم ما كان منها في كسروان و ما إليه إلى جنوبى الجبل ليس له من العمر أكثر من مئتي سنة، ذلك لأن الموارد لم يمتدوا إلى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد، و كان عشهم في شمالى لبنان قبل ذلك. و لقد ترى في بعض المدن اللبنانية كزحله و هي أكثر القرى سكانا في الجبل كثيرا من الكنائس التي لم تقم على ما يظهر إلا بسائق المنافسة ففيها ١٢ كنيسة للكاثوليك و كنيسة لالأرثوذكس و كنيسة للموارنة و كنيسة و دير لليسوعيين و كنيسة للسريان الكاثوليك و كنيسة للأمير كان، و في زحله أيضا دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية و فيها كنيسة في المدرسة الشرقية و غير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس و لا تقل عن ست و عشرين كنيسة. و في مدينة بيروت و طرابلس و اللاذقية و صور و صيدا كنائس كثيرة لكل طائفة و لكل جمعية تبشيرية و أهمها ما كان في بيروت فللروم الأرثوذكس و للروم الكاثوليك و للبرتستانت الأمير كان و لغيرهم من الطوائف كنائس و بيع مهمه، و أهمها ما كان لليسوعيين أو المرسلين الأمير كان.

و في الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون و ولده الملك الصالح و بين حكام الفرنج بعكا سنة (٦٨٢) أن تكون كنيسة الناصرة و أربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج و غيرهم من دين الصليب كبيرهم و صغيرهم على اختلاف أجناسهم و أنفارهم من عكا و البلاد الساحلية و يصلى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣

بالكنيسة الأقساء و الرهبان و تكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، و إذا نقتب الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا و لا يحط حجر منها على حجر لأجل بنيته و لا يتعرض إلى الأقساء و الرهبان و ذلك على وجه الهبة لأجل زوار دير الصليب.

و من كنائس لبنان و ما إليه كنيسة معاد و كنيسة رشكيدا و كنيسة حدنون و كنائس اهدن و عبدله و بحديدات و صربا و كفر سليمان و قنوين و بكفيا و اده و بشرى و بكركى و الديرمان و زحله و دير القمر و الشرفه و برمانا و غزير و بيت خشبو و بزمار و بعبدات و القرية و حريصا و أميون و جزين و جبيل و أفقه و الكورة و الزاوية و بحنس و دير مار الياس و الشوير و بسكتنا و كفتين و دير مار يعقوب المقطع و دير سيده الراس و دير حماطوره و دير مار جرجس و دير مار الياس النهر و دير ناطور و دير سيده النورية عند وجه

الحجر و دير كفتون و دير جبرائيل و دير ميخائيل المعظمة في برج صافيتا و دير مار جرجس الحميرا و دير الأحمر. و دير مار شريين و دير مار توما قرب صيدنايا.

و كان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس في أرواد و طرطوس و صيدا و بيروت و غيرها من الساحل فهدمت، ثم بنيت مساجد و لأن بعضها كان بمثابة حصون في أيدي الرهبان المتجنده مثل الهيكلين و الاسبتاريين و التوتونيين. و في أمهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك و عكار و الحصن و حمص و حماة و يبرود و القبيات و الإسكندرونة و أنطاكية.

و في هذه فقط تسع كنائس و فيها أنشئت أول كنيسة في الشام و كانت في جميع أديارها موضع إعجاب المؤرخين و السائحين و منها ما هو في القرى مثل صدد و معلولا و صيدنايا و هذه أليق بأن تذكر في باب الأديار لأنها بعيدة عن المدن و الدير في الحقيقة كنيسة و زيادة. و لليهود في حلب و دمشق عدة كنائس و لكنها ليست من المكانة على شيء و لهم في تادف و جوبر و غيرهما كنائس قديمة يتتبعونها للعبادة و من عادة الإسرائيليين أن يكون في دار كل غني كنيس و هو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة و أشهرها في دمشق كنيس سوق الجمعة و لهم في حلب كنائس مهمة و كذلك في بيروت.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤

عمل الرهبان و الراهبات العظيم:

يتصور القارئ مبلغ عناية الرهبان و الراهبات بدينهم من إلقاء نظرة على الفصل التالي: للراهبات الالمانيات مدرسة و دار للأيتام في القدس و مستشفى في حيفا و مستشفى و مدرسة ليلية و نهائية للإناث في بيروت و معهد في دمشق و آخر في حلب و قد جئن القدس سنة (١٨٨٧). و جاء راهبات السجود القدس سنة (١٨٨٨) و أسسن فيها ديرا كبيرا ثم جئن بيروت و أنشأن دارا للعبادة. و للعازارين محال مهمة و هم يقسمون قسمين قسم الرهبان اللعازرين الالمان جاءوا سورية عام (١٨٩٠) و أنشأوا في القدس مدرسة، و القسم الثاني رهبان فرنسيون جاءوا سورية منذ نحو قرنين و أخذوا الأديار التي كانت لليسوعيين و لهم مدرسة في بيروت و أخرى في عينطورة و أهدن في لبنان و رابعة في دمشق و خامسة في ريفون.

و جاء الآباء الساليزيون القدس سنة (١٨٩١) و لهم دار للأيتام في بيت لحم و دار للأيتام زراعية في بيت جمال و ثالثة في الناصرة و مدرسة ابتدائية في بيت لحم. و جاء الراهبات الساليزيات القدس سنة (١٨٩١) و هن يشتغلن مع الرهبان الساليزيين. و أتى راهبات صهيون القدس عام (١٨٥٦) و أنشأن معهدا في كنيسة المسماة اكس هومو. و قدم الآباء البيض القدس عام (١٨٧٨) و أنشأوا كنيسة فيها. و نزل آباء القلب المقدس القدس عام (١٨٧٩) و أنشأوا مدرسة في بيت لحم. و لراهبات الوردية عمل ديني مثل بنات جنسهن. و جاء القدس آباء سيده صهيون عام (١٨٨٤). و الدومنيكان أو رهبان مار عبد الأحد و ردوا على القدس عام (١٨٨٢) و أسس الرهبان الصعوديون مأواهم في القدس عام (١٨٨٧) و أسس الآباء الترابيون ديرا في الاطرون و هم معروفون بفن الألبان و الزراعة. و جاء الراهبات البندكتيات القدس عام (١٨٩٦) و راهبات هورتوس كونكلوز و هن اميركانيات جئن القدس عام (١٩٠١).

و لراهبات الناصرة مدرسة في حيفا و أخرى في شفاعمرو و ثالثة في عكا و دير الناصرة في بيروت و قد جئن سورية سنة (١٨٥٥). و قدم الراهبات

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥

الكرمليات الشام سنة (١٨٧٣) و أنشأن ديرهن المعروف في جبل الزيتون في القدس و لهن دير في بيت لحم و آخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا.

و جاء رهبان الفرير الشام سنة (١٨٧٨) و لهم مدرسة في القدس و أخرى في حيفا و ثالثة في الناصرة و رابعة في بيت لحم و خامسة في بيروت و سادسة في طرابلس و سابعة في إسكندرونة و ثامنة في دمشق و تاسعة في يافا. و جاء رهبان مار يوحنا الالهى القدس عام

(١٨٧٩) فأسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم و لهم مستشفى و مستوصف في الناصرة. و جاء راهبات سانت كليبر الشام عام (١٨٨٤) و أنشأن ديرا على طريق بيت لحم و لهن دير في الناصرة. و وردت الراهبات الفرنسيات البيض القدس عام (١٨٨٥) و أنشأن ميتما و لهن ميتم في بيت لحم و أنشأن مدرسة في دمشق. و جاء راهبات المحبة القدس عام (١٨٨٦) و لهن مستشفى و دار للأيتام في بيت لحم و مستشفى و مدرسة في حيفا و مستشفى في الناصرة و لهن في بيروت مستشفى عظيم و دار للأيتام و دار للصناعة للذكور و الإناث و ثلاث مدارس صغرى في بيروت و مكتب للصنائع في طرابلس و دور نقاهة في اهدن و بحنس من لبنان و مدرسة في برج البراجنة و في كل معهد منها دار للعبادة يختلف إليها أهل المذهب الذى يبشرون به.

و لقد قالوا: إن عدد الجمعيات الأجنبية التى تسعى لتنوير أفكار النصارى فى سوربة تبلغ ثمانين جمعية، و أهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين أو ثلاثة فأسسوا الأديار التى ينزلها اللعازريون اليوم ثم غادروا الديار فلم يعودوا إليها إلا عام (١٨٣١) فأنشأوا مدرستهم فى غزير من لبنان و فى عام (١٨٧٦) افتتحوا كليتهم العظمى فى بيروت و لهم الآن عدة أديار و مدارس فى بكفيا و المعلقة و زحلة و غزير و دمشق و حلب و تعنايل و جزين و قد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة فى ربوع جمهورية لبنان و يوشكون أن يتوسعوا فى الداخلية كثيرا بمدارسهم و كنائسهم. أما الفرنسيون فلم يزلوا فى الشام منذ الحروب الصليبية و زادوا عام (١٨٤٨) عدد أديارهم و أنشأوا ملاجئ للزوار فى القدس و لهم فيها ستة ملاجئ و لهم أديار و ملاجئ فى بيت لحم و عين كارم و طبريا و جبل الطور و الناصرة و قانا و عكا و صور

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٦

و صيدا و بيروت و حريصا و طرابلس و اللاذقية و دمشق و حلب و إسكندرونه و لهم مدرسة فى حلب. و كان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الأخيرة من الصليبيين ثم عادوا إلى جبل الكرمل عام (١٦٣٦) و بنوا ديرا و محلا للضيافة فى الجبل و لهم أديار فى حيفا و طرابلس و القبيات من إقليم عكار و مدرسة فى بشرى. و ديرهم فى الكرمل من أجمل أديار الشام ترى منه أجمل المناظر. و جاء راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات من مرسيليا إلى القدس عام (١٨٤٨) و لهن فى فلسطين ١٣ معهدا و ٣ مستشفيات أحدها فى القدس و الآخر فى يافا و الثالث فى الناصرة. و لهن فى هذه المدن ثلاث دور للأيتام و مدرستان نهاريتان و خمس مدارس دينية و مدرسة فى بيروت و دير فى صيدنايا و مدرسة فيها دير و مدرسة فى دير القمر و ديران و مدرستان ليلتان و مستشفى فى حلب و دير و مدرسة فى إسكندرونه.

الأديار القديمة فى الشام:

«دير إسحاق» كان بين حمص و سلمية فى موضع حسن نزه على نهر جار و حوله كروم و مزارع إلى جانب ضيعة صغيرة يقال لها جدر، و هى التى ذكرها الأخطل فى قوله:

كأننى شارب يوم استبد بهم من قرقف عتقتها حمص أو جدر
و قال فيه أبو عبد الرحمن الهاشمى السلمانى من أهل سلمية:
و إذا مررت بدير إسحاق فقل جادتك غيث سحائب و بروق
دير يشبه ماؤه بهوائه و هواؤه بلطافة المعشوق
و ليس لهذا الدير من أثر اليوم.

«دير الباعقى» كان قبلى بصرى من أرض حوران و هو دير بحيرا الراهب كما زعموا و لا يعرف الآن. و بحيرا شخص خيالى.

«دير باعتل» من جوسية على أقل من ميل و جوسية على مرحلة من حمص و لا يعرف اليوم هذا الدير.

«دير البتراء» كان في وادي موسى دير للراهبات و ذكر البولونديون

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٧

ديرا للرهبان في البتراء كان يرأسه القديس موسى أسقف البدو الرحالة يقال: إن بانيه اثينوجينوس أوائل القرن السابع للميلاد. و ذكر الرحالة تيمار أنه طاف تلك الفيافي سنة (١٢١٧) و عثر بين أخربة البتراء على كنيسة و دير لم يزل يسكنه بعض الرهبان. و هناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد و قد كانت اما لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية في هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة).

«دير البخت» كان على فرسخين من دمشق و يسمى دير ميخائيل و كان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختا و هي جمال الترك فغلب عليها و كان لعلي بن عبد الله بن عباس قربه جنيته ينتزه فيها. و قرية دير البخت معروفة الى اليوم في الجيدور. و وجه التسمية في هذا الدير بعيد لأنه عرف بهذا الاسم قبل الإسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر في بعض وقائع عمر بن الخطاب في الجاهلية و مروره بدير البخت و اجتماعه براهب أكرمه و تفرس فيه الخير فيما قال.

«دير بصرى» قيل هو الذي كان فيه بحيرا الراهب في حوران.

مجهول محله.

«دير بلاض» من أعمال حلب مشرف على العمق فيه رهبان لهم مزارع و هو دير قديم مشهور لم يبلغنا أنه موجود.

«دير البلمند» من أديار الروم الأرثوذكس المشهورة على نشز عال قرب مدينة طرابلس في أقصى حدود جبل لبنان يقال: إنه من أديار الصليبيين و إن اسمه جاء من تركيب بل مونت أي الجبل الجميل و هو اليوم عامر.

«دير بلودان» مر به ابن فضل الله العمري و نزل إليه فقال فيه: إن بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم و الفواكه و الماء الجارى، بقربه قرية بلودان و هي محاذية لكفر عامر تطلّ من مشرفها على جبة الزبداني و به رهبان نظاف و نظم فيه أبياتا و منها:

حبذا الدير من بلودان دارأى دير به و أى نصارى

فيهم كل أحور الطرف أحوى فائق الحسن فى حسان العذارى

و قال محاسن الشوا الحلبي:

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٨ حيا ساكنى بلودان عنى و رجلا بدير قانون زهرا

و لا يعرف متى زال هذا الدير، و دير قانون من قرى الوادى لا دير فيه اليوم.

«دير بولس» كان بنواحي الرملة نزله الفضل بن إسماعيل و قال فيه شعرا لم يسمه فى أوله:

عليك سلام الله يا دير من فتى بمهجته شوق إليك طويل

و لا زال من جو السماكين و ابل عليك لكى يروى تراك هطول

قال البكرى: و دير بولس آخر و «دير بطرس» (أو نظرس) و هما معروفان بظاهر دمشق فى نواحي بنى حنيفه فى ناحية الغوطة و إياهما عنى جرير بقوله:

لما تذكرت بالديرين أرقنى صوت الدجاج و قرع بالنواقيس

فقلت للركب إذ جدّ الرحيل بنايا بعد يبرين من باب الفراديس

و لا نعرف شيئا عن هذا الدير.

«دير البنات» و هو دير أبيض البناء مشرف على أرض طرابلس كان للرواهب قال فيه الطيبي:

دير البنات الزهر أنت المنى و أنت من دون الأمانى المرام

لم أنس يوما فيك أذهبتة باللهو بل ذهبتة بالمدام

و نحن فى غرة أيامناو العيش مثل الطيف حلو اللمام

و الدوح ما جفت له زهرة و الروض طفل ما جفاه الغمام
و بيننا خود كشمس الضحى و أعيد قد فاق بدر التمام
لو لا نبات الشَّعر فى خده لم تدر أى الأعيدىن الغلام
و لا نعرف اليوم أى أديار البنات هذا.

«دير يونّا» أى يوحنا و روى بالباء بدل الياء كان بجانب الغوطه بدمشق ليس بكبير و لا رهبانه بكثير و لكنه فى رياض مشرقه و أنهار
متدفقه و يقال بأنه من أقدم ديره النصرى. اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه أياما و قال فيه:
حبذا يومنا بدير يونّا حيث نسقى براحه و نغنى
خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩ و استهنا بالناس فيما يقولون إذا خبروا بما قد فعلنا
قال ابن فضل الله و هذا الدير اليوم لا وجود له.

«دير حمطورا» هو فى شرقى طرابلس فى جانب الوادى الذى أسفل من طرزيه و الحدث. و هو بناء فى سفح الجبل من ذلك الجانب
قبالة الطريق السالك إلى طرابلس و هو حصين جدا لا يسلك إليه إلا من طريق واحد و ظهر الجبل الذى له ممتنع - قاله ابن فضل الله.
«دير الحنابله» فى تاريخ الصالحه لم يكن فى الجبل أى قاسيون إلا بنايه يسيره من الناحيه الغربيه دير أبى العباس الكهفى و دار بيت
الضيا و غيرها، و من الناحيه الشرقيه دير يقال له دير الحنابله و كان أولا لناس من الرهبان فاتفق أنهم أحدثوا شيئا فأخرجوا منه ثم بنى
الشيخ أبو عمر المدرسه.

«دير حنيناء» دير بالشام و هناك مات معاويه بن هشام بن عبد الملك فقال الكميت يرثيه:

فأى فتى دنيا و دين تلمست بدير حنيناء المنيا فدلت

تعطلت الدنيا به بعد موته و كانت له حينا به قد تحلّت

وقيل: إن الذى رثى بهذا الشعر البطل أحد قواد الأمويه و فرسانهم مات بدير حنيناء قافلا مع معاويه بن هشام من غزوه فأمر معاويه
الشعراء برثائه.

و الروايه فى شعر أبى تمام حنيناء بالباء المعجمه و لا يعلم عنه شىء فى عصرنا.

«دير الخمان» كان هذا الدير بأرض أذرع بنى بالحجاره السود على نشز من الأرض يشرف على بركه الفوار و هو من البناء الرومى
القديم.

و لا يعرف اليوم عنه شىء.

«دير خالد» و هو دير صليبا بدمشق كان مقابل باب الفراديس نسب الى خالد بن الوليد لتزوله فيه عند حصاره دمشق قال ابن الكلبي: و
هو على ميل من الباب الشرقى و لا يعرف عنه شىء آخر و فى هذا الدير يقول محمد ابن على المعروف بأبى البقاء:

جنه لقبت بدير صليبا مبدعا حسنه كمالا و طيبا

جنته للمقام يوما فظننا فيه شهرا و كان أمرا عجيبا

شجر محرق به و مياه جاريات و الروض يبدو ضروبا

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٠ من بديع الألوان يضحى به التاكل مما يرى لديه طروبا

كم رأينا بدرا به فوق غصن مائس قد علا بشكل كشيا

و شربنا به الحياه مداماتطلع الشمس فى الكؤوس غروبا

فكأن الظلام فيها نهارلسناها تسرّ منا القلوبا

لست أنسى ما مر فيه و لا أجعل مدحى إلا لدير صليبا

«دير خناصره» ورد ذكره فى شعر بنى مازن فى قول حاجب بن ذبيان المازنى مازن بن تميم من عمرو بن تميم لعبد الملك بن مروان فى جذب أصاب العرب قال:

و ما أنا يوم دير خناصرات بمرتد الهموم و لا ملیم
و لكنى ألت بحال قومى كما ألم الجريح من الكلوم
و خناصره بلدة فى قبلى حلب و ليس للدير ذكر الآن.

«دير الدواكيس» شرقى القدس حسن البناء له سمعة و ذكر و كان له وقف يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة و نفع و لابن فضل الله فيه و قد مر به غير مرة أبيات منها:

دير الدواكيس أم ريش الطواويس أم الشموس سنا تلك الشاميس
مأوى المياسير لكن بعد أوبتهم منه يعدون فى حزب المفاليس
فانزل به و أقم فيما تريد و قل إملا كؤوسى و فرغ عندها كيسى
و اقدح زناد سرور من مدامته فهذه النار من تلك المقاييس

«دير رمانين» جمع رمان بلفظ جمع السلامة يعرف أيضا بدير السابان و هو بين حلب و أنطاكية مطل على بقعة تعرف بسرمن و هو دير حسن كبير خرب قبل القرن السابع و آثاره باقية كما قال ياقوت و فيه يقول الشاعر:

ألف المقام بدير رمانين للروض إلفا و المدام خدينا
و الكأس و الإبريق يعمل دهره و تراه يجنى الآس و التسرنا
قال ياقوت و دير السابان و هو دير رمانين و تفسيره بالسريانية دير الشيخ.

«دير سابري» كان من نواحي دمشق و هو من إقليم خولان سكنه عمر ابن محمد الأموى. و خولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر أبى مسلم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١

الخولانى و بها آثار باقية - ياقوت. و بيت سابري اليوم قرية فى سفح جبل الشيخ من عمل وادى العجم.

«دير سعد» كان من ديرة الشام نزله عقيل بن علفه المرى و كان يصهر إليه خلفاء بنى أمية و هذا كل ما عرف عنه قديما.

«دير سليمان» دير بجسر منبج و هو فى جبل عال من جبال دلوک مطل على مرج العين و هو غاية فى النزاهة قال أبو الفرج أخبرنى جعفر بن قدامة قال: ولى إبراهيم بن المدبر عقيب نكبته و زوالها عنه الثغور الجزرية و كان أكثر مقامه بمنبج فخرج فى بعض ولايته إلى نواحي دلوک برعبان و خلف بمنبج جارية كان يتحظاها يقال لها غادر فنزل بدلوک على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من أحسن بلاد الله و أنزهها و دعا بطعام خفيف فأكل و شرب ثم دعا بدواة و قرطاس فكتب:

أيا ساقينا وسط دير سليمان أديرا الكؤوس فانهلانى و علانى
و خصا بصافيتها أبا جعفر أخى فذا ثقى دون الأنام و خلصانى
و ميلا بها نحو ابن سلّام الذى أود، و عودا بعد ذاك لنعمان

و عما بها النعمان و الصحب إننى تنكر عيشى بعد صحبى و إخوانى

و لا تتركا نفسى تمت بسقامها لذكرى حبيب قد سقانى و غنانى

ترحلت عنه عن صدود و هجرة فأقبل نحوى و هو باك فأبكاني

و فارقتة و الله يجمع شملنا بلوعة محزون و غلة حرّان

و ليلة عين المرج زار خياله فهيج لى شوقا وجدد أحزانى

فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاً بالبحر آفاق وأنظر إنسان
لعلى أرى أبيات منبج رؤية تسكن من وجدى و تكشف أشجاني
فقصّر طرفى و استهل بعبرة و فديت من لو كان يدرى لفداني
و مثله شوقى إليه مقابلى و ناجاه عنى بالضمير و ناجاني

«دير سمعان» بنواحي أنطاكية على البحر قال ابن بطران و بظاهر أنطاكية دير سمعان و هو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به
المجتازون و له من الارتفاع كل سنه عدة قناطير من الذهب و الفضة و قيل: إن دخله فى السنه أربعمائه ألف دينار و منه يصعد إلى
جبل اللكام- قال هذا فى
خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢

القرن الخامس للهجرة. و فى رواية أن دير سمعان بنواحي حلب بين جبل بنى عليم و الجبل الأعلى. و دير سمعان أيضا فى قرية تعرف
بالبقرة من قبلى معرة النعمان و به قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضى فى رثائه بقوله:

با ابن عبد العزيز و لو بكت العين فتى من أمية لبكيتك
أنت نزهتنا عن السب و الشتم فلو يمكن الجزا لجزيتك

دير سمعان لا عدتكم الغوادى خير ميت من آل مروان ميتك
و قال أبو فراس بن أبى الفرج البزاعى و قد مر به فرآه خرابا فغمه:
يا دير سمعان قل لى أين سمعان و أين بانوك خبرنى متى بانوا
و أين سكانك اليوم الألى سلفوا قد أصبحوا و هم فى الترب سكان
أصبحت قفرا خرابا مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عمر و عمران
وقفت أسأله جهلا ليخبرنى هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجابنى بلسان الحال إنهم كانوا و يكفيك قولى إنهم بانوا

«دير السيق» كان معروفا قديما و يقع قبلى البيت المقدس على نشز عظيم عال مشرف على الغور غور أريحا يطل على تلك البسائط
الخصر و مجرى الشريعة و به رهبان ظراف أكياس لا يأتيهم إلا قاصد لهم أو مارّ فى مزارع الغور. تحتهم و فوقهم الطريق الآخذة الى
الكتيب الأحمر. و مشهد موسى عليه السلام فى القبة التى بناها عليه الملك الظاهر بيبرس و فى هذا الدير و مشرفه و أطلال قلاليه و
غرفه قال ابن فضل الله العمري:

أرى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت إليه و الفضاء به نصر
بنوه على نجد من الغور مشرف كتخت مليك تحته بسط خضر
و أشرق فى سود الغمام كأنما تشقق ليلا عن جلابيه الفجر
و قام على طود على كأنما مصابيح تحت الدجى الأنجم الزهر
و زفت إليه الشمس من جنب خدرها و ناغاه جنح الليل فى أفقه البدر
و ألقى إليه الريح فضل عنانها و أحنى عليها لا تبلّ له عذر
و لو كان كالنسر هان ارتقاؤه و لكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريحا و المجرة فوقه فمن فوقه نهر و من تحته نهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣

«دير شق معلولا» و هو بباطن جبة عسال و هو بناء رومى بالحجر الأبيض معلق بسقيف و بها صدع فيها ماء ينقط نحو الذى بصيدنايا، و

يأخذه النصارى للتبرك معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر و إنما الاسم للذي بصيدنايا- قاله في مسالك الأبصار و الغالب أنه دير الروم الباقي الى اليوم.

«دير صليبا» و يعرف بدير السائمة (السائحة؟) و هو بدمشق مطل على الغوطة و يليه من أبوابها باب الفراديس نزل دونه خالد بن الوليد أيام محاصرة دمشق و هو في موضع نزه كثير البساتين و بناؤه حسن عجيب و إلى جانبه دير للنساء فيه رهبان و رواهب و إياه أراد جرير بقوله:

إذا تذكرت بالديرين أرقنى صوت الدجاج و قرع بالنواقيس

فقلت للركب إذ جد النجاء بهم يا بعد بيرين من باب الفراديس

و قد مر بنا هذان البيتان في دير بولس برواية أخرى. و قال الآخر:

يا دير باب الفراديس المهيج لى بلابلا بقلاليه و أشجاره

لو عشت تسعين عاما فيك مصطبحالما قضى منك قلبى بعض أوطاره

قال ابن فضل الله و هذا اليوم (أى فى الثامن) لا عين له و لا أثر و إنما صار دورا و أبنية و مساجد و مدافن و هى بناحية محلة حمام النحاس اه.

«دير صيدنايا» يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الأبصار أنهما اثنان أحدهما يقصده النصارى بالزيارة و هو فى دمنة القرية و الآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليتها بشرق و هو دير مار شريين و يقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض و هو دير كبير و فى ظاهره عين ماء سارحة و فيها ما يطل على بواطن ما وراء ثنية العقاب و يمتد النظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالا عن بعلبك. و أما الذى فى القرية فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضا و يعرف بدير السيدة و له بستان و به ماء جار فى بركة عملت به و عليه أوقاف كثيرة و له مغلات واسعة و تأتيه نذور وافر و طوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير و تأتيه للزيارة. و كنت أراهم يسألون السلطان فى أن يمكنهم من زيارته و إذا كتب لهم زيارة قاماه و لم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال فى كتابتها لهم، و لهم فيها معتقد. و قال جاءت مرة كتب ريد فرانس

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤

(ملك فرنسا) و كتب الازفونش (ملك اسبانيا) على أيدى رسلهم و مما سألوا فيها تمكين رسلهم من التوجه الى صيدنايا للتبرك بها فأجاب السلطان سؤالهم و حمل الرسل على خيل البريد إليها. و هذا الدير لم يزل عامرا إلى اليوم يزوره الناس و فيه راهبات أرثوذكسيات و فى عيد الصليب من كل سنة تجرى فى قربه اجتماعات و أفراح و يأتيه الناس من الأقاليم المجاورة و غيرها.

«دير الطور» الطور فى الأصل الجبل المشرف، و الطور ها هنا جبل مستدير واسع الأسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شىء من الجبال و ليس له إلا طريق واحد و هو ما بين طبرية و اللجون مشرف على الغور و مرج اللجون و فيه عين تنبع بماء غزير كثير و الدير فى نفس القلة مبنى بالحجر و حوله كروم يعتصرونها و يعرف عندهم بدير التجلى و الناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به و يشربون فيه و موضعه حسن يشرف على طبرية و البحيرة و ما والاها و على اللجون. و ما زال هذا الدير عامرا و قد جدد فى أدوار مختلفة و فيه يقول مهلهل بن يوسف المزروع:

نهضت الى الطور فى فتية سراع النهوض الى ما أحب

كرام الجدود حسان الوجوه كهول العقول شباب اللعب

فأى زمان بهم لم يسرو أى مكان بهم لم يطب

أنخت الركاب على ديره و قضيت من حقه ما يجب

و أنزلتهم وسط أعتابه و أسقيتهم من عصير العنب

و أحضرتهم قمرا مشرقا تميل الغصون به في الكشب
 نحث الكؤوس بأهزاجه و مرسوم أرماله بالعجب
 و ما بين ذاك حديث يروق و خوض لهم في فنون الأدب
 فيا طيب ذا العيش لو لم يزل و يا حسن ذا السعد لو لم يغب
 «دير عمان» قال ياقوت: بنواحي حلب و تفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبي:

دير عمان و دير سابان هجن غرامى و زدن أشجاني
 إذا تذكرت منهما زمانقضيته فى عرام ريعانى
 خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥

و مرّ به أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي فقال ارتجالا:
 قد مررنا بالدير دير عمانا و وجدناه داثرا فشجانا
 و رأينا منازلنا و طولادارات و لم نر السكاننا
 و أرتنا الآثار من كان فيها قبل تفنيهم الخطوب عيانا
 فبكينا فيه و كان علينا عليه لما بكينا بكانا
 لست أنسى يا دير وقفنا فيك و إن أورتنى النسياننا
 من أناس حدوك دهرا فخلوك و أمسوا قد عطلوك الآنا
 فرقتهم يد الخطوب فأصبحت خرابا من بعدهم أسيانا
 و كذا شيمه الليالى تمت الحى منا و تهدم البنيانا
 حربا ما الذى لقينا من الدهر و ماذا من خطبه قد دهانا
 نحن فى غفلة بها و غرور و ورانا من الردى ما ورانا
 و لا نعرف عنه شيئا الآن.

«دير فاخور» و هو الموضع الذى تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان كما فى كتب الجغرافية.

«دير فيق» هو فى ظهر عقبه فيق - عقبه تنحدر الى الغور من أرض الأردن و من أعلاها طبرية و بحيرتها - و هذا الدير فيما بين العقبة و
 بين البحيرة فى لحف جبل يتصل بالعقبه منقور فى الحجر و كان عامرا بمن فيه من الرهبان و من يطرقة من السيار، و النصرارى
 يعظموه، و اجتاز به أبو نواس فقال فى غلام نصرانى فيه قصيدة منها:

بحجك قاصدا ما سرجسان فدير النوبهان فدير فيق
 و بالمطران إذ يتلو زبور اعظمه و يبكى بالشهيق
 و هذا الدير غير عامر الآن.

«دير القاروس» قال ابن فضل الله: إنه على جانب اللاذقية من شمالها و هو فى أرض مستوية و بناؤه مربع و هو حسن البقعة. و فيه يقول
 أبو على حسن بن على الغزى:

لم أنس فى القاروس يوما أبيضامثل الجبين يزينه فرع الدجى
 فى ظل هيكله المشيد و قد بداللعين معقود السكينه أبلجا

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٦ و اللاذقية دونه فى شاطىء بلوره قد زين الفيروزجا
 و لددى من رهبانه متمس أضحى لفرط جماله متبرجا

أحوى أغن إذا تردد صوته فى مسمع رد احتجاج ذوى الحجى
لا شىء الطف من شمائله إذاحت الشمول و لفظه قد لجلجا
فله و لليوم الذى قضيته معه بكائى لا لربع قد شجا

«دير القديس سابا» إلى الجنوب الشرقى من أورشليم على بعد ثلاث ساعات و نصف عنها على الراجل و على انخفاض ٥٦٠ مترا عنها عند الطريق المؤدى منها الى البحر الميت على مقربة من وادى الراهب (النار) و على عدوة وادى قدرون إلى شمال بيت ساحور الشرقى. و هو أشبه بقلعة منيعة غربية الأبنية. و من الدير إلى هضم الوادى ٢٧٥ ذراعا فيصعد من الوادى إلى الدير بسلاالم بعضها منقور بالصخر و الآخر مبنى على شكل أدراج و لا يدخل إليه إلا باذن البطيرك الأورشليمى. و رهبانه ستون راهبا يعيشون عيشة تقشف منقطعين إلى الصلاة و الصوم و العبادة و فى كل جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس فى أورشليم طعامهم مرة واحدة و لا يسمح للنساء أن يدخلنه، و تلك عادة منذ تشييده إلى اليوم لم تدخله امرأة، و قربه برج مار سمعان و هو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على دير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء أن ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج و قربه دير على قمة جبل تاودوسيوس و هو عامر الآن و فيه رهبان و يسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة).

«دير قنسى» على شاطئ الفرات من الجانب الشرقى من نواحي الجزيرة و ديار مضر مقابل جرابلس (فى الأصل جرابلس) و جرابلس شامية، و بين هذا الدير و منبج أربعة فراسخ و بينه و بين سروج سبعة فراسخ، فهو دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلاثمائة و سبعون راهبا، و وجد فى هيكله مكتوبا:

أيا دير قنسى كفى بك نزهة لمن كان بالدنيا يلد و يطرب

فلا زلت معمورا و لا زلت أهلا و لا زلت مخضرا تزار و تعجب

«دير كعب» كان من أديار الشام و هو الذى جاء فيه المثل أطول من

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٧

فراسخ دير كعب قال الشاعر:

ذهبت تماديا و ذهبت عرضا كأنك من فراسخ دير كعب

«دير كفتون» و لعله المعروف اليوم بدير كفتين قال فيه ابن فضل الله:

إنه ببلاذ طرابلس مبنى على جبل و هو دير كبير و بناؤه بالحجر و الكلس فى نهاية الجودة و به ماء جار و له حوض كبير مملوء من شجر النارج يحمل نارنجه إلى طرابلس يباع فيها و يرتفق بثمره الرهبان و له مستشرف مطل على البلاد و المزارع و منه مكان يشرف عن بعد على البحر، و لهذا الدير صيت جائل و سمعة مذكورة و به رهبان كثير و العدد و النصرارى تقصده و تحمل إليه النذور و يقصده كثير من أهل البطالة و اللهو للتفرج به و التزبه فيه، و فيه يقول الطيبى:

أدير كفتون تكفى كل نائبة من الهموم و تلقى كل سراء

من كل خضراء فى الأشجار مائسة و كل صهباء فى الكاسات حراء

حللت فى دير كفتون فلا عجب إذ مت سكرًا بحمراء و خضراء

«دير مارون» قال المسعودى فى التنبيه و الإشراف: و فى أيام موريق من ملوك الروم ظهر رجل من أهل حماة من أعمال حمص يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصرارى. و أمرهم مشهور بالشام و غيرها أكثرهم بجبل لبنان و سنير و حمص و أعمالها كحماة و شيزر و معرة النعمان و كان له دير عظيم يعرف به شرقى حماة و شيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان و كان فيه من آلات الذهب و الفضة و الجوهر شىء عظيم فخرّب هذا الدير و ما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب و حيف السلطان و هو بقرب نهر الارنط (العاصى) نهر حمص و أنطاكية.

وقال ابن بطريق: و كان فى عصر موريق ملك الروم راهب يقال له مارون و كان يقول: إن سيدنا المسيح طييعتان و مشيئة واحدة و فعل واحد و أقنوم واحد و أكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة و قنسرين و العواصم و جماعة من أرض الروم فسموا الموارنة و لما مات مارون بنى أهل حماة ديرا بحماة و سموه دير مارون. قلنا: و لعله دير آخر غير الدير الذى نشأ فيه مارون شرقى حماة و شيزر. و قد خرب دير مار مارون سنة (٧٥)

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٨

للهجرة لما غزا موريق و موريقان بلاد الشام و حملا على هذا الدير و قتلوا منه خمسمائة راهب و هدموا بنيانه ثم تحولا من هناك إلى قنسرين و العواصم فقتلوا الأهلين و نهبا و خربا المساكن و لم يعفيا عن أحد من أتباع مار مارون.

وقال الدويهى: كان قرب دمشق فوق نهر يزيد دير على اسم القديس مارون.

قال: و لقد استدللنا برسومه و أطلاله الماثلة إلى اليوم على عظمه و شرفه ذكره ابن الحريرى المؤرخ فيما كتبه عن الحاكم بأمر الله سنة (٣٨٦). و لا أثر اليوم لدير حماة و لا لدير دمشق.

«دير مار مروثا» و هو دير صغير بظاهر حلب فى سفح جبل جوشن على نهر العرجان (العوجان؟). و كان سيف الدولة محسنا إلى أهله و قلما مرّ به إلا نزله و وهب لأهله هبة كبيرة و كان يقول: رأيت أبى فى النوم يوصينى به- و فى رواية والدته-. و له بساتين قليلة و مبادل و فيه نرجس و بنفسج و زعفران و يعرف بالبيعتين لأن فيه مسكنين للرجال و النساء. قال الخالدى و إياه عنى الصنوبرى بقوله:

كأنما اختيرت الفصوص له بين عقيق و بين فيروزج

أما ترى البيعتين أفردتا بمفرد الأبقوان و المزوج

أثوابه المزن كيف ما اتصلت و ناره البرق كيف ما أجاج

هذا ما رواه ابن فضل الله فى هذا الدير، و فى رواية ياقوت أن هذا الدير ذهب و لا أثر له و قد استجد فى موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا الحسين ابن على رضى الله عنه صلى فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالا و عمروه أحسن عمارة و أحكمها و فيه أيضا يقول بعض الشاميين:

بدير مارت مروثا الشريف ذى البيعتين

و الراهب المتحلى و القس ذى الطمرين

إلا رثيت لصبّ مشارف للحين

قد شفه منك هجر من بعد لوعه بين

قال و فيه يقول الحسين بن على التميمى:

يا دير مارت مروثاسقيت غيثا مغيثا

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٩ فأنت جنه حسن قد حزت روضا أثيثا

«دير مارت مريم» قال الخالدى: و بالشام دير يقال له مارت مريم و هو من قديم الدير و نزله الرشيد و فيه يقول الشاعر:

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور

ظل ظليل و ماء غير ذى أسن و قاصرات كأمثال المها حور

«دير الماطرون» يروى لزيد بن معاوية فيه:

و لها بالماطرون إذا أكل النمل الذى جمعا

حرقه حتى إذا ربت ذكرت من جلق ييعا

فى قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

قال أبو محمد حمزة بن القاسم قرأت على الحائط من بستان الماطرون هذه الأبيات:

أرقت بدير الماطرون كأنني لسارى النجوم آخر الليل حارس
و أعرضت الشعري العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
و لاح سهيل عن يميني كأنه شهاب نجاه وجهه الريح قابس
و لم يبق في الوجود من هذا الدير غير اسمه.

«دير المصلبة» و هو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب و هو دير رومي قديم البناء بالحجر و الكلس محكم الصنعة موقن البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون و الكروم و شجر التين بإزاء قرية تجرى على الدير بمرسوم السلطان. قال في مسالك الأبصار بعد ما تقدم: و هذا الدير دخلت إليه و رأيته و فيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير و تناسب المقادير و صعدت إلى سطحه فرأيت له حسن مشرف وسعة فضاء و رهبانه من الكرج. قال و كان أخذ و جعل مسجدا للمسلمين ثم أعيد ديرا للنصارى و توصل إلى هذا بكتاب أحضر من ملك الكرج و أعان عليه قوم آخرون. قال: و حدثه رهبانه بأن على ديرهم وقوفا في بلادهم منها خيول سائمة تحمل أثمان نتاجها إليهم و أنه يجيء منها في كل سنة قدر جليل و أنها تنفق في مصالح الدير و ابن السبيل. و فيه يقول أبو علي حسن الغزى:

يا حسن أيام قطعت هنيئة بالدير حيث التين و الزيتون
خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٠ دير المصلبة الرفيع بناؤه تغدى عبير ترابه دارين
في ظل هيكله و أسراب الدمي مجلوة و المرمر المسنون
و مزنين إذا تلوا إنجيلهم و تعطفوا فحمائم و غصون
غزلان و جره هم و بين جفونهم لأسود بيشة إن عرضن عرين
نزعا القلائس و المسوح فزحزحت منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام و ما دروا أن للكؤوس الدائرات جنون
فقضيت بينهم زمانا لم يزل عندي إليه تشوق و حنين
تلك المنازل قد سفحن مدامعى لا مصر قاطبة و لا جيرون
و لا يزال هذا الدير عامرا و هو للروم الأرثوذكس.

«دير مرقس» الغالب أنه كان من نواحي حلب ورد في شعر حمدان بن عبد الرحيم في قوله:
أسكان عرشين القصور عليكم سلامى ما هبت صبا و قبول
ألا هل إلى حث المطى إليكم و شم خزامى حربنوش سبيل
و هل غفلات العيش في دير مرقس تعود و ظل اللهو فيه ظليل
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم تلاقى عليها زفرة و عويل
بلاد بها أمسى الهوى غير أننى أميل مع الأقدار حيث تميل

«دير مران» هذا اسم لديرين في الشام كان أحدهما على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) و هو مشهور بذلك كان يزار في عصر ياقوت. و الثانى بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران و رياض حسنة و بناؤه بالجص و أكثر فرشته بالبلاط الملون، و هو دير كبير و فيه رهبان كثيرة و فى هيكله صورة عجيبة دقيقة المعانى و الأشجار محيطه به. روى ذلك الخالدى أما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم قال ابن فضل الله: و الناس فى اختلاف اين كان دير مران فمن قائل إنه كان بمشارك السفح نواحي برزة و الأكثر على أنه كان بمغاريه و أن مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية،

و أما الذى كان بمشارك السفح فهو دير السائمه المسمى دير صليبا. و روى صاحب قضاء دمشق قال: لما وافى المأمون دمشق سنه خمس عشره و مائتين نزل بدير مران

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤١

و مكانه المعروف بالسهم إلى قرب النيرب خارج دمشق فى سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير و بنى القبه التى فوق الجبل و هى المعروفة الآن بقبه النصر و لم يعثر على أثر لهذا الدير العظيم. و كان هذا الدير لقربه من دمشق و لجمال موقعه مقصد الملوك و الراغبين فى النزاهة و الشراب. قال ابن بطريق:

إن كنائس الغوطه و دير مران كان المسلمون ينزلونها و يسكنون فيها. و قد نزل يزيد بن معاوية دير مران و مات فيه الوليد و اجتاز به الرشيد و المأمون و قد أكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله و قد أصاب المسلمين سباء بأرض الروم:

و ما أبالى بما لاقت جموعهم بالغدقونه من حمى و من موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقا بدير مران عندى أم كلثوم

و من جمله ما قيل فى هذا الدير قول أبى بكر الصنوبرى و هو:

أمر بدير مران فأحياو أجعل بيت لهوى بيت لها

و يبرد غلتى بردى فسقيا لأيام على بردى و رعيا

ولى فى باب جيرون ظباء أعاطيها الهوى ظبيا فظيا

و نعم الدار داريا ففيها حلالى العيش حتى صار أريا

سقت دنيا دمشق ليصطفيها و ليس يريد غير دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها خللال حدائق ينبتن و شيا

مظلمة فواكهها بأبهى المناظر فى نواظرها و أهيا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٢ فمن تفاحة لم تعد خداو من رمانه لم تخط ثديا

و له فيه:

متى الأرحل محطوطه و غير الشوق مربوطه

بأعلى دير مران فداريا إلى الغوطه

فشطى بردى فى جنب بسط الروض مبسوطه

رباع تهبط الأنهار منها خير مهبوطه

و روض أحسنت تكتيبه المزن و تنقيطه

و قال فيه الحسين بن الضحاك:

يا دير مران لا عزيت من سكن قد هجت لى حزنا يا دير مرانا

حث المدام فإن الكأس مترعه مما يهيج دواعى الشوق أحيانا

و قال البيضا أبو الفرج عبد الواحد:

و يوم كأن الدهر سامحنى به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر

جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا إلى دير مران المعظم و العمر

بحيث هواء الغوطتين معطر النسيم بأنفاس الرياحين و الزهر

فمن روضة بالحسن ترفد روضه و من نهر بالغيض يجرى إلى نهر

و في الهيكل المعمور منه انتزعتها و صحى حلالا بعد توفيه المهر

و نزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها أشرب التبر بالتبر

و قال عون الدين الحلبي الكاتب المتوفى سنة (٦٥٦) و هو مما يستأنس به من أن هذا الدير كان عامرا إلى أواسط القرن السابع و فيه ذكر ديرين آخرين و هما دير متى و دير حنينا و الأول ليس له ذكر في ديرة الشام بل هو من أديار الموصل و لما كانت القصيدة في التشوف إلى الشام استلزم ذلك أن يكون دير متى من جملة أديارها التي ضاع اسمها و رسمها قال:

يا سائقا يقطع البيداء معتسفا بضم لم يكن في سيره و انى

إن جزت بالشام شم تلك البروق و لاتعدل بلغت المنى عن دير مزان

و اقصد علالي قلاليه تلاق بهاما تشتهى النفس من حور و ولدان

من كل بيضاء هيفاء القوام إذا ما ست فيا خجلة المران و البان

و كل أسمر قد دان الجمال له و كمل الحسن فيه فرط إحسان

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٣ و رب صدغ بدا في الخد مرسله في فترة فتنت من سحر أجفان

فليت ريقته وردى و وجنته وردى و من صدغه أنسى و ريحاني

و عج على دير متى ثم حى به الريان بالطرس فالريان ربانى

فهمت منه إشارات فهمت بها و صنت منشورها في طي كتمان

و اعبر بدير حنينا و انتهز فرص اللذات ما بين قسيس و مطران

و استجل راحتها تحى النفوس إذا دارت براح شماميس و رهبان

«دير المغان» بحمص في خربة بنى السمط تحت تلهم، و هو دير عظيم الشأن عندهم كبير القدر فيه رهبان كثيرة و ترابه يختم عليه للعقارب و يهدى إلى البلاد قاطبة و تتنافس النصارى في موضع مقبرته (ياقوت).

«دير ميماس» نقلت من ياقوت: بين دمشق و حمص على نهر يقال له ميماس و إليه نسب، و هو في موضع نزه، و به شاهد على زعمهم من حوارى عيسى عليه السلام زعم رهبانه أنه يشفى المرضى. و كان البطين الشاعر قد مرض فجاءوا به إليه يستشفى فيه فقيل: إن أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد و اتفق أن مات عقيب ذلك فشاع بين أهل حمص أن الشاهد قتله و قصدوا الدير ليهدموه و قالوا: نصرانى يقتل مسلما لا نرضى أو تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها، فرشا النصارى أمير حمص حتى رفع عنهم العامة فقال شاعر يذكر ذلك:

يا رحمتا لبطين الشعر إن لعبت به شياطينه في دير ميماس

و افاه و هو عليل يرتجى فرجافده ذاك في ظلمات أرماس

و قيل شاهد هذا الدير أتلفه حقا مقالة و سواس و خناس

أعظم باليات ذات مقدرة على مضرة ذى بطش و ذى باس

لكنهم أهل حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين فى الناس

و حكى أن أبا نواس لما دخل حمص مارا بها دعاه فتى من أدبائها إلى دير ميماس و دعا معه أشجع السلمى فجلسوا يشربون و أبو نواس ينشدهم له و لغيره فقال أشجع:

صبحت وجه الصباح بالكاس و لم تعنى مقالة الناس

و نحن عند المدام أربعة أكرم صحب و خير جلاس

ندير حمصية معتقة على نسيم النسرين و الآس

خطط الشام، ج٦، ص: ٤٤ و لم يزل مطربا و منشدا أبو نواس في دير ميماس

«دير نجران» بأرض دمشق من نواحي حوران ببصرى و هو دير عظيم عجيب العمارة و لهذا الدير ينادى فى البلاد من نذر نذرا لنجران المبارك و المنادى راكب فرس يطوف عامه نهاره فى كل مدينة مناد، و للسلطان على الدير قطيعة يأخذها من النذور التى تهدى إليه. «دير النقيرة» فى جبل قرب المعرة و لا نعرف عنه شيئا.

«دير هزقل» قال الخالدي هو بالشام و ذكره دعبل بن على حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال:

فكأنه من دير هزقل مفلت حنق يجبر سلاسل الأقياد

قال ابن فضل الله: و لا أدري فى قرب أى مدينة هو.

«دير يونس» ربما كان فى جهات الرملة فى فلسطين و قد قيلت فيه قصائد كثيرة و ما ندرى إن كان اختلط بدير فى جهات الموصل على جانب دجلة الشرقى و موضعه يعرف بنينوى، و نينوى هى مدينة يونس.

هذا ما أمكن تلقفه عن الأديار فى الإسلام و كان قبل الإسلام أديار مهمة ضاعت أخبارها و لا يستغرب ما قيل فى هذه الأديار من الأشعار فى سالف الأعصار. فقد كان المسلمون يختلفون إلى الديرة يجعلونها محال النزهة لأنها فى أماكن نزهة على الغالب تخير بانوها مواقعها، و بالنظر لتحريم الحكومات الإسلامية فى الخمور و إباحة شربها و بيعها لأهل الذمة كان المولعون بالشراب من أهل الشأن و خلعاء الشعراء و الأدباء يغشون الأديار فيجدون صدورا رحبة فيشربون و يطربون و لذلك خص الشعراء تلك الأديرة بأشعار لطيفة و قصائد ربما كان فيها شيء من المبالغة و منها ما نبا عن طور الأدب اليوم و لكنه كان من المألوف فى تلك العصور.

و فى ديار الشام اليوم و لا سيما فى لبنان و بعض أنحاء فلسطين أديار عظيمة منها ما ورد ذكره فى الجريدة التى كتبناها هنا و منها ما هو من البناء الجديد و فيها المهم بنيان و هندسته أشبه بقلاع منه بطرايل و صوامع للمنقطعين للعبادة و التبتل و قد ظهر فى يوم ٢٧ أيار ١٩٤٥ و قد قذفت فرنسا مدينة دمشق بحمم مدافعها أن معظم كنائس دمشق للاتين كان فيها ورشاشات و سلاح قاتلوا به السكان و على رأسهم الراهبات و الرهبان!

خطط الشام، ج٦، ص: ٤٥

المساجد و الجوامع

[فى أول الفتح:]

المسجد (بكسر الجيم) البيت الذى يسجد فيه و كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. و يقال مسجد الجامع و المسجد الجامع أى مسجد اليوم جامع.

فالمسجد قد يكون صغير المساحة و الحجم، و الجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع و الأعياد. و أول المساجد التى بنيت فى الشام على ما يظهر كانت فى البلدان التى سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل مؤتة و الجرباء و أذرح و فحل و أجنادين و بصرى.

و لما كانت السذاجة فى كل شيء قد غلبت على العرب لأول عهدهم بالإسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة، و إذا كان من الواجب إذا اجتمع بضعة أفراد منهم أن يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد أن كثرت فى الشام فى المدن و القرى. و كان الفاتحون يصلحون الأهلين إما على النصف من كنائسهم أو على بعضها أو يكتفون بواحدة أو بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من أصل خمس عشرة كنيسة فى دمشق و ضاحيتها. و أعطى أبو عبيدة أهل بعلبك و أهل الرستن الأمان على كنائسهم و استثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد فى الرستن. و صالح الفاتح أهل حمص على ربع كنائسهم للمسجد و ظلت كذلك إلى القرن الرابع و بعض

بيعتها المسجد الجامع و شطرها للنصارى و بيعتهم من أعظم بيع الشام. و ترك الفاتحون لأهل اللاذقية كنيستهم و بنوا مسجدا جامعاً لصلاتهم ثم وسعوه.

بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام، و كان بعيد

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٦

النظر فى العمران، فسمت به همته إلى أن يخرج المساجد من دور التأسيس و يدخلها فى مظهر مدنى فيه الجلال و الجمال. و لم يزل بعثان حتى أذن له أن يبنى المساجد و يكبر ما كان ابنتى منها قبل خلافته. و هكذا بدأ التوسع فى المساجد و الجوامع عقيب استقرار الفتح و رسوخ أقدام بنى أمية.

و اختط سليمان بن عبد الملك لما ولى جند فلسطين مدينة الرملة و اختط المسجد و بناه فولى الخلافة قبل استتمامه ثم بنى فيه بعد فى خلافته ثم أتمه عمر بن عبد العزيز و نقص من الخطئة و قال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذى اقتصررت بهم عليه. و معنى هذا أن جوامع القوم و مساجدهم كانت بحسب حاجة من ينزل فى كل صقع من المسلمين و التوسع لم يبد إلا مع معاوية بن أبى سفيان و أخلافه.

عرضنا فى فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين فى هذه الديار المسجد الأقصى و جامع دمشق. و نحن الآن نعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها فى الحواضر على الأكثر، و نقابل بين قديمها و حديثها، و بديهي أن المساجد لقيت من المصائب السماوية و الأرضية ما لقي غيرها من المصانع و العاديات. فإن الزلازل قد نسفت فى الإسلام مدناً برمتها فقد تقطع الجبل الأقرع فمات أهل اللاذقية سنة (٢٤٢هـ) و خربت طرابلس منه و فى هذا الزلزال خرب معظم الساحل و زلزلة سنة (٤٦٠) خربت فلسطين و زلزال سنة (٥٥٢) خربت به أمهات المدن الشامية و هكذا يقال فى معظم الزلازل التى وقعت بعد إلى القرن الماضى و من أهمها زلزال سنة (١١٧٣) حتى إن من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم و لا إنسان سائر. و مساجد الساحل أصيبت فى الحروب الصليبية بما نسفها أو غير معالمها فأصبحت كئناس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أعيدت بعض البيع أيضاً مساجد.

و من المتعذر أن نعرف ما قام فى كل عصر و مصر فى الشام من المساجد و الجوامع. و من القرى اليوم ما كان فيه بالأمس عشرة مساجد و العمران يكثر و يقل بحسب حاجة الناس. و الغالب أن العناية ببناء المسجد كان لغرض شريف للغاية بادئ بدء يراد به وجه المولى و ثواب الآخرة و خدمة الإسلام و المسلمين. فلما أوغل الناس فى مضمار الحضارة كان من البانين من يجمعون

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٧

بين الدين و الدنيا إذا تعلقت همهم أن ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم و نيل الثواب و الأجر. ثم أتت قرون و قد أخذ بعض الناس و لا سيما الحكام يعمرن المساجد و يقفون عليها حتى يحفظوا بحجتها بعض ثرواتهم لذراريهم، و فى هذه العصور الأخيرة وقع التخليط و كثرت المنافسة فى إقامة المساجد و الجوامع، حتى فى الأماكن التى لا يحتاج فيها الناس إلى مساجد كثيرة إما لكثرتها أو لقله المصلين فى جوارها. و أشبهت دمشق القاهرة فى عهد المماليك و بعدهم، فكانوا يعمرن الجامع قرب أخيه على أشبار قليلة منه. و ما حدثت البانين أنفسهم أن يشترك فى إقامة مسجد جامع بضعة من أهل الخير أو عشرات منهم، لأن المقصد الأول استحال فى الآخر إلى إحراز شهرة و إذا عمر إنسان جامعاً بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه، و غايته أن يقال بنى فلان مسجداً، و هذا مسجد فلان، أو أن ينتفع هو أو أولاده بمغل و وقف الجامع.

و كان للملوك و الأمراء فى كثرة المساجد و قلتها يد طولى و منها أن الملك أو الأمير أو غيره من طبقات الحكام و الولاة إذا آنس منه قومه رغبة فى الاستكثار من المساجد و القربات جاروه على أفكاره و تقربوا إليه بمثل هذه الأعمال الصالحة، و ربما تقاضاهم هو ذلك سرا حتى يستخرج بذلك أموالهم و توزع فى الرعية فلا تجمد الثروة فى يد واحدة. قال ابن تغرى بردى فى حوادث سنة (٨٤٤): لما كانت الملوك السالفة تهوى النزاهة و الطرب عمرت فى أيامهم بولاق و بركة الرطلى و غيرها من الأماكن، و قدم إلى القاهرة كل

أستاذ صاحب آله من المطربين و أمثالهم من المغاني و الملاهى إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، و سار فى سلطنته على قدم هائل من العبادة، و العفة عن المنكرات و الفروج، و أخذ فى مقت من يتعاطى مسكرات من أمرائه و أرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم و تصولح و تزهد، و صار كل واحد يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، و منهم من تاب و أفلح عما كان فيه، و منهم من بنى المساجد، و لم يبق فى دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٨

مساجد حلب:

فى حلب اليوم ١٦٩ جامعا و ١٨٢ مسجدا و منها الجيد بنيانه، و أعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا فى غربى القلعة. صالح المسلمون أهل حلب على موضع المسجد الجامع يوم الفتح، و كان محله حديقه كنيسه الروم القديمه التى بنتها هيلانه أم قسطنطين. قالوا: إنه كان يضاهى جامع دمشق بالزخرفة و الرخام و الفسيفساء، و إن سليمان بن عبد الملك هو الذى بناه و تأتق فى بنائه ليضاهى به ما عمله أخوه الوليد فى جامع دمشق. و قيل: إن بنيه الوليد نفسه، و إن بنى العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام و الآلات و نقلوه إلى جامع الأنبار فى جملته ما نقضوا من آثار بنى أمية بالشام. و لما جاء الروم حلب سنه (٣٥١) أحرقوا الجامع و البلد فرم بعضه سيف الدوله ثم ابنه سعد الدوله، و أحرقته الإسماعيلية سنه (٥٦٤) مع الأسواق التى حوله فعمره نور الدين زنكى و قطع الأعمدة الصفر من بعادين و نقل إليه عمد مسجد قنسرين، و أحرقه الأرمن سنه (٦٧٩) أيام كانوا محالفين للترت. و عمره قراسنقر سنه (٦٨٤) و بنى فيه غيره بعض جهات منه مثل الأمير الطون بغا الصالحى نائب حلب و الأمير يشبك اليوسفى.

و يقول العارفون بالآثار: إن بناء الجامع الحالى قد قام على الصورة التى عملت عليه زمن سابق بن محمود من بنى مرداس (٤٦٨-٤٧٢) على يد القاضى ابن الخشاب و إن فى أسفل المنارة كتابه تاريخها سنه (٤٨٣) ذكر فيها اسم ملكشاه و ابن الخشاب و فى جهة أخرى ذكر اسم تتش أخو ملك شاه و يستدل من مجموع البناء، و ليس فى جدرانها من كتابه مزبوره، أن هذا الطراز قديم صبر على الدهر. و محرابه من عهد قلاوون و المنبر من عهد الناصر محمد، و يرد عهد الباب الأوسط للحرم إلى أوائل زمن المماليك و إن كانت فيه كتابات أحدث من عهد السلطان مراد الثالث (٩٩٦). و أسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضى ابن الخشاب سنه (٤٨٢) و هى منقوشة أبدع نقش و هى بما كتب عليها من الكتابات الكوفية و النسخية المثل الوحيد من الهندسة الإسلامية. قال أبو الفداء: و كان بحلب بيت نار قديم ثم صار أتون حمام فأخذ ابن الخشاب حجراته و عمر منارة جامع حلب.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٤٩

وصف ابن جبير فى القرن السادس جامع حلب بقوله: و هذا الجامع من أحسن الجوامع و أجملها و قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتوح كله أبوابا قصرية الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، و فى صحنه بئران معينتان، و البلاط القبلى لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانسراح. و قد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله، و غرابه صنعته، و اتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجلت صفحاته كلها حسنا على تلك الصنعة الغريبة، و ارتفع كالتاج العظيم على المحراب، و علا حتى اتصل بسمك السقف، و قد قوس أعلاه و شرف بالشرف الخشبية القرنصية، و هو مرصع كله بالعاج و الآبنوس، و اتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا، و حسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف اه.

هذا وصف المسجد الجامع و ما كان فيه و ليس هو بالعظيم كمسجد دمشق أو المسجد الأقصى و قد رمم فى أوقات مختلفة. و فى حلب جامع الصالحين جنوبى المدينة أنشئ سنه (٤٧٩) أنشأه أحمد بن ملكشاه و محرابه مهم فى بابه.

و أول جامع بنى بحلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع الطون بغا الصالحى تم سنه (٧٢٣) و فيه يقول ابن حبيب:

في حلب دار القرى جامع أنشأه ألطنبغا الصالحى
رحب الذرى يبدو لمن أمه لطف معانى حسنه الواضح
مرتفع الرايات يروى الظمان مائه السارب و السارح
يهدى المصلى فى ظلام الدجى من نوره اللامع و اللانح
من حوله روض يرى للورى من زهره بالفائق الفائح
لله بانيه الذى خصه بالروح للغادى و للرائح

وعدّ ابن الشحنة من أحسن الجوامع التى بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلى بغا الشمسى نائب حلب عمر (٧٧٨). وعد ابن شداد فى باطن حلب مائتى مسجد و سبعة عشر مسجدا داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه و منها
خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٠

ما عرفه بالخطة التى هو فيها. و ذكر المساجد التى بأرباض حلب و ذكر منها ما هو بالحاضر السليمانى مائة مسجد و عشرة مساجد، و ذكر مساجد الرابية و جورة جغال فعدها مائة و ثمانية و ستين مسجدا و أتى على ذكر المساجد التى بالظاهرة فعدها تسعة و تسعين مسجدا وعد بالمادة أربعة و ثلاثين مسجدا.

وعد بيانقوسا ثلاثة عشر مسجدا و بالفرافرة اثنى عشر مسجدا و بالمضيق ستة عشر مسجدا و بالقلعة عشرة مساجد. قال ابن الشحنة و عنه لخصنا احصاء ابن شداد لمساجد حلب: فجملة هذه المساجد التى داخل حلب و خارجها إلى حين تأليف ابن شداد كتابه سبعمائة و خمسة و عشرون مسجدا. و قد بنى بعض الولاة الأول فى الدولة العثمانية جوامع فى حلب منهم جامع خسرو باشا (٩٣٨) و جامع عادلى محمد باشا (٩٥٧) و جامع بهرام باشا (٩٨٨) و ابشير مصطفى باشا (١٠٦١) و جامع عثمان باشا (١١٥٠). و من جوامع حلب التى بقيت عليها بعض الكتابات الحثية جامع القيقان و من جوامعها الأطروش و اشتهر بكتابات و نقوشه جامع البيادة فى شمالى غربى القلعة.

جوامع عمالة حلب:

قامت فى أنحاء حلب مساجد كثيرة و منها مساجد قنسرين و هو البلد القديم الذى كان فى الإسلام بمثابة حلب فخربه سيف الدولة سنة (٣٥١) أو (٣٥٥) و أحرقت مساجده، لما نزل الروم حلب و قتلوا جميع من كان بربضها و ذلك خوفا من سقوطها فى أيدي أعدائه. و أنشئت فى أنطاكية عدة جوامع بقيت منها بقايا على ما انتابها من الزلازل و أهمها اليوم جامع حبيب النجار و الجامع الكبير و الشيخ على و الذخيرة. و فى أنطاكية لعهدنا ١٣ جامعا و ٢٧ مسجدا و مجموع ما فى عملها ١٣٥ مسجدا و جامعا و زاوية و تكية. و أنشئت منذ الفتح جوامع فى مدينة المعرة و صف ناصر خسرو فى أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم فقال: إنه مبنى على أكمة قامت وسط المدينة و من أى جهة اتجهت إلى هذا الجامع كان عليك أن ترتقى سلما ذات ثلاث عشرة درجة.

و قد خربت المعرة بدخول الصليبيين، ثم عادت إليها بعض حياتها و فيها اليوم ٢٣ جامعا و مسجدا أهمها الجامع العمرى الكبير تقام فيه الجمعة دون غيره

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥١

من المساجد. و مجموع ما فى عمل المعرة ٤١ مسجدا و جامعا. و فى عمل جبل سمعان اليوم ١٨٣ جامعا و مسجدا، و فى بيلان ٥ مساجد و جوامع. و فى قضاء إدلب ٣٧ مسجدا و جامعا و جامعها فى القصبه من عهد الفتح يسمونه العمرى.

و فى معرة مصرين و عملها ١١ جامعا و مسجدا، و فى حارم جامع و مسجد و فى عملها عدة جوامع و مساجد و كذلك فى اعزاز، و فى قضاء الباب ١٥ جامعا و مسجدا و فى بزاعة و جسر الشجر و معرة مصرين و سرمين و جبرين و سلقين و خناصره و الفوعة و أرمناز و ديركوش و الجبول و الأثارب و دانيث و كلز و غيرها من البلدان القديمة مساجد و جوامع. و لا تكاد تخلو فى يومنا هذا كل قرية

من مسجد إلا إذا كانت مزرعة حقيرة لأحد أبواب الأملاك. و في الشجر اليوم ثلاثة جوامع و خمسة مساجد و لا تخلو المدينة التي كانت عامرة جدا ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسكنة) و منبج مثلا من مساجد لا بأس بها. و لقد تقلبت الأيام بهذه المساجد و الجوامع فكثرت في الأماكن التي اشتدت إليها الحاجة و قلت حيث قل العمران و ابدع السكبان. فقد كانت سرمين مثلا على طرف جبل السماق من المدن و لها مساجد كثيرة روى ابن شداد أن عددها كان ينيف على ثلاثمائة مسجد، قال: و ليس بها الآن أي في عهده مسجد يصلى فيه غير الجامع و أكثر أهلها إسماعيلية و لهم بها دار دعوة. و سواء كان هذا العدد مبالغ فيه أو غير مبالغ فيه فالحق أن الجوامع و المساجد كثرت في العصر السالف في هذه الأرجاء بكثرة السكان و توفر خيرات الأرض ثم لما خربت المدن دع القرى تراجع أمر بيوت العبادة. و من الجوامع القديمة في هذا الصقع جامع اعزاز عرف بالجامع الكبير قال الغزى: و هو صحن واسع فسيح في شماليه رواق و فيه مأذنة ضخمة و في وسطه حوض يهبط إليه بدركات تجرى فيه قناه جرها إليه إسماعيل بن عبد الله العزازی المتوفى سنة (٧٤٨) و في جنوبي صحن الجامع قبليته يبلغ طولها نحو ٥٠ في عرض ١٥ ذراعا سقفها قباب محمولة على أعمدة ضخمة و قد كتب على باب الجامع المتجه إلى الغرب: بسم الله الرحمن الرحيم في سنة (٦٤٤) أمر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا و الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن أيوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٢

مساجد الساحل و جوامعه:

لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء كل حين، و كانت الزلازل قد توالى عليها كثيرا و ظلت مسرحا للجيش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع و المساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر، فليس في الإسكندرونه اليوم سوى جامعين و في عمالتها بعض المساجد الحقيرة، و كذلك الحال في السويدية و اللاذقية و المرقب و طرطوس و جبلة و بانياس و طرابلس و جبيل و بيروت و صيدا و صور و عكا و حيفا و يافا و غزة، خربت جوامعها و مساجدها و عمرت غير مرة في الإسلام. ففي اللاذقية اليوم عدة مساجد و فيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطل على الثغر و لها منارة جميلة. و أهم جوامع اللاذقية جامع المغربي و من جوامعهم جامع الجديد و الكبير المنصوري و أرسلان باشا و الصليبية و صوفان و الشيخ ضاهر و جامع الاسكلة و الشواف و الصغير، و في اللاذقية اثنا عشر مسجدا غير هذه الجوامع. و في جبلة جامعان و هما جامع السيد إبراهيم و المنصوري و من مساجدها القنطاري و بنى على أديب و الغزالي و الأكراد و جامع واحد في بانياس، و في طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية، و في صافيتا جامع و ثلاثة مساجد في جوارها.

و في طرابلس عدة جوامع و مساجد و معظمها من آثار المماليك البحرية و الجراكسة، و ما تجدد بعدهم فقليل جدا بالنسبة لآثارهم في هذه المدينة، و أكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه. و لا ريب أن البواعث كانت دينية محضة و رغبة في ثواب الله بدار الآخرة فكان عدم ذكر الباني على البناء أبعد عن السمعة و الرياء، و كان الأمير أو الممول منهم إذا شيد مسجدا للصلاة جعل في أحد أطرافه مشهدا ليدفن فيه عند موته و لم يزل إلى الآن كثير من قبور المماليك الرخام محفوظا في المساجد التي أقاموها على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا في كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتيم و أعلاها كروي.

و للمماليك من نوع هذه القبور في دمشق صنوف. و إن ما بقى إلى اليوم من الفسيفساء في محاريب تلك المساجد و جدرانها آية في الإبداع و حسن الصناعة.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٣

و من أعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع

الشمالي و ذلك في سنة (٦٩٣ هـ) و كان متولى العمارة سالم الصهيوني ابن ناصر الدين العجمي و في سنة (٧١٥) و على عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بأمره الأروقة المحيطة بصحن المسجد أيام نيابة المقر السيفي كستاي الناصري و كان متولى العمارة أحمد بن حسن الحرلبيلى و تسميه أهالى طرابلس الجامع المنصوري و هو غلط بين لأن الملك المنصور قلاوون هو أبو الأشرفى باني الجامع المذكور.

و منها جامع طينال و تسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك محمد الناصري و حاجبه و كان قد تولى ولاية طرابلس مرتين و بنى الجامع المذكور للمرة الثانية سنة (٧٣٦). و فى منارته هندسة لطيفة و لها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعدا أعلاها و إذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد و على هذه الصورة فباب المنارة السفلى الخارجى أدنى من أرض المسجد بقدر قامه الإنسان. و من جوامعها جامع أرغون شاه و تسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لجبانة باب الرمل و لا يعلم تاريخ بنائه و فوق بابه كتابة حفرت أيام قايتباى من المماليك الجراكسة سنة (٨٨٠) يأمر فيها بحماية زراع أراضي الوقف للجامع المذكور و تسليمها إلى محمود الأدهمى الحسينى و قد بنى هذا الجامع حديثا بعد سقوطه و وضعت له القساطل الحديدية لجر المياه. و من جوامعها جامع التوبة و هو ملاصق للجسر الجديد على نهر أبى على و من الثابت أنه بنى أيام دولة المماليك و طرز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة و قد جدد بناءه بعد ما تهدم من الفيضان الكبير الذى وقع فى طرابلس سنة (١٠٢٠) أحمد بن محمد الشربدارى الأنصارى كتحداى حسين باشا السيفى، و تم بناؤه فى شهر ربيع الآخر سنة (١٠٢١) و الكتابات الأثرية التى عليه يرجع تاريخها إلى سنة (٨١٧) أيام دولة المؤيد أبى النصر شيخ المحمودى من المماليك الجراكسة.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٤

و من جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفى الزعيم سنة (٩٦٧) أيام سليمان القانونى و هو فى محلة بوابه الحدادين. و جامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحه و المشهور عند أهالى طرابلس أنه كان كنيسة فى زمن الصليبيين ثم تحول إلى جامع بعد الفتح الإسلامى و كان قد تداعى بناؤه، فأقيم و فى أعلى بابه الشرقى مكتوب هذا التاريخ «البسمله. هذا الباب المبارك و المنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهندس فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة». و جامع البرطاسى فى جانب الجسر العتيق على نهر أبى على و فى الكتابة التى فوق بابه يقول: بنى هذه المدرسة عيسى بن عمر البرطاسى و وقفها على المشتغلين بطلب العلم على مذهب الإمام الشافعى و لم يعلم الزمان الذى تحولت فيه إلى جامع و قد ذهب من أصل الكتابة التاريخية القسم الذى يذكر به زمن البناء غير أن أسلوب تلك الكتابة و طرز بنائه الفخم و دقة الفسيفساء التى على محرابه و فى أرضه تدل على أن بانيه من الأثرياء أيام دولة المماليك البحرية. و جامع الأويسية بنى فى دولة المماليك غير أنه لم يكن عليه كتابات تاريخية إلا ما كان فى أعلى منارته و فيها ذكر أنه جدد بناءها أيام السلطان سليمان القانونى سنة (٩٤١) رجل اسمه حيدر و فى وقفية الجامع أن اسم بانيه محبى الدين الأويسى.

و جامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربى المكناسى أيام السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة (٧٠٥) و عليه زبرت كتابة تشعر بذلك. و جامع التفاحى و يسمى اليوم بالحميدى لم يبق من بنائه الأصلى أثر و تجدد بناؤه حوالى سنة (١٣١٠) بمعاونة أهل الخير و إعانة السلطان عبد الحميد الثانى فنسب إليه. و جامع محمود بك السنجق و هذا بناه فى طرف البلد تقريبا للجهة الشرقية بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة (١٠٢٠) فى عهد السلطان أحمد من ملوك بنى عثمان و وقف عليه أوقافا كثيرة لم تزل قائمة إلى الآن. و جامع الطحام داخل البلد و لم يعلم اسم بانيه و لا تاريخ بنائه و شكله و طرز منارته يدل على أنه بنى زمن المماليك.

هذه جوامع طرابلس و قد وصف ناصر خسرو المسجد الأعظم فيها أواخر النصف الأول من القرن الخامس بقوله: و المسجد الأعظم قائم فى وسط المدينة و هو جميل للغاية، مزدان بأحسن زينه، و مبنى على غاية القوة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٥

و المتانة، و فى صحنه قبه عظيمه تعلق حوضا من المرمر فى وسطه فواره يخرج ماؤها من منقار نحاس أصفر اه. و الغالب أن هذا الجامع خرب بخراب تلك المدينة بعد.

و فى جبل جامع قديم هو مما اتخذ جامعا بعد الحروب الصليبية. أما مدينة بيروت فكانت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح و لم تكن بيروت بالغر العظيم إذ ذاك و لم يكن للمسلمين جامع فيها أيام استيلاء الصليبيين عليها، فلما انتزعت منهم أخذوا كنيستهم و جعلوها جامعا، و هى تعرف بكنيسة مار يوحنا الصايغ و يقال لها جامع النبي يحيى أو الجامع الكبير اليوم. و بنى فيها الأمير منصور عساف جامع السراية. و كان جامع الخضر كنيسة للموارنة باسم مار جرجس إلى سنة (١٦٦١ م) فأخذه أحد باشاوات الترك و جعله جامعا. و منها جامع المجيدية و غيره و مجموع ما فى بيروت اليوم من المساجد و الجوامع ثلاثون جامعا و مسجدا.

و فى صيدا سبعة جوامع و مساجد أهمها الجامع الكبير جامع يحيى و كان كنيسة على الغالب باسم مار يوحنا و فى صور مسجد جامع. و فى عكا بضعة جوامع أهمها جامع الجزائر، و فى حيفا و عملها عدة جوامع و مساجد، و فى يافا و عملها كذلك و جوامع يافا قديمة فى الجملة، و فى غزة اليوم عدة جوامع و مساجد. و قد أعجب الظاهرى فى القرن التاسع بجوامع غزة، و كان مسجدها الجامع من الكنائس المهمة فى القرن الثانى عشر للميلاد على اسم القديس يوحنا المعمدان، و كان كاتدرائية لأسقف الروم، و فيها جامع هاشم و جامع باب الداروم و غيره من الجوامع التى فيها نقوش بديعة و أنقاض تدل على مجد قديم.

جوامع المدن الداخلية:

و فى الخليل و (حبرون) جامع فيه مقام الخليل إبراهيم فى مغارة تحت الأرض. قال شيخ الربوة: و من المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعا و عرضه خمسون ذراعا، فى الطول منه عشرون حجرا مداماكا واحدا، و داخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد، الطول أربعة أذرع و العرض ذراعان و نصف و السمك مثلها و أزيد. و يحتوى اليوم سور الخليل على أساس يبلغ علوه ١٢ مترا و حجارته ملساء عليها مسحة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٦

الأميراطور هيرودوس. و قد بنى هذا الجامع الصليبيون من سنة (١١٦٧) إلى (١١٨٧)، و ربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستينيانوس وجدده المسلمون بعد ذلك. و أقدم ما فى الجامع من الترميمات ما قام به قلاوون من سلاطين المماليك.

و فى القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع و هى جامع عمر بن الخطاب تهدم و مكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة مار يوحنا و الجامع الباقي مع المأذنة من آثار قلاوون (قاله الأستاذ البرغوثى) و جامع عكاشة و جامع سوق البيزار و جامع سلمان الفارسى و جامع الشيخ جراح و جامع سويقه علوان و جامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة و جامع باب خان الزيت. و الجوامع الخربة أيضا تسعة و هى جامع بحارة الحدادين، و آخر قرب دير اللاتين و ثالث قرب بطريكية دير اللاتين و رابع اسمه الحيات و خامس جامع اليعقوبى قرب القلعة و جامع قرب دير الأرمن و مثله على مقربة من دير السريان و غيره فى حارة اليهود و جامع الأزرق. و هناك ثلاثة جوامع معمورة أيضا و هى جامع السبيل و جامع لؤلؤ و جامع أبى قصبه. و بعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة و الإتقان شأن المصليات البسيطة.

و فى الرملة عدة جوامع و مساجد قال ناصر خسرو فى مسجدها الجامع:

إن فى وسطه صهاريج واسعة و إن مساحته ثلاثمائة قدم فى مائتين. و قال الظاهرى:

إن من جملة مزاراتها الجامع الأبيض عجيب من العجائب. و كان فيها منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون. و فى لدة عدة جوامع و مساجد و كان بها فى القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبه و ما حولها من القرى و جامعها الكبير اليوم من عهد

الصلبيين كان كنيسة. و في نابلس تسعة جوامع و مساجد أهمها الجامع الكبير و مسجد أولاد يعقوب و جامع النصر و الخضراء و الجامع الكبير بناه يوستينانوس. و على قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا علي بن عليل أو عليم. و في قاقون بنى الملك الظاهر بيبرس جامعاً. و الظاهر هذا جدد و بنى عدة مساجد و جوامع في الشام و مثله قلاوون و تنكز من المماليك. و في طور كرم و جنين عدة مساجد و جوامع أكثرها محدث.

و من الجوامع التي رمها ديوان الأوقاف في فلسطين في العهد الأخير جامع المنشية و العجمي و البحر و أرشيد و الطابية في يافا، و جامع العصا في الرملة،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٧

و جامع لدا. و مقام النبي يحيى في قرية المزيرعة و مقام النبي رويين و جامع سويقة علون و جامع باب خان الزيت و الزاوية النقشبندية و جامع سعد و سعيد، و جامع بيت لحم و مقام النبي شموبل في القدس و أرباضها. و رمت الأوقاف في نابلس جامع النصر و الجامع الكبير الصلاحى و جامع العين و جامع التينة.

و جامع قرية رفديا و قرية عقرب و قرية عصيرة الشمالية و قرية صيدا و جامع البئر في قرية زواتا و جامع سبسطية و جامع قرية برقة. و أجريت عدة إصلاحات في جامع الجزائر في عكا و أنشئ في حيفا جامع الاستقلال. و أصلحت الأوقاف الجامع الكبير في غزة أصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة «و هو من المساجد العظمى في فلسطين فخم البناء كبير القيمة الأثرية جميل الشكل و الهندسة يحتوى على عدة سلاسل من العقود الحجرية» و أصلح جامع سيدنا هاشم و جامع ابن عثمان و جامع المجدل و حرم سيدنا زكريا في الخليل، و شرع أهالي الخليل ينشئون مسجدا فساعدهم المجلس الإسلامى الأعلى.

و كانت المدن القديمة غاصه بالجوامع مثل قيسارية و أرسوف فذهبت بزهاب عمرانها. و في طبرية اليوم جامعان قديمان الجامع الفوقاني من بناء عرب الزيادة عام (١١٥٦) و الثاني جدد بناؤه عام (١٢٨٠). و في صنف عدة جوامع و مساجد. و في قلعة الشقيف بنى الظاهر بيبرس جامعاً و كانوا يقيمون الصلوات في القلاع أيضاً، كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق و في قلعة حلب.

و في صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعاً، و كذلك فعل في بصرى و عجلون و الصلت، و في هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الأيام على المساجد المهمة. و في عمان جامع و مسجد و كان فيه في القرن السابع «جامع ظريف في طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة». و قد أنشئ فيها في العهد الحديث جامع فخم.

و للدروز في الشوف من لبنان و وادي التيم الأعلى و الأسفل و مرجعيون و صنف و ضواحي دمشق و بيروت و الجبل الأعلى و في بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها و لا مآذن، يجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة و يسمونها مجالس كما أن للنصيرية (العلويين) في جبالهم خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب في أطراف قراهم، و كذلك لا تخلو أكثر قرى المتأولة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٨

(الشيعة) في جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها و لا منابر، و منها ما يسمونه «حسينية» نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما يقيمون فيها المآتم عليه في أوقات لهم مخصوصة. و في بعلبك عدة جوامع و مساجد باقى بعضها من عهد عزها. أيام غلبة مذهب أهل السنة و الجماعة على سكانها أكثر من التشيع. و للإسماعيلية مجالس أيضاً كما للنصيرية.

و لقد زين بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثاني أن يبنى جوامع و مساجد في جبال النصيرية و جبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة و الجماعة، بنيت عدة جوامع في هاتين المقاطعتين، منها أربعون جامعاً في جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية و الدروز إلى التسنن، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين و الدروز على ما بنى من المساجد الجديدة و دمرها عن آخرها و دنسوا كرامتها بما لا يليق.

و من الكتابات الأثرية في بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأمجد على رابية الشيخ عبد الله «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم

الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسهلال الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ ابن عبد الله المعري الملكي الأمجدى، ضاعف الله له الثواب و غفر له يوم الحساب، فى سنة ست و تسعين و خمسمائة».

و كتب فى جامع الحنابلة ببعلبك هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. جدد هذا المكان المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب و العجم و الترك و الديلم، الملك المنصور سلطان الإسلام و المسلمين، قانع الكفرة و المشركين، محبى العدل فى العالمين، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أبى المعالى قلاوون قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، و شد أزره ببقاء ولده و ولى عهده، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين، و أدام نصرهما، و جعل البسيطة ملكهما، بتولى الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة و مدينتها، و نظر القاضى بهاء الدين بن خلكان و ذلك فى العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثنتين و ثمانين و ستمائة و الحمد لله وحده».

خطط الشام، ج ٦، ص: ٥٩

و المساجد فى لبنان قليلة جدا أنشى بعضها حديثا كجامع عاليه، و أهم الجوامع فى هذا الجبل جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعنى و عهدهى به و المسيحيون من أهل جواره يحافظون عليه إذ ليس هناك من يصلى فيه من أهل الإسلام. و قد كتبت على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربى النسخى، الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم. فى بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الآصال رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله و إقام الصلوة و إيتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله و الله يرزق من يشاء بغير حساب». و الثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم. فى بيوت أذن الله ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الآصال رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر الله (و إقام الصلوة و إيتاء الزكوة) يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار. عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم و رجاء لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو ربه القدير المقرّ الفخرى الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر الله له.

و كتب فى ٥ من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع و تسعين و ثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام».

و كانت الجوامع فى حمص مهمة للغاية أوائل الإسلام و قد صالح المسلمون أهلها على ربع كنيستهم و كانت «على أربعة أركان و ذلك من عجائب بنى العالم» و مسجدها اليوم وسط السوق و ليس بالكبير و فيه عقود و عمد و محراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة. و فى جهة أخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء أيضا. و أكد الأثريون أن بناء هذا الجامع هو من بناء الكنيسة، و الغالب أنه جدد فى أدوار مختلفة من عهد نور الدين زنكى إلى زمن قريب. و لا تزال فى حمص منارة مأذنة من بناء بكجور الذى استولى على المدينة سنة (٣٦٧) و عليها كتابة مفيدة فى باب الهندسة العربية. و من جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه مؤخرا و أنشئت له مأذنة على الطرز الرومى. و لم يثبت كون المدفون فى هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح، لأن هذا على أغلب الروايات مات فى مدينة الرسول و الغالب أن هذا القبر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٠

هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال: و هو الذى بنى القصر بحمص و آثار هذا القصر فى غربى الطريق باقية. و ذكر المؤرخون أنه كان فى جامع حمص عمود يقال: إنه من الكحل الأصفهانى.

و فى حماة ٣٤ جامعا و ١١ مسجدا و من أهمها جامع النورى بناه نور الدين زنكى سنة (٥٥٩). و منها جامع أبى الفداء الشهير بجامع الدهشة أو الحيات.

و قد وصف الأثرى هرزفد المسجد الجامع فى حماة و هو الجامع الكبير فقال: إنه أصل حرمة كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل و له ثلاثة أفنية مختلفة السعة، و ثمانى دعائم، و خمس قباب، و من كل ناحية خمسة عقود أو أقبية. و يظهر أن الحائط الغربى كان

حائط رواق الكنيسة، و الحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية، كما هو الحال في جامع دمشق كان معبدا ثم بيعة ثم جامعا. و إلى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة و هي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس، و تحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة، و هناك سدة بمحرايين أمام الحرم و سدة أخرى لها حوض ماء، و محراب منفرد في الرواق الشمالي، و خزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة، و في الرواق الشرقي تربة و مصلى و لها نوافذ صلبه معموله من النحاس من عهد المماليك، و من الرواق الغربي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود الثالث (٦٨٣-٦٩٨) و له تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش، و هناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي و يستدل من كتابته و شكله أنه من زمن المماليك، و في جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجليا عظيما، و ذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بألوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صنعها بين الحجر البركاني الأسود و الحجر الكلسي الأبيض.

و في الجامع النوري على الشاطئ الأيسر من العاصي في أرض منحدره و على بناء تحتي عال بنى هذا الجامع على عهد نور الدين، و على ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم، و لا سيما على طول الحرم، و العقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع، و كذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالي مختلفة الأشكال و الأبنية التحتانية من الجهتين

خطط الشام، ج٦، ص: ٦١

الشرقية و الشمالية و الحائط الخارجى الشمالى من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء و السوداء قديم العهد أيضا.

و في هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب و يرد إلى زمن نور الدين ثم محراب مزين أجمل زينته له سوار من الرخام المجزع من زمن الملك المظفر تقى الدين (٦٢٦-٦٤٢) و في مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زبر في تيجانها اسم أبى الفداء.

و الجامع الأول هو الذى قام على أنقاض الكنيسة أو حوّل منها في زمن الفاتح، و هو جامع السوق الأعلى وجدّد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامه فيه، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه و بنى مدرسة بجواره، ثم أتى إبراهيم الهاشمي فأنشأ منارته الشمالية سنة (٨٢٥) كما زبر ذلك على رخامه فوق بابها، و من بنائه الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق و رواق الجامع أيضا بناه سنة (٨٣٢)، و جامع الحيات أو جامع الدهشة الذى بناه الملك المؤيد و بنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعى ملتفة و لهذا يسمى جامع الحيات. و قد نقش حرمه بالذهب و الفسيفساء و الرخام الملون في جدرانته و أرضه و عمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق، غير أنهما هدمتا و أدخلتا في البستان المجاور له، و لم يبق غير الشباكين. و ذهبت خزانه الكتب الموقوفة و كان فيها سبعة آلاف مجلد. و يرى الداخل إلى حرمه حتى اليوم زنارا على ساريتين محفورا من الرخام و صورته:

«أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا و الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب في شهر سنة سبع و عشرين و سبعمائة».

و من الجوامع في حماة جامع السلطان في محله الدباغة و هو متسع، بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبى الفداء على هيئة جامع الدهشة و في كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبها يد واحدة، و له رواق كبير و في محرابه كتبت آيات بالخط الكوفي. و فيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة

خطط الشام، ج٦، ص: ٦٢

الغزى سنة (٧٢٣) و هو مهجور. و فيها جوامع بناها بعض آل الكيلاني الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع و لها أوقاف عظيمة دارة

إلى اليوم. و من الجوامع الحديثة جامع الحميدية الخ.

جوامع العاصمة و ضواحيها:

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الأيام و المعدود من المصانع العظيمة في العالم، و عمدنا إلى وصف بعض جوامع العاصمة و مساجدها نجد عدد المساجد في العهد الأخير بحسب إحصاء ديوان الأوقاف ثمانية و خمسين مسجدا و جامعا، منها جامع الباشورة في الشاغور و مسجد الجديد في مسجد الأقباب و جامع الأتابكية في الجركسية بالصالحية و جامع حسان في القماحين بباب الجابية و درويش باشا في الدرويشة (٩٨٢) و اسمه القديم الاخصافية وسعه درويش باشا، و جامع الدقاق في الميدان الفوقاني و الركنية في الصالحية و مسجد رستم في العقيية و زيد بن ثابت في باب السريجة و جامع السقيفة في العمارة و جامع سيدي بشارة في باب المصلى و جامع سيدي صهيب في الميدان التحتاني و جامع السنجدار و شادي بك في القنوات و الطاغوسية في البحصنة و العداس في القنوات و مسجد العداس الصغير في العمارة و جامع عبد الغني النابلسي في الصالحية و جامع برسباي المعروف بجامع الورد في سوق ساروجا (٨٥٢) و جامع كافل سيباي في الدرويشية.

و في هذا الإحصاء نظر لأن جوامع دمشق و مساجدها أكثر من ذلك و لعل من مصلحة الأوقاف أن تقلل من عددها لكي يتسع لها المجال أكثر مما اتسع لاستصفاء و قوفها فقد فاتها في هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد الله سنان باشا سنة (٩٩٩) في محل مسجد البصل و جامع يلغا أنشئ سنة (٨٤٧) و جامع التوبة في العقيية و جامع الجراح في باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى (٦٣١) و له منبر جميل مهم. و جامع الجديد و هو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء في دمشق جدده نائب الشام سنة (١٠٥٨) و يظن أن أصله من القرن السابع أو السادس. و جامع الحنابلة في الجبل و يقال له جامع المظفرى أنشأه ابن قدامة المقدسي (٥٩٨) و أتمه الملك المظفر كوكبوري صاحب إربل و هو جامع جليل.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٣

و من الجوامع الجليلة جامع المرادية في السويقة له منبر و محراب بديعان.

و منها جامع منجك في الميدان أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك (٨٠٠). جامع النحاس شرقي الركنية في الصالحية في بستان النحاس عماد الدين بن عبد الله بن الحسين بن النحاس (٦٥٤). و من الجوامع التاريخية التي لم تشتهر كثيرا جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لأرغون شاه جدده سنان جاووش يكيجرى (١٠٠٨). الحيوطية للأمير علي بن حيوط (٨٨٥) العسالي لأحمد باشا كوجك (١٠٥٤) أنشأه أحمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية. جامع المزاز (٨١٣) لعزران شاه السيد تقى الدين الزينبي الجنوبي خرب في فتنه تيمور فجدده الطوش مرحاب. جامع الجوزة في العمارة وسعه القاضي ناظر الجيش (٨٣٠) جامع خليخان خارج باب كيسان من الجنوب أنشأه نجم الدين بن خليخان (٧٢٦) جامع الكريمي (٧٢٤) بالقيبات أنشأه عبد الكريم بن هبة الله المصري. جامع باب المصلى أنشأه (٦٠٦) الملك العادل أبو بكر بن أيوب. و كان هذا السلطان مولعا بالعمارة أنشئت في عهده مساجد كثيرة في مملكته. جامع الحاجب في سوق ساروجا (٨٨٠) جامع السقيفة دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة فيما يقال أنشأه خليل الطوغانى (٨١٤) و كان محله يعرف بالسبعة. و هناك مساجد دثرت لانها ليس في جوارها من يتعهدها مثل جامع الأحمر في حي اليهود و البهائية في باب توما.

و في مفكرات طارق أن اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق النسقار و فيه جامع هشام أنشأه القاضي بدر الدين بن مزهر (٨٣٠) و أن محراب جامع التوبة مهم و كذلك منبره و نوافذه و مثل ذلك جامع الشامية و جامع التبان في المناخية فإن فيه عمودين مهمين و فيه قاشاني و منبر قديم و ملاصق جامع السيدة سكيئة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات و في جامع ركن الدين منكورش المعروف بالركنية في حي الأكراد نقوش و كتابات مهمة.

هذا غاية ما يقال في مساجد دمشق اليوم. و قد عدد ابن عبد الهادي القسم الأعظم من مساجدها في القرن العاشر مع أنه لم يستقص أسماء كثير من الجوامع في الضاحية بما يناهز خمسمائة قال: فناهيك ببلده يحتوى واديها فقط على خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٤

زهاء ألف و خمسمائة مسجد، و أما ما هو محيط بمعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اه. و ذيل على كتابه الدكتور أسعد طلس فأورد وصف ثلاثمائة و ثمانية مساجد في دمشق زارها كلها و بحث في حاضرها و غابرها و بعضها من المساجد التي عرضنا لها في هذا الفصل و كان فات إدارة الأوقاف ذكرها في المساجد الباقية. قال كاتب جلبي في القرن الحادي عشر: إن عدد جوامع دمشق بين كبير و صغير يبلغ مئة و خمسين جامعا و إن الدولة العثمانية أنشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الأعلى و الأدنى و أنشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام و أنشأت جامع سنان باشا خارج باب الجابية و أنشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلى اه.

و إذا توغلنا في التاريخ إلى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التي بنيت بدمشق ٢٤١ مسجدا و جامعا في داخلها و ١٨٤ في ظاهرها مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة. قال ابن شاکر: و قد أحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلها و خارجا هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس و الأوقاف. و من المساجد التي عدّها الحافظ منسوبة إلى أحد الصحابة مسجد ايمن بن خريم بن فاتك الأسدى الصحابى، و مسجد مروان بن الحكم و مسجد واثلة بن الأسقع، و فضالة بن عبيد الصحابى الأنصارى قاضى دمشق. و لتغير المعالم بها لا تعرف أسماء الأحياء التي ذكر أنها كانت فيها. قال ابن شاکر: و أما المساجد الخارجية عن البلد فمنها مسجد بين حجيرا و راوية (قبر الست) على قبر مدرك بن زياد و مسجد في راوية على أم كلثوم من أهل البيت. و مسجد كنان قبلى قذايا. قرية كانت قبلى مقابر اليهود فخربت، و مسجد في مقبرة باب توماء عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لأنه صلى به وقت الحصار، و مسجد يعرف بمسجد النبى في أرض المصيصة له منارة. و المصيصة قرية كانت عامرة فخربت شرقى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٥

بيت لهما، و مسجد عند بيت أبيات يعرف بمسجد آدم، و مسجد معاوية من أرض قينية على طريق المزة و داريا، و مسجد الحجر و يعرف بمسجد النارج قرب المصلى، و مسجد القدم عند القطائع بقرب عالية و عويلية قديم له منارة. و لقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها إلى دخول العثمانيين ثم أخذت تخرب في عهدهم، فقد كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، و عشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة. و من القرى التي مرت بنا و ذهب اسمها و رسمها راوية و فذايا و المصيصة و بيت لهما و بيت أبيات و قينية و عالية و عويلية و النيرب و الربوة. و لقد كان في الربوة عدة مساجد و مدارس. و في تاريخ الصالحية أن المقاصف كانت تعمر عمائر للترهه من غير طين، و العمائر المكلفة كانت للمدارس و الجوامع و أن قاعة المسجد الديلمى الذى جدده نور الدين في الربوة قد بناها على شعب الجبل، سقفها نهر يزيد، و أساسها نهر ثورا من المقامات التي لا تدرك. قال: و بقى بعد الألف من هذا المسجد المأذنة و أثر العمار ثم دثر.

و كان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادي، و الآن ليس فيها أثر لمسجد و لا لقرية. و كان في القابون الفوقانى ثلاثة مساجد و بالقابون التحتانى ثلاثة، و ليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير. و هكذا مساجد قرى الغوطة و المرج و قلمون فإنها كلها ليست ذات شأن، و من أجملها اليوم جامع التل و عربيل و دومة و داريا. و مما دثر مسجد خاتون في منتصف الطريق بين دمشق و المزة. كما دثرت مساجد المزة و كانت بضعه مساجد و جوامع، منها مسجد بناه ابن عنين الوزير الشاعر في القرن السابع، و في هذا القرن أيضا بنى بها الوزير صفى الدين بن شاکر جامعا، و هو الذى بلط جامع دمشق و أحاط سور المصلى عليه و عمل الفواره و بنى جامع حرستا.

و الجوامع و المساجد اليوم صورة من عمراننا، و عمراننا كان متراجعا إلى عهد قريب، و هو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد أن تقوم المساجد بعد الآن على قانون ينم عن حسن ذوق في البناء فيعيد الصورة القديمة مضمومة إلى التحسين الحديث.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٦

المدارس

[نشأة المدارس:]

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة و العبادة و تلقى القرآن و علومه و الحديث و فنونه و علوم اللسان، و ما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام أمرهم، و خدمة دينهم أولا- و لغتهم ثانيا، و ظلوا على ذلك في الشام حتى أنشأ بدمشق رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي سنة (٤٤٤) مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار قرآن، و كان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين و المتغلب عليها أقام في بلده دار حكمه أو شبه مدرسه جامعه على نحو دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في مصر سنة أربعمائه. و لما أراد المعتضد بالله العباسي بناء قصره ببغداد استراد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فستل عن ذلك فذكر أنه يريد له ليني فيه دورا و مساكن و مقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العملية و يجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. و أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين و تبعه غيره.

و عنى السلاجقة بإنشاء المدارس في أقطار الشرق، و كان آلب أرسلان إذا رأى في بلد رجلا متميزا متبحرا في العلم بنى له مدرسة و وقف عليها وقفا و قرر فيها للفقهاء معالم و جعل فيها دار كتب، و نظام الملك أحد وزراء السلاجقة الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد في القرن الخامس أيضا.

أصبحت طرابلس بدار الحكمة التي أنشأها فيها ابن عمار كعبة علم،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٧

كما كانت حلب على عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب. و يقال: إنه كان في طرابلس في ذاك القرن عدة مدارس و خزائن كتب لم يبلغنا خبرها.

و على هذا فالمدارس في الإسلام نشأت في أواخر القرن الرابع و عرفت جيدا في الخامس و السادس. و نقصد بالمدارس تلك الدور المنظمة التي يأوى إليها طلاب العلم، و تدر عليهم المعاليم و الأرزاق، و يتولى تدريسهم و تثقيفهم فئة صالحة من المدرسين و العلماء، و هم موسع عليهم في الرزق، يختارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للدعوة إليه، و يجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الآلهية و البشرية.

و لقد كان من نور الدين محمود بن زنكي لما استولى على الشام هممة عظيمة في إنشاء المدارس لأهل السنة و الجماعة كما أنشأ القائد جوهر الأزهر في القاهرة، و القاضي ابن عمار دار الحكمة في طرابلس لبث التشيع، و أخذ نور الدين يستدعي فحول العلماء من الأقطار و يبني لهم المدارس و يدر عليهم المشاهرات حتى قالوا: إن الشام أصبح على عهده مقر العلماء و الفقهاء و الصوفية. بنى سنة (٥٤٥) في حلب المدرسة العسرونية و استدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون من أعيان فقهاء عصره و بنى له مدرسة بمنبج و أخرى بحماة و ثلثة في حمص و رابعة ببعلبك و خامسة بدمشق، و فوض إليه أن يولى التدريس فيها من يشاء. و بنى لقطب الدين النيسابوري المدرسة العادلية بدمشق و لم يتمها. و أول مدرسة بنيت في حلب أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب سنة عشر و خمسمائة و سميت المدرسة الزجاجية. و أول ما عرف من المدارس في القدس ما بناه

صلاح الدين يوسف ابن أيوب و نسب إلى جماعته.

و قد ذكر الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في سنة ثمانين و خمسمائة أنه كان فيها نحو عشرين مدرسة تقوم بالإنفاق على من يدخل فيها للتعليم و الاستفادة. و قال: إن هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام و المدارس كذلك و أن الرباطات قصور مزخرفة. و قال في كلامه على مشاهد دمشق:

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين و أرض بيضاء و رباع حتى: إن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها و كل مسجد يستحدث

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٨

بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين لها، و هذه أيضا من المفاخر المخلاة. و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة و تنفق فيها الأموال الواسعة و تعين لها من مالها الأوقاف، و من الأمراء من يفعل مثل ذلك اه.

و معظم المدن مدارس مدينة دمشق، كثرت في الدولتين النورية و الصلاحية و قام بإنشاء بعضها العتقاء و الخصيان و الإماء و البنات، و منها ما بنى بالمال الحلال من أموال الغنائم، و منها ما بناه بعض أهل الخير من بنات الملوك و الملكات، و من القواد و السادة، و منها ما أنشأه أهل اليسار من التجار و غيرهم.

و أكثر من بنوا المدارس في دمشق هم غرباء عنها، و لو لا بضع مدارس أنشئت في القرن الثاني عشر في حلب و دمشق لقلنا: إن تاريخ المدارس فيهما ختم بانقراض ملوك الطوائف و دخول الدولة العثمانية الديار الشامية. و من رأى كثرة المدارس في القرن السادس و السابع و الثامن و التاسع و قلته ما شيد منها في القرن العاشر و الحادي عشر و الثاني عشر، يستنتج معنا أن الأمة إذ ذاك كانت على جانب من التدين و الغنى و حب الخير أكثر من القرون التالية، و أن بعض من جمعوا ثروات كانوا يحبون أن يتصدقوا من مالهم بشيء يعتقدون أنه قربي لهم يوم الجزاء، و قد فسد الناس في القرون الأخيرة و توفروا على التهام تلك المدارس و أوقافها. و هي على الأكثر تقسم إلى أقسام، فمنها مدارس للشافعية يقرأ فيها فقه الإمام أحمد بن إدريس الشافعي، و أخرى للحنفية يتلى فيها فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة، و غيرها للحنابلة لفقه الإمام أحمد بن حنبل، و بعضها للمالكية أي فقه الإمام مالك بن أنس، و منها مدارس أو دور للقرآن يتلقون فيها القراءات على الأصول و ما يتعلق بذلك، و منها دور للحديث يأخذون فيها فنون الحديث و يروونه. و كان في دمشق خاصة مدارس لتعليم الطب و الصيدلة و الكحالة و مدرسة للهندسة يتخرج فيها مهندسون و بناؤون، و لم يتصل بنا أنه أنشئ في عواصم ذاك العهد: قصبه الوسط دمشق، و قصبه الشمال حلب، و قصبه الجنوب القدس، مدارس لتعليم الفلسفة و العلوم الطبيعية و الرياضية، و لعل بعض العلوم و خصوصا الفلك و الجغرافيا و التاريخ كانت تدرس في تلك المدارس كما كانت تدرس في الجوامع في بعض الأدوار،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٦٩

و كان أبو شامة في القرن السادس يقرئ التاريخ درسا عاما في الجامع الأموي بدمشق، و قد وصف أبو الفضل بن منقذ الكنانى هذه المدارس بقوله:

و مدارس لم تأتها في مشكل إلا وجدت فتى يحل المشكلا

ما أمها مرء يكابد حيرة و خصاصة إلا اهتدى و تمولا

و بها وقوف لا يزال مغلها يستنقذ الأسرى و يغنى العيلا

و أئمة تلقى الدروس و سادة تشفى النفوس و داؤها قد أعضلا

و معاشر تخذوا الصنائع مكسبا و أفاضل حفظوا العلوم تجملا

وقال السابق أبو اليمن المعري في وصف مدارس حلب و منه استدللنا أنها كانت تدرس العلوم المختلفة:

فليها كل الفنون و فيهما اشتهاه الشرعى و الفلسفى

لا- جرم أنه كان لإلقاء العلوم فى تلك المدارس نظم و مناهج، و يقرأ الطلبة أشهرها مخصوصة و يفحصون فيما تعلموه، و لا ينال الإجازة بالتدريس و الخطابة و الإمامة إلا من ثبتت لمشايقه كفايته، و كان على استعداد لأن يزداد علما بعد إنجاز الطلب و إجازة الطلاب بمسموعات مشايخهم و مروياتهم.

دور القرآن بدمشق:

فى مدينة الرسول بنيت أول دار للقرآن فى الإسلام. و ذكر الواقدى أن عبد الله بن أم كلثوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما و قيل: قدم بعد بدر بيسير فنزل دار القرآن. و كان فى دمشق سبع دور للقرآن على ما فى الدارس و هى:

(١) «الخيصرية» شمالى دار الحديث السكرية بالقصاعين و تنسب إليها اليوم محلة الخيصرية، أنشأها قاضى القضاة قطب الدين الخيصرى الدمشقى سنة (٨٧٨) و وقف عليها و على مسجد آخر أوقافا جمه، و قد بقى اليوم جزء صغير منها استحال زاوية للشاذلية.

(٢) «الدلامية» بالقرب من الماردانية على الجسر الأبيض بالجانب الشرقى من الشارع الآخذ إليه بالصالحية فوق نهر ثوره على طريق الجركسية، أنشأها زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصرى و كان من أجل

خطط الشام، ج٦، ص: ٧٠

أعيان الخواجكية بالشام و وقفها سنة (٨٤٧) و هى الآن عبارة عن مصلى و منزلين بالقرب من جامع كعكع. و فى كتاب وقفها أن صاحبها رتب بها إماما و له من المعلوم مائة درهم، و قيما و له مثل الإمام، و ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن، و لكل منهم ثلاثون درهما فى كل شهر، و من شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين و له على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهما، و ستة أيتام بالمكتب الذى على بابها و لكل منهم عشرة دراهم فى كل شهر أيضا و قرر لهم شيئا و له من المعلوم ستون درهما فى كل شهر، و لقراءة البخارى فى الشهور الثلاثة و للقارئ من المعلوم مائة درهم، و عاملا و له من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، و رتب للزيت فى كل عام مثلها، و للشمع لقراءة البخارى و التراويح مائة درهم، و لأرباب الوظائف خمسة عشر رطلا من الحلواء و رأسى غنم أضحية، و لكل من الأيتام جبة قطنية و قميصا.

(٣) «الجزرية» قيل: إنها كانت بدرب الحجر نسب إيقافها لمحمد بن محمد الجزرى المقرئ المحدث. و لعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد فى حارة الشرباتى.

(٤) «الرشائية» شمالى الخانقاه السمساطية الملاصقة للجامع الأموى من شماليه أنشأها فى حدود سنة أربع و أربعين و أربعمائه رشأ بن نظيف ابن ما شاء الله الدمشقى المقرئ. و قد درست الآن و بنيت المدرسة الاخنائية مكانها كما فى الكواكب السائرة. و قيل: كانت بباب الناطفانيين أو بالعصرونية.

قال الكتبى: هى التى جوار الخانقاه السمساطية من الشمال. قال ابن قاضى شهبه: و قد زالت عينها و أدخلت فى غيرها.

(٥) «السنجارية» كانت تجاه باب الجامع الأموى الشمالى أنشأها على بن إسماعيل السنجارى أحد التجار الأخيار المتوفى سنة (٧٣٥) و هى أمام الاخنائية استحالت دارا و لم يبق غير بابها و عليه وقفها .

(٦) «الصابونية» خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب

خطط الشام، ج٦، ص: ٧١

الدين أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكرى المعروف بالصابونى تم إنشاؤها سنة (٨٦٨) و بنى أيضا تجاهها بشرق مكتبا لأيتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم بمعالم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها عدة قرى غربى مدينة

بيروت تحت يد أمير الغرب تعرف بالصابونية و لا تزال هذه الدار باقية إلى اليوم و هي مدفن السادة بنى البكرى.
 (٧) «الوجهية» قبلى المدرسة العسرونية و المسرونية و غربى الصمصامية التى شمالي الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا الرئيس شيخ الحنابلة الدمشقى التنوخى سنة (٦٩٠) درست و أصبحت مخازن و دورا.
 و فى ترجمه تنكز أنه عمل دارا للقرآن إلى جانب داره دار الذهب بدمشق و على ذلك فتكون دور القرآن ثمانية. و ما أجمل ما قال على بن منصور السروجى فى دمشق:

فى كل قصر بها للعلم مدرسة و جامع جامع للدين معمور
 كأن حيطانه زهر الربيع فما يملّه الطرف فهو الدهر منظور
 يتلى القرآن به فى كل ناحية و العلم يذكر فيه و التفاسير

دور الحديث بدمشق:

عنى المسلمون أى عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنه و الكتاب و للتبرك و التفقه. و أول من بنى دار حديث فى الشام و ربما كانت مدرسته الأولى من نوعها فى بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكى و كثرت دور الحديث بعد ذلك. و كان فى دمشق على ما ذكر فى الدارس ثمانى عشرة دارا للحديث و هى:

(٨) «الأشرفية» جوار باب القلعة الشرقى غربى العسرونية، و شمالي القايمازية الحنفية، و فى روايه أن القايمازية مدرسة، و كانت دار الأمير قايماز ابن عبد الله النجمى فاشترها الملك الأشرف موسى بن العادل و بناها دار حديث و نجز بناؤها سنة (٦٣٠)، درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح و ابن الحرستاني و أبى شامة و النواوى و الشريشى و الفارقى و ابن الوكيل و ابن الزملكانى و الحافظ المزى و السبكى و ابن كثير و غيرهم، و كانت يد

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٢

التعدى تسطو على هذه المدرسة فى أواخر القرن الماضى كما سطت على غيرها من المدارس فقام الشيخ يوسف البيبانى المغربى و استخلصها و أعادها مدرسة و سكنها من بعده نجله الشيخ بدر الدين الحسنى جعلها مقره تقرأ فيها دروسه و قد حرقت فى حريق سنة (١٣٣٠ هـ) الذى دمر أربعة شوارع من شوارع المدينة و دمر ما فيها من المدارس ثم رمت ترميما خفيفا و عاد بعض الطلبة و الغرباء فسكنوها.

(٩) «الأشرفية البرانية» بسفح جبل قاسيون على ضفة نهر يزيد تجاه تربة الوزير تقى الدين التكريتى و شرقى المرشدية الحنفية و غربى الأتابكية الشافعية، بناها الملك الأشرف المظفر موسى بن العادل بانى دار الحديث المتقدمة قبل سنة (٦٤٣) و درس فيها جلة من العلماء أخذها المجمع العلمى العربى من الأوقاف ليجعل فيها خزانه كتب يختلف إليها أهل تلك المحلة و لم يتم له ترميمها لقله المال.

(١٠) «البهائية» داخل باب توماء كانت دار بهاء الدين أبى محمد القاسم ابن بدر الدين أبى غالب المظفر المتوفى سنة (٧٢٣) و ليس لها اليوم أثر.

(١١) «الحمصية» كانت معروفة بحلقه صاحب حمص فى الجامع الأموى فقدت و جهل مكانها، و فى مفكرات طارق أن الحمصية فى سويقه صاروجا أمام جامع الشاميه بدئ باختلاسها منذ سنة (٩٠٠).

(١٢) «الدوادارية» دار حديث و مدرسة و رباط داخل باب الفرج و هو باب المناخلية اليوم، لعلم الدين سنجر الدوادار المحدث الحافظ المتوفى سنة (٦٩٩) من نجباء الترك و علمائهم و هى غير معروفة لعهدنا و لعلها الدار الكائنة أمام بحرة الدفاقة فظاها يدل على ذلك.

(١٣) «السامريّة» و بها خانقاه بالقرب من محله مأذنه الشحم في زقاق الشيخ الدسوقي، أنشأها أحمد بن محمد البغدادي السامري و هو مدفون بها. و السامري نسبة إلى سرّ من رأى بلد على دجلة. قال الصلاحى الكتبى:

إن سيف الدين السامري كان يسكن داره المليحة التي وقف عليها خانقاهها و وقف عليها باقى أملاكه و كان السلطان صادرها (٦٩٦). و هى موجودة اليوم و لكن لم يبق منها غير المدفن و يقال للحى زقاق السلمى.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٣

و من دور الحديث الدائرة.

(١٤) «السكريّة» بالقصاعين و هو أول سوق الخلق (القميلة) و كان أمس سوق القطن داخل باب الجابية، و هى ما يظهر داخل الدخلة التى شرقى جامع شركس، درست و كان درّس بها ابن تيمية و والده و الحافظ الذهبى.

(١٥) «الشقيشقية» بدرب البانياسى فى ظاهر المدينة أنشأها نصر الله الشيبانى الصقار المعروف بابن الشقيشقة و هى من الدوارس، و من الدوارس أيضا.

(١٦) «العروية» بمشهد عروءة من الصحن الشرقى من الجامع الأموى قبالة الحليّة المعروفة قديما بمشهد على، أنشأها محمد بن عروءة الموصلى و وقف عليها مكتبة عظيمة توفى سنة (٦٢٠) و محلها معروف و هى مستودع للجامع.

(١٧) «الفاضلية» بالكلاسة منسوبة للقاضى الفاضل البيسانى من رجال صلاح الدين و المدرسة جوار تربة هذا السلطان و هى الآن مساكن.

(١٨) «القلانسية» غربى مدرسة أبى عمر بالصالحية بها رباط و منارة يمر فى وسطها نهر يزيد، إنشاء أبى يعلى حمزة التميمى المعروف بابن القلانسى من كبراء دمشق المتوفى سنة (٧٢٩) و كان فى رباطه هذا مأذنه و دار حديث و بر و صدقه، و قد جعلت هذه المدرسة مسجدا صغيرا بمعاونة رجل اسمه إسماعيل التكريتى.

(١٩) «القوصية» بالقرب من الرحبة قال بعضهم: إنها فى الجامع الأموى بجوار الشافعية و هى إحدى حلقات الجامع قديما.

(٢٠) «الكرّوسية» غربى مأذنه الشحم لمحمد بن عقيل بن كروس السلمى محتسب دمشق المتوفى سنة (٦٤١) كان فيها ثلاثة قبور و جعلت دورا و هى شمالى السامرية.

(٢١) «النورية» هى من دور الحديث الباقية و أول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكى، و هى الآن مسجد جامع و بها قبره يزار و يتبرك به، تولى مشيختها فى عصره الحافظ أبو القاسم بن عساكر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٤

هذه هى النورية الكبرى.

(٢٢) أما «النورية الصغرى» فهى فى العصورونية بين دار الحديث الأشرفية و مدرسة العصورونية أمام العادلية الصغرى و قد حرقت فى الحريق الأخير. و فى النورية الكبرى فيما نظن يقول عرقلة الدمشقى:

و مدرسة سيدرس كل شىء و تبقى فى حمى علم و نسك

تضوّع ذكرها شرقا و غربا بنور الدين محمود بن زنكى

يقول و قوله حق و صدق بغير كناية و بغير شك

دمشق فى المدائن بيت ملكى و هذى فى المدارس بيت ملكى

(٢٣) «النفيسية» قبلى البيمارستان الدقاقى (كذا) و باب الزيادة أى القوافين اليوم على يمينه الخارج منه شمالى غربى المدرسة الأمينية إنشاء النفيس إسماعيل بن محمد الحرّانى ناظر الأيتام المتوفى سنة (٦٩٦) حدثنا الثقة أنه رأى حجر بابها باقيا بحاله و قد طمس بالطين

حتى لا يظهر أثرها و أصبحت دورا.

(٢٤) «الناصرية» كان بها رباط قبلى جامع الأفرم بسفح قاسيون و هى الناصرية البرانية إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة (٦٥٤) أمست حديقه الآن و كانت أنقاضها ظاهرة الى عهد قريب و أدخلت أحجارها فى ترصيف ضفة يزيد و فيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل إلى دمشق و يتجاوز عرضه ثلاثين مترا.

(٢٥) «التنكزية» دار قرآن و حديث شرقى حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطنة تنكر سنة (٧٢٨) و هى الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية و كان هندسها المعمار أيدمر المعنى.

(٢٦) «الصباية» دار قرآن و حديث قبلى العادلية الكبرى و شمالى الطبرية أنشأها شمس الدين بن الصباب. قال فى مختصر الدارس إنها احترقت فى الفتنة أى فتنة تيمورلنك و لم يبق لها أثر سوى سبيل الماء.

(٢٧) «المعبدية» دار حديث و قرآن و المشهور إنها دار قرآن، إنشاء الأمير على بن معبد البعلبكي ليست معروفة.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٥

مدارس الشافعية بدمشق:

فى الدارس أنه كان فى دمشق سبع و خمسون مدرسة للشافعية و هى:

(٢٨) «الأتابكية» بالصالحية غربىها المرشدية و دار الحديث الأشرفية المقدسية، أنشأتها أخت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل المتوفاه سنة (٦٤٠) و بها قبرها و قد جعلت لعهدنا مصلى درس بها زمرة من مشاهير علماء الشافعية.

(٢٩) «الإسعدية» بالجسر الأبيض بالصالحية دثرت و هى فى وسط البساتين، أنشأها إبراهيم بن مبارك شاه الإسعدى من أرباب الثراء و السخاء توفى سنة (٨٢٦) و دفن بتربه مدرسته. قال ابن قاضى شهبه: كان الإسعدى هذا و الشمس ابن المزلق أكبر تجار دمشق و له المتاجر السائرة فى البلدان قد أعطاه الله المال و البنين، و كان عنده كرم و إحسان إلى الفقراء، و كان صاحب هذه المدرسة الإسعدية يقول: عجائب الدنيا أربعة و أحسنها غوطه دمشق، و أحسن الغوطه الصالحية، و أحسن الصالحية الجسر الأبيض!

(٣٠) «الأسدية» بالشرف القبلى ظاهر دمشق مطة على الميدان الأخضر و هى على الفريقين الشافعية و الحنفية، إنشاء أسد الدين شير كوه من قواد نور الدين و هى فى حديقه الشرف و أنقاضها ماثلة للعيان.

(٣١) «الأصفهانية» كانت بمحلة الغرباء بالقرب من درب الشعارين لتاجر من أصفهان، و فى روايه أنها خلف المدرسة القاجمازية و غربا، محلتها و مكانها غير معروف على التحقيق، و يذهب بعضهم إلى أنها كانت موضع تكية أحمد باشا و قد أدخلت فيها.

(٣٢) «الإقبالية» داخل باب الفرج و باب الفراديس و بينهما شمالى الجامع الأموى و الظاهرية الجوانية و شرقى الجاروخية و غربى التقوية لشمال، أنشأها جمال الدولة إقبال خادم نور الدين و عتيق ست الشام، و قد استحالت دارا ثم استخلصت على يد الحاكم و ألحقت بأملاك المعارف و لم يبق منها إلا الحجر الذى كان على بابها و فيه أوقافها و هى شمالى حمام العقيقى.

(٣٣) «الأكزية» قبالة الشلية الحنفية، إنشاء اكز حاجب نور الدين

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٦

محمود و هى غربى الطيبة و التنكزية و شرقى أم الصالح، غيرت معالمها و بابها موجود، و قد استحالت دارا.

(٣٤) «الأمجدية» بالشرف الأعلى الشمالى مطة على المرجة قرب مدرسة التجهيز، إنشاء الملك المظفر عمران بن عبد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك و هى دار فروخ شاه و كان الملك الأمجد أشعر بنى أيوب، قال ابن الشحنة: دفن الأمجد بمدرسة والده التى على الشرف بدمشق، و كانت هذه المدرسة عامرة إلى القرن الثانى عشر درس بها إبراهيم بن حمزة، و لكثرة ما فى جوار هذه الدار من المدارس سمى اليوم الزقاق الموصل إليها و هو الذى يبتدىء من أمام جامع الطاووسية و مستودع الترامواى الكهربائى و ينتهى

بمستودع البارود بزقاق المدارس.

(٣٥) «الأمينية» قبلى باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموى، وهى شرقى المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح و كان به بابها و تعرف هذه المحلة قديما بباب القباب، و هناك دار مسلمة بن عبد الملك، قيل: إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين كمشتكين ابن عبد الله الطغتكينى المتوفى سنة (٥٤١) و قد بنيت المدرسة سنة (٥١٤) و فى تاريخ دمشق أن الحسن بن محمد النهريتى المقرئ الفقيه سمع الحديث بدمشق فى المدرسة الأمينية و أول من درس بها على بن المسلم الدمشقى سنة (٥١٤) و هى الآن فى سوق الحرير جعلت كتاب صبيان و اختلس الجيران بعضها.

(٣٦) «الباذرائية» جاء فى الدارس أنها داخل باب الفراديس و السلامة شمالى جيرون و شرقى الناصرية الجوانية، و فى المختصر أنها على باب الجامع الأموى الشرقى المؤدى إلى العمارة، و كانت قبل ذلك دارا تعرف بأسامه و هو أسامة الجبلى أحد كبار الأمراء المتوفى سنة (٦٠٩) أنشأها أبو محمد الباذرائى البغدادي المتوفى سنة (٦٥٥) قال الذهبى: الباذرائى قاضى القضاء سفير الخلافة نجم الدين عبد الله بن الحسن الباذرائى الشافعى صاحب المدرسة التى بخط جيرون. و لا تزال أسوارها باقية و هى سائرة نحو الخراب و قد اقتطع جانب منها و جعل دورا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٧

(٣٧) «البهنسية» بسفح قاسيون أنشأها مجد الدين المعروف بأبى الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى المتوفى سنة (٦٢٨) و هى على طريق المهاجرين بطرف السكة بجوار حاكورة العدى.

(٣٨) «التقوية» داخل باب الفراديس (العمارة) شمالى الجامع شرقى الظاهرية و الإقبالية كانت من أجل مدارس دمشق، بناها سنة (٥٧٤) الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب و درس بها جللة العلماء و فى عرف البشام أن المدرسة القصاصية و المدرسة التقوية كانتا عامرتين فى القرن العاشر تقام بها الأذكار الآن باسم خانقاه و لها مخصصات شهرية من الحكومة.

(٣٩) «الجاروخية» داخل بابى الفرج و الفراديس و فى حى السبعة طوالع بالقرب من الإقبالية الحنفية شمالى الجامع الأموى و الظاهرية الجوانية المعروفة. بناها جاروخ التركمانى برسم محمود بن المبارك المعروف بالمجير الواسطى البغدادي سنة (٥٩٠) درس بها كثير من العلماء و منهم زمرة من الفقهاء بنى جهبل. و هى دار بنى الكيلانى اليوم.

(٤٠) «الحمصية» تجاه الشامية البرانية قال ابن كثير: فى سنة (٧٢٦) فتحت المدرسة الحمصية و درس بها محيى الدين الطرابلسى الملقب بأبى رباح.

فى مختصر الدارس أنها خربت بعد قليل من تشييدها، و الغالب أنها درست و جعلت دورا و لم يبق منها إلا قطعة خربة.

(٤١) «الحلبية» بمحلة السبعة طوالع و هى خلف دار الكتب الظاهرية أو المدرسة الظاهرية مجهول حالها و منشئها من القديم. قال فى الدارس: إن شهاب الدين ابن عبد الخالق المتوفى سنة (٨١٥) وقف إلى جانب المدرسة الحلبية مسجدا و أضافه إلى المدرسة و وقف عليها، و ممن وقف عليها الأمير سيف الدين من مماليك برفوق.

(٤٢) «الخيضية» قبلى الزنجارى، و خان الزنجارى هو جامع التوبة الآن، تولى مشيختها ابن قاضى أذرعات و قد استحالت دورا.

(٤٣) «الخليلية» بانها سيف الدين بكتمر الخليلى المتوفى (٧٤٦) و لا يعرف عنها شىء.

(٤٤) «الدماغية» كانت داخل باب الفرج و غربى الباب الثانى الذى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٨

قبلى باب الطاحون و هى قبلى و شرقى الطريق الآخذ إلى باب القلعة الشرقى و هذا الطريق بينها و بين الخندق و هى أيضا شمالى العمادية بين الشافعية و الحنفية، أنشأتها عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ (٦٣٨) درس بها جللة من العظماء و هى الآن قاعة النشا التى فى المناخلية. و فى الصالحية مدرسة أخرى اسمها الدماغية أنشأها أو درس بها افتخار الكاشغرى.

(٤٥) «الدولعية» بجيرون قبلى المدرسة الباذرائية لجمال الدين محمد الثعلبى الدولعى خطيب دمشق، و قد كانت الدولعية و الشبلية عامرتين فى القرن الحادى عشر، درس بهما إسماعيل الحائك، و الدولعية فى الدخلة المشهورة بدخلة الداغستانى فى نصف الطريق الآخذ من دار بنى منجك إلى زقاق الباذرائية، اختلست و جعلت دورا و فى إحدى الدور قبر مدفون فيه واقف المدرسة محمد بن أبى الفضل بن زيد الخطيب الثعلبى الأرقمى الدولعى ثم الدمشقى (٦٣٥) قاله الصفدى و دفن فى الصفة الغربية من المدرسة و هاك نسخة التوقيع الذى كتب للفخر المصرى المتوفى (٧٥١) بتدريس الدولعية و نظرها:

رسم بالأمر العالى لا زال يرتفع به العلم الشريف إلى فخره، و يعيده إلى خير حبر تقتبس الفوائد من نوره و تغترف من بحره، و يحمد الزمان بولاية من هو علم عصره و فخر مصره، أن يعاد المجلس العالى الفخرى إلى كذا و كذا وضعا للشىء فى محله، و رفعا للوابل على طله، و دفعا لسيف النظر إلى يد هي مألّف هزّه وسله، و منعاً لشعب مكّه أن ينزله غير أهله، إذ هو لأصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه حجة، و لبحر مذهبه الزاخر لجة، إلى أن قال: فليباشر ما فوض إليه جريا على ما عهد من إفادته، و ألف من رياسته لهذه العصابة و زيادته، و عرف من زيادة يومه على أمسه، فكان كليل بلاده و لا يتعجب فى زيادته، حتى يحيا بدرسه ما درس، و يثمر عود الفروع فهو الذى أنبته بهذه المدرسة و غرس، مجتهدا فى نظر وقفها، معتمدا على تتبع ورقات حسابها و صحفها، عاملا بشروط الواقف فيما شرط، قابضا ما قبضه و باسطا ما بسط الخ.

(٤٦) «الركنية الجوانية» شمالى الإقباليين شرقى العزبة الجوانية و الفلكية غربى المقدمية، واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان، درس

خطط الشام، ج ٦، ص: ٧٩

بها جلّة من العظماء منهم ابن خلكان و أبو شامة و بنو حمزة و هي اليوم فى زقاق بنى مفلح أمام المقدمية و بينهما الطريق و يعرف بدخلة بنى عبد الهادى فى العماره و هي منضمة إلى دار بنى العمرى و لم يبق لها أثر.

(٤٧) «الرواحية» شرقى مسجد ابن عروة بالجامع الأموى و لصيقه شمالى جيرون و غربى الدولعية و قبلى السيفية الحنبلية. بانها زكى الدين بن رواحة الحموى التاجر الغنى المعدل المتوفى سنة (٦٢٢) درس بها ابن الصلاح و السهروردى و ابن البازرى و ابن الزملكانى و أبناء السبكي و غيرهم، و قد أنشئت هذه المدرسة نحو سنة (٦٠٠). قال المؤرخون: إن زكى الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية و بدمشق مثلها داخل باب الفراديس و وقف عليهما أوقافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير، و كان يسكن فى بيت المدرسة الدمشقية و هو الذى فى إيوانها من الشرق و يقابله من الغرب خزانة الكتب التى وقفها و هي كتب جليله كان من أرباب الثروة. و أصبحت المدرسة الرواحية الآن دارا.

(٤٨) «الزاوية الخضراء» بمقصورة الخضراء غربى الجامع الأموى و هي مكان داخل الجامع أشبه بالحلقات.

(٤٩) «الشامية البرانية» بمحلة العقبية، إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادى المتوفاه سنة (٦١٦) و تعرف هذه المدرسة بالحسامية لأن ابنها حسام الدين دفن فيها كما أنها هي أيضا دفنت فيها. و هي اليوم مدرسة ابتدائية للإيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيرية، و كان درّس بها من المشاهير ابن الصلاح و ابن أبى عصرون، و ابن الزكى و الفارقى و الشريشى و ابن الوكيل و ابن قاضى شهبه و غيرهم.

(٥٠) «الشامية الجوانية» قبلى البيمارستان النورى، إنشاء ست الشام أيضا درّس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح قال ابن خلكان فى ترجمته:

إن الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب و هي شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب التى هي داخل البلد قبلى البيمارستان النورى، و هي بنت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق و بها قبرها و قبر أخيها المذكور و زوجها ناصر الدين بن أسد الدين شير كوه صاحب حمص،

خطط الشام، ج٦، ص: ٨٠

فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث. قلنا: و كثير من هؤلاء الفقهاء و المحدثين كانوا يدرسون في المدرستين و الثلاث و ربما أكثر. و من مدرسيها سالم بن أبي الدر أمين الدين (٧٢٦) و زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث الأشرفية.

و قد خربت هذه المدرسة و لم يبق فيها سوى بابها و واجهتها الحجرية و اتخذت دارا. و من أوقافها قرية جرمانا.

(٥١) «الشاهينية» بالقرب من جامع التوبة بحارة العقيبة إنشاء الدوادار شاهين الشجاعى أحرقت (٨١٦) فأعاد عمارتها هو أيضا.

(٥٢) «الشومانية» إنشاء خاتون بنت ظهير الدين شومان و هى المسماة بالطيبة، و الطيبة كما فى الدارس قبلى النورية الكبرى ليست معروفة.

(٥٣) «الشريفية» كانت عند حى الغرباء بدرب الشعارين عند باب السلام، و فى تاريخ مبرات الشام أنها قبلى الجامع الأموى بالصاغة لم يعرف واقفها، درست و أصبحت حوانيت.

(٥٤) «الصالحية» غربى الطيبة و الجوهريه الحنفية و قبلى الشاميه الجوانية بشرق و تعرف بترية أم الصالح إسماعيل صارت مساكن و لم يعرف لها أثر، و كان من جملة مدرسيها الذهبى و ابن كثير.

(٥٥) «الصارمية» داخل بابى النصر و الجابية قبلى العذراوية بشرق، إنشاء صارم الدين أزبك مملوك قايماز النجمى (٦٢٢) أصبحت دورا و كان درس بها طبقة عالية من المدرسين.

(٥٦) «الصلاحية» بالقرب من اليمارستان النورى، و هى من إنشاء نور الدين محمود بن زكى و إليه نسبها ابن قاضى شهبه و منسوبة للسلطان صلاح الدين. لم يبق لها أثر.

(٥٧) «التقطائية» داخل باب الصغير فى الشاغور بنحو مائة ذراع إلى شرق شمال غربى بيت الخواجا الناصرى قبلى منارة الشحم، عمر بعضها و مجهول بانيتها و ليس لها أثر.

(٥٨) «الطبرية» بجوار باب البريد، أنشأها نور الدين الشهيد درس

خطط الشام، ج٦، ص: ٨١

بها الشرف ابن هبة الله. لا يعرف عنها شىء و ليس لها من أثر.

(٥٩) «الطيبة» قبلى النورية الحنفية و شرقى تربة زوجته تنكز بقرب الخواصين، و هى المسماة بالشومانية و إنما غير اسمها تيمنا، درس بها جلة من الفقهاء، و هى الآن دار لبني العظمة و بنى كيوان.

(٦٠) «الظبيانية» قبلى المدرسة الشاميه الجوانية التى هى قبلى اليمارستان النورى و غربى المدرسة الصالحية الواقعة غربى مدرسة الطيبة خربت.

(٦١) «الظاهرية البرانية» خارج باب النصر شرقى الخاتونية الحنفية و غربى الخانقاه الحسامية بين نهري بانياس و قنوات بالشرف القبلى، بناها الملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين، درس بها كثير من المشاهير منهم امام الدين و جلال الدين القزوينى و ابن صصرى و ابن جملة. و لم يبق لها أثر.

(٦٢) «الظاهرية الجوانية» و هى للحنفية و الشافعية داخل باب الفرج و الفرديس جوار الجامع شمالى باب البريد و قبلى الإقباليين و الجاروخية و شرقى العادلية الكبرى، أنشأها مدرسة و دار حديث الملك الظاهر بيبرس و هى التى دفن بها هو و ابنه الملك السعيد

سنة (٦٧٦) كتب على واجهه بنائها جريدة وقفها بحروف غليظة و زبر اسم مهندسها فى الزاوية الشمالية من المدخل «عمل إبراهيم بن غنائم المهندس»، و ممن درس بها نائب السلطنة أيدمر الظاهري و الأذرعى و الإخنائى و السويدى و الأسدى و الرعينى و الواسطى. و

هى اليوم بيد المجمع العلمى العربى جعلت مخطوطاتها فى القبة الظاهرية المعمولة حيطانها بالفسيفساء البديعة و قد أنشئت خزنة كتب منذ أواخر القرن الماضى.

(٦٣) «العادلية الكبرى» شمالي الجامع بغرب و شرقي خانقاه الشهائيه و قبلى الجاروخية تجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدى إلى باب البريد، بدأ بإنشائها نور الدين محمود بن زكى و لم تتم، ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين و لم تتم، ثم ولده الملك المعظم، و وقف عليها الأوقاف و نسبها لوالده الذى دفن فيها. أنشأها نور الدين للإمام قطب الدين النيسابورى فعاجل الأجل البانى و المبنى له قبل إتمامها. قال صاحب الروضتين: و قد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين و من بعده منها و هو موضع المسجد و المحراب

خطط الشام، ج٦، ص: ٨٢

الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة و بناها هذا البناء المتقن المحكم الذى لا نظير له فى بانيان المدارس، و هى الماوى و بها المثوى، و فيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب (الروضتين) فلا أقفر ذلك المنزل و لا أقوى اه.

و قال أيضا: و فى سنة (٦١٢) شرع فى عمارة المدرسة العادلية المقابلة لدار العقيقى من الغرب و حضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار فى رمضان المبارك سنة أربع عشرة.

و قال ابن أبى شامة أيضا فى ذيل الروضتين فى حوادث سنة (٦١٩): و فيها نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقى، أخرجوا جنازته من القلعة و التابوت مغشى بمرقعة، و أرباب الدولة حوله، إلى أن قال: و لم تكن المدرسة كملت عمارتها و ألقى فيها الدرس فى هذه السنة القاضى جمال الدين الحصري و حضر درسه أعيان الشيوخ و القضاة و الفقهاء و حضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل و تكلم فى الدرس مع الجماعة.

و كان الاجتماع بإيوان المدرسة و جلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري و يليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم القاضى شمس الدين الشيرازى ثم القاضى محيى الدين يحيى بن الزكى، و جلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضى القضاة جمال الدين الحصري و إلى جانبه شيخنا سيف الدين الأمدى ثم القاضى شمس الدين بن سنى الدولة ثم القاضى نجم الدين خليل قاضى العسكر، و دارت حلقة صغيرة و الناس وراءهم مصلون ملء الإيوان. و كان فى دور تلك الحلقة أعيان المدرسين و الفقهاء. و قبالة السلطان فيها شيخنا تقى الدين بن الصلاح و غيره، و كان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا فى سنة ثلاث و عشرين و ستمائة اه. قال ابن كثير:

و فى سنة أربع و سبعمائة جلس قاضى القضاة نجم الدين بن الحصري بالمدرسة العادلية الكبرى و عملت التخوت بعد ما جددت عمارة المدرسة و لم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة غازان بسبب خرابها. و هذه المدرسة من أعظم مدارس الشافعية بدمشق و كان يحكم بها قاضى القضاة و يجلس نواب القاضى بالمدرسة الظاهرية المناوحة لها.

درس بها و سكنها جلة من العلماء. منهم ابن خلكان و الجلال القزوينى

خطط الشام، ج٦، ص: ٨٣

و العلاء القونوى و أبناء السبكي و كمال الدين التفليسي و ابن مالك النحوى و ابن جماعة، و ممن درس بها و سكنها الشهاب أحمد المينى صاحب التآليف المشهور من أهل المئة الثانية عشرة و سكنها و درس بها أولاده من بعده. و قد أخذها المجمع العلمى العربى لما أسس فى سنة (١٩١٩ م) و جعلها مقرة و رمها بما يقربها من الهندسة الأصلية. و قد حرقت هذه المدرسة مرتين الأولى فى فتنه غازان الترى سنة (٦٩٩) مع ما حرق من مدارس المدينة، و الثانية فى سنة (٧٧٨) و لعلها أحرقت فى فتنه تيمور أيضا (٨٠٣) هذا عدا ما تناوبها من الزلازل. و مع هذا لم يزل حائطها القبلى و حائطها الشرقى قائمين، أما الجدران الآخران الغربى و الشمالى فقد خربا و ما بنى بجانبها جديد. و من الأسف أنا لم نعثر فيها على كتابة و لو ضئيلة تدل على شىء من تاريخها و وقفها و إنشائها حتى و لا على قبر الملك العادل الذى نبش على ما يظهر فى القرن الأخير لأخذ الذخائر التى كانت تدفن مع الملوك و العظماء. و كانت فيها خزانة كتب مهمة.

و العادلية اليوم العضو الأثرى المهم من تلك المدارس التي كانت في القرون الوسطى مفخر الشام و الإسلام. قلت في التقرير الرابع للمجمع العلمى عن سنة (١٩٢٥ - ١٩٢٦ - ١٩٢٧): و فى العادلية وضع المقدسى تاريخ الروضتين فى أخبار الدولتين، و فى العادلية عمل ابن خلكان تاريخه المشهور، و على باب العادلية كان يقف ابن مالك النحوى و يدعو الناس لحضور درسه، ينادى هل من متعلم هل من مستفيد، و التاريخ يعيد نفسه، و فى العادلية نزل ابن خلدون فيلسوف العرب أوائل المئه التاسعه. و كأن المولى تعلق إرادته ففضى أن لا يخلى العادلية و الظاهرية من علم ينشر، و أدب يذكر، فاختارهما مباءة للمجمع العلمى يقيم فيهما سوق العلم و الأدب بعد الكساد على النحو الذى كاتتا عليه منذ وضع أساسهما نور الدين بن زكى و الظاهر بيبرس.

(٦٤) «العادلية الصغرى» داخل باب الفرج شرقى باب القلعة الشرقى قبلى الدماغية و العمادية، أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب و قد حرقت مؤخرًا و بقيت جدرانها قائمة.

(٦٥) «العذراوية» بحارة الغرباء داخل باب النصر الذى كان يسمى بباب دار السعادة كما فى الدارس، و فى مختصره أنها فى جوار دار العدل التى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٤

سميت فى القرن الماضى دار المشيرية حيث يقيم مشير العساكر فى الدولة العثمانية، و جعل فى عهد الانتداب مركزا لدواينه و دمر بالحريق، إنشاء عذراء بنت السلطان صلاح الدين يوسف فى رواية. و هى للفريقين الشافعية و الحنفية، درّس بها الفخر ابن عساكر و ابن أبى عصرون و ابن الزكى و الشمس بن خلكان و ابن قاضى شهبه و غيرهم. و هى باقية اتخذت دارا يجتمع فيها النساء لسماع الوعظ. و كان فخر الدين بن عساكر أول من درس بالمدرسة العذراوية، و درس بالنورية و الجاروخية و هذه الثلاث مدارس بدمشق، و المدرسة الصلاحية بالقدس يقيم بالقدس أشهرًا و بدمشق أشهرًا.

(٦٦) «العززية» شرقى التربة الصالحية و غربى التربة الأشرفية و شمالى دار الحديث الفاضلية، أول من أسسها الملك الأفضل و أتمها الملك العزيز، و ممن درس بها سيف الدين الأمدى و غيره من المشهورين، هدمها ضيا باشا والى سوريه و جعلها حديقة ضمت إلى مدفن صلاح الدين أواخر القرن الماضى. و فى بعض التواريخ أن القاضى ابن الزكى أمر بأن تبنى دار الأمير أسامة مدرسة للتربة. و هى المدرسة المعروفة بالعززية و وقفها قرية عظيمة تعرف بمحجة. و ذكر ابن خلكان أن السلطان صلاح الدين بقى مدفونا بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة فى شمالى الكلاسة التى فى شمالى جامع دمشق و لها بابان: أحدهما إلى الكلاسة و الآخر فى زقاق غير نافذ و هو مجاور المدرسة العززية، ثم نقل صلاح الدين من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العززية و وقف عليها وقفًا جيدًا. و للقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة و هى من أعيان مدارس دمشق اه.

(٦٧) «العصرونية» داخل بابى الفرج و النصر شرقى القلعة و غربى الجامع، لقاضى القضاة شرف الدين أبى سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون ابن أبى اليسر التميمى الجونى ثم الموصلى الدمشقى المتوفى (٥٨٥)، درس بها جماعة منهم المشايخ بنو عصرون و غيرهم. حرقت فى الحريق الكبير سنة (١٣٢٨ هـ) و لم تعد إلى ما كانت و بقى اسم السوق منسوبًا إليها و رمّ قبر من أسسها بعض الشىء.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٥

(٦٨) «العمادية» داخل باب الفرج و الفراديس قرب الدماغية من قبله، بناء عماد الدين و الواقف عليها السلطان صلاح الدين درس بها عماد الدين الكاتب و غيره، و هى الآن كتاب للصبيان فى زقاق الخندق.

(٦٩) «الغزالية» فى الزاوية الشمالية الغربية شمالى مشهد عثمان بالجامع الأموى و تعرف بالشيخ نصر المقدسى و هو أول من درس بها. و ممن درس بها من المشهورين الدولعى و ابن عبد السلام و القطب النيسابورى و الشرف بن أبى عصرون و أبو حامد الغزالى و هى

الآن مشهد من مشاهد الجامع.

(٧٠) «الفارسية» غربي الجوزية الحنبلية تجاه الخارج من باب الزيادة بالزورية و فقها فارس الدوادار التميمي (٨٠٨). و في المدرسة الآن قبران.

و هاك أبياتا من نظم بانيتها أمر أن تكتب على تربته بعد وفاته و أظنها لغيره من المتقدمين و قد رأيتها مكتوبة على مدفن بني الشحنة مؤرخي حلب في باب المقام بحلب و الأبيات هي:

هذه دارنا التي نحن فيهادار حق و ما سواها يزول

فاعتمر للممات دارا إليها عن قريب يفضى بك التحويل

و اعتمل صالحا يؤانسك فيها مثلما يؤنس الخليل الخليل

(٧١) «الفتحية» إنشاء الملك فتح الدين صاحب بارين و بها قبره كانت مدرستين إحداهما للشافعية و ثانيتهما للحنفية نسيتا و نسي مكانهما.

(٧٢) «الفخرية» بين السورين إنشاء فخر الدين، تم بناؤها سنة (٨٢١) و هي على أهل المذاهب الأربعة فيما يظهر، و بها درس جماعة منهم عز الدين الإربلي و الشيخ المراغي.

(٧٣) «الفلكية» غربي الركينة الجوانية بالعمارة، إنشاء أخى الملك العادل فلك الدين سليمان، دفن فيها سنة (٥٩٩). و في بعض المظان أن المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس تنسب إلى أبى منصور سليمان بن شروه ابن جلدك.

(٧٤) «القليجية» داخل باب شرقي و باب توماء شرقي المسمارية إنشاء مجاهد الدين بن قليج محمد. قال البوريني: إن أحمد بن سليمان الدمشقي الصوفي عزل التراب الذي في المدرسة القليجية الذي كان من بقايا الخراب

خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٦

في فتنه اللنك (أى تيمور لنك) و قطن بها و أسكن في حجراتها عدة من الفقراء، و المدرسة المذكورة كانت تعرف في القرن الحادى عشر بمزار سيدى سيف الدين، و سيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفسهلال من الأمراء النورية، و يطل على تربته شباكان على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشة، فأما الأول فعليه من الكتابة هكذا: قال الأمير الكبير المجاهد المرابط الاسفسهلال سيف الدين على بن قليج رحمه الله هذه الأبيات و أمر أن تكتب على قبره. و على الحجر الثانى الأبيات و ذكر الأبيات الثلاثة. الواردة في الكلام على المدرسة الفارسية، و بذلك رأينا أن هذه الأبيات ادعاها كثيرون و أحبها غير واحد من العظماء.

(٧٥) «القواسية» بالعقبة الصغرى قرب مسجد الزيتونة إنشاء الأمير عز الدين بن القواس درس بها جماعة.

(٧٦) «القوصية» هي حلقة بالجامع الأموى قرب مشهد يحيى، كانت محلا للتدريس، أنشأها رجل يقال له جمال الإسلام في رواية وقف عليها أوقافا جمعة درس بها بعض المشاهير.

(٧٧) «القيمية الجوانية» بحارة القيمرية، أنشأها الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند، درس بها جلة من فقهاء الشافعية و لا تزال معروفة.

(٧٨) «القيمية البرانية» و يقال لها القيمرية الصغرى في القباقية العتيقة غربي المقدمة و شمالى الحنبلية، خربت و أنقاضها إلى اليوم ظاهرة. و يقول طارق: إن بانيتها الأمير على بن يوسف بن يوسك القيمرى سنة (٦٥٣).

(٧٩) «النجبية» قال ابن كثير في سنة (٦٩٠): درس الخطيب عز الدين الفارقي بالمدرسة النجبية عوضا عن كمال الدين بن خلكان و لم يذكر في الدارس لها وقفا و لا وقت بنائها و لا محلها.

(٨٠) «الكروسية» بجانب السامرية الشافعية وقفها سنة (٦٤١) محمد ابن كرؤس محتسب دمشق، و ممن درس بها كمال الدين بن الزملكاني و الشريشى.

- (٨١) «الكلاسيية» متصلة بالجامع الأموى من شماله و لها باب إليه، أنشأها سنة (٥٥٥) نور الدين الشهيد سميت بذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس
خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٧
- أيام بناء الجامع، ثم أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين درس بها جلة من الفقهاء و هى أطلال.
- (٨٢) «المجاهدية الجوانية» بجوار تربة نور الدين و فى الدارس قرب باب الخواصين، واقفها مجاهد الدين أبو الفوارس الكردى أحد أمراء الدولة النورية. و فى الروضتين أنه الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمى الأكراد المتوفى سنة (٥٥٥) له أوقاف على أبواب البر بدمشق منها المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التى دفن فيها و هى لصيق باب الفراديس المجدد، و الأخرى قبالة باب دار سيف الغربى فى صف مدرسة نور الدين، و له وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق و غير ذلك. و قد درس بها قطب الدين النيسابورى و كثير غيره من الأعلام.
- (٨٣) «المجاهدية البرانية» أيضا باب الفراديس كما فى الدارس و اليوم فى زقاق حمام أسامة غربى الباذرائية لواقفها المشار إليه، و فى مختصر الدارس أنها بجوار سوق البطيخ و بها قبر واقفها، درس بها غير واحد من المشهورين و هى جامع السادات.
- (٨٤) «المسروية» باب البريد، إنشاء مسرور الخصى الطواشى صاحب خان مسرور بالقاهرة، و قيل: مسرور الملك الناصر العادلى وقفها عليه شبل الدولة الحسامى واقف الشبلية. درس بها جماعة من نهاء الفقهاء.
- (٨٥) «المنكلائية» لا يعلم عنها إلا كونها قرب المدرسة القيمرية الجوانية كما فى مختصر الدارس و إلى اليوم لا يزال فى تلك البقعة مقام للشيخ عبد الله المنكلاى.
- (٨٦) «الناصرية الجوانية» داخل باب الفراديس شمال الجامع و الرواحية بشرق، و غربى الباذرائية بشمال و شرقى القيمرية الصعري و المقدمة الجوانية من آثار الملك الناصر صلاح الدين و هى اليوم دار. درس فيها بعض المشهورين من العلماء.
- (٨٧) «المقدمية الجوانية» إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف، و لعلها هى التى كانت عامرة فى القرن العاشر كما يؤخذ من ترجمة الشمس البهنسى من أن المقدمة و القصاعية و السبائية كانت عامرة فى عصره، و قد خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٨
- خربت المقدمة أوائل هذا القرن و استحالت دورا.
- (٨٨) «المجنونية» شرقى الشامية البرانية بالعقبة، إنشاء شرف الدين ابن شرف الرازى المعروف بالسبعة مجانين، و هى معروفة بالسبعة المجاهدين أيضا و ذلك بعد الثلاثين و الستائة.
- (٨٩) «النجيبية» ملاصقة للمدرسة النورية و ضريح نور الدين من جهة الشمال، أنشأها النجيبى جمال الدين اقوش الصالحى أستاذ الملك الصالح.

مدارس الحنفية بدمشق:

- كان بدمشق أوائل القرن العاشر إحدى و خمسون مدرسة للحنفية كما فى الدارس و هى:
- (٩٠) «الأسدية» تقدم محلها و هى فى المرجة الخضراء فى الشرف القبلى. خطط الشام؛ ج ٦؛ ص ٨٨
- (٩١) «الإقبالية» تقدم محلها و هى على الأحناف و الشوافعة، و قد زالت و لا يعرف غير أطلالها و حجر بابها.
- (٩٢) «الآمدية» بالصالحية جوار الميطورية من الغرب، جاء فى الدارس أنه مجهول حالها من القديم و هى على ما فهم فى بستان الميطور قرب حى الأكراد.
- (٩٣) «البدرية» قبالة الشبلية بالجبل عند جسر كحيل و يعرف بجسر الشبلية، و هى فى بستان السنوسكى بطريق عين الكرش، لم يبق

منها إقبه تهدم أعلاها بجانب نهر ثورا، إنشاء الأمير بدر الدين المعروف بلالا ابن الداية من أمراء نور الدين سنة (٦٣٨).
(٩٤) «البلخية» داخل الصادية و بابها من حمام باب البريد، أنشأها الأمير ككر الدقاق للشيخ إبراهيم البلخي بعد سنة (٥٢٥) درست و اتخذت مع الصادية دورا في عهدنا.

(٩٥) «التاجية» بزوايه الجامع الأموي الشرقية غربى دار الحديث العروبية، و كانت زاوية للدررايش عرفت قديما بابن سنان و بالسلارية جددت في سنة (٦٢٤) و هى غير موجودة.

(٩٦) «الناشيه» إنشاء الملك الناشى الدقاقى سنة نيف و خمسين و خمسمائة و هى مجهولة اليوم.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٨٩

(٩٧) «الجلالية» لقاضى القضاة جلال الدين أبى المفاخر أحمد بن قاضى القضاة حسام الدين الرازى، كانت ملاصقة لليمارستان النورى و هى الآن خراب.

(٩٨) «الجمالية» كانت بسفح قاسيون للأمير جمال الدين يوسف و كان يسكنها فى القرن العاشر أيام الصيف عبد الصمد العكارى درست مع الدوارس و أخذت أنقاضها للدور.

(٩٩) «الجمقية» هى شمالى الجامع الأموى، أسسها سنجر الهلالى و ولده شمس الدين فانترعها الملك الناصر حسن سنة (٧٦١) و أمر بعمارته فبنيت بالحجر الأبلق و جاءت فى غاية الحسن و احترقت فى فتنه تيمور فجدد بنائها سيف الدين جاقماق و خص الخانقاه بالصوفيه و أضاف إليها مدرسة للأيتام و تربة، و درس بها جماعة و جعلت فى القرن الماضى مدرسة للذكور و هى اليوم فى حالة خراب أو ما يقرب منه، ترعزت بعض أركانها بمدافع الفرنسيين سنة (١٩٤١).

(١٠٠) «الجر كسية» و يقال لها الجهار كسية و هى مشتركة بين الحنفية و الشافعية و قيل: هى للحنفية فقط، واقفها جركس فخر الدين الصلاحى و كان نائبا عن الملك العادل بنانياس و بلاد الشقيف و تبين و هونين، و هو من أرباب الهمم العالية مشهور بصدقاته و صدقاته، و هذه المدرسة فوق نهر يزيد بالصالحية بالقرب من الجامع الجديد معروفة بأوى إليها المهاجرون و الدررايش و تنسب إليها المحلة كلها، اندرست و لم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاهما متهدم و جدرانها حجر نحيث.

(١٠١) «الجوهريه» شرقى تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة. إنشاء الصدر نجم الدين بن عباس التيمى الجوهري سنة (٦٧٦) كان بعضهم أواخر القرن الماضى قسمها ثلاث دور و جعل عليها مرصدا، و قام ولداه بعده فأخذ ما أنفق والدهما عليها و أعادها إلى الوقف فجعلت مدرسة للصبيان و حصل الانتفاع بها.

(١٠٢) «الحاجية» و الخانقاه بها قبلى المدرسة العمريه بالصالحية على

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٠

مقربة من مرقد الشيخ عبد الغنى النابلسى، إنشاء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الإينالى سنة (٨٦٥). و قد تداعت فأخذت أنقاضها منذ نحو سبعين سنة لتبليط الطريق، و هى أمام جامع الحاجب بالجر كسية، أصبحت الآن عرصه محاطة بجدار و حوض مائها لا يزال موجودا و مأذنتها كانت جميلة.

(١٠٣) «الخاتونية البرانية» مسجد خاتون على الشرف القبلى فى مكان كان يسمى صنعاء دمشق مطل على وادى الشقراء، و قفتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق، و هى أم شمس الملوك إسماعيل و محمود زوجة تاج الملوك بورى توفيت سنة (٥٥٧)، و كانت حافظة للقرآن سمعت الحديث من أبى الحسن بن قيس و استنسخت الكتب و قد خربت هذه المدرسة فى أواخر حكم المماليك فنقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها فى باب الجابية، و كان من مدرسيها على البلخي و شرف الدين عبد الوهاب الحورانى و صدر الدين البصروى و صدر الدين الأدمى.

(١٠٤) «الخاتونية الجوانية» كانت بمحلة حجر الذهب محلة البيمارستان النورى، إنشاء خاتون ابنة سعيد الدين اتسز و زوجة نور الدين

الشهيد، وقفها أخوه سعد الدين عليها، و ممن درس بها ابن شداد و ابن أبي جرادة.

(١٠٥) «الدماغية» تقدم محلها عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القديم و أنها على الفريقين الحنفية و الشافعية، درس بها الافتخار الكاشغرى و السنجارى و ابن سحنون خطيب النيرب و غيرهم، أصبحت اليوم حدائق.

(١٠٦) «الركنية» و يقال لها الركنية البرانية تميزا لها عن الركنية الجوانية المار ذكرها، و هى من إنشاء الأمير ركن الدين منكورش عتيق فلک الدين سنة خمس و عشرين و ستمائة، درس بها جلة من الفقهاء و هى فى حى الأكراد بالسفح، اختلست منها قطعة و جعلت دورا، و لا تزال تقرأ فى حائطها كتابات كوفية.

(١٠٧) «الريحانية» جوار النورية، إنشاء ريحان الطواشى من أكبر خدام نور الدين سنة (٥٦٥) و هى كتاب للذكور. و لا يزال على بابها حجر زبر عليه بخط جميل الأوقاف المرصدة لها.

(١٠٨) «الزنجارية» خارج باب توماء و باب السلامة و يقال لها الزنجيلية

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩١

كانت تجاه دار الأطمعة من أحسن المدارس. و فى مختصر المدارس أنها هى التى على بابها هذا الرخام من عجائب الدنيا و هذه الصناعة التى كانت كأنها بين أيديهم كالعجين. أنشأها نائب عدن فخر الدين الزنجيلي صاحب اليمن أيام الملك العادل أنشئت سنة (٦٢٦) و فى رواية أنه الأمير عز الدين عثمان ابن الزنجيلي صاحب عدن، درس بها أجلة الفقهاء و لا يعرف محل هذه المدرسة و لعلها كانت شرقى السقيفة و هى اليوم حدائق.

(١٠٩) «السيفية» بجوار الجامع الأموى و من القديم لا يعرف عنها غير هذا.

(١١٠) «السبائية» خارج باب الجابية و شمالى بئر الصارم و التربة و الزاوية بها و هى فى آخر شارع الدرويشة، إنشاء نائب الشام سيبى أمير السلاح بمصر سنة (٩٢١) جعلها جامعا و مدرسة و زاوية و تربة. قال فى المختصر عمرها بالحجر الأبلق و لم يدع بدمشق مسجدا مهجورا و لا مدفنا معمورا إلا و أخذ منه من الأحجار و الآلات و الرخام و الأعمدة ما أحب حتى سماها علماء دمشق «جمع الجوامع» و هى منذ سبعين سنة مكتب ابتدائى للذكور، و تقام فيها الصلوات و الأذكار.

(١١١) «الشبلية البرانية الحسامية» بسفح قاسيون بالقرب من جسر ثورة، إنشاء شبل الدولة كافر الحسامى الرومى طواشى حسام الدين بن لاجين والد ست الشام سنة (٦٢٦) و قد دفن بها، و هى فوق جسر ثورة من طريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قطعة يسيرة، درس بها و أعاد بها عظماء من الفقهاء منهم الصفى السنجارى و الشمس ابن الجوزى و ابن قاضى آمد و ابن الغويرة و البصروى و الأذرعى و الكاشغرى و الطوسى و الكفيرى و التركمانى و العماد الجيلى و ابن بشارة. قال ابن خلكان: إن ست الشام بنت أيوب أنشأت مدرسة بظاهر دمشق و قد دفن فيها الملك المعظم و هى أيضا و ولده حسام الدين عمر بن لاجين و زوجها ناصر الدين أبى عبد الله محمد بن أسد الدين شير كوه صاحب حمص، و حسام الدين هو سيد شبل الدولة كافر بن عبد الله الحسامى الخادم صاحب المدرسة و الخانقاه الشبلية اللتين فى ظاهر دمشق على طريق قاسيون، و لهما شهرة فى مكانهما و أوقاف كثيرة اه. و إلى اليوم لا تزال

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٢

القبور ظاهرة للعيان، و هناك حوض ماء و إيوان.

(١١٢) الشبلية الجوانية» قبالة الأكرية داخل باب الجابية، إنشاء شبل الدولة كافر المعظمى صاحب المدرسة قبلها، و هى أمام محكمة الباب الشرعية القديمة و قد أصبحت دورا.

(١١٣) «الصادرية» داخل باب البريد على باب الجامع الأموى الغربى، إنشاء شجاع الدين و الدولة صادر بن عبد الله قال صاحب الدارس: و هى أول مدرسة أنشئت فى دمشق (٤٩١) درس بها ابن زكى الكاشانى و البلخى و أبو العيش و أوحى الدين الدمشقى و الغزنوى رشيد الدين و ابن مسعود و الكعكى و الرضى الملتانى الهندى و البرهان الغزنوى المعروف بأبى الهول و ابن الشجاع و ابن

أسد الدين الدمشقي. و هي دور مساكن منذ استصفها المستصفون من عهد قريب.

(١١٤) «الطرخانية» قبلى الباذرائية إنشاء ناصر الدولة طرخان أحد كبار أمراء دمشق و هي منازل و مساكن.

(١١٥) «الطومانية» تجاه دار الحديث الأشرفية غربى الشرفية و الفقاعية بسوق العسرونية و لعل واقفها طومان النورى. و قد جعلت فى أواخر القرن الماضى حانة تباع فيها الخمر ثم صارت حوانيت و دارا.

(١١٦) «العدراوية» مر محلها و أنها على الحنفية و الشافعية. درس بها العز السنجارى و السمرقندى و الرازى.

(١١٧) «العززية» أنشئت (٦٣٥) جوار المدرسة المعظمة إنشاء الملك العزيز عثمان بن العادل شقيق الملك المعظم، و فى العززية دفن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب و لا يزال قبره معروفا يزار و يقصده العالم من الأقطار.

(١١٨) «العززية البرانية» بالشرف الأعلى شمالى ميدان القصر خارج دمشق و هي البستان الذى أصبح معملا للكهرباء و قد زال أثرها. أنشأها الأمير عز الدين استاد دار المعظمى المعروف بصاحب صرخد (٦٢٦)

خطط الشام، ج٦، ص: ٩٣

درس بها جماعة منهم محمد الكرى المتوفى سنة (١٠٦٨) أى إنها كانت عامرة إلى القرن الحادى عشر.

(١١٩) «العززية الجوانية» المعروفة بالكوشك أى القصر إنشاء المقدم ذكره و هي غير معروفة.

(١٢٠) «العززية» بجامع دمشق منسوبة له أيضا، قال فى الدارس: و شرط واقفها أنه بنى مدرسة بالقدس الشريف على أنه متى كان القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور، و إن تعطل أى تعطيل القدس كان مدرسة بالجامع الأموى المعمور جوار مشهد على. درس بها حين تعطل القدس القاضى مجد الدين قاضى الطور و هي غير موجودة.

(١٢١) «العلمية» شرقى جبل الصالحية و غربى الميطورية إنشاء الأمير علم الدين سنجر المعظمى سنة (٦٢٨) لم يبق لها أثر.

(١٢٢) «الفتحية» نسي مكانها منذ قرون قال ابن شداد: و هي برحبية خالد و هي مجهولة أيضا، و منشئها الملك فتح الدين صاحب بارين.

(١٢٣) «الفرخشاهية» تعرف بمعز الدين فرخشاه و واقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والده عز الدين فرخشاه و هي زوجة شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين سنة (٥٧٨) و هي مقابلة التكية السليمانية بالشرف الأعلى شمالى حديقة الأمة، دثرت.

(١٢٤) «القچماسية» داخل باب النصر و دار السعادة إنشاء نائب الشام قچماس الإسحاقى الجركسى المتوفى سنة (٨٩٢). و أول من درس بها شمس الدين أبو تراب محمد الأمامى و هي عامرة فى الجملة.

(١٢٥) «القصاعية» بحارة القصاعين إنشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة (٥٩٣) كانت عامرة فى القرن العاشر، و درس بها محب الدين العلوانى و هو آخر من درس بها من الفقهاء و هي فى جهة الخيضية جعلت دورا.

(١٢٦) «القاهرة» بالصالحية على طريق الترام فى الزقاق الذى وراء سوق الجمعة على ضفة نهر يزيد لصيق دار الحديث القلانسية المشهورة بالخانقاه و غربى العمريه يفصل بينهما الطريق، و هي مساكن و لم يبرح اسمها معروفا بالقاهرة و هي أسرة اسمها بنو القاهرة و هي الآن دار بنى الحشاش.

خطط الشام، ج٦، ص: ٩٤

(١٢٧) «الظاهرية الجوانية» تقدم محلها فى مدارس الشافعية و أنها للحنفية أيضا، أول من درس بها الصدر سليمان و ابن النحاس و ابنه شهاب الدين و السمرقندى و الجوبرى و ابن العز و عفيف الدين الآمدى و قوام لطف الله الحنفى.

(١٢٨) «القليجية» واقفها سيف الدين بن قليج النورى بين الخضراء و الصدرية السالفتين بالبزورية سنة (٦٢٠)، و جدد بناءها قاضى الشام محمد جلبى سنة (٩٢٣). درس بها شمس على بن قاضى العسكر و فخر الدين بن خليفة البصرى و تقى الدين أحمد و علاء الدين على القونوى و غيرهم، و هي فى سوق التبن اتخذت بيتا ملاصقا لدار بنى العظم، و لعلها هي التى كانت مجمع الفضلاء و

العقلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم لا القليجية التي كانت داخل باب توماء كما روى بعض المؤرخين.
(١٢٩) «القايمازية» داخل بابي الفرج و النصر، إنشاء صارم الدين قايماز النجمي المتوفى سنة (٥٩٦)، كان من عمال السلطان صلاح الدين يتولى أسبابه في مخيمه و بيتوته و يعمل عمل أستاذ الدار، و كلما فتح السلطان بلدة سلمها إليه ليروضها. و هي بالمناخلية درست عند ما جرى توسيع الطريق.

(١٣٠) «المرشدية» على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الأشرفية إنشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل أخت الناصر داوود سنة (٦٥٦)، و هي من المدارس التي بقيت إلا أن داخلها متهدم و مجموعها مختلس.
(١٣١) «المعظمية» بالصالحية بسفح قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيمية، أنشئت (٦٢١) نسبة إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل صاحب دمشق و هي مدفن.

(١٣٢) «المعينية» بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العسرونية، إنشاء معين الدين أتسز، و هي دراسة.
(١٣٣) «الماردانية» على ضفة نهر ثورة لصيق الجسر الأبيض معروفة، أنشأتها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين زوجة الملك المعظم (٦١٠) درس بها جلة من الفقهاء، و هي جامع عامر؟؟؟ ات و فيه مدفن بنى المؤيد.
(١٣٤) «؟؟؟ المقدمية الجوانية» داخل باب العمارة إنشاء الأمير شمس الدين

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٥

محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية أنشئت سنة (٥٧٥)، و هي في حكم المفقود استصفي قسم منها و جعل دورا و داخلها غرف تؤجر و حرمها مخزن.

(١٣٥) «المقدمية البرانية» تجاه الركينة بسفح قاسيون شرقي الصالحية إنشاء فخر الدين إبراهيم بن المقدم، غير موجودة و لعلها دار الشريباتي و حوض مائها لم يزل كما كان أمام حمام المقدم.

(١٣٦) «المنجكية» بجوار خانقاه الصوفية بالجاقماقية، و في الدارس أنها بالخلخال. و كان الخلخال حديقته أخذت للشكنة الحميدية غربي المدينة.

و هي قبلي الصوفية و غريبها، إنشاء الأمير سيف الدين منجك من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة (٧٧٦) و هي اليوم حدائق و لا أثر لها.

(١٣٧) «الميطورية» شرقي جبل الصالحية في حي الأكراد، وقفها فاطمة خاتون بنت السلار سنة (٦٢٩) خربت.

(١٣٨) «المقصورة الحنفيه» و هي محل التدريس في حرم الجامع الأموي وقف عليها كاتب الممالك القاضي فخر الدين أوقافا.

(١٣٩) «النورية الكبرى» إنشاء نور الدين سنة (٥٦٣)، و الصحيح أنها إنشاء ولده الصالح إسماعيل و هي بعض دار هشام بن عبد الملك الأموي، و في الدارس أنها كانت قديما دار معاوية بن أبي سفيان و كانت لمعاوية دار أخرى بباب الفراديس تحت السقيفة يقال: إنها الدار التي كانت معروفة بدار ابن المقدم. و لا تزال المدرسة عامرة إلى يومنا إلا أن بعض جيرانها اختلسوا بعضها من الشمال.

(١٤٠) (النورية الصغرى) كان في القلعة جامع تقام فيه الجمعة إلى القرن العاشر و به مدرسة حنفيه تسمى النورية الصغرى، قال: ابن شداد هي مدرسة بجامع القلعة، و كان مدرس القلعة أوائل القرن التاسع القاضي شمس الدين الزرعي و هو الذي ألزم ببناء مأذنة الجامع بالقلعة سنة (٨٢٤) التي كانت أحدثت سنة (٧٦٢).

(١٤١) «الغمورية» بالصالحية، إنشاء الأمير جمال الدين بن يغمور الدورفي اختلست.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٦

كان بدمشق أربع مدارس للمالكية و هي:

(١٤٢) «الزاوية المالكية» وقف السلطان صلاح الدين ملاصقة المقصورة الحنفية من غربى الجامع الأموى درس بها بعض فقهاء المالكية.

(١٤٣) «الشرائشية» فى القنوات و فى الدارس أنها بدرى الشعارين لصيقة حمام صالح شمالى الميطورين داخل باب الجابية، و كانت قبل أن تصبح مدرسة للأيتام محكمة شرعية و اختلس الجيران بعضها. و هى إنشاء شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرايشى التاجر السفار و لا يعلم عنها غير هذا.

(١٤٤) «الصمصامية» شرقى دار القرآن الوجيهية و قرب المسرورية، وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال الأسلمى، و ذكر المؤرخون أن سنان القرماني والى القرماني صاحب التاريخ خرب مدرسة المالكية بالقرب من اليمارستان النورى و تعرف بالصمصامية و حصل به الضرر بمدرسة النورية ببعلبك، و ولى نظارة اليمارستان و نظارة الجامع الأموى و انتقد عليه أنه باع بسط الجامع و حصره فقتل بسبب ذلك هو و ناظر السليمية حسين سنة (٩٦٦) خنقا معا بدار السعادة بشاشيهما و عمامتهما على رأسيهما. و لو نفذ حكم الشرع هكذا فى المختلسين و الغاصبين لما ذهب كل هذه المدارس مع أمس الدابر.

(١٤٥) «الصلاحية» إنشاء السلطان صلاح الدين بالقرب من اليمارستان النورى غير معروفة أيضا.

و كان فى زقاق حمام القاضى مدرسة للمالكية على ما فى مفكرات طارق.

مدارس الحنابلة بدمشق:

كان بدمشق عشر مدارس للحنابلة و هي:

(١٤٦) «الجوزية» فى البزورية كانت فى عهدنا محكمة شرعية ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيرية مدرسة للأيتام ثم حرقت فى الثورة السورية، إنشاء محبى الدين بن جمال الدين بن الجوزى.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٧

(١٤٧) (الجاموسية) غربى العقبة خارج دمشق ابتلعها و أوقفها كما ابتلع غيرها المتولون عليها.

(١٤٨) (الشريفية) عند القباقيبة العتيقة قديما و دار بنى الغزى فى العمارة أمام الفرن بالجانب الشرقى و هى الآن دار. من إنشاء شرف الإسلام عبد الوهاب أبى الفرج الحنبلى شيخ الحنابلة بدمشق المتوفى سنة (٥٣٦) و ظلت يتعاقب عليها أولاده و أحفاده حينما من الدهر.

(١٤٩) (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية. إنشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام، دفنت فى فنائها سنة (٦٥٣) و جعلت اليوم مكتبا ابتدائيا للذكور.

(١٥٠) (الصدريه) إنشاء صدر الدين أبى الفتح أسعد المنجا التنوخى العدل سنة (٦٣٠) و كانت بجوار الجامع فى زقاق الريحان و العامه تزعم أن قبر معاوية بن أبى سفيان بها و ليس بصحيح.

(١٥١) (الضياية المحمدية) شرقى جامع المظفرية بجبل قاسيون. إنشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسى سنة (٦٢٠) كان علامة عصره درس بها بانيتها أولا و لا يعرف عنها شىء.

(١٥٢) (الضياية المحاسنية) بسفح قاسيون شرقى جامع المظفرية و أمام جامع الحنابلة، بقى منها أربع نوافذ و جدار، أنشأها ضياء الدين محاسن و وقفها على من يكون أمير الحنابلة.

(١٥٣) «العمرية الشيخية» وسط دير الحنابلة بسفح الجبل، إنشاء أبى عمر الكبير الحنبلى الزاهد المعروف بابن قدامة سنة (٥٥٠) و هو الذى نسبت الصالحية إليه لنزوله بمسجد أبى صالح بظاهر باب شرقى، و هى الآن خراب أكل النظار عليها أوقفها و استباحوا أخذ

خزانة كتبها المهمة. و في تاريخ الصالحية أنها أكبر المدارس بدمشق و الصالحية لأنها مشتملة على ثلاثمائة و ستين خلوة على ما قيل، و العاشر منها الآن (عصر مؤلف تاريخ الصالحية) أقل من ذلك اه. و قال في تاريخ الصالحية أيضا: إن أبا عمر بنى المدرسة و والده الشيخ

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٨

أحمد بنى المصنع ثم كثر البناء المتسع بالصالحية حول المدرسة حتى بلغ من القبلة حد المدينة و من الشرق برزة إلى الميطور- و بستان الميطور الآن معروف بالقرب من جسر النحاس قرب حي الأكراد. أما الآن فهي خراب يباب، و قد درس بها أئمة أعلام فيما سلف.

(١٥٤) (العالمية) مدرسة للحنابلة و دار للحديث شرقي الرباط الناصري تحت جامع الأفرم غربى سفح قاسيون، وفتتها الشيخة الصالحة العالمية أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي سنة (٦٣٠) و هي خراب بلقع.

(١٥٥) (المسمارية) قبلى القيمرية الكبرى داخل دمشق قبلى الفتحية قرب مأذنة فيروز. واقفها التاجر الحسن بن مسمار الهاللى الحورانى المغربى من أهل القرن السادس جعلت الآن مخفرا للشرطة.

(١٥٦) (المنجائية) زاوية بالجامع الأموى تعرف بابن منجا.

و كان فى سوق القمح بدمشق:

(١٥٧) (المدرسة الحنبلية) تولى عمارتها سعد الدين بن عبد العزيز إمام الملك الأشرف موسى بن الملك العادل.

المدارس الحديثة:

هذا ما ذكره صاحب المدارس من دور القرآن و دور الحديث و مدارس الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و قد أنشئت بعد عهده فى دمشق عدة مدارس فى القرن الثانى عشر و هى:

(١٥٨) «المرادية» جنوب الظاهرية الجوانية و تفصل بينهما الآن سكة ضيقة لصاحبها الشيخ مراد المرادى (مراد بن على بن داود بن كمال الدين بن صالح البخارى النقشبندى سنة (١١٣٢) و كانت قبل ذلك خانا يسكنه أهل الفسق و الفجور و قد خربت زمن الحرب العامة و هى الآن خراب.

(١٥٩) «النقشبندية البرانية» هى فى سوق ساروجا بناها الشيخ مراد المرادى و كانت داره، و بنى إلى جنبها مسجدا و هى الآن تكية و منزل لأحفاده.

(١٦٠) «السليمانية» مدرسة سليمان باشا العظم، أسست فى باب البريد (١١٥٠) جعلت زمنا مكتبا للإناث و قد رمت بعد خرابها و سكنها دراويش.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٩٩

(١٦١) «العبدلية» مدرسة عبد الله باشا العظم، أسست فى سوق السلاح سنة (١١٩٣) و لا تزال موجودة.

(١٦٢) «الإسماعيلية» مدرسة إسماعيل باشا العظم فى سوق الخياطين، أسست سنة (١١٤١) و الطابق السفلى منها من بناء إسماعيل باشا العظم و العلوى من بناء أسعد باشا العظم، و لكل منهما وقف خاص به، و كانت المدرستان الأخيرتان من المدارس العامرة إلى عهد قريب فأصبحتا مأوى الفقراء و ذهبت أوقافهما أو كادت.

و هناك مدارس حدثت بعد عهد صاحب المدارس يعثر على أسمائها مبعثرة فى كتب التاريخ و المدونات الحديثة و لا أثر لها لعدم مكانتها أو لطارئ طرأ عليها. و الطوائى على مثل هذه المدارس قد تحدث فى كل عقد أو عقدين من السنين مثل:

(١٦٣) «المدرسة الحجازية» التى نزل بها أحمد بن شمس الدين الصفورى و لا نعرفها الآن.

(١٦٤) «المدرسة الجوزية» انقطع إليها إبراهيم السقا سنة (١٠٥٨) و درس بها إبراهيم بن حمزة سنة (١١١٩).

(١٦٥) «المدرسة الحافظية» بصالحية دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة (١٠٦٧).

(١٦٦) «مدرسة أحمد شمسي باشا» في سوق الأروام.

(١٦٧) و من المدارس التي لم يذكرها صاحب المدارس مدرسة السلطان المؤيد التي بناها سنة (٨١٧) الملك المؤيد في دمشق و سماها «المؤيدية» و أنشأ سوقا نسب إليه و لا نعلم عنها غير هذا.

و منها (١٦٨) «القارية» مدرسة ابن القارى قال ابن طولون: لم يكن في الصف الشمالي مسجد غير مسجد البيع من باب الجابية إلى باب شرقي يوجه إلى القبلة، قيل: إن الصحابة بايعوا فيه، و هو الآن مدرسة بناها الخوaja محمد بن يوسف القارى سنة (٨٨٧) و بنى إلى جانبها دارا عظيمة بالغ في إتقانها و قد أصبحت هذه الدار و المدرسة دورا صغيرة و حواصل للخشب.

و منها (١٦٩) «المدرسة المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٠

الصابونية، أنشأها تاجر الخاص الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة (٧٥٤) كان أبوه لبانا حكى عن نفسه أن أول سفره سافرها في البحر كسب فيها مائة ألف دينار و ثمانمائة ألف درهم و انفتحت عليه الدنيا و عمر أملاكا كثيرة و أنشأ على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة و جسر بنات يعقوب و عيون التجار، أنفق على عمارها ما يزيد على مائة ألف دينار، و كل هذه الخانات فيها الماء و جاءت في غاية الحسن و لم يسبقه أحد من الملوك و الخلفاء إلى مثل ذلك، و هو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز و وقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة.

و من المدارس الحديثة بناء مدرسة الحقوق على شاطئ بردى في المرجة، و هي من بناء الترك في آخر أيامهم و هي من أجزاء الجامعة السورية. و مدارس الدولة إلى اليوم تقوم على أنقاض البيوت القديمة أو الحديثة أو بقايا الجوامع و المدارس. و همم الأفراد فطرة لسد هذه الثلمة. و مدارس الطوائف و التبشير تجعل في الكنائس و البيع على الأغلب. و من أهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز و المعلمين و هي دار خاصة في شرقي المدينة كانت لغنى إسرائيلى اسمه عنبر، فوقت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها و جعلت مدرسة إعدادية في سنة (١٣٠٤) شرقية، و فيها من ضروب الصناعات في البناء شىء كثير و قد خلفتها المدرسة التجهيزية غربى البلد على الشرف الأعلى و هي من أجمل أبنية دمشق على عهدنا الحديث، أما سائر المدارس الحديثة فيستحي المرء من ذكرها إذ لا شأن لها و ليس للأمة و لا للحكومة يد في إنشائها.

مدارس الطب بدمشق:

كان بدمشق أربع مدارس للطب و هي:

(١٧٠) «الدخوارية» بالصاغة العتيقة قرب الخضراء قبلى الجامع و فى رواية شرقى سوق المناخيلين: إنشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن على المعروف بالدخوار، و فى رواية: عبد المنعم بن على المعروف بالدخوار سنة (٦٢١) جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، و وقف لها ضياعا و عدة أماكن

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠١

يستغل منها ما ينصرف فى مصالحها و فى راتب المدرس و المشتغلين بها. و وصى أن يكون المدرس بها شرف الدين على بن الرحبي. قال ابن أبى أصيبعة فى ترجمة شرف الدين بن الرحبي من كبار أطباء دمشق المتوفى سنة (٦٦٧) إن مهذب الدين عبد الرحيم بن على وقف على الدار الشمالية و جعلها مدرسة للطب و ربما هى الدخوارية بعينها. و فى رواية أنها و بستان الدخوار عند أراضي الجامع الأموى من قصر اللباد شمالها نهر ثورة، درس بها واقفها و بدر الدين محمد بن قاضى بعلبك و الديسرى و ابن حيدرة

الرجيحي و كمال الدين الطيب و الجمال أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي و سليمان بن داود و محمد ابن شهاب الدين أحمد الكحال و عز الدين السويدي. و هي اليوم دور و لا يعلم زمن دمارها.

(١٧١) «الدينسرية» غربى باب البيمارستان النورى و الصالحية و بآخر الطريق من قبله لصاحبها عماد الدين محمد الدينسرى من مدرسى المدرسة السابقة و لم يعرف عنها غير هذا.

(١٧٢) «الربيعية» لم يذكرها فى الدارس و قال فى مختصره: إنها غربى البيمارستان النورى و المدرسة الصلاحية بآخر الطريق قبله يقال: إنها هي المسجد الذى أنشأه قاضى القضاة محمد بك و كان بها أيضا صيدلية منظمة إنشاء عماد الدين محمد بن عباس الربعى المتوفى سنة (٦٨٦). و جاء فى الدارس: و فى سنة (٧٤٩) أقامها جديده عبد الله بعد أن صارت تل تراب و جعلها برسم تأديب الأطفال قاضى القضاة محمد بك الرومى الحنفى من مماليك السلطان بايزيد بن عثمان ثم جعلت دار بنى البكرى و نسفت فى الثورة الأخيرة بالديناميت.

(١٧٣) «اللبودية» خارج البلد ملاصقة بستان الفلك و حمام الفلك، إنشاء نجم الدين يحيى بن اللبودى (٦٦٤) درس بها جمال الدين الزواوى.

قال فى الوافى: هو يحيى بن محمد الوزير الصدر نجم الدين بن اللبودى الدمشقى الطيب ترقى بالطب عند صاحب حمص إبراهيم و وزر له ثم اتصل بالناصر صاحب الشام فجعله ناظر الدواوين توفى سنة سبعين و ستمائة و دفن فى تربته التى بالقرب من بركة الحميريين و جعل تربته دار طب و هندسة و قرر لها شيخا و قراء. و قال فيه: إنه ألف فى الرد على الموفق عبد اللطيف البغدادي خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٢

كتابا و هو فى الثالثة عشرة و هو صاحب دار الطب و الهندسة. و مدرسته اليوم، متهدمة و اسم البستان بستان اللبودى شرقى بستان الشموليات من أراضى باب السريجة. هذه هي المدارس الطبية بدمشق و قد دثرت و دثرت أسماؤها. و من عرف أن القدماء كانوا يعنون بالطب أكثر مما نتصور لا يستكثر على دمشق أربع مدارس فى الطب فى الدهر الغابر. فقد ذكر المؤرخون أنه كان لكل من أبى المجد بن الحكم و مهذب الدين النقاش و رفيع الدين الجبلى مجالس عامه للمشتغلين عليهم بالطب فى دمشق. قال السبكي فى معيد النعم:

و من حقهم - أى السلاطين - إقامة فقيه فى كل قرية لا فقيه فيها يعلم أهلها أمر دينهم، و من العجب أن أولياء الأمور يستخدمون فى كل حصن طبيبا و يستصحبون أطباء فى أسفارهم بمعلوم من بيت المال و لا يتخذون فقيها يعلمهم الدين، و ما ذاك إلا أن أمر أبدانهم أهم عليهم من أمر أديانهم نعوذ بالله من الخذلان اه.

و فى المحرم من عام (١٣٢١) صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء مدرسة طبية ملكية بدمشق و أن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة و مثلها لنفقتها السنوية و لوازمها لمنافسة مدرستى الطب فى بيروت الأميركية و اليسوعية. فشرع فى خريف تلك السنة بالتدريس فى دار استؤجرت موقتا فى طريق الصالحية ريثما تبنى المدرسة الجديدة.

و فى أوائل دخول الجيش العربى و الإنكليزى آخر أيام الحرب العامة أنشئت.

(١٧٤) «مدرسة طبية» على أنقاض مدرسة الأتراك جعلت فى مستشفى الغرباء التى كانت فى مقابر الصوفية أو مقبرة البرامكة ثم أنشئ لها مدرّج باسم مدرج الجامعة السورية.

مدارس حلب :

نشأت المدارس فى حلب فى العهد الذى أنشئت فيه بدمشق و لكن على

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٣

صورة مصغرة، وقد بنيت أول مدرسة فيها سنة (٥١٧) و هي:

(١٧٥) «المدرسة الزجاجية» بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب، و لما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك إذ كان الغالب عليهم التشيع، فكان جماعته يبنون في النهار و الشيعة تنقض ما بنوه في الليل. و قال بعض المؤرخين: إنها من بناء عبد الرحمن بن العجمي لأصحاب الشافعي، و قد خربت و أصبحت دورا للسكنى، و يغلب أن يكون مكانها في محل خان الطاف من محلة الجلوم (إعلام النبلاء).

(١٧٦) «النورية» أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٤٤) و تعرف بالنفريه أيضا و هي تجاه المدرسة الصاحبية. (١٧٧) «العصرونية» كانت دارا لأبي الحسن علي بن أبي الثريا وزير بني مرداس فصيرها الملك العادل نور الدين سنة (٥٥٠) مدرسة و جعل فيها مساكن للمرتين بها من الفقهاء، و قد كانوا سنة (٨٧٤) فوق المئة، و استدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون فولاه تدريسها و النظر فيها، و هو أول من درس بها فعرفت به، و بنى له نور الدين مدارس بمنبج و حماة و حمص و بعلبك و دمشق، و قد كان لها بقية إلى سنة (١٣٤٣) إذ شرعت إدارة الأوقاف بخرابها و إقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للأوقاف.

(١٧٨) «الصاحبية» أنشأها القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد، قال ابن خلكان: إن حلب كانت قبل أن يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس و ليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى بترتيب أمورها، و جمع الفقهاء بها، و عمرت في أيامه المدارس الكثيرة، و كان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعا جيدا يحصل منه جملة مستكثرة، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي للشافعية، و ذلك في سنة إحدى و ستمائة، ثم عمر في جوارها دارا للحديث و جعل بين المكانين تربة يدفن فيها، و لما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء و حصلت بها الاستفادة و الاشتغال و كثر الجمع بها. و تقع هذه المدرسة في الزاوية الغربية من الجينية المعروفة الآن بجينية الفريق شرقي محلة السفاحية، و لم يبق منها و لا من دار الحديث سوى حجر مكتوب و قد

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٤

كانتا عامرتين في القرن العاشر كما في إعلام النبلاء.

(١٧٩) «الظاهرية» و تعرف أيضا بالسلطانية، و هي للشافعية و الحنفية أسسها الملك الظاهر (٦١٣) و توفي و لم تتم و أكملها شهاب الدين طغرل أتابك و على بابها أنها أنشئت سنة (٦٢٠) و هي اليوم خراب إلا بضع حجر جددت يسكنها بعض الفقراء و محرابها من بدائع الصنعة.

(١٨٠) «الأسدية» أنشأها الأمير أسد الدين شير كوه المتوفى سنة (٥٦٤) و هو عم صلاح الدين. و هي في محلة باب قنشرين باق منها قبلية و قبة و قد جدد فيها سنة (١٣١٦) ثمانى حجرات.

(١٨١) «الشعبية» كانت فيما قالوا مسجدا أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب يعرف بالغضايري نسبة لعلي بن عبد الحميد الغضايري. فلما ملك نور الدين حلب وصل الشيخ شعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي فصيرت له مدرسة فعرفت به، و على جدارها تاريخ بناء نور الدين سنة (٥٤٥) و هي في القرب من باب أنطاكية مسجد تقام فيه الصلوات و هي في إدارة الأوقاف (إعلام النبلاء).

(١٨٢) «الشرفية» أنشأها شرف الدين عبد الرحمن بن العجمي، و أنفق عليها ما يربو على أربعمائه ألف درهم، و وقف عليها أوقافا جلية، و كان فيها غرف و إيوان و قاعة للدرس، و في بنائها و أبوابها من بدائع الصنعة ما يفتخر به الصناع، و على بئرها قنطرة من الحديد مكتوب عليها بالقلم المجوز أنها صنعت سنة أربعين و ستمائة و هي من بدائع الرسم. و في سنة (١٣٤٣) شرع في تعميمها و اتخذ من الجهة الشرقية منها بهو كبير بأربعة أعمدة يصلح للمحاضرات و أماكن أخرى.

(١٨٣) «الرواحية» أنشأها ركن الدين هبة الله محمد بن عبد الواحد الحموي و قال في الوافي: زكى الدين بن رواحة الحموي الشاعر

المعدل كان كثير الأموال محتشما، أنشأ مدرسة بدمشق و أخرى بحلب و شرط على الفقهاء و المدرسين شروطا صعبة، و أن لا يدخل مدرسته يهودى و لا نصرانى و لا حنبلى حشوى توفى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و قد اندثرت فى وقعة تيمور ثم أصلحت فى زمن قصروه كافل حلب. أما الآن فقد صارت دورا و لم

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٥

يبقى منها سوى باب ذى أحجار ثلاثه سود، و باب مسدود يعلوه حجرة عظيمة، و هى واقعة فى أول الزقاق المعروف بزقاق الزهراوى شمالي المدرسة الشرفية الآنفه الذكر.

(١٨٤) «البدرية» أنشأها بدر الدين عتيق عماد الدين شادى فى صدر درب البازيار و يعرف الآن بزقاق الزهراوى و هى دائرة.

(١٨٥) «السيفية» أنشأها الأمير سيف الدين على بن علم الدين سليمان ابن جندر (٦١٧) مشتركة بين الشافعية و الحنفية، و قد دثرت هى و سميتها التى جعلت لتدريس مذهبه مالك و أحمد بن حنبل كما يأتى، لكن يتعين موقع إحداهما فى قبلى تربة الكليباتى بجانب محله الكلاسة، بما هو موجود من تربة البانى التى لم يذكر التاريخ أنها فى جوار مدرسته، و هى اليوم قبة قديمة سقفتها خرب فيها قبره.

(١٨٦) «الزيدية» و تعرف بالألواحية لنزول الألواحى فيها، هى داخل باب أنطاكية بالقرب من المدرسة الشيعية، أنشأها إبراهيم بن إبراهيم المعروف بأخى زيد الكيال انتهت سنة (٦٥٥) درس فيها أحمد بن محيى الدين العجمى.

(١٨٧) «القوامية» داخل باب الأربعين بالقرب من حارة الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل غياث الدين و داخلها ربط للقلندرية.

(١٨٨) «الشادبختية» أنشأها جمال الدين شادبخت نائب نور الدين محمود بحلب (٥٨٩)، و ممن ولى تدريسها أحمد بن كمال الدين بن العديم المتوفى (٦٣٨) و كانت حلب يومئذ أعمر ما كانت بالعلماء و المشايخ و الفضلاء الرواسخ. و قد تولى تدريسها بعده كثيرون من الفضلاء من بنى الشحنة.

(١٨٩) «الظاهرية أيضا» أنشأها الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب (٦١٦) للشافعية و أنشأ إلى جانبها تربة ليدفن فيها من يموت من الملوك و الأمراء، و هى قبلى حلب مما يلى باب المقام لم يبق منها سوى المحراب و عمودين و حوض مثنى بديع.

(١٩٠) «الهروية» أنشأها الملك الظاهر غازى لأجل الشيخ الذى كانت له عنده منزلة رفيعة و هو على الهروى السائح و هى قبلى حلب، خربت فى فتنه

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٠٦

التر و لم يبق منها سوى قبره فى قبة داخل كرم فستق، و كانت وفاته سنة إحدى عشرة و ستمائة.

(١٩١) «الفردوس» أنشأتها الملكة ضيفه خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب و هى جليلة، و جعلتها تربة و مدرسة و ربطا و رتبت فيها خلقا من القراء و الفقهاء و الصوفية، و لا تزال أسوارها باقية و جامعها عامرا، لكنها جعلت مدفنا للفلاحين النازلين فى جوارها و تحتاج إلى ترميم، و هى مثال جميل من أمثلة الهندسة العربية، كتب على حائط فنائها بعد البسملة و آيات من سورة الزخرف: «هذا ما أمرت بإنشائه ذات الستر الرفيع، و الجنب المنيع، الملكة الرحيمه، عصمة الدنيا و الدين، ضيفه خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب تغمدهم الله برحمته، و ذلك فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا و الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن يوسف بن أيوب ناصر أمير المؤمنين عز نصره، بتولى العبد الفقير عبد المحسن العزيزى الناصرى رحمه الله فى سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة». و قد كتب على محرابها البديع (عمل حسان بن عفان).

(١٩٢) «البلدقية» أنشأها الأمير حسام الدين بلدق عتيق الملك الظاهر سنة (٦٣٥) خربت سنة (١٠٢٤) و هى ظاهر حلب و نقلت حجارتها لبناء دار السعادة المنشأة فى تلك السنة.

(١٩٣) «القيمرية» أنشأها الأمير حسام الدين القيمري سنة (٦٤٦) و هي خراب منذ قرون.

و هناك أربع مدارس ذكرها ابن الشحنة:

(١٩٤) الأولى بالجبل لشمس الدين أحمد بن العجمي و قد دفن بها أبو ذر المؤرخ سبط ابن العجمي و هي مشتركة بين الشافعية و

المالكية أنشئت سنة (٥٩٥) و تسمى الآن جامع أبي ذر فيها قبلية و منبر.

(١٩٥) الثانية أنشأها الأمير شمس الدين لولو.

(١٩٦) الثالثة بالمقام أنشأها بهاء الدين المعروف بابن أبي سبال.

(١٩٧) الرابعة أنشأها عز الدين مظفر الحموي (٦٣٢).

خطط الشام، ج٦، ص: ١٠٧

هذه هي مدارس الشافعية في داخل المدينة و خارجها. أما مدارس الحنفية في المدينة فهي:

(١٩٨) «البلدية أيضا» و هي بجانب سميتها المتقدمة الذكر بنيت كذلك سنة (٦٣٥).

(١٩٩) «الحلاوية» كانت كنيسة من بناء هيلانه أم قسطنطين و لما بعث الفرنج قبور المسلمين و أحرقوهم (٥١٨) انتقم المسلمون بأن

أحالوا هذه الكنيسة مع ثلاث أخرى مدرسة، و فيها إلى الآن عمد الرخام في تيجانها نقوش تمثل أنواعا من النبات تشبه نقوش قلعة

سمعان، و كانت تعرف قديما بمسجد السراجين جعلها نور الدين مدرسة، و جدد بها مساكن يأوي إليها الفقراء (٥٤٣) و هي من أعظم

المدارس، و من أكثرها طلبه و أغزرها رواتب و جرايات، درس بها جملة من العلماء. و هي منفصلة عن الجامع الكبير بزقاق ضيق في

السوق قبالة من الغرب. و قد ذكرها أحد علماء الآثار فقال: إن الجزء الجنوبي منها يحتوى على بقايا بناء ديني من عهد النصرانية

الأولى، و قد أثبت ذلك التقليد القائل بأن هيلانه بنت في حلب كنيسة، و نقوش البناء تشبه نقوش الكنائس ذات السطح المتوسط في

ديار بكر و الرصافة.

كل هذا يدل بالنظر لصورة تيجان الكنيسة أن أصلها من بناء قام في آخر القرن السادس. و يقول هرزفيلد: إن عهد الفراغ الذي قامت

فيه القبة يرد إلى تاريخ قاعتها. و كذلك الرواقان المتلاصقان من الجنوب و الشمال، و إن الناظر في مجموع هذا البناء يرى الجزء

الغربي منه بيعة تغشاها قبتان أو ثلاث كان محرابا متصلا بالزقاق الآخذ اليوم إلى المدرسة و الجامع الأعظم. و ذكر القزويني أن في

مدرسة الحلاوي بحلب حجرا على طرف بركتها كأنه سرير و وسطه منقور قليلا يعتقد الفرنج فيه اعتقادا عظيما و بذلوا فيه أموالا فلم

يجابوا إليه. و محراب هذه المدرسة العامرة اليوم بالطلبة من أجمل المحاريب عمل بخشب الآبنوس على صورة بديعة، و كان على

قبتها طائر من نحاس يدور مع الشمس.

(٢٠٠) «الأتابكية» أنشأها شهاب الدين طغرل بك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي نائب السلطنة سنة (٦١٨) و خربت في فتنه

التر ثم رمت و ما

خطط الشام، ج٦، ص: ١٠٨

زالت عامرة إلى القرن العاشر ثم خربت، و الآن لا يعرف إلا مكانها الذي أصبح عرصه خالية شرقي جامع العادلية و قبلي خان الفرايين

يفصلها عنهما الطريق الآخذ إلى السفاحية و الطريق الآخذ إلى الخسروية.

(٢٠١) «الحدادية» أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، و هي من الكنائس الأربع التي صيرها ابن

الخشب مساجد فهدمها و بناها بناء وثيقا، تولاها كثير من المدرسين و كانت عامرة في أواخر القرن العاشر. و هي في محلة السفاحية

لم يبق من آثارها سوى عضادتي باب كبير مكتوب على طرفه الأيمن (الحمد لله).

(٢٠٢) «الجردكية» و هي ملاصقة للصاحبية، أنشأها الأمير جرديك النوري بسوق البلاط كملت سنة (٦٠١) كانت عامرة إلى آخر

القرن الثامن.

و في أواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة ثم تحولت مكتبا ثم صارت دكانا ثم عمرتها دائرة المعارف مخزنا واسعا للتجارة و هو الآن كذلك.

(٢٠٣) «المقدمية» أنشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم من أمراء صلاح الدين سنة (٥٦٤) و كانت إحدى الكنائس الأربع التي صيرها ابن الخشاب مساجد فجعلها مدرسة و أضاف إليها دارا كانت إلى جانبها. و هي في محلة الجلوم في زقاق يسمى خان التن باق منها قبلتها و بابها الذي فيه صنعة حسنة. و هي أخت المقدمية في دمشق التي بناها ابن المقدم أيضا، و الأوقاف التي في دمشق مشتركة بين الاثنين.

(٢٠٤) «الجاولية» أنشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولي النوري، و هي في محلة سويقة حاتم و قد كان الباقي منها قبلتها. أما الآن فقد هدمتها دائرة الأوقاف و عمرت في مكانها عقارات للاستغلال.

(٢٠٥) «الطمانية» أنشأها الأمير حسام الدين طمان النوري و خربت في القرن الثامن أو قبله، و كانت في درب الأسفريس الذي هو بجانب جامع منكلي بغا المعروف الآن بجامع الرومي من باب قنشرين.

(٢٠٦) «الحسامية» أنشأها الأمير حسام الدين محمود بن ختلو غربي قلعة حلب سنة (٦١٥)، و أمام بابها القديم باب حادث كتب عليه أنه عمر سنة (١٢٨١)، و الباقي منها قبلتها و ثلاث حجرات صغار. و هي خربة في إدارة

خطط الشام، ج٦، ص: ١٠٩

الأوقاف مسدودة الباب، أول من درس بها بدر الدين يعقوب النحاس ثم ولده محمد ثم العلماء بنو الشحنة.

(٢٠٧) «الأسدية» ثم الخسروية تجاه القلعة المعروفة حينئذ بالطواشيه أنشأها بدر الدين الخادم عتيق أسد الدين شير كوه كانت دارا يسكنها فوقها بعد موته، و كان مكتوبا على بابها جددت سنة (٦٣٢) قال ابن الشحنة: إن هذه المدرسة خربها المنلا محمد ناظر الأوقاف بحلب سنة خمس و ثلاثين و تسعمائة و لم يبق لها عين و لا أثر، و دخلت في عمارة المدرسة التي أنشأها الوزير خسرو باشا المشتملة على مسجد و جامع و مدرسة و خانقاه معدة للضيوف، و هي أول عمارة أنشئت بحلب منذ دخول الترك. و في در الحبيب أن خسرو باشا كافل حلب لما تولى الوزارة أمر بإنشاء جامع و تكيه في حلب بمشارفة معمار رومي، و أدخل عدة أوقاف فيها منها الدار التي عمرها و وقفها أبو الفضل ابن الشحنة و المدرسة الأسدية الملاصقة لها و مسجد ابن عنتر الملاصق لها و كانت هذه الدار إحدى دور حلب العظام مشتملة على حديقة و بحرة و سبع قاعات و فرن و آبار لخزن الغلال و دهليز يصل إلى حمامه المشهور بحمام القاضي.

و اتفق في هذه المدرسة أن جعلت ميسآت للتكية المذكورة. و في أعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة القديمة بزقاق سالار بحلب فأخذهما، و متولياها إذ ذاك محمد جلبى ابن المرعشى و لم ينتطح فيها عزنان اه.

قلنا: و هذا مثال صريح من العمران التركي فهو و الخراب اسمان لمسمى واحد. و هذه المدرسة تسمى اليوم بالخسروية و هي عامرة بطلبة العلم بفضل النهضة الأخيرة، و محرابها و منبرها و قبتها من أجمل آثار الصناعة الحليية في القرن العاشر بقيت بحالها لم تمسسها أيدي المتولين و المتلاعبين، و فيها القيشاني من صنع حلب.

(٢٠٨) «القليجية» أنشأها الأمير مجاهد الدين محمد بن شمس الدين محمود بن قليج النوري سنة (٦٥٠) ملاصقة لدار العدل ثم تجدد من جوانبها الثلاثة دور مضافة إلى دار العدل، خربت في القرن العاشر.

(٢٠٩) «الفطيسية» أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عز الدين أيبك المعروف بفطيس عتيق عز الدين فرخ شاه، كانت دارا يسكنها فوقها توفي

خطط الشام، ج٦، ص: ١١٠

سنة (٦٤٩). و أول من درس بها أحمد القراولي المارداني المعروف بالفصيح و عليه انقضت الدولة الناصرية، و هي مما دخل في دار

العدل و حكم القاضي شمس الدين بن أمين الدولة بانتقال وقفها إلى القليجية أقرب مدرسة إليها، قال ابن الشحنة: إنها درست في الفتنة التيمورية و لم يبق لها عين و لا أثر و لا يعلم أين كانت. و كذا صار في مدارس عديدة فإنني ما زلت أسمع أنه كان بحلب أربعون مدرسة للحنفية خاصة و لم يدع ابن شداد ذلك.

(٢١٠) «المجدية الجوانية» منسوبة إلى مجد الدين بن الداية في محلة بزة بالقرب من ضريح النبي بلوقيا خربت في سنة (٩٣٦).

(٢١١) «المجدية البرانية» منسوبة إليه أيضا دثرت بالكلية.

(٢١٢) «الكلتاوية» بناها الأمير طقتمر الكلتاوي المتوفى سنة (٧٨٧) داخل بانقوسا في محلة تسمى بالكلتاوية، و هي للحنفية لم يبق منها سوى قسم من قبليتها و كان فيها قبر الواقف لكنه دارس.

(٢١٣) «الالچانية» لصيق جامع الطواشي نسبة إلى الچاي أمين السلاح زمن اشقتمر أنشئت سنة (٧٤٤).

(٢١٤) «الكينوشية» أو الكهنوشية داخل باب النيرب و يقال بل هي زاوية.

(٢١٥) «الشهابية» تجاه الناصرية للحنفية. و لا أثر لها الآن، و لعلها دخلت في بناء خان الوزير.

(٢١٦) «الكاملية» بالقرب من الناصرية بناها ابن كامل. و لا أثر لها، و لعلها دخلت في بناء خان الوزير أيضا.

(٢١٧) «الصاحبية» شمالي الجردكية أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب سنة (٧٦٥) و هي باقية إلا أنها متوهنة و فيها نقوش و آثار تعد من النفائس.

(٢١٨) «المدرسة التي في شرقي الجامع العمري» في بحسيتا فيها قبر الشيخ حسن الفول.

(٢١٩) «اليشبكية» بناها الأمير يشبكي المؤيدي نائب حلب على أنها مكتب أيتام و بنى له فيها مدفنا دفن فيه سنة (٨٢٣) و وقف عليها سوقه الذي

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١١

بناه بالقرب منها و لا أثر لها، أما المسجد الذي بنى معها فهو باق في سوق العبي.

(٢٢٠) «تغري الدرمشية» تحت القلعة بناها الأمير تغري درمش نائب حلب.

(٢٢١) «السفاحية» بناها القاضي شهاب الدين سبط بنى السفاح و وقفها على الشافعية و شرط أن لا يكون لحنفي فيها حظ إلا في الصلاة.

(٢٢٢) «مدرسة أفتجا» أنشأها أفتجا خازن يشبكي اليوسفي و هي قبلي السفاحية بالخط المذكور و لا أثر لها اليوم.

(٢٢٣) «الدلغادية» بناها الأمير ناصر الدين باك محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شماليه على كتف الخندق، و وقفها على الحنفية و قرر بها شهاب الدين أحمد بن موسى المرعشي.

(٢٢٤) «الأشودية» أنشأها الأمير عز الدين أشود التركماني دثرت في القرن العاشر.

(٢٢٥) «النقيب» أنشأها السيد الشريف المرتضى النقيب عز الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد الإسحافي المؤتمني الحسيني المتوفى سنة (٦٥٣) على جبل جوشن، و كانت عمارتها من البدائع يقال لها تاج حلب.

(٢٢٦) «الدقاقية» أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن الدقاق سنة (٦٣٠) خربت بعد القرن التاسع على الغالب، كانت شمالي الفيض.

(٢٢٧) «الجمالية» أنشأها جمال الدولة إقبال الظاهري عتيق ضيفه خاتون و هي قبلي الفردوس.

(٢٢٨) «العلائية» أنشأها علاء الدين علي بن أبي الرجا شاد ديوان الملكة ضيفه خاتون بنت الملك العادل. و هذه إما أن تكون ليست مدرسة بل مسجدا و هو موجود الآن في محلة الكلاسة مكتوب عليه اسم الباني هذا سنة (٦٣٣) و هو مدفون في حجرة شرقي القبليّة، أو تكون المدرسة غيره و قد زال أثرها.

(٢٢٩) «الكالمية العديمية» أنشأها الصاحب كمال الدين عمر بن

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١٢

العديم شرقى حلب خارج باب النيرب و بنى إلى جوارها تربة و جوسقا و بستانا، ابتداء بعمارتها سنة (٦٣٩) و تمت فى سنة (٦٤٩).
 (٢٣٠) «الأتابكية» أيضا أنشأها الأتابك شهاب الدين طغرل عتيق الملك الظاهر سنة (٦٢٠) أول من درس بها الصفى عمر الحموى ثم نظام الدين البلخى و الفخر عبد الرحمن بن إدريس و هى فى محلة الجبيلة فى صدرها قبلياً فى طرفها الأيمن إيوان فى وسطه ضريح الواقف و قد اتخذتها دائرة المعارف مدرسة ابتدائية مكتوب على بابها اسم بانيتها أبى سعيد طغرل و أنها على المدرس و الحنفية.
 (٢٣١) «الصهيبة» وراء باب أنطاكية مباشرة تجد بقايا بناء عرفه قدماء السياح بأنه قوس قديمة ثم نقشت عليه بعد كتابة كوفية و يسمى جامع التوتى. و هى المدرسة الصهبية التى قامت على انقراض جامع فى حلب بناه أبو عبيدة. قال سبرنهايم: إن النقوش الكثيرة و الهندسة القديمة و الكتابات الكوفية الموجودة فى هذا البناء تجعله فى الدرجة الأولى من المكانة، و منه يدرس التحويل التام المجهول سره حتى الآن و الذى تم على عهد نور الدين فى أسلوب الهندسة من حيث صور الكتابة و الطرز السياسى فى الكتابات.
 (٢٣٢) «السيفية» أيضا أنشأها الأمير سيف الدين على بن سليمان ابن جندر تحت القلعة لتدريس مذهبي مالك و أحمد بن حنبل. هذا ما ورد فى الدر المنتخب فى الكلام على مدارس المالكية و الحنابلة.

(٢٣٣) «الناصرية» كانت قديما كنيسة لليهود تعرف بكنيسة مثقال ثم فى سنة (٧٢٧) ثبت أنها محدثة فى دار الإسلام فقلبت مدرسة و عمل بها منارة و هى معروفة الآن بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر فى قنطرة بابها و قد عراها الوهن (إعلام النبلاء).
 (٢٣٤) «الشادبختية» أيضا و هذه هى الجوانية أنشأها الأمير جمال الدين شادبخت الخادم الهندى الأتابكى نائب نور الدين بحلب، أول من درس فيها موفق الدين محمود بن النحاس ثم ابن العديم ثم بنو الشحنة، و هى فى سوق الضرب و يقال الآن الزرب تحريفا مكتوبا على بابها أنها موقوفة على الحنفية سنة (٥٨٩) و تعرف اليوم بجامع الشيخ معروف، محراب قبلتها بديع كتب عليه

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١٣

أنه عمل أبى الرجا و عبد الله بن يحيى.

(٢٣٥) «الطرنطائية» منسوبة إلى مجدددها طرنطاي بن عبد الله الأمير سيف الدين نائب دمشق المتوفى سنة (٧٩٢) و هى فى آخر محلة باب النيرب، جسيمة مكتوب على بابها كتابة حديثه بالاستناد إلى بعض الكتب: وقف هذين الجامع و المدرسة عفيف بن محمد شمس الدين سنة (٧٨٥)، و فيها رواقان و حجر و فوق الرواقين رواقان صغيران و وراء كل منهما خمس حجر و شمالي باب المدرسة باب قديم داخله دار يظهر أنها خانقاه تابع للمدرسة.

و كان فى حلب داران للحديث أنشأهما الملك العادل و خمس دور تعد من مدارس المالكية و الحنابلة:

(٢٣٦) الأولى أنشأها القاضى ابن شداد.

(٢٣٧) و الثانية أنشأها مجد الدين بن الداية.

(٢٣٨) و الثالثة أنشأها بدر الدين الأسدى.

(٢٣٩) و الرابعة أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود.

(٢٤٠) و الخامسة أنشأها الصاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطى كانت تعرف بالفردوس.

هذا ما رواه ابن الشحنة عن ابن شداد و غيره فى مدارس حلب الشهباء.

و أنت ترى أنها من هذا القبيل تعد ثانية دمشق. و أن مدارسها على الأكثر نشأت فى الدولتين النورية و الصلاحية أو عمرت بأيدى الأمراء و الأميرات، و لم يكتب لها البقاء كلها لأنها عمل أفراد كما قلنا. و لو لا ذلك لكانت أقرب إلى مقاومة الحوادث. و هذا من جملة آفات هذا الشرق التعس. و أكثر هذه المدارس مما بدأ فيه الخراب فى أيام العثمانيين كما هو الحال فى مدارس دمشق و قد

جاء في تقويم سنة ١٣٣٢ أن في الشهباء (٣٢) مدرسة، و ما نظن العامر منها يتجاوز العشر و قد أنشئت فيها على عهد العثمانيين.

(٢٤١) «العثمانية» أنشأها أحد ولاة حلب في القرن العاشر و ما زالت عامرة يسكنها الطلبة.

(٢٤٢) «الشعبانية».

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١٤

(٢٤٣) «القرناصية».

(٢٤٤) «السيافية»

(٢٤٥) «الإسماعيلية»

(٢٤٦) «المنصورية»

(٢٤٧) «البهائية»

(٢٤٨) «الخرسانية» التي مرت

(٢٤٩) «الكواكبية» أنشأها سنة (١١٦٧) السيد أحمد بن السيد أبي السعود ابن السيد أحمد الكواكبي في محلة الجلوم الصغرى و

أودعها كتبا قيمة تفرقت أيدي سبأ.

(٢٥٠) «الأحمدية» أنشأها سنة (١١٦٦) على صلحاء أكراد ما وراء الموصل. و فيها نحو ثلاثة آلاف كتاب، القاضي أحمد بن طه زاده

المشتهر بالچلبى.

(٢٥١) «الهاشمية» في محلة الفرافرة، أنشأها هاشم الدلال باشى من أصحاب الأملاك بحلب سنة عشر و ثلاثمائة و ألف.

(٢٥٢) «الدليوانية» كانت مسجدا فرممه محمد أسعد باشا الجابرى سنة (١٣٢٣) و جعل فيها ست حجر للطلبة و حجره للمدرس يدرس

فيها الفقه الشافعى، و شرط أن يكون الطلبة غرباء.

(٢٥٣) «البلاطية» هى زاوية مشروط فيها إقامة عشرة من الطلبة الحنفية و لها إمام و مؤذن و مدرس و لهم طعام، وقفها الأمير زين الدين

الحاج بلاط الدوادار و هى خارج باب المقام، بقى من آثارها إيوان كبير و ست حجر يسكنها الفقراء، عمرت في منتصف القرن

التاسع.

(٢٥٤) «التجهيز» أنشئت في صفر سنة عشر و ثلاثمائة و ألف باسم المكتب السلطانى، و هى في غربى حلب في محلة اسمها السليمية

أو الجميلية و هى دار التجهيز و المعلمين.

(٢٥٥) «الصنائع» أسست هذه المدرسة سنة (١٣١٩) في دار الصابونى من محلة باب قنشرين، ثم اتخذ لها بناء خاص في محلة السليمية.

(٢٥٦) «الأميرى» هو جامع لكن فيه حجر للدرس و مدرس للحديث و الفقه و النحو.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١١٥

هذا عدا المدارس الابتدائية و المدارس التى لغير المسلمين و هى عديدة.

و ليس في تاريخ حلب ما يدل على أنه كان فيها كما كان في دمشق دور للقرآن، بل كان فيها دار القرآن الحبشية المنسوبة إلى أبى

العشائر المطل شباكها على الجامع الكبير درس بها أبو الوفاء العرضى سنة (١٠٧١).

و ذكر ابن جببر في المئة السادسة أنه كان يتصل من الجانب الغربى من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا و إتقان

صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى قال: و هذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء و غرابه صنعة، و من أطرف

ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتوح كله بيوتا و غرفا و له طيقان يتصل بعضها ببعض، و قد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً،

فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدياً أمامها فيمد الساكن فيها يده و يجتنيه متكئاً دون كلفة و لا مشقة.

و للبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس. قلنا: و لعله يقصد بكلامه المدرسة الحلاوية العامرة إلى اليوم.

وقد درّس في هذه المدارس أجلة علماء الشهباء و الوافدين عليها من الأئمة، و كانت كمدارس دمشق و القدس تقرئ الطالب ما ينفعه في دينه و دنياه. و يقول منش: إن المدارس تكاثرت في حلب على عهد أولاد صلاح الدين و ازدهرت معارفها و آدابها حتى بلغت أربعاً و أربعين مدرسة أو تزيد، ثلاث منها لعلوم الطب و لم يتعرض من كتبوا على مدارس حلب لوصف مدارس الطب.

(٢٥٧) «القرموطية» إنشاء عبد القادر بن قرموط سنة (٨٨٢) جددها عبد الرحمن بن قرموط سنة (٩٧٨) و هي الآن مكتب.

(٢٥٨) «الشاذلية» و قيل هي دار حديث قرب مسجد النحويين في سويقه الحجارين، كانت ضيقه فتجددت قبلتها و بابها و استخراج منها دكانان.

(٢٥٩) «البولادية» في محله باب المقام في الصف الشرقي من الجادة، خربة يسكنها الفقراء.

(٢٦٠) مدرسة للشافعية هي تربة العلمي في محله الدحديلة.

خطط الشام، ج٦، ص: ١١٦

(٢٦١) «القلقاسية» قبلى القلعة مندثرة.

(٢٦٢) «الصروى» ملحقة في جامع الصرورى في محله البياضة أنشئت سنة (٩٢٠).

(٢٦٣) «الرحيمية» أنشأتها رحمه بنت عبد القادر بن أحمد بك في محله مستدمبك سنة (١١٥٦).

(٢٦٤) «مدرسة تجاه زاوية الكيال» لا يعرف اسم بانها هي اليوم مسكن للفقراء.

(٢٦٥) مدرسة من مشتملات جامع السكاكيني في محله الأعجام.

(٢٦٦) «الدفتدار» منسوبة لبيت العقاد بجانب سبيل البيك داخل محله باب المقام.

(٢٦٧) مدرسة داخل بوابة النبي لا أثر لها.

(٢٦٨) مدرسة خارج بوابة النبي لا أثر لها.

(٢٦٩) مدرسة بجانب الالجابية السالفة الذكر تعرف بالصاحبية أنشأها بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد لا أثر لها.

(٢٧٠) مدرسة تجاه سابقتها لنور الدين زكى لا أثر لها.

(٢٧١) «تربة الطونبغا» و تعرف الآن بالمدرسة بلا اسم.

(٢٧٢) «نصر الله» في محله بحسيتا تجاه كنيس اليهود بزقاق المدرسة معطلة موهنة.

مدارس القدس :

مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق و حلب من حيث البناء و الترتيب و الوقوف عليها، و معظمها مما أقامه الملوك و الأمراء و الأغنياء و العلماء، و لم يكتب لها البقاء كثيرا لأنها كلها من عمل الأفراد، و عمل الأفراد مهدد بالوهن في كل قرن، ضربها الدهر ضرباته، و عبث بجمالها و قطع أوصالها، و لو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب في بيت المقدس نفسه، لكتب لها البقاء أكثر، و لكانت أحكم و أعظم.

خطط الشام، ج٦، ص: ١١٧

و أقدم مدارس بيت المقدس ما بنى على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب عقيب استخلافه هذه المدينة من أيدي الصليبيين، ثم توفر أهل الخير من الأمراء و الأغنياء، و منهم النساء و الإماء، فأنشأوا منها ما أنشأوا عنوان الغيرة على العلم و بث الفضائل. و قد عدد مجير الدين الحنبلى ما كان على عهده منها في القدس و الخليل فقال: إنه كان في بيت المقدس من المدارس:

(٢٧٣) «المدرسة الفارسية» بجوار المسجد الأقصى بالقرب من بئر الورقة منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التي شرقي المسجد وقفها

الأمير فارس البكى، و هي عامرة فيها دار كتب المسجد الأقصى.

(٢٧٤) «النحوية» على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب بانيها الملك المعظم عيسى سنة أربع و ستمائة كان يدرس فيها الكتاب لسيويه.

(٢٧٥) «النصرية» كانت على برج باب الرحمة مدرسة تعرف بالنصرية للشيخ نصر المقدسى، ثم عرفت بالغازلية نسبة لأبى حامد الغزالي و قد اعتكف فيها و أتم تأليف كتابه إحياء العلوم فيما قيل. ثم أنشأها الملك المعظم عيسى و جعلها زاوية لقراءة القرآن و الاشتغال بالنحو و وقف عليها كتباً و تاريخ وقفها سنة (٦١٠) و يقول مجير الدين: إنها دثرت فى عصره و هى الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة.

(٢٧٦) «التنكزية» واقفها الأمير تنكز الناصرى نائب الشام، و هى مدرسة عظيمة ليس فى المدارس أتقن من بنائها عمرت سنة (٧٢٩) و هى بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب، و لا تزال عامرة و هى مقر المحكمة الشرعية.

(٢٧٧) «البلدية» بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة، واقفها الأمير منكلى بغا الأحمدي نائب حلب و دفن فيها سنة (٧٨٢) و ما برحت عامرة و لكنها دار للسكنى.

(٢٧٨) «الأشرفية» داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة، عمرها الملك الأشرف قايتباى و بدئ بحفر أساسها (٨٨٥)، و كانت قبتها ثالث القباب المهمة فى القدس. و الأولى قبة الصخرة و الثانية قبة الأقصى.

خطط الشام، ج٦، ص: ١١٨

و قد تكاملت هذه المدرسة (٨٨٧) و كانت طبقتين سفلية و علوية، و لعلها آخر المدارس الإسلامية الفخمة التى أنشئت من هذا الطراز فى بيت المقدس، على كثرة ما وقف عليها من الأوقاف لم يبق منها إلا سطحها و بابها و عليه كتابه من عهد الأشرف.

(٢٧٩) «العثمانية» بباب المتوضأ بجوار الحرم، واقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون و تدعى خانم، و عليها أوقاف ببلاد الروم و غيرها، و على بابها تاريخها فى سنة أربعين و ثمانمائة و هى لا تزال عامرة و تسكنها أسرة.

(٢٨٠) «الخاتونية» بباب الحديد جوار الحرم واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، ثم أكملت عمارتها و وقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه (٧٨٢) و ما حبس عليها من المغل غير معلوم، و هى اليوم دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية.

(٢٨١) «الأرغونية» بباب الحديد جوار الحرم، واقفها أرغون الكاملى نائب الشام و هو الذى استجد باب الحديد أحد أبواب المسجد، أكملت عمارتها سنة (٧٥٩) و هى الآن دار سكنى و قد ضاعت أوقافها و أحباسها و فيها قبر أرغون شاه.

(٢٨٢) «المزهرية» بباب الحديد جوار الحرم، وقفها المقر الزينى أبو بكر بن مزهر الأنصارى صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، و بعضها راكب على ظهر الأرغونية، و لها مجمع على أروقة المسجد و كان الفراغ من بنائها فى سنة (٨٨٥) و قد غدت دارا للسكنى و قسم منها خراب.

(٢٨٣) «الجوهريّة» بباب الحديد جوار الحرم الشريف و بعضها على رباط كرد. واقفها الصفوى جوهر زمام الادر الشريفه فى سنة (٨٤٤) و هى الآن دار للسكنى.

(٢٨٤) «المنجكية» بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام و نقل مجير الدين أن الأمير كان وصل إلى القدس الشريف لىبنى المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن، فلما قتل السلطان فى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة بناها لنفسه و نسبت إليه، و وقف عليها و رتب لها فقهاء و أرباب

خطط الشام، ج٦، ص: ١١٩

وظائف ثم تلاشت ثم عمرت، و لا تزال معمورة إلى هذا العصر، و قد أتقن عمارها فى العهد الأخير و أقام فيها المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى.

- (٢٨٥) «الجاولية» في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزّة توفي (٧٤٥) ضاعت أوقافها و هي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية.
- (٢٨٦) «النصيبية» في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علاء الدين علي ابن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين، ولي نيابة القدس و عمر بها المدرسة و توفي بدمشق سنة (٨٠٩) و نقل إلى هذه المدرسة و هي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية.
- (٢٨٧) «الإسعدية» جوار الحرم إلى الشمال، واقفها الخواجه مجد الدين عبد الغنى الإسعدى و تاريخ وقفها (٧٧٠) و لا تزال عامرة. و قد شرع في ترميمها منذ عهد غير بعيد لنقل دار كتب المسجد الأقصى إليها و إقامة قاعة للمحاضرات فيها.
- (٢٨٨) «المالكية» إلى شمالي الحرم، عمرها الحاج ملك الجوكندار، و كان بناؤها في مستهل المحرم سنة إحدى و أربعين و سبعمائة. و هي تابعة للإسعدية و ما برحت عامرة.
- (٢٨٩) «الفارسية» إلى شمالي الحرم، واقفها الأمير فارس البكى ابن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية و الجبلية و نائب غزّة، و هو الذى نسبت إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى و هذه الآن دار سكن و كان يدرس فيها الخالدية.
- (٢٩٠) «الأمينية» بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية بجوار المسجد، واقفها الصاحب أمين الدين عبد الله فى سنة ثلاثين و سبعمائة و هي دار سكن.
- (٢٩١) «الدويدارية» بباب شرف الأنبياء جوار الجامع، واقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الصالحى النجمى و تاريخ وقفها سنة (٦٩٦) و فيها اليوم مدرسة البنات الإسلامية.
- (٢٩٢) «الباسطية» بباب شرف الأنبياء، بعضها على المدرسة الدويدارية،
خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢٠
- واقفها زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيوش المنصورة و عزيز المملكة و وقفها سنة (٨٣٤) لا تزال موجودة تابعة للدويدارية و فيها مدرسة البنات الإسلامية.
- (٢٩٣) «الكريمية» بباب حطة جوار الحرم، واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكاسب ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية سنة (٧١٨) و هي الآن دار سكن.
- (٢٩٤) «الدلغادية» بباب حطة جوار الحرم، واقفها الأمير ناصر الدين ابن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون و وقفها سنة (٨٩٧) و هي دارسة.
- (٢٩٥) «الطولونية» داخل المسجد على الرواق الشمالى، كان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط، أنشأها أحمد بن الناصرى محمد الطولونى الظاهر زمن الملك الظاهر برقوق سنة (٨٢٧) و هي من المدارس الدائرة.
- (٢٩٦) «الفرنبة» مقابل الطولونية من جهة الشرق، كان يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة باب الأسباط أيضا، و هي من إنشاء الطولونى عمرها مع مدرسته المقدم ذكرها و جعلها للملك الظاهر برقوق، فلما توفي الظاهر و آل الأمر لولده الملك الناصر فرج رتب لها قرى و أقام نظامها و جعل لها معالم تصرف عليها، ثم لما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب و وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترك يقال له محمد شاه بن الفرنى الرومى و وقفها و نسبت إليه، و قد درست و أصبحت مساكن.
- (٢٩٧) «الحسنية» على باب الأسباط، وقف شاهين الحسنى الطواشى من دولة الملك الناصر حسن المتوفى سنة (٧٦٢) هي الآن دارسة.
- (٢٩٨) «الصلاحية» بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الأسباط وقف صلاح الدين على الشافعية. ذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان نازلا فى كنيسة صهيون ففاوض جلساءه من العلماء الأكابر فى أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية و رباطا للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط، و عين دار البطرک و هي بقرب كنيسة
خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢١

القمامة للرباط، و وقف عليها وقوفا، و ارتاد أيضا مدارس للطوائف، و قيل: كان موضع هذه المدرسة ديرا للراهبان أقيم في مكان بيت القديسين يواكيم وحنة فهدمه الملك و أقام المدرسة مكانه. و تاريخ وقفها (٥٨٨) و وظيفة مشيختها من الوظائف السنية بمملكة الإسلام. و كان الأتراك نزلوا عن هذه المدرسة للأباء البيض في القرن الماضي فجعلوها مدرسة أكليركية، و في الحرب العامة أخذها الترك و جعلوها مدرسة للعلوم الدينية، فلما سقطت القدس في أيدي الحلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة.

(٢٩٩) «الكاملية» بخط باب حطه بجوار الكريمة من جهة الشمال، واقفها الحاج كامل من أهالي طرابلس كتب محضر بوقفها سنة (٨١٠) تعد في الدوارس.

(٣٠٠) «المعظمية» وقف الملك المعظم عيسى مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية، تاريخ وقفها سنة ستين و ستمائة و هي معمورة و كان يدرس فيها الخالدية خصوصا الكافية و الهداية.

(٣٠١) «السلامية» بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية و هي بجوار المدرسة الدويدارية من جهة الشمال، واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل السلامي و الظاهر أنها وقفت بعد السبعائة و هي دار قرآن و لا تزال دار سكن.

(٣٠٢) «الوجيهية» بخط درج الموله. وقف وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا الحنبلي المتوفى في سنة (٧٤٥) هي الآن دار للسكن.

(٣٠٣) «المحدثية» بالقرب من الوجيهية عند قبو باب الفواغة بجوار الحرم، واقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة (٧٦٢) و هي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية.

(٣٠٤) «الحسنية» بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير، واقفها ناظر الحرمين الشريفين و نائب السلطنة بالقدس، و كان بناؤها في سنة (٨٣٧) و هي لعهدنا دار سكن.

(٣٠٥) «التشتمرية» بباب الناظر بالقرب من الحسنية، واقفها الأمير تشتمر السيفي، تاريخ وقفها (٧٥٩) و هي دار سكن.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢٢

(٣٠٦) «البارودية» بباب الناظر بالقرب من التشتمرية، واقفتها الست الحاجه سفري خاتون ابنة شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف والدها بالبارودي تاريخ وقفها سنة (٧٦٨) هي اليوم دار سكن.

(٣٠٧) «الجهاركسية» بجوار اليونسية من جهة الشمال، كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين، جعل الأول المدرسة الجهاركسية و الثاني الزاوية اليونسية. و الجهاركسية نسبة لواقفها الأمير جركس الخليلي المتوفى سنة (٧٩١)، لا تزال معمورة.

(٣٠٨) «الحنبلية» بباب الحديد، واقفها الأمير بيدمر نائب الشام فرغ من بنائها (٧٨١) و هي دار سكن.

(٣٠٩) «دار الحديث» بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالجالق. واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين أبي القاسم الهكاري (٦٦٦).

(٣١٠) «دار القرآن السلامية» تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامي (٧٦١) لم تبرح معروفة.

(٣١١) «الطازية» بخط داود بالقرب من باب السلسلة، وقف الأمير طاز المتوفى (٧٦٣) موجودة إلى الآن دار سكن.

(٣١٢) «الأفضلية» و تعرف قديما بالقبة بحارة المغاربة، وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين علي فقهاء المالكية بالقدس، و وقف أيضا حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم و إناثهم، و هي دار سكن الآن.

(٣١٣) «اللؤلؤية» بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال أو بباب العامود، واقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن لا تزال موجودة و قسم منها زاوية.

(٣١٤) «البدرية» قرب اللؤلؤية بخط مرزبان، وقفها بدر الدين محمد ابن أبي القاسم الهكاري و هي دار سكن.

(٣١٥) «الميمونية» عند باب الساهرة و كانت كنيسة من بناء الروم، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصرى (٥٩٣) حولت إلى

خطط الشام، ج٦، ص: ١٢٣

مدرسة فى عهد العثمانيين، و هى الآن مدرسة بنات للمعارف و جعل اسمها «المأمونية».

(٣١٦) «الأباصيرية» مدرسة تنسب للأمير علاء الدين الأباصيرى، كانت بجوار باب الناظر و هى معمورة يسكنها فقراء السودان و كانت فى عهد الأتراك قسما من السجن.

(٣١٧) «الموصلية» باب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى، و نسبت للخواجه فخر الدين الموصلى و هى عامرة.

هذه خمس و أربعون مدرسة عمرت كلها قبل عهد العثمانيين و ما ندرى إن كانت أنشئت فى زمنهم الطويل مدرسة للفقهاء أو دار للحديث أو القرآن، و أكثر هذه المدارس من البناء الحجرى الجيد و فيها يتجلى جمال الهندسة العربية و بعضها لم يقو على عوادى الأيام فتداعى فى عصر واقفه، و بعضه مما سطا عليه أكله الأوقاف فاضمحل بالطبيعة، لم تشفع فيه متانته بنائه و إحكام بنيانه، و أكثره مما صبر على الأيام و بقى إلى الآن مثلا ناطقا بفضل البانين و الواقفين لكنه تعطل عما كان وقف عليه من التدريس و الملازمة. و كيف دارت الحال فعدد الباقي من مدارس بيت المقدس بالنسبة لما بقى من نوعه فى دمشق و حلب أكثر و لا يعلل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف و الأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها و كان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم و دياراتهم فى القدس عبرة و عظة.

و كان فى قرية الطور (٣١٨) «المدرسة المنصورية» و هى خراب.

و بمحلة الواد (٣١٩) «المدرسة العثمانية».

و بباب السلسلة (٣٢٠) «المدرسة الكيلانية».

(٣٢١) «الدقمية».

(٣٢٢) «المرمية».

(٣٢٣) «البرقوية».

(٣٢٤) «الرشيدية».

و بباب المناظر (٣٢٥) «الفرهادية».

و بباب حطة (٣٢٦) «الصلاحية».

خطط الشام، ج٦، ص: ١٢٤

و فى القدس اليوم مدارس مهمة لطوائف النصارى و لجماعة الصهيونيين تحتاج إلى درس خاص ففيتها من حيث العمران ما هو ذو شأن و إن كان حديثا على طراز غربى فى البناء لا صلة بينه و بين هندسة هذه الديار، لذلك ليس له فى النفس تلك الروعة التى يجدها المرء لمدارسنا القديمة المتقنة الأوضاع.

بقية مدارس القطر:

ذكر من زاروا حماة فى القرنين السابع و الثامن أنه كان فيها ثلاث مدارس و بيمارستان و أن فيها زوايا و ربطا. و ليس لهذه المدارس من أثر اليوم. و من جملة مدارسها:

(٣٢٧) «المدرسة الخاتونية» لمؤسسها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة أنشأتها و نسبت إليها فسميت الخاتونية و وقفت عليها وقفا جليلا و كتبا، و هى الآن بستان فى مبدإ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر إلى باب النهر.

(٤٢) «المدرسة الطواشية» في محلة المدينة، وقفها الطواشى مرشد في دولة الملك المنصور تجاه باب الجامع الكبير الشمالي في جانب حمام الذهب الشرقي، خربت بعد الألف و هي الآن دارة، و كانت عظيمة جدا و لها أوقاف مهمة و لم يبق منها إلا آثار الجدران في البستان.

(٣٢٨) «المدرسة البارزية» و هي للشافعية و قد خربت أيضا.

(٣٢٩) «المدرسة العصرية» في باب حمص على ضفة العاصي قرب بستان الجبل، كانت دار قرآن و كان لها جامع و داران متصلان بها، و في جدارها كتابه حجريه إلى اليوم مقروءة و خلاصتها أن الأمير نجم الدين التوتان بن ياروق أنشأها سنة (٥٨٤) و عمر مسجدها و كتب عليها: أمر بعمل هذه الدار المباركة السيد الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي خلا قبلها و ما استثنى، جعلها دار قرآن و وقف عليها أوقافا كثيرة لتسكن في هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلا و نهارا يتلون كتاب الله و يتذاكرونه بينهم و يدعون للواقف و لوالديه و للمسلمين. و قرر بها شيخين يعلمونهم القرآن الكريم و يكون مقام الفقير فيها مدة خمس سنين

خطط الشام، ج٦، ص: ١٢٥

فإن ختم القرآن أو مضت المدة المعينة فيكسى ثوبا أو جبة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم في شوال سنة خمس عشرة و سبعمائة. (٣٣٠) «المدرسة العزية» كانت في محلة باب الجسر، بناها محمد ابن حمزة العزي بجوار جامع العزي في شهور سنة (٧٢٧) و هي خراب.

(٣٣١) «المدرسة النورية» كانت قريبة من جامع نور الدين و بعد أن عفت آثارها جدها سيف الدين الكيلاني و جعلت تكية.

(٣٣٢) «المدرسة الحنفيه» هي القطعة الشرقية من حرم جامع نور الدين، بناها الملك المؤيد صاحب حماة. و هذه إحدى المدارس التي أشار إليها ابن جبير التي كانت حذاء المارستان و الثانية النورية و الثالثة لا يعرف مكانها.

(٣٣٣) «المدرسة الشيخية» و هي الزاوية السفاحية في الموقف بناها قاضي القضاء نجم الدين عبد الظاهر بن السفاح الحلبي و كانت تسمى مدرسة الشيخة و قد وقف لها حولها أوقافا كثيرة.

(٣٣٤) «المدرسة المظفرية» كانت في جانب الجامع الكبير إلى الغرب، في محلة المدينة، بناها الملك المظفر تقي الدين عمر.

و كان لجميع هذه المدارس أوقاف دارة على الطلبة و المدرسين و معلم لهم، و قد كتب على باب جامع النوري في الحجر ما يستفاد منه أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم فيه خمسة عشر ألف درهم في كل سنة استجلابا لأدعيتهم و إعانته لهم على طلب العلم. و يقال على الجملة: إن مدارس حماة حسنة من حسنات بيت أيوب فإن بضعة منهم تولوا مملكتها فعمروها بعلمهم و عدلهم و نشطوا العلماء و أفضلوا على المعوزين.

و ليس في حمص مدارس قديمة، و قد ذكر ابن جبير في المئة السادسة أن بها مدرسة واحدة و ليس بها مستشفى على رسم مدن هذه الجهات. و قال ياقوت في القرن السابع: إنه كان بها مدارس. و قال الظاهري في القرن التاسع:

إن بها مدارس. و هذه المدارس لا أثر لها.

و من أهم مدارس طرابلس (٣٣٥) «المدرسة القرطانية» أفخم مدارس طرابلس كلها و هي ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية، و قد ذهب

خطط الشام، ج٦، ص: ١٢٦

اسم بانيتها بالتحقيق و زمن بنائها مع الكتابة التي طمست لإخفاء أوقافها التي كانت محفورة على ظهر جدارها القبلي، و المظنون أن بانيتها هو قرطاي ابن عبد الله الناصري الذي أقام المنبر بالجامع الكبير الأشرفي و ذكر اسمه هناك، و كان تاريخ بنائه في شهر ذي القعدة (٧٢٦) و هذه المدرسة تشبه من وجوه كثيرة جامع البرطاي و تقام فيها الصلوات و هي ملحقه بالجامع الكبير.

(٣٣٦) «مدرسة تغرى برمش» بباب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية، والمشهور عند أهل طرابلس أن بانيها الملك الظاهر بيبرس، وليس الأمر كذلك وهذه صورة الكتابة التاريخية التي فوق بابها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خير أملا قوله الحق و له الملك. عمر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغرى برمش الظاهري أعز الله أنصاره مسجدا لله تعالى و تربته لدفن ولديه الأخوين الشقيقين السعيدين سيدي الأمير قاتمر و سيدي الأمير تغرى بردى الطفيلين المنغصين على الدنيا المتجاورين في دار الآخرة تغمدهما الله برحمته و أسكنهما فسيح جنته، و جمع بينهما في دار كرامته. و ذلك في ثالث شهر الله المحرم سنة تسع و تسعين و سبعمائة و رحم الله من يترحم عليهما». و هذه المدرسة متداعية للسقوط.

(٣٣٧) «المدرسة الزريقية» هي في محلة السويقة داخل طرابلس و هي متسعة و لا تقام فيها الصلوات و هذه صورة الكتابة التاريخية التي عليها:

«أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين كرناي السيفي و ذلك بتاريخ شهر شوال سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة».

(٣٣٨) «المدرسة السقرية» تقع في طرف المدينة للجهة الغربية على الطريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل، بناها آقظرق الحاجب مسجدا لله تعالى و تربته للدفن و على حائطها لجهة الجنوب الشرقي كتب الوقفية بأحرف غليظة ظاهرة فيها اسم بانيها و تعداد العقارات الموقوفة على المسجد و شروط الواقف

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢٧

لصرف ريعها و فيها أن كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذي القعدة الحرام سنة (٧٥٧).

(٣٣٩) «الخاتونية» تقع أمام المدرسة السقرية، بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها و معتقها عز الدين ايدمر الأشرفي والي طرابلس، و كان الفراغ من بنائها في سنة (٧٧٥) كما هو مذكور في كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة و فيها أسماء العقارات الموقوفة عليها و شروط الواقفة لصرف ريعها و إقام الصلوات فيها.

(٣٤٠) «مدرسة دهبها» بناها الشيخ عبد الله الدبها الحلبي من أصحاب الطريقة النقشبندية قريبا من سوق الصاغة سنة (١٢٣٤) على ما زبر ذلك على بابها، و وقف عليها أوقافا حسنة و دفن فيها و تقام فيها الصلوات.

و في طرابلس مدارس و زوايا و خوانق أخرى لا يعلم اسم بانيها و لا زمن بنائها و بعضها مهجور مقفر و آخر متداع.

و من مدارس الشام (٣٤١) «مدرسة حصن الأ-كراد» أنشأها والي هذه البلدة بكتمر بن عبد الله الحر الأشرفي زاوية و مدرسة و بيمارستانا بأموال جسيمه على الصادي و الغادي من أبناء السبيل و ذلك في سنة (٧١٩).

و منها (٣٤٢) «رباط خليل الرحمن» أنشأه قلاوون سنة (٦٧٩) صاحب الآثار في دمشق و القدس و الخليل و غيرها.

و منها (٣٤٣) «مدرسة غزة» أنشأها للشافعية الأمير الكبير علم الدين الجاولي الذي سمع مسند الشافعي بالكرك على دانيال، و عمل نيابة السلطنة في غزة و بنى بها مدرسة و جامعا حسنا، و له عمائر كثيرة و خانات توفى سنة (٧٤٥).

و منها (٣٤٤) «خانقاه النجمية» في بعلبك، عمره نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف أيام ولايته عليها و خصه بالصوفية.

و منها (٣٤٥) «السيفية» بمدينة الصلت لمنشئها الأمير سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة (٧٢٤).

و منها (٣٤٦) «الزبدانية» لواقفها محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢٨

حيدر (٦٥٦) درس فيها في سنة (٦٩٨) ابن العدل محي الدين يحيى بن محمد بن عبد الصمد و هي مدرسة جده.

و منها (٣٤٧) «الأمينية» بمدينة بصرى، و كانت عامرة فى القرن السادس و لم نعلم اسم بانيتها.
 و كان فى المعرة (٣٤٨) «مدرسة المعرة» قديمة للشافعية بنيت على ما يفهم مما كتب على رتاجها الجميل زمن الملك المنصور محمد
 أحد ملوك الأيوبيين فى حماة سنة (٥٩٥) و عمر فيها ابن الوردى مدرسة فى النصف الأول من المئتين الثامنة.
 و منها (٣٤٩) «مدرسة عزاز» أنشأها إسماعيل بن عبد الرحمن العزازى و ساق إليها القناة الحلوة و انتفع الجامع و كثير من المساجد
 بهذه القناة و له آثار حسنة غيرها توفى سنة (٧٤٨).

قال ابن طولون: كان فى ربوة دمشق مدرسة يقال لها المضجعية (٣٥٠) و فى الأصل (المنبج) موقوفه على مدرس حنفى و طلبته.
 و كان فى منبج مدرسة بناها نور الدين محمود بن زنكى لابن أبى عصرون فى جملة ما بنى له من المدارس، و فى آثار البلاد أنه كان
 فيها مدارس و ربط.

و فى جباع و ميس و عيناتا و جزين و مشغرة و الشقراء من جبل عامل مدارس دينية تخرج فيها جلة فقهاء الشيعة و أدبائهم، و قد
 خربت و اضطر أهل عامل إلى إرسال بعض الطلبة إلى النجف الأشرف يدرسون فى مدارسها التى هى للشيعة بمثابة الأزهر فى القاهرة
 و الزيتونة فى تونس لأهل السنة.

و لا نعلم فى سائر مدن الشام ساحلها و داخلها شيئاً من تاريخ المدارس و خططها فإن كانت فهى ضئيلة لأن قوة المسلمين فى هذه
 الديار كانت فى العواصم الكبرى حيث ينزل الملوك و الأمراء و الأغنياء، و سائر المدن ضعيفة الشأن فى هذا المعنى. و من الصعب
 أن تقوم المدارس للطلبة فى القرى. و كانت الكرك و صفد و بصرى و الزبدانى و منبج و الرملة و غزة، و أكثرها اليوم أشبه بالقرى
 منها بالمدن أكثر من بيروت و صيدا و صور و يافا و حيفا و عكا و اللاذقية و جبلة و السويدية و الإسكندرونه عمراناً، فقد ذكر
 الظاهري فى القرن التاسع أنه كان فى كل من غزة و صفد و بعلبك مدارس بصيغة الجمع، و منها ما

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٢٩

كان مركزاً من مراكز العلم مثل صفد. و مانخال بعض المدن التى أصبحت قرى كانت خالية أيضاً من مدارس مثل كفر طاب بين
 المعرة و شيزر و لكن أخبارها ضاعت.

و من مدارس القطر مدرسة قايتباى فى غزة درست و يظن أنها قرب المسجد، و فيها مدرسة هاشم حديثة العهد و فيها طلاب
 متعممون، و مدرسة أبى نبوت فى يافا، و مدرسة الجزار فى عكا، و مدرسة فى الجامع الكبير المارستانية فى نابلس، و مدرسة جامع
 الحنابلة، و مدرسة البيك و الصلاحية فى نابلس أيضاً و بجوارها الشيخ بدران شيخ المدرسة، كانت محكمة شرعية و الآن تحولت
 مقهى.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٠

الخوانق و الربط و الزوايا

خوانق دمشق:

الخانقاه كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك. و هى زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط إلا فى
 القرن السادس، و أول من بناها من الملوك بمصر كما قال السيوطى السلطان صلاح الدين يوسف و رتب للفقراء الواردين أرزاقاً
 معلومة. و قال المقرئى: إن الخوانق حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمئة من سنى الهجرة، و جعلت ليتخلى الصوفية فيها لعبادة
 الله تعالى، و إن أول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، و ذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة و
 ليس لهم تجارات و لا غلات فبنى دوراً و أسكنهم فيها و جعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم و مشرب و ملبس و غيره.

وقيل: إن أول خانقاه بنيت في الإسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على الديار المقدسية، و سبب ذلك أنه رأى طائفة من الصوفية و ألفتهم في طريقتهم، فسأل عنهم ما هذه الألفة و الصحبة و الأخوة الخاصة بينكم فقالوا له: الألفة و الصحبة لله طريقتنا.

فقال لهم: أبنى لكم مكانا لطيفا تتألفون فيه و تتعبدون، فبنى لهم تلك الزاوية.

و في التاج أن معاوية كان يكتب إلى أطرافه و عماله و إلى زياد بالعراق بإطعام السابلة و الفقراء و ذوى الحاجة و له في كل يوم أربعون مائة يتقسمها و جوه جند الشام.

و لقد كان بدمشق من هذه الخوانق أو الخانقات ست و عشرون خانقاهها على ما في الدارس و هي:

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣١

(٣٥١) «الأسدية» داخل باب الجابية في المحل المعروف بدرب الهاشمية قديما إنشاء أسد الدين شير كوه، ولى مشيختها نجم الدين بن القرشية العباسي و غيره و هي غير معروفة.

(٣٥٢) «الإسكافية» كانت على نهر يزيد بسفح قاسيون، إنشاء شرف الدين بن الإسكافي مجهول محلها.

(٣٥٣) «الأندلسية» شرقي العزيزية و الأشرفية قرب الكلاسة ملاصقة للجحمة غربي السمساطية و هي المعروفة بأبي عبد الله الأندلسي و من صوفيتها شهاب الدين أحمد القباني. و هذه الخانقاه الآن عمد قائمة ليس إلا.

(٣٥٤) «الباسطية» كانت بالجسر الأبيض غربي الإسعردية و شمالي العزيزية إنشاء عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانمائة، ولى مشيختها قاضي القضاة الباعوني و هي الآن في البساتين خراب.

(٣٥٥) «الحسامية الشبلية» شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل منسوبة لأم حسام الدين عمر بن لاجين ولى مشيختها شرف الدين نعمان و هي غير معروفة.

(٣٥٦) «الخاتونية» ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة أول الشرف القبلي على نهر بانياس شرقي جامع تنكز و ملاصقة له منسوبة إلى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين و هي الآن عمائر و بنايات.

(٣٥٧) «الدويرية» كانت بدرب السلسلة بباب البريد منسوبة لمحمد ابن عبد الله الدمشقي المقرئ المعدل .

(٣٥٨) «الروزنهارية» بالباب الشرقي من الجامع الأموي خارج باب الفراديس في المحل الذي كان يعرف ببرج المستجد، لأبي الحسن الروزنهاري ليست معروفة.

(٣٥٩) «السمساطية» للشمال الشرقي من الجامع الأموي، أسسها أبو

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٢

القاسم على بن محمد السلمي المعروف بالحجيش السمساطي المتوفى سنة (٤٥٣) قالوا: إنه دفن بداره بباب الناطفانيين المعروف الآن بباب العمارة و كان قد وقفها على فقراء المؤمنين و الصوفية و وقف علوها على الجامع و حبس أكثر نعمته على وجوه البر. و كانت هذه الدار دار عبد العزيز بن الوليد و هو الأصعب الأموي و ابن أخت عمر بن عبد العزيز، و قد سكنها عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة و تولاهما أناس من أكابر العلماء. و جددتها تنكز في سنة (٧٢٨) بناء جميلا، و تنكز هذا جدد عمائر المساجد و المدارس و وسع الطرقات في دمشق و له في الشام عمائر و آثار. و قد نقضت منذ بضع سنين من أساسها و جدد بناؤها على أن تجعل مدرسة راقية للعلوم الدينية فلم يتم لها هذا و رجعت حجرها مأوى البطالين.

ذكر القلقشندی من الوظائف الدينية بدمشق في القرن التاسع وظيفه شيخ الشيوخ، و موضوعها التحدث على جميع الخوانق و الفقراء بدمشق و أعمالها، و العادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه السمساطية بدمشق.

(٣٦٠) «الشومانية» أنشأها شومان ظهير الدين أحد مماليك بني أيوب و لم يذكر في الدارس غير هذا.

(٣٦١) «الشهابية» داخل باب الفرج غربى العادلية الكبرى و شمالى المعينية إنشاء الأمير ايدكين بن عبد الله مملوك الأمير الطواشى شهاب الدين رشيد النجمى سنة (٦٥٠) خربت فى وقعة تيمور (٨٠٣) و لم تتجدد بعد، و هى الآن دور و أنقاضها ظاهرة بأحجارها النحيته.

(٣٦٢) «الشبلية» إنشاء شبل الدولة كافور المعظمى بإزاء الشبلية البرانية المتقدمة على نهر ثورة بسفح قاسيون، وليها نجم الدين بن بركات بن القرشية البعلى و غيره و لا يعرف عنها غير هذا.

(٣٦٣) «الشنباشية» بحارة البلاطة تعرف بأبى عبد الله الشنباشى كانت مدرسه للإناث.

(٣٦٤) «الشريفية» تجاه العروبة شرقى دار الحديث الأشرفية ملاصقة للطومانية شرقى باب القلعة و غربى العادلية الصغرى، إنشاء أحمد بن الفقاعى درس بها الفارقى و هى الآن حوانيت.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٣

(٣٦٥) «خانقاه الطاحون» خارج البلد منسوبة لنور الدين تولاهما الشيخ سعيد الغنائى و هى دائره.

(٣٦٦) «الطواويسية» منسوبة للملك دقاق أو لابنه و هى المشهورة بجانب الكوجانية و الطريق الآخذ إلى المرجة و الصالحيه و هى اليوم جامع اقتطعت الأوقاف من غريبها قطعته جعلتها للمستغلات.

(٣٦٧) «الغزية» بالجسر الأبيض على نهر ثورة بالصالحيه قبلى الباسطية و غربى الماردانية و مدرسة إبراهيم الإسعردى، إنشاء عز الدين آى دمير الظاهرى (٦٩٠) و هى محطة الترامواى الآن.

(٣٦٨) «خانقاه القصر» مطلة على الميدان الأخضر، إنشاء شمس الملوك ذهبت مع ما ذهب.

(٣٦٩) «القصاعية» كانت بالقصاعين أو سوق مدحت باشا اليوم إنشاء فاطمة خاتون خطليجى، خربت و لم يبق لها عين و لا أثر.

(٣٧٠) «الكججانية» بالشرف الأعلى بين الطواويسية و الغزية و أمام شركة الكهرباء و الترامواى، إنشاء إبراهيم الكججاني لم تبرح قبتها ظاهرة.

(٣٧١) «المجاهدية» إنشاء مجاهد الدين إبراهيم على الشرف القبلى سنة (٦٥٦) و لم يعلم منها و لا مكانها.

(٣٧٢) «النهرية» المشهورة بخانقاه عمر شاه بأول شارع القنوات شرقى سيدى خمار و هى الآن دار.

(٣٧٣) «النجيبية» جاء فى مختصر الدارس أنها بناحية باب البريد، إنشاء نجم الدين أيوب والد صلاح الدين و لا يعرف لها أثر.

(٣٧٤) «الناصرية» إنشاء صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن غازى بن أيوب بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها فى دور الحديث صارت اليوم حاكورة صبار.

(٣٧٥) «الناصرية» منسوبة للناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى كانت بدرج خلف القيسارية، و هى غير معلومة.

(٣٧٦) «اليونسية» فى أول الشرف الأعلى الشمالى شرقى الخانقاه الطواويسية، إنشاء الأمير الشرفى يونس سنة (٧٨٤) هدمت و جعلت طريقا فى أيامنا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٤

و من الخواتق الحديثه (٣٧٧) «خانقاه أحمد باشا» الشهير بين أمراء الأروام أى العثمانيين بشمسى أحمد باشا تولى دمشق فطالت مدته و بنى فيها خانقاهها قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلى ملاصقة لخندقها و جعل فيها حجرات للصوفية و هى من محاسن دمشق. هذه

رواية الحسن البورينى، و ما زالت هذه الخانقاه عامرة و لكن لا على الصورة التى أرادها الواقف بل صارت جامعاً.

و من خواتق دمشق القديمة (٣٧٨) «خانقاه النحاسية» أنشأها الخواجه الكبير شمس الدين بن النحاس الدمشقى سنة (٦٢٢).

الرباط و يقال له التكية بالتركية قال الأميرى: و الخانقاه بالكاف يعنى الخانكاه و هى بالعجمية دار الصوفية و لم يتعرضوا للفرق بينهما و بين الزاوية و الرباط و هو المكان المسبل للأفعال الصالحة و العبادة. و أول من اتخذ دار الضيافة للواردين الوليد بن عبد الملك الأموى و اتخذ بعده عمر بن عبد العزيز دارا لطعام المساكين و الفقراء و ابن السبيل. و كان لنور الدين محمود بن زنكى يد طولى فى الاستكثار من الربط و الخواتق بنى منها فى جميع مملكته للصوفية و وقف عليها الوقوف الكثيرة و أدر عليها الإدارات الصالحة، و كان يكرم الصوفية و الفقهاء و العلماء. و قد جدد الظاهر دور الضيافة للرسول و الواردين.

و يؤخذ مما قاله المقريزى أن الرباط دار يسكنها أهل طريق الله، و الرباط و المرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطا، و الرباط المواظبة على الأمر، و قيل لكل ثغر يدفع أهله عن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عن وراءه، و المقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد و البلاد، فالرباط بيت الصوفية و منزلهم، و لكل قوم دار و الرباط دارهم.

و كان بدمشق ثلاثة و عشرون رباطا و هى:

(٣٧٩) «رباط البيانى» داخل باب شرقى بحارة درب الحجر أو البيمارستان الآن. و البيانى نسبة لأبى البيان محمد بن محفوظ القرشى و يعرف بابن الحورانى لا يعرف عنه شىء أنشئ سنة (٥٠١).

(٣٨٠) «رباط التكريتى» بالقرب من الرباط الناصرى بقاسيون، إنشاء

خطط الشام، ج٦، ص: ١٣٥

محمد بن على بن سويد التكريتى التاجر المثرى سنة (٦٧٠) غير معروف.

(٣٨١) «رباط الشيخ محيى الدين» بالصالحية بناه على قبر محيى الدين ابن عربى السلطان سليم خان و جعله جامعا و تكية لطعام الفقراء فى سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة قاله القرماني. و هو موجود إلى اليوم.

(٣٨٢) «رباط صفيية القلعية» بالقرب من المدرسة الظاهرية لا يعرف عنه شىء غير هذا.

(٣٨٣) «رباط زهرة» كان قرب حمام جاروخ و أمام فرن خليفه بجيرة دار الأمير مسعود ابن الست عذراء صاحبة المدرسة و هو غير معروف.

(٣٨٤) «رباط طومان» إنشاء طومان أحد أمراء السلجوقيين تحت القلعة و لا يعرف عنه شىء.

(٣٨٥) «رباط جاروخ التركمانى» لا يعرف عنه إلا أنه كان باب الجابية.

(٣٨٦) «رباط غرس الدين خليل» من ولاء دمشق، كان معروفا باب الجابية و هو مجهول.

(٣٨٧) «رباط المهرانى» و

(٣٨٨) «رباط البخارى» كانا عند باب الجابية و لا يعلم عنهما غير ذلك.

(٣٨٩) «رباط البافلاطونى» و

(٣٩٠) «رباط الفلكى» و

(٣٩١) «رباط بنت السلار» داخل باب السلامة و لا يعلم عنها شىء.

(٣٩٢) «رباط عذرا خاتون» كان داخل باب النصر غير معروف.

(٣٩٣) «رباط بدر الدين عمر».

(٣٩٤) «رباط الحبشية» بمحلة المعينية غير معروف.

(٣٩٥) «رباط أسد الدين شير كوه» بدررب زرعة لا يعرف و لا يعرف درب زرعة.

(٣٩٦) «رباط القصاعين» و

(٣٩٧) «رباط بنت الدفين» كانا داخل المدرسة الفلكية.

(٣٩٨) «رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل» و

(٣٩٩) «رباط الداودارى» داخل باب الفرج، ولى مشيخته

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٦

نور الدين بن قوام و هما غير معروفين.

(٤٠٠) «رباط الفقاعى» من رباطات السفح سفح قاسيون.

(٤٠١) «رباط الوزار» بمحلة سوقة صاروجا.

و بعض هذه الرباطات قد ذكرت أولا- باسم مدارس و بنيت فى محلها و الغالب أن الرباطات كانت تستحيل فى الأحايين جوامع أو

مساجد أو مدارس كما شوهد ذلك فى زماننا. و مما أغفله صاحب الدارس من الرباطات

(٤٠٢) «رباط نجم الدين أيوب» والد صلاح الدين، وقفه و كان داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد.

زوايا دمشق:

الزوايا كالحانقاهات و الرباطات إلا أنها تقام فيها الأذكار و قد كثرت بكثرة الطرق و المشايخ المعتقدين و ذلك بعد القرن السادس.

و كان بدمشق على عهد صاحب الدارس ست و عشرون زاوية:

(٤٠٣) «الأرموية» بسفح قاسيون، إنشاء عبد الله بن يونس الأرموى المتوفى سنة (٦٣١) و هى خراب.

(٤٠٤) «الأرموية الشرفية» بالسفح أيضا، إنشاء الشيخ شرف الدين ابن عثمان بن على الرملى غير معلومة.

(٤٠٥) «الحريرية» ظاهر دمشق بالشرف القبلى، إنشاء على الحريرى أبى محمد ابن أبى الحسن بن مسعود سنة (٦٣٠) لم تحقها.

(٤٠٦) «الحريرية الأعفوية» لأحمد الأعف الحريرى.

(٤٠٧) «الدهستانية» لإبراهيم الدهستانى، كانت عند سوق الخيل العتيق.

(٤٠٨) «الحصنية» إنشاء تقى الدين الحصنى بالشاغور و هى موجودة.

و فى ظهر نسخة من كتاب العنوان فى ضبط مواليد و وفيات أهل الزمان للنعمى ما نصه: «الحمد لله: كان ابتداء عماره الزاوية أعلى

خان السبيل المعروف بخان الحصنى قدس سره نهار الاثنين من شعبان سنة (١٠٩٢) اثنتين و تسعين و ألف فى مدّة قليلة، و مطلعها من

مسجده المعروف بالحصنية المجاورة

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٧

للخان المذكور، و قد أنشأ العبد الفقير فيه أيضا عمارات كثيرة و كذلك عماره ميسأته التى اختلسها بنو العجمى الغادرون و انتزعت

منهم و أعيدت أحسن ما كانت بإمداد الله تعالى و معونته و رفقته و الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، و كتبه العبد الفقير تقى

الدين الحسينى الحصنى الشافعى لطف الله تعالى به و المسلمين».

(٤٠٩) «الدينورية» بالسفح إنشاء عمر بن عبد الملك الدينورى المتوفى سنة (٦٢٩).

(٤١٠) «الدينورية الشيخية» بالسفح أيضا إنشاء أبى بكر الدينورى بانى الزاوية بالصالحية.

(٤١١) «السيوفية» بالسفح على نهر يزيد غربى دار الحديث الناصرية و العالمه، إنشاء الشيخ السيوفى نجم الدين بن عيسى بن شاه أرمن

الرومى.

(٤١٢) «الداودية» بالسفح أيضا تحت كهف جبرائيل، إنشاء زين الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن داود القادرى.

(٤١٣) «السراجية» بالصاغه العتيقة منسوبة لابن سراج.

(٤١٤) «الشريفية التعارانية» شرقى الناصرية الجوانية، إنشاء محمد الحسينى التعارانى.

(٤١٥) «الطالبيّة الرفاعيّة» بقصر حجاج، إنشاء طالب الرومي.

(٤١٦) «الوطيّة» شمالي جامع جراح للمغاربة و تعرف بزوايئة المغاربة، إنشاء الرئيس على الشهير بابن وطية الموقت سنة (٨٠٢).

(٤١٧) «الطيبة» شمالي القيمرية الكبرى داخل مدرسة القطار، إنشاء طه المصري شرقي حمام أسامة سنة (٦٣١).

(٤١٨) «العماديّة المقدسيّة» عند كهف جبرائيل بالسفح، إنشاء أحمد ابن عماد الدين بن العماد المقدسي المتوفى سنة (٦٨٨).

(٤١٩) «الغسوليّة» بالسفح أيضا، إنشاء أبي عبد الله محمد ابن أبي الزهر الغسولي.

(٤٢٠) «الفقاعيّة» بالسفح أيضا، إنشاء الشيخ يوسف الفقاعي.

(٤٢١) «الغويّتيّة» بالسفح، لصاحبها الشيخ على الغويّتي.

(٤٢٢) «اللوثنيّة» بالسفح أيضا، إنشاء على اللوثني.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٨

(٤٢٣) «القوامية البالسيّة» غربي جبل قاسيون و الزوايئة السيوفية و دار الحديث الناصرية على حافة نهر يزيد، لصاحبها أبي بكر بن قوام البالسي.

(٤٢٤) «القلندرية الدر كزبنيّة» بمقبرة باب الصغير لمحمد بن يونس الساوجي من مشايخ القلندرية. و قلندر لفظه فارسيّة معناها الدرويش الذي نفّض يده من الدنيا و زهدت نفسه في زخارفها.

(٤٢٥) «القلندرية الحيدرية» كانت بمحلة العونية.

(٤٢٦) «اليونسيّة» بالشرف الشمالي غربي الوراقية و العزية البرانية للشيخ يونس بن يوسف الفتى أنشئت سنة (٦١٩).

(٤٢٧) «زوايئة ابن اللقيميّة» إنشاء ناصر الدين بميدان الحصا، و هو من ذرية صلاح الدين أيوب غير معلومة.

(٤٢٨) «زوايئة عبد القادر الموصلية».

هذه أسماء الزوايا و بعضها لم يزل باقيا لم يصب بما أصيبت به المدارس.

و من الزوايا التي كانت في المزة:

(٤٢٩) «زوايئة خضر العدوي» على باب دمشق، و كان هذا مشهورا بشيخ الملك الظاهر بيبرس و كان يعتقد، بني له كما قال ابن

طولون عدة زوايا في مصر و الشام منها زوايئة المزة، و بدمشق زوايئة و بظاهر بعلبك زوايئة و بحماة زوايئة. و من الزوايا الحديثة:

(٤٣٠) «تكية السلطان سليم» التي بناها أيام بني القبّة على قبر محيي الدين ابن عربي بالصالحية (٩٢٢) و وقف عليها أوقافا دارة و لا يزال بعضها إلى الآن و قد بقي الرسم من هذه التكية و أضيفت إلى معاهد الجامعة السورية.

(٤٣١) «التكية السليمانية» بجانبها منسوبة للسلطان سليمان القانوني، جاء في كتاب الجوامع و المدارس أن فيها من الأحجار و الآلات و الرخام الصافي و الملوّن و الصنائع و القباب و الترصيص ما يحير الناظر و يسر الخاطر.

ثم مدح بحرته و مأذنتها فقال: إنه يحصل للمسافر أنس بهما لأن غالب المهندسين متشرفون بدين الإسلام. ثم قال: تجددت مدرسة إلى جانب التكية السليمانية من الشرف برسم المدرس في سنة (٩٧٤) و هي من زوائد التكية و جاء مدرستها من الباب العالي اه. و قد

رمت هذه التكية في الحرب العامة على آخر أيام

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٣٩

الترك و أزيل ما كان علق بقبتها و مسجدها و حجرها من الكلس و الجبس و أعيدت إلى حالتها الأولى فظهر حسن هندستها و طرز بنائها الرومي، و مناراتها شاهدتان بأنها من طرز بناء الجوامع في فروق، و كانت تتداعى مناراتها الشرقية فنقضت و أعيدت كما كانت،

و استولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها في العهد الأخير جعلته مخبر لمدرسة الطب، و لها أوقاف قيل:

إنها تبلغ نحو مئة ألف ليرة مسانها. و هذه التكية من أجمل آثار العثمانيين، هندستها معمار سنان أشهر مهندس في دولة الترك

المتوفى (٩٦٦) و لم يحصل الانتفاع بها مع أنها فى الغاية بناء و هندسة و أوقافا.

و من التكايا التى عمرت أواخر القرن العاشر:

(٤٣٢) «تكية مولويخانه» تكية الدراويش بالقرب من جامع تنكز، و هى فى غاية الحسن عمرت سنة (٩٩٣) و المولوية هى طريقة الدراويش المنسوبين لجلال الدين الرومى، و كان مقرها فى قونية و طريقتهم تمتاز بالرقص و التواجد و الإنشاد و قد ألغى الكماليون طريقة المولوية من مملكتهم و لم يبق منها إلا بعض تكايا فى الشام أكلت أوقافها و من أهمها تكية حلب.

و من الزوايا التى عمرت بعد صاحب الدارس على ما يظهر:

(٤٣٣) «الزاوية الغزالية» بالجامع الأموى شمالى مشهد عثمان، كان مدرستها سنة (١٠٨٣) مصطفى المحاسنى.

(٤٣٤) «الزاوية المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى الصابونية لشمس الدين بن المزلق مولده سنة (٧٥٤) و كان من الأغنياء، عمر على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة و جسر بنات يعقوب و عيون التجار و غيرها، و أنفق على عمارتها ما يزيد على مائة ألف دينار و لم يسبقه أحد إلى مثل ذلك، و هو صاحب المآثر بدرب الحجاز، وقف جميع أملاكه من القرى و غيرها، و جعل النظر فى ذلك لمن كان حاجب الحجاب و لمن كان خطيبا بالجامع الأموى، و لم يمض قرن و بعض الثانى حتى لم يبق جاريا من مبراته سنة (١٠٨٣) المعينة فى كتاب الوقف سوى شىء قليل. قاله المحاسنى. و الغالب أن اسم واقف هذه المدرسة محمد بن على بن المزلق المتوفى سنة (٨٤٨) و هى عند مسجد الذبان. و من الزوايا الحديثة:

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٠

(٤٣٥) «زاوية الصمادية» فى الشاغور أنشئت سنة (١٠٥٣) أنشأها زاوية و مسجدا محمد بن خليل الصمادى.

(٤٣٦) «الزاوية الشاذلية» أنشئت (١٢٩٠) فى القنوات لأهل الطريقة الشاذلية و ما زال يقام فيها الذكر.

(٤٣٧) «الغواصية» زاوية أنشئت فى الميدان لأصحاب الطريقة الرفاعية، حرق فى الثورة الأخيرة، و كانت عمرت فى أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثانى.

(٤٣٨) «زاوية السعدية» فى زقاق الخمارات و هى لأهل طريقة سعد الدين الجباوى.

و يؤخذ من مجموع الإحصاء الرسمى أن بدمشق الآن إحدى عشرة تكية، و لعل الزوايا داخله فى هذا المجموع. و فى القنيطرة تكية أنشأها لالا مصطفى باشا الذى تولى دمشق سنة (٩٧١).

خوانق حلب و ربطها و زواياها:

(٤٣٩) «خانقاه البلاط» هذه أول خانقاه بنيت فى حلب، سميت بذلك لأنها فى سوق البلاط (الآن سوق الصابون) أنشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان سنة تسع و خمسمائة، كان لها بابان أحدهما من السوق المذكورة ثم سد و جعل صغيرا، و الآخر من شارع شريقيها، قيل: هى موقوفة على الفقراء المتجردين دون المتأهلين بحلب، ثم هجرت و اتخذت بيتا، إلى أن أحيها الشيخ علاء الدين الجبرتى بنفقة الأمير تغرى بردى، ثم إن الحكومة التركية اتخذت منها مخفرا ثم أجرته دائرة الأوقاف مدة طويلة فعمر مخزنا للتجارة و نقل باب الخانقاه القديم إلى شمالى باب المخزن و عمل له دهليز يدخل منه إلى الصحن و القبلىة، و وقع فى هذين ترميمات بسعى أهل الخير و معاونه مديرية الأوقاف فعاد للمحل بعض الحياة.

(٤٤٠) «خانقاه القديم» أنشأها نور الدين محمود بن زكى سنة خمسمائة و ثلاث و أربعين، كانت تحت القلعة إلى جانب الخندق ملاصقة لدار العدل، ثم عرفت بالمقشائية ثم خربت و دخلت فى عمارة المستشفى الوطنى.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤١

(٤٤١) «خانقاه القصر» من إنشاء نور الدين أيضا سنة خمسمائة و ثلاث و خمسين، و هى تحت القلعة سميت بالقصر الذى كان هنالك

من بناء شجاع الدين فاتك.

(٤٤٢) «خانقاه الست» أنشأتها زوجة نور الدين أم الملك الصالح إسماعيل سنة خمس مائة وثمان و سبعين، و بنت إلى جانبها تربة دفنت بها ولدها الملك الصالح. ثم كثرت الخواثق و الربط من ذاك العهد. و عد ابن الشحنة منها عدا ما تقدم خمسة و عشرين رباطا أنشئت في الدولتين النورية و الصلاحية ثم في دولة المماليك، و كلها قامت بأيدي أهل الخير من الملوك و الأمراء و الأميرات و بعض أرباب الدولة.

(٤٤٣) «خانقاه الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوجك صاحب إربل» في المحلة التي كانت تعرف بالسهيلة ثم عرفت بسويقه حاتم. هكذا في الدر المنتخب و هي تعرف بالزينية بزقاق يقال له زقاق الفرن، مكتوب على بابها أنها جددت في دولة الملك الظاهر أبي المظفر ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب، و أن واقفها الأمير زين الدين على ابن بكتكين سنة (٦٣٠). و الآن فيها قبلي و ست حجر.

(٤٤٤) «خانقاه بعرضه الفراتي» أنشأها مجد الدين أبو بكر محمد بن محمد الداية ابن نوشتكين المتوفى سنة خمس مائة و خمس و ستين، أخو نور الدين من الرضاع.

(٤٤٥) «خانقاه بمقام إبراهيم» أنشأها مجد الدين ابن الداية المذكور أيضا.

(٤٤٦) «خانقاه سعد الدين كمشكين الخادم» مولى بنت الأتابك عماد الدين المتوفى سنة خمس مائة و ثلاث و سبعين، كانت ملاصقة للمدرسة الصلاحية (البهائية اليوم) ثم عرفت بالقلقاسية و يرجح أنها و الآتية دخلتا في خان خيري بك.

(٤٤٧) «خانقاه طاوس» بجانب السابقة.

(٤٤٨) «خانقاه ابن النبي» أنشأها الأمير عبد القاهر ابن عيسى المعروف بابن النبي و وقفها سنة (٦٣٩) عند وفاته، و هي ذيل محلة العقبة و الآن صارت دارين و تحتها في حجرة قبر الواقف.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٤٢

(٤٤٩) «خانقاه الأمير علاء الدين طاي بغا» كانت دارا يسكنها فوقها على الصوفية عند موته سنة (٥٥٠) و هي مما دخل في دار العدل ثم دثر و قام في محله المستشفى الوطني.

(٤٥٠) «خانقاه العجمي» أنشأها أبو بكر أحمد بن العجمي و كانت دارا يسكنها، فوقها أخوه الشيخ شرف الدين على الصوفية.

(٤٥١) «خانقاه حوشي» أنشأها بيرم مولى ست حارم بنت التعمسنا (التعلسنى) خاله صلاح الدين في دهليز دار الملك المعظم و تعرف بخانقاه حوشي.

(٤٥٢) «خانقاه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد» المتوفى سنة (٦٣٢) كانت دارا يسكنها فوقها للصوفية.

(٤٥٣) «خانقاه الفطيسية» أنشأها مسعود بن عز الدين أبيك المعروف بفتيس المتوفى سنة (٦٤٩) و هو عتيق عز الدين فرخشاه، و كانت في مدرسته المعروفة بهذا الاسم ثم دخلتا في دار العدل كما ذكر في خبر المدرسة.

(٤٥٤) «خانقاه سنقرجاه» و هي برأس زقاق البهاء قبلى دار العدل عمرت سنة (٥٥٤) ثم دثرت مع دار العدل و دخل الجميع في بناء المستشفى الوطني و ما يليه.

(٤٥٥) «خانقاه الكاملية» مكتوب على بابها و قفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد توفيت سنة (٦٥٦)، و هي في محلة الجلوم الكبرى في زقاق يسمى بزقاق الشيخ عبد الله، ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب.

(٤٥٦) «خانقاه بنت صاحب شيزر» و هو سابق الدين عثمان أنشأتها قبالة دورهم، لا أثر لها و قد كانت في العرصة التي إلى شرقي جامع العادلية و قبلى خان الفرايين.

(٤٥٧) «خانقاه بدر بنات» شمالي اليمارستان الكاملية و قفتها ست العراق ابنة نجم الدين أيوب بن شاذى عن ولدها سيف الدين

سنة (٥٧٤) و هذا الدرب يعرف اليوم ببوابة خان القاضي من محلة باب قنشرين لا أثر لها.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٣

(٤٥٨) «خانقاه بدرب البنات» كذلك أنشأتها زمرد خاتون و أختها ابنتا حسام الدين لاجين عمر بن النورى و أمها أخت صلاح الدين يوسف.

(٤٥٩) «خانقاه نور الدين» محمود بن زكى ذكرها أبو ذر قال:

أظنها أنشئت سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، قال ابن شداد: أظنها التي بجوار المدرسة الشاذبختية الجوانية، و فى هامش بخط محمد بن عمر الموقع أنها أصبحت تعرف بالشيخية، ليس لها أثر.

(٤٦٠) «خانقاه ضيفه خاتون» بنتها سنة خمس و ثلاثين و ستمائة داخل باب الأربعين تجاه مسجد حافظ عبد الرحمن بن الأستاذ، هذه الخانقاه الآن بمحلة الفرازة أمام جامع الزينية و مدرسة الهاشمية، تسمى الناصرية لأن على بابها أنها أنشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب، فيها إيوان عظيم و محراب بديع، و هى مائلة إلى الاندثار يسكنها بعض الفقراء من العبيد المعتقين.

(٤٦١) «خانقاه بنت والى قوص» مندثرة مجهولة المحل.

(٤٦٢) «خانقاه القوامية» كانت تجاه خانقاه ضيفه خاتون، ليس لها أثر.

(٤٦٣) «خانقاه محمد بن عبد الملك بن المقدم» بدرب الخطابين الذى عرف بعد ذلك بدرب ابن سالار سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و درب ابن سالار هو المعروف الآن بزقاق خان التتن من محلة الجلوم، فيرجح أنها كانت بجانب مدرسة المقدمية التي مر ذكرها المنسوبة إلى محمد بن عبد الملك بن محمد الذى يظهر أنه ابن صاحب الخانقاه. لا أثر لها.

(٤٦٤) «خانقاه الشمسية» فى رأس درب البازيار ملاصقة لبيت أبى ذر المؤرخ، أنشأها أبو بكر أحمد و أوصى أخاه صاحب الشرفية أن يقفها على الصوفية، الدرب المذكور يعرف الآن بزقاق الزهراوى.

(٤٦٥) «خانقاه الخادم» هى إلى جانب المتقدمة من شماليها وقفها الخادم من عتقاء بنى العجمى على سكنى بنى العجمى الإناث.

(٤٦٦) «خانقاه تجاه المتقدمة» لا يعلم لمن تنسب و لعلها هى ما جاء فى بعض التواريخ أنها إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهرى، قال أبو ذر عن هاتين الأخيرتين إن فى كل قبرا، و الآن تحول جميع ذلك إلى دور مسكونة.

(٤٦٧) «خانقاه طغرل بك» هو الأمير شهاب الدين طغرل الأتابك

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٤

و هى فى خارج باب الأربعين بالجبل، هى الآن مدرسة النجاة.

(٤٦٨) «خانقاه الدورية» أنشأها محمد بن جمال الدين يوسف الدورى عين التجار بحلب و وقف لها ابنه وقفا و هى موقوفة على

شمس الدين الأتعمانى، كانت على شاطئ نهر قويق من جهة الناعورة، و هى دائرة مكانها مجهول. خطط الشام؛ ج٦؛ ص ١٤٤

(٤٦٩) «خانقاه السحلوية» على شاطئ قويق قرب بستان حجازى وقفها كافل حماة الإسعدى على عبد الرحمن بن سحلول المتوفى سنة (٧٨٢) و جعل لها مدرسا هدمت فى حادثه تيمور لا يعلم محلها.

(٤٧٠) «خانقاه الكاملة» أنشأته الكاملة زوجة علاء الدين بن أبى الرجاء خارج حلب.

(٤٧٢) «رباط» أنشأه سيف الدين على بن سليمان بن جندر بالرحبة الكبيرة، و كان فى دار تعرف ببدر الدين محمود بن شكرى الذى خنقه الملك الظاهر غازى، هو مندثر الآن و يرجح أنه كان فى محلة باب قنشرين تجاه جامع الكريمة.

(٤٧٣) «رباط» قرب مدرسة النورية التي تعرف أيضا بالنفريه، كانت فى محلة السفاحية تجاه المدرسة الصاحبية فى الزاوية الغربية من الجينية المعروفة اليوم بجينية الفريق و هى مندثرة.

(٤٧٤) «رباطان» تحت القلعة للخدم أحدهما برأس درب الملك الحافظ، و الآخر اسمه الجمالية برأس زقاق المبلط بينه و بين

السلطانية طريق، و هذا من إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهري في حدود الأربعين و ستمائة.

(٤٧٥) «رباط قراسنقر» ذكره ابن خطيب الناصرية في ترجمة بانيه المتوفى سنة (٧٢٨) و قال: له وقف كبير، و هو مندثر لا يعلم محله.

(٤٧٦) «رباط الخدام» تحت القلعة، مندثر.

(٤٧٧) «رباط» بشرقي تربة ابن الصاحب أمام الظاهرية، أنشئ في دولة الناصر حسين على بن أحمد.

(٤٧٨) «رباط» بجانب مدرسة ضيفة خاتون في الفردوس، أنشئ سنة (٦٣٣).

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٥

(٤٧٩) «رباط» قرب الظاهرية التي في خارج حلب، أنشئ أيام يوسف الناصر.

(٤٨٠) «رباط للقلندرية» في داخل المدرسة المقدمية التي كانت في الفرازة تجاه قسطل الملك العادل، مندثر.

(٤٨١) «الثكنة العسكرية» أسسها إبراهيم باشا المصري (١٢٤٨) ثم أصلحت سنة (١٢٩٧) و تسمى بقشلة الشيخ بيري لزاوية هذا الدفين

بجانبا، و هي في الجهة الشمالي الشرقية من حلب طولها ثلاثمائة و أربعون ذراعا و عرضها زهاء مائتين.

(٤٨٢) «ثكنة على قمة جبل البختي» بدئ بتأسيسها (١٣٣٠) ثم زيد عليها بعد انسحاب الترك زيادات و لم تزل غير كاملة.

و قد درس كثير من الرباطات في باب المقام و غيره.

(٤٨٣) «زاوية معروفة ببني الخشاب» مكتوب على حجر في جدارها:

جدد عمارة هذه الزاوية المعروفة ببني الخشاب الحسن بن إبراهيم بن سعيد ابن الخشاب (٦٣٣) و فيها تربة كانت تسمى بالتربة

الخشابية، هي اليوم في زقاق اسمه زقاق أبي درجين من محلة الجلوم، جددتها في سنة (١٣١٥) مصطفى الهلالي و جعل لها حجرة

درس و منبرا.

(٤٨٤) «الزاوية الهلالية» في محلة الجلوم بزقاق الهلالية، كانت مسجدا صغيرا قطنه هلال الرام حمداني، ثم وسعت و صارت تقام فيها

الجمعة و الأذكار.

(٤٨٥) «زاوية البزاية» في الجلوم بزقاق خان البيض، تصلى فيها الأوقات الجهرية و لها قبلية.

(٤٨٦) «الزاوية الكمالية» في محلة العقبة في زقاق الكيزواني.

(٤٨٧) «زاوية الأخضر» في محلة السفاحية تجاه جامع الموازينى وقفها الشيخ الأخضر و دفن فيها سنة (١٢٨٧).

(٤٨٨) «زاوية الشيخ تراب».

(٤٨٩) «زاوية الطواشي».

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٦

(٤٩٠) «زاوية النسيمي» تحت القلعة، كانت مسجدا قديما جددتها قانصوه الغورى (٩١٠).

(٤٩١) «الزاوية الجوشنية الاقصراوية» نسبة لمنشئها سنة (٧٤٧) على الشيخ إبراهيم شهريار الكازرونى.

(٤٩٢) «زاوية الصالحية» في سوقة الحجارين و تعرف بالقادرية أيضا، و كانت قديما تعرف بالبهشنية من أقدم الزوايا متولوها بنو

الحلوى.

(٤٩٣) «زاوية البيلوني» في سوقة حاتم صغيرة معطلة يسكنها الفقراء، إنشاء أحد بنى البيلوني.

(٤٩٤) «زاوية محيي الدين» في باب الجنين.

(٤٩٥) «زاوية الكيالى» في سوقة حاتم.

(٤٩٦) «زاوية الجعفرية» في زقاق فرن جقجوقة من سوقة حاتم أنشئت (٧٩٦).

(٤٩٧) «زاوية الهراوى» في محلة الكلاسة كانت دارا وقفها محمد خير الهراوى وسع ببعضها الجامع و جعل الباقي زاوية.

(٤٩٨) «زاوية لبنى الهيراوى أيضا» كانت تسمى مسجد الراعى.

(٤٩٩) «زاوية فى المقامات» مدرسة.

(٥٠٠) «زاوية محمد الأتعانى» البسطامى فى محلة الشماعين من المشاركة أنشئت سنة (٧٠٠).

(٥٠١) «زاوية خضر» تجاه بستان الكلاب فى جنوبى بستان إبراهيم آغا، أنشأها بدر الدين بن زهرة متزها، ثم اغتصبها من بعده جلبان كافل حلب و جعلها زاوية سنة (٧٧٠) و هى مندثرة.

(٥٠٢) «زاوية للقادرية» تنسب للأمير جلبان أيضا على رأس باب الجنان، منشأة سنة (٧٧٠).

(٥٠٣) «تكية المولوية» من أعظم التكايا، أنشأها مرزا فولاذ و مرزا علوان فارسىان من أتباع شاه إسماعيل الصفوى، ثم أحدث فيها زيادات كثيرة.

(٥٠٤) «زاوية» غربى قبلىة جامع قارلق، أنشئت سنة (١٢٠٧).

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٧

(٥٠٥) «زاوية الحربلى» فى قارلق، أنشأها على الحربلى سنة (١٣١٢).

(٥٠٦) «زاوية الشيخ طه بطيخ» فى قارلق أنشئت سنة (١٢٨٠).

(٥٠٧) «تكية الحداد» فى محلة تاتارلر.

(٥٠٨) «زاوية للخلوئية» بالجانب الغربى من الجامع الأحمدى فى محلة الدالين، وقف أحمد صديق.

(٥٠٩) «زاوية» بجانب سابقتها للطريقة النقشبندية للواقف المذكور.

(٥١٠) «زاوية لطريقة سعد اليمانى» فى محلة المشاطية.

(٥١١) «زاوية الشيخ بلال» فى محلة البلاط.

(٥١٢) «زاوية بيت خير الله» فى محلة بانقوسا.

(٥١٣) «زاوية قطليجا» فى محلة محمد بك أنشئت سنة (٧٥٧).

(٥١٤) «زاوية أبى الجدائل» بزقاق المزوق.

(٥١٥) «الزاوية الصيادية» أنشأها أبو الهدى الصيادى سنة (١٢٩٥) ثم زيدت إلى سنة (١٣٢٧).

(٥١٦) «التكية الإخلاصية» نسبة لإخلاص الخلوته المتوفى سنة (١٠٧٤) عمرها له محمد باشا الأرناءوط.

(٥١٧) «تكية القرقلر» مبنية فوق مغارة الأربعين تحت القلعة.

(٥١٨) «زاوية الشيخ ييرق» فى داخل الثكنة العسكرية، أنشئت سنة (٦٧١).

(٥١٩) «تكية بابا بيرم» للقنندرية أنشئت سنة (٧٦٤).

(٥٢٠) «زاوية المصريين» فى محلة اقيول.

(٥٢١) «زاوية هى مسجد الفراء» أنشئ فى حدود الألف، ثم اتخذ زاوية لبنى الأنجق فى محلة الأماحى.

(٥٢٢) «زاوية الشيخ عبد الله» هى مسجد فى محلة الشرعسوس.

(٥٢٣) «زاوية تغرى برمى» كافل حلب قرب جامع الأطروش، أنشأها سنة (٨٤١).

(٥٢٤) «زاوية العقلية» فى محلة محب.

(٥٢٥) «تكية المخملجى» فى ترب الغرباء، أنشئت سنة (٦٤٣).

خطط الشام، ج٦، ص: ١٤٨

(٥٢٦) «تكية الشيخ أبى بكر» للطريقة الوفائية أسسها حمد بن عمر القارى فى القرن العاشر.

(٥٢٧) «زاوية البعاج» في محلة الطلبة.

(٥٢٨) «زاوية الشيخ جاكير» هي مدفن الشيخ تشبه زاوية.

و في حلب خانقاهات و مدارس و زوايا كثيرة اندثر معظمها، جاء في ترجمة مظفر الدين صاحب إربل أنه بنى أربع خانقاهات للزمني و العميان و دارا للأرامل و دارا للأيتام و دارا للملاقيط و خانقاهين للصوفية.

ربط القدس و زواياها:

كان في بيت المقدس عدة زوايا و ربط منها:

(٥٢٩) «الزاوية المعظمية» و قد مر ذكرها في المدارس بقي منها غرفتان و الباقي دارس.

(٥٣٠) «الزاوية الحنفية» بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر وقفها صلاح الدين سنة (٥٨٧) على جلال الدين الشاشي، ثم من بعده على من يحذو حذوه، و قد وقف صلاح الدين نصف دار الأستبار رباطا للمتصوفة و للوافدين من أهل الطريقة و المعرفة، و نصفها مدرسة للمتفقهة، و للطلبة المتعفة المتزهة، فجمع بين العلم و العمل، و كتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل - قاله العماد الكاتب، و دار الاستبار اليوم أو هذا الرباط الآن خراب بلقع.

(٥٣١) «الخانقاه الفخرية» داخل سور الحرم، و بجوار جامع المغاربة، واقفها أبو عبد الله محمد بن فضل ناظر الجيوش الإسلامية، و كانت له أوقاف كثيرة و بر و إحسان لأهل العلم (٧٣٢) و لا تزال عامرة إلى يومنا هذا و هي زاوية و دار سكن.

(٥٣٢) «الرباط الزمني» بباب المتوضأ تجاه المدرسة العثمانية. واقفه الخوجا شمس الدين محمد بن الزمن و كان بناؤه في سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة.

(٥٣٣) «رباط كرد» بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأروغونية، واقفه المقر السيفي كرد في (٦٩٣) استحال الآن دار سكن.

(٥٣٤) «الزاوية الوفائية» بباب الناظر تجاه المدرسة المنجكية و علوها

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٤٩

دار من معالم تعرف بدار الشيخ شهاب الدين بن الهائم، ثم عرفت ببني الوفا لسكناهم بها، و تعرف قديما بدار معاوية، و هي الآن دار سكن.

(٥٣٥) «الزاوية الشيخونية» بالقرب من الصلاحية عند سويقة باب حطة، واقفها الأمير قطيشا بن علي من رجال حلقة دمشق، جعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون، فسميت بالشيخونية تاريخ وقفها (٧٦١).

(٥٣٦) «الرباط المارديني» بباب حطة مقابل الكاملة و هي بجوار التربة الأوحديّة، وقفه منسوب لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب ماردین، و شرطه أن يكون لمن يرد من ماردین تاريخ وقفه (٧٦٣) و هو موجود.

(٥٣٧) «الزاوية المهازية» غرب المدرسة المعظمية من الغرب، منسوبة للشيخ كمال الدين المهازى، و وقفت على مربع من الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في (٧٤٥) و هي معروفة.

(٥٣٨) «الرباط المنصوري» بباب الناظر، وقف قلاوون الصالحى (٦٨١). كان سجنا في عهد الأتراك و اليوم ينزله فقراء السودان.

(٥٣٩) «رباط علاء الدين البصير» تجاه الرباط المنصوري واقفه، علاء الدين آيدغدى (٦٦٦).

(٥٤٠) «الزاوية المحمدية» بجوار البارودية من جهة الغرب، واقفها محمد بن زكريا الناصري سنة (٧٥١) و هي خراب.

(٥٤١) «الزاوية اليونسية» مقابل البارودية، و نسبتها للفقراء اليونسية، مجهول واقفها و هي موجودة.

(٥٤٢) «زاوية الطواشيه» بحارة الشريف و تعرف قديما بحارة الأكراد، واقفها محمد بن جلال الدين عرب سنة (٧٥٣).

(٥٤٣) «زاوية المغاربة» بأعلى حارتهم، وقف عمر بن عبد الله المصمودى المجرى سنة (٧٠٣).

- (٥٤٤) «زاوية البلاسى» بظاهر القدس من جهة القبلة، و هى قديمة نسبتها لأحمد البلاسى.
- (٥٤٥) «زاوية الأزرق» بظاهر القدس من جهة القبلة شرقى زاوية البلاسى، نسبتها لإبراهيم الأزرق (٧٨٠) و تعرف أيضا بزواية السرائى. خطط الشام، ج٦، ص: ١٥٠
- (٥٤٦) «زاوية الدرگاه» بجوار البيمارستان الصلاحى، و كانت فى زمن الفرنج دار الاستبار، و هى من بناء هيلانه أم قسطنطين التى عمرت كنيسة القيامة. واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين و ذلك فى سنة (٦١٣) قسم منها داخل فى كنيسة الألمان (الدباغة) و الباقي خراب.
- (٥٤٧) «زاوية الشيخ يعقوب العجمى» بالقرب من القلعة، و هى كنيسة من بناء الروم تلاشت أحوالها.
- (٥٤٨) «الخانقاه الصالحية» علو كنيسة القيامة وقف صلاح الدين على الصوفية (٥٨٥) و هى موجودة.
- (٥٤٩) «زاوية الجثية» كانت بجوار المسجد الأقصى، وقفها صلاح الدين على جلال الدين الشاشى الزاهد و لا يعرف عنها شىء.
- (٥٥٠) «الزاوية الحمراء» بالقرب من الخانقاه الصلاحية بجوار جامع عمر، منسوبة للفقراء الوفائية و هى باقية.
- (٥٥١) «الزاوية الميمونية» بجوار باب الساهرة، و هى كنيسة من بناء الروم، واقفها ميمون القصرى (٥٩٣) دخلت فى المدرسة المأمونية.
- (٥٥٢) «الزاوية اللؤلؤية» بباب العمود أحد أبواب المدينة و هى وقف بدر الدين لؤلؤ غازى واقف اللؤلؤية المتقدم ذكرها.
- (٥٥٣) «الزاوية البسطامية» بحارة المشاركة واقفها عبد الله البسطامى و كانت موجودة قبل (٧٧٠).
- (٥٥٤) «زاوية الصمادية» بجوار البسطامية من جهة الشمال، و هى بلصق درج البراق سد بابها فى المئة التاسعة.
- (٥٥٥) «زاوية الهنود» بظاهر باب الأسباط، و هى قديمة كانت للفقراء الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم.
- (٥٥٦) «زاوية الجراحية» بظاهر القدس من جهة الشمال، نسبة لواقفها الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحى (٥٩٨).
- خطط الشام، ج٦، ص: ١٥١
- (٥٥٧) «تكية خاصكى سلطان» أنشأتها أم السلطان سليمان، و لا تزال عامرة تفرق الحساء و الخبز، و لا يزال يأخذ قسم من وجهاء القدس و أشرفها هذه الصدقة و الإحسان.

الربط و الزوايا فى المدن الصغرى:

- فى خليل الرحمن لعهدنا ثلاث تكايا و زوايا و هى:
- (٥٥٨) «تكية سيدنا خليل» لها مخصصات من دائرة الأوقاف و تعمل الحساء و الطعام.
- (٥٥٩) «زاوية الأشرف» تقوم الأوقاف بالإدراة عليها.
- (٥٦٠) «زاوية أبى بكر الشبلى» تدر عليها الأوقاف معاوناتها.
- (٥٦١) «الزاوية القادرية».
- (٥٦٢) «زاوية الشيخ سعيد».
- (٥٦٣) «زاوية المجاهد».
- (٥٦٤) «زاوية حارة قيطون».
- (٥٦٥) «زاوية الشيخ الجعبرى».
- (٥٦٦) «زاوية الشيخ الخيرى».
- و فيها زوايا خاصة لإقامة الذكر و وضع أنواع الأعلام و ما يتبعها و يجلسون فيها و يضيفون.
- و كان فى خليل على عهد مجير الدين الحنبلى (٥٦٧) «زاوية الشيخ عمر المجرى» و (٥٦٨) «زاوية المغاربة» بجوار عين الطواشى و

(٥٦٩) «زاوية الشيخ على البكا» و (٥٧٠) «زاوية القواسمة» نسبة لأحمد القاسمي الجندي من ذرية أبي القاسم الجنيدي و هو مدفون بها و (٥٧١) «الرباط المنصوري» تجاه باب القلعة، وقف الملك منصور قلاوون. و (٥٧٢) «زاوية الشيخ إبراهيم المزى» بين حارتى الأكراد و الدارية و (٥٧٣) «زاوية الشيخ عبد الرحمن الأزرومي» فى حارة الأكراد. و (٥٧٤) «زاوية البسطامية» بجوار المسجد الجاولى من جهة الشمال و (٥٧٥) «زاوية السمانية» بجوار زاوية الشيخ عمر المجرى. و (٥٧٦) «زاوية أبى عقافة» و (٥٧٧) «رباط الطواشى» و (٥٧٨) «زاوية شيخون» و (٥٧٩) «رباط مكى» و (٥٨٠) «زاوية الشيخ رضوان» و (٥٨١) «زاوية الشيخ خضر» و (٥٨٢) «زاوية الصلاطقة»

خطط الشام، ج٦، ص: ١٥٢

بجوار البركة، و هى داخل زاوية الأدهمية و (٥٨٣) «زاوية الرامى» و (٥٨٤) «زاوية الشيخ على كنعوش الأدهمى» و (٥٨٥) «زاوية الشيخ محمد البيضة» و (٥٨٦) «زاوية الموقع» و (٥٨٧) «زاوية الشيخ إبراهيم الحنفى» و (٥٨٨) «رباط الجماعىلى» و (٥٨٩) «زاوية الخضر» بالقرب من متوضى المسجد و (٥٩٠) «زاوية الحدابنة» و (٥٩١) «زاوية القادريه» بظاهر البلد.

و من ربط فلسطين (٥٩٢) «الخانقاه الصلاحي» فى قرية حطين، إنشاء السلطان صلاح الدين و لم يبق منه الآن إلا مطبخه و أنقاضه. و منها (٥٩٣) «خانقاه الرمله» مهدم غير معلوم أثره.

و فى أنطاكية ٥ تكايا و فى إدلب و عملها ١٥ تكيه و زاوية، و فى كل من حارم و بيلان و الجسر تكيه، و فى كل من جبل سمعان و منبج تكيان. و فى حماة الزاوية الكيلانية، بنى الجامع القبلى منها ياسين الكيلانى (١١١٨) و لم يعرف اسم بانيتها الأول. و فيها رباط مرتضى الكيلانى و رباط محمد الحريرى و رباط السبسى و رباط الكيالى. و مما كان فى حماة و يصح أن يعين فى جملة الربط دار الإكرام، كانت معدة للضيافة و سكنى الملوك، خربت و صار محلها مدايح و أنشأ فيها مبارز الدين أقوش دارا للضيافة الملوك و هى مما خرب. و كان فيها دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء على سور باب النقفى و الطيارة الحمراء كانت فوق القبو، و الباسطية شرقى الجامع النورى. و كان فى حماة أيضا دار الفرح كانت وقفا للأفراح، فمن أراد أن يتزوج مثلا يأخذها من متوليها و كان فيها ٣٥ بيتا و هى اليوم بيوت السادة الكيلانية. و فى ربض حمص زاوية قام بإنشائها أبو الهدى الصيادى و لكنها لم تتم و هى حسنة البناء و الطراز. و كان فى حمص (دار صدقة) لأبى عبد الله صالح بن ثوبان من عبيد الرسول و هو الذى روى فى مسجد دمشق: أنا الذى صببت الماء على يدى رسول الله صلى الله عليه و سلم و أعطيته قدحا فأفطر.

و فى طرابلس ٨ تكايا و زوايا للخلوتية و القادريه و الرفاعية و الشاذلية و النقشبندية. و فى عكار تكيه واحدة، و فى اللاذقية ٤ تكايا و زوايا.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٥٣

مراقد العظماء ربط و خوانق:

هذه أسماء من هلك فى أرض الشام من الصحابة الكرام: أبى بن كعب. أبو الدرداء. أبو أمامة. أبو عبيدة. أبو هاشم بن عتبة. أوس بن أوس. بلال الحبشى. تميم الدارى. جعفر بن أبى طالب. جبارة بن مالك. الحارث بن هشام. الجباب بن منذر. حرمله بن زيد. خالد بن الوليد (?). خزيمه بن ثابت زيد بن حارثة. سعد بن عبادة. سبرة بن فاتك. سهيل الأنصارى.

سهيل بن عمرو. شرحبيل بن حسنة. و شمعون و صهيب الرومى. الضحاك ابن قيس. ضرار بن الخطاب. ضرار بن الأزور. عبد الله بن حوالة. عبدون ابن السعدى. عبد المطلب الهاشمى. عبد الله بن سعد. عبد الله بن رواحة.

عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق. محمد بن أبى حذيفة. مدرك الفزارى.

معاوية بن أبى سفيان، المقدام بن معدى كرب. معاذ بن جبل. واثله بن الأسقع.

عبد الرحمن بن عوف. فضالة بن عبيد.

أكثر مراقد العظماء من الصحابة و التابعين و العلماء العاملين و الزهاد أشبه بزوايا و تكايا يقصدها الناس للزيارة و التبرك و إن كان منها ما لم يثبت أن فلانا بعينه دفنت تجاليدته في البقعة التي يعنونها. فمن المقامات و المزارات قبر يحيى بن زكريا و الحسين بن علي في الجامع الأموي بدمشق، و قبر صلاح الدين يوسف بن أيوب شمالي هذا الجامع، و مقام ذى الكفل و هود في سفح جبل قاسيون بدمشق، و مقام زين العابدين و بلال الحبشي و بلال بن حمامة و خديجة و رقية و أم كلثوم و أم حبيبة و زينب الكبرى و السيدة سكينه و غيرهم في مقبرة باب الصغير بدمشق. و مقام أبي الدرداء في قلعة دمشق. و مقام حجر بن عدى في مسجد الأقباب بدمشق. و مقام شريح بن حسنه و خولة و أبي و ضرار و بنت الأزور و البدر الغزي و الشيخ رسلان في باب توما و باب شرقي بدمشق. و زيد بن ثابت في باب السريجة. و شمعون ابن خنافة في حي الشاغور. و صهيب الرومي و تقى الدين الحصني و غيرهما في الميدان. و عدى بن مسافر في بستان الورد، و الشيخ السروجي في الشاغور.

و عبد الرحمن الكردى في حي العمارة. و عبد الرحمن بن أبي بكر و كمال

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٤

الدين الحمزاوى و عبد الرحمن الدحداح و الشهاب الميني و الشهاب العطار في مقبرة مرج الدحداح. و مقام محبي الدين بن عربي و عبد الغنى النابلسي و أصحاب الكهف و عائشة الباعونية بصالحية دمشق. و نور الدين الشهيد و الإمام ابن دقيق العيد في سوق الخياطين. و مقام سعد بن عباد في المنيحة.

و عبد الله بن سلام في سقبا. و الشيخ حرملة في جوهر. و مقام حزقيل في داريا.

و دحية الكلبي في المزرة. و هذه القرى الخمس من قرى غوطه دمشق. و تميم الداري في قرية الطيبة. و الشيخ حسن الراعى في قطنا. و معاذ بن جبل في القصير. و الشيخ جندل في منين. و مقام السلطان أبي يزيد البسطامي في المرج.

و مقام أيوب و سعد الأسود في قرية الشيخ سعد في حوران. و سلمان الفارسي في قرية السهوه. و مقام عكاشة في الجولان. و المقداد بن الأسود في تل المقداد.

و سعد الدين الجباوى في جبة. و عمار بن ياسر في اللجاء. و قبر أبي عبيدة ابن الجراح و معاذ بن جبل في الغور. و مقام جعفر بن أبي طالب و عبد الله ابن رواحه و زيد بن حارثة قرب قرية مؤتة في المزار من عمل الكرك.

و مقام الإمام الأوزاعي في بيروت، و مقام يوشع و شمعون في صور، و مقام هرون و يعقوب في صفد، و مقام الخضر و الياس في حيفا. و مقامات شعيب و السيدة سكينه و معاذ بن جبل و نصر الدين الطيار في طبرية. و مقامات صالح و أبي عتيبة في عكا. و مقامات العزيز و لوط و يونس في الناصرة. و مقامات يعقوب و أولاده و الخضر و الشيخ مسلم و بشير و مسعود و رجال العمود و الشيخ بدر و السلطان عماد الدين في نابلس. و مقامات دانيال و يامن و معاوية و إسكندر ذى القرنين و ابن سيرين و الشيخ حمدان و غيرهم في جينين.

و مقامات يامن و شمعون و يعقوب و الياس و أبي خميس و أبي شعير و عامر و عمار و عدنان في بني صعب. و مقامات يحيى و ذى الكفل و يوشع و ناتون و إبراهيم و شيث و الشيخ أبي الجود و أبي رماح و أبي عابد و الجنيد و الدجاني في جماعيل. و مقامات زكريا و يوسف و أنبياء بنى إسرائيل و الشيخ حاتم و غانم المقدسى في المشاريق. و مقامات الشيخ زين و نصر الله في الشعراوية.

و مقامات إبراهيم بن أدهم و أبي يزيد البسطامي في وادي الشعير. و مقامات خالد بن الوليد و عمر بن عبد العزيز و أبي أمامة الباهلي و أبي ذر الغفاري

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٥

و النعمان بن بشير في حمص و المعرة و ما إليهما. و مقام الشيخ أبي الليث السمرقندي و الشيخ علوان في حماة.

ذكر مجير الدين قبة راحيل والدته يوسف الصديق إلى جانب الطريق بين بيت لحم و بيت جالا. و بظاهر الرملة من جهة الغرب بالقرب من البحر مشهد يقال له روييل بن يعقوب. و بظاهر لُد من جهة الشرق مشهد عبد الرحمن ابن عوف الصحابي، و بظاهر القدس في قرية العازرية مشهد العازار. و قبر شمويل بقرية ظاهر القدس من جهة الشمال على طريق الرملة في قرية رامة. و للشيعه عدة مقامات في حلب و أراجنها و في غيرها نسبت لعلی بن أبی طالب و للحسن و للحسين. كما أن للخضر عدة مقامات في كثير من الأرجاء و يشترك في تعظيمها النصارى و المسلمون غالباً. - و مما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة في حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرین كان أبو نمير عبد الرزاق بن عبد السلام (٤٢٥) يتعبد فيه تنذر له النذور و يزار. و مسجد الغضايرى و يعرف بمسجد شعيب و قبر كليب العابد و مسجد الأنصارى و المشهد الآخر في رأس جبل جوشن و مشهد قرية براق و مقام إبراهيم الخليل في قرية نوابل و كلتاها من عمل حلب. و بقرية روحين من جبل سمعان مشهد فيه ثلاثة قبور: الأوسط منها قبر قس بن ساعدة الأيادي، و القبران الآخران قبرا سمعان و شمعون من الحواريين، و قيل: كانا من المتوحدين الرهبان. و بجبل برصايا من عمل اعزاز قبر برصيصا أى مقصورة العابد. و بقورس قبر أوريا. و بمنبج مشهد خالد ابن سنان العيسى صاحب الأخدود. و بجبل بزاعا من غربى الباب مشهد يطل على الباب. و بجبل الطور المجاور لقنسرین مقام يقال: إنه مقام النبى، و بدير سمعان من عمل المعرة قبر عمر بن عبد العزيز و وراءه قبر الشيخ أبى زكريا يحيى بن منصور. و بجبله قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد. و معظم هذه المزارات ما زالت معروفة يختلف إليها الناس و قام عليها شبه زوايا أو تكايا. و فى عيبه من شوف لبنان مزار الأمير جمال الدين عبد الله التنوخى يزوره معظم الطوائف الإسلامية و عليه مدرسة. خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٦

المستشفيات و البيمارستانات

[مستشفيات دمشق:]

إقامه دور للبايسين و مأوى للضعفاء و أصحاب العاهات و الزمانات من أمارات الحضارة و دلائل ارتقاء الإنسان فى العطف على من خانتهم الطبيعة.

روى البلاذرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات و أن يجرى عليهم القوت. و وقف عثمان بن عفان محلة سلوان فى ربض القدس على ضعفاء البلد. و أول من اتخذ المستشفيات صدر الإسلام الوليد بن عبد الملك، فإنه أقام فى دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقى فى محل يسمى الآن بالأعاطلة، ذلك لأن فى ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا فى الندر، و إذا حل الغريب المصاب به تكسر عنه عاديته أو يتوقف سيره فى جسمه. قال ابن عساكر:

كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، فرض للمجذومين و قال:

لا- تسألوا الناس، و أعطى كل مقعد خادما و كل أعمى قائدا. و ذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعى ديوان الزمنى بدمشق قال: لأدعن الزمن أحب إلى أهله من الصحيح، و كان يؤتى بالزمن حتى توضع فى يده الصدقة. و فى سنة (١٦٢) أمر المهدي أن يجرى على المجذمين و أهل السجون فى جميع الآفاق. و بذلك عرفنا أن القوم يخصون المجذمين بأماكن خاصة لثلا تسرى العدوى منهم إلى غيرهم. أما المستشفيات فلأمراض الأخرى.

و لقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات- و البيمارستان

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٧

كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى - الأول (٥٩٥) أنشأه نور الدين محمود بن زنكي كما أنشأ غيره في الشام. و كان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجا ودخلا. قال صاحب الروضتين بلغني في أصل بنائه نادرة و هي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الإفرنج فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيما فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، و مال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلا، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، و بلغ نور الدين موت الفرنجي فبنى بذلك المال هذا البيمارستان و منع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم. تولى بناءه كمال الدين الشهرزوري و كان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق، و هو الذي تولى بناء أسوارها و سنّ دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز و ملمز.

و ذكر ابن جبير أنه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم و حديث، و الحديث أحفلهما و أكبرهما و جريته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا و له قومه بأيديهم الأزمه المحتوية على أسماء المرضى و على النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية و الأغذية و غير ذلك، و الأطباء يبكرون إليه في كل يوم و يتفقدون المرضى و يأمرن بإعداد ما يصلحهم من الأدوية و الأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم، و المارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد أكثر. و أغلب الظن أن البيمارستان الكبير هو النوري، و الآخر غيره (٥٩٦) كان في باب البريد و خدم في هذا رشيد

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٨

الدين بن علي بن خليفة و عز الدين السويدي من الأطباء المشهورين.

و في شذرات الذهب أن المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري كان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي و أول من عمره بيتا و خرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الاخنائي ثم ملكه بعده أخوه البرهان الاخنائي و هو تحت المأذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب، و ينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه.

أما المستشفى الثالث (٥٩٧) فهو المستشفى القيمري في الصالحية بجوار جامع محيي الدين بن عربي نسبة لمنشئه أبي الحسن القيمري المتوفى سنة (٦٥٣)، و واجهه الباب من أجمل الأبواب هندسة، و قدره حسن باشا المعروف بشور يزي حسن و نظر إلى أوقافه و أقام شعائره كما فعل في البيمارستان النوري، و قد رمم في العهد الأخير و أعيد إلى ما كان عليه.

و قرأت في كتاب الجوامع و المدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه: هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى و المعاجين و الأشربة و أجره الطيب، يصرف إلى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهما و نصف غرارة من قمح، و الأذني ستون درهما و نصف غرارة قمح، و للمشارف في كل شهر أربعون درهما و نصف غرارة قمح، و للكحال في كل شهر خمسة و أربعون درهما و نصف غرارة قمح، و للحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهما و ربع غرارة قمح، و إلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهما و سدس غرارة قمح، و لمن يقوم بمريضات النساء و المجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم و سدس غرارة قمح، و إلى الشراب و بائعه لعمل الأشربة و المعاجين في كل شهر ستة و عشرون درهما و ثلث غرارة قمح، و لأمين المشارفين و المتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهما و غرارة قمح و غرارة شعير، و للإمام في كل شهر أربعون درهما و ثلث غرارة قمح، و للمعمار المرتب لعمارتها في كل شهر ثلاثة عشر درهما و سدس غرارة قمح، و يكون بوابا، و للحوائج في كل شهر ثمانية دراهم و سدس غرارة، و للنظر العشر عن المغل، و ربع الوقف و يصرف إلى رجلين اثنين

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٥٩

بخدمه البيمارستان عن ثمن قدور و نحاس و فرش و لحف و مخدة، و في كل شهر إلى قيمه و المؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة و عشرون درهما، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، و بعد ذلك عاد وقفا على الفقراء.

و تاريخ الوقفية سنة (٦٥٢) و تاريخ المسجد سنة (٨٨٠) ثم ذكر القرى و البساتين و الحوانيت و الطواحين التي وقفها على بيمارستانه. و ظل المستشفى النورى عامرا إلى سنة (١٣١٧ هـ) و كان أطباؤه و صيادلته لا يقلون عن عشرين رجلا حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء (٥٩٨) فى الجانب الغربى من التكية السليمانية المطلة على المرح الأخضر، و جمعت له إعانات و أخذ مبلغ من واردات البلدية و أوقف المستشفى النورى و احتفل فى ١٥ ذى القعدة (١٣١٧) بفتح المستشفى الجديد و خصصت أوقاف المستشفى النورى و مبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مسانئة من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذى سمي بادئ بدء بالمستشفى الحميدى نسبة إلى السلطان الذى بنى فى عهده. أما بناية المستشفى النورى فقد جعلت مدرسة و واجهتها لا تزال بحالها و فيها بعض الحجر و النوافذ من البناء القديم، و الغالب أن الأيام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه. و قد رمت واجهته مؤخرا. و زاد المستشفى الجديد رونقا و رواء مقبرة الصوفية التى ضمت إليه و جعلت حديقة للمستشفى. و قد سمي المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطنى و أقيمت مدرسة الطب بجانبه و الحكومة متكلفة بالإنفاق عليه. و فى دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات، الأول:

(٥٩٩) «المستشفى العسكرى» و هو من بناء إبراهيم باشا المصرى فى القرن الماضى.

(٦٠٠) «المستشفى الأسكتلندى» و فى ١١ ذى القعدة ١٣١٥ (٢٤ أيار ١٨٩٩) احتفلت جمعية اسكتلندا الإنكليزية بفتح المستشفى الذى أسسته فى أرض الزينية على طريق بغداد و هو على غاية من حسن الهندسة و جمال الحديقة وسعتها.

(٦٠١) «المستشفى للعازرى» بنته أخوية العازريين الإفرنسية قبالة المستشفى الاسكتلندى و هو حسن البناء و النظام أيضا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٠

(٦٠٢) «مستشفى الراهبات للعازريات» و هو قديم قرب مدرسة للعازرية.

«المستشفى الوطنى» أو مستشفى مدرسة الطب و قد مر ذكره.

(٦٠٣) «المستشفى الطليانى» فى الصالحية قبل الجسر.

(٦٠٤) «مستشفى المجاذيب» المسمى بمستشفى ابن سينا أنشئ له مكان فى قصير دومة.

مستشفيات حلب:

(٦٠٥) «بيمارستان بنى الدقاق» كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل فى دار سودون الدوادار غربى المدرسة الحلاوية لا أثر له اليوم.

(٦٠٦) «بيمارستان بنى الدقاق» على باب الجامع الكبير، كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة. بقى منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء.

(٦٠٧) «بيمارستان نور الدين» هو فى الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى، مكتوب على بابه أنه أمر بعمله محمود بن زنكى بتولى ابن أبى الصعاليك. و يظهر أنه حصل فيه إصلاحات كثيرة، فإنه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها أنها عمرت فى دولة صلاح الدين يوسف سنة (٦٥٥) و مكتوب على إيوانه أنه عمر أيام الأشرف شعبان المتوفى سنة (٧٧٩) و على الشباك الذى على بابه أنه أحدث سنة (٨٤٠) و كانت قاعة المنسولين سماوية فسقفها القاضى شهاب الدين بن الزهدى. أما الآن فقد صارت حجراته تلالا و لم يبق إلا بضع منها يسكنها بعض الفقراء. و قد جاء فى بعض التواريخ أن هذا البيمارستان كان فى الأصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٥٨) ثم جدده نور الدين و وقف عليه أوقافا كثيرة و هو فى أصح بقعة هواء. حدثنى الثقة أنه اطلع على صك وقف أحد المستشفيات فى حلب قال: جاء فيه أن كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فينزغان عنه ثيابه كل صباح و يحمانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثيابا

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦١

نظيفه و يحملانه على أداء الصلاة و يسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت، ثم يفسحانه في الهواء الطلق و يسمع في الآخر الأصوات الجميلة و النغمات الموسيقية الطيبة.

(٦٠٨) «بيمارستان أرغون الكاملي» هو في محله اسمها الآن باب قنسرين، أنشأه أرغون الصغير الكاملي نائب حلب سنة سبعمائه و خمس و خمسين، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق و آلات و أدوية و خدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان في كفالته تغرى برمش على أتم الوجوه، فيه حجر و أروقة و محابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين و يؤتى بالآلات الطرب و المغنين لتكون هذه المشاهد و الأنغام من تمام العناية بالمداواة، ثم في أواخر عهد الأتراك نقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء و أصبح هو مأوى لبعض الفقراء. و في مدخله أفاريز و نقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزينه.

(٦٠٩) «مستشفى الرضائية» أنشأه إبراهيم باشا المصري، و هو مخصص لمرضى العسكر.

(٦١٠) «المستشفى الوطني» بدئ به سنة ثلاثمائة و ألف و بعد بلوغه نحو النصف ترك، ثم أكمل بعد نحو عشر سنين و جعل للمرضى الغرباء و الفقراء.

(٦١١) «المستشفى الزهري» أنشأته إدارة الصحة للأمراض الزهريه بعد تأليف الحكومة العربية.

بقية المستشفيات:

المارستان النوري هو المستشفى الوحيد في حماه، بناه نور الدين محمود و كانت التولية عليه سنة ألف للشيخ صفا العلواني و كان مجموع نفقته كل يوم ثمانية و ثمانين عثمانيا (العثماني أو السلطاني نحو سبعة قروش)، و هو الآن شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى و ذهبت أوقافه إلا قليلا. و قد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من أعلى البيان كتابتان الأولى سنة خمس و سبعمائه و هي: رسم الملك لأمر بخشای الكافلي بحماة بإبطال ما كان

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٢

يؤخذ من البيمارستان بغير طريقه و أن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر و الأشربة و ذلك بأمر السيفي. و الثاني: لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث و ثمانمائه حضر الجنب العالي السيفي المارستان النوري بحماة المحروسة داود بن المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية أعز الله أنصاره و تبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به و هو في كل شهر مائة درهم لاغتنام الأجر و الدعاء اه.

و في حماة اليوم مستشفى واحد، و مثله في حمص، و آخر في درعا، و رابع في القنيطرة، و خامس في يبرود، و سادس في دير الزور، و في إسكندرونه مستشفى و ذلك ما عدا المستوصفات في كثير من الأقاليم، و كل هذه المستشفيات و المستوصفات بإدارة الصحة و الإسعاف العام و يقوم بإدارتها و تريض مرضاها أطباء و طيون.

و كان في طرابلس «مارستان» أنشأه بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر أحد الأمراء بحلب المتوفى سنة (٧٤٢). و في طرابلس اليوم مستشفى كان سمي مستشفى عزمي بك أحد عمالها الذي قام بتنشيطه.

و قبل سنة ٥٥ جاء نابلس مبشر إنكليزي و أسس فيها مستشفى، و أخذ يعالج المرضى بأجور طفيفه و يكرهم على استماع وعظه فتحسس المسلمون و أسسوا سنة (١٣٢٦) شرقية المستشفى الوطني و هو إلى اليوم سائر سيرا حسنا يقوم بأموالهم و ريع البلدية.

أسس البرتستانات عدة مستشفيات و مستوصفات في الشام منها في طبرية و الناصرة و صفا و صيدا و القدس و يافا و حيفا و بيروت و دمشق و غيرها من البلدان، و لا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى أو شبه مستشفى مثل اللاذقية و طرطوس و منها مستشفى خاص بمرض السل و مستشفى العصفورية للمجاذيب في لبنان، و كان في الخليل مستشفى جميل اسمه المنصوري وقفه الملك المنصور قلاوون، و مستشفيات الصهيونيين في القدس و حيفا و يافا و غيرها مهمة في بابها.

وقد أقام الصليبيون في المدن التي احتلوها بعض مستشفيات منها واحد في صور و كان لهم في القدس مارستان و هو من الأماكن التاريخية كان عبارة

خطط الشام، ج٦، ص: ١٦٣

عن ١٥٥ مترا طولا و ١٣٧ مترا عرضا و عليه قامت في القرون الوسطى الملاجئ و المستشفيات الخاصة بزوار الغرب و لا سيما رهبنه فرسان القديس يوحنا و مستشفياته. و حول ابن أخت صلاح الدين كنيسة الملجأ إلى مستشفى و بقي اسمه العربي الفارسي أي المارستان يطلق منذ ذاك العهد على مجموع تلك الأماكن. و في سنة (١٨٦٩ م) أعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقي من المارستان إلى تاج بروسيا بمناسبة زيارة ولي عهد بروسيا للقدس. و قد كان صلاح الدين جعل دار الأسقف في القدس لما فتحها بيمارستان المرضى.

و مستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها و وفرة ريعها و تنافس المبشرين في تجويدها و تخيرهم لها أحذق الأطباء، و في بعض قرى لبنان مستشفيات صغيرة و مصاح منها مصح بحنس و مستشفى جمعية الفرندس في برمانا، و مصح ضهر الباشق و غيرها، و في عمل دومة من دمشق مستشفى ابن سينا لأصحاب الأمراض العقلية.

لهفة على المدارس و غيرها:

أرأيت أيها الناظر في هذا الكتاب، كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس و الربط و الخواص و المستشفيات، و كيف تساوى في تأييدها و الوقف عليها الملوك و العظماء و جمهور الناس من الرجال و النساء. و كيف جودوا بناءها و أحكموا وقوفها الدارة، و مع هذا لم تقو على مقاومة المخربين و الغاصبين فعاد أكثرها دورا و حوانيت. أزهرت في أربعة قرون و استصفت في أربعة، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج، عملوا هذا و هم متمسكون بالدين يصلون و يصومون، و يقال عنهم: إنهم المسلمون، و ربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء و ما هم في الواقع إلا من أهل الرسم لا من أهل العلم، و قد يكون أقرب الناس إلى مخالفة الشرع القائمون عليه.

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس و انتهاك حرمتها أم تلام الأمة؟ لا شك أن الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لأنها هيأت سبل السرقات، و ربما كانت مشتركة بالسرقة أحيانا، و لكن اللوم كل اللوم

خطط الشام، ج٦، ص: ١٦٤

على الجماعة و المدارس مدارسهم و الدين دينهم. و منذ عبث العابثون بالمدارس، و سرق السارقون عينها و مغلها، تراجعت دروس الدين و تراجعت معها دروس العلوم الأخرى ففشا الجهل المطبق في الأمة، و كادت تعود سيرتها الأولى من الجاهلية الجاهلاء، و أصبح من وسموا بالعلم إذا سئلوا أفتوا بغير علم، و جوزوا ما حرمه الشرع و حرموا ما جوزوه، و من مساويهم أكل أموال الأوقاف و استصفاة أعيانها، و معدهم تهضم خصوصا المساجد و المدارس.

أضاع الخلف ما أبقاه السلف معمورا زاهرا من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشري ظرفا و مظروفا، و بها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئا مذكورا في إتقان الهندسة و البناء، و أنهم على جانب من سلامة الذوق، و أنهم حراس على مجد أمتهم، و أن الأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، و ما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم و الآداب، و لو لم تكن ذات قانون معقول. نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس، و لعله يقوم في الجيل المقبل من أبنائنا علماء بالآثار و البحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار في أوروبا مائة سنة حتى كشفوا لأممهم أسرار البيع العظمى التي قامت خلال القرون الوسطى، و عسى أن يبرهن الباحثون منا أنه لم يقم في الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه و يغذونه بعقولهم، و يفيضون عليه من معين قرائحهم.

قلت مرة من محاضرة ألقيتها في الشهباء في ربيع سنة (١٣٤١ هـ ١٩٢٣ م) و قابلت فيها بين مدارس حلب و دمشق: من تأمل مدارس أرباب الخير من المسلمين في الشهباء و الفيحاء، و قرأ ما كتب عليها بتأمل، و زارها المرة بعد المرة على تغيير معالمها، و تشويه طراً على محاسنها، و فساد عرا أذواق الأبناء و الأحفاد، إذا قيس إلى سلامة ذوق الأحفاد، و جعل نسبة بين عدد ما عمر منها و ما بقى في البلدين الشقيقتين يؤكد معنا أن الفساد استحوذ عليها في دمشق أكثر من حلب، و أن من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاً تلك المدارس كانوا في الفيحاء أكثر من أمثالهم في الشهباء. و لذلك كان عدد الباقي في حلب أكثر و أجود من المدارس في دمشق.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٥

و لا ينكر أن مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر. و قد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد، و في دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما في حلب، و لم يكثر الآجر و الطوب و الخشب إلا في القرون الحديثة، و لذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة في بنائها، فإن الأمثلة الظاهرة منها إلى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب. و لكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها، و متانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحليون، يضاف إليها حب الاحتفاظ بتراث الأجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء، كامن في عصور الشقاء و الرجوع إلى الوراء.

و الناظر إلى مدارس دمشق و حلب و هي لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة، منها زهاء مائتين في دمشق يدرك أنها من عمل السلاطين و العمال و قليل من التجار و أهل الخير. و كان منهم من يتوخى منها أن تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها إذا صودرت أملاكهم. بنى قليل من التجار المدارس لأن الشعب كان يفنى في أغلب العصور في كبرائه، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة و الغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، و كان الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة، و الثروة تتجلى في الدار و الفرش و الدابة و اللباس، و في بذل المال لإقامة دور العلم و إيواء اليتامى و المحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالبا العمال.

و قل أن رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم إلا قليلاً من المساجد، و لو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من اعتداء المعتدين أكثر من عمل الأفراد، و لما استصفت و استحلت هدمها، و لا غير خططها و معالمها من لا يخافون الله و لا عباده، و لجات ممثلة للعظمة الحقيقية في الأمة، على نحو ما قامت البيع و الأديار و المدارس في الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة و أساقفة و قساوسة، فكانوا يجمعون قليلاً من صدقات الملوك و الأغنياء و الفرسان و الشعب، فيجىء مجموعها عظيماً يدار بأيدي هيئة منظمة على كل حال، و يختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلاً.

للأثر القديم من الموقع في النفس ما ليس للأثر الحديث، فإن الأول

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٦

يذكر بأمور كثيرة، يذكر بمجد السلف و أياديهم البيضاء و إرادتهم الصحيحة، يذكرنا بأن فلانا الذي تحترمه الأمة بنى ذاك المصنع و تلك الدار، و أن فلانا العالم درّس هناك أو كان يألف المكان الفلاني، و كم من أثر تاريخي أو مصنع من مصانعنا نمر به دون أن نحفل بما فيه من عبر، و لو كنا على شيء من مدنية أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم، و لو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها و مساوئها لرأيتنا أسرع إلى التقاط آثار الجدود و الاحتفاظ بها من الماء إلى الحدود.

لا- تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها و بين ماضيها، خصوصاً إذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، و تقاليد جميلة، و مقدسات متسلسلة، أما و نحن لا نرقى بدون القديم و الأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق إلى هذه الغاية، و هذا لا يتم بغير إحياء دور العلم و معاهد الفضل، و إحيائها موقوف على قليل من العناية.

ليس للمدرسة الحديثة التي نشئها اليوم تلك النضارة، و لا- تتجلى فيها معاني الحسن و الإحسان التي نشعر بها و نكاد نلمسها في المعاهد القديمة مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها الله فإنك إذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من تاريخ هذه الأمة المجيد، تمثلت بيت بنى أيوب و أفضلهم على ربوع الشام، و كفى بهم و بصلاح الدين حسنة عقم الدهر أن يلد مثلها. كثير من المصانع بناها الملوك

بالسخره و إرهاق الرعية، و إعنات الأسرى و المعتقلين، و لم نقرأ فى التاريخ أن أحدا من آل البيت الصلاحى عمر مدرسه أو جامعا أو مستشفى أو رباطا من مال مشبوه، أو سخره ممقوته، فأكرم و أنعم بكل فرد أصيلا كان فى هذا البيت الشريف أو دخيلا عليه
عمر أهل الخيرات من سلف هذه الأمة هذا القدر العظيم الذى نعجب به من معاهد التعليم الدينى دع المساجد و الجوامع، و لو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشىء بمعارفها و نشرت النور بينهم. و كانت المدارس و الجوامع فى تلك القرون المظلمة فى الغرب المستنيرة فى هذا الشرق هى المتكفلة بتعليم الناس و إخراجهم من الأمية، و كان لمعظم المدارس و الجوامع كتاب مرتبطة بها و خارجة عنها لتعليم الأطفال تؤهلهم لتلقى دروس

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٧

المدارس و الجوامع، و لا نغالى إذا قلنا: إن عدد الأميين كان فى تلك العصور أقل مما هو الآن فى هذه الديار. و لو اطرده العمل اطراده فى مدارس الغرب مثلا لأصبحنا فى هذا القرن و الأميون أقل مما هم فى ممالك المدينة الحديثة.
و لكن الجهل قضى على تلك المدارس و أكل المتولون أوقافها فخرت و تغيرت معالمها. و كم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير فى سبيل شهواتهم بدون محاسب من ذمهم و لا رقيب من أصحاب السلطان. و لو كتب لهم أن يأكلوا منها بالمعروف و يصرفوا حقوق تلك المعاهد أو بعض مغلها على رمها و إجراء الرزق على ساكنيها و الدارسين فيها لأتت بثمرات جنية، و لما أكلوا فى بطونهم النار، و ركبوا متن العار و الشنار، و كم من بيت كان موسوما فى القديم بالعلم و التقى فخلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمان فاستحلوا أموال المدارس و المعابد فدثر البيت و انقرضت الأسرة و ذهبوا و ما يملكون جملة. لم يرحموا لأنهم لم يرحموا.

ضبطت الحكومة السابقة أكثر أوقاف الملوك و السلاطين و كان ريعها كثيرا جدا فى هذه الديار، فلم تصرفها فيما خصصت له و لم تنجح فى الغاية التى توختها منها، و استقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف التى ائتمنوا عليها أو انتهت إليهم بحكم الوراثة فأساؤوا الاستعمال إلا من عصم الله. فالسبب إذا فى خراب مدارسنا الجميلة سوء إدارة الحكومات السالفه و عبث المتولين عليها و إخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم فى جملة حماة هذا المجتمع و هم أعدى عداته اه.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٨

دور الآثار

[المتاحف و العرب:]

المتاحف العامة على الصورة التى نراها فى الغرب لعهدنا ليست مما عهد فى هذا الشرق. فإن آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متحف دعتة رواق الصور.

و عرضت رومية أجمل ما أخذته من الصور من آثينة. و لم يكن حتى فى القرون الوسطى فى أوربا متاحف. و كانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ فى دور الملوك و فى قاعات البيع و الأديار. حتى إذا كانت القرون الحديثة و نشأ كبار المصورين فى إيطاليا و غيرها كثرت المتاحف التى تعرض فيها التصاوير العجيبة و مبدعات العقول و الأنامل، بحيث كاد أن يكون لكل مدينة معرض منها. و أخذت تغص بما يهديها إياه الكبراء و الملوك، و لما كثر الإخصاء عمّ المتاحف أيضا. فصار للأمم العظمى متحف لغرائب الصنائع فى النقش، و آخر فى الرسم، و غيرها فى أدوات الحرب، و آخر فى أدوات الزينة، و غيره فى أدوات الموسيقى إلى غير ذلك.

و لا نعلم إن كانت للعرب متاحف أيام مدينتهم على الصورة التى هى اليوم فى كل بلد تذوق الحضارة، بل كانت متاحفهم فى جوامعهم و قصورهم التى اختاروا لنقشها و تزويقها أمهر صناع أيامهم على نحو ما كان فى جامع بنى أمية فى دمشق، و الأقصى فى

القدس، و بعض جوامع بغداد والقاهرة، و في الحمراء و الزهراء في الأندلس، و في قصور الخلفاء ببغداد و قصورهم في الأندلس و قصور الفاطميين في القاهرة. و كانت دور العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة و تجعلها بحيث يراها من يختلفون

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٦٩

إلى قصورهم، و لا تزال البيوت القديمة إلى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني و القاشاني و السلاح القديم و الحلبي و الأواني الفضية و الذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على القطر من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات دع الرغبة في الكماليات. و كان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف و آيات التعين و الرياسة، كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب و دمشق إلى عهد قريب.

كان الفاتحون يغنمون في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة و أدوات الزينة و التحف. هكذا فعل تيمور فحمل معه من دمشق صناعات هذه البدائع و ما أبدعوه، و هكذا فعل سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التي استطاع حملها و زين بها قصره و قصور جماعته في القسطنطينية. و ذكر المؤرخون أن بعض ملوك الأندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير، و فيها صور الآدميين و غيرهم.

و كان أهل أوروبا زمن الحرب الصليبية و بعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الأقمشة و البسط و أدوات الزينة من الشام، و لما جاء القرن الأخير أخذوا ينقلون إلى متاحفهم ما أبقته صنع الأيدي من أهل المدن القديمة من تماثيل و نصب و أحجار زبر عليها رقم، و في بعض متاحف أوروبا و لا سيما في متحف اللوفر في باريس و المتحف البريطاني في لندن و متحف برلين و متاحف إيطاليا و غيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن و الشام و مصر و لا سيما من الديار الشامية. و قد أخذت عادياتنا تسافر من أرضنا منذ أخذ علماء الآثار يبحثون في سهولها و جبالها، و ما كتبه كثير من علماء المشرقيات و العاديات في القرن التاسع عشر دليل يؤيد ذلك، و قد نشروا أبحاثهم في كتب خاصة و مقالات لهم في المجلات الأثرية و العادية و العلمية.

أما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلّ جدا من اهتدى إلى الاحتفاظ بما خبأته الأيام في بطون هذا الصقع. و كنا أزهدهم الناس فيها حتى نقلت آثارنا و نفائسنا أمام أعيننا كما نقلت مخطوطاتنا و نحن ضاحكون مستبشرون، و انتفع بها القوم هناك و أكملوا بها تاريخ المدينة، و لما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية أخذت تمنع بعض الشيء في نقل هذه التحف

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٠

و الطرف، و نقلت بعض ما عثر عليه من المصانع في خرائب صيدا و تدمر و غيرها فزينت بها متحف الاستانة. و قد ندب بعض علماء الآثار من الإنكليز و حفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة في المسجد الأقصى فذهب ما فيها و لم يعلم عنه شيء.

و كم من بعثة أثرية قامت بحفريات و أخذت ما عثرت عليه و لم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه و لسان حال الباحثين ما ورد في الأمثال العربية «لا يحزنك دم ضيعه أهله». و قد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريس إعادة ما أخذته هي و ألمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار. و في ذلك برهان على مكانة العاديات في نظر الغربيين.

و لقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست و أربعين سنة أن تنشئ لدمشق متحفا صغيرا تجعل فيه العاديات و بدائع الصنائع، فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لأنهم يحبون أن يكون كل فضل في الاستانة، و أن تكون سائر الولايات قرى و مزارع للاستعمار على طريقتهم، حتى إذا نادى سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة (١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م) دار المدرسة العادلية من أجمل قصور الفيحاء، و أخذت تجمع بعناية المجمع العلمي ما بقي من الآثار النفيسة. فهو أول متحف عربي في هذه الديار، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه، ثم بنى له بناء خاص في غربي المدينة في المرح الأخضر و اغتنى في أسرع مدة غنى يغبط عليه بما اكتشف المنقبون عن العاديات من علماء الغرب.

حياة المتحف العربي بمعاضة الأمة له. و لم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف و الطرف فى إهدائها لتجعل فى دار آثار الأمة عنوان ارتقائها و نموذجا على معرفتها بتاريخها. لا جرم أن هذا المتحف هو البذرة الأولى التى ألقىت فى هذه التربة المخصبة المهياة لأنواع النماء و الإثراء يستفيد منه أهل الأجيال الخالفة ما يغنى غناه فى تربية عقولهم و عيونهم و أناملهم و يعتبرون بماضى الصناعة عند الأقدمين، و ما كان لأجدادنا من الأيادى البيضاء فى الفنون الجميلة بين المحدثين.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٧١

نشأة علم الآثار :

عنيت الأمم منذ القديم بالفنون الجميلة، و كان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها و حضارتها. كان الأفراد يجمعون الآثار و يتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة و التفاخر. و دام هذا حالهم حتى سنة (١٧٦٤ م) لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه و انكمان الألمانى، و هو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث.

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ، و من أصعبها مراسا، إذ يحتاج صاحبه إلى قوة انتباه و ذوق سليم. فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة فى المتاحف و وصفها، بل يتطلب حل رموزها و فهم كنهها، و استجواب تلك الشهود الصامتة، و استنتاج الحقائق منها.

و لقد أصبح النظر فى أبحاث علماء الآثار و تحقيقاتهم محتما على كل مؤرخ و محقق، و يستنير بها كل لغوى و مفسر. و كم معضلة تاريخية و لغوية حسمت بفضل هذا العلم. و ها هى كلمة فرعون التى لا يجهل اليوم الأحداث معناها، ذهب المتقدمون من علماء اللغة فى تفسيرها مذاهب حتى قام علماء الآثار فأظهروا و ثائق تثبت أنها لقب كل من ملك مصر. و كم من حوادث جاءت فى كتب السلف و فى الكتب المنزلة فذهب الناس فى تأويلها، و شك بعضهم فى صحتها، و لو لا علم الآثار الذى أمارط عنها اللثام، و أظهرها للعيان ملموسة محسوسة، لقالوا: إنها أساطير الأولين. أليست جهود الذين اكتشفوا آثار آشور و الكلدان و مصر و فارس و يونان و بعثوا ذكرها بعد أن كانت نسيا منسيا ألوفاً من السنين، شاهدا عدلا على أخبار تلك الممالك.

لم يدون الأقدمون غير النزر اليسير الذى وصلهم من أخبار الشعوب القديمة، و أغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التى ذهبت أخبارها بزوال أصحابها، و لو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظا ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف، و بفضل هذا العلم نعرف اليوم أخبار أكثر هذه الأمم، كما نعرف حوادث الأمم فى القرون الوسطى، و قد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الإنسان

خطط الشام، ج٦، ص: ١٧٢

قبل عشرات الألوف من السنين، يوم كان يأوى إلى الكهوف، و يقتات بالنبات، و يفترس الوحوش، مع أننا نجهد و نحن فى القرن العشرين كثيرا من عقائد بعض الشعوب الضاربة فى مجاهل إفريقيا و هى معاصرة لنا.

و من الإنصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار القدماء لأن هذا الشىء اليسير هو الذى أثار فى فئة من الناس حب الاستطلاع، و كانت هذه النصوص نورا يستضاء به، و مرجعا يستأنس به. و علماء الآثار أصدق الناس فى هذه الروايات، و هم و إن لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها. و لأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فإنها تكون فى أكثر الأحيان منزهة عن الأغراض و الغايات النفسانية. و قد يخطئ الأثرى فى استنتاجه، و لكنه لا يعتمد تشويه الحقائق، لأن همه الوحيد أن يحيى هذا الماضى البعيد، و يصبح معاصروه كأنهم يعيشون فى ذاك العصر و ذاك المحيط. و من منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفا أو معبدا أو أطلالا قديمة. و كيف يمكنه أن ينكر الحقيقة و لسان حال هاته الأمم البائدة يقول:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقى هذا العلم الحديث إقبالا عظيما فى الغرب فعنيت حكوماتها به، و أرصدت للمشتغلين به أموالا طائلة، و أنشأت له المدارس و

المجامع العلمية أسوء ببقية العلوم. وقد أبدى الأثريون على قلة عددهم نشاطا عظيما، و وضعوا في برهة قصيرة كثيرا من المؤلفات المفيدة. وقد نال الشام قسط وافر من هذه الأبحاث، فهي أول بقعة اتجهت نحوها الأنظار و خصوصا فلسطين، لمكنة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول، و أهمهم الشعب الإسرائيلي، لعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس.

البعثات الأثرية الغربية:

أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الإفريقية التي رافقت حملتها في سنة (١٨٦٠ م) و الجمعية الإنكليزية للبحث عن آثار فلسطين. ثم تضاعفت الهمم فجاء من خطط الشام، ج٦، ص: ١٧٣

الفرنسيين رنان و الدوق دولوين و دوسلسي و دوفوكوين و كلمون غانو و دوسو و فانزان و غيران، و من الإنكليز روبنسون و مادن و سايس و ويلسون و فارين، و من الألمان أوتوتينوس، و من السويسريين ماكس فان برشيم. و أهم الأمكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي و تل زكريا و تل الصافي و تل الجديدة و تل الجزر و تل تعناك و تل المتسلم و عكا و يافا و القدس و صيدا و صور و جيل و عمريت و جزيرة أرواد و بعلبك إلى عدة أصقاع في الشام الشمالية.

و بينا هذه البعثات مجدة في عملها، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق مكتفية بمراقبه هذه البعثات لاقتسام الغنيمة و إيداعها متحف الاستانة الوحيد. و لم تفكر بعمل حفريات قط، كما أنها كانت تأبى إنشاء فروع لمتحفها في الشام أو في غيرها من السلطنة العثمانية، و حجتها في ذلك أن الآثار إذا جمعت في مركز واحد، و ضم بعضها إلى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية و عملية لا ترجى من تعدد دور الآثار، و ذلك أسوء بما تحاف أكثر الأمم الغربية، و عملا برأى أكثر علماء الآثار. و لكنها تجاهلت بأن ما يصلح لأرض لها وحدة تاريخية لا يعمل به في أرض ضمت تحت لوائها شعوبا مختلفة و مدنات متباينة كالامبراطورية العثمانية.

و لذلك كان جل اهتمام الدولة العثمانية مصروفا إلى إنماء متحف الاستانة فأهملت أمر الآثار القديمة في ديارها، و لم تعهد إلى أناس يتعهدونها أو يراقبون سيرها، فدرس كثير من البنات الأثرية البديعة، و أقبل الأهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها. فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في القطر، و غصت متاحف أوروبا بآثار الشام، و اقتنى غواة العاديات الأجانب كثيرا منها. و بهذه الصورة و بفضل الامتيازات الأجنبية تمكنت كل من الجامعة الأميركية و الكلية اليسوعية في بيروت و غيرها من المعاهد من إنشاء متحف خاص، و جمع الدكتور فورد في صيدا، و غيره في حلب من الأجانب مجاميع مهمة من آثار الشام. و لم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار، القديمة و كانوا لا يعابون بها، و لا يقيمون لها وزنا. و من كان منهم يملك طرفه أو أثرا يتنازل عنها مقابل درهيمات معدودة، حتى تجردت أكثر البيوت و الأسر من نفائسها.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٧٤

آثارنا و آثار جيراننا:

و لقد تبين من الحفريات التي أجريت في الشام و من الآثار التي اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيرا عما وجد من نوعها في الأقطار المجاورة، و لا يرجى أن نعثر في هذه الديار على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة، كما هو شأن آثار مصر و آشور و فارس. و السداجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم، و هذا ناشئ عن طبائعهم و معتقداتهم. فالشامى في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج، و هذا يظهر في صناعته و فلسفته الدينية، و تتجلى في هذه البساطة مواهبه الفنية، جمع بين الساذج و الجميل فأحسن الصنع و أبدع. و تقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من الأقطار، و هذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامى و ذوقه السليم، حاز بهما مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب.

و ليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في القطر، بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب و عوامل شتى. ذلك أن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها. و أن الشاميين قلما يجعلون في مدافن موتاهم نفائسهم، كما هو شأن المصريين و غيرهم من الأمم القديمة. بل يكتفون بالأشياء الساذجة المنوعة. فإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأغلاق، و ما قد كتبه اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطبا به نابشى القبور، ناصحا لهم أن لا يهتكوا حرمة، مؤكدا أن لا ذهب و لا فضة في قبره- ندرك من هذا سرّ ندرتها بين أيدينا. فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية. و خلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها، و دليل على سمو عقيدة سكانها، و نضح فكرتهم منذ القديم، لأن الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالإكرام الذى يبالغ به غيرهم من الشعوب. و مع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض الأشياء في القبور و ذلك بمؤثرات خارجية، و اقتباس عادات الغالب، و الشام في أكثر أدوار تاريخها خضعت لسلطان أجنبي.

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر. و هذه الديانات

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٥

لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها. و لذلك يهم كلاً منا معرفة تطورها. و هذا ما يزيد في مكانة آثار الشام و يجعل إقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعى الحاضر. و قد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر و احتاطت له خوفا من المزاحمة و استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها، فاشتطت في المادة (١٤) من صك الانتداب أن القانون الذى سيسن لحماية العاديات يجب أن يستمد روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثييط، كما أنها اشتطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا- تتصرف بشكل يرمى إلى حرمان علماء أى شعب كان تلك الإجازات دون أسباب موجبة، و هكذا أصبح الباب مفتحا لجميع الأمم.

تأسيس دور الآثار:

و قد تضاعف نشاط البعثات الأثرية الأجنبية عقب الهدنة في سنة (١٩١٨)، و أظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بالآثار، و عهدت للإخصائيين في جيوشها بدرس آثار الشام و رفع التقارير عنها، و شددت النكير على العابثين بها. و من جملة مقررات المؤتمر الفرنسى الذى عقد في مرسيليا سنة (١٩١٩) للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الفرنسية بإنشاء ديوان للآثار القديمة، و التثييط باسترجاع ما أخذته الحكومة العثمانية من آثار الشام، و قد حققت المفوضية الفرنسية في الشام الاقتراح الأول، فأنشأت لها ديوانا للآثار القديمة، و حذت المفوضية الإنكليزية حذوها في فلسطين و شرق الأردن.

و لم تكن الشام في عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين. فقد اغتتم هذه الفرصة بعض المفكرين و فى مقدمتهم الأستاذ مؤلف «خطط الشام» فاقترحوا على الملك إنشاء متحف في دمشق، فقبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم. و ما لبث الملك أن أصدر أمره بذلك إلى الأستاذ بأمر تحقيقه على أن يكون فرعا للمجمع العلمى العربى الذى أسسه الرئيس أيضا. و أنشأت الحكومة السورية متحفا آخر في حلب، و أنشأت حكومات لبنان و جبل الدروز و العلويين

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٦

متاحف في بيروت و السويداء و طرطوس، و كذلك أنشأت كل من حكومتى فلسطين و الشرق العربى متحفا جعلته الأولى في القدس و الثانية في عمان.

و جميع هذه متاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته و استهدته من الآثار، و ما نالها مما اكتشفته البعثات الأثرية في مناطقها فأصبحت الشام بتشجيع الحكومات المحلية و السلطات المنتدبة ساحة عمل دولى كبير.

و قامت البعثات الفرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا و أم العواميد و كفر الحرة و بيروت و جبيل و القرية و لبيا في منطقة الحكومة

اللبنانية، و في السويداء و قنوت و الشهباء، و في تل النبي مند (قدش القديمة) و في المشرفة (قطنا القديمة) و النيرب و أرسلان طاش و القصر الأحمر، و قامت بعثتان مختلطتان باعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا أو روبوس القديمة) على شاطئ الفرات، و في مدينة تدمر. و تحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد و تل أرفاد، و نقتبت بعثة ألمانية في رأس العين شمالي الشام. و حصرت البعثات الإنكليزية و الأميركية أعمالها في منطقة فلسطين و الشرق العربي، فنقبوا عن الآثار في تل (مجدو القديمة) و بيسان و سبسطية (سمرة القديمة) و سيشم و بيت جبرين و القدس و التابعة و جرش.

متحف دمشق:

تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار القطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخي و خاصة العهد الإسلامي. و حرى بدمشق عاصمة الأمويين، و مهد الحضارة العربية، أن يكون لها متحف يحيى ذكرى هذا الماضي المجيد. و رغم ندرة العاديات الإسلامية المنقولة في ربوع الشام و أسعارها الباهظة، تمكنت دار الآثار من جمع أعلام قيمة. منها مجموعة نقود إسلامية، و مجموعة خزف عربي، و مجموعة مصاحف مخطوطة و مذهبة. و مجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانباً من سدة جامع من خشب الحور الرومي آية في جمال الصنع و حسن الذوق، مزينة بنقوش عربية بديعة، و كتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جداً، و قد كتبت في أعلاها هذه الفقرة: «بن محمد بن الحسين بن

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٧

على صفى أمير المؤمنين تقبل الله منه و ذلك في شهور سنة سبع و تسعين و أربعمئة» و تابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشا بديعا و قد كتب على جوانبه «هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا و الدين، بختي خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم و الأرمن قليج أرسلان قدس الله روحه و نور ضريحه، و ذلك في مستهل ربيع الأول سنة ثمان و أربعين و ستمئة» و بين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بنى أمية في شهور سنة (٤٧٥) و أخرى أيوبية تاريخها سنة (٥٧٥) و مجموعة وافرة من شواهد قبور أمراء الشام و علمائها في القرن السابع و الثامن هـ. و مما يلفت النظر جرة من رخام أبيض، و على القسم الأسفل منها نقوش عربية و عهدا من القرن الثامن للهجرة.

و أخرى من الفخار عليها نقوش أشخاص و حيوانات و طيور و زهور محكمة الصنع و كتب في وسطها هذه العبارة (عز و إقبال و سلامة و سعادة و كرم و غبطة و رفعة)، و هذه الجرة فريدة في بابها و هي من صنع العراق في القرن الثالث عشر (م). و من أهم الآثار غير الإسلامية مجموعة زجاجية و هي أجمل مجموعات العالم، و مجموعة مهمة من الآثار التدمرية و هناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد. و نصب الفرعون سيتي الأول و عليه ذكر انتصاره على الحثيين، و طائفه من الآثار الرومانية و اليونانية.

متاحف بيروت و السويداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان:

و جمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية و غيرها أهمها الأواني و الحلبي التي عثر عليها في مدافن جبيل و في أقيية معبدها. و يرجع عهد بعضها إلى الألف الثالثة و بعضها إلى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد منها ناووس الملك أحيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. و قد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه و بعض الشعائر الدينية، و هو قائم على أربعة

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٨

أسود. و مما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه و هي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم و هذه ترجمتها

«عمل هذا الأران (التابوت) افسبعل بن احرام ملك جبيل لأبيه كى يكون مقره الأبدى، فإذا نصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل و أخرج هذا التابوت من تحت التبليط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه و يعم الخراب جبيل إذا محا هذه الكتابة.....» و بين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمحت الثالث (١٨٥٠-١٨٠٠) قبل المسيح.

و آنتان عليهما اسم امنمحت الرابع و آنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها، و كتب عليها بالهير و غليفيه ما يأتي: «خدام الإله ابن الشمس فليعش امنمحت إلى الأبد» و صندوق صغير للحلى من حجر كريم أسود محلى بالذهب و شكله على طراز الناوس و على الغطاء كتابة هير و غليفيه هذه ترجمتها: «فليعش الإله بون سيد الأرضين ملك مصر البحرية و القبليه مع حرون راع المحبوب من ثوم سيد هيلوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية». و جمع فى هذا المتحف مقدار كبير من الفخار أهمه الأوانى التى عثر عليها فى كفر الجرة و يرجع تاريخ صنعها إلى الألف الثانى قبل الميلاد. و لآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة و هى من أهم ما عثر عليه حتى الآن فى الشام.

و كان فى متحف السويداء مجموعة حجرية نفيسة أكثرها من العهد اليونانى و الرومانى ضاع معظمها مع الأسف إبان الثورة السورية. و متحف طرطوس حديث العهد ليس فيه إلا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير. و أما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد، و لكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هبى لها المكان. و أكثر هذه الآثار حثية و أشورية من التى استخرجت فى حفريات أرسلان طاش و تل الأحمر و تل أرفاد و النيرب.

و فى متحف القدس مجاميع خزفية و معدنية تين تطور نهضة فلسطين و الأدوار التى مرت عليها فى أهم عصورها التاريخية، كما أنه يحوى على عدد من النوايس من العهد اليونانى و الرومانى و أجملها مما نقش عليه صورة معركة بين اليونان و النساء المترجلات (أمازون) و طائفة آثار من الحجر البركانى من عهد الفرعون سيتى الأول و رعمسيس الثالث التى وجدت فى

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٧٩

بيسان. و قد حفظت قطع الجمجمة التى وجدت فى التابغة و يرجع عهدا إلى ما قبل التاريخ. و أما مجموعة متحف عمان فأكثرها مما يرجع تاريخه إلى العهد الرومانى و البيزنطى.

و بعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التى بذلتها البعثات الأجنبية بآثار الشام غير الإسلامية و إعراضهم عن هذه الأخيرة. لا جرم أن معظم الآثار الإسلامية فى القطر محفوظة فى الجوامع و المساجد و المدارس تحت إشراف ديوان الأوقاف. و لذلك يتحاشى الأجانب ما أمكن أن يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى إن السلطات المنتدبة تركت لدوائر الأوقاف حرية التصرف بهذه الأماكن المقدسة. و قد اكتفت بأن تسدى إليها من حين إلى آخر النصائح لبذل العناية بهذه الآثار. و لكن أكثر هذه الدوائر فى شغل شاغل عنها. فكل يوم نسمع بضياح أثر أو تشويهه لا عن قصد منهم بل لأنهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت أيديهم، حتى أصبحت أكثر هذه الأمكنة الأثرية فى حالة يخشى عليها من الانداس، و بذلك يفقد القطر هذه المفآخر التى تشهد بمدنية السلف العظيمة فى أزهى العصور الشامية. فعسى أن تحذو الشام حذو شقيقتها مصر و تؤلف لجنة للآثار الإسلامية تعنى بجمعها و تتفقد شؤون الأبنية منها.

و قد أنشأت الجمهورية الفرنسية فى دمشق معهدا إفرنسيا لدرس الآثار و خاصة منها الإسلامية على منوال المعهد الإفرنسى فى القاهرة. و قد سبق للبعثات الأجنبية أن أسست فى القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثرية الفرنسية، و المدرسة الأثرية الإنكليزية، و المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، و لهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ الشام القديم.

لم تدع السلطان الفرنسية و الإنكليزية فى منطقتى سورية و فلسطين بابا إلا و طرقته لنشر الدعاية فى الممالك الأجنبية عن آثار الشام و مكانتها. و قد تجلى ذلك فى دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولى الذى عقد فى سورية و فلسطين فى شهر نيسان سنة (١٩٢٦) فكانت نتائجه مرضية. و بفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازدياد فى كل سنة. و لا شك أن الشام إذا صرفت العناية بفنادقها و طرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من أهل الأرض، و تجنى من ذلك فوائد مادية و أدبية لا تقدر.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٨٠

دور الكتب

[نشأة الكتب:]

عرفنا من سير القدماء أنهم كانوا يقيدون علومهم و مآثرهم و تواريخهم و أيامهم في صنوف من المواد، تكون على مقربة منهم، و تكثر في أرضهم و ديارهم. فالبابليون كتبوا كتبهم على الآجر أى بالطين المشوى، و كتب الهنود على النحاس و الحجارة و الحرير الأبيض و الطومار المصرى، و العرب عمدوا إلى أكتاف الإبل و اللخاف، أى الحجارة البيض الرقاق و عسب النخل. و بقى الأمر على ذلك حتى شاع الورق المعمول من الكتان فى خراسان و سمرقند و بغداد و دمشق، منذ القرن الأول للهجرة على ما يظهر.

و لما شاع الورق قضى على الرق لسهولة تناول القرطاس و المهرق، و هى الصحيفة البيضاء يكتب فيها. و كان من الحرير الأبيض ما يسقى الصمغ و يصقل ثم يكتب فيه، و قد اعتمدوا عليه قبل القراطيس بالعراق، و كتب بعض أهل الغرب فى صفائح من معدن رقيق. و كان أهل فرغامة فى الروم أول من استنبطوا الرق، كانت له تجارة رابحة بارت بظهور الورق، و كانت الكتب فى العراق تجعل فى جلود دباغ النورة أى الكلس، و هى شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية، تدبغ الجلود بالتمر و فيها لين و لا رائحة لها و لما فتح الإسكندر فارس كان العلم منقوشا مكتوبا فى صخور و خشب، فأخذ حاجته منها و أحرق الباقي. و لما تولى أردشير بابك و ابنه سابور على فارس و العراق تجمع ما تفرق من الكتب فيهما، و استنسخ من الهند و الصين و الروم

خطط الشام، ج٦، ص: ١٨١

كتبهم. و لما ملك بطلميوس (بطولوماوس) فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية فحص عن كتب العلم فعهد إلى رجل اسمه زميرة فجمع من ذلك على ما حكى أربعة و خمسين ألف كتاب و مائة و عشرين كتابا. و قال له: قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند و الهند و فارس و جرجان و الارمان و بابل و الموصل و عند الروم. و ذكروا أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج أى الكرايس فكتبت له ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار ابن عبيد قيل له: إن تحت القصر كنزا فاحتفراه فأخرج تلك الأسفار. قالوا: فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة.

و بلغ من عناية ملوك الفرس بصيانة العلوم، و حرصهم على بقائها على وجه الدهر، و إشفاقهم عليها من أحداث الجو و آفات الأرض، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث، و أبقاها على الأيام، و أبعدها عن التعفن و الدروس، فكتبوا فى لحاء شجر الخدنك، و لحاؤه يسمى التوز، و كانت تعمل منه القسى، و بهم اقتدى فى ذلك أهل الهند و الصين و من يليهم من الأمم. و لما حصل الفرس العلوم طلبوا لها من يفاع الأرض أصحابها تربة و أقلها رطوبة، و أبعدها من الزلازل و الخسوف، و أعلكها طينا، و أبقاها على الأيام بناء، يقيمون فيها خزائنهم و دور كتبهم فاختاروا مدينة جى من عمل أصفهان جعلوها فى قهندرز أى حصن، فانهارت هذه المصنعة فى الإسلام فظفروا فيها على أزج معقود من طين الشقيف، أى بيت مستطيل من الخزف، فوجدوا فيها كتبا كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها فى لحاء التوز بالكتابة الفارسية القديمة، و قالوا: إن الفرس كانوا يودعون كتبهم فى سارويه، أحد الأبنية الوثيقة القديمة المعجزة البناء، و تشبه الأهرام فى الجلالة و إعجاز البناء، و كانت الكتب تكتب على صفحة صفحة أى من وجه واحد.

هذا ما يؤخذ من كلام ابن النديم و غيره فى منشأ الكتب عند القدماء، و مع هذا لم تحفظ لغات الأقدمين لو لا ما وجد منها مكتوبا على الأحجار، و كان بعض تلك اللغات اندثر فى القرون الأخيرة حتى لا يحلها إنسان، مثل اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين

المقدسة فعثروا فى رشيد من ثغور مصر

خطط الشام، ج٦، ص: ١٨٢

فى سنة (١٨٢٤) على حجر كان مكتوبا بالهيراوغلىفى و الديوطيقى و اليونانى، فحل شموليون الخط الهيراوغلىفى، و هو الخط الخاص بالآثار عند قدماء المصريين، و كان الخط المعتاد عندهم الخط الهيراطيقى يكتبون به حاجاتهم العاديه و فنونهم و آدابهم. و هذا يكتب على البردى بقلم من البوص المعروف بالغاب، يغمس فى مداد أسود أو أحمر و منه أدراج طويله قد يبلغ طول الواحد منها ثلاثين مترا، و منها نماذج حفظت فى متاحف الغرب و متحف مصر، و كذلك ما عثروا عليه فى رسائل تل العمارنه فى المنيا بمصر فى سنة (١٨٨٨) و قد كتبت بالآجر بالحروف المسماريه البابليه، و فيها سجلات الدوله فى عهد فرعون مصر أمينوفيس الرابع و أبيه أمينوفيس الثالث، و انحلت بهذه الآجرات عقد من التاريخ القديم استدل بها على علاقه الشام بمصر.

و مثل ذلك يقال فى الأثر النفيس الذى اكتشفه أحد أمراء روسيا فى تدمر سنة (١٨٨٢) و انحلت به مشاكل كثيره من الحضاره التدمريه. و قد حل الخط التدمرى بارتملى، و اكتشف دوسو فى الجنوب الشرقى من النمره فى الصفا حجرا مكتوبا بالخط الآرامى و هو بالعريه، و حل لغه الصفا ييمان و هاليفى. و اكتشف فى البتراء المصانع المكتوبه بالآراميه، و حل علماء الآثار اللغه الحميريّه السبئيه فى اليمن. و حل لغه البابليين دى مورغان، و من أهم ما عثر عليه من آثارهم مسله عظيمه عملت بمسحوق الحجر البركانى و قد زبرت عليها شريعه حمورابى أحد أعظم ملوك البابليين، و كان من أصل عربى كما يقول هول.

و أهم الكتابات الفينيقية التى ظهرت ما وجد مزبورا على ناووس أحد ملوك صيدا سنة (١٨٥٥)، و الخط الفينيقى أشبه بالخط العبرانى، و الخط المسند هو الذى كتبت به مصانع الفرس القدماء و مصانع آشور و بابل و أرمينية و خوزستان و ما إلى ذلك من أرض العراق. و لا يزال العلماء يكتشفون الآثار و العاديات فى أرض الشام، و إلى اليوم لم ينحل خط الحثيين أقدم شعوب هذه الديار، و لا يزال علماء الآثار منذ عثر بروكهار فى حماه على حجر مكتوب بهذا الخط سنة (١٨١٢) متوفرين على حل هذا القلم و قد ظفروا بكثير من آثار الحثيين فى هيرابوليس أو قرقيش عاصمه الحثيين و فى طرابلس

خطط الشام، ج٦، ص: ١٨٣

و حلب و أرفاد و حمص و غيرها.

و معنى كل هذا أنه لم يصل إلى أهل العلم الحديث بعد تناول الأعصار من تلك اللغات القديمه إلا ما كان مزبورا على الأحجار و الآجر، ثم ما كان على الخشب و الرق ثم الورق، و كانت للعرب فى الكتابه على الرق و الورق يد طولى نقلوا بواسطتهما ما أمكن من علوم القدماء، و أعطوه لأهل الحضارات الحديثه بأمانه و إخلاص. فالقدماء إذا وضعوا الكتب أيام عرفوا الكتابه، فكان لبعضهم كالفرس و اليهود و الهنود كتب مقدسه، و خلف الرومان و اليونان تواريخ و قصائد و خطبا و مقالات فلسفيه. قال سنيوبوس: و قلما نجد فى الكتب المواد اللازمه لمباحثنا إذ ليس لدينا كتاب آشورى و لا فينىقى.

أما ما بقى من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جدا. و كان القدماء يكتبون و لكن أقل منا، و لذلك كانت تأليفهم أندر، و لم يكن لهم من كل مصنف غير نسخ قليله لما أن الحال كانت تقضى باستنساخها كلها باليد، و قد دثر غالب هذه النسخ أو ضاع و تعذرت قراءة ما بقى منه، و يسمى علم حلها باليوغرافيا أى علم الخطوط و الكتابات القديمه.

نشأه الخزائن و العناية بحفظها:

عرفنا بما تقدم أننا لا نستطيع أن نحكم على العصور التى سبقت الإسلام فى الشام فى أمر الكتب و الخزائن فلا أنطاكيه نطقت بما كان فيها من علوم القدماء، و انتقلت إليها من حران و الإسكندريه، و لا بيروت و لا مدرسه الفقه التى كانت فيها قبل الإسلام، اطلعتنا على ما كان فيهما من خزائن و أسفار، فإن أخبار هاتين المدينتين أنطاكيه و بيروت انطمست منذ القديم كما انطمست معالمهما بالزلازل

المدهشة التي قضت على دور العلم فيهما، و أتت أيضا على مدن برمتها في العصور الأولى للإسلام، و الزلازل كالحريق تتلف الكتب و تدمر دورها.

ثبت أن العرب لم يدونوا في الجاهلية شيئا من مآثرهم بالعربية، لأن الخط العربي محدث انتقل إليهم من الأنبار قبيل الإسلام، و لكنهم كانوا أول من أسرع إلى التدوين خارج جزيرتهم، و لا سيما في العراق و الشام أوائل الإسلام.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٤

و من أهم الكتب القديمة في الشام مصحف سيدنا عثمان الذي أرسله عام ثلاثين للهجرة إلى دمشق ليكون الاعتماد عليه كما أرسل مثله إلى الأمصار الكبرى في الأقطار الأخرى. و الغالب أنه نقلت عنه عدة مصاحف عدت من الأمهات منها ما جعل في طبرية، و منها ما وضع في قنسرين. و كثرت النسخ بعد ذلك، لكن هذه المصاحف ذهبت في الحريق الذي أصيبت به الجوامع في عصور مختلفة، و كلما حرق مصحف قديم قال القوم: إنه مصحف عثمان، و الأصح أن يقال المصحف المنقول عن مصحف عثمان. و حدثني الشيخ مسعود الكواكبي أنه تشرف غير مرة بزيارة مصحف كتب عليه حرره عثمان بن عفان و هو محفوظ في مكتبة جامع أياصوفيا في الاستانة.

ثبت أن أول خزائنه كتب في الإسلام أنشئت في دمشق أو في حلب أنشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي المتوفى سنة خمس و ثمانين، و لم يصل إلينا من أخبارها شيء، و لا شك أنها كانت تحوى بعض العلوم التي نقلها من القبطية و اليونانية و السريانية، في الكيمياء و الطب و النجوم و غيرها، و ربما كان فيها شيء من كتب الجغرافيا لأنه ثبت مما قاله ابن السندي الذي زار خزائنه الكتب بالقاهرة في سنة (٤٣٥ هـ) أنه كان فيها كره من نحاس من عمل بطلميوس، كتب عليها حملت هذه الكره من الأمير خالد بن يزيد ابن معاوية. و قال: إنه كان في تلك الخزائنه من كتب النجوم و الهندسة و الفلسفة خاصة ستة آلاف و خمسمائة جزء. و لا شك أن خزائنه خالد بن يزيد كان فيها أيضا كتاب عبيد بن شريه الجهمي الذي كان استحضره جده معاوية من صنعاء اليمن و سأله عن الأخبار المتقدمة، و ملوك العرب و العجم، و سبب تبلبل الألسنة، و أمر افتراق الناس في البلدان. فأجابته إلى ما أراد، فأمر معاوية أن يدون و ينسب إلى عبيد بن شريه. و لعبيد كتاب الأمثال و كتاب الملوك و أخبار الماضين. و هذا من أول التدوين في النصف الأول من القرن الأول.

و لوهب بن منبه المتوفى سنة (١١٠) أو ١٤ أو ١٦ تصنيف ترجمه بذكر الملوك المتوجه من حمير و أخبارهم و قصصهم و قبورهم و أشعارهم، رآه ابن خلكان في القرن الثامن و قال: إنه من الكتب المفيدة.

و جاء القرن الثاني و الشام تهتر أعصابها بانتقال الملك من بنى أمية إلى

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٥

بنى العباس فلم يؤثر عنها أنه كان فيها خزائنه كتب، و لا عرف أحد من الخاصة بأنه كان مولعا بجمع الأسفار، فكانت الكتب القليلة التي لهم تجعل في الجوامع أو في بعض دور الخاصة على ما كانت الحال في أكثر المدن الإسلامية.

و إذ وقع التدوين في القرن الأول لم يدخل القرن الثاني حتى كثرت الكتب، و قد ورد في سيرة الزهري المتوفى سنة (١٢٤ هـ) أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلا بها عن كل أحد، فقالت له زوجته: و الله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر. و هذا دليل على تكاثر الكتب حتى صارت للزهري مجموعة منها ينصرف إليها بكليته، و امرأته تريده على أن يكون لها فقط. و كل هذه الكتب لم تبق الأيام عليها. و الغرب كان أمهر منا في الاحتفاظ بما دون فإن أقدم كتاب في أوروبا يرد إلى القرن الثاني للمسيح.

و لم يعرف قبل عهد الرشيد و المأمون أن جمعت الكتب في خزائنه و سميت دار الحكمة أو بيت الحكمة أو بيت المعرفة. و كانت دار الحكمة أشبه بجامعة فيها دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون و يطالعون و ينسخون. و يدير شؤون تلك الدور من يثق الخليفة بعقلهم و أمانتهم و علمهم. كان هذا في القرن الثاني و اعنوره في القرن الثالث بعض الفتور، و ظل بيت الحكمة في القرنين الرابع و

الخامس في بغداد مفتاح الأبواب. و أنشأ أحد وزراء العباسيين أبو نصر سابور بن أردشير في القرن الخامس دارا بالكرخ في بغداد سماها دار العلم، وقفها على العلماء و نقل إليها كتباً كثيرة. و أنشأ الفاطميون في القاهرة دار العلم في القرن الرابع تشبهاً بالعباسيين في بغداد، أنشأها الحاكم بأمر الله سنة (٤٠٠) و فرشها و نقل إليها الكتب العظيمة و أسكنها من شيوخ السنة شيخين. قال ابن قاضي شهبة: و بقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم أخذ يقتل أهل العلم و أغلق دار العلم. و لم تعهد الشام دار حكمة إلا في القرن الخامس أنشأها بنو عمار في طرابلس. و كان في كل من كفر طاب و المعرة في زمن أبي العلاء المعري خزنة كتب و قد زارهما كما زار خزنة طرابلس.

و هذه الخزنة كانت قبل خزنة بنى عمار بمدّة خلافاً لما وهم بعض المؤلفين المعاصرين، لأن بنى عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين و أربعمئة.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٦

و كان أبو العلاء زار طرابلس قبل هذا التاريخ أي في أواخر القرن الرابع، و انتفع بخزانتها و كتبها الموقوفة.

و كانت في الشرقية التي بجامع حلب خزنة كتب مهمة اسمها خزنة الصوفية. و اتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة و الشيعة و نهبت خزنة الكتب، و لم يبق في خزنة الكتب إلا قليل. قال ابن العديم: و جدد الكتب بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخرى. و قد ذكر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦) هذه الخزنة في قصيدته الياثية التي كتبها من القسطنطينية يداعب أحد أصدقائه قال فيها:

أبلغ أبا حسن السلام و قل له هذا الجفاء عداوة الشيعة
فلأطرفن بما صنعت مكابراو أثب ما لاقيت منك شكية
و لأجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة تنسيك يوم «خزنة الصوفية»

و قد ظلت هذه الخزنة في حلب عامرة إلى القرن السابع و هي مسبلّة على المطالعة، و لم يعلم هل كانت الخزنة المهمة التي أنشأها في حلب سيف الدولة بن حمدان و جمع فيها الأمهات الجيدة عامّة للناس أيضاً كخزنة الصوفية أم هي خاصة به و بجماعته في قصره، و قد اشتهر عنه و لوعه بالكتب إلى الغاية. و ناهيك بخزنة كان من جملة خزنها الخالديان الشاعران المشهوران. و ربما ذهبت هذه الخزنة في هجمة الروم على حلب و تخريبهم قصر سيف الدولة.

و قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، لما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن الخامس «اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي أثبتوها من حيث أنها بذلك أمس» و لم تكد تخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزنة كتب. و كان لحلب و دمشق و القدس الحظ الأوفر من ذلك، لو لم تنازعها طرابلس التي كان يراد من إنشاء دار الحكمة فيها نشر التشيع على ما يقال، و ساعد على كثرة الكتب في طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد.

و قد عرفنا أن معامل الورق كانت تخرج الكاغد و القراطيس و الطوامير الجيدة في طرابلس و دمشق و حلب و منبج و طبرية و غيرها من المدن. و من أشهر خزائن الملوك و الأمراء في القرن السادس و السابع خزنة الكتب التي

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٧

وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكي على مدرسته و سلمت إلى محمد بن علي ابن ياسر الجياني الأندلسي، زميل ابن عساكر مؤرخ دمشق، و أجريت عليه جراية ثم وقف كتبه على أصحاب الحديث توفي سنة (٥٥٣) و وقف نور الدين على اليمارستان الذي أنشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطيبة كما وقف كتباً كثيرة على أهل العلم في أرجاء مملكته.

و أعطى صلاح الدين يوسف لمؤدب ولده الأفضل أبي سعيد البندهي (أو البنجديهي) كتباً كثيرة من خزنة كتب حلب، أباح له أن

يأخذ منها ما شاء، وهذا جمعها وحصل من الكتب التي لم تحصل لغيره، ووقفها بخانقاه السمساطى بدمشق. وكثيرا ما كان صلاح الدين يبيح لرجاله أن يأخذوا ما شاءوا من الكتب التي وقعت إليه، كما فعل في مصر وأعطى وزيره القاضي الفاضل من خزانه الفاطميين قدرا كبيرا من كتبها، وأعطى عماد الدين الكاتب أيضا بعض أسفارها، وكان في هذه الخزانه على ما قيل ألف ألف كتاب وفيها من تاريخ الطبرى فقط ألف ومائتا نسخة. فبيعت خزانه الفاطميين وتشتت على هذه الصورة ولم يكن في ديار الإسلام أعظم منها.

وهب صلاح الدين القاضي الفاضل ما شاء من كتب خزانه آمد لما فتحها وكان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فانتخب منها الفاضل سبعين حملا. وهذه الألوف من الكتب التي ملكها القاضي الفاضل وقفها بعد على إحدى مدارس القاهرة وكان هو وابنه من غلاة الكتب.

ومن الخزائن التي كانت بالشام خزانه على بن طاهر السلمى النحوى (٥٠٠) كانت له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانه كتب. وكان لتاج الدين الكندى فى الجامع الأموى خزانه كتب فيها كل نفيس. ووقف شرف الدين بن عروه الموصلى المنسوب إليه مشهد ابن عروه فى الجامع الأموى خزائن كتبه فيه. ومن الخزائن خزانه بنى جراده العلماء فى حلب فقد كتب أحدهم أبو الحسن ابن أبى جراده (٥٤٨) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسه وخزانه لولده أبى البركات وخزانه لابنه عبد الله. ومات موفق الدين ابن المطران (٥٨٧) وفى خزائنه من الكتب الطبيه وغيرها ما يناهز عشره آلاف مجلد خارجا عما استنسخه. وكان فى خدمته ثلاثه نساخ يكتبون له أبدا ولهم

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٨

منه الجامكيه والجرايه. ومات أمين الدوله السامرى وقد اجتمع عنده نحو عشرين ألف مجلد لا نظير لها فى الجوده. وكان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسه الطب بدمشق من أهل القرن السابع اقتنى كتبا كثيره، واقتنى من آلات النحاس التي يحتاج إليها فى علم الهياه والنجوم ما لم يكن عند غيره أى إنه كان عنده مرصد فلكى وخزانه كتب.

و جمع جمال الدين بن القفطى (٦٤٦) فى حلب ما لا يوصف من الكتب، وكانت خزائنه تساوى خمسين ألف دينار. وكانت خزانه قطب الدين النيسابورى مهمه وقفها على إحدى المدارس بدمشق. وكان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى (٦٥٦) معنيا بتحصيل الكتب النفيسه، وكان جمع قبله محمد بن عمر ابن شاهنشاه صاحب حماه وابن صاحبها من الكتب ما لا مزيد عليه، وكان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاء والمشتغلين بالحكمه والمنجمين والكتاب (٦١٠) ووقف الملك الأشرف موسى (٦٣٥) كتبه بالمدرسه الأشرفيه بدمشق، واشتهرت فى هذا القرن خزانه ابن أبى أصيبعه وتلميذه ابن القف بدمشق. ومن خزائن القرن الثامن والتاسع والعاشر التي بلغنا خبرها خزانه أبى الفداء صاحب حماه فإنه جمع من الكتب سبعه آلاف مجلد وقفها على جامع الدهشه. ولم يبق فى هذا القرن بعد الملوك من بنى أيوب أحد من الأمراء عنى بالكتب وتسييلها على المطالعه، فالقرن الثامن كان خاتمه هذه الحركة المباركه فى الشام.

ومن الخزائن فى هذه الحقبه خزانه ناصر الدين العسقلانى (٧٢٣) فقد خلف ثمانى عشره خزانه مملوءه كتب نفيسه. واقتنى ابن قيم الجوزيه تلميذ ابن تيميه خزانه مهمه. وملك عمر القرشى الدمشقى (٧٩٢) من نفائس الكتب شيئا كثيرا. ووقف تقى الدين اليلدانى أكثر كتبه ومجاميعه بالخزانه الفاضليه بالكلاسه بدمشق سنه (٦٥٥) وحصل شمس الدين البعلبى كتب بخطه المليح شيئا كثيرا (٧٧٤)، وخلف الفتح الفارقى (٦٩٤) ألفى مجلده ومائتى مجلده. وكانت خزانه ابن رواحه الحموى (٦٢٢) فى مدرسته بدمشق. وخلف بدر الدين ابن غانم الدمشقى ألفى مجلده. واجتمع لشرف الدين البارزى الحموى (٧٣٨) من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره. وكانت

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٨٩

خزانة أرغون نائب حلب (٧٣١) عامرة بالكتب النفيسة. و من الخزائن المشهورة خزانة ابن فضل الله العمري و ابن مالك النحوي و ابن خلكان المؤرخ.

و اقتنى بعض ولاة العثمانيين في الشام كتباً نفيسة بطرق مختلفة و منهم سنان باشا صاحب الجامع خلف مائة و ستين مصحفاً مرصعاً بالدر و الجواهر و خمسة و ثلاثين صندوقاً مملوءة بالكتب التي لا تقدر بثمن، و كانت الصناديق مرصعة باليواقيت و المعدن. و كل هذا أخذه صاحبه من اليمن و الشام و غيرها و نقل إلى الاستانة. و كان في القرن العاشر في الجامع الأموي بدمشق خزانة كتب خاصة بالمالكية و الأمين عليها مفتى أهل هذا المذهب. و وقف على الدفترى من أهل القرن الحادي عشر كتباً نفيسة غالية بدمشق. و كان لبولس الزعيم اللبناني من أهل القرن السابع عشر للميلاد خزانة مخطوطة.

و لم يبلغنا أن قامت للكتب سوق في وراء جنوب دمشق من الأرجاء إلى أقصى حدود الشام، مع أن بعض أقاليمها أنجبت علماء أجلاء مثل قمرا و امتان و عرمان و نجران و شهبه و صرخد و بصرى و الصلت و وادي الأردن و جبل الشراء و عمان و معان و الشوبك و عجلون و أذرعات و جرش و السويداء.

و بعد فقد كانت الوراقه أو صنع الكتب من نسخ و تجليد و تذهيب صناعة رائجة و من أهم الصناعات في العهد القديم، و الناسخ يرزق بقدر إجادته الخط أو الخطوط التي يعرفها و يحسنها. و كذلك المجلد و المذهب يكافأ كل واحد منهما بحسب غائهما. و كان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب أي الخط ذا القاعدة و ينسخون نسخاً لا بأس به و يعيشون من نسخهم. و منهم من كانوا يتعففون عن القضاء، أو تولى شىء من أمر الأمة، و يؤثرون أن يعيشوا بالنسخ أو الوراقه أو الاتجار بالكتب، و منهم من أثروا منها. و كان في كل حاضرة سوق لبيع الكتب يختلف إليه العلماء و الأدباء. و من العلماء من نسخوا المئه بل المئات من الكتب، و منهم من نسخ ألف مجلد في حياته.

و لم يكد الكتاب يخرج من يد مؤلفه خصوصاً إذا كان من المشاهير الثقات حتى تتعاوره الأيدي بالنسخ، و ينتقل من قطر إلى قطر، و يتداول في الأيدي، و يجلد و يوضع في القماطر.

و قد جاء زمن على دمشق (من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر)

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٠

و كل مدرسه من مدارسها الكثيرة لا تخلو من خزانة وافية بغرض الأساتيد و التلاميذ. و من أهم المدارس التي حوت خزائن ذات شأن العمريه و العرويه و الناصريه و العادليه و الأشرفيه. جاء في فتاوى التقى السبكي صكك وقف دار الحديث الأشرفيه هذا: و يصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهما في كل شهر و عليه الاهتمام بترميم الكتب، و إعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفي بذلك، و كذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابله. و جاء فيه: و جعل جزءاً من الوقف يصرف على مصالح المدرسه النوريه و من ذلك أن يصرف في شراء ورق و آلات نسخ من مركب (حبر) و أقلام و دوى و نحو ذلك ما يقع به الكفايه لمن ينسخ في الديوان الكبير أو قبالة الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره، و يصرف إلى من يكتب في مجالس الإملاء، و إلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة، و لا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة و التحصيل دون التكسب و الانتفاع بثمنه. قال: و للشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب و الأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها. و كتب سنه ستمائه و اثنتين و ثلاثين اه.

و كان رهبان الموارنة في لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون أوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينيه و العلميه و كان بعض بطارقتهم و أساقفتهم يحملون الشمامسه الرهبان و غيرهم على نسخ الكتب يزيدون بها مجاميع الأديار و البيع في الجبل و يتقيلون في ذلك مثال إخوانهم علماء المسلمين في المدن. و بهذه الطريقة كانت تنمو الكتب و الأيدي تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات. و كأن القوم كانوا يتعبدون الله بحفظها و إماطة الأذى عنها و تجليدها و تخليدها، و خدمتها بالتعليق عليها و معارضتها

بالنسخ الصحيحة و وضع الفهارس لها بحسب عرفهم فى تلك الأيام، يتخرون لها ما ببقى و يخلد طويلا من الورق المتين و المركب الجيد و الجلد النفيس الموجود الديق لندرتهها، و النادر موضع العناية و هو خليق بأن تشد عليه يد الضنانه و تحتفظ النفوس به و تغتبط بتعاور الأيدى عليه من دون أن يناله سوء من عواذى الدهر.

خطط الشام، ج٦، ص: ١٩١

مصائب الكتب و دورها:

ما برحت خزائن الكتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة فى الإسلام و تنتقل الكتب من مصر إلى الشام، و من الشام إلى العراق، و من الحجاز إلى الشام مثلاً، و يعنى بها العلماء و الأدباء، و يتنافس فى اقتنائها الملوك و الأمراء، و يضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية و يرغب عن الفضائل، ما برحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب و أحرقوها سنة (٣٥١) ثم أحرقوا حمص و غيرها من المدن. ثم وقع الحريق الأعظم الذى فى الجامع الأموى سنة (٤٦١) و دثر ما كان فيه من الكتب و المصاحف. و ربما حرق فيه المصحف العثماني القديم. و من أهم النكبات التى أصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون و إحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها، و أخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها و كتب الخاصة فى بيوتهم. و اختلفت الروايات فى عدد المجلدات التى كانت فى خزانه بنى عمار أو دار حكمتهم فى طرابلس، و على أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة ألف مجلد، و أوصلها بعضهم إلى ألف ألف و بعضهم إلى أكثر. وقفها الحسن بن عمار و جاء بعده على بن محمد بن عمار الذى جدد دار العلم سنة (٤٧٢) ثم عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات فى زمن آل عمار جميعها دار علم، و كان فى تلك الدار مائة و ثمانون ناسخا ينسخون لها الكتب بالجرائية و الجامكية، فضلا عما يشتري لها من الكتب المنتخبة من الأقطار. و ابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان فى دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عند ما أحرقتها الصليبيون سنة (٥٠٣هـ). و الغالب أنه كان فى طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم و قفت قبل بنى عمار، و أراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الكتب التى كانت فى مكاتب طرابلس كلها.

و لا ينبغى أن يذهب عن الخاطر أن ما كانوا يسمونه جزءا أو مجلدا أو مجلدة لا يتجاوز بضع كرايس من كراساتنا، و الكراسه قد لا تكون أكثر من ثمانى صحائف بمعنى أن ألف المجلدة أو المجلد لا تبلغ فى مصطلحنا

خطط الشام، ج٦، ص: ١٩٢

أكثر من خمسين كتابا أو ستين أو سبعين كتابا، فكان المجلد فى تلك العصور قليل الأوراق، لأن الورق أو الرق غليظ فإذا جعل كل مجلد مئين أو ثلاثمائة أو أربعمائه أو خمسائه ورقة يصعب تناوله و حمله و نقله و لا يصح ما قاله ابن الفرات من أنه كان فى دار العلم فى طرابلس ثلاثة آلاف ألف يوم نكبتها إلا- على هذه الصورة، أى إن كتبها كانت بين المائتين و ثلاثمائة ألف و منها أجزاء صغيرة و رسائل، و قد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطور سطور مقالة من مقالاتنا أو إملاء من أمالينا أو محاضرة أو مسامرة من محاضراتنا و مسامراتنا.

فالمصيبة الأولى العظمى التى أصابت الكتب فى الشام كانت على عهد الصليبيين و المصيبة الثانية ما حمله منها التتر فى نوبة هولاء و ما أحرق فى مدارس دمشق و جوامعها من أمهاتها، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانه الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام و العراق و غيرها. و قدر ما حمله بأربعمائه ألف مجلد، و منها ما حرق فى فتنة غازان سنة (٦٩٩) و فى وقعة تيمور سنة (٨٠٣) فان النار ظلت تحرق دور دمشق و مدارسها و جوامعها فى الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب فى هذين الحريقين و غيرها كتب المدرسه الضيائية و المدرسه العادلية و غيرها من المدارس.

و من الخزائن التى دمرت فى الخروب الصليبية خزانه أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من

الكتب الفاخرة أرسل بها بعد أن أخذ عهدا من الصليبيين من دمياط إلى عكا في بطسة فنهبت ونهب معها ثلاثون ألف دينار قال: إن ذهابها حزازة في قلبه ما عاش. و من مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة (٦٨٧) ذهب فيه من الكتب مقدار عظيم.

ومنذ دخل الصليبيون الشام أخذوا على ما يظهر يقتنون الكتب العربية ولكن على صورة ضعيفة لأن العلم بها كان معدوما عندهم، يتاعونها على أنها عاديات قديمة غريبة الشكل، ولما لمعت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في إيطاليا أراد الباباوات اقتناء الكتب العربية، فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا إلى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظا فيها خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٣

من كتب الدين و العلم بالعربية و السريانية. و حمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨ م) كتباً في ثلاثة مراكز إلى رومية ملاًها بالمخطوطات العربية و غيرها ففرق منها مراكب.

و من المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا و منها فرنسا و جرمانيا و بريطانيا العظمى و هولاندة و روسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تتباعها من الشام بواسطة و كلائها و قناصلها و الأساقفة و المبشرين من رجال الدين، و كان بلغ الجهل ببعض من اتسموا بشعار الدين و من كان يرجع إليهم أمر المدارس و الجوامع أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب فخانوا الأمانة و استحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم و التصرف به تصرفهم بملكهم. حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، و يختلف إلى متولى خزائن الكتب في المدارس و الجوامع، فيتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة و كان يبيعه على الأغلب، و أكثرها في غير علوم الفقه و الحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، و بقي هذا سنين يتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتى اجتمع له منها خزانه مهمة رحل بها فأخذتها حكومته منه و كافأته عليها، و الغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانه الأمة في برلين هي من هذا القطر. و فهرس هذه الخزانه فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق. يتألف من فهرس الكتب العربية في خزائن الغرب اليوم خزانه برأسها. و إن بعيدا يحسن القيام على هذا التراث الوافر لأحرى به من قريب يبدده جزافا. و إن أمما عرفتنا أكثر مما عرفنا أنفسنا حتى قال أحد علمائهم: إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع أحدنا أن يقرأه طول عمره، لجديرون يارث الشرق في ماديته و معنوياته كما قلنا من فصل في مجله المقتطف منذ أربع و أربعين سنة. نعم إن كتبنا تترك للأرضة تعيث فيها، و العفن يعبث بجمال جسمها و رسمها، و تحرم النور و يعقى أثرها الغبار و الأوساخ، و يحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منها، أو تفضل عليها دريهمات معدودة حريه بأن تكون في ملك من يستفيد منها و يفيد.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٤

و من الخزائن المشهورة التي بعثت في عهدنا و لم نعرف متى جمعت خزانه قبه صحن الجامع الأموي، و كانت مملوءة برقوق نفيسة فتحت سنة (١٣١٧ هـ) بأمر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني الألماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي، و منها قطع مهمة من مصاحف و ربعات و قطع من الأشعار المقدسة بالأرامية الفلسطينية و كتابات دينية و أدبيات دينية و قصص رهبانية و مزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني و مقاطيع شعرية لأوميروس، و كراريس و أوراق بالقبطية و الكرجية و الأرمنية في موضوعات دينية، و جذاذات عبرانية و سامرية فيها نسخ من التوراة و تقاويم أعياد السامريين و صلوات و صكوك للبيع و الأوقاف و عهود زواج و بينها مقاطيع لاتينية و إفرنسية قديمة و قصائد شعرية يرتقى عهدها إلى أيام الصليبيين و نسخ إنجيل برقوق. فأهدى السلطان بعضها لعاهل ألمانيا و وزع قسم منها على بعض رجال الاستانة و رجال دمشق و استخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في دمشق و أهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربة شريفة وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة (٢٩٨) و على الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها. و رأى شيخنا طاهر الجزائري في تلك القبة جزءا

مكتوبا عليه أنه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه و على أبنائه الأئمة سنة نيف و سبعين و أربعمائه. و كانت في دير صيدنايا من جبل قلمون خزانه كتب حافلة بالمخطوطات النادرة و لا سيما السريانية، فحاذر و كلاء الدير من كثرتها (المشرق ٢ ص ٥٨٨) أن تكون حجة بيد السريان يتقون بها على إثبات حقوقهم في الدير، فأجمع رأيهم على إخراجها و إتلافها تخلصا منها، فجمعوها و معظمها من النفائس المخطوطة على رق و بدأوا يحرقونها و قودا للفرن خبزوا عليها خبزتين و كان هذا من نحو عشر سنين و مئة سنة. و هو عمل مثل الجهل المطبق و التعصب الممقوت. و كم وقع من حوادث إفرادية من مثل هذه فضاعت فيها الكتب و لم تبلغنا تفاصيلها. و مما أعان على تشتت الكتب أن بعض من أولعوا في العهد

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٥

العثماني بتسليم ذرى المناصب و القضاء، و كان لهم مشاكل و قضايا يريدون حلها في المراجع العليا أو لمجرد التقرب و التظرف كانوا يمعنون في مهاده من يتوقعون الخير منهم بالكتب، و بذلك رحلت إلى الاستانة و غيرها أحمال من المخطوطات على هذا الوجه أيضا فعدت هذه الهدايا في جملة مصائب الخزائن.

خزائن اليوم و أهم ما حوت:

من أهم الخزائن في الشام خزانه المسجد الأقصى في القدس و فيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه «كتبه محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله» و إحدى ثلاث نسخ من مصحف مجزأ ثلاثين جزءا كتبها بيده أحد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق و هي مجلدة على الطريقة المراكشية و موضوعه في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الأندلسية. و مصاحف كبيرة جدا و صغيرة كتبت في عهد المماليك و ملوك بني عثمان.

و من كتبها «نشق الأزهار» لابن إياس و «حوادث الجو» لمؤلف مجهول و «كتاب المعرفة و التاريخ» رواية ابن درستويه عن ابن القطاف.

و من خزائن القدس مكتبة القبر المقدس و دير الروم و مكتبة دير الدومنيكان و مكتبة الآباء البيض و مكتبة دير الفرنسيسكان و دير الأرمن و خزانه الآثار الأميركية و الآثار الإنكليزية و مكتبة المجمع العلمي الأثرى البرتستانتي و الجامعة العبرية و المكتبة الحنبليّة و مكتبة الشيخ الخليلي و مكتبة البديري، و أهمها المكتبة الخالدية العمومية أنشأها في القدس راغب الخالدي من أعيان تلك المدينة بمشورة أستاذنا طاهر الجزائري و معاونته و قد بلغت نحو أربعة آلاف مجلد، منها نحو ثلثها من المخطوط و زادت زيادات كثيرة بما أضيف إليها من خزانه الأسرة الخالدية. جعلت سنة (١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م) على مقربة من المسجد الأقصى في مقبرة أحد الأمراء.

و من نوادرها «أنموذج العلم» للمولى شمس الدين محمد بن حمزة الفناري المتوفى سنة (٨٣٤ هـ) ذكر فيه أصول مائة علم. «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» عليه خط مؤلفه تقي الدين بن عبد القادر المضري التميمي الداري المتوفى سنة (١٠١٠ هـ). «الشعور بالعمور» للصلاح الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤)

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٦

في ذكر العلماء الذين أصيبوا بفقد إحدى عينيهم. «منادح الممادح و روضة المآثر و المفخر في خصائص الملك الناصر» و هو المعروف بالمديجات لعبد المنعم الجلياني (٦١٣). «مختصر حياة الحيوان» لجلال الدين السيوطي (٩١١).

«قهوة الإنشاء لابن حجة الحموي» (٨٣٨) و هو مجموع رسائله. «اختصار السيرة النبوية» لمحيي الدين بن عربي (٦٣٨). رواية ولده أبي سعيد و ولده أبي بكر بن أبي المعالي محمد و ابنته فاطمة عنه. «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء و السلاطين» لمرعي الحنبلي (١٠٣٣). «رونق الحفاظ بمعجم الألفاظ» للحافظ يوسف سبط أحمد بن علي بن حجر و عليه خط الحافظ قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩) و هو المجلد الثاني و يرجح أنه بخط مؤلفه.

«مثير الغرام بفضائل القدس و الشام» لسرور المقدسى (٧٦٥) و فى آخره حواش فيها أسماء بعض تواريخ القدس. «إتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى» لمحمد أبى شرف الشافعى المصرى (٩٠٦). «شاناى فى السموم و الترياق» لشاناى الهندى نقله من لغته الهندية إلى الفارسية منكه الهندى نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه و هو فى معرفة السموم و الترياق و هى نسخة ملوكية. «الوسيط» للواحدى (٤٦٨) الجزء الثالث منه.

«عيون الأثر فى فنون المغازى و الشمائل و السير» لابن سيد الناس اليعمرى (٧٣٤). «أرجوزة محمد بن أحمد الباعونى» (٨٧١) فى التاريخ وقعت فى نحو ألف بيت من الهجرة إلى الملك برسباى. «تعاليق شهاب الدين أحمد بن الهائم» على الخصائص النبوية بخط أحمد الشهير بابن الهائم (٨١٥). «تقويم أصول الفقه و تحديد أدلة الشرع» للدبوسى (٤٣٠). «مجموعة رسائل لابن كمال باشا» (٩٤٠). «تأويل مشكل الأحاديث و الرد على الملاحدة و المعطلة و أهل الأهواء المبتدعة» من إملاء أبى بكر محمد بن حسن بن فورى (٤٠٦).

«إيضاح الإشكال فى من أبهم اسمه من النساء و الرجال» أى رواة الحديث للحافظ محمد بن المقدسى (٥٠٧). «كتاب الأربعين الأبدال التساعيات» للبخارى و مسلم للحافظ عبد المؤمن الدمياطى (٧١٧). «ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد» للسخاوى. «كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة و السلام» لأحمد بن محمد بن عمر المقدسى الشهير بابن زوجة أبى عذبية.

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٧

«كتاب التبيان فى إعراب القرآن» لأبى البقاء العكبرى (٦١٦). «دمية القصر و عصره أهل العصر» للباخرزى (٤٦٧) ذيل يتيمة الدهر للثعالبي.

و من الخزائن المهمة فى غزة خزائن المفتى، و فى يافا الخزائن الإسلامية و خزائن أبى نبوت و فى أرباض حيفا خزائن دير الكرمل و فيها صكوك قديمة لها علاقة بالدير. و من الخزائن الخاصة فى القدس خزائن عبد الله مخلص و فى عكا خزائن جامع الجزائر و فى نابلس خزائن آل الجوهرى و خزائن آل صوفان و فى صفا خزائن آل النحوى و فى جبل عامل خزائن آل خاتون و إبراهيم يحيى و الشيخ زين الدين و آل الصغير و أحمد رضا.

و أهم خزائن لبنان خزائن آل أرسلان فى عيبه و خزائن جرجس صفا فى دير القمر و خزائن دير الشرفه و دير السير و دير المخلص و دير البلمند و عين تراز و قزحيا و بزمار و اللوزة و مار أشعيا و دير يوحنا مارون بكفرحى. و كان فى بعض أديار اليسوعيين فى لبنان مخطوطات نقلوها إلى ديرهم فى بيروت كما نقلت المخطوطات المهمة فى القرون الماضية من أديار الموارنة فى الجبل إلى رومية العظمى.

و من خزائن بيروت الخزائن الشرقية للآباء اليسوعيين و خزائن الجامعة الأميركية معظمها بالإنكليزية و مجموعة دار الكتب الكبرى فى بيروت قليلة المخطوطات كثيرة المطبوعات و كان فى بيروت مجموعة البارودى من المخطوطات بيعت كما بيعت مجموعة حيدر أحمد الشهابى و مجموعة جميل العظم و مجموعة رشيد الدحداح فى بيروت و غيرها من مجاميع الأفراد التى بعثت لقله العناية بالعلم أو لأسباب مادية قاهرة أحيانا. و من خزائن الساحل خزائن آل كرامه و آل الجسر و آل المغربى و آل السمين فى طرابلس، و خزائن آل الأزهرى فى اللاذقية و خزائن سليمان أحمد فى جبل العلويين و خزائن بعض المدارس فى أنطاكية. و أشهر الخزائن العامة فى حلب خزائن المدرسة الأحمدية و المدرسة الخسروية و المدرسة العثمانية و المدرسة القرمانية و جامع الناصرية و الخزائن المارونية و الأرثوذكسية و الكاثوليكية و خزائن آل الكواكبي و الغزى و الملاح و الزرقا و الكتخدا و منش و الأنطاكى و العيتابى و قطر أغاسى و مجموعة سباط. و فى الخزائن الأحمدية بحلب «المباحث الشرقية» للفخر الرازى. و «الوافى» للصفدى و «مختصر

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٨

تاريخ الذهبى المسمى بالعيار» و «تاريخ الذهبى» فى سبعة مجلدات و «در الحجب فى تاريخ حلب» لابن خطيب الناصرية فى مجلدين و

«التفسير المهمل» للفيض الهندي و «مثير الغرام لزيارة القدس و الشام»، و من مخطوطات المدرسة العثمانية المعروفة بالضيائية بحلب «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ» للحلبى السمين و «المقدمة السنوية للصفدى» و «الدر الثمين في أسماء البنات و البنين» و «الحدائق الأنسية في الحقائق الأندلسية». و كتاب «الناسخ و المنسوخ للحازمى، و فى خزانه المولوية بحلب «اختلاف الفقهاء» للوزير ابن هبيرة المسمى بشرح معانى الصحاح. و خزانه الجامع الكبير بحلب غنية بالكتب الفلكية و آلات علم الفلك و كان واقفها محمود الجزار و أبوه من علماء هذا الفن. و فى المدرسة البهائية «عيون السير» لابن سيد الناس فى السيرة النبوية و حاشية عليه فى ثلاثة أجزاء لإبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمى الحلبي. و فى بعض المدارس الحلبية الأخرى كتب متفرقة لكنها غير ذات بال. و فى الكنيس الكبير فى حلب توراة مخطوطة قديمة الخط جدا. و فى حماة خزانه نوري الكيلانى فى جامع الشيخ إبراهيم و مجاميع الكيلانى. و فى حمص مجاميع آل الأتاسى و خزانه القديس اليان الحمصى و خزانه الخورى عيسى أسعد و خزانه بنى الجندى و كامل لوقا. و فى المعرة مجموعة آل الحراكي.

و كان فى دمشق عدة خزائن بعثت منها خزانه آل حمزة، و خزانه الحضرة و آل الحسنى و خزانه آل عبد القادر الحسنى هدت أسرته كثيرا منها للمجمع العلمى فجعلها فى الخزانه الظاهرية. و حرقت خزانه بدر الدين الحسنى و خزانه الشمعة و آل مردم بك و خزانه آل القوتلى. و تشتت خزائن آل الحسينى و العطار و الحلبي و الغزى و بايزيد و الأيوبي. و خزانه آل السقطى وزعت، و إلى اليوم لا تزال محفوظة خزانه كل من آل الأسطوانى و كان أحرق قسم مهم منها فى دار سعيد الأسطوانى و ذلك فى حريق سوق الحميدية، و حفظت خزائن كتب آل البيطار و آل القاسمى و عابدين و المبارك و آل النابلسى و آل المنير و آل المرادى و دخل قسم مهم من كتب المتيير و المرادى إلى دار الكتب الظاهرية. و حملت خزانه طاهر الجزائرى و كان فيها الأمهات المحررة إلى مصر فأباعها من دار الكتب المصرية و الخزانتين التيمورية

خطط الشام، ج ٦، ص: ١٩٩

و الزكية. و مما حفظ من المجاميع مجموعة البطيركية الأرثوذكسية و مجموعة كنيسة السريان و هما مجموعتان جديدتان جمعتا بعد فتنة سنة (١٨٦٠) التى ذهبت فيها مجاميع الكنائس و الأديار فى دمشق و بعض لبنان و لا سيما زحلة. و فى بعض البيوت القديمة فى دمشق و حلب و القدس بل فى معظم المدن القديمة مجاميع قليلة يحتفظون بها وراثتها من أجدادهم و منهم من لا يرجعون إليها و لا عرفوا مضامينها و يتغالون بحفظها و يتنوقون فى رصفها كأنها بعض الآنية اللطيفة و العروض التى يتنافس فيها و نعم الهوى هواها. و أهم الخزائن العامة فى الشام خزانه دار الكتب الظاهرية و ليست مكانتها منبعثة من كثرة أعداد كتبها بل من النوادر المحفوظة فيها و ربما كانت مجموعتها أندر مجموعة فى الشام، فيها بضعة آلاف كتاب و رسالة و فيها ما هو بخط مؤلفيه أو مقروء عليهم و منها القديم جدا بل فيها أقدم كتاب فى الشام من القرن الثالث.

أنشئت هذه الخزانه سنة (١٢٩٦) بمساعى طاهر الجزائرى و سليم البخارى و معاونة غيرهما من العلماء و كان؟؟؟ لدحت باشا و حمدى باشا واليى سورية يد فى جمعها، و أهم رجل من عمال الدولة عطف على هذا المشروع و ساعده مساعدة فعليه بهاء بك مدير ديوان الرسائل فى ولاية سورية. فجمع ما تفرق من الأسفار فى الخزانه العامة التى أبقت عليها الأيام و بعد ممانعات شديدة ممن يرومون كتم العلم و إبقاء الناس فى عماية جمعوا مقدارا من الكتب جعلوها فى شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس قبالة العادلية الكبرى و نصبوا عليها قواما و وضعوا لها مثل شرائط المكاتب الكبرى فجاءت مؤلفه من ٢٤٥٣ كتابا منوعة عدا الدشت و الكراريس و الأوراق المتفرقة. أخذت من عشر خزائن و هى:

(١) خزانه المدرسة العمرية بالصالحية و هى قديمة العهد وقفها بعض أهل الخير و لكن كان الناظر قد سرق جانبا عظيما منها لا تزال عند أبنائه و منها ما فى الظاهرية الجزء الأول أو الثانى و التتمه أو الأول فى دار السارق.

(٢) خزانه مدرسة عبد الله باشا العظم وقفها سنة (١٢١١) و ضم إليها كتبا وقفها والده محمد باشا العظم سنة (١١٩٠). (٣) خزانه

سليمان باشا العظم وقفها سنة (١١٩٦) كانت بمدرسته بباب البريد. (٤) خزانه الملا عثمان الكردى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٠٠

كانت بمدرسة السلیمانیة أيضا. (٥) خزانه مدرسة الخياطين وقفها أسعد باشا العظم بعد سنة (١١٦٥) و كان مقرها بمدرسة والده إسماعيل باشا العظم.

(٦) خزانه المرادیه بمدرسة مراد المرادى. (٧) مدرسة السمیساطیه و هی قديمه وقفها بعض أهل الخير. (٨) خزانه الياغوشیه كانت موضوعه فى مدرسة سیاوش باشا بالشاغور. (٩) خزانه الأوقاف و هی مؤلفه من عدة خزائن حفظت بقاياها. (١٠) خزانه بيت الخطابه كانت بحجره الخطابه بالجامع الأموى. و من كتب أخرى موقوفه.

و فى زمن رءوف باشا والى دمشق أوائل هذا القرن جمع لها نحو خمسمائة ليره و ابتاع لها مقدارا من الكتب المطبوعه فى الغرب و غيرها و جلد بعض كتبها حتى إذا كانت سنة (١٩١٩ م) و تألف المجمع العلمى العربى على يد كاتب هذه السطور بذلت العناية بابتاع أو استهداء الكتب المخطوطه و المطبوعه و قليل منها بغير اللغه العربيه فهاز عدد الكتب المخطوطه الأربعة آلاف كتاب عدا المجاميع، و عدد المطبوعه الأربعمائة ألفا عدا الخزانه التى أعدها المجمع لأعماله فى الفروع التى يبحث فيها و هى تربو على أربعمائة ألف، و حصلت الفائده من تنوع الأسفار و المجلات و الصحف حتى قدر معدل الداخلين للاستفاده منها كل يوم بمئه إنسان و ما زالت عناية المجمع بتكثير كتبها متوفره، و من الكتب المخطوطه التى حفظت فى دار الكتب الظاهرية «الكواكب الدراري» لابن عروه الحنبلى و هو فى أكثر من مئه و عشرين مجلدا فى فن التفسير و الحديث و الفقه و علم الكلام و الرد على الفلاسفة و أسماء الرجال و علوم شتى و الموجود منه ٤٢ جزءا. و «الغريب فى الحديث» كثير منها أجوبه الإمام أحمد عن أسئلة أبى داود السجستاني كتب سنة مائتين و ست و ثمانين و هو أقدم كتاب عرف فى الديار الشاميه.

و «البحر المحيط» فى أصول الفقه للبدر الزركشى فى خمس مجلدات و الجزء الأول من «التذكرة» لأمرىك من علماء المعتزله فى علم الكلام. و الأول أيضا من «الاشارات الإلهيه» لأبى حيان التوحيدى فى مخاطبه النفس. و الأول من «سر الصناعه» لابن جنى فى أسرار العربيه و «شعب الإيمان» فى التصوف و الأخلاق لعبد الجليل الأندلسى. و «الرساله الجامعه» من جمع أصحاب

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٠١

رسائل إخوان الصفا تقرأ عندهم بعد الرسائل المعروفة. و «الصحائف اليونانيه فى مخاطبه النفس الإنسانيه» و «الضوء اللامع» للسخاوى فى تراجم أهل القرن التاسع فى خمس مجلدات كبيره (طبع). و الثانى من «مناقب الخلفاء الأربعة» لأبى بكر ابن الطيب الباقلانى. و «جامع بيان العلم و فضله» لابن عبد البر الأندلسى (طبع). و الثالث من «الجليس و الأنيس» لأبى الفرج المعافا بن زكريا. و كتاب «الأحكام السلطانيه» للقاضى أبى يعلى (طبع) و «تفضيل السلف على الخلف» لإبراهيم بن هبه الله و «ديوان خالد الكاتب» (المتوفى فى حدود السبعين و المائتين). و «الطب الروحاني» لابن الجوزى فى علم الأخلاق (طبع). و «الأطراف فيما يتعلق بالمحدثين» سبع مجلدات للحافظ جمال الدين المزى. و «كتاب الأموال» لأبى عبيد بن سلام الأزدى (طبع). و «تاريخ دمشق» لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) فى عشرين مجلدا. و الجزء الخامس من «الفتاوى المصريه» شيخ الإسلام ابن تيميه و هى فى علوم شتى.

و «أخبار الأذكياء» ليوسف بن عبد الهادى (المتوفى ٩٠٩) بخط مؤلفه.

و «فهرس الكتب الموقوفه» بخط يوسف بن عبد الهادى بعضها من تصنيفه و بخط يده. «المناقب و المثالب» تأليف هبه الله بن عبد الواحد الخوارزمى.

«مساوى الأخلاق و مذمومها و مكروه طرائقها» لأبى بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى خمس أجزاء. «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» لابن العماد الدمشقى المتوفى سنة (١٠٨٩) (طبع). «الدرر الكامنه فى أعيان المئه الثامنه» لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢) بخط إبراهيم البقاعى (طبع). «عقد الجمان فى مختصر أخبار الزمان» المنسوب للمسعودى المتوفى (٣٤٣) و هو للشاطبى

المتوفى (٨٧٢). (إرشاد السالك إلى مناقب الإمام مالك) ليوسف بن عبد الهادي بخط المؤلف. (طبقات النحاة و اللغويين) لابن قاضي شهبة الأسدي و يليه (مختصر النحاة للزبيدي). (المدهش) لأبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧). (طبع) (اللطيف و اللطائف) لأبي الفرج بن الجوزي. (أدب السلوك) لأبي الفضل عبد المنعم بن عمر ابن عبد الله الأندلسي (٦٠٣) مشتمل على مشاريع كلمات الحكمة و الأدب و الأخلاق. (قاموس الأطباء و ناموس الألباء). لمدين بن عبد الرحمن القوصوني
خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٢

المصري من أطباء القرن الحادي عشر للهجرة في المفردات الطيبة. (مالا- يسع الطبيب جهله) ليوسف بن إسماعيل المعروف بابن الكبير من أهل القرن الثامن. (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان) لأبي العباس يحيى بن عيسى الكاتب الملقب بالرئيس الأجل المتوفى (٤٩٣) و هو في جزئين دخلا في مجلد واحد. (خلاصة تحقيق الظنون في الشرح و المتون) تأليف محمد بن مصطفى الصديقي و هو ذيل لكشف الظنون أتمه (١١٨٠). (مجمع الزوائد و منبع الفوائد) لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧) جمع فيه مؤلفه زوائد الكتب الستة من مسند أحمد بن حنبل و البزاز و أبي يعلى الموصلي و المعاجم الثلاثة للطبراني نسخة في مجلد كبير. (المجمل في اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى (٣٩٠) اقتصر فيه مؤلفه على الألفاظ المهمة المستعملة أخذ أكثرها بالسماع عن تقدمه و اختصر الشواهد و رتبته على الأبجدية منه جزء يبتدئ من حرف العين إلى آخر الكتاب بخط أبي بكر محمد بن محمد بن خلف في سنة (٥٨٩). (جنى الداني في حروف المعاني) لحسن بن قاسم المرادي المتوفى (٧٤٩) و هو كما في كشف الظنون من مآخذ المغنى لابن هشام. (شرح الإيضاح) لأبي علي حسن بن أحمد الفارسي (٣٧٧) و الشرح للجرجاني (٤٧١) شرحه أولا شرحا مبسوطا في نحو ثلاثين مجلدا و سماه المغنى ثم لخصه في مجلد واحد و سماه المقتصد و هو في مجلد ضخمة (٩٠٤ صفحات) بخط نفيس من القرن العاشر. (مجمع الآداب في معجم الأسماء و الألقاب) لعبد الرزاق الفوطي المتوفى (٧٢٣) منه الجزء الرابع يبتدئ من حرف العين إلى القاف بخط مؤلفه. (الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة) للنجم الغزي المتوفى (١٠٦١) و ذيله المسمى (لطف السمر و قطف الثمر) من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر. (طبقات الحنابلة) لابن رجب (٧٩٥). (نشر المحاسن اليمانية في خصائص و نسب القحطانية) لأحد أفاضل و صاب من بلاد اليمن. (أجزاء من عيون التواريخ) للصلاح الكتبي (٧٦٤).
و في خزانه المجمع العلمي الخاصة عدة مخطوطات نادرة أخذت بالتصوير الشمسي منها نسخة من (الدارس) للنعماني (أبي المفخر محيي الدين) المتوفى

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٣

(٩٢٧) منقولة عن نسخة لابن المؤلف محفوظة في خزانه مونيخ. و (تراجم الأعيان) للبوريني (١٠٢٤). (الذيل على الروضتين) لابن أبي شامة (٦٦٥).

(حكماء الإسلام) للبيهقي المتوفى في حدود سنة (٥٧٠). (رحلة الأمير يشبك) بن مهدي الدوادار (٨٨٥). (كتاب الإنصاف و التحري في دفع الظلم و التجري عن أبي العلاء المعري) لكمال الدين ابن العديم الحلبي المتوفى سنة (٦٦٠) ناقص من آخره. (مجموع فيه نقش خواتم الحكماء و آدابهم، و اجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكمة و غير ذلك). (التيسير و الاعتبار و التحرير و الاختبار) فيما يجب من حسن التدبير و النصيحة في التصرف و الاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي صاحب كتاب لوامع الأنوار و مطالع الأسرار فرغ من تصنيف كتابه سنة (٨٥٤). (المثالث و المثاني في المعالي و المعاني) لصفى الدين الحلبي (٥٧٠) و معه مجموعة أخرى للشاعر نفسه. (نظم درة الغواص) للسراج الوراق بخط محمد بن الصالح الهلالي المتوفى سنة (١٠٠٤).

(تحفة ذوى الألباب) للصفدي سنة (٧٦٤). و في المجاميع عشرات من الرسائل النادرة الجديدة بالنشر.

هذا ما أمكن استيعابه من الكلام على خزائن الكتب المخطوطة في هذا القطر عرفنا بها في الجملة كيف نمت و جمعت و كيف مزقت و تشتتت، و كان القوم يعتقدون أن اقتناء الكتب يورث الغنى و بيعها يورث الفقر، و لذلك احتفظت بعض البيوت بكتبها و ربما

زادت عليها. و شوهده أثر هذه العناية فى البيوتات القديمة فإن المخطوطات على كثرة ما أصابها من التفريق ما برحت محفوظة فى المدن بل فى القرى فى بيوت أفراد من الشعب قد لا- يخطر فى البال أنها تعنى بمثل هذه الكنوز. و منهم من يتبرك بها و يفاخر باقتنائها، و منهم من يرتقب الزمن ليبيعه بالثمان الغالية. و قد ابتاعت مصر فى العهد الأخير مقادير عظيمة منها، لغنى مصر و شيوع العلم فى بنيتها، و تفانيهم فى إحراز آثار السلف. و قد يتعاون السفر المخطوط بثمان فاحش و ربما كان مما مثل بالطبع مرات، لأن للمخطوط روعة غير روعة المطبوع، و قيمة تاريخية يدركها من يعانى هذه الصناعة و يقدر العاديات قدرها.

و من الأسف أن صناعة النسخ ماتت من قطرنا و ضعف بذلك التنافس

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٤

فى الخطوط الجيدة المنسوبة و غيرها كما قضت الآلة الكاتبة فى الغرب و فى الشرق على الخط أيضا. و من المؤلفين و الكتاب اليوم من يملون على كتابهم على تلك الآلة مباشرة أو يكتبون هم بأنفسهم عليها دون أن يتعبوا أناملهم بتنميق السطور و وضع الصفحات مما يفيد فى الإسراع بالأعمال، و يقضى على الفن و الجمال. و لو لا الحرص المغروس فى الفطر ما بقيت هذه البقايا التى نفاخر بها من عمل الأجداد، و هى فى نظر العقلاء أعلى من التبر و العسجد، و لا سيما بعد أن سطت عليها كل يد أئيمة و أبيع من كتب الجوامع و المدارس بالألوف فسافرت عنا تنزل على الرحب و السعة على من يعرف قيمتها و يحسن تعهدها. و الكتب كما قال أحد المولعين بها كالطيور لا- تطلب إلا- الهواء الطلق السالم من الشوائب. و لطالما انتقلت من يد إلى يد و من جيل إلى جيل كما تنتقل الأعلام النفيسة أو كما تتداول النقود و الحلوى و لكن بتجلة و حرمة.

هذا و خير طريقة تحفظ بها ثماله تركه السلف الصالح أن يعمد كل من حوت رفوفهم و قماطهم كتبنا إلى كتبهم المخطوطة فيودعوها فى الخزائن العامة لأنها أقل عرضة للحريق و التلف و لكارث و وارث، و أن يستعاض عنها بالكتب المطبوعة فى الخزائن الخاصة، و تجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع إليها العلماء و الباحثون، و تسبب عليهم فتكون منهم على طرف الثمام، و بذلك يزيد النفع منها و يحيا بالطبع و النشر ما لم تساعده الحال أن يعرف حتى الآن، و بذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع و فائدة الحفظ، كما فعل المصريون و حفظوا بقايا كتبهم فى دارى الكتب المصرية و الأزهر و خزانه المجلس البلدى فى الإسكندرية و الجامع الأحمدي فى طنطا. و الله يرث الأرض و من عليها.

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٥

الأديان و المذاهب

[أديان القدماء:]

اهتدى الفينيقيون بفطرتهم إلى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر. و دعوا معبودهم البعل أى الرب و السيد و قد يسمونه أدون و معناه السيد أيضا. و لقبوه بملوك أو ملوخ أى الملك أو ببعل شمائم أى رب السماء، ثم أخذوا يصورون الرب و يجسمونه على الصورة التى يختارونها، خصوصا لما جابوا الأقطار و مصرروا الأمصار، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها، فكان أهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور، و أهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون، و أهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت و هكذا يقولون بعل حرمون و بعل جاد و بعل تمار.

و تفننوا بعد فى أربابهم فأخذوا ينسبونها إلى النار و عبادة الطبيعة و أنشأوا يؤلهون قوات الوجود و مظاهره الرائعة و الأفلاك و النجوم. و كما جعل الفينيقيون لأربابهم أندادا اخترعوا لهم أزواجا سموها عشتروت و قد عبدت فى سواحل الشام خاصة. ثم أخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات و تنشئ لها معابد. و كان معبد بعلة جبيل يحج إليه الناس من أنحاء القطر كما يحتفلون فى

الربيع بمقتل الرب أدونيس أو نهر إبراهيم. و كان من كهنة الفينيقيين أن أقاموا في أوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجرى فيها أمور غريبة من الرقص و الفحش و من تضحية البنات و الأسرى على مذابح الهياكل التي كانت أشبه بمواخير يأوى إليها الفاحشات فيختلف إليهن من يريد الفجور باسم الدين.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٠٦

و يقال على الجملة: إن الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الأرباب، فأهل صور عبدوا عشتروت و ملكوت و بعلا، و أهل صيدا أشمون و عشتروت و بعلا و أهل بيروت عشتروت و عطارد و بعل مرقد. و تجيء بعد هذه الطبقة من الأرباب طبقة أخرى منها كالرب أيس و الرب سلمان. و مجموع الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد و المشتري و غيرهما.

و كانت ديانة الآراميين كديانة الأشوريين و البابليين يعبدون الرب العظيم و رب الفكر و رب السماء و الرب الأسد. و يجسمون رب الأرباب عندهم، على صورة إنسان في نصفه الأعلى، و نصفه الأسفل على صورة سمكة. و ذكروا أن شيما كانت ربة أهل حماة. و عبد الآراميون النيازك و الشمس و القمر و السيارات السبع و الهواء و الرياح و النيران و عبدوا أترعطي الربة السورية و دعوها دركيو نصفها إنسان و نصفها السفلى سمكة. و كان عابدها إكراما لها يمتنعون عن تناول السمك و يتفرون على فتح أحواض يربون الأسماك فيها. و من معبودات الآراميين هدد و سميسوس زوج الربة شيما و أترعطي زوج الرب هدد.

و كان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد أوثان أيضا، فقد عبدوا الرب تيشوبو و هو مثل هدد الآراميين و بعل الكنعانيين. و روى أنهم عبدوا الشمس و أخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت و غيرها من الأرباب و ألّوها مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها و جلالها. و عبد الكلدان و الأشوريون أولا رب السماء و رب الأرباب و رب الأرض و رب البحر، و جعلوا لكل رب من هذه الأرباب ربة تكون قرينته.

و بعد حين عبدوا القمر و الشمس و الزهرة. و الزهرة هذه ينظرون إليها أنها قد تجسدت فيها الحياة و الحرب ففيها اللطف و الهمجية، و قد بنوا لها في مدينة أرك هيكلا للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات. و عبد البابليون على عهد حمورابي مردوك رب الأكوان و عبدوا رب الحكمة و العلوم و الحرب و الصيد و الزراعة و الموت و الزوابع و الأنواء و الأوبئة. و اقتبس الأشوريون عامة معبودات البابليين و زادوا عليها ربهم أشور رب الأرباب عندهم،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٠٧

ينزهونه عن الوالد و الولد و الزوج، و يعتقدون بحشر الأجساد أو ما يشبه ذلك في يوم الجزاء. و يرمزون إلى أربابهم بحيوانات و دواب كرمزهم بالأفاعى و الطير و السمك و الغزلان و البقر و الخرفان.

أما قدماء المصريين فقد اهتموا إلى عبادة رب الأرباب و تمثلوه في الشمس الحاكمة على الأكوان. و قدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربها يعتقدون بأنه واحد يظهر في مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات و حيوان و جماد و كواكب و أنهار و لا سيما النيل، و أقاموا لكل واحد من أربابهم الهياكل يخدمها الكهنة و السدنة و من أهم معبوداتهم أوزيريس و إيزيس و هوروس أى الوالد و الوالدة و الولد. و اعتقد المصريون بالآخرة و الجزاء في العالم الثانى و حشر الأجساد، و لذلك عنوا بتحنيط موتاهم على ما لم يصل إليه أحد قبلهم، علّ الميت يأنس بصورته.

و عبد الفرس قوى الطبيعة التي وقعت تحت حسهم من شمس و قمر و نار و ماء و هواء، ثم عبدوا ميترا التي هى الزهرة، ثم كان من مجوسهم على عهد زرادشت و أخلافه أن عبدوا رب الخير و الشر، و اسم رب الخير يزدان أو رب النور و هو الرب الأعظم مبدع الكائنات، و اسم رب الشر أهرمن و هو رب الظلمة و أصل كل بلاء. قال مانى: مبدأ العالم كونان أحدهما نور و الآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر، فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدو و هو الإله ملك جنان النور و له خمسة أعضاء الحلم و العلم و العقل و

الغيب و الفطنة، و خمسة أخر روحانية و هى الحب و الإيمان و الوفاء و المروءة و الحكمة، و زعم أنه بصفاته هذه أزلى و معه شيان اثنان أزيان أحدهما الجو و الآخر الأرض، و أعضاء الجو خمسة الحلم و العلم و العقل و الغيب و الفطنة و أعضاء الأرض النسيم و الرياح و النور و الماء و النار، و الكون الآخر و هو الظلمة و أعضاؤها خمسة الضباب و الحريق و السموم و السم و الظلمة، و من تلك الظلمة كان الشيطان. و الصابئة هم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية أى الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، و ينكرون الرسالة فى الصور البشرية عن الله تعالى و لا ينكرونها عن الكواكب.

هذا و قد دان اليونان كما دان كثير من الأمم القديمة قبلهم بتأليه الجمال

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٨

على اختلاف مظاهره، عبدوا الجمادات لأول أمرهم ثم ترقوا إلى غيرها من تأليه الأشجار و الرجوم و الأحجار، و أنشأوا يكرمون الأفعى فى هياكلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر و طيور البر. و كانوا يبالغون فى إكرام الموتى من عظمائهم حتى ألحقوهم بأربابهم، و نسبوا إليهم كل صفات البشر و أبشع رذائلهم. و يقدمون فى المذابح ذبائح من الطيور و الحيوانات و البشر مما كان عند الفينيقيين. و هكذا كثرت أربابهم إلى التى ليس بعدها، و كلما فتحوا أرضا أضافوا إلى أربابهم بعض الأرباب التى وجدوها تعبد فى الأقاليم المغلوبة على أمرها، و كثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على أن يقلعوا عن تخريفهم. هذا غاية ما يشار إليه من أديان قدماء الدول التى طال أمرها فى هذه الديار.

و من أجيال العرب التى حكمت هنا أجزاء مهمة قبل الإسلام النبطيون فى الجنوب و الايطوريون فى بعض الساحل و قد عبد النبطيون اللات و العزى، و كانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليونانى بستة قرون على الأقل. و عبد الايطوريون الكواكب و الشمس و الزهرة و ذا الشرى، و ربما تشابهت معبوداتهم و معبودات النبطيين. و كان لهم فى بعلبك مذبح قالوا: إنه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جدا. و صنم الأقيصر كان فى مشارف الشام لقضاعة و لحم و جذام و عاملة و غطفان يحجون إليه و يحلقون رؤوسهم عنده و كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعره قرعة من دقيق أى قبضة. و عرف من الآثار أن أهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها. و معظم هذه الأصنام كان مما ينحت من الأحجار و منها ما كان من الشبه (البرونز)، و قد نقلوا هذه الأصنام إلى الغرب خصوصا منذ أوائل القرن الثالث قبل المسيح لما قبض على زمام الامبراطورية الرومانية أباطرة من الشاميين، و قد عثروا على بعضها فى فرنسا و النمسا و إيطاليا. و كان ياهو المشهور فى تاريخ الإسرائيليين حفيد يهو شافاط الذى قتل جميع أنبياء بعل و عبده تعبد العجول فى بيت ايل. و بيت ايل إلى شرقى خط يمتد من أورشليم إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين و كانت قديما عاصمة الكنعانيين.

و قد عبد الرومان قوى الطبيعة من الأفلاك و الشمس و الأرض و النبات

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٠٩

و الحيوان و أكرموا الينايع و الأشجار العظيمة و الحجارة، ثم عبدوا المشتري و أظهره فى مظاهر عديدة و كانوا يقولون رب البرق و رب الرعد و رب النور. و جعلوا للمشتري ربة اسمها جونون و عبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير و البقر و الغنم بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من أسرى الحرب على الأكثر. و لهم أرباب أخرى كرب البيت و حارسه و رب نار البيت و جعلوا لها هياكل أقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدن نارها حتى إذا غفلن عنها فأطفئت و أدوهن على ما كان أهل الجاهلية يثدون بناتهم خشية العار. و لما اختلط الرومان بالأمم الأخرى اقتبسوا منها ما راقهم من أربابهم و منها عشترت المعبود الشامى.

قال كلرمون غانو: لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى أصبح الناس يحبونها فى أصقاع الشام كافة و يقبلونها راضين. و ذلك لأنها قائمة على أساس التسامح القابل للظهور فى كل مظهر و صورة. تلتئم بمرونة عجيبة مع أشكال الديانات التى تدين بها الشعوب الأخرى. و ذلك بأن تمزج هذه الديانات بنفسها أو تمزج نفسها بها. و لم تدخل فى ذاك المحيط الخاضع المدهوش إلا إصلاحا

واحدًا و هو معرفة الأشياء الحسنه، و لم تقض إلا بقضاء واحد و هو الابتعاد عن البشاعة، و لم تضع إلا نظامًا واحدًا و هو نظام السرور، و لا تعليمًا واحدًا غير تعليم الذوق، و لم توح بغير الجمال. و كانت ترفق بالأديان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها و لا تشتد إلا على الأديان التي تحاول مقاومتها. فالعبادات القديمة التي عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافي البارد مأخوذة بشيء من الجنون اه.

لما جاء كسرى إلى حلب و عمر بيتا للنار كان في الشام أربعة أديان أمهات، و هي: اليهودية و النصرانية و عبادة الأوثان و النيران. و لما جاء الإسلام كان الناس يدينون بهذه الأديان. و كانت النصرانية قبل الإسلام على رواية يعقوبى فى ربيع و غسان و بعض قضاة، و اليهودية فى حمير و بنى كنانة و بنى الحارث بن كعب و كنده، و المجوسية فى تميم، و الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة. و كان بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية إلهًا من حيس،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٠

و الحيس تمر يخلط بالسمن و الأقط فيعجن، فعبوده دهرًا طويلًا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه. و لما مرض عمرو بن لحي و كان يلي أمر الكعبة فى الجاهلية قيل له: إن بالبقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ و وجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقى بها و نستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة و نصبها حول الكعبة.

اليهودية :

يرجع البشر على اختلاف مذاهبهم و أديانهم إلى جد واحد و هو آدم و إلى أبناء سيدنا نوح الذين تناسلوا و تكاثروا و انتشروا على سطح الأرض و معلوم أن عرب الجاهلية و اليهود هم أبناء سام و لذلك سموا بالسامية و استوطنوا فى الأصل الديار الكنعانية المعروفة اليوم بفلسطين و مشوا؟؟؟ إلى حدود مصر جنوبًا و إلى العراق ثم إلى منتصف آسيا شرقًا. و الحاميون أبناء حام سكنوا مصر و الحبشة و انتشر القسم الثالث أى أبناء يافث فهم فى القارة الأوربية و الأرض التركية.

و لما ظهر الأب الأول سيدنا إبراهيم عليه الصلاة و السلام، من بلدته الرها (أورفة) من ديار الكلدان جاء منقادًا بمشيئة الله إلى الأرض الكنعانية و أقام فى بلدة حبرون أى خليل الرحمن رمزًا لمودة الخالق له. و هنا نغضى عن سرد ما أوتى من المعجزات و نغفل أيضا عن ذكر من جاء بعده من الآباء و الأنبياء الكرام و ما أوتوا هم أيضا من المعجزات. و الكتب المقدسة حافلة بكل ما يراد معرفته بهذا الشأن. و لا نرى بدا من الإشارة فقط إلى أن سيدنا إسماعيل بن الخليل الأكبر قد نرح و أمه هاجر من الأرض الكنعانية إلى شبه

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١١

جزيرة العرب و بقى أخوه إسحاق فى تلك الأصقاع الموصوفة بأرض الميعاد، إشارة إلى العهد الذى أعطاه الخالق سبحانه و تعالى خليله إبراهيم القائل بإعطاء الأرض الكنعانية على رحبها إلى نسله. و قد سميت بالأرض المقدسة أيضا عندما بدأ اليهود يحجون إلى الهيكل المقدس الذى بناه سليمان الحكيم. و قد كان بناء هذا الهيكل مدعاة لتمسك اليهود بهذه الديار و لعدم النزوح عنها إلا لتعاطى التجارة لمن كان مكرها بحكم الضرورة على الإقامة مؤقتًا فى الأقطار المجاورة. و قد وجدت فى الدهر الغابر آثار تاريخية كثيرة تدل على نزول اليهود حوران و دمشق و بلاد الفينيقيين الواقعة على شاطئ البحر المتوسط.

و مما لا ريب فيه أن اليهود قد أقاموا عصورًا فى القطرين اللذين دوختهما جيوش النبي داود و أعنى بهما سورية و شمال ما بين النهرين. و لما أعمل نبوخذ نصر ملك بابل (٦٠٠ ق م) سيفه باليهود هاجر قسم منهم إلى فارس و آسيا الوسطى و آب قسم آخر إلى دمشق. و عادت البقية و على رأسها نحميا و دانيال و جددوا بناء الهيكل المقدس و لم يلبث أن جاء تيطوس الرومانى (٧٠ ب م) و هدمه. و قد أعمل هو أيضا السيف بربابهم و اضطروهم إلى النزوح إلى الأمصار البعيدة كالليونان و الأندلس و شمال إفريقيا. و قد روى عن بولس الرسول أنه حاول اقناع اليهود القاطنين فى الشام لاتباع السيد المسيح و التدين بدين النصرانية، و هذا مما يدل على

وجودهم في تلك الأزمنة في هذه الديار.

ثم إن قائدى عساكر سيدنا عمر عندما فتحا الشام انتقيا نفرا غير قليل من اليهود والمسلمين الدمشقيين أرباب الصناعات والفنون الجميلة و جىء بهم بعد إلى بلاد بخارى فتوفروا على البناء المماثل تمام المماثلة للنسق الدمشقى من حيث طرز البناء ورسومه و أشكاله و أدواته حتى يخيل لمن يزور تلك الأصقاع أنه فى سوق أو دار من أسواق الشام و دورها.

ثم إن نزول اليهود فى دمشق منذ أمد بعيد مشهود و محسوس من كنيس قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقى دمشق و قد جاء ذكره فى التلمود الموضوع منذ أكثر من ألفى سنة و ذلك بقوله بالحرف الواحد: «كنشادييه جوبر» و معناه كنيسة جوبر القائمة إلى يومنا هذا و التي كانت مقرا للنبيين

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٢

إيليا (الخضر) و تلميذه الإشاع (اليسع). و فى بعض دور الكتب العبرية فى دمشق إلى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدا الى القرن الحادى عشر للميلاد.

و صفوة القول أن اليهود لم ينقطعوا عن الشام لا- سيما عند فتح المسلمين لها إذ ثبتت أقدامهم فيها و توفرت لهم أسباب الهناء و الرخاء.

و لم تؤثر التطورات و الفتوحات التي وقعت فى هذا القطر فى اعتقاد اليهود الدينى و لا غيرت شكلا من مراسمهم، بل كانت بالعكس سببا قويا لتضافرهم و تحفزهم لدرء كل ما من شأنه أن يفسد لهم معاملاتهم و عاداتهم. و ما زالوا منذ الخلقه كسائر اليهود يعبدون الله عزّ و جلّ و يوحدونه و يعرفونه بيهوه كما تسمى إلى آدم و إلى الآباء و الأنبياء بقوله لهم باللفظ العبرى: «إنى ي ه و ه» أى أنا يهوه.

و قد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلا و افيا خلاصته باللغة العبرانية: «هيا، هيو، يهيه» و معناه كان (فى الماضى) و كائن (فى الحال) و سيكون (فى المستقبل) أى إنه تعالى حى قيوم دائم إلى الأبد. و كان يرفق أحيانا اسمه الكريم فى التوراة كلمة «إلوهيم أو شدآى» و معناه الجبروت و الشدة. و يحترم اليهود أيضا الأنبياء الذين أوحى اليهم فى زمن ملوكهم و عددهم ٤٨.

يتآلف اليهود مع مواطنيهم مهما اختلفت نزعاتهم. فهم فرنسيس فى فرنسا، و روس فى روسيا، و إنكليز فى بريطانيا، و هنا أيضا لا يختلفون عن الشاميين من حيث الأخلاق و الزى. و لأسمائهم دخل قوى فى الألفه مع مسلمى الشام. فهم يتسمون بأسماء لا يسمى بها غيرهم من اليهود كصبحى و صبرى و عارف و مراد و يحيى و عبده و بهيه و عائشة و جميلة إلى ما هنالك من الأسماء العربية المحضه، و مما يزيد اثلا فهم مع المسلمين أنهم مضطرون بحكم الدين الموسوى أن يراعوا مثلهم أحكام الختان و الغسل و الطهارة.

و لغة اليهود «العبرية» أينما حلّوا و رحلوا يتعرف بها بعضهم إلى بعض و بها يؤدون فروض صلواتهم اليومية و شعائرهم الدينية، و لغتهم هذه هى شقيقة اللغة العربية. فإن الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبرانى و كذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية و التعمق

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٣

فى دقائقها. و هى كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال و أغلب كلماتها هى كشقيقتها لفظا و معنى. و عدد حروفها ٢٢ حرفا و هى:

ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت أى أبجد هوز حطى كلمن سغفص قرشت.

و قد كان للغة العبرانية الفضل الأكبر فى حفظ حياة اليهود إلى هذا الزمن فهى التي جمعت شملهم فى البلدان المختلفة و هى التي ذبت عن حياضهم و حافظت على كيانهم. و قد حث العلماء المعاصرون على رفعها إلى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم على تأسيس الجامعة العبرية فى القدس الشريف فى ١ نيسان سنة (١٩٢٥) و بدأوا بترجمة الآثار النفيسة و الكتب المفيدة إليها.

و لا يمضى زمن حتى يكون لهذه اللغة على ما أرى شأن عظيم و مركز سام.

و رب قائل يقول: إنه قد يحول دون توسع علماء اليهود فى الترجمة و الإنشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية، فالجواب، أن التلمود أتى على ذكر بعض المخترعات التى نظنها وليدة القرن الغابر أو الحاضر كالمناطيد و الكهرباء و سمّاها بأسمائها المخصوصة. و قد أعيدت إلى اللغة فى هذا العصر و مع هذا لم يحجم علماء اللغة فى القرن الماضى عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج إليها و التى تفى بالمعانى المقصود إدخالها على اللغة العبرانية.

السامرة :

ينسب السامريون أنفسهم إلى سبط يوسف و ينسب كهانهم أنفسهم إلى سبط لاوى و يقررون أن هذا السبط هو بيت الكهوت الإسرائيلى حصرا.

و «السامرية» نسبة إلى إقطاع شمرونيم الذى كان فى ملك سامير الأشورى الشمرونيى. و ذلك إن الأشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الأولى انتشروا فى الأقاليم و امتلكوا كثيرا من الإقطاعات. و كانت فرقة شمرونيم تملك

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٤

إقطاع سبسطية و أخذوا يستغلون أرضه بعد أن خربوا المدينة المذكورة.

ثم آل هذا الإقطاع إلى سامير أمير الفرقة فجاء إليه أحد ذوى اليسار من آل يوسف و اشترى إقطاعه و أخذ يعمره هو و آله، فلبستهم نسبة الأرض ثم ابتنوا أخيرا مدينتهم التى سمت بالسامرية نسبة إلى أصل تسمية الإقطاع و مالكة الأشورى.

و يعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف دينى نشأ بينهم و بين هذه الأسباط. و ذلك أن الإسرائيليين ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقصدون جبل جرزيم الذى هو جبل «نابلس» الجنوبى و يقربون عليه قراينهم اعتقادا منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأول فى هذا الجبل. و كان إلى ذلك التاريخ مركز حجهم و مقام إمامهم الأكبر و كاهنهم الأعظم. فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام عزي ابن بحقى و كان حديث السن فحسده الكاهن الأعظم على و أنف أن يكون له مرءوسا و أخذ يدس الدسائس حتى نجح فى استماله فريق من الإسرائيليين فهجروا جرزيم و انتقلوا إلى سيلون- قرب القدس- و كان ماهرا فى الشعوذة و أعمال السحر، فعظم حوله الجمع فأقام هيكلًا و صندوقا للشواهد و ادعى أنهما الأصليان و أوجب تقديسهما و صرف الوجوه عن جرزيم.

و قد ساعده فى عمله اختفاء الهيكل و صندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم بأعجوبة ربانية انتقاما من اليهود لمخالفتهم الشريعة و انغماسهم فى المعاصى. فاعتبر سائر اليهود قول على و أخذوا يقصدون هيكل سيلون.

أما سبط يوسف و لاوى فإنهما ظلا على عهدهما من نصر الإمام عزي و تقديس جرزيم و اعتباره المحل المختار الذى اختاره الله للهيكل و الذبيح.

و من هذا الحين أصبح الإسرائيليون فرقتين: فرقة عزي و مركزهم جرزيم و حدوده، و فرقة على و مركزهم سيلون. و قد استحكمت العداة بين الفرقتين فأخذتا تتعدان إحداهما عن الأخرى و طفت كل فرقة تلصق بالأخرى التهم، و جرت بينهما مناقشات و منازعات كانت تؤدى فى بعض الأوقات إلى إراقة الدم.

يقول السامريون: إن على الكاهن بعد أن عظم أمره أخذت مطامعه تظهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٥

و أساء السيرة فى اليهود هو و أولاده و أخذوا يخالفون أوامر الله و شريعته، و قد بنى ولدا اسمه صمويل أتقن الشعوذة. و اغتم الفلسطينيون فرصة انشقاق الإسرائيليين فزحفوا على اليهود و نكلوا بهم، فلما مات الكاهن خلفه صمويل فلم ير إلا أن يدعى النبوة ربطا

لقلوب اليهود به، فصدقه هؤلاء لقوة شعوذته ودهائه ولكنهم طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكا يدير شؤونهم و يجمع شملهم دفعا لخطر الفلسطينيين فأقام عليهم شاول الملك. و كان من أعمال هذا الملك إشهار الحرب على سبى يوسف و لاوى لعدم اتباعهم لهم و عدم اعتبارهم هيكل سيلون و ذبحهم معهم فى مذبح سيلون. و قد كبس شاول السبطين فى عيد المظال فقتل منهم كل من وجده و ذبح إمامهم الأكبر شيشى بن عزى و خرب محل عبادتهم فى جرزيم و نقض حجارة الهيكل.

و احتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من الذين سلموا من القتل منهم. و ظل آل يوسف و لاوى اثنين و عشرين عاما لا يقدرن على أداء فريضة الحج و لا يجرأون على التظاهر بشعائهم الدينية. و قد حاول كاهنهم الأكبر باير إقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم و بناء الهيكل فيه فلم ينجح، و أخذ يقيم الهيكل فى يابيس «القدس الآن» و ادعى هو و ابنه سليمان من بعده أنه المحل المختار و أناطوا به جميع المقدرات المنوطة بجرزيم دون أن يكون لى أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك فى زعم السامريين.

و لما غزا بختنصر فلسطين أجلى فى من أجلاه آل يوسف إلى بابل و أسكن محلهم أما غريبة فبسبب ذلك انجاس الأمطار و عطب الزيتون، فالتمس القاطنون من الملك أن يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابهم هؤلاء أن لنا جبلا مقدسا نحج إليه و نتقرب إلى الله فيه بالقرايين لا نرى فيه حسا و لا عطبا، فعزم على إعادتهم إلى أرضهم ليقوموا شعائهم. و قد وقع فى هذا السياق بينهم و بين آل يهوذا خلاف على المحل المختار و لكن آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصهم فرجحهم و أعادهم و جعل لهم شيئا من السلطة فجاءوا و أقاموا هيكلهم و زحفوا على يابيس و هدموا هيكلها. فكان نجاحهم هذا عاملا جديدا فى ازدياد النفرة بين الفريقين أولا و تحريف اليهود نسخ التوراة الموجودة فى أيديهم ثانيا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٦

و قد طعن اليهود فى أصلهم فقالوا عنهم كوتيين و نعتوهم بأنهم و ثيون و أن لهم صنما اسمه أشيما نكايه و تغرضا و انتقاما. و قد كان اليهود فى عهد الحكم الرومانى و الفارسى كثار العدد. و كان لهم يد كبرى فى الثورات الوطنية التى كانت تنشب من حين إلى آخر، و قد أفنت هذه المنازعات عددا كبيرا.

فلما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يدينون بالإسلام فيقل عددهم رويدا رويدا إلى أن أصبحوا طائفة قليلة جدا ربما لا يتجاوز عددها الآن مائتى نفر ذكورا و إناثا كبارا و صغارا. و قد اقتبسوا من المسلمين و اقتبس المسلمون منهم فى نابلس على توالى الأيام كثيرا من العادات و اللهجات.

و هم الآن يتكلمون بالعربية النابلسية العامية. و قليل منهم يعرف العبرانية كما أن عبرانيتهم قديمة بينها و بين عبرانية اليهود اختلاف بين و إن؟؟؟

اللغتان إلى أصل واحد. و لا يزال أصل بعض الأسر المسلمة فى نابلس م؟؟؟

النسبة و الأرومة فى الطائفة السامرية.

ينعت السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم حافظوا و لا يزالون يحافظون على أدق شعائر العبادات و الشريعة دون تأويل و لا انحراف. و يزعمون أن التوراة التى فى أيديهم أصدق و أقدم تورا و أنها بخط أبيشع بن فينحس ابن العزر بن هرون نقلها أبيشع عن المدرج الذى كتبه بيده موسى عليه السلام. و توراتهم هذه مدرج طويل من الرق له أسطوانة مفضضة محفوظة فى معبدهم تكاد تكون سلوتهم الوحيدة فى هذا العالم الذى أصبحوا فيه غرباء عن كل أمم و أثرا تاريخيا أكثر مما هو شعب حى. و هم يزعمون أن تورا اليهود قد فقدت مرارا و حرقت كثيرا و أن التوراة التى بين أيدي اليهود ملفقة بالظن و الحدس على غير أساس، و أن اليهود عدا ذلك قد تسامحوا بكثير من مظاهر الدين و أولوا نصوص الشريعة فصار بينهم فروق كثيرة. و فى أيدي السامريين كتب جدلية كثيرة فى تثبيت طريقهم و الطعن فى طريقة اليهود و تفسيراتهم و تأويلاتهم.

و أول خلاف نشأ بينهم و بين اليهود خلاف القبلة. فالسامريون يعتبرون جبل جرزيم الجبل المقدس و المحل المختار الذى أمر

إبراهيم عليه السلام بذبح ولده عليه و الذي أمر يوشع من قبل موسى بإقامة الهيكل فيه و يقررون أن عيد

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٧

الفسح و قرايينه لا تجوز إلا في هذا الجبل و حدود منطقته التي لا تتعدى منطقة نابلس الآن. و من الخلافات بينهم و بين اليهود وقت الختان. فالسامريون لا يقبلون عذرا لتأخير يوم الختان إلى ما بعد اليوم الثامن من الولادة على حين يتجوز اليهود في ذلك. و بين الفريقين خلاف في مواعيد الأعياد و شعائرها و فروعها و فرضية القرايين و الطبقات الملاممة بها. و للسامريين أصول فلكية دقيقة يستندون إليها في حساب تولد الأهلّة و تعيين مواعيد الأعياد و الشعائر.

و يخالف السامريون اليهود في تجويز بعض الأنكحة فهم يحرمون نكاح امرأة الأخ الشقيق و بنت الأخ و زوج الأخت و امرأة العم و امرأة الخال و اليهود يحللونها. و كذلك هم يختلفون في بدء عيد الفطير و الطقس الخمسيني ذوى الأسابيع السبعة المقدسة التي يحيى بها الإسرائيليون ذكرى أسابيع الخروج من مصر و دخول أرض كنعان. و السامريون يتشددون في شعائرتهم الدينية لا سيما يوم السبت، و يزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفيا.

و يتشددون في أحكام الدم و النجاسات و مواعيد الطهارة و كفياتها و يحملون أنفسهم عبئا لا يملك الإنسان نفسه من الشفقة عليهم من أجله. و هم اليوم لا يغسلون موتاهم و لا يحملونهم و إنما يستأجرون لهذين الغرضين أناسا من المسلمين لأن للميت و غسله و مائه نجاسات يتعذر طهر السامري منها في الحال الحاضر. و يقولون: إن السامري لا يطهر منها إلا إذا رش بعد عزلة الأيام السبعة برمد بقره مقررة الصفات. و قد نفذ هذا الرماد الذي كانوا يتوارثونه منذ أمد طويل و لم يمكنهم تعويضه. و للسامريين صلوات مفروضة يوم السبت و غيره. ففي غير السبت لهم صلواتان مفروضتان هما صلاة الصبح و صلاة المغرب. و في يوم السبت صلواتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر و صلاة الصرفة. و صلاتهم ذات ركوع و سجود و انتصاب يتلون فيها سورا من التوراة. و هم يتوضأون قبيل الصلاة و وضوءا يقرب من وضوء المسلمين.

و أهم أعيادهم عيد الفسح في آخر أسبوع الفطير. و يكون في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان. و هو عيد سنوى جامع يشبه الحج. يصعد السامريون فيه كبارهم و صغارهم جبل جرزيم. و يوجدون

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٨

حضوره على كل سامري و لا يقبل للمتخلف عذر. فإذا كان يوم العيد و أخذت الشمس بالزوال تهبأوا للعيد في ثياب بيضاء و جبب زاهية و اعتموا بعمائم بيضاء أو حرير (أغبانية) مطرزة و هياوا سبعة أكباش سالمه من كل عيب و نقص و حفروا تنورا عميقا بينونه بحجارة مرصوفة من دون طين. فإذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة و قراءة التراتيل مصطفين على شكل إمام و مؤتمين، فحينما يآزف الوقت المقرر و هو بين الغرويين يعطى الكاهن الأكبر إشارته فيذبح الذبائح الأكبش بسرعة البرق، ثم ينتهون من هذه الصلاة الأولى و يبادرون جميعا لتحضير الذبائح ينتفها أناس و يملحها آخرون، و بعضهم يوقدون النار و يحمون التنور و هم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا يفترون عن التلاوة و الترتيل. ثم يحرقون شحوم القرايين و أطرافها على مذبح يصنعونه من الحجارة و يلقون بعد ذلك الذبائح في التنور، و يقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنضج القرايين فيرفعون عنها الحجارة و يخرجونها و يأكلونها، و بعد أن ينتهوا من الأكل يحرقون الفضلات و العظام، إذ أنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة و لا أثرا منها. و قد اعتاد المسلمون في نابلس أن يصعدوا الجبل في هذا اليوم للتفرج أولا و لزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن أنه من شهداء الحروب الصليبية اه.

و في كتاب ولاية بيروت أن شروط العقيدة الأصلية عند السامريين خمسة و هي الاعتقاد بوحدانية الله، و نبوة موسى، و أن التوراة كتاب منزل، و أن جبل جرزيم هو مقدس، و أن الساعة آتية لا ريب فيها. و يعتقدون أن الله منزه عن جميع الصفات و لا يؤمنون بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى و يوشع و يعتقدون أن البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر و يؤمنون بمجىء المهدي و يطلقون

عليه أسماء مختلفة فيسمونه «حاشا حيب» و «حاطا حيب» و «مرجع» و أن لظهوره علائم فيظهر كلمة الله و ينقل عصا موسى و ألواح العشرة و يجيء بقدره المن و هى الحلوى الإلهية. و يعتقد السامرة بالملائكة و يفرض على كل سامرى أن يصلى و يزكى، فالصلاة صلاتان: إحداهما صلاة الصبح، و الثانية صلاة الغروب، و كل صلاة إحدى عشرة ركعة،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢١٩

جماعة أفضل، و الصلاة مفروضة على الرجال و النساء و لكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة، و يشترط أن يكون المصلى طاهرا و الطهارة عندهم على نوعين الغسل أولا- و الوضوء ثانيا، فالطهارة من الحدث شروط أولى على كل موسى حتى إن لمس الحائض موجب للغسل، و على الحائض أن تحضر ثلاثا من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها، و أما الوضوء فيغسل المتوضى أولا يديه، و إذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه إلى المرفقين و الساعدين ثلاث مرات. ثم يتمضمض و يستنشق ثلاثا ثم يغسل وجهه و يمسح أذنيه و يغسل رجليه ثلاثا. و يتلون التوراة فى الصلاة باللسان العبرى القديم و تجوز تلاوتها باللغة السامرية. و الحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم و هو ثلاثة أشكال حج الفطير و حج العنصرة و حج المظال. و يمسكون فى صومهم أربعاً و عشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام، فلا يدخل السامرى كبرا كان أو صغيرا شيئا إلى فمه حتى الطفل الرضيع إنه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة، و لا ينامون مطلقا فى هذه الأربع و العشرين ساعة، بل يقضونها بالطاعة و العبادة. أما الزكاة فهى عبارة عن إعطاء واحد فى العشرة من الأرباح إلى الكاهن و الفقير. و يحجب السامريون نساءهم و يجوز الزواج ثانية إذا كانت المرأة عاقرا أو مريضة أو ذات عيب شرعى. و أصول مواريثهم لا تخالف أصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين.

الأرثوذكسية:

ليس من دين يدين به أبناء آدم إلا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه.

فقد خاصم أهل الختان المنتصرون رسل المسيح ليقنعوهم بوجوب اختتان الوثنيين الراغبين فى التدين بالنصرانية. و لكن الرسل و الكهنة اجتمعوا فى أورشليم فى السنة الخمسين بعد الميلاد «و حكموا بالألأ يتقل بهذا ناموس على من يرجع إلى الله من الأمم» (اع ١١: ٢-٣ و ١٥: ١-٣١ و ١٦: ٣-١).

و فى القرن الثانى نشأت فى الدين المسيحى بدع اليهود الناصريين و الأنوينيين و الكلصاعيين و الشمشونيين و الفنونستين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٠

و عاجلهم سهم القضاء. و قام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم فى القرن الرابع قس كنيسة الإسكندرية آريوس، إذ كفر بألوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة (٣٢٥) مجمعا مسكونيا فى مدينة نيقية حضره أول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير و ثلاثمائة و ثمانية عشر أسقفا ما عدا الكهنة و الشماسة و العلماء و حكمت عليه فعرى من الكهنوت و نفى و قطع السبب أتباعه. و بتأثير ضلال آريوس كفر مكدونوس أسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة و على بدع آفوميوس و أبوليناريوس و صبالوس و ماركلوس و آفدوكسيوس و فوتيوس بالمجمع الثانى المسكونى الذى التأم سنة (٣٨١) فى القسطنطينية على عهد القيصر ثيودوسيوس الكبير و حضره مائة و خمسون أسقفا أثبتوا صلاحية المجمع الأول الشرعية و أكملوا دستور الإيمان الذى وضعه، قاضين بإقامته على كل أورثوذكسى فهو شعار إيماننا إلى يوم القيامة و مطلع «أومن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السماء و الأرض...» و خطوا مكدونوس من رتبته الكهنوتية فسكن نسيس مشايه.

و أولع نسطوريوس أسقف القسطنطينية بعشق الإمامة نافرا إليها فى شاكله من «خالف ليعرف» فكفر بالمسيح و أمه مريم فرمته الكنيسة

ياقحاف رأسه في مجمعها الثالث المسكونى الذى اجتمع فى مدينة أفسس سنة (٤٣١) على عهد القيصر ثيودوسيوس الصغير و حضره نحو مئتى أسقف قرعوا ضلال نسطوريوس بالحق فأسقط من الكهنوت و نفى إلى مصر و باتت بدعته تدمى فى الكلدان كالفنساء إلى اليوم.

و ركب أوطينا الراهب رأسه فى محاربة ضلال نسطوريوس حتى انتشر عليه رأيه فى طبيعتى المسيح ففسد إيمانه بهما و أغرق فى غوايته حتى انتصفت منه الكنيسة بحكمها عليه و على بدعته بمجمعها المسكونى الرابع الذى اجتمع فى خلکیدون سنة (٤٥١) و حضره القيصر مريانوس و ستمائة و ثلاثون أسقفا.

و ضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فتشردوا قددا رنقت عليها المنية لو لا زعيمهم أسقف أرفا يعقوب الزنلى المشهور بالبرادعى. فإنه لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطريكىة فى أنطاكية فتسموا «باليعاقبة» إكراما له و انقسموا إلى سريان و أرمن و مصريين.

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٢١

و فى سنة (٥٥٣) اجتمع المجمع المسكونى الخامس فى القسطنطينية على عهد القيصر يوستينيانوس الكبير و كان أعضاؤه مائة و خمسة و ستين أسقفا حكموا على غوايات أوريغانوس الشهير و ما يعرف فى التاريخ الكنسى «بالقضايا الثلاث» و أثبتوا أحكام المجمع المسكونية الأربعة.

و فى سنة (٦٨٠) إلتأم المجمع المسكونى السادس فى القسطنطينية و حضره القيصر قسطنطين اللحيانى و مائة و سبعون أسقفا و فى رواية أخرى مائتان و تسعة و ثمانون أبا حكموا على القائلين «بالمشيئة الواحدة» فى المسيح، منهم سرجيوس بطريك القسطنطينية و أونوريوس بابا رومية و أقاموا المجمع المسكونية الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزاع فى شيعه الراهب يوحنا مارون التى عرفت «بالمردة» و انحصرت على قنن لبنان و تسمى الآن «بالمارونية» نسبة إلى الراهب المذكور الذى صار أسقفا أول عليها حتى استوفت أنفاسها أيام حملات الفرنج الصليبيين على الشام سنة (١١٨٢) فإنهم جذبوا الموارنة إلى الخضوع لكنيسة رومية فثبتوا فيه بعد أن طرد المسلمون الصليبيين، إلا أنهم أبدلوا بدعة «المشيئة الواحدة» بما ابتدعه رومية بعد أن قطعها الكنيسة من شركتها فى القرن الحادى عشر.

و فى سنة (٧٢٦) بدأ القيصر لاون الإيصورى محاربة صور الأولياء (الأيقونات و بقاياهم و شايعة أساقفة كثيرين فتأذت الكنيسة من هذه البدعة حتى حكمت عليها فى مجمعها السابع المسكونى الذى اجتمع فى مدينة نيقية سنة (٧٨٧) على عهد القيصره إيرينى الوصية على ابنها قسطنطين السادس و حضره ثلاثمائة و سبعة و ستون أبا. إلا أن هذه البدعة تجددت فى الشيع البرتستانتيه فى أوائل القرن الخامس عشر و لا تزال ترهقها بأضرار جمه عامله على تشعث إلفتها و تمزق شملها.

و فى سنة (٨٧٩) إلتأم المجمع المسكونى الثامن فى كنيسة أجيا صوفيا و حضره القيصر باسيلوس المكدونى و عماله ليحافظوا على النظام جريا على عادة أسلافه العواهل العظام و ثلاثمائة و ثلاثة و ثمانون رئيس كهنه أثبتوا دستور الإيمان الذى وضعه المجمعان الأول و الثانى على ما مرقاضين بانتباز من يزيد فيه أو ينقص منه. و لا يحصى هذا المجمع رسميا مع المجمع السبعة

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٢٢

المذكورة، مع أن الكنيسة كلها شرقا و غربا اشتركت فيه و قررت أحكامه بالانفاق التام جريا على عاداتها فيها. و سبب ذلك أنه لم يلتئم بعده مجمع مسكونى تام الشروط ليثبت صلاحيته الشرعية اتباعا لنظام المجمع.

و نشرت كنيسة رومية الدين المسيحى فى شعوب أوربا أيام كان الله خاتما على قلوبهم، فبدلوا لها مقادتهم و خشع ملوكهم أمام أساقفتها فعصفت فى رؤوس الباباوات زوابع المجد العالمى و استرسلوا فى سعيهم وراء السلطة المطلقة على الممالك و الكنائس، فنزل جهل الغرب المطبق على مقترحهم و أسدر عيونهم نور الشرق - و الشرق مبعث النور - فنصح لهم البطريك كان المسكونيان أن

يترعوا، فما كان منهم إلا- أن غلوا في طغيانهم فبذتهم الكنيسة بمجمع التأم على عهد القيصر قسطنطين مونوماخس و البطريرك ميخائيل المذكور، فعمدوا بعد ياسهم إلى القوة البدنية توصلًا إلى ما اشأبت إليه أطماعهم فسيروا على الشرق الحملات الصليبية التي سؤدت بإفحاشها فيه مجلدات برمتها حتى محققها المسلمون و طهروه منها و ردوا على الكنيسة الأرثوذكسية حقوقها التي منحها إياها الخليفة عمر بن الخطاب و خلفاؤه. فمقت الروم اللاتين حتى آثروا أن يروا عمامة السلطان محمد الثاني (الفتاح) في كنيسة أجا صوفيا على أن يروا فيها كمه البابا.

و لما انحجب نور الشرق عن رومية تاهت كنيستها في شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم أوروبا متعوذين بالمذهب البرتستانتي، فأنشأت لهم «ديوان التفتيش» المشهور بفظائعه. ثم لما سطع فجر العلم في أوروبا و امتنع عليها إكراه الناس على التدين بما تملبه عليهم عمدت إلى دهاء الرهبانيات كالجزويت و الكبوشيين و غيرهم فاستغوت بالمال حزائق من الطوائف الشرقية القديمة، منها حزيقه الروم الكاثوليك الذين استغوتهم من الملة الأرثوذكسية فانتحلوا لأنفسهم وصف «الملكيين» ليوهموا الناس أنهم الأصل و لكنهم لم يوهموا إلا أنفسهم فصدق فيهم قول المتنبى:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه و صدق ما يعتاده من توهم

أما الحقيقة التاريخية فهي أن القائلين «بالطبيعة الواحدة» من أقباط مصر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٣

نعوتوا الأرثوذكسيين «بالملكيين» لتمسكهم بإيمان ملوك القسطنطينية.

فمن هذه الحقائق التاريخية التي أيدتها شواهد العقل و النقل المثبتة في المطولات يعلم المطالع:

١ أن الحقيقة الإنجيلية حفظت في الكنيسة الأرثوذكسية مصنونه عن كل شائبة بدعة و ضلال و ستحفظ إلى منتهى الدهر (مت ١٦: ١٨ و ٢٨:

٢٠ يو ١٤: ١٦).

٢ و أن المملكة البيزنطية التي عاشت زهاء ألف و مئة و خمسين عاما قد ناصرت الكنيسة على صيانه هذه الحقيقة مؤثرة أياها على المصلحة المادية.

٣ و أن أمر الكنيسة الأرثوذكسية شوري لأنها تعمد في حل المشكلات إلى المجمع اقتداء برسل المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه (مت ١٨: ١٥-١٧ واع ١٥: ٦).

٤ و أن السلطة العليا فيها منحصرة في المجمع المسكونية وحدها فهي تؤمن بما حددته من عقائد الإيمان المقررة في الكتاب المقدس و تأتمر بأوامرها و تحفظ قوانينها و تنبذ كل بدعة نبذتها و تحكم على من يتجاسرون على نقض أحكامها و العبث بقراراتها أيا كانوا. و أن الشرق كان موطن أخبار الدين المحققين، و جهابذة اليقين الراسخين، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديدا لا يحتمل التأويل و التبديل بما أقاموا عليها من البيئات الواضحة و الحجج الدامغة مما اضطر الغرب أن يجعل قياده في يده و ينزل على حكمه في جميع الأمور الدينية.

٥ و أن الروم الأرثوذكسيين كانوا أصحاب البلاد و كان معتقدتهم سائدا في من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون و آمنوهم على دينهم و أموالهم فعاش بوجاهتهم في الممالك الإسلامية حتى اليوم بقيه الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلا، و قد قال القرآن الشريف في الروم «غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» (سورة الروم).

الكتلة:

الكتلة أو الدين الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٢٤

الدينى المعروف الذى يدين به اليوم نيف و ثلاثمائة مليون من البشر كما ورد فى أضبط الإحصاءات الحديثة. يعلن أصحابه و يشبتون قولهم بالبرهان أنه هو الدين الوحيد الذى بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرنا و أخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره فى كل العالم (متى ٢٨: ١٨ - ٢٠ مرقس ١٦: ١٥) تحت رئاسة الأساقفة الخاضعين للبحر الأعظم بابا رومية و خلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته و كراعى نعاجه و خرافه (متى ١٦: ١٨ - ١٩ يوحنا ٢١: ١٥ - ١٧) و أما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة و المنتشرة فى كل الأرض لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت فى جميع أنحاء المعمور حتى ما وراء حدود المملكة الرومانية.

و أصل الكتلكة تلك الجماعة الأولى التى أنشأها السيد المسيح بذاته و دعاها كنيسة (متى ١٦: ١٨) ألفها من الاثنى عشر رسولا (متى ١٠: ٢ - ٥) ثم من الاثنى و السبعين تلميذا (لوقا ١٠: ١) و أنبأهم بتبشير إنجيله فى كل العالم (متى ٢٦: ١٣) و أوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم و يعمدوهم باسم الأب و الابن و الروح القدس و يعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متى ٢٨: ١٩ - ٢٠) فما مر عليهم بضعة أيام حتى حل عليهم البارقليط أى الروح القدس الذى وعدهم بإرساله (يوحنا ١٥: ٢٦) فأنطقهم بألسنة جميع الأمم التى كان حضر بعض أبنائها أورشليم لعيد العنصرة و وقفوا بذلك على الدين الجديد (أعمال ٢: ١ - ١٢) فاعتمد فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (أعمال ٢: ٤١) ثم بلغ عددهم خمسة آلاف بعد أيام (٤: ٤) ثم شاع اسمهم فعرفوا بالمسيحيين (١١: ٢٦) ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدعوا بالكاثوليك و كنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريبا من عهد الرسل كما ورد فى كتاب القديس أغناطيوس تلميذهم و الفيلسوف يوستينيوس النابلسى المستشهد سنة (١٦٥ م) و لم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم.

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التى أوحى الله فى الكتب المنزلة و فى التقليد. و تقسم الكتب المنزلة إلى قسمين أسفار العهد العتيق و أسفار العهد الجديد.

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٢٥

و أسفار «العهد العتيق» منها أولية و منها ثانوية. فالأولية هى التى كتبت فى الأصل باللغة العبرانية و هى: أسفار موسى الخمسة (التكوين و الخروج و الأحبار و العدد و تثنية الاشتراع) ثم الأسفار التاريخية (يشوع و القضاة و راعوت و الملوك الأربعة و أخبار الأيام الاثنان و عزرا و نحميا و أستير) ثم الأسفار النبوية: أربعة كبار (أشعيا و أرميا و حزقيال و دانيال) و اثنا عشر صغار (هوشع و يوثيل و عاموس و عوبديا و يونان و ميخا و ناحوم و حبقوق و صفنيا و حجّاي و زكريا و ملخيا) ثم الأسفار الحكيمية (مزامير داود و أمثال سليمان و أيوب و نشيد الأناشيد و الجامعة).

أما الأسفار (الثانوية) فهى التى كتبت بالكلدانية أو اليونانية و نقلت فى الترجمة المعروفة بالسبعينية و هى: طوييا و يهوديت و ابن سيراخ و المكابيون (اثنان).

و هذه كتب «العهد الجديد»: الأناجيل الأربعة القانونية للرسولين متى و يوحنا و للتلميذين مرقس و لوقا. ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا. ثم رسائل القديس بولس الأربع عشرة ثم رساله القديس يعقوب و رسالتا بطرس و ثلاث رسائل يوحنا و رساله يهوذا و رؤيا يوحنا.

و فى الكنيسة الكاثوليكية معتقدات آخر ليست مدوّنة فى الأسفار المنزلة و إنما أخذتها بالتعليم الحى بسلسله متواصله من عهد الرسل إلى يومنا و أعلنت بها فى مجامعها أو فى براءات أحبارها و فى تعليمها اليومى. و خلاصة هذه المعتقدات المدوّنة فى أسفار العهد العتيق و لا سيما فى أسفار العهد الجديد مرجعها إلى ما يلى:

أولا عقيدة التوحيد: أى اعتقاد وجود إله واحد روح بسيط أزلى لا أول له و لا آخر لا يحصر جوهره المكان، قائم بذاته ذو صفات و

كاملات لا حد لها من قداسة و حكمه و قدره و رحمه و عدل. و هو خالق كل الكائنات الروحية و الهيولية من العدم بجوده و اختياره. ثانيا عقيدة التثليث: هذا الاله الصمد ذو الجوهر الفرد و الطبيعة الالهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال و كل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٤

قدره لا يفرقها شىء سوى نسبة بعضها إلى بعض. فندعو الأقنوم الأول «أبا» و هو أصل اللاهوت غير مولود و غير منبتق. و الثانى «ابنا» مولودا من الآب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الآب لذاته و لكاملاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به و ضياء مجده و صورة جوهره (عبرانيون ١: ٣ كولوسى ١: ١٥) فهو إله من نور من نور إله حق من إله حق من جوهر الآب (دستور نيقية). و الثالث (روحا قدسا) منبتقا من الآب و الابن ليس بطريق الولادة العقلية، بل بتبادل حب الآب لابنه و حب الابن لأبيه المولود منه. و هذا الحب ليس عرضيا بل جوهريا ندعوه الروح القدس. و هذه عقيدة تثليث الأقانيم فى الله أوصى بها الله بنوع خفى فى العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته، ثم صرح به السيد المسيح فى نصوص عديدة فى الإنجيل و قرره تلاميذه فى رسائلهم بما لا يبقى فى الأمر أدنى ريب و إن كان سرا يفوق الإدراك البشرى.

ثالثا عقيدة التجسد: هو سر الأقنوم الثانى من الثالث الأقدس الذى تأنس و اتخذ فى أحشاء مريم العذراء دون زرع بشرى طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة ليفدى بنى آدم من تبعه الخطيئة الأصلية التى ارتكبها الأبولان الأولان بمخالفتها لأوامرته تعالى فى جنه عدن و خلفاها لسائر نسلهما و بها حصل هلاك الجنس البشرى ففقد البرارة الأصلية التى منحها قبل خطيئته فلم يعد أهلا للتمتع بالنعيم الأبدى و مشاهدة الله فى السماء. و إذ كان الإنسان غير قادر على الوفاء عن خطيئته لجلال الله فإنه تعالى رحمه و وعده بمخلص يعيد له بفدائه ما فقدته من تلك النعم (تكوين ٣: ١٥) و ليس هذا المخلص إلا السيد المسيح منتظر الآباء و الأنبياء و جميع الشعوب و هو الاله المتجسد ذو الأقنوم الإلهى الواحد و ذو الطبيعتين الإلهية و الإنسانية (يوحنا ١: ١٤ و ٣:

١٦ لوقا ١: ٢٦-٣٦) فهذا الاله المتأنس قضى على الأرض ثلاثا و ثلاثين سنة يعمل و يعلم و أنشأ كنيسة و أسلم نفسه اختيارا للعبادات و للموت ثم قام بقوة لاهوته من قبره فى اليوم الثالث و تراءى مرارا لتلاميذه ثم صعد إلى السماء بعد أربعين يوما. و بكل ذلك أتم جميع ما تنبأ عنه الأنبياء دون أن يخل من نبؤاتهم حرفا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٧

و لما كانت أعماله سواء صدرت من طبيعته الإلهية كالمعجزات التى صنعها أو من طبيعته الإنسانية كمولده و موته ذات قيمة غير متناهية لصدورها عن شخصه الوحيد الإلهى شخص ابن الله فقدّمها لأبيه و لا سيما موته على الصليب تكفيرا عن خطايا البشر الذين يستطيعون بعد ذلك أن ينالوا نعمة البرارة و الخلاص الأبدى بواسطة المعمودية و الأعمال الصالحة و التوبة عن الزلات.

رابعا عقيدة القيامة: يؤمن الكاثوليك بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء إن كانت طاهرة من كل خطيئة ثقيلة أو خفيفة و تعاقب بعقوبات جهنم إن كانت فى حال الخط المميت دون توبة عند الموت.

أما إن كانت مدنيّة ببعض الخطايا الخفيفة أو لم تكفر تماما عن خطاياها السابقة المغفورة فيحكم عليها بعددات موقته و ذلك ما يدعونه المطهر ريثما تفى لعدل الله الوفاء التام. و فى آخر الأزمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون إلى أجسادهم ليحضروا الدينونة الأخيرة التى يتولاها السيد المسيح فيحكم نهائيا على البشر فيجازى الأبرار بالنعيم الأبدى و يعاقب الأشرار بالعذاب الدائم (يوحنا ٥: ٢٦-٢٩).

خامسا المعتقدات التقليدية: ما عدا المعتقدات السابقة التى وردت فى الأسفار المقدسة يؤمن أيضا الكاثوليك ببعض الحقائق التى لم تصرح بها الكتب المنزلة و إن أمكن إثباتها من بعض آياتها كعقيدة عصمة الخبر الأعظم عن الغلط فى أمور الإيمان و الآداب إذا علم كئانب المسيح و كخليفة هامة الرسل و كعقيدة جبل العذراء مريم بلا دنس و كعقيدة وجود المطهر و هلم جرا.

فهذه العقائد يمكن ترقيتها بسلسلة متواصلة إلى زمن الرسل تشهد عليها نصوص الآباء و المجمع جيلا بعد جيل و يعلن بها أرباب الكنيسة في تعليمهم اليومي بالإجماع. لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلن بكونها هي كنيسة المسيح و يعارضها في ذلك غيرها من الكنائس المنفصلة عنها كان لا بد أن تمتاز الكنيسة الحقيقية عن سواها ببعض العلامات الخاصة. و هذه العلامات قد سبق الرسل و دونوها في دستور الإيمان المنسوب إليهم و تكرر ذكرها في كل دساتير الإيمان المتقررة بعدهم و هي أربعة: أن تكون الكنيسة واحدة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٨

مقدسة جامعة رسولية. و هذه العلامات لا تستطيع أن تثبتها لنفسها أى كنيسة كانت إلا الكنيسة الكاثوليكية.

فهى «واحدة» باتفاق جميع أعضائها فى خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب المسيح و خليفة بطرس هامة الرسل ثم فى اعتقادهم كل ما تعلمه الكنيسة دون خلاف و أخيرا فى اشتراكهم بالأسرار عينها.

و هى «مقدسة» لأن منشأها السيد المسيح هو القداسة بالذات ثم لأن كل تعاليمها و آدابها صالحه مقدسه و لأنها أيضا تقدم لذويها وسائل جمه لتقديس نفوسهم لا سيما بالأسرار السبعة التى رسمها المخلص أعنى المعمودية و الميرون و التوبة و القربان الأقدس و مشحة المرضى و الكهنوت و الزواج بقربنه واحدة دون طلاق. و لذلك قد أولدت عددا لا يحصى من القديسين فى كل أنحاء العالم تشهد على قداستهم أعمالهم العجيبة و فضائلهم السامية التى لا تزال آثارها ظاهرة لكل ذى عينين. و كفى دليلا عليه وجود الرهبانيات الساعية وراء الكمال بندورها و المتفانية فى عمل كل خير دون غاية زمنية.

و هى «جامعة» لأنها وحدها قد نشرت تعاليمها فى جميع أقطار العالم المعروف فقام دعائها بأمر الرب الموصى بنشر إنجيله بين كل الأمم و من ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعتها. و هى أعظم عددا من أى مذهب كان إذا قيس بها منفردا منقسما كالروم و الشيع البرتستانية و البوذية و البرهمانية و هلم جراً. و فى اسمها دليل على هذه السمة فإن الكاثوليكية معناها الجامعة. و قد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل إذ يقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل رومية (١: ٨) «إن إيمانكم يبشر به فى العالم كله».

و هى «رسولية» لأن سلسلة أخبارها الأعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الأول القديس بطرس هامة الرسل. و بيوس الحادى عشر الجالس اليوم سعيدا على كرسي رومية إنما هو خلفه المائتان و السادس و الستون. هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الأصلية. أما ما يرى فى بعض بلاد الشرق من الاختلافات فى الطقوس و اللغات و العادات الدينية فكل ذلك ثانوى:

عرضى يمكن تغييره مع الزمان دون أن يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزيدها و يزيدها جمالا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٢٩

و معلوم أن الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة فى العالم كله منذ عهد الرسل الحواريين حتى تجاوزت حدود المملكة الرومانية. و لوقوع بلاد الشام فى جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها. و ذلك ما تثبتته أقدم الشواهد التاريخية و أولها سفر أعمال الرسل الذى منه يلوح إنشاء الدين المسيحى فى أنطاكية (١١: ٢٦) و فى سائر سواحل الشام ذكر منها صور و عكة و قيصريه (٢١: ٣-٨).

و يمكننا أن نتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فى الشام جيلا بعد جيل على الرغم مما حلّ بها من اضطهادات الوثنيين و على الرغم مما شاع من البدع كالأريوسية و اليعقوبية و النسطورية و المنوتلية فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية فى إيمانها و خضوعها لرأس الكنيسة الرومانية و آدابها غير الأعراض السابق ذكرها. و الدليل على ذلك إكرام كنائس الشرق لقديسى الغرب و إكرام الغربيين للقديسين الشرقيين. و فى طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد إلى اليوم بتلك الوحدة و الاتفاق. و كذلك سير

القديسين الشرقيين ثبت ذلك الأمر. و كثيرون منهم أزهروا في الشام كالقديس يوحنا فم الذهب و القديس أفرام السرياني و القديس مارون الناسك.

غير أن تملك العرب على الشام و استفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة و صعوبة طرق المواصلات بين الشرق و الغرب أضعفت الدين الكاثوليكي كثيرا في الشام، إلى أن عاد فتعزز بقدوم الصليبيين إلى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر في هذا القطر، فظهرت آثاره الطيبة أولا بين المواردنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم و الأرمن، ثم بين الكلدان و السريان حتى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها و أساقفتها و رعاياها، و لكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن أعمال بنيتها و مشاهير ملتها و ارتباطها مع الكرسي الروماني.

و اليوم يبلغ إحصاء الكاثوليك في الشام نيفا و ستمائة ألف معظمهم المواردنة (٣٠٠، ٠٠٠). ثم الروم الكاثوليك (١٢٠، ٠٠٠). ثم الأرمن (٨٠، ٠٠٠).

ثم السريان (٢٠، ٠٠٠). ثم اللاتين (١٠، ٠٠٠). ثم الكلدان (٢٠٠٠) هذا ما عدا المهاجرين منهم إلى أميركا و غيرها.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٠

و قد تعززت الكتلكة في الشام بدخول الرهبان و أقدمهم الفرنسيون في القرن الثالث عشر. ثم في القرن السابع عشر الكرمليون و الكبوشيون و اليسوعيون.

ثم في أواخر القرن الثامن عشر للعازريون، و في القرن التاسع عشر أخوة المدارس المسيحية و الأخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة و راهبات المحبة و اليوسفيات و راهبات القليبين الأقدسين و راهبات السجود و راهبات العائلة المقدسة و راهبات العجز الخ. و لكل من هؤلاء الرهبان و الراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفي وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية.

و لله الحمد على كل حال.

المارونية:

المواردنة طائفة من النصارى الكاثوليكين الشرقيين يعرف من تواريخهم أنهم ينتسبون إلى الناسك البار القديس مارون القورسي النشأة على ما يرجح.

اعتزل هذا الفاضل الدنيا في أواخر القرن الرابع و لجأ إلى صومعة في قمة جبل غير بعيد عن أنطاكية فما لبث عرف فضائله أن فاح في تلك الأنحاء ف جذب إليه جماعات قصدوه ليلتمسوا منه بركته و صلواته و يسترشدوا بتعاليمه و يقتدوا بسيرته. و قد زهد قوم منهم بالدنيا و اختاروا العزلة و التفرغ لخدمة الله في المغاور و أعالي الجبال ليقبوا بعيدين عن ضوضاء العالم، على أن أريج حياتهم الطاهرة لم يمكن إخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك و تألفت منهم طائفة عرفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية، و كان أهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف النهر العاصي في نواحي أقامية.

و لما توافر عددهم مسّت الحاجة إلى تنظيم أحوالهم الروحية فأقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون و به تبدئ سلسلة بطاركة المواردنة، و عاش هذا البطريرك الأول في أواخر القرن السابع في حين كان للمواردنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية، ثم أخذ المواردنة يهجرون إلى الأقطار المجاورة، فنزل قوم منهم في جبال عكار و عمروا فيها القرى، و سارت فئة نحو الجنوب إلى لبنان الشمالي فما عتموا أن قويت شوكتهم فيه فبلغ في القرن العاشر عدد

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣١

رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألفا على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية.

وقصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق واستغل الأرض فيها وبنى الدساكر والمرابط. وفريق أم القدس وآخر نرح إلى قبرس في أيام الصليبيين وبعض الأسر سكنت حلب في أواسط القرن الخامس عشر وهبط بعضهم مصر ورووس و مالطة. على أن أغلب فضلوا الإقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها ونموا و كثروا رغم ما أصابهم من النكبات في أوقات مختلفة. ولما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم إلى بلاد المهجر كأميركة وإفريقية وأوقيانية حيث ألفوا جاليات لها مقامها المعترف في عالم التجارة والصناعة والأدب كسائر إخوانهم اللبنانيين والسوريين، وبلغ عدد الموارنة و يدخل فيه المهاجرون خمسمائة ألف نسمة.

أما في الدينيات فيتفق الموارنة مع الكاثوليكين بمعتقدهم و شرائعهم الدينية والأدبية و هم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية، إنما لهم و للسريان لغة طقسية واحدة هي السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم و نظام إدارتهم الروحية المبنية كلها في دستورهم المجمع اللبناني الذي عقد سنة (١٧٣٦) و في عاداتهم المشروعة، و يرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك أنطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوي دير سيدة بكركي فوق جونية و مقره الصيفي جديدة قنوبين في لبنان الشمالي فوق طرابلس.

و يخضع لإدارته مطارنة يقيم بعضهم نوابا له و بعضا على أبرشيات معينة مستقل بعضها عن بعض، و يعهد إليهم في تدبير هذه الأبرشيات الروحية و الزمنى و إدارة أوقافها مباشرة أو بواسطة و كلاء يسمونهم لذلك و يراقبون أعمالهم، و في الأبرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا. و في الطائفة جمعيات رهبانية يقيم أعضاؤها في أديارهم و مدارسهم و يتفرغون لخدمة الله و النفوس. و كان للموارنة شرع خاص يتقاضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا القطر من نصارى و غيرهم، و لا تزال أغلب قوانينه مرعية الإجراء عندهم حتى اليوم.

و نبغ منهم في رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة الذي ألف أول غراماطيق سرياني و وضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على خطط الشام؛ ج ٦؛ ص ٢٣٢

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٢

المستشرقين درس هذه اللغة، ثم العلامة أسطفانوس الدويهي المؤرخ المشهور، و يوسف حبيش و بولس مسعد و يوحنا الحاج، و البطريرك الحالي الياس الحويك صاحب المواقف المشهورة في القضايا الوطنية.

ثم الأساقفة كالمطران جرمانوس فرحات و السيد يوسف سمعان السمعاني و يوحنا حبيب و يوسف الدبس و غيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية و القانون و التاريخ.

و بين العلمانيين أمراء شهاب و بيت أبي اللمع و أناس امتازوا بخدمة وطنهم و أعمالهم المبرورة كآل خازن و دحداح و حبيش و السعد و كرم و الظاهر و نبغ غيرهم في خدمة العلم كآل البستاني و الشدياق و النقاش و الباز.

و لا يمكن في عجلة سرد أسماء جميعهم.

البرستانتية:

التأم في أوائل سنة (١٥٢٩) في إحدى مدن جرمانيا مؤتمر بأمر الأباطور كارلس الخامس قرر عدم السماح بإحداث تغيير في الرسوم الدينية و كان هذا القرار موجها ضد الإصلاح و المصلحين. و في ١٩ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الأمراء و الأشراف و أربع عشرة مدينة امبراطورية احتجاجا قالوا فيه: إنهم مستعدون أن يطيعوا الامبراطور و المؤتمر في كل القضايا الواجبة و الممكنة و لكنهم لا يخضعون لأحد في ما يعتقدونه مخالفا لكلمة الله و ضميرهم.

فسموا من ذلك برستانت أو محتجين، و من هذا الوقت أطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين و الكنائس الشرقية بفروعها. و هم يدعون أنفسهم غالبا إنجيليين و يدعون غيرهم تقليديين نسبة إلى التقليد كما سترى.

و البرتستانتيه بمعناها اللغوي لا يخلو منها دين أو مذهب، ففي كل زمان و مكان أفراد و جماعات يحتجون على رسوم في الدين أو المذهب الذي ولدوا فيه قد ينجحون أو لا ينجحون، أما البرتستانت فقد نجحوا نجاحا لم يقدره أحد لهم فعددهم الآن يتجاوز مئتي مليون في الدرجة الأولى عددا بعد اللاتين و كل من انضم إليهم من الكنائس الشرقية، و في الدرجة الأولى في الرقي وسعة الملك. ثم إن البرتستانت و إن افرقت أكثر فرقتهم في أمور أكثرها عرضية

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٣

فهم مجمعون على أمور كثيرة، و إليك التفصيل في ما هم مجمعون عليه و ما هم مختلفون فيه: أهم ما تجمع عليه أكثر فرق البرتستانت (عدا ما هم مجمعون عليه مع غيرهم مما يأتي بيانه):

(أ): أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد في كل ما يلزم للخلاص.

(ب): أن المسيح هو المخلص الوحيد و ليس بأحد غيره خلاص.

(ج): أن الخلاص كله نعمه مجانية من الله.

(د): أن الإيمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص.

(ه): أن الأعمال الصالحة هي ثمر الإيمان الحي فنعمل لأننا مخلصون لا لكي نخلص.

و البرتستانت إجمالاً قسما كيران- الأول الايسكوبيليان أي الأسقفيون و هم الذين يقولون: إن درجات الأكليروس ثلاث: الأسقف و القسيس و الشماس- الثاني البرسبيريان أي القسوسيون و هم الذين ليس عندهم رتبة أساقفة. و أكثر فرق البرتستانت هذا القسم. فالأسقفيون مثلا- يجرون العبادة غالبا بموجب كتاب صلاة أي صورة معينة تتلى وقت عبادة الجماعة. و أما العبادة العائلية و الاجتماعات الأخرى الروحية فيتركونها لحرية القسيس أو من ينوب عنه.

أما القسوسيون فالحرية مفوضة للخادم في كل الأوقات. و عندهم بعض صلوات و إرشادات مكتتبه لمساعدة القسيس في أحوال خصوصية.

على أن هذا النظام لا يعد جوهريا فهذه الكنيسة الانكليكانية و هي تجرى عبادتها بموجب كتاب صلاة تقول في العقيدة ٣٤ «لا يلزم أن تكون التقاليد و الطقوس في جميع الأماكن واحدة متساوية إذ قد اختلفت في كل الأزمان و يصح تغييرها على مقتضى اختلاف المكان و الزمان و عادات الناس بحيث لا يرتب منها شيء مضاد لكلام الله ... و كل كنيسة تختص بأمة فلها سلطان أن تثبت و تغير و تبطل طقوسها و رسومها التي رتبت بسلطان الناس فقط».

و كل الأسقفيين و الأكثرية العظمى من غيرهم يجرون السريرن المعمودية و الشركه و يعمدون الأطفال و البالغين الذين لم يعمدوا أطفالا- أما بعض القسوسيين فلا- يعمدون إلا- البالغين و يسمون بالمعمدانيين، و بعضهم لا يجري السريرن مطلقا و هم المعروفون بالفرنديس أو الكويكرس.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٤

يتفق البرتستانت مع غيرهم في أمور كثيرة جوهرية و يخالفونهم في أمور أخرى و إليك التفصيل: أهم الأمور الجوهرية التي يتفق فيها البرتستانت مع غيرهم. يتفقون في قانوني الإيمان- أولا- القانون المعروف بقانون إيمان الرسل و هو يرجع إلى أواخر القرن الأول المسيحي بل قيل: إن الرسل أنفسهم وضعوه- ثانيا قانون الإيمان النيقاوي وضعه المجمع المسكوني الأول الذي التأم سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية مع ما أضيف إليه في ما بعد سوى عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن أضيفت فيما بعد لا- يقبلها الروم الأرثوذكس.

و يوجد قانون إيمان ثالث مجمع عليه يسمى قانون مار أثناسيوس و لكنه أقل شهرة و أقل استعمالا من الأولين. و يمكن تلخيص الأمور الجوهرية التي يتفقون فيها في ما يأتي: (١) التوحيد و التثليث (٢) الخلق و السقوط و الفداء (٣) تجسد الكلمة الأزلية المسيح

ابن الله من مريم العذراء بالروح القدس و كل ما يتعلق بتاريخ فداء المسيح من ميلاده إلى مجيئه الثاني للدينونة (٤) القيامة و الدينونة (٥) وجوب التبشير بالمسيح و دعوة الغير إلى الإيمان به (٦) عدم تحريف الأسفار التي يتفقون على قانونيتها من الكتاب المقدس. و أهم الأمور المختلف فيها سلطان الكتاب المقدس. و يعتقد البرتستانت أنه المرجع الوحيد المعصوم الذي يجب الرجوع إليه في عقائد الإيمان. و يعتقد غيرهم أن للكتاب و التقليد سلطانا متساويا و من هذا يدعوهم البرتستانت تقليديين. و التقليد عند المسيحيين كالتمود عند اليهود و الحديث عند المسلمين.

و بعد فلا خلاف بين البرتستانت و غيرهم في عدد أسفار العهد الجديد إنما الخلاف في عدد أسفار العهد القديم. فالبرتستانت لا يقبلون إلا- الأسفار التي يقبلها اليهود و ذكر عددها يوسفوس. و غيرهم يضيف إليها أسفارا تسمى أبو كريفا وجدت في الترجمة السبعينية مضمومة إلى باقى الأسفار. و مع تسليم البرتستانت بلزوم المجامع و فائدتها فهم لا يحسبون لما تقرره قوة و لا سلطانا إلا إذا أثبت من الكتاب المقدس. أما المجامع عند الروم الأرثوذكس و المجامع و البابا عند البابويين فهم معصومون من الخطأ في ما يقررونه من عقائد الإيمان.

و يعتقد البرتستانت أن فرصة الخلاص تنتهى بالموت و به يتقرر حال كل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٥

نفس إما في النعيم أو في الجحيم. و يتفق معهم غيرهم في حال أهل الجحيم و يخالفون في حال أهل النعيم فعندهم مكان عذاب و قتي غير الجحيم يسمى عند البابويين المطهر و عند الروم الأرثوذكس عقالات الجحيم تذهب إليه الأنفس لتكفر عن ذنوب صغيرة، و تصرف فيه مدة تطول و تقصر بحسب عدد تلك الذنوب و صفتها، و يمكن تقصير هذه المدة بالصلوات و الصدقات.

يحصر البرتستانت الشفاعة و طلب الخلاص بالمسيح، و غيرهم يطلبها منه و من الملائكة و القديسين.

عند البرتستانت سران فقط هما المعمودية و الشركة و غيرهم يضيف إليهما خمسة فيصير العدد سبعة و المضافة هي: (١) التثبيت عند اللاتين و الموارنة. و الميرون عند غيرهم. (٢) الكهنوت. (٣) الاعتراف للكاهن.

(٤) الزواج. (٥) المسحة الأخيرة قبل الموت. أما الإفاضة في تعريف السر و فاعليته و ما يحدث فيه و ما يحدثه هو من التغيير و في سبب هذا الخلاف فإنها تخرجنا كثيرا عن المقصد.

و البرتستانت يعترفون لله وحده و للشخص الذي أخطأوا إليه، و لله وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا. و غيرهم يوجب الاعتراف للكاهن.

و للكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا.

و لما كان البرتستانت في هذه الديار ثمرة الإرساليات نرى من الواجب أن نشير إلى الداعي إلى الإرساليات، فالداعي إليها أوامر الكتاب المقدس الكثيرة، و أهمها أمر المسيح الأخير الصريح «اذهبوا و تلمذوا جميع الأمم و عمدوهم باسم الأب و الابن و الروح القدس». و قد أطاع رسله أمره و تفرقوا في أنحاء العالم المعروف حينئذ و ليس لهم ما يستندون عليه أمام قوات هذا العالم سوى إيمانهم و ثقتهم بوعده. و عدوا مخالفه أمره هذا جرما عظيما فقال الرسول بولس: «إذ الضرورة موضوعة على فويل لى إن كنت لا أبشر». و لا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقية ففي العقيدة ١٩ الانكليكانية «كنيسة المسيح المنظورة هي جماعة المؤمنين التي فيها يبشر بكلمة الله النقية».

و قد وجه البرتستانت قواهم إلى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٦

شؤونهم، فتألفت الجمعيات هنا و هناك، و ربما كان أقدمها جمعية الموراقين نسبة إلى موراقيا على ضفاف الدانوب، و تعرف بجمعية الأخوة المتحدنين، و قد كانوا و لا يزالون في المقدمة بالنسبة إلى عددهم الذي لا يتجاوز ٣،٠٠٠،٠٠٠. و في أواخر القرن

الثامن عشر زاد عدد الإرساليات البرتستانتية و زاد نشاطها. و قد طلبت من أمين سر الجمعية (S.M.L). المستر هاردمان فى القدس بعض إحصاءات لهذه الإرساليات فأسل آخر ما عرفه منها أعربه بالشكر قال: عدد إرساليات البرتستانت فى العالم ٣٨٠، عدد المرسلين رجالا و نساء ٢٩٠٤٩ و المال الذى صرفته خمسة عشر مليون ليرة إنكليزية.

«هذا عدا ما جمع فى حقول الإرساليات نفسها و صرف عليها أيضا».

و عدد الإرساليات فى فلسطين ١٧ و عدد المرسلين فيها ١٦٠.

و عمل بعض هذه الإرساليات عام و بعضها خاص محصور فى قارة أو مملكة أو إقليم أو دين أو مذهب أو رتبة من الناس أو الذكور أو الإناث أو الطب العام أو الخاص أو طبع الكتب أو نشرها أو التبشير مجردا أو فتح المدارس فقط. و هذا الاختصاص فى الغرب حتى فى الأمور الدينية هو أساس نجاحه.

و من المبادئ الأساسية لهذه الإرساليات أن تنظم المهتدين جماعات تشرع بإدارة شؤونها بنفسها، و تسير نحو الاستقلال الإدارى و المالى. و منها عدم التدخل فى سياسة البلاد التى يرسلون إليها، و وجوب إطاعة أوامر حكوماتها، و المحافظة على قوانينها و نظاماتها فى كل ما لا يخالف الضمير بناء على قول المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله» و بناء على أوامر رسله المتعددة بالصلاة و الطاعة للحكام. و مع ذلك فقد أوقعت السياسة الأوربية تهمة المداخله فى السياسة على المرسلين، لأنها استعملت الإرساليات على غير قصد من المرسلين جسرا عبرت عليه إلى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين.

و لقد كان من الطبيعى أن توجه الإرساليات أفكارها إلى هذه الديار مهبط الوحى و مهد المسيحية لإنعاش المسيحية و تبشير غير المسيحيين بها.

و فى إحصاء بتاريخ سنة (١٩١٣) أن عدد الإرساليات فى هذا القطر أكثر من

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٣٧

٣٠ أميركية و إنكليزية و اسكوتلاندية و إيرلندية و ألمانية و دانماركية و موراكية و أسوجية. و يقوم بأكثرها أفراد أو مدينة أو جماعة صغيرة، و أعمالها غالبا محصورة فى العواصم كالقدس و بيروت و دمشق أو بعض المدن و القرى كيافا و حيفا و الناصرة و بيت لحم و الخليل و رام الله و صفد و الشويفات و برمانا و بيت مرى و الشوير و شمالان و بعلبك و النبك و دير عطية و غيرها. و ليس بين كل هذه الإرساليات سوى إرساليتين عموميتين كبيرتين لهما طائفة منظمة بمجامع و قوانين و ميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الإرسالية، الأولى أميركية قسوسية فى الشمال، و الثانية إنكليزية أسقفية فى الجنوب.

إرسالية الشمال أميركية قسوسية أسست سنة (١٨١٠). و فى سنة (١٨٢١) نزل أول مرسلها من ميناء يافا و شرعت بعملها فى القدس و جوارها، و لكن قضت الأحوال أن ينحصر عملها فى الجزء الواقع شمالى رأس الناقورة، و قام مرسلوها بمبادئ الإرساليات البرتستانتية بكل أمانة و نشاط و كان لهم اليد الطولى و فضل السبق فى نشر العلم و المدنية لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم أيضا.

و دائرة عمل إرسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالا إلى حدود مصر جنوبا، و هى إنكليزية أسقفية أعضاؤها من كنيسة إنكلترا المثبتة. أسست فى لندن فى ١٢ نيسان سنة (١٨٩٩) و اسمها جمعية المرسلين الكنيسة و يعبر عنها بالأحرف (C.M.L). و للإحاطة بعمل إرسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحمة من تاريخ الأسقفية الإنكليزية فيها. فى سنة (١٨٤١) أسست أسقفية انكليكانية فى القدس بالاشتراك مع بروسيا. و كان من مبادئ المرسلين الأولية أن لا يشقوا من الطوائف الأخرى المسيحية طائفة برتستانتية و خصوصا من طائفة الروم الأرثوذكس التى يعتبرونها أم الكنائس. بل قصدوا أن يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لإنعاش المسيحية من الغفلة التى استولت على معظم مسيحي الشرق. و لكن مقاومة هؤلاء الرؤساء و هيجهم طوائفهم على المرسلين و على كل من يقترب منهم، اضطرتهم بعد تردد طويل إلى تأليف طوائف. و قد دان بالمذهب البرتستانتى من كل الطبقات، و ارتقى كثيرون من أولاد الفقراء و الفلاحين إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه من المراتب. على أن تأثير المرسلين

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٣٨

لم يقتصر على العدد القليل من البرتستانت العرب، بل عم القطر بل هم كانوا من أول عوامل الرقى. إن لكل من الإرساليات المذكورة عمالا و أفرادا متعلقين بها و عددهم بحسب سعة عملها. و لكن للإرساليين السابقتين فقط طوائف برتستانية منظمه بمجامع و قوانين و ميزانية مستقلة عن ميزانية الإرسالية كما مر.

ليس لطائفة البرتستانت العرب كما مر قسوسية مشيخية، و ليس لها كتاب صلاة تجرى بموجه عبادة الجماعة سوى بعض إرشادات مطبوعة ضرورية لإرشاد القسيس في بعض الواجبات و هو مع ذلك غير مقيد بها. و تستعمل كتاب ترتيل فيه الآن (٤٣٢) ترتيلة بأنغام مختلفة غريبة و بعض أنغام شرقية، و إنما العلامات الموسيقية كلها غريبة. و هذا الكتاب مشترك بين سورية و فلسطين و مستعمل للعبادة في الكيستين.

و عدد نفوس الإنجيليين في لبنان ١٠ آلاف نفس. بقي الكنائس الأخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس في برمانا و رأس المتن و الكنيسة المعمدانية في راشيا الوادي و جوارها و الكنيسة الإنجيلية في دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية و الكنائس الإنجيلية في جهات القلمون و هي تابعة للإرسالية الدانمركية و لها عدة مراكز في النبك و دير عطية و يبرود و صدد و غيرها.

أما طائفة البرتستانت العربية في فلسطين فهي أسقفية انكليكانية تجرى عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الإنكليزية مع عقائد الدين التسع و الثلاثين و كتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية. رسم أول قسوسها الوطنيين سنة (١٨٧١) في الناصرة و كانت طائفة الناصرة في مقدمه كنائس فلسطين في إقامة الأوقاف و السعي نحو الاستقلال و كان أحد أفرادها عودة عزام المستوطن القدس في الربع الثالث من القرن الماضي وقف أملاكه كلها لكنيسة القدس و أصبحت الآن ذات قيمة كبيرة. و تبعه غيره في الوقف على الكنائس. و يبلغ مجموع البرتستانت في فلسطين و شرقي الأردن نحو ثمانية آلاف إنسان.

و بعد فإن في العالم أجمع الآن حركتين متضادتين نعب عنهما بالجدب و الدفع، فبينما أنت ترى الشعوب تتحرك بدفع بعضها عن بعض فتتألف

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٣٩

كتلا متفرقة تجدها في نفس الوقت تنجذب و تتقارب و تتفاهم و تسعى لتوحيد هذه الكتل أو ربط بعضها ببعض على الأقل، و على الرغم مما نجده من التباعد بحركة الدفع و التمرکز نجد الناس يقرب بعضهم من بعض بحركة الجذب، و العامل الأقوى في حركة الجذب سرعة المواصله و انتشار العلم، فسرعه المواصله قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا يتفاهمون، و العلم جعلهم يحكمون العقل أكثر من العواطف فرأوا أن كثيرا من الفوارق إما و همية أو عرضية أو مبالغ فيها. و ما يجرى في الدائرة البشرية الاجتماعية يجرى في الدائرة الدينية. فعلى الرغم من بعد مسافة الفوارق الدينية و المذهبية نجد أهل هذه الأديان و المذاهب أكثر تسامحا و أسرع سعيًا نحو الاتفاق، حتى في الأديان التي نراها على أعظم مسافة من البعد، فلا تكاد تمر سنة حتى يعقد مؤتمر الأديان يجتمع فيه نواب معظم الأديان الإلهية كالمسيحية و الإسلام و اليهودية و غير الإلهية كالبودية و غيرها. و قد عقد أول مؤتمر رسمي في ١٦ أيلول سنة (١٩٢٤) في سوق الغرب اجتمع فيه نواب الجهتين للسعي في زيادة الاتحاد و توحيد النظام.

أصل السنة:

لا يخفى أن الأحكام الشرعية التي علمت من الكتاب و السنة ثلاثة أقسام: الأول الأحكام الاعتقادية و أصولها المجملة ستة الإيمان بالله و بالملائكة و بالكتب و بالرسول و باليوم الآخر و بالقدر. و يقال لجميع هذه الأحكام دين الإسلام و هي ما جاء به جميع الأنبياء. و هذه و إن كانت في تعيينها مذاهب عديدة إلا أن ما عدا مذهب السنة باطل.

القسم الثاني الأحكام العملية و هي عشرة: الفرض، الواجب، السنة، الاستحباب، الإباحة، الحرمة، الكراهة التحريمية، الكراهة التنزيهية،

الصحة، الفساد. ولا يخلو فعل العاقل البالغ عن حكم منها، فالشرائع المتعلقة بأفعال المكلفين ثلاثة أنواع إجمالية: الأول العبادات و هي عبارة عن الصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و سائر الفرائض و الواجبات. الثاني المعاملات كالنكاح و الطلاق و الهبة و الوصية و البيع و الشراء و الكفالة و الوكالة. الثالث العقوبات كالدية

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٤٠

و الكفارة و الفدية و القصاص، و في تعيينها مذاهب كثيرة إلا أنه تقرر فيها المذاهب الأربعة، و أصحابها أبو حنيفة النعمان بن ثابت، و محمد بن إدريس الشافعي، و مالك بن أنس، و أحمد بن حنبل، فما اتفق عليه هؤلاء الأئمة الأربعة هو حق و صواب، و ما اختلفوا فيه يحتمل الخطأ و الصواب، لأن كل مجتهد يخطئ و يصيب، و الحق واحد لا يتعدد، و كل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها إذا لم يكن بلغ مرتبة الاجتهاد، و يلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه، إذ لا يجوز له تقليده إن اعتقد خطأه.

القسم الثالث الأحكام الشرعية المتعلقة بأحوال القلوب، و المتكفل بذلك علم الأخلاق و التصوف. و القصد هنا بيان اعتقاد أهل السنة و الجماعة في القسم الأول. و ينبغي أن نبين أولاً من هم أهل السنة و الجماعة ثم نذكر عقائدهم إذ ربما يظن بعض الناس أن كل من يطلق عليه اسم المسلم هو من أهل السنة و الجماعة، و ليس الأمر كذلك، فإن أهل البدع و الأهواء مخالفون لأهل السنة و الجماعة، و الحال أن فيهم من يعد من أهل ملّة الإسلام، لذلك رأيت من اللازم أولاً بيان من هم أهل السنة و الجماعة، ثم بيان عقائدهم التي اتفقوا عليها، و لم أتعرض للمخالفين لهم و لا لذكر حجج الطرفين، و سرد المسائل التي وقع فيها اختلاف بين الأشعرية و الماتريدية لما أن ذلك خارج عن موضوع الخطط و إنما هو من خصائص كتب الكلام، فاقترصت على أهم المسائل الاعتقادية التي يكلف كل مؤمن باعتقادها.

و قد ألف العلماء كتباً لبيان الفرق الإسلامية و مقالاتها كالشهرستاني و ابن حزم و عبد القاهر البغدادي و غيرهم. إذا أطلق أهل السنة و الجماعة يراد بهم الأشعرية و الماتريدية، أما الأشعرية فهم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الجليل. أخذ علم الكلام أولاً عن شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة و تبعه في الاعتزال حتى صار للمعتزلة إماماً، ثم رجع عن مذهبه و صنف كتباً في الرد عليهم، و أجمع على عقيدة الأشعري المالكية و الشافعية و بعض الحنفية و فضلاء الحنابلة، و لم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن غيره أو على نصرته مذهب معروف فزاد المذهب

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٤١

حجة و بيانا، و ليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه و شرحه و تأليفه في نصرته. ولد سنة ستين و مائتين و توفي سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة.

و أما الماتريدية فهم أصحاب الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة إلى قرية بسمرقند، الحنفي المتكلم ناصر السنة و قاصد البدعة و محيي الشريعة، كان إماماً جليلاً مناضلاً عن الدين موطدا لعقائد أهل السنة قطع المعتزلة و ذوى البدع في مناظراتهم، و له مصنفات منها كتاب التوحيد و كتاب بيان و هم المعتزلة و كتاب تأويلات القرآن و هو كتاب لا يوازيه فيه كتاب.

و ليس هو من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل السنة كما ظن. لأن الماتريدي مفصل لمذهب الإمام أبي حنيفة و أصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة. و كانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة.

و الحاصل أن كلا من هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن و أبي منصور لم يبدعاً من عندهما رأياً و لم يشتقا مذهباً إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم. أحدهما قام بنصرة مذهب الشافعي و ما دل عليه، و الثاني قام بنصرة مذهب أبي حنيفة و ما دل عليه. و ناظر كل منهما ذوى البدع و الضلالات حتى انقطعوا.

و مما ينبغي أن يعلم أنه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف في أصول الدين، و إنما اختلفوا في بعض مسائل متفرعة عن الأصول لا

تستلزم تضليلا و لا تفسيقا.

ثم إن عقائد أهل السنة و الجماعة تنحصر في أربعة أركان هي مبنى الإيمان: الإلهيات و الصفات و الأفعال و السمعيات. (الركن الأول في ما يجب لله تعالى و ما يجوز و ما يستحيل) - العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد أن لم يكن، و هو قابل للفناء و له صانع واجب الوجود لذاته ممتنع بعدم النظر لذاته، واحد لا شريك و لا مثل له في ذاته و صفاته و أفعاله، قديم لا بداية له، أبدى لا نهاية له، متصف بصفات الكمال، منزه عن سمات النقص، ليس بجسم و لا جوهر و لا عرض، و لا تحله الجواهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٢

و لا الأعراض، و لا يحل في غيره و لا يتحد بغيره، و لا يقوم بذاته حادث، منزه عن التحول و الانتقال، استوى على العرش على الوجه الذى عناه و بالمعنى الذى أراد، استواء يليق بجلال ذاته، و هو فوق سمواته فوق عرشه، مابين لخلقه لا يحمله العرش بل العرش و حملته محمولون بقدرته، و مع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو أقرب إلينا من جبل الوريد، و هو تعالى مرئى للمؤمنين بالأبصار فى دار القرار، فيرونه لا فى مكان و لا على جهة من مقابلة و اتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرأى و المرئى.

(الركن الثانى فى العلم بصفاته تعالى) الله تعالى متصف بالعلم و القدرة و الإرادة و السمع و البصر و الكلام و الحياة، و هى صفات له أزلية و نعوت له أبدية، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات، و جميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى، و قدرة الله على المقدورات كلها قدرة واحدة، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب، و مقدراته تعالى لا تفتنى.

و هو سبحانه مرید لأفعاله فلا وجود إلا و هو مستند إلى مشيئته و صادر عن إرادته، لا يقع شىء فى العالم إلا بإرادته و مشيئته، فالخير و الشر و الطاعة و المعصية واقعة بإرادة الله تعالى و قضائه و قدره و مشيئته، ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن، و إرادته تعالى قديمة و هى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللانقطة بها على وفق سبق العلم الأزلى، و الإرادة غير الأمر لأنه قد يأمر بالشىء و لا يريد، و يريد الشىء و لا يأمر به، و لا يريد الشىء و لا يأمر به. و غير الرضا أيضا فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراد و لم يرض به و لا يرضى لعباده الكفر، و ليست عين العلم لأن العلم يتعلق بالواجب و المستحيل و الجائز، و الإرادة لا تتعلق إلا بالجائز.

و هو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها و جزئياتها، و محيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السموات، و علمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس و لا بدهاء و لا استدلال عليه، و علمه قديم لم يزل عالما بذاته و صفاته و ما يحدثه من مخلوقاته، و مهما حدثت

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٣

المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة بالعلم الأزلى. و هو تعالى حى و حياته بلا روح و لا اغتذاء، و جميع الأرواح مخلوقة، و الحياة شرط فى العلم و القدرة و الإرادة و الرؤية و السمع، فمن ليس بحى لا يصح أن يكون عالما قادرا مريدا سامعا مبصرا. و هو سبحانه سميع بصير يسمع و يرى لا يعزب عن سمعه مسموع و إن خفى، و لا يغيب عن رؤيته مرئى و إن دق، و لا يحجب سمعه بعد، و لا يدفع رؤيته ظلام، لم يزل رائيا لنفسه، و سامعا لكلام نفسه، و أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، و أن كليهما غير الانكشاف بالعلم، بل لكل منها حقيقة يفوض علمها لله تعالى. و هو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف و لا صوت هو به آمر ناه مخبر و أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

(الركن الثالث فى الأفعال) الله تعالى لا خالق سواه و كل حادث فى العالم حدث بقدرته و خلقه لا يحدث له غيره، و جميع أفعال العباد اختيارية و اضطرارية، مخلوقة له تعالى و متعلقة بقدرته، و إنما الله تعالى خلق فى العبد قوة تسمى الإرادة الجزئية و أقدر عبده على صرف هذه القوة إلى ما شاء من جزئيات الأمور و المنهيات باختياره، و هذا الصرف هو الذى يسمى بالكسب تارة و بالميل و الجزء الاختيارى تارة أخرى. و يسمى أيضا بقدرة العبد. و قد جرت عادة الله تعالى أنه لا يخلق القدرة على المعصية فى أعضاء العبد

حتى يصرف العبد إرادته الجزئية إليها، فإذا صرفها إليها بأن مال قلبه و عزم عليها فهناك يخلق الله تعالى القدرة في أعضائه على فعلها فيفعلها، فقدره العبد التي هي الميل المذكور مقارنة لإيجاد الله تعالى ليس لها تأثير في إيجاد الفعل بل مجرد مقارنة. وهو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الأصلح لعباده، و رعاية الحكمة و المصلحة في فعله، فله أن يعذب على الطاعات و يثيب على المعاصي، و أن يتلى عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق و من غير ثواب لاحق، و لا يعد ذلك منه قبيحا و لا ظلما لأنه يتصرف في ملكه لا- في ملك غيره، يفعل ما يريد، و لا- حاكم عليه بل له الحكم، و إنما يثيب على الطاعة بحكم الكرم و الوعد لا بحكم الاستحقاق و اللزوم، و يعاقب على المعصية عدلا منه تعالى،

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٤٤

و قد راعى الحكمة فيما خلق و أمر تفضلا منه و رحمة و لا باعث له على الفضل.

بعثة الأنبياء ممكنة عقلا و واقعة قطعاً، و في وقوعها حكمه بالغه و رحمة للعالم شاملة، و احتياج الناس إلى الأنبياء كاحتياجهم إلى الأطباء، النبوة إنما تحصل بمجرد اصطفاء إلهي لا باستحقاق من المبعوث و اجتماع شروط فيه، بل الله يختص برحمته من يشاء و هو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، و قد أرسل الله تعالى رسلا من البشر إلى البشر مبشرين و منذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة، و أيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدى، و كلهم جاءوا بتوحيد الله تعالى و النهي عن الشرك و إخلاص العبادة له تعالى، و هم صادقون فيما جاءوا به مصونون عن التحريف و التبديل، معصومون من كل نقص حسي أو معنوي مبلغون أممهم جميع ما أمروا بتبليغه، و أولهم آدم و آخرهم نبينا محمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين.

إن الله سبحانه أرسل نبينا محمدا صلى الله عليه و سلم إلى الخلق كافة بشيرا و نذيرا، و جعله خاتم النبيين فلا نبي بعده و أيده بالمعجزات الباهرة، و البراهين الظاهرة، و أنزل عليه القرآن الكريم الذي هو له معجزة باقية إلى يوم الدين، فنسخ بشريته الشرائع التي كانت قبله إلا ما قرر منها، و فضله على سائر الأنبياء، و جعل الشهادة له بالرسالة شطر الإيمان، و ألزم الناس تصديقه في جميع ما أخبر به عنه، و أمره بتبليغ ما أنزل عليه فقال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» فبلغ صلوات الله و سلامه عليه الرسالة و أدى الأمانة و نصح الأمة حتى أتاه اليقين.

إن لله تعالى ملائكة هم عباد الله المكرمون و رسل الله بينه و بين أنبيائه و أمناؤه على وحيه لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة و أنوثة، و لا يأكلون و لا يشربون، و لا يعلم حقيقتهم و لا عددهم إلا خالقهم الله؟؟؟ و هم أجسام لطيفة نورانية يرونها و لا تراهم بصورهم الأصلية.

(الركن الرابع في السمعيات) إن لهذه الدنيا أجلا- محدودا فإذا جاء أجلها يتبدل نظام هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض و السموات غير السموات،

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٤٥

و يعيد الله تعالى الأرواح إلى الأجساد، ثم يجازى الله تعالى كل نفس بما كسبت إما بنعيم أبدى أو عذاب سرمدى، و جميع ما أخبر به الصادق من عذاب القبر و نعيمه، و سؤال الملكين و وزن الأعمال، و المرور على الصراط، و الشفاعة لمن أذن له الرحمن، جميع ذلك حق يجب الإيمان به.

الشيعة:

الشيعة لفظ معناه الأتباع و الأنصار يطلق على الواحد و المثني و الجمع و المذكور و المؤنث، تقول هو شيعة و هما و هم و هن شيعة و جمعه شيع و أشياع، ثم صار علما بالغلبة على أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام.

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله صلى الله عليه و سلم مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله

على النصح للمسلمين و الائتتمام بعلى بن أبى طالب و الموالاة له. و مثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع و تركوا واحدة. و لما سئل عن الأربع قال: الصلاة و الزكاة و صوم شهر رمضان و الحج قيل: فما الواحدة التى تركوها؟ قال: ولاية على بن أبى طالب قيل له: و إنها لمفروضة معهن قال: نعم هى مفروضة معهن.

و مثل أبى ذر الغفارى و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و ذى الشهادتين خزيمه بن ثابت و أبى أيوب الأنصارى و خالد بن سعيد بن العاص و قيس ابن سعد بن عباده و كثير أمثالهم. و من أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم.

عرف هؤلاء باسم شيعة على ثم غلب فأطلق فقيل لهم شيعة. ذكر أبو حاتم الرازى فى كتاب الزينة فى الألفاظ المتداوله بين أرباب العلوم على ما نقل فى كتاب الروضات أن أول اسم ظهر فى الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم (الشيعة) و كان لقب أربعة من الصحابة و هم أبو ذر و سلمان و عمار و المقداد إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام. و مهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالأمر الذى لا خلاف فيه أنه لما استقل الأمويون بالأمر و ناهضوا الهاشميين و أتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على إطلاقه علما على أتباع آل البيت.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٦

أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعه عبد الله ابن سبأ المعروف بابن السوداء فهو و هم و قلة علم بحقيقة مذهبهم. و من علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة و براءتهم منه و من أقواله و أعماله و كلام علمائهم فى الطعن فيه بلا خلاف بينهم فى ذلك، علم مبلغ هذا القول من الصواب.

لا ريب فى أن أول ظهور الشيعة كان فى الحجاز بلد المتشيع له. و كان التشيع هناك ضعيف الحول و لكنه مكين فى قلوب أهله. ثم استفحل أمره فى العراق زمن خلافة على عليه السلام. أما فى الشام فالمعروف بين الشيعة فى جبل عامل خلفا عن سلف أن الذى دلهم على هذا المذهب أبو ذر الغفارى لما ستر إلى الشام و لا يزال فى قرية الصرند (بين صيدا و صور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجدا معمورا و هو غير مسجد القرية الجامع، و فى قرية ميس الجبل له مقام آخر. و ميس هذه قرية فى جبل عامل على طريق القادم من دمشق. و روى الحر العاملى فى كتابه أمل الآمل أن أبا ذر لما أخرج إلى الشام تشيع فيها جماعة ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوق فى جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم.

ثم ذكر رواية عن الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام و قد سئل عن أعمال الشقيف فقال: أرنون و بيوت و ربوع و تعرف بسواحل البحار و أوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقا.

و فى كتاب الروضة و الفضائل لشاذان بن جبرئيل القمى رواية مسنده إلى عمار بن ياسر و زيد بن أرقم تدل على أنه كان زمن خلافة على عليه السلام قرية فى الشام عند جبل الثلج تسمى أسعار أهلها من الشيعة، و أسعار هذه قرية خربة بين مجدل شمس و جباتا الزيت و هناك نهر يعرف بنهر أسعار.

المتأولة جمع متوالى مأخوذ من الموالاة و هى الحب، لموالاتهم أهل البيت و اتباعهم طريقتهم. و الظاهر أن تلقيهم بهذا اللقب فى جبل عامل لم يتقدم عن القرن الثانى عشر للهجرة لأن كل المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هذا اللقب و لم ينزهم به أحد منهم، و كانوا إذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة و قالوا: الراضة كما فعل المحبى فى خلاصة الأثر. و لكن من تأخر عن القرن الحادى عشر لم يلزمهم بترك نيزهم به كما فعل المرادى فى سلك الدرر فإنه لم يذكرهم فى جبل عامل إلا باسم المتأولة و فاقا للشهرة فى عصره.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٧

و قد جاء فى إحدى «السالنامات» التركية أن ابتداء ظهور المتأولة سنة (١١٠٠) للهجرة. و على الجملة إن هذا اللقب أطلق عليهم لما أظهروا وجودهم السياسى و خلعوا طاعة أمراء لبنان و اجتمعوا جملة واحدة فى جبل عامل تحت قيادة آل نزار الوائليين، و فى بعلبك

تحت لواء بني حرفوش، و في شمالي لبنان بزعامه المشايخ آل حمادة.

كانوا يومئذ (ينتخون) باسم بني متوال فعرفوا به واشتهر عنهم، و يدلنا على ذلك أن هذا اللقب لم يكن إلا للذين دخلوا في غمار تلك الفتن فعرف به شيعة جبل عامل و بعلبك و شمالي لبنان، و لم يعرف لشيعة حلب و حمص و حماة، و لا لشيعة دمشق إلا الذين تديروا الصالحية و أطراف الميدان و هم من مهاجرة بعلبك و جبل عامل.

الشيعة في الشام هم في جبل عامل، و هو البلد الواقع بين صنفد جنوبا، و نهر الأولى شمالا، و غور الحولة و ما حاذاه إلى أرض البقاع شرقا، و البحر المتوسط غربا. و في مدينة بعلبك و أعمالها و زمنهم فيها قديم.

و في أعمال حمص قرى قليلة لهم و في نفس المدينة جماعات ظاهرة و مستتره، و في أعمال ادلب قرى الفوعة و تبّل و غيرهما و كلها شيعة، و فيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب في الزمن السالف.

و كل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين و من فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم.

و في دمشق و يرجع عهدهم إلى القرن الأول للهجرة، و في أكناف حوران و هم من مهاجرة جبل عامل، و في شمالي لبنان و المتن و البترون و هم من مهاجرة بعلبك. و لا يقل عدد نفوس الشيعة في الشام عن مائتي ألف من الإمامية.

معتقدات الشيعة، و هم فرقة من المسلمين، اعتقادات المسلمين العامة عينها و لكنهم في الأصول يخالفون أهل السنة بالإمامة، و هي عندهم رياسة عامة في أمور الدين و الدنيا لشخص من الأشخاص بحق النيابة عن النبي، و هي واجبة عقلا على الله لأنها لطف و كل لطف واجب عليه تعالى، و لذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلا، و الأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعا.

و يجب عندهم أن يكون الإمام معصوما و انفرد بهذا الشرط الإمامية

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٨

و الإسماعيلية من الشيعة، و أن يكون منصوبا عليه و أن يكون افضل أهل زمانه.

و إن الأئمة اثنا عشر أولهم على بن أبي طالب المنصوص عليه من الرسول صلى الله عليه و سلم و آخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام (٢٦٠) في سرمن رأى و هو حي يرزق و لا يعلم الناس مقره و سيظهر في آخر الزمان في مكة المكرمة، و قد قال بقولهم هذا فريق من أهل السنة. و أما القول بأنه يخرج من سرداب سرمن رأى فلم يقل به أحد من الشيعة و إن نسبه إليهم من لا يعرف مذهبهم جهلا بحقيقة الحال.

و يخالفون الأشاعرة في بعض صفاته تعالى فالأشاعرة تقول في كونه تعالى متكلمًا: إن الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف و لا صوت و لا شيء من أساليب الكلام و هو قديم. و الشيعة و المعتزلة يقولون: إن الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلمًا فعل الكلام لا أن الكلام قائم به و لذلك فالكلام حادث.

و الأشاعرة تقول: إن أفعاله تعالى لا لغرض و إلا- لكان ناقصا مستكملا بذلك الغرض. و عند الإمامية أن أفعاله معللة بالعلل و الأغراض و إلا لكان عابثا. و الغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض.

و الأشاعرة تقول: إن الأفعال كلها واقعة بقدر الله و أنه لا فعل للعبد أصلا. و قال بعضهم: إن للعبد من ذلك الكسب أي كونه طاعة أو معصية.

و قال آخرون: إن العبد إذا صمم خلق الله الفعل عقيب التصميم و أنه تعالى فاعل لكل حسنا أو قبيحا. و الشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدره العبد و اختياره و أنه ليس بمجبر على فعله، بل له أن يفعل و له أن لا يفعل و أن الفعل منسوب إليه نفسه و أنه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. و قالت الإمامية بوجوب اللطف عليه تعالى و هو ما يقرب من الطاعة و يبعد عن المعصية و لا حظ له في التمكين و لا يبلغ درجة الإلجاء.

و قالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشعب مثلا شيء حادث عن الأكل لا أنه شيء يحدثه الله عند الأكل.

وقالت الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى. وقالت الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٤٩

وقالت الأشاعرة في الحسن والقبح بأنهما شرعيان أي أنه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح، بل ما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح، وقالت الشيعة الإمامية بأن الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح، والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف ذلك على حكم الشارع.

ويقولون: إن العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له. هذه أمهات المسائل الأصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالأشاعرة، وربما وافقهم في أكثرها غيرهم كالمعتزلة. وأما في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولا مخالفا لا يكون قائلا به غيرهم من فرق المسلمين اليوم.

نعم انفردوا اليوم بالقول بالتمتع وإن كان أثرها في العرب منهم قليلا. بل أندر من النادر. وهي متعتان متعة النكاح ومتعة الحج، فالأولى هي الزواج إلى أجل مسمى تحل عقده بانقضاء الأجل، وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الأجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجا غيره حتى تنقضي عدتها، ولا بد فيها من ذكر المهر والأجل، ولا توارث بينها وبين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط، ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينه وبين إخوته. وأما متعة الحج فهي الطواف الأخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به.

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول. ويقول إمامهم جعفر بن محمد الصادق على أن الذي أحصى رمال عالج يعلم أن الموارث لا تعول، ويجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم. ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه أقرب الناس إليه، وطبقات الإرث في النسب ثلاث: الآباء والأبناء، والإخوة والأجداد، والأخوال والأعمام.

فالمقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها، فإذا كان ذو فرض أخذ فرضه و ردّ الباقي على نفس الطبقة لا يتعدها سواء كان المردود عليه ذكرا أو أنثى.

فإذا مات الميت عن بنت وأب أخذت البنت النصف والأب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه لأنهما من طبقة واحدة، فلو لم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٠

يكن له أب بل جد أو أخ كان الرد على البنت لأنها من الطبقة الأولى والجد والأخ من الطبقة الثانية فهي أولى منه بآية وأولو الأرحام.

ويقولون بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء سفرا وحضرا ولكن التفريق أفضل.

وإذا قال القائل لزوجته أنت طالق ثلاثا فإن كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة وإلا كان الطلاق باطلا. و شرط صحة الطلاق أن تكون الزوجة طاهرة في طهر لم يواقعها الزوج فيه وأن يكون الطلاق بشهادة ذوى عدل.

وتجتمع الشيعة في أيام عاشوراء فتيقن المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام، وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة وأول من رثاه أبو دهب الجمحي بقصيدة يقول فيها:

تبيت النشاوى من أمية نوماو بالطفّ قتلى ما ينام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الأغاني أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه. ثم إن بنى بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية. ولا تزال إلى اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة، وليست هي من الفروض كما يتوهم بل يستحبونها لأنها تصدر عن ولاء ومحبة. وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعا يمقتها الله والناس من ضرب أنفسهم بالمدى وإسالة الدماء على

أثوابهم و عمل ما يسمونه (الشيبة) و قد مقته العلماء من الشيعة و لم تدعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة.

الباطنية:

أطلق هذا اللقب على فرق خالفت الإسلام مدعية بأن لكل ظاهر باطنا و لكل تنزيل تأويلا. و لهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم قوم.

فبالعراق يسمون الباطنية و القرامطة و المزدكية، و بخراسان التعليمية و الملحدة، و هم يقولون: نحن إسماعيلية لأننا تميزنا من فرق الشيعة بهذا الاسم و هذا الشخص، ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة و صنفوا كتبهم على ذلك المنهاج - هذا ما قاله الشهرستاني. و قال عبد القاهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥١

البغدادي: إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، و كانوا مائلين إلى دين أسلافهم، و لم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين، فوضع الأعمار منهم أساسا من قبله صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، و تأولوا آيات القرآن و سنن النبي عليه الصلاة و السلام على موافقة أساسهم. و لما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضا لتأويل أحكام الشريعة على وجه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس.

و ذكر أنه خرج منهم أناس بالبحرين و القطيف و الأحساء و منهم من ظهر في طريق الحجاز و استولى على مكة. و منهم من ظهر بالقيروان و استولى باتباعه على بلاد المغرب. و منهم من استولى على هجر. و منهم من ظهر باليمن و قتل الكثير من أهلها. و منهم من خرج بالشام و هو أبو القاسم بن مهرويه.

و أن زعيمهم الأول ميمون بن ديسان كان مجوسيا أولا. و منهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرّان، و استدل على ذلك بأن حمدان قرط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديسان كان من الصابئة الحرائية. و استدل على ذلك أيضا بأن صابئة حران يكتمون أديانهم و لا يظهرونها إلا لمن كان منهم.

و الباطنية أيضا لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم، بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم. قال عبد القاهر: الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم و ينكرون الرسل و الشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. و الأرجح أن المحور الأعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك و السلطان و هي أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية.

و على الجملة فإن منشأ هذه المذاهب خلافة على بن أبي طالب، و طلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى أخرجه بعضهم عن البشرية.

و قد كان أكثر أهل الشام في القرون الثلاثة الأولى للإسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى، و المسلمون أقل منهم. و لقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة في الشام مثل بنى كلاب و بنى جذام و بنى عاملة أن دانوا بالإسلام و لم يتخلف عنهم بادئ بدء سوى تنوخ في حلب و تغلب في شمالي شرقي تدمر. و لما مرّ السائح ويليالد في القرن الأول للهجرة بحمص كانت نصف

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٢

مسلمة و قويت حركة الإسلام في القرون التالية لما سكنها العباس من قواد المروانيين في خمسين من أولاده.

و كانت الشام في الإسلام توالى عليها و أصحابه تارة و توالى غيره أخرى.

و كان أهل حلب سنية حنيفة حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح فصار فيها شيعية و شافعية. و أتى صلاح الدين و خلفاؤه فيها

على التشيع كما أتى عليه في مصر. و كان المؤذنون في جوامع الشهباء يؤذنون بحى على خير العمل.

و حاول السلجوقيون مرات القضاء على التشيع فلم يوفقوا إلى ذلك. و كان حكم بنى حمدان و هم شيعة من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع في الشمال. و لا يزال على حائط صحن المدفن الذى فى سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثنى عشر و قد خرب الآن. و فى سنة (١٤١) ظهر فى حلب قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب و حيران و كانوا يزعمون أنهم بمنزلة الملائكة، و صعدوا تلا بحلب فيما قالوا و لبسوا ثيابا من حرير و طاروا من التل فكسروا و هلكوا.

وصف المقدسى مذاهب الشام فى القرن الرابع للهجرة فقال: إن السامرة فيه من فلسطين إلى طبرية و لا تجد فيه مجوسيا و لا صابئا، مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة و سنة. و أهل طبريا و نصف نابلس و قدس و أكثر عمان شيعة و لا ماء فيه لمعتزلى إنما هم خفية، و بيت المقدس خلق من الكرامية لهم خواتق و مجالس و لا ترى به مالكيًا و لا داوديا، و للأوزاعية مجلس بجامع دمشق و العمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث، و الفقهاء شفعوية و أقل قصبه أو بلد ليس فيه حنفى، و ربما كانت القضاء منهم قال: و اليوم أكثر العمل على مذهب الفاطمى.

و وصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام فى القرن السادس فقال:

و للشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة و هم أكثر من السنين بها و قد عموا البلاد بمذاهبهم، و هم فرق شتى منهم الراضية و هم السابون و منهم الإمامية و الزيدية و هم يقولون بالفضل خاصة. و منهم الإسماعيلية و النصيرية يزعمون الإلهية لعلى رضى الله تعالى عنه. و منهم الغرابية و هم يقولون: إن عليا (رض) كان أشبه بالنبي صلى الله عليه و سلم من الغراب بالغراب، و ينسبون إلى الروح خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٣

الأمين عليه السلام قولا تعالى الله عنه علوا كبيرا. إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء. قال: و سلط الله على هذه الراضية طائفة تعرف بالتبوية سنيون يدينون بالفتوة و بأمور الرجولة كلها، و كل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه سراويل فيلحقونه بهم، و لا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به، لهم فى ذلك مذاهب عجيبة، و إذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه و هم يقتلون هؤلاء الروافض اين ما وجدوهم. و شأنهم عجب فى الأنفة و الائتلاف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالته الرد على النصيرية أيام استولى هؤلاء على جانب كبير من الشام: إن للقرامطة فى معاداة الإسلام وقائع مشهورة و كتبها مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين و قد قتلوا من علماء المسلمين و مشايخهم و أمرائهم و جندهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، و هم دائما مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، و من أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، و من أعظم أعيادهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين، و بسببهم استولى النصارى على القدس الشريف و غيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب فى ذلك. و اتفقوا بعد صلاح الدين و نور الدين مع النصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. و قال: إن لهم ألقابا معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة و تارة يسمون القرامطة و تارة يسمون الباطنية و تارة يسمون الإسماعيلية و تارة يسمون النصيرية و تارة يسمون الخرمية و تارة يسمون المحمرة. و هذه الأسماء منها ما يعمهم و منها ما يخص بعض أصنافهم. و هم كما قال العلماء فيهم، ظاهر مذهبهم الرفض و باطنه الكفر المحض. و حقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء و المرسلين لا بنوح و لا إبراهيم و لا موسى و لا عيسى و لا محمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين و لا بشيء من كتب الله المنزلة لا التوراة و لا الإنجيل و لا القرآن، و لا يقرون بأن للعالم خالقا خلقه و لا بأن له دينا أمر به، و لا أن له دارا يجزى الناس فيها على أعمالهم فى غير هذه الدار، و هم يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة تارة و على أقوال المجوس الذين يعبدون النور. و قال: إن إخوان الصفا و نحوهم هم من أئمتهم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٤

و ينكرون على الرسل و دعوى أنهم من جنسهم طالبون للرئاسة فمنهم من أحسن بطلبها و منهم من أساء فى طلبها حتى قتل، و

يجعلون محمدا و موسى من القسم الأول و المسيح من القسم الثاني و يستهزئون بالصلاة و الزكاة و الصوم و الحج الخ اه.

الإسماعيلية:

هم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم. و هم يوافقون الإمامية في سوق الإمامة من أمير المؤمنين على بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الإمام عند الإمامية إلى إسماعيل هذا. ثم يسوقونها في بنيه فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمير المؤمنين على إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه إسماعيل الذي تنسب إليه هذه الفرقة بالنص من أبيه. ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد الحبيب ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، و هو جد الخلفاء الفاطميين بمصر، ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار ثم إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن على ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معدّ خامس خلفائهم بمصر. و من هنا افترت الإسماعيلية إلى فرقتين مستعلوية و نزارية. فأما المستعلوية فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر بالله إلى ابنه المستعلي بالله أبي القاسم ثالث خلفائهم بمصر ثم إلى ابنه الأمر بأحكام الله أبي على منصور إلى آخر من جاء بعدهم و هو حادي عشر خلفائهم بمصر. و أما النزارية فإنهم يقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنص من أبيه المستعلي. ثم الإسماعيلية في الجملة من المستعلوية و النزارية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية تبعا لإمامهم إسماعيل المذكور، و كان يسمى صاحب الدعوة الهادية- و في القرن التاسع كانوا يسمون في ديوان الإنشاء بالقصاد و بين العامة بالفداوية- و هم يرون أن الأرواح مسجونة في هذه

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٥

الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت و انتقلت للأتوار العلوية، و أن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية.

و ذكر في العبر أن منهم من يدعى ألوهية الإمام بنوع الحلول، و منهم من يدعى رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ و الرجعة، و منهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته، و منهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت. و يتفق المستعلوية و النزارية في بعض المعتقدات و يختلفون في بعضها. و لدعاة الأئمة المستورين عندهم مكانة عظيمة لا- سيما الداعي القائم بذلك أولا و هو الداعي إلى محمد المكتوم أول أئمتهم المستورين، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده. و اشتهر من دعائهم رمضان و ابنه ميمون و عبد الله القداح بن ميمون، اطلع هذا على أسرار الدعوة من أبيه و سار من نواحي أصفهان إلى الأهواز و البصرة و سلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت. ثم أنشأ ابنه أحمد فأرسل هذا أحد دعائه إلى اليمن و إلى المغرب.

و من نسب أحدا من هؤلاء الدعاة إلى ارتكاب محذور أو احتقاب إثم فقد ضل و خرج عن جادة الصواب عندهم، و يرون تخطئه من مالا على الإمام عبيد الله المهدي أول أئمتهم القائمين ببلاد المغرب و ارتكابه المحذور و ضلاله عن طريق الحق، و كذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله ثاني خلفائهم ببلاد المغرب أو نقض الدولة على المعز لدين الله أول خلفائهم بمصر، و يرون ذلك من أعظم العظائم و أكبر الكبائر.

و من أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدير خم (غيزة بين مكة و المدينة على ثلاثة أيام من الجحفة) و سبب جعلهم له عيداً أنهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه و سلم نزل فيه ذات يوم فقال لعلي: «اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدر الحق معه حيث دار». و من أكبر الكبائر عندهم و أعظم العظائم أن يرمى أحد من آل بيت النبي صلى الله عليه و سلم و لا- سيما الأئمة بكبيرة، أو ينسبها أحد إليهم أو يوالى لهم عدوا أو يعادى وليا. و يقولون: إن

الإمام منهم لا يموت إلا وقد خلف ولدا ذكرا منصوفا عليه.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٦

وأصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ ثم ظهروا بأصبهان في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وبالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كمصيف والخوابي والقدموس والمرقب والعليقة والمينقة والكهف والرصافة وغيرها. وهم يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة وانتهت إليه رياستهم في زمن صلاح الدين.

ولما افترق الإسماعيلية إلى مستعلوية ونزارية أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملا بدعوة ابن الصباح، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلون.

روى هذا القلقشندی وقال ابن ساعد: ويلقب الإسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة، ويرون أن في كل دور سبعة أئمة، إما ظاهرون وهو دور الكشف، وإما مختفون وهو دور الستر، ولا بد من إمام، إما ظاهر وإما مستور، لقول أمير المؤمنين رضي الله عنه لن تخلو الأرض عن قائم لله بحججه، ويلقبون أيضا بالباطنية لقولهم: إن لكل ظاهر باطنا، وبالتعليمية لقولهم: إن العلم بالتعلم من الأئمة خاصة، وربما لقبوا بالملاحدة لعدولهم عن ظواهر الكتاب والسنة لأنهم يتأولون سائر النصوص، وعندهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية اه.

وذكر كاتب چلبى أنه كان للفداوية الذين اشتبهوا في زمن الظاهر بيبرس - هكذا كانت العامة تسمى الإسماعيلية - من طرابلس إلى صيدا إلى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون. وقد ذكر مؤرخو حلب أنه جاء إلى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصرى صاحب الدعوة النزارية ومتولى الحصون الإسماعيلية، وكان أديبا فاضلا عارفا بعلم الفلسفة وله شعر حسن وكلام مشور جيد، وتمكن

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٧

في الحصون و انقادت إليه الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره.

ويقضى مذهبهم على ما قال هوار في المعلمة الإسلامية بأن الله لا صفات له ولا تدركه العقول ولا تفهمه الأبواب ولم يخلق العالم مباشرة، بل تجلت إرادته في أمره وهو العقل العام وفيه تختفى جميع الخصائص الإلهية وهو الله المتجلى. وإذا كان لا يصلح لكائن لا يدرك فإن الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية وهي العقل الذى هو حقيقة معبود الإسماعيلية. فكما أنه لا سبيل إلى معرفة الله بل يعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه أسماء الحجاب والمكان والأزل والعقل والأول. والعقل يخلق الروح العام الذى هو الجوهر فى الحياة، وإذا كانت حياة العقل بالعلم وهو ناقص من هذا النظر فيرمى بالضرورة إلى تحقيق الكمال. ومن هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن حركة أخرى تتولد منها. الروح تخرج المادة الأولى التى تتألف منها الأرض والكواكب وهى غير عاملة بل تتجلى فى أشكال تنطوى فيها الأفكار على العقل. وهناك كائنات ضروريان وأصليان وهما الأمد والزمان. والكواكب والعناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركة. ويفسر ظهور الإنسان بالضرورة التى يشعر بها الروح العام فى إحراز العلم الكامل حتى يرقى إلى طبيعة العقل العام ومتى جرى الوصول إلى هذه الغاية تبطل كل حركة.

ولللخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذى لا يتأتى أن يأتى إلا من تجسد العقل على هذه الأرض ويتجسد ذلك فى الرسول وخلفائه والأئمة. ويسمى العقل المتجسد «الناطق» والروح المتجسد «الأساس» والأول هو الرسول الذى يتجلى فيه الكلام الموحى، والثانى هو ترجمان هذا الكلام بما يحوى من المعانى التى تؤول. والمبادئ الثلاثة الأخيرة هى الإمام والحجة، الذى يبرهن على

رسالة الأساس، والداعية. وكان محمد الناطق وعلی الأساس.

والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا أولا سبعة ثم صاروا تسعة. ويبدأ الداعية مع من يريد تلقيه أسرار الدعوة بأن يضع له مشكلات في صعوبة فهم الشريعة و هي الطريقة التي يجرى عليها الباطنية عامة، ولا يزال به حتى يذكر له أن هذه المشاكل قد حلت على أيسر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٨

وجه بتأويل القرآن و معرفه رموزه. وللحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير. و متى اقتنع المدعو بقوة البراهين التي أوردها له الداعية يستحلفه بأن لا يوح بأدنى سر من الأسرار التي سيفضي بها إليه، و يعلمه بأن الواسطة للنجاة أن يخضع خضوعا أعمى لأوامر الإمام الروحية و الزمنية.

و جمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية من الأسرار، و الدعاء يصلون إلى الدرجة السادسة إلا قليلا. و لا يبلغ الدرجة العالية إلا بعض الممتازين. و هذا أشبه بتعاليم الشيعة و المتصوفة في تعيين درجة الإنسان الكامل.

و الجنة معناها مجازا حالة النفس الواصلة إلى كامل العلم، و جهنم معناها الجهل، و ما من نفس يحكم عليها بالخلود في جهنم على الأبد، بل تعود إلى الأرض بالتناسخ حتى تعرف إمام الزمان و تأخذ عنه علوم الدين. و الشر لا بقاء له و لا بد من زواله يوما يتمثل كل الموجودات في العقل العام تمثلا تدريجيا. و مع ما اشتهر عن الإسماعيلية من القتل يجب أن نذهب إلى أن ما اجترحوه لم ينشأ عن عقيدة لهم بل يجب أن ينظر فيه إلى الإفراط الذي عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية. و قال رسو من السياح: إن من عرفهم من الإسماعيلية هم على جانب عظيم من الكرم و لطف الأخلاق، و قلما يحبون التنقل و يعملون في أرضهم و يتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم كل المخالفة، و هم أشداء عند الحاجة خاضعون لزعمائهم.

انتهى قول هوار.

و لم يعرف الزمن الذي نزل فيه الإسماعيلية بعض أرجاء الشام إذ لم يجر لهم ذكر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة. و كان الحكيم المنجم و أبو طاهر الصائغ و هما من دعاة الإسماعيلية و أمثالهما من العجم أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام الملك رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب الذي أغضى عنهم و أراد اتخاذهم حزبا له فقبل دعوتهم على ما قيل، و استمالوا إليهم خلقا كثيرا بسرمين و الجوز و جبل السماق و بنى عليهم و جعل لهم في حلب دار دعوة. و لم يلبثوا أن اغتالوا في جامع حمص (٤٩٦) عمه جناح الدولة صاحب حمص، تولى ذلك ثلاثة من العجم يلبسون لباس الصوفية

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٥٩

بينما كان يتهيأ لغزوة صنعيل أمير طرابلس من الصليبيين لرفع الحصار عن حصن الأكراد. و لم يلبث هذا الطبيب المنجم أن قضى نجه عاهدا بالدعوة إلى رفيقه أبي طاهر الصائغ. و استولى الإسماعيلية على أفامية من الصليبيين ثم استرجعها هؤلاء منهم (٤٩٨) و وضع السيف في الإسماعيلية بحلب سنة (٥٠٧) و (٥٠٨) كما وضع فيهم في دمشق سنة (٥٢٢) (خطط الشام ج ١ و ج ٢) و كذلك كان حالهم في الباب من عمل حلب. قال ابن جبیر: فداخلت أهل البلاد الحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم و وضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم. و قال: إن الإسماعيلية يبدلون الأنفس دون إمامهم سنان و حصلوا من طاعته و امتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقه جبل فيتردى. و في تلك السنة أيضا قتلوا برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم. و في سنة (٥٧١) حاول أحد الإسماعيلية من العجم اغتيال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فأنجاه الله و أغضى الطرف عنهم. و في سنة (٥٨٨) قتل الإسماعيلية كونراد أمير صور. و بعد مدة قتلوا ريموند بن بويمند الرابع المعروف بالأعور أمير أنطاكية من الصليبيين قتلوه في الكنيسة. و فتح الظاهر بيبرس و التار قلاعهم و خضعوا بعد ذلك لمماليك مصر.

و كان للإسماعيلية في بلاد العجم وقائع عظيمة و هم الذين قتلوا الوزير نظام الملك في بغداد و غيره من رجال الإسلام حتى ضاقت

بهم الصدور.

وقد سموا أوائل دخول الصليبيين إلى الشام بالحشاشين أو القتلة (Les assassins) لأن رؤساءهم كانوا فيما قيل يعطون الحشيشة لمن يريدونه على قتل أحد خصومهم السياسيين. وكان الصليبيون يطلقون على رئيسهم شيخ الجبل.

وقد نالوا من الصليبيين كثيرا كما نالوا من أمراء المسلمين. وهم جمعية سياسية ترمى إلى إقامة ملك. وما كان هذا القتل منهم عن باعث مذهبي بل سياسى. على أنهم أخافوا رجال السياسة في هذه الديار وهى فى أشد أوقات ضيقها زمن الحروب الصليبية و حروب التتار. و يبلغ عدد الإسماعيلية اليوم فى الشام نحو خمسة و ثلاثين ألفا منهم جماعة فى سلمية و فى قلاع الدعوة فى جبل النصيرية. و من الإسماعيلية عشرات ألوف فى العجم و الهند و الأفغان و عمان و مسقط و زنجبار و إفريقيا الشرقية. و إسماعيلية هذه الديار يجوبون خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٠

الزكاة كل سنة و يرسلونها إلى إمامهم آغا خان فى الهند أما، سائر الإسماعيلية فليسوا مرتبطين به. و قد ذكر بعض أعيانهم أن الإسماعيلية اليوم يقولون:

إن كل زمن لا يخلو عن رجل من السلالة الطاهرة يسمونه إماما و اعتباره اعتبار علمى دينى خال من كل غرض سياسى.

النصيرية أو العلوية:

قال القدماء: هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب و هم يدعون ألوهية على رضى الله عنه مغالاة فيه و يزعمون أن مسكنه السحاب و إذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن و يقولون: إن الرعد صوته و البرق ضحكته، و هم من أجل ذلك يعظمون السحاب، و يقولون: إن سلمان الفارسى رسوله، و إن كشف الحجاب عما يقوله من أى كتاب بغير إذن ضلال، و يجوبون ابن ملجم قاتل على و يقولون: إنه خلص اللاهوت من الناسوت و يخطئون من يلعنه. و إن لهم خطابا بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم و لا يذيعه و لو ضرب عنقه. و هم يخفون مقاتلتهم و من أذاعها فقد أخطأ عندهم. و لهم اعتقاد فى تعظيم الخمر و يرون أنها من النور و لزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التى هى أصل الخمر حتى استعظموا قلعها. و يزعمون أن الصديق و أمير المؤمنين عمر و أمير المؤمنين عثمان تعدوا على على و منعه حقه من الخلافة.

و قال المحدثون منهم أنفسهم على ما ذكره صاحب تاريخ العلويين:

إن النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (١٩١٨ م) و سميت العلوية و كانت محرومة مدة (٤١٢) سنة أى من قتال الأتراك للعلويين و إن اسم العلويين الذى كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون و سمي الموجودون باسم الجبل و يظن بعضهم أن اسم النصيرية هو نسبة للسيد أبى شعيب محمد بن نصير البصرى النميرى مع أن الأصح هو لأنه تغلب اسم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦١

الجبل عليهم و أصبحت كلمة النصيرية أشنع كلمات التحقير.

وقال: إن قوله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، معناه كمال الدين و كمال الدين هو ولاية على، و هذه هى الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدرج.

و يقول العلويون: إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوما و خفيا، و لذلك بقى إلى هذا اليوم مكتوما بخصوصيته، و بتعبير أصح إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام و إعلانها مضرّ به لأن الرسول صلى الله عليه و سلم بشر المؤمنين بولاية على و بذلك كمل الإسلام، و لكنه بقى حريصا على كتمان البقية و لذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضا. و هذا هو تعليل تكتّم العلويين فى عقيدتهم. و هم يقولون أيضا: إن بنى هاشم كانوا يعرفون فى زمن النبى أحكاما ما كان يعرفها الأمويون، و إن أهل البيت تعلموا علوما لم يسمعها غيرهم. و هنا مبدأ أسرار العلويين. و من جملة أسباب تكتّم العلويين أن بيعة

غدير خمّ لم تكن إلا إفشاء لبعض حقوق أهل البيت و الأمر باتباعها و احترامها.

و قال: إن السلطان سليمان العثماني لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الأناضول إلى خراسان و قدرها تسعون ألف خيمة أى أكثر من نصف مليون تقريبا و أسكنهم فى القلاع فى جبال النصيرية و المواقع الغنية المرتفعة منه، و لم يمض أكثر من خمسين عاما حتى انقرض الأتراك فى المنطقة الضيقة التى لم تكن حاصلاتها تكفى سكانها الأصليين، و لم يبق من الأتراك سوى خمسة عشر ألفا و هم اليوم فى البايير و البوجاق و قليل منهم فى الساحل، حافظوا على جنسيتهم و لسانهم، و من نزل منهم أرجاء حماة و حمص تغلبت عليه العربية.

و ليس بين العلويين اختلاف فى المذهب بل تفرقوا عشائر و أفخادا فمنهم الكلبية و هى من أكبر العشائر و النواصرة و الجهينية و القراحلة و الجلقية و الرشاونة و الشلاهمة و الرسالنة و الجردية و الخياطية و البساترة و العبدية و البراعنة و الفقاروة و العمامرة و الحدادية و بنو على و البشالوة و الياشوطية و العتارية و المتاوردة و الحلبية و الخرزجية و السوارخة و النيلاتية و السرانبة و الصوارمة و المهالبة و الدراوسة و المحارزة و البشارغة و الجواهررة و السواحلية و الأنطاكيون

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٢

و الأطنويون. و النسبة فى هذه الأسماء إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم أو إلى قرى و مدن معروفة فى أرضهم و غيرها. و قال أيضا: ليس للعلويين ديانة خاصة أو مذهب خاص كما يظن بعضهم، بل إن العلويين مسلمون شيعيون جعفريون، لا تفرق بينهم و بين سائر الجعفرية قيود دينية أو اجتهادات عملية، و يعتقدون أن الأئمة الاثنى عشر هم معصومون من الخطايا، و إن أقوال الأئمة دلائل قطعية، و لا يمكن أن يخالف الإمام القرآن و الأحاديث و لا يحق لأحد أن يؤول القرآن، و لا أن يفرق بين محكمه و متشابهه سوى أهل البيت، و لا تنفع عند العلوى القواعد الصرفية و النحوية أو الأصولية فى استخراج الأحكام الشرعية، بل كل ذلك من جملة حقوق أهل البيت. و إن العلويين يمتازون على بقية الجعفرية أى الاثنى عشرية بانتسابهم فى الآداب الدينية إلى الطريقة الجبلانية، و هذا الانتساب هو الذى أدى إلى افتراقهم عن بقية الاثنى عشرية. و يرى المؤلف أن يتحد العلويون و الشيعة المتأولة و الإسماعيلية، و ليس بين هؤلاء و بين العلويين سوى الافتراق الخاص فى اعتبار الأئمة بعد جعفر الصادق.

و قد سألتنا الأستاذ الشيخ سليمان أحمد من علمائهم فأجاب معتذرا عن التوسع فى وصف مذهبهم و ختم بقوله: أمة توالى عليها النوايب السياسية و الاجتماعية خمسة أجيال فأخملتها أى إخمالت، و انزوى علماؤها و صلحاؤها و عاث الجهل فى عشائرها فسادا، ليس من السهل الكتابة عنها، و ليس بالهين ضلال التاريخ، و قل من جرى فى ميدانه فلم يعثر. لا فرق بينهم و بين الإمامية إلا ما أوجبه السياسة و البيئة و عادات العشائر التى توارثها سكان الشام، أكثر الناس اختلافا، و أقلهم ائتلافا، إذ شيخ مذهبهم الذى ينتمون إليه (الخصيبى) من رجال الإمامية تقرأ ما له و ما عليه فى كتب الرجال. إنما لهم طريقة كالتقشبندية و الرفاعية و غيرهما من الطرق الصوفية بالنسبة إلى أهل السنة. و هذا مصدر التقولات الباطلة عليهم، و ما برز جهلهم من كل ما يقال، و لكن أشهد بالغرض و التفرغ على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اه.

و يسكن النصيرية أو العلويون اليوم فى جبال اللاذقية و طرابلس و حماة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٣

و منهم فئة قليلة فى دمشق و صالحيتها و فى قرى عين فيت و زعورا و عجر فى الحولة، و عدد العلويين اليوم أكثر من مائتى ألف. و قد استعمل العنف معهم فى أكثر الأدوار السالفة فنفروا و قد كان الظاهر بيبرس فى القرن السابع أمر أن تبني لهم جوامع فى قراهم فبنوا فى كل قرية جامعا و ما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة فى القرن التاسع، بل كانت حظائر للغنم و إصطبلات للدواب، و أمر السلطان قلاوون أيضا أن يبني جامع فى كل قرية من قرى النصيرية، و هكذا فعل عبد الحميد الثانى من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا أن خربوها و أهانوها. و شأن العلويين شأن سائر الطوائف الإسلامية الصغرى كلما زادوا علما و تربية رجعوا إلى الأصول

الصحيحة. و فيهم كرم و شجاعه و مكارم أخلاق.

الدروز:

لما طمع الحاكم بأمر الله الفاطمي سادس خلفاء الفاطميين أو العبيدين بمصر في دعوى الربوبية، أخذ يمهد لذلك المقدمات و لقب نفسه الحاكم بأمره و أمر الخطباء بأن يقرأوا بدل البسملة (باسم الله الحاكم المحيي المميت) و في رواية أنهم كتبوا بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم. فلما أنكروا عليهم كتبوا بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا في الأول الله صفة للحاكم و جعلوا في الثاني العكس. و أنشأ يدعى علم المغيبات، و كان من دعائه رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال لأحدهما محمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين، و للآخر حمزة بن علي بن أحمد و هذا من أعظم دعاة الحاكم، كان يؤثره على جميع عشيرته، و كان صاحب الرسائل و المكاتبات عنده. و صنف الدرزي كتابا كتب فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب و منه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم بأمر الله. و قرئ هذا الكتاب في الجامع الأزهر بالقاهرة، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم، و حدث شغب عظيم في القاهرة و قتلوا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٤

كثيرين من أصحابه. و كانت بلغت جريدة أسمائهم ستة عشر ألفا. و لم يسع الحاكم بأمر الله بعد أن وقع ما وقع إلا أن يبعث إلى الدرزي في السر والا و أو عز إليه أن يخرج إلى الشام و ينشر فيها الدعوة، فنزل وادى تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، و قرأ الكتاب على أهله و استمالهم إلى الحاكم، و أعطاهم المال فكثر مشايعوه و أنصاره.

و كان الأمراء التنوخيون سكان لبنان على استعداد لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليه فسمى جماعته بالدروز. و الدرروز ينكرون هذه التسمية و يحبون أن يدعوا بالموحدين، و كان يسميهم أصحابهم بالأعراف. و غلب عليهم في حوران في العهد الأخير لقب آل معروف دعوا به تحببا. و هذا كان من شعار اليمينين لانقسام هذه الطائفة إلى أصليين من أمهات أصول العرب في هذا القطر و هما القيسية و اليمينية. و لما أنشأ الدرروز يثون دعوتهم بين المسلمين غزوا في عقر دارهم في وادى التيم نحو سنة (٤١٠) على الأرجح و غزوا في جبل السماق من أرجاء حلب لما جأهروا بمذهبهم أيضا و خربوا ما عندهم من المساجد فقتل دعواتهم و أعيانهم سنة (٤٢٣) (خطط الشام م ١).

و وقع خلاف بين الداعية الأول محمد بن إسماعيل الدرزي و الداعية الثاني حمزة بن علي بن أحمد، فكتب التقدم لهذا و مات الدرزي في سنة (٤١١) فقام بالدعوة حمزة و أصبح القوم يقدسونه و يلقبونه بهادى المستجيبين و حجة القائم و غير ذلك. و لما هلك الحاكم كتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق و علقها على أبواب الجامع و فيها يقول: إن الحاكم اختفى امتحانا لإيمان المؤمنين، و شرع حمزة يزرع في القلوب بذر الاعتقاد بألوهية الحاكم و توحيده و عبادته، و يجتمع هو و أتباعه في المعبد السرى، حتى ثار عليهم المسلمون و طردوهم ففروا من مصر إلى الشام.

قال سليم البخارى: إن الدرروز يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الديانات يتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعا له، و أما في الباطن فإنهم ينكرون الأنبياء عليهم السلام و ينسبونهم إلى الجهل و أنهم كانوا يثيرون إلى توحيد العدم و ما عرفوا المولى، و يشنعون بالظن على جميع أرباب الديانات من المسلمين و النصارى و اليهود، و الديانة الحققة عندهم هي توحيد الحاكم،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٥

و يفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم و حفظ الإخوان بدل الصلاة.

و يقرأون القرآن و يؤولونه و يذهبون إلى قدم العالم تبعا لبعض الفلاسفة و يقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتمصص، فالجسد يسمى قميصا عندهم، و أن الميت حين موته تنتقل روحه إلى من يولد و تقتل، فالأرواح الإنسانية لا تنتقل عندهم إلا إلى قوالب إنسانية. و

يقولون: الهوية الإلهية تنتقل من قالب و تحل في قالب آخر في كل عصر، فتتجلى في كل زمن بصورة و تجلت أخيرا في الحاكم، و أن حمزة أيضا ظهر في كل عصر بقالب، ففي زمان كان فيثاغورس الحكيم، و في زمان كان شعيبا، و في زمان كان سليمان بن داود، و في زمان كان المسيح الحق، فهو النبي الكريم عندهم، و حمزة العصر المحمدي هو سلمان الفارسي، و يزعمون أن القرآن قد أوحى حقيقة إلى سلمان الفارسي و أنه كلامه و أن محمدا أخذه و تلقاه عنه حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي خاطب به ولده في معرض الوصية بقوله: «يا بني أقم الصلاة و أمر بالمعروف و أنه عن المنكر» هو خطاب سلمان لمحمد و التعبير بالنبوة إنما هو من خطاب المعلم للمتعلم.

و إذا أراد أحد من جهالهم أن يدخل في سلك الموحدين ينبغي له أن يستجلب رضاهم بتقديم وسائل العطف مدة حتى تتحقق توبته، فإذا قبلوه أدخلوه على الإمام فيوصيه بحفظ السر و عدم إشهاره، و يأمره بتحرير العهد الواجب تحريره، إذ لا يكون موحدا خالصا بدون تحرير العهد على نفسه، فإذا حرره و سلمه إلى الإمام صار واحدا منهم. و صورة العهد و هو المعروف لأول انتشار الدرزية بميثاق ولي الزمان: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد المتزه عن الأزواج و العدد، أقر فلان بن فلان إقرارا أوجه على نفسه و أشهد به على روحه في صحه من عقله و بدنه و جواز أمره طائعا غير مكره و لا- مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب و المقالات و الأديان و الاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها و أنه لا يعرف شيئا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره و الطاعة هي العبادة و أنه لا يشرك في عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر و أنه قد سلم روحه و جسمه و ماله و ولده و جميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره و رضى بجميع أحكامه له و عليه، غير معترض و لا منكر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٦

لشيء من أفعاله ساء ذلك أم سره، و متى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه و أشهد به على روحه أو أشار به إلى غيره أو خالف شيئا من أوامره، كان بريئا من البارئ المعبود و حرم الإفادة من جميع الحدود و استحق العقوبة من البارئ العلي جل ذكره، و من أقر أن ليس له في السماء إله معبود و لا- في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. و كتب في شهر كذا و سنة كذا و كذا من سني عبد مولانا جل ذكره و مملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين و المرشدين بسيف مولانا جل ذكره و شدة سلطانه وحده»

و ليس لأحد من الناس أن يدخل في مذهب الدرروز لأن ذلك لا يتأتى إلا إبان الدعوة الأولى، و قد سد هذا الباب بعد ذلك. و يحرص الدرروز كل الحرص على كتمان عقائدهم و لذلك يعبرون عن مرامهم في كتبهم و رسائلهم بطريق الرمز و الكناية فلا يفهم ما يراد منها إلا- الطبقة العالية من أرباب الدين عندهم أو مشايخ العقل. و يذكرون مباحث من علم الكلام، و بعض مقالات غلاة المتصوفة، و تأويلات الرافضة و الملاحدة، و خصوصا الإسماعيلية من غلاة الشيعة. و لهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة، غير أنهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة و قد اصطالحوا على التوصية بما يشاءون لما يشاءون. و لا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فإن لم يطلق التي عنده لا يمكنه التزوج بغيرها. و تطلق المرأة بأدنى سبب، و لا يجوز عندهم رد المطلقة و لو كان بعد زوج آخر.

و يقسم الدرروز من حيث الدين إلى ثلاثة أقسام: العقال أو الأجاويد و الشراح و الجهال. و يرخص للشراح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل بشرح أحد أوليائهم الأمير عبد الله التنوخي الملقب بالسيد دفين قرية عبيه و هو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع، و كان على ما قيل يريد أن يرجع بالدرروز إلى مذهب أهل السنة و الجماعة توفي سنة (٨٧٤).

و لا- يباح للجهال من الديانة غير معرفة المسائل الأولية من الدين. و من العقال طبقة أتقياء يقال لهم المنتزهون و هم مثابرون على العبادة و الورع، و منهم من لم يتزوج، و منهم من لم يأكل لحما طول حياته، و منهم من هو

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٧

صائم كل يوم، ولا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقال. والعقال جميعهم يعتقدون أن أموال الحكام والأمرء حرام فلا يأكلون شيئاً من طعامهم ولا من طعام خدمهم ولا من طعام حمل على دابة مشتراة من مال حاكم، وقد يعتاشون من عمل لهم خاص يتعاطونه بأنفسهم من زراعة وصناعة. ويزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الإسراف.

و اسمع بعد هذا رأى الأمير شكيب أرسلان (من مقاله فى جريدة الشورى (١٥) جمادى الثانية سنة (١٣٤٤) فى الدروز قال: الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية، و الشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل: إن الدروز هم من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز يقولون: إنهم مسلمون و يقيمون جميع شعائر المسلمين و يتواصون بمرافقة الإسلام و المسلمين فى السراء و الضراء، و يقولون: إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. و لهذا أصبح من الصعب على المسلم الذى فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح و الذى سمع حديث (فهلا شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام.

و فى الشرع المحمدى قاعدة: نحن لنا الظاهر و الله يتولى السرائر. و قد قال الله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و هؤلاء لا يلقون السلام فقط بل يلقون السلام و يقولون: إنهم مسلمون، و يحفظون القرآن، و يلقن ملقنهم الميت «إذا جاء منكرو و كبير و سألأك ما دينك و من نبيك و ما كتابك و من إخوانك و ما قبلتك فقل لهما الإسلام ديني و محمد نبيي و القرآن كتابي و الكعبة قبلتي و المسلمون إخوتي» و ليس من شعائر الإسلام شىء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز.

و إذا قيل: إنه مع كل هذه المظاهر تحتوى عقيدتهم الباطنية التى تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة و الجماعة و لا يتفق معها فى شىء فالجواب قد وجد فى الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكركم و لهم قباب تزار و تعلق فيها القناديل و كانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ كلا فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٨

الإسلام؟ و أما تجسد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم و التجسد شىء و الترائى شىء آخر. و أما تأويل آى القرآن الكريم بحسب زعمهم فكم من فرقة فى الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة ... اه.

و بعد فإن للدروز روابط مهمة بينهم منها أنهم مهمما كانت بينهم طوائف و حزازات يتخلون عنها و يصبحون جسما واحدا يوم يريدون مقاومة عدو لهم. و هم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم. و معظم عاداتهم إسلامية و أسماؤهم إسلامية و فيهم من الإسلام شىء كثير من جوهره. و قد رأينا لعهدنا أبناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الأصول الإسلامية و فيهم اليوم فئة صالحه مستنيرة تريد الجهر بالرجوع إلى مذهب أهل السنة.

و من أراد زيادة تفاصيل فى مذهب الدروز فعليه بالرجوع إلى كتبهم و رسائلهم و هى محفوظة فى دور الكتب العامة هنا و فى الغرب. و ينزل الدروز اليوم فى شوف لبنان و جبل حوران و وادى التيم و بعض قرى الغوطة بدمشق و الجبل الأعلى فى حلب و بعض قرى عكا و لا يقل عددهم عن مئة و أربعين ألفا.

البابية:

مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا على محمد الشيرازى ولد سنة (١٢٣٥ هـ) و توفى والده و هو حدث فكفله خاله و علمه مبادئ الفارسية و العربية و حسن الخط و اشتغل لأول أمره بالتجارة، و فى سن العشرين أخذ يكثر من الرياضة و العبادة فخاف خاله على صحته فأرسله إلى العراق و قضى أشهراً فى كربلاء و النجف اجتمع خلالها إلى علماء الشيعة و خرج من العراق بأفكار تخالف ما عرفه الناس من الإسلام، و أخذ يبيث دعوته فمال إليه جماعة و حجج فى تلك الأيام. و كان يقول: ادخلوا البيوت من أبوابها «أنا مدينة العلم و على بابها» يشير إلى أنه واسطة السعادة الأبدية، ثم دعا نفسه «الباب» و معنى الباب عند الشيعة نائب المهدي المنتظر

و تخلى عن اسمه.

و بعد مدة أرسل إلى بوشهر و منها أرسل دعائه إلى شيراز و أصفهان يبثون دعوته. فعقد والى شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٦٩

البايية و وجوب قتلهم. لكن الوالى اكتفى بقطع العصب الكعبرى من كعابهم و سجنهم. و جىء بالباب من بوشهر (١٩ رمضان سنة ١٢٦١) و أنزل فى دار أبيه ريثما يهدأ روعه، ثم استقدمه الوالى سرا و بعد المفاوضات تظاهر الوالى بأنه اقتنع بصحة دعوة الباب و جعل هذا فى قصره، ثم عقد له مجلسا لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالى إلا أن أشار بضربه على رجله فلما استغاث أو عزوا إليه أن يصعد المنبر و يعلن توبته ففعل. و ظهر الوباء فى شيراز و اختلت أحوال فارس فبعث والى أصفهان يستدعى الباب إليه، فلما رأى والى شيراز ذلك نفى جميع أصحاب الباب من ولايته، و لما حمل الباب إلى والى أصفهان أوعز هذا بأن يحسن القوم استقباله فاستقبلوه، ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله، فاعتذر الوالى عن تنفيذ فتواهم، و خبأه فى قصره مطلقا له حرية التأليف و الكتابة و بقى فى داره حتى قتل الوالى و خلفه فى الحكم ابن أخيه، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالأمر، فأمروا بنفيه إلى آذربايجان فحبس فى قلعة جهريق ثم فى قلعة ماكو.

و بث الباب دعائه و ساعده المحيط و اختلال الأمن فى كثير من الولايات، فاشتد دعائه فى بث دعوته فلقبت قبولاً من بعض الناس، و فى مقدمة أتباعه الملا حسين بشرويه الملقب بباب الأبواب فى خراسان، و الثانى الملا محمد على البار فروشى بماندران و الثالثة امرأة من قزوین اسمها زرین تاج من عائلة عريقة فى العلم و زوجة أحد المجتهدين و هى جميلة الصورة جميلة الأدب، تحفظ القرآن و تعرف تفسيره و أسرارها، فاقنعت بصحة دعوة الباب، و لم تلبث أن دعت إليه سرا و جهرا و إن لم تجتمع به، فمال الناس إلى مواعظها و فتنهم بفصاحتها و جمالها و جميل شعرها، و قد حسرت نقابها و لقت بقره العين، ثم خرجت إلى خراسان فالتقت فى رشت بالبار فروشى أحد الدعاة و معه جند من البايية فبعثا مناديا ينادى «عجلوا أيها الناس فقد ظهر الإمام المنتظر» فنصبوا منبرا و وقفت قره العين سافرة و حثت الناس على الاعتقاد بالباب فآمن بعضهم و أنكر الآخر، ثم انتقلت على هودج إلى مازندران و الناس يتبعونها، و أخذت تطوف القرى تبشر بدعوة الباب فقبضت عليها الحكومة و خنقتها و أحرقتها.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٠

ثم قام الملا- حسين بشرويه و قد كثر أنصار الباب و ألف منهم جيشا صغيرا قاتل جيش الشاه فى مازندران و جعل الملا على البار فروشى مقدسا و سماه حضرت أعلى» و حجه عن الناس، و أصيب بشرويه فى إحدى المعارك و أوصى جماعته بأن يطيعوا «حضرت أعلى» و تغلبت الحكومة على قلعتهم و قبضوا على ملا محمد على و حاكموهم فقتلوهم على بكره أبيهم. و بلغ عدد من قتل فى هذه الوقائع ألفين و خمسمائة من البايية و خمسمائة من الجند و غيرهم.

و حدث مثل ذلك بقيام أحد الدعاة الملا محمد على الزنجاني فى زنجان و لكنه لم يوفق. و كذلك وقع فى مدينة تبريز فقاتلت حكومة فارس دعائهم حتى أبادتهم. أما الباب فكان مسجوناً فى سجن جهريق. و لما اندلع لسان الثورة فى مازندران و زنجان و تبريز و قتلت الأنفس، ارتأى رئيس حكومة فارس قتله فقتله بمشورة الشاه فى ٢٨ شعبان سنة (١٢٦٦ هـ). و وضعت حكومة فارس فى أشياهم السيف فى جميع مملكتها خصوصا بعد أن ثبت أن الذى حاول اغتيال ناصر الدين شاه سنة (١٢٦٨) هو من شيعة البايية.

و كان من جملة العلماء الذين فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء الله ميرزا حسين على فلما وقعت هذه الحوادث قبض عليه و سجن ثم حوكم، و كان سفير روسيا يدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه، ثم أفرج عنه و نفى إلى العراق فأرسل مخفورا بالجند الفارسى مع بعض فرسان من سفارة روسيا فى طهران لئلا يغتالوه فى الطريق فأقام فى العراق ١٢ سنة ثم حمل إلى الاستانة و منها إلى أدرنة فأقام فيها نحو خمس سنين ثم صدر الأمر بنفيه إلى عكا سنة (١٢٨٥ هـ). و نفى أخوه مرزا يحيى نورى الملقب بعد بيحيى صبح

أزل إلى قبرس و ظل البهاء فى عكا حتى وافاه أجله سنة (١٣٠٩) فدفن فيها، و خلفه ابنه عباس أفندى و كان كأبيه على غاية من حسن السمات و الأخلاق و عظم النفس و بسط اليد و جمال الأدب و حسن العشرة حتى استمال بأخلاقه من يعتقد بالبايئة و من لا يعتقد. و لما توفى سنة (١٩٢٢) تفرق أمر الجماعة و انقلبوا فرقا كما كان عباس أفندى فى حياته مع صبح أزل متخاصمين متشاكسين. و سرت دعوتهم إلى عدد قليل من أبناء الشام و إلى بعض أهل أوربا و أميركا. و يبالغون فى عدد من دانوا بهذا المذهب

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٧١

فى الغرب. و هم فى الشام و فى أميركا و أوربا بضعة آلاف على الأغلب.

يقولون: إن من تعاليم الباب تحريم الكتب المنزلة قبله و نسخ القرآن و أحكامه.

و إنه قضى بهدم المزارات حتى الكعبة و قبر الرسول و فرض بناء ١٩ مزارا باسمه و من دخلها كان آمنا، و أبطل الحج و قسم السنة إلى (١٩) شهرا و جعل الشهر الواحد ١٩ يوما فأيام السنة عنده (٣٦١) و أضاف إليها خمسة أيام سماها المسروقة و رمز عنها بحرف (ه) و جعل أول يوم من شهر (فروردين ماه) الفارسى الموافق للحادى و العشرين من شهر مارس الإفرنجى الذى هو يوم الاعتدال الربيعى و هو يوم عيد النوروز عند الفرس عيدا للفطر و خصه بنفسه و سماه عيد رضوان. و جعل الصوم (١٩) يوما من شروق الشمس إلى غروبها و خصص الأيام الخمسة المذكورة للهو و الطرب قبل دخول شهر الصيام. و المطهرات عنده خمسة النار و الهواء و الماء و التراب و كتاب الله (أى البيان كتابه) و كيفية التطهير بالبيان أن يتلى ما تيسر من اسم النقطة أى الباب مع تلاوة آية التطهير (٦٦) مرة على كل شىء نجس.

و جعل الدم و روث البهائم و غيرها طاهرا. و للباب و خليفته بهاء الله عدة رسائل و كتب منها ما كتبه بالفارسية و منها بالعربية، من أهمها من قلم الباب كتابه البيان و فيه شريعته و تعاليمه. و من أهم كتب بهاء الله كتاب أقدس نهج فيه منهج القرآن فى ترتيب الآيات و السور و دون فيه شريعته و أحكامها باللغة العربية. و قد أدخل البهاء عدة إصلاحات على مذهب الباب اقتضته الحال ذلك. و بعضهم يطلق على أهل هذا المذهب اسم البايئة نسبة للمؤسس الأول و بعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء الله الذى زاد فى المذهب و نقص منه، و هم يسمون أنفسهم أهل البيان.

قال كليمان هوار: إن الباب أنشأ دينا جديدا بتعاليمه و عقائده و أنشأ مجتمعا جديدا تحت ستار الإصلاح فى الإسلام. فالله واحد و على محمد مرآته التى ينعكس فيها النور الإلهى و يتأتى لكل إنسان أن يشاهدها. و قال الباب فى كتابه البيان: عليكم أن تجعلوا من أنفسكم و من أعمالكم مرائى بحيث لا ترون فيها إلا الشمس التى تحبونها و قد برأ الله العالم على سبع صفات سميت حروف الحقيقة و هى القدر و القضاء و الإرادة و المشيئة و الإذن و الأجل

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٧٢

و الكتاب. و يدير شؤون الطائفة (١٩) رجلا- و كل بابى يدفع لهم فى السنة خمسة فى المئة من قيمة رأس المال، و تلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التى توضع على زوجين لا يريدان أن يتعاشرا بالمعروف. و التجارة و العقود مشروعة، و يسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة. و الزواج إجبارى بعد الحادية عشرة و الطلاق ممقوت، و يمهل الزوجان المتخاصمان سنة لتأليف ذات بينهما، و على الأرامل من الرجال و النساء أن يتزوجوا، و عدة الرجال منهم تسعون يوما و النساء خمسة و تسعون يوما و إذا لم يفعلا يغرمان غرامة.

و لا- يضرب الولد قبل أن يبلغ الخامسة و بعد ذلك لا يضرب أكثر من خمس ضربات. و يسمح لمن يدينون بهذا المذهب أن يستعملوا الحلوى و الجواهر خلافا لما أمر به الشرع الإسلامى. و يسمح لهم بالوضوء و لكن لا على أنه فرض، و يجب أن يكون فى كل حى حمام، و لا يتحجب النساء و يؤذن بالتحدث إليهن من دون إكراه، و أن يكون الكلام معهن جهرا لا سرا. و يحج أتباع الباب إلى البيت الذى ولد فيه حيث يقام له مسجد، أو إلى المكان الذى سجن هو فيه أو خاصة حواريه، و لا يسمح لمن يدينون بمذهبهم

بالارتحال و السياحة إلا لمن اضطر إلى ذلك، و لا يسمح بركوب البحار منهم إلا للحجاج و التجار، و لا تقام صلاة جماعة إلا على الأموات و خطبة المسجد واجبة، و يدفن الموتى فى زجاج أو فى حجارة منحوتة مصقولة، و يجعل فى يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فمه «لثلا- يفرع الموتى فى قبورهم». و ليس من حق أحد أن يستعمل الشدة مع إنسان و لا أن يسىء إلى أخيه، و يجيبون على كل من يكلمهم أو يكاتبهم و يفرض عليهم أن يؤدوا الرسالة التى ائتمنوا عليها إلى صاحبها من دون عبث بها. و يحظر عليهم تعاطى المخدرات و المسكرات، و يجب أن يدعو كل واحد منهم فى كل شهر تسعة عشر إنسانا، و أن يجتمع معهم و لو على شرب الماء القراح، و يحظر عليهم الكدية، و من الضلال إعطاء الشحاذين. و تقسم موارثهم على الصورة التالية بعد صرف نفقات الدفن و الجنازة: للولد (٩) من ستين و للزوج (٨) من ستين و للوالد (٧) من ستين و للأم (٦) من ستين و للأخ (٥) من ستين و للأخت (٤) من ستين و للأستاذ (٣) من ستين، و لا يرث أحد من ذوى القربى بعد ذلك اه.

و حظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية إلى مذهبهم فى الشام. و لما أعلنت

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٧٣

الحرية سنة (١٩٠٨) انتقلوا إلى عكا و زاد أشياعهم قليلا و هم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين و هم على غاية من حسن الأخلاق و جميل المعاملة قلما شكوا منهم إنسان أو اشتكواهم من إنسان، و لا تجد بينهم من لا يحترف حرفه و يعمل و يكد. و لا سيما رئيسهم الأخير عباس أفندى فقد كان محافظا على صلواته مع الجماعة لم يخرج فى سمته عن روح الشرع الإسلامى. فإما أن يكون صادقا فى إسلامه أو أنه عاش فى تقيئة متقنة كما يعيش كثير من أرباب النحل الضعيفة بين المخالفين لهم من السواد الأعظم، و لا سيما الشيعة بين ظهرانى أهل السنة.

و كان عباس على علم و أدب إذا تكلم يمزج الفلسفة بالمنقولات فيتعذر على كل إنسان فهم كلامه، و له خطب و مواعظ انطلق بها لسانه فى سياحة له فى أوربا و أميركا دامت خمس سنين، و يؤخذ من مجموع أقواله أن البهائية أو البابية ترمى إلى تطبيق الشرائع السماوية على العقل و حلّ المشاكل القائمة بين أهل الأديان السماوية الثلاثة اليهودية و النصرانية و الإسلام. و قال مرة:

إن الباب صاحب المذهب كان يريد التوفيق بين السنة و الشيعة. بل كان يرمى إلى وحدة العالم الإنسانى و نشر السلام العام و التأليف بين قلوب البشر بقوة الدين و تحكيم العقل و العلم، و نبذ التعصب الدينى و الجنسى و الوطنى و السياسى، و نشر العلم و إنشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التى تحدث بين الشعوب و الدول، و إلى تربية بنى البشر على الفضائل الإنسانية و إلى إقامة القواعد الاقتصادية و تأليف لغة عامة تفهمها جميع الأمم.

و يقال على الجملة: إن التشيع كان منشأ البابية و الإسماعيلية و النصيرية و الدرزية. و كما كانت فارس مثابة كثير من أسباب المدنية الإسلامية كانت أيضا منشأ معظم ما تفرع من الإسلام من النحل و الطرق الغربية. و لو تسامح أهل هذه المذاهب فى نشر حقائقها، لما تقول عليهم المتقولون، و لا رماهم المخالفون بما قد يكونون منه أبرياء. بقى أن يقال: إن فى الشام مذهب اليزيدية عبدة الشيطان، و ممن ينتحلون هذه النحلة قريتان فى ضواحي حلب، و لما كانت جمهرة أهل مذهبهم فى جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم بمبحث خاص لأنهم لا يسترعون الانتباه و يتمثلون على الأغلب فى سواد الأمة و الله أعلم.

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٧٤

الإخلاق و العادات

إشارة

[عادات الدمشقيين:]

كان سمر الشاميين قبل نصف قرن تقريبا في بيوتهم، تكتفى كل طبقة باجتماعها مع أهل طبقتها، فتتج عن ذلك أن ترى في المدينة الواحدة من مدن الشام الكبيرة تباينا، يكاد يوهم لأول وهلة أنهم من أقاليم مختلفة يتباينون بأزيائهم و مآكلهم و مشاربهم و سمرهم و لهجاتهم، و بالطبع بتصوراتهم و عقليتهم إلى أن ولى الشام مدحت باشا الوالى العثمانى الشهير و وضع أسس الإصلاح العلمى و الاجتماعى و الإدارى، و بدأت النهضة الأديبة عقب ذلك فتعارف الأولاد بالمدرسة أولا، و تقومت ألسنتهم، و اعتادوا التلفظ بالفصحى الصحيح، و فتحت الأندية و المقاهى و دور التمثيل، ثم قاعات الصور المتحركة، و تعارف الناس و قلت الفوارق، و قضى على الأرستقراطية إلا قليلا، و حلت محلها الديمقراطية، فنشأ عن ذلك اعتياد الشباب الراقى المتعلم ارتياد المحال العامة و الاحتكاك بمن مضى وقت تعليمهم، فمرنوا أيضا على التخاطب بالفصحى الصحيح ما أمكن، و عم ذلك جميع الطبقات حتى غير المسلمة و ما نزال نرى ذلك فى تقدم مستمر.

تنقسم حفلات الدمشقيين إلى مدنية و دينية. أما الدينية فتتخصر فيما يلى: عيد الفطر و النحر، و الرجوع من الحج، و الإياب من زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة و السلام، و سنة الختان، و بعض ندور لله يقوم بها من أبل من مرض شديد، و آب من سفر خطر أو بعيد، و عادات القوم فى تلك

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٥

الأعياد إخراج الصدقات و الزكوات و التوسيع على الفقراء، و تكثر الزيارات، و يتصافح القوم عما بينهم من سيئات، و يصلون أرحامهم و يوسعون على عيالهم. و عاداتهم فى ذلك أن يبدأ الأصغر سنا بزيارة الأكبر، و يقدم الأكبر سنا و يحترم فى كل شىء. و منشأ ذلك على ما أعلم الأمية فإن غلبة الأمية على قوم تضطروهم إلى احترام من كان أكثر تجربة منهم، و من مرت عليه السنون، و حلب الدهر أشطره و كثرت تجاربه، كان جديرا بالاحترام. أما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لأتمته، و ليس للسن دخل فى ذلك.

و خير الناس كما قيل أنفعهم للناس.

و يتقدم عيد الفطر شهر رمضان، و للدمشقيين فيه عادات: منها إتمام فريضة الصيام، و الانقطاع عن بعض عادات ضارة، و يقضون نهاره فى سماع المواعظ فى المساجد، و ليله فى زيارات بعضهم بعضا، و ارتياد محال اللهو المباح، و تكثر حركة الأخذ و العطاء و البيع و الشراء، و هو من المواسم المذكورة.

أما حفلات الحج فى هذا العصر، فتتم حين رجوع أحدهم من بعد أداء فريضة الحج بأن يقدم إلى خواص ذوى قرياه و جيرانه و أصدقائه و أحبابه هدية، و تختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالىة، و يبتدى المهنئون بزيارته فى داره، و يقدم له خواص أصدقائه و أقربائه قبل وصوله إلى وطنه هدايا تكون غالبا من اللباس الفاخر، و يكون مثل ذلك بعد رجوع أحدهم من زيارة مسجد الرسول. و تختتم هذه الزيارات غالبا بإقامة حفلة يدعونها مولدا و هى عبارة عن اجتماع يضم أصدقاء المحتفى به و ذوى قرياه و زملاءه و جيرانه فى داره، و يدعون المنشدين و يفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم و ينشدون بعض قصائد فى مديح الرسول يتلون المولد النبوى فيه و تعداد بعض مآثره و نسبه و بعض أرهاصات تقدمت بعثته، و حين مولده، يقصدون من ذلك التبرك.

و مثل ذلك حفلة الختان و من المتعارف فيها أن يهدى إلى صاحب الحفلة أهله و أصدقاءه شيئا كثيرا من السمن و الأرز و الغنم و القهوة، بل من جميع ما يلزم لتلك الحفلة، و يكون ذلك دينا عليه و فاؤه، حين إقامة حفلة مثلها

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٦

عند المهدين. و تختتم هذه الحفلة مثل أخواتها أيضا بتلاوة المولد.

و لم يبرح بعض من لا يعتد بعقولهم يندرون بعض ندور غريبة و هى ما يسمونه بالنوبة يقيمون لها حفلة هى عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين، ممن يضربون على الطار و الطبل، و يلعبون بالشيش، و بعض قطع من السلاح الأبيض و يطفئون بأفواههم النيران

فيجتمع عليهم الأطفال و بعض صغار الأحلام فقط. و هي عادة أصبحت على و شك الزوال.

و من الحفلات الدينية أيضا حفلات تكايا أو زوايا المولوية، و أرباب هذه الطريقة لهم حين إقامة هذه الحفلات لباس خاص و هو ثوب أبيض فضفاض، و يلبسون على رؤوسهم ما يسمونه «كلاها» و هو من اللباد مستطيل الشكل، و يمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها و يدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جدا من حيث الفن الموسيقى.

و هي من حيث نظامها أتقن حفلات الشرق الدينية على الإطلاق، و هي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية.

إذا حضرت أحدهم الوفاة تعلن وفاته إن كان من الأشراف و العلماء و أرباب الظهور في مآذن المدينة، ثم يحضر غسل المتوفى أصدقاؤه و ذوو قرباه. و غسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبى فى هذه الأيام، يثبت بها أن الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضرى غسله، و هم غالبا من محبيه، فيشيع ذلك و يتصل بالحكام، و بعد غسله يشيعون جنازته إلى أحد المساجد و يصلون عليه، و يذهبون به إلى المقبرة و يمشى المؤذنون أمام جنازته يذكرون الله و ذلك إشهارا لموته و إعلانا له. و بعد رجوعهم من المقبرة يذهبون إلى منزل عميد الأسرة يعزونه و يحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، و يسمون ذلك «صباحية»، و يحضر تلك الحفلة أقرباء الراحل و جيرانه و زملاؤه، و يصرفون على الفقراء و المعوزين الدراهم و الطعام بحسب ثروة المتوفى. و هذه العادة كادت تبطل لمعرفة القوم بقيمة الوقت فأخذوا يكتفون بالتعزية فى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٧

بيت آل الفقيد. و عادة عيادة المريض معدودة عندهم من الواجبات يواسونه و يسلمونه و يكررون الاختلاف إليه.

من عاداتهم المدنية أنه متى بلغ الشاب العشرين إلى الثلاثين أن يتولى عميد أسرته إرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت و عمه و خاله و نسيبه و بعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة و أحيائها يبحثون و ينقبن على زوجة لذلك الشاب، و تكون قاعدتهم فى خطبتهم غالبا الكفاءة من جهة الثروة و السن و الآداب. و لا يزلن يوالين بحثهن عاما كاملا على الأقل و متى قرقرارهن على إحدى البنات يكررن التردد إلى دارها مرات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها، يرينها فى زينتها و فى وقت الغسيل و وقت الطبخ و تنظيف المنزل. و عادة الدور التى يكون بها بنات فى سن الزواج و هي عادة من الخامسة عشرة إلى العشرين أن يناط بالبنات تقديم القهوة و الشراب للخاطبات فيتأمل الخاطبات مشيتها و نقل أقدامها و أدبها فى تقديم القهوة فى الإياب و الذهاب و يخاطبها فيرين غنة كلامها و فصاحتها، و متى أصبح الأمر تقريبا واقعا يذهب إلى الحمام معا و يرين جسمها عارية و شعرها و يشممن آذانها و فمها و تحت إبطها و رائحة عرقها و ثيابها، و ينقلن ذلك إلى الخاطب و عميد الأسرة مع وصف شكلها و جمال وجهها و طولها و غير ذلك. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب.

أما وظيفة النساء من جهة الخاطب فيزرن الحى القاطن فيه سرا و يرسلن من يثقن به من أقربائهن و جيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحى باحثات عن أخلاق الخاطب و ثروته و تجارته أو وظيفته، و عن عدد آل بيته و مركز تلك الأسرة فى الهيئة الاجتماعية. و يجرى التقصى عن آداب بيت الخاطب و أصوله و يذهبن بالمخطوبة سرا إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه و إياه فتراه فإذا راق الخاطب فى أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة. و هنا تنتهى مهمة النساء، ثم يتألف شبه وفد من عميد أسرة الخاطب، و البعض من معارف عميد بيت المخطوبة، إلى دار ذلك العميد، و يطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب، بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر فى المجتمع. و يكون الأمر مقضيا على الأغلب

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٨

بعد تلك التمهيدات، و يقررون المهر و يقرأون الفاتحة فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلا على رضى الطرفين. و بعد ثلاثة أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة.

و بعد أسبوع غالباً يحتفل بحفلة العقد يقوم بها الخاطب، فيدعو برقاع مطبوعة على غاية الإتقان أهله و معارفه، معينا وقت الدعوة و يومها، و يرسل إلى عميد أسرة المخطوبة بعدد من تلك الرقاع يتفقون عليه من قبل، فيدعو من أراد من أسرته و أصدقائه. فيجتمع المدعوون في المحل المعين و يجرى على الأغلب افتتاح تلك الحفلة بقراءة المولد، و تدار المرطبات و قراطيس الحلوى على المدعوين، بعد عقد قران الزوجين الشرعي، و ينفض المدعوون، و تنتهي حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر، و بعد شهرين أو ثلاثة غالباً يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد أن يكون أهل العروس أتموا لوازم عروسهم يحملن هدية تختلف بحسب مكانتهن، يسميها «تعيينة» فيعين موعد حفلة العرس و عدد المدعوات من أهل العروس و تكون تلك الحفلة ليلاً في الغالب، و يرسلون بطاقات الدعوة، و ليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات على عدد المدعوات من النساء إلى دار العروس، يأتيين بها من دارها مع المدعوات إلى دار العروس، و تكون هذه على غاية الرواء و البهاء و الزينة، و يدعى عادةً إلى تلك الحفلة المغنيات و المطربات و يقضين تلك الليلة بعد دخول العروس بعمره غرفة خلوتها بالغناء و الرقص و سماع الموسيقى و آلات الطرب، و يمسين على ذلك إلى الصباح، و تعود السيدات المدعوات إلى دورهن و يبقى في بيت العروس بعض الخواص من أهلها، مثل أمها و عمته و خالتها و مربيتها سبعة أيام.

هذه هي الحفلة النسائية أما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فيتقدم أحد وجوه أسرته أو أصدقائه غالباً يعد داره لتلك الحفلة و يسمونها «تليسة» و يدعون إليها جميع أقارب العروس و أصدقائه و أرباب مهنته و جيرانه، في جوقه موسيقية تدير هذه الحفلة نحو ساعتين تطرب الحضور بأنغامها، و متى حان للعروس لبس ثيابه يهزج الشباب عادةً عند إلباسه كل قطعة من ثيابه بأهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر و مصر. يذهب به الحضور عقبى ذلك إلى دار حفلة العروس بالأهازيج، و يدخلونه الدار مع عميد الأسرة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٧٩

فيدخله و يضع يده بيد عرسه و يدخل بهما إلى غرفتهما و يذهب بسلام.

هذه حفلات الزواج و عوائد القوم قديماً، و اليوم قد زيد عليها معانيه صحة الزوجين، و ينظرون إلى الكفاءة العلمية قبل كل شيء مما يبشر الأسرة المقبلة بأعلى درجات السعادة الزوجية، و هذا الشكل في تأسيس الأسرة يعرض عليه المحافظون بالنواجذ، و يؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة، و يرونه أضمن لحفظ السعادة البيئية من جميع أشكال النظم المتبعة في العالم.

و من عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء و أوائل الربيع إلى المتنزهات العامة يوماً في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي، على اختلاف عاداتهم و مذاهبهم، نساء و رجالاً و تكون أماكن جلوس النساء خاصةً بهن غالباً، و لا يتيسر للرجال أن يخالطوهن بحكم العادة، و الشاذ قليل. و من العادات القديمة التي نشأت من الأمية أيضاً سماع القصص في المقاهي و قد تلاشت الآن هذه العادة، و كان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل و القصص، يتصدر القصص «الحكواتي» في صدر المكان و يقرأ لهم غالباً القصص التي يرغبون فيها مثل رواية عنترة و الزير و أبي زيد و هي روايات حماسية، تمثل الشجاعة و الكرم و الأنفة و الحمية و الوفاء و الصدق و المروءة و الجرأة و حفظ الذمام و رعاية الذمار و الجار، إلى آخر ما هنالك من مكارم الأخلاق ينسبون لها أبطال الرواية، و يجعلون نهاية النصر لهم و الدائرة على منائهم، و يصفون الخصوم بالجبن و الكذب و البخل و الرياء و الغدر و الخيانة و النكث بالعهد إلى آخر ما هنالك من مفاسد الأخلاق، مما يربى نفوس السامعين على حب الفضائل و يوجب إليهم العمل بها، و يبغض إليهم النقائص و يحملهم على البعد عنها، و غالب من يجتمعون لسماع تلك الأقاصيص من طبقة العوام، و هم متصفون ببعض تلك الفضائل.

و من ملاحظتهم خيال الظل و العوام يدعونه «قره كوز»، و كان في أول القرن الحاضر من أشد العوامل تأثيراً في تهذيب الأخلاق و تقويمها، بما يلقيه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق على بن حبيب على ألسن تلك الخيالات من المواعظ الأخلاقية، بعبارات ملؤها انتقاد، تفعل في قلب أشد الناس بلادة، و كان يصور في كلامه العادات السيئة المتفشية في عصره، و يظهرها

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٠

في قالب ينفر الناس منها، و يصور ظلم الحكام و أصحاب النفوذ و أغلاطهم، في صور نقد لطيف، و كان يحترمه عليه القوم و يعد أستاذا كبيرا في الموسيقى تخرج به كل من ينتمى لهذا الفن بدمشق.

و من العادات الشائعة تعاطى القهوة و الشاي في المقاهي العامة شتاء، و أنواع المرطبات صيفا، و التدخين بالتبغ و النارجيلة على الدوام، و تكون صورة اجتماعهم حسب طبقاتهم، و يرتادون أماكن سمرهم هذا، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة الأشغال و طلب الراحة. و أحاديثهم غالبا تدور على السياسة و في موضوعات علمية و اجتماعية يمتدحون فلانا لمكرمه أتاها، و يذمون فلانا لتقيصه بدرت منه. ارتقت أحاديثهم في هذا القرن إلى الخوض في هذه الشؤون العامة، و لم تكن في القرن الماضي تتعدى أحاديث البطون و الفروج إلا قليلا. و منهم من يقضى سمره ببعض الألعاب الشائعة كالشطرنج و البليار و الدومينة و الداما و النرد و ألعاب الورق على اختلاف أشكالها و أسمائها.

و قد فشت مؤخرا عادة ارتياد بعض الشباب أماكن الشراب، و موقعها غالبا بين الرياض و الغياض، و على ضفاف الأنهار، و تكون أغلب تلك الاجتماعات متجانسة، فتراهم جماعات متشاكلين حول مناضد الشراب، يجتمع كل أليف إلى أليفه، و تجد جالسا إلى كل منضدة غالبا رجل من أرباب الصوت الحسن ينشد أصحابه الأناشيد الحسان. و منهم من يختلف إلى زمرة من الموسيقيين الفنانين، يصحبون آلاتهم كالعود و الكمنجة و القانون و الدائرة و الناي. و منهم من يقتصر على بعض تلك الآلات. و تجرى غالب الاجتماعات في أماكن خاصة. و أما المحال العامة للشراب فتحوى من كل شيء أحسنه كالمنشدين و المغنين و الآلاتية، و تسمى تلك الأماكن الجنائن، تضم غالبا الماء و الخضرة و الشكل الحسن، و تبتدىء وقت الغروب و تنتهى عند منتصف الليل.

هذا مجمل عادات دمشق و لا تختلف عنها عادات سكان القطر في الشمال و الجنوب و الغرب اختلافا يذكر ما خلا بعض عادات دينية عند الطوائف غير المسلمة، و فيما عدا ذلك فهم متشابهون في أخلاقهم الاجتماعية، و يمتاز سكان هذه الديار من غيرهم في المحافظة على ما ورثوه من بعض أخلاق

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٨١

الفاطحين العرب منذ نيف و ثلاثة عشر قرنا و هي الرزانه و الوقار و الصبر على المصائب، و يلتزمون هذه الرزانه و هذا الوقار في أعمالهم و مجالسهم بل و في بيوتهم و بين ذويهم و مجالس سمرهم و شرابهم و أنسهم، و يكرهون من يتصف بالطيش و الرعونه و الشكوى الصريحة و يتجنبون مجالسته، و لكل عادة من هذه العادات شذوذ و هي قليلة.

عادات الحلبين :

للحلبين المسلمين عادات يستعملونها في أفراحهم و أتراحهم نذكر منها شيئا يحفظه التاريخ إلى ما بعد أن يجتاحه تطور الزمن فيبقى ذكره من مستغرب الأخبار و رائع الآثار فنقول:

مما يستعملونه في قضية الولادة أن الطفل متى تمخضت به أمه و ولدته تلمسه القابلة فإن كان غلاما صلت على محمد و إن كان جارية ترضت عن فاطمة الزهراء ثم يقدم إلى أحد أقاربه فيؤذن في أذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه و يطبخ لأمه حلوى بالشونيز و الجوز لتكثير لبنها و تقتصر بالشرب على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة أسبوع و يرسل أحد أصدقاء الأسرة مائدة كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلايبه معها أبا ليج السكر، و يولم أهل المولود في اليوم السابع و ليمه حافلة بين أطعمتها حلوى قوامها الدبس و الشمره تعرف باسم «المغلى» و قد يحضر في ليلة تلك الوليمه قيان للنساء و مطربون للرجال، و كل صديق لأبوى المولود يقدم هديه بعضها مأكول و بعضها مما يتحلى به و منها مسكوكات ذهبية قديمه تعلق في قلنسوة الطفل و اسم ذلك «تهنايه» و بعد مضي أربعين يوما على الولادة تؤخذ النفساء إلى الحمام مع أتربها من النساء و يكبس بدنها «بالشود» و هو المردقوش و الخزامى المغربية. و إذا شعرت أم الطفل بمغص في بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن و تعصر لفاظتها في فمه فيسكن مغصه و تدهن

مراقه بالزيت و تذر عليه مسحوق ورق المرسين، و متى بدأت أسنانه بالخروج تسلق له شيئاً من

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٨٢

الحنطة تدوفه بالسكر و لب الجوز و اللوز و الفستق و تطعمه منه و تفرق باقيه على الأهل و الجيران.

متى بلغ الطفل الخامسة من عمره يرسل إلى المكتب أو إلى الشيخة أو المعلمة إذا كان جاريةً و متى ختم تعلم القرآن العظيم تعمل له حفلة تسمى «نشيدة» يحضر فيها إلى منزل الغلام جماعة الشداء و المطربين و دراويش الطريقة المولوية و بعد أن تقام نوبة سماح يطاف بالغلام و رفقائه بعض شوارع البلدة و هم ينشدون أزجالاً في المدائح النبوية ماشياً وراء الغلام حامل المبخرة و رجل آخر ينثر الشعير على رؤوس الناس دفعا لإصابة عيون العين ثم يعود هذا الموكب إلى منزل الغلام و تبسط له الموائد فيأكل و ينصرف و يملأ جيب كل ولد فستقا و زيبيا مضافا إليهما شيء من النقود. و قد يختن الولد في هذا اليوم إذا لم يكن ختن من قبل. و اعتاد كثير من الناس ختن أولادهم في اليوم السابع من ولادتهم كما اعتادوا ثقب شحمة أذن الأثني فيه. و قد يفرد لختان الغلام حفلة يدعى إليها الأحباب و الأصحاب و يولم لهم ثم يزين الغلام بالحلى و الحلل و يركب على برذون مزين و يركب وراءه رديف يقال له العريف، و يطاف به في الشوارع يتقدمه أحد مشايخ الطرق راكبا على برذون مجلل بسجادة الإرشاد مككلا رأسه بطيلسان أحمر في يده عقافة يشير بها إلى جماعته و هم سائرون أمامه يحملون أعلام طريقتهم و يضربون طولهم، و بعد أن ينتهوا من تطوافهم يعودون إلى منزل الغلام و تتلى قصة المولد النبوي و في ختامها يختن الولد. و قد يرافق هذا الموكب طائفة من الدارعين و لابسى الجواشن و الخوذ في أيديهم السيوف و التراس يقفون في فسحات الطرق و يلعبون بعضهم مع بعض بسيوفهم و قد سار وراء جموعهم رجل يقود جملا على ظهره منصة مهندمة يقوم رجل يرتدى كسوة نساء عرب البادية يقال له «عبله» قد أمسك بيديه صنوجا يرقص بها حتى يصل إلى دار المختون و هذا الموكب يسمى «عراضة».

للغلام في أول يوم يصومه من رمضان طبق يملأ بأنواع الحلوى يفطر عليه. و إذا بلغ الغلام مبلغ الرجال و تاق للزواج تأخذ أمه و ذوات قرابته يلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها على أذواقهن. و الأغنياء يغالون بالمهور

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٨٣

و ربما بلغت جملة المهر ألف ذهب عثمانى و زياده، و المهر عند الفقراء لآحد لأقله و المعجل منه ثلثاه و المؤجل الثلث الباقي. و الزوجة الغنية تضيف إلى المهر من مال أبيها قدره و ربما زادت و تصرف الجميع على شراء أثاث المنزل.

و عقد الزواج يكون في بيت الزوجة باحتفال فائق يحضره المطربون و يطاف على الحاضرين بكؤوس المرطبات و أنواع الحلوى المجففة. و بعد أن يتم العقد بأيام ينقل الجهاز الذى أعدته الزوجة إلى بيت الزوج بموكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين و لاعبو السيوف و العصى، و شداء الأزجال، و يسبق ليلة القران ليال يسمونها «التعاليل» يحضر فيها المطربون و الموسيقيون و تحرق الألعاب النارية، و قبل ليلة القران بليتين يدعو أهل الزوجة أقاربهم و يفرق عليهم الحناء و نقوشها فينلن منها على أيديهن ما تناله منها العروس على يديها و رجليها و معصمها و تعرف تلك الليلة بليلة النقش. ثم في صبيحة اليوم الذى يكون القران في مسائه تقام وليمة العرس و تكون الدعوى إليها جفلى يجلس على سماطها من أحب. و في هذا اليوم يأخذ أهل الزوج الزوجة من بيت أهلها فيركب العربات المزدانة و يأتين بها إلى بيت زوجها و كن قبل ظهور العربات يأتين بها إلى بيت زوجها ماشيات على أقدامهن يزغردن و لا يمرن بها على باب حمام زعما بأن جنه يخطفها. و أصل هذا ما كان يفعله الانكشارية من اختطاف العرائس اللواتى يمرن على حمامهن فكانوا لا يطلقون سراح العروس إلا بعد أن يأخذوا شيئاً من حليها أو نقوداً من زوجها.

في مساء هذا اليوم يأخذ الزوج زينته في منزل أحد أصدقائه و يحضر إلى منزله بموكب حافل من المطربين و الموسيقيين و هو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما سخاديج واحدما سخدوج. قد حملت أمامه مصابيح ضخمة على عتلات في مقدمتهم شداء يترنمون بمواليات كلما أتم أحدهم مواليه يهتف الجمع بقولهم: «الله يساور جوز جوز جيز» تحريف «الله يصور الزوج زوج جهاز». و

قد تقدم صف الزوج صفوف المطربين و أصحاب الأزجال الحماسية و حملة المشاعل و محرقو الألعاب النارية و المدرعون و اللاعبون بالسيوف ألعاب الفروسية إلى أن يصل هذا الموكب منزل الزوج فيدخله و تتلقاه عرسه و يضع يدها في يده أقرب إنسان إليه و يدخلان الغرفة المعدة لهما

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٤

و يفتح على رأسيهما طيلسان وردى اللون. و في صبيحة تلك الليلة يدخل الزوج الحمام و معه الجم الغفير من الخلان و الإخوان، و بعد خروجه منه يعمل له أصدقاؤه الولائم على عدة أيام و هي المسماة بالصباحيات. و في اليوم الخامس عشر يولم الزوج لأهل زوجته و ليممة شيقه تسمى عزيمة الخامس عشر.

و مما يستغرب من عادات بعض الأهلين من قطان أطراف حلب أنهم يفرشون ليلة القران في غرفة العروسين قטיפه يجعلون رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة صدر الغرفة، فإذا وجد الزوج الوردية زرا غير باسم الثغر حول القטיפه أى جعل رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة عتبة البيت و إلا أبقاها على حالها، و فى الغد يقوم الخصام سرا فإذا لم يقع التراضى بين الطرفين فإنهما يعلنان القضية و تعلق الضوضاء و تشتد الضجة و يفتضح الحال.

و مما يستعمله الحلبيون المسلمون فى أتراحهم من العادات هو أن بعض سكان أطراف البلدة يحضر حين وفاة رجالهم الأعراء عليهم- نائحات بدويات ينثرن على رؤوسهن الحناء و يشددن فى أوساطهن المآزر و يخدمن خدودهن و يسودن وجوههن بسخام القدر، و حين خروج النعش من الدار يضربن جبهة بابها بإناء خزفى زاعمة أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله، و نعش الميت يسرون به و هم يجهرن بكلمة التوحيد، و قد يكون فى مقدمته من يؤذن أذان الجوق و ينشد بعض المدائح النبوية، و قد يمشى أمام النعش جماعة الدراويش المولوية. و إذا كان الميت من مشايخ الطريق يتقدم جماعته و يحملون نعشه و يتجادبونه و يتماسكون به كأنه يحاول الطيران و هم يمنعون عنه و ينادونه باسمه و يضرعون إليه بأن يعدل عن الطيران، و حملة أعلام الطريقة يفعلون بأعلامهم فعل حملة النعش به فيركضون بها إيهاما بأنها تجرهم و تحاول أن تطير بهم إلى غير ذلك من الحركات التى ينكرها الشرع. إذا وصل النعش إلى القبر حطوه إلى الأرض و أخرجوا الميت منه و لحدوه، و من الناس من يودع فى نقره من جدار القبر قنينه فيها شىء من زيت الزيتون قصد تعتيقه لينتفع به بعد من يكون مصابا بالريح فيطلى منه بدنه فيبرأ.

فى الليالى الثلاث الأولى من الوفاة يجتمع فى مسجد الحى بين العشائين

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٥

نفر من الرجال و الأطفال يكررون كلمة التوحيد و فى أيديهم سبحة كبيرة ينتظم فى سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها فى حجم الجوزة. فإذا دارت دورا سكتوا و تلا إمام المسجد شيئا من القرآن. ثم تدور دورا آخر فى ختامه ينتهى الذكر و يفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة. فى صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع الجم الغفير على القبر و تمد البسط على أطرافه و توضع عليه قمام ماء الورد و تنثر فوقه الزهور و يفرق على الحاضرين أجزاء الربعات و بعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة و يذكرون الله تعالى و يفرق على الفقراء شىء من النقود و يعزى الناس أهل الميت و هم فى المقبرة. و هذا اليوم يسمى الثالث و فيه و فى كل من اليوم السابع و اليوم الأربعين و اليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء إلى بيت الميت يتلون القرآن العظيم فى نهارهم، و فى المساء تبسط الموائد و يفتح باب الدار للفقراء فى كلون و يزودون.

و مما اعتاده الحلبيون فى أول يوم من المحرم أن يكون فطورهم من طعام حلو، و أن يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشىء من البرغل يقال لهم «فاز من صلى» سموا بلازمة زجل ينشدونه على الأبواب و هو «فاز من صلى على تاج العلى طه النبى المصطفى جد الحسين» و بعض الناس يسمونهم الحسينية. و هذه العادة موروثه عن الطوائف العلوية التى كانت تقطن حلب. و فى يوم عاشوراء يوسع الناس على عيالهم بالمطاعم و يطبخون طعام الحبوب الذى يشير إليه ابن منير الطرابلسى الشاعر بقوله:

«و سهرت في طبخ الجبوب من العشاء إلى السحر»

و في يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالى و من دونه و ينشد أحد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين التي مطلعها «هلّ المحرم فاستهل مكبراً». و تعطل الحكومة أيضا في آخر أربعمائة من صفر و في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول و تحتفل بتلاوة قصة المولد النبوى في الجامع الكبير، و يستمر الناس على تلاوة هذه القصة ليلا و نهارا إلى آخر هذا الشهر، و يولمون من أجلها الولائم العظيمة.

و تعطل أيضا في اليوم السابع و العشرين من رجب و تحتفل بقراءة قصة المعراج

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٦

في المشهد المذكور. و يجتمع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد بين العشائين و يقرأون سورة يس ثلاث مرات و يلقنهم الإمام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب نزهة المجالس و غيرها من الكتب، و تهجر المعاصى في شهر رمضان و يكثر ترداد الناس على الجوامع و المساجد و يقبلون على تلاوة القرآن و منهم من يقصد المقاهى ليلا للتفرج على المشعوذين و المتصارعين.

و يخرج قرب السحر طبال يوقظ الناس للسحور و يعقبه شدة المدائح النبوية في منارات الجوامع. و بعد صلاة العيد يخرج الناس إلى المقابر لزيارة موتاهم، و كان يخرج قبل العيد بيومين رجل سخرة معه حمار مدرع بالودع و الخرز و الأجراس يستجدى الناس بالرقص و يضحكهم بحركات حماره يقال له جحش العيد. و كان يخرج في أيام العيد ولدان قد صبغوا أجسامهم بالسواد و على رؤوسهم الطراير يستدرون إحسان الناس بالرقص و القفز و يقال لهم «بيضة بيضة»، و بعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز أهبتهم و يسافرون لأداء فريضة الحج و يحتفل أحبابهم بوداعهم. و في عيد النحر يقبل الناس على الضحايا.

و في تاسع آذار الرومى الشرقى يخرجون صباحا إلى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا التي تهب في ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين. و يكثر خروج الناس في أوائل أيام الربيع إلى جبل الجوشن و ما قرب منه فإذا نور الشجر و أوراق يترددون على البساتين. و في شهر نيسان يحتكرون مؤوناتهم من السمن و الجبن و الفحم. و كان النساء في يومى أربعمائة الزوبعة و خميس البيض (و يكونان قبل يوم الأحد و هو أول يوم من عيد الفصح) يخرجن إلى البساتين و يمضين فيها سحابة يومين و يفعلن مثل ذلك في يوم الاثنين الذى يلي عيد الفصح، و يزعمن أن من لم يخرج إلى النزهة في هذه الأيام لا يأمن الصداع و وجع الرأس، إلى غير ذلك من العادات التي بعضها مستحسن و بعضها مستهجن مما هو مذكور في كتاب نهر الذهب مسهبا مفصلا.

و أما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات فى أفراحهم و أتراحهم فمنها أن مرید الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة فى مجامع الناس و حين خروجهن من الصلاة فتمتى أعجبتة أنثى سعى بإعلامها أنه يرغب أن تكون له زوجة و هذه هى الخطبة الأولى. ثم يسعى بالخطبة الثانية و هى أن يرسل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٧

أحد أوليائه مع كاهن طائفته إلى ولى مخطوبته فيعلمه أن موليها يرغب أن تكون موليته زوجة له فإذا أجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل، و بعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله هل رضيت أن يكون فلان زوجا لك فتطأى رأسها بالإيجاب و حينئذ يقدم لها قطعة من الحلوى مرسله من زوجها و بعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته. و طالما نهى الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيم سدى. و بعد مدة يرسل الكاهن إلى أهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة و ليقدم هدية الخاطب إلى مخطوبته. و هذا العمل يسمى المشورة و قد ينكث أهل المخطوبة و يفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجج على أهل المخطوبة و يغرمهم ما أنفقه الخاطب فى مدة الخطبة. أما إذا لم يفسخ عقد الخطبة فإن رقاغ الدعوة ترسل بتوقيع الوليين إلى المدعوين لحضور حفلة الإكليل، فيقبل المدعوون إلى بيت الخاطب فى اليوم المعين ثم يتوجهون إلى بيت المخطوبة فيضعون عليها خمارها و أزهارها و تكون جميع ثيابها بيضاء و يأتون بها فى وقت العتمة إلى بيت خاطبها و هى تسير الهوينى بين امرأتين على

شاكلتها و أمامها المصاييح و جماعة الموسيقى، حتى إذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها و دخل بها إلى منزله و انتظم عقد المدعويين، ثم يقف العروسان بين يدي مطران الطائفة و من معه من الكهنة و هم متحلون بملابسهم الكنائسية و يشرع المطران يترنم بآيات من الإنجيل مخصصة بعقد الزواج و يجرى بين العروسين الإيجاب و القبول و يلقي عليهما النصائح و يأمرهما بالتحابب و الطاعة أحدهما للآخر و يستغرق ذلك نحو ساعة من الزمن. و في الختام يرفيهما هو و الحاضرون ثم تعزف آلات الطرب و تدور أقداح الراح فيرقصون و يمرحون إلى الهزيع الأول من الليل، فيقدم للحاضرين سفرة «الدخلة» و هي قطع من لحم الدجاج الهندي و الهضم المحمضة المعروفة بالمخللات و الخبز الحواري و غير ذلك و بعد أن يتم الحاضرون أكلهم يعودون إلى السماع و الطرب. ثم في منتصف الليل يقوم بعض الأدباء و يهنئ العروسين بقصيدة، و في الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندي «الشوكولاتة» مع بعض الحلوى و اللحوم المقددة ثم يتحلق الحاضرون حلقا و يجلون العروسين بالرقص العربي و الكردي ثم ينصرفون.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٨

و في هذه الصبيحة يهدى أحد أبوي الزوج إلى الزوجة قطعة من الحلوى تسمى الصبيحة و في اليوم الرابع يحضر المدعوون إلى منزل الزوج لتهنئة العروسين، ثم في اليوم الثامن يزور العروسان أصحابهما فيحيون لهما ليلة طرب، ثم في اليوم الثاني عشر يولم الزوج إلى كهنة الطائفة و بعد شهر يطوف العروسان منازل الألي كانوا مدعويين ليلة القران و يردان إليهم الزيارة. المهر يدفع من الزوجة إلى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين و لا حد لأكثره إذا كانت الزوجة غنية و الرغبة منها في الزوج فوق رغبته بها و هو يسمى «دوطه» و بعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة «بائنة» و إذا كانت رغبة الزوجين في الزواج متساوية فليس هناك دوطه إنما كل واحد من الزوجين يهدى الآخر قطعة من الحلوى قيمتها تناسب ثروته.

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرجين شهرا من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان في موضع نزه جميل يطلقان فيه حريتهما، كأن العروسين يمضيان هذا الشهر في وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل بل القيد الأبدى الذي لا يحل وثاقه إلا بالموت: عادة أخذها الغربيون عن الأمم الوثنية القديمة كأنها رمز إلى سرعة انقضاء راحة الإنسان بالزواج و طول عنائه بعده، ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحهما بعد الاقتران سوى أيام قلائل حتى يدخل في العريض الطويل من تكاليف الحياة و أوصابها التي لا تنفد إلا بنفاد العمر. فما أشبه الحياة و ما فيها من الراحة و التعب بإناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل، و كأن الإنسان لا يضطر إلى استعمال ما في هذا الإناء اضطرارا حقيقيا إلا بعد أن يتزوج فكأن مقدار ما يناله حينئذ من الراحة و ما يعقبها من التعب كمقدار ما في ذلك الإناء من الصبر و العسل فلا يلحق من العسل غير القليل حتى ينفد و يظهر تحته الصبر، فيجرعه مكرها ضرورة عدم إمكان الحياة إلا به و هذا مصداق قول الناس في الزواج «فرح شهر و ترح دهر».

و مما يستعمله النصارى في أتراحهم أنه متى احتضر المريض يحضر إليه كاهنه و يستأديه واجباته الدينية، و بعد أن يقضى نجه يتربصون بدفنه مدة أربع و عشرين ساعة يضعونه في خلالها في صندوق من الصفيح، و في هذه البرهة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٨٩

يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالجنائز، ثم في الوقت المعين يضعون الصندوق في نعش مزدان بالأيقونات و أكاليل الزهر فيحمل إلى البيعة ليصلى عليه، ثم يحمل إلى المقبرة و أمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل و وراءهم عظماء الطائفة و تلامذة المكاتب و حملة الصلبان و الشموع، و قد اكتنف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود، و حينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم و يتقدم أحد الأدباء فيرثيه نظما أو نثرا ثم يوارونه في لحده، و يصطف أهل المتوفى للتعزية و يمر عليهم المشيعون لجنائزته لتعزيتهم و في مقدمتهم المطران و لفيف الكهنة. و لبعض الأسر الغنية ديماس تحت الأرض مختص بدفن موتاهم يقال له خشخاشة يودعون فيه النعش دون أن يهيلوا التراب عليه، و قد يكون هذا الديماس

بناية تشبه البيت مبنية على وجه الأرض.

في اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة في البيعة يسمونها جنازا يسرجون فيها من المصابيح قدر ما يقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت و بين كهنة طائفته، و هذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع و في يوم الأربعين و في نصف السنة و تمام السنة. و حداد الولد على أبويه ثلاث سنين و الأخ على أخيه و الزوجين أحدهما على الآخر و الأبوين على ابنيهما ستان.

و مما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات في أفراحهم و أتراحهم أن يختنوا الطفل بعد يومين من ولادته، و إذا كان من سبط إسرائيل و كان بكر أبويه و جب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هرون يضع الطفل في حجره و يقول لأبيه: هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة. و متى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه أبواه كل سنة إلى وليمة قدوس أي زفاف يطعمانه من طعام (السيعوداه)، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، و إذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» و هو صدره تربط أطرافها الأربعة بفتائل من الغزل و يشد على رأسه و عضده الأيسر «تيفلين» و هو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر و الإصحاح الأول خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٩٠

من سفر الوصايا، و حينئذ يعتبر رجلا متمما صلاة الجماعة التي لا تتم إلا بعشرة رجال و يرث سهمين من تركه أبيه. و إذا بلغ الثامنة عشرة و جب عليه الزواج فيباشر الخطبة و متى انتقى مخطوبة يكتب بينهما قنيان أي عهد يسمونه شيطارا يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين و يذكران ما اتفقا عليه من الشروط، ثم في اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كتبة) فيها يكون تسلم الزوج الأمتعة و النقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه، و بعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم «قدوس» فيحضر المدعوون و تعزف آلات الطرب و تدار كؤوس ابنة العنب من وقت العصر إلى وقت الغروب، ثم يقوم رؤساء الدين و يجرون العقد بين العروسين و يقرأ أحدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الأول متقابلين و مدة قراءة الثاني متحاذيين، و يفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها «طليطة» أي طيلسان. و في هذه الساعة يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه و يشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لأحد الطرفين، و حين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله (هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشى و إسرائيل) أي أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى و إسرائيل. ثم يتقدم الحاخام الكبير و بيده كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية و يشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر، و بعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما فإذا التقى آدم مع حواء في تلك الليلة و جب عليه أن يمسك عنها مدة خمسة عشر يوما، و أن ينظف أي ينغمس في حوض خصوصي، و على الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين و يولم لهم، و على رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما يبارك على كأس الخمر يوم الزفاف.

و مما يستعملونه في أتراحهم أن المريض متى احتضر جلس عند رجله رجلان يذكرانه بقولهما (شيماع إسرائيل أدوناي ايلو هينو أدوناي احاد) أي اسمع يا إسرائيل الديان إلهنا الديان واحد. فإذا قضى نجبه وضعوه على

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٩١

«اللوحات» أي المغتسل و غسلوه بالماء الفاتر و أدرجوه في ثوب من الكتان يعيونه بالتقريض و الخروق كيلا يطعم به نباشو القبور، ثم يضعون جثة الميت في «الأورت» أي النعش و يحضر أحد أقربائه و يقرأ عليه قداشا أي يصلى عليه صلاة الميت، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص و على كل من مرت به الجنازة أن يمشى معها أربعة أذرع أو أكثر و يطلب من الميت السماح، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيسة قرأ عليه أحد أقربائه قديشا آخر ثم يحملونه إلى مدفنه و يوارونه في ترابه و يقوم أحد الحاضرين و يبارك عليه بقوله: (باروخ ديان ها ايميت) أي تبارك من شرع الحق: ثم يقرأ ولده قديشا ثالثا و يعود هو و من معه من الأقارب و الأصحاب إلى بيت الميت، و في أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه و يقول: (عينينو لو رأو و يادينو لو شافينو بيدام هذه) أي عيوننا ما

رأت و أيدينا ما سفكت هذا الدم. فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له و خرق ثوبه من زيقة و هو يقول: (باروخ ديان ها ايميت) ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين و يبارك لهم بقوله: (باروخ ميناخيم ابيليم) أي تبارك الذي يسلي الحزين. و على ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا- يعلن فيها علا مطلقا و يسمونها «التآيل» أي الحداد. و في اليوم السابع يصنع طعام للفقراء و هكذا في اليوم الثلاثين و بمرور تسعة أشهر و مرور السنة اه.

عادات لبنان و أخلاقه:

كانت عادات لبنان إلى أواخر القرن الماضي، قبل أن يبدأ أهله بالهجرة إلى أميركا، كعادات معظم جبال الشام، تغلب عليها السذاجة و الفطرة السليمة، و في أهله مضاء و وفاء و إباء. يقل الكرم و يكثر الحرص في أهل القسم الشمالي منه و هم الموارنة و الروم، و كان العكس في حال أهل القسم الجنوبي و هم الدرروز و السنة و الشيعة و النصارى الذين كانوا من أصول عربية، فإن أخلاقهم ظلت عربية بحتة، و لهم في باب الكرم و حفظ العهد فصول.

و قد يكون الشماليون ألبن عريكة و أقرب إلى السكون في الأحايين. و الجنوبيون

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٢

أشد بأسا و أقوى شكيمة. و دخل تبدل كبير في العادات بانتشار المدارس الأجنبية في الجبل منذ نيف و ستين سنة، و استبدلت العادات الإفرنجية ببعض العادات الوطنية إلا قليلا. و حمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم، فأصبحت عادات الجبلين مزيجا من الغربية و الشرقية.

و يكثر التقليد في سكان الشمال أكثر منه في سكان الجنوب. و هناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرود الشمالية و الجنوبية.

كان اللبنانيون من أول من نفخ في ديارهم بوق الهجرة إلى أميركا، و لبوا دعوتها سراعاً قبل غيرهم من الشاميين، لأن حاصلات أرضهم قليلة لا تكفى لعولهم. و كانوا من قبل مولعين بمواطنهم، لا يحبون أن ينتقلوا و لو في أرجاء هذا القطر، و كان من يسافر من إحدى قرى الجبل إلى دمشق يضرب به المثل في بعد الهمة و كثرة الشجاعة. و كثيرا ما كانوا يتغنون بقولهم:

جوزك يا مليحة راح عالشام وحده

و كان أقصى ما يبلغه تصورهم من البعد «أنطاكية» شمالى الشام و «دنقلة» فى السودان، و يقال إلى اليوم «أوصلك إلى دنقلة». و كان إذا نشط أحدهم للسفر إلى مصر أو الاستانة، يعد كمن وصل إلى المريخ، يقصدونه من القاصية لسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته. فلما بدأوا بالهجرة و كثر عديدهم، و استسهلوا ركوب المخاطر فى بلاد المهجر، و نجحوا و ارتاشوا، تبدلت عقليتهم بعض الشىء، و هم كأكثر من يهاجرون فى طلب الرزق يعتمدون على أنفسهم و مضائهم و تضامنهم، لا- علم يحميهم و لا دولة يهملها أمرهم. حملوا فى جنوبهم عزما و حزما، و حملوا أيضا روح التحزب و الفرقة الذى امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم. و كان المتعلمون منهم فى هذه السبيل أشد مراسا من العوام. و لما كان العائدون من طبقة الفلاحين و العاملين إلى قراهم من ديار المهجر، أكثر من الراجعين من أصحاب المعامل و المزارع و التجارات، و بعبارة ثانية أن عدد الراجعين الأميين كان أوفر من عدد الآيين من المتعلمين و المغتنيين - أصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم، و هو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم.

و قصارى ما يقال فى هذا الباب أن أهل لبنان أخذوا مدنية الغرب من

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٣

مدارسه هنا و بالاختلاط بأهله وراء البحار بلا قيد و لا شرط، على حين كان غيرهم و لا يزالون يأخذونها ببعض الحذر و الحيطة. و

لبنان منذ عهد متناول كانت علاقته بالغرب أكثر من غيره من أهل هذه الديار. و الروح اللاتيني ترفرف عليه. يحمله إلى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية وغيرهم من دعاة النصرانية والاستعمار. و لو مكنت طبيعة الجبل من إنشاء مدن كبرى فيه، لظهرت هذه الفروق على جليتها في أهله، كما تتجلى مثلا في أهل المدن الداخلية.

لم يبرح الدرروز يعدون في المحافظين على عاداتهم القديمة وأخلاقهم العربية من إباء و وفاء و حسن عشرة و كرم و حسن وفادة، يعظمون رؤساءهم و لو كانوا في سن صغيرة جدا. و الدرروز، ما خلا الطبقة المتعدنة منهم التي تلبس السراويل و المعاطف و السترات و الأقمصة الإفرنجية على الأساليب الغربية، ما زال جمهورهم يلبس لباسا واحدا في جميع البلاد التي ينزلونها: عمائم بيضاء و قفاطين من الأقمشة الغليظة القطنية و أعبئة قصيرة مخططة و أحذية بلدية ساذجة. كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الأرض، و نساؤهم محجبات قليلا. يسبلن على رؤوسهن شاشا أبيض فإذا رأين غريبا أظهرن إحدى عينيهن فقط أي إن حجابهن الحجاب الشرعي.

كان أهل لبنان قبل حادثه سنة (١٨٦٠) يقسمون إلى خاصة و عامة، فالخاصة هم الأمراء و المقدمون و المشايخ. و المشايخ على ثلاث طبقات، مشايخ الإقطاع، و المشايخ الذين يدلون إلى مشايخ الإقطاع بنسب، و كانوا يعرفون بمشايخ الطبق، ثم مشايخ الطبقة الثالثة. و تختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور، و كلامنا هذا يتناول الأخيرة منها التي ثبتت إلى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلي بعد حادثه الستين. و لهم عادات راسخة في خطابهم و كتابهم و مجالسهم و أفراحهم و أتراحهم، أمست عندهم بمثابة القواعد العامة، و تختلف عن مجموع ما هو من نوعها في سائر الأقطار، و السر في ذلك أن لبنان مدين بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليك و العثمانيين لأمراء كانوا يتولون جباية الجبل على سبيل الإقطاع مقابل مال يؤدونه، و هم ينصرفون إلى توظيف طبقات الناس، و تصنيف أهلها على

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٩٤

ما يرون. و مما أثبت هذه الأصول بين أشراف لبنان أن الأرستوقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر أو غيره. و يغلب على الظن أنهم جمعوا في عاداتهم بين العادات العربية، و شيء من العادات الغربية اكتسبوها في مخالطتهم الصليبيين. و في الحق أن لبنان القديم و ليد أمراءه من المعنيين و التنوخيين و الشهابيين و اللمعيين و الأرسلايين و آل علم الدين. و قد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية و العمادية و النكدي و التلاحقة و الملكية و بنو العيد، و في المسيحيين آل الخازن و الدحداح و الضاهر و حبيش و غيرهم. و أخذت تحتفظ كل طبقة بأصولها و عاداتها، لا يباح لأهل طبقة أن يتزوجوا من أهل طبقة أخرى، و لا أن يختلطوا بهم الاختلاط اللازم. و كان الجلال و الوقار يغلبان على أهل كل طبقة. و يعدون من أسباب السقوط أن يسف ابن أسرة من أسر الأمراء أو المقدمين أو المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته، و لذلك غلب ضعف الأجسام على بعض هذه الطبقات، و تأصلت فيها بالوراثة الأمراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة في الزواج.

و كانت لهم عادات نشأهم عليها حكاهم في السلام و الجلوس و الخطاب.

و هم يغالون في الحرص على كرامتهم، و يعد أكبر أعيانهم من الشرف أن يكتب إليه الحاكم و يلقيه بالأخ العزيز و يوقع له بالمحب المخلص. و يكتب الأمير إلى الطبقة الثانية من الشعب و هي طبقة المشايخ «عزيزنا» أو «أعز المحبين» أو «حضره عزيزنا» أو «جناب» بدل «حضره». و إذا كان طبق الورق صغيرا أو كبيرا، أو كان توقيع الحاكم في أسفل الكتابة أو في أعلاه فإن لكل ذلك معاني عندهم. و الغالب أن القوم كانوا لقله أشغالهم يتسلون بمثل هذه التافهات، و يضعون لها قواعد من عند أنفسهم، و يتنافسون في رضا الحاكم و الوصول إلى مجلسه و تقبيل يده و ثوبه، تأصل هذا الداء فيهم إلى العصر الأخير، فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره أهل بيته خلفا عن سلف و عدوه في مفاخرهم. و قد كثر فيهم حب الظهور حتى إن المرء ليبيع بستانه و داره و يبذل ماله لينال عملا صغيرا في الحكومة أو ليكتسى الحرير هو و عياله و يتعاطم على أهل قريته. و منهم من ابتعدوا

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٥

عن مواطن الشرف ليتزلفوا إلى من اعتقدوا أن في أيديهم إسعادهم. وكم من بيوت خربت بسبب هذا التمجيد بالباطل و التقرب من أصحاب السلطان بفساد الأخلاق.

و كانوا إلى عهد قريب يقدمون الرجال على النساء في إعطاء القهوة أو الخمر، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة، و لا يزال أثر ذلك ظاهرا في الطوائف الإسلامية. فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شيء تقريبا في بيته، و الحكم لامرأته تصرفه على هواها، خصوصا إذا كانت أكثر تعليما منه، أو كانت أسرتها أغنى من أسرته و جاءت به بيئته أو جهاز. و هذه الأخلاق ماثلة في بيروت و في بعض الأقاليم المكتظة بالسكان.

و يحترم الأولاد آباءهم كما كان ذلك في سائر أرجاء القطر، على صورة فيها التشدد الزائد، حتى إن الولد لا يكاد يجالس أباه و لا يقعد أمامه، و لا يؤاكلة و لا يدخن أمامه و لا يرفع صوته، و لو تزوج و أولد، و لا سيما في البيوت التي احتفظت بتقاليدها. و كانت العادة أن لا يتفرق أهل البيت الواحد مهما كثر أفرادها، يسكنون في دار واحدة، و إذا كانت الأسرة فقيرة ففي غرفة واحدة. و كثيرا ما يخصون الولد الأكبر في الإرث بشيء من العقار أو الأرض أو المال، يؤثرونه به على إخوته، لاحتياجه إلى الظهور و حفظ كرامة البيت و قبول الضيفان، و الغالب أنهم يحرمون الابنة أرث أبيها، لثلا تنتقل الثروة إلى أسرة أخرى، شأن كثيرين من المنحطين، بل شأن من يعدون أنفسهم في الراقين أيضا.

كان اللبناني يتزوج في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره و لا سيما في الطوائف الإسلامية، و المسيحيون قد يتأخرون إلى الثلاثين و بعضهم إلى الأربعين، و قد يخطف العروس عروسه في بعض الطبقات، إذا كانت من طبقه غير طبقته، و تظاهر أهلها بأنهم يأبون زواجه، أو لعداء بين أهل الخاطب و المخطوبة، أو لعدم الكفاءة في النسب أو المال، و كانوا يحبون كثرة النسل بخلاف ما نراهم اليوم بعد الهجرة، فإنهم أصبحوا على مثال الأمم التي تريد تقليل الذرية في البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر. و كانوا يعدون كثرة العيال من اليسر و البركة، و يقلقون لمن يتأخر حملها من نساءهم، و يشرعون

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٦

بمداواتها أو وضع التعاويد المصطلح عليها بينهم، و يندرون النذور إن رزقت ولدا، يقدمونها إلى قديسيهم و أوليائهم. و لهم كغيرهم خرافات كثيرة منها تخويف الأولاد في صغرهم بخيالات، فينشأ الولد عند بعض المسيحيين جبانا، و الدرروز يلقنون أولادهم الشجاعة و الفروسية فيأتون شجعانا أقوياء.

و لذلك كان الدرروز منذ القديم في هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم. و قد زاد هذا الجبن كثيرا بعد انتشار التعليم و معرفة قدر الحياة، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن، و نزعت الأخلاق الحربية إلا من الدرروز، و أصبح القوم يؤثرون الراحة و يتطلبونها حيثما وجدوها، و يزهدون في سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها، و تمجيدهم لهوائها و مائها و مناظرها و هنائها. و ربما كان أهل لبنان من أكثر الشاميين اقتدارا على الإعلان عن أرضهم، و الإعجاب بجبلهم، و التبجح بثروتهم و أثاث بيوتهم، و تمجيد رؤسائهم و علمائهم و أدبائهم. و هذا مما ساعد على إعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبناني من المال إلى أرضه، و سمت الهمم بأهله أن يعمره هذا العمران الواسع بالنسبة إلى البقاع الأخرى، لو لا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطا وفاقه.

تسربت العادات الغربية إلى لبنان أكثر من غيره، فبعد أن كان اللبناني يأكل و أهله و ضيوفه على سفرة في الأرض أو على خشبة مستديرة من صحفة واحدة، بأدوات منها الخزف و منها ملاعق من الخشب من صنع أرضه، أصبح يجلس إلى خوان و أمامه صحاف و ملاعق و شوكات و سكاكين و مائدته مغطاة بثوب أبيض، و على يده منديل الغمر أبيض، و ألوان الطعام تأتيه أرسالا. و أكثر هذا محسوس الأثر بين المسيحيين و لا سيما سكان الساحل.

و قد بلغ ببعضهم حب التقليد أن أصبحوا لا يكتفون بخمر أرضهم، و يتغالى بعض أغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها

ضيوفه على مائده.

و غدا لا يطيب له الزجل و المواليا و المعنى و القراديات و الغناء العربي و القصائد العربية، و كانت تنبسط أرواح أجداده إلى سماعها، بل يحاول أن يسمع النغمات الإفرنجية لأنها أجمل و هو «تفرنج» و «تأورب» و يحب أن يقطع صلاته مع آباءه.

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٧

و هكذا يقال فى الرقص و الألعاب كلها فإنها أصبحت بين طبقات المتعلمين إفرنجية محضة فى بيروت و فنادق لبنان الكبرى. و قد ولع بعض النساء فى البيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص و المخاصرة و المقامرة و لا سيما فى بيروت، و لوعا لا تكاد تجد له مثيلا فيما بلغنا و عرفناه من أخبار الأقطار الغربية. فقد ترى المرأة البيروتية و لا سيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الأول من الليل إلى الساعة الثالثة و الرابعة صباحا. و ترى السيدة المتقدمة فى السن منهن تجلس إلى منضدة القمار تقضى الساعات الطويلة، و قد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن إلى النوم و هى مستغرقة.

و كثير عدد النساء اللاتى فقدن صحتهم و شرفهن لشدة و لوعهن بالقمار و الرقص، و إذا رأيت أزياءهن، حسبتهن أوربيات و زيادة، أفرطن فى التقليد، و غرتهن الظواهر من مدينة الغرب فاجتزأن بها، و كانت المرأة المسيحية فى جنوبى لبنان فى القرن الماضى تتحجب و تتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها.

و فى أندية بيروت فى الشتاء و الفنادق الكبرى فى الجبل مدة الصيف، نموذج من الحياة البيروتية التى أصبحت مزيجا غريبا من الأخلاق و العادات، يبدو فيها التكلف و التصنع، و يفقد منها الروح العربى، و ليس المسلمون فيها على مستوى جيرانهم فى النهوض الاجتماعى حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم. و قد أخذت بعض البيوت التى أخذت المدنية الحديثة لا تتكلم فى بيوتها أو مجالسها و اجتماعاتها إلا بالفرنسية و قليل منها بالإنكليزية، أو يمزجون لغتهم الأصلية باللغى التى تعلموا بعضها فى المدارس، و أصبحت معظم عادات السكان إفرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة.

و أنت إذا دخلت اليوم دار لبنانى متعلم ممن كتب له السفر كثيرا، و رأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب، لأن اللباني يحاول أن يقلد، و لطالما عولج فى هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته و تقاليد، و يلحق بالإفرنج فى مناحيه و منازعه. و من أبعث ضروب التقليد أنه أخذ بعد أن تعلم بعضهم فى المدارس تعليما ناقصا أبتى يستعمل فى سلامه و حديثه بعض ألفاظ إفرنجية، تساوى فى ذلك البحرى الجاهل و التاجر المتمول، فصارت أحاديثهم مزيجا

خطط الشام، ج٦، ص: ٢٩٨

من العربية و الإفرنجية كعاداتهم و أخلاقهم. و أثبت ابن هذا الصقع أنه ما استطاع أن يتخلى عن القديم برمته، و لا استعداد لأن يقتبس الجميل من الجديد بجملته.

و اللباني أكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصادا و تودة، و معرفه بأساليب الحياة، و بعد همم، و شدة حذر. و هو نظيف لا كابن الجبال الأخرى، و فى مسكنه و زراعته و صنائعه شىء من النظام. و قد تبيت فى بيت الفقير منهم فى إحدى المزارع الحقيرة، و لا تستكف من مؤاكلته، و لا تأنف من النوم فى فراشه، و الجلوس على مقاعده، و الاتكاء إلى وسادته.

فالزعامة الزمنية من قبل عند غير المسيحيين، و الرياسة الدينية عند المسيحيين، كانتا بين اللبانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم أو الرئيس الروحى على رعاياه، لضيق الرقعة التى يمتد عليها نفوذ. و قد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيبا و نظاما على الجملة، و ولد فيه حب التضامن و الصدق بما يلقيه إياه الشيخ أو الكاهن، و ربط الناس بقيود يصعب التفلت منها بعض الصعوبة و هذا أقرب إلى النفع من فوضى تضرب أطناها بين سكان الجبال الأخرى، و جهالة ممتدة الرواق على الكبار و الصغار لا تدرى متى ينقشع ظلامها. و قد اضطر السكان أن يقلد بعضهم بعضا فى باب الأخذ بأسباب الترقى و التعليم.

و كان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم و الكاثوليك، ثم يأتى الدرروز فالسنه فالشيعة.

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل و مما فقد أو كاد لباس الفلاحين و هي العمائم و السراويل و العباءات، و لا سيما من القرى التي هي مصطفى البيروتيين و الطرابلسيين و المصريين، و لباس جمهور عظيم منهم الآن هو اللباس الغربى، و القبعة الإفريقية شائعة الاستعمال فى النساء و الرجال، و لا سيما عند من تعلموا التعليم الغربى فى مدارس التبشير فى بيروت و ما إليها من القرى و المدن. و القبعة اليوم تهزم الطربوش و العمامة و الكوفية و العقال أمامها، كما تهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعاً أو كرهاً، و ربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخرًا دخل كبير فى هذا التمثل السريع. و المغلوب أبداً مولع بشعار الغالب. و كل ما قام به اللبناني من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدماً إلى هذه النتيجة. و لو لا أن الهجرة نخرت عظام اللبنانيين،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٢٩٩

و تغلغل حبها فى شغاف قلوبهم، لكان الخطر كبيراً من هذه السرعة فى اقتباس عادات ليست عاداتهم، و أخلاق قلما تلائم أخلاقهم، فى أرض هي مفتاح باب البحار. و كأننا بلبنان إذا ظلّ غرام أهله بالرحيل عنه على هذه الصورة طلب الغنى، يوشك أن يفرغ من سكانه، و سكانه يتعلمون لا ليكونوا فلاحين و صناعاً بل تجاراً و مستخدمين. و قد أولعوا بتقليد الأمم العظيمة الغنية فى عامه مناحيهم و هم لا ثروة ثابتة لهم، و فى ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه، و من أظهر شؤمه على مجتمعهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس و الاحتيال فى دواوين حكومتهم و بيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم، ذلك لأن الصعلوك فيهم يحاول أن يعيش عيش أرباب الطبقة الوسطى، و هؤلاء لا يقنعهم إلا أن يدانوا الطبقات العليا، و تقليد أوروبا أوقعهم فى شر أمورهم، وفاتهم أن الأمة لا تفلح إلا باقتباس الجديد، و الاحتفاظ بالقديم المفيد، و أن كل شعب يحاول أن يرتجل عاداته، و يصطنع أخلاقه، يندغم فى غيره، و يذوب فى بوتقة من يريدهم و لا يريدهم.

العادات فى الأرجاء الأخرى:

تتخالف العادات فى القرى و تتقارب، بحسب قربها و بعدها عن الحواضر على الأغلب، و بحسب أصول سكانها، فإذا كانوا من أصول عربية تجلت فيهم عادات البادية كأهل حوران مثلاً فإنهم على قربهم من دمشق قد رسخت فيهم العادات البدوية، كأهل الحواضر و البوادي من سكان أقصى الجنوب.

ذلك لأن العرب تسربوا إلى الشام أولاً من الجنوب قبل الإسلام بقرون، و ما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الأصقاع. و بينا نجد أهل غوطة دمشق كأهل الحاضرة فى مناحيهم كما يقول الرحالة ابن بطوطة، ترى أهل المريج مرج دمشق، و ما هم من الغوطة بعيد، كأهل حوران، فى عاداتهم و لباسهم و طراز معيشتهم. تتمثل فيهم عيش البداوة، و هم فلاحون مقيمون على الحرث و الكرت و ماشيتهم قليلة. و عادات المسيحيين فى حوران و جبل الدروز و مادبا و الكرك كعادات المسلمين السنة و الدروز، و التعديل القليل يدخل على عادات المسيحيين لأنهم أسرع إلى التعليم من الأكثرية و ن كانت

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٠

الأقليات فى الغالب تفنى فى الأكثريات. بيد أن الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الأخير فى الأقلية. مثال ذلك أن النساء المسيحيات فى نابلس و حماة يحتجن كالمسلمات مراعاة لعادات الأكثرية.

و لباس أهل بلاد غزة و الخليل و نابلس كلباس أهل حوران، كوفية و عقال و عباءة و قفطان. و كذلك أهل بر حماة و حمص و المعرة و ما إليها مما هو فى سمت الشمال من الأصقاع. و سكان قرى حلب القريبة، كسكان قرى دمشق يلبسون العمائم. و هذه لا تلبث أن تزول بالطربوش، لأن المتعلمين من أبناء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامة أو الكوفية. دع أهل المدن فقد قلت العمائم فيها. و لذلك يصح أن يقال: إن القبعة تهزم الطربوش من الساحل، و الطربوش يهزم العمامة فى الوسط، و العمامة تهزم الكوفية و العقال من سائر أطراف القطر النائية. و هكذا لا ترى وحدة فى اللباس فى أية ناحية من أنحاء الشام اجتزت بها. و قد يظن

الغريبى الذى اعتادت عيونه رؤية التوحيد فى الملابس، إذا مرّ بإحدى الحواضر عندنا، أنه فى قاعة تمثيل هزلى، تعرض فيها صور من البشر غريبة فى حركاتها و ألبستها.

جاء فى «دوانى القطوف» أن عادات الحورانيين فى أعراسهم و ولاداتهم و ماتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب، مثل دفع الخاطب لوالد عروسه نقدها فى القديم عشرة آلاف غرش فخفض إلى ستة آلاف ثم إلى ألفى غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين. و عندهم الألفاظ (النقوط) و رشق العروس عند مرورها فى البلد بالعنصل (بصل الفار).

و فى المآتم يحملون الطعام إلى بيت الميت. و مدة النوح سبعة أيام كاملة. و من العار عندهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. و أهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسله الأردان، و الغناز من نسيج الديما القطنية أو الحريرية، و سلطه (قنطيشه) واسعة الكمين قصيرة، من الجوخ الأزرق، مطرزة بالحرير الأحمر النأتى، و الفقراء يتخذونها من الخام الأزرق بلا طراز. و على رؤوسهم الكوفية و العقال. و فى أرجلهم المداس و «الجزمة» (الحذاء) أما ملابس النساء فقميص أزرق ملون التطريز، واسع الأردان و الأكمام. و فوقه «سلطه» أكبر مما يلبسه الرجال إما من الخام أو الجوخ. و على رؤوسهن

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠١

«شبر» أسود حريرى. فالمتزوجات يتلفعن به و يربطنه من الورا. و العزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل. و يلبسن (البوايج) الصفراء و الجزمات القصيرة، و يتخذن زنارا من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش، و له ذوائب مسترسلة، و فى معاصمهن أساور فضية ضخمة، و فى أرجلهن خلاخيل فضية، و فى آذانهن تراكى ذهب (حلق مستدير)، و على رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشككة، و فى أصابعهن خواتم فضية. و يستعملون جميعهم نساء و رجالا- الوشم إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم اه.

و عادات السكان فى القرى تتشابه و كذلك ألبستهم، و كلما بعدوا عما يقال له التمدن تمازجوا و تضامنوا، فما يزال المسلمون فى بعض قرى وادى بردى إذا كان عند جارهم المسيحي فرح أو ترح يأتي المسلمون يخدمون ضيوفه، و يقدمون له الهدايا لبيضا ووجهه أمام الواردين عليه و بالعكس.

و هذا من أجمل العادات فى التضامن بين أهل البلد الواحد. و عادات المسلمين فى الساحل و الداخل متشاكله، و كلها مقتبس من عادات أهل دمشق. فدير الزور و حلب و حماة و حمص و المعرة و أنطاكية و اللاذقية و طرابلس و بعلبك و بيروت و صيدا و صور و صنفد و النبطية و الصلت و نابلس و عكا و حيفا و يافا و القدس و الخليل و غزة، و بالجملة فكل بلد فيه كتله إسلامية أو مسيحية من السكان لا تجد عاداته إلا دمشقية، و أهله يقتبسون من دمشق إلى اليوم ما يروقه من عاداتها، و مدينه دمشق محبوبه تهفو إليها نفوس الشاميين عامة، و أهلها محبوبون للرقه التى فطروا عليها، و لأنهم يعطفون كثيرا على الغريب، و ربما أغرقوا فى عطفهم و آثروه على ابن حيههم، و كل من دخلها و لا سيما من سكان القطر متى خرج منها اكتأب و دعا لها بالعمار و لو خسر فيها جزءا من ماله.

قال القزويني: «و أهل دمشق أحسن الناس خلقا و خلقا و زيا و أميلهم إلى اللهو و اللعب و لهم فى كل يوم سبت الاشتغال باللهو و اللعب.» و وصف اجتماعهم هذا الذى يدعى اليوم سبتية أى يوم يستنون و ما يجرى فيه من المساخرو الصراخ و الغناء و الألعاب بما لا يخرج الآن عما كان منذ نحو ألف سنة. و الغالب أن السبتية من عادات اليهود سكان البلاد الأصليين كما

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٢

أن إضراب بعض المشايخ عن القراءة أيام الثلاثاء، من عادات الصابئة لأن يوم البطالة عند الصابئة يوم الثلاثاء. و مع هذا فقد مدح الدمشقيون منذ القديم كثيرا و هجوا كثيرا. و لعل المادح و القادح لا يخلوان من مبالغة.

و من يتزوج من أهل هذا القطر بامرأة دمشقية يحسب نفسه سعيدا، فالدمشقيات يتغربن كثيرا، و ما برحت دمشق تضم إليها الغرباء من أهل الكور الأخرى و تتمثلهم و تعيضاها عنم يدخل إليها من الرجال بعض نساها، يدخلن فيها عادات العاصمة الأموية، و يمزجن أهل

الوطن الواحد من طريق الأسر والبيوت. و البدو والحضر من جميع النحل يؤثرون البنين على البنات، و كلهم يلدون كثيرا، و يعيش الأطفال في المدن أكثر من القرى، للعناية بصحتهم و وجود الأطباء و القوابل. و لو لا أن البدوى يولد له كل سنة لانقرض نسله لكثرة الغزو و الذبح في الدهر السالف.

و جميع نساء القرى من المسلمات في الشام سافرات يعملن مع الرجال في الحقول و المراعى على صيانه لا تبذل فيها، ما خلا بعض القرى القريبة من الحواضر فإن عادة الحجاب سرت إليهن، فيلبسن ملاءات من حبر أسود أو أزرق على الأغلب. و في بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر و أحمر معا أو بأبيض فقط. و لكن نساء دمشق خاصة اخترن زيا من الملاءات و مناديل الوجه، اقتبسناها عن نساء الاستانة أيام كان الحجاب شائعا في نساء الترك.

فلما كشف الحجاب في تركيا في العهد الأخير و أصبح زيهن كزى الغريبات، قبعات على الرؤوس و أثواب قصيرة خفيفة. و زال الحجاب أو كاد عند نساء مصر بالطبيعة لتغلب المدنية عليهن، بقي نساء حواضر الشام كبيروت و دمشق و حلب و طرابلس حائرات يطمح بعضهن إلى تقليد التركيات و المصريات.

و لكن شدة المسيطرين من الرجال، اضطرتهم إلى الوقوف الآن عند حد حجابهن القديم، فيظهرون في الشوارع في حبرات سوداء مسدولة إلى أعقابهن و مناديل سود مسبله على وجوههن، و قد تكون في المتبرجات شفافة جميلة لا تكاد تحجب الوجوه بل تزينها و تدعو الناظرين إلى إرسال الطرف إليهن.

و منذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة (١٢٩٤) إلى الشام و أسكنتهم الدولة العثمانية في بعض قرى منبج و حمص

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٠٣

و سلمية و دمشق و عمان و جرش و القنيطرة، أدخلوا إلى الشام بعض عاداتهم في تربية المواشى و الفلاحة و الصناعات الزراعية. و يغلب على الجراكسة الإمساك و التضامن لأنهم في حاجة إليه لدفع عادية البوادي عنهم، و يغلب التدين على شيوخهم و الشجاعة على شبانهم. و إذا أراد الشاب منهم أن يخطب فتاة خطفها من بيت أبيها مهما كانت منزلتها و منزلته. و نساؤهم يظللن سافرات ما دمن أبكارا و عانسات، حتى إذا تزوجن عمدن إلى الحجاب و ابتعدن عن مجالس الرجال. و الفتيات يختلطن بالفتيان و يغنين و يرقصن معا و يتسامرون و يتحدثون من دون نكير. و يقل فيهم تعدد الزوجات، و المرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة في تربية أولادها و إدارة شؤون بيتها.

و قد أخذ الصهونيون في فلسطين يدخلون عاداتهم منذ أكثر سوادهم فيها، و لكن من الصعب أن يقتبسها السكان الأصليون لأنهم ينظرون إليهم نظر أعداء، و إن كان في عاداتهم الجميل جدا كحب النظام و الترتيب و النظافة و الاقتصاد، و تجويد الأعمال الزراعية على اختلاف ضروبها. و كذلك الحال في المهاجرين من الأرمن الذين تسربوا من الشمال و امتدوا إلى الجنوب قليلا و إلى الغرب، فإن من عاداتهم ما هو المعقول، و هو تضامنهم إلى ما لا حد له، و اقتصادهم و مهارتهم في التجارة و الصناعة، بيد أنهم لا يمتزجون بالشاميين و يريدون كالصهونيين أن يعاملوا أهل القطر ليربحوا منهم فقط، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين أبناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم، و على كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جذوة التعصب، يوشكون أن يقاطعوا غير أبناء جنسهم، و لكن السواد الأعظم إذا عاملهم بالمثل و عمدوا إلى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل.

و أهل دمشق و حلب بل و أكثر المدن الداخلية من أشد الشاميين محافظة على عاداتهم و أخلاقهم، و لهم غرام إلى اليوم بالتلقيب بألقاب التشريف، و استعمال الألقاب الضخمة، راجت رواجا كثيرا على آخر عهد الترك العثمانيين، لأن رتبهم و ألقابهم مما كانوا أسرفوا في منحه للرفيع و الوضيع، فصار أهل الطبقتين الوسطى و الدنيا لا يتخاطبون إلا بلقب «باشا» أو «بك» أو «أفندی» و «دولتك» «عطوفتك» «سعادتك» «سماحتك» «فضيلتك»

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٤

«سيادتك». أما ألقاب سيدنا و مولانا فتكاد تؤلف جزءا مهما من أحاديثهم.

ابتليت الأمة بهذه الألقاب كما ابتليت بالتلقب بالدين في القرن الخامس إلى القرون الأخيرة. وقد وصف ابن جبير مآتم أهل دمشق و جنازتهم في الدولة الصلاحية فقال: و نباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للجزء من محتشمي البلدة و أعيانها و يحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمس

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٥

أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محبيه أو زكيه أو نجيبه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعه، و تتبعها و لا سيما في الفقهاء بما شئت أيضا من سيد العلماء و جمال الأئمة و حجة الإسلام و فخر الشريعة و شرف الملئ و مفتي الفريقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحبا أذياله من الكبر ثانيا عطفه و قداله قال: و مخاطبه أهل هذه الجهات قاطبه بعضهم لبعض بالتمويل و التسويد و بامتثال الخدمه و تعظيم الحضرة، و إذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمه كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا، و الجد عندهم عنقاء مغرب. و صفه سلامهم إيماء الركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع و خفض و بسط و قبض و ربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط و آخر يقوم و عمائمهم تهوى بينهم هويا. و هذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء. و عند استعراض رقيق الإماء، فيا عجا لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتدأوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبيئ منه، و استعملوا تكفير الذمى المنهى في الشرع عنه، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل، فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، و انتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم و يعاملونهم لقد تساوت الأذنان عندهم و الرؤوس، و لم يميز لديهم الرئيس و المرؤوس اه.

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير. و لما أفرط القوم في عاداتهم في الجنائز و المآتم و الأفراح و المجتمعات و القيام و القعود و تبادل السلام و تقديم القهوة و الشاي و غيرهما، و دخلت في طور من الهزل عجيب، زهد فيها المتعلمون على المناحي الغريبة، و أنشأوا يبنذونها نبذ النواة. و خفت أيضا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٦

ألفاظ التكريم عن عهد الترك و هي آخذة بالزوال، و بقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهين و المرانين، على ما يقل المخرفون و المعتقدون.

فقد كان بعض الناس يعتقدون بالفال و المندل و الكيمياء و الأحلام و الكشف، فقلّ اليوم من يلتفتون إلى هذه المسائل، و خفت و طأتها حتى من القرى البعيدة. و المنورون من الناس قسما: قسم وقف عند حدود الشرع و اكتفى بأوامره و نواهيها، و آخر نزع ربة الدين و لكن في سره دون الجهر من القول.

و بعض العادات لا تقوى على نزعها إلا الأيام الطويلة و النشوء السريع، و هذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الإجباري في الشعب، فقد كان النساء إلى عهد قريب في الأحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن في الجنائز مسخمت و جوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد، باكيات مولولات منتحبات، و هذا من عادات الجاهلية التي منعها الإسلام. و أول المسؤولين عن إقرار مثل هذه العادات المشايخ و الوعاظ و أرباب الصحف. و قل أن رأينا من المشايخ و الوعاظ من يتعرض لإنكار مثل هذه البدع و العادات الضارة. أما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الأنوار في طبقات مخصوصة من الناس فقد بقيت في ناحية من النواحي مقصرة كل التقصير، و هو البحث في العادات المضرة و الأخلاق الساقطة. و إنا ليحزننا أن كان في الصحافيين أناس لا يزيدون المجتمع إلا فسادا فوق فساده، لأنهم يلقنون العامة الكذب و الخديعة و الملق، و يدعون أن قراءهم لا يرضون منهم إلا بهذه الطرق. و لكننا على يقين من أنهم هم

يبعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم و أكياسهم.

كان التدجيل إلى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ريحهم أو كادت و خلفهم هذا الضرب من الناس. يمكن إرجاع أهم صفات الناس في هذا القطر إلى مادتين أصليتين «الوفاء و الكرم» و لا تزال هاتان الصفتان ماثلتين في معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبديل و تعديل. و تجد هاتين المزييتين على أتمهما في كثير من أهل الطبقات الوسطى و الدنيا، يقومون عليهما غالبا من دون أن يتوقعا عنهما أجرا سماويا أو مظهرا دنيويا. أما الطبقة العليا فمن النادر أن يكون فيها الوفاء و الكرم، و إن فت فلأمر ما تفي، أو تكارمت فلغرض

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٠٧

ترتجيه. و كلما ضعف الوازع الديني في القوم، و هاجمتهم عادات الغربيين، انحلوا من عهده الوفاء و الكرم، و لذلك ترى الأوفياء و الكرماء بعيدين إلا قليلا. عن المناطق التي اختلطت بالغريب على سواحل البحر، و أخذت من معارفه، و تخلقت بأخلاقه، و اعتادت عاداته.

و منذ شاع الكذب و الحسد في الشاميين، ضعفت مادة حياتهم من التجارة و الصناعة، و كادت ثقة الغرب ترتفع منهم، و إذا كتب لهم أن عاشوا في الجملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التي قام عليها مجتمعهم و جامعتهم، و بفضل نشاطهم في مهاجرهم حيث رأوا أنفسهم أمام جاليات كثيرة من الأمم اضطرتهم الحال معها أن يظهروا بمظهر الأمانة ليعتاشوا و يرتاشوا. أما التحاسد و المشاغبة فلم تنقطع شأفتها فيهم حتى في ديار الغرب، و ربما زادهم على ما كانوا ألقوه منها ما رأوه في مهاجرهم عند الأمم الأخرى فاقتبسوه و أضافوه إلى رؤوس أموالهم. و ربما بلغت الجالية الشامية نحو ألف ألف نسمة أي نحو سبع سكان القطر، فما أمرهم باليسير إذا حتى لا يشار إليهم بجملة، لأنهم على الأقل يمثلون صورة من أهل القطر في الخارج، و الأجانب لا يعرفون إلا أنها صحيحة مطابقة للأصل، أو أنهم من أمثال طبقات الشعب.

و لو تفرقوا في الأرجاء التي ينزلونها، كما تفرقت قلوبهم في موطنهم الأصلي، لكان لزاما أن يؤثر ذلك في أخلاقهم و عاداتهم، و لكنك تراهم في مهاجرهم يجتمعون أهل كل إقليم بإقليمه على الأكثر، و قد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التي ينزلونها إلا كما يختلط الشامي بالمصري إذا نزل مصر، يختلط به ليربح منه و يحتفظ بشاميته و تقاليدته بعد جيلين و ثلاثة و أحيانا بعد أربعة و خمسة.

عادات القبائل و أخلاقها:

ثمن أو سبع أهل القطر الشامي اليوم أي نحو خمسمائة ألف نسمة بادية أو قبائل رحالة، و يقال لهم في الاصطلاح: العرب أو العربان، تصطاف في مكان و تشتو في آخر، و قل من يألف منهم سكنى الدور، و بيوتهم من الخيام و المضارب تنسج من شعر المعزى، يعمدونها بعمد و يشدونها بأطناب،

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٠٨

و يضرّبونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم، يحملون معهم أثاثهم و خريتهم و دوابهم و مؤونتهم، و هم شاوية يقومون على تربية الشياه و العنز و يربى بعضهم الأباعر، و الشاوية من الأسماء التي تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لأنهم جماعة شياه. و معاش البدو من مواشيتهم و ما تدرّ عليهم من السمون و الألبان و الأجبان و الزبد و ما يبيعون من نتاج قطعانهم، أو من غزو بعضهم بعضا إن كانوا أشرا على الفطرة لم تتدمت أخلاقهم قليلا بالاحتكاك بالمتحضرين، و إذ كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل و أكثرهم يوغل في الشتاء إلى وسط ديار العرب انتجاعا للكلا و الماء، أصبح من المتعذر أن تنشأ لهم حالة ثابتة يتأتى معها وصف كل قبيل منهم في عاداته و أخلاقه.

و عرب الشام من أصول شتى و قد تتغير أسماء قبائلهم مهما عظمت في كل قرن أو قرنين، فقد تغيرت أسماء القبائل التي كانت

معروفة بدخول الإسلام الشام، في القرن الثالث أو الرابع، و ما عرف من أسمائها في القرن الثامن أو التاسع تبدل في القرن الحادي عشر، و هكذا تتبدل أسماء العشائر تبعاً للمتأمر عليها، و قد تسمى القبيلة كلها باسم أميرها أو شيخها. و العشائر كلها تنقسم إلى أفخاذ و بطون، و الإمارة أو المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته، أو من كان أذكى قومه جناناً، و أبسطهم بالكرم يدا، و أشجعهم يوم النزال قلباً، و أصلبهم في الحوادث عوداً، ثم تنتقل بالوراثة.

و غزو القبائل بعضها بعضاً يحول دون بقاء الثروة الناطقة و الصامتة فيهم، فقد تكون القبيلة اليوم في الغاية من طيب العيش، ناعمة البال بحلالها أى ماشيتها، فتغزى من الغد في عقر دارها، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سبد لها و لا لبد. دع ما يصيبها من نقص في الأنفس، فقد كان من النادر أن تجد رجلاً بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يعتبط في الغزوات، و يقتل في سن الفتوة غالباً. و الحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو، و هم يخافون سطوتها لمكان السيارات و رشاشاتها في الأرض، و الطائرات و قذائفها في الجو، و تحاول كل حكومة أن تعطى البادية أرضاً ترعها لتأوى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٠٩

إلى البيوت الثابتة، و تتخلى عن عيش البداوة و ما تستلزمه من شقاوة و شقاء.

و من عشائر الشام ما عرف أنها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة، و لذ لها عيشها الثاني فاغتنت يوم تحضرت، مثل الدنادشة أو بنى دندش فهم قبيلة يمانية جلت إلى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة، ثم انتقلت إلى أرجاء تل كلخ من عمل حصن الأكراد، و لهم اليوم قرى عامرة و بيوت و قصور في قرى الفتايا و الحوز و مدان و حير البصل و الموح و مشتى حمودة و مشتى حمزة و برج الدنادشة و غيرها، و ظلت أخلاقهم إلى عهد قريب أخلاق العشائر يحبون الغزو و السطو و يحمون الدمار و الجار، و هم على حصّة موفورة من الكرم و الوفاء و صحة العهد. و اتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر الحديديين و الموالى و بنى خالد، فإنهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثاني أرضاً واسعة في الشمال الشرقي من الشام في أرجاء حماة و حمص، حمى العشائر و منع الغزو بينها، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا إلى اعمال الأرض و العناية بالزرع و الضرع. و هكذا كانت الحال في القديم و الحديث، تدخل البادية في الحضارة، و قل أن خرج أفراد من الحضارة إلى البداوة، لأن الترقى سنة الطبيعة، و البداوة أصل ثم يذوب أهلها على الزمن في الحضرة. تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالباً، و لا تزال تمتد في الداخل حتى ينتهي العامر من ديار الشام في الجنوب و الشرق، و هناك البداوة بأجلى مظاهرها. و الأولى أن يقال مثلاً في عشائر الفضل و الهوادجة و البحاترة النازلين على ضفاف بحيرة الحولة، و بنى صخر الضاريين في البلقاء، و بنى حسن في عجلون، و الحسينة و الفواعرة و العكيدات في أرجاء حمص، و بنى خالد عرب حماة، و الحديديين و الموالى و اللهب و الغيار عرب حلب.

و السبعة و الفدعان من عنزة النازلين من بحيرة الجبول إلى سلمية و عشائر البشاتوة و البواتية الغزوية و المساعيد و نقار و الصقور عرب بيسان و نابلس و جنين و طول كرم، و عشائر شرقي الأردن التي تشتو في وادي العربة أو الأغوار، أو الحماد أى الصحراء العربية شرقاً، و تصطاف في أرض معينة الحدود معروفة - فالأولى أن يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضريّة

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٠

لأن منها من يزرع الأرض، و من أفلح في الفلاحة، و أيقن على الأيام أن العيش الثابت خير من المتقلقل، و أن من يدفع للدولة أجرة حمايته، أهناً بالامن يتكل في حمايته على نفسه و سيفه و عصيته.

و هكذا يقال في عرب الغياث و العمور في اللجا و الصفا، و عرب العدوان و الأيديات و العباد و المشالخة و الحمايدة و الشوابكة و الدعجة و العجارمة و النمر و الكايد في أطراف عمّان و الصلت و مادبا، و الخرشان و الجبور في الموقر و العليا و النقيرة، و بنى حميدة و السليط و الحجايا و الحباشنة و الصرايرة و الطراونه و كثر ربة و المعايطه و المجالى و المدانات في أرجاء الكرك، و الحويطات و الدمانية و أبى تايه و المطالقة و النعيمات و الديابات و بنى عطية في جهات معان، و عرب الشرور و بنى عطا و الهلالات و العبيدية و

العلايا في وادي موسى و جبال الشراء، و الحميدات و عبيدين و البحارات و الكلالدة و الوهيات و المناعين في الطفيلة، فإن كثيرا منهم يزرعون الأرض، و يقومون على تعهد الماشية، و قد يبعدون في الانتجاع ثم يعودون أدراجهم.

و على مثل هذه الحال عشيرة العمور في أرجاء تدمر و عشائر بوشعبان في السخنة و الجبور في البوكمال و الكعيدات في الميادين و دير الزور و غيرهم من العشائر النازلة على شط الفرات الغربي، فإنها كلها نصف متحضرة و بقليل من العناية تدخل في المدنية و تترك عاداتها و شقاءها، و يسوخ لنا أن نستنتج أن البادية حتى أكثرها إيغالا في البداوة يمكن تحضيرها إذا أكرهت على التحضر خلافا لما يذهب إليه بعض أهل الغرب. و في الشام قبائل من البدو مثل عرب الرواة من عنزة و هم لا يقلون عن عشرين ألف نسمة، ينتقلون أبدا كالنور أو العجر كل مدة في ناحية، و لا ينزلون المدن إلا لابتاع حاجاتهم و بيع جمالهم و أصوافهم و ألبانهم. و النور جبل منحط من الناس يرتحلون كالبدو و يعملون الأعمال الخسيسة، و لذلك يحتقرهم جميع أصناف العالم من أهل المدن و القرى و البدو، و هم قلما تخلو منهم بلد و منهم عدد كبير في أوروبا.

و لا تختلف عادات العشائر لأنها كلها في حالة أولية فطرية هدتهم إليها الحاجة إلى الحياة، فعشائر ولد على و السرحان و المعجل و السردية و النعيم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١١

في حوران و القنيطرة و الزوية، و الزريقات في طرابلس و التياهة و العزازمة و الترايين و الجبارت و الحناجرة و الكعابنة و الصرايعه و الجهالين و فقرة و ثباني و هارين و فرحات و زويدين و ضواحك و سلامات و صقير و الرسيالات و أبي صونية و الغوالبه في أقصى فلسطين أي في أرجاء بئر السبع و غزة و الخليل و المجدل، و عشائر القدس و رام الله و بيت لحم و أريحا و يافا و الرمله كالسويطرة و عرب النبي رويين و الجماسين و أبي كشك و السوالمه و العوجا و الديوك و النويعمه و الخطباء و الفهيرات و العرينات و النصيرات و التعامرة و العبيدية و السواحرة و عرب حيفا و عكا و زمارين و الناصرة و طبرية و صفد و هم الغابيه و العواضين و الشقارات و الزبيدات و التواتحة و الكمايه و الضيبه و بنى عزة و النغناغية و الرمل و عرب التركمان و جسر الزرقاء و قسارية و الفقرة و نفيعات و الدمايرة و السواعيد و السمنيه و الغوارنة و السويطات و الحجيرات و الطوقية و المريسات و صبيح الحجيرات و المزاريب و السبارجة و الجواميس و الغزالين و التلاوية و المواسي و السرجونه و السدور و السمايرة و الخراميه و السماكية و المنارة و كراد الخيط و الملاحه و الشماليه و البوزيه و الزنغريه و زييد و قديرية و طوبا و حسينية و علمانية و وقاس و الصويلات و النميرات، و عشرات من القبائل كلها متشابهة في عاداتها و أحوالها الطبيعية و جلها لا تسد مطامعه إلا الغارات و استباحه حمى المعمور، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم. و كان الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفا من اجتياحهم القرى و يقيمون لهم منهم زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض، أو يحولون دون اعتدائهم على المقيمين من سكان المزارع و الدساكر.

و في تاريخ فلسطين أن العزة و السيطرة كانت في جميع بلاد الساحل و السهل للبدو و أهل الدير، فبلاد السبع و غزة كانت منقسمة بين العزازمة و الحناجرة و الترايين و التياها و الجبارت، فالعزازمة يمانيون و مشايخهم أجداد ابن سعيد، و أمراء الترايين عائلة أبي ست، و أمراء التياها الهزئيل، و أنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيج من عشائر مختلفة و قبائل متنوعه و فيهم القيسي و اليماني، و بلاد الخليل أكثرها قيسية و مقاطعه القدس يمانية و قيسية اه.

و كما عرف البدوي بأنه يجير الملتجئ إليه، فهو كذلك إذا آنس ضعفا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٢

من أحد أبناء السبيل في البرية سرق منه ماله و ثيابه أو هميانه و دابته، و ندر أن يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها. و لظالما كان الجنود الشاميون أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم أيدي الاعتداء تارة و يكسونهم و يطعمونهم تارة أخرى، و هكذا كان الفار يعرى و يكتسى مرارا حتى يصل إلى المعمور من دياره.

و ماذا يعمل البدوى و ماشيته ترعى أمامه، و كيف يصرف ليله و نهاره، و كيف تطيب له الحياة فى الصيف و الشتاء، و هو معرض لأشد الحرارة و أشد البرودة، و خائف على الدوام يترقب غزوة خصمه و قبيله الذى يعاديه؟

لا- جرم أن البدوى، و هو بذكائه و فراسته معروف موصوف أكثر من الفلاحين أهل القرى، يعرف من الأخبار التى تهمة من أنباء العالم ما ينبغى له الإحاطة به، و يتناقله بسرعة البرق، حتى إن ما يحدث فى الحجاز أو العراق، يصل خبره إلى ابن بادية الشام و ما وراءه من العرب، قبل أن تصل السيارة و البريد، فينتقل الخبر فى الأفواه من فم إلى فم، و يسمون الأخبار «العلوم» و أول ما يسأل البدوى فى البادية أو المعمورة عن العلوم. و إذا لم يكن عند البدوى ما يتسلى به من القصص و الأخبار التى تكون فى العادة نمطا واحدا يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليها، و يفكهم من نظمه أو من محفوظه بأشعار. و فى الغالب أن يكون ما ينشدهم إياه بلهجتهم التى يألونها. و يحتوى على الأكثر الحماسيات و أخبار الغزاة و الغزوات و أيام الشجعان و حوادث الكرماء و الضيفان. و الرقص معروف عندهم و هو الدبكة أو السحجة يرقص فى الغالب الفتيان و الفتيات، دون الرجال و النساء المتزوجات.

و مهور النساء غالية فى بعض العشائر، و تكون من الجمال و الشياه غالبا لا- من النقود لقله تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات، كما يتقايضون البنات بالحيوانات. و البدوى يخضب إن جادت المراعى من خيرات السماء، و إلا فقد أترب و أجذب، و نفقت دوابه فأعوزته اللقيمات.

و يجلس الرجال فى العراء فى خيمة مضروبة تكون فى الغالب خيمة الشيخ أو الغنى، يتعاطون قهوة البن و هم يجيدون طبخها لفراغهم و توفرهم على معالجتها. و قد يستغنى البدوى عن الأكل أو يقلل منه كثيرا، و لكنه لا
خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٣

يستغنى بحال عن تعاطى القهوة فى كل ساعة فهى نقله و حلواؤه و شرابه المنعش، و قد يصرف أحدهم ثمن بنّ فى السنة أكثر مما يصرف على طعامه و لباسه. و أحب الهدايا إلى قلب البدوى أن تحمل إليه مقدارا من البن. و طعامهم من أسهل الأشياء، مقصور على بعض الألبان و البرّ و الجريش و الأقط و العصيدة، و لباسهم ساذج للغاية و كسوتهم متشابهة: قفطان من القطن، و عباءة خفيفة، و زنار عادى، و كوفية و عقال، و لا يلبسون فى الأعم من حالاتهم قمصانا و صدرا و سراويل، و أكثرهم حفاة، و يصطنع بعضهم كسكان وادى موسى نعالا من جلود الأباعر ينيطونها بحبال يدخلون فيها أباهم أرجلهم تعلق بها.

قلّ أن تجد فى البادية من يقرأ و يكتب، فقد تبلغ العشيرة ألف نسمة و لا تظفر فيها بمن يكتب جملة. و من العشائر من تستأجر خطيبا من أهل الحضر يكون معها فى مشتاتها و مصيفها، يقرئ بعض أبناء العشيرة القرآن، و ينظر فى الأنكحة و الطلاق و يعظهم بما يعلم من أمور الدين. و أكثر البادية لا يتطهرون و لا يصلون و لا يصومون و لا يعرفون من الإسلام إلا أن الله واحد و أن محمدا رسوله. و لو لا هاتان الكلمتان لقلنا إنهم كعرب الجاهلية حذو القذة بالقذة و قد تصلى بعض القبائل كالروالة، و لما كان الماء يعوزهم فى منتجعاتهم و تنقلاتهم فهم يقيمون صعيدا طيبا، و الله يعلم هل يحسن أكثرهم قراءة فاتحة الكتاب، أو يعرفون بعض سورة الصغار. و ما كانت هذه العشيرة تصلى من قبل لو لا أن لابسها بعض دعاة الشيعة و علموا كل فريق منهم إقامة الصلوات، و لقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون.

و قد تدّين اليوم أى دان بالمذهب الوهابى قسم من الروالة لما لحقوا بنجد، و المذهب الوهابى مذهب محمد بن عبد الوهاب و هو مذهب أحمد بن حنبل بأصوله و فروع.

و إذ كان من الأمور العادية فى البادية أن تكون القبائل فى خصام دائم، و هى أشبه بحكومات صغرى تتقاتل و تستعين بالغريب على خصمها، مست الحاجة إلى قضاة يفصلون بينها فى المنازعات، و قضاتهم منهم يتقاضون عندهم بأجر معلوم، و أحكامهم سريعة نافذة، و من أحكامهم ما هو مطابق للشرع

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٤

الإسلامي، و منها ما هو من بنات أفكار القاضي، أو يأخذه من العرف و العادة.

و الاختلافات تفض بين المتخاصمين على أيدي الرؤساء صلحا على الأكثر.

و قل أن يراجع البدوى الحكومه فى مسائله لأمن من أصولها البحث و التحقيق، و هو يحب قضاء عاجلا، و أن يحكم له أو عليه فى جلسة واحدة، و ينفى القاتل فى بعض القبائل سبع سنين فإذا صالح أهل القتل و دفع الدية يعود إلى عشيرته، و تختلف دية القتل بين (٣٣) ألف غرش إلى (١٥) ألفا، و لا يحق عند بعضهم لأحد بعد سبع سنين أن يثار للقتيل، و الأخذ بالثأر كثير عندهم، و لا مدة عند معظمهم للمطالبه بالثأر. و من المأثور عنهم أن البدوى أخذ ثأره بعد أربعين سنة و قال: إننى تعجلت أخذه. و جزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعفين إلى أربعة أضعاف، و ينجو السارق بالفرار، و يدفع الضارب للمضروب إذا عطل منه عضوا نصف الدية. و الزانى يرحم عندهم حتى يموت و لكنهم تساهلوا فى هذا الحكم، و الفحش عندهم على نسبة ما هو عند الحضرة و يكثر فى بعض العشائر و يقل بحسب اختلافها بأهل المدن و بعدها عنها، و الخمور لا أثر لها فى البادية لأن العرب قلما يشبعون الخبز و الإدام فمالهم إذا و المدام، و لشطف العيش عندهم يعدون فى الأعياد اليوم الذى ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة فإنهم فى تلك الوجبة مدعوون كلهم بالطبيعة، و عندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق الرؤوس حتى يطعم من «المنسف» البعيد منهم عنه، و تسمع عندها تعريق اللحم عن العظم أشبه بأصوات حيوانات وقعت على عظام.

و يكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصا عند من يملك بعض نعجات أو بضعة أباغر فتراه طول النهار و جزءا من الليل، تحت خيمته يتقهوى أى يشرب القهوة مستلقيا على قفاه، يقص أقاصيصه و ينعم ببطالته، على حين ترعى امرأته و بناته الغنم و الجمال، و يحتظبن الحطب أو يجمعن العشب، و تحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد، أو تستقيه فى قرب تحملها على حمار إن كان صاحبها من أهل اليسار، و تستخرج المرأة الزبد و السمن و تعمل الجبن و تخبز الخبز و تهيب الطعام. و يعيش أولادهم كالسائمة فى البرية بدون عناية و يهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر، و لهذا تكون أجسام من يفلتون

خطط الشام، ج٦، ص: ٣١٥

منهم من الموت قوية تبعا لقاعدة بقاء الأنسب. و هم لا طيب عندهم و لا جراح و لا قابله إلا ما تعلموه من أجدادهم من الوصفات، و ثقفوه بطول الزمن فى مداواة الجروح، و يداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكى أو بأدهان و حشائش لهم يعرفونها. و أمراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم و جشوبة طعامهم و قلته تطهرهم، و ذلك لمكان الهواء النقى و الشمس المطهرة من أجسامهم و لندرة ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض و حلو و حار و بارد، و لقلته الهموم التى تساورهم و ما تساور فى العادة إلا سكان المدن و القرى ممن يفقهون واجبات الحياة، و يكدحون فى طلب المعاش و لا يزالون مأخوذين بحب التقليد. و البدوى حاد النظر يرى الأشباح من مسافة بعيدة جدا، و قد يرى و القمر ليلة هلاله ما لا يبصره الحضرى، و من رآه فى تمييز المراتب عن بعد باعد، يكاد يصدق ما ذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة. و كما كانت أبصارهم حادة كانت أسنانهم و أضراسهم سليمة براءة لطف أخلاطهم و تخليطهم. قال أديب و هبة: «إن سكنى البدوى فى بيت الشعر فى البوادي المحفوفة بالأخطار و المشاق، و بعده عن الحامية و انتبازه الأسوار، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضرى، منها الشجاعة و العصبية و الكرم و الوفاء و الأنفة و النجدة فتوغل البدو فى البادية، و تولعهم بالغزو و الغارات قد جعلهم فى قتال أو استعداد دائم للقتال، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية، و تعذر قيام الفرد مهما كان شجاعا بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصبية، و هى التضامن المطلق بين أفراد القبيلة، حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أحد أفرادها، و أقرب أسبابها لديهم الأخوة و الأبوة و العمومة، و منها تتألف الأسرة، و من الأسر تتألف الفصيلة و تتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة. و الذى عليه عشائر الشرق العربى أنها تطلب و تطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب و المطلوب، أى لكل فرد يتصل مع أيهما بالجد الأول أو الثانى أو الثالث إلى الخامس الحق بطلب حق قريبه، و عليه أن يخضع للحق المطلوب منه، و لهم بذلك قوانين و قواعد موروثه.

ثم إن ابتعاد البدو عن المدن و تفردهم في الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام

خطط الشام، ج٦، ص: ٣١٦

الضيف و القاصد و حماية الضعيف و الملتجئ، حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه. و قد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل، وفاقوا به سائر الأمم. و إن مطاوى التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب و كرمهم العجيب. و البدوى يعتقد أنه لا ذكر له و لا إرث أفضل من سمعة الكرم و الجود. و إن هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربي على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهليين.

فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنيا كان أو معدما، إلا و يسرع لتهيئه كل ما يرضيه و يسره، و إن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم. و إذا استأنمهم مستأنم على أمانة فدوا لحفظها أموالهم و أولادهم و أنفسهم، و كذلك إذا التجأ إليهم خائف، أو استجار بهم مظلوم، أو نزل عليهم موتور مطرود.

رأى فى الأخلاق الشامية:

تمثل الأمم فى العادة طبقتان من أبنائها «الوسطى و العليا». و الطبقة الدنيا و هى طبقة العامة مستتبعه لا متبوعه، لأن ما هى فيه من تأخر أسباب الحياة، لا يترك لها مجالاً للتفكير فى شىء، غير ما يقع تحت حسها مباشرة، و تشتد حاجتها الطبيعية إليه. و قد تقلد الطبقة السفلى الطبقة الوسطى تقليداً خفيفاً لا يكاد يشعر به، و تقلد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهوراً من تقليد الدنيا للوسطى. و تتجلى فى الطبقة العليا مظاهر السعة فى العيش، و البسطة فى العلم أو الحضارة، و هى أبداً حريصة على مكانتها، تحاذر سقوط شأنها من أنظار الطبقتين التاليتين، و تعد السؤدد كل السؤدد، ما هى فيه من جاه و مال و مجد و علم.

يعد من الطبقة العليا العلماء و العظماء و القواد و أرباب الأموال، ممن يسيرون الجماعات إلى حياتها أو موتها، و ينفثون فى روعها ما يرفع مستواها العقلى، و يطهرون نفوسها من الآثام و الآلام، و بأيديهم زبدت ثروة الأمة و جهودها، و إليهم منتهى ما بلغته قرائح أبنائها يمثلون التسلسل فى الفكر، و تتجسم فيهم الإرادة الثابتة و العزيمة الصحيحة، و هم صورة البيوت الخالدة

خطط الشام، ج٦، ص: ٣١٧

و منعكس التأثيرات الطريفة و التالدة، و مثال الشعب و رقيه و وجهه الوضاح الجميل، و فى قبضتهم مفاتيح المفاخر و مغاليق المآثر و هم المذكورون و هم المشهورون، و مصير غيرهم إلى الخمول و العفاء.

من أجل هذا كان على تلك الطبقة أن تتحلى بحلى الفضيلة و الشرف، و أن تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحداث، بعيدة عن الموبقات و البذخ و السرف، حريصة على النهوض بالأمة تشارك فى المسائل المدنية عن عقيدة راسخة و تأخذ بأيدي العاثرين و البائسين، و تلقن أبناء أمتها علماً ينتج الثروة و يحفظ المجد، و يولى الكرامة. و إذا جنت بالظهور من دون استعداد له و حاولت الاحتفاظ بمكانتها دون أن تتذرع بأسباب البقاء، و بتجديد مواد حياتها الحين بعد الآخر، فإن عزها لا يلبث أن يزول، و سعادتها توشك أن تضمحل، و من العبث أن تعيش هذه الطبقة بشهرة أجدادها من الحكام و أهل الشرف و أرباب المظاهر، و أن تعتقد أن جماع المفاخر وقف على أحسابها و أنسابها، و تطلب من كل إنسان أن يرفع مقامها لأين من أجدادها من كان على شىء من الفهم أو الظهور، أو أنه كان يسفك الدماء و يستحل أكل أموال الناس حتى أثرى و خلف عقارا و قرى و صامتا و ناطقا. و رب صعوك فى نظر المتمجدين كبير فى عيون الخلق. و الكبير من كبرت أخلاقه، و نفع الناس و انتفع بهم.

و إذا جئنا نحاسب مثلاً بعض من انتسبوا إلى الدين، و هم أشرف الفئات فى العرف نراهم أقرب الناس إلى امتنانه بأعمالهم، يأتون ما لا ينطبق على جلال منزلتهم. فقد فشت المطاعم فيهم و استحلوا الأموال مهما كان لونها و طعمها و رائحتها، و أتوا للاحتفاظ بمظاهرها القديمة من الأعمال ما بدت به مقاتلهم، فقصوا بفساد ذمهم على أوضاع الأمة، و ركبوا مراكب الهوى و استمروا

لأنفسهم أكل ما اعتقدوه حلالاً طيباً فأضاعت الأمة مشخصاتها ومقوماتها، وأصبحت مزيجاً غريباً لا تعرف كيف تكيفه. وليس في المجتمع من يناقشهم الحساب، وكيف يناقشون وهم المرجع وهم الهادون. وكان المشار إليهم بالبنان من أهل هذه الطبقة في الدهر الغابر، يدلون بشمهم على الخلفاء والسلاطين، وسيطرون بإخلاصهم على القضاء والحكامين، ومن هانت عليه عزة نفسه يوشك أن يستهين بكل محمده. ولقد أدركنا أحد كبار شيوخ

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٨

العلم، لما شاهد هذا التسفل في طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الديني أن يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسف لأحد يستجدي نواله، ولا- يسمى عالمة على أبواب الحكومات وأرباب السلطات، إن احتاج إلى صناعته احترف بها. وإلا كان لمناصب الدين والدنيا مخطوباً لا خاطباً.

ولى سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة (١٦٧ هـ) وكان محتاجاً، فلقبه داود ابن أبي شيبان الدمشقي فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعلم العلم والحديث. قال: نشدتك الله أتحت جبتك شعار؟ فقال داود: نعم. فرجع سويد جبهته وقال: لكن جبتى ليس تحتها شعار. وقال: أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم. قال سويد: فوالله ما هذا الطيلسان الذى ترى على لى، وإنه لعاربه، أفلا ألى القضاء بعد هذا، فوالله لو ولونى بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته اه. هذا قول عالم فى زمن كان صاحب السلطان يطلب الأكفيا إلى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الأ-جرب. ومنهم من ضرب لأنه لم يقبل أن يلى القضاء، وكان محتماً عليه قبوله لانتهاه الرياسة فى العلم والعمل إليه. كان هذا فى ذاك العصر الذهبى فما بالك بالعصر الأخير، والجها يتطلبون مناصب الدين إلا فى الندر، ويقدمون لتوليتها الرشى والهدايا وقل فيهم التزيه الذى يستحق أن يطلق عليه اسم العالم، أفلا تسقط بجدك هيبه هذه الطبقة من النفوس بعد هذا؟

وبينا تجد بعض القائمين على الدين من أهل السواد الأعظم لا يهتمون لغير إملاء جيوبهم وبطونهم، تشاهد بعض رجال الدين من أبناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا؟؟؟ حولهم، يقودونهم إلى محجة سعادتهم، ويؤسسون لهم دور التعليم والقربات، وينشلونهم من السقوط الذى صاروا إليه بحكم الأيام. فلا بدع إن جاء مجموع الطوائف المسيحية على قلته فى الشام، أرقى من مجموع الطوائف الإسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته.

وكان من أثر الرياسة الدينية المنتفية من الإسلام أن استخدمها أهل النصرانية فى المصالح المهمة، فكان لهم فيها عموم النفع. وكانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة فى تهذيب الشعب عندهم، فأخرجوه من تيه الفوضى إلى باحة النظام. وهذا هو سر الترتيب الذى تراه ماثلاً فى المجتمع النصرانى وهو على

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣١٩

حصه ضئيلة فى المجتمع الإسلامى ولا- يؤاخذ الإسلام بانحطاط أهله وما المؤاخذ إلا من أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبه، ولو كان الدين عاملاً من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان وهى تدين بالبوذية فى مقدمة أمم الأرض علماً وعمراناً.

ولا مشاحة فى أن من طبقة الدينين فئه صالحه، ولكنها كانت فى كل عصر تلقى الجبل على الغارب لغلبة اليأس عليها، وهناك فئه أشد تأثيراً وظهوراً وهى التى طالما قدمت وأخرت وباعت من هذه الأمة المسكينه ما شاءت وشاءت منافعها ودارت فى كل دور مع مطامعها كيف دارت. إلا أن الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقبت من الكبائر، فضربها ضربة آذنت بانقراضها لأنها لم تجار الزمن فى نشوئه، كأن تكون مثال الفضائل تريباً بأنفسها عن الغيبة والنميمة وتشرب أفئدتها حب الصدق والصدق بالحق وتحامى مزالق التغير والتضليل وتحضر وكدها فى واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح، فى زمن اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث، أو بين الدين والإلحاد، وتجلى الانتقال فى كل مظاهر الحياة. وما زالت هذه الفئه تحاول أن تسترد بالثرثرة والتبجح مجدا

زائلا، و هي في حالة المحتضر لا تبدئ و لا تعيد.

و ما تحدثت أن تخرج من جهاتها، و تتطور بطور العصر، و تأخذ بحظ من العلم الدينى و المدنى، و تتحلى بشىء كثير من مكارم الأخلاق.

كان أحد أفراد هذه الطبقة أبلئ فى الدعوة الدينية بلاء حسنا، و رزق قلما ماضيا، و عزا مؤاتيا، و استعد للنزول و النزال فى ميدان دعوته، يحمل أكثر أدواتها. و ما عتم أن ترك ما هيأته الفطرة له و أكسبته إياه التجربة و طول المدء و حاول بلوغ مظهر جديد اعتقد أنه جماع المظاهر، و هو لم يتمرس بآدابه، و لا عرف مداخله و مخارجه، و غلبه حب الشهرة فادعى ما لم يخلق له و لا تخلق به و نسى الغرض الذى يضطلع به، و راح يستغل موضع الضعف من فطرته و لا يعتمل فيما يرجئ فيه كماله، ترك سيرته الأولى و هام بمظهره الثانى، زهد فيما يحسن و حاول التلبس فيما لا يحسن. و غريب من إنسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته و تربيته، و يجاهد جهادا آخر فى ساحة الوغى و لا سلاح معه يستخدمه، و لا آله من أدوات الحرب يتقنها. الذكاء

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٢٠

وحده ينفع إلى حد معين، و أدوات النجاح فى طريقه تحتاج إلى علم و فطرة.

و العلم بالتعلم و التريض، و الفطرة هبة لا تباع و لا تشرى.

أنت يا هذا إذا حفظت قواعد علم من العلوم، يتعذر عليك أن تدعى الكيمياء و الطبيعة أو السياسة و الاجتماع، علوم مختلفة طويلة الذيل لا ينفع معها التخليط. القواعد المجملة التى تحفظ من كتاب فى موضوع تحتاج فى إتقانها إلى صرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القرية قياد كل أمر و لا تيسر فى سبيلك كل دعوى. و لذلك ترى من هذا شأنه صاعدا متديلا، ينفى اليوم ما أثبت أمس و يحارب حيناً من سالمه زمنا، يصانع أرباب القوة طورا ثم يقلب لهم ظهر المجن تارة، إذا لم يستمرئ ما أطعموه و لم يستقبل من أمره ما استدبر فى وضع الخطط التى خطها لهم، و الناس كلهم فى نظره صغار عقول و أرباب فضول و هو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامد، و لذلك لا- يظن عليها بما يمجدها، و يضع الألقاب الضخمة لها و ينوه أبدا بما انطوى عليه من شرف و علم و عمل، و من رضى عنه من الناس ينيله من عطفه ما لو وزن أيضا فى ميزان القسط لثالت كفته. و العاقل من أنصف نفسه قبل أن ينتصف الناس منه، و من ظلم نفسه كان حريا بأن يظلم غيره، و لهذا أمثال غير قليلة فيمن يلقبونهم ب «البارزين» و الخواص أى النابيين.

نموذج آخر. بينا تجد الأول يجرع دعوته كما يجرع الصاب و العلقم و يستعلى و يستطيل و يحاول أن يثبت أنه مصدر كل خير، لو استمع الناس له لتمت سعادتهم الدنيوية و الآخروية، ترى أخاه قد اتخذ فى الحياة غير طريقته و خالفه فى سيره و سيرته، فقد لقن فى صباه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكلليات حكما مسمطا و يتلطف و يتطرف ليجد السبيل إلى قلوب العامة و السوق لأنهم كثير سوادهم يستميلهم بالدعابة و الفكاهة، و ماذا يهمهم من الخاصة و هم قليل عديدهم، و ما يناله من غضبهم و رضاهم ما دام الجمهور عنه راضيا. و أحسن ما يراه للوصول إلى قلوب العامة أن يرضى كل صاحب سلطان، لأن فى رضى القوي تنطوى المظاهر و الدنيا و هو عبدها و غايتها من الحياة السجود على أبواب سدنتها، لا يبالى أن يصعق

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٢١

كل من لم يمالئوه، و يتوهم أن النقاد لا- يفرقون بين الزيف و البهرج، و لا- بين الهازل الماجن و المجد المجاهد، و العلم الحقيقى يولى صاحبه عزوفا، و إذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة إذا تخطاها أدركه العثار.

عرفت عالمين دينيين أريدا على أن تفتح لهما أبواب الرزق، و تغدق عليهما المظاهر على أن يسفا إسفا خفيفا يكون فى السكوت عن رجل كان لهما صاحبا قديما فحاز مظهرا كبيرا من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع و الشهوات، و كان جوابهما كل مرة أن من لا يعمل للمصلحة العامة لا يستحق صداقتنا، ليات ما استطاع من الخير و نحن بالطبع له الأخلاء الأوفياء لا نريد منه جزاء. و هكذا

قاطعاه و هو الحاكم المتحكم في الدولة، و هكذا عزفت نفسيهما عن أن يرقصا للقرد في دولته و يزيننا للظالم ظلمه و هو في أوج عزته. زهدا في الجاه العريض لزهد صاحبه في الفضائل و شدة هيامه بدرهمه و ديناراه. رجلا ن يأكلان اللقمة بالتسفل و الرياء و آخران جاهرا بأنها تؤكل بدون هذا. و هذا مثال من أخلاق بعض المعاصرين، و عبرة للأعقاب في الغابرين.

ظهر التعطيل في الإسلام منذ قرون، بما قام به المبتدعة من أهل الطرق و سخفاء الدجالين و القصاصين، فانحطت العقول و ضعف مستوى العلم و التهذيب في الناس فمن تصدى يا ترى لمحاربه هذه الضلالات التي لم ينزل بها سلطان؟ فشت أخلاق سيئه تخالف هدى الدين فتغافل الموكل إليهم هداية الخلق عن انتشار سمومها كأنهم يقرونها، و تركوا رعيتهم هملا كالسائمة. و كانت دروس العلم مباحة مورودة إلى أوائل هذا القرن، و بتساهلهم كاد العلم الإسلامى ينقرض. و جاء كثير من مرتفة الوعاظ و الخطباء و الأئمة و القضاء جهلاء يفتون بغير علم، و يخطبون بالمبتذل الساقط، و يلهون الجمهور بالقشور، و يبيعونه من سلعم الكاسده ما لو ائتم العوام بأوامرهم لرجعوا ألف سنة إلى الوراء. و إذا اجتمع هؤلاء الدينيون إلى أكثر زعماء الأديان الأخرى، ظهر الفرق بين التقصير و العناية و تجلت المباينة بين من ساروا مع الزمن، و من عاندوا الحقائق و حاربوا العقل و جمدوا في الفكر، و مالوا إلى الكسل عن العمل. و فوق هذا تراهم يجمعون أموالهم بخرق حرمة كل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٢

قانون و شريعته، و هم متخاذلون متفاسلون لا يكاد واحد منهم يزكى أخاه، و لا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير. و العاقل يرجح الأمية على هذا العلم الذى لم ينتج خيرا لأهله و لا لغيرهم، و الأميون لا تصدر منهم هذه الجرأة على العبث بناموس الكمال. و من تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منها، كانوا أشد انتقاضا عليها من الجاهلين و الغافلين.

و تتصرف على هذه الطبقة، طبقة تلتحم بالخاصة أو العليا أيضا، من جماعة المتعلمين على الأصول المدنية الحديثه، فقد دب في بعض هذه الطبقة سوس الفساد و لما تزل في بدء تأسيسها، و ظهر لأرباب البصائر أن الدروس الطبيعية و الرياضيه و الاجتماعيه و الفلسفيه و الحقوقية تنير العقل، و لكنها لا تحسن الأخلاق، إذا كانت منحه من أصلها. و ربما كان العلم في بعض هذه الطبقة أداة شر تستخدمه حبائل لصيد ما يسد المطامع. و الأخلاق مغروسة في الدم و الأسرة، و العلم صناعة يتعلمه الذكى الدائب.

و لقد تلونت صبغة هذه الفئة في هذه الأرض الطيبة، بألوان أهوية الأقاليم و جوائها، بل بألوان المدارس التي تخرجت بأساتيدها، فمن تعلم منها في مدارس التبشير التي أنعم بها أهل أوربه و أميركا على آسئه و إفريقيه، جاءت إقليا منحه من ربقه حب الوطن و عهدة حب الجماعة، و استحكمت في كثير من أفرادها الأنانية و الأثرة استحكما هون عليها كسر قيود الحكمة و الخروج على الأدب الصحيح.

و قد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعادة الدينيين و الأعيان، و الإزراء بسائر الطبقات و أكل الحسد و الحقد قلوبها، فهى لا تتحاب بينها و لا تحب غيرها، و لا تعرف من محيطها أكثر مما يعرف الدخلاء: شمخت بأنوفها، و احتقرت كل من لم يجر على مثالها، و لا تتقف تتقيها. و منهم من دفعه ما لقفه من تربية و حصله من تعليم ناقص، إلى خدمة الغريب، و الفناء في محبته و الدهشة بكل ما يأتى على يده و قبول كل ما حملة من خلق و ثقافة و التغنى بتاريخه و مجده و التغزل بجمال بلده و الإعجاب بأوضاعه، أخذ كل ما أعطاه شاكرا مغتبطا، فخرج بذلك عن قوميته. و كثير منهم هجر بلده، إلى مكان ينبت بزعمه العز و يدر أخلاف الرزق.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٣

و منهم من تعلموا في مدارس الدولة المنقطعة و تخلقوا بغير أخلاقهم، و انحلوا زما من قوميتهم فلا يفكرون و لا يتكلمون إلا بالتركية، و لا يكتبون إن كانوا ممن يحسنون الكتابة إلا بالتركية. فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة إلى ادعاء العريية و كانوا من قبل يعقونها و هم من أبنائها، زاعمين أنهم تبدلت أخلاقهم بمجرد الانتقال من دور إلى دور.

و ليست الأخلاق بذلة تنزعها، و لا- طلاء تزيله و تستبدل غيره به. و لما كان معظم من تعلموا هذه العلوم فى العهد السابق من أهل الطبقات النازلة فى أصولهم، كان الموروث لهم و المائل فيهم من الأخلاق مثلا من أخلاق أهل جرثومتهم، و لذلك هان عليهم و يهون فى كل دور أن ينزلوا عن مشخصاتهم لأول طارئ. و هذه الفئة مضرّة بأخلاقها أكثر من الجهال لأنها تعلمت تعليما ممسوخا ظنته كل شىء. و مذ فارقت المدارس التى تفاخر بأنها تحمل شهاداتها، و كثيرا ما نال شهاداتها المتوسط و الغبى، ظنت أنها قبضت على قياد العلوم و ودعت الكتب فصارت ترجع القهقرى فى معارفها الأولية و تجلت أخلاقها فى كل ما عانته من الأعمال، فكانت إذا و سد إليها أمر تلتهم الأخضر و اليابس، و إذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل إذا لم تجلب لها السعادة التى تتصورها.

رأى المجتمع من سقوط الأخلاق فى بعض أهل هذه الطبقة ما تندى الجباه من تسجيله: رأى منهم من يقول و لا يخجل أنه إذا قيل له: إن الحالة الحاضرة ستبديل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن فى أمر راتبه الذى يقبضه من سلك ما كان يحلم أن يحشر فى جملة أهله، و يقول أبدا: اعذرونى إذا خدمت أغراض كل صاحب قوة كما يشتهى، و إذا كنت له آله فى كل ما يجب.

هو غنى الجيب فقير النفس. جاهل يحشر نفسه فى العلماء، و الطبيعة تضعه حيث تريد.

و منهم من جعل رأس ماله فى مصانعة و لاء الأمر مهما كانوا و التقرب إليهم بكل حيلة، لينال مظهرها يظهر به، لاعتقاده و اعتقاد كثيرين أن الشرف كل الشرف فى التقرب من الحكام، و أن كل مجد جاء من غير طريقهم لا- وزن له إذا نصبت الموازين، و هؤلاء المتصدرون أسوأ مثال لمن حولهم.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٤

يجبون إليهم الاتكال و ضعة النفوس، و كأنهم يقولون: إن سبيلهم لا غيرها هى سبيل الفلاح و التمجد، و إن الفضائل لا شأن لها أمام المغانم. و إن العلم لا ينعف بغير تدليس، و الطريق المسلوكة عندهم طريق المداجاة و المحاباة، و إتقان المؤمرات و السعيات. و منهم أناس ظنوا و يا لسوء ما ظنوا، أن السعادة مناط القحة، و السعادة هى المال، و المال محلل أخذه من كل وجه، فتراهم يرتكبون كل شائن من العمل ليجمعوا مالا و يعددوه و يستمتعوا بمتع الحياة، فهم حراس على كل ما يوصلهم إلى غايتهم، سلاط فى التسور على مقامات أهل الفضل، يصمونهم بكل كبيرة و ينبزونهم بالخفة و الرعونة. جوزوا لأنفسهم السرقة، لأنهم لا مأرب لهم فى غير الإثراء، و جمع المال جماع المزايا فى نظرهم. احتقروا الشرائع فهان عليهم تبديل مذهبهم و التقرب إلى أهل كل دين و طريقة بدينهم و طريقتهم. لو أنصفوا لعدوا لصوصا عارفين باللصوصية، و اللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرها ليطعم نفسه و عياله، و هذا يسرق جهرة من كل طريق و يزيد على لؤم طباعه تبجحا بالمبادئ و الشرف و الأمانة، و من الغريب أن يرى حتى من الأذكياء من يجلونه أو يغالطون أنفسهم فى انحطاط أخلاقه و هم يعرفونها، و رحم الله شاعر مصر إسماعيل صبرى حيث قال:

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفرا

و تفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا

أوجه مثلما نثرت على الأجداد وردا إن هن أبدين بشرا

و شفاه يقلن أهلا و لوأدين ما فى الحشا لما قلن خيرا

و منهم أناس ورتوا عن آباءهم استحلال أكل السحت و العبث بحقوق العباد. فلما تلقفوا القشور اللازمة لهم فى المدارس التى سموها بالعليا و مرتوا على النفاق و الباطل و مردوا على آداب الأديان و خرجوا عن أوضاع المجتمعات، جاءوا سراقا يسكنون القصور، و عاشوا طول حياتهم فى ذل النفوس، يجمعون بين المنازعة المختلفة فى وقت واحد علما بأن أحدها لا بد أن تكتب له الغلبة، فإذا نجح كان لهم حظ من نجاح أهله، و إذا أثمر الآخر لم تفتهم خيراته، جعلوا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٥

بيوتهم للخمر و القمر أندية و مسارح، و فطموا نفوسهم إلا عن إشباعها المال الحرام. و هم بأصحاب الملاعب أشبه منهم بالمتعلمين

أصحاب المراتب، وإذا دخل الغرّ حانتهم وفيها كل مفعول جائز هان عليه انتهاك الحرمات، وإذا عاشرهم تعلم في بؤرتهم من التزوير والتغريب ما يعاب به الحيوان فضلا عن الإنسان.

ومنهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم وأخذوا الدس والوقية بالسند المتصل بأبائهم، وكان قصارهم أن يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس ودمائهم، ليتأثروا وينفقوا في السفه ما تأثروه، فهم لا يستنكفون عن التقرب من أصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط، ويسمون لعامة أصناف الناس بل ويصنعونهم على حين تلعنهم قلوبهم، وهم موقنون أن المصانع على الجملة يعرف كذب مصانعه، ومع هذا يمضون في طريقهم وهم لا يحبون أحدا ولا يحبهم أحد. ونزع عقيدة عرفوا بها أمس، لتقلد غيرها اليوم، أسهل عليهم من نزع أحذيتهم وقمصانهم. قضوا أعمارهم في نصب الحيل والمكاييد، لا يلدنهم من دنياهم غيرها، وأكبر أفراحهم يوم يغشون ويسرى في الناس غشهم، كأن المدرسة التي تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك.

ولكن هي الفطرة إذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضا عليها، تنبذها ولا تسيغها.

ومنهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام أعمالهم بسلب نعمة الضعيف ومحاولة التقرب من القوى نبذتهم الطبيعة أولا، ثم عمى الدهر عنهم فبلغوا مأربهم من المراتب، ولم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل، فظهروا في مظاهر من الكبرياء والعظمة، ومن أين للسافل بأصله أن يكون فرعه عاليا. حصروا همهم في العبث بالمصالح العامة، فلا يفكرون بغير إملاء جيوبهم، والدهان لساداتهم مهما كانوا، وتوفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم، وإن كانوا من أخط الطبقات معرفة وأخلاقا. وقد رأينا من هذه الطائفة من يغير سيرته في السنة الواحدة مرتين، ويدخل في آن واحد في عدة أحزاب وجمعيات سرية وجهرية، ويقسم لكل واحد منها اليمين الغموس، معاهدا كل طائفة على الإخلاص لطائفتها وحزبها وطريقتها دون غيرها، وهو لا يتوقع من هذه المرونة المستغربة إلا أن يكون له شأن مع كل

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٦

حزب إذا كتب له الظهور ..

ومن هذه الفئة أناس لا يهنا لهم بال إلا إذا اغتوا، فلما انتفخت صناديقهم بالورق والورق، ضيقوا حتى على بنيتهم وبناتهم لئلا يسرفوا في أموالهم، فاضطروهم إلى ارتكاب كل شنعاء، أما هم فعادوا يدعون الفاقة، فتراهم لا ينفقون إلا ما يحفظ عليهم مظهرهم، ويوصلهم إلى مراميتهم، كأن الدينار جعل للخن فقط، والسعيد من يجمعه ولو لم يستمتع به حياته، ويخلفه لمن هم عليه أشد الأعداء، يصرفونه في العهر والخمر والزمر والقمر. ولو أنصف هذا نفسه لأنفق بعض دخله على ما يرفع مستوى أمته ويزيل بؤسها، وفي هذا ظهور له أيضا إن تاقت نفسه إلى الظهور.

ومنهم طائفة تصلى وتصوم، وتلزم المساجد ودروس الوعظ، وتظاهر بالدين، وتتقرب إلى حملة الشرع وأرباب الصلاح لا تغفل السبح من أيديها، تتظاهر بأنها تذكر اسم الله في غدوها ورواحها، وهي في باطنها من أشد الخلائق عداوة للإنسانية، تقول بألسنتها ما ليس في قلوبها، ولو كشفت عنها الغطاء لأيقنت أنها من الشفقة بحيث لو شاهدت صغارا يتضورون جوعا ما أطعمتهم فئات موائدنا، ولو بصرت ببائسين يرتعدون دنقا وعريا ما كستهم بلاس بلاطها ولا زودتهم حثالة مطابخها وأهرائها، وإذا وقع لها أن أكرهت على نجدة بئس مؤوف تبجحت بما أتت، وقامت تومئ بلسان الحال إلى أنه لولاها لانهار بناء الأمة وتداعت صروح مجدها، وتوهم أن وجودها رحمة، وعملها غبطة ونعمة، ولها في نشر ما تتخيله محامد، أساليب غريبة مضحكة.

ومنهم أناس إذا عرفتهم في العهد الماضي عرفتهم بعجمتهم التي لا غبار عليها، وهم ما كانوا يجوزون لأنفسهم التكلم بلغتهم الأصلية، فلما تبدلت السياسة تبدلوا لساعتهم، وصاروا لغير ما سبب معقول حربا على من كانوا بالأمس يتمنون رضاهم، وأخذوا أنفسهم وأبناءهم بتعلم لغة من جاءوهم، وغيروا عاداتهم ولهجاتهم، وأنشأوا يستخدمون كل الطرق للاحتفاظ بكراسيتهم، حتى إذا جلسوا عليها نسوا فضل المفضلين عليهم، وقد عاهدوا أنفسهم أن يخدموا كل صاحب قوة بالصورة التي تروقه مع

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٢٧

ذكاء فيهم و تجربة أحرزوها فهان عليهم أن يبيعوها مقابل عرض قليل و مظهر ضئيل. التجسس فيهم فطرة و الإزراء بالقومية و الوطنية من مألوفاتهم ما أساءوا استعمال ما ائتمنوا عليه إلا ليغتنوا بطرق عرفوها، و يغنوا أبناءهم و لو كان في ذلك هلاك مئآت من الناس. و منهم أناس كانوا في أخذ المال كالعلقه يمتصون الطاهر و غير الطاهر ثم يفيضون منه على القانع و المعتر، و يطعمون الطعام و يكسون الأيتام. و منهم من جمعوا عشرات الألوف و مئات الألوف و لا توجد أنفسهم بدائق لتعليم أطفال الفقراء و إنجاز البائسين و إكساء العراء. و إذا تصفحت جرائد الجمعيات الخيرية التي قامت في العهد الأخير لتعليم اليتامى و إغاثة المحاويع، لا تسقط فيها إلا نادرا على أسماء بعض أرباب السعة، بمعنى أن هذه الطبقة كانت أقل الناس في معاونتها. و الطبقتان الوسطى و النازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم، اقتطعتاه من رزق عيالها، لتطعما به من هم أجوع منها، و تنشل من السقطة من هم أكثر سقوطا من بينها. و في هذه الديار عشرات من الأغنياء يدمجون في سلك الأعيان يعتزون بأموالهم، و يضمنون بها كل الضنائة، اللهم إلا إذا كان في صرفها إرضاء شهواتهم، و توفير أنواع رفاهيتهم. و إذا أشير إليهم أن يشاركوا في المصالح الوطنية لووا وجوههم، و هزأوا في باطنهم بهذه الأعمال التافهة، حتى إذا حلت بهم مصيبة أخذوا يستنجدون و لا- ينجدون، و يطلقون ألسنتهم في رجال كانوا بالأمس يقصدونهم، و آتى للأمة أن تعرفهم أيام شقائهم، و هم لم يتعرفوا إليها أيام سعادتهم. هذا و هم أنصار كل حكومة تسوغهم أكل حقوقها و حقوق الضعاف، و تطلق أيديهم في ظلم الفلاحين و المغفلين، و تعاونهم في محاكمها على فض قضاياهم بما يتفق مع رغائبهم، و توسد إليهم أمورهم المنتجة لهم مالا و جاها.

في هؤلاء الأعيان رجل كان عنده من أدوات الزينة و التبرج ما يساوى المئآت من الدنانير، و ربما كان ثمن ربطات رقبته المعمولة من الحرير لا يقل عن ألف جنيه، لأن عددها كان ألفى ربطه معروضة في قاعة كبيرة، و كنت إذا أردته على أن يتباع جريدة ليقراها شكا إليك ضيق ذات يده،

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٢٨

و أظهر أن القراءه مما لا- تسمح له به أوقاته الثمينه، و كان يمدن أمواله في الأرض، حتى لا- يظهر عليها الناس إذا وضعت في المصرف، فظهر منها ألوف بعد أن أصيب بنكبة اضطرتة إلى نبشها. و بلغ الشح ببعضهم أنه كان يطعم خدامه و أولاده طعاما غير ما يطعمه نفسه و زوجته، و يدعى مع كل من يجتمع إليه أنه فقير مملق، لا طاقة له على تحمل شيء، فلما اضطر إلى الكشف عن دوائه كانت ألوف عدا ما يسلفه بالربا الممقوت أضعافا مضاعفة و عدا مزارعه و حدائقه. و من الغريب أن يتطوع مثل هذا الرجل الذي رد إلى أرذل العمر في الجاسوسية و هو يتظاهر بالتقوى. و أكثر هؤلاء الأشحذ يظهرن في العامة بمظهر المتصدقين و المحسنين، كأن توجد نفوسهم ببعض دريهمات لبعض المستكدين على رؤوس الأشهاد، ليقال عنهم إنهم أهل خير و صلاح. و هناك رجل كذب على قومه طول حياته الطويلة، بنسبه و علمه و تقواه، فلم يعدم بين ضعاف العقول من صدقوه في دعاويه، و عاش بمداهنة الناس و بلغ من ثقة القوم به أنه إذا حانت منية أحدهم، يلوب على من ياتمنه على أولاده بعده، فلا يجد غير هذا المزور يقيمه وصيا على عياله لما اشتهر من أمانته بين السذج في كل دور، فلا يلبث مال الموصى أن يمزق بيد الوصى.

و هكذا كان هذا الدعى بعد نصف قرن من المشار إليهم المجمع على تكريمهم، و قد عرف أيام تولى القضاء بتبرئه المجرم و تجريم البريء. و من العجب أنه لم يسأله أحد من أين جاء بثروته، و العادة على الأكثر أن لا يسأل الغنى عن طرق غناه بل يتمسح به و يتبرك بأنفاسه، و لو كان لا ينزل منه عن قضمير لأحد.

ظهر كثير من العامة في حوادث وقعت بمظهر الغيراء على المصالح الوطنية، و أبانوا عن حمية و أريحية ما كان يرجى صدور مثلهما من أرباب الطبقة العليا، و لا ممن اعتادوا أن يجعلوا من الأديان سلما إلى درك شهواتهم، و قام من صفوف الأيمن و أهل المتربة أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقا نافعا مخلصين في أقوالهم و أفعالهم، معتقدين الخير فيما بذلوا أنفسهم و نفائسهم في سبيله. و

تجلى النبوغ في أفراد منهم بحكم قانون الرجعة، فأثبتوا في الشدائد بهذا الشرف المغيب أنهم ربما كانوا من سلالة عظماء أكارم. و هناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٢٩

امتهان النفس في أخس الأعمال مقابل عرض ينالونه أو إقبال يتخلونه، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الأبد، فكان ظاهرهم مجملا، و باطنهم خبثا و خديعة، يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة، و يداجون كل من يلقاها بما يريد، و لعلك على حق إذا قلت إن صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم.

فهم ممن حب إليهم من دنياهم أذى القريب لا ينامون ملء جفونهم إلا يوم يوقعون بأصحاب الشرف و المروءات.

و ما لنا و الإكتار من ضرب الأمثلة بفئة هي معقد الآمال في الإصلاح و هي لم تكد تحقق رجاء إلى الآن، و ليست في أخلاقها مما يرغب المرء كثيرا في تكثير سوادها، لأن منها من تجرد من معنى الحق و الصدق. و لو حلت نفوس أكثرهم تحليلا-دقيقا لرأيتم أعرف الناس بالمدخل و المنخرج و أعراهم من أكثر الفضائل الكسبية و اللدنية. ضعف عطفهم على جنسهم و هان عليهم أن يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم. فهم أبدا سلاح الغريب على القريب، و هم يده الباطشة و أظافره الخادشة.

و لظالما نضب حلم أرباب الحلوم من تلاعب أناس استناروا بقبس العلم الحديث، يتهاشون على أبواب جمعية مدنية و هم في الحقيقة لا يهمهم من دعوتها إلا أن يحموا بسلطانها سلطانهم، و يستروا في حمى كهفها معايبهم، و من الغريب أنه لا يكاد يرقى في درجاتها إلا من عرفوا بالاسترسال في حظوظهم، و كانوا من الممقوتين في العرف و العادة، هذا و قانون الجمعية شديد في التسامح مع أمثالهم، و لكن كل قانون ينصبغ بصبغة محيطه، و ما دام المحيط على ما ترى فلا بدع إن كان بعد هذا أعظم قانون سماوى أو أرضى في حكم العدم.

و لا- يفوتنك أن الطبقة الوسطى في ديارنا هي التي تتمثل فيها الأمة حقيقة لا مجازا و يكثر فيها الخير و يقل الشر، و هي التي تقوم بجلب المنافع و درء المضار، و تعيش في خوف الديان، و تهتم لسعادة الأوطان، هي في الغالب محدودة بعقول أبنائها، كثيرة بما يتم على أيديها من الخيرات باجتماعها، و هي التي تفكر و تقدر و قد قام كثير من الأعمال النافعة بصنيعها و من وضعها. فيهم الصبر و فيهم الأناة و فيهم الرحمة، خسيسهم أقل من رفيعهم، هم قوة الظهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣٠

في جيش الأمة بل في طبيعته المتيقظة. السخاء مغروس في أكثرهم و المروءة و الوفاء غريزتان يورثهما الآباء لأبنائهم، و هم يبعدون عن أرباب السلطات، دأبهم التوفر على صناعاتهم و زراعاتهم، و قلما تحدثهم أنفسهم أن يتخذوا بديلا عن عمل عاناه آباؤهم و أجدادهم.

الأخلاق التي تعبت بالفضائل هي التي رسخت في بعض العلية من أهله.

و شهد الله أن هذه الأمة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف أخلاقها، و إذا أخذت المطامع البشعة من قلوب دعاة الإصلاح و حماة الحوزة كيف يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم؟ و مما يسوء أن كان أقرب الناس إلى إدراك معنى الفضائل أسرعهم إلى عقوقها و انتهاك حرمتها. و إذا كانت في الطبقة الوسطى هنات لا يخلو منها إنسان فهي كالعوذة يتقى بها شر الحاسد، و يسان بها جمال المكرمات و المحامد، و قلما يخلو بشر من عيوب صغيرة ضررها على صاحبها وحده.

أكثر ما تعاب به هذه الأمة عصيانها على الأنظمة و الشرائع لا تطبق منها إلا ما لا يمس بمصالحها الخاصة، فإذا كان في بعضها ما يخالف الشهوات و الأغراض خرجت عليها و حاربتها و المهيمين عليها. و لذلك صعبت هنا في كل قرن مهمة المصلحين في إصلاحهم لقلّة الثبات و ونى الهمم. فقد يسرع بعضهم في التصديق خصوصا إذا أحسنت الدعاية بادئ بدء و لكنهم سرعان ما ينقضون العهد. و من أضرب ما يضر هذا الشعب أنه قلما يخضع للزعيم خضوعا حقيقيا تقرأ معانيه في حركاته و سكناته و لو كان الزعيم

في الغاية من حسن الأخلاق و إرادة الخير لها. و هذه أخلاق العرب بعينها أفرطوا في حب حريتهم فحاول الصلوك فيهم أن يكون وحيها فسارع الانحلال إلى دولهم بالطبيعة و ظهر التخط في إحرازهم الرياسات منذ فجر الإسلام. و ظلت هذه الأخلاق متسلسلة في دمائهم. و قد يريد الطامع في شيء أن تنقلب الدولة رأسا على عقب، و تنتقل و لو إلى عدوه، على أن يتولاها قريبه الذي لا يحبه و أن يهلك في الحميم و النيران المستعرة فريق عظيم من قومه إذا كان له من هذا الحريق ما يشوى به سمكته.

و أنت إذا حلت روح الشاميين تراهم فرادى لا يقلون كثيرا عن

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣١

غيرهم من الراقين، و إذا جئت تحللهم جماعات فهناك التفسخ في القوى و الانحلال في الروابط. الشاميون إذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة و التصدر، و تباينوا في الفكر و الاجتهاد، لأن الذكاء غالب عليهم، و حب الذات مستحكم في شغاف قلوبهم، و كل واحد يريد أن ينفذ قوله و لو كان مغلطا، و إذا لم يوافق رفاقه رفاقه على ما ارتأى عاداهم و ربما آذاهم، كأن الاختلاف في الاجتهاد يستلزم العداوة و السخيمة. فلا تستغرب بعد هذا إن أصيبت أكثر أعمال الجماعات عندهم بالشلل و الفشل و منها ما يموت كالجنين في بطن أمه قبل أن يتمثل بشرا سويا. و قد ينشئ غير المسلمين الجمعيات و المجامع و يحالفهم النجاح أكثر من غيرهم لأنهم على تربية متقاربة و على تكافل و دؤوب في الحملة. و ما ندري لعل العامل في هذا النجاح الضرورة التي دعا إليها تماسك الصغير أمام قوة الكبير، على حين ترى أن هذا الكبير لا يحسن على الأغلب إلا الإدلال بقوته الموهومة و الإعجاب بماضيه يقف عند حده، و لا يعرف أن يبرهن على العظمة الغابرة بسداد أعماله الحاضرة.

و من عيوب السواد الأعظم أن الهزل يغلب عليهم، و الجد قليل فيهم، يحبون المداعبة و الهزل و اللهو، و يسوء بعض اللثام أن يروا في قربهم من يجد.

يهزأون بمن يعملون و هم لا- يعملون و لا- يعرفون كيف يعملون، فسيلهم سبيل العاطل و المعطل. و من عيوبهم أنهم لا- يصدقون صاحبهم لأن سوء الظن غالب عليهم، هذا و لو جاءهم مستنصحا مسترشدا، لأنهم أميل إلى المصانعة لا إلى الصدع بالحق، و أقرب إلى أن يرضوا جلسهم و يسكتوا أمامه عن هفواته، و ربما التمسوا له في حضرته المعاذير حتى إذا غاب عن عيونهم نحتوا أثلته و عابوه بما قد لا تلمه تبعته. و من أجل هذا تأصلت في القوم عادات و أخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها و ينكرها غير مدالس و لا موالس.

فالعومة الظاهرة التي تشاهد في بعض الشاميين يحتاجون معها إلى شيء من الخشونة و القسوة.

كانوا في الأيام الماضية إذا أرادوا الحط من شخص سلوه صفاته و اتهموه «بالمروق من الدين» و ربما أوصلوه بهذه التهمة الشنعاء إلى ضرب عنقه، و هذا من بعض الأسباب في قلة النوابع في القرون المتأخرة. و اليوم

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣٢

نشأ لهم زى جديد من أزياء التهمات يلبسونها من لا ترضيهم حاله، أضافوا إلى من يحاولون النيل منهم تهمة «المروق من الوطنية» كأن الوطنية ما هم فيه من الختل و التخاذل و طلب الظهور بقاصم الظهور. و يا لشقاء الدين و الوطن كم اتجر بهما متجرون في الغابر و الحاضر. و من تدبر أحوال هذه الطائفة بأدنى نظر أدرك أن كل من يتجرحون بهذه الدعاوى هم أول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير.

و الدواء الناجع في مداواة هذه الأخلاق هو أن يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح و الأخلاق الصحيحة و القومية الصحيحة.

أما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون و يتجههم لهم العقلاء في كل ألق، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم و

جاههم و مالهم. فإن من السخف التلطف مع الأشرار في المحضر، و التهامس في قبيح سيرتهم في المغيب. يجب أن يناقشوا الحساب و لا يؤمن لهم على خطاب و «المؤذى طبعاً يقتل شرعاً».

سيقول فريق ممن يقرأون هذه الصفحات: إنها أغرقت في وصف أخلاق الطبقات و فضحت ما كان مكنونا لا- يعرفه إلا- أرباب البصيرة، و نحن في زمن أحوج ما نكون إلى السكوت عن المعاييب حتى لا- يبدو عوارنا لغيرنا، كأن غيرنا لا يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا. و كان الأولى في عرفهم أن نجامل و نجمجم، بيد أن السكوت عن العيوب عيب كبير، و كتمان العلة مدرجة إلى الهلكة، و التاريخ لا يكتب على الهوى و لا يملئ لإرضاء الناس. و ما نخال منصفاً بصيراً إلا و يعترف و هو مثلنا جد آسف أن ما أصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن إلا بسوء أخلاق من تولوا من أبنائها أمرها، و أنه من المستحيل بعد أن صرح الحق عن محضه أن تؤلف الشام كيانا يذكر و تقوم في ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر، و لو أوتيت علم الجرمانيين و اللاتينيين، و رزقت غنى الإنكليز السكسونيين، ما دامت أخلاق أهل الحل و العقد فيها لا تعالج بالتقويم، و لا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم و عقولهم. الساكت عن الحق شيطان أخرس.

فصلته لكن على عقلي فمماقياس عقلك كان لي معروفا

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣٣

حياة محمد كرد علي مؤلف خطط الشام «ترجمته بنفسه»

أصل أسرنا من السليمانية تنسب إلى الأكراد الأيوبيّة، جاء جدي إلى دمشق في التجارة و كان من أهل اليسار فراقته و سكن فيها. ثم ذهب في بعض السنين إلى الحجاز متجراً، و اتفق له أن انتقد ذات يوم عملاً من أعمال محافظ الحج، و كان ظالماً جباراً، فشق ذلك عليه، و أمر بمصادرته في كل ما يملك، فاضطر أن يذهب إلى الاستانة مستعدياً. و ما زال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان، و اقترح عليه هذا أن يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج، و يأخذ مقابل ماله قريتين في الشام إقطاعاً له و لأولاده من بعده، فأبى و قال للسلطان: ما جئت لأخذ صدقة بل جئت أطلب عدلاً و إنصافاً.

و هكذا رجع إلى دمشق مجرداً من ثروته و هلك قهراً بعد قليل. و خلف والدي يتيماً فقيراً فاشتغل لأول أمره في صناعة الخياطة ثم بالتجارة، فأثرى مرات و خسر مرات، و ابتاع في آخر أمره مزرعة صغيرة في الغوطة تمزتها أنا و إخوتي منذ كنا صغاراً و إلى الآن. ولدت في دمشق أواخر صفر سنة (١٢٩٣ هـ) (١٨٧٦ م)، من أم شركسية، و لما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة و الكتابة و مبادئ العلوم الإسلامية و الحساب و الطبيعيات في مدرسه كافل سيباي الأميرية، و نلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مبادئ التركيّة، و كانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتاني والدي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة و صرفها على الأصول مدة ثلاث سنين،

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣٤

و برعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية و بالعكس. و لما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة، لأنني لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لإصابتي بالحسر و ضعف البصر- بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الأستاذ من أشكالها و خطوطها في اللوحة، ففاتني التبحر فيها مع الأسف- عينت مدة ست سنين موظفاً في قلم الأمور الأجنبية، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركيّة. و شرعت أنشئ فيها كما أنشئ بالإفرنسية، و قد اختلفت حولين كاملين إلى مدرسة اللعازارين للاضطلاع بآداب اللغة الإفرنسية، و درست الطبيعيات و دروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكناً منها.

و قد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية و العلوم الإسلامية، و تلقيت اللغة الفارسية حتى حدقتها ثم أنسيتها. و في خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري و السيد محمد المبارك و الشيخ سليم البخاري و أخذت عنهم و عن

غيرهم من مشايخ الطبقة الثانية كل ما وسعتني قراءته، من كتب اللغّة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة. وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشراي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت أزره منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (١٣٣٨ هـ) حميد الأثر. و كنت بدأت بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أستاذي المبارك، وأرادني على إتقان الإنشاء فقط، وما ينبغي له من الأدوات، لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم. فصدعت بأمره، كما كنت قبلت نصيحة والدي، وأنا يافع، بترك الإنشاد بصوت رخيم. لأن ذلك كان يعدّ في نظره شيئاً ضياعاً كما روى ذلك عن شيخه. وهكذا حرمني والدي الموسيقى، وحرمني شخي الشعر. ولو لا نصيحتهما لعنت بهذين الفنين، و كانا لي سلوى و أي سلوى. ولكن أستاذي المبارك خرجني باللغّة والإنشاء. و والدي، و كان عامياً يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلمني. فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتي، و قد ابتاع لي خزائنه كتب كانت تعد في ذلك العهد شيئاً في بلدتي.

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٣٥

و أهم ما أولعت بمطالعتة- بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي و جانب من المخطوط الذي عثرت عليه- كتب الفلاسفة و علماء الاجتماع، و أصول الشعوب و مدنياتهم. و طالعت بالإفريقية أهم ما كتبه فولتير و روسو و مونتسكيو و بنتام و سبنسر و فوليه و تين و رنان و سيمون و بوتمي و لافيس و هانوتو و بوترو و لوبون و برونتيروبي دي جولفيل و لمترو سانت بوف، و تدارست المجالات الفلسفية الاجتماعية و التاريخية و الأدبية باللغّة الفرنسية.

و جريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر، و هي أن أقرأ أكثر مما أكتب، و قلما دوّنت موضوعاً لم أدرسه في الجملة و لم تتشربه نفسي. و عهد إليّ سنة (١٣١٥ هـ). بتحرير جريدة «الشام» الأسبوعية فحررتها ثلاث سنين كانت مدرستي الأولى في الصحافة. و ساعدتني فيها معرفة التركيّة و الإفريقية. ثم دعيت إلى. المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية أكبر مجلاتنا العربية. فنشرت فيها أبحاثاً جمّة في التاريخ و الاجتماع و الأدب مدة خمس سنين فبدأت لي شهرة في عالم الأدب العربي لمنزلة هذه المجلة إذ ذاك بين أبناء اللغّة العربية، و كثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء و الأدباء و الباحثين.

و في عام (١٩٠١ م) هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب إلى باريز للدرس، فعرض عليّ صاحب جريدة «الرائد المصري» نصف الأسبوعية أن أحرر في جريدته، فلبيت الطلب متكارها، إذ كانت عاقتني عن العودة إلى الشام أمور قام بها المشاغبون المتجسّسة في دمشق. و اتهموني تشفياً بأمر هي من المحرمات في عرف الحكومة العثمانية، ثم رجعت إلى الشام بعد عشرة أشهر.

و من أعظم ما استفدته من رحلتني هذه الأخذ عن عالم الإسلام و الإصلاح الشيخ محمد عبده و حضور مجالسه الخاصة و العامة. و في شتاء سنة (١٣٢٣) فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق بحجة أنه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغّة سلسة، و فيها مطاعن في أحد الأعيان و الوالي، و مثل هذه العبارة و هذه الأفكار لا يحسنها و لا يعرفها غيري! فظهر للحكومة افتراء المفترين و اكتفت بأن شردتني أياماً عن داري.

و في هذه الوقعة نظم صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبني بها، و يصف ما حل بي مجسماً قال سامحه الله:

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٣٦ ألق لمن في الدجي لم ينم طلاب المعالي سمير الألم

و من أرقتة دواعي الهوى فدون الذي أرقتة الحكم

فكم في الزوايا تخبي فتى طريد الكتاب شريد القلم

يرى الأرض ضيقاً كشق اليراع و يهوى على ذا الوجود العدم

و كم ذا بجسرين من ليلة على مثل جمر الغضا في الضرم

تمنى الأديب بها ندحّه و لو بات يرعى هناك الغنم

و كم سروة تحت جنح الظلام كسرّ بصدر الأريب انكتم
يخاف بها حركات الغصون و يخشى النسيم إذا ما نسّم
و إن تشد ورقاء في أيكه تورقه في صوتها و النغم
و كم بات للنجم يرعى إذا أديم السما بالنجوم اتسم
و طال به الليل حتى غدا يظن عمود الصباح انحطم
و من ذعره خال أن النجوم لتهدى إلى مسكه عن أمم
إذا ما السماك بدا رامحاتوهمه نحوه قد هجم
و لو لا الدجى لم يتم النجاو قد أمكن الظلم لو لا الظلم
و لله در القرى إذ خفته فما بالسهولة يخفى العلم
«فجسرين» «زبدین» و «الأشعرى» ديار بها قد أوى و اعتصم
و نحو «المليحة» رام الخفاو كم بالمليحة من متهم
ديار أبى أهلها غدره و آواه فيها الوفا و الكرم
و لا شك رقوا لأحواله طريدا يعانى الجوى و السقم
ليالى كانون فى الأربعين و برد العشيات أعلى الفحم
بأرض تراها سماء و ماءف فوق السوافى و تحت الدير
يجول و قد صار مثل الخيال و دقّ فلو لاح لم يقتحم
و فوق الخدود كلون البهارو تحت المآقى كلون العتم
و فى كل يوم سؤال و بحث و أنى تولى و كيف انهزم
و قد كان فى كبسهم بيته بجلق قال و قيل عمم
فكانت على كتبه غارة كغارات عرب «الصفاء» بالنعم
و قالوا سينفى إلى «رودس» و قالوا سيجزى بما قد جرم
خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٣٧ و قالوا سيجمله أدهم بمرقاه لا تستريح القدم
و قد قيل «فران» من دونه و تلك السموم و تلك اللحم
و بعض بسجن عليه قضى و بعض بضرب عليه حكم
و «كرد على» غدا عبرة ففات و منه الرجاء انصرم
فيا كرد لا تحزننك الخطوب فإن الهموم بقدر الهمم
و من رام أن يتعاطى البيان توقع أن يبتلى بالنقم
فذى حرفه القول حريفه و كم أدركت من لبيب و كم
و كم نكتة أعقت نكبه و كم من كلام لقلب كلم
و من بالكتابة أبدى هوى فإن الكآبه منها القسم
فيا كرد صبيرا على محنة فكم محنة شبيت من لمم
و صبيرا على و رقات لها عيون المعانى يبكين دم
و واها لباقات زهر غدوت لها جامعا يا أخى من قدم

أزاهر تسهر فى جمعها فلا غرو إن فاح عرف فم

و ما نم إلا بنشر ذكى و طيب يفوق عرار الأكم

فقولوا لواش بكرد على نشرت الثنا حين حاولت ذم الخ

كان التصييق علىّ فى الشام يزيد كلما استفاضت شهرتى، و الشهرة حقيقه كانت على صاحبها آفة فى الدور الحميدى، فرأيت بعد طول التأمل أن المقام فيه عبثا، فأخذت بالاستعداد للهجرة إلى مصر لأصدر مجلة المقتبس، فأصدرتها فى أول سنة (١٣٢٤ هـ)، و توليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية، و بعد سنة عينت أمين سر تحرير جريدة المؤيد. و الجرائد الثلاث التى توليتها فى مصر هى «الرائد المصرى» و «الظاهر» و «المؤيد» و كانت من الصحف التى تصدع بالوطنية المصرية، و تنتقد سياسة المحتلين، و لذلك كثر أصدقاى من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطنى الثانى، و كادوا هم يعدونى منهم. و قد آزرت فى مجلة «العالم الإسلامى الباريزية» التى ما زالت تصدر فى باريز باللغة الإفرنسية إلى عهد قريب. حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى (١٩٠٨ م) رجعت إلى دمشق و أصدرت فى ١٧ كانون الأول

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٣٨

(١٩٠٨) جريدة المقتبس يومية سياسية، بعد أن صدر المقتبس ثلاث سنين فى القاهرة مجلة شهرية علمية، وعدت إلى إصدار المجلة أيضا.

و كان المقتبس السياسى معتدلا بلهجته، و طنيا بمسلكه، ينتقد ما يمكنه نقده من مواطن الخلل فى الإدارة العثمانية، و ما رمى إلى الانفصال عن الترك قط، بل كان يرمى الى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى، فلم يرق هذا أيضا بعض رجال الدور الحميدى، و أخذوا يقاومون المقتبس و صاحبه، و يقيمون عليه الدعاوى المزورة، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين، ممن دأبنا على الكيد لهم، و العمل على تنحيتهم، حتى جاء زمن و على المقتبس عشرات من الدعاوى، يطلب فيها أصحابها جزاء المفترى على الأكثر، لأنهم أبرياء بزعمهم مما نسب إليهم.

و من أغرب دعوى الوالى الحميدى علىّ فى السنة الأولى اتهامه إياى بالارتجاج، أى إرجاع عهد عبد الحميد الاستبدادى، و هو الدور الذى بكيت من أهواله، و قد هجرت الأهل و الوطن فرارا من كابوسه، و لكن أعمالى فى خدمة الحرية سنين طويلة، كذبتة و أشياعه من الحميديين الاتحاديين.

و قد اضطررت فى هذه الدعوى إلى مغادرة الشام، فركبت البحر إلى فرنسا، و أخذ الوالى يهدد القضاة بالعزل إذا لم يحكموا علىّ بالجناية، و صرفت الوقت فى باريز أدرس مدنيها و أستفيد من لقاء علمائها و ساستها، و وقفت وقوفا حسنا على حركتها العلمية و السياسية، و ذلك بواسطة جماعة من أصدقاى علماء المشرقيات، عرفونى إلى الطبقة العليا التى أردت التعرف إليها فى عاصمة الفرنسيس، و فى مقدمتهم فيلسوف فرنسا المرحوم إميل بوترو. و قد سألته أن يكتب لى جريدة بأمهاث الكتب التاريخية و الاجتماعية و الأدبية و الاقتصادية، ففضل و كتب لى ما أردت، فابتعته و طالعته كله مطالعة درس، و لا أزال إلى اليوم أجعل تلك المجموعة المختارة سلوتى فى خلوتى و جلوتى.

كتبت خمسا و ثلاثين مقالة و محاضرة فى وصف سياحتى، و لا سيما فى وصف عاصمة فرنسا، و طبعت هذه المقالات فى كتاب سميته «غرائب الغرب» و ما كان فى الحقيقة إلا غرائب باريز ليس إلا. و بعد أن أقيمت ثلاثة أشهر فى «كارتية لاتين» باريز عدت إلى الاستانة عن طريق قينا

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٣٩

مبرا مما نسب إلىّ. و فى سنة (١٩١٢) أقام نفس الوالى الحميدى دعوى على المقتبس و قبض على مديره المسؤول المرحوم أخى أحمد، و أخذ عالما من علماء المدينة اسمه الشيخ إبراهيم الأسكوبى، و أرسلهما إلى الاستانة فسجنا مدة، و ذلك بتهمة أن المقتبس

نشر قصيدة لهذا العالم تمس الآل السلطاني.

والحقيقة أنها تأوهات و نصائح، و كانت نشرت في جريدة من جرائد الشام قبل أن تنتشر في المقتبس بعشرين يوما. أما أنا فتمكنت من الفرار كالمرءة الأولى، و هبطت مصر عن طريق البر مع تجار الجمال. فدخلت الإسماعيلية بعد سير أربعة عشر يوما، قطعت فيها الشام من الوسط إلى أقصى تخومها الجنوبية. ثم برئت مما نسب إلي كالمرة الأولى، و عدت إلى دمشق بعد ستة أشهر، و عاد المقتبس إلى الصدور. إلا- أن الوالي كان تمكن من إجبار أحد إختوتى على بيع مطبعتنا، فأباعها بثمن بخس، فأضيفت الخسارة بها إلى ما خسرناه في إغلاق صحيفتنا السياسية مرتين. و لم يعرض علينا أحد شيئا مما خسرناه.

و اكتفى المقتبس إلى ذاك الحين باشتراكاته و إعلاناته و مطبوعاته فقط. و قد استقبلت يوم عودتى إلى دمشق كما يستقبل العظماء، فضحكت من تبدل الرأى العام، و بالغ بعض من استقبلونى بالحفاوة، و هم يزيدون على ألفين، كانوا يوم وقعت في الدعوى ينكرون عملى في انتقاد الحكومة، و من قبل كانوا يصفقون و يستحسنون، و ينحنون و يدعون، فلم أدر وجهها لرضاهم و لا لغضبهم، فكتبت إلى صديقى المرحوم العلامة رفيق بك العظم أقول له: إن القوم لا قونى في دمشق في هذه المرة كما يلاقون الملوك. فلم أفرح لهذا الإقبال، و لا ساءنى ذاك الإدبار، و عجت لجنون من ينخدع بالجماعات الذين لا يثبتون بحال على أفكارهم.

و في سنة (١٩١٣) زرت إيطاليا و سويسرا و فرنسا و المجر و الاستانة، و كتبت ٣٣ مقالة في وصف مدينة تلك الممالك. و كان الداعى إلى هذه الرحلة الثانية البحث عن المخطوطات التاريخية التي نقل عنها بالتصوير الشمسى صوراً، الأمير ليونى كايثانى من علماء إيطاليا و عظمائها. و قبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر وقف والى دمشق المقتبس، بدعوى أنه نشر عبارة في كشف الحجاب، و هى منقولة عن الصحف التركية، و الحقيقة أن المقتبس

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٠

كان توفر على كشف حجاب الاتحاديين، و أصلاهم حربا عوانا هو و أنصاره من رجال البلاد و حملة الأقلام فيها، فأخذوا يخلقون له هذه التهم أو يكف عنهم. و لطالما تقاضوه ذلك، و له أن يتحكم في مطالبه الخاصة ما شاء فأبى، و ربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة، ثم ورد الأمر من نظارة الداخلية بعود المقتبس إلى الصدور، فأبيت إصداره، لما رأيت من الحيف و الغرض و تربص الاتحاديين الدوائر به و بصاحبه، و كانوا الحاكمين المتحكمين في السلطنة العثمانية بلا- منازع. و ألح أرباب الشأن بإعادة المقتبس إلى الصدور، فكان جوابى أننى زهدت في هذه الصناعة صناعة الصحافة، ما دامت أحكامهم غاشمة ظالمة. إلا أن الحكومة بقيت تحاذرنى مدة أشهر. و أقامت شرطيا أمام دارى يكتب كل يوم أسماء من يدخل على من أرباب الطبقات المختلفة، حتى إذا خرجت إلى منزله أو زيارة أحد يتبعنى الجواسيس حيث سرت. أما كتيبى و جرائدى و برقياتى فإنها كانت تراقب أشد مراقبة، بل أضحكها و أبكاها.

و بينا كان حالى كذلك أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام، و جاء الشام وال عاقل عادل اسمه خلوصى بك فنشأت بينى و بينه صداقة، و لا سيما عقب أن ظهر من تفتيش أوراق قنصل فرنسا أننى كنت دائما إلى جانب خدمة العرب، و لم أمل إلى الخروج على الترك، و لا- أسففت إلى خدمة غيرهم، مع أنى أردت على ذلك مرات، و أغلوا لى الثمن و الجعالة، فاحتقرت كل نفيس فى سبيل خدمة المصلحة العامة، و هذا سر نجاتى من مخالف قتلة الاتحاديين الذين لم يراعوا عظيما و لا غيره فى الحرب، و صلبوا من صلبوا على أعواد المشانق بلا رحمة فى مدن دمشق و بيروت و حلب.

أرادنى خلوصى بك ست مرات على إصدار المقتبس و أنا أحاوله و أطاوله، و لكن قنصل ألمانيا كان يلح على الحكومة المحلية بإقناعى لإصداره، لما أيقن من تأثيره فى أفكار الشاميين بل فى بلاد العرب، فصحت بعد حين عزيمة على إصداره، خصوصا بعد أن أوحى إلى أحد خلص أصدقائى، بأن القوم يتربصون بى الشر إذا لم أجهم إلى إصدار المقتبس، و لم أخدم الحكومة فى تلك الحالة الحرجة. و أننى إذا ظللت على إبائى يخشى أن يحاسبونى

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤١

عما اجترحته في الماضي حسابا غير يسير، و تكون حياتي في تهلكة، فاعتذرت بأن على المقتبس مبلغا من الديون بسبب توفقه ثمانية أشهر و بيع مطبعته فقالوا إنهم يسددونها عنى ففعلوا. و في خلال ذلك جاء الشام أجد أساطين الاتحاديين «أحمد جمال باشا» قائدا للجيش الرابع، و حتى على التعجيل بإصدار المقتبس، و كان كلامه رجاء في الصورة الظاهرة، و تهديدا في الحقيقة، فبادرت إلى امتثال الأمر فأصدرته، و بقيت سنة لا- أكتب فيه إلا- نادرا، و يتولى أخى سياسته، حتى تنبه جمال باشا للأمر و أردنى على كتابة مقالات افتتاحية باسمى ففعلت، و كثيرا ما كانت أفكارى ترشح اضطرارا من أفكار القائد العام مباشرة أو بالواسطة، فكانت إرادتى مسلوبة لتهديدى كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين، و فى أواخر السنة الأولى للحرب أرسلنى جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام إلى الاستانة فچناق قلعة، و أوعز إلى بإنشاء رحلة هذه البعثة، و وضع كتاب فى رحلة أنور باشا، و كيل القائد العام و ناظر الحربى، إلى الشام و الحجاز. ففعلت مضطرا. و ظهر هذان الكتابان الأول باسمى و اسم ثلاثة من أرباب الصحف فى الشام، و الثانى باسمى فقط. و هما من كتب الدعاية السمجة فى الحرب الممقوتة. و فى هذه السنة أيضا أنشأت الدولة بإيعاز ألمانيا و ترتيبها فى مدينة دمشق جريدة يومية عربية أسمتها (الشرق) عهدت إلى برئاسة تحريرها فوليته مدة، و اضطرنى أحمد جمال باشا إلى رفع اسمى من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التى ظهرت إلى أواخر الحرب. و كانت جريدة ألمانية تركية بحته يقصد بها الدعاية و التأثير فى العالم العربى خاصة و العالم الإسلامى عامة.

و لما بدأت جيوش الحلفاء تتقدم فى جنوبى الشام غادر أحمد جمال باشا البلاد، فأردنى خلفه جمال باشا المرسينى أن أظل على ما كنت فى جريدة الشرق فقلت له: «لم يستعبدنى أحد فى حياتى غير سلفك العالى و لا أريد أن أستعبد مرة أخرى». و قصدت إلى الاستانة للتجارة فمانعنى الاتحاديون هناك بإيعاز من أحمد جمال باشا، و منعونى من معاطاة أعمال لا أعرفها فى الحقيقة. و بينا كنت أفاوضهم بذلك سقطت دمشق بأيدي الحلفاء، و انقطعت الطريق بين الشام و الاستانة، فعدت إلى دمشق بعد ثلاثة أشهر

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٢

من سقوطها، لأعود إصدار المقتبس، لكن الحاكم العسكرى العام و كان من أصدقائى، ألح على أن أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارها، و أخذت فى درس حالة المدارس لإصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، و بدأت بإنشاء دار للآثار و تجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث. ثم حصل خلاف بينى و بين الحكومة فأردت التنحى عن رئاسة ديوان المعارف، فألح على الحكومة بالبقاء، فقلت: إن كان و لا بد فينقلب ديوان المعارف بأعضائه و رئيسه إلى مجمع علمى، و تكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرة، فقبل هذا الاقتراح و شرعت فى تأسيس المجمع العلمى العربى فى ٨ حزيران سنة (١٩١٩).

و فى آخر تشرين الثانى سنة (١٩١٩) صدر الأمر بدعوى الضيق المالى بصرف رئيس المجمع العلمى و أعضائه، إلا عضوين فقط للإشراف على دارى الكتب و الآثار. و كان ذلك تشفيا من بعض الأحزاب التى لم أشأ أن أسايرها على العمياء. و دمت منعزلا فى دارى إلى أن عهدت إلى وزارة المعارف فى ٧ أيلول سنة (١٩٢٠) أول دخول السلطة الإفرنسية إلى المدن الأربع، و هى الوزارة التى غيروا اسمها بعد مع سائر الوزارات باسم «مديرية عامة». و فى خلال ذلك أخذت عشرة من الطلاب للإخصاء فى العلوم العالیه فى جامعات فرنسا. و زرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا و هولاندة و انكلترا و إسبانيا و ألمانيا و سويسرا و إيطاليا، و كتبت الرحلة الثالثة فى إحدى و خمسين مقالة، و أعدت طبع «غرائب الغرب» و أدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء فى مجلدين. و كان أحد أعوان الجنرال غورو أول مفوض سام للجمهورية الإفرنسية فى سورية و لبنان نشر على لسانى و بدون اطلاقى فى إحدى المجلات الباريزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسى إلى التى ليس بعدها و تقرىظ غورو و أعوانه. فكذبت ما عزى إلى فى الصحف. و كان أحد موظفى البعثة الإفرنسية فى دمشق دس أيضا على لسانى فى خطبة أردت على إلقائها باللغة الإفرنسية فى معرض بيروت التجارى على جماعة من الفرنسيس - جملا بخصوص العهد الفيصلى لم تخطر لى فى بال. فامتعضت مما وقع فى المرة الأولى و المرة الثانية، و لما

لم يرق عملي من التكدب في نظر وكيل المفوض

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٤٣

استقلت من المعارف، و بقيت في رئاسة المجمع، و كنت أديره أثناء وزارة المعارف و بعدها. و كان في ذلك الخير لأنني حصرت و كدى في خدمة المجمع و تأسيسه على ما يجب و بقدر ما يساعد المحيط و الحالة المالية. و عرضت على وزارة المعارف في الحكومة الموقته خلال ثورة سنة (١٣٤٤ هـ) فاعتذرت و آثرت الانقطاع إلى المجمع و إتمام كتابي «خطط الشام».

و في ١٥ شباط سنة (١٩٢٨ م) أسندت إلى وزارة المعارف في حكومه صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسني و بقيت أدير شؤون المجمع العلمي الى الآن. و في أواسط شهر تموز سنة (١٩٢٨) نددتني دولة سورية و المجمع العلمي لتمثيلهما في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بمدينة اكسفورد فرحلت إلى بلاد الانكليز وزرت بلجيكا و فرنسا. و قد اغتنمت فرصة وجودي في وزارة المعارف فأنشأت مدرسه العلوم الأدبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية، كما هيأت جميع أسباب افتتاح كلية الإلهيات تضاف أيضا إلى الجامعة و بذلك تمت لها أربع شعب، شعبه الطب، و شعبه الحقوق، و شعبه الآداب، و شعبه الإلهيات. و إذا انفسح الزمن للعمل ففي النية إضافة الفرع الأخير من فروع الجامعة و هو الفنون و العلوم.

كان المقتبس عقب الهدنة قد عاد إلى الصدور و ظل يتردد نشره، حتى ألفت العصابات لغزو الساحل الشامي و أصبح القول الفصل لأناس من صعاليك العامة و أغرار الشباب، ممن أخذوا يهددوننا سرا و جهرا إن لم نمالئهم على رغائبهم، في هيج الأفكار و دعوتها إلى الثورة، فأثرت توقيف المقتبس على إصداره آلة للفتنة بين الناس، و إهراق دماء الأبرياء ليربح المستعدون. خطط الشام؛ ج٦؛ ص ٣٤٣

ي حين كنت على مثل اليقين أن الانتداب الفرنسي واقع لا محالة. و قد شق على بعد أن بلوت من السياسة حلوها و مرها، و كرعت خلها و خمرها، أن آتى ما يكون و باله على قبل غيري من رجال الصحافة، في أمر لا فائدة منه إلا لمن يستثمرون الثورات لمصلحتهم الخاصة. و بقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة، حتى دخل الجيش الفرنسي فعادت إلى الظهور. و ظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقى أحمد كرد على تصدر حرة في الجملة، و طنية الصبغة و المنزع، فلما هلك أصبح تحريرها ألعوبة في أيدي أناس أرادوا خطط الشام، ج٦، ص: ٣٤٤

تسخيرها في خدمة أحزابهم، فاضطرت إلى إغلاقها في صيف سنة (١٩٢٨) بعد أن خدمت البلاد عشرين سنة. كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول، و انتقادها عند الاقتضاء. و تحييدها إذا أتت ما تجبذ عليه. ينزع أبدا إلى إنارة الأفكار، و بث الملكات الصحيحة و تقوية روح القومية العربية، و سياسته و طنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للأجانب، و يرمى إلى فتح صدر الأمة لمعظم ما في المدنية الغربية من أسباب الرقى. و لا يتحزب المقتبس لحزب إلا إذا تجلى له غناؤه و بلاؤه في خدمة الأمة. فقد دخلت في جمعية الاتحاد و الترقى قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة، و خدمت ما استطعت و ساعدت البيئة، و لم أجدد في الانقلاب للاتحاديين عهدا مع كثرة إلحاحهم على. إذ رأيت ذلك حطة و تناقضا في الخطه، لأن مرامى الاتحاديين تجلت بأنها تقصد إلى تريك العناصر، و من أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية، و إنهاء العرب من كبوتهم. و لما عبث الاتحاديون بالمقصد الذى رسموه لأنفسهم يوم نشأتهم الجديدة، تألفنا في الشام و الاستانة كتلة من العرب و الترك، و ألفنا حزب الحرية و الائتلاف اشتغلنا به مدة، ثم رأينا من المصلحة حله فحللناه. و اقترح على زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول في الأحزاب فأبيت. و لكن لما تفاقم الشر، و أصبحت دمشق عاصمة في الصورة، و المدبرون لها أغمارا غرباء في الأكثر، صحت عزيمنتنا مع جماعة من أهل الطبقة العالية مسلمين و مسيحيين و ألفنا «الحزب الوطنى» معدلا لأمزجة الأحزاب الأخرى. فكان حاجزا دون انبعاث ما يكدر من العوام.

و في شباط (١٩٢٤) عهد إلى تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق، فرأيت تفاوتات في عربية الطلبة، و كان منهم المقتر

الذي يصلح للكتابة و الخطابة، و منهم الضعاف في مبادئ النحو و الصرف، لأن مدرستي الحقوق و الطب كانتا تحاولان تكثير سواد الطلبة و تقبل منهم حتى المقصرين في الفروع المهمة، و لا سيما اللغة العربية التي يعدونها ثانوية! فاضطرت إلى إلقاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقي

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٥

الآداب، و حاولت تعليمهم الإنشاء و الخطابة بالعمل أكثر من النظر. و لم ترق بعض الطلبة العلامات التي نالوها في الفحص العام، و كان بعض أساتيدهم يشوقونهم من طرف خفي على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه إلى دروسهم، و رأى رئيس الجامعة الطيب الكحال السيد رضا سعيد الايتوني استثمار هذه الحركة لمصلحته، و مصلحته أبدا في إقصاء الأكفيا أرباب الإيرادات المستقلة من تداريس الجامعة، فقام مدفوعا أيضا بيد رئيس الحكومة إذ ذاك السيد صبحي بركات. و كان هذا مغیظا محنقا من صاحب الترجمة لأن جريدة المقتبس لم تمالئه على خطته، و صعب على أن أترضاه، و لو بأن أذكر له على الأقل أن لا علاقة لي بالمقتبس منذ مدة طويلة، و أنني لا أديره و لا أحرره و لا ينطق بلساني.

و كانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة بعض الصحف للنيل مني، و أعطاهها فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن على بما يفيد في تنحيته. و من الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضى عن سرفاتهم في مدرسة الطب مقابل هذا التطوع في خدمة أغراضه، و منهم طلبة مقصرون في دروسهم كآفهم على ما نشره له من الطعن بي بأن منحهم شهادة الطب، و معذرتة أنه في حاجة إلى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية، لأنه هو و رئيس الحكومة ابن بركات لا يحسان كتابة سطر واحد، و إذا قرأ أو قرئ عليهما كلام عربي لا يفهمانه بحال. و هكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين في دروسهم في دار أحد من يدهنون له من أطباء مدرسته، و لقنوهم كيف يجراون على الشكوى من المدرس و يكتبون محضرا بهذا الطلب، و من لم يوقعه من الطلبة يهدد بما يخاف منه على مستقبله. و أخيرا تقرر إرسال بضعة من طلبة مدرسة الطب إلى درس الخطابة في دار الحقوق لينادوا بإسقاط خمسة من الأساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية، و خطب بحضور أحد الطلبة، و هو ابن أحد أخصاء رئيس الحكومة خطبة لقتها، و كوفئ عليها بعد هو و والده، فخرجت من المدرسة على أن لا أعود إليها، و تم لبعض الأساتذة ما أرادوه، فاستأثروا بأكثر الدروس الشاغرة، و لم يعد من المخطوب فيهم إلا واحد و هو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذي

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٦

استرضى الطلبة و صانع رئيس الجامعة مع أنه أضعف الأساتذة المشتكى منهم و لا صلة له بالعلم.

أهم المطبوع من كتبي مجلة المقتبس «ثمانية مجلدات و جزآن» صدر منها ثلاث سنين في مصر و خمس في الشام و هي تبحث في الاجتماع و الأدب و التربية و التعليم و التاريخ و منها «رسائل البلغاء» و «غرائب الغرب» و «غابر الأندلس و حاضرها» و «تاريخ الحضارة» و «القديم و الحديث» و «رواية المجرم البريء» و «قصة الفضيلة و الرذيلة». و أول ما نشرت رواية «يتيمة الزمان» سنة (١٣١٢ هـ). و آخره «خطط الشام» و هو كتاب في مدينة الشام و تاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عاما، و طالعت لأجله زهاء ألف و مائتي مجلد باللغات الثلاث العربية و التركية و الإفرنسية، و أنفقت في سبيل تأليفه نحو ألف و خمسمائة جنية، و يدخل في ستة مجلدات و ربما كان معجمه في أربعة. و عندي من التأليف التي لم تطبع «حرية الوجدان» و «الحرية المدنية» و «الحرية السياسية» معربة عن جول سيمون الفيلسوف الإفرنسي. و منها «كنوز الأجداد» و «مكتشفات الأحفاد» و «أمراء الإنشاء» و «أخلاق المعاصرين» إلى غير ذلك من المقالات و الأبحاث المنشورة في المجلات و الصحف و آخرها مقالاتي و انتقاداتي في «مجلة المجمع العلمي العربي» خلال تسع سنين.

خلقت عصبى المزاج دمويه، مغرما بالموسيقى العربية، محبا للطرب و الأنس و الدعابة، عاشقا للطبيعة و السياحة. و قد كان للمزرعة الصغيرة التي أورثنا إياها المرحوم والدنا في قرية «جسرین» من قرى الغوطة أثر ظاهر في تربية ملكتي. و بها استغنيت أنا و إخوتي

لأول أمرنا عن طرق الأبواب للتجسس أو التسفل للمعاش.

و لم أخل منذ اشتغلت بسياسة البلاد و حتى بعد أن تجردت للعلم المحض، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبي، و كثير من الكتاب الذين عرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل مني، و التطاول عليّ، و ما زلت حتى الساعة لا أخلو من أناس يتطاولون عليّ حب الشهرة، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا، و لم يحدث لي أن أجبت أحد هؤلاء

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٧

الطاعنين في وقت من الأوقات. اللهم إلا- إذا كان هنالك تحريف لحقيقه و طنيه أو قضيه علميه، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف. و قد وقع مره لمجله ألبسها أصحابها ثوب الدين، أن سلخت نحو ثلاث سنين تكتب في المقالات و القطع الصغيره فلم أجبها، و لم أقرأ أكثر ما كتبت، حتى إذا نصبت مادتها من المال و القول، أجبتها بمقاله نشرت في كتاب «القديم و الحديث» باسم «الإصلاح» و هي من المقالات التي لم تخل من حده.

أعشق النظام و التدقيق، و أحب الحريه و الصراحه، و قد أولعت بالتجدد، و من عادتي أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسه، و أدور من الإصلاح التدريجي العلمى في دائره لا تتعدى الثوره في الأفكار، أجاهر في الحق، و أظن في المناقنين و أتجهم لهم، و أجه المرتشين و المخربين، لذلك يكثر أعدائي من أهل هذه الطبقة. و لطالما كادوا لي و آذوني في مادياتي فلذ لي عملي و لم تسؤني نتائجه. أخلص للصاحب و أخذمه خدمه خالصه، و أغار على مصلحته. و ربما أرفعه فوق قدره، حتى إذا بدرت منه بادره سوء نحوى أو نحو المجتمع، ألوى وجهي عنه آخر الدهر. و لطالما آخذني بعض أصحابي على أسداء المعروف إلى من هم أول من ينكرونه، و إسراعى إلى تصديق من حولي، في زمن يكذب فيه معظم أهله، دعاني إلى الإحسان إلى أناس ليسوا أحرى به، و إلى الأخذ بأيدي فئه كان الأولى لهم أن يظلوا مغمورين، و معظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها أول من حملوا عليّ و عادوني، فكان الجواب، أنى أحمل الناس على محمل الخير، فإذا ظهرت تربيتهم الحقيقه، و تبين أنى كنت مغرورا بهم كان جزاؤهم الإعراض، و هل يجوز العقل أن تعض الكلب الذى يعضك، و الحيوان المفترس الذى يحاول إهلاكك و لو أطمعته و سقيته.

أكره الفوضى و أتألم للظلم، و أحارب التعصب، و أمقت الرياء، و إذا حاربت لأجل المظلومين، و هاجمت طغمة المتعصبين، فإنما أحارب و أهاجم بذوق و فهم على الأغلب، و أميل إلى الشده، و قد تكون إلى الإفراط أحيانا، لتفعل البلاغه فعلها في عقول من يراد إرشادهم أو إسقاطهم، و تنقبض نفسى منذ الصغر من غشيان المجالس و المجتمعات الغاصه بأنواع الناس، و أحرص على الوقت فلا أكاد أنفقه إلا لمنفعه عامه أو خاصه اه.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٤٩

مصادر الخطط

إشارة

لم نذكر في هذا البيان الكتب المطبوعه و لا الأجنبيه التي اطلع عليها المؤلف. لأنه لم يشر إلى مواضع ما أخذ منها، فلم يبين أجزاءها و لا صفحاتها مما أفقدها قيمتها لمن يحب الرجوع إليها.

و إنما اقتصرنا على المخطوطات من تلك المصادر تعريفا بها، و رجعنا في تحقيق وفيات مؤلفيها إلى الأعلام لخير الدين الزركلى، فما وجدناه فيه و وضعناه بين هلالين و إلا استدركناه من معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله أو أبقيناه كما جاء في الأصل.

«الناشر»

أ

إتحاف المحيين بجواز ما يفعل في الخماسين لإبراهيم الخضيرى الحنفى؟
الإحسان فى دخول اليمن آل عثمان لعبد الصمد بن إسماعيل؟
الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى (٤٥٨).
أخبار ملوك اليمن لقاسم بن حسن الجر موسى (١١٤٦)
الإشارات إلى أماكن الزيارات لأحمد الصباغ و ذيله بتراجم بعض المشاهير من كتاب الزيارات لمحمود العدوى
الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلى بن أبى بكر الهروى القارى (٦١١)
الإعانات فى معرفة الخانات ليوسف بن عبد الهادى (٩٠٩)
الأعلاق الخطيرة فى تاريخ الشام و الجزيرة لابن شداد الحلبي (٦٨٤)
الإعلام فى فضائل الشام لأحمد العدوى المينى (١١٧٢)
إعلام الورى بمن ولى من الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالحى (٩٥٣)
خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥٠
الإعلان بالتويخ لمن ذم التأريخ للسحاوى (٩٠٢)
إنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر العسقلانى (٨٥٢) مسودة المؤلف و نسخة أخرى كتبت سنة (٨١٢)
الإنصاف و التحرى فى دفع الظلم و التجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم (٦٦٠)
إيضاح الظلم و بيان العدوان فى تاريخ النابلسى الخارج الخوان لحسن بن أحمد ابن عربشاه؟
أيمان العرب لأبى إسحاق النجيرمى نحو (٣٣٥)

ب

الباشات و القضاء بدمشق زمن السلطان سليم لمحمود جمعة المقار (١١٥٦)
البداية و النهاية لابن كثير الدمشقى (٧٧٤)
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى (١٢٥٠)
البرق المتألق فى محاسن جلق للراعى الشهير باب خداويردى؟
بلوغ المنى فى تراجم أهل الغنا لمحمد بن أحمد الكنجى العسرونى ١١٥٠
بهجة الصيانة فى عجائب مصر و الكنانة لأحمد محمد القزوينى؟

ت

تاريخ الإسلام الكبير للذهبي (٧٤٨)
تاريخ الأمويين من أول خلافة الوليد بن عبد الملك إلى انقراض الدولة العباسية، قطعة منه
تاريخ ابن خلدون (٨٠٨) الكبير قطعة منه و فيها رحلة فيلسوف المغرب من الديار المصرية إلى دمشق سنة ٨٠٣ نقلها تلميذه محمد بن
أحمد الزملكانى
تاريخ أبى المواهب بن ميرو الحلبي (١١٨٤)

تاريخ الأمم لمحمد الغزالي من أهل القرن الحادى عشر الجزء الثالث منه.

تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين على بن زيد البيهقى (٥٦٥)

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥١

تاريخ حمص لعمر الأتاسى لم يبرح فى المسودة

تاريخ الخورى ميخائيل بريك من سنة ١٧٢٠ م الموافقة ١١٣٢ هـ و فيه الأخبار الأخيرة إلى سنة ١٢٥٧

تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١)

تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان فى ذكر من سلف من أهل الزمان لأحمد المقدسى المشهور بابن زوجة أبى عذبية

(٨٥٦)

تاريخ دولة الأتراك لحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (٧٧٩)

تاريخ سليمان باشا والى عكا من سنة ١١٩٠ - ١٢٢٩ لإبراهيم العورا ١٢٨٠

تاريخ سورية المجوفة لعيسى إسكندر المعلوف. (١٩٥٦ م)

تاريخ عام لأكمل الدين بن مفلح المتوفى سنة ١٠١١ بلغ فيه زمن قايتباى سنة ٨٧٢

تاريخ فخر الدين بن معن لأحمد بن محمد الخالدى الصفدى ١٠٣٤

تاريخ معرفة النعمان لمحمد سليم الجندى ١٣٧٥

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى و أولاده من سنة ٧٣٧ - ٧٤٥ لشمس الدين ابن السجاعى (جزء من أجزاء).

تاريخ ميخائيل مشافه (١٣٠٥) و فيه حوادث أسرته و ما جرى فى لبنان و بلاد الشام فى عهده، و بعضها مما حذف من النسخة

المطبوعة المحرفة.

تحفة الأدب فى الرحلة من دمياط إلى الشام و حلب لأحمد بن صالح الأدهمى الطرابلسى سنة ١١٥٩

تحفة الأدباء و خلوة الغرباء للخيارى (١٠٨٣) و هى رحلته من المدينة إلى الشام و الروم و مصر.

تحفة الأنام فى فضائل الشام لجلال الدين البصروى كتب سنة ١١٥٩.

تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء و الملوك و النواب لصلاح الدين الصفدى (٧٦٤).

التحفة الظريفة المسماة بمجموعة الحكيم لحسن بن عثمان الحكيم جمعها سنة ١١٨٨

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥٢

تذكرة ابن العديم (٦٦٠) أجزاء منها.

تذكرة صلاح الصفدى (٧٦٤) الجزء الثامن و الثلاثون

تذكرة كمال الدين الغزى (١٢١٤)

تراجم الأعيان من أبناء الزمان للحسن البورىنى (١٠٢٤)

تشرىف الأيام و العصور بسيرة الملك المنصور.

التصوير عند العرب لأحمد تيمور (١٣٤٠).

تعطير المشام فى مآثر دمشق الشام لجمال الدين القاسمى (١٣٣٢).

تقرير فى التعليم فى فلسطين على عهد الأتراك و الإنكليز لأحمد سامح الخالدى (١٣٧٠)

تنبيه الطالب و إرشاد الدارس لأحوال مواضع الفوائد بدمشق لدور القرآن و الحديث و المدارس الخ لعبد القادر النعيمى ٩٢٧.

تواريخ الحكماء للزوزنى.

التيسير و الاعتبار و التحرير و الاختبار لمحمد الأسدي من أهل القرن التاسع.

ث

ثمار المقاصد في ذكر المساجد ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩)

ج

الجامع المختصر لابن الساعي (٦٧٤) قطعه منه.
جزء من تاريخ بدأ من سنة ٧٩٢ و انتهى بأخبار سنة ٨٥٦ مخروم أوله و لا يعلم مؤلفه كتب سنة ٩١٨ بقلم محمد بن المرحوم السيفي
قرقماس العلائي أمير أخور والده (٩٤٢) و يظن أنه هو المؤلف.
جماهير الأنساب لأبي محمد علي بن غالب الأندلسي.
جنى الأزهار من الروض المعطار للمقرئزي (٨٤٥)
الجواهر و الدرر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر لعبد الرحمن بن حمزة (١٠٨١).
خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٥٣

ح

حدائق الإنعام في فضائل و محاسن الشام لعبد الرحمن بن عبد الرزاق من القرن الثاني عشر
الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الإخوة القرشي (٧٢٩)
الحقيقة و المجاز في رحلة بلاد الشام و مصر و الحجاز لعبد الغني النابلسي (١١٤٣).
حل الرموز في عقائد الدروز لسليم البخاري (١٣٤٧)
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (١٣٣٥).
حوادث جرت في دمشق من سنة ١٠٢٣-١٠٢٦ من خط حسن البوريني.
حوادث جرت في دمشق بعد سنة ١٢٠١ دونها من لم يذكر اسمه.
حوادث دمشق اليومية. من سنة ١١٥٤-١١٧٦ لابن بدير الحلاق
حوادث يومية من سنة ٩٨٥ إلى ١٠٠٦ نقلت سنة ١١٠١ من خط محمد ابن داود المقدسي الدمشقي

د

در الحب في تاريخ أعيان حلب لمحمد بن إبراهيم الحنبلي الربيعي التاذفي (٩٧١)
الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب للجبريني المعروف بابن خطيب الناصرية (٨٤٣) كتب سنة ٧٨٥
الدر النضيد في مناقب الملك الناصر أبي سعيد؟
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢).
دمية القصر و عصره أهل العصر لأبي الحسن الباخري (٤٦٧)
ديوان النصائح الكافية لمحمد الحافظ النجار ١١٠٣.

ذ

ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحى (٩٥٣).

ذوب الذهب لمحسن بن حسن المنصور نحو (١١٧٠).

ذيل التمتع بالأقران لابن طولون الصالحى (٩٥٣).

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥٤

ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى (٨٥٢).

ذيل الروضتين في أخبار الدولتين لأبى شامة (٦٦٥).

ذيل الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة و اسمه لطف السمر و قطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادى عشر

للنجم الغزى (١٠٦١) ذيل مختصر على تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠).

ر

رحلة الأمير يشبك الدوادار من مصر إلى الشام في سنة ٨٧٥ لشمس الدين ابن أجا الحلبي (٨٨١).

رحلة البطيريك مكاربوس بن الزعيم الحلبي.

رسائل في عقائد الدرروز في ثلاثة مجلدات.

رسائل القاضى الفاضل (٥٩٦).

رسالة الجوامع و المدارس الأول مختصر من كتاب أماكن الزيارات.

رسالة لابن شداد (٦٨٤) كتبت في القرن الثانى عشر.

رسالة في تاريخ جبل عامل و وصف قراه لأحمد رضا ١٣٧٢.

رسالة فيمن تولى و قضى و أفتى في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة إلى سنة ١٢٤٠.

روضة الأفكار و الأفهام لحسين بن غنام الأحسانى (١٢٢٥).

ز

زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠).

الزبد و الضرب في تاريخ حلب لمحمد بن إبراهيم الحنبلى الربعى التادفى (٩٧١).

زلازل دمشق سنة ١١٧٣ لم يذكر اسم المؤلف

زيادات ألحقها بعضهم بكتاب أخبار الدول و آثار الأول للقرمانى (١٠١٩) فيها أخبار الولاية و القضاء بدمشق في القرن العاشر و

الحادى عشر و الثانى عشر.

خطط الشام، ج٦، ص: ٣٥٥

س

سانحات دمي القصر في مطارحات بنى العصر لدرويش محمد الطالوى (١٠١٤)

سيرة أحمد باشا الجزائر انتهت سنة ١٢٢٥ و فيها ما حدث بعد مماته لمؤلف مسيحي سورى.

ش

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد (١٠٨٩).
الشعور بالعود لصالح الدين الصفدى (٧٦٤).
الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية لابن طولون الصالحى (٩٥٣).

ص

صور الأقاليم لأحمد بن سهل البلخى (٣٢٢).

ض

ضرب الحوطة على جميع الغوطة لابن طولون الصالحى (٩٥٣).
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى (٩٠٢).

ط

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء و الرواة بأعلى الصعيد لجعفر بن تغلب الأدفوى (٧٤٨).
طبقات أئمة القراء لابن الجزرى (٨٣٣).
طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥).
طبقات فقهاء جبال اليمن لعمر بن على بن سمره بن الحيمى بعد (٥٨٦)
طبقات المهندسين فى الإسلام لأحمد تيمور (١٣٤٠).
طبقات النحاة و اللغويين لابن قاضى شهبه الأسدى (٨٥١).
طرف الأخبار من نتائج الأسفار لشرف الدين حسين بن أحمد التميمى (١٠٧١).
خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٥٦

ع

عدة الملمات فى تعداد الحمامات لىوسف بن عبد الهادى (٩٠٩).
عرف البشام فىمن ولى فتوى دمشق الشام لخليل المرادى (١٢٠٦).
عقد الجمان للشاطبى ٨٧٢.
عيون التواريخ لصالح الدين الكتبى (٧٦٤) أجزاء منه.

غ

غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ليحيى بن حسين ١٠٨٠.
غربال الزمان المفتوح بسيد ولد عدنان اختصار يحيى بن أبى بكر العامرى (٨٩٣) من تاريخ أسعد اليافعى (٧٦٨) مرتب على السنين فى التراجع و الوقائع إلى سنة ٧٧٠.
غور السير للحسين بن محمد المزغنى؟ (المرعشى ٤٢١).

ف

فضائل الشام و جامعها و من دفن بها من الصحابة و الأولياء يظن أنها لعلى بن محمد الربعى (٤٤٤) كتبت سنة ١٠٠٥ و أكملت الورقتان الأوليان بخط سليمان المحاسنى ١١٨٧ فهرست الكتب الموقوفة ليوست بن عبد الهادى (٩٠٩).

ق

قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف فى الصناعات و الحرف لمحمد سعيد القاسمى (١٣١٧).
 قره العيون فى تاريخ اليمن الميمون لابن الديبع الزبيدى (٩٤٤).
 قصيدة عبد الرحمن بن النقيب المعروف بابن حمزة (١٠٨١) ذكر فيها المغنين و الندماء فى الدولتين الأموية و العباسية بشرح خليل مردم بك.
 خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٥٧

ك

كتاب فى التراجم يظن أنه جزء من طبقات الحنابلة.
 كراستان نقلتا من خط حسن البورينى فيها حوادث جرت فى دمشق من سنة ١٠٢٣ إلى ١٠٢٦
 الكشاف عن أسرار الأوقاف لمحمد سعيد البانى ١٣٥١.
 كناش الشيخ إسماعيل المحاسنى الدمشقى؟ و فيه حوادث وقعت فى أواخر القرن الحادى عشر و أوائل القرن الثانى عشر.
 كناش الشيخ طاهر الجزائرى (١٣٣٨) الكبير و الصغير و فى الأول ذكر لبعض نوادر المخطوطات فى دور الكتب بمصر و الشام و الاستانة.
 كناش على الكيلانى الحموى (١١١٣).
 كنوز الذهب فى تاريخ حلب الجزء الأول مسودة المؤلف أبى ذر أحمد الشهير بسبط ابن العجمى المتوفى سنة (٨٨٤) و هو ذيل على الدر المنتخب لشيخه الجبرينى (٨٤٣) و هذا ذيل تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠) لابن قاضى شهبه (٨٥١)
 الكواكب الدرية فى السيرة النورية بخط محمد المرادى سنة ١١٦٠.
 الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى (١٠٦١).

م

المؤلف و المختلف و مشتبه النسبه لابن نقطه (٦٢٩).
 مجموع كتب سنة ١١٠٥ لإبراهيم بن سليمان الحنفى الجينى ١١٠٨.
 مجموعة تاريخية فيها سيرة الشيخ طاهر العمر الزيدانى مجهولة المؤلف و نبذة فى سيرته أيضا لفراج المقدسى؟.
 مجموعة رسائل و أوراق عليها تعليقات يظن أنها لابن آقيق كتبت أوائل القرن الثالث عشر.
 محاضرة فى شرقى الأردن لأديب و هبة.
 خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٥٨

- مختصر الدارس للعلموى ٩٨١.
- مختصر تاريخ الإسلام للذهبى (٧٤٨).
- مخدرات القصور لابن قطرى البحرى ٨٩٨.
- المديجات المسمى بمناوح المماوح و روضه المآثر و المفاخر من خصائص الملك الناصر لعبد المنعم الجليانى المتوفى (٦٠٢).
- المدهش لابن الجوزى (٥٩٧).
- المروج السندسيه بتاريخ الصالحيه لمحمد بن كنان (١١٥٣).
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩) أجزاء منه.
- المشبه وضعا و المختلف صقعا لياقوت الحموى (٦٢٦).
- معادن الذهب فى الأعيان المشرفه بهم حلب لأبى الوفاء بن عمر العرضى (١٠٧١).
- المعزة فيما قيل فى المزة لابن طولون الصالحى (٩٥٣).
- المعلومات الزراعيه و الاقتصاديه و الإداريه عن لواء دير الزور لوجيه الجزائر؟
- مفكرات توفيق طارق فى مصانع دمشق و مدارسها و جوامعها و ما حوت من النفائس الفنيه ثابتة كانت أو منقوله (بالعربيه و التركيه).
- مفكرات نجيب نصار (١٣٦٧) فى بلاد فلسطين.
- مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصفهاني (٣٥٦) و فى آخره نور العيون فى سيره الأمين المأمون لابن سيد الناس (٧٣٤).
- المواكب الإسلاميه فى الممالك الشاميه لمحمد بن كنان (١١٥٣).
- منادمه الأطلال لعبد القادر بدران (١٣٤٦).
- المنتخب من تاريخ علم الدين البرزالى (٧٣٩).
- المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبى مع ما أضيف إليه من تاريخى ابن كثير و الصلاح الكتبى و غيرهما انتقاء ابن قاضى شهبه (٨٥٦) و هو من سنه ٣٠١ إلى سنه ٤٥٠
- المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد لعبد الرحمن العليمى (٩٢٨).
- خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٥٩

ن

- نبدّه فى ذكر من تولى القضاء بدمشق الشام نقلت من نزهه خاطر و بهجه الناظر لموسى بن أيوب الأنصارى الدمشقى (١٠٠٠).
- نبهه ذوى الاحتشام فى فضائل الشام لمحمد بن محمد العيثاوى؟
- النجوم الزواهر فى معرفه الأواخر للبدرى (٨٩٤).
- نزهه الأبصار فى ذكر الأقاليم و ملوك الأمصار لحسن بن أحمد بن على مطر الشهير بحاكم البقاع النصف الأول انتهى سنه ١٢٤٢.
- نزهه الأنام فى محاسن الشام للبدرى (٨٩٤).
- نزهه الزمان فى حوادث جبل لبنان مجهول مؤلفه.
- نزهه الناظرين و أخبار الماضين فى تاريخ من ولى مصر فى سالف العصر من الخلفاء و السلاطين لمرعى الكرمى (١٠٣٣).
- نسمه السحر بذكر من تشيع و شعر ليوستف بن يحيى (١١٢١).
- نشر المحاسن اليمانيه فى خصائص اليمن و نسب القحطانيه لأحد أفاضل و صاب من بلاد اليمن.
- نشق الأزهار فى عجائب الأمصار لابن إياس (٩٣٠).

نصاب الاحتساب لعمر بن عوض الشامي (النسامي أو السنامي).

نفحات العنبر في القرن الثاني عشر لإبراهيم الحوثي (١٢٢٣).

نفحة الريحانة لمحمد أمين المحبي (١١١١).

نقش فصوص خواتم الحكماء و اجتماعات الفلاسفة في الأعياد و تفاوض الحكمة بينهم.

نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري ٧٧٤.

و

الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي (٧٦٤) أجزاء منه.

واقعة بين خارجي الديار المصرية و وزير الشام عثمان باشا.

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٦١

فهرست الجزء السادس من خطط الشام

التاريخ المدني من خطط الشام ٣-٤٤

البيع و الكنائس و الديره ٣

بيوت العباده عند الأقدمين ٣

منشأ الأديار و البيع ٤

أعظم الكنائس و أقدمها ٦

مبدأ هدم الكنائس ٩

كنائس دمشق ١٤

كنائس حلب ١٥

الكنائس و البيع في القدس ١٦

كنائس فلسطين ١٩

كنائس الأردن ٢١

كنائس لبنان ٢٢

عمل الرهبان و الراهبات العظيم ٢٤

الأديار القديمة في الشام ٢٦

خطط الشام، ج ٦، ص: ٣٦٢

المساجد و الجوامع ٤٥-٦٥

في أول الفتح ٤٥

مساجد حلب ٤٨

جوامع عمالة حلب ٥٠

مساجد الساحل و جوامعه ٥٢

جوامع المدن الساحلية ٥٥

- جوامع العاصمة و ضواحيها ٦٢
- المدارس ٦٦-١٢٩
- نشأة المدارس ٦٦
- دور القرآن بدمشق ٦٩
- دور الحديث بدمشق ٧١
- مدارس الشافعية بدمشق ٧٥
- مدارس الحنفية بدمشق ٨٨
- مدارس المالكية بدمشق ٩٦
- مدارس الحنابلة بدمشق ٩٦
- المدارس الحديثة ٩٨
- مدارس الطب بدمشق ١٠٠
- مدارس حلب ١٠٤
- مدارس القدس ١١٦
- بقية مدارس القطر ١٢٤
- الخواتق و الربط و الزوايا ١٣٠-١٥٥
- خواتق دمشق ١٣٠
- رباطات دمشق ١٣٤
- زوايا دمشق ١٣٦
- خواتق حلب و ربطها و زواياها ١٤٠
- ربط القدس و زواياها ١٤٨
- خطط الشام، ج٦، ص: ٣٦٣
- الربط و الزوايا في المدن الصغرى ١٥١
- مراقد العظام ربط و خواتق ١٥٣
- المستشفيات و البيمارستانات ١٥٦-١٦٧
- مستشفيات دمشق ١٥٦
- مستشفيات حلب ١٦٠
- بقية المستشفيات ١٦١
- لهفة على المدارس و غيرها ١٦٣
- دور الآثار ١٦٨-١٧٩
- المتاحف و العرب ١٦٨
- نشأة علم الآثار ١٧١
- البعثات الأثرية الغربية ١٧٢
- آثارنا و آثار جيراننا ١٧٤

- تأسيس دور الآثار ١٧٥
متحف دمشق ١٧٤
متاحف بيروت و السويداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان ١٧٧
دور الكتب ١٨٠-٢٠٤
نشأة الكتب ١٨٠
نشأة الخزائن و العناية بحفظها ١٨٣
مصائب الكتب و دورها ١٩١
خزائن اليوم و أهم ما حوت ١٩٥
الأديان و المذاهب ٢٠٥-٢٧٣
أديان القدماء ٢٠٥
اليهودية ٢١٠
السامرة ٢١٣
الأرثوذكسية ٢١٩
الكثلكة ٢٢٣
خطط الشام، ج٤، ص: ٣٤٤
المارونية ٢٣٠
البرتستانية ٢٣٢
أصل السنة ٢٣٩
الشيعة ٢٤٥
الباطنية ٢٥٠
الإسماعيلية ٢٥٤
النصيرية أو العلوية ٢٦٠
الدروز ٢٦٣
البايية ٢٦٨
الأخلاق و العادات ٢٧٤-٢٣٢
عادات الدمشقيين ٢٧٤
عادات الحلبيين ٢٨١
عادات لبنان و أخلاقه ٢٩١
العادات فى الأرجاء الأخرى ٢٩٩
عادات القبائل و أخلاقها ٣٠٧
رأى فى الأخلاق الشامية ٣١٦
حياة محمد كرد على - مؤلف الخطط ٣٣٣-٣٤٧
مصادر الخطط ٣٤٩-٣٥٩

فهرست الجزء السادس من خطط الشام ٣٦١-٣٦٤

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهايدة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطقي مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلاميه، إناله منابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعه، و... - منها العداله الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى. - من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (=١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الالكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

